منشورات اتحاد



القاهــرة
١٤٢٩ / ٢٠٠٨

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر
مــارس ٢٠٠٨م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر

مارس ٢٠٠٨ م

هذه المجلة

• علمية تاريخية بحته ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

• تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

• البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولية عما يرد فيها من آراء علمية .

• تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

• لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

• تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

• البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

• يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

• جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المحتويـــات

بسم الله الرحمن الرحيم

إفتتاحية

يسعدني ويشرفني تقديم العدد السادس عشر من مجلة «المؤرخ العربي» (مارس ٢٠٠٨) التي يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، بعد أن احتلت مكانة متميزة بين الدوريات التاريخية المتخصصة التي تصدرها الجامعات ومراكز البحوث في أنحاء الوطن العربي الكبير. ويحتوي هذا العدد على أحد عشر بحثا في موضوعات تاريخية جديدة تلقي أضواء كاشفة على تاريخ الوطن العربي عبر العصور . وقد قام بكتابة هذه البحوث مجموعة من الباحثين من مصر والمغرب والسعودية والبحرين واليمن والجزائر وغيرها ، وتنشر لأول مرة بعد أن قام أساتذة متخصصون بتحكيمها ضمانا للجودة ، واستبعدوا غير الصالح منها.

ومجلة «المؤرخ العربي» ترحب بالبحوث والدراسات التاريخية الجديدة والمبتكرة للباحثين من سائر الجامعات ومراكز البحوث لنشرها بعد تحكيمها . ويشترط ألا يكون العمل المقدم للنشر في مجلة الاتحاد قد سبق نشره ، أو قُدم للنشر لأية مجلة أخرى. ويراعى أن تتراوح صفحات البحث بين ١٥-٣٠ صفحة . ويقدم البحث مكتوبا على الحاسوب على ورق كوارتر (A4) ، ومسجلا على «اسطوانة مدمجة» وفق برنامج Word ، ومساحة الكتابة في الصفحة ١٢ × ١٩سم، والهوامش والتعقيبات في نهاية البحث ، وبنط النص ١٤ ، وبنط الهوامش ١٢ ، وبنط العناوين الرئيسية ١٦ أسود ، وبنط العناوين الفرعية ١٤ أسود، والمساحة بين السطور Autp وترفق الرسومات والصور والخرائط والأشكال على ورق كلك ، قابلة للاستنساخ مباشرة.

وفقنا الله جميعا ، ووفق جميع أعضاء اتحاد الناشرين العرب لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية في الوطن العربي> والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

كلمة التحرير

يصدر العدد السادس عشر فى مجلة «المؤرخ العربى» وبعد استكمالاً لمسيرة بدأت من سنوات ليكون نافذة علمية على الثقافة العربية، والعدد الذى بين أيدى قرائنا وأعضاء الاتحاد يتضمن أحد عشر مقالا من باحثين من أقطار عالمنا العربى فهناك أبحاث من مصر والسعودية والجزائر والبحرين تعد إضافة وإثراء سواء فى موضوعاتها أو فى تناولها لتاريخ وحضارة مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، فتطوف بنا من الجزيره العربية حيث تعرض للأسس التى أقام عليها النبى مجتمع المدينة بعد الهجرة ، ثم دراسة تناولت المجتمع العربى من أهلى الوبر وأهلى المدر ، ثم تنتقل إلى العصر العباسى حيث تناقش العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ثم تتجه إلى مصر فى دراسة عن القرية فى مصر الاسلامية، ودراسة عن تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد ، ثم دراسة عن المغرب وموقفها من الثورة الجزائرية وكان للمخطوطات نصيبها من البحث فهناك دراسة تناولت دراسة وتحقيق لمخطوط تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا » ، وجميع أبحاث العدد محكمة من قبل أساتذه متخصصين فى المجالات التاريخية المنوعة.

والمجلة تأمل أن تضيف الجديد خلال إعدادها القادمة حيث يتسع المجال لاضافات بناءة، فهناك مقترحات بإضافة باب يتناول تلخيص ودراسة موجزة لأهم الإصدارات التاريخية على مستوى العالم العربى .

ويسعدنا أن نلتقى اقتراحات الزملاء أعضاء الاتحاد، لأننا نسعى جميعا لما فيه الخير والتقدم لمجلة المؤرخ وللإتحاد .

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. عفاف صبره

أ.د. عفيفى محمود

د . عبد الله إبراهيم محمد راجح*

الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم

مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة

مقدمـــــة

إن الحمد لله جل جلاله ، نشكره على نعمائه ، فالكل من آلائه وإليه مآله ، والمصلي عليه نبينا محمد وآله ، أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ،وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وأخرج الناس من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور العلم والرقي المبين ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، بفضل رجال- حوله - حملوا مشعل الهداية والنور إلى العالمين، وهم أصحابه الميامين : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (الجمعة:٢ .- وبعد ..

فلقد كثر اللغط في عالمنا المعاصر[1] - وخاصة من قبل أعداء الإسلام - أن دين الإسلام لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئاً سوى العنف والإرهاب والعدوان ، وقد حفزني هذا اللغط إلى البحث فيما قدمه الإسلام للحضارة العالمية ، من خلال القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين ، وإبراز هذا العطاء الحضاري للإسلام ، فكتبت بحثاً عن : " مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية " ، وآخر عن " القيم الحضارية في القرآن الكريم والسنة النبوية " .

* أ . م في كلية التربية للبنات بينبع- وقسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بالقاهرة- جامعة الأزهر.

وقد ضاعف من همّتي للاستمرار في البحث في هذا المجال ، أن تلقيت دعوة كريمة من قبل : الجمعية التاريخية السعودية للاستكتاب في اللقاء العلمي العاشر بالمدينة المنورة ، حول أحد محاور اللقاء – عن منطقة المدينة المنورة – ، فاخترت المحور الثاني " المدينة المنورة ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم " لأنه بجانب كونه عمل علمي أكاديمي ، أحسبه – كذلك – من وسائل القربات إلى الله ورسوله ، للزّود عن منهج الله ، الذي جاء به القرآن والسنة ، لهداية العالمين ، وإقامة مجتمع فاضل قويم ، فجاء البحث تحت عنوان : " الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة".

وقدمت له بتمهيد عن : المدينة الفاضلة عند الفيلسوف المسلم " أبي نصر الفارابي" ، وبيّنت تأثره بالفكرة اليونانية الأفلاطونية ، ثم أوضحت كيف تأثر الغرب الأوروبي بهذه الفكرة التي نقلها " سير توماس مور " عن تراث المسلمين وحضارتهم – في مطلع النهضة الأوروبية الحديثة – ووصف فيه أحوال وقيم هذه المدينة الفاضلة ، وإن أسماها " يوتوبيا " ، أي مدينة لا وجود لها إلا في عالم الخيال ، فرددت عليه مقولته هذه ، بأنها ليست " يوتوبيا"، ولكنها المدينة الفاضلة التي وجدت في عالم الواقع الإسلامي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وبيّنت الأسس والركائز المنهجية التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع هذه المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة ، وقدّمت لهذا الموضوع بنبذة عن الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة ، وأصناف الفرقاء فيها ، ثم تناولت الأساس الأول للبنيان الجديد وهو : بناء المسجد النبوي ، ولماذا ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأهميته في بناء الدولة الجديدة . ثم تحدثت عن الأساس الثاني وهو : الإخاء الإسلامي بين المهاجرين والأنصار ، مبيناً أسبابه وآثاره ، وما سهله من موجبات السمع والطاعة لله ولرسوله ، ثم تناولت مهادنة اليهود والأعراب حول المدينة ، كأساس ودستور للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، وأكدّت على أن الإسلام دين تعاون ومودة ، وبر بغير المسلمين إذا ما التزموا جانب السلم مع الإسلام وأهله ، ثم ختمت البحث بالأساس الأخير والمهم ، وهو : الإعداد والجهاد للذود عن هذا البنيان ، وليس للعدوان

على غير المسلمين – كما يزعم أعداء المسلمين – واستدللت على كل ما كتبت بآيات من القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين .

وتوصلت إلى أن عالم اليوم ، لو أخذ هذه الأسس التي أرساها النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرضى والقبول ، لاستطاع أن يبني أعظم حضارة ، وأقوم مجتمع ، يضمن للإنسان الأمان من الخوف ، والإطعام من الجوع ، والسعادة المادية ، والراحة النفسية ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون – من بعده – حين طبقوا هذه الأسس ، فأقاموا المجتمع الفاضل ، والدولة القويمة في صدر الإسلام ، والتي ما تزال حقبتها غُرّة في جبين الدهر ، ولو كره الحاقدون ..

والله أسأل أن يعيدها للمسلمين ثانية ، وما ذلك على الله بعزيز .. إنه أهل له وهو القادر عليه .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ....

تقديـــــم

(١) المدينـــة الفاضلـــة عنـــد الفارابي .

قامت الحضارة الإسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين علـى أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبعض من تراث الأمم الأخرى الـذي ، لا يخالف القرآن والسنة – وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة في الشـرق والغـرب والشمال – ، لكنـه بعد تولى العباسيـين الخلافة عملوا على نقـل التـراث القـديم إلى الحضارة الإسلامية ، فنقلوا تراث مصر القديمة والهند والفرس واليونان ، وأقاموا مراكـز للترجمة لتعريب هذا التراث ، وخاصة اليوناني منـه [٢]، وازدهرت حركة علمية وحضارية كبيـرة ، خاصة في القرن الرابع الهجري في شتى مناحي الحياة ، وخاصة الحياة العلميـة ، أثمرت رموزاً لعلماء ومفكرين مسلمين ، حملوا عبء الفكر الإنساني ، وانطلقت الطاقات الإسلامية لشرح وتطبيق هذه العلوم بالممارسة والتجربة والاستقصاء ، فتقـدموا بـالعلوم والثقافة خطوات على طريـق الحضارة ، وتركوا بصماتهم على صفحات التاريخ ، في شتى العلوم التي بنى عليها الغرب الأوروبي نهضتـه وتقدمـه في مجـالات العلـوم التطبيقيـة والفلسفيـة .

ومن هؤلاء الذين اشتغلوا بالعلوم الفلسفية والعقلية " أبو نصر الفارابي " المتـوفى سـنة ٣٣٩ هــ ، فقد درس الفارابي الفلسفة اليونانية القديمة وتأثر بكتاب " النفس " لأرسـطو طاليس ، وقال إنه قرأه مائة مرة ، كما تأثر بكتاب " السماع " لنفس المؤلف ، وقال أيضاً : إنه قرأه أربعين مرة ، كما قرأ جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة) وتأثر به ، وأخـذ عنـه الفكرة المادية للمدينة الفاضلة .

إذن فكرة المدينة الفاضلة هي فكرة أفلاطونية ، – خرجت من عقل فيلسوف نشـأ في بيئة إسلامية ، – كما يقول د . طه الدسوقي حبيشي [٣].

تحدّث الفارابي – من بين ما تحدث – في كتابه عن المدينة الفاضلة ، فوصفها بأنها المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة ، فكل الحيـاة فيهـا

قائمة على التعاون ، وشبّهها بالبدن التام الصحيح ، فكما أن رئيس البدن في الإنسان هـو القلـب ، وبقية الجوارح تبع له حسب أهميتها ، فكذلك المدينة الفاضلة يقع في القلب منها الرئيس، الذي يجب أن يتمتع بخصال عظيمة [٤]ويليه في الأهمية مـن هـم أقـرب إلى الرئيس (البطانة) ، ودون هؤلاء قوم يعملون الأغراض التي ترضي الرئيس وتسعده ، ومن دونهم قوم يعملون لصالح الرئيس ، ثم دونهم قوم آخرون يعملون لصالح الأوّلين بإرادتهم ، لكن دون مصلحتهم هـم ، أو مصلحة عامة أهل المدينـة [٥].

ثم تحدث عما يضاد المدينة الفاضلة مثل : المدينة الضالة ، والمدن المبدلة ، فقال : " الذي أضل أهل المدينة الفاضلة وعدل بهم عن السعادة لأجل شيء من أغراض أهل الجاهليـة – وقد عرف السعادة – فهو من أهل المدن الفاسقـة .. وهو وحده – دون أهل المدينـة – شقي ، وهم يهلكون وينحلّون جميعـاً [٦]" .

وعن المدن المبدلة قال : " أما المضطرون والمقهورون من أهل المدينـة الفاضـلة علـى أفعـال الجاهلية ، فهم أهل المدن المبدلـة ، فإن المقهور على فعل شيء لما كان يتأذى بمـا يفعله من ذلك ، صارت مواظبته على ما قُسِر عليه ، لا تكسبه هيئـة نفسـانية مضـادة للهيئات الفاضلة ، فتكدر عليه تلك الحال ، حتى تصير منزلته منزلة أهل المدن الفاسـقة ، فلذلك لا تضره الأفعال التي أُكْرِه عليها ، وإنما ينال الفاضل ذلك الذي وصف بـه أهـل المدينة الفاسقة ، متى كان المتسلط عليه أحد أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة ، واضطره إلى السكن في مساكن المضادّين " ، ثم تحدث عن الأشـياء المشتركـة لأهـل المدينـة الفاضلـة، وأولها معرفة السبب الأول ، ثم الأشياء المفارقة للمادة وصفاتها التي تنتهي مـن المفارقة إلى العقل الفعّال[٧]... الخ.

لقد بنى الفارابي وجهة نظره – في بنية كتابه – على : دعوة التقريب بـين الثقافتيـن الإسلامية واليونانيـة – المتأثر بها – وهي دعوة ينقصها الدليل ، ولا يفيد فيها التبرير ، ولا تتمّ إلا بتنازل إحدى الثقافتيـن للأخرى ، وبما أن الثقافة اليونانية لا تتنازل عن شيء مـن

قيمها ، فإن المطلوب أن يتنازل الإسلام وثقافتـــه عن شيء من تشريعاته الإلهية ، وهو ما ألمح إليه الفارابي .

وكثيـــر من الفلاسفـــة حاولوا مجاراة الفارابي – من يومها إلى الآن – وفشلوا ، لكنهم يعيدونه اليوم تحت مسمى جديد هو : الحوار بين الإسلام والغرب .

إن أخطر ما جاء في كتاب الفارابي هو حديثه عن الإلهيات ، حيث جاء رأيه فيها محكوماً بمبدأين يونانيين :

أحدهمـــا : أن الله لابد أن يكون واحداً من كلٍ ، وهذا يؤدي إلى تعطيل الله عن صفات كمالـــه .

وثانيهما : أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو العقل الثاني ، ومن ثم العقل الثالث . وهكذا .. مما يؤدي إلى التسلسل ، وهذا يناقض عقيدة الإسلام . ولما تحدث الفارابي عـــن السياسة المدنيَّة ، اضطر إلى الحديث عن الفلاسفة و الأنبياء والمصلحيـــن ، ومن ثم تحـــدث عن الرياسة العامة في المدينة الفاضلة ، والشروط الواجب توافرها في هذه الرياسة ، ونسى – أو تناسى – أن هذه المدينة الفاضلة التي تأثر بها من خلال جمهورية أفلاطـــون ، كانـــت مدينة طبقية ، ومن ثم لا يصح نعتها بالفاضلـــة . [٨]

٢ – المدينـــة الفاضلـــة عنـــد "سيـــر توماس مـــور "

إننا في نظرة شاملة لمدى أوسع ، نستطيع أن نؤكد أن أوروبا في أواخر العصور الوسطى (من أوائل القرن السادس إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) كانت ترزح تحت ظلام دامس ، حتى أُطلق على هذه الفترة في التاريخ الأوروبي (العصور الوسطى المظلمة) حيث طبع فيها التعليم بطابع ديني غيبـــي جامد ، وهيمنت الكنيسة على فرض هذا النوع مـــن التعليم ، ومحاربة كل وسائل البحث العلمي المادي [٩] . وظَاهَرَ بعض حكام أوروبا الكنيسة في هذا المجال ، فقد حرَّم ثيودريك ملك القوط في شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس فيمـــا بعد) إرسال أبناء القوط إلى المدارس ، بمقولة أن الطفل الذي يشب على الخوف من عصـــا

المعلم ، لن يكون في مستقبل حياتــه شجاعاً يواجه السيوف والحراب ، وفضلاً عن ذلــك انتشرت المفاسد الدينية ببيــع صكوك الغفران لمن يدفعون للكنســية ورجــال الــدين ، وحرمان من ينقدونها من دينهم ، بل ومعاقبة بعضهم بالطرد و الحرق [١٠].

حدث هذا في الوقت الذي نضجت فيه حضارة الإسلام واكتمل بناؤها ، وأخذت تشقّ طريقها إلى أوروبا عبر علماء الإسلام ، ومراكز الترجمــة في كل من الأندلس وصقلية ، ثم إبان الحروب الصليبية ، وما أحدثته من احتكاك ثقافي بين المسلمين والصليبيـــــن ، فعــن طريق مراكز الترجمة في قرطبة وصقلية (باليرمو) نقل الأوروبيون الكثير من تراث الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وبخاصة تلك الأفكار التي تدعو إلى الحرية ، ونَقْد ســيطرة الكنيسة على شؤون الحياة ، وقد اعترف أحد أعلام النهضة الأوروبيــة في القــرن ١٣ م "دانتي أليجيري " (١٢٦٥- ١٣٢١ م) بأن الشعر الإيطالي هو نتــاج للشــعر العــربي الموروث من حضارة صقلية[١١]. كما استفاد دانتي نفسه من رسالة الغفــران لأبي العــلاء المعري (عن رحلة الإسراء و المعراج) ، وكتــب منــها مؤلّفــه المشــهور " الكوميــديا الإلهيــة"[١٢]. والتي نقد فيها الكنيســة تصريحا لأول مرة ، حينما تحدث فيه عــن رجــال الدين والقسس ، و أنه رآهم في النار ، أما العبيد و الفقراء فإن منزلتــهم الجنـــة ، وأن الأعراف أو المطهر ، - وهو سور بين الجنــة والنار - فإنه مكان المنافقيــن الممالئيـــن لسلطة الكنيســة [١٣] .

وجاء بعده في مطلع القرن السادس عشر الميلادي " السير توماس مــور " (١٤٧٨ - ١٥٣٥م) - أحد أعلام النهضة الأوروبية أيضاً في أواخر القرن ١٥ م - وقد استفاد مــن حركة ترجمـــة التــراث الإسلامي و الفكري والسياسي إلى اللغات الأوروبية ، وخاصة كتابات ابن رشد ، وابن حزم ، والفارابي ، فقد استفاد من الأخير ونقل عنه الكثير من آرائه في كتابه : آراء أهل المدينــة الفاضلة ، وأسمى كتابه " يوتوبيا "[١٤] فما الذي جاء في هــذا الكتاب . [١٥]

كان" توماس مور " أحد أعلام النهضة في إنجلترا ، وذكر في كتابة أن مليكه " هنـري الثامن " أرسله في بعثة إلى بلاد فلاندرا – بلجيكا الحالية – كسفير له فيها ، وما أن وصل إلى هذه البلاد حتى استقر في جزيرة " يوتوبيا " ، وبمعونة أحد ابنائها ويدعى " روفائيـل هيثلوداي " وأخذ يصف مدنها ، وماءها ، والقانون الذي يحكمها ثم تحدث عن زي أهلـها الموحد ، فذكر أن لكل واحد حُلّة واحدة كل عامين ، الرجال والنساء سواء كما ذكر أن الأبناء يخضعون لطاعة الوالدين ، وأن الزراعة هي مهنة إجبارية لأهل البلاد ، يختـار كـل واحد بجانبها حرفة أخرى إضافية ، وأن الطفل يتعلم مهنة أبيه ، أما النساء فـإنهن يقمـن بأعمال نسج الثياب، وذكر أن الدولة هنـاك تحـدد ساعات العمل بسـت سـاعات فقط ، وأن الناس يتناولون العشاء مبكرين وينامون مبكرين .

ثم تحدث عن سنّ الزواج ، وأنه محدد بثمانية عشر عاماً للمـرأة ، واثـنين وعشـرين للرجل، وأن الطلاق غير مباح إلا بالتوافق بين الزوجين ، أو بموافقة مجلس شورى الدولة . كما ذكر أن المرأة لا تستخدم المساحيق للزينة ، ولا تلبس الملابس الخليعة ، وأن الجمـال هناك هو جمال الخلُق وليس جمال الخَلْقْ ، كما ذكر أن عدد أفراد الأسـرة محـدّد ، أي أن يوتوبيا تقرر تنظيم الأسرة بتحديد النسل ، وأضاف بأن يوتوبيا بها أربع وخمسون مدينة ، لا يجوز الانتقال بين مدنها إلا بتصريح ، ولا يمكث الشخص بها بدون عمل سوى يوم واحد ، وأكـد أن المساواة و المواساة قائمة بين هذه المدن ، إذ تأخذ كل مدينة مـا تحتاجـه مـن الأخرى بدون ثمـن أو ضريبة ، لأن الإنتاج وفير يفيض عن حاجة السـكان ، والمجتمـع اشتراكي يقوم على التكافل ، كما ذكر أن سكان يوتوبيا يحقّـرون الـذهب والفضـة ، فيصنعون منه شارات نزلاء السجون وأرباب السوابق وذوي الأخلاق السيئة ، وأن الجواهر والفضة لِحُلي الأطفال فقط ، وأكد أن سكان الجزيرة يفضلون الحديـد علـى الـذهب والفضة، لأنه أكثر فائدة في مجال الصناعات الإنشائية ، وللدلالة على صدق كلامه ، ذكر أن السفراء الذين جاءوا بحلي الذهب إلى الجزيرة طرحوه أرضاً ، لأنهم وجـدوه موضـع سخرية من أهل الجزيرة .

أما عن الدين : فذكر أن حرية العقيدة مكفولة في يوتوبيا ، لكن الأغلبية للموحّدين ، وإذا كان لكل إنسان الحرية في اعتناق الدين أو المذهب الذي يريده ، فإن من يثير الفتن الدينية يطرد من الجزيرة ، وذكر أن أماكن العبادة جميلة تلائم جميع الديانات ، وأن أول كل شهر وآخره أيام مقدسة ، وأكّد أن كل من ارتكب جرماً يصبح عبداً .

أما من الناحية السياسية : فذكر أن مبدأ الحكم يقوم على الانتخاب الحر ، وأن أهل الجزيرة يختارون رئيسهم مدى الحياة ، عن طريق مجلس الشورى الذي تمثل فيه جميع العائلات ، كما ذكر أن السلطة القضائية مستقلة عن السلطة التنفيذية ، وأن كل قضية يفصل فيها قاضيان ، وان العقوبة على قدر الجرم .

وأضاف : أن أهل الجزيرة يمقتون الحرب ، ويرون أن هناك وسائل أخرى لفض النزاع ، كالذكاء والدهاء والحيلة ، لأن القوة في مفهومهم هي وسائل الوحوش في الغابات ، ورغم ذلك فإن أهل الجزيرة يدافعون عن بلادهم بكل قوة إذا ما اعتُدى عليهم .

وينتقد "توماس مور " طبيعة المجتمع الإنجليزي خاصة – والأوربي عامة – في مساواته في عقوبة الإعدام بين القتل والسرقة ، وكان غرض " توماس مور " من يوتوبيا يرمي إلى :

١– الحملة على النظام الرأسمالي في بلاده (انجلترا) .

٢– الدعوة إلى حرية العقيدة لدرء الخصومة بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣– تعديل القوانين الجائرة في إنجلترا .

٤– تنظيم العلاقات الدولية لمنع الحروب ، وهو نقد يوجهه لحروب مليكه " هنري الثامن " .

٥– المقارنة بين المساوئ الاجتماعية التي تسود أوربا عامة – وانجلترا خاصة – ، وبين المثل العليا في يوتوبيا .

تلك هي المدينة الفاضلة التي أشاعت كل شيء بين الناس ، حتى صاروا أغنياء بالقناعة ، بخلاف انجلترا التي قسّمت المجتمع إلى سادة وعبيد ، ومن ثم كالت بمكيالين في التعامل بين البشر . لكن بعد كل ذلك يسمي " توماس مور " – جزيرته المدينة الفاضلة – " يوتوبيا " أي في عالم الخيال ، أو لا وجود لها ، لكنا نقول له : لا ! يا سير توماس مور ؟ !

إنك لم تأت بجديد ، لكنك أخذت الفكرة عن الفارابي في – آراء أهل المدينة الفاضلة ، وإنما الجديد هو إنكارك للمدينة الفاضلة ، وادعاؤك أنها مدينة لا وجود لها ، وأنها إنما وجدت في عالم الخيال .

والحقيقة أنها وجدت على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وسنبيّن في الصفحات التالية الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة ، حتى نقف على ما قدمه الإسلام للعالم من مجتمع راق نظيف متحاب ، متعاون متكافل ، يدعو إلى السلم ويدفع العدوان رغم أنف بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " الذي يدعي – حقداً وكمداً – أن الإسلام لم يقدم للعالم شيئاً سوى العنف والإرهاب والكراهية والعدوان " فسحقاً لأصحاب السعير "(١٦)

الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة النبوية إليها

قبل أن نتحدث عن مجتمع المدينة الفاضلة أو الدولة المثلى التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب نتبين : أولاً حالها عند الهجرة فنقول :

لم يكن معنى الهجرة إلى يثرب هو التخلص من الفتن والاستهزاءات التي لحقت بالمسلمين في مكة من قبل مشركي قريش فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، قوامه التوحيد ونشر العدل والمساواة في بلاد العرب أولاً ، ثم في العالم أجمع ثانياً ، مجتمع مؤسس على الأخوة الصادقة والمحبة والوئام ، وقبل كل شيء على عقيدة التوحيد الصحيحة المنبثقة من عالمية القرآن والسنة ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة

شأنه ، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمّة الأمور بلا نزاع في يثرب ، بعد أن أصبحت دار إقامة للنبي و أصحابه الكرام ، الذين هاجروا إليها من مكة وضواحيها ، ليكونوا جنداً مخلصين لدولة الإسلام الجديدة ، وللدعوة الإسلامية التي اتخذت من هذه المدينة المباركة مقراً لها ومنطلقاً إلى أنحاء العالم أجمع[١٧] .

وأرى ، من واجبي – إيفاء بحق الموضوع محل البحث – أن ألقي ضوأ على ذلك المجتمع الجديد الذي استقر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنرى من هم الذي كانوا يسكنون في تلك البلدة وما هي أصولهم وجذورهم ، وطبائعهم ، وخصالهم ، حتى يسهل علينا فهم ما جرى في مدينة الرسول من الانقلاب الجذري بواسطة الإسلام ، وما هي العقبات التي واجهها الرسول في سبيل بناء هذا المجتمع الجديد ، المؤسس على الإسلام عقيدة ونظاماً . فأقرر : أن بلدة يثرب كانت من قديم الزمان واحة خضراء ، خصبة التربة كثيرة المياه ، وكانت تحيط بها الحرّات من جهاتها الأربع ، وكان يسكنها اليهود ، وقبيلتا الأوس والخزرج، فضلاً عن سكانها الجدد المهاجرين إليها مسلمين من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم[١٨] ، إذن فالأقوام التي كان يواجهها النبي في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وبالتالي تحتاج كل واحدة منها إلى معالجة خاصة ، وهذه الأصناف الثلاث هي :

١– أصحابه الصفوة الكرام البررة (مهاجرون وأنصار) .

٢– المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

٣– اليهود على اختلاف طوائفهم وقبائلهم .

أما الصنف الأول : (أصحاب النبي) – وخاصة المهاجرين – فإن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، أمرهم بيد أعدائهم في الدين ، ولذا لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً رغم اجتماعهم على كلمة جامعة ، وهي كلمة

التوحيد ، أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم من أول يوم ، حيث لم يكن عليهم سيطرة لأحد من الناس ، ومن ثم فقد آن لهم أن يكوّنوا مجتمعاً إسلامياً جديداً ، يهتم بمسائل الحضارة والعمران والمعيشة والاقتصاد ، والسياسة والحكومة والسلم والحرب .. وما إلى ذلك من مسائل الحياة ، أي مجتمع يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، إنه مجتمع يمثل الدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال طيلة عشر سنوات في مكة ، ولا يخفى أن تكوين مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يتم في يوم وليلة ، أو في شهر ، أو في سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن يتكامل فيه التشريع والتقنين ، مع التثقيف والتدريب ، والتربية بالتدريج ،وكان الله كفيلاً بهذا التشريع ، كما كان رسوله صلى الله عليه وسلم قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفق هذا التشريع[١٩] : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[٢٠]، وكان الصحابة أيضاً مقبلين عليه بقلوبهم يتحلّون بأحكامه ويستبشرون بها: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)[٢١] .

ولما كانت جماعة المسلمين في المدينة مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهمهم إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد[٢٢] . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر – وهم المهاجرون – فاقهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ليس لهم ملجأ يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به القوامة من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، بل يزداد يوماً بعد يوم ، ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، ومن ثم تزعزع ميزانها الاقتصادي ، خاصة وقد قامت الجهات المعادية للإسلام – في مكة وما حولها – بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلّت لأجلها الواردات الغذائية ، وتفاقمت الحاجة[٢٣] .

٢ – وأما الفريق الثاني : وهم المشركون – من صميم قبائل المدينة – فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردّد في ترك دين الآباء (الوثنية) ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، فهؤلاء

أسلموا وأخلصوا دينهم لله بعد فترة قصيرة ، ولكن كان في هذا الفريق أيضاً – من يبطن شديد الحقد والعداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، لكنه لم يكن يستطيع أن يناوءهم ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء لضعفه وجبنه ، وهو يبطن الكفر والعداء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (مهاجرين وأنصار) وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ويأتي على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب " بُعَاث " ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة ، فباغته مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وانصراف قومه عنه إلى النبي ، فكان يرى أنه استلبه ملكه ، فأبطن العداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الظروف لم تكن تساعده على شركه الذي يُحرَم بسببه الفوائد الدنيوية ، ولهذا أظهر الإسلام – بعد بدر – ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله صلى الله عليه وسلم و بالمسلمين إلا ويأتي بها ، يدعمه أصحابه ومن على شاكلته ممن حُرِموا المناصب التي كانت مرجوّة لهم في ملكة ، وكان العداء الخفي (النفاق) أشد وأنكى على المسلمين من العداء المعلن من قبل قريش وحلفائها ، ولكن قيادة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسته في بناء المجتمع الجديد كانت كفيلة بالقضاء على كل هذه العقبات [٢٤].

٣ – أما الفريق الثالث وهم اليهود : فقد كانوا نزحوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري ثم الروماني ، وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في يثرب والحجاز منذ القرن الثاني الميلادي ، وارتاد يهود " بني النضير ، وبني قريظة " منطقة يثرب ، واستقروا فيها لخصبها، وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل إلى الشام ، وكانت ديارهم بضواحي يثرب ، ومن القبائل اليهودية التي استقرت داخل يثرب يهود " بني قينقاع " الذين يقال عنهم إنهم كانوا عرباً تهوّدوا [٢٥] ، وكان هؤلاء اليهود عبرانيين ، لكن بعد نزوحهم إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزّي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم و أفرادهم عربية ، وقامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصّهرية ، ولكنهم حافظوا على عصبيتهم الجنسية العبرانية ولم يندمجوا في العرب كلياً ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمُّونهم "

أميــــن " ، أي وحوش سُذَّج وأراذل متأخرون ، كما كانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيفما شاءوا . (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) (٢٦) ، ولم يكن لهم تحمُّس في نشر دينهم ، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفـــأل والسحـــــر والنفــث والرقية وأمثالهـــا ، مما عدُّوا بـــه أنفسهم أصحاب علم وفضل ، كما كانوا ذوي خبرة في بناء الحصون ، وفي فنون الكسب والمعيشة ، كالزراعة والصناعة وتربية الماشية ، وصــناعة النسيج ، وآلات الحرب ، كما مهروا في التجارة والتعامل بالربا . فكانوا يقرضون شــيوخ العرب وساداتهم مقابل ارتهان أرضهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها ، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائــل العربية المجاورة ، ويوقدون دائماً نار الحرب بين الأوس والخزرج في يثــرب ، ثم يــزودون الطرفين بقروض ربوية ثقيلة ، حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلــون على منفعتين : الأولى : المحافظة على كيانهم اليهــودي قويــاً أمــام أعــدائهم المتحاربيــن ، والثانية : إنفاق سوق الربا واستمراره ليأكلوه أضعافاً مضاعفــة ، ويجنــوا الثروات الطائلــة من ورائه ، ولقد حاول اليهود عبر العصــور تفتيــت وحــدة الأوس والخزرج ، وإثارة الحروب بينهــم حتى كان يوم " بعاث " – كما ذكرنا – وكان عــدد رجالهم المقاتليــن يجاوز الألفيــن ، دخل أكثرهم (بنو النضير وبنو قريظة) هذه الحـــرب إلى جانب الأوس ، لكي يضعفوا الخزرج بوصفها القوة الكبرى في يثرب ، ومن ثم يبقــى لهــم السيادة على الطرفيــن ، وبالطبع فإن اليهود لم يكن يرجى منــهم أن ينظــروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، لأن النبي المنتظر جاء من غير جنسهم ، كما أنه جاء بدين جديد يعمل على إطفاء نار الحرب بيــن الأوس والخزرج ، وتوحيدهم في مؤاخاة تجمعهــم والمهاجرين المسلمين في أمة واحدة .

إن النبي صلى الله عليه وسلمجاء من غير اليهود ، فأثار ذلك حقدهم عليه وحســدهم له، كما أن القرآن الكريم أخذ يعدد مخازي اليهود ، ونكوصهم عن الدين الحــق ، لــذلك أبطن اليهود أشد العداوة للإسلام ورسوله منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين (٢٧) ، ولم يكن لهم حق في عداء الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهــم

يعرفون أنه نبي مرسل ، جاء ذكره وعلامته في التوراة ، كما شهد بذلك عبد الله بن سلام[٢٨]، فضلاً عما اعترف به حيي بن أخطب لأخيه أبي ياسر ، بأنه هو النبي ، كما ورد في حديث صفية أم المؤمنين -رضي الله عنها - الذي نقله ابن إسحاق ، وأورده البخاري.[٢٩] وهذه أول تجربة تلقاها النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود في إنكار دعوته منذ أول يوم دخل فيه يثرب ، أضف إلى كل ذلك عداء قريش ومشركي العرب المستمر منذ سنوات[٣٠] .

هذه هي القضايا و المشاكل التي كان يواجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في يثرب حين دخلها بصفته رسولا هادياً وإماماً قائداً ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور النبوة والقيادة في المدينة الجديدة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة ، أو الشدة والنكال ، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات ، قضاها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في بناء مجتمع المدينة الفاضلة [٣١] .

الأسس التي أقام عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم

مجتمع المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة النبوية

إن بناء المجتمع الإسلامي يقوم على أساس خضوع المسلمين في أفعالهم الاختيارية لشرع الله ومنهاجه ، لأن الإسلام في جوهره دين عقيدة وشريعة ، وإذا كانت عقيدة الإيمان هي التصديق القلبي للنبي صلى الله عليه وسلم فيما بلّغ عن ربه مع النطق بالشهادتين ، فإن الشريعة هي العمل المصدِّق للعقيدة ، والدال على هذا الإيمان ، الذي يظهر أثره في السلوك البشري ، وسلوك الإيمان لدى ذويه يقتضي السمع والطاعة لما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كان بناء المجتمع الإسلامي وتأسيس دولته المثلى في المدينة ، يعتمد على أسس وركائز منهجية تضمن له الاستقرار والاستمرار[٣٢] .

وهذه الأسس هي : بناء المسجد النبوي ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم الإخاء الإنساني بالتعاهد مع اليهود ومع من حول المدينة من الأعراب ، إرساءً لقواعد التعايش السلمي ، والتعاون الدولي بين البشر ، وسبق هذه الثلاثة ، أساس مهم هو السمع والطاعة لله ولرسوله ، وأعقبها عامل أهم هو الجهاد في سبيل الله ، للحفاظ على هذا البناء ، حماية للدين واستقراراً للدولة ، وتأمين أفراد المجتمع من أعدائهم في الداخل والخارج . ولنبدأ بالأساس الأول .

[١- بناء المسجد النبوي]

دخل النبي صلى الله عليه وسلم يثرب مهاجراً من مكة[٣٣] ، ونزل في بني النجار يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ (الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م) ، نزل في أرض أمام دار " أبي أيوب خالد بن زيد النجّاري الخزرجي " في المكان الذي بركت فيه ناقته ، وقال : " ها هنا المنزل إن شاء الله " ، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً إلى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة ، حتى بُنيَ

المسجد ، والحجرات لزوجاته فانتقل إليها وكانت أول خطوة خطاها النبي صلى الله عليه وسلم هي إقامة المسجد النبوي .

ففي المكان الذي بركت فيه ناقته ، وهو – يومئذ – مربد لغلامين يتيمين من بني مالك ابن النجار ، اشتراه النبي صلى الله عليه وسلم من كافلهما معاذ بن عفراء ، وأمر ببناء مسجده في هذا المكان(٣٤) للصلاة فيه والمسلمين معه ، بعد أن كان يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وكان في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خِربَ ونخل وشجرة من الغرقد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ، وبالخِربَ فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصُفّت في قبة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللّبن والطين ، وجعلوا سقفه من جريد النخل ، وعَمَدَه الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب وكانت طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع وبنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبه بيوت أزواجه باللّبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب – كما ذكرنا – وكان النبي هو وأصحابه ينقلون اللبن ، ويقول وهو ينقل اللّبن والحجارة مع أصحابه :

هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبرّ ربنا وأطهر

كما كان يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه ليرغب المسلمين في العمل ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار بدأب ، وكانوا يرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منّا العمل المضلّل(٣٥)

ولكن .. لماذا كان المسجد أول لبنة يضعها النبي صلى الله عليه وسلم في بنيان الدولة الإسلامية ؟ !

إن المسجد وإن اشتق اسمه من أظهر شعيرة في الصلاة ، وهي السجود على الأرض خضوعاً وانكساراً لله – لا لغيره – إلا أنه أضحى مكاناً لشعائر الصلاة كلها ، سجوداً وركوعاً ، وذكراً وعبادة ، فضلاً عن كونه داراً للاعتكاف ، وجامعاً لسماع الخطبة والوعظ كل جمعة ، ومكاناً لتلاوة القرآن والذكر ، ومنتدى يجتمع فيه المسلمون عندما يحزبهم حازب ، أو يطرقهم أمر ، فيتنادوا : الصلاة جامعة ! .

إن مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بناء المسجد فور وصوله إلى المدينة ، يبيّن لنا الدور الأساسي للمسجد في بناء المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان ، وعندما نتصفح تاريخ المسجد النبوي في عصر الرسالة ، يتبيّن لنا جلياً أنه لم يكن مجرد مكان للعبادة و فقط ، بل تحققت بواسطته أهداف إسلامية عظيمة شملت مهام المجتمع والدولة كلها ، ويمكن أن نجملها فيما يلي :

١ – كان المسجد مدرسة لتعليم النشء القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم ، وقد حضّ النبي صلى الله عليه وسلم على التعليم في المسجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيراً أو ليتعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله "[٣٦] ، وقوله أيضاً : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله ومن والاه ، وعالماً ومتعلماً "[٣٧] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه[٣٨] " ، كما أنه جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة في مدرسة المسجد[٣٩] .

٢ – كان المسجد جامعة لإلقاء العلوم وتلقيها ، تعلم فيها الصحابة الكرام القرآن الكريم والسنة النبوية ، على يد معلمهم الأول النبي صلى الله عليه وسلم وتخرج منه كثيرٌ من الصحابة ، والتابعين من الأئمة الذين تلقوا على أيدي الصحابة في جميع العلوم والآداب . وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتربية في جامعة المسجد ، بل إنه هو الذي وضع أصول التربية الحديثة في هذه الجامعة ، وليس " دور كايم " ، ولا " سبنسر " ولا " روسو " كما يزعم المستشرقون والمستغربون – ، فإذا كانت أصول التربية الحديثة تقوم على وسائل ثلاث هي :

أ – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم الإجابـــة .

ب – إثارة شوق المتلقي بالسؤال وحجب الإجابـــة حتى يكرِّر السؤال ، فتأتي الإجابة لترسخ في ذهن المتلقي فلا ينساهـــا .

ج – والثالثـــة التدريب العملي بعد الدرس النظري[٤٠] ، إذا كانت تلك أسس التربية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤصل ذلك كله ، وبالمثال يتضح المقال :

ففي المقام الأول – السؤال ثم الإجابـــة – يأتي ما ثبت عن أبي واقـــد الليثـــي : " أن ثلاثـــة نفر جاءوا المسجد والنبي في حلقة الدرس ، فأقبل أحدهم على الحلقـــة مســـرعاً ، وجاء الثاني على استحياء ، وانصرف الثالث عن الدرس ، ولم يلفت ذلك نظر واحد مـــن الصحابة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا تسألوني أخبركـــم خبـــر هـــؤلاء الثلاثـــة ؟ فقالوا أخبرنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : أما الأول : فقد أقبـــل على الله فأقبل الله عليه ، وأما الثاني فاستحيا من الله فاستحيا الله منـــه ، وأما الثالث : فقد انصرف عن الله فانصرف الله عنه))[٤١] .

وفي المقام الثاني – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم حجب الإجابة عنه حتى يلح في سؤاله – يأتي حديث سعيد بن المعلا في شأن سورة الفاتحـــة ، حين قال له النبي صـــلى الله عليـــه وسلم : " يا سعيـــد لأعلمنك شيئاً لا تسأل عنـــه أحداً " فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الدرس سأله ابن المعلا يا رسول الله : قلت لي لأ علمنك شيئاً لا تسأل عنه أحداً. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كرر ابن المعلا سؤاله ثلاثاً . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أنه على شوقٍ لتلقي الإجابة على سؤاله ، قال صلى الله عليه وسلم : " يا سعيد عليك بالسبـــع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتـــه "[٤٢] .

وفي المقام الثالث – التدريب العملي – ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلّـــم أصحابه ، فإذا برجل جاء المسجد يصلي ، فأسرع في صلاتـــه ولم يتم ركوعها وســـجودها حتى يلحق بالدرس ، فلما جاء الحلقة ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصـــلّ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل فصلى مثل صلاته الأولى ، ثـــم جاء النبي صلى الله عليـــه

وسلم فقال له ثانية " ارجع فصلِ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل ليصلي لكنه لم يزد على ما فعله في المرتين السابقتين ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قال سابقاً ، فقال الرجل : يا رسول الله لم أحسن غير هذا ، فعلمني كيف أصلي ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا دخلت في صلاتك فكبر بتهليلٍ ، واقرأ بترتيل ، واركع بتواضع ، واسجد بتخشع ، وافعل ذلك في صلاتك كلها ، فتكون قد صليت"(٤٣). ففعل الرجل بعد أن علمه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أثمرت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأتباعه ، فذلكم السِّبْطين : - الحسن والحسين - رأيا أعرابياً يتوضأ فلا يحسن الوضوء ، فأرادا أن يعلماه كيف يتوضأ وضوءاً صحيحاً ، دون تجهيله أو تجريحه ، فقال له الحسن : " أي عماه ! إني وأخي نحتكم إليك فيمن فينا يحسن الوضوء " ؟ فقال الرجل : أي بني توضأ فبدأ الحسن بالوضوء ثم أعقبه الحسين ، فنظر الرجل إليهما قائلاً : " لقد أصبتما وأنا الذي أخطأت ، جزاكما الله خيراً فيما علمتماني "(٤٤).

٣ - كان المسجد منتدى لتناشد الأشعار والآداب ، إذ دخل كعب بن زهير بن أبي سلمى على النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد وأنشده قصيدته التي بدأت بالغزل: " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " ولم ينهه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . كما كان حسان بن ثابت يجلسه النبي صلى الله عليه وسلم على مقعد خصَّصه له بجوار منبره ، ينشد الأشعار داخل المسجد(٤٥). ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة أراد أن يخرج حسان من المسجد ، فحاجَّه حسان قائلاً : يا عمر : أجلسني من هو خيرٌ منك لأنشد الشعر هنا ، فكيف تخرجني أنت ؟! فقال له عمر : صدقت ، وأقرَّه في المسجد(٤٦) .

٤ - كان المسجد دار قضاء ، ومحكمة للفصل بين الخصوم ، ودار فُتيا فيما ينزل به الوحي متلواً وغير متلو ، ودار شورى فيما ليس فيه وحي :جلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضي بنفسه بين المتخاصمين ، كما أناب عنه من يقوم بذلك ، كأبي بكر وعمر ، وكان عمرٌ أيضاً ينيب علي بن أبي طالب ليقضي بين الناس في محكمة المسجد ، حتى قيل : " قضية ولا أبا حسنٍ لها " ومما يؤثر في هذا المقام أن " كعب بن مالك "، و" عبد الله بن

حدرد " اختصما في المسجد ، حيث كان ابن مالك قد أقرض ابن حدرد مالاً ولم يرد القرض ، فجاء المسجد وطلب إليه أن يرد المال ، وعلا صوتهما والنبي صلى الله عليه وسلم في بيته فسمعهما ، فخرج إليهما ، فأشار إلى كعب قائلاً : "حطّ عنه الشطر "؟ فقال : أفعل يا رسول الله ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن حدرد وقال : " قم الآن واقضه حقه" ؟ فقال : أفعل يا رسول الله (٤٧) ، وكان المسجد معتقلاً للأسرى ومحبساً للخاطئين : فهذا " ثمامة بن أسال " الذي كان يتخطف قوافل المسلمين ويغير على سرحهم ، وظفر به المسلمون فأمسكوه ، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقيده إلى إحدى سواري المسجد ، وكان يمر عليه فيقول : " ما صنع الله بك يا ثمامة ؟ فيقول خيراً يا محمد : إن تقتل تقتل صاحب إثم ، وإن تعف تعف عن ذي رحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة ؟ فأطلقوه " (٤٨) وعفا عنه النبي فذهب واغتسل وعاد مسلماً . أما " أبو لبابة بن عبد المنذر " الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريظة بناء على طلبهم – وأخبرهم أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم سيذبحهم إن سلموا ولكنّه أحسنّ بخطئه وأنه خان الله ورسوله والمسلمين . وندم على فعلته ، وحضر إلى المسجد فربط نفسه في سارية من سواريه ، وأقسم ألا يحله أحد حتى تأتيَ براءته من السماء لتؤكد توبته(٤٩) من فعلته ، وظل حبيساً في المسجد ما ينيف على الشهر ، حتى أنزل الله قرآناً يؤكد قبول توبته : ((وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) (٥٠)

٥ – كان المسجد داراً للضيافة ومقراً لاستقبال الوفود القادمة إلى المدينة ، حيث استقبل فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وضيّفهم فيه ، كما استقبل وفد نصارى نجران ، ووفد الحبشة وقدم لهم الضيافة ، وأسمعهم القرآن فأسلموا ، وفاضت عيونهم من الدمع (٥١) وأنزل الله فيهم : ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)) (٥٢).

٦ – كان المسجد منزلاً للفقراء ، ومطعماً للمساكين ، وسكناً للمحتاجين ، فكان دار من لا دار له ، ومطعم من لا طعمة له ، بنى النبي صلى الله عليه وسلم في مؤخرة المسجد صُفّة " مصطبة " أقام فيها هؤلاء الفقراء ، وعلق في سقف المسجد كلاليب بها سبائط البلح ، وعناقيد العنب ، ليقتات منها هؤلاء ، ثم يبيتون في الصفة ، وهم الذين سُموا بأهل الصُّفّة ، أو أصحاب الصُّفّة (٥٣). ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم رجالهم ولا نساءهم من المبيت في المسجد ، بل أمر أصحابه بذلك ونهاهم عن المنع قائلاً : " لا تمنعوا عباد الله إماء الله من المبيت في مساجد الله " (٥٤).

٧ – كان المسجد مصنعاً لصناعة آلات الجهاد ، ومستشفى لتمريض الجرحى ومداواة المرضى وداراً لعقد الأنكحة ، ومقراً لقيادة الجيش وقاعدة لإدارة الشؤون السياسية والعسكرية ، فقد جلست النسوة فيه يثقفن الرماح ويرقّقن السهام ويحدّدن السيوف ، كما قمن بتمريض جروح المصابين من المجاهدين ، كما فعلت صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم ورفيدة الأسلمية التي داوت جروح سعد بن معاذ يوم الخندق ، وكما فعلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٥٥)، كما كانت تشهر الأنكحة في المسجد أيضاً ، ومنه يعلن الجهاد ويخرج اللواء ، وفيه تعقد المهادنات والمعاهدات(٥٦) .

والخلاصة أن المسجد قد جمع كل هذه المهام والوظائف المنوطة بالدولة ، واللازمة لبناء المجتمع ، وهذا يبينّ : لماذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ! والعمل فيه بيده مع أصحابه داعياً لهم بالرحمة والغفران ، قبل أن يفكر في بناء دار لنفسه ، كما كان يحضّ المسلمين على الإسهام في بناء المساجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من بني لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بني الله له بيتاً في الجنة(٥٧) " . كما حضّ المسلمين على انتظار الصلاة في المساجد ، وسماها الرباط ، تشبيهاً بمن يرابطون في الثغور لحمايتها من الأعداء ، كما طلب إلى المسلمين توقير المساجد ، ونهاهم عن الكلام فيها بغير ذكر الله ،

فقـــال صلى الله عليه وسلم : ((الكلام في المساجد يأكل الحسنات كما تأكـل النـار الحطب [٥٨])) كما نهى عن مجالسة من يلغون في المسجد بكلام دنيوي ، فقال صـلى الله عليه وسلم : ((يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي إلى المساجد ، فيقعدون فيهـا حلقـاً ، ذكرهم الدنيا وحبُّ الدنـيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة [٥٩])) . كما نهـى عـن البصاق والنخامة في المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((البزاق في المسـجد خطيئـة وكفارتها دفنها [٦٠])) ، وقد أمر الله بعمارة المساجد فقال تعالى : ((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَـئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)) [٦١] .

كما نهى عن تخريب المساجد أو السعي في خرابها ، وتوعّد الساعين في خرابها بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) [٦٢]

تلكم هي رسالة المسجد الجامع في بناء الدولة الإسلامية الأولى ، والتي استمرت في كل المساجد في أنحاء الدولة الإسلامية فيما بعد ، وانتشرت من المدينة ومكة إلى البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وفاس والفسطاط ، والقاهرة . ومـا زال جامعهـا " الأزهر " يؤدي تلك الرسالة إلى اليوم منذ أكثر من ألف عام .

فأنت أخي القارئ ترى أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً في المبنى ، لكنه عظيم المعنى في الأهداف والغايات ، ومع تواضعه وبساطتـه ، ربّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام ، والتقى فيه بالمسلميـن من جميع القبائل العربية – المشـتّتة قبـل الإسلام – لينسيهم النزعات الجاهلية ، والفوارق القبليـة ، ويربيهـم على الخير والحـب والتآلف ، لينصهروا في بوتقة واحدة متماسكة ، ويؤلفوا أمة واحدة موحـدة ، تدوس على رؤوس الكفر والشرك والطغيان ، وتحمل دعوة التوحيد إلى أرجاء العالم بالحكمة والموعظـة الحسنـة [٦٣].

ونخلص من كل هذا إلى أنّه : كان لاهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالعلم والتعليم ، والعلماء والمتعلمين ، أثر كبير في سلوك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين جلسوا حوله في المسجد ، واستمعوا إلي هذه التوجيهات المتكررة من القرآن ، والحث المتواصل من الرسول صلى الله عليه وسلم علي العلم ، فكانت استجابتهم الكبيرة للجلوس بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد ليتعلموا أمور دينهم ويتفقهوا فيه، ومن ثم قامت حركة علمية في المدينة المنورة ، كان أستاذها هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التلاميذ هم أصحابه – رضوان الله عليهم – وبعد موته اقتدي به أصحابه في القيام بتعليم الناس في المسجد النبوي ، فلقد شهد المسلمون أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – معلّمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد ، ثم رأوا علماء القرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء، وعلي أيديهم تعلم فقهاء المدينة السبعة في القرن الثاني للهجرة(٦٤) .

كما رحل كثير من هؤلاء الصحابة إلي البلاد التي فتحها المسلمون ، لينشروا فيها الإسلام ويعلموا الناس ، وأقام كل واحد من هؤلاء العلماء مركزا علميا بالبلد الذي نزل فيه ، ومن مشاهير علماء الصحابة : عبد الله بن عمر ، وكانت حلقته العلمية في المدينة ، وعبد الله بن عباس وكانت حلقته في مكة ،ومعاذ بن جبل وكانت حلقته في اليمن ، وأبو موسي الاشعري وكانت حلقته في البصرة ، وعبد الله بن مسعود وكانت حلقته في الكوفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكانت حلقته في مصر ، وهكذا بدأت حركة العلم والتعليم في الإسلام تمتد بامتداد البلاد التي يفتحها جند الإسلام ، ولهذا لم يمرّ وقت طويل حتي وجدنا حركات علمية إسلامية تزدهر في كل البلاد الإسلامية . خاصة وقد توفرّت كل العوامل والأسباب التي أدت إلي تلك النهضة العلمية ، ومنها: رعاية الحكام والأغنياء للتعليم والعلماء ، وإنشائهم الكثير من المكتبات والمدارس والجوامع والأربطة والزوايا، ووقف العقارات والمنقولات علي العلم وأهله ، وتشجيع حركة الترجمة وامتزاج الثقافات، والحرية الفكرية التي شملت كل مناحي العلوم (٦٥).

[٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

الإخاء الإسلامي .. هو الأصل الأصيل في بناء دولة الإسلام وقيام الأمة الإسلامية..

ولقد كان العرب - والناس معهم - على شفا حفرة من النار .. متشاكسين .. متنافرين .. متحاربين سنين طويلة .. من أجل ناقة ، فنزلت الآيات .. قيل لهم : تحابوا.. فتحابوا . قيل لهم : تآخوا .. فتآخوا ..

ثم قيل لهم : انفروا .. فهبوا خفافاً وثقالاً ، وتنزّلت الآيات .. فقالوا : سمعنا وأطعنا .. ولم يقولوا سمعنا وعصينا . ومؤمنو مكة - على اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ ، إلا المهاجرين.

ومؤمنو المدينة ، على- اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ إلا الأنصار . وكانوا قبلها فرقاء متشاكسين ، فإذا بالفرقاء المتشاكسين أمة ودولة [٦٦] .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين .. على المؤمنين من أهل مكة المهاجرين إلى المدينة . ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتي الأوس والخزرج . " أبناء قيلة ". الذين دخلوا في الإسلام .. مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين .. كافياً لإزالة كل ما يؤدي إلى التعصب ، لكن نعتوا جميعاً بالصادقين والمفلحين .

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في البناء الأخوي الكامل .. ليقيم دولة الإسلام على أساس سليم .

قال ابن إسحاق:

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، من المهاجرين والأنصار ..

فقال - فيما بلغنا - : ((تآخوا في الله أخوين أخوين)) [٦٧] ؟

قال ابن القيم : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار .. على المواساة ، والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام ، فلما أنزل الله - بعد بدر - (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) [٦٨] نسخ التوارث دون عقد الأخوة[٦٩] .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا الإسلام ، و أن تسقط فوارق النسب واللّون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(٧٠) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلّوه على السوق ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغد ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم " فيم يا عبد الرحمن ؟ قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال كم سقت إليها ؟ قال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبي : – صلى الله عليه وسلم – ، أو لِمْ ولو بشاة (٧١)" .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٧٢) .

لقد بلغ المسلمون الأوائل في الإيثار – بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم ومدلول– . بلغوا درجة عليا ، ومكانة عظمى .. بما وقر في قلوبهم من إيمان ، وبما أشرق في نفوسهم من يقين ..

إن قوة الإيمان ، والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم تجعل النفس الإنسانية ، تشرق بالكثير من صفات الخير ، وتتخلّق بالآداب والفضائل العظيمة ، ولقد صنع ذلك الإيمان وهذا التصديق جماعة ، اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة .. فكانوا يؤثرون

إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم ، ويتنازلون عن قسْمهم في الغنائم من أجلهم ، ويقدّمون حاجة إخوانهم على حاجتهم ، حباً لهم ، ورغبة في أخوّتهم.. [٧٣]

والإيثار في الإسلام .. هو : تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ، رغبة في الحظوظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة .. يقال : آثرته بكذا ، أي خصصته به ، وفضّلته ،[٧٤] والمعنى أيضاً ......

والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان ، من قبل هجرة أولئك المهاجرين.. لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة ، تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع[٧٥] ولذا كانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وهؤلاء تصدّقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه[٧٦]!!

وجاء في الأثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسم أموال بني النضير على المهاجرين . ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر : أبا دُجَانة (سماك بن خرشة) وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصِّمَّة .

وقال لهم : ((إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة)) .

فقالت الأنصار : "بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة دوننا ، ولا نشاركهم فيها "[٧٧]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للأنصار :

((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم)) .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو غير ذلك " ؟

قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟

قال : ((هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم إياه وتقاسمونهم التمر)) .

فقالوا : نعم يا رسول الله .. نكفيكهم العمل ونقاسمهم التمر [٧٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قالت الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

فقال الرسول : لا ..

فقال المهاجرون : أتكفونا المؤونة ونشارككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا ! " [٧٩]

نعم .. إن الإيمان الصادق ، الذي صادف قلوباً هُيِّئت له . تمكن فيها ونما وترعرع ، وأشرقت آثاره على من حولها ، وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة في بذل كل ما يرضي من حولهم من المسلمين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيرة من تمسك بفضيلة الإيثار .. حرصا على أخوة الإسلام ، وتودُّداً في ظلال الإيمان ..

قال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [٨٠] وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) [٨١] .

وقد أجرى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عقد المؤاخاة هذا في دار أنس بن مالك ، وقد اشتملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً ، (خمسة وأربعين من المهاجرين ، خمسة وأربعين من الأنصار) [٨٢] ، لأن المهاجرين جاءوا إلى المدينة لا مال لديهم ولا مسكن لهم ، فكان من الضرورة الملحّة أن يبحث لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عمن يأويهم في بيوتهم ويشركهم في معايشهم ، حتى تستقر أوضاعهم ، وتأنس قلوبهم ، بعد الوحشة الشديدة التي فرضها عليهم مشركو مكة ، ولم يبخل الأنصار على إخوانهم المهاجرين بشيء ، بل آثروهم على أنفسهم رغم خصاصتهم وحاجتهم – كما أسلفنا – ، وهذا يدل على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، كما يدل على ما كان عليه المهاجرون من تقدير لهذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم ، وحقاً كانت

هذه المؤاخاة حكمة فذّة ، وسياسة حكيمة ، وحلاً رائعاً لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون في المدينة[٨٣]

ولتأكيد هذه المؤاخاة كتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، عُرِف بميثاق التحالف الإسلامي ، وهذه بنوده ملخصة :

١) هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣– المهاجرون من قريش – على ربعتهم – يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف (الأنصار) على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤) وإنّ المؤمنين لا يتركون مفرجاً (القتيل لا يُدْري من قتله) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

٥) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم ، أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

٧) وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٨) وإنّ من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٩) وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٠) إن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض (أي دم بعضهم كفؤ لدم البعض) بما نال دمائهم في سبيل الله .

١١) وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

١٢) وإنه من اعتبط مؤمناً قتلا (قتله بلا جناية توجب قتله) عن بيّنة ، فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

١٣) وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثاً أو يؤويه وإن من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٤) وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم [٨٤] .

وقد كُتِبَتْ هذه الوثيقة بعد غزوة بدر الكبرى ، أما وثيقة اليهود فقد كتبت قبلها (بعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة شهور فقط) ، ومع ذلك فقد ذكرهما ابن هشام في وثيقة واحدة ، وجرى على ذلك أكثر المؤرخين ، على الرغم من أنهما وثيقتان كتبتا في زمانين مختلفين[٨٥] .

والمؤاخاة في الناس ، تكون على وجهين :

إحداهما : أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار ..

والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار . فأما المكتسبة بالاتفاق .. فهي أوكد حالاً ، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها . والمكتسبة بالقصد : تعقد لها أسباب ، تنقاد إليها ، وما كان جارياً بالطبع ، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد[٨٦] !

فأما المكتسبة بالاتفاق فلها أسباب : (ما هو إلا له سبب ∴ يبتدى منه وينشعب)

١- وأول أسباب الإخاء : التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها . فإن قوى التجانس ، قَوِي الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفاً ، ما لم تحدث علة أخرى يقوي بها

الائتلاف .. وإنما كان كذلك ، لأن الائتلاف ، بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس . فإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف .. فثبت أن التجانس – وإن تنوع – . أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف .

وقد روى يحيى بن سعيد ، عن عمر ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف (٨٧)" فالأرواح بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة (٨٨) .

قال الشاعر :

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل

وقال آخر :

فقلت : أخي ، قالوا : أخ من قرابة

فقلت لهم : إن الشكول أقارب

نَسِيبي في رأيي وعزمي وهمَّتي

وإن فرقتنا في الأصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس .. المواصلة بين المتجانسين – وهي المرتبة الثانية من مراتب الإخاء .

وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجة التجانس ، والسبب فيه وجود الاتفاق . لأن عدم الاتفاق منفر ، وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عَذُبوا ... وإلا فإن جناهم مرُّ

كم من رياض لا أنيس بها ... تركت لأن طريقها وعرُ

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة .. وهي المؤانسة ، وسببها : الانبساط .

ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة .. وهي المصافاة ، وسببها : خلوص النيَّة ..

ورتبة خامسة .. وهي المودة وسببها : الثقة . وهذه الرتبة هي أوفى الكمال في أحوال الإخاء . وما قبلها أسباب تعود إليها . فإن اقترن بها المعاضدة .. فهي الصداقة . ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة .. وهي المحبة ، وسببها : الاستحسان . فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة — وهي الإعظام .

وإن كان الاستحسان للصورة والحركات ، حدثت رتبة ثامنة .. وهي : العشق ، وسببه الطمع ، وقد قال المأمون العباسي رحمه الله تعالى :

أول العشق مزاح وولع ... ثم يزداد إذا زاد الطمع

كل من يهوى وإن علت به ... رتبة المُلْك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدَّدة ..

لأنها قد تؤدي إلى ممازجة النفوس .. وإن تميزت ذواتها ، وتفضي إلى مخالطة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها .. وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها ..

وقد قال الكندي : " الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك " . ومثل هذا .. المروي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً ، وكتب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً ، منهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – .

فأتى طلحة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : والله ما أدري أنت الخليفة أم عمر ؟ . فقال : بل عمر لكنه أنا[٨٩] .

وأما المؤاخاة المكتسبة بالقصد .. فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها .. وقد يكون الداعي لها من وجهين : (رغبة ... وفاقة)

فأما الرغبة : فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ، ويُتوسَّم بجميل يدعو إلى اصطفائه ..

وأما الفاقة : فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته [٩٠] !! . ؟ ! وأعز ما تملكه الجماعات .. الإخاء .. فهو الرصيد الثابت ، والقاعدة الصلبة ، والمرتكز الصاعد .

والأخوّة في الإسلام .. بلغت من السمو مبلغاً ، جعلها أساس الحياة ، ولا حياة بدون إخاء وإخوان .

والأخوّة في الإسلام تقوم على أصول أصيلة وقواعد متينة (منها أيضا ....) :

٢- وحدة الأصل الإنساني ..

فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم . يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، آدم وحواء .

ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وبينها في أساليب شتى ، وآيات متعددة لكي تكون دائماً موضع الاعتبار والرعاية . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [٩١]

وهذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام ، وهو المساواة بين الناس .

ولقد قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية .. فهي من معجزات القرآن العظيم ، الذي أنزله الله ضياء للناس ونوراً يهتدون به ، وبرهاناً ساطعاً ينير السُّبل أمامهم[٩٢]!!

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام . يموج في الظُّلم ، ويضطرب في الفساد ، وتسوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتخيِّم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشر الرعب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحت ظل نظام الطبقات في هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدِّد أنواره تلك الغيوم السوداء.

وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً . وهو إعلان المساواة بين البشر ، كل البشر [٩٣] . ويهتم القرآن الكريم بالإنسانية والبشرية اهتماماً بالغاً .

و كلمة (الناس) يتكرر استعمالها في أساليب القرآن الكريم نحواً من مائة وأربعين مرة : كثير منها جاء خطاباً للبشر عموماً ، وكثير منها ورد دالاً على الجنس البشري .

وهذه أيضاً كلمة (الإنسان) .. تتكرر أكثر من ثمانين مرة .... في أساليب متنوعة .. عائدة بنا إلى أصل الإنسان .

ولا شك أن استعمال (الناس والإنسان) بهذا الاهتمام . يخلق في المسلم .. تربية إنسانية تعجز عنها أساليب فلاسفة العالم .. أمثال : "جان جاك رسو " ، " وهربرت سبنسر " ، " وجون ديوي " ، " ووليم جيمس " ..

حتى كلمة (البشر) الدالة على الجنس الإنساني الواحد ، تستعمل في القرآن الكريم ، في أكثر من خمس وثلاثين آية .

وهكذا يهتم القرآن الكريم بكل ما من شأنه أن يوقظ في الناس أحاسيس الإنسانية .

إن الإسلام جاء ليقيم بين البشر رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق ،"وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة ، آيات بيّنات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته . وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل ، مدعاة إلى التآلف ، لا إلى التعادي والتقاتل ، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس " [٩٤] ؟ !

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ، ولا إلى أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ، ولا إلى أموالكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم "[٩٥] .

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس باتباع هدى القرآن . وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الأصول الأصيلة .. للأخوّة في الإسلام .

٣- وحدة العقيدة .

ووحدة العقيدة .. من أهم الركائز لوحدة المسلمين وتكامل أخوتهم .

وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار ، أو جيل من الأجيال ...

وهذه العقيدة تقوم على الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم. وبكل ما في القرآن .. وأن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن . ومن آيات العقيدة في القرآن قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [٩٦]

قال الإمام ابن كثير : " اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة " [٩٧] ، والآية - كما ترى - مشتملة على خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام :

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد ، وآخرها قوله " والنبيين " وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد .

والستة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها (وآتى المال) وآخرها (وفي الرقاب)

والأربعة الأخيرة ، تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس لوقايتها من شر الأضداد . وأولهما " وأقام الصلاة " ، وآخرها "وحين البأس " .

ولعمري من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى مراتب الإيقان[٩٨] ! !

وعقيدة الإسلام واحدة لدى كل المسلمين في شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، تجمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنها نفوسهم ، ووحدة العقيدة جدّدت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم .

وإذا كانت أبوة آدم - عليه السلام - أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوّحد بينها في الأصل ، فإن العقيدة الإسلامية هي أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين .

والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحي ، الذي يجمعه وإخوانه المؤمنين - في مشارق الأرض ومغاربها - ، إلى جانب الأصل المادي الذي يرجعه معهم إلى أبوة واحدة ..

فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه ، ويحيا لهم ، ويحسّ وكأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها(٩٩) !

وإن رابطة العقيدة في الإسلام - وهي رابطة في المبادئ والمثل العليا - من أقوى عوامل الازدهار ، وتلك التعاليم هي أعلى وأقوى من رابطة الدم ، والنسب ، والمساكنة في الوطن، والمشاركة في القومية .

وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد ، للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية والقبلية والقومية ، إلى صعيد اللقاء الإنساني ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل ، والخير .

وفي هذا الإطار التربوي النفسي ذاته ، عالج الإسلام النفس الإنسانية ، إعداداً لها ، لتحقيق التعارف والتعاون . فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون . كالحقد والحسد والغل ، التي تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية ، أو القبلية ، أو القومية(١٠٠) ؟

٤- وحدة الشريعة :

والأصل الرابع ... في أصول الأخوة الإسلامية . وحدة مصدر التشريع . ..

ومصدر التشريع واحد لدى المسلمين . وهو القرآن الكريم -كتاب الله - الذي أنزله ، ليكون دستور الخالق في إصلاح الخلق ، ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقوم اعوجاج المجتمع .

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (١٠١)

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢)

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠٣)

وإن الله عز وجل ، ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأولى : أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، أي أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور ، يهديه الطريق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة ، من كل ما يرديه ويشقيه .. فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى ، وحقوق نفسه الروحية والجسدية ، وحقوق الناس ، فيكون متمتعاً بالطيبات ، مجتنباً للخبائث ، نقياً ، مخلصاً ، صالحاً مصلحاً .. ويكون في الآخرة سعيداً منعماً ، جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي ، والنعيم الروحي العقلي .

الثانية : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص .. حيث يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق ، عبداً خاضعاً بين يدي الخالق وحده .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين، في أقرب وقت ، لأنه طريق لا عوج فيه ، ولا انحراف ، ومن ثم فلا يبطئ سالكه ، أو يضل

في سيره .. وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم ، على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله .. بأن تكون عقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، مؤثرة في تزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وإحسان الأعمال.. وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بحسب سنن الله في خلق الإنسان .[١٠٤]

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وبعالمه الداخلي..

والقرآن الكريم هو وحده القادر على تحديد علاقة الإنسان بالوجود كله ...

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على أن يرسم للمجتمع الإسلامي ، الخطوط السليمة ، ويضع له الحوافظ التي تحفظ الإنسانية من التردّي والهلاك .

والقرآن الكريم .. هو وحده الذي توجد فيه الحلول المنطقية المقبولة لكل ما وراء الحواس .. والقرآن الكريم .. غني بكل جوانب الحياة : الروحية ، والعقلية ، والجسمية .. والقرآن الكريم هو وحده القادر على إذكاء روح الأخوة الإسلامية ، وتدعيم المحبة بين المسلمين .

وما دام القرآن الكريم يعمل على وحدة الصف الإسلامي ، فلا غرو أن يأمر الله المسلمين .. إن دب بينهم نزاع بأن يرجعوا إلى كتاب الله .. قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١٠٥]

فالرجوع عند التنازع في أي أمر إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله .. شرط في الإيمان .. وذلك كله خيرٌ محض لا شر فيه أبداً .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم .. قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١٠٦]

وهي أخوة في الدين والحرمة لا في النسب .. ولهذا قيل أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[١٠٧] .

وأخوة الدين أحق ، وأجدر أن يُهتَم لها ، ويصلح بين المتخاصمين من المؤمنين ، لأنها أخوة بنص كتاب الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة من فوق سبع سماوات ، وما عقده الله – تبارك وتعالى – لا تحله يد بشر ، مهما قويت وسطت ، وظلمت . ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه ، لا يُرد ولا يُصد .. فقالتْ : " إنما المؤمنون إخوة " .

هكذا حكم الله ، وهكذا أخبر عن هذا العقد ، الذي ربطه في السماء بين المؤمنين ، مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم ، وتناءت ديارهم .. فهم إخوةَ ، ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة .....

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، لتقرر واقعاً عظيماً ، وتخبر عنه فقالت : " إنما المؤمنون إخوة ". ولم تأت الجملة إنشائية .. إذ لو جاءت الآية إنشائية .. لكانت الأخوة غير موجودة .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة . وقضى فيها بحكمه فقال : " إنما المؤمنون إخوة " .. ثم ثنى بتقرير هذه الحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " المسلم أخو المسلم أحب أم كره" .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه و لا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه في البنيان ، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره(١٠٨)" ... وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال :

" المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ، ويحوطه من ورائه "(١٠٩)

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ، ولها ، وأصبحوا بفضل الله تعالى إخواناً ، دعوتهم واحدة ، وأمرهم واحد ، تقاسموا الحب فيما بينهم ، وآثروا إخوانهم

على أنفسهم فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثار ، أن يقول الصاحب لصاحبه .. هذا مالي جعلته بيني وبينك . وهاتان زوجتاي ، اختر أيتهما تشاء ، لتتزوجها أنت ، بعد أن أطلّقها وتعتدّ (١١٠).

والأخوة في الإسلام .. أسلوب تربوي بناء .. يسمو بالمجتمع .. ويصل به إلى مراقي الفلاح ... وآثار الأخوّة .. تبدو واضحة ، في تعاون المسلمين وحبهم للقرآن ، ولرسالة الإسلام . وسوف يبقى المسلمون في أشد الحاجة إلي الأخوّة ، لأنها سياج يقي المجتمع من التعثّر ، والتبعثر ، والأمة الإسلامية تحتاج إلى الإخاء الكامل الذي لا يعرف الحزبية .. و لا العصبية .. ولا القومية .. ولا الإقليمية .. ولا اليمين .. ولا اليسار .. ولا المذاهب الوضعية...

وقد أتم الله للمسلمين .. وحدة الأصل .. ووحدة العقيدة ، ووحدة المصدر . ووحدة الشعور . ووحدة الصف .

وكانت آثار ذلك واضحة في ...

الحب في الله .. والتعاون .. والتكامل .. والمساواة .. والعدل ... والشورى . . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن هذا المنطلق .. كانت الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً .. يمكن استثماره لتحقيق الإخاء الكامل ... إذا ما أطاعوا الله ورسوله . .

السمع والطاعة لله ورسوله من المعنويات المهمة في مجتمع الإخاء :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذاقة أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد مؤمن بالله يسمع ويطيع أوامر الله ورسوله ، لأن سلوك الإيمان لدي أصحابه جعلهم ينقادون لحكم الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(١١١) ، وقوله تعالى : (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (١١٢) ، وقوله عز من قائل : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً) (١١٣) .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحضُّهم على حسن الجوار فيقول : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " (١١٤) كما يحضُّهم على الحب والإخاء ، وعدم التحاسد والتباغض ، ويدعوهم إلى العطف والرحمة والتكافل .

يقول – صلى الله عليه وسلم – : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " (١١٥) ويقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " (١١٦) ويقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " (١١٧) ويقول : " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " (١١٨) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " (١١٩) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر " (١٢٠) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْيٍ كساه الله من خضراء الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " (١٢١).

سمع المسلمون أوامر نبيهم فأطاعوه حباً وامتثالاً ، بل فضّلوه على آبائهم وأنفسهم ، وخير دليل على ذلك ما فعله " عبد الله بن عبد الله بن أبي " مع أبيه المنافق لما قال في غزوة بني المصطلق : " إن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل " – ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم – فقال له ابنه : " والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – العزيز " . ففعل (١٢٢).

إن الإسلام أرسى دعائم الدولة الإسلامية وربط بها سائر القبائل والجماعات ، فانخرط الجميع في سلك الإسلام ، وبرزت فكرة الأمة الواحدة حين ذابت جميع العصبيات القبلية ، امتثالاً لأمر الله : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (١٢٣) .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، قام على الأخوة والمحبة والمودة ، والسمع والطاعة .

[٣- معاهدة اليهود والأعراب حول المدينة]

أ - المعاهدة مع اليهود (في يثرب) :

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع المدني الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين - (إقامة المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار) - رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام ، والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة التي يسكنها المسلمون في وفاق واحد ، فسَنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز ، التي لم تُعهدَ في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، خاصة وأن الإسلام يطلب إلى المسلمين العدل مع غيرهم ، بل يزيد على ذلك الدعوة إلى برِّهم والإحسان إليهم ، قال تعالى : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١٢٤) ، كما أنه يطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معاملة أهل الكتاب بالحسنى ، ودعوتهم إلى الله باللين ، قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (١٢٥) . وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة ، ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، والحِلّ والترحال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل وفر لهم الأمن والسلام والمُقام ، هانئين هادئين في ظل الإسلام ، إذا لم ينقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (١٢٦) .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن الوثيقة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم العلاقة بين المسلمين أنفسهم – مهاجرين وأنصار –[١٢٧] بينما يرى الدكتور أكرم ضياء العمري[١٢٨] : أنهما وثيقتان في الأصل ، لتنظيم العلاقة بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم ، خلط بينهما بعض المؤرخين ، وأن الوثيقة الخاصة بالمسلمين كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد غزوة بدر ، بينما وثيقة اليهود كانت بعد وصوله المدينة بخمسة أشهر فقط [١٢٩].

وأياً ما كان الأمر ، فإن المعاهدة مع اليهود اشتملت على عدة بنود أهمها[١٣٠] :

١ – " إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢– إن ليهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣– إن " جفنة " – بطن من ثعلبة – كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود (خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم ، وإن البر دون الإثم .

٤– وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك ، فبنفسه وأهل بيته فتك ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرِّ هذا .

٥– وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٦– وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

٧– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨– وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٩– وإن الجار كالنفس ، غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

١٠– وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله – عز وجل – و إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبره

١١ – وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

١٢ – وإن بينهم النصر على من دهم يثرب (المدينة) ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

١٣ – وإذا دعوا (أي المؤمنين) إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم (أي اليهود) إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم هذا على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

١٤ – وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض (الخالص) من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

١٥ – وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

وبإبرام هذه المعاهدة مع اليهود صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة وقائدها الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و الكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين .

إن كلمة " الدستور " هي أقرب إطلاق مناسب على هذه الوثيقة، لأنها بالفعل وضعت دستور الدولة وقانونها العام ، سواء فيما يتعلق بالمسلمين أنفسهم أو فيما بينهم وبين جيرانهم اليهود ، حيث أكدت أن الإسلام دين ودولة ، ونظام يشمل كل مناحي الحياة ، يجمع المسلمين ويصهرهم في بوتقة واحدة تشملهم تشريعات واحدة قائمة على العدل و الأخوة والمساواة بين الجميع دون نظر إلى الجنس أو اللون ، كما تدل هذه الوثيقة على مدى العدالة ، و الحرية الدينية ، و الحل والترحال ، و الأمن والأمان ، وتحكيم الله ورسوله فيما يشكل بين اليهود والمسلمين ، كل ذلك كان من المهام التي اتسمت بها معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود ، لكنهم قابلوها بالمكر والغدر و الخديعة – التي جبلوا عليها – مما جعل المسلمين في حل من الالتزام بما جاء فيها تجاه اليهود .

ب – مهادنة الأعراب حول المدينة :

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام في المدينة وما حولها – في المستقبل – عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى بمثل هذه المعاهدة ، خاصة القبائل المجاورة للمدينة ، والتي تقطن على طريق قريش التجاري من مكة إلى الشام ، فعاهد قبيلة جهينة وبطونها – ومساكنها بين المدينة ورابغ – على بعد ثلاثة مراحل (أي ينبع وما حولها [١٣١]) ، وكان هدف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه المعاهدات الحد من غطرسة قريش واستكبارها، وفضلاً عن ذلك فإنه بث السرايا للاستكشاف و التعرف على الطرق حول المدينة – قبل تشريع الجهاد – للاطمئنان على أمنها ، وليظهر لليهود و مشركي العرب بالمدينة ، والأعراب من حولها ، أن المسلمين أصبحوا قوة ، بالإضافة إلى إنذار قريش بأن ينتهوا عن طيشهم وغيّهم لأن الحال قد تغيّر ، وأن المسلمين أصبحوا أقوياء [١٣٢] .

وفي أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم صفر سنة ٢ هـ بعد تشريع الجهاد ، وهي غزوة الأبواء (بين المدينة و الجحفة) والتي خرج فيها يعترض عيراً لقريش لكنه لم يلحق بها ، وكانت الأبواء ، وودان منازل بني ضمرة (من كنانة) فعقد معاهدة حلف مع مخشي بن عمرو الضمري – سيد بني ضمرة في زمانه – نُصَّ فيها على : " هذا كتاب من

محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحـــاربوا دين الله ما بلّ بحر صوفه ، وإن النبي صلى الله عليـــه وســـلم إذا دعاهم لنصره أجابوه . [١٣٣]

وفي غزوة العشيرة – من بطن ينبع – جمادى الأولى ســـنـة ٢ هـــ خرج النبي صلى الله عليه وسلم لأخذ عيـــر لقريش ، لكن العير سبقته قبل وصوله بأيام ، وفي هذه الغـــزوة وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة[١٣٤]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف قبيلة خزاعة بعد عقد الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـــ[١٣٥] . كما وادع صلى الله عليه وسلم يهود تيماء[١٣٦] في صفـــر ســـنـة ٧ هـــ ، وكتب لهم بذلك كتاباً وهذا نصه : " هذا كتاب من محمـــد رســـول الله إلى بـــني عاديا: إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، و لا عداء ولا جلاء ، الليل مدّ والنهار شدّ [١٣٧] ". ولكن بعض هذه القبائل خانت العهد وتحالفت مع قريش ، فكان لابد من رد عدوانهم ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الجهـــاد والحـــرب .

[٤ – الجهـــاد في سبيـــل الله لحمايـــة الدعوة والدولـــة]

لم تكتف قريش بما فعلته مع المسلمين في مكة من تنكيل واضطهاد ، لكن عدوان كفـــار مكة استمر ، وزاد من غيظهم أن فاتهم المسلمون ، ووجدوا مأمناً ومقراً لهم بالمدينة ، ولذا أرسلت قريش إلى أهل المدينة يتهددونهم بالحرب إن لم يخرجوا محمداً والمسلمين من ديارهم، وحاول عبد الله بن أُبي تنفيذ مطالب مشركي مكة ولكن حكمة النبي – صـــلى الله عليـــه وسلم – أطفأت نار حقده ، ومن كان على شاكلته من المنافقين واليهـــود ، ولم تفلـــح – أيضاً – عزيمة صدّ المسلمين من – أهل يثرب – عن المسجد الحـــرام ، لأن أهـــل يثـــرب توعدوا قريش بقطع طريقهم إلى الشام المار على المدينة ، وهنا لم يبق أمام كفـــار مكـــة إلا تهديد المهاجرين ، حينما أرسلوا إليهم يقولون : " لا يغرنكم أنكم أفلتمونـــا إلى يثـــرب ، وسنأتيكم فنستأصلكم ، ونبيد خضراءكم في عقر داركم [١٣٨]" .

لكل هذا ما كان يبيت النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة – حتى نزل قوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ))(١٣٩) ، فصرف النبي حراسه لعصمة الله له – بل إن الخطر كان يتهدد المسلمين كلهم ، ولذا كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه (١٤٠) في ظل هذه الظروف الخطيرة التي باتت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، أذن الله للمسلمين بالقتال لرد العدوان ، – ولم يفرضه عليهم – . قال تعالى : ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .....)) إلى قوله تعالى ((الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))(١٤١)– وسنبين ذلك عندما نتحدث عن تشريع الجهاد (١٤٢)–. وبعد الإذن بالقتال كان من الحكمة أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش المؤدية من مكة إلى الشام ، ولتنفيذ ذلك عقد النبي محالفات مع القبائل التي تقطن حول هذا الطريق مثل جهينة، وبني ضمرة وبني مدلج – كما ذكرنا سابقاً – كما قام بإرسال البعوث والسرايا إلى هذا الطريق ، لإخافة قريش ، حتى كان شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة – أي بعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب سنة ٢ هـ ففرض الله القتال على المسلمين لرد عدوان الكفار ، وأنزل في ذلك آيات بينات : ((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ......)) إلى قوله تعالى : ((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)) (١٤٣) وبعد هذه الأوامر والإشارات القرآنية زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ولقاء العدو في عراك دامي . يفصل بين الحق و الباطل ، لتأمين الدعوة وانتشارها ، ورد الحقوق المسلوبة ، ومكافحة العدوان (١٤٤).

وأضحى الجهاد قسمة من قسمات بنيان الدين والدولة ، يستحيل اكتمال هذا البنيان بدونه ، حسب طاقة المسلمين وجهدهم ، ولأمر ما كان الجذر اللغوي لكل من الاجتهاد والجهاد جذرا واحدا ، فالجهد هو أصلهما ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد في

ميادين الفكر هـو " الاجتهاد " ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد لوضع هذا الاجتـهاد في الممارسة والتطبيق في مختلف الميادين هو " الجهاد " الذي يحقق المقاصد والغايات الحقيقية من الاجتهاد ! إنهما وجهان لعملة واحدة هي تطبيق منهج الإسلام [١٤٥] .

إن العقيدة الإيمانية علي النحو الذي صورناه ، سمعاً وطاعة – فيما مضي – تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين بها ، والإسلام كنظام عالمي جـاء ليغيِّـر الحياة ويكتسح ركامها بالحق، فلابد أن يجد من الأعداء في كل جيل من يتصـدى لـه – بالباطل –ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي هذه العقيدة ونظامها الحياتي مـن كيد المتربصين ، وهجمات الجاهلين ، ليأخذ هذا النظام مجراه العتيد في هداية البشر من غير تعويق ، ولا صد علي مر الزمن ، : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين " [١٤٦].

فالجهاد درع تحتمي به العقيدة ونظامها الإسلامي ، في مواجهة أعدائها والصادّين عنها، وليس وسيلة إرغام ولا سبيل قهر [١٤٧] ، إنما هو عقيدة استعلاء تبعـث في روح المـؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، لأن الإسلام دين المسالمة مـع المسالمين ، والردع للمعانديـن ، وهو نور يهدي المؤمنين ونار تحرق الطغاة الآثمين ، يـدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جد الجد كان الصخرة التي يتحطم عليها مكر كل جبـار عنيد ، إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا علي حذر في وقت السلم حتى لا يؤخذوا على غرّة ، كما يدعو المسلمين إلي الجهاد والاستشهاد – زمن الحرب – من أجل عـزة الإسلام والمسلمين ، ولا يعدل الجهاد في سبيل الله مال ولا ولد ، ولا والد ولا عشيرة ولا أهل ، لأن الدفاع عن العقيدة ، وعن ديار الإسلام من أسمي أهداف هذا الدين [١٤٨].

ومن هنا صار الجهاد – بوجه عام – مبدأ من مبادئ الإسلام التي أخذت مكانتها بـين عقائده وفروعه ، واستقرت دعوة القرآن والسنة إلي الجهاد – علـي عمومـه– متعلقـة بذمّة المسلمين جماعة وأفرادا [١٤٩] ، كقيمة عليا للحفاظ على بنيـان المجتمـع الجديـد وإعلائـه.

ولهذا كان مقام الجهاد عاليا في رسالة الإسلام ، بل إنه سنام أمر الإسلام، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد " [١٥٠].

وهو سياحة الأمة الإسلامية في كل ميادين الحياة ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله "[١٥١]، وإذا كانت بعض أمم الرسالات قد اتخذت من الرهبانية النشاط العملي الذي جسدت به دينها ، فانحصر هذا الدين في الأديرة والمغارات ، فلقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النشاط العملي لأمة الإسلام ليس الرهبنة التي تعزل الدين عن الحياة ، وإنما هذا النشاط هو الجهاد الإسلامي في مختلف ميادين الحياة[١٥٢]، حيث قال صلى الله عليه وسلم : " رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله"[١٥٣].

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلّف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " [١٥٤].

وبادئ ذي بدء يجب علينا أن نعرف بماهية الجهاد حتى لا يظن البعض أنه يرادف القتال، ولكي لا يتشدق أعداء المسلمين اليوم بأن هذا الدين ما جاء إلا لفرض القتل و العنف والإرهاب ، فالجهاد أشمل وأعم من القتال[١٥٥] لان الجهاد يكون تارة جهاد النفس ، وتارة جهاد الخارجين علي قواعد الإسلام ، وتارة أخرى جهاد الأعداء (الكفار) والأخير هو الذي يرادف القتال ، يقول صاحب البصائر [١٥٦] : الجهاد : الطاقة والمشقة ، والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقة (وبضمها) : الوسع ، وقيل الجهاد : ما يجهد الإنسان . قال تعالي : " واقسموا بالله جهد أيمانهم "[١٥٧] أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به علي

أبلغ ما في وسعهم ، والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة ، يقال : جهدت رأيي واجتهدت : أتعبته بالفكر ، والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع في مجاهدة العدو .

والخلاصة : أن الجهاد أقسام ثلاثة :

١- الأول : جهاد النفس : وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله "(١٥٨) والمقصود بجهاد النفس هو ما يشمل دفعها عن غواية الشيطان ، وغرور الدنيا ، واتباع الهوى ، وإلزامها بالوقوف عند حدود الله (١٥٩) ، لان النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من الغزو والجهاد يقول : " قد جئتم من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس "(١٦٠)

ولله دَرّ الشاعر العربي حين يقول :

يا من يجاهد غازيا أعداء دين ... الله يرجو أن يُعان ويُنصرا
هل غشيت النفس غزوًا إنّها ... أعدي عدوك كي تفوز وتظفرا
مهما عنّيت جهادها وعنادها ... فلقد تعاطيت الجهاد الأكبرا

وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، كالجهاد بالمال في قوله تعالي : " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون "(١٦١) . كما يطلق الجهاد ويراد منه جهاد النفس أيضا ، كما في قوله تعالي : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين "(١٦٢) . فالآية ، والسورة التي حوتها مكية ، ولم يفرض قتال في مكة ، والمعنيُّ بالجهاد هنا هو المعنى العام ، المأخوذ من المعنى اللغوي ، الذي هو : بذل الجهد والطاقة لمجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا (١٦٣) التي امتحن الله بها عباده ، والمجاهد هو الذي يخلّص نفسه من هذه الابتلاءات الأربع كما قال القائل :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتي و عنائي

ومثل قوله تعالي : " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " (١٦٤) .

وقوله : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْــحَابِ السَّعِيرِ (١٦٥) وقوله أيضا : "لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (١٦٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لمــا جئــت به"(١٦٧) .

٢- النوع الثاني من الجهاد : هو مجاهدة الفُسّاق الخارجين عن جادّة الــدين ، وذلــك بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بل تغيير منكرهم لمن يقدر عليه ، لأن ذلك واجــب شرعي ، كما قال الله علي لسان لقمان لابنه وهو يعظه : " يَا بُنَيَّ أَقِــمِ الصَّــلاةَ وَأْمُــرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (١٦٨).

وقوله تعالي – أيضا – : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " (١٦٩)، وقوله : " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْــرِ وَيَــأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (١٧٠)، وقول النبي صلى الله عليــة وسلم : " من رأي منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١٧١)، فالجهاد لمنع المنكر باليد إن كان المحتسب سلطانا أو حاكما أو عالما له قوة ومنعة ، وباللسان إن كان عالما بالكتاب والسنة ويبرهن علي كلامه بالأدلــة ، وبالقلب إن كان من العــوام ، أو يخشي الهلكة إن أمَر ونهي ، وهو ما يســمي الجهــاد بالكلمــة (منطوقه أو مكتوبة) ، ومثله جهاد المنافقين ، كقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧٢)" ،وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " (١٧٣) .

كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة من تركوا مجاهدة الفساق ، بعدم نهيهم عــن المنكرات فقال : " إن أول ما دخل النقص علي بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجــل

فيقول : يا هذا اتق الله ودعْ ما تصنعُ فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلــك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم لعناً شديدًا فقال تعالي : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داود وعيسي بن مـريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلــون "(١٧٤). ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكـر ، ولتأخذنّ علي يد الظالم، ولتأطرنّه علي الحق أطْرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضــكم علــي بعض ثم يلعنكم كما لعنهم "(١٧٥) ، كما دلّل فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصــحابه علي وجوب مجاهدة هؤلاء الخارجين عن الطريق المســتقيم ، حكامــا ومحكــومين بكــل سبيل(١٧٦) . وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، وهو القسم الثالث مــن الجهاد وهو :

٣- جهاد الكفار وقتالهم : إن الجهاد في الإسلام درع تحتمي به العقيدة وأصحابها ، كما تحمي به الدولة أرضها ومواطنيها من أي عدوان خارجي في مواجهة أعداء الديــن الصادّين عنه(١٧٧) ، وليس وسيلة إرغام ، ولا سبيل قهر لغير المسلمين كما يروج البعض : أنّ الجهاد كان سبيلا لنشر الإسلام بالسيف ! . لا : إن الإسلام جعل أساس معاملته للآخرين قائمــا علي الرفق واللين والتسامح ، فهو لم يرغم الآخرين علي اعتناق هذا الدين وإنما أقرَّ حريــة التديُّن : " لكم دينكم ولي دين " (١٧٨) ، وتأكد هذا في قوله تعالي : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (١٧٩)، وقوله : " لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرُّشد من الغيِّ " (١٨٠).

وفي العهد المكي خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ولو شاء ربك لآمــن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (١٨١).

بل إن الإسلام يؤكد أنه لا يصلح إسلام الناس في الظاهر فقط ، وأنه لابد أن يقوم علي إخلاص صادق ، وقناعة تامة دون إكراه أو ضغط ، ولذا حرّم النفاق ، وجعل المنافقين أشد عذابا من الكفار ، فقال تعالي : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار " (١٨٢) .

ولهذا كانت وسائل انتشار الإسلام هي : الكلمة الطيبة والأسوة الحسنة والإقناع المجرَّد، وفي مواجهة الإسلام لأعدائه كان القتال هو المرحلة الأخيرة التي كان المسلمون يلجـأون إليها مكرهين ، بعد أن تضيق بهم السبل إلي السلم ، ولا يكون أمامهم سواها للدفاع عـن أنفسهم ودينهم (١٨٣) : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم " (١٨٤).

إن الجهاد في الإسلام ورد في القرآن الكريم بلفظه ثلاثين مرة ، وورد كثيراً بلفظ القتال المرادف له ، وكلاهما يَرِدُ أحيانا مقرونا بسبيل الله (١٨٥)، ومعني ذلك أن يُقْصَد به وجه الله، والدفاع عن المثل والكيان والكرامة ، ورفع الظلم ورد العدوان ، فالقتال في الإسلام شرع من أجل غرضين أساسين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس من الاعتداء عليها ، وكل ما يتعلـق بمتطلبـات النفس، من الدفاع عن العرض ، والمال ، والأرض التي يعيش عليهـا المسلمـون .

والغرض الثاني : الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتعاليم الإلهية ، حماية لحاملي مشعلها والمستضعفين بسببها ، وإفساح الطرق أمام الدعوة ورسالة الحق للذيوع والانتشـار ، ولم يشرع القتال في الإسلام لتثبيت ملك ، أو توسيع سلطان ، أو الغلبة والقهر ، أو اسـتعباد الشعوب واستراف خيراتها ، إنما شُرِع لرد العدوان ، إذ لو تُرِكَ المشركون يعتدون علـي المسلمين ، ويقاومون الدعوة ، ويصدون الناس عن الدخول في دين الله ، ولم يُشْرَع القتال لطغي الباطل علي الحق ، وطُمست معالم الدعوة ، وتضرَّرت البلاد والعباد ، وبقي العالم من أقصاه إلي أقصـــاه يئن ويرزح تحت وطأة الجهل والظلم والاستعباد (١٨٦)، والله سبحانه لا يرضي بظلم العباد ، بل يتوعد من يرضي منهم بذلك فيقول تعالي : " إن الـذين توفـاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " (١٨٧).

أجل .. لقد شرع الله القتال للمسلمين في السنة الثانية للهجرة ، أي بعد أربع عشـرة سنة من الدعوة ، تعرضوا فيها للظلم والعذاب ، فأذن الله لهم به للدفاع عن الحق ، وحماية

للدعوة فقط ولم يفرض القتال عليهم حين نزل قول الله تعالي : " أذن للذين يقاتلون بـأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله "(١٨٨) .

وهذه الآية هي أول ما أنزل الله في أمر القتال (١٨٩)، ونجد النبي – صلى الله عليه وسلم – ينبه إلي أن قتاله إنما هو للدفاع ، وأن القتال لمن يقاتلهم دون من لم يقاتلهم ، ليبيّن أن هذا هو علة الأمر بالقتال ، كما ينبه إلي ترك العدوان ومجاوزة الحد في ردّ هذا العـدوان ، اللهم إلا درء فتنة تحويل المسلم عن دينه ، ولم يطلب مقاتله الكفار حتى يسلموا ، إنما القتال حتى يكون الدين لله ، أي الخضوع كله لله "(١٩٠) ، وهذا يحصل إذا عَلَت كلمة الإسلام ، وكان حكم الله ورسوله غالبا – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – (١٩١). وبعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلـة (رجب سنة ٢هـ) فرض الله القتال لرد عدوان كفار مكة على المسلمين .

ولقد بيّن الله ذلك كله بقوله تعالي : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "(١٩٢).

ولم يكن الرسول يتعرّض في قتاله إلا لكفار قريش دون سائر العرب ، فلما اتحد مشركو العرب في عدائهم للإسلام ، وجمعهم الحقد علي الرسول والمسلمين ، والبغض لدين الله ومحاولتهم القضاء عليه ، أمر الله بقتال المشركين كافة ، بقوله تعالي : " قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " (١٩٣).

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول – صلى الله عليه وسلم – عليهم وانضموا إلي مشركي قريش لقتال المسلمين – في غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ – ، نزل قول الله تعالي : " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ " (١٩٤).

وهكذا يأخذ الجهاد في الإسلام دور الدفاع عن الحق والنّفس ، وإقرار العقيدة ، ونصرة المستضعفين(١٩٥) ، قال تعالي : " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " (١٩٦).

إذن الإسلام لا يحتكر القوة ، بل يسخّرها لخدمة الحق ، وحفظ الحياة ، والدفاع عن المستضعفين في الأرض ، ومن ثم فإن ما يردّده أعداء الإسلام – قديما وحديثا – من أن الإسلام انتشر بحد السيف هو دعوي باطلة ، فالحقيقة الواضحة هي أن الإسلام انتصر علي السيف، والثابت أن حروب المسلمين علي عهد النبي صلى الله عليه وسلم فُرِضت عليهم مكرهين لرد المظالم ، ومنع الفتنة ، وقمع الطغاة ، وكسر الجبابرة ، وحماية الحق .

وقد يبدو من ظاهر هذه المعارك أن المسلمين هم الذين بادروا فيها بالهجوم ، لكن هجوم المسلمين كان علي سبيل المبادرة بالدفاع ، بعد تأكدهم من نكس الأعداء لعهودهم ، وإصرارهم علي قتال المسلمين ، وهو ما يسمي في – لغة العصر – الدفاع الوقائي ، ولو أن الكفار تركوا المسلمين في دعة واطمئنان ، ولم يحولوا بينهم وبين دعوتهم الحق ، ما تعرض المسلمون لأحد بحرب ، لان المسلمين كانوا يحبون السلام ويكرهون القتال ، علي الرغم من ضرورته لحماية الحق ، والقضاء علي الباطل(١٩٧) ، وهو ما ذكره الله تعالي بقوله : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ "(١٩٨).
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : " يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ،

واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[١٩٩].

ولقد أمر الله بعدم التعرض لمن يسالمون المسلمين فقال تعالي : " فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً "[٢٠٠] ، وقال أيضا : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً " [٢٠١].

بل أمر الله ببرّ المسالمين ومسالمتهم والعدل معهم ، فقال تعالي : " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "[٢٠٢].

إن السلام في الإسلام هو الأصل الأصيل ، بل إن اشتقاق كلمة الإسلام من السلام فيه ما يوحي بمنهج الإسلام في الحياة ، وهو عموم السلم والأمان والطمأنينة للناس[٢٠٣]:" يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة " [٢٠٤]، ولكنه السلام العزيز القادر :

" فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ " [٢٠٥] .

إن شريعة الإسلام تجيز لأتباعها المصالحة والموادعة ، وتحضهم علي إنهاء الحرب، وقبول السلام متى طلب أعداؤهم ذلك ، وما دام هذا السلم لا ضرر من ورائه للمؤمنين[٢٠٦] . قال تعالي : " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ "[٢٠٧] ، لكن إذا فرض القتال علي المسلمين لردع العدوان والدفاع عن العقيدة والدين ، كان عليهم أن يعدوا أنفسهم وما استطاعوا من قوة لدفع الخطر ، وإرهاب أعداء الله الظاهرين والمستورين، قال تعالي : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ" (٢٠٨).

فالآية تدعو المسلمين إلي الاستعداد بما في الطوق ، للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله ، والإسلام يأمر بإعداد القوة علي اختلاف صنوفها وأسبابها ، وجاءت كلمة " قوة " منكرة للتنويع ، لتشمل كل أنواع القوة ، وأولها قوة العقيدة ، لأنها أسّ الفضائل ، وقوام الضمائر وسداد العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعزاء القلوب إذا نزلت بالإنسان نازلة ، فلا يوجد ما يصون الاستعداد العسكري إلا عقيدة الإيمان بالهدف ، لأنها هي التي تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب ، وقد علمتنا المعارك التي خاضها المسلمون وانتصروا فيها – سواء في غزوة بدر أو القادسية أو اليرموك ، أو حطين ، أو عين جالوت ، وحتى العاشر من رمضانَ – أن الوسائل المادية ليست وحدها هي القوة التي تفصل في المعارك بل قوة الإيمان هي الأساس ، ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر حتى تتكافأ قوتهم وقوة خصومهم ما قامت للمسلمين قائمة ، إنما القلة المؤمنة بعقيدتها استعدت بقدر ما استطاعت ، ثم خاضت المعركة ، فكان فيها الفرقان والنصر المبين علي أعداء الدين ، وأعداء الحياة المسالمة الهادئة ، ويأتي بعد ذلك قوة الرجال ، وقوة السلاح بما يتناسب مع التقدم العلمي في إعداد مسرح المعارك(٢٠٩)، وأدوات الحرب من العتاد والعدد وتوفيرها ، وإنفاق الغالي والثمين من أجلها حتى تكتمل منظومة القوة العصرية التي أمر الله رسوله والمؤمنين بإعدادها ، والمرابطة بها ، استجابة لدعوة الجهاد عند أول نداء ، ليتحقق النصر المبين علي أعداء الله ، مصداقا لقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (٢١٠).

ومعني القوة – أيضا – في قوله تعالي : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " : أنّ إعداد القوة هو ما يتفق مع استطاعه الأمة الإسلامية ، فلا يستساغ أن ينتظر المسلمون ريثما يتم إعداد قوة تكافيء قوة أعدائهم لأن ذلك قد يطول ، ويعطّل فريضة الجهاد ، ويُطْمِع الأعداء في المسلمين ، وإلا كان المسلمون قد انتظروا حتى يكملوا الاستعداد في بدر، ومؤتة ، وغيرهما .

لقد خطب عبد الله بن رواحة في جنوده يشجعهم علي لقاء العدو حينما فزعوا من كثرة عدد عدوهم في غزوة مؤتة فقال[٢١١] : " يا قوم إن التي تكرهونها لهي الشهادة التي خرجتم تطلبونها ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. انطلقوا . فوالله لقد رأيتمونا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد . انطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان" [٢١٢].

وروي الواقدي عن أبي هريرة قال : " شهدت يوم مؤتة ... فلما دنا المشركون منّا رأينا مالا قِبَل لأحد به من العدة ، والسلاح ، والكراع ، والحرير ، والديباج ، والذهب .. فبرق بصري : فقال لي ثابت بن الأرقم : يا أبا هريرة كأنك تري جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم : قال : إنك لم تشهد بدر معنا ! إنا لم ننتصر بالكثرة " [٢١٣].

والأمثلة من واقع صفحات التاريخ الإسلامي كثيرة – من غزوة بدر سنة ٢ هـ إلي العاشر من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ – وكلها تشهد للمجاهدين المسلمين بالصدق والإيمان، فما كانوا يرهبون الرَّدى ، بل يقدمون غير هيابين ولا وجلين ، إلا أن يحشرهم الله مسلمين مجاهدين ، همّة كل واحد منهم أن يكون علي حد قول القائل :

ولست أبالي حين أُقتل مسلما ... علي أي جنب كان في الله مصرعي

فلم ينظروا إلي كثرة جنود الأعداء ، ولم يعرفوا كم أعدّ لهم الأعداء من العُدَد ، لكنهم كانوا موقنين بإيمانهم وثقتهم في نصر الله الذي ينصر من ينصره : " إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [٢١٤] " ، " وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " [٢١٥].

كان لهم إيمانهم الذي يدفعهم إلي الإقدام ، وهم علي حدّ قول الفيلسوف – الشاعر الباكستاني – محمد إقبال :

كُنّا جبالا في الجبال وربما　　سرنا علي موج البحار بحارا

كنا نُقدّم للسيوف صدورنا　　لم نخش يوما غاشما جبارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا　　قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها　　سجداتنا و الأرض تقذف نارا

وكأن ظل السيف ظل حديقة　　تنبت من حولنا الأزهارا (٢١٦)

من كل هذا نري أن الجهاد يجب أن يستمر، وترتقي أساليبه وتتطور تبعا لروح العصر ، وأنه لابد أن يمتلك المسلمون – باستمرار– ما يخيف العدو ليظل لواؤنا مرفوعا، وصوتنا مسموعا ، لأن من أهم وظائف الجهاد الأمور النفسية ، التي تقوم على المغالبة والمدافعة والاستعداد الدائم لدحر الأعداء ، لأن الأقدر على المغالبة والمدافعة هو الأجدر بالحياة والسيادة (٢١٧) ، وقد نبه الله عز وجل إلى أن المغالبة أمر ضروري لتحرك المجتمع المسلم ، حتى لا يفسد بالسكون والدعة فقال سبحانه : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " (٢١٨)، ويوم تغفو أمة الإسلام عن أمجادها ، وتجبن عن مواجهة أعدائها ، يوم يبتليها الله بالذُّل والخسف والصغار : " فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا " فالجهاد ماض إلي يوم القيامة – " كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم – لأن الصراع قائم بين الخير والشر منذ آدم إلي يوم القيامة، ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف ، سببا في تفتيت وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم فقدوا الحصانة التي يكفلها لهم الجهاد المقدّس ، وإذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فإن توحيد الكلمة هو سر بقائها ، فهل تتحد كلمتنا ، وتلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد ، وتحرير الأرض ، وإرغام العدو علي التراجع ؟ ! إن حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر إلا إذا أمنت عدوها ، ولذا كان

علينا أن نظل مجاهدين ، حذرين،جماعات وأفراد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً " (٢١٩) .

ومن واقع التجربة التي خاضها أجدادنا نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلهم ، ولا استناموا علي هَدْهَدة الأماني ، بل صبروا وصابروا ورابطوا، وخاضوا معارك ضارية ضد أعداء الله ، ونازلوا أعتى دولتين في العالم – الفرس و الروم – فانتصروا عليهما ، وحكموا بلادهما بعد أن حرروا أهل هذه البلاد . وهكذا عاش المسلمون بالجهاد أعزة كراما ، والمسلمون اليوم في حاجة إلي اجتماع الكلمة علي أساس من الإيمان الصحيح ، لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم ، وينقذوا تاريخهم ، ومن ثم تكن لهم الكرامة في الأرض (٢٢٠) ، وما ذلك علي الله بعزيز ، وإن الجهاد هو نعم السبيل إلي السعادة في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة : " جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم "(٢٢١) .

إن الإسلام دعوة للمسالمة والسماحة والعدل ، لكنه في الوقت نفسه صخرة تتحطم عليها أباطيل الأعداء ، عندما يلوح عدوانهم علي المسلمين ، فإذا ما وقعت الحرب وأصبحت حتمية فإن هناك شروطا وآداباً وتوجيهات كثيرة ، أمر الإسلام أن يلتزم المسلمون بها، وكلها تعكس أخلاق الإسلام وقيمه الرفيعة ، فمن الشروط : النهي عن البدء بالعدوان كما في قوله تعالي : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(٢٢٢) ، ومن الآداب التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، بالالتزام بها : الوفاء بالعهود والمواثيق ، وأيضا النهي عن قتل من لا يُقاتل – الآمنين – وتحريم المثلة ، وتحريم قطع الزروع والثمار ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت ، وكذا تأمين من طلب الأمان ، ويبدو ذلك التسامح والنبل والإنسانية مع الأعداء(٢٢٣) ، فيما كان يوصي به النبي صلى الله عليه وسلم من يرسلهم للقتال فيقول لهم : " قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولا

تقطعوا شجرة ، ولا تعقروا ناقة إلا لمأكل ، وستجدون قوما يعبدون الله في الصوامع ، فدعوهم وما خلُّوا أنفسهم له" [٢٢٤].

وفي الصحيحين[٢٢٥] عن ابن عمر رضي الله عنهما – قال : " وُجِدَت امرأة مقتولة في بعض الغزوات فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان " .

كما أوصي أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – أسامة بن زيد حين بعثه إلي الشام لقتال أهل البغي فكان مما قاله : " لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع – وهم الرهبان – فاتركوهم وما فرغوا أنفسهم له " [٢٢٦]

هذا هو موقف الإسلام من غير المسلمين عموما ، وهو موقف يتسم بالرفق واللّين والتسامح، الذي لا نظير له مع الأعداء المحاربين ، أما موقفه من أتباع الديانات السماوية السابقة –خصوصا اليهودية والنصرانية – فقد بلغ درجة من التسامح واللّين والمودة ، حيث أمر الإسلام أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين ، وبكتبهم المنزلة التي وصفها بالهدي والنور ، بل إن الإسلام دعا إلي الإحسان لأهل الذمة المعاهدين ، الذين لم يدخلوا في الإسلام– بعد دعوتهم إليه بالرفق واللين – وقبلوا دفع الجزية مقابل الحماية الإسلامية ، ولم يكرههم علي الإسلام .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه ، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجة يوم القيامة " [٢٢٧]. وفي هذه المعاملة أكبر دلالة علي تسامح المسلمين وعدلهم ورحمتهم ، حتى في الغزو! ومتى كان المسلمون مهاجمين أو معتدين ؟ ! أفي غزوة بدر ؟! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطانهم وعوملوا بوحشية فاجرة في مكة . أم في غزوة أحد ؟! وقد زحف جيش الشرك علي المدينة يريد أن يستأصل شأفة المسلمين ! أم في الخندق ؟! وقد تواطأ الكفر مع النفاق ومع اليهود فكونوا جيشا ضخما يريدون غزو المدينة والقضاء علي من فيها ! .

أيلامُ المسلمون إذا هبّوا يدافعون عن بلادهم وعقيدتهم ؟ ! تلك هي حروب الإسلام ، وهذه هي غزوات الرسول : كانت إما لنصرة المظلوم ، وإما للدفاع عن العقيدة وعن النفس وعن الكرامة الإنسانية ، ولم تكن أبداً للظلم أو العدوان (٢٢٨).

أيمكن بعد ذلك أن يقال : إن الإسلام دين القسوة والوحشية والإرهاب ؟ فأين هي الوحشية والإرهاب ؟ وكل أهداف الجهاد هي الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة ابتغاء وجه الله ، وفي سبيله (٢٢٩) : " الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) (٢٣٠) .

يبقي بعد ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .. (٢٣١) " إنه في شأن المشركين عبدة الأوثان الذين يضعون العوائق في طريق هذا الدين ، ويصدُّون عنه ويتآمرون عليه . أفلا يوضع حد لتآمرهم وكيدهم ؟ ! إنه لا يرد العدوان إلا الجهاد ، فالحرب في الحق شريعتنا ، ورد العدوان وكبح جماحه فريضتنا وواجبنا ، وقيمة عليا من قيم حضارتنا، وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعايش الأديان معايشة طيبة، وتجد في كنفه كل مودة واحترام ، بل تسامح ذهب مذهب الأمثال في حروب المسلمين ضد أعدائهم . إن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم ، ونشر الأمان والسلم في الأرض ، وتأديب الأشرار حتى لا يعيثوا في الأرض فساداً، والذين يقولون في الإسلام غير ذلك نردّ عليهم بقوله تعالي: " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " (٢٣٢) .

ويكفي لنرد علي دعاوي المستشرقين عن وحشية الإسلام بكلام واحد منهم هو المستشرق الفرنسي "رينان" حيث يقول : " لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التي تردان بها التعاليم الإسلامية المشرقة " (٢٣٣)

وما يزال التاريخ يردِّد قصة السماحة الدينية التي تحلّي بها الإسلام عندما جاء وفد نصارى نجران إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم في المسجد ، فكانوا يصلون في

جانب منه، ورسول الله مع المسلمين يصلون في جانب آخر ، ولما أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم برفق وسماحة ، وصالحهم علي جزية عينية متواضعة ، ناسيا تاريخهم الطويل في الكيد والعداء للإسلام . كما أدخل يهود نجران أيضا في هذا الصلح وأعطاهم الحرية الكاملة في دينهم بعدل وإنصاف ، وفعل نفس الشيء مع يهود بني جنية القريبة من أيلة ، ويهود بني غاديا ، وبني عريض ، وأهل جرباء وأذرح [٢٣٤].

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس والبيع دائما ، في ظل حضارتنا ، وتمارس الشعائر المسيحية واليهودية داخل الكنائس والكُنُس من غير تضييق ولا منع ، ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لهم مالنا وعليهم ما علينا " [٢٣٥].

ومن أثر تلك السماحة أحب النصارى واليهود حكم المسلمين ، وفضّلوه علي حكم طوائفهم ، لأنهم كانوا يجدون في الإسلام العدالة والإنصاف ، كل هذا جعل كثيرا من الناس يدخلون في الإسلام ، لا خوفا من سيوف المسلمين ، ولا هربا من الجزية – التي هي أقل من الزكاة – وإنما إعجابا بهذا الدين وانبهارا بهؤلاء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا نماذج متألقة، وصورا مشرقة لتعاليم الإسلام ومثله العليا ، وقيمه الحضارية ، ونخص من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام طواعية : القبائل العربية النصرانية في شمال الجزيرة العربية ، وأهل حمص ، وشمال أفريقيا ، ومسيحي الأندلس [٢٣٦]، وما ذلك إلاّ لسماحة الإسلام وعدالة أهله عن حكامهم من الروم ، والقوط الشرقيين .

لكن الطامة الكبرى أن المسيحيين ردّوا جميل المسلمين بالتنكيل بهم زمن الحروب الصليبية ، و اليوم أيضاً الاستعمار الجديد ، والأطماع الصليبية تنكل بالمسلمين في العراق والسودان والصومال والبوسنة والهرسك ، فضلا عن اليهودية الصهيونية التي ما تزال تنكل بالفلسطينيين، والبقية آتية – لا ريب – بسبب نكوص المسلمين عن الحق ، وتعطيلهم لشرعة الجهاد ، وعمالة بعض حكامهم المستبدّين لقوي الاستكبار والهيمنة الصليبية والصهيونية .

..... وختامـــــاً .....

وبعد .. فهذه هي المدينة الفاضلــة التي أقامهــا النبي محمد صـــلى الله عليـــه وســـلم وليست " يوتوبيـــا " يا سيـــر " توماس مـــور " كما تحلم ؟ أو كمـــا يـــذهب بـــك الخيـــال ، إنكاراً لشمس ساطعة ، لا ينكرها إلا من أصيب برمد في عينيـــه ، وهي أيضـــاً ليست مدينة الفارابي الأفلاطونيـــة الطبقيـــة الوثنيـــة .

إنمـــا هي المدينـــة الفاضلـــة التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعها القويم ودولتها الفتيـــة على الإخـــاء والحب والتكافل والعدل – حتى – مـــع غيـــر المسلمين .

دولة كانت مؤسستها الأولى (المسجـــد) الذي أضحى داراً للعبادة ، ومقراً للتوجيـــه والقيادة ومصنـــعاً للرجال في شتى مناحي الحيـــاة .

إنـــها دولة الإسلام الأولى التي أقامت مجتمع ((الإخاء الإسلامي)) من بـــين أشـــتات وركام عرب الجاهليـــة ، فصنعت منهم " خيـــر أمة أخرجت للنـــاس " حينما اعتصـــموا بحبل الله ، وأطاعوا الله ورسولـــه ، فتحابوا وتكافلوا وتوادوا وصاروا " كالجسد الواحـــد إذا اشتكى بعضـــه اشتكى كلـــه " .

إنهـــا دولة الإسلام الأولى ، التي وضعت أول دستور للعلاقات الدولية بين المســـلمين وغير المسلميـــن ، ممن يساكنونهم في المدينة وما يجاورها ، وأقامت هذا القانون الدولي على العدل والبر والإحسان ، شريطـــة أن يلتزم الآخرون بهذه المبادئ .

ومع علم قائدها (المعصوم) صلى الله عليه وسلم أن الآخرين لا يقيمون وزنـــاً لهـــذه المواثيـــق الدولية ، لأنهم جبلوا على الغدر والخيانة وكراهية كل البشر – حسبما يصـــفهم القرآن الكريـــم – إلا أنه عاهدهم وعاقدهم حـــتى إذا نقضـــوا عهـــودهم ، أُخِـــذُوا ، بذنوبهـــم، وليشهد التاريخ عليهـــم فيما قدّمت أيديهم ، ولأجل هذا كـــان لابـــد مـــن الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الخائنيـــن الغادريـــن ، وأمثالهم مـــن أعـــداء الحيـــاة

والدين، فكانت حتمية الجهاد لحماية الدولة الفاضلة وأهلها المسلميـــن ، وردع عـــدوان الكافرين .

هل يُطبق المسلمون اليوم هذه المثل والأسس . والله لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بمـــا صلح به أوله ! ، وهو إعمال كتاب الله وسنة رسوله ، وإعلاء شرعة الجهاد ضد الأعداء .. وإلا فالذلّة والهوان.... ! اللهـــم سلم يا ربنـــا ... .

وآخر دعوانـــا أن الحمـــد لله رب العاليـــــن ...

الهوامش

(١) ومثال ذلك : ما قاله بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " في خطبة له في إحدى الجامعات الألمانية سنة ٢٠٠٦ م من أن : الإسلام لم يقدم شيئاً للإنسانية سوى العنف والإرهاب والعدوان . " كبرت كلمة تخرج من أفواههـــم " .

(٢) انظر : د . محمد أحمد الشحري : العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبـــة المتنبي الدمــــام سنة ١٤٢٧ هــ / ٢٠٠٦ م صـــ ١٩ - ٣٦ .

(٣) أنظر : آراء أهل المدينة الفاضلة للمعلم (الثاني) أبي نصر محمد بن محمد الفارابي التركي . (تقديم د. طه الدسوقي حبيشي - دراسة وتحقيق القدس للدراسات والبحوث. طبعة المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة سنة ٢٠٠٢ م) صـــ ٢١ -٢٣ من مقدمة المحقق بقلم د . طه حبيشي .

(٤) من هذه الخصال : أن يكون تام الأعضاء ، حسن العبارة ، جيد الفطنة و الحفظ ، محبًا للتعليم ، محبًا للصدق وأهله ، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، والشهوات واللذات ، واللعب (الشرب الكثير بغير تنفس) ، كما ذكر من خصاله أيضاً أن يكون كبير النفس قوى العزيمة ، حكيماً عليماً مستنبطاً ذا رأي جيد ، ومعرفة بشرائع الأولـــين ، وأن يكون المال عنده هيـــّن (أنظر الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١٩٧ - ٢٠٠) .

(٥) انظر : الفارابي : المرجع السابق : صـــ ١٨٣ - ١٨٥ .

(٦) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٨ .

(٧) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٨) أنظر : تعليقات د . طه حبيشي في مقدمتـــه لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١١ - ١٧ . (طبعة القاهرة ســـنة ٢٠٠٢ م) .

(٩) أنظر : د . محمد الشحــــري : مرجع سابق صـــ ١٨٣ - ١٨٦ .

(١٠) د . عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة صـــ ٢-٣ ، ٢٨-٢٩ (طبعة دار المعارف القاهرة ســـنة ١٩٦٩ م) .

(١١) أنظر : د . محمد الشحري : مرجع سابق صـــ ١٩٨ - ١٩٩ .

(١٢) إن الترجمة الحرفية لهذا الكتاب هي : الكوميديا الممتازة ، وإنما نعتها بالإلهية ليضفي عليها قسطاً من القداسة والمهابة في عيون مواطنيـــه ، ليبدأوا في إصلاح الكنيسة من داخلها ، قبل أن يفرض عليها هذا الإصلاح رغم أنف رجالها ، كما فعل مارتن لوثر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (أنظر د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـــ ٤٥ .

(١٣) د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـ ٤٧ .

(١٤) يوتوبيا : كلمة لا تينية ، معناها : لا وجود لها " No where " أنظر : د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ص٦٩ هـ١ .

(١٥) أنظـــر : د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـ ٦٩ – ٨٠ ، و سير توماس مور : يوتوبيا صـ ٥٧ – ٢٣١ (ترجمة د. إنجيل بطرس) تقديم د . زكي نجيب محمود ،ـ طبعة مكتبة الأسرة القاهرة سنـة ٢٠٠٠ ، وانظر تقديم د . زكي نجيب محمود لنفس الكتاب ص ٩-٥٢ ، وعرضه القيم لموضوعات " يوتوبيا " في مجلة : تراث الإنسانية المجلد الأول ص ٣٦٨ –٣٨٥ .

(١٦) سورة الملك : الآية ١١ .

(١٧) انظر : صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختـوم (طبعة أولى النهى للإنتاج الإعلامي مكـة المكرمة ١٤٢٢ هـ) صـ ١٨٢.

(١٨) انظر : د /محمد لقمان السلفي:الصادق الأمين (طبعة دار الداعي للنشر . الرياض ١٤٢٧هـ) صـ ٢٨٤– ٢٨٥

(١٩) انظر صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٨٣ .

(٢٠) سورة الجمعة : الآية٢ ، وانظر : المؤلف : مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث منشور في حولية كلية اللغة العربيـة بالقاهـر ة– عدد ٢٣ – في سنـة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م.

(٢١) سورة الأنفال : الآيـة ٢ .

(٢٢) لقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج وإثارة الشقاق والحروب بينهم ، وآخر ذلك " يوم بعاث " الذي كان قبل الهجرة بخمس سنوات ، وهَزَمَ فيه الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل، لتفوق قواتهم عليهم عدداً وعدة ، حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود النضير وقريظة ـ فغلبتهم في بعاث ـ ولكن الأوس فطنوا لخطورة الإجهاز على الخزرج ، لأن هذا يمكّن اليهود من السيطرة على يثرب ، وكان من نتيجة هذا الانتباه السديد أن اتفق الأوس والخزرج على اختيار " عبد الله بن أبي بن سلول " ملكاً للجميع ، لكونه وأهله قد وقف على الحياد في " يوم بعاث " وكان لدى الأوس والخزرج شعور قوي بمرارة الحرب الطاحنة التي استمرت بينهم سنوات كثيرة ، وقضت على كثير من مقاتليهـم وثرواتهم ، وأوصلتهم إلى حافة الهلاك والدمار ، وقـد رافق شعورهم بالخطر هذا دخول الإسلام في بيوتهم (بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية) ثم هجرة النبي والمسلمين إليهم ، مع بشائر التآخي والسلام بين المسلمين ، فكانت نفوس عرب يثرب على استعداد كامل لقبول دعوة الإسلام رحمة من الله بحالهم ، وشفقة عليهم (أنظر د . محمد لقمان السلفي : الصادق الأميـن صـ ٢٨٦ – ٢٨٧) .

(٢٣) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٨٣ – ١٨٤ .

(٢٤) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : مرجع سابق صـ ١٨٤ ، وأبو الحسن علي الحسني الندوي : السيرة النبوية صـ ٢٠٢ – ٢٠٤ (الطبعة الثانية دار الشروق جدة سنة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٦م)، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ١٢٠ – ١٢١ .، صـ ٣١٩ .

(٢٥) أنظر : د محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٨٥ .

(٢٦) سورة آل عمران: من الآية٧٥ .

(٢٧) أنظر : المباركفوري ، مرجع سابق صـ ١٨٤- ١٨٦ ، ود . محمد السلفي : مرجع سابق صـ ٢٨٥ – ٢٨٦ ، وأبو الحسن الندوي : مرجع سابق صـ ٢٠٤ – ٢٠٦

(٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية (تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي .طبعة دار المعرفة بيروت ٢٠٠٤ م) ج ١ صـ ٤٦٤ – ٤٦٥ ، و البخاري : الصحيح ج١ صـ ٤٥٩ ، (طبعة الهند ١٣٨٧ هـ) .

(٢٩) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٤٦٧ – ٤٦٨ ، والبخاري : الصحيح ج ١ صـ ٥٥٦ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٣١٣ .

(٣٠) أنظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٨٧ .

(٣١) كان اسم المدينة المنورة القديم (يثرب) ومعناه : ذميم متشائم به ، لأن الثّرب فساد في كلام العرب ، والتثريب هو : اللوم و التعيير (لسان العرب لابن منظور مادة : ثرب) وكانت :" يثرب " اسماً شائعاً تقصد وتعرف به هذه المدينة ،كما ورد ذكره في القرآن الكريم : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " – آية ١٣ الأحزاب وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسمها من يثرب إلى " المدينة "، ونهى عن استخدام اسمها القديم ، وقال : " هي طابة " ،كما قال: " هذه طابة " (مسند الإمام أحمد ج ١ صـ ٢٢١ ، ج ٤ صـ ٢٨٥) .

(٣٢) انظر أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٨م) ص ٧٥ – ٧٦ .

(٣٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مكة صحبة أبي بكر الصديق ليلة ٢٧ صفر سنة ١٤ من النبوة متجهاً إلى يثرب للإقامة والحماية ، بعد أن أمر أصحابه بسبقه إليها ، بناء على مبايعة الأوس والخزرج (الأنصار) له في بيعة العقبة الثانية ، في موسم الحج المنصرم سنة ١٣ من النبوة .

(٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ٤٥١ .

(٣٥) أنظر البخاري : الصحيح ج ١ صـ ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ . وابن القيم : زاد المعاد ج ٢ صـ ٥٦ . الطبعة المصرية ١٩٢٨ م (الطبعة الأولى) .

(٣٦) الحديث في : صحيح مسلم ج ١ صـ ١٢٩ .

(٣٧) الحديث في : صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٨٥ .

(٣٨) الحديث في صحيح البخاري برقم ٤٦٣٩ ، و انظر فتح الباري لابن حجر ج ٩ صـ ٦٦ (طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م) .

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٥٦٩ ، ٥٩٧ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٣٦ .

(٤٠) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء صـ ٧٧ – ٧٩ .

(٤١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ صـ ٧ .

(٤٢) الحديث في : صحيح البخاري برقم ٤٤٧٤ ، وفي سنن أبي داود برقم ١٤٥٨ .

(٤٣) الحديث في : سنن النسائي ج ٢ صـ ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٤٤) انظر : د . عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨١ ، ٨٣ .

(٤٥) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٤٢٦ – ٤٢٧ . وانظر نص الحديث في : صحيح مسلم ج٤ ص١٩٣٩ ، وسنن النسائي ج ٢ صـ ٤٨ .

(٤٦) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـ ٩١ – ٩٢ .

(٤٧) الحديث في سنن النسائي ج ٢ صـ ٧٩ .

(٤٨) الحديث في صحيح البخاري ج ٢ صـ ٥٩٣ ، وانظر القصة في : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٤٩) أنظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٠٢ – ٢٠٤ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٣٣٠ .

(٥٠) سورة التوبة الآية :١٠٢ .

(٥١) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨٩ – ٩٢ ، و توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢٢٠ . .

(٥٢) سورة المائدة : الآيات ٨٢ – ٨٤) .

(٥٣) أنظر ما يأتي في هـ ٤ صـ ٢٦ .

(٥٤) الحديث وارد في : سنن أبي داود ج ٢ صـ ٣٥٧ .

(٥٥) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٧٢ ، صـ ١٩٦ ، ٢١٣ .

(٥٦) ا أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٩٤ – ٩٥ .

(٥٧) الحديث وارد في صحيح مسلم ج١ صـ ٢٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(٥٨) الحديث وارد في ضعيف الحديث للألباني .

(٥٩) انظر : الألباني : ضعيف الحديث .

(٦٠) الحديث في صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٦٢ طبعة بيروت .

(٦١) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٦٢) سورة البقرة : الآية ١١٤ .

(٦٣) أنظر : دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ صـ ٥٣٨ وما بعدها ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٠٢ وما بعدها .

(٦٤) عبد الحليم الجندي : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (طبعة القاهرة ١٩٨١ م) صـ ١٠٦ .

(٦٥) د.محمد الخطيب : تاريخ العلم في الإسلام صـ ١١ — ٢٦ . (طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م) .

(٦٦) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول صـ ١٦الرياض ..

(٦٧) سيرة النبي لابن هشام . ج١ صـ ٤٥٥ .

(٦٨) سورة : الأنفال الآية : ٧٥ .

(٦٩) ابن القيم : زاد المعاد جـ٢ صـ ٥٦ ، وانظر د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٥ .

(٧٠) انظر : محمد الغزالي : فقه السيرة صـ ١٤٠ — ١٤١(طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م) .

(٧١) صحيح البخاري : جـ ١ ص ٥٥٣ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ١٩١ ، د . محمد السلفي : مرجع سابق صـ ٢٩٤ .

(٧٢) سورة الحشر : الآية رقم ٩ .

(٧٣) الدين والحياة . ع ١١٩ صـ٦ . وزارة الأوقاف المصرية ، وأحمد عبد الرحيم السايح: الهجرة صـ ٩٨ — ١٠٠

(٧٤) القرطبي: تفسير القرآن. جـ١٨ صـ٢٤..

(٧٥) المراغي : تفسير القرآن .. جـ٢٨ صـ ٣٤ ..

(٧٦) ا بن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . بتصرف

(٧٧) الزمخشري : الكشاف . جـ٤ صـ٨٤ ..(طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(٧٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . والحديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (البخاري : الصحيح ج ١ صـ ٥٥٣)

(٧٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٧ . والحديث رواه البخاري في : الصحيح ج ١ص ٣١٢.

(٨٠) سورة الفتح : من الآيــة ٢٩ .

(٨١) سورة الأنفال : الآيــة ٨٥ .

(٨٢) لم يحصل بعض المهاجرين الفقراء بعد مجيئهم إلى المدينة على عمل يدرّ عليهم لقمة العيش ، كما لم يجدوا لهم مأوى خاصة من تدفق منهم – بعد عقد المؤاخاة – على يثرب ، وكثير منهم لم يكن لديه خبرة بالزراعة (حرفة أهل المدينة) ولم يكن لديه مال ليتاجر به ، لم ينس النبي – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء، فلما تحوّلت القبلة إلى الكعبة ، وبقي حائطها في مؤخرة المسجد النبوي ، أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتظليله وتسقيفه وأسماه الصُّفّة ، وأنزل فيه الفقراء وغرباء المسلمين ، وكل من طلب حياة الزهد ، وأجرى عليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون الأرزاق ، فعاشوا وتفرغوا للعبادة وتحصيل العلم من النبي– صلى الله عليه وسلم – ، فإذا جاء وقت الجهاد أسهموا فيه (انظر د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ١٩٥ – ١٩٦).

(٨٣)انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ١٩١ .

(٨٤) انظر : نص الوثيقة في : ابن هشام السيرة جــ ١ صـــ ٤٥٢ – ٤٥٣ ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ٢٩٩ – ٣٠١ .

(٨٥) انظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـــ ١٠٧ وما بعدها (طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنــة ١٤٢٢هـــ) .

(٨٦) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـــ ١٤٠ (المطبعة الأميرية ١٣٤٦ هـــ / ١٩٢٨ م) .

(٨٧) أنظر الحديث في : صحيح مسلم ج ٤ صـــ ١٦٣٨ .

(٨٨) الماوردي : مرجع سابق صـــ ١٤١ .

(٨٩) الماوردي : أدب الدُّنيا والدين صـــ ١٤٢ ، و أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـــ ١٠٧ وما بعدهــا

(٩٠) الماوردي : أدب الدنيا والدين صـــ ١٤٢ بتصرف واختصار .

(٩١) سورة : الحجرات : من الآية : ١٣ .

(٩٢) محمد محمود الصواف: نظرات في سورة الحجرات صـــ ١٤٧ (طبع مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م)

(٩٣) محمد محمود الصواف : المرجع السابق صـــ ١٤٨ .

(٩٤) المراغي : تفسير القرآن . الجزء السابع صـــ ٢٠١ .

(٩٥) انظر : الشيخ : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ صـــ ٦١ (طبعة جريدة صوت الأزهر . القاهرة سنة ٢٠٠٠ م) .

(٩٦) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٩٧) ابن كثير : تفسير القرآن صـ ٢٠٧ .

(٩٨) الألوسي : تفسير القرآن . الجزء الأول صـ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٩٩) المسلمون أمة واحدة عدد رقم ١٠١ صـ ١٣ مجلة (الدين والحياة) : وزارة الأوقاف المصرية . ١٣٩٣ هـ

(١٠٠) استراتيجية العالم الإسلامي صـ ٩٥ . مجلة وزارة الحج والأوقاف السعودية ذو الحجة ١٣٩١هـ .

(١٠١) سورة : المائدة : الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(١٠٢) سورة البقرة : الآيـة ٢ — ٥ .

(١٠٣) سورة : المائدة : الآيتـان ١٥ — ١٦ .

(١٠٤) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الجزء السادس صـ ٣٠٥ (طبعة الهيئة العامة للكتاب — القاهرة سنـة ١٩٦٩ م) .

(١٠٥) سورة النساء : الآية : ٥٩ .

(١٠٦) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(١٠٧) تفسير القرطبي : ج ١٦ صـ ٣٢٢ .

(١٠٨) الحديث وارد أيضاً في : صحيح البخاري ج ٢ صـ ٨٩٦ .

(١٠٩) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج ٢ صـ ٨٩٣ .

(١١٠) الشيخ محمد الصواف : نظرات في سورة الحجرات صـ ١٠٧ — ١٠٨ وأنظر ما سبق صـ ٢٤.

(١١١) سورة النور: الآيـة ٥١

(١١٢) سورة النساء: الآيـة : ٦٥

(١١٣) سورة الأحزاب: الآيـة : ٣٦ .

(١١٤) رواه مسلم ونقله ولي الدين التبريـزي في مشكاة المصابيح جـ ٢ صـ ٤٢٢ طبعة الهند د .ت.

(١١٥) صحيح البخاري : ج ١ صـ ٦١ .

(١١٦) صحيح البخاري : ج ١ صـ ٦١ .

(١١٧) صحيح البخاري جـ٢ صـ ٨٩٠ .

(١١٨) صحيح البخاري جـ ٢ صـ ٨٩٦ .

(١١٩) سنن أبي داود جـ ٢ صـ ٣٣٥ ، و سنن الترمذي جـ ٢ صـ ١٤ .

(١٢٠) صحيح البخاري جـ ٢ صـ ٨٩٣ .

(١٢١) الحديث وارد في سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، ومشكاة المصابيح جـ ١ صـ ١٦٩ .

(١٢٢) أنظر : سنن الترمذي جـ ٥ صـ ٩٠ .

(١٢٣) سورة الأنبياء: الآية : ٩٢ .

(١٢٤) سورة الممتحنة الآية : (٨ ، ٩)

(١٢٥) سورة آل عمران : الآية : ٦٤ .

(١٢٦) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٦ ، والدكتور محمد السلفي : الصادق الأمين ص ٣٠١ ، وأحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ١١٩ - ١٢١ .

(١٢٧) انظر : ابن هشام : السيرة جـ ١ صـ ٤٥٢ - ٤٥٤ .

(١٢٨) : د. أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ - ١١٢ ، و انظر : د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٨ - ٣٠١ .

(١٢٩) أنظر ما سبق صـ ٢٨ من هذا البحث .

(١٣٠) نقلنا نصوص هذه المعاهدة من : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٧ ، و د . محمد السلفي: الصادق الأمين صـ ٣٠٢ - ٣٠٣ ، بتصرف ، لوجود اختلاف بين المصدرين في ترتيب هذه البنود وزيادة ونقصان في بعضها ، وفي اعتماد الزيادة رجعنا إلى (ابن هشام : السيرة النبوية صـ ٤٥٣ - ٤٥٤ لأنه هو الأصل) ، وانظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ - ١٣٦ .

(١٣١) انظر : محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ - ٣٠٧ ، و المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ .

(١٣٢)المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(١٣٣) المباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٠٢ نقلاً عن المواهب اللّدنية للقسطلاني ج ١ صـ ٧٥ (المطبعة الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م) ، وابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٢٤ .

(١٣٤) ابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٣١ ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٦١ - ٣٦٣ ، وإبراهيم العلي : صحيح السيرة النبوية صـ ٢١٤ (طبعة عمان الأردن) ، وابن القيم : زاد المعاد ج٢ صـ ٨٤ (المطبعة المصرية سنة ١٩٢٨ م) .

(١٣٥) ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٧١ ، والمباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٥٧ .

(١٣٦) تيماء : قرية تقع إلى الشمال من خيبـر وهي إلى الشام أقرب من الحجاز وكانت آخر معاقل اليهود ، وقد أجلاهم عنها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في خلافته (د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٢٨ ، ٥٧٠) .

(١٣٧) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ صـ ٢٨٠ ، و المباركفوري : مرجع سابق صـ ٣٩٣ .

(١٣٨) أنظر في هذا المعنى : ما ورد من أحاديث في صحيح البخاري ج ٢ صـ ٥٦٣ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ١٩٨ – ١٩٩ .

(١٣٩) سورة المائدة : من الآيـة ٦٧ .

(١٤٠) أنظر سنن الترمذي ج ٢ صـ ١٣٠ ، والمباركفوري مرجع سابق صـ ٢٠٠ .

(١٤١) سورة الحج : الآيات ٣٩ – ٤١ .

(١٤٢) أنظر ما يأتي صـ ٤٨ – ٤٩ من هذا البحث .

(١٤٣)سورة البقرة : الآيات ١٩٠ – ١٩٣ .

(١٤٤) أنظر المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ – ٢٠٧ .

(١٤٥)د . محمد عمارة : معالم المنهج الإسلامي (طبعة القاهرة سـنة ١٩٨١ م) صـ ٢٥١ – ٢٥٣ .

(١٤٦) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(١٤٧) انظر : توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٦ – ٢١٧ ، د . محمد جبر أبو سعدة : دراسات في تاريخ الحضارة والفكر صـ ٨٦ (ط القاهرة ٢٠٠١ م) .

(١٤٨) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة الطلاقة وبناء صـ ١٢٩ – ١٣٠ ، د . محمد أبو سعده : مرجع سابق صـ ٨٦ ، د . عبد الحليم عويس : حقوق الإنسان في الإسلام صـ ١٣٤ – ١٣٥ (طبعـة جدة ، السعودية ، ١٩٧٨ م) .

(١٤٩) الإمام الصنعاني : سبل السلام ج ٤ صـ٥٤ .

(١٥٠) رواه الترمذي في : السنن ج٩ صـ ٢٠٢ ، والنسائي : السنن ج ٦ صـ ٤٢٨ .

(١٥١) رواه أبو داود في : السنن ج٦ صـ ٤٩١ ، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ صـ ١٦١

(١٥٢) د . محمد عمارة : مرجع سابق صـ ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(١٥٣) رواه الإمام أحمد في : مسنده ج ٣صـ ٢٦٦، وذكره الألباني وضعّفه في السلسلة الضعيفة ج٢ صـ ٥٤ .

(١٥٤) رواه مسلم في : صحيحه ج١ صـ ١٦٨، والبيهقي في : السنن الكبرى ج١٠ صـ ٩٠ .

(١٥٥) د. محمد عمارة : مرجع سابق صـ ٢٥٣ ، وأحمد السايح : مرجع سابق صـ ١٣٠ ، و د . محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر) : حوار هادئ مع بابا الفاتيكان بعنوان : هذا هو الإسلام (هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ) صـ ٣٤ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٥٦) الفيروز أبادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية د.ت) ج٢ صـ ٤٠١ ، و محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر : هذا هو الإسلام صـ ٣٣ – ٣٤ .

(١٥٧) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

(١٥٨) الحديث في مسند أحمد ج ٤٨ صـ ٤٨٧ ، و صحيح ابن حبان ج ٢٠ صـ ٢٤٥ .

(١٥٩) محمد سيد طنطاوي : هذا هو الإسلام صـ ٣٤ ، و د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١١٨، ١٢٣.

(١٦٠) رواه البيهقي في الزهد ج١ صـ ٤٢ ، وضعفه الألباني .

(١٦١) سورة التوبة : الآية : ٢٠ .

(١٦٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩

(١٦٣) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٦ – ١٣٨ ، د . عبد الحليم عويس مرجع سابق صـ ١٢٣

(١٦٤) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(١٦٥) سورة فاطر : الآية ٦ .

(١٦٦) سورة لقمان : من الآية ٣٣

(١٦٧) الحديث وارد في : الإبانة الكبرى لابن بطة ج١ صـ٢٩٨ ، (ط الرياض ، السعودية ١٤١٨ هـ) ، من حديث عبد الله بن عمرو، وابن أبي عاصم كتاب السنة ج١ /٢١ . (ط بيروت سنة ١٤٠٠ هـ) .

(١٦٨) سورة لقمان : الآية ١٧

(١٦٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(١٧٠) سورة آل عمران : الآية ١٠٤

(١٧١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ صـ ٢١ طبعة القاهرة د ت .

(١٧٢) سورة التوبة : الآية ٧٣ ،وسورة التحريم : الآية ٩ .

(١٧٣) الحديث أخرجه النسائي : السنن ج١٣ صـ ١٢١ ، ومسند أحمد ج ٢٢ صـ ٢٦١ .

(١٧٤) سورة المائدة : الآيتان ٧٨ – ٧٩ .

(١٧٥) انظر : سنن أبي داود – واللفظ له – ج٤ صـ ٥٠٨ طبعة دمشق ، وسنن الترمذي : كتاب التفسير حديث رقم ٣٠٥١ (طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٣٣٧ هـ) والأطْرُ : هو الإلزام باتباع الحق والبعد عن الظلم .

(١٧٦) للمزيد من التفصيل انظر في هذا الموضوع المؤلف : الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) صـ ١٥ – ٦٠ ، صـ ١١٣ – ١٢٨ طبعة القاهرة ١٩٩٥ م .

(١٧٧) محمد المبارك : نظام الإسلام (الحكم والدولة) صـ ١٢٥ (ط . رابعة دار الفكر – دمشق ١٩٨١م) .

(١٧٨) سورة الكافرون : الآية ٦ .

(١٧٩) سورة الكهف :الآية ٢٩ .

(١٨٠) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(١٨١) سورة يونس : الآية ٩٩ .

(١٨٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

(١٨٣) انظر : توفيق سبع قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٧ ، ٢٢١ ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٦٠ – ٢٦١ (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٠م) .

(١٨٤) سورة البقرة : الآية : ٢١٦ .

(١٨٥) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٨ .

(١٨٦) أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ١٣٥، وأنظر : محمد المبارك : مرجع سابق صـ ١٢٥، د . محمد سيد طنطاوي: هذا هو الإسلام صـ٣٣ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص٨٦.

(١٨٧) سورة النساء : الآية ٩٧ .

(١٨٨) سورة الحج : الآيتان ٣٩– ٤٠ .

(١٨٩) انظر د : محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٦٧ نقلا عن ابن القيم : زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٣ صـ ٧٠ (ط بيروت ١٩٨٥م) .

(١٩٠) محمد المبارك : مرجع سابق صـ ١٢٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ، ص ٨٦ ، د . محمد فتحي عثمان : حقوق الإنسان بين الشريعة والفكر القانوني صـ ٢٢ (ط دار الشروق القاهرة ١٩٨٢ م) .

(١٩١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام جـ ١ صـ ١٠٨ (ط القاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٨٣م)، وانظر توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٧ - ٢١٨ ، ود . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ١٦٩- ١٧٠ .

(١٩٢) سورة البقرة : الآيات ١٩٠- ١٩٤ .

(١٩٣) سورة التوبة : الآية : ٣٦ .

(١٩٤) سورة الأنفال : الآية : ٥٨ .

(١٩٥) محمد المبارك :مرجع سابق صـ ١٢٦ ، محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٣- ٣٤ ، د. عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٢ .

(١٩٦) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(١٩٧)د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٧٠ - ٢٧١ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٩ - ١٣١ .

(١٩٨) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(١٩٩) صحيح مسلم : ج٣ صـ ١٣٦٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة بيروت د. ت ، وصحيح البخاري ج١٠ صـ١٢٤ .

(٢٠٠) سورة النساء : الآية ٩٠ .

(٢٠١) سورة النساء : الآية ٩٤ .

(٢٠٢) سورة الممتحنة : الآيات ٨ - ٩ .

(٢٠٣) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق صـ ٨٦ .

(٢٠٤) سورة البقرة : من الآية ٢٠٨ .

(٢٠٥) سورة محمد : الآية : ٣٥ .

(٢٠٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٤٠ .

(٢٠٧) سورة الأنفال : الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(٢٠٨) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢٠٩) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٠ - ١٣٣ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢١ - ١٢٢

(٢١٠) سورة الصف : الآيات ١٠- ١٣ .

(٢١١) أحمد عبد الرحيم السايح :الهجرة صـ ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢١٢) أحمد عبد الرحيم السايح . صور من حياة الرسول : (طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م) صـ ٥١٧ .

(٢١٣) أحمد السايح : الهجرة صـ ١٣٩ ، وصور من حياة الرسول صـ ٥١٦ .

(٢١٤) سورة محمد : من الآية ٧ .

(٢١٥) سورة الحج : من الآية ٤٠ .

(٢١٦) انظر : أحمد السايح : الهجرة صـ ١٤٠

(٢١٧) د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢١٨) سورة البقرة : الآيـة ٢٥١ .

(٢١٩) سورة النساء : الآية ٧١ .

(٢٢٠) انظر توفيق سبع : قيم حضارية ج ٢ صـ ٢٢١ – ٢٢٣ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص١٢٦ .

(٢٢١) الحديث في : مسند أحمد ج ١٩ صـ ٤٢٩ عن عبادة بن الصامت .

(٢٢٢) سورة البقرة : الآية : ١٩٠ .

(٢٢٣) د. محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٩ – ٤١ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص٩١.

(٢٢٤) صحيح مسلم ج ٣ صـ ١٣٥٧ ، وانظر فيه أيضا (ج٣ صـ ١٣٥٩ ، ١٣٦٤ ، ١٤٦١) آداب الغزو ، ومسند أحمد ج ٤٧ صـ ٤ .

(٢٢٥) صحيح البخاري ج ١٠ صـ ٢٠٨ ، و صحيح مسلم ج ٩ صـ ١٧٥ ، وانظر أيضاً : وسنن ابن ماجة ج ٨ صـ ٣٦٥ ، ومسند أحمد ج ١٠ صـ ٥٢ .

(٢٢٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٩ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص ٩١ و د محمد فتحي عثمان : مرجع سابق صـ ٦٨ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٤٠– ١٤٢ .

(٢٢٧) الحديث وارد في : سنن : أبي داود ج ٨ صـ ٢٩٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩صـ ٢٠٥ ، وانظر : عن معاملة الإسلام لمحاربيه ، ومعاملته لأهل الذمة ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية صـ ٢٦٠ – ٢٩٣ .

(٢٢٨) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٨ – ٣٩ .

(٢٢٩) انظر : توفيق سبع : قيم حضارية : جـ٢ صـ ٢١٩ .

(٢٣٠)سورة النساء : الآية ٧٦ .

(٢٣١) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج٥ صـ ٢٠٥ ، ج١٠ صـ ٩٧ ، وصحيح مسلم ، ج١ صـ ١١٤ ، وسنن الترمذي : ج٩ صـ ١٨٤ .

(٢٣٢) سورة الكهف : الآية ٥ .

(٢٣٣) توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢٢٠ نقلا عن رينان .

(٢٣٤) د . محمد الخطيب : دراسات صـ ٢٧٩ - ٢٨١ ، توفيق سبع : قيم ج ٢ صـ ٢٢٠ .

(٢٣٥) انظر: صحيح مسلم ج٣ صـ ١٣٥٧ .

(٢٣٦) انظر : سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م) صـ ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٤ ، وقارن بين ما فعله المسلمون في الأندلس حين خضعت لحكمهم أكثرية غير مسلمة ثمانية قرون من الزمـــان ، لم يرغموهـــم على دخول الإسلام ، وبين ما فعله - فرديناند وزوجته إيزابلا - بالمسلمـــين بعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان سنة ١٤٩٢ م من الذبح والتنكيل وإرغام المسلمين على التنصُّر من خلال محاكم التفتيش عن العقيدة . (: د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١٣٠) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــــادر .

١ – القـــرآن الكريـــم .

البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت : ٢٥٦ هـ) :

٢ – الجامع الصحيح . طبعة استنبول سنة ١٩٨١ م ، وطبعة دار التراث القاهرة . د . ت ، وطبعـة الهنـد سنـة ١٣٨٧ هـ .

ابن بطـة (أبو عبد الله عبد الله محمد بن حمدان العكبـري ت : ٣٨٧ هـ) :

٣ – الإبانة الكبرى (الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة) تحقيق : حمد التويجري وعثمان الأثيوبي . طبعـة دار الرايـة الرياض سنـة ١٤١٨ هـ .

البيهقـــي (ابو بكـر أحمد بن الحسيـــن ت : ٤٥٨ هـ) :

٤ – كتـاب الزهـــد . طبعـة الهنـد د . ت .

٥ – السنـــن الكبـــرى . طبعـة مكة المكرمة (دار الباز سنـة ١٩٩٤ م) .

التبريـــزي (ولي الديـــن محمـد ت : ٧٣٧ هـ)

٦ – مشكـاة المصابيـــح . طبعـة الهنـد سنـة ١٣٧٩ هـ .

الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٩٧ هـ) :

٧ – الجامع الصحيح (وهو المعروف بسنن الترمذي) طبعة الحلبي . القاهرة سنـــة ١٩٦٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق : أحمد محمد شـاكر ، و محمـد فـؤاد عبـد الباقـــي ، و إبراهيـم عطوة عوض د . ت .

توماس مـور (السيـــر) :

٨ – يوتوبيـــا . ترجمـة إنجيل بطرس ، تقديم : د . زكي نجيـب محمـود . طبعـة القاهـرة (مكتبـة الأسرة) سنـة ٢٠٠٠ م .

ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الداري ت ٣٥٤ هـ):

٩ – المسند الصحيح . طبعة بيروت د . ت .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ) :

١٠ – فتح الباري (شرح صحيح البخاري) طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

أبو داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت ٢٧٥ هـ) :

١٢ – السنن (في الحديث) . مراجعة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . طبعة دار الفكر القاهرة د . ت .

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد ت سنة ٤٦٧ هـ) :

١٣ – الكشاف (في تفسير القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد الفارابي التركي ت ٣٣٩ هـ) :

١٤ – آراء أهل المدينة الفاضلة . تحقيق ودراسة القدس للدراسات و البحوث . تقديم د . طه الدسوقي حبيشي . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة سنة ٢٠٠٢م .

الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧ هـ) :

١٥ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي ت سنة ٦٧١ هـ) :

١٦ – الجامع لأحكام القرآن (في التفسير) . طبعة دار الشعب القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ،قيم الجوزية ت سنة ٧٥١ هـ):

١٧ – زاد المعاد في هدي خير العباد . طبعة المطبعة المصرية (طبعة أولى ١٩٢٨م) وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي ت ٧٧٤ هـ) :

١٨ – تفسير القرآن العظيم . طبعة المنار . القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ ، وطبعة دار الحديث القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

١٩ – السيرة النبوية . طبعة دار إحياء التراث الإسلامي بيروت سنة ٢٠٠٠ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ت ٤٥٠ هـ) :

٢٠ – أدب الدنيا والدين . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت ٢٦١ هـ) :

٢١ – الجامع الصحيح (المعروف بصحيح مسلم) بشرح الإمام محيي الدين النووي . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٩٧م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن المكرَّم ت ٧١١ هـ) :

٢٢ – لسان العرب (معجم لغوي) طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

النَّسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر ت ٣٠٣ هـ) :

٢٣ – السنن . طبعة المكتبة العلمية بيروت د . ت .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري اليمني ت ٢١٣ هـ) :

٢٤ – السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي طبعة دار المعرفة بيروت سنة ٢٠٠٤ م .

ثانياً : المراجع .

إبراهيم العلي (الأستاذ) :

٢٥ – صحيح السيرة النبوية . طبعة عمّان الأردن سنة ١٩٦٦ م .

أحمد عبد الرحيم السايح (الشيخ) :

٢٦ – صور من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م

٢٧ – الهجرة انطلاقة وبناء . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

أكرم ضياء العمري (الدكتور) :

٢٨ – المجتمع المدني في عهد النبوة . طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٢٢ هـ .

توفيق سبع (الشيخ) :

٢٩ – قيم حضارية في القرآن الكريم . طبعة مجمع البحوث الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

توماس أرنولد (السير) :

٣٠ – الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي . طبعة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٠ .

أبو الحسن على الحسني الندوي (الشيخ) :

٣١ – السيرة النبوية : طبعة دار الشروق . جدة السعودية سنة ١٤٢٦ هـ .

صفي الرحمن المباركفوري (الشيخ) :

٣٢ – الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية) طبعة أولى النهي للإنتاج الإعلامي مكة المكرمة . السعودية سنة ١٤٢٢ هـ .

عبد الحليم الجندي (المستشار) :

٣٣ – القرآن والمنهج العلمي المعاصر . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

عبد الحليم عويس (الدكتور) :

٣٤ – حقوق الإنسان في الإسلام . طبعة جدة . السعودية سنة ١٩٨٧ م .

عبد العزيز الشناوي (الدكتور) :

٣٥ – أوروبا في مطلع العصور الحديثة . طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٦٩م

عبد الله إبراهيم محمد راجح (الدكتور) :

٣٦ – الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

٣٧ – مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٣ سنة ٢٠٠٦ م .

٣٨ – من قيم الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية . (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٤ سنة ٢٠٠٧ م .

محمد أحمد الشحري (الدكتور) :

٣٩ – العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبة المتنبي الدمام. السعودية سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد جبر أبو سعد (الدكتور) :

٤٠ – دراسات في تاريخ الحضارة و الفكر الإسلامي . طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

محمد رشيد رضا (السيد الشيخ) :

٤١ – تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

محمد سيد طنطاوي (الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور شيخ الأزهر) :

٤٢ – حوار هادئ مع باب الفاتيكان بعنوان (هذا هو الإسلام) ملحق مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد عمارة (الدكتور) :

٤٣ – معالم المنهج الإسلامي . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

محمد الغزالي (الشيخ) :

٤٤ – فقه السيرة : طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م ، وطبعة مؤسسة عالم المعرفة بيروت د . ت .

٤٥ – مائة سؤال عن الإسلام . طبعة القاهرة (الثانية) ١٩٩٣ م .

محمد فتحي عثمان (الدكتور) :

٤٦ – حقوق الإنسان بين الشريعة و الفكر القانوني . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

محمد لقمان السلفي (الدكتور) :

٤٧ – الصادق الأمين (بحث في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم) طبعة دار الداعي للنشر . الرياض سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد المبارك (الدكتور) :

٤٨ – نظام الإسلام (الحكم والدولة) طبعة رابعة . دار الفكر دمشق سنة ١٩٨١ م

محمد محمد الخطيب (الدكتور) :

٤٩ – تاريخ العلم في الإسلام . طبعة القاهرة ١٩٩٨ م .

٥٠ – دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٩٠م .

محمد محمود الصواف (الأستاذ الشيخ) :

٥١ – نظرات في سورة الحجرات . طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١م .

محمد مصطفى المراغي (الشيخ الإمام) :

٥٢ – تفسير القرآن الكريم . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

ثالثاً : الدوريـــــات :

٥٣ – استراتيجيــة العالم الإسلامي : مجلة تصدر عن وزارة الحج والأوقاف السعودية عدد

ذي الحجــة ١٣٩١ هـــ .

٥٤ – مجلــة البحوث الإسلاميــة – العدد الأول . الرياض سنــة ١٣٩٦ هــ .

٥٥ – مجلة الدين والحيــاة – تصدر عن وزارة الأوقاف المصريــة . عــدد ٤٧ سنــة ١٣٩٣ هــ و عدد ١١٩ سنــة ١٣٩٩ هــ .

د. الطاهر دراع *

المجتمع العربي بين أهل الوبر وأهل المدر

لقد كانت النظم السياسية والعسكرية والاقتصادية لدى العرب القدامى حصيلة تفاعل مستمر بينهم وبين البيئة الطبيعية التى عاشوا فيها منذ ظهور التجمعات الإنسانية فى تلك البقاع الحارة فقد أذعنوا لشروط بيئتهم وتكيفوا معها وتلاءموا مع حاجتهم الاجتماعية الضرورية فى أول الأمر ثم الكمالية فى مراحل متقدمة.

نعم لقد تميزت ظروف المعيشة الاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية على مدى قرون موغلة فى القدم بالقسوة والإملاق ، سماء شحيحة بالغيث ، وبيئة مناخية حارة متوهجة، وأرض صحراوية قاحلة فى أغلب أرجائها ، فأوجب كل ذلك أن تكون الحياة الأولى والأساس عندهم البداوة خاصة لدى عرب الشمال .

المبحث الأول : المجتمع البدوى : تعنى البداوة قديما وحديثا الحياة القبلية المتنقلة ، أما الأعرابى فهو المتبدى أى الذى سكن البادية وعاش معظم حياته فيها مكتفيا باتخاذ شريكة له قاطعا البوادى الجافة التى يقل فيها سقوط الأمطار [(١)]، إذ أن طبيعة البيئة الصحراوية تجبر سكانها على العيش فى حياة قاسية يعانون خلالها من الحر والجفاف وقلة الماء والكلأ وعدم الاستقرار فى مكان واحد ، مما اضطرهم إلى التنقل والترحال عبر المساحات الشاسعة المكسوة بالرمال المتحركة الخطيرة بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وخيامهم المتواضعة وحيواناتهم من إبل وضأن وغيرها من الحيوانات بحثا عن غدران وآبار الماء ومساقط ومنابت العشب والكلأ .

* أستاذ محاضر – قسم التاريخ – كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية – الجامعة الافريقية العقيد "أحمد دراية" – ادرار – الجزائر .

ولما كانت مناطق العرب الخضراء محدودة فقد كانت تتنازع فيما بينها على الدوام للفوز بهذه المنطقة أو تلك ، فتنشأ بينها سلسلة من العداوات تنجم عنها سلسلة من الثأرات.

ونحن نعرف أنه كلما كان الناس فى حاجة إلى عناصر الحياة الأساسية كلما ازداد التنافر بينهم، وكلما توفرت لديهم ظروف الحياة الكريمة كلما قلت المنازعات والخلافات والعداوة وضعف عنصر الشر فيهم فتغلب عليهم الخير وانتشر الأمن والاستقرار والوئام بينهم.

و انطلاقا من هذا التصور قامت الحياة القبلية فى البادية العربية على أساس التضامن بين أفراد العشيرة أو العشائر ، التى تنتمى إلى قبيلة واحدة حتى تستطيع الصمود أمام القبائل الأخرى التى تنافسها ، بسبب غياب المصلحة المشتركة و الوحدة السياسية بين القبائل.

ويقوم التنظيم الاجتماعى عند البدو و الحضر على حد سواء على نظام القبيلة حسب تطور كل الشعوب البدوية الاغريقية الأوائل و الرومان فى بدء عهودهم و التتار و المغول كانوا جميعا ينقسمون إلى قبائل ، وانعدام الارتباط بأرض معينة لأن الحرية عندهم ترفض كل سلطة مركزية قد تقيد من حريتهم .

وللبداوة فى الصحراء قوانين عامة لا تقل شأنا فى وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة فى المدن .

ومعظم مظاهر التنظيم القبلى هى مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ثم قد تتخلى عنها الأمة بعد تطورها إلى المرحلة المدنية ، فيصبح تنظيم المجتمع إما على أساس الفرد الحر كما هى الحال عند اليونان أو على أساس العائلة كما نجد ذلك عند الرومان أو على أساس الاله كما كانت فى مصر القديمة عند الفراعنة .

القبيلة : نستعمل كلمة " قبيلة " بالمعنى العام الاصطلاحى ،لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوى الذى تفوق على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أكبر وأشمل منها وما هو أصغر منها ، ومن الأمثلة عل هذا الترتيب نعتمد التقسيم الآتى :

الشعب : مثل "عدنان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر " ، والعمارة مثل : "قريش" والبطن مثل : "عبد مناف ومخزوم " ، والفخذ مثل : "بنو هاشم وبنو أمية، والفصيل مثل : " بنو طالب" .

وكانت الرابطة القبلية تقوم على الدم والنسب لا على العقيدة والمدنية ، وتظهر العصبية القبلية قوية فى أقوالهم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وقد استدلوا على ذلك بقول آخر : " لايسألون آخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهان ؟" .

والقبيلة العربية تشبه القبيلة الكورسيكية فى تنظيمها إذ نجد رئيس القبيلة أو شيخها يصل إلى زعامتها إما بالنسب أو بالغناء أو بالشجاعة أو بسداد الرأى . وكانت سلطته مطلقة على أفراد المجتمع القبلى إلا فى بعض الأمور مثل أمور الحرب والقضاء ، حيث كان ينظر فيها بالاشتراك مع المجلس القبلى المؤلف من كبار أفراد القبيلة ، ونجد لشيخ القبيلة حقوق الرئاسة .

أما العائلة فى القبيلة فيحكمها ربها الذى يعتبر مثل الجندى لايملك سوى بيته المنسوج من الشعر أو الوبر ، وهو ذو سلطة مطلقة على أولاده حتى الوأد وحرمان البعض من الإرث، وله الحق فى الخلع والتبرؤ من بعض أولاده ، كما له الحق فى الطلاق والزواج متى شاء .

أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم ، إلا بعد حفلة تكريس فى مراسم كان يقوم الشيوخ فى مجلسهم ، فيقلدون الفتى السيف رمزا لإضافة محارب للقبيلة ، وكذلك الفتيات كن يكرسن بإلباسهن دراعة بدل المؤصد .

ولعل هذه الاحتفالات التى كانت تقام للشباب والفتيات كانت ذات طابع دينى ، وكانت القبيلة تحتضن الموالى عن طريق الولاء ، وهناك العبيد الذين قد ينسبون إلى قبيلة ما – إما عن طريق الشراء أو الأسر فى الحروب أو لتسديد دين .

أما أهل الحضر المستقرون فى الواحات فلم يكن التنظيم الاجتماعى يختلف عن تنظيم الأعراب القديمة سوى أن الملكية عندهم كانت موطدة ، بينما كان المرعى والماء والكلأ مشاع بين جميع أفراد المجتمع البدوى .

المبحث الثانى : العناصر المكونة للقبيلة :

كانت القبيلة العربية تتألف من عناصر كثيرة وهى :

١– الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الذين يجرى فى عروقهم دمها النقى ، وينحدرون

من الجد الذى تنتسب إليه ، ومن ثمة فهؤلاء هم الذين يسودون القبيلة [٢]، ويؤلفون بيوتات الشرف فيها، وهم دعامتها وكانوا يستجيبون لتلبية نداءاها والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، وبالمقابل كانت القبيلة توفر لهم حمايتها وتمنحهم حق التصرف ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج عن عاداها وتقاليدها ، فإذا سلك الفرد فيها سلوكا سيئا يشين إلى سمعة القبيلة ، ويجلب إليها العار نبذته ، وعندئذ قد يلجأ إلى قبيلة أخرى [٣].

٢- أبناء القبيلة بالنقلة : لقد كان جائزا أن ينقل رجلا نسبه من قبيلة إلى قبيلة أخرى فيصبح من أفرادها [٤] .

٣- الاستلحاق : وهو أن يستلحق الإنسان شخصا فيلحقه بنسبه ويجعله فى حمايته ورعايته أى فى عصبته ، وقد يكون الرجل صريحا معروف النسب ، وقد يكون أسيرا أو مولى ، أو عبدا فيسميه مولاه ، وينسبه إليه ، فقد تزوج القبيلة عبدا من عبيدها امرأة من القبيلة فيصبح بمرور الزمن فردا منها ، يحمل نسبها وواحدا من أفرادها وذلك لأنه قد ارتبط برابطة الزواج .أما ابن القبيلة الصريح الذى تزوج زواجا شرعيا او بجارية من جواريات الخيار ، إما أن يلحق أولاده بنسبه أو لا يفعل ذلك ، وإذا فعل وألحقهم بنسبه أصبحوا يحملون نسب القبيلة [٥].

٤- الموالى : لقد وردت كلمة "المولى" بمعان عديدة أهمها بالنسبة لهذه الدراسة أن المولى : يقصد به العبد أى المملوك ، الذى يمن عليه صاحبه بأن يفك رقبته فيعتقه ، ويصبح المملوك بذلك مولى لسيده الذى فك رقبته، والموالى أنواع ، وجاء فى لسان العرب : "المولى الحليف هو من انضم إليك فعز بعزتك وامتنع بمنعتك ... والمولى المعتق انتسب بنسبك" [٦].

والموالى العصبة نوعان :

أ- مولى يرث ويورث : وهم ذووا الأرحام .

ب- مولى لايرث ولايورث : وهؤلاء الفئة المعتوقة [٧].

وأما موالى عتاقة فهو الرقيق أو العبيد أو الأسير ، الذى فكت رقبته بعتقه فقد يشترى الرجل مملوكا ثم يعتقه .

وكان العرب القدامى يشترطون على الموالى إنجاز عمل معين ، فإن قاموا به على أحسن وجه عتقوهم ومن الموالى : مولى المكاتبة ، وهو أن يشترطا فى عقد البيع أن العقد يكاتب على نفسه بثمن محدد فإذا سعى ودفعه لمالكه أعتقه وأصبح حرا ، والأصل فى ولاء المكاتبة أن من أعتق عبدا كان ولاءه له ، فينسب إليه وإذا مات كان وريثه ، وقد لايتحول الولاء للولى ، بلى لمن يؤدى ثمن المكاتبة مثلا، وقد يعتق على ألا ولاء عليه فيحق له عندئذ أن يضع ماله [٨]. حيث يشاء ، ومن أسباب العتاقة التدبير وهو أن يعلق المالك عتق مملوكه ، وذلك بعد موته فيقول له : "أنت حر بعد موتى وبذلك فلا يرثه أهله" [٩].

أما مولى العقد فيقال له : " مولى حليف ومولى اصطناع ، ويتم بإتباع رجل إلى رجل آخر ، بعقده أو قبيلة إلى قبيلة أخرى ، وهذا الانتماء انتماء ضعيف إلى انتماء شخص أو قبيلة ضعيفة أو إلى شخص أو قبيلة قوية فيكون التعاضد ومساعدة القوى للضعيف فى شتى المجالات ، ومقابل ذلك يقوم المولى بأداء ما اتفق عليه من شروط ، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده الجديد ، ومن الأمثلة على هذا ما حدث ليهود يثرب الذين كانوا فى ولاية الأوس والخزرج ، فأذا ما وضع عليهم ضيم لجئوا إلى من انتموا له بالولاء للدفاع عنه .

هكذا فإن الموالى إحدى الفئات الاجتماعية من العتقاء الذين اعتقهم سادالهم من العبودية وظلوا مرتبطين بهم رابطة الولاء .

وبناءا على ما جاء فى روايات أهل الأخبار [١٠]، فإن عدد موالى قريش كان كبيرا أو أنهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من مجموع مكة ، وقد أعطت قريش مكانة لهؤلاء الموالى تماشيا مع سياستها التى قامت على تنشيط التجارة والاستفادة من جهود هذه العناصر وخبرتها .

والحق لقد أخلص بعض هؤلاء الموالى سادالهم قريش وقاتلوا فى صفوف المجتمع أو قريش ضد يثرب ، وأغلب هؤلاء الموالى كانوا ممن ارتبطوا بقريش عن طريق الحلف [١١]، وقد تحصل بعض الموالى فى مكة على ثروة طائلة وأسهموا فى حياة البلد ، عامة وتمتعوا بمكانة رفيعة وبنفوذ كبيرة فى المجتمع المكى مثل : "الأخنش بن عمر الشريف بن وهاب الثقفى" ، الذى أثر على حلفائه من " بنى زهرة " فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة فى موقعة "بدر" عندما اجتمعت قريش على الخروج لقتال المسلمين فرجع بنو زهرة مع بنى الأخنش [١٢].

٥- الداعي : يقال للمستحق داعي وهو منسوب إلى غير أبيه وقد كانت هذه الفئة موجودة فى المجتمع العربي كإحدى العناصر المكونة للقبيلة ، وحكم الداعى من الناحية القانونية هو حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند العرب القدامى ، إذ كانوا يورثونه كما يورثون الأبناء الأصليين [١٣].

ويقال للداعي اللصيق وهو مقيم فى الحي وليس من أبناء القبيلة ويقال للداعى المخضرم وهو من لايعرف أبوه أو أبواه ، ويقال له فى النسب هو من أل فلان ، وينتهى النسب بجد القبيلة الأكبر ، فيكون هذا الجد محور النسب والعصبية القبلية .

٦- الخلعاء : الخليع أو الطريد هو الفرد الذى تبرأت منه قبيلته نتيجة تمرده على أعرافها أو ارتكابه جريرة ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجها ، وفى ذلك يقول ابن منظور[١٤]: "الخليع الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياءه فيتبرؤون منه ومن خياناته فيقولون : "إنا خلعنا فلان فأخذ أحد بجنياته تجنى عليه ولاتأخذ بجناياته التى يجنيها".

ويتم إعلان الخلع رسميا على أفراد المجتمع فى المواسم والأسواق العامة وقد يبعثون مناديا لذلك أو يكتبون كتابا فكان الرجل يأتى بابنه إلى الموسم فيقول : "ألا يأتى قد خلعت ابنى هذا فإن جر لم أضمن وإن جر عليه لن أطلب" فلا يؤخذ الأب بجريرة ابنه الخليع ، ومن ثم تتخلى عنه قبيلته وتتبرأ من أعماله وتسقط حقوقه عليها ويحرم عليه البقاء فيها فيذهب ملتجأ إلى غيرها ، وأما إذا كانت شروره كثيرة فنادرا ما يلقى مجيرا له ، ويصبح الأمر خطيرا بالنسبة لوضعيته الاجتماعية ، إذ يجد نفسه فى موقف حرج ووضع شاذ [١٥]، ومن الأمثلة على ذلك : أن قبيلة خزاعة خلعت "قيس ابن الحدادية " وأعلنت ذلك بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه [١٦].

وكان بعض الخلعاء يلجئون إلى من يحميهم ويعيشون فى جواره .

ومن أسباب الخلع ما يأتى :

١- إذا قتل فرد "ما" شخصا أخر من قبيلته ، ورفض ذوو المقتول قبول الدية ، عندئذ تصبح القبيلة المتمثلة بشخص زعيمها مضطرة إلى قتل القاتل . أو خلعه حفاظا على وحدة القبيلة .

٢- لما كانت القبيلة مسؤولة عن أعمال أفرادها فإنها قد تضطر أحيانا إلى خلع من يسئ منهم إليها بكثرة اعتدائه وجرائره ضد القبائل الأخرى التى تحملها أفعاله على شن الغارات الثأرية ضدها مفضلة أن تضحي بفرد بدلا من جماعات منها ، وتخلع القبيلة كل من يلحق بها العار بأعماله اللاأخلاقية المشينة التى تعتبرها وصمة عار فى جبينها .

وقد يتكتل الخلعاء فيؤلفون عصابة تقطع الطرق وتعيث فى الأرض فسادا تسلب وتنهب وتلقى الرعب فى النفوس ، وقد شاعت تسمية هؤلاء باسم الصعاليك الذين سوف نتطرق إليهم بالتفصيل فى دراسة الطبقات الاجتماعية عند العرب .

وتذكر الروايات أن هؤلاء قد اشتهروا الخلعاء بالشجاعة والإقدام وعدم المبالاة بحيث كان بعض الرؤساء والزعماء يستخدمونهم للفتك بخصومهم .

وقد انضم قسم منهم إلى الشاعر " امرؤ القيس الكندى" عندما نهض مع قبيلة بكر للأخذ بثأر أخيه من قبيلة أسد ، كما كانت هذه الفئة قد تخلت عن العصبية القبلية لاتفرق بين قبيلتها وبقية القبائل الأخرى من حيث الإغارة والسطو على الأموال .

وكانت تتمركز فى المناطق المجاورة للأسواق التجارية وفى طرق القوافل فيعملون على السلب والنهب لها [١٧]، ومنهم أبو الصعاليك العرب "عروة بن الورد " و " "الشنفرى" ، و "تأبط شرا" ، السليك بن السلكة " .

وهكذا فإن الخلع فى المجتمع القديم أشبه ما يكون بإسقاط الجنسية عن المواطن فى عصرنا الحالى ، فهذه أهم العناصر المشكلة للقبيلة .

جد القبيلة : كان لكل قبيلة جد تنتمي إليه وتفاخر به ، فقد يكون هذا الجد إنسانا حقيقيا وقد يكون حلفا قد تكون من عدة قبائل مثل قبيلة تنوخ[١٨]، وقد يكون اسم موضع أقامت فيه القبيلة ونسبت إليه مثل "غسان" ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات ... الخ ، وهذا شئ مألوف وجد عند الشعوب القديمة وليست بدعة ابتدعها العرب وحدهم فالذى وصلنا من الاخباريين عن أزمنة أجداد القبائل فيه أخطاء وأوهام ، وفى ذلك يقول المستشرق "بلاشير"[١٩] Placher : " إن طريقة النسابين بالنسبة للأرهاط هى طريقة إيجابية مقبولة ، أما بالنسبة للقبائل والأحلاف فلا تستند إلى أسس صحيحة ، ويعود السبب فى ذلك إلى اسباب تحالف للقبائل وتكتلها ، هذه الأسباب ترجع فى أساسها إلى المنافع السياسية والمصالح

الخاصة ، إذن فهى تتغير بتغير تلك المصالح فتتولد بذلك أحلاف موجودة وتموت احلاف قديمة ، وتظهر قبائل كبيرة وتموت غيرها ، ولهذا التغير فعل قوى فى تكوين الاسباب وفى نشوئها إذ تتبدل وتتغير الأنساب تبعا لذلك التغير من ثم لايمكن الاعتماد على الأنساب الكبرى ، التى دونها علماء النسب وخصوصا فى مجموعات وشجروها حفدة وآباء وأجداد".

والمصالح السياسية للقبائل لاتقيم وزنا للأخوة والنسب ، فاذا ما اختلفت المصلحة يحصل أو يتم الانفصال ولاتجد القبيلة عند ذلك من غضاضة فى ترك قبيلة وإحياء تحالف جديد مع قبيلة أخرى غريبة عنها فى النسب ، فقبيلة "بنى عبس" مثلا تحالفت مع قبيلة "بنى عامر" فى حرب البسوس ضد قبيلة "ذبيان" وهى أخت عبس ، وتحالفت ذبيان مع قبيلة تميم على عبس [٢٠]، وهكذا وقعت حروب بين أبناء القبيلتين الأختين بسبب اصطدام المصالح .

المبحث الثالث : شيخ القبيلة : نتاول فى هذا المبحث الرئيس الأعلى للقبيلة ومهامه فى إدارة شؤونها والصفات الواجب توفرها فيه ومكانته الأدبية بين أفراد القبيلة .

لقد كانت رابطة الدم والنسب تهيمن على العلاقات القبلية والعصبية المتطرفة والمتجذرة تتحكم فيها ، فهاتان القاعدتان الأساسيتان أساس الترابط الاجتماعى القبلى عند العرب فكانتا تسيطران على التنظيم السياسى للقبيلة على الصعيدين الداخلى والخارجى فعلى المستوى الخارجى : يحددان طبيعة العلاقات مع سائر القبائل المتواجدة فى شبه الجزيرة العربية وخارجها .

وفى الداخل : يكفلان عدم التنازع والتناحر ، لذلك كانت الحاجة ملحة فرضتها ضرورة الحياة الاجتماعية والسياسة وهى ردع الاعتداء ومنع وقوعه وحسن معالجته إذا وقع سواء بالمصالحة أو بمبدأ الأخذ بالثأر وهى ضرورة لولاها لأصبحت البادية العربية دار حرب دائما ومواطئ خلاف قائم ، وانسجامًا مع التوجه وتلبية الحاجات ومصالح المجتمع القبلى ، كان اللجوء إلى قوة تنتقم للفرد من عدوه أو تلزمه على دفع الدية اللازمة المقررة عليه[٢١].

ومن هنا كان اللجوء إلى شخص يعمل على إحقاق الحق والفصل فى الخصومات وفقا للتقاليد المراعية الإجراء ، فظهر شيوخ القبائل ، حيث كانت ضرورة العيش تفرض على المرء الخضوع إلى المبادئ والتقاليد القبلية ووضع حد للعدوان غير أن هذه المبادئ مهما بلغ الالتزام بها لابد من تواجد قوة ذات سلطة تعمل على تنفيذها ، هذه القوة السلطوية يخاف

الجميع قوتها وبطشها ويلتمسون منها تفسيرا لرهبة الظواهر المسماة لديهم بالقوة الخفية أو المجهولة ، وهي ما وقف حائرا وخائفا منه ولم يجد سبيل خلاص له إلا بشخص قوى فكان الشيخ ، فمن هو الشيخ ؟ هل هو الملك الحاكم ؟ الواقع أن العرب لم يعرفوا هذه التسمية التي كانت تطلق على الحاكم في كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ، أو سائر الدول المعروفة آنذاك وانحصرت تسمية المالك عندهم على الشعراء والخطباء ، فالشيخ إذن حسب مفهومهم هو الرئيس الأعلى للقبيلة ، هو سيد القوم المقدم على جميع أفرادهم لما يملك من وقار الشيخوخة وتقدم السن ولما يتحلى به من صفات الزعامة والقيادة .

ولعل في طليعة هذه الصفات انتماءه إلى عصبية تؤديه وتمنعه إضافة إلى صفات شخصية يجب توافرها فيه كالجرأة والقوة والحزم وهي صفات يستحيل على ابن الصحراء فرض سلطانه وسلطته على سواه ما لم يكن متحليا بها على أن لايعني أن فرض السلطان والسلطة قد أدى إلى الرهبة والخوف من قدرات الشيخ على نحو ارتفع بهم إلى مستوى فوق البشر مستوى الآلهة في هذا المجتمع البدائي .

وهكذا لم تعرف شبه الجزيرة العربية نظرية تأليه الحاكم كما كان شأن مصر القديمة يوم قدست الفرعون الحاكم المستبد وأطاعه الناس خوفا من بطشه وطغيانه فكان مضرب مثل للظلم والطغيان كما جاء في القرآن الكريم أو كما عرفته الهند القديمة أيام حكم أبرهما وشريعة مانو [٢٢] .

إن ما نريد تأكيده هنا نظرية تأليه الحاكم لم تعرفها شبه الجزيرة العربية كما عرفتها سائرالشعوب البدائية حيث لم يقتصر الأمر على مصر القديمة أو الهند بل تعدت معرفة هذه النظرية إلى شعوب متعددة كالصين وبلاد ما بين النهرين،عندما كانت الدولة البابلية والآشورية والكلدانية ومن قبلهاالسومرية والأكادية وكلها شعوب عرفت تأليه الحكام[٢٣] .

نخلص إلى القول أن ثمة ضرورات أوجدت على رأس النظام القبلي زعيم القبيلة أو رئيسها وهو ليس بملك ولا بإله وأن الأساس الذي تبنى عليه سلطته هي التقاليد القبلية من عصبية وتقديم خدمات ومنافع متعلقة بالأوضاع المعيشية للقبيلة وأفرادها بجانب صفات شخصية يقتضي توافرها ليتمكن بها من الغلبة على منافسيه والسيطرة على الجميع .

إنها سلطة نظام الحكم الأبوى(Regime Patriarcal) القائم على سلطة الأب على جميع أفراد الأسرة ، هذه السلطة يبقى متمتعا بها ما دام قويا قادرا على ضمان ولاء القبيلة لـه ، أما إذا ضعف وعجز ، اجتمع الأعيان والرؤساء ،سواء كانوا من أفخاذ القبيلة أو من بطونها(٢٤) ، لاختيار خلفا له ، وليس ثمة مانع أن يكون ابن هذا الشيخ إذا توفرت فيه الشروط التى أشرنا إليها سابقا . غير أن تحولا قد طرأ على هذه السلطة فى أواخر هذه المرحلة التاريخية ، "فبعد أن كانت مستمدة من التقاليد القبلية وحدها أصبحت تستمد بدرجة أهم من المكانة الاقتصادية التى يستطيع بها الغلبة على منافسيه والسيطرة على أفراد القبيلة بتقديم المنافع المادية والخدمات المعيشية ، ومن هنا ازداد اهتمام رؤساء القبائل بممارسة كل ما يؤدى إلى تكديس الأموال وإنماء الثروات" (٢٥) .

صفات شيخ القبيلة : لقد اعتمد العرب فى اختيارهم لشيخ القبيلة على مواصفات يجب توفرها فى شخصه ، فكان يجب على من يريد أن يكون شيخًا أو سيدًا للقبيلة أن تتكامل فيه ست خصال : الكرم والنجدة والحلم والصبر والتواضع والبيان (٢٦).

وقد سئل قيس بن عاصم : "بما سودك قومك ؟ " فأجاب : " ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى".

ويجب أن يتحلى بأخلاق حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم .

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل عليهم ، لاسيما إذا كانت قبيلة كبيرة ذات عشائر وارهاط منتشرة ، وإن يكون شريفا فى أفعاله حليما كريما يغض نظره عن أعمال الحمقى والجهلة ويتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين ، فلا يغضب ولايثور وإن يقضم غيظه جاء فى المثل : "احلم تسد" ، وأن يحترم الناس مهما كانت منزلتهم وأن يؤلف بينهم ويكسب محبتهم ويجعل بيته بيتا للجميع ومضيفا لكل من يفد إليه من كبير أو صغير أو حقير وأن يفتح قلبه للجميع (٢٧).

وعلى الرئيس أن يكون فى مقدمة القوم فى الحروب والغزو وأن يكون شجاعا لايهاب الموت حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه وهو أب القبيلة والرئيس ، وهو روح القبيلة وشعلرها وهو من أصحاب الإرادة القوية..

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الأفراد ، حيث أن العرب كانت ترفض مبدأ الوراثـة فى الرئاسة ، ولابد للرئيس من عصبية داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينـه علـى تنفيـذ مسؤولياته ، ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية - كما ذكرنا من قبل حسـب رأى العلامة ابن خلدون - وعلى الحسب والشرف وعلى نقاوة الدم أيضا ، ولهذا لاتتم الرئاسة إلا للأصول ويحرم منها الموالى لعدم نقاوة الدم .

مجلس القبيلة : كان لكل قبيلة عند العرب القدامى مجلسًا هو بمثابة "الندوة" عندهم ، يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا وليس هناك وقت محدد لاجتماع المجلس، ولكن من المألوف أن يجتمع القوم يوميا عند المساء أو ينادى فى الناس للاجتماع إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك .

فالمجلس فى المجتمع البدوى كالبرلمان فى عصرنا الحاضر الحديث والذى يدرس فى المجلس يتعلق غالبا بمختلف الشؤون الخاصة ، فيبحثون الأمور التى تخص القبيلة ولهم الحق فى إبداء وجهة نظرهم ، فى الغالب ما كان يسود أقوياء الرأى والتفكير ، الذين يمتلكون المنطق وقوة الحجة فى المناقشات ، وكان هذا مدعاة لهم للافتخار والاعتزاز .

وفى هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم ويظهر الخطباء مواهبهم ، ويسـمع الجميـع الأحاديث الطريفة الطيبة فيصبح المجلس ندوة أدبية يتمرن فيها الأفراد على قوة البيـان ، وتكشف أثناء ذلك المواهب الأدبية والسياسية ، والقرارات كانت تتخذ بعـد المناقشـات والمحاورات بأصوات الأغلبية وغالبا ما كانت ترفض المعارضة هذه القرارات فلاتلتزم بهـا، لأنه ليس هناك قانون يلزمها بذلك ، فإن اقتنعت بها استجابت لرأى الجماعة وإن لم تقتنع بها أبتتطبيقها .

القبيلة والأرض : إن الأرض التى تنزل بها القبيلة والتى تعيش عليها تعتبرها ملكا لها ، تنتشر فيها بطونها وعشائرها فلاتسمح لغريب بالنزول بها أو حتى المرور فيها إلا بموافقتها ، وكل بطن منها اختص بحماية ناحية من الأرض واعتبرها أرضا خاصة بـه وتسـمى الأرض التى تحل بها القبيلة منزلا لها ، ومنازل لأبنائها ، حيث ينزلون بها ويضربون خيامهم فتصبـح الأرض وطنا لهم ودار إقامة ما دامت تقيم عليها ، لذلك يعبر عن الأرض هـذه بمصطلح "بيوت القبيلة" أو بيوت العشيرة".

تمتد أرض القبيلة إلى المواضع التى تصل بيوتها إليها فما يقع إلى الداخل فهو من مواطن القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موطنها .

وكانت تعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل أودية ، أو رمال أو غير ذلك ، ونظرا لعدم إمكانية تثبيت مثل هذه الحدود صارت سببا من أسباب النزاع المستمر بين القبائل .

أما مواضع الماء فى القبيلة فقد تتفق البطون فيما بينها على حقوق السقى الذى يؤدى إلى نزاع فى أكثر الأحيان ، إذا لم تراع فيه هذه الحقوق ولاسيما فى أيام القحط وانحباس المطر ، حيث المياه العامة ، أما المياه الخاصة للسادة والرؤساء فلايجوز الاستفادة منها إلا باذن من أصحابها .

ولكل قبيلة حق حماية فإذا أراد رجل غريب اجتياز أرضها فلابد من أن يكون فى حماية إنسان منها ، وإذا كان المجتاز جماعة أو قافلة تريد المرور بأرض القبيلة بغية الوصول إلى هدف فعليها أخذ إذن (جواز مرور) وإلا تعرضت للمنع والقتل إذ كان لابد للتجار من إرضاء سادت القبائل للسماح لهم بدفع حق المرور الذى عرف – بالإتاوة .

الهوامش

١- الزبيدى ، ج٣ ، مادة "بدو" ص٥٣٤ .
٢- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص١٥٠ ؛ توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .
٣- نفسه .
٤- توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .
٥- الأصفهانى : المصدر السابق ، م١٧ ، ص٩٧ ؛ عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، المرجع السابق ، ص١٥٠ .
٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، م٢٠ ، ص٣٢٣ .
٧- الطبرى : تفسير القرآن المسمى جامع البيان ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ج٥ ، دار المعارف ، القاهرة : ١٣٧٤ - ١٣٧٩ هـ ، ص٣٣ .
٨- الزبيدى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٠٥ .
٩- المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٠ .
١٠- ابن هشام ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص٣١٧-٣٥٥ ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، تحقيق: الأستاذين إحسان عباس وناصر الدين الأسد ، مراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص١١٤-١٣٣ .
١١- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٧ ؛ ابن حزم : جوامع السيرة ، المصدر السابق ، ص١٢٣ .
١٢- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٨ .
١٣- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٢ .
١٤- الأصفهانى ، المصدر السابق ، م١٣ ، ص ص١٣٧-١٣٨ .
١٥- الأصفهانى : المصدر نفسه ، م١٧ ، ص٩٤ .
١٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ٩ ، ص٤٩ .
١٧- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٦ .
١٨- الزبيدى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٤ .
١٩- تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) : ترجمة ابراهيم الكيلانى ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، د.ت، ص٢٥ .
٢٠- نفسه .
٢١- حسن حلبى : ندوات حول نظرية الدولة فى الفقهين الوضعى والدينى ، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الجامعية (١٩٨٧+١٩٨٨)، ص٧٢ .
٢٢- حسن حلبى ، المرجع السابق ، ص٢٤ .

٢٣- المرجع نفسه ، ص٧٤ ، يراجع بهذا الخصوص أيضا : "النظم السياسية" للدكتور "ثروت بدوى" المرجع نفسه ، ص٢١ .

٢٤- الفخذ أفخاذ : هى الرجل والبطن : أهل الرّجل وخاصته ، المنجد فى اللغة والإعلام ، المرجع السابق.

٢٥- حسن مروة : "النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" ، ج١ ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٧٨، ص٢٥ .

٢٦- ابن سعد : المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٠ .

٢٧- لا منس : مجلة المشرق ، عدد ٢ ، سنة ١٩٣٢ ، ص١١٠ .

أ.د. محمد بركات البيلى *

بعض ملامح القرية فى مصر الإسلامية

القرية فى اللغة هى مصر جامع للمساكن والدور والضياع وتقع فى الريف الذى هو ما قارب الماء أو حيث تكون الخضرة والمياه[1] أو هى كل مكان متصل الأبنية يتخذه الناس قراراً، ومن ثم فاسم القرية فى دلالته التاريخية لا يقتصر فى العصر الإسلامى على القرية بمفهومها الحالى ولكنه كان يطلق على القرية والمدينة معاً[2]. ومن ثم فكم من ناحية ذكرها بعض المؤرخين والبلدانيين على أنها قرى وذكرها البعض الآخر منهم على أنها مدن دون أن يعنى ذلك نمواً عمرانياً فى الأولى أو تدهوراً فى الأخرى.

ولقد كانت مصر الإسلامية مكتظة بالقرى التى كانت – على حد قول الاصطخرى – "على حافات النيل منظومة متكاثفة"[3]. فأشاد بها الجغرافيون والرحالة حتى أن الجغرافى أبا عبيد البكرى – على سبيل المثال – يعد ضفتى النيل من الفسطاط إلى رشيد من أعجب متنزهات الدنيا[4]. ورأى الرحالة ابن جبير فى هذه المنطقة نفسها قرى متراصة على ضفتى النيل يمنة ويسرة لا تحصى كثرة ووجد العمارة متصلة والقرى منتظمة على طول طريق رحلته بمصر[5] أما ابن فضل الله العمرى فقد رأى "بر مصر ريف ممتد بين حاجزين وعقد منظوم من القرى"[6].

وقد بلغ عدد القرى فى مصر الإسلامية عند بداية القرن الثانى الهجرى مبلغاً عظيماً فقد قيل أنها أحصيت فى ولاية الوليد بن رفاعة – الذى تولى على مصر سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى –كلية الآداب – جامعة القاهرة

فبلغت أكثر من عشرة آلاف قرية[٧] لكن هذا العدد – إذا صح – تناقص تناقصا جسيماً فى القرون التالية حتى أن قرى مصر فى العصر الأخشيدى (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م) لم تزد إلا قليلا عن ربع هذا العدد الذى بلغته فى ولاية الوليد بن رفاعة، فقد نقل عدد من المؤرخين عن القضاعى أنه وقف على جريدة بخط الكاتب أبي عيسى بقطر بن شفا متولى خراج مصر للدولة الأخشيدية جاء فيها أن مجمل قرى مصر حتى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م بلغ ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين قرية منها تسعمائة وست وخمسون قرية بالصعيد وألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية بمصر السفلى[٨] ويبدو أن هذا العدد ظل ثابتاً لم ينقص فى العصر الفاطمى الأول إذ كان هو نفس عدد القرى الذى نقله المقريزى[٩] عن المسبحى الذى توفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٨م[١٠]، لكن عدد القرى فى مصر الإسلامية أخذ فى التناقص مرة أخرى حتى أن المؤتمن أبا المكارم سعد الله صاحب كتاب "الكنائس والأديرة" قدر عدد القرى فى مصر فى القرن السادس الهجرى بنحو ألفين ومائة وست وثمانين قرية[١١] أى أنها نقصت فى غضون قرن واحد بمقدار مائتين وتسع قرى ثم تناقصت فى القرن التالى وحتى نهاية القرن السابع الهجرى إلى ألفين واحدى وسبعين قرية[١٢] بمقدار نقص مائة وخمس عشرة قرية أخرى.

ولاشك أن تناقص أعداد القرى فى مصر الإسلامية كان نتيجة لخراب الكثير منها[١٣] وقد أرجع ابن ظهيرة خراب ما خرب منها إلى "الظلم وخراب الأرض"[١٤] أى أنه أرجع خراب تلك القرى إلى عوامل طبيعية وبشرية، ولعل أهم العوامل الطبيعية التى تسببت فى خراب قرى مصر الإسلامية هو انقطاع جريان الماء إليها فتفقد بذلك أساس حياتها وتصبح أثراً بعد عين[١٥] ومن ثم كان اهتمام المصريين كبيراً بتطهير المجارى المائية[١٦] لتمكين الماء من الوصول إلى كل النواحى، من ذلك – على سبيل المثال – ما روى عن تطهير مجرى خليج القاهرة وتجديد حفره فى سنة ٥٠٢هـ "بأبقار البساتين التى عليه فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه فإذا انتهى أمر البساتين عمل فى البلاد كذلك وأقيم له وال مفرد بجامكية ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئا"[١٧].

أما العوامل البشرية التى تسببت فى خراب قرى مصر الإسلامية فمنها الظلم – على حد قول ابن ظهيرة ويعنى إرهاق أهل القرى بالمغارم التى تثقل كاهلهم مما يدفعهم إلى هجرة مزارعهم وقراهم، فعلى الرغم من ضبط الإدارة المالية فى مصر الإسلامية للجباية وعدم مغالاتها فى تقديرها فى أغلب الأحيان بل كانت تعهد إلى موازيت القرى ورؤسائها بتقدير ما

على قراهم من ضرائب وتلزمهم بحسن تقدير هذه الضرائب دون زيادة ولا نقصان على نحو ما يستدل عليه من أوراق البردى، وكانت الإدارة المالية لا تتعجل السداد فى حالة المسغبة وإنما تؤخر السداد إلى حين ميسرة حتى أن قرة بن شريك والى مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠-٩٦هـ) كتب فى سنة ٩١هـ إلى أهالى كل من قرية شبرا بسيرو وقرية شبرا أجيه وقرية هردس أبيرميوس وثلاثتهن من قرى كورة أشقوة بما عليهم من متأخرات جزية سنة ٨٨هـ لكن ذلك لم يمنع بعض الجساطيل أو الجباة من ظلم القرويين ظلما قد يدفع بعضهم إلى الفرار من قراهم مثلما فر مزارع من قرية ذات الساحل من ظلم الجابى ابن دشومة الذى أفقره بعد غنى ففر لا يلوى على شئ فلقيه أحمد بن طولون مصادفة وعرف شكايته فأنصفه وأمر له بما يمكنه من عمارة أرضه[١٨]، وكثيراً ما ثار المزارعون بسبب ظلم الجباة مثل ثورة أهل الحوف الشرقى وبطن الريف مراراً لأسباب خراجية[١٩] لاسيما الثورة العنيفة التى اندلعت فى خلافة المأمون سنة ٢١٥هـ ويبدو أنه فطن إلى أسبابها فعمر المقياس[٢٠] الذى كان أساساً لتقدير الخراج.

ومن العوامل البشرية لخراب القرى فى مصر الإسلامية نشأة قرى بديلة تحل محل القرى القائمة فيقبل الناس على سكنى القرية الناشئة ويهجرون القرية القائمة فتندثر مثل قرية العباسة التى نشأت فى العصر الطولونى وزاد عمرانها حتى أصبحت بلدة طيبة كثيرة المياه والأشجار ومتنزها من متنزهات مصر[٢١] وظلت متنزهاً سلطانياً حتى العصر المماليكى إلى أن بنى السلطان الظاهر بيبرس قرية بديلة أسماها الظاهرية وأنشأ بها جامعاً بخطبة سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٢م "فمن حينئذ تلاشى أمر العباسة"[٢٢].

ومن العوامل التى تسببت أيضا فى خراب القرى فى مصر الإسلامية ما نزل بها من الشدائد الاقتصادية خاصة العظمى منها – مثل الشدة المستنصرية – والتى كانت تنجلى عن غلاء ووباء كبير وتؤثر على القرى والمدن على حد سواء فتخربها وتهلك سكانها حتى أن عبد اللطيف البغدادى يذكر عن نتائج إحدى هذه الشدائد التى نزلت بمصر عند نهاية القرن السادس الهجرى أن "القرية التى كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنه وربما وجد فيها – أناس– وربما لم يوجد فيها"[٢٣]. وإذا عرفنا أن مصر قد شهدت منذ الشدة المستنصرية عند نهاية العصر الفاطمى الأول وحتى نهاية القرن السادس الهجرى نوبات متلاحقة من الشدائد الاقتصادية والغلاء والوباء فلا عجب أن يتناقص عدد القرى المصرية

فى هذه الفترة على النحو الذى انتهى إليه عددها الذى يسجله المؤتمن أبو الكارم صاحب كتاب تاريخ الكنائس والأديرة.

وقد فرضت طبيعة مصر وظروفها الجغرافية واعتمادها على نهر النيل كشريان رئيسى للحياة أن يكون نهر النيل محور تمركز القرى المصرية من ناحية وعاملاً حاكما لمواضع بنيان هذه القرى من ناحية أخرى فنظراً لفيضان النيل وتهديده للقرى "فقد شيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول حتى لا تغرق"(٢٤) فإذا "فاض الماء وساح وعم الغيطان والبطاح وانظم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام وربى لا ينتهى إليها الماء ولا يتسلط السيل عليها"(٢٥)، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وضفاف القوارب وزوارقه".

وفضلا عن الروابى والآكام والتلال الطبيعية فقد كانت بعض القرى تقوم على بعض الكوم الصناعية أو تقوم على ما علا من ضفة النهر إذا وفر لها الموضع أمانا من خطر تهديد الفيضان لها(٢٦).

وكانت القرى فى مصر الإسلامية متفاوتة فى عمرانها من حيث البنيان والسكان، فمن القرى ما اتسع بنيانها حتى ضمت كل قرية منها عدة مرافق كالمسجد الجامع والسوق والحمام ومرافق أخرى على نحو ما ذكر ابن حوقل عن عديد من قرى مصر الإسلامية فقد ذكر – على سبيل المثال – أن قرية شبرو آلاو ضيعة كبيرة ذات ثلاث حارات كبار (شوارع) كثيرة الأهل غزيرة السكان وبها حمام وجامع وقاضى وعامل ولها كورة جليلة واسعة"(٢٧) وذكر الادريسى نحواً من ذلك عن عديد من قرى مصر الإسلامية وأنها ذات أسواق ومتاجر ويعقد لبعضها أسواق فى أيام معلومة، فيذكر على سبيل المثال – أنه كان لقرية قد قوس سوق يعقد يوم الأربعاء من كل أسبوع ولقرية دمسيس سوق يعقد يوم السبت وتجارة الثياب والأمتعة بها نافقة(٢٨) وقد مر ابن جبير فى رحلته بقرية برمة وقال عنها قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق "(٢٩). وكانت المرافق العامة للقرى المصرية موضع عناية أولى الأمر خاصة دور العبادة فعلى سبيل المثال لما علم الوزير الفاطمى المأمون ابن البطائحى فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م "أن جزيرة قويسنا ومنية زفتى ليس فيهما جامع فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه فسار وبنى جامعاً على شاطئ النيل بمنية زفتى وقرر فيه خطيباً وأماماً ومؤذنين وفرش وأطلق برسمه نظير ما للجوامع"(٣٠) ولما علم الوزير نفسه "أن

واحات البهنسا ليس بها جمعة تقام فأمر ببناء جامع بها ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومه ومؤذنون وأطلق لهم ما هى عادة أمثالهم"[٣١]. ولم تقتصر العناية على الجوامع دون غيرها من دور العبادة بل امتدت أيضا إلى الكنائس التى كانت توجد ببعض القرى التى يقطنها نفر من النصارى[٣٢] فكانت تلك الكنائس موضع اعتبار عند تقدير الخراج وتخصص للنفقة عليها بعض الأفدنة[٣٣].

وكان لبعض القرى ذات النشاط المتميز مرافق خاصة تتميز بها عن غيرها من القرى، فعلى سبيل المثال كانت قرية مشتول كثيرة الطواحين[٣٤] حتى سميت مشتول الطواحين[٣٥] وكانت قريتا الصافية ودمى بحول المجاورة لها مختصتين بزراعة قصب السكر فكثرت بهما المعاصر ومعامل السكر[٣٦] أما قرية زفيته الواقعة على رأس الدلتا قبالة شطنوف – حيث يتشعب النيل ويتفرع عنه عدة خلجان – فقد كان لها مرفأ نيلى كبير ترسو فيه نحو مائة ونيف من مراكب الصيد التى يصطاد بها الحوت[٣٧] ووجدت بكثير من القرى معامل للفراريج تجرى فيها حضانة الفراريج بالزبل واتخذ كثير من القرويين من ذلك : صناعة ومعيشة يتجر فيها ويتكسب منها"[٣٨].

أما عن دور القرية وأبنيتها فى مصر الإسلامية فقد كانت تبنى غالباً من الطين[٣٩] أو الطوب اللبن[٤٠] ويصفها ابن فضل الله العمرى بأنها "مبنية بالطوب، سود الظاهر، يحف بها نخيل يقل فى بعض القرى ويكثر فى الأخرى، وكلها على نموذج واحد من رأى واحداً منها فكأنما رآها كلها"[٤١]. وكانت تلك الدور تسقف بأخشاب الجميز والسنط والنبق[٤٢] ولم تكن جميع تلك الدور تخص الفلاحين وحدهم بل كان بعضها ملكا لأفراد من ساكنى المدن، وكان بعضهم حريصاً على بقاء داره وتجديد عمارتها مثل الأمام الليث بن سعد الذى كانت له دار بقريته قلقشندة – وهى قرية- فى ريف مصر حسنة المنظر غزيرة الفواكه على ثلاثة فراسخ من القاهرة، وقد بنى الإمام الليث داره هذه ثلاث مرات إذ كان يبنيها كلما هدمها والى مصر الوليد بن رفاعة عناداً للامام[٤٣] بينما كانت ضيعة الامام نفسه بقرية دية – الواقعة بين فوة ورشيد – فكانت تدر عليه دخلاً كبيراً[٤٤].

كان الاتصال بين قرى مصر الإسلامية فى غير وقت الفيضان سهلاً ميسوراً أما فى شهور الفيضان الأربعة حينما "تصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابى وقد أحاط بها الماء فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب"[٤٥] فينتقل القرويون من قرية لأخرى فى صغار المراكب

وخفاف القوارب[٤٦] أو يسيرون على الجسوز الممتدة التى يصرف عليها – إذا خدمت كما ينبغى – ربع الخراج[٤٧] وقد رأى ناصر خسرو جسراً من الطين ممتداً على طول شاطئ النيل من أول البلاد إلى آخرها[٤٨] وكان كل جزء من هذا الجسر يسمى باسم الناحية أو القرية التى تشرف عليه[٤٩].

وتفاوتت أعداد السكان فى قرى مصر الإسلامية فكانوا ينقصون فى قرية ويزيدون فى أخرى تبعا لحجم القرية وعمرانها وأهميتها، يدل على ذلك تفاوت مقادير الجباية المربوطة على القرى من قرية لأخرى كما جاء فى أوراق البردى إذ كان على أهالى قرية شبرا يسيرو من جزية سنة ٨٨ هـ ١٠٤ دينار بينما كان على أهالى شبرا أجيه من جزية نفس السنة ٣٧ دينار وهلم جرا. ويمكن القول إن الحد الأدنى لتعداد سكان أصغر قرية لم ينقص عن ألف وخمسمائة نسمة، يدل على ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن رجال ابن رفاعة والى مصر أحصوا قرى مصر عند بداية القرن الثانى الهجرى "فلم يحصى فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية"[٥٠]، والرجال المعنيون فى هذا الصدد "من جرت عليه المواسى" حسب تعبير ابن عبد الحكم نفسه[٥١]. فإذا قدرنا أن هؤلاء الذين جرت عليهم المواسى كانوا نحو ثلث سكان القرية وأن الثلثين الآخرين كانوا ممن لا تجب عليهم الجزية من الولدان والنساء، فإن سكان أصغر قرية لن يقل – كما ذكرنا – عن ألف وخمسمائة نسمة، أما الحد الأقصى لسكان القرية فيبدو أنه كان – حسب تقدير عبد اللطيف البغدادى – نحو عشرة آلاف نسمة[٥٢]، وعلى وجه العموم فقد كانت مصر مكتظة بالسكان حتى أن عمرو بن العاص نهى عن كثرة العيال[٥٣] وأشار ابن حوقل إلى خصوبة المرأة المصرية حتى أنها ربما ولدت "الولدين والثلاثة والأربعة فى بطن واحد بحمل واحد" وأضاف أنهم يبررون ذلك بأن ماءهم أنيث يريدون ماء النيل وفيه خاصية لذلك على قولهم "[٥٤].

وكان للقرويين فى مصر الإسلامية عادات خاصة بهم منها أنهم كانوا يتجهزون لشهور الفيضان الأربعة التى يحاصر فيها الفيضان قراهم فيقومون بتخزين كافة احتياجاتهم الضرورية اللازمة لحياتهم طيلة هذه الشهور الأربعة "ويخبز كل شخص فى الريف ما يكفيه من الخبز هذه المدة ويقدده حتى لا يعفن"[٥٥]، ويبدو أن هذا الخبز المقدد كان يسمى كعكعا فقد ذكر المقريزى أنه "عند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها[٥٦].

واعتاد القرويون فى مصر الإسلامية أن يناموا على أسطح دورهم وقت القيظ(٥٧) وكان من عادات القرويين فى مصر الإسلامية الاغتسال فى النهر وكثيرا ما كانت ثيابهم تتعرض للسرقة من قبل المساحين – كما يسميهم النابلسي – الذين كانوا يمشون "على أطراف الشطوط يرتقبون من يتعرى ثيابه وينزل الماء ليغتسل فيمشي اللص كأنه مار فى شغله ويعبر على ثياب الذى نزل فى الماء فيأخذها ويمر كالبرق الخاطف فلا يلحق"(٥٨) وكانوا فى العصر الفاطمي لا يركبون الخيول(٥٩). بل كان أكثر اعتمادهم على الجمال والحمير، إذ تساعدهم هذه الحيوانات على نقل أثقالهم وعلى عمارة أرضهم فقد كان فلاح قرية ذات الساحل المشار إليه فى العصر الطولونى يستعين على عمارة أرضه بحمار عوضه عنه أحمد بن طولون بعشرين ديناراً(٦٠) وأشار النويرى إلى أن القصب كان ينقل من المكسر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير(٦١) وربما كان عدم ركوب القرويين الخيول فى العصر الفاطمي عادة اعتادوها منذ صدر الإسلام فى مصر وقت أن كانت غالبية القرويين من أهل الذمة الذين لا تسمح لهم أحكام الذمة بركوب الخيل فاعتادوا على ذلك حتى بعد تحول أكثرهم إلى الإسلام لاسيما وأن غلاء أسعارها لا يتناسب مع قدرة القرويين الشرائية ومستواهم المعيشى المنخفض.

وكان المزارع المقيم بالقرية يسمى فلاحاً قرارياً(٦٢)، لكن الفلاحين القرارية لم يكونوا وحدهم جل سكان القرى وإنما كان يقيم معهم فى القرية آناس آخرون منهم من كان من أصحاب الضياع كمارية القبطية التى كانت تقيم هى وأبناؤها بضيعتها بقرية طاء النمل وقامت بضيافة الخليفة المأمون العباسى على أحسن وجه حين مر على قريتها رغم استهانته(٦٣) بها وكان يقيم فى الضياع والبساتين التى بالقرى عمال يقومون على خدمتها والعمل بها كالوكيل والخولى والعمال والسياس والحرس وغيرهم، ويمدنا ابن مماتى فى قوانين الدواوين بالعديد ممن يباشرون أعمالاً داخل القرية كالوقافين الذين يحولون المياه إلى الأراضى التى تحتاج إليها والحراثين الذين يحرثون الأراضى والنجارين الذين يصنعون الآلات الزراعية والمساحين والقصابين الذين يقومون معاً بمسح الأراضى وقياسها والحايز الذى يكتب ما تحتويه الأجران ويمنع المزارعين من التصرف فيها قبل استيفاء ما عليهم(٦٤) وأغلب الظن أنهم كانوا يسكنون القرية إما سكنى دائمة أو موسمية على الأقل، وكان يسكن بالقرية أيضا بعض حفظة القرآن وصغار رجال العلم ممن يقومون على خدمة جامع القرية والخطبة فيه وغيرهم.

وإذا كان الفلاحون القرارية يحصلون على دخولهم مما تغله الأرض التى يزرعونها فقد كان عمال الضياع وأجراؤها يحصلون على بعض أجورهم نقداً وعلى بعضها الآخر عينا بجزء من المحصول، وعلى الرغم من إشارة ابن مماتى إلى محاسبة العمال بأيام البطالة[٦٥] فقد كانت الدخول منحطة ومستوى معيشة القرويين منخفضاً[٦٦] ولذلك غلب عليهم سوء التغذية فلم يزد غذاء أهل صعيد مصر كثيرا عن التمر والحلاوة التى يصنعونها من قصب السكر بينما غلب على غذاء أهل أسفل الأرض القلقاس والجلبان، وكان كثير من أهل مصر يأكلون الألبان ومنتجاتها ويأكلون السمك طرياً وماحاً[٦٧]: ويمدنا النويرى بوصف للطريقة التى كان القرويون يستخدمونها فى صيد الأسماك عند هبوط نيل مصر ورجوع الماء من المزارع إلى مجرى النيل إذ كانوا يسدون أفواه الترع وأبواب القناطر التى عليها حتى يتجمع الماء ثم ينصبون شباكا ويصرفون الماء إليها فيجتمع السمك بتلك الشباك فيخرج منها إلى البر ويجفف على نخاخ (حصر) ثم يملح ليؤكل مالحا أما ما كان يؤكل منه طرياً بعد قليه فيسمونه الإبسارية[٦٨].

وعلى الرغم من سوء التغذية التى كانت تجعل القرويين عرضة لكثير من الأمراض والأوبئة فقد كانوا أصح أبدانا من أهل المدن إذا كان القرويون أكثر حركة ورياضة فتصلب الرياضة – على حد قول المقريزى – أعوادهم وتقويها[٦٩].

واتسم القرويون بالسذاجة التى يسميها النابلسى "سخف عقل أهل الريف"[٧٠]، ووصفوا بالمكر الذى كان فيما يبدو وسيلة لتجنب ظلم رجال الإدارة لهم على مر العصور ومع ذلك لم يسلم القرويون من قدح القادحين وسخرية المستهزئين كالشربينى صاحب هز القحوف إذ يقول : الحاصل أن الفلاح على قسمين : قسم ناجى ناجب وقسم خائن خائب فأما الأول فهو صاحب عقل وسياسة وحسن تصرف ورياسة عقل تدين ملازم للصلاة والدين والزرع والغيط تارك للسنده حيث الغيط، له على جماعته الحماسة متجنب الرزالة والخساسة، يباشر الزرع ويعف عند الحصيدة والقلع ولا يتكل على خولى ولا مرابع ولا يركن لتوار ولا مزارع بل يباشر الأمور كلها ..

وأما القسم الثانى : لا عقل ولا معروف، عريان منتوف ، لا صلاة ولا دين ولا طاعة لرب العالمين ولا ذوق ولا معرفة، فائق للشر والتفرقة، بالنهار فى لعب المنقلة وبالليل صاحب القبلة، لا يلازم الغيط، يحب اللطعة جنب الحيط، نافش الشوارب، قليل المكاسب، عويل مهدار، سفلا من فشار، إن دخل فى يده فلوس مزقها على العتورة والتيوس[٧١].

لكننا نميل إلى القول إن أهل القرى فى مصر الإسلامية كانوا يغلب عليهم الميل إلى الموادعة والسكينة وقلما يجنحون إلى التمرد والهيج، إلا أن الأمر لم يخل أحيانا من بعض حالات القلاقل والاضطرابات التى كانت لأسباب خراجية - كما سبق أن ذكرنا - كما تعرضت بعض القرى فى مصر الإسلامية لمخاطر أمنية فى بعض الأحيان لم تقتصر فقط على دهم المتسلطين لهم وإنما تعرضوا أيضا لاغارات العصابات المسلحة الذين يدعوهم المسبحى النهابة الجوالة، ويذكر ان أعدادهم تزايدت فى بعض فترات القلاقل والاضطرابات إلى عدة آلاف وعهدت الدولة بالتصدى لهم إلى جماعات من الجند السيارة يقودهم كبار القادة مثل رفق الخادم القائد الفاطمى الملقب "عدة الدولة وعمادها" وقد عهد إليه بملاحقة النهابة الجوالة فى سنة ٤١٤هـ لكنه عجز عن القضاء عليهم فاستبدل بقائد آخر فى سنة ٤١٥هـ هو "سنى الدولة عهد التاهرتى" فلم يستطع هو الآخر أن يردع النهابة الجوالة بل تمادى خطرهم وامتد من الريف حتى هدد الفسطاط نفسها[٧٢].

هكذا كانت بعض ملامح القرية فى مصر الإسلامية ولعلها تشير إلى أن الموضوع من الأهمية بدرجة تستوجب مزيد من البحث والتقصى.

الهوامش

(١) انظر لسان العرب عن معنى القرية والريف فى ماديتهما.

(٢) عبد العال الشامى، مدن الدلتا فى العصر العربى، رسالة دكتوراه ص ٦.

(٣) الاصطخرى : مسالك الممالك، ص ص ٥٠-٥١.

(٤) البكرى : جغرافية مصر ، تحقيق عبد الله الغنيم ، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٦.

(٥) ابن جبير : رحلته ص ١٧.

(٦)مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار المجموعة الكمالية ص ٢٣٨.

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٥٨ ؛ وابن ظهيرة :الفضائل الباهرة ص ١١.

(٨) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٣٥ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٦.

وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٤٣ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مادة مصر.

(٩) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٣٤.

(١٠) المقريزى : المقفى الكبير، جـ٦ ص ١٦٣.

(١١) شاعت نسبة تاريخ الكنائس والأديرة إلى أبى صالح الأرمنى ولكن الصواب أنه للمؤتمن أبى المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود الذى عاش فى القرن السادس الهجرى / ١٢م.

(١٢) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين ص ٣٦٦.

(١٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان، مادة مصر.

(١٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣.

(١٥) عبد العال الشامى : المرجع السابق ص ٣٧٦.

(١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١.

(١٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص٤٣.

(١٨) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٩٠.

(١٩) الكندى : ولاة مصر، ص ٧٣ ؛ المقريزى خطط جـ١ ص ١٤٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٨٧، ص ١٣٥، ص ١٤٤.

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٥.

(٢١) القزوينى : آثار البلاد، ص ٢٢٠.

(٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١، ص ٢٣.

(٢٣) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ، ص ١٣٧.

(٢٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٩٧ ؛ راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١١٦.

(٢٥) أبو الصلت أميه، الرسالة المصرية (من نوادر المخطوطات) ص ٢٧.

(٢٦) عبد العال الشامى : المرجع السابق ص ٣٦٨.

(٢٧) ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٣٢.

(٢٨) الادريسى : نزهة المشتاق، جـ١ ص ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢٩) ابن جبير : رحلته، ص ١٧.

(٣٠) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ٣ ص ٨٨.

(٣١) نفس المصدر ، جـ٣ ص ٥١٦.

(٣٢) الإدريسى : المصدر السابق جـ ١ ص ص ٣٣٥.

(٣٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٢ ؛ محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ص ١٧٨.

(٣٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.

(٣٥) ياقوت الحموى : المشترك وضعاً ، ص ١٩٧.

(٣٦) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣٧) الادريسى : المصدر السابق جـ١ ، ص ٣٣٠.

(٣٨) عبد اللطيف البغدادى : المصدر السابق ص ٨٧.

(٣٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص١٩٥.

(٤٠) راشد البراوى : المرجع السابق، ص ١١٦.

(٤١) ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ص ١٢٣٨ ؛ عبد العال الشامى، المرجع السابق ص ٣٦٥.

(٤٢) راشد البراوى : المرجع السابق ص ١١٦.

(٤٣) ياقوى الحموى : معجم البلدان ، مادة مصر ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص ١٩٨.

(٤٤) البكرى : المصدر السابق ص ٩٦.

(٤٥) المقريزى : خطط، جـ١ ص ص ١١١-١١٢.

(٤٦) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٩٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٣.

(٤٧) المقريزى : خطط جـ١ ص ١١٢.

(٤٨) ناصر خسرو : سفرنامة، ص ٩٧.

(٤٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص

(٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٥٨.

(٥١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٥٢) عبد اللطيف البغدادى : المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٥٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٤٠.

(٥٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ص ١٥٠-١٥١.

(٥٥) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ٩٧.

(٥٦) المقريزى : خطط، جـ١ ص ٨١.

(٥٧) ابن بطوطة، رحلته ص ٤٧.

(٥٨) النابلسى : لمع القوانين المضيه ص ٦٣.

(٥٩) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ١٢١.

(٦٠) البلوى : المصدر السابق ص ١٩٠.

(٦١) النويرى : نهاية الأرب، جـ٨ ص ٢٦٧.

(٦٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٥٧.

(٦٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٩.

(٦٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٧٧.

(٦٥) نفس المصدر نفس الصفحة.

(٦٦) البراوى : المرجع السابق ص ص ١١٠-١١٥.

(٦٧) المقريزى : خطط جـ١ ص ٨١.

(٦٨) النويرى : نهاية الأرب، جـ ٨ ص ٢٦٢.

(٦٩) المقريزى : خطط، جـ١، ص ٨١.

(٧٠) النابلسى : المصدر السابق، ص ٦٣.

(٧١) هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، ص ٢٠١.

(٧٢) المسبحى، أخبار مصر ، ص :

د . أحمد إبراهيم على *

الهجرات العربية الهندية وآثارها الاجتماعية

(القرنين الأول و الثاني الهجريين)

التمهيد:ـــ

العلاقات العربية الهندية :—

العلاقات العربية الهندية قديمة قدم الشعبين ،وقد لعبت الجغرافيا دوراً في تطوير تلك العلاقة علي مر القرون ، وكان للتجار العرب الفضل في ترويج السلع والمنتجات الهندية ، حتى أطلق علي المحيط الهندي قديماً بحر العرب ،و كان الطريق البحري من شبه الجزيرة العربية إلي الهند من أكثر الطرق التجارية استخداماً ، وكثر ذكر موانيه وسبل السير فيه في كتب الرحالة والجغرافيين اليونانيين و العرب وهو يبدأ من ميناء الأبله ، وينتهي عند جزيرة ثار التي تعد الحد الفاصل بين إقليم السند وفارس ، وعلي مسيرة ثماني أيام منها يقع ميناء الديبل [1] أهم ميناء هندي في العهد الإسلامي ،ومنه تنطلق السفن إلي ساحل الهند الغربي حيث إقليم الكجرات .

وبرغم طول مسافة السفر البالغة مائة واثنين وسبعين فرسخاً ،إلا أن مناسبة الظروف المناخية ساعدت البحارة علي قطعها بسهولة ويسر فكانت الرحلة من عمان إلي الكجرات تستغرق ثلاثة أشهر ذهاباً و إياباً [2] ، ولم يكن الطريق البحري هو الوحيد الذي ربط العرب بالهند بل كان للطريق البري عبر فارس – خراسان – اهميه لكنها كانت تقل أو ربما تنعدم أثناء الحروب الطاحنة بين الفرس والروم ، حيث ترتفع الأسعار في شبة الجزيرة العربية

---

* دكتوراه في التاريخ الاسلامي–كلية دار العلوم جامعة المنيا

ويعم الغلاء [٣] وخصوصا إذا كانت القوافل قادمة من الصين عبر الهند بما عــرف بطريــق الحرير .

هذه وقد عرف الجغرافيون والرحالة العرب بلاد الهند جيداً، وكانوا أول من أطلق علي نهر هندهو اسم السند ،وعرفت الأراضي الواقعة بين فروع نهر السند بإقليم السند، وأطلقوا علي ما يقع خلفه بلاد الهند ، وكانت مدينة قامهل هي الحد الفاصل بين إقليمــي الســند والهند [٤] ، ونتيجة لعمق العلاقات العربية الهندية فقد حاول الإخباريون العرب ربط التاريخ السياسي بين البلدين فزعموا أن أحد ملوك العرب الجنوبيين ويدعي الحارث الــرئش غــزا الصين والهند وحملت إليه هدايا جليلة وعظيمة منهما [٥] ألا أن الثابت هــو أن الحــروب العربية الفارسية كانت البداية الحقيقية في ربط التاريخ السياسي العربي بالهند بعدما أخــذت جموع من الفرس تلجأ للهند فراراً من وجه الغزاة العرب .

ومن ابرز مظاهر التعاون العربي الهندي هو التبادل التجاري وتعود تلك العلاقــات إلي عام ألف وثمانمائة قبل الميلاد حيث لعب عرب حضرموت دور الوكلاء بين تجــارة الهنــد ومصر [٦] ،ووجد مجموعة من التجار العرب علي ساحل الهند الغربي منذ زمن الاســكندر المقدوني كانوا ينقلون محاصيل الهند إلي مدن الحجاز واليمن والإسكندرية وأشــهرها أوراق التنبول وجوز الهند –النار جيل–[٧]هذا وقد جاءت بعض ألفاظ القرآن الكريم بلغة هنديــة كانت رائجة في الجزيرة العربية في عهد الرسالة المحمدية مثل كافور ، مسك ،وزنجبيل الذي زاد استعماله نظرا لرائحته الطيبة [٨] واعتبرت القرفة من اشهر التوابل الــتي اســتخدامها العرب بجانب القرنفل [٩] و الحبهان والفلفل ونبات الصبر [١٠] .

وكان للعطور الهندية منزلة عظيمة عند العرب واشهرها الكافور والعود الهندي ،بأنواعه القماري ، والصنفي ،والمندلي ،والكلهي [١١] ، ومن الأخشاب الساج الــذي اســتخدم في صناعة الأبواب والنوافذ والسقوف ،والصندل واستخدم في صناعة السفن منها البارحــة و الباتامارس و العويسة والباركات وهي من اشهر السفن العمانية [١٢] ناهيك عن دور الهنــد في نشر النباتات في الأراضي العربية .مثل النارجيل ،ولأرز الذي حرف عن كلمة الــرز في اللغة التاميلية [١٣] كذلك القطن وقصب السكر الذي عرفت بعض الدول العربية زراعتــه مثل العراق ومنها نقل إلي الشام ثم صقليه وقبرص و أسبانيا [١٤] ، ونقلت أشجار الليمــون

من الهند إلي عمان ، و منهما صدرت إلي البصرة والشام ،هذا بخلاف شجر الأترنج وورق التنبول وكان سعر الرطل منه في مصر والمغرب دينار [١٥].

ومن الحيوانات الهندية التي عرفها العرب الفيل ،وقط الزباد ،والطاووس ،وكلاب الصيد، والدجاج الهندي الذي عرفه العرب بالدجاج السندي لانه كان يجلب من إقليم السند. [١٦] ومن المعادن الماس و البلور والرصاص و السيوف الهندية التي عرفت بالمهند ، والرماح المعروفة بالخطي التي انتشرت صناعتة في عمان والبحرين [١٧] واستوردت الهند من البلدان العربية الخيول والذهب والماس والتمر .

أدي تطور العلاقات التجارية بين الهند والعرب إلي تطور التبادل الثقافي ولعل من أهم أسباب ذلك وجود عدد من أطباء الهند في مدرسة جنديسابور الساسانية تخرج علي يدهم فريق من أطباء العرب اشهرهم الحارث بن كلده الثقفي [١٨] ، ناهيك عن وجود قواسم مشتركة بين الثقافتين العربية والهندية أبرزها في الدين ، حيث ساد الاعتقاد في البيوت السبع للأصنام المشتركة بين العرب والهند [١٩]، و يتضح في الأساطير الأدبية عمق تلك الروابط الثقافية حيث تشير الروايات التاريخية أن سيدنا أدم هبط علي قمة جبل في سيلان سمي بأثر أدم وذلك قبل أن ينتقل إلي مكة ليقابل زوجته حواء التي هبطت علي جبل جده[٢٠]، وظل مهبط أدم مزاراً عربياً شهرياً حتى القرن السابع البحري ، بينما اعتقد الوثنيون الهنود أن هذا المكان يحتوي علي قبر سوجو مونيار كهان مؤسس نظامهم الديني[٢١].

كان للحكم والأمثال الهندية أثرها في تشكيل فكر الأدباء العرب و يتضح ذلك مما ذكره أبو سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي في كتابه ملوك العرب من بني هود وغيرهم عن الوصايا التي دونها للخليفين المأمون ت(٢٠١هـ/٨١٧ م) شارحاً كيف صاغها من الأدباء الفرس والهنود ، [٢٢] ونظم الخليل بن أحمد الفرهدي كتابه العين علي ما يخرج من الحلق و اللهوات وهو ترتيب يري بعض المستشرقين احتمال اقتباسه في ترتيب الأبجدية السنسكريتية ، كما كان الهنود يقدرون الشعر ونظمت كتبهم الدينية شعراً ، وعرفوا التفعيلات ووصفوا أرقاما للمتحرك والساكن وهي أقدم عهداً من تفعيلات الخليل[٢٣].

وتأثر العرب بالأدب الهندي فترجمت للعربية اشهر الأعمال السنسكريتية مثل كليلة ودمنة واشتملت الترجمة العربية لها علي أربعة عشر ألف بيتاً ، وكتاب بوذاسف و بلوهر وهو المعروف في السنسكريتية باسم بودهى ستوير وهيتر وهو يحتوي علي مجموعة من القصص الخاصة بأحوال الناسك الكبير بوذا ، وأهم تلك الكتب كتاب شاناق الهند وموضوعة آداب الحرب [٢٤] وكلها كتب وأعمال تدل علي عمق العلاقات الثقافية بين العرب والهند .

تأثرت اللغة العربية نتيجة لانتشار الجاليات الهندية فدخلت عليها مفردات هندية عديدة مثل صندل ،كافور ، قرنفل ، هيل ، زنجبيل ، ليمون ،ومن مفردات الأقمشة شاش ، شيت، وفوطة [٢٥] ،وكلمة بارجة وجمعها بوارج ، ودونج وجمعها دوانج — مركب صغير — وكلمة طوبي المذكورة في القرآن الكريم يقول بعض المفسرين إنها اسم للجنة في بعض لغات الهند [٢٦] ، وهناك يد أخري للهنود علي العرب وهي الأعداد التي عرفت بالهندية و نقلت إلي بغداد عام (١٥٧هـ/٧٧٣م) وقام بشرحها والتعليق عليها بعد ذلك محمد بن موسي الخوارزمي أوائل القرن التاسع الميلادي ، ناهيك عن نظام الفلك وكان أول كتاب ترجم فيه السند هند بواسطة العلامة الفزاري ت (١٥٤هـ/٧٧٠م) ،وكتب الطب التي كانت معروفة عند العرب مثل استانكر الجامع و سيرك و سندستان وقد ترجم أغلبها في العهد العباسي [٢٧]

وانشأ العرب في ساحل مليبار مرا كز طبية في مدينتى بكلم و جاليم وشرعوا في تعلم الأهالي قواعد وأصول الطب الحديث ، [٢٨] وانتشرت الثقافة العربية في الهند وأطلق علي بعض المدن أسماء عربية مثل أبي سرور وهي أول مدينة في إقليم مليبار ، وكانت مركزاً عربياً عظيماً حتى القرن السابع الهجري وكان كبير المسلمين بها يعرف بالشيخ جمعه [٢٩] ناهيك عن المؤثرات العربية في العمارة والفنون ، والمفردات العربية في الاقتصاد والاجتماع ، أضف لذلك إن اللغة الأردية التي تعد اللغة الأساسية لمسلمي الهند وباكستان يظهر فيها بوضوح مدي تأثير العربية في حروفها ومفرداتها .

أولاً: دواعي الهجرات العربية الهندية في القرنين الأول والثاني الهجريين :ـــ

أدي الصراع العربي في العهد الأموي إلي فرار العديد من أعداء بني أميه إلي الهند منهم بنوساميه بن لؤي ، حيث تغلب الأخوان محمد ومعاوية علي إقليمي السند و مكران عـــام (٦٥هــ/٦٨٥ م) وظلا كذلك عشر سنوات استقدما خلالها قومهم من عمان ،(٣٠) وكان يؤازرهم في تلك المرحلة راجا داهر بعد إن نصراه علي أعدائه وقدموا له خمسمائة جنـــدي من قومهم ، (٣١) ونظراً لاتساع نفوذهما فقد كونوا لأنفسهم دويلة عربية صغيرة اعتـــبرت أحدي أكبر المستوطنات العربية في الهند ،متخذين من جندوارة مقراً لهم(٣٢).

كان للمهالبة دوراً في تنشيط الهجرات العربية إلي الهند ، ويعزي للمهلب بن أبي صفرة قيامه بغزو الهند مع بني قومه عام (٤٤هــ/٦٦٤م) فاستوي علي طول المنطقة الممتدة مـــن كابل ، إلي الملتان ، ومن ثم ازداد نفوذ قبائل الأزد في تلك المنطقة وكان من ولاة الهند منهم روح بني حاتم ، يزيد بن حاتم ، داود بني حاتم ،و عمر بن حفص(٣٢)، واشتد نفوذ المهالبـــة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وأصبحت الهند مأوي وملاذا آمنا لهم فأردوا تقســـيمها بين القبائل العربية و يكون للأزد النصيب الأكبر منها (٣٣).

لازالت الهند تستقبل أعداداً وفيرةً من المهاجرين العرب وكان أكثرهم من قبيلة ربيعـــة حيث أدي التنافس السياسي بين أحد رجالهم وهو عبد الرحمن بن الاشعث والحجـــاج بـــن يوسف الثقفي إلى انفراد الأول بالسيطرة على منطقة كال ثم سجستان ، وامتد نفوذه حتى بلاد الهند بعدما نجح في الانتصار على راجا رتبل وحتى بعد أن هزمه الحجاج في معركة دير الجماجم عام (٨٢هــ/٧٠١م) فر باقي رجاله ، و اتخذوا من الهند مأوي لهم ، (٣٤) وهو ما سيفسر لنا لاحقاً سبب هذا التواجد العظيم لقبيلة ربيعه في الهند.

أدي الصراع العباسي العلوي إلى إشعال ثورة العلويين عام (١٤٥هــ/٧٦٣م) في المدينة والبصرة بقيادة الأخوين محمد بن عبد الله بن الحسن و أخيه إبراهيم فقضي عليهما أبا جعفر المنصور ، وكان ممن نجا من تلك الواقعة عبد الله بن محمد المعروف بالأشتر وهو الذي قـــاد جماعة من العلويين وهاجر بهم إلى الهند عند وليها عمر بن حفص المعروف بـــ هـــزار مـــرد ـــالألف رجل – وكان عدد الشيعة الذين فروا إلى الهند أربعمائة رجل ،وقد أستقر عبد الله وجماعته بالهند ، واتخذ لنفسه السراري ، وولد له فيها ابنه محمد بن الأشتر ، وذلك قبل أن

يقتله الوالي هشام بن عمرو التغلبي [٣٥] ، ومن ثم تكونت في الهند جماعة من المهاجرين المؤيدين للشيعة مما يوضح لنا سبب رواج هذا المذهب في الغرب والوسط الهندي.

و إذا كان بعض الخارجين على الحكم الأموي العباسي فر إلى الهند طواعية فإن البعض الأخر اضطر لذلك ممن تعرضوا للنفي مثل المحدث معاوية بن قره المزني الذي نفاه الخليفة عبد الملك بن مروان نظراً لرأيه في شخصية الحجاج بن يوسف ، أما الشاعر أحمد بن أبي نعيم البغدادي فقد نفاه الخليفة المأمون إلى الهند بعدما انشده قائلاً .

لا احسب الجـور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس [٣٦]

وعلى الجانب الأخر فنظراً لحركة الفتوح الإسلامية في الهند فقد زاد عدد السبي الهندي في البلدان العربية ونبغ منهم العديد من الشعراء والأدباء والمحدثين أشهرهم الشاعر أبو عطا السندي ، والمحدث ابن معشر نجيح السندي، وابن الأعربي اللغوي الشهير [٣٧] ، واشتركت جاليات منهم في خدمة الأسطول الإسلامي ، وجذبت الهند أعداداً من المرتزقة العرب الذين خدموا في الجيش الهندي و خصوصاً في جزيرة سيلان الذين كان أهلها يستغيثون بهم كلما دعت الحاجة لذلك [٣٨] ، وقد كان للمهاجرين العرب دوراً عظيماً في تلك الجزيرة قبل البعثة المحمدية وفي العهد الأموي.

تساوي العرب والهنود في الهجرة لأسباب اقتصادية ، حيث عمل الهنود المهاجرون في مجال الصرافة ، وذكر أنه لم يوجد في البصرة صيرافياً الأ وصاحب كيسه سندي ، و أثناء الفتنة بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان كان على صرافة البصرة مائة وعشرين صيرافياً سندياً من السيابجة [٣٩] ، وقد أدي النظام الطبقي الهندي ذو الأصول الاقتصادية إلى هجرة أعداد جمة من المواطنين الهنود إلى الأراضي العربية وخصوصاً من طبقة الويش أو المنبوذين وكان منهم قبائل الزط [٤٠] ، وقد شكل الزط عماد الجاليات الهندية وسرعان ما كانوا يحصلون على مكانه اجتماعية واقتصادية رفيعة وواحد منهم الشاعر أبو عطاء السندي أحد الشعراء المخضرمين في العهدين الأموي والعباسي ومولي بني أسد [٤١]وكان نجاح مثل هؤلاء الرجال يلهب حماس الأخريين للقدوم إلى البلدان العربية.

جذبت الهند بثروها التجار العرب وبدلاً من رحلات الذهاب والعودة استقر عدد منهم فيها وخصوصاً على الساحل الغربي ، وفي مدينة صيمور وجد بها ما يقرب من عشرة الأف

من الباسرة وهم أبناء التجار العرب الذين تزوجوا من هنديات غير السيرافين من عمان والبصرة وبغداد (٤٢) ، ناهيك عن المجموعة الكبيرة من التجار العرب في جزيرة سيلان وكان خطف تساؤهم على يد القراصنة الهنود سبباً في المواجهة العسكرية بين الأمويين وراجا داهر حاكم إقليم السند (٤٣).

انتشرت المستوطنات العربية للتجار العرب على ساحل الكجرات وخصوصاً في موانئ كنبايت ، بهروج ، سومنات و جولكنده ، وكانوا يعاملون آنذاك من جانب حكام أسرة راشتراكوتا معاملة حسنة ، ومنحوا امتيازات مالية و تسهيلات تجارية خاصة نظراً للربح الوفير الذي كان يجنيه هؤلاء الحكام منهم (٤٤) ، ونفس الأمر تكرر مع التجار العرب في مليبار ، وقد أطلق على أبنائهم لقب مابلا – ابن العظيم – وشكلوا لأنفسهم مستوطنات في مناطق كنكن و تراونكور (٤٥) ، و حصلوا على أرباح عظيمة خلال تجارتهم في منتجات البلاد واشهرها التوابل والأقمشة والعطور.

كانت الدعوة الإسلامية أحد أسباب استقرار المهاجرين العرب في الهند ، ويذكر أن جيش المهدي الموجه إلى الهند عام (١٥٩هـ /٧٧٦ م) كان فيه عدد كبير من رجال الدين والحديث منهم المحدث الربيع بن صبيح البصري (٤٦) ، وزادت أعداد الجاليات العربية العامل أفرادها في مجال الدعوة على يد الداعية مالك بن دينار و اخيه شرف بن دينار وابن أخيه مالك بي حبيب الذي زار الهند لهذا السبب ونشر الإسلام على ساحل مليبار ، وقد استقر مالك بن حبيب في مقاطعة كلور وترك بعض أولاده في مقاطعة كولم ، و بنا أكثر من سبع مساجد في مليبار (٤٧) ، وقد أثر التواجد العربي في سواحل مليبار وسيلان حتى أن أغلب مسلمي هاتين المنطقتين ينتمون لأصول عربية (٤٨) ، أضف إلى ذلك فرار الدعاة الشيعة منذ عام (١٥١هـ/٧٦٨م) بقيادة عبد الله بن محمد الأشتر.

ازدادت الهجرات الشيعية للهند في القرن الرابع حيث استوطن الداعية أحمد بن عيسي بن محمد بن على بن الإمام جعفر الصادق جنوب الجزيرة العربية عام (٣١٣هـ/٩٢٥م) ثم انتقل إلى ساحل مليبار ، وعرف بالشيخ عيسي المهاجر، ومنها انتقل أعقابه إلى اندونيسيا ويذكر أن أول أسرة حاكمة هناك كانت علوية يرأسها حاكم لقب بالشيخ ، وفي كمبوديا وصل احد أبناؤه ويدعي الحسين الملقب بجمال الدين الأكبر ومن أبنائه إبراهيم الذي تزوج الأميرة باني ولاق من أهل سيام (٤٩).

وعلي الجانب الهندي أدي اهتمام العباسيين بالعلم والعلماء إلى قدوم جالية هندية كبيرة إلى بغداد من ادباء وعلماء و أطباء وكان احدهم يحمل معه كتاب السند هند في الفلك وصل به بغداد عام (١٥٦هـ/٧٧٣م) [٥٠]،وممن اعتنى بهذا الأمر أكثر يحيى بن خالد البرمكي الذي نشأ في كشمير وتلقي تعليمه في الفلك والطب والحكمة فيها [٥١]، فقام بدعوة كبار الأطباء لبغداد مثل منكه الذي نقل كتاب شاناق الهندي في السموم ، وابن دهن الذي عهد إليه بإدارة دار الشفاء ، وابن بهله الذي عالج إبراهيم بن صالح عم الرشيد، والطبيب بازيكر وسندباد و قليرقل [٥٢]، وكان مثل هؤلاء العلماء يحصلون على منزلة اجتماعية رفيعة في المجتمع الإسلامي وخصوصاً بعد إسلامهم فيؤثرون في المجتمع ويتأثرون به.

وبأمر الخلفاء كان بعض كبار العلماء يتوجهون إلى الهند ، ويقيمون فيها لاكتساب العلوم والمعارف مثل أحمد الحاسب البغدادي الذي أرسله الخليفة المعتصم إلى الهند لهذا الغرض، كما أدي استقرار المهاجرين العرب من قبائل الأزد وربيعه إلى قدوم المثقفين والأدباء العرب إلى حواضر العرب في الهند ومنهم الشاعر مطيع بن إياس الكناني الذي مدح الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وأبي جعفر المنصور ثم رحل إلى الهند ومدح وليها هشام بن عمرو التغلبي ، وقد أبكته ابنته حتى يرغب عن الرحيل للهند فقال لها.

اسكتي فقد حززت بالدمع قلبي ... طالما حز دمعكن القلوبا

ودعي أن تقطعي الأن قلبي ... وتريني في رحلتي تعذيباً

فعسي الله أن يدفع عني ... ريب ما تحذرين حتى أءوبا[٥٣]

ثانياً : عناصر السكان من المهاجرين العرب والهنود :ــ

(أ) القبائل العربية في الهند:ـــ

تمركزت قبائل الأزد في منطقة عمان التي تعتبر قاعدة الخليج العربي ، وفي نفس الوقت تطل على المحيط الهندي ، أي أنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة العربية الهندية [٥٤] أما قصبتها فهي مدينة صحار مستودع السلع الهندية . كل ذلك ربط بين قبائل الأزد والجاليات الهندية المتمركزة في الخليج العربي ، ومن الأزد كان آل مهلب الذين كان لهم علاقة خاصة

بالهند ، وتولي عدد منهم أمارة الهند، اشهرهم المهلب بن أبي صفرة الذي غز البلاد عام (٤٤هـ/٦٦٤م) ففتح مناطقي قندابيل ولاهور [٥٥] و انتشرت قبائل الأزد في خراسان وزحفت منها على الهند بقيادة راشيد بن عمرو الحديدي الذي فتح مدينة القيقان ، وتمركز بقواته في إقليم السند [٥٦] ليصبح لتلك القبيلة مكاناً متميزاً في هذه المنطقة إبان الحقبة الأموية.

مما يدل على مكانة قبيلة الأزد في السند أن الخليفة سليمان بن عبد الملك اسند الإقليم لواحد منهم وهو سليمان بن حبيب ليتصدى لرجال بني عقيل معتمداً علي بنى عمومته، وانتهي الأمر إلى مقتل الفاتح العربي محمد بن القاسم على يد معاوية بن المهلب الأزدي دون أن يحرك ذلك لبني عقل في الهند ساكناً [٥٧] ، و تعرض الأزد عام (١٠٢هـ/٧٢١م) لمحنة شديدة عندما اشتد نفوذهم فأرسل إليهم الخليفة يزيد بن عبد الملك حملة عسكرية بقيادة هلال بني أحوز التميمي فقضي عليهم في خراسان، ومن بقي منهم فر إلى السند فاستقبلهم راجا راتبل ، واستعان بهم في تثبيت عرشه والتصدي لمنافسيه [٥٨] ، وبرغم ذلك ظلت جماعة من قبائل الأزد متمركزة في مدينة براهمنا باد وكان يتزعمهم وداع بن حميد الأزدي[٥٩].

زاد نفوذ الأزد في إقليم السند وفي مائة وعشرين عاماً تولى الإقليم خمس ولاة من الأزد، منهم داود بن يزيد الذي حكم الهند عشرين عاماً ،واستعان بهم العباسيون لإعادة سيطرتهم على السند فانتدب الخليفة أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص المعروف بهزار مرد – الألف رجل – مع جماعة من الأزد لطرد الوالي المتمرد عينيه بن موسي عام (١٤٣ هـ/٧٦١م)[٦٠] ، وآثار التواجد الكثيف للأزد في السند الزعماء العرب الذين رغبوا في تقسيم البلاد ثلاثة جزء لقيس وأخر لربيعه وثالث لقريش وطرد الأزد الذين اتحدوا تحت راية المغيرة بن يزيد وحاصروا مدينة المنصورة عشرين يوماً حتى استسلم زعماء العرب[٦١] ثم قضي المغيرة بن يزيد على بني تميم في الهند وذكر تلك الواقعة الأليمة الشاعر عبد الله الأزدي فقال .

افني تميماً سعدها وربها بالسند قتل مغيرة بن يزيد
صعقت عليهم صعقة عتكية جعلت لهم يوم كيوم ثمود

قدنا الجياد من العراق إليهم ... مثل القطا مستنة لورود

يحملن من ولد المهلب عصبة ... خلقت قلوبهم قلوب أسود (٦٢)

لبني تميم مآثر في الهند جعلتهم يحتلون مكاناً متميزاً بين المهاجرين العرب برغم قلة عددهم فكان منهم عبد الله بن سويد القشيري وهو أول من غزا الهند، و عمر بن عبيد الله القرشي الذي فتح مدينة أرمائيل وبنى مسجداً عظيماً في منطقة خاشك وانزل بها عدداً من المستوطنين العرب (٦٣)، أما عمارة بن تميم فقد غزا مدينة باميان وعاقب راجا راتبل الذي استقبل بقايا الأزد، كل ذلك جعل الخليفة المنصور يثق في القائد معبد بن خليل المزني فيوليه السند عام (١٥٧هـ/٧٧٤م) فاستقدم من قومه من أعانه على مد النفوذ العربي في هذا الإقليم (٦٤) وكان هو الوالي الوحيد للهند من بني تميم.

لعب بني تميم دوراً في تثبيت ملك بني العباس في الهند بعدما حاول بني ربيعه الإنفراد بالإقليم بزعامة منصور بن جمهور فوجه إليه الخليفة أبو جعفر المنصور موسي بن كعب التميمي مع أربعة آلاف من عرب خراسان وستة عشر الفاً من بني تميم فتمكن من هزيمة ربيعه (٦٥) ، وكانت تلك البداية الحقيقة لتوطين ستة عشر ألف تميمي في إقليم السند ، وقد تمركزوا في مدينة المنصورة بعدما أعاد بناءها موسي بن كعب وجدد مسجدها الرئيسي (٦٦)، وقد لفت الانتباه زيادة هجرة بني تميم إلى الهند وكانت نساء العرب ينشدن رؤساء بني تميم رد أبنائهم إليهم مثل تلك المرآة من بني يربوع التي ناشدت تميم بني زيد العتبي على لسان الشاعر الفرزدق لرد ابنها خنيس فأرسل إليه يقول:

أتتني فعاذت يا تميم بغالب ... وبالحفرة الساقي عليها ترابها

فهب لي خنيساً واتخذ فيه منة ... لحوبة أم ما يسوغ شرابها

وقد دفع العرب إلى محاولة إرجاع ابناؤهم ما تعرضت إليه قبائل تميم في السند جراء مرض الطاعون الذي قضي على اغلبهم في منطقة ماء الجواميس القريبة من نهر مهران مما أدي إلى تراجع اغلبهم إلى مراكزهم القريبة من نهر السند (٦٧). وفي عام (١٤٢هـ/٧٦٠م) تحامل التميميون بزعامة عينية بن موسي على بني ربيعه ، وقتل منهم خلقاً عظيماً ، وساقه طموحه إلى السيطرة على إقليم السند و إعلان انفصاله عن الدولة العباسية ، (٦٨) وهنا اضطر الخليفة المنصور إلى الإستعانة بقوة ونفوذ قبائل الأزد في الهند

فأرسل إلى عينية بني موسي القائد عمر بن حفص ، ودارت بين الطرفين معارك عنيفة كانت في الأصل بين المستوطنين التميميين و الأزديين، وقد بلغ هذا الصراع الدامي ذروتـه عـام (٢٠٥هـ/٨٢١م) عندما قتل هلال ابن أحوز التميمي زعيم الأزد بشر بن داود فاندلعت نار الحرب بين الطرفين و فيها قضي على بني تميم في الهند [٦٩].

يعد سعيد بن اسلم الكلبي أول قائد مـن بـني ربيعـة يتـولى إمـارة السـند عـام (٧٨هـ/٧٤٧م) ، أما سفيان بن الأبرد فكان من ابرز قواد جيش محمـد بـن القاسـم الثقفي،وفي عام(٨٠هـ /٧٤٩م) تمركزت قبائل ربيعة في الهند في منطقة أرمائيل بزعامـة محمد بن هارون النمري وهو الذي توفي في قرية قنبل السندية [٧٠] ،وفي أواخر عهد بني أميه سادت الأضطربات والفتن في السند ، وتغلب الهنادكة على المسلمين، وهنا ظهر الـزعيم الحكم بن عوانه الذي جمع العرب من بني ربيعة وشيد لمسلمي الهند مستوطنة عظيمة اسماها المحفوظة [٧١] كانت من أكبر مراكز العرب المهاجرين في الهند.

بيد أن جهود الحكم بن عوانه الكلبي أتت ثمارها فارتفع شأن بني ربيعة بين المسـتوطنين العرب ، وسيطروا على مدينة المحفوظة في عهد ولى الإقليم منصور بن جمهور الكلبي زعـيم بني ربيعة الذي أعلن استقلاله بالسند فدخل في صراع رهيب مع موسي بن كعب التميمي الذي تتبع بني ربيعة في السند ، وطرد بعضهم خارج البلاد ففر من بقي منهم إلى بلاد الخزر وكان منهم زوجات وأطفال لمنصور بن جمهور الكلبي [٧٢].

بجانب مآثر بني ربيعة في الهند السياسية فقد كان لأبنائها بخلاف باقي القبائل العربية دوراً في تنشيط الحياة الثقافية وذلك بهجرة العديد من شعرائهم للهند و أبرزهم الشاعر الدهمس اليربوعي الذي كان معاصراً لجرير وهجاه فيمن هجا ، والشاعر الصمة بن عبد الله القشيري وهو من أشهر شعراء الغزل ، أما ذو الرمة – غيلان بن عقبة – فقد زار الهند زمن الحكـم بن عوانه الكلبي فمدحه فأعطاه مائة رأس من سبي الهند، أما الشاعر عمرو بن خالد الكلبي فوصف في شعره حرب المسلمين ضد راجا داهر ودوره كواحد من بني ربيعة في قتل رجـا داهر فقال:

الخيل تشهد يوم داهر و القنـا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

إني خرجت الجمع غير مـمرد ... حتى علوت عظميهم بمـهند

فتركته تحت العـجاج مـجدلاً ... متعفر الخدين غير موسد [٧٣]

من القبائل العربية التي اتخذت لنفسها موضع قدم بين المستوطنين العرب في الهند بني تغلب وكانت بداية أمرهم عام (١٥٧هـ/٧٧٤م) عندما اقنع واحد منهم وهو هشام بن عمرو التغلبي الخليفة أبا جعفر المنصور بتوليته إقليم السند وقدرته بمساعدة بني قبيلته في القضاء على عبد الله العلوي المعروف بأبي الأشتر [٧٤] ، وعقب الانتهاء من تلك المهمة ظل سبع سنوات يكافح لأجل مد النفوذ العربي في الهند ففتح مدينة باربد ثم قندهار ، وكانت اشهر حملاته على مدينة الملتان، واسترد مدينة قندابيل وكان بها مستوطنة عظيمة للعرب المهاجرين ، وقد تقلص نفوذ بني تغلب في الهند بسبب قلة عددهم مقارنة بالمهاجرين العرب من القبائل الأخري وربما ذلك كان سبباً في فشل الزعيم ابن عمرو التغلبي في القضاء علي الصراع الذي دار بين القبائل العربية في الهند فيما بعد [٧٥].

كان لقبيلة قريش نفوذاً عظيماً في الهند ومنهم ولد سامية بن لؤي ، ويعد سيدهم الخريت بن راشد الناجي اشهرهم وهو الذي لقي الرسول (ص) مع عدد من رجاله وأهله، فأشار الرسول (ص) لأصحابه وقال (هؤلاء قومكم فانزلوا عليهم) ، وقد اختلف الخريت مع سيدنا علي فنزل مدينة مكران الخراسانية واستقر فيها [٧٦] ، وسرعان ما انتشر المستوطنون العرب من بني لؤي على طول الطريق بين مكران والسند وذلك عام (٦٥هـ/٦٨٥م) بعدما تزعمهم الأخوان محمد ومعاوية أبناء الحارث العلافي واستقدموا قومهما من عمان إلى السند ، واستمرت تلك الهجرات لعشر سنوات . تقلص نفوذ بني لؤي علي اثر الحرب التي دارت بينهم وبين الأمويين واضطر زعيمهم جهم بني سامية إلى الانتقال مع بني جلدن إلى الجنوب الكشميري[٧٧] ونتيجة للصراع القبلي العربي استغل بني لؤي اضطراب أوضاع إقليم السند فمدوا نفوذهم حتى مدينة الملتان عام(٢٧٩هـ/٨٩٢م) وجعلوها مستوطنة خاصة بهم، واتخذ زعيمهم محمد بن القاسم السامي من جندوار مركزاً لحكمة ، وبلغت تلك الإمارة اوج عظمتها في عهد أسد بن اللهاث عام (٣١٠هـ/٩٢٢م) حتى قضي عليها القرامطة[٧٨].

مرة أخري ومع ازدياد وتيرة الصراع الأموي مع عبد الله الزبير اضطرت جماعة كبيرة من القرشيين للهجرة إلي السند قادمين من المدينة المنورة ، واستوطنوا ساحل الهند الغربي – الكجرات – وكونوا جذور جالية عربية كبيرة عرفت بقبائل النوات ، وظهر منهم كبار العلماء واشهرهم ملا على المهايمي الذي ينسب إلى مدينة مهايم في بومباي و أجداده من القرشيين العرب[٧٩].

و من أهم القبائل القرشية التي كان لها دور في الهند بني ثقيف التي كانت منازلها تمتد من جبل الحجاز بين مكة والطائف [٨٠] ، وظهر منهم القائد محمد بن القاسم الذي قاد جيوش الفتح وعمره سبعة عشر عاماً فاستولي على مدن السند مثل بيرون ، و سيهان، وضم مقاطعتي السند والهند للحكم العربي [٨١] وجذب بنشاطه و شاعريته قلوب المستوطنين العرب و الهنادكة الذين رسموا له صورة لطيفة واحتفظوا بها [٨٢] تقدير لهذا البطل العظيم وتخليداً لتسامحه وتعاطفه معهم.

برغم تلك الضربة الموجعة التي تعرض لها المستوطنون الثقفيون في الهند أثر موت الحجاج بن يوسف الثقفي ثم محمد بن القاسم إلا أن زعيمهم عمرو بن محمد شيد لهم مستوطنة عظيمة في مدينة المنصورة التي اعتبرت مقراً قرشيا في الهند [٨٣] ، ولم ينجح الوالي الجديد منصور بن جمهور الكلبي في السيطرة على الهند ألا بعد أن كسر شوكة المستوطنين القرشيين واغتيال زعيمهم عمرو بن محمد [٨٤] ، وقد ادرك الخليفة هارون الرشيد مدي مكانة وجهاء العرب القرشيين في الهند فوقع اختياره على بعضهم ليتولى شأن الإقليم مثل على بن عبد الرحمن بن سليمان ، واسحق بن سليمان ، وعندما عزل الأخير وولي مكانه طيفور الحميري، هاج الهاشيمون في السند ، وأردوا قطع دابر الحميريين ، وطرحوا مشروع تقسيم الهند بين القبائل النزريه – العدنانيون – الشمالية دون الحميريين الجنوبيين [٨٥].

كان نفوذ القرشيين يتسع يوماً بعد يوم في السند وخصوصاً ولد هبار بن الأسود القرشي الذين اتخذوا من مدينة بانه الكجراتيه مستوطنة عظيم لهم [٨٦] ، ورويداً اخذ نفوذ الهباريين يصل إلى مدينة المنصورة التي انتقل إليها زعيمهم عبد الله بن عبد العزيز الهباري ، وكانت تلك المدينة بها مستوطنون كثيرون من نسل سيدنا على بن ابي طالب ، فتعاونوا مع الهاربين في السيطرة على المدينة [٨٧] ، واحتفظ العرب القرشيين بمنزلة رفيعة في ساحل الكجرات ، وكان منهم أعداد غفيرة من قبيلة بكر بن وائل في مدينة كنبايت وكان اغلب رجالهم من العلماء الصالحين المعروفون بورعهم وتقواهم [٨٨].

(ب) صراع المهاجرين القبلي وأثره على العنصر العربي في الهند:ـــ

حملت القبائل العربية المهاجرة للهند معها عصبيتها مما أثر سلباً على المستوطنين العرب ، فكان الأخذ بالثأر أحد أهم أسباب هذا الصراع القبلي البغيض ، فبعد أن قتل الحجاج أناساً

من آل المهلب استغل المهالبة وفاته و نلكوا ببني عقيل في الهند وكان أكبر ضحية لهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي ، وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك سبباً في تزكية هذا الصراع بعدما كتب إلى صالح بن حبيب المهلبي وإلى السند بأخذ بني عقيل ومحاسباتهم (٨٩). وعلى جانب آخر استغل بعض الولاة التنافس القبلي بين المهاجرين العرب لبسط سيطرتهم على الهند من خلال أشعال نار الفتنة بينهم وهذا ما فعله محمد بن عدي التغلبي في عهد هارون الرشيد ، وكان ذلك سبباً في قتله على يد وجهاء العرب أثناء رحيله من المنصورة إلى الملتان، أضف لذلك اختلال توازن القوي بين المتنافسين العرب مما تسبب في طغيان أحد القبائل حيث تعرضت قبيلة تميم لنكسة عظيم عندما ضرب الطاعون ابناءها في منطقة ماء الجواميس (٩٠) مما رجح كفة منافسيهم من الأزد حتى انتهت الحرب بينهم إلى فناء المستوطنين التميميين.

ومن أسباب الصراع القبلي العربي السيطرة على المدن الرئيسية في السند ويذكرنا ذلك بصراعهم في الجاهلية على المراعي و الكلأ، وقد شكلت مدينتي المنصورة والملتان مركز هذا الصراع حتى حسمه القرشيون فسيطر بني سامية على الملتان، و الهباريون على المنصورة(٩١)، ولعل أي محاولة لرصد الصراع القبلي العربي في الهند خلال فترة البحث ربما تحتاج منا بحثاً مفصلاً ، ولكن بشكل غير مسهب فإن أول شرارة لهذا الصراع كان ما قام به هلال بن أحوز التميمي من قتل آل المهلب في السند إبان حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك فضرب عنق كل من بلغ الحلم منهم حتى كاد أن يفنيهم ووصف الشاعر جرير تلك الواقعة فقال:

فلم يبق منهم راية يعرفونها ولم يبق من آل المهلب عسكراً (٩٢).

علي اثر تلك الحادثة ازداد نفوذ المستوطنين التميميين فدارت بينهم وبين بني ربيعة حرب طاحنة بلغ فيها جند التميميين عشرون الفاً حتى قضوا على منافسيهم عام (١٣٤هـ/٧٥١م)(٩٣) . وكان الصراع القبلي خارج الهند يؤثر سلباً على استقرار المهاجرين العرب داخلها فمن ضمن وقائع عام (١٧٦هـ/٨١٥م) حدوث صدام عنيف بين النزرية واليمانية في الشام حتى كاد زعيم النزرية أبو الهيذام المري أن يستولى على دمشق(٩٤) ، وقد انتقل هذا الصراع إلى الهند مما دفع الخليفة المهدي إلى توليه سبع ولاة على الهند عسي احدهم أن يقضي على نار الفتنة ، واقترحت النزرية تقسيم الهند ثلاث ربعاً

لقريش و أخر لقيس وثالث لربيعة وطرد اليمانية نهائياً ، وبلغت المواجهة بين الطرفين أشدها عندما استطاع عمر بن عبد العزيز الهباري قتل الوالي عمران بن موسي البرمكي بعدما اتهمه بمحاباة اليمانية واستولى على مدينة المنصورة [٩٥] وعندما حاول الخليفة المتوكل تهدئة أوضاع الهند أرسل إليها عام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) هارون بن خالد المروزي فلم يمكث سوي أربع سنوات حتى قتل أثناء الصراع القبلي[٩٦].

أثر هذا الصراع على المستوطنين العرب في الهند تأثيراً سلبياً ففي احد عشر عاماً وهي فترة حكم الخليفة المهدي تعاقب على البلاد سبعة ولاة مكث بعضهم اقل من عشرين يوماً ، وظهرت فكرة تقسيم الهند بين المستوطنين العرب تلك الفكرة التي اختمرت بعد القرن الثاني فتم تقسيم البلاد فعلاً بين الساميين و الهباريين ، فاشتد عود الشيعة ، وأخذوا يسيطرون على الهند شيئاً فشيئاً ، وتجددت ثورات الزط ، وانشغل الولاة فقط بمحاولة فض هذا النزاع الأزلي دون تدعيم النفوذ العربي في الهند [٩٧] وأصبحت المستوطنات العربية شبه قلاع عسكرية وضع على كاهل ساكنيها صد الهجمات المتكررة من جانب الهنادكة.

اضطر المستوطنون العرب للحفاظ على مستوطناتهم المتواضعة التنازل عن مبادئ دينية فنجد ملوك الملتان يبقون على الصنم الكبير في المدينة ليضغطون به في الوقت المناسب على المهاجمين عليهم من الهنادكة فيهددونهم بتدميره [٩٨] ، وضاعت الهوية العربية المتميزة وأخذ ملوك العرب يقلدون الهنادكة في ملابسهم و زينتهم بل و ألقابهم ومن ثم أصبح تاريخهم في تلك الحقبة مشوهاً ، وأصبح جلياً مدي الصعوبة التي تكتنف البحث في تاريخ المستوطنين العرب في الهند بعد القرن الثاني الهجري حتى أن اغلب أمهات كتب التاريخ الهندي تفتتح عهد الإسلام في الهند بالحقبة الغزنوية وليست العربية مثل فرشته و البدواني ونهاوندي صاحب موسوعة مآثر رحيمي وغيرهم.

فقد المستوطنون العرب منزلتهم الاجتماعية المتميزة ، واندمجوا مع القبائل الهندية الأخري، و أسندت إليهم أعمال كان يقوم بها طائفة الشودر أو المنبوذين من الهنود مثل العمل كمرتزقة أو قصابين [٩٩] ، و انيط بهم العمل في حقول القطن مثل قبيلة السدودي كولا[١٠٠] ، وكل ذلك بلا شك أضعف من مسيرة انتشار الإسلام في الهند على حساب النفوذ الهندوكي المتصاعد ، وكان لابد من أعادة الإسلام إلى سالف عهده وتلك المرة على يد الغزاة الأتراك من الغزنويين ثم الغوريين.

(ج) عناصر السكان من المهاجرين الهنود :ـــ

كان يقيم في البلاد العربية منذ القدم جماعة اشتهروا ولقبوا بالأحامرة أو الحمر ، وكانوا في البداية من الهنود فقط ، ولكن شمل هذا اللقب مواليهم من فارس الذين اسلموا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وعرفوا بحمر الديلم (١٠١) وترجع تلك التسمية إلى ارتدائهم الملابس الحمراء الدالة على الديانة البوذية (١٠٢) وكان الهنود الأحامرة قد تميزوا باستخدام الصبغة الحمراء التي مصدرها النيلة ، وهذا لا يجب أن يحدث لبساً عندنا وخصوصاً إذا علمنا أن العرب أطلقوا على العجم الحمراء لغلبة الشقرة عليهم . كما أن الأحامرة تمثل عند العرب متع الحياة الثلاثة وهى الخمر واللحم و الخلوق، وذكر الأعشي ذلك موضحاً أثر الزعفران الذي كان الأحامرة يستخدمون في صبغ ملابسهم.

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها قديماً مولعاً

الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعاً (١٠٣)

كان الأحامرة من سكان إقليم السند، وقد نزلت جاليات كبيرة منهم الأراضي العربية وسكنوا مدينة البصرة، واشتهروا بطول قاماتهم (١٠٤) ، وكثر تواجدهم بين قبيلة الأزد التي كانت تسكن منطقة عمان ، وانضم جزء أخر منهم إلى قبيلة بني تميم وهم بنو زهرة ، وصاروا حلفاء لهم، ولما قررت لهم الوظائف صار لهم نقيب عرف بديلم ، ووجدت جماعة منهم في منطقة العمران الممتدة بين الشام والمدينة وكانوا من حلفاء بني غفار، وحتى عهد الخلفاء الراشدين كان عدد من الأحامرة يخدمون في جيش الفرس، وبلغ تعدادهم أربعة آلاف جندي (١٠٥).

السيابجة قوم من الهنود الذين استوطنوا الأراضي العربية و السيابجة تعني قوماً ذو بشرة سوداء (١٠٦) ، وربما قصد بتلك اللفظة أطفال السيابجة – اللفظة منقسمة إلى سياه بمعنى اسود وبجه وبمعني أطفال – الأمر هنا يرتبط أكثر باللون الأسود سواء في البشرة أو الملبس – الكلمة مأخوذة من كلمة سبيج ومعناها ثوب صوف أسود – ونظراً لكون السيابجة من المنبوذين فقد أطلق عليهم أحيانا البرابرة أو علوج السند، حيث احترف بعضهم السرقة وحراسة السجون (١٠٧).

سكن السيابجة مناطق شرق شبه الجزيرة العربية في الخط و هجر و القطيف بجانب عمان وقطر والبحرين [١٠٨] وقد انضمت جموع منهم للمرتدين بقيادة حطم بن ضيعة وكانوا حتى ذلك الوقت لا يزالون متمركزين في منطقتي القطيف والهجر ، ثم انضموا بعد الإسلام إلى قبيلة بني حنظلة في البصرة ، وكان لأبي موسي الأشعري دوراً في نشر الإسلام بينهم ،[١٠٩]، و بلغ تعدادهم على بيت مال البصرة في عهد الخليفة على بن أبي طالب أربعون وقيل أربعمائة، وفي جيش المهدي الذي سيره لبلاه الهند عام (١٥٩هـ/٧٧٦م) كان فيه أربعة آلاف من السيابجة و الأساورة [١١٠].مما يدل على عمق الدور الذي لعبه السيابجة في الحياة الاجتماعية والسياسية.

من أقل الجماعات الهندية انتشاراً في البلدان العربية البياسرة وهم قوم من السند وقيل جيل من السند يؤجرون أنفسهم للخدمة في السفن [١١١] وعرفوا بأنهم قوم نتجوا من زواج العرب التجار بالهنديات [١١٢] ، وقد اعتاد العرب أطلاق هذه اللفظة على الذين يرافقونهم من الهنود في سفنهم التجارية،ثم أطلقت على طائفة من شيعة الهند المعروفين بالبواهرة وأغلبهم تجار [١١٣] وتلك أحدي التفاسير المقبولة عن لفظة البواهرة.

انتشر البياسرة على ساحل الهند الغربي وكانت لهم علاقات متميزة مع العرب، واكتظت مدينة صيمور الكجراتية بأعداد جمة منهم ، وشاركوا المسلمين في احتفالاتهم ورسومهم الاجتماعية [١١٤] ، وانتقلت جماعة منهم إلى البلاد العربية مثل يزيد بن عبد الله البيسري وكان واحداً من رواة الحديث الثقات [١١٥] ، و التكاترة يقصد بهم القواد العسكريين من الهنود الخلص، وكان أغلبهم يعمل في جيش راجا داهر الذي تصدي للقائد المسلم محمد بن القاسم الثقفي [١١٦] ، ولاشك أن أعداد منهم انضمت لجيش المسلمين بعد الاستيلاء على إقليم السند مثل الأساورة والزط و الميد.

الأساورة من أكثر الجاليات الهندية في المدن العربية ، وبعكس باقي المستوطنين الهنود كان الأساورة من عليه القوم ، وقد جمعهم البيروني [١١٧] مع أبناء الملوك الفرس في طبقة واحدة ، حيث كانت فرقة منهم في الجيش الفارسي يطلق عليها جند شاه ، وقد شكلوا ركناً اساسياً في جيش رستم الذي تصدي للمسلمين في معركة القادسية ، وذكر أنه تقدم للقتال مع جمهرة الأساورة [١١٨].

حكم الأساورة مناطق عربية شاسعة باسم الإمبراطورية الفارسية من العراق إلى اليمن وكانت الأبلة مركزاً عظيماً لهم ، وكانت حضرموت تحت حكم وهرز الأساوري ناهيك عند تواجدهم في البصرة التي حفروا خلالها نهراً بأسماهم [١١٩] . و انتشر الإسلام بين الأساورة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وانضمت جموع منهم إلى بني سعد واسلم قبل ذلك قائدهم باذان حاكم اليمن أثناء البعثة المحمدية ، وظهر منهم رجال إجلاء مثل العالم موسي بن سيار أحد كبار علماء العربية والفارسية وقيل أن سلمان الفارسي أصله أساوري[١٢٠] . واعتبرالأساور بطناً من بني مالك بن جهينة بالحجاز [١٢١]، و انضم أربعة آلاف منهم إلى جيش المهدي الموجه للهند ، وكانوا قبل ذلك قد اتفقوا مع أبي موسى الأشعري أن يقاتلوا الفرس بجانب العرب شريطة أن يتساوا معهم ويحتفظوا بكيانهم [١٢٢] ، فكان لهم دوراً عظيماً في فتوح خراسان.

الميد و الزط من الهند ، والفرق بينهما واضحاً حيث كانت مدينة القيقان مركز الزط بينها تمركزت الميد في قنديبل ، وعرف الزط بقراصنة البحر [١٢٣] ، وانتشرت جاليات زطية في شبه الجزيرة العربية وعرفوا بلباسهم وضخامة أجسادهم وطول شعورهم، لون بشرقم الأسود، وكان المسلمون يشبهون كل قوم سواد البشرة بالزط وخصوصاً إذا كانوا من أهل الهند [١٢٤] ، ألا أنه مع كثرة أعداد العناصر المستقرة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي لم يصبح اللون الأسود هو المميز للزط الذين ازدادت ثورتهم فاضطر عمران بني موسى البرمكي إلى ختم أيديهم وأخذ الجزية منهم [١٢٥] ، وليس معني ذلك ضعف منزلة الزط الاجتماعية حيث تشير الدلائل ارتفاع شأنهم بعدما تزوج أسياد العرب من نسائهم مثل محمد بن هارون الذي تزوج سيدتين من الزط وسيطر ابناؤه على مدن مكران حتى الكجرات في العهد الأموي [١٢٦].

لعب الزط دوراً كبيراً في سير الأحداث السياسية في الأراضي العربية فانضمت جموع منهم إلى المرتدين في البحرين واليمامة ، وفي عهد سيدنا على بن أبي طالب اسند إلى أبي سلمه الزطي زعامة قومه المهاجرين في البصرة ، وسمح لهم باستخدام لغتهم التي أثرت سلباً على فصاحة قبيلة بني عبد قيس ولأزد في عمان، [١٢٧]. وقد قام الخليفة معاون بن أبي سفيان بنقل أعداد من زط البصرة إلى أنطاكيا لصد هجمات البيزنطيين ، فانضم من بقي منهم إلى عبد الرحمن بن الأشعث فقطع عنهم الحجاج الوظائف و أغلق بيوتهم [١٢٨].

أكمل العباسيون طريق الأمويين فجرد عليهم المهدي جيشاً كثيفاً في منطقة البصرة بعدما قتلوا وليه ليث بني طريق، وفاشتدت ثورتهم في عهد الخليفة المأمون ثم المعتصم فقطعوا طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن، واستمرت المواجهات العسكرية بينهم وبين جند الخلافة عامين حتى استطاع القائد عجيف بن عنبسه عام (٢٢٠هـ/٨٣٥م) من قتل قاداتهم واسر سبعة وعشرين الفاً من المستوطنين الزط [١٢٩].

ثالثاً : المستوطنات الحضرية للمهاجرين العرب والهنود :ـ

(١) مليبار : من أقدم المراكز التي استقر بها العرب في الهند ، حيث كشفت الحفريات الحديثة وجود عدة مقابر لمستوطنين عرب يعود بعضها للعام الخامس الهجري ، وأخري تعود لعام (١٦٦هـ/٧٨٢م) ، وعثر على قطع نقود تعود للحقبة الأموية [١٣٠] ، وقد غير المستوطنون العرب اسم الإقليم من كيرلم بمعني سلسلة الجبال إلي مليبار بمعناه المعروف ببلد الجبال، وأول من استعمل هذا الاسم الإدريسي ثم ياقوت الحموي و أبو الفداء [١٣١] ، وكانت أولي المستعمرات العربية في مليبار تلك المعروفة باسم موبلا [١٣٢] ، ومن الموبلا امتداد النفوذ العربي علي مناطق أخري وكان لقبيلة النوات القرشية دوراً في نشر الإسلام في هذا الإقليم (١٣٣) ، وكان أغلب المستوطنين العرب قد قدموا من العراق، و عملوا في تجارة الثياب وصناعة السفن [١٣٤] وظل النفوذ العربي في مليبار متواجداً حتي القرن التاسع الهجري عندما اخذ البرتغاليون ينافسوهم في السيطرة علي الإقليم .

استوطن المهاجرون العرب عدة مدن في إقليم مليبار واشهرها قاليقوط حيث استضاف حاكمها ساموتري أسرة عربية بعد إسلامه في القرن الثاني الهجري وكان أهمها أسرة مالك بن دينار الذي يعد زعيم المهاجرين العرب في مليبار [١٣٥] ، ومن ثم جذبت قاليقوط عرب آخرين من العراق واليمن وحتى القرن الخامس الهجري كانت قاليقوط مركزاً عظيماً للعرب المصريين وخصوصاً الجاريات اللاتي فضلهن التجار العرب والصينيين ، واشتهرت مدينة أبي سرور بكونها مركزاً عربياً و إسلامياً عظيماً في مليبار [١٣٦] ، كما استوطن العرب في مراكز خاصة في مدينة بكلم ، وكانوا يداوون المرضي بالمجان [١٣٧]. مما اكسبهم منزلة اجتماعية متميزة.

وفي مدينة هيلي جالية عربية إسلامية كان اغلبهم قد قدم من مقديشو، وكان علية القوم في مدينة جرفتين من العرب البغداديين وكان لهم دوراً في إسلام ملك مدينة فتن الراجا كوبل منذ زمن بعيد ، وفي مدينة منجرور محله عظيم للعرب تغلق عليهم دون غيرهم ، وساد بينهم المذهب الشافعي [١٣٨] ، ناهيك عن حي العرب في كولم [١٣٩] وبشكل أساسي استوطن العرب ثلاثة وعشرين مركزاً ، و نشروا في تلك المدن المساجد التي يعود بعضها إلى عام (١٢٠هـ/ ٧٠٠م). [١٤٠].

(٢) الكجرات : استوطن العرب مراكز عدة في إقليم الكجرات قبل البعثة المحمدية ، وتزوجوا من نسائهم فأنجبوا لهم الأطفال المعروفون بالبياسرة [١٤١] وقد جاء ذكر إقليم الكجرات لأول مرة في عهد هشام بن عبد الملك ، حيث استطاع عاملة على السند الجنيد بن عبد الرحمن المري غزو منطقة الجزار – كجرات – وحصل منها على غنائم عظيمة [١٤٢] و غطي النفوذ العربي سواحل الإقليم حتى لم يكن هناء ميناء يخلى من المستوطنين والبحارة العرب ،وكانوا يعاملون من قبل حكام الإقليم معاملة حسنة نظراً لما يدفعونه من ضرائب ، وأصبحت تلك البلاد مركزاً عظيماً للمستوطنين الشيعة المعروفين بالبواهرة[١٤٣]

من مراكز الكجرات الهامة كمباي – كنبايت – التي كانت مركزاً للمستوطنين العرب، وكانت السفن العربية تحمل إليها الخيول الأصيلة ،فاستقرت بها جماعة من ديار بكر [١٤٤] ، وكانت كمباي مركزاً للدعوة الإسلامية لذا انتقل الإسلام منها إلى إندونيسيا [١٤٥] ، وتعد مدينة تانه أكبر المراكز العربية في الكجرات دخلها العرب عام (١٥هـ/٦٣٦م) [١٤٦] ، وفي مدينة سومنات استوطن العرب و تأثروا بفكرة تناسخ الأرواح ، وقد تأثر المستوطنون العرب عام (١٩١هـ/ ٨٠٦م) عندما هاجم راجا شيم السفن العربية التي كانت تحمل بضائع لهم قيمتها مليون وسبعة آلاف روبية [١٤٧] مما يدل على مدي حجم التبادل التجاري بين الهند والعرب ودور المستوطنين في ذلك .

أما مدينة صيمور الواقعة قرب بمباي حالياً فقد استوطنها العرب بكثرة وبلغ تعداد منازلهم عشرة آلاف منزل يقطنها تجار من عمان والبصرة وبغداد [١٤٨] ، وهذا العدد الضخم دفع بعض الباحثين المعاصرين للجزم بان سكان مدن كنكي و صيمور منحدرون من أصول عربية ومتشربون الثقافة والتقاليد الإسلامية [١٤٩] ، بجانب ذلك استوطن العرب مناطق أخري مثل بهروج و كجه التي تمركز بها أبناء القائد العربي جمال الدين بن محمد بن

هارون النمري وهو والد لخمسين أخ توزعوا على مدن الهند في العهد الأموي ، وكان البياسرة من الزط و البلوص من أبنائه وقد تزوج من هاتين القبليتين. [١٥٠].

(٣) السند : قسم الجغرافيون العرب الهند إلى إقليمين عظيمين الهند والسند الذي اعتبرت مدينة الملتان قاعدته الرئيسية ، وهي أول المدن التي سقطت في أيدي العرب، و أطلق عليها محمد بن القاسم المعمورة ، [١٥١] وادي تزايد أعداد المستوطنين العرب فيها أن أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأساسية فيها وكان أكثرهم من بني سامية بن لؤي الذين أقاموا في حي خاص بهم عرف باسم جندوارة[١٥٢] ، وقد سيطر الشيعة على مدينة الملتان أواخر القرن الثالث الهجري حتى استخلصها منهم السلطان محمود الغزنوي.

والمقر العربي الثاني في السند مدينة المنصورة التي كانت تعرف باسم برهمناباد [١٥٣] ، وقد أهتم المستوطنون العرب بتلك المدينة وجعلوا لها أربعة أبواب رئيسية هي باب طوران، سندان، الملتان وباب البحر ، و أقيم المسجد الجامع في وسط السوق، وكانت اغلب رسوم أهلها الاجتماعية تقارب أهل العراق . وجه العرب أنظارهم إلى مدينة الديبل السندية وكانت من قبل مركز قبائل الميد ، فسكنها مستوطنون من قبيلة بني تميم، والواضح أن التواجد العربي في الديبل كان مقتصراً على قلب المدينة ، وقد أحاط بتلك المنطقة مائة قرية أكثر أهلها من الهنادكة، وكان الغالب عليها اللسان العربي [١٥٤] ، واتصل عرب الديبل بأهل البصرة واعتمدوا في غذائهم على تمرها وكان من أكثر السلع رواجاً في الديبل[١٥٥].

تعد مدينة القفص أول المدن التي سكنها العرب عام (٣١هـ/٦٥٢م) وحددوا مساحتها، واقطعوا لهم القطائع ، ومن المدن الأخري بيرون – نيكركوت – ثم مدينة الرور ، وكذلك أصبحت السندان مركزاً عربياً في عهد الخليفة المأمون وكان يسيطر عليها أبناء الفضل بن ماهان من بني لؤي [١٥٦] ، وعمر العرب مدن أخري اشهرها المحفوظة التي شيدها الحكم بني عوانه الكلبي واسكنها جند العرب [١٥٧] ، وفي مدينة بيانه استوطنت جالية عربية في نسل الصحابي الجليل الزبير بن العوام [١٥٨].

(٤) سرنديب : عرف العرب جزيرة سرنديب باعتبارها معبراً اساسياً لصيد اللؤلؤ، واستوطنها عدد من التجار العرب وعقب وفاة بعضهم أرسل ملكها عدد من النسوة المسلمات إلى الحجاج ، وكانت جماعة من العرب اعتادوا زيارة قدم سيدنا آدم فيها [١٥٩]

وفي جزيرة ذيبة المهل وجدت جالية عربية كبيرة اغلبهم من مقديشو، وكان عليه القوم بها من عرب اليمن والمغرب وانتشر بينهم مذهب الأمام مالك [١٦٠] ، أما ساحل الهند الشرقي- كروماندل – فقد استوطنه جماعة كبيرة من سكان سواحل شبه الجزيرة العربية وكانوا يتاجرون في الخيول في عهد أسرة بانيا وكان أكثرهم من عدن، وكانت مراكز استيطانهم في مدن كايل، كيزكر، و ملاي فتن، وانتشرت الأسماء العربية بين أبناء الملوك والوزراء مثل محمد ، عبد الرحمن ، تقي الدين ،وغلب على مساجدها التأثير العربي فهي تشبه تماماً مساجد بغداد [١٦١].

ولعب تجار كنبايت العرب دوراً نقل الإسلام إلى جزر الهند الشرقية- إندونيسيا – التي استقر بها عدد منهم ويدل ذلك على كثرة المقابر في العاصمة سومطره وقد سطر عليها عبارات باللغة العربية ، و كثر المستوطنون العرب في مدن سومطره ، بورنيو ، وجزائر السيلا ، وذلك منذ عام (٥٤ هـ/ ٦٧٤م) [١٦٢]، ويذكر أن أول أسرة حاكمة في جاكرتا كانت عربية عرف رئيسها بلقب الشيخ وهم من بقايا العلويين من أتباع المهاجر أحمد بن عيسي بن محمد بن على ، وقد بلغ ابناؤه كمبوديا وتزوج احدهم ويدعي الحسين من الأميرة باني ولاق من أهل سيام[١٦٣].

(٥) الدكن وكشمير : استوطن العرب هضبة الدكن في الوسط الهندي وخصوصاً مدينة بتان التي رحب حاكمها جياسنها من أسرة راشتركوتا بالعرب و أنزلهم منزلة رفيعة [١٦٤] ، أما كشمير فقد ظلت بسبب موقعها الجغرافي المنيع عاتية على الغزاة العرب ألا أن الضغط الشديد الذي مارسه محمد بن القاسم الثقفي علي إقليم السند أدي إلى فرار احد رجال العرب المخالفين لبني أميه وهو حميم بن الحارث إلى الجنوب الكشميري مع راجا جي سنك[١٦٥] ، وامتد النفوذ العربي في كشمير حتى طال مدينة راجوري ، وزاد أعداد المستوطنين العرب مع قدوم طائفة من الهاشميين العرب إلى كشمير عرفوا باسم السادات[١٦٦] ، كان منهم كبار الوزراء والولاة والعلماء.

(٦) مراكز المستوطنين الهنود : كانت العراق مركزاً هاماً للمستوطنين الهنود في البلدان العربية وخصوصاً مدينة البصرة، التي سكنها أعداد جمة من الزط، ونظراً لتمردهم على الأمويين فقد نقل الخليفة معاوية أسر عديدة منهم إلى أنطاكيا ، ونتيجة لازدياد عددهم في البصرة وانخفاض مستواهم الاجتماعي فقد كانت نساؤهم جواري للمسلمين ، واشتهر احد

التجار ببيعه الرقيق الزطي فأطلق عليه ميسرة بياع الزط (١٦٧)، واستوطنت جاليات من السيابجة البصرة وكانوا يعملون على بيت مال المدينة، و أطلق على مدينة الأبلة نتيجة لكثرة الهنود بها فرج الهند (١٦٨) وجذبت بغداد عدداً من الأطباء الهنود مثل منكه و بازيكر وسندباد.

وفي الخليج العربي انتشرت الجاليات الهندية في البحرين وعمان ومنطقة دارين التي تنسب إليها المسك الهندي المعروف بالدريني ، وتمركز الهنود في سوق دبا العماني، وكان الأساورة قد فرضوا سيطرقم على المدينة ، و نقل المهاجرون الهنود إلى عرب الخليج محاصيل هامة منها النارنج والقطن إلى العراق (١٦٩) ، وكانت اليمامة مركزاً للرقيق القادم من الهند واشترك بعضهم مع السيابجة والزط في حروب الردة ، ونتيجة لكثرة الهنود في تلك المنطقة فقد اثروا سلباً على اللغة العربية التي دخلتها لهجات وكلمات هندية عديدة.

وكان الزط قد استوطنوا مناطق عدة في الحجاز مثل مكة وخصوصاً في بطائحها، وعمل بعضهم في مجال الطب وفك السحر في المدينة ، وتأثر سكان نجران بملابس الهنود المقيمين بينهم وطائفة منهم نزلت منطقة تبوك مثل أبي هجم (١٧٠) أما اليمن فقد كانت مركزاً للأساورة وخصوصاً منطقة ظفار ، وفي حضرموت توفي ملك مليبار جيرمان وهو في طريقة مع طائفة من الهنود إلى الجزيرة العربية ، وقد جذب قبره عدداً من الهنود إلى اليمن (١٧١). وفي الشام أنشأت مستعمرات هندية وخصوصاً في أنطاكيا التي نقل إليها عدداً من زط البصرة ، ووجد فيها حي خاص أطلق عليه حي الزط وفي بوقا من عمل اللاذقية قوماً من أولادهم (١٧٢) ، وفي مصر حط الهنود المهاجرين رحالهم في وقت متأخر من القرن الثاني وكان اغلبهم يسكن في الرباطات والزوايا الصوفية ، وكانت لهم مقبرة خاصة عرفت بمقبرة الهنود ، وأشهر زوياهم زاوية الحلاوي بالقرب من الأزهر، وفي القيروان استوطنت فئة قليلة من الهنود، كان أغلبهم من ذوي المال والجاه حتى بني احدهم مسكناً لطلاب العلم على ضريح الصحابي الجليل أبي زمعة البلوى وجعلها وقفاً لله تعالى (١٧٣) ، وبذلك تكون الجاليات الهندية غطت في ترحالها و أقامتها أغلب مدن الوطن العربي.

رابعاً : الآثار الاجتماعية المترتبة على الهجرات العربية الهندية:ـــ

(أ) منزلة المهاجرين بين طبقات المجتمع الهندي والعربي:ـــ

للهند نظام طبقي خاص فهم يطلقون على طبقاتهم برن أي الألوان وهي أربع البراهمة أو رجال الدين و الكشترا وهم رجال الحرب و البيش والشودرا أو الحرفيون (١٧٤) وفي مليبار ذات الأغلبية العربية توجد طبقتين فقط ناير وهى العليا وبلين وهى الدنيا (١٧٥) ، ومنهم جماعة مكهرون أي السماكين و تشرومن أي حرات الأراضي الزراعية (١٧٦) ، وفي كشمير نظاماً أخر حيث قسم المجتمع إلى زمرة الأشراف ومنهم طبقة العرب بجانب الأمراء والسادة، وطبقة الرعاع وهى التي تضم باقي أبناء الشعب الكشميري الذين يعملون في الوظائف المتدنية(١٧٧).

احتل العرب قمة النظام الطبقي الهندي لعدة عوامل كان أهمها تشبههم الواضح براجات الهند في ملابسهم و ألقابهم وحتى استبدالهم الخيول بالفيلة التي أطلقوا عليها ألقاباً خاصة مثل منفرقلس و جيدره وتولوا أهم الوظائف مثل رئاسة الجالية العربية المهاجرة وعرف صاحبة بالهنرمة وكان يلجأ إليه لحل المشاكل بين الهنود والعرب (١٧٨) ، وتولى العرب قيادة الجيش الهندي مثل أبناء قبيلة مركار العربية في مليبار وهم الذين قادوا جيش راجا ساموتري، ناهيك عن دور المستوطنين العرب في إنشاء المشاريع الخيرية الكبرى مثل المستشفيات المجانية في مناطق بكلم و جاليم و اختلطوا بالأهالي وبادلوهم الاحترام والتقدير وخير مثال على ذلك قبيلة رشيد ذات الأصول العربية والهندوكية في السند (١٧٩).

كسب العرب ود الهنود واحترامهم وخاصة المنبوذين الذين ابكو رحيل محمد بن القاسم عن الهند ورسموا له صورة ووضعوها في مدينة الكيرج، وفي مناطق قنوج و مالوه و الكجرات كان للعرب منزلة اجتماعية عظيمة حيث استقبلهم الحكام واحتفوا بهم وتقلب راجا المليبار بعبد الرحمن، و ساد اعتقاد بين هؤلاء الحكام انه بحب العرب تطول حياتهم(١٨٠). وفي كرومندل حصل العرب على منصب الوزارة مثل الوزير تقي الدين الذي لقب بالملك الأعظم ، أما في بيانه فأن كبار الأئمة والفقهاء فكانوا من أبناء الجالية العربية وكانوا يتوارثون هذه المناصب باستمرار (١٨١).

تتضح المكان الاجتماعية المتميزة للمستوطنين العرب في الهند من خلال الألقاب الفخرية العامة التي حصلوا عليها مثل السادات في كشمير و مابلا- لأبن العظيم - في مليبار، واعز الناس و الأعزة في كوكم، بالإضافة للقب مهاراج - الحاكم الأعظم - في السند وغيرها من الألقاب الأخرى، وفي المقابل حصل المستوطنون الهنود على ألقاب أخري تدل على تدني منزلتهم الاجتماعية مثل الميد - الرائحة التنينه - و السيابجة - الأطفال السود(١٨٢) ولاشك فإن تلك الألقاب كانت تدل على منزلة المستوطنين العرب الهنود وتعكس تقدير المجتمع لهم.

حاول المستوطنون الهنود الوصول للطبقة العليا في البلدان العربية عن طريق عدة وسائل فنجد الزط يحالفون بني باهله وحالف الأحامرة بني اسلم وبني تميم و الأساورة حالفوا بني سعد واعتبروا جزءً من القبائل العربية، وتزوج بعضهم في عليه القوم مثل التاجر إبراهيم بن مقسم القيقاني الذي تزوج من عليه بنت حسان وكانت من اشهر نساء البصرة ، و ابنها المحدث المشهور إسماعيل بني إبراهيم المعروف بأبن عليه، أما شيرباميان الذي اسلم على يعد مزاحم البسطامي فقد زوج ابنته من ابنه محمد ويكني أبا حرب وبذلك وصل بعض الهنود للمناصب الكبرى مثل أبو حارثة الهندي صاحب بيت المال في عصر الخليفة المهدي(١٨٣).

وتتضح المكانة الاجتماعية للمستوطنين الهنود من خلال سطوع نجم البرامكة الذين كانوا بوذيين هنود وليس مجوس فارسيين وهم الذين جلبوا إلي بغداد كبار العلماء الهنود، وكان يحي بن خالد البرمكي قد تلقي تعليمه في كشمير و أراد أن ينقل علومها إلى بغداد (١٨٤) ، و ممن تولوا مناصب رفيعة محمد بن شاهيك قائد حرس الخليفة المنصور والرشيد وهو والى مدينة واسط في عهد المأمون وعهد إليه بنقل جثة جعفربن خالد البرمكي ونصبها على جسر واسط (١٨٥).

برزت عائلات هندية في العراق اشهرها القيقانية و رأسها هو التاجر الهندي إبراهيم بن مقسم الذي تزوج من السيدة عليه البصرية فولدت له المحدث المشهور إسماعيل وكان معاصراً للعلامة وكيع بن الجراح وتولى صدقات البصرة ت(١٩٣هـ/ ٨٠٩م) ، والابن الثاني هو ربعي الذي اشتغل أيضاً بعلم الحديث وكان من ابرز شيوخه، و لإسماعيل بن إبراهيم ولدان هما إبراهيم ويكني بأبي إسحاق وكان من كبار المتكلمين وله مناظرات مع الشافعي في مصر وبغداد ، والأخر هو حماد الذي ورث علم الحديث عن أبيه وهو أخر من

توفي من أبناء تلك العائلة عام (٢٤٤هـ/٨٥٨م) ناهيك عن العائلة الشاهيكية وظهر منها محمد بن شاهيك قائد الحرس في عهد الخليفة الرشيد ومن أبنائه العلامة إبراهيم الذي اعتبر حجه العلوم والفنون ذكره الجاحظ في البيان و التبين و اثنى عليه و الأخر هو نصر وكان من ابرز دعاة العباسين (١٨٦).

احتل الهنود مكانة عظيمة بين أبناء الطبقة الوسطي في المجتمع العربي فكان منهم الشعراء مثل أبو عطاء السندي من مخضرمي شعراء الأمويين والعباسين وهو مولى بني أسد ، و نجيح بن عبد الرحمن أبو معشر السندي مولى أم سلمه وهو من رواة الحديث ، وله كتاب بعنوان المغازي ، وقد أمر له الخليفة المهدي بألف دينار ت(١٧٠هـ/٧٨٦م) ، ومن اللغويين ابن الأعربي صاحب كتاب الأنواء و أسماء الخيل و أسماء البئر، ومن الأطباء صالح بن بهله و كنكه صاحب كتاب النمودار في الأعمار ، و أسرار المواليد . ومن ابرز أبناء تلك الطبقة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الزطي ، و الأمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزعي السندي ت(١٥٧هـ/٧٧٤م) إمام أهل الشام والأندلس وصاحب كتاب السنن في الفقه والمسائل في الفقه (١٨٧) وقد ارتفعت مترلة هؤلاء العلماء ونالوا الحظوة عند العامة والخاصة.

ومن أبناء الطبقة الدنيا من الهنود أصحاب الأعمال المتدنية مثل السيابجة الذين عملوا مرتزقة في الأسطول العربي، والزط الذين اشتغلوا بحراسة بيت مال البصرة ، وكان بعض السيابجة يعمل في رعي الأغنام في البحرين وعمان ، واحترف بعضهم تربية الماشية ، وقد أهمل شأن أبناء تلك الطبقة فنجد الحجاج يغلق عليم بيوتهم في البصرة ويمنع عنهم الوظائف وكان يتم بيع أغلبهم في سوق الرقيق(١٨٨) ، وفي المقابل وبالرغم من أن العرب المستوطنين مليبار علموا في أعمال متدنية تخص طبقة الشودرا مثل الزراعة ، إلا أن تراثهم الديني والثقافي جعلهم من طبقة أشراف مليبار (١٨٩) عكس المستوطنين الهنود.

(ب) الطوائف والمذاهب الدينية :ـ

أثر المستوطنون العرب والهنود في وجود قواسم مشتركة بين أديان الهند والعرب مثل تقدير البقرة التي كان العرب يعتقدون في قدرتها على جلب المطر إذا ما علقوا في عراقيبها و إذناها السلع والشعر ويشعلون فيها النار وفي ذلك يقول الشاعر الورل الطائي

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة   وسيلة منك بين الله والمطر

وكان للبقرة منزلة عظيمة عند طائفة الهندوس وهم يحرمون لحمها و يتعففون عن ذلــك نهائياً ، والمسخ كعقيدة في الأديان الهندية وجد لها صدى عند العرب فيما ذكر عن عمرو بن لحي في الرجل الصالح الذي كان يلت السويق عند صخرة الطائف .فلما مات ادعــي أنــه دخل إلى جوف الصخرة فعبدها الناس، وما قيل عن أساف ونائلة من أنهما كان رجــل و أمراة قاما بعمل قبيح فمسخا صخرتين عند الكعبة ، وعرف العرب المجوسية وكان رئيسهم يعرف بالموبذان وهي تقابل لفظة الهرابذية وهم قوم بيت النار في الهند (١٩٠)، وهناك فرقــة دينية تأثرت فيما تدعي بالملة الإبراهيمية ــ الحنفية – وقد اتبع أصحابها اصــلين مــدبرين يقسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ، ويعرفون بالثناويين، ناهيــك عــن طائفة الأحامرة البوذيين في الأراضي العربية(١٩١).

وبالنسبة للدين الإسلامي فإن له صدي كبير في أديان الهند فأغلب الهنود يؤمنون بإلــه واحد أزلي من غير ابتداء ولا انتهاء و للمرآة الهندية صداق لا يجوز أخذ شــيء منــه دون موافقتها ، وكان يحق للبرهمي الزواج من أربع ، وعرفوا النكاح غير الشرعي (١٩٢) ، ونقل الهنود السبحة للعرب، وكانوا قبل ذلك يسبحون بالحصى أو نوي الــبلح، أو الخيــوط أو الأشجار ، وجاء أقدم ذكر للسبحة في عهد الخليفة الأمين على لسان الشاعر أبو نــواس في قصيدته التي خاطب بها الوزير أبن الربيع من سجنه (١٩٣) وكان أغلب المستوطنين العــرب من الكجرات يستخدمون السبحة (١٩٤) ، وكل ذلك كان ســببه النشــاط الاجتمــاعي للمهاجرين العرب والهنود.

السمنية : ينسب المذهب السمني إلى صنم سومنات الواقع في نفس المدينة التي تحمل اسمه على ساحل الكجرات ، وقد اعتقد الهنود فيه بشده ، واعتبروا القمر خادماً لــه لان يقــع قرب ماء البحر فيغمره الماء في حال المد والجزر ، وهم يحملون إليه الماء المقدس مــن نهــر الكنك و ورود كشمير واعتقدوا أنه يشفي من العلل والأمراض ، وبه ارتبطــت عقيــدة التناسخ حيث يزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشــئها فــيمن يشاء، وهذا الاعتقاد هوعلم النحلة الهندية مثل الإخلاص في الإسلام والأسباب في اليهودية ، و التثليث في المسيحية (١٩٥)، وقد أثر هذا المذهب في العرب تأثيراً شديداً.

كان للسمنيين نفوذاً عظيماً في إقليم السند، ويذكر أن عدداً منهم توسط لعقد الصــلح بين العرب وأهل السند إبان غزو محمد بن القاسم للإقليم (١٩٦) ، وكان المستوطنون الــزط

يعتقدون في التناسخ حيث خاطبوا سيدنا علي قائلين أنت أنت معتقدين أن الذات الإلهية تناسخت وحلت فيه [١٩٧] ، وتأثرت الشيعة بالسمينة وخصوصاً فرقة عبد الله بن معاوية ذي الجناحين الذي ادعى أصحابه أن روح الله تناسخت في آدم ثم صارت إليه ، وفرقة الخطابية أصحاب ابن الخطاب بن زينب واعتقدوا أنهم لا يموتون و أنما يرتفعون بأبدانهم إلى السماء وأدعي آخرون منهم الإلهية لأبناء علي على التناسخ [١٩٨].

وقبل هؤلاء كان الشيعة أصحاب عبد الله بن سبأ فقد رووا عنه أنه قال لسيدنا علي أنت أنت ، و أنتشر هذا المذهب في البصرة وكان من المروجين له رجل يدعي جرير بن حازم الأزدي ، وقال بعضهم أن أرواح الذين لا يؤمنون بعلي تحل في أجساد الكلاب والحمير عكس المؤمنين [١٩٩] ، أثر مذهب السمينة على فرق الروافض ومنهم من أنكر القيامة و الآخرة و قال أنما هي أرواح تتناسخ وأن الدنيا لا تفنى إبداً (٢٠٠) ودفع كل ذلك بعض رجال السنة الغيورين إلى تدمير صنم سومنات وتم ذلك على يد السلطان محمود الغزنوي ، وقد عرض عليه سدنة الصنم أخذ وزنه ذهب فرفض [٢٠١].

مذهب شانكار : أدي الصراع بين البوذية والهندوسية في مليبار إلى حدوث ارتباك شديد بين الأهالي الذين انتشرت بينهم الخزعبلات والخرافات في العقيدة، في وقت كان العرب قد اخذوا يفرضون سيطرقم الدينية و الثقافية على أهالي مليبار [٢٠٢] وفي أطار ذلك ظهر الفيلسوف الديني العظيم شانكار ماجاريار مؤسس مذهب ويشنو ت(٢٠٤هـ/٨٢٠م) ولم يعمر شانكار سوي اثنتين وثلاثين عاماً وضع من خلالها شروحه علي كتب الهندوس المعروفة بالفيدا ، وصور الوضع الديني للهندوسية متأثر بالمفاهيم و الأفكار الإسلامية [٢٠٣] وكان ذلك بلا شك أثر تأثرة بالمستوطنين العرب المقيمين في مستوطنة الموبلا.

اعترض شانكار على طبيعة الشرك في الهندوسية وتعدد الآلهة واعتبر أن هناك خالق واحد يعبد في أطار نظام توحيدي يعتمد على كتاب منزل من خلال وحي معلم وكل تلك الأفكار لها مطابقة شديدة في الإسلام [٢٠٤] ، وقد تأثر شانكار بالمستوطنين العرب أصحاب النشاط البارز في نشر الإسلام في مليبار و إقامتهم العديد من المساجد فيها، ناهيك عن وجود نظام توحيدي ربط بين الإسلام والهندوسية عرف بالنظام البختي، ووجود كلمة الله ذات الأصل العربي في المؤلفات الدينية الهندوسية آنذاك [٢٠٥]. ومما يزيد من يقيننا بتأثر شانكار بالفكر العربي الإسلامي ، إسلام راجا كالادي المحل الذي ولد فيه شانكار، ورفض

طائفته لأفكاره الدينية التي رأوا فيها ثورة ضد الهندوسية وتمرداً على الفكر البرهمي ومن ثم تم استبعاده عنهم [٢٠٦] وقد امتد تأثيرأفكار شانكار فيما بعد على أتباعه ونشأت عشر جماعات دينية تحمل اسمه ، وأصبحت موسوعته موهامودجار – مطرقة الحماقة – من أشهر المؤلفات الفلسفية الدينية واعتبر هو أعظم فلاسفة الهند [٢٠٧].

الطوائف الإسلامية : أحرز العرب تقدماً في نشر الإسلام في الهند حيث اسلم راجا سرنديب عام (٤٠هـ/٦٦١م) الذي أرسل وفداً إلى الحجاز لمعرفة أحوال المسلمين وكانت سرنديب أول الجزائر الهندية التي انتشر فيها الإسلام [٢٠٨] وفي عهدالخليفة عمر بن عبد العزيز اسلم راجا حليشه بن داهر ، وفي الدكن استطاع احد الدعاة العرب ويدعي بيرمهابير – الشعر الطويل – نشر الإسلام بين قبائل الجين ، وفي وقت مبكر اسلم عدداً عظيماً من قبائل ساون داري في السند [٢٠٩] ، واستطاع الحكم بن العاص نشر الإسلام في منطقة تانه وعبد الرحمن بن سمره في منطقتي خج و دادن وهو الذي حطم صنم زور [٢١٠].

اقنع الدعاة العرب راجا مدينة ده فتن بالإسلام ، وكان حفيده راجا كوتل محباً للمستوطنين العرب في مليبار ، وسار الإسلام في جزيرة زيبة المهل بفضل الداعية أبي بركات البربرى [٢١١]، وأعظم نجاح هو الذي حققه الداعية مالك بن دينار الذي اسلم على يده راجا جيرمال بيرمال واخذ منه تفويضاً بتشييد أول مسجد في مليبار . وأثر ذلك على انتشار المذهب الشافعي في الجنوب الهندي و الكجرات ، وانتقل إلى المستوطنات العربية في اندونيسيا وهذا بخلاف المذهب الحنفي الذي ساد في الشمال الهندي مع الغزاة الأتراك[٢١٢].

وكان المذهب الداودي قد انتشر بين المستوطنين العرب في المنصورة ، وكان قاضي المدينة أبا محمد المنصوري أماماً لهذا المذهب، وله أعمال فقهية منها المصباح الكبير، الهادي ، والنير وكان له نسب في بني تميم [٢١٣]، وكان للشيعة مكانة عظيمة في الهند وأول من وصلها منهم الداعية عبد الله بن الأشتر في عهد الخليفة المنصور ، وتطور هذا النفوذ أكثر بظهور الداعية أبو عبد الله القرشي الذي لقب بملك الملتان، وكان له ثمانين ولداً [٢١٤] وربما ذلك يفسر لنا ما ذكره المقديسي [٢١٥] من أن أهل الملتان شيعة يهو علون في الأذان.

ومن الخوارج في الهند حسان بن مجاهد الذي رحل إليها في عهد أبو جعفر المنصور ولكنه لم يجد لدعوته سوقاً رائجاً ولا حظ ميل الأهالي للتشيع [٢١٦] ، ولم يكن حسان ليختار الهند

بلا مغزى ونعود بالأحداث لعام (١٢٦هـ/٧٤٤م) عندما فر إلى الهند سليمان بن هشام أبو الغمر الأموي مع أتباعه من الخوارج ، واستقر في إقليم السند ولم يعد منه ألا بعد أن آمنه الخليفة العباسي ثم قتله [٢١٧] برغم ذلك وجدت جاليات عربية من الخوارج في مدينة كولم وكان زعيمهم علاء الدين الأوجي من العراق [٢١٨] وعلى الجانب الآخر نشط المستوطنون الهنود في البلدان العربية فظهر منهم موسي بن سيار أحد رموز المعتزلة وهو كبير رجال الأساورة وكان عالماً باللغات و يفسر القرآن بأكثر من لغة، وكان إبراهيم بن إسماعيل القيقاني من أبرز المتكلمين في مسألة خلق القرآن، وله مناظرات عظيمة مع الشافعي [٢١٩].

عمل المستوطنون العرب علي نشر علم الحديث بالهند مثل الربيع بن صبيح السعدي ت(١٦٠هـ/٧٧٧م) وهو أول من ألف في هذا المجال بالهند ، وقد جذبت البلاد المحدث إسرائيل بني موسي البصري وهو من أتباع التابعين وهو ثقة من الطبقة السادسة وعنه أخذ سفيان الثوري وابن عينية [٢٢٠] ، ومن المستوطنين الهنود نجد المحدث يزيد بن عبد الله القرشي البيسري ، والعلامة الكبير إسماعيل بن إبراهيم القيقاني المعروف بابن عليه.

(ج) العادات والتقاليد بين المهاجرين العرب والهنود :ـ

نظراً للسيطرة العربية المتمثلة في المستوطنين العرب في مليبار فقد حاول الهنادكة تقليد العرب وخصوصاً في مجال المساواة والأخلاق حتى ولو بقوا على وثنيتهم وادي ذلك لتحقيق وحدة في العادات التي ادخلها العرب للهند في الطعام والأزياء و غيرهما . وهذا ما دفع أبناء طبقة ناير إلى الدخول في الإسلام حتى يعاملوا بشكل طيب من أبناء طبقة بلين العليا [٢٢١] ، وفي المنصورة تشابهت عادات العرب و الهنادكة تماماً فكان من الصعب التمييز بين الطائفتين، و يرصد لنا البيروني [٢٢٢] ظاهرة مماثلة وضح من خلالها تعاضد العرب و الهنادكة من أبناء قبيلة رشيد التي ساد بين أبنائها نظاماً اجتماعياً عريقاً يلزم الجميع باحترام العادات والتقاليد ولا يحقر احد دين الآخر ، ولا يزدري عاداته ومن يخالف ذلك يعاقب بشدة.

اثر المستوطنون العرب في تغير عادات الهنود المستقبحة وخصوصاً تلك المتعلقة بالتضحية بأنفسهم أمام الأوثان إذا لم يجد الواحد منهم ما يقدمه من الخراف ، وانتشر بينهم التضحية بها في حال ولد لهم مولود جديد وهي تشبه العقيقة [٢٢٣] ، كذلك القضاء على عادة

الدربستان وهى اختفاء الملك واحتجابه كحالة من الاعتراض السلمي و أظهار غضبه من الأهالي ، إلا أن ملوك العرب من بني لؤي و الهباريين امتنعوا عن تنفيذ تلك العادة ، وأصبح من عادات راجات مليبار الخروج للأهالي باستمرار، يلاحظ أن راجا مدينة كلم كانت له عادة مخالفة لذلك حيث كان يوكل أمور المملكة إلى الأمناء ويقضي معظم وقته في منطقة كاتشي أو مدهر للبحث في أمور الزهد ، واعتاد مقابلة الرحالة المسلمين ومناظرهم (٢٢٤).

كافح المستوطنون العرب لأجل القضاء على عادة السوتي وهي حرق الأرملة نفسها عقب وفاة زوجها ، ومارست تلك العادة لأول مرة زوجة راجا داهر الذي خر صريعاً بعد هزيمته علي يد محمد بن القاسم ، وقد شجع العرب الأرامل الهندوكيات على محاولة العيش مرة أخري (٢٢٥) ، وعلي الجانب الأخر تأثرت المرآة العربية بالنساء الهندوكيات في عادات الزينة فاستعملن أغلى الثياب الهندية الموشاة بالذهب والفضة، وزينت بيوقمن بالزهريات الهندية، وملأت بماء يطيب لها من بنات الزعفران ، وقد حفظ الهنود بتغير عاداقم وتقليد العرب على أعراضهم وكرمتهم فحرمت الأغراض على الغرباء الأ بالزواج (٢٢٦) بينما كانت المرآة الهندية تفتخر إذا باعت شرفها مقابل الحصول على فيل.

وبفضل العرب هذب الهنود في الجنوب من عاداقم المميته ففي جزيرة ذيبة المهل اعتاد الأهالي تزيين فتاة بكر ثم إدخالها إلى بدخانه – بيت الصنم – المبني على حافة البحر،وتبقي هناك ليلة كاملة قبل ان تلقي حتفها في الصباح بهدف اتقاء شر جن البحر، وبفضل جهود المهاجرين العرب وعلى رأسهم الشيخ بركات تم القضاء على تلك العادة (٢٢٧). نتيجة للهجرات العربية الهندية المتبادلة ساد في المجتمعين العربي والهندي عادات واحدة منها الوشم على اليدين والوجه وقد أخذت تلك العادة تتقلص في الحجاز بعدما شدد الرسول (ص) على منع الوشم في حديثه ــ لعن الله الواشمة و المستوشمة ، كما ساد اعتقاد عربي هندي في الاستنجاد بالكواكب لأجل المطر (٢٢٨) ، وتأثر العرب بعادات الهنود الغذائية وخاصة تحريم أكل اللحوم وخصوصاً البقر وكان اشهر العرب المتأثرين بذلك أبو العلا المعري (٢٢٩) وإن كان ذلك من باب الزهد وليس اعتقاداً وثنياً كما كان عند الهنود.

قلدت النساء العربيات النساء الهنديات مثل تخريم الأذن حتى وإن لم يلبس فيها الحلي ، واشتهرت النساء الهنديات بمهارتهن في تخريم الأذن و منهن السيدة سكر الهندية . ومن العادات العربية التي سادت في المجتمع المليباري تلك المتعلقة بالوفاة فإذا مات كبير العائلة

فان زوجاته تمكثن سنة كاملة لا يأكلن اللحم ولا يمضغن التبول ولا يراعـون زينـة ولا يقلمن أظافر(٢٣٠) وكان النساء العربيات يفعلن ذلك مع إضافة لبس الثوب الأبيض.

نقل العرب للهنديات عادة البردة-- الحجاب – حيث اعتادت النسـاء الهندوكيات الخروج سافرات متبرجات ، وساد في المجتمع نظرية الأخوة الإسلامية وَالمساواة الّتي أثـرت على المنبوذين من الزط و السيابجة وطائفة ناير المليبارية (٢٣١) . واعتاد الهنود زيارة المقـابر والتبرك بالرموز الدينية مثل قبر الملك جيرمال في منطقة الشحر باليمن واحتفلوا بيوم إسلام الملك، واشترك العرب والهنود في مليبار في عادة وضع سراج موقد فوق ضـريح الـوالي بجانب الطعام والشراب و الحلوي(٢٣٢) ويتعلق بهذا الأمر اشتراك كبار رجال الصوفية مـع الأهالي في مليبار أثناء الاحتفال بالأعياد فيحملون المصابيح والحبـوب ويوزعونهـا علـى الحضور، وأصبح يوم الجمع في الإقليم يوم عيد رسمي تلغي فيه الأعمال ويتفـرغ النـاس ليومهم سواء المسلمين أو الهنادكة(٢٣٣).

تأثر هنود المليبار من طائفة ناير بالمستوطنين العرب فحددوا للزواج أياماً مثل الخمـيس والجمعة وكانوا قبل ذلك على العموم (٢٣٤) ، ومن اشهر العادات المتعلقة بهـذا الموضـوع الحلف بالطلاق بدلاً من القسم وقد انتشرت تلك العادة بين الجند العرب في السند ،وكان الذي اقر بها القائد سنان بن سلمه في عهد معاوية بن أبي سفيان وقال الشاعر في ذلك

رأيت هذيلاً أحدثت في يمينها　　　طلاق النساء ما يسوق لها مهراً

لهان على حلفه أبـي محـبق　　　إذا رفعت أعناقها حلفاً صفراً (٢٣٥)

انتشرت في مناطق المستوطنين العرب بالهند بعض العادات القديمة ففي مدينـة صـيمور مركز البياسرة وهم أبناء التجار العرب سادة عادة الانتحار المعروفة بالجوهـار ويمارسـها الرجال حزناً على وفاة حاكمهم (٢٣٦) ، وساد وضع علامة القشقة على الجباه وهي خاصة برجال الدين البراهمة، وترسم بالدم باستخدام بصمة الأصبع (٢٣٧) وفي مليبار ايضاً سادت عادة التضحية بالنفس وفيها يستخدم الرجل اثني عشر سكيناً ويظل يطعن نفسه بواحدة تلو الأخرى بقصد التعذيب قبل قتل نفسه تقرباً للآلهة(٢٣٨).

كان العرب سبباً في إبراز عادات مليبارية خاصة بالطعام والشراب حيث ساد بين طبقتي بلين ونائر عادة بضرورة استحمام البلين إذا لامسه واحد من النائرين وتحطم الأواني الـتي

يأكل فيها المستوطنون العرب ، ووضع الطعام لهم على أوراق الموز [٢٣٩] ، وإذا رغب السلطان الكافر منع عمليات البيع والشراب لسبب ماء فإنه يأمر غلمانه بوضع أغصان الأشجار على حوانيت التجار العرب [٢٤٠] ، وفي الميراث كانت طائفة نائر تورث الأولاد من الأرحام ولا تورث من الأصلاب وورث مستوطني كنتور العرب تلك العادة فهم يورثون كل من له صلة قرابة من الأم والأخوات ويكتفي الرجل بوضع خيطاً حول رقبة خطيبته كدليل على الرابطة بينهما [٢٤١].

(د) أثر المهاجرين الهنود على الطعام العربي:ـــ

يعتبر السمك من أهم الأغذية الهندية التي نقلت للعرب، وقد أعجب أمراء العرب بالسمك الهندي الذي نقله إليهم الزط مثل الأمير محمد بن سليمان زوج ابنة الخليفة المهدي وكان يملك في بيته خمسمائة سمكة من النوع كنعدة ، هذا وقد سطر الكثير عن السمك الهندي في الأراضي العربية ، وقيل أن بعض السمك كانت في حجم الجدي، وكان بعض المشاهير يشخصون لنهر السند لجلب السمك مثل الطبيب إبراهيم بن فزارون ، واعتبر لحم الطواويس الهندية من اللحوم المميزة ، وكان الطعام المفضل للأثرياء العرب [٢٤٢].

وعرفت الجاريات الهنديات بجودة طعامهن ومنهن السندية الطحانة البغدادية ، وعرف العرب صناعة الخل من ماء الأرز من الهنود الذين كانوا يطبخون الأرز[٢٤٣]. و حتى الأواني العربية المعروفة بالغضارة أصلها هندي كانت تصنع في مدينة كولم المليبارية [٢٤٤] ، وتأثر الهنود بالمستوطنين العرب فكانت طبقة الجاويين تأكل باليد اليمنى ، و خصصوا اليسري للأغراض المنحطة والمتدنية [٢٤٥] ، واشهر الأكلات الهندية البهط وهي عبارة عن الأرز المطبوخ في الماء ويأكل بجانب لحوم السمك ، وقد أصيب الشاعر غالب بن عبد القدوس بعد أكله البهط فكتب يقول:

فأما البهط وحيتانكم   فمازلت عنها كثير السقم [٢٤٦]

اعتاد المستوطنين العرب في مليبار على نظام الهنادكة الغذائي حيث تنظم المائدة المعروفة بخونجة وفوقها طبق نحاسي كبير يعرف بالطالم وفيه يوضع الأرز وفوقه السمن وعناقيد الفلفل و الزنجبيل الأخضر والليمون المملح و العنبا ، ويوضع بجانبه طبق أخر يسمي الشكرجة وبداخله دجاجة ، وهم يختمون الطعام بشرب الكوشان – اللبن الرائب – وهي عادة

منتشرة أيضاً بين عرب المغرب [٢٤٧] ، واعتاد العرب على خمور الهند المصنوعة من البلح، و استورد المستوطنون الهنود الخمور وسوقوها في بغداد مثل السيدة دوم السندية، وعرف نوع من الخمور الهندية باسم سكر الهند كان ولاة العرب يتناولوه بعد الفراغ من الغزو ، وهناك شراب الداذي وهو يضع خصيصاً من النارجيل [٢٤٨] ، وتعاطي العرب حشيشة القنب الهندية وكان أول من ادخلها لليمين رجل هندي يعرف بيبرزطن وكان ممن اسلموا في العهد النبوي، [٢٤٩] ، وقد بذل مستوطني مليبار العرب جهداً في التصدي لشرب الخمر، وطبق حد شرابها بالضرب ثمانين جلده ، والسجن ثلاثة أشهر ، وأصبح تناولها عند قبائل المرهتا في الكجرات من أعظم المعائب [٢٥٠].

(هـ) الملابس الهندية في البلدان العربية :ـ

كان للمستوطنين الهنود اثر في انتشار الأقمشة الهندية في البلدان العربية ومنها المململ و جهينط و روجال وتلك أسمائها السنسكريتية وعربت إلى قرض وشيت وفوطة وعلى الأخيرة أطلق أيضاً الإزار أو المنديل وكان الهنود يرتدون فوطتين بجانب ملاحف الحرير والكتان [٢٥١] ، واشتهرت مراكز هندية بصنع الملابس التي كانت تصدر للعرب مثل الكجرات وفيها تصنع النمارق – الشلت – الحلاة بخيوط الذهب ، و أغطيت الفراش الناعمة [٢٥٢] ، أما مدينة تانه أحدي كبري المستوطنات العربية فكان يصدر منها الملابس التاشنية ، وبعض تلك الملابس صنعت في اليمن وصحار و نجران و أطلق عليها برد يمانية وحلل سحولية و أثواب نجرانية ، وكان بعض المستوطنين الهنود قد تميز بالمتاجرة في تلك الملابس مثل أحمد بن محمد الكرابيسي وكان من كبار علماء الفقه [٢٥٣] ، وكان للمستوطنين العرب في كيرله دوراً في تنشيط عمليات بيع الأثواب لعرب العراق والحجاز.

تأثر المستوطنون العرب في مدينة المنصورة والملتان بأثواب الهنود و أهمها القراطق والقمصان والأردية ، و عرفت الملابس الهندية المصنوعة من القطن الجيد بالسينسنات وكانت تصدر من الهند إلى فارس ، [٢٥٤] ومنها إلى الجزيرة العربية ، وكان للمهاجرين الهنود ثياباً خاصة بهم فالملابس السوداء كانت رمزاً للسيابجة واشهر الملابس الكرتة – الجلباب – وعرفت عربياً بالقرطق ، وكانت شائعة عند ملوك العرب و امراؤهم [٢٥٥]، وكان بعض تلك الملابس يتم صبغها بألوان هندية مثل القرمز والذي أطلق عليه أيضاً البقم،

وكان يأتي به من مدينة مليبار (٢٥٦) ، واستخدم العرب عطر الكافور لتعطير الملابس الهندية، ولاستكمال الأناقة استخدم النيليج الهندي في دق الوشم على الوجه واليدين وهو يعطي اللون الأخضر المطلوب ، و حتى حلق الشعر فقد كان للزط قصة خاصة عرفت باسمهم وكان تشبه رسم الصليب(٢٥٧).

أما النعال فكان اغلبها يستورد من الهند ، واستخدمها المهاجرون والمستوطنون العرب وعرفت بالكنباتية ، وكان واجباً على وإلى الهند أن يقدم ضمن خراج البلاد ألف نعل كنباتي في العصر العباسي ، وكانت تلك النعال تستخدم بكثرة في مناطق المستوطنين العرب في مكران (٢٥٨) ، واشتهر عدد من المهاجرين الهنود بصنعها ومنهم غلام الأديب العربي الجاحظ وعرف باسم نفيس السندي ، وكان الجاحظ كثير التندر به(٢٥٩).

(و) الموسيقي والألعاب و الأمثال الشعبية:ـ

انتشرت الموسيقي الهندية في الأراضي العربية في العصر العباسي بعد وصول مجموعة من المهاجرين الهنود حمل بعضهم كتاب بيافر ومعناه ثمار الحكم فيه جوامع الأنغام و أصول الألحان . ولعب المستوطنون الزط دوراً في تطور موسيقاهم و أضافوا إليها نوعاً من النغم يشبه صوت البعوض (٢٦٠) ، و بفضل جهود عائلة الموريا في الهند وجد المستوطنون العرب الغناء شائعاً فيها وكان هناك عدداً من المؤلفين و الملحنين ومن أشهر كتبهم في المستوطنات العربية ناتيا ساستي وفيه شرحاً وافياً للرقص والموسيقي الهندية ، والكتاب الأخر سلبا ديكرام كان شائعاً في إقليم السند (٢٦١) ، ولاشك أن العرب عرفوا تلك الكتب وترجموا بعضها وخصوصاً مع ازدياد حركةالترجمة في العصر العباسي.

انتشر المغنين والمغنيات الهنود في بغداد وكان منهم المطرز السندي الذي كان له مكاناً في بلاط الخليفة المهدي، و المغني السندي بن علي الوراق البغدادي الذي كان وراقاً لإسحاق الموصلي وينسب إليه تأليف كتاب في الأغاني عرف باسم الشركة في احد عشر جزءً ، أما خمار القندهارية فكانت تغني ما غناه إبراهيم الموصلي من شعر أبي حفص الشطرنجي وكانت تردد

إذا سرها أمراً وفيه مساءتي　　　قضيت لها في ما تريد على نفسي

وما مر يوم ارتجي فيه راحة　　　فأذكره حتى بكيت على أمسي (٢٦٢)

ومن الألعاب الهندية التي دخلت البلدان العربية مع المستوطنين الهنود الشطرنج الــذي أجازه الإمام الشافعي لتمرين العقل بخلاف باقي الفقهاء ، وقد ساد لعبه في مجــالس مكــة وأنديتها في القرن الأول الهجري ، وخصص له عبد الحكم بن عمــرو الجمحــي مكانــاً للشطرنج في نادية وكان الداخل إليه يعلق ثيابه على أوتاد خارجه ، وانتشرت مصــطلحاته في أدبياتهم ، وضرب به المثل فقالوا إذا تكبر الصغير تفرزق البيدق ومــن أمثــالهم زاد في الشطرنج بغلة (٢٦٣) ، وكان هارون الرشيد محباً للشطرنج، واهدي ملك الغرب شــارلمان شطرنجاً، ونسب إليه قوم من العرب مثل أبو بكر محمد بن محمد الصولى الشطرنجي صاحب كتاب الشطرنج ، وكان من أهل البصرة ، وللجلاج أبو الفرج محمد بن محمد عبــد الله ت (٣٦١هــ/٩٧٢م) كتاب منصوبات الشطرنج ، ومن أبرز أشعارهم من ما ذكــره ابــن الرومي في أبي القاسم الثوري الشطرنجي

تهزم الجمع أوحديا وتلوى بالصــناديــد أيما إلــواء

وتحط الرخاخ بعد الفرازين فتزداد شــدة و استعــلاء (٢٦٤).

بجانب الشطرنج ساد بين العرب لعب النرد وهي هندية الأصل ولكنها لم تكن ذو شهرة نظراً لحرمتها ، وصدرت الهند للعرب الكلاب المعروفة بالسلوقية وهــي نتــاج الكــلاب والثعالب ، وكان ميناء بروص مركزاً لها ، وقد تأثر العرب بحكم الهنود و منهم الأصــمعي الذي سطر كتاباً بعنوان ملوك العرب الأولين من بني هود وقدمه للخليفة المــأمون وهــو يشتمل على عدد من الحكم والأمثال الهندية المتعلقة بالحكم والسلطة (٢٦٥) ، ومن الحكــم والأمثال الشعبية التي راجت في المجتمع العربي وهي هندية الأصل – عدل السلطان انفــع للرعية من خصب الزمان –، شر مال مالاً ينفق منه ، وشر الأخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرئ ــ من التمس من الأخوان الرخصة عند المشورة ومن الأطباء عند المــرض ومن الفقهاء عند الشبهة أخطاء الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر – ، ستة أشياء لا ثبات لها ظل الغمام ، وخلة الأشرار وعشق النساء ، المال الكثير ، السلطان الجائر ، والثناء (٢٦٦).

(ز) التصوف :ــ

إن التصوف الإسلامي بمعناه الكلي الذي يقتضي ضرورة تجرد الإنسان من متع الحيــاة والزهد في الدنيا حتى يتسنى له معرفة الذات الإلهية والوصول لمرحلة الاتحاد والحلول يجد لة

صدي مماثل في التصوف الهندي الذي يبدأ بأخذ الإنسان قدر حاجته في المأكل والملبس وترك ما دون ذلك من الفضول وعدم قتل الحيوان ، وهنا يشير البيروني [٢٦٧] إلى بعض كلام متصوفي المسلمين الذي يدل على الاتحاد بما ورد في كتبا باتنجل المقدس فيقول – مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقي مشير ولا إشارة . وبرغم هذا التشابه فإن الباحث المعاصر أي رحمان [٢٦٨] يري فرقاً جوهرياً بين التصوف الهندي والعربي يتلخص في قدرة الثاني على الاندماج في المجتمع للقيام بدوره الايجابي في الحياة في أي وقت بينما الأول فإن حياة النسك يستطيع ان يؤجلها بعد التزاماته الأسرية وذلك بالانقطاع التام عن المجتمع.

بين هذين الرأيين كان للمهاجرين العرب والهنود دوراً هاماً في مجال التصوف إذ برز منهم أبا على السندي ت (٢٦١هـ/٨٧٥م) الذي عرف بكونه واحداً من أشهر المستوطنين الهنود في مجال التوحيد والحقائق ، وتبني الرأي القائل بأن المعرفة إذا تغلبت على قلب العبد يري جميع الأشياء من الله بالله معلومة لله مردودة إلى الله [٢٦٩] وبه تأثر أبو موسي الدبيلي الذي داوم على الترويج لمقامي المحبة والرضا ومن أقواله الشهيرة ولم أزل ثلاثين عاماً كلما أردت أن اذكر الله اتمضمض وأغسل لساني إجلالا لله. وقوله : ما ذكروه الا بغفلة ولا خدموه الا بالفترة وأكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه [٢٧٠] ، وكان لمثل هؤلاء الرجال أثر عظيم في الحياة الاجتماعية.

وتأثر المستوطنون العرب بالمتصوفة الهنود وخصوصاً الجوكيين في إقليم الكجرات، حيث وجدت طائفة عظيمة منهم في مدينة كجرا وتميزوا بطول شعرهم حتى تصير طولهم، وغلبت عليهم الصفرة و التقشف ، وساد اعتقاد بينهم أن من كان به عاهة أو مرض أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله . ونال المتصوفة العرب منزلة عظيمة في مليبار ، ولم تقتصر مسئوليتهم على الوعظ بل عملوا في مجال الطب[٢٧١] ، وشيدت الزوايا العظيمة لهم ففي قاليقوط أقيمت زاوية كان المسئول عنها الشيخ أبي إسحاق الكازوروني وإليه تجبي نذور الهند و الصين ، وفي ذيبة المهل أقيمت زاوية باسم الشيخ الصالح نجيب وكان كل وارد يجب عليه زيارتها ، وفي جزيرة سيلان أقيمت زاوية للشيخ العربي عبد الله بن خفيف الذي أطلق عليه الأهالي الشيخ الكبير وهو أول من فتح الطريق أمام الزوار العرب لزيارة أثر سيدنا آدم[٢٧٢].

ارتبطت نظرة الهنود للمتصوفة العرب بمكانتهم الدينية والاجتماعية المتميزة ومن هنا عظموا قبورهم ، وعلقوا على حناجر أبنائهم صورهم بهدف التبرك بها ، وساد تقليد عربي قديم في مليبار يقضي بوضع الطعام والشراب و الحلوى فوق ضريح الوالي مع وجود سراج ليضئ ليلاً للاعتقاد أنه يحتاج مثل تلك الأشياء (٢٧٣) ، وكان يشارك في تلك المراسم الاجتماعية الهنود والعرب.

(ج) المرأة المهاجرة بين المجتمعين الهندي والعربي :ـ

عانت المرأة الهندية قبل مجئ العرب معاناة شديدة حيث نزلت النساء في المجتمع منزلة الإماء ، وكان الرجل يخسر أمرأته في القمار ، وكان للمرأة في بعض الأحيان عدة أزواج فإذا مات زوجها صارت كالمؤودة وتكون هدفاً للإهانات والتخريج (٢٧٤) ناهيك عن انتشار عادة السوتي حيث فرض عليهن المجتمع حرق أنفسهن عقب وفاة أزواجهن ، وبدخول العرب واستقرارهم انتشر بين نساء الهند عادة الحجاب وكن قبل ذلك يمشين في مناطق المنصورة والملتان متبرجات سافرات(٢٧٥) ، واعترف بحق النساء وبكرامتهن في المجتمع ودورهن الريادي فيه (٢٧٦) ، وكان ذلك تغيراً جذراً لوضع المرآة في الهند.

نشطت المستوطنات الهنديات في البلدان العربية مثل السيدة أخت السندي بن شاهيك والتي للأسف لم نعرف اسمها بالضبط ولكن كان أخيها عبد الجبار هو الموكل بالإمام موسي الكاظم في محبسه في عهد الخليفة الرشيد ، وقد اسند إلى أخته مراقبة الأمام في أيامه الأخيرة مما أتاح لها الفرصة لنقل المزيد من أخباره قبل وفاته ، وفي مجال الحضارة الإسلامية نجد السيدة خوله أم محمد الأكبر بن على بن أبي طالب وكانت امة لبني حنيفة فصارت للإمام على ، أما الإمام الحسين فقد تزوج أحدى المستوطنات الهنود وتدعي سلامة – غزالة – أحياناً فأنجبت له الأمام زين العابدين (٢٧٧) وكان لمثل هؤلاء السيدات منزلة اجتماعية عظيمة وهيبة دينية من جانب العرب والهنود.

وعلى الجانب الأخر لعبت المرأة العربية في الهند دوراً دينياً عظيماً وأشهرهن السيدة قمرية زوجة الداعية الإسلامي مالك بن حبيب التي نشرت مع زوجها بنشاط الدين الإسلامي في مليبار، وكان لها منزلاً في مدينة كولم كانت تستقبل فيه النساء الهندوكيات ،

وتستمر في إقناعهن بالإسلام ثم توضح لهن شرائع الدين ، وقد انتقلت إلى مـدن بـاكنور ،منجلور ، و كنجركوت لهذا الغرض [١٧٨].

وكان للجاريات السنديات شهرة في تربية الأولاد والقيام على خدمة المنزل ومن هنـا رغب العرب فيهن ومنهن السيدة حبابه جارية الخليفة يزيد بن عبد الملك و أم والى العراق يزيد من هبيرة الفزاري ، أما السيدة خمار القندهارية البغدادية فقد عرفت بحسن صـوتها و أنشادها الشعر غناءً وقد حظيت بمكانة رفيعة بين اهالى بغداد وحازت السيدة دوم السندية على منزلة رفيعة عند تجار بغداد واستطاعت أن تنمي تجارتها وتتحول من بيـع النبيـذ إلي تصنيعه فازدادت ثرواتها و أصبحت تدين عليه القوم [٢٧٩].

الحواشي

(١) قاضي أطهر المباركبوي : العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت ، ط، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٣م ص١٦ ، ١٧ – الأبلة.بلدة علي شاطي فر دجلة في زاوية الخليج الداخل إلي البصرة ،وهي أقدم من البصرة ، وكانت تعتبر إحدى جنات الدنيا مع دمشق و بلخ(ياقوت الحموي :شهاب الدين أبي عبد الله الحموي ت(٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان ، ط دار صادر، بيروت ١٩٨٤م١/٧٧) أما الديبل فهي تقع علي شاطي البحر ضمن حدود جمهورية الباكستان وتعرف حالياً بكراتشي.

(٢) شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ط عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠م، ص٩٢:

الكجرات:تبلغ مساحة إقليم الكجرات ٤٨٥كم طولاً، و٤٣٥كم عرضاً،ويحتوي الإقليم علي تسعة سركارات ، و١٨٨بركانة ،طبقاً للتقسيم الإداري الهندي،ويقع الإقليم علي البحر العربي ساحيط الهندي سومن أشهر مدنه سورت،بروج،كمباي ،و سومنات وكانت مدينة محمود أباد هي حاضرته في العهد الإسلامي Hakim Syed Abdul Hai: India Durin Muslim Rule. Lucknow 1997 .P 69,68

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م، ١١٦/٤.

(٤) ياقوت الحموي:معجم البلدان،٤٠٠/٤.

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤١٦/٤

(٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين العرب والهند ، ثقافة الهند ١٩٦٠/٢م، ص ١٠٣.

(٧) محي الدين الألوئي : مابلا ، ثقافة الهند ، ١٩٥٥/٤م، ص٣٥.

(٨) ابن منظور:أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت(٧١١هـ/١٣١١)،لسان العرب ،ط دار صادر ، بيروت ،١٩٩٧م، ٥٤/٦.

(٩) القلقشندى : أبو العباس أحمد ت (٨٢٠هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الانشا، ط الهيئة ٢٠٠٤م ، ٦٢/٥.

(١٠) ابن منظور : لسان العرب ، ١٥٩/٥ .مقبول أحمد: العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص١١٤.

(١١) ابن منظور : نفس المصدر،٤١٩/٥.

(١٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٦٣/٥، شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي ، ص ١٣٦، ١٣٩.

(١٣) الألواني : مابلا ، ص ٣٧.

(١٤) أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطي ،المؤرخ العربي،١٣/١٩٨٠م، ص ١١٨.

(١٥) ، السيد أبي النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مأرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند ٤/١٩٥٥، ص٢٣، ٢٤.

(١٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٥.

(١٧) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٥/٤٢٤ ، ٤٢٥.

(١٨) أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، ط دار نهضة الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٤٧.

(١٩) المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين بن على ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر العربي ، بيروت ،١٩٤٨م ٢/ ٢٣٦،٢٣٧. وهذه البيوت هي بيت فارس على جبل أصفهان ، و سومنات في الهند ، و توبهار في بلخ ، بيت غمدان في اليمن على كوكب الزهرة ، وهيكل الشمس في فرغانه وهيكل الصين ، والكعبة في مكة على كوكب زحل حيث أعتقد الهنود أن سبب بقائها لها بيت على اسم وطالع كوكب زحل فكان لها منزلة عندهم، ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع (المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٩٣، ٩٤).

(٢٠) المقديسي : شمس الدين البشاري ، ت (٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤، ص١٣،

(٢١) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو : ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ومنها للعربية عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م ، ٦٢/٣. والمعروف أن هذا الجبل يعرف بجبل الرهن ، وأن أول من أطلق عليه جبل أدم هم البرتغاليون وقبل ذلك عرف بأثر أدم ، والمقصود بقبر سوجر هو المعلم بوذا مؤسس نظام السنجاليين البوذي وكان من ضمن أسمائه سوجر موني أي الحكيم الأريب،وكلمة بركهان المضافة هنا معناها الإله في لغة التتار وهم الذين اعترفوا بألوهية بوذا (أنظر تعليقات وليم مارسدن٣/٢٠٣).

(٢٢) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٥/٢١٧.

(٢٣) جواد على : نفس المرجع ، ٩/٢١١.

(٢٤) ابن النديم:محمد بن اسحق البغدادي :ت(٣٨٥هـ/٩٩٥م) الفهرست، ط دار المعرفة ، بيروت،١٩٧٨م ، ص ١٧٢. عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة الهندية في اللغة العربية ، مجلة صوت الشرق، عدد ٤٢٣، ٢٠٠٤، ص٦١،٦٠.

(٢٥) ابن منظور : لسان العرب،٥/٤١٩،١٧١.

(٢٦) زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي ، ط نهضة مصر ١٩٩٥م .

(٢٧) ابن النديم : الفهرست ،٤٢١،٣٨٣،٣٨٠،١١٨.

(٢٨) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦/١، ص ٤٥، مليبار: يطلق عليها ماآبار و موآبار و مالابار و معناها جيزة أو معبر وعرفت قديماً باسم هيالوموسري وحالياً أطلق عليها كيرله ، وطرحت في المصادر العربية باسم منيبار وهي تقع في الشرق من بلاد الكجرات وهي مركز الفلفل وأهم موانيها كولام ، سيل، شول ــ كوشين، سورات، كناتور (الألوائي:مليبار ، ثقافة الهند، ١، ١٩٥٦/٢م،ص٣١، ٣٥) . وانظر في نفس المعنى (ماركوبولو : الرحلة ، ١٨٤/٣).

(٢٩) ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م، ص٥٦٨، ٥٦٩، لمزيد من التفاصيل حول المفردات العربية في اللغات الهندية ، راجع مقالتي السيد محمد أجمل خان بعنوان الكلمات العربية والفارسية في اللغات الهندية ، ثقافة الهند سبتمبر ، ١٩٦٠، يناير ١٩٦١م.

(٣٠) البلاذري : أحمد بن يحيي بن عبد جابر البغدادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م)، فتوح البلدان ، مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤١٩.

(٣١) الاصطخري:أبي إسحاق الفارسي الكرخي ت(٣٠٩هـ/٩٥١م)، المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال ،ط وزارة الثقافة ،١٩٦١م ص ١٠٤. الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ،ص٤٩. . جندواره تقع على بعد نصف فرسخ من مدينة الملتان راجع أحمد إبراهيم على : إقليم الهند الإسلامي من الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة مماليك الهند ،رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، المنيا ٢٠٠٠م، ص١٧،١٥.

(٣٢) اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) ، تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت ب ، ت، ٤٠٩/٢ . الملتان " تبلغ مساحة إقليم الملتان ٦٤٨ ك.م يحدها من الشرق فيروزبور ومن الغرب سيوستان، وقاعدة الإقليم مدينة المعروفة بنفس الاسم وكان يطلقه العرب عليها بيت الذهب لما وجدوه فيها من ذهب وإليها تنسب الملابس الملتانية وتقع على خط طول٣٠,١٢ شمالاً و ٧١,٣١ شرقاً . Hakim: O p.Cit.p.64

(٣٣) اليعقوبي : نفس المصدر،٤٠٩/٢.

(٣٤) الحسيني : عبد الحي الحسيني ، نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر ، ط دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٣/١ ، ٣٤.

(٣٥) ابن الأثير : عز الدين بن الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، ت (٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ،ط مكتبة العرب ، الفجالة، ب/ت أحداث سنة ١٥١هـ/٥/٢٤٠، ٢١١، ٢١٢

(٣٦) المباركبوري : رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ط دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ، ٣٥٣/١.

(٣٧) السادائي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ، ص٦١.

(٣٨) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو ، ٤٢/٣.

(٣٩) المسعودي : مروج الذهب ، ٣٦٧/٢.

(٤٠) اللاهوري : مفتي على الدين ، عبرت نامه ، ط لاهور ١٩١١ م، ٣٤/١.

(٤١) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١٠.

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، صيمور : أحد أهم موانئ إقليم الكجرات على ساحل الهند العربي وتعرف أحياناً باسم شول Chool عنها انظر (أبي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ثقافة الهند ، ١٩٦٦/١م، ص٥٣).

(٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٢٣.

(٤٤) E.B.Havell. Aryan Rule in India. London N.D. p.253.

(٤٥) الألوائي : مابلا ، ص ٣٢.

(٤٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧م، ٢٤٩/٢.

(٤٧) فرشته : محمد قاسم هند رشاه ، ت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري ، كلزار إبراهيمي، ط بمباي ١٨٣١م،٢/ ٧٠١. باختلاف المؤرخين ذكر فرشته أن ذلك الأمر وقع في عهد الرسول (ص) بينما يذكر المؤرخ العربي زين الدين المعبري أن هذا وقع في القرن الثاني الهجري ، ولكن الأبحاث الحديثة تؤكد وصول مالك بن دينار للهند عام (٢١٩هـ/٨٢٤م) ،(الألوائي : مابلا ، ص٤٧).

(٤٨) توماس ارنولد : الدعوة إلي الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن و آخرون، مكتبة النهضة المصرية ب/ت ، ص٢٢٧.

(٤٩) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية،بيروت ، ٢٠٠٦م ، ٣٠٩/٦، ٣١٠.

(٥٠) ابن القفطي : جمال الدين أبي الحسن علي ت(٦٤٦هـ١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتنبي ، القاهرة ، ب/ت ، ص١٧٧.

(٥١) عصام الدين عبد الرءوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ، ٢٠٠٣م ، ص ٤٤٠، كشمير : تمتد مساحة إقليم كشمير لتصل إلى ١٩٣ ك.م طولاً في ٩٧ ك.م عرضاً ويحد الإقليم شمالاً الصين وتركستان وجنوباً البنجاب والتبت شرقاً و أفغانستان غرباً واشهر مدنه سرنجار

العاصمة و شوبـــان بامـــــــبور Hakim:O p .C it.p.63.

(٥٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٤٢،٤٢١،٤٨٤ . ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص١٧٥.

(٥٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٣٤٩/٢ ، ٥١٦.

(٥٤) أحمد الشامي العلاقات التجارية بين دول الخليج والشرق الأقصى ، ص٨٨.

(٥٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤١٧. قندابيل ، تقع في إقليم السند ، وهي قصبة ولاية البدهة ومنها إلى المنصورة ثمان مراحل اليوم يقال لها كنداوة وهي ولاية في منطقة قلات (المباركبوري، رجال السند والهند، ٣٧/١). لاهور : قاعدة إقليم البنجاب يحدها شرقاً دهلي وغرباً الملتان وكشمير شمالاً و راجستانا جنوباً بطول ٢٨٣ ك.م وعرض ١٣٨ .م وأشهر مدن الإقليم سيالكوت، وتكركوت و امرتسار Hakim:O p.C it.p.p 61

(٥٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢٣٤/٢. القيقان . هي من بلاد السند مما يلي خراسان مباشرة ضمن ولايات إقليم قلات و اشتهرت بالخيل البراذين ، فتحت في عهد علي بن أبي طالب وفتحها الحارث بن مرة العبدي(المباركبوري : رجال السند والهند ٣٨/١).

(٥٧) اليعقوبي : نفس المصدر ، ٢٠ ٢٩٦.

(٥٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥١/١.

(٥٩) المباركبوري : رجال السند الهند ، ٤٥٥/٢، برهمناباد : وهو الاسم القديم لمدينة المنصورة قاعدة الحكم العربي في إقليم السند وقد غير اسمها إلى بـــهاكر علـــى نهر السند Hakim Op .C it. p.64.

(٦٠) المباركبوري : نفس المرجع ، ٤٥١/٢.

(٦١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢، ٣٧٣.

(٦٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٢٣/٢.

(٦٣) المباركبوي: نفس المصدر٤٦٠/٢/٤٦١. أرمائيل : هي اليوم مدينة رمن بيله التي تقع في كورة قيلات وهي قصبة لمديرية تسي بيله على ستين ميلاً في كراتشي حالياً (المباركبوري . رجال السند والهند، ٤٦١/٢)، وكانت مراكز بني تميم في البصرة والبحرين و اليمامه و الكوفة وهي من القبائل التي قاتلت الحسين وشيعته، وحاربت المهالبة عام (٦٥هـ)، وحاربت ربيعه المتمركزة في خراسان في نفس العام ، وغزة الترك في أعوام (١٠٢، ١١٠، ١١٢هـ) (عمر رضا كحالة:معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٤ م،١٢٧/١،١٢٦،١٢٥.)

(٦٤) ابن الأثير :.الكامل ،أحداث ١٠٢هـ/٥،٣٣،٣٢، وأحداث ١٥٧هـ/٦/٥.

(٦٥) الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبـو الفضـل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ب /ت ، ٤٦٥/٧.

(٦٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٣١.

(٦٧) الحسني : نزهة الخواطر ، ٤٢/١.

(٦٨) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢.

(٦٩) الحسني : نزهة الخواطر ، ٤٨/١.

(٧٠) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٤١٤/٢، ٤١٥ ، ٤١٩.

(٧١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٣، ١٣١.

(٧٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٤٦٥/٧.

(٧٣) المباركبوري : رجال السند والهند، ٣١٨/٢ ، ٤٣٩، ٤٦٤.

(٧٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣٣/٨ ، ٣٧.

(٧٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨،٣٧٣/٢ باربد هي الآن بها بهاهوت بالكجرات – وذكر أن ولاية قندهار يقصد بها كندها الواقعة أيضاً في إقليم الكجرات على ساحل الهند الغربي (المباركبوري . رجال السند والهند، ٥٤٦/٢) ولا يجب اعتبرها مدينة قندهار الأفغانية.

(٧٦) الاصطخري: المسالك والممالك ، ص ١٠٤.

(٧٧) الحسني:نزهة الخواطر،٤٤/١،٣٤.

(٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٩٩/١ ، ١٩٧ ، أنظر أيضا أحمد إبراهيم على : إقليم الهند الإسلامي منذ الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة مماليك الهند ، ص ١٦.

(٧٩) أي. رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦٧/٤، ص ٣٢.

(٨٠) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ١٤٨/١،١٥٠.

(٨١) Havell: Op.Cit. p.250

(٨٢) أي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ص٣٣.

(٨٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٢٨/٨. المنصورة مدينة مقدرها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ، يحيط بها خليج نهر مهران وهي شبة بالجزيرة (الاصطخري، مسالك الممالك، ص١٠٣).

(٨٤) المباركبوري : رجال السند والهند، ٤٦٥/٢، ٤٦٦.

(٨٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٤٠٩/٢.

(٨٦) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٦٧/١.

(٨٧) المسعودي : مروج الذهب ، ١٩٩/١، ٦٧.

(٨٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦١ ، كنبايت : أحدي مدن ساحل الكجرات تضاف إليها النعال الكنباتية ويطلق عليها أحيانا كهمبائب وتزداد أهميتها الاقتصادية كمرفيء بحري بالإضافة لإشرافها على نهـر نربدا (المباركبوري : رجال السند والهند ٤٠/١).

(٨٩) Havell: Op. Cit. p.252

(٩٠) الحسني : نزهة الخواطر ، ٤٣/١.

(٩١) المسعودي : مروج الذهب ، ٩٩/١.

(٩٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٤٨/٢.

(٩٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٤٦٥/٧.

(٩٤) ابن الأثير : الكامل،أحداث ١٧٦هـ،٤٦/٦،٤٥.

(٩٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢، ٤٠٩.

(٩٦) الحسني : نزهة الخواطر ، ٥٨/١.

(٩٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢، الساداتي : تاريخ المسلمين ، ص٥٩.

(٩٨) الاصطخري: المسالك و الممالك ، ص١٠٣.

(٩٩) ماركو بولو : الرحلة ، ٤٢/٣.

(١٠٠) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٢٨.

(١٠١) المباركبوري :العرب في عهد الرسالة ، ص ٦٧.

(١٠٢) Kaummab Phil. Kashmir its cultural Heritage Bombay 1952. p.155.

(١٠٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣٠٨/٤، ٦٦٤.

(١٠٤) أبن منظور : لسان العرب ،٣٣٣/١.

(١٠٥) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٦٩،٧٠.

(١٠٦) ابن منظور : لسان العرب ،٣٦٢،٣٦٣/٣.المباركبوري:نفس المصدر،ص ٦١.

(١٠٧) المباركبوري : نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٦٣.

(١٠٨) علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٨٨.

(١٠٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٣٦٢.

(١١٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٦/١.

(١١١) المباركبوري: العرب والهند في عهد الرسالة ،ص٧٩.

(١١٢) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١/١

(١١٣) أحمد شودري : فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري ، موقع إسلام اون لاين ، ص ٥.

(١١٤) المسعودي : مروج الذهب ، ١٢٠/١.

(١١٥) المباركبوري : رجال السند والهند ٢٦٢/١.

(١١٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٥/١.

(١١٧) أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، ط الهيئة ٢٠٠٣م ، ص ٢٤. وأصل الكلمة. شو بمعني حصان و وار بمعني مرتفع في السنسكريتية ،و ربما تكون أسب سوار بمعني الحصان المرتفع في الفارسية واستعمل العرب اللفظة بمعني قائد الجيش (المباركبوري : العرب والهند في عهد الرّسالة ، ص٧٢).

(١١٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٣١٩/٢.

(١١٩) البلاذري : فتوح البلدان . ص٣٦٥،٣٦٤.

(١٢٠) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ص ٧١، ٧٧.

(١٢١) عمر رضا كحالة :معجم قبائل العرب ، ص،١٩/١.

(١٢٢) على منصور نصر : الجماعات الزطية ، ص ١٩٠.

(١٢٣) S.M.Jaffar: Medieval India undar Muslims Kings New Delhi 1972. p.83.

ويطلق على الزط أحياناً الجت ، وجاء لفظ الميد من عملهم المستمر في البحر ، ويقال ماد به البحر يميد فتعفن نفسه من نتن ماء البحر ن وتنطق الزط بكسر السين في دمشق ، وزط فارس أطلق عليهم كات، يظهر لهم تسميات أخري مثل النور أو زيكان أو الكاولية والتسمية المتداولة حالياً الغجر (على منصور نصر: الجماعات الشرطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٨٥، ١٨٦).

(١٢٤) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٨٩/٤.

(١٢٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١ . وعندما فرض العباسيون لبس السواد قال أبو عطاء إلسندي ، وكان من المهاجرين الهنود وصاحب بشرة سوداء. كسيت ولم اكفر عن الله نعمة سواداً إلى لوني ودناً ملهوجاً (أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ٢٥٠/١).

(١٢٦) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٨٣/١.

(١٢٧) المباركبوري : العقد الثمين في فتوح البلد الأمين ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ، ط دار الأنصار ، القاهرة ، ص ٤٣.

(١٢٨) علي منصور نصر : الجماعات الشرطية ، ص ١٩١.

(١٢٩) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢ / البلاذري . فتوح البلدان ، ص ٤٣٣.

(١٣٠) همايون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٥/٣، ص ١٤.

(١٣١) الألوائي : مابلا ، ص ٥٩/٥٨. وينقسم اسم مليبار إلى مل العربية وهي اختصار ملى بمعنى كثير وبار الفارسية بمعني جبل وهو اسم أطلقه التجار العرب والفرس على إقليم كيرله.

(١٣٢) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(١٣٣) أبي رحان : التأثير العلمي العربي في الهند ، ص ٣٢.

(١٣٤) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٦،٤٥.

(١٣٥) الألوائي : مابلا ، ص ٣٤.

(١٣٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٧٣ ، ٥٦٨، ويطلق عليها القلقشندي باسرور وهي أول بلاد المليبار من الغرب (صبح الأعشي ، ٧٤/٥).

(١٣٧) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٥.

(١٣٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٩، ٥٧٠ ، ٥٧١ وتقع مدينة هيلي جنوب مليبار وتعرف باسم منقلور ، و جرفتين في جنوب هيلي وبينها ثلاثة فراسخ ، أما فتن فهي تقع على خور كثير البساتين وبها النارجيل والفلفل. و منجرور تقع شرق باسرور وهي أكبر بلدان المليبار (القلقشندى ، صبح الأعشي ، ٧٤/٥).

(١٣٩) القلقشندى : صبح الأعشي ، ٧٥/٥ . وتقع كولم أو كولام و أحيانا أوكولم في منطقة ترافنكور حالياً (شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص١٨٩).

(١٤٠) فرشته : كلزار إبراهيم ، ٧٠٢/٢. وهذه المراكز هي جوا ، كويلون ، كرانغلور ، بلى برم ، ويب ، كوجين ، كوشان ، جاليم ، بربنغادي ، ترورنغاوي، ثانور ، برون ، فنان ، ولنكود ، ، فاكنور ، منغلابرم، فاسركود ، نادا برم، دليطنم، كنور ، و هرمدم ، جملود ، و ترونكادي (الألوائي : مليبار، ص ٥٨).

(١٤١) المسعودي : مروج الذهب ، ١/ ٢١.

(١٤٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣١٦/٢.

(١٤٣) Aziz Ahmed: An intellectual History of Islam in India Edinpdrgh. U.S.A. 1958. p.22.

(١٤٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦١. وتقع تلك المدينة على خط عرض ١٩,٢٢ درجة شمالاً ٧٢,٣٨ شرقاً وتعرف حـــالياً بكـــومبـــاي وهي تشتهر بمســاجدها العـــريقة Hakim:O p.Cit.P77

(١٤٥) فيصل السامر : الإسلام في اندونيسيا ، عالم الفكر سبتمبر ١٩٧٩م، ص٤٨٠.

(١٤٦) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٣٠ ويطلق عليها تهانه والنسب إليهــا تانشـــي حيث الطول مائة وأربع عشر درجة وعشرون دقيقة والعرض تسع عشر درجة وعشرون دقيقــة ، وهي على مشارف الكجرات (القلقشندى : صبح الأعشي ، ٧١/١، ٧٢).

(١٤٧) أبي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٥٣/٢ ، وتقع تلك المدينة علي ساحل الكجرات على خــط عرض ٢١,٤ شمالاً و ٧٠,٢٦ شرقاً .

Hakim :Op .Cit. p. 68

(١٤٨) المسعودي : مروج الذهب، ١٠/١.

(١٤٩) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١١.

(١٥٠) المباركوري : رجال السند و الهند ، ٨٣/١.

(١٥١) البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، ط المتنبي ، ص٤٨.

(١٥٢) الاصطخري: المسالك والممالك ، ص١٠٤.

(١٥٣) Havell: Op .Cit. p.25

(١٥٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٢٠ ، ٤٢٣، المقديسي : احسن التقاسيم، ص ٤٧٩.

(١٥٥) المباركوري : رجال السند والهند ، ٣٢/١.

(١٥٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ٤٣٢.

(١٥٧) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٢٤/١، ٥٦.

(١٥٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٥٤٥، ٥٥٧.

(١٥٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٢٣، يطلق عليها حالياً سيلان في جنوب الهند.

(١٦٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٨٠ ، ٥٨٤ وتسمي حالياً جزر المالديف وتتكون١٠٨٧ جزيرة.

(١٦١) ابن بطوطة : نفس المصدر، ص٥٦٣ . الألواني : مابلا ، ص٤٩ : ٥١.

(١٦٢) فيصل السامر : الإسلام في اندونيسيا ، ص ٤٨١، ٤٨٢.

(١٦٣) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية ، ٣٠٩/٦.

(١٦٤) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٠.

(١٦٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٤/١ ، ٤٤.

(١٦٦) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٦٦٧/٢.

(١٦٧) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٩٣.

(١٦٨) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص١٠٩.

(١٦٩) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢٠٠/٤.

(١٧٠) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٨٥.

(١٧١) الألواني : مابلا ، ص ٤٦، ٤٧.

(١٧٢) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ١٩٣.

(١٧٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٨٠/١، ٢٦٢، ٢٩٤.

(١٧٤) اللاهوري : عبرت نامه ، ص٣٣، ٣٤.

(١٧٥) الألواني : مابلا ، ص٣٨.

(١٧٦) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٢٩.

(١٧٧) ميرزا قتيل ت (١٢٣٣هـ/١٨١٨م) ، هفت تماشا، ثقافة الهند ، ١٩٦٤/٤، ص٢٧.

(١٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، ١٦٧.

(١٧٩) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص٤٥ ، ٤٦.

(١٨٠) محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١٩٦٠/١، ص ١١٧.

(١٨١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٥٤٥، ٥٥٧ ، الألواني : مابلا ، ص٥١.

(١٨٢) انظر ملحق رقم (١).

(١٨٣) المباركبوري : العرب والهند ، ص٥٦، ٧٤ ، ورجال السند والهند ، ٦٢/١ ، ٦٨.

(١٨٤) محمد يوسف النجرمي : بدء العلاقات العملية بين الهند والعرب ، ص١٠٣.

(١٨٥) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٣٨/١ ، ١٤٤.

(١٨٦) ابن النديم : الفهرست ،٣١٧،٣١٨. المباركبوري: المرجع السابق،٦٢/١، ٩٨، ١٣٨.

(١٨٧) أبن النديم : نفس المصدر ،ص ١٠٢،٦٩، ٢٨٤ .المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٥١ ، رجال السند والهند ١٦٤/١ . والإمام أبو حنيفة فأسمه النعمان كان بديلاً عن الزوطي ، وأيضاً كان يضاف لاسمه ماه شاه أو مرزبان وهو لقب لنائب الحاكم في فارس ، و الأوزعي قيل أنه من أهل السند طبقاً للذهبي في تذكرة الحفاظ ، وفي بعض الروايات الأخرى ينسب إلى الأوزاع وهي بطن من ذي الكلاع باليمن أو همدان ، أو قرية من دمشق ، واعتمد المباركوري علي رواية الذهبي في نسب الأوزاعي إلى الهند.

(١٨٨) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٨٨، ١٩٣.

(١٨٩) الألواني : مابلا ، ص٤٨.

(١٩٠) جواد على :المفصل في تاريخ العرب ، ٦٩٥/٦ ، ١٤٣/٧ ، ١٤٤،٦٩٦.

(١٩١) المباركبوري : الهند في عهد الرسالة ، ص٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩.

(١٩٢) البيروني : الهند ، ٢٧، ٢٩، ٣٠ ، ٨٣.

(١٩٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند ، ٣/١٩٥٥م، ص ٢٨ ، قال الشاعر العربي أبو نواس وهو في مسجده .
المسابيح في ذراعي و المصحف في لبتي مكان القلادة.

(١٩٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦٣.

(١٩٥) البيروني : الهند ، ص ٢١ ، ٢٢ .وللمزيد ابن النديم: الفهرست، ص ٤٨٦:٤٨٤.

(١٩٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٦/١.

(١٩٧) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٥٣.

(١٩٨) الأشعري : الإمام أبي الحسن على بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ/٩٣٦م) ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تصحيح هلموت ، ريتر ، ط الذخائر ٢٠٠٠م، ص٦ ، ١١ ، ١٤.

(١٩٩) أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ٢٥٨/١.

(٢٠٠) الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ص ٤٦.

(٢٠١) Jaffar: Op. Cit.p.156

(٢٠٢) الألواني : مليبار ، ص٥٤ ، ٥٥.

(٢٠٣) همايون كبير : المسلمون في الهند ، ص ١٤.

(٢٠٤) همايون كبير : نفس المرجع ، ص ١٣ ، ١٤ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الأفكار بالتفصيل راجع ، ول ديو رانت ، قصة الحضارة ، الهند وجيرانها ترجمة ذكري نجيب محمود ، ط القـاهرة ١٩٦٨م ، ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢٠٥) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ص ١١٤، ١١٥.

(٢٠٦) همايون كبير ، المسلمون في الهند ، ص١٥.

(٢٠٧) ديو رانت : الهند وجيرانها ، ص ٢٢٨، ٢٧٦.

(٢٠٨) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٢/ ٧٠١.

(٢٠٩) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ٢٣١ ، ٢٣٤.

(٢١٠) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ٢١١، ٢١٢.

(٢١١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٧١ ، ٥٨٤.

(٢١٢) Aziz : Op. Cit.p.1

(٢١٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٠/١.

(٢١٤) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٥/١ ، ٥٣ ، ٥٤.

(٢١٥) أحسن التقاسيم : ص ٣٨١.

(٢١٦) الساداتي : تاريخ المسلمين ، ص٥٨.

(٢١٧) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٤٢٢/٢ حيث قال الشاعر سديف للعباس في قالب شعري.

لا يغرنك ما ترى من رجـــال … إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى … لا ترى على ظهرها أمويا

(٢١٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧٥.

(٢١٩) المباركبوري : الرسالة ، ص٧٧ ، رجال السند ، ٦٢/١.

(٢٢٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤١/١ ، ٤٥.

(٢٢١) الألواني : مابلا ، ص ٤٩.

(٢٢٢) أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص٤٦.

(٢٢٣) اللاهوري : عبرت نامه ، ص ٥١.

(٢٢٤) أبو الصلاح : البيروني : يسيح في الهند ، ص ٤٤، ٤٥.

(٢٢٥) Hasan Ali Nadui Muslims in India. Lucknow.1970 p.10.

(٢٢٦) أحمد الشامي: العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى،ص١١٤، ١١٥.

(٢٢٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٨٥.

(٢٢٨) المباركفوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٢٦.

(٢٢٩) البيروني : الهند ، ص٢٣.

(٢٣٠) زبيد أحمد : ما تبرعب به الهند للآداب العربية ، ثقافة الهند، ١٩٥٤/٢، ص٢٠.

(٢٣١) Hasan..Ali:Op.Cit.p.6

(٢٣٢) أبي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ص٤٩.

(٢٣٣) الألوائي : مابلا ، ص٤٨.

(٢٣٤) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٣١.

(٢٣٥) المباركفوري : رجال السند والهند ، ٣٣٣/٢.

(٢٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١٠/١ ، ٢١١.

(٢٣٧) اللاهوري : الرحلة ، ص ٤٨ ، ٦٢.

(٢٣٨) ماركوبولو : الرحلة ، ص٤٧/٣ ، ٤٨.

(٢٣٩) الألوائي : مابلا ، ص٤٨ ، ٦٢.

(٢٤٠) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٥٦٨.

(٢٤١) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٢٠ ، ٢١.

(٢٤٢) ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص ٥٣ ، ٥٤.

(٢٤٣) المباركفوري : رجال السند والهند ، ١٤٨/١ ، ٤٨٨/٢.

(٢٤٤) عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الأردوية ، ص٥٩.

(٢٤٥) ماركوبولو : الرحلة ، ٤٧٣/٣.

(٢٤٦) المباركفوري : رجال السند والهند ، ٤٧٣/٢.

(٢٤٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ٥٦٥ ، ٦٠٧.

(٢٤٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١.

(٢٤٩) المباركفوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٠٢.

(٢٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٠.

(٢٥١) أبو ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٩٥/١.

(٢٥٢) ماركوبولو : الرحلة ، ٧٢/٣.

(٢٥٣) المباركبوري : العرب والهند ، ص ١٢٤ ، رجال السند ، ٥٢/١.

(٢٥٤) الاصطخري: المسالك و الممالك : ص١٠٥.

(٢٥٥) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٤٠، ٦٢.

(٢٥٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٧٤/٥، ٧٥.

(٢٥٧) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في اللغة الأردية ، ص ٥٧، ٥٨ . المباركبوري : رجال السند والهند ، ٢٥٤/١.

(٢٥٨) المقديسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٨٢.

(٢٥٩) المباركبوري : رجال السند ، ٢٥٤/١.

(٢٦٠) ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص ١٧٥، المباركبوري : العرب والهند ، ص ٥٣.

(٢٦١) دهر بهانو: الموسيقي عند الملوك الأتراك و الأفاغنة في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٨/٣، ص٧٩.

(٢٦٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٠٨/١ ، ١٤٣ ، ٢٣٤.

(٢٦٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسانية الاقتصادية ، ثقافة الهند ، ١٩٥٤/٣، ص١١٠٧، و تفزرق البيدق و تفزرق من فعل فرزين وهو في اصطلاح الشطرنج – الملك – و البيدق وهو العسكر ، واصل الشطرنج على اختلاف هو هشت رنج أي الثماني صفح وهي عدد خانات الشطرنج ، أو صدرنك أي مائة حيلة أو شد رنج أي من اشتغل وذهب عناؤه ، سط رنج بمعنى التعب الأخير ، و أخر تلك التفسيرات ساطورانجا بمعني أربعة أعضاء وهو مصطلح خاص بالجيش الهندي المكون من الفيل والعربة والراكب والراجل.

(٢٦٤) ابن النديم : الفهرست ١٢٥. أحمد أمين . ضحي الإسلام ، ٢٦٩/١٠.

(٢٦٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص٢١٧/٥.

(٢٦٦) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في الأردية ، ص ٦١.

(٢٦٧) الهند ، ص٢٣.

(٢٦٨) التأثير العلمي وتطور الصوفية في الهند ، ص ٣٩.

(٢٦٩) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١.

(٢٧٠) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٢٧٩/١ ، ٢٨٠.

(٢٧١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٥٦ ، ٥٨٨ ، وهنا أيضاً تبرز طائفة التنجوي وهم شديدي التقشف ، و يعيشون شبه عراة لا يسترون أي جزء من أجسامهم ولا يعتبرون ذلك عاراً لأنهم أتوا إلى الدنيا هكذا ، وهم يعبدون الثور ويحملون معهم صنم صغيراً له يعلقونه على جباههم وهم يحرقون عظامه ، و يصنعون به مرهماً ويضعونه على مناطق معينة من أجسادهم (ماركو بولو: الرحلة ، ٦٠/٣ ، ٦١).

(٢٧٢) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٩.

(٢٧٣) ابن رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند، ص٤١.

(٢٧٤) أبو الحسن على الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط القاهرة ١٩٩٠م ، ص٧٥ ، ٧٦.

(٢٧٥) المقديسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٠.

(٢٧٦) Abul Hasan. Op. Cit. p.10

(٢٧٧) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٣٨.

(٢٧٨) الألواني : مابلا ، ص ٤٤ ، ٤٥.

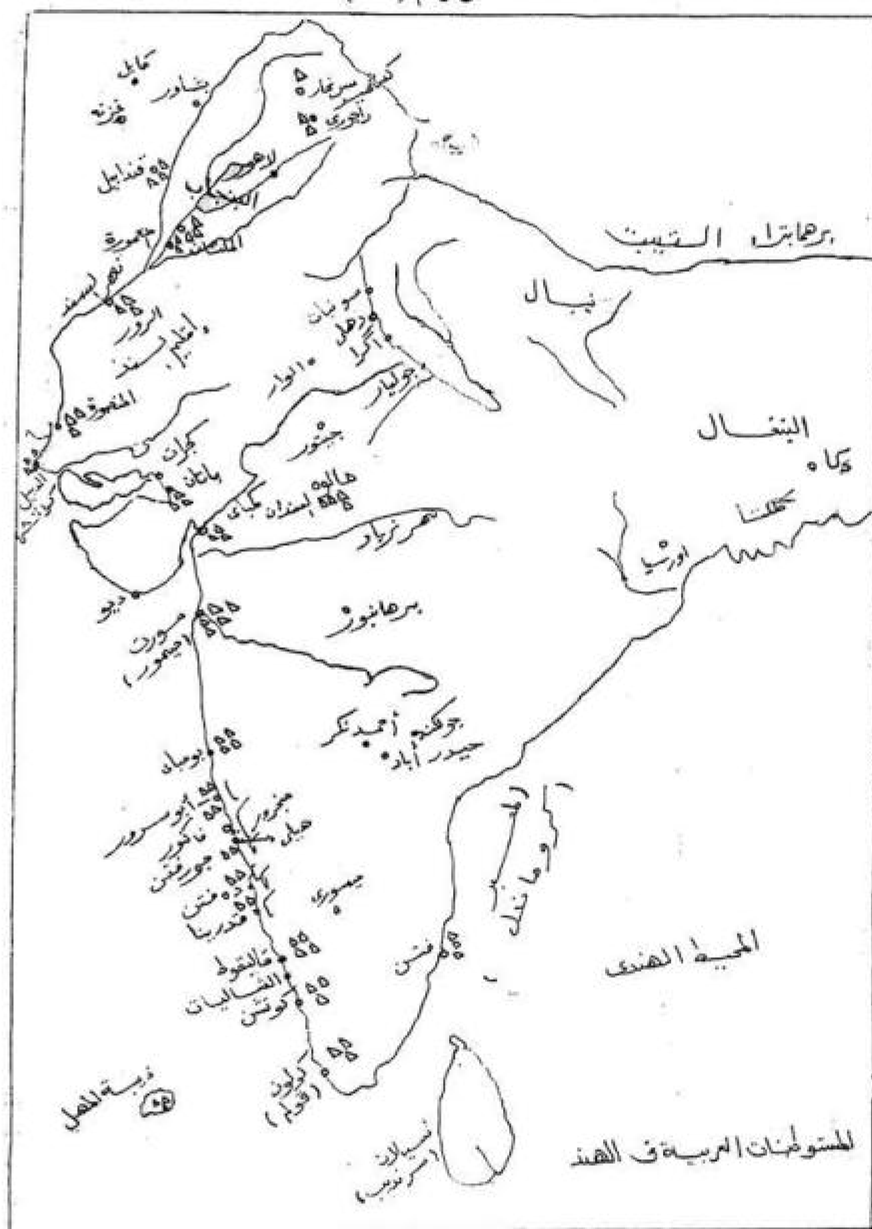
(٢٧٩) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٨٦/١، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١٤.

ملحق رقم (١)

اللقب	اللغة	المعني	عام/ خاص	المنطقة	صاحب اللقب	المصدر
الصدر الأعظم وسيف السنة	عربية	—	خاص	الرور	قاضي القضاة العهد في الأموي	الحسيني ، نزهة، ١ /٥٠
ملك الملتان	عربية	—	خاص	الملتان	جعفر بن محمد	الحسيني: نزهة،٥٣/١
السادات	عربية	—	عام	كشمير	وزراء ووكلاء أسرة شاه ميرز من العرب	فرشته : كلزار،٦٥١/١
لبي	عربية	أجاب	خاص	السند	أبناء الحارث العلافي	الصديقي : أول من عرف الإسلام،١١٥
مهاراج	سنسكريتي	الحاكم الكبير	خاص	السند و مكران	سلاطين الأسرة المعدية العرب	الاصطخري : مسالك الممالك ص١١٧
مايلا	المليبارية	أبن العظيم	عام	مليبار	التجار العرب	الألوائي : مابلا، ص ٣٢/٣١
مرزبان الهند	فارسية	الملك العظيم	خاص	المعبر	الوزير تقي الدين عبد الرحمن	الألوائي : مابلا ص ٥١

اعز الناس	عربية	—	عام	مليبار	السكان المدنيين من العرب	الألواني : مابلا ص ٦٣
مركار	المليبارية	أصحاب المركب	عام	مليبار	العرب العاملين في الجندية	الألواني : قبيلة مركا ر ، ص٦٣
الأعزة	عربية	—	عام	كولم	ساكني المستوطنات العربية	ابن بطوطة : الرحلة ص ٥٧٥
الاساورة	سنسكريتية	الحصان المرتفع	خاص	فارس و جزيرة العرب	قادة الجيش من الهنود	المباركبوري العرب والهند ص ٧٢
الميد	سنسكريتية	الرائحة النتينة	خاص	ساحل الهند	قراصنة البحر العربي	المباركبوري : رجال ٢/ ٥٨٠
السيابجة	سنسكريتية	الأطفال السود	خاص	الحجاز	—	المباركبوري : العرب والهند ٦١

ملحق رقم (٢)



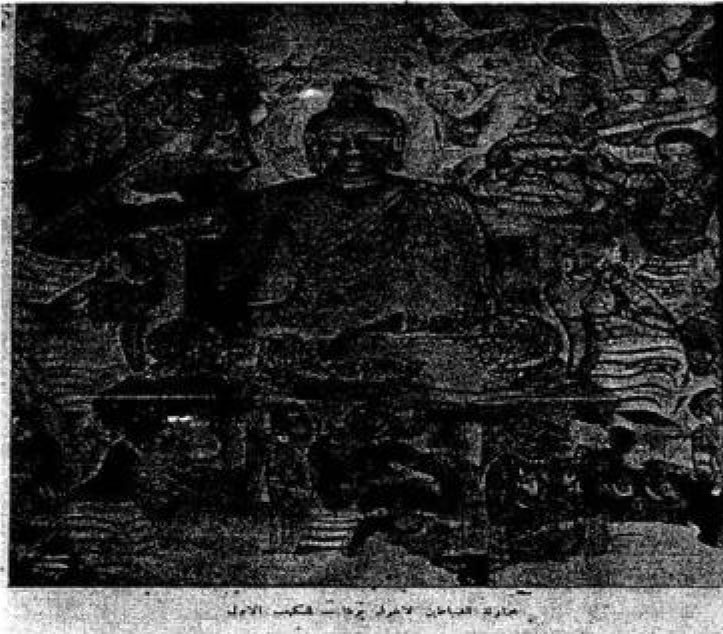
كابل
بشاور
غزنة
قندابيل
المنصورة
نبال
البنغال
برهانبور
أحمد نكر
حيدر آباد
ميسور
ديو
المحيط الهندى
المستوطنات العربية فى الهند

ملحق رقم (٣)



جد كدنغلور — أقدم المساجد في القارة الهندية بناه مالك بن دينار في مدينة كدنغلور بمليبار

الالواني : قبيلة ماركار الشجعاء صـ ٦٩



(نموذج من الديانة البوذية في المناطق العربية في الهند محمود على خان : كهوف اجنتا ص٥٣

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:ـــ

ابن الأثير : عز الدين بن الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني ت(٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ،ط مكتبة العرب ، الفجالة ، القاهرة ، ب .ت

ابن بطوطة : محمد عبد الله إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م.

البلاذري : أحمد بن يحي بن عبد جابر البغدادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م) فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد ، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.

البيروني : أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ، تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة ، ط الهيئة ، الزخا ئر ، ٢٠٠٣م.

الحسيني : عبد الحي الحسيني الندوي : نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر ، ط دار بن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)

الأشعري : الإمام أبي الحسن على بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ/٩٣٦م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، صحيح هلموت ريتر ، د الزخائر ٢٠٠٠م.

الاصطخري :أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي ت(٣٠٩هـ/٩٥١م) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ،ط دار وزارة الثقافة،١٩٦١م.

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة.

فرشته :محمد قاسم هندوشاه ت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ، كلزار إبراهيمي ، ط بمباي ١٨٣١م.

ابن القفطي : جمال الدين ابن الحسن على ت (٦٤٦هـ/١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتنبي ، القاهرة.

القلقشندي : أحمد بن على ، ت (٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الإنشاء ، ط الهيئة ٢٠٠٥م.

اللأهوري : مفتي على الدين ، عبرت نامه ، ط لاهور ١٩١١م.

ماركو بولو : رحلات ماركو بولو : ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٨م.

المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،ط دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٤٨م.

المقديسي : شمس الدين البشاري : ت (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤م.

أبن منظور :جمال الدين محمد بن حزم الأنصاري ت(٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب ، ط دار صادر ، بيروت ،١٩٩٧م.

ابن النديم :محمد بن إسحق البغدادي ت(٣٨٥هـ/٩٩٥م)، الفهرست ، ط دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

اليعقوبي : أحمد بن ابن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت .

ثانياً : المراجع العربية :ـــ

- أحمد إبراهيم على : تاريخ كشمير الإسلامية ، ط دار الفادي ، المنيا ، ٢٠٠٦م
- أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ط الهيئة ١٩٩٧م.
- أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ط، نهضة الشرق، ٢٠٠١م.

- جواد على ، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م.
- زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي، ط نهضة مصر ١٩٩٥م.
- عصام الدين عبد الرءوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ٢٠٠٢م.
- المباركبوري : قاضي اطهر: العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت، ط الهيئة ١٩٧٣م.
- ---------- رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ص دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ

ثالثاً : الدوريات :ـ

- أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج العربي وبلدان الشرق الأقصى واثر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطي ، المؤرخ العربي ، ١٢/١٩٨٠م.
- أي . رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند، ٤/١٩٦٧م.
- عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الهندية ، صوت الشرق ٤٢٣/٢٠٠١م.
- على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، التاريخ والمستقبل يناير ١٩٩٨م.
- فيصل السامر : الإسلام في إندونيسيا ، عالم الفكر ، ٢/١٩٧٩م.
- محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١/١٩٦٠م.

- محيي الدين الألوائي : مابلا ، ثقافة الهند ، ٣ /١٩٥٥م.
- مقبول أحمد : العلاقات التجارية بن الهند والعرب ، ثقافة الهند ٣/١٩٦٠م.
- همايون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ٣/١٩٥٥م.

رابعاً : المراجع الانجليزية :ـ

- Aziz Ahmad : An intellectual History of Islam in India. Edinburgh. U.S.A. 1969.
- E. B. Havell. The History of Aryan Rule in India London
- Hakim Siyed: India during Muslims Rule. Luknow. 1977.
- Hasan Ali Nadui : Moslims in Indian luknow. 1970.
- S. M. Jaffar: Medieval India under Muslim kings. New Delhi 1972.

د. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين *

مكانة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي حتى نهايـــة العصر العباســـي الأول

المقدمة :

لعل أهل الذمة وتعامل المسلمين معهم في المجتمعات الإسلامية من الموضوعات الـــتي تحتاج إلى مزيد من الدراسات الجادة العميقة حتى تكشف الصورة عن أوضاع هذه الشـــريحة في المجتمع الإسلامي .

ذلك أن لبساً بيناً يحيط بهذه العلاقة وذلك التعامل ، يبدأ هذا اللبس بفهـــم المصـــطلح الذي وصف به الإسلام غير المسلمين من أهل العهد الذين شاركوا المســـلمين العـــيش في المجتمع الإسلامي ، أعني بذلك مصطلح أهل الذمة ، فيذهب الكـــثيرون إلى فهـــم هـــذا المصطلح فهماً خاطئاً ، فيرون الذمة قرينة المذمة والمذلة والمهانة والإنتقاص ، في حين أنها في حقيقة الأمر تنطوي على الإكرام والإحسان والأمان والحرمة ، بل هي في أصلها مـــأخوذة من أن لهؤلاء بحكم العهد الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليهم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده بالأمان وحسن المعاملة وأن على المسلمين مراعاة هذه الذمة ، فهم على ذلك ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقلت بعد وفاته إلى المسلمين ، الذين هـــم أولى الناس بإنفاذ عهده ومراعاة ذمته ، قال صلى الله عليه وسلم " ويسعى بذمتهم أدناهم " [1] .

---

*أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة تعز

ويتناول هذا البحث مكانة هذه الشريحة من المجتمع الإسلامي ، بين المسلمين ، كيف نظر إليها المسلمون ؟ وكيف تعاملوا معها ؟ هل التزموا بتعاليم الإسلام في ذلك التعامل أم انساقوا مع أهوائهم ورغباتهم ؟ هل تعايشوا معها أم عزلوها وأقصوها ؟ هل مكنت هذه الشريحة من ممارسة حياتها وإقامة شعائرها بحرية ،أم ضيق عليها ، واضطهدت ؟ هل شهد التاريخ الإسلامي تجارب تصفيات عرقية على أساس الدين والجنس ؟ هل شهد تهجير وتشريد للمخالفين دينياً خارج حدوده الجغرافية ؟ أم ان العدل والتسامح والتعايش والرفق هو الذي ميز علاقة المسلمين بأهل الذمة ؟

مفهوم الذمة :

من الأخطاء التي وقع فيها الكثيرون وترتب على هذا الفهم مواقف وتصورات وأحكام، مفهوم أهل الذمة ، ففهمت الذمة على أنها قرينة المذلة والمهانة ، والانتقاص ، والحق أن هذا الخلط ناتج عن توجهات سلبية إزاء الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة وإزاء المجتمع الإسلامي، الذي عاش لهذا الدين وبه حياته ، مؤثراً ومتأثراً بالحياة والأحياء من حوله ، فالذمة كما هي في القاموس اللغوي ، وفي الاصطلاح الفقهي وكما فهمها المجتمع الإسلامي بمسلميه وذمته، الحرمة والرعاية والحماية لكل من دخل في كنف الدولة الإسلامية من غير المسلمين بعهد ، توفى إليه حقوقه ما وفي للمسلمين ما عليه من واجبات .

وعلى هذا فأهل الذمة هم الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة في أعناق المسلمين ، وبموجب هذه الأمانة يكون الإحسان إليهم والرفق بهم ، قال صلى الله عليه وسلم : " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " [٢]، بل أنه وجه المسلمين إلى حرمة مال أهل الذمة ، ونهاهم عن الزيادة عليهم فوق ما صولحوا عليه ، فقال : " لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم دون أنفسهم وأبنائهم وتصالحونهم على ذلك ، فلا تصيبوا منهم بعد ذلك شيئاً"[٣].

التزم الصحابة بهذه التوجيهات القرآنية والنبوية التي تأمر بالإحسان إلى أهل الذمة ، والوفاء لهم بحقوقهم ، وعدم الإفتيات عليهم ، وهو توجهاً عاماً لمسناه من تعاملهم مع أهل الذمة ، قال تعالى :" ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى "[٤]

ومن هذا قول (عبد الله بن رواحة) لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال:" والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض" هذا الفهم للذمة ارتبط برؤية الإسلام للإنسان وبالمكانة التي منحها الله للإنسان بوصفه خليفته في الأرض (٥) ، وقد ظل هذا الفهم للذمة في عهد الخلفاء الراشدين وفي العصور الإسلامية اللاحقة.

نظرة الإسلام إلى الإنسان

أولاً : وضع الإنسان في الحضارات القديمة :

إذا ما أردنا أن نعرف وضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، يتوجب علينا أولاً أن ننظر إلى وضع الإنسان في ظل الحضارات السابقة ، ما معايير التمايز بين الناس .

فالبراهمية مثلاً تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى (٦)، أما قدماء اليونان فكانوا يعتقدون أنهم شعب متميز عن غيرهم بقدراتهم العقلية ، وأنهم لذلك المؤهلون الوحيدون للقيام بالأعمال العقلية ، ومن ذلك مهام القيادة والإدارة والتخطيط ، ويعتقدون بأنهم عنصر مفضل عن غيره ، وأنهم خلقوا من عنصر مختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى ، التي كانوا يطلقون عليها البربر ، وأنهم وحدهم كاملوا الإنسانية ، وقد ميزوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان ، وأن الآلهة قد خلقت فصيلين من الناس ، فصيلة زودتها بالعقل والإرادة ، وهي فصيلة اليونان ، وفصيلة لم تزودها إلاّ بقوة الجسم وما يتصل به ، وهؤلاء هم البرابرة ، أي ما عدا اليونان من الناس ، وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ، ومن واجب اليونان أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التي خلقوا لها ، وهي الرق ، وكل حرب يشنها اليونانيين لهذه الغاية فهي حرب مشروعة (٧)

وكانت الدولة الرومانية تقسم رعاياها بحسب العنصر ، فالروماني الأصل مواطن من الدرجة الأولى ، يتمتع بحقوق وامتيازات عن غيره من الرعايا غير الرومان ، الذين يأتون في الرتبة الثانية ، وكذلك الأمر بالنسبة للفرس فالملوك هم كما يزعمون أبناء الآلهة مقدسون ،

وما سواهم عبيد مسخرين لخدمتهم ، وغير الفرس أقل شأناً من الفرس ، وقد يتعرضــون للظلم والازدراء من الفرس .

وقريب من ذلك وضع غير العربي في القبائل العربية قبل الإسلام ، فأبنــاء القبيلــة متميزون عن غيرهم من منتسبي القبيلة من الموالي والعبيد ، الذين توكل إلــيهم الأعمــال الوضيعة .

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق مكرم محترم ، قال تعالى : " ولقد كرّمْنا بني آدم وحملناهم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَـثِيرٍ مِّمَّـنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلاً " (٨) ومن هذا التكريم أنّ خلق الإنسان كان أحسن خلق وأكمله ، خلقه في أحسن تقويم ، قال تعالى :" لقدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ "(٩) ، خلقه وأوجده من العدم ، فلم يكن قبل ذلك شيئاً ، قال تعالى :" هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَـمْ يَكُـن شَـيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (١٠) .

ثم أن الله تعالى ميز الإنسان بالعقل وجعله مناط تكليفه بمهمة العبادة والاســتخلاف في الأرض ، فاستخلفه في الأرض ومكنه مما ادخره له فيها من طاقات ، بل وعلمه أسرار هذه الأرض لينتفع بها وليسخرها لمصلحته بما علمه من معارف وعلوم لم يكن يعلمهــا ، قــال تعالى:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُــونَ،وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنـتُمْ صَـادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ " (١١) ، وقال في موضع آخر :" خَلَقَ الْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (١٢) .

كما وهبه العقل ، الطاقة الخلاقة التي استطاع الإنسان بها أن يتغلب على قسوة الحيــاة ويعوّض بها إمكانياته الجسمانية الضعيفة نسبياً مقارنة بغيره من الحيوانات التي زودهــا الله تعالى بوسائل لمواجهة قسوة الطبيعة ومتغيرات الحياة .

وكرم الله النفس البشرية ، وحافظ عليها من الاعتداء ، أو التعرض لها بـأذاً ، فسن التشريعات الكفيلة بحمايتها وردع من يعرض لها بسوء ، قال تعالى : " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (١٣) ، وقال عزوجل " وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (١٤) وقال تعالى " وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا " (١٥) وقال أيضاً :" وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا " (١٦).

والرب في الإسلام ليس رباً عنصرياً ، بمعنى أنه ليس رباً للعرب ، أو حق للمسلمين فحسب ، بل هو رب للعالمين ، قال تعالى :" إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ "(١٧)، وقال عزوجل :" وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ "(١٨) ، وقال في موضع آخر :" فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "(١٩)وقال تعالى : " تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ "(٢٠) وقال أيضاً :" وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢١) .

ورسالة الإسلام ليست مقصورة على قوم من الأقوام أو عنصر من العناصر ، بل هي للناس كافة ، كما أن شريعة الإسلام ليست كذلك لتنظيم حياة المسلمين فحسب ، بل منهج لتنظيم حياة الإنسان على الأرض ، لأن الله أراد الخير بهذا الدين للناس كافة .

وتتلخص نظرة الإسلام إلى الإنسان في وحدة الأصل ووحدة التكوين ووحدة المصير ، قال تعالى :" يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " (٢٢) ، كما بين أن ما حدث من توزيع للناس على الأرض وتقسيمهم إلى شعوب وقوميات وقبائل لم يكن للمباعدة فيما بينهم بقدر ما كان للتعارف والتقارب ، قال تعالى :" يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " (٢٣)، وليس من مقتضيات الإيمان بالإسلام القطيعة مع غير المسلم ، بل أن الفقه الإسلامي نص على أن من مقتضيات الحياة ومن سنن الكون أن الإنسان يحتاج إلى أخيه الإنسان ، ولذلك وضع أسس العلاقات مع غير المسلمين سواء في دولة الإسلام أم في خارجها .

واجبات الدولة إزاء أهل الذمة :

يترتب على عقد الذمة حقوق وواجبات على المتعاقدين ، وهما الدولة الإسلامية وأهل الذمة ، وبموجب هذا العقد تمنح الدولة الإسلامية أهل الذمة جميع الحقوق التي أقرها الشرع لهم ، وتصبح هذه الحقوق ملزمة على المسلمين ، من هذه الحقوق حفظ النفس ، فدم الذمي مثل دم المسلم له حرمة ، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه ، فقد رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ، فأمر بالقصاص منه قائلاً :" أنا أحق من وفى بذمته "[٢٤] ، وسلّم عمر بن الخطاب رجلاً من بني بكر بن وائل قتل ذمياً إلى أولياء الدم فقتلوه "[٢٥] ، وأوصى الخليفة بعده بحسن معاملة أهل الذمة ، بعدم تكليفهم فوق طاقتهم ، حيث قال :" أوصي الخليفة بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى إليهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفون فوق طاقتهم "[٢٦] .

حسن معاملة أهل الذمة :

لعل من القيم الإسلامية الأصيلة ، التي أكدت عليها تعاليم الإسلام ، قيمة الرفق ، والرفق في الإسلام قيمة مطلقة ، بمعنى أنها ليست مقيدة على تعامل المسلم مع المسلم ، بل في تعامله مع الناس ، كافة ، بل مع الحيوان والكائنات الأخرى ،بل أن هذه القيمة تتناسب تناسباً طردياً مع قوة المسلمين ، ومع مدى التزامهم بتعاليم دينهم .

أثبت ذلك الرصد التاريخي لمراحل التاريخ الإسلامي بين القوة والضعف الاستقامة والسقوط ، وأكدت هذه القيمة أدبيات الإسلام ومصادره التشريعية ، قال تعالى :" إذهبا إلى فرعون إنه طغا ، فقولا له قولاً ليناً " ، وقال تعالى ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلى الذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم "[٢٧] ، وقال عزوجل :" قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله .. "[٢٨] ، وقال عزمن قائل :" وجادلهم بالتي هي أحسن "[٢٩] وقال تعالى :" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا أمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون "[٣٠] ، وقال تعالى :" فبما نعمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك "[٣١] .

كما حفلت السنة النبوية بكثير من التوجيهات إلى هذه القيمة الدينية ، حتى يجعل منـها المسلم معياراً للتعامل مع الناس ، فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم الرفق منهجاً لدعوتـه ، فتدرج في أبلاغ الدعوة رفقاً بالناس ، وكان رفيقاً بقومه من مشركي مكة عندما فتحهـا ، وكان رفيقاً بأهل الطائف عندما اذوه ومكنه الله من الإنتقام منهم ، ولن تتمكن من إحصاء كل المواقف التي تبين تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق مع المسلم وغير المسلم.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بالكثير من المواقف التي تجلت فيها حسن معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل ، فعندما سأل عبد الله بن ربيعة عبد الله بن عمر عما يفعل مع أمه النصرانية ، أمره بالإحسان إليها ، قائلاً :" أحسن ولايتها وكفنها "(٣٢) ، وكان لعمر بن الخطاب مولاً نصرانياً يدعى (أسق) عرض عليه الإسلام فأبى فقال له لا إكراه في الدين ، ثم أعتقه لدى وفاته(٣٣).

ورفض معاوية بن أبي سفيان أن يقتل من لديه من رهائن الروم عندما غدر الـروم بـه ونكثوا عهده ، وقال :" وفاء بغدر خير من غدر بغدر " (٣٤) .

وفي الاندلس اتسمت معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة بالتسامح الذي أشاد به غير المسلمين قبل المسلمين، (٣٥)، تمثل هذا التسامح مع غير المسلمين في المعاملات والمجاملات ، فلم يتدخل المسلمون في شيئ من عقائدهم وعاداتهم وأساليب عيشهم .(٣٦) وقد أتاح هذا التسامح من قبل المسلمين إلى زيادة التأثيرات الاجتماعية بين المسلمين والأسبان ، لدرجة أن الدول المسيحية المناوئة للدولة الأسلامية في الشمال الأسباني لم تجد مبرراً ، للمطالبة بحماية الرعايا المسيحين ،وكذلك لم تفعل الدولة الفرنجية التي كانت تتربص أحياناً بالأندلس (٣٧).

هذا التسامح لم ينله المسلمون من الأسبان بعد أن سقطت دولة الإسلام في الأنـدلس ، بل ووجهوا بأساليب القمع والتطهير العرقي ، وأجبر من نجا من القتل على تـرك دينـه ، والانسلاخ من قيمه وعاداته ، وتغيير لسانه وإسمه وأساليب حياته .

معاملة أهل الذمة أمام القضاء الإسلامي :

ينظر الإسلام إلى الإنسان بوصفه خليفـة الله في الأرض ، خلقـه الله وكرّمـه ، وإلى الرسالات السماوية أنها استهدفت هداية هذا الإنسان إلى السبيل القويم من خـلال رسـم الخطوط العامة لحياة الإنسان في الإرض حتى تسير الأمور فيها إلى غايتها ، وحـتى يحقـق

الإنسان الغاية التي خلق من أجلها العبادة والعمارة ، وينظر إلى العدل بوصفه الضابط الذي يكفل استقامة حياة الإنسان على الأرض ، وهو لذلك يطلبه ويشدد على إرساء دعائمه في الأرض بين الناس ، وهو لذلك يساوي بين المسلم وغير المسلم من رعايا الدولة الإسلامية أمام القانون المدني والجنائي ، فحمى حقوق أهل الذمة كما حمى حقوق المسلم ، وعاقب الذمي على الجرائم التي اقترفها كما عاقب المسلم ، وحرّم دم الذمي وعرضه وماله كما حرّم دم المسلم وعرضه وماله .

هذه القيم النظرية لم تكن بعيدة عن الواقع ، لا بل كانت الممارسات العملية التي شهدها السياق التاريخي الإسلامي تصدقها ، وتؤكد على واقعيتها ، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يعدل في تعامله مع يهود خيبر عندما أعطاهم الأمان دون أن يلتفت إلى ما فعله بعضهم به ، فقد كان فيهم أهل بيت فيهم شدة على الرسول صلى الله عليه وسلم وفحش ، فقال :" يابني الحقيق عرفت عداوتكم لله ولرسوله ، ثم لم يمنعني ذلك من أن أعطيكم ما أعطيت أصحابكم "(٣٨)،وعندما تقاضاه يهودي وأساء التقاضي فأغلظ للنبي في القول ، ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ أن عفا عنه وتسامح معه، قائلاً لأصحابه بعد أن هموا به:"دعوه فإن لصاحب الحق يداً ولساناً " (٣٩).

واختصم الإمام علي بن أبي طالب في خلافته مع يهودي إلى قاضيه شريح في درعٍ له وجدها عند اليهودي ، فطلب منه القاضي أن يثبت بالشهود ملكيته للدرع ، فأتى بالحسن وبأحد نواليه ، فلم يقبل شهادة الحسن لأبيه ، قائلاً :" يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين "، ثم إنه أعطى الدرع لليهودي ، فقال اليهودي : أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضه وحكم قاضيه عليه ، هذه والله أحكام أنبياء ، صدقت ياأمير المؤمنين الدرع درعك سقطت منك وأنت عائد من صفين فالتقطتها ، أشهد أن لا إلاه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله(٤٠).

وبالرغم من كل هذا التوخي للعدل ، والتحري للحق والحذر من الوقوع في الجور ، ظل القضاة والحكام يحاسبون أنفسهم ويؤنبونها ، لعلها أن تكون قد حدثتهم في يوم ما في الميل مع الهوى ، أو التمييز بين الخصوم ، على أساس الشرف والجاه والسلطان ، ولنستمع إلى هذا الاعتراف من القاضي أبو يوسف ، في اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت ، وهو يحاسب نفسه في آخر عهدها بالدنيا وأول عهدها بالآخرة ، قائلاً : " لئن جُرت في القضاء بين

عباده لم أجره إلاّ مرة واحدة ، ادعى فيها يهودي على هارون الرشيد دعوى ، فأحضرت هارون الرشيد واليهودي ، فلما حضرا قلت لليهودي قم واجلس حيث يجلس خصمك ، وما قلت لهارون قم واجلس حيث يجلس خصمك "(٤١) .

بهذه الحاسة المرهفة ، وبهذا الشعور العالي بالمسؤولية ، بهذه العبارات التي تقطر تقوى وتشع إيماناً وتندى صلاحاً ، بيّن القاضي أبو يوسف الأخطاء التي يمكن أن يكون قد وقع فيها ووقع منه الجور في أقضيته ، وبيّن مع ذلك المستوى الحضاري الراقي الذي تعامل به المسلمون مع غيرهم عندما تسيّدوا الأرض وكيف نَعَمَ غيرهم بالعدل والإنصاف في دولة الإسلام ، بيّن أن ثمة فرق بين مَدَنية حملت للإنسانية الحروب والدمار ، وبين حضارة جاءت رحمة للعالمين .

حماية أموال أهل الذمة :

نظر المجتمع الإسلامي إلى أموال أهل الذمة على أنها ملكيات خاصة محترمة ، لا يجوز حيازتها بدون حق ، أو إلحاق الضرر بها ، تتضح هذه النظرة من خلال نظرة الشرع لأموال أهل الذمة ، ومن خلال تعامل الدولة والناس معها ، فقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودي بمال أخذه منه ، وعندما أجلى عمر بن الخطاب لدواعي أمنية يهود الحجاز عوضهم عن أرضهم ودورهم ونخيلهم في الشام وفي العراق .(٤٢) وبلغت درجة تحري المسلمين في التعامل مع أموال اهل الذمة أن الخلفاء والولاة كانوا يحذرون القادة والجنود عندما يمرون بقرى وبأراضي أهل الذمة من إلحاق الأذى بأهلها أوبممتلكاتهم أو لأن أنفسهم وأموالهم محترمة ومحروزة ، وإذا اضطر المسلمون لأخذ بعض هذه الأموال يعوض أصحابها ، فقد شكا ذمي لعمر ابن الخطاب عندما كان بالجابية أن الناس قد أسرعوا في عنبه ، فنهاهم عن ذلك ، لكن الناس اعتذروا إليه بأنهم في مجاعة ، فأمر لصاحب العنب بقيمة عنبه (٤٣)، وكان خالد بن الوليد ينهى جنوده عن الإعتداء على أموال أهل الذمة حيث يقول :" ولا ترزأ معاهداً إبرة فما فوقها "(٤٤) ،ونهى عبد الله بن عباس عن أن يؤخذ من أموال أهل الذمة فوق ما صولحوا عليه (٤٥) ، وكان الناس في جيش علي عندما خرج لملاقات الخوارج يتناهون فيما بينهم عن أخذ شيئ من ما ل أهل الذمة ، فيذكر أن أحدهم تناول ثمرة ساقطة من بستان لبعض أهل الذمة فألقاها في فيه فقال له بعضهم :" ثمرة معاهد

فيم استحللتها ؟ فألقاها من فيه ، ثم مروا بخنزير فقتله أحدهم بسيفه فقال له بعضهم خنزير معاهد ، فيم استحللته" ؟[٤٦] ، وحذر أبو هريرة رجلاً ذهب للجهاد من العبث بمال أهل الذمة ، قائلاً :" لا تطأ حرثاً وإياك والمخلاة والمخلاتين من أموال أهل الذمة ثم تقول أنا غازٍ"[٤٧] ،وكان أبو الدرداء ينزل القرى من قرى أهل الذمة فلا يزيد على أن يشرب من مائهم ويستظل بظلهم وترعى دابته من مراعيهم ، فيأمر لهم بالشيء أو بالأفلاس "[٤٨].

وأمر عمر بن عبد العزيزي برد مظالم أهل الذمة إن وجدت في عهد أسلافه ، عندما كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قائلاً :" استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه ، فإذا كان أهل المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم "[٤٩].

وكان من حماية أموال أهل الذمة والرفق بهم وعدم تكليفهم فوق ما صولحوا عليه من الجزية والخراج ، فقد درج بعض الولاة على فرض زيادة على ما يؤديه أهل الذمة من مال لإعانة موظفي الدولة الذين يمرون بقرى أهل الذمة ، مثل أجور الفيوج ، ودراهم النكاح ، أو تلك الأموال التي اعتاد أهل الذمة على أداءها لحكامهم مثل هدايا النيروز والمهرجان ، فأديت للدولة في بعض الأقاليم ، ويظهر ذلك من موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما منع أخذ هذه الأموال الزائدة على ما صولح عليه أهل الذمة [٥٠]، وأعاد خراج أهل قبرص إلى القدر الذي صالحوا معاوية عليه وألغى الزيادة التي فرضها عليهم عبد الملك بن مروان[٥١].

ومع كل هذا التيسير والرفق ، فلم يكن كل ذمي ملزم بالجزية مهما كانت حالته الاقتصادية ، وإنما كان المسلمون يأخذها من الأغنياء ، والقادرين على الكسب ، ولذلك كان يعفى من أدائها الفقراء والمعوزين من أهل الذمة ، بل إن الدولة في حالات كثيرة كانت تنفق على العجزة والزمنى من أهل الذمة من بيت مال المسلمين فقد أجرى عمر بن الخطاب على شيخ من أهل الذمة وجده يسأل الناس من بيت مال المسلمين، قائلاً له :" والله ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك "[٥٢] .

وقد تكرر هذا الموقف مفي العصر الأموي من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إذ كتب إلى واليه على البصرة ، عدي بن أرطأة يأمره بكفالة الضعفاء من أهل الذمة من بيت مال المسلمين، حيث قال :" انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فاجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه "[٥٣] .

أساليب جباية الخراج والجزية :

مما يدل على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، أساليب التعامل معهم في جباية الخراج والجزية ، فقد حرصت الدولة الإسلامية في مراحلها المختلفة على توخي الرفق واللطف في تحصيل هذه الأموال منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الخلفاء الراشدون وكثير ممن أتى بعدهم يختارون لهذه المهمة أشخاص يمثلون القيم الإسلامية ونظرة الإسلام إلى أهل الذمة على أنهم جزء من المجتمع الإسلامي توفى إليهم حقوقهم ما أدوا التزاماتهم إزاء الدولة ، بل أن المجتمع عاملهم بنوع من الرحمة والإحسان ، اقترن هذا الرفق والإحسان بالتزام المجتمع الإسلامي بقيم وتعاليم الإسلام ، فالكتاب والسنة يدعوان إلى الإحسان إلى غير المحاربين من غير المسلمين ، قال تعالى :" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين "(٥٤) ، وقال صلى الله عليه وسلّم :" من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً دون طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة "(٥٥).

قسمت الجزية في عهد عمر بن الخطاب بحسب القدرة المالية لأهل الذمة ، فعلى الأغنياء ثمانية وأربعون درهماً وعلى متوسطي الدخل أربعة وعشرون درهماً وعلى الفقير المعتمل إثناعشر درهماً (٥٦) ، ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء يُعفوْن منها إذا عجزوا عن أدائها.

وكان الخلفاء يحذرون عمالهم من القسوة والبطش في جمع الجزية والخراج ، ويعاقبون من يثبت عليه سوء معاملة أهل الذمة ، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب أتاه مال كثير من الجزية، فقال لمن أتاه به من عماله :" إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ، قالوا والله ما أخذنا الأ عفواً صفواً ، قال بلا سوط ولا نوط ، قالوا نعم قال الحمد لله "(٥٧) ، وكان يتمسك بالولاة الذين يرفقون بالناس في جمع الخراج ، فعندما تأخر سعيد بن عامر عن إيصال الخراج علاه عمر بالدرة ، فقال سعيد :" سبق سيلك مطرك إن تعاقب نصبر وإن تعف نشكر وإن تستعتب نعتب ، فقال له عمر : مالك تبطئ بالخراج ؟ ، فقال سعيد : أمرتنا أن لا نزيد على الفلاحين على أربعة دنانير ،فلسنا نزيدهم ،ولكنا نؤخرهم إلى غلاتهم ، فقال عمر : لا عزلتك ما حييت "(٥٨) .

وكان علي بن أبي طالب يحذّرعماله من البطش والشدة في جباية الجزية والخراج ، فيروى أنه استعمل رجلاً من ثقيف على عكبراء فقال له :" لا تبيعن لهم في خراجٍ حماراً ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيف وارفق بهم "[٥٩] وكان إذا بلغه عن بعض نوابه شدة على الناس في طلب الخراج ، قال :" اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك ولا يتركوا حقك"[٦٠].

بل إن العلماء كانوا يتدخلون أحياناً لدى الولاة للتخفيف عن أهل الذمة من الخراج ، فيروى أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل ، ليشفع له عند والي بعلبك ليخفف عنه مقدار الخراج ، فقال الأوزاعي : إن شئت رددت الجرة وكتبت لك ، وإلاّ قبلت الجرة ولم أكتب لك ، فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً "[٦١].

وكان من مجالات الرفق في جباية الجزية والخراج ، أن تأخذ من عين ماينتجه أهل الذمة، فكان علي بن أبي طالب يأخذ الجزية من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسان مساناً ومن صاحب الحبال حبالاً ، رغبة في التخفيف على أهل الذمة ،[٦٢] ، كما روعي فيه خصوبة الإقليم وثراءه وسهولة الري ، ونوع المحصول والقرب من الأسواق .[٦٣]

وهكذا فقد كان الرفق هو المنهج المتبع والسياسة النافذة في تعامل المسلمين مع أموال أهل الذمة ، في الجباية ، وكان الرفق يصل إلى أن يعاقَب الولاة ويعزلون لإساءتهم في التعامل مع أهل الذمة.

مشاركة أهل الذمة في المناسبات الاجتماعية :

لعل مما يوكد على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، وعلى روح التسامح التي عامل بها المسلمون غيرهم ممن عاشوا في دار الإسلام ودخلوا في نسيجه الاجتماعي ممن عرفوا بأهل الذمة ، فعاش عدد كبير منهم إلى جانب المسلمين في مدنهم وقراهم ، مما أدى إلى تأثرهم بالثقافة الإسلامية ، وإلى سريان روح التعايش بينهم وبين المسلمين ، فشاركهم المسلمون مناسباتهم الاجتماعية وفي أعيادهم الدينية والقومية ، بل ودخل معهم المسلمون في مصاهرات ، وفي تعاملات مالية ، وكان لكل هذا الاحتكاك والتسامح أثره في التعايش بين المسلمين وأهل الذمة ، وفي بقاء أهل الذمة إلى هذه اللحظة يمثلون جزءً من نسيج المجتمع الإسلامي ، محتفظين بكنائسهم ومعابدهم وبكل خصوصياتهم.

فساكن النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في المدينة ، وكان يبادر إلى حسن معاملتهم والتودد إليهم علّ ذلك يحملهم على مبادلته هذا السلوك ، وجامل عمر بن الخطاب النصارى في أذرعات في رحلته إلى بيت المقدس عندما قابله أهلها بالسيوف والريحان وقد هم بردهم لولا أنه نزل عند رأي أبا عبيدة عندما نبهه إلى أنه إن ردهم يروا أن في نفس الخليفة نقضاً لعهدهم فتركهم يعبرون بطريقتهم (٦٤) ..

ومن مظاهر التسامح والتعايش بين المسلمين وبين غيرهم ممن عاش في المجتمع الإسلامي ، عياد مرضاهم ، واتباع جنائزهم ، والأكل من أطعمتهم وذبائحهم ، والزواج منهم .

فقد زار النبي صلى الله عليه وسلّم يهودياً في مرضه (٦٥)، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور يعود جورجيوس الطبيب في مرضه (٦٦) ، كما شهدت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ، ألوان من التعاطي الإيجابي ، من ذلك تهنئتهم في المناسبات السعيدة مثل الزواج ، والولد ، وقدوم الغائب ، أوالشفاء من مرض ، أو السلامة من مكروه ، وغيرها من المناسبات الطيبة ، بل أن مسلمي الأندلس كانوا يشاركون النصارى في أعيادهم واحتفالاتهم المختلفة (٦٧).

وفي المقابل واسى المسلمون أهل الذمة في المناسبات الحزينة ، فعزوهم في موتاهم ومصائبهم ، وعادوا مرضاهم ، واتبعوا جنائزهم ، فقد أجاز الإمام أحمد بن حنبل زيارة مرضى النصارى ،و اتباع جنائزهم (٦٨) ،، وتعزيتهم،حيث قال:" إذا عزّيت الذمي فقل له:لا يصيبك إلاّ خير "(٦٩).

كما شارك المسلمون أهل الذمة في أطعمتهم وأشربتهم المباحة للمسلمين ، فأكلوا من ذبائحهم ، لأن الله تعالى أحل ذلك ، حيث قال :" وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم " ، وعندما سئل الإمام أحمد عن ذبائح أهل الكتاب قال : " لا بأس بها"(٧٠).

وكان من مجالات التعايش بين المسلمين وأهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، المصاهرات التي ربطت أهل الذمة بعلاقات اجتماعية وثقت صلت هذه الشريحة بالمجتمع الإسلامي ، فلا يوجد ثمة مانع في التشريع الإسلامي من زواج المسلم بكتابية (٧١) ، فتزوج رسول الله بمارية القبطية ، وتزوج عدد من المسلمين بكتابيات ، وفي الأندلس تزوج عدد من المسلمين

بمسيحيات ، فتزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة لذريق ، (أم عاصم) ، كما تزوج المنصور بن أبي عامر بأميرة نافارية [٧٢].

وهكذا ففي ظل هذا التسامح والتعايش الذي نعم به أهل الذمة في المجتمع الإسلامي مارسوا طقوسهم وأنشطتهم في حرية تامة ، كما تبنى غير المسلمين نتيجة لهذا التسامح العادات والثقافة الإسلامية ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية ، بل قاد البعض منهم إلى اعتناق الإسلام .

كفالة الحرية الدينية لأهل الذمة :

لم تلق أقلية دينية عبر التاريخ مساحة من الحرية في ممارسة شعائرها الدينية ، وأمان على ممتلكاتها الدينية،ما لقاه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، فقد كفلت لهم الدول الإسلامية المتعاقبة حرية ممارسة شعائرهم الدينية، والاحتفال بأعيادهم ، وحافظت على كنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ، وأتاحت لهم ممارسة العادات التي درجوا على القيام بها برغم مخالفتهم لتعاليم الإسلام وقيمه ، مثل شرب الخمور وأكل لحم الخنزير ، وهو السلوك الذي تعامل به المجتمع الإسلامي معهم .

ولعل وجود غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة حتى الأن محتفظين بحريتهم الدينية وبكنائسهم وكافة مرافقهم الدينية ، في وقت كان بإمكان المسلمين أن يجبروهم على ترك دياناتهم واعتناق الإسلام ، كما حدث في أسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها ، لأوكد دليل على مدا ما تمتع به غير المسلمين في المجتمع الإسلامي من حرية دينية .

فقد كفل النبي صلى الله عليه وسلم ليهود المدينة واليمن حريتهم الدينية ، وفعل ذلك الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد المفتوحة في الشام والعراق ومصر ، فتحرك الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام ليتسلم مفاتيح مدينة بيت المقدس ، ثم رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مصلاً فيسلبون بذلك حق النصارى في كنيستهم ، وعندما خاصم نصارى دمشق بعض المسلمين في كنيسة كانت اقطعت لهم ، ردها عمر بن عبد العزيز إلى النصارى [٧٣] ، ونهى عن توسعة مسجد دمشق على حساب كنيسة للنصارى ، وسمح العباسيون لرعاياهم من المسيحيين ببناء عدد من الكنائس الجديدة مثل كنيسة أبي سرجة في الحصن الروماني بمصر ، وفي عهد المهدي بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين أسروا خلال الحملات العسكرية ، وسمح الرشيد ببناء كنيسة أخرى في البصرة [٧٤] .

الاستعانة بأهل الذمة :

إن مما يدل على المكانة الكبيرة التي تبوأها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي استعمال العديد منهم في وظائف الدولة ، ووصول البعض منهم إلى أماكن مرموقة في أجهزة الدولة خصوصاً في الحقبتين الأموية والعباسية ، الأمر الذي يدل على مقدار التسامح الذي تعامل به المسلمون مع أهل الذمة ، للحد الذي جعل البعض منهم يصل إلى مراكز حساسة ، أساء بعضهم استخدامها وألحقوا الضرر بالدولة وبالناس .

كما استعان بهم الناس في كثير من الأعمال التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية ، بل أن مجالات من العمل قد أوكلت إليهم .

شتملت الاستعامة بأهل الذمة مجالات مختلفة منها ما كان حكومياً فعملوا في الدواوين ، وفي جباية الخراج ، وفي الكتابة للخلفاء والأمراء والولاة ، وفي الترجمة وفي المهمات الخاصة للخلفاء والأمراء ، فكان منهم أطباء الخلفاء ومستشاريهم في بعض القضايا ، ومنها ما كان شعبياً اقتصادياً فاستعان بهم المجتمع في القيام بكثير من الحرف والأعمال ، مثل الصياغة والحدادة والنجارة والطب والبناء ، بل إنهم احتكروا كثير من الحرف اليدوية ، الأمر الذي كون لديهم فوائض مالية ، جعلتهم يتمتعون برغد العيش مما لم يتوفر لكثيرٍ من المسلمين .

ففي عصر الدولة الأموية تبوأت أسرة رومية من أهل الذمة مكانة كبيرة في الدولة ، فكان سرجون ابن منصور الرومي كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان (٧٥) ،واستمر سرجون بعد ذلك مستشاراً ليزيد بن معاوية (٧٦) ، ثم أصبح إبنه منصور بن سرجون كاتباً على ديوان خراج الشام حتى تم نقل الديوان إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان (٧٧) . ، واستعمل عبيد الله بن زياد على الخراج رجلاً من أهل الذمة (٧٨).

كما استعمل المسلمون عدد من أهل الذمة في أعمالهم الخاصة ، فكان لأبي عوانة وكيل نصراني يجيى غلته (٧٩).

وشهد العصر العباسي تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة وصل معه بعضهم إلى بلاط الخلفاء ، واصبحوا من خواصهم وإن كانوا من ناحية أخرى قد مثلوا خطراً أمنياً على الدولة ومستودع أسرارها من خلال وجودهم إلى جانب الخلفاء والوزراء لعملهم في تطبيبهم وفي بعض الأعمال الأخرى .

– عمل أهل الذمة في تطبيب الخلفاء :

اشتمل البلاط العباسي ، ابتداء من عهد المنصور حتى خلافة المتوكل ، على عدد كبيرمن أهل الذمة ، لتطبيب الخلفاء والأمراء العباسيين ، وقد حازوا لذلك مكانة مرموقة لدى الخلفاء [٨٠] وأتاح لهم ذلك من ناحية أخرى ، الإطلاع على ما يدور في البلاط العباسي .

استعمل المنصور عدداً من أهل الذمة كأطباء خصوصيين له أمثال(جورجيوس ابن جبريل [٨١] الذي اهتم به المنصور ومكّن له،فأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل [٨٢] ، وبلغ من شده تعلقه به وحبه له ، أنه رغب في أن يسلم، فيذكر أنه عرض عليه الإسلام عند احتضاره قائلا: " يا جورجيوس اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة [٨٣] إلا أنه رفض ، وقد حزن عليه المنصور بعد أن توفي [٨٤] رشح جورجيوس أحد تلاميذه ويدعى عيسى بن شهلا[٨٥] لتطبيب المنصور قائلا : " إني أخلّف بين يدك عيسى ، وهو تربيتي [٨٦] ، وأصبح عيسى بن شهلا في خدمة المنصور ، فقربه وأكرمه ، ومكّن له ، إلاّ أنه استغل ذلك في ابتزاز بعض المطارنة[٨٧] والأساقفة [٨٨] أموالهم ، وهو ما تلمحه فيما كتبه إلى مطران نصيبين [٨٩] ، ما يدل على خطورته على الخلافة في رمزها ، حيث قال : " ألم تر أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته " [٩٠] ، وبغض النظر عن مدى جديته، إلا أننا نلمح منه إضمار الخيانة للمسلمين ، وعدم الإخلاص لهم رغم ما أحاطوه من عناية ، وما حظي به من مكانة لديهم ، ومهما يكن من أمر ، فإن المنصور عرف من عيونه فحوى تلك الرسالة ، فأمر بنفيه بعد أن جرّده من كل ما أعطاه [٩١] ، واتخذ المهدي بختيشوع [٩٢] لتطبيبه ، فظل في خدمته وفي خدمة ولديه الهادي والرشيد ، وقد حظي بمكانة مرموقة في بلاط الرشيد ، فعينه رئيساً للأطباء [٩٣] ، إلا أن ذلك لم يثنه عن التآمر على الخليفة وكبار رجال دولته ، حقدا منه على الإسلام وأهله ، فلم يستطع إخفاء رغبه في النيل منهم، وقد ظهر ذلك عندما أكّد للرشيد وفاة أحد أركان دولته إبراهيم بن صالح بن علي [٩٤] ، فكاد الرشيد أن يدفنه لولا أن جعفر البرمكي أشار عليه باستشارة طبيب آخر ، فأتي بطبيب هندي فكشف خيانة بختيشوع ، عندما أعاد الكشف على إبراهيم فوجده حياً ، فعاش إبراهيم بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين[٩٥] ، ثم خلفه جبرائيل بعد ذلك ، فعمل لدى الرشيد والمأمون ، ثم خلفه ابنه بختيشوع الثاني حتى نفاه المتوكل[٩٦]، وقد اكتسب بالطب ما لم يكتسبه غيره [٩٧] وكان يوحنا بن ماسويه [٩٨] طبيباً لكل من المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وله عدد من المصنفات ، واختص ميخائل الطبيب [٩٩] بتطبيب الواثق.[١٠٠] .

- استعمال أهل الذمة في خدمة الخلفاء وفي الوظائف المالية والإدارية :

كما استعمل أهل الذمة في عدد من المجالات ، مثل خدمة الخلفاء ، وفي الترجمة ، وفي بعض الوظائف المالية فخدم الفضل بن مروان [١٠١] في بلاط كل من المأمون والمعتصم ، وكان حظياً لديهما [١٠٢] ، وجعل الرشيد يوحنا بن ماسويه مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ، من اليونانية والسريانية [١٠٣] واتخذ المأمون من سهل بن مروان [١٠٤] ، والياً على بيت الحكمة [١٠٥] ، وكان من جملة من يخدم المعتصم أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية لديه هما سلمويه وإبراهيم [١٠٦] .

إجراءات بعض الخلفاء ضد أهل الذمة

اتخذ عدد من الخلفاء إجراءات عقابية ضد أهل الذمة مثل عزل البعض منهم عن الوظائف التي كانوا يشغلونها ، أو مصادرة أموالهم ، أو النفي والسجن ، وغيرها من وسائل العقاب ، إلاّ أن هذه الإجراءات كانت في أوقات محدودة ، ونتيجة لإساءات بعض هؤلاء استخدام الوظائف والسلطات التي عملوا بها .

فقد أدى إفراط بعض الخلفاء العباسيين في التسامح مع أهل الذمة إلى التفريط في حقوق المسلمين ، من جهة ، لأنهم فضلوا أهل الذمة عليهم في الاستئثار بالوظائف والأعمال ، خصوصاً وقد أساء بعض أهل الذمة استخدام هذه الوظائف وألحقوا الضرر بالمسلمين وبأهل الخراج ، من ناحية ، وبالمال العام من ناحية أخرى ، وهو ما نلمسه من الشكايات التي كانت تصل الخلفاء من المسلمين ضد بعض موظفي الدولة من أهل الذمة خصوصاً في العصر العباسي الذي شهد وصول عدد كبير من أهل الذمة إلى مراكز مؤثرة في جهاز الدولة ، فشكا الناس إلى المنصور ظلم موظفيه من أهل الذمة الذين كلفهم بتتبع أموال بني أمية [١٠٧]، وعبر عن هذا الاستياء ، أحد العلماء عندما نبه المنصور إلى المظالم التي اقترفها عماله من أهل الذمة ، قائلاً :" يا أمير المؤمنين سلطت أهل الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوا أموالهم وجاروا عليهم " [١٠٨] ، وقويت شوكة أهل الذمة في خلافة المهدي حتى تضرر منهم المسلمون وتوجهوا إلى العلماء ليتدخلوا لدى الخليفة حتى يرفع عنهم سطوة موظفيه من أهل الذمة [١٠٩] ' وكان له كاتباً نصرانياً في البصرة ظلم الناس في معاملته ، فشكوه إلى قاضي البصرة سوار بن عبد الله [١١٠] .

وأوهم طبيباً نصرانياً الرشيد بموت أحد قادة جيشه عندما كشف عليه وكادوا يدفنونه، فأتوا بطبيب هندي فبين لهم أن الرجل لم يمت ، فعاش بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين [١١١].

ولما زار المأمون مصراً أتاه الناس يشكون عمال الخراج من أهل الذمة [١١٢] ، واكتشف المتوكل أن موظفيه من أهل الذمة يسعون إلى إفساد مابينه وبين القادة والموظفين من المسلمين ، وأن بعضهم ينتهبون المال العام [١١٣] ، فأقصاهم عن الوظائف الحساسة ، وحاسبهم على الأموال التي استحوذوا عليها من المال العام ، فأمر في سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٨م) بمحاسبة إبراهيم بن الجنيد النصراني ، وكان كاتبا حتى أقر بسبعين ألف دينار ، فاستخرجها منه ، وأودعه السجن [١١٤].

وهكذا فإن تصرف الخلفاء المسلمين مع بعض أهل الذمة على نحو من الإقصاء من الوظائف المهمة في الدولة لم يكن إلاّ بسبب إساءتهم استخدام هذه الوظائف على نحوٍ ألحق الضرر بالمسلمين .

الهوامش

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الديات ، باب يقاد من القاتل ، حـديث رقـم ٤٥٢٧ ، جـ٤ ، ص ١٨٠، دار الفكر ، د.م .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب التشديد في جباية الخراج ، حديث رقم : ٣٠٥٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ .

(٣) رواه الترمذي في سننه ، كتاب السير ، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أمـوالهم شـيئاً ، جـ٩ ، ص ٢٠٤ .

(٤) سورة :المائدة ، آية :٨

(٥) أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، جـ٣، ص ٣٦٧.

(٦) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١١.

(٧) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١٢ .

(٨) الإسراء ، الآية ٧٠ .

(٩) التين ، الآية ٤ .

(١٠) الإنسان ، الآية ١ - ٢ .

(١١) البقرة ، الآيات ، ٣٠- ٣١ - ٣٢ - ٣٣ .

(١٢) الرحمن ، الأيتان ٣-٤ .

(١٣) المائدة ، الآية ٤٥ .

(١٤) الأنعام ، الآية ١٥١ .

(١٥) الإسراء ، الآية ٣٣ .

(١٦) الفرقان ، الآية ٦٨ .

(١٧) البقرة ١٣١ .

(١٨) البقرة ، الآية ٢٥١ .

(١٩) الجاثية ، الآية ٣٦ .

(٢٠) الواقعة ، الآية ٨٠ .

(٢١) الشعراء ، الآية ١٩٢ .

(٢٢) النساء ، الآية : ١٠ .

(٢٣) الحجرات ، الآية: ١٣ .

(٢٤) رواه الشافعي في مسنده ، كتاب القصاص والديات ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، انظر كذلك ، نظرية الإسلام وهديه ، ص ٣٤١ .

(٢٥) الإسلام وهديه ، ٣٤٢ .

(٢٦) يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٤ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة بيروت .

(٢٧) فصلت ، الآيتان : ٣٤ – ٣٥ .

(٢٨) آل عمران ، الآية: ٦٤.

(٢٩) النحل ، الآية :١٢٥ .

(٣٠) البقرة ، الآية : ١٣٣

(٣١) آل عمران ، الآية :١٥٩ .

(٣٢) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٢.

(٣٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ٦ ، ص ١٥٨.

(٣٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٣٥) الحجي ، أندلسيات ، جـ ٢ ، ص ٢٣، ٢٤ ، عن رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٥٦، ٢٨٨، ٢٩١ . ، لين بول ، قصة العرب في أسبانيا ، ص ٧٢ .

(٣٦) أندلسيات ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ، عن عمر فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، ص ١٧٩.

(٣٧) الحجي ، أندلسيات ، ص ٣١ ، التأثيرات الاجتماعية المتبادلة ، ص ٣٩٢.

(٣٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٨ .

(٣٩) الماوردي ، نصيحة الملوك، ص ٢٦٩ ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، دار شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م.

(٤٠) ابن الجوزي ، العلل المتناهية ، جـ ٢ ، ص ٨٧١، ٨٧٢ ، تحقيق ، خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ .

(٤١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٣٨٧ ، الموصلي : حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك، ص ص ٩٤ ، ٩٥ . .

(٤٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١ .

(٤٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٤٥)المصدر نفسه ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٤٩) ابن سعد ،الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥٠) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٥ ، الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص ٣٧٤ .

(٥١) أبو عبيد ، الأموال ، ٥٠ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .

(٥٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .

(٥٤) الممتحنة ، الآية : ٨ .

(٥٥) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب التشديد في جباية الجزية ، حديث رقم ٣٠٥٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٥- ٧٦ ، انظر كذلك عبد المنعم أحمد بركة ، الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، ص ٩ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٥٦) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٥٧) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .

(٥٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢-٥٣ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .

(٥٩) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٤-٧٥ ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨، ٣٩ ، الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، ج١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٦٠) ابن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

(٦١) محاسن المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، ٣٦ ، ٣٧ .

(٦٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ .

(٦٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٧، ٤٩، ٥٠ ، ٧١ ، الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٦٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥ ، ١٦٦.

(٦٥) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٠ .

(٦٦) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج٢ ، ص ٤٠ .

(٦٧) راوية عبد الحميد ، لتأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسبان في الأندلس ٣٩١، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي ، العدد (١١)، مارس ٢٠٠٣.

(٦٨) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ١٥١.

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(٧٠)المصدر نفسه ، ١٨١ .

(٧١) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٢١٩ .

(٧٢)عبد الرحمن الحجي ، أندلسيات ، ج٢ ،ص٣١.

(٧٣) الأموال ، ص ١٦٦ ، انظر : بدران . عبد القادر ، تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لابن عساكر ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧/ ١٩٨٧ ، أبو زهرة ، العلاقات الدولية في الإسلام ، ص ٢٨ .

(٧٤) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨٥ ،٨٦ .

(٧٥) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٧٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ ، المزي ، تهذيب الكمال ، جـ ٦ ، ص ٤٢٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠ ، ١٩٨٠.

(٧٧) ابن النديم ، الفهرست ، ج١ ، ص ٣٣٨ ، دار المعرفة بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

(٧٨) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤، ص ١٠٩ .

(٧٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج٧ ص٢٦٣ ،الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٦ ، ٣٦٩ .

(٨٠) يؤكد ذلك جورجي زيدان ، حيث يقول : كان الأمراء يستخدمونهم (يعني أهل الذمة) كأطباء ومترجمين وكتاب ، وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ .

(٨١) جورجيوس بن جبرائيل : هو طبيب سرياني مسيحي ذو خبرة بصناعة الطب وتركيب الدواء ، خدم المنصور ، فكان يطببه ، وحظي لذلك بمكانة لديه ، ونال منه أموالاً جزيلة ، كما استخدمه المنصور في ترجمة بعض كتب اليونان إلى العربية ، وابتداء في خدمة المنصور منذ سنة(١٤٨ هـ / ٧٦٥ م) ،

واستمر حتى سنة(١٥٢ هـ/٧٦٩ م)، حيث مرض جورجيوس فعاده المنصور وحزن عليه وعرض عليه الدخول في الإسلام ، إلا أنه توفي على نصرانيته سنة(١٥٢ هـ / ٧٦٩ م) ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م جـ ٢ ، ص ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٨٢)ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٣٨ ، اليوزبكي : توفيق سلطان تاريخ أهل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م ، ص ٣٨٤ .

(٨٣) ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٤٠ .

(٨٤) المصدر نفسه

(٨٥) عيسى بن شهلا (لم أعثر له على ترجمة) .

(٨٦) ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء جـ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) المطارنة : جمع مطران ، والمطران رئيس الكهنة ، وهو فوق الأسقف ودون البطريك ، ويجمع أيضاً : مطارين ، وهو لفظ أعجمي معرَّب ، البستاني : الوافي ، مكتبة لبنان ، بيروت ،١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٥٩٢

(٨٨) الأساقفة :جمع أسقف ، والأسقف رئيس النصارى في الدين ، فيقال أسقفه إذا جعله أسقفا وهو اسم سرياني قصد به علماء النصارى والمتقدمين لهم في الدين ، ابن منظور : لسان العرب ، جـ ٣ ص ٢٠٤١ .

(٨٩) نصيبين : هي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة (الفراتية) على طريق القوافل بين الموصل والشام فتحها عياض بن غنم سنة(١٧ هـ / ٦٣٨م) صلحا ، ونصيبين كذلك قرية من قرى حلب وهناك نصيبين ثالثة على شاطئ الفرات ، ياقوت: معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٩٠) ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٤٠ .

(٩١) المصدر نفسه .

(٩٢) بختيشوع بن جورجيوس ، ومعنى بختيشوع ، عبد المسيح ، لأن البخت في اللغة السريانية بمعنى العبد ، ويشوع عيسى عليه السلام ، تعلم مهنة الطب على يد أبيه جورجيوس فبرع فيها ، واشتهر ، فاتخذه الرشيد ، والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل طبيبا خاصا ،عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص٤١ ، الفهرست ، ص ٣٥٨ .

(٩٣) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ، ص ٣٨٥ ، ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م جـ ١٣ ، ص ١٩٠ .

(٩٤) إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ، ولي دمشق للمهدي ، ثم ولي له مصر مرتين ، وولي الجزيرة لموسى الهادي وظل عليها حتى ولي الرشيد الخلافة فعزله، ثم أعاده الرشيد سنة(١٧٢هـ/ ٧٨٨م)على دمشق فظل والياً عليها حتى سنة(١٧٥هـ/٧٩١م)، ثم توفي بعدها بعام ، أي في سنة (١٧٦ هـ / ٧٩٢ م)، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق،جـ ٦، ص ص ٤٤٥، ٤٤٧ .

(٩٥) ابن وادران : تاريخ العباسيين ، ص ص ٩١ ، ٩٢ .

(٩٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٢ ، ص ٣٨ .

(٩٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٦ ص ٥٢٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء،جـ ٩، ص ٦٤ .

(٩٨) يوحنا بن ماسويه،خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق حتى عزله المتوكل، وهو مسيحي سرياني قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وجد في بلاد الروم التي افتحها المسلمون ، وجعله أمينا على الترجمة وجعل تحته كتاباً يساعدونه ، وكان مع ذلك طبيباً بارعاً ، فذكر بعض المصادر أنه كان يشرف على طعام الخلفاء وكان لذلك معظما ببغداد ، ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ، حققه فؤاد السيد ، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط ٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨م ، ص ٦٥ .

(٩٩) ميخائيل الطيب (لم أقف له على ترجمة) .

(١٠٠) ابن دحية : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ص ٧٦ .

(١٠١) الفضل بن مروان بن ماسرجس ، يكني بأبي العباس ، استوزره المعتصم ، وهو نصراني من البردان بالشام إختان المال العام فنكبه المعتصم واستخرج منه عشرين مليون درهم ، توفي سنة (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٠ ص ٢٩٣ ، جـ ١٢ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٠٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٦٠ .

(١٠٣) خضر أحمد عطاء الله : بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٤) سهل بن مروان بن رامنوي الدستميساني ، انتقل إلى البصرة ، فارسي الأصل شعوبي المذهب ، له كتب في مثالب العرب ، ذا حكمة وفصاحة ، التحق بخدمة المأمون ، فولاه خزانة بيت الحكمة ، له مصنفات عديدة منها : كتاب ديوان الرسائل ، ثعلة وعفراء ، على غرار كليلة ودمنة ، كتاب الهذلية والمخزومية ، كتاب النمر والثعلب ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، ابن النديم الفهرست ، ص ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(١٠٥) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥١ ، انظر كذلك خضر الله ، بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨١ ، هما سلمويه وإبراهيم ابنا بنان ، فعندما استخلف المعتصم سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ ، اختار لنفسه سلمويه الطبيب وأكرمه وقربه منه ، حتى انه اتخذه كاتبه الخاص فكانت كتب المعتصم إلى الدواوين تصدر بيد سلمويه ، وقد ضم سلمويه إليه في خدمة المعتصم أخاه إبراهيم ، وهما نصرانيان ، توفى سلمويه سنة (٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م)، فحزن عليه المعتصم حزناً شديداً، ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١٠٧) النقاش النقاش : المذمة في استعمال أهل الذمة ص ٨٤ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، مصور عن دار الكتب العربية ، القاهرة ، ميكروفيلم (٥٠) .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٨٤– ٨٥ .

(١٠٩) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥ ، حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١١٠) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥، ٨٦ .

(١١١) تاريخ العباسيين ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(١١٢) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(١١٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ، ص ٣٤٧ ، المذمة في اسعمال أهل الذمة ،

(١١٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٧ ، ص ٣٤٧ .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً المصادر :

أحمد بن حنبل الشيباني . ت ٢٤١ هـ .

١- مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، د.ت .

ابن آدم . (يحيى القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

٢- كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط ٢ ، د.ت.

ابن أبي أصيبعة .

٣- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، طـ ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م

البلاذري . (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

٤ _ أنساب الأشراف ، تحقيق إحسان عباس ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

الترمذي . محمد بن عيسى بن سليمان.. ت ٢٧٩ هـ .

٥- سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .

ابن تيمية . تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م .

٦- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

ابن جلجل . (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) .

٧ – طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ /

١٩٨٥ م .

(ابن الجوزي . عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ .

٨- العلل المتناهية ، ، تحقيق : خليل الميس ، دار الكتب العلميــة ، بـيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ .

ابن خلكان . (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكـر ت ٦٨١ هــ / ١٢٨٢ م)

٩ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

أبو داود . سليمان بن الأشعث السجستاني ت . ٢٧٥ هــ .

١٠- سنن أبي داود ، دار الفكر ، د.م ، د. ت .

الذهبي . (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هــ / ١٣٤٧م)

١١- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، ١٤٠٢هــ / ١٩٨٢ م .

ابن سعد . (محمد بن سعد بن منيع ٢٣٠ هــ / ٨٤٥ م) .

١٢- الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .

الشافعي . محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هــ

١٣- مسند الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

شهاب الدين . أحمد بن محمد الحلبي ت ٨٧٠هــ/ ١٤٦٦م

١٤- محاسن المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، تحقيق ابراهيم مهدي ، مؤسسة المارد الثقافية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠١هــ / ١٩٩١م .

الطبري . (محمد بن جرير ت ٣١٠ / ٩٢٢ م) .

١٥- تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بـيروت ، ط١ ، ١٤٠٧ هــ /١٩٨٧م .

ابن عساكر . (أبو القاسم علي بن الحسين ت ٥٧١ هــ / ١١٧٥ م) .

١٦- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سكينة الشهابي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ، ١٤٠٧ هــ

ابن النديم

الماوردي . (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) .

١٧ – الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت .

١٩٥ – نصيحة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

المزي . (جمال الدين أبو الحجاج يوسف ت ٧٤٢ هـ / ١٧٤١ م) .

١٨ – تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق ،مطبقة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٧ ، ١٩٨٧ م .

الموصلي . (محمد بن عبد الكريم الشافعي ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

١٩ – حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

أبو عبيد . (القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م) .

٢٠ – الأموال ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، دار الحداثة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م

ابن قيم الجوزية . شمس الدين محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ .

٢١– أحكام أهل الذمة ، تحقيق : سيد عمران ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

ابن النديم . (محمد بن إسحاق ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) .

٢٢ – الفهرست ، تحقيق إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م

النقاش . (أبو أمامة محمد بن علي ت ٧٦٣ هـ /١٣٦٢م) .

٢٣ ــ المذمة في استعمال أهل الذمة ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، برقم (٥٠)

ابن وادران . حسين بن محمد ، كان حياً سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م

٢٤- تاريخ العباسين ، تحقيق النجي الكعبي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

ياقوت . (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

٢٥ – معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ .

يحيى بن آدم . (القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

٢٦ – كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، القاهرة ، د.ت .

ثانياً المراجع :

بدران . عبد القادر .

١- تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لابن عساكر ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧/ ١٩٨٧ .

البستاني . عبد الله

٢ ــ الوافي معجم وسيط اللغة العربية، مكتبة لبنان ، بيروت ،هـ١٤٠٠/١٩٨٠م.

الحجي ، عبد الرحمن علي (الدكتور)

٣- أندلسيات ، دار الإرشاد ، د.م ، ط١ ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م .

راوية عبد الحميد

٤- التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسبان في الأندلس ٣٩١، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد (١١)، مارس ٢٠٠٣.

خضر أحمد عطاء الله (الدكتور)

٥ ــ بيت الحكمة في عصر العباسيين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، د.ت .

وافي . علي عبد الواحد (الدكتور)

٦- حقوق الإنسان في الإسلام ، ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط٥ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٩م .

المودودي .أبو الأعلى

٧- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ، نقله إلى العربية جليل حسن الإصلاحي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ٣٤٢ .

اليوزبكي : توفيق سلطان

٨- تاريخ أهل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م، ص٣٨٤ .

٩- ول ديورانت :

قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م جـ ١٣ ، ص ١٩٠ .

دكتورة آمال حسن عبد الحافظ الخطيب *

السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية

١٣٢ - ٣٠٥هـ / ٧٤٩-٩١٧م

العلاقات الإسلامية البيزنطية

لم يهتم العباسيون بالفتوحات الإسلامية وضم أراضى جديدة للدولة، وإن لم يتوقف الصدام العسكرى بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، إلا أن العباسيين لم يخططوا لإسقاط الدولة البيزنطية كما خطط أسلافهم الأمويون، واتخذ الصدام العسكرى بين الدولتين صورة غارات إنتقامية تخريبية ، الهدف منها إنزال كل فريق بالآخر أكبر قدر من الخسائر فى الأرواح والعمران والأموال، وكانت كلا من الدولتين العباسية والبيزنطية تنتهز فرصة الإضطرابات الداخلية فى أى منهما للقيام بمثل هذه الغارات التخريبية ، ولم نجد فى المصادر التاريخية ما يدل على أن العباسيين خططوا لفتح القسطنطينية[١].

فسياسة العباسيين إنما قامت على أساس الدفاع عن الحدود ، لاضم أراضى جديدة ، ثم الانتقام لكل عدوان يقع على أراضيهم ، فغزواتهم كانت وقائية دفاعية تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين بدليل إنهم فى حالات إنتصاراتهم وتوغلهم فى الأراضى البيزنطية ووصولهم أسوار القسطنطينية عادوا وتركوا الأرض واكتفوا بأخذ الجزية كما فعل هارون الرشيد فى عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م، فى خلافة أبيه المهدى [٢].

ومن الملاحظ أن علاقة العباسيين والبيزنطيين لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد، بل كانت أقرب إلى الحياد على المستوى العلمى والتجارى والحضارى بصورة عامه ، وكانت

---

* أ.م عصور وسطى بقسم التاريخ - جامعة الملك عبد العزيز- كلية التربية- الأقسام الأدبية .

الصلات - فيما عدا فترات الحرب- قائمة دائما وذلك ينسجم إنسجامًا مطلقا مع عقلية القرون الوسطى ونستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمى والودى للعلاقات بين هاتين القوتين من خلال الرسائل التى تبادلها كبار رجال الدولتين ، فحرص كلا منهما على التمسك بأهداف حسن الجوار ، فأودت الدولة الإسلامية سفرائها منذ أيامها الأولى إلى بلاط القسطنطينية ، كما بعث الأباطرة البيزنطيون بسفرائهم إلى عاصمة الدولة الإسلامية ردا على التمثيل الدبلوماسى الإسلامى(٣).

أنواع السفارات :

كانت هناك سفارات حربية أو سياسية أو عسكرية أو سلميه، وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلى واتبعوها فى العهد الأموى، ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا منذ بداية دولتهم سفراء الروم والفرنجة وغيرهم، استقبلت الخلافة العباسية سفارات لإنهاء حالة حرب، أو عقد معاهدة تجارية أو ثقافية أو للتنهئة بتولى حاكم جديد للعرش ، أو بطلب صلح أو لتوثيق الروابط العلمية بين الطرفين، كما كانت هناك سفارات الغرض منها التجسس لمعرفة إستعداد الأعداء الحربى والمادى ، وهناك جانب آخر استهدفته السفارات الإسلامية ألا وهو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولتين، فكان الخلفاء والأباطرة يتبادلون السفارات الخاصة بطلب الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين أو فى مكتباتهما العامة ، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمه فى الحركه العلمية فى بلادهما أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم المسلمين والبيزنطيين(٤).

وكانت بغداد فى أرض الرافدين والقسطنطينية على البسفور حدائق للمعرفة والعلم والفنون، كلا منهما تسابق الأخرى فى ميدان البحوث والدراسات والابتكارات، ولذا كثرت السفارات بينهما لنقل ثمار المعارف والعلوم، ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادره فحسب وطلب العلماء ، ودراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث إسلامية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، وكانت هناك سفارات لتبادل الأسرى (الفداء) الذين ازداد عددهم نتيجة كثرة الغارات بين المسلمين والبيزنطيين (٥).

صفات السفراء وقواعد اختيارهم :

كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد ، فالسفير الإسلامى كان يمثل الخليفة ويتكلم بإسمه ويفاوض عنه ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه ، فكان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة، وكان فى الدولة الإسلامية فى صدرها الأول ديوان يسمى ديوان الرسائل يختص بالمكاتبات بين الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاوره للدولة الإسلاميه .

وطلب الخلفاء فى السفراء صفات هامة أولها هى الصفات الجسمانية فقيل فى صفات الرسول : يستحب فى الرسول إمتداد الطول وعبالة الجسم وتمام القد، فلايكون قميئا أو ضئيلا، وأن يكون جهر الصوت وسيما لاتقتحمه العيون ولاتزدريه النواظر ، وأكد الخلفاء والسلاطين المسلمون على أهمية الصفات الجسمانية مع ما يتحلى به السفير من الفصاحة وقوة الجنان، لأن تلك المواهب لاتظهر من أول وهله، فقالوا «وإن كان المرء بأصغريه مخبوءا تحت لسانه ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان ، وينبغى أن يجمل الرسول بكل ما أمكن لأن العامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية، ثم إن أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرداء من الرسل وتطلب ذلك فى رسلها لئلا ينقص إختيارها خطا من خطوط الكمال ولذا كان لابد من أن يكون السفير وسيما جسيما يملأ العيون المتشوقة إليه، ويشرف على تلك الخلقة المتصديه له فلاتستصغره »[٦].

ولفت نظر الأباطرة البيزنطيين ما كان عليه سفراء الدولة الإسلامية من مهابة فى الجسم وأبهة فى المنظر، وإلى جانب الصفات الجسمانية التى اشترطتها الدولة الإسلامية فى سفرائها الصفات الخلقية ، فإذا تجمعت فى إنسان صار جديرا بالسفارة والرسالة وأن يمثل رأس الدولة فى الخارج ، ومن تلك الصفات الخلقية أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ الرأى وحصافة العقل التى تجعله يستنبط غوامض الأمور، ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينه ويدع ما لايستحب عمله عن خبره ، وقد راعت الدولة الإسلامية أن يتحلى السفير كذلك بالفصاحة وذكاء العقل وقوة القلب والقدرة على فهم الإيماء حتى يدرك حجة خصمه قبل النطق بها [٧].

وينبغى ألا يخلو السفير من جرأة وإقدام ، لأن الجرأة أقوى معين على النجاة وأضمن سبل لبلوغ الهدف، كما يحتاج السفير إلى كثير من الحلم وكظم الغيظ مثل ما يحتاج إلى الصبر

وللتأنى مكانه فى صفات السفير، لأنه إذا لم يكن متأنيا وقابل حاكما حازما اندفع إلى إبرام أمور تضر بدولته بسبب العجلة وتكوين الرأى دون بصيرة وآناءة ، والرسول يحتاج إلى ترك الإفراط فى الإنقباض والحشمه لأن الإنقباض يوجب الوحشة والإنبساط يوجب المؤانسة والمؤانسة تجمع القلوب، وفطنت الدولة الإسلامية إلى أمرين لهما شأن كبير فى التعليمات التى زودت بها سفرائها :

الأول : حذرت السفير من شرب الخمر والإفراط فيه، لأن الخمر تفضح شاربها وتطلع على ما فى نفسه من الأسرار ، وألا يميل إلى النساء لأن للنساء حيلا بارعة يستخرجون بها الأخبار.

الثانى : أوصت الدولة الإسلامية سفرائها بعدم التدخل فى شؤون المرسل إليه وأمور مملكته، وأن لايحرش الحاكم على الرعية، أو يتصل بشخصيات مشتبه فى أمرها لدى سلطان الدولة المرسل إليه .

ساعدت هذه الصفات الخلقية الرقيقة على خلق طبقة ممتازة من السفراء المسلمين الذين كانوا عنوانا كريما على سمو الدولة الإسلامية، وعجز حكام الدول الذين قابلوا السفراء المسلمين على التأثير عليهم أو خداعهم بالخمر أو النساء ، كما وجدوا فيهم رجالا على جانب كبير من الأدب الجم والروح الخفيفة الظل والتأنى وكظم الغيظ [٨].

وأضيف إلى مؤهلات وصفات السفير الثقافة العامة التى تجنب السفير الزلل فى القول وتقويه فى محاوراته ومحادثاته فعليه أن يكون ملم بكل علم وأبلغ تعبير عن هذا المعنى قول الشعبى «العلم أكثر من أن يحصى فخذ من كل شئ أحسنه» ، وجمعت الدولة الإسلامية ما يجب أن يتحلى به السفير من علم فى هذه العباره «ينبغى أن يجمع الفرائض والسنن، والأحكام والسير ليحتذا بها مثال من سلف فيما يورده ويصدره ، وأن يعلم أصول الخراج وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطأه »[٩].

ولاحظ المسلمون ما للنسب من أثر عند إختيار السفراء، ففضلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره، لأن النبيل لايصدر عنه إلا العمل النبيل ولايجرؤ على ما يجرؤ عليه السافل الوضيع ، وجرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة فى مهام محلية بسيطة لإختيار مدى ما عندهم من مواهب ، وعندما يتم السفراء تدريبهم ويتأكد أولى الأمر من صفاء معدنهم وقوة مواهبهم يرسلونهم إلى خارج البلاد ، وكان السفراء المسلمون

يزودون بتعليمات تقضى التأكد من صحة طلب الفريق الآخر للصلح أو المهادنة أو تبادل الأسرى ، إذ كثيرا ما يعمد الجانب المعادي للدولة الإسلامية إلى إتخاذ مطالبه السلمية وسيلة لتدعيم قوته الحربية استعدادا لاستئناف القتال، وقد أدت الاحتياطات العظيمة التى اتخذتها الدول الإسلامية لمرشحيها للسفارة الى تمتعها بالمكانة الأولى فى عالم الدبلوماسية فى عالم العصور الوسطى، وكانت الدولة الإسلامية على خبرة واسعة بشؤون الدبلوماسية والأغراض التى قد يستهدفها جيرانها بإيفاد الرسل إليها، وحفلت دور المحفوظات والوثائق فى الدولة الإسلامية بتقارير مسهبة عن أراضى الدولة البيزنطية وطرقها ومعاقلها وغير ذلك من مرافقها الهامة وساعدتها تلك المعلومات على معرفة طرق التجارة والطرق الحربية ، واتخذت الدولة الإسلامية من جانبها كل الوسائل لمنع سفراء الدول الأخرى من التجسس على مرافقها، وترك الخلفاء المسلمون نماذج عالية يحتذى بها الخلف عن السلف فى اختيار ممثليهم الدبلوماسيين(١٠).

أمثلة على أنواع السفارات بين العباسيين والبيزنطيين :

أولا :التبادل العلمي والثقافي : استهدفت السفارات الإسلامية جانب هام هو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولة العباسية وجاراتها ، فاستفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلامية عن طريق رحلات المسلمين إلي القسطنطينية سواء كانوا أسرى حرب أو تجارا أو رحالة، فقد لعبوا دوا هاما فى التأثير والتأثر بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وكان الميدان الثقافى بداية التعاون بين الدولتين ، فكان يسمح للعلماء المسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية واستخراج الكتب النادرة التى يحتاجها المسلمون فى دراساتهم فى ميدان الطب أو الكيمياء أو الفلسفة ، وغيرها من المواد التى برع فيها البيزنطيون (١١).

ومن أمثلة تلك السفارات العلمية ما بعث به الخليفة العباسى (أبو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) إلى القسطنطينية طالبا كتب نادرة، وعاد العلماء المسلمون محملين بالكتب النادرة ، من بينها كتاب (إقليدس) ، ويرجع إلى المنصور أولى المحاولات لترجمة اليونانية إلى العربية(١٢).

وفى زمن الرشيد حاول الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقره وعمورية وغيرها ، فيذكر القفطى فى أخبار الحكماء أن الرشيد ولى (يوحنا بن ماسويه) ترجمة الكتب الطبية

القديمة لما وجدها بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه [١٣].

وفى عهد الخليفة العباسى المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٢م)[١٤] الذى تميز عهده بأنه كان عهد العلم والعلماء ، فقد كان عصره أرقى عصور آل العباس علما وفهما ، وتطلعت نفسه إلى علوم الأولين، وعلم أن بالقسطنطينية أستاذا مشهورا فى الرياضيات يدعى ليو العالم الرومى المهندس والفلكى فرغب فى استدعائه إلى بغداد للاستفاده من علمه الواسع فى الرياضيات ، فأرسل إلى الامبراطور البيزنطى ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م)[١٥] سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للعالم ليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة وقال المأمون فى رسالته «إنه يعتبر ذلك عملا وديا» ، وعرض على الإمبراطور البيزنطى صلحا دائما ، وألفى قطعة ذهبية ، غير أن الإمبراطور البيزنطى رفض هذا العرض السخى لأن بعض أبحاث العلماء ، لاسيما إذا كانت تتعلق بالناحية الحربية من الأسلحة والعتاد تعتبر من أسرار الدولة وبذلك ضنت الدولة البيزنطية بهذا العالم على بغداد ، ومنح الإمبراطور العالم ليو وظيفة فى إحدى الكنائس ومرتبا دائما ، ولم ييأس المأمون فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمه المخزونه ببلاد الروم فأجاب إلى ذلك بعد إمتناع ، فأرسل المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا من كتب ، وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم [١٦].

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب ، وإنما شملت دراسة الأماكن التاريخية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ومن هذه السفارات العلميه السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) برئاسة العالم العربى المشهور محمد بن موسى المنجم إلى مدينة إفسوس بآسيا الصغرى لزيارة الكهف الذى حفظت فيه أجساد الشباب السبعه الذين استشهدوا أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) والذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وقد منح الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م)[١٧] تلك السفارة تفويضا خاصا لزيارة ذلك الكهف ، كما بعث معها رجلا ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدى دور الدليل أثناء تجوال السفارة ، ووصف السفير الإسلامى محمد بن موسى المنجم مشاهدته عن أهل الكهف قائلا «عندما وصلنا إلى المدينه شاهدنا جبلا يؤدى إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفوره

لها سعه وتبين الماء في قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرداب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه، فإذا رواق فى الجبل وفيه عدة بيوت منها بيت مرتفع العتبه مقدار قامه، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم- وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم - ويزعم أنه لايأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم فقلت له دعنى أنظر إليه وانت برئ فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى فنظرت إليهم فى مسوح تفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطليه بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير إنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته »(١٨).

ثانيا : السفارات للتهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين :

وفد على الخليفة المنصور العباسى (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤- ٧٧٥م) رسول من قبل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٢٠- ٧٤٠م) ليهنئه ببناء عاصمة ملكه بغداد عام ١٤٩هـ / ٧٦٦م، فكلف المنصور بعض ثقاته بأن يرافق السفير فى جولة طواف فى بغداد وكانت قد تم بنائها منذ فترة يسيرة ويوقفه على مبانيها ومجتمعاتها وعندما عاد السفير إلى الخليفة قال له المنصور: كيف رأيت ما شاهدت ؟ فقال السفير: كل ما رأيت جليل نبيل إلا ثلاثة أشياء ، قال الخليفة : ما هى ؟ فقال السفير : النفس خضراء ولاخضرة لك، والماء حياة ولاحياة لك ، وعدوك معك (يعنى السوقه) لأن الأسواق كانت قريبة من القصر ، فأجاب المنصور قائلا : أما الخضرة فإنى خلقت للجد لا للهزل ، وأما الماء فحسبى منه بل الشفاه وروى الصدى، وأما مجاورة العوام، فما أبالى أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لا أقصر فى شؤون ملكى.

وبعد أن أنصرف السفير البيزنطى، راجع الخليفه نفسه لأن رده كان تصرفا دبلوماسيا بارعا حتى لايظهر أمام السفير بمظهر المعترف بما فى مدينته من عيوب ، وبادر الخليفه العباسى إلى الإهتمام بالحدائق ولاسيما فى حى العباسية الذى كان يطل عليه القصر ، وشق قناة إلى بغداد ونقل العامة وأسواقهم إلى حى يعرف بالكرخ خارج بغداد (١٩).

كان تولى الخلفاء والأباطرة العروش مناسبات طيبة لتبادل سفارات التهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين ، فحين تولى الخلافة الخليفة المهدى (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) وفدت عليه رسل الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع الخزرى (٧٧٥-٧٨٠م) بالتهنئة ، فقال

السفير فى حديثه : « إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولاغرض، إنما قدمت شوقا إليه وإلى النظر إلى وجهه » فسر الخليفة المهدى سرورا عظيما بلباقة السفير البيزنطى وأمر بإكرامه[٢٠].

ثالثا : السفارات التى تهدد بالحرب :

فى عام ١٦٥هـ / ٧٨١م توجه هارون بالصائفة إلى الدولة البيزنطية وكان قد أرسله الخليفة المهدى، فتوغل هارون فى أراضى الدولة البيزنطية ووصل إلى البسفور وهدد القسطنطينية ، وكان الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع قد توفى وترك إبنا صغيرا لزوجته إيرين فأصبحت وصية على إبنها وهى التى تدير شؤون البلاد نيابة عن الإمبراطور قسطنطين السادس، فأضطرت إلى طلب الصلح وجرى بينها وبين الرشيد كتابات على الموادعة والصلح، واشترط عليها : ١- أن تدفع جزية قدرها تسعون ألف دينار ٢- أن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ٣- وأن تعيد إليهم أسراهم ، وأرسلت معه رسولا يحمل الجزية التى اتفقوا عليها على أن تؤدى منها ما تيسر من الذهب والفضه وأن تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنوات[٢١].

ونستطيع أن ندرك خطورة هذه الحملة إذا عرفنا أن قتلى البيزنطيين أربعة وخمسين ألفا وأسراهم كانوا خمسة آلاف وقد رفعت هذه الحرب من قدر هارون فلقب منذ ذلك الوقت بالرشيد، وكانت هذه آخر غزوه حاول فيها المسلمون محاصرة القسطنطينية ، وظلت إيرين تفى بشروطها إلى أن خلعها نقفور الأول (٨٠٢- ٨١١م) وما كاد أن يتولى العرش حتى امتنع عن دفع الجزية، بل أنه طالب حسب ما ورد فى المصادر العربية بإعادة ما دفعته إيرين من الجزية وأرسل نقفور إلى الرشيد كتابا فى أوائل عام ١٩٠هـ / ٨٠٦ م يقول فيه : «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكه التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدى نفسك بما يقع من المصادرة لك .. وإلا فالسيف بيننا وبينك[١٢]».

وصل الكتاب إلى الرشيد ، فلم يسبق أن خاطبه أحد بمثل هذه اللهجة فغضب غضبا شديدا ودعا بدواة وكتب على ظهر رسالة نقفور الجمل التالية : «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك، والجواب ما

تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من إتبع الهدى»، وجهز جيشا يزيد على مائة وثلاثين ألف جندى، وانطلق على الفور نحو أراضى الدولة البيزنطية فتوغل فيها ووصل إلى مدينة هرقلة فحاصرها ورماها بالنار والنفط حتى فتحت أبوابها له وتوغل فى قلب البلاد ودمر وأحرق ، عند إذن طلب نقفور المهادنة والأمان على أن يدفع له الجزية كل عام فأجابه الرشيد إلى ذلك وعاد إلى الرقه، ولكن نقفور هذا كان مراوغا فانتظر حتى اشتد البرد وأمن نقفور عودة الرشيد فنقض العهد، فجاء الخبر إلى معسكر الرشيد بأن نقفور اخترق الحدود وقتل ونهب ولم يجرؤ أحد أن يذكر ذلك للرشيد إلا شاعرا من أهل جده (٢٣)، أعطاه يحيى البرمكى مائة ألف درهم، ودخل على الرشيد وأنشده:

نقض الذى أعطيتـه نقفـور ... فعليـه دائرة البـوار تدور

أبشـر أميـر المؤمنين فإنـه ... فتح أتاك من الإله كبيـر

فلقد تباشـرت الرعيـة إذ أتى ... بالنقض منـه وافـد وبشـير

أعطـاه جزيتـه وطأطأ خـده ... حذر الصوارم والردى محـذور

إن الإمـام على اقتـدارك قادر ... قـربت ديـارك أو نأت بك دور

عندئذ انتبه الرشيد وقال أوقد فعلها ، فكر فى الحال راجعا إلى الأراضى البيزنطيه فى شدة الثلج وقاتل جيوش نقفور ثانية وشتتها وخرب مدينة هرقله وسبى أهلها وغنم ما بها من مستودعات الحبوب، واستولى على طوانة وجعل منها قاعدة يرسل منها السرايا والجنود إلى سائر الجهات، ولما تبين للإمبراطور نقفور أنه لن يستطيع مقاومة الرشيد عرض أن يدفع خمسين ألف دينار عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس إبنه دينارين ، وتعهد أن يحمل إليه أيضا ثلثمائة ألف دينار كتعويضات حربيه، وشرط الرشيد أن لاتعمر مدينة هرقله بعد هذا فأجيب طلبه (٢٤).

ومن طرائف ما حدث فى هذه الغزوة التاريخية النادرة ما حدثنا عنه الطبرى فقال: بينما كان الرشيد مع جيشه فى طريق العودة ورده كتاب من نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقتهم يطلب فيه جارية من سبى هرقلة هذا نصه: «لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين ، من نقفور ملك الروم، سلام عليك، أما بعد أيها الملك، فإن لى إليك حاجة لاتضرك فى دينك ولا دنياك،

هينة ويسيرة أن تهب لإبنى جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على إبنى، فإن رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(٢٥).

رابعا : السفارات الخاصة بإنهاء حالة الحرب وتبادل الأسرى (الفداء) :

كانت هناك مراسم تتم لتبادل الأسرى بين الطرفين فكانت تتم وسط احتفال كبير يقام فى الدولة الإسلامية ويحضره كبار الشخصيات العسكرية ومختلف الناس بالإضافة إلى أعداد غفيره من أهالى الأسرى المسلمين، أما الموضع الذى كان يتم فيه الفداء بينهما فهو المكان المعروف باللامس ، يقول بن حوقل : «هى قريه على شط بحر الروم كان الفداء يقع فيها بين المسلمين والروم، فيكون الروم فى مراكبهم والمسلمون فى البر يتفادون »(٢٦).

وكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التى أسرته حيث وجدت أماكن خاصة وثكنات لإيواء الأسرى، وكانت هذه المعسكرات تنقسم إلى قسمين: أحدهما لكبار رجال الجيش ، والآخر لعامة الجنود ، ورسم الرحالة المقدسى صوره عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية فيقول: «إن عظماء الأسرى كانوا يعاملون معاملة حسنه ولم يكلفوا بأداء أى عمل، أما عامة الأسرى من المسلمين فكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعه التى يجيدونها، ويوزعون بناءا على ذلك فى مختلف المصانع للعمل بها وكانت هناك دار خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط تشتمل على غرف واسعه يقيم فيها الأسرى»(٢٧).

وكانت الدولة البيزنطية تراعى مبادئ التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين، فلم تكره أحدا منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شئ يخالف الشريعة الإسلامية ، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى فلم يثقب أنف، ولاشق لسان، ولاسملت عين أسير. إذ لجأت الدولة البيزنطية لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية كالصقالبة (السلاف ، المجر) ولعل هذه المعاملة الممتازة الذى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين ، فقد سمحت الدولة البيزنطية للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعا من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح ، ومن الطريف ما يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحه ، واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن أنفسهم وتفاؤلا باقتراب تحسن مصيرهم(٢٨).

فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكه لها درج يجتمع

فيه الأسرى للعب [٢٩]، ولم يحرم الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة، فكان لهم فى طرسوس مكان خاص يسمى المناخ ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطى جزءا منهم للخليفة ، وجزء يوزع على كبار رجالات الدولة، ولم يقض الأسرى كل أيامهم فى الاعتقال وإنما كان هناك نظام دقيق للفداء بين المسلمين والبيزنطيين ، ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا فى عهد الدولة العباسية بسبب كثرة الغارات بين الطرفين ، وكانت تسبق التبادل إيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقدير عدد الأسرى ووضع أسس الفداء ، يتضح مما سبق أن تبادل الأسرى كان يجرى طبقا لقواعد مرسومه ونظم خاصة، فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للاحتفال بالتبادل ، فتروى المراجع أن سفن البيزنطيين كانت تذهب إلى اللامس وهى مزينة حاملة أسرى المسلمين الذين تقرر إطلاق سراحهم ، وإذا اقتربت هذه السفن من الشواطئ الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل دقوا الطبول إيذانا بحضور السفن وهنا يخرج كبار الحكام فى أبهى زينة وعليهم اللباس الحربى لمقابلتها، وكذلك أهالى القرى المجاوره للسواحل يخرجون زرافات ووحدانا مهرولين نحو الشاطئ لمشاهدة التبادل[٣٠] .

وكان **أول فداء** للأسرى فى عهد الخليفة المنصور عام ١٣٩هـ/ ٧٥٨م وكان الفداء فى أسرى قاليقلا وغيرها من الحصون الذى استولى عليها الامبراطور قنسطنطين الخامس وهى ملطيه وحصن بلخ [٣١].

والفداء الثانى : فى العصر العباسى تم عام ١٨٧هـ/ ٨٠٣ م وتولاه القاسم بن الرشيد وافتدى من المسلمين ثلاثمائة وعشرين رجلا من أسارى المسلمين، وخرج معه طرسوس الخادم ، وقيل أنه تم عام ١٨٩هـ [٣٢].

والفداء الثالث : كان فى عهد الخليفة المأمون فقد بلغه أن الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل قتل من المسلمين ألف وستمائة رجل فعاد من فوره إلى الأراضى البيزنطيه ودخلها عام ٢١٦هـ / ٨٣١م فكتب الإمبراطور ثيوفيل إلى المأمون كتابا بدأ بنفسه «من ثيوفيل بن ميخائيل إلى عبدالله بن هارون» فلما جاء الكتاب غضب المأمون ولم يقرأه ورمى الكتاب من يده ثم أقبل على الرسول فقال له : خبرونى ما الذى حمل صاحبكم على أن يكتب إلى ويبدأ بإسمه قبل أسمى ؟ فقالوا : لانعلم إنما نحن رسل وما علينا إلا البلاغ المبين ، فقال المأمون : صدقتم وليس أكلفكم مالاطاقة لكم به ولكن قد علمتم إنى أسن منه بل بعض ولدى أسن منه ؟

فقالوا : قد علمنا ذلك ولاشك فيه فقال المأمون: كان يجب عليه لو كنا متساوين فى الدين أن يقدمنى على نفسه والأخرى إنى خليفة وأبى الرشيد وجدى المهدى خليفة وجدى المنصور خليفه وأنا ابن الخلائف فكيف يكتب إلى بكتاب يبدأ فيه باسمه قبل اسمى ؟ قال الرسل : إن أعطيتنا الأمان تكلمنا فقال: لكم الأمان ، فقالوا : من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كائنا من كان ، فغضب المأمون وقال: لولا ما أعطيتكم الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد ولكن إرجعوا بغير جواب وإن كان ملكا يساوى غيره كما تقولون » ، فرجعت الرسل إلى ثيوفيل فأخبروه بما كان من كلام المأمون (٣٣).

وتوجه المأمون غازيا إلى الأراضى البيزنطية، فجاء رسول الإمبراطور البيزنطى حنا النحوى أحد علماء بيزنطه الذى يعرفه المأمون حق المعرفة وقال له إن الإمبراطور ثيوفيل يسألك أن تقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم خمسة وعشرون ألفا) وأن يدع لهم ما افتتحه من حصون الروم ويكف عن الحرب خمسة أعوام(٣٤).

وأكد المسعودى رواية قدوم رسول الإمبراطور البيزنطى فقال: «إن الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولادرهم ولادينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان ، وترجع عن غزاتك»(٣٥).

قام المأمون ودخل خيمته وصلى ركعتين واستخار الله تعالى وخرج فقال للرسول : قل له أما قولك ترد علىّ نفقتى فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابه حاكيا عن بلقيس : «وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون»(٣٦).

وأما قولك أنك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم، فما فى يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وأما رجل يطلب الدنيا فلافك الله أسره ، وأما قولك إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربه الروم، فلو إنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه ، عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف ، وكتب المأمون كتابا إلى ثيوفيل : « أما بعد؛ فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنه ودعوت إليه من الموادعه وخلطت فيه من

اللين والشده مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله لا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم اظمأ إلى مورد المنايا منكم إلى السلامه من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة ، أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجه من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانيه والشريعة الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب ذمه وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفه والسلام على من اتبع الهدى»[٣٧].

الفداء الرابع : كان فى عهد الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٧٤م) كان عهد الواثق عهد ساد فيه السلم وتوقف الصدام العسكرى بين المسلمين والبيزنطيين وذلك لأسباب وعوامل هى :

١- تمزق الجيش العباسى خلال الفتنة فى بغداد بين الأمين والمأمون .

٢- أسقط الخليفة المعتصم العرب من الديوان واعتمد على الأتراك فهو أول خليفة أدخلهم فى الديوان ووصل عددهم إلى أكثر من سبعين ألف وهو أول من مكنهم من السيطرة فى الدولة واعتمد عليهم تماما فتكاثر عددهم وتغلغلوا فى الجيش والحكومة.

٣- تذمر العرب من وضع الأتراك فقامت ثورتهم فى الحجاز والشام ولكنها فشلت.

٤- زاد نفوذ الأتراك فى عهد الواثق بالله ولم يقم بأية محاولة لإبعادهم عن السلطة.

٥- أما الدولة البيزنطية فقد مات ثيوفيل وخلفته زوجته ثيودورا كوصية على إبنها ميخائيل التى تركت تربيته لخاله باراداس فجعله يغرق فى الملذات والخمر فلما شب أصبح يعرف بميخائيل السكير ، وانشغلت الإمبراطورة بمشكلة محاربة الأيقونات والعودة إليها .

٦- نتيجة استمرار الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد المأمون والمعتصم وقع كثير من الأسرى فى يد الجانبين ولم يقتصر الأسر على الجند فقط ، وإنما تعداه إلى سائر طوائف السكان من علماء ، وتجار وحرفيين وأعداد كبيره من النساء ، والأطفال والشيوخ ، لأن الغارات

التى كان يشنها الطرفان كانت توجه عادة إلى المدن والقرى الواقعة عبر الحدود لتعذر مهاجمة الحصون لمناعتها [٣٨].

وقد توجت هذه الهدنة بين الطرفين بعمل سلمى إنسانى له معناه الكبير بالنسبه للعلاقات الاسلامية البيزنطية ، وإن لم يكن بالجديد فى تلك الفتره فقد سبقه أكثر من فداء ولكنه أول فداء كامل لكافة من لدى المسلمين والبيزنطيين من الأسرى ، وهو فى الواقع تبادل أسرى وإن كان المؤرخين القدامى يسمونه فداء، وكان توقف الصراع الدموى بين الطرفين ، الذى استمر أكثر من تسعين عاما منذ عهد الخليفة السفاح حتى عهد الخليفة المعتصم [٣٩].

ففى عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م كانت المفاداه بين المسلمين والبيزنطيين ولم يجر فداء بين الطرفين منذ سبعة وثلاثين عاما أى منذ عهد الأمين بن الرشيد ، فوصل إلى بلاط الخليفة الواثق وفد بيزنطى يعرض رغبة الإمبراطور ميخائيل الثالث (ذكر ابن العبرى: «أن الروم أرسلوا سفيرا عنهم للعرب للتفاوض فى موضوع الهدنه وتبادل الأسرى » أى أنه لم يحدد بوضوح شخصية الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت، فنجد الطبرى يذكر أن الخليفة الواثق تلقى «رسل صاحب الروم وهو ميخائيل توفيل بن ميخائيل بن اليوم بن جرجيس يسأله أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين «ومن الممكن أن الطبرى اعتمد على أنه ذكر فى أحداث ٢٢٧هـ أن «تذورا» ملكت بعد زوجها توفيل ومعها ابنها ميخائيل التى كانت وصية عليه أى أنه يفهم أن سفير الروم مبعوثا من طرف ثيودورا وعلى ذلك يتفق الطبرى وابن العبرى فى أن البيزنطيين هم الذين طلبوا الصلح وتبادل الأسرى، وكان الوفد البيزنطى ينقل رغبة الإمبراطور شفويا فليس هناك نصا مكتوبا بهذا الشأن فى المصادر الإسلامية، وتم الإتفاق على الفداء دون تفرقه بين كبير وصغير وفتى وشيخ[٤٠].

ظلت ثيودورا تسير أمور الإمبراطورية طول مدة أربعة عشر عاما (٨٤٢-٨٥٦م) قبل أن تسلم الحكم لابنها ميخائيل الثالث فى عام ٨٥٦م[٤١].

وأرسل الواثق أحمد ابن أبى قحطبة أحد أحفاد مسلم بن قتيبه إلى البلاط البيزنطى ليعرف معلومات دقيقه عن عدد الأسرى المسلمين فى الدولة البيزنطيه ، ومدى استعداد الدولة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء ، ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة إمرأة وولد، أكثر من عدد أسرى البيزنطيين (هذا العدد ذكر عند الطبرى والمسعودى)[٤٢] وقيل أربعة آلاف وثلاثمائة وإثنين وستين أسيرا ، وذكر السيوطى

عددهم فقال : «فى هذه السنة استفك من الروم ألفا وستمائة أسير مسلم »[٤٣].

وقد ذكر خليفة بن خياط المتوفى حوالى عام ٢٤٠هـ ، أن عدد من شملهم الفداء كان أكثر من ذلك بكثير فقال : «فدى من المسلمين نحوا من أربعة آلاف رجل وستمائة من النساء والصبيان» وهذا مما يضفى على ذلك الفداء أهمية كبيرة[٤٤].

قام الواثق بجمع عدد من البيزنطيين ليوازى عدد الأسرى المسلمين لديهم، فأخرج من قصره الجوارى الروميات العجائز ، واشترى الرقيق من الروم مما يباع فى بغداد والرقه، ليتكافئ العدد وعين الواثق أحمد بن سعيد بن سليم بن قتيبه الباهلى واليا على الثغور والعواصم ، وأمره أن يحضر الفداء ومعه خاقان الخادم، وتقرر إجراء التبادل على ضفاف نهر اللامس وحضر الفداء أمير الثغور ومعه سبعة عشر فارسا كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين قيل تتألف من سبعين ألف من حملة الرماح فى حين يذكر الطبرى أنها بلغت أربعة آلاف رجل[٤٥].

وكان بين الأسرى رجل من أكابر طرسوس (محمد بن عبدالله الطرسوسى) أمضى فى الأسر ثلاثين عاما، وكان بين المفتدين كذلك أسرى زبطره وعموريه من الجانبين، وعقدوا هدنه مدتها أربعون يوما حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم ، واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى يوم عاشوراء عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر ووقف البيزنطيون على الجانب الغربى، ونصب المسلمون جسرا ونصب البيزنطيون جسرا وكادت عملية الفداء تفشل لإختلاف رسل المسلمين مع البيزنطيين ، فاشترط البيزنطيون ألا يأخذوا فى الفداء إمرأة عجوز ولاشيخا كبيرا ولاصبيا مقابل من فى أيديهم من الأسرى، ولكن تم الاتفاق أخيرا على فداء كل نفس بنفس، فكان المسلمون يطلقون أسيرا ممن فى أيديهم ويطلق البيزنطيون بدورهم أسيرا ممن عندهم، فإذا اقترب المسلم من المسلمين كبر وكبروا، وإذا صار الرومى إلى الروم تكلم بكلامهم وما يشبه عبارات التهليل واستمر هذا الفداء أربعة أيام، تم فيه إطلاق سراح نحو أربعة آلاف واربعمائة وستين أسيرا مسلم من الرجال والنساء[٤٦].

واشتهر هذا الفداء فى التاريخ بالمفآجئة التى فرضها الواثق من إمتحان من يفتدى من المسلمين بالقول بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة، فمن قال بأن القرآن مخلوق وأن الله عز وجل لايرى يوم القيامه يفادى ويعطى دينارين ومن رفض تركوه فى أيدى البيزنطيين ، ورفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا إلى الأسر، والقول بخلق القرآن هو مذهب المعتزلة الذى أصبح مذهب الدولة الرسمى فى عهد الخليفة المأمون ثم الخليفة المعتصم وازدهرت

تعاليم المعتزلة فى العصر العباسى الأول، وبلغت قمة إزدهارها فى عصر المأمون الذى وافقهم على القول بخلق القرآن ، ورغم جهود الثلاثة الخلفاء (المأمون ، المعتصم ، الواثق) فإن الجماهير اعتبرت هذه الفترة محنه وكان (أحمد بن أبى دؤاد) أكبر مؤيدى مذهب الاعتزال وفى ذلك يقول المسعودى » غلب عليه أحمد بن أبى دؤاد ومحمد بن عبدالملك الزيات فكان لايصدر إلا عن رأيهما ولايعتب عليهما فيما رأياه وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه«[٤٧].

كما أكد الخطيب البغدادى ذلك وذكر أن أحمد ابن أبى دؤاد كان قاضى القضاه زمن المعتصم والواثق وأنه هو الذى كان يمتحن العلماء فى أيامهما ويدعو إلى القول بخلق القرآن[٤٨].

وتميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامهفى التاريخ الإسلامى، وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكان ذو مكانه فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأراضيها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك ، وقد استطاع أثناء إقامته بالقسطنطينية أن يؤلف كتابا فى جغرافية الدولة البيزنطيه، تحدث فيه عن بلادها وطرقها ومسالكها وبحارها ، ومما يذكر عنه أنه لما جئ به مع غيره من الأسرى فى فداء عام ٢٣١هـ رفض القول بخلق القرآن فأصابه من جراء ذلك كثيرا من الضر[٤٩].

أهمية هذا الفداء : ١ - أدت الحروب المستمرة بين المسلمين والبيزنطيين إلى بقاء أسرى المسلمين سنين طويله فى الدولة البيزنطية، فقد مضى على بعض الأسرى المسلمين ثلاثون عاما، وكذلك أقام أسرى البيزنطيين بالبلاد الإسلامية فترة طويلة فتأثر كلا من هؤلاء الأسرى بالحياة العامة فى هاتين الدولتين [٥٠].

٢ - كما أن الجغرافى مسلم بن أبى مسلم الجرمى نجح فى تأليف كتاب عن جغرافية الدولة البيزنطية لطول الفتره التى قضاها فيها، فذكر معلومات كثيره فى كتابه ليست معروفه لسكان الدولة البيزنطية نفسهم .

٣- جاء هذا الفداء بعد أن اطمأن العباسيون على سلامة أوضاعهم فى البحر المتوسط وبلاد الشام، فى حين كانت الدولة البيزنطية راغبه فيه بعد هزيمة عموريه وفقدانها أغلب قواعدها فى البحر المتوسط خاصة جزيرتى كريت وصقليه [٥١].

الفداء الخامس : فداء عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م ، كانت مبادرة الفداء هذه المره من قبل

الإمبراطورية البيزنطيه فقد أرسلت الإمبراطوره ثيودورا رسل إلى الخليفة المتوكل محملين بالهــدايا [٥٢]، ورسول الإمبراطورة يقال له جورجس بن قريافس يطلب الفداء لمن فى أيدى البيزنطيين من المسلمين، وهو الذى قام بترجمة المحادثات بين ثيودورا وسفير المتوكل ، وكان المتوكل قد أرسل (نصر ابن الأزهر الشيعى) إلى بلاط القسطنطينية لينظر إلى عدد الأسرى والشروط، وقد وصف هذا السفير مراسم استقباله وما جرى له فى مقابلة الإمبراطوره[٥٣].

ويذكر ابن الأزهر أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرون ألفا وهو لاشك فيه رقم مبالغ فيه، لاسيما بعد فترة الهدوء الطويل التى سبقت مشروع الفداء الجديد، وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التى أعقبت زبطره وعموريه والتى لم تتجاوز كثيرا أربعة آلاف ، ويبدو أن الرقم الأصح فى هذا الفداء هو ألفان لاعشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير قصة أن ثيودورا تحت تأثير الخصى المسيطر على العرش فى عهدها والذى يسميه الطبرى تنقله أو تنقلا «ويقصد ثيوكتيستوس المعروف يومئذ بنفوذه الواسع» ، قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الأسرى لديها التنصر فوافقها إثنى عشر ألفا تحت التعذيب ، وفودى سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومائة وخمسة وعشرين إمرأة ، ويقال أنه بمجرد رحيل المسلمين شعرت ثيودورا أن الإثنا عشر ألفا ممن عمدوا يميلون إلى المسلمين فقتلهم أحد خصيانها المسمى تنقلا بدون أمرها وهذا ما ذكره الطبرى [٥٤].

جرى الفداء فى ١٢ شوال عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م فى المكان نفسه الذى جرى فيه فداء الواثق وبالمراسم نفسها ، ولكن دون إمتحان خلق القرآن، وعقدت هدنة امتدت عدة أشهر واستمرت عملية الفداء سبعة أيام، يذكر المسعودى أنه تم فداء مائة ذمى، وقبل أن عدد أسرى البيزنطيين لدى المسلمين كان حوالى تسعمائة وعشرة شخصا (سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين إمرأه) [٥٥].

الفــداء الســادس : عام ٢٤٥ -٢٤٦هـ / ٨٦٠-٨٦١م من أشهر السفارات العباسية الخاصة بإقرار السلام بين العباسيين والبيزنطيين سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية ، وكانت تلك السفارة العباسية ردا على سفاره بعثها الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث عام ٢٤٥هـ / ٨٦٠م طلب فيها إقرار السلام بين الدولتين ، وإجراء تبادل للأسرى بينهما ، فيذكر الطبرى «بعث يسأل المفاداه بمن عنده وكان الذى قدم من قبل صاحب الروم رسولا إلى المتوكل شيخا يدعى اطروبيليس »[٥٦].

كان على رأس سفارة الدولة البيزنطيه أعظم دهاتها الدبلوماسيين إذ ذاك هو أطزوبيليس الذى وفد على الخليفة المتوكل العباسى ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين دليلا على حرص البيزنطيين على إظهار حسن نيتهم ، وصادق رغبتهم فى إعادة المودة والسلام وتبادل الأسرى ، وأجاب الخليفه المتوكل العباسى طلب سفارة البيزنطيين ورحب بما عرضه البيزنطيون من تبادل للأسرى ، وبعث مع سفيرهم أحسن سفراء العباسيين إذ ذاك وهو نصر ابن الأزهر الشيعى الذى سبق أن مثل الدولة العباسيه فى بلاط البيزنطيين ، وأصبح خبيرا فى شئون تبادل الأسرى وتقاليده ، وخير من يحافظ على حقوق المسلمين ويرعى سمو تقاليدهم الدبلوماسيه، وتجلت مواهب نصر بن الأزهر واعتداده بالتقاليد الدبلوماسيه الإسلامية حين وصل إلى القسطنطينية فروى ما حدث له هناك(٥٧) .

فيقول : لما صرت إلى القسطنطينية حضرت ميخائيل الملك بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى فجرت بينى وبين خال الملك بطرناس - بتروناس- مناظره وهو القيم بشأن الملك ، وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى، فقلت انصرف ، فأنصرفت فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحو من ألف ناقجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وحملت الهدايا التى معى فدخلت عليه فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيئ لى مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وكان بين يديه ثلاثة تراجمه فقالوا لى: ما نبلغه ؟ قلت : لاتزيدوا على ما أقوله لكم شيئا ، فأقبلوا يترجمون ما أقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشئ وقربنى وأكرمنى ، وهيئ لى منزلا بقربه فخرجت فنزلت فى منزلى .

وأظهر نصر بن الأزهر كياسة دبلوماسية رائعة نمت عن حسن استعداده السياسى، حين أمر المترجمين بتوخى الدقه فى نقل كلامه، كما أنه كان حريصا على أن يظهر احترام البيزنطيين له ، حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير ، حيث يجلس الإمبراطور وأنه بذلك كان مقدما على سائر سفراء جيران الدولة البيزنطيه الذين شهدوا هذا الاستقبال الرسمى، وكانت الدولة البيزنطية تراعى التقاليد الدبلوماسية مع الدولة الإسلامية وتخصص للسفراء المسلمين مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال .

وبدأ نصر بن الأزهر مهمته الرسمية بعد انتهاء مراسم الاستقبال من حيث إعداد التقارير عن حالة الأسرى لدى الدولة البيزنطية وعددهم ، وكان يروح عن السفراء المسلمين وأعبائهم

المضنيه برنامج الحفلات والزيارات التى تعده لهم السلطات البيزنطيه ، فكان فى القسطنطينية ميدان سباق : (Hippodrome)[٥٨] الهيدروم يعتبر مرآة صادقة لحياة العاصمه الاجتماعية وليس مقصورا على حفلات السباق فحسب ، فتجرى فيه الألعاب البهلوانيه التى يقدمها أشخاص متخصصون فى إجادة هذا الفن الشعبى، وتجرى فيه كذلك شتى المباريات، فكان السفراء المسلمون يدعون إلى الهيدروم، وتخصص لهم مقصوره إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه إمعانا فى إكرامهم وحرصت السلطات البيزنطيه على إتاحة الفرصه للسفراء المسلمين لمشاهدة كنيسة (آياصوفيا) حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء غايته فكانت الدلايات والمباخر تأخذ بالألباب وتثير الروعه فى النفوس[٥٩].

وظل السفير الإسلامى نصر بن الأزهر موضع إجلال سلطات الدولة البيزنطية واحترامهم ولكن حدثت واقعه عارضه أوقفت المفاوضات بشأن إطلاق سراح الأسرى مؤقتا ، وهو حضور وفد من أهل حصن اللؤلؤه بعرض تبعية سكان هذا الحصن على السلطات فى القسطنطينية ، وكان لحصن اللؤلؤه أهمية استراتيجية عظمى بسبب وقوعه فى منطقة الأطراف الفاصلة بين أراضى المسلمين فى الشام وأراضى البيزنطيين فى آسيا الصغرى، إذ سيطر هذا الحصن بفضل موقعه الهام على الطريق الرئيسى الممتد عبر سلسلتى جبال طوروس والذى يصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى، وكان للمهتمين على هذا الحصن المقدرة على منع الغارات التى شنها أى فريق من المسلمين أو البيزنطيين على البلاد المجاوره لهما [٦٠].

ورحب الإمبراطور البيزنطى بحضور وفد حصن اللؤلؤه لأن هذا الحصن كان دائما فى قبضة المسلمين، عدا فترات يسيرة استطاع البيزنطيون فيها استمالة أهل هذا الحصن إليهم بإغداق الأموال عليهم، فرأى الإمبراطور البيز' لى استغلال هذه الفرصة والضغط على السفير الإسلامى فى المفاوضات الجاريه بينهما وكسب أكبر فائدة ممكنة، وتغافل الإمبراطور البيزنطى بذلك عن السفير الإسلامى نصر بن الأزهر مدة أربعة أشهر ، ولكن السفير الإسلامى أظهر فى تلك الفترة مهارة دبلوماسية فائقة ، إذ ظل ضابطا لأعصابه ، لايعير هذا التغافل اهتماما ، ولم يطلب العوده إلى بغداد ، وإنما بقى هادئ ينتظر ما يمكن أن ينكشف عنه هذا الحادث الطارئ الذى عرقل سير المفاوضات ، وأتت دبلوماسية السفير الإسلامى ثمارها ، ذلك أن أهل حصن اللؤلؤه سرعان ما ثاروا على السلطات الحاكمه فيه وأعلنوا ولائهم مرة أخرى للدولة الإسلامية ، وبذلك انقطع آخر أمل عند الإمبراطور البيزنطى فى كسب الموقف أثناء المفاوضات مع السفير الإسلامى وآثر السير سريعا فى إتمام المفاوضات [٦١].

وسمحت السلطات البيزنطية للسفير الإسلامي بتفقد حال الأسرى المسلمين عندهم وإحصاء عددهم، حتى يتم تبادل الأسرى وفق قواعد دقيقة ، واستطاع السفير الإسلامي نصر بن الأزهر أن يحصى عدد الأسارى من المسلمين فى سهولة ويسر بفضل التسهيلات التى قدمتها السلطات فى القسطنطينية ، ووجد السفير الإسلامي أن عدد الأسرى المسلمين يبلغ ألفين منهم عشرون إمرأه معهن عشرة من الصبيان ، وبعد الانتهاء من إحصاء عدد الأسرى المسلمين جرت المفاوضات مره أخرى بين السفير الإسلامي والإمبراطور ميخائيل للإتفاق على تبادل الأسرى، وأظهر السفير الإسلامي لياقة دبلوماسيه وحذقا سياسيا بارعا فى إجابته على« أسئلة خال الإمبراطور باراداس الذى كان يتولى المفاوضات ، واقتصرت إجاباته على هز رأسه بما يفيد «نعم» أو دون أن يتكلم ، إذ حرص السفير نصر بن الأزهر على أن يعيد ما يتفق عليه مع خال الإمبراطور على الإمبراطور نفسه ، وعبر السفير الإسلامي عن نجاح مفاوضاته وحرصه على أخذ كل تعهد ممكن من الإمبراطور نفسه قائلا : «أجيبونى- أي السلطات فى القسطنطينية- إلى المحالفه فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت أيها الملك قد حلف لى خالك فهذا اليمين لازمة لك، وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولايتكلم بكلمة منذ طلبت بلاد الروم إلى أن خرجت منها ، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولايتكلم بكلمة ، وخاله المدبر له أموره، ثم خرجت من عنده بأحسن حال حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة»[٦٢].

كان موضع الفداء عند ضفاف نهر اللامس وهو فى منطقة سلوقية ،، حيث جرت العادة أن يقف أسرى المسلمين مع مندوبين سلطات الدولة البيزنطية على الجانب الغربى للنهر، ويقف المسلمون مع أسرى البيزنطيين على جانبه الشرقي، وكانت تختار بقعه من النهر ليسهل مد جسرين عليها أحدهما خاص بالمسلمين، والآخر للبيزنطيين، واستغرقت عملية الفداء سبعة أيام حضرها من أولها إلى آخرها نصر بن الأزهر ليشهد صحة الإجراءات التى تم الاتفاق عليها مع سلطات الدولة البيزنطية ، ثم عاد نصر بن الأزهر إلى بغداد مسجلا نصرا دبلوماسيا باهرا فى ميدان تحسين العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطيه[٦٣].

الفداء السابع : فداء عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧م ، وصل رسولان من إمبراطور البيزنطيين قسطنطين السابع[٦٤] الذى اشتهر بالأبهة والميل إلى حسن إعداد سفرائه إلى الخليفه المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ) ، وعندما وصلت إلى الخليفة أنباء إجتياز سفارة الإمبراطور البيزنطى

للحدود فى طريقها إلى بغداد ، أمر السلطات الإسلامية بحجز السفراء البيزنطيين فى تكريت شمال بغداد حتى يفرغ من تجميل وتزيين قصره وعاصمته بما يليق بعظمة الدولة الإسلامية ، وليكون استقبال تلك السفارة شاهدا على علو كعب المسلمين في ميدان الدبلوماسيه، وأقامت السفارة البيزنطية فى تكريت شهرين ، تابعت بعدها السفر إلى بغداد ، وفى العاصمه قضت السفارة شهرين آخرين قبل أن تحظى بمقابلة الخليفة المقتدر ، وفى تلك الأثناء كانت العاصمة قد تزينت وامتلأت بالزينات الفاخره ، وأخذ سكان بغداد يزينون منازلهم على جانبى الطريق الذى أعد لمرور موكب سفراء البيزنطيين، وفى نفس الوقت بذل الخليفة جهدا عظيما فى إعداد (قصر التاج) وهو المقر الرسمى إذ ذاك للخلافة ومكان استقبال السفراء ، ويقع هذا القصر على نهر دجله ، ويتصف بالسعه والبهاء ويكثرة القباب والمجالس ، ووصف شاهد عيان زينة القصر فى بغداد قائلا : كان عدد ما علق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبه بالطرز وعدد البسط فى الممرات التى وطأ عليها القواد والرسل البيزنطيون إثنين وعشرين ألف قطعه ، ولم يقف الاستعداد عند العرش والبسط، وإنما شمل سائر موظفى قصر الخليفة ، وبعد انتهاء الشهور الأربعة التى قضتها السفارة البيزنطية فى تكريت وبغداد تحدد اليوم الرسمى لمقابلة الخليفة المقتدر العباسى ، وفى هذا اليوم صف العسكر من دار صاعد وهى دار الضيافه الرسميه فى بغداد إلى قصر الخلافه ، وخرج ركب السفاره وفى صحبتهم أبو عمر الطرسوسى حاكم منطقة الحدود الإسلامية شمال الشام، وهو الذى رافق السفاره منذ دخولها الأراضى الإسلاميه، وكان هذا الحاكم المسلم يرتدى قباء أسود ويحمل سيفا ويكامل زيه الرسمى ، ووصل الركب أولا إلى دار نصر القشورى الحاجب أو كبير تشريفات القصر (بلغة عصرنا الحاضر) وهناك شاهد السفراء البيزنطيون الاستعدادات الرائعة مما أدخل على نفوسهم الرهبه، وحسبوا الحاجب هو الخليفة وعندما هموا بتقديم أوراق الاعتماد إليه قيل لهم إنه الحاجب ، وتابع الركب سيره حتى وصل دار الوزير أبى الحسن على بن محمد ابن الفرات ، وهناك رأى السفراء استعداد يفوق ما شاهدوه فى دار الحاجب وكادوا يكررون خطأهم الأول بتقديم أوراقهم لكنهم علموا للمرة الثانية أنهم ما زالوا فى طريقهم إلى مجلس الخليفه ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى مجلس قد علقت ستوره وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافه ثمانية وثلاثين ألف متر من الديباج ، والبسط إثنين وعشرين ألفا (٦٥).

ومن هذا المكان دخلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى قصر التاج بعد أن لبس الثياب الدبيقية (نسبة إلى مدينة ديبق فى مصر) المطرزه بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالدبيق المطرز بالذهب، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة وعلى يمينه تسعة عقود مثل السبح معلقه ، وعلى يساره تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة عالية الضوء أقوى من ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنه وإثنان ميسره، وكان يقف بالقرب من الخليفة مؤنس الخادم ونصر القشورى حيث اضطلعا بالترجمة عن الخليفة ، وعندما دخل السفراء أخذتهم الرهبة من الخليفة ورغبوا فى السجود له جريا على عاداتهم فى الدخول على إمبراطورهم، ولكنهم منعوا من فعل ذلك لأنه أمر يخالف الشريعة الإسلامية وتقاليد بلاط الخليفة المسلم، وقدم رأس السفارة البيزنطية وكان شيخا جليلا كتاب الإمبراطور البيزنطى إلى الخليفة ، ويضم تعريفا بأعضاء السفارة ويطلب من السلطات الإسلامية إجراء فداء وإيقاف حالة الحرب بين الدولتين، وكان الخطاب كبير الحجم فتناوله الخليفه وقبله إعظاما له وإجلالا لتلك السفاره وتقديرا منه لنبل مقصدهم ، وكان مع السفارة مترجم خاص بها يسهل مهمة تبادل الآراء والمناقشات (٦٦).

واستغرق هذا الاستقبال الرسمى ساعة لقى فيها السفراء البيزنطيون من عطف الخليفة وترحيبه ما جعلهم يطمئنون إلى نجاح مهمتهم، وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى وعندما هم السفراء بالخروج أمر الخليفة بالمبالغة فى إكرامهم والسماح لهم بالتجول فى القصر ومشاهدة ما يحويه من مباهج وقاعات فاخرة ، وصحب السفراء فى الخروج أبو عمر الطرسوسى ، الذى لازمهم كذلك فى الطواف بأرجاء قصر الخلافه وبعد مشاهدة سائر محتويات القصر، ركب السفراء قوارب جميلة صعدت بهم فى دجلة متجهين إلى دار صاعد التى أعدت لإقامتهم ، وأتاحت لهم هذه النزهة النهريه مشاهدة معالم بغداد والتى امتدت على ضفتى النهر فى جمال ورونق ، وتم الإتفاق على تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، فسير الخليفه مؤنس الخادم ليحضر الفداء ، وعقد له الإماره على كل بلد يدخله إلى أن يخرج عنه ، وسير معه الجنود وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين، وعندما انتهت سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع من مهمتها رغب الخليفة المقتدر العباسى فى إسباغ كرمه على السفراء عند عودتهم ، فبعث إلى الشخصين المشرفين على السفاره خمسين بدره، وفى كل بدرة خمسة آلاف درهم، وكان المقصود من تلك الهبات هو مساعدة السفراء على شراء ما يحتاجون إليه من طرائف العاصمة والنادر من منتجات الدولة الإسلامية ، وكذلك شمل الخليفة بهباته أبا عمر الطرسوسى الذى رافق السفاره البيزنطيه فى عودتها إلى ديارهم (٦٧).

الآثار المترتبة على السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطوريه البيزنطيه :

١- كان للجوار بين الدولة الإسلامية والبيزنطية واشتراكهما في حدود واحده، له أثره البالغ في التأثير على الطرفين في مجالات عدة، فبالرغم من أنه كانت هناك عداءات عدائية أو شبه عدائيه إلا أن ذلك لم يمنع الاتصال الحضاري بينهما، فالمسلمون نظروا إلى البيزنطيين وتراثهم الحضاري نظرة تتسم بسعة الأفق ، وحاولوا جاهدين أن ينقلوا الكثير من هذا التراث واستفادوا من النظم البيزنطية في مجالات عديدة مثل الأدب والهندسة المعماريه وفن الزخرفه والتصوير ونظم الإدارة والدواوين، أي في المجالات السياسيه والإداريه والثقافية(٦٨).

٢- استفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلاميه عن طريق رحلات المسلمين إلى عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) سواء أكانوا أسرى حرب أو تجار أو رحالة فقد لعبوا دورا هاما في التأثير بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية ، وكان الميدان الثقافي أول ميدان للتعاون بين الدولتين ، وقد شغف المسلمون باقتناء الكتب فدأب الخلفاء العباسيون على أن يبعثوا إلى القسطنطينية يطلبون من أباطرتها الكتب النادرة، كما فعل أبو جعفر المنصور الذي كان من أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع وأبو يحيى البطريق وهو الذي تولى ترجمة كتب أرسطو طاليس(٦٩).

٣- استمرت حركة الترجمة حتى عهد هارون الرشيد أي منذ عام ١٢٦- ١٩٣هـ / ٧٤٣-٨٠٨م، فبعد غاراته المتكررة على عموريه وأنقره وقع في يده كثير من الكتب اليونانية وفي عهد الخليفة المأمون أتم ما بدأه جده المنصور فأقبل على طلب العلم من الكتب السريانية واليونانية ، وممن قاموا بالترجمة في هذه الفترة يوحنا بن ماسويه (٧٠).

٤- كان من أبرز علماء الدولة البيزنطية الفيلسوف ليو Leo ابن خالة البطريرك حنا النحوي وكان قد لفت نظر الإمبراطور ثيوفيلوس وقصة ذلك أن ليو هذا كان يدرس علومه لعدد قليل وكان من بين تلامذته شاب برع في علم الهندسة وأصبح بارعا فيها ، وخرج ذات مرة إلى إحدى المعارك ضد المسلمين وهزم البيزنطيون ووقع هذا الشاب أسيرا لدى أحد كبار الشخصيات الإسلامية وذات مرة حضر مجلس الخليفة المأمون ذلك الرجل المسلم المشهور وتحدث عن ذلك الشاب البيزنطي وعن مهارته في علم الحساب والهندسة وكان قد التقى به بعض العلماء فأبدى أمامهم مهارة كبيره فذكروا ذلك للمأمون ، فأمر باستدعائه إلى مجلسه ، وسأله عن مدى علمه فأخذ هذا الشاب يستعرض علمه في علم الهندسة، وراح العلماء

الحاضرون في مجلس المأمون يسألونه عن أشكال المثلثات والزوايا الأربعة فذكر لهم أسماء هذه الأشكال ، بل لم يطرحوا أي سؤال إلا وأجابهم عليه بوضوح، وسألوه متعجبين من آين له كل هذا العلم؟ فأخبرهم أنه تعلم علوما أخرى في بيزنطة ، وأنه يعد من أصغر تلاميذهم ولايعد من علمائهم ولا من أساتذتهم ، فسآله المأمون عن معلمه من هو ؟ وهل لايزال على قيد الحياه؟ فأجابه أن معلمه هو ليو وأنه لا يزال حيا يعاني الفقر والحاجه ، وعلى الفور أرسل المأمون خطابا إلى العالم ليو ليقول فيه : «يعرف الأستاذ من تلميذه ، كما تعرف الشجرة من ثمرتها ولذا فإنك يا من تحمل علما عظيما ولكنك تعيش مغمورا بين مواطنيك ولاتحمل ثمرة الحكمه ، فلاتتأخر عن المجيئ إلينا والإفاضة علينا بعلمك الغزير، ولدى وصولك فسوف تنال من الثروات والهدايا ما ليس لأحد قط من البشر» وسلم هذا الخطاب للشاب بعد أن حمله بالهدايا العظيمة وطلب منه أن يسلم الخطاب إلى ليو وتم توصيل الشاب آمنا سالما إلى بيزنطه فلما وجد ليو سلمه الخطاب ، وأدرك ليو أن من الخطر أن يتسلم خطابا من العدو دون أن يحيط الإمبراطور علما بهذا ، فذهب ليو إلى ثيوكتستيس وقص عليه الأمر وسلمه الخطاب، وهكذا وصل الأمر إلى الإمبراطور ثيوفيلوس ، وذاع أمر ليو فالتفت إليه الإمبراطور وطلب منه أن ينشر علمه بين الناس وأغدق عليه الأموال، ولكن المأمون لم ييأس من استقدام ليو، فأرسل إليه بعض الأسئله في الهندسة والفلك وعلوم أخرى كثيرة وطلب منه الرد عليها ، فلما أجاب عنها ليو كلها إجابات صحيحه إزدادت رغبة المأمون به وقال : «يا له من علم غزير لدى هذا الرجل »، وعلى الفور أرسل سفراء إلى ثيوفيلوس يحملون خطابا منه يقول فيه: «لقد كنت قررت بمقتضى واجب الصداقه أن آتي إليك بنفسي ولكن حيث أن الله قد عهد إلى بأمر الحكم ، فإن هذا لايتسنى لي، ولذا فإني أرجو أن ترسل إلى رجلا لديك هو من مشاهير علماء الفلسفه والهندسة والفلك لكي يقضي لدينا وقتا قصيرا يفيدنا من علمه ولايمنعنك من ذلك خلاف في الدين أو الجنس ، بل لنتصرف حسبما يتميز به الأصدقاء الخيرون، وفي مقابل هذا سوف نرسل إليك مائة قنطار من الذهب ونعقد سلاما ومعاهدة طويلة الأجل »، ورفض ثيوفيلوس طلب المأمون حتى لاينشر علم ليو الذى خص به الشعب البيزنطي فقط[٧١].

٥- من الكتب اليونانية الهامة التي ترجمت في عهد المأمون كتاب أرسطو في الآثار اللغوية، وكتاب الحيوان نقله ابن البطريق ومن كتب الهندسة لإقليدس والرياضة والفلك والطب كتاب جالينوس وقام بترجمته حنين بن إسحاق وكان حنين يؤلف الكتب بالسريانية ويترجمها لعلماء النصارى وأطبائهم ، وكان إبنه إسحاق يقوم بنقل ما ترجمه أبوه إلى اللغة العربية[٧٢].

٦- استفادت الدولة العباسية من إرسال العلماء إلى الدولة البيزنطيه لإكتشاف الآثار التاريخيه مثل الحملة التى أرسلها الواثق برئاسة المترجم سلام الذى كان يعرف ثلاثين لغة فتوجه إلى آسيا الصغرى ليكشف السور الذى بناه الإسكندر سدا منيعا بين يأجوج ومأجوج ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة وسلمه سلام بيان وافيا عن الحملة، فنجد أن عهد الواثق امتاز بإرسال بعثات علميه تستطلع خبر القدماء ، كما نجد أن الحركه العلمية فى خلافة الواثق سارت فى خطى سريعة ثابتة(٧٣) فقد وصفه المسعودى قائلا «كان الواثق محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر(٧٤).

٧- تأثر الأباطرة البيزنطيون بحياة الخلفاء العباسين كالإمبراطور ثيوفيل الذى تأثر بالفن الإسلامى وانعكس ذلك فى مجال العمارة والزخرفة فى قصره والقصور الأخرى فى القسطنطينية ، وكذلك تميز البلاط البيزنطى بالترف وبلغ من تأثره بالمسلمين أنه حاول أن يكون حاكما مثاليا وحرص على أن ينشر العدل فى أرجاء مملكته فأخذ يقلد الخليفة هارون الرشيد فيما اشتهر به من العداله ، فكان يطوف بأنحاء مدينة القسطنطينية يتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم وينزل العقاب بمن ظلمهم (٧٥).

٨- ظهور آخر التأثيرات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين فى استخدام العرب لبعض الألفاظ اليونانية وإدخالها فى اللغة العربية كما هى وخاصة فيما يخص الحضارة والعلوم والحياة اليومية ، فقد تأثرت آداب الدولتين الإسلامية والبيزنطية بكثير من الكلمات اليونانية التى دخلت اللغة العربية نتيجة بقاء الأسرى فترات طويلة لدى الطرفين(٧٦).

٩- إذا كانت العلوم قد إضمحلت فى غرب أوروبا فى أوائل العصور الوسطى نتيجة هجمات الجرمان وسقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، فإنها ازدهرت فى الشرق الإسلامى فى ظل الخلافة العباسية طوال القرن الثامن والتاسع الميلاديين، ولم يكن علماء الحضاره الإسلامية فى ظل العباسيين كلهم من العرب بل كانوا فرسا أو يهودا مستعربين أو سريانا أو من الأرمن ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالميه السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى اسبانيا غربا فى عهد الخلافه العباسية (٧٧).

ملحـــق

خطاب الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) إلى الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٧٦-٨٠٩م).

كتب نقفور خطابا إلى الخليفة هارون يطلب السلام (وهذا الخطاب لم يرد ذكره في المصادر العربية وإنما ذكر فقط في زوناراس) قائلا: هل أنت سعيد مسرور بهذا الظلم وتلك المذابح التي صنعتها بداك . ألم تقنع بها ؟ ألم تغير وتنقل الحدود القديمه التي اتفق عليها الأجداد والاباء ؟ أي نبي مقدس أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك نبيك محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن تعتبر كل مسيحي أخا لك . ألا تقر بذلك ؟ ألم يحرم عليك الله القادر على كل شئ والذي يسير أمور الكون بأسره أن تسفك الدماء بغير وجه حق ؟ أغاب هذا عنك ؟ أم أنك قد تركت بلادك ورحت تنزل الأذى بأناس لم يسببوا لك ضيقا قط أهذا كله لأنك تهفو إلى الذهب والفضه وغير ذلك من الأشياء؟ إن كانت مثل هذه الأشياء ثمينة غالية في نظرك إلى هذا الحد فبإمكانك أن تحوز الكثير منها حين نرسل ما تشاء .

فإن أردت فسوف نرسل لك منها ما تريد على الفور ونفوسنا راضية قريره ، فإن هذه الأشياء متاع زائل بل إننا كذلك لسنا مخلدين، ولو كنا مخلدين لما خضع أحد منا لرب العالمين، انتصارع فيما بيننا ونحاكي الوحوش الضاريه في هجماتها على البشر ونحن نعلم أننا بعد قليل ميتون، وسيرى كل إمرء بل وسيجني جزاء ما صنع »[٧٨].

الهوامش

١- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩، ج٩ ، ص٣٤٧؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ، ج٢ ، ص١٠ .

٢- ابراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥١م، ص٨٨ .

٣- ابراهيم أحمد العدوى : السفارات الإسلاميه إلى أوروبا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧م، ص٥-٧ .

٤- المرجع السابق، ص١٣-١٧ .

٥- ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩م، ص١٠٦-١٠٧ .

٦- ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرساله والسفاره ، حققه : صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧م، ص١١٣؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوربا ، ص٢٣-٢٤ .

٧- ابن الفراء : المصدر السابق ، ص١١٤-١١٥ ؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا ، ص١٧-١٨ .

٨- ابن الفراء : المصدر السابق، ص١١٥ .

السفير أو الرسول شخص كلف بالمثول أمام حكومة أرسل إليها ليتكلم باسم من أوفده ويذلل المصاعب ويقضى أمورا مضى لإنجازها ، فالرسول مأخوذ من الإرسال والإطلاق والتوجيه ونقل الأخبار ويرسل لعقد صلح أو هدنه أو فداء أو تحالف ، وذكر القلقشندى : "إن السفير هو الرسول والمصلح بين القوم". انظر ابن الفراء: المصدر السابق، ص٦١-١٠٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٦ ، ص١٥ .

٩- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م، ج٢ ، ص٣٣٨ .

١٠- ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ ابن حوقل : صورة ، ص١٨٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٣ ، ص٢٧٢ .

١١- محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسيه ، دمشق ١٩٩٨م، ص٢٥٣ ؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى، ١٩٦٥م، ص٢٠ .

١٢- ابن النديم : الفهرست ، ص٥٧ ؛ سيجريد هونكه : فضل العرب على أوربا ، ص٢٨٣ ؛ أبوجعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين ، هو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب،

أمه هي سلامه البربريه كان مولده في ذي الحجة ٩٥هـ / ٧١٤م، انظر : السيوطي: تاريخ الخلفاء ، القاهرة، ١٣٥١هـ، ص٢٥٩ .

١٣- القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزغ ١٣٢٠هـ، ص٣٨٠ .

١٤- الخليفة المأمون : هو سابع الخلفاء العباسيين ، عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور بن عبدالله ، كنيته أبو العباس، أمه إسمها مراجل فارسيه ماتت بعد ولاته بقليل، ولد سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م . آنظر : ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ ، ج١٠ ، ص٤٩ .

١٥- ليو: عالم يوناني اشتهر بسعة إطلاعه في سائر الفنون والعلوم ، ابن أخت يوحنا النحوي معلم الإمبراطور ثيوفيلوس، درس في جامعة القسطنطينية . أنظر الباز العريني : الدولة البيزنطية ٣٢٢-١٠٨١ م، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٧٤ .

ثيوفيلوس : ابن الإمبراطور ميخائيل الثاني من الأسرة العموريه ، اشتهر باهتمامه بالعلوم والفنون وتأثر بالفن والثقافة الإسلامية كان مناهضا لعبادة الصور المقدسه، انظر الباز العريني، المرجع السابق، ص٢٧٤ .

١٦- ابن النديم : الفهرست ، بيروت ، ص٢٤٣ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦١م، ص٤٥ ؛ فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره ، القاهرة ، ص١٦ .

١٧- الواثق بالله : تاسع الخلفاء العباسيين هو هارون الواثق بالله بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد، أمه أم ولد رومية الأصل تسمى قراطيس ، ولد سنة ١٩٠هـ وقيل ١٩٦هـ . أنظر ابن كثير : البداية والنهاية، بيروت ١٩٨٣م، ج١٠ ، ص٢٩٧ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء بيروت، ص٣٤٠ ؛ افسوس : مدينه في الجنوب الغربي من اسيا الصغرى. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٣١ ؛ ثيودوسيوس الثاني : ابن أركاديوس كان صغير السن بعد وفاة والده وقع تحت تأثير أخته بلكيريا وزوجها مارقيان ، كانت فترة حكمه طويله. انظر عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطيه، الإسكندريه ١٩٧٧م، ص٦٨ .

ميخائيل الثالث : ابن الإمبراطور ثيوفيلوس ، كان وقت وفاة والده في السادسة من عمره، تولت أمه ثيودورا الوصاية عليه يعاونها أخوها باراداس الذي تركه ينغمس في الملذات حتى عرف بميخائيل السكير. انظر الباز العريني: المرجع السابق، ص٣٢٤-٣٢٥ .

١٨- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص١٠٦-١٠٧ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسه ، ليدن، ١٨٩١ م،

ص١٤٩ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص١٦ .

١٩- قسطنطين الخامس : كوبر نيموس ، تولى العرش بعد أبيه ليو الثالث، امتاز بتفوقه فى القيادة الحربية وفى مناهضة عبادة الصور المقدسة وترجع شهرته إلى ما اتبعه من وحشية فى إضطهاد الرهبان عباد الأيقونات وتعذيبهم وما أحرزه من إنتصارات باهره على البلغار . انظر : الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٢٠٨ ؛ Ostrogorosky , G : History of the Byzantine State tr. By Hussey , Oxford 1968 , p. 148 .

٢٠- المهدى : ثالث الخلفاء العباسيين ، هو محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس ، وأمه أروى وكنيتها أم موسى، ولد بالحميمه سنة ١٢١هـ / ٧٣٩ م وقيل بأيذج عام ١٣٧هـ/ ٧٤٥م. أنظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠ ، ص١٥٢؛ السيوطى تاريخ الخلفاء : ص٢٧١ .

ليو الرابع الخزرى: أمه إبنة خان الخزر فلقب بالخزرى ، يعتبر عهده مرحلة انتقال بين ذروة الحركة اللاأيقونية زمن أبيه قسطنطين الخامس وبين العودة إلى عبادة الصور المقدسه زمن زوجته إيرين ، اشتهر بالميل إلى الاعتدال فأعاد إلى الرهبان أسقفياتهم . أنظر: الباز العرينى : المرجع السابق، ص٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٦٣ .

الباز العرينى : المرجع السابق ، ص٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٦٣ .

٢١- ايرين : زوجة ليو الرابع، كانت من أثينا تعلقت بتمجيد الصور وعبادتها ، تولت الوصايه على إبنها قسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م عقب وفاة أبيه فأضحت قسيما له فى الحكم. انظر : الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص٣٨٠ ؛ الباز العرينى: المرجع السابق، ص٢٢٢ ؛ جمال الدين الشيال: تاريخ الدولة العباسية ، الاسكندريه ، ١٩٦٧ م، ص٥٢ .

٢٢- نقفور الأول : تشير المصادر إلى أن نقفور ينتمى إلى أصل عربى وأن جده هاجر إلى بيسيديا بآسيا الصغرى التى تعتبر مسقط رأس نقفور ، قام بثوره عام ٨٠٢م ونفى الإمبراطوره إيرين إلى أحد الأديرة ، وكان يشغل وزير الخزانه . انظر Bury: Eastern Roman Empire, pp. 8-9 ؛ أومان : الإمبراطوريه البيزنطية ، ص٦ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ص٤٣ .

هارون الرشيد: خامس الخلفاء العباسيين ، هو هارون بن محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله ابن عباس ، أمه يمانيه يقال لها خيزران وسميت جرشيه لأنها من جرش اليمن ، ولد بالرى عام ١٤٩هـ/ ٧٦٦م . انظر : السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٢٨٣ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل، ج٨ ، ص٢٣٠ .

٢٣- الشاعر هو عبدالله بن يوسف التميمي . أنظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، القاهرة ١٩٦٥م، ج٥، ص٢٤٦ .

٢٤- ابن أبي الدم الحموي التاريخ المظفري ، ج١ ، حققه حامد زيان ، ص١٠١ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ليدن ١٨٥١- ١٨٧٦م، ج٥ ، ص٢٢ ؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٢٣ ؛ عفاف صبره : الإمبراطورتان البيزنطيه والرومانية الغربية زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢، ص٩٩؛ عبد الجبار الجومرد: هارون الرشيد ، بيروت ج٢ ، ص٥٣١ .

٢٥- الطبري : تاريخ الرسل، ج٣ ، ص٦٩٨ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨هـ ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ رشيد عبدالله الجميلي : دراسات في تاريخ الخلافة العباسيه ، الرباط ١٩٨٤م، ص٧٠ ؛ أحمد مختار العبادي : التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت ١٩٧٢م، ص٩١-٩٢ .

٢٦- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر، القاهرة ١٩٣٠م، ج٢، ص٢٧٢ ؛ ابراهيم العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص١١٠ .

نهر لاموس Lamos : سماه العرب اللامس وهو على مرحلة من طرسوس وعلى هذا النهر كان يجري في أيام العباسيين تبادل الأسرى بينهم وبين البيزنطيين. انظر : ابن حوقل : المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٣م، ص٣٤ ، وصورة الأرض ، بيروت، ١٩٧٩م، ص٨٣ .

٢٧- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦ م، ص١٤٨ .

٢٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ كي ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقيه ، بغداد ١٩٥٤م، ص١٦٥-١٧٤ .

٢٩- المقدسي: أحسن التقاسيم ، ص١٤٨ .

٣٠- ابن رسته : الأعلاق النفيسه، ليدن ١٨٩١م، ص١٢٢- ١٢٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣، ص٢٢٥ ؛ الطبري : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٠ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٨٥٢ م، ج١ ، ص٤٤٤ .

٣١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤ ، ص٣٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهايه ، ج٩ ، ص٧٤ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٩٠ ؛ الطبري: تاريخ الرسل، ج٧، ص٥٠٠ ، ج٨ ، ص٢٨ .

٣٢- ابن الأثير: الكامل ، ج١٠ ، ص٣٥ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣ ، ص٢٠٣ ؛ ابن كثير : البدايه والنهاية، ج١ ، ص١٥٨ ؛ شاكر مصطفى : في التاريخ العباسي ، ج١ ، ص٢٧٦ ، شوقي أبوخليل: هارون الرشيد ، دمشق ١٩٨٨م، ص٩٧ .

٣٣- ابن أبي الدم الحموي : التاريخ المظفري، ج١ ، ص١٢٥-١٢٦ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٧٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٧ ؛ الطبري : تاريخ الرسل ، ج١٠ ، ص٢٨١ ؛ الكوفي : الفتوح ، بيروت ١٩٨٦م، ج٤ ، ص٤٦٤- ٤٦٥ ؛ رشيد الجميلي: دراسات في تاريخ الخلافة العباسيه ، ص٩٤؛ شاكر مصطفى ، ج٢ ، ص٣٢٤ ؛ محمد السيد الوكيل : العصر الذهبي للدولة العباسيه، ص٣٧٨ ؛ يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسيه ، دمشق ١٩٨٢م، ص٩٧ .

٣٤- حسن أحمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٦٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣م، ج١ ، ص٣٨٦ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٥٤-٢٥٥ ؛ Bury : p. 255

٣٥- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ ، بيروت ١٩٨٢م، ص٤٢-٤٣ .

٣٦- سورة النمل ، آية رقم ٣٥-٣٦ .

٣٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠ ، ص٤١٩ ؛ الكوفي : الفتوح، ج٤ ، بيروت ١٩٨٦م، ص٤٦٤-٤٦٥ ؛ شاكر مصطفى : في التاريخ العباسي، دمشق ١٩٧٤م، ج١ ، ص٢٨٣ ؛ فازيليف: العرب والروم، ص١٢٤ .

٣٨- ابن الأثير : الكامل ج٥، ص٢٧٦ ؛ ابن حوقل : المسالك والممالك، ص١٣٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠ ، ص٣٠٨ ؛ ابراهيم العدوي: الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، ص١١٠ ؛ حامد زيان : الأسرى المسلمون في بلاد الروم، ص٩ .

٣٩- شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، ج٢ ، ص٥٧٢ ؛ عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ص٤٣٣ .

٤٠- ابن الجوزي : المنتظم ، ج١١ ، ص١٦٤ ؛ الطبري: تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٩ ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم، ص١٧٧ ؛ حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي، ص١٦٨ ؛ عليه الجنزوري: المرأة في الحضارة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٢م، ص٧٥ .

٤١- سيد الناصري : الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربي ، جامعة القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٩٢ ؛ حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطيه ، القاهرة ١٩٨٣م، ص١٣٦-١٣٧ .

٤٢- الطبري : تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص١٤٣ ؛ المسعودي : التنبيه والإشراف، ص١٦٢ .

٤٣- السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص٣١٦ .

٤٤- ابن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ج٢ ، ص٤٨٠ .

٤٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١ ، ص٣٠٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٢، ص٣١٤ ؛ المسعودي: التنبيه والإشراف ، ص١٦٠-١٦١ ؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطيه ، ١٩٦٠م، ص٢١- ٢٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص١٧٧-١٧٨ .

٤٦- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨هـ ، ج٢ ، ص٤٨٢ .

زبطره : مدينة بين ملطيه وسميساط فى طرف بلاد الروم . انظر ياقوت ، ج٢ ، ص٩١٤ .

٤٧- السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣٤١ ؛ المسعودي: مروج الذهب ، ج٤ ، ص٦٦ ، التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨م، ص١٦٢ .

٤٨- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، بيروت ، ج٤ ، ص١٤٢ .

٤٩- استمد الجغرافى ابن خرداذبه كثيرا من معلوماته عن اسيا الصغرى من الجرمى وغدت معلوماته الأسس التى بنى عليها الجغرافيون العرب مادتهم فى العصور الوسطى. انظر : إبن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص١٢ .

٥٠- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ الطبـــرى: تاريخ الرسل، ج٧ ، ص٣٣٢ ؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص١٦٢ .

٥١- اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج٣ ، ص٢٠ ؛ حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى، ص٦٩؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسيه، ص٢١-٢٣ .

٥٢- ثيودورا : زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس، وأم الإمبراطور ميخائيل الثالث السكير قد أصبحت وصية عليه بعد وفاة زوجها وتألف مجلس لمساعدتها من أخويها بارداس (عرف فى المصادر العربيه باسم بطرناس) وبتروناس وخالها سرجيوس نكيتياتس من أقرب الناس إليها ، وصديقها ثيوكتستوس . وإبنتها الكبرى تكلا والتى كانت قد منحت لقب إمبراطوره قبل وفاة أبيها ، وكانت ثيودورا من الأيقونيين انشغلت بأمور الحكم والمسائل الدينيه ، وتركت أمر تعليم ابنها إلى بارداس الذى أساء تعليمه فعلمه الرذائل وشرب الخمر، أطلق عليه المؤرخون لقب (السكير) وانتهى الحال بثيودورا وبناتها الخمس بطردها من القصر وسيطرت أخيها بارداس على الإمبراطوريه انظر : الباز العرينى، الدولة البيزنطيه ، ص٢٩٤ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص١٦٩ .

المتوكل : هو الخليفة العباسى العاشر أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد أمه خوارزميه يقال

لها شجاع ،ولد فى شوال عام ٢٠٦هـ / ٨٢٢م ، تولى الخلافه فى يوم وفاة الواثق فى ٢٤ ذى الحجة عام ٢٣٢هـ / ١١ أغسطس ٨٤٧م واستمر بالخلافه إلى أن قتل عام ٢٤٧هـ/ ٨٦٩م، فحكم أربع عشرة سنه وتسعة أشهر . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٣٠٣؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطوريه البيزنطيه ، بيروت ١٩٨١م، ص١٣٠ .

٥٣- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٢٧٧ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢٠٢ ؛ محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسيه، ص٤٩٧ .

٥٤- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص٢١٩-٢١٢ ؛ شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، ص٥٧٦ .

٥٥- ابن الجوزى : المنتظم ، ج١١ ، ص٢٨٤ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٢٤ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢٠٣ ؛ المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٦٠ .

٥٦- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢١٣ ؛ ابراهيم أحمد العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٦٨-٦٩ .

ميخائيل الثالث: لقبه مؤرخو الروم باسم الإمبراطور شارد الذهن Blabes لأنه كان دائما غائبا عن الوعى ولإنصرافه إلى اللهو والعبث . انظر سيد الناصرى: الروم والمشرق العربى، ص٢٩٧ .

٥٧- ابراهيم العدوى: المرجع السابق، ص٦٩ .

٥٨- الهبدروم : ملعب كبير أصبح مركزا عاما للنشاط الرياضى والاجتماعى والسياسى فى العاصمه القسطنطينيه، كان يحوى مقصورة للامبراطور يطل منها على شعبه فى الاحتفالات العامه. انظر عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطيه، الإسكندريه ١٩٧٧م، ص٢٧ .

٥٩- كنيسة أياصوفيا Hagia Sophia أو الحكمه الإلهيه ، شيدها الإمبراطور قسطنطين الأول حين بنى القسطنطينيه بالقرب من الهبدروم ، ويلاحظ أن المبنى الذى أقامه قسطنطين لم يكن هو الذى حفظه التاريخ فقد احترق مرتين، وأعاد بنائها الإمبراطور جستنيان الأول عام ٥٣٢م لتخليد إسمه وانتهى بنائها عام ٥٣٧م تحت إشراف أزيدور الملطى ، وأنثيوس الترللى، فكان بنائها تحفة رائعة خاصة قبتها التى تعبر عن عظمة فن البناء البيزنطى الوسيط . انظر عمر توفيق المرجع السابق، ص٣٧ .

٦٠- ابراهيم العدوى : السفارات الإسلامية، ص٧٣-٧٥ .

٦١- فازيليف : العرب والروم، ص٢٠٦ .

٦٢- ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية، ص٨١-٨٣ .

٦٣- ابراهيم العدوى : المرجع السابق، ص٧٨-٧٩ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العباسى، ج١ ، ص٣٧٩ .

٦٤- قسطنطين السابع : ابن الإمبراطور ليو السادس ولد عام ٩٠٥، اشتهر باسم Prophyrogennetos بروفيروجينيتوس وتعنى باليونانيه المولود فى المخدع الأرجوانى ، سيطر على مقاليد السلطه عام ٩٤٥م وهو فى سن الأربعين بعد أن كان مضى على تتويجه نحو ٢٣ عام بسبب سيطرة عم الإمبراطور (رومانوس ليكابينوس) وكان من الصعب عليه أن يترك الحياة التى تعود عليها لأنه كان رجل قلم وفكر لارجل سيف وحرب، فترك أمور الإمبراطوريه لزوجته وانصرف إلى التأليف والكتابه، حتى قيل عنه أنه أدرى رجل بواجبات البلاد التى شهدت أزهى عصورها فى عهده ، فركز على فتح المدارس فى الأقاليم واهتم بنشر التعليم، ومن أشهر مؤلفاته وأضخمها كتابه عن (مراسم الدوله) والذى جمع فيه أصول وقواعد البروتوكول ومراسم استقبال الضيوف الأجانب وتنظيم الحفلات لهم ، وتطرق إلى القصر ونظم إداراته وإلى الإمبراطور ومسؤولياته ، حتى الملابس الرسميه وملابس الجنود وشاراتهم تطرق إليهم بدقه كما كتب مؤلفا على تنظيم الإداره فى الإمبراطوريه بهدف أن يكون مرشدا لولده رومانوس الثانى يحكم على أساسه ، وقد أدى قسطنطين خدمه كبيره للقانون عندما قام بتلخيص (موسوعة القوانين الإمبراطوريه) لتكون فى متناول الناس، وآخر مؤلفاته كان كتابا وضعه عن سيرة جده باسيليوس الأول الذى كان مبهورا بشخصيته وإنجازاته، وفى عهده أيضا صدرت (الموسوعة التاريخيه الكبرى) والتى تقع فى ثلاثة وخمسين مجلد لم يتبق منها سوى أجزاء قليله، ومن تراثه الفنى لوحه منحوته من العاج تصور حفل تتويجه ومحفوظه الآن فى متحف موسكو .انظر: سيد الناصرى : الروم والمشرق العربى، ص٣١٨-٣١٩ ؛ أسد رستم : الروم ، ج٢ ، ص٢٨ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ . Ostrogorsky : p. 247

المقتدر بالله : تاسع خلفاء العصر العباسى الثانى (٢٩٥-٣٢٠هـ) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، ولد عام ٢٨٢هـ ، أمه روميه تولى الخلافه بعد أخيه المكتفى وعمره ثلاث عشرة سنه، قتل وهو فى سن ثمانية وعشرين سنه، انتشرت الفتن فى عهده انظر : السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٦٥ م، ج٣ ، ص٢٠-٢٢ .

٦٥- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٣ ، ص٣٨٥ ، مسكويه: تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٤م، ج٥، ص٥٣ .

٦٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٨ ، ص١٠٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١١ ، ص١٢٨ .

دبيق : قريه من قرى دمياط فى مصر تنسب إليها الثياب المثقله . انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١٠٢ ؛ ياقوت : ج٢، ص٥٤٦ .

٦٧- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٣ ، ص٣٨٦ ؛ ابن الجوزى: المنتظم ، ج٦ ، ص١٤٣ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد، ج١ ، ص١٠٠ ؛ الذهبى: دول الإسلام ، القاهرة ١٩٧٤م، ج١ ، ص١٨٥ ؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٣ .

٦٨- حسنين ربيع : دراسات، ص٨-٩ ؛ كرستوفردوسن : تكوين أوروبا، ص٢٠٣ ، لعبت الدولة البيزنطية دورا هاما فى التاريخ كقوة سياسة وحربيه لقرون طويله وكمركز حضارى وثقافى لأكثر من عشرة قرون من الزمان، انتهت بسقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . انظر : رنسيمان، الحضارة البيزنطيه، ص٢٠٦ .

٦٩- ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول، ص١٣٨ ؛ ابن خلدون : المقدمه، ص٤٠١ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص٢٤٨ .

٧٠- عموريه : مدينه فى الشرق، من أمنع وأحصن بلاد الروم، فتحها المعتصم عام ٢٢٣هـ وكانت من أعظم فتوح الإسلام. انظر ابن خرداذبه، المسالك ، ص١٠١؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ج٤، ص١٥٨ . أنقره : مدينه ببلاد الروم فتحها المعتصم فى طريقه إلى عموريه، انظر ياقوت : ج١ ، ص٢٧٢ .

يوحنا بن ماسويه : من أطباء الرشيد نصرانى سريانى ممن قدموا من جند نيسابور التى كان بها أكبر مدارس للطب ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمه وخدم المأمون ومن بعده إلى أيام المتوكل، كان معظما فى بغداد جليل القدر، وكان يدرس ويجتمع لديه تلاميذ كثيرون، وقد زقام مستشفى فى بغداد ، انظر ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص١٢١ ؛ ابن النديم : الفهرست، ص٤٢٥- ٤٢٦ .

٧١- Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Editio Emendatior et copiosior , Georgius Cedrenus, Tomus Alter , p. 167-169 .

٧٢- ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص١٣٦ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص٣١ ؛

حنين بن اسحاق العبادى: الطبيب المشهور، ولد عام ١٩٤هـ / ٨١٣م، كان يشتغل بالصيدله والتحق بمدرسة جند نيسابور ليدرس الطب وقد حضر حنين مجالس يوحنا بن ماسويه فى بغداد، صمم على تعلم اليونانيه لأنه رأى فيها خير مساعد له على تعلم الطب فسافر إلى بلاد الروم وهناك أتقن اللغة اليونانية ، وقصد البصره لتعلم اللغة العربية وكانت فى هذه الفترة أكبر مدرسة لعلوم اللغة العربية فلازم الخليل بن أحمد ، وبذلك أصبح حنين يجيد أربع لغات هى الفارسيه واليونانية والعربيه والسريانية التى هى لغتهم. انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، ج١ ، بيروت ، ص١٨٧ ، ٤٥٥، ٤٥٦ ؛ اوليرى: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، نقله إلى العربية تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧م، ص٢٤٨ .

٧٣- ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص١٠٦ ؛ ابن رسته: الأعلاق النفيسه، ص١٤٩ ؛ فازيليف: العرب والروم، ص١٦ .

٧٤- المسعودى : مروج الذهب ، ج٤، ص٧٧ .

٧٥- الباز العرينى : الدولة البيزنطيه، ص٢٧٤ ؛ غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص١٧٠-١٧٤
Bury: pp. 241-242 ; Ostrogorsky : pp. 183, 185 .

٧٦- Bury : p. 234 ; Ostrogorsky : pp. 142 , 185 الباز العرينى : الدولة البيزنطيه ، ص١٩٩-٢٠٠ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا فى العصور الوسطى، ج١ ، القاهرة ١٩٦١م، ص١٥١ .

٧٧- سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ص٢١١-٢١٢ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ص٢٨١ ؛ جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد، دار مصر للطباعة ١٩٥٦م، ص٢٠٠ ؛ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص١٧٤ ، ٤٤٠ . . Bury: p. 479

٧٨- Ioannis Zonarae: Epitomae Historiarum , Libri XVIII, Tomus III, Bonnae, p. 34-35 .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

ابن الأثير (على بن أحمد ابن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ ، أجزاء ٨-١٠ ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٢٩م.

ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الجزء الخامس، حيدر أباد ١٣٧٥هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى) : صورة الأرض، جزءان، ليدن ١٩٣٨-١٩٣٩م .

الخطيب (أبوبكر محمد بن على البغدادى) : تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام، المجلد الأول، بيروت- لبنان.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله) : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثالث، بيروت ١٩٧٩م.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت .

ابن خياط (خليفه بن خياط) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ١٩٧٠م .

ابن رسته (أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١- ١٨٩٢م .

ابن العبرى (غريغورويوس الملطي) : تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٠م.

ابن العمرانى (محمد بن على بن محمد) : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن ١٩٧٣م .

ابن النديم (محمد بن إسحاق النديم البغدادى) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

ابن كثير (عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى) : البداية والنهاية، الجزء العاشر، بيروت ١٩٨٣م.

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة.

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦م.

الذهبى (شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان) :

- دول الإسلام الجزء الأول، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمدمصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤م .

- العبر فى خبر من غبر ، الجزء الأول، بيرت ١٩٧٩م.

السيوطى (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين الخطيب، بيروت.

الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء ٨-١٠ ، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٦م.

القفطى (جمال الدين أبى الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ .

القلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا، شرحه : نبيل خالد الخطيب ، الجزء الخامس، بيروت ١٩٨٧م.

الكوفى (أبى محمد أحمد بن أعثم) : الفتوح ، المجلد الرابع، بيروت ١٩٨٦م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين، بيروت ١٩٨١م ؛ التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨م.

مسكويه : تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بالقاهرة ١٩١٤م، الجزء الخامس.

المقدسى (شمس الدين أبوعبيد الله محمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٩م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق) ، القاهرة ١٢٧٠هـ .

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧م.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) : معجم البلدان، الجزء ١-٤ ، بيروت ١٩٥٥م.

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) : تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، النجف ١٣٥٨هـ .

ثانيا : المرجع العربية والمعربة :

إبراهيم أحمد العدوى :

- الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، الطبعة الأولى.
- السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى، دار المعارف.

أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى، بيروت ١٩٧٢م.

ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥١م.

أستم رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ج١ - ج٢ ، بيروت ١٩٥٥م .

أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، نقله إلى العربية تمام حسن، مكتبة الأنجلو المصريه، ١٩٥٧م.

أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م.

الباز العرينى (السيد) : الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م)، القاهرة ١٩٦٠م.

جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه عبد الحميد العبادي، دار مصر للطباعه ١٩٥٦م .

جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧م .

حامد زيان : الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، القاهرة ١٩٨٩م.

حسن ابراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية.

حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٨٠م.

حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ١٩٨٩م.

ستيفن رنسيمان : الحضاره البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦١م.

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦١م.

سيجريد هونكه : فضل العرب على أوروبا ، ترجمة فؤاد حسنين على، القاهرة ١٩٦٤م.

شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م.

شوقى أبوخليل : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، دمشق ١٩٨٨م.

عبد الجبار الجومرد: هارون الرشيد ، الجزء الثانى، بيروت .

عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول، التاريخ السياسى، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٣م.

عفاف سيد صبره : الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربيه زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢م .

عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م .

غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربيه عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبى.

فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة.

كى ليبسترنج : بلدان الخلافه الشرقيه ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

كرستوفردوسن : تكوين أوروبا ، ترجمة مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧م .

محمد جمال الدين سرور: دراسات فى العلاقات السياسيه بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية ، الجزء الأول، ١٩٦٠م .

محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية ، دمشق ١٩٩٨م.

محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهاميه فى مقارنة التواريخ الهجريه بالسنين الإفرنجية والقبطية، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨١م.

يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، دمشق ١٩٨٢م.

ثالثا المصادر والمراجع الأجنبية :

- Bury : (J.B)

- A History of the Eastern Roman Empire , London 1912 .

- Cedrenns Georgius :

Historiarum Compendium , I, Bonnae.

Ionnis Zonaras:

- Epitomae Historiarum, Libri XVIII, Tomus III, Bonnae .

Ostrogorsky, George:

- History of the Byzantine State, Trans by John Hussey .

أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل *

ظاهرة تعاطي الحشيش
ومكافحتها في مصر المملوكية

التعريف بنبات الحشيش ومسمياته :

الحشيش لغة كلمة تعني العشب أو الكلأ، وتحديدًا العشب الجاف أو العلف الذي تأكله الماشية، والحشيس ما يَبس من الكلأ، فأمكن أن يحش و يجمع، ومفردها حشيشة والجمع حشائش[1].

أما الحشيش اصطلاحًا فقد استخدمت الكلمة للدلالة على (نبات القُنب الهندي) وهو نبات عشبي خشن الملمس، ومجوف الساق، وله أوراق مشرشرة الحافة؛ تختلف شجيراته عن شجيرات القنب الأخرى[2]، فهي تتسم بقصر ساقها وكثرة فروعها. ويستخلص عقار الحشيش من القمم الزهرية لأغصان أنثى نبات القنب الهندي، وذلك خلال موسم الإزهار، حيث تجمع هذه القمم على هيئة حزم، ثم تترك لتجف[3].

ويتحدث ابن البيطار عن القنب الهندي فيقول : " ومن القنب نوع ثالث، يقال له القنب الهندي "[4]، مما يظهر أن القنب له أنواع عديدة وقد حدد ابن البيطار النوع الثالث منها وهو المعروف بـ (القنب الهندي) وبأنه النوع الذي يستخلص منه الحشيش. هذا ويعرف القنب الهندي عند الأطباء باسم (الشهدانج) فيذكر ابن جزلة في كتابه (منهاج البيان) القنب الذي هو ورق الشهدانج منه بستاني ومنه بري، والبستاني أجوده، ويسمى (بالكف) وثمره يشبه حب السمنة، وهو حب يعصر منه الدهن. أما البري فتخرج شجرته في القفار المنقطعة، على قدر ذراع، وورقه يغلب عليه البياض[5].

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة القاهرة

وقدم المقريزي وصفًا لهذا النبات (الحشيش) على لسان الشيخ حيدر الخراساني[٦] فقال : " إنه نبات له ورق يميس بلطف، ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان "[٧]. وقد وصفه الأديب محمد بن علي الأعمى الدمشقي في أبيات منها :

دع الخمر وأشرب من مدامة حيدر معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت فتهفو إلى بر النسيم المردد[٨]

تعددت مسميات الحشيش، وفي ذلك يذكر أبو بكر القسطلاني (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) صاحب مخطوط "إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم"[٩]. " وقد اخترعوا لما ابتدعوه أسماء كثيرة، فكنوا بها عنه، رغبة في التستر به .. فسموه الصورة، والكف، والمعلوم، وابنة الجراب، وابنة الكيس، والبنك (البنج)، والكافوري، وابنة القنبس، والخضراء، واللقيمة، وأنشد الشعراء بهذه المسميات أشعارًا فيقول الشاعر تقي الدين الموصلي في تسمية الحشيش بالكف:

كف كف الهموم بالكف فالكف شفاء للعاشق المهموم

وقال أيضًا :

وكف اكف الهم بالكف واسترح ولا تطرح يوم السرور إلى غدٍ[١٠]

وقال في تسمية الحشيش بابنة القنب :

بأبنة القنب الكريمة لا بأبنة كرم بعد البنت الكروم[١١]

وقال ابن سودون البشبغاوي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) في ديوانه عن تسميته بالبنك (البنج) :

بنك وسط الجنينة يصحنوها في الجفينة أو يسفوا بالحفينة
لجلا القلب الحزين[١٢]

وذكر المقريزي أنها أي الحشيشة نعتت بالخبيثة وبالعقدة[١٣]. وكناها ابن سودون البشبغاوي بالبهار وبالبولاقة[١٤]. وذكر الزركشي (ت ٧٩٤/١٣٩١م)[١٥] وتسمى أي الحشيشة بالغبيراء[١٦] وبالحيدرية والقلندرية. قيل سميت بالحيدرية لأن ظهورها كان على يد حيدر الخراساني[١٧] في سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م تقريبًا، وفي ذلك يقول الشاعر ابن الرسام :

واشكر عصابة حيدر إذ أظهـــروا لذوي الخلاعة مذهب المـــتخمس[١٨]

وقيل سميت بالقلندرية لأنها ظهرت على يد أحمد الساوي القلندري[١٩]. وهكذا يتضـــح من المسميات التي اطلقت على الحشيش أو كني بها أن كل منها ذا مغزى ومعنى.

طرق إعداد الحشيش للاستعمال :

أما عن طرق إعداد القنب الهندي (الحشيش) للاستعمال فقد ذكرت المصادر عدة طرق منها :

أولاً : القلي : ينصح الأطباء بضرورة قليه لأنه إذا قلي يكون أقل ضررًا لذلك جرت العادة أن يقلى قبل أكله لأنه إذا أكل غير مقلي كان كثير الضرر. كذلك ينصح الأطبـــاء بتناوله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل؛ ويذكر المقريزي[٢٠] أن ذلك يكون حسب أمزجة الناس، فمنهم من لا يستطيع أن يأكله مضافًا إلى غيره، ومنهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات؛ مما يشير إلى أن طعمه كان غير مقبول. هذا ويؤكد البعض أنها خبيثة الطعم كريهة[٢١] لذلك يضاف إليها السكر أو العسل أو السمسم أو غيره حـــتى تصبح مقبولة الطعم.

ثانيًا : الطبخ : ذكر كل من ابن البيطار والمقريـــزي أنـــه رأى الفقـــراء (الصـــوفية) يستعملونه على أنحاء شتى فمنهم من يطبخ الورق طبخًا بليغًا، ويدعكه باليد دعكًا جيـــدًا، حتى يتعجن، ويعمل منه اقراصًا، ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه، ويفركه باليد، ويخلط به قليل من سمسم مقشور وسكر، ويستفه ويطيل مضغه[٢٢].

ثالثًا : الطحن والعجن : ذكر ابن سودون طريقة استعمال الحشيش بقوله : يطحن في جفنة، ويطرح بذره وقشه، ثم ينضح عليه الماء رشة بعد رشة، ثم يسكب عليه ماء الـــورد ودهنه، ويحكم بهما عجنه. ثم تقطع هذه العجينة ويأكل منها[٢٣].

رابعًا : السلق : يصف البدري في مخطوطة " راحة الأرواح في الحشـــيش والـــراح " الطريقة التي اعتبرها قريبة من الطريقة المستخدمة في مصر، وهي عبارة عن أخذ سبعة أجزاء من نبات القنب البستاني ويضاف إليها جزء واحد من القنب البري، وهذا الجـــزء الأخـــير يستخدم كخميرة، ثم يوضع الجميع في الماء ويسلق على النار حتى درجة الغليـــان، ثم يـــتم

وضعها في آنية كبيرة محكمة الغلق ومصنوعة من الخزف. ثم توضع في مكان رطب لمدة ستة أسابيع، حتى تتعفن الأوراق، ثم يتركها في المكان أسبوع آخر وهي مغمـورة في المـاء، ثم يسحقها وينعمها ويمزجها معًا، ثم يصنع من هذا الخليط حبات أو أقراص، ويتركها في الظل حتى يجففها الهواء، وتصبح ذات تأثير فعال وقوي[٢٤].

يتضح مما سبق أن الحشيش كان يؤكل كما أجمعت المصادر على ذلك، كما كان يشرب كذلك ولكن لم تذكر أي من المصادر أنه كان يدخن في ذلك العصر، وفيما يتعلق بشـرب الحشيش ذكر القسطلاني في أبيات قد نظمها لمكافحته :

لا تصغين لمادح شـرب الحشـيش ... فإنـه في القـول غـير مسـدد[٢٥]

وقال في موضع آخر :

قد ضل مـن أفـق بحـل شـرابها ... فيمـا عُـزا للشـافعي وأحمـد[٢٦]

وذكر ابن تيمية أن الحشيشة تذاب في الماء وتشرب ... والحشيشة تؤكل وتشرب"[٢٧].

ويقول الأديب الفاضل شرف الدين أحمد بـن يوسـف (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في الحشيشة موضحًا أنها طعام وشراب :

جمعت محاسن مـا اجـتمعن لغيرهـا ... من كل شـيء كـان في المعمـور
منـها طعـام والشـراب كلاهمـا ... وبالبقل والريحان وقت الحضـور[٢٨]

فوائد الحشيش ومضاره :

أجمع الأطباء على أن القنب الهندي أو الشهدانج له فوائد جمة كعلاج أو دواء غـير أن مضاره تفوق فوائده، ومن فوائده كما يذكر جالينوس : أنه يبرئ من التخمة وجيد للهضم، وفي ذلك يقول الشاعر النور الاسعردي :

ومن فضلها في الطب جودة هضمها ... وهيهات يحصى فضـلها المعـدد[٢٩]

أما يحيى بن ماسويه[٣٠] فذكر في كتابه (تدبير أبدان الأصحاء) إنه يجفف من البلغم، وينصح بأن من غلب على بدنه البلغم ينبغي أن تكون أغذيته مسخنة مجففة كالزبيب والشهدانج. أما صاحب كتاب إصلاح الأدوية فذكر أن الشهدانج يدر البول، وقال لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة[٣١]. هذا إلى جانب أن الحشيش مهدئ للأعصاب ومجلب للنوم ومزيل للقلق، وقد استخدم لعلاج القلق؛ فيروي ابن سودون[٣٢] رواية عن شخص أصيب بالقلق يومًا، فتناول منه حفنة، فزال عنه القلق، وأقبل عليه النوم أفواجًا، علاوة على ذلك فإن الحشيش المخدر يقلل الإحساس بالألم كألم الأسنان والعظام وغيرها، وليس أدل على ذلك من أن استخدامه في البداية كان للعلاج لذلك سمي باسم (البنج)[٣٣]. وقيل أنها أي الحشيشة تحلل النفخ وتنفي الأبرية من الرأس عند غسله، والأبرية مرض يحدث بسطح الرأس وهي بثور بيض، والعلة في فعلها لذلك ما اشتملت عليه من الحرارة واليبس[٣٤].

وقد أجاز البعض التداوي بالحشيش بعد أن ثبت أنه ينفع في بعض الأدوية، كما أجازوا أكل الحشيشة عند قطع اليد المتآكلة وعند المخمصة[٣٥].

هذا ويكسب الحشيش آكله النشاط والسرور فيذكر ابن البيطار " أنهم يطربون عليه ويفرحون كثيرًا "[٣٦]. كما إنه يذهب الهموم الكثيفة وفي ذلك يقول الشاعر علي بن مكي:

تزيل هيب الهم عنا بأكلها ... وتهدي لنا الأفراح في السر والجهر[٣٧]

كما راح الجسر – المشهور بزراعة الحشيش – يعدد مزاياه مفاخرًا بها فيقول إنه " مفتاح الأفراح، ومصباح الأرواح، ينصر على الهم، ويكسر جيش الغم، ويجمع شمل الأحباب، ويغل حدة الشباب، ويشهي الطعام والشراب .. "[٣٨].

ولكن إذا كان للحشيش فوائد فإن مضاره تغلب فوائده، فقد نُقل عن بعض العلماء " أن في أكل الحشيشة مائة وعشرون مضرة دينية ودنيوية "[٣٩]. أما الأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فقال : " رأيت في كلام بعضهم مائة مضرة دينية ودنيوية "[٤٠] ثم عدد بعضها. ويمكن تقسيم هذه المضار إلى مضار خلقية وعقلية وجسمانية ومادية ودينية، وفي

ذلك يذكر ابن تيمية : " إنها مشتملة على ضر في دين المرء، وعقله وخلقه وطبعه أضعاف ما فيها من خير ولا خير فيها "[41].

أولاً : المضار الأخلاقية : وفيها يقول المقريزي : " ما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، فهي تورث السفالة والرذالة، وأن من عاناها أي تعاطاها ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شيء البتة "[42]. وذكر القلقشندي[43] " أنها تورث مساءة الأخلاق، وتحط من قدر متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة المتكاثرة " علاوة على أنها تورث فساد الفكر .. وإفشاء السر، وإنشاء الشر، وإذهاب الحياء، وكثرة المراء، وعدم المروءة، وعدم الغيرة .." كما يروي الأقفهسي[44]. أما ابن تيمية فيقول : " أن هذه الملعونة تورث قلة الغيرة، وزوال الحمية حتى يصير آكلها أما ديوثًا، وأما مأبونًا وأما كلاهما"[45]. كما أنها تدع الشجاع جبان، كم من أسد أصبح بها مصادًا، وسائس أصبح منقادًا، ورئيس أضحى بها مرؤوسًا، وكريم غدا خسيسا.." كما يذكر صاحب المفاخرات[46].

ثانيًا : المضار العقلية : أوضح ابن البيطار مضار الحشيش العقلية فقال : "وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قتل "[47]. وقال في موضع آخر " ربما يسكرهم ويخرجون به إلى الجنون أو قريبًا منه "[48]. أما ابن تيمية فذكر أن الحشيشة تورث الجنون، وكثير من الناس صار مجنونًا بسبب أكلها. وذكر في موضع آخر أنها " تفسد الأمزجة حتى جعلت خلقًا كثيرًا مجانين .. ومن لم يجن منها فقد أعطته نقص العقل، ولو صحا منها فإنه لابد وأن يكون في عقله خبل .. "[49]. وهكذا فإن الحشيش يفسد العقل ويقوي الهوس، ويوضح ذلك رواية للمقريزي أوردها في حوادث عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، وذكر فيها أن أحد متعاطي الحشيش اقتحم مجلس الأمير عز الدين الحلي نائب السلطنة بديار مصر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة بدار العدل، فخرق الصفوف، وكان بيده قصة (شكوى) ووقف أمام الأمير عز الدين ووثب عليه بسكين أخرجها من تحت ثيابه وطعنه في حلقه، ثم حاول ضربه مرة أخرى، فأصابت سكينه الأمير صارم الدين المسعودي وكان من حضور هذا المجلس، فمات، فتكاثف عليه الجميع وانهالوا عليه بسيوفهم حتى

هلك. وكان هذا الشخص جندار به شعبة من جنون، وتعاطي أكل الحشيش فقوي جنه كما يروي المقريزي(٥٠).

ويصف ابن سودون حالة شخص أكل الحشيش، وبيّن تأثيره عليه وما أصابه من الهوس ومن هلاوس بصرية وسمعية، فذكر أن شخصًا أكل الحشيش، فأقبل عليه النـــوم أفواجًـــا، ولكن أصابه جوع لم يطق الصبر عليه، فخرج من المنزل يلتمس ما يأكله، فإذا ببحر عجاج متلاطم الأمواج أرضه من الصابونية، وجوانبه من المأمونية، فسعي إليه ووقف عليـــه، وإذا ماؤه من القطر (العسل) المكرر، وأسماكه من الموز المقشر، على شاطئيه شباك من زلابيـــة، فأخذ شبكة منها، وطرحها في البحر، فامتلأت سمكًا، ثم جذبها فلم يقدر على نزعها، فنزع ثيابه ونزل إليها، وجعل تارة يأكل سمكة، وتارة قطعة من الشبكة، ولم يزل على ذلك سبعة أيام، ثم قذفه الموج في اليوم الثامن إلى جزيرة فيها جبال من كنايف، وأودية من قطايف، ثم سقط في بركة من ربم الليمون المالح، فسبح فيها يومًا وليلة فلما خلص منـــها ذهـــب إلى منزله(٥١). ويقول النور الأسعردي في هذا المعنى :

وتفسد مـــن ذهـــن النـــديم خيالـــه ... فينظر مبيض الصـــباح كأســـود(٥٢)

تؤثر الحشيشة أيضًا على عقل آكلها، وتحدث خللاً في ذاكرته فينسى كـــثيرًا ويســـهل التأثير عليه والإيحاء إليه، وفي ذلك يورد ابن سودون رواية على لسان أبي غيدشة الزلابياني: قال : " لما نزل بي الشيب زوجتني أمي بامرأة كانت أبعد مني سنًا إلا إنها أكبر مني عقـــلاً، فلما دخلت بها أطعمتني شيئًا (حشيشة) وقالت : كل هذا تر منه عجبًا فأكلته، فرأيت مـــن عجبه إنه زادني عقلاً، على إنه لم يمض من الدخول سوى يومين، وإذ بها قد ولدت، فانكرت ذك منها فقالت : لا تنكر، فإن الذي أطعمتك إياه من المدد إنك تأتي في كل يـــوم بولـــد، فرجعت عن الإنكار وشرعت لها في الاستغفار "(٥٣).

ويتابع ابن سودون فيذكر أن ذات الزوجة طلبت من زوجها طعامًا حارًا، فأخذ الصحفة وذهب إلى السوق دون أن يأخذ المكبة (أي غطاء الصحفة)، فرجـــع ليأخـــذها، فنســـي الصحفة، وكرر ذلك مرارًا حتى غروب الشمس، ثم قال في نفسه : والله لا أشتري لها شيئًا، وأدعها تموت جوعًا، ثم رجع إلى البيت فوجدها قد ماتت .. فمضى ليحضر لهـــا الكفـــن،

فضل طريق العودة إلى المترل، ويعلق على ذلك بقوله : " وها أنا في طلبه إلى يومنا هـذا " كما يروي ابن سودون[٥٤].

ولله در القائل :

قيمـة العقـل جـوهر فلمـاذا يا سفيها قـد بعتـه بحشيشـة[٥٥]

ثالثًا : المضار الجسمانية : عدّد الأقفهسي[٥٦] مضار الحشيش الجسمانية فذكر أنها " تجفف الرطوبات، وتعرض البدن لحدوث الأمراض، وتصدع الرأس، وتقطع المنى وتجففـه، وتورث موت الفجاءة .. تقطع النسل وتورث الجذام، وتورث البرص، وتجلب الأسـقام، وتكسب الرعشة ... وتسقط شعر الأجفان، وتحرق الدم، وتحفر الأسنان، وتظهـر الـداء الخفي، وتضر الأحشاء وتفتر الأعضاء، وتضيق النفس .. وتنقص القوى، تصفر الألـوان، وتسود الأسنان، وتثقب الكبد، وتورث العين الغشاء، وقلة النظر .. تجعل الصحيح عليلاً إن أكل لا يشبع وأن أُعطي لا يقنع، وإن كُلم لا يسمع، تجعل الفصـيح أبكمـا والصـحيح أبلما... ".

أما الأطباء ومنهم محمد بن زكريا الرازي فقد ذكر في كتابه الموسوم بالفاخر أن أكـل ورق الشهدانج البستاني يصدع الرأس، ويقطع المنى ويجففه[٥٧].

وأجمل الشاعر شمس الدين محمد بن علي التلمسـاني (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) تـأثير الحشيشة على جسد الشخص الذي يأكلها فقال :

ما للحشيشة فضل عند آكلـها لكنه غـير مصـروف إلى رشـده
صفراء في وجهه خضـراء في فمـه حمراء في عينه سوداء في كبده[٥٨]

ويقول النور الأسعردي في تأثير الحشيش على الأبدان :

ويبدو على خديه مثـل اخضـرارها فيضحى بوجه مظلم اللون أربـد[٥٩]

وأما ابن سودون البشبغاوي فيقول موضحًا أثرها على العين والأبصار :

بلعت يومًا بندقة في لونهـا خضـرة   رأيت بياض عيني قد صارت عليه حمرة[٦٠]

ويقول في موضع آخر :

إنها يا ناس أسرار   سرها يظهر في الأبصار   أهلها في كل الأعصار

لا يزلـــوا فرحين[٦١]

رابعًا : المضار الدينية : وهي كثيرة ومتعددة، فيذكر أبو بكر القسطلاني "أنها تحول بين الشخص وبين .. الصوم والصلاة والعلم بالحركات والسكنات ... والعبد في الآخرة عن ذلك مسئول، ومن قصر فيما وجهه الله عليه، فليس له في الآخرة محصول "[٦٢]. وذكر القسطلاني في موضع آخر : " إنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فالذكر يكون أما بالقلب أو باللسان، وكلاهما إنما يقع مع صحة الذهن وسلامة العقل، وذلك إنما يقع بسلامة المحل وهو القلب والدماغ كما قال تعالى في ذلك : [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]. وأما إنها تصد عن الصلاة وذلك لأن الصلاة حركات وسكنات متعلقة بشروط وأركان وهيئات وحضور قلب في مناجاة الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الفكر مشغولاً شغلاً اضطرارًا فكيف يتأتى منه القيام بهذه الأمور المطلوبة منه. ومن ثم فإن الحشيشة تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ... "[٦٣].

وأكد ابن تيمية ما ذهب إليه القسطلاني فذكر " إن آكلوها ينشون عنها ويشتهونها ... وتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة إذا أكثروا منها "[٦٤]. وذكر في موضع آخر " إن كثيرها يسكر حتى يصد عن ذكر الله وعن الصلاة[٦٥].

أما الزركشي والأقفهسي فقد ذكرا في ضررها في الدين أنها " تورث نسيان الذكر .. ومجالسة إبليس، وترك الصلوات، والوقوع في المحرمات "[٦٦].

ويقول القاضي عبدالوهاب في ذلك :

سـلبتهم أديـانهم وعقـولهم   أرأيـت عـادم دينـه مغتمـا[٦٧]

هذا فضلاً عن المضار المادية فإلى جانب أنها مذهبة للأديان كما يذكر الزركشي فهي مذهبة للأموال كذلك وفي ذلك يقول : " أما الحشيشة ... المفسدة للعقول والأبدان المذهبة للأموال والأديان ... "[٦٨]. وعبر الأقفهسي عن مضارها المادية بقوله أنه يترتب عليها " إتلاف الكيس "[٦٩]. علاوة على نظرة الدولة والمجتمع إلى متعاطي الحشيش التي عبر عنها القسطلاني بقوله : " إزدراء متعاطيها واحتقاره في أعين النظار وارتداء آكلها برداء الخسار عند الأتقياء الأبرار .. والتوقع لسخط الجبار، والتطلع للإهانة من ولاة الأمصار، والتتبع لآثار الفسقة والفجار ... "[٧٠]. كما أنها تورث مهانة آكلها كما يذكر ابن تيمية[٧١].

ونظرًا لكثرة مضار الحشيش فقد وجه بعض المؤرخين والشعراء نداءات وتحذيرات ونصائح بالبعد عنه والخلاص منه، فينصح المقريزي آكليها بقوله : "فانظر كلام العارف فيها، واحذر من إفساد بشريتك وتلاف أخلاقك باستعمالها"[٧٢].

ويوجه ابن سودون البشبغاوي دعوة للخلاص من الحشيش فيقول :

يا قاتلا لحشيشة قتلته يا ... مشكاح أنت القاتل المقتول
إن شئتها تحييك أحسن قتلها ... واستكثرن فلا يفيد قليل
مهما انسطلت بها فعيشك طيب ... كم عاش فيها بالهنا مسطول[٧٣]

ويقدم الأطباء المتخصصون في معرفة هذا النبات طرقًا عدة لإبطال مفعوله والخلاص من تأثيره، فينصح الأطباء ومنهم يحيى بن ماسويه في كتابه " تدبير أبدان الأصحاء "، بأن الإنسان إذا أراد التخلص من تأثير أكل الحشيشة أو تعاطيها، وأحب أن يفارقه فعلها قطر في منخريه شيئًا من الزيت، وأكل من اللبن الحامض، كذلك مما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة في الماء الجاري والنوم كذلك يبطله[٧٤]. أما ابن البيطار فيذكر أن الإنسان إذا خيف من الإكثار منه فليبادر بالقيء بسمن وماء ساخن، حتى تنقى منه المعدة، مع شرب الحامض أو الحماض فهو في غاية النفع له[٧٥].

دخول الحشيش مصر وانتشاره في العصر المملوكي :

عرفت مصر الحشيش كمادة مخدرة تستخدم في العلاج منذ عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٥٠-٩٠٢م) ولكن عرف أولاً باسم البنج ثم باسم الحشيشة، وهناك روايتان تؤكد صحة ذلك، الأولى رواية ابن يوسف الكاتب ـ وهو صاحب كتاب المكافأة ـ وأحد كتاب الدولة الطولونية، وقد جاء فيها على لسانه : كنت أعرف شيخًا في أيام خماروية، حلو النادرة، مليح الألفاظ يعرف بالدفاني، وكان يتعاش من توصيل كتب الولاة إلى معامليهم (أي عمالهم) فخرج ذات مرة إلى الشرقية، فالتقى مع رجل من الأطباء، فسأله الطبيب عن صناعته، فقال له : إنه يتاجر في الغلات، فطمع فيه، ودعاه للطعام بأن أخرج رغيفين من خرجيه مشطورين، فقدم له واحد ووضع الآخر بين يديه، ثم ذهب لإحضار الماء، فما كان من الدفاني إلا أن استبدل رغيفه برغيف الطبيب، فلما أكل الطبيب شخص بصره وتمدد، ومر به جماعة فقالوا له : ما لصاحبك، قال لا أدري، فقال له : أنت مُبنج بنجت هذا المسكين، ويروي في النهاية أنه بتفتيش خُرج الطبيب وجدوا فيه شطاير تبنيج وشطاير خالية، وأوتارًا للخنق، فخنقوه بتلك الأوتار حتى مات[٧٦].

أما الرواية الثانية فهي عن ابن زولاق إذ يذكر : " كان القاضي أبو زُرعة[٧٧] يَرقى من وجع الضرس يقرأ عليه، ويدفع إلى صاحبه حشيشة فيسكن "، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على استخدام الحشيش في تلك الأونة لمجرد التبنيج وعلاج الأسنان وتخفيف ألمها[٧٨].

ويلاحظ أن الروايتين كانتا في عصر خماروية، مما يشير إلى أنه شاع استخدام الحشيش في عصره للتبنيج والتخدير وكعلاج لبعض الآلام مثل آلام الأسنان كمادة طبية وليس لبعث النشوة والسرور.

ظل الحشيش يستخدم كعقار طبي في مصر في العصرين الأخشيدي والفاطمي وعلى نطاق ضيق، فقد إعتقد الناس أنه يخفف الآلام الناتجة عن أمراض العظام والأسنان[٧٩].

أما في العصر الأيوبي فشاع أكل الحشيش بين فئات العامة في المجتمع المصري ليس بغرض التطبب كما كان في العصور السابقة بل بغرض النشوة والسرور الطرب. ويحدد ابن تيمية

تاريخًا لظهور الحشيش واستعماله في العالم الإسلامي بغرض النشوة والسرور فيذكر : " إن أول ما بلغنا إنها ظهرت بين المسلمين أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة، حيث ظهرت دولة التتر، وكان ظهورها مع ظهور جنكسخان "[٨٠]. وذكر في موضع آخر " وإنما حدثت في الناس بحدوث التتار "[٨١]. وفي موضع ثالث يؤكد ذلك بقوله " وإنما ظهر في الناس أكلها قريبًا من نحو ظهور التتار، فإنها خرجت، وخرج معها سيف التتار "[٨٢].

يتضح من عبارات ابن تيمية أنه أرجع ظهور الحشيش في العالم الإسلامي إلى أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة، وأن التتار هم الذين أظهروه في العالم الإسلامي، ونقلوه إلى بلاد العراق والشام، ثم انتقل إلى مصر. وقيل إنه انتقل إلى مصر من خراسان وبلاد العراق إذ نسب إظهار أكله إلى الشيخ حيدر الخراساني شيخ شيوخ الصوفية في خراسان[٨٣]. وقيل إنه وصل إلى مصر عن طريق بلاد الهند، ثم بلاد اليمن في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م خاصة وقد نسب إظهاره كذلك إلى أهل الهند على بن مكي في أبيات أنشدها منها :

هندية أصل إظهار أكلها ... إلى الناس لا هندية اللون كالسمر[٨٤]
تزيل لهيب الهم عنا بأكلها ... وتهدي لنا الأفراح في السر والجهر[٨٥]

تؤكد هذه الأبيات على معرفة الحشيش في ذلك الحين كمادة تجلب الفرح والسرور والنشوة، لأن الحشيش كان قد سبق وعرفته مصر كمادة مخدرة قبل التاريخ الذي حدده ابن تيمية.

شاع تعاطي الحشيش في العصر الأيوبي بين بعض فئات المجتمع المصري وذلك لعدم وجود عقاب رادع لباعته وآكليه، فكانت الدولة تكتفي بمنع زراعة الحشيش، وجمعه من باعته ومتعاطيه وتقوم بحرقه مثلما فعل السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) فقد أمر الأمير جمال الدين بن يغمور بأن يمنع زراعة الحشيش في البستان الكافوري[٨٦]، ومع ذلك دخل هذا البستان في ربيع الأول من عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م فرأى فيه شيئًا كثيرًا منه، فأمر بأن يجمع ويحرق[٨٧]. وأنشد الأديب شرف الدين أبو العباس يوسف في هذه الواقعة قصيدة طويلة ينعي فيها نبات الحشيش قائلاً:

زفــوا لهـــا نـــارًا فخلتـــا جنـــة ... برزت لنـــا قـــد زوجـــت بـــالنور
ثم اكتســت منــها غلالــة صــفرة ... في خضـــرة مقرونـــة بـــزفير
فكأنهـــا لهـــب اللظــي في خضـــرة ... منها وطـــرف رمادهـــا المنثـــور(٨٨)

ويقول أيضًا حزينًا آسفًا على إحراق الحشيش في البستان الكافوري :

لله درك حيـــــــة أو ميتـــــــة ... مـــن منظـــر بهـــيج بغـــير نظـــير
أو ذيت غير ذميمـــة فســـقى الحيـــا ... تربًـــا تضـــمن منـــك ذوب عـــبير
عندي لذكرك مـــا بقيـــت مخلـــدًا ... سح الدموع ونفثـــة المصـــدور(٨٩)

ما لبث أن شاع تعاطي الحشيش في مجتمع مصر المملوكية وإن كان بدرجات متفاوتـــة، حقيقة تعاطه الخاصة والعامة، ولكنه كان نادر الاستخدام بين السلاطين والأمراء والـــولاة والقضاة والعلماء، في حين تفشى بين الشعراء والأدباء، وفاق الحد بين الصوفية والعامة.

أما عن تعاطي السلاطين الحشيش، فعلى الرغم من أن المصادر أفاضت في ذكر العديـــد من أسماء السلاطين الذين احتسوا الخمر، إلا إنها لم تشر من قريب أو من بعيد إلى أن عـــددًا منهم قد أكل الحشيش وتعاطه، بل اكتفت بـــذكر أن بعضـــهم كـــان يتعـــاطى الخمـــور والمسطلات(٩٠). اللهم إلا ابن إياس الذي أشار في ترجمة للسلطان المؤيد شـــيخ المحمـــودي (٨١٥-٨٢٤هـــ/١٤١٢-١٤٢١م) إلى أن غالب المؤرخين أثنوا عليه إلا الشـــيخ تقـــي الدين المقريزي، فإنه حط عليه بمساوئ كثيرة منها ... إنه كان يتجاهر بالمعاصـــي، وأكـــل الحشيش المستقطر .." (٩١). وبالرجوع إلى المقريزي اتضح أنه ذكر في كتابـــه الســـلوك في حوادث عام ٨٢٤هـــ/١٤٢١م وهو العام الذي توفي فيه المؤيد شيخ ذكر " إنـــه كـــان يتظاهر بأنواع المنكرات، فحاشًا، سبابًا .. "(٩٢) دون أن يذكر أنه أكل الحشيش كما أورد ابن إياس، ولعل ابن إياس قد عثر على ترجمة المؤيد في كتاب المقريزي، المقفى الكبير وهـــي مفقودة كما أشار من قام بطبع هذا الكتاب(٩٣). على أية حال فنادرًا ما توجد إشارة حول تعاطي السلاطين الحشيش، على عكس الأمراء المماليك الذين ولعوا بأكله فتنـــاولوه أمـــام

الناس بلا تستر، ودرج عدد منهم على النزول ليلاً إلى بولاق ومنهم من كان يرتـاد أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر وباب اللوق وغيرها من الأماكن التي ينتشر فيها الحشيش(٩٤).

كان من بين هؤلاء الأمراء من شغل مناصب مهمة في الدولة كمنصب الوالي، ومن هؤلاء الأمير التاج الشوبكي الدمشقي(٩٥) الذي استقر في سلطنه المؤيد شيخ (والي حرب) ثم ولاه أستادارية الصحبة وحسبة القاهرة وغيرها، وكان نديمه ومضحكه، وممن أكل الحشيش، وارتكب المحرمات إذ يذكر الصيرفي " أن عيونه من الحشيش كأنهما قطعتا بلخش خاص من شدة حمرهما " وذكر أيضًا أنه ارتكب الرذائل والقبائح حتى صار عارًا على جميع بني آدم(٩٦). ولعل عبارات الصيرفي هذه تؤكد ما ذكره ابن إياس على لسان المقريزي من أن المؤيد شيخ قد أكل الحشيش المستقطر، ما دام نديمه ومضحكه قد فعلها.

لم يسلم من هذا الداء حملة العلم والدين من العلماء والقضاة إذ فسدت نفوس بعضهم، ومرضت قلوبهم، وهم القدوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشغف بعضهم بالحشيش كثيرًا. فمن العلماء الذين دأبوا على أكل الحشيش العالم ابن الصاحب وهو الشيخ علم الدين أحمد ابن الصاحب صفي الدين يوسف بن عبدالله بن شكر(٩٧)، الذي درسَّ في بعض المدارس، وكانت له وجاهة ورياسة، ولكنه ترك كل ذلك وأقبل على الحرفشة، وأكل الحشيش واستعمل حشيشة الفقراء، وكان مما أغرموا به، وكان يرى أنه لا معنى لمن دعا إلى تحريمها لأن ذلك تجن إذ ليس هناك نص قرآني يحرمها صراحة، ويقول في ذلك :

في خمار الحشيش معنى مَرامي ... يا أهل العقول والأفهام
حرمّوها من غير عقل ونقل ... وحرامٌ تحريمُ غير الحرام(٩٨)

كما أنه لم يجد غضاضة من تناولها إذا عزت الخمر، فالقصد عنده هو اللهو والتصابي على مدى الأيام، ومن الطبيعي أن تنفد واحدة منهما بصورة أو بأخرى وفي ذلك يقول :

يا نفسُ ميلي إلى التصابي ... فاللهو منه الفتى يعيشُ
ولا تملي من سُكر يوم ... إن أعوز الخمرُ فالحشيشُ(٩٩)

وله أيضًا :

جمعت بين الحشيش والخمر فرحتُ لا أهتدي من السُّكر
يا من يريني باب مدرستي يربح والله غاية الأجر(١٠٠)

وكان أحمد بن إبراهيم بن أحمد الإمام نجم الدين ابن الشيخ عماد الدين ابن القاضي نجم الدين (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) ممن أكل الحشيش، وسبب له انحراف، وساء منه مزاجه، فكان يقف في الطرقات وينشد أشياء مفيدة، ويحكي أشياء قديمة وجديدة ويخالط الجد بالهزل، ثم يثوب إليه عقله ثم يعود لحالته وذلك بسبب تعاطيه الحشيش كما يذكر ابن حجر(١٠١).

اتهم كذلك الشيخ محمد بن محمود الصوفي (ت ٨٢٢هـ/١٤١٩م) وكان أحد طلبة الحنفية وفضلائهم، اتهم بأكل الحشيشة(١٠٢). هذا في حين أن هناك من الأئمة العلماء من ذم الحشيشة ومن هؤلاء الشيخ الإمام العالم العارف محي الدين أبو بكر محمد بن الحسن الأنصاري الشاطبي يقول :

شر سكر سكر الحشيشة والسكر حرام بنص خير الأنام
يفسد العقل والمزاج جميعا بفنون الجنون والاسقام

ويقول أيضًا :

صدق القائلون بالحل فيها هي حل لكن على الإنعام(١٠٣)

أكل بعض القضاة الحشيش، وشغفوا به فقد ضبط أحد القضاة متلبسًا بأكل الحشيش في فمه، وهو القاضي حسام الدين الغوري، ضبطه بواب المدرسة الصالحية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م على عهد السلطان كجك بن الناصر محمد – ضبطه يتناولها، ففضحه، وجمع عليه الناس، فنهبوا موجوده، وأهين ضربًا، ونتفوا لحيته حتى أجاره قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي في بيته(١٠٤).

أما عن الشعراء في العصر المملوكي فانتشر تعاطي الحشيش بينهم وإن لم يتفقوا فيما بينهم حول أهمية الحشيشة وقيمتها، منهم من آثرها على الخمر ومنهم من ذمها، ومنهم من ساوى بينهما، ومنهم من فضلها على الخمر، وأظهر مزاياها، ثم عاد وفضل الخمر عليها، وليس هناك من مقياس إلا المزاج[١٠٥].

استند مؤثرو الحشيشة على الخمر من الشعراء إلى لونها الأخضر، وتنامي فعلها في صاحبها أكثر مما تفعله الخمر، فلا احتراق في الاحشاء، ولا عوارض صحية لاحقة .. إن هي إلا خدر نفسي يشعر معه آكلها بنعيم الفردوس وهو في الدنيا[١٠٦]. وفي ذلك يقول شرف الدين محمد بن يوسف الزرعي المعروف بابن الوحيد :

وخضراء ما الحمراء تفعل فعلها ... لها وثباتٌ في الحشى وثباتُ
توجج نارًا في الحشى وهي جنة ... وتُروى مريرَ الطعم وهي نباتُ[١٠٧]

ومن الشعراء الذين مدحوا الحشيشة كذلك محمد بن الأعمى الدمشقي الذي قال فيها :

هي البكر لم تنكح بماء سحابة ... ولا عصرت يومًا برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يومًا بكأسها ... ولا قربوا من دنها كل مقعد[١٠٨]

ويعد الشاعر إبراهيم بن المعمار[١٠٩] من أشهر من تغنوا بالحشيش وترنموا به في نظمهم في مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وحاول من خلال أشعاره إظهار مزايا الحشيش[١١٠].

أما الذين ذموا الحشيشة فقد نظروا إلى الجانب الآخر من فعلها وتأثيرها، فهي خضراء اللون لكن شاربها يصاب بالهزل والاصفرار، لأنها تنسيه حياته ونشاطه وطعامه وغذاءه. لذلك يصبح سقيم الجسم، فاقد الرشد، ومن هؤلاء الشاب الظريف شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) قال في ذم الحشيش :

ما للحشيشة فضل عند آكلها ... لكنه غير مصروف إلى رَشَده
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فمه ... حمراءُ في عينه سوداء في كبده[١١١]

ومن الشعراء من أحس بخطورة الحشيش، وراح يوصف أضراره ومن هؤلاء المتقن فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) قال :

محـــا الله الحشـــيش وآكليهـــا ... لقد خبثت كمـــا طـــاب الســـلاف
كما تصبي كـــذا تضـــني وتشـــقى ... لآكلـــها وغايتـــها انحـــراف
وأصـــغر دائهـــا والـــداء جـــم ... بغـــاء أو جنـــون أو نشـــاف[١١٢]

أما هارون بن موسى ابن المصلي الأرمنتي[١١٣] فقال مدحًا للخمر وذمًا للحشيش :

لـــيس في الأرض نبـــات انبتـــت ... فيـــه ســـر حـــيزٌ العقـــل ســـواها
راحت الخضـــراء تحكـــي سُـــكرها ... قتلوهـــا بعـــد تقطيـــع قفاهـــا[١١٤]

أما الذين فضلوا الحشيش أولاً على الخمر وأظهروا مزاياه، ثم عادوا وفضلوا الخمر عليه فيمثلهم النور الأسعردي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[١١٥] الذي قال أولاً مفضـــلاً حشيشـــة الفقراء :

رياضية يحكي الجنـــان اخضـــرارها ... وخمـــرهم كالمـــارج المتوقـــد
مـــدامهمُ تـــنس المعـــاني وهـــذه ... تذكر أسرار الجمـــال الموحـــد[١١٦]

ويقول كذلك :

ولا داسها العُصار عمدًا ودنس الـــ ... دنان بمختـــوم مـــن القـــار أســـود
ولا تتعـــب الأبـــدان عنـــد نزالهـــا ... وفي القـــيء إذ تبـــدو كـــزق ممـــدد
ولا تستخف الناس عقلـــك بينـــهم ... لعمري ولا تدعي لديهم بمفسد[١١٧]

ويقول أيضًا في مزاياها :

وتأمن كبســـات الحمـــاة وكيـــدهم ... وتسلم من جور الولاة ولا تدي[١١٨]

وأخيرًا يقول :

فلا تسمع فيها مقالة عاذلٍ يصدك عنها واعص كل مفند[١١٩]

ثم يعود ذات الشاعر النور الأسعردي ويفضل الخمر على الحشيش فيقول :

أترضى بأن تمسي شبيه بهيمة بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأي قوم كالدواب ولا تُدر سوى درةٍ كالكواكب المتوقد[١٢٠]

ويقول أيضًا :

وخمرتنا تكسو الذليل مهابة وعزًا فتلقى دونه كلَّ سيد

ويقول كذلك :

وفيها على رغم الحشيش منافع فقُل في معانيها وصفها وعدد
وفي غيرها للناس كل مضرة فحدث بكل السوء عن وصفها الردي
وحقك ما ذاق الحشيش خليفة ولا ملك فاق الأنام بسؤدد[١٢١]

حاكى أدباء العصر المملوكي شعرائه في تعاطي الحشيش وفي الكتابة عنه بغرض إيضاح مزاياه وتفضيله على الخمر، وقد غلب على بعضهم أكله ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مكي بن مسلم المصري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) قال عنه ابن حجر : " تعانى الآداب فمهر فيها، وجمع مجاميع كثيرة يقتصر فيها على المقطعات ... ويُصيف غالبًا في الشام ويشتي بمصر، إلا أنه غلب عليه محبة الحشيشة وهي محنة خسيسة "[١٢٢].

ويُعد ابن سودون البشبغاوي[١٢٣] (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) من بين الأدباء الذين أكلوا الحشيش إذ يورد في ديوانه نزهة النفوس ما يؤكد ذلك، وكان قد اعتاد الذهاب إلى بولاق والأماكن المجاورة لها وهي أماكن اشتهرت بالمجون والخلاعة وأكل الحشيش وفي ذلك يقول :

تجاور[١٢٤] بسطة فيها انبساطي ينادي بالخلاعة والمجون
عليها طاب عيش بني خضير إذا برزت لبدوهم الكمين
لقد أفسدت يا بولاق عقلي وكم قد كان أهلي أصلحوني[١٢٥]

ويقول أيضًا دلالة على استمراره في أكل الحشيش :

يا من إلى البسط بعد الكودنا قد مال قم رح لقصف أبو خالع بلا إهمال
زقزق على بنقه حتى يطير المال وايش ما انصرف جدو دولاب حشيش عمال[١٢٦]

ويقصد ابن سودون بذلك استمراره في تعاطي الحشيش مثلما يتوالى تحويل الماء بالدولاب. ويقول كذلك :

يا من أحسن البحر الواحد حداه مسطول قاعد على جنب شختوره عليه دلول
حداه غُشبو قُشيطة فوقها عسلول يقتل حشيشو ويبلع ينقلب مقتول[١٢٧]

فاق الصوفية الشعراء شغفًا بالحشيش، وتفشى أكله بينهم وشاع وانتشر، حتى نسب إليهم، وأصبح يعرف باسم " حشيشة الفقراء "[١٢٨]. وزعم بعضهم أن الحشيشة " لقيمة الذكر والفكر "[١٢٩]. وسار عادة سيئة لديهم مما دفع بعض الشعراء ومنهم ابن قزل (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) إلى انتقادهم خاصة وقد تعللوا بأنها تساعدهم على الوجد وبلوغ رتبة الجذب، قال ابن قزل :

أرى فقراءنا من كل علم ومن دين دوابًا في ثياب
يراعون الحشيشة حيث كانت وهل يرعى الحشيش سوى الدواب؟[١٣٠]

عدّد المقريزي الأسباب التي دفعت الصوفية إلى الإقبال على أكل الحشيش بل والترويج له ومنها : ما يجدون فيه من اللذة، كما إنه يجفف المنى، ويقطع شهوة الجماع، ولكي لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع في الزنا[١٣١]. كذلك أجمل أحد الصوفية وهو حيدر الخراساني منافع

أكل الحشيش،و شجع على أكل الصوفية إياه، فهو يذهب بأكله الهموم الكثيفة، ويجلو بفعله الأفكار الشريفة، ويكسب آكله نشاطًا وسرورًا[١٣٢]. لذلك أقبل الصوفية على أكل الحشيش وانتشر بينهم في العصر المملوكي حتى ربط البعض بين فشو الحشيش وانتشار التصوف فقالوا : أن الظاهرتين سارتا في مصر جنبًا إلى جنب[١٣٣].

لمعت بين أسماء الصوفية ممن اشتهروا بأكل الحشيش – في المصادر ومن أبرز هؤلاء أحد مشايخ الصوفية ويدعي المجاهد إبراهيم القطان، وقد استتابه ابن تيمية في عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات[١٣٤]. وكذلك أحمد الوريس الاقباعي كان من الصوفية الذين استحلوا المحارم، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة ولذلك قتل في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م[١٣٥]. فضلاً عن الشيخ شمس الدين الميموني الذي أباح لنفسه اللواط والخمر والحشيش، ولذلك تم اعتقاله، واحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر، فأفتى بأن في عقله خللا[١٣٦].

والحقيقة أن هؤلاء ليسوا بالصوفية، ولكنهم جماعة تشبهوا بهم، وتزيوا بزيهم، لينتسبوا إليهم، وقد اتخذوا من التصوف وسيلة للحصول بها على الدنيا، وقد وصفهم السبكي بأنهم " آكلة – بطلة – سطلة لا شغل ولا مشغلة " كما أنهم اتخذوا من الخوانق أي بيوت الصوفية ذريعة للباس الزور، وأكل الحشيش، والانهماك على حطام الدنيا[١٣٧].

أما ابن سعيد المغربي الذي زار مصر فيذكر أن الفقير (أي الصوفي) له نفس يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سُكر من حشيشة .. إذ ما أشبه ذلك[١٣٨].

ويقول الشاعر ابن الصائغ (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) في تأثير الحشيش على فقراء الصوفية :

يغدو الفقير إذا تناول درهما … منها له تيه على الأمراء
وتراه من أقوى الورى فإذا خلا … منها عددناه من الضعفاء[١٣٩]

ومن ثم فقط نظر إليهم السبكي على أنهم " ليسوا من الصوفية الحقة، ولا يستحقون وقف الصوفية، وإن كل ما يأكلونه منه حرام "[١٤٠].

وقد ساعد على تغيير حال الصوفية تدفق مجموعات من الدراويش أو المجاذيب إلى مصر وانضمامهم إلى الصوفية، ومن هؤلاء الحيدرية والقلندرية وكلاهما من العجم، وهم من الذين ابتدعوا أكل الحشيش. أما عن الحيدرية فينسبون إلى الشيخ قطب الدين حيدر[١٤١]، الذي ولد بنشاور من بلاد خراسان، وكان صوفيًا، وهو الذي اكتشف سر نبات الحشيش، وأوصى تلاميذه بألا يخفوه على الفقراء أي الصوفية، كذلك أوصاهم بأن يطلعوا ظرفاء خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره، فاستعملوه في خراسان، وانتقل منها إلى مصر والشام كما سبق أن ذكرنا.

بدأت طوائف الحيدرية تتوافد على مصر منذ عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وفي سلطنة عز الدين أيبك، وأقامت بمصر، وحازت رعاية بعض سلاطين المماليك وأمرائهم، ومن هؤلاء الأمير برقوق العثماني فقبل أن يصبح سلطانًا على العرش، أمر في عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م ببناء زاوية للشيخ حاجي رجب الشيرازي الحيدري، وكان هذا الشيخ قد منح لقب " خادم الفقراء "[١٤٢].

أما عن القلندرية فقد توافدوا على مصر كذلك، وسلكوا طريق التسول والشحاذة، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم وشعورهم، وكانوا يرتدون دوالق صوفية طويلة بسيطة[١٤٣]. ويشير إليهم ابن جابر البغدادي في هذا الزجل :

لابد تظهر بين الناس قلندري محلوق الراس
تلبس عوض ذا الكتان وحلتك من صوف الخرفان

أو دلق أو تصبح عريان[١٤٤]

وحقيقة هؤلاء كما يروي المقريزي إنهم " قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات،وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة ... ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك ... "[١٤٥].

علاوة على إنهم أسرفوا في أكل الحشيش وفي ذلك يقول ابن جابر البغدادي:

تغـــدو تـــدور مـــع أجنـــاس | محلقـــين الـــروس أكيـــاس
مـــا يعرفـــوا إلا الخضـــرة | والبنـــك لا شـــرب الخمـــرة

متقالهـــا بالفـــي جـــرة

وعنـــدهم منـــها أكيـــاس | دانـــق يقـــاوم ســـبعين كـــاس
مـــن قبـــل مـــا تغـــدو مســـطول | هـــتم في أمـــر المـــأكول

وتطلـــــع الســـــوق بالكشكـــــول[١٤٦]

وكان للقلندرية زاويتان بمصر أحدهما بدمياط وهي زاوية الشيخ جمال الدين الساوي، قدوة القلندرية، ويقال أنه كان يدرس في مستهل حياته في خانقاة بالعراق، ثم التقى بزاهد جوال، ومارس على أثر ذلك حياة الزهد والتقشف، وسقط شعره وتزي بزي الأسد، بحيث جعل نفسه ميتًا في الدنيا والآخرة، وظل حتى وفاته في دمياط سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ يحيا حياة الزهد المتطرف[١٤٧]. وقد زار ابن بطوطة زاوية الشيخ جمال الدين الساوي هذه، وكان يسكنها أثناء زيارته الشيخ فتح التكروري[١٤٨].

أما عن زاوية القلندرية الثانية فكانت بالقاهرة خارج باب النصر، أنشأها الشيخ حسن الجوالقي القلندري[١٤٩]، أحد فقرء العجم القلندرية، ولما قدم إلى مصر، تقدم في دولة زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) وتقدم عند سائر أمراء الدولة، وأقبلوا عليه واعتقدوه وأثرى ثراء زائدًا في دولة كتبغا وصحبه إلى بلاد الشام[١٥٠].

ظلت هذه الزاوية منزلاً لطائفة القلندرية، ولهم بها شيخ، وفيها منهم عدد موفور ـــ كما يذكر المقريزي[١٥١] ـــ وقام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون بزيارتها في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وأمر صوفيتها بترك زي الأعاجم والمجوس والتزي بزي المسلمين، وأنكر عليهم حلق لحاهم واستتابهم، ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : " إنه كان من اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسُكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء "[١٥٢]. يتضح من عبارات ابن كثير أن ظاهرة أكل الحشيش قد فشت بين القلندرية وانتشرت بشكل زائد لدرجة كانت تتطلب إقامة الحد عليهم بأكلها كما أفتى

بذلك بعض فقهاء العصر، ولا عجب في ذلك فقد أقبلوا على أكل الحشيش منذ أن عزفوا سره، وذاقوا به لذة الكسل، وهربوا من نصب العمل، واستغنوا به عن الخمر، وأكلـوه في الأسواق والمشاهد، وهاموا في طلب الرقص والمشاهد كما يذكر ابن دانيال في بابته طيـف الخيال[١٥٣].

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنه كان للقلندرية جامع بقوص، قام ببنائه الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م) قبل موته، وكان القلندرية يتقابلون في هذا الجامع سويًا في شهر رمضان، لكي ينالوا نصيبهم من الخراف الطازجة والتوابل والخبز[١٥٤].

ومع تدفق جماعات الدراويش من الحيدرية والقلندرية على كافة أرجاء مصر، والعـيش وسط أهلها والتفاعل معهم، أشاعوا في أوساط الناس بعض عاداتهم وممارسـاتهم الذميمـة خاصة في العصر المملوكي الثاني، ومن هذه العادات أكل الحشيش، فانتشر بين العامة وروج له الصوفية الفقراء بدعوى أنه يزيل الهموم ويدخل الفرح والسرور على قلب الإنسان، وما أحوج العامة إلى ما يخفف عنهم ويزيل همومهم، لذلك شـاع بينـهم وفي ذلـك يـذكر القلقشندي : " أن الحشيشة يأكلها سفلة الناس وأراذلهم ". أما المقريـزي فـذكر " لقـد عهدناها (أي حشيشة الفقراء) وما يرمي بتعاطيها إلا أراذل الناس، ومع ذلك فيأنفون مـن التسابهم لها لما فيها من الشنعة "[١٥٥]. مما يوحي بانتشار أكل الحشيش بشكل كبير بين عامة الناس، وقد أورد ابن سودون البشبغاوي في ديوانه أسماء الكثير من العامـة ممـن أكلـوا الحشيش ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ابن حجرمة الهوادفي وأبيه، أبـو غيدشـه الزلابياني وغيرهم[١٥٦].

وفي أحدى المفاخرات بين بركة الرطلي والجسر وكان مشهورًا بزراعة الحشيش وبيعـه وتعاطيه قالت البركة : " .. فمن أصحابك يا كثير الفشار المخيرق وابن المهتار، كم افتضح عندهما من يدب دبيب الزيت، ولا يرجع ولو كان ابن صاحب البيت، ولا يفارق الخـيط والكلاب، والدرج والتراب، والمقص والحلقة، والشوكة والخرقة ... "[١٥٧]. تلقـى هـذه العبارات الضوء على نوعية من كانوا يذهبون إلى الجسر من العامة لتعاطي الحشيش بما فيهم الصوفية الفقراء.

ومن الغريب أن تعاطي الحشيش لم يكن قاصرًا على الرجال دون النساء ويؤكد ذلك ما ذكره القسطلاني من " ... أنها (أي الحشيشة) موسومة بالخطر لمن عاناها من أنثى أو ذكر... "[١٥٨]. ويؤكد ذلك قول ابن الوردي في ديوانه يصف مليحة مسطولة فيقول :

مليحة مسطولة إن لمتها فيما جرى
تقول كل ظبية ترعى الحشيش الأخضرا[١٥٩]

ومن ثم فقد انتشر هذا الداء في مجتمعات النساء كذلك.

زراعة الحشيش وتجارته في مصر المملوكية :

تعددت أماكن زراعة الحشيش في مصر المملوكية، فصار يزرع في البساتين إذ يذكر ابن البيطار عن " القنب الهندي " ولم أره بغير مصر يزرع في البساتين، ويقال له الحشيشة عندهم "[١٦٠]. وتعد مدينة دمياط من أشهر أماكن زراعة الحشيش في العصر المملوكي، بل كان محصولاً أساسيًا بها[١٦١].

زرع الحشيش في القاهرة في كل من البستان الكافوري[١٦٢]، أرض الطبالة[١٦٣]، والجسر وبركة الرطلي[١٦٤]، باب اللوق وحكر بولاق[١٦٥].

ظل الحشيش يزرع في البستان الكافوري خلال العصر الأيوبي واستمر خلال العصر المملوكي كذلك، وكان من النوع الجيد، ويضرب به المثل في الحسن، وكان هذا النوع يتناوله الفقراء (أي الصوفية) والسفلة إذ يذكر ابن عبدالظاهر :" أنه (أي البستان الكافوري) كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء والسفلة، وكانت تزرع به ولا ينكر ذلك أحدًا "[١٦٦].

وقال شاعر الفقراء الصوفية نور الدين أبو الحسن بن عبدالله الينبعي لنفسه مادحًا حشيش البستان الكافوري :

أمن المسك قلت ليست من المسـ ـك ولكنها من الكافوري[١٦٧]

وقال الإمام زين الدين أبو عبدالله بن محمد الحنفي لنفسه في تأثير حشيش البستان الكافوري :

وخضراء كافورية بات فعلها بألبابنا فعل الرحيق المعتق

إذا نفحتنـــا مـــن شـــذاها بنفحـــة تدب لنا في كل عضو ومنطـــق[١٦٨]

وقال أحمد بن الصائغ (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في حشيش البستان الكافوري كذلك :

خضـــــراء كافوريـــــة رنحـــت أعطافـــه مـــن شـــدة الســـكر[١٦٩]

ورغم محاولة السلطان الصالح نجم الدين أيوب إحراق مـا كـان يـزرع في البسـتان الكافوري من حشيش، إلا أن زراعته ظلـت مسـتمرة في هـذا البسـتان حـتى عـام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، ففي هذا العام أزيلت جميع أشجار البسـتان الكـافوري واختطـت المماليك البحرية والعزيزية به اسطبلات، ودور ومساكن وذلك في عهد المعز أيبـك كمـا يروي ابن عبدالظاهر[١٧٠]. وبذلك وضعت نهاية زراعة الحشيش في هذا البستان.

اشتهرت أرض الطبالة كذلك بزراعة الحشيش وبيعه في العصر المملوكي، وكان بها بقعة تعرف بالجنينة ـ تصغير جنة ـ من أخبث بقاع الأرض كما يصفها المقريزي، إذ اشتهرت ببيع الحشيشة التي يبتلعها أراذل الناس[١٧١].ومن قول الشهاب المنصوري فيها :

كم بالجنينـــة مـــن أصـــم وأبكـــم ورجلاه في قيـــد وعينـــاه في قفـــل

أشـــبهه في خلقـــه بـــابن آدم مجازًا وفي أكل الحشيشة بالعجل[١٧٢]

ويقول أيضًا :

كم بالجنينة مـــن قتيـــل حشيشـــة لا يســـتفيق ولا بـــنفخ الصـــور

وهبت لـــه الخضـــراء مـــن أفعالهـــا آذان أطـــروش وعـــين ضـــرير[١٧٣]

تزاحم الناس على باعة الحشيش في هذه الجنينة، حتى صار يركب بعضهم على بعـض كما يروي ابن سودون[١٧٤] وتعجب أحد المارة من هذا الزحام وسأل عنه فقيل له : هـذا رجل يبيع البهار، فقلت وأي شيء يكون البهار، قال : شيء يزيد الأفراح، ويزيل الاتراح، من أكل منه كفايته وجلس ساعة سارت به الأسرار في أودية الأفكار، ويرى وهو في مكانه سائر الأقطار، وكان هذا الرجل يحب السياحة والسفر، فتقدم إلى البائع واشترى منـه بمـا يساوي خمسة دراهم، في حين أن الشخص كان يكفيه في خمسة أيام بدرهم[١٧٥].

وهكذا لم تكن أرض الطبالة أرضًا لزراعة الحشيش فقط بل لبيعه، وموطأ قدم لمتعاطيه وآكليه، فقد تكاثر بها الحشاشين، ويتضح ذلك من خلال رواية لابن سودون البشبغاوي[١٧٦]. يذكر فيها : أن رجلاً عمر دهرًا طويلاً، وجمع مالاً جزيل، وأراد أن يجعل من ماله للفقراء نصيب، فصنع بمبلغ كبير من المال حلوى عبارة عن قطايف محشية .. وأمر بحملها إلى الجنينة، فصارت الحشاشية تساق إليه وهو يفرقها بالأراطيل على السادة المساطيل، ويخص بالزيادة من ثقل لسانه، واشتبه على أخوانه. ثم سمع من قال له يا صاحب القطايف المحشية هذا جزاء ما أطعمت أخوانك الحشايشية ثم أنشد قال:

أيا من يجمع المال شتت عُمره | أتفعل ذا والموت مازال طايفا
فأطعم به أهل الحشيش قطايفا | ولم تر مثلي في المنام لطايفا

يتضح من تلك الرواية أن الجنينة كانت مركزًا لتجمع متعاطي الحشيش وأهله فضلاً عن باعته وزراعه، وظلت الجنينة كذلك حتى عصر المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) إذ يذكر عند حديثه عن الجنينة بأرض الطبالة " وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة (أي شجرة الحشيش) في وقتنا هذا فشوًا زائدًا وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعًا كثيرًا، وتظاهروا بها من غير احتشام "[١٧٧]. وذلك رغم محاولة بعض الأمراء ومنهم الأمير " سودون الشيخوني "[١٧٨] إتلاف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقيامه بالقبض على من كان يتلعها من أطراف الناس ورذلانهم[١٧٩]. كذلك صار يشك في كل من يمر بأرض الطبالة حتى أن بعض القضاة وهو القاضي موفق الدين أبو محمد الحنبلي[١٨٠]، حرص على ألا يأخذ بشهادة من يمر بأرض الطبالة، فحدث أن دخل إليه ثلاثة شهود ليشهدوا في مكتوب، فأعلم اثنين وترك الثالث، ومضوا، فحضر إليه الشاهد الثالث وجده وسأله: يا مولانا قاضي القضاة، ما ذنبي أتوب منه، قال : رأيتك منذ أيام مارًا بأرض الطبالة، فقال : الأمر أمركم، كان العبد هناك في ريبة، فمولانا القاضي، ما سبب كونه هناك، فما كان من قاضي القضاة إلا أن سمع شهادته خشية أن يجيبه الشاهد بأنه كان هناك لضرورة، فيرد عليه بنفس الرد[١٨١].

زرع الحشيش أيضًا في باب اللوق وفي حكر واصل ببولاق، فقد حدد المقريزي تلك الأماكن لزراعته أيضًا[١٨٢]. وأكد ابن سودون البشبغاوي ذلك حتى أنه كني أو سمي

الحشيش بالبولاقة نسبة إلى زراعته في بولاق فعند حديثه عن بولاق كواحدة من متنزهات القاهرة قال :

هَتْ لي بولاقه ... يا رايح بولاق
أو جب لي قاقه ... من عند ابن القاق[١٨٣]

اشتهرت أرض الجسر كذلك بزراعة الحشيش، وهو الجسر الذي يفصل بين بركة الرطلي والخليج الناصري، وبنيت به العديد من الدور التي كانت تطل على بركة الرطلي، كما كان الجسر مرتعًا لمتعاطي الحشيش، وقد راح يفاخر بنفسه على بركة الرطلي قائلاً : " إني أبو المحاسن واللطايف والخلاعة والمقاصف، ونزهة الأحداق والمهج، ومحل البسط والفرج، ومربع الأنس في الأوطان ... " فردت عليه البركة قائلة :" يا رديء الطباع، وأخس البقاع تفخر عليَّ بحشيشك الخسيس وتغزوني من الغواة بجنود إبليس "[١٨٤].

وقالت له البركة في موضع آخر :" يا سوق الفسوق، وأخو الجنينة وابن عم باب اللوق"[١٨٥]. وكانت الجنينة وباب اللوق من مواطن زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه كما سبق أن ذكرنا.

لم تلبث أرض بركة الرطلي أن صارت بدورها موطنًا لزراعة الحشيش، وإن زرع فيها في وقت متأخر من العصر المملوكي فيروي ابن إياس في حوادث عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م أن شخصًا يدعى كمال الدين بن قوسان، استأجر أرض بركة الرطلي، وزرع بها الحشيش، وكان كل من يدخل إليها يبتهج بذلك، ولاسيما أصحاب الكيفة من الحشاشين؛ وجاءت إليها أفواجًا يتفرجون على ذلك الحشيش، فعد ذلك من النوادر الغريبة[١٨٦]. وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلي حسنًا ... وصارت جنة فيها عروش
وقد زرعوا الشدائق في ثراها ... يبدو نسيمها طلع الحشيش[١٨٧]

ويقول آخر:

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة ... تولع فيها بالحشيش أولو العقل[١٨٨]

يقول ابن سودون البشبغاوي(١٨٩) :

بركة الرطلي هواها   يكسب الأرواح [illegible]   وترى الجسر حداها

فيــه غـــــزلان راتعين

كم ترى فيه من ملاح   انعشوا الأرواح براح   ومساطيل في انشراح

للخضيـــر مايليــــــــن

ظلت بركة الرطلي موطنًا لزراعة الحشيش وأكله وتعاطيه حتى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م حين أمر الأمير الدوادار نائب الغيبة الناس أن لا يسكنوا الجسر الذي ببركة الرطلي، ومنع المراكب من أن يدخلوها، فصارت خاوية على عروشها، ليس بها دُبار ولا نافخ نـار كمـا يروي ابن إياس(١٩٠). لذلك رثاها الشيخ بدر الدين الزيتوني في قصيدة طويلة قال في بعض أبياتها :

على بركة الرطلي نوحوا وعـددوا   لما حل فيها من نكال ومـن خُسـر
كان بهـا الحشـاش يُسـرد بهجـة   فمذ قطعوا لذاته صار في فكـر(١٩١)

أما عن تجارة الحشيش فقد راجت في العصر المملوكي، ويرجع ذلك إلى إقبال الكثيرين على شرائه وذلك بسبب رخص سعره، إذ كان في متناول العامة والخاصة وفي ذلك يقـول النور الأسعردي :

وتشربها في العسر واليسـر دائمـا   ولا تتقي فيهـا ليـالي التعبـد(١٩٢)

هذا إلى جانب سهولة تناوله في الحدائق والبساتين حيث أماكن زراعتـه، في الأسـواق والمشاهد، في الربط والمساجد وغيرها من أماكن العبادة، وكذلك في الحمامات العامـة(١٩٣) وفي ذلك يقول صاحب المفاخرات : " ولا يختص ببعض المواضع، بل يستعمل في السـوق والجامع .. وليس في تحريمه نص مسموع، ولا علي بائعه حد مشروع ... "(١٩٤).

ويقول النور الأسعردي في هذا المعنى :

وحقك ما بـالخمر بعـض صـفاها   أتشرب جهرًا في رباط ومسجد؟(١٩٥)

ويبدو أن المشاعلية[١٩٦] قد مارسوا تجارة الحشيش، إذ يصف ابن دانيال في البابة الثانية (عجيب وغريب) شخصية المشاعلي ويتحدث عن مهنته والدور الذي يلعبه في المجتمع،ويذكر من بين مهامه أنه مارس تجارة الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال : حال المشاعل وهو جايل في ميدانه، ومفتخر على أقرانه وينشد قصيدة من أبياتها :

وكم لنا تجارة في خير نبات خضل
حشيشة لون العذار فوق خد صقل
يبيعها للناس أن رخصت بيع العسل[١٩٧]

وتوضع هذه الأبيات أن المشاعلية تاجروا في الحشيش، وأن أسعاره لم تكن باهظة لذلك راجت تجارتهم فيه، ولكن ما هو رأي فقهاء العصر في زراعة الحشيش وتجارته ؟

حرم ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) تلميذ ابن تيمية بيع الحشيش مستندًا في ذلك إلى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن ابن عباس قوله : " إن الله إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه "[١٩٨]. أما الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م) والأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فذكرا أن زراعتها أي الحشيشة لغرض الاستعمال والإسكار حرام، ويجوز لغرض التداوي. أما بالنسبة لبيعها فإنه يجوز في رأيهما بيعها لأنه ينتفع بها في الأدوية كالسقمونيا ... بشرط أن يكون يسيرًا، أما بيعها لمن يتحقق منه تعاطيها فهو حرام[١٩٩]. وهذا يتطلب وقفة لمعرفة رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش وتناوله.

رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش :

حار فقهاء العصر المملوكي في أمر تعاطي الحشيش وأكله، فمنهم قلة أفتت بإباحة أكل الحشيش وأجازته، والغالبية العظمى منهم حرمته. وقد استند القلة في إباحته إلى أنه لم يرد نص في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المشرفة، وكذلك عم وجود نص عند فقهاء المذاهب الأربعة بشأن تعاطي الحشيش وأكله، وقيل في هذا المعنى :

حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام

ويقول الشاعر محمد بن علي بن الأعمى أيضًا :

ولا نص في تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعي وأحمد[٢٠٠]

ويعد الجمال يوسف بن محمد الملطي (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) قاضي الحنفية[٢٠١] ممن اشتهروا بالإفتاء بجواز أكل الحشيش، فيذكر ابن حجر[٢٠٢] إنه كان يفتي بإباحة الحشيشة لذلك أنشده ابن حجر وكأنه يخاطب غيره وإنما عاناه قائلاً :

عجبت لشيخ يأمر الناس بالتقى وما راقب الرحمن يوما وما اتقى
يرى جائزًا أكل الحشيشة والربا ومَن سمع الوحي حقا تزندقا[٢٠٣]

وأفتى بجواز أكل الحشيش كذلك الشيخ محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن أيوب (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) وكان نابغة في الفقه والأدب والفنون، واشتغل بالتدريس ونشر العلم[٢٠٤].

أما الغالبية العظمى من الفقهاء التي حرمت أكل الحشيش فقد وجدت أنه ليس في عدم ورود تحريمه في الكتاب والسنة ولا عند الفقهاء الأربعة ما يعني أنه حلال لأن التحريم للشيء قد يكون بنص أو إجماع أو قياس، والقياس معناه : الحاق أمر لم يرد في حكمه الشرعي نص من القرآن أو السنة بأمر آخر ورد في حكمه الشرعي نص لاشتراك الأمرين في علة الحكم. وأركان قياس الحشيش على الخمر في التحريم متوافرة منها، الإسكار، حجب العقل والذهاب به، إضاعة المال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغيرها، ومادام الأمر كذلك انسحب حكم الخمر وهو التحريم على الحشيش لاشتراكهما في الحكم. هذا فضلاً عن أن الحشيش لم يرد تحريمه باسمه المعروف لا في القرآن ولا في السنة النبوية المشرفة، وذلك لأنه لم يكن موجودًا في العهد النبوي ولا في عهد الصحابة، ولا في عهد الدولة الأموية[٢٠٥]. وعلى ذلك فقد حمل عدد من الفقهاء في العصر المملوكي حملة شعواء على من أجازوه أو افتوا بأكله وتعاطيه ومن هؤلاء أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م) الذي راح يتحرى أمر هذه الحشيشة، وهل هي مسكرة ومفسدة للعقل أم لا؛ وذلك بالاعتماد على رأي الأطباء والعلماء بأحوال هذا النبات ومنهم ابن البيطار الذي يقول عن

الحشيش (القنب الهندي) : هو يسكر جدًا إذا تناول منه الإنسان يسيرًا قدر درهم[٢٠٦] أو درهمين "[٢٠٧]. كما رجع القسطلاني إلى رأي العلماء الأعلام من أهل الحجاز واليمن والعراق والشام، وفي النهاية أفتى بأن تناول الحشيش حرام اعتمادًا كذلك على الحديث المروي عن خير الأنام " ما أسكر كثيره فقليله حرام "[٢٠٨].

ورد القسطلاني أيضًا على من ادعى أن ما يحدثه الحشيش ليس سكرًا يقضي باختلال، وإنما هو أمر يفرح النفس، ويروح الخاطر ويجمع الهمم ويحضر الفكر، ويشتغل بها السر عن الخوض فيما لا يعنيه؛ رد مستندًا إلى الأضرار الدنيوية والأخروية[٢٠٩] التي تعود على من يتعاطها، إلى جانب مشاهدته لمن تعاطى منها درهمين أو ثلاثة وكيف تؤثر فيه تأثيرًا بليغًا إن لم تقتله[٢١٠] فضلا عن اعتماده على العديد من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد تحريم كل مسكر ومفتر، وعلق بأن الحشيش إذا لم يسكر كان مفترًا مخدرًا، لذلك يكثر مستعمله من النوم وتثقل رأسه كثيرًا[٢١١]. ويؤكد ذلك ما روته أم سلمة رضي الله عنها قالت :" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر " والمفتر كل شراب يورث الفتور والخور في الأعضاء، وفي هذا الحديث دليل على تحريم الحشيش لأنه يخدر ويفتر.

رد القسطلاني كذلك على من اعتبر الحشيش دواء، فذكر أن الأدوية نوعان أو ضربان : سليمة فاضلة وخطيرة قاتلة، واعتبر الحشيشة من قبيل الخطيرة القاتلة وذلك بسبب تأثيرها في الأجسام فضلاً عن مضارها الأخرى[٢١٢].

وتصدى أبو بكر القسطلاني لمن أفتى بأكل الحشيش من الفقهاء وقال عنهم : " إنهم سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول والأفهام، راموا بذلك التحريض على ارتكاب الآثام، وصدق أن يتلى عليهم في ذلك المقام وهم إلا كالأنعام، ولم يستجيبوا للنهي والأمر في الحلال والحرام، فاقتدى بهم في محبتها من جهل أمرها ... "[٢١٣].

لم يكتف أبو بكر القسطلاني بذلك بل قال :

قد ضل من أفتى بحل شرابها	فيما عزا للشافعي وأحمد
هي لا تحل وأن غدت لأحد مثل	الخمر فيما يعتدي للمعتد[٢١٤]

ووجه دعوة لمحاربة كل من يمدح شرب الحشيش قائلاً :

لا تصغين لمادح شـرب الحشـيش ... فإنـه في القـول غـير مسـدد
وانهـض بعزمـه ماجـد في صـده ... عن قصده بالسوط حينا وباليـد[٢١٥]

أما عن شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٢-١٣٢٧م) فقد ذهـب في جميع كتاباته إلى أن الحشيشة القنبية حرام فيقول في كتابه " الحسبة في الإسـلام" أن كـل مسكر من الطعام والشراب حرام، ويدخل في ذلك البتع والمزر والحشيشة القنبيـة وغـير ذلك"[٢١٦]. وأكد ذلك في كتابه السياسية الشرعية حيث يقول : " أن الحشيشة المصـنوعة من ورق القنب حرام أيضًا " والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومستفيضة ويقول أيضًا، جمع الرسول صلى الله عليه والسلام، بما أوتيه من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر، ولم يفرق بين نوع نوع، ولا تأثيره لكونه مأكولاً أو مشروبًا ... كل ذلك حرام "[٢١٧].

ونادى ابن تيمية في كتابه الفتاوى بضرورة تحريمها، وأعلن أن الحشيشة الملعونة المسكرة بمنزلة غيرها من المسكرات، والمسكر منها حرام باتفاق العلماء، بل أن كل ما يزيل العقـل فإنه يحرم ولو لم يكن مسكرًا : كالبنج[٢١٨]. وذكر في موضع آخر ردًا على من سأله عمـا يجب على من أدعى أن أكل الحشيشة جائز، حلال، مباح؛ بقوله : " أكل هذه الحشيشـة الصلبة حرام، وهي من أخبث الخبائث المحرمة، وسواء أكل منها قليلاً أو كـثيرًا .. ومـن استحل ذلك فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا، لا يُغسل، ولا يُصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين "[٢١٩].

أرجع ابن تيمية عدم وجود نص بتحريمها في القرآن والسنة ولا عند أصحاب المـذاهب الأربعة إلى أنها ظهرت في آخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة للهجرة حين ظهرت دولة التتار[٢٢٠]. لذلك لجأ في تحريمها إلى القياس معتمدًا على الكثير من الأحاديث مثلمـا فعـل القسطلاني من قبل ومن تلك الأحاديث "الخمر ما خمر العقل"؛ " ما أسكر كـثيره فقليلـه حرام "؛ " كل مسكر خمر وكل مسكر حرام "، فضلاً عن حـديث أم سـلمة، وحـديث السيدة عائشة " كل شراب أسكر فهو حرام "[٢٢١]. وغيرها من الأحاديث. كذلك استند ابن تيمية إلى رأي المحققين من الفقهاء، الذين قالوا بكونها مسكرة لما فيهـا مـن النشـوة والطرب، وقرر على من يتناولها حد الشرب : ثمانون سوطًا أو أربعون[٢٢٢].

سار ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ/١٢٩١-١٣٥٠م) على نهج أستاذه ابن تيمية فنادى بتحريم الحشيش كذلك قائلاً :" يدخل في تحريم كل مسكر مائعًا كان أو جامدًا، عصيرًا أو مطبوخًا، يدخل فيه عصير العنب، وخمر الزبيب والمزر، والذرة، والشعير والعسل والحنطة واللقمة الملعونة لقمة الفسق والقلب التي تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن... " يقصد الحشيشة واعتبر ذلك كله خمر بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده، ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله " كل مسكر خمر "[٢٢٣]. لذلك أخذ بالقياس في تحريمه للحشيش القياس على الخمر، وجعل حد متعاطيه حد الخمر وهو الجلد ما بين ثمانين وأربعين جلدة[٢٢٤].

وإذا كان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قد نادا بضرورة تحريمها وبأن حدها هو الجلد كالخمر، فإن بعض الفقهاء ومنهم الإمام القرافي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) يعتقد أنها من المفسدات[٢٢٥] وليست من المسكرات، ومن ثم لا يوجب فيها الحد، ولا يبطل بها الصلاة، بل التعزير[٢٢٦] الزاجر عن ملابستها[٢٢٧].

واتفق الإمام الرافعي مع القرافي إذ ذكر في باب الشرب : " ما يزيل العقل غير الأشربة كالبنج لا حد في تناوله لأنه لا يلذ ولا يطرب ولا يدعو قليله إلى كثيره "[٢٢٨]. كذلك قال الإمام علاء الدين ابن العطار صاحب النووي وتلميذه وهو الذي جمع فتاويه " أما الحشيشة المسماة الغبيراء المفسدة للعقول والأبدان ... لم أعلم لتحريمها اختلافًا بين علماء الإسلام الذين أدركتهم، ولكنهم لم يصرحوا بوجوب الحد فيها مع اتفاقهم على وجوب التعزير فيها بالضرب وغيره[٢٢٩].

وذهب فريق ثالث من الفقهاء إلى أن متعاطيها لا يُحد بحال وإن تعمد تناولها فُسق به، وإن تناولها خطأ أو للتداوي لم يُفسق[٢٣٠].

هكذا أجمع فقهاء العصر على تحريم الحشيشة ولكن اختلفوا في هل فيها الحد أم التعزير، وكان لكل فريق منهم أدلة على صحة رأيه. ولكن إلى أي مدى طبق حكم الشرع في متعاطي الحشيش في العصر المملوكي سواء بإقامة حد الجلد أو بالتعزير ؟

دور الدولة في مكافحة ظاهرة تعاطي الحشيش في مصر المملوكية :

اعترفت دولة المماليك في بداية عهدها بالحشيش، وأباحت زراعته وبيعه وأكله، وذلك لأنها في إطار حاجتها إلى الأموال لجأت إلى العديد من الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ففرضت ضرائب ثقيلة على باعة الحشيش وتجاره، عرفت باسم " ضمان الحشيشة " فيذكر ابن حجر :" إنه كان في القاهرة وغيرها من الأعمال على ذلك أي على الحشيش ضمان، وعليه اقطاعات لأناس "[٢٣١]. وقد جمعت الدولة من هذا الضمان " جملة كافية " كما يذكر ابن دقماق[٢٣٢] وسعيا وراء تمويل الخزانة السلطانية بحاجتها من المال، لجأت الدولة المملوكية إلى فرض هذا النوع من الرسوم على باعة الحشيش وتجاره. فعندما عهد السلطان عز الدين أيبك (٦٤٨-٦٦٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) بالوزارة إلى الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي، أحدث هذا الوزير في مصر مظالم كثيرة على الرعية، ورتب مكوسًا وضمانات على المنكرات من الخمور والحشيش وبيوت الزواني وغيرهم وسماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية[٢٣٣].

ظل ضمان الحشيش معمولاً به حتى أبطله السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م أو سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، فقد ذكر المقريزي في حوادث شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م " وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة، وأمر بتأديب من أكلها "[٢٣٤]. في حين ذكر في موضع آخر " وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وستمائة "[٢٣٥]. وأضاف ابن إياس إلى جانب إبطال السلطان بيبرس ضمان الحشيش وتأديب من أكلها، أمر السلطان كذلك بإحراقها[٢٣٦].

وأصدر السلطان الظاهر بيبرس أوامره بإرسال المراسيم الشريفة بمنع الحشيش وغيره من المنكرات إلى سائر الجهات، وعندما وردت تلك المراسيم إلى القاضي ناصر الدين أحمد بن منصور بن أبي بكر (٦٢٠-٦٨٣هـ/١٢٢٣-١٢٨٤م) قاضي الإسكندرية استبشر بالخبر وقال :

ليس لإبليس عندنا أرب ... غير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَه الخمر والحشيش معًا ... حرمته ماءه ومرعاه[٢٣٧]

امتنع الناس عن أكل الحشيش في أيام الظاهر بيبرس غاية الامتناع، وطهرت البلاد منه ويذكر ابن دانيال (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) الذي زار مصر في أيامه " وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى (الخوان) والي القاهرة، إهراق الخمور، وإحراق الحشيش .. وشاعت بذلك الأخبار، ووقع الإنكار، واختفى المسطول في الدار، وأقيمت الحدود..."(٢٣٨).

وقال القاضي ناصر الدين ابن النقيب الفقيسي :

منع الظاهر الحشيش مع الخمـ ـر فولى إبليس من مصر يسعى
قال ما لي وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى(٢٣٩)

وعبر ابن دانيال عن حالة آكلي الحشيش عندما سمعوا بخبر السلطان بضرورة إحراق الحشيش وإلغاء ضمانه قال في بابته (طيف الخيال) :

أين عيناه والحشائش تحرق بنار تُراع منها المجوسُ
قلعوها من البساتين إذ ذاك صغارًا خضراء وهي عروس
والحرافيش حولها يتباكون وهذا يطفي هذا الوطيس(٢٤٠)

أبطلت المنكرات كذلك في أيام حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) ومنها الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال :

ذي دولة المنصور لاجين الذي قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا في عصره ياذا الفقير يصير جسمك أحمرا(٢٤١)

شاع أكل الحشيش في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانتشر انتشارًا واسع النطاق، لدرجة حركت أقلام شعراء عصره ومن هؤلاء فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) الذي راح يسوق شعرًا يوضح من خلاله مضار الحشيش وآثاره السيئة على متعاطيه؛ ومن شعره :

محا الله الحشيش وآكليها لقد خبثت لما طاب السلاف
كما تصبي كذا تضني وتشقي لآكلها وغايتها الخراف(٢٤٢)

سعى السلطان الناصر محمد لمكافحة ظاهرة أكل الحشيش، التي شاعت في عصره، فعين واليًا على القاهرة شديد البأس وهو الأمير (قدا دار)[٢٤٣] في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، فبدأ عهده بتعقب المفسدين، وكبس أماكن زراعة الحشيش، ومنها خط باب اللوق، وأخذ منه شيئًا كثيرًا، وصادر ما فيه من الحشيش وأحرقه عند باب زويله، واستمر يفعل ذلك مدة شهر، وما من يوم إلا ويحرق فيه الحشيش عند ذلك الباب، مما يظهر كثرة كمية الحشيش التي كانت تزرع في باب اللوق. وأثنى السلطان الناصر محمد على جهود الأمير قدا دار وشكره شكرًا زائدًا، ومكنه تمكينًا قويًا[٢٤٤].

استمرت مكافحة الدولة للحشيش ففي ربيع الآخر من عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م قام الأمير الحاج آل ملك[٢٤٥]، نائب السلطنة في عهد الصالح إسماعيل ــ بعد أن دله بعض العامة على موضع يباع فيه الخمر والحشيش ــ بإحضار من يبيعونها، وضربهم في دار النيابة بالمقارع وشهرهم، وخلع على ذلك العامي، وأقامه عنه في إزالة المنكرات[٢٤٦].

رغم جهود الدولة ورجالاتها في مكافحة هذه الظاهرة، إلا أن الناس أقبلوا على أكل الحشيش حتى في أوقات الأزمات التي كانت تحل بالبلاد، فقد انشغل الكثيرون في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م أثناء الوباء الأسود، الذي حل بمصر في أيام السلطان الناصر حسن، انشغلوا بأكل الحشيش لدرجة قال معها إبراهيم بن المعمار:

قلت لمن بالحشيش مشتغل ... ويلك أما تخش هذه الكتبة
فالناس ماتوا بكبة ظهرت ... قال إني أعيش بالكبة[٢٤٧]

ووقع في دولة الأشرف شعبان بن حسين ما يقرب من هذه الوقعة فحرم السلطان أكل الحشيش في عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، فقال الأديب عنه إبراهيم بن المعمار :

أمر بيلع الحشيشة تكتسب أجران ... وتغتنم دعوة المصطول والسكران[٢٤٨]

ومن ثم فإن الأزمات التي كانت تمر بالبلاد لم تؤثر على باعة الحشيش وآكلته، رغم أن مثل هذه الأزمات كانت تدفع الكثيرين إلى البعد عن المعاصي والمنكرات.

لم تأل الدولة جهدًا للحد من ظاهرة أكل الحشيش، فقام الأمير سودون الشيخوني[٢٤٩] في عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، في عهد المنصور علاء الدين علي ـ بتتبع الموضع الذي يعرف بالجنينة من أرض الطبالة، وباب اللوق، وحكر واصل ببولاق وغيرها من أماكن زراعة الحشيش، وأتلف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقبض على من كان يتلعها من أطراف الناس ورذلائهم، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامة، كما يذكر المقريزي[٢٥٠]. مما يوضح انتشار الحشيش بينهم.

تابع الأمير سودون حملاته وكبساته على أماكن بيع الحشيش، فهاجم في عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، وكان يشغل ساعتها وظيفة نائب السلطنة في دولة الظاهر برقوق، هاجم أحد أماكن تخزين الحشيش وبيعه، واستولى على كميات ضخمة ضبطها هناك، وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة[٢٥١].

ظل أكل الحشيش حتى عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م يُعد من القاذورات كما يذكر المقريزي، بدليل أن الناس شنعوا على سلطان بغداد أحمد بن أويس، حينما قدم إلى القاهرة فارًا من تيمورلنك، وتظاهر هو وأصحابه بأكلها، لذلك استقبح الناس في مصر فعلهم هذا وعابوه عليهم[٢٥٢]. ولكن في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م شنع التجاهر بالشجرة الملعونة ـ كما يروي المقريزي ـ فظهر أمرها، واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لو كادت أن تكون من تحف المترفين[٢٥٣]. مما يوضح أن أكل الحشيش ظل حتى هذا العام يؤكل سرًا وفي الخفاء، ثم بدأ الناس يتجاهرون بأكله دون حياء أو احتشام أو خجل، وزاد الإقبال على أكله بين طوائف الخاصة والعامة، لذلك قام صدر الدين محتسب القاهرة في ربيع الأول عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م بتتبع أماكن الفساد بنفسه ومعه والي القاهرة، فأراق آلافًا من جرار الخمر .. ومنع من التظاهر بالحشيش[٢٥٤].

أما عن ضمان الحشيش خلال تلك الفترة فيذكر ابن حجر أنه كان قد بطل ولله الحمد، ثم أعيد قليلاً بدسائس أهل الظلم والمكر، غير أنه ما لبث أن بطل ثانية، وعاد كما كان بعد مدة قريبة[٢٥٥].

شن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) حملة شواء على مواضع الفساد، ففي شهر ربيع من عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م شدد السلطان في أمر الحشيش، وأمر بإحراق ما يوجد منه، فأحرق من الحشيش ما لا يحصى كثرة، وأكثر ذلك كان بدمياط

كما يروي ابن حجر[٢٥٦]. مما يوحي بانتشاره وزراعته على نطاق واسع بها، ولم يكتف السلطان بذلك بل حجر عليه جيدًا كما يذكر ابن إياس[٢٥٧].

تتابعت جهود الدولة في عصر برسباي من أجل القضاء على هذه الآفة ففي المحرم من عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م تتبع الأمير قرقماس الشعباني حاجب الحجاب مواضع الفساد، فأرق الخمور، وحرق من الحشيشة المضرة للعقل شيئًا كثيرًا، وذلك بتكليف من السلطان برسباي[٢٥٨]. وفي ذي القعدة من عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، قام الوالي عمر بن سيفا الشوبكي[٢٥٩] بكسر جرار الخمر، وحجر على الحشيش[٢٦٠].

وفي عهد السلطان الغوري ارتبطت سياسة الدولة في محاربة ظاهرة أكل الحشيش وغيره من المفاسد بما تعرضت له البلاد من أزمات اقتصادية ففي عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وعلى أثر الطاعون الذي ضرب البلاد في ذلك العام رسم السلطان الغوري لحاجب الحجاب ووالي القاهرة الأمير علان من قراجا بأن يكسروا جرار الخمر، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة، ولا يبقوا في ذلك ممكنا كما يذكر ابن إياس[٢٦١].

نادى السلطان الغوري كذلك في ٢٦ صفر من عام ٩١٩هـ/١٥١٣م بمنع بيع الحشيش والبوزة وذلك على إثر انتشار الطاعون بالبلاد، واستمر يشهر المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية[٢٦٢]. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على انتشار تلك الظاهرة بشكل كبير في مجتمع مصر المملوكية في تلك الآونة.

ولكن ما إن انتهت الأزمة حتى عاود الناس سيرتهم الأولى، فاستمر بيع الحشيش وأكله، مما دفع السلطان الغوري إلى المناداة بتحريم بيعه مرة أخرى في ذي القعدة من عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ولكن كما يذكر ابن إياس " لم يسمع له أحد ذلك، ولم ينتهوا عما هم فيه "[٢٦٣]. ومن ثم فقد قوبل قرار السلطان بنوع من السخرية والاستنكار.

ملاحظات على جهود الدولة والفقهاء في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش :

أولاً : بذل عدد من السلاطين جهودًا كبيرة في سبيل مكافحة تلك الظاهرة ومحاولة الحد من انتشارها ومن آثارها السلبية،ويأتي على رأس هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد، برسباي والسلطان الغوري وغيرهم، وقد عهدوا بهذه المهمة إلى كبار رجالات الدولة

وفي مقدمتهم والي القاهرة الذي كان من حقه كما يذكر السبكي[٢٦٤] " الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش، ونحو ذلك وسد الذريعه فيه ". كذلك أوصى العمري[٢٦٥] الوالي بأن يُعقم نسل الخمر .. وكذلك أختها في مخامرة العقل وشقيقتها في التأديب، إن لم يكن الحد لعدم النقل، وهي الحشيشة التي يعرف آكلها دون الناس بعينه..." وشارك الوالي في بعض الأحيان حاجب الحجاب والمحتسب، وفي أحيان قليلة نائب السلطنة وذلك في محاولة للحد من انتشار تلك الظاهرة أو القضاء عليها.

ثانيًا : اتبع السلاطين ورجالات الدولة عدة طرق في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش منها: إحراقه، مصادرته، الحجر عليه، إتلافه بالتراب، تحريم بيعه، منع زراعته خاصة في الأماكن التي اشتهرت بزراعته. أما عن آكل الحشيش أو متعاطيه فكان يعاقب أما بالضرب بالمقارع، أو بالتشهير والتجريس[٢٦٦]، أو بقلع الضروس، ولم يتم تطبيق حد الخمر عليه كما نادى بذلك بعض الفقهاء، ومن ثم فقد راحت جهودهم هباء.

ثالثًا : لم تتشدد الدولة في مكافحة تلك الظاهرة إلا في أوقات الأزمات الاقتصادية والأوبئة أي في أوقات الشدة التي تعاني منها البلاد كتأخر الفيضان، أو ارتفاعه، وانتشار الأوبئة والمجاعات وغيرها، في هذه الأوقات يلجأ الناس عادة إلى الله تعالى، ويعتصمون برداء الدين، ويكثرون من العبادة، ويتجنبون المحرمات، ويصدر السلاطين أوامرهم بتحريم الحشيش ومهاجمة مخازنه والبعد عن غيره من المفاسد والمحرمات وعدم ارتكاب المعاصي. ويستجيب الناس وقتيًا حتى تنتهي الأزمة، فتعود الأمور سيرتها الأولى، ويعود الناس إلى التظاهر بأكل الحشيش وغيره.

رابعًا : ساهمت الدولة في نشر ظاهرة أكل الحشيش بين العامة والخاصة، وذلك عن طريق ما فرضته عليه من ضمان عرف بضمان الحشيشة، كان تجارها وباعتها يدفعونه للدولة بانتظام. حقيقة حاول بعض السلاطين إبطاله إلا أنه سرعان ما كان يعود ثانية، ويرى البعض[٢٦٧] أن تجار الحشيش وباعته كانوا يمثلون احتياطيًا ماليًا طارئًا للدولة عندما يضيق بها الحال، فيسعى الولاة والجباة إلى مهاجمة أماكنه ليلاً ومصادرة ما فيها من الأموال، وذلك رغبة من الحكومة في مشاركة هؤلاء التجار في مكاسبهم المالية الباهظة، ومن ثم فقد كان لتجار الحشيش أهمية اقتصادية بالنسبة للدولة كما أن باعته كانوا يعيشون على تلك التجارة

فهي مصدر رزقهم، مما جعل مكافحة الدولة لهذه الظاهرة أمرًا بالغ الصعوبة[٢٦٨] ونظرًا لحاجة الدولة الماسة إلى المال فقد أظهرت أحيانًا بعض التراخي في مكافحة هذه الظاهرة.

خامسًا : لعب الفقهاء ورجالات الدين دورًا في مكافحة هذه الظاهرة مشاركة من جانبهم للدولة، وتمثلت مشاركتهم أما بالكتابة والتأليف، أو استتابة آكليها، فبالنسبة للكتابة فقد أفرد أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)[٢٦٩] لها تصانيف منها : تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، وإتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم[٢٧٠]، وحاول فيها إبراز مساوئ الحشيش الدنيوية والأخروية ومضاره على آكليه حتى يبتعدوا عنه. وكذلك صنف الزركشي (ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م) زهر العريش في تحريم الحشيش أو زهر العريش في الكلام من الحشيش[٢٧١]. وكتب الأقفهسي[٢٧٢] (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) كذلك كتاب " إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش "[٢٧٣]. ونادى هؤلاء جميعًا من خلال مؤلفاتهم بضرورة تحريم الحشيش لأثره المتلف للعقول والأخلاقيات علاوة عن إشاعة السلوك الإجرامي في المجتمع.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فكان يستتيب آكل الحشيش فحدث في رجب من عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م أن أحضر إليه شيخ كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًا، يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمره ابن تيمية بقطع ذلك الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظافره، وكانوا طوالاً جدًا، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها[٢٧٤]. كما تعالى صوت ابن تيمية موجهًا نداءات إلى الصوفية بالذات بأن يتركوا أكل الحشيشة الخسيسة، ودعا لإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء وذلك في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م[٢٧٥]. هذا فضلاً عما أورده بشأن الحشيش في فتاواه وكتابيه السياسة الشرعية والحسبة في الإسلام وسبق الإشارة إلى ذلك.

غير أن صيحات فقهاء العصر ونداءاتهم، التي تعالت منادية بضرورة الحد من تعاطي الحشيشة وفرض الحد على آكلها أو تعزيره، ضاعت هباءً ولم تجد آذانًا صاغية، وتفشت ظاهرة أكل الحشيش فشوًا كبيرا في العصر المملوكي.

الحواشي

(١) المعجم الوسيط، ج١، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٧٦؛ المعجم الوجيز، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٥٣.

(٢) القنب نبات حولي غزير النمو، شجري المظهر، وله عدة أنواع، يصنع من أحداها النيل، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من القنب كان يوجد بالإسكندرية بوفرة، ويصنع منه النيل الجيد، وقد شهد بذلك الرحالة طافور الذي زار مصر في القرن ٩هـ/١٥م؛ كذلك ذكر الحسن الوزان أن بني سويف تجود فيها زراعة الكتان والقنب. انظر: أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق حسين نصار، القاهرة ٢٠٠١م، ج٥، ص١٦٦-١٦٧؛ المعجم الوجيز، ص٥١٦؛ طافور، رحلته في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة١٩٦٨م، ص٦٤؛ الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٦٠٩؛ وانظر أيضًا عزت حسين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٨٩، ١٩٠.

(٣) محمد السيد الأرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص٣٦.

(٤) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، القاهرة بدون تاريخ، ص٣٩. أما عن ابن البيطار فقد توفي في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، وانظر ترجمته في الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، بيروت بدون تاريخ، ص٢٣٤.

(٥) انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، م٢، ص١٢٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣؛ وانظر أيضًا :

Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971, p. 22.

(٦) عنه انظر ما يلي هامش ٨٣.

(٧) المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٩) مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة، ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢، ورقة ٨٦-٨٧. وعن مسميات الحشيش انظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp, 19-41

(١٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص١٢٦-١٢٨.

(١١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٢) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٣٧٣.

(١٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨، ص١٢٩.

(١٤) ديوان نزهة النفوس، ص٢١٥.

(١٥) زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤، ورقة ٢. وقد قام روسنتال Rosenthal بنشرها كملحق في كتابه The Herb انظر p.176

(١٦) أما عن تسمية الحشيشة بالغبيراء فقد ذكر ابن الوردي في خريدة العجائب أن الغبيراء شجرة خشبها أصبر من كل خشب الماء كالأرز والتوت، وزهرها إذا شمتها المرأة هاجت بها شهوة الجماع حتى تطرح الحياء، والتنقل بثمرها يبطئ السكر، ويحبس القئ، وينفع من إكثار البول، ص١٧٦. وقيل أن الغبيرة هي شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى [لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ] الواقعة ٥٢، وفي قوله تعالى [أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ] الصافات ٦٢، وانظر أيضًا الدخان آية ٤٣. وعن شجرة الزقوم انظر الإمام القشيري، تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، القاهرة ١٩٧١م، ص٨٩؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 46-47.

(١٧) عن حيدر، انظر ما يلي هامش ٨٣.

(١٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧؛ وانظر أيضًا: الجوبري، المختار في كشف الأسرار، دمشق ١٣٠٢هـ، ص٢٩.

(١٩) الزركشي، زهر العريش، المخطوط ورقة ٢ ، ونشر روسنتال، ص١٧٧، وعن القلندري، انظر ما يلي، ص .

(٢٠) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٢١) الأقفهسي، إكرام بن يعيش بتحريم الخمر والحشيش، طنطا ١٩٩١م، ص٦٢

(٢٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨؛ ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٢٣) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢٠٦.

(٢٤) نقلاً عن : Rosenthal, The Herb, pp. 57-58

(٢٥) تكريم المعيشة، ورقة ٤١.

(٢٦) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢٧) السياسة الشرعية، ص٦١؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 64-65.

(٢٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٦.

(٢٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، بيروت ١٩٧٣م، ص٢٧٤.

(٣٠) يحيى بن ماسويه من علماء الأطباء، سرياني الأصل مستعرب، كان أحد من عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، وقام بمعالجة الرشيد والمأمون ومن بعدهم إلى أيام المتوكل وتطبيب مرضاهم. له نحو أربعين كتابًا كلها في الطب، وتوفي

بسامراء ٢٤٣هـ. انظر: الحسن بن زولاق، تراجم كتاب أخبار سيبويه المصري، نشر محمد إبراهيم أسعد وحسين الديب، القاهرة ١٤١٠هـ، ص٧٠-٧١.

(٣١) نقلاً عن المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٣٢) نزهة النفوس، ص٢٠٦.

(٣٣) Rosenthal, The Herb, pp. 57-58.

(٣٤) الزركشي، زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٩٤؛ والأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٣.

(٣٥) الزركشي، زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٩٥؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٣.

(٣٦) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٣٧) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٣٨) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، دراسة وتحقيق وتعليق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٩-٤٠.

(٣٩) الزركشي، زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط، ورقة ٣.

(٤٠) الأقفهسي، إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥.

(٤١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٢٢.

(٤٢) المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٤٣) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣.

(٤٤) الأقفهسي، إكرام، ص٦٥.

(٤٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي، المطبعة السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢٢٣.

(٤٦) المفاخرات الباهرة، ص٤٢.

(٤٧) ابن البيطار، الجامع، ج٣، ص٣٩؛ وانظر أيضًا: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٤٨) الجامع لمفردات الأدوية، ج٣، ص٣٩؛ وانظر أيضًا: المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٤٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢٢٤.

(٥٠) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٥٥٠-٥٥١. والجندار هو الأمير الذي يستأذن عند دخول الأمراء الخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان.

(٥١) نزهة النفوس، ص٢٠٦-٢٠٨

(٥٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٢٧٥.

(٥٣) نزهة النفوس، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٥٤) نزهة النفوس، ص٢٠٩-٢١٠.

(٥٥) انظر الزركشي، زهر العريش، مخطوط ورقة ٥؛ والأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٢. وقد أورد روسنتال هذا البيت في نشره لزهر العريش على النحو التالي:

دية العقل بدرة فلماذا   يا سفيها قد بعتها بحشيشة

The Herb, p. 179 .

(٥٦) إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥؛ وانظر أيضًا الزركشي، زهر العريش، مخطوط ورقة ٣-٤.

(٥٧) انظر أبو بكر القسطلاني، إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٦؛ الزركشي، زهر العريش، مخطوطورقة ٣، ٤؛ ونشر روسنتال، ص١٧٧-١٧٨.

(٥٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨١.

(٥٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٢٧٥.

(٦٠) نزهة النفوس، ص٣٠٢.

(٦١) نزهة النفوس، ص٣٧٣.

(٦٢) تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة، ورقة ٣٠-٣١.

(٦٣) إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٩-٦٠.

(٦٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص٦٠.

(٦٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٥، ص٢٢٤.

(٦٦) الزركشي، زهر العريش، المخطوط، ورقة ٣، والمنشور Rosenthal, The Herb, p.178.؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥.

(٦٧) انظر: الزركشي، زهر العريش، ورقة ٧، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 182

(٦٨) زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٨٧.

(٦٩) إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥؛ وانظر أيضًا الزركشي، زهر العريش المخطوط، ورقة ٣، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 178

(٧٠) تكريم المعيشة، ورقة ٢٤.

(٧١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٢٤.

(٧٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٧٣) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص١٤٧.

(٧٤) نقلاً عن المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٧٥) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٧٦) المكافأة، تنسيق وتصحيح وتعليق، أمين عبدالعزيز، مصر ١٩١٤م، ص٨٨-٨٩.

(٧٧) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زُرعة الثقفي، ولي قضاء مصر في سنة ٢٨٤هـ في إمارة خمارويه بن أحمد بن طولون أو في عهد هارون ابنه، وكان محموداً في ولايته، ثقة، كما كان حسن المذهب عفيفاً عن أموال الناس، وظل على القضاء في مصر حتى صرفه محمد بن سليمان الكاتب في عام ٢٩٢هـ، ومات في عام ٣٠١ أو ٣٠٣هـ. لمزيد من التفاصيل حول سيرته انظر: الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق رفن كست، بيروت ١٩٠٨م، ص٥١٨-٥٢٣.

(٧٨) انظر : الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص٥٢١؛ وانظر أيضاً، أحمد عبداللطيف، " الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية ففي عصر الدولة الطولونية "، بحث منشور في مجلة آداب قنا، العدد الثامن، ١٩٩٨م، ص١٢٧.

(٧٩) ممدوح عبدالرحمن، المساوئ الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها، ص٤٠.

(٨٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢٠٥.

(٨١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١١.

(٨٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١٤

(٨٣) ولد بنشاور من بلاد خراسان، وأقام في زاوية في جبل وفي صحبته جماعة من الفقراء (الصوفية) وخرج من زاويته في يوم منفرداً بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف العادة، ولما سأله أصحابه، قال لهم : أنه وجد في الصحراء شيء من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ، ومر بنبات له ورق فرأيته في تلك الحالة يميس بلطف ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان، فقطف منه أوراقاً وأكلها، وأخذ أصحابه لوقفهم على هذا النبات فلما شاهدوا هذا النبات عرفوا أنه القنب، وأمرهم الشيخ حيدر بأن يأكلوا منه، فأشاع فيهم الفرح والسرور، وأمرهم بزراعته بزاويته. وظل يتناول منه عشر سنين حتى توفى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن أوصاهم بأن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره. المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(٨٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٨٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٨٦) عن زراعة الحشيش في البستان الكافوري، انظر ما يلي ص .

(٨٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا شلبي إبراهيم، العامة في العصر الأيوبي، ص١٥٠.

(٨٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(٨٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(٩٠) لمزيد من التفاصيل عن شرب السلاطين الخمر، انظر إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، "الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس ١٩٨٨م، ص١٥٤ وما يليها؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك ورسومهم، ج١، ص١١٧.

(٩١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٦٢؛ وانظر ترجمة المؤيد شيخ في ... العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد الخليلي، بيروت ٢٠٠٢م، ج٢، ص

(٩٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ق١، تحقيق سعيد عاشور، ص٥٥٠-٥٥١.

(٩٣) المقريزي، المقفى الكبير، ج٧، ص٧١، حاشية ٣.

(٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٤٢-٤٣؛ وانظر أيضًا : عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك، ج١، ص١١٧؛ إسماعيل عبدالمنعم، الأمراض الاجتماعية، ص١٥٤، ١٦٦؛ وعن أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر انظر ما يلي هوامش ١٦٣، ١٦٤.

(٩٥) التاج الشوبكي توفي (٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، انظر ترجمته عن ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٦م، ترجمة رقم ٧٥٢، ص٥-٨؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج٣، ص٢٤-٢٥؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٨٣-٩٨٤.

(٩٦) نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، ج٣، ص٣٥٧-٣٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص٥-٦، ٨.

(٩٧) توفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، انظر ترجمته المطولة عند ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٧٨-٣٨٠. وعن تأثير الحشيش عليه، انظر : المقريزي، المقفى الكبير، ج١، ص٧٤٣-٧٤٥، ترجمة رقم ٦٨٥؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١، ص١٤٣؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٩٨) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٤.

(٩٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.

(١٠٠) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.

(١٠١) ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٥، ترجمة رقم ٢١٩.

(١٠٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٥١٤.

(١٠٣) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٠.

(١٠٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٩١.

(١٠٥) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، لبنان ١٤١٥هـ، ص١٤٦.

(١٠٦) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص٣٤٧.

(١٠٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣٨٠.

(١٠٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧؛ وانظر أيضًا : مجهول المؤلف، المفاخرات الساهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٤٠.

(١٠٩) انظر ترجمة إبراهيم بن علي المعمار في ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص١٧٤؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص١٨٥-١٨٩.

(١١٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م، ص٢٥، ٢٦.

(١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣٢٠؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص٦٣؛ ياسين الأيوبي، آفاق الشعر، ص٣٤٧؛ وانظر ما سبق.

(١١٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٨٣.

(١١٣) انظر ترجمته في الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٨٦-٦٨٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٩٩.

(١١٤) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٦٨٧.

(١١٥) انظر ترجمته في الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، م٣، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٧١-٢٧٥، ترجمة رقم ٤٢٢.

(١١٦) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٧) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٨) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص٦٣-٦٤.

(١٢٠) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١٢١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤-٢٧٥.

(١٢٢) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص٢٧٢، ترجمة ٦٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٢، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، ص٥٦٦.

(١٢٣) انظر ترجمته في الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٧-٣٠٨.

(١٢٤) يقصد بولاق.

(١٢٥) نزهة النفوس، ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٨٦-١٨٧.

(١٢٦) نزهة النفوس، ص٣٠١.

(١٢٧) نزهة النفوس، ص٣٠٢.

(١٢٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(١٢٩) ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج٣٤، ص٢١٠؛ وانظر أيضًا : سعيد عاشور، المجتمع المصري في العصر المملوكي، ص٢٥٢.

(١٣٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، ص٣٠.

(١٣١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٣٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٦.

(١٣٣) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٥٣.

(١٣٤) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٠٧.

(١٣٥) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥.

(١٣٦) أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٠٠.

(١٣٧) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٥.

(١٣٨) النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٩-٣٠.

(١٣٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٢.

(١٤٠) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٥.

(١٤١) توفي في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٦؛ وانظر ما سبق هامش ٨٣.

(١٤٢) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص١٧٩؛ آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٣.

(١٤٣) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت بدون تاريخ، ص٣٠؛ وانظر أيضًا الجوبري، كشف الأسرار، ص٣٠؛ طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، ترجمة حسن حبشي، ص٦١. الدوالق مفردها دلق وهو رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة.

(١٤٤) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج١، أسكندرية بدون تاريخ، ص٨١.

(١٤٥) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٣٢-٤٣٣.

(١٤٦) عن إسراف المتصوفة في أكل الحشيش. انظر: الجوبري، كشف الأسرار، ص٢٩؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج١، ص٨١.

(١٤٧) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٢.

(١٤٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٣٠.

(١٤٩) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ترجمة ١٥٧٩، ص١٣٥-١٣٦.

(١٥٠) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٤٣٣؛ وانظر أيضًا : محمد المرسي حسن، " الزوايا في العصر المملوكي بالقاهرة "، رسالة ماجستير غير منشورة، آثار القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٨؛ آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٣. وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ حسن الجوالقي توفي في عام ٧٢٢هـ.

(١٥١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٣٣.

(١٥٢) البداية والنهاية، م٧ ص٧٠٩؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبه، تاريخه، م٣، ص١٦٣.

(١٥٣) خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م، ص١٤٩.

(١٥٤) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٣.

(١٥٥) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٥٦) انظر ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢٠٥-٢١٠؛ وانظر أيضًا : ص٢١٣-٢١٧، ص٣٦٦ وغيرها.

(١٥٧) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة، ص٤٣-٤٤.

(١٥٨) تكريم المعيشة، ورقة ٣٢.

(١٥٩) علي السيد، الجواري في مجتمع مصر المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م، ص٤٨؛ سامية مصيلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧ "، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، مارس ٢٠٠٥م، ص١١٩.

(١٦٠) الجامع لمفردات الأدوية، ج٣، ص٣٩.

(١٦١) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٣٩، ١٤٩؛ سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص١٩٦؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ص١١٧؛ Rosenthal, The Herb ,p. 132.

(١٦٢) البستان الكافوري أنشأه محمد بن طغج الأخشيد (٣٢١-٣٣٤هـ ...م) ولما قدم جوهر الصقلي إلى مصر في عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، جعل هذا البستان داخل القاهرة، وعرف في الدولة الفاطمية بالبستان الكافوري. انظر ابن عبدالظاهر، الروضة البهية في القاهرة المعزية، ص٦٢-٦٣؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٣) تنسب أرض الطبالة إلى نسب طبالة الخليفة المستنصر الفاطمي، وكان الخليفة قد منحها الأرض المجاورة للمقس، فعرفت بها، وذلك منذ عام ٤٥٠هـ/١٠٥٩م، وظلت تعرف بها حتى العصر المملوكي. لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٥-١٢٦.

(١٦٤) كان الجسر يقع بأرض الطبالة وكان يفصل بين بركة الرطلي وبين الخليج الناصري أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب في سنة ٧٢٥هـ عندما انتهى من حفر الخليج الناصري، وأذن للناس في البناء عليه فحكر وبنيت فوقه الدور، فصارت تشرف على بركة الرطلي وعلى الخليج. انظر: المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٢، ١٦٥-١٦٦. أما عن بركة الرطلي فهي جملة أرض الطبالة، وعرفت أيضًا ببركة الطوابين من أجل إنه كان يعمل فيها الطوب، وكان في شرقيها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التي تزن بها الباعة، فسماها بركة الرطلي نسبة لصانع الأرطال. لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٢.

(١٦٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥، ١٢٥-١٢٦، ١٢٨.

(١٦٦) الروضة البهية، ص٦٣.

(١٦٧) ابن عبدالظاهر، الروضة البهية، ص٦٣؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(١٧٠) الروضة البهية، ص٦٢؛ وانظر أيضًا : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٨؛ Rosenthal, The Herb, p. 135.

(١٧١) المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(١٧٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص٦١.

(١٧٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٦١.

(١٧٤) ديوان نزهة النفوس، ص٢١٥-٢١٦.

(١٧٥) عن الدرهم انظر ما يلي هامش ٢٠٦.

(١٧٦) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢١١-٢١٣.

(١٧٧) المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(١٧٨) سودون الشيخوني عنه انظر ما يلي هامش ٢٤٩.

(١٧٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(١٨٠) انظر ترجمته عند ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ص٢٠٠-٢٠١. وتجدر الإشارة إلى أنه من قضاة المائة الثامنة.

(١٨١) ابن حجر، رفع الأصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٠١.

(١٨٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٨٣) ديوان نزهة النفوس، ص٢٨٦.

(١٨٤) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص٣٧-٣٨.

(١٨٥) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص٤٥.

(١٨٦) بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٦.

(١٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٦.

(١٨٨) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٩م، ص٢١١.

(١٨٩) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٣٧٣.

(١٩٠) بدائع الزهور، ج٥، ص٥٦-٥٧.

(١٩١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٥٨.

(١٩٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٧٤.

(١٩٣) Rosenthal, The Herb, pp. 66,67-68.

(١٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٣٩-٤٠.

(١٩٥) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٧٣.

(١٩٦) عن المشاعلية انظر نجوى كيره : "المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي"، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.

(١٩٧) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، ص٢٢٥، ٢٢٨، ٢٩؛ وانظر أيضًا : عادة كحيلة، الزط، القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠٤؛ نجوى كيره، المشاعلية، ص٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.

(١٩٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ج٥، بيروت ١٩٦٨م، ص٦٦١.

(١٩٩) الزركشي، زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط ورقة ١٧، والمنشور؛ انظر Rosenthal, The Herb, pp. 195-196 ؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٦، ٦٧.

(٢٠٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧.

(٢٠١) انظر ترجمته عند ابن قاضي شهبه، تاريخه، م٤، ص٢٠٥-٢٥١؛ ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، ص٤٧٧؛ إنباء الغمر، ج٤، ص٣٧٦-٣٥٠؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج٥، ص٢٠٥؛ الحنبلي، شذرات الذهب، بيروت بدون تاريخ، ج٧، ص٤٠-٤١.

(٢٠٢) رفع الأصر عن قضاة مصر، ص٤٧٧ (ترجمة ٢٥٩)؛ انظر : الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٤٠.

(٢٠٣) رفع الأصر، ص٤٧٧.

(٢٠٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج٢، ق٣، ص٥٩١.

(٢٠٥) محمد السيد الأرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٢٣، ١٢٤.

(٢٠٦) وزن الدرهم يساوي ٣,١٢٥ جرام. انظر: فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٧٠م، ص٤٧؛ Rosenthal, The Herb, p. 73. note 2

(٢٠٧) انظر ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩؛ أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٢٣.

(٢٠٨) تكريم المعيشة، ورقة ٢٥.

(٢٠٩) انظر ما سبق، ص .

(٢١٠) إتمام التكريم، ورقة ٦١.

(٢١١) إتمام التكريم، ورقة ٨٦.

(٢١٢) إتمام التكريم، ورقة ٨٤، ٨٥.

(٢١٣) تكريم المعيشة، ورقة ٣٣.

(٢١٤) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٥) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٦) نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ص٣٦. أما المزر فشراب يصنع من الذرة، في حين أن البتع هو من نبيذ العسل وكان يصنع في اليمن، انظر: مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص١٩٧، ٢١٥

(٢١٧) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، ص٦٠، ٦١.

(٢١٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢١٠، ٢١٣.

(٢٢٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢١٤.

(٢٢١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص١٩٧، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤؛ وانظر أيضًا: ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص٢٨٠.

(٢٢٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١١، ٢١٢. قال عليٌّ رضي الله عنه: جَلَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر أربعين وأبو بكر أربعين وكملها عمر ثمانين. ومن ثم فقد جعل ابن تيمية الجلد بين ثمانين جلدة وأربعين جلدة عملاً بهذا الحديث. انظر ابن حجر، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص٢٧٩.

(٢٢٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٥، ص٦٦٢.

(٢٢٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٥، ص٤٢، ٦٦٤.

(٢٢٥) المفسد هو المشوش للعقل مع عدم السرور في الغالب كالبنج، انظر القرافي، كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، ج١، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، ص٣٦٤.

(٢٢٦) التعزير لغة الرد والمنع وشرعًا : تأديب على ذنب لا حد فيه، من ثم فهو تأديب دون الحد وليس فيه شيء مقدر إنما هو متروك لرأي الإمام أو الحاكم حسب المصلحة، وحده الأدنى النصيحة ويتدرج إلى الضرب والإعدام. انظر ابن حجر، بلوغ المرام في أدلة الأحكام، ص٢٨١، هامش ٢ ، ٣.

(٢٢٧) الفروق، ج١، ص٣٦٤.

(٢٢٨) انظر الزركشي، زهر العريش، المنشور p. 189 ؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦١.

(٢٢٩) انظر : الزركشي، زهر العريش، المنشور P. 187

(٢٣٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣-١٥٤.

(٢٣١) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٣٩؛ وانظر أيضًا : سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص١١٤؛ عبدالمنعم ماجد، نظم سلاطين المماليك ورسومهم، ج١، ص١١٧.

(٢٣٢) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ١٩٨٥م، ج٢، ص٧٤.

(٢٣٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٤؛ سامية مصيلحي، البغاء في مصر، ص١١٤.

(٢٣٤) السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٠.

(٢٣٥) المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٦؛ وانظر أيضًا : ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٤؛ ابن إياس، ج١، ق١، ص٣٢٦.

(٢٣٦) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦.

(٢٣٧) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٣-٥٥٤؛ المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٦؛ بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية في تاريخ الدولة التركية، نشر عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة ١٩٨٧م، ص٥٦.

(٢٣٨) ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق إبراهيم حمادة، ص١٥٠؛ وانظر أيضًا : ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢٣٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢٤٠) ابن دانيال، خيال الظل، ص١٥٢؛ وانظر أيضًا : ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٧.

(٢٤١) نقلاً عن ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٣٥؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص٢٠٦.

(٢٤٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢.

(٢٤٣) توفي في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩، ترجمة رقم ٣٢٤٠؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٨-١٥٠؛ Rosenthal, The Herb, p..

(٢٤٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٩؛ السلوك، ج٢، ص٢٥٦، ج٢ ق٢، ص٣٢٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩؛ أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٣؛ سهام أبو زيد، الحسبة، ص١٩٤.

(٢٤٥) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص٤٣٩-٤٤٠.

(٢٤٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٦٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، مصر ١٢٩٩هـ، ص٢١٣-٢١٤؛ ليلى عبدالجواد، "نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية"، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد الأول ١٩٨٨م، ص١٩٢؛ محمد عبدالغني الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٩٧.

(٢٤٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٣٢.

(٢٤٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٧.

(٢٤٩) انظر ترجمة الأمير سودون الشيخوني عند ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، تحقيق محمد محمد أمين، ترجمة رقم ١١٢٨، ص١٠٤-١٠٩؛ النجوم، ج١٢، ص١٥١-١٥٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣٠٣-٣٠٤؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٨٦٥.

(٢٥٠) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٢٥١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، م٢، ص٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م، ص٧١.

(٢٥٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨-١٢٩.

(٢٥٣) المواعظ، ج٢، ص١٢٩.

(٢٥٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص٣٤٧-٣٤٨؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٤٨٦؛ حامد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦م، ص٨٢.

(٢٥٥) إنباء الغمر، ج٨، ص١٣٩.

(٢٥٦) إنباء الغمر، ج٨، ص١٣٩، ١٤٩.

(٢٥٧) بدائع الزهور، ج٢، ص١١٩.

(٢٥٨) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص١٤٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٢؛ محاسن الوقاد، " الحجابة زمن سلاطين المماليك "، بحث منشور في كتاب مصر في العصر المملوكي، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٦.

(٢٥٩) تولى ولاية القاهرة بعد وفاة أخيه تاج الدين الشوبكي، وذلك في ربيع الأول ٨٣٩هـ/ أكتوبر ١٤٣٥م. انظر المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٥٩، ٩٩٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٣٣٢.

(٢٦٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٣.

(٢٦١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص٧٦-٧٧؛ وانظر أيضًا : محاسن الوقاد، الحجابة، ص٢٣٦، ٢٣٨-٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص٧١؛ حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠. أما عن الوالي علان من قراجا فقد تولى ولاية القاهرة في جمادي الأولى سنة ٩٠٧هـ. انظر : ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢١.

(٢٦٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٣؛ حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠-١٢١؛ لطفي نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٣.

(٢٦٣) بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٨.

(٢٦٤) معيد النعم ومبيد النقم، ص٤٣.

(٢٦٥) التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٠.

(٢٦٦) التشهير والتجريس الأولى من شهر والثانية من جرس، ومعناها اللغوي التنديد والتسميع وإذاعة ما يشين المذنب، وهو بغرض الإيلام النفسي للمذنب، فهو من ناحية ردع للمذنب وعبرة وعظة لغيره ممن تسول لهم أنفسهم الإقدام على فعله من ناحية أخرى. انظر : علاء طه، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٦٢، هامش ١.

(٢٦٧) ء طه، عامة القاهرة، ص١٣٦-١٣٧.

(٢٦٨) osenthal, The Herb, pp. 136-137.

(٢٦٩) مام العلامة قطب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الإمام ابن العباس أحمد بن علي النوري المصري ثم المالكي الشافعي المعروف بالقسطلاني، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، ولد سنة ٦١٤هـ، أقام بمكة مدة طويلة، ثم صار إلى مصر، وكان حسن الأخلاق محبًا إلى الناس، توفى آخر المحرم من سنة ٦٨٦هـ. انظر : ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٤.

(٢٧٠) هما مخطوط بدار الكتب المصرية فقه المذاهب الأربعة ٤٦، رقم الميكروفيلم ٤٦٦٤٢.

(٢٧١) بدار الكتب المصرية فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤ . وقد قام فرانز روسنتال Franz Rosenthal بنشر مخطوطة ثالثة منه في كتابه :

The Herb, Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden1971 . Pp176-197 .

(٢٧٢) المحرم من سنة ٨٠٨هـ وهو أحد أئمة الفقهاء الشافعية في ذلك العصر،كما يذكر ابن حجر، وصنف التصانيف المفيدة، وله أحكام المساجد وأحكام النكاح وحوادث الهجرة وغير ذلك. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص٣١٣-٣١٥؛ وانظر : مقدمة التحقيق لمخطوط إكرام من يعيش، ص٤-٦.

(٢٧٣) معرفة دار الصحابة للتراث بطنطا، ١٩٩١م.

(٢٧٤) ير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٠٧ .

(٢٧٥)كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٤، ص٧٠٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٣، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، ص١٦٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

• أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م) :

– تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة ٤٦ ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢.

– إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب ٤٦، ميكروفيلم ٤٦٦٤٢.

• الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م) :

– زهر العريش في الكلام على الحشيش، مجاميع ٦٤٣ ميكروفيلم ٤٩٧٨.

– زهر العريش في تحريم الحشيش، فقه تيمور ٧٢٥ ميكروفيلم ١٢٤٩٤.

ثانيًا : المصادر العربية والمعربة :

• ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) :

– بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، تحقيق محمد مصطفى، فيسبادن ١٩٧٥م.

• ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتي ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دائرة معارف الشعب، بدون تاريخ.

• ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) :

– الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، بولاق ١٨٧٤م.

• ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء ٤ ، ٧، طبعة دار الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.

- ابن تيمية (تقي الدين أحمد ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) :

- الحسبة في الإسلام، نشر قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية،جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، مجلد ٣٤، ٣٥، الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية، ١٤٠٣هـ.

- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) :

- رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

- بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ضبط وتصحيح السيد محمد أمين وعبدالوهاب عبداللطيف، دار الفتح، بدون تاريخ.

- ابن دانيال (شمس الدين بن دانيال الموصلي ت ٧١١هـ/١٣١١م) :

- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م.

- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين، جزءان في مجلد واحد، بيروت ١٩٨٥م.

- ابن سودون البشبغاوي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) :

- ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣م.

- • ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :

- فوات الوفيات والذيل عليها، ٤ مجلدات، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٢-١٩٧٤م.

- • ابن ظهيرة (أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي ٨٢٥-٨٩١هـ) :

- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩م.

- • ابن عبدالظاهر (محي الدين بن عبدالظاهر المصري ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) :

- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت ١٩٩٦م.

- • ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) :

- تاريخ ابن الفرات، م٩، ج٢، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بيروت ١٩٨٣م.

- • ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبي بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) :

- تاريخ ابن قاضي شهبة، المجلد الثاني، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الرابع، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٧م.

- • ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبدالله محمد الزرعي الدمشقي ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م):

- زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، الجزء الخامس، بيروت ١٩٩٨م.

- • ابن كثير (عماد الدين أبي الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :

- البداية والنهاية، المجلد السابع (ج١٣، ١٤) تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، القاهرة ١٩٩٢م.

• ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر (منتصف القرن ٩هـ/١٥م) :

- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة بدون تاريخ.

• ابن الوزان الزياتي (المعروف بالحسن الوزان وبليون الأفريقي ت ٩٥٧هـ/١٥٥٠م):

- وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م.

• الأقفهسي (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) :

- إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، تحقيق دار الصحابة للتراث، بطنطا ١٩٩١م.

• الجوبري (عبدالرحيم بن عمر الدمشقي) :

- المختار في كشف الأسرار.

• الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحي بن العماد ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الأجزاء من ٥-٧، بيروت، بدون تاريخ.

• السبكي (تاج الدين عبدالوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :

- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة ١٩٤٨م.

• السخاوي (محمد بن عبدالرحمن محمد بن عثمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :

- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت، بدون تاريخ.

• الصيرفي (علي بن داود الخطيب الجوهري ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) :

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٤م.

• طافور :

- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.

• العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد ٧٠٠-٧٤٩هـ/١٣٠٠-١٣٤٩م) :

- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨م.

• القرافي (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) :

- كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، المجلد الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

• القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، بدون تاريخ.

• الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف المصري) :

- كتاب الولاة وكتاب القضاة، صححه رفن كَست، بيروت ١٩٠٨م.

• مجهول المؤلف :

- المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، دراسة وتحقيق محمد الششتاوي، القاهرة ١٩٩٩م.

• المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، عن طبعة بولاق، بدون تاريخ.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م؛ والأجزاء ٣-٤ تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- كتاب المقفي الكبير، ج١، ٧ ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ.

ثالثًا : المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م.
- أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م.
- أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، سلسلة تاريخ المصريين ١٨٦، القاهرة ٢٠٠٠م.
- أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م.
- أحمد عبداللطيف، " الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية في عصر الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) " بحث منشور في مجلة كلية الآداب — قنا، العدد الثامن ١٩٩٨م، ص١٠٣-١٤٢.
- آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م.
- إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، " الأمراض الاجتماعية بين الطبقةالارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م "، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس ١٩٨٨م.

- سامية علي مصيلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م "، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، سنة ٢٠٠٥م.

- سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م.

- سهام أبوزيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربية إلى نهاية العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م.

- شلبي إبراهيم الجعيدي، طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي، ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧٠-١٢٥٠م، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ٢٠٠٣م.

- عبادة كحيلة، الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر، القاهرة ١٩٩٤م.

- عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٩م.

- عزت حسين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م.

- علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م.

- علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م؛ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٣م.

- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م.

- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، إسكندرية ١٩٩٠م.

الأدب في العصر المملوكي، ٣ أجزاء، الإسكندرية بدون تاريخ.

- محمد السيد أرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م.

- ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم، المساوئ الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م).

- لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ١٩٩٦م.

- نجوى كمال كيره، " المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي "، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، ص٨٥-١٢٥، القاهرة ٢٠٠٧م.

رابعًا : المرجع الأجنبية :

- Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971

وملحق به تحقيق لمخطوطة الزركشي، زهر العريش.

دكتور بشير زين العابدين *

تحقيق مخطوط : «تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا»

(١٠٧١-١٠٧٧هـ / ١٦٦١ - ١٦٦٥م)

لم تكد تهدأ الأوضاع فى مصر عقب أحداث فتنة قتل الفقارية التى اشتهرت باسم : «واقعة الصناجق» سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م ، حتى برزت فتنة أخرى ، اصطلح المؤرخون المحليون على تسميتها : «واقعة الضرب» والتى وقعت أحداثها سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٥م، وكانت السمة الغالبة للفترة الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب هى التوتر السياسى وتدهور الأوضاع الأمنية بسبب هيمنة قادة الفرق العسكرية على النظام الإدارى والمالى، وإغراقهم البلاد فى حالة من الفوضى نتيجة الصراع الدائم بينهم على السلطة والنفوذ . وفى خضم هذه الأحداث تصدى عدد من مؤرخى مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى لتدوين هذه الأحداث وتوثيقها ، لتظهر ملامح مدرسة تاريخية متكاملة خلال تلك الفترة ، من أبرز مصنفيها : إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى[١]، وعلى أبو الحسن وفا ، ومحمد بن محمود [٢]، وعلى بن رضوان [٣]، حيث شكلت هذه المجموعة جيلاً من المؤرخين يقع فى مرحلة وسطى؛ ما بين مؤرخى النصف الأول من القرن السابع عشر وعلى رأسهم : الإسحاقى ومرعى بن يوسف والغمرى وابن أبى السرور [٤]، ومجموعة مؤرخى القرن الثامن عشر ومن أبرزهم : الملوانى وأحمد شلبى والشاذلى والدمرداش [٥].

وفى عمله التاريخى الفريد يعمد على وفا إلى تفصيل أحداث الفترة الممتدة ما بين ١٠٧١ و ١٠٧٧هـ / ١٦٦١-١٦٦٥م . وذلك من خلال تقديم وجهة نظر السلطة الدينية فى مصر ، ونظرتها لتطور الأحداث السياسية فى مصر العثمانية خلال تلك الفترة، حيث يعكس المؤرخ •

---

* قسم العلوم الاجتماعية - جامعة البحرين .

مكانة رجال الدين فى الحياة السياسية. فقد كان الجامع الأزهر والجامع المؤيد وجامع الداودية والمحمودية وغيرها من مساجد القاهرة محور الأحداث السياسية، بل إن كثيراً من الضباط المتمردين كانوا يلجأون إلى الجامع الأزهر طلباً للأمن ، وكان رجال السلطة يتهيبون من انتهاك حرمة السلطة الدينية. كما يعكس المصنف فى تاريخه أهمية الدور الذى لعبه كبار رجال الدين المتمثلين فى قاضى القضاة وعلماء الأزهر والأشراف والسادة البكرية والوفائية ، كحضورهم الديوان وإصدارهم الفتاوى الحاسمة للخلافات السياسية وقيامهم بدور الوساطة بين ضباط الأوجاقات المتصارعين . ويحرص أبو الحسن وفا كذلك على ذكر جملة من القصائد التى صنفها بعض المحسوبين على السلطة الدينية فى التعليق على الأحداث مما يوفر مادة خصبة حول طبيعة العلاقة بين السلطة الدينية والسياسية فى مصر إبان العصر العثمانى.

ويشكل مخطوط على أبو الحسن وفا أهمية كبيرة لاستكمال الجهود الهادفة إلى توثيق تاريخ مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر ، حيث يبذل المصنف جهداً كبيراً فى تدوين أحداث السنوات الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب، وتقع النسخة الوحيدة من هذا المخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٦٩ تاريخ) وهى ضمن مخطوطين آخرين فى مجموعة واحدة تقع فى ٢٤٦ ورقة (٤٩٢ صفحة ، حجم الصفحة ١٧ سم × ١٢ سم) [٦]، تحتوى الصفحة الواحدة على حوالى ١٧ سطراً .

وقد أثار هذا المخطوط اهتمام المؤرخ الكبير عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم الذى كتب عنه فى عدة مواضع، وذهب إلى أن مصنف تراجم الصواعق - إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى- قد ألحق بمؤلفه بعد الباب الثانى تواريخ أخرى هى :

١- تاريخ سيدى على أبو الحسن وفا .

٢- تاريخ وقعة الضرب فى شهر صفر ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م.

٣- تاريخ الشيخ محمود (ابن محمود) عن أحداث سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩- إبريل ١٦٧٠م.

٤- تسجيل الصوالحى الخاص لأحداث التاريخ المصرى حتى توقفه عن التدوين سنة ١١١٣هـ / ١٧٠١م.

معلقاً على ذلك بقوله :

«كما أننا نستطيع أن نؤكد أنه [أى الصوالحى] قد عاش النصف الثانى من القرن السابع

عشر ومطلع القرن الثامن عشر حيث إنه لم يتوقف عن الكتابة إلا في عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م"(٧).

ولكن القراءة المتأنية للمخطوط تدفعنا للاختلاف مع د. عبد الرحيم في نسبة العمل الأخير إلى الصوالحي ، والتأكد على أن المخطوط يتضمن ثلاثة فقط، وهي على النحو التالي :

١- تاريخ ربراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي في واقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، (يقع في ٥٤ ورقة) .

٢- تاريخ الأستاذ سيدي علي أبو الحسن وفا ، ابتداء من جماد الثاني سنة ١٠٧١هـ / فبراير ١٦٦١م ، حتى سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥م، (يقع في ١٩ ورقة) .

٣- تاريخ محمد بن محمود ابتداء من وقعة الضرب في شهر صفر سنة ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م، وحتى شهر ربيع الأول سنة ١١١٣هـ / أغسطس ١٧٠١م، (يقع في ١٧٤ ورقة) (٨).

وقد أغفلت كتب التاريخ المعاصرة ومعاجم المؤلفين وكتب التراجم الإشارة إلى : «علي أبو الحسن وفا » ضمن مؤرخي مصر خلال القرن السابع عشر الميلادي . وحيث إن المصنف لم يترجم لنفسه فإن الطريقة الوحيدة لتقصي بعض المعلومات عنه هي الرجوع إلى كتابه ومحاولة التعرف عليه من خلال الاستئناس بالقرائن المتوفرة في ثنايا المخطوط ، ويمكن من خلالها الاستنتاج بأن المؤلف كان معاصراً للأحداث التي وقعت في مصر خلال الفترة التي يغطيها في تاريخه ، وذلك من خلال استخدامه لكلمة : «حالا» للإشارة إلى أن الشخص المشار إليه لايزال على رأس منصبه ، كما يترك المصنف انطباعًا لدى القارئ بأنه كان على صلة وثيقة بعلماء الأزهر حيث ينفرد بذكر مادة مهمة عن دور العلماء في الأحداث السياسية التي وقعت في القاهرة آنذاك ، ويورد العديد من الأبيات الشعرية لعلماء مصر في التعليق على الأحداث السياسية ومحاولتهم التأريخ للأحداث باستخدام الحروف الأبجدية .

وفي الوقت الذي لايذكر فيه المصنف أي سبب واضح لكتابة تاريخه ، إلا أنه من الواضح أن علي وفا قد كرس شهادته التاريخية للحديث عن الأوضاع السياسية والإدارية في القاهرة خلال الفترة : ١٠٧١-١٠٧٧ هـ / ١٦٦١-١٦٦٥م، حيث يتسم عمله بصبغة محلية تجعل من قلعة الجبل مركزاً للأحداث التي وقعت في القاهرة ، دون الاهتمام بأحوال الأقاليم أو بذل

أى جهد لترجمة الشخصيات السياسية أو الدينية التى يرد ذكرها ، بل يولى جل اهتمامه لتدوين الأحداث السياسية فيرصد حركة تعيين الصناجق وعزلهم فى المناصب الإدارية ، وخاصة مناصب القائمقامية والدفترادرية وإمارة الحاج وسردارية السفرات السلطانية والتجريدات المحلية التى كانت توجه إلى الأقاليم، وقد هيمنت خلافات الفرق العسكرية على غالب مادة المخطوط ، حيث يكثر المصنف من سرد خلافات الفرق العسكرية التى كان تحل عن طريق خروج بعض الأنفار من بلد إلى آخر، أو الاتفاق مع الباشا على نفى مثيرى الشغب إلى مناطق نائية ، وقد يصل الأمر إلى التخلص منهم عن طريق قتلهم من قبل خصومهم.

وقد قام الباحث بمراجعة النص، وحيث إنه لايتوفر سوى نسخة واحدة منه، فقد قام بمقارنته مع المخطوطات المعاصرة له وبالأخص منها: إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى؛ **تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق** . محمد بن محمود ؛ **تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب** . على بن رضوان ؛ **زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة** . يوسف الملوانى؛ **تحفة الأحباب** أحمد شلبى ؛ أوضح الإشارات. مع الإشارة إلى بعض الفروقات بين ما ورد فى المخطوط بالمقارنة مع المصادر الأخرى، كما تم إثبات المخطوط كما هو دون إجراء أى إضافة باستثناء إضافة الهمزات ووضع الفواصل والنقاط ليستقيم المعنى، وتركت سائر الأخطاء اللغوية والإملائية على حالها ، نظراً لما فى ذلك من أهمية لتكوين تصور واضح عن المستوى الثقافى والعلمى للمصنف ، مع الإشارة لتراجم بعض الشخصيات المهمة فى تلك الفترة ، والتعريف بأهم المناطق والأقاليم ، والمصطلحات الإدارية وغيرها من المعلومات التى تساعد على فهم النص وتكوين صورة واضحة حول ظروف العصر. وبالإضافة إلى ذلك فقد تم ضبط التواريخ الهجرية ومقارنتها بالميلادية فى الهامش لتمكين القارئ من تتبع الأحداث وفق أشهر السنة الشمسية.

النص كاملاً ومحققًا

تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا حفظه الله تعالى (فى قتل الفقارية) [٩]؛ قدر الله على فتية تنغيص عيش كان فيهم هنئ لما فتنوا بحبهم لمحنة تختم الكف على الألسن، فإنهم قد جاءنا تاريخهم ، فرحمة على المؤمنين .

تخميس آخر للشيخ محمد أبى السرور الهوى[١٠]:

عيونى والمدامع قرحتها ... وأحشاء عدا شرحتها
بأفعال لقتلى أسستها ... تجنوا لى ذنوبًا ما جنتها

يداى ولا أمرت ولانهيت

ولا سوءًا أردت أسز مصرا   ولاتمليكها أخذًا وقهرا

ولاخنت الإمام وملت دهرا   ولا والله ما أضمرت غدرا

كما قد أضمروه ولانويت

لمولى الأنام يخان عهدا   وكم لى منه إحسانًا ورفدا

ولكن للأعادى تم قصدا   ويوم الحشر موقفنا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

ويعلم شينهم جعلوه شينى   وما نقلوه من عذرى ومينى

نكفا مقلتى فبأى ذنبى   سيحكم بينهم ربى وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

ولبعضهم تخميس آخر

ألا كم من خطوب قد جنتها   فى الدنيا ومظلمة أتتها

ولما عاينوا الحسنى محتها   تجنوا لى ذنوبًا ما جنتها

يداى ولا أمرت ولانهيت

فصبرًا يا أولى العزمات صبرا   على حكم القضا نفعًا وضرا

فلم تترك لى الأعداء عذرا   ولا والله ما أضمرت غدرا

كما قد أضمروه ولانويت

فكم ذنب لى الأعدا أعدوا   وكم زور وبهتان أعدوا

فحسبى منهم قولا يعد   ويوم الحشر موعدنا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

فيا من رام بعد القرب بينى   بما أبداه من كذب ومينى

عسى يوم الحساب تقر عينى   ويحكم بينهم ربى وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

بمصـــــر كـــــان وزيـراً ... لـنعـم الـلـه حـــــامـــــد
كم جـــاهد الجـــور غـــزواً ... بســـيف عـــدل وســـاعـــد
بشّـــر مـــات شـــهـــيـــداً ... أرخـــت غـــازى مـــجـــاهـد[١١]

أ- ولاية إبراهيم باشا[١٢]:

وفى أواخر جمادى الثانى سنة ١٠٧١ حضر قابوجى من الديار الرومية وصحبته أمرين وقـــريت بالديوان [١٣]، الأول مضـمونه : بأن يدفع ديون الأمراء المقتولين على وجه الحق، والثانى : لا أحد يتصرف فى جامكيته ولايفرغ[١٤] منها وإن مات وخلف أولاد لايعطى لأولاده شيئًا وأكد فى الأمر الشريف غاية التأكيد ، فلما سمعت العسكر ذلك قالت : هذا ما هو قانون ، والعسكرى ما له غير جامكيته عندما يتعين لسفر السلطان يبيع منها ما يحتاج لأجل ما تعينه على السفر، ومن مات منا وخلف أولاد لايعطى لولده شيئا منها، وكان حينئذ فى السفر كريد[١٥] فطلبوا العسكر من مصطفى باشا بيورلدى[١٦] فى الفراغات .

وفى مستهل رجب سنة تاريخه [١٧]، تجمعت جميع الأمرا والأغوات والعسكر واتفقوا على كتابه محضر إلى مولانا السلطان محمد[١٨] بأن الذى أمر به لم يحصل للخزينة ضرر وكنا قبل تاريخه نضبط الخزينة[١٩] والآن حضر خط شريف[٢٠] بأن ولاية مصر أوليتها لوكيلى ، فامتعنا من الضبط وإن الباشات الذى يتولوا مصر هم الذى يتعللوا بذلك ، فبلغ مصطفى باشا فنزل بيورلدى إلى الأمرا والعسكر أنكم تكتبوا المحضر ونحن نرسله صحبة طائفة من عندى وطائفة من عندكم فاتفق رأيهم وكتبوا عرض وعينوا أحمد بيك بقناطر السباع وطاش بطر على آغا الطواشى ومن كل بلك نفر واحد وتوجهوا فى تاسع شهر رجب سنة تاريخه، فلما وصل أحمد بيك أرسل لجميع الأمرا مكاتيب يخبرهم [...][٢١] وقرنت الأمورات الذى جاء بها ابراهيم باشا مضمونها : أن تخرجوا أولاد العرب من جميع البلكات [٢٢]، ويرفع المرتبات واسم أولاد وعيال بمكة المكرمة والمدينة المنورة فوافقت الأمرا والعسكر وكتبت حجة[٢٣] بالدبوان ثم تسلسل الأمر ، وكان إبراهيم باشا حاكمًا كاتبًا قد ضبط الأموال الديوانية وأخذ دفاتر العنبر الشريف واطلع على الغلال السلطانية وأخذ الجراية والعليق للعساكر وغيرهم وكذلك الجوامك[٢٤] عند حلولها فارتفعت من جوامك النساء الثلث وذلك فى غرة شهر ذى القعدة سنة ١٠٧١ [٢٥].

وفى أواخر ذى الحجة سنة تاريخه حضر خاسكى[٢٦] من الديار الرومية وبيده أمورات وقرئت بالديوان العالى ، فعند قراءتها قال الأمراء والعسكر فيما بينهم : نحن نجعل لنا جمعية[٢٧] فى سبيل على باشا، وتعهدوا بأننا رجل واحد . فبلغ ذلك ابراهيم باشا فنزل لهم بيورلديات لجميع البلكات : أنكم لاتجعلوا لكم جمعية فى سبيل على باشا ولا فى غيره، وكل منكم يلزم بيته إلى أن يتوجه خاسكى السلطان ، ومهما كان لكم من الكلام وغيره العهدة علىّ وفى حال لكم سؤال أو كلام أنا القائم به، فبعد ذلك عمل أحمد بيك ضيافة إلى الخاسكى وكذلك عوض بيك الدفتردار[٢٨] وتوجه الخاسكى فى ٢٤ محرم سنة ١٠٧٢[٢٩].ويوم توجه الخاسكى عزل سنان جاويش زعيم مصر[٣٠] كان وقع يوم تاريخه غلغلة كبيرة، فقيل إن إبراهيم باشا طلب ثلاثمائة نفر من البلكات ومن جملتهم أحمد بيك حاكم[٣١] جرجه سابقًا فمشوا بذلك الذى ذكرناه ، فقامت العسكر على إبراهيم باشا وقالوا: ما نريد مصطفى آغا[٣٢] كتخدا[٣٣] الجاوشية [٣٤]، فعزله وولى يوسف آغا الذى كان ترجمان الديوان، وفى ثامن عشرين شعبان سنة ١٠٧٢ [٣٥]، عزلوا إبراهيم كتخدا طائفة الينكجرية[٣٦]، وسجنوا ثمانية أنفار فى القلة[٣٧] ولم أحد يعلم ما فعلوا بهم، فلما حصل ذلك بطل القال والقيل، وفى ثانى يوم تاريخه طلع أحمد بيك وصحبته السادة البكرية[٣٨] إلى إبراهيم باشا وتصالحوا بحضرة الوزير ووقع الصلح بينهم .

وفى عاشر شهره جماعة من بلك الينكجرية قطعوا الطريق على امرأة وبهدلوها وفتحوا ابزازها وأخذوا السوار منها وخلعها ولولا أن الله تعالى أرسل إلى المرأة عبداً لهؤلاء حتى خلصها من أيديهم لكانوا استفعلوا بها على قارعة الطريق ، وكان معها آغا طواشى فتوجه إلى باب[٣٩] الينكجرية وأخبرهم بما وقع من الخبر ، فنزل جاويش من بابهم وأخذ الذى فعلوا ذلك، وثانى يوم نزلوهم فى حديد فما نعلم ما فعلوا بهم.

وفى أواخر ذى القعدة ، عين أربعة أنفار من الجاوشية على كاشف[٤٠] الفيوم لتخليص مال السلطان. فتوجهوا له فوجدوا عنده اغا من آغاوات إبراهيم باشا بطلب مال السلطان ، فقال الآغا للجاوشية: أنا عيننى كتخدا الجاوشية بمعرفة الوزير، فأرسلوا الجاوشية عرفوا طائفة الجاوشية بذلك فاعرضوا الأمر على إبراهيم باشا فكان من جوابه إلى طائفة الجاوشية: إن كان عندكم حجة أو بيورلدى يشهد لكم ما يتعين فى خلاصه إلا طائفة الجاوشية أظهروه ولم بقيت لكم فى البيورلديات حتى تظهروه ، وكان ذلك فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٠٧٢[٤١]، فقالوا له

إن الحجة موضوعة فى صندوق فى نوبة خانه، فطلعوا بها يوم الأحد فقرأها حرفًا حرفًا وكتب عليها بيورلديًا بعمل ما فيها ، ثم إن طائفة الجاوشية قاموا قومة واحدة على كتخدا الجاوشية وقالوا ما نريده ، فعزله وولى محمود آغا الذى كان ترجمان الديوان حالاً يوم تاريخه .

وثانى يوم شهر ذى الحجة تجمع العسكر بالرميلة[٤٢] وقالوا : إن بيننا أنفار يستحقون التأديب ، فأمر إبراهيم باشا بنفى محمد بيك كاشف المنصورة حالاً، وكان بجدة سابقًا وهو من جماعة الفقارية [٤٣]، وإبراهيم بيك أمير الحاج[٤٤] الشريف حالاً ، ومصطفى آغا معمار باشه من المتفرقة [٤٥]، وسليمان آغا كتخد الجاوشية سابقًا ، ويوم تاريخه اخلع على ابن منديل خلعة بآغاوية الجملية[٤٦] وأحمد آغاة الجملية كان ألبسه كشف المنصورة ومرتضى باش طائفة المتفرقة اخلع عليهم الخلع ، وثالث يوم اخلع على أزبك بيك وسليمان آغا خلعتين ووجههم إلى أرض الحجاز يجيبوا الحاج الشريف، ورسم إلى ابراهيم بيك أمير الحاج الشريف المذكور بخمسمائة عثمانى وعشر جرايات[٤٧] وعشرة علايق ويقعد بالمدينة المنورة، وكذلك مصطفى آغا المعمار رسم له بمائة عثمانى بالمتقاعد[٤٨] بالمدينة المنورة ، فتوجه أزبك بيك فى خامس شعر ذى الحجة سنة ١٠٧٢ [٤٩].

وفى يوم الثلاث تاسع ذى الحجة طلع أحمد بيك فاتح الحبش[٥٠] سكنه بقناطر السباع يسلم على ربراهيم باشا فقتله وقتل مصلى كتخدائه فى يوم تاريخه .

من الملك الجبـار مـا أسـرع النقـم ... على هوة تأتى وقـد خـاب من ظلم
بغى أحمد البشناق فى مصر واعتدى ... وخالـف مولاه ولم يحفظ النعـم
وبالغ بالطغيـان والظلـم والأذى ... وحقـر أرباب العلوم ذوى الفهم
وشبّـه بالطغيـان جـامع أزهر ... بمالطة الكفـار عبـادة الصنم
وزاد علواً واحتـرابًا وغلظـة ... وآذى عبـاد الله فى الحل والحرم
ولما تناهـى فى الغـرور وفى الأذى ... وفى قهـره الأيتـام وهتكه الحرم
أتى من مليك العصر مرسومـه الذى ... به قلم الإسعاد فى الطرس وقد رقم
بتجريعـه كأس المنيـة سرعـة ... وتفسيره فى حدى ذى الهلك والعدم
فبعد امتثال الأمر فى الحال حين جرى ... عليه سيوف قاهرات من القـدم

فـقطع بالديوان حين قـدومــــــه   على يد مـولانا الوزير وقـد حكم
بوقـفة عـيد النحر قد كان نحره   ككبش الفدا يبغى التشبه بالغنم
وأرخت فى هذا حـروفًا لطيـفـــة   فـخذ عـدها تظفـر بنوع من الحكم
شـقى عـصى سلطانه لاح قـبـره   بذلك تاريخ الذى عـزه انعـدم(٥١)
فـلازال إبراهيم حـاكم مـصـرنا   ونار قـره فى النار يهـوى بما ظلم
وصلى إله العرش ربــــى دائمًا   على المصطفى المبعوث فى ن والقلم
كـذا الآل والأصـحـاب مـا قـالـه   من الملك الجـبـار مـا أسـرع النقم

لعمر النهوانى :

لما طغى البـشناق فى عـصــره   وعــارض السلطـــان فى أمـــره
فى يوم وقـفـة عـبـد نحـرانه   طلـــع إلى الديوان فى جـهلـه
أهلكــه اللـه ولـم يبـقــه   ومـات مكبـوبًا على وجـهـه
قـد قلت فى الظلم مـذ أرخـوا   جـهنـم تأتيـه مـع لحـده
يارب بحـــق الحـبـيب النبـــى   مـحـمـد المبـعـوث من ربـه
أبقى وزيراً حــاكـمًـا عــادلاً   بسـمى إبراهيـم والطـف به
وأهلك جـمـيـعًـا كل أعـدائـه   [شطر البـيت غـيـر مـقـروء]
صلي إله العـرش ربـــى علـــى   مـحـمـد الممدوح فى كـتـبـه
نبـينا شـافــعنا المجـتـبى   وآله الابرار مـع صـحـبـه
زباد الجنود بنقض العـــهــود   وضـم النقـــود إلى جنبـه
تقـرب فى ليلة الأضـحـيـــة   فـتـاريخـه جـاء باغى هلكه

وفى يوم الأربعاء رابع عشرين ذى الحجة سنة تاريخه حضر أميراخور(٥٢) من البـلاد الرومية وصحبته سهام وخلعة وسروال إلى إبراهيم باشا وأمر شريف فى حق أحمد بيك المقتول المذكور، وفى ثالث عشرين ربيع الثانى سنة تاريخه انجمعت العسكر فى الرميلة وطلبوا من إبراهيم باشا أن يطلع الخزينة فأرسل إليهم يقول : تمهلوا علينا عشرين يومًا وأنا اطلع الخزينة،

وكان ذلك بواسطة درويش كتخدا الينكجرية ، فاتفقت العسكر على ذلك وقالوا : بشرط أن يكتب إلى جميع البنادر بيورلديات ما أحد من الأفاقية يطلع من مصر، وإن وجدوا الأولاق(٥٣) يأتوا به إلى إبراهيم باشا، وكتب ذلك واخلع على حسين بيك خلعة سردارية(٥٤) من الديوان فى سابع جماد الأول سنة ١٠٧٣ ، وشالت الخزينة من العادلية(٥٥) فى سابع عشرين شهر تاريخه (٥٦).

وفى رابع عشر شهر رجب حضر أمر شريف برفع صنجقية(٥٧) حسين بيك كتخدا أحمد بيك المقتول وأمره بالتوجه إلى ثغر اسكندرية وعين له مائتين عثماني وجرايات من محصول اسكندرية، وقرئ الأمر الشريف بالديوان ، وفيه : من كان أهل شقاوة وفساد تنظرهم وترسل تعرفنا عن المفسدين، ونزل حسين بيك المذكور فى المركب إلى اسكندرية.

وفى سادس عشر رجب جمع الأمراء وآغاوات البلك وأبرز بيورلدي شريف بنفى قيطاس آغا كتخدا أحمد بيك المقتول إلى إبريم، ومصطفى كتخدا شعبان بيك وقانصوه كتخدا أحمد بيك بأنهم يتوجهون إلى ولاية جرجه يقعدون بها، وحسين بيك يقعد باسكندرية. فقيطاس بيك المذكور توارى فى مقام سيدى إبراهيم الدسوقى ، وبعد مدة من الزمان حضروا بمصر غير إبراهيم بيك أمير الحاج فإنه توفى بالمدينة المنورة، وفى سابع عشرين رمضان سنة تاريخه خلع على محمد بيك المتقدم ذكره خلعة الدفتردارية .

وفى ثالث عشر شعبان سنة ١٠٧٤ (٥٨)، جمع إبراهيم باشا الأمراء والآغاوات والاختيارية(٥٩) وغيرهم وجعل على الأموال الديوانية على كل كيس خمسة آلاف نصف ، وعلى الغلال كل أردب نصفين فضة تؤخذ من الملتزمين(٦٠) لأجل تكميل الخزينة ، وكتب حجة بما تقدم ذكره إلى الأمناء (٦١)، وأرسلوها إلى حضرة مولانا السلطان محمد صحبة مرزا آغا ومن كل بلك شخصًا واحداً وتوجهوا بالحجة.

ويح مصر بعد عز لقيت — سوء ذل وكذا خطبًا جسيما
كيف لاتخرب مصر وبها — حاكم بل ظالم فظ غليظا
جار عسفًا وعتواً واعتقب — ما بأيدى مستحق ويتيما
ونسا أرملات سباهم — بعد قطع الرزق لم يلقوا رحيما
وأخرب الأوقاف والأشراف وقد — أهانهم ما يخشى يومًا عظيما

ليت شعرى فى غد ما عذره | إله حاكم ربًا حكيما
سوف يلقى الهلاك وكذا | من أراد السوء فى مصر ذميما
قاله محيى الدين عنه خبراً | شيخنا الأكبر قولاً مستقيما
وهو فى الحبر للتاريخ تم | إن ربراهيم شيطانًا رجيما

وقال:

جاء بالصدق حديث مستند | قد رووه الناس عن خير البشر
من نوى سوءًا لمصر عاجلاً | سوف يلقى هلاكا وضرر
وكذا إبراهيم لما أن طغى | لقى الساعة أدهى وأمر
عزلوه ثم ولوا عمراً | وله المقدور بالسجن أمر
رخصت أسعار مصر وغدت | فى هنا وكذا جاء المطر
فهو شيطان وقد أرخته | يهرب الشيطان فى يوم عمر

وفى ثامن شهر رمضان عزل زعيم مصر وتولى عوضه حسين بغانه، وولوا آغاة الجراكسة[٦٢] فى منصبه، وعزل ابن يحيى زاده الذى أخذ عنه ، وعزل جالق مصطفى من آغاواة الجبجية، وفى ثالث عشر رمضان نزلوا مصطفى آغا المذكور إلى بلك الكشيدة[٦٣] وعابدين جاويش وزندار طائفة المتفرقة سابقًا وقريبه حسن جاويش وأمين الخردة الجميع من بلك المتفرقة نفوهم إلى اسكندرية ، وفى خامس عشر رمضان ظهرت قائمة مكتتبة عن طائفة الجاوشية أولها شاويش آغا كتخدا الجاوشية،،وإبراهيم آغا بن حجى باشا ترجمان الديوان حالاً، وكاتب حوالة الجاوشية وهو يومئذ أحمد أفندى[٦٤] الشهير بشكر باره، وأحمد جاويش الشنكجى وبعض أنفار ، وثانى يوم وقع تنبيه[٦٥] واجتمعوا ببيت كتخدائهم وقروا فاتحة بأنهم رجل واحد وإن حصل طلب فى أدنى نفر منهم لم يسلموا فيه.

وفى سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤ [٦٦]، اجتمعت الصناجق على العادة ببيت قائم مقام[٦٧] وتمت محاسبة إبراهيم باشا ، فالذى طلع عليه ألف ومائتين كيس وسبعة وثلاثون كيساً بما فيه المواجب والصر غير محاسبة الغلال، وفى يوم تاريخه حضر أولاق من الدبار الرومية برجوع دلاور آغا من إبريم ، وقيل : أنعم عليه مولانا السلطان محمد بثلثمائة عثمانى وخمس

جرايات وخمس علايق ، وثانى يوم أرسلوا الحجة والفتوة الذى ربطوا بها الخمسة آلاف نصف المضاف(٦٨) على الأموال ومحاسبة إبراهيم باشا وأرسلوها صحبة نفرين؛ نفر من المتفرقة ونفر من الجاوشية، وأرسلوا إلى مرزه بأنه يرجع العرض الذى كان توجه به .

وفى ٢١ رمضان وقع كلام بين سليمان آغاة الينكجرية سابقًا وبين كتخدا الجاوشية بسبب المحتسب ، فقيل : إن سليمان آغا قلّ أدبه على كتخدا الجاوشية ، فقاموا عليه طائفة الجاوشية وأخذوا عليه بيورلدى شريف بأنه يلزم بيته إلى آخر مضان وثالث يوم العيد يتوجه إلى بلاده ، وفى ٢٦ رمضان سنة تاريخه قاموا على أحمد جاويش الشنكجى بنوبة خانه وبهدلوه بهدله زايدة وأنزلوه بيلك المتقاعدين ، وكذلك كاتب الحوالة ويوسف الشهير بيرجى يوسف نزلوهم فى بلك المتقاعدين وكان ذلك يوم الأربعاء ، وصروا المواجب يوم تاريخه ، ورفعوا قلم أحمد أفندى المذكور من مقاطعة الغربية(٦٩) وقرروا فيه محمد أفندى بن قادرى زاده ، وفى سنة تاريخه نزلوا قلعلى حسين جاويش وسنان جاويش الوزندار وأبرش حسين ورضوان جاويش الطويل فى بلك المتقاعدين ، ومحمود جاويش برابع نوبه وعبد الكريم جاويش طردوهم من نوبهم ، وشاويش كتخدا الجاوشية أرسلوا له بيورلدى أن يتوجه إلى بلاده ولاينام تلك الليلة فى بيته ، فتوجه فى ساعته ، وفى ثالث شوال ألزموا عشرة أنفار من الجاوشية أن يلزموا بيوتهم ، ستة من عصبة أحمد جاويش الشنكجى وأربعة أنفار من النوب، وفى رابع شهر شوال وهو يوم الخميس طلعوا إبراهيم باشا قصر يوسف سجنوه به وكتخدائه وكاتب الديوان والمقابلجى وناظر الشون وخاص وكيل خراج سجنوهم بالبرج ، وصراف باشا ويهودى ثانى سجنوهم بالعرقانة(٧٠).

وفى سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤ (٧١)، تجمعت طائفة الجاوشية في جامع الداودية واتفقوا بأن السبعة أنفار الذين نزلوهم بلك المتقاعدين ينفوهم إلى إبريم ، فنزلت لهم أربعة جاوشية بناء على ينزلوا بهم إلى إبريم ، فوجدوا حسين وبيرجى يوسف فأخذوهم ونزلوا بهم إلى بولاق، فساعة أخذهم توجهت أهل بيوتهم إلى باب الينكجرية وشكوا إليهم بما وقع فتشفعوا طائفة الينكجرية فيهم وكذلك جميع البلكات، وقرأوا فاتحة بأنهم يقعدوا فى بيوتهم بأدبهم ولم أحدا منهم يطلع من بلك المتقاعدين إلى بلك غيره .

وفى حادى عشر شوال نزلوا إبراهيم باشا من قصر يوسف وحاسبوه فوجدوا فى ذمته تسعمائة كيس وكسور، فأخذوا منه ستمائة كيس وكسور وتفضل عنده ثلثمائة كيس(٧٢)،

وثانى يوم تاريخه صلى صلاة الجمعة فى أثر النبى صلى الله عليه وسلم الذى بمصر القديمة ، فإن إبراهيم باشا المذكور وسعه وجدده وبنى تحته رصيفًا لدفع ماء النيل عن بنائه ورتب له مائة عثمانى وارصد له طين وعين به قراء، وطائفة وحراس قاطنين بأثر النبى، وشرط النظر أن يليه آغاوية الينكجرية بمصر المحروسة وحسين جاويش وأحمد جاويش المتقدم ذكرهم، فحسين جاويش عمل جركس بيك وأحمد جاويش نزل بلك الينكجرية . وأرسل إبراهيم باشا بيورلدى إلى شاويش كتخدا جاوشان سابقًا برجوعه إلى مصر لأجل محاسبة محمد آغا آغاة البنات الذى كان منفيًا فى إبريم فإنه رجع من إبريم بأمر من السلطان ، فأحضروا شاويش كتخدا الجاوشية بسبب محاسبته وأيضًا حسين بيك الذى نفوه إلى ثغر اسكندرية أرسل له قائم مقام بيورلدى بالتوجه إلى بلده، وكذلك سليمان آغا آغاة الينكجرية سابقًا توجه إلى بلاده .

وفى ١٧ ذى القعدة سنة ١٠٧٤ [٧٣]، اجتمعت طائفة الينكجرية فى باب آغاتهم وعزلوا كتخدائهم هو مصطفى القندقجى ، وأمين بيت المال ببابهم نفوه إلى قبرص ، وجقرجى على وبندقجى ولى ويوسف أوضه باشه[٧٤] نفوهم إلى إبريم ، وأربعة أنفار كانوا طلعوهم من بلكهم سابقًا رجعوهم إلى البلك يوم تاريخه .

ب- ولاية عمر باشا [٧٥]:

وفى أواخر ذى الحجة سنة ١٠٧٤ حضر عمر باشا، وطلع الديوان فى يوم الخميس ابتداء شهر ذى الحجة ، وثانى يوم تاريخه حضرت بشاير من السلطان محمد نصره الله وأطال بقاءه جاء له ولد ذكر واسمه مصطفى، وزينت مصر المحروسة سبعة أيام ، ويوم تاريخه قرئ الأمر الشريف بالزينة[٧٦] وقرئ أيضًا بحضرة الصناجق والآغاوات والعسكر، وأكد فيه أمره الشريف مضمونه : أنكم اجتهدتم فى تكميل الخزنة وتشكر من العسكر جميعهم وبيض الله وجوههم ، وأرسلتم سابقًا عرضًا باتفاقكم على خمسة آلاف نصف تصاف على كل كيس لاجل يكميل الخزينة ، ثم أرسلتم عرضًا ثانيًا تعتذروا فيه وذكرتم تقولوا ما فعلنا هذا وكتبنا حجة وفتاوى السادة العلماء، وتقولوا فى العرض هذه مظلمة أيش هذا الكلام ؟ وتربة أجدادى الشرينة تقتدوا الأمر بالروزنامة[٧٧] وكل من عاند أقتله بأشد العذاب . فعندما سمعت أرباب الديوان والصناجق غلغلت فى الكلام فى تلك الساعة ، فعند سماع عمر باشا غلغلتهم تعهد إلى العسكر : إن حصل لهم ضرراً وغير ضرر يكون المشار إليه دافع عنهم ما يضرهم ، وفى يوم الاثنين انجمعت الصناجق والآغاوات حكم العادة ببيت[٧٨] بيك قائم مقام واتفقوا بأنهم يجعلوا

على كل كيس ألفين نصف فضة وعلى كل أردب من الغلال نصفين فضة، فجمعوا ذلك فبلغ مائتين كيس وعشرة آلاف نصف فضة ، وجعلوا على الكشوفية الكبرى وهى أرباب المناصب على كل كيس ألف نصف فضة ، وينزلوا من ثمن القفاطين ثلاثون كيسًا ، وفى يوم الثلاثاء رفعوا الحراس عن إبراهيم باشا وحصل الاتفاق بينه وبين عمر باشا وكذلك العسكر، والذى تفضل بذمته يدفعه فى الديار الرومية ، وفى ثالث عشر ذى الحجة توجه إبراهيم باشا إلى الديار الرومية فكان مدة تصرفه بمصر سنتان وعشرة أشهر.

وفى ثالث عشر ذى الحجة اخلع عمر باشا على كتخدا الجاوشية والترجمان والمحتسب ومصطفى آغا الشهير بقطلك كيله سى باش طائفة المتفرقة ، وباش متفرقة ولاه آغاوية الجراكسة، ويوم تاريخه انجمعت العسكر بالرميلة وعزلوا يوسف آغا الينكجرية وولوا عوضه مصطفى آغا باش المتفرقة المذكور أعلاه، وولوا حسن آغا الشهير بلفيا عوضه(٧٩)، ومصطفى آغا المذكور لم وجدوه بمصر ، وقيل : إن يوسف آغا ومصطفى آغا المذكورين كانوا متفقين مع ابراهيم باشا على الخمسة آلاف المضافة الذى تقدم ذكرها .

وفى ثامن شهر صفر وهو يوم الجمعة سنة ١٠٧٥ (٨٠)، انجمعت طائفة الينكجرية وطاذفة العزب(٨١) بالرميلة بأسلحتهم وأرسلوا إلى أغوات بلك الاسباهية(٨٢) والصناجق فحضروا عندهم، وتكلموا معهم من جهة مصطفى آغا كتخدا الجاوشية أن جميع العسكر ما يريدون المذكور أن يكون كتخدا الجاوشية ، فطلعت الأغوات إلى عمر باشا وعرفوه عن ذلك ، فأرسل يقول للعسكر : اطلبوا من يكون كتخدا ، فاعرضوا على حضرة عمر باشا أننا ما نطلب سليمان آغا آغاة الينكجرية سابقًا ولاشاويش كتخدا الجاوشية ولا ابن حجى باشا ، هذه الثلاثة أنفار لايعطى لهم منصب ، ويعطى لمن يختاره صاحب الدولة ، فعند ذلك خلع على يوسف آغاة التفكجية خلعة كتخدا الجاوشية ، وولى رمضان أفندى كاتب المتفرقة سابقًا آغاوية التفكجية وعزل يوسف كتخدا الجاوشية فى ثامن ربيع الثانى سنة ١٠٧٥ (٨٣).

وفى سنة تاريخه تولى رمضان اغا الشهير بالأرمنى الشون الشريفة وأمين البحرين، وفى تاسع ربيع الأول وهو يوم الاثنين سنة تاريخه انجمعت طائفة الينكجرية فى باب آغاتهم وقاموا على درويش كتخدائهم سابقًا ومراد كتخدائهم سابقًا وبهدلوهم وضربوهم وحبسوهم فى القلة، واعرضوا فيهم إلى عمر باشا وطلبوا منه بيورلدى بقتلهم ، فأعرض عنهم ولم أعطاهم بيورلدى ، فراجعوه ثانى مرة فأعطاهم بيورلدى بخنقهم فى القلة يوم تاريخه ، وفى شهر تاريخه توفى

إلى رحمة الله تعالى محرم بيك بن ماماى بيك، وفى يوم الثلاث خلع على رمضان آغاة التفكجية حالاً خلعة الصنجقية ، ومصطفى آغاة العزب خلع عليه بآغاوية الينكجرية ، وشاويش كتخدا الجاوشية سابقًا ولاه آغاوية العزب، ومحمد آغا الشهير بابن يحيى زاده ولاه آغاوية التفكجية يوم تاريخه ، ثم إن طائفة الينكجرية انجمعت فى باب آغاتهم وقالوا: ما نريد مصطفى آغا يكون آغاتنا ، فعزلوه ولبسوا الشريف حسين آغات الجراكسة سابقًا ، وفى يوم الأربع قامت طائفة الجاوشية على يوسف كتخدائهم وعزلوه وولوا مصطفى أفندى الذى كان ترجمان ، وولى جعفر آغا تابع قاسم بيك آغاوية الجراكسة ، وأحمد بيك سردار كريد ولاه كشوفية الغربية، وأحمد أفندى ابن بواب زاده ولاه الترجمانية فى حادى عشر شهر ربيع الثانى سنة ١٠٧٥ .

وفى ثالث عشر ربيع الثانى اخلع على أحمد بيك خلعة بسردارية الخزينة، وفى ١٣ جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حصلت زلزلة، وفى تاسع عشر ربيع الثانى وهو يوم السبت انجمعت طائفة الينكجرية وطائفة العزب بالرميلة بأسلحتهم وجمعوا بقية البلكات ، وقالوا : نحن لنا دعوة شرعية على أويس بيك قائم مقام سابقًا ، فقالوا لهم : إن كان لكم دعوة شرعية على أويس بيك نحن وأنتم رجل واحد، وأرسلوا الصناجق وأغوات البلكات الخمسة فحضروا بالرميلة يوم تاريخه ، واعرضوا الأمر على عمر باشا فأرسلوا إلى أويس بيك وقت أذان الظهر فطلع الديوان، ثم إنهم ادعوا عليه طائفة الينكجرية وطائفة العزب أنه قتل شخص منهم ، فقال : نعم مملوكى وقتلته، فثبت عليه القتل بحضرة قاضى العسكر[٨٤] بالديوان فخنقوه بالديوان يوم تاريخه ، وكان قبل تاريخه أرسل عمر باشا إلى محمد بيك أمين جدة أن يطلع وطاقه[٨٥] ويتوجه فطلع وطاقه يوم تاريخه ، وكان زعيم مصر سنة تاريخه محمد مملوك الشكعة .

وفى ثالث عشر جماد الأول سنة ١٠٧٥ [٨٦]،خلع عمر باشا على محمد بيك خلعة حكومة ولاية جرجه عوضًا عن دلاور بيك، وفى شهر تاريخه ظهر نجم بالسماء وله ذنب طوله ذراعين أو أكثر وحصل زلازل ثلاثة مرار، وفى شهر تاريخه انجمعت طائفة الينكجرية والاسباهية فى الرميلة وعزلوا جعفر آغاة الجراكسة ونفوا ثمانية أنفار من الاسباهية إلى الواح، منهم : قيطاس شربجى واكشى أحمد من طائفة الجملية، وثانى يوم ولوا حسين بيك كاشف المنصورة سابقًا آغا على طائفة الجراكسة ، وذو الفقار[٨٧] كاشف الشرقية[٨٨] حالاً خلع عمر باشا عليه خلعة الصنجقية وأمينية جده وهى صنجقية أويس بيك، وفى ثانى عشر جمادى الثانى لبس

مصطفى أفندى كاتب المتفرقة سابقًا آغاوية التفكجية ، والذى نفوهم من بلك الجراكسة ثلاثة منهم دخلوا الجامع الأزهر وواحد دخل بيت البكرية ، ويوم تاريخه أرسلوا إلى ابن منديل ومصطفى كتخدا الجاوشية وسليمان آغا آغات الينكجرية(٨٩) سابقًا وجعفر آغاة الجراكسة وحسن كاشف تابع أحمد بيك وقانصوه ومحمد كاشف وهو ابن المقرقع الجميع من بلك المتفرقة ، منهم من نفوهم إلى قبرص ومنهم من فر ، ومنهم من خلص .

وفى ثانى عشرين جمادى الأول سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك والعسكر فى بيت محمد بيك ، وقروا الفاتحة ووقع الصلح بينهم جميعًا ، والذى وقع لم يسأل عنه، والذى مضى لم يسأل عنه، والذى نفوه سابقًا أرسلوا جابوهم وعفوا عنهم، وفى سادس عشرين جمادى الأول اخلع على حسين بيك خلعة الدفتردارية ، وفى تاريخه عزلوا على أفندى كاتب حوالة الجاوشية سابقًا وهو ابن مصلح الدين أفندى فكان مقاطعجى الصرف ونبهوه أنه ما يطلع الديوان، ويقعد ببيته، ثم بعد ذلك طلع مكانه .

وفى يوم الثلاث سادس عشرين جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حضر أمر شريف من الديار الرومية وقرئ بالديوان مضمونه : بموجب عرض إبراهيم باشا تجهز ذو الفقار بيك الشهير بالماحى وصحبته مصطفى أفندى الرزونامجى(٩٠) سابقًا الشهير بابن سهراب(٩١) باقيد بند، فلما فرغوا من قراءة الأمر الشريف حاش ذو الفقار بيك المذكور بجنبه وأرسل ختم بيته وأرسله إلى الديار الرومية قبل الظهر يوم تاريخه، وأرسل أحضر مصطفى أفندى المذكور وأرسله خلف ذو الفقار بيك بعد العصر، وفى أواخر شهر تاريخه أمر عمر باشا محمود آغا كتخدا الجاوشية سابقًا بأن يتوجه إلى المدينة المنورة صحبة يوسف آغا شيخ الحرم النبوى، ونزلوا ختموا بيت حسين بيك الذى كان نفوه سابقًا إلى اسكندرية، وكان قائم مقام وجّه حسين بيك من اسكندرية إلى بلده، فأمر عمر باشا أن يطلع من بلده ويتوجه إلى اسكندرية ، فطلع من بلده ونزل بمركب ليتوجه إلى اسكندرية فأرسل خنقه فى المركب وهو متوجه، وفى تاريخه طلّعت الينكجرية من بلكهم أربعة أنفار إلى بلك المتفرقة ؛ نفرين من توابع درويش كتخدائهم ونفرين من توابع مراد كتخدائهم المذكورين ، وفى شهر رجب سنة ١٠٧٥(٩٢) ، وهو يوم السبت خلع عمر باشا على ذو الفقار بيك خلعة بحكومة ولاية جرجه ، وعمر باشا فى قرا ميدان(٩٣) عوضا عن محمد بيك الفقارى الذى كان ضربة(٩٤) مصر وكان سكنه ببيت اقبردى .

وفى تاسع عشر شعبان سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك فى بيت محمد بيك

المذكور واتفقوا على تعيين تجريدة[٩٥] إلى جميع البلاد بالتفتيش على السلاح، وثانى يوم عين عمر باشا شاويش آغا آغات الجملية وحسين آغا وعسكر من الاسباهية ومائة نفر من الينكجرية وخمسين من العزب وأعطاهم بيورلدى على بياض بالتفتيش على السلاح ، فتوجهوا فى غاية شهر رمضان سنة تاريخه، وحضروا فى ابتداء شهر ذى القعدة وجابوا معهم نحو اثنى عشر حمل مزراق وجانب بندق ونزل عمر باشا كشف عنهم فى قرا ميدان، وخلع على الأغوات الخلع . وفى خامس عشر رمضان سنة تاريخه خنقوا اكشى أحمد باش جاويش الجراكسة سابقًا فى بيت مصطفى اغاة التفكجية حالاً الذى كان بيته بقرب الحنفى وهو من جماعة[٩٦].

وفى سادس عشر رمضان انجمعوا الصناديق وأغوات البلك على العادة فى بيت محمد بيك حاكم ولاية جرجه وهو الضربه واتفقوا على نفى خمسة أنفار إلى جرجه ، فأخذوا البيورلدى عليهم من عمر باشا، وفى ١٧ شهر رمضان[٩٧]، توجه إلى جرجه مصطفى آغا كتخدا الجاوشية وآغاة التفكجية سابقًا أرسلوه إلى بلده خاصة يقعد بها، ومصطفى كتخدا الجاوشية المذكور أرسلوا خلفه بيورلدى شريف بأن يتوجه إلى المدنية المنورة بجميع علوفته[٩٨]، وتوجه من على القصير، ومحمد آغا البلطجى دخل الجامع الأزهر، وإبراهيم جاويش وكيل خراج حضرة مولانا السلطان محمد توارى فى مقام سيدى أحمد البدوى، وفى غاية رمضان سنة تاريخه وقع من فوق الحصان فى بيته تقنطر به فمات ودفن ثانى يوم، وفى حادى عشر شوال توارى حسين جاويش التفكجية الشهير باليمنلى بالجامع الأزهر ومكث فيه أيامًا، قيل : إنه ذكر لمحمد بيك نورالى بأن محمد بيك حاكم جرجه وهو الضربه اتفق على قتله فتحذر على نفسك، فبلغ محمد بيك الضربه فأخذ عليه بيورلدى بنفيه، فبلغ يمنلى حسين فدخل الجامع الأزهر وتوارى فيه، وفى ثالث عشر شوال سنة تاريخه أرسل عمر باشا بيورلدى شريف إلى الجامع الأزهر بأن الذين تواروا عندكم تطلعوهم من الجامع وهم عشرة أنفار وتسلموهم، فاجتمعت العلما والمدرسين والطلبة والبكرية والسادة الوفائية ونقيب الأشراف وهو برهان الدين أفندى وأولاد المكاتيب وتوجهوا إلى بيت قاضى العسكر وعرفوا القاضى بأنه حضر لنا بيورلدى شريف على بياض على يد كتخدا القابوجية من حضرة عمر باشا بخروج عشرة أنفار فارين من القتل، فإننا لم نخرجهم من الجامع ولانسلم فيهم، فأرسل حضرة القاضى جوخدار إلى عمر باشا وعرفه أن أهل الجامع الأزهر والعلما والشرفا والبكرية والسادة الوفائية لم يسلموا لكم فى ذلك الأمر، فأرسل إليهم بيورلدى شريف بالأمان ، وبعد ذلك أمر عمر باشا

المنادى بإشهار الندا أن لا أحد يخرج من بعد العشاء من بيت إلى بيت فلما أشهر الندا المنادى تقفلت أبواب الجامع الأزهر الثلاثة، وقبل يوم تاريخه وجه عمر باشا نظارة الجامع الأزهر إلى يوسف أوضه باشة الينكجرية ، فلما وجه النظارة للمذكور بلغ أهل الجامع الأزهر، فقالوا : لم تريده ولانطلب إلا محمود الشهير بالهربطلى يكون ناظراً ، وفى يوم تاريخه قرأت العلماء والمجاورين بالأزهر سورة الأنعام أربع مرات ، وتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء على محمد بيك حاكم جرجه حالاً والضرب ، وقالوا فى دعائهم : يا مفرج الكرب عليك بمحمد بيك والضرب ، وطلعوا على مواذن الجامع الأزهر بالبيارق وطلبوا من الله سبحانه وتعالى بإزالة المذكورين ، وقيل : إن فى ليلة تاريخه اجتمعوا الصناجق والضرب بعد العشاء فى الرميلة وعلقوا مصحف شريف وسهام، وحلفوا أنهم لايضروا أحداً غير أنهم مصممين على العشرة أنفار الذى بالجامع الأزهر وراجعوا فيهم العلماء والمجاورين ، وفى ثانى يوم تاريخه شاهين زعيم مصر قطع رأس شخصين بجنب حوض الجامع الأزهر فضربوه المجاورين بالحجارة ، وقيل إن المجاورين بالجامع الأزهر أخذوا بيورلدى شريف من عمر باشا يوم الأربع وضربوا عيسى الشرقاوى وبهدلوه وقطعوا ثيابه ، وفى ٢٦ شهر جمادى الثانى سنة ١٠٧٥ (٩٩)، توفى إلى رحمة الله الشيخ سلطان المدرس الشافعى بالجامع الأزهر.

وفى شهر محرم سنة ١٠٧٦ (١٠٠)، لبس رمضان بيك الفرجانى سرداراً على سفر جزيرة كريد وتوجه بالعسكر فى ابتداء شهر صفر سنة تاريخه وتوفى بها ، وفى سادس عشرين محرم سنة تاريخه أرسل عمر باشا جاب مصطفى أفندى بن سهراب الروزنامجى، فإنه انقطع فى الطريق عن التوجه صحبة ذو الفقار بيك، فلما حضر أرسلوه إلى ولاية جرجه ، وقيل إن ابن منديل وسليمان آغا ومحمد بن المقرقع ومصطفى القندقجى كان عمر باشا أمر بنفيهم فطلعوا فارين ، فمنهم من توجه إلى الشام ومنهم من توجه إلى الديار الرومية .

وفى ٢٢ شهر صفر الخير سنة ١٠٧٦ (١٠١)، وهو يوم الأربع طلع محمد بيك الضربه إلى عمر باشا فأمر جماعته فضربوه بالسيوف فوقع ذراعه داخل السرايا (١٠٢)، ثم إنهم قطعوا رأسه وأرسلها إلى الديار الرومية ، فكان محمد بيك المقتول حاكم بولاية جرجه والشرقية والمنوفية والفيوم، وفى يوم تاريخه خلع عمر باشا على محمد بيك الشهير بمحمد جاويش كتخدا رضوان بيك سألوه لتولية حكومة جرجه ، وفى رابع عشرين صفر الخير سنة تاريخه جاء لعمر باشا من الديار الرومية خلعة وقرئ الخط الشريف ، فمضمونه : أنك تخرج من حق

المفسدين وأهل الشقاوة وأكد فى الخط الشريف [...] [١٠٣]، وفي يوم تاريخه لبس عوض بيك كشف ولاية المنصورة ، وأحمد بيك تابع قيطاس بيك القديم الساكن بسويقة اللالة كشوفيه ولاية المنوفية، وأرسل عمر باشا إلي شاويش آغاة الجملية سابقًا خلعة بآغاوية الجراكسة عوضًا عن حسين آغا ، قيل : إن حسين آغا كان ضعيفًا . وفى يوم تاريخه لبس مصطفى شربجي مملوك قرا محمد آغا باش قافلة السويس.

وقيل: إن فى يوم تاريخه قبل الظهر بلغ عمر باشا بأن الضرب اتفقوا بأنهم يهجموا على عمر باشا فى القلعة فأمر بقفل أبواب القلعة ، وفى يوم الاثنين سادس عشرين صفر سنة تاريخه أرسل عمل باشا إلى الصناجق وإلى آغاوات البلك : بأنكم تحضروا عندي بعد نصف الليل، فلما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ولاح انجمعت بقية العسكر وقرئ بحضرتهم أمرين شريفين ، أحدهما : فى حق يمنلى فضلى ، والثانى: فى حق يوسف أوضه باشا الينكجرية ودرويش على وأصلان جميعهم أوضه باشا طائفة الينكجرية ، فقال عمر باشا إلى باش جاويش الينكجرية : أيش تقول؟ فذكر أنه توجه إليهم فقالت: طائفة مستحفظان أنهم ما يسلموا فى الخمسة المذكورين ما داموا طيبين، فأرسل عمر باشا إلى العلماء والبكرية ونقيب الأشراف وقرئ الأمر الشريف بحضرتهم بالديوان، فرد عليهم باش جاويش مستحفظان بالكلام الذى ذكره عنهم أولاً ، فأمر بكتابة بيورلدى وأعطى إلى زعيم مصر وهو بغانه حسين بإشهار الندا على الخمسة المذكورين بأن جوامكهم رفعت ومن كان ملجئ لهم أو يكون معهم أو بصحبتهم ترفع علوفته ، فبعد ذلك أفتت السادة العلماء بأنهم عصوا الله وأولوا الأمر ، فنزل عمر باشا والصناجق وأغوات البلك إلى قرا ميدان، ونزلوا بيرق النبى صلى الله عليه وسلم معهم وجعلوه فوق باب قرا ميدان، ونزل ستة مدافع فى الرميلة وحطوهم تحت قلعة السلسلة، وباتت تلك الليلة العسكر والصناجق وأغوات البلك فى الرميلة ، وحصنوا الدروب والطرق وعمر باشا بات بقرا ميدان وكان عنده الشيخ البكرى وتوجه إلى منزله .

وفى يوم الاثنين سابع عشرين صفر سنة تاريخه باتت العسكر والصناجق فى قرا ميدان وفى الرميلة وهى ليلة الثلاث، فلما أصبح الله بالصباح أرسل عمر باشا إلى الضرب وهما شخصين داخل جامع المؤيد[١٠٤] وبعض طائفة مستحفظان معهم جوا[١٠٥] الجامع ، وهم قافلين الأبواب وطلعوا على الموادن وسطح الجامع، فقالوا لهم : إن عمر باشا طلب الضرب الخمسة أنفار لا غير وأنتم عليكم الأمان ، فقالوا : ما نسلم فيهم أبداً ولو تروح أرواحنا على

السيوف، فراجعوهم أول وثانى فلم وافقوا فى تسليمهم ، فأخبروا عمر باشا بما ذكروه فأمر بتعيين محمد بيك الشهير بمحمد جاويش وأبى قوره، وأمر العسكر أن يحاصروا الجامع من كل جانب ، وكان يوم السبت ثامن عشرين صفر سنة ١٠٧٦ (١٠٦). فحاصروهم وأخذوا العسكر ينهوهم فلم يمتثلوا لكلام العسكر ولم يوافقوا على تسليم المذكورين، فنزل عمر باشا المدافع للعسكر بعد أن أفتت السادة العلماء بأن الجامع إن تهدم منه شئ يعمره عمر باشا، فضربوا المدافع والبندق على الجامع من الظهر إلى وقت العصر ، فأجابوا بالأمان وفتحوا الباب الذى عند السكرية وارموا أسلحتهم ، وخرج منهم نحو خمسين نفر أو أكثر وهم شاهرين السيوف ، فمنهم من أخذه طائفة مستحفظان وحماه، ومنهم من أخذه طائفة العزب، ومسكوا نحو عشرين نفراً باليد وأخذوا أسلحتهم، وقيل : منهم محمد بيك الذى هو معين بالعسكر، ومسكوا درويش على ويملى فضلى فى ساعة خروجهم من الجامع ، وأصلان هرب فأخذوا فى أثره فجابوه من قنطرة الدكة ، وقطعوا رؤوسهم فى باب زويلة ، وحضروا برؤوسهم إلى عمر باشا ، ويوسف مسكوه فى بيت الشيخ الميمونى فطلعوه يوم الأربعاء وقطعت رأسه بالديوان، وكذلك قرا فضلى ، ثم بعد ذلك خلع عمر باشا على الصناجق والأغوات والكواخى وأرباب الدولة الذى حاضرين خلعاً نفيسة، والذى ما حضر الخلع أعطاه خمسة شريفية(١٠٧) عوض الخلعة وقيل : ما ضبط من عدة الخلع يوم تاريخه مائة وإحدى وعشرين خلعة ، وضبط مال المذكورين بيت مال أمين المال العامة لأن عمر باشا رفع علوفتهم قبل الواقعة.

وقال :

قوم بمصر عتــوا بالظلــم ثم طغــوا ... إذا أتى إليهم فتى سوء إليه صغوا

هم زربة حين تولوا مصر ما أمنـــت ... قالوا متى هلكوا أرخت حين بغوا(١٠٨)

قل للذين أبانوا الظلم واعتـصـبـوا ... فى مـصـر قـد حكمـوها زربة ونفـر

الميم والخمس الذى كانوا فما رحموا ... وظلمهم فى البرايا قد فشا وظهـر

أراد ربى بأخــذ الكـــل حين بغـــوا ... بصرعهم فى الحقيقة إن تراه عبر

هم عـصـبـة قـد تراهم إذا تاريخهم ... سـأريكـــم دار الفـاسـقين جـهـر

وزير مـصـر عـمـر قـد هم فى همـه ... قـتـــل وبين له عليـه حـرمـــه

وأهلك الــزرب ونصــــر الأمــــه ... وانفك عن مصر فى تاريخها الغمة

الهوامش

١- إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ويتناول أحداث سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م.

٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٧، ويغطي الفترة الممتدة ما بين عامي ١٠٧٦ و ١١١٣ هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م.

٣- علي بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة ، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ويتناول فترة الحكم العثماني بمصر حتى عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م.

٤- ذكرت ليلى عبد اللطيف من المؤلفات التاريخية خلال تلك الفترة: محمد بن عبد المعطي الإسحاقي، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، القاهرة ١٨٩٧ (ويتوقف عند أحداث سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م، وتستمر تتمة الكتاب حتى أحداث سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م) . ومؤلفات محمد بن أبي السرور مثل : الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة ، والنزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، وعيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وكشف الكربة في رفع الطلبة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٣، سنة ١٩٧٦ (تتوقف أعمال ابن أبي السرور عند أحداث سنة ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م(، أما كتاب الغمري ذاكرة الإعلام، فإنه يتوقف عند أحداث سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م. انظر ليلى عبد اللطيف ، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني> مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠ ، ص١٨٠ .

٥- يوسف الملواني ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة، وقد قام بتحقيقها إبراهيم يونس محمد، وحصل بها على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١ ، ثم قام عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيقها ونشرها فيما بعد (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م) أحمد شلبي ابن عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٨ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) مصطفى بن الحاج ابراهيم تابع حسن آغا عزبان الدمرداشي ، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة، تحقيق صلاح أحمد هريدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة سنة ٢٠٠٢، وقد نشرت الطبعة الأولى من الكتاب في الاسكندرية سنة ١٩٨٩، (ويتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٣هـ / ١٧٤١م) أحمد الدمرداش ، الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد

الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) .

٦- يشير الترقيم في أعلى صفحات المخطوط إلى وجود ٢٤٤ ورقة أي ٤٨٨ صفحة، والصحيح هو أن عدد أوراق المخطوط هي كما ورد أعلاه أي ٢٤٦ ، حيث إن ترقيم الصفحتين : ٨٨٠ و ٩٥٨ قد تكرر مرتين، وقد يكون هذا الخطأ من الناسخ أو من المصور الذي أنجز تصوير الكتاب في دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٣ ، كما يظهر في الصفحة الأخيرة من المخطوط .

٧- إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص.١٠-١٤ .

٨- وذلك بخلاف ما ذكره عبد الرحيم في نسبة الجزء الأخير من المخطوط للصوالحي حيث يبرر وجود نقص في نسخة دار الكتب عن النسخ الأخرى التي عثر عليها في المكتبات الوطنية بميونيخ وباريس، بقوله : "ونرى أن السبب في هذا النقص ، أن المؤلف بعد أن وضع مؤلفه عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، وفرغ منه على الصورة التي رسمها في المقدمة كما هو واضح من النسخ الكاملة لهذا المخطوط، والتي نص فيها على الفراغ منه، وطال به العمر بعد ذلك، فأراد أن يخص الصراعات السياسية بين الصناجق ، فجمع التواريخ السابقة الذكر دون أن يجري تعديلاً على ما ذكره في المقدمة، ولم يرد داع لتسجيل أحداث واقعة محمد بيك السابقة على أحداث ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م فأهملها وأهمل الخاتمة ، وخصص هذا المجموع لتسجيلاته الخاصة بالفترة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، والتواريخ الأخرى التي ضمها إلى مؤلفه حتى توقفه عن الكتابة يوم السبت ٢٢ ربيع الأول ١١١٣هـ / ٢٧ أغسطس ١٧٠١ م" المصدر السابق، ص ص١١-١٢ . وما ذكره د. عبد الرحيم هو افتراض تدحضه المعلومات الواردة في ثنايا الجزء الثالث من هذه المجموعة ، والذي يمتد عبر ١٧٤ ورقة ٣٤٨ صفحة) ترد فيها إشارات عديدة إلى أن تاريخ الفترة ١٠٧٦-١١١٣هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م ، هو من تأليف محمد بن محمود ، وليس من تأليف الصوالحي، الذي نص على الفراغ من عمله سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وليس هناك أي دليل على أنه استأنف الكتابة بعد ذلك العام، وقد قام الباحث بتحقيق تاريخ ابن محمود ونشره في كتاب مستقل سنة ٢٠٠٧ .

٩- هذه زيادة من الناسخ ، والصحيح هو أن علي وفا يؤرخ للمرحلة التي أعقبت واقعة الصناجق (قتل الفقارية) مباشرة ، ولايتطرق للحديث عن هذه الحادثة بل يفصل في ولاية كل من ابراهيم باشا عمر باشا ، حتى انتهاء واقعة الضرب سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٥م.

١٠- يستهل المصنف تاريخه بتخميس أبيات شعرية نسبت لغازي باشا الذي تولى بمصر خلال الفترة :

١٠٦٧-١٠٧٠هـ / ١٦٥٧- ١٦٦٠م، ثم أعدم بعد عزله بناء على أوامر وردت من اسطنبول ، وقد ذكرت هذه الأبيات في عدة مصادر، ونصها :

أمـور للأعـادي أنتجتـهـا يد الأقـدار حتى أحكمتـهـا

بنار في فـؤادي أضـرمتـهـا تجنوا لي ذنوبًا مـا جنتـهـا

يداي ولا أمرت ولانهيت

انظر : أحمد شلبي؛ أوضح الإشارات، مصدر سابق، ص١٥٧ ، وابراهيم الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق ، مصدر سابق ، ص٨٩ .

١١- سنة ١٠٧١ واحد وسبعين وألف.

١٢- مدة ولايته : غرة جماد الآخر ١٠٧١- ٤ شوال ١٠٧٤هـ / ١ فبراير ١٦٦١- ٣٠ أبريل ١٦٦٤م.

١٣- الديوان : يقصد به الاجتماع الدوري الذي يعقده باشا مصر في القلعة ويحضره كبار الموظفين في السلك الإداري بمصر كالروزنامجي والدفتردار ويحضره كذلك ضباط الأوجاقات والعلماء وكبار التجار وغيرهم ، وينقسم إلى قسمين : الديوان الخصوصي ؛ وتغلب عليه الصفة التنفيذية ، والديوان العمومي؛ الذي يتسم بحضور أوسع ويحمل صفة استشارية غير ملزمة. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ . ص٧٦ .

١٤- فرغ : أي تنازل عن حق في منصب إداري أو التزام أو مرتب. المصدر السابق، ص٤٥١ .

١٥- كريد: جزيرة كريت التي كان العثمانيون قد قرروا فتحها في تلك الفترة ، وجهزوا أسطولاً ضخماً وادعوا بأن الهدف منه هو غزو مالطا، ولكن الحملة غيرت وجهتها بعد الانطلاق وحاصرت جزيرة كريت التي خضعت لهم إلا أن البنادقة حاولوا استعادة سيطرتهم على الجزيرة فسيطروا على بعض المناطق منها وأهمها قلعة كانديه . يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، اسطنبول ، ١٩٨٨ ، ص ص٤٩٢-٤٩٤ .

١٦- بيورلدي: كلمة تركية تعني الأمر العالي الصادر من الباشا ومحلى بالطغراء أو الختم. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٤٢ .

١٧- مارس ١٦٦١م.

١٨- السلطان محمد الرابع : اعتلى السلطان محمد بن ابراهيم سدة الحكم عقب عزل والده سنة ١٠٥٨ هـ/ ١٦٤٨م، وكان عمره آنذاك ٦ سنوات و٧أشهر، وعزل إثر تمرد للانكشارية في ٢ محرم ١٠٩٩هـ/ ٨ نوفمبر ١٦٨٧م، فكانت مدة حكمه ٣٩ سنة و٣ أشهر ، وتوفي في ٨ ربيع الآخر سنة

١١٠٤هـ/ ١٧ ديسمبر ١٦٩٢ بالغًا من العمر ثلاثة وخمسين عامًا . محمد فريد بيك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ص١٢٩-١٣٩ .

١٩- الخزينة : أو الخزنة في الاصطلاح العثماني هي مقدار ما يرسل إلى عاصمة الدولة العثمانية من عوائد بعد إنفاق كل ما قرر السلطان إنفاقه في مصر، حيث يتم إرسالة سنويًا بمعية فرقة عسكرية يرأسها «سردار الخزنة» . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني. ص٨٤ .

٢٠- الخط الشريف : فرمان عالي سلطاني . المصدر السابق، ص٤٤٦ .

٢١- وردت هنا عبارة غير واضحة.

٢٢- البلكات : مفردها بلك وتسمى كذلك الأوجاقات ومفردها أوجاق ، وهي كلمة تركية تطلق على الطائفة من الجند وقد تكونت الحامية العثمانية في مصر من سبعة أوجاقات ، هي: المتفرقة والجاوشان والجمليان والتفكجيان والجراكسة والمستحفظان (ويطلق عليهم اسم الانكشارية) ، والعزبان . مصطفى رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٣ ، ص٧٣ .

٢٣- حجة : الورقة التي تحوي حكمًا شرعيا أو تثبت اتفاقًا بين رجال الإدارة وغالبًا ما تتم على يد القاضي وتعرف بالحجة الشرعية . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص٤٤٥ .

٢٤- الجوامك : مفردها الجامكية ، وهي كلمة فارسية الأصل تطلق في الأصل على المرتب الذي يصرف لشراء ملبس، ثم استخدمت في سجلات الروزنامه بمعنى المرتب الذي يعطى للموظف أو المعاش الشهري الذي يصرف للجنود . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٨٣ .

٢٥- يوليو ١٦٦١م.

٢٦- الخاصكي : هو الذي يلازم السلطان في خلواته، وقد أخذ اسمه من الاختصاص ، ويطلق اسم الخاصكية على الذين يسوقون المحمل الشريف ويجهزون المهام الشريفة، وكان في مصر نوعان من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين يطلق عليهما لفظ الخاصكية ، فالأول هو وقف الخاصكية المستجدة لوالدة السلطان أحمد ، والثاني هو وقف الخاصكية القديم، وكان أمير الحاج المصري يحمل معه كل عام إلى الحجاز صرة من ريع هذه الأوقاف وبعض الغلال التي كانت تسمى غلال الحرمين . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص ص٧١-٧٢ ، ويلاحظ بأن المصنف يستخدم كلمة خاصكي في عدة مواضع من المخطوط للإشارة إلى الرسل الذين يأتون بالأوامر السلطانية من اسطنبول.

٢٧- جمعية: اجتماع هام يعقده الأمراء المماليك وكبار موظفى الإدارة وكبار العلماء بأمر السلطة لحل مشكلة عامة تمس حياة الشعب. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى،ص٤٤٤ .

٢٨- الدفتردار : أحد أهم المناصب فى النظام الإدارى بمصر، ويشرف صاحبها على مالية مصر ، وقد حل هذا المنصب محل وظيفة ناظر الأموال، وهيمن الأمراء المماليك على هذا المنصب ، الذى كان يعين صاحبه بأمر سلطانى . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٢٩٨-٣٠١ .

٢٩- سبتمبر ١٦٦١م .

٣٠- زعيم مصر : يقصد بذلك والى مصر ، المسؤول عن صيانة الأمن بالقاهرة، وكان هناك ثلاثة ولاة من هذا القبيل ؛ والى القاهرة ووالى بولاق ووالى مصر القديمة (الفسطاط) ، وكانوا جميعا تحت رئاسة آغا الانكشارية. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص٧٦ .

٣١- حاكم : استخدمت هذه الكلمة كلقب للصناجق المشرفين على أقاليم جرجا، الشرقية الغربية، المنوفية، البحيرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ،ص٤٤٥ .

٣٢- اغاوات الأوجاقات : هم ضباط الأوجاقات ورؤسائهم مثل: آغا الانكشارية وآغا العزب وغيرهم، وكان لأصحاب الرياسة فى الأوجاقات حضور جلسات الديوان، والمشاركة فى اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية فى مصر. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٦ .

٣٣- الكتخدا : هو وكيل الباشا بمصر ، ويطلق عليه أيضًا لقب الكيخيا، وقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على كل من ينوب محل رئيس فرقة عسكرية أو منصب إدارى، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٤ .

٣٤- الجاوشية ، أى فرقة الجاوشان : جمع جاووش وهو الفارس، ومنهم أرباب الديوان العمومى الذين عليهم حضور الديوان لتحصيل الأموال الميرية، ومنهم أمير الشون الذى يشرف على شئون الغلال الاميرية، وكان لهذه الوظيفة أهميتها نظراً لأن الجزء الأكبر من أرض الصعيد كان يجبى ماله غلالاً، رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٤ .

٣٥- مايو ١٦٦٢م.

٣٦- الينكجرية : وتسمى كذلك مستحفظان ، وتعتبر هذه الفرقة أهم فرق الحامية العثمانية فى مصر وقد أوكلت إليها أعمال المحافظة على القلعة وضبط مدينة القاهرة، وينسب لهذه الفرقة عدد كبير من أصحاب المناصب ، منهم الكتخدا وكيل الباشا ، ومنهم سردار الحج وسردار الخزنة ، ويقيمون فى

قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وقد خصصت لهم عوائد من رسوم بعض الجمارك في مصر القديمة وبولاق والاسكندرية ودمياط انظر: رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥ ؛ وليلى عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٤٠ .

٣٧- القلة: مكان للحبس ، كان يوجد داخل باب الانكشارية بالقلعة.

٣٨- البكرية : يرجع نسبهم إلى أبي بكر الصديق، وكان لهم مكانة كبيرة في المجتمع المصري، إبان العصر العثماني، وكانوا يدعون لحضور المجالس الرسمية كاجتماعات الديوان والجمعيات . ليلى عبد اللطيف ، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، مصدر سابق، ص١٦٣ .

٣٩- باب : مفرد أبواب ، ويقصد بها ثكنات الأوجاقات في قلعة الجبل .

٤٠- كاشف : تطلق على حاكم الولاية الذي لم يبلغ مرتبة الصنجقية ، ويطلق على المنطقة التي يحكها لقب كشوفية، وكان دخل الكشاف من إيرادات الأراضي الزراعية التي تقع تحت إدارتهم ، وعليهم مال يؤدونه إلى الحكومة نظير تعيينهم في هذه المناصب يسمى بالمال الميري. والكشوفية هي الجزء الذي يخصم من إيرادات ضرائب الأقاليم ويخصص لنفقات الإدارة المحلية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص٧٩ .

٤١- يوليو ١٦٦٢م.

٤٢- الرميلة : هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة ، وكان يطلق عليه قرا ميدان، ومكانه الحالي: منطقة المنشية وميدان صلاح الدين أسفل القلعة .

٤٣- الفقارية : انقسم مماليك مصر خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى فرقتين رئيسيتين هما الفقارية والقاسمية، ويعتبر رضوان بيك الكبير (ت ١٠٦٦-١٦٥٥م) هو المؤسس الفعلي للبيت الفقاري الذي هيمن على عدة مناصب إدارية في مصر أبرزها إمارة الحج، التي تولاها تابعه ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) لمدة أحد عشر عامًا ، ومن ثم تولاها تابعه إبراهيم بيك (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م) لمدة خمس سنوات ، وتولى بعد إبراهيم بيك تابعه قيطاس بيك (ت ١١٢٦هـ / ١٧١٤م) إمارة الحج لمدة خمس سنوات أخرى، وقد قتل أبرز رجال البيت الفقاري في الحادثة الشهيرة بواقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م. انظر : إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، ترجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٦ .

٤٤- أمير الحاج : الصنجق المختص بالإشراف على سفر الحجاج والعودة بهم وتأمين طريقهم وأرواحهم وأموالهم وتوصيل الصرة إلى الحرمين الشريفين . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص٤٣٩ .

٤٥- المتفرقة : تقوم خدمتهم فى مصر على حفظ القلاع الخارجة عن القاهرة ، مثل العريش والاسكندرية ودمياط وأبوقير وأسوان وأبريم وغيرها ، وللقلاع المذكورة أنفار معلومون وتصرف لهم مرتبات من حكومة القاهرة ، ومنهم الجبجى (فى الأصل جبه جى باشى) الذى يشرف على صناعة البارود المطلوب لحفظ القلاع . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٤ .

٤٦- فرقة الجملية: وهى تحريف لكلمة جنلليان، جمع فارس للكلمة التركية جنللو ، وهم فرقة من الفرسان الموكل إليها حفظ الجسور السلطانية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص٧٤ .

٤٧- الجرايات : مفردها جراية، وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير ، والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الإدارة . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٤ .

٤٨- المتقاعدين : المحالين إلى المعاش من موظفى ولاية مصر ، حيث كانت تصرف لهم مرتبات عينية. ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٨٠، ص٤٤ .

٤٩- أغسطس ١٦٦٢م.

٥٠- الحبش : جعل العثمانيون من ميناء جدة، ومن بعض الموانئ التى خضعت لهم على ساحل البحر الأحمر المقابل مثل سواكن ومصوع باشوية خاصة سميت باسم ولاية الحبش، أو ولاية جدة، وأسندوا حكمها إلى أحد الباشاوات الذى كان يعين من قبل السلطة المركزية باسطنبول . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، ص١١٩ .

٥١- ورد فى الهامش : «١٠٧٢» .

٥٢- أمير اخور : كلمة فارسية مركبة من «أمير » وهى كلمة عربية، و«آخور» كلمة فارسية معناها الاصطبل ، وكانت تطلق على الشخص المنوط به أمور الخيل، أى ناظر اصطبلات الخيل، ونظراً لارتباط القائمين على الخيول بمهام البريد بين مركز الدولة وأقاليمها فقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على المسؤولين الذين توكل إليهم مهمة توصيل المراسلات الرسمية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧١ .

٥٣- أولاق : تعنى الرسول.

٥٤- سردار : أى قائد القوات المصرية المتوجهة لجبهات القتال بأوامر من السلطة المركزية ، أو لشن حملات عسكرية محلية ضد العربان فى مصر بتوجيه من الباشا .

٥٥- العادليه : هى القبة التى بناها السلطان الملك العادل طومان باى فوق تربته التى عرفت بالعادليه.

٥٦- فبراير ١٦٦٣م.

٥٧- صنجق : كلمة تركية تعنى علم، وتطلق فى المصطلحات الإدارية على قسم من ولاية كبيرة، كما تطلق على الحاكم لقسم من الولاية، وكان فى مصر ٢٤ صنجقًا يعين منهم السلطان صناجق الثغور المهمة كالاسكندرية ودمياط والسويس، ومن أهم هذه الصنجقيات فى مصر العثمانية صنجقيات جرجا والشرقية والغربية والمنوفية، والبحيرة، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٩ .

٥٨- مارس ١٦٦٤م.

٥٩- اختيارية الأوجاقات : هم المسنون من رجال الفرق العسكرية ووجهائهم وأقدمهم فى الخدمة . رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥ .

٦٠- الملتزم : الشخص الذى يتعهد بتحصيل الأموال الأميرية المقررة على أرض أو جمرك ويورد للخزينة الضريبة المقررة كخراج ، ويحتفظ بالباقى كربح له . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥٦ .

٦١- الأمناء : هم أمناء شؤون الغلال بميناء بولاق آنذاك ، والمتعهدون بالمحافظة عليها وحفظ حساباتها وغلالها ، والمسؤولون كذلك عن جمع الغلال والتبن والأرز، وغير ذلك وإحضارها إلى الوكالات ببولاق ومصر القديمة . أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، ص١٧ .

٦٢- الجراكسة : تلفظ أحيانًا «الشراكسة»، وهى فرقة تتكون من فرسان المماليك . المصدر السابق، ص٧٥ .

٦٣- الكشيدة : كلمة فارسية تعنى «المحرر».

٦٤- أفندى : كلمة تركية تعنى المولى أو السيد أو الخواجة ، ويشترط فى الأفندى العلم، وقد لقب بهذا اللقب العلماء ، والكتاب وجمع بين الفريقين كونهم من أهل العلم ، كما كان لكل بلك من البلكات العسكرية فى مصر أفندى . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ مصر والشام إبان العصر العثمانى ، ص٢٢ .

٦٥- تنبيه : جمعها «تنابيه» وهى تذاكر الدعوات التى كانت ترسل لأعضاء الديوان العالى لحضور اجتماعاته. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٣ .

٦٦- أبريل ١٦٦٤م.

٦٧- قائم قام: منصب كان يشغله الشخص الذى يتولى عمل الباشا فى فترة خلو منصب الباشوية، سواء بعزل الباشا أو وفاته ، وكان هذا المنصب يسند إلى قاضى القضاةأو الدفتردار ، ولكن عندما ازداد نفوذ الأمراء المماليك أصبح هذا المنصب يسند إلى أحدهم، ص ص١١٨-١٢٠ .

٦٨- مضاف : الضريبة المستجدة التى تمثل زيادة فى الأموال الأميرية ، المصدر السابق، ص٤٥٦ .

٦٩- كان إقليم الغربية يشكل أحد مصادر إيرادات الخزينة ، وخصص له فى الروزنامه دفتراً لتدوين إيرادات ضرائب الأرض فى إقليم الغربية والمنوفية ويرأسه أفندى الغربية ويساعده ثلاثة مباشرين . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص٢٤ .

٧٠- العرقانة : السجن الرئيسى فى قلعة الجبل.

٧١- أبريل ١٦٦٤م.

٧٢- فى الهامش : «مطلب ابراهيم» .

٧٣- مايو ١٦٦٤م.

٧٤- أوضه باشى : رئيس إحدى أورط الانكشارية التى تقيم فى أوضه (غرفة) وباش أوضه باشى هو رئيس الأوضة باشية . ليلى عبد اللطيف الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤١ .

٧٥- مدة ولايته : ١٥ ذو الحجة ١٠٧٤ - غاية رمضان ١٠٧٧هـ / ٨ يوليو ١٦٦٤- ٢٦ مارس ١٦٦٧ م.

٧٦- الزينة : مظاهر الاحتفال التى تتم فى القاهرة فى مناسبات عديدة بأمر من السلطان العثمانى، منها انتصارات الجيوش العثمانية وكذلك لدى قدوم الخبر بمولود جديد للسلطان وتزين مصر كذلك عندما يرد الخبر بتولى سلطان جديد سدة الحكم فى اسطنبول ، وتتضمن مظاهر الزينة إطلاق المدافع والألعاب النارية وتقديم الوجبات وعزف الموسيقى الرسمية وغيرها من مظاهر الاحتفال.

٧٧- الروزنامة : كلمة فارسية مكونة من لفظين «روز» بمعنى يوم أو نهار، ونامه بمعنى سجل أو كتاب، فيكون معناها سجلات الأصول اليومية، ويسمى رئيسها «الروزنامجى» وكتبه الروزنامه يسمون «أفندية الروزنامة» وكانت الروزنامة تكتب بخط القرمة التى تعتمد على رموز يصعب قراءتها من قبل غير المتخصصين . رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٨٥ .

٧٨- أغفل الكاتب اسم قائمقام ، ولم تذكر المصادر الأخرى من الذى عين قائم مقام بمصر لدى عزل إبراهيم باشا ، ولعله أويس بيك الذى تم قتله سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٥م، كما سيأتى ذكره .

٧٩- حسن آغا بلفية (ت ١١١٥هـ / ١٧٠٣م) : من زعماء البيت الفقارى، زوج ابنته لاسماعيل بيك الدفتردار وأنجبت له ابنه محمد بيك (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦م) الذى آلت إليه سيادة البيت الفقارى، وقد انقسم البيت الفقارى فيما بعد إلى عدة أقسام أشهرها القازدغلية التى تنسب لمصطفى القازدغلى (ت ١١١٥هـ / ١٧٠٣م) ومن أتباعه كذلك ذو الفقار بيك (ت ١١٤٢هـ / ١٧٢٩م)

الذى آلت إليه مشيخة البلد فيما بعد. بشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية ١٠٩٩-١١٤٣هـ / ١٦٨٧-١٧٣٠م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة لندن ، ص٢٣١ .

٨٠- سبتمبر ١٦٦٤م.

٨١- العزب: أو عزبان فى الأصل نوع من جند البحرية ، وقد وجد فى مصر أوجاق عزبان وهو ثانى الأوجاقات أهمية بعد الانكشارية ، وعهد إليهم بمهمة حراسة القلعة والإشراف على جمارك البحرين وترسانة الاسكندرية ، ومنهم أمين البحرين وأمين الخردة وخصصت لهم عوائد من هذين المصدرين بعد استخلاص المال الميرى، مصطفى رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥ .

٨٢- فرقة السباهية: وتكتب كذلك «الاسباهية» وتعنى الخيالة، وتطلق على الأوجاقات الثلاثة: الجمليان والتفكجيان والجراكسة، ومهمتهم خدمة الباشا ورجاله فى القاهرة، وخدمة عمالهم فى الأقاليم بواسطة من يقيم فيها من أفراد هذه الأوجاقات المصدر السابق، ص٧٥ .

٨٣- نوفمبر ١٦٦٤م.

٨٤- قاضى عسكر هو قاضى القضاة فى مصر إبان العصر العثمانى، وهو نائب السلطان فى الأحكام الشرعية ومذهبه حنفى ، يعينه السلطان لإدارة شئون المحاكم بمصر ، وتعيين النظار على الأوقاف ،وله حق حضور الديوان الخصوصى، وكان يتبعه بعض المترجمين ، ومقره فى محكمة الديوان العالى، وله نواب فى محاكم القاهرة والأقاليم، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٧ .

٨٥- وطاق: هى الكلمة التركية أوتاق أوتاغ وقد دخلت فى اللغة الفارسية فى صيغ أطاق وأتاق وأتاغ بمعنى الغرفة ،والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة، والوطاق فى العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام. اظر تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن فى : أحمد الدمرداشى ، الدرة المصانة، ص٤٦ .

٨٦- ديسمبر ١٦٦٤م.

٨٧- ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) : من أعيان البيت الفقارى، تولى إمارة الحاج لمدة أحد عشر عامًا وقد تولى زعامة الفقارية عقب مقتل سيده حسن بيك فيو اقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م. بشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية، ص٢٣١ .

٨٨- كان إقليم الشرقية يوفر إيرادات للخزينة المركزية وخصص له فى الرزونامة دفترا لتدوين ايرادات ضرائب الأرض التى كانت تحصل من مقاطعات الأرض فى أقاليم الشرقية، المنصورة المنزلة، قليوب ،

البحيرة، الطرانة، اطفيح ، فارسكور، قطيا والواحات، ويرأس هذا القلم أفندي الشرقية ويساعده خمسة مباشرين أو خلفاء ، ليلى عبد اللطيف، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، ص٢٣ .

٨٩- آغات الانكشارية : قائد فرقة الانكشارية وله الرئاسة على أغوات باقي الفرق، واختص بحفظ الأمن في القاهرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ،ص٤٣٨ .

٩٠- الروزنامجي : رئيس ديوان الروزنامة والمشرف على أفنديتها ، المصدر السابق، ص٤٤٧ .

٩١- ورد ذكر مصطفى بن سهراب أفندي أيضا في : تحفة الأحباب ، مصدر سابق، ص١٠٣ . وكذلك في: أوضح الإشارات ، مصدر سابق، ص١٦٣ ، حيث أضاف أحمد شلبي بأنه كان : «عارفا بعلم الرمل والزايرجية والروحاني والنجم والميقات والكيميا» وذكر علي بن رضوان تفاصيل ما أمر السلطان العثماني باستحداثه في مصر لدى عودة ابن سهراب مما أدى إلى سعد كيخية الباشا لقتله بالسم . علي بن رضوان ، زبدة الاختصار، ص١٤٣-١٤٤ .

٩٢- فبراير ١٦٦٥م.

٩٣- قرا ميدان : هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة في الناحية الشمالية الغربية، ومكانه الحالي منطقة المنشية وميدان صلاح الدين بقسم الخليفة . تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، أحمد الدمرداشي، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص٨ .

٩٤- ضربه: هكذا وردت في النص، وقد وردت في مصادر أخرى بصيغ مختلفة مثل: «الطرب والزرب» وهي جمع «زربة التركية، وتعني العصاة من العسكر، أحمد شلبي بن عبد الغني ، أوضح الإشارات، ص١٦٢ .

٩٥- تجريدة : حملة عسكرية يوجهها الباشا لمحاربة المتمردين من أمراء المماليك أو العربان . ليلى عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٤٢ .

٩٦- أغفل الكاتب ذكر الجماعة التي ينتمي إليها أحمد باش جاويش الجراكسة.

٩٧- أبريل ١٦٦٥م.

٩٨- علوفات : مفردها علوفة وهي مرتبات العسكر. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٥٠ .

٩٩- يناير ١٦٦٥م.

١٠٠- يوليو ١٦٦٥م.

١٠١- أغسطس ١٦٦٥م.

١٠٢- السرايا: كلمة تركية مأخوذة من الفارسية ومعناها القصر، والسرايا المذكورة هنا هي القصر المخصص لسكنى الباشا في القلعة، وقد هدمت هذه السرايات في عهد محمد على وبنى مكانها قصر الجوهرة الحالي . أحمد الدمراشي ، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص٧ .

١٠٣- وردت هنا عبارة غير واضحة.

١٠٤- جامع المؤيد : انشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وكان الفراغ من بناءه في ربيع الأول ٨١٩هـ / ١٤١٦م، ووقف عليه عدة مواضع بمصر والشام ، على مبارك ، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ ، ج٥ ، ص١٢٤-١٢٨ .

١٠٥- جوا الجوامع : أي داخل الجوامع.

١٠٦- ٥ سبتمبر ١٦٦٥م.

١٠٧- الشريفي: عملة تركية أعلى قيمة من الريال الحجر والريال البندقي. وكانت قيمتها تختلف من فترة لأخرى ، ففي سنة ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م على سبيل المثال ، كانت تعادل ٨٥ نصف فضة ، ثم ارتفعت بعد ذلك لتتجاوز ١٠٠ نصف فضة في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، انظر تاريخ محمد ابن محمود، مصدر سابق، ص٣٩ .

١٠٨- سنة ١٠٧٦ .

مصادر ومراجع التحقيق

١- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٦ .

٢- أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩م.

٣- أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٨ .

٤- بشير زين العابدين ، النظام السياسى لمصر العثمانية ١٠٩٩- ١١٤٣هـ / ١٦٨٤-١٧٣٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة لندن، ١٩٩٩ .

٥- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، القاهرة ١٩٠٤ .

٦- على بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٦ .

٧- على مبارك الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ .

٨- ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٨ .

٩- ـــــــ دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى القاهرة، ١٩٨٠ .

١٠- محمد رمزى ، القاموس الجغرافى، دار الكتاب المصرى، القاهرة ١٩٥٤ .

١١- محمد فريد بيك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٧ .

١٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة القاهرة، ٢٠٠٧ .

١٣- مصطفى رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٨٣ .

١٤- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، اسطنبول ١٩٨٨ .

١٥- يوسف الملواني، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية ، القاهرة.

دكتور السيد حسين جلال *

التاريخ الاجتماعى لسكان منطقة برزخ السويس

(فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)

جغرافية برزخ السويس وأهميته :

يقصد بمنطقة برزخ السويس الجزء الواقع بين خليج الطينة شمالاً على البحر المتوسط ومدينة السويس جنوبًا على قمة خليج السويس. وهى أرض سهلة لاتخترقها عقبات طبيعية ولاتعترضها أى تضاريس يمكن أن تحول دون الحركة السهلة بين البحرين أو بين البرين الآسيوى والأفريقى ، والبرزخ صحراوى أو شبه صحراوى وكان أحد أفرع النيل يتجه شمالاً بشرق ليروى أطرافه الشمالية. كما أن عدم وجود عقبات نباتية ، كالغابات ، سهل أمر الحركة البشرية عبره خلال العصور التاريخية .

كما أن هذا البرزخ كان يتعرض أيضًا لطغيان الماء فى جزئه الشمالى أو الجنوبى أو كلاهما معًا فى بعض فترات العصر الجيولوجى الأخير والعصر الجيولوجى الحديث. لقد كان هناك ذراع ضحل من الماء يغطى خليج السويس خلال العصر الكربونى. كما يدل إرساب الصخور الرملية من الخرسان الجنوبى فى العصر الكرياسى الأسفل على أن البحر ظل طاغيًا فى منطقة الخليج من العصر الكربونى حتى العصر السينومانى. ولقد استمر هبوط الخليج فى أواخر الزمن الجيولوجى الثانى . وطغى الماء على حواف الخليج الجنوبية وانحساره عن حوافه الشمالية ، ثم حدث تجدد فى هبوط الخليج فى عصر الأيوسين الأوسط . ولقد خلقت هذه الحركات الأرضية الحديثة سلسلة من البحيرات الضحلة ، بعضها يمتد من خليج السويس شمالاً وينقطع عنه،

---

* كلية الآداب بدمنهور - جامعة الاسكندرية .

مثل البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، وبعضها امتداد للبحر المتوسط جنوبًا مثل بحيرة المنزلة.

غير أن البرزخ الأرضى ظل موجودا خلال العصور التاريخية يصل بين اسيا وأفريقيا ، أى أن هناك طريق برى يصل بين شمال سيناء والدلتا خلال التاريخ الإنسانى المعروف ويقع هذا البرزخ شمالى بحيرة التمساح وجنوبى طرف بحيرة المنزلة الجنوبى. أما البرزخ الذى يقع جنوبى بحيرة التمساح فلم يكن أرضا يابسة باستمرار فمن المؤكد أن البحيرات المرة كانت أكثر اتصالا خلال فترات أطول من الزمن بالطرف الشمالى لخليج السويس(١).

والطريقان البريان اللذان كانا يمران بهذه المنطقة هما : طريق وادى الطميلات والطريق الصحراوى أو طريق الحجاج، ويرجعان إلى عصر ما قبل الأسرات . وكانا يخرجان من مدينة منف ، وهى نقطة تلاقى أكثر الخطوط الرئيسية فى مصر ، ثم يتبعان ضفة النيل اليمنى حتى بابليون (مصر القديمة) ومنها إلى هليوبوليس (المطرية) حيث كانا يفترقان . فكان طريق وادى الطميلات يتجه نحو الشمال الشرقى أما الطريق الصحراوى فإنه بعد انفصاله عن الطريق السابق عند هليوبوليس كان ينثنى نحو الشرق ويتجه مباشرة نحو السويس مخترقًا الصحراء(٢).

وبرزخ السويس هو ملتقى البرين ومفرق البحرين ، وقد لعبت هذه المنطقة دوراً هامًا فى تاريخ مصر والإنسانية كلها ، فهى بحق مدخل مصر الشرقى، وعن طريقه دخلت جميع الهجرات البشرية من جنوبى غربى آسيا . كما أنه حلقة الوصل بين مصر وشقيقاتها العربيات فى جنوبى غربى آسيا . وعن طريقها شاركت مصر فى المؤثرات السامية أو العربية القديمة التى كانت تموج بها شبه جزيرة العرب وبلاد الشام .

عمال السخرة فى برزخ السويس :

جاء فى عقد الامتياز الثانى (٥يناير ١٨٥٦) بالمادة الثانية نص على أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة يجب أن يكون على الأقل أربعة أخماس مجموع العمال. فقد كان يتعذر على الشركة أن تستخدم أفواجًا هائلة من العمال الأوربيين يقيمون فى صحراء برزخ السويس لتنفيذ المشروع فى مراحله الأولى، فقد كانت هناك مخاطر شديدة لاستخدام العمالة الأوربية على نطاق واسع أمر يكاد يكون مستحيل للشركة بعد تأسيسها للأسباب الآتية :

١- ارتفاع أجور العمال الأوربيين في سبيل الاغتراب والعمل في الصحراء، وهو أمر لم تكن تستطيع أن تتحمله ميزانية الشركة الناشئة .

٢- إن إنتاجية العامل الأوربي منخفضة بالنسبة للعامل المصري.

٣- لم يألف العمال الأوربيين الجو الحار ويتعرضون للأمراض التي تصيبهم من شدة الحر فتفتك بهم.

٤- امتاز العمال المصريون بقوة الاحتمال والصبر والقدرة على متابعة العمل المضني في الجو الصحراوي الحار .

٥- اختلاف عادات العمال المصريين عن عادات العمال الأوربيين ، فنجد الأولين تعودوا على التقشف والقناعة ، بينما نجد في الآخرين ميلاً إلى الإفراط في الخمور ونزوعًا إلى الملذات والنسائيات وانكبابًا على لعب الميسر(٣).

أيضًا وصلت إلى الشركة اقتراحات بإرسال عمال صينيين إلى برزخ السويس للقيام بأعمال الحفر . وقد تم تقديم أدلة في صالح هذا المشروع تمدح مميزات العمال الصينيين، مثل صلابتهم وأسلوب التغذية التي يسهل إشباعها في مصر .

ويشمل هذا العرض من خمسة آلاف إلى عشرين ألف عامل يتعاقدون لمدة خمس سنوات . ولكن لم تنل عروض الخدمة «الصينية» رضاء وموافقة الشركة(٤).

أضف إلى ذلك أن توافد عدد ضخم من العمال الأجانب إلى برزخ السويس يسبب صعوبات مادية وسياسية ، بل إن السلطات المصرية خشيت من احتلال أراضيها . ثم أن الحكومة العثمانية خافت أن تساعد قوى أجنبية مصر في حصولها على الاستقلال ، وأخيراً الخارجية البريطانية التي لن ترضى أن ترى فرنسا توطد علاقاتها ونفوذها بهذه الطريقة في هذا القطر (٥).

مساعي الشركة لجلب عمال عرب في البرزخ :

سعت الشركة في بادئ الأمر لجذب عمال عرب من مصر والشام والحجاز للعمل في ساحات الحفر، وكونت لجنة مهدت إليها بالطواف في قرى الوجه البحري واستمالة العمال المصريين للالتحاق بخدمة الشركة في البرزخ (٦). وفي ظل التدابير التي اتخذها سعيد باشا نجحت الشركة في استخدام أفواجًا من سكان بحيرة المنزلة في حفر القناة البحرية الصغيرة (La Ri- gole De Service) في منطقة البحيرة . وشكل صيادو بحيرة المنزلة أول مجموعة كبيرة من

عمال الحفر الذين خدموا ورش الشركة . وقاموا طوال عام ١٨٦٠ بحفر مجرى مياه عبر البحيرة . وقد عانى هؤلاء العمال الذين قاموا بعمليات الحفر الأولى وسط هذا المستنقع الأسود الشاسع المكون من الطمى الموحل فقد كانوا ينحنون للأمام ويغرسون الأقدام والأرجل حتى الركب فى المياه ليأخذوا بأيديهم أكوام التراب من القاع بعد أن يقوموا بتقليبها بالفأس ، وتنقل بعد ذلك هذه الأكوام من يد لأخرى حتى الشاطئ . وضاعف من مشقة هذا العمل القائم على أساليب بدائية روائح الهيدروجين المكبرت المنبعثة من الطين المتقلب تحت الشمس المحرقة ويلغ مجموع ما تم استحراجه أربعمائة ألف متر مكعب من الطين بهذه الطريقة (٧).

ويصف أحد الكتاب الإنجليز (A. Wilson) هؤلاء العمال التعساء بقوله :

"To these men , unhonoured and unsung, their posterity owes a debt which it has , perhaps fortunately, not attempted to symbolize by any monuments of marble or perennis" (٨).

« إن هؤلاء الرجال التعساء لم يحظوا من خلفائهم بأى ذكر حتى بتخليدهم بتمثال من رخام »

والفترة من عام ١٨٥٩ حتى ١٨٦٠ شهدت تحركا فاشلا من الشركة لجمع العمال من الشام ومصر ، وقامت بدعاية كاذبة مفادها أن الشركة قد انشأت قرى لسكنى العمال وأنها أقامت مسجداً فى كل موقع وأن ماء الشرب متوفرا وأن الأجور على أساس إنتاجهم وليس على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى ساحات الحفر وأن أجر العامل سيتراوح بين ستة قروش وثمانية فى اليوم وأن يترك للعمال حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين وأضاف دى لسبس أنه حرم على الرؤساء الأوربيين مهما كانت مناصبهم أو درجاتهم ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم(٩).

وقد طبع من هذا الإعلان آلاف النسخ وزعت فى المدن والقرى وألصقت نسخ منها على أبواب المساجد ومحطات السكك الحديدية وأقسام البوليس والأسواق والشوارع الآهلة بالسكان، كما علقت منه نسخ فى ساحات الحفر المختلفة (١٠).

كما أن الشيخ رفاعة الطهطاوى كان من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر بعد أن وطد دى لسبس علاقته معه . وقد نظم قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة وتمت ترجمتهما للفرنسية(١١).

وعلى الرغم من كل الجهود ووسائل الدعاية وتنوعها لجمع أعداد كبيرة من العمال، إلا أنها لم تسفر عن نجاح يذكر، وفشلت جهودها في حركة جمع العمال العرب وفق الطريقة الحرة.

وهنا بدأت مرحلة جديدة لدى لسبس ، فقد كانت المادة الثانية من عقد الامتياز الثاني (١٨٥٦) هي الركيزة القوية في تنفيذ المشروع والتي جعل منها دي لسبس أساسًا لنظام السخرة في حفر قناة السويس ورتب عليها وفرع منها حقوقًا جديدة للشركة صاغتها «لائحة استخدام العمال الوطنيين في أشغال قناة السويس» استصدرها من صديقة محمد سعيد في ٢٠ يوليو ١٨٥٦ [١٢]. وتنفيذا لهذه المادة وتطبيقًا لهذه اللائحة فقد سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق قناة السويس . فقد كانت قوافل عمال السخرة تسحب سيراً على الأقدام إلى ساحات الحفر في برزخ السويس وقد ربط بعضهم ببعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد في أفريقيا والتي كان يسوقها تجار الرقيق ومن الأقاليم الداخلية إلى الساحل حيث تكون السفن في انتظارهم لنقل هذه السلع الآدمية[١٣].

وكان الوالي (سعيد باشا) قد اصدر أوامره لمديري الأقاليم لحشد عمال السخرة بحيث وصل عددهم في نهاية ديسمبر ١٨٦١ إلى خمسة عشر ألف رجل، على أن يزداد هذا العدد خلال الشهور التالية إلى خمسة وعشرين ألف مصري، وذلك بالإضافة إلى جموع أخرى من العمال وعد سعيد بأن يبعث بها من أقاصي الصعيد[١٤].

وقد استخدم دي لسبس كل الضغوط النفسية على صديقه سعيد باشا، تارة بأن التاريخ سيخلده بحفر القناة وأخرى بأن أوروبا ستنظر إليه أنه حاكم مستنير ، وأحيانًا يستعين بالضغوط الدبلوماسية من جانب الحكومة الفرنسية والإمبراطور نابليون الثالث للوصول إلى أهدافه .

وقد أجمعت الدراسات أن الحشد الآدمي في ساحات الحفر في برزخ السويس كان لايقل عن عشرين ألف رجل شهريا طوال عام ١٨٦٢ . فالباب العالي أعلن أن عمال السخرة (Forced Labor) في البرزخ بلغت ستين ألف رجل شهريا ، وهذه العمالة قد استبعدت من مزارعها، وبذلك عطلت إنتاجية البلاد وقد استند الباب العالي في حساباته لهذا الرقم إلى الآتي :

العاملون في ساحات الحفر بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ عامل وهي الحصة الشهرية التي التزم الخديوي سعيد بتقديمها للشركة، ومثلهم عشرون ألف آخرون في طريقهم للعودة لديارهم، وعشرون ألف آخرون يشدون رحالهم إلى ساحات الحفر في البرزخ، فيكون المجموع ستون ألف

رجل . وهكذا أضيرت الزراعة فى مصر من جراء غياب هذا العدد الضخم ضررا بالغا [١٥].

وقد بلغ إجمالى عدد المصريين الذين أكرهوا على الحفر خلال عام ١٨٦٢ (وهى السنة التى شهدت أكبر حشد بشرى فى تاريخ الشركة) ربع مليون مصرى وهو عدد هائل بالنسبة لتعداد مصر فى هذه السنة وهو حوالى ٤.٨ مليون نسمة.

وكانت أفواج العمال يتتابع قدومها شهراً بعد شهر مجتازة فى طريقها إلى البرزخ وعودتها منه الوجه القبلى والوجه البحرى . وأشرف موظفو الحكومة المصرية على جمع العمال وإرسالهم ومرافقتهم. وكان يصحبهم أيضا أحد ضباط الشرطة من المديرية التى يقدمها الفوج حتى يتم وصولها إلى الزقازيق ، حيث يتم تسليم الأنفار إلى مندوب شركة القناة هناك[١٦].

وكان سفر عمال الوجه القبلى يتم بالسفن النيلية إلى القاهرة، ومنها بالسكك الحديدية إلى بنها والزقازيق - نهاية الخط الحديدى آنذاك - ومن هناك يساقون زمراً إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس، سيراً على الأقدام تحت الحراسة المشددة وكانوا يقطعون المسافة فى أربعة أيام. أما عمال الوجه البحرى فكانوا يسافرون إما بالسكك الحديدية وإما فى السفن النيلية حتى يصلوا إلى الزقازيق ومنها إلى ساحات الحفر سيراً على الأقدام [١٧].

ويقوم مندوبو الشركة - فى الزقازيق - بعملية فرز للعمال، فيستبعدون العمال هزيلى الأجسام ويأخذون الشبان الأقوياء الأصحاء ، ويوقعون إقراراً بتسلم السخرة ويذكرون فيه عددهم، ثم يرسل الإقرار إلى مدير المديرية التى وفد منها أفراد الفوج. ثم تصدر الأوامر للفوج باستئناف السير إلى ساحات الحفر بالبرزخ سيراً على الأقدام . وكان يسير فى مقدمة الفوج عدد من الجمال تحمل أمتعة العمال وزكائب تحوى مأكلهم وقلل الماء ، ثم يسير العمال فى خط طويل خلف الجمال [١٨].

ويصل عمال السخرة إلى ساحات الحفر منهوكى القوى بعد هذا السفر الطويل الشاق، وهناك تبدأ عملية فرز أخرى بعد عملية الفرز الأولى التى تمت فى الزقازيق . فيقسم رجال الشركة العمال إلى فريقين ، فريق قوى وفريق أقوى. ويعطى كل عامل من الفريق القوى قفة يضع فيها الأنقاض التى تتخلف من عملية الحفر ثم يحملها ليلقى بمحتوياتها بعيداً عن مجرى القناة ، أما عمال الفريق الأقوى فيعطى كل منهم فأسا يضرب به الأرض لحفر القناة، ويهبط فى الأرض إلى أن يبلغ فى حفرها العمق المطلوب. وكان العامل قبل أن يشرع فى عمليات الحفر يقوم بخلع جلبابه ويلقى به جانبا على الأرض، وبجواره قلة الماء يشترك معه

فيها عدد من زملائه . وكان العامل يشتغل في ظل إكراه المشايخ : وكان «الشيخ» يمسك يده طوال النهار بالكرباج يضرب به كل من يتكاسل عن العمل، وكان العامل يشترك فى عمليات الحفر لمدة شهر واحد يسمح به بعد انتهائه بالعودة إلى قريته . وكانوا يغادرون البرزخ بمجرد انتهاء المدة المفروضة عليهم، وكان الكثيرون منهم يتمنون الفرص للهرب مع إنه لم يمض عليهم بضعة أيام فى ساحات الحفر، وعلى الرغم من الرقابة المشددة عليهم ، وقد ضجت شركة القناة من تعدد حوادث الهرب(١٩).

الوضع المأساوى لعمال السخرة فى ساحات الحفر :

أولاً مشكلة الماء العذب :

تعد هذه المشكلة من أعقد المشاكل التى واجهت الشركة وجيوش عمال السخرة فى صحراء البرزخ القاحلة فالماء ضرورى للحياة، وكانت هناك بعض الآبار التى يستعملها البدو، ولم تكن بالقدر الكافى لتوفير إمداد منتظم لسكان فى ازدياد مستمر . فالآبار التى قامت بحفرها قافلة الدراسات (٢٠)، لاتعطى إلا مياه شديدة الملوحة وغير وفيرة . ولتموين عمال الحفر فى بورسعيد بالمياه قامت الشركة بطلب إلى صناع من امستردام لتصنيع ثلاثة أجهزة لتقطير مياه البحر ، يوفر كل جهاز خمسة آلاف لتر ماء يومياً (٢١). ولكن ظل إنتاج هذه الأجهزة ضعيفاً بالنسبة لكميات الفحم التى تستهلكها وتكاليفها المرتفعة(٢٢).

وكانت الشركة قد لجأت إلى أحد كبار المصريين المشتغلين بتجارة صيد الأسماك (مصطفى عنانى بك) فى منطقة بحيرة المنزلة، امتلك أعداداً كبيرة من سفن الصيد واتفقت معه على أن يرسل كميات من الماء العذب لاتقل عن ستة أمتار مكعبة فى اليوم ويضعها فى براميل تقدمها له الشركة وينقلها فى قواربه لترسو بها تجاه الفنار المقام فى ميناء بورسعيد ، وذلك مقابل ستة فرنكات للمتر المكعب من الماء. وكان هذا الاتفاق فى مصلحة الشركة، إذ كان المتر المكعب من الماء الذى تنتجه المكثفات يكلف الشركة عشرين فرنكًا ولم يستمر هذا الاتفاق طويلاً فقد اعتمدت الشركة على وسائلها الخاصة فى جلب ماء الشرب عبر بحيرة المنزلة(٢٣).

ثم بعد ذلك تم التعاقد مع محمد الجيار فى يونيو ١٨٦١ (مالك قوارب مشهور فى بحيرة المنزلة) تعهد بتوصيل المياه إلى معسكر العمل على بحيرة الشاطئ، ويتم تخزين المياه بمجرد أن تصل بالقارب من دمياط ، واتضح أن تزويد المياه عن طريق القوارب هى الوسيلة الأقل

تكلفة بعد أن تم توفير كميات المياه الضرورية وكانت احتياجات الاستهلاك تتراوح بين ١٦ ألف إلى ١٧ ألف لتر يوميًا . ومع الوقت استمر انخفاض السعر الذى طلبه الجيار من ١٦ فرنك إلى عشرة فرنكات للمتر مكعب في عام ١٨٦٢ ، ثم إلى ٥ ,٥ فرنك في عام ١٨٦٤ . وكان كل زورق يحمل خزانين من الصفيح قدمتهما الشركة ، سعة كل منهما متر مكعب[٢٤] .

وكان يتم توزيع المياه لأماكن إقامة العمال بواسطة السقايين ويدفع الخاصة ١٢,٧٥ فرنكا للمتر المكعب ، أما ساحات الحفر فى البرزخ فيتم تزويدها بالمياه بواسطة الجمال وعند وصول المياه إلى المخيم تنقل فى براميل وتفرغ فى صناديق من الصفيح أعدت لهذا الغرض[٢٥] .

استمر الاتفاق نافذا مع محمد الجيار حتى فرغت الشركة من مد خط أنابيب الماء من الإسماعيلية إلى بورسعيد فى أبريل ١٨٦٤ [٢٦] . وأيضًا كانت المياه تصل من الإسكندرية إلى بورسعيد بالسفن ولكن غالبا ما تحول حالة البحر دون رسو السفن على الشاطئ.

وكانت مشكلة إمدادات المياه العذبة لعمال السخرة بعد تزايد أعدادهم فى ساحات الحفر عقبة أمام الشركة بعد أن مات العديد من العمال عطشًا فى ساحات الحفر لنقص المياه، وكانت الشركة قد اخطأت فى تقدير وتقييم احتياجات العمال من الماء وقت أن دفعتهم لساحات الحفر فى البرزخ وخاصة فى منطقة الجسر خلال عام ١٨٦٢ [٢٧] . وكان الموقف مروعًا فى أعماق صحراء البرزخ فى القنطرة والفردان ومرتفعات عتبة الجسر حتى بحيرة التمساح، وأخذت الشركة تنقل الماء إلى العمال فى ساحات الحفر من بعض آبار متناثرة فى الصحراء فى أبوصير (غرب عتبة الجسر) وفى نفيشة وفى أبوشنان (جنوبى القنطرة) . وكان هذا الأسلوب الذى سارت عليه الشركة فى جلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر بدائيًا باعتراف أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس (فونتان ماريوس)[٢٨] وكانت قافلة الجمال- التى تنقل المياه- تستغرق أربعة أيام فى ذهابها إلى مورد الماء فى القنطرة والعودة منه [٢٩] . وإذا تأخر وصول القافلة كان الموت يحصد العمال حصداً [٣٠] .

وكان عمال السخرة « يعاملون بمنتهى القسوة ويموتون كالذباب » وذلك على حد وصف ألبرت فارمان (قنصل عام الولايات المتحدة فى ذلك الوقت)[٣١] أما كاتب آخر (Dicey) فيقول : « أنهم كانوا يموتون كالماشية »[٣٢] وكان العمال يلوذون بالفرار من ساحات الحفر حين يشعرون بالخطر الداهم بسبب نفاد كميات المياه وتأخر وصول مقادير أخرى منها فيهربون قبل أن يدركهم الموت ، إلا أنهم كانوا يلقون حتفهم فى الطريق وهم يعبرون الصحراء التى تفصل

بين ساحات الحفر وبين الأماكن المأهولة بالسكان والتى توجد بها مياه الشرب وتظل جثثهم فى العراء على رمال الصحراء تنهشها الذئاب .

وكان هناك قلة من العمال يستسلمون لقضاء الله وقدره، ولايبرحون ساحات الحفر يحدوهم الأمل فى وصول القافلة التى تحمل ماء الشرب، وكان يطول انتظارهم ويلفظون أنفاسهم قبل أن تدركهم قافلة الجمال [٣٣].

وظل العمال يعانون من قلة الماء إلى أن دل أحد رؤساء الأعراب رجال الشركة (فى أغسطس ١٨٦١) إلى موقع بئر بالقرب منهم هو بئر (أبوشنان) تصلح مياهه لشرب الإنسان، فوجهت الشركة قوافل الجمال شطره تنقل مياهه للعمال [٣٤].

واعترف دى لسبس أن شغله الشاغل كان إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء وعلى الأخص إمدادهم بماء الشرب قبل كل شئ ، وقد ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هى فى توفير ماء الشرب فى ساحات الحفر. وحاول دى لسبس الدفاع عن الشركة التى هى المسئول الأول عن الخسائر الجسيمة فى الأرواح[٣٥].

ولقد كانت الشركة مسؤلة حسب عقد الامتياز الثانى (يناير ١٨٥٦) عن حفر ترعة للماء العذب تستخدم فى الرى والملاحة النهرية ، تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح ، وهناك تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً إلى بورسعيد والآخر جنوبا حتى السويس. ولكن الشركة أجلت حفر هذه الترعة واهتمت بحفر القناة البحرية ، وهنا جاءت مأساة هذه الآلاف المؤلفة من المصريين المسخرين فى ساحات الحفر ، وبرزت مشكلة إمدادهم بالمياه.

وحلاً لهذه المشكلة قامت الحكومة المصرية بأمر من سعيد باشا بحفر ترعه الماء العذب ، هذه على نفقتها وبأعداد بلغت ٥٥٨٩٣ رجلاً من المصريين وتم حفرها خلال تسعة أشهر من قرية القصاصين إلى نفيشة بالقرب من بحيرة التمساح فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ وبلغ طولها ٣٤٨٣٨ مترا وهنا خفت مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر[٣٦].

ثانيًا : تفشى الأوبئة والأمراض بين العمال فى ساحات الحفر:

الكارثة الأخرى التى حلت بعمال السخرة تمثلت فى الأوبئة التى اجتاحت ساحات الحفر نتيجة لانعدام الماء العذب فى البرزخ إلا من بعد آبار قليلة- كما سبقت الإشارة- فلم يكن فى الاستطاعة إقامة الحمامات العامة أو المغاسل وغير ذلك من وسائل المحافظة على الصحة

العامة . فقد كان الماء لازال يحمل على ظهور الجمال لساحات الحفر، ولم يكن يفى بحاجات العمال الضرورية .

كل ما هناك أن الشركة انشأت إدارة صحية تتبعها مراكز الإسعاف متنقلة مصنوعة من الخشب تتبع ساحات الحفر (٣٧). ولكن الدكتور أوبار روش Aubert Roche رئيس الشئون الصحية فى الشركة(٣٨) أمر بإلغاء المخيمات وأكواخ الخشب وإقامة المنازل المبنية من الطوب اللبن، كما نصح بالاهتمام بالتهوية فى كل مكان وتجنب التكدس والازدحام وأوصى بتنظيف أرض المنازل وطلاء الحوائط باللون الأبيض وتنظيف الشوارع (٣٩).

وكانت أهمية مراكز الإسعاف تتوقف على عدد العمال الذين يعملون فى دائرتها أو على جنسية المقيمين هناك. فكانت عناية الشركة بصحة مستخدميها وعمالها الأجانب تفوق بكثير عنايتها بصحة العمال المصريين (٤٠).

واتبع «أوبار روش» طوال فترة حفر القناة سياسة «الوقاية الصحية» والسلامة من الأمراض وأقام مستشفى فى بورسعيد عام ١٨٦٠ لعلاج العاملين بالشركة ومع ازدياد عدد العاملين فى ساحات الحفر والمقاولين وأتباعم تم إقامة مستشفى آخر فى الإسماعيلية فى منتصف البرزخ (٤١).

وكانت أكثر الأمراض انتشارا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر هى : النزلات الشعبية والأمراض الصدرية والرمدية ، وحالات الإسهال الشديد والدوسنتاريا وأمراض الكبد(٤٢).

والحقيقة أن النشرة الصحية التى كان يقدمها أوبار روش كل حين قد جانبها الكثير من الصواب لمحاولتها إخفاء الحقائق المؤلمة حول عدد الموتى الذين عصفت بهم الأوبئة فى ساحات الحفر . والأوبئة التى اجتاحت برزخ السويس حسب ترتيب ظهورها هى : التيفود - التيتنوس - الجدرى - الكوليرا- الحمى الراجعة .

التيفود : ظهر فى إبريل ١٨٦٢ فى ساحة الحفر رقم ٦ واتخذ مظهر الوباء بين العمال من النوبة وثبت مسئولية الشركة وتقصيرها ، فكان حرى بها أن تتخذ التدابير الوقائية لمنع تسرب المرض إلى ساحات الحفر، علاوة على أن العمال قد حملوا العدوى لقراهم بعد عودتهم(٤٣). ويذكر المؤرخ الايطالى «انجلو ساماركو» أن الشركة كانت سبباً فى ذلك(٤٤) .

كافحت الشركة الوباء فى تكتم شديد، فلم يذكر أحد من رجال الشركة على الإطلاق اسم ذلك المرض حتى لايثير الرعب والاضطراب فى ساحات الحفر، حتى أن المرضى أنفسهم كانوا يجهلون أنهم مصابون بهذا المرض(٤٥).

وتذكر الشركة أنها تغلبت على الوباء خلال شهر واحد ، وأن عدد الإصابات بلغت ٥١٢ عاملا والوفيات ٢١ فقط !! ولكن هذه الأرقام كانت دون الحقيقة بكثير فى ساحات الحفر التى لايقل عدد العمال فيها عن عشرين ألف عامل . وتعطلت عمليات الحفر بسبب الوفيات، وهذا دليل على جسامة عدد الضحايا . كما أن مدير عام الأشغال بالشركة- فوازان بك- Voisin béy الذى كان يشرف على عمليات الحفر فى تلك المنطقة وصف ذلك الوباء بأنه «حادث خطير»(٤٦).

وفى العام التالى (١٨٦٣) انتشر وباء التيفوس والتيفود معًا فى ساحات الحفر، وكانت مصر قد ابتليت بهذين الوبائين قبل انتقالهما إلى منطقة البرزخ، وكان من المتعذر أن يظل برزخ السويس بمنجاة منهما .

وفى عام ١٨٦٤ تسرب وباء الجدرى إلى ساحات الحفر، وهنا أيضا يتأكد تقصير القسم الطبى بالشركة فى اتخاذ التدابير الوقائية لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى برزخ السويس(٤٧).

الكوليرا : تفشى وباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف عام ١٨٦٥ وكان أخطر وأشد وباء شهدته منطقة برزخ السويس ، ونشر الذعر بين الناس مما أدى إلى تعطيل الأعمال (٤٨).

وقد ظهر هذا الوباء أولاً فى عام ١٨٦٤ فى البنغال بالهند ثم انتقل إلى بمباى ، وفى سنه ١٨٦٥ انتشر على ساحل مليبار إلى كراتشى وبلوخستان ثم نقلة الحجاج الهنود المسلمون إلى الحجاز (مكة) وانتشرت العدوى بين الحجاج المصريين هناك، فلما عاد حجاج مصر وشمال أفريقيا إلى ميناء السويس وفد الوباء معهم إلى ذلك الثغر ومن ثم انتشر فى مصر وفى ساحات الحفر ببرزخ السويس(٤٩). وقد أثار الذعر بين السكان والعمال العرب والأجانب على السواء وخرج الأجانب هائمين على وجوههم صوب بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام ويحملون معهم أثقالا من المتاع . ومع ازدياد أعداد الموتى زيادة مروعة اعتقد الجميع أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الوباء هى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وعجزت الإدارة الصحية للشركة عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الاسعاف أو يرفعون جثث الموتى(٥٠).

ومن العجيب أن يظل عدد الإصابات بالكوليرا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر أمراً غامضًا لم تشر إليه تقارير الإدارة الصحية فى شركة القناة إلا لماما، وقصرت الشركة

إحصائياتها على العمال الأجانب . وقد ذكر كبير أطباء الشركة (أوبار روش) فى تقريره عن «سير الكوليرا» وكذلك مدير الأشغال (فوازان بك) أنه كان من الصعب للغاية الوقوف على عدد الوفيات والإصابات بين العمال المصريين، وهو أمر أريد به إخفاء نسبة الوفيات العالية بينهم[٥١].

ثالثًا : سوء التغذية وانعدام الأجور وسوء المعاملة :

أوردت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» تقريراً عن حالة عمال السخرة فى البرزخ خلال الفترة الأولى قبل إلغاء السخرة فى عام ١٨٦٤ جاء فيه :

«أما الظروف التى كان يعيش فيها رجال الورشة فلم تتحسن تمام ويبدو أن الوضع كان أكثر صعوبة فى وسط الخليج والصورة التى رسمها المهندس مانتو Montaut[٥٢] تعطى فكرة عن ذلك، فقد كان تموين علف الماشية من التبن والفول والشعير أيضًا غير منتظم وكان عدد الوفيات ضخمًا بسبب المجاعة ، ولم تكن تدفع الأجور وهناك نقص فى المؤن- نقص فى الأوعية والملابس والأحذية الملائمة لطبيعة المكان ، ولم تصل ملابس صيفية طوال الصيف ، كما كان يوجد داخل البرزخ معتقل يرسل إليه من يسئ السلوك، وليس على المرء أن يشكو ما لم يمت جوعا ... إن المواد الغذائية الموجودة فى مخزن دمياط لاتصل »[٥٣].

وقد كشف أيضًا مانتو- بعد استقالته- كيف كانت النوايا السيئة للمقاول العام «هاردون» واضحة فقد جاء إلى مصر بعمال أوربيين مع أسرهم ووعدهم بشروط مميزة ثم دفع لهم أجور أقل بكثير مما صرح به، وكانوا يتقاضون ما يكفى لأكلهم ، وكيف جاء بحرفيين سرحهم عندما تتوافر المواد اللازمة لعملهم وظهرت تعسفات وتجاوزات المقاول العام أكثر تجاه العمال العرب. وتكشف بوضوح الهوة بين الحقوق المكتسبة التى أعلنت على الملأ بواسطة الدعاية الضخمة وبين التصرفات الفعلية[٥٤]. وإن كان الخديوى سعيد قد احترم تعهداته واستدعى الآلاف من الفلاحين من قرى مصر وأرسلهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ- كما ذكرنا- فعلى العكس من ذلك لم يكن وكيل الأعمال ينفذ تعهداته . ولاحظ مانتو ضعف الأجور التى تدفع للفلاحين ، إذ كانت أقل بكثير عما أعلن عنه، ورأى أيضا أن مراقب المقاول فى موقع الحفر فى منطقة البلاح استخدم فلاحين فى أراضى وعرة بالإضافة إلى عدم استطاعته تزويدهم بالمعدات المناسبة وقرر أن يدفع ٤٠ سنتيما عن كل متر مكعب تم استخراجه أكثر قليلا عن الأجر المعتاد ، فوجه المقاول العام له اللوم على مبادرته ، كما أن

العمال كانوا ينتظرون أجورهم طوال أسابيع كاملة، وكانوا يضطرون للعودة إلى قراهم دون مال[٥٥].

وهذا ما أكده أيضا (البرت فارمان) بقوله : «بناء على بعض المعلومات التى حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، أن المبالغ الضئيلة التى اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم فى أغلب الأحيان . ولقد اتضح من القضايا التى رفعت بعد ذلك أن حوالى مليون دولار (٤.٥ مليون فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأى شخص منهم. والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق ، بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة عن عدم الإستمرار فى توريد عمال السخرة»[٥٦].

وتجدر الاشارة إلى أن عمال السخرة كانوا يعملون فى شهر رمضان ، وقد بلغ عددهم فى شهر رمضان عام ١٢٧٨هـ (مارس ١٨٦٢م) ١٩٦٧٨ عاملا سيقوا إلى ساحات الحفر وعمل الكثير منهم فى حفر القناة أثناء الليل، وكانت الشركة قد اتخذت عدتها لهذا التجديد فى نظام العمل، فابتاعت ألف مشعل من القاهرة استخدمتها فى إنارة ساحات الحفر حيث ظل العمال يعملون على ضوء المشاعل طوال شهر رمضان [٥٧].

العمالة الأجنبية فى البرزخ وتبعاتها :

بعد إلغاء أعمال السخرة فى ١٥ مارس ١٨٦٤ استلزم الأمر كثرة من العمال الفنيين وعمال الحفر على السواء. وكان العمال الفنيون ، الذين يعملون على الكراكات والمعدات الميكانيكية وغيرها، من الأجانب أما عمال الحفر فكانوا فى غالبيتهم العظمى من العرب[٥٨] جاءوا للعمل بمحض إرادتهم[٥٩] وخاصة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٥) وإنخفاض أسعار القطن المصرى انخفاضا كبيراً . ويؤكد ذلك تقرير محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) أن عمال الفحت فى رمال القناة أكثر الشغالة فيها من أبناء العرب، أما الأروام وغيرهم من الأجانب فهم قله بالنسبة للأول [٦٠].

وعلى أية حال فقد شهدت مصر عهد التسلط القنصلى، إذ كانت الغالبية العظمى من قناصل الدول يتدخلون فى صميم الشئون الداخلية للحكومة المصرية، وازداد تدفق الأجانب على مصر منذ تولى سعيد حكم مصر، جاءوا بحثاً عن المأوى والمطعم ، تحت حماية قناصل دولهم وأصبحت مصر مقصد كل عاطل وحالم كأنها أصبحت «كاليفورنيا جديدة» تزخر بمناجم

الذهب، وكان معظم هؤلاء الأجانب قد جاءوا من جنوبى شبه الجزيرة الايطالية ومن اليونان وفرنسا والنمسا . وكان الأجانب -آنذاك- لايخضعون للقضاء الإقليمى فى مصر، ولايخضعون للتشريع المصرى ولايخضعون للسلطة التنفيذية المحلية ، ونتيجة لذلك أصبحت شركة القناة بأراضيها قد تحولت إلى مستعمرات فرنسية تحظى بحماية ورعاية فرنسا كأنها «حكومة داخل الحكومة المصرية» (Imperium in Imperio) (٦١).

وهكذا وفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب- بعد إلغاء السخرة- فاضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو وتعددت حوادث الاعتداء على رجال الشرطة ومهاجمة مراكز قواته وغير ذلك من الشرور الاجتماعية . وكان العمال الأجانب فى برزخ السويس على قدر كبير من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان حتمًا وقوع الاحتكاك والاضطراب وكثيراً منهم كانوا من المتعطلين فجاءوا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة (٦٢). وقد وصف محافظ الاسكندرية- آنذاك- العمال الايطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم من سفلة الناس (٦٣).

أكدت الوثائق المحفوظة بشركة قناة السويس والمتعلقة بالأمن إلى وجود اضطرابات كثيرة فى ساحات الحفر ببرزخ السويس فى أعقاب تدفق العمالة الأجنبية هناك . وقد أكدت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» أنه بالرغم من التصريحات العامة المتعارضة للشركة، فإنه يكاد يظهر العنف يوميًا فى البرزخ ، إذ تعكر المشاجرات والصراعات العنيفة التى تنفجر غالبًا لأسباب تافهة ، هدوء الورش والمخيمات ، بشكل دائم وتزيد من العداوة بين أفراد من جنسيات مختلفة . وبعد توقف إرسال قوافل عمال السخرة قام فى الحقيقة خليط من الجنسيات المتعددة من العمال بالعمل فى ساحات الحفر فى القطاع الجنوبى من برزخ السويس، بينما كان معظم عمال الحفر من المصريين أو السوريين. أما العمال الحرفيون من بنائين ونجارين وحدادين وميكانيكية فقد تم اختيارهم من إيطاليا وشمال بحر الادرياتيك وشكل اليونانيين طاقم ملاحى الجرافات والزوارق المتنوعة (٦٤).

وهكذا انقضى عهد الهدوء والأمن الذى نعمت به منطقة البرزخ عندما كانت تعج بعشرين ألف عامل مصرى من عمال السخرة ، فلقد عرف عن أولئك العمال الوداعة والطاعة والانصراف إلى العمل فى هدوء ، مما سهل على الحكومة حفظ الأمن فى ساحات الحفر . وقد اعترف المسئولون فى شركة القناة والكتاب الفرنسيون أنفسهم بهذه الخصال الحميدة التى امتاز بها العمال المصريون (٦٥).

يقول رئيس ساحة الحفر في منطقة سرابيوم أن العمال اليونانيين كانوا بمثابة الطاعون الحقيقي الذي يجتاح البرزخ، فكانوا يرتكبون حوادث النشل والسرقات والاعتداء. وكان إذا قبض على هؤلاء اليونانيين وثبت عليهم الجريمة أرسلوا إلى القنصلية اليونانية في الإسكندرية لتقوم بأبعادهم إلى بلادهم ، وهناك لايتورعون عن تغيير أسمائهم وسرعان ما يعودون إلى البرزخ لاستئناف نشاطهم . وقد خاطب دى لسبس العمال بقوله : «كل إنسان حر في البرزخ، ولكن على الذين لايريدون عملاً أن يرحلوا وهذه أجل خدمة يستطيعون إسدائها لنا»(٦٦).

كذلك أدت مشاجرة نشبت بين اليونانيين والعرب في يومي ٣٠ و ٣١ أكتوبر ١٨٦٤ إلى إصابة اثنى عشر عاملاً يونانيًا بجروح خطيرة وتم نقلهم إلى مستشفى الإسماعيلية (٦٧). أيضا اندلعت معركة حامية بين اليونانيين والزنوج (يقصد النوبيين) في نوفمبر ١٨٦٥ في ورشة التل الكبير ونتج عنها ستة جرحى من بينهم مشرف فرنسي. أما المعركة التي وقعت بين العرب ورجال من الجبل الأسود في ورشة القنطرة في أبريل ١٨٦٦ فكانت نتيجتها ثلاثة قتلى. وفي عام ١٨٦٤ اندلعت أحد أكبر المشاجرات ضراوة في ورشة بقسم الاسماعيلية وتدخل المستخدمون بالشركة لمنع مجزرة حقيقية وأدى هذا الصراع بين ثلاثين يونانيا وخمسمائة عربي إلى خمسة قتلى وعشرين جريحًا (٦٨).

ونتيجة لهذه الحوادث المتكررة أدخلت الحكومة المصرية في البوليس المصري بعض الأجانب المشهود لهم بالذكاء ، كشفوا عن الحيل التي كان يلجأ إليها الأجانب المشاغبون وقاموا بترحيلهم إلى بلادهم وأدرك اليونانيون أن ارتكاب الجرائم حرفة غير مجزية فاختفوا من ساحات الحفر، ولم يبق فيها من الجالية اليونانية إلا العمال الأمناء والتجار الشرفاء(٦٩).

وتنقسم الحوادث التي وقعت في ساحات الحفر من حيث عدد المشتركين فيها إلى نوعين:

الأول : حوادث جماعية تقع بين جموع العمال ويتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف ويكون للتعصب الجنسي الأثر الأكبر في تفاقم الحال، إذ سرعان ما ينقسم المشتركون فيها إلى فريقين ينتمي كل فريق إلى جنسية واحدة، أو ينقسم المشتركون إلى فريق من العمال المصريين وفريق من العمال الأجانب على اختلاف جنسياتهم ، ممن يتصادف وجودهم في منطقة الحادث ، وتسفر عن وقوع قتلى وجرحى من الفريقين .

الثـــاني : حوادث فردية تقع بين عامل مصري وآخر أجنبي ، أو بين عامل أجنبي وآخر أجـنـبـي (٧٠)، ووثائق شركة قناة السويس (الفرنسية) وأيضًا وثائق محفوظات عابدين (المصرية) تفيض بأخبار هذه الحوادث بنوعيها .

وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذه الحوادث ، اصطدام بين العمال الفرنسيين والعمال اليونانيين، نشأ من أن بعضًا من العمال الفرنسيين دخلوا بعد منتصف الليل محل بقاله يوناني يريدون شراء الخمر ، ولما كانوا فى حالة سكر شديد امتنع البقال اليونانى عن إعطائهم الخمر فثارت ثائرتهم وشرعوا يحطمون المحل وما فيه من زجاجات الخمر وعلا ضجيجهم وعندئذ انضم إلى صاحب المحل بنو جنسه من اليونانيين، كما انحاز الفرنسيون إلى العمال السكارى ، وهكذا اتسع نطاق الحادث. ويذكر محافظ القناة- إسماعيل حمدى بك- فى تقريره عن هذا الاشتباك : «وإنما تمكنت من إسكات الفتنة بعد جهد كبير وعناء شديد نظراً لأن عدد المتشاجرين كان يربو على خمسمائة شخص» (٧١). وأسفر الحادث عن وقوع إصابات بين الفريقين .

حادثة أخرى تتمثل فى أن جماعة من العمال الايطاليين الذين كانوا يعملون فى مركز الشلوفة أرادوا ابتياع كميات من الخمور يحتسونها وقت القيلولة فى أحد أيام ديسمبر ١٨٦٥ فوجدوا أن الموسسة الاقتصادية الفرنسية Bazin مغلقة فى تلك الفترة من النهار، ولم يرق للايطاليين ذلك فحطوا باب المحل واقتحموه ، وقد طلب رئيس ساحة الحفر فى قسم الشلوفة وهو رجل فرنسى من قوات البوليس المرابطة فى تلك الناحية القبض على اثنين من متزعمى هذه الحركة فما أن ألقى القبض عليهما ، حتى ثار العمال الأجانب وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، فهجموا على مركز البوليس بعد أن حبطت محاولة قاموا بها لحرق رجال البوليس أحياء، كما حطموا مخزن الشركة فأرسلت على عجل من السويس قوات من البوليس المشاة والفرسان وصلت بعد منتصف الليل ولم تهدأ الحال إلا فى الساعة الخامسة صباحًا وبعد أن وقعت إصابات بين أفراد البوليس والعمال (٧٢).

أيضا كان العمال الأجانب يجنحون دائمًا إلى الإضراب إذا تأخر المقاولون عن دفع أجورهم. وقد وقع هجوم منهم على مركز الشركة فى السلوفة، لأن المقاول أراد أن يستقطع من كل عامل ١١ فرنكا بمثابة تأمين عن السرير الذى تم صرفه لكل منهم، ورفض العمال الإذعان لرغبة المقاول، وكان عددهم يزيد على ألفين ، فلجأوا إلى أعمال الشغب ووقعت خسائر فى الأكواخ الخشبية والأسرة المعدة لنومهم ، وأبلغ أمر هذا النزاع إلى قناصل الدول، فحضر قنصلا فرنسا والنمسا إلى مكان الحادث وفصلا فى النزاع لمصلحة العمال(٧٣).

ولما أدرك العمال الأجانب أنهم قد نجحوا فى فرض إرادتهم على المقاولين والشركة ، طالبوا فى اليوم التالى بزيادة أجورهم واتفقوا على الإضراب عن العمل إذا لم تجب مطالبهم وحددوا

لإجابته أربع وعشرين ساعة ، فلما انقضى الموعد وشرعوا فى الإضراب طلبوا من العمال المصريين مشاركتهم فى الإضراب فأبى المصريون ووقع صدام بينهم وأطلق العمال الأجانب الأعيرة النارية ، ولجأ العمال المصريون إلى استخدام الفؤوس يضربونهم بها واتسع نطاق المعركة ووقع فيها عدد كبير من القتلى والجرحى، كما أصيب مأمور الشلوفة [٧٤]. وقد استنجد البوليس هناك بقوات إضافية حضرت على عجل من السويس والإسماعيلية وإقليم الوادى وكانت هذه القوات من المشاة والفرسان . كما قامت من القاهرة فى قطار خاص كتيبة من الجيش المصرى بقيادة السردار راتب باشا وعسكرت فى السويس ووزع بعض أفرادها فى الشلوفة وغيرها من مراكز الحفر الواقعة شمالى السويس على أهبة التدخل .

وقد خف إلى مكان الحادث رجال الداخلية ووكيل قنصل النمسا ووكيل قنصل ايطاليا لتهدئة الحال، وهناك علموا أن العمال الأجانب فريقان : فريق يرى المضى فى سياسة الإضراب حتى تجاب مطالبهم ، وفريق يريد العودة للعمل، ولكنه يخشى سطوة الفريق الأول . وقد استقر الرأى على إنذار أفراد الفريق الأول بضرورة العودة للعمل فورا وإلا أعيدوا إلى بلادهم بواسطة قناصل دولهم. وألقت السلطات المصرية القبض على اثنين من رجال الجبل الأسود وثلاثة عمال غساويين كطلب سلطات الشركة والمقاولين وموافقة قنصل النمسا وأرسلوا إلى السويس تحت حراسة مشددة تمهيداً لترحيلهم إلى بلادهم[٧٥].

أما الحوادث الفردية فكانت ترجع إلى سوء سلوك العمال الأجانب وإلى سوء الحالة المالية وخاصة بعد أن تعطل عدد كبير منهم عن العمل وأصبحوا ينتقلون من ساحة حفر لأخرى بقصد البحث عن أشغال يتعيشون منها[٧٦].

وساعد على كثرة هذه الحوادث أن الأسلحة النارية كانت تتداولها أيدى العمال الأجانب الذين كانوا يستعملونها لأوهى الأسباب . ومن أسباب زيادة عدد الجرائم الفردية فى منطقة البرزخ الإفراط فى تناول الخمور، مما كان موضع شكايات عديدة استفاضت بها تقارير اوبار روش (Aubert Roche) كبير أطباء شركة القناة [٧٧]. كما أشار إليها محافظ القناة فى برقياته إلى المعية السنية[٧٨].

الخمارات ونوادى القمار :

نتيجة للحوادث الناجمة عن تعاطى الخمور، تم حظر بيعها ، ورغم ذلك ومع تطور التجارة استمر استهلاك شراب الأفسنتين (الأبسنت) وماء الحياة بصورة كبيرة، تثير الشمالة

والصراعات وتولد العنف . ففى مارس ١٨٦٨ حدثت مشاجرة أمام محل بيع مشروبات بالقرب من البحيرات المرة نتج عنها أن تلقى إيطالى رصاصة فى ظهره وطعنة سكين بجانب عينه اليسرى دخل على أثرها المستشفى[٧٩]. وقد افتتح بعض الأجانب محلات عامة فى بعض جهات البرزخ للعب القمار وانتشرت لعبة الروليت (Roulette) فى أوساط العمال الأجانب وكان اليونانيون بوجه خاص هم الذين يديرون تلك المحلات[٨٠].

أيضا حصل المسيو شكتران (السويسرى) فى إبريل ١٨٧٤ على ترخيص بانشاء فابريقة لعمل البيرة بالإسماعيلية ، مع إعفاء الآلات والعدد الخاصة بتلك الفابريقة من الرسوم الجمركية لمدة سنة[٨١].

وكان العمال الأجانب يدخلون محلات القمار بعد أن يتسلموا أجورهم فيخسروا فى ساعة أو بعض ساعة الكسب الذى أصابوه من عملهم[٨٢] وقد أزعج هذا الأمر كلاً من Voisin Bey (مدير الأشغال بالشركة) ودى لسبس ، فاتخذوا موقفا حازما من هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، إذ طلبا من محافظ القناة رسميا إغلاق دور القمار فى منطقة البرزخ، وقد تظلم أصحاب هذه المحلات إلى قناصل دولهم من تصرف البوليس المصرى، وكان منع القمار فى موضوع مكاتبات رسمية بين نظارتى الخارجية والداخلية وقصر عابدين[٨٣].

وبلغ من إقبال العمال الأجانب على تناول الخمور أن كانت هناك حانات متنقلة تتبع كل منها مجموعة من الكراكات فى سيرها فى القناة[٨٤]. وكانت إذا حلت مجموعة من الكراكات فى إحدى جهات البرزخ الآهلة بالسكان وألقت مراسيها فى القناة، انتشر الخبر بسرعة بين سكان تلك الجهة فهرع التجار إليها يقيمون الأكواخ الخشبية ويعلقون اللافتات ويعرضون البضائع وتفتح المقاهى على مقربة منها، وسرعان ما يدب النشاط والحياة فى الجهة بأسرها. وكانت مجموعة الكراكات تتألف فى العادة من خمس وحدات[٨٥].

عنصر النساء فى البرزخ :

كانت شركة المقاولات (Borel & Lavalley) التى أبرمت معها شركة القناة عدة اتفاقيات لحفر الجزء الأكبر من القناة بالوسائل الميكانيكية تعمل على جلب النساء إلى منطقة البرزخ وكثير منهن كن ساقطات كى يقمن بالرقص فى بعض المقاهى والحانات ترويحًا عن العمال. وقد احتج محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) لدى فوازان بك (مدير عام الأشغال فى شركة القناة) ولدى بوريل Borel على هذا التصرف ، إذا كان يتأتى من ذلك أمور مغايرة وحصول مشاجرات ، وأن الأصول لاتجيز ذلك». وكان رأى الشركة أن رقص النساء فى المحال العامة

إنما هو عنصر هام من عناصر الحياة الاجتماعية يستهوى العمال على الإقامة فى منطقة البرزخ ويروح عن نفوسهم متاعب العمل ، ولم يسفر احتجاج المحافظ عن نتيجة إيجابية ، إذ رأى أن رجال الشركة يعتزمون إجراء بعض أمور توجب وقوع مفاسد فى المستقبل بشأن هذا القبيل. وكتب تقريرا بذلك إلى رجال المعية السنية وطلب إليهم رفعه إلى الخديوى إسماعيل إذا رأوا أنه ليس هناك ما يحول دون عرض «مادة النساء الفواحش على سموه»(٨٦).

والحقيقة أن وجود هذه النوعية من النساء فى البرزخ كانت سببًا فى قيام الخلافات والصراعات . وتشير الإحصائيات الطبية لعام ١٨٦٨- ١٨٦٩ إلى أن هناك ألفى امرأة من البيض ونفس العدد من أهالى البلد أي ما يساوى ١٢٪ من جملة السكان(٨٧).

وقد تم اغتيال نمساوى فى ١٤ أغسطس ١٨٦٧ فى مقهى إيطالى بالحى الصناعى بالإسماعيلية وقد توصل المحقق إلى أن «المرأة» هى دافع الجريمة وبالرغم من أن المرأة موضوع الخلاف إلا أنها أحيانا ما تكون الضحية . وفى ١٢ أكتوبر ١٨٦٨ أوضح تقرير رسمى أن عاهرة نمساوية عمرها يقل عن ٢٥ سنة قتلت فى بيت بغاء فى بورسعيد (٨٨).

وشملت شكاوى غاية فى الحدة وأشير إلى أن عدة منازل فى القرى العربية بالقرب من المخيمات الأوربية فى منطقة الجسر، يوجد فيها ناد للقمار وبيت للدعارة ، يتردد عليها عدد كبير من الأوربيين العاملين فى المخيم لقضاء الليل ومن جراء ذلك انتشرت الأمراض التناسلية بشكل مفجع بين السكان وكان لابد من وضع قوانين لذلك وإصدار قرارات من الأمن بتحديد ساعة إغلاق الحانات والمقاهى وإجبار السيدات اللاتى يمارسن البغاء على الكشف الدورى وهذا ما تم بالفعل (٨٩).

ومنذ عام ١٨٦٥ ، أصدر المدير العام تعليمات تتعلق بشرطة الآداب تلزم كل عاهرة بأن تخضع أسبوعيا لكشف طبيب ليتأكد أنها سليمة ويسلم لها بطاقة أسبوعية محددة. وتنص هذه التعليمات على أنه من مسئولية من «يديرون هذه البيوت» مراقبة هذه الأوامر، وطرد كل بنت مريضة دون بطاقة أو انتهى تاريخ بطاقتها . وقد اتخذ فوازان بك أيضا التدابير لتضييق الخناق على زيادة عدد الملاهى بضواحى الورش . وفى مايو ١٨٦٧ رأى المقاول كوفرو أن الدعاة انتشرت بكشل غير عادى، ثم جاء بعد ذلك دور شركة مقاولات بوريل ولافالى وشركائهما فى الشكوى من أن عدداً ضخمًا من الملاهى مفتوحة طوال الليل مما يستبقى الموظفين والعمال لساعات متأخرة وينال من مدخراتهم ويجعلهم غير قادرين على العمل فى اليوم التالى (٩٠).

وطلبوا من الشركة اتخاذ إجراءات تهدف إلى إبعاده هذه الأماكن عن مساكن العاملين . أيضا . تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من العمال الأجانب كان يصحب معه خليلة له تقيم فى مسكنه وهو أمر كان يؤدى إلى وقوع جرائم قتل تذهب ضحيتها الخليلة إذ يقتلها جار منافس لحائزها (٩١).

الباعة المتجولون والمحلات العامة :

شهدت منطقة البرزخ نظاما فريدا للباعة المتجولين ذلك أن لفيفًا من التجار اليونانيين كانوا يستقلون مراكب تسير فى القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد متجهين بها صوب الجنوب إلى داخل البرزخ، وكانت هذه المراكب تحمل ألوانًا مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه وما إلى ذلك . ويبيع بحارة المراكب هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون فى الكراكات حيث تكون فى جهات بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان ، وكان أصحاب هذه المراكب هم بحارتها وهم أصحاب تلك البضاعة وهم الذين يتولون بيعها ولذلك كانوا يعرضونها بأسعار منخفضة نسبيًا (٩٢).

هذا فى حين ازدحمت بعض مراكز الحفر بالمحلات العامة مثل المطاعم والمقاهى ومحلات بيع الحلوى (والكباريهات Cabarets) حتى أطلق على بعض تلك المراكز اسم باريس الصغرى Le Petit Paris (٩٣). وكانت فرق الموسيقى الأجنبية تعمل فى المقاهى ويستمر العزف إلى وقت متأخر من الليل(٩٤).

كما شاهد البرزخ الألعاب النارية يقوم بها العمال الأجانب فى احتفالاتهم وأعيادهم(٩٥). وكثر إقبال الأجانب على صيد الطيور بين المساكن مما عرض حياة الجماهير للخطر، ولذلك فكرت الشركة بالاتفاق مع محافظة القناة فى وضع لائحة تحرم صيد الطيور بين المساكن وعلى إلزام أصحاب المقاهى بغلق محالهم ليلاً فى الميعاد الذى يحدده فوازان بك (٩٦).

هذا وقد شهدت طلبات امتياز ملكية الأراضى التى قدمت فى عام ١٨٦٧ فى بورسعيد على تنوع الاحتياجات وتطور المدينة، إذ قدمت الطلبات بغرض إقامة مطعم ومخبز وورشة نجارة وفندق ومساكن ومحل أزياء حديثة ومحل مأكولات ومحل بيع مشروبات كحولية ومغسلة ملابس وبار (خمارة) وورش خشب ومحل معدات ومصنع لشراب الليمون وجزارة ومجمع وصالون حلاقة وحمامات عامة ومحلات للبقالة والتبغ ومصنع للخمور وورشة أسلحة وورشة خياطة ... الخ (٩٧)

النمو السكانى فى البرزخ :

بعد أن كانت أعمال حفر القناة محصورة فى البداية فى نقطة واحدة هى بحيرة شاطئ بورسعيد (١٨٥٩) امتدت تدريجيا لتشمل كل من برزخ السويس الذى كان من قبل مكانا قاحلاً ومعزولاً ولاتطرقه إلا قوافل البدو ، صار بعد ذلك أرضا آهلة بالسكان وفى نمو مستمر، وانضم إلى العمال الملتحقين بأعمال حفر القناة بعد ذلك جماعة من المقاولين والتجار والعمال من جنسيات مختلفة بحثاً عن فرص للعمل .

وعلى أية حال فقد شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذباً سكانيا كبيراً لمنطقة برزخ السويس، وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثًا عن الثروة والعمل فى هذا الموضع الاستراتيجى الهام، وساعد على ذلك سياسة دى لسبس من جهة وسياسة سعيد باشا وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحوا أبواب مصر على مصراعيها للأجانب . ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الموجه من الهجرة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»(٩٨).

بلغ عدد سكان بورسعيد فى عام ١٨٦٨، الأهالى ٢٧٠٠ رجلاً بينما بلغ عدد الأجانب ستة آلاف شخص (٩٩). وفى العام التالى كان عدد السكان يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نسمة وفى عام ١٨٧٤ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٠٢٥٥ نسمة، منهم ٤٠٣٦ أجنبى و ٦٢١٩ من المواطنين . وقد استمر عدد الأجانب فى التناقص حيث بلغ عددهم ببورسعيد ٣٤٥١ شخصًا فى أوائل عام ١٨٧٦ . وذلك لأن من بقى ببورسعيد من الأجانب كان قد ارتبطت حياته بها فاستقر بها متخذاً منها موطنا له . أما الذين قدموا إليها للعمل بشركة القناة أو أى أعمال أخرى ، فإنه بانتهاء العمل فى منطقة القناة فضل بعضهم العودة إلى بلادهم لانتهاء أعمالهم بالقناة ، والبعض الآخر تم استبعادهم خاصة الأشرار منهم إذ أن وجودهم سيحدث مشاكل للأمن (١٠٠). كما يمكن القول أن افتتاح قناة السويس كان أيضا عامل جذب للعديد من السكان الوطنيين لبرزخ السويس. وطبقًا لتعداد ١٨٨٢ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٦٥٦٠ نسمة منهم ١٠٦٩٣ من المصريين ، ٥٨٦٧ من الأجانب ونلحظ هنا أن عدد المصريين قد أصبح ضعف الأجانب وكان أغلب هؤلاء الأجانب من اليونانيين حيث بلغت أعداد الجالية اليونانية فى بورسعيد ٢٣٧١ نسمة ويليهم الايطاليون وعددهم ١٠٥٥ نسمة ويلاحظ أن أعداد الجالية الفرنسية قد بلغوا ٧٨٠ نسمة ، أما الإنجليز فكان عددهم ٧٧٥ شخصا يليهم النمساويون حيث بلغوا ٧٦٦ شخصا بالإضافة إلى أعداد قليلة من : الألمان

والبلجيكيين والإسبان والإيرانيين والآسيويين والهولنديين والدانمركيين ، وإثنان من أمريكا ٢٨٩ من أصل عثماني و ٣٣٣ من السودان والبرابرة[١٠١].

أما عدد سكان الإسماعيلية في عام ١٨٦٩ فقد بلغ ٦٠٠٠ نسمة ثلثهم من الأوربيين[١٠٢] وفي عام ١٨٨٢ بلغ ٣٣٦٤ نسمة منهم ٢٤٢١ مصريا و٩٤٣ أجنبيا . أما مدينة السويس فقد بلغ عدد سكانها في عام ١٨٨٢ ، ١٠٩٠٩ نسمة منهم ٩٧٢٦ مصريا و١١٨٣ أجنبياً [١٠٣]. وبلغ عدد سكانها في عام ١٨٦٠ ، ٣٠٠٠ نسمة ، وفي عام ١٨٨٢ ، ١١٣١٦ نسمة وفي عام ١٨٩٧ ، (١٧,٣٦٦ نسمة) [١٠٤].

التركيب الاجتماعي لسكان البرزخ :

يمثل سكان بورسعيد خليطاً من الجنسيات : اليونانيين والفرنسيين والايطاليين والنمساويين والمالطيين والعثمانيين هذا علاوة على المصريين : منهم من عمل بشركة القناة وآخرون جاءوا بحثاً عن فرص للعمل والمال وللاشتغال بالحرف والأعمال التي يجيدونها . وقد اتجه معظم اليونانيين إلى أعمال التجارة وعمل معظم الايطاليين في الحرف المختلفة وكذلك شارك النمساويون في الأعمال الفنية الدقيقة بمشروع القناة، كما قام بعض الأجانب من جنسيات مختلفة بإقامة عدة مشروعات استثمارية ببورسعيد[١٠٥].

ومع تقدم العمل في برزخ السويس وافتتاح القناة للملاحة العالمية ١٨٦٩ ، أدى ذلك إلى جذب الكثير من الأجانب للعمل هناك ، سواء في شركة القناة أو للتجارة والحرف المختلفة أو في الخدمات المقدمة للسكان ووجد بعض الأتراك والشوام في برزخ السويس. ونتج عن ازدياد أعداد الأجانب من بلاد معينة إلى وجود جاليات أجنبية كثيرة العدد مثل بورسعيد التي كانت بها جالية يونانية كبيرة العدد، وأيضا جاليات فرنسية وإيطالية وقد كان لهم تأثير كبير في حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[١٠٦].

الوطنيون :

مع تقدم العمل في القناة ومع وصول المياه العذبة لبورسعيد بصفة منتظمة وتوفر المأكولات وتحسن الظروف المعيشية وفد إليها السكان من داخل البلاد، سواء للعمل في المشروع أو في الخدمات والأنشطة المختلفة، وأيضا للعمل في الميناء وخدمة السفن (شحن وتفريغ) وأيضا في صيد الأسماك وكان لمحافظة دمياط نصيب الأسد في هذه الهجرة إلى بورسعيد ، ومن مديريات الدقهلية والشرقية والغربية والقليوبية كما هاجر إليها العديد من أهالي الوجه القبلي من جرجا وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان [١٠٧].

ومن عوامل جذب السكان المحليين إلى الهجرة لبرزخ السويس وجود فرص العمل علاوة على وجود العديد من المميزات مثل : المساكن الحديثة ودور اللهو والإنارة والنظافة والحياة الميسورة ، وأن ساعات العمل هناك أقل من مثيلاتها فى الريف، الأمر الذى يسمح بوجود وقت فراغ كبير فى حياة سكان مدن البرزخ . ويلاحظ أن مدينة بورسعيد قد تقدمت على مدينتى الإسماعيلية والسويس فى جذب السكان إليها على الرغم من أن مدينة الإسماعيلية كانت أقرب إلى العمران وتتوافر بها مياه الشرب والمواد الغذائية والمأكولات عن بورسعيد . فقد بدأت مراكز إدارة منطقة البرزخ وتوافرت بها عناصر الرقى والتقدم، أما مدينة السويس فهى من أقدم المدن فى منطقة القناة. وكان من الممكن أن تنمو وتزدهر بدرجة تفوق كثيرا بوررسعيد [١٠٨]. وهكذا نجد أن بورسعيد قد جمعت بين أخلاط شتى من البلدان الأوربية والشرقية والآسيوية كما جمعت بين لغات عديدة يتحدث بها سكانها إلى جانب المصريين الذين نجح بعضهم فى إتقان عدة لغات للتعامل مع الأجانب المقيمين بالمدينة أو مع الأجانب فى السفن التى تفد إلى ميناء بورسعيد . وهكذا جمعت مدن البرزخ بين جنسيات شتى لهم من العادات والتقاليد واللغات واللهجات والأشكال والأزياء والألوان[١٠٩].

الحرف والطوائف فى بورسعيد :

شهدت المدينة وخاصة بعد افتتاح القناة بفترة ظهور العديد من الطوائف والحرف مثل: حمالى الفحم (الفحامة) - حمالى البضائع- الفلايكية والقواربية- النجارين- القماشة- القلافطة- السماسرة- التراجمة- البمبوطية- العبادين والفساخة- البنائين- النقاشين- البرشمجية- الحدادين- السمكرية- النحاسين ومبيضى النحاس- أهل العلم- العرضحالجية- الصيارفة- الصياغ- الخياطين- المنجدين- الصباغين- العطارين- الدخاخنية- تجار البذور والزيوت- تجار الخضروات- طائفة القهوجية الشرباتلية- السقايين- الفراشين- القبانية- الفرانين- العياشة- (بائعى الخبز) - الحلاقين- الإسكافية- الحمارة والجمالة- الدلالين - الخدامين- البوابين[١١٠].

كما كانت هناك جماعات وفئات معينة ارتبطت بينها بروابط إقليمية وعقائدية واجتماعية وهى: طوائف الصعايده والعربان- وطوائف الشوام والأروام والموارنة والأرمن والايرانيين واليهود وطائفة العبيد[١١١]. وكانت كل طائفة تنتخب شيخًا لها لإدارة شئونها .

التطور العمرانى والطابع الجمالى للمبانى فى برزخ السويس:

كانت الخيام فى مطلع عمليات الحفر وسيلة لإيواء الرواد الأول من العمال، وكانت مخيمات موقتة ثم بعد ذلك شيدت أكشاك خشبية بالقرب من ساحات الحفر، كان قد استخدمها من قبل الجيش الفرنسى إبان حرب القرم (Crimée) وقد شيدت على الشريط الأرضى الذى يفصل البحر المتوسط عن بحيرة المنزلة. ثم بعد ذلك حلت محل الأكواخ الخشبية منازل متنقلة وشاليهات وأكشاك من الخشب مستوردة من فرنسا [١١٢].

ويشمل المخيم النموذجى مثل مخيم هضبة الجسر المبانى الآتية [١١٣]:

مستشفى ومساكن للطبيب والصيدلى ومخبز جزارة ومساكن راهبات وكنيسة صغيرة وبيت للكاهن ومحل مركزى ومحل بيع بالتجزئة ومساكن للمستخدمين فى المقاولات والعاملين بالشركة والمقاول العام والمهندس رئيس القطاع ومكاتب المقاولات ومكاتب شركة القناة، وورش النجارة والحدادة وصناعة العربات والمناشر والمخارط. ومكتب إنشاء الخيام، وسوق للتجارة الحرة وحلقة ترفيهية وفندق للمسافرين ومقاهى ومطعم ومساكن للعمال الأوربيين ومكتب هيئة النقل والإسطبلات وحظيرة الجمال. وبجوار المخيم قرية عربية بها مساكن يختلط فيها التجار والمقاهى وتختلف عن أساليب تشييد المخيم المخصص للأوربيين، ذلك أن معظم مبانى القرية العربية من أكواخ خشبية، وبعض هذه الإنشاءات لها وجود مؤقت للغاية، إذ إنه بعد انتهاء العمليات القريبة منها تختفى هذه المخيمات المتنقلة أو المؤقتة أو تنقل لتلحق بمواقع الأشغال. وفى عام ١٨٦٤ أقام العاملون فى أكواخ عائمة تأوى وتحفظ معداتهم وتجنبهم مشقة ومتاعب السفر فى الصحراء [١١٤].

أما مدينة الإسماعيلية فتعتبر حالة منفردة من البداية فقد وضع تصميم بنائها لتقوم بدور مركزى كعاصمة إدارية بعد تولى فوازان بك رئاسة قسم الأشغال الذى رأى أنها تقع فى منتصف المسافة فى البرزخ وتم وضع حجر الأساس للمدينة الجديدة فى أبريل عام ١٨٦٢ وأطلق عليها فى أول الأمر اسم (التمساح) وابتداء من ٤ مارس ١٨٦٣ أطلق عليها اسم (الاسماعيلية) تكريما لجلوس الخديوى إسماعيل على العرش وأصبحت المقر العام للشركة حيث يربط التلغراف بينها وبين بقية ورش القناة المختلفة وكذلك بين الزقازيق والقاهرة والإسكندرية ومرسيليا وحتى باريس [١١٥].

والجدير بالذكر أن مدينة الإسماعيلية قد أنشئت بخلاف بورسعيد على أساس مخطط منذ البداية فقد نشأت الإسماعيلية مع الورشة، على شكل هندسى يحدد تخطيط الطرق والمبانى

بشكل منسق . وتم وضع برنامج للتمييز بين المخيمات فى الإسماعيلية ، كما هو الحال فى بقية المخيمات فى البرزخ بحيث تظهر فعلا على الوحدات تسمية أحياء كثيرة تشكل وحدتان مركزيتان : «الحى الأوربى» بينما الوحدة الواقعة فى الشرق تصور مسبقا «الحى اليونانى» والوحدة الواقعة فى الغرب تدل على أنها «الحى العربى».

وهكذا بنيت الإسماعيلية من العدم فليس لها ماضى ولاتاريخ وأطلق على الميادين والشوارع أسماء تتصل جميعها بحفر قناة السويس، من أجل ترسيخ اقتران المدينة بالقناة رمزيًا (١١٦).

وقد أقامت الغالبية العظمى من مستخدمى شركة القناة فى وسط المدينة بالقرب من ميدان شامبليون فى مبانى متناسقة الشكل، وخصصت المنازل حول الميادين للمستخدمين المتزوجين. أما المنازل التى تحتل الزوايا فقد أعدت خصيصًا لرؤساء إدارة الشركة. وقد تم عزل المستخدمين غير المتزوجين فى جزيرة صغيرة مخصوصة أطلقت عليها الشركة «مربع غير المتزوجين» ، وأطلق عليها السكان اسم «أحياء المسعورين» . وهكذا لم يتردد فوازان بك فى إقامة ألوان عديدة من التفرقة فى مدينة الإسماعيلية (١١٧).

جدير بالذكر أن الفرنسيين كانوا يخططون المدن فى برزخ السويس على اعتقاد راسخ أنهم سيبقون فيها أبدا الدهر باعتبارها قطعة من أرض فرنسا تتخذ الطابع الفرنسى من حيث التخطيط والتنسيق والشكل الجمالى، وتلك هى طبيعة الاستعمار الاستيطانى .

حددت الشركة فى عام ١٨٦٥ أنماطا خاصة للمبانى السكنية للعمال والمستخدمين بالشركة من أجل تخفيض تكاليف المبانى فى مدن البرزخ وفى نفس الوقت إشباع بعض المتطلبات الجمالية أما بالنسبة للمبانى الأكثر تعقيداً فقد اتبع أسلوب المخيمات العسكرية.

وعندما زار هنرى بلور (Sir Henry Bulwer)(١١٨) مدن القناة أعطى لنا وصفا دقيقًا لتلك المساكن التى شيدتها الشركة بقوله : «أنها نصف كوخ ونصف منزل» , "Half Hut Half House" وأنها تشبه تلك المساكن المقامة على مراكز الحدود طبقا للحضارة الأمريكية(١١٩).

والطابع الغالب الذى ما زال موجودا لجميع مساكن الشركة المؤممة فى مدن القناة الثلاث يشهد بهذا الطابع المعمارى المكون من شرفات خشبية وجسم المسكن من الطوب . هذا الطابع الفرنسى (لمدن البرزخ التى أخذت تتكاثر) أكده السفير «هنرى بلور» بقوله :

" Here at Port Said, Timsah and Suez, were Growing French Towns, French Lands Around of Them ..."[١٢٠].

دور العبادة فى برزخ السويس :

حرص دى لسبس على أن يوفر أماكن للعبادة حرصا منه على الظهور بمظهر التسامح الدينى والحفاظ على حرية إقامة الشعائر الدينية لأنه قد جمع بين مختلف الأديان والمذاهب ، كل ذلك بهدف استمرار إقامة العاملين بمشروع القناة وأنها قد استطاعت أن تجمع بين مختلف الأديان والمذاهب، وأيضا فى إطار المحافظة على الأمن بدليل أن شركة قناة السويس خصصت موظفين مسئولين عن الأمن والأديان فى نفس الوقت .

وقد قام دى لسبس بنشاط ملحوظ فى الحقل الإسلامى، كان من مظاهره الحرص على أن يذكر فى إعلانات الشركة أنها قد شيدت مسجداً فى كل قرية من القرى التى أقامتها فى ساحات الحفر، واستعانت الشركة ببعض رجال الأزهر، فبادرت سنة ١٨٦٠ إلى تعيين إمام للمسلمين فى الحى العربى ببورسعيد، الذى انشأته شرقى الميناء ، لتكون إقامته المستمرة هناك من أسباب إقبال المسلمين على ذلك المكان المقفر[١٢١]. وفى حقيقة الأمر لم يكن هذا المسجد سوى شونة غلال عليها مئذنة لاتليق به رغم اهتمامها ببناء الكنائس للأجانب بشكل جيد[١٢٢].

وبازدياد عدد سكان بورسعيد واتساع رقعتها وبخاصة فى قرية العرب، أمر الخديوى توفيق فى ديسمبر ١٨٨٢ بإنشاء مسجد كبير فى المدينة هو «المسجد التوفيقى» سمى باسمه. أيضًا أقام دى لسبس كنيسة لليونانيين الموجودين فى بورسعيد تشجيعا لهم على الإقامة بها، وتنازل لهم عن الأرض المقامة عليها مجانًا، وكانت هذه الكنيسة تتبع بطريرك الأرثوذكس ، كما أقيمت كنيسة أخرى للكاثوليك فى بورسعيد فى آواخر الستينات[١٢٣].

هذا وقد خضعت إدارة الخدمات الدينية، مثلها فى ذلك مثل إدارة الخدمات الصحية فى السنوات الأولى، للوكالة العليا والإدارة العامة للأشغال بالشركة بالتناوب . ففى عام ١٨٦٥ دخلت هذه الإدارة «إدارة المراسم الدينية» فى اختصاصات إدارة الأشغال العامة للشركة وقامت وعلى نفقتها ببناء مساجد وكنائس كاثوليكية ودور عبادة صغيرة أرثوذكسية فى مراكز النشاط الرئيسية فى البرزخ، وفى أول فبراير ١٨٦٢ تم افتتاح كنيستين :

الأولى : فى الجسر مهداه إلى «سانت مارى دى ديزار» تخليدا لمرور العائلة المقدسة عند هروبها إلى مصر[١٢٤]. **والثانية**: أقيمت فى بورسعيد برعاية سانت أوجينى، كما حظيت الإسماعيلية بكنيسة أخرى تحت شفاعة سان فرانسوا دى سال (Saint Francois De Sales) وأثار طرازها المعمارى القوطى الحديث بعض التهكم من جانب كثير من المسافرين المارين بقناة السويس وكان فوازان بك مسئولا عن اختيار هذا الطراز المعمارى فقد عدل مشروع المهندس Viller عندما عدل شكل النوافذ مقترحا أقواسا من الطراز القوطى بدلا من المستطيلات[١٢٥].

وفى السويس تم حصر سبعة مساجد وكنيسة كاثوليكية يخدم بها آباء الأرض المقدسة وكنيسة صغيرة انجليكانية وكنيسة يونانيه، ونجد أيضًا رهبان فرنسيسكان فى بورسعيد والإسماعيلية[١٢٦].

وقد تحملت الشركة صيانة دور العبادة، كما حرصت على مكافأة القائمين على خدمة مختلف الديانات، ففى شهر إبريل ١٨٦١ عينت الشركة فى منطقة الجسر الشيخين : إبراهيم عبد العزيز إمام وقاضى، وعمر مؤذن للقرى العربية، ومنحت الأول راتبًا شهريا قدرة ١٢٥ فرنكا والثانى ١٣ فرنكًا . مما ترتب عليه زيادة عدد السكان فى هذه المنطقة فقد لاحظ المهندس مانتو فى عام ١٨٦٠ من أن القرية العربية فى بورسعيد قد ازداد عدد سكانها كثيراً منذ وصول هذا الإمام. ويقوم الأئمة المنتمون إلى مفتى القاهرة الكبير بمهام القضاة للصلح بين الأهالى ، كما كانوا يحررون العقود ووثائق الزواج. ومع ازدياد عدد السكان فى برزخ السويس ، صاحبه ازدياد فى عدد رجال الدين الذين يتقاضون أجور من الشركة ، ففى عام ١٨٦٨ شملت الخدمة الدينية خمسة كهنة وثلاثة خدام كاثوليكيين وأربعة مؤذنين وكاهنين أرثوذكس وثلاثة خدام يونانيين تم توزيعهم على المخيمات الرئيسية .

وفى هذه السنة تقاضى الكهنة الأرثوذكس ٢٤٠٠ فرنكا وخدامهم ٩٦٠ فرنكا، أما المؤذنون فأجرهم ٩٠٠ فرنكًا ما عدا مؤذن بورسعيد فقد تقاضى ١٥٠٠ فرنكًا دون معرفة سبب هذا التمييز. فلم تتعامل الشركة مع كل الديانات على قدم المساواة[١٢٧].

وكان للشركة حق اختيارهم وأيضا حقها فى طرد الذين لاترضى عنهم بسبب أفكارهم أو تصرفاتهم . فقد طردت الكاهن نيكيتا Nekita فى يناير ١٨٦٤ بحجة أنه يمثل خطرا حقيقًا لتأثيره السيئ فى نفوس الرجال، ونتج عن ذلك مظاهرة احتجاج فى بورسعيد تحج رجال شركة القناة فى تهدئتها [١٢٨].

وحقيقة الأمر أن دى لسبس قد أجاد فن الدعاية للمشروع واستغل الجانب الدينى استغلالاً جيداً والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

وطد دى لسبس علاقته بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أصبح من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر، فنظم الطهطاوى قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة، وقام الدكتور بيرون Peron بترجمتهما للغة الفرنسية .

وأيضا كانت الشركة تستكتب بعض الكتاب المصرين مقالات تهدف إلى الدعاية للمشروع ودعوة الجماهير فى مصر إلى الاشتراك فى تنفيذه ، وقد ذهب هؤلاء الكتاب إلى أن حفر القناة فى البرزخ «بين البحرين» إنما هو تطبيق عملى لما ورد فى القرآن الكريم !!! وجريدة شركة القناة سجل يحفل ببعض من هذه المقالات التى ترجمت إلى الفرنسية وفيها ذكر بعض آيات القرآن الكريم[١٢٩]. وهذه السياسة التى سار عليها دى لسبس هى نفس السياسة التى تسير عليها حاليا ما يعرف باسم : «جمعية أصدقاء فردنياند دى لسبس»[١٣٠].

الحدائق والتماثيل والاحتفالات :

ازدانت مدن البرزخ بالعديد من الحدائق ، ففى بورسعيد وجدت حديقة المنشية فى وسط المدينة، التى اهتمت بها المحافظة فقامت بغرس العديد من الأشجار والأزهار بها . وقامت شركة القناة بتوسيع هذه الحديقة فى عام ١٨٧٣ وأصلحت فسقيتها وطرقها ، وإقامت كشك لعزف الموسيقى بها مرتين أسبوعيا ، كما أجرى توسيع آخر بها عام ١٨٧٥ وأضيئت بالفوانيس التى أحضرت إليها من الإسكندرية ، كما زودت بكراسى خشبية لراحة روادها[١٣١].

حرصت شركة القناة على إقامة العديد من التماثيل فى مدن القناة التى تمجد تاريخ عظمائها ، وأول تلك التماثيل تمثال دى لسبس الذى أقيم فى مدخل القناة فى بورسعيد (ليشاهده كل من يعبر القناة) فى إحتفال مهيب فى عام ١٨٩٩ [١٣٢]. وتمثال آخر لتوماس واجهورن (ضابط بحرى انجليزى) أقامه دى لسبس، وهو تمثال نصفى عند مدخل قناة السويس الجنوبى بمدينة بور توفيق نقشت على قاعدته العبارة التالية : «أقامت الجمعية العمومية لقناة السويس هذا النصب التذكارى للملازم واجهورن المولود فى شاتام سنة ١٨٠٠ والمتوفى بلندن سنة ١٨٥٠ وذلك اعترافا باخلاصه فى افتتاح الطريق البرى بمصر» [١٣٣].

شهدت مدن القناة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر العديد من الاحتفالات أقامها الأجانب المقيمون فى البرزخ فى مناسبات عديدة ترتبط بأعيادهم القومية وأيضًا للترويح والاستمتاع فى الأجازات ، وكانت هذه الاحتفالات مصحوبة بالموسيقى والرقص والمسابقات الرياضية وغيرها بدعم من شركة القناة . وعلى الجانب الوطنى كانت هناك الموسيقى والأغانى الشعبية ومن أهمها «السمسمية» التى هى من تراث وانعكاسات مرحلة السخرة فى حفر قناة السويس (١٣٤).

المقابر :

أقامت شركة القناة عدداً من المقابر غرب بورسعيد جنوب قرية العرب وبجوار بحيرة المنزلة، للموتى من كافة البلاد ومختلف الأديان : واحدة للمسلمين والثانية لليونانيين والكاثوليك وأخرى للبروتستانت ونظراً لارتفاع منسوب المياه فى أرض بورسعيد ، فقد كان يتم بناء حجرات أو حوائط من الحجارة وكانت تقام الواحدة فوق الأخرى. ولم تكن شركة القناة تسمح بالدفن فى هذه المقابر دون دفع ثمن هذه المقبرة ، وكان بواقع خمسين فرنكا للرجل و٢٥ فرنكا للطفل بخلاف باقى المصاريف ، ويقتصر القبر على شخص واحد . أما الموتى والفقراء من جميع الأجناس فكان يتم دفنهم مجانا وكانت محافظة بورسعيد تتولى بعد ذلك دفع المصاريف الخاصة بإجراءات دفن الفقراء من أبناء العرب على سبيل الإحسان . وفى عام ١٨٦٦ طالبت محافظة بورسعيد شركة القناة إقامة عدد من المقابر للإسرائيليين لعدم وجود مقابر لهم(١٣٥).

ولما كانت شركة القناة ترفض أحيانا دفن بعض الفقراء من أبناء العرب، ما لم يدفع عنهم القيمة التى حددتها ، فقد قامت المحافظة ببناء عدد من المقابر تخصص لأمثال هؤلاء فى قطعة أرض تقع غرب قرية العرب (١٣٦). ثم بعد ذلك أشرفت محافظة بورسعيد على المقابر ابتداء من يوليو ١٨٧١ . هذا وقد تقدم (حاخام باشى) طائفة الإسرائيليين فى بورسعيد سنة ١٨٧٠ بطلب لمحافظة بورسعيد لبناء عدد من المقابر لأبناء طائفته وذلك لأن موتاهم يدفنون بمقابر المسلمين مما يتعارض مع شريعتهم ووافقت الحكومة المصرية على تخصيص قطعة أرض لجعلها جبانة للإسرائيليين أسوة بباقى المقابر مع إنشاء سور خاص بها(١٣٧).

الهوامش

١- د. محمد السيد غلاب ، منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ، بحث فى كتاب بعنوان : السويس. القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . د.ت ص ص١٦-٢٢ .

٢- د. إبراهيم نصحى ، السويس فى العصور القديمة حتى الفتح العربى، بحث فى كتاب: السويس، المرجع السابق، ص ص٤٣-٤٥ .

٣- د. عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢٦)، ٢٠٠٢ ص ص١٤-١٥ .

٤- نتالى مونتل، حفر قناة السويس (المشروع والتنفيذ دراسة في تاريخ ممارسات التقنية) ترجمة د.عباس أبو غزالة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، ص٤٠ .

٥- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص ص٣٧-٣٨ .

٦- Voisin Bey , Le Canal de Suez . T.6. Description des travaux de Premier etablissement. Paris 1906 , p. 67 .

٧- نتالى مونتل، مرجع سابق ذكره ص٤٠ ، وراجع أيضًا كلا من : عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، مرجع سبق ذكره ص٦٨ ، Voisin Bey , Op. Cit.p.163 وراجع أيضًا : Arnold Wilson , The Suez Canal, Its Past Present and Future, London 1939 . pp. 32-33.

٨- Arnold Wislon , Op. Cit, p. 33 .

٩- الشناوى ، مرجع سابق ذكره ص٨٣ .

١٠- المرجع السابق، .

١١- المرجع السابق ، ص ص٨٨-٨٩ .

١٢- راجع تفاصيل هذه اللائحة فى كتاب : فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٤٤ ، ص ص١٨٠-١٨١ .

١٣-الشناوى ، السخرة مرجع سبق ذكره ص١٠٩ .

١٤- المرجع السابق، ص١٢٩ .

١٥- Hallberg, Charles W, The Suez Canal. N.Y . 1931 , p. 201 .

وراجع أيضا : Douim George: Histoire de Régne du khédive Ismail . T.I. Rome , 1933 , p. 24 .

وراجع أيضا: Lord Kinross, Between two Seas , the Creation of the Suez Canal . London . John Murray , 1968 , p. 156 .

١٦- الشناوى ، السخرة ، ص٣٠ ، ص ص١٢٩-١٣٥ .

١٧- المرجع السابق، ص١٤٧ .

١٨- المرجع السابق، ص١٤٨ .

١٩- المرجع السابق ، ص ص١٤٧-١٤٩ .

٢٠- انظر الخريطة رقم١ على موقع الآبار (مأخوذة عن Voisin Bey. Op. Cit لوحة رقم٤) .

٢١- Voision Bey , Op. Cit., T.VI , pp. 79 , 145 , 168 .

٢٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٣٣ .

٢٣- الشناوى، مرجع سبق ذكره ص٢٢٨ .

٢٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ وأيضا الشناوى، مرجع سابق، ص٢٢٨ .

٢٥- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ انظر الخريطة رقم ٢ .

٢٦- الشناوى ، السخرة ص٢٢٩ .

٢٧- الشناوى ، ص٢٣٢ ، نتالى مونتل ، مرجع سابق، ص ص١٣٥-١٣٦ .

٢٨- Fontane Marius , le Canal Martime de suez , Paris , 1869 . T. 2, p. 138 .

٢٩- Vosion Bey . Op. Cit. T. p. 168 .

٣٠- Hoskins Halford Lankester, British Routes to India, N.Y. 1928 , p. 365 .

٣١- ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م، ص١٩٥ .

٣٢- Diecy Edward : The Story of Khedivate. London 1902, p. 36 .

٣٣- الشناوى ، السخرة ص ص٢٣٢-٢٣٣ .

٣٤- المرجع السابق ، ص٢٣٤ وراجع أيضا . Vosion Bey, Op. Cit. T. p. 220

٣٥- الشناوى، المرجع السابق ، ص٢٣٦ .

٣٦- المرجع السابق، ص٢٤٩ .

٣٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٠٧ .

٣٨- المرجع السابق، ص٢٠٨ .

٣٩- المرجع السابق، ص٢٠٨ .

٤٠- الشناوى ، السخرة ، ص٢٦٢ .

٤١- نتالى مونتل ، مرجع سابق ذكره ، ص٢٠٨ .

٤٢- الشناوى : السخرة ، ص٢٦٤ . وقد ذكر اوبار روش ذلك فى تقاريره السنوية التى كان يرفعها إلى إدارة الشركة . وراجع أيضا : نتالى مونتل، ص٢١١ .

٤٣- الشناوى، السخرة، ص٢٧٦ .

٤٤- Angelo Sammarco , Histoire de L'Egypte Moderne, Depuis Mohammed Ali Jusque L'Occupation Britannique (1801-1882), T. 3 le Caire 1937 , p. 55 .

٤٥- الشناوى، السخرة ص٢٦٨ .

٤٦- Voisin Bey , Op. Cit . tom ,6, p. 280 .

٤٧- الشناوى، السخرة ، ص٢٧٢ .

٤٨- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١١ .

٤٩- الشناوى، السخرة ص ص٢٧٤-٢٧٦ .

٥٠- المرجع السابق، ص٢٧٧ .

٥١- المرجع السابق، ص ص٢٨٠-٢٨١ وراجع أيضا : نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص٢١١-٢١٢ .

٥٢- المهندس برنارد مانتو Bernard Mantaut مهندس الطرق والكبارى شغل فى بادئ الأمر بشركة القناة وظيفة رئيس القسم المركزى للأعمال بالإسكندرية ثم مسئول قطاع التمساح فى البرزخ وهو أمر يعتبر فى غاية الأهمية لمعرفة نشاط الشركة فى سنواتها الأولى وطبيعة الصعوبات التى قابلها فى ذلك الوقت : فقد كتب مانتو لوزير التجارة والاشغال العامة فى فرنسا فى بداية عام ١٨٦٢ مذكرة سرية يشرح فيها الأسباب الحقيقية التى دفعته إلى الاستقالة والعودة إلى فرنسا. وتعتبر هذه الشهادة

فى غاية الأهمية، لأنها تكشف العديد من خفايا الأمور، وأنها لجأت إلى استخدام الأسلوب المباشر والصراحة المطلقة (ملف مانتو تقرير رقم (2 / ANF 14-2285 وهو موجود بالأرشيف القومى الفرنسى) راجع : نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره، ص٤٢ .

٥٣- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص٥١ .

٥٤- نتالى مونتل ، ص٤٨ .

٥٥- المرجع السابق، ص ص٤٨-٤٩ .

٥٦- ألبرت فارمان، مرجع سبق ذكره ص١٩٤ .

٥٧- Voisin Bey , Op. Cit. T.6,. p. 276 .

٥٨- Bertrand Alphonse et Emile Ferrier . Ferdenand de Lesseps , sa vie son ouvre , Paris , 1887 , p. 290 .

وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى أوائل عام ١٢٨١ هـ (الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٦٤) تفيد «أن مجموعة من أبناء قبيلة غامد قد شاركوا فى حفر قناة السويس ، وهى رسالة من شخص يدعى مساعد أرسلها لوالده بعد ٢٧ يوماً من وصوله إلى السويس . وسيره يومين على الأقدام حتى وصل إلى مواقع الحفر فى برزخ السويس. ويشرح فيها هواجسه وقلقه على أهله وكيف أن (شوطة) مرض الكوليرا قد أهلكت الكثير من الخلق وأن هناك عدد كبير من قبيلة غامد سافر فى شكل جماعات للمشاركة فى حفر قناة السويس».

من تاريخ الوثيقة يتضح أنها بعد الغاء السخرة (الذى تم فى ١٥ مارس ١٨٦٤) أى أنه كان فى ظل العمل الاختيارى، أما وباء الكوليرا فكان كما ذكرنا من قبل فى ١٨٦٥ ، ولذا فإن تاريخ الوثيقة فى حاجة إلى إعادة دراسة. (المصدر: جريدة عكاظ بتاريخ ٢٥ ذو الحجة سنة ١٤٢٥هـ نقلا عن :موقع الانترنت «مجالس الصقور» منتدى قبيلة غامد الرئيسى) .

٥٩- Ritt Olivier , Histoire de L'isthme de Suez , Paris, 1889 , p. 318 .

٦٠- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٣ معية تركى وثيقة رقم ٥٣ من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ١٧ شوال ١٢٨٤هـ (١١ فبراير ١٨٦٨) .

٦١- الشناوى ، السخرة ص٧ وراجع أيضاً : Lord Kinross , Op. Cit, p. 156 .

٦٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٥ معية تركى وثيقة رقم ٢٦٨ من محمد شريف باشا ناظر الخارجية إلى المعية السنية بتاريخ ٢٩ جمادى آخر ١٢٨٢ (١٩ نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٣- محفوظات عابدين- دفتر تلغرافات رقم ١ وارد عابدين برقية رقم ٦٢٥ من محافظ الاسكندرية إلى رياض باشا فى ١١ جمادى آخر سنة ١٢٨٢ (أول نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٤- نتالى مونتل ، المرجع السابق، ص٢١٣ .

٦٥- Voisin Bey , op. cit, T. p. 274. وراجع أيضا Ritt Olivier, Op. Cit , pp. 285-286 .

٦٦- Erckman - Chatrian . Souvenirs d'un Ancient Chef du Chantier a L'isthme de Suez . Paris 1988 , pp. 76-77 .

٦٧- نتلى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٦٨- المرجع السابق، ص٢١٤ .

٦٩- Erckmann , Op. Cit, pp. 76-77 .

٧٠- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٧١- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٣ معية تركى وثيقة رقم ١٠٦ ، من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى مهردار الخديوى بتاريخ ٦ ذى القعدة ١٢٨١ (١٣ إبريل ١٨٦٥) .

٧٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩١ ، من شريف باشا إلى الباب العالى (إسماعيل) وبها مرفق عربى من على رشاد محافظ السويس إلى ناظر الداخلية والخارجية بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ (٣ يناير ١٨٦٦) ومرفق بها أيضا تقرير عن الحادث وضعه على كشك (معاون ضبطية السويس) ووقعه معه بدر أغابلوكباشى السوارى بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ .

٧٣- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٥٣٢ ، من حسين فهمى بك محافظ السويس إلى المعية السنية بتاريخ ٩ رمضان ١٢٨٤ (٤ يناير ١٨٦٨) ووثيقة رقم ٥١٨ بها مرفق عربى من مأمور الشلوفة محافظ السويس بتاريخ ٢ رمضان ١٢٨٤ (٢٨ ديسمبر ١٨٦٧) ومرفق عربى بتاريخ ٣ رمضان ١٢٨٤ (٢٩ ديسمبر ١٨٦٧) .

٧٤- المصدر السابق.

٧٥- المصدر السابق.

٧٦- محفوظات عابدين- دفتر تلغراف دار عابدين برقية ١١٥٢ من محافظ القناة إلى رياض باشا بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٢٨٦ (٢٨ أغسطس ١٨٦٩) .

٧٧- Roche, Aubert, Rapports sur L'etat Sanitaire et Medical des travillurs et des Etablissment, du Canal Maritime de L'isthme du Suez , paris 1868 .

وراجع أيضًا : نتالي مونتل ، ص٢٢١ .

٧٨- محفوظات عابدين - دفتر ٩ تلغرافات - وارد عابدين .

٧٩- نتالي مونتل : ص٢٢١ .

٨٠- Ereckmann. Op. Cit, p. 268 .

٨١- عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف في مصر (١٨٠٥-١٩١٤)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر العدد ٤٥- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص٢٠٠ .

٨٢- Ereckmann , Op. Cit , p. 76 .

٨٣- محفوظات عابدين - محفظة رقم ٤٢ معية تركي وثيقة رقم ٢٧٥ ، من مراد إلى مهر دار جناب الخديوي بتاريخ ٢٨ ذي الحجة ١٢٨٤ (٢١ إبريل ١٨٦٨) .

٨٤- Ereckmann. Op. Cit, p. 155 .

٨٥- Ibid .

٨٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٥ معية تركي وثيقة عربية رقم ٣٨٧ من إسماعيل حمدي بك إلى مهردار جناب الخديوي بتاريخ ١١ جمادى آخر ١٢٨٢ (١ نوفمبر ١٨٦٥) .

٨٧- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٦ .

٨٨- المرجع السابق، وراجع أيضًا عن هذا الموضوع: زين العابدين شمس الدين، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢ . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ ، ص ص١١٤-١١٥ .

٨٩- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٢٠ .

٩٠- المرجع السابق نقلا عن وثائق شركة قناة السويس : AN 153 AQ/ TE137 رسالة من مقاولات بوريل ولافالي وشركائهما إلى فوازان (٢١ مايو ١٨٦٩) .

٩١- محفوظات عابدين- دفتر رقم ١٠ تلغراف وارد عابدين برقية رقم ٨٥٨ من محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ٢٨ رجب ١٢٨٧ (٣ نوفمبر ١٨٦٩) ويوجد في دفاتر التلغرافات الواردة إلى

قصر عابدين عدد كبير من البرقيات بهذا الخصوص.

٩٢- Ritt, Op. Cit, pp. 351-352 .

٩٣- Erckman, Op. Cit, p. 267 .

٩٤- Ibid, p. 155 .

٩٥- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٤٥ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادة مهر دار الخديوى بتاريخ غرة شعبان ١٢٨٢هـ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٥م) .

٩٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٢ معية تركى وثيقة رقم ١٢٢ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادتلو أفندم بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٨١ (١٦ أبريل ١٨٦٥) .

٩٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٤ .

٩٨- Sabri , M. Bey . L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo- Francise, Paris , 1939 , p. 207 .

٩٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٥٣ .

١٠٠- المرجع السابق، ص٥٤ .

١٠١- المرجع السابق، ص ص٥٤-٥٥ .

١٠٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ومدن القناة ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص٢٩٢ .

١٠٣- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص٥٥ .

١٠٤- فؤاد فرج، مرجع سابق ذكره، ص٣٦٦ .

١٠٥- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص ص٥٥-٥٦ .

١٠٦- المرجع سابق ذكره ص٥٦ .

١٠٧- المرجع السابق ، ص٥٧ .

١٠٨- المرجع السابق، ص٥٩ .

١٠٩- زين العابدين ، ص٥٩ .

١١٠- المرجع السابق ص ص٧٧-٧٨ .

١١١- المرجع السابق، ص٧٨ ، بعد توقيع معاهدة ١٨٧٧ بين مصر وانجلترا بشأن التعاون على منع تجارة الرقيق ابلغ قسم جوازات بورسعيد بأن يوضح فى جوازات السودانيين أو الأحباش المغادرين للنظر بأنهم أحرار ، المرجع السابق، ص٩١ .

١١٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص١٩٨-١٩٩ .

١١٣- وهى أصعب منطقة فى ساحات الحفر أخذت مجهودا هائلا من عمال السخرة لارتفاعها وهى المنطقة الواقعة بين القنطرة وبحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 154

١١٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص ص١٨٩-١٩٠ ، ١٩٨ .

١١٥- المرجع السابق ص ص١٩١-١٩٣ .

١١٦- المرجع السابق، ص ص١٩٢-١٩٦ .

١١٧- المرجع السابق، ص١٩٧ .

١١٨- سفير بريطانيا فى الآستانة قام بزيارة لبرزخ السويس - بدعوة من دى لسبس - بعد بضعة أسابيع من تدفق مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح، وكان قد زار الصعيد من أجل الاستشفاء، صحيًا ثم قام بزيارة القطاع الشمالى للقناة بصحبة دى لسبس ، ونزل فى مبنى بالإسماعيلية تابع للشركة يطل على بحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 155

١١٩- أنظر الشكل رقم (٢) الخاص بمساكن العمال والموظفين للشركة.

١٢٠- . Lord Kinross, Op. Cit, pp. 155-156

١٢١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص١٠٣ وما زال هذا المسجد فى بورسعيد وبعد تجديده يعتبر من أكبر مساجد بورسعيد .

١٢٣- المرجع السابق، ص١٠٤ .

١٢٤- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٧ .

١٢٥- المرجع السابق.

١٢٦- المرجع السابق ص ص٢١٧-٢١٨ .

١٢٧- المرجع السابق. لقد أنصفت الباحثة الفرنسية فى تعليقها هذا ذلك أن الشركة قد دأبت فى تعاملها مع الجانب الوطنى فى البرزخ، بأنه فى المرتبة الثانية فى كل الأمور ولاسيما الإسكان ، المياه، الأجور والخدمات المختلفة... الخ .

١٢٨- المرجع السابق، ص٢١٨ .

١٢٩- لمزيد عن هذا الموضوع راجع : الشناوى ، السخرة ص ص٨٨-٨٩ .

١٣٠- L'Association du Souvenir de Ferdinand de Lesseps et du Canal de Suez.

ظهرت هذه الجمعية فى السنوات الأخيرة ويرأسها حاليا السيد / أرنودى رامير (Arnaud Ramiere) أما الرئيس الفخرى حاليا هو السيد/ جون بول كالون الذى كان المفاوض الفرنسى ، عند تأميم القناة ١٩٥٦ ، مع الجانب المصرى للوصول إلى التعويض المناسب للشركة . وقد تكونت هذه الجماعة بعد التأميم وتحولت الشركة الفرنسية فى باريس إلى مجرد شركة استثمارية تملك الأموال ولاتدير القناة وليس لها أى دور ، ولكنها ملكت أرشيف بباريس، فتكونت هيئة أهلية أطلقت على نفسها اسم المذكور ، وأعلنت أنها تعتبر نفسها اتحاد يمجد ذكرى فرديناند دى لسبس وقناة السويس ، وأنها مسئولة عن التراث التاريخى الذى يسرد تاريخ قناة السويس وأن هذا الإرث التاريخى قد تم تصنيفه مؤخرا بمعرفة هيئة اليونسكو كذاكرة للعالم Memore du Monde وأنه لايخص فقط كل من مصر وفرنسا وإنما يخص العالم أجمع ويضم وثائق الشركة عن الفترة من ١٨٥٤ حتى ١٩٥٧ . وقد تم نقلها إلى الأرشيف القومى الفرنسى خلال الفترة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨٠ وهى تشمل الآن بحجمها مساحة ١٦٠٠ متراً من الأرفف . وبالنسبة لنشاط هذه الجمعية فى مصر نلحظها فى محاولاتها لربط هذا الاتحاد بمكتبة الاسكندرية ، فقامت بإهدائها ميكروفيلم لبعض هذه الوثائق الخاصة بالشركة ومعظمها مؤلفات دى لسبس وأقرانه من المؤيدين للشركة.

وشاركت هذه الجمعية فى العديد من الأنشطة الثقافية مع المكتبة ، وأيضا باتصالاتها مع هيئة قناة السويس لإنشاء متحف لقناة السويس وترميم حجرة دى لسبس فى الاستراحة الرئيسية بالاسماعيلية والمسجلة كأثر تاريخى. وقد حاولت إعادة تمثال دى لسبس الذى حطمه البورسعيديون إبان العدوان الثلاثى على مصر ١٩٦٥ ، وقد فشلت حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف .

وجدير بالذكر أن دى لسبس كان حريصا على إخفاء كل وثيقة تدين الشركة فيما يتعلق بالسخرة فى حفر قناة السويس والمآسى التى عاناها عشرات الآلاف من الفلاحين فى ساحات الحفر . ذلك أنه قد احتفظ لنفسه بحق نشر المعلومات وفرض الصمت على الجميع ، وإصدار تعليماته إلى جميع العاملين بالشركة من الأوربيين بموجب أمر إدارى رقم ٦٤ (٢٤ يناير ١٨٦٢) بالفصل من العمل فى حالة التصريح بمعلومات أو خواطر عن شئون الشركة إلى وكالات الأنباء ، أو الصحف التابعة لأى بلد كان أو إلى مجرد أشخاص (راجع ذلك فى كتاب : نتالى مونتل ص١٤) . وقد تم تنفيذ ذلك فى الكثيرين، نذكر منهم دانيل لانج- العضو البريطانى فى الشركة - وعن تفاصيل هذا الموضوع راجع : السيد حسين جلال ، قناة السويس والأطماع الاستعمارية الدولية - القاهرة سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٢٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ ، ص ص١٨٧-١٨٨ .

١٣١- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص ص١١٦-١١٧ .

١٣٢- لمزيد من التفاصيل راجع : السيد حسين جلال، «بورسعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب» مجلة المؤرخ العربي- العدد العاشر- المجلد الأول، مارس ٢٠٠٢ ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٣- فؤاد فرج، مرجع سابق، ذكره ص٣١٥ .

١٣٤- راجع بالتفاصيل عن هذا الموضوع : السيد جلال ، بورسعيد مركز التقاء ثقافات ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٥- زين العابدين شمس الدين ، بورسعيد، ص ص١١١-١١٢ .

١٣٦- المرجع السابق، ص١١٢ .

١٣٧- المرجع السابق، ص ص١١٣-١١٤ .

ضياء الدين حسن القاضي *

تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد

التعريف بمدينة بورسعيد

ارتبط تاريخ مدينة بورسعيد ونشأتها وظهورها على خريطة العالم بتاريخ حفر قناة السويس ذلك الشريان الحيوى والاستراتيجى الذى يربط البحرين الأبيض بالأحمر والتى بدأ العمل فى شقها فى بورسعيد فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ فى عهد والى مصر محمد سعيد باشا واستمر الحفر قرابة العشر سنوات حيث احتفل بافتتاحها فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فى عهد خديوى مصر اسماعيل باشا فى احتفال مهيب حضره ملوك وأباطرة العالم وفاقت تلك الاحتفالات من الأبهة والفخامة ما جاء فى وصف ليالى ألف ليلة وليلة.

إلا أن المنطقة التى نشأت عليها الآن كانت تحوطها من الشرق والجنوب فى الأزمنة الغابرة حضارات سادت ثم بادت بفعل الزلازل أو الأمر بهدمها وإخلائها خوفًا من استيلاء المغيرين عليها وتلك الحضارات كانت الفرما وبيلوز وتنيس وتانيس وتتونة.

وتعتبر بورسعيد الميناء الثانى فى الأهمية بالنسبة لمصر بعد ميناء الاسكندرية.

وتقع مدينة بورسعيد فى الطرف الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا أما مدينة بور فؤاد التى قام بافتتاحها الملك فؤاد فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ التى هى إحدى أحياء مدينة بورسعيد السبعة وتقع شرق قناة السويس فى الطرف الشمالى الغربى لقارة آسيا .

وموقع مدينة بورسعيد الفريد أكسبها أهمية على خريطة العالم جعلها محط أنظار كثير من أبناء شعوب العالم تتوافد عليها بعد حفر القناة أناس من شتى بقاع العالم وبالأخص

---

* عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

من ربوع أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط فى شكل جاليات طامعين فى الثروة والغنى السريع، وحملت كل جالية معها ثقافتها وعلى رأسها الثقافة الأنجلو سكسونية والثقافة اللاتينية والاغريقية وتلك الجاليات حسب كثافتها اليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية وشتات من جنسيات شعوب أوروبا والأمريكتين وأسيا وأفريقيا حتى عرفت مدينة بورسعيد بالمدينة الكوزموبولنان أى ذات الصبغة العالمية المتشعبة .

الكل جاء لبورسعيد باعتبارها قلعة اقتصادية ضخمة (تجارية صناعية وخدمية ملاحية مرتبطة بالميناء والسفن المارة بالقناة) الكل يبحث فيها عن الثروة وبريق الذهب ، وحظيت الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد بكم هائل من الثروة-والمكانة والاحترام بحكم عوامل على النقيض من أبناء البلد الأصليين من أبناء مصر الوافدين إليها من شتى أقاليم مصر بحثاً عن حياة أكثر رخاءاً وهناءاً عن تلك البسيطة والفقيرة فى ديارهم الأصلية إلا أن الحروب التى كرت على بورسعيد وعلى رأسها حروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ كانت عوامل طرد لبعض من سكان بورسعيد وبالأخص الأجانب الذين عادوا إلى بلادهم .

وسردي للأحداث فى بحثى هذا عن تاريخ الجاليات الأجنبية فى بورسعيد سوف يمثل فترة تواجدهم على أرض بورسعيد منذ دق أول معول فى أرض قناة السويس من عند بورسعيد فى يوم الإثنين ٢٥ أبريل ١٨٥٩ مروراً بافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ انتهاء بحرب يونيو ١٩٦٧ وما استتبع ذلك لهجرة اجبارية لأهل بورسعيد فى محافظات مصر إلى هجرة نهائية للأجانب منذ أوائل ١٩٦٨ وبعد انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعودة الحياة الطبيعية لمدينة بورسعيد التى لم يعد إليها إلا القلة القليلة من الأجانب ومن اليونانيين بالذات الذين لم يعد لهم أي كيان يذكر .

كان التكوين السكانى لمدينة بورسعيد فى أول عهدها يعتمد على تجمعين للسكان.

الأول : فى أقصى الغرب من المدينة حيث قرية العرب (حى العرب فيما بعد) وهو عبارة عن مجموعة من العشش الخشبية المتواضعة المصنوعة من أخشاب صناديق البضائع الواردة للمدينة على ظهر البواخر التى ترسو فى الميناء، وكان يقطن قرية العرب المصريون الوافدون على المدينة الوليدة من شتى أقاليم مصر للعمل فى المهن الدنيا فى المدينة كفحامين يقومون بشحن السفن العابرة فى القناة بالفحم الذى كانت تستخدمه السفن فى ذلك الوقت لتشغيل آلاتها، أو للعمل كسقائين وظيفتهم امداد مساكن المدينة بالمياه التى ترد لبورسعيد بالمراكب

الشراعية عبر بحيرة المنزلة المتاخمة للمدينة فى جهتيها الغربية والجنوبية وكانوا يقومون أيضاً بامداد السفن بما تحتاجه من الماء، وهناك مجموعة من الفواعلية الذين يعملون تحت رحمة المقاولين البحريين الأجانب (الكومندات) في شحن وتفريغ السفن العابرة للقناة بالبضائع ، وأناس كثيرون لا عمل لهم إلا اكتساب أرزاقهم اليومية إلا بالكاد (بالعافية) .

وكانت فرقة العرب ومساكنها خالية من أي مقومات آدمية ضرورية لحياة صحية ، فشوارعها رملية غير مرصوفة تلقى فيها القاذورات والمياه غير النظيفة في كافة أرجائها مما يجعل انتشار الأمراض والأوبئة سهلاً بالإضافة إلى انتشار الذباب والبعوض اللذين ينقلان الأمراض، يضاف عدم توفر الاضاءة فيها ليلاً، ولقد دام لهذا الحى أن يكون خالياً من أية وسائل للترفيه والتسلية (سينمات، مسارح مكتبات عامة، نوادي...) وفي أقصى قرية العرب جهة الغرب ظهر تجمع سكانى أطلق عليه حى المناخ نسبة إلى اناخة ابل القوافل التى كانت تأتى محملة بالبضائع من دمياط..

أما التكوين السكانى فيقع فى شرق المدينة وهو حى الافرنج (نسة للفرنج الأجانب) فهو على النقيض يحظى بالأهمية الكبرى فهو ملاصق للميناء ولقناة السويس مما يرفع من أثمان أراضيه ويعطيها أهمية فبنت فوق أرضه المساكن الحجرية المكونة من عدة أدوار وطوابق Et-age تصل إلى أربعة أو خمسة ذات شرفات (بلكونات أو ترسينات بلغة أهل بورسعيد) مصنوعة من الخشب أو الحديد المشغول Fer Battu التى تطل على الشوارع الطولية والعرضية المتعامدة والمرصوفة والمغروس على جانبها أندر أنواع الأشجار المجلوبة من أوربا لتظلل المارة والسيارة عند غدوهم ورواحهم صيفًا وقاية من لهيب الشمس والمضاءة بفوانيس غاز الاستصباح ليلاً والتى استبدلت بالكهرباء فيما بعد ويتولى عمال المجلس البلدى (افتتح أول مجلس بلدي لمدينة بورسعيد فى ٢٣ فبراير ١٩١١ فى عهد المحافظ محمد محمود بك ليكون مختلطاً بين المصريين والأجانب) ومن قبله نادى المحافظ محمد ماهر باشا بتكوين مجلس أهلي يتولى جباية العوايد والصرف منها على رقى مدينة بورسعيد مكون من ٢٤ عضواً نصفهم مصريين والنصف الآخر أجانب افتتح فى ٢٦ فبراير ١٨٩٤) فيتولى كنس شوارعها فى الصباح الباكر ورشها بالمياه . وأسفل تلك العمارات الشاهقة بحى الافرنج كثرت الحوانيت الكبيرة التى تعج بشتى صفوف البضائع التى ترد لبورسعيد فى شتى بقاع العالم وتنتشر المقاهى والبارات التى تصدح أمامها الفرق الموسيقية بأعذب المعزوفات وبالأخص فى حالة

وصول باخرة تحمل ركاباً (بساجيرى بلغة أهل بورسعيد) Passenger من شتى بقاع العالم فتسمع أصحاب تلك المحلات ينادون عليهم بشتى لغات العالم لتمتلئ جيوبهم بشتى أنواع العملات الأجنبية بعد أن يقوموا بشراء عاديات وتذكارات تذكرهم بمدينة بورسعيد فتنتعش الحياة الاقتصادية بوصول مثل تلك البواخر، لقد عرف حى الافرنج وسيلة مواصلات كانت فى ذلك الوقت متقدمة هو الترام الذى تجره البغال وقام بتشغيله الاقتصادى اليونانى قسطنطين زورروس ١٨٩٢ لتجوب عرباته أرجاء المدينة .

تلك صورة مختصرة عن حى الافرنج الذى كانت تقطنه كافة الجاليات الأجنبية ويكاد يكون محرمًا على المصريين أن يقطنوا فيه أو يدخلوا إليه إلا للعمل طرف الأجانب كخدم منازل أو قواصه (حراس) أو عمال فى المحال والمخازن المنتشرة داخل هذا الحى.

وأحب أن أنوه أنه فى التخطيط المبدئى لمدينة بورسعيد خطط لنشأتها بأن تكون غرب القناة سواء كان ذلك حى الافرنج أو قرية العرب (حى العرب فيما بعد) هم حى المناخ .

ففى الضفة الشرقية للقناة التى كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة أو كما يطلق عليها الاجانب Bousqvet كانت عبارة عن تجمع للورش الخاصة بشركة قنال السويس لاصلاح السفن ومعداتها إلى أن جاء الوقت لاقامة ضاحية سكانية فوقها عرفت بمدينة بور فؤاد نسبة لملك مصر فؤاد الأول الذى افتتحها فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ تكفلت شركة قنال السويس ببنائها للعاملين فيها فصممت ڤيلاتها على نمط واحد أخذ أسلوب العمارة الفرنسية.

الجاليـة اليونانيـة

الجالية اليونانية كانت أكبر الجاليات الأجنبية تواجداً على أرض بورسعيد .

ففى عام بداية الحفر ١٨٥٩ بلغ عدد الأجانب الذين وصلوا إلى بورسعيد ٤٩ أجنبيًا أغلبهم من الفرنسيين وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عددهم ١٥٨ أجنبيًا أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين . أما فى سنة ١٨٧٦ بلغ عددهم ٣٤٥١ أغلبهم من اليونانيين واستمر عدد الأجانب فى الزيادة بعد احتلال انجلتر لمصر سنة ١٨٨٢م وفى تلك السنة تم اجراء أول تعداد للسكان فى مصر كان إجمالى السكان فى بورسعيد ١٦٩٧٨ نسمة منهم ٢٩٣٧ أجنبى واليونانيون منهم ١١١٦ يونانى .

أما في التعدد التالي سنة ١٨٩٧ فوصل عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة وصل عدد الأجانب فيها ١١٤٨٠ أجنبي أكثرهم اتراك وشوام ويونانيون وبريطانيون وإيطاليون وفرنسيون.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهرت تعداد الجالية اليونانية

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	
٣٤٦١	٤٠٤٧	٥٣٤١	٦٢٠٦	٤٠٤٧	يوناني

لقد اشتهر أبناء الجزر اليونانية بأنهم بحارة مهرة ذو خبرة في أعمال لذلك استعان بهم دي ليسبس عندما بدأ مشروعه في حفر قناة السويس من بورسعيد ١٨٥٩م وفي ذات السنة قام دي ليسبس بانشاء فنار على أعمدة خشبية بارتفاع ٢٠ متراً لإرشاد السفن القادمة للميناء المرتقب والمحملة بأدوات الحفر والمياه والأطعمة لعمال الحفر (في منطقة المرسومة الحالية) وعين له دي ليسبس اليوناني من أبناء جزيرة كاسوس Gorge Anetas لتشغيله الذي توقف في ١٨٦٩ عند افتتاح القناة بعد أن حل محله الفنار الحجري المشهور المطل على ميناء بورسعيد واستمر عمل اليوناني انستاس بشركة القنال ٤٦ سنة أحيل بعدها للمعاش وله ذكريات كثيرة قصها في المرجع اليوناني ذكريات وأحداث عن مدينة بورسيعد لديمتريوس خالدوبيس المطبوع في الاسكندرية ١٩٣٩ .

وازدادت أهمية اليونانيين بعدما ألغى دي ليسبس السخرة في حفر قناة السويس ١٨٦٤ وقامت الحكومة المصرية بسحب ٢٠ ألف عامل مصري في المشروع بإيعاز من إنجلترا فاضطر دي ليسبس في النشر في الصحف العالمية وعن طريق البعثات الدبلوماسية الفرنسية عن رغبة شركة قنال السويس في تشغيل عمال أوربيين في أعمال حفر قناة السويس وتلبية لهذا النداء وصل إلى مناطق الحفر خمسة آلاف عامل من أبناء الجزر اليونانية أغلبهم بحارة من جزيرة كاسوس والذين كانوا يطلقون على تلك النقطة التي نشأت عليها بورسعيد Kavo Poulio أي محطة العصافير لكثرة طيور البحر المهاجرة في تلك المنطقة وقد اشتهروا بـ الكاشوتية » والذين فضلوا العمل في حفر قناة السويس عما يتعرضون له من مخاطر البحر حيث وصل أجر العامل اليوناني من ١٥ إلى ٢٥ ريال في الشهر فكان هذا الأجر مرتفعًا إذا ما قورن بما يتقاضاه الواحد منهم على ظهر إحدى السفن.

لقد ذكر لنا المرجع اليوناني أن أول حفل زفاف تم على أرض بورسعيد سنة ١٨٦٣ للميكانيكي اليوناني Manolis Kalangas والذى أقام مراسم الزواج القسيس Papanikits (مما يدل على أن اليونانيين كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وأسرهم في مناطق الحفر).

وأكمل العمال اليونانيون أعمال الحفر التي توقفت ابتداء من سنة ١٨٦٥ وعمل بجانبهم بعض العمال المصريين الذين عادوا لمناطق الحفر برغبتهم وعرفوا «بالرغوبية» وأكمل الجميع الحفر حتى افتتحت القناة للملاحه العالمية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .

وقد تولى اليوناني Klodrs مهمة توزيع البريد على المحطات المنتشرة على امتداد قناة السويس.

وفى حفلات افتتاح القناة والتي بدأت بيوم قبل تاريخ الافتتاح من بورسعيد حيث اقيمت ثلاث منصات الأولى لكبار الزوار وعلى رأسهم الامبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى انشغل بالقلاقل التى كانت دائرة بفرنسا وأناب عنه زوجته أوجينى، والمنصة اليمنى لرجال الدين الإسلامي واليسرى لرجال الدين المسيحى لتبريك المشروع كان من بينهم بطريرك اليونانيين Sofronios بل أن المرشد اليوناني في شركة قنال السويس Ag-isiladis Podimitras هو الذى قاد اليخت L'Aigle أى النسر والذى كان يقل أوجينى عند عبوره القناة يوم الافتتاح ومنحته نيشان فرنسي بعد نجاحها في عبور قناة السويس وأصبح من بعدها المرشد المتخصص في قيادة سفن الملوك والأمراء وكبار الشخصيات العالمية المارة بالقناة ومنح منهم العديد من النياشين والأوسمة لبراعته في قيادة السفن .

ومن مرشدى شركة القنال المشهورين فى أول عهدها الأخوان مليكاديس وأبوليونيس زاخبوليس اللذين وصلا إلى بورسعيد من اليونان لأول مرة ١٨٨٥م على الوابور الخشبى Crocodile الذى كانت حمولته ٥٠٠ طن والذى كان يعتبر فى ذلك الوقت شئ خرافى، المرشد الأخير كان مشهوراً بأنه مرشد المهام الصعبة فى شركة قنال السويس لما يمتاز به من شجاعة ، فلما جنحت إحدى السفن العابرة للقناة وأضرمت فيها النيران وكان على ظهرها شحنة متفجرات تقدم نحوها بقاطرة الانقاذ التى يقودها وقطرها بعيداً عن مجرى القناة كذلك منح عند نهاية خدمته نيشان من شركة القنال على خدماته البطولية.

ولايمكن أن نجهل المرشد نيقولا سيتيناس وكانت له عمارات شاهقة ببورسعيد والاسماعيلية، وكان اليونانيون من أولى الجاليات التى تقدمت لافتتاح توكيلات ملاحيه فقبل

افتتاح القناة قامت السيدة اليونانية Helnh Gilierme Zannos بافتتاح مكتب ملاحى وذلك لخدمة البواخر وبالأخص التى تتملكها كما شارك CH.M.Lambis المصرى رجب القصيفى بافتتاح توكيل ملاحى شارع ممفيس.

نعود إلى حالة الجالية اليونانية فى بورسعيد فبعد افتتاح القناة للملاحة عاد لليونان من عاد وبقى من بقى بعد أن قاموا باحضار عائلاتهم من كافة الجزر اليونانية وعلى رأسهم أبناء جزيرة كاسوس الذين كان لهم دلالهم الخاص والمتميز عند دى ليسبس وأقاموا تجمعًا سكانيا خاصا بهم فى أقصى حى الافرنج وبالقرب من قرية العرب عرف بحارة الكاشوتيه فملكهم تلك الأرض ليقيموا فوقها مبانيهم وكان مجتمعهم مجتمعًا مغلقًا على عكس باقى أبناء الجزر اليونانية فهم قوم محافظين كابناء صعيد مصر لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وكان من شدة دلالهم عند دى ليسبس أنه كان أول ما يخطب فيهم يقول لهم «يوناى» أى اليونانين المحببين إليه وفى أحد المرات ذكر لهم أنه لايمكن أن يؤخر لهم طلبًا فاغتنموا تلك الفرصة وطلبوا من دى ليسبس أن يطلق على بور سعيد اسم «كاسوس الصغرى» إلا أنه تأسف لهم خوفًا من الخديوى اسماعيل . وهذا ما ذكره المرجع اليونانى لخالدويبس ص٥٣ .

وكان للكاشوتية جمعياتهم الاجتماعية الخاصة ففى سنة ١٩٠٦ تأسست جمعية للخدمات الاجتماعية باسم القديس (سان ديمترى) لتقديم المساعدات الاجتماعية للكاشوتية . بالإضافة إلى جمعية أبناء كاسوس .وفى ٧ يونيو من كل عام كانوا يحتفلون بذكرى اباده تركيا لأبناء جزيرة كاسوس فى ٧ يونيو ١٨٢٤ وكان أشهر رؤساء جمعية أبناء جزيرة كاسوس الكريو Evan. Arvanitopovlos فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين وكان يتصدر احتفال تأبين قتلى كاسوس مع القنصل Avramid .

كما أصدر أبناء كاسوس جريدة خاصة بهم تحت اسم Voix De Cassos أى صوت كاسوس ومديرها المسئول جورج جرمانوس (وهو فى ذات الوقت لاعب مشهور لكرة القدم فى نادى اسبيريا اليونانى فى بورسعيد) ومدير تحريرها «جورج يوانو» وفى العدد الصادر ٢٤ أبريل ١٩٥٩ كتب العلامة اليونانى Philippe Glytsis مدير مدارس الجمعية اليونانية ببورسعيد مقالاً بمرور مائة عام على حفر قناة السويس يشع حبًا لبلده الثانى مصر ولزعيمها جمال عبد الناصر يعيد فيه تأييد الجالية اليونانية لاستعادة مصر حقها المسلوب بتأميم شركة قنال السويس العالمية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كما تأسست جمعية نسائية لسيدات كاسوس

برئاسة مدام Arvanitopulos ونائبتها مدام Papadimtriou والسكرتيرة مودموزيل Macris.

وكما هو معروف عن اليونانيين بأنهم بحارة مهرة معروف عنهم أنهم تجار محنكين نافسوا الفرنسيين فى التجارة خلال نقاط الحفر وأصبحت تجارة التجزئة بصفة عامة فى أيديهم.

وكانت تجارة الدقيق والبقالة والدخان يسيطر على غالبيتها تجار يونانيون وكان على رأس تجار الجملة للبقالة والتجزئة فى بورسعيد ١٨٨٥ Stavan Panayotos وكان من بلدة زعيرن وكان محترماً بين عشيرته وفى نفس الوقت كان محبوبًا جداً من المصريين وكانوا يطلقون عليه الشيخ ستاڤرو لأنه كان يرتدى الطربوش على رأسه فى تجواله وترحاله . أما تاجر البقالة الآخر فهو Parlis Livieatos وكان من بلد كيفالونيا . ورأسمالها فى التجارة يقدر بعشرة آلاف جنيه وهو مبلغ كبير جداً فى ذلك الوقت ١٨٨٥ . وبمناسبة حب المصريين لليونانيين والعكس بمناسبة اطلاق الشيخ استاڤرو على أحدهم كانوا من أسرع الجاليات الأجنبية فى تعلم اللغة العربية ونطقها بطريقة محببة .

أما أول سوق للمأكولات فى بورسعيد خرج بشكل حضارى نسبيًا لوقت إنشائه سنة ١٨٧٠ فهو السوق الذى انشأه Poul Lovzides بشارع فرعون (الشهيد عطعوط) وهو موجود حتى الآن ويعرف عند أهل بورسعيد بسوق البازار Bazar.

أما أشهر أسواق حى الافرنج لغير المأكولات فكان شارع التجارة وكان أغلب تجاره من اليونانيين (شارع عبد المنعم رياض حاليًا) وأهم المحلات Mikado و Boudoah و Selecta بلغت جملة محلات هذا الشارع ٣٠٠ محل .

أما أشهر الحلوانية فى بورسعيد كيريوكوستيفتديس» بميدان دى ليسبس (المنشية) وقام ببناء منزل من ثلاث أدوار فى أراضى طرح البحر بشارع صلاح الدين كان يطل على نادى الطلبة وقام ببنائه فى نهاية القرن التاسع عشر وقام والدى بشرائه منه سنة ١٩٥٢ .

أما أول من أدخل نظام الميكنة فى المخبوزات فكان «جريجوار دارس» صاحب المخبز الشهير Dimitra وحول تجارته فيما بعد لتجارة الدقيق حيث استورد ماكينة لتقطيع العجين وتشكيله فى مايو سنة ١٩٠١ .

وحذى حذوه فيما بعد الافران التى يملكها خريستوفيديس ، ألكسندراس جريك نريك،

خزايني (بالبزار) ، كستنويديس (بجوار قهوة البلياردو)، إخوان ساس (نهاية البزار) ، لويز باديس (خلف الكنيسة اليوناني) .

أما أشهر تجار الدخان والسجاير دورس وميرزانس وڤافيديس وكان محله خمسين ألف صنف Bazar Egyptien بميدان المنشية للأدوات المنزلية أما تجار البن والشاى فهم اسطفانوس وداراس.

وقد أثرى هؤلاء التجار ثراءاً فاحشًا من الصفقات التجارية التى عقدت فى زمن الحرب العالمية الأولى حيث وضعوا أيديهم على تجارة مصر الداخلية بعد أن قطعت الغواصات الالمانية طريق القوافل التجارية فى دول أوربا فعقدوا صفقات مع دول الشرق الأقصى وأقاموا المستودعات الضخمة والمخازن لبضائعهم فى بورسعيد ليعيدوا توزيعها على مدن مصر ، وادى هذا الثراء الفاحش إلى شرائهم الأراضى من شركة قناة السويس فى المناطق المميزة بسعر المتر ٢٠ فرنك فرنسى للمتر الواحد واقاموا فوقها العمارات الشاهقة ذات الطابع المعمارى الفريد كما أقام البعض ڤيلات خاصة لهم كڤيلا Papanikita بشارع توفيق (عرابى) التى اشتراها المقاول البحرى محمد على سودان باشا . ومن المهن النادرة فى بورسعيد الترزى Pet-rids الذى تخصص فى حياكة وتطريز بدل التشريفة والبدل الرسمية وافتتح محل سنة ١٩٠١م.

وكان للجالية اليونانية ثقلها الاجتماعى فى المجتمع البورسعيدى فسعوا لدى دى ليسبس للحصول على قطعة أرض لبناء فوقها كنيسة أورثوذكسية للجالية اليونانية تليق بهم بعد أن كانت لهم كنيسة خشبية (سان جون) تطل على شارع اسماعيل (نهاية صلاح سالم) وبالفعل حصلت على قطعة أرض هبة من دى ليسبس سنة ١٨٦٤ وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى ١٣ أبريل ١٨٨٨ ونظراً لقلة الموارد المالية للجمعية اليونانية فقد تعطل بناؤها إلى أن جاءت سنة ١٨٩٧ . فاسند تصميمها للمهندس الفرنسى Iroum المتخصص فى العمارة البيزنطية إلى أن قامت الجمعية اليونانية بالاقتراض من البنك العثمانى ستين ألف فرنك ذهب قامت بسداده عن طريق اصدار ورقة يانصيب وفى يوم الأحد الأول من نوفمبر ١٩٠٣ افتتحت الكنيسة للصلاة بحضور بطريرك الاسكندرية فوتيوس وقنصل اليونان بالاسكندرية Fen-naous وقنصل اليونان فى بورسعيد Paprdakis ونائبا قنصل اليونان فى كل من الزقازيق (ماڤرودس) والمنصورة (ساختوريس) ورئيس الجمعية اليونانية فى بورسعيد Crdnos

ومحافظ القنال حسين واصف باشا . والحق بكنيسة (سان جورج) مدرسة للبنين ثم مدرسة للبنات وجمعية للكشافة . وفى فناء الكنيسة وضع نصب تذكارى للجنود اليونانيين القتلى بالمارتنيك وتلك المدرسة خلاف أول مدرسة يونانية فى بورسعيد كان عامها الدراسى الأول ٧١ / ١٨٧٢ وناظرها Yannis Varkas وكانت خلف الكنيسة الحالية بشارع اسماعيل (صلاح سالم) وعدد فصول البنين ٣ فصول . أما مدرسة البنات فكانت بشارع دى ليسبس (سعد زغلول) فى دور أرضى وعدد التلاميذ فى تلك السنة ٣٠٠ تلميذ والعطلة الاسبوعية الخميس. ويقوم بالتدريس فيها Constantis Porianos ومدرس آخر للتربية البدنية Simon Kallergis ودرس فى بيروت وله أملاك بشارع القسطنطينية (الجيش) ، وبابل وفيها محلات الخواجة ينى للملبوسات وكان لايتقاضى أجراً بل يقوم بالصرف من جيبه الخاص على تشجيع التلاميذ.

أما جمعية الكشافة اليونانية فقد منحت قطعة أرض بتقاطع شارع أوجينى (صفية زغلول) والسلطان محمود غرب مدرسة الفرير وقد اشترط فى عقد ايجارها عدم استخدام البروجى إلا فى أوقات معينة لعدم أقلاق راحة السكان بالأماكن المحيطة بها . وتم اخلاء جمعية الكشافة اليونانية وبنى مكانها سوق البلدية سنة ١٩٢٩ وافتتح سنة .١٩٣٠ Marché Municipal على النسق الفرنسى وبناه المقاول الايطالى جوستاف البرتى ومنحت جمعية الكشافة قطعة أرض على شاطئ البحر. ووصل عدد أفراد فرق الكشافة الأجنبية فى بورسعيد سنة ١٩٢١ إلى ألف كشاف يونانى وفرنسى وإيطالى وإنجليزى ، قاموا باستقبال الكشاف الأعظم بادن بلول عند وصوله لبورسعيد ١٩٣٧ .

وكانت للجالية اليونانية نوادى رياضية كثيرة أهمها نادى إسبيريا لكرة القدم ومنح قطعة أرض جنوب بورسعيد غرب شارع محمد على وانضم هذا النادى فى مباريات كأس الملك فؤاد واتحد مع نوادى بورسعيد الأخرى المصرى البورسعيدى وڤرتوس الايطالى والاشكربية الفرنسى وتم الفوز الملك فؤاد مرتين ٣٥ / ١٩٣٦ ، ٣٦ / ١٩٣٧ حيث ضم منتخب القناة تلك الأربع فرق القوية فى بورسعيد وكان هناك نادى يونانى آخر لكرة القدم هو نادى كيكلوس .

وفى أواخر نوفمبر ١٩٠٥ تأسس نادى يونانى لألعاب القوى خلف الكنيسة اليونانى اسسه كونستانتاس سوخوبلوسى وضم ٢٣٠ عضو من مفتولى العضلات .

وكان للجالية اليونانية فرقها الموسيقية الخاصة أشهرها الجلاء ثم تأسست فرقة ثانية فى

ديسمبر ١٨٩٠ تحت اسم Wexartisia أي الحرية من عشرين موسيقى بقيادة موسيو لويس مدرس الموسيقى وقائد أوكسترا بصالة مسرح الالدرادو وصالة فندق جراند اوتيل. ثم تكونت فرقة ثالثة Efterpi ومدربها الموسيقى Amphion التى لم يكتب لها النجاح ، فتكونت فرقة رابعة تحت اسم Eftera التى استمرت هى والجلاء وكانتا تقدمان المقطوعات الموسيقية والعزف فى حديقة دى ليسبس (المنشية) فى أيام الأحاد والاعياد الرسمية اليونانية كما كانتا تعزفان فى أشهر المقاهى والبارات اليونانية وعلى رأسها «الخديوية» شارع فرانسو جوزيف (الميناء) مكان شركة كول كومباني وبار آخر فى ميدان فرنسوا جوزيف لصاحبه اليونانى نيقولا رويديس الذى كان فى ذات الوقت متعهد تموين السفن الروسى مكان شركة التلغراف الإنجليزى Eastern Telegraf إلا أنه أغلق هذا البار لانشغاله فى أعماله البحرية بالإضافة إلى أن أسعاره كانت غالية جداً . وفى مقهى Yoreis Pantels بشارع السلطان عثمان (الجمهورية) وبابل .

ونعود للفرق الموسيقية اليونانية وأحياءها حفلات الجالية اليونانية فاقيمت الزينات ورفعت الأعلام اليونانية وكانت الفرقة الموسيقية الجلاء تجوب شوارع مدينة بورسعيد ابتهاجًا بزواج الاميركونستلنتين «ولى عهد اليونان والذى أصبح ملكا على اليونان من ١٣- ١٩١٧ » بالأميرة صوفيا ، وقد اختارت الجالية اليونانية فى بورسعيد Akdvos Kouppa للسفر لليونان لتمثيلها فى حفل الزواج فى ٢٢ أكتوبر ١٨٨٩ .

وفى أوائل سنة ١٨٩٧ هبت الثورة فى جزيرة كريت ضد الحكم التركى فما كان من رئيس الجالية اليونانية جورج كرونس إلا أن شكل جمعية وطنية يونانية تحت اسم Aris غرضها جمع تبرعات لمناصرة ثوار كريت فاحيت فرقتا الموسيقى الجلاء وافترا عدة حفلات موسيقية بالإضافة إلى حفل راقص وحفل تنكرى بلغ إجمالى دخل هذه الحفلات خمسة آلاف فرنك ذهب قام قنصل اليونان فوندوليس بإرسالها لليونان .

وفى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ استقبلت الجالية اليونانية برئاسة جورج كرونس فى بورسعيد الأمير جورج «الابن الثانى للملك جورج الأول والذى أصبح ملكا على اليونان من ٢٢-١٩٣ الذى وصل لبورسعيد لوداع خاله ملك الدانمرك فلدمار اللذان وصلا إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Virman ورفعت الأعلام اليونانية والدانمركية فى أنحاء بورسعيد وأقواس النصر واعدوا للأمير خمسة حناطير ركبها هو وحاشيته يتقدمهم فرقتا الجلاء وافترا التى قامت بعزف الاناشيد الوطنية اليونانية.

ولما وصل بالقرب من الكنيسة اليونانية أصر اليونانيون على نزوله للصلاة فيها إلا أنه رفض فى بادئ الأمر لأن زيارته لم تكن رسمية نظراً لأن العلاقات المصرية اليونانية شابها الفتور بعد انتصار تركيا على اليونان فى حربها فى جزيرة كريت وما تلى ذلك من قطع مصر علاقتها باليونان فى نهاية تلك الحرب فى ٢٤ مايو ١٨٩٧ .

لايفوتنا هنا أن يفوت على اليونانيين الحكمة التى تقول إن «المسرح أبو الفنون» أسس اليونانى جريجوار سوليدس أول مسرح فى بورسعيد أطلق عليه مسرح الالدرادو بشارع التجارة (النهضة) وكان يتعاقد مع أشهر الراقصات الفرنسيات والايطاليات لعرض أحدث الاستعراضات فى أوروبا ، وكانت الجاليات الأجنبية تقيم فوق خشبة مسرحه كثير من احتفالاتها الوطنية وتم تطويره فى يونيه ١٨٩٦ وبالأخص فى الديكورات الداخلية بإضافة مجموعة من الصور الزيتية على حوائطه وتم تمثيل مسرحيتى Trivatore , Traviata من أهم أعمال الموسيقات الايطالى ڤيردى . كما وصلت إلى بورسعيد الفرقتان المسرحيتان الشهيرتان فى نوفمبر ١٩٠٠ Kondopoles, Pandopules وقامتا بعرض مسرحياتهما على مسرح الالدرادو وحضور جمهور غفير وكانت الحفلات تحت اشراف زوجة القنصل باداكيس وقد أدخل عليها آلة عرض سينمائى وكان من السهولة تحويلها من مسرح إلى سينما والعكس وذلك بعد انتقال ملكيتها لليونانى مريكوبولوس .

وفى ديسمبر ١٩٠٥ قامت جمعية الأدباء اليونانيين ورئيسها Spiro Valentes حفل على مسرح الالدرادو بلغت حصيلته ٢٥٠٠ فرنك وجهت لتشجيع الأدباء اليونانيين وتولى الخطابة اثنان من أشهر المحامين اليونانين ڤياجوس وبانيوتوس .

وارتبط مسرح وسينما الالدرادو بالحركة المسرحية المصرية فى بورسعيد فكانت تقام فيه الحفلات العامة لمبرة رمسيس للخدمات الاجتماعية ، خصصت ايرادها للفقراء والمرضى المعوذين والمستشفيات الحكومية فمثلت أحد روائع نجيب الريحانى «الشايب لما يدلع» تحت شرف محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك فى ١٢ أبريل ١٩٥١ كما كانت حفلات نهاية العام للمدارس الحكومة المصرية تقام على خشبته .

ونظمت الجالية اليونانية فى بورسعيد كثير من حملات التبرع للمساعدة فى كثير من الحوادث التى تلم بالجالية اليونانية أو ما يلم بالوطن الأم وكانوا يستخدمون المناديل فى جمع التبرعات .

ففى أكتوبر ١٨٩٠ نظمت حملة تبرعات لمنكوبى حرائق سالونيك باليونان بلغت قيمة التبرعات ٢٦٧٥ فرنك قام القنصل N. Londos بإرسالها لليونان، والذى أصر على تنظيم عمليات التبرع التى يتولاها أفراد وأن تجمع تلك التبرعات تحت مسئولية جمعية خاصة لذلك، وتم تشكيل جمعية لهذا الغرض تحت اسم Eteria وتكون لها مجلس ادارة فى يناير ١٨٩١ برئاسة Dimitris Mavrio .

فى أبريل ١٩٠٢ تم جمع ٨٠٠ فرنك وأرسلت لوزير البحرية اليونانى للمساهمة فى تحسين الأسطول اليونانى.

وفى أكتوبر ١٩٠٦ تم تنظيم حملة تبرعات للحرب الدائرة فى بلغاريا وبلغ اجمالى التبرعات ٤٢٠٠ فرنك قام القنصل جورسورس بارسالها لليونان وفى ذات الوقت استعدت الجالية اليونانية لتدريب شبابها على حمل السلاح وإرسالهم لليونان .

وفى ١٥ سبتمبر تأسست جمعية هدفها محو أمية أبناء الجالية بالمجان وقد مثلت تلك الجالية فى أول مجلس بلدى لبورسعيد ، انعقدت أولى جلساته فى ٢٣ فبراير ١٩١١ ومنهم بابا ديمترى وجراتجيوتى والدكتور اسكوفو بلو والكسندرانوس .

وفى الرابع من أبريل أقيم حفل خيرى لجمع التبرعات لضحايا الزلازل باليونان وكان لتلك الجالية متحفها وكانت تطالب بمصالح اليونانيين فى بورسعيد وتطور الأمر بها إلى تعيبها على الحكومة المصرية وممثلها محافظ القنال.

وأقدم الصحف Progres أسسها اليونانى Lazarides سنة ١٨٨١ وهى أسبوعية من أربع صفحات نصفها الأول باللغة الفرنسية والنصف الأخير باللغة اليونانية وانتشرت انتشاراً واسعًا ولفتت أنظار اليونانيين المقيمين بالقاهرة التى انتقل إليها لازاريدس وأصدرها من القاهرة.

وفى يوليو ١٨٨٩ أصدر جورج فلاماتيوس جريدة سندزجموس وبوفاته فى ١٨٩٩ قام بشرائها استماتيو لنيجرس صاحب مدارس Pythagous وجريدة سندزجموس جريدة نصف أسبوعية ثم صدرت اسبوعية وقامت بنشر حديث مع شاعر اليونان Spero Matsoukas الذى يزور بورسعيد ضمن جولة لزيارة دول العالم لجمع التبرعات لبناء الأسطول اليونانى.

وفى سنة ١٩١٢ أصدر الصحفى جورج سلطناكى جريدة نصف أسبوعية New Echo أى

الصوت الجديد ثم تحولت إلى أسبوعية لارتفاع أسعار الورق والطباعة بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومن مآثر هذا الصحفى أنه أصدر كتاباً بعنوان «تاريخ مدن القنال بورسعيد والاسماعيلية والسويس» وطبعه فى المانيا سنة ١٩٢٢، وحذا حذوه «ديمتريوس خالدوبيس» فأصدر كتابا بعنوان «ذكريات وأحداث عن بورسعيد» طبع بمطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ كما أصدر «ايمانويل روڤاس» كتاباً بعنوان «تاريخ قنال السويس» من سنة ١٩٥٥ وهذه الكتب تتحدث عن تاريخ مدن القنال الثلاث وتأريخ شامل عن الجالية اليونانية وهى أحد مراجعنا الموثوق بها والممتعة فى سردها .

وامتد نشاط أصحاب هذه الصحف إلى اقامة المدارس الخاصة والاشراف عليها كما حدث أن انشأ اتسماتيونيجريس صاحب جريدة سندزجموس السابق التنويه عنه أن أسس سنة ١٨٩٤ مدرسة Pytha Gous من سبعة فصول ابتدائى وثانوى منها فصول للبنات .

وكانت للجالية اليونانية عادتها الخاصة كعادة حرق الجوداس وهى دمية محشوة قش ويتم حرقها فى احتفال الجالية اليونانية بعيد القيامة المجيد وقد أخذ عنهم أبناء بورسعيد فيما صنعوه من دمية محشوة قش أطلقوا عليها دمية اللنبى نسبة إلى اللورد اللنبى المعتمد البريطانى أثناء ثورة ١٩١٩ والذى غادر القطر المصرى عن طريق ميناء بورسعيد فى ١٥ يونيو ٢٥ يونيو ١٩٢٥ ومنذ هذا التاريخ وحتى الآن وأهل بورسعيد يحرقون تلك الدمية فى يوم شم النسيم.

وكان للجالية اليونانية مستشفى خاص تم استئجار أرضها من الحكومة المصرية بعد أن جمع لبنائها ١٠٠٠٠ فرنك كتبرعات من أبناء الجالية فى بورسعيد وتم بناءها من الخشب سنة ١٩٠٧ كمستشفى للأمراض المعدية أمام الركن الجنوبى الشرقى لميدان توفيق (ميدان الشهداء) إلا أنها لم تستخدم كمستشفى بل استخدمت سكنًا لمدرسى المدارس اليونانية ثم سلمت الأرض للحكومة المصرية.

كاد أن يفوتنى ذكر الجمعية اليونانية ببورسعيد التى تأسست سنة ١٨٨٨ وإن أول انتخابات لمجلس ادارتها انتهت بفوز ترينون ڤاسليوس (أول رئيس لها) وخارلمبوس زيرنيادس (أمين الصندوق) ونيقولا زيزيناس (المحامى الشهير) وبولى لويزيديس (سكرتير الجمعية) .

وظهرت نوادى وجمعيات يونانية أخرى فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين كنادى المحاربين القدماء، أعلى حلوانى رويال بشارع فؤاد (الجمهورية) ورئيسه المسيو G. Parlis

وكانت احتفالات الجالية اليونانية ذكرى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ عندما أطلق الجنرال Metaxas صيحته لها للعناصر الفاشستية التى تريد ضم اليونان للمحور ، وكانوا يتوجهون للقنصلية اليونانية بشارع فؤاد (الجمهورية) للتوقيع فى دفتر خاص .

من الوقفات الوطنية للجالية اليونانية للوطن الثانى مصر انسحاب العمال اليونانيين من المعسكرات البريطانية تعاونًا مع إخوانهم المصريين فى أكتوبر ١٩٥١ (أثناء معارك القناة) قيام رئيس الجالية اليونانية ببورسعيد الدكتور Paradimitriov بإرسال تلغراف للرئيس محمد نجيب قائد الثورة بتأييده هو وزملائه من مجلس قيادة الثورة بطرد الملك فاروق خارج مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

فى ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ وبعد تأميم شركة قنال السويس العالمية التى شجعت المرشدين الأجانب على الانسحاب من العمل مع القيادة المصرية حتى يرتبك العمل فى المرور بالقناة رفض المرشدون اليونانيون الانسحاب .

فى النهاية اشتهرت مدافن اليونانيين بغرب المدينة بالثراء الفنى فى العمارة والزخرفة والتماثيل المعبرة عن روحانيات تلك الجالية

الجالية الإيطالية

تعتبر الجالية الايطالية ثانى الجاليات الأجنبية من حيث كثافة عدد السكان.

ولما أجرى أول تعداد رسمى للسكان لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ إجمالى عدد السكان فى بورسعيد حوالى ٦٩٧٨ نسمة وبلغ عدد مجموع الأجانب فى هذا التعداد ١٩٣٧ أجنبى منهم ٥٦٣ ايطالى .

وفى التعداد التالى سنة ١٨٩٧ بلغ إجمالى عدد السكان فى بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمه خص الأجانب ١١٤٨٠ أجنبى أكثرهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيون والبريطانيون والايطاليون والفرنسيون، أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الجالية الايطالية :

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	
٢١٥٩	٣٠٢٨	٤١٢٢	٥١٥	٣٠٣٨	ايطالى

وكان الايطاليون مثار إعجاب دى ليسبس فكان السينيور Dori المتـرجم الخـاص لدى ليسبس الذى كلف الايطالى الشهير فى تخطيط المدن Pietro Paleocapa فى تخطيط المدينة الواعده بورسعيد حيث ظهرت شوارعها ممتدة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها متعامدة.

ومتحف اللوڤر يحتفظ بمنظر مجسم لمجرى قناال السويس من الشمال عند بورسعيد حتى الجنوب عند السويس فى شكل خريطة ذات مناظر شبه مجسمه ذكر أن هذا المنظر كما لو رآه طائر محلق فى سماء قناة السويس وهذا الرسم لايمكن تنفيذه الآن إلا بالأقمار الصناعية وهذا الرسم الدقيق تنفيذ الأستاذ الفارس الكبير Revoltella نائب رئيس شركـة قنال السـويس العالمية مع المهندس اللامع Givseppe Sforzi وهما إيطاليان وبتكليف من دى ليسبس على إثر افتتاح قنال السويس سنة ١٨٦٩ .

ومنذ ١٨٧٨ وافق الخديوى اسماعيل على اقتراح محافظ بورسعيد بتعيين ثلاثة من الأوربيين من بينهم ايطالى لمساعدة مفتش البوليس فى الأعمال المتصلة بالأجانب ثم توسعت تلك القاعدة وانتشر الأجانب ومنهم الإيطاليون فى أعمال البوليس ومن أشهر هؤلاء Boelli مأمور بوليس قسم الأفرنج (الشرق) فى سنة ١٩٠٠ ومدير بوليس الميناء كان الضابط دى البونو وذلك فى مبنى خشبى فى امتداد شارع السلطان عثمان (الجمهورية) أمام حوض الفحم عند باب الجمرك رقم ١٦ حيث موقف أول معدية ، وكان يمتلك عمارة كبيرة أمام المحكمة الحالية بشارع توفيق والسلطان عبد المجيد (عرابى وعبدالهادى غزالى) .

ومع إحدى الحقائق التى ذكرها المرجع اليونانى لديمتريوس خالدويس «ذكريات وأحداث عن بورسعيد» والمطبوع فى مطبعة فترالى بالاسكندرية ١٩٣٩ ، ص٣٥ «المسيو De Franchi مدير عام خزينة شركة قنال السويس والمسئول عن بيع الأراضى فى بور سعيد عرض ١٨٧١م على والدى (والد الكاتب خالدويس) شراء بعض قطع الأراضى فى بورسعيد تعرضها شركة قنال السويس وقدرها خمسة عشر ألف متر مربع بخمسة عشر ألف فرنك أى سعر المتر المربع الواحد فرنك (الفرنك أربعة قروش) فى الأراضى المبنى عليها الآن (١٩٣٩ تاريخ نشر الكتاب) عمارات ماكس موشلى وماردوس (حاليا فى أرقى موقع فى بورسعيد تطل على شارع الميناء والحديقة الدولية) إلا أن والدى (والد خالدويس) رفض هذا العرض الذى قدمه له صديقه الايطالى دى فرانشى لأن تلك الأراضى كانت تغمرها مياه البحر الأبيض المتوسط قبل

انحسارها شمالاً تاركة أرض يطلق عليها أراضى طرح البحر) ورد عليه قائلاً : «ما هذا الكلام غير المعقول يا صديقى فرانشى أرمى خمسة عشر ألف فرنك فى المياه وهى جميع ثروتى ؟! » ... ولم تمر مدة أربع أو خمس سنوات وأصبح من قام بشراء تلك الأراضى من المحظوظين ذو الثروات الكبيرة لأن قيمة تلك الأراضى زادت مائة مرة عن ثمنها الأصلى».

من المراكز الهامة التى شغلها الايطاليون فى بورسعيد وظيفة أول مدير للبوستة المصرية فى بورسعيد التى كانت تطل على الميناء مباشرة فى مبنى خشبى (مكان ادارة أمن الموانى الحالية) تولى تلك الوظيفة السنيور Giordno ١٨٧٨م وكان يعاونه من الموظفين Pace, Nani ثم تولى ادارة البوستة من بعده السينيور Konte .

كانت أهم بقعة فى مدينة بورسعيد ميدان المنشية أو ميدان دى ليسبس (ميدان سعد زغلول) وكانت تتوسطه حديقة اهتمت شركة قنال السويس بزراعتها بالأشجار والورود والأزهار وكان فى وسطها كشك خشبى تقوم الفرق الأجنبية بعزف المقطوعات الموسيقية فى أيام الأحاد والمناسبات الرسمية وأعياد الأوربيين فعينت لها شركة قنال السويس مهندسا زراعيًا ايطاليًا ١٨٧٨ هو السينيور Michel Elvdy المسئول الأول عنها.

وبمناسبة الحديث عن حديقة المنشية تكونت جمعية برئاسة السينيور Pacho الايطالى الجنسية مدير جريدة Phar Port- Said لجمع الأموال بغرض اقامة تمثال نصفى لدى ليسبس صممه المثال الايطالى Mantovani وتم ازاحة الستار عن هذا التمثال فى ١٦ يونيو ١٨٩٥ إلا أن الجالية الفرنسية كانت هى الجالية الوحيدة التى قاطعت هذا الحفل بالرغم من أن المحتفى به فرنسى بحجة أن هناك نية لاقامة تمثال ضخم لدى ليسبس عند مدخل القناة وأن هذا التمثال النصفى لايليق بدى ليسبس .

وبمناسبة الفرق الموسيقية التى كانت تعزف فى ميدان دى ليسبس فمن الفرق الايطالية Lira وهى أقدم الفرق الموسيقية فى بورسعيد أسسها Lazzaro Cohen سنة ١٨٨٣م وأعاد تشكيلها C . Padovani سنة ١٩٠٠ وهناك فرقة Nternatonal التى تأسست سنة ١٨٨٨ وكانت هاتان الفرقتان تصرحان بالموسيقات فى أيام الأحاد والأعياد القومية الايطالية وأعياد باقى الجاليات فى ميدان المنشية وامتدت مشاركتها للمصريين عند الزيارات الخاصة بالشخصيات الرسمية ابتداءً من خديو مصر، بل لما أسس على بك لهيطه أول عضو مجلس نواب عن دائرة القنال أول فرقة مصرية موسيقية فى بورسعيد أسندها للإيطالى Lopez لتدريب أعضاءها الـ ٣٥ موسيقياً .

وكان متعهد الزينات للاحتفالات الرسمية بالمدينة تاجر الأخشاب الايطالي Ramaccioti الذى كان يتولى توفير الأعمدة الخشبية الطويلة التى تثبت فوقها الأعلام ، كما كان يتولى استجلاب سعف النخيل من صعيد مصر ، كما حدث عند زيارة الخديوى توفيق لبورسعيد سنة ١٨٨١م.

وكانت قمة الحركة الفنية والثقافية للجالية الايطالية فى بورسعيد بعد انتهاء كابوس الحرب العالمية الثانية بعد هزيمتها مع ألمانيا بسبب ديكتاتورية زعيمها موسلينى حيث زاق الرعايا الايطاليون الأمرين من القوات البريطانية التى كانت تحتل مصر فأعدت لهم معسكرات الاعتقال على امتداد قناة السويس تجاه مدينة السويس فى جنيفة وفايد والشلوفة وتم تعيين الأستاذ عبد الحميد سعيد حارساً على أموالهم وأملاكهم فى بورسعيد.

وكانت Casa D'Italia أو بيت الايطاليين من أشهر مؤسساتهم الثقافية وحاضر فيها الدكتور Umberto Zanni (دكتوراه فى القانون) والذى كان فى نفس الوقت رئيس جمعية Dante Alighieri الثقافية . ففى ١٣ ديسمبر ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن دانتى اليجيرى و ـ احل عمله التاريخى الخالد الكوميديا الآلهية La Divine Comedie وقد ولد هذا العالم المشهور ١٢٦٥ .

وفى ٢١ يناير ١٩٥١ وأيضاً وفى الكازادى اتليا وتحت رعاية جمعية دانتى اليجيرى أقيم حفل غنائى بمناسبة مرور خمسين عاماً علي وفاة الموسيقار العالمى Giuseppe Verdi والمتوفى (١٩٠١) وقامت مجموعة من الهواة بأداء مقطوعات من أعماله الخالدة ريجيليتو والترڤاتورى ولاترافيتا ودون كارلوس وعايدة تحت رعاية قنصل ايطاليا Mario Franzi الذى لم يقض إلا عشرين شهراً فى عمله هذا ونقل فى نهاية فبراير ١٩٥١ فى وظيفة دبلوماسية أعلى سفارة ايطاليا فى باريس وبتلك المناسبة أقيمت له حفلة لوداعه احيتها الفرقة الايطالية Teatro Sperimantale للأوبرا بروما على مسرح الكازادى ايتاليا فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٥١ وحل محله المركيز الدكتور G . Serafini وله تاريخ دبلوماسي حافل ففى سنة ١٩٢٨ عين نائب قنصل ايطاليا وفى سنة ١٩٣١ قنصلاً لإيطاليا فى نيويورك ثم سكرتيرا فى سفارة ايطاليا بموسكو ثم بأثينا وفى سنة ١٩٣٩ عاد لروما والحق بوزارة الخارجية الايطالية ثم قنصلاً بمدينة جراد بالنمسا حيث كانت تنتظره مهمة دقيقة نظراً لظروف النزاع الأوربى واندحار ايطاليا فى الحرب . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد إلى روما حيث أشرف على المبادلات التجارية بين ايطاليا وأمريكا من جهة وايطاليا والشرق الأقصى من جهة أخرى

وأظهر كفاءة ممتازة حيال الاقتصاد المنهار لبلاده بسبب الحرب ، ثم عينته ايطاليا قنصلاً لها فى بورسعيد بما يدل على أهمية مدينة بورسعيد وميناءها .

ومن الأخبار الفنية للجالية الايطالية أن حصلت الآنسة Anrée Darras على شهادة من كونسرفتوار روما Cecilia حيث جازت امتحان مواد الهارمونى وتاريخ الموسيقى بتفوق وذلك بفضل معلمة الموسيقى الايطالية D. Movizzo مما اثلج صدور الايطاليين فى بورسعيد .

ومن الأخبار الثقافية للجالية الايطالية قيام جمعية دانتى اليجيرى بعقد دورات لتعليم اللغة الايطالية وكانت تعلن عن أن المتفوقين فيها سيتم سفرهم لايطاليا لاستكمال تعليمهم وكانت الدراسة تتم بالصالة الكبرى فى الكازادى اتاليا وكان الدكتور حسن أحمد البرعى أحد هؤلاء النابهين فى اللغة الايطالية الذى تم إيفاده سنة ١٩٥٢ لجامعة Perrvgia بروما وحصل على دبلوما فى اللغة الايطالية تعادل الدكتوراه وأصبح أستاذاً لامعًا فى اللغة الايطالية.

ومن المحاضرات التاريخية عن نشأة مدينة بورسعيد ونشاط الجالية الايطالية منذ الحفر نظمت جمعية دانتى اليجيرى محاضرة فى نهاية فبراير ١٩٥٢ عن نشاط تلك الجالية وقام بالقاء المحاضرة Lugi Dori .ومن الجمعيات الخيرية الايطالية Santa De Mutuo Soc-corso.

كما كانت للجالية الايطالية صحفهم المستقلة المعبرة عن آرائهم أولها El Mosquito وهى من أقدم الصحف التى ظهرت على أرض بورسعيد ، أصدرها موفتليتى سنة ١٨٦٧ ، ثم صدرت جريدة Telegrafo التى أصدرها المسيو Compo سنة ١٨٩٣ ومحررها السينيور فرانشيسكو سانتورى ،كما ظهرت صحيفة Faro ثم جريدة Elletrico لصاحبها السينيور Vilttrio Dello Strologo (مثل الجالية الايطالية فى مجلس بلدى بورسعيد فى أول مارس ١٩١٣ (وكان تاجر ثلج وصاحب مصنع مياه غازية كازوزة وصاحب اكشاك بيع مرطبات) . وكانت الصحف الايطالية جميعها يطبع فى بورسعيد .

وقد تمركزت الحركة الفندقية ومحال الحلويات والبارات والمطاعم فى أيدى أبناء تلك الجالية وكان أشهر هؤلاء Silvio Simonini الذى وصل إلى بورسعيد وهو شاب صغير مع والده وكان يمتلك عدة فنادق أشهرها Marina Palace Hotel وكان يقع بشارع السلطان عثمان والتجارة (الجمهورية والنهضة حالياً) L'Eastern Exchange Hotel الذى اشتهر عند أهل بورسعيد بالبيت الحديد لأنه بنى بالكامل من الحديد من خمسة طوابق وحل به شخصيات عالمية كثيرة وكان يقع بشارع السلطان عثمان وأوجينى (الجمهورية وصفية زغلول) -Le Ca

sino Palace Hotel وعند نشأته كان يطل على شاطئ البحر الأبيض مباشرة قبل انحساره شمالا تاركًا أرض أطلق عليها طرح البحر فى جهته الشمالية ، أما جهته الشرقية فتطل على قناة السويس وقد حلت به شخصيات عالمية وقومية وثقافية ففى ٤ يناير ١٩٠٥ حلت به الامبراطورة أوچينى كمواطنة فرنسية عادية حيث سبق لها أن حلت على بورسعيد وهى امبراطورة فرنسا والتى حضرت بالنيابة عن زوجها نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى اعتذر عن حضور تلك الحفلات لوجود قلاقل داخل فرنسا وأناب عنه أوچينى حيث بدأت حفلات افتتاح قناة السويس يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ (وهو اليوم السابق للافتتاح) كما حل بهذا الفندق الزعيم سعد زغلول باشا ورفاقه وهم (محمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل) عند نفيهم من بورسعيد إلى مالطة فى ٨ مارس ١٩١٩ كما حل به شاعر النيل حافظ ابراهيم بك فى ٢٩ مايو ١٩١٠ عند افتتاح أول مدرسة للبنات فى بورسعيد (تابعة للجمعية الخيرية الإسلامية) كما حل بهذا الفندق الشاب المناضل الهندى جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر الهندى فى ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ عند عودته لبلاده بعد مباحثات مع الساسة الانجليز (أصبح رئيسًا للوزراء فى الهند فى خمسينيات القرن العشرين وقطب من الأقطاب البارزين لكتلة عدم الانحياز وصديق الزعيم الراحل جمال عبد الناصر) .

كما كان الفضل للمسيو سيمونينى فى إنشاء أول كازينوهات على شاطئ بورسعيد وبور فؤاد داخل المياه مما شجع عظماء مصر على تفضيل مصيف بورسعيد الهادى عن مصيف الاسكندرية أو التوجه إلى المصايف الأوربية باهظة التكاليف وهما :

Le Pavillon Balineaire de Port - Said.

Le Pavillon Balineaire de Port- Fouad

لذلك تم انتخاب مسيوسيلفيو سيمونينى فى أول مجلس بلدى، مختلط لبورسعيد الذى انعقدت أول جلساته فى ٢٣ فبراير ١٩١١ اعتباراً من ٤ مايو ١٩١٢ لذلك اختارته الجالية الايطالية عميداً لها فى بورسعيد وهو يحمل لقب Commandeur التاج الإيطالى كما يحمل وسام Phoenix اليونانى ولقيب فارس النيل المصرى ونيشان الافتخار التونسى وعند دخول ايطاليا الحرب مع المانيا (المحور) سنة ١٩٣٩ كان يأمل فى انتصار المحور على الحلفاء فأعد حصانًا أبيضًا ليمتطيه وينصب محافظًا للقنال إلا أن الهزائم أدت إلى وضع منشآته تحت الحراسة وكانت وفاته فى الثامن من أكتوبر ١٩٥١ وتم دفنه فى المقبرة الخاصة به ذات الثراء

الفنى التجارى للمقابر المصنوعة من أرقى أنواع رخام محاجر كرارة كبقية الايطاليين الأغنياء.

وظهرت براعة أبناء الجالية الايطالية جلية فى فن العمارة والهندسة المعمارية Archi-tecture وأعمال مقاولات البناء ومن أشهر هؤلاء المقاول Albeti الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٣ والمقاول Camidis Betraia الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٩ وكان لهما الفضل فى شهره مدينة بورسعيد من ناحية عمائرها ذات الطابع القوطى والبيزنطى، حتى ظهرت وأنها قطعة من أوروبا أو باريس وطبعًا كان هذا الثراء المعمارى قاصراً على حى الافرنج الذى تقطنه الجاليات الأجنبية.

وخير مثال على ذلك مبنى ادارة شركة قناة السويس ببورسعيد الشهير ذو الثلاث قباب من الفسيفساء Mosaics الذى بنى سنة ١٨٩٣ خير شاهد إلى الآن على جمال فن العمارة عندهم.

كما كان للمهندس الايطالى Kastlnovo الفضل على بورسعيد عند تشييده ١٨٩٤م خزانات توزيع مياه الشرب بالرسوة لتغذية العمائر ذات الطوابق المرتفعة بالمياه العذبة.

وقامت الجالية الايطالية بشراء قطعة أرض كبيرة كمربع كامل على أربعة شوارع بأرقى منطقة من مناطق طرح البحر بحى الافرنج سنة ١٩٠٧ بموافقة من محافظ القنال محمد محب باشا تطل على شارع الغربية (٢٣ يوليو) وبنى بجوارها كنيسة ذات طابع قوطى كما ألحق بها نادى للجالية الايطالية لكرة السلة والفولى بول .

وبجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة السبت ٢٣ نوفمبر ١٩٢٩ تم عرض طلب القنصلية الايطالية ببورسعيد «تثبيت لوحة تذكارية من البرونز على جدارها للمسو لويجى ميجرللى المهندس الايطالى الذى أكد لأول مرة فى التاريخ أنه لافرق بين ارتفاع سطحى الماء فى البحرين الأحمر والأبيض ». وقد دافع عن هذا المطلب عضوا المجلس البلدى من الايطاليين المهندس كامديس بترايا والمقاول المعمارى ألبرتى .

وبالفعل أقيمت تلك اللوحة على جدار القنصلية عند تقاطع شارعى الأهرام بابراهيم (شارعى جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف) وفى الثانى من يونيو من كل عام كان يحتفل بالعيد الوطنى الايطالى (ذكرى انتخاب ايطاليا برلمانها سنة ١٩٤٦) .

ومن أشهر النوادي الايطالية نادى ڤيرتوس لكرة القدم وكان يقع جنوب بورسعيد غرب شارع محمد على أمام معسكرات القوات البريطانية . وفاز نادي ڤرتوس بالكأس السلطاني في موسم ٣٥ / ١٩٣٦ على فرق المملكة المصرية ضمنها النادى الأهلي والمختلط (الزمالك) والمصرى والاتحاد السكندري.

وكان هذا النادي يقيم جيمخانة للسيارات الايطالية فى نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينات من القرن العشرين يعرض فيها آخر صيحة لموديلات السيارات الايطالية وكان يحضرها محافظ القنال عبد الهادي غزالى بك والسينيور فرنزى قنصل ايطاليا فى بورسعيد وكان رئيس هذا النادي الدكتور چيديو دى كاسترو صاحب أشهر توكيل ملاحى ايطالى شركة دى كاسترو بشارع فؤاد (الجمهورية) بالقرب من أوچينى (صفية زغلول) بجوار محل الحلويات الشهير العصفور الأزرق .

ونظراً للحركة التجارية الكبيرة داخل المجتمع البورسعيدى ففى ديسمبر ١٩٥٠ تم تسجيل أول غرفة تجارية للإيطاليين فى بورسعيد برئاسة Enrico Benderli (يهودى ايطالي) شريك فى أكبر مؤسسة تجارية فى بورسعيد هي سيمون آرزت Simon Arzt .

كما كانت أشهر كنائسهم Santa Eugenia القديسة أوچينى وهى يتبعها رهبان الفرنسيسكان وملحق بها مدرسة Terra Santa أى الأرض المقدسة .

وكان للجالية الايطالية نادى «إيبيس» بشارع توفيق عرابى (مكان محطة البولمان) واشتهرت بورسعيد بسفن صيد الأسماك الميكانيكية ذات الشباك الطويلة التى تصل لأعماق البحر عرفت عند أهل بورسعيد بالنابولتان Napoltan حيث أن صياديها من أبناء ميناء نابولى الايطالى ويقومون بصيد أفخر أنواع أسماك البحر الأبيض التى يبيعونها للمطاعم والفنادق الكبيرة بالمدينة . وعلى رأس تلك الأسماك الوقار والبربونى ، كما اشتهروا بتمليح الأسماك (الانشوجة) ففى عام ١٨٩٩ حصل الايطالى مشيل جاستيلا على امتياز استغلال ملاحات البر الشرقى (بور فؤاد حالياً) .

كما اشتهر الايطاليون بالخبرة فى صناعة المكرونة وبالأخص الاسباكتى والاسباكيتينا فكانت لهم مصانع فى شارع الوكيل وصلاح الدين (البازار) .

ولايمكن لنا اغفال موقف جرئ للجالية الايطالية بانسحاب عمالها فى المعسكرات البريطانية مع العمال اليونانيين سنة ١٩٥١ تضامناً مع انسحاب العمال المصريين، ولايمكن

اغفال ذكر اثنين من ابطال الكره الايطالية فى بورسعيد انضما للنادى المصرى هما Aldo وحارس المرمى موسكاتيلى الذى صور معركة ١٩٥٦ بكاميرته .

الجاليـــة الفرنسيـــة

كان الفرنسيون أول الجاليات الأجنبية وصولاً لأرض بورسعيد فعند دق أول معول فى أرض قناة السويس فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ حيث احتفل دى ليسبس بهذا الحدث الهام حيث اصطحب معه ١٥٠ فرداً عبارة عن مجموعة من العمال المصريين وهم غالبية هذا الجمع ومجموعة من الفنيين والمهندسين الأجانب أغلبهم فرنسيين على رأسهم موجيل بك (فرنسى يشغل مهندس الطرق والكبارى فى الحكومة المصرية) ولاراوس (رئيس قسم الأعمال والأشغال المائية بشركة قنال السويس) ولاروش (رئيس قسم الأعمال الخاصة بمدينة بورسعيد) ودى مونتو (مدير مشروع الحفر) وألنفس هاردن (المقاول العام لأعمال الحفر) وأوبرت روش (طبيب شركة القنال) . وبلغ إجمالى عدد الأجانب الواصلين لبورسعيد فى عام الحفر ١٨٥٩م ٤٩ أجنبياً وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عدد الأجانب ١٥٨ أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين .

ولما أوقف الخديوى اسماعيل السخرة فى حفر قناة السويس سنة ١٨٦٢ حيث أحضر دى ليسبس بدلاً عنهم خمسة عامل من أبناء الجزر اليونانية عززهم بألف عامل فرنسى من أبناء مارسيليا فى سنة ١٨٦٥ إلا أن أغلبهم لم يستمروا لم يصمدوا أمام صعوبة أعمال الحفر وعادوا إلى مارسيليا مرة أخرى .

ويحب أن ننوه أنه فى سنة وصولهم ١٨٦٥ أنيط تخطيط مدينة بورسعيد المرتقبة إلى مهندسين وفنيين فرنسيين فجعلوا شوارعها متعامدة تبدأ من شرق المدينة وتنتهى فى غربها وأيضا تبدأ من الشمال وتنتهى عند جنوب المدينة ، وقاموا ببناء منازل خشبية للسكنى من دور أو دورين وكان التنقل فى المدينة فى زمن فيضان النيل بمراكب (كما لو كنت فى ڤينيسا) وتمركزت تجارة التجزئة فى مناطق الحفر فى أيدى الفرنسيين فأقام لهم دى ليسبس مستودعات خشبية ضخمة لتموين المدن الثلاث (بورسعيد والاسماعيلية والسويس) وما بينها فى محطات ملاحية وكان أشهر هؤلاء التجار وأشهر شركاتهم L. Bazinzco و F. Srre و L. Savon Zco وقد أثرى هؤلاء التجار ثراء فاحشًا من وراء تجارتهم وحولوا نشاطاتهم بعد افتتاح القناة إلى امتلاك الشركات الملاحية ومن جراء ما جنوه من ثروات طائلة أقاموا العمارات الشاهقة والڤيلات الفخمة وجلبوا لها فى فرنسا أفخم الرياش والتحف.

ويكفى أن دى ليسبس بعد أن أنهى مشروعه وقام بافتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وبعدها باثنى عشر يومًا أى فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ تزوج دى ليسبس للمرة الثانية على أرض قناة السويس من الين دى براجار وشاهدا العقد فوزان بك (مدير الأشغال) و Le Valet مدير شركة المساجيرى مارتيم.

وفى سنة ١٨٧٦ كان تعداد الاجانب فى بورسعيد ٣٤٥١ أجنبى أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين.

وفى أول تعداد رسمى للسكان أجرى بمصر إلى سنة ١٨٨٢ وهى سنة الاحتلال التى تزايد فيها عدد السكان الأجانب الذين وصل عددهم إلى ١١٤٨٠ أجنبى أغلبهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيين والبريطانيين والايطاليين والفرنسيين من اجمالى سكان بورسعيد البالغ ٤٢,٩٧٢ نسمة.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الفرنسيين :

٠٠	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
٧٦٩	٩٠٥	١١٩٤	١٦٩٧	٩٠٦ فرنسى

كان الفرنسيون من أول أبناء الجاليات الذين احتلوا المراكز الادارية العليا فى شركة قنال السويس والشركات الملاحية والبنوك بل وداخل الحكومة المصرية . فأقوى هؤلاء نفوذاً هم رؤساء مجالس إدارة شركة قنال السويس العالمية وأهم هؤلاء بعد دى ليسبس :

Guichard, Prince D' Arenberg, Charles Jonnart, Marquis De Vogue , Francois Charles- Roux .

وكانوا يعتبرون أنفسهم حكامًا لمنطقة قنال السويس ولقد صدق الخديو اسماعيل فى قولته «أنا أريد القناة لمصر وليست مصر للقناة » كما صدق من بعده الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما ذكر فى خطاب التأميم فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦«إن شركة قنال السويس العالمية تعتبر دولة داخل دولة».

وكانت أغلب المصالح الخدمية وأعمال الادارة منذ عام دق أول معول فى أرض قناة السويس ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٠ فى يد شركة قنال السويس، فحكمدار البوليس فرنسى ويدعى Brouchet وتحت امرته ضباطًا فرنسيين ويونانيين والخدمات الصحية تحت اشراف أطباء

فرنسيين على رأسهم الدكاترة Cambouliu و Couvidou واستمرت أعمال البوليس لفترة طويلة لهم H. Beaumont Bey شغل وظيفة وكيل حكمدار القنال برتبة قائمقام .

وكان أفراد تلك الجالية يمثلون قمة الأرستقراطية فى السلم الاجتماعى داخل مدينة بورسعيد نظراً لأنهم الأكثر ثقافة وتعليماً وثراءً وكانوا يرتادون أرقى الأماكن العامة وأفخرها وكانوا نادراً ما يختلطون بغيرهم من أفراد الجاليات الأخرى وإذا أقاموا حفلاً ساهراً لايتعدى أبناء جلدتهم وامتد ذلك إلى ما قبل تأميم شركة قنال السويس العالمية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وأمثلة ذلك فى الثانى من ديسمبر ١٨٩٣ مرور البارجة الحربية الفرنسية Cosmao من القناة بين حفاوة الجالية.

وفى أول أكتوبر ١٨٩٥ أقيم حفل للمسيو Mousscou كبير موظفى شركة قنال السويس تلاه احتفالات كبيرة للجالية الفرنسية فى بورسعيد بمناسبة استيلاء القوات الفرنسية بقيادة القائد Dussen على جزيرة مدغشقر .

وفى ١٨ يونيو من كل عام كانت الجالية الفرنسية فى بورسعيد تحتفل بذكرى إعلان المرشال شارل ديجول فرنسا الحرة فى ١٨ يونيو ١٩٤٠ حيث رفض عرض المرشال بيتان بتسليم فرنسا لألمانيا النازى ونادى باستمرار النضال وذلك برئاسة الدكتور Gutier عميد الجالية الفرنسية فى بورسعيد وطبيب الأسنان المشهور والمسيو Touchalaune رئيس رابطة الفرنسيين الأحرار. وفى الذكرى العاشرة لتلك المناسبة فى ١٨ يونيو ١٩٥٠ أقيم حفل كبير فى حديقة الكازينو بالاس حضره وكيل محافظة القنال أحمد شكرى بك وقناصل الدول ووجهائها .

وفى يوم الأحد ١٤ يناير ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد سفير فرنسا بالقاهرة Couve De Murville حيث استقبل استقبالا حافلاً من الجالية الفرنسية ببورسعيد وقنصل André Brena ونظراً للصداقة المتينة التى تربط كوف دى مورفيل وشارل ديجول منذ أن كون حزبه فرنسا الحرة فكان وقتها ساعده الأيمن فقد استدعاه بعد فترة وجيزة وعينه وزيراً للخارجية فى وزارته وبعدها أصبح كوف دى مورفيل رئيساً لوزراء فرنسا وكان من المحبين لمصر.

وبمناسبة الاحتفالات فكان أهم أعياد الجالية الفرنسية هو عيد قيام الجمهورية الفرنسية وقد اشتهر عند أهل بورسعيد القدامى من المصريين بعيد الربوبليك حيث يحتفل به سنوياً فى يوم ١٤ يوليو وكانت بورسعيد تلبس أبهى حللها فى ذلك اليوم فتزين شوارعها بالأعلام

الفرنسية وأقواس النصر وبالزينات الكهربائية حتى مبنى شركة قنال السويس ذو الثلاث قباب وورشها المطلة على الميناء وجميع معداتها فتتلألئ فى الماء، وتطلق الألعاب النارية.

أما فى مياه القناة فى ميناء بورسعيد فتقام الاستعراضات والألعاب والمسابقات المائية.

وفى المساء يقام حفل راقص بتراس الكازينو بالاس المطل على القناة.

وتنتهى تلك الاحتفالات بإطلاق عدة صواريخ فى سماء بورسعيد يقرأ Vive France أى تحيا فرنسا .

وكان يأتى لبورسعيد فى هذا اليوم أفواج من أهالى المدن القريبة من بورسعيد بالمراكب الشراعية ولنش شركة قنال المنزلة عبر بحيرة المنزلة من دمياط والمطرية والمنزلة للاستمتاع بمشاهدة هذا الكرنفال الفرنسى على أرض بورسعيد .

وآخر احتفال بعيد الروبوبليك على أرض بورسعيد كان فى ١٤ يوليو ١٩٥٦ وما تلاها من أحداث بالانذار البريطانى الفرنسى لمصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى على مصر وما نجم من رحيل رعايا الدولتين عن أرض بورسعيد .

فى سنة ١٨٩٤ قامت أرملة المهندس Couvreu ببناء ملجأ للأيتام من كافة الجنسيات سنة ١٨٩٤ . وكان لتلك الجالية صحفها الخاصة التى اعتبرت من أقدم الصحف المحلية على أرض بورسعيد ففى سنة ١٨٦٧ تم طبع أول جريدة محلية فرنسية تحت اسم Journal Du Canal قام باصدارها Piere Moll وكان من أشد المدافعين عن دى ليسبس ومشروعه فى حفر القناة ضد المعارضة الانجليزية، وفى سنة ١٨٧٠ صدرت جريدة Journal de Port - Said وكتب فيها طبيب شركة القنال الدكتور H. Couvidou . عن ضرورة ربط بورسعيد بدمياط بطريق برى (العجيب هذا الاقتراح نفذ بعد مائة عام تقريبًا خلال حرب الاستنزاف فى أول السبعينيات من القرن العشرين لخدمة العمليات الحربية) وهذه الجريدة اسبوعية تصدر صباح كل خميس ، وتقع فى أربع صفحات ورئيس تحريرها المسيو Joule Barbier وأغلقت سنة ١٨٧٢ لتطولها على ذات الخديوى اسماعيل ، وأعيد اصدارها تحت اسم جديد Moniteur de Port- Said أى المخبر لبورسعيد فى ذات السنة بمعرفة المسيو Barbier وصدرت لفترة وجيزة فى بورسعيد إلى أن انتقل صاحبها للقاهرة، وفى سنة ١٨٧٣ صدرت جريدة Avenir Co- mercial أى المستقبل التجارى التى أصدرها المسيو Emeil Roux إلا أنها لم تستمر طويلاً، ثم اصدر بعدها «لافورنيرون سالى بورسعيد» التى لم تتطرق للأمور السياسية

كسابقتها بل اهتمت باخبار الفنون والأنشطة البحرية لدرجة أن جريدة الوقائع المصرية كانت تنشر عنها بعض الموضوعات المتعلقة ببورسعيد .

ثم ظهرت عدة صحف فرنسية كثيرة المجال هنا لايسمح بذكرها ويمكن الرجوع إلى المرجع القيم لصديقى الدكتور زين العابدين شمس الدين نجم «بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩-١٨٨٢» فهو أحد مراجعى لهذا البحث .

وفى النهاية أذكر جريدة Verité أى الحقيقة التى أصدرها سنة ١٨٩٥ Edward Horn وبوفاته سنة ١٩٠٧ أدارها ابنه Louis . وكانت مكتبة هورن من أولى وأشهر المكتبات التى افتتحت فى بورسعيد وكان مقرها بشارع التجارة (النهضة) أمام تياترو وسينما الألداردو وكانت الفريتيه هى جريدة مجلس بلدى بورسعيد منذ انشائه سنة ١٩١١ وإن كانت فى بعض الأحيان تخرج عن المألوف وتتطاول على المجلس واعضائه الذين كثيراً ما كانوا يطالبون بانهاء التعامل معها .

وبالإضافة لمطبعة ومكتبة هورن كان هناك مكتبة ومطبعة Riffis وبمناسبة ذكر المجلس البلدى كانت الجالية الفرنسية فى بورسعيد ممثلة باعضاء بحكم القانون وهم ممثلو شركة قنال السويس فى مصر وكان لهم التأثير الأكبر على مجريات الأمور فى المجلس فى أوائل عهده وفى الجانب الآخر كانوا يساهمون فى تمويل كثير من متطلبات المجلس عندما يثار تمويل تنفيذ اصلاح معين ليس حبا فى مصر أو المصريين بل كانوا يعتبرون بورسعيد جزءا من شركة القنال فيجب أن تظهر أمام أعين العالم فى أبهى حللها وكان أول هؤلاء الأعضاء فى المجلس الكونت دى سريون والمسيو دى بنوا والمسيو فسييه كما كان يمثل كبير مهندسى شركة القنال كالمسيو رينو والمسيو سرجون والمسيوليڤاسبير.

أما الجالية فكانت تختار وتنتخب فيما بينها أعضاءاً يمثلوها بمجلس بلدى بورسعيد كالمسيو أوليه والمسيوباردو.

وكان لهم التأثير والنفوذ فى الاهتمام بحى الافرنج فى بورسعيد الذى يقطنه الأجانب لدرجة أن الأعضاء المصريين بالمجلس وعلى رأسهم على بك لهيط والشيخ عبد الفتاح الجمل والشيخ ابراهيم عطا الله وغيرهم يضجون من هذا الاهتمام بينما حى العرب لايلاقى نفس الاهتمام نظراً لأن غالبية قاطنيه من المصريين ؟!

ومن أهم التسميات للشوارع والميادين بأسماء فرنسية هو أقدم شارع فى بورسعيد وكان يطل على شاطئ البحر مباشرة عند الحفر وحتى احتفالات افتتاح قناة السويس حتى أطلق عليه رصيف أوجينى (نسبة للإمبراطوره أوجينى) ثم شارع أوجينى بعد انحسار البحر شمالا تاركًا أرض أطلق عليها أراضى طرح البحر وهو حاليًا شارع صفية زغلول وشارع وميدان دي ليسبس وهو أوسع شوارع بورسعيد من ناحية العرض حتى عرف عند أهل بورسعيد القدامى بالثلاثينى لأن عرضه ثلاثين متراً والميدان كان يطلق عليه ميدان المنشية (نسبة إلى نشأة المدينة) وهو حاليا شارع وميدان سعد زغلول.

فى سنة ١٩٠٢ تولى المهندس والمقاول الفرنسيان Getaain Et.Sarvev بتنفيذ بناء البوستة المصرية وكان للفرنسيين كثير من الفضل فى التأريخ عن حفر قناة السويس ونشأة مدينة بورسعيد أمثال M. Riou, Marius Fontane Gabriel Hanotaux, Reymond, Charles Roux ومن الاهتمامات الفرنسية بتاريخ قناة السويس وحفرها ونشأة مدينة بورسعيد القى الدكتور Lugi Dori (ايطالى متخصص فى تاريخ قنال السويس وتاريخ بورسعيد ووالده كان مترجمًا لدى ليسبس) محاضرة فى قاعة مدرسة الليسيه فى يوم الاثنين ١٢ مايو ١٩٥٢ عن الدراسات التاريخية والجغرافية لخليج السويس لاقت نجاحًا وترحيبًا من المعمرين الفرنسيين الذين حضروا المحاضرة.التى نظمها المسيو فيكتور مارتان مدير مدرسة الليسيه ببورسعيد (أقدم مدارس ليسيه مصر وافتتحت فى ٣٠ يناير ١٩١٠ بحضور البارون دى أزيتال الرئيس الأعلى لشركة القنال) . ونظراً للنجاح غير المتوقع فقد استمر أسبوعًا آخر.

مما شجع مدير النادى الفرنسى ببورسعيد L'Alliance Francaise «بتقاطع شارعى فؤاد وأوجينى بجوار سينما ماجيتيا» بأن يستضيف فى ذات الشهر مايو ١٩٥٢ المسيو Pierre Villforth- Jomini (مدرس اللغة الفرنسية فى المدارس اليونانية والإنجليزية ببورسعيد) لإلقاء محاضرة عن تاريخ الجالية الفرنسية خلال ٨٩ عامًا فى بورسعيد (١٨٦٣- ١٩٥٢) وقد أشاد فيها بالوثائق التى أمدها به الدكتور دورى عن بورسعيد ونشأتها منذ عهد محمد سعيد وحتى ١٩٥٢ .

ومن الأنشطة الثقافة الأخرى الأدبية والفنية والعلمية قيام البروفوسير Emile Henriot عضو الأكاديمية الفرنسية ورئيس الرابطة الفرنسية العامة بالقاء محاضرة أدبية بعنوان

Femmes des Lettrese et Lettres des Femmes أي «نســاء الأدب وأدب النســاء» بصالة الأعياد في مدرسة الليسيه في السادسة من مساء ١٤ نوفمبر ١٩٤٩ ثم يتوجه للاسماعيلية ويلقي محاضرة عن تاريخ الرواية في Proust . ولم يمر إلا عشرة أيام إلا وتقوم لرابطة الفرنسية في ٢٤ نوفمبر ١٩٤٩ بدعوة عازف البيانو الفرنسي Pierre Sancan الحائز على الدرجة الأولى من معهد الكونسفتوار بباريس والدرجة العظمى من كونسرفتوار روما بتقديم الأعمال الشهيرة لبيتهوفن وشومان وشوبان وليست بصالة مدرسة الليسيه .

أما قمة الفنون فمتمثلة في فريق الكوميدي فرانسيز الذي يصل إلى بورسعيد في يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٩ ويقدم مسرحية La Part du Feu للروائي الفرنسي الشهير Louis Ducreux وقد بدأ تقديمها الكوميدي فرانسيز على مسارح مدينة ليون الفرنسية في ١٨ مايو ١٩٤٣ وبنجاحها الساحق مثلت على مسارح مدينة باريس إلى أن انتهى بها الأمر إلى تقديمها على مسرح الاليزية قمة مسارح باريس ، حيث مثلت على مسرح سينما ديانا ولاقت إعجاب البورسعيديين . وفريق L'Equipe للتمثيل المكون من الخرجين القدامى لمدرسة الليسيه ومدرسيها يقيم حفلاً في يوم ٢١ مايو ١٩٥٠ للرواية الشهيرة Les Dames Aux Chapeaux Vertes السيدات ذوات القبعات الخضراء . وهي من أشهر أعمال الكاتب Roman De Germaine Acremant وقد حضر الحفل محافظ القنال عبد الهادي غزالي بك وحرمه وحكمدار بوليس القنال اللواء محمود طلعت وقنصل ايطاليا وقنصل اليونان وقنصل لبنان غالب بك الترك وزوجاتهم والدكتور Gautier رئيس الجالية الفرنسية والمسيو Marquet رئيس جمعية المحاربين القدماء والمسيو Touchalaune رئيس الفرنسيين الأحرار وزوجاتهم .

وفي يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٥٠ يعم الفرح والسرور بين الجالية الفرنسية ببورسعيد بوصول الأب Pierre Du Bourget أمين متحف اللوفر للتاريخ المصري القديم (بصفة عامة) ولتاريخ الفن المصري القديم (بصفة خاصة) حيث ألقى محاضرة في مجال تخصصه تخللها عرض القطع الفنية المصرية الموجودة بمتحف اللوفر بالألوان بجهاز البروجيكتور وعرج في محاضرته عن نسيج القباطي (الأقمشة القبطية القديمة) .

وفي أول أبريل ١٩٥٢ قامت الرابطة الفرنسية بعرض أفلام وثائقية لرسومات وصور من العصر القوطي رسمها الفنان العالمي المشهور Louis de Broglie وتم عرضها بصالة L'Eastern Exchange Hotel (المعروف عند أهل بورسعيد بالبيت الجديد) كان مديره الفرنسي المسيو Daromont .

هذا عن مدرسة الليسيه الفرنسية ، أما مدرسة الفرير فيعود تاريخ انشاءها إلى سنة ١٨٨١ ويرجع الفضل فى انشاءها إلى مدير مدارس الفرير بفرنسا الذى زار بورسعيد فلم يجد على أرضها مدرسة فرنسية تليق بالجالية الفرنسية فأسرع بالدخول فى مفاوضات مع السلطات المحلية فى بورسعيد بتشجيع من قنصل فرنسا العام فى بورسعيد Lucien Monge ومدير عام شركة قنال السويس الكونت Rouville وأثمرت المفاوضات عن افتتاح مدرسة للفرير فى مارس ١٨٨١ على رصيف أوچينى ، بدأت بفصلين التحق بهما ثمانية تلاميذ وقبل انتهاء العام الدراسى وصل عدد تلاميذها إلى ٤٦ تلميذاً بيانهم حسب جنسياتهم كالآتى ١٢ فرنسى، ١١ يونانى ، ١١ نمساوى ، ٤ إيطالى ، ٣ مالطى ، ٢ مصرى، ٢ تركى ، برتغالى واحد، أما حسب ديانتهم ٣٥ كاثوليكى ، ٨ أورثوذكسى، مسلمان ويهودى .

وبافتتاح مدينة بور فؤاد- نسبة للملك فؤاد الأول ملك مصر والذى حضر افتتاحها فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ فى حفل مهيب تفوح منه العظمة والأبهة على الشواطئ الشرقية لقناة السويس التى كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة Bousquet فى أوائل القرن العشرين والتى لم يكن بها حتى تاريخ افتتاح مدينة بور فؤاد إلا مجموعة من الورش والمعدات الخاصة بشركة قنال السويس.

وبافتتاح بور فؤاد اعتبرتها الجالية الفرنسية جزءاً من فرنسا بل كانوا يطلقون عليها باريس الصغرى نظراً لتوحيد ڤيلاتها التى بنتها شركة قنال السويس على النمط الفرنسى وكان أغلب قاطنيها من الفرنسيين العاملين بشركة قنال السويس وفى مارس ١٩٣١ تم افتتاح نادى Scarabee أي الجعران وهو شعار شركة قنال السويس وعرف عند أهل بورسعيد القدامى بالاشكارابيه للجالية الفرنسية كما كان لها نادى يطل على القناة مباشرة للتجديف كان معروف عند أهل بورسعيد بالنوتيك . كما قامت شركة قنال السويس ببناء المحكمة المختلطة وأخذ فى شكلها المعمارى مساجد المغرب العربى وافتتحت فى مايو ١٩٣٤ تحت إشراف البارون دى بنوا رئيس مجلس إدارة شركة القنال كما أعدت شركة قنال السويس بلاجًا خاصًا للعاملين فيها يطل على شاطئ البحر الأبيض بل وبلاجًا خاصًا بأطفال العاملين بشركة القنال Plage Des Enfants وعرف عند أهل بورسعيد باليزنفان .

النهاية بغرائب وعجائب فرنسية

كان أول منشأ فى بورسعيد سنة ١٨٦٥ انشأته مدام بانيو يليه فندق هوتيل دى فرانس أول وسيلة مواصلات فى بورسعيد عربة بحصان يطلق عليها لاندو Landaulet أحضرها الموسيقى الفرنسى المسيو سريس سنة ١٨٨١ من فرنسا كانت تنقل الأحياء والأموات الذين كانوا قبل وصولها تنقل جثثهم إلى المقابر فى جنوب مدينة بورسعيد سيراً على الأقدام على اكتاف المشيعين . كان للميكانيكى الفرنسى بشركة قنال السويس المسيو Le Masson الفضل فى اختراعه الكشافات الكهربائية سنة ١٨٨٣ التى يمكن اضاءتها ليلاً على ضفتى القناة فتمكن من عبور السفن ليلاً بعد أن كانت تنتظر فى ميناء بورسعيد حتى الصباح ، كانت المطافئ فى بورسعيد عبارة عن جهود فردية حيث أسس الفرنسى الموظف بشركة القنال Mousscu أول فرقة مطافئ أهلية بتقاطع شارعى القسطنطينية ودى ليسبس (الجيش وسعد زغلول) إلى أن تشكلت فرقة المطافئ الحكومية فى ٢١ ديسمبر ١٩١١ اليوزباشى سيد حسن.

الرعايا الفرنسيون

وكان يطلق على هؤلاء بالحماية الفرنسية وكانوا من قبل أوائل القرن العشرين ضمن الرعايا العثمانيين وهؤلاء هم الشوام أبناء الشام سوريا ولبنان وأبناء المغرب العربى من مغاربة وجزائريين وتونسيين لكن المجموعة الأخيرة كانت قلة لم يؤثروا تأثير الجاليات الأخرى وأغلبهم ذاب فى المجتمع المصرى وجنسوا بالجنسية المصرية بل أن أحفادهم كانت تشغل مناصب راقية كعائلة المغربى لذلك سيكون حديثنا عن الشوام.

الشوام

وصل أفراد تلك الجالية من الشام أو من داخل مصر كالاسكندرية والقاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر للاشتغال بالتجارة وتمركزوا فى تجمع فى غرب حى الافرنج عند تقاطع شارعى دى ليسبس (سعد زغلول) ومحمد على ، عرف بحارة الشوام ، وكانت لهم كنيسة خشبية (كنيسة القديس يوسف للموارنة) ثم تهدمت وبنى مجموعة من أعيان الشوام وعلى رأسهم عيسى أفتيموس (تاجر اصواف واجواخ بشارع السلطان عثمان الجمهورية حالياً) وجورج مشبهانى (المحامى) كنيسة القديس نيقولاوس للروم الأرثوذكس سنة ١٩٢٦ كذا عائلات حرفوش وخشة وشويرى وسردوش وطرباى وأشهر جمعياتهم الخيرية Ste. Syrienne Orthodexe De Bien Faisin وكانوا أصحاب محال بقالة وحلويات شامية ومطاعم صوفر وبار عباس ومراسلى صحف فيليب الصولى.

وقد تمصر الكثير من أفرادها بحكم طول الاقامة بمصر حتى يتمكنوا من الاقامة بمشاريع اقتصادية قد يحصلون على ميزات عند انشائها وادارتها كمصريين وكان على رأس هؤلاء عميد عائلة نجيم عبده نجيم والذى حصل على رتبة الباشوية لمساهمته فى كثير من المشروعات الخيرية وعلى رأسها التبرع بمبالغ ضخمة لبناء مبرة فوزية الخيرية بشارع الملك (٢٣ يوليو حاليًا) ورئيسًا لجمعية الاسعاف وعضواً بمجلس بلدى بورسعيد اعتباراً من ٣ يوليو ١٩٤٩ وكانت زوجته ونجله شبل نجيم يقيمون الحفلات الراقصة والتنكرية فى ناديهم .

وكان لهم نادى بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) يعرف بالنادي الشرقي ورئيسه الشرفي غالب بك ترك قنصل لبنان فى بورسعيد .

الجالية البريطانية

ظهر تأثير تلك الجالية فى الحياة البورسعيدية بعد شراء انجلترا نسبة كبيرة من أسهم شركة قنال السويس للملاحة البحرية بعد استدانة مصر بسبب اسراف الخديوى اسماعيل خصوصاً فى حفلات افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وفاقت تلك الاحتفالات ما يفوق الخيال فى ليالى ألف ليلة وليلة ، وقد اشتهرت صفقة شراء أسهم شركة قنال السويس بأنها أبخس الصفقات فى تاريخ مصر فقد اشتهر «دزرائيلى » رئيس بريطانيا بدهائه ومكره فأخطره وزير خارجيته اللورد «ربى» عن نية الخديوى اسماعيل بيع حصة مصر فى أسهم شركة قنال السويس لسد العجز الذى حدث فى ميزانية الدولة نتيجة لاستدانته بملايين الجنيهات فى الدول الكبرى للصرف على حفلات افتتاح قناة السويس ... وانتهت تلك المؤامرة باقتراض دزرائيلى أربعة ملايين من الجنيهات من « روتشيلد» رجل المال البريطانى وتم شراء حصة مصر من أسهم فى شركة قنال السويس وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ تم توقيع اتفاق بيع تلك الأسهم، وقد وقعه «اسماعيل صديق» باشا ناظر المالية باسم مصر ووقعه نيابة عن الحكومة البريطانية الجنرال «ستانتون» وكان عدد الأسهم المباعة ١٧٦٦٠٢ سهمًا ، وأمرت الحكومة البريطانية سفينتها «ملابار» القادمة من الهند بالتوجه إلى ميناء الاسكندرية فى منتصف ديسمبر ١٨٧٥ لشحن الأسهم وتم وضعها فى أربعة صناديق مصفحة بالزنك لحمايتها من المياه فى حالة ما إذا تعرضت السفينة «ملابار» للغرق .

كما ازداد نفوذ انجلترا فى مصر أكثر وأكثر بعد أن ضربت الأساطيل البريطانية مدينة الاسكندرية فى صباح الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ بقيادة الأميرال «سيمور» وكانت أول طلقة فى البارجة «الكسندرا » على طابية «الاسبتالية» برأس التين ومن بعدها على الطوابى

المنتشرة على شاطئ الاسكندرية التى تم احتلالها بعد دفاع شرس ومستميت من أهلها ثم وجهت انجلترا وجهتها شطر قناة السويس ففى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ وصلت ميناء السويس أربع سفن حربية بقيادة الادميرال هويت Hewett وبعد عناد واصرار من محافظ السويس وأهلها فى عدم التسليم وبعد مقاومة شديدة تم احتلال السويس فى الثانى من أغسطس ١٨٨٢ .

وفى الشمال وعند بورسعيد كان قنصل انجلترا فى بورسعيد المترويلز Wallis أصدر أوامره للرعايا الإنجليز ببورسعيد بالرحيل إلى بواخر تم إعدادها لهم فى الميناء وذلك فى ١٠ يوليو ١٨٨٢ وتبعهم فى ذلك رعايا فرنسا وايطاليا واليونان والمانيا والنمسا المقيمين فى بورسعيد وأعطى الجنرال ويسلى أوامره للاميرال هوب كنسى Hopkins بالاشراف العام على الحملة البريطانية لاحتلال قناة السويس، على أن يتم الاتصال بالادميرال هويت المرابط فى ميناء السويس، وغادر هوب كنسى الاسكندرية فى مساء السادس عشر من أغسطس ١٨٨٢ على سفينة القيادة بنيلوب Penelope وبلغ اجمالى السفن الحربية المتجهة لميناء بورسعيد ٣٢ سفينة ، وفى يوم الأحد ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ سيطرت السفينة فالكون Falcon على الشاطئ حتى الجميل إلا أنها لم تستطع الاقتراب من طابية الجميل لجسارة قائدها البكباشى بيادة محمد نجم الموالى للعرابيين . يضاف جسارة أهل بورسعيد وبالأخص طبقة عمال الفحم فى قرية العرب الذين قاوموا القوات الغازية بقيادة البكباشى محمد أبو العطا رئيس البوليس ببورسعيد وكانت النهاية احتلال بورسعيد . ومنها توجهت القوات البريطانية إلى الاسماعيلية فى ٢١ أغسطس ١٨٨٢ وتم احتلالها بعد عناد شديد من أهلها ، وتقدم الجيش البريطانى صوب التل الكبير ودارت معارك ضارية وغير متكافئة بين الإنجليز والعرابيين بعدها دخلت القوات البريطانية إلى العاصمة القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ الاحتلال لمصر دام ٧٤ عاما. وقامت القيادة البريطانية ببناء استراحة للبحارة والجنود الانجليز على ناصية شارع واجهورن (مصطفى كامل) ولما أجرى أول تعداد رسمى لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ عددسكانها حوالى ١٦٩٧٨ نسمة مجموع الأجانب في هذا التعداد ٢٩٣٧ أجنبى منهم ٤٤٤ بريطانى.

وفى التعداد التالى سنة ١٨٩٧ بلغ عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة أصبح عدد الأجانب ١١,٤٨٠ أجنبى أكثرهم من الاتراك والسوريين يلهم اليونانيين والبريطانيين والإيطاليين والفرنسيين.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ مظهر تعداد الجالية البريطانية :

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	
١,٦٩٣	٢٢٢٣	٣٨٠٩	٣٦٧٣	٢٣٤٣	بريطانى

وبعد الاحتلال البريطانى أنيط بهم أعمال الأمن بنظارة الداخلية فاشتهروا بالشدة والصلف والبطش ضد المصريين والمتمثل فى الكونستبلات الإنجليز، وعين على رأس رجال البوليس البريطانى مفتش بريطانى أطلق عليه حكمدار بوليس القنال وأشهر هؤلاء فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين Hen Bey , Ablittby ويعمل تحت امرتهم مأمورى أقسام مدينة بورسعيد الثلاث الافرنج والعرب والمناخ . كذا مأمور ضبط انجليزى ومفتش مباحث القنال (بور سعيد والاسماعيلية والقنطرة) إنجليزى. وكان البوليس الحربى البريطانى P.M يحفظ النظام للقوات البريطانية . وعرف عند البورسعيدية بالبيكت . وقد تملك أفراد تلك الجالية أكبر الشركات الرأسمالية فى بورسعيد وعلى رأسها الشركات الملاحية.

فنجد المسترويلز Wallis قنصل بريطانيا فى بورسعيد سنة ١٨٨٢ يقوم ببناء أكبر ثلاجة بالقرب من الميناء بتقاطع شارع بابل مع السلطان عثمان (الجمهورية حاليًا) كان يتم فيها تخزين اللحوم التى تصدر للمراكب المارة بالقناة واللحوم الواردة ترانزيت من استراليا كما انشأ مصنع للثلج ليمد السفن العابرة للقناة بالثلج.

أما المستر George Royle عمل مديراً لشركة اللويدز ثم انتهى به الأمر إلى تملك شركة من أكبر الشركات الملاحية فى منطقة القنال هى Lambret & Brothers Co. ولدرجة أن إحدى الصحف البريطانية Great Thoughts تجرى معه حديثًا فى شكل ريبرتاج وتطلق عليه ملك بورسعيد من كثرة ثرائه الفاحش.

ومن ضمن المؤسسات الملاحية الإنجليزية الشهيرة ومديرها المستر Kortin فحومات بورسعيد - السويس Port- Said & Suez Coal Co. ومديرها المستر W.G. Woodhead English Coaling Co. Ltd وفى ذات الوقت كان يشغل نائب قنصل الدانمرك فى بورسعيد (منصب شرفى) ومبنى شركة انجلش كولنج يقع على الميناء بالتقاطع مع شارع أوجينى وقد مثل فيه أحد الأفلام المصرية فى الخمسينات: ومديرها المستر . Elkington Hull Blaith Co

وتشترك هل بلايت وشركة فحومات السويس فى مبنى خشبى يطل على الميناء، كان مدهونًا بخطوط عرضية بنية وبيضاء ، وبعد التأميم أصبح توكيل دمنهور للملاحة . ويقع مبنى شركة ورموس الخشبى على حوض الفحم بشارع الطور Worms & Co. والسلطان عثمان (الجمهورية) توكيل أسوان للملاحة حاليًا وبجواره مخازن وجراج مرموس.

W. Stapldon & Sons , Cory Brothers & Co. Ltd.

كما تمركزت فى أيديهم الأعمال المصرفية والبنكية -Anglo Egyption Bank= Bark lays Bank وهو من أقدم المصارف فى بورسعيد بدأ نشاطه فى مكان مبنى سيمون آزرت المطل على الميناء، ثم بنى له مبنى بشارع النيل (الجزء الشمالى من الجمهورية) والجبرتى وهو حاليًا بنك الاسكندرية.

وفى وسائل النقل البحرى الداخلى تأسست فى الخامس فى فبراير سنة ١٩٠٦ شركة -An glo- American للنقل البحرى عبر قنال المنزلة بين بورسعيد والمطرية وكانت توفر الوقت الذى كانت تقوم به المراكب الشراعية فى نقل الركاب والمواد الغذائية بين المدن الواقعة على بحيرة المنزلة ، وشغل ادارتها أحد اليونانيين المسيو Kourkould فى مبنى بجوار بنك باركليز بشارع النيل (شمال الجمهورية حاليًا والفرات) .

وبنيت لهم كنيسة خاصة سنة ١٨٨٢م The Church of The Epiphany بشارع التجار (النهضة أو عبد المنعم رياض حاليًا) والمغرب وملحق بها صالة عبارة عن منتدى ثقافى للجالية البريطانية ويطلق عليها Memorial Hall فكان المستر Clerk مدير شركة شل من المحاضرين البارزين فى تلك القاعة .

ففى ٣٠ مايو ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن حياة الفنان موتسار حضرها جمع غفير من الجالية البريطانية وكبار الشخصيات الأجنبية فى بورسعيد وتحت شرف قنصل بريطانيا -Mr. Tom lin وفى ٨ أغسطس ١٩٥٠ ألقى المستر كلارك محاضرة عن حياة الموسيقار العالمى بيتهوفن وأهم أعماله وفى نهاية كل محاضرة تعزف أعمال هذين الفنانين وكانت ما دام Zamit (زوجة رجل أعمال مالطى رعية بريطانية) تتولى عزف المقطوعات والسينفونيات على البيانو وفى ١٧ يونية ١٩٥١ أقيم بها حفل استقبال على شرف بحارة الأسطول البريطانى المار بقناة السويس وهما البارجتان الحربيتان البريطانيتان Surprise , Gambia بقيادة الأدميرال Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط والذى توجه مع القنصل البريطانى المستر توملين لسراى محافظة القنال لمصافحة المحافظ عبد الهادى غزالى بك الذى رد لهما الزيارة على الباخرة جامبيا وتلك الزيارات المتبادلة تعتبر كنوع من حسن الضيافة. ففى ٢٥ أغسطس ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد مرة أخرى Amira Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى الشرق الأوسط (ترقى فى وظيفته) فاستقبله أحمد بك شكرى وكيل محافظة القنال بصاحبه J .Caruana قنصل بريطانيا بالنيابة وصعدا لتحيته على باخرة

القيادة ورد الأدميرال الزيارة بالتوجه لسراى المحافظة لشكر محافظ القنال . وكان لهم مبنى الكتاب المقدس British Bible بنى سنة ١٩١٠ من الرخام الملون (ما زال بشارع الجمهورية).

ومن الأماكن الثقافة الأخرى للجالية البريطانية Union Clup بشارع النيل (شمال الجمهور حاليا) والفرات أعلى البنك المركزى حاليًا وكان ملحق به مكتبة كبيرة، وفيه تم الاحتفال بوداع الجالية البريطانية للسير Sir Ronald Cmbell سفير بريطانيا بعد إنتهاء فترة عمله فى مصر فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ الذى سيبحر إلى انجلترا على الباخرة Capsa كما تم استقبال Lady Howe زوجة الحاكم البريطانى العام للسودان فى ١١ أبريل مايو ١٩٥١ وهى عائدة لبلادها على ظهر الباخرة Salween وفى ١١ مايو ١٩٥١ استقبل السير Sir Ralef Stinson وزوجته (سفير انجلترا فى مصر) حيث قضى عطلة نهاية الاسبوع فى بورسعيد بين الجالية البريطانية) .

كما كانت دار القنصلية البريطانية الواقعة بشارع السويس (الجيش حاليا) والفرات محلاً للاستقبالات والحفلات الرسمية ففى الخامس من يونيو ١٩٥٠ أقام المستر Tomlyn قنصل بريطانيا فى بورسعيد وزوجته حفل استقبال بصالونات القنصلية البريطانية بمناسبة عيد ميلاد الملك جورج السادس وكان على رأس المهنئين محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك.

ومن المؤسسات الثقافية البريطانية فى بورسعيد المدرسة الإنجليزية وكانت واقعة بشارع (ابراهيم عبد السلام عارف حاليا) والسلطان محمود أعلى الشركة البريطانية ميتشل كوتس للمقاولات حيث اعتاد مديرها Mr. Danby دعوة محافظ القنال لحضور حفلها السنوى لتوزيع الجوائز على المتفوقين كما حدث فى نهاية العام الدراسى ٥٠ / ١٩٥١ .

وكان من أشهر مكتبات بيع الكتب الإنجليزية Colonial Book بشارع الميناء بجوار سيمون آرزت .

وكانت الجالية البريطانية تحتفل كل عام بذكرى ميلاد الملكة ڤيكتوريا وذكرى جلوسها على العرش إلى أن جاءت الذكرى الستين لجلوسها على العرش ١٨٩٧ تم الاحتفال بازاحة الستار عن تمثال لها الذى تتوسط قاعدة عليها أربعة أسود (ترمز للأسد البريطانى) من الجهات الأصلية الأربعة تخرج من أفواهها المياه كان يرتوى منها المارة على رصيف الميناء حتى عرفت عند أهل بورسعيد القدامى بسبيل ڤيكتوريا وقد حضر حفل ازاحة الستار المعتمد البريطانى اللورد كرومر .

وفى ذات الشارع الهام المطل على الميناء مباشرة احتفلت قوات الاحتلال البريطانى فى مصر فى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ بازاحة الستار عن تمثال الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين الذين اشتركوا فى صد العدوان التركى عن قناة السويس فى زمن الحرب العالمية الأولى ١٤ - ١٩١٨ بحضور المندوب السامى البريطانى فى مصر السير برسى لورين ورئيس الوزراء الاسترالى Mr. Hiouz كما تم تخصيص قطعة أرض غرب المدينة لقتلى الحرب العالمية الأولى عرفت بجبانة الإنجليز .

وكثيراً ما قامت الجالية البريطانية بجمع التبرعات من الجاليات الأخرى مثل ما حدث عندما نشبت الحرب فى اقليم ترنسفال بجنوب أفريقيا فنظم القنصل Kamerou تلك الحملة فى الأول من فبراير ١٩٠٠ .

وكانت لهم التأثير داخل المجلس البلدى الذى أنشئ سنة ١٩١١ فتم تغيير اسم شارع الغربية فى شمال المدينة والمطل على شاطئ البحر مباشرة إلى شارع كتشنر وهو وزير الحربية البريطانى فى زمن الحرب العالمية الأولى والذى عرفت به البارجة التى كانت تقله فى مياه الدردنيل فى ٥ يونيو ١٩١٦ (شارع ٢٣ يوليو الحالى) .

كما تم اطلاق اسم Waghorn الذى مهد طريق برى يربط الاسكندرية بالسويس قبل حفر قناة السويس لربط انجلترا وأوروبا بمستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى فى الشارع الجنوبى للمدينة المطل على محطة السكة الحديد الخشبية التى افتتحها الخديوى عباس حلمى الثانى فى الثانى من ديسمبر ١٨٩٣ (حاليًا شارع مصطفى كامل) ، وكان للكابتن واجهورن الحظ فأقيم له بالسويس تمثالاً نصفيًا يطل على الميناء .

كان للجالية البريطانية ناد خاص Sporting Club حيث استولوا على قطعة أرض وسط حى الافرنج كان مخططًا لها أن تكون ميدانًا يطلق عليه ميدان عباس وكان لايسمح بدخوله إلا لهم وكان الاستثناء الوحيد لحسين صبرى بك سنة ١٩٢٢ ليس بصفته وكيل محافظة القنال بل بتدخل من الملك فؤاد شخصيًا لكونه شقيق زوجته الملكة نازلى وكانت القنصلية تطل عليه (حديقة فريال حاليًا) .

وفى جنوب بورسعيد وعند الرسوة كان يطلق عليها بر الإنجليز حيث قامت القوات البحرية البريطانية سنة ١٩١٤ بشراء قصر لأمير هولندى اقامه فى تلك المنطقة النائية الهادئة وعرف بالنيڤى هاوس وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ انزل من على سارية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

ورفع العلم المصرى بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن تراب مصر بعد احتلال دام ٧٤ عامًا .
وفى الشمال الشرقى لمدينة بورسعيد وبعد احتلال انجلترا لمصر فكر الإنجليز فى انشاء مستشفى انجليزى لعلاج رعاياهم والإنجليز المارين بالقناة . ففى لندن تأسست جمعية لهذا الغرض سنة ١٨٨٥ برئاسة Lady Strangford وقامت بشراء الأجهزة الخاصة بالمستشفى فى لندن سنة ١٨٨٧ تم شحنها لبورسعيد وبعد الانتهاء من انشاء تلك المستشفى وجهت الدعوة للكونتيسة سترا نجفورد لحضور حفل افتتاح المستشفى التى اهدتها الحكومة المصرية الأرض غير أن الموت داهمها أثناء إبحارها على ظهر الباخرة لويزيانا . وعند الافتتاح قرر مجلس الادارة اطلاق اسم الكونتيسة على المستشفى والتى عرفت بالمستشفى الإنجليزى القديم.

وفى سنة ١٩١٢ شرع فى بناء مستشفى إنجليزى أكبر بتشجيع من اللورد كتشنر واشرف على جمع التبرعات لتلك المستشفى الجديدة Sir Charles Fremantle وتم الاحتفال بافتتاحها فى الثامن من نوفمبر ١٩١٥ فى حفل بسيط نظراً لقيام الحرب العظمى ، وتولى ادارتها الماجور دافيد هيرالد كينارد بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) وسلمتها القوات البريطانية بعد جلاءها فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ للقوات المسلحة المصرية باعتبارها مستشفى عسكرى .

الرعايا البريطانيون

كان يطلق على الرعايا البريطانين بالحماية البريطانية ومن هؤلاء :

١ - المالطية Maltese

وهم أبناء جزيرة مالطة وكانت لهجتهم قريبة من العربية بل فيها الكثير من العربية.

وكانت لهم السطوة والنفوذ فى داخل المجتمع البورسعيدى وبين الجاليات الأجنبية فهم حماية للدولة المحتلة لمصر ويكفى خير دليل حكاية الحمار والمالطى الذى ماطل الحمار فى سداد أجرته فى الاسكندرية سنة ١٨٨٢ وانتهى الأمر بقتل الحمار للمالطى فما كان من انجلترا إلا أن احتلت مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ولمدة ٧٤ عاماً .

ويعتبر الدكتور جوزيف هيربرت زارب أقدم شخصية مالطية وطأت قدماها أرض قناة السويس وأرض بورسعيد فهو من مواليد مالطة ١٨٢٧ وعين منذ ١٨٥٩ بوظيفة رئيس أطباء ديوان الصحة وبعدها التحق بخدمة شركة قنال السويس كطبيب أول.

قام ببناء ڤيلا على أراضى طرح البحر بشارع توفيق (عرابى) وأطلق عليها ڤيلا ايڤون ثم حولها ورثته إلى بنسيون راقى ، قمة فى النظام والنظافة وكان يقدم وجبة الافطار لرواده ويقوم بغسل وكى الملابس لهم وفيه مكتبة لقراءة الكتب والصحف الانجليزية والفرنسية كذا تقديم دروس لتعلم تلك اللغتين وباعتبار أسرة زارب من رعايا الأعداء عام ١٩٥٦ فتم استيلاء الحكومة عليها وتحويلها لادارة للتعويضات للمضارين من جراء الغزو البريطانى الفرنسى .

كما كان لتلك الجالية «نادى المكابى» بشارع عبادى بجوار مستشفى الدلڤراند.

وكانت مقاولات جمع القمامة فى حى الافرنج يتولاها مقاولون ملطيون وينقلوها خارج المدينة فى الجهة الغربية منها ويقومون بتربية الخنازير عليها ويقومون ببيع لحومها للسفن العابرة للقناة وأثروا من وراء ذلك ثراء فاحش .

وكان نادي إيبيس Epise أشهر نواديهم الرياضية وبالأخص كرة القدم وكانت لهم Malta House بشارع دى ليسبس والسلطان عثمان (سعد زغلول والجمهورية) تقام فيه حفلاتهم الخاصة والعامة وهذا خلاف Maltese House الموجود بشارع أوچينى (بجوار سينما ماجستيك) وكان يحتفل فيه بالعيد الوطنى المالطى فى ١٥ أغسطس من كل عام بحضور Mr. Carvana قنصل بريطانيا فى بورسعيد فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين ويمتد الاحتفال بالعيد الوطنى المالطى بكنيسة سانت أوچينى ، وكانت مدام Zammit من أشهر عازفات البيانو التى كانت تقدم كونشرتات موسيقية من معزوفاتهم فى مثل تلك الأعياد .

كما كان لتلك الجالية نادى للتجديف Rowing على الشاطئ الشرقى للقناة بمدينة بور فؤاد ومديره المستر كروانا قنصل بريطانيا . وأشهر العائلات المالطية جرانة (يمتلك توكيل ملاحى) وبودچى (مقاول أشغال كهربائية) وبوهجير المشهور عند أهل بورسعيد بأبوحجر (مقاول أدوات صحية) وڤيللا وبونتشى وسليبد وكانت لهم أملاك فى أرقى مواقع بحى الافرنج.

٢- الهنود :

كانت الهند تعتبر درة التاج البريطانى إلى أن استقلت عن بريطانيا فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وأصبحت جمهورية من ٢٦ يناير ١٩٥٠ وكان الهنود يعملون بحارة على السفن

البريطانية وكانوا يشتغلون بتجارة العطور والمنسوجات الحريرية والتحف المصنوعة من العاج والمشغولات الفضية والأحجار الكريمة وكان أشهر هؤلاء Chellaram , Dialdas وكانت تفوح من محلاتهم أذكى أنواع روائح البخور.

وكان للجالية الهندية نشاط فى استقبال كبار الضيوف الهنود المارين بقناة السويس.

ففى ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ تم استقبال الزعيم الشاب جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر بالهند وذلك عند عودته من لندن عائداً لبلاده (أصبح رئيس وزراء الهند فى الخمسينيات من القرن العشرين وقطب من أقطاب عدم الانحياز) .

ومرور كريشنان مينون سكرتير العلاقات الخارجية الهندية لقناة السويس فى ١٠ مايو ١٩٥١ (أصبح وزيراً للخارجية الهندية أيام الرئيس نهرو) . واستقبال الدكتور Inderjeet Singh الطبيب النفسى الهندى لحضور مؤتمر الطب النفسى فى نيويورك ممثلا عن الهند فى ١٥ مايو ١٩٥١ على الباخرة Corfu واستقبال العديد من مهراجات الأقاليم الهندية كالمهراجا Nabha, Palampour .

وبرع الهنود فى ألعاب الحواة والسحر والشحوذة وكانوا يقومون بعرض فنون حرفتهم المتوارثة والتى لايعرف أسرارها إلا أفراد العائلة على ركاب السفن المارة بالقناة وأشهر هؤلاء الساحر الهندى Alla .

وفى مساء السبت ١٦ ديسمبر وصلت إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Canton التابعة لشركة P& D فرقة الرقص الهندى الشهيرة Darpana . برئاسة الراقصة الشهيرة Mrinalini Sarabhai وتتكون من خمسة عشر راقصاً وعازف موسيقى.

٣- القبارصة :

وهم أبناء جزيرة قبرص وكان أغلبهم يمتلكون الخمارات والبارات والمقاهى .

٤- أبناء عدن والصومال البريطانى فباعتبارهم من أصول عربية فتجمع أغلبهم فى أوائل قرية العرب عند شارع محمد على الحد الفاصل بين مدنيتين المدنية الشرقية والمدنية الغربية.

ومن أشهر العائلات الصومالية عائلة سمنطر وله مسكن كبير يطل على شارع محمد على.

ومن أشهر عائلات أبناء عدن عائلة العدنى وهؤلاء تمصروا بطول الاقامة وانصهروا فى بوتقة المجتمع البورسعيدى .

الجالية الأمريكية

كان تعدادها قليل بالنسبة للجاليات الأجنبية إلا أن لهم نشاطًا فى تجارة المواد البترولية وعلى رأسها شركة شل وڤاكوم سكونى . وتم بناء مستودعات بترولية ضخمة فى منطقة الرسوة جنوب بورسعيد وظهر فى الأفق أهمية تلك التجارة للسفن العابرة للقناة بعد الاستغناء عن الفحم فى تشغيل آلاتها وإحلال الموادالبترولية محلها .

وتبع تلك الشركات نوادى أهمها نادى شركة شل ببورفؤاد ، وفى أغسطس ١٩٤٩ تم عرض فيلم سينمائى بعنوان البترول وأهميته العالمية وقام بالتعليق Mr. Clark بل كان لتلك الجالية نشاط ثقافى ، فتم افتتاح معرض للكتب العلمية التى تصدر بالولايات المتحدة خلال الفترة من ٧-٩ نوفمبر ١٩٤٩ بلوكاندة البيت الحديد .

كما كانت هناك المكتبة الأمريكية بشارع محمود صدقى خلف حديقة الكازينو بالاس وكانت الاستعارة مسموح بها . ومن الأنشطة الثقافية المبكرة للجالية الأمريكية فى بورسعيد مدرسة بنايل للبنات بشارع الغربية (٢٣ يوليو) والغازى مختار وتم افتتاحها سنة ١٨٩٧ وكانت معروفة عند أهل بورسعيد بمدرسة الأمريكان .

وكانت القنصلية الأمريكية تحتل موقعًا ممتازاً على ميناء بورسعيد حيث دأب قنصل أمريكا على استقبال كبار شخصيات بورسعيد فى الأعياد القومية الأمريكية وكان أهم تلك الأعياد عيد الاستقلال فى ٤ يونيو من كل عام ، وكان الاحتفال بمرور ١٧٥ على استقلال أمريكا فى يونيو ١٩٥٠ وكان على رأس المحتفلين قنصل أمريكا M. Johnson كذا الاحتفال بذكرى ميلاد جورج واشنطون . واستلم قنصل أمريكا هدية الرئيس الأمريكى هارى ترومان للملك فاروق بمناسبة زواجه وهى عبارة عن ڤازة نادرة ، وقد وصلت الهدية على الباخرة President Arthur فى ٢٧ مايو ١٩٥١ . وتم إطلاق اسم أمريكا على الشارع الذى يلى شارع الميناء وترسل المجلة الشهيرة مندوبها المصور Joseph Baylor Robert فى ٢١ مايو ١٩٥١ وهى مجلة National Geographio Magazin ليعد موضوعا مصوراً عن مدينة بورسعيد ومينائها .

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى أرسلت الولايات المتحدة الأمريكي بأساطيلها البحرية لمساندة انجلترا وفرنسا حيث قامت بدوريات فى القناة من الشمال حتى الجنوب وأهم تلك القطع البحرية .

Illinois , Kansas, Rhode Island, Lovsiana, Virginia, Connecticut, Kentucky, Wisconsin.

الرعايا الألمان

وكانوا قلة فى بورسعيد إلا أنه كان لهم تمثيل قنصلى فى بورسعيد، فالقنصلية الألمانية كانت فى عمارة محمد حسنين بك لهيطة- المطلة على الميناء وبها شركة الفحومات الألمانية .

وفى سنة ١٨٩٠م هرع الرعايا الألمان لتحية السفينة القيصر ويلهام العابرة للقناة.

وكانت تجارة البيرة فى يد الألمان وكان أشهر محلاتهم بميدان دى ليسبس (ميدان المنشية أو سعد زغلول حاليًا) بمنزل أحد اليونانيين ويدعى مانولى استماتيو (قبطان بشركة قناة السويس فى أوائل القرن العشرين) .

وقد تأثرت أملاك وأموال الرعايا الألمان بقيام الحربين فتم تعيين حارس عليها لحين انتهاء الحرب فخلال الحرب العالمية الثانية تم تعيين الأستاذ محمد السيد سرحان (والد المحافظ السيد سرحان) وعضو مجلس النواب عن الحزب السعدى حارسا على أموال الرعايا الألمان فى بورسعيد ١٩٣٩ لامانته ونزاهته . وفى يونيو ١٩٥٢ وصل أول سفير لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لميناء بورسعيد الهرفون Henting .

الرعايا الايرانيون

ويطلق عليهم أهل بورسعيد العجم ، وقد اشتهروا بتجارة السجاد وكان أشهر محلات هؤلاء أحمد يزدى بشارع السلطان عثمان (الجمهورية حاليًا) ومن أولاده أشهر أطباء بورسعيد فى الخمسينيات روشن يزدى إلا أنه رحل إلى خارج البلاد بعد عدوان يونيو ١٩٥٦ وشغل أحمد بك يزدى منصب قنصل ايران فى بورسعيد.

وفى يونيو ١٩٥١ تم تأسيس شركة مصرية ايرانية فى بورسعيد للتصدير والاستيراد ومقرها بشارع أوجينى (صفية زغلول) بالقرب من شارع فؤاد (الجمهورية) بملك اليونانى الياديس من الشركاء ميرزا أسد الدين شيرازى ومحمد جمال الدين شيرازى (ايرانيان) وعبد المنعم عبد الرازق حجاب (مصرى) .

الجالية النمساوية

أول نمساوى يصل لبورسعيد كان Albert Cohen ولمزيد من التفاصيل عنه نرجع إلى المرجع اليونانى ذكريات وأحداث عن مدينة بورسعيد لديمتريوس خالدويس المطبوع فى مطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ ، ص٥٢ ، ٥٣ ، وفى ذات الوقت سوف نرى من السرد كيف كانت المشقة التى يتحملها الأجانب المعدمين فى الوصول لميناء بورسعيد ويعيشون معيشة بسيطة ثم ينتهى بهم الأمر إلى تمليكهم كبريات المؤسسات الاقتصادية التى تدر عليهم دخلاً عظيمًا يستثمروه فى تملك العقارات فى البقع الهامة من بورسعيد .

«ألبرت كوهين ... اتذكر ما أخبرونى عنه أنه يهودى نمساوى وصل فى شبابه إلى مناطق الحفر فى بورسعيد سنة ١٨٦٢ عن طريق ميناء تريستا الايطالى وكان السفر بالبحر شاق فى تلك الأيام ويتحمل المسافر مصاعب كثيرة فى رحلة قطعها الوابور فى عشرين يومًا وبوصوله رسى الوابور أمام الشاطئ لأن ميناء بورسعيد لم يكن معد لاستقبال السفن وأنزل ركابه القلائل عن طريق أقفاص إلى الفلايك المنتظرة لنقلهم لشاطئ بورسعيد ، ولما كان ألبرت كوهين قد نال قسطًا من التعليم ويجيد عدة لغات فقد عينه دى ليسبس كمحاسب فى شركة قنال السويس وأصبح من المقربين له وخلال عمله هذا كسب مكاسب كثيرة من الفرنسيين وكان له الفضل فى تأسيس شركة اللويدز النمساوية فى بورسعيد وتولى منصب قنصل النمسا فى بورسعيد وساعد كثير من النمساوين والحقهم بالعمل فى شركة قنال السويس وبالأخص كمرشدين وبحارة بجوار اليونانيين أبناء جزيرة كاسوس والجزر اليونانية الأخرى . كما أشتهر النمساويون بأنهم فنيون فى الأعمال الدقيقة ، لقد عاش البرت كوهين طيلة السبع سنوات الأولى وحتى افتتاح القناة داخل الخيام مع زوجته كباقى موظفى شركة القنال من الأوربيين وكثيراً ما كان يسهر الليالى خوفًا من الفئران الكبيرة وحيوان النمس المنتشرة فى البقع الصحراوية فى مناطق الحفر .

ورغم أنه توفى شابًا عن سن ٥٤ سنة إلا أنه ترك أبناءاً ناجحين أعرف منهم إبنه Mario Cohen الذى عمل مديراً بالشركة الملاحية الكبرى Worms لمدة ستة وأربعين سنة أما إبنه الثانى Joseph Cohen فقد عمل بالتجارة وشريك فى الشركات الملاحية أما ابنته البكر Eugenie فتعتبر أول أوروبية تولد فى صحراء منطقة القنال سنة ١٨٦٣ وتم تعميدها بالكنيسة الخشبية التى بناها دى ليسبس وشهود التعميد اثنين من مديرى شركة القنال إلا

أنها توفيت بعد ٣ و ٤ سنوات من ولادتها لاصابتها بالدستاريا ...» إلى هنا انتهى كلام وسرد خالدوبيس . ومن عائلة كوهين أحد مديرى بنك كريدى ليونيه سنة ١٨٩١ وهو Elie Cohen لقد عاصر البيركوهين حفلات افتتاح قناة السويس واشتراك امبراطور النمسا والمجر Franz Josef الذى أطلق اسمه على أهم شوارع بورسعيد المطل على ميناء بورسعيد مباشرة ، وبقيام الحرب العالمية الأولى وبجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة ١٩ يونيو ١٩١٥ تم اطلاق اسم السلطان حسين كامل على هذا الشارع لاشتراك النمسا مع ألمانيا فى الحرب.

ويمتاز النمساويون بالهدوء وحب الفنون وبالأخص الموسيقى ، وكان للجالية النمساوية ممثل بمجلس بلدى بورسعيد Emilo Pavievich ومثلهم عن المدة من الرابع من مايو ١٩١٢ حتى السابع من يوليو ١٩٢٣ حيث عين بعدها كوزير روسيا المفوض فى بورسعيد ثم قنصلاً للمجر.

والمسيو امليو باڤيڤتشى ولد أساساً فى يوغسلافيا وقدم لبورسعيد سنة ١٨٨٤م وتخصص فى تجارة الاخشاب وكون من ورائها ثروة طائلة استثمرها فى بناء العمارات الشاهقة .

واستقبلت الجالية النمساوية فى أول يناير ١٩٥٢ الصحفى النمساوى الشهير الدكتور Adam Wamdruzka موفد من جريدة Die Press فى زيارة رسمية لمصر .

الجالية اليهودية

وهى تنقسم إلى قسمين يهود شرقيين ويهود غربيين، فاليهود الشرقيون احتلوا تجمعاً فى القسم الجنوبى الغربى لحى الافرنج المتاخم لقرية العرب، عرف هذا التجمع بحارة اليهود وكانت حارتان لليهود.

١- حارة اليهود القديمة متمركزة بشارع التجارة (النهضة) بالقرب من شارع محمد على حيث بنى فيها أقدم معبد يهودى أطلق عليه معبد سوكات شالوم قام ببنائه التاجر العدنى اليهودى مناحم مدشا بتقاطع شارع النهضة والمشرق وأهداه لجمعية التوراة الاسرائيلية، كان لها مقر بشارع النيل (القسم الشمالى فى شارع الجمهورية) ثم تحول هذا المعبد لليهود الإسبان بعد بناء معبد جديد لليهود.

٢- حارة اليهود الجديدة بشارع أوجينى بالقرب من محمد على وشارع الوكيل الذى يتقاطعه مع شارع أفريقيا ، قام تاجر البفتة والكتان Bennin عدنى يهودى ببناء معبد Mo-cheh Ohiel سنة ١٩١١ والحق بجواره مدرسة لليهود واعد فوقها منزل للحاخام .

وكان اليهود الشرقيون أغلبهم تجاراً للذهب والفضة والمصنوعات بشارع السلطان عبد العزيز (التجارى حاليًا) وكانوا مشهورين باقراض المعوزين نظير رهن مصاغهم وآنيتهم النحاسية بفوائد عالية أو ما يعرف عند أهل بورسعيد (الفايظ)، وأشهر الجواهرجية اليهود داڤيد راحمين وشالوم منصور وسليم مناحم، أما نسيم باروخ فكان تاجر سجاد من ايران وعميد الجالية اليهودية لجبير ليقى (لليهود الشرقيين).

أما اليهود الغربيون فكانوا ذو ثراء فاحش ومنتشرين داخل حى الافرنج وأغنى هؤلاء Benderli (يهودى ايطالى) أسس مع ماكس موشلى (يهودى فلسطينى) أكبر تجمع تجارى فى الشرق الأوسط Simon Arzt سنة ١٨٦٩ وهو يطل على القناة مباشرة على رصيف فرانسوا جوزيف (شارع فلسطين حاليًا) وكان السواح من ركاب البواخر يرتادونه فيجدون فيه صالون الحلاقة وقسم لتصليح الساعات وقسم لأدوات التصوير وتحميض الأفلام وقسم لمسح الأحذية.

وكان اليهود الغربيون أصحاب توكيلات ملاحية ومكاتب لخدمات البواخر بحى الافرنج ومديرى المحلات الكبرى لحنكتهم التجارية فكان David Costi مدير لأشهر المحلات Etam بشارع التجارة (النهضة) وأهم نواديهم نادى الشبيبة اليهودية بشارع صلاح الدين وتوفيق (عرابى) ورئيسه الفخرى عميد الجالية اليهودية (من الغربيين) Arone Gourevitch وكان يمتلك مطبعة كبيرة بشارع محمد محمود. أما رئيسه الادارى E. Rozanes وأشهر أعضائه Robpert Arie و E. Azori وكان مشهور عن هذا النادى ألعاب القمار والبريدج حفل للبوريم.

وكان الدكتور Carmn من أشهر أطبائهم فى بورسعيد.

وأهم جمعياتهم بجانب جمعية التوراة السابق ذكرها كان هناك جمعية أخرى باسم هرزاليا.

وكانت لهم مقابرهم الخاصة فى أقصى غرب المدينة.

وبعد قيام حرل فلسطين سنة ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل ومن بعدها قيام ثورة يوليو المباركة سنة ١٩٥٢ بدأ رحيل كثير من يهود مصر خارجها، أما وجودهم بعد حرب سنة ١٩٥٦ يكاد يكون معدوما.

مراجع البحث

١- موسوعة تاريخ بورسعيد جزء أول جزء ثانى

إعداد / ضياء الدين حسن القاضى

٢- محاضر مجلس بلدى بورسعيد

٣- جريدة Progres Egyptien (صباحية)

جريدة Bourse Egyptienne (مسائية)

من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٢ مقالات الأستاذ كمال مروان مراسليها فى بورسعيد وكان ينشر فيها الأحداث التى تهم الجاليات الأجنبية فى بورسعيد وأصبح عضو مجلس أمة فى أول مجلس نيابى بعد قيام الثورة وتم انتخابه فى يونيو ١٩٥٧ .

٤- بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩- ١٨٨٢) الدكتور زين العابدين شمس الدين نجم .

٥- مدن القنال فؤاد رفج

٦-٦ الأطلس التاريخى لبطولها شعب بورسعيد سنة ١٩٥٦ .

دكتور مقلاتى عبدالله *

موقف المغرب من دعم الثورة الجزائرية

١٩٥٤ - ١٩٥٨

إن اندلاع الثورة الجزائرية الذى جاء بعد انتشار المقاومة المغربية وتطور المشكل المغربى أعاد من جديد مسألة خلق جبهة كفاح موحدة تحقق طموح الوطنيين بالقطرين الشقيقين وهو ما تجسد سنة ١٩٥٥ بالتحام المقاومتين الجزائرية والمغربية ، وإنشاء لجنة تنسيق بينهما كان لها تأثير فى تجسيد الاستقلال المغربى، وأمام ذلك لجأت الإدارة الفرنسية للاتفاق مع القيادة المغربية على مشروع الاستقلال الصورى الذي تم بموجبه عودة الملك محمد الخامس من منفاه وحصول المغرب على استقلاله ، وتفرغت الحكومة الفرنسية بعدها لإخماد الثورة الجزائرية وعزلها عن الدعم الذى تلقاه من المغرب وتونس، وانتهجت سياسة التعاون لكسب موقف البلدين لأطروحة الجزائر الفرنسية.

وأمام المواقف الصعبة التى واجهتها الحركة الوطنية المغاربية وتزايد الاهتمامات القطرية الضاغطة للحكومة المغربية فإن القضية الجزائرية ستلقى اهتماما سياسيا ومساندة شعبية وستفرض تأثيراتها المباشرة على المغرب حكومة وشعبا ، وعلى طبيعة العلاقات الفرنسية المغربية التى ستواجه تأزما بسبب المشكل الجزائرى ، وستعمل جبهة التحرير الوطنى للاستفادة قدر الإمكان من الاستقلال المغربى لتفعيل نشاطاتها ودعم الكفاح التحررى انطلاقا من الأراضى المغربية، ووجدت نفسها فى مواجهة مواقف مغربية متباينة فى مساندة الثورة الجزائرية يمكن أن نميز فيها ثلاثة قوى ظهرت خلال الفترة المدروسة وهى :

- حركة المقاومة المغربية التى أكدت تدعمها للثورة الجزائرية وضرورة استكمال السيادة المغربية.

---

* قسم التاريخ ، جامعة ادرار .

- الحكومة المغربية مشكلة من حزب الاستقلال وإلى تيارات سياسية أخرى وعناصر موالية للقصر، أكدت على مؤازرتها للثورة الجزائرية فى إطار اهتمامها بالمسائل القطرية.

- القصر ممثلا فى الملك محمد الخامس وولى عهده الأمير الحسن، وقد عبر عن دعمه المادى والمعنوى للجزائر كلما سمحت الظروف[١].

وهذه القوى المتباينة والمرتبطة بمصالح وضغوط جعلت من مهمة دعم الثورة الجزائرية صعبة ومتباينة ، وذلك فى وقت أكد فيه تواصل الحرب الجزائرية واستمرار العدوان الفرنسى وضغوطه المستمرة على المغرب اندماج القضية الجزائرية ضمن التصور المغربى الذى ربط بين قضية استقلال الجزائر ومسألة استكمال السيادة المغربية وتحقيق الوحدة المغاربية ، وعليه فإن الموقف المغربى الرسمى سيكون له دور متميز فى التفاعل مع القضية الجزائرية ودعم الثورة الجزائرية ماديا ومعنويا ، وهو ما سنحاول تبينه وتحديد مستوياته على ضوء علاقات الثورة الجزائرية مع المغرب وتوسع حدود نشاطاتها السياسية والعسكرية.

أولا : استقلال المغرب ومطلب دعم الثورة الجزائرية

شكل المغرب موقعا استراتيجيا للثورة الجزائرية بحكم الجوار الجغرافى، ذلك أن طول الواجهة الحدودية ووضعية الكفاح المغربى سمحت للثوار الجزائريين اعتماد قواعد خلفية لها بالحدود المغربية وكسب التضامن الشعبى ، كما أن حزب الاستقلال المغربى أعرب عن مساندته للثورة الجزائرية على لسان زعيمه علال الفاسى[٢]، الذى كانت له اتصالات وتنسيق مع قادة جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة ، وتبنى فكرة وحدة الكفاح المغربى الجزائرى[٣] قبل أن يتحقق استقلال المغرب، ومن جهة أخرى أعلن عبد الكريم الخطابى[٤] رئيس لجنة تحرير المغرب العربى مباركته للثورة الجزائرية ورفضه لما آلت إليه الاتصالات الفرنسية المغربية ، داعيا المقاومة المغربية إلى مواصلة الكفاح ومعاضدة الأخوة الجزائريين ، وكان يرى فى قبول الملك محمد الخامس لاتفاقية (أكس - ليبان) طعنة لكفاح شعوب المغرب، وأنه لايمكن أن تنتصر الجزائر وأن تستقل إلا بشمولية الكفاح المسلح كامل الشمال الإفريقى وإزاحة محمد الخامس عن عرش المغرب [٥]، وكان هذا الموقف بقدر ما يعبر عن طموحات شخصية ونزوة خاصة للزعامة فإنه يثير حماس المغاربة ويؤجج ضراوة المقاومة المغربية ، فضلا أنه يشكل دعما سياسيا للقضية الجزائرية.

لكن مواقف المساندة التى كانت تتلقاها جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة من قادة الحركة الوطنية المغربية لم تكن تعبر عن واقع ما آل إليه الوضع الداخلى للمغرب الأقصى، لأن حزب الاستقلال المغربى وفى غياب زعيمه وتطور الوضع السياسى وافق على الخطوط الأولى لاستقلال المغرب عن طريق المفاوضات ، وأعلن وقوفه إلى جانب الملك ودعا حركة المقاومة إلى توقيف نشاطها الثورى، ولاشك أن نفوذ الحزب بالداخل وتأثير قيادته المحلية جعله يتخلى عن خيار الكفاح المسلح وتنسيق العمل المغاربى المشترك، واهتم أكثر بصوغ أهدافه المرحلية، وهى المشاركة فى السلطة وتحقيق الاستقلال القطرى بأقل الخسائر الممكنة ، لذا فعندما انعقد المؤتمر الاستثنائى لحزب الاستقلال فى ديسمبر ١٩٥٥ لم يتخذ أى موقف بخصوص الجزائر وكرس اهتماماته بالمسائل الوطنية والتنظيم الداخلي للبلاد [٦]، وكان لاتجاه الأمين العام للحزب أحمد بلافريج والقادة المفاوضين تأثير كبير فى ربط مصير الحزب بتوجهات القصر وتحييد التوجهات الوحدوية التى ينادى بها الفاسى والخطابى، فأصبح التوجه الجديد لحزب الاستقلال يفرض حياد المغرب وقطع تنسيق حركة المقاومة المغربية مع الثورة الجزائرية ، وذلك فى وقت كانت جبهة التحرير الوطنى تطمح لمواصلة تنسيق العمل المشترك خاصة فى تمرير الأسلحة وتخفيف ضغط القوات الفرنسية وإتاحة الفرصة للاستفادة من المناطق الشمالية المغربية [٧]، غير أن ضغوط حزب الاستقلال على عناصر المقاومة المغربية جعلت إمكانية الاستفادة من تأييدهم تضمحل شيئا فشيئا حسب ما أكده مسؤول جبهة التحرير الوطنى بالمغرب الطيب الثعالبى[٨]. «لقد ظهر لنا من خلال اتصالاتنا بقيادات المقاومة المغربية أن بوادر شكوك ظهرت لدى حزب الاستقلال من إمكانية الالتحام بين المقاومة المغربية والثورة الجزائرية ذلك الالتحام الذى يفوت على قيادة الحزب الوصول إلى التفاوض مع فرنسا لإيقاف الحرب . وهكذا استطاع حزب الاستقلال أن يفصل بيننا وبين عناصر المقاومة الذين كانوا يتعاونون معنا »[٩].

لقد دعا حزب الاستقلال والحكومة المغربية إلى إيقاف القتال لكن عناصر المقاومة وجيش التحرير المغربى أبدت تحفظاتها وأكدت مواصلة دعمها للثورة الجزائرية ، إذ لم يكن بمقدورها التنصل من التزاماتها المغاربية وإيقاف جهود التنسيق التى باشرتها مع الكفاح الجزائرى، وكان القرار السياسى حازما بعد استقلال المغرب مما اضطر بعض عناصر المقاومة للانضمام إلى جيش التحرير الجزائرى ، وشكل قادة المقاومة بعد انتقالهم إلى الجنوب المغربى عامل ضغط

على الحكومة المغربية بضرورة مواصلة دعم الجزائريين[١٠]، وبذلك استمرت العلاقات بين جيش التحرير الوطنى ورجال المقاومة المغربية ، واستمرت الولاية الخامسة فى الاستفادة من نفوذها بمناطق الريف المغربية لتمرير الأسلحة وتركيز وحدات جيش التحرير واستقبال اللاجئين ، وظلت مناطق الريف مراكز حيوية للجزائريين إثر توسع سلطة الجيش المغربى بها، خاصة وأن تجربة الكفاح المشترك أرست تضامن الشعب المغربى واستمرارية الدعم والمساندة المقدمة للثورة الجزائرية كما يؤكد عبد الحفيظ بوصوف ، وفى الوقت نفسه أوضح هذا الأخير أن بعض الشكوك تحوم حول مدى تعاون السلطة المغربية وأن هناك مواقف سلبية لبعض العناصر الموالية للاستعمار [١١].

إن سياسة التعاون التى انتهجتها فرنسا مع الملك محمد الخامس كانت تهدف إلى تحييد المغرب وقطع مساعداته للثورة الجزائرية ، وأكدت ذلك بإبقائها لقواتها العسكرية فى المغرب ولنفوذها السياسى والاقتصادى، ولكن استمرار ثورة الجزائر وتركها وحيدة تواجه الاستعمار الفرنسى ليس بالإمكان الاحتراز منه بحكم الروابط والمصالح المشتركة للمنطقة وامتداد نفوذ الثورة الجزائرية داخل المغرب وحجم التجاوب الشعبى معها [١٢]، وهذا ما جعل النظام المغربى يصطدم مع بداية الاستقلال بالموقف الفرنسى المتشدد بخصوص الجزائر، وبالمطالب الجزائرية لدعم الثورة التحريرية .

ولم ييأس مسؤولو جبهة التحرير الوطنى من السياسة الفرنسية التى ولدت استقلال المغرب وحزمت أمرها لعزل الثورة الجزائرية ، فمن الناحية السياسية بات من المستحيل حرمان الجزائر مما حصلت عليه جارتاها ومن جهة أخرى أصبحت الجزائر تواجه لوحدها قوة التكالب الاستعمارى ، غير أنه كان بالإمكان الاستفادة من الوضع الجديد، وتحقيق مكاسب للجزائر تكون أكثر فعالية إذا ما قورنت باستعدادات رسمية لدعم وتسهيل نشاط الثورة بالقواعد الخلفية ، إذا لم تعد الرقابة الفرنسية تشكل خطرا كبيرا كما فى السابق [١٣]، وأبدى المسؤولون المغربيون استعدادهم لذلك، وقد دلت الاتصالات الأولى التى هيأها عبان رمضان مع الملك محمد الخامس عن إمكانية الاستفادة من الاستقلال المغربى [١٤]، وكلف الشيخ خير الدين فى سنة ١٩٥٦ بالإشراف على النشاط السياسى لجبهة التحرير الوطنى ومؤازرة جهود بالصوف فى تمكين نشاط الثورة بالمغرب .

إن التجربة المريرة التى عايشها الملك محمد الخامس فى مجابهة الاستعمار ومواقفه

التضامنية وإيمانه بحتمية الوحدة والمصير المشترك جعلته منذ البداية يعرب عن تضامنه مع الثورة الجزائرية ، ويؤكد على دعمها بشكل سرى حفاظا على علاقات التعاون مع الحكومة الفرنسية، وقد التزم بالبحث عن حلول سلمية للمشكل الجزائرى إيمانا منه أن مصير الشعب الجزائرى هو الاستقلال ، وأدى اهتمامه بالقضية الجزائرية إلى عقد عدة اتصالات مع قادة جبهة التحرير الوطنى، فقد طلب من بوصوف تهيئة اجتماع مع مسؤولى الجبهة بالخارج للتشاور معهم فى القضايا التى تهم الثورة (١٥)، وذكر أحمد بن بلة أنه ذهب لمقابلة محمد الخامس بمدريد فى أبريل ١٩٥٦، وأن اللقاء كان فى منتهى الصراحة ، ووجد الملك مهتما بالقضية الجزائرية وعواقب إيقاف القتال بالمغرب على الثورة الجزائرية ، وقال بن بلة بخصوص نتائج اللقاء : «انتهت محادثاتنا بنتائج هامة، لقد وعدنا محمد الخامس فى غيبة المساعدة العسكرية المباشرة بمساعدات كبرى لقد أعطانا فيما أعطانا تأكيدا بأن تكون الحدود المغربية فى كل لحظة بالنسبة لنا حدودا صديقة وممكنة العبور دخولا وخروجا للأسلحة والرجال »(١٦). وكانت رغبة الملك من خلال هذا اللقاء الاطلاع على مواقف الجزائريين ومطالبهم وإمكانية تقديم مساعدات سرية وتسهيلات غير معلنة، وذلك حتى لاتثير انتباه الفرنسيين ولاتسبب مشاكل لسياسة التكافل التى تسير وفقها العلاقات الفرنسية المغربية.

وإن تخلى حزب الاستقلال عن مبادئ التعاون المغاربى المشترك وانصياع عناصر جيش التحرير المغربى مرغمين للتعاون مع السلطات المغربية جعل جبهة التحرير الوطنى تقرر خلال مؤتمر الصومام تغيير استراتيجية علاقاتها المغربية ، وقد تأكد لها أن حصول الاستقلال المغربى جاء نتيجة للتغير المفاجئ فى السياسة الفرنسية الهادفة إلى «منع تكوين جبهة ثانية حقيقية لإنهاء الاتحاد بين الكفاح المسلح فى الريف بالمغرب وفى الجزائر» ، ولكن قوة التضامن الشعبى للشمال الإفريقى فرضت على قادة البلدين الشقيقين تونس والمغرب الوقوف إلى جانب القضية الجزائرية المندمجة فى القضيتين المغربية والتونسية ولن يكون هناك فى نظرها أى معنى لاستقلال المغرب وتونس ما دامت الجزائر لاتزال مستعمرة(١٧). وتأكدت هذه الحقائق باقتناع شعوب المغرب العربى بأن الكفاح المشتت ضد عدو مشترك مآله الفشل ، وقد بدى لبعض قادة حزب الاستقلال أن الاستقلال المغربى المتوصل إليه لايزال ناقصا وأن المعركة لاتزال مستمرة ، وشكلت هذه المواقف بتأثيرها الشعبى والسياسى ضغوطا على الحكومة المغربية لإبداء تضامنها مع القضية الجزائرية (١٨).

ثانيا : محمد الخامس ودوره فى تكريس الدعم للثورة الجزائرية

أكد الملك محمد الخامس انشغاله بتطور المشكل الجزائرى وأوضح أن الجزائر ستبقى مشكلة الشمال الأفريقى ومحل اهتمام المغرب إلى أن تجد لها فرنسا حلا عادلا ، وأبدى استعداد بلاده للمساهمة فى إيجاد حل سلمى وتقريب وجهات النظر بين طرفى النزاع الفرنسى والجزائرى ، وكان الملك محمد الخامس باتجاهه المسالم للسلطات الفرنسية يسعى لتحقيق الاستقرار والتعاون وفى نفس الوقت يقدم دعمه للمسؤولين الجزائريين وتضامنه مع الشعب الجزائرى ، وذلك فى غياب التأييد المباشر لأهداف ومبادئ جبهة التحرير الوطنى نتيجة بعض الاختلافات الايديولوجية ، وقد أكد بأن المساعدة التى يمكن أن يؤديها المغرب المستقل هى أن يساعد على إيجاد حل للقضية الجزائرية ، وأن أفضل خدمة يمكن أن يؤديها للجزائريين ولفرنسا هى أن يساعد على تسوية المشكلة الجزائرية بوساطته [١٩]، ولم يستكن ولم يهدأ له بال رغم أن فرنسا ظلت متحفظة على مواقفها باعتبارها القضية الجزائرية شأنا فرنسيا داخليا.

وانتهجت جبهة التحرير الوطنى سياسة التقارب والتحالف مع المغرب للحصول على تعاون ودعم السلطات المغربية، وقوبلت من المغرب حكومة وملكا بمواقف إيجابية، فقد نددت الحكومة المغربية بسياسة القمع والاضطهاد الفرنسية بالجزائر ودعت إلى وضع حد لإراقة الدماء ، وإلى حل القضية الجزائرية سلميا [٢٠]، كما استنكر محمد الخامس تواصل الاضطهاد الذى يتعرض له الجزائريون ، وأكد أن مشكلة الجزائر تقف عائقا أمام سياسة التعاون المغربية-الفرنسية قائلا : «إنى أجد نفسى مضطرا إلى أن أقول لكم بأن كل ما نحاوله من مفاهمة مع فرنسا سوف يكون ضعيفا ولا أساس له ما دام الوضع الراهن بالجزائر»، وطالب الملك بإيجاد حل سلمى للمشكل الجزائرى يحقن الدماء ويحد من اضطهاد الشعب الجزائرى، وأوضح أن الاحتراز والحياد الذى تطلبه فرنسا من المغرب لايمكن تحقيقه لأن الشعب المغربى لايمكنه السكوت عما يطال الشعب الجزائرى من اضطهاد وتعسف [٢١].

وقد ارتكز التوجه السياسى للملك أساسا على إيثار الحلو السلمية وأكد بذلك على ضرورة التوصل إلى حل سياسى بدل الخيار العسكرى الذى يتوجب إيقافه ، ومن هذه الوجهة فهو يلتقى مع نظرة بور قيبة لكنه يتحفظ عن تقديم مشروع جاهز أو برنامج لحل المشكلة الجزائرية، فقد أوضح أن مهمته ومساعيه تكمن فى تقريب وجهات النظر بين فرنسا وجبهة التحرير

الوطني دون التدخل في شؤون الجزائريين . وفي هذا الإطار كانت اتصالاته حثيثة مع المسؤولين الجزائريين خاصة بعد أن أبدت حكومة غي موليه ليونة في موقفها وأرسلت مبعوثيها للقيام بمشاورات مع مسؤولي جبهة التحرير الوطني، فأعرب الملك عن أمله في وضع حد لحرب الجزائر، وأكد ذلك في خطابه التاريخي بوجدة في سبتمبر ١٩٥٦م، إذ أشار إلى إمكانية حل المشكل الجزائري والتوصل إلى تسوية سلمية بدل سياسة الاضطهاد والدماء ، وأنه : «يمكن من بناء علاقات قوية بين الطرفين قوامها تلبية مطامح الشعب الجزائري في الحرية واحترام المصالح العليا لفرنسا وضمان مصالح الفرنسيين ...»[٢٢] وبادر محمد الخامس إثر هذا الخطاب للإعلان عن مساندة حكومته ووقوفها إلى جانب القضية الجزائرية في الأمم المتحدة ، وأرسل الأمير الحسن مبعوثا شخصيا له لإطلاع الحكومة الفرنسية على انشغالات بلاده بخصوص المسألة الجزائرية ، والتعرف على الموقف الفرنسي وحدود تنازلاته ليتمكن من تقريب وجهات نظر الطرفين الفرنسي والجزائري .

وإثر التعرف على مدى استعدادات الحكومة الفرنسية للتفاوض اتصل بقادة جبهة التحرير الوطني المجتمعين في مدريد ، وكانوا بدورهم يرغبون في إطلاع مسؤولي البلدين تونس والمغرب بعروض المباحثات الفرنسية ، وبحث سبل التنسيق معهما في إطار التضامن الشمال الإفريقي، فلبوا دعوة محمد الخامس لزيارة المغرب قبل التوجه إلى عقد ندوة تونس المقررة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦، واستقبل مسؤولو جبهة التحرير الوطني رسميا من قبل الملك، وأجروا معه مشاورات قبل موعد مؤتمر تونس ، وقد أثارت مواقف التأييد الرسمية هذه السلطات الفرنسية بالجزائر ، وأظهرت حكومة غي موليه تحفظاتها من هذه الاقتبالات التي قوبل بها الجزائريون في الرباط [٢٣]، ولكن مبدأ الاتصالات الموافق عليه من طرف الحكومة الفرنسية جعل الملك محمد الخامس يعتقد أن جهود الوساطة التي سيباشرها رفقة الرئيس بورقيبة والقادة الجزائريين في تونس أمر يستحق التشجيع ويساعد على بناء علاقات تعاون بين فرنسا والشمال الأفريقي ، وهذا ما تأكد منه الأمير الحسن وبورقيبة في باريس، وهذه الجهود كلها تعرضت لعرقلة خطيرة بعملية القرصنة الفرنسية للطائرة المغربية المقلة للزعماء الجزائريين يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ ، وترتب عن ذلك عواقب حادة ليس على الجزائريين فحسب بل على كامل الشمال الأفريقي ، إذ أثارت ردود استنكار المغرب ملكا وشعبا فضلا على أنها وضعت حدا لمساعي الحلول السلمية للمشكل الجزائري [٢٤]، فقد أثارت حادثة اختطاف زعماء جبهة

التحرير الوطنى بهذه الطريقة البوليسية استياء عميقا فى المغرب وأعلن الملك محمد الخامس من تونس أن عملية الاختطاف هى بمثابة تهجم مباشر على المغرب، وخرقا لجميع المواثيق المبرمة مع فرنسا ، وطالب بإطلاق سراح المختطفين وإعادتهم دون قيد ولاشرط، وفور عودته إلى المغرب قام باستدعاء السفير المغربى بباريس وقطع العلاقات الديبلوماسية مع فرنسا، وهدد برفع القضية رسميا إلى محكمة العدل الدولية فى حالة عدم إذعان فرنسا لإطلاق سراح المختطفين (٢٥).

وكان رد الفعل الشعبى أوليا ومؤلما، وذلك تعبيرا عن التهجم الذى تعرضت له بلادهم والطعنة التى وجهت لضيوف الملك، وأدى السخط الشعبى الذى لم تستطع الحكومة المغربية التحكم فيه إلى قيام إضراب عام ومظاهرات عنيفة صبت جام غضبها على الوجود الفرنسى بالمغرب ، فأتلفت ممتلكات الفرنسيين وبطشت بأعداد من المستوطنين ، وأصدر حزب الاستقلال والمنظمات الشعبية لوائح تعبر عن استيائها من عملية اختطاف الزعماء الجزائريين وتطلب بإطلاق سراحهم (٢٦)، ودلت ردود الفعل الرسمية وصيحات الغضب الشعبية على استنكار الاستفزازات الفرنسية المرتكبة ضد الجزائريين والمغربيين، وعلى التضامن اللامحدود مع كفاح الشعب الجزائرى (٢٧)، وتأكد لدى جبهة التحرير الوطنى أن حادثة الاختطاف أبانت عن حقيقة السياسة الفرنسية بالجزائر ، وفرضت أكثر مما مضى مساندة المغرب حكومة وشعبا لكفاح الجزائر ودخول الشمال الإفريقى ميدان الكفاح الجزائرى بصورة مباشرة ، وقد صرح الملك محمد الخامس بما يؤكد على نكسة العلاقات الفرنسية - المغربية مشيرا إلى أن عملية الاختطاف هذه تعد طعنة أكثر خطورة بالنسبة لشرفه من حادثة تنحيته عن العرش، وأنها صفعة أخرى وجهتها له الصداقة الفرنسية وليس بالإمكان إصلاح ما أفسدته فرنسا فقد وسعت الهوة بينها وبين الشمال الأفريقى (٢٨).

وبذلك أعطت هذه الحادثة لتطور المشكل الجزائرى طابع التشدد وانعدام الثقة بدل الاعتدال والمصالحة التى كان يمكن لمؤتمر تونس المغاربى أن يساهم بها، ولم تتأكد وجهة جبهة التحرير الوطنى فحسب بل تدعمت بموقف الرافضين لسياسة التعاون مع فرنسا والداعين لمساندة الثورة الجزائرية ، لأنهم اقتنعوا بأن مصير استقلال المغرب مرتبط بمصير الجزائر أكثر مما هو مرتبط بالمواثيق المبرمة مع فرنسا (٢٩)، وقد أكد أحد قادة جيش التحرير المغربى هذه الحقيقة بقوله: «دعونا الجزائريين لندوة تونس التاريخية لنلقنهم دروسا، لكن انقلب الأمر فالجزائريون هم

الذين أعطوا دروسا للمغاربة والتونسيين، لقد كنا نقول لهم كيف لاتتهيأون لفعل السلم مع فرنسا والآن هم يقولون لنا ماذا يمثل الاستقلال الذى تزعمون أنكم أحرزتم عليه فالعالم أصبح يعرف أنه لا توجد قضية الجزائر أو تونس أو مراكش بل هناك المغرب العربى سنكون جميعا مستقلين أو نكون جميعا فى حرب »[٣٠].

لقد اجتهدت جبهة التحرير الوطنى فى الاستفادة من طاقات التأييد والمساندة التى فجرتها هذه الحادثة، وإن كانت تدرك أن مواقف الحكومة المغربية ستكون لصالح التضامن مع الجزائر إلا أن سياستها التعاونية مع فرنسا ستؤكد أكثر حضور الاهتمامات الوطنية. الأمر الذى جعل جبهة التحرير الوطنى تنتهج استراتيجية جديدة تهدف إلى تفعيل التضامن الشعبى من جهة وإلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الدعم الرسمى، وتحسين العلاقات مع السلطات الرسمية ما دام أن إمكانية الدعم المباشر للكفاح المسلح لم تعد مطروحة[٣١].

إن مظاهر التضامن الشعبى ومواقف التأييد التى ابداها الملك أكدت الوعى بالمصير المشترك لشعوب المغرب العربى، وشكلت حاجزا فى وجه المصالح القطرية التى أبدتها الحكومة المغربية باسم الحفاظ على الاستقرار والاستفادة من المعونات الاقتصادية الفرنسية والحذر من امتداد حرب الجزائر[٣٢] فأصبح التأييد الشعبى والجماهيرى يلح على مساندة الجزائر ويدعو إلى إنهاء التواجد الفرنسى بالمغرب واستكمال وحدة الشمال الإفريقى، ومثل موقف الملك ضمانة قوية للتضامن المغربى الجزائرى، وقد حافظت الثورة الجزائرية على تفعيل التضامن الشعبى وجابهت بحزم بعض السلوكات والمواقف المضادة لنشاطات جيش التحرير الوطنى بالمغرب ، واستطاعت بفضل المساعدات المغربية تنظيم نشاطها السياسى وتأطير الجالية الجزائرية والاستفادة من القواعد الخلفية رغم المضايقات التى تسببها القوات الفرنسية المتواجدة بالمغرب ومخابراتها وأعوانها ، وعملت الولاية الخامسة لغرب الجزائر التى كانت تشرف على النشاط العسكرى والسياسى بالمغرب على توفير وسائل مواصلة الحرب والحفاظ على علاقات الصداقة مع السلطات المغربية للاستفادة من تسهيلاتها ومساعداتها المادية والمعنوية والتصرف بحرية فى القواعد الخلفية، وقد دلت الاتصالات المباشرة لمسئولى جبهة التحرير الوطنى بالسلطات المغربية التزام المغرب بواجب مساعدة الثورة الجزائرية ودعم نشاطاتها السياسية والعسكرية بالمغرب [٣٣].

وشكلت حركة التضامن الشعبى والمواقف الايجابية للملك محمد الخامس دورا أساسيا فى مؤازرة الثورة الجزائرية والتأثير على الحكومة المغربية لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية تجاه الثورة

الجزائرية . فقد اعتبر محمد الخامس أن استقلال المغرب سيظل منقوصا ومهددا في سيادته ما دامت الحرب قائمة في الجزائر بتلك الشراسة الاستعمارية ، وأنه من الواجب مساندة الجزائريين في كفاحهم ، ومن هنا سعى الملك لتقديم بعض المساعدات والتسهيلات اللازمة لنشاط جبهة التحرير الوطني وأكد الاستمرار في الدعم السياسي والديبلوماسي للقضية الجزائرية(٣٤).

ويمكن رصد الاهتمام السياسي والدور النضالي للملك محمد الخامس على ضوء اتصالاته العديدة مع المسؤولين الجزائريين داخل المغرب وخارجه وقد هيأ لقاءا مع مسؤولي الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني أثناء زيارته الرسمية إلى مدريد في فبراير ١٩٥٧، ويذكر أحمد توفيق المدني أنه انتقل رفقة الأمين دباغين من القاهرة للقاء الملك بمدريد، وأن الملك كان حريصا على عقد لقاء تشاوري للنظر في تطور القضية الجزائرية وسبل دعمها ، وقد تم عقد اجتماع موسع بحضور عبد الحميد مهري وبوصوف وأحمد بلافريج وعبد الكريم الخطيب تم التطرق فيه للعلاقات الأخوية التي تربط الجزائريين بالمغرب ، ومناقشة سبل مؤازرة الثورة الجزائرية انطلاقا من المغرب، وأكد الملك بخصوص ذلك استعداده الكامل لتقديم المساعدات التي يرغب فيها الجزائريون وخاصة حرية مرور الأسلحة واتخاذ مناطق الحدود المغربية الجزائرية مراكزا للنشاط العسكري وأكد على تأييده للثورة الجزائرية مهما كانت الظروف (٣٥)، وإثر انتقال وفد جبهة التحرير الوطني إلى المغرب استقبله الملك مرة أخرى في قصره ليلا ليعرب له عن دعمه ومساندته التي أبداها في اجتماع مدريد ، وأكد له «أن المغرب كله لا فرق بين حاكم ومحكوم مشارك لكم في جهادكم إلى نهايته المشرفة»(٣٦).

وهذا الدعم المادي والتأييد المعنوي للسلطات المغربية سمح بتفعيل نشاطات الثورة الجزائرية طوال سنة ١٩٥٧ حيث تضاعف النشاط السياسي بالمغرب، وكانت الحدود سهلة العبور ونشطت مهمة تهريب الأسلحة وتسهيل وصولها إلى الثوار الجزائريين ، وتواصل الدعم المادي للملك محمد الخامس حيث كان التنسيق بينه وبين بوصوف يتم بطرق شتى وبواسطة معتمدين رسميين حفاظا على نشاطات الثورة وتقديم المساعدات العسكرية والمالية في سرية تامة(٣٧) وقدمت الحكومة المغربية تسهيلات إدارية لنشاط الثوار الجزائريين داخل الأراضي المغربية مما أدى إلى دعم القدرات العسكرية للولاية الخامسة، وأحيانا كان بوصوف يشتكي من صعوبات تطال نشاط الجزائريين بالمغرب ، وتتسبب في خلافات تعوق التضامن المغربي مع الثورة الجزائرية ، وذلك جراء معارضة بعض الأطراف السياسية لتوجهات جبهة التحرير الوطني ، ويذكر في هذا الشأن أحمد توفيق المدني أنه وبناء على طلب بوصوف اتصل رفقة

الأمين دباغين فى فبراير ١٩٥٧ برجال المقاومة وحزب الاستقلال، وخلال اجتماع الوفد الجزائرى بممثلى حزب الاستقلال تبين له وجود خلاف إيديولوجى بين الحزب وقادة جبهة التحرير الوطنى حول أهداف الثورة ومبادئها، وذلك بسبب تصريحات بعض المسؤولين بما يفيد أن الجبهة تسير فى طريق شيوعى وتعمل لفائدة الشيوعية، وعليه قال ابن بركة : «إنه يكاد يستحيل العمل على مساعدة حركة ليس لها أهداف واضحة»، وتصدى الوفد الجزائرى لتكذيب ونفى هذه الأقوال والشائعات وشرح أهداف الثورة ومبادئ جبهة التحرير الصريحة، وأكد المدنى لمخاطبيه : «لسنا شيوعيين ولانكون شيوعيين ... إننا لانعمل إلا فى دائرة الإسلام والعروبة ووحدة المغرب العربى» [٣٨]، وأمام هذه التأكيدات اقتنع ممثلو حزب الاستقلال بوجهة نظر جبهة التحرير الوطنى وأبدوا تضامنهم مع الكفاح الجزائرى وقال ابن بركة : «إنه لم يبق لنا أى خلاف معكم حول المبادئ والأهداف وإننا سنخبر رفاقنا بهذا» [٣٩]، وقد كان مبعوثوا مصالى وبعض المغرضين يتعمدون إلصاق تهمة الشيوعية بجبهة التحرير الوطنى فى الأوساط السياسية المغربية بهدف ضرب التضامن الشعبى والموقف الرسمى المغربى المساند لها، ولم تقتصر تحفظات حزب الاستقلال على هذه الوجهة الإيديولوجية فحسب فقد انتقد بعض قادته موالاة جبهة التحرير الوطنى للنظام الناصرى المعادى للملكية وللحزبية، وخاصة على ضوء إذاعتها للأحزاب السياسية. وازدادت حساسيتهم من هذا التوجه الثورى الذى يخالف مبادئ حـــزبهم [٤٠]، ولعل هذه الخلافات السياسية وقفت أمام تأدية الحكومة المغربية لدورها التضامنى تجاه الثورة الجزائرية نظرا للاهتمامات الوطنية الضيقة للاستقلاليين، كما أن بعض العناصر السياسية والاجتماعية المؤثرة فيها دفعت باتجاه إعادة ربط العلاقات المغربية الفرنسية، وقد أدركت فرنسا الموقف المضطرب للحكومة المغربية وحاجتها للمساعدات الاقتصادية، فسعت لمساعدتها من أجل إنقاذ المصلحة الفرنسية والحفاظ على نشاط قواعدها العسكرية بالمغرب [٤١].

وأدى تصعيد الحرب بالجزائر إلى امتداد شرارتها لتعم المناطق الحدودية المغربية التى احتضنت الثوار الجزائريين، وكانت ملجأ للسكان اللاجئين والفارين من بطش القمع الفرنسى، وظلت هدفا عسكريا للهجمات الفرنسية المتكررة على التراب المغربى وهكذا فإن الحرب الشرسة التى شنها الجيش الفرنسى على الجزائريين كانت توازيها حرب أخرى متواصلة على طول الحدود الجزائرية المغربية اتخذت أشكالاً انتقامية فى التهجم على المواطنين المغربيين عقابا على احتضانهم للثوار الجزائريين ودعم المغرب لنشاطات الثورة الجزائرية [٤٢]، وهـــذا

الأمر دفع السلطات المغربية إلى أن تفكر جديا فى مخاطر امتداد حرب الجزائر إلى المغرب، وأدى تنسيق المواقف السياسية المغربية التونسية إلى إعادة طرح القضية الجزائرية والسعى لإيجاد حلول سلمية لها، ومثلما حاول الرئيس بورقيبة فرض ضغوط على جبهة التحرير الوطنى للقبول بمفاوضات الاستقلال المرحلى، حاول الأمير الحسن فى أغسطس ١٩٥٧ خلال اجتماعه بالوفد الجزائرى (فرحات عباس، توفيق المدنى) المطالبة بترتيب أهدافهم من الحرب ،والنظر بواقعية للمشكل الجزائرى للحد من المأساة التى تطال الشعب الجزائرى وتمس المغرب، وكان يهدف إلى محاولة تليين مواقف جبهة التحرير الوطنى للقبول بمفاوضات لاتكون على أساس الاستقلال ، لكنه فشل فى مسعاه أخيرا(٤٣).

ولما شعرت جبهة التحرير الوطنى بجدية الاتصالات بين المسؤولين التونسيين والمغربيين أكدت أنها تلتزم بالتنسيق المغاربى المشترك، وتقبل بالحلول السلمية التى تضمن حقوق الشعب الجزائرى، وتحسبا لما قد يقدم عليه البلدين من مواقف لاتخدم أهداف الكفاح الجزائرى أوضحت تمسكها بأن إيقاف القتال وإجراء المفاوضات مع فرنسا لن يكون إلا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائرى ، وعندما أثارت اجتماعاتها مع بورقيبة اختلافا حاداً فى وجهات النظر انتقل وفدها إلى المغرب للقاء الملك محمد الخامس قبيل انعقاد لقاء القمة بينه وبين الرئيس بورقيبة وأكدت مشاوراتها معه التمسك بوجهة النظر الجزائرية ورفض المساعى التى لاتحقق للشعب الجزائرى أهدافه فى الاستقلال ، واقتنع الملك محمد الخامس بمطالب الجزائريين وأكد أنه سيعمل بكل استطاعته لتحقيق أهداف كفاح الشعب الجزائرى ، وذلك فى جو من الأخوة المغربية والنصح لفرنسا (٤٤)، وصدر بيان الرباط مؤكدا لأهداف جبهة التحرير الوطنى ، وقد اقترح وساطة الدولتين التونسية والمغربية بين طرفى النزاع لإجراء مفاوضات تنتهى بحل عادل يؤدى إلى تجسيد سيادة الشعب الجزائرى، وشكل مشروع الوساطة هذا محورا لمساعى الملك محمد الخامس وممثل المغرب بالأمم المتحدة فى التأكيد على الحل السلمى للقضية الجزائرية ، وقد صدر نداء الوساطة قبل يوم من سفر الملك محمد الخامس إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى زيارة رسمية تباحث خلالها مع الرئيس الأمريكى إيزنهاور ومع وزير الخارجية الأمريكية حول المشكل الجزائرى، وحاول خلالها إقناع المسؤولين الأمريكيين بتأييد مشروع الوساطة المقترح ، وصدر إثرها بلاغ مشترك فى واشنطن يؤكد انشغال الدولتين بمشكلة الجزائر ويدعو إلى ضرورة وضع حد لها بالطرق السلمية (٤٥)، وقد ظل الموقف الأمريكى مؤدا للسياسة الفرنسية ، كما أن فشل مشروع الوساطة أدى إلى استمرارية الحل العسكرى

بالجزائر، وظلت منطقة المغرب العربى تتعرض لمخاطر السياسة الاستعمارية ، وانعكس ذلك كله على تقوية التضامن الشعبى وأعطى بعدا حيويا للعمل المغاربى المشترك .

ثالثا : مؤتمر طنجة والموقف المغربى: تضامن شعبى وانكسار سياسى

لقد واجه الشمال الإفريقى مع نهاية سنة ١٩٥٧ وبداية ١٩٥٨ مخاطر وتحديات أكدت تضامن شعوب المغرب العربى مع الثورة الجزائرية ، وذكرت النخب السياسية والحركات الوطنية بضرورة وحدتهم ، فبالإضافة إلى استفحال المجابهة العسكرية بالجزائر ظلت القوات الفرنسية الموجودة بالجزائر تواصل اعتداءاتها على الحدود التونسية والمغربية وتنتهك سيادتهما، وواصلت القوات الفرنسية رفضها الجلاء عن تونس والمغرب واتخذت من ترابهما قاعدة لممارسة العدوان على الشعب الجزائرى، وازدادت المخاطر الاستعمارية بالمغرب إثر التحالف الفرنسى - الإسبانى الذى وجه ضربات قوية لجيش التحرير المغربى بمناطق الجنوب انتهت بسحقه فى فبراير ١٩٥٨ [٤٦]، ولعل هذه الهزيمة خصوصا والقصف الفرنسى لساقية سيدى يوسف واضطهاد الجيش الفرنسى للشعب الجزائرى جعلت حزب الاستقلال المغربى يوجه الدعوة لتنسيق التعاون الوحدوى الذى كان شعار الحركات الوطنية المغاربية وظل مطمحا أساسيا لشعوب المنطقة .

إثر اجتماع لجنته التنفيذية دعى حزب الاستقلال فى ٢ مارس ١٩٥٨ إلى عقد اجتماع لقادة أقطار الشمال الإفريقى يحقق التعاون المشترك والوحدة ويقف أمام استفحال المخاطر الاستعمارية، وأكد البيان أن اللجنة التنفيذية قامت «بتحليل الحالة فى مجموع الشمال الأفريقى على إثر حوادث جنوب المغرب وساقية سيدى يوسف وأمام استمرار الحرب فى الجزائر والتطورات التى طرأت على الحالة الدولية تعلن اللجنة التنفيذية عن احتجاجها ضد خلق منطقة تدعى الآن بـ منطقة الموت- فى التراب الجزائرى وعلى طول الحدود التونسية يطرد منها السكان الجزائريون طردا ... »[٤٧].

ويتضح أن تطورات الوضع بالمغرب العربى، ومخاطر حرب الجزائر على تونس والمغرب كانت وراء الدعوة لعقد مؤتمر طنجة ، وقد أكد عبد الرحيم بوعبيد[٤٨] أن الهدف منه «هو إظهار التضامن الكامل ما بين الأقطار الثلاثة إزاء الحكومة الفرنسية إذ ذاك »[٤٩]. إلا أن هذا التفسير لم يخف بعض المطامع السياسية لحزب الاستقلال بعد أن انهارت ذراعه العسكرية، فضلا عن أنه تزامن مع مبادرة الوحدة المشرقية بين مصر وسوريا مما جعل مصر

تفسر الدعوة لوحدة المغرب العربى أنها معاكسة للوحدة المشرقية ، وأن المؤتمر محاولة مغربية تونسية لاحتواء جبهة التحرير الجزائرية وربطها فى الإطار الغربى (٥٠)، ومثل هذه الرؤية المصيرية وغيرها من الاعتبارات لم تكن لتؤثر على قرار جبهة التحرير الوطنى بحضور المؤتمر بحكم اتجاهها المغاربى، ونظرا للأهمية المتزايدة للبلدين المجاورين فى الكفاح الجزائرى ، ويؤكد قادة جبهة التحرير الوطنى أن الدعوة للمؤتمر لم يصحبها إعداد لجدول أعماله فكان هذا حافزا لحضور المؤتمر واستغلال هذا الفراغ لإعداد جدول أعمال حرصت فيه على أن يجمع بين مراعاة واقع البلدين من جهة ، ويحقق مكاسب لفائدة الكفاح السياسى والعسكرى من جهة أخرى، واعتمدت فى ذلك على ضغط القواعد الشعبية المنادية بتصفية الاستعمار واستكمال المعركة حتى تحقيق جلاء القوات الفرنسية عن كامل بلدان المغرب العربى (٥١).

انعقد مؤتمر طنجة بحضور الأحزاب الوطنية الممثلة لأقطار الشمال الإفريقى : حزب الاستقلال المغربى والحزب الدستورى الحر وجبهة التحرير الوطنى ، وخلال مناقشات الوفود الحزبية على امتداد أيام ٢٧ - ٣٠ أبريل ١٩٥٨ أكد المؤتمرون على مخاطر السياسة الاستعمارية ، وحتمية التنسيق المشترك ووحدة أقطار المغرب العربى وضرورة مساعدة الجزائر وتخليصها من الاستعمار الفرنسى ، وخرج مؤتمر طنجة بقرارات هامة لمساعدة الثورة الجزائرية وتحقيق مشروع المغرب العربى تمحورها أساسا فيما يلى:

- إقرار مبدأ تقديم مساعدات مالية للجزائر فى حربها .

- التأكيد على حق الشعب الجزائرى فى الاستقلال كشرط وحيد لإنهاء النزاع الفرنسى الجزئرى .

- شجب مساعدات الدول الغربية لفرنسا ومساندتها فى حربها ضد الشعب الجزائرى .

- تقديم الأحزاب السياسية للشعب الجزائرى كامل مساندة شعوبها وتأييد حكوماتها .

- المطالبة بإلحاح على تصفية القواعد العسكرية فى كامل تراب المغرب العربى .

- اختيار الشكل الفيدرالى إطار لوحدة المغرب العربى على أن يتم إنشاء المؤسسات الفيدارلية فى اجتماعات قمة لاحقة .

كما أوصى المؤتمرون كذلك بـ :

- اجراء مشاورات مع حكومتى تونس والمغرب لإقامة حكومة جزائرية مؤقته كلما سنحت الظروف .

- ألا تربط الحكومات على انفراد مصير شمال إفريقيا فى حقل العلاقات الخارجية والدفاع إلا بعد إقامة المؤسسات الاتحادية[٥٢].

ويظهر من خلال مقررات طنجة أن القضية الجزائرية نالت اهتمامات المناقشين ، وتأكد بخصوصها تقديم مساعدات هامة للكفاح الجزائرى ، ورصد هدف تجسيد وحدة المغرب العربى واعتبار الجزائر قطرا كامل السيادة وعضوا فى الوحدة الفيدرالية قبل أن تحصل على استقلالها ، إلا أن هذه القرارات لم تكتسب صبغة تنفيذية رغم موافقة رئيسا الدولتين محمد الخامس والحبيب بورقيبة ومساندتهما لما جاء في مؤتمر طنجة ، ورغم أن الحزب الدستورى الحر وحزب الاستقلال مشاركان فى السلطة إلا أن قراراتهما كانت شعبية أكثر منها رسمية، وتم تأجيل تنفيذ قرارات طنجة إلى لقاء قمة على المستوى الحكومي، وإن كانت الأحزاب السياسية والمنظمات الشعبية تمسكت بقرارات طنجة وعبرت عن مطامحها فى مساندة الثورة الجزائرية وإرادتها الفعالة لتحقيق الوحدة المغاربية فإن الحكومتين المغربية والتونسية تنصلتا تدريجيا عن تجسيد مقررات طنجة.[٥٣]

واجتمعت الحكومتان المغربية والتونسية مع جبهة التحرير الوطنى فى مؤتمر المهدية بتونس فى يونيه ١٩٥٨ إلا أنهما لم تجسدا شيئا ذا بال ، وكان تهرب الحكومة المغربية واضحا من التزامات مؤتمر طنجة ، وارتسم هذا الموقف ليؤكد من جديد المصالح والأهداف القطرية الضيقة على حساب التضامن الشعبى والحزبى المؤيد للثورة الجزائرية ، ويفسر هذا التنصل بمعطيات داخلية استجدت وظروفا دولية كان لها تأثير مباشر نرصد أهمها فيما يلي:

- التخوف من انعكاسات التفاعل الشعبى مع الثورة الجزائرية مما يجعل النظام المغربى يخشى السيطرة على الموقف بازدياد نفوذ الجناح المتشدد داخل حزب الاستقلال .

- خطورة الموقف من توحيد المجابهة ضد فرنسا بشكل قد يهدد الاستقلال المغربى.

- مجئ الجنرال ديجول على رأس حكومة قوية أعادت الهيبة الدولية لفرنسا ، وأكدت على سياسة الإدماج بالجزائر والتعاون مع المغرب، مما جعل النظام المغربى ييأس من إمكانية التوصل إلى حل المشكلة الجزائرية فى الأمد القريب .

- وقوف السياسة الديجولية ضد تطبيق مقررات طنجة بتأكيدها على سياسة التعاون مع المغرب وتونس وتخطيطها لضرب التضامن المغاربى مع الثورة الجزائرية[٥٤].

إن السياسة الفرنسية المتبعة مع المغرب لم تكن ذاتها المنتهجة مع تونس ، فقد طمأن الجنرال ديجول البلدين على استقلالهما وقبل بجلاء القوات الفرنسية عن تونس فى حين أكد بلهجة متشددة على بقاء القوات الفرنسية بالمغرب ، وهدف من وراء ذلك إلى إلغاء التقارب بين البلدين وجعل المغرب يترقب تنازلات يمكن أن تبادر بها فرنسا لصالحه، وهذه المعطيات جعلت السلطات المغربية تفكر فى عدم رهن مصيرها بقرارات طنجة ، ولهذا أبدت الحكومة المغربية خلال مؤتمر المهدية ليونة فى موقفها التقت مع رغبة بورقيبة فى عدم رهن مصير شمال إفريقيا بحرب الجزائر ، وضرورة العدول تدريجيا عن الخط الوحدوى لطنجة ، وتأجيل مقرراته بشكل يستجيب للظروف المستجدة على المستوى المغاربى والدولى [٥٥].

وعليه لم يخرج المؤتمر بأى نتائج مهمة، إذ أكدت مناقشات الوفد الحكومى المغربى (بالافريج- بوعبيد) خلال مؤتمر المهدية[٥٦] إن أوضاع الحكومة المغربية لاتسمح لها بتقديم مساعدات مالية، وأعطت تأويلات جديدة لمقررات طنجة ، إذ أوضح رئيس الحكومة بلافريج أن مسألة وحدة الشمال الإفريقى لايمكن رهنها بمستقبل الجزائر ، وعندما طالبت جبهة التحرير الوطنى بإدانة سياسة الإدماج وتأييد المطالب الجزائرية الواضحة فى الاستقلال رد نائب رئيس الحكومة بوعبيد قائلا : «ينبغى أن نترك دائما هامشا للتقدير على صعيد السياسة وليس من الضرورى أن يكون المرء بالغ الوضوح والدقة ، ينبغى اختيار اللحظة المناسبة» وأكد أن مجئ ديجول إلى السلطة أقلب الوضع وهو يكسب الآن التأييد الدولى و«ينبغى إذن التفكير والرؤية بوضوح» [٥٧]، وردت جبهة التحرير الوطنى على الموقف الحكومى المغربى ولم تستسلم لضغوطه ولضغوط التونسيين، وأدركت أن التعهد بمساعدة الكفاح الجزائرى ماديًا سيظل حبراً على ورق ، ورغم نجاحها فى إقناع الطرفين لتأييد حقوق الشعب الجزائرى فى الاستقلال والتمسك بتنسيق المواقف السياسية إلا أنها شعرت بخضوع توجهات الطرفين لتأثيرات السياسة الديجولية، ومع ذلك اتبعت سياسة مهادنة للحكومة المغربية حتى لاتصادم موقفها فى الحفاظ على التضامن الشعبى وصيانة المصالح المكتسبة بالمغرب ، ونجحت فى تفعيل التضامن الشعبى وجعله يتمسك بمبادئ طنجة[٥٨] ، وقد كان النظام المغربى يخشى حدوث تعبئة جماهيرية تتأثر بتوجهات الثورة الجزائرية وتتمسك بقرارات طنجة ، خاصة ما تعلق منها بتصفية القواعد الأجنبية بالمغرب التى يقف وراءها حزب الاستقلال القوى بنفوذه الشعبى، ومن هنا تبلور شعور النظام المغربى بخطر جيش التحرير المغربى وبالنفوذ السياسى لحزب الاستقلال فخطط لضربهما حتى لاتتطور الأحداث وتندفع باتجاه تشكيل تضامن شعبى مطلق مع ثورة الجزائر[٥٩].

إن السياسة الفرنسية قد نجحت فى كسب الحكومة المغربية التى انتظرت طويلا مبادرة فرنسا بإنجاز خطوة اجلاء قواتها عن المغرب، وعقدت أخيرا الحكومة الفرنسية مع المغرب اتفاقية تعاون لتحقيق جلاء جزئى للقوات الفرنسية من بعض المناطق المغربية مما أعطى النظام المغربى نفسا للتغنى بتحقيق مطلب وطنى، الحقيقة أن القيادة الفرنسية وبفضل معرفتها للميدان قامت بإعادة تجميع قواتها فى نقاط استراتيجية تضمن استعمالها بصورة أكثر فاعلية لنشاطها المعادى للجزائريين (٦٠)، وإن ظلت القوات الفرنسية بالمغرب تضايق الجزائريين وتفرض رقابتها عليهم فإن القوات المسلحة المغربية التى تظاهرت فى البداية أنها تقدم حماية لجيش التحرير الوطنى أصبحت تضايق تحركاته وتشكل ضغوطا مختلفة عليه كما قامت بإغلاق ممر فجيج الاستراتيجى ، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى عرقلة تسلل وإمدادات جيش التحرير الوطنى لجعل الجزائريين أمام الأمر الواقع والإقرار بسيادة المغرب على المناطق الشرقية التى يدعى مغربيتها ، وشكلت هذه المسألة خلافات عميقة مع جبهة التحرير الوطنى، ولم تنفع الاجتماعات التى عقدها الطرفان فى إيجاد أية تسوية ؛ ففى ٨ أبريل ١٩٥٨ عقد اجتماع بالرباط بين الشيخ خير الدين وعبد القادر معاشو وحسين قادرى مع ابن بركة ومحمد البصرى عن الجانب المغربى ، وعقد اجتماع آخر فى ٦ مايو من نفس السنة بين ممثلين عن جيش التحرير الوطنى والسلطات المغربية دون الوصول لأية نتيجة مما جعل الموقف المغربى يتحفظ فى دعم الثورة الجزائرية (٦١).

وقد أحست جبهة التحرير الوطنى بتدهور علاقاتها مع السلطات المغربية غداة مؤتمر المهدية وذلك من خلال بعض الممارسات والضغوطات التى اصطدم بها جيش التحرير الوطنى واللاجئون الجزائريون وقوافل الأسلحة ، وترجع أساسا إلى الخلافات السياسية ومطالب المغرب بتعديل حدوده الجنوبية (٦٢)، وقد اتخذت الحكومة المغربية قرارا منفردا بإنشاء « لجنة الحدود » فى مارس ١٩٥٨ ، وأعلنت أن مفاوضات مغربية - فرنسية بشأن الحدود ستنطلق فى أغسطس ١٩٥٨ وأن ملف لجنة الحدود جاهز لمناقشته مع الحكومة الفرنسية. واعتبرت جبهة التحرير الوطنى أن هذا الإجراء لايقل فداحة وطعنا لمقررات طنجة من اتفاقية البترول التونسية الفرنسية ، لأنه يعترف لفرنسا بسيادتها على الجزائر ويطعن فى شرعية تمثيل الجبهة، ويعارض قرارات التعاون والتنسيق المتفق عليها فى مؤتمر طنجة (٦٣).

وقد بدى لجبهة التحرير الوطنى أن السياسة الديجولية كان لها تأثير واضح على الحكومة المغربية التى أبدت رغبتها فى التعاون الاقتصادى بعد أن لوح ديجول بمشروع بترول الصحراء

الذى يقترح فيه إشراك المغرب وغيره من الدول المتاخمة لصحراء الجزائر فى استثمار خيراتها واعتبرت الحكومة المغربية أن قبولها بهذا المشروع سيدعم حقها فى المطالبة بالمناطق الصحراوية مستقبلا ، ورغم أن جبهة التحرير الوطنى لفتت أنظار السلطات المغربية إلى خطر هذه السياسة الفرنسية بشقيها الاقتصادى والسياسى، وعرضت عليها مشروعها لاستغلال بترول المغرب العربى شراكة [٦٤]، إلا أنها لم تتلق أى رد منها ، وقد آثرت مغريات فرنسا الاقتصادية وسياسة التعاون معها ، ولم يكن هذا التوجه هو مبدأ الحكومة المغربية إذ عبرت من قبل عن رفضها لصفقة تكرير بترول صحراء الجزائر بمصفاة القنيطرة فى مايو ١٩٥٨، وسمحت بذلك لجبهة التحرير الوطنى أن تؤكد أنه ليس لفرنسا الحق فى استثمار خيرات الجزائر[٦٥]، ويظهر لنا من تباين الموقفين السابقين أن السياسة الديجولية أثرت كثيرا على السلطات المغربية لتظهر مواقف وتصرفات لاترقى لمبادئ دعم الكفاح الجزائرى وتخدش التضامن المغاربى السياسى، وبالمقابل نؤكد أن التضامن الشعبى ظل يؤثر على مواقف الحكومة المغربية وينتقد سياستها فى التعامل مع الحكومة الفرنسية ، ويواصل مؤازرته للثورة الجزائرية.

وقد سجلنا كثيرا من مظاهر الانتقاد للسياسة المغربية تجاه الجزائر، وفضحت بعض النخب السياسية فى المغرب التقصير الحكومى فى دعم الثورة الجزائرية، وأكد مثلا أحمد معينو عضو حزب الشورى والاستقلال بالمجلس الاستشارى المغربى تضاؤل الاهتمام السياسى بالقضية الجزائرية قائلا: «عندما يؤكد وزير الخارجية أن المغرب قدم كل مساعدة ممكنة للجزائر نشعر بألم يحز فى أفئدتنا إذ أننا نرى النار بأبوابنا ولانهتم بها الاهتمام الواجب إن هذه المساعدة المقدمة بسيطة وبسيطة جدا والكلام فى شأنها لايستر الحقيقة أو ينسيها » [٦٦]، ومهما كانت جوانب الصحة فى انتقادات حزب الشورى والاستقلال السياسية فقد شن حملة معارضة ضد الحكومة أكدت على واجب دعم الجزائر وكسب التأييد الشعبى لها. واصطفت وراء هذه الدعوة الجماهير الواسعة التمثيل والمنظمات النقابية ، ولعل الاختلاف حول مسألة دعم الجزائر زاد فى انقسام حزب الاستقلال ووقف وراء بعض الانتفاضات والمظاهرات الشعبية [٦٧].

وقد رأت جبهة التحرير الوطنى أن تنشأ الحكومة الجزائرية المؤقتة فى سبتمبر ١٩٥٨، ولم تكن علاقاتها مع النظام المغربى على أحسن ما يرام، وخشيت أن يقدم على معارضة إنشائها فى تلك الظروف الصعبة التى يمر بها الشمال الإفريقى والعودة القوية للنفوذ السياسى الفرنسى وإرسائه علاقات التعاون مع المغرب ، غير أن التوجه السياسى المغربى وبتوجيه من

الملك بدأ ينفتح على قوى الحياد ويتأثر بالضغوط الشعبية المؤيدة للثورة الجزائرية ، وعليه لم تتأخر الحكومة المغربية فى الاعتراف بالحكومة الجزائرية المؤقتة ، وجاء اعترافها فى اليوم الثانى لإعلانها فى ٩ سبتمبر ١٩٥٨ فى بيان رسمى يحمل توقيع رئيس الحكومة أحمد بلافريج ، وقد تضمن ما يلى: «لى الشرف بأن أنقل إلى علمكم أن مجلس الوزراء المجتمع برئاسة صاحب الجلالة ملك مراكش قد قرر فى التاسع عشر من أيلول - سبتمبر ١٩٥٨ الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية» (٦٨).

وقد اختيرت مصر مقرا للحكومة نظرا لما تقدمه من دعم ومساندة على المستوى الإفريقى والأسيوى وتجمع مختلف الدلائل أن تونس والمغرب لم تكونا آنذاك مكانا ملائما لاستقرار الحكومة الجزائرية المؤقتة لأن النفوذ العسكرى الفرنسى كان ما يزال متواجدا بهما ، ولكون البلدين فى وضع لايسمح بتقبلهما لهذه الخطوة بحكم علاقاتهما المتشابكة مع فرنسا (٦٩) ، فى حين كان على جبهة التحرير الوطنى أن تحزم أمرها للرد على المرحلة الجديدة للسياسة الفرنسية، وهذه الحقائق جعلتها لاتقيم مقر الحكومة الجزائرية فى تونس أو بالمغرب ونستبعد ما ذكره الباحث اسماعيل دبش ونقله عنه عمار رخيلة دون تحر من أن اختيار القاهرة كمقر للحكومة الجزائرية المؤقتة جاء نتيجة «رفض طلب جبهة التحرير الوطنى بتكوين حكومة جزائرية مؤقتة فى المغرب أو تونس» (٧٠)، وعموما فإن دعم مواقف الحكومة الجزائرية المؤقتة السياسية وتأييد أهدافها فى الاستقلال التام ومساندة ونشاطاتها تعرض فى البداية إلى تقصير واضح، واكتفى المغرب بالموافقة على فتح مكتب للحكومة الجزائرية المؤقتة بالمغرب وتسهيل نشاطاتها دون الاعتراف لها بالتمثيل الدبلوماسى (٧١)، وذلك نظرا لضغوط علاقات التعاون مع فرنسا والصعوبات المواجهة للعلاقات الجزائرية المغربية، فكان على الحكومة الجزائرية المؤقتة أن تعيد النظر فى سياستها المغاربية وأن تهتم أكثر بكسب التعاون المغربى وأن تفعل نشاطات التأييد للقضية الجزائرية، ومختلف أشكال الدعم للثورة الجزائرية.

والمؤكد أن بعض الخلافات أثرت على مسار العلاقات الجزائرية المغربية وتضاءل معها حجم التأييد السياسى للحكومة المغربية ، فى حين ظل التضامن الشعبى بمثابة الخيط الناظم لتواصل الدعم المعنوى للقضية الجزائرية ، وأدى تعرض الثورة الجزائرية لصعوبات داخلية ومضايقات خارجية بالحكومة الجزائرية المؤقتة إلى الاهتمام أكثر بكسب التأييد السياسى للبلدان المغاربية والحصول على دعمها المادى والمعنوى ، وخاصة بعد أن تزايدت أهميتها نتيجة تركز نشاطات الثورة الجزائرية بها (٧٢). وهكذا تمكنت الحكومة الجزائرية الموقتة بطريقة دبلوماسية من إيجاد حلول سلمية للمشاكل التى تعترضها بالمغرب بما فى ذلك المسائل

الحدودية، وانتهزت فرص تدهور العلاقات بين فرنسا والمغرب من جهة ، وتزايد حجم التضامن الشعبي من جهة أخرى لتوطد علاقاتها مع المغرب ، وقد أقامت بعثة للحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة شوقي مصطفاى منذ سنة ١٩٥٨م، تركزت مهامها في تمثيل الثورة الجزائرية سياسيًا ودبلوماسيا ، وإطلاع السلطات المغربية بكل تطورات القضية الجزائرية وتنسيق المواقف السياسية، والنظر في المشاكل المواجهة للطرفين (٧٣)، ونهضت وزارة شؤون شمال إفريقيا للحكومة الجزائرية بنشاط سياسي واجتماعي معتبر لتنسيق أواصر التضامن ورعاية شؤون الجزائريين في المغرب (٧٤)، وبذلك ارست التنظيم السياسي المحكم ، وأشرفت الثورة الجزائرية على مختلف شؤونها ، ونظمت علاقاتها مع المغرب بالشكل الذى ضمن رعاية مصالح الثورة وعودة علاقات التضامن المشتركة والتي تأثرت كثيرا بفعل السياسات الفرنسية وبحضور الاهتمامات القطرية والايديولوجية المفضوحة .

وعلى ضوء ما سبق تحليله نخلص إلى رصد الاستنتاجات الآتية:

– لقد استجاب الموقف الرسمي المغربي لمطلب دعم الثورة الجزائرية ، وبالرغم من تباين مواقف الأطراف السياسية المختلفة إلا أن المغرب مثل قاعدة مهمة في استراتيجية الثورة الجزائرية واحتضن نشاطات الثورة العسكرية والسياسية.

– إن الملك محمد الخامس اجتهد في تجاوز الضغوط الفرنسية والاهتمامات القطرية ، وأظهر تجاوبا مع مطلب مؤازرة الثورة الجزائرية، وبفضل رعايته ومساعداته تمكنت جبهة التحرير الوطني من ارساء قواعدها الخلفية وتأكيد حضورها السياسي، وبذلك تجاوزت كثير من الصعوبات التي كانت تسببها القوات الفرنسية في المغرب وبعض الأطراف السياسية المعادية والتوجهات الوطنية الضيقة.

– لقد أرسيت علاقات وطيدة بين قيادة الثورة الجزائرية والسلطات المغربية، وكان مقررا لهذه العلاقات أن تتوج بوحدة سياسية مغاربية أقرها مؤتمر طنجة ، لكن الحكومة المغربية أظهرت منذ مجئ ديجول للسلطة كثير من التحفظات ، وتهربت من التزاماتها ولم توطد علاقاتها مع الحكومة الجزائرية المؤقتة إلا بعد تليين كثير من العقبات .

الهوامش

١- ينظر حول تأثيرات هذه القوى وفعاليتها ، الشاوى توفيق : حزب الاستقلال ، ط١ ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ ، ص٤٥ ، وفتحي الديب : عبد الناصر وثورة الجزائر ، ط١ ، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٨٤ ، ص١٥٤ ، ١٥٥ .

٢- علال الفاسى (١٩١٠-١٩٧٤) : ولد بمدينة فاس ودرس بجامعة القرويين ، بدأ نشاطه السياسى مبكرا وتزعم كتلة العمل الوطنى، ثم حزب الاستقلال منذ تأسيسه فى سنة ١٩٤٤، أقام فى القاهرة منذ ١٩٤٧ وساهم فى تحذير وتوحيد الكفاح الوطنى المغاربى ، ووقف موقفا متحفظا من محادثات اكس - ليبان مما تسبب فى تهميش دوره داخل حزب الاستقلال ، وواصل نشاطه السياسى بالإشراف على توجيه جيش التحرير المغربى بالجنوب والدعوة لمواصلة تحرير الأراضى المغربية وتشييد وحدة المغربى العربى !

٣- يراجع الفاسى علال : نداء القاهرة ، ط١ ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٥٩ ، ص٦٣-٦٥ .

٤- محمد بن عبد الكريم الخطابى (١٨٨٢-١٩٦٣) : ولد بأجدير بالريف المغربى، اكتسب خبرة فى ميدان مقاومة المخططات والأساليب الاستعمارية لاسيما وأنه تزعم قبائل الريف لمقاومة الإسبان وأسس جمهورية الريف، وانتهت مجابهته للتحالف الإسبانى الفرنسى بهزيمته سنة ١٩٢٨ ونفيه إلى جزيرة لارينيون فى المحيط الهادى وظل هناك حتى سنة ١٩٤٧ حيث استطاع أن يفر من السفينة التى كانت تقله باتجاه فرنسا عبر قناة السويس، واستقر بالقاهرة ليساهم فى تنشيط الحركة السياسية المغاربية وترأس لجنة تحرير المغرب العربى فى القاهرة (١٩٤٧-١٩٥٦) أظهر تحالفا مع الثورة الجزائرية ومعارضة لبقاء القوات الأجنبية فى المغرب العربى.

٥- ينظر المدنى أحمد توفيق : حياة كفاح مذكرات ، الجزء الثالث، ط٢ ، م.و.ك . الجزائر ١٩٨٨ ، ص٢٣٠ ؛ وطلاس مصطفى، بسام العسلى : الثورة الجزائرية ، ط. طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٤ ، ص٢٦٩ .

٦- ينظر توفيق الشاوى : المرجع السابق، ص٥٢ .

7- Guentari Mohamed : Organisation Politico - Administrative et Militaire de la Revolution Algerienne OPU, T2 , p. 704 .

٨- الطيب الثعالبى : ولد بمدينة سكيكدة وناضل فى صفوف حزب الشعب الجزائرى، عين سنة ١٩٥٥ مشرفا على المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطنى بالمغرب إلى غاية ١٩٦٠ ، حيث عين لنفس المهمة بقاعدة تونس حتى سنة ١٩٦١ ، كما انتخب عضوا بالمجلس الوطنى بالثورة (١٩٥٦-١٩٦٢) .

٩- ينظر حديث مع المجاهد الطيب الثعالبي، أول نوفمبر ، مجلة تصدرها المنظمة الوطنية للمجاهدين ، الجزائر ، العدد ٩٣ (يونيو ١٩٨٨) ، ص٢٤ وما بعدها .

١٠- ينظر فتحى الديب : المصدر السابق، ص١٢٧ .

١١- يراجع فتحى الديب: المصدر السابق، ص٣١٨ .

١٢- ينظر محمد قنطاري: الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية والعلاقات الجزائرية المغربية إبان ثورة التحرير الوطنى، الذاكرة، مجلة يصدرها المتحف الوطنى للمجاهد، الجزائر، العدد ٣ (صيف ١٩٩٥) ، ص١٢٧ .

١٣- ينظر أحمد بن بلة : مذكرات أحمد بن بلة، ترجمة العفيف الأخضر، ط٢ ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧١ ، ص١٠١ .

١٤- بعد عودة الملك من منفاه وبمناسبة عيد العرش فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٥ ، مثلت جبهة التحرير الوطنى فى هذا الاحتفال بحضور مميز، فقد أرسل عبان رمضان أربع شخصيات وطنية فى مهام مختلفة هى : الشيخ خير الدين وعلى مرحوم من أجل التعريف بالقضية الجزائرية والاتصال بالسلطات المغربية ، والعربى التبسى فى مهمة خاصة للاتصال بمحمد خطاب وطلب المساعدات المالية منه ، فى حين تبقى مهمة مفدى زكريا غامضة ، فمعلوم أن الشاعر قد أنشد بين يدى الملك قصيدة هنأ فيها الشعب المغربى وأكد له وحدة قضايا المغرب العربى ولايستبعد أن يكون حمل رسالة خاصة من عبان رمضان إلى الملك محمد الخامس بدليل أنه كان مقربا من عبان ولو أنه لم يخرج فى مهمة خاصة لما رجع إلى الجزائر وهو يعرف أنه مطارد من قبل السلطات الفرنسية ينظر:

Farouk Ben Atia: Si Mohamed Khattab Précurseur du Magherb , OPU, Alger , 1991 , pp. 73-74 .

١٥- فتحى الديب: المصدر السابق ، ص٢٦٥ .

١٦- أحمد بن بلة : المصدر السابق، ص١٠١ .

١٧- ينظر وزارة الإعلام والثقافة : ملفات وثائقية رقم ٢٤ ، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطنى، طبع وزارة الاعلام والثقافة ، الجزائر، ١٩٧٦ ، ص١٦ .

١٨- ينظر ، المقاومة الجزائرية : لسان حال جبهة التحرير الوطنى، العدد٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦)، ص١ .

١٩- ينظر محمد الخامس: انبعاث أمة، ج١، مجموعة الخطب التى ألقاها الملك محمد الخامس من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦ ، المطبعة الملكية، الرباط ، ١٩٥٦ ، ص٢١٣ .

٢٠- يراجع بخصوص مواقف الحكومة المغربية تصريحات رئيسها مبارك البكاي، المقاومة الجزائرية، العدد ١٥ (٢٥ مارس ١٩٥٧)، ص٣ .

٢١- ينظر ، المقاومة الجزائرية؛ العدد ٥ (١٢ يناير ١٩٥٧)، ص١٦ .

٢٢- ينظر محمد الخامس : المصدر السابق، ص٢٥٤ .

٢٣- انظر ، الحسن الثاني، ذاكرة ملك منشورات عكاض ، جدة ١٩٩٢ ، ص ص٢٢-٢٣ .

٢٤- شنت الصحافة الفرنسية حملة مناوئة لشجب المقابلات التى أظهرتها السلطات المغربية تجاه الوفد الجزائرى مما أدى بالحكومة الفرنسية إلى قطع علاقاتها الديبلوماسية مع المغرب يوما واحدا قبل عملية الاختطاف ، ينظر . Le. Monde du (27 Octobre 1956) , p.7

٢٥- لم يفكر المسؤولون عن عملية الاختطاف فى عواقب الحادثة السياسية لأن العملية تمت دون إعلام الحكومة الفرنسية مما أدى بوزير الشؤون التونسية والمغربية آلان كريستبان إلى تقديم استقالته ، كما أن الزعماء الجزائريين كانوا ضيوفا على الملك محمد الخامس وأجبروا على تغيير وجهتهم من تونس إلى الجزائر وهم يمتطون طائرة مغربية وكان الأصل أن يرافقوا الملك على متن طائرته الخاصة لولا تغييرات فى آخر لحظة تستبعد فيها الصدفة ، مما يعزز أن الإدارة الفرنسية بالجزائر خططت للعملية بإحكام انطلاقا من الرباط واعتمادا على مساعدة عناصر فرنسية وأخرى مغربية موالية لها ، يراجع أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية ، ط١ ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٨ ، ص٢٢٤ .

٢٦- انظر ، المرجع نفسه، ص٢٢٤ ، وفتحى الديب : المصدر السابق، ص٢٧٨ .

وانظر ، العلم، عدد ٣ نوفمبر ١٩٥٦م.

٢٧- ينظر بخصوص هذه الردود الرسمية والشعبية وانعكاساتها ، الملك الحسن الثانى : ذاكرة ملك، ص٢٤ ، وجريدة العلم، عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ .

٢٨- المقاومة الجزائرية: العدد ٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٦)، ص١٢ .

٢٩- المقاومة الجزائرية : العدد ٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦) ، ص١١ .

٣٠- ينظر ، المجاهد : العدد ١٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٧) ، ص٨ .

٣١- انظر أبعاد هذه الاستراتيجية فى رسائل قادة الجبهة .mabrouk belhocine. op. cit.p. 162

٣٢- ينظر اسماعيل دبش: السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية، ط١ ، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠، ص١٠٣ .

٣٣- ينظر محمد خير الدين: مذكرات ، ط١ ، م.و.ك ، الجزائر (د.ت) ، ج٢ ، ص٢٧١ و Farouk Be-natia: Op. Cit, p. 90 .

٣٤- يراجع محمد قنطاري : المرجع السابق، ص١٢٣ .

٣٥- يراجع أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، مصدر سابق، ص٢٨٠ .

٣٦- المصدر نفسه، ص ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .

٣٧- كان بوصوف يقوم بهذه المهمة لوحده ، ثم انتدب شخصين للقيام بالاتصالات مع الملك محمد الخامس هما بوداود منصور وعباسي عزوز، ينظر شهادة عباس عزوز بمجلة الباحث، عدد خاص حول التسليح ، مرجع سابق، ص٨٠ . وشهادة منصور بوداود، مقابلة مع الباحث ، الجزائر العاصمة، أوغسطس ٢٠٠٦ .

٣٨- ينظر المدني أحمد توفيق : المصدر السابق، ص ص٢٨٢-٢٨٣، ويظهر لنا أن أقوال ابن بركة تبدو هنا غريبة غير أننا لانتحفظ منها كونه يعبر عنه اتجاه حزب الاستقلال ولم يكن اتجاهه الثورى والقومى قد تبلور آنذاك.

٣٩- المصدر نفسه ، ص٢٨٣ .

٤٠- ينظر بلقريز عبد الإله وآخرون : الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ، ١٩٤٨-١٩٨٦ ، محاولة فى التاريخ ، ط١ ، م.د.ع، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٢٦١ .

٤١- ينظر عامر رخيلة: الثورة الجزائرية والمغرب العربى، مجلة المصادر، يصدرها المركز و د ب ح و ث ١٩٥٤ ، الجزائر ، العدد ١ ، صيف ١٩٩٩، ص١٤٧ .

٤٢- يراجع بلقريز عبد الإله وآخرون : المرجع السابق، ص٧١ ، ومحمد قنطارى : المرجع السابق، ص١٢٧ .

٤٣- ينظر بخصوص هذا الاجتماع توفيق المدنى: المصدر السابق، ص ص٢٩٦-٢٩٨ .

٤٤- يراجع ، الديب فتحى : المصدر السابق، ص٣٦٢ والفاسى علال : كى لاننسى ... مطبعة الرسالة، الرباط ١٩٧٣ .

٤٥- ينظر المجاهد : العدد ١٧ (١ فبراير ١٩٥٨)، ص٤ .

٤٦- يراجع ، بلقريز عبد الإله وآخرون : المرجع السابق، ص١٥٥ .

٤٧- يراجع ، بلقريز عبدالإله وآخرون ، مرجع سابق، ص١٥٦ .

٤٨- عبد الرحيم بوعبيد : مناضل وسياسى مغربى ساهم فى العمل النقابى والحزبى وشارك ضمن وفد حزب الاستقلال فى محادثات إكس ليبان، عين وزيرا للدولة مكلفا بالمفاوضات مع فرنسا فى أول حكومة مغربية ، وشغل وزير الاقتصاد فى الحكومة المغربية (١٩٥٦-١٩٥٩) وأصبح نائبا لرئيس الحكومة سنة ١٩٥٨ ، وساهم سنة ١٩٥٩ فى تأسيس الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية.

٤٩- ينظر شهادته بخصوص مؤتمر طنجة ، بلقريز عبد الإله وآخرون، مرجع سابق، ص ص٢٣٧-٢٣٨ .

٥٠- ينظر الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، المركز الوطنى للتوثيق والصحافة والاعلام، الجزائر ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص-١٥٠ ، ١٥١ . وانظر شهادة عبد الحميد مهري، مقابلة مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥م.

٥١- محمد الميلى: مواقف جزائرية ، ط١ ، م . و . ك ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص٧١ .

٥٢- قامت الأحزاب السياسية الثلاثة بنشر قرارات مؤتمر طنجة وتعميم الاطلاع عليها غير أن هذه النشريات تختلف بعض الشئ فى عباراتها عما نشرته جبهة التحرير الوطنى بجريدة المجاهد : العدد ٢٣ (٧ مايو ١٩٥٨) ، ص١١ ، وللتعرف على حيثيات المؤتمر وقراراته يراجع عامر رخيلة: مرجع سابق، ص١٦١ ، ١٦٢ .

٥٣- ينظر دراسة الدكتور الهادى الغزى المقدمة لملتقى ، بناء المغرب العربى› تونس ، أكتوبر ١٩٨١ ، المطبعة العصرية ، تونس ١٩٨٣ ، ص-٢٥٠ وما بعدها . إذ يؤكد على فشل الحكومات فى تكريس الوحدة فى حين نجحت الأحزاب السياسية، ويوضح أن مقررات طنجة أصبحت أمرا اعتباريا نتيجة استفحال الشخصية الاقليمية والمصالح الذاتية على حساب نظرية الكفاح التحررى الموحد. والطرح ذاته يؤكده مهدى عبد الحميد ، مقابلة شخصية مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥ .

٥٤- يراجع الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، مرجع سابق، ج٢ ، ص١٥٨ .

٥٥- يراجع محمد الميلى : المرجع السابق ، ص٩٧ .

٥٦- ينظر بخصوص مؤتمر المهدية وقراراته ، المجاهد : العدد ٢٦ (٢ يوليو ١٩٥٨)، ص١٠٨ ومحمد الميلى ، المرجع نفسه ، ص١٠٥ .

٥٧- ورد هذا الرد فى محضر جلسات مؤتمر تونس ينظر Mohmmed Harbi , Les Archives de la Revolution Algerienne . Jeune Afrique, Paris 1981 , pp. 419 - 421 .

٥٨- للاطلاع على أسس هذه السياسة وتجاحاتها ينظر محمد الميلى: المرجع السابق، ص٩٩ .

٥٩- المرجع نفسه، ص١٢١ .

٦٠- ينظر بخصوص إعادة تركز القوات بالمغرب والصعوبات التى واجهت جيش التحرير الوطنى
A N A : Carton n°6, dossier n°12 "le Maroc et la révolution Algerienne"

تقرير مطول أعده مكتبي الدراسات التابع لوزارة الاتصالات العامة والإعلام للحكومة الجزائرية المؤقتة سنة ١٩٥٩ ، يتعرض الفقسم الأول منه لمراكز وطرق مواصلات القواعد العسكرية الفرنسية بالمغرب.

٦١- يراجع محمد حربى : مرجع سابق، ص١٧٨ .

62- ANA : Carton n°6 doss n°12 , p. 58 .

٦٣- محمد الميلى: المرجع السابق، ص١٢٠ .

٦٤- المرجع نفسه ، ص٩٩ ، والغالى الغربى: السياسة الفرنسية لفصل الصحراء وردود الفعل الدولية ، فصل الصحراء ، فى السياسة الاستعمارية الفرنسية ، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث ٥٤ ، الجزائر ١٩٩٨ ، ص٢٧١ وما بعدها .

٦٥- المجاهد : العدد ٢٧ (٢٢ يوليو ١٩٥٨) ، ص١ .

٦٦- ينظر بلقريز عبدالإله وآخرون : المرجع السابق، ص٧٢ .

٦٧- نشير أساسا إلى انتفاضة الريف فى خريف ١٩٥٨ ، وإلى المظاهرات التى كانت توجه من قبل المنظمات العمالية والطلابية والتوجيه الثورى فى حزب الاستقلال .

٦٨- ينظر الموقف المغربى من إعلان الحكومة الجزائرية المؤقتة ، طلاس مصطفى، بسام العسلى: الثورة الجزائرية ، مرجع سابق، ص٣٤٠ .

٦٩- ينظر الجنيدى خليفة وآخرون : المرجع السابق، ج٢ ، ص٢٣٥ .

٧٠- عامر رخيلة : الثورة الجزائرية والمغرب العربى ، مرجع سابق، ص١٦٩ .

71- ana . carton . 302 . dos 7 . 11 . brobleme des relations avec les outoritee marocanes . rep date le 17 Nevember 1961 .

٧٢- يراجع بن قليس أحمد : السياسة الدولية للحكومة المؤقتة الجزائرية ١٩٥٨-١٩٦٢ ، رسالة ماجستير ، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر ، ١٩٨٦ ، ص١٤٣ .

٧٣- ينظر حوار الدكتور شوقى مصطفاوى مع إذاعة صوت الجزائر بالرباط المنشور بـ المجاهد: العدد ٦٥ (٤ أبريل ١٩٦٠)، ص٤ .

٧٤- ينظر حول نشاطها ومهامها بالمغرب : الجنيدى خليفة وآخرون : المرجع السابق، ج٢ ، ص٢٤٠ . وشهادة رئيس هذه الوزارة عبد الحميد مهرى ، مقابلة شخصية مع الباحث .

منشورات اتحاد



القاهـــرة
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع عشر
مـــارس ٢٠٠٩م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع عشر

مارس ٢٠٠٩ م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطيـة - عمارات شركة الخليـج

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣

الموقع الالكترونى WWW.Dar -Ein.com

* مجلة علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر موقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن ثلاثين صفحة ، ويقدم البحث مكتوبا على الحاسوب على ورق كوارتر (A4) ، ومسجلا على (اسطوانة مدمجة) وفق برنامج word وبنط النص ١٤ ، وبنط الهوامش ١٢ ، والمسافة بين السطور Autp.

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات- لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

فى الكلمة التى افتتح بها الأستاذ الدكتور سعيد عاشور - رئيس شرف اتحاد المؤرخين العرب - العدد الأول من مجلة المؤرخ العربى الصادر فى مارس سنة ١٩٩٣م ذكر أن ذلك العدد «يمثل نقطة البدء والنواة الأولى التى نرجوا لها أن تنمو بفضل جهود الأخوة الزملاء لتصبح شجرة وارفة الظل، تعود بالخير على المشتغلين بتراث الأمة العربية وحاضرها ومستقبلها، بل تعود بالخير والبركة على مسيرة الحضارة الإنسانية فى كل زمان ومكان».

واليوم بصدور العدد السابع عشر من مجلة المؤرخ العربى يسعدنى ويشرفنى أن أعلن أنها بعد ستة عشر عامًا احتلت هذه المجلة مكانة متميزة بين الدوريات التاريخية المتخصصة الصادرة من مختلف الجامعات ومراكز البحوث التاريخية الجادة المبتكرة، التى تضيف جديداً إلى المعلومات التاريخية عبر العصور. ويقوم بتحكيم هذه البحوث أساتذة متخصصون ضمانًا للجودة، وتحقيقا للأهداف الرئيسية لاتحاد المؤرخين العرب التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى للاتحاد: وهى خدمة تاريخ العرب والمسلمين، والارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى، والعناية بالتراث التاريخى، والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب. وقد أصبحت البحوث التى تنشر فى مجلة المؤرخ العربى موضع تقدير المؤرخين المتخصصين وبخاصة فى اللجان العلمية للترقيات فى تخصص التاريخ فى الجامعات العربية.

ونأمل جميعًا فى تحقيق المزيد من التقدم والازدهار لمجلة المؤرخ العربى فى مستقبل الأيام، كما نرجوا أن يصلها تباعًا آراء الزملاء أعضاء الاتحاد ومقترحاتهم، وتقارير عن الندوات والمؤتمرات التاريخية التى تعقد فى شتى أنحاء الوطن العربى، وأهم الإصدارات التاريخية تحقيقًا للأهداف المرجوة، ولتصبح مجلة المؤرخ العربى صورة مشرقة للدراسات التاريخية العربية، والخروج بها من المحلية إلى العالمية.

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

كلمة التحرير

توالى مجلة المؤرخ العربى أداء رسالتها كمنبر للأبحاث التاريخية الجادة ، وصفحات المجلة تعبر عن وحدة العالم العربى ، فلقد شارك فى أبحاث العدد إخوة من أنحاء العالم العربى ، شرقية وغربية، وهى تعكس وجهات نظر عديدة ، وتعبر عن فكر متنوع ، وتقرب بين المدارس التاريخية المختلفة، فلقد شمل العدد دراسات لمؤرخين من مصر والسعودية ودول المغرب العربى.

والتنوع والتعدد شمل موضوعات العدد، والتى طوفت بنا من التاريخ القديم حيث تم العرض للممالك العربية قبل الإسلام، وتأثيرات الثقافة الأجنبية فيها، إلى تاريخ العصور الوسطى ، حيث تناول أحد الموضوعات ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢م، وفى تاريخ العصور الوسطى الإسلامية تناول مقال جوانب التسامح الإسلامى تجاه اليهود فى بلاد المغرب الأدنى خلال العصرين الفاطمى والزيرى، ومقال آخر عن علماء المغرب والأندلس الذين جاوروا مكة المكرمة. وانطلاقا للعصر الحديث وفترة العثمانيين تم تناول دور الطرق الصوفية بإقليم توات، وتناول بحث آخر الكلام عن سياسة الاستعمار الفرنسى تجاه الطرق الصوفية بالجزائر فى القرن التاسع عشر.

ومجلة المؤرخ العربى تسعى أيضا إلى عرض كل ما هو جديد على الساحة العلمية التاريخية، بعرض ملخصات لأهم الإصدارات التاريخية فى العالم العربى، ونأمل أن يوافينا الزملاء باصداراتهم ومؤلفاتهم لعرض ملخصات لها.

ونرجو أن يكون العدد إضافة إلى المكتبة التاريخية.

رئيس التحرير	أعضاء هيئة التحرير
أ.د. زبيدة محمد عطا	أ.د. حامد زيان
	أ.د. عفاف صبره
	أ.د. عفيفى محمود

د. سامى عبد الفتاح محمد شحاته(*)

التجنيد المحلى فى مصر فى العصر الرومانى

تقـــديم:

يتناول موضوع هذا البحث دراسة التجنيد المحلى فى مصر من الاحتلال الرومانى ٣٠ ق.م. حتى عصر الإمبراطور سبتميوس سيفيروس، وأهمية هذا الموضوع تنبق من أهمية مصر ذاتهـــا ثم بكونها أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية، وإحدى الجبهات الرئيسية لقوات الجيش الرومانى، ولقد أدرك أغسطس أهمية موقع مصر الاستراتيجى وسهولة الدفاع عنه كما تأكد من أهميتـــها كمستودع للقمح لا غناء عنه لإطعام الشعب الرومانى، وكذلك كمورد للثروة والمال لابد منه لتدعيم الخزانة التى نضبت من جراء الحروب الأهلية، بالإضافة إلى كثافة سكانها ، لـــذا فقـــد حرص أغسطس على تأمينها من الوقوع فى يد الخصوم والمنافسين، وإلى جانـــب الاحتياطـــات الأخرى التى اتخذها، فإنه وضع فيها من الفرق الرومانيـــة (*Legiones*) والقـــوات المـــساعدة (*auxilia*) أكثر مما تقتضيه حاجة الدفاع عنها.

* مدرس بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

فماذا كان انعكاس ذلك على التجنيد المحلي في مصر؟ وكيف كان يتم الالتحاق بصفوف الجيش الروماني؟ وهل كانت الفرصة مواتية لكل فئات وطبقات السكان في مصر للانضمام إلى هذا الجيش ؟ وما هو أصل هذه الفرق الرومانية؟ ومن أين كان يتم دعمها بالمجندين؟ وما هي أهم مراحل تطور التجنيد في مصر؟

وهذه الدراسة هي محاولة من خلال دراسة وتحليل الوثائق المدونة باليونانية واللاتينية، للإجابة عن هذه الأسئلة وإلقاء الضوء على بعض جوانب هذه المؤسسة العسكرية لما لها من أهمية كبيرة في تاريخ مصر في العصر الروماني.

إجراءات التجنيد

الالتحاق بصفوف الجيش الروماني (*exercitus*) والقيام بالخدمة العسكرية (*στρατεύεσθαι-militare*)[١] يبدأ بأحد الإجراءات الذى أشارت إليه الوثائق البردية ببعض المصطلحات مثل (*probatio*)، وتعنى الاختبار أو التحقق أو الإثبات، أو عبارات وردت بهذا المعنى في بعض الوثائق البردية مثل (*tirones probatio voluntarii*)[٢] وتعنى التسجيل للمجندين اختياريا، ويقابل في اليونانية مصطلح (*ἐπίκρισις*) الفحص العسكرى، وهو إجراء ذو طبيعة عسكرية يجب على الفرد بمقتضاه التقدم بطلب مكتوب للفحص والتسجيل في أفرع ووحدات الجيش الروماني، كما يتعين عليه المثول بنفسه أمام الوالي ومعه المستندات (*δικαιώματα*) الدالة على وضعه القانوني وموطنه وعمره وكل ما يثبت أهليته للخدمة العسكرية، كما كان يصطحب معه ثلاثة أشخاص كشهود لضمان هويته.[٣]

وعملية الفحص وتسجيل المتقدمين للخدمة العسكرية كانت تخضع لإشراف حاكم مصر الذى كان يسيطر على القوات العسكرية في مصر سيطرة مباشرة بحكم تمتعه بسلطة الـ (*imperium*) وهذه السلطة تتضمن سلطات وصلاحيات أخرى لم يكن في وسع هذا الوالي أن يدير الشئون العسكرية أو يقوم بالحرب أو يقود الجيوش بدونها، وكان الحاكم يمارسها كما يمارسها حاكم الولاية الإمبراطورية بطريق التفويض من الإمبراطور.[٤]

ويقوم هذا الحاكم في مدينة الإسكندرية ـــ مقر القيادة العسكرية ـــ بفحص المتقدمين من الشباب للخدمة العسكرية والموافقة على صلاحيتهم وتسجيلهم في وحدات الجيش، يتضح

ذلك من الخطاب المحرر باللاتينية(*) والذى أرسله والى مصر ميتوكيوس ايتالوس إلى قائد الكتيبة الثالثة الأيتورية ويدعى كيلسيانوس، العام السادس من حكم الإمبراطور تراجان وجاء فيه: "صديقى العزيز تحياتى، أعط أوامرك بأن المجندين الستة الذين قمت أنا بفحصهم وقبولهم، يتم تسجيلهم فى الكتيبة التى تحت قيادتك وذلك اعتباراً من التاسع عشر من شهر فبراير".(٦)

ويرفق الحاكم طى هذا الخطاب بياناً بأسمائهم وأعمارهم وأوصافهم، ويتبين أن أصغرهم سناً كان يبلغ ٢١ عاماً وأكبرهم كان ٢٥ عاماً، ومتوسط أعمارهم ٢٢ عاماً وشهرين. وفى نهاية الخطاب (سطر ٢٤–٣١) يوجد تاريخ تسلم الخطاب وحفظه، ثم توقيع سكرتير الكتيبة بأن أصل الخطاب تم حفظه فى أرشيف الكتيبة. L. 30: in tabulario cohortis

وثيقة أخرى(٧) تتضمن سجلاً لقوة الكتيبة الأولى الأغسطية التى كانت تعسكر فى مواجهة مدينة أبولونوبوليس الكبرى (أدفو) منذ عام ١٣١م. ويتضح من هذا السجل أن الحاكم سمبرونيوس ليبراليس كان قد خضع أمامه للفحص العسكرى تسعة من المجندين اختيارياً وصدق على تسجيلهم فى هذه الكتيبة .

LL. 28-30: tirones prob[a]ti voluntari a Sempronio Liberalae praefecto) Aeg(ypti) viiii,

وبعد أن يخضع المجندون للفحص العسكرى أمام الحاكم الذى يقرر قبولهم وتسجيلهم (*scribere or referre*)(٨) فى وحدات الجيش، يلى ذلك الأمر بإيداع الدعم والمخصصات المقررة لهم فتتضمن إحدى البرديات(٩) إيصالاً أصدره لونجينيوس لونجوس من الكتيبة الأولى اللوسيتانية، سرية يتولى قيادتها تيتوليوس أنه تسلم مبلغ أربعمائة وثلاثة وعشرين ديناراً فضياً قيمة إيداعات لصالح مجندين من آسيا وعددهم عشرون مجنداً.

LL.5-7: *ὑπὲρ δηποσίτου τι[ρώνων] Ἀσ[ιανῶ]ν διατριβούτων ἐν τῇ κεντυρίᾳ ἀνδρῶν εἴκοσι.*

وإيصال آخر فى نفس الوثيقة (سطر ٩–١٤) بمبلغ مائتين واثنين وثلاثين ديناراً تم إيداعه فى هذه الكتيبة لصالح سبعة عشر مجنداً من آسيا ينتمون للسرية التى يتولى قيادتها كريسكينتوس ثم التاريخ: العام الحادى والعشرون من عصر الإمبراطور تراياانوس.

ولم يقتصر إخضاع التجنيد المحلى لسلطة وإشراف الحاكم بل إن مجرد انتقال أحد الجنود من وحدة إلى أخرى أو من فرع إلى آخر كان يخضع أيضا لإشراف الحاكم، ففى رسالة خاصة من باوزانياس(١٠) يتضح أن ابنه الذى كان يخدم فى إحدى الفرق العسكرية فى الإسكندرية لم يرغب فى الخدمة فى هذه الفرقة، ويريد الانتقال إلى إحدى فصائل الفرسان المرابطة فى قفط (ربما لقربها من محل إقامة أسرته)، لذلك سافر الأب إلى الإسكندرية، واستخدم الكثير من الطرق والوسائل(١١) حتى تم نقله أخيرا إلى فصيلة الفرسان فى قفط.

LL.9-11: *κατελθὼν εἰς Ἀλεξάνδρειαν πολλαῖς ἀφορμαῖς ἐχρησάμην ἄχρι οὗ [[υ]]μετενέχθη εἰς τὴν Κόπτῳ εἴλαν.*

ويبدو أن هذا الأب نجح فى مسعاه وبالتالى خضع ابنه للفحص العسكرى أمام الحاكم، إذ نستدل على ذلك من أن النص يذكر أن الحاكم نفسه منحه أيضا أجازة محددة قبل أن يصل إلى وحدته العسكرية المنقول إليها فى قفط (*Coptos*).

وفى بعض الأحيان كان الحاكم ينيب عنه أحد كبار القادة العسكريين مثل قادة الفرق أو فصائل الفرسان أو الأسطول للقيام بمثل هذه المهام(١٢) فعلى سبيل المثال يتبين من وثيقة أخرى(١٣) أنه تم نقل جندى يدعى أسيدوروس من كتيبة الفرسان إلى الأسطول بعد أن خضع للفحص العسكرى أمام قائد أسطول الإسكندرية نيابة عن الحاكم.

ولضمان ضبط عملية الفحص والتسجيل فى أفرع الجيش الرومانى تذكر المادة رقم ٥٥ من مقننة الإيديولوجوس أنه "إذا أدى مصرى الخدمة العسكرية فى فرقة رومانية دون أن يكتشف أمره، فإنه بعد تسريحه يعود إلى حالته الأولى بوصفه مصرياً، والحال بالمثل بالنسبة لمن التحقوا بسلاح المجدفين، فإنهم عقب تسريحهم يعودون إلى حالتهم القديمة، على أن يستثنى من ذلك فقط الذين ينتمون إلى الأسطول المرابط فى ميسينوم".(١٤)

وهى بالتالى توجه التحذير للمصريين من اقتراف أية مخالفات فى هذا الشأن واتباع أساليب غير قانونية للانضمام إلى هذه الفرق الرومانية أو غيرها وانتحال الصفات واغتصاب حقوق المواطنة الرومانية، فى الوقت الذى لم يكن مسموحاً للمصرى الالتحاق بإحدى الفرق مالم يكن قد منح من قبل المواطنة الرومانية، وهذا أمر كان عسير المنال.(١٥)

الشروط والقواعد التنظيمية للتجنيد

والسؤال هنا هل الانخراط فى صفوف الجيش الرومانى كان مباحا لجميع طبقات وفئات السكان فى مصر؟ يختلف الوضع إذا ما كان الأمر يتعلق بالخدمة العسكرية فى الفرق الرومانية (*Legiones*) أو القوات المساعدة (*auxilia*) والأسطول (*classicae*) كذلك الوضع القانونى للمتقدم للتجنيد يمثل عنصراً هاماً وحاسماً.

أولا: فبالنسبة للتسجيل فى الفرق العسكرية كان لا يسمح للعبيد ولا المحررين (المعتقين) الانضمام إليها ويستبعد كذلك الأجانب (*peregrini*) والمصريون باعتبارهم من وجهة نظر القانون الرومانى يدخلون ضمن الأجانب، ولأن الفرق الرومانية كانت تتكون كقاعدة عامة من الجنود الرومان الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية[١٦] سواء داخل إيطاليا أو المقيمين فى ولايات الإمبراطورية أو من المناطق التى يمنح سكانها الجنسية الرومانية (*civitas romana*) فإنه فى مصر يكون مسموحاً لفئات معينة الالتحاق بالفرق العسكرية الرومانية وهى كالتالى:

أ ــ المواطنون الرومان، الذين استقروا فى مصر وأخذت أعدادهم تتزايد تدريجيا وكانت تضم من حضروا للعمل فى إدارة الولاية أو للاستفادة من النشاط التجارى والمالى، وانضم إليهم عدد كبير من الذين اكتسبوا المواطنة الرومانية عن طريق الخدمة العسكرية فى الجيش، وكذلك عدد من طبقة الإسكندريين الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية فهؤلاء جميعاً مهما كان أصلهم والطريقة التى حصلوا بها على المواطنة الرومانية كانوا يمثلون طبقة المواطنين الرومان فى مصر.[١٧]

ب ــ مواطنو المدن الإغريقية؛ إذ كان يسمح لهم بالخدمة العسكرية فى الفرق الرومانية، وكانوا يتحولون بمجرد تسجيلهم فى هذه الفرق إلى مواطنين رومان[١٨] فتحتوى وثيقة بردية على عقد وكالة أصدرها جندى يدعى جايوس يوليوس ساتورنينوس لطرف آخر من أوكسيرينخوس، تبين منها أن جايوس كان لا زال فى الخدمة العسكرية ومسجل فى الفرقة ديوطاروس الثانية والعشرين وحصل على المواطنة الرومانية ويحمل اسماً رومانياً، وكان قبل الخدمة العسكرية مواطنا سكندرى وكان يدعى بطليموس بن بطليموس.[١٩]

كذلك ماركوس أوريليوس أزيدوروس جندى التحق عام ١٦٨م. بالفرقة الثانية تراجانا الكتيبة الخامسة، سرية تحت قيادة سيفيروس وتم تسريحه عام ١٩٤، وقبل انضمامه إلى هذه الفرقة كان مواطنا سكندرياً.[٢٠]

ج ــ المولودون فى المعسكر (καστρῆσις=castris) كان يسمح لهم أيضاً بالخدمة فى الفرق، وهم أبناء الجنود الذين تزوجوا زواجاً غير شرعى لمخالفتهم قاعدة حظر الزواج على الجنود أثناء الخدمة العسكرية، وتمكنوا من تكوين عائلات فى كل شئ عدا الناحية القانونية، وسكنوا فى مناطق نمت وتطورت حول المعسكرات والقلاع أو بالقرب منها وأصبحت أشبه بضواحى المدن، لذا فكثير من جنود الفرق لم يذكروا اسم مدينة أو ولاية، وإنما مصطلح "ex castris"(٢١) كموطن (origo) لهم.

ومثالاً لهذه الفئة يوضحه نقش نيكوبوليس(٢٢) الذى يتضمن أسماء بعض الجنود الذين التحقوا بالخدمة العسكرية فى الفرقة الثانية ترايانا، الكتيبة الخامسة، عام ١٦٨م. وكانوا أصلاً من مواليد المعسكرات ومنهم:

ــ ماركوس جابينيوس أمونيانوس بن ماركوس من مواليد المعسكر "castris" من مائة (أى سرية) تحت قيادة كيلير.

ــ تيتوس أوريليوس خايرموتيانوس بن تيتوس من مواليد المعسكر "castris" سرية تحت قيادة فلافيوس فيليبيانوس.

ــ جايوس بومبيوس سربتوس بن جايوس، من مواليد المعسكر "castris" من سرية تحت قيادة سيفيروس.

د ــ الفئة الرابعة "peregrini"؛ من غير الرومان أى الأجانب وتكون فقط فى الظروف الاضطرارية أو الأوقات الحرجة، يوضح ذلك بردية(٢٣) تم تحريرها فى قيصرية بفلسطين تتضمن التماساً من اثنين وعشرين من الجنود المسرحين من أصل مصرى كانوا قد بدأوا خدمتهم العسكرية فى أسطول ميسينوم وبعد فترة تم نقلهم إلى فرقة فريتينسيس العاشرة (X Fretensia Legio) طبقا لقرار الإمبراطور هادريانوس، وبعد تسريحهم يطلبون فى هذا الالتماس من حاكم قيصرية اعطائهم وثيقة رسمية تفيد أنه تم تسريحهم عن طريقه من الفرقة ذاتها، وليس من الأسطول، وحتى يمكنهم بعد العودة، الاستناد عليها والإفادة منها عند الضرورة.

L. 10-12: ut ex adfirmatione tua appareat
nos ex eadem legione missos esse non ex

classe, ut possit rebus necessariis subscriptio
tua instrumenti causa nobis prodesse.

هكذا فإن هؤلاء الجنود وهم أصلاً لا يتمتعون بالمواطنة الرومانية ولكن بعد أن تم ضمهم إلى هذه الفرقة العسكرية أصبحوا يتمتعون بحقوق المواطنة، ولذلك يطلبون من حاكم قيصرية الذى يخضعون لسلطته العسكرية وأشرف على تسريحهم أن يعطيهم وثيقة رسمية تثبت تسريحهم من هذه الفرقة ومن ثم تمتعهم بالمواطنة الرومانية وتضمن لهم ما يترتب عليها من حقوق وكذلك المنح والمكافآت الأخرى بمناسبة تسريحهم، وحتى يمكنهم تفادى ما قد يظهر مستقبلاً من لبس أو مشاكل عند عودتهم إلى مصر.

وهذه الحالة النادرة حيث تم إلحاق عناصر غير رومانية "*peregrini*" إلى فرقة رومانية "*Legio*" بمقتضى قرار الإمبراطور هادريانوس، ارتبطت فيما يبدو بظروف تجدد الاضطرابات والصدام المسلح بين الرومان واليهود فى فلسطين ومصر.[٢٤]

كانت هذه هى الشرائح أو الفئات الأربع التى يسمح لأفرادها بالتجنيد والخدمة فى الفرق العسكرية الرومانية، ولقد أدرك أغسطس أهمية مصر وأنها من أكثر الولايات كثافة فى السكان وأوفرها ثراء وإنتاجاً فى القمح لذا فقد وضع فيها ما لا يقل عن ثلاث فرق عسكرية بالإضافة إلى القوات المساعدة؛ فيذكر استرابون[٢٥] "أنه يوجد فى مصر ثلاث فرق عسكرية، إحداها فى المدينة (الإسكندرية) والأخريان داخل البلاد. وتوجد غير هذه تسع كتائب رومانية ثلاث منها فى المدينة وثلاث على الحدود الأثيوبية (النوبة) فى سوينى (أسوان) وثلاث فى باقى البلاد، وهناك أيضاً ثلاث فصائل من الفرسان موزعة بالمثل على المراكز الحيوية".

فما هو أصل هذه الفرق ؟ وما هى الأقاليم والولايات التى ينتمى إليها أفراد هذه الفرق العسكرية ؟ ومن أين كان يتم دعمها بالمجندين؟.

أصل هذه الفرق التى خدمت فى مصر لا يعرف عنها سوى القليل لأن الموجود من قوائم الجنود قليل جداً، ومع ذلك تتضمن إحدى الدراسات الحديثة بعض الجداول والاحصاءات[٢٦] وبتحليلها يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

١ ــ إن وجود الجنود من أصل إيطالى يمثل نسبة ليست بالكبيرة فيتضح من وثيقة بردية ترجع إلى القرن الأول الميلادى أن نسبتهم كانت ١٤,٢% من عدد الجنود فى المصدر

ذاته[٢٧]، وفى القرن الثانى كانت ١١,٣% من عدد الجنود طبقاً لنقش نيقوبوليس الذى عثر عليه بالقرب من الإسكندرية.[٢٨]

٢ ــ وجود نسبة كبيرة من الجنود الذين ترجع أصولهم إلى آسيا الصغرى ــ خاصة جالاتيا (*Galatia*) ــ فى القرن الأول بعد الميلاد وكانت نسبتهم ٤٠% من عدد الجنود حسب ما ورد بمصدرين اللين يرجعان إلى هذا القرن.[٢٩] أما فى القرن الثانى هبطت نسبتهم إلى ٢,٥% من عدد الجنود وترجع أصولهم إلى بيثنية (*Bithynia*).[٣٠]

٣ ــ إن التجنيد المحلى بما فى ذلك أبناء المعسكرات (*ex castris*) مثبت ومؤكد منذ فترة مبكرة ترجع إلى عهد أغسطس، وشهد هذا التجنيد المحلى زيادة كبيرة بمرور الوقت، ففى القرن الأول كانت نسبة المجندين محليا حوالى ٢٥% من عدد الجنود فى المصدر ذاته،[٣١] وارتفعت هذه النسبة إلى ٧٧,٥% فى النصف الثانى من القرن الثانى.[٣٢]

٤ ــ إن وجود الجنود السوريين أمر وارد ومتوقع نظراً لقرب مصر ومجاورتها لسورية، وكانت نسبتهم ٢١,٥% من عدد الجنود حسب مصدر من القرن الأول،[٣٣] وتراجعت هذه النسبة إلى ١٤% حسب مصدرين من القرن الثانى.[٣٤]

٥ ــ وأخيراً وجود جنود من أفريقية بنسبة ٢,١٠% فى القرن الأول،[٣٥] ولكن هذه النسبة ترفع ارتفاعاً كبيراً ووصلت إلى٦٧% حوالى منتصف القرن الثانى كما يتضح من أحد النقوش الذى يرجع إلى عام ١٥٧م.،[٣٦] وهذه الزيادة الكبيرة فى النسبة المئوية يمكن تفسيرها بأن هذا النقش يحتوى على إهداء مقدم إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس من مجموعة من الجنود وعددهم ١٣٢ جندى بمناسبة انتهاء خدمتهم العسكرية وتسريحهم عام ١٥٧م. من الفرقة الثانية تراجانا التى كانت تعسكر فى نيقوبوليس ضاحية الإسكندرية، وهذا يعنى أنه قد تم تجنيدهم حوالى عام ١٣٢م.، وفى أثناء حكم الإمبراطور هادريان وهى الفترة التى عاصرت أحداث اليهود وتداعياتها،[٣٧] لذا قرر هذا الإمبراطور فيما يبدو ضم بعض قوات الفرقة الثالثة الأغسطية، التى كانت مرابطة معظم الوقت فى ولاية إفريقية، إلى الفرقة الثانية تراجانا بالإسكندرية. وربما يدعم هذا التفسير أن النسبة المئوية لهؤلاء الجنود من ولاية إفريقية تعود ثانية إلى الهبوط حتى تصل إلى ٥% من عدد الجنود فى نقش من نهاية القرن الثانى بعد الميلاد.[٣٨]

ثانياً: أما القوات المساعدة (*auxilia*) فكانت تتألف من كتائب المشاة (*cohortes*) وفصائل الفرسان (*alae*) كل منها تضم إما ٥٠٠ أو ١٠٠٠ جندى تحت إمرة قائد (*perefectus*) مجندين غالبا من بين سكان الولايات غير المواطنين (*peregrini*)، وكانت بعض هذه الكتائب تنظم مشاة وخيالة وتعرف باسم (*cohortes equitatae*).[٣٩]

ويذكر ريكارد السون أن التجنيد فى القوات المساعدة لا يوجد بشأنه قاعدة واضحة ومحددة فى كل الولايات؛ التى احتفظت كل منها بأصلها المحلى والمميز، بل كان يتم تجنيد هذه القوات بشروط وأعداد تختلف من حالة إلى أخرى.[٤٠]

ومنذ عصر أغسطس أصبحت القوات المساعدة جزءاً هاماً من الحامية الرومانية فى مصر، وكانت توجد منها تسع كتائب (*cohortes*) وثلاث وحدات فرسان (*alae*)، ثلاث من الكتائب التسع عسكرت عند سييق (أسوان) لحماية الحدود الجنوبية وثلاث أخرى فى الإسكندرية، والكتائب الثلاث المتبقية توزعت فى وحدات صغيرة على النقاط الإستراتيجية فى مختلف نواحي البلاد. كذلك الأمر أيضا بالنسبة لوحدات الفرسان الثلاث.[٤١] واعتمد النظام الرومانى على نشر القوات فى مختلف أقاليم مصر فى المعسكرات الحصينة وفى المراكز الأقل أهمية، وتغير تشكيل الكتائب والوحدات خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد بالإضافة أو بالنقل أو بالإلغاء.[٤٢]

ومع ذلك يمكن حصر عدد من الوحدات ـــ من خلال البرديات ـــ عسكرت فى مناطق استراتيجية فى جنوب البلاد أحياناً كحاميات وفى أحيان أخرى أثناء قيامها بمهام خاصة، ومثال على ذلك الكتيبة الاغسطية الأولى التى عسكرت فى عام ١٣١م. عبر النهر تجاه ابولونيوبوليس (*Apollon opolis*) فى مصر العليا ونراها بعد ٢٥ عاماً فى نفس المكان بقوة إجمالية عددها ٥٠٥ جندى منها ٣٦٣ من المشاة و ١١٤ من الفرسان و ١٩من راكبي الجمال و ٦ من ضباط برتبة الكينتوريون (قائد مائة) و ٣ برتبة الديكيريون (قائد سرية).[٤٣]

وتوضح الوثائق البردية أن كثيراً من المجندين فى القوات المسلحة المساعدة (*auxilia*) ينتمون إلى عواصم الأقاليم المصرية (*metropoleis*)، وترجع أصولهم إلى طبقة الإغريق الذين استوطنوا مصر أثناء العصر البطلمى، وأبرم الكثير منهم عقود زواج مشترك مع المصريين.[٤٤]

ويبدو أن الجيش كان مجالاً جاذباً للأفراد متواضعي الحال الذين كان يمكن أن يدفع بهم إلى التطور والنجاح[٤٥] ويذكر تاوبنشلاج أن الخاضعين لضريبة الرأس (λαογραφούμενοι)كان يمكنهم أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية أيضاً في صفوف القوات المساعدة[٤٦] التي كانت مدة الخدمة فيها ٢٥ عاماً، وبعد أن ينتهي الجنود من خدمتهم العسكرية بما يرضي قادتهم يحصلون على التسريح المشرف (*missio honesta*) بصفة رسمية وقانونية، فعلى سبيل المثال يتبين من إحدى الوثائق البردية[٤٧] أن الجندي المسرح فاليريوس كليمنيس أعلن أنه خدم في الكتيبة الثانية الإيتورية، وعرض خطاباً باللاتينية من باكتوميوس ماجنوس، الوالي السابق، يوضح أنه بعد أدائه الخدمة العسكرية في الكتيبة المذكورة عالية حصل على التسريح القانوني.

L. 8-13: ὁ προγεγραμμένος οὐετρανὸς δηλώσας ἑαυτὸν

ἐστρατεῦσθαι ἐν σπείρῃ β Ἰτυραίων ἐπέδειξεν

Πακτουμηίου Μάγνου τοῦ ἡγεμονεύσαντος ἐπιστολὴν᾽ Ῥωμαϊκ
ὴν δι᾽ ἧς ἐδηλοῦτο στρατευσ-άμενον αὐτὸν ἐν τῇ προγεγραμμένῃ
σπείρῃ νομίμῃ ἀπολεύσι ἀπολελῦσθαι.

هكذا يتضح أن الحاكم كان يشرف على تسريح الجنود، ويصدق على منحهم التسريح المشرف عند اكتمال مدة الخدمة العسكرية[٤٨] لكل منهم تبعاً للأسلحة التي يخدمون فيها، ويترتب على هذا التسريح المشرف منح الجندي المسرح أو المحارب (*veteranus*) الجنسية الرومانية هو وأبنائه بالإضافة إلى حق الزواج الشرعي (*ius conubii*)، في صورة شهادة أو دبلومة تؤكد الوضع القانوني الجديد، وهذه الدبلومات العسكرية (*diplomata militaria*) كانت تصدر بمقتضى مراسيم إمبراطورية (*constitutiones*)، وتمنح للجنود (غير الرومان) المسرحين (*veterani*) من القوات المساعدة (*auxilia*) بعد خدمة مدتها ٢٥ عاماً، والمسرحين من الأسطول (*classis*) بعد ٢٦ عاماً.[٤٩]

وأخذ الرأي العام يتقبل الخدمة العسكرية في القوات المساعدة أكثر من الفرق، ولكن بدأ يظهر اتجاه عام لا يتقيد بالشروط المرعية عند تجنيد الأفراد في الفرق العسكرية؛ فأخذت الفرق تسجل شباباً من بيئات متواضعة بشكل متزايد، بينما القوات المساعدة تسجل مواطنين رومان أكثر فأكثر، ونتيجة ذلك أصبح هناك تقارب تدريجي لكلا النوعين من القوات العسكرية وبمرور الوقت لم يعد هناك فرق يذكر بين الخدمة في الفرق والخدمة في القوات المساعدة[٥٠]

ثالثا: ويحتل الأسطول المرتبة الثانية فى الأهمية بعد قوات الجيش البرية، وبعد أن أعاد أغسطس تنظيم القوات البحرية كان الهدف الحقيقى منها هو أن تكون بمثابة قوة دفاعية ضد أعمال القرصنة والقيام بأعمال الحراسة والنقل وحفظ الأمن فى البحار بشكل عام، وأصبحت قاعدتا الأسطول (*classis*) الرئيسيتان تقعان فى رافنا (*Ravenna*) لتأمين البحر الأدرياتيكى وميسينوم لتأمين البحر التيرانى.(٥١)

وكان يتم تجنيد رجال البحرية (*classiarii*) من الأجانب من مختلف الولايات، وكذلك قليل من العبيد الذين تم تحريرهم قبل تسجيلهم فى الأسطول — وهى حالة استثنائية عكس القاعدة — واشترك أيضاً المواطنون الرومان ويرجع ذلك إلى عصر أغسطس، وشغلوا الرتب الكبيرة كما استندت القيادة العليا للأسطول إلى قادة من طبقة الفرسان الرومانية.(٥٢)

وتوضح الوثائق البردية(٥٣) أن الشباب المصرى، التحقوا بصفوف القوات البحرية، ورسائلهم الشخصية إلى أفراد أسرهم فى مصر، تساعد فى إلقاء الضوء على ظروف تجنيدهم وعملهم بالوحدات البحرية المختلفة؛ فأبيون بن ايماخوس المجند حديثا فى أسطول ميسينوم يرسل إلى والده فى فيلادلفيا(٥٤) ليخبره بأنه حصل على اسم "أنطونيوس ماكسيموس"، وتم إلحاقه بوحدة "اليونيكا".

LL. 22-24: ἐστι [δε] μου ὄνομα Ἀντῶνος
Μάξιμος. ἐρρῶσθαι σε εὔχομ(αι). κεντυρί(α) Ἀθηνονίκη.

واسم الوحدة فى الأسطول هو اسم السفينة التى يخدم الجندى ضمن طاقمها(٥٥) وأرسل هذا الجندى بعد ذلك بفترة رسالة أخرى يتضح منها أنه تزوج وأنجب ابناً(٥٦)

ورسالة أخرى من مجند حديث بأسطول ميسينوم يدعى أبوليناريوس إلى والدته فى كراليس(٥٧)

يبلغها فيها بسلامة وصوله إلى روما وأنه لم يتم تسجيله فى وحدته البحرية، لأنه لم يصل بعد إلى ميسينوم عندما كان يكتب لها هذه الرسالة. ويفهم من ذلك أن قائد الأسطول هو الذى يتولى توزيع وتسجيل المجندين على الوحدات البحرية التابعة لأسطوله.

ويبدو أن الأمر اقتضى بناء أساطيل إقليمية لاتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية وازدياد أعبائها، فالقمح الذى كان ينقل بحراً من الإسكندرية كانت تقوم بحراسته سفن أسطول

الإسكندرية، وترجع أول إشارة إلى "الأسطول السكندرى العظيم" إلى عصر كاليجولا (٣٧ـ٤١م.)[٥٨]، ولكن لابد أن هذا الأسطول كان موجوداً منذ عصر أغسطس كأسطول رومانى إقليمى بالإضافة إلى الأسطولين الرئيسيين فى ميسينوم ورافينا بإيطاليا، والأرجح أن النواة الأولى لهذا الأسطول السكندرى تكونت من سفن كليوباترا السابعة التى لم تتحطم فى معركة أكتيوم، وقد ضم هذا الأسطول سفناً حديثة طويلة وسريعة مجهزة بقواطع، وتولى قيادته ضباط من طبقة الفرسان أيضاً.[٥٩]

وتتضمن وثيقة بردية أن كلاوديوس تيرنتيانوس المجند فى أسطول الإسكندرية أرسل إلى والده فى كرانيس يخبره عن المرض الذى كان يعانى منه على ظهر السفينة، إلا أنه أصبح قادراً على أن يرسل إلى والده بعض الأدوات من الإسكندرية[٦٠] ربما لم تكن متوافرة فى كرانيس، وهذه الوثيقة تنتمى لأرشيف "تيبريانوس" الذى تم اكتشافه فى أحد منازل كرانيس ويتضح منه أن هذا المجند أرسل إلى والده تسع رسائل محررة بالإغريقية وست رسائل باللاتينية، وكتابته الأخيرة يشوبها بعض الأخطاء وبها مؤثرات وتداخلات إغريقية مما يوحى بأن لغته الأصلية هى اللغة الإغريقية[٦١].

وتحتوى بردية أخرى[٦٢] على رسالة من روما بعثها ايرينايوس إلى أخيه يخبره بوصوله إلى الأراضى الإيطالية يوم السادس من شهر أبيب، ولم يتم تفريغ الشحنة حتى اليوم الثامن عشر من نفس الشهر، ووصل إلى روما فى اليوم الخامس والعشرين من نفس الشهر، ومنذ ذلك وهم يتوقعون يومياً تسريحهم، وحتى ذلك اليوم لم يتم تسريح أى شخص من أسطول القمح.

LL. 14-15: ὥστε ἕως σήμερον μηδέναν
ἀπολελῦσθαι τῶν μετὰ σίτου.

يتبين إذن أن أسطول الإسكندرية الذى كان يشارك فى صيانة الأمن ومراقبة البحار قد انصب اهتمامه بصفة خاصة على حراسة السفن التى تنقل القمح وشحنات الغلال من مصر إلى إيطاليا، وكذلك فإن جنود الأسطول من الأجانب (*peregrini*) كانوا يحصلون على الاسم الثلاثى منذ عام ٦٩م. وبعد أداء خدمتهم العسكرية (*militia*) التى تمتد إلى ٢٦ عاماً يحصلون على الدبلومات التى تمنحهم المواطنة الرومانية.[٦٣]

وبخصوص حجم مشاركة كل من الولايات فى تعبئة جنود الأسطول الرومانى، تكمن الصعوبة فى ندرة المصادر والإحصاءات الدقيقة التى كان يمكن التعويل عليها فى هذه المسألة ومع ذلك يحاول أحد الباحثين ترتيب الولايات طبقاً للزيادة العددية للبحارة المجندين من كل منها، حسب ما تسمح به المصادر المتاحة والقوائم الحديثة، وهى كالتالى: أن البحارة على سفن أسطول ميسينوم تم تجنيدهم من: مصر، آسيا، تراقيا، سردينيا، سورية، دلماتيا، أفريقية، اليونان، إيطاليا، كورسيكا. والبحارة على سفن أسطول رافينا تم تجنيدهم من: دالماتيا، سورية، مصر، بانونيا، كورسيكا، سردينيا، آسيا، إيطاليا، اليونان.(٦٤)

يتبين إذن مدى مساهمة مصر فى دعم الأسطول الرومانى بالمجندين، هذا غير "أسطول الإسكندرية" στόλου Σεβαστοῦ Ἀλεξανδρίνου الأقليمى الذى من المحتمل تم دعمه أيضا بعدد كبير من المجندين المصريين كما توحى بذلك الوثائق البردية التى سبق عرض جانب منها.

مراحل تطور التجنيد:

كانت تلك هى الإجراءات والقواعد التنظيمية للتجنيد فى مصر ودعم الأفرع الرئيسية للجيش الرومانى:

الفرق والقوات المساعدة والأسطول بالمجندين من مصر، ومع أن التجنيد المحلى سمة من سمات الجيوش الرومانية فى الولايات المختلفة إلا أنه بدأ فى مصر فى وقت سابق،(٦٥) وينسب إلى الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م.) إحداث نقلة نوعية بشأن هذا التجنيد فى مصر، فمنذ عهد هذا الإمبراطور اتجهت سياسة الأباطرة إلى تعبئة جنود الحاميات الرومانية فى الولايات من أهلها بعد أن ظلت على مدى قرن ونصف منصرفة إلى تعبئة هؤلاء الجنود من خارج الولاية.(٦٦)

ويبدو أن تطوراً راسخاً بدأ منذ بداية القرن الثانى الميلادى للتحول من التجنيد الإقليمى إلى التجنيد المحلى، ولكن الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م.) اتخذ سياسة معارضة لهذا الاتجاه، وحاول أن يعتمد على إيطاليا لدعم فرق الجيش بالمجندين ثانية وقدم المساعدات والقروض

للفئات التى كانت فى حاجة إليها والتى كان يعتمد عليها فى تعبئة المجندين، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، لذا فالإمبراطور هادريان عندما تولى السلطة أعطى دفعة قوية للتجنيد المحلى،[٦٧] وفى هذاالسياق يمكن فهم الدوافع والظروف المحيطة بقرار الإمبراطور هادريان عام ١١٩.[٦٨] والصادر فى شكل فتوى كتابية إلى والى مصر كونتوس راميوس مارتيالس، يمنح حقا قانونياً للأبناء غير الشرعيين للجنود الذين توفوا خلال خدمتهم العسكرية دون أن يتركوا وصية ــ بأن يرثوا آباءهم.

LL. 20-28: ὃνπερ τοιγαροῦν τ[ρόπ]ον οὐκ εἰσιν νόμιμοι

κληρο [νόμ]οι τῶν ἑαυτῶν πατέρων οἱ τῷ [τ]ῆς

στρατείας χρόνῳ ἀναλημφθέντεσ, ὅμως κατοχῆ [ν]

ὑ[πα]ρχόντων ἐξ ἐκείνου τοῦ μέ[ρ]ους τοῦ διατάγ-ματος οὗ κα
ὶ τοῖς πρὸς [γ]ένους συνγενέσι δίδοταιαἰτεῖσθαι δύνασθαι καὶ α
ὐτοὺς κρε[ὶν]ω.

وذلك لأن زواج الجنود أثناء الخدمة العسكرية غير شرعي ــ حسب القانون الرومانى ــ مما يترتب عليه عدم شرعية ما ينتج عنه من أبناء، الذين كانوا يفتقدون بالتالى الحق الشرعى فى ميراث آبائهم.

وتاريخ هذا القرار (١١٩م.) قريب بل يتصل بتوابع حرب أو ثورة اليهود عام ١١٤ــ١١٧م. وقيام الجيش الرومانى بالقضاء عليها، و نتج عن ذلك خسائر فى الأرواح والممتلكات وموت أعداد ليست قليلة من جنود الجيش الرومانى ونقص فى صفوفه.[٦٩]

ويبدو أن المقصود بهذا القرار كان هو تحقيق هدفين:

الأول أن يوفر هذا القرار أساساً قانونياً لحقوق الأبناء غير الشرعيين فى تركات آبائهم من الجنود الذين ماتوا خلال خدمتهم العسكرية، واضعاً بذلك حداً لمشاكل وقضايا الميراث فى مثل هذه الحالة،[٧٠] ومشجعاً هؤلاء الأبناء وغيرهم من الشباب على الالتحاق بصفوف الجيش الرومانى بعد أن شكل هذا القرار دعماً مادياً ومعنوياً لهم.

والثانى أن يدعم سياسة الإمبراطور هادريانوس الجديدة بخصوص التجنيد المحلى والعمل على زيادة الإقبال على الإنضمام إلى الجيش وتعويض ما حدث له من نقص فى الأعداد.

ويبدو أن هذه السياسة أتت بثمارها؛ فهذا القرار شجع بالفعل أعداداً كبيرة من أبناء الجنود الذين عاشوا بالقرب من المعسكرات (*ex castris*) على الانضمام إلى الخدمة العسكرية يوضح ذلك الأدلة التى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثانى والقرن الثالث بعد الميلاد.[٧١] ويذكر نفتالى لويس[٧٢] أنه منذ منتصف القرن الثانى الميلادى تزايد بين الجنود المسرحين فى مصر عدد أولئك الذين ينتمون إلى المدن المختلفة داخل البلاد والذين وجدوا الوسيلة للحصول على المواطنة الرومانية من خلال التحاقهم بالخدمة العسكرية.

وبعد عهد هادريانوس يبدو أنه كان على كل ولاية أن تزود نفسها بما يلزمها من المجندين،[٧٣] خاصة بعد أن تم تخفيف شروط الوضع القانونى للمتقدمين للتجنيد، كما أصبح فى استطاعة الشخص الفقير الانضمام إلى صفوف الجيش،[٧٤] وكان معنى ذلك بالنسبة لكثير من المجندين إحراز تقدم كبير فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى. ووفقاً لما ذكرته الوثائق البردية فإن الجنود المسرحين كانوا ــ مع مواطنى المدن الإغريقية خاصة الإسكندرية ــ هم الملاك الرئيسيون للأراضى الخاصة؛ فمن القوائم الضريبية فى كرانيس بالفيوم والتى ترجع إلى عام ١٧١ــ١٧٣ بعد الميلاد، يتبين أن الجنود المسرحين كان عددهم كبيراً فى هذه المنطقة ويمثلون نسبة كبيرة من ملاك الأراضى فيها (٥٥% ممن يملكون من ٥ إلى ١٥ أرورة)، ويمكن تفسير ذلك إما بأن التجنيد كان مكثفاً فى هذه المنطقة أو بأن توزيع الأراضى على الجنود كان شائعاً فيها.[٧٥] وهم عادة يستقرون بجوار الأراضى المملوكة لهم بل يتجهون مثل غيرهم من متوسطى وصغار الملاك ــ إلى استئجار أراضى خاصة أو مملوكة للدولة.[٧٦]

وتحتوى الوثائق البردية على نماذج لجنود مسرحين خلال هذه الفترة التاريخية (النصف الثانى من القرن الثانى م.) احتلوا مكانة هامة فى مجتمعاتهم الجديدة التى اختاروها لإقامتهم وكونوا عائلات وأصابوا الثروات، ومنهم جايوس يوليوس نيجر جندى مسرح من كتيبة الفرسان وامتلك هو وأسرته الأراضى والمنازل فى كرانيس وكيركيسوخا،[٧٧] وبطلميوس ويدعى أيضاً ديوسكوروس من الجنود المسرحين فى أرسينوى

LL. 2: οἱ ἀπὸ τοῦ Ἀρσινοείτου οὐετρανοί

وامتلك وأفراد أسرته إقطاعاً من الأراضى والمنازل فى أرسينوى وثيادلفيا.[٧٨] كما أنه كان أحد مستأجرى الأراضى الإمبراطورية μισθωτὴς οὐσιακός.[٧٩]

مرحلة هامة أخرى لتطور التجنيد المحلى فى مصر بدأت فى عهد الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس (١٩٣ـ٢١١م.) الذى اعتبر الجيش هو جوهر السلطة والحكم ومصدرها فى كافة أنحاء الإمبراطورى، ومن ثم أعطى جنوده وضعاً متميزاً فبدأ بذلك عهد الاوتوقراطية العسكرية، ولم ينس أنه كان مديناً إلى جنوده فى الجلوس على العرش وفى هزيمة منافسيه (نيجر والبينوس) فى الحكم، ولهذا كان يثق فى جنوده ويحرص على الاحتفاظ بولائهم كهدف اسمى له.[٨٠]

ومعتمداً على خبرته الطويلة، قام الإمبراطور سيفيروس بعدد من الإصلاحات الإدارية والعسكرية، وفتح باب التطوع للتجنيد أمام الجميع فى كثير من ولايات الإمبراطورية، خاصة أن فترة حكمه البالغة ثمانية عشرة عاما لم ينتشر السلام سوى فى ست منها فقط، وبالتالى عانت الإمبراطورية وولاياتها من جراء هذه الحروب،[٨١] ويبدو أن الإقبال على التجنيد فى مصر شهد زيادة واضحة لبعض الاعتبارات التى حفزت الأشخاص على الانضمام لصفوف الجيش وهى:

١ ـ أن الإمبراطور سيفيروس عمل على زيادة رواتب الجنود بلغت مقدار الثلث،[٨٢] وزاد من الامتيازات والمكافآت التى تمنح للجنود المسرحين، كما فتح أمامهم أبواب الوظائف المدنية والإدارية.[٨٣]

٢ ـ أنه رفع الحظر المفروض على زواج الجنود خلال خدمتهم العسكرية، عام ١٩٧م. وعمل على الاعتراف بشرعية الأبناء الذين يولدون من هذا الزواج، كما سمح للجنود المتزوجين بحق الإقامة مع عائلتهم بالقرب من المناطق التى تعسكر فيها القوات التابعون لها.[٨٤]

٣ ـ أنه أحيا سياسة الأباطرة الأول بإنشاء المستعمرات ومنح الجنود المسرحين الذين استقراوا عليها قطعاً من الأراضى يطلق عليها κολωνια[٨٥] فوثيقة بردية أصابها بعض التلف وترجع إلى عام ٢٠٠ ميلادية،[٨٦] تتضمن التماساً من جندى مسرح تسريحاً يدعى يوليوس فاليريوس إلى الوالى لأنه تعرض لأعمال عنف قام بها جندى مسرح آخر ماركوس أوريليوس نيفروس، ويضيف فى التماسه قائلاً: "أننى بفضل مولانا وكرمهم الواضح نحو الجنود المسرحين، تم منحى قطعة أرض κολωνια بالقرب من قرية كيركيسوخا فى قسم هيراكليديس فى أقليم أرسينوى، وعلى هذه الأرض ـ ومنها أحصل على نفقات معيشى، ولقد انفقت كثيراً على القناة التى بواسطتها أروى الحقول و ـ، كما زودتها بالأدوات ـ ولكن نيفروس السابق ذكره

بكل غرور ـــ (دون احترام لهيبتكم) ـــ ارتكبت كثيرا من أعمال العنف تجاه استقرار الجنود المسرحين وتوطيدهم [وإلى هنا يضيع النص]".

يبدو إذن أن سياسة الإمبراطور سيفيروس كانت ترمى إلى منح الأراضى للجنود المسرحين ليستقروا عليها مكافأة على خدمتهم العسكرية فى الجيش الرومانى[٨٧] كذلك العمل نحو إصلاح الأراضى البور وزيادة رقعة الأراضى المزروعة فى مصر عن طريق منحها لهؤلاء الجنود لاستثمار جهودهم ومدخراتهم فيها، لأنها عادة ما تكون من الأراضى البور والمهجورة وتحتاج بعض النفقات لاستعادة قدرتها على الإنتاج.

وإذا لم يحصل الجندى المسرح على قطعة أرض كان يمكنه بما يحصل عليه من المكافأة فى نهاية الخدمة العسكرية وباقى مدخراته الأخرى شراء ما يريده من الأراضى الزراعية والعقارات المختلفة، خاصة أن الجنود حصلوا على أجور ومنح ومكافآت ضخمة فى عهد الأمبراطورين سيفيروس وكاراكلا.[٨٨]

فتوضح إحدى الوثائق البردية[٨٩] التى ترجع إلى عام ٢٠١م. أن جايوس يوليوس ديوجينيس جندى من فرقة تراجانوس الثانية اشترى قطعة من الأراضى التى تم مصادرتها ثم أصبحت تابعة لخزانة الدولة، وكانت مساحتها أرورة ونصف أرورة، وقام ديوجينيس بشرائها فى مزاد عام طبقاً لأوامر المدير الإمبراطورى اوريليوس فيليكس، ووصل سعر الأرورة ٨٠٠ دراخمة وسدد هذا الجندى ـــ عن طريق البنك ـــ الثمن مضافاً إليه الضرائب الأخرى وكان المبلغ الأجمالى ١٤٩٦ دراخمة.

هذه الأرض يبدو أنها كانت على درجة عالية من الخصوبة وأن الإدارة الرومانية، كثيراً ما تجد صعوبة فى وجود مستأجرين لها فتتجه إلى بيعها فى مزاد على هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كانت تعمل بذلك على تهيئة الفرصة لتكوين طبقة من ملاك الأراضى يستطيعون النهوض بأعباء المناصب البلدية.[٩٠]

ويبدو أن امتلاك قطعة من الأراضى الزراعية كان مطلباً عزيزاً يتطلع إليه عدد كبير من الجنود المسرحين وأملاً يسعون إلى تحقيقه، ويمكن الاستدلال من أحدى البرديات[٩١] التى ترجع إلى عام ٢١٧ بعد الميلاد على هذا التوجه القوى إلى امتلاك واستثمار الأراضى الزراعية من

جانب الجيش سواء أثناء خدمتهم العسكرية أو بعد تسريحهم منها، فتحتوى هذه البردية على بيان بأسماء ملاك الأراضى فى قرية فيلادلفيا قام بإعداده سكرتير القرية، ويتضمن هذا البيان ١٦٧ اسماً لهؤلاء الملاك المقيمين فى القرية، منهم ٢٠ من الجنود المسرحين، و١١ من الجنود، وبالتالى فإن العدد الإجمالى يكون ٣١ وهذه نسبة عالية تقارب ٢٠% من مجموع ملاك الأراضى الخاصة فى زمام هذه القرية.

ويبدو أن الإصلاحات العسكرية التى قام بها الإمبراطور سيفيروس جعلت الجنود على ثقة من منحهم فى نهاية مدة خدمتهم قطعاً من الأراضى أو مكافآت جيدة من المال تكفيهم لشراء قطعة أرض ولإقامة المسكن اللازم لتكوين أسرة لهم، وعلى ذلك أظهر كثير من الأفراد رغبتهم فى الالتحاق بصفوف الجيش، ففى رسالة شخصية[٩٢] من سيدة "إيزيس" إلى والدها فى فيلادلفيا فى الفيوم تخبرها بسلامة وصولها إلى الإسكندرية ثم تضيف قائلة:

"إذا كان آيون يريد الانضمام إلى الجيش دعه يأتى (إلى هنا) فالجميع يلتحقون بالجيش"

LL. 9-10: καὶ ἐὰν θελήσῃ Αἰῶν στρατεύσασθαι,
ἐρχέσθω· στρατεύονται γὰρ πάντες.

تدل هذه العبارة إذن على وجود زيادة فى الإقبال على التجنيد فالامتيازات والحوافز التى تنتظر المجندين كان لابد أن تكون مغرية ومن ثم فإن الالتحاق بصفوف الجيش كان بوابة المرور إلى طبقة الرأسماليين الزراعيين فى القرى والأقاليم المصرية.

الهوامش

(١) وردت هذه الكلمة بصيغها المختلفة في مقننة الايديولوجوس

BGU., V, 1210=Gnom. Art. 35;55,56,111; P.Oxy., 1666,III cet. AD.

(2) BGU., 696. L-28; P.Oxy., 1022; W. Chr., 453; P. Oxy., 1451, 175 A.D., Introd. P. 152; Plin., Ep., x, 30.

(٣) توجد مجموعة متنوعة من الفحص لفئات وشرائح اجتماعية متعددة والهدف منها اثبات وضعية اجتماعية يترتب عليها التمتع بحقوق وامتيازات بعينها، والفحص العسكري ممكن أن يخضع له الجنود والجنود المسرحون أكثر من مرة ولكل منها هدف معين. أنظر:

P.Oxy., 1451; Introd. P. 150; BGU, 143; Sel. pap., 315; S.B., 9228, 160 A.D.; O.W. Reinmuth, The Prefect of Egypt from Augusts to Diocletian, Leipzig, 1935, P. 123; A.C. Johnson: Roman Egypt, An Economic Survey of Ancient Rome, ed. By T. Frank, vol. 2, Baltimore, (1936), p.249-251; C. Nelson, Status Declarations in Roman Egypt, BASP., 19, (1979), p. 44-45.

فاروق القاضي، "المواطنون الرومان في مصر في القرنين الأول والثاني الميلاديين"، مجلة مركز الدراسات البردية، المجلد الخامس، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٨٣؛ حسن الإبياري وحسين يوسف، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي في عصر الرومان، القاهرة ٢٠٠٤، ص ٦٤ وما بعدها.

(4) See Ulp., Dig., I, 17, 1; H. Last, "The Praefectus Aegypti and his Powers" J.E.A., 40, 1954, pp. 68-73; A.H.M. Jones, "Procurators and prefects in the Early Principate", Studies in Roman Government And Law, Basil Blackwell, Oxford, 1960, pp. 121 ff.

عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٧٦ــ١٧٧.

(5) P. Oxy. 1022=Sel. Pap., 421, 103 A.D.

(6) Ibid. LL: [C.] Minucius Italu [s C]elsiano suo sal[u]tem. Tirones sexs probatos a me in coh(orte) cui praees in numeros referri iube ex xi kalendas Martias:

وهذه الكتيبة كانت ترابط في اوكسيرينخوس حوالي نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. أنظر:

J. Lesquier, L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien, Mem. IFAO., L. XLI, (1918), p. 91.

(7) B.G.U., 696=Sel. Pap., 401, 156 A.D.

(٨) أشارت بعض الوثائق البردية إلى التسجيل بلفظ:

'Scribere' in P. Mich., VII, 432, L. 10. and 'referre' in P. Oxy., 1022=Sel. Pap. 421, L. 6.

(9) P.S.I., 1063, LL. 1-14, 117 A.D.

(10) P.Oxy., 1666, III Cent A.D.

(١١) كان يتم الاستعانة أحياناً ببعض الشخصيات للمساعدة في حل هذه المشاكل وتزكية أصحابها لدى المسئولين، ففي رسالة باللاتينية إلى قائد أحدى الفرق العسكرية من ضابط آخر يزكي فيها *L. 4 commendare* أحد أصدقائه لدى هذا القائد من أجل أن يحظى بالقبول وبإنجاز المهمة التي يسعى من أجلها. أنظر:

Sel. Pap., 122, 2nd cent. A.D.

(12) See P. Oxy., 1451, Introd., P. 150.

(13) B.G.U., 142=W. Chr., 455.

(14) Gnom., art. 55.

Εάν αἰγύπτ[ιο]ς λαθὼν στρατεύσηται [ἐ]ν λεγεῶνι, ἀπολυθ[εὶς [εἰ]ς τὸ Αἰγύπτιο[ν] τάγμα ἀποκαθίστ[αι]. ὁμοίως δὲ καὶ οἱ ἐκ [τοῦ]ἐρε. τικοῦ ἀπ[ολ]υθέντες ἀποκαθίστανται πλὴν μόνων τῶ[ν] ἐκ Μησινῶν [σ]τόλου.

(15) R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri, 332 B.C.- 640 A.D 2nd. ed., Warszawa, 1955, p. 475.

وذكي علي، مقتنة الإديولوجوس، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٢٥.

(16) Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, routedge, London and New York, 2001, p. 87.; R. Taubenschlag, op. cit., 621; J. Barns, Three Fayum Papyri, Chr. d. Eg. 24, 1949, p. 296ff.; No. 2.

وانظر: هـ. إيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة عبد اللطيف أحمد علـي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٩٢ والهوامش؛ سيد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط ٢، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٩١)، ص ٤٦.

(١٧) مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ٢٠٧ـ٢٠٨، فاروق القاضي، المرجع السابق، ص ٧٣ـ٧٧.، فوزي مكاوي، الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٧٥ـ٢٧٦.

(18) N. Lewis, Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press, Oxford. (1983), p. 27-28.

جونفييف هوسون، دومينيك فاليل، الدولة والمؤسسات في مصر، ترجمة: فؤاد الدهان، مراجعة: زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٣٥، ومصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ٢١٠.

(19) LL. 27-29:

Γάιος Ἰούλιος Σατορνεῖλος στρατιώτης λεγεῶνος δευτέρας καὶ εἰκοστῆς κεντέρ-ας βίου Σεουήρου οὐ δυνάμενος τὸν εἰς τὴν χώραν ἀνάπλουν ποιήσασθαι διὰ τὸ ἐν σ.τ.ρα[τεία εἶναι συ]νίστημι τὸν ἠλε- υθ ερωμένον ὑπ' ἐμοῦ πρὶν τῆς στρτείας τότε χρηματίσδων Πτολεμαῖος Πτολεμαίου Φυλαξιθαλάσσ[ιος ὁ καὶ] Ἀλθεαιοὺς

(20) CIL., III, 6580.

(21) See: CIL. III, 6627; 6580; P.Oxy., 1471, 81 A.D.L. 5; Danny, D. and Nicholas, P., Hadrian's Empire when Rome Ruled the World, Hodder, Great Britan, (2005), p. 157; Richard Alston, Soldier and Society in Roman Egypt, Routledge, London and New York, (1995), p. 40;

مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ٢٠٥، وهامش رقم ٣، ص ٢٠٦ يشير إلى أن نحواً من نصف الجنديين في الفرقة الرومانية الثالثة الأوغسطية يذكرون أنهم من مواليد المعسكرات.

([22]) CIL., III, 6580.

([23]) P.S.I., 1026, Col. C, II. 9-33, 150 A.D.; see: O.W. Reinmuth, op. cit. p. 123; N. Lewis, op. cit. p. 21.

(٢٤) عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة (١٩٦٥)، ص ١٩٠ وما بعدها.

([25]) Strabo XVII, 1, 12.

([26]) Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, Routedge, London and New York, (2001), pp 78ff; tables, No. 16; 19; 30.

([27]) BGU. IV, 1083, before 41 A.D.

([28]) Musé d' Alexandrie, inv No. 2577 ed. by Abdullatif A. Aly, "A Latin Inscription from Nicopolis", Ann. Fac. Arts, Ain-Shams Univ. III, (1955)" pp. 113-146.

([29]) CIL., III, 6627; BGU. IV, 1083.

([30]) CIL. III, 6580, 194 A.D.; A. A. Aly, A Latin Inscription from Nicopolis.

([31]) CIL., III, 6627, Augustus age.

([32]) CIL III, 6580.

([33]) BGU. IV, 1083.

([34]) A. A. Aly, A Latin Inscription from Nicopolis; CIL, III, 6580.

([35]) BGU. IV, 1083

([36]) Musé d' Alexandrie, inv No. 2577, 157 A.D.

([37]) Yann, op. cit. p. 87; O.W. Reinmuth, p. 126.

([38]) CIL, III. 6580.

([39]) See for example: Sel. Pop., No. 401,156 A. D.; P. Mich., III, 159, 41-68 A.D.; R. Alston, op. cit., pp. 21-22; R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

هـ. إيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة: عبد اللطيف أحمد علـي، ط ٣، بيروت، ١٩٧٣، هامش ٢.

([40]) R. Alston, op. cit. p. 21; see also Yann Le Bohec, op. cit. p. 93.

([41]) Strabo. XVII, 1, 12.

(٤٢) هوسون، د. فاليل، المرجع السابق، ص ٣٣٤، وعن إجمالي عدد القوات العسكرية في مصر، يرى عبد اللطيف أحمد علي، أنه من العسير تقدير عدد جنود الجيش الروماني في مصر في وقت بعينه، ولكن لسكيه يرى أنـه لم يـزد عن ١٧ ألف أو ١٨ ألف بعد عام ٢٣م.، على أن غيره من العلماء يعتقد استناداً إلى الوثائق المكتشفة حديثاً أنـه كان يزيد على هذا العدد، وأنه كان يوجد بمصر وحدات عسكرية أخرى لم يذكرها استرابون، انظر عبد اللطيف أحمد علي ، مصر والإمبراطورية الرومانية، ص ٤٥-٤٦، و هـ. إيدرس بل، المرجع السابق، ص ٩٢، هامش ٣،

ويذكر مصطفى العبادى، أن إجمالى العدد فى عصر أغسطس ٢٢,٨٠٠، ثم خفض ١٦,٧٠٠ فى عصر تيبريوس، ثم خفض أخيراً فى القرن الثانى إلى ١١,١٠٠ جندى، مصطفى العبادى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ١٥٩؛ ويرى ريكارد ألستون بعد دراسته لبعض النقوش، أن العدد الإجمالى قبل عام ٢٣ كان حوالى ٢١,٠٠٠ وفى عام ٨٣ كان ١٥,٠٠٠، وفى عهد تراجان كان ١٦,٥٠٠ وفى القرن الثانى كان حوالى ١٢,٠٠٠ جندى، R. Alston, op. cit. p. 32.

([43]) BGU., 696=Sel. Pap., 401, 165 A.D.

([44]) See P. Fouad I, 21, 63 A.D., 28, 59 A.D.; BGU., 180, 172 A.D.; Sel. Pap., 315, 188 A.D.; 85, 189-194 A.D.; R. Taubenschlag, op. cit., p. 105; N. Lewis, op. cit. p. 20.

([45]) Danny, D. and Nicholas, P., op. cit. p. 157.

([46]) R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

([47]) Sel. Pap., 315, 188 A.D.

([48]) See P. Oxy., 39, 52 A.D.

حيث يتضمن تسريحاً بسبب مرض عضوى لشخص يدعى تريفون بن ديونيسيوس من أكسيرينخوس الذى التحق بالخدمة العسكرية، ولكنه لم يستكمل مدة خدمته بسبب إصابته بمرض عتامة عدسة العين وقصر النظر، لذا تم تسريحه من الخدمة العسكرية بواسطة الوالى بعد أن خضع أمامه للفحص العسكرى فى الإسكندرية

L. 5-6: ἀπελύθηι [ὑ]πὸ [ναίου Οὐεργιλιόυ
Καπίτων[ο]ς τοῦ ἡγεμόνος
L. 11: ἐπεκρίθ (η) ἐν Ἀλεξανδ (ρειᾳ).

([49]) See Berger, Encyclopedic Dictionary of Roman Law, Tran. Amer. Phil. Soc., vol. 43, Port 2, 1953, S.V. Diploma Militare; O.W. Reinmuth, op. cit. p. 124-5; H. Nesselhauf, Diplomata Militaria" CIL., XVI, 1936; R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

وعبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، دار النهضة، بيروت ١٩٧٠، ص ١١٧ــ١١٨، وهامش ٣. حيث يذكر "أن الجنود المسرحين من الفرق الرومانية (*Legiones*) فلم تجر العادة على منحهم براءات عسكرية بعد عشرين عاماً من الخدمة حيث أنهم فى الأصل رومان لأنه لم يكن يجند فى الفرق سوى الرومان. وإذا كنا قد عثرنا على عدد قليل جداً من البراءات العسكرية الممنوحة لجنود الفرق، فإنها قد منحت لهم فى ظروف استثنائية أو غير عادية".

([50]) See Yann Le Bohec, op. cit. p. 93; 98.

(٥١) دونالد دادلى، حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم وفاروق فريد، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩، ص ٢٢٤ــ٢٢٥؛ م. ب. تشارلزورث ، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزى عبده جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٥٣.

([52]) Yann Le Bohec, op. cit. p. 101.

([53]) BGU., 423, 27= Sel. Pap., 112, 113, 2nd cent. A.D.; P.W. Pestman, The New Papyrological Primer, E. J. Brill, Leiden, New York, 1990. No. 38, 39; 50; P. Mich., 8, 468; 491, II cent. A.D.; O.Oxy., 1451, 175 A.D.; Itrod.

([54]) BGU., 423, = Sel. Pap., 112, 2nd cent. A.D.

([55]) P.W. Pestman, op. cit. No. 39, n. 24.

([56]) BGU., 2, 632.

([57]) P. Mich., 491 = Sel. Pap., 111 2nd cent. A.D.

([58]) Philon, in Flac., 163.

وأشارت وثيقة بردية إليه باسم "أسطول الإسكندرية الإمبراطورى" أنظر:

P.Oxy., 1451, 175 A.D., L. 14:
ἐπάρχου στόλου Σεβαστοῦ Ἀλεξα[νδρίνου

(٥٩) ج هوسون و د. فالبيل، المرجع السابق، ص ٣٣٧ـــ٣٣٨.

([60]) P. W. Pestman, op. cit., No. 38, early 2nd cent. A.D.

([61]) R. W. Davies, "The Enlistment of Claudius Terentianus", B.A.S.P., 10, 1973, pp. 21-25.

([62]) Sel. Pap., 113, II or III cent. A.D.

([63]) Yann Le Bohec, op. cit. p. 64.

([64]) Ibid., Table 30 in p. 101.

(٦٥) ج. هوسون، المرجع السابق، ص ٣٣٥.

([66]) N. Lewis, op. cit., p. 20.

مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٠٣، وفاروق القاضي، المرجع السابق، ص ٧٧.

([67]) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 81.

([68]) BGU, 140 Sel. Pap., 213; 119 A.D.; P.W. Pestman. op. cit., p. 138; R. Taubenschlag, "The Imperial Constitutions in Papyri", J.J.P., vol. VI, 1952, p. 141.

(٦٩) عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٩٠ـــ٢١١، والمصادر والمراجع التى أشار إليها. وعن السياسة القانونية لهادريان وإصلاحاته، أنظر:

Fritz Pringsheim, "The Legal Policy and Reforms of Hadrian" J.R.S., 24, 1934, pp. 141-53.

([70]) See P. Mich. III, 159, 41-68 A.D.; Mitteis, Chrest., No. 372, 117 A.D.= P.W. Pestman. op. cit., No. 28; Lesquier. J., op. cit., pp. 268-70.

([71]) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 82; and table 19 in P. 86.; R. Alston, op. cit., p. 40.

([72]) N. Lewis, op. cit., p. 21.

(٧٣) م. روستفزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادى، ترجمة: زكى علي، محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٨٦.

([74]) Danny and Nicholas, op. cit., p. 160-161.

(75) P. Mich. IV. Pt. I, Tax Rolls form Karanis ed. H.C. Youtie, Ann Arbor, 1936. Nos. 223-225;

هوسون وفالبيل، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(76) P. Mich., 225, 174 A.D.; 428. 154 A.D.; S.B., 7427; P. Mich., 364; 385; 386;422-426; S.B., 7360; 7361; P. Oxy., 62, 4595.

(77) P. Mich. 174; P. Wisc., 33,34, B.G.U, 1896; P.S.I., 877.

(78) P. Wisc., 34; P. Mich., 174.

(79) P. Wisc., 34., L. 3-4.

(٨٠) سيد أحمد الناصري، المرجع السابق، ٣١٦ـ٣١٧. وتتضمن بردية نشرت حديثاً في مجموعة أوكسيرينخوس تحتوي على رسالة من أحد الأباطرة (ربما سبتيموس سيفيروس) إلى الإسكندريين يعدهم بزيارته لهم، بعد أن تم تعيينه إمبراطوراً بواسطة الجنود الشجعان (γενναῖοι).

P.Oxy., 4592, L. 6-7: Κεχε[ι]ροτονη[μενος] μεν αὐτοκράτωρ ὑπο τῶν γενναιοτάτ [ων] στρατιωτῶν,

(٨١) م. روستفتزف، المرجع السابق، ٤٧٦ـ٤٧٧؛ سيد أحمد الناصري، المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(82) See N. Lewis, op. cit., p. 21; Yann Le Bohec, op. cit., p. 210.

حيث يذكر الباحث الأخير أن راتب الجندي زاد في عهد الإمبراطور دوميتيان إلى ٣٠٠ دينار سنوياً، وفي عهد الإمبراطور سيفيروس حوالي عام ١٩٣، توجد بشأنه ثلاثة أرقام ٤٠٠، ٤٥٠، ٥٠٠ دينار سنوياً، وأنه يفضل الرقم الأوسط.

(٨٣) فعلى سبيل المثال أوريليوس كالوزيتيوس أبولينتس، بعد خدمته العسكرية في أحد الفرق الرومانية، وتسريحه تم تعيينه في منصب المشرف على الإيديولوجوس: بعد عام ٢٠٩ ميلادية. راجع:

IGRRI,. 1107, CIG II, 3751; P.R. Swarney, The Ptolemaic and Roman Idioslogos, Toronto, 1970, pp.129-130.

(84) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 81;

وسيد أحمد الناصري، المرجع السابق، ص ٣١٨.

(85) See A.H. Johnson, op. cit., p. 673.

(86) W. Chr., No. 461, 200 A.D.; AH. Johnson, op. cit., No. 413, p. 680.

(٨٧) هذا أشبه بسياسة البطالمة الأوائل بخصوص منح الجنود اليونانيين أراضي ليقيموا عليها ويعيشون من ريعها باستثمارها بطريقتهم الخاصة وقت السلم. أنظر: محمود إبراهيم السعدني، تاريخ وحضارة مصر في العصر البطلمي، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٨٤.

(88) N. Lewis. "Soldiers Permitted to own Provincial Land", BASP., 17. 1980, p. 148.

(89) BGU., 156=W. Chr. 175; A.H. Johnson. op. cit., No. 97,201 A.D.

(٨٩) محمد فهمي عبد الباقي، "الوضع القانوني للأراضي في مصر في عصر الرومان حتى القـــرن الرابـــع الميـــلادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس والثلاثون، ١٩٨٩، ص ٢٥ــ٢٦.

(٩١) P. Yale, 79, 217 A.D. see J. Oates, "Philadelphia in The Fayum during the Roman Empire", XI Cong. Int . Pap., Milano, 1966, p. 454 ff.
و فاروق القاضي، المواطنون الرومان في مصر في القرنين الأول والثاني الميلاديين، مركز الدراسات البردية، المجلـــد الخامس، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٨ــ٧٩.

(٩٢) BGU. 1680 = Sel. pap., 134, 3rd Cent. A.D.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١ ـ المصادر الأدبية:

- Philo, in Flaccum, 163.
- Pliny The Younger, Epistulae, x, 30.
- Strabo, XVIII, I, 12.
- Ulpian, Digesta, I. 17. I.

٢ ـ النقوش:

C.I.L. - Corpus Inscriptionum Latinarum.

C.I.G. = A. Boeck, Corpus Inscriptionum Graecarum

- I.G.R.R. = Inscriptiones Graecae ad res Romanas pertinentes (R. Cagnat).

٣ ـ الوثائق البردية:

- BGU., Aegyptische Urkunden aus den Komniglichen Museen zu Berlin, Griechische Urkunden Berlin 19 Vols. (1895-2005).

- P. Fay., Fayum Towns and their Papyri, ed B. P. Grenfell, A. S Hunt and D. G. Hogarth. London (1900)

- P. Fouad., Les Papyrus Fouad I. Ed. A Bataille, O. Gueraud, P. Jouguet, N.

- Lewis, H. Marrou, J. Scherer and W. G. Waddell. Cairo (1939).

- P. Mich., Michigan Papyri, 11 Vols. Each Volume has a sub-title of its own, 193-1971.

- P. Oxy., The Oxyrhynchus Papyri. Published by the Egypt Exploration Society in Greco-Roman Memoirs-London ed. B. P. Grenfell, A. S. Hunt and other, 72 Vols (1898-2008).

- P. Ryl., Catalogue of the Greek and Latin Papyri in the John Rylands Library, Manchester, ed. A. S. Hunt, A. C. Johnson and others, 4 Vols (1911-1952).

- PSI., Papyri greci e Latini (Pubblicazionedella Societa Italiana per la ricerca die Papiri greci e latini in Egitto) Florence. Ed. Vitelli and M/ Norsa. 15 Vols (1912-2008).

- P. Tebt., The Tebtunis Papyri. ed B. P. Grenfell, A. S. Hunt and other. 4 Vols. (1905-1976).

- P. Wisc., he Wisconsin Papyri I, ed. P. J. Sijpesteijn, Leiden, 1967. (Pap. Lugd. Bat. XVI)

- P. Yale., Yale Papyri in the Beinecke Rare book and Manuscript Library vol. I ed. J.F. Oates, A.E. Samuel and C.E. Welles, New Haven and Toronto, 1967.

- S.B., Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, Collection of documentary Papyri, Ostrac, inscriptions published in Journals or unindexed Catalogues, Begun by F. Preisigke 26 Vols (1912-2006).

- Sel. Pap., Select Papyri, London and Cambridge ed. A. S. Hunt and C. C. Edgar 3 vols (1932-1942).

ثانياً: المراجع والدوريات الحديثة

١ ـــ المراجع الأجنبية

- A. A. Aly, A latin Inscription from Nicopolis; Ann Fac. Art-Shams Univ. III, 1955, pp. 113-149.

- Barns, J., Three Fayum Papyri, chr. D. Eg. 24, 1949, p. 296, No. 2.

- Berger, Encyclopedic Dictionary of Roman Law, Tran. Amer. Phil. Soc., vol. 43, Port 2, 1953.

- Danny, D. and Nicholas, P., Hadrian's Empire when Rome Ruled the World, Hodder, Great Britan, (2005).

- Davies, R. W., "The Enlistment of Claudius Terentianus", B.A.S.P., 10, 1973, pp. 21-25

- Fritz Pringsheim, "The Legal Policy and Reforms of Hadrian" J.R.S., 24, 1934, pp. 141-53.

- Johnson, A.C., Roman Egypt to The Reign of Diocletian, An Economic Survey of Ancient Rome, ed. By T. Frank, vol. 2, Baltimore, (1936).

- Jones, A.H.M., "Procurators and prefects in the Early Principate", Studies in Roman Government And Law, Basil Blackwell, Oxford, 1960, pp. 115-125.

- H. Last, H., "The Praefectus Aegypti and his Powers" J.E.A., 40, 1954, pp. 68-73.

- Lesquier, J., L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien, Mem. IFAO., L. XLI, (1918).

- Naphtali Lewis, Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press, Oxford. (1983).

- , "Soldiers Permitted to own Provincial Land", BASP., 17, 1980, p. 143-148.

- Nelson, C., Status Declaratios in Roman Egypt, BASP., 19, (1979), p. 13-45.

- Oates, J., "Philadelphia in The Fayum during the Roman Empire", XI Cong. Int . Pap., Milano, 1966.

- Pestman, P.W., The New Papyrological Primer, E. J. Brill, Leiden, New York, 1990.

- Reinmuth, O.W., The Prefect of Egypt from Augusts to Diocletian, Leipzig, 1935.

- Richardd Alston, Soldier and Society in Roman Egypt, Routledge, London and New York, (1995).

- Swarney, P.R.., The Ptolemaic and Roman Idioslogos, Toronto, 1970.

- Taubenschlag, R., The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri, 332 B.C.- 640 A.D 2nd. ed., Warszawa, 1955.

- ., "The Imperial Constitutions in Papyri", J.J.P., vol. VI, 1952, p. 121-142.

- Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, routedge, London and New York, 2001.

٢ ــ المراجع العربية:

ــ إيدرس هــ بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣.

ــ تشارلزوورث، ب، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزى عبده جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

ــ حسن الإبيارى وحسين يوسف، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادى في عصر الرومان، القاهرة ٢٠٠٤.

ــ دونالد دادلي، حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم وفاروق فريد، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩.

ـ روستفتزف، م.، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة: زكي علي، محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٥٧.

ـ زكي علي، مقتنة الإديولوجوس، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ سيد أحمد الناصرى، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، ط ٢، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٩١).

ـ عبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، دار النهضة، بيروت ١٩٧٠.

ـ ــــــــــــ ، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة (١٩٦٥).

ـ فاروق القاضى، "المواطنون الرومان فى مصر فى القرنين الأول والثانى الميلاديين"، مجلة مركز الدراسات البردية، المجلد الخامس، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨.

ـ محمد فهمى عبد الباقى، "الوضع القانونى للأراضى فى مصر فى عصر الرومان حتى القرن الرابع الميلادى"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس والثلاثون، ١٩٨٩.

ـ محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، القاهرة ٢٠٠٦.

ـ مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، القاهرة، ١٩٦٦.

ـ مصطفى العبادى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.

ـ جونيفيف هوسون، دومنيك فالبيل، الدولة والمؤسسات فى مصر، ترجمة: فؤاد الدهان، مراجعة: زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.

بقلم الأستاذ: رحماني بلقاسم (*)

روما وسياسة الرومنة في شمال إفريقيا

(بلاد المغرب نموذجًا)

بعد تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م وتحويلها إلى ولاية رومانية أصبحت منطقة المغرب في أيدي الرومان، رغم ذلك لم يكن من السهل تحقيق احتلاله المنطقة، فلقد واجهت الرومان ثورات ومقاومات عديدة في مختلف أنحاء المنطقة، إلا أن الرومان أكملوا سيطرتهم بتحقيق انتصارات على المقاومات وشرعوا في تحقيق تهدئة المنطقة، وفي استكمال سياسة الإخضاع العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي أو ما يعرف بسياسة الرومنة.

١ – السياسة الإدارية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة:

يجمع المؤرخون على أن الاحتلال الروماني لبلاد المغرب تميز منذ البداية بالتدرج والبطء، وبالتدرج نفسه اتسمت به الإدارة الرومانية وأجهزتها في المنطقة في إطار تحويل الأنظمة الإدارية المغربية إلى أنظمة رومانية خالصة، والواضح أن السياسة الرومانية الإدارية تميزت في

* قسم التاريخ – جامعة الجزائر

بدايتها بالمرونة [١]، وهي ضرورة تطلبها التطورات السياسية الإدارية والعسكرية في كل مناطق الإمبراطورية، واقتضتها ضرورة تحقيق أهداف روما في بلاد المغرب، وهي الأهداف التي تتمحور حول تكثيف الجهود لتثبيت السيطرة الرومانية، وبالتالي تمهيد وتهيئة النفسية المغربية لتقبل الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها، أي قبول السكان لسياسة الرومنة. ويرى عدد من المؤرخين أن أبرز وجوه المرونة الرومانية في هذا الميدان تكمن فيما يلي:

أ – اللامركزية الإدارية:

وتتمثل في عدم جعل مدينة مغربية خاضعة للرومان تتمركز فيها السلطة الإدارية لكل المنطقة المغربية، وتحت سلطة مسؤول روماني واحد، وبالتالي اعتماد سياسة تقسيم المنطقة الخاضعة إلى وحدات إدارية (ومقاطعات) لكل منها سلطة مستقبلية وربطها بإدارة روما المركزية المباشرة . وهذا التقسيم تتضح أهدافه في أنه يمكن لحكامها من السيطرة عليها، وكذلك جمع الجباية المختلفة وخاصة المنتجات الزراعية وتصديرها إلى الرومان كذلك تسهيل عملية إخضاع العناصر الوطنية الثائرة على الرومان . إضافة إلى ذلك فإنه كان لهذه التجربة صلاحيات واسعة للحكام لاتخاذ الإجراءات السريعة والرادعة دون اللجوء إلى السلطة المركزية في روما . وكذلك فإن صغر مساحة الولاية كان يساعد الحاكم على معرفة كل دقائقها وعن كثب في شتى المجالات.

ويتضح من قراءة بسيطة لهذا النظام الروماني مدى حذر روما الشديد من تعرض مصالحها لأي خطر في هذه المناطق البعيدة عنها سواء كان خطرا محليا وطنيا ضد مصالحها، أو خطر من قبل ولاة روما الطموحين في الانفراد بالسلطة في المنطقة الغربية، وبالتالي فهذه التجزئة كانت تهدف إلى ضرب طموح هؤلاء الحكام في التمرد ضد السلطة المركزية ورفضا لاستقلال الجاليات الرومانية بأي مقاطعة[٣].

ب – المناطق المدنية والمناطق العسكرية:

يلاحظ أن الرومان قد قسموا بلاد المغرب إلى نوعين من المناطق الإدارية وذلك حسب مدى توغل النفوذ الروماني بها، ودرجة خضوع السكان لهذا النفوذ.

فالنوع الأول يتمثل في المناطق الأكثر أمنا وهدوءا لأنه مضى على احتلالها زمن طويل و في هده المناطق يستبعد قيام أي ثورة ضدها فهي ذات حكم مدني تحت سلطة حاكم يتمتع بالعضوية في مجلس الشيوخ . ولقد تمتع إقليم قرطاجة بهذه الصفة المدنية ثم منطقة نوميديا الشرقية عندما تم تحويلها إلى ولاية رومانية جديدة لسنة ٤٦ ق.م (٤).

لكن المناطق التي كانت نشطة عسكريا ضد الاستعمار الروماني، فإنها تطلبت وجود نشاط عسكري روماني، فاعتبرت مناطق عسكرية أو ولايات إمبراطورية كما عرفت خلال العهد الإمبراطوري، ويشرف على هذه المناطق ضباط كبار يعينهم الإمبراطور مباشرة دون مجلس الشيوخ، ويمارسون عملهم بتعليمات الإمبراطور (٥).

ويلاحظ أنه عندما تستوفي الإدارة العسكرية نشاطها بالمنطقة أي عندما يسود الأمن والاستقرار وتضعف الحركات الثورية الوطنية يتم إحلال الإدارة المدنية مكان الإدارة العسكرية وبذلك يتضح دور سياسة التقسيم والعمل العسكري في تجسيد الرومنة في المنطقة المغربية.

والظاهر أن هذه السياسة الإدارية المدنية والعسكرية تعود إلى يوليوس قيصر نفسه حيث ظهرت في العهد الإمبراطورى بجلاء عند إعلانه عن إنشاء الولاية الإفريقية الجديدة في نوميديا بعد نجاحه في الحرب الإفريقية (٦)، عرض أن يضمها إلى ولاية إفريقية القديمة لأنه يظهر أن نوميديا في نظره كانت تشكل منطقة غير آمنة ومن الضروري أن تظل معزولة عن الولاية القديمة التي سارت فيها سياسة الرومنة بشكل واسع، وحتى لا تصلها آثار الثورة الوطنية التي كان خلفاء " يوبا" يقومون بها . ويظهر أن سبب عداء قيصر للولاية القديمة يعود إلى الموقف الذي اتخذته جاليتها والسلطة الرومانية تجاهه أثناء حملته عليها، لذلك كان حذرًا ومرتابا منها ورأى ضرورة الفصل بينهما (٧).

ولقد عين قيصر (Caesar) القائد " سالوست" لأن يكون على رأس الولاية الجديدة وذلك نظرا لعداء " سالوست" الكبير لأتباع " بومبي" ومجلس الشيوخ، ودفاعه المستميت عن الحزب القيصري و دوره في حملة قيصر على إفريقيا.

وبعد القضاء على ثورة " أرابيون" الوطنية ثبت قيصر أسس المستعمرات الإقطاعية التي كافأ بها قيصر رجال " سيتيوس" في نوميديا ليجسد بذلك سياسة الرومنة وبذلك انتقلت حدود روما إلى ما وراء نوميديا غربا (٨).

وبالتالي كان هذا التقسيم الإداري قيصري الأصل، والهدف المدني منه هو تنظيم أساليب أكثر إيجابية لأهداف الرومان في المرحلة الأولى ويمكن مقارنتها بما حدث في كل من نوميديا وموريطانيا. (٩)

ج – إفريقية البروقنصلية:

تتمثل في المنطقة التي ورثها الرومان عن القرطاجيين عام ١٤٦ق.م حيث كان نظامها مدنيا منذ المرحلة الأولى و النشاط العسكري كان فيها قليلا والسبب الذي جنب هذه المنطقة الإدارة العسكرية هو أن قرطاجة كانت تتمتع في العهد القرطاجي بسلطة مدنية تعود الناس عليها فاستفاد منها الرومان كما استفادوا من الحضارة القرطاجية، (١٠) إضافة إلى تغير الوضع السياسي بعد سقوط قرطاجة ووقوف بعض المدن المستقلة إلى جانب الرومان كل ذلك أدى إلى تفكك عنصر الوحدة والتضامن القرطاجي المغربي مما جعل الرومان يطمئنون إلى الإدارة المدنية لرومنة المنطقة بالتدريج.

ويؤكد المؤرخون أن نوميديا حليفة الرومان كانت الحامي الحقيقي للولاية الرومانية حيث اعترفت روما بالأراضي القرطاجية التي ضمتها مملكة نوميديا إليها قبيل سقوط قرطاجة، خاصة وأن تلك المناطق الجبلية الصحراوية موطنا لقبائل يصعب انقيادها لسيطرة أجنبية فهي لا تعرف الاستقرار، ويضيف أحد المؤرخين أن المملكة النوميدية كانت أشبه بمنطقة عسكرية بالنسبة للولاية الرومانية وأن ملوكها الأوائل قاموا بتمهيد المنطقة لمستقبل كانوا يجهلون هويته لعدم وضوح الرؤية البعيدة لديهم حيث ساد جو سياسي مشحون بالضغائن، فاعتبروا الولاء للرومان أسلوبا وحيدا للمحافظة على المملكة النوميدية وهو الأسلوب الذي جنب الرومان مشاكل كثيرة وعاد عليهم بفوائد سياسية واقتصادية عديدة (١١).

د – موريتانيا وازدواجية الإدارة فيها:

لقد ضم يوليوس قيصر نوميديا (Numidia) رسميا للممتلكات الرومانية سنة ٤٦ق.م وأصبح الملك الموريتاني، " بوكوس الثاني" حليفا للرومان الذين حققوا بذلك مكسبا إقليميا نحو الغرب وتسامح قيصر مع " بوكوس الثاني" بضمه الجزء الغربي من نوميديا، كما كافأ على

دوره في حرب قيصر الإفريقية. واستمر بوكوس على نفس النهج الموالي للحزب القيصري إلى وفاته سنة ٣٣ق.م، وبذلك قدم خدمات كبرى لمصالح روما منها حماية ظهر للولاية الجديدة. ويلاحظ أنه بعد وفاة" بوكوس الثاني" تم ضم المملكة الموريتانية مدة ٠٨ سنوات تحت الإدارة العسكرية بأمر من " أوكتافيوس" ليتراجع عن ذلك سنة ٢٥ق.م عندما نصب " يوبا الثاني" ملكا على موريتانيا الموسعة والممتدة من حدود الولاية الجديدة . إلى المحيط الأطلسي. ولم يعمل يوبا الثاني" إلا على مساعدة تغلغل النفوذ الرومان في موريتانيا بصورة أكثر مما كان عليه في نوميديا وبذلك استأنف " يوبا الثاني" مهمة "بوكوس الثاني" لكن بجدية أكثر وإرادة أقوى لتجسيد سياسة الرومنة، وتدل على مخلفات الملك " يوبا الثاني" وخليفته " بطلميوس" (Ptalemaeus) في عاصمة الملكة شرشال (CAESARIA)[١٢].

والواضح أن دور " يوبا الثاني" قد جسد التبعية الموريتانية للرومان في جميع الميادين بل اعتبر " يوبا الثاني" مسؤولا أمام الإمبراطور على المصالح الإدارية والاقتصادية والعسكرية والرومانية في مملكته في حين كانت في عهد " بكوس الثاني" تبعية سياسية أكثر منها عسكرية أو اقتصادية.

وبذلك فإن موريتانيا (Mauretania) شهدت حكما مزدوجا بين ٣٣ق.م -٤٠ ق.م، فالحكم العسكري دام ثماني سنوات (٠٨)، وألحقت فيه بأملاك الإمبراطورية، والحكم المدني تمظهر تحت عنوان المملكة الموريتانية امتد إلى نهاية " بطلميوس" عام ٤٠م حيث أعلن بعد ذلك الإمبراطورى "كلوديوس" (Claudius) عن الفصل بين موريتانيا القيصرية وطنجة، وأن كلا منهما أتبع ولاية إمبراطورية مستقلة عن الأخرى وذلك عام ٤٢م وبذلك ظلت موريتانيا ضمن المقاطعات العسكرية التي يتولى أمرها الإمبراطور وحده إلى نهاية العهد الإمبراطورى الأول عام ٢٨٤م[١٣].

والمرجع لدى المؤرخين أن إطالة عمر الإدارة العسكرية في موريتانيا مرده إلى صعوبة التحكم في المنطقة وأن الحكام المحليين لم يتمركزوا من التمهيد للاستعمار الروماني الكامل، ويعلل المؤرخون ذلك بالحروب التي فرضها سكان السهول العليا" الجزائرية" و المرتفعات" المغربية" على الرومان مما فرض عليهم إبقاء الإدارة العسكرية إلى زمن متأخر [١٤] بل إن

تراجع الليمس "المستعمرات الحدودية" (LIMES) الروماني شمالا ينبئ بحالة الطوارئ التي كان عليها الرومان أمام ضغط قبائل السهول والجبال إضافة إلى فقر المنطقة زراعيا.

ولقد لجأ حكام موريتانيا الرومان إلى أسلوب التحالف مع القبائل للحدود لدرء خطرها، وقد دلت على ذلك نقوش "وليلي"(VOLUBILIS) التي احتفظت بنصوص الفاقيات مسالمة مع قبائل " البقات" (BOCATES) (١٥) والتي سكنت الحواف الجنوبية للمستعمرات الرومانية في السهول الداخلية. وعمومًا لم يتجاوز التوسع الروماني في موريتانيا السهول الخصبة والسفوح الجبلية والهضاب المطلة عليها وهي المناطق الغنية زراعيا، وبها مدن وقرى مغربية قديمة.

٢ – السياسة الاجتماعية الرومانية في بلاد المغربية ودورها في سياسة الرومنة:

يلاحظ أن القوانين الاجتماعية الرومانية لسكان الولايات قامت على مبدأ الطبقة الاجتماعية، وعلى مبدأ عنصري يجعل الإنسان الروماني في المرتبة الأولى بين مختلف الأجناس البشرية. ولقد سُمِحَ مع ذلك لمختلف المجتمعات بالاندماج والارتقاء التدريجي وفق شروط معينة ووفق القوانين المتعلقة بدرجات المواطنة لتصل إلى درجة المواطنين الأصليين، رغم ذلك فالباحثون يؤكدون أن غموضا كبيرا يكتنف الحقوق والواجبات الممارسة يوميا من طرف المتمتعين بصفة الرومنة والمؤكد قلة المعلومات المتعلقة بوضعية المغاربة الاجتماعية في أواخر العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري، فالتشريع الإداري الروماني لم يبرز لبلاد المغرب إلا في القرن الثالث الميلادي ذلك أن العهدين المذكورين لم يكن يهم أباطرته من إفريقيا إلا التزود بالمنتجات الزراعية، ودعم الاستقرار والأمن في إيطاليا وولاياتها الأخرى وبالتالي تُركت هذه الأمور الاجتماعية المغربية للحكام المحليين الذين انشغلوا بجمع الثروة ليس إلا. (١٦)

ويذكر المؤرخون أن الأباطرة اهتموا بالطبقة الارستقراطية المغربية وشجعوا الاندماج في الوضع الجديد، وبالتالي تنمية التأثير الروماني في المغرب مما أدى إلى ظهور طبقة أرستقراطية في المدن اشتهرت بولائها للرومان، وارتباطها المصلحي معهم . أما الأغلبية فكانت تعيش على هامش حياة المجتمع الارستقراطي، وأبرز مثال على ذلك يتضح في أنه عشية سقوط قرطاجة

سنة ١٤٦ ق.م لم تتم اللجنة التشريعية المكلفة بهذه الولاية إلا بتحديد الولاية وتنصيب الحاكم ووضع ترتيبات لعلاقة الولاية بالمدن الحرة الحليفة، وتنظيم الجباية (١٧) وهي أمور ذات طابع استعجالي.

وهكذا ظل السكان عرضة لتصرفات الحكام الحرة حيث أنهم كثيرا ما أساءوا للسكان بدافع الحرص على الثراء السريع (١٨) لأن السلطة المركزية بروما لم تمنح الحكام صلاحيات تشريعية. وهذا يدل على أن التشريعات الرومانية لم تكن تهتم كثيرا بقضايا الشعوب الخاضعة لها، اهتمامها بالشعب الروماني ومتطلباته وذلك رغم ضخامة التشريع الروماني في العالم فإن حظ شعوب المستعمرات منها كان ضئيلا.

ونستنتج أنه ما عدا المتمتعين بصفة رومانية أو مواطنة لاتينية فإن جميع الشعوب الخاضعة للرومان في إيطاليا أو خارجها تعد في وضعية الأجانب الذين يخضعون لإدارة وإرادة الحكام الرومان في المعاملة والتسيير. وعلى هذا المنوال كانت وضعية المغاربة خاصة خلال فترة التوسعات. ويلاحظ المؤرخون أن أهم عامل حرم المغربة من الحصول على حقوق مدنية تمكنهم من التدرج نحو الحصول على إحدى صفتي المواطنة الرومانية هو أن الذين لا يملكون أراضي من سكان الولايات يعدون في وضعية الأجانب وبالتالي كانت ملكية الأرض شرط أساسي للاندماج وباستثناء أراضي المدن الحرة فإن أغلب أراضي المنطقة كانت ملكا لكبار الملاك حيث يعددهم " بلينيوس الصغير" (Plinius Minor) بأن بأنهم كانوا فقط ستة ملاك يستحوذون على تراب إفريقيا في عهد الإمبراطور "نيرون" (١٩).

وفي كل الأحوال فإن المغاربة بعضهم مهزومون بسبب مشاركتهم في الحرب ضد روما، أو محايدون أجانب لم يشاركوا في الحرب فاعتبروا تابعين وأرضهم ملكا للشعب الروماني المنتصر. وفي الحالتين لم يحصل المغربي على حقوقه المدنية ومن التسميات التي أطلقوها على المغاربة الخاضعين للإدارة الرومانية اسم " ستيبنديار" (STIPENDIARAE) والتي اشتقت من ضريبة التعويضات الحربية التي يدفعها المغلوبون للرومان وبذلك طُبعت صفة المهزوم على المغاربة.

والواضح أن الولايات الجديدة الرومانية تمتعت باستقلال ذاتي وربطت زعماءها بعلاقات تحالف وحسن جوار [٢٠]، ثم فتحت باب الارتقاء الاجتماعي لأعيان ووجهاء المغاربة وبالتالي الحصول على صفة المواطنة الرومانية مقابل الولاء وخدمة مصالح روما. وكثيرا ما حصلوا على ألقاب رومانية وكل ذلك يندرج في إطار دعم سياسة الرومنة ونشر الرومنة ونشر رسالة روما الحضارية [٢١] حيث لم تستفد الأغلبية الغربية من هذه الامتيازات ويلخص جوليان ذلك قائلا:" اعتمدت روما على ارستقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكترث بالجماهير البربرية".[٢٢]

وكذلك الجندية فقد كانت مدخلا للمغاربة للحصول على صفة المواطنة لكن نظرا لطول مدتها ومحدودية قدرة الجيش الروماني على الاستيعاب، وحب المغاربة للحرية ورفضهم الخضوع جعل عناصر قليلة منهم تدخل الجيش النظامي الروماني عكس الفرق المساعدة التي لا تخضع لهذه الشروط ولا تنتفع بهذه الحقوق.

ويمكن حصر وضعية المغاربة بعد الاحتلال الروماني في:

١- سكان الأرياف المغربية تدخل ضمن الحدود الرومانية يعيشون في وضع الأعداء الخاضعين. وتجارهم داخل منشآت عسكرية رومانية حدودية (Limes) أو الحصون والقلاع و مستعمرات قدماء الجنود فكان بعضهم على اتصال بالرومان والبعض الآخر انعزل في الجبال طلبا للحرية ورفضا للاندماج الروماني وشكلت هذه المناطق معقلا للثورة ضد الرومان.

٢ - سكان مهادنون سواء كانوا داخل الأقاليم الرومانية أو على حدودها فهم ارتبطوا مع روما بمعاهدات سلم أو تحالف لضعفهم العسكري أمام روما.

٣- الفئة الأرستقراطية وهي سكان المدن الذين حصلوا على أراضي وعقارات فكانت قابلة للترويض والاندماج في الحياة الاجتماعية الجديدة، والارتقاء الاجتماعي لتثبيت نفوذ روما في المنطقة [٢٣]وازداد عدد هذه الفئة أكثر خاصة بعد التشريعات الجديدة التي فتحت المجال واسعا ليذوب سكان الولايات في المجتمع الروماني.

- السياسة الاستيطانية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة:

يؤكد المهتمون بدراسة الاستعمار الروماني في بلاد المغرب على الارتباط الوثيق بين هذا الاستعمار واستغلال الأرض، ويتأكد ذلك بالتواجد الكثيف للاستعمار الروماني في المناطق الزراعية الداخلية والساحلية، وما رافق ذلك من اعتناء بالنشاط الزراعي وظهور مدن زراعية داخلية مزدهرة الاقتصاد في الزراعة والتجارة، بل إن ازدهار الريف المغربي يعود ، بحسب رأي عدد من الباحثين إلى كثافة النشاط الزراعي الذي قام به الاستعمار الروماني في هذا المجال، وهو الاهتمام الذي جسده ظاهرة الاستيطان والعمران التي طبعت سياسة الرومان بطابع استغلالي.

وهنا لا يمكن التغاضي عن الاهتمام القرطاجي والمغرب بالنشاط الاقتصادي الفلاحي، والحضاري قبل الاستعمار الروماني الذي اتخذ من المدن الفلاحية القرطاجية والمغربية نواة للمستعمرات والمدن الرومانية بعد ذلك.(٢٤)

والمؤكد لدى المؤرخين أن الرومان لم يفتحوا أبواب الاستيطان ببلاد المغرب أمام الفلاحين الرومان واللاتين قبل عام ١٢٣ق.م، وهي السنة التي تمكن فيها النائب الشعبي " جايوس جراكوس" (G. Gracchus) من إقناع مجلس الشيوخ (SENATUS) بإنشاء أول مستعمرة رومانية بإقليم قرطاجة لإيواء ٦٠٠٠ من الفلاحين الرومان في إطار المشاريع الإصلاحية التي تقدم بها هذا النائب (٢٥). والواضح أن سياسة الاستيطان المنظم لدى الرومان لم تنل الاهتمام الكامل في المنطقة المغربية، وذلك نظرا لتركيز سياسة الجمهورية الرومانية على تحقيق أمن المنطقة و به تضمن استمرار مصالح روما ببلاد المغرب، وتوفير الأوضاع التي تسمح بالاستغلال الجيد لخيرات المغرب الزراعية.

والملاحظ أن الرومان حاولوا الحفاظ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للمنطقة التابعة للرومان ببلاد المغرب. ورغم ذلك فالمؤكد أن مجلس الشيوخ الروماني كان متحفظًا في سياسته الإفريقية خاصة سياسة مشاريع الاستيطان مثل مشروع " جراكوس" وهذا التحفظ يرتكز على سياسة التحالف مع الإمارات والممالك المحلية عن ضم تلك الممالك قبل تهيئة كل الظروف لمنع أي فشل (٢٦) . من ذلك أن روما رغم انتصارها على يوجورطة (Iugartha) وتضحيتها الجسيمة في هذه الحرب إلا أنها لم تمد حدودها على المملكة النوميدية

المهزومة رغم توفر أغلب شروط الظلم. وهذا ربما يفسر موقف مجلس الشيوخ، إضافة إلى تحكم الظروف الداخلية للسياسة الرومانية المقررة من قبل الشيوخ في المجال الخارجي. ويلاحظ أن عنصر الفلاحة جذب بقوة الرومان إلى الأرض فهي الأساس الذي تقوم عليه حركة الاستيطان وبالتالي يتمكن الفلاحون من استغلال أراضيهم بأنفسهم مباشرة دون الاعتماد على نظام الوكالة. (٢٧)

وزيادة على ذلك فإن وجود جموع الفلاحين الرومان في الأرض المغربية كان بإمكانه إيجاد بيئة اجتماعية رومانية تؤثر وتجذب الإنسان المغربي، وهو عامل هام في تجسيد الرومنة يدعم ويوسع سياسة الاستيطان الروماني.

والواضح أن لهذه السياسة علاقة وطيدة بأوضاع روما الاقتصادية والاجتماعية . ويؤكد المؤرخون أن أهم مشكل دفع مجلس الشيوخ إلى تبني مشاريع الإصلاح الزراعي، وإنشاء المستعمرات خارج الوطن هي مشاكل صغار الفلاحين، ذلك أن الريف الإيطالي تغير بشكل واضح باستحواذ الملاك الكبار على المساحات الزراعية وتناقص الملكيات الصغيرة لحساب الملكيات الكبرى.(٢٨) وكان اندفاع الفلاحين الصغار نحو روما طلبا للعيش واستغناء الملاك عنهم لحصولهم على أعداد كبيرة من العبيد نتيجة التوسعات العسكرية وبأقل تكلفة، وأمام فشل الإصلاحات الأولى بسبب قوة التيار المنتفع بالأراضي الذى أدى بحياة صاحبها تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) سنة ١٣٢ق.م، فإن أخاه " جايوس" أحيا الفكرة من جديد، لكن بشكل آخر وهي نقل الرومان والإيطاليين إلى أراضي الولايات الرومانية وتنظيمها في شكل مستعمرات زراعية وبذلك ساهم " كايوس" في حركات التوسعات الكبرى للاستعمار الروماني على حساب الشعوب الخاضعة لهم. وبالتالي استراحت روما من الجو السياسي والاجتماعي الخانق وقد كانت مستعمرة قرطاجة إحدى أهم المستعمرات التي استفاد من أراضيها ٦٠٠٠ مستوطن روماني وزع على كل منهم ما يعادل ٥٠هـ للمستعمر الواحد(٢٩).

ورغم فشل أنصار هذا النهج الإصلاحي الزراعي في روما ونجاح التيار المعارض لهم من كبار الملاك الذين مارسوا شتى أنواع الضغوط على المستوطنين الرومان ببلاد المغرب لكي

يتخلوا عن الأراضي التي وزعت عليهم فاغلبهم ظل متمسك بها. ولكن هذه الحركة الإصلاحية و سياسة الاستيطان الخارجي قد اتخذت أطوارًا أخرى بمجيء " يوليوس قيصر" إلى الحكم بعد انتصاره على أعدائه في إفريقيا، إذ أصبحت هذه السياسة سياسة رسمية، وتجلت في أمره ببناء مدينة رومانية على تراب قرطاجة " الملعون" معلنا بذلك عن حركة استعمارية جديدة، تجلت أكثر في خروجه عن سياسة التحفظ التي ميزت قرارات مجلس الشيوخ الروماني في استعمار إفريقيا، بحيث أمر" قيصر" ببناء خمسة أو ستة مستعمرات على إقليم قرطاجة وعلى الحدود النوميدية بدءا من سنة ٣٦ ق.م، حتى بعد مقتل قيصر ، وتم توسيع مساحة إفريقيا الرومانية حيث أصبحت تعرف باسم " إفريقيا القديمة" على حساب مملكة نوميديا التي ألحقت بالممتلكات الرومانية والتي أطلق عليه اسم" إفريقيا الجديدة" وشملت الأراضي القرطاجية التي سيطر عليها خلفاء " مسينيسا" ثم إقطاعية "سيتيوس" شمال نوميديا [٣٠].

وبذلك وضع " قيصر" حزاما وقائيا من المستعمرات لحماية الولاية القديمة وتعد إقطاعية المرتزقة " السيتيان" أضخم مشروع استعماري نفذه " قيصر"، ذلك أنهم وسعوا حدود إقطاعية على حساب أراضي المغاربة المجاورين نحو سكيكدة (RUSUCADE)وميلة(MILEV) والقل (CHULLU) أي شمال وشرق وجنوب سيرتا. [٣١]

ورغم ذلك اعتبر المؤرخون هذه الإقطاعية أنها خرجت عن طابع المستعمرات الرومانية. ذلك لأن مهمة هؤلاء المرتزقة بحكم موقعهم الجبلي اقتضت إخضاع السكان والنهوض بالنشاط السياسي والاقتصادي للإقطاعية وبالتالي لعبوا دورا هاما في سياسة الرومنة.

والواقع أن المؤرخين يؤكدون أن ولايتي إفريقيا قد استوعبتا الكثير من المعمرين- الجنود المستوطنين- نظرا لأهميتها الزراعية التي تميزت بها الولايتان، بل عد ذلك تعبيرًا عن سخاء القيصر لجنوده المخلصين لذلك جاد عليهم بهذه الأراضي الخصبة.

إن المتتبع لسياسة الاستيطان الرومانية ببلاد المغرب يجد أنها شهدت توقفا نسبيا بعد مقتل القيصر إلى غاية حكم" أوكتافيوس أوغسطس" أي عام ٢٩ق.م وهي السنة التي تفوق فيها على خصومه وبدا حركة الاستيطان من جديد بإرساله ٣٠٠٠جندي من بلاده كمستوطنين جدد إلى إقليم قرطاجة ثم إلى سواحل نوميديا الموريتاني، بحيث ظهرت مستعمرات رومانية

جديدة على طول هذا الساحل من المحيط الأطلسي إلى خليج سرت. ولقد قدرها بعض المؤرخين بما لا يقل عن ٣٥ مستعمرة زيادة على مستعمرات أنشئت في شرق نوميديا وفي الولاية القديمة. [٣٢]

ولقد ورد أغلبها في كتاب " بلينيوس الكبير باسم" موريتانيا الموسعة"، وتعود معظمها إلى الإمبراطورية أغسطس الذي ركز على إنشاء مدينة رومانية على أنقاض المدينة " البونية" مع الاحتفاظ بالاسم البوني لما له من سمعة كبيرة وثقل حضارى أكسب قرطاجة احتراما، وتقديرا لدى الرومان. وهدف أغسطس من هذا العمل هو إرجاع للمدينة قوتها وإشعاعها الحضاري لكن على أساس المنبع الروماني، وبذلك تعكس قرطاجة الرومنة حضارة روما بذلك تعمل على تغلغلها في الوسط المغربي المتأثر لحضارة قرطاجة القديمة ذات المنبع الشرقي السامي، وبهذه السياسة يجسد أغسطس سياسة الرومنة في بلاد المغرب عمليا[٣٣].

والملفت للانتباه أنه أزال عدة مدن مغربية قديمة سواء كانت في إقليم الولاية الرومانية أو إقليم الممالك المغربية، في حين اتبع سياسة اللين والاستمالة اتجاه المدن التي قبلت الاندماج في الحضارة الرومانية الوافدة ومثال ذلك استمالة سكان مدينة " طنجة" ضد ملكهم" بوغود" بمساعدة حليف الرومان " بوكوس الثاني" فمنح سكان المدينة حقوقا رومانية، ونفس المعاملة لقيتها " ليكسوس القديمة" (LIXUS) "شالا" (SALA) حصلت على حقوق لاتينيه وحقوق مستعمرة رومانية أيام " كلاوديوس" عندما كثر بها العنصر الروماني، كذلك مدينة " وبليلي" العاصمة الثانية للمملكة الموريتانية، وذلك رغم عمقا الجغرافي وأصالتها المغربية فلقد وصلها المد الاستعماري الروماني وأسس بها مستعمرة زراعية رومانية في عهد الإمبراطور " كاليجولا" الذي ألغى المملكة الموريتانية، ويعد ذلك أعلن عن نجاح سياسة " يوبا الثاني وابنه " بطليوس" في إقامة مستعمرات قرب تلك المدينة [٣٤].

رغم ذلك فإنه يظهر وأن السلطات الرومانية قد اتبعت سياسة التودد إزاء القبائل المغربية منها المرونة إزاء قبائل موريطانيا القيصرية للحصول على ثقتها والاطمئنان على المستعمرات، وذلك يعكس السياسة الرومانية الحذرة والجديدة، والتي اقتضت بعدم تغير العلاقة القائمة بين المجتمع المدني والمجتمع الريفي، وبذلك على أراضي تلك القبائل بين أيدي أصحابها رغم ضم ممتلكات " بطليموس" وحاشيته[٣٥].

ولقد مكنت هذه السياسة إلى حد كبير من كبت الحركات الثورية بالمنطقة في مهد مثل حركة " إيدمون" (AEDMON) الذي ثار ضد الرومان عقب مقتل" بطليموس" سنة ٤٠م[٣٦]، بحيث لم يتمكن من تعبئة القبائل المغربية نظرا لما كان يربطها بالسلطة الرومانية من مصالح، ووجود مستعمرات لقدماء الجنود الرومان بالريف المغربي عرقل انتشار الثورات، إضافة إلى حملة أغسطس الكبرى على موريتانيا، وكذا سياسة إنشاء المستعمرات في أراضي الحلفاء ساعدت على تمهيد مجتمعات هذه الأخيرة لسياسة الرومنة.

وفي نفس الوقت تخلصت روما من مشاكلها الداخلية، ولقد تجلى رد الفعل الوطني ضد هذه السياسة الرومانية في سلسلة من الاضطرابات لكن كلها انتهت بالفشل أمام قوة إرادة الرومان في تجسيد سياسة الاستيطان عن طريق بناء المستعمرات حول المدن الموريتانية الكبرى مثل " يول" (JUL) (قيصرية)، وسيقا(SIGA)، ووليلي، وطنجة، وليكسوس وغيرها، ولم تأت سنة ٤٠م حتى كانت أهم الأراضي الزراعية الموريتانية في حوزة المستعمرين الرومان [٣٧]، وبذلك ألغيت مملكة موريتانيا، وتم تثبيت سياسة الرومنة في بلاد المغرب.

الهوامش

١ – محمد البشير شنيتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة ١٤٦ق.م- ٤٠م) الطبعة المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ١٩٨٥، ص٧٥.

٢ – نفس المرجع: ص٧٦ ، ALBERTINI (E) l'Afrique Romain Alger. 1938. P 15 أنظر ص٧٦.

٣ – محمد البشير شنيتي: المرجع لسابق ص ٧٦.

٤ – نفس المرجع: ص٧٧.

٥ – نفس المرجع: ص٧٧.

٦ – هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، ص٢٩٧ وكذلك أنظر: عبد اللطيف أحمد علي ، تاريخ الرومان ، ص٢٧٦- ٢٧٧.

٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص٧٧.

٨ – شارل أندريه جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ج١، تعريب كذلك أنظر: عبد اللطيف أحمد علي المرجع السابق، ص ٢٤٠- ٢٤١.

٩ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص٧٩.

١٠ – شارل أندريه جوليان: المرجع السابق ص ٢٠٢.

١١ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٠٦- ١٠- ٨٠.

١٢ – شارل أنديه جوليان: المرجع السابق، ص١٧٨- ٢٠١.

١٣ – نفس المرجع: ص ٢٠١.

١٤ – AMINE A. BRIGON J. HISTOIRE DU MAROC, P30.

١٥ – IBID P32-33 - GSELL 87 ATLES ARCHEOLOGIAUE DE L'ALGERIE TOME2 ET AMINE OP. CIT.P.33-37.

١٦ – ١٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٨٨ –٨٩.

١٨ – ١٩– نفس المرجع: ص٨٩ وكذلك أنظر GSELL ST. H. A. A. NP 47.

٢٠ – IBID. T6. P48. وكذلك أنظر GAFROT (F) DICTIONNAIRE LATIN FRANÇAIS. P 1479.

٢١ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٨٩، محمود ابراهيم السعدني : تاريخ وحضارة الرومان ، الدار الدولية، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٧ ، ص ص ٦١-٦٢ .

٢٢ – شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

٢٣ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص٩٤ – ٩٥.

٢٤ – GSELL (ST) ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE TOME 2 ET AMINE OP. CIT. T. 7 P57.

٢٥ – IBIDEM وكذلك أنظر شارل أندريه جوليان المرجع السابق، ص ١٥٠.

٢٦ – ٢٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص١١٨.

٢٨ – هشام الصفدي: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٤.

٢٩ – عبد اللطيف أحمد علي المرجع السابق ص ٢٥ وكذلك أنظر هشام الصفدي المرجع السابق ص ٢٥١.

٣٠ – MESNAGE J) RAN P 37. P101.

٣١ – GSELL ST) T8. OP. CIT.P 161.

٣٢ – MRSNAGE P.J) OP. CIT. P 46.

٣٣– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص ١٣٣– ١٣٤.

٣٤ – CARCOPINO J) . LE MAROC ANTIQUE P 171.

٣٥ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ١٣٥,٠

٣٦ – نفس المرجع: ص ١٣٥.

٣٧ – PONSICHE (J) .R ATR P224.

المراجع العربيـــة:

١ – محمد البشير الشنيتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب – الجزائر– ١٩٨٥.

٢ – محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني– الجزائر – ١٩٨٤.

٣ – محمد البشير الشنيتي: التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة مجلة التاريخ تصدر عن المركـــز الوطني للدراسات التاريخية عدد ٢٣– ١٩٨٤.

٤ – هشام الصفدي: تاريخ الرومان الجزء الأول، بيروت ١٩٦٧.

٥ – عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني (عصر الثورة) القاهرة ١٩٦٧.

٦– شارل أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية– الجزء الأول – ترجمة محمد مزالي تونس – ١٩٦٩.

المصادر والمراجع الفرنسية:

1- ALBERTINI (EU), L'AFRIQUE ROMAINE, ALGER.

2- AMINE (A), BRIGNON (J) HISTOIRE DU MAROC, CASA BLANCA 1968.

3- GSELL (ST), ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE 2 VOL ALGER. 1911.

4- GSELL (ST) HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD, 08 TOMES PARIS 1928.

5- GAFIOT (F), DICTIONNER LATIN FRANÇAIS. HACHETTE, PARIS 1934.

6- MENSNAGE (P.J) LA ROMANISATION DE L'AFRIQUE DU NORD PARIS 1913.

7- CORCOPINE (J) LE MAROC ANTIQUE, PARIS 1948.

8- PONSISICH (M) RECHERCHE ARCHEOLOGIQUE A TINGER ET DANS SES REGION, PARIS 1970.

د. فايزة صالح سجيني (*)

ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢ م

"يا للأسى أن ترى مدينة الوئام والوفاق تتحول إلي بحر من الخلافات،.. وكما أن النار الكامنة تحت كوم من الهشيم لا تحتاج إلا لنفخة لتتحول إلى آتون يحرق كل ما حوله، هكذا كانت المدينة التي ربض فيها الشيطان، لم يعوزها إلا من يشعل الفتنة فتحترق وتتحول إلي هشيم"(١).

تلك كلمات رثاء جاءت على لسان كاتب سيرة القديس السالونيكي ديمتريوس St. Demitrius of Thessaloike أخذ يرثي بها مدينة القسطنطينية وما حل بها من فتنة داخلية وحرب أهلية أنتجت في النهاية ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢م التي أنهت عصر الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وأذنت بميلاد عصر جديد هو عصر الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠). ويهدف البحث الحالي إلي عرض تفاصيل هذه الثورة وما صاحبها من عنف ودموية ظاهرة، خاصة وأن أهميتها تكمن في كونها الثورة الأولى التي تنجح في الإطاحة بالجالس

---

* أستاذ مساعد – جامعة الملك عبد العزيز – جدة

على العرش البيزنطي. كما يهدف إلي تسليط الضوء على رد الفعل الشعبي، كما عكسته المصادر التاريخية البيزنطية، تجاه سقوط الإمبراطور موريس واعتلاء فوقاس العرش.

لاشك في أن سوء قدر موريس جعله يرتقي العرش البيزنطي بعد فترة عصيبة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فقد ورث عن جستنيان وخلفائه إمبراطورية مثقلة بالهموم بعد استنزاف طاقاتها المالية والبشرية طيلة سبعين عاما منصرمة. فذلك الصرح الذي سعى جستنيان جاهدا، ومضحيا بكل طاقات الإمبراطورية، في سبيل إقامته[٢]؛ وهذه المحاولات المضنية من قبل خلفائه لإنقاذ الإمبراطورية، رغم تفاوت درجات نجاحها وفشلها.[٣] ولا شك أيضا في أن الحروب المتواصلة التي لم تغب عن سماء الإمبراطورية طيلة سبعين عاما؛ هذا فضلا عن تلك الأموال الطائلة التي دفعتها بيزنطة صاغرة لتكاليف الحرب والسلام مع القبائل الجرمانية في الغرب والخطر الفارسي في الشرق واجتياح القبائل السلافية والآفارية لشبه جزيرة البلقان شمالا.[٤] كل هذه الأعباء المالية شكلت ضغطا شديدا على خزانة الإمبراطورية، وأنتجت من ناحية أخرى فسادا إداريا واضطرابا في السياسات المالية للإمبراطورية.

بالإضافة إلي ذلك كانت هناك حالة من الاستياء العام تجاه السياسات المالية والفساد الإداري، الذي نتج عنه ظهور عصبة من الموظفين المرتشين وجامعي الضرائب المتعسفين الذين شكلوا عبئا ثقيلا على سكان الإمبراطورية من المزارعين والتجار والصناع. ساهم في تقويته استمرار الصراع المذهبي بين الإمبراطورية وسكان الولايات الشرقية. كما مثلت الزلازل والأوبئة والطواعين، التي كان نصيب الإمبراطورية منها كبيرا خلال هذه الفترة الحرجة، عاملا إضافيا زاد من حدة السخط الشعبي الذي بات مؤهلا للانفجار في آية لحظة في وجه حكومته التي أظهرت عجزا واضحا في التعامل مع المشكلات والأزمات المتتالية، والأهم في توفير قدر من الأمن لمواطنيها.[٥]

وجاء موريس ليرتقي عرش إمبراطورية مثقلة بالمشكلات، ورغم ما تمتع به من ميول إصلاحية ورغبة في التغيير، إلا أن اهتمامه الإصلاحي انصب على الجيش والإدارة العسكرية[٦] دون أن يواكب ذلك إصلاح مالي واقتصادي، أو بعبارة أخرى دون محاولة السعي لإيجاد مصادر جديدة للدخل تعوض عجز موارد الدولة وإفلاس الخزانة. وسرعان ما اضطر موريس

أما كثرة نفقاته العسكرية إلي تخفيف العبء عن الخزانة الإمبراطورية باقتطاع نسبة الربع من مرتبات الجند في عام ٥٨٧م، الأمر الذي أنتج سخط واستياء عارم بين صفوفهم، ولجأ الكثيرون منهم إلى ترك الجندية واللجوء إلي الأديرة والكنائس، مما دفع موريس إلي إصدار مرسوم يحظر فيه قبول الكنائس والأديرة للجنود الفراين، ومن تقليدهم وظائف دينية، مما أدى إلي تصادم البابا جريجوري الأول معه، حيث احتج البابا بشدة على قرار الإمبراطور، ورغم أن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ، إلا أنه زاد من رصيد الاستياء ضد موريس، وأضاف فئة رجال الدين إلي جانب الجنود في هذا الأمر.(٧)

على أن المصادر التاريخية البيزنطية تشير إلي أن السخط الشعبي العارم ضد موريس كان بسبب قيام خاقان الأفار عام ٦٠٠م بذبح اثنى عشر ألف أسير من الجنود البيزنطيين سبق أسرهم أثناء حروبه مع الإمبراطورية في جبهة البلقان، وقد أرسل الخاقان سفارة تعرض إطلاق سراحهم مقابل قطعة ذهبية لكل جندي، فرفض موريس لخلو الخزانة من هذه الأموال، فخفضها الخاقان إلي نصف قطعة ذهب للجندي، غير أن موريس أصر على الرفض بالرغم من تدخل أعضاء مجلس السناتو لإقناعه بقبول دفع الفدية، وعندئذ عرض الخاقان على موريس إطلاق سراح الجندي بأربعة قراريط(٨)، لكن الأخير رفض للمرة الثالثة، وهنا ثار غضب الخاقان وأمر بقتل كافة الأسرى البيزنطين دون رحمة.(٩)

وتشير الحولية الفصحية Choronicon Paschale إلي أن اعتلاء فوقاس العرش تم دون مقاومة ووسط ترحيب شعبي كبير، ويبدو أن هذا الترحيب بررته الأحداث السابقة على اعتلاء فوقاس العرش، فبعيد عن الحسابات السياسية والمصالح الشخصية وتنافس الأحزاب السياسية-الخضر والزرق- نجد على المستوي الشعبي نوعا من الاستياء تجاه تصرفات موريس في أواخر أيامه. وفي هذا الصدد تشير المصادر البيزنطية إلي أن العامل الأساسي في إثارة هذا الاستياء هو رفض موريس دفع المال لفداء الأسرى البيزنطيين لدى خاقان الآفار، فيذكر نيقفور كاليستوس Nicephoros Kallistus أنه عندما "اجتاح الخاقان مقدونيا وأسر عددا لا يحصى من الجنود، وأصبح على مقربة من القسطنطينية، طلب فدية عن كل فرد جنيه ذهب. ولما استثقل موريس هذا الطلب ومنعه بخله من تلبيته، استشاط الرجل غيظا وقتل آلافا بحد

السيف. ... فكرهه جميع الناس وغضبوا عليه وراحوا يكيلون الشتائم له بسبب مصرع هـذا العدد الهائل من الأسرى". (١٠) كذلك يشير حنا زوناراس Ioannis Zonaras إلي أن رفض موريس دفع فدية الأسرى جعله "مكروها من الجميع"(١١).

وقد عبر ثيوفانيس عن رد الفعل الشعبي المستاء من تصرف موريس، بأن روى قصة شخص بارز ممن ارتدى مسوح الرهبان استل سيفا وراح يجوب شوارع القسطنطينية من الميدان إلي البوابة الذهبية، وهو يهتف أمام الجميع معلنا بأن موت الإمبراطور قد بات وشيكا وأنه سيقتل بالسيف. كذلك يذكر ثيوفانيس أن موكب موريس كان يسير في ضاحية Karpianos متجها إلي كنيسة يوحنا المعمدان للصلاة، فهاجمه حشد من العامة وقذفوه بالحجارة، وكاد الإمبراطور أن يصاب لولا أن ابنه ثيودوسيوس دفع عنه الأذى بجسده، الأمر الذي جعلهما مضطرين إلي العودة للقصر وأداء الصلاة به. أما العامة فقد أتوا بشخص يشبه موريس في هيئته وألبسوه عباءة سوداء وتاجا من الثوم وأجلسوه على حمار وراحوا يطوفون به في شوارع القسطنطينية على ضوء المشاعل، وهم يسبون موريس بأفظع الشتائم ويطلقون صيحات السخرية وهـم يقولون: "انظروا موريس، انظروا كيف بدا". وبالطبع لم يترك موريس الحدث يمر دون عقاب حيث أمر بالقبض عليهم، وتم معاقبة الكثيرين منهم.(١٢)

ولاشك في أن قتل هذا العدد الضخم من الجنود على يد خاقان الآفار أثار استياءً موازيـا بين جنود وضباط الجيش البيزنطي، الذين حملوا هم أيضا إمبراطورهم مسئولية ما حل بهـم، وزاد من حدة هذا الاستياء أنهم رأوا أن قائدهم كومنتيولوس Komentiolus لم يحسـن إدارة المعركة مع الأفار وعرضه لهزيمة ساحقة نتج عنها قتل الآلاف منهم، وفرار كومنتيولوس نفسه أثناء المعركة تاركا إياهم يواجهون نفس المصير. الأمر الذي دفع الجيش إلي إرسال وفد منهم إلي موريس للقصاص من قائدهم بتهمة الخيانة، وكان قائد المائة الاستراتيجوس فوقاس أحـد أعضاء هذا الوفد. ويبدو أن النقاش احتد بين فوقاس والإمبراطور إلي حد أن اضـطر أحـد أعضاء مجلس السناتو إلي التدخل بتعنيف فوقاس وإلزامه بأدب الحوار مع الإمبراطور(١٣). وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها فوقاس على مسرح الساحة السياسية، ويبـدو أن احتداده في حضرة الإمبراطور أكسبه شعبية بين أفراد الجيش المتذمرين من موريس، وجعلـهم

يشعرون بأن فوقاس يمثلهم، أو على أقل تقدير يعبر عن آرائهم ومشاعرهم. ويبدو أن المحاكمة الصورية التي شكلها الإمبراطور لمحاكمة كومنتيولوس، والتي لم تسفر عن إدانة واضحة له لفراره من أرض المعركة، زادت من حدة الاستياء ضد موريس، الذي ظهر في أعينهم منحازا إلي جانب الخائن كومنتيولوس.(١٤)

وزاد من حدة استياء الجيش من تصرفات موريس، أنه عين شقيقه بطرس Petros قائدا للجيش الإمبراطوري في الغرب، بما فيها جبهة الدانوب، وعين كومنتيولوس رئيسا لفرق الحرس الإمبراطوري المسئولة عن حراسة أسوار القسطنطينية بما في ذلك القصر الإمبراطوري نفسه.(١٥) وكما يذكر نورويش Norwich "أدى تحيز موريس لأقاربه أن عهد إليهم بوظائف تفوق حدود إمكانياتهم، مما جعله يضع على رأس جهازه الإداري رجال أقل كفاءة"(١٦). ولا شك في أن أيا من بطرس أو سلفه كومنتيولوس لم ينل شعبية أو محبة بين أفراد الجيش. وساءهم أكثر إصرار موريس على تنصيب هؤلاء قادة للجيش، فبطرس عين مرتين رئيسا لجيش الدانوب، المرة الأولى في عام ٥٩٩م ثم سرعان ما عزل عندما ظهر عجزه عن إحراز أي تقدم يذكر على هذه الجبهة. لكن موريس لم يلبث أن أعاده للقيادة ثانية عام ٦٠٢م.(١٧) ومن ناحية أخرى لم يكن بطرس على نفس شاكلة قائد مثل بريسكوس Priscus، قائد جيش الدانوب (٥٨٨-٥٩٨م)، وهو القائد الكفء الذي عرف بحب الجند له وبحسن تصرفه، والذى ظهر عندما ثار الجيش على قرار الإمبراطور بأن يقضي فصل الشتاء على حدود العدو، فقام بريسكوس بتهدئة الجند، واستطاع إقناع الإمبراطور بخطورة تنفيذ هذا الأمر، مما دفع موريس إلي العدول عن قراره.(١٨)

ويبدو أن موريس لم يستفد من تجاربه السابقة، ولم يدرك طبيعة التذمر الذي يملأ صدور أفراد جيشه، حيث أصدر أمرا للجيش المرابط على حدود الدانوب بقضاء شتاء عام ٦٠٢م على الجبهة، وهنا تكرر رفض الجنود للأمر، ولكنهم هذه المرة أرسلوا وفدا، كان فوقاس قائد المائة أحد أعضائه، إلى بطرس قائد الجبهة، وأبلغوه رغبة الجنود في قضاء الشتاء مع ذويهم. غير أن بطرس رفض طلبهم وأعلن إصراره على تنفيذ مشيئة الإمبراطور.، فما كان من الجنود إلا أن أعلنوا الثورة ورفعوا فوقاس على التروس، وأعلنوه قائدا عليهم، الأمر الذي دفع بطرس

إلي مغادرة ساحة التمرد والإسراع بالعودة إلي القسطنطينية لينهي إلي الإمبراطور خبر تمرد جيش الدانوب.[١٩]

وبما أن أمر موريس بأن يقضي جيش الدانوب فصل الشتاء على الجبهة هو السبب المباشر والشرارة التي أشعلت نيران الثورة، فلابد من معرفة المبررات والاعتبارات العسكرية التي دفعت موريس إلي إصدار هذا الأمر. وأحد هذه الاعتبارات ذكرها موريس في مؤلفه العسكري "الاستراتيجون"، إذ يذكر أنه من خلال خبرته الطويلة بقبائل الأفار والسلاف لاحظ أنها تلجأ في حروبها خلال الصيف إلي الاختباء وراء الأشجار الكثيفة، ومن ثم يصعب على الجيوش البيزنطية كشفهم أو النيل منهم، بينما يتيح لهم هذا الاختفاء مزية إطلاق سهامهم السامة على أعدائهم وإلحاق خسائر كبيرة بين جنودهم، أما في فصل الشتاء فإن الصقيع والثلوج والأشجار الجرداء تجعل من اليسير تعقب آثارهم.[٢٠] كذلك يرى براونينج Browning أن العامل العسكري والتكتيكي كان له اعتبارا في قرار موريس، حيث كانت الحالة على جبهة الدانوب في تحسن مستمر، خاصة بعد أن عقد موريس معاهدة صلح مع الفرس عام ٥٩١م، وبالتالي أصبح جل اهتمامه موجها لجبهة الدانوب بعد أن آمن حدوده الشرقية.[٢١]

ويبدو أن الجيش، المتذمر أصلا من موريس، لم يعر اهتماما لأية اعتبارات عسكرية قد يكون الإمبراطور قد رعاها عند إصداره هذا القرار، ورأى فقط أن دافع هذا القرار هو رغبة موريس في توفير نفقات عودتهم ومؤنهم. وكما يذكر ثيوفلاكت ثيموقطا Theophylact Simocatta أن رفض الجنود الأمر جاء بسبب "الغنائم ذاتها، وإنهاك الخيل الشديد، وحشود البرابرة التي تعسكر قبالتهم".[٢٢] يرى هيجنز Higgins أن الجنود شعروا بأن الإمبراطور يضحي بهم في أرض العدو، ويجعلهم عرضة للهجوم والقتل في أي وقت، ولهلاك جيادهم في البرد القارس، وأن ذلك دفعه إلي الاعتقاد بأن حرص موريس على المؤن والنفقات كان أكثر من حرصه على سلامتهم الشخصية[٢٣]. بينما يذهب نورويش Norwich إلي أن سبب رفض الجنود أنهم ظلوا يحاربون مدة ثماني شهور متواصلة على جبهة الدانوب، وبالتالي فقد بلغ منهم الإجهاد البدني والذهني مبلغه. ولأنهم كانوا يدركون أن الغنائم التي أحرزوها لن يصبح لها

قيمة إلا بعد بيعها في الأسواق، وبالتالي فإن بقائهم طيلة الشتاء قد يتلف جانبًا كبيرًا من هذه الغنائم، أو على أقل التقديرات سيبخس من قيمتها ويؤخر حصولهم على قيمتها المالية.(٢٤)

على أية حال؛ كان تمرد الجند على قرار موريس بداية لثورة حقيقية اجتاحت العاصمة الإمبراطورية تستهدف الإطاحة بشخص الإمبراطور ذاته، ولاشك في أن هذه الأحداث كانت تمثل لقائد المائة الاستراتيجوس فوقاس فرصة ذهبية لتحقيق طموحه بالقفز على العرش الإمبراطوري، ولذلك أخذ منذ اللحظة الأولى لتمرد جيش الدانوب يطرق على الحديد وهو ساخن، وراح يخطب في الجند محذرا إياهم من طاعة هذا الإمبراطور الذي أدى بضعفه وتراخيه في حكم البلاد إلي تشجيع العدو وإغرائه بالوثوب على ولايات الإمبراطورية، وأخذ يحثهم بأنه بات على عاتقهم تغيير هذا الوضع وإصلاح التلف الذي حل بإمبراطوريتهم. وقد لاقت عبارات فوقاس الثورية صدى لدى نفوس امتلأت بالعداء والكراهية لموريس، ومن ثم كانوا مؤهلين تماما للثورة.(٢٥)

وبمجرد أن علم موريس من أخيه بطرس نبأ ثورة جيش الدانوب، أسرع باستدعاء رئيسا حزبي الزرق والخضر ليستعلم منهما عن عدد أفراد كل حزب، فقدم سرجيوس Sergius زعيم حزب الخضر لائحة تضم ألفًا وخمسمائة عضو، أما كوزماس Kosmas رئيس الزرق فقد قدم قائمة تضم تسعمائة عضو، فأسند إليهم موريس مهمة حراسة العاصمة، أما الأسوار فقد عهد بحراستها إلي القائد كومنتيولوس وجنده.(٢٦) كذلك سعى موريس إلي محاولة تهدئة الجيش الثائر، الذي اتخذ طريق إلي القسطنطينية لخلعه، فأرسل وفدا لاستمالته، غير أن فوقاس رفض التفاوض مع الوفد، وأرسل من جانبه رسالة إلي ثيودوسيوس الابن الأكبر لموريس يعرض عليه عليه أن يتسلم مقاليد الحكم أو يسلمها إلي صهره جرمانوس Germanus.(٢٧)

ويرى نورمان بينز Norman Baynes أن رسالة فوقاس إلي ثيودوسيوس تدل على أنه لم يرغب في تغيير نظام الحكم برمته ، وأن ثورته كانت موجهة ضد شخص موريس وليست إلى أسرته.(٢٨) غير أن رسالة فوقاس ربما كانت تهدف إلي إيقاع الفرقة بين أفراد العائلة الإمبراطورية، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تلقى ثيودوسيوس الرسالة أثناء وجوده في رحلة صيد بكاليكراتيا Kallicrateia، ولذلك بمجرد أن علم موريس بأمر رسالة فوقاس إليه حتى

أمر باستدعائه على الفور. كما أمر باستدعاء جرمانوس إلي بلاطه صبيحة يوم ٢٣ نوفمبر، واتهمه بالتحريض على هذا التمرد، وعبثا حاول جرمانوس درء الاتهام عن نفسه، لكن موريس أنهى المقابلة بقوله: "دعك من الثرثرة يا جرمانوس، ما أطيب الموت بحد السيف". فأدرك جرمانوس الخطر المحدق به فلجأ إلي كنيسة العذراء، وعندما حاولت قوات موريس إخراجه منها بالقوة، نجح في الفرار إلي كنيسة آيا صوفيا، وعندما حاصرها الجند، ثار عامة القسطنطينية وتجمهروا في ساحة الكنيسة وهم يسبون موريس ويصفونه بأقبح الصفات.(٢٩) على أن موقف موريس من جرمانوس هو العامل الأساسي الذى أثار العامة، بل يمكن اعتباره الشرارة التي فجرت غضبهم، فبالإضافة إلي سياسة موريس الاقتصادية، وموقفه من الأسرى البيزنطيين، أوجدت معاركه التي استمرت نحو عشرين عاما مع الفرس والسلاف والأفار مشكلات مجتمعية كاليتم والترمل والفقر.(٣٠)

ويبدو أن رد فعل موريس تجاه جرمانوس كان خطأً سياسيا فادحا في ظل ظروف عصيبة، إذ أن موقف العامة أثناء حصار الجنود لكنيسة آيا صوفيا أتاح الفرصة لاندلاع الفوضى وتزايدها بدرجة بات موريس عاجزا عن السيطرة عليها، ومن ثم وجد نفسه محاصرا من كافة الجهات، فجيش الدانوب يحاصر القسطنطينية من الخارج فى مسعى جاد لعزله، والعامة في الداخل باتوا قاب قوسين أو أدنى من الثورة العارمة. وزاد من تفاقم الأوضاع ترك حزبي الزرق والخضر مهمة حراسة المدينة وانضمامهم للثوار، بحيث راح الجميع يحرقون ويخربون مباني العاصمة.(٣١)

وقد دل إحراق العامة لمنزل قسطنطين لاردوس Constantine Lardos ، الوالي البرايتوري للعاصمة، والذي عينه موريس من قبل قيما على جمع الضرائب في الشرق، أن ثورتهم كانت في جانب كبير منها ثورة على السياسة المالية لموريس. وقد عبروا عن رفضهم لهذه السياسة في شخص لاردوس.(٣٢) ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يثور فيها العامة بسبب سياسات موريس الاقتصادية، فقد ثاروا قبلا في عام ٦٠١م بسبب انتشار المجاعة في القسطنطينية لنقص كمية القمح الوافدة من مصر وإفريقية، وهي المجاعة التي كانت آثارها لازالت عالقة في أذهان العامة، وبالتالي كانت ثورة عام ٦٠٢م فرصة للتعبير عن ضيقهم، خاصة وأنهم شاهدوا

موريس أكثر من مرة يبيع حصة القسطنطينية من القمح للحصول على سيولة نقدية لخزانته، وهو ما اضطره إلى وقف المنح المجانية التي توزع على فقراء العاصمة.[٣٣]

على أية حال، لقد قدم موريس لحزبي الزرق والخضر، بمشاركته إياهما حراسة القسطنطينية أثناء الثورة، سلاحا استخدموه ضده، حقيقة لقد أسند إليهم أمر حراسة العاصمة مرات متكررة قبلا، في عام ٥٨٦م لمواجهة غارات السلاف، وفي عام ٦٠٠م لصد هجوم الآفار على القسطنطينية، لكن العدو هذه المرة لم يكن أجنبيا، بل كان الجيش البيزنطي ذاته. وعلى ذلك أتاح لهم موريس نفسه الفرصة للمشاركة الإيجابية في أحداث الثورة. وهذا لا يعني أنه كان لكل حزب من الحزبين دافعه للمشاركة في الثورة، فقد ثار الخضر على موريس بسبب توانيه في أمر الشكوى التي تقدموا بها ضد قسطنطين لاردوس لعدم سماحه لهم بتعيين حنا كروكيس John Krokes ديمارخا (رئيسا) عليهم بدلا من سرجيوس الديمارخ الفعلي، ولذلك شاركوا العامة في الانتقام من لاردوس[٣٤]، ويبدو أن هذا الأمر كان له اعتبار عند الخضر، حيث نرى بعد تتويج فوقاس إمبراطورا تم تنفيذ رغبتهم بتعيين كروكيس رئيسا لهم. أما حزب الزرق؛ فرغم صمت المصادر عن مشاركتهم في بداية أحداث الثورة، لكنهم سرعان ما انضموا إليها بغية تنصيب جرمانوس، صهر ثيودوسيوس ابن موريس، على عرش الإمبراطورية.[٣٥]

وأيا كان الأمر؛ فقد أسهم تطور الأوضاع إلى إحباط موريس ويأسه من أن يجد له مساند في القسطنطينية، وعندما أسقط الأمر في يده، وأدرك أن عليه سرعة الفرار من العاصمة قبل أن يدخل الجيش ويتحد الجميع ضده، فجمع أفراد أسرته وقسطنطين لاردوس ولاذوا جميعا بالفرار. وعبر أستار الليل، وعلى ساحل مضيق خلقدونية بالقرب من كنيسة أوتونوموس St.Autonomos، أرسى موريس وأسرته، حيث سرعان ما ثارت الطبيعة عليه أيضا فأرسلت إليه رياح عاتية كادت تفتك بسفينته، ولم يكد ينج منها حتى هاجمه مرض التهاب المفاصل فبات طريح الفراش. وهناك أخذ يبحث عن قوة تعضده في مواجهة الأوضاع المتدهورة في القسطنطينية، وكأنه غريق يبحث عن طوق للنجاة، فلم يجد أمامه غير الجبهة الشرقية، حيث لاح الفرس له في الأفق كقوة يمكن أن يرتجى مساعدتها، خاصة وأنه يرتبط بهم بمعاهدة تصالح، فأرسل ابنه ثيودوسيوس إلى ملك فارس خسرو يطلب منه النجدة والمساعدة.[٣٦]

وهكذا ترك موريس بهروبه الساحة لخصومه السياسيين أو لغيرهم من الطامحين إلى السلطة، فأخذ جرمانوس يسعى جاهدا للحصول على تأييد الأحزاب، خاصة وأنه اعتبر نفسه المنافس الوحيد لموريس على عرش الإمبراطورية، ولما كانت رسالة فوقاس السالفة الذكر، التي أرسلها إلى ثيودوسيوس ويعبر فيها عن رغبة الجيش الثائر في إعتلاء أي منه أو جرمانوس، وطالما هرب ثيودوسيوس مع أبيه، فقد شعر جرمانوس أنه أقوى المرشحين للعرش، وأن تأييد الجيش له أمر مفروغ منه، وأن ما يتمتع به من نفوذ ومكانة لدى حزب الزرق يجعل تأييد الحزب له محسوم. ولم ينتظر ما ستسفر عنه تطورات الأحداث، بل أخذ يعمل بجد لتحقيق مآربه، ولضمان تأييد القوى السياسية المعارضة في العاصمة، والمقصود بها حزب الخضر. فأرسل إلي سرجيوس رئيس حزب الخضر يعرض عليه مبلغا من المال وامتيازا وتكريما مقابل دعم ارتقائه للعرش، وعندما عرض سرجيوس الأمر على أعضاء حزبه كان الرفض متوقعا، خاصة وأن انتماءات جرمانوس الحزبية ستجعل من حزب الزرق الأقوى سياسيا في حالة وصوله إلي السلطة.(٣٧)

ويبدو أن حزب الخضر قد خشي من نجاح جرمانوس في محاولاته للاستئثار بالعرش، فتسلل مجموعة من أعضائه ليلا إلى منطقة ريجيون Rhegion حيث يعسكر فوقاس وجنوده ، وأعلنوا تأييدهم له ورغبتهم في ارتقائه السلطة، وطلبوا منه التقدم نحو الهيدروم.(٣٨) ويبين هذا الموقف مدى العداوة المتأصلة بين حزبي الزرق والخضر، وكيف كان كل منهما يعمل من أجل مصلحته الخاصة دون النظر للمصلحة العامة للإمبراطورية، فالخضر يرفضون جرمانوس رجل السياسة والسناتو، ويفضلون عليه ضابط متواضع مغمور. وهكذا، ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، تنجح ثورة في الإطاحة بالإمبراطور الجالس على العرش، فرغم أن هناك ثورات سابقة أشهرها تلك التي اندلعت في عصر جستنيان، إلا أنها لم تنجح فيما نجحت فيه ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢م.(٣٩)

وكعادة المجتمع البيزنطي راح يبرر سقوط موريس بأنه نوع من العقاب الإلهي العادل تجاه ما ارتكبه من خطأ في حق الأسرى البيزنطيين، ونسج حول ذلك عددا من النبوءات والأساطير شاعت بين طوائفه ورددها المؤرخون البيزنطيون في كتاباتهم. فتشير المصادر البيزنطية إلي أن ثمة إشاعة سرت في شوارع القسطنطينية مفادها أن موريس أوشك على السقوط على يد شخص

يبدأ اسمه بحرف (φ) اليوناني، ويعادل في العربية حرف (الفاء). الأمر الذي دفع موريس إلى الشك في صهره البطريك فيليكوس، فاستدعاه ولم يتركه إلا بعد أن أقسم له الأخير على أنه لم يفكر قط في مثل هذا الأمر.[٤٠]

كذلك تشير المصادر إلى حلم رآه موريس خُيل إليه فيه بمشاهدة جمهور غفير من الناس محتشدين عند البوابة الذهبية تحت أيقونة المسيح الكبرى وهم يهتفون ضد الملك. وسُمع صوت صادر من الأيقونة يأمر بحضوره، وما إن حضر حتى سأله الصوت إن كان يفضل التكفير عن ذنبه في حق الأسرى في هذه الحياة أم في الآخرة. فأجاب: "في هذه الحياة سيدي الرحيم". فسمع الصوت يقول: "سلموه إذن إلى فوقاس مع جميع أسرته". وعندئذ نهض موريس من نومه مذعورا، وبعد أن استدعى فيليكوس واعتذر له عن شكوكه الباطلة، سأله إن كان يعرف جنديا اسمه فوقاس، فأجابه الأخير بأنه يعرفه، فسأله عن سنه وأخلاقه، فأجاب بأنه شاب وأخلاقه تتراوح بين التهور والجبن. فقال: "إذن جبان، فقاتل".[٤١]

ويبدو أن قصة الحلم التي رددها المصادر التاريخية، قد شاعت بين طوائف المجتمع في القسطنطينية بعد إعدام موريس وعائلته الملكية، وقت أن شاهد شعب القسطنطينية جموح فوقاس ودمويته التي طالت الكثيرين، وحينها وضح له أن أخطاء موريس مهما بلغت لا يمكن مقارنتها بخطايا فوقاس، ولذلك عمد إلى تفسير ما حدث لموريس بأنه عقاب إلهي عادل على خطئه في حق الأسرى البيزنطيين، وفي ذات الوقت تكفيرا له. فقد فسر نيقفور كاليستوس Nicephoros Callistus ما لحق بموريس بأن "الله غضب على موريس بسبب هذا الإثم"[٤٢].

كذلك، رددت المصادر البيزنطية فكرة التكفير عن الخطأ حينما أظهرت موريس في ثوب النادم الراغب في التوبة، فيذكر زوناراس أن موريس راح يتضرع إلى الله أن يعاقبه على ذنبه في حق الأسرى في هذه الحياة، وطلب من الجميع أن تُرفع الصلوات لهذا الغرض.[٤٣] كذلك يشير كدرينوس إلى أن الحلم الذي رآه موريس في منامه جاء بعد صلوات كثيرة كانت تُرفع من أجله[٤٤]. ولا شك في أن الاعتراف بالخطأ والرغبة في التكفير عنه ارتبطا ارتباطا وثيقا بالمفهوم البيزنطي المسيحي عن فكرة الخلاص. ومن هنا جاءت رواية المصادر البيزنطية أنه في ذات يوم رؤية موريس لذلك الحلم، أرسل إلى القديسين يستشيرهم في هذا الشأن، وجاءته

الإجابة التالية: "لقد قبل الله ندامتك ومنحك الخلاص وجعلك مع جميع أفراد أسـرتك مـع القديسين، لكنك ستفقد ملكك وسط المخاطر والعار".(٤٥)

وكما صاغت المصادر التاريخية قصة سقوط موريس في قالب التفسير الديني، عمدت أيضا إلي صيغ نهايته بذات الطابع، فيذكر زوناراس وكدرينوس أنه في ذات الليلة التي سقط فيهـا موريس "ظهر في السماء مذنب بشكل السيف"(٤٦)، كذلك تذكر المصادر البيزنطيـة أنـه في ذات اللحظة التي أعدم فيها موريس "أعلنت التماثيل القائمة في المكان المـسمى Tychaeus بالإسكندرية، وبصوت أقرب من الصراخ، ما جرى لموريس"(٤٧). وفي ذات الصدد تـذكر هذه المصادر أن رجلا صالحا من النساخ السكندريين لدى عودته إلي بيته في منتصف الليل سمع التماثيل تعلن من فوق مذابحها أن موريس قُتل مع أبنائه، وعند الصباح نقـل الخـبر إلي والي المدينة أوغسطاليس Augustalis وأسقفها بطرس، فأمراه بكتم الخبر، وبعد تسعة أيام تأكـد صحة ما سمع(٤٨).

وإذا كانت المصادر البيزنطية قد بررت سقوط موريس في ضوء مفهـوم الخطيئـة ومـا يستتبعها من عقاب إلهي عادل، فإن الظواهر الخارقة التي صاحبت موته ربما كانـت لتأكيـد فكرة خلاص موريس من خطيئته، أو ربما أيضا للتعبير عن المصير الذي آلت إليه الأمور بعـد سقوطه. وهنا تعكس لنا تلك المصادر صورة شديدة السلبية عن عصر فوقاس، ولنبدأ بالتقرير الموجز الذي افتتح به البطريك نقفور كتابه "التاريخ المختصر" عن ذلك العصر، والذي جـاء فيه: "عقب مقتل موريس، اعتلى فوكاس، الذي اقترف هـذه الجريمـة النكـراء، العـرش الإمبراطوري، مدعيا أحقيته بالسلطة، مما أدى إلي تدهور أحوال المسيحيين. وكـان معروفـا للجميع أنه في الوقت الذي كان الفرس يهددون الإمبراطورية الرومانية من الخـارج تهديـدا خطيرا، كان فوقاس يقترف تدميرا أسوأ أثرا في الداخل".(٤٩) أما كدرينوس فيصف بداية عصر فوقاس بقوله: "عندما اقتحم الخضر البلاط وأخذوا يهتفون للطاغية، وأوعزوا إليه أن يأتي إلي الهيدروم، خرج البطريرك قيرياقوس Kyriacus والشيوخ لاستقباله، وطلبوا منه الحفاظ على الإيمان القويم والدفاع عن الكنيسـة ضد القوغائيين. وأعلنوا فوكاس إمبراطورا في كنيسـة يوحنا المعمدان، وسلموا الصولجان لهذا الرجل الشرير الطاغية، وحلت الملمّات بـالوطن الآمـن، وكانت بداية سلسلة من الكوارث قضت على دولة الرومان".(٥٠)

وكعادة البيزنطيين راحوا يفسرون ارتقاء فوقاس العرش على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبته أيديهم من أخطاء. فقد روي أن أحد الرهبان تساءل قائلا: لماذا ولي الله على النصارى إمبراطورا شريرا كهذا، فأجاب الرب: لأنه لم يوجد من هو أكثر شرًا منه على ما استحقت مآثم أهل القسطنطينية".(٥١) كذلك راح كاتب سيرة القديس ديمتريوس يعبر عن مفهوم العقاب الإلهي لتفسير أحداث هذه الفترة بقوله: "جميعكم تعرفون كم من فتنة أثارها الشيطان في المدينة في عهد سعيد الذكر موريس، فانطفأ دفء المحبة وزرع الحقد في الإمبراطورية بأسرها، حتى لم يكتف الأخوة بسفك الدماء في الميادين، بل هاجموا المنازل نفسها وقتلوا من فيها، وكل من لجأ إليها من نساء وأطفال ومرضى ليحتموا بها ألقوا من فوقها أرضا، وسلب بعضهم بعضا، الصديق صديقه والجار جاره، كما يفعل البرابرة. وهكذا اجتاحت المجازر الشيطانية جميع الجهات، فتحولت إلى مغارة للصوص، وكما ينتشر الحريق انتشرت الفتنة، وأعمى الطمع ونار الفتنة جميع القلوب إلى أن بلغ المدينة التي يحرسها القديسون".(٥٢)

كذلك يصف نيقفور كاليستوس اعتلاء فوقاس العرش بمن وجد نفسه "قاب قوسين من سدة الحكم، أو كمن ركب مركبا بلا أية دراية بالحكم" ، ووصف مراسم تتويجه بقوله: "وسرعان ما استولى الخضر على البلاط وأخذوا يهتفون للطاغية كإمبراطور، فأرسل فوكاس أحد الأعيان، ويدعى ثيودور(٥٣)، يستدعي البطريرك وأعيان الشعب. فلما التئم جمعهم في كنيسة القديس يوحنا المعمدان، توجوا الوحش النجس بتاج الملك. وعلى الفور دخل فوكاس المدينة في موكب مهيب وراح يمطر الشعب بالذهب، فغابوا جميعا عن رشدهم بهجة بتلك الأبهة".(٥٤)

ولا ريب في أن الصورة السلبية التي عكستها المصادر البيزنطية عن فوقاس كانت نتاجا لسياسته الجامحة وسلوكه الدموي الذي بدا ظاهرا للعيان منذ اليوم الأول لوصوله إلى السلطة. وقد عكست المصادر البيزنطية هذا السلوك في الأسلوب الذي انتهجه للانتقام من خصومه السياسيين والتنكيل بهم، خاصة أفراد العائلة الملكية المنصرمة وكبار رجال القصر، فتشير إلى هروب موريس مع زوجته قسطنطينة وأبنائه التسعة فجر يوم الجمعة الثالث والعشرين من نوفمبر، وبعد يومين دخل فوقاس العاصمة عبر البوابة الذهبية Chalke gate دون أدنى مقاومة

بل ووسط تهليل الجميع[٥٥]. غير أن ما ذكرته لاحقا من تصرفاته كانت فيما يبدو سببا في إثارة استياء شعبي تجاهه، فقد قبض على موريس وزوجته وثمانية من أولاده بالقرب من كنيسة القديس St. Autonomus في Praenetus، وتم ذبح موريس أمام مرفأ Eutropius مع ثلاثة من أبنائه الذكور، وتم ذبح أحدهم أمام أعين موريس نفسه. وتشير المصادر البيزنطية إلى أن موريس تقبل نهايته بشجاعة ورباطة جأش، وأنه راح يردد عبارات عن العدالة الإلهية. أما زوجته قسطنطينة فقد أودعها أحد الأديرة إلى حين، ثم أعدمها خارج المدينة عند مرفأ Eutropius بخلقدونية "مع كل من تبقى من سلالتها وسلالة موريس" وكان ذلك في السابع من يونيو ٦٠٣م، وقد اجتمع العامة لمشاهدة جثث القتلى في مضيق خلقدونية، أما رؤوسهم فقد حملها الجنود إلى القسطنطينية، حيث مثل بها أمام العامة، الأمر الذى جعل الجميع، رغم كراهيتهم لموريس، يتعاطفون معه ويتأسون للطريقة البشعة التى قضى بها فوقاس عليه وعلى أبنائه[٥٦].

وترجع المصادر سبب إقدام فوقاس على مطاردة موريس وإعدامه، إلى أنه في يوم الاحتفال بتتويج ليونتيا زوجة فوقاس، دب خلاف في الهيبدروم بين حزبي الزرق والخضر، حيث جلس الخضر على المقاعد المخصصة للزرق. الأمر الذي أثار غضب الزرق فرفعوا أصواتهم معلنين لفوقاس: "اذهب وتعلم البروتوكول، فموريس لم يمت بعد".[٥٧] غير أنه من الصعب تصور أن هتاف الزرق وحده كان كفيلا بأن يثير ثائرة فوقاس ويدفعه إلي البحث عن موريس وأسرته للتخلص منهم. بل لقد رأى أنه لن يتسنى له توطيد حكمه إلا بعد القضاء على كل من يمت للنظام القديم بصلة، ولذلك أعقب مذبحة موريس وزوجته وأولاده بمجزرة أخرى أتى فيها على من تبقى من أقاربه وأعوانه، فقطع رؤوس بطرس قائد جيش الدانوب وشقيق موريس، وكومنتيولوس قائد الحرس الإمبراطوري، والقائد جورجيوس نائب فيليكوس صهر موريس، والقائد براسنيوس مستشار بطرس وصديقه، وقسطنطين لاردوس الوالي البرايتوري للعاصمة، أما جرمانوس وفلبيكوس فقد أجبرهما على دخول الدير.[٥٨]

لقد عبر ثيوفلاكت ثيموقطا عن دموية فوقاس في آخر فقرة من مؤلفه التاريخي بقوله: "في هذه الأيام، حلت الخطيئة على العالم المأهول، فقد كانت الفرصة لكل الشرور العظيمة سانحة،

وكانت الإشاعة الزائفة كفيلة بأن تجرى بشأنها المذابح، ولم يقتصر الأمر على الأعداء، بل امتدت يد فوقاس لقتل شركائه في الطغوان، وراح يدبر المذابح لحلفائه التابعين". (٥٩)

بقيت الإشارة إلي أن فوقاس بعد اغتصابه العرش، أرسل إلى القوى المجاورة يعلن تسلمه السلطة، فأرسل القائد ليليوس Lilios على رأس وفد محمل بالهدايا إلي خسرو ملك فارس، الذي رفض مقابلة الوفد، واتخذ من قتل موريس ذريعة لنقض معاهدة عام ٥٩١م، معلنا أنه لن يحارب الإمبراطورية، بل سيحارب قاتل موريس ليثأر منه، وعلى ذلك كانت إحدى النتائج المباشرة لثورة عام ٦٠٢م إشعال الحرب من جديد بين الطرفين. (٦٠)

وفي الخامس والعشرين من أبريل عام ٦٠٣م، وصل سفراء فوقاس إلي روما يحملون صورا لفوقاس وزوجته ليونتيا، وقد استقبلهم شعب روما بترحاب واحتفال كبيرين، حاملين البخور والشموع، وقادوهم إلي مقر السناتو الروماني، حيث تم الهتاف للإمبراطور الجديد: "الحياة المديدة للإمبراطور فوقاس وزوجته الأوجستا ليونتيا"، ثم سلم البابا جريجوري الأول الوفد البيزنطي رسالة تحمل تهنئته لفوقاس. (٦١)

هكذا، كان ظهور شخصية مثل فوقاس على عرش الإمبراطورية نتاجا أفرزته الظروف العصيبة التي مرت بها الإمبراطورية منذ عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، فأكثر من ثلاث أرباع قرن من الحروب المتواصلة، أمر أسهم في إنهاك الإمبراطورية وإصابة اقتصادياتها بالشلل، وهو الأمر الذي إنعكس على ارتباك سياسات أباطرتها بعد جستنيان، وألقى بظلاله على الأوضاع المجتمعية في الإمبراطورية، خاصة مجتمع القسطنطينية. وفي ظل هذه الظروف جاء فوقاس الذي لم يكن له سيرة تذكر، بل ضابط من أصل اجتماعي متواضع، ليحظى بتأييد شعبي جارف، وربما كانت أصوله الاجتماعية عاملا أدى إلي ارتباط العامة به. ومن ناحية أخرى، وجد حزبي الخضر والزرق في فوقاس قوة جديدة يمكن أن تحدث تغييرا وتنهي العهد البائد بسلبياته، وتزيل آثار حكم موريس. وربما ظن العامة أيضا أن معاناتهم الاقتصادية والاجتماعية ستزول بزوال موريس وحلول فوقاس، الشخص الذي لا ينتمي إلي الأصول الأرستقراطية والأقرب إلي فهم معاناة الفقراء والطبقات الكادحة. غير أن ما أظهرته السنوات القليلة التالية أثبتت خيبة أمل الجميع.

ولنختم بتعليق لفتشنكو Levtchinko على أحداث عام ٦٠٢م، إذ أطلق عليها صفة "الثورة"، واعتبرها صراعا اجتماعيا ونزاعا طبقيا بين الفلاحين والصناع وصغار الجند من جهة، وبين المقربين من السلطة من كبار الموظفين وأصحاب الثروات من جهة أخرى، ويرى أنها ثورة فاشلة من منظور الثوار أنفسهم، لأن من أتوا به إلي السلطة، أي فوقاس، لم يحرص على تحقيق آمالهم بقدر ما سعى إلي توطيد سلطته فقط.(٦٢)

الهوامش

(1) Vitae Sanctorum, Suppelementum, S. Demetrii Martyris Acta, PG 116, cols.1081-1462. esp.col. 1259: ch.79.

(٢) هناك دراسات عديدة تناولت حروب جستنيان الإستردادية في الغرب الأوروبي وأوضاع الإمبراطورية في عهده، أحدثها:

Haldon, J., Economy and Administration: How did the Empire work? , in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006. pp.28-59; Lee, A.D., The Empire at War, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.113-133.

وأنظر كذلك: محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، القاهرة، ١٩٩٢م؛ عروس عبد القدوس سعيد، جوستنيان وسياسة الاسترداد، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.

(٣) كانت سياسات خلفاء جستنيان الاقتصادية والمالية، التي تراوحت ما بين الإسراف والتقطير، ومحاولة إرضاء العامة وتلبية احتياجات الإمبراطورية المالية دون إصلاحات مالية حقيقية، خير شاهد على ما بلغته الخزانة الإمبراطورية من أزمة حقيقية واضطراب في الميزان الاقتصادي عقب وفاة جستنيان. عن أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في عهد خلفاء جستنيان، أنظر:

Turtledove, H.N, The Immediate Successors of Justinian: a study of the Persina problem and a continuity and change in internal secular affairs in the later Roman Empire during the reigens of Justin II and Tiberius I. Constantine (A.D.565-582), unpublished Ph.D. thesis, University of California, 1977.

ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطورين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥-٥٨٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

(٤) أدى اجتياح القبائل السلافية ثم الأفارية لشبه جزيرة البلقان طوال القرن السادس الميلادي إلى تخريب وتدمير مدن وقرى البلقان، وبالتالي إلى هجرة الكثيرين من مواطنيها إلى أماكن أخرى من الإمبراطورية، مما أدى إلى مشاكل مالية واجتماعية خطيرة. أنظر:

Alexander, E.M., Early Slavic invasions and settlements in the Area of Lower Danube in the 6th through the 8th centuries, unpublished Ph.D. thesis, New York University, 1994, pp.165-173; Curta, F., Making an early Medieval ETHNIE: the case of the early Slavs (sixth to seventh century A.D.), unpublished Ph.D. thesis, Western Michigan University, 1998, pp.162-164, 202-225.

(5) Haldon, J., Byzantium in the seventh century, the transformation of a cukture, Cambridge, 1990, pp.35-37.

وأنظر كتاب "التاريخ السري" Anekdota لبروكوبيوس، الذي يقدم نقدا لاذعا لعصر جستنيان وسياسته: بروكوبيوس، التاريخ السري، ترجمة علي زيتون، دمشق، ٢٠٠٣؛ التاريخ السري لبروكوبيوس: حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا، ترجمة صبري أبو الخير، القاهرة، ٢٠٠١م. وعن الأوبئة والطواعين خلال هذه الفترة، أنظر:

Hordon, P., Mediterranean Plague in the age of Justinian, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.134-160.

(٦) عن إصلاحات موريس العسكرية، أنظر: وفاء عبد الحميد محمد، الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م، ص١٥٨-١٦٠.

(7) Theophylact Simocatta, Historia, CSHB, Bonnae, 1834, 112-118. Eng. Trans, The History of Theophylact Simocatta, trans. Michael & Mary Whitby, Oxford, 1986, 74-75; Theophanes, Chrongraphia, Eng. Trans. The Chronicle of Theophanes the Confessor. Byzantine and Near Eastern History. A.D. 284-813, trans. C.Mango & R.Scott, Oxford, 1997, p.398; Higgins,J., Note on the Emperor Maurice's military administration, Analecta Bollandiana 16(Bruxelles,1940), p.398.

يذكر ثيوفانيس أن مرسوم موريس كان يقضي بتوزيع مرتب الجندي إلي ثلاثة أقسام متساوية، بحيث يتقاضى ثلثا من العملات الذهبية، والثلث الثاني من الأسلحة، والأخير من الملابس. أنظر كذلك: ليلى عبد الجواد اسماعيل، الدولة البيزنطية في عصر هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨٧.

(٨) الجنيه الذهبي البيزنطي يعادل ٧٢ نوميزما Nomisms أو الصولدى solidus العملة الذهبية البيزنطية، وتساوي النوميزما الواحدة ٢٤ قيراطيا keratia . أنظر:

Grierson, Ph., Byzantine Coinage, Washington, D.C., 1999, PP.57,59,60; Grierson, Ph.,The value of the Solidus in the fifth and sixth centuries A.D., Journal of Roman Studies 49(1959), pp.73-80.

ولعل هذا يفسر سبب غضب خاقان الأفار وأمره بقتل الأسرى البيزنطيين بسبب تدني قيمة عرضه على موريس.

(9) Chronicon Paschale, CSHB, vol.I, Bonnae, 1832, p.692; Theophanes, Chrongraphia, p.404.

(10) Nicephori Callisti Xanthopuli, Ecclesiasticae Historiae, libri 18, PG 147, col.403.

(11) Ioannis Zonaras, Epitomae Historiarum, libri 8, CSHB, Bonnae, 1897, p.193.

(12)Theophanes, Chrongraphia, p.408.

كذلك يذكر زوناراس أن أحد الرهبان رفع سيفا وسار من الميدان حتى البوابة الذهبية وهو يهتف بأن موريس سيسقط قريبا بالسيف. Zonaras, Epitomae Historiarum,, p.193.

(13) Theophylact Simocatta, Historia, p.294. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, pp.213-214.; Chronicon Paschale, p.694.

(14) heophanes, Chrongraphia, pp.403, 407. Stratos, A.N., Byzantium in the seventh century, vol.I, Amesterdam, 1968, p.44.

يقول ثيوفانيس أن موريس هو الذي أمر كومنتيولوس بخيانة الجيش بسبب عدم التزام الجنود بالنظام. ويقول أيضا أن "الإمبراطور لم يعر اهتماما للاتهامات الموجهة ضد كومنتيولوس". ويرى استراتوس أن استياء الجنود والعامة جاء نتيجة شعورهم بأن موريس لم يرفض افتداء الأسرى بسبب خلو الخزانة بل بسبب بخله، الأمر الذي دفعهم إلي الاعتقاد بأنه حريص على المال أكثر من حرصه على نفوس وأرواح جنوده. وأن هذا الاعتقاد تأكد لديهم بعد الموقف السلبي الذي أظهره موريس حيال ما رأوه من خيانة من قبل قائدهم كومنتيولوس.

(15) Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.214-215, 221.

(16) Norwich, J.J, Byzantium: the early centuries, New York, 1989,278.

(17)Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.214-215; Theophanes, Chrongraphia, p.409.

(18) Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.179-180.

(19) Theophylact Simocatta, Historia, pp.324-325. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.218-220; Theophanes, Chrongraphia, pp.411-412.

(20) Stratos, Byzantium, I,pp.29-30.

(21) Browning, R., Byzantium and Bulgaria, London, 1977, p.37.

نجح القائد بريسكوس في إحراز عددا من الانتصارات المتالية على الأفار في الفترة بين عامي ٥٩٧-٥٩٩م، وبالرغم من فشل كومنتيولوس بعد ذلك في صد هجماتهم، إلا أن وباء الطاعون الذي اجتاح جيوشهم عام ٦٠١م وما نتج عنه من اضطرارهم عقد صلح. غير أن موريس سرعان ما نقض هذا الصلح وأمر أخيه بطرس بشن حملات ضدهم، ونجح في إحراز بعض الانتصارات، خاصة مع حدوث انقسامات في جيش الخاقان وفرار عدد من جنوده إلى الجيش البيزنطي، الأمر الذي دفع الخاقان إلى محاولة تهدئة الجبهة حتى يستطيع تنظيم قواته، وجعل موريس على الجانب الآخر يصر على مواصلة الحرب والإفادة من انقسامات الجيش الأفاري. ومن هنا جاء إصراره على أن يواصل الجيش حروبه خلال فصل الشتاء. أنظر:

Theophylact Simocatta, Historia, pp.297-323. Eng. Trans.History of Theophylact Simocatta, pp.216-220; Theophanes, Chrongraphia, p.407.

(22) Theophylact Simocatta, Historia, pp.324-325. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.218; Theophanes, Chrongraphia, pp.411-412.

(23) Higgins, Maurice's military administration, pp.445-446.

(24) Norwich, Byzantium, pp.275-276.

(25) Theophylact Simocatta, Historia, p.328. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.220; Theophanes, Chrongraphia, p. 412.

(26) Theophylact Simocatta, Historia, p.327. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.220; Theophanes, Chrongraphia, p. 412.

(27) Theophylact Simocatta, Historia, p.329. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.221; Theophanes, Chrongraphia, p. 412.

كان جرمانوس حمو تيودوسيوس، وكان عضوا بمجلس السناتو وعرف بولعه الشديد بالعلوم والآداب، ويبدو أنه كان ينتمي إلى حزب الزرق.

(28)Baynes, N., The Successors of Justinian, in: Cambridge Medieval History, vol. II, pp.263-301, 281-282.

(29) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 223; Theophanes, Chrongraphia, p. 412-413; Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.406.

(٣٠) وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص١٦٢-١٦٣.

(31) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.221-223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413; Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.406.

(32) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413; Nicephoros Callistus, op. cit., col.406.

(٣٣) يذكر ثيوفلاكت ثيموقطا أن هذا التمرد كان بسبب المجاعة ونقص الغذاء الذي حل بالقسطنطينية في شتاء هذا العام، ويروي أنه بينما كان موريس يحتفل بعيد الميلاد بين الناس في كنيسة آيا صوفيا، هاج العامة ضد الإمبراطور وطالبوه بالخبز بصراخ وأصوات عالية، وانهالوا عليه بالسباب والشتائم، وتطور الأمر إلى قذفه بالحجارة، وكادوا يصلون إليه لولا تدخل فرقة الحرس الإمبراطوري، حيث التفوا حوله حتى أخرجوه من الكنيسة. وهرب موريس إلى كنيسة العذراء التي تقع في حي بالشرناى حيث يقيم الزرق، وهذا يشير إلى أن مثيري الشغب كانوا من حزب الخضر.

Theophylact Simocatta, Historia, p.321-323. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 215-216.

وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص٥٧.

(٣٤) يخص ثيوفانيس حزب الخضر وحده بالمشاركة في حرق منزل لاردوس، بينما لم يحدد ثيوفلاكت مشاركة أي من الحزبين في ذلك.

Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(35) History of Theophylact Simocatta, p. 224; Stratos, Byzantium, I, pp.46-48.

(36) Theophylact Simocatta, Historia, p.346. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223-224; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(37)Theophylact Simocatta, Historia, p.346. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 224; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(38)Theophylact Simocatta, Historia, p.346-347. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 224-225; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(٣٩) عن ثورة عصر جستنيان، أنظر: رأفت عبد الحميد، الثورة الشعبية في القسطنطينية سنة ٥٣٢م، بحث منشور في كتاب بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٩٩-٢٤٩.

(40)Theophanes, Chrongraphia, pp.410; Zonaras, Epitomae Historiarum, pp.193-194.

(41)Theophanes, Chrongraphia, pp.410-411; Zonaras, Epitomae Historiarum, pp.194-195.

يذكر كيدرينوس نفس قصة الحلم، وإن اختلف بعض الشئ في تفاصيله، فيشير إلى أن هذا الحلم جاء بعد صلوات كثيرة كانت ترفع من أجل موريس، وأنه خيل إليه بأنه يقف أمام أيقونة المسيح وعدد كبير من الأسرى يوجهون إليه الاتهامات.

Georgii Cedreni Historiarum Compendium, CSHB, I, Bonnae, 1838, p.704.

أما نيقفور كاليستوس فقد أشار إلى قصة الحلم بإيجاز بقوله: "شاع في المدينة أن المسيح ظهر له في الحلم وأبلغه أنه امسى تحت رحمة فوكاس. ولما نهض موريس من نومه، استدعى صهره فيليكوس من السجن، حيث كان يخشى من

الطرفين الأولين في اسمه على العرش ولذلك سجنه. ثم سأله إن كان يعرف فوكاس هذا، فأجابه نعم. فسأله عن أخلاقه، ولما علم أنه جبان قال: إن كان حقا جبانا فهو لا محالة قاتل".

Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.403.

(42)Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.403.

(43) Zonaras, Epitomae Historiarum, p.193

(44)Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704.

(45) Theophanes, Chrongraphia, pp.410-411; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.195.

(46)Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.195.

(47)History of Theophylact Simocatta, p.231; Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.411.

(48) History of Theophylact Simocatta, pp.231-232; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.710.

(49) Nikephoros Patriarch of Constantinople, Short History, trans. C.Mango, Washington,D.C., 1990, P.35.

البطريرك نقفور، التاريخ المختصر، ترجمة هاني عبد الهادي البشير، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص.٥٧.

(50) Cedrenus, Historiarum Compendium, p.706.

وأنظر كذلك: History of Theophylact Simocatta, p.225; Theophanes, Chrongraphia, p.413.

(51) Mansi, Sacrorum Conciliorum, Tomus Decimus, p.503.

(52) S. Demetrii Martyris Acta, cols.1262-1263.

(٥٣) ينعته كل من ثيوفلاكت ثيموقطا وثيوفانيس بالـ secretis ، مما يعني أنه كان سكرتيرا لفوقاس وكاتما لسره.

History of Theophylact Simocatta, p.225; Theophanes, Chrongraphia, p.413.

(54) Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.407.

لا شك في أن فوقاس باستدعائه أعضاء مجلس السناتو ورجال الدين وعلى رأسهم البطريرك وأعيان الشعب كان يهدف إلى وجود كافة العناصر التي تجعل تتويجه شرعيا، وتصبغه بالصبغة الدينية. غير أن تتويجا هذا النحو يعني بروز دور الأحزاب السياسية على حساب الجيش ومجلس السناتو أصحاب الدور الفاعل قبلا في اختيار الأباطرة. وهو ما علق عليه كاميرون بقوله: "لقد توارى الجيش والسناتو أمام نفوذ الأحزاب الذي بدأ يتزايد في عصر خلفاء جستنيان، حيث استطاعوا عام ٦٠٢م أن يتوجوا إمبراطورا بعينه ويمنحونه مقاليد السلطة الإمبراطورية، خاصة وأن فوقاس جاء من الطبقة الدنيا في الجيش، ولم يكن ليطمع فيما أحرزه إلا عندما ساق إليه التنافس الحزبي العرش الإمبراطوري".

Cameron. A., Circus Factions. Blues and Greens at Rome and Byzantium. oxford. 1976, pp.31-32.

(55)Chronicon Paschale. p.693.

يذكر كاتب الحولية الفصحية أسماء أبناء موريس التسعة، وهم ستة ذكور: ثيودوسيوس وتيبريوس وبطرس وبولس وجوستين وجوستينيانوس، وثلاث إناث: أناستاسيا وثيوكتيستا وكليوباترة. Ibid, p.693.

(٥٦) عدم فوكاس في البداية أبناء موريس الكبار، بطرس وجوستين وجوستينيانوس، مع أبيهم، ثم أعدم قسطنطينة وبناتها الثلاث وزوجة إبنها ثيودوسيوس Chronicon Paschale,pp.694,695-697.; History of Theophylact Simocatta, p.227; Theophanes, Chrongraphia, p.414.

يشير ثيوفانيس إلى أن موريس أعدم مع خمسة من أبنائه الذكور.

(57)History of Theophylact Simocatta, p.226; Theophanes, Chrongraphia, p.413-414.

(58)Chronicon Paschale, p.693; History of Theophylact Simocatta, pp.230-231; Theophanes, Chrongraphia, p.414; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.709; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.197.

لم يبق من رجال موريس سوى القائد نارسيس الذى استولى على الرها بمساعدة خسرو ملك فارس عام ٦٠٣م، فأرسل إليه فوقاس قائده دومنتزيولوس لحصاره في الرها، وعرض عليه تسليم المدينة لقاء صفح فوقاس، وبالفعل عاد نارسيس إلى القسطنطينية ليحرق حيا في غاية عام ٦٠٥م.

Theophanes, Chrongraphia, p.421; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.710-711; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.199.

(59)History of Theophylact Simocatta, p.236.

(60) History of Theophylact Simocatta, pp. 234-235; Theophanes, Chrongraphia, p.419; Chronicon Paschale, p.694; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.709; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.197.

(61) Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1914, 157.

وعن العلاقات السيئة بين موريس والبابوية، أنظر: وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص٦٩–٧٥.

(٦٢) أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٥، ص٢٠٩–٢١٠.

المصادر والمراجع

أولا. المصادر:-

Anonymous, Chronicon Paschale, CSHB, vol.I, Bonnae, 1832

Georgii Cedreni Historiarum Compendium, CSHB, I, Bonnae, 1838

Ioannis Zonaras, Epitomae Historiarum, libri 8, CSHB, Bonnae, 1897

Mansi, Sacrorum Conciliorum, Tomus Decimus, p.503.

Nicephori Callisti, Ecclesiasticae Historiae, libri 18, PG 147

Nikephoros Patriarch of Constantinople, Short History, trans. C.Mango, Washington,D.C., 1990

St. Demetrius of Thessalonike: Vitae Sanctorum, Suppelementum, S. Demetrii Martyris Acta, PG 116, cols.1081-1462. esp.col. 1259: ch.79.

Theophylact Simocatta, Historia, CSHB, Bonnae, 1834, 112-118. Eng. Trans, The History of Theophylact Simocatta, trans. Michael & Mary Whitby, Oxford, 1986

Theophanes, Chrongraphia, Eng. Trans. The Chronicle of Theophanes the Confessor. Byzantine and Near Eastern History. A.D. 284-813, trans. C.Mango & R.Scott, Oxford, 1997

ثانيا. المراجع الأجنبية:-

Alexander, E.M., Early Slavic invasions and settlements in the Area of Lower Danube in the 6th through the 8th centuries, unpublished Ph.D. thesis, New York University, 1994.

Baynes, N., The Successors of Justinian, in: Cambridge Medieval History, vol. II, pp.263-301

Browning, R., Byzantium and Bulgaria, London, 1977

Cameron, A., Circus Factions, Blues and Greens at Rome and Byzantium, oxford, 1976

Curta, F., Making an early Medieval ETHNIE: the case of the early Slavs (sixth to seventh century A.D.), unpublished Ph.D. thesis, Western Michigan University, 1998.

Grierson, Ph., The value of the Solidus in the fifth and sixth centuries A.D., Journal of Roman Studies 49(1959), pp.73-80.

Grierson, Ph., Byzantine Coinage, Washington, D.C., 1999

Haldon, J., Byzantium in the seventh century. the transformation of a cukture, Cambridge, 1990.

Haldon, J., Economy and Administration: How did the Empire work? , in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.28-59; Lee, A.D., The Empire at War, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006.

Higgins,J., Note on the Emperor Maurice's military administration, Analęcta Bollandiana 16(Bruxelles,1940)

Hordon, P., Mediterranean Plague in the age of Justinian, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.134-160.

Norwich, J.J, Byzantium: the early centuries, New York, 1989

Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1914

Stratos, A.N., Byzantium in the seventh century, vol.I, Amesterdam, 1968

Turtledove, H.N, The Immediate Successors of Justinian: a study of the Persina problem and a continuity and change in internal secular affairs in the later Roman Empire during the reigens of Justin II and Tiberius I. Constantine (A.D.565-582), unpublished Ph.D. thesis, University of California, 1977.

ثالثا. المصادر والمراجع العربية والمعربة:-

أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٥م.

بروكوبيوس، التاريخ السري، ترجمة علي زيتون، دمشق، ٢٠٠٣.

بروكوبيوس، التاريخ السري لبروكوبيوس: حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا، ترجمة صبري أبو الخير، القاهرة، ٢٠٠١م.

رأفت عبد الحميد، الثورة الشعبية في القسطنطينية سنة ٥٣٢م، بحث منشور في كتاب بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٩٩-٢٤٩.

ليلى عبد الجواد اسماعيل، الدولة البيزنطية في عصر هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.

محروس عبد القدوس سعيد، جوستنيان وسياسة الاسترداد، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.

محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، القاهرة، ١٩٩٢م.

ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطورين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥-٥٨٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

نقفور البطريرك ، التاريخ المختصر، ترجمة هاني عبد الهادي البشير، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

وفاء عبد الحميد محمد، الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م.

د.فرج الله أحمد يوسف*

التأثيرات الثقافية الأجنبية في الممالك العربية قبل الإسلام من خلال المسكوكات

أولاً: مسكوكات ممالك جنوب الجزيرة العربية:

١- مملكة قتبان

كانت مملكة قتبان أول مملكة عربية تضرب المسكوكات منذ أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، فقد عثر في جنوب شرق تركيا على ثلاث مسكوكات نقش على اثنين منها حرف الكاف بخط المسند، أما الثالث فقد نقش عليه حرف الباء بخط المسند، ويرجع تاريخ هذه المسكوكات للفترة ما بين سنتي ٤٧٥ - ٤٠٠ ق.م (سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١١٨)، وتعد هذه بمثابة المرحلة الأولى في تعريب المسكوكات الإغريقية قامت بها مملكة قتبان.

اختلف المؤرخون في تحديد بداية ظهور مملكة قتبان ونهايتها فقد قال البعض أن بدايتها كانت في القرن السابع قبل الميلاد ونهايتها سنة ٥٠ ق.م، بينما يري آخرون أن بدايتها كانت سنة ٦٤٥ ق.م ونهايتها في القرن الثالث قبل الميلاد (البكر ١٩٨٠: ١٩٢؛ آفانزيني١٩٩٩: ٩٨).

* باحث بدار القوافل - الرياض

وضربت المسكوكات القتبانية المبكرة تقليدًا للمسكوكات الإغريقية التي نقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة مزينة بأوراق زيتون، أما على ظهرها فقد نقشت بومة وبجوارها هلال وغصن زيتون والشعار الإغريقي الدال على قيمة المسكوكة AOE (اللوحة رقم ١)، وكانت الإصدارات الأولى من السكة القتبانية مشابهة تمامًا للسكة الإغريقية وسجل عليها حروف بخط المسند على وجه المعبودة أثينا لتحديد القيمة النقدية للمسكوكات. (سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١١٨؛ Hay 2003: 42-43)

وفي أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ضرب طراز جديد من المسكوكات القتبانية تخلى كثيرًا عن التأثيرات الإغريقية فنقش على الوجه صورة الملك القتباني بدلاً من رأس المعبودة أثينا وسجل على صورة الملك حروف بخط المسند، بينما نقش على الظهر صورة البومة والشعار الإغريقي الدال على قيمة المسكوكة والمكتوب بالخط اليوناني AOE (اللوحة رقم ٢).

وبذلك فقد انحصرت التأثيرات الثقافية الإغريقية على المسكوكات القتبانية في حروف الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات، وصورة وجه المعبودة الإغريقية أثينا، والبومة الواقفة على قارورة، مما يرجح عدم تغلغل التأثير الثقافي الأجنبي في جنوب الجزيرة العربية، ثم ما لبثت المسكوكات القتبانية أن صارت عربية خالصة من حيث الرسوم والكتابات. (اللوحة رقم ٣)

٢- مملكة سبأ

ضرب السبئيون المسكوكات ويرجع أقدمها إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت متأثرة بالطراز الإغريقي فنقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة وحولها أغصان زيتون، أما الظهر فعليه صورة البومة مع غصن الزيتون والهلال، ونقش عليها حروف بخط المسند لتدل على القيمة النقدية للمسكوكة فحرف النون يرمز للوحدة النقدية الكاملة، وحرف التاء يرمز للنصف، وحرف الشين يرمز للربع.

(H ill 1922: 49-51)

ومنذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد نقشت أسماء الملوك على المسكوكات السبئية بخط المسند (يحيى ١٩٧٩: ١٤٤-١٤٥)، وفي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول قبل الميلاد صدرت مسكوكات جديدة نقش على وجهها رجل ملتح على رأسه تاج وهو أما يمثل الملك

أو يرمز للمعبود المقه، أما على الظهر فتبدو البومة واقفة على قارورة، وعاد على بعض هذه المسكوكات الخط اليوناني مرة أخرى ممثلاً في الرمز الإغريقي AOE لكنه فقد معناه الحقيقي في ظل التعبير عن القيمة النقدية للمسكوكات بخط المسند (يوسف ٢٠٠٢: ٧٩)، وبذلك فقد اقتصر التأثير الثقافي الأجنبي على كتابة حروف الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات.

وفي الفترة ما بين سنتي ٧٠ – ٤٠ ق.م صدرت مسكوكات نقش على وجهها صورة نصفية للملك وحوله أغصان الزيتون وعلى الظهر تبدو البومة واقفة على القارورة وحولها رمز المعبود المقه وبعض الحروف بخط المسند (اللوحة رقم ٤)، وفي الفترة ما بين سنتي ٤٠ – ٢٤ ق.م ضربت مسكوكات سجلت عليها كتابات بالخطين الآرامي واللحياني وهو الشيء نفسه الذي رأيناه على المسكوكات القتبانية.(اللوحة رقم ٥) (هاي ١٩٩٦: ١٦٣–١٦٤؛ سيدوف دافيد ١٩٩٩: ١١٩–١٢٠؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٨)

(Hill 1922: 53-5, Dembski 1988: 125-26, Pirenne 1988: 121)

ثم تأثرت المسكوكات السبئية بالمسكوكات الرومانية نتيجة للتبادل التجاري بين مملكة سبأ والرومان، وظهر التأثير الروماني واضحًا في رسوم الوجه، فقد ضربت مملكة سبأ مسكوكات عرف باسم مسكوكات أغسطس نسبة للإمبراطور الروماني أغسطس (٦٢ ق.م – ١٤م) لكن الكتابة ظلت بخط المسند. (اللوحة رقم ٦)

(Dembski 1988: 125-26, Pirenne 1988: 121, Sedov 2001: 32, Hay 2003: 47-49)

ثم ضربت مملكة سبأ مسكوكات تخلصت تمامًا من التأثيرات الإغريقية والرومانية، وضربت هذه المسكوكات في القرن الأول قبل الميلاد، ونقش عليها رأس رجل مجعد الشعر يتجه إلى اليمين أو إلى اليسار، ونقش حول رأس الرجل الذي ربما يرمز إلى الملك الهراوة وهي رمز المعبود المقه، وهناك رمز آخر يرجح أنه رمز المعبود عثتر، أما على الظهر فنقش رأس ثور بقرنين طويلين، ورمز المعبود المقه، وحرف الحاء أو حرف الميم والهراوة رمز المعبود المقه (اللوحة رقم ٧)، وبذلك تخلصت مسكوكات مملكة سبأ من التأثيرات الثقافية الأجنبية.

٣- مملكة حضرموت

ضربت مملكة حضرموت مسكوكاتها المبكرة على الطراز الإغريقي وترجع أقدمها إلى نحو سنة ٣٥٠ ق.م، وسجل عليها حرف النون بخط المسند ليدل على قيمتها النقدية (Hill 1922: 46-7)، واستمر تسجيل الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات (اللوحة رقم ٨)، ثم ضرب طراز جديد من المسكوكات الحضرمية جاءت نقوشها المسجلة بخط المسند كما يلي:

النوع الأول:

الوجه: صورة ثور سجل أعلاه اسم المعبود سين، وأمامه مكان الضرب "شقر"، وهو القصر الملكي الحضرمي.

الظهر: سجل عليه مكان الضرب "شقر". (اللوحة رقم ٩)

النوع الثاني:

الوجه: رأس شخص عليه تاج ربما يرمز إلى الملك.

الظهر: سجل عليه مكان الضرب "شقر". (هاي ١٩٩٦: ١٦١-١٦٢) (اللوحة رقم ١٠).

ضرب الملك "يشهر إل يهرعش" في مطلع القرن الأول الميلادي طرازًا جديدًا من المسكوكات الحضرمية نقش عليها:

الوجه: رأس رجل متجه نحو اليمين يرجح أنه يرمز للملك وبجواره حرف الميم بخط المسند، واسم المعبود سين.

الظهر: صورة نسر متجه إلى اليمين ناشرًا جناحيه وهو يرمز للمعبود سين، وإلى اليسار نقش مكان الضرب "شقر"، وسجلت إلى اليمين حروف الياء والشين والهاء، وهي الحروف الثلاثة الأولى من اسم الملك يشهر إل يهرعش (اللوحتان رقم ١١، ١٢). (هاي ١٩٩٦: ١٦١-١٦٢؛ Walker 1937: 262-79, Hay 2003: 49-50)، واستمرت هذه المسكوكات تضرب حتى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي، وبذلك فإن مملكة حضرموت تعد أقل تأثرًا بالثقافة الأجنبية من مملكتي: قتبان، وسبأ.

٤- مملكة حمير:

ضربت مملكة حمير المسكوكات ويرجع أقدمها إلى سنة ١١٠ ق.م وكانت متأثرة بالمسكوكات القتبانية، ونقشت كتاباتها بخط المسند، وسجل عليها اسم "ريدان"، ثم ضربت مسكوكات أخري تقليدًا لمسكوكات الإمبراطور الروماني أغسطس، وهذا هو التأثير الأجنبي الوحيد على مسكوكات مملكة حمير.

أما المسكوكات الحميرية الأكثر انتشارًا فهي التي عرفت بذات الرأسين نظرًا لنقش رأس رجل على وجه كل مسكوكة وظهرها، فنقش على الوجه صورة رأس رجل غير ملتح ربما تمثل هذه الصورة الملك، أما على الظهر فنقشت صورة مشابهة لكنها أصغر وكتب حولها "ريدان" واسم الملك ومكان الضرب وهو على أغلب المسكوكات الحميرية يعب (اللوحة رقم ١٣)، وحريب (اللوحة رقم ١٤)، ونقشت على بعض المسكوكات الحميرية رموز اختلف في تفسيرها، ويرى بعض الباحثين أنها تشير إلى الأسر الحاكمة. (اللوحة رقم ١٥) (الحوالي ١٩٧١: ٢١٧؛ سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١٢٠؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٨؛ Dembski 1987: 126, Sedov 2001: 33-34) بينما يري آخرون أنها ترمز للملوك، أو أماكن السك، أو قد ترمز إلى المعبودات. (علي ١٩٦٩: ٤٩١/٧)

وأصدرت مملكة حمير مسكوكات عربية خالصة وسجلت عليها أسماء الملوك مثل: "كرب إل يهنعم" (اللوحة رقم ١٦)، و"عمدان بين يهقبض" (اللوحة رقم ١٧)، و"شمر (شمدر) يهنعم" (اللوحة رقم ١٨)، و"ثأرن يعب يهنعم". (اللوحة رقم ١٩)

(هاي ١٩٩٦: ١٦٣-١٦٦؛ Hill 1922: 68-74, Hay 2003: 50-51, Morgan 1979: 267)

وظلت مملكة حمير تضرب المسكوكات حتى أوائل القرن السادس الميلادي فقد جاء في المصادر الحميرية أن الملك يوسف أسأر عندما كان يحاصر نجران طلب من زعمائها نقش اسمه على المسكوكات التي تضرب بها (النعيم ٢٠٠٠: ٣٣٧) مما يدل على أن نجران كانت إحدى دور ضرب المسكوكات الحميرية، ويدل أيضًا على استمرار ضربت المسكوكات في مملكة حمير حتى سقوطها على يد مملكة الحبشة سنة ٥٢٥م.

٥ – مملكة كندة:

أسست قبيلة كندة مملكة كانت عاصمتها قرية (الفاو) التي امتدت حضارتها ما بين القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، ومن ملوكها الملك معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذي عثر على قبره في قرية (الفاو) (الأنصاري ١٩٧٩: ٨؛ الأنصاري ١٩٨٢: ٢٠)، وقد أشارت نقوش جنوب الجزيرة العربية (جام ٥٧٦، ٦٣٥، ٦٦٠، ٦٦٥؛ وركمانز ٥٠٩) إلى قرية باسم "قرية ذات كهل" كما أشارت إلى ملك كندة، وترجع تواريخ هذه الكتابات إلى ما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين. (الأنصاري ١٩٧٩: ٨؛ الأنصاري ١٩٨٢: ١٦؛ عفيف ١٩٩٢: ١٩٠)

ومنذ سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م بدأت جامعة الملك سعود بإجراء حفريات علمية في قرية (الفاو) تحت إشراف عبدالرحمن الطيب الأنصاري تم خلالها العثور على مسكوكات ضربت في قرية (الفاو) من أهمها مجموعة من القطع الفضية والبرونزية نقش على وجهها اسم "كهل" معبود كندة أو رمزه وعلى ظهرها صورة لشخص جالس أو واقف تحيط به أحرف بخط المسند، وربما يرمز هذا الشخص إلى المعبود كهل، وقد ضربت المسكوكات بقرية منذ مطلع القرن الأول قبل الميلاد وحتى سنة ٣٢٥م (الأنصاري ١٩٨٢: ٢٨؛ الأنصاري ١٩٨٤: ٤٤؛ الأنصاري ٢٠٠١: ٢١) (اللوحة رقم ٢٠)،ولا تعكس مسكوكات مملكة كندة أية تأثيرات ثقافية أجنبية، فقد سجلت كتاباتها بخط المسند، أما الصور التي نقشت عليها فإنها ذات طابع عربي صرف.

ثانيًا – مسكوكات ممالك شمال الجزيرة العربية:

١– مملكة الأنباط

يعد الملك حارثة الثاني (١٢٠ – ٩٦ ق.م) أول من ضرب المسكوكات من ملوك الأنباط، وكانت مسكوكاته متأثرة بالمسكوكات الإغريقية فقد نقشت عليها صورة (تيكة Tyache) وحرف A وهو الحرف الأول من اسم حارثة الثاني (Arethas)، لكن الثقافة الإغريقية لم تكن طاغية على مسكوكات حارثة الثاني إذ أنه ضرب مسكوكات نقش عليها حرف الحاء بالخط الآرامي. (عباس ١٩٨٧: ٤٠؛ الرواحنة ٢٠٠٢: ٦٠؛ يوسف ٢٠٠٦: ٢٣ – ٢٤).

تمكن الملك حارثة الثالث (٨٥ – ٦٢ ق.م) من ضم دمشق في السنة الأولى من حكمه بعد أن اتصل به أهلها وأبدوا رغبتهم في أن تكون مدينتهم تابعة لمملكة الأنباط بعد أن سئموا من النزاعات المستمرة بين السلوقيين، وتحرش بطليموس بن معن (٨٥ – ٤٠ ق.م) ملك اليطوريون (الأيتوريون)، فانضمت دمشق لمملكة الأنباط حتى سنة ٧٠ ق.م، وكانت دمشق قد سقطت في أيدي الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٣ق.م، ثم صارت بعد وفاته جزءاً من المملكة السلوقية، وكان يقيم بدمشق آنذاك جاليات يونانية ومقدونية هي التي فضلت أن تكون دمشق تحت حكم الأنباط فقامت باستدعاء الملك حارثة الثالث. (عبدالعليم ١٩٨٦: ٨-٩؛ عباس ١٩٨٧: ٤٢؛ مقداد ٢٠٠٤: ٦٧؛ سارة ٢٠٠٧: ٤٨-٥٠)

ضرب الملك حارثة الثالث سلسلة من المسكوكات في دمشق، وتميزت مسكوكاته بأنها أول مسكوكات نبطية يسجل عليها اسم الملك النبطي وصورته، قد نقش على وجه تلك المسكوكات صورة نصفية للملك، وعلى الظهر صورة المعبودة تيكة وهي جالسة على عرش وتمد يدها اليمنى إلى الأمام، وحولها كتابة بالخط اليوناني تتضمن اسم الملك ولقبه (محب الهلينية – محب اليونان)(Philhellenos) (اللوحة رقم ٢١) (التل ١٩٨٣: ٣٦؛ عباس ١٩٨٧: ٤٢؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٧؛Kammerer 1929:531,Morgan 1979: 256)

وفي عهد الملك عبادة الثاني (٦٢ – ٥٩ق.م) اقتصر التأثير الهلنستي على الصور التي نقشت على المسكوكات من حيث ملامح الوجه، وطريقة تصفيف الشعر، وصورة الصقر البطلمي، ونقش على مسكوكات عبادة الثاني عبارة: (عبادة الملك ملك الأنباط) بالخط النبطي (يوسف ٢٠٠٦: ٢٥؛ M organ 1979: 256)، وكان أول ملك نبطي يسجل اسمه على المسكوكات بالخط النبطي بعد أن كان أسلافه يسجلون أسماءهم بالخط اليوناني أو يرمزون لأسمائهم بحروف بالخط الآرامي. (اللوحة رقم ٢٢)، وهكذا فإن عهده شهد نهاية التأثيرات الثقافية الأجنبية، ولم يعد لها وجود على مسكوكات خلفائه حتى سقوط مملكة الأنباط، وخلفاء عبادة الثاني هم:

الملك مالك الأول (٥٩ – ٣٠ ق.م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك وعلى الظهر راحة يد وعبارة "مالك الملك ملك الأنباط" بالخط النبطي. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٦-٢٧)(اللوحة رقم ٢٣)

الملك عبادة الثالث (٣٠ – ٩ ق.م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك وعبارة "عبادة الملك ملك الأنباط، وعلى الظهر صورة الملك والملكة. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٧-٢٩) (اللوحة رقم ٢٤)

الملك حارثة الرابع (٩ ق.م – ٤٠م) الذي تلقب بلقب: (محب أمته – شعبه)، ومن مسكوكاته درهم من الفضة نقش على الوجه صورة الملك وحولها عبارة: حارثة ملك الأنباط محب أمته،وعلى الظهر صورة الملكة خلدة (خليدة) وحولها عبارة: الملكة خلدة ملكة الأنباط. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٩-٣٢) (اللوحة رقم ٢٥)

الملك مالك الثاني (٤٠ – ٧٠م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك، وعلى الظهر صورة زوجته الملكة شقيلة. (يوسف ٢٠٠٦: ٣٢-٣٣) (اللوحة رقم ٢٦)

الملك رب إل الثاني (٧٠ – ١٠٦م) ومن مسكوكاته درهم من الفضة نقش على الوجه صورة الملك، وعلى الظهر صورة والدته الملكة شقيلة. (اللوحة رقم ٢٧)

(يوسف ٢٠٠٢: ٨٩ – ٩٢ ؛ يوسف ٢٠٠٦: ٣٣-٣٤؛ Yousef 2004:54-64)

٢- مملكة تدمر :

كان للمسكوكات دور مهم في الصراع الذي دار بين الملكة زينب والرومان، وكانت الملكة زينب قد انتهزت فرصة النزاعات الداخلية في روما فأحكمت سيطرتها على سورية ثم استولت على مصر سنة ٢٧٠م ووقعت اتفاقًا مع الرومان يقضي بأن يكون حكم مصر مشتركًا بين الرومان ومملكة تدمر، واستمر هذا الاتفاق خلال عهد الإمبراطور كلوديوس وخلفه أورليان (٢٧٠ – ٢٧٥م)، ويتجلى هذا الاتفاق في نقوش المسكوكات التدمرية التي ضربت في الإسكندرية فيما بين سنتي ٢٧٠ و٢٧١م. (علي ١٩٦٩: ٣/١١٥؛ الأسعد وهاتسن ٢٠٠٦: ١٩٢-١٩٥)

ومن تلك المسكوكات التي ضربت في الإسكندرية نماذج نقش على وجهها صورة نصفية للملك وهب اللات وكتب حولها عبارة بالخط اليوناني نصها: (أورليوي أورياتيوس سبتيموس وهب اللات أثينادوروس هيباتوس أوتو كراتور استراتيجوس روميون)، ونقش على الظهر

صورة نصفية للإمبراطور الروماني أورليان وكتب حولها عبارة بالخط اليوناني نصها: (الأتوكراتور الإمبراطور لوكيوس أوليوس سياستوس). (اللوحة رقم ٢٨) (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٧-١٩٨ Morgan 1979: 231)

ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية أيضًا مسكوكة نقش بها على الوجه صورة الملكة زينب وحولها كتابة بالخط اليوناني (اللوحة رقم ٢٩)، ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية مسكوكة برونزية نقش بها على الوجه صورة نصفية للإمبراطور أورليان، والملك وهب اللات تقفان وجهان لوجه، وكتب حولهما بالخط اليوناني عبارة نصها: (أورليانوس واليبادوروس)، ونقش على الظهر إكليل غار في الهامش، وفي المركز تاريخ الضرب وهو السنة الأولى من حكم الإمبراطور أورليان، والسنة الرابعة من حكم الملك وهب اللات (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٨)، وانقطع ضرب المسكوكات التدمرية بالإسكندرية بنهاية أغسطس سنة ٢٧١م. (علي ١٩٦٩: ٣/١١٧)

وبينما سجلت الكتابات على المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية بالخط اليوناني فقد سجلت الكتابات على المسكوكات التدمرية المضروبة في أنطاكية وحمص بالخط اللاتيني، ومنها مسكوكة نقش على وجهها صورة نصفية للملكة زينب، وكتب حولها الرمز الخاص بها وهو:

CEПTIMIA. ZHNOBIA. CEB(سبتيموس زنوبيا) أي زنوبيا المعظمة وعلى الظهر صورة امرأة واقفة ربما ترمز لإحدى المعبودات سجل تحت ذراعها الأيمن الحرفان: L.E، وتحمل بيدها اليسرى سنبلتين رمز الوفرة والرخاء. (اللوحة رقم ٣٠) (Morgan 1979: 230, Hoyland 2001: 76)

ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في أنطاكية مسكوكة فضية نقش بها على الوجه صورة نصفية للإمبراطور أورليان، وعلى الظهر صورة نصفية للملك وهب اللات وحوله كتابة بالخط اللاتيني تتضمن ألقابه، ومنها لقب الإمبراطور Imperator مما جعله في منزلة واحدة مع الإمبراطور أورليان. (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٩)

وفي الفترة الأخيرة من حكم الملك وهب اللات ضربت مسكوكات في كل من: الإسكندرية، وأنطاكية، وحمص نقش عليها صورة الملك وهب اللات مع لقبي (الإمبراطور

والأوغست)، وصورة الملكة زينب مع لقبي (الأوغستا والمعظمة)، ومن هذه المسكوكات مسكوكة ضربت في حمص نقش على وجهها صورة نصفية للملكة زينب وهي ترتدي اللباس العسكري والخوذة وكتب حولها عبارة بالخط اللاتيني نصها: (سبتيميا زنوبيا أوغستا) أما ظهر المسكوكة فمطموس، والمسكوكة محفوظة في متحف تدمر (رقم ٩١١٤ لعام ١٩٩١م). (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٩)

ورغم تأثر مملكة تدمر بالثقافة الأجنبية نظرًا لاحتكاكها المستمر مع الرومان إلا أن حضارة مملكة تدمر كانت حضارة عربية خالصة، ويكفي أن نقف عند شهادة المؤرخ الفرنسي فولني الذي زار تدمر في القرن الثامن عشر الميلادي وقال عنها: (يجب أن نعترف ويصدق أن كل ما خلفه اليونان والرومان ليس شيئًا أمام عظمة تدمر). (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ٢٢٣)

٣- مملكة الحضر :

ضربت مملكة الحضر نوعين من المسكوكات الأول ضرب من النحاس، نقش على وجه المسكوكات رأس المعبود شمش بوضع جانبي متجه إلى اليمين، تحيط به كتابات بالآرامية نصها: "حطر دي شمس" أي الحضر مدينة الشمس، أو مدينة المعبود شمش، وعلى الظهر صورة نسر ناشر جناحيه، أما النوع الثاني من مسكوكات مملكة الحضر فقد نقش على وجهها رأس المعبود شمش، وعلى الظهر نسر واقف على غصن مورق وهو ناشرٌ جناحيه (دفتر ١٩٩٨: ١٥-١٦)، وتمثل مسكوكات مملكة الحضر غلبة الثقافة الآرامية التي انتشرت في بلاد الشرق الأدنى القديم منذ القرن السابع قبل الميلاد.

٤- مملكة الرها :

ومن ملوك الرها الذين ضربوا المسكوكات:

١ - الملك وائل شهرو (١٦٣ - ١٦٥م)، نقش على وجه مسكوكاته صورة نصفية للملك، وكتب حولها بالخط الآرامي عبارة: الملك وائل، ويحف بالصورة والعبارة غصنا زيتون، وأما على الظهر فقد نقشت صورة لمعبد (إل) في الرها وكتب حولها بالخط الآرامي اسم المعبود (إل)، ويحف بصورة المعبد غصنا زيتون. (اللوحة رقم ٣١) (Morgan 1979: 235)

٢ – الملك أبجر الثامن (١٦٥ – ١٦٧م)، وضرب في عهده نوعان من المسكوكات الأول سجلت كتاباته بالخط الآرامي، نقش على الوجه صورة نصفية للملك أبجر، وعلى الظهر عبارة: الملك أبجر (اللوحة رقم ٣٢) (Morgan 1979: 235)، أما النوع الثاني فنقش على الوجه صورة نصفية للملك أبجر، وحوله اسمه بالخط اليوناني ، وعلى الظهر صورة نصفية للملك معنو (معن) الثامن، واسمه بالخط اليوناني. (اللوحة رقم ٣٢) (Morgan 1979: 235)، ومن الغريب أن يسجل اسما الملكين أبجر الثامن، ومعنو الثامن على هذا النوع من المسكوكات، والجدير بالذكر أن معنو الثامن تولى الحكم لفترتين الأولى كانت ما بين سنتي ١٣٩ – ١٦٣م أي قبل حكم الملك أبجر الثامن، ولا تعرف له مسكوكات تعود إلى تلك الفترة، ومسكوكاته المعروفة تعود لفترة حكمه الثانية الممتدة ما بين سنتي ١٦٧ – ١٧٩م.

٣ – الملك معنو (معن) الثامن (١٣٩ – ١٦٣م ؛ ١٦٧ – ١٧٩م) ، ضرب نوعين من المسكوكات سجلت الكتابات على النوع الأول بالخط الآرامي، ونقش على الوجه صورة نصفية للملك، وعلى الظهر عبارة: الملك معنو (اللوحة رقم ٣٣) (Morgan 1979: 237)، وسجلت الكتابات على النوع الثاني بالخط اليوناني، ونقش على الوجه صورة نصفية للملك وحولها اسمه بالخط اليوناني. (اللوحة رقم ٣٣) (Morgan 1979: 236)

٤ – الملك أبجر التاسع (٢١٤ – ٢١٦م)، في عهده طغت الثقافة الإغريقية على مملكة الرها، وسجلت الكتابات على المسكوكات بالخط اليوناني فقط واختفى الخط الآرامي، ومن أمثلة ذلك مسكوكة سجل عليها اسم الرها كما يلي: M.A.K. AVP EDECC (اللوحة رقم ٣٤).

(Morgan 1979: 237)

تبرز مسكوكات مملكة الرها الصراع الحضاري بين الثقافة الإغريقية التي يمثلها انتشار الخط اليوناني، والثقافة العربية التي يمثلها استخدام الخط الآرامي، فقد غلبت الثقافة العربية على مسكوكات مملكة الرها خلال عهد الملك وائل شهرو (١٦٣ – ١٦٥م)، ثم بدأت الثقافة الإغريقية تغزو مملكة الرها منذ عهد الملك أبجر الثامن (١٦٥ – ١٦٧م)، فظهر الخط اليوناني جنبًا إلى جنب مع الخط الآرامي، واستمر الحال كذلك خلال عهد الملك معنو (معن) الثامن

(١٣٩ – ١٦٣م ؛ ١٦٧ – ١٧٩م)، وتغلبت الثقافة الإغريقية تمامًا في عهد الملك أبجر التاسع وتجلى ذلك في انتشار الخط اليوناني وانحسار الكتابة بالخط الآرامي (٢١٤ – ٢١٦م).

وبالرغم من أن اللغة الآرامية أضحت هي اللغة الدبلوماسية واللغة الدولية عوضًا عن الأكدية منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد(سومر ٢٠٠٧: ١١٢) إلا أن غزو الإسكندر للشرق (أدخل اللغة اليونانية كلغة رسمية عوضًا عن الآرامية، وبعد موته سنة ٣٢٣ ق.م ظلت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية لخلفائه "السلوقيون في سورية، والبطالمة في مصر"، أما اللغة الآرامية التي انحطت عن مرتبتها الرفيعة، ونتج عن احتكاك الآرامية باليونانية أن تلقت عددًا غير يسير من الكلمات اليونانية). (سومر ٢٠٠٧: ١٢٣ – ١٢٤)

لكن الخط اليوناني تأثر بالخط الآرامي وأخذ منه أشكال الحروف وترتيبها، ويشرح ذلك روفائيل بابو إسحق بقوله: (إن أقدم الأقلام الآرامية ذكرًا قلم أهل الجهات الشرقية من أقطار بابل وهو قلم مقطع الحروف مربعها على الأغلب قد تعلمه اليهود الذين جلاهم بختنصر "٦٠٤ – ٦١٥ ق.م" من سكان بابل وحفظوه إلى يومنا ويسمي الآن الخط الآشوري المربع. وتعلم هذا الخط نفسه أو أصله اليونان. ومما يؤيد ذلك أن حروف اللغة اليونانية مرتبة ترتيب الحروف الآرامية أصلاً وإن أسماءها في كليهما واحدة إلا أنهم وضعوا في أواخرها ألف الإطلاق وغيروا بعضها تغييرًا يسيرًا فضلاً عن أن صور الحروف اليونانية في أوائلها تشبه كثيرًا الحروف الآرامية القديمة). (إسحق ٢٠٠٧: ٢٠)

ثالثًا – مسكوكات ممالك شرق الجزيرة العربية:

١– مملكة ميسان

من الملوك الميسانيين الذين ضربوا المسكوكات:

الملك هايسباوسنيس (١٢٥–١٢٤ ق.م): نقش على مسكوكاته في الوجه صورته، أما على الظهر فقد نقش صورة المعبود هرقل جالسًا على العرش وبيده اليمنى يمسك صولجان وحوله كتابات بالخط اليوناني (Morgan 1979: 214) (اللوحة رقم ٣٥)، واستمر الخط اليوناني على المسكوكات الميسانية في عهد كل من: الملك تيرايوس الأول (٩٥ – ٨٨ ق.م)، والملك تيرايوس الثاني (٦١–٥٢ ق.م).

وفي عهد الملك أتامبيلوس الأول (عطا الله – تيم بعـل) (٤٧ – ٢٧ ق.م): سـجلت الكتابة على المسكوكات الميسانية بالخط الآرامي بدلاً من اليوناني. (الحسيني ١٩٨٦: ٣١–٣٢).

لكن الخط اليوناني عاد مرة أخرى منذ عهد الملك ثيو نيسيوس الأول (٤٠ – ٣٩ ق.م)، وظلت المسكوكات الميسانية تضرب على هذا المنوال طوال عهد خلفاء الملك ثيو نيسيوس الأول.

ومنذ عهد الملك ابينيرجاوس "ابنيرجلوس" (١٦٥ – ١٨٠م) اختفى الخط اليوناني من المسكوكات الميسانية وصارت الكتابات تسجل بالخط الآرامي فقط، واستمر الحال كذلك في عهد الملك ماجا (١٩٥ – ٢١٠م) الذي ضربت في عهده أغلب المسكوكات الميسانية المكتشفة إلى الآن (Morgan 1979: 224-225) (اللوحة رقم ٣٦).

وكان يوجد في المتحف العراقي ببغداد نحو أربعمائة مسكوكة ضربت في عهد تسعة من ملوك مملكة ميسان، لكنها نهبت ضمن محتويات المتحف العراقي على يد قوات الحملة الصليبية الصهيونية على العراق في أبريل ٢٠٠٣م. (يوسف ٢٠٠٧: ١٨–١٩)

كانت مملكة ميسان على العكس من مملكة الرها فقد عكست مسكوكاتها المبكرة مدى تغلغل الثقافة الإغريقية ممثلة في نقش صور المعبود الإغريقي هرقل، وتسجيل الكتابات بالخط اليوناني منذ عهد الملك هايساوسيس (١٢٥–١٢٤ ق.م)، وإذا كانت مسكوكات الملك أتامبيلوس الأول (٤٧ – ٢٧ ق.م) قد أشارت إلى انحسار الغزو الثقافي الإغريقي فإن الثقافة الإغريقية ما لبثت أن استعادت سيطرتها على مملكة ميسان في عهد الملك ثيو نيسيوس الأول (٤٠ – ٣٩ ق.م)، إلا أن الملك ابينيرجاوس "ابنيرجلوس" (١٦٥ – ١٨٠م) وخلفائه نجحوا في التصدي للغزو الثقافي الإغريقي ويؤكد ذلك استخدام الخط الآرامي على المسكوكات الميسانية حتى انتهاء عصر المملكة.

٢ – مسكوكات مدن شرق الجزيرة العربية

أ – عُمانا (الدور): يقع ميناء عمانا (الدور) في إمارة أم القيوين بدولة الإمارات العربية المتحدة، ونقش على المسكوكات التي ضربت بعُمانا (الدور) حروف بخط المسند بالخطوط

التالية: المسند، والآرامي، واليوناني، واللاتيني ومن المسكوكات التي ضربت في عمانا (الدور) مسكوكة نقش على وجهها رأس المعبود هرقل، وعلى ظهرها المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة حصانًا بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان وأمامه نخلة وحرفي E H (اللوحة رقم ٣٧). (القيسي ١٩٧٥: ١٢١-١٢٤؛ بوتس ١٩٩٨: ٣٦-١٣٧؛ بن صراي ٢٠٠٠: ٤١-٤٢).

ب – مليحة: عثر بها على مسكوكات ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد نقش عليها اسم (أب إل) بالخط الآرامي، ويعتقد أن أب إل اسم ملك من ملوك مدن شرق الجزيرة العربية، أو أنه الاسم المحلي للمعبود هرقل الذي نقشت صورته على المسكوكات المضروبة في شرق الجزيرة العربية. (بن صراي ٢٠٠٢: ١١٣-١١٤)، وربما تكون تعويذة مثل (ود أب) التي سجلت على العديد من مباني مدينة نجران القديمة (الأخدود). (يوسف ٢٠٠٧: ١٢)

ج – ثاج: عثر بها على العديد من المسكوكات التي ضربت على النمط الشائع في شرق الجزيرة العربية كما عثر بها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) بخط المسند(Potts1990: 63)، وكانت ثاج من مراكز ضرب المسكوكات إذ وجد بها قالب سك من الطين قطره حوالي ٢ سم نقش عليه صورة شخص جالس على عرشه وبيده صولجان وبجواره نسر (بوتس ١٩٩٨: ١٨).

د – كنزان: عثر بها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) ، واسم المعبود (سن)، واسم المعبود (شمس)، وقد كتبت بخط المسند. (Potts 1990: 66)

هـ – البحرين (تايلوس): بعد وفاة الإسكندر الأكبر أصدر خلفائه مسكوكات تم تداولها في البحرين وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية، ومن أمثلتها: مسكوكة فضية نقش على وجهها صورة المعبود زيوس جالسًا على العرش ويحمل في يده اليمنى صولجان، ونقش على الظهر صورة أسد.

وفي سنة ١٩٧٠م عثرت البعثة الدانماركية على كنز من المسكوكات في قلعة البحرين منها مسكوكات نقش عليها اسم المعبود (شمس) بخط المسند، بينما نقش على مسكوكات أخرى حرف الشين الحرف الأول من اسم المعبود (شمس) بخط المسند. Potts1990: 63, (Callot 1999: 203)

كما عثرت البعثة نفسها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) بخط المسند، وأرجع مارخولوم Morkloim تاريخ هذه المسكوكات إلى ما بين سنتي ٢٤٥ – ٢٤١ ق.م، بينما يرى روبين Robin أنها تعود إلى الفترة ما بين سنتي ١٥٠ – ١٤٠ ق.م. (Potts 1990: 63)

و – فيلكا (إيكاروس): عثرت البعثة الدانمركية التي قامت بالتنقيب في فيلكا سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م على ثلاثة عشر قطعة مسكوكة منها مسكوكة برونزية نقش على وجهها صورة الملك السلوقي أنطيوخوس الثاني وعلى الظهر معبودة النصر (تيكة – فورتونا) واقفة في قارب على شكل بطة (جمال ١٩٩٩: ١٨)، كما عثرت البعثة على مسكوكة فضية ترجع لعهد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث(٢٢٣– ١٨٧ ق.م)نقش على وجهها صورة الملك أنطيوخوس وعلى الظهر المعبود أبوللو حامي الأسرة السلوقية جالسًا على عرشه وبيده اليمنى سهم وأمام المعبود أبوللو نقش اسم الملك أنطيوخوس وخلفه نقش ختم الضارب بالخط اليوناني (اللوحة رقم ٣٨)، (زبال ١٩٨٤: ٧–٨؛ الشتلة ١٩٨٧: ٤٥؛ Carrdice: 51)

وفي سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م عثرت البعثة الفرنسية على العديد من المسكوكات في فيلكا ومنها: مسكوكة فضية نقش على وجهها صورة الإسكندر الأكبر وعلى الظهر المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان (اللوحة رقم ٣٩)، ومسكوكة فضية نقش على وجهها صورة سلوقس الأول وعلى الظهر المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان. (جمال ١٩٩٩: ١٨)

تمثل المسكوكات المضروبة في مدن شرق الجزيرة العربية التمازج بين ثقافة ممالك جنوب الجنوب الجزيرة العربية وشمالها وذلك من خلال استخدام الخطين المسند والآرامي، بالرغم من طغيان الثقافة الأجنبية التي فرضتها السيطرة الإغريقية ثم السلوقية على أجزاء واسعة من شرق الجزيرة العربية، التي تظهر في المسكوكات التي ضربها الملوك السلوقيين في المنطقة، والسيطرة السياسية والاقتصادية الكاملة على المنطقة.

خاتمة:

١ – انحصر التأثير الثقافي الأجنبي على المسكوكات المبكرة لممالك جنوب الجزيرة العربية في استخدام الخط اليوناني الذي تمثل في الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية

للمسكوكات AOE ، ونقش صورة المعبودة الإغريقية أثينا، ونقش صورة البومة الواقفة على قارورة.

٢ – نظرًا للتنافس التجاري بين مملكة سبأ والإمبراطورية الرومانية فقد ضربت مملكة سبأ طرازًا من المسكوكات على نمط المسكوكات الرومانية، وهو الطراز الذي عرف باسم مسكوكات أغسطس، وسجلت الكتابات على هذه المسكوكات بخط المسند.

٣ – اقتصر التأثير الثقافي الأجنبي على مسكوكات مملكتا حضرموت وحمير على تأثر المسكوكات الحضرمية بنقش الشعر الإغريقي الدال على القيمة النقدية بالخط اليوناني، وتأثر المسكوكات الحميرية بالمسكوكات الرومانية التي ضربت في عهد الإمبراطور أغسطس، وتأثرت بها أيضًا المسكوكات السبئية.

٤ – تجلت غلبة الثقافة العربية وتبادلها بين ممالك جنوب الجزيرة العربية وشمالها في قيام الممالك الجنوبية (قتبان، وسبأ) بإصدار مسكوكات نقش عليها كتابات بالخطين اللحياني والآرامي، وهما المستخدمان في شمال الجزيرة العربية.

٥ – صار الملك النبطي حارثة الثالث بمثابة حامي الثقافة الإغريقية بعد أن ضم دمشق إلى حكمه سنة ٨٥ ق.م، فلم يسجل على مسكوكاته إلا الخط اليوناني، ونقش عليها لقبه (محب الهلينية – محب اليونان)، لكن خليفته الملك عبادة الثاني كان أول ملك نبطي يستخدم الخط النبطي على المسكوكات، وبذلك وضع حدًا لانتشار الثقافة الهلينية في مملكة الأنباط التي لم تستخدم على مسكوكاتها إلا الخط النبطي منذ عهده وحتى سقوطها على أيدي الرومان سنة ١٠٦م.

٦ – بدأت مملكة الرها تضرب مسكوكاتها بعيدًا عن التأثيرات الثقافية الأجنبية لكنها ما لبثت أن دخلت تحت السيطرة الثقافية الأجنبية بعد أن تخلت عن الخط الآرامي لصالح الخط اليوناني، أما مسكوكات مملكة ميسان المبكرة فقد أظهرت أن المملكة كانت واقعة تحت التأثير الثقافي الأجنبي باستخدام الخط اليوناني لكنها ومنذ عهد الملك ابتيرجاوس (١٦٥ – ١٨٠م) تخلصت من التأثيرات الثقافية الأجنبية وصارت مسكوكاتها عربية الطابع تسجل كتابتها بالخط

الآرامي حتى عهد الملك ماجا (١٩٥ – ٢١٠م)، وهو آخر ملك وصلتنا مسكوكاته حتى الآن.

٧ – لم تتأثر مسكوكات مملكتا الحضر وكندة بأية تأثيرات أجنبية فقد غلب على مسكوكات مملكة الحضر استخدام الخط الآرامي، بينما غلب على مسكوكات مملكة كندة استخدام خط المسند.

٨ – وقعت مسكوكات مملكة تدمر تمامًا تحت مظلة الثقافية الأجنبية ويبدو ذلك من خلال استخدام الخط اليوناني على مسكوكتها المضروبة في الإسكندرية، والخط اللاتيني على مسكوكاتها المضروبة في أنطاكية وحمص، إلا أن حضارة مملكة تدمر كانت حضارة عربية خالصة، ويكفي أن نقف عند شهادة المؤرخ الفرنسي فولني الذي زار تدمر في القرن الثامن عشر الميلادي وقال عنها: (يجب أن نعترف ونصدق أن كل ما خلفه اليونان والرومان ليس شيئًا أمام عظمة تدمر).

٩ – مزجت مسكوكات ممالك المدن في شرق الجزيرة العربية بين الثقافة العربية، والثقافة الإغريقية، فظهر على مسكوكاتها الخط اليوناني، والخط اللاتيني إلى جانب خط المسند، والخط الآرامي، كما نقش عليها صور المعبودات الإغريقية، والسلوقية إلى جانب المعبودات العربية.

١٠ – إذا كان غزو الإسكندر قد أدخل للشرق اللغة اليونانية وفرضها لغة رسمية بدلاً من الآرامية، فإن الخط اليوناني تأثر بالخط الآرامي وأخذ منه أشكال الحروف وترتيبها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

إسحق، روفائيل ٢٠٠٧ الآراميون لسانهم وأقلامهم ص ص ٧ – ٢٢ (الآراميون، دار الوراق للنشر المحدودة، بغداد)

الأسعد، خالد؛ و فين.أوفه ويدبرغ – هانسن ٢٠٠٦ زنوبيا ملكة تدمر والشرق. (الطبعة الأولى، دمشق)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٧٩ أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها. ص ص ٣ – ١١ (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م – مصادر تاريخ الجزيرة العربية – كلية الآداب – جامعة (الرياض) الملك سعود – الكتاب الأول – الجزء الأول مطابع جامعة (الرياض) الملك سعود)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٨٢ قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية. (جامعة الرياض)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٨٤ أثر الفنون العربية قبل الإسلام في الفن الإسلامي. ص ص ٣٩ – ٤٨ (المجلة العربية للثقافة – السنة الرابعة – العدد السابع – ذوالحجة ١٤٠٤هـ/سبتمبر ١٩٨٤م – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وآخرون ٢٠٠١ الدليل الموجز لأشهر المواقع الأثرية وفنون الوطن العربي. (الإصدار الأول – لمحات من تاريخ الجزيرة العربية القديم من خلال الاكتشافات الأثرية – جمعية الآثاريين العرب – القاهرة)

البكر، منذر عبدالكريم ١٩٨٠ دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام – تاريخ الدول الجنوبية في اليمن. (جامعة البصرة)

بوتس، دانيال ١٩٩٨ مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية. (ترجمة صباح عبود جاسم – دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة – الطبعة الأولى)

التل، صفوان خلف ١٩٨٣ تطور المسكوكات في الأردن عبر التاريخ. (البنك المركزي الأردني – عمان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)

الحوالي، محمد علي الأكوع ١٩٧١ اليمن الخضراء مهد الحضارة. (الطبعة الأولى، القاهرة)

دفتر، ناهض عبدالرزاق ١٩٩٨ المسكوكات وكتابة التاريخ. (الطبعة الأولى – بغداد)

الرواحنة، مسلم ٢٠٠٢ عهد الحارث الرابع دراسة في مجموعة خاصة من المسكوكات النبطية. (مشروع بيت الأنباط للتأليف والنشر "١" البتراء – الأردن)

سارة، خليل ٢٠٠٧ العولمة في العصر الهلليني، عصر الإسكندر وما بعده ص ص ٣٨ – ٥١. (المعرفة، العدد ٥٢١، السنة ٤٥، محرم ١٤٢٨هـ – شباط ٢٠٠٧م، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية)

سومر، دوبونت ٢٠٠٧ الآراميون (ترجمة البير أبونا، دار الوراق للنشر المحدودة، بغداد)

بن صراي، حمد محمد ٢٠٠٠ موقع ميناء عمانا ودوره الحضاري والاقتصادي في منطقة الخليج العربي. ص ص ٣٣ – ٥٨ (أدوماتو – العدد الثاني – ربيع الثاني ١٤٢١هـ/يوليو ٢٠٠٠م)

بن صراي، حمد محمد ٢٠٠٢ أسماء الأعلام الواردة على العملات المكتشفة في شرقي الجزيرة العربية ص ص ١٠٩ – ١٢٥ (اللقاء العلمي لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مسقط، محرم – صفر ١٤٢٢هـ/أبريل ٢٠٠١م)

عباسٌ، إحسان ١٩٨٧ تاريخ دولة الأنباط. (الطبعة الأولى – عمان)

عبدالعليم، مصطفى كمال ١٩٨٦ الايتوريون عرب لبنان القدماء ص ص ٧ – ٢٠. (العصور، المجلد الأول، الجزء الأول، جمادى الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

عفيف، أحمد جابر وآخرون ١٩٩٢ الموسوعة اليمنية. (الطبعة الأولى – بيروت)

علي، جواد ١٩٦٩ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. (الطبعة الأولى – بيروت)

قادوس، عزت زكي حامد ١٩٩٩ العملات اليونانية والهللنستية. (الطبعة الأولى – الإسكندرية)

القيسي، ربيع ١٩٧٥ تحريات وتنقيبات أثرية في دولة الأمارات العربية المتحدة ص ص ٧٥ – ١٥٥ (سومر، المجلد الحادي والثلاثون، الجزء الأول والثاني، وزارة الإعلام، بغداد)

مقداد، خليل ٢٠٠٤ بصرى عاصمة الأنباط. (الطبعة الأولى، دمشق)

النعيم، نورة عبدالله علي ٢٠٠٠ التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير. (مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض)

هاي، ستورات منرو ١٩٩٦ عملات شبوة وعملات متحف عدن الوطني. ص ص ١٦٠ – ١٦٦ (شبوة عاصمة حضرموت القديمة – نتائج أعمال البعثة الفرنسية اليمنية – المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء – الطبعة الأولى صنعاء)

يحيى، لطفي عبدالوهاب ١٩٧٩ العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار النهضة العربية، بيروت).

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٢ مسكوكات ممالك الجزيرة العربية قبل الإسلام. ص ص ٧٣ – ١٠٢ (أدوماتو، العدد الخامس ذو القعدة ١٤٢٣هـ/يناير ٢٠٠٢م)

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٦ مسكوكات مملكة الأنباط. (الطبعة الأولى، دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض)

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٧ مسكوكات من شرقي الجزيرة العربية قبل الإسلام. ص ص ٧ – ٥٣ (العصور، المجلد السابع عشر، الجزء الأول ذو الحجة ١٤٢٧هـ/يناير ٢٠٠٧م)

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

Dembski,G. 1987. The Coins of Arabia Felix. PP.125-28 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in Arabia Felix at the Staatiliches Museum fur Volkerkund Munchen 29 April 1987 to April 1988)

Hay, S.M. 2003. Coinge of Arabia Felix. The pre-Islamic Coinage of the Yemen. (Mare Erythraeum, VI, Milano)

Hill,G.F. 1922. Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia. (London)

Holand, R.G. 2001 Arabia and Arabs from the Bronze Age to the Coming of Islam (London & New York)

Kammerer, A 1929. Petra et La Nabatene. (Paris)

Morgan, J 1979. Manual de Numismatique Orientale L'antiquite et du Moyen Age. (Chicago)

Pirenne,J. 1988. The Cronology of Ancient South Arabia Diversity of Opinion. PP.116-22 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in Arabia Felix at the Staatiliches Museum fur Volkerkund Munchen 29 April 1987 to April 1988)

Potts, T 1990. The Arabian Gulf in Antiquity, Vol. II from Alexander the Grate to the Coming of Islam.(Oxford)

Sedov,A.V. 2001. The Coins of Pre-Islamic Yemen: General Remarks.PP.28-38 (Adumatu – issue No.3 Jan 2001)

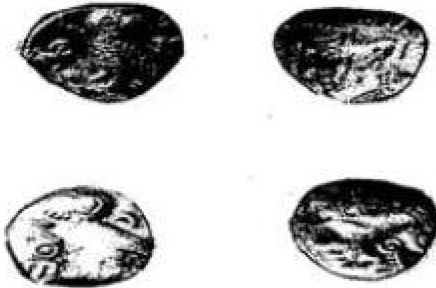
Walker, J. 1937. A New Type of South Arabian Coinge PP. 260-79 (Numismatic Chronicle 17, 5th ser.)

Yousef, F.A. 2004. Coinage of Nabataeans.PP. 51- 70 (Adumatu, Issue No. 10)



نموذج من المسكوكات الإغريقية التي تأثرت بها المسكوكات القتبانية المبكرة

اللوحة رقم ٢



مسكوكتان قتبانيتان من ضرب أوائل القرن الثاني ق.م

اللوحة رقم ٣



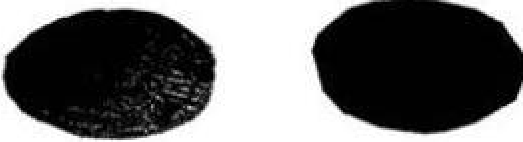
مسكوكة قتبانية نقش عليها مكان الضرب (حريب)

اللوحة رقم ٤



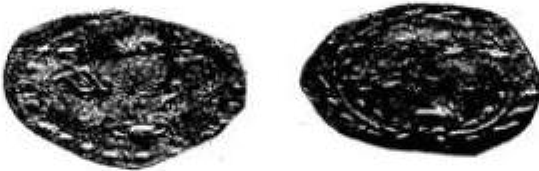
نموذج من المسكوكات السبئية التي ضربت فيما بين سنتي ٧٠ ، ٤٠ ق.م

اللوحة رقم ٥



نموذج من المسكوكات السبئية التي ضربت فيما بين سنتي ٤٠ ، ٢٩ ق.م. وسجل عليها كتابات بالخطين الآرامي والقتباني

اللوحة رقم ٦



نموذج من المسكوكات السبئية المتأثرة بالمسكوكات الرومانية

اللوحة رقم ٧

مسكوكات سبئية بمناظر أتيكا ضربت في شبوة عاصمة مملكة حضرموت

اللوحة رقم ٨

نموذج من المسكوكات الحضرمية التي ضربت سنة ٣٥٠ ق.م

اللوحة رقم ٩



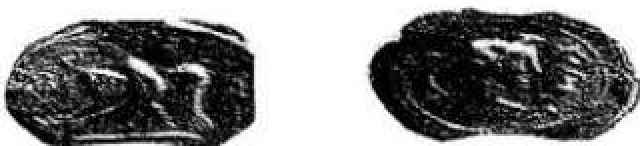
رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (العاني ١٩٩٦ : ١٦٢)

اللوحة رقم ١٠



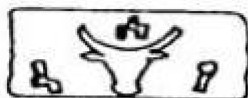
رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (العاني ١٩٩٦ : ١٦٢)

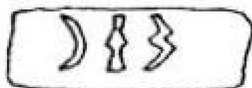
اللوحة رقم ١٢



نموذج من المسكوكات التي ضربها الملك الحضرمي يشهر إل يهرعش في مطلع القرن الأول الميلادي

اللوحة رقم ١٣





رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك الحضرمي يشهر إل يهرعش في مطلع القرن الأول الميلادي (العاني ١٩٩٦ : ٢٦٥)

اللوحة رقم ١٣

مسكوكة حميرية من نوع ذات الرأسين نقش عليها مكان الضرب (يحصب)

اللوحة رقم ١٤

رسم تخطيطي لمسكوكة حميرية من نوع ذات الرأسين نقش عليها مكان الضرب (حريب) (العاني ١٩٩٦، ١٦٥)

اللوحة رقم ١٥



مسكوكة حميرية من نوع ذات الرأسين

اللوحة رقم ١٦



رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك كرب إل يهنعم
(العاني ١٩٩٦ : ٢٦٥)

اللوحة رقم ١٧



مسكوكة من نوع ذات الرأسين سجل عليها اسم الملك عمدان بين يهقبض
(القرن الأول الميلادي)

اللوحة رقم ١٨



رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك شمر يهنعم
(هاني ١٩٩٦: ٤٦٥)

اللوحة رقم ١٩



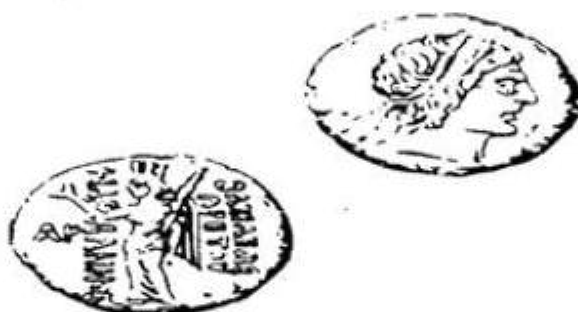
رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك ثأران يعب يهنعم
(هاني ١٩٩٦ : ١٩٥)

اللوحة رقم ٢٠



نموذج من مسكوكات مملكة كندة
(الأنصاري ١٩٨٢ : ١٢٥)

اللوحة رقم ٣١



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك حارثة الثالث نقشت عليه الكتابة بالخط اليوناني

([illegible])

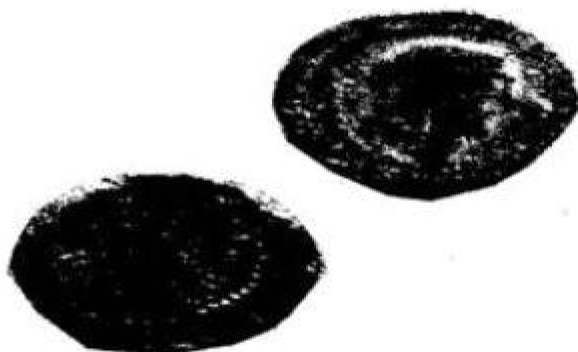
اللوحة رقم ٣٢



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك عبادة الثاني نقشت عليها كتابة بالخط النبطي

([illegible])

اللوحة رقم ٣٢



فلس من النحاس للملك مالك الأول نقش عليه عبارة: "مالك الملك ملك الأنباط" بالخط النبطي

اللوحة رقم ٩٨



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك عبادة الثالث

[illegible]

اللوحة رقم ٣٥

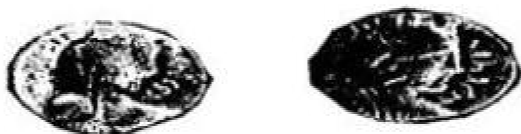
رسم تخطيطي لكتابات درهم من عهد الملك حارثة الرابع نقش عليه كتابة بالخط النبطي على الوجه نصها: "حارثة ملك الأنباط محب أمته"، وعلى الظهر عبارة نصها: "الملكة خلدة ملكة الأنباط"

(Meshorer 1975: 23)

اللوحة رقم ٣٦

فلس للملك مالك الثاني

اللوحة رقم ٣٧



درهم للملك ربإل الثاني ووالدته الملكة شقيلة

اللوحة رقم ٣٨



رسم لتترادراخما السكندرية المصرية ضربت بالإسكندرية ، ونقش عليها صورة كل من: الملك وهب اللات ، والإمبراطور الروماني أورليان

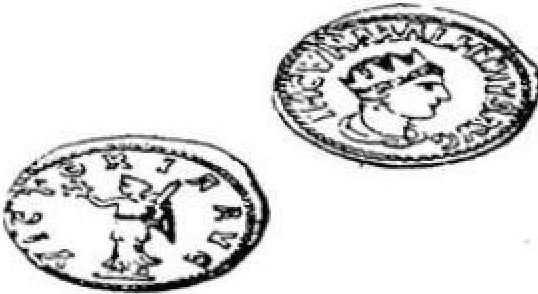
([illegible])

اللوحة رقم ٢٩



وجه درهم ضرب بالإسكندرية عليه صورة الملكة زنوبيا وحولها كتابة بالخط اليوناني

اللوحة رقم ٣٠



رسم تخطيطي لمسكوكة تدمرية نقش على وجهها صورة الملكة زنوبيا ، ونقش على الظهر صورة إحدى المعبودات.

([illegible])

اللوحة رقم ٣١



رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك وائل شهرو

(Ekhorgan 1979: 223)

اللوحة رقم ٣٢



رسم تخطيطي لمسكوكتين ضربتا في عهد الملك أبجر الثامن سجلت الكتابات على الأولى بالخط الآرامي، وعلى الثانية بالخط اليوناني

(Ekhorgan 1990: 253)

اللوحة رقم ٣٣





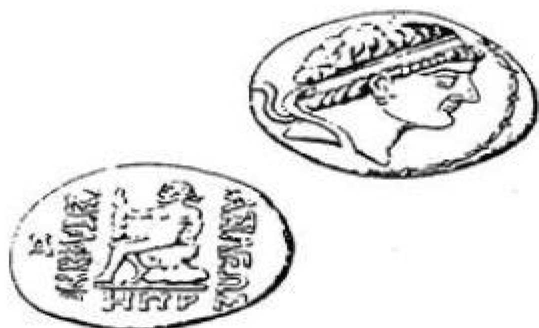
رسم تخطيطي لسكتين ضربتا في عهد الملك معن الثامن سجلت الكتابات
على الأولى بالخط الآرامي، وعلى الثانية بالخط اليوناني
([illegible] 1970: 158 /3)

اللوحة رقم ٣٤



رسم تخطيطي لسكة ضربت في عهد الملك أبجر التاسع وسجل عليها مكان
الضرب "الرها" بالخط اليوناني
([illegible] 1970: 227)

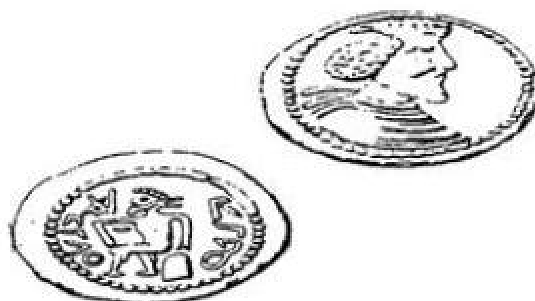
اللوحة رقم ٣٥



رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك هايسباوسنيس وسجلت عليها الكتابات بالخط اليوناني

(Georges 1978: 2/43)

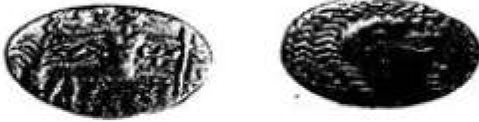
اللوحة رقم ٣٦



رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك [illegible] وسجلت عليها الكتابات بالخط الآرامي

(Georges 1978: 2/45)

اللوحة رقم ٣٧



مسكوكة ضربت في عمانا (الاردن).

اللوحة رقم (٤)



مسكوكة عثر عليها في فيلادلفيا

اللوحة رقم (٣)





دراخما للملك السلوقي أنطيوخس الثالث عشر عليها هيلكا

د. خالد حسين محمود[*]

جوانب من التسامح وقضايا العيش المشترك بين اليهود والمسلمين في المغرب الأدنى خلال عصري الفاطميين وبني زيري ٢٩٦-٥٥٧هـ / ٩٠٨- ١١٦١م

لا تعوزنا القرائن الدالة على انطواء الشرع الاسلامي - ذي الأبعاد العالمية- على مبادئ قويمة للتعايش السلمي وإنماء العلاقات الودية بين جميع الشعوب على اختلاف الانتماءات الدينية والمذهبية والعرقية والطائفية،تعزيزاً للعمل الجماعي المشترك لما فيه الخير والسعادة للإنسانية،تلك المبادئ التي ربى عليها الإسلام أتباعه أول الأمر بشكل نظري،ثم ما لبث أن جرى تطبيقها واقعياً بعد حركة الفتوحات الإسلامية وانضواء شعوب الأراضي المفتوحة تحت لواء الحكم الاسلامي،فأُعطىَ بموجبها غيرُ المسلمين عهود الأمان داخل دار الإسلام،عاشوا بمقتضاها تحت مظلة الحكم كرعايا ومواطنين يسرى عليهم ما يسرى على المسلمين من التمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات دون تفرقة أو تمييز،باستثناء ما تستوجبه أمور العقيدة الإسلامية أو يحتمه أمن الدولة المسلمة[١].

---

*مدرس التاريخ الاسلامي- كلية الآداب- جامعة عين شمس

هكذا،ظل العالم الاسلامي خلال معظم عصوره يشكل أنموذجاً للتسامح والتعايش[٢] بين المسلمين واليهود وغيرهم من الطوائف التي وفدت من مختلف الأصقاع،لتنصهر ضمن وحدة اجتماعية تميزت بخصائص حضارية مشتركة وانسجام اجتماعي ملحوظ،رغم ما كان يظهر أحيانا من نعرات التعصب والتحيز،إلا أنها ظلت في التحليل الأخير استثناءات ونتوءات في هذا التاريخ[٣].

لم تشذ بلاد المغرب الأدنى خلال العصرين الفاطمي والزيري عن تلك القاعدة،حيث عاش فيها اليهود مع غيرهم من المسلمين حياة التمازج والتداخل والتلاقي بشكل لافت للانتباه،والتي اكتسبوا من خلالها وضعية أهل الذمة التي أطرت سلوك المسلمين تجاههم،ذلك السلوك القائم على الاحترام وعدم الاعتداء والتعامل بالمعروف وعدم التدخل في شئون اليهود الداخلية دينية أو قضائية أو وقفية،وهو ما تسعى تلك الدراسة إلى كشفه وتبيانه،من خلال رصد بعض مظاهر التعايش السلمي بين اليهود والمسلمين في المغرب الأدنى وطبيعة العلاقات بينهما،منذ بداية القرن الثالث إلى منتصف القرن السادس الهجريين،حيث تمثل تلك الفترة أنموذجا أسمى للتسامح الديني والتعايش السلمي بين اليهود والمسلمين.فمعلوم أن السلطتين الفاطمية ثم نائبتها الزيرية قد تجلت معهما صور التسامح السياسي مع أهل الذمة على نحو عام واليهود على نحو خاص،وهو ما حدا بباحث يهودي[٤] إلى الاعتراف بان فترة الحكم الفاطمي كانت بالنسبة لليهود والنصارى فترة اندماج حقيقي في الحياة العامة للدولة حيث عاشوا امنين،مندمجين في البيئة من حولهم ،وهو ما أكده باحث آخر[٥] حين رأى أن التسهيلات التي وفرتها الدولة الفاطمية لليهود كانت فرص لم يسبق لها مثيل للمشاركة الاجتماعية والتجارية والثقافية.وهو ما دفع البعض[٦] إلى أن يصف فترة الحكم الفاطمي بأنها العصر الذهبي لليهود لما تمتعوا به من ألوان التسامح وأشكال التعايش وعلى شتى المستويات.

يبدو أن علاقةً من نوع خاص قد ربطت الفكر الشيعي باليهود،لا سيما القرائين منهم،حيث ذهب البعض[٧] إلى أن تأثراً مشهوداً بالتشيع قد عرفته فرقة القرائين،لا سيما وان نشأة تلك الفرقة كان بالعراق –حيث التواجد الشيعي– مما جعلها تتشرب بعض معتقدات الشيعة وأرائهم .وكان ذلك التقارب وراء احتلال القرائين أماكن بارزة في البلاط الفاطمي،وشغل مناصب رفيعة داخل الدولة كمستشارين،وكتاب للدواوين وجباة للضرائب،وأطباء للخلفاء والأمراء

والمتنفذين[٨]،لا سيما إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما اشتهر به أبناء هذه الفرقة اليهودية من الغنى والثراء[٩].وربما كان تمتع اليهود بتلك المكانة المرموقة لدى السلطة وانخراطهم فى الوظائف العامة،وراء تجرأ بعضهم أحياناً على معتقدات المسلمين والتمادى فى إيذاء مشاعرهم الدينية دون خوف من نزول العقوبة،كما تشهد بذلك تلك الرواية التى تتحدث عن عجز القاضي القيرواني محمد بن أبي منظور(ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) عن إقامة حد القتل على يهودي سب النبي عليه السلام،لأن الفاطميين حرموه تلك السلطة[١٠].ولقيت وضعية يهود افريقية المتميزة خلال العصر الفاطمي استهجان بعض فقهاء المالكية الذين وقفوا من اليهود -المتعاونين مع أعدائهم الفاطميين- موقفا عدائياً دون النصارى[١١]،حتى أفتى بعضهم بعدم إعطاء الزكاة للفاطميين لأنهم ينفقونها على اليهود[١٢].ولعل حميمة العلاقة التى ربطت اليهود بالفاطميين كانت وراء الربط بين الفاطميين واليهود على ألسنة فقهاء أهل السنة [١٣]،والتمادى فى الأمر بشكل اشد من خلال القدح فى نسب العبيديين والتأكيد على يهوديته[١٤] حتى وُصفت دولتهم فى بعض المصادر بـ"الدولة اليهودية"[١٥].وهو ما دعى الشاعر الحسن بن خاقان(ق٥هـ/١١م) أن يوجه نصيحته الساخرة إلى الرعايا المسلمين تحت حكم الفاطميين أن يتهودوا إذا أرادوا الغنى وتولى المناصب الرفيعة [١٦].

كان بديهياً أن تصبح افريقية مقصداً لليهود خلال الحكم الفاطمي الشيعي،وقد تسامعوا عن أشكال التسامح الذى اشتهرت به السلطة الحاكمة تجاههم[١٧]،وأن ينال بعض الحكام الفاطميين مدح اليهود وثناءهم،فحسب وثائق الجنيزة امتدح اليهود احد الحكام الفاطميين واعتبروه أشبه بالمسيح فى العدالة[١٨].كما سعى اليهود من جانبهم إلى إرضاء السلطة الفاطمية والتقرب إليها بكل وسيلة،والتفاني فى الإخلاص لها،وهو ما تؤكد عليه تلك الرواية،التى تتحدث عن ذلك اليهودى الذى بادر إلى المعز الفاطمي(٣٤١هـ - ٣٦٥هـ / ٩٥٣م - ٩٧٥م) ليطلعه على ما بيته بعض إباضية جبل نفوسة ضده من الثورة والتمرد،ليفشى بذلك سراً خطيراً قد ائتمنه عليه صديقه الفقيه الإباضى يزيد بن مخلد،مقدماً عليه الرغبة فى التقرب للسلطة الفاطمية وإظهار الولاء لها[١٩].وشبيه بهذا الموقف ذلك الدور الذى لعبه يهودى آخر كان مقرباً للمعز الفاطمى والذى حاول من خلاله إثبات غاية الولاء للسلطة الفاطمية عبر السعى الحثيث

للكشف عن تورط الفقيه الإباضي أبي نوح في مراسلة أمراء بني أمية بالأندلس ضد الدولة الفاطمية[٣٠]

لم تشذ مكانة اليهود في دولة بني زيري عن سابقيهم من الفاطميين،فقد استخدمهم الأمراء داخل البلاط،واشتغلوا بالطب والتجارة،وتمتعوا بكامل رعاية الدولة[٣١].وبلغ الأمر ببعض الأمراء أن جاروا اليهود في أخذ الجزية حسب رغبتهم،عن طريق دفعها جماعياً بدل أدائها حسب عدد الرؤوس،رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية،وهو ما تفصح عنه تلك النازلة التي رُفعت تفاصيلها إلى الفقيه اللخمي(ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) والتي سُئل فيها عما درجت عليه السلطة من اخذ الجزية من يهود أفريقية "جملة لو مضت على عددهم جاءت أقل من أربعة دنانير"،فجاءت إجابة الفقية مؤكدةً على مخالفة ذلك لصريح الشريعة وما كان عليه السلف[٣٢].ومن ثم فلا عجب أن ينال بعض أمراء بني زيري حب اليهود وتقديرهم،فقد وصف الأمير باديس بن منصور(٣٨٦-٤٠٦هـ/٩٩٦-١٠١٦م) في متن رسالة بعث بها أحد يهود القيروان إلى الجاؤون حاي بالفسطاط بأنه مبارك من الرب الذى منحه القدرة على حماية اليهود من بعض اعتداءات زناتة[٣٣] وهو ما يفهم من رواية ابن حوقل[٣٤] التي تذكر أن زعماء صنهاجة أنزلوا العقوبة الشديدة ببعض القبائل الساكنة بمدينة قابس لأنها كانت تقطع الطريق وتعتدى على أموال أهل الذمة وتجارتهم .

تبدو صورة التسامح و التعايش السلمي خلال عصرى الفاطميين وبنى زيري أكثر تجلياً إذا ما أجريت مقارنة بين وضعية اليهود قبل هذين العصرين وبعدهما.فعلى سبيل المثال،مثلت السلطة الأغلبية نموذجا شبيهاً بسلطة بغداد،تلك التى وقفت من اليهود موقفا متصلبا[٣٥]،ولا أدل على ذلك من تلك الإجراءات القاسية التى اتخذت ضد اليهود من قبل القاضي الأغلبي ابن طالب(ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) الذى كتب إلى بعض قضاته في اليهودِ والنصارى"أن تكون الزنانير عريضة صغيرة مخالفة للون وجوه ثيابهم ليعرفوا بها،فمن وجدته تركها بعد نهيك فاضربه عشرين سوطـاً مجرّداً ، ثمّ صيّره في الحبس، فإن عاد فاضربه ضرباً وجيعاً بليغاً وأطل حبسه"[٣٦]،وحين طلب الثائر منصور الطنبذى من الفقيه أبي محرز الخروج معه ضد زيادة الله الأغلبي(٢٠١ - ٢٢٣هـ /٨١٧ - ٨٣٩ م) محتجا بظلمه للمسلمين أجابه الفقيه " نعم وظلم اليهود والنصارى"[٣٧]

وفي عصر الموحدين خيّرَ عبد المؤمن بن علي (٤٨٧ – ٥٥٨هـ /١٠٩٤ – ١١٦٣م) اليهود والنصارى بين الإسلام أو الخروج من البلاد،وقدر لهم فى ذلك مدة من الزمن[٢٨] وإلا قتل رجالهم وسبي نساءهم وذراريهم وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين[٢٩].كما فُرض على يهود المغرب زيًا خاصًا في أواخر عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب(٥٨٠-٥٩٦هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)الذى "أمر أن يُميِّز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثيابٌ كحيلة، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريبٍ من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة، كأنها البراديع تبلغ إلى تحتِ آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب"[٣٠].وكانت تلك الإجراءات المتشددة ضد اليهود مادة ثرية للفخر والتباهى من قبل مؤرخ الموحدين الشهير عبد الواحد المراكشي[٣١]،وإنكاره ذلك التهاون الذي عومل به اليهود من قبل السلطات السابقة،حيث يقول" ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة".

يجب الاعتراف بأن الارتكان إلى علاقة التسامح التى جمعت السلطتين الفاطمية والزيرية باليهود لا تعبر حقيقةً عن ذلك التعايش السلمى الذى نبغي تأكيده من خلال تلك الدراسة،لأنها تظل فى التحليل الأخير إرادة سلطانية فوقية،فلا شك أن النخبة الحاكمة التى تراوح فضاؤها بين المجالين الدينى والسياسي كان يحكمها منطق التوظيف المتبادل القائم على أساس المصلحة والمردود النفعي[٣٢]،فى الوقت الذى رحب فيه اليهود بتلك العلاقة لاستغلال علاقتهم بالسلاطين للتحايل على أمر الجزية والالتفاف على ما تحظره وضعية أهل الذمة من الانخراط فى المناصب وتسهيل مصالح بنى جلدتهم.الأمر الذى يدفعنا إلى اختزال تلك الزاوية من البحث،وتفادى مزلق الاستناد إليها وحدها كدليل على جوانب التسامح وصور التعايش السلمي لليهود،والذى لا يُمَكِّنُ من الخروج بنتائج دقيقة،وإنما يتطلب الأمر التركيز بشكل أقوى على الزاوية الأخرى والتى تتعلق بعلاقة اليهود بالقاعدة العريضة من عموم المسلمين،والتى تبدو أكثر تعبيراً وأبلغ إفصاحاً عن الظاهرة المذكورة.

كذلك،تستلزم دراسة التسامح والتعايش بين الشعوب والأديان الاحتياط و التحفظ مما جاء في بعض المرجعيات الفقهية،والتى تلون خطابها–فى الغالب الأعم– بنبرة من التعصب والتشدد تجاه بعض الطوائف الدينية،والتى لا تنم عن طبيعة الدين السمحة،بقدر ما ترتبط بعوامل هيكلية

فرضت موقفاً صارماً متشددا [٣٣]،وتستوجب فى المقابل الاحتكام إلى الواقع التاريخي الذي يثبت أن المجتمع المغربي تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الفقهاء،وتعامل المسلمون مع كل الطوائف الأخرى على أساس مبدأ الانفتاح على الآخر،بعيدا عن كل أشكال الاستعلاء والتميز،متجاوزين التحذيرات الفقهية التى تشدد على عدم التعامل مع اليهود أو التداخل معهم [٣٤].وهو ما ينسحب أيضا على اليهود الذين تجاهلوا القيود [٣٥] التى فرضها رجال الدين اليهود،واندمجوا فى المجتمعات الإسلامية التى عاشوا فيها.

لا يمكن قبول دراسة وضعية اليهود فى المغرب الأدنى – خلال فترة البحث- باعتبارهم أقلية فى مواجهة أغلبية مسلمة،أو القول بانعزالهم فى أحياء خاصة عن المحيط الاسلامي،بل خلافاً لذلك،ونتيجة عمق الوجود التاريخي،عاش يهود المنطقة باعتبارهم جزء من الرعية،فتمتعوا بكامل الحقوق وبكافة الامتيازات [٣٦]،واندمجوا مع غيرهم من السكان فى منظومة النشاط الاقتصادي،وشاركوهم فى مناحي الحياة الاجتماعية وألوان العطاء الفكري والمعرفي،وهو ما اعترف به وأكد عليه باحثون يهود،فقد ألح شوراكي [٣٧] على أن اليهود قد عاشوا فى مدينة القيروان منذ تأسيسها فى حماية وأمن العرب،ويري آشتور [٣٨] أنه فى ظل هذا المناخ المتسامح وتحت لواء الإسلام عاش اليهود جنباً إلي جنب مع المسلمين الفاتحين،ونعموا بخيرات هذا الفتح المبين،وأخذ عددهم يزداد،وغدا بمقدورهم أن يتنقلوا من مدينة إلى أخري،بعد أن كانت إقامتهم قد حددت في أماكن معينة في الماضي.وأكد الباحث ذاته فى موضع آخر على أن اليهود كانوا يمثلون عنصرا وطنيا اندمج مع محيطه الاجتماعي واعتنق عادات السكان الآخرين وتقاليدهم [٣٩].وألح مناحم بن ساسون [٤٠] على أن مدن أفريقية لم تعرف خلال العصر الإسلامي أحياء يهودية خالصة،بل أحياء بها كثافة يهودية، وهو ما ذهب شتليمان [٤١] حين ذكر أن انعزال اليهود فى أحياء قاصرة عليهم لم تعرف إلا أواخر العصور الوسطى نتيجة عوامل خارجية.

لا يمكن إدراج تلك الأحكام السابقة فى دائرة العبارات الإنشائية التى تفتقد إلى الواقع التاريخي المدعم بالمعطيات المصدرية،تلك التى أكدت على تعايش اجتماعي مشترك ربط بين المسلمين واليهود،امتزجوا من خلاله فى كل الأماكن المستوطنة بالمغرب الأدنى [٤٢].ولعلّ نظرة فاحصة فى خريطة إقامة اليهود ما يؤكد على ذلك ويكشف عن أنهم كانوا يحتلون مكانة

اجتماعية متميزة،فقد انتشر اليهود بين قرى ومدن المغرب الأدنى،واختاروا الأماكن التى تتناسب وطموحاتهم الاقتصادية.ففى المنطقة الشرقية ترد إشارات عن استقرارهم فى مدينة درنة بين باجة وطبرقة[٤٣] ومدينتى الرمادة[٤٤] وطلمثية[٤٥] الواقعتين على الساحل. كما تواجد اليهود بإقليم طرابلس وربما بأعداد كثيفة[٤٦] حتى نسبت إليهم أسماء بعض مدنه،مثل مدينة اليهودية أو اليهودتين الواقعة على الطريق الساحلى بين برقة وطرابلس[٤٧]والتى عرفت خلال فترة الدراسة بمرسى اليهودية[٤٨]ونسب إليهم أيضا تلك المدينة التى دارت عندها المعركة بين جيش زيادة الله الأغلبى والثائر فضل بن أبى العنبر وعرفت بـ"مدينة اليهود"[٤٩].كما سكنوا قرية صرمان[٥٠] و مدن سرت[٥١] ولبدة[٥٢] وزويلة[٥٣] وجزيرة جربة[٥٤] واجدابية التى كان الغالب على أهلها يهود[٥٥]،ومنطقة جبل نفوسة[٥٦]،لا سيما مدينتى شروس[٥٧]وجادوا[٥٨]، واستوطنوا المدن الكبرى بأفريقية مثل تونس[٥٩]قفصة[٦٠]وقابس[٦١]ونفزاوة[٦٢] وصفاقس[٦٣] والقيروان[٦٤] والمهدية[٦٥] وسوسة[٦٦] وبلزمة وطبنة[٦٧]ورقادة[٦٨].

لم يعرف يهود المغرب الأدنى خلال العصر الفاطمى والزيري الانعزال فى أحياء خاصة بهم[٦٩]،أو التمسك بتلك الخصوصية التى سعوا من خلالها إلى التأكيد على سمو جنسهم،وربما كان للتسامح الذى عوملوا به،والتعايش السلمى الذى اعتادوه،وعدم فرض السلطة عليهم أماكن خاصة لسكناهم،وتوفير حرية التنقل والاستقرار لهم،دور كبير فى ذلك،حيث تؤكد المصادر المتاحة أنهم اندمجوا واختلطوا بالسكان من عرب وبربر وتداخلوا معهم وتأثروا بهم وأثروا فيهم، وهو ما كان وراء إلحاح فقهاء المالكية بأفريقية على تمييز اليهود بزى خاص "لاختلاطهم بالمسلمين فى تصرفاتهم ومخاطباتهم وخصومتهم وبياعاتهم"[٧٠].وهكذا ومن البداية،عاش اليهود والبربر فى منطقة برقة متعاونين فيما بينهم فى أمور الفلاحة والتجارة[٧١]،وامتزجوا برابطة المصاهرة مما أدى إلى اعتناق بعض البربر اليهودية[٧٢]،ولعل فى استنكار الفقيه الاباضى عثمان بن خليفة(٥٠٠-٥٥٠هـ) إقبال الوهبية على الزواج من اليهوديات ما يؤكد ذلك[٧٣].وارتبط يهود القيروان بغيرهم من المسلمين نتيجة الاشتغال بالفلاحة وزراعة الأرض"[٧٤]والعمل بالتجارة والجزارة[٧٥]وصناعة الخبز[٧٦] والبيع والشراء بالأسواق[٧٧].وفضل العالم الشهير اليهودى حنانيل السكنى عند احد أبواب القيروان بجوار

المسلمين[٧٨]،وحين باع الفقيه المالكى حماس بن مروان (ت٣٠٣هـ/٩١٥م) أمة له سوداء لبعض جيرانه،عادت إليه الأمة تعاتبه أنه باعها لقوم يهود[٧٩].وفى زويلة المهدية باع أحد اليهود حجرة تقع عند حدود ملك لأحد المسلمين[٨٠].وعاش يهود مدينة قابس مختلطين بغيرهم من سكان المدينة[٨١]،وهو ما تدعمه فتوى القابسى الذى سئل فيها عن رجل مسلم يسكن بجواره يهودى[٨٢].وفى مدينة تونس أبدى الفقيه والزاهد محرز بن خلف(ت٤١٣هـ/١٠٢٣م) تحفظه على انعزال طائفة من اليهود خارج أسوار المدينة فى حى يعرف بحي المرضى،فعمد إلى إدراجهم ضمن سكان المدينة وخصهم بشارع كامل قرب المسجد الجامع للمدينة مما جعل يهود المدينة يعتبرون أنفسهم فى حماية "سيدى محرز"[٨٣].

ترد إشارات تؤكد على تواجد اليهود فى أحياء ذات أكثرية إسلامية وسكنى المسلمين فى أحياء يهودية،ففضلا عما سبق ذكره،تشير وثائق الجنيزة إلى استنكار رجال الدين اليهود ما كان سائدا فى القيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين من ظاهرة سكنى المسلمين فى منازل اليهود،وطالبوا بمنع اليهود من التأجير لغير اليهود[٨٤] . وسئل الفقيه السيورى (ت٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) عن يهودي كان يسكن درباً ليس فيه إلا المسلمين[٨٥]،وترد نازلة تخص وصيا باع دارا ليتيم مسلم كانت داخل دور اليهود[٨٦].ولعل فى إصدار بعض قضاة أفريقية خلال تلك الفترة أوامرهم بأن تسمر على أبواب دور اليهود ألواح بها صور معينة[٨٧]ما يدعو إلى الرغبة فى تمييز دورهم عن دور المسلمين نتيجة التلاصق والتجاور الذى كان يصعب معه التفريق بين دور المسلمين ودور اليهود.كما صارت تلك المجاورة أمراً مألوفاً ومعتاداً أجاز معه الفقهاء لليهود بناء دورهم بجوار دور المسلمين شريطة ألا ترتفع عليها[٨٨]،وأجازوا أن يكرى المسلم داره لنصراني أو يهودي شريطة ألا يبيع فيها الخمر أو الخنزير[٨٩].وأفتى اللخمى بجواز أن يكرى المسلم داره ليهودي يرابي فيها لأن ذلك من دينهم ولا يجوز إخراجه منها[٩٠].وسعى الفقهاء من جانبهم إلى تقنين حقوق ذلك الجوار،وألزموا المسلمين باحترامها[٩١]،وفى المقابل ألزموا أهل الذمة الذين يسكنون مع المسلمين بعدم بيع الخمر لهم أو حملها إليهم[٩٢].

تقود تلك المعطيات إلى دحض الزعم القائل بأن يهود الشمال الأفريقي أُجبروا على العيش فى أحياء خاصة بهم داخل المدن منذ الفتح الإسلامى[٩٣]،وخلافا لذلك أكد جوايتاين [٩٤]ومن

خلال دراسته لوثائق الجنيزة أن " بيوت اليهود كانت متاخمة لبيوت المسلمين وبيوت المسيحيين، فلم يكن هناك جيتو،ولكن على العكس من ذلك كانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومي".

هكذا،نتوفر على إشارات عدة تؤكد على الامتزاج السكاني والتجاور المكاني بين اليهود وجيرانهم المسلمين،فضلا عن الأمثال الشعبية التى تشير دلالاتها إلى تأكيد ذلك المعنى(٩٥)،تكشف النصوص عن اعتياد مسلمي المغرب الأدنى حضور حفلات زواج جيرانهم من اليهود(٩٦)،وكانوا يخرجون معهم إلى العيون والأنهار والآبار لاستقاء الماء وغسل الثياب(٩٧)،وبات أمراً مألوفاً أن يتم بين الجيران المسلمين واليهود استعارة الآنية والملابس(٩٨)،وترد نازلة عن يهودى بجواره مسلمون كان " يتقاضى منهم الحوائج ويتقاضون منه"،والتى أفتى فيها الفقيه القابسى(ت٤٠٣هـ/١٠١٢م)بأنه" لا إثم فيها فلا بأس"(٩٩) لما يقتضيه ذلك من حق الجوار(١٠٠)،وكان مشايخ جبل نفوسة يلبسون ثياباً من عمل جاراتهم اليهوديات(١٠١)،وذكر المالكى(١٠٢)فى ترجمته للزاهد القيروانى السبائى(ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) أن امرأة مسلمة كانت تتردد على جيران لها من اليهود كانت قد أصيبت صبية لهم ببياض فى عينها وعجز الأطباء عن معالجتها فمضت بها المرأة إلى زاهد مسلم فرقاها فى جملة من يرقى.وناقش الفقهاء مسألة شهادة نساء أهل الذمة على ولادة النساء المسلمات من جيرانهن(١٠٣).واعتاد اليهود دخول بيوت جيرانهم المسلمين(١٠٤)،وإجابة دعوتهم(١٠٥) واختلط أولادهم بأولادهم،وتربوا معهم(١٠٦)كما كانوا يستضيفون المسلمين فى بيوتهم(١٠٧)فيدور بينهم " حديث وابتسام وكلام لين"(١٠٨).

يمكن تقدير هذا التفاعل الاجتماعي بين اليهود والمسلمين من خلال نازلة رُفعت إلى الفقيه القابسى، تتعلق بأسرة مسلمة كان لها جار يهودى وصف عندهم بالوفاء والمروءة وحسن العشرة ولين الجانب فكانوا معه على درجة قوية من الاختلاط والتمازج وتبادل المنافع والهدايا وقضاء الحوائج والدخول فى المعاملات المالية (١٠٩)، ولما كان ذلك أمرا مألوفا وطبيعيا فى افريقية، مالت الفتوى إلى التهاون ومجاراة الحال وعدم التشدد،وهو ما تكشف عنه إجابة الفقيه القابسى للنازلة الآنفة بأنه لا إثم ولا بأس فى ذلك انطلاقا من حق الجوار(١١٠)،فى الوقت الذى

كانت فتاوى فقهاء الأندلس فى مثل هذه الحالات على درجة كبيرة من التشدد والتغليظ والإنكار ربما وصل إلى حد التحريم[١١١]

استلزم ذلك التجاور والتداخل الاجتماعي احترام المسلمين لحقوق اليهود الاجتماعية،واستغلال المرافق الاجتماعية الضرورية،فقد سمح لليهود بصناعة الخمر وشربها والمتاجرة فيها[١١٢]،و ترد نازلة سئل فيها الفقيه اللخمى عن حكم منع مجموعة من اليهود من الاستقاء وغسل ملابسهم من نهر فى وسط بلدة للمسلمين،فأفتى بأنه لا حق للمسلمين فى منعهم من ذلك لأن لهم ما للمسلمين من الاستقاء وغسل الثياب حتى وإن كانت نجسة،لأن جريان النهر يحول دون فساد الماء ونجاسته[١١٣]بل سُمح لبعض اليهود الاستفادة من مياه آبار حفرت فى صحن مسجد مجاور لدورهم[١١٤] .وحتى فى حالة تعدى اليهود بالأذى أو التطاول على جيرانهم المسلمين لم يتخذ الفقهاء من ذلك ذريعة لمنعهم من الانتفاع من تلك المرافق،وهو ما تكشف عنه فتوى الفقيه السيورى الذى رفعت إليه نازلة تخص يهوديا اشترى دارا من مسلم فى درب ليس فيه إلا المسلمون من أهل العافية والخير فآذاهم اليهودى بشرب الخمر والتجاهر بذلك والإقدام على فعل مالا يجوز فعله،وكان يشاركهم فى الانتفاع من ماء بئر كانت بذلك الدرب،فتحرز المسلمون عنه فى ذلك،وحاولوا منعه،فصدرت الفتوى بأنهم لا حق لهم فى ذلك[١١٥].ولا يخفى ما تكشف عنه النازلة من تمتع اليهود من الأمان وعدم التعدى عليهم من قبل المسلمين حتى فى حالة عدم مراعاتهم لحقوق الجوار،حيث لم يقدم المسلمون على إخراج ذلك اليهودى من بينهم أو منعه بالقوة من الانتفاع من تلك البئر،واكتفوا برفع المسألة إلى دائرة الفقه،وألزموا انفسهم باحترام الفتوى وعدم مخالفتها.

انعكس هذا الذوبان في النسيج الاجتماعي في مشاركة مسلمي المغرب الأدنى لليهود في معظم احتفالاتهم الدينية،وهي مشاركة روحية أفرزتها قرون عديدة من التعايش رغم المحاذير الدينية التي كانت تطلقها أفواه بعض الفقهاء الذين اعتبروا مشاركة اليهود في أعيادهم بدعة[١١٦]،وجرت عادة اليهود على توزيع الفطير على جيرانهم المسلمين فى عيد الفطير اليهودى[١١٧]، كما تكشف وثائق الجنيزة عن زيارات قام بها اليهود إلى جيرانهم وشركائهم المسلمين وتهنئتهم فى أيام المواسم والأعياد[١١٨]

بلغت درجة التمازج هذه أن اتخذ اليهود من جيرانهم المسلمين شهودا يستندون إليهم فى القضايا التى تتعلق بخصومات ضد إخوانهم اليهود،وهو ما تكشف عنه نازلة عرضت على الفقيه ابن العطار(ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) وتتعلق بجماعة من اليهود طالبوا شخصا منهم بمظالم ودعاوى اعتمادا على شهود من اليهود فى حين اعتمد المدعى عليه إلى شهود مسلمين[١١٩].وبالمثل،استعان المسلمون باليهود واحتكموا إلى خبرتهم الطيبة فى فض ما يدب بينهم من نزاع،وهو ما تكشف عنه نازلة سئل فيها الفقيه المازرى(ت ٥٣٦هـ/١١٤١م) عن نزاع دب بين بائع ومشتر حول خادمة وجد فيها المشترى عيبا يوجب الرد،وقد شهد له بذلك رجل يهودى خبير بتلك العيوب[١٢٠].

مثلت عملية السلف والدين التى كانت تتم بين المسلمين واليهود صورة من صور هذا التعايش والتمازج ،فترد فى وثائق الجنيزة إشارة عن يهودى كعكى أعاد لمسلم فران قرضا كان قد أخذه منه[١٢١]،وسئل الفقيه المازرى عن ذمى أسلف مسلما من أهل السوق دنانير[١٢٢]،وحسب إشارة عند الشماخى[١٢٣] استدانت أم الفقيه الإباضى أبى هارون الملوشائى شعيرا من جار لها يهودى،وماتت دون أن تقضيه،ولم يسع اليهودى إلى طلبه،احتراماً منه لحسن الجوار،ولكنه اُضطر إلى أخذه أمام إلحاح الفقيه أبى هارون.

شكل التكافل الاجتماعي صورة جلية للتعايش الإسلامى اليهودى[١٢٤]،ففى ترجمته للفقيه الإباضى أبى المهاصر موسي بن جعفر(ت ق٤هـ/١٠م) ذكر الدرجينى[١٢٥] أنه تفاعل بشكل إيجابي مع أهل موطنه الذين انتابهم فقر وحرمان أثر جدب حل بهم،فراح يبعث إليهم بالعطايا والصدقات،دون تفرقة بين مسلم ويهودى،فكان من بينهم"يهودى ضعيف كان معهم ساكنا فأناله من ذلك وقال اليهودى:وأنا أيضا لم ينسني اللهم لا تنسه من رحمتك".وفى المقابل اعتاد يهود جبل نفوسة ترك ما تبقى من حصادهم للفقراء والمساكين،وتعاون بعضهم ذات مرة فى جمع مبلغ أربعين دينارا وتقديمه دعما للقاضى أبى يحي زكريا الأرجانى الذى بلغ به الفقر درجة كبيرة جعلته يتخذ من الدقيق المخلوط بالماء طعاما له[١٢٦].وتصدى بعض فقهاء أفريقية لظاهرة إعطاء فقراء أهل الذمة من الزكاة وصدقة الفطر [١٢٧]،وأبدى آخرون استنكارهم لما شاع فى البلاد من تصدق المسلمين على فقراء اليهود ومساكينهم وحبس بعض الأوقاف عليهم بل

والوصية لهم[١٢٨]،في حين نالت الظاهرة رضى فقهاء آخرين فأجازوا الصدقة والحبس على فقراء اليهود والنصارى،واعتبروا الصدقة على الذمى القريب أفضل في الأجر من المسلم البعيد[١٢٩].كما أفتى فقهاء القيروان بجواز أن يسلف الإمام اليهود مالاً من بيت مال المسلمين لأداء ما عليهم من التزامات مالية كالديات وغيرها وألا يشق عليهم في ذلك[١٣٠]،ولعل في إلحاح الفقهاء على عدم جواز إطعام مساكين أهل الذمة من الكفارات[١٣١] ما يدل على وجوده في المجتمع المغربي خلال تلك الفترة. وبالموازاة،سئل الفقيه ابن سحنون عن يهودى حبس على مساكين المسلمين عقارا له[١٣٢]،وبلغ الأمر ببعض اليهود أن أوقفوا أحباسا لهم على بعض المساجد وهو ما لم يجزه بعض الفقهاء[١٣٣].

بلغت العلاقة بين اليهود والمسلمين درجة عالية من الثقة والأمان بحيث حمل بعضهم الرسائل الخاصة والبضائع لبعض،فقد ذكر الشنتريني[١٣٤] أن رسالة وصلت إلى الكاتب أبي المغيرة عبدالوهاب بن حزم الأندلسي (ق٥هـ/١١م) من أحد أصدقائه المغاربة عن طريق يهوديٌ أوصلها إليه،حيث ردَّ أبو المغيرة على الرسالة بقوله:"وأبدأ بحديث اليهودي موصل كتاب"[١٣٥].وتذكر إحدى وثائق الجنيزة أن يهوديا كان يسكن إحدى قرى القيروان قد أرسل مع بعض المسلمين جبناً ليبعه في سوق المدينة[١٣٦] وسجل جوايتاين[١٣٧] ومن خلال فحصه لتلك الوثائق أن أموال اليهود وبضائعهم كانت تودع طرف رجال الأعمال المسلمين الذين كانوا يسافرون بها مع القوافل أو بالسفن،كما حوت أوراق الجنيزة أدعية وتمنيات طيبة للتجار المسلمين،وورد في إحدى وثائق الجنيزة نص رسالة أرسلها أحد يهود المغرب إلى يهودى آخر جاء فيها:" إذا كانت هناك قافلة،وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرَّمْ بإرسالِ البضائع معهم"[١٣٨].

كان من مظاهر التعايش بين المسلمين واليهود علاقة الصداقة والمحبة التى جمعت بين أفرادهم،فقد لقي الزاهد أبي إسحاق الجبنياني(ت٣٩٩هـ/١٠٠٨م) في طريقه ذات مرة رجلين صديقين أحدهما "مسلم والآخر يهودى"[١٣٩]،وكان للفقيه الإباضي أبو القاسم بن مخلد (ق٤هـ/١٠م) صديق يهودى،بلغ من ثقته به،أن أطلعه على نيته في تدبير تمرد ضد المعز الفاطمى[١٤٠]،وحسب رواية الدرجيني[١٤١] كان للفقيه أبي نوح الإباضي صديق يهودى" يتخدم له ويجد في حاجته"،وكان له ناصحاً ومرشداً،فحين أعلمه الفقيه بكراهيته مصاحبة المعز الفاطمى

وتنفيذ أمره بالمسير معه إلى مصر،أشار عليه اليهودى بالتمارض،ودله على طريقة مثلى للخروج من المأزق،عن طريق غسل وجهه بشراب الشعير المنقوع والشرب منه،ونجحت الحيلة،حيث تركه المعز لما رأى اصفرار وجهه وظنه مريضا.وجمعت صداقة بين يهودى والفقيه الإباضى إبان ابن وسيم اليغوى،فكانا يكثران من اللقاء،وحين دخل عليه اليهودى ذات يوم ورآه مغضباً أرشده الفقيه أن الغضب ليس من سماته،ونصحه بالزهد فى الدنيا،وتوطين نفسه على الصبر على مصائبها(١٤٢).وكشفت المصادر أن اتجاه الفقيه المالكى المازرى للاشتغال بالطب كان نتيجة نصيحة وُجهتْ له من قبل طبيب يهودى ربطت بينهما علاقة مودة.(١٤٣).وكان ببلاط المعز الفاطمى يهودى كان شديد الإعجاب بالفقيه والزاهد القيروانى إبراهيم بن أحمد السبائى(١٤٤)،حتى إنه نصح المعز بعدم التعرض له بالإيذاء.وهكذا تذكر مصادر الفترة أن المغاربة المسلمين كانوا على استعداد أن يدافعوا عن أصدقائهم اليهود بكل ما أوتوا من قوة(١٤٥).

شكل الزي وجها آخر للتعايش المشترك بين المسلمين واليهود،فعلى الرغم من استئساد الفقهاء في فرض بعض الأزياء على اليهود،ومنعهم من ارتداء بعضها،فإن الواقع التاريخي أثبت أن هؤلاء قلدوا أزياء المسلمين،متجاوزين بذلك كل المحاذير الفقهية،وهو ما ألحت على تأكيده مصادر الفترة،فقد اختلط يهود القيروان مع المسلمين فى ملابسهم(١٤٦)،واعتاد المسلمون دخول أسواق المدينة لشراء الملابس القديمة التى كان يرتديها اليهود والنصارى(١٤٧)،وتناقضت آراء المالكية حول حكم الصلاة فى هذه الثياب(١٤٨).وكان زى يهود قرية صرمان بطرابلس " زى قبائل ذلك القطر"(١٤٩)،وترد فى كتب النوازل إشارات عن يهودى " تشبه بزى المسلمين..ليس عليه رقاع ولا زنار""(١٥٠)،وآخر اعتاد أن " يعمم ويختم ويركب السروج على فاره الدواب ويقعد فى حانوته من غير غيار ولا زنار(١٥١)" وثالث "تربي على رأسه بزى المسلمين"(١٥٢).و تجلى الأثر البربري على ملابس رجال الدين من اليهود،أولئك الذين كانوا يرتدون مع الجلباب برنسا مفتوحة أكمامه من عند الكوع إلى المعصم(١٥٣)،وتشابه لباس النساء اليهوديات بلباس المسلمات إلى حد بعيد حيث لم يكن لليهوديات زى يعرفن به من المسلمات(١٥٤)،وهو ما أكدته وثائق الجنيزا التى ذكرت أن النساء اليهوديات كن يرتدين الثوب والحجاب والخمار

والبرنس(١٥٥).ولعل فى فتوى الإمام المازرى بضرورة إلزام اليهود لا سيما فى الأمصار الكبار بتغيير " أطرافهم أو اتخاذ علم يتميزون به" ما يؤكد على أن الواقع كان خلاف ذلك،وهو ما تدعمه الروايات التاريخية،فقد صافح عيسي بن مسكين (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م) رجل فصافحه فاتضح أنه ذمى فاستعوذ من ذلك ودعى عليه(١٥٦)،وذكر اللبيدى(١٥٧)أن أبى إسحاق الجبنيانى لقى فى طريقه رجلين لا يتميز احدهما عن الآخر فى اللباس،فكان أحدهما مسلم والآخر يهودى،وترد عند الدباغ(١٥٨) رواية تشير إلى أن المعز بن باديـــس بعث طبيبه ابن عطاء اليهودي لمقابلة الفقيه أبي عمران الفاسى"فلما دخل على الشيخ في داره ظنه الشيخ بعض رجال الدولة إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيارِ أهل مِلّته، فقال الشيخ: وما مِلّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران ... وأمره بالخروج وهو يرعد، وكان غير معلّم، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته"(١٥٩).

هكذا،تشي تلك النصوص بأن إلزام اليهود بلباس معين يميزهم عن المسلمين لم يتجاوز الإطار النظرى ولم يجد له تطبيقا على أرض الواقع(١٦٠). مما يدعو إلى ضرورة إعادة النظر فى رواية المالكى(١٦١) ومن نقل عنه(١٦٢) والتى تتحدث عن إجبار اليهود والنصارى فى افريقية بلبس رقاع بيضاء على أكتافهم وفى كل رقعة منها قرد وخنزير.بل خلافا لذلك استنكر الفقهاء ما تمتع به اليهود من ارتداء الملابس الفاخرة وركوب الخيل والسروج الثمينة والتحلى بحلية المسلمين فى لبس الأخفاف والعمائم(١٦٣)

كان الطعام مظهرا آخر من مظاهر المشاركة بين اليهود والمسلمين،فقد نقل المالكى(١٦٤)عن أبي سليمان ربيعة الجزرى أنه كان مع صحبة له قد اجتمعوا على طعام وشاركهم فى هذا الطعام يهودى كان قد دخل عليهم.واستنادا إلى ما سبق ذكره من مشاركة المسلمين لليهود فى أعيادهم وذهابهم إليهم للتهنئة،نرجح اجتماع المسلمين واليهود للطعام يوم عيد الفصح أو عيد الفطير،حيث كان يقدم اليهود للمسلمين الفطير المحشو بقطع الدجاج،والهريسة المصنوعة من الدقيق واللحم المقطع،(١٦٥).ويبدو تأثر المغاربة باليهود فى مجال الطعام من شيوع ألوان خاصة من الأطعمة تنسب إليهم منها:"لون من فروج يهوديّ "(١٦٦)،"ولون يهودي محشو مدفون"(١٦٧)، و"حجلة يهودية"(١٦٨)، و"لون من حجلة يهودي"(١٦٩).كما أن إلحاح الفقهاء على معاقبة اليهود الذين كانوا يخرجون من بيوتهم حاملين الخمور والنبيذ،تجعلنا نتكهن أنهم

خرجوا بها لمشاركة بعض جيرانهم المسلمين فى شربها،وهو ما تدعمه رواية أندلسية تتحدث عن الزاهد أبو علي بن هود المرسى الذى حمله الجند ذات مرة إلى والي البلد بعد أن رأوه خارجا من حارة اليهود وهو سكران(١٧٠).ويبدو أن فريقا من أتباع الشهوات قد عمدوا إلى إكراء أشخاص من اليهود بيوتا لهم ليسهل عليهم الاجتماع معهم على شراب الخمر بعيدا عن أعين السلطة،لا سيما وأن الفقه لم يمنع أهل الذمة من إدخال الخمور إلى بيوتهم(١٧١)، وهو ما يستشف من تلك النازلة التى سئل فيها السيورى عن يهودى اشترى دارا من مسلم فى حى كله مسلمون،وآذى الجيران بشرب الخمر(١٧٢)،ولعل السبب فى رفع النازلة هو أن جيران ذلك اليهودى كانوا "من أهل العافية والخير"،مما يعنى أن غيرهم من أهل الشهوات قد لا يستنكرون الأمر،وربما شاركوا اليهود فيه،وهو ما تكشف عنه نازلة أخرى تتحدث عن اجتماع أهل الشر والفساد بدور اليهود لتعاطي الخمور(١٧٣). ويبدو أن ذلك كان وراء أحداث العنف ضد اليهود فى فترات لاحقة بسبب "بيعهم الخمر للمسلمين وتمالئهم عليه"(١٧٤)

كان بديهيا أن تترتب على تلك العلاقات الاجتماعية المشتركة بين المسلمين واليهود تأثيرات متبادلة،فقد كان من نتائج التجاور المعيشى تجذر أواصر الحضارة المشتركة على المستوى الاجتماعي وتبادل العادات والتقاليد المشتركة،فضلا عن تحدث اليهود بلهجات الشعوب التى عاشوا معها(١٧٥)،تأثر اليهود ببعض العادات البربرية،مثل استخدام التعاويذ والتمائم كوصفات طبية،وكتابة اسم الأم فى الأحجبة والتمائم،واستخدام الرموز الزخرفية للوقاية من الحسد والسحر،والامتناع عن أكل مؤخرة الحيوانات المذبوحة(١٧٦)،وحمل يهود تونس أسماء بربرية،وحفظوا أمثالا عامية مغربية واستشهدوا بها فى خطاباتهم(١٧٧).وفى المقابل تأثر البربر ببعض عادات اليهود منها عدم النظر إلى المرأة الحائض ولا محادثتها ولا أكل ما مسته يديها ولا المشى على الأرض التى وطئتها قدماها(١٧٨)

ظهر التأثير الإسلامى واضحا فى عقود الزواج اليهودية مثل تقسيم عملية الدفع إلى مقدم يدفع للزوجة عند العقد ومؤخر فى حالة الترمل أو الطلاق(١٧٩)،كما تماثلت عقود زواج اليهود مع عقود الزواج الإسلامية فيما يخص اشتمالها على شروط تتعلق بعدم اتخاذ الزوج زوجة أخرى على زوجته أو التسرى عليها،أو السفر بها دون رضاها(١٨٠)، مما حدا بفقهاء المالكية إلى الفتوى بأنه يكره أن يعقد "نكاح أهل الكتاب على شروط المسلمين"(١٨١).كما طبق النظام

الاسلامي على عقود الزواج اليهودية بأن كانت تكتب وثيقتان للزواج الأولى يهودية والثانية إسلامية[١٨٢]،وبرزت التأثيرات البربرية على بعض عادات الزواج اليهودى،مثل إعداد منزل مؤقت للعريس قبل مراسم الزواج يحترس فيه من الاتصال بالأقارب الذكور،وعدم رؤية الأب لابنته العروس مدة تتراوح بين ١٥-٢٠ يوما قبل تركها منزله[١٨٣]

كان من صور التسامح الإسلامي مع اليهود احترام مقدساتهم والسماح لهم بصون أماكن العبادة وحرية المعتقد وإظهار الشعائر،فقد أكد باحث يهودى[١٨٤] أن الجاليات اليهودية قد عظم شأنها تحت حكم الإسلام،واستشعر اليهود الأمن والأمان،فعاشوا حياتهم في حرية تامة،ومارسوا شعائرهم الدينية كاملة،وفى الإطار ذاته ذكر شيلمان[١٨٥]أن يهود القيروان قد أقاموا المعابد ومارسوا شعائرهم الدينية فى حرية تامة.

ثمة شواهد تاريخية تؤكد على ما تمتع به يهود المغرب الأدنى من حرية دينية بلغت ذروتها أيام الفاطميين وبنى زيرى،كان من أهم مظاهرها حرية بناء المنشآت الدينية وتجديدها والزيادة فيها.فقد سُمح لليهود بإنشاء المعابد والمحاكم والحمامات الطقسية فى الأماكن التى ترتفع فيها كثافتهم السكانية[١٨٦]، وحسب مرسوم أميري صدر من الأمير الصنهاجي باديس بن منصور سُمح ليهود القيروان بإتمام بناء بيعة جديدة فضلا عن صيانة مبنى قديم والزيادة فى ارتفاع أبوابه وتهيئته من الداخل حسب مشيئتهم[١٨٧]،وهو ما يمكن تفسيره بالأهمية الاقتصادية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالقيروان والتى عادت ببعض المردودات النفعية على السلطة الزيرية.ويبدو أن ذلك المرسوم قد وجد تدعيماً فقهياً من خلال فتوى الفقيهين التونسى(ت٤٤٣هـ/١٠٥١م) واللخمي واللذين أفتيا بعدم منع أهل الذمة من بناء دور العبادة بالبلاد التى يعيشون بها طالما اقروا بالحكم الاسلامي ودفعوا الجزية[١٨٨]،وهي فتوى تحمل بين طياتها معاني التسامح والتعايش،وان جاءت مخالفة لإجماع فقهاء الأندلس والذين ذهبوا إلى منع "إحداث أهل الذمة من اليهود والنصارى كنائس ولا شنوغات فى مدائن الإسلام ولا بين ظهرانيهم"[١٨٩] مما يدفع إلى التأكيد على الخصوصية الفقهية للمنطقة محل الدراسة فى التعامل مع أهل الذمة.ولعل فى افتخار المؤرخ الموحدى المراكشي[١٩٠]بأنه لم تبن فى عصر دولة الموحدين بالمغرب بيعة ولا كنيسة،ما يدعو إلى القول بأنهم أبطلوا أمراً كان معتاداً لدى السلطات التى حكمت المنطقة قبل قيام دولتهم.

سُمح لليهود بتأليف الكتب الدينية فى حرية تامة،فقد ألف أبو سهل دوناش بن تميم شرحاً وافياً لسفر التكوين عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م،وكان للحاخام حوشيعيل بن الحنن القادم إلى القيروان عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م دور كبير فى إثراء الدراسات التلمودية،وكان لولده حننعيل (ت ٤٤٢هـ/١٠٥٠م) شرح معتبر للتلمود ،ونسب الى نسيم بن يعقوب شرحه الشهير للتلمود الذى حمل عنوان مفتاح مغالق التلمود وضعه عام٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م،وكتاب آخر بعنوان قصص أخلاقية وثالث مفقود تحدث فيه عن الطقوس اليهودية القيروانية[١٩١].ودخل القيروان خلال العصر الزيري العالم إسحق بن يعقوب الذى بلغ درجة كبيرة من التبحر فى اللاهوت مكنته من تولى قيادة الدراسات التلمودية فى المدينة[١٩٢].كما استقبلت أفريقية خلال فترة البحث الكثير من علماء الدين اليهود الذين أسهموا فى الحركة الدينية اليهودية مثل صمويل بن حفنى(ت ٤٠٤هـ/١٠١٣م) الذى درس فى مدارس القيروان والعراق وتولى رئاسة مدرسة سورا،وسلمون بن يهوذا(ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م)) الذى وصل الى منصب رئيس جاؤنية القدس عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م.

تُرك لليهود تنظيمهم الطائفى الخاص بهم،وكان لهم بالقيروان رئيسا يسمى"ناجد"،تمتع بوافر الصلاحيات التى تتيح له تمثيل اليهود أمام السلطات الإسلامية،وحق توجيههم الديني والإرشادي،وتعيين القضاة للجماعات اليهودية فى القرى والأقاليم وتوقيع أحكام المحكمة اليهودية،والإشراف على جمع الضرائب ومراقبة العقود الرسمية،وزيارة التجمعات اليهودية خارج الحاضرة[١٩٣].وقد بلغت مكانة بعض هؤلاء الرؤساء درجة كبيرة خلال العصر الزيري،مثل أبراهام بن عطا الذى كان من حاشية الأمير باديس بن المنصور،وكان يرافقه فى رحلاته الحربية،وبعد وفاته عمل طبيبا خاصا لابنه المعز بن باديس[١٩٤] وكان مبعوثه الخاص إلى الفقهاء والعلماء[١٩٥] مما مكنه من استخدام نفوذه لصيانة مصالح بنى طائفته[١٩٦] .

كما تُرك لليهود نظامهم القضائي كما كان دون تدخل أو إكراه،فقد اختصت المحكمة اليهودية العليا فى القيروان بمهمة الفصل بين اليهود فى قضاياهم وكانت تعرف ببيت الدين ورأسها أحد الأحبار عرف بديان اليهود كان يساعده اثنان من كبار المجتمع اليهودى يشكل ثلاثتهم مجلس الفصل فى القضايا المرفوعة أمامه من أفراد المجتمع اليهودى[١٩٧]،وهو ما تلح على تأكيده وثائق الجنيزة التى كشفت أن غالبية القضايا المدنية فى العصر الفاطمى كانت تنظر أمام

محاكم يهودية[١٩٨]. كما أشارت المصادر اليهودية إلى وجود هذا المجلس القضائي بالمهدية حوالى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م وحتى بعد ذلك التاريخ[١٩٩].بيد أن الفقه الإسلامي قد استجاب إلى رغبة اليهود فى التقاضى فيما بينهم أمام القضاء الإسلامى[٢٠٠]،شريطة موافقة رؤسائهم[٢٠١]، لا سيما فى الحالات التى يثبت فيها احد طرفى الخصومة أن قضاة اليهود وفقهاءهم على عداوة معه أو مع عائلته[٢٠٢]،وهو ما حدا بالفقهاء إلى إلزام القاضى بعقد مجلس القضاء فى رحبة المسجد"ليصل إليه اليهودى والحائض" [٢٠٣]،وأن يجعل لهم يوما حسب أعدادهم[٢٠٤]. وترد بهذا الخصوص نازلة من القيروان تتعلق بأشخاص من اليهود طالبوا شخصا منهم بمظالم وأقاموا ضده الدعوى أمام محكمة يهودية،فى حين أصر المدعى عليه رفع القضية إلى الحكم الإسلامى،فجاءت فتوى الفقيه ابن العطار بأن لليهودى ذلك،شريطة امتلاكه الوثيقة التى فيها حجته،وأن يكون شهوده من المسلمين العدول[٢٠٥].

وتجلت عدالة القضاء الإسلامى فى حماية اليهود من اعتداء بعض المسلمين وجورهم،ففى نازلة دالة رفع لأحد قضاة القيروان مخاصمة بين مسلم وذمى،ادعى فيها الذمى أنه أسلف المسلم مبلغا من المال على سبيل القرض والسلف،وأنه ماطل فى رده،فى حين أنكر المسلم وادعى أن الذمي أعطاه المال لشراء زيت وأنه أوصله إليه،فرفع القاضى المسألة إلى الفقيه المازرى الذى أفتى بأن اعتراف المسلم بأخذ المال يوجب عليه رده،وأن القول فى المسألة هو قول الذمى[٢٠٦]. وفى نازلة أخرى رُفِع إلى احد قضاة مدينة قفصة يهودي بيده حرير يذكر أنه يبيعه،فى حين ادعى خصومه من المسلمين أنه انتهبه من قافلة معروفة،فجاء الحكم بتبرئة اليهودى مما نسب إليه،بعد أن أتى بشهود عدول من المسلمين من قفصة شهدوا بأمانة اليهودى وأنه ليس ممن يتهم بالسرقة[٢٠٧].ولا يخفى ما تشير إليه الرواية من تلك العلاقة الحميمية التى ربطت ذلك اليهودى بهؤلاء الشهود،والذين سارعوا إلى القاضى لأداء الشهادة لمساندة اليهودى ضد بنى دينهم،وإنقاذه من مأزق خطير،وهو ما وجد قبولا وإنصافا عند القاضى الذى احترم تلك الشهادة وارتكن إليها فى إصدار الحكم دون بينة واضحة.

سُمح لليهود بممارسة ما اعتادوا عليه من معاملات دينية وإن كانت محرمة فى شرع الإسلام،فقد سئل أحد فقهاء المالكية عن تعامل اليهود بالربا فأفتى بأنه لا يجوز التعرض لهم فى ذلك[٢٠٨]،وسجل الفقهاء موقفهم القائم على أنه ليس للإمام الحق فى الحكم بين أهل الذمة فى

معاملتهم بالربا أو التدخل بينهم[٢٠٩].كما سمح لليهود بالزواج على طريقتهم،ولم يُعارَضُوا حتى في الزواج من المحارم،فقد سئل احد المالكية:"أرأيت أهل الذّمّة إذا كانوا يستحلّون في دينهم نكاح الأمهات والأخوات وبنات الأخِ أنخليهم وذلك.قال: أرى أنه لا يعرض لهم في دينهم،وهم على ما عوهدوا عليه، فلا يُمنعون من ذلك إذا كان ذلك مما يستحلون في دينهم"[٢١٠]

ومن المنظور ذاته احترم الفقه الإسلامى عادات اليهود الدينية ومنها تعظيم يوم السبت،وعليه فقد ناقش الفقهاء مسالة تحليف اليهودى فى ذلك اليوم،وكراهة إحضاره إلى ساحة القضاء تعظيما له،كما ألزموا الأشخاص المالكين للرقيق اليهود أن يحترموا واجبهم الدينى نحوه،بأن لا يستعملوهم فى ذلك اليوم،وأن يجعلوه عطلة لهم[٢١١].

واستناداً إلى دخول أهل اللمة فى دائرة المواطنين أعطى الفقهاء للحاكم الحق فى إجبار أهل الذمية على انكاحها إن أرادت ذلك ومنعوها،لأن منعهم لها من الظلم،الواجب على الحاكم رفعه عنها،شريطة ألا يكون زواجها ذلك من مسلم،ففى تلك الحالة ليس للحاكم الحق فى هذا الإجبار،لأنه ليس من التظالم إذ قد لا يجيزونه فى دينهم[٢١٢].كما أطلق الفقهاء يد الحاكم فى منع اليهود من التفريق بين الأولاد والأمهات لأنه نوع من التظالم[٢١٣]،وهو ما تؤكده وثائق الجنيزة[٢١٤].ومن المنظور ذاته جاءت فتوى أحد فقهاء المالكية بعدم التفريق بين صبى يهودى ابن ثمانى سنوات كان قد أسلم وبين أمه أو أبيه،إلى أن يبلغ حد الاعتماد على ذاته وعندها يعرض عليه الإسلام مرة أخرى[٢١٥] .

وانطلاقاً من الوحدة المعيشية والمصير المشترك لكل عناصر السكان دون تفرقة،أفتى الفقهاء المالكية بجواز خروج أهل الذمة مع المسلمين لأداء صلاة الاستسقاء غير منفردين عنهم[٢١٦] كما لم يمنعوهم من المشاركة مع المسلمين فى القتال ورد الهجوم عن البلد الذى يعيشون به[٢١٧].

كان من ألوان التسامح الإسلامى احترام المقدسات اليهودية والضرب على أيدى كل من حاول السخرية منها أو توجيه الإهانة لها،فقد دب خلاف بين أحد مسلمى القيروان وبين يهودى لعن المسلم على أثره التوراة،فرفع اليهودى الأمر إلى القضاء الإسلامى،مستندا إلى أحد الشهود من المسلمين كشاهد إثبات،فجاءت فتوى الفقيه القابسى بتوقيع العقوبة على الرجل

المسلم،بعد أن أسقط عنه حد القتل لغياب الشاهد الثاني(٢١٨).وانطلاقا من ذلك الاحترام لكتاب اليهود المقدس وتعظيمه،أفتى ابن أبي زيد القيرواني وغيره من فقهاء القيروان بوجوب الكفارة على من حلف بالتوراة ثم حنث في يمينه(٢١٩).

كان لليهود مقابرهم الخاصة بهم تمشيا مع عوائدهم وتقاليدهم في دفن موتاهم،فقد كان لهم بالقيروان مقبرة خاصة بهم تسمى" اليهودية" تقع وراء باب أبي الربيع(٢٢٠)،وكانت توجد بتونس مقبرة خاصة لليهود احتوت على آلاف الموتى،كانت من ممتلكات الرابطة اليهودية(٢٢١)،ووقعت مقابر منطقة الخارط بجبل نفوسة إلى الجنوب عند قصر يسمى آت مان كان نصفها لليهود ونصفها الآخر للبربر(٢٢٢).

والراجح أن التسامح الديني الذي أبداه مسلمو أفريقية،والسلوكات الحضارية التي تعاملوا بها مع اليهود،حملت هؤلاء على ردود أفعال ايجابية،كان من أهمها حبس بعض أملاكهم لصالح المساجد والإنفاق على طلاب العلم وفقراء المسلمين(٢٢٣) بل لم يتردد بعضهم عن الإقبال على الإسلام واعتناقه حيث ترد في المصادر إشارات عن يهود كانوا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد(٢٢٤)،وعمن ساقته الهداية من مذهب اليهود إلى الإسلام(٢٢٥) وعمن انتقل من اليهودية إلى الإسلام "وحسن إسلامه"(٢٢٦) وعمن أسلم على يديه يهودى وحسن إسلامه"(٢٢٧)،وعمن كان "يهوديا فأسلم"(٢٢٨) و عمن كان يهوديا "ثم إنه أسلم..ولزم الصلاة ودراسة القرآن"(٢٢٩)،وحسب نازلة فريدة أسلم صبي يهودى لم يتجاوز عمره عشر سنوات وسعى البعض إلى كفالته بعيدا عن أمه اليهودية فصدرت الفتوى بأنه لا يحال بينه وبين أمه أو أبيه(٢٣٠)،مما يعكس جانب الرحمة الذى ألحت عليه شريعة الإسلام.كما لم يأنف بعض اليهود من الإقبال على قراءة القرآن بل وحفظ بعض آياته،وهو ما تكشف عنه رواية ابن عربي(٢٣١) التى تتحدث عن مشاورة مسلم قيرواني لرجل يهودى حول استخدام البر أم البحر في أداء فريضة الحج،فأشار عليه بأن يبدأ بما بدأ الله به،متأولاً قوله تعالى "هو الذى يسيركم في البر والبحر"(٢٣٢)،وحسب شهادة البيذق (٢٣٣)صلى ابن تومرت على جثمان يهودى بتونس صلاة الجنازة أثناء مروره عليها لأنه كان في حياته يصلي مثل المسلمين.

يندرج ضمن صور التعايش وألوان التسامح مع اليهود السماح لهم بالمشاركة العلمية والفكرية،فرغم هيمنة المسلمين على أفريقية،إلا أنهم أشاعوا ثقافة متسامحة أساسها الاختلاف والتنوع،حتى أن الفكر اليهودي لم يعرف نهضة مثلما عرفها في الغرب الإسلامي وهو ما اعترف به متخصص يهودى[٢٣٤] فى الأدب اليهودى الوسيط حيث يقول: "لقد ذابت أو كادت تذوب الحدود بين اليهود والعرب في المغرب والأندلس،وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة في التاريخ الثقافي العبري التي أثمرت نتاجاً أدبياً يمتزج فيه أدب اليهود بأدب أمة أخرى".

هكذا،شارك اليهودُ المسلمينَ فى الإقبال على مراكز العلم والثقافة،ففى العصر الفاطمى تصدى الفقيه ابن سحنون[٢٣٥] (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)لظاهرة مشاركة أولاد النصارى واليهود أولادَ المسلمين فى دخول الكتاتيب لتعلم القرآن والكتابة.وحسب شهادة المراكشى[٢٣٦] كان اليهود والنصارى ببلاد المغرب "يقرئون أولادهم القرآن".ولعل حضورهم بالكتاتيب كان وراء مناقشة الفقهاء حكم أخذ المعلم هدية من أبناء أهل الذمة فى أيام أعيادهم كالنيروز والمهرجان والفصح[٢٣٧].كما تمتع اليهود بالحرية التامة فى تعليم أولادهم علوم التوراة والكتابة بالعبرية،فضلا عن العلوم الأخرى كالحساب والرياضيات والتى درسوها على أيدى شيوخ مسلمين[٢٣٨].وعرفت بلاد الغرب الإسلامي المدارس التى كان يجتمع للعلم فيها المسلمون واليهود والنصارى[٢٣٩]،وسئل الفقيه ابن سحنون عن حكم أخذ المسلم القرآن وتعلمه على يد يهودي أو نصراني[٢٤٠]،مما يعنى أن فريقاً من اليهود أجادوا قراءة القرآن وتجويده،وهو ما تفصح عنه رواية السمؤال[٢٤١] اليهودى الذى كان قبل إسلامه يقرأ القرآن فاتضح له إعجازه اللغوى وأنه ليس من أساليب البشر.

تأسست فى القرن الرابع الهجرى- العاشر الميلادي - مدارس تلمودية فى المدن ذات التجمعات اليهودية الكبرى مثل القيروان التى أسست فيها مدرستان،أسس الأولى الرابى يعقوب بن نسيم (ت٣٩٨هـ/١٠٠٧م)،والثانية أسسها الرابى حوشيل(ت٤٠٣هـ/١٠١٢م) بهدف تعليم اللاهوت،ضمت أقوى هيئة كهنوتية ذات تنظيم فى الشمال الإفريقي،ومن هاتين المدرستين تخرج الكثير من علماء الدين اليهودى[٢٤٢].

وقد حرص اليهود على تعلم العربية والتحدث بها والكتابة وعرفوا قيمتها والثوا عليها وفى ذلك يقول يهودا الحريزى صاحب المقامات العبرية المشهورة الأديب اليهودى فى العصر الوسيط(ق ٦ هـ/١٢م)"اعلموا أن الشعر الرائع الذي يحلى بالروائع والنفائس هو من ممتلكات العرب في البداية، فقد برعوا في نظمه ووزنوه بميزان الصدق ونصبوه في مكانه، وأقاموا مسكنه،وقال أيضاً " عاش كثير من أبناء شعبنا مع العرب في بلادهم، واعتادوا الحديث بلغتهم ،وباندماجهم معهم تعلموا صنعة الشعر منهم "(٢٤٣).

وكان التفاعل على جميع المستويات بين الجانبين،ونتج عن هذا الموقف أن مارس اليهود حياتهم باعتبارهم من رعايا الدولة,لا باعتبارهم غرباء, بحيث استطاع علماؤهم أن ينتجوا الفكر الديني الذي أعاد الحيوية إلى الديانة اليهودية بعد طول ركود،وبالشكل الذي جعل المتخصصين يطلقون على هذه الفترة من تاريخ الفكر الديني اليهودي في المنطقة العربية اسم "العصر الجاءوني" أو" عصر الجاءونيم"،أي العباقرة والمجددين"(٢٤٤).ولا غرو فقد برزت أسماء العديد من المفكرين اليهود في شتى مناحي المعرفة،خلال العصرين الفاطمى والزيرى(٢٤٥)

صفوة القول،إن بلاد المغرب الأدنى مثلت خلال العصرين الفاطمى والزيري بوتقة انصهرت فيها عناصر السكان على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ودياناتهم على أساس وحدة المواطنة والانتماء،مما جعلها مثلاً صادقاً للتعايش والتسامح بين المسلمين واليهود،سواء على مستوى التعايش الاقتصادي- الاجتماعي وتبادل العلاقات والتأثير والتأثر،أو على مستوى احترام العقائد والمقدسات وصيانة دور العبادة،أو على مستوى المشاركة الفكرية والعلمية.مما يدحض تلك التخريجات التى تلح على انعزالية اليهود اجتماعيا ودينيا وفكريا واقتصاديا داخل المجتمعات الإسلامية واعتبارهم أقلية يهودية فى مواجهة أغلبية مسلمة،وتنفى تلك التحاليل المرتكزة على أطروحة معاناة اليهود بالمغرب الإسلامي،وحالة الذل والهوان التى كانوا يرزحون فى ظلها،والتى تهدف فى التحليل الأخير إلى توظيف التاريخ المغربي سياسيا لمصلحة المشروع الصهيوني الاستيطاني.

الهوامش

(١) عديدة هي الدراسات الحديثة التي تناولت الحديث عن هذه القضية انطلاقا من النصوص الدينية ورصد الظاهرة في التاريخ الإسلامي.انظر على سبيل المثال عبد العظيم المطعني:مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجا وسيرة،دار الفتح للإعلام العربي،القاهرة ،١٩٩٦، ترتون :أهل الذمة في الإسلام،ترجمة حسن حبشي،ط٥ القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٤،ادوار غالي الذهبي:معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي،مكتبة غريب،القاهرة،١٩٩٣،فهمي هويدي:مواطنون لا ذميون،دار الشروق،١٩٨٥،تاريعان عبد الكريم:معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٦.

(٢) عن الدلالة اللغوية لهذا اللفظ تذكر كتب المعاجم أن لفظ تعايشوا:عاشوا على الألفة والمودة،ومنه التعايش السلمي، وعايشه عاش معه.انظر الزمخشري:أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج١،ص٦٨٩،المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة،دار الفكر،ج٢،ص ص ٦٣٩-٦٤٠.

(٣) هوبكنز:النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى،تونس،١٩٨٠،ص١٢٤،سليم شعشوع:صفحات من التعاون اليهودي العربي في الأندلس،مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر،شفا عمرو،١٩٩٠،ص ص٤٣،٥١،

David Nirenberg:" What can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?", Central Conference of American Rabbis, 2002,pp.18-20.

(٤) مارك كوهين:المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى،ترجمة نسرين مراد وسمير نقاش،جامعة تل أبيب،المعهد اليهودي العربي،١٩٨٧،ص ص ٩-١٠.

(٥) Ashtor, E:The Jews and Mediterranean Economy, London ,1983 ,pp.55-56.

(٦) قاسم عبده قاسم:اليهود في مصر،دار الشروق،القاهرة، ١٩٩٣،ص ص ١٣٨، ١٤٢.

(٧) محمد جلاء إدريس:التأثير الاسلامي في الفكر الديني اليهودي- دراسة نقدية مقارنة لطائفة اليهود القرائين،مكتبة مدبولي،القاهرة،١٩٩٣،ص ص ٣٣،٤١ .وعن هذه الفرقة انظر جعفر هادي حسن:فرقة القرائين اليهود- دراسة في نشأة الفرقة وعقائدها وتاريخها إلى العصر الحديث،بيروت،مؤسسة الفجر،١٩٨٩،حسن ظاظا:الفكر الديني الإسرائيلي- أطواره ومذاهبه،معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧١، ص ص ٢٤٣-٣٢٢،مراد فرج :القراءون والربانون،القاهرة،١٩١٨.

(٨) الدرجيني:طبقات المشائخ بالمغرب،تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤،ص١٣٢،ابن حماد:اخبار ملوك بني عبيد وسيرهم،تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس،الرياض،١٩٨١،ص ص ٤٨،٤٩،الدباغ:معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح وآخرين،مكتبة الخانجي،مصر،١٩٦٨،ج٣،ص١٦١،الصفدي: الوافي بالوفيات،تحقيق احمد الارناؤوط وتركي مصطفى،دار إحياء التراث،بيروت،٢٠٠٠م ،ج٩، ص ١٧٥ ،ج١٣، ص ٩٨،المقريزي:اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال،ط.دار الفكر العربي،١٩٤٨،ج٢،ص ص ٧٣،٨٣،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي،

مكتبة مدبولي،ج٢،١٩٩٧،ص ٥٣٩،السيوطي:حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة،المطبعة الشرقية مصر،١٩٠٩،ج٢،ص١١٦ ،

Mann, M.A.:The Jews in Egypt and Palestine Under The Fatimed caliphs, press,1920,1,p.11-16,47,123-124,144,250-257, Goitein:A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo geniza, University of California,Paress,1983,1,pp.33-34,175, Stillman M.A: The Jews of Arab Lands: A History and Source Book, The Jewish Publication Society of America, Philadelphia 1979 p.43.

(٩) قاسم عبده قاسم:اليهود في مصر،ص ٤٨، Adler,(ed.):Jewish Travelers,(London ,n.d.),pp.226-228 .

(١٠) عياض:ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، منشورات دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٨،ج٢،ص ٤٣.

(١١) نجم الدين الهنتاتي:مواقف علماء المالكية من أهل الذمة بافريقية الى منتصف القرن الخامس الهجري، مجلة معهد الاداب الشرقية،تونس،العدد ١٨٦، ٢٠٠٠، ص٧٠(هامش٦٠).

(١٢)الفارسي:مناقب محرز بن خلف،تحقيق روجيه ادريس،باريس،١٩٥٩،ص ١٥٦، عياض:المدارك،ج٢،ص ٢٨٨.

(١٣) يؤكد على ذلك محمد بن مالك اليماني حين ذكر أن الطعن في نسب الفاطميين جاء بسبب " استعمالهم اليهود في الوزارة والرياسة وتفويضهم إليهم تدبير السياسة ما زالوا يحكّمون اليهود في دماء المسلمين وأموالهم وذلك مشهور عنهم" انظر كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة، تحقيق محمد بن علي الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني،صنعاء،١٩٩٤،ص ٧٧، المالكي:رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية،تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الاسلامي،ط٢ ١٩٩٤،ج٢،ص ص ٣٤٦،٤٩٤،ابن حزم:الفصل في الملل والاهواء والنحل،تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة،دار الجيل، بيروت،د.ت،ج٥،ص ٣٧، ٤٢،ثم تابع دراسة إبراهيم عامر الرحيلي:بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود،مكتبة الغرباء الأثرية،د.ت.

(١٤) ابن عذارى:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال،دار الثقافة ،بيروت،د.ت،ص ١٥٩، ابن الأثير : الكامل في التاريخ،تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢ ١٤١٥هـ،ج٦، ص ٤٤٧،ياقوت الحموي : معجم البلدان،دار الفكر،بيروت،د.ت،ج٥،ص ٢٣٠.

(١٥) الذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق عمر عبد السلام تدمري،دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٩٦،ج٣٩،ص ٢٧٥.

(١٦) السيوطي:حسن المحاضرة ،ج٢،ص١١٦.

(١٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس،دار الثقافة،لبنان،(د.ت)،ج٧،ص ٢٩،

Goitein: A Mediterranean Society ,1,p.32.

(١٨)جواتياين:دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،ترجمة عطية القوصي،الكويت،وكالة المطبوعات،ط١،١٩٨٠،ص ٢٠٠ .

Adler,(ed.),Jewish Travellers,pp.226-228,Man: The Jews in Egypt,p.435.

(١٩) الدرجيني:الطبقات،ص١٢٤ .

(٢٠) الدرجيني: الطبقات،ص ١٣٢ .

(٢١) Stillman M.A .:The Jews of Arab ,pp.183-184.

(٢٢) البرزلي:فتاوى البرزلي،تحقيق محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الاسلامي،ج٢،ص ٤٢ .

(٢٣) Stillman M.A.:The Jews of Arab ,pp.183-184

(٢٤) المسالك والممالك،ليدن،١٨٧٣ ص ٤٧ .

(٢٥) عن وضعية اليهود في العراق تحت السلطة العباسية انظر:الطبري:تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،القاهرة ،١٩٦٣،ج٩،ص ١٧١ ،ومشاهدات ابن العربي ببغداد التي وردت في نازلة شهيرة عند الونشريسي:المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب،تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي،نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،المملكة المغربية،١٩٨١،ج٢،ص ص ٢٥٤- ٢٥٦،يحيى عبد الهادي:أهل الذمة في العراق في العصر العباسي،عالم الكتب الحديث،٢٠٠٤ .

(٢٦) الجليدي:كتاب التيسير في أحكام التسعير،تقديم وتحقيق موسى لقبال،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧١م،ص٧٨-٧٩،ثم تابع إشارة شبيهة عند المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٤٧٧، عياض: المدارك،ج١،ص ٤٨٧،البرزلي:فتاوى،ج٢،ص٤٤ .

(٢٧) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٢٧٠ ،عياض:المدارك،ج١، ص ٢٧٨ .

(٢٨) ابن الأثير:الكامل،ج٩،ص٤٢٩ ،القفطي:أخبار العلماء بأخبار الحكماء،مطبعة السعادة،مصر، ١٣٢٦هـ،ص ص ٢٠٩ ، ٢٥٧ .

(٢٩) المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العلمي،مطبعة الاستقامة،القاهرة،١٣٦٨هـ،ص ٣٠٥ .

(٣٠) المراكشي:المعجب،ص ٣٠٤ .

Hirschberg, J.W. :A history of the Jews in North Afrrica, Leiden. E. J. Brill 1974,1,p.370.

(٣١) المعجب،ص ٣٠٥ .

(٣٢) على سبيل المثال:نظراً إلى الشهرة التي صارت للصناع والتجار اليهود في الصياغة والصيرفة،فقد أصبحوا محببين لدى حكام المغرب، لاسيما بعد ما اتسعت رقعة الدولة واستحكمت سلطة المخزن،فبات الحكام والسلاطين يرغبون في الظهور بمظهر الأبهة والعظمة، تجسيدا للرهبة والأنفة من خلال الأمتعة النادرة والمقتنيات الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة،والمكللة بالأحجار النفيسة الرفيعة.انظر علي بن يوسف الحكيم:"الدوحة المشتبكة في ضوابط دار

السكة "،مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨،ص ص ١١٧-١١٨.كما نشير إلى الرواية التي تذكر أن يهوديا دل اليسع بن مدرار على المهدى الفاطمي فكان سببا في سجنه.والتي تناسها الفاطميون فيما بعد انطلاقا من المنفعة العائدة من اليهود.انظر الحميري:الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،بيروت،١٩٨٠،ص ٣٠٦.وحسب رؤية جوايتاين اضطر الفاطميون إلى التسامح مع الأقليات غير الإسلامية باعتبارهم أقلية داخل محيط سني كبير.انظر:Goitein: A Mediterranean Society,1,p. 31.

(٣٣) انظر مثلا كيف أمر ابن أبي زيد القيرواني بعدم السلام على اليهود والنصارى وأن من سلم على ذمي فلا يستقيله وإن سلم عليه اليهودي أو النصراني فليقل عليك ومن قال عليك السلام بكسر السين وهي الحجارة فقد قيل ذلك.الرسالة،دار الفكر ،بيروت،١٩٨١،ص ٣١٧.النفراوى:الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني،تحقيق رضا فرحات،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت،ج١، ص ٩٨.وحين سال احدهم سفيان الثورى أصافح اليهود والنصارى،قال:برجلك نعم".ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج٢،ص ٣٨٨.وهو ما يخالف أعمال الصحابة وأقوالهم،فقد كان الصحابي أبو امامه الباهلي لا يمر بمسلم ولا يهودي ولا نصراني إلا بدأه بالسلام،وروي عن ابن مسعود وأبي الدرداء وفضالة بن عبيد أنهم كانوا يبدءون أهل الذمة بالسلام،وكتب ابن مسعود إلى رجل من أهل الكتاب السلام عليك . انظر ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ،تحقيق مصطفى العلوى ومحمد البكرى،وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية، المغرب،١٣٨٧هـ،ج١٧،ص ٩١.

(٣٤) عن موقف فقهاء افريقية المتشدد تجاه اليهود انظر ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات،ج٣،تحقيق محمد حجي،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٩،ص٣٧٥.الدباغ:معالم الإيمان،ج٣،ص١٦١.الدرجيني:الطبقات،ج٢،ص٤٠١.البرزلي:فتاوى،ج١،ص ص٣٤٦،١٥٧.القرافي:الذخيرة في الفقه المالكي،تحقيق محمد حجي، دار الغرب الاسلامي،بيروت،١٩٩٤م،ج٨،ص ٢٠، ج١٣،ص ٣٤٣.

(٣٥) تابع تلك القيود عند حسن ظاظا:الفكر الديني اليهودي،ص ص ١٩٠-٢٠٠.زبيدة عطا:يهود العالم العربي دعوى الاضطهاد،دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، ٢٠٠٤،ص ص٢٣-٣٥.

(٣٦) Nirenberg (David):" What can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?,p.22.

ثم انظر كيف فهم أهل الفكر الإسلامي ذلك فذهبوا إلى أن دفع أهل الذمة للجزية " لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا لأنهم من جملة الرعية" انظر الصفدى:أعيان العصر وأعوان النصر،تحقيق على أبو زيد واخرون،دار الفكر المعاصر،بيروت،١٩٩٨،ج٤،ص ١٧.وصرح الفقيه المالكي ابو بكر بن العربي ان الواجب يتطلب المساواة بين المسلمين وأهل الذمة باعتبارهم جزء من سكان دار الإسلام..الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ٢٥٤.واستنادا إلى المساواة بين المسلم واليهودى في المكانة الاجتماعية اسقط مالكية افريقية الحد عن المسلم الذى يقول لأخيه " يا يهودى" ابن فرحون : تبصرة الحكام في أصول الاقضية والأحكام،المطبعة العامرة الشريفة، مصر،١٣٠١هـ،ج٢،ص١٧٨.ثم تابع نظرة الإسلام إلى رابطة الأخوة التي تجمع المسلم بغيره داخل حدود الدولة عند:يوسف القرضاوى:من فقه الدولة في الإسلام:مكانتها ..معالمها..طبيعتها..موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين،دار الشروق،١٩٩٧،ص ١٩٧-١٩٨.وعن مواطنة أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي انظر فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون،دار الشروق،ط٣ ،١٩٩٩.

(٣٧) Chouraqui, N.: Between East and West. A History of The Jews of North Africa, New York,1973,,p.79.

(٣٨) اشتور : تاريخ اليهود في بلاد المسلمين،القدس،(باللغة العبرية)،ص ٨٢ .

(٣٩) Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain, Philadelphia, 1979,2,p.285.

(٤٠) Menahem Ben-Sasson 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' in: M. Abitbol (ed.), Communaut s juives des marges sahariennes du Maghreb, J rusalem 1982,pp.264-266.

(٤١) "The Jews in The Medieval Islamic city", in Jews of Medieval Islam: Community, Society, & Identity: Proceedings of an International Conference Held by the Institute of Jewish Studies, University of London, 1995,p.3

(٤٢) استنادا إلى وثائق الجنيزة نسب يهود المغرب الأدنى إلى المدن التي نشئوا بها،مثل الطرابلسي والقيرواني والقابسي والصفاقصي والسرتي والتونسي والبلدي....الخ. انظر :مارك كوهين:المجتمع اليهودي،ص ص ٥٢،٣٣-٥٣،٧٣.

Stillman M.A.:The Jews of Arab Lands,pp.33-47, Mann: Texts and studies in Jewish History and literature, New york,1972,p.452, Moshe Gil :Jews in Islamic Countries in the Middle Ages, Brill,2004,pp.687 Hirschberg: A history of the Jews in North Afrrica,1,p.184, Hirschfeld:Family of The Qabisi from Kairowan,(J.Q.R.),16,1904,p.575 .

(٤٣) ابن سعيد المغربي:كتاب الجغرافيا،تحقيق اسماعيل العربي،بيروت،١٩٧٠،ص ١٤٧ .

(٤٤) Mann: The Jews in Egypt and in Palestine ,1,p.87.

(٤٥) ابن سعيد المغربي:كتاب الجغرافيا،ص ١٤٦ .

(٤٦) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٤٤.

(٤٧) اليعقوبي:كتاب البلدان،ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ،ليدن،١٨٩١، ص ٣٤٤ابن خرداذبة:المسالك والممالك،مكتبة المثنى ،بغداد،د.ت،ص ٢٤، البكري:المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،دار الكتاب الإسلامي ،القاهرة،د.ت، ص ٨٥.

(٤٨)، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،عالم الكتب،بيروت،١٩٨٩،ج١،ص ٣١٤ .

(٤٩) ابن الأثير :الكامل،ج٦،ص ١٤.

(٥٠) البرزلي:الفتاوى،ج٣،ص ٤٤.

(٥١) Mann: Texts and studies ,p.465.

(٥٢) Goitein: Mediterranean society,4,p.37.

(٥٣) أبو زكريا: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي،اصدرات المكتبة الوطنية، الجزائر،١٩٧٩، ص ١٦٢، الإدريسي:نزهة المشتاق،ج١،ص٣١١، الحميري: الروض المعطار،ص ١١.

(٥٤) حاييم زعفراني:ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، د.م،١٩٨٧، ص٢٤.

(٥٥) الإدريسي: نزهة المشتاق،ج١،ص ٣١١،الحميري:الروض المعطار،ص ١٢.

(٥٦) الدرجيني:الطبقات،ص ص ١٢٣،١٢٤،الشماخي:تراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري،تحقيق ودراسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، م ٣٠، ١٩٩٥،ص١٧١.

(٥٧) الدرجيني:الطبقات،ص ص٤٧٢، ٤٨٤، الشماخي :تراجم،ص ٢٥٢.

(٥٨)البكري:المغرب،ص ٩،الحموي: معجم البلدان،ج٢،ص ٩٢.

(٥٩) Hirschberg: A History of the Jews in North Afrrica,1,p.373-374 .

(٦٠) البرزلي:الفتاوى،ج٤،ص ١٦٦.

(٦١) ابن حوقل:المسالك والممالك، ص ٤٧،

Menahem Ben-Sasson "The Jewish Community of Gabes in the 11th" ,pp.264-284" .

(٦٢) مجهول الاستبصار،ص ١٤٤.

(٦٣) حاييم زعفراني:ألف سنة من حياة اليهود،ص ٢٤ , Mann: Texts and studies,,p.344 .

(٦٤) أبو العرب تميم:طبقات علماء أفريقية وتونس،تحقيق علي الشابي و نعيم اليافعي،ط٢. الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥،ص ١٣٠،ابن جلجل:طبقات الأطباء والحكماء،تحقيق فؤاد سيد،دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة،٢٠٠٥،ص ٨٥،الرقيق القيرواني:قطعة من تاريخ أفريقية والمغرب،تحقيق المنجي الكعبي، تونس، ص١٦٧، المالكي:رياض النفوس،ج٢، ص ٢٧٣.

(٦٥) Goitein: : A Mediterranean Society.,1,p.276.

(٦٦) Stillman: "The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal". Journal of the Economic and social History of the orient, 16.1973.pp.17.30 .

(٦٧) ابن عذاري:البيان المغرب ،ج١،ص١٤١ .

(٦٨) ابن الآبار: الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ١٩٨٥،ج١،ص ١٧٦.

(٦٩) لم يفرض على يهود المغرب الانعزال في أحياء خاصة إلا خلال العصر المريني حيث أسس لهم حي عرف بالملاح كان بالقرب من قصر الحاكم ،لحمايتهم من تعصب السكان المحليين، نتيجة أحداث دموية نشبت بينهم.انظر مجهول:قصة البلدين أهل فاس،مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحت رقم ١٨٩٣ تاريخ.

(٧٠) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص٤٢.

(٧١) ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المعرف بالعبر،دار القلم،بيروت،١٩٨٤،ج٢،ص ٣٦٩.

(٧٢) ابن خلدون :تاريخه،ج٦،ص ١٤٠.

(٧٣) الدرجيني:الطبقات،ص ٤٨٤.

(٧٤) ابن خلدون: تاريخه،ج٦،ص ٧٢، Chouraqui :A History of The Jews of North Africa,79.

(٧٥) البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٦٣٣.

(٧٦) المالكي:رياض النفوس،ج٢، ص ٢٧٣،الدباغ:معالم الإيمان،ج٣،ص١٩.

(٧٧) البرزلي: فتاوى،ج١،ص١٥٧،ج٢،ص٢١.

(٧٨) جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي،ص٢٣٢ .

(٧٩) المالكي :رياض النفوس،ج٢،ص ١١٩،عياض: المدارك،ج٢، ص ٧٥.

(٨٠) جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي،ص٢٣٢.

(٨١) Menahem Ben-Sasson 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' ,pp. 283-284.

(٨٢) البرزلي:ج٦،ص٢٣٢، الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(٨٣) الهادي روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادى الساحلي،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٢،ج٢،ص٣٨٤.

(٨٤) زبيدة عطا:اليهود في العالم العربي،دراسة تاريخية في قضايا الهوية-الاندماج-القدس،دار عين للدراسات والبحوث النسانية والاجتماعية،٢٠٠٣،ص١٤١.

(٨٥) الونشريسي:المعيار،ج٨،ص٤٣٧

(٨٦) ابن سهل:الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عب العزيز التويجري، المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م ،ج١،ص ١٠٦.

(٨٧) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص٤٧٧ .

(٨٨) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص١٩. الجرسيفي، رسالة في الحسبة، نشرت ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م، ص١٢٢، ١٥١.

(٨٩) ابن أبي زيد القيرواني:كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والتاريخ وغير ذلك، تحقيق عبد المجيد تركي،ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠،ص ١٩١.ذهب اشتور إلى أن كثيراً من المنازل التي يسكنها اليهود في

المغرب الاسلامي تعود ملكيتها إلى مسلمين أو نصارى، وأنهم قد استأجروها منهم استئجارا". انظر: Ashtor(E): The Jews ,3, P. 59

(٩٠) القرافي :الذخيرة ،ج٥،ص ٣٩٧.

(٩١) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص٣٠١.

(٩٢) ابن أبي زيد:النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٦.

(٩٣) Chouraqui: A history of The Jews of North Africa,p.48. ومن المنظور ذاته كتب مارك كوهين كتابه: Jewish Self-Government in Medieval Egypt: The Origins of the Office of Head of the Jews, Ca. 1065-1126, Princeton University Press,1980.

(٩٤) دراسات في التاريخ الإسلامي ص١٥١.

(٩٥) مثل قولهم" سير مع اليهود، وخلي الجيران شهود" وقولهم " كل طعام اليهودي، ونعس فـ[ـي] فراش النصراني". مأمون المريني:اليهود في الأمثال المغربية،مجلة فكر ونقد،ع ٣٥،

(٩٦) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٢٩٣– ٢٩٤.

(٩٧) الونشريسي:المعيار،ج٨،ص ص٤٣٤، ٤٣٧ .

(٩٨) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٥؛البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٢٨٠.

(٩٩) البرزلي: فتاوى،ج٦،ص٢٣٢.

(١٠٠) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص٣٠١.

(١٠١) البغطوري: سير نفوسة، نسخة منقولة عن الأصل الموجود في مكتبة جربة، الجزائر، ورقة ٧٨.

(١٠٢) رياض النفوس،ج٢،ص ص ٥٠١-٥٠٢.

(١٠٣) سحنون وآخرون: المدونة الكبرى تحقيق زكريا عميرات،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت،ج٢،ص ٩٤.

(١٠٤) الدباغ:معالم الإيمان:ج٣،ص ٦٨

(١٠٥) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٣٣٦-٣٣٧.

(١٠٦) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(١٠٧) ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٤.

(١٠٨) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(١٠٩) البرزلي:الفتاوى،ج٦،ص٢٣٢ .

(١١٠) نفسه.

(١١١) الونشريسي:ج١١،ص ١١٢

(١١٢) البرزلي: فتاوى،ج٤،ص٥٥٧.

(١١٣) الونشريسي:ج٨،ص٤٣٤

(١١٤) الونشريسي:ج٧،ص٥٢

(١١٥) الونشريسي:ج٨،ص٤٣٧

(١١٦) ردد الفقهاء أحاديث في هذا الصدد منها"لا تقربوا اليهود والنصارى في أعيادهم فإن السخطة تنزل عليهم" ابن حجر:لسان الميزان،تحقيق دائرة المعارف النظامية،الهند،مؤسسة الاعلمي للمطبوعات،بيروت،ط٣ ١٩٨٦،ج١،ص ١٣٣. وألف بعضهم رسالة بعنوان "" النهي عن المشاركة في أعياد النصارى واليهود " الصفدي:الوافي بالوفيات،ج٧،ص ١٩.

(١١٧) البرزلي: فتاوى،ج٣،ص ٥٧٣، الونشريسي:المعيار،ج١١،ص١١١ .

(١١٨) جواتياين:دراسات في التاريخ ،ص ٢٣٨.

(١١٩) الونشريسي:المعيار،ج١٠،ص٥٦ .

(١٢٠) البرزلي: فتاوى،ج٣،ص ٢٧٥.

(١٢١) زبيدة عطا:اليهود في العالم العربي،ص١٨١.

(١٢٢) البرزلي:فتاوى،ج٤،ص٢٨٤،ج١٠،ص ٤٠٩.

(١٢٣) تراجم،ص٢٥٢.

(١٢٤) تابع نموذجا شديد الدلالة حول هذا المعنى في مصر الفاطمية عند الصفدي:الوافي بالوفيات،ج٢٤، ص١٤.

(١٢٥) الطبقات،ص٣٠٧ .

(١٢٦) الشماخي: تراجم،ص١٧١-١٧٢.

(١٢٧) سحنون:المدونة،ج١، ص ص ٣٩٢،٣٤٥.

(١٢٨) البرزلي: فتاوى،ج٥،ص ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٢٩) نفسه.

(١٣٠) القرافي:الذخيرة،ج١٢، ص ٣٩٠.

(١٣١) سحنون:المدونة،ج١،ص ٥٩٣، النفري:الفواكه الدواني،ج٢، ص ٩١٧،الآبي الأزهري:الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،المكتبة الثقافية، بيروت،د.ت،ص ٤٢٦.

(١٣٢) الشماخي: تراجم،ص١٧١-١٧٢.

(١٣٣) البرزلي: فتاوى،ج٥،ص٤٤٢،الونشريسي:المعيار،ج٧،ص ٦٥.

(١٣٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس،ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨- ١٩٧٩، ق١، م١، ص١٦١.

(١٣٥) الشنتريني:الذخيرة، ق١، م١، ص١٦١.

(١٣٦) Hirschberg: A history of the Jews in North Afrrica,1,p.296.

(١٣٧) دراسات في التاريخ، ص٢٣٨.

(١٣٨) نفسه، ص٢١٨.

(١٣٩) اللبيدى:مناقب الجبياني،تحقيق هادى روجيه ادريس،الجزائر،١٩٥٩،ص٧٤.

(١٤٠) الدرجيني: الطبقات،ص ١٢٤.

(١٤١) الدرجيني: الطبقات،ص ١٣٨.

(١٤٢) الشماخي:تراجم،ص١٣٨.

(١٤٣) الذهبي :سير اعلام النبلاء،ج٢٠،ص١٠٥.

(١٤٤) عياض: المدارك،ج٢، ص ٦٦.

(١٤٥) الونشريسي:ج٢،ص ٢٤٨.ثم تابع تلك الرواية التي تمكن الاستئناس بها وان خرجت عن إطار البحث والتي تتحدث عن الفقيه الأندلسي طالوت بن عبد الجبار المعافرى والذى تمكن من الإفلات من بطش أمير قرطبة الحكم بن هشام لمشاركته في ثورة الربض، لأنه اختبأ سنة كاملة في دار صديق له يهودي،حتى ظن البعض انه من أهله. انظر عياض:المدارك،ج١،ص ٢٩٣، المقرى:نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،١٣٨٨هـ ،ج٢، ص ٦٣٩.

(١٤٦) البرزلي: فتاوى،ج١، ص ٢٨٠.

(١٤٧) البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٢٨٠

(١٤٨) سحنون:المدونة،ج١،ص ١٤٠،البرزلي: فتاوى،ج١، ص ٢٨٠.

(١٤٩) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص٤٤.

(١٥٠) الونشريسي:المعيار،ج٦، ص ٦٩.

(١٥١) البرزلي: فتاوى،ج٢، ص ٤٤.

(١٥٢) الدباغ:معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٥٣) عبد الرحمن بشير:اليهود في المغرب العربي،ص ١٢٣،

Chouraqui ,A History of The Jews of North Africa ,p. 65.

(١٥٤) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ص، ٤٢، ٤٤.

(١٥٥) Goitein : A Mediterranean Society,4,p.191.

(١٥٦) عياض :مدارك،ج١،ص ٤٩٧.

(١٥٧) مناقب الجبنياني،ص ٧٤.

(١٥٨) معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٥٩) الدباغ:معالم الايمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٦٠) ويبدو أن عدم إلزام يهود المغرب عامة بزى خاص خلال تلك الفترة كان وراء استحضار الفقيه المالكي ابن العربي شواهد تاريخية من مدينة بغداد دون بلاد المغرب أو الأندلس للتدليل بها على قيام الحكام بمنع اليهود والنصارى من التشبه بزى المسلمين وإلزامهم زيا خاصا.انظر تفصيلا لذلك عند الونشريسي:المعيار،ج٢ ،ص ٢٥٤.

(١٦١) رياض النفوس،ج١،ص ٤٧٦.

(١٦٢) عياض:المدارك،ج١،ص ٤٨٧.

(١٦٣) الونشريسي:ج٢ ،ص ٢٤٨.

(١٦٤) رياض النفوس،ج١،ص٣٣٦.

(١٦٥) Ashtor :The Jews,3,p.158.

(١٦٦) مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، "صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م٩، ١٠، (مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢م)، ص٦٨

(١٦٧) نفسه، ص٧٤.

(١٦٨) نفسه، ص٦٧.

(١٦٩) م.ن، ص٧٠

(١٧٠) الصفدي:الوافي بالوفيات،ج١٢،ص٩٧. حيث ورد ما نصه: "اليهود تالهم منه أذىً، وأسلم على يده منهم جماعةً، منهم: سعيد وبركات، وكان الشيخ يحب الكوارع المغمومة، فدعوه إلى بيت واحد منهم، وقدموا له ذلك، فأكل ثم غاب ذهولاً على عادته، فأحضروا الخمر، فلم ينكر حضورها، وأداروها، ثم ناولوه منها قدحاً فاستعمله تشبهاً بهم، فلما سكر أخرجوه على تلك الحال".

(١٧١) ابن ابي زيد القيرواني: كتاب الجامع،ص١٩١.

(١٧٢)الونشريسي:المعيار،ج٨،ص ٤٣٧.

(١٧٣) ابن سهل: نوازله،ج١،ص ١٠٦،البرزلي: فتاوى،ج٤،ص٥٥٧.

(١٧٤) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ٢٥٠.

(١٧٥) حسن ظاظا:الفكر الديني اليهودي،ص ٢٠٣، Hirschberg :A history of the Jews in North Afrrica,1,p147.

(١٧٦) زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،ص ٦٤، عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي،دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،٢٠٠١،القاهرة،ص ١٢٥ .

(١٧٧) جوايتاين: دراسات في التاريخ،ص ٢٤٧-٢٤٨ .

(١٧٨) التادلي:ص ٣٠٧ روجيه ادريس،٤٢٦.

(١٧٩)محمد جلاء ادريس : التأثير الإسلامي في الفكر الديني اليهودي، الاسكندرية،د.ت، ص ١١٦،
Hirschberg :A history of the Jews in North Afrrica,1,p.184

(١٨٠) Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962, p. 12. وعن ورود مثل هذه الشروط في عقود الزواج الإسلامية انظر ابن العطار: الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي،مجمع الموثقين الغريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٣، ص ص ٧، ١٥، ابن سلمون: العقد المنظم للحكام فيما يجري بين ايديهم من العقود والاحكام " علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون "، المطبعة العامرة الشرفية، مصر، ط١ ١٣٠١هـ ، جـ١، ص ص ١٦، ١٧، ٦٨.

(١٨١) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص٢٩٣.

(١٨٢) عبد الرحمن بشير: يهود المغرب،ص١١٥،محمد شكري سرور:نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية،دار الفكر العربي،،القاهرة، ١٩٧٨-١٩٧٩، ص٢١٨-٢١٩.

(١٨٣) Hirschberg: history of the Jews in North Afrrica,1,p.171.

(١٨٤) مناحيم بن ساسون:فصول التاريخ اليهودي في القرون الوسطى(باللغة العبرية)،تل ابيب،١٩٦٢،ص ٩٠.

(١٨٥) The Jews in Medieval Islam City", P.10.

(١٨٦) Goitein (S.D.): A Mediterranean Society,2,pp.289-293.

(١٨٧) الهادي روجيه:الدولة الصنهاجية،ج٢،ص٣٨٣.

(١٨٨) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص١٨.

(١٨٩) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ص٢٤٦،٢٣٣.ثم تابع نقاشا طويلا للمسألة ص ص ٢٢٠-٢٤٦.

(١٩٠) المعجب،ص ٣٠٥.

(١٩١) روجيه ادريس:الدولة الصنهاجية،ج٢،ص ص ٤٣٢- ٤٣٥.

(١٩٢) عبد الرحمن بشير:اليهود في المغرب العربي،ص١٤١.

(١٩٣) حاييم زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،١٩٨٧،ص١٢٦.

Mann: The Jews in Egypt and in Palestine ,1 ,p. 255,256, Ashtor :The Jews, .3, P.79.

(١٩٤) Stillman M.A.: The Jews of Arab Lands .p.183.

(١٩٥) الدباغ: معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٩٦) البرزلي: فتاوى،ج٢، ص ١٩.

(١٩٧) Mann: The Jews in Egypt and Paletine,1,pp.246, 265

(١٩٨) جواتياين:دراسات في التاريخ الإسلامي،ص١٩٤ .

(١٩٩) روجيه ادريس:الدولة الصنهاجية،ج٢،ص ٣٨٤،

Mann: The Jews in Egypt and Paletine,1,p. 264

(٢٠٠) ابن ابي زيد :النوادر والزيادات،ج٣،ص ٢٨٢، الونشريسي:المعيار،ج١٠،ص ص٥٦ ،١٢٩.

(٢٠١) ابن فرحون: تبصرة الحكام،ج١،ص٦٨.

(٢٠٢) الونشريسي:المعيار،ج١٠،ص ص ١٢٨-١٢٩ .

(٢٠٣) القرافي:الذخيرة،ج١٠،ص٦٠

(٢٠٤) ابن فرحون:تبصرة الحكام،ج١،ص ٢٨.

(٢٠٥) الونشريسي:المعيار،ج١٠،ص ٥٦.

(٢٠٦) البرزلي: فتاوى،ج٤،ص ٢٨٤.

(٢٠٧) البرزلي: فتاوى،ج٤،ص ١٦٦.

(٢٠٨) سحنون: المدونة،ج٣، ص ٣٠٨.

(٢٠٩) البرزلي: فتاوى،ج٦،ص١٤٨.

(٢١٠) سحنون، المدونة،ج٢،ص ٢٢٤.

(٢١١) سحنون :المدونة،ج١،ص ٢٣٤،خليل بن إسحاق:مختصر العلامة خليل،تحقيق أحمد جاد،دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٥،ص ٢١٩،النفراوي:الفواكه الدواني،ج٢،ص ٦٢٠،

Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records"p.8.

(٢١٢) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٢٩٤.

(٢١٣) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢،ص ١٤٢.

(٢١٤) Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records",pp.9-10.

(٢١٥) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ٣٥٤.

(٢١٦)النفراوي:الفواكه الدواني،ج٢، ص ٦٦٠ الآبي الأزهري: الثمر الداني، ص ٢٥٩. كان خروج اليهود مع المسلمين في صلاة الاستسقاء أمرا مألوفا في دار الإسلام فقد ذكر ادم ميتز ان العادة قد جرت بخروج مواكب لقصد الأماكن العامة للصلاة والدعاء تجمع المسلمين والنصارى واليهود معهم النافخون في الأبواق.الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر،القاهرة،١٩٧٧،ج١، ص ٣٨ .

(٢١٧) ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات،ج٣، ص ص ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠١.

(٢١٨) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص٣٦٣ .

(٢١٩) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٤٨.

(٢٢٠) المالكي :رياض النفوس،ج٢،ص ٣١٠،روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية،ج٢،ص ٢٤.

(٢٢١) محمود ذكار:السلطة والأقلية اليهودية في تونس، القانون والممارسة،مجلة معهد الآداب الشرقية، عدد١٩٩٤،١٧٤،ص٣٤١.

(٢٢٢) إبراهيم سليمان الشماخي: قصور ومسالك جبل نفوسة،تحقيق وتعريب محمد حام،المعهد الملكي للثقافة الامازيغية،الرباط،٢٠٠٤، ص ص ١٣٨-١٣٩.

(٢٢٣) البرزلي:ج٥،ص ص ٤٤٣،٤٤٥ ،الونشريسي:ج٧،ص٦٥ .

(٢٢٤) المراكشي:المعجب،ص ٣٠٥،

(٢٢٥) السموأل :إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل،تحقيق محمد عبدالله الشرقاوي،دار الجيل ،بيروت،١٩٨٣،ص ٤٥.

(٢٢٦) وفيات الأعيان،ج٧،ص٣٤ .

(٢٢٧) الضبي:بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧م ، ص٨٣-٨٦.

(٢٢٨) الصفدي:الوافي بالوفيات،ج١٥،ص ٢٧٦.

(٢٢٩) ابن خلكان:وفيات الاعيان،ج٧،ص ٢٨.

(٢٣٠) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص٣٥٤ .

(٢٣١) الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية،ط بولاق ،مصر،١٢٧٣هـ،ج١،ص ٥٦٢.

(٢٣٢) سورة يونس: آية ٢٢ .

(٢٣٣) أخبار المهدي بن تومرت،طبعة دار المنصور بالرباط ١٩٧١،ص ١١.

(٢٣٤) عزرا فلايشر:الأيام العبرية المقدسة،(باللغة العبرية)،القدس،١٩٧٥،ص ٣٣٤.

(٢٣٥) آداب المعلمين، ص ١١٢.

(٢٣٦) المعجب،ص ٣٠٥.

(٢٣٧) البرزلي: فتاوى،ج٣، ص ص ٥٧٢-٥٧٣.

(٢٣٨) السموأل:افحام اليهود ،ص ٤٨.

(٢٣٩) ابن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة،تحقيق محمد عبدالله عنان،مكتبة الخانجي،القاهرة،١٩٧٥،ج٣،ص ٦٨ ،المقري:نفح الطيب،ج٤،ص ١٣٠.

(٢٤٠) البرزلي: فتاوى،ج٣، ص ٥٨٤.

(٢٤١) إفحام اليهود ،ص ٥٤.

(٢٤٢) عبد الرحمن بشير:اليهود في المغرب العربي،ص١٣٩.

(٢٤٣) شعبان محمد سلام : أثر البلاغة العربية في الشعر العبري – سلسلة الأدب المقارن – الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٨٦،ص .

(٢٤٤) عبد الرازق قنديل:أثر الشعر العربي في الشعر العبري الأندلسي (مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة ٢٠٠٢) , ص٢١- ص ٢٣.

(٢٤٥) انظر عن العطاء الفكرى والثقافي ليهود المغرب الادنى خلال العصرين الفاطمي والزيري عبد الرحمن بشير:اليهود في المغرب العربي ص ص ١٤٤-١٥٤،روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية ،ج٢،ص ص ٤٢٠-٤٢٧.

قائمة المصادر والمراجع

اولا:المصادر المخطوطة والمطبوعة:

١. ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي،ت ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م):الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ١٩٨٥.

٢. الأزهري(صالح عبد السميع الأبي الأزهري):الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،المكتبة الثقافية، بيروت،د.ت.

٣. ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ،تحقيق عبدالله القاضى،دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢ ١٤١٥هـ.

٤. الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس، ت ٥٥٨ هـ/١١٦٢م):نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،عالم الكتب،بيروت،١٩٨٩.

٥. البرزلي [أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، ت ٨٤١هـ/١٤٣٧م]:جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م.

٦. ابن بسام(أبو الحسن على بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م):الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق إحسان عباس،ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨- ١٩٧٩.

٧. البغطوري [مقرين بن محمود، كان حيًا عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م]:سير نفوسة، مخطوط نسخة منقولة عن الأصل الموجود في مكتبة جربة،الجزائر.

٨. البكـرى(أبـو عبيـد عبـد الله بـن عبـد العزيـز بـن محمـد بـن أيـوب ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م):المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب،دار الكتاب الإسـلامى ، القاهرة،د.ت.

٩. البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى ،ألفه منتصف ق٦هـ/١٢م):أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ١٩٧١.

١٠. الجرسيفي(عمر بن عثمان بن العباس، من أهل ق٦هـ/١٢م):رسالة في الحسبة،نشرت ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م.

١١. ابن جلجل (أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي، ت ٣٧٧هـ /٩٨٧م):طبقات الأطباء والحكماء،تحقيق فؤاد سيد،دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة،٢٠٠٥.

١٢. ابن حجر(أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلاني، ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م):لسان الميزان،تحقيق دائرة المعارف النظامية،الهند،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،ط٣ ١٩٨٦.

١٣. ابن حزم(أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م):الفصل فى الملل والأهواء والنحل،تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة،دار الجيل، بيروت،د.ت.

١٤. ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على بن عيسى، ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م): أخبار ملوك بنى عبيد وسيرهم،تحقيق التهامى نقرة وعبد الحليم عويس،الرياض،١٩٨١.

١٥. الحميري(محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت ق ٩هـ/١٥م):الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،بيروت، ١٩٨٠.

١٦. ابن حوقل(أبو القاسم محمد بن على النصيبى،ت٣٨٠هـ/٩٩٠م):المسالك الممالك،ليدن،١٨٧٣.

١٧. الحموى:شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى،ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م):معجم البلدان،دار الفكر،بيروت،د.ت.

١٨. خرداذبة(أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله،ت حوالى ٣٠٠هـ/٩١٢م):المسالك والممالك،مكتبة المثنى ،بغداد،د.ت.

١٩. ابن الخطيب(: لسان الدين محمد السلمانى ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م):الإحاطة فى أخبار غرناطة،تحقيق محمد عبدالله عنان،مكتبة الخانجى،القاهرة،١٩٧٥.

٢٠. ابن خلدون(ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):تاريخ ابن خلدون المعرف بالعبر،دار القلم،بيروت،١٩٨٤.

٢١. ابن خلكان:(شمس الدين أبو العباس أحمد ،ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس،دار الثقافة،لبنان،(د.ت).

٢٢. خليل بن إسحاق المالكي،ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م:مختصر العلامة خليل،تحقيق أحمد جاد،دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٥.

٢٣. الدباغ(أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، ت ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م):معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح وآخرين،مكتبة الخانجي، مصر،١٩٦٨.

٢٤. الدرجيني(أبو العباس أحمد، ت منتصف ق ٧هـ/١٣م):طبقات المشائخ بالمغرب،تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤.

٢٥. الذهبي(شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ،ت ٧٤٨هـ/،١٣٧٤ م):سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٩ ١٤١٣هـ.

٢٦. الذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق عمر عبد السلام تدمري،دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٩٦.

٢٧. الرقيق القيرواني(إبراهيم بن القاسم القيرواني، ت النصف الأول من ق ٥ هـ/١١م،): قطعة من تاريخ أفريقية والمغرب،تحقيق المنجي الكعبي،تونس،١٩٦٨.

٢٨. أبو زكريا(يحيى بن ابي بكر، ت النصف الثاني من ق٤هـ/١٠م): كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي،إصدرات المكتبة الوطنية،الجزائر،١٩٧٩.

٢٩. الزمخشري(أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله،ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م):أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٣٠. ابن أبي زيد القيرواني(أبي محمد عبد الله، ت ٣٨٦هـ/ ٩٢٨م) الرسالة،دار الفكر ، بيروت،١٩٨١.

٣١. ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامهات،ج٣،تحقيق محمد حجي،دار الغرب الإسلامي،١٩٩٩.

٣٢. ابن أبي زيد القيرواني:كتاب الجامع في السنين والآداب والحكم والتاريخ وغير ذلك،تحقيق عبد المجيد تركي،ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.

٣٣. سحنون(أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، ٢٤٠ هـ /٨٥٤ م وآخرون):المدونة الكبرى تحقيق زكريا عميرات،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت.

٣٤. ابن سعيد المغربي(على بن موسى بن محمد، ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م):كتاب الجغرافيا،تحقيق إسماعيل العربي،بيروت،١٩٧٠.

٣٥. ابن سهل(أبو الأصبع عيسى، ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م):الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى،تحقيق نورة محمد عب العزيز التويجري،المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م.

٣٦. ابن سلمون الكناني(أبي القاسم سلمون بن على ت ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م): العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام " علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون "،المطبعة العامرة الشرفية، مصر، ط١ ١٣٠١هـ.

٣٧. السموأل المغربي(شموائيل بن يهوذا بن آبوان،ت٥٧٠هـ): إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل،تحقيق محمد عبدالله الشرقاوى،دار الجيل ،بيروت،١٩٨٣.

٣٨. السيوطى(جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/١٥٠٤م):حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة،المطبعة الشرفية ،مصر،١٩٠٩.

٣٩. الشماخى(أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، ٩٢٨ هـ/١٥٢٢ م): كتاب السير"الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلي نهاية القرن الخامس الهجري "،تحقيق محمد حسن،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،تونس السلسلة٤ ،المجلد٣٠، ١٩٩٥.

٤٠. الصفدى(صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م):الوافى بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفى،دار إحياء التراث،بيروت،٢٠٠٠م.

٤١. الصفدى:أعيان العصر وأعوان النصر،تحقيق على أبو زيد وآخرون،دار الفكر المعاصر،بيروت،١٩٩٨.

٤٢. الطبرى(أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م):تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ،١٩٦٣.

٤٣. ابن عبد البر(أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ /١٠٧٠م)التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى العلوى ومحمد البكرى،وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية، المغرب،١٣٨٧هـ.

٤٤. ابن العطار(محمد بن أحمد الاموى، ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م):الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين الجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٣.

٤٥. عبد الواحد المراكشي(ت ق٦هـ /١٢م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العلمي،مطبعة الاستقامة،القاهرة،١٣٦٨هـ .

٤٦. ابن عذارى(أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي ت٧١٢ هـ/١٣١٣ م):البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال،دار الثقافة،بيروت،د.ت.

٤٧. أبو العرب تميم (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، ت ٣٣٣ هـ/٩٤٢ م): طبقات علماء أفريقية وتونس،تحقيق علي الشابي و نعيم اليافعي،ط٢. الدار التونسية للنشر،١٩٨٥.

٤٨. علي بن يوسف الحكيم:"الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة "،مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨.

٤٩. عياض(القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م):ترتيب المدارك وتقريب المسالك،لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، منشورات دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٨ .

٥٠. الفارسي (أبو الطاهر محمد بن الحسين):مناقب محرز بن خلف،تحقيق روجيه إدريس،باريس،١٩٥٩.

٥١. ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن فرحون المالكي، ت ٧٩٤/١٣٩١م): تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠١هـ.

٥٢. القرافي(شهاب الدين أحمد بن ادريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، ت٦٨٤هـ / ١٢٨٥): الذخيرة في الفقه المالكي،تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي،بيروت،١٩٩٤م.

٥٣. القفطي(جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ت ٤٦ هـ/١٢٤٨ م):أخبار العلماء بأخبار الحكماء،مطبعة السعادة،مصر، ١٣٢٦هـ.

٥٤. اللبيدي(أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد،ت٤٤٠هـ/١٠٦٠م):مناقب الجنبياني،تحقيق هادي روجيه إدريس،الجزائر،١٩٥٩

٥٥. المالكي(عبد الله بن أبي عبد الله، ت ق٤هـ/١٠ م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية، تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الاسلامي،ط٢ ١٩٩٤.

٥٦. المجليدي (أحمد بن سعيد، ت١٠٩٤هـ/١٦٨٣م): المجليدي:كتاب التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧١م.

٥٧. مجهول:الاستبصار في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد،ط. الدار البيضاء، ١٩٨٥.

٥٨. مجهول:قصة البلديين أهل فاس،مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب،تحت رقم ١٨٩٣ تاريخ.

٥٩. مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين،"صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م٩، ١٠، (مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢م).

٦٠. المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١م):نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،١٣٨٨هـ.

٦١. المقريزى(تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م):اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفا،تحقيق جمال الدين الشيال،ط.دار الفكر العربي،،١٩٤٨.

٦٢. النفزاوى(أحمد بن غنيم بن سالم،ت ١١٢٦هـ) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيروان،تحقيق رضا فرحات،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت.

٦٣. الوسياني(أبو الربيع سليمان بن عبد السلام ٤٧١هـ/١٠٧٨م):سير أبي الربيع الوسياني، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٩١١٣ح،ميكروفيلم ٣٢٧١.

٦٤. الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي،بيروت، ١٩٨١م.

٦٥. اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م):كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة ،ليدن،١٨٩١.

٦٦. اليماني (أبي عبدالله محمد بن مالك المغافرى،ت أواسط القرن الخامس الهجرى/١١م): كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد بن على الجوالى، مركز الدراسات والبحوث اليمنى،صنعاء،١٩٩٤

ثانيا: المراجع العربية والعبرية والمعربة:

١. إبراهيم سليمان أشماخي:قصور ومسالك جبل نفوسة،تحقيق وتعريب محمد حمام،المعهد الملكى للثقافة الإمازيغية،الرباط،٢٠٠٤.

٢. إبراهيم عامر الرحيلى:بذل المجهود فى إثبات مشابهة الرافضة لليهود،مكتبة الغرباء الأثرية،د.ت.

٣. آدم ميتز:الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري،ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر،القاهرة،١٩٧٧.

٤. ادوار غالى الدهى: معاملة غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى،مكتبة غريب، القاهرة،١٩٩٣.

٥. اشتور : تاريخ اليهود فى بلاد المسلمين (باللغة العبرية)،القدس،د. ت.

٦. ترتون:أهل الذمة فى الإسلام،ترجمة حسن حبشى،ط٥ القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٤ .

٧. جعفر هادي حسن:فرقة القرائين اليهود- دراسة في نشأة الفرقة وعقائدها وتاريخها إلى العصر الحديث،بيروت،مؤسسة الفجر،١٩٨٩ .

٨. جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،ترجمة عطية القوصي،الكويت،وكالة المطبوعات، ط١،١٩٨٠.

٩. حاييم زعفراني:ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،ترجمة احمد شعلان وعبد الغنى ابو العزم، د.م،١٩٨٧.

١٠. حسن ظاظا:الفكرالديني الإسرائيلي- أطواره ومذاهبه،معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧١ .

١١. زبيدة عطا:يهود العالم العربي دعوى الاضطهاد،دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، ٢٠٠٤.

١٢. زبيدة عطا:اليهود فى العالم العربي،دراسة تاريخية فى قضايا الهوية-الاندماج-القدس،دار عين للدراسات والبحوث النسانية والاجتماعية،٢٠٠٣.

١٣. سليم شعشوع:صفحات من التعاون اليهودى العربي فى الأندلس،مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر،شفا عمرو،١٩٩٠.

١٤. عبد الرازق قنديل:أثر الشعر العربي في الشعر العبري الأندلسي ،مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

١٥. عبد الرحمن بشير:اليهود فى المغرب العربي،دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،٢٠٠١،القاهرة.

١٦. عبد العظيم المطعني:مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجا وسيرة،دار الفتح للإعلام العربي،القاهرة ،١٩٩٦.

١٧. عزرا فلايشر:الأيام العبرية المقدسة(باللغة العبرية)،القدس،١٩٧٥.

١٨. فهمي هويدي:مواطنون لا ذميون،دار الشروق،١٩٨٥.

١٩. قاسم عبده قاسم:اليهود في مصر،دار الشروق،القاهرة، ١٩٩٣.

٢٠. مارك كوهين:المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى،ترجمةنسرين مرار وسمير نقاش،جامعة تل أبيب،المعهد اليهودي العربي،١٩٨٧.

٢١. مأمون المريني:اليهود في الأمثال المغربية،مجلة فكر ونقد،ع ٣٥.

٢٢. محمد جلاء إدريس:التأثير الاسلامي في الفكر الديني اليهودي– دراسة نقدية مقارنة لطائفة اليهود القرائين،مكتبة مدبولي،القاهرة،١٩٩٣ .

٢٣. محمد شكري سرور:نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية،دار الفكر العربي،،القاهرة، ١٩٧٨-١٩٧٩.

٢٤. مراد فرج :القراءون والربانيون,القاهرة،١٩١٨.

٢٥. مناحم بن ساسون:فصول التاريخ اليهودي في القرون الوسطى(باللغة العبرية)،تل ابيب،١٩٦٢.

٢٦. ناريمان عبد الكريم:معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٦.

٢٧. نجم الدين الهنتاتي:مواقف علماء المالكية من أهل الذمة بافريقية الى منتصف القرن الخامس الهجري، مجلة معهد الآداب الشرقية،العدد ١٨٦، ٢٠٠٠.

٢٨. الهادي روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٢.

٢٩. هوبكنز:النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى،تونس،١٩٨٠.

٣٠. يحيى عبد الهادى :أهل الذمة فى العراق فى العصر العباسي، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٤.

٣١. يوسف القرضاوى:من فقه الدولة فى الإسلام:مكانتها ..معالمها..طبيعتها..موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين،دار الشروق،١٩٩٧.

ثالثا:المراجع الأجنبية:

1- (Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain,Philadelphia, 1979.

2- Ashtor, E:The Jews and Mediterranean Economy,London ,1983 .
Adler,(ed.):Jewish Travelers,(London ,n.d.)
Chouraqui, N.: Between East and West. A History of The Jews of North Africa, New York,1973,,p.79.

David Nirenberg :can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?, CCAR Journal, 2002 .
Goitein(S.D):A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo geniza ,University of California,Paress,1983 .

3- Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962.

4- Mann,J.: The Jews in Egypt and Palestine Under The Fatimed caliphs, oxford university press,1920 .

5- Mann, J.: Texts and studies in Jewish History and literature, New york,1972.

6- Menahem Ben-Sasson: 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' in: M Abitbol (ed.), Communaut s juives des marges sahariennes du Maghreb, J rusalem 1982.

7- Stillman M.A.: The Jews of Arab Lands A History and source book, The Jewish Publication Society of America, 1979.

8- Stillman M.A :"The Jew in The Medieval Islamic city", in Jews of Medieval Islam: Community, Society, & Identity: Proceedings of an International Conference Held by the Institute of Jewish Studies, University of London, 1995.

د.عبدالله بن محمد علي بن حيدر علي(*)

علماء بلاد المغرب والأندلس الذين جاوروا مكة المكرمة

من خلال كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي

المتوفي سنة ٨٣٢هـ

المقدمـــة :

كان من أسباب النهضة العلمية والحضارية عند المسلمين رحلات العلماء وطلاب العلم بين أرجاء العالم الإسلامي ، ولـــذا نرى في القرنين الثامن والتاســع الهجـــريين ، أهـــل المغـــرب والأندلس من العلماء والطـــلاب يفدون لبلاد الحجاز " مكة والمدينة " للمجاورة أو لطلـــب العلم أو للتجارة ومنهم من استقر به المقام ، وقد ذكر المقري قائمة بأسماء ممـــن رحـــل مـــن الأندلس للمشرق (١) ، وكانت هذه الرحلات لها أثر طيب في العلم أو التدريس بـــل تـــوؤوا مناصب عليا كإمامة الحرمين والفتيا ولذا استقر رأي لتسليط الضوء على هؤلاء الأشخاص من

* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية –قسم التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أم القرى

خلال كتاب عظيم فريد من نوعه ترجم لهم وهو كتاب " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " لمؤلفه الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي " المتوفي سنة ٨٣٢ هـ فقد ذكر في مقدمة كتابه أنه " تشوقت نفسي كثيراً إلى معرفة تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ممن سكنها مدة سنين ، أو مات بها ... " (٢) والكتاب عبارة عن تراجم لمن سكن مكة وولاتها وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم (٣) والمؤلف اعتمد في تراجمه على نقولات من كتب تراجم مثله أو شفاهية ممن عاصرهم أوكان قريب من عصره أو من بعض الآثار كشواهد القبور في " قبور المعلاة " المؤرخة لوفاة بعض المترجم لهم ، كما نقل المؤلف من بعض المصادر التي فقدت ككتاب " تاريخ مصر للقطب الحلبي وكتاب مختصر التكملة لابن الأبار "

ترجمة المؤلف :

نسبه : محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن ... بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، يكنى : أبا عبدالله ، وأبا الطيب وبها اشتهر أخيراً ويلقب تقي الدين الحسني ،الفاسي المكي ،المالكي قاضي المالكيه بمكة ،مؤلف هذا الكتاب (٤)

مولده : ولد سنة خمس وسبعين وسبعمائة بمكة وانتقل مع والدته إلى المدينة النبوية عند خاله قاضي الحرمين محب الدين النويري

رحلاته : رحل تقي الدين الفاسي مؤلف العقد الثمين الى مختلف البلاد لطلب العلم فرحل إلى مصر ودمشق مراراً والاسكندرية وغزة والقدس والرملة ونابلس واليمن وجاور مكة والمدينه النبوية .

شيوخه : سمع بالمدينة على أم الحسن فاطمة بنت الشيخ شهاب الحرازي ثم عاد إلى مكة وسمع على أبي اسحاق إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي والقاضي نور الدين علي بن أحمد النويري والشيخ شهاب الدين بن الناصح القراقي المصري وسمع من ابن عم أبيه الشريف عبدالرحمن بن أبي الخير الفاسي وسمع من المحدث شمس الدين بن سكر والقاضي برهان الدين إبراهيم فرحون وعلي بن عبدالقادر الحجار والقاضي زين الدين خلف بن أبي بكر التحريري المالكي وقرأ على مفتي الحرم وقاضيها جمال الدين أبي حامد محمد بن ظهيرة القرشي الشافعي ثم رحل إلى الديار المصرية وقرأ بها على البرهان إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد البعلي والزين

عبدالرحمن بن أحمد العربي وأم عيسى مريم بنت أحمد بن القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والإمام سراج الدين عمر بن أبي الحسن الأنصاري والحافظين زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي ونورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي وأبي المعالي عبدالله بن عمر الحلاوي وأحمد بن حسن السويداوي ، ثم رحل إلى دمشق وسمع بها على علي بن محمد بن أبي المجد الدمشقي وأبو هريرة عبدالرحمن بن الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي وبالقدس على أبي الخير أحمد بن الحافظ صلاح الدين خليل بن كليكلدي العلائي وبغزة على أحمد بن محمد بن عثمان الخليلي وقدم القاهرة مرة أخرى فسمع بها على علي ابن أبي المجد وحضر دروس القاضي تاج الدين بهرام بن عبدالله بن عبدالعزيز المالكي ورجع إلى دمشق وسمع على أم القاسم خديجة بنت إبراهيم بن سلطان البعلي وحج ورجع إلى القاهرة وسمع بها على أبي المعالي عبدالله بن عمر الحلاوي وفي الاسكندرية سمع على المزيز رئيس المؤذنين بالجامع الغربي ورحل إلى دمشق وسمع على الإمام صدر الدين الأبشيطي ورحل الى غزة وسمع على أحمد بن عثمان الخليلي ورحل إلى الرملة وسمع على المحدث شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بالمهندس والمفتي عبدالله بن سلمان المصري المالكي ورحل إلى دمشق وسمع بها على فاطمه بنت ابن المنجا ، ورحل لليمن وسمع بها على الوجيه عبدالرحمن بن حيدر الشيرازي والمقرىء شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عياش الدمشقي ، ثم رجع الى مكة ورحل إلى دمشق وسمع بها على خطيبها ومفتيها شهاب الدين أحمد بن حجي ورجع إلى القاهرة فسمع بها على الحافظ نور الدين الهيثمي [٥]. وقال المؤلف عن شيوخه نحو خمسمائة شيخ بالسماع والإجازة [٦].

مؤلفاته : ألف الفاسي مايزيد عن الثلاثين كتاباً من كتب التاريخ خصص أغلبها لتاريخ مكة ورجالها [٧]، وقد ذكرها عند ترجمته لنفسه [٨]، منها : أربعون حديثا ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحفة الكرام من تاريخ البلد الحرام ، تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام ، هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام ، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى ، بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة ، ارشاد ذوي الفهام الى تكميل كتاب الأعلام بوفيات الأعلام للحافظ الذهبي ، مطلب اليقظان من كتاب الحيوان ، إرشاد الناسك إلى معرفة المناسك ، الإيقاظ من الغفلة والحيرة في مسألة إقرار ظهيرة .

وفاته : مات المؤلف في ليلة الأربعاء ثالث شوال سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة بمكـة المـشرفة وصلى عليه بعد صلاة الصبح عند باب الكعبة ، ودفن بالمعلاة [٩].

التراجـــم :

١- محمد بن أحمد بن أسعد، الإمام أبو عبدالله بن القراء المعافري الأندلسي الجياني المقرئ : أخذ القراءات عن مكي بن أبي طالب، وقرأ عليه جماعة . ومات بمكة سنة تسع وستين وأربعمائة بعد الحج والمجاورة ، ذكره الذهبي في طبقات القراء [١٠] وتاريخ الإسلام [١١].

٢- محمد بن أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي الأشبيلي : ولد سنة ثمان وأربعين وستمائة في صفر. وأجاز له – باستدعاء أبيه– مسند تونس أبو الحسين أحمد بن محمد بن السراج، وحدث عنه ببعض الروض الأنف للسهيلي عنه [١٢]. وذكر ابن سيد الناس أنه توفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة بمكة بعد الحج [١٣]. وذكر القطب الحلبي في تاريخه : أنه توفي بمكة في آخر عام أربع وعشرين وسبعمائة أو في أوائل عام خمسة وعشرين وسبعمائة .

٣- محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي العلامة المفتن البارع أبو عبدالله المعروف بالوانوغي المعروف: بابن نزيل الحرمين الشريفين ولد – في غالب ظني– سنة تسع وخمسين وسبعمائة بتونس، ونشأ بها . وسمع بها من مسندها ومقرئها أبي الحسن بن أبي العباس البطرني في خاتمة أصحاب الإسناد أبي جعفر بن الزبير بالإجازة. وله من البطرني إجازة بجميع ما يرويه وقد درس بالحرمين وأفتى فيهما كثيراً.وأول قدومه إليها سنة ثمانمائة فحج فيها وعاد إلى مصر [١٤]. كان شديد الذكاء سريع الفهم وكان يعاب عليه إطلاق لسانه في العلماء ومراعاة السائلين في الإفتاء [١٥] أدركه الأجل بمكة – بعد علة طويلة بالإسهال والاستسقاء – في سحر يوم الجمعة تاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وثمانمائة . وصلى عليه بالحرم الشريف عند باب الكعبة، وذهب به إلى المعلاة من باب بني شيبة [١٦]

٤- محمد بن أحمد بن ميمون بن قاسم التونسي ، المالكي، المعروف : بابن المغربي [١٧]

٥- محمد بن ثابت الأنصاري ، المراكشي : كانت له معرفة بالقراءات السبع، قرأها على : الشيخ برهان الدين المسروري، وسراج الدين الدمنهوري بمكة، ولم يكمل عليه. وكان يؤدب

الأطفال بمكة عند باب أجياد من الحرم الشريف. توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمكة ذكر الذهبي: أنه مات سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. وقيل: في آخر سنة أربعين. وذكر : أنه ولد سنة خمس وأربعين ومائتين [١٨] .

٦- محمد بن حجاج بن إبراهيم الحضرمي، أبو بكر ، أبو عبدالله وبها اشتهر ابن الوزير ابن محمد المعروف بابن مطرف الإشبيلي ، نزيل مكة، وشيخها، الولي العارف، ذو الكرامات الشهيرة. ذكر جدي أبو عبدالله الفاسي: أنه ولد سنة ثمان عشر وستمائة، وحج سنة ثلاث وخمسين . وسمع من ابن مسدي: الشفا للقاضي عياض، والشمائل للترمذي ، ثم عاد إلى الاسكندرية. ثم عاد إلى مكة في سنة ستين، ثم توجه إلى عدن، وأقرأ بها العربية، ولم يزل مقيماً بها إلى سنة تسع وستين. فتوجه إلى مكة وأقام بها إلى أن مات . [١٩]

٧- محمد بن أبي الضوء التونسي : جاور بمكة، وبها توفي ، وحدث عن أبي الوليد محمد بن عبدالله بن حزم، سمع منه بمكة عن أبي بحر سفيان بن العاص الأسدي وكان مشهوراً بالخير والزهد [٢٠]

٨- محمد بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد شمس الدين الإستجي المصري : نزيل مكة. جاور بها مدة سنين، مستوطناً بها متأهلاً فيها. ولي مباشرة في الحرم، وكان يسمع صحيح البخاري على محمد بن صبيح المكي شيخ رباط غزي، والقاضي أبي الفضل النويري قبل ولايته، ثم صحبه ، واشتهر بصحبته ومدحه بقصائد، ورثاه بعد موته بمرثية بليغة ، وسمع بمكة من الكمال بن حبيب الحلبي وبالمدينة من : قاضيها بدر الدين بن الخشاب، وتوفي في العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة [٢١]

٩ - محمد بن عبدالله بن محمد الأندلسي ، أبو عبدالله ، العلامة المفسر، شرف الدين، المعروف بابن أبي الفضل المرسي السلمي : ولد في ذي الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة بمرسية، وسمع بالمغرب من جماعة ، منهم أبو محمد عبدالله الحجري. سمع عليه : الموطأ، رواية يحيى بن يحيى ، ثم رحل من المغرب في سنة ثلاث وستمائة، وسمع بمصر ودمشق وواسط وبغداد ونيسابور وهراه وبمكة: من الشريف يونس بن يحيى الهاشمي وطبقته. وحدث بالكثير بأماكن عدة، منها مكة. وتردد إليها مرات، وجاور بها كرات سمع منه الحفاظ والأعيان من العلماء، في

الثناء عليه[٢٢]، وكان من الفضلاء في جميع فنون علم الحديث وعلوم القران والفقه والخلاف والاصلين والنحو واللغه[٢٣] قال الذهبي : قرأ وجمع من الكتب النفيسه كثيراً ، ومهما فتح به عليه صرفه في ثمن الكتب ، وكان متضلعاً من العلم ، جيد الفهم ، متين الديانه ، وكان بحر معارف رحمه الله[٢٤]. قال صاحب التكمله : توفي المرسي في ربيع الاول سنه خمس وخمسين وست مئه في منتصفه بالعريش وهو متوجه الى دمشق فدفن بتل الزعقه ، وكان من أعيان العلماء ذا معارف متعدده ، وله مصنفات مفيده[٢٥].

١٠- محمد بن عبدالله الشاطبي ويكني أبا عبدالله : كان رجلاً صالحاً جليلاً. ذكره القطب القسطلاني في "ارتقاء الرتبة" وقال: كان كثير الخدمة للفقراء، والإيثار لهم، وجاور بمكة في آخر عمره حتى مات بها. ولم يذكر له وفاة. توفي يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمكة، ودفن بالمعلاة. نقلت وفاته واسم أبيه من حجر قبره، وترجم بالشيخ الصالح السعيد الشهيد.[٢٦] قال أبوشامه : كان متفنناً محققاً ، كثير الحج ، مقتصداً في أموره كثير الكتب محصلاً لها ، وقد أعطي قبولاً في البلاد[٢٧].

١١- محمد بن عبد الرحمن بن محمد الصنهاجي أبو عبدالله الفاسي، المعروف بابن الحداد: ولدفي النصف من جمادي الآخرة سنة اثنين وسبعين وستمائة بفاس وتفقه بتونس وسمع على جماعة. وكتب عن صاحبنا أبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد، ورحل وقدم إلى ديار مصر. وسمع بها على بعض شيوخنا المتأخرين، ورحل إلى دمشق، فسمع بها ، وحصل أصولاً وكتباً، وكتب بخطه. وكان له قليل معرفة بالحديث وغيره، مائلاً إلى طريقة التصوف، عارفاً بكلام أهل الطريق[٢٨] .كان يميل للتصوف ويعرف طرفاً من الحديث مع حسن الخلق ولطف الشمائل وحلو المفاكهة .[٢٩]وتوفي بعلة الإسهال سنة اثنين وعشرين وسبعمائة بمكة. ودفن بالمعلاة.[٣٠]

١٢- محمد بن عبد الرحمن بن أبي الخير بن أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن الحسنى الشريف أبو الخير الفاسى المكي المالكي ،حضر على القاضي عز الدين بن جماعة، وسمع من ابن عبد المعطي، وابن حبيب الحلبي بمكة وغيرها. وتفقه على الشيخ موسى المراكشي، وعلى أبيه، وخلفه في تصديره بالمسجد الحرام، فأجاد وأفاد، وكان من الفضلاء الأخيار،وله حظ من العبادة

والخير، والثناء عليه جميل.وتوفي في ثالث شوال سنة ست وثمانمائة بطيبة، ودفن بالبقيع وقد جاوز الأربعين بيسير، وعظمت الرزية بفقده، فإنه لم يعش بعد أبيه إلا نحو سنة [٣١] .

١٣- محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد محمد بن عبدالرحمن الحسني،الشريف أبو عبدالله الفاسي المكي المالكي أخو أبي الخير السابق وهو أبو عبدالله الصغير ويلقب بمحب الدين ولد في سنة أربع وسبعين وسبعمائة .بمكة وسمع على غير واحد من شيوخها،وسمع معي بالقاهرة وبقراءتي على جماعة من شيوخنا وله أجازه من عمر بن أميلة،وكان يحضر تدريس أبيه بمكة توفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة [٣٢] .

١٤- محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي المالكي الشريف القاضي رضى الدين أبو حامد ، شقيق أبي الخير ، وأبي عبدالله ولد في رجب سنه خمس وثمانين وسبعمائة وسمع بها ظناً على العفيف عبدالله بن محمد النشاوري والشيخ جمال الدين إبراهيم الأميوطي ، وسمع يقيناً على جماعة من شيوخنا بالحرمين وحفظ عدة من المختصرات في فنون من العلم وتفقه بوالده ، وأخذ العربية عن إمام الحنفيه بمكة الشيخ شمس الدين الخوارزمي والشيخ شمس الدين البوصيري ، وأذن له شيخنا القاضي زين الدين خلف في التدريس ، وذكر لي صاحب الترجمة أنه أذن له في الإفتاء ، وقد ناب في الحكم بمكة عن قاضيها شيخنا العلامة جمال الدين بن ظهيره ، توفي سنة أربع وعشرين وثمانمائه ودفن بالمعلاة. [٣٣]

١٥- محمد بن عبد الصمد المغربي المعروف بالتازي : جاور بمكة سنين كثيرة، واشتغل بالفقه قليلاً، وكان يذاكر من حفظه بمواضع من موطأ مالك، رواية يحيى بن يحيى، ويفهم أنه يحفظه وسمع بمكة على النشاوري، وشيخنا ابن صديق، وغيرهما من شيوخنا. ولم يكن بالمرضى في دينه، والله يغفر له وتوفي في آخر ذي الحجة سنة خمس وثمانمائة، برباط السدرة بمكة، وكان يسكن به، ودفن بالمعلاه[٣٤] .

١٦- محمد بن عبدالمؤمن بن خليفة الدكالي الملقب بالبهاء المكي أجاز له أبو العباس الحجار وجماعة من دمشق باستدعاء خاله الشريف أبي الخير الفاسي وسمع منه الموطأ وعلى الزين الطبري وعثمان بن الصفي والآقشهري سنن أبي داود وعلى جماعه بمكة وبالمدينه ، وسمع من القاضي

ناصر الدين التونسي بالقاهرة وتردد إليها مرات وبها توفي في سنة تسع وستين وسبعمائة وكان باشر الحسبة بمكه نيابةً [٣٥].

١٧- محمد بن علي بن عطية المكناسي ، أبو عبدالله قال شيخنا القطب القسطلاني : هذا ابن عطية سافر وساح ، وجاور بمكه دفعات ودخل الشام والحجاز واليمن وكان فيه صدق وإيثار [٣٦]

١٨- محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله الطائي الحاتمي الأندلسي المرسي ، أبو بكر الملقب محي الدين المعروف بابن عربي الصوفي هكذا نسبه الحافظ ابن مسدي في معجمه وذكر أنه قرأ القرآن بالروايات على نحية بن يحي واختص به سمع من أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون وأبي بكر بن الجد ومن أبي بكر محمد بن خلف بن صاف المقرى وغيرهم وبسبتة من أبي محمد عبيدالله الحجري وغيره وبأشبيلية من أبي محمد عبدالمنعم بن محمد الخزرجي وبملاسية من القاضي أبي بكر بن أبي حمزة وغيره ، وكان جاور بمكة مدة سنين وألف فيها كتابه الذي سماه بالفتوحات المكية وله تواليف أخرى منها : كتاب فصوص الحكم وشعر كثير إلا أنه شابه بتصريح فيه بالوحدة المطلقة وصرح بذلك في كتبه [٣٧]. قال ابن كثير [٣٨] عن كتابه الفتوحات المكية فيها ما يعقل ومالايعقل ، ماينكر ومالاينكر ، ومايعرف ومالايعرف وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح . وقال الذهبي [٣٩]: ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص فإن كان لاكفر فيه ، فما في الدنيا كفر ، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله وذكر ابن حجر بسنده عن الشيخ عبدالسلام السلمي قال : هو شيخ سوء شيعي كذاب [٤٠]

١٩- محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن يوسف بن أحمد الأنصاري الحارثي الخزرجي أبو عبدالله المعروف بابن قطرال الأندلسي ثم المراكشي نـزيل مكة. هكذا وجدت نسبه بخطه وسمع بمصر من على بن هارون الثعلبي، وسمع بمكة الكثير، بقراءته غالباً على الفخر التوزرى، والرضى الطبري، وأخيه الصفى وغيرهم، وحدث. سمع منه جماعة من الأعيان، وأثنوا عليه، منهم الجد أبو عبدالله الفاسي [٤١] ذكر ابن حجر عن ابن الخطيب كان فاضلاً محدثاً من أهل الخيرة ذا ثروة واسعة وتخلى ولازم العبادة . [٤٢] توفي بمكة، في سادس جمادي الأولى سنة عشر وسبعمائة برباط الخوزي – بخاء معجمة- طلع أعلاه لنشر ثيابه، فوقع به الدرابزين ، فسقط إلى الأرض، فمات [٤٣] .

٢٠- محمد بن علي بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي المكي يلقب بالمحب وبالجمال ، سمع من إبراهيم بن النحاس الدمشقي، والحافظ العلائي بمكة. وعلى غير واحد من شيوخهما. وباشر في الحرم نيابة عن أبيه، حتى توفي في شوال سنة ثلاث وستين وسبعمائة بمكة، عن أربع وعشرين . وسبب موته – على ما قيل-: إنه شرب شيئاً وضع له في ماء وهو لايشعر[٤٤].

٢١- محمد بن علي بن يحيى بن على الأندلسي أبو عبدالله الغرناطي المعروف بالشامي لقدوم والده الشام ولد سنة إحدي وسبعين وستمائة بأحواز غرناطة، وسمع بها، وتلا بالسبع على أبي جعفر بن الزبير. وسمع بتونس من أبي محمد عبدالله بن هارون الطائي: الموطأ، رواية يحيى بن يحيى، ثم قدم القاهرة في سنة سبعمائة، ولم يقم. وحج، وتوجه إلى الحجاز، و هذا يدل على أنه استوطن مكة، ولا ريب في ذلك؛ لأنه تأهل فيها بابنه النفيس البهنسي، ورزق منها بنتين، إحداهما: تزوجها جدى على الفاسي، وأولدها عمي محمداً، وعمتي منصورة، وهي أم الحسين، والأخرة: تزوجها القاضي شهاب الدين الطبري وعمه الزين الطبري، وهي أم كلثوم، وذكر البرزالي: أنه أقام بالحرمين نحو خمسة عشر سنة. ومعظم إقامته بالمدينة. وذكر أنه توفي بها، يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرة وسبعمائة[٤٥].

٢٢- محمد بن عمر بن يوسف بن عمر بن نعيم الأنصاري أبو عبدالله القرطبي الفقيه المالكي المقري أخذ القراءات بالمغرب عن جماعة، منهم : أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبيدالله الحجري، وبمصر عن أبي القاسم الشاطبي، وبدمشق من أبي جعفر العتكي، وسمع منهم ومن أبي القاسم بن موقا، وأبي الفضل بن الدليل وغيرهما بالإسكندرية قرأ عليه القطب القسطلاني رحمه الله، ختمة واحدة بالمدينة وسمع منه، وقد سمع عليه جماعة من الأعيان، منهم : الحافظ عز الدين أبو الفتح بن الحاجب الأميني ؛ وقال بعد أن نسبه كما ذكرنا: كان شيخ الحرمين في زمانه، لزهده وعلمه ورفعه مكانه، وذكر أنه كان كثير الاعتكاف والمجاورة لبيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه السلام، وقد أم بالحرم الشريف النبوي وتوفي سنة إحدي وثلاثين وستمائة، ودفن بالبقيع[٤٦].

٢٣- محمد بن غالب بن يونس بن محمد بن غالب الأنصاري الأندلسي الجياني شمس الدين أبو عبدالله المعروف بابن شعبة سمع من أحمد بن عبد الدايم مشيخته، تخريج ابن الظاهرى، وحدث بها وبالأربعين للنووى عنه. ثم رأيت له ثبتاً بسمعات كثيرة على جماعة كثيرين، منهم:

أحمد بن أبي الخير الحداد الدمشقي، سمع عليه المعجم الكبير للطبراني ، ووجدت بخط جدى أبي عبدالله الفاسي، أنه توفى ، سنة اثنتين وسبعمائة. وهذا أصح إن شاء الله تعالى، لأن جدى أقعد بمعرفته لسكونه بالحجاز ، وأما مولده، أنه في سنة سبع وعشرين، وقيل: سنة خمس وثلاثين بجيان[٤٧] .

٢٤- محمد بن قاسم بن قاسم بن مخلوف الحسنى الصقلي الشريف أبو عبدالله المعروف بالبترزق المالكي نزيل الحرمين الشريفين هكذا أملي على نسبه[٤٨] ، وذكر لي أنه ولد سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وأنه سمع بدمشق: جامع الترمذي، وسنن أبي داود، على عمر بن أميلة، وعلى محمود بن خليفة المنبجي : سنن النسائي بفوت معين، في أصل السماع، وعلى إبراهيم بن عبدالله الزيعاوي: سنن ابن ماجه بنابلس ، وكان قدم إلى المدينة، في حدود سنة سبعين وسبعمائة، وسكنها مدة سنين، ولازم قراءة الحديث النبوي عند الحجرة، وصار يتردد إلى مكة، فادركه الأجل، في سنة أربع وتسعين وسبعمائة ودفن بالمعلاة، وشهدت الصلاة عليه ودفنه[٤٩] .

٢٥- محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن علي الحسني الإدريسي ، أبو عبدالله الفاسي ، نزيل مكة سمع بمصر القطب القسطلاني : جامع الترمذي ، وعوارف المعارف للسهروردي وكتاب الفصول في أخبار الشيخ أبي عبدالله القرشي وغيره من المشايخ استوطن مكه ، وسمع بها على جماعة من شيوخها مع أولاده . وعل العز الفاروثي مسند الشافعي مسند الشافعي ، وكتب عن جماعة من العلماء والصالحين وأخذ عنهم ، وصار قدوه في العلم والعمل وكانت وفاته سنة تسع عشرة وسبعمائه بمصر[٥٠] .

٢٦- محمد بن أبي الخير محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي المالكي ، يكنى أبا البركات ، ويلقب بالجمال ولد سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بمكة وبها نشأ وحفظ المختصرات في فنون من العلم واشتغل بالعلم ، وناب عني في الحكم مرتين وولي إمامة المالكية بالمسجد الحرام بتفويض من السلطان بمصر مات سنه ثلاث وعشرين وثمانمائه بمكة ودفن بالمعلاة[٥١] .

٢٦- محمد بن محمد بن عبدالمؤمن بن خليفة الدكالي أبو الخير ابن البهاء المكي سمع من القاضي عز الدين بن جماعة واشتغل بالعربية على الشيخ أبي العباس بن عبدالمعطي بمكة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها نحو عشرة أعوام حتى مات في أوائل سنة إحدى وتسعين وسبعمائة[٥٢] .

٢٧- محمد بن محمد بن عبد المؤمن بن خليفه الدكالي أبو الفضل بن البهاء المكي يلقب بالكمال ، ولد في سنة أربع وستين وسبعمائة أو قبلها بقليل، وهو الظاهر، لما يأتي ذكره. وسمع على القاضي عز الدين بن جماعة بمكة، وأجاز له ابن أميلة، وصلاح الدين بن أبي عمر، وغيرهما من أصحاب ابن البخاري، وأحمد بن عساكر، وعمر بن القواس وغيرهم، وأدب الأطفال بمكتب بشير الجمدار بالمسجد الحرام مدة سنين ، وتوفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة. ودفن بالمعلاة ، وخلف ولدين وثلاث بنات سامحه الله تعالى[٥٣] .

٢٨- محمد بن محمد بن ميمون الجزائري ، أبو عبدالله ، المعروف بابن الفخار لكون جده كان يبع ذلك أصله من الأندلس ومولده بالجزائر من بلاد المغرب قرأ بها القرآن والفقه ثم انتقل إلى تلمسان وأقام بها وثابر على قراءة العلم على جماعة من شيوخها ثم وصل تونس ثم ارتحل إلى مصر فاقام بها أشهراً ثم حج ، وأقام بالمدينه خمسة أعوام يؤدب الأطفال ، توفي سنة إحدى وثمانمائة ودفن بالمعلاة وكان جاور من عام ثمانمائة [٥٤]

٢٩- محمد بن محمد بن الجديدي المالكي ، الشيخ الصالح أبو عبدالله القيرواني ولد بالقيروان ونشأ بها وتفقه على الفقيه القاضي أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد خليل بن فيراز المرادي ، سافر إلى الحج فحج وأقام بمكة في عام اثنين وثمانين وسبعمائة على اجتهاد وعباده ، كان رحمه الله من الزهد على جانب عظيم ومن الورع على شيء صالح مع جلالة مقداره وطول صمت وحسن سمت ، توفي في أوائل سنة ست وثمانمائة غريقاً وهو متوجه إلى اليمن [٥٥] .

٣٠- محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن علي الحسني ، الشريف أبو الخير بن أبي عبدالله الفاسي المكي المالكي ، يلقب بالمحب ولد سنة ثمان وسبعين وستمائة بمكة وسمعَ بها باعتناء أبيه على يحي الطبري وعلى الظهير بن منعة وعلى غيرهم من شيوخ مكة والقادمين إليها ، ورحل به أبوه إلى مصر فسمع بها إلى ابن هارون الثعلبي وعلى ابن أبي الفتوح القرشي وعلى محمد بن عبدالحميد ثم طلب بنفسه فسمع بدمشق من أبي العباس الحجار وعلى النجم العسقلاني ، وتلا بالروايات بمكة على مقرئها العفيف الدلاصي وعلى الشيخ أبي عبدالله محمد بن إبراهيم القصري توفي يوم الجمعة سنة سبع وأربعين وسبعمائة بالمدينة .[٥٦] أثنى عليه ابن فرحون نشأ في عباده الله وارتحل إلى الاسكندرية وأدرك بها من أهل العلم والصلاح وكسب من أخلاقهم وصفاتهم[٥٧] .

٣١- محمد بن محمد بن محمد بن علي بن إبراهيم بن حريث العبدري السبتي خطيب سبته وأمامها ولد سنه إحدى وأربعين وستمائه بمدينة سبتة ونشأ بها وحصل وصار خطيبها ولزم الإقراء في الفقه ثلاثين سنة كان حسن الهيئة منور الوجه كثير البشر ، مع كثرة الخشوع والبكاء خرج من بلده بغية الحج والمجاورة إلى الموت . وكانت أقامته بالحرمين نحو سبع سنين وكان كثير الإيثار والشفقة على الغرباء وحدث بمكة والمدينة سمع منه أعيان من بها ، ووفي سنة اثنين وعشرين وسبعمائة بمكة ودفن بالمعلاة (٥٨)

٣٢- محمد موسى بن علي بن عبدالصمد بن محمد بن عبدالله المراكشي ، الحافظ المفيد جمال الدين أبو البركات المكي الشافعي سبط الشيخ عبدالله اليافعي ولد سنة سبع وثمانين وسبعمائة بمكة المشرفة ونشأ بها قرأ على جماعة في الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والعروض والفرائض والحساب وبرع في هذه العلوم من شيوخه بمكة قاضي قضاتها جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة والشيخ شمس الدين محمد بن محمود الخوارزمي وفي العربية الشيخ خليل بن هارون الجزائري وبالمدينه مسند الحجاز أبي بكر بن الحسين المراغي رحل للرواية والدراية إلى دمشق وبعلبعك وحلب ومصر والقدس والخليل واليمن وتوجه من اليمن لقصد الحج وركب فرساً ليدرك الحج حتى مات بعد الحج من سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة المشرفة ودفن بالمعلاة (٥٩) قال ابن حجر كان حافظاً ذا مروءة وقناعة وصبر على الأذى باذلاً لكتبه وفوائده موصوفاً بصدق اللهجة وقلة الكلام (٦٠).

٣٣- محمد بن موسى بن عائد أبو عبدالله الغماري المغربي الوانوغي المالكي نزيل مكة شيخ رباط الموفق بمكة كان كثير العبادة وأفعال الخير معظما عند الناس متواضعاً لهم ، قاضياً لحوائجهم ، وكان قدومه إلى مكة، وفي سنة ثمانية وسبعمائة، أو قربها، وله من العمر أربع وعشرون سنة. دخل بلاد اليمن، وجال في بلدانها، كصنعاء وما يليها، وشاهدته بمكة بعد سنة تسعين وسبعمائة بقليل، ولم يزل بها حتى مات، إلا أنه في سنة اثنين وعشرين وثمانمائة، توجه لزيارة المدينة النبوية، وجاور بها أشهراً، وولي مشيخة رباط الموفق بمكة، والنظر في مصالحه سنين كثيرة، ولم يكن يعارضه فيما يختاره في ذلك أحد من قضاة مكة ، وكان صاحب مكة الشريف حسن بن علان، ويكرمه ويشفعه كثيراً، وكذلك نوابه، ولما مات، كثر ازدحام الخلق من القضاة والعلماء والأعيان وغيرهم، على حمل نعشه، لحسن معتقدهم فيه، ودفن بالشبيكة رحمه الله(٦١)

٣٤- محمد بن النعمان بن منصور بن أحمد بن حيون بن القاضي أبي عبدالله بن أبي حنيفة قاضي الحرمين وغيرهما [٦٢] ذكر ابن خلكان : أنه ولي القضاء بتقليد من العزيز العبيدي، صاحب مصر، بعد موت أخيه أبي الحسن علي،سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وكان في سجل أخيه: القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز، والخطابة والإمامة، والعيار بالذهب والفضة، والموازين والمكاييل. ولم يزل على ذلك، حتى مات سنة تسع وثمانين وثلاثمائة[٦٣]

٣٥- محمد بن يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله ابن المغيرة الأزدي المهلبي جمال الدين أبو بكر ويقال : أبو المكارم بن أبي أحمد الشهير بابن مسرى ، ويقال : ابن مسد الأندلسي الغرناطي نزيل مكة وخطيبها، وإمام المقام الشريف. ولد يوم عيد الأضحى سنة تسع وخمسمائة بوادي آش من الأندلس ، وقرأ على جماعة، منهم: قاضي الجماعة بقرطبة أبو قاسم بن بقي المخلدي، وجماعة بالمغرب، ثم رحل بعد العشرين وستمائة، فسمع بالثغر، من محمد بن عمار الحراني وغيره، وبمصر من الفخر الفارسي، وأبي القاسم عيسى ابن عبد العزيز بن عيسى اللخمي، وقرأ عليه بالروايات، وأبي الحسن بن المقير وأكثر عنه، وجماعة بمصر، وبدمشق من أبي القاسم الحسين بن هبة الله بن محفوظ بن صصري، وغيره، وبحلب من الموفق عبد اللطيف بن يوسف البغدادي وغيره، ومن أبي البركات عبد الرحمن بن عبد اللطيف الصوفي، وجماعة بمكة وكانت وفاته سنة ثلاث وستين وستمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، قدم المدينة سنة ست وأربعين وستمائة من مصر، وكنت مجاوراً بها، وتوجه إلى مكة، فحج ذلك العام، وأقام بها، إلى أن توفي بها، بعد أن ولي خطابة الحرم، وإمامه المقام [٦٤] . قلت: وليهما بعد الفقيه سليمان بن خليل العسقلاني. وذكر الذهبي عن العفيف المطري: أنه كان بداخل الزيدية، فولوه خطابة الحرم، وكان ينشئ الخطب في الحال. [٦٥] .

٣٦- أحمد بن على بن أبي بكر بن عيسى بن محمد بن زياد العبدري الشيخ الجليل أبو العباس الميورقي كان عالماً فاضلاً، كتب بخطه تعاليق كثيرة مشتملة على فوائد جمة، ووقفها مع كتبه بوج الطائف، وكان سكنه مدة سنين، حتى مات. وسكن مكة أيضاً، وأخذ عن فضلائها، وأخذوا عنه، وكان جميل الثناء مشهوراً بالصلاح والخير كبير القدر، ووجدت بخط محمد بن عيسى قاضي الطائف، أنه توفي بعد الحج من سنة ثمان وسبعين وسبعمائة بوج [٦٦] .

٣٧- أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني السيد الشريف القاضي شهاب الدين أبو العباس بن السيد نور الدين بن السيد القدوة أبي عبدالله الفاسي المكي المالكي والدي تغمده الله برحمته ولد سنة أربع وخمسين وسبعمائة بمكة وسمع على قاضيها شهاب الدين الطبري وعلى الشيخ خليل المالكي والشيخ عبدالله اليافعي وعلى القاضي موفق الدين الحنبلي وسمع بالقاهرة من قاضيها أبي البقاء السبكي وسمع بحلب وكان ذا فضل ومعرفة تامة بالأحكام والوثائق وله نظم كثير ونثر وأذن له في الإفتاء ، ناب عني في الحكم بأخرة وقبلي عن ابن أخته القاضي سراج الدين عبداللطيف بن أبي الفتح الحنبلي ، وولي مباشرة الحرم بعد أبيه في سنة إحدى وسبعين كان كثير المروءة والإحسان إلى الفقراء وغيرهم توفي سنة تسع عشرة وثمانمائة بمكة (٦٧)

٣٨- أحمد بن محمد بن عبدالله التونسي المالكي شهاب الدين أبو العباس المعروف بالمرجاني سمع بمكة على القاضي عز الدين بن جماعة سنن النسائي، رواية ابن السنة، وسمع معظمها على الشيخ فخر الدين النويري، مع ابن جماعة، سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بالحرم الشريف، والسماع بخط شيخنا ابن سكر. ومنه نقلت نسبة هذا ، وسمع غير ذلك على ابن جماعة ، وسبب معرفته بالمرجاني، أنه كان تزوج خديجة بنت الشيخ أبي محمد المرجاني، وهي أم أولاده، على ما ذكر إلى شيخنا السيد تقي الدين عبد الرحمن الفاسي، وذكر أنه يعمل ميعاداً بالحرم، وأنه قام بمكة سنين، وبها مات (٦٨) .

٣٩- أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن علي الحسني ، أبو المكارم بن أبي عبدالله الفاسي المكي ، ولد بالمدينة النبوية سنة أربع وسبعمائة كذا وجدت مولده بخط أبيه وسمع عليه عدة كتب وعلى غيرهم من الشيوخ القادمين إلى مكة ، وأجاز له جماعة من مصر ، وذكر أنه توفي في سنة ثلاث وخمسين بمكة والصحيح أنه توفي بمصر ودفن عند أبيه بالقرافة وكانت له مكارم سامحه الله (٦٩) .

٤٠- أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني ، أبو العباس ذكر ابن فرحون في كتابه "نصيحة المشاور " وقال:كان له من الكرامات والأحوال الجليلة العزيزة اليوم في الناس مالا يحصر ولايعد . وذكر أنه جاور بالمدينة ومكة وبها توفي في سنة أربعين أو في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة (٧٠)

٤١- أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي أبو العباس المعروف بالأقليشي : (٧١)

ذكر ابن الأبار: (٧٢) أن أباه أصله من أقليش، وسكن داني. وبها ولد أبو العباس هذا ونشأ. فسمع أباه وأبا العباس بن عيسى، وتتلمذ له. ورحل إلى بلنسية، فأخذ العربية والأدب عن أبي محمد البطليوسي. وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق، وابن يعيش، وأبي بكر بن العربي، وأبي محمد العلبي، وعباد بن سرحان، وأبي الوليد بن الدباغ، وأبي الوليد بن خيرة. ولقي بالمدينة أبا القاسم بن ورد، وأبا محمد عبد الحق بن عطية، وأبا العباس بن العريف، فروى عنهم ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وأدى الفريضة، وجاور بمكة سنين. وسمع بها من أبي الفتح الكروجي" جامع الترمذي" وحدث بالأندلس والمشرق. وروى عنه: أبو الحسن بن كوثر بن بيش على ما ذكر ابن الأبار، وقال: كان عالماً عاملاً متصوفاً شاعراً مجوداً، مع التقدم في الصلاح والزهد، والعروض عن الدنيا وأهلها، والإقبال على العلم والعبادة ، وله تصانيف كثيرة مفيدة. منها: كتاب الكوكب، وكتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم، عارض به كتاب "الشهاب" للقضاعي- وقد رويته- وكتاب: الغرر من كلام سيد البشر، وكتاب ضياء الأولياء، وهو أسفار عدة، حملت عنه معشراته في الزهد ، وقال ابن الأبار: توفي في صدوره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر، في عشر الخمسين وخمسمائة ، وقال: قال أبو عبدالله بن عياد: توفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين بعدها، وقد نيف على الستين. توفي بمكة .وقد جزم بوفاته بمكة: الحافظ منصور بن سليم الإسكندري (٧٣)

٤٢- إسماعيل بن عمر المغربي المالكي نزيل مكة. كان فقيهاً صالحاً ورعاً زاهداً، كبير القدر: لم أر مثله بمكة على طريقته في الخير، انتقل إلى الإسكندرية وسكنها مدة سنين، ثم انتقل إلى مكة، وجاور بها من سنة إحدى وثماني مائة إلى حين وفاته، إلا أنه ذهب في بعض السنين إلى المدينة النبوية زائراً، وأقام بها وقتاً. وكانت سكناه بمكة برباط الموفق في الغالب، وبه توفي سنة عشر وثماني مائة بمكة، ودفن بالمعلاة. شهدت الصلاة عليه ودفنه،وقد بلغ الستين ظناً (٧٤) .

٤٣- جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عثمان بن عبدالله السلمي الصقلي المحتد البجاني المولد نزيل مكة، المكي المقرئ، الفقيه المحدث، يكنى أبا الفضل. ولد ببجاية سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وتوفي بمكة في ذي الحجة سنة أربع وأربعين وستمائة ، روى عن القاضي أبي نصر محمد بن هبة الله بن حميل الشيرازي. وجدت عنه بالمدرسة المنصورية بمكة، سمع منه بها الحافظ شرف الدين الدمياطي،ومن معجمه لخصت ما ذكرته من حاله (٧٥) .

٤٤- جميل أبو الزين محمد بن ثغر الحبيبي القيرواني : شيخ القيروان : كان جميل رجلاً صالحاً. توفي بمكة، ودفن بالمعلاة، قرب قبر الضباء المالكي، جد الشيخ خليل المالكي، وكانت وفاته في سنة إحدي وخمسين وستمائة. كما وجدت بخط الميورقي [٧٦].

٤٥- حسن بن أحمد بن ميمون بن أبي الفتوح قاسم التونسي المكي المعروف بالمغربي أجاز له التوزري وله نظم كثير، إلا أنه متلاش إلى الغاية. وأجاز لي باستدعاء شيخنا ابن سكر. وليس هو أهلاً للرواية لتظاهره باللعب. وكان بزازاً بالقيسارية المعروفة بدار الإمارة بمكة، وبها مات في أثناء عشر التسعين وسبعمائة سامحه الله تعالى [٧٧].

٤٦- الحسن بن عبدالله بن عمر بن على خلف القيرواني أبو على بن أبي محمد المكي المعروف بابن العرجاء المقرئ الفقيه [٧٨]. ذكر السلفي في "معجم السفر" له أنه قرأ على أبيه، وتفقه على مذهب الشافعي. وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالحرم الشريف، وكان يفتي ويسمع الحديث على إسماعيل الشاوي وطريف الحيري، وأبي محمد بن غزال وغيرهم، قال: وكتب عن أبي الأصبغ الأندلسي عني [٧٩]. وذكره الذهبي في طبقات القراء [٨٠]، وقال: الإمام أبو على القيرواني، قرأ على والده تلميذ أبي معشر، وأجاز له أبو معشر، وقد قيل: إنه قرأ على أبي معشر نفسه، وذلك خطأ. طال عمره وقصده القراء. ثم قال: عاش أبو على إلى حدود الأربعين وخمسمائة، وقيل: عاش إلى سنة سبع وأربعين وخمسمائة. قلت: جزم بوفاته سنة سبع وأربعين القطب الحلبي، كما وجدته بخطه ، قال: وقيل سنة ثمان وأربعين. انتهي .والصواب سنة سبع وأربعين؛ لأني وجدت في حجر قبرة بالمعلاة، أنه توفي يوم الأحد ثامن من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وترجم فيه: بالفقيه الإمام العالم مفتي الحرمين ومقرئهما [٨١].

٤٧- الحسن بن محمد بن علي بن الجزائري إمام المالكية بمكة بالمسجد الحرام ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في معجمه [٨٢].

٤٨- خالد المغربي المالكي : جاور بمكة أوقاتاً كثيرة، من سنين كثيرة، وكان في أثناء السنين التي جاور فيها بمكة، يقيم أشهراً من كل سنة، بوادي لية ويحج في غالب السنين، وربما زار المدينة النبوية غير مرة، وكان له حظ من العلم والعبادة والخير، حسن السمت، وللناس فيه اعتقاد حسن .توفي بمكة في أوائل سنة سبع وعشرة وثمانمائة، ودفن بالمعلاة، وهو في سن الكهولة فيما أحسب، والله أعلم [٨٣].

٤٩- خليل بن عبد المؤمن بن خليفة الدكالي سبط الشريف أبي عبدالله الفاسي ، جد أبي: أجاز له في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من دمشق: الحجاز وجماعة ، وسمع الكثير بمكة على الحجي، والزين الطبري، وعثمان بن الصفي، والأقشهري وغيرهم وبالمدينة من الزبير الأسواني، والجمال المطري، وخالص البهائي، وغيرهم ، توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة في ذي القعدة، أو في ذي الحجة (٨٤) .

٥٠- داود بن موسى الغماري الفاسي المالكي: نزيل الحرمين، عنى في شبابه بفنون من العلم، ونبه في ذلك، وصار على ذهنه فوائد ونكت حسنة يذاكر بها، ثم أقبل على التصوف والعبادة وجد فيها كثيراً ، وسكن الحرمين مدة سنين، نحو عشرين سنة، وإقامته بالمدينة أكثر من مكة بيسير ، وكانت وفاته بالمدينة، في يوم الخميس مستهل المحرم سنة عشرين وثمانمائة، على مقتضى رؤية الناس لهلال المحرم في غير الحرمين، وعلى مقتضى رؤيته فيهما، سلخ الحجة من سنة تسع عشرة، والأول أصوب (٨٥) . وله بمكة ابنة وملك، وكان كثير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وله في ذلك إقدام على الولاة وغيرهم، وبيني وبينه مودة ومحبة، تغمدة الله تعالى برحمته، وأظنه مات في عشر الستين (٨٦) .

٥١- رزين بن معاوية بن عمار العبدري الأندلسي السرقسطي أبو الحسن إمام المالكية بالحرم (٨٧) سمع بمكة من أبي مكتوم بن أبي ذر الهروي: صحيح البخاري. ومن الحسين بن علي الطبري: صحيح مسلم. وحدث ، روى عن قاضي مكة أبو المظهر الشيباني، والحافظ أبو موسى المديني، والحافظ أبو القاسم بن عساكر، قال: وكان إمام المالكية في الحرم، وأجاز للحافظ السلفي، وذكره في كتابه"الوجيز" . وقال: شيخ عالم، لكنه نازل الإسناد، قال: وله تواليف، منها: كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمسة، والموطأ، ومنها، كتاب في أخبار مكة ، وذكر لي أبو محمد عبدالله بن أبي البركات الصدفي الطرابلسي: أنه توفى – رحمة الله – في المحرم سنة خمس وعشرين، يعني: وخمسمائة بمكة، وأنه من جملة من صلى عليه وحضر جنازته (٨٨) .

٥٢- السائب بن عبدالله بن السائب الأنصاري الخزرجي القاضي أبو الغمر – بغين معجمة وراء مهملة– الطنجي: نزيل الحرمين، سمع بمكة على الصفي الطبري، وأخيه الرضى، بقراءة الوادي آشي مع الأقشهري. ومن خط الأقشهري، نقلت نسبه هذا (٨٩) ، وقد ذكره ابن

فرحون في كتابة "نصيحة المشاور" قال: كان من كبار الأولياء المتجلين بالعلم والعمل والزهد. وذكر أنه قرأ عليه الفرائض والحساب، وأنه أقام بالمدينة مدة طويلة، وسكن بالحجرة التي هي مسكن الأولياء والأخيار، برباط دكالة، ثم انتقل إلى مكة، فأقام بها على عبادة وكثرة طواف، حتى أنه لا يكاد يوجد إلا فيه ، يعني الطواف. وذكر أنه طاف يوماً، ثم خرج من المطاف، ودخل دهليز الفقيه خليل- يعني المالكي- عند باب إبراهيم، ثم دعا بفراش واستقبل الكعبة، ثم قضي- رحمه الله تعالى- وذلك في رمضان سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وصلى عليه القاضي نجم الدين الطبري. وذكر أنه لم ير جنازة كثر تابعها من رجال ونساء وكبار وصغار ، مثل جنازته رحمه الله [٩٠].

٥٣- سعادة المغربي [٩١]. ذكره ابن فرحون في كتابه "نصيحة المشاور" قال: كان لنا شيخ عظيم القدر. كاشف لأسرار الحقيقة، كانت إقامته بمكة والمدينة، يتردد بينهما توفي بمكة سنة ثلاثين وسبعمائة [٩٢]

٥٤- سعيد بن سلام المغربي، كنيته أبو عثمان : أصله من القيروان، أقام بالحرم مدة، وصحب أبا علي بن الكاتب، وحبيباً المغربي، وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهر جوري، وأبا الحسن بن الصائغ الدينوري، وغيرهم من المشايخ، وكان أوحد وقته، وهو بقية المشايخ الأولين، ورد بغداد وأقام بها مدة ، ثم خرج منها إلى نيسابور واستوطنها، ومات بها، وأوصى أن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك، وجاور بمكة ستين فوق العشر. وكان لا يظهر في الموسم. ومات أبو عثمان بنيسابور سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، رحمة الله عليه [٩٣].

٥٥- عبدالله بن سعيد بن لباج مولاهم الأموي أبو محمد الشنتجالي الأمويُّ [٩٤] سمع بقرطبة من أبي محمد. وحج في سنة إحدي وتسعين وثلاثمائة، فسمع من أحمد ابن فراس، وعبدالله بن محمد السقطي. وصحب أبا ذر الهروي، ولقي أبا نصر السجزي، وأخذا عنه صحيح مسلم، وجاور بمكة دهراً، وحج خمساً وثلاثين حجة، وزار مع كل حجة زورتين، ورجع إلى الأندلس في سنة إحدي وثلاثين وأربعمائة. وحدث بصحيح مسلم في نحو جمعة بقرطبة. وتوفي في رجب سنة ست وثلاثين وأربعمائة. وكان رجلاً صالحاً خيراً زاهداً، لم يكن للدنيا عنده قيمة ، عاقلاً، وكان يسرد الصوم، ويكتحل بالإثمد كثيراً [٩٥].

٥٦- عبدالله بن طلحة الأندلسي أبو بكر توفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة بمكة، ذكره ابن الفضل في وفياته، وقال: ذو معارف، وذكره الذهبي في وفياته في مختصر التكملة لابن الأبار فقال : عبدالله بن طلحة بن محمد اليابري يكنى أبا بكر وأبا محمد نزيل إشبيلية كان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وكان بارعاً فيه وله رد على ابن حزم [٩٦].

٥٧- عبدالله بن عبد الحق السوسي أبو محمد ذكره الجد أبو عبدالله الفاسي في تعاليقه التي وجدها وقال عنه : إنه أخذ نفسه في آخر أمره بطريق من الورع، لم أسمع أن أحداً تعاطاها ممن سكن الحجاز، فيمن تأخر، ولم يزل عليها إلى أن مات في رجب سنة ثلاث وتسعين وستمائة. ووجدت بخطه في موضع آخر: أنه توفي بمكة، ودفن بالمعلاة [٩٧].

٥٨- عبدالله بن عبد السلام بن عبد الرحمن الدكالي نزيل مكة أبو لكوط ، ذكره القطب القسطلاني في " ارتقاء الرتبة "فقال : ورأيت سيدي الشيخ العارف أبا لكوط الدكالي ، وكان من رجال الله تعالى وأرباب المجاهدات والمكاشفات والأحوال والمنازعات ، توفي الشيخ أبو لكوط سنة تسع وعشرين وستمائة بمكة ودفن بالمعلاة [٩٨].

٥٩- عبدالله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني أبو محمد المعروف بابن العرجاء عبدالله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني المقرئ، أبو محمد المعروف بابن العرجاء: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام، ذكره السلفي في معجم السفر[٩٩] له، وكان هو من أصحاب أبي معشر الطبري، قرأ عليه القرآن بروايات. ثم بلغني أن ابنه أبا علي قال: قرأ أبي على عبد الباقي بن فارس الحمصي، وعلى أحمد بن نفيس الطرابلسي وغيرهما بمصر. وقرأت ذلك بخطه، لكنه لم يذكره لنا. وسمع معنا من غير واحد من شيوخ الحرم، وكان شافعي المذهب رحمه الله تعالى. ومولده بالقيروان. وكان إمام مقام إبراهيم، وأول من يصلي من أئمة الحرم، قبل المالكية والحنفية والزيدية، وسمع منه: أبو طاهر السلفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة. وقال: انتهت إليه رئاسة الإقراء [١٠٠]

٦٠- عبدالله المغربي المعروف بالبجائي : كان رجلاً مباركاً كثير التلاوة للقرآن العظيم، يجهر بذلك في المسجد، وعلى قراءته أنس. توفي في أوائل سنة ثلاث وثمانمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، بعد أن جاور بمكة سنين كثيرة، على طريقة حسنة [١٠١]

٦١- عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر المرسي الرقوطي المعروف بابن سبعين نسبة إلى رقوطة، وهي حصن منيع بقرب مرسية، يلقب بالطقب، ويعرف بابن سبعين الصوفي . ذكر أبو حيان، نقلا عن القسطلاني، أنه اشتغل بمرسية في مبدأ أمره بعلوم الأوائل، من المنطق، والإلهي، والطبيعي، والرياضي، الذي مجموع الحكمة عليه، التي تدعى الفلسفة، ونظر في شيء من أصول الدين، على طريقة الأشعرية المتقدمين، ومهر فيما ظهر به من المعتقد، وأظهر أن ما قال به هو عين التحقيق، وأنه فوق التصوف رتبة، وصنف كتباً مشتملة على شرح ما ادعاه، منتظمة في سلك الوحدة، وأكثرها: كتاب "فكر المعارف" وسماه "النور اللامع في الكتاب السابع" وله مختصرات، منها: الرضوانية، والفقيرية، والإحاطة، وهي عنده الغالية القصوى، فيما قرره من هذا المذهب... وما زال تلفظه البلاد، حتى استقر بمكة عند واليها أبي نمي، وتقدم عندها، وكان قد جرح جرحاً شديداً، فعالجه ابن سبعين حتى برئ ، وقد سمعت قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العبد يقول: رأيت ابن سبعين بمكة، وهو يتكلم للناس بكلام ألفاظه معقولة المعنى، وحين تركبها لا تفهم لها معنى . ووجدت بخط الميورقي: أنه توفي سنة تسع وستين وستمائة، وعمره نحو خمس وخمسين سنة ، وكانت وفاته بمكة ، بعد أن جاور بها سنين كثيرة ودفن بالمعلاة [١٠٢].

٦٢- عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي ، يكنى أبا زيد ويلقب بالتقي شيخ المالكيه بمكة ذكره لي أنه ولد سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بمكة وأن أباه استجاز له بإثر مولده من جماعة ، وأنه أسمعه بالمدينه شيئاً من آخر الشفا للقاضي عياض على الزبير بن على الأسواني وسمع على والده بعض الموطأ ، وسمع على الشيخ إبراهيم بن الكمال محمد بن نصر الله بن النحاس وعلى الإمام نور الدين على بن محمد الهمداني والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسين الهكاري وتاج الدين أحمد بن عثمان بن على والقاضي عز الدين بن جماعة والشيخ خليل المالكي والشيخ موسى المراكشي المالكي ، وتصدى بعده للتدريس والفتوى بمكة ودام على ذلك نحو خمس عشرة سنة ، وانتفع الناس به في ذلك كثيراً ، وكان جيد المعرفة بالفقه ، وكان حسن التدريس والفتوى جليل القدر له وقع في النفوس ، ذا ديانة وعبادة ، ومحاسن كثيرة ، وهو من شيوخي الآذنين لي في الإفتاء والتدريس ، توفي سنة خمس وثمانمائة بمكة ودفن بالمعلاة [١٠٣].

٦٣- عبد الرحمن الغماري الفاسي عبد الرحمن الغماري الفاسي: ذكره جدي أبو عبدالله الفاسي في تعاليقه، وقال: كان كثير التصوف كثير الكرامات ، ووجدت بخط جدي: أن أمين الدين القسطلاني، أخبره عمن لقي من شيوخ مكة، أن الشيخ عبد الرحمن هذا، كان ينفق كل يوم في مكة على ثلاثمائة فقير، وكان مجرداً[١٠٤] .

٦٤- عبد العال بن علي بن الحسن المراكشي عبد العال بن علي بن الحسن المراكشي: توفي ليلة التاسع والعشرين من شهر رجب، سنة إحدي وسبعين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة[١٠٥] .

٦٥- عبد القادر بن أبي الفتح محمد بن أبي المكارم أحمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد عبد الرحمن الفاسي المكي الحنبلي القاضي محي الدين بن السيد شهاب الدين: نائب الحكم بمكة، ونائب الإمامة بمقام الحنابلة بالمسجد الحرام، ولد في سنة إحدي وتسعين وسبعمائة، وعني بدرس القرآن. فلما بلغ، أكثر من تجويده وقراءاته وكان قرأ حفظاً في "العمدة" في الفقه، الشيخ موفق الدين بن قدامه الحنبلي، ولعله أكملها، أقبل كثيراً على النظر في كتب فقه الحنابلة وغيرها، فتنبه في الفقه وغيره، وأفتي في وقائع كثيرة وتوفي وقت الظهر، من يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان المكرم، سنة سبع وعشرون وثمانمائة بمكة، وصلى عليه عقيب صلاة العصر، خلف مقام الحنابلة بوصية منه. ودفن بالمعلاة، سامحه الله تعالى، وهو ابن عم أبي ، رحمهم الله تعالى[١٠٦] .

٦٦- عبد القوى بن محمد بن عبد القوى البجائي، المغربي أبو محمد : نزيل مكة، قدم إلى ديار مصر في شبيبته، فأخذ بها عن الشيخ يحيى الرهوني، وغيره من علمائها، وسكن الجامع الأزهر، ثم انتقل إلى مكة، وأخذ بها عن الشيخ موسى المراكشي وغيره. وسمع بها من النشاوري، وسعد الدين الإسفرايني، وغيرهما. ، ودرس بالحرم الشريف، وأفتي باللفظ قليلاً، تورعاً. وكان ذا معرفة بالفقه، يستحضر كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار المستحسنة، وله حظ من العبادة والخير ، جاور بمكة أزيد من ثلاثين سنة، إلا أنه كان يخرج في بعض الأوقات إلى الطائف، ويقيم بها قليلاً، ثم ترك ذلك. وولد له بمكة عدة أولاد ، توفي سنة ست عشرة وثمانمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، وحمل نعشه الأعيان من أهل مكة للتبرك به[١٠٧] .

٦٧- عبد اللطيف بن أبي المكارم أحمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي المكي ، يلقب بالسراج إمام الحنابلة، أخو الشريف أبي الفتح السابق ، سمع من عثمان بن الصفي سنن أبي داود، ومن جماعة بعده، وولي الإمامة بعد صهره الجمال محمد بن القاضي جمال الدين الحنبلي، في سنة تسع وخمسين وسبعمائة. واستمر عليها حتى مات سنة اثنتين

وسبعين وسبعمائة شهيداً مبطوناً بمكة ودفن بالمعلاة، أخبرني بوفاته والدى أعزه الله تعالى، وسألت عنه ابن عمه، شيخنا العلامة السيد عبد الرحمن بن أبي القاسي، فذكر أنه حفظ مختصر الخرقي. وكان ذكياً، وله شعر [١٠٨] ، ووجدت بخط شيخنا القاضي جمال الدين بن ظهيرة: أنه توفي سنة سبع وخمسين ، ومولده سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس، كذا وجدت مولده بخط شيخنا القاضي جمال الدين بن ظهيرة. وذكر أنه رآه بخط المذكور [١٠٩] .

٦٨- عبد الملك بن عبدالله بن محمد بن محمد البكري أبو مروان بن الشيخ الولي العارف ابن محمد المعروف بالمرجاني التونسي : نزيل مكة، صحب الشيخ نجم الدين عبدالله الأصبهاني ، وروى عنه ، توفي الشيخ عبدالملك المرجاني سنة أربع وخمسين وسبعمائة بمكة ودفن بالمعلاة نقلت وفاته من حجر قبره ، ومولده سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس [١١٠].

٦٩- عبدالملك بن علي الصنهاجي المكناسي توفي في شهر شوال سنة أحدى وسبعين بمكة ودفن بالمعلاة ومن حجر قبره لخصت هذا وترجم فيه بالشيخ الصالح [١١١] .

٧٠- عبد المؤمن بن خليفه بن عبد الملك الدكالي : نزيل مكة، سمع بمكة في سنة إحدي وثلاثين وسبعمائة، على عيسى الحجي، والزين الطبري، ومحمد بن الصفي، وبلال عتيق ابن العجمي، والجمال المطرى: جامع الترمذي، وعلى غيرهم، وكان رجلاً صالحاً، عابداً فقيها ، وناب في العقود عن القاضي شهاب الدين الطبري، وعن الشيخ خليل المالكي في الإمامة سنة إحدي وأربعين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة [١١٢]

٧١- عبد الواحد بن الحسن الدرعي المغربي الصهاجي : كذا هو منسوب في حجر قبره بالمعلاة. وقبره إلى الجانب قبر الشيخ موسى المراكشي، وهو الشيخ عبد الواحد، الذي كان يجاور بالمدينة ومكة؛ لأن والدى ذكر لي أن الشيخ موسى دفن إلى جانبه ، وقد سألت عنه شيخنا السيد عبد الرحمن بن أبي الخير الفاسي، فقال: كان رجلاً صالحاً كثير الميل والإحسان إلى الفقراء، جاور بالحرمين مدة طويلة. ومات بمكة [١١٣] .

٧٢- عبد الواحد القيرواني : ذكره الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه " أعون النصر، وأعيان العصر" . قال: أخبرني شيخنا أثير الدين- يعني أبا حيان الأندلسي- قال: كان عندنا بالقاهرة، وله نظم حسن، ورحل إلى الحجاز واستوطن مكة، وصحب ملكها أبا نمي الحسني وله فيه أشعار حسنة أجاد فيها غاية ونظم فيها نظماً كثيراً [١١٤] .

٧٣- عبدالواحد التونسي المالكي المعروف بابن الكاتب ، ذكره لي هكذا شيخنا أبوبكر بن قاسم بن عبدالمعطي ، وقال : كان إماماً فاضلاً علامة ، يفتي مع الزهد والأدب ، أقام بمكة مدة وكان يسكن في رباط الموفق وكان يشتغل فيه وفي الحرم ، توفي في عشر الستين وسبعمائة بالناصرية من أعمال مصر [١١٥] .

٧٤- عتيق بن أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي الأريولي : نسبة إلى بلدة في بلاد الأندلس، يقال لها: أريولة، ذكره هكذا، أبو سعد بن السمعاني الحافظ في معجمه، وقال: شيخ صالح مميز حسن السيرة، جاور بمكة قريباً من خمسين سنة، سمع النقيب أبا الفوارس طراد الزينبي

كتبت عنه في النوبة الأولى مجلساً، أملاه النقيب بمكة، وسألته عن ولادته فقال: في الحرم سنة سبع وستين وأربعمائة. وأريولة من بلاد الأندلس، وتوفي بمكة سنة نيف وثلاثين وخمسمائة [١١٦] .

وذكره السلفي في معجم السفر: [١١٧] وقال: كان من أهل القرآن، والصلاح الظاهر، والجد في طلب الحديث، ولما قدم الثغر، كان يحضر عندي، وسمع علي وعلى غيري سنة وعشرين وخمسمائة، ومضى إلى مكة وجاور بها سنين كثيرة، يؤذن أحياناً في الحرم احتساباً للمالكية، ثم رجع إلى ديار مصر، وتوجه إلى الأندلس وانقطع عنا خبره. وكان كبير السن .

٧٥- عطية بن علي بن عطية بن علي بن الحسن بن يوسف القرشي القيرواني الطبي المعروف بابن لاذخان : جاور بمكة مع والده سنين، وسمع من عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الطبري، وقدم بغداد، وكان أديباً، توفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ذكره هكذا الشيخ صلاح محمد بن شاكر الكتبي في تاريخه، وأظنه نقل هذه الترجمة، من تاريخ صلاح الدين الصفدي [١١٨] .

٧٦- علوان بن الحسن الأغلبي ،يكنى أبا عقال المجاور بمكة كان من ملوك بني الأغلب وهم من ملوك المغرب ، فانقطع وصحب الشيخ أبا هارون الأندلسي ثم لحق بمكة شرفها الله تعالى ومات بمكة شرفها الله تعالى في سنة ست وتسعين ومائتين [١١٩] .

٧٧- علي بن حميد بن عمار الأطرابلسي أبو الحسن المكي : سمع صحيح البخاري من أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي، وتفرد به عنه، ورواه عنه جماعة، آخرهم عبد الرحمن بن أبي

حرمي، قال الذهبي: حدث به في سنة إحدي وسبعين وخمسمائة، وترجمة بالمقرى النحوي . وتوفي في شوال سنة ست وسبعين وخمسمائة بمكه[١٢٠]

٧٨- علي بن خلف بن معرور بن علي بن عبدالله الكومي الحمودي العبروسى التلمساني أبو الحسن الفقيه المالكي تفقه على مذهب مالك بن أنس رحمه الله ونظر في الأصلين مع ورع وزهد وكان يحاضر عند صاحب المغرب وله منه جانب وآثر الآخرة على الدنيا ورحل وقدم مصر قديماً واشتغل بالإسكندريه على الإمام أبي صالح بن أسماعيل المعروف بابن معاف مدة وجاور بمكة سنين ، توفي بمصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة [١٢١]

٧٩- علي بن عبدالله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي : إمام المالكية بالحرم الشريف، حج سنة اثنى عشرة، وأخذ عن أبي بكر الطرطوشي: سنن أبي داود، وصحيح مسلم - أخذه عن ابن طرخان- وجامع أبي عيسى بن المبارك، ودخل الأندلس مرابطاً، ثم حج ثانياً، وجاور وأم بالحرم، وأصله من مكناسة الزيتون . ذكره ابن الأبار في تكملة الصلة لابن بشكوال، وقال: كان زاهداً ورعاً محسناً إلى الغرباء، توفى بمكة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، عن سبع وثمانين سنة [١٢٢]. وألفيت حجراً بالمعلاة مكتوب فيه: إن هذا قبر أبي الحسن علي بن حمود المكناسي. وأنه: توفي ليلة الاثنين في العشر الأوسط من جمادي الآخرة، سنة إحدي وسبعين وخمسمائة. وترجم فيه: بالفقيه الزاهد، إمام المالكية بالحرم الشريف [١٢٣].

٨٠- علي بن عبدالله بن عيسار السوسي أبو الحسن : توفي في العشر الأخير من ذي القعدة سنة ثمان وستين وخمسمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، ومن حجر قبره كتبت ما ذكرته من حاله، وترجم فيه: بالشيخ الفاضل العابد المقري [١٢٤].

٨١- علي بن عبدالله بن محمد بن عبد النور التلمساني، القاضي أبو الحسن بن أبي محمد: قدم إلى مكة حاجاً في سنة أربع وستين وسبعمائة، وطاف بالبيت الحرام وسعى في يوم قدومه وتوفي إثر ذلك ودفن بالمعلاه [١٢٥].

٨٢- علي بن عبداللطيف بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي ، يلقب نور الدين إمام مقام الحنابلة بالمسجد الحرام ولد في العشر الأخير من شوال سنة اثنين وسبعين وسبعمائة قبل موت أبيه ، واستقر عوضه بالإمامة بمقام الحنابلة بالحرم الشريف وباشر

ذلك عنه عمه الشريف أبو الفتح الفاسي مدة سنين حتى مات في ليلة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانمائة ببلاد اليمن (١٢٦)

٨٣- عمر بن محمد بن مفرج القابسي إمام المالكيه بالحرم الشريف سمع منه أبو بكر يحي ابن سعدون القرطبي (١٢٧)

٨٤- عيسى بن يحيى الريغي المغربي المالكي : نزيل مكة، كان خيراً متعبداً، معتنياً بالعلم وإفادة، وله في النحو وغيره نباهة، وكان كثير السعي في مصالح الفقراء الطرحي، وجمعهم من الطرقات إلى المرستان المستنصري، بالجانب الشامي من المسجد الحرام، وربما حمل الفقراء المنقطعين بعد الحج إلى مكة من منى ويحصب، حاشية المطاف بالمسجد الحرام، ويحصب، حاشية المطاف بالمسجد الحرام، ويقوم بما يجب في ذلك، لمن يحمل الحصباء لهذا المحل ، وقد جاور بمكة سنين كثيرة، تقارب العشرين، وتأهل فيها بنساء من أعيان مكة، ورزق بها أولاداً، وبها توفي ليلة الاثنين سلخ المحرم، أو مستهل صفر، سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ودفن بالمعلاة، وهو في عشر الستين ظناً، وقد سمع الحديث بمكة على جماعة من شيوخها والقادمين إليها (١٢٨) .

٨٥- غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري أبو التمام الأندلسي : كتب عنه السلفي أبياتاً لأبي العلاء المعري عنه، في المحرم سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وذكر أنه جاور بمكة سنين كثيرة، بعد أن جاوز الستين وأنه سمع من أبي يعلى بن الفراء، وابن المهندس، وابن المأمون، ونظرائهم.وروى عنه أبو بكر الطرطوشي، وأثنى عليه، وكان من أعيان فقهاء المالكية، لخصت هذه الترجمة من معجم السفر للسلفي (١٢٩) قال الذهبي (١٣٠) طاف الشام والعراق واليمن وجاور بمكة .

٨٦- القاسم بن علي بن أحمد بن على بن عبد المعطي الأنصاري الأندلسي أبو محمد : سمع بمصر والشام من جماعة، وحج وأقام بمكة حتى مات بها، في ذي الحجة سنة ستين وستمائة. ذكره الشريف أبو القاسم الحسيني في وفياته (١٣١) .

٨٧- منصور بن حمزه بن عبدالله الخاصي أبو علي المكناسي ، أمام المالكية بالحرم الشريف إمام المالكية بالحرم سمع من أبي عبدالله بن أبي الصيف (١٣٢)

٨٨- موسى بن علي بن عبد الصمد بن محمد بن عبدالله المراكشي العلامة القدوة العارف بالله أبو محمد وأبو عبدالله المالكي : نزيل مكة. صحب بها الشيخ عبدالله اليافعي مدة ، وسمع منه كتاب "الرسالة للقشيري" وحدث به عنه، ودرس وأفتى بالحرمين، مع غزارة العلم، وأهلية النظر والترجيح، والعبادة الكثيرة، والورع الشديد الدائم، وانتفع به في العلم جماعة كان كريم النفس، كثير الإيثار للفقراء، وذكر لي: أنه ورد مكة في سنة ثلاث وستين وسبعمائة حاجاً على طريق الصحراء، مع التكاررة، وتوجه بعد حجه إلى المدينة ، فأقام بها سنة أربع وستين، ثم رجع إلى مكة واستوطنها في سنة خمس وستين، وصار يتردد إلى المدينة، ومات بمكة في يوم السبت التاسع عشر، من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة، وشهد جنازته، أمير مكة، عنان بن مغامس، ومشى فيها وقد شهدت جنازته بحمد الله (١٣٣) .

٨٩- يحيى بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيني الأندلسي المالقي المكي أبو زكريا : وجدت بخطه أنه قرأ القرآن العظيم، من أوله إلى آخره، بقراءات الأئمة السبعة، من طريق "التيسير" و"التبصير" و" الكافي" و "الإدغام الكبير" من طريق ابن شرح، على الشيخ أبي محمد عبدالله بن أيوب. وبلغني أن ابن صفوان، كان عارفاً بالقراءات، وأنه أم بمقام المالكية، نيابة عن الشيخ خليل المالكي، وأنه توفى في سنة اثنين وسبعين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، بالتربة المعروفة بتربة بيت القسطلاني. ذكره الحافظ غرس الدين خليل الأقفهسي، في مشيخة القاضي جلال الدين بن ظهيرة، وقال في ترجمته: قدم مكة، فجاور بها مدة، على طريقة حسنة مرضية، وأم بمقام المالكية عن شيخنا الإمام أبي الفضل خليل وغيره، وكان إماماً عالماً عارفاً بالقراءات الغريبة، صالحاً زاهداً (١٣٤) .

٩٠- يحيى بن محمد بن أحمد بن فتوح بن نصر بن سليمان بن المرحل الأنصاري الأندلسي : الفقيه، قاضي الطائف، وخطيب مشهد سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما. رأيت جميع ذلك ، بخط الشيخ جمال الدين المرشدي المكي الحنفي، فيما نقله من خط الشيخ أبي العباس الميورقي، فإنه ذكر أن ولده أبا يوسف يعقوب، أنشده شيئاً لربيعة الرأي، شيخ الإمام مالك، وذكره ووصف والده صاحب الترجمة بما ذكرناه، ووصف ولده بالابن النجيب المبارك الحسيب، وولده محمد بالفقيه الإمام الصالح الورع، المهاجر إلى أقطار مكة شرفها الله تعالى، الأندلسي مولداً، اللقيمي موطناً، ذو الكرامات المذكورة، والبركات المشهورة (١٣٥) .

٩١- يحى التونسي : صحب الشيخ أبا العباس المرسي، وتوجه بعد وفاته مع الشيخ نجم الدين الأصبهاني والشيخ عبد الحميد الموقاني إلى مكة ، فجاور بها مدة طويلة، ثم توجه الشيخ يحى، والشيخ عبد الحميد، إلى المدينة، وناب الشيخ يحى في الإمامة والخطابة بها، عن القاضي شرف الدين الأميوطي. وتوفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بالمدينة (١٣٦).

٩٢- يحى التونسي : ذكره لي شيخنا ابن عبد المعطي، وقال: قرأ على البرهان الجعبري، وعلى ابن وثاب. وقرأ بمكة على البرهان المسروري، وأجاز الإقراء بالسبع، وقرأ هو عليه لابن كثير. وتوفي بمكة في الفصل، يعنى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وكان تزوج زوجته الفخر التوزري (١٣٧)

٩٣- يعقوب بن يحى بن محمد بن أحمد بن فتوح بن نصر بن سليمان بن المرحل الأنصاري الأندلسي أبو يوسف : ابن الفقيه الإمام الصالح، قاضي الطائف وخطيبها، ابن الفقيه الإمام الصالح الورع المهاجر إلى أقطار مكة، الأندلسي مولداً، اللقيمي موطناً، ذو الكرمات المذكورة، والبركات المشهورة (١٣٨)

٩٤- يوسف بن عيسى بن عياش التجيبي الأندلسي المالكي : المؤدب بالمسجد الحرام، سمع من العفيف النشاوري " السيرة" للمحب الطبري، وسمع عليه، وعلى الشيخ أبي العباس بن عبدالمعطي، والقاضي فخر الدين أبي اليمن محمد بن العلاء محمد بن الكمال محمد بن أسعد بن عبد الكريم الثقفي القاياتي الشافعي "الشفاء" للقاضي عياض، بالمسجد الحرام، في مجالس أخرها الرابع من شعبان سنة خمس وثمانين وسبعمائة . كان يؤم بمقام المالكية، نيابة عن القاضي نور الدين النويري، وأدب أولاده مع جماعة من أولاد أعيان الحرم، وكان خيراً ، توفي بمكة بعد أن جاور بها سنين كثيرة ، سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بالمعلاة (١٣٩).

٩٥- يوسف بن محمد بن محمد بم محمد بن عمران الطنجي المؤدب بالحرم الشريف هكذا وجدته منسوباً بخط شيخنا ابن سكر ، وسألت عنه السيد العلامه تقي الدين الفاسي ، فذكر أنه كان فقيهاً صالحاً عابداً ورعاً زاهداً كريماً محسناً الى الفقراء ، ثم انتقل إلى المدينة بعد أقام بمكة أكثر من ثلاثين سنة ، ومات بها سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٤٠)

٩٦- أبو بكر بن عبد الرازق الدكالي المالكي : نزيل مكة، كان كثير الخير والصلاح والورع، مجتهداً في العبادة، بحيث يستغرق فيها أوقاته، جاور بمكة بضعاً وعشرين سن، ملازماً للصلاة والطواف والصيام، وتوجه في سنة عشر وثمانمائة أو قربها، إلى المدينة النبوية زائراً، فمكث بها أشهراً، ثم عاد إلى مكة، وكذلك في سنة اثنتين وثمانمائة، وعاد إلى مكة، وما خرج من مكة بعد ذلك لغير الحج والعمرة. وله معرفة بمذهب مالك، بالإسكندرية وسكنها مدة سنين ، وكان قدومه إلى مكة في سنة إحدي وثمانمائة، أو قبلها بقليل، ورزق بمكة من أمة تسرى بها ولداً وبنتاً، فماتا، ثم أمهما، وكثر أسفه على ابنه، فتعلل بعده نحو أربعة أشهر، حتى مات شهيداً مبطوناً، سنة سبع وعشرين وثمانمائة بمنـزلة بالخزامية بمكة المشرفة، وصلى عليه عند الكعبة المعظمة عقيب صلاة العصر، ودفن بالمعلاة، وكان الجمع وافراً في تشيعه وأظنه من أبناء الستين أوقربها (١٤١) .

٩٧- أبو عبدالله الشاطبي : خادم الشيخ أبي العباس المعروف بالرأس الإسكندري. ذكره القطب القسطلاني في "ارتقاء الرتبة" وقال: قد أقامه الله تعالى في خدمة الفقراء والإيثار لهم، وجاور بمكة في آخر عمره إلى أن مات بها، تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركته (١٤٢) .

خاتمة البحث :

في نهاية هذا البحث الذى استعرضت فيه تراجم بعض علماء وأهل العلم من سكان أهـل المغرب والأندلس الذين أستقروا في بلد الله الحرام وكان لبعضهم شأن ومكانة كبيرة وذلك من خلال الكتاب القيم : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لمؤلفه تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي توصلت من خلل البحث إلى بعض النتائج هي :

نتائج البحث :

١- انفتاح وتنقل المسلمين في العالم الإسلامي ساعد على نهضة علمية وحضارية .

٢- التعريف بأهمية كتاب العقد الثمين وأنه من مصادر أعيان البلد الحرام .

٣- سعة علم الإمام تقي الدين محمد أحمد الفاسي وكثره شيوخة ورحلاته.

٤- أهمية كتب التراجم في تأريخ وأخبار مكة المكرمة .

٥- تنوع مصادر الامام تقي الدين الفاسي في تراجم كتابه العقد الثمين .

٦- وصف طبعات كتب العقد الثمين وأنه بحاجه الى إخراجه بتحقيق دقيق .

٧- وقوع بعض الأخطاء في تحقيق وطبعات كتاب العقد الثمين .

٨- إظهار محتوى كتاب العقد الثمين في أجزائه الثمانية الذي يؤرخ لتراجم سكان مكة المكرمة .

الهوامش

(١) المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : ٢/٥

(٢) تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي ، العقد الثمين : ١/ ٣ أعتمدت في البحث على طبعة دار الرسالة بتحقيق محمدحامد الفقي وطبع طبعة أخرى بتحقيق محمد عبدالقادر أحمد عطا عن دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، مع ملاحـــظة وجود أخطاء في ترقيم التراجم انظر العقـــد الثمين : ٦/ ٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ١/ ٣

(٤) العقد الثمين : ١/ ٣٣١ ترجم المؤلف لنفســه في كتابه العقد الثمين ضمن المترجم لـــهم ، وانظر أيضاً درر العقود الفريده ، أحمد المقريزي : ١٢٣/٣ إنباء الغمر في بأبناء العمر ، ابن حجر العـــسقلاني : ١٨٧/٨ ، الضوء اللامع ، محمد السخاوي : ١٨/٧ شذرات الذهب ، عبدالحي العكري : ٩/ ٢٨٩ ، المنهل الصافي ، ابن تغري بردي : ٣٨١/٣

(٥) العقد الثمين : ٣٣١/١-٣٤١

(٦) المصدر السابق : ٣٣١/١-٣٤١

(٧) نيل المنى بذيل بلوغ القرى ، النجم بن فهد ، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة : ١/ ١

(٨) المصدر السابق : ٣٤١/١-٣٤٦

(٩) المصدر السابق : ٣٦٣/١

(١٠) المصدر السابق : ١/ ٢٩١ (الترجمة رقم ١٨) شمس الدين الذهبي ، طبقات القراء : ٢/ ٦٦٣

(١١)شمس الدين الذهبي ، تاريخ الاسلام تحقيق د.بشار عواد معروف : ٢٨٣/١٠

(١٢) العقد الثمين ١/ ٣٠٨ (الترجمة رقم ٣١)

(١٣) ابن سيد الناس : ١٥/١

(١٤) العقد الثمين : ٣٠٨/١ (الترجمة رقم ٣٢)

(١٥) محمد بن عبدالرحمن السخاوي : الضوء اللامع : ٧/ ٣ ، عبدالحي بن أحمد العكري ، شذرات الذهب : ٩/ ٢٠٣-٢٠٤

(١٦)المصدر السابق : ٣١٥/١

(١٧)المصدر السابق : ٣٨٧/١ (الترجمة رقم ٩٣)

(١٨)المصدر السابق ١/ ٤٣٥ (الترجمة رقم ١٢٣) وانظر عبدالرحمن بن المنذر الـــرازي ، الجـــرح والتعـــديل : ٢١٦/٧.

(١٩)العقد الثمين : ٤٥٢/١ (الترجمة رقم ١٣٨)

(٢٠)العقد الثمين : ٢٩/٢ (الترجمة رقم ١٩٥)

(٢١)العقد الثمين :٢/ ٤٢ (الترجمة رقم ٢٠٤) وانظر : ابن العماد ، شذرات الذهب :٥٢١/٨ ابن حجر ، إنباء الغمر :٣٤٢/٢ ابن حجر ، الدرر الكامنة :٤٦٦/٣ وفيه الأنجي

(٢٢)العقد الثمين :٢/ ٨١ (الترجمة رقم ٢٣٤) وانظر محمد بن عبدالله القضاعي ابن الأبار ، التكمله لكتاب الصله : ٢/ ٦٦٣-٦٦٤

(٢٣)الحافظ ابن النجار البغدادي ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ١٥/٢١

(٢٤)شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء : ٣١٣/٢٣-٣١٧

(٢٥)زكي الدين عبدالعظيم المنذري ، صله التكملة لوفيات النقلة : ص ٢٥٩-٢٦٠

(٢٦)العقد الثمين : ٢/ ٩٤ (الترجمة رقم ٢٤٤)

(٢٧)ابن أبي شامة ، ذيل الروضتين : ١٩٥-١٩٦

(٢٨) العقد الثمين : ٩٧/٢ (الترجمة رقم ٢٤٩)

(٢٩)ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة : ٣/ ٤٩٦

(٣٠) العقد الثمين : ٩٧/٢

(٣١) المصدر السابق : ١١٢/٢ (الترجمة رقم ٢٦٦) وأنظر السخاوي ، الضوء اللامع : ٤٠/٨ المقريزي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : ٢١١/٣

(٣٢) المصدر السابق : ١١٣/٢ (الترجمة رقم ٢٦٧)

(٣٣) العقد الثمين : ٢/ ١١٥ ــ ١١٨ (الترجمة رقم ٢٦٨)

(٣٤) المصدر السابق : ٢ / ٣٠٥-٣٠٧ (الترجمة رقم ٢٧٢) وانظر السخاوي ، الضوء اللامع : ٨/ ٥٨

(٣٥) العقد الثمين : ١٢٩/٢ ــ١٣٠ (الترجمة رقم ٢٨٧)

(٣٦) المصدر السابق : ١٥٩/٢ ، (الترجمة رقم ٣٢١)

(٣٧) المصدر السابق : ١٦٠/٢ (الترجمة رقم ٣٢٢) وانظر فوات الوفيات :٤٨٠/٢ ابن حجر ، لسان الميزان : ٥/ ٣١١ .

(٣٨) البداية والنهاية ، ابن كثير : ١٣/ ١٥٦

(٣٩) شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء : ٢٣ /٤٨

(٤٠) ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان : ٣١١/٥

(٤١)المصدر السابق : ٢/٢٠٧ (الترجمة رقم ٣٢٦).

(٤٢)الدرر الكامنة: ٤/ ٨٣

(٤٣)العقد الثمين : ٢/٢١١

(٤٤)العقد الثمين : ٢/ ٢١١ (الترجمة رقم ٣٢٧)

(٤٥) المصدر السابق :٢/ ٢١٨ (الترجمة رقم ٣٣١) الذهبي ، طبقات القراء : ١٢٩٦/٣ ابن الجزري ، طبقات القراء : ٢/ ٢١٢

الدرر الكامنة : ٩٦/٤

(٤٦) المصدر السابق : ٢٣٧/٢ (الترجمة رقم ٣٤٧) وأنظر التكمله لوفيات النقلة :٣/ ٣٥٨ ، سير أعلام النبلاء ٣٧٢/١٧: خلف بن عبدالملك ابن بشكوال ، الصلة :٢/ ٥١٠ ابن الجزري ، طبقات القراء ٢١٩/٢

(٤٧) العقد الثمين : ٢٤٩/٢ (الترجمة رقم ٣٥٧) الدرر الكامنه : ١٣٣/٤ .

(٤٨) المصدر السابق ٢٥٧/٢ (الترجمة رقم ٣٦٨) .

(٤٩) المصدر السابق ٢٥٧/٢ وأنظر شذرات الذهب : ٥٧٤/٨ ، ابن حجر ، أنباء الغمر : ١٤٣/٣

(٥٠) العقد الثمين : ٣/ ٢٩٨ (الترجمة رقم ٤٠٦)

(٥١) المصدر السابق ٣١٢/٢ (الترجمة رقم ٤٠٧)

(٥٢) المصدر السابق ٣١٣/٢ (الترجمة رقم ٤٠٨)

(٥٣) المصدر السابق ٣١٣/٢ (الترجمة رقم ٤٠٩) وأنظر الضوء اللامع : ٩/ ١٤٣ ، الدرر الكامنة : ٧١/٤

(٥٤) العقد الثمين : ٣٢٦/٢ (الترجمة رقم ٤٢٧) وانظر الضوء اللامع : ٢٤/١٠ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيده : ٣ / ١٦٩

(٥٥) المصدر السابق : ٣٢٩/٢ (الترجمة رقم ٤٣١) درر العقود : ١٦٩/٣

(٥٦) المصدر السابق :٣٣٤/٢ (الترجمة رقم ٤٣٧) الدرر الكامنة :٢٢٥/٤

(٥٧) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١

(٥٨) العقد الثمين : ٣٣٦/٢ (الترجمة رقم ٣٣٦) وأنظر شذرات الذهب : ٨/ ١٠٦ الوافي بالوفيات : ٢٣٢/١ الطبعة الالمانية

(٥٩) المصدر السابق : ٣٦٤/٢ (الترجمة رقم ٤٦٥) وانظر الضوء اللامع : ١٠/ ٥٥

(٦٠) إنباء الغمر : ٤٠١/٧ وأنظر شذرات الذهب ٢٣٦/٩ الضوء اللامع : ١٠/ ٥٦

(٦١) المصدر السابق : ٣٧٥/٢ (الترجمة رقم ٤٦٩) وأنظر السخاوي ، الضوء اللامع : ١٠ / ٥٥

(٦٢) المصدر السابق : ٣٧٩/٢ (الترجمة رقم ٤٧٣) .

(٦٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٥٨٦/٤ ، لسان الميزان : ١٦٧/٦ النجوم الزاهرة : ٤/ ١١١شذرات الذهب ٤٧٨/٤: طبقات القراء : ١٣١٢/٣

(٦٤) المصدر السابق : ٤٠٣/٢ (الترجمة رقم ٤٩٣)

(٦٥) المصدر السابق : ٤٠٣/٢ وأنظر الذهبي ، تذكرة الحفاظ :١٦٠/٤-١٦١

(٦٦) المصدر السابق : ١٠٢/٣ (الترجمة رقم ٥٩٦)

(٦٧) المصدر السابق : ١٠٩/٣ (الترجمة رقم ٦٠٥) وانظر شذرات الذهب :١٩٨/٩ إنباء الغمر : ٢٩٩/٧ الضوء اللامع :٣٥/٢

(٦٨) المصدر السابق : ١٤٦/٣ (الترجمة رقم ٦٣٣)

(٦٩) المصدر السابق : ١٧٠/٣ (الترجمة رقم ٦٥١)

(٧٠) المصدر السابق : ١٧٣/٣ (الترجمة رقم ٦٥٣)

(٧١) المصدر السابق : ١٨٢/٣ (الترجمة رقم ٦٦٦)

(٧٢) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة :ص ٨٨-٨٩

(٧٣) المصدر السابق : ٣/ ١٨٢

(٧٤) المصدر السابق : ٣/ ٣٠٣ (الترجمة رقم ٧٧٣) السابق وانظر شذرات الذهب : ١٣١/٩ الضوء اللامع : ٣٠٤/٢ إنباء الغمر : ٦/ ٧٣

(٧٥) المصدر السابق : ٣/ ٤٢٦ (الترجمة رقم ٨٩٤)

(٧٦) المصدر السابق : ٣/ ٤٤٣ (الترجمة رقم ٩١٤) وانظر عبدالرحمن الدباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : ٥/٤

(٧٧) المصدر السابق : ٤/ ٦٧ (الترجمة رقم ٩٨٧)

(٧٨) المصدر السابق : ٤/ ٨١ (الترجمة رقم ٩٨٨)

(٧٩) ابو طاهر احمد بن محمد السلفي ، معجم السفر : ص ١٢٩

(٨٠) الذهبي ، طبقات القراء : ٢ /٧٥٠-751

(٨١) المصدر السابق : ٤/ ٨١

(٨٢) المصدر السابق : ٤/ ١٨٠ (الترجمة رقم ١٠١٧)

(٨٣) المصدر السابق : ٤/ ٢٩٩ (الترجمة رقم ١١١٨) السخاوي ، الضوء اللامع : ١٧٣/٣

(٨٤) المصدر السابق : ٤/ ٣٢٨ (الترجمة رقم ١١٤٢)

(٨٥) المصدر السابق : ٤/ ٣٦١ (الترجمة رقم ١١٦٣)

(٨٦) المصدر السابق : ٤/ ٣٦١ الضوء اللامع : ٣/ ٢١٦ إنباء الغمر : ٧/ ٢٨٥

(٨٧) المصدر السابق : ٤/ ٣٩٨ (الترجمة رقم ١١٩٢) شذرات الذهب : ١٧٥/٦ الصلة :٢٩٦/١ بغية الملتمس :١/ ٣٦٩ سير أعلام النبلاء : ٢٠٥/٢٠

(٨٨) المصدر السابق : ٤/ ٣٩٨

(٨٩) المصدر السابق : ٤/ ٥٠٣ (الترجمة ١٢٤٤) التحفة اللطيفة ، شمس الدين السخاوي : ٢/ ١١٤

(٩٠) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١

(٩١) المصدر السابق :٤/ ٥٣٠ (الترجمة ١٢٦٢)

(٩٢) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١ شذرات الذهب :٣٩٤/٤ مرآة الجنان ، لليافعي : ٤٠١/٢-٤٠٢

(٩٣)المصدر السابق :٤/ ٥٦٧ (الترجمة ١٢٨٨) تاريخ بغداد تحقيق د بشار عواد : ١٩٢/١٠ عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ٣٠٣/١٤ سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٣٢٠

(٩٤)المصدر السابق :٥/ ١٧٠ (الترجمة ١٥٣٦)

(٩٥)تاريخ الاسلام : ٩/ ٥٥٤ وأنظر الصلة ، لابن بشكوال : ٢/ ٤١٦

(٩٦)المصدر السابق :١٨٢/٥ (الترجمة ١٥٥٢) تاريخ الاسلام : ٢٥٤/١١

(٩٧)المصدر السابق : ١٩٩/٥ (الترجمة رقم ١٥٦٣)

(٩٨)المصدر السابق :٢٠١/٥ (الترجمة رقم ١٥٦٩)

(٩٩) معجم السفر : ص ١٢٩

(١٠٠) العقد الثمين :٢١٧/٥ (الترجمة رقم (١٥٨٩) الذهبي ، طبقات القراء : ١ /١٥

(١٠١)المصدر السابق :٣٠٧/٥ (الترجمة ١٦٧٤) الضوء اللامع : ٥/ ٧٦

(١٠٢)المصدر السابق :٣٢٦/٥ (الترجمة ١٧٠٠) شذرات الذهب : ٥٧٠/٧ ، الـوافي بالوفيات : ١٨/ ٦٠ ط الألمانية ، البداية والنهاية : ١٣/ ٢٦١

(١٠٣)المصدر السابق :٤٠٨/٥ (الترجمة ١٧٨٣) الضوء اللامع : ١٤٩/٤ شذرات الذهب : ٩/ ٧٩ أنباء الغمر : ١٠٤/٥

(١٠٤)المصدر السابق :٤١٩/٥ (الترجمة ١٨٠١)

(١٠٥)المصدر السابق :٤٤٣/٥ (الترجمة ١٨١٦)

(١٠٦)المصدر السابق :٤٧٠/٥ (الترجمة ١٨٤٠) وأنظر شذرات الذهب : ٣٦١/٩ ، الضوء اللامع : ٢٨٧/٤

(١٠٧)المصدر السابق :٤٧٢/٥ (الترجمة ١٨٤٢ وأنظر شذرات الذهب : ٩/ ١٧٩ ، إنباء الغمر : ٧/ ١٣٣ ، الضوء اللامع :٣٠٢/٤ ، درر العقود الفريدة : ٣١٧/٢

(١٠٨)المصدر السابق :٤٨٧/٥ (الترجمة ١٨٦١) الضوء اللامع : ٣٣٣/٤

(١٠٩)المصدر السابق :٤٨٧/٥

(١١٠)المصدر السابق :٥٠٣/٥ (الترجمة ١٨٧٨)

(١١١)المصدر السابق :٥١١/٥ (الترجمة ١٨٨٣)

(١١٢)المصدر السابق :٥١٩/٥ (الترجمة ١٨٩٧)

(١١٣)المصدر السابق :٥٢٢/٥ (الترجمة ١٩٠٢)

(١١٤)المصدر السابق :٥٢٨/٥ (الترجمة ١٩٠٦) الصفدي ، أعيان العصر وأعوان النصر : ٢/ ١٠٥٠، الدرر الكامنة : ٢/ ٤٢٢

(١١٥)المصدر السابق :٥٢٩/٥ (الترجمة ١٩٠٧)

(١١٦)المصدر السابق :١٤/٦ (الترجمة ١٩٣٨) تاريخ الاسلام : ٣١/١٢

(١١٧) معجم السفر :ص ٢٩٢

(١١٨)المصدر السابق :١٠٩/٦ (الترجمة ٢٠٠٧) الوافي بالوفيات ،الصفدي : ٥٦/٢٠ طبعة دار التراث .

(١١٩)المصدر السابق :١٢٨/٦ (الترجمة ٢٠٢٧) تاريخ الاسلام : ١١/ ٥٩٨

(١٢٠)المصدر السابق :١٥٦/٦ (الترجمة ٢٠٥٦) تاريخ الاسلام : ٥٥٦/١٢

(١٢١)المصدر السابق :١٥٧/٦ (الترجمة ٢٠٥٧) التكملة ، للمنذري : ١/ ٧٣٥ ، تاريخ الإسلام : ١١٧٧/١٢

(١٢٢)المصدر السابق :١٨١/٦ (الترجمة ٢٠٦٦)

(١٢٣)المصدر السابق :١٨١/٦ وأنظر ابن الابار : ٢٤٤/٣ ، تاريخ الاسلام : ٥٢٦/١٢

(١٢٤)المصدر السابق :١٨٣/٦ (الترجمة ٢٠٦٩)

(١٢٥)المصدر السابق :١٨٣/٦ (الترجمة ٢٠٧٠)

(١٢٦)المصدر السابق :١٨٧/٦ (الترجمة ٢٠٧٧) انظر الضوء اللامع : ٢٤٤/٥

(١٢٧)المصدر السابق :٣٦٠/٦ (الترجمة ٣٠٩٣)

(١٢٨) المصدر السابق :٤٧٢/٦ (الترجمة ٣١٩٤)

(١٢٩) المصدر السابق :٣/٧ (الترجمة ٢٢٩٦) معجم السفر للسلفي : ص ٣١٠

(١٣٠) تاريخ الإسلام : ٨٤٥/١٠ ، تكملة الصلة : ٥٠/٤-٥١

(١٣١) المصدر السابق :٢٧/٧ (الترجمة ٢٣٢١)

(١٣٢) المصدر السابق:٢٨٤/٧ (الترجمة ٢٥٢٢)

(١٣٣) المصدر السابق :٢٩٩/٧ (الترجمة ٢٥٤٣)

(١٣٤) المصدر السابق :٤٢٧/٧ (الترجمة ٢٦٨٥) طبقات القراء ، ابن الجزري : ٣٦٥/٢ الدرر الكامنة : ٤١٠/٤

(١٣٥) المصدر السابق :٤٤٦/٧ (الترجمة ٢٧٠٨)

(١٣٦) المصدر السابق :٤٥٩/٧ (الترجمة ٢٧٢٠)

(١٣٧) المصدر السابق :٤٥٩/٧ (الترجمة ٢٧٢١)

(١٣٨) المصدر السابق :٤٧٨/٧ (الترجمة ٢٧٥٢)

(١٣٩) المصدر السابق :٤٨٩/٧ (الترجمة ٢٧٧٩)

(١٤٠) المصدر السابق :٤٩٥/٧ (الترجمة ٢٧٨٣)

(١٤١) المصدر السابق :١٤/٨ (الترجمة ٢٨١٦) السخاوي الضوء اللامع :

(١٤٢) المصدر السابق :٦٦/٨ (الترجمة ٢٩٣٢)

المصادر والمراجع

١- ابن الأبار ، محمد بن عبدالله القضاعي ، تحقيق ابراهيم الأبياري الطبعة الأولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/ ١٩٨٦م

٢- ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى الأنصاري ، الصلة، تحقيق ابراهيم الأبياري ، الطبعة الاولى ، الطبعة الاولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٣- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين الطبعة الاولى دارالكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٣هـ/٢٠٠١م .

٤- ابن الدمياطي ، أبي الحسين أحمد بن أيبك بن عبدالله الحسامي ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للبغدادي ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٤١٧هـ/١٩٩٨م

٥- ابن الجزري ، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ، غاية النهاية في طبقات القراء عني بنشره ج . برجستراسر طبع لأول مرة على نفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .

٦- ابن الجوزي ، ابي الفرج عبدالرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا راجعة وصححه نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت لبنان

٧- ابن خلكان ، أبي العباس أحمد بن محمد ابراهيم بن أبي بكر ، وفيات الاعيان وأنباء الزمان ، حققه د. يوسف علي طويل ، د. مريم قاسم طويل ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٨- ابن أبي شامة ، محمد عبدالرحمن بن إسماعيل ، الذيل على الروضتين تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ترجم للمؤلف محمد زاهد الكوثري ، عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني ، الطبعة الثانية دار الجيل ١٩٧٤ م

٩- البغدادي ، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب ، تأريخ مدينة السلام " تاريخ بغداد" ، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف الطبعة الاولى دار الغرب الاسلامي بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

١٠- الدباغ ، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه ابو الفضل ابوالقاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي ، حققه وعلق عليه الشيخ محمد المجذوب و د.عبدالعزيز المجذوب طبع ونشر المكتبة العتيقة تونس

١١- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف ، الطبعة الاولى ، دارالغرب الإسلامي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

١٢- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، تذكره الحفاظ ، وضع حواشية الشيخ عميرات ، الطبعة الاولى دارالكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

١٣- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء حققه مجموعة من العلماء الطبعة السادسة مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٩٨٠م

١٤- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، طبقات القراء تحقيق د. أحمد خان ، الطبعة الاولى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م

١٥- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار ، تحقيق د. طيار آلتي قولاج استانبول ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

١٦- الرازي ، أبي حاتم محمد بن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي ، الجرح والتعديل ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م

١٧- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

١٨- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، التحفه اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني الحسيني ، مطبة دار نشر الثقافة القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

١٩- السلفي ، ابو طاهر أحمد بن محمد السلفي ، معجم السفر قدم له وحقق نصوصه وعلق عليه وعمل فهارسة د. شير محمد زمان ، الطبعة الأولى مجمع البحوث الإسلامية الجامعة الإسلامية إسلام أباد باكستان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٢٠- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية ، اعتناء هلموت ريتر ، جمعية المستشرقين الألمانية ألبرت ديتريش وهانس روبرت رويمر ، دار النشرفرانز شتايز بفيسبادن ١٤٠١هـ/١٩٨١م

طبعة ثانية تحقيق أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى الطبعة الأولى ، دار أحياء التراث العربي بيروت لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

٢١- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، اعيان العصر واعوان النصر ، تحقيق فالح احمد البكور دار الفكر بيروت لبنان الطبعة الاولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٢٢- الضبي ، احمد بن عميرة ، بغية الملتمس في تاريخ أهل الاندلس تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الاولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٢٣- الفاسي ، تقي الدين محمد أحمد الحسني المكي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

طبعة ثانية بتحقيق وتعليق محمد عبدالقادر أحمد عطا الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٢٤- العكري ، ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ، أشرف على التحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، حققه محمود الأرناؤوط ، الطبعه الأولى دار ابن كثير ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٢٥- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ ، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت مراقبة برفسور السيد عبدالوهاب البخاري ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨١م

٢٦- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر ، الدرر الكامنة دار إحياء التراث بيروت

٢٧- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر ، لسان الميزان ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢٨- الحسيني ، عزالدين أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبدالرحمن ، صلة التكملة لوفيات النقله ، علق عليه أبو يحي الكندري الطبعة الاولى ، دار ابن حزم بيروت لبنان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٢٩- المقري ، احمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، علق علية د. مريم قاسم طويل و د. يوسف علي طويل الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

٣٠- المقريزي ، أحمد بن علي تقي الدين ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، حققه وعلق عليه د. محمود الجليلي الطبعة الاولى دار الغرب الاسلامي ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

٣١- المنذري ، زكي الدين ابو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي ، حققه د. بشار عواد معروف الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م

٣٢- النجم بن فهد ، جار الله بن العز المكي ، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق د.محمد الحبيب الهيلة ، الطبعة الاولى مؤسسة الفرقان للتراث ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

٣٣- اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، الطبعة الثانية دار الكتاب الاسلامي القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٣٤- اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد ، ذيل مرآه الزمان ، الطبعة الثانية ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

د. حوتيــة محمد *

الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا

خلال القرنين ١٨–١٩

لقد مر التصوف بعدة مراحل ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر , ويمكن أن نلخصها على النحو التالي:

المرحلة الأولى : وقد بدأت هذه المرحلة باعتراف رجال الصوفية بوجود طريق محدد إلى الله سبحانه وتعالى , ويتطلب هذا الطريق الصلاة والدعاء , وذكر أسماء الله الحسنى. وتعد هذه المرحلة بمثابة العصر الذهبي, لأنها اقتصرت على الشيخ وتلامذته, الذين ينتقلون من مكان إلى آخر دون أن يؤسسوا نظاما معينا.

المرحلة الثانية : وهي التي اتسع فيها نطاق التصوف نظرا لانتشار الإسلام شرقا وغربا وازدياد نشاط الطرق الصوفية, وظهر عدد من العلماء البارزين أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبو حامد الغزالي. وقد اتسمت هذه المرحلة بتطوير نظام التدريس في الطرق الصوفية, وظهور أنماط جديدة من الطرق الجماعية لإغراء الناس على قبول الطرق.

---

* جامعة أدرار – الجزائر

المرحلة الثالثة: تشهد هذه المرحلة توسعا في المجال الروحي لمشاهير الصوفية بتنظيماتها الحالية، و انتشار الطرق بشكل واسع، وتحويل الولاء لشيخ الطريقة، وقد ازداد عدد الطرق وازداد نشاط الطرق في القرن السادس عشر كرد فعل للاستعمار الأوروبي، ومحاولات تطويق المسلمين وطردهم من ديارهم والصراع الذي دار بين الطرفين على سواحل أفريقيا الشمالية وغيرها.

لقد أصبحت الصوفية تمثل نشوة دينية اتخذ منها المجاهدون في الدين الاسلامي وسيلة للتقرب إلى الله، واللجوء إليه لمواجهة الأخطار الاستعمارية التي أحاطت بديار الإسلام.

تقوم الحياة الروحية بمنطقة توات و الأزواد على حركة التصوف التي نشرتها الطرق الصوفية هذا وأن التصوف[١] عبارة من ذهب منظم يشير إلى مراتب صوفية مختلفة ويدل على الحقيقة في محاولة محاسبة النفس على الأفعال وفهم الآداب خاصة به. وقد مر التصوف الإسلامي بعدة مراحل حيث كان أوله زهداً في الدنيا و انقطاعاً لعبادة الله عز وجل ثم صار حركات و مظاهر خالية من الروح و العبادة ثم تحول إلى الحاد و خروج عن دين الله و قد عبر عن هذا التحول أحد كبار الصوفية [٢] حيث قال « كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم يبق إلا حسرات»،و قد تشعبت الطرق الصوفية و أصبحت تنسب إلى أقطاب هذه الطرق و أهم الطرق الصوفية بإقليمي توات و الأزواد الطريقة القادرية و الموساوية و الشيخية و التيجانية .

أ) الطريقة القادرية :تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ محمد محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود بمدينة جيلان في مارس ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م و الذي جاء إلى بغداد عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م و درس مذهب الإمام أحمد بن حنبل لكنه ترك الانضمام إلى المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي ،بعد وفاة أخيه أبي حامد الغزالي و يقال أنه لم يعتنق أي فكر صوفي حتى حضر إلى مدرسة أبي الخير حمد الدباسي المتوفى ٥٢٦هـ / ١١٣١م و قضى عبد القادر الجيلاني خمسة و عشرين عاماً يتجول في صحراء العراق و في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م عندما كان قد جاوز الخمسين عاماً صار من أشهر العلماء في بغداد على الطريقة الحنبلية و كان يلبس لباس العلماء و لبس لباس المتصوفة ثم بنى مدرسة لنفسه عام ٥٢٨هـ/١١٣٥م اشتهر بورعه و تقواه لكن لم ينضم أحد إلى طريقته طوال حياته وبعد

وفاته بدأ بعض الناس يسيرون على نهجه و استطاع أبناؤه نشر مذهب والدهم الذي يتسم بالولاء و الإخلاص و الطاعة و التواضع و صارت أوراد الطريقة القادرية تلقى قبولاً لدى عدد من الاتباع و أخذ تلامذته على عاتقهم نشر مذهبه في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي حيث انتشر في القارة الإفريقية و على وجه خاص في شمالها فقد سيطرت الطريقة الصوفية القادرية في مراكش على الحياة الدينية والاجتماعية خلال القرون الموالية بعد دخولها .(٣)

وأصبح الشيخ علي الكنتي قطباً للطريقة القادرية عندما انتقلت قبائل كنتة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي إلى واحات توات و حملوا معهم الطريقة القادرية و في هذه الواحات انتشرت الطريقة القادرية في النصف الثاني في القرن الخامس عشر ميلادي و كان شيوخ الكنتة يزورون برنو يتبعون الطريقة القادرية (٤).

و في عام ٩٥٧هـ ١٥٥٠م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط السودان و غربه ، جاءت هذه الأفكار من الشرق عبر مصر و تركيا و ظهر الشيخ الزروق الذي يعتبر من أهم رجال الطريقة في أغاديس و من هذه المدينة انتقلت أفكار و آراء الشيخ الزروق إلى الشيخ المختار الكبير الذي ساعده بدوره على نقل تعاليم الصوفية القادرية إلى جماعة الفولاني في بلاد الهوسا (٥)، و انتقلت الطريقة بعد ذلك إلى منطقة البحر حيث ساعد الفقيه محمد الأنصاري على نشرها و في أوائل القرن ١٢ هـ الثامن عشر ميلادي أسس شيوخ الكنتة مدينة مبروك التي صارت مركزاً لنشر الطريقة القادرية و ظهر بين جماعة الكنتة عددكبير من الفقهاء الذين صارت لهم الزعامة الدينية في القرن ١٣هـ ١٨م و توسعوا خارج الحدود القبلية و ظهر عدة شيوخ حملوا لواء الطريقة القادرية تعليماً و تأليفاً و ممارسة (٦).

فقد ظهر من أهل المنطقة مشايخ اتصفوا بالكمال من الناحية الدينية و الروحية فحازوا على مراتب بين قبائلهم و أوكلت لهم مهمة الإشراف على الطريقة القادرية فنسقوا بين المريدين و أحيوا المناسبات و أدخلوا الطريقة القادرية العديد من الأقطار فقد استطاعوا عن طريق تكوين(مقدمين) (٧) مهمتهم نشر الطريقة حسبما جرت به العادة إذ يكلف المقدم وخليفته بالعمل مباشرة بعد ما يتسلم سجادة أو سبحة أو عكاز الشيخ الذي يأخذ عنه الورد(٨) و لقد انقسم الشيوخ المرتبطون بالطريقة القادرية إلى قسمين القسم الأول و يمثله ممن كان يحظى بسمعة كبيرة لدى العامة تنسب لهم كرامات و أقوال كانت محل تصديق الجميع وقد جمع

أصحاب هذا الصنف بين التصوف و التأليف و التعليم و الفتوى و لهذا نجدهم تركوا أعمالا جليلة في الدعوة للطريقة القادرية بالمناطق التي عاشوا بها و المحاذية لهم مثل الشيخ مختار الكبير الذي عرف بعلمه و تأليفه العديدة في علوم الشريعة و تعمقه في الطريقة فقد ألف فيها كتاب اسماه الكوكب الوقاد و نظرا لأهميته في الطريقة قال فيه (يجب أن يسمى أسماء كثيرة وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى) تناول في بداية مخطوطه أسس الطريقة القادرية ومؤسسها فذكر كرامات و مزايا ورده بالإضافة إلى فضل الأذكار و أهميتها في الحياة الدنيا والآخرة [٩] و هذا و قد ترك الشيخ المختار الكبير العديد من التصانيف في الأذكار أبرز من خلالها مناهج التربية الصوفية السليمة كما يراها هو « تلك المبنية على عنصر المحبة و يقسمها إلى قسمين رئيسين : المحبة المفروضة و تتمثل في امتثال الأوامر و عدم ارتكاب المعاصي و أي تقصير في الواجبات معناه الوقوع في المحرمات و التقصير في العبادات و على كل مبتدئ أن يوازن ما بين الناحيتين حتى يستطع أن يدرك المحبة المفروضة و القسم الثاني المحبة المندوبة التي يصلها كل من حقق القسم الأول (المحبة المفروضة) و أعطاها جميع حقوقها عندها يدخل المريد في المرحلة الثانية من المحبة المرتكزة على القيام بالوجبات ثم النوافل و الابتعاد عن المحرمات مع عدم الوقوع في الشبهات » [١٠]و يعتبر الكنتون أكثر شيوخ المنطقة إسهاماً في علم التصوف بصفة عامة و بالطريقة القادرية بصفة خاصة تجلى ذلك في رسائل و قصائد وكتب فللشيخ المختار الكبير قصيدة في السلسلة القادرية و نازلة في التصوف و إجازة في الأوراد و الأحزاب [١١] و إجازة في الورد ورسالة إلى أحد مريديه ، ومثله الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكبير الذي ترك إجازة في الأوراد و الأحزاب القادرية و مخطوطاً في الأدعية والأذكار و قصيدة الإبتهال و جواباً على ثلاث مسائل في الورد القادري وقصيدة في الأدعية و التوسل و بهذا فقد تفاوتت هذه المصنفات [١٢] في محتوياتها و عدد صفحاتها إلا أن القاسم المشترك بينها إضافة تراث و إثراء هذه الطريقة العريقة المنتشرة في إقليم توات والأزواد.

والقسم الثاني من شيوخ الطريقة يندرج تحته صلحاء من الشيوخ الذين اشتهروا بالزهد في الحياة و كثرة الأذكار و خدمة العامة و اشتهروا بالكرامات و مواقف خالدات و اكتفوا بالعبادة و الأوراد و لم يتركوا مؤلفات في ميدان الأدب أو الفقه و إنما خلدت أسماؤهم في الذاكرة الشعبية بتوات و الأزواد نظراً لما اشتهروا به من أعمال خيرية خدموا بها للصالح العام

و أفنوا حياتهم في الزهـد وضحوا بأموالهم و أعمارهم في سبيل الإصـلاح كإصـلاح ذات البيـن و إعانة الفـقراء و المحتاجين في الزوايا التي أسسوها و ساهموا في تسييرها لتؤدي دورها الخيري لكل المسلمين و أبناء السبيل و بعد وفاتهم خلدت قبورهم بأضرحة و زيارات سـنوية يتوافد الناس القاصي والداني من أبناء منطقة الأزواد و توات و هكذا نجد أضـرحة هـؤلاء الشيوخ و زياراتهم معروفة و مشتهرة من أكبرها زيارة الشيخ عبد القادر الجيلاني .

الطريقة التيجانية :

احتلت الطريقة التيجانية المكانة المرموقـة في الوسط التواتي و الأزوادي و هذا ما يتوجب التعريف بها لكونها من الطرق الصوفية المنتشـرة في القارة الإفريقية خاصة في الجزء الغربي منها

و تنتسب إلى الشيخ أبي العباس بن أحمد بن محمد بن مختار التيجاني الذي ولد في قرية عـين ماضي بالاغواط بجنوب الجزائر عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧ [١٣].

وفي عام ١١٧١هـ /١٧٥٧م سافر التيجاني إلى فاس للبحث عن شيوخ الصوفية في هـذا المركز الديـني ،و هناك درس الطرق الصوفية ،ثم ذهب إلى قرية الأبـيض علـى مـشارف الصحراء ،حيث استقر في زاوية سيدي عبد القادر بن محمد ،و مكث بها خمس سنوات استغل بعضاً منها في التدريس .

وفي عام ١١٨٦هـ/١٧٧٣م بدأ الشيخ التيجاني رحلته إلى الحج التي واصل فيها متابعتـه للطرق الصوفية حيث توقـف ،ودرس بقرية أيت اسماعيل في بلاد القبائل زار فيها الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الازهري و أخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلواتية [١٤] ثم قضى عاماً في تونس حيث درس كتاب ابن عطاء الله السكندري (كتاب الحكم) ، و حقـق نجاحـاً في تدريسه لدرجة أن القائم على حكم تونس (١١٧١هـ - ١٧٥٧م ١١٩٧هـ - ١٧٨٢م) طلب منه البقاء في تونس للتدريس في مسجد الزيتونة و أغراه بالمال و المسكن الفـاخر لكـن الشيخ التيجاني رفض و قرر مواصلة رحلة الحج ...ووصل إلى القاهرة و بدأ البحث عن شيخ الطريقة الخلواتية ، و التقى به ، و تعلم منه الكثير من مبادئ الطريقة ،و أخيراً وصل إلى مكة في يناير ١١٨٨هـ/١٧٧٤م واتصل هناك بشيخ هندي يدعى أحمد بن عبد الله بواسطة خادمـه وبعد شهرين من هذا البقاء مات الشيخ وورث التيجاني عنه تعاليم الطريقة الصوفية [١٥] و في

طريق العودة إلى بلاده توقف الشيخ التيجاني في القاهرة حيث فوضه الشيخ محمد الخيضري في نشر تعاليم الخلواتية في شمال إفريقيا واتجه أحمد التيجاني إلى فاس بدلاً من مدينة عين ماضي، و في عام ١١٩١هـ ١٧٧٧م اتجه إلى تلمسان بالجزائر مرة أخرى بسبب عودة الحاكم العثماني بالأغواط ثم انتقل إلى جبال قصور بقرية بوسمغون جنوب غرب البيض سنة ١١٩٦هـ-١٧٨١م حيث استقر بها مدة ثلاث سنوات زار خلالها إقليم عين ماضي و بوجوده في بوسمغون كثر مريدوه وقصدته الوفود من جميع أنحاء الصحراء (١٦) حيث واصل نشر تعاليم الطريقة الصوفية حتى وافته المنية عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م .

لقد ظهرت مبادئ الطريقة التيجانية من خلال مؤلفات بعض الأتباع و على رأسهم ابن عربي في كتاب جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني (١٧) وانتشرت الطريقة التيجانية في غرب إفريقيا بفضل جهود الحاج عمر الفوتي التكروري (١٢١٠هـ-١٧٩٥م / ١٢٨١هـ -١٨٦٤م) و الذي تلقى وردها على أيدي الشيخ عبد الكريم بن أحمد النقيل الفوتا جالوني و قد وضع الحاج عمر أسس هذه الطريقة في كتابة الرماح (رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم) الذي يتكون من خمسة و خمسين فصلاً إلى جانب المقدمة و الخاتمة و يتناول الكتاب عدة أمور مثل التشجيع على سلوك الطريقة التيجانية و الحديث عن معنى الزهد عند الصوفية و يعتبر التيجانيون هذا الكتاب المرجع الأساسي للطريقة التجانية (١٨).

الأوراد :تقوم الطريقة التجانية على أوراد محددة تشمل الوظيفة و الورد المعلوم .

ورد في المصادر التجانية ،أن الشيخ التجاني لم يدرك مرتبة القطبانية إلا في شهر محرم من عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م أي بعد سنة من هجرته واستقراره في فاس ،و بعد شهر من ذلك ،ارتقى إلى المقام الأحمدي المسمى بمقام الختم و الكتم (١٩) و قد تحدث الشيخ التجاني عن المقام القطب ووصفه بقوله " إنه أفضل جماعة المسلمين في عصره " ثم ذكر الختم فقال " إن أكمل العارفين و هو القطب الكامل لا تتجلى له حقيقة الكبرياء إلا بعد بلوغه المرتبة العليا حيث مراحل نشر الطريقة التجانية حتى وافته السنة عام ١٢٣١هـ -١٨١٥م بمدينة فاس بمعنى أن مرتبة القطبانية و إن أدركها بعض ممن سبقوه من الأولياء فإنه لا أحد أدرك أعلى مراتب القطبانية لا من قبله ولا من بعده لأن هذه المرتبة هي ختم الولاية و تسمى أيضا بالمقام المحمدي ،و مقام

الختم في القطبانية هي غاية الغايات ولا يدركها إلا شخص واحد ،و هو الذي لا يكون بعدة لغيره [٢٠] و يستند التجانيون في تأكيد هذا المقام لشيخهم بأن رسول الله عليه الصلاة و السلام هو الذي أخبر شيخهم بذلك .

و عندما يناقشون هذه المسألة في كتبهم يقوون حجتهم بما رواه الشيخ ابن عربي في كتابيه الفتوحات الملكية " و عنقاء مغرب " من أن " قطب الأقطاب " و " خاتم الولاية " سيظهر بمدينة فاس ، و من علاماته الإنكار عليه ، هذه الرواية يرى التجانيون أنها تصدق على شيخهم الذي بلغ هذه الرتبة و هو بفاس و تلقى الكثير من الإنكار .

و بما أن الطريقة التجانية انفردت بهذه المراتب فإنها في نظر أتباعها تسمو على جميع الطرق الأخرى ، وهو ما أثار جدلا كبيرا و أدخل الطريقة التجانية في صراعات عقائدية دفعت بخصوم التجانية من السلفيين و حتى من أصحاب الطرق الأخرى إلى اتهام التجانية بالضلال .

و إذا عدنا إلى من دافع عن الطريقة التجانية لجدهم ينقسمون إلى متشددين بالغوا في تمجيد التجانية إلى درجة أنهم ألحقوا بها الأذى أكثر مما خدموها ،نتيجة مغالاتهم فأتاحوا بذلك الفرصة لغيرهم لإعطاء البينة و الحجج الدامغة على أن التجانية خارجة عن الشرع مستندين في ذلك مصادر الطريقة مثل " جواهر المعاني " و " الإفادة الأحمدية " و غيرها .

فكثيرا ما يقف خصوم التجانية على مورد في " جواهر المعاني " من أن فضل تلاوة " صلاة الفاتح " المرة الواحدة منها تساوي من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير ومن القرآن ستة آلاف مرة [٢١] واعتبروه كفر ينبغي التبرؤ منه لا سيما و أنه ينسب إلى التجاني في كتاب " جواهر المعاني " قوله :إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذيُ أمره بتلاوة " صلاة الفاتح " و أخبره عن فضل هذه الصلاة و أن هذا الورد ادخره له الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يذكر لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .الأمر الذي جعل خصوم التجانية يعتبرونه افتراء على الله ورسوله ، بل مروق و خروج عن الدين [٢٢] .

أما المعتدل من اتباع الشيخ التجاني لا سيما المتأخرين منهم ، حاولوا في الكثير من كتاباتهم تبرير و تفنيد ما جاء في مصادرهم و اعتبروه دساً مقصوداً الهدف منه التشنيع بشيخ الطريقة وهو في نظرهم برئ من كل مانيب إليه و اعتمدوا على مقولته "إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه [٢٣].

و يعتمده في ورده على :

أولا الوظيفة :وهي قراءة فاتحة الكتاب ثم صلاة الفاتح :(اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق و الخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق و الهادي إلى صراطك المستقيم ....إلخ بعد يشرع في ذكر الوظيفة :(استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين مائة مرة ثم ذكر الجوهرة وهي مدح النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشر مرة ومن لم يحفظها يأتي بها ليلاً عشرين مرة مع دعاء الفاتح و تختم الوظيفة بالآية الكريمة ﴿ إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ (٢٤).

ثانيا : الورد المعلوم أن تستغفر الله مائة مرة ثم يصلي على النبي صلي الله عليه وسلم و تذكر (لا إله إلا الله مائة مرة) و تختم ذلك بالآية ﴿ إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾

ثالثاً :الهيللة تذكر مرة في الأسبوع يوم الجمعة ما بين العصر و المغرب و هي كما يلي :(لا إله إلا الله) من مائة إلى ألف و ستمائة و يختم بدعاء الفاتحة و يمارس التجانيون أوراد الطريقة بشكل هادئ ولا يغنون بالغناء أثناء المديح بل يجلسون في دائرة و ينشدون الأذكار مرة كل جمعة بعد العصر و ازداد انتشار الطريقة التيجانية في القارة الإفريقية (٢٥) ومن العوامل التي ساعدت على انتشارها ذلك التكالب على القارة الإفريقية من جانب الأوروبين وما أعقبه من قيام الإدارة الاستعمارية بتجشيع رجال الصوفية بالمال وبسط النفوذ من أجل تشويه صورة الدين الإسلامي عن طريق نشر البدع و الخرفات التي تعوق المسلمين عن مقاومة المستعمر الأوروبي ، عرف الأوروبيون رغبة رجال الصوفية في الحصول على المال و النفوذ ، فراحوا يغذون هذه الروح حتى قال جوليان بأن حكومة فرنسا قد عرفت كيف تجمع المتصوفة حولها عن طريق التمويل و الحماية .(٢٦)

ولقد ساعد هذا التمويل على انتشار الطريقة التيجانية في أجزاء كبيرة من شمال القارة الإفريقية ووجد فيها الفرنسيون وسيلة للتفريق بينها و بين الطرق الأخرى حتى لا يتحد المسلمون و يقفون صفاً واحداً أمام محاولات فرنسا لتغريب هذه المناطق ولعل هذه المناظرة ما بين التيجانية والقادرية تظهر طرفاً من تلك الصراعات التي كانت في جنوب الجزائر بعين ماضي ثم ألقت بظلالها في غرب أفريقيا .

المناظرة الصوفية ما بين التيجانية و القادرية :

سبق وأن تعرضنا للطريقة القادرية و الطريقة التجانية من حيث تأسيسهما و أورادهما وأعمالهما إلا أنه ظهرت ما بين المريدين لكلتا الطريقتين مناظرة أحد أطرافها من الأزواد بالضبط من تمبكتو ويمثل الطريقة القادرية و الطرف الثاني بالمغرب و بالضبط مدينة فاس وقد تعدت مناظرتهما حدود هاتين الرقعتين بحيث تحمس كل طرف إلى طريقته وقادها بمدينة فاس أحمد أكنسوس .

و دافع عنها بقلمه وقد حفظ لنا التاريخ جانباً مهماً من ثقافة العصر التي كتب بها كل طرف عن طريقته و سنتناول في البداية التعريف بأحمد أكنسوس (١٢١٢هـ-١٢٨٤هـ) هو أبو محمد بن أحمد ولد في قبيلة أدا وكنسوس في سوس (١٢١١هـ-١٢١٢هـ) و بها نشأ إلى أن بلغ الثامنة عشر من عمره فتوجه إلى فاس لإتمام دراسته و أخذ عن أكابر أساتذة ذلك العصر .

فدرس السحر والتنجيم و التصوف فقد شغل على عهد السلطان مولاي سليمان على التوالي منصب الكاتب و الوزير لكنه نكب لما بويع السلطان الجديد مولاي عبد الرحمان و ألقي به في السجن و بعد أن أطلق سراحه استقر بمراكش ولم يغادرها حيث عاش عيشة زهد و تقشف طوال عهد مولاي عبد الرحمان وولده محمد و أوائل ملك مولاي الحسن ، وقد فقد بصره في أواخر حياته و أدركته المنية يوم ١٤ فبراير ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م و دفن خارج باب الرب بمراكش [٢٧] .

فقد عثرنا على العديد من الوثائق التي احتفظت بهذه المناظرة بعضها في شكل رسائل سنقدمها و بعضها في شكل كتب مطبوعة ومخطوطة مقروءة و الآخر في شكل شعار .

أولاً الرسائل :

رسالة [٢٨] أحمد البكاي إلى أهل مراكش يبتدئ هذه الرسالة بالبسملة و السلام وهي موجهة إلى مقدم الطريقة القادرية بمراكش مولاي المدني العلاوي الشريف و السيد عبد السلام بن الطاهر و مولاي الكبير بن مولاي الطائع جاء في الصفحة الأولى حسب قول الكاتب أنهم ذكروا عبد القادر الجيلاني سلطان الأولياء ثم ذكروا أنه لا مثيل للتيجاني أما الصفحة الثانية

فيرى أن التيجانيين يدعون أن من أخذ وردهم يحصل له المال و الغنى و يكون يوم القيامة في عليين ثم يرى أن أحمد البكاي أن طريق الأنبياء و الأولياء ليست مبنية على طلب المال و في نفس الوقت يرى التيجاني أنه لم يدع للتربية و إنما ادعاها له أصحابه بعده طلباً للدنيا وفي الصفحة الرابعة يطلب منهم كثرة التواصل و التزاور في كل وقت و إلا ففي كل يوم أو في كل يومين أو ثلاثة أو في أسبوع و يطلب منهم أن يكون اللقاء يوم الإثنين و الخميس و يستشهد بحديث في الموطأ ،(تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين و يوم الخميس فيغفر لكل عبد مسلم لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه و بين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا [٢٩] وفي النهاية طلب من مريديه أن يبلغوه تحياته و يدعوه للطريقة القادرية وفي نفس الوقت لا يترك الورد التيجاني فإنه ذكر إن أحب أن يستغني عنه بذكر آخر استغنى و إنشاء أضافه إليه و يطلب منهم أن يبلغه على أنه سيكتب له.

ولم تقتصر المناظرة بينهما بالرسائل فنجد كل طرف يعمل ما في وسعه من أجل التعريف بخصائص طريقته وما يشتمل عليه من أذكار و أدعية تتجاوز بها الطريقة الأخرى ولم يقتصر الأمر عند كتابة الرسائل و الرد عليها بل وصل إلى أن كل طرف بدأ يدون لطريقته و يرد فيها على الطريقة الأخرى فقد خلصت لنا هذه المناظرة بالمخطوط المسمى بالجواب المسكت في الرد على من تكلم في التيجانية بلا تثبت .

علماً و أن هذا المصدر يحتوي على عدة فصول تتعرض للرد على أقوال الشيخ أحمد البكاي وقد تناولنا فصلين بالدراسة فصل مفاده أن التيجاني ليس من أهل التربية و قد تناول هذا في الصفحة الخامسة و الأربعين ، كما يتناول في هذا المصدر أن التيجاني نهى أصحابه عن زيارة الأولياء الأحياء و الأموات و هذا ما تناوله في الصفحة الخمسين من هذا المصدر علماً و أن هذين الفصلين من نقاط الاختلاف ما بين التيجانية و القادرية و في نفس الوقت عثرنا على رسالة [٣٠] أحمد البكاي إلى أكنسوس .تفتح بالبسملة و الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ورد في الصفحة الأولى الحمد لله الأمر بالتواصل و الإحسان وفي الصفحة الثالثة يقول أحمد البكاي إنما كذب على التيجاني رحمه الله حيث لم يراهم كذبوا عليه و أنه لا يريد أن ينقص منتسباً إلى الله ولو كان كاذباً ،تنتهي في شوال ١٢٧٠هـ ١٨٦٣م صفحة اثنان وعشرون .

يا كتابي لأحمد قبل يديه * بدلاً من فمي فنفيه احتشام

جوابه (٣١) أحمد أكنسوس عن أحمد البكاي طويل :

يبتدئ الجواب :

رعت بعدما أبدى باسمه الفجر * وزال عن الإشراق من ليلة الحجر

أسيدنا البكاي يامن إذا بدا * محياه حيتنا البشاشة و البشر

فهذا الجواب يبتدئ : من الصفحة الحادية عشرة و مائة إلى أربعين و مائة أي حوالي تسعة و عشرين صفحة وقد أخترنا أبياتاً من الصفحة الثالثة والعشرون ومائة .

إذا لم تذق ما ذاقت الناس في الهوى * فبالله يا خالي الحشا لا تعنقنا

فإن لم تدرك المعنى و تدري * حقائق بلا قول فلا تلمنى

ومن حضر السماع بغير قلب * ولم يطرب فلا يلم المغنى

و إن تك عاذلاً لا جهلت أمري * فدع عنك الملام وخل عني (٣٢)

و يقول له وقد قيل إن المقر بالذنب كالمغتسل .

كتب ورسائل الطريقة التيجانية

تعددت كتب ورسائل الطريقة التيجانية التي عبرت من خلالها عن أفكارها و مواقف ردت بها على خصومها فهناك الرسالة المشهورة (٣٣) المسماة بالجواب المسكت و هي في الرد على من تكلم في الطريقة التيجانية بلا تثبت فقد ورد في الصفحة العاشرة : " و لسنا أنكم تقولون الباطل حاش لله لكن المبطلون هم الذين بلغوكم غير الحق و قضيتم بما سمعتم " و يقول له أحمد أكنسوس :

و دعوتني وزعمت أنك ناصحي * و لقد صدقت و كنت أميناً

و عرضت ديناً لا محالة أنه * ومن خير أديان البرية ديناً

و يحتوى هذا الكتاب على عدة فصول نذكرها :

فصل يرد فيه على قول البكاي : " إن التيجاني ليس من أهل التربية " فصل فيه نهي التيجاني أصحابه عن زيارة الأولياء الأحياء و الأموات .

فصل في الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي أرسل كتاباً لأكنسوس و أفشاه الرسول قبل وصوله إليه فانقلبت نصيحة فضيحة .

فصل يهدد فيه البكاي و يعتذر له أيضاً .

يقول أكنسوس لا تطمعوا أن تهينونا و نكرمكم و أن نكف الأذى عنكم تؤذونا .

يقول ها أنا أقف عجزاً و إعياء .

يا كالبي بالله قبل يديه * بدلاً من فمي ففيه احتشام (٣٤)

رد الشيخ أحمد البكاي و لكن حسب رواة نساخه يرى أنه نسخه (٣٥) أحمد البكاي لم تصل إلى أحمد أكنسوس بسبب وفاة أحمد البكاي ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م. أما فهرس المخطوط فيقع في آخر المخطوط وبه تسعة وعشرون صفحة وقد اخترت بعض عناوينه. كتبوا كتابهم أي جوهر المعاني فمزقه ولم يرضه ذلك دليل على صلاحه لما تضمنه من الكفريات بالتصريح و التلميح . و استمر أكنسوس إلى أن قال زعموا أن الاجتهاد انقطع ...الخ إلى أن قال و العمل بالعلم هو التربية .قال البكاي رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزر أبا بكر ولا عمر ولا علياً ولا عثمان ولم يختصر مجالسهم فيزور و يحضر إلى مجلس التيجاني و سيدي محمد بن أحمد أكنسوس أني أكذب هذا و أعذبه و طفق يعاتب على من يتصور هذا في عقله و عاتب سلطان وقته .

- أتدري ما هي القصة أن التيجاني جاء إلى الغرب وقد كل علماؤه و اشتغلت أمراؤه و كثر الجهل في أهله فادعى لهم دعاوى و أمناهم أماني ...الخ إلى أن قال إن من كلام التيجانية أن طريقهم هي آخر الطريق فلا يأتي ولي بعده بطريقة جديدة و بحث إلى أن قال ولا أحسب أطول هنا إلى أن قال يا أكنسوس بحق إمامك مولانا عبد الرحمان رد أحمد البكاي على الرسالة المسماة بالجواب المسكت بكتاب ما يزال مخطوطا سماه فتح القدوس في جواب ابن عبد الله أكنسوس (٣٦).

فهذا المخطوط يتناول فيه أحمد البكاي مزاعم التيجانيين أن الاجتهاد انقطع و العمل بالعلم هو التربية و ينفي ما قاله أكنسوس في قوله أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر إلى مجالس التيجاني من حين أنه لم يزر أبا بكر ولا عمر ولا علياً ولا عثمان أجاب فيه عالم مراكش مخطوط موجود بمركز أحمد بابا بتمكتوا مكتوب بخط مقروء عنوانه مكتوب بحبر أحمر و أزرق و سائر

الكتاب بحير أسود عدد صفحاته أربعمائة و خمسون صفحة .فإن الأسباب التي جعلت التيجاني في أقواله بالمغرب و هذا بحسب رأي أحمد البكاي أنه جاء إليه في وقت قل علماؤه و استغل أمرؤه وكثر الجهل في أهله فادعى لهم دعاوى و أمانهم الأماني و جعلهم يقولون أن التيجاني هو آخر مؤسس للطرق الصوفية فلا يأتي ولي بعده بطريقة جديدة .

دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام في القارة الإفريقية :

و بغض النظر عن أسماء الطرق الصوفية و مسمياتها و الآراء التي نادت بها و الأفكار التي حاولت نشرها فإن هذه الطرق قد لعبت دوراً كبيراً في نشر الدين الإسلامي في إقليم توات و حوض نهر النيجر ولو حاولنا فصل هذه الطرق عن الحياة الدينية بهذين الإقليمين لوجدنا أن المحاولة تؤدي إلى فشل من يتصدى لها و في النهاية نقبل بهذا الطرق باعتبارها الحاكم في الحياة الإسلامية بإقليمي توات والأزواد رغم بعض الإدعاءات عن الانحراف الذي أصاب بعضها .

و مهما يكن فإن لكل من الطريقة القادرية و الطريقة الموساوية و الطريقة الشيخية والطريقة التيجانية أثر كبير في نشر الإسلام و تعاليمه الدينية في الزوايا و الكتاتيب القرآنية و حلقات الذكر التي تكون بعد الصلوات الخمس و في أيام متعارف عليها بين مريدي الطرق الصوفية التي يكون في العادة ليلة الجمعة و في نهارها هذه اللقاءات اليومية و الأسبوعية ساهمت في جذب العديد من المريدين الجدد إليها و لزواياها المتواجدة و المترامية في الإقليمين سواء للتعليم أو الإطعام من جهة أو تنظيم حياة الناس من جهة أخرى نتيجة إلى الحركة الساكنة في ذاتها الملتفة حول نفسها (٣٧) لما لها من ثقافة و إلهام روحي وزخم ديني من النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية استطاعت بها من أن تحافظ على بقائها بإقليمي توات و الأزواد .

إلى جانب آخر هذه الطرق عرفت نقلة نوعية بسبب أول اصطدام حضاري ما بين الثقافة العربية الإسلامية و الثقافة الغربية التي كانت تقودها فرنسا خلال القرن التاسع عشر في نشر تعاليم الطرق الصوفية ، ولا ننسى ركب الحج في النقاط التي تتجمع بها الحجيج بالأزواد ثم توات و المدة الزمنية التي كان يستغرقها الركب و التي تدوم في الغالب سنة هذه أهمية تؤدي إلى تفاعل حضري بين الشيوخ و المريدين حيث كانت هذه الفترة من أنشط الفترات فقد شهدت ازدهار حركة الطرق الصوفية حيث وصل عددها بالجزائر حوالي أربع عشرة طريقة بالإضافة إلى الطرق الفرعية عن كل طريقة .فكان لكل شيخ أتباعه و نشاطه الخاص وأثناء عودة شيخ الطريقة مع ركب الحجيج ينضم له أضعاف ما كان المريدين نظراً للثقافة التي تحصلوا عليها و

المقامات التي زاروها و الدروس التي سمعوها طيلة سفرهم [٣٨] ، وقد أبدى علماء كنتة جهوداً في نشر الطريقة البكائية بشكل واسع و أعمق بإقليم الأزواد و حوض نهر النيجر فقد ألف الشيخ المختار الكبير أكثر من ثلاث مئة رسالة عن الإسلام و المسلمين بالأزواد و غرب إفريقيا و صارت تعاليمه التي حملها طلابه من أبرز العلامات التي ساعدت على انتشار الإسلام بين الشعوب الزنجية في حوض نهر النيجر و غرب إفريقيا و عندما وصلت الطريقة البكائية إلى هذه الجماعات أصبح يدين بها أغلب الملوك و الشيوخ و استمر الإسلام في الانتشار على طول الطرق التجارية و صارت محط القوافل مصدر إشعاع ديني و روحي في آن واحد [٣٩] ومن مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي [٤٠].

في نشر الطريقة القادرية مخطوط إحياء السنة و إخماد البدعة و مخطوط أصول الدين و مخطوط أصول الولاية و شروطها و مخطوط السلاسل الذهبية للسادات الصوفية و مخطوط السلاسل القادرية و مخطوط بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أحوال الملة المحمدية و مخطوط تعليم الأخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان .

الهوامش

(١) أما رجال الطرق الصوفية انقسموا حول أصل كلمة التصوف فمنهم من قال : إن الصوفية اسم مشتق من الصوف بوصفه اللباس الغالب على هؤلاء المتصوفة و أنه اسم قديم وجد قبل ظهور الإسلام ، و يرى آخرون أن الكلمة مشتقة من دار الصفة و هي الصومعة التي يأوي إليها جماعة من فقراء المسلمين للإعتكاف و العبادة و كان الناس يقدمون لهم ما يتصدقون به عليهم من الطعام و المال ،و هذه الجماعة أمرها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن تهجر الصومعة فلا تأوي إليها ولا تعتكف فيها ثم قال كلمته المشهورة لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق و هو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولا يوجد لهذا الاسم في العربية مثيل لا من ناحية القياس ولا الاشتقاق و الظاهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال أنه من الصوف و تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه لكن القوم لا يختصوا بلبس الصوف ، و من قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفي و من قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في معنى اللغة العربية و من قال : أنه مشتق من الصف فالمعنى صحيح و لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ، ثم أن هذه الطائفة أكثر من أ يحتاج إلى قياس لفظ أو اشتقاق » أنظر : أبو الوفا الغنيمي التفتازاني . الطرق الصوفية في مصر ،مستخرج من حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٥٦ و ابو حامد الغزالي . مختصر إحياء علوم الدين ، تحقيق و تعليق شعبان محمد إسماعيل . القاهرة : د.ن.، ١٩٧٨م ص ٧.

و أبو القاسم النيسابوري . الرسالة القشيرية في علم التصوف .- بيروت : المكتبة العصرية ،د.ت.، ص ٢٧٩- ٢٨٢ .

(٢) هو محمد بن موسى الواسطي من بلاد تركستان كان عالماً بالأصول دخل خراسان و مات بها عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م انظر الرسالة القشيرية للنيسابوري ، ص ٤٣٩.

(٣) أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية ، الجزء ٦ . ط . ٤ . د . م : مكتبة النهضة ، ١٩٨٣ ص ٢١١.

أنظر ايضاً : عبد القادر الجيلاني . سر الأسرار و مظهر الانوار ، تحقيق خالد محمد عدنان الزرعي و محمد غسان نصوحُ عز قول – دمشق : دار السنابل ، ١٩٩٤م

عبد القادر الجيلاني . الفيوضات الربانية في الآثار و الأوراد القادرية ، جمع و ترتيب الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القاري . د.م : مطبعة الباب الحلبي د.ت

(٤) عبد الرحمن بن خلدون . المقدمة ، ج . ١ الفصل ١٧ في علم التصوف ص ٨٦٣- ٨٨٢.

(٥) عبد الله عبد الرزاق ابراهيم . أضواء على الطريقة الصوفية في القارة الإفريقية .د.م : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٠، ص ٣٧.

(٦) أبو نصر السراج . كتاب اللمع للطوسي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة : د.ن، ١٩٦٠ ، ص ٤٧.

(٧) المقدم في اصطلاح الصوفية يطلق على من ينوب صاحب الطريقة في منطقة من المناطق و يكون من الشيوخ المعروفين بالعبادة و إخلاصهم للطريقة .انظر :

Xavier coppolani , Octave Depont . Les confréries religieuses musulmanes .Alger : Adolphe Jourdan , 1897,p 195.

– محمد بن عبد الله . الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التيجاني .د.م : مطبوعات الحاج عبد السلام ، د.ت.ص ٣١.

(٨) الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكنتي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤.

(٩) الشيخ المختار الكبير – الكوكب الوقاد في فضائل المشائخ و حقائق الأوراد الخزانة العقباوية (مخطوط) أقبلي ص ١١٢.

(١٠) الشيخ المختار الكبير . الجرعة الصافية ، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم أولف ص ١٦ .

(١١) الأحزاب مجموعة من الأذكار الراتبة شبهوها بحزب القرآن للمداومة عليها في أوقات معينة .

(١٢) انظر صورة لمخطوط الكوكب الوقاد الشيخ المختار الكبير .

(١٣) السطر علي حرازم .جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض أبي العباس التيجاني ، ج ١ . القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٢٧.ص ٢٩.

(١٤) محمد بن جعفر الكتاني .سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس فيمن قبر من العلماء و الصلحاء بفاس ، ج ١ طبعة حجرية ، المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم ٩٥ .ص ١٨٢.

(15) Louis Rinn Marabouts et khouan etudes sur l'islam en Algerie .Alger : Adolphe Jourdan,1884,p 418.

(16) Eugene Daumas Le Sahara Algerian etudes geographiques statistiques et historiques sur la region au sud des etablissements francais en Algerie .Paris : s.n.,1845,p 34.

(١٧) عبد الكريم العطار تاريخ الطريقة التيجانية المشرقة في البلاد المصرية القاهرة (د.ت)ص ٦٢.

(١٨) عبد الله الرزاق ،المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

(١٩) و هو الذي يبلغ به الصلاح في الدنيا و الدين و يحتل في نظر أصحاب الطريقة العالم بموته .

(٢٠) محمد بن محمد أكنسوس . الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق الإمام التيجاني بلا تثبت .الجزائرية : المطبعة الثعالبية ، ١٩١٣، ص ٢٤.

(٢١) إبراهيم القطان المختار ." من أقوال التيجاني " ، مجلة الفتح ، العدد ٣٨٨ ، ١٩٣٣، ص ٤.

(٢٢) محمد الهاشم الخطيب ." النصيحة الإسلامية إلى المخدوعين بالتجانية " . مجلة الفتح ، عدد ٤٠٨ ، السنة ٠٩ ، ١٩٣٤،ص ١٦.

(٢٣) انظر : ابراهيم لباس الكوملي . البيان و التبين عن التيجانية و التيجانيين .ط.٢ . (الـمـنـعـال) : مكتبة كولاك ، د.ت .

(٢٤) قرآن كريم سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢٥) عبد الكريم العطار . تاريخ الطريقة التيجانية المشرقة في البلاد المصرية . القاهرة : د.ن.، د.ت، ص ٦٢.

(٢٦) بن يوسف التلمساني . الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر – الحكم العثماني – الأمير عبد القادر – الإدارة الاستعمارية .رسالة نيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، ١٩٩٨ ص ٢٣٨.

انظر : قدور بن رويلة . وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي لمليان ،تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم .الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥-٩٦.

(٢٧) محمد الاخضر . الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (١٦٦٤- ١٨٩٤) ، ج ١. الدار البيضاء :دار الرشاد ، ١٩٧٧. ص ٤٣١- ٤٣٢.

(٢٨) رسالة أحمد البكاي بعث بها من تنبكتو إلى أهل مراكش و خاصة الحاج محمد بن أحمد الصحراوي و الحاج محمد عمور و مولاي المدني و غيرهم من الفحول موجودة بمركز أحمد بابا تنبكتو تحت رقم ٢٩٧ بها خمسة أوراق مكتوبة بخط مقروء طول الورقة خمسة و ثلاثون سنتيم و عرضها واحد وعشرون سنتيم .

(٢٩) أخرجه مسلم في الصحيح –كتاب البر و الصلة / ٣٥ ، و الإمام مالك في الموطأ / ٩٠٨ و الترمذي في الجامع / ٢٣ . انظر :

محمد السعيد زغلول .موسوعة أطراف الحديث ، المجلد ٤ (باب – الخيلاء) . بيروت : دار الكتاب العلمية ، د.ت . ص ٣٩٧.

(٣٠) الرسالة موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د ١٠٧١ بعنوان رسالة أحمد البكاي لاكنسوس طول الورقة ٢٣ سم عرض ١٥ سم

(٣١) جواب عن رسالة من أحمد أكنسوس إلى أحمد البكاي الخزانة العامة بالرباط د ١٦٠٤ طول الصفحة ٢١ سم عرض ١٢,٥ سم .

(٣٢) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق ، ص ١٤٠.

(٣٣) تسمى الجواب المسكت في الرد على تكلم في الطريقة التيجانية بلا تثبت طبع بالمطبعة العثمانية بالجزائر ١٩١٣ ، فهذه الرسالة يرد فيها على الشيخ أحمد البكاي و يحمل مسؤولية إلى من بلغوه عن الطريقة التيجانية و ليس إلى أحمد البكاي .

(٣٤) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق : ص ٧٨.

(٣٥) أحمد البكاي .فتح القدوس في جواب عبد الله أكنسوس .مركز أحمد بابا تنبكتو تحت رقم ٣٧٣ لا يزال مخطوط .

(٣٦) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣٧) حميد عميراوي . " الطرق الصوفية " مجلة مسالك ، تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر العدد ٠٣ ديسمبر ١٩٩٨ ص ٨٣.

(٣٨) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٣٩) نفس المرجع ص ٣٨.

(٤٠) هو أبو محمد عثمان بن محمد ابن عثمان المعروف بابن فودي أخذ ورد الطريقة عن عبد القادر الجيلاني و كان ممن يدعو إلى الله و يدل عليه و كابد ما هو المعهود من أخلاق الناس من الجفاء و الإنكار و الاستهزاء و كان يخاطبهم بقدر عقولهم .

د. محفوظ رموم (*)

سوق العمل أو الوظائف الإدارية والعلمية في الجزائر خلال العهد العثماني

إن العالم أو المثقف–في أي مجتمع وأي فترة–تتجاذبه المسؤولية العلمية إلى جانب الحاجات النفسية والاجتماعية والاقتصادية،وبين هذا وذلك موقع رجل العلم في الجزائر خلال العهد العثماني، ففي مجتمع–أولى أولوياته الحرب والتجارة– مارس العلماء الجزائريون وظائفهم المتنوعة، والتي سمحت لبعضهم بالتواجد كفئة في طبقة اجتماعية محظوظة، لها امتيازاتها ومجال عملها، في حين ظلت الغالبية منها في أدنى السلم الاجتماعي .

ولتسليط الضوء أكثر على هذه الفئة، ومدى تشابك علاقاتها، يجدر بنا أن نلقي نظرة على أهم الوظائف التي كانت مفتوحة أمامها آنذاك، ومن ثم تحديد مدى حركة سوق العمل من جهة،وما واكبه من صراع وتنافس على الوظائف من جهة أخرى.

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر– بالجامعة الإفريقية/ أدرار/ الجزائر.

أولا: أهم الوظائف الإدارية والعلمية الأساسية:

لم يكن العلماء في الجزائر، وإلى غاية العهد الزياني، مهيكلين إداريا، وبشكل رسمي، إلا في بعض الوظائف المهمة، لكن مع استقرار سلطة الأتراك بدا أن جهازا بيروقراطيا[١] أخذ في التشكل اعتمادا -في البداية- على موارد بشرية تركية، سرعان ما فتحت أبوابه أمام علماء البلد لتغطية النقص، وضمان إحكام السيطرة على المناطق المفتوحة. وكانت أهم الوظائف الرسمية العليا آنذاك هي:

١- وظيفة الإفتاء: وتأتي على رأس السلم الوظيفي من حيث الأهمية،بسبب مكانة المفتي البارزة في صياغة الأحكام والقوانين، حيث كانت المكانة العلمية،والشهرة،شرطا أساسيا لشغل هذا المنصب، الذي استحدث من طرف الأتراك -على شاكلة ما كان في اسطنبول- وأطلقوا على من يتولاه اسم "شيخ الإسلام."[٢] وقد جعلوه برأسين: أحدهما المفتي الخاص بالمذهب الحنفي، و الثاني بالمذهب المالكي، فكان الأخير يعين اعتمادا على جماعات الضغط في المدينة،وكان يؤتى بالأول مع الباشا من عاصمة الخلافة،ثم أصبح يعين من الكراغلة لاحقا.[٣]

يتمتع المفتون الرئيسيون،سواء في عاصمة الأيالة أو عواصم البايليكات، برئاسة المجلس الأعلى، الذي يتعقد أسبوعيا في الجامع الأعظم، بحضور القاضيين، وكبار العلماء، وممثل عن الباشا أو الباي للنظر في القضايا الكبرى، أما القضايا الصغرى فقد كان يتولاها القضاة العاديين.

لقد اختلف حول تطبيق أحكام هذا المجلس، ومن له سلطة القرار النهائي،[٤] وإذ نرجح الرأي القائل بأن كلمة الفصل كانت ترجع للمفتي المالكي، فإن ذلك لا يعني أن مهمة المفتي الحنفي اقتصرت على الإشراف الفقهي والإداري على مساجد الأحناف،كما يذهب إلى ذلك البعض،بل كان يتدخل في قضايا متعددة،بما في ذلك الفصل في بعض الأمور السياسية والتجارية.[٥]

وأمام أهمية هذا المركز اجتماعيا ودينيا، فإن عائلات بعينها سيطرت على منصب الإفتاء، وتوارثته لأجيال. فعلى المذهب المالكي اشتهرت عائلة قدوره، وعلى المذهب الحنفي عرفت عائلة ابن رجب تداول المنصب بين أبنائها. ويرجع هذا التنافس إلى الامتيازات التي كان

يتحصل عليها من يتصدر هذا المنصب، مما جعل الصراع عليه كبيرا بين الأسر العلمية، كما سنرى، خاصة وأن المفتي كثيرا ما كان يجمع وظائف أخرى كالتدريس، والخطابة، والقضاء، ولم تستثن منه سوى نظارة الأوقاف التي لم تكن من نصيبه إلا نادرا.(٦)

٢- وظيفة القضاء والتوثيق: من ملامح التغيرات الثقافية في العهد العثماني التعدد المذهبي، فإلى جانب المذهب المالكي أدخل المذهب الحنفي، فأصبح القضاء هو الآخر ثنائي المذهب. وقد عرف التنظيم القضائي تسلسلا هرميا يرأسه قاض حنفي و آخر مالكي، يساعدهما مجموعة من الموثقين والعدول، ثم يتكرر هذا النموذج في عواصم الإقليم الثلاث قسنطينة والمدية ومعسكر، ويتدرج في بقية المدن الكبرى، ليصبح أحادي المذهب في المدن الصغرى والأرياف، بسبب تركز الأتراك الأحناف في المدن الرئيسية فقط.

يتم تنصيب القاضي من طرف الباشا، بما في ذلك قضاة عواصم الأقاليم ومدنها الكبرى، ثم يحضر القاضي بنفسه أمام لجنة العلماء لإقراره على وظيفته الجديدة، وذلك بناء على مستواه العلمي.

كان قرار التنصيب يتضمن مكان ومقر الوظيفة، وتاريخ توليها، والمذهب الذي يتم تولي الحكم به. وهذا ما وجدناه في رسالة تولية القاضي محمد بن الحسين ببجاية أيام محمد باشا سنة ١٢٠١هـ/١٧٠٠م، والتي عثرنا عليها بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية وردت تلك المعلومات بالتفصيل :"...فقد أنعمنا عليه ووليناه قاضيا مرضيا محضيا ببلد بجاية...سالكا في ذلك أحسن المسالك حاكما بالمشهور من مذهب الإمام مالك بحيث لا تهتك له حرمة ولا يهظم(كذا) له جناب ولا يصله أحد بإذاية ولا بمكروه ولا يقاس بما يقاس به غيره ولا لأحد إليه من سُبيل بوجه ولاحال..."(٧) .

إن مثل هذه الرسالة تؤكد قوة موقف القضاة المعنوية، ومن ثم قدرتهم على اتخاذ القرارات بعيدا عن الضغوطات، وهذا ما أكده الرحالة الأوربيون الذين جاءوا الجزائر أو استقروا بها في مذكراتهم، كما أثبته وقائع الدعوى التي رفعتها آمنة بنت صالح باي ضد أبيها، وهو باي بايلك قسنطينة، بدعوى أنه منعها من وقف كان قد حبسه عليها وعلى إخوتها، حيث حكم القاضي آنذاك، شعبان بن عبد الجليل، لصالح آمنه بثبوت الوقف.(٨)

اختلفت أجور القضاة حسب درجاتهم في السلم القضائي، وأماكن عملهم، لكن الثابت أن قاض المظالم وقاض المواريث كانت لهما مكانة خاصة، لأن المنصبين يؤهلان صاحبهما لمنصب القضاء العام أو الإفتاء، عدا الامتيازات التي يحصل عليها متوليهما من هنا وهناك.

فقاضي مواريث محكمة قسنطينة مثلا كان يتقاضى عشرة في المائة عن كل حالة تقسيم للتركة، أما قاضي البيطري فكانت أجرته ستة سلطاني(٩)،وبذلك تتأكد لنا أهمية القضاء كمنصب قاض له أهميته التي تنبع من المكانة الاجتماعية الراقية التي يوفرها لصاحبه من جهة، وللريع الذي يدره المنصب من جهة أخرى، إلى جانب الأجرة الدائمة التي يتقاضاها القاضي بشكل دوري.

ومن جهة أخرى تبرز لنا أهمية جهاز القضاء باعتباره أحد أهم الأجهزة الإدارية التي استوعبت ووفرت لخريجي المؤسسات التعليمية وظائف قارة، ويتضح ذلك أكثر إذا ما علمنا حجم العدول، والموثقين، والمحضرين القضائيين(الشواش)، والشهود الملحقين بالجهاز القضائي أو بالباش دفتر المكلفين بكتابة السجلات.(١٠) ففي قسنطينة مثلا حفلت سجلاتها بأسماء القضاة المشهورين كقاسم الفكون ومحمد الكماد، ومشاهير العدول كالحاج علي النوري، والسيد العربي الأموي، ومحمد البرادعي، ومصطفى بن عبد الجليل، ومحمد الشريف،وبلقاسم المسبح وغيرهم كثير، مما يدل على تعدد المناصب داخل مؤسسة القضاء، وقدرتها على استيعاب عدد مهم من خريجي المؤسسات الثقافية والعلمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

٣- وظيفة الإمامة والخطابة: الإمام كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية هو من يؤم الناس في الصلاة، والخطيب هو من يتولى خطبة الجمعة في المسجد الجامع، ويذهب معظم المؤرخون في الجزائر إلى أن الخطيب في العهد العثماني كان يجمع وظيفة الإمامة إلى الخطابة..

والحق أن خطيب الأعياد والجمع لم يكن يؤم الناس في سائر الأيام، بدليل وثائق أوقاف المساجد التي أوردها ديفوكس Albert Devoux ولوكلارك Leclerc وشارل فيرو Charles Feraud في دراستهم بالمجلة الإفريقية Revue Africaine، والتي خصت-في معظمها- الخطيب والإمام بجرايات (أجور) لكل واحد منهما على حدا.

كانت الإمامة والخطابة منصبين مهمين في الجزائر في العصر الحديث، على الأقل في المساجد الكبرى ذات الأوقاف الكثيرة. ففي الجامع الكبير بقسنطينة كان الخطيب يتقاضى مائة ريال،

ويأتي بذلك على رأس كل موظفي الجامع، بما في ذلك المدرس، في حين لايتقاضى الإمام سوى نصفها. و هذا الترتيب نفسه نجده في جامع سوق الغزل بالمدينة نفسها.

أما وقفية جامع خضر باشا بالعاصمة، فقد نصت على دفع خمسين دينارا لمن يتولى الخطبة، دون الإشارة للإمام ولا لأجرته، مما يؤكد أن هذا المنصب كان يسند للخطيب في هذا الجامع. أما في جامع العين البيضاء بمعسكر فكان كل من الخطيب والإمام يأخذ أربعون ريالا للواحد.(١١)

لقد عرفت الثقافة في العهد العثماني تراجعا كبيرا أثر على المستوى العلمي والفقهي للفقهاء، والأئمة، والخطباء، حتى أن بعضهم تصدر للمنصب وهو لا يحسن نظم خطبة سليمة، وقد أشار إلى ذلك الرحالة المغربي أبو سالم العياشي، الذي نعى على إمام المسجد المالكي بورقلة كثرة لحنه في القرآن الكريم، والتحريف والتقديم والتأخير أثناء قراءته،(١٢) كما أورد الفكون الحفيد في كتابه "المنشور" نماذج لهؤلاء، إلى درجة أنه كان يكتب الخطبة بنفسه لأحمد بن باديس خطيب أحد مساجد قسنطينة.

مع ذلك لم تخل الفترة من خطباء متمكنين، حيث اشتهرت خطب المقري ومصطفى البوني بعنابة، وقرباش أفندي بالجامع الجديد بالعاصمة، وعبد الكريم الفكون الحفيد بقسنطينة،والذي جمع خطبه في صحائف، كما أخبرنا في كتابه المنشور ،ولكنها للأسف لم تصلنا.

٤- وظيفة التدريس: تعتبر من الوظائف الرسمية التي استوعبت عددا كبيرا من خريجي المدارس، ووفرت لأصحابها مكانة علمية وأدبية واجتماعية مهمة.(١٣) وذلك بسبب دخلها الوقفي القار.

اختلفتْ أجور المدرسين من مسجد لآخر، ومن مدينة لأخرى، وذلك بحسب مداخل وحجم وقفيات المراكز العلمية والدينية. فقد خصت وقفية جامع خضر باشا دينارين لقارئ الصلاة المحمدية كل يوم اثنين وخميس، ومثلها لقارئ"كتاب التعريف" في التصوف، في حين خصت المدرس المالكي، ومدرس"صحيح البخاري"، ومدرس مختصر ابن أبي جمرة، وقارئ الرسالة بثلاثين دينارا لكل منهم.(١٤)

و في المدرسة الكتانية بقسنطينة خصص لمدرسها المالكي المذهب ثمانية وأربعون ريالا، في الوقت الذي تصل فيه أجرة نظيره بجامع العين البيضاء بمعسكر إلى ستين ريالا.(١٥) وهنا تجدر بنا

الإشارة إلى أن هذه الرواتب يجب أن تقرأ على ضوء الوضع الاجتماعي والاقتصادي لبايلكات الجزائر في العهد العثماني، وقيمة عملة كل بايلك على حدا،كما أن هذه الأجور خاصة بكبار المدرسين في أهم مدارس ومساجد الأيالة، وفي كبريات حواضرها فقط.

اشتهر عدد كبير من كبار المدرسين الجزائريين، وذاع صيتهم، وشدت إليهم الرحال، لتلقي العلم على أيديهم، فزادت شهرة المؤسسات التي تصدروا التدريس بها كمدرسة الأندلسيين، ومدرسة مازونة و مدرسة خنقة سيدي ناجي، وزاوية جامع القشاش التي ضمت لوحدها إحدى عشرة حلقة علم.

ولعل من أشهر مدرسي الجزائر آنذاك المفتي سعيد قدوره (المتوفى سنة ١٦٥٥م) الذي تصدر الفتوى والتدريس بالجامع الأعظم بالعاصمة، وتخرج على يده عدد كبير من علماء الجزائر، منهم عيسى الثعالبي (المتوفى سنة ١٦٦٩م)، ويحي الشاوي (المتوفى سنة ١٦٨٤م)، اللذان تقلدا مهمة التدريس بنفس الجامع، وهو الجامع الذي تجاوز عدد موظفيه الستين بين أئمة، ومؤذنين، وقراء، ومدرسين، تداولوا على أزيد من اثني عشرة حلقة يوميا.

٥- وظيفة ناظر الأوقاف: عرفت الأوقاف-باعتبارها مؤسسة اجتماعية وثقافية-تزايدا كبيرا مع دخول العثمانيين، واعتماد مذهبهم الحنفي، الذي يجيز استمرار انتفاع الواقف بوقفه حتى وفاته، بخلاف المذهب المالكي الذي يلزم الجهة المستفيدة من الوقف باستخدامه مباشرة،[٦٦]، وهذا ما يفسر ظاهرة وحركية التحبيس بالجزائر خلال العهد العثماني، هذا الوقف الذي سمح بدوره في إيجاد سوق عمل واسعة للمثقفين بمختلف تخصصاتهم.

كان الوقف يشرف عليه ناظر يعينه الواقفون أنفسهم، يساعده مجموعة من الوكلاء الثانويين والشواش والكتبة والعدول.[٦٧] وقد زخرت مصادر تلك الفترة بأسماء النظار ووكلاء الأوقاف المتسلقين لتحقيق الثراء، وتحويل أموال الوقف لحسابهم الخاص، فقد أورد الفكون في منشوره أن الشيخ ابن نعمون ناظر الأوقاف بقسنطينة غير الكثير من الأحباس، وهتك حرمتها، وتجرأ على بيع أكثر من خمس وثلاثين وقفا، أما حميدة بن حسن الغربي فقد استولى على ربع أحباس مسجد أبي مصباح عبد الهادي بنفس المدينة.

وقد حاول بعض البايات تدارك الأمر، فأصبحوا يعينون نظار الأوقاف بأنفسهم، إلا أن ذلك لم يقض على ظاهرة تحويل أموال الصالح العام، بل أن المنصب نفسه كان يدر على صاحبه أرباحا إضافية، وقد استغل بعض النظار عجز المجلس العلمي على أداء دوره الرقابي، ومحاسبة

الوكلاء والقائمين على القطاع، لإساءة التصرف، والاستفادة الخاصة من الأوقاف، وهذا ما دفع الباي محمد الكبير، حاكم بايلك الغرب الجزائري، إلى تتبع أوقاف مدرسة تلمسان التي استولت عليها الأيدي، كما ورد في مصادر الفترة، وهو العمل نفسه الذي قام به صالح باي قسنطينة (المتوفى سنة ١٧٩٢م)، حيث اتخذ إجراء محاسبة الوكلاء كل ستة أشهر، وتسجيل الأحباس قديمها وجديدها في سجلات خاصة، لحصرها وتسهيل مراجعتها، وتمكين الرقابة من ممارسة عملها الرقابي دوريا.[١٨]

مع ذلك ظلت-الأوقاف على كثرتها-معرضة للضياع، بسبب احتفاظ الناظر بكامل صلاحيات عقد الصفقات، وشراء الأوقاف، واستبدالها. كما أن التنظيم المؤسساتي الذي قام به بعض البايات، كما سبق و أن ذكرنا، لم يطل سوى المدن الكبرى، وحتى في المدن لم يتعد بعض المؤسسات الوقفية التي تتبع سلطة البايلك (الحكومية أو شبه حكومية)، على خلاف ما شاهدته مثيلاتها في المشرق من تنظيم، واتساع، وقدرة على استيعاب أعداد لا تحصى من الموظفين وطالبي العمل.

٦- وظيفة الكتابة: يشترط في من يتولى وظيفة الكتابة أن يكون متمكنا في البيان، خطاطا، عارفا بقواعد اللغة العربية، والتركية، وحتى بعض اللغات الأخرى كالفرنسية والإيطالية والإسبانية مثلا. فهذا أحمد القاسي الذي شغل هذا المنصب لدى أمراء بني عباس، قد عرف عنه جودة الخط، ودقة العبارة، ووضوح المعنى، وفصاحة القلم،كما أخبر بذلك الفكون.

لقد كان الكتبة موظفين ملحقين بقصور الإمارة في عواصم الأقاليم، كما شكلوا جهازا بيروقراطيا مهما في تسيير دواليب السلطة، فكان منهم قراء الرسائل، وكتابها، ومترجموها، وحفاظها بقسم الأرشيف.[١٩] واشتهر منهم محمد ابن ميمون كاتب الباي محمد بكداش وصاحب تأليف "التحفة المرضية في أخبار الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، وابن هطال كاتب الباي محمد الكبير وكاتب سيرته في التأليف المعروف باسم "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري".

٧-السفارة: تعتبر السفارة من المهمات الدبلوماسية التي كانت السلطة تخص بها العلماء من ذوي الشهرة، وأصحاب الفصاحة والقدرة على التأثير والإقناع، بل والأقرب إلى رجالات بلاط الدولة المرسل إليها.

فحينما أوشكت الحرب أن تقع بين أتراك الجزائر وسلاطين المغرب الأقصى، أرسل حسين باشا العالم الجليل الشيخ محمد بن علي الخروبي المتوفى سنة ١٥٦٩م، على رأس سفارة لإجراء المفاوضات مع الأسرة السعدية، وترسيم الحدود، وبذلك تفادى البلدين الدخول في المواجهة العسكرية.

وفي سنة ١٦٩٣م، أي زمن مولاي إسماعيل العلوي الذي حكم بين ١٦٧٢-١٧٢٧م، حل بالجزائر وفد من علماء المغرب، بهدف عقد اتفاقية هدنة بين الطرفين، على خلفية وقوف أتراك الجزائر إلى جانب ثورة البربر والطريقة الدلائية بالريف المغربي، فكان دور علماء الجزائر واضحا، حيث استقبلوا أعضاء الوفد ورافقوه إلى الديوان، أين اشتركوا في المحادثات التي دارت بين الطرفين.

وقبل ذلك، وفي سنة ١٦٥٤م، قاد العالم والمفتي الشيخ أحمد القوجلي سفارة رسمية إلى اسطنبول في شأن الأهوال التي مرت بها الأيالة، شارحا أوضاعها، ومحذرا من تكالب الدول الأوروبية، وازدياد الهجمة الشرسة التي تقودها فرنسا واسبانيا عليها.

كما كلف محمد بن العنابي بسفارة إلى المغرب لطلب مساعدات عسكرية، بعد الهجمات التي تعرضت لها الجزائر مطلع القرن التاسع عشر، منها حملة اللورد اكسموث الإنجليزي سنة ١٨١٦م، ثم أعقبها بسفارة أخرى في عام ١٨٢٦م.

أما الشيخ أحمد بن هطال فقد كلفه محمد الكبير باي وهران، بقيادة مفاوضات شراء السلاح من المغرب لتدعيم الترسانة الحربية الجزائرية بعد توقف الإمدادات التي كانت تحصل عليها الجزائر سنويا من الدولة العثمانية، وذلك للوقوف في وجه الإسبان المحتلين لمدينة وهران.[٣٠]

إذن لم تكن السفارة وظيفة بعينها، ولا سوق عمل مفتوح في وجه الفئات المتعلمة، ولكنها غالبا ماكانت تسند إلى بعض العلماء من دون مرتب دائم، وإنما كانت الهبات والعطايا تتقاطر على السفير إذا ما نجح في المهمة التي أوكلت إليه.

ثانيا:الوظائف صراع من أجل البقاء:

لم يكن للتوزيع الوظيفي الامتداد الأفقي أو العمودي الواسع داخل المنظومة الإدارية في الجزائر العثمانية، مما أدى إلى بروز ظاهرة السعي الحثيث، والتنافس الشرس، من أجل الحصول على الوظيفة. و أمام هذا الشح المسجل في سوق العمل فقد استعملت في هذا التنافس كل الوسائل الشريفة في بعض الأحيان، والغير شريفة في أحيان كثيرة، وهذا ما يبرر انتشار الأمراض الاجتماعية والبيروقراطية السلبية في الأوساط العلمية آنذاك كالوساطة، وادعاء العلم، والوشاية، والمداراة، والنفاق، وهي أخلاق رائجة، أصبحت أساس الحصول/ أو البقاء في المنصب المشغول كما سنرى.

١-التنافس على الوظائف: لقد حفل كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لصاحبه العالم الفقيه عبد الكريم الفكون، بأخبار التنافس بين العلماء للحصول والبقاء في منصب العمل، وقد أرخ هذا المصدر لمجال مهم في الحياة الاجتماعية، والعلاقات بين مختلف عناصر الفئات المثقفة، بما تناوله من نقد للمستوى العلمي والأخلاقي المتدني لعلماء عصره إبان القرن السابع عشر الميلادي، ودورهم الفكري المتراجع، ومكانتهم الاجتماعية، وهي الأمور التي لم يوليها الكثير من الباحثين اهتماما، رغم أنها تشكل ميدانا خصبا، يستحق أن يكون موضوع بحث ودراسات أكاديمية متخصصة..

ويكفي حصر النماذج التي أوردها الفكون، لمعرفة مدى الصراع الذي عاشته النخب المثقفة في الجزائر، من أجل المحافظة على المنصب بكل الوسائل، ولو كان ذلك على حساب الأخلاق، وهي المسألة التي ألقى عليها صاحب الكتاب الضوء، بكثير من الجرأة،قل وجودها في بقية مصادر تلك الفترة، والتي لم تعر الظواهر الاجتماعية السلبية كبير اهتمام.

زادت قيمة الوظيفة أكثر مع زيادة حالة الفقر التي عان منها معظم المثقفون آنذاك، ما عدا أصحاب المكانة المنتمون إلى طبقات أرستقراطية، أو المقربون من السلطان فيما يعرف بظاهرة مثقف السلطة التي لم يخل منها مكان ولا زمان.

أمام قلة ميادين العمل الخاصة بهذه الفئة، انتشرت مظاهر سلبية عديدة، حيث أصبح الحصول على منصب رفيع يتم بوساطة من لهم سلطة القرار والتأثير، وليس بالضرورة الكفاءة

والقدرة من يرشح صاحبها لمثل هذه المراتب. فقد وقفنا على قصيدة[٢١] مدح فيها الشيخ محمد السنوسي- دون تورية- الشيخ مسلم بن عبد القادر الذي توسط له للحصول على منصب الإفتاء لدى باي وهران. كما عثرنا على رسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية من الشيخ الطاهر بن أبي معزة يلتمس فيها صراحة وساطة شيخ الطريقة الدرقاوية أبي عبد الله سيدي محمد العربي للبقاء في منصب القضاء الذي كان يشغله، وترددت حوله وشايات كادت تؤدي إلى عزله منه.[٢٢]

كان الصراع محتدما على المناصب العليا، فهذا يحي بن محجوبة نازع القضاء الشيخ محمد الكماد، وكان الشيخ عبد اللطيف بركات مغاضبا ومضادا للشيخ محمد الغربي، برغم صداقة الصغر، التي لم تشفع لهما في صراعهما على المنصب ذاته، وظل التنافس بين الشيخ محمد ابن نعمون والشيخ أحمد ابن باديس -وهما من عائلتين قسنطينيتين اشتهرتا بحيازة المناصب العلمية والمخزنية- يزداد اشتعالا بتدخل الواشين، حتى فرقت صداقتهم، ومزقت أخوتهم بسبب منصب رئاسة المجلس العلمي لمدينة قسنطينة، ولم يفصل بينهما سوى تدخل السلطة في العاصمة التي عزلت الأول وسجنته.[٢٣]

لم يكن الصراع حول المناصب مقتصرا على الوسائل التي تم ذكرها، بل تعدتها إلى استخدام الرشوة والدس والوشاية. فهذا القاضي عبد القادر الراشدي رماه منافسوه بالابتداع في العقائد وبالقول بالتجسيم، وذلك بهدف الفتك به لدى الباي، وقد تسبب ذلك في عزله من منصبه في نهاية المطاف. و ذكر الفكون أن القاضي حميدة بن حسن الغربي كان يخدم الولاة ويعظمهم، ويمتهن نفسه في موالاتهم، ويعطيهم الرشوة، التي عمت وأصبحت ظاهرة عادية بين العلماء، للحصول على المنصب، أو البقاء فيه، مما يؤكد ماكتبه الورتلاني في رحلته المعروفة * في وصفه وتعميمه لانتشار ظاهرة الرشوة في الجزائر، وذلك عند حديثه عن قاضي ومفتي مدينة بسكرة، الذي كان لا يتولى المنصب إلا بإعطاء الرشوة، قائلا: "وكذا في كامل عمالة الجزائر".[٢٤]

كما استوقفنا الصراع بين عائلة المسبح وعائلة باش تارزي على قضاء محكمة قسنطينة، فقد تعاقب عليه أولا الشيخ محمد المسبح بين سنتي ١٨٠٩-١٨٣٢م، ثم العالم مصطفى باش تارزي بين سنتي ١٨١٢-١٨٢٥م، ويؤكد شراسة هذا الصراع بين العائلتين ما رصدناه من تعاقب دوري للشخصيتين على المنصب، من خلال أختامهما المسجلة في سجلات الأحوال الشخصية

رقم ٥ و ٦ و ٧ الخاصة بعقود الزواج والطلاق لمحكمة قسنطينة في تلك الفترة، والمحفوظة في أرشيف البلدية.

في ظل ظروف كهذه يصبح تملق المثقف للسلطة والحاكم طبيعيا، وطلب الهدايا منه أمر مقبول لا حياء فيه، وإلا كيف نفهم و نفسر الأبيات التي كتبها محمد بن ميمون للداي محمد بكداش وصدر بها كتابه التحفة المرضية، سوى تملق وطلب صريح للعطايا على حساب الكرامة وحتى على حساب المستوى الأدبي والفني للقصيدة حيث قال:

هذا الكتاب لو يبع بوزنه ذهبا لكان البائع المغبون

ومن العجيب أن تراني آخذا ذهبا وأعطي الجوهر المكنون.(٣٥)

٢- ظاهرة توريث المناصب: أمام قلة الوظائف وأهميتها في نفس الوقت لضمان مصدر قار للرزق من جهة، وسيطرة سلطة البايليك على توزيع الريع الاقتصادي من جهة أخرى، من الطبيعي أن تكون النتيجة سعي كل فائز بالوظائف إلى استمرار الوظيفة في عقبه، وهي أمور، ولاشك، منافية لشروط تولي الوظائف الإدارية والعلمية والتي على رأسها العلم والكفاءة والأخلاق، وهي كلها لا تورث.

تصادف الباحث في هذه الفترة، استفحال ظاهرة التوريث العائلي للمناصب بشكل لافت، حتى اشتهرت عائلات بعينها كعائلة ابن العنابي، وابن العطار، وابن المفتي،وابن الشاهد، والبوني، وعائلة قدوره والفكون، وعائلات أخرى كثيرة، لا يسعنا المقام لذكرها، بعضها ظل يتوارث المناصب الإدارية والعلمية ليس زمن العثمانيين فقط، و إنما منذ العهد الزياني والحفصي،كعائلة العقباني والمقري على سبيل الذكر لا الحصر.

وهكذا ورث الآباء لأبنائهم الوظائف العلمية والإدارية، واحتكروها، وزادوا على ذلك الجمع بين أكثر من منصب ووظيفة، فالشيخ سعيد قدوره مفتي العاصمة أناب عنه ابنه محمد بن سعيد قدوره في أكثر من منصب، حتى أصبح مفتيا لمدة أربعين سنة بعد وفاة والده، ليورث بدوره المنصب لأخيه أحمد بن سعيد قدوره. ونفس الشيء بالنسبة لعائلة ابن باديس في قسنطينة، فقد أخبر الفكون أنه اجتمع فيهم أربعون كلهم حازوا المناصب المخزنية.

وكذلك عائلة الغربي فقد شغل فيها أبو الفضل قضاء قسنطينة، أما ولده فتصدر الفتوى والتدريس بها، واعتلى حفيده حميدة الغربي القضاء والفتوى والخطابة في آن واحد،حتى كانت

شهرتهم على ما ورثوه من أسلافهم،كما عبر عن ذلك الفكون في منشوره.كما اشتهرت عائلة المسبح بتعاقب الآباء والأبناء على تقلد الوظائف العلمية الرسمية، فاشتهر منهم عبد اللطيف وحميدة وبركات.

و الحقيقة أن عائلة الفكون نفسها ،التي انتقد أحد أفرادها هذه الظاهرة، لم تكن هي الأخرى بعيدة عن تكريس ظاهرة التوريث، فقد توارث الفكون الجد، والأب، والحفيد وظائف الإمامة والخطابة والقضاء بمدينة قسنطينة، ثم أضافوا لها زمن الفكون الحفيد صاحب المنشور الذي اعتمدنا عليه في رصد هذه الظاهرة، مشيخة الحج، والتي ظلت تسند لهم إلى غاية ١٨٣٨م.

٣- الوظائف ومصائبها: لم يكن شغل الوظيفة بالأمر الهين، ولم يكن الاحتفاظ بها بالأمر السهل، فقد كان على المثقف أن يخوض الصعاب، ويواجه الأهوال، من أجل الاستمرار أو البقاء في المنصب.

كان ارتباط المثقف بالسلطة، وتبعيته لها، في عصر الانحطاط هذا، هو المؤهل الوحيد للارتقاء في السلم الإداري، ولم تكن الكفاءة والمجهود العلمي، سوى مؤهلات نادرة الوجود، وهذا سر العلم القليل الذي لاحظه الورتلاني على زملائه، وقلة اشتغالهم بالعلم والقضايا الفكرية.

عرفت السلطة كيف تتخذ من الوضع المادي طريقا لكسر شوكة العلماء وعزلهم، مثل ما حدث مع المفتي الحنفي ابن نيكرو، ثم مع الشيخ يحي الأوراسي، الذي اتهم بخلع البيعة، و لما أحس بقرب مساءلته، اضطر للاختفاء والهرب، وإشعال نار الثورة بالأوراس.(٢٦)

تعرض الباشا محمد بكداش بالاضطهاد لمفتي العاصمة أحمد بن قدوره، الذي كان والده سعيد قدوره قد نفي هو الآخر إلى اسطنبول أيام يوسف باشا، هذا الأخير الذي اشتهر بأنه كان ملاحقا للعلماء، حيث لجأ عدد منهم في عهده إلى الهجرة هروبا من التنكيل، وهو ما يسمى في أدبيات الصراع السياسي بالمنفى الاختياري، الذي عاشه الشيخ عيسى الثعالبي ويحي الشاوي، والعالم سعيد المنداسي الذي رحل إلى المغرب.(٢٧)

كانت الوظيفة، بالنسبة للكثيرين، نقمة بقدر ما هي نعمة، وخاصة مع سلطة لم تول العلماء وقطاع التعليم و الثقافة كبير اهتمام، بل كانت تسعى دائما إلى تدجين فئة المثقفين ليسهل عليها بعد ذلك ضمان ولائهم، ترغيبا وترهيبا. فلجأت إلى الطريقة القديمة الجديدة في توزيع الوظائف

والريع، وكما كان توزيع المنصب يتم من هنا وهناك، كان انتزاعه والزج بصاحبه في السجن، أمر هين لايتطلب سوى إشارة بسيطة من الحاكم، والمتصفح لكتاب المنشور تصادفه الظاهرة بشكل مريع، حتى ليحسبها أنها أصبحت موضة للعصر، وقدرا لا مفر منه، وهذا ما نفهمه من كلام الفكون عندما ترجم لابن نعمون، الذي انتهى مساره المهني الطويل في مناصب الدولة بشكل طبيعي غير معهود دون أن تصيبه محنة، مما جعل الفكون يستغرب ذلك، فسجل العبارة التالية عندما ترجم له قائلا: "...ولم تصبه إذاية من منصبه ولم تتوال عليه النكبات كغيره ممن تولى الخطط بهذا البلد".(٢٨)

الخاتمـــة:

في الأخير نقول، رغم تنوع مجالات العمل في الجزائر في العهد العثماني ظاهرا، إلا أن المتأمل في التصنيف الرتبي لسلم الوظائف، آنذاك، يجدها محددة ومحدودة..

فهي محددة، كون الوظائف ظلت مقتصرة على مؤسسات بعينها، ومتوارثة من العصور الوسطى، بحيث لم تواكب التطورات الحاصلة في المجتمع الجزائري على الأقل ديموغرافيا.

ومن جهة أخرى ظلت محدودة بسبب اقتصارها على المناطق الحضرية فقط، وبالضبط في عواصم الأقاليم والمدن الكبرى، أما الريف، في ذلك الوقت، فقد تميز بالرتابة، وقدم البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

أمام شح المناصب والوظائف الإدارية، لم تكن الوظيفة في متناول الجميع، كما أن القطاع الثقافي عمليا لم يكن بمقدوره إستعاب العدد الهائل لخريجي المؤسسات العلمية الجزائرية علىً تنوعها وبساطتها في نفس الوقت، مما ألجأ الكثير من العلماء والمثقفين إلى ممارسة وظائف تجارية لسد حاجاتهم كما فعل عبد الرزاق ابن حمادوش والشيخ حمودة المقايسي وغيرهم. أما من كان له حظ الوصول وارتقاء سلم الوظيف فقد عان الأمرين في سبيل البقاء أو إبقاء من يخلفه في الوظيفة، ولم يمر ذلك دون أن يدفع المثقف ثمن ذلك، وصل أحيانا إلى حد فقدان حياته.

الهوامش

(١) يذهب الأستاذ أحمد السليماني إلى أن أصول الإدارة الجزائرية تعود إلى أيام حسن باشا ابن خير الدين بلربعاي. أنظر: أحمد السليماني، النظام السياسي في الجزائر في العهد العثماني،مطبعة دحلب، الجزائر، دت، ص٣٦.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، ط اسطنبول ١٩٩٩، ج١، ص٤٨٣.

(٣) كان حسين بن رجب شاوش الكرغلي المتوفى سنة ١١٠٢هـ/١٦٩٠م أول مفتي جزائري كرغلي، حيث كان من سبقوه أتراكا قادمون. أنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥،ج١، ص٣٩٣.

(٤) يرى الأستاذ سعد الله أن القرار النهائي يعود للمفتي المالكي، في حين يرى الأستاذ عبد الجليل التميمي وامريت و دي لاكروا أن مهمة المفتي لم تكن تتعدى المراقبة الإدارية العامة للجامع وأحباسه. أنظر: سعد الله، المرجع السابق،ج١، ص٣٩٩.

Temimi(A) ; Pour une histoire de la grande mosquée d'Alger , Revu historique maghrébine, N19-20 , A1980, P.180.

(٥) أنظر: أحمد توفيق المدني، "من الوثائق الجزائرية العثمانية:مشكل الديوانة بين الجزائر والدولة العثمانية"، مجلة التاريخ، ع٩ ، الجزائرسنة ١٩٨٠، ص٧٧.

(٦) يذهب الكثير من الباحثين إلى أن المفتي كان ناظرا للأوقاف في نفس الوقت، لكن الوثيقة التي اطلعنا عليها بالمكتبة الوطنية وهي تحت رقم ٥٣ الملف٢، بالمخطوط رقم٣٢٠٥ مجموع،كانت فيها الوظيفتين منفصلتين،فالمفتي سنة ١١٠٢هـ/١٦٨٦م هو محمد قدورة،وناظر الأوقاف هو محمد الموري.

(٧) ينظر الرسالة ٤٤ من الملف ٣، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية،تحت رقم٣٢٠٥ مجموع.

(٨) فاطمة الزهراء قشي ،قسنطينة المدنية والمجمع،رسالة دكتوراه دولة، جامعة تونس الأولى،ج١، ص١٦٠.

أنظر كذلك كتب الرحالة: وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية. ووليام شالر، مذكرات وليام قنصل أمريكا بالجزائر ١٨١٦-١٨٢٤، ترجمة إسماعيل العربي. و فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي١٨٣٢-١٨٣٧ .

(9) Henri et bon aucapitaine ;sur l'histoire et l'administration du beylik de Titri ;Revu Africaine ,N11, A1867 , PP. 366-367.

والسلطاني عملة جزائرية من الذهب وزنها ٣ غ.

(١٠) ينظر سجلات الأحوال الشخصية لمحكمة قسنطينة التي تعود للفترة بمركز أرشيف بلدية قسنطينة وفيها أسماء وأحكام المنضوين تحت هذا السلك

(11) Leclerc(Ch) . Inscription Arabes de Mascara . Rerue A fricaine . N4 . A1859 . P.45.

(١٢) أبو سالم العياشي ، رحلة العياشي، الطبعة الحجرية، فاس١٣٠٣هـ، ج١، ص٤٦.

(١٣) كان المدرس يرتقي في سلم الألقاب، فيبدأ معلما فمدرسا فأستاذا ثم شيخا إذا كان مبرزا، إضافة إلى ألقاب أخرى أحصينا منها أربعون مابين لقب علمي وتشريفي، لكن اشتهر منها الأربعة السابق ذكرهم. ينظر: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، تحقيق عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٦، ص٢٠١.

(١٤) أنظر وقفية الجامع في:

Albert Devoux ; Les édifices religieuse de L'ancien Alger RevueAFricaine, N13, A1869, P.24.

(١٥) انظر وقفية الجامع في: Leklere(Ch) . Opcit . P.45.

(١٦) انظر دراسة الأستاذ: ناصر الدين سعيدوني، "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، مجلة دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ع١٩، ص- ص ١٤٩-١٥٠. وحمدان خوجة، المرآة، ترجمة وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٧٥، ص.ص٢٧٢،٢٧٠.

(١٧) لمزيد من الاطلاع أنظر : ناصر الدين سعيدوني، "موظفوا مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغاربية، ع٥٧/٥٨، جويلية ١٩٩٠،ص١٨٤.

(١٨) انظر نص الوثيقة التي افتتحت بها السجلات في: Feraud (Charles) ; Les ancients établissements religieux musulmans de Constantine , Revue Africaine , N12 , A1868 , P.12 .

(١٩) كان عدد الكتبة بقصر الداي يتجاوز إثنى عشر كاتبا أنظر:

Venture de Paradis ;Tunis et Alger au 18 siécle, présenté par Josef Coq , Paris la bibliothèque Arabe sindbed, P.75 .

(٢٠) أحمد ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر ١٩٧٣، ص٢٤٧.

(٢١) الطاهر ابن حوا، زهر الآداب، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٨٩٣ ، الورقة ٧٥ وجه.

(٢٢) انظر الرسالة ١٤، الملف٢، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٣٢٠٦ مجموع.

(٢٣) عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١،١٨٧، ص٨٣.

(٢٤) الحسين الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ابن أبي الشنب، مطبعة فونتانا، الجزائر ١٩٠٨، ص.ص ١١، ٦٩٨.

(٢٥) محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط١٩٨١/٢، ص١١٣.

(٢٦) عبد الكريم الفكون،المرجع السابق، ص٥٤.

(٢٧) أحمد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر السلاوي وآخر، دار الكتاب المغرب، ط١٩٥٦، ج ٧، ص٣١.

(٢٨) عبد الكريم الفكون، المرجع سابق، ص٨١.

د. عبد العزيز شهبي (*)

سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه الطرق الصوفية بالجزائر في القرن ١٩ م

مقدمة

عرّف " ابن خلدون " التصوف بقوله : « أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه » (١) .

وقد حدد أئمة التصوف طرائقهم بمقتضى الآداب الصوفية ، والورد الذي يمثل تعاليم الطريقة وعقيدتها ومنهجها ، وتختلف فيه كل طريقة عن الأخرى من حيث الممارسات والأذكار.

كانت الطرق الصوفية مختلفة وكثيرة العدد في بلاد الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي . واشتهرت كل طريقة بشيخها وبزواياها وكثرة المريدين .

*أستاذ محاضر – بالمدرسة العليا للأساتذة – في الآداب والعلوم الإنسانية – بوزريعة – الجزائر

وإذا كان بعض الطرق الصوفية هادن الاستعمار الفرنسي منذ البداية ، إلا أن البعض الآخر دعا إلى الجهاد في سبيل الله وسبيل الوطن ضد الاحتلال الأجنبي .

وخلال القرن التاسع عشر الميلادي , وجد الجيش الفرنسي في الجزائر مقاومة شديدة , وكانت تنطلق من الزوايا في كثير من الأحيان . حيث كانت الزاوية تمثل الرباط , ومكان العبادة والدراسة , ولذلك فهي من أهم الأماكن لاجتماع المسلمين والتقائهم وتوعيتهم في تلك الأثناء .

وحتى يتم القضاء على الثورات الملبية للجهاد في سبيل الله ، والتحكم في المجتمع الجزائري، سعى الفرنسيون إلى التصدي للطرق الصوفية الفاعلة , بغلق زواياها , ومحاربة شيوخها وأتباعها، واستعملوا في ذلك جميع الوسائل الاستعمارية .

١)-دور الطرق الصوفية في محاربة الاحتلال الفرنسي للجزائر :

في الجزائر, تعددت الطرق الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات ، خلال القرن التاسع عشر الميلادي. وتميزت كل طريقة بشيخ أو خليفة يتبعه المقدمون والإخوان ، واشتهرت بزوايا للعبادة الصوفية والذكر، والصلاة الجامعة , والتعليم , وإيواء الغرباء ، واستعملت أيضاً كرباط للمجاهدين , وكانت الزوايا كثيرة المريدين والأتباع والأوقاف والمال. ومن ذلك أخذت كل طريقة شهرتها ووزنها ، بعضها هادن الاستعمار منذ البداية ، مثل التجانية التي أسسها أبو العباس أحمد التجاني ، المتوفى عام (١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م) في فاس ، وهو من بلدة عين ماضي (بنواحي الأغواط) حيث توجد الزاوية الأم [٢] . والبعض الآخر دعا إلى الجهاد في سبيل الله ، دفاعا عن الإسلام والوطن ، ضد الاحتلال الأجنبي .

وكان أكبر تجمع وطني إسلامي هو مبايعة الحاج عبد القادر بن محي الدين أميرا للمؤمنين في معسكر عام (١٨٣٢ م). وكانت هذه المبايعة تعني بوجوب الطاعة للأمير، الذي تعهد بإجراء العدل على سنة الله ورسوله ، واحترام الشريعة ، والعمل على طرد العدو ، ثم أعلن الجهاد في سبيل الله والوطن [٣] .

ومن أهم الثورات [٤] المنسوبة للطرق الصوفية [٥] وزواياها ما يلي :

١- مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت معظم التراب الوطني (١٨٣٢ – ١٨٤٧م) .

٢- انتفاضة الشيخ أحمد بوزيان في واحة الزعاطشة بالزيبان عام (١٨٤٩م) .

وتمثل هذه المقاومات الطريقة القادرية ، المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام (٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م) . وتعتبر القادرية القاعدة للطرق الصوفية التي جاءت بعدها وقد نشرها في المغرب " أبو مدين شعيب الأندلسي " المتوفى في تلمسان عام (٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) .

٣- مقاومة الحاج موسى الدرقاوي (الأغواطي) في التيطري عام (١٨٣٥م) ، ثم في أولاد نايل

٤- جهاد عبد الرحمن الطوطي ، مقدم الدرقاوية في نواحي بلعباس ، عام (١٨٤٥م).

ظهرت الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى بشمال فاس ، عام (١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ م)، وتعود أصولها إلى الشاذلية.

أما الطريقة الشاذلية التي تفرعت عنها عدة طرق صوفية ، فتعود أصولها إلى القادرية . وهي تنتسب إلى أبي الحسن علي الشاذلي ، الذي انتقل من المغرب الأقصى إلى تونس، وتوفي بمصر عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) .

٥- ثورة الشريف محمد بن عبد الله بومعزة بجبال الونشريس وأولاد نايل (١٨٤٥ – ١٨٤٧ م) .

٦- ثورة سي الأزرق بلحاج الطيبي في فليتة عام (١٨٦٤م) .

تنتمي هذه الثورات إلى الطريقة الطيبية التي تستمد أصولها من الشاذلية . وقد تأسست الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى ، على يد الشيخ عبد الله الشريف ، المتوفى عام (١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)، وازدهرت في عهد ابنه الطيب (١١٢٧ – ١١٨١ هـ/ ١٧١٦ – ١٧٦٨ م)

٧- مقاومة الحاج عمر ، ومولاي إبراهيم ، وفاطمة نسومر في جبال جرجرة (١٨٥٠ – ١٨٥٧م) .

٨- ثورة الشيخ الصادق بلحاج في الخنقة وبسكرة (١٨٥٨ – ١٨٦٠م) .

٩- ثورة الشيخ الحداد ، وابنيه : عزيز ومحمد ، في جرجرة والبابور وقسنطينة ، عام (١٨٧١ م).

١٠- ثورة الشيخ محمد يحي الرحماني في واحة العمري بالزيبان ، عام (١٨٧٦ م).

١١- ثورة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن في الأوراس ، عام (١٨٧٩م) .

قامت بهذه الثورات الطريقة الرحمانية ، التي تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي ، المتوفى عام (١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م)، وهو من قبيلة آيت إسماعيل ، تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية الشاذلية في المشرق ، ثم نشرها في جرجرة والشرق الجزائري وجنوبه

١٢- انتفاضة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية للجزائر (١٨٥٢ – ١٨٦١ م) .

دعم هذه الانتفاضة الطريقة السنوسية ، التي تعود أصولها إلى القادرية ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغانمي ، المتوفى بليبيا عام (١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م). وكان وراء هذا الدعم الشيخ السنوسي ، ومقدمه في الغرب الجزائري: الحاج أحمد التواتي .

١٣- ثورة أولاد سيدي الشيخ بالغرب الوهراني (١٨٦٤ – ١٨٨١م) .

١٤- ثورة الشيخ بوعمامة بالجنوب الوهراني (١٨٨١ – ١٨٨٣ م) .

تزعم هذه الثورات أصحاب الطريقة الشيخية ، المنسوبة إلى سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة ، المتوفى عام (١٠٢٣ هـ/ ١٦١٥ م) في الأبيض سيدي الشيخ ، وكان مقدما للشاذلية .

٢) متبعة الاستعمار الفرنسي للطرق الصوفية بالجزائر :

أرجع بعض المحتلين المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي إلى انتماء الناس إلى الطرق الصوفية ، حيث كانت تحمس للجهاد وتدعو للثورة . وحتى يتم القضاء على هذه الطرق الصوفية ، عمل الفرنسيون على معرفتها ، وإدراك أهميتها ودورها وأسرارها وألغازها .

ومن أجل ذلك قام الضباط الفرنسيون بدراسة كل طريقة صوفية ، وتجسسوا على شيخها ومقدميه ، وأحصوا الأتباع والزوايا والأموال ، وجمعوا التقارير الخاصة ، ونشروا المقالات ، وألفوا الكتب . ومن ذلك وأهمها ما يلي : (٦)

١- كتاب : « الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر » صدر عام (١٨٤٥ م)، ألفه الضابط " دي نوفو De Neveu " والذي كشف فيه أهمية الطرق الصوفية في الثورات . وكان " دي نوفو " يعرف العربية ، ومتزوجا من جزائرية مسلمة وخبيرا بالمجتمع الجزائري ، إذ كان من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ، منها وظيفة المكتب العربي . وقد استقى معلوماته من وظائفه المختلفة ، ومن زوجته والجزائريين الذين تعامل معهم .

٢- كتاب : « الإخوان » ، صدر عام (١٨٥٩ م)، ألفه : " شارل بروسلار Ch. Brosselar " ، عن المؤسسات الدينية في تلمسان. وكان" بروسلار " متوليا المكتب العربي في تلمسان ، فاتصل بأهلها ، وعرف حياتهم الاجتماعية ، والتراث الإسلامي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة . كما كان يجيد العربية ، فاستعملها للإطلاع على المخطوطات في الزوايا والمساجد والمكتبات الخاصة عند العائلات .

٣- كتاب : « الطرق الإسلامية في الحجاز » ، صدر عام(١٨٨٧م) ، ألفه : " ألفريد لوشاتليه Alfred le Chatelier " ، وهو ضابط مختص في الشؤون الإسلامية ، كان مديرا للمكتب العربي في مدينة ورقلة ، وعن طريق هذا المكتب عرف نشاط الطرق الصوفية في الجنوب ، وهو أيضا مؤسس « مجلة العالم الإسلامي »، وكان رئيسها ، وقد ربط بين بعض الطرق الصوفية في الحجاز والجزائر .

٤- كتاب : « اكتشاف الصحراء : طوارق الشمال » ، صدر عام (١٨٦٤م) ، ألفه : " هنري دوفيرييه H.Deveyrier " ، حين رحل إلى الجنوب حتى وصل غدامس تحت حماية شيوخ التجانية . فكتب عن الطوارق، واكتشاف الصحراء ، وكشف بالخصوص عن أهمية بعض الطرق الصوفية في الجنوب كالتجانية والسنوسية والطيبية والشيخية والقادرية (٧) .

٥- كتاب : « مرابطون واخوان » ، صدر عام (١٨٨٤ م)، وضعه " لويس رين L.Rinn " الذي يعتبر من الخبراء البارزين في الإدارة الأهلية الفرنسية ، وكان مهتما بالحياة الجزائرية الدينية والاجتماعية والسياسية ، فعرف مختلف فئات المجتمع الجزائري بكل تفاصيله . وفي تأليف " رين " لكتابه هذا ، استعمل نفوذه كضابط مسؤول في الإدارة العامة ، فطلب التقارير من مختلف الشيوخ ومقدّمي الطرق الصوفية عن أصولهم وعلاقاتهم وحالاتهم ، ونشاطهم ، وعدد أتباعهم ، وصنفهم وصفتهم وجنسهم ، كما لجأ إلى التقارير الرسمية التي تصل إلى الإدارة المركزية من المكاتب العربية وغيرها ، وأضاف إلى ذلك مراسلات القناصل الفرنسيين في بعض البلدان الإسلامية .

فجاءت دراسة " رين " شاملة لمختلف الطرق الصوفية في الجزائر ، ومن جميع نواحيها وقد تكفل بها الحاكم العام في الجزائر " لويس تيرمان Louis Tirman "(١٨٨٢ – ١٨٩١ م) . وحاليا يوجد كتاب « مرابطون وإخوان » (Marabouts et Khouan) تحت رقم :(٥٢٨٠٧) بالرصيد المغربي، في المكتبة الوطنية بالحامة[٨].

٦- كتاب : « الطرق الدينية الإسلامية » ، صدر في الجزائر عام (١٨٩٧ م) ، وضعه الكاتبان : " أوكتاف ديبون O.Depont ، وايكزافيه كوبولاني Y.Coppolani" كان المؤلفان مسؤولين إداريين ، فهما خبيران بالشؤون الأهلية الجزائرية ، وجاءت دراستهما في وقت كانت فيه فرنسا تحاول ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية ببعضها . لذلك كانت دراسة الطرق الصوفية العاملة هنا وهناك مسألة حيوية .

وقد جنّدت حكومة " جول كامبون Jules Cambon"إمكانياتها في البحث والتمويل ، واستعملت لخدمة هذا المشروع التقارير الإدارية ، وتقارير القناصل الفرنسيين في البلاد الإسلامية ومراسلات شيوخ الزوايا . كما قامت الحكومة العامة بطبع هذه الدراسة العامة عن الطرق الصوفية على نفقتها ، والتي تضمنت أيضا آراء وتوصيات كانت توجه السياسة الفرنسية نحو المسلمين .

وكتاب « الطرق الدينية الإسلامية Les confréries religieuses musulmanes»، متوفر حاليا تحت رقم :(٥١١٩٢) بالرصيد المغربي في المكتبة الوطنية بالحامة [٩] .

٣)–سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

تصدى الفرنسيون للطرق الصوفية بقوة الجيش والسلاح ، ثم اتخذوا وسائل أخرى تمثلت في تشتيت الصفوف وتمزيق الوحدة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، وجلب ضعاف النفوس ، وشراء الذمم ، بهدف القضاء على الثورات والتحكم في سير المجتمع الجزائري .

لقد رأى الفرنسيون أن استقلال زعماء الطرق الصوفية عن الإدارة ، وعدم قبولهم الوظيفة، يجعلهم خطرين على الاستعمار ، لذلك تقررت مراقبتهم عن كثب ، بالتحكم في مداخيلهم المادية ، ومنع اعطائهم الرخص لزيارة أتباعهم وجمع أموال الزيارات(١٠) .

لكن المؤلف " رين Rin " لاحظ أن الطرق الصوفية التي تحالفت مع فرنسا فقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها . بينما الطرق التي ظلت على عدائها أو حيادها اكتسبت أتباعا وتجددت، لذلك نصح بعدم اتخاذ أسلوب المواجهة والانتقام ضد الطرق العدوة ، كهدم الزوايا واعتقال الزعماء ونفيهم ، لأن ذلك لا يخدمها ، ويضر بالمصلحة الفرنسية ، وقال إن أكثر الطرق عداءً في وقته هي الرحمانية والدرقاوية ، وأن أكثرها ولاءً هي التجانية.

واقترح " رين " أن تتبع بلاده سياسة الحكمة ومنح الأموال لدى هذه الطرق لتتصادق معها ، وتستفيد منها ، وتقلّم أظافرها ، ويتجسد ذلك في اعتراف فرنسا بشرعية الرؤساء الذين يمكنهم الانضواء تحت حمايتها ، ومنحتهم مقادير مالية وشرفية ، وبذلك يبقون منشغلين بمصالحهم خارج النشاط السياسي ، وينتهي خطرهم وتأثيرهم على الأهالي .

ورأى " رين " ضرورة تقوية التجانية لتكون حاجزا ضد تسرب الطرق المعادية للفرنسيين في الجنوب على الخصوص ، وتعيين الأئمة من أتباع الطريقة التجانية ، وجعلهم عينا على مقدمي الطرق الأخرى ، ووسيلة إغراء لهؤلاء المقدمين بقبول نفس الوظيف المربح ، إلى أن يصبحوا غيورين على وظيفهم ومكانتهم الاجتماعية . ومن ثمّ يتخلى الجميع عن مشايعة الثورات ، وتصبح المصالح هي التي تتحكم في العلاقات(١١) .

وأضاف الكاتبان " ديبون وكوبولاني Depont et Coppolani " الوصايا التالية :

أ– وضع الطرق الصوفية تحت الوصاية الفرنسية ، وجعل شيوخها ومقدميها أئمة ليس لهم رواتب ولا تابعين للسلطة في الظاهر .

ب- وضع اليد على الزوايا القديمة الموجودة ، وإظهار التسامح معها ، وإنشاء زوايا حديثة مجاورة للزوايا القديمة ومنافسة لها ، تكون تحت سلطة فرنسا ، وجعلها تقوم بالعبادات والتعليم والإحسان ، ومن خلالها يمكن مراقبة الزوايا القديمة المجاورة .

ج- عن طريق الطرق الصوفية التي لها علاقات خارجية ، يمكن لفرنسا أن تربط علاقات تجارية وسياسية مع السودان الشرقي والغربي لنشر أفكارها الحضارية .

أما سياسة الحاكم العام في الجزائر " جول كامبون Jules Cambon" نحو الطرق الصوفية منذ توليه عام ١٨٩٢ ، فقامت على الاحتفاظ بحرمة الشيوخ الذين بقوا بعيدين عن الفرنسيين، وتمثلت معالمها فيما يلي :

أ- إعطاء الشيوخ برنوسا أحمرا ، منحهم الكلمة العليا في البلدة ، مع إظهار التسامح نحوهم ، ودعوتهم لتولي الوظيف تحت السلطة الفرنسية .

ب- احترام إرادة الشيخ والإخوان في اختيار المقدمين ، وتعيين الخلفاء عن طريق وراثة البركة .

ج- الموافقة على الإجازات الصادرة من الشيوخ للمقدمين ، والاعتراف بها، وذلك لجعل هؤلاء المقدمين مستقلين في زواياهم ، وواقعين تحت يد فرنسا (١٢) .

وتماشيا مع السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية ، فقد تزوج شيخ زاوية عين ماضي " أحمد التجاني " من الفرنسية " أوريلي بيكار " ، ابنة الضابط المتقاعد ، وبنى لها قصر كوردان للحياة الفرنسية ، بقرب عين ماضي ، وبقيت على مسيحيتها من تاريخ الزواج عام (١٨٧١م) إلى وفاتها عام (١٩٣٣م) ، وكانت عين الفرنسيين على الطريقة التجانية .

وبعد وفاة الشيخ " أحمد التجاني " عام (١٨٩٧م) ، اضطر خليفته الشيخ " البشير التجاني " إلى الزواج من "أوريلي Oreilly " أرملة أخيه ، وذلك حتى لا تفقد فرنسا عينها على الطريقة التجانية .

وتزوج من " فيري Feret " الفرنسية ، " حمزة بن بوبكر " ، آغا جبل عمور ، وهو أحد أقطاب أولاد سيدي الشيخ (١٣) . وأيضا تزوج ابن الشيخ البودالي الهبيري من امرأة فرنسية(١٤). وكذلك تزوج الشيخ " محمد الشرقي " ، صاحب زاوية العطاف الشاذلية ، من امرأة فرنسية (١٥) .

٤)-نتائج سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

استطاع الفرنسيون أن يقضوا على المحاربين من زعماء الطرق الصوفية ورجالها ، فمنهم من نُفي إلى خارج البلاد كالأمير عبد القادر عام (١٨٤٧م) ، ومنهم من قُتل في ميدان المعركة مثل أحمد بوزيان بالزعاطشة عام (١٨٤٩ م) ، ومنهم من سجن أثناء المقاومة مثل الشريف محمد بومعزة بالونشريس عام (١٨٤٧ م)، والشريف محمد بن عبد الله بورقلة عام (١٨٦١ م)، والشيخ الحداد بقسنطينة عام (١٨٧١ م)، وهكذا فرق الاستعمار شملهم ، واسكت بعضهم بالوظائف ، وزرع بينهم العداوة والبغضاء .

وفي أواخر القرن التاسع عشر (١٩م) ، ضعفت المقاومة ، وفقد الأمل في الخلاص من المستعمر الأجنبي ، ومن ثمة زاد ارتماء المواطن الجزائري في أحضان التصوف وشيوخه ، معتقدا فيهم الخلاص الدنيوي والروحي ، لكن الطرق الصوفية استسلمت للأمر الواقع ، ولم تعد مضادة للاستعمار ، حيث لجأ الفرنسيون أيضا إلى تمزيق وحدتها وتشتيت صفوفها [١٦] .

فلم يأت آخر القرن حتى تفرعت القادرية والشاذلية والدرقاوية ، وغيرها إلى فروع ضعيفة ومتنافسة ، وكان مصير الرحمانية كذلك ، حيث تمزقت إلى فروع كثيرة ، واستقل كل مقدم بزاويته ، لا يعترف أحدهم بالآخر ، وأبرزهم :

١- الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي في آقبو (نواحي بجاية) .

٢- الشيخ محمد باش تارزي في قسنطينة .

٣- الشيخ علي بن الحملاوي في وادي العثمانية (نواحي قسنطينة)

٤- الشيخ علي بن عمر في طولقة (نواحي بسكرة) .

٥- الشيخ محمد بن أبي القاسم في الهامل (نواحي بوسعادة) .

٦- الشيخ سالم بن محمد الأعرج في وادي سوف [١٧] .

ولقد اتبع الحاكم العام " جول كامبون " سياسة التقرب من الطرق الصوفية واستمالة رؤسائها ، فعرض عليهم الوظائف والأوسمة ، وأقام لمن مات منهم احتفالات التأبين ، مثل ما فعل عام (١٨٩٧م) ، بالجامع الجديد في مدينة الجزائر ، لـ" أحمد التجاني " ، شيخ زاوية عين ماضي ، وفي بوسعادة لـ" محمد بن أبي القاسم " شيخ زاوية الهامل ، وقد قبل بعضهم وظيفة

الآغا والقائد ، سيما أولاد سيدي الشيخ ، ومنهم من حصل على أوسمة رسمية ، كالآغا الحاج قدور الصحراوي بتيارت ، وتحولوا بذلك إلى جهاز استغلالي في يد السلطة الفرنسية .

وكان هدف " كامبون " هو توظيف نفوذ الطرق الصوفية في خدمة المصالح الفرنسية في الصحراء .

كما سار الحاكمان العامان " شارل جونار Ch . Jonnart " (١٩٠٣ – ١٩١١م) ، و" شارل ليطو Ch.Lutaud" (١٩١١ – ١٩١٨م) على سياسة مشابهة نحو الطرق الصوفية . واستخدمت الإدارة نفوذ هذه الطرق خلال الحرب العالمية الأولى ضد الدعوة إلى الجهاد ، فأعلن رجال الدين خضوعهم لفرنسا، وتحالفوا معها ، وساهموا في التهدئة العامة ، ودعوا الجزائريين إلى الوقوف بجانب فرنسا ضد ألمانيا وحليفتها تركيا [١٨] .

واستمرت السلطة الفرنسية في توظيف الطرق الصوفية لمعارضة التيارات السياسية والإصلاحية التي ولدت في الجزائر منذ عام (١٩٢٠ م).

٥)–الطريقة القادرية والمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر " نموذجاً "

أ) الطريقة القادرية :

تنتسب الطريقة الصوفية القادرية إلى العالم المتصوف الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) وتعتبر القادرية هي القاعدة لمختلف الطرق الصوفية التي جاءت بعدها أو التي استقلت عنها ، وتوجد الزاوية الأم للقادرية في بغداد [١٩].

وقد انتشرت القادرية في مختلف المدن الجزائرية ، لاسيما خلال العهد العثماني ، وتأسست فروع قادرية في الجزائر وكان أصحاب هذه الفروع يتصلون مباشرة ببغداد لأخذ الإجازة من هناك . كما كانت ترسل الزيارات مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغداد .

وهكذا ظهر مقدموا القادرية في الجزائر ،وتكونت لها زوايا وأضرحة ومساجد وأوقاف كثيرة في مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة وبجاية وغيرها [٢٠] .

ب) المقاومة على يد الأمير عبد القادر والطريقة القادرية :

إن الاستفسار المطروح في هذا المجال هو: ما هي علاقة القادرية بالمقاومة على يد الأمير عبد القادر ؟

وهنا نجد أنفسنا أمام رأيين : فأحدهما يقول بالعلاقة الوطيدة بين القادرية والمقاومة على يد الأمير عبد القادر.أما الرأي الآخر ، فيقول بخلاف ذلك ، أي لا علاقة بينهما.

– الرأي القائل بعلاقة القادرية بالمقاومة :وهو يستند إلى ما يلي :

نشأ الأمير عبد القادر في جو عائلي يسوده العلم والعمل ، مما ساعده على اكتساب العلم والمعرفة ، وحفظ كتاب الله ، والتشبع بالأخلاق الإسلامية السامية. وفي القيطنة ، مسقط رأسه اندمج في أوساط الطلبة القادمين من مختلف أنحاء البلد للتتلمذ على والده محي الدين ، ولما قرر هذا الأخير التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، اصطحبه معه ، وقبل العودة إلى أرض الوطن عام (١٨٢٩ م)، توجه مع والده إلى بغداد ، حيث أدى الزيارة إلى قبر سيدي عبد القادر الجيلاني .

ثم إن سمعة الحاج محي الدين ، والد الأمير عبد القادر ، قد لعبت دورا في تجميع المقاومة حول شخصه ، بعد ذلك ، باعتباره زعيما روحيا محترما في المنطقة . لقد كان الحاج محي الدين مقدما للزاوية القادرية آنذاك ، كان رجلا ورعا ، تقيًا ، وعالمًا ، تخرج على يده العديد من المثقفين ، وبالإضافة إلى ذلك فإن للقادرية فروع في مختلف أنحاء الجزائر ، وهي تنظيم ديني يشتمل في صفوفه على عدد كبير من الإخوان المستعدين لإتباع شيخهم في الطريق الذي يختاره ، خاصة إذا كان ذلك الطريق هو الجهاد في سبيل الله ولذلك تصدوا معه لمقاومة الاحتلال .

وقد قاد الأمير عبد القادر بنجاح وقعة خنق النطاح الثانية ، نيابة عن والده ، وهو الزعيم الروحي الذي أقعده المرض .ومن خلال تلك المعركة ، برزت العبقرية العسكرية للأمير[٢١] .

ومن هنا فلا شك أن تأييد الحاج محي الدين لابنه عبد القادر ، كان له أثر في التفاف إخوان الطريقة القادرية من حوله .وحتى يكون الأمير في مركز قوي ، فقد اعتمد في كفاحه على الوازع الديني .

وحتى بعد وفاة الحاج محي الدين ، استمرت القادرية على نشاطها إلى جانب المقاومة ، حيث محمد السعيد (أخو الأمير الأكبر) خلف والده ، وتولى شؤون الزاوية القادرية .

وبعد هزيمة الأمير عبد القادر ، سافر معه أخوه محمد السعيد وسجن معه ، ثم استقر الأخوان بالمشرق .

– الرأي القائل بعدم ارتباط المقاومة بالقادرية :

يعتبر أن مبايعة الأمير عبد القادر عامي(١٨٣٣/٣٢م) ، والتفاف القبائل والجماهير من حوله ، مهما كانت عقيدتهم الصوفية وجهتهم جعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة القادرية إلى النطاق الوطني .

وقد تعاونت الطرق الصوفية في عهد الأمير عبد القادر من رحمانية ، ودرقاوية ، وطيبية ، وشيخية ، ولم يفرق الأتباع بين الصفوف المجاهدين ، فكلما دعا الداعي استجابوا بقطع النظر عن مصدر الصوت .

ولكن دعاية الحرب الفرنسية ، عندئذ ، كانت تبذل قصارى جهدها لتفريق الصفوف حول الأمير عبد القادر ، مدّعية أنه كان يحارب باسم طريقته الصوفية [٢٢] .

وعلى الرغم من انتصارات الأمير عبد القادر على الجيش الفرنسي ، إلا أنّه أحسّ بضرورة تكوين جيش نظامي ، متحلي بروح الانضباط . فأمر بالنداء في الأسواق والساحات العمومية يعلن عن إنشاء جيش منظم، يستطيع الانضمام إلى صفوفه كل جزائري قادر ، ويرغب في الدفاع عن أرض الوطن وكانت فكرة تزويد البلاد بقوات مسلحة ، ومدربة على مختلف فنون الحرب ، أحسن وسيلة لتجنيد أكبر عدد ممكن من الجزائريين ، ولو كانوا ينتمون إلى قبائل غير مبايعة [٢٣] .

ج) – المقاومة وتوسيع القادرية :

بعد انتقال زعماء القادرية إلى المشرق ، واستقرارهم هناك ، خلف محمد المرتضى والده الشيخ محمد السعيد، وأصبح شيخ القادرية في بيروت ، وكان يقصده الجزائريون للزيارة ، ولأخذ الإجازة ، وكان يستقبل منهم المال، وكان له في الجزائر أتباع والصالات [٢٤] .

ويلاحظ في تلك أثناء توسيع القادرية وزيادة انتشارها في مختلف أنحاء القطر الجزائري فهل يرجع ذلك إلى التسلط الاستعماري ، وفشل المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر ، وبالتالي التجأ الجزائريون إلى التصوف ؟ أو انظموا إلى قيادات صغيرة متمثلة في مقدمي الزوايا لمواصلة

المقاومة على يدهم ؟ أم لعلاقة الطريقة ، وأسرة الأمير عبد القادر في المشرق بالدولة العثمانية ، ومن ثمّ كان التوافق بين القادرية وحركة الجامعة الإسلامية ؟ أم كل ذلك وغيره معًا ؟

وفي هذا المجال اشتهر سيدي محمد بن عودة ، في نواحي زمورة (نواحي غليزان) والشيخ بوتليليس بشعبة رادي اللحم (نواحي وهران) وسي الأحول عبد القادر في زاوية شلاقة قرب هليل (بين مستغانم وغليزان) . وانتشرت القادرية ناحية تيهرت والجنوب الغربي ومن زعمائها هناك بلعربي عبد القادر بن قدور .

وفي شرق الجزائر ، اشتهر ابن النحال في زاوية الفجوج بنواحي قالمة ، كما اشتهرت زاوية بلعباس في منعة بالأوراس ، وزاوية تبسة .

وفي الجنوب ، ظهرت زاوية عميش التي أسسها الشيخ الهاشمي بن ابراهيم ونشط في تجنيد الأتباع من أهل سوف الذين يمارسون التجارة الصحراوية ، ونشر القادرية إلى أقصى الجنوب وفي ناحية ورقلة أسس أخوة محمد الطيب زاوية الرويسات ، وكان له أتباع في الأغواط وغرداية وبين الشعانبة .

هذا بالاضافة إلى زاوية قمار ، وزاوية صحن الشعانبة بوادي سوف وغيرها . وجميعها زوايا قادرية ، وقد وصل تأثيرها إلى عين صالح ،وتوات وتيديكلت . وكان لها أتباع بين الطوارق ، وعلى رأسهم الشيخ عابدين وقد كان للقادرية دور بارز في مقاومة الغزو الفرنسي للصحراء ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٢٥]

د) مصير القادرة :

يذكر الجنرال "لاروك (Laroque)" المسؤول العسكري على إقليم قسنطينة ، بما فيه الصحراء الشرقية ، أن للقادرية عددًا كبيرًا من الأتباع ، وينصح فرنسا بالاستفادة من نفوذهم .

وتدخل الضابط "ديبورتر (Deporter)" الذي عمل في صحراء الجزائر وتونس ،سيما في بسكرة ووادي سوف وغرداية وتوزر وقابس وقبلي ، واستعمل القادرية لحساب فرنسا .

وهكذا ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت القادرية تحت رحمة المخابرات الفرنسية ، والضغط المتعدد الجوانب ، لكي تعمل وفق إرادة المحتل ، كما وُظفت في عدد من المناسبات ،

لاسيما عند حاجة الفرنسيين إلى نفوذ الطرق الصوفية في الصحراء ، حين خططوا لاكتشافها ، واحتلالها ، وربطها بمستعمراتهم الافريقية [٢٦] .

ومن الأمثلة على ذلك فإن الشيخ محمد الطيب ، مقدّم القادرية في ورقلة ، قد اعتمد عليه الحاكم العام " جول كامبون (J.Cambon)" عام ١٨٩٥ لتمهيد تيديكلت للتأثير الفرنسي ، ورافق الشيخ محمد الطيب بنفسه بعثة المستكشف الفرنسي" فلوماند (Flumand)" إلى تيديكلت ، عام (١٨٩٩م) ، وأخذ معه عشرين شخصًا مسلحين لحماية القافلة [٢٧] .

خـاتـمـة

مهما قيل عن الطرق الصوفية وتخاذلها أمام الاستعمار ومهادنتها له , إلا أن بعضها , إن لم يكن الكثير منها, دعا إلى الجهاد في سبيل الله والوطن ضد الاحتلال الأجنبي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر للميلاد. وسخر شيوخ تلك الطرق الصوفية أنفسهم , وما يتمتعون من أتباع , وتملكه زواياهم من أموال , في محاربة العدو المحتل , وعدم الخضوع له .

ولو لا المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي من أتباع الطرق الصوفية ، ودعوة شيوخها للجهاد ، لما عمل الضباط الفرنسيون على معرفة تلك الطرق الثائرة , ودراسة أهميتها ودورها ، ثم التصدي لها بكل الوسائل, ومحاربتها بالسلاح .

فأخضع المحتلون الفرنسيون شيوخ الطرق الصوفية ، وعطلوا الزوايا , الأتباع واستولوا على الأموال والأوقاف , ودجنوا الأتباع , وتشتتوا الصفوف ، وقضوا على المحاربين بالقتل والسجن والنفي ، بهدف القضاء على الثورات ، والتحكم في المجتمع الجزائري .

الهوامش

١- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، ج١ ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٨٦٣ .

٢- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج١ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ، ص ٥١٨ .

٣- محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر ، ج١ ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٩٦ .

- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، (ترجمة أبو القاسم سعد الله) ، ط٢ ، الجزائر ١٩٨٢ ، ص ٦٩

٤- يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج١ ، ط٢ ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ١٩٩٦ ، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

٥- سعد الله : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥١٤ / ٥٢٢ - ٥٢٣ .

- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج٤ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٨ ، ص ص ٤٢ - ٦٤ / ٦٧ - ١٠٣/ ١٠٤ - ١١٢ / ١١٣ - ٢٤٥ / ٢٥٢ .

- عمار هلال : الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٨٨ ، ص ص ١١٠ - ١٠٥ / ١٠٩ .

٦- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ص ٢٩ - ٣٠- ٣٠١- ٣٠٢- ٣٠٣.

٧- Duveyrier (Henri) : Exploration du Sahara : les Touareg du Nord , Paris , 1864 .

٨- Rinn (Louis) : Marabouts et Khouan , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1884 .

٩- Depont (O) et Coppolani (Y) : Les confréries religieuses musulmanes , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1897 .

١٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١- ٣٠٦- ٣٠٧- ٣١٠ .

١١- Rinn : op . cit , pp 19- 108- 114- 516 .

١٢- Depont et Coppolani : op . cit , pp int . 283 .

١٣- Garrot (H) : « le mouvement islamique » , Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nort , 1906 , p.174 .

١٤- محمد الهاشمي بن بكار : كتاب مجموع النسب ، الجزائر ج٤ ، ص ص ٣١٤- ٣١٥- ٣١٦-٣١٢ .

١٥- سعد الله ، نفسه ، ص ١٩٦١ ، ص ١٦٢ .

١٦- سعد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٦- ٣١- ٣٢ .

١٧- Depont et Coppolani : op . cit . p 247.

١٨- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١٠- ٣٢٤- ٣٢٨ .

١٩- لويس ماسينيون : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٥، ص ١٧٥- ١٨٠

- عمار هلال : المرجع السابق ،ص ١٠٩ .

- RINN (L) : op . cit , pp. 179 - 180

٢٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص٤٢-٤٣

٢١- محمد العربي الزبيري : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ، الجزائر ١٩٨٢، ص١٥ ..٢٢

- يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص٣٥-٣٦

GARROT (H) ; op . cit .P.162

سعد الله : المرجع نفسه ،ص٤٤

٢٢- محمد بن عبد القادر الجزائري : المرجع السابق ،ص٢١٦

٢٣- محمد الجزائري ، المرجع نفسه .

٢٤- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٥ ...٤٨

DEPONT (O) et COPPOLANI (X) ; op . cit .P.367

٢٥- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٩-٥٠

- DEPONT et COPPOLANI ; ibid .PP.274 -288

- DEPORTER ; La question de touat au sahara algérien .Alger 1891

27 – B.S.G.A.A .N . anneé 1899/1900 . pp5....12

د. نعيمه عبدالله بن دهيش(*)

عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأسباب سقوط الدولة العثمانية

المقدمـة :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، الذى ملك ناصية البيان وتحدى فصحاء العرب بمعجزة القرآن . أما بعد :-

هذا البحث يتحدث عن عصر السلطان عبد الحميد وأسباب سقوط الدولة العثمانية، فيعطى صورة واضحة عن الجهود العظيمة التى قام بها السلطان عبد الحميد خدمة للإسلام، ودفاعًا عن دولته، وتوحيداً لجهود الأمة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة الدولية فى زمن السلطان عبد الحميد؟ والوسائل التى اتخذها السلطان عبد الحميد فى تنفيد مخططه للوصول إلى الجامعة الرسلامية، كالاتصال بالدعاة ، وتنظيم العمل الإسلامى، وتعريب مؤسسات الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، ومد خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء الرامية إلى تمزيق الوحدة الإسلامية، ودحض المخططات

* أستاذ مساعد - جامعة أم القرى- مكة المكرمة - قسم التاريخ.

الصهيونية العالمية التي تعمل على دعم أعداء السلطان عبد الحميد عن طريق دعم المتمردين الأرمن، والقوميين في البلقان، مثل حركة الاتحاد والترقي، وتأييد الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية، والتي أدت في النهاية إلى عزل السلطان عبد الحميد عن السلطة.

وفي نهاية البحث يهتم الباحث بإبراز أسباب سقوط الدولة العثمانية من المنظور القرآني.

وهدفي من هذا البحث:

١- تسليط الضوء على زعيم إسلامي من زعماء الدولة العثمانية.

٢- بيان المنهج الذي سار عليه السلطان عبد الحميد في مسيرته الطويلة وقد قمت بتقسيم البحث إلى ثمانية مباحث :

المبحث الأول: السلطان عبد الحميد وتوليه السلطة وما رافق ذلك من أعمال .

المبحث الثاني: الجامعة الإسلامية والعمل على توحيد العالم الإسلامي.

المبحث الثالث: السلطان عبد الحميد واليهود.

المبحث الرابع : السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي.

المبحث الخامس : الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني.

المبحث السادس : حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية .

المبحث السابع : أسباب سقوط الدولة العثمانية.

النتائج.

المبحث الأول

السلطان عبد الحميد (١٢٩٣-١٣٢٦هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م)

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى عـــرش الدولة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره و إذ ولد فى ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م.

وكانت والدته قد ماتت وهو فى العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيمًا ، فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أمًا ، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له . وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره .

تلقى السلطان عبد الحميد تعليمًا منتظمًا فى القصر السلطانى على أيدى نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علمًا وخلقًا ، وقد تعلم اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية .

وتدرب على استخدام الأسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، وكان محافظًا على الرياضة البدنية، ومهتمًا بالسياسة العالمية، ويتابع الأخبار لمعرفة موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة .

قام السلطان عبد العزيز بزيارة إلى أوروبا يرافقه وفد عثمانى رفيع المستوى، وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الذى ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة فى العفة[1]. وقد استعد الأمير عبد الحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع والده إلى مصر ، وانتبه أثناء وجوده فى مصر إلى الزيف الكاذب للبريق الأوروبى والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية، وأما رحلته إلى أوروبا فقد استغرقت من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م، زار الوفد العثمانى خلالها كل من فرنسا وإنكلترا ، وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفى هذه الرحلة الأوروبية ، تفتح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك، وهذه الأمور هى :

١ - الحياة الأوربية بكل ما فيها من طرق معيشية غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات .

٢ - التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

٣ - ألاعيب السياسة العالمية.

٤ - تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية. اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة : أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة، أما ألمانيا فهي دولة نظام وعسكرية وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً . وتأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر إلى الاهتمام بعد توليه السلطنة بإدخال المخترعات الحديثة وفي دولته في مختلف نواحي الحياة : تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية، ومن ذلك أنه قام بشراء غواصتين، زود بها سلاح الغواصات الجديد لديه، وأدخل التلغراف إلى بلاده ، وأنشأ المدارس الحديثة، وزودها بالعلوم العصرية ، التي لاتتعارض مع القيم الإسلامية وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة ، فانتشرت بعد ذلك السيارات والقاطرات ووسائل النقل والاتصالات الحديثة، وأخذ بنظام القياس المتري، لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد [٢].

ولقد أثرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضًا في إتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا، ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ، ومهما كانت درجة التقارب بينهما .

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوربيين.

فتعلم عبد الحميد من هذا الحوار القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. فأدرك بذكاء قيمة الحوار السياسي وأهدافه وتأثيراته البعيدة ، وهو ما برع فيه بعد ذلك، وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عامًا [٣].

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ / الموافق ٣١ أغسطس ١٨٧٦م، وكان عمره آنئاك أربعًا وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقبو، وكان أول عمل قام به وضع دستور جديد للدولة العثمانية . وضعه الصدر الأعظم مدحت باشا .

وكان هذا الدستور ينص على أن البرلمان يتكون من مجلسين : مجلس النواب أو المبعوثات ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ (٤).

كما كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون ، كما أن التغييرات التى طرأت على نظام الحكم طبقًا لهذا الدستور كانت من قبيل التوطر، فلم يفكر أحد فى تقليص حق السلطان فى السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لايمس، وأنه لايسأل أمام أحد من أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهنًا بشخصه (٥)، فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذى يعقد المعاهدات ، ويعلن الحرب ويعقد معاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ، ومن حقه إصدار كافة القوانين فى شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان .

ونص الدستور أيضًا على حرية أعضاء البرلمان فى إبداء آرائهم وفى التصويت ، كما أنه لايمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التى يجرى بها الحديث فى كل الجلسات ، كما نص أن يكون التصويت سريًا أو علنيًا بحسب الظروف ، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هى السياسة الرسمية للدولة فى إطار مبدأ المساواة الذى نصت علهي التنظيمات .

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الأولى من نوعها فى التاريخ العثمانى (٦). وبعد إعلان الدستور والعمل به لمدة عشرة شهور وعشرين يومًا أعلن السلطان عبد الحميد تعطيل الدستور وذلك بعد أن تعرض إلى استبداد الوزراء بزعامة مدحت باشا ورغبتهم تغريب الدولة، وظهور جمعية العثمانيين الجدد التى كانت تضم نخبة من المثقفين العثمانيين المتأثرين ببريق النظم والحضارة الأوربية. كما أن انعقاد مجلس الوزراء توقف ، ولم يدفع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عامًا ، ولم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة.

لقد كان السلطان عبد الحميد مضطرًا لإعلان الدستور بسبب الضغوط التى مارسها عليه مدحت باشا ، ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل الدستور وعدم عقد المجلس.

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان ضد أن تكون هناك شروط تحدد سلطته على اعتبار أن هذا فمر وافد من الغرب ، ولذلك كان ضد سياسة رئيس وزرائه مدحت باشا ولذلك انتقد وزيره هذا بقوله : (لم ير غيـر فوائد الحكم المشروطي في أوروبا ، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لاتصلح لكل مرض ولكل بنية، وأظن أن أصول المشروطية لاتصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية . كنت أظن أنها مفيدة أما الآن : فإني مقتنع بضررها) [٧].

كان للسلطان حججه في هذا ، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم ، من ذلك:

- أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعلان السلطان للدستور ، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى في ولايات أغلب السكان فيها من المسلمين ، وعلى قرار بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني، فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا - وهو الصدر الأعظم - إلا أن قال للسلطان : (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[٨].

- ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله : (إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت العنصر الأصلي في البلاد ، وهل في البرلمان الإنكليزي نائب هندي واحد ؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد ؟)[٩].

ويبين السلطان عبد الحميد بأن موقفه هذا ليس دائماً تجاه الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها ، إذا اختلف ، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري .

وفي هذا يقول : «وينبغي ألا يظن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية)[١٠].

إن السلطان عبد الحميد مر عصره بظروف عصيبة، وأزمات شديدة ، وتآمر عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج ، فشرع في إصلاح الدولة وفق الأسس الإسلامية لمنع التدخل الأوروبي في شؤون الدولة، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية، وقام بإبعاد

الكتاب والصحفيين المتأثرين بالفكر الغربى عن العاصمة، وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة فى ولايات الدولة، واستطاع أن يشكل جهازاً استخبارياً قوياً لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه فى الخارج، واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق بها نتائج عظيمة، واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجى العميق وعملوا على تفتيتها .

لقد تكلم السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال : (حسب العرق العثماني يتعرف السلطان على تفكك الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب ، وعن طريق التكايا المنتشرة فى ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها).

لقد شهد عصر السلطان عبد الحميد عدة ثورات الهدف منها التمرد والعصيان والخروج عن طاعة ولى الأمر. فلقد قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية وكان ذلك فى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م واستطاع العثمانيون إخماد هذا التحرك ، ورغب السلطان عبد الحميد فى منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالى، والمساواة فى الضرائب بين المسلمين والنصارى ... ولم يرض ذلك بعض السكان فى الأقاليم الأوروبية ، فعادوا إلى الثورة التى قمعت أيضًا ، ولكن النمسا التى كانت وراء إشعال الثورة فى الدولة العثمانية ، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا ذلك، وهذا يدل على أن المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل فى شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها [11].

كما قامت ثورة البلغار فى الوقت نفسه بدعم من نصارى البوسنة والهرسك وبتأييد من النمسا وروسيا، فقد تأسست جمعيات فى بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسى بين النصارى الأرثوذكسى والصقالبة ، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح ، لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك من النصارى، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين، ومساعدتهم بالمال والسلاح، فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على تلك الثورة ، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التى ارتكبها العثمانيون ضد النصارى، والعكس هو الصحيح .

وبهذه الشائعات أثير الرأى العام الأوروبى ضد الدولة العثمانية ، وطالبت الحكومات الأوروبية باتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتى وتعيين حاكم نصرانى لهم (١٢).

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم ، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب سوف يتسع نطاقها (١٣).

لقد كان السلطان عبد الحميد الثانى على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعى لسقوط الدولة العثمانية ، حيث قال فى مذكراته : «رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذى عقد فى إسطنبول ما عزمت عليه هذه الدول، وهى ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتى لهؤلاء الرعايا، ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية . حسب مخططاتهم العدوانية .

فكانوا يعملوا على تقسيم الدولة العثمانية بطرق عديدة منها :

أولاً: إثارة الأهالى المسيحيين بامتيازات خاصة بهم، وبهذا تتصدى هذه الدول لحماية مطالبهم بهدف تعكير الجو السياسى فى الدولة العثمانية.

ثانياً : المطالبة بالمشروطية ، لإحداث الفرقة بين المواطنين فى الدولة العثمانية.

كانت روسيا ترغب فى الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية، وقد سجل (بطرس الأكبر) ١٦٢٧-١٧٢٥م فى وصيته للروس (فى الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) منها على ضرورة إثارة مبدأ الصراع الحضارى ضد العثمانيين إلى أن تنتهى الدولة العثمانية من الوجود.

وقد اهتمت روسيا بهذه الوصية، وفى عصر السلطان عبد الحميد كثرت الثورات فى المناطق المحاذية لروسيا بدعم من روسيا والدول الأوروبية وخاصة فى مناطق البلقان واليونان وغيرهما من الأقاليم العثمانية ، وأدت هذه الثورات إلى قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا وبلغاريا والصرب واليونان فتصدت قوات الدولة العثمانية لهذه الثورات وحققت انتصارات رائعة فى البلقان ، فقام السلطان عبد الحميد بعمل تغيير كبير فى قيادات الجيوش العثمانية للتصدى للغزو الروسى، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التى تقع

فى بلغاريا حاليًا وهى من أهم المعابر إلى البلقان ، ولكن القائد العثمانى الشجاع الغازى (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة ، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ، ومع ذلك نجح القائد العثمانى الفذ فى التصدى للروس مرة أخرى ، مما جعل السلطان العثمانى يصدر مرسومًا خاصًا فى الثناء على ذلك القائد [١٤].

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم فى الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وعززوا قواتهم ، ومع هذا صمد العثمانيون بقيادة عثمان باشا صمود الأبطال ، وأعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم، فتمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثانى واستولوا على المدافع فيه ، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث، فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده فأدى ذلك إلى استسلام الجنود العثمانيين للقوات الروسية، وكان ذلك فى عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب فى البلقان على التحرك ضد العثمانيين، وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، وتمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة بلغاريا حاليًا) وتوجهوا جنوبًا ناحية العاصمة العثمانية، ووصلوا إلى مواقع لاتبعد سوى خمسين كيلو مترًا عن إسطنبول ، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئًا إلى أبعد الحدود .

وفى الوقت نفسه كانت تجرى العديد من المعارك بين العثمانيين والروس فى الجانب الآسيوى ، حيث وصل الروس إلى الأناضول ، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضى الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة أحمد مختار باشا على الروس فى أكثر من ست معارك ، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسومًا فى الثناء عليه ، وقد عاد الروس إلى الهجوم فى تلك المناطق مرة أخرى» وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق المهمة فى الأناضول نفسها[١٥].

وأمام تلك الهزائم العثمانية فى أوروبا وفى آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول فى هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفانو عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م . وعقدت هذه المعاهدة فى ٣ مارس عام ١٨٧٨م، ووقعها «صفوت باشا»

عن الدولة العثمانية وهو يبكى، وكان لابد بالضرورة أن تحتوى هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية [١٦].

معاهدة سان ستفانو (١٢٩٥هـ / ١٥ فبراير ١٨٧٨م)

عند التوقيع على هذه المعاهدة تدم المندوب الروسى شروطًا مسبقة ، وطلب التوقيع عليها مباشرة ، وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إسطنبول ، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع على المعاهدة.

كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسى فى البلقان، واستعدت لمحاربة روسيا وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية ، ولم يكن السلطان عبد الحميد الثانى راضيًا فى الأصل بدخول هذه الحرب ، لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة ، حتى أقنع بريطانيا بالوقوف إلى جانبه ، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستيفانو من ناحية ، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا ، لكى تصرف روسيا النظر عن الحرب من ناحية أخرى، واستطاع بذلك تحقيق مكاسب سياسية للدولة العثمانية.

ودلت هذه الأحداث على رغبة السلطان عبد الحميد الثانى ضرب الخصم بالخصم، والتى تمثلت فى إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضًا [١٧].

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م) :

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (إنكلترا ، فرنسا ، ألمانيا، والنمسا)، وجرى البحث فى هذا المؤتمر لتعديل معاهدة سان ستفانو التى عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لاتتفق مع مصالحها الاستراتيجية ... واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان ستيفانو وعقدت معاهدة برلين والتى تناولت الشروط التالية:

١- استقلال بلغاريا وتعديل فى حدودها.

٢- ضم البوسنة والهرسك للنمسا .

٣- ضم بسارابيا إلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا.

٤- استقلال الصرب والجبل الأسود.

٥- ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا .

٦- قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التي قررتها معاهدة سان ستفانو على الدولة العثمانية ومقدارها ٥ , ٢ مليار ليرة ذهبية.

٧- الموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت (١٨).

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها.

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلامية لكي يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج .

المبحث الثانى

الجامعة الإسلامية والعمل على توحيد الدولة

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، فى معترك الدولية إلا فى عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م.

ويعرب عبد الحميد الثانى عن ثقته فى وحدة العالم الإسلامى بقوله : (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين فى كل مكان ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل فى المستقبل، إلا بهذه الوحدة ، ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتى اليوم الذى يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون أهدافًا منها :

١- مواجهة أعداء الإسلام من المثقفين بالثقافة الغربية.

٢- محاولة إيقاف الدولة الاستعمارية الأوربية وروسيا عند حدها .

٣- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية.

٤- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها فى التأثير على السياسة العالمية[١٩].

٥- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها.

يقول : (إن العمل على تقوية الكيان السياسى والاجتماعى الإسلامى، أفضل من إلقائه أرضًا ، وتكوين كيان غريب فكريًا واجتماعيًا على نفس الأرض) [٢٠].

السلطان عبد الحميد الثانى أيد الدعوة إلى تحقيق الجامعة الإسلامية التى روج لها كل من السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان، ولم يكن السلطان يأمل فى أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، لكن الأفغانى عرض على السلطان مشروعًا يرمى إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة، واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغانى فى الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغانى ، ومن أسباب الاختلاف :

١- إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين .

٢- دعوة الأفغانى لوحدة الشعوب الإسلامية.

٣- تنديد جمال الدن بالاستعمار الإنكليزى.

٤- الخلاف العقائدى الذى ظهر بين العلماء فى إسطنبول وبين جمال الدين الأفغانى وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزى الفيليباوى) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغاني عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه.

أما رأى جمال الدين الأفغانى فى السلطان عبد الحميد فإنه يقول : (إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصًا فى تسخير جليسه ، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيًا عنه وعن سيرته وسيره، ومقتنعًا بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير....)[٢١].

وقال : (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجًا وسلمًا، وأعظم ما أدهشنى ، ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل، كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية، ويريها عيانًا محسوسًا أن تجزئة السلطنة العثمانية لايمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها)[٢٢].

ويقول : (أما ما رأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذى فيه نهضة المسلمين عمومًا ، فقد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك، عالمًا علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لاتسلم من شراك أوروبا، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدراتها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومى وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم....) [٢٣].

لقداستهدف السلطان عبد الحميد الطرق الصوفية فى كسب ولائها للدولة العثمانية ، والدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة- إسطنبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية فى كل أنحاء العالم الإسلامى، واتخذ من حركة التصوف فى العالم الإسلامى وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، وتكونت فى عاصمة الخلافة لجنة مركزية ، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان فى شؤون الجامعة الإسلامية : الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة فى الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادى) شيخ الطريقة الرفاعية ، والشيخ (محمد ظاهر الطرابلسى) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ رحمة الله عليه أحد علماء الحرم المكى، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية فى

فى كافة الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التى كانت فى مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية فى موسم الحج بين الحجاج، وأخرى فى بغداد ، وتقوم بالمهمة نفسها بين اتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الإفريقى لزيارة الشيخ عبد القادر الكيلانى مؤسس الطريقة ، وقد قدرت أعداد هؤلاء فى إحدى السنوات بحوالى (٢٥،٠٠٠) نسمة، وكانت لجنة بغداد تقوم بتهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا، ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الإفريقى من بغداد ، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها : (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية) [٢٤].

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكتشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية فى شمال إفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد فى نفوس مسلمى شمال إفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية ، وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١- اغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال والمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها فى شمال إفريقيا .

٢- منع الحجيج من الحج ، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا [٢٥].

وأرسل السلطان عبد الحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها إلى العرب، واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لاسيما الحجاز[٢٦].

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثانى فى جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير من إنحرافاتها العقدية بحيث أن الطرق الصوفية فى تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما رحم الله، ولذلك أضعفت الأمة وأسهمت فى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية، وسنبين ذلك بإذن الله تعالى فى أسباب السقوط.

كان السلطان عبد الحميد يرى- منذ أن تولى الحكم- ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية، وفى هذا يقول : (اللغة العربية لغة جميلة، ليتنا كنا اتخذناها لغة

رسمية للدولة من قبل، لقد اقترحت على (خير الدين باشا - التونسي- عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحى هذا، وقال : (إذا عربنا الدولة فلن يبقى- للعنصر التركى- شئ بعد ذلك).

إن من الأخطاء التى وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم أصبح متأثراً بالفكر الغربى، وأن التيار القومى : هو التيار السائد فى هذه المدارس، فتدخل فى شؤونها ووجها - من خلال نظرته السياسية - إلى الدراسات الإسلامية، فأمر بالآتى:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونهما وسيلة من وسائل الأدب الغربى ، والتاريخ القومى للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً .

- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق فى برامج الدراسة.

- الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامى بما فيه العثمانى.

وجعل السلطان عبد الحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية[٢٧].

واهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهن بالرجال، وفى هذا يذكر السلطان فى معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقى له بأنه عدو العقل والعلم بأنه : (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة ؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتى لايختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!) [٢٨].

وقام بمحاربة سفور المرأة فى الدولة العثمانية ، وهاجم تسرب أخلاق الغرب إلى بعض النساء العثمانيات .

وكان السلطان عبد الحميد يرى : (إن المرأة لاتتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ، ويقول: (ما دام القرآن يقول بهذا ، فالمسألة منتهية ولا داعى للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل) .

ويرى: (أن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب) [٢٩].

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات ، فى وقت كان الإعلام العثمانى يثير هذه القضية معترضًا عليها، ويؤكد السلطان أن مبدأ تعدد الزواجات مباح فى الإسلام فماذا يعنى الاعتراض عليه ؟

لقد كان السلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة، ولذلك أنشأ داراً للمعلمات لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة، ولم يكن فى عهده للمرأة رأى فى شئون الدولة مهما كانت هذه الشؤون وإنما دور المرأة فى البيت وتربية الأجيال ، وكان يعامل المرأة معاملة كريمة.

أنشأ السلطان عبد الحميد فى اسطنبول ، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية ، وبغداد، والبصرة ، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب، واليمن، والحجاز، وبنغازى، والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة فى مدرسة العشائر العربية فى إسطنبول خمس سنوات ، وهى داخلية تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب ، ولكل طالب «إجازة صلة الرحم» وهى إجازة مرة كل سنتين، وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

وبرنامج الدراسة فى هذه المدرسة خمس سنوات فى تعليم القرآن الكريم والتجويد والأبجدية والعلوم الدينية والقراءة التركية والإملاء والتدريب العسكرى والحساب واللغة الفارسية والنحو التركى والجغرافيا والتاريخ العثمانى والقواعد العثمانية والمعلومات المتنوعة ... الخ.

كما أنشأ السلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الإسلامية، وللجامعة الإسلامية ثم يتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامى يدعون للإسلام ، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الإسلامية [٣٠].

تأسست فى بكين - عاصمة الصين- جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثانى، وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلاف من المسلمين الصينيين ، وحضره أيضًا مفتى المسلمين فى بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك . وفى مراسم الافتتاح ، ألقيت الخطبة باللغة العربية، وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة.

لقد اهتم السلطان عبد الحميد بمشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة واعتبره وسيلة من الوسائل التى أدت إلى إعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الإسلامية. وأبدى السلطان عبد الحميد اهتمامًا بالغًا بإنشاء الخطوط الحديدية فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفًا من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هى:

١- ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التى تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها .

٢- إجبار تلك الولايات على الاندماج فى الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التى تنص على وجوب الاشتراك فى الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

٣- تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة فى أية جبهة من الجبهات التى تتعرض للعدوان، لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وايصالها إلى الجبهات [٣٠].

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التى أنشئت فى عهد السلطان عبد الحميد. ففى سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م بدأ بتشييد خط حديدى من دمشق إلى المدينة، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة ، وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمى من ورائه أيضًا إلى أهداف سياسية وعسكرية.

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد فى المدينة المنورة من دمشق الشام يوم الموافق ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين فى أنحاء العالم كافة. فقد اختصر القطار فى رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق فى السابق أكثر من خمسة أسابيع، كما خفقت فى ذلك اليوم التاريخى قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة[٣٢].

كانت سياسة عبد الحميد إسلامية محضة ، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حوله باعتباره خليفة المسلمين جميعًا فكان مد خط السكة الحديدى بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة فى تحقيق هدفه المنشود [٣٣].

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن العشرين الميلادى فى تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثمانى كردى من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وضع السلطان عبد الحميد خطة مضادة للعمل التدميرى الإنكليزى فقام بالتالى:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.

- أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلامية، وأدت هذه الوفود دورها فى إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية.

- اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.

- أسس الوحدات العسكرية الحميدية فى شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية.

- كان موقف الدولة قويًا ضد أطماع الأرمن فى إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون فى نفس المنطقة بالأمان (٣٤).

- عملت الدولة على كشف مخططات الإنكليز الهادفة إلى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات فى تأسيس كل قومية دولة مختصة بها .

استطاع السلطان عبد الحميد أن يضيق على النفوذ البريطانى فى اليمن ويحقق نجاحًا ظاهراً فى صراعه مع الإنكليز فى تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية فى اليمن قوامها ثمانية آلاف جندى، لإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، وقد حاول الإنكليز إذكاء نيران التمرد فى اليمن، ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التى سار عليها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح فى اليمن (٣٥).

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال إفريقيا ، لأنها تراه ميراثًا إيطاليا، هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتريني) (٣٦)، لكن فرنسا احتلت تونس وإنكلترا احتلت مصر ، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا .

رسمت ايطاليا سياستها فى ليبيا على ثلاث مراحل :

الأولى : الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية» .

الثانية: العلم على أن تعترف الدول بأطماع ايطاليا فى احتلال ليبيا ، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة : إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلى .

وكان السلطان عبد الحميد متيقظًا لتلك الأطماع الإيطالية، وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين فى «ليبيا» ، وأهدافهم ، فجاءته المعلومات تقول : (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التى يقيمونها فى الولايات العثمانية، سواء فى ليبيا فى ألبانيا ، هدفًا أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا فى الاستيلاء على كل من:

١- طرابلس الغرب.

٢- ألبانيا .

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - الإسكندرونة- أنطاكيا) .

لما شعر السلطان عبد الحميد الثانى أنه سيواجه اعتداءً إيطاليًا مسلحًا على ليبيا ، قام بإمداد القوات العثمانية فى ليبيا بـ (١٥٠٠٠) جندى لتقويتها وظل يقظًا حساسًا تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصيًا وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية فى روما، ووالى طرابلس مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك فى عهد جمعية الاتحاد والترقى[٣٧].

المبحث الثالث

السلطان عبد الحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثانى واليهود من أهم الأحداث فى تاريخ السلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثانى.

إن أمر اليهود وعداهم للإسلام يعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام وأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدنية المنورة لخياناتهم المتكررة وعداوتهم الدائمة ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهم يكيدون له، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم فى جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، وما عبدالله بن سبأ والقرامطة والحشاشون والراوندية والدعوات الهدامة التى ظهرت فى تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

إن اليهود تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة (٣٨)، ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل فى الدولة العثمانية (٣٩).

وبالنسبة ليهود الدونمة هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ أن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التى تعنى الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعى لهذه الكلمة فإنه يعنى المرتد أو المتذبذب، بينما تعنى هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهبًا دينيًا جديدًا، دعا إليه الحاخام ساباتى زيفى. أما المفهوم السياسى لهذه الكلمة فإنه يعنى اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص (٤٠). وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذى يعيشون فى المدن الإسلامية وخاصة فى ولاية سلانيك، وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية إلى الإسلام، ثم أصبح علمًا على فئة من يهود الأندلس الذين لجؤوا إلى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلامية(٤١).

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاى زيفى الذى ادعى بأنه المسيح المنتظر فى القرن السابع عشر، حيث انتشرت فى تلك الأيام شائعة تقول: إن المسيح سيظهر فى عام ١٦٤٨م، كى يقود اليهود فى صورة المسيح، وإنه سوف يحكم العالم فى فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة(٤٢).

قام يهود الدونمة بدور فعال فى نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتى تحركت من سلانيك لعزله ، وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ، وفى الصحف ودور النشر وتغلغلوا فى الاقتصاد العثمانى وكل مناحى الحياة فى الدولة العثمانية (٤٣).

وفى حقيقة الأمر اهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة فى ولاية سالونيك وعدم وصولهم إلى الآستانة ، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم ، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا استراتيجية مضادة له ، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأى العام العثمانى والجيش(٤٤).

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة (٤٤)، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحركة الديمقراطية وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد فى الدولة العثمانية بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا هى تحقيق المشروع الاستيطانى الصهيونى باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية (٤٥).

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبى للمسألة اليهودية، من بعض الدولة الأوروبية وهى: (ألمانيا ، وبريطانيا، وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد وطلب فلسطين منه، وكانت الدولة العثمانية تعانى من مشاكل مالية متعددة ، إذ كانت الأحوال الاقتصادية فى البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية فى تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لسداد ديونها، الأمر الذى دفع السلطان عبد الحميد الثانى أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هى السبيل الوحيد أمام هرتزل ، كى يؤثر على سياسة السلطان عبد الحميد الثانى تجاه اليهود، وفى هذا الصدد يقول هرتزل فى مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية فى تركية، مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقى لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ، ومن ثم تقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأى قروض جديدة يطلبها (٤٦).

كان السلطان عبد الحميد من خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكان يرخى

لهرتزل فى الكلام كى يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر فى مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب، وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح فى مهمته هذه، ولكنه أدرك فى نهاية الأمر بأنه قد أخفق فى اقناع السلطان وأن محادثاته أخذت تسير فى طريق مسدود معه[٤٧].

ونتيجة لذلك ، تحدث هرتزل قائلاً : (فى حالة منح السلطان فلسطين لليهود ، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية ، أما فى القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجار حصن منيع ضد آسيا ، وسوف نبنى حضارة ضد التخلف ، كما سنبقى فى جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا) [٤٨].

وفى الحقيقة كان السلطان عبد الحميد الثانى يرى أنه من الضرورى عدم توطين اليهود فى فلسطين ، كى يحتفظ العنصر العربى بتفوقه الطبيعى، وفى هذا الصدد يقول : (... ولكن لدينا عدد كاف من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربى متفوقاً ، علينا أن نصرف النظرة عن كفرة توطين المهاجرين فى فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير ، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا فى الدين بالموت المحتم)[٤٩].

وعن القدس يقول السلطان عبد الحميد فى استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتى:

١- حقيقة الخطط اليهودية .

٢- معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها .

٣- إنقاذ الدولة العثمانى من مخاطر اليهود [٥١].

ولقد اتخذ السلطان عبد الحميد الثانى كل التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين ، وعدم إعطاء أى امتياز لليهود ، ويعزز هذا القول هرتز عندما قال: (إنى أفقد الأمل فى تحقيق أمانى اليهود فى فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السلطان عبد الحميد قائما فى الحكم ، مستمراً فيه) [٥٢].

وتحركت الصهيونية العالمية ، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثانى، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون فى البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية[٥٣] ونجحت مخططاتهم فى عزل السلطان عبد الحميد الثانى عن الحكم.

المبحث الرابع
السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقى

كان الشباب العثمانى المثقف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التى حققت حكمًا ديموقراطيًا فى فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد ، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية التى قادها (ماتزينى) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية ، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها ، وكانت الدول الأوربية تتخذ من أوضاع النصارى فى الدولة حجة للتدخل، وفى هذه الظروف وبالضبط فى عام ١٨٦٥م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يسيرون فى حديقة فى ضواحى إسطنبول تسمى (غابة بلغراد)، تحدث هؤلاء الشباب فى موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التى أسها الزعيم الإيطالى (ماتزينى) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية ، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحمية) ، ومن ضمن هؤلاء الشباب الشاعر الذى أصبح فيما بعد واسع الشهرة : نامق كمال ، ورأوا أن العمل لابد أن يكون فى تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالى فإن رغبة الشعوب النصرانية فى الاستقلال بمناطقها عن الدولة، أعلن لها ما يبررها من تدخل أجنبى بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة فى حالة التردى التى وصلت إليها يكون بإيجاد نظام سياسى ديموقراطى ، وكان فى فرنسا فى تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصرى الذى نازع فؤاد باشا الرغبة فى تولى عرش مصر ، وفى فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادى بالدستور فى الدولة العثمانية ، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم «حزب تركيا الفتاة» فى أوروبا.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد- وهو إبراهيم تيمو- أنه كان يمضى أوقاته فى الخارج- حتى عام ١٨٩٥م- بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم ، لتربيتهم تربية ثورية ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التى ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا، وقراءة منشورات على شفقتى بك- عضو كلانتى الماسونية- وكان فارًا فى أوروبا(٥٤).

كان اسم الجمعية فى الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثمانى) ، وكان أحمد رضا بك - ممثل الجناح المدنى- متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغسطت كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو : (النظام والترقى) ، فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقى) استلهامًا من دستور «كانت» ، واحتفظ العسكريون باسم (الاتحاد) واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقى)[٥٥].

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقى على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك ، تحت حلم الطورانية، (والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلى، ونسبته إلى جبل توران الواقع فى المنطقة الشمالية الشرقية فى إيران)[٥٦]، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية ، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت فى صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة، وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى [٥٧].

المبحث الخامس
الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى

كان السلطان عبد الحميد الثانى شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقى المدعومة من اليهود والمحافل الماسونية والدول الغربية ، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد أن يتعرف على الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية ، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة فى وقت متأخر ، حيث دفعوا الأهالى إلى مظاهرات صاخبة فى سلانيك ومناستر وأسكلوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة إلى أن المتظاهرين هددوا بالزحف إلى اسطنبول ، الأمر الذى أدى بالسلطان إلى الرضوخ لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان ، وذلك فى ٢٤ تموز ١٩٠٨م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقى أن تبقى السلطان عبد الحميد الثانى فى تلك الفترة على العرش منها :

١- لم تكن فى حوزة الاتحاد والترقى القوة الكافية بعزله فى عام ١٩٠٨م.

٢- اتباع السلطان عبد الحميد الثانى سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور .

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد ، وهذه النقطة واضحة ، حيث أن لجنة الاتحاد والترقى لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثانى بين الجنود ، لأن هؤلاء يبجلون السلطان [٥٨].

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستورى لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقى لتحقيق مكاسب أخرى فى فلسطين، وعليها كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثانى نهائيًا، ولذلك دبرت أحداث ٣١ أبريل ١٩٠٩م فى إسطنبول وترتب على إثرها ، إضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقى ، عرف الحادث فى التاريخ باسم حادث ٣١ مارت .

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير فى العاصمة بتخطيط أوروبى يهودى، مع رجال الاتحاد والترقى، وتحرك على إثره عسكر الاتحاد والترقى من سلانيك ودخلوا إسطنبول ، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى من كل سلطاته المدنية والدينية، ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقى التهم التالية :

١- تدبير حادث ٣١ مارت (مارس).

٢- إحراق المصاحف (وهذا غير صحيح) .

٣- الإسراف.

٤- الظلم وسفك الدماء [٥٩].

وكلها تهم باطلة لا أساس لها من الصحة.

لقد كان الفكر الحاكم فى اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقى) هو : الماسونية وهى لاتعترف بالأديان ، بل بالفلسفة الوضعية (العقلانية وهى تنفى الدين) والعلمانية (وهى تبعد الدين عن الحياة) ، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد الثانى وافتروا عليه باسم الدين[٦٠].

إن التهم التى وجهت للسلطان عبد الحميد الثانى لاتثبت أمام البحث العلمى والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة على عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت (مارس) ، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف ، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وإهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم إسرافه ، ولأنه لايعرف الإسراف فقد كان المال يتوفر معه دائمًا، ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص). وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبد الحميد هذا ، سفك الدماء لأن ذلك لم يكن أبداً ضمن سياسته [٦١].

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقى تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثانى بقرار خلعه ، وكانت هذه اللجنة تتألف من :

١- إيمانويل قراصو : وهو يهودى أسبانى، كان من أوائل المشتركين فى حركة تركيا الفتاة، وكان مسئولاً أمام جمعية الاتحاد والترقى عن إثارة الشغب وتحريض المتظاهرين ضد السلطان عبد الحميد الثانى وتأمين التخابر بين سلانيك واسطنبول فيما يتعلق بالاتصالات الحركية.

٢- آرام: وهو أرمنى عضو فى مجلس الأعيان العثمانى.

٣- أسعد طوبطانى: وهو ألبانى، نائب فى مجلس المبعوثات عن منطقة دراج.

٤- عارف حكمت : وهو فريق بحرى وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجى العراق [٦٢].

يرى السلطان عبد الحميد في مذكراته تفاصيل هذه الحالة فيقول : (إن ما يحزنني ليس الإبعاد عن السلطة ، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا والتي خرجت عن كل حدود الأدب، حيث قلت لهم : إنني أنحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثين ذلك تقدير العزيز العليم، سوى أني أوكد بأنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التي تفجرت في ٣١ مارت ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التي تحملتموها ثقيلة جداً). ثم أشار عبد الحميد إلى قرصو قائلاً : (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة [٦٣]؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي؟) [٦٤].

لكن هذا اليهودي الحاقد كانت له أهداف يرغب في تحقيقها وقف السلطان عبد الحميد الثاني ضدها بكل ما يملك من قوة وهي :

(منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين وكلف هذا المنع السلطان عبد الحميد غاليًا وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد إلى انهيار الدولة العثمانية كلها) ، رغم أنه كان يدرك - كما قال نظام الدين لبيه دنلي أوغلو- في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثمانية أن : (اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم، كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوربية والمحافل الماسونية) [٦٥].

وبعد إبعاد عبد الحميد الثاني من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف اليهودية وفي هذا الصدد يقول لوثر : (وبعد إبعاد عبد الحميد من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب) [٦٦].

واستمرت الحملات الإعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفًا بالسلطان عبد الحميد الثاني استهدف أعداء الإسلام، من تلك الحملات إظهار الجوانب التالية :

١ - الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقي.

٢ - تغطية فشل الاتحاد والترقي في حكم الدولة.

٣- إبراز صورة مشرقة لعهد مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والإنكليز والدول الغربية في إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية.

٤- رغبة الصهاينة في تدمير سيرة السلطان عبد الحميد الثاني انتقامًا منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين(٦٧).

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثًا، وطويت صفحاتها منذ مطلع العقد الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين ، ونتيجة للزحف الاستعماري، والكيد اليهودي، والنخر الماسوني، والضعف الشديد الذي انتاب الدولة ، وهو ضعف لم يكن السلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه غدت ممتلكات الدولة نهبًا بين الدولة الأوربية الاستعمارية التي كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة(٦٨).

المبحث السادس

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثانى أخوه محمد رشاد إلا أنه فى الحقيقة لايملك أى سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحادو الترقى، وغدت الحكومة العثمانية تركية فى مضمونها ، قومية فى عصبيتها، بينما كانت من قبل عثمانية فى مضمونها وإسلامية فى رابطتها، فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التى تدعو إلى تحرير كافة الأتراك، مدعين أن الشعوب الإسلامية فى الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة ، وهى الأفكار التى تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها موئيز كوهين اليهودى ، والكاتب التركى الشهير ضيا كوك آل: فاتبعت سياسة التتريك، وذلك بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية الوحيدة بعد أن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها ، فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية، فى مواجهة حركة التتريك .

كون العرب حزب اللامركزية، كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم خليل والضابط عزيز على المصرى، والجمعية العربية الفتاة، وتكونت الجمعية الاصطلاحية فى بيروت عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية فى المهجر فقدمنا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا فى العام نفسه التمسنا فيها منها احتلال سوريا ولبنان ، بينما اتجه بعض مثقفى العراق نحو الإنكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطانى على برامج الإصلاح ، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد(٦٩) .

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية، قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربى فى باريس سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون :

١- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.

٢- إشراك العرب بالإدارة المركزية .

٣- جعل اللغة العربية لغة رسمية فى كافة الولايات العربية.

٤- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلى حين الضرورة.

٥- التعاطف مع مطالب الأرمن .

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر، وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوي [٧٠].

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ / ١٩١٤-١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في حين تمكن الإنكليز (بمراسلة الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك[٧١].

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها، ووقعت الأستانة تحت سيطرة الإنجليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي:

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء.

٢- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في ٢ / ١١ / ١٩١٧ م الموافق (محرم ١٣٣٦هـ) بإعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين .

٣- إخضاع تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع، وتوجيهها وجهة قومية.

لقد تجلت سياسة مصطفى أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام ١٣٤٩هـ وعام ١٣٥٥هـ والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي: القومي، الجمهورية الشعبية ، العلمانية، الثورة ، سلطة الدولة) [٧٢].

توفي أتاتورك عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين .

المبحث السابع
أسباب سقوط الدولة العثمانية

إن أساس سقوط الدولة العثمانية كثيرة أهمها هو الابتعادعن تحكيم شرع الله تعالى الذى جلب للأفراد والأمة تعاسةوضنكًا فى الدنيا وإن الابتعاد عن شرع الله له أثره البالغ على الحياة فى النواحى الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ويظهر تأثير ذلك فى أن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم .

قال تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور : ٦٣) .

فإن أى أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهيًا تسقط كما سقط بنو إسرائيل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق طرأ، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا ، ثم ليلعنكم كما لعنهم)(٧٣) .

لقد تحققت فى الدولة العثمانية سنة الله فى تغيير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الأنفال :٥٣) .

إن الذنوب التى يهلك الله بها الدول، ويهذب بها الأمم قسمان :

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

٢- كفر النعم بالبطر والأشر ، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها فى غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثانى من الذنوب هو الذى مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم (٧٤).

إن الدولة العثمانية فى بداية أمرها كانت تسير على شرع الله فى كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة فى مسيرتها الدعوية والجهادية ، آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة . أما فى أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط

التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية . قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (النور: ٥٥،٥٦) .

فكانت الدولة العثمانية فى بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط أما فى أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحرافًا عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً :

١- من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء .

٢- انحصار مفهوم العبادة .

٣- انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

٤- الصوفية المنحرفة .

٥- نشاط الفرق، كالدروز ، والنصيرية ، والإسماعيلية ، والقاديانية ، والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

٦- غياب القيادة الربانية .

٧- رفض فتح باب الاجتهاد .

٨- انتشار الظلم فى الدولة.

٩- الترف والانغماس فى الشهوات .

١٠- الاختلاف والفرقة .

نتائج البحث

١- تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبد الحميد الثانى فى عام ١٢٩٣هـ / وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور ، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياتهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتى كانت تضم النخبة المثقفة التى تأثرت بالغرب وعندما حانت الفرصة للسلطان عبد الحميد ألغى الدستور وشرد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم ، وشرع فى إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

٢- عمل السلطان عبد الحميد الثانى على تشكيل جهاز استخباراتى قوى لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج ، وأخمد ثورات فى البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان فى القضاء على التمردات الداخلية فى حينها .

٣- دخلت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين فى ألمانيا .

٤- ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة فى زمن السلطان عبد الحميد الثانى الذى اهتم بهذه الفكرة من دعم أواصر الأخوة بين المسلمين فى كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية الاستعمارية .

٥- شرع السلطان عبد الحميد فى تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها: الاتصال بالدعاة وتنظيم الطرق الصوفية ، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر ، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء .

٦- حاول السلطان عبد الحميد الثانى التضييق على جهود الدونمة عندما علم قوته ومؤامراتهم ضد الإسلام .

٧- كان السلطان عبد الحميد الثانى العائق القوى أمام «مخططات حكماء صهيون» فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا ، وكان يتخذ التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين ولم يعط اليهود أى امتياز من شأنه أن يؤدى إلى تغلب اليهود على أراضى فلسطين.

٨- تحركت الصهيونية العالمية لتدعيم أعداء السلطان عبدالحميد الثاني، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان ، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية .

٩- استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم وقد تحصلت على دعم من الدول الأوروبية ، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف .

١٠- كانت جمعية الاتحاد والترقي لاتستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا وروسيا .

١١- إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى> وهذا الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله شهرت في وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية .

١٢- إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أثر في تلك الشعوب ، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك ، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم .

١٣- إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ أنه إذا عصى الله تعالى من يعرفونه سلط الله عليهم من لايعرفنه .

١٤- لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد في مفاهيم دينها ، كعقيدة الولاء والبراء ، ومفهوم العبادة ، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

١٥- انتشار الظلم في الدولة العثمانية .

١٦- لقد ترتب على ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها ، فاستعمرت، وغزيت فكريًا ، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم وسقوطها . قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف :٩٦) .

الهوامش

١- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص٣١-٣٣ .

٢- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص٥٦ .

٣- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، ص٥٨ .

٤- نفس المرجع ، ص١٧٨ .

٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م.

٦- د. إسماعيل ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٠ .

٧- د. محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص٨٠ .

٨- د. محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص٩٥ .

٩- نفسه، ص٦٥ .

١٠- نفسه ، ص٩٦ .

١١- د. إسماعيل أحمد ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٩ .

١٢- د. إسماعيل ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٩ .

١٣- نفسه ، ص١٩٠ .

١٤- انظر: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك، ص٢٤١ .

١٥- د. عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور ، دار إشبيلية ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض ، المملكة العربية السعودية، ص٤١٨ .

١٦- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٤٤ .

١٧- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٤٥ .

١٨- إسماعيل أحمد ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٩٥ .

١٩- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٦٨ .

٢٠- المرجع السابق نفسه ، ص١٦٩ .

٢١- د. محسن عبدالحميد جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، مؤسسه الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م، بيروت ، ص١٣٧ .

٢٢- المرجع السابق نفسه .

٢٣- المرجع السابق نفسه .

٢٤- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٩٦ .

٢٥- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٩٨ .

٢٦- المرجع السابق نفسه .

٢٧- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٠١ .

٢٨- المرجع السابق، نفسه، ص٩٩ .

٢٩- نفسه ، ص١٠٠ .

٣٠- مصطفى طوران، الانقلاب العثماني، ص٣٧

٣١- د. موفق بني مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص١١٣ .

٣٢- د. موفق بني مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص١١٤ .

٣٣- المصدر السابق نفسه.

٣٤- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص١٣١، ١٣٢ .

٣٥- المرجع السابق، ص٢٢٤ .

٣٦- المرجع السابق، ص١٣٨ .

٣٧- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص١٣٩ .

٣٨- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٣٧ .

٣٩- المرجع السابق نفسه .

٤٠- د. أحمد نوري النعيمي ، يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٨ .

٤١- د. موفق بني مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص٢٤٢ .

٤٢- د. أحمد نوري النعيمي ، يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، , الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص١٦ .

٤٣- د. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م، ص٤٦ .

٤٤- د. أحمد نوري النعيمي ، يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٨١ .

٤٥- د. أحمد نوري النعيمي ، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص٦٨- ٦٩ .

٤٦- د. أحمد نوري النعيمي ، الدولة العثمانية ، مؤسسة ، دار البشير، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/

١٩٩٧م، ص١١٦ .

٤٧- المرجع السابق ، نفسه، ص١٤١ .

٤٨- المرجع السابق ، نفسه، ص١٤٣ .

٤٩- المرجع السابق، ص١٤١ .

٥٠- د. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٩٧م، ص٥٧ .

٥١- المرجع السابق، نفسه، ص٥٦ .

٥٢- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٥٨ .

٥٣- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م ، دمشق ، ص٢٣٤ .

٥٤- انظر : مذكرات إبراهيم تيمو، ص٩ .

٥٥- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥- ٢٨٠ .

٥٦- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٦٣ .

٥٧- المرجع السابق نفسه، ص١٦٨ .

٥٨- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٦٨ .

٥٩- د. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٥٠ .

٦٠- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥-٢٨٣ .

٦١- د. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٥٠ .

٦٢- المرجع السابق نفسه، ص٥١ .

٦٣- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٢١٩ .

٦٤- المرجع السابق نفسه ، ص٢٢٠ .

٦٥- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥-٨٨ .

٦٦- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٢٣٠ .

٦٧- د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م: ٢ / ١٠١٨-١٠٢٣ .

٦٨- المرجع السابق نفسه : ٢ / ١٠٦١ .

٦٩- د. علي حسون ، تاريخ الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص٢٤٩ .

٧٠- د. جميل عبدالله محمد المصري ، حاضر العالم الإسلامي، جامعة المدينة المنورة : ١ / ١٠٩ .

٧١- المرجع السابق نفسه : ١ / ١١٠ .

٧٢- د. جميل عبدالله محمد المصري، حاضر العالم الإسلامي، جامعة المدينة المنورة: ١ / ١٢٢ .

٧٣- أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٦٤٧٠ .

٧٤- علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، دار البيارق ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م، عمان -الأردن ، ص١٧٠ .

المصادر والمراجع

١- أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، د. محمد نور الدين .

٢- أيعيد التاريخ نفسه ، محمد العبده، المنتدى الإسلامي، طبعة ١٤١١هـ.

٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن القيم، مراجعة وتعليق عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت .

٤- أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

٥- اقتصاديات الحرب في الإسلام د. غازي التمام، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق : محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية عام ١٣٦٩هـ، مطبعة السنة المحمدية .

٧- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨- البطولة والفداء عند الصوفية ، أسعد الخطيب، دار الفكر ، دمشق.

٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٦٠م.

١٠- البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١١- البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠م.

١٢- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

١٣- تاريخ الدولة العثمانية ، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٤- تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق باسم الجابي، تأليف يوسف اصاف ، دار البصائر ، الطبعة الثالثة ١٤٩٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥- تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، المكتب الإسلامى ، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٦- تركيا والسياسة العربية، أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا .

١٧- تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا ، ترجمة إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصارى ، المجلد الأول - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول ١٩٨٨م.

١٨- التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، د. توفيق الطويل ، مطبعة الاعتماد ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦ م القاهرة.

١٩- جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين زيادة أبوغنيمة ، دار الفرقان ، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٣م.

٢٠- جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، بيروت .

٢١- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس فى مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبد الحى رضوان، مكتبة الطالب الجامعى، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٢- حاضر العالم الإسلامى ، د. جميل عبدالله محمد المصرى، جامعة المدينة المنورة.

٢٣- حروب البلقان والحركة العربية فى المشرق العربى العثمانى، د. عايض بن خزام الروقى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٢٤- الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا ، د. أحمد النعيمى ، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، عمان - الأردن .

٢٥- حركة الجامعة الإسلامية ، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، الأردن .

٢٦- خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة ، شكيب أرسلان ، بيروت .

٢٧- الدولة العثمانية والشرق العربى، محمد أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٢٨- الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، د. عبد العزيز الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م.

٢٩- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، د. إسماعيل أحمد ياغي ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٠- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، قيس جواد العزاوي، مركز دراسات الإسلام والعالم ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٣١- السلاطين في المشرق العربي د. عصام محمد شبارو، طبعة ١٩٩٤م، دار النهضة العربية، بيروت .

٣٢- السلطان عبد الحميد الثاني: د. محمد حرب، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دمشق .

٣٣- السلاطين العثمانيون ، كتاب مصور ، طبع في تونس.

٣٤- الشعوب الإسلامية ، الأتراك العثمانيون ، الفرس ، مسلمو الهند د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٣٥- صحوة الرجل المريض، د. موفق بني مرجه ، دار البيارق ، الطبعة الثامنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٣٦- صراع الفكر بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتي، د. أحمد العدوي، أبحاث ندوة الجبرتي، ١٩٧٦م، القاهرة.

٣٧- العثمانيون في التاريخ والحضارة ، د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ./ ١٩٨٩م.

٣٨- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، سفر عبد الرحمن الحوالي، طبعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٩- العثمانيون والروس ، د. علي حسون ، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤٠- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، دار إشبيلية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض- المملكة العربية السعودية.

٤١- في أصول التاريخ العثماني ، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق ، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٢- فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن من البر إلى البحر، محمد عبد اللطيف البحراوى، دار التراث، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، القاهرة.

٤٣- فلسفة التاريخ العثمانى : محمد جميل بيهم.

٤٤- قيام الدولة العثمانية ، د. عبد اللطيف بن دهيش ، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

٤٥- ليبيا منذ الفتح العثمانى، أتورى، روسى، تعريب خليفة التليسى، دار الثقافة ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٤٦- مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة، الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٤٧- موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د. يوسف على الثقفى، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٨- المغرب فى عهد الدولة السعدية ، عبد الكريم كريم، شركة الطبع والنشر ، ١٩٧٧م، الدار البيضاء المغرب.

٤٩- من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى> محمد أديب غالب، دار اليمامة ، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، السعودية.

٥٠- المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد عبد الحميد حرب، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر، البحرين .

٥١- مفاهيم يجب أن تصحح ، لمحمد قطب ، دار الشروق ، الطبعة السابعة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، القاهرة.

٥٢- النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس دار الفرقان ، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٥٣- النفوذ البرتغالى فى الخليج العربي، نوال صيرفى، مطبوعات دار الملك عبد العزيز،، ١٤٩٣هـ - ١٩٨٣م، الرياض ، المملكة العربية السعودية.

٥٤- واقعنا المعاصر، الشيخ محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مؤسسة المدنية المنورة.

٥٥- الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني ، دار طيبة الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ ، مكة- الرياض.

٥٦- والدي السلطان عبد الحميد، مذكرات الأميرة عائشة ، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٥٧- اليهودية والماسونية، عبد الرحمن الدوسري، دار السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، السعودية.

٥٨- اليهود والدولة العثمانية ، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٩- يهودي الدونمة ، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

د. مقلاتي عبدالله (*)

مؤتمر طنجة المغاربي ومسألة الوحدة والتضامن مع الثورة الجزائرية

لقد مثل مؤتمر طنجة المنعقد في أفريل ١٩٥٨ حدثا مهما في تاريخ الثورة الجزائرية، ومحطة حاسمة في مشروع وحدة المغرب العربي، وقد أقرت خلاله الأحزاب المغاربية الرئيسية خطة مشتركة للتضامن مع الجزائر ولبناء وحدة مغاربية، فما الذي تغير وجعل الأحزاب المغاربية تفكر في ربط مصيرها في موقف موحد ،وهل كان التصميم حازما نحو إشادة وحدة حقيقية، ولماذا فشل الحكوميون في تنفيذ ما تعاهدت عليه الأحزاب السياسية ،وما وقع المشروع وإخفاقه على الثورة الجزائرية وعلى العلاقات المغاربية؟.

أولا ــ ظروف ودوافع عقد المؤتمر :

يحس المغاربة في مواجهة الأخطار الكبرى بوحدة المصير والتضامن المشترك، وهذا الحكم صدقته الأحداث والمواقف في العصر الحديث، إذ تساندت الحركات الوطنية وتضامنت لمواجهة القوة الاستعمارية، وهبت لإعلان تكاتفها خلال مرحلة المقاومة المسلحة، وقد ظلت الشعوب تتوق إلى تجربة الكفاح المشترك التي خيضت عامي ١٩٥٥ــ ١٩٥٦ وأجهضها المستعمر بمنح تونس والمغرب استقلالهما، ولم يكن تفرد الاستعمار الفرنسي بالجزائر يعني حيادا تونسيا ومغربيا

* قسم التاريخ ــ جامعة ادرار

إزاء المشكلة الجزائرية، فقد أثارت حرب الجزائر تضامنا مغاربيا فريدا من نوعه،وعندما تأكد أن الحرب تهدد تونس والمغرب تعالت الأصوات بالدعوة إلى التضامن والوحدة المغاربية(١).

وعلى الرغم من مرور نصف قرن تقريبا على انعقاد مؤتمر طنجة إلا أن كثيرا من الظروف المحيطة بالحدث والدوافع الحقيقية ما تزال ملتبسة(٢)، لقد كانت تتداول آنذاك فكرة حلف متوسطي، فقيل إن مؤتمر طنجة هدف إلى علاج المشكلة في إطار التعاون الفرنسي ــ المغاربي، وفسر أنه محاولة احتواء مغربية تونسية للثورة الجزائرية وردا على الوحدة المصرية ــ السورية وعندما نعيد قراءة الحدث نجد أنفسنا أمام قضايا مهمة تساعد على فهم ظروف انعقاد المؤتمر.

ــ الهجمة الفرنسية الشرسة على الجزائر وإفلاس السياسة الفرنسية في علاج مشاكلها.

ــ التحالف الفرنسي الإسباني ضد ذراع حزب الاستقلال جيش تحرير المغرب في الصحراء.

ــ الاعتداءات الفرنسية المتكررة على الحدود وحادثة ساقية سيدي يوسف بالخصوص .

إن الثورة الجزائرية استطاعت أن تواجه السياسة الفرنسية التي هدفت إلى عزلها مغاربيا،وأن تحدث تحولات كبرى في المغرب العربي ،إذ كانت تونس والمغرب معنية دائما بالمشكلة الجزائرية وواقعة تحت تهديد بقايا النظام الاستعماري ،ودعوة التضامن الشعبية إلى مؤازرة الكفاح الجزائري، وقد أدت اعتداءات عسكريي الجزائر المتكررة إلى إفلاس سياسة الجمهورية الفرنسية الرابعة .

لقد بلغت ذروة الاعتداءات الفرنسية على التراب التونسي والمغربي عام ١٩٥٨، وكانت ساقية سيدي يوسف إحدى فصولها الحاسمة، كان الهدف من تلك الاعتداءات إرهاب التونسيين والمغربيين المتضامنين مع الجزائر، وتمهيد إقامة الأسلاك الشائكة بتهجير سكان الحدود، هذا التهجير القسري كان محل تنديد وإدانة شعبية و رسمية(٣) في حين اعتبره عسكريو الجزائر الحل الناجع لمنع تسرب المساعدات التونسية والمغربية ومحاصرة الثوار(٤) .

لقد خطط هؤلاء العسكريون لمعركة بالقرب من الحدود التونسية، وفي ١١جانفي ١٩٥٨ وقعت معركة جبل الكوشة داخل التراب الجزائري، قتل فيها جيش التحرير الجزائري ١١

جنديًا وأسر أربعة فكانت غيضة القادة العسكريين كبيرة ,وبدءوا في التخطيط لعمل عسكري ضد تونس متهمين إياها بمساعدة الثوار وإيواء الأسرى. وفي ٨ فيفري ١٩٥٨ وقع الاعتداء على الساقية فكان حدثا مهولا دمرت الطائرات الفرنسية القرية التونسية الآمنة وقتلت تسعة وسبعون مدنيا ،وقد أبرزت الحادثة ترابط القضايا المغاربية، وأكدت فشل السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا، وكان من انعكاساتها تدويل القضية الجزائرية ,وخلق تضامن مغاربي معادي لفرنسا وللمعسكر الغربي الذي يدعم فرنسا في إطار الحلف الأطلسي(٥).

وسبب التدخل الأمريكي البريطاني في الخلاف التونسي –الفرنسي بداية تصدع هز الجمهورية الرابعة إلى أن انهارت بتدخل عسكريي ومعمري الجزائر, وتنفيذهم لتمرد ١٣ماي ١٩٥٨ الذي جاء بديغول إلى السلطة.

وعلى الجبهة المغربية ظل العسكريون الفرنسيون ينقمون على الموقف المغربي، ويتخوفون من حصول تحالف جديد بين ثوار الجزائر وجيش التحرير المغربي في الصحراء, وقد وجه هذا الأخير ضربات قوية للقوات الفرنسية والإسبانية في تندوف والصحراء الغربية وموريطانيا ،وقد أفادت التقارير العسكرية بوجود تنسيق بين ثوار الجزائر والمغرب وتواطؤ إسباني في السماح لجيش التحرير المغربي بالمرور إلى موريطانيا (٦) ,وأدى ذلك إلى التحالف مع إسبانيا ومواجهة الخطر المشترك قبل استفحاله، ورسم مخططات عسكرية للقضاء على جيش التحرير المغربي . وهكذا مضت خطة " المكنسة" العسكرية لتقضي على وحدات جيش التحرير المغربي وتشتت فلوله، فكانت ضربة موجعة تأثر لها حزب الاستقلال وعلال الفاسي خصوصا الذي كان يطمح إلى استعادة المغرب للأراضي الصحراوية الخاضعة للاستعمار وإنشاء المغرب التاريخي ،الذي يضم أقاليم الساورة وتندوف في الجزائر، والصحراء الغربية الخاضعة للإسبان وموريطانيا المحتلة من قبل الفرنسيين (٧) ,وكانت معركة موريطانيا قد شغلت الفاسي كثيرا وأبعدته عن القضية الجزائرية، وتألم كثيرا لعدم تحقيق جيش التحرير المغربي لأحلامه، ونشدد على أن هذا السبب وكذا فشل الحزب في أداء مهامه الحكومية وعدم قدرته على تطبيق برنامجه دفعه لتعويض هذه الخسارات في المجال الإقليمي بالدعوة إلى وحدة المغرب العربي وتزعم المشروع.

وقد مهد الفاسي لهذا الخيار الاستراتيجي بمقال في جريدته "صحراء المغرب" ذكر فيه بماضي النضال المشترك، وبتجربتي الوحدة المشرقية مخاطبا النخب السياسية بالقول: "فكيف يمكننا أن

تشتغل الآن بتدعيم المرحلة الأولى من استقلالنا وتنسى هذه الغاية التي هي في مقدمة مبادئنا؟ وإن استمرار الحرب التحريرية في الجزائر وفي الصحراء لا ينبغي أن يكون عائقا في وسائل تحقيق هدف الاتحاد المغربي الذي سيسهل علينا حل كثير من المشاكل التي خلفها الاستعمار في بلادنا"(٨)، وعلى الرغم من أن الفاسي طرح مشروع الوحدة على الرأي العام المغاربي لمناقشته وإبداء الرأي حوله إلا أنه سرعان ما دعا اللجنة التنفيذية للحزب للاجتماع بتاريخ ٢ مارس ١٩٥٨, وذلك لتدارس وضعية البلاد والظروف التي تمر بها المنطقة المغاربية ,وأصدرت اللجنة بلاغا جاء فيه أنها قامت "بتحليل الحالة في مجموع الشمال الإفريقي على إثر حوادث جنوب المغرب وساقية سيدي يوسف, وأمام استمرار الحرب بالجزائر والتطورات التي طرأت على الحالة الدولية." وأنها تعلن تضامنها مع الكفاح الجزائري وتنديدها بإنشاء المنطقة المحرمة والأسلاك الشائكة، وتساند مجهود تونس في الميدان الدولي" ,وأوضحت اللجنة التنفيذية أنها درست الوسائل التي من شأنها أن تقوي تضامن الشعب المغربي مع شعبي الجزائر وتونس في الظروف الحاضرة التي تعتبر حاسمة في مصير شمال إفريقيا وعلاقاته المستقبلية مع فرنسا والغرب."وتؤكد اللجنة التنفيذية ضرورة الشروع منذ الآن في دراسة الخطط التي تؤدي إلى تعزيز مظاهر التآزر والاتحاد،سعيا وراء إنشاء وحدة حقيقية ،تلبي المطامح الصادقة لشعوب المغرب العربي الثلاثة "(٩) ووجدت هذه الدعوة صداها في تونس، إذ استجاب حزب الدستور التونسي مباشرة وبحماسة لنداء حزب الاستقلال المغربي وأصدر بلاغا رحب فيه بالفكرة واقترح مؤتمرا في تونس أو الرباط "لضبط الخطط والوسائل الكفيلة بتحقيق جلاء القوات الأجنبية وتحرير الجزائر وبعث المغرب العربي الكبير "(١٠) ,وإثر ذلك عقدت اللجنة السياسية لحزب الاستقلال اجتماعا درست فيه الموضوع وعهدت إلى لجنة مصغرة (١١) وضع تصور لمشروع الوحدة المقترح يجيب عن ثلاث أسئلة رئيسية هي :لماذا نريد وحدة المغرب العربي ؟, وماذا نعني بهذه الوحدة؟وكيف يمكن تحقيقها؟،وكلفت اللجنة السياسية لمحجوب بن الصديق وعبد الرحمان اليوسفي بمهمة الاتصال بمسئولي جبهة التحرير الوطني في القاهرة وبحث الموضوع معهم, وأرسلت أبو بكر القادري والدكتور بناني إلى تونس لمذاكرة مسئولي الحزب الحر الدستوري في سبيل إبراز فكرة الوحدة للوجود (١٢) ,وحصل اتفاق بين الوفدين المغربي والتونسي على ضرورة تجسيد وحدة المغرب العربي والنظر في المشاكل القائمة في شمال إفريقيا وعلى رأسها قضية الجزائر، وعلى عقد اجتماع في طنجة تحضره جبهة التحرير الجزائرية (١٣).

كانت هذه حيثيات مبادرة حزب الاستقلال المغربي، وقد رأينا سرعة تجاوب الموقف التونسي معها، فما هو يا ترى موقف جبهة التحرير الوطني ؟

لقد كانت أهداف ودوافع حزب الاستقلال ملتبسة كثيرا،وتقف وراءها الإخفاقات الوطنية وتهميش دور الحزب والانهزام في معركة تحرير الصحراء، في حين كانت أهداف تونس براغماتية إلى أبعد الحدود، وهي تنتهز فرصة اعتداء الساقية وانقطاع العلاقات مع فرنسا لتحقق رزمة أهداف داخلية وخارجية ،وقد جاء الاحتضان الرسمي لفكرة الوحدة المغاربية نزولا عند مطمح الأحزاب السياسية والجماهير الشعبية وجريا وراء احتواء جبهة التحرير والتي كانت بتحالفها مع الناصرية تثير المخاوف، وإنهاء هاجس الحرب الجزائرية التي تهدد كامل الشمال الإفريقي .

في ظل استفحال المخاطر المهددة للشمال الإفريقي والرغبة في إنشاء وحدة مغاربية وأمام ظهور المشاريع القومية هل ستختار جبهة التحرير الوطني الحياد إرضاء للمشروع الناصري أم الاندماج في المشروع المغاربي؟ .

لقد نبذت جبهة التحرير الوطني مشروع فيدرالية شمال إفريقيا متعاونة مع فرنسا والغرب عام ١٩٥٧ وذلك بتشجيع من مصر، وأعلنت تونس والمغرب تخوفها من استمرارية التدخل الناصري في شؤون المغرب العربي، وأدى نجاح مشروع الوحدة المصرية ـــ السورية إلى ازدياد المخاوف من انتقال عدوى الأفكار القومية الناصرية إلى المغرب العربي، كما فهمت مصر أن الدعوة إلى وحدة مغاربية يعد معاكسة لمشروعها ،واحتواء لجبهة التحرير الوطني ،خاصة إذا علمنا أن الخلافات المصرية البورقيبية بلغت أوجها، وأن حساسية الفاسي والنظام المغربي من مصر تأكدت في مباركته للوحدة العراقيةـ الأردنية، وأن مصر لم تكن مطلعة على حقائق وحدة المغرب العربي[١٤]، وأمام ذلك كانت جبهة التحرير الوطني محرجة في حضور مؤتمر طنجة، إذ لم يكن من السهل عليها الارتماء في مشروع مشبوه وإغضاب مصر القومية، وهي القاعدة السياسية واللوجستيكية الداعمة للثورة الجزائرية، ولكن رغم ذلك قبلت جبهة التحرير الوطني بعد نقاش مستفيض حضور مؤتمر طنجة لاعتبارات كثيرة كانت تفيد في تحقيق مكاسب لها نذكر منها:

ــ سلامة المشروع من أي توجه انفصالي أو معادي للقاهرة ،ذلك أن فكرة الوحدة المغربية مشروع عريق زكته الأحزاب المغاربية منذ كانت لاجئة في القاهرة عام ١٩٤٧ ،كما أنها تؤكد على البعد المغاربي الذي يؤمن به مناضلوها أشد الإيمان .

ــ تزايد اهمية تونس والمغرب بدءا من عام ١٩٥٧ بفعل التطورات السياسية والعسكرية للثورة ،خاصة وأنهما تقدمان تسهيلات مهمة لنشاط جبهة وجيش التحرير، وتعتمدان قاعدة للإمداد والتمركز قريبة من جبهة الكفاح ،وميدانا للتضامن الشعبي بحكم الجوار والتضامن المشترك،وحتى أهمية المعركة الإعلامية المعلنة ضد الغرب كان من المفيد خوضها انطلاقا من تونس والمغرب المرتبطتين بأوروبا الغربية وإفريقيا .

ــ إن حضور المؤتمر يتيح الفرصة لتوجيهه لصالح الكفاح المسلح في الجزائر، خاصة في هذه المرحلة الحساسة التي تسمح بتحقيق مكاسب مهمة منها المطالبة بجلاء القوات الأجنبية، وبدعم الثورة الجزائرية، وحشد التضامن الشعبي الذي يمثل ضمانة مهمة قد تدفع إلى وحدة المعركة المسلحة(١٥).

وهكذا اجتهدت جبهة التحرير الوطني في الخروج بأكبر الفوائد الممكنة من هذا المؤتمر، وفق خطة مدروسة وموجهة، صاغها عبد الحميد مهري العارف بالشؤون المغاربية ،إذ أقنع لجنة التنسيق والتنفيذ بضرورة استغلال هذه اللحظة التاريخية وانتهاز فرصة عدم إعداد جدول أعمال للمؤتمر لتوجيهه لصالح المعركة ضد الاستعمار في الجزائر ومخلفاته وقواعده العسكرية في تونس والمغرب، واعتمدت جبهة التحرير الوطني خطة محكمة تهدف إلى تجنيد المغرب العربي للتضامن مع الثورة الجزائرية وتجاوز خيار العمل العسكري المشترك الذي كان مطروحا في عام ١٩٥٥ ،ذلك لأنه لم يعد يتلاءم مع واقع البلدين المستقلين، ولا يمكن للأنظمة السياسية تجسيده، أما مسألة تقديم المساعدات وتوحيد المواقف مع الثورة الجزائرية في القضايا المشتركة فيمكن التجاوب معها ،خاصة وأن جبهة التحرير الوطني كانت تحاور أحزاب سياسية لا حكومات تنفيذية بيدها سلطة القرار، وبحاجة إلى التنسيق العملي للتجاوب مع مطالبها وإلى التضامن الشعبي (١٦) ,وهكذا يمكننا التأكيد أن الوفد الجزائري كان واقعيا في مطامحه، وماهرا في دبلوماسيته واستراتيجيته،اجتهد في إدراج القضايا المهمة على المؤتمرين وبحث الوسائل الكفيلة بتجسيد المقررات .

ثانيا ــ مقررات المؤتمر وأهميتها:

اجتمعت وفود الأحزاب المغاربية الثلاث (حزب الاستقلال ،الحزب الدستوري الحر ،جبهة التحرير الوطني) في طنجة يوم ٢٧ أفريل ١٩٥٨، وتدارست خلال أربع أيام كاملة قضايا استكمال تحرير المغرب العربي وتوحيده, وقد ركزت الخطب الافتتاحية لرؤساء الوفود على حتمية التضامن مع الجزائر في كفاحها التحرري وإشادة وحدة المغرب العربي[١٧]، وشدد رئيس وفد جبهة التحرير الوطني على التأكيد أن "تحرير المغرب العربي وتحقيق وحدته هي مثلنا السامية"[١٨] وكان حدثا مدويا وحاسما ذلك المؤتمر الذي سمي "مؤتمر الوحدة" لأنه أقر مفهوما واضحا لفكرة المغرب العربي التي لم تعد تعني مجرد التنسيق المشترك بل العمل من أجل قيام وحدة فيدرالية بين الأقطار المغاربية، وقد عكس جدول أعمال المؤتمر محاور اهتمام القيادات المغاربية ,إذ حدد المؤتمرون بعد جلستين تمهيديتين في الرباط المحاور الآتية:

ــ حرب الاستقلال الدائرة رحاها بالجزائر .

ــ تصفية قواعد الاستعمار بالمغرب العربي .

ــ وحدة المغرب العربي:شكلها وقواعدها والمرحلة الانتقالية لهذه الوحدة .

ــ إنشاء منظمة دائمة لتنفيذ قرارات المؤتمر [١٩] .

وقد ساعد تجاوب الأنظمة الرسمية وحضور عدد كبير من المسؤولين الرسميين على إثراء النقاش واتخاذ مواقف شجاعة ،وأعلن المؤتمرون عن قرارات تاريخية يمكن أن نجملها في ثلاث محاورُ رئيسية: دعم الثورة الجزائرية، تصفية بقايا الاستعمار، الموقف من الدعم الغربي لفرنسا، ووحدة المغرب العربي .

٢ــ١ــ دعم ثورة الجزائر :

أخذت هذه المسألة النصيب الأوفر من المناقشات باعتبارها قضية المغرب العربي الأساسية، واستطاعت جبهة التحرير الوطني أن تكسب مواقف دعم ومساندة لكفاحها, فأعلن المؤتمر مبدأ "حق الشعب الجزائري المقدس في السيادة والاستقلال الشرط الوحيد لحل النزاع الفرنسي الجزائري", وفي هذا تأكيد على مواقف جبهة التحرير الوطني في مبدأ السيادة والاستقلال

التام، وأقر المؤتمر بعد تشريحه لطبيعة الحرب الاستعمارية " أن تقدم الأحزاب السياسية للشعب الجزائري المكافح من أجل استقلاله كامل مساندة شعوبها وتأييد حكوماتها "، ونظرا لما تحظى به القضية الجزائرية من تأييد دولي، وشرعية تمثيل جبهة التحرير الوطني لكفاح الشعب الجزائري " فإن المؤتمر يوصي بتكوين حكومة جزائرية بعد استشارة حكومتي المغرب وتونس"(٢٠)، وقد نالت المسألة الأخيرة نقاشا مستفيضا وتخوف البعض من توجه وشكل الحكومة، واشترطوا موافقة مسبقة من تونس والمغرب لإعلانها، لكن جبهة التحرير الوطني أصرت على سيادة قرارها وقبلت أخيرا باستشارة تونس والمغرب فقط في الأمر (٢١).

٢ـ٢ ـ التنديد بالموقف الغربي وتصفية بقايا الاستعمار:

نظرا للإعانة التي تتلقاها فرنسا من الحلف الأطلسي والدول الغربية استنكر المؤتمر هذا الموقف، وطالب بوضع حد لكل إعانة سياسية ومادية ترمي إلى تغذية الحرب الاستعمارية في المغرب العربي، ونظرا لما تقوم به القوات الأجنبية المتواجدة في تونس والمغرب من انتهاك للسيادة ومشاركة في حرب الجزائر سجل البلاغ القرارات الآتية:

" ـ يستنكر استمرار وجود القوات الأجنبية فوق ترابها الأمر الذي يتنافى مع سيادة بلاد مستقلة .

ـ يطالب بكل إلحاح أن تكف القوات الفرنسية حالا عن استعمال التراب المغربي والتونسي كقاعدة للعدوان ضد الشعب الجزائري .

ـ يوصي الحكومات والأحزاب السياسية بتنسيق جهودها من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة لتصفية جميع بقايا السيطرة الاستعمارية "(٢٢).

وهذه القرارات البالغة الأهمية اقترحت من قبل جبهة التحرير الوطني لإحراج الموقف الغربي والفرنسي خصوصا, وقد تقدمت للمؤتمرين بخرائط مفصلة عن مواقع القواعد الفرنسية العاملة في تونس والمغرب ،موضحة عملها المنسق مع الجيوش الفرنسية في الجزائر ،وسلبيات ذلك على نشاط المجاهدين الجزائريين، ولقيت جبهة التحرير الوطني تجاوبا مع مطالبها هذه ،وقد كانت تحظى بإجماع شعبي وتعبئة جماهيرية كبيرة ،وجاء التأكيد عليه كذلك بهدف تجنيد هذه الجماهير الواسعة وراء مطالب المؤتمر (٢٣) ,كما أن قرار التنديد بالدعم الغربي المقدم لفرنسا كان قرارا

جزائريا ,تم تثبيته رغم أن حزب الاستقلال والحزب الدستوري اقترحا صياغة هذا التنديد على لسان شعوب المغرب العربي, وأما مطلب دعم نضال شعب موريطانيا فقد عبر المؤتمر عن تضامنه مع هذا المطلب, غير أن حزب الاستقلال دعا إلى ربط هذا النضال في إطار وحدة التراب المغربي، في حين أصر الطرفان التونسي والجزائري على إنزاله في إطار نضال التحرر المغاربي ,والتأكيد أن هذه المقاومة التحريرية "هي جزء من المعركة التي تقوم بها أقطار المغرب العربي من أجل تحريرها ووحدتها" (٢٤) .

وهكذا لم ينجح حزب الاستقلال في الحصول على دعم المؤتمر لما كان يسميه حقوقه الترابية في موريطانيا، وقد تجلت خلاله المطامح القطرية واضحة بالشكل الذي يؤكد أن الإخلاص لبناء الوحدة لم يكن سيدا .

٢ ـــ٣ ـــ وحدة المغرب العربي :

أكد المؤتمر على توحيد مصير شعوب المغرب العربي في إطار مؤسسات مشتركة، وأقر "أن يعمل على تحقيق الوحدة..."، واعتبر أن "الشكل الفيدرالي أكثر ملاءمة للواقع في البلاد المشتركة في هذا المؤتمر"، ومن أجل ذلك اقترح المؤتمر "أن يشكل في المرحلة الانتقالية مجلس استشاري للمغرب العربي ينبثق عن المجالس الوطنية في تونس والمغرب، وعن المجلس الوطني للثورة الجزائرية"، على أن تكون مهمته " درس القضايا ذات المصلحة المشتركة وتقديم التوصيات للسلطات التنفيذية المحلية ." ومن أجل المتابعة وتنفيذ التوصيات التي يصدرها المجلس الاستشاري يوصي المؤتمر "بضرورة الاتصالات الدورية وكلما اقتضت الظروف ذلك بين المسؤولين المحليين للأقطار الثلاثة "، وقرر المؤتمر كذلك إنشاء أمانة دائمة للمؤتمر من ستة أعضاء، عضوان عن كل طرف، على أن يكون لهذه الأمانة مكتبان أحدهما بالرباط والآخر بتونس، وأن تجتمع دوريا في إحدى العاصمتين بالتناوب, وفي إطار توحيد السياسات الخارجية والدفاع أوصى المؤتمر "حكومات أقطار المغرب العربي بأن لا تربط منفردة مصير شمال إفريقيا في ميدان العلاقات الخارجية والدفاع إلى أن تتم إقامة المؤسسات الفيدرالية "(٢٥).

ولم يحظى قرار الوحدة بنقاشات مستفيضة، مما يؤكد أن الرغبة لتجسيم الوحدة لم تكن صادقة، ويرجع ذلك إلى تخوف النخب السياسية على ضياع الامتيازات القطرية، وعلى مشاركة الجزائر غير المستقلة بعد في هذه الوحدة, ويرى محمد عابد الجابري أن مفهوم الوحدة

في طنجة أخذ صيغة وحدة العمل وليس وحدة الهوية ،وأن القرارات لم تكن موجهة إلى الوحدة بقدر ما كانت تهدف إلى مواجهة الاستعمار الفرنسي (٢٦) ,ويبدو من كل ذلك أن استراتيجية جبهة التحرير الوطني نجحت في تحويل مؤتمر الوحدة إلى مؤتمر للتضامن مع الثورة الجزائرية، وتحققت بعض آمالها في حين لم يمض مشروع الوحدة بعيدا، وأرجع عبد الحميد مهري سبب ذلك إلى أن"هذه القضية لم يولها المؤتمر عناية كافية عند بحثها" (٢٧)، وهو الرأي الذي رجحه مصطفى الفيلالي عندما اعتبر مؤتمر طنجة الحزبي مجرد "ذريعة ظرفية موقوتة"، لا تقوم على إرادة حقيقية ولا تسعى إلى أهداف محددة (٢٨)، وقد كانت جبهة التحرير الوطني شبه متأكدة من كل هذا ،الأمر الذي دعاها لعدم تركيز النقاش على مشروع الوحدة، والتأكيد أن هذا المشروع لا يولد بقرارات فوقية ولكن بإمكان تضامن الشعوب أن يخلقه بشكل عملي (٢٩).

ونخلص للتأكيد أن مؤتمر طنجة لم يوجه لبعث الوحدة المغاربية بقدر ما كرس لدعم القضية الجزائرية ،وأن الثورة الجزائرية استطاعت أن تخرج منه بمكاسب مهمة وأن تشق من خلاله آفاقا مغاربية واسعة للتضامن.

ثالثا ــ آمال مؤتمر طنجة وإخفاقاته:

لقد تحققت نظريا في مؤتمر طنجة آمال واسعة ،كانت تنشدها الأحزاب والجماهير الشعبية وزاد في حماسة قراراته مباركة السلطة الرسمية لمقرراته بما في ذلك ملك ليبيا الذي أكد موافقة بلاده على قرارات المؤتمر (٣٠)، وقد جندت الصحف ووسائل الإعلام للتغني بهذا الإنجاز التاريخي وتفاعلت مختلف القوى الجماهيرية مع مشروع الوحدة .

وقد استقبل الوفد الجزائري استقبالا رسميا وشعبيا في الرباط ،وعبر في بلاغ له عن ارتياحه للنتائج التي تمخض عنها المؤتمر، مشيرا إلى أن قضية الجزائر نالت كامل اهتمام المؤتمر، وأن الشعب الجزائري الذي حظى بتأييد شعبي تونس والمغرب يأمل "بانضمام حكومتهما إليهما في التأييد والتعضيد "، وعبر عن اهتمامه بمهمة بناء مؤسسات المغرب العربي ويقينه " بأن هذا الصرح سيكون متينا وعصريا لأنه سيأتي في وقت واحد وليد إيمان وإرادة شعوبنا"(٣١) وصرح ممثل لجنة التنسيق والتنفيذ بأن نتائج مؤتمر طنجة كانت حاسمة في تأكيد مكانة الشعب الجزائري ضمن المجموعة المغاربية وأن هذه الوحدة جسمت رغائب شعوب شمال إفريقيا في

التضامن, "وأن المغرب العربي بأجمعه من أغادير إلى السلوم ينهض اليوم بكامل قواه ويوجه إلى فرنسا الاستعمارية إنذارا نهائيا وقع تأجيله في الماضي وهو إما أن تعترف للجزائر باستقلالها وإما أن تعم الحرب المغرب العربي بأجمعه...على الفرنسيين أن يقتنعوا أن التضامن المغربي ليس كلمة جوفاء ،ولكنها حقيقة سيكون لها تأثير قوي على سير الحرب"(٣٢)، وكانت هذه الكلمات التي تخاطب الضمير المغاربي وتزيد في تأججه وتثير مخاوف الفرنسيين والغرب وحتى نظامي تونس والمغرب ،ذلك أن تجنيد المد الشعبي لمناصرة هذه الأهداف الثورية قد يمثل ضغطا حقيقيا على توجهاتها وقراراتها ،وقد أرادت جبهة التحرير الوطني لمؤتمر طنجة أن يجند القوى الحزبية والقاعدة الشعبية لدعم الجزائر دون الاصطدام بالأنظمة السياسية، وظلت تلح على تجند شعوب المغرب العربي لمواجهة سياسة مهادنة الاستعمار التي قد تجرف إليها الساسة ودعوتهم للوقوف بكل قواهم في المعركة ضد الإمبريالية حماية للمصالح العليا(٣٣)، وهكذا حصلت جبهة التحرير الوطني من المؤتمر على مكاسب مهمة، فقد رسمت اعتراف الأطراف المغاربية بصفتها التمثيلية وإقرارها بمغاربية قضية الجزائر، ودعوتها إلى دعم النضال التحرري الجزائري ماديا ومعنويا، وأكدت ضمنيا على سلامة التوجه الإيديولوجي للجبهة من خلال تنديد المؤتمر "بالقوى الغربية التي تدعم فرنسا ماليا وعسكريا".

وعلى الرغم من أن الملك محمد الخامس والرئيس بورقيبة أعربا عن قبولهما لقرارات طنجة، إلا أنهما أدركا أن جبهة التحرير التي يراد لها أن تحتضن من قبل نظاميهما سجلت أهدافا كثيرة في طنجة ،منتهزة الظرف السائد والتجاوب الشعبي لخيار مغربة الحرب, فأوقعت تونس والمغرب في تعهدات مكبلة لسيادتهما مثل الدعوة لإلغاء القواعد الأجنبية ومعاداة المعسكر الغربي؛ وشعر القصر المغربي أن جبهة التحرير الوطني أوجدت لها تحالفا متينا مع القوى الثورية داخل حزب الاستقلال، وقد عبر الفاسي عن الصدى الواسع الذي خلفه المؤتمر لدى الشعب المغربي وعن رفعه لشأن حزب الاستقلال(٣٤) الذي سيتولى إنشاء الحكومة الاستقلالية، وكان تصميم القيادة الثورية للحزب حازما إزاء تنفيذ برنامج الإصلاح ومحاربة الإمبريالية ،وقد أكد المهدي بن بركة بعد مؤتمر طنجة بفترة قصيرة إلى أن المشروع السياسي للمغرب العربي يمتد إلى إنشاء قوة اقتصادية اعتمادا على "الموارد الطاقوية التي تختزنها الصحراء المغاربية، التي من شأنها إتاحة تنمية اقتصادية حقيقية يمكن مقارنتها بتلك التي عرفتها أوروبا أثناء ثورتها الصناعية"(٣٥)، وأكد على ضرورة "بلورة مخطط شامل للأقطار الثلاثة، وحتى الأربعة إذا وافقت ليبيا على

المشاركة ،من أجل ضمان تقدم في إنماء الدخل الوطني ومستوى حياة الشعوب المغاربية. ,وأضاف ابن بركة أن إنشاء سوق داخلي وقاعدة تصنيع حقيقية للمغرب العربي أمر مفيد للغاية "يمكننا ترقب انتعاش ثقافي وتقني واجتماعي لهذه المجموعة يقوم على معطيات عقلانية..."(٣٦)، ويبدو أن القصر وبعض القيادات المعتدلة لم تكن مستعدة لكل هذا التغيير الجذري ,فمثل هذا بداية انقسام ساهم القصر في تجذيره للقضاء على نفوذ الحزب .

وقد هلل الشعب التونسي بقرارات طنجة واعتبرتها الصحافة والمنظمات الجماهيرية نصرا للمغرب العربي، وعزم بورقيبة على استغلال الظرف لحسم المواجهة مع فرنسا التي تأبى إجلاء قواتها عن تونس(٣٧)

وقد انزعجت الإدارة الفرنسية لصدور مثل هذه القرارات، وعدت المؤتمر ضربة موجعة للحكومة الفرنسية التي عجزت عن حل مشاكل الشمال الإفريقي ،وانتقدت الصحف الفرنسية الموقف التونسي والمغربي الذي تورط في قضية الجزائر، وأبدت تخوفاتها من تلك التوصيات التي تدعوا إلى مساندة جبهة التحرير الوطني وإلى إنشاء حكومة مؤقتة تزيد في سلطة الجبهة دوليا (٣٨)، ويكفي أن نورد تعليقا لجريدة "لوموند" معبرا عن جو الشعور العام في فرنسا."هكذا تتحقق وحدة المغرب العربي في الحرب، وضدنا وكل ما هو اليوم توصيات سيتجسم غدا في مؤسسات سياسية وثقافية واقتصادية ستقوم بتمثيل ٢٣ مليونا من المسلمين"(٣٩)

وقد شنت في المشرق حملة تشكيك في نوايا المغرب وتونس من الدعوة إلى الوحدة، وكان صدى مؤتمر طنجة بالغا في الصحافة الغربية والدولية عدته ثورة ضد السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا، واعتبرت أن ردود الفعل هذه جعلت الفاسي يوضح أن "مقررات المؤتمر ليست ضد فرنسا ولكنها في مصلحتها أيضا" فما عليها إلا أن تقر باستقلال الجزائر ,مؤكدا "أنه لا يعقل أن تختار تونس والمغرب الاستعمار على الحرية في القطر الشقيق، ولا ينبغي أن يعتبر ذلك رغبة من الدولتين في قطع العلاقات الطيبة مع فرنسا ،بل الأمر بالعكس، أنه إنذار للفرنسيين ليعترفوا أن ربع الساعة الأخير قد دق في قضية الجزائر، ولكن لهذا الدق نغمات غير التي يعنيها "لاكوست"، أنها نغمة الحرية التي يجب أن تنصت إليها فرنسا وتعترف أن لا بد منها ولا مندوحة عنها"(٤٠) .

لقد ظلت التصريحات الحزبية والرسمية تتناغم مع حماسة التضامن الشعبي إلى أن جاء ديغول بسياسته التقسيمية وفشل مؤتمر المهدية في تزكية مقررات طنجة، فما الذي تغير؟.وما هي أسباب فشل مشروع طنجة ؟.

قيل الكثير في أسباب إخفاق مؤتمر طنجة والمؤكد أن إستراتيجية ديغول المدروسة مثلت تحديا أساسيا لمقررات طنجة ،ولم تجد الأنظمة القطرية المناعة الكافية للصمود وراء مشروع الوحدة، بل أن خلافات عميقة انفجرت في وجه العلاقات المغاربية، وتنصلت الحكومات من التزامات طنجة.

لقد أضعفت حرب الجزائر الجمهورية الفرنسية الرابعة، ورد العسكريون وأوروبيو الجزائر نجاحات الثورة الجزائرية بتنظيم انقلاب ١٣ ماي ١٩٥٨، الذي جاء بديغول إلى السلطة وأدخلت عودة ديغول إلى السلطة معطيات جديدة، إذ نجح في تعبئة القوى السياسية الداخلية وراءه، وتحطيم العزلة الدولية لفرنسا، وأولى مسألة تحطيم تحالف طنجة الاهتمام الأكبر ،معتمدا على استراتيجية تطويق آثار طنجة وضرب وحدة شمال إفريقيا على جبهتين:الموقف من المشكل الجزائري، والعلاقة الجديدة مع حكومتي تونس والمغرب.[٤١]

لقد أعلن ديغول أن الإدماج هو السياسة الرسمية في الجزائر[٤٢]، واستطاع بذلك كسب الرأي العام الفرنسي لفكرة "الجزائر فرنسية" ،وأحرز على ولاء القيادات العسكرية ،كما وضع حدا لأمل تونس والمغرب في إمكانية استقلال الجزائر على المدى القريب، واندماجها معهما في إطار قرارات طنجة .

وبخصوص السياسة الجديدة المنتهجة مع تونس والمغرب فقد زاوجت بين التشدد والإغراء:

ـ فلقد تبين أولا أن مسألة إدماج الجزائر بهذا التشدد تعني التهديد بتوسيع رقعة الحرب إلى تونس والمغرب، إذا أصرت حكومة كل منهما على تطبيق قرارات طنجة، خاصة وأن عسكريي الجزائر بادروا للتحرش بأراضيهما [٤٣] ،وأنه بإمكان ديغول أن يطلق أيديهما في ظل حكمه القوي، وأن التهديد بتوسيع رقعة الحرب سيأخذ جدية أكبر تختلف عن تهديدات الجمهورية الرابعة المتهاوية.

وحتى يأخذ هذا التهديد صبغة التخويف لا تحذير الموقف باتجاه التضامن مع الجزائر بادر الجنرال ديغول إلى تطمين تونس والمغرب بإعلانه احترام استقلالهما، وذلك بهدف دفع نظام البلدين للاطمئنان على مكاسبهما والتزام الحياد وعدم تجسيم قرارات مؤتمر طنجة، ولم يكتف عند هذا بل سعى لبذر الخلاف بين تونس والمغرب ومنع تفاهمهما على خطة مشتركة، فلقد وجه ديغول إلى كل من بورقيبة ومحمد الخامس رسالتين مختلفتين، الأولى توحي بوجود رغبة لديه في التفاهم والتعاون ،والأخرى كانت لهجتها تنم عن التعالي والتشدد، والهدف من لهجة الرسالتين هو محو التقارب بين تونس والمغرب حتى لا تنسق سياستهما بشكل متشدد إزاء فرنسا(٤٤).

ـ بعد إعلان السياسة السابقة طرح ديغول كذلك سياسة الإغراء لضرب مقررات طنجة معتمدا في ذلك على جزرة البترول، فلقد لوح ديغول بمشروع استثمار صحراء الجزائر على الرأسمال الغربي وعلى الجيران ،وخطط لجعل الصحراء منطقة فرنسية مستقلة تساهم في بناء "العظمة الفرنسية"اقتصاديا وعسكريا، ولإنجاح مشروع استغلال بترول الجزائر الذي تعيقه عدة مصاعب لجأت فرنسا إلى مفاوضة الحكومات المغاربية بشأن المساهمة في استثمار البترول والقبول بمرور أنابيب البترول عبر أراضيها، وأمام رفض الحكومة الليبية مرور بترول إيجلي عبر أراضيها لجأت فرنسا إلى إغراء الحكومة التونسية بقبول العرض،وكانت تصبو إلى تحقيق أهداف سياسية على المستوى المغاربي والدولي، منها إظهار نجاح مشروع استثمار البترول ،وخلق خلاف بين الحكومة التونسية وجبهة التحرير الوطني من شأنه أن يقضي على قرارات طنجة(٤٥).

وهكذا نجحت الإغراءات الفرنسية في إسالة لعاب المسؤولين التونسيين والمغربيين ،خاصة وأن مشروع استثمار الصحراء يخدم مطالبهم القطرية في تعديل الحدود مستقبلا، إذ أصبح الحديث عن مجموعة فرنسية شمال إفريقيا للتعاون يزاحم مشروع وحدة المغرب العربي ،وطال مجال الإغراء مسألة جلاء القوات الفرنسية الجزئي عن تونس والمغرب، وإن كانت مجرد تظاهرة شكلية إلا أنها أرضت بعض المطامح القطرية، وساعدت على تشجيع حكومتي تونس والمغرب للتنصل من التزاماتهما القطرية، حتى أن تونس جعلت من انعقاد مؤتمر المهدية عرسا للاحتفال بالجلاء، وكان إصرارها على التضحية بقرارات طنجة واضحا. وهكذا تمكنت المخططات الديغولية من قلب مشروع طنجة من أساسه لصالح فرنسا، وكادت أن تعزل بذلك جبهة التحرير الوطني

وقد أوضح خيوط هذه الاستراتيجية أحد صحفي "المجاهد"[46]، وتفطنت لها جبهة التحرير الوطني في وقتها، واجتهدت في مواجهتها ،حتى أنها لوحت بالعودة من جديد إلى مغربة الحرب وتجذير الموقف عندما نشرت في المجاهد مقالا عنوانه "امتحان المغرب العربي, أكدت فيه "أن المغرب العربي في حالة حرب، ولكي تتوفر في هذه الحرب شروط الانتصار يجب أن نخوضها ونتحملها جميعا في آن واحد من قابس إلى أغادير" [47].

وهددت جبهة التحرير الوطني بأنها ستخوض المعركة العسكرية اعتمادا على تضامن شعوب المغرب العربي, ولكن العلاقات المكرسة مع حكومتي تونس والمغرب كان من الصعب هدمها دفعة واحدة، فاجتهدت في المناورة والمراوغة الدبلوماسية عازفة على وتر التضامن الشعبي والوحدة المرسخة في طنجة،ومشجعة على مزيد من التلاحم في وجه الاستعمار المحتضر،وداعية للإسراع في تحقيق قرارات طنجة [48]، وطالبت جبهة التحرير من تونس والمغرب توحيد المعركة سياسيا دون إظهار الدعم المباشر، واقترحت عليهما مشاركة الجزائر المستقلة في استثمار ثروات الصحراء بدل التفكير في الفضلات التي يعرضها ديغول مقابل شرعنة استعمار الجزائر، أو أن يعرض المغرب العربي كله على فرنسا التعاون من أجل استثمار ثروات الصحراء، بما يخدم مصالح شعوب المغرب العربي [49]، فهل تتمكن جبهة التحرير الوطني من إقناع شركائها والحفاظ على تعهدات طنجة، أم أن تونس والمغرب سيتخليان عن هذه التعهدات في مؤتمر المهدية بتونس.

رابعا ــ مؤتمر المهدية والتراجع عن قرارات طنجة:

التأم شمل الأقطار المغاربية الثلاث على مستوى الهيئات التنفيذية بعد تلك التغيرات العميقة التي عرفتها فرنسا والمنطقة المغاربية في أقل من شهرين من انعقاد مؤتمر طنجة، وكان يبدو أن عقد هذه الندوة بحضور حكومتي تونس والمغرب ولجنة التنسيق والتنفيذ هو مغربي للغاية ،ويضمن الخروج بقرارات عملية، غير أن نقل النقاش من الإطار الحزبي إلى الإطار الرسمي كان يعني أشياء كثيرة ،منها أن النقاش سيسري في إطار ضيق، وتوجيه حكومي صارم يمكنه أن يدجن قرارات طنجة ,ويعطيها صبغة تضامنية غير إلزامية, وقد سجل وفد لجنة التنسيق والتنفيذ كامل احتياطاته لمواجهة "مؤامرة اغتيال قرارات طنجة"، والتصدي لحكومتي تونس والمغرب المتأثرتين بأخطبوط السياسة الديغولية.

انعقد الاجتماع في المهدية أيام ١٧_٢٠ جوان ١٩٥٨، وذلك للنظر في تطبيق قرارات طنجة وترسيمها، وقد تقرر أن يشتمل جدول أعماله على النقاط الآتية:

١ــ تطبيق مقررات طنجة (مساعدة الجزائر، جلاء قوات الاحتلال ،إدانة سياسة الجنرال ديغول، الموقف المشترك في الأمم المتحدة، الحكومة الجزائرية).

٢ــ دراسة مسألة إقامة الهيئات التي تنص عليها قرارات طنجة (الأمانة الدائمة، المجلس الاستشاري).

وإن كانت التصريحات الرسمية والصحافة الحزبية تغنت آنذاك بما تم ترسيمه من قرارات إلا أن الحقائق تحرجت صحيفة المجاهد من إعلانها [٥٠] وظلت مغيبة، ويكشف عنها تقرير سري نشره محمد حربي عن مناقشات المؤتمر ،ويوضح مسعى ممثلي الحكومة التونسية والمغربية للتنصل من التزامات طنجة، وعمق الخلافات التي أثارها نقاش المؤتمرين .

خلال الجلسة الأولى تم بحث مسالة إعانة الجزائر ،واستعلم الوفد الجزائري عن الإجراءات المتخذة لتقديم أشكال المساعدات المتفق عليها في طنجة، وتبين أن الحكومتين لم تدرسا المسألة بجدية ،وقد اقتصرتا الأمر على مساعدة اللاجئين، وبرر الباهي الأدغم ذلك بالقول أن موارد تونس المالية قليلة ولا تسمح لها بالمساهمة في الميزانية التي تتطلبها الثورة الجزائرية، و أنها تقوم بمساعي لدى الهيئات الدولية لإغاثة اللاجئين [51], وهكذا لم ترق المساعدة المالية للحكومتين إلى مستوى مساهمة الدول العربية في إطار جامعة الدول العربية، وانتقل النقاش لدراسة قضية جلاء القوات الأجنبية، فأشاد الباهي لدغم بما حققته تونس بعقدها اتفاقية الجلاء مع الحكومة الفرنسية، وأوضح بوعبيد أن الوضع لم يتقدم في المغرب رغم الجلاء عن بعض مناطق شرق المغرب، وتدخل بوصوف ليوضح أن معركة الجلاء لم تنته ,وانه يتوجب الحذر والمضي في متابعتها حتى النهاية والتمس اطلاع المجتمعين على نص الاتفاقية التونسية- الفرنسية الأخيرة، فرد الباهي لدغم بانفعال رافضا كشف الوثيقة ,وأكد فرحات عباس شرعية مطلب بوصوف باعتباره يستند إلى مقررات طنجة التي أقرت عدم ربط مصير أي قطر في مجال السياسة الخارجية دون إعلام الأعضاء الآخرين، لقد أرادت لجنة التنسيق والتنفيذ الاطلاع على نص الاتفاقية بتفاصيلها، ورغبت في أن تعامل كطرف مثلها ممثل المغرب لكن الحكومة التونسية أبت عليها ذلك ,مما جعل الشكوك تحوم حول نوايا التونسيين ومدى تمسكهم بمقررات وحدة المغرب العربي [52]، وانتقل النقاش في اليوم التالي

للنظر في موضوع إدانة سياسة ديغول في الجزائر، فطالب الوفد الجزائري بإدانة صريحة وتأييد وجهة نظره في مطلب الاستقلال التام، فرد بوعبيد على ذلك قائلا :"نحن هنا كمسؤولين سياسيين مطالبين بالنظر إلى الأبعد، وعلى صعيد السياسة يجب دائما ترك هامش انطباع وليس من الضروري أن يكون المرء بالغ الوضوح والدقة...زيادة على ذلك وبعد تأكيد المبادئ المتفق عليها يجب أن نختار الوقت المناسب وأن لا تكون دائما ملتصقتين بالأحداث ويكون مفيدا أن تتحرر قليلا من الاتحاد الشمال الإفريقي ،إن مجيء ديغول حدث عالمي...ينبغي إذا التفكير والرؤية بوضوح "(53) ,ورد عباس على هذا النصح قائلا بأن وضعية الشعب الجزائري هي التي تحدد منطلق السياسة فالجزائر في حرب ولا يمكن لها مواجهة سياسة ديغول إلا بالحرب " فإن موقف ديغول يعني الحرب، وذلك مهما يكن الدعم الذي قد يتلقاه ديغول من الأمريكيين والروس أو حتى من المصريين إن كلمة الإدماج تعني الحرب "(54)، وفي محاولة لتليين مواقف جبهة التحرير الوطني السياسية اقترح وفد الحكومتين اعتماد خطاب بورقيبة كمخرج لقضية الجزائر، وكان بورقيبة اقترح من جديد الدخول في مفاوضات من أجل استقلال مرحلي(55)، ورد فرحات عباس وبوصوف بالقول أن هذا الحل لا يصلح للمشكلة الجزائرية، وهكذا حصل الاختلاف في المبادئ السياسية وبدا أن تونس والمغرب غير مقتنعتين بالخط الذي تسلكه جبهة التحرير الوطني وتطمحان في أن تعدل من مبادئها وتسعى للتفاوض بدل التركيز على المعركة العسكرية ,وهذا ما أوضحه مشروع البيان الذي ساهم بوعبيد في إعداده وكان محل نقد فرحات عباس وبوصوف وكريم باعتباره يتحدث عن موقفين موقف جبهة التحرير الوطني المتشدد وموقف الحكومتين التونسية والمغربية الذي ينشد إيجاد حل سلمي للقضية ويدعو إلى وساطة الحكومتين لإجراء مفاوضات عادلة.(56)

وبعد انقطاع متوالي لجلسة النقاش بسبب إثارة الفقرة الرابعة من البيان لمسألة تشجيع الوساطة التونسية والمغربية اتفقت الوفود الثلاث على إدراج الفقرة الرابعة ضمن بند توحيد الموقف في الأمم المتحدة, وشددت على درس الوسائل الكفيلة بتبني موقف مشترك في الأمم المتحدة وتنسيق العمل الديلوماسي لصالح القضية الجزائرية, وأوضح الباهي لدغم أن الظروف توجه الأحداث ,وأنه يمكن تجاوز موقف موحد في الأمم المتحدة والاتفاق على مبادئ مشتركة تركز على البحث عن حلول سلمية، وفي هذا تقرب من الارتباط بمواقف جبهة التحرير الوطني ومبادئها التي ستعرضها في الأمم المتحدة(57)

وخصص اليوم الأخير لإتمام دراسة جدول الأعمال، المتضمن ثلاث مسائل رئيسية : مسألة إقامة مؤسسات الوحدة التي أقرها مؤتمر طنجة وقضية إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة وكذا المصادقة على البيان الختامي، ويتبين أن مسألة إنشاء مؤسسات الوحدة لم تأخذ مناقشتها الوقت الكافي رغم أنها تمثل القسم الثاني من جدول الأعمال ويبدو أنها لم تمحص بالجدية المطلوبة ،وأن الخلاف حول مسائل القسم الأول استغرقت أيام المؤتمر الأربعة .

وعموما اتفقت الأطراف الثلاثة على تسمية أعضاء الأمانة الدائمة, فعينت تونس أحمد التليلي وعبد المجيد شاكر وعينت لجنة التنسيق أحمد فرنسيس وأحمد بومنجل في حين ذكر بوعبيد أن المغرب لم يحسم اختياره بعد، مما يعني أن اجتماعات الأمانة العامة ستبقى معلقة ,وتم الاتفاق كذلك على تشكيل أعضاء المجلس الاستشاري مؤقتا من ثلاثين عضوا عشرة أعضاء عن كل بلد على أن يعقد اجتماعه الأول في تونس.(58)

وبخصوص إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة اهتم الوفدين التونسي والمغربي بمناقشة كثير من القضايا التي طرحتها كلمة الاستشارة الواردة في مقررات طنجة، فمن وجهة نظر بوعبيد هي تعني "...دراسة مشتركة لبعض الضوابط قبل الإعلان :ـ الملائمة السياسية للإعلان (الظرف) ـ اختيار المقر ـ نتائج سبر الأراء الذي أجري لدى مختلف الحكومات ـ اختيار الرجال الذين سيشكلون هذه الحكومة لا يعنينا، لكن تحديد تاريخ الإعلان يجب أن يناقش لأن الاستشارة لا تعني فقط الإعلام المسبق بتاريخ الإعلان ,رأينا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار لأننا لسنا هنا بني وي وي " وأما وجهة النظر التونسية فكانت الاستشارة تأخذ معنى ابعد تصل حتى لتشكيلة الحكومة كما أوضح الباهي الادغم :"...علينا أن ننبه لجنة التنسيق والتنفيذ حول مسألة تشكيلة الحكومة لأننا نعرف أن الدول الأجنبية تعلق أهمية كبيرة حول هذه التشكيلة والتي هي في الغالب مؤشرا للتوجه الإيديولوجي ,إن الأشخاص يعنون الكثير بالنسبة للخارج, وفي كل ما بقي أؤيد وادعم السيد بوعبيد". ورد كريم بانفعال محملا الحكومتين عواقب مسؤولية عدم اعترافهما بالحكومة الجزائرية التي ستولد بقرار جزائري، وحاول فرحات عباس تلطيف الأجواء بوعد الحكومتين تقديم ملف كامل عن الاستشارات التي تلتمسها لجنة التنسيق والتنفيذ ,وتمت المصادقة على البيان الختامي(59) في أجواء من الارتياب وعدم الاطمئنان لمواقف الحكومتين التونسية والمغربية، لقد بدا تراجعهما عن قرارات طنجة واضحا، ودلت التسويفات والمراوغات أن مسألة دعم الجزائر ووحدة المغرب العربي ستظل مجرد شعارات، ولم يكن بمقدور لجنة التنسيق والتنفيذ فضح هذه المواقف

قرأت أن تحافظ على علاقاتها السياسية لإظهار وحدة التكتل المغاربي في وجه فرنسا وعدم صدم التضامن الشعبي الذي عبر عن آمال واسعة

وأمام هذه الحقائق كانت صحافة جبهة التحرير الوطني محرجة بين أن تعلن الحقيقة فتصطدم بالحكومة التونسية وبين أن تخفي الحقيقة وتساهم في مغالطة القواعد النضالية، ورأت أن تأخذ بوسطية لجنة التنسيق والتنفيذ، وتحدثت عن أجواء المؤتمر بصورة مهذبة، ونبهت إلى بعض المخاطر التي تهدد المغرب العربي .(60)

وهكذا يمكن القول أن قرارات مؤتمر طنجة قبرت في المهدية، وأن السياسة الديغولية التي ذكرنا خطوطها كان لها دور رئيسي في عدم تجسيد تلك القرارات ،كما أن نظامي تونس والمغرب اجتهدا في تأويل مقررات طنجة، وتأجيل موضوع الوحدة إلى أجل مسمى، مما يؤكد على تغليب الاهتمامات الوطنية على حساب مطمح الوحدة، وكان هذا سببا مهما في فشل مشروع الوحدة (61) وإجمالا يمكن أن نحصر العوامل التي ساهمت في فشل مقررات طنجة في النقاط الآتية :

ـ اختلاف الأطراف الثلاث حول مفهوم الوحدة المغاربية، ففي حين كانت جبهة التحرير الوطني تفسر هذه الوحدة بوحدة العمل لمواجهة العدوان المشترك، كانت تونس والمغرب تعتقد أنه من المستحيل إقامة مؤسسات الوحدة قبل نيل الجزائر لاستقلالها ،هذا فضلا عن الاختلافات السياسية والإيديولوجية للأنظمة السياسية في الدول الثلاث .

ـ الانقسامات والمشاكل التي اعترضت الأحزاب المغاربية الثلاث، خاصة الانقسام الذي عرفه حزب الاستقلال وانشغال قادته بالهم الوطني، كما أن الخلاف استشرى في مؤسسات جبهة التحرير الوطني خلال عام ١٩٥٩ .

ـ استفحال الخلافات بين الأطراف الثلاث فمنذ جوان١٩٥٨ دخلت جبهة التحرير الوطني في خلافات حادة مع تونس التي خرقت مقررات طنجة وأمضت اتفاقية"إيجلي" مع فرنسا، وواجهتها كثير من المشاكل مع المغرب ترجع إلى مسألة الحدود ونشاط الثورة في المغرب، وتعرضت العلاقات المغربية ـ التونسية لأزمة حادة بسبب الموقف التونسي من المشكلة الموريطانية.

ـ عدم وفاء تونس والمغرب بالتزاماتها إزاء مقترحات دعم الثورة الجزائرية مما جعل القادة الجزائريين يشعرون بتخلي نظامي البلدين عن الثورة الجزائرية في هذه المرحلة الحاسمة ويرفعون

شعارا بديلا للوحدة أساسه الوحدة الشعبية العملية، الأمر الذي كان يثير تخوف النظامين من تجند شعوب المغرب العربي وراء إيديولوجية جبهة التحرير الجزائرية، التي أصبحت غريما وليس حليفا.

هذا وقد احتكر كل طرف تفسير عوامل إخفاق مشروع وحدة طنجة, فارجع علال الفاسي ذلك الى "...الانحراف الذي أصاب الحكومة في أيام عبد الله إبراهيم فيما يخص المغرب،والاختلاف الذي جرى بيننا وبين تونس حول قضية موريطانيا، والاتجاه في السياسة الخارجية"(62), وفي مناسبة أخرى أضاف إليها أسباب عديدة منها حملة بعض الأقطار العربية ضد مؤتمر طنجة، والحركة الانفصالية داخل حزب الاستقلال، والخلافات داخل جبهة التحرير الوطني، وعدم نجاح التجربة النيابية في المغرب والجزائر (63)، أما الحزب الدستوري الحاكم في تونس فإنه ربط مسألة الوحدة بمسألة استقلال الجزائر، وأعطى لها الرئيس بورقيبة تصورات ضحلة وغير واضحة مما يؤكد أن الوحدة المغاربية أصبحت في نظره مجرد شعارات لخدمة الأهداف القطرية (64) ,في حين أن جبهة التحرير الوطني اقتنعت منذ ظهور السياسة الديغولية، وانقلاب حكومتي تونس والمغرب عن قرارات طنجة في المهدية، أن مؤتمر طنجة كان مجرد مبادرة ظرفية صنعت لحظة حماسية، وأن الأوساط الرسمية لا يمكنها أن تخلص اهتماماتها لخدمة الكفاح الجزائري فضلا عن تجسيد الوحدة ،وظهر ذلك مبكرا عندما أمضت تونس اتفاقية إيجلي وطالب المغرب بتحديد الحدود، إذ لم يعد هناك حديث عن الوحدة بقدر ما أصبح التركيز مقتصرا على علاج المشكلات القطرية، وعليه لم يعد هناك من خيار سوى تجنيد القوى الشعبية وراء هذا الطموح الجمعي، وبهذه السياسة حافظت الثورة الجزائرية على تفاعل التضامن الشعبي وراء أهداف طنجة الوحدوية .

وهكذا يبدوا لنا أن الظروف المحلية والإقليمية هي التي أملت قرارات مؤتمر طنجة، وأن هذه المبادئ والقرارات التاريخية انتعشت لفترة زمنية معينة وكانت تخدم التوجه الثوري لجبهة التحرير الوطني، وقد أدت السياسة الديغولية إلى التراجع عن تلك القرارات تحت طائلة التهديد والإغراء، فأصبحت بعدها المطامح القطرية سيدة الموقف في تحديد العلاقات المغاربية، وعلى الرغم من أن قرارات طنجة لم تعرف التنفيذ إلا أنها أثرت البعد المغاربي للثورة الجزائرية, واصطبغت سياسة تضامنية جديدة مع الجزائر. كما ان جبهة التحرير الوطني لم تفقد الأمل في تكريس التضامن المغاربي وخدمة كفاحها التحرري بعد فشل مؤتمر المهدية ,ونجحت في مواجهة التراجع المسجل في توجهات السلطتين التونسية والمغربية, وذلك بالاعتماد أساسا على قوة التضامن الشعبية .

الهوامش

(١) انظر الجنيدي خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، طبع المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام ،الجزائر ١٩٨٦، ج٣، ص ــ ص٣٨٨ــ٣٨٩

(٢) انظر بعض الدراسات التي أرخت لمؤتمر طنجة تحليلا ونقدا، أمحمد مالكي: إشكالية وحدة المغرب العربي، دبلوم دراسات عليا، كلية الحقوق، جامعة الرباط، ١٩٨٩ . ومحمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب ، ط١ ،دار الكلمة للنشر ،بيروت ،١٩٨٣.

(٣) انظر مثلا برقية رئيس الحكومة المغربية الموجهة إلى لجنة التنسيق والتنفيذ، احمد توفيق المدني:حياة كفاح مذكرات ،الجزء الثالث، ط٢، م و ك، الجزائر ، ١٩٨٨، ص٣٨٠

(4) DLASMAS (G) Evolution general des barrages frontiers en algerer REVUE INTERNATINALE D HISTOIRE MILITAIRE N°76 (1997)

(٥) انظر المجاهد ، لسان حال جبهة التحرير الوطني، عدد ١٨ (١٦فيفري ١٩٥٨) ص٢

(٦) انظر تقرير حول السياسة الفرنسية في الجزائر بالأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، اعدته وزارة الخارجية الفرنسية

A.Q.O . serie Algerie 1953 1959 DOS n- 5 _ 2 .

(٧) انظر بخصوص التحالف الفرنسي الإسباني ،محمد بن سعيد ايت يدر :صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي ، ط١، مطبعة صوماكرام ،الدار البيضاء ،٢٠٠١، ص ــ ص١٥٩ــ١٦٨ .وعبد الإله بلقزيز وآخرون :الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٨ــ ١٩٨٦ محاولة في التاريخ ،ط١، م د و ع ، بيروت ،١٩٩٢، ص ١٥٥

(٨) انظر صحراء المغرب، جريدة اسبوعية مغربية ، عدد ٤٩ ،(٢٧ فيفري ١٩٥٨)

(٩) انظر نص البلاغ ،جريدة العلم، لسان حال حزب الاستقلال المغربي ،عدد ٠٣ مارس ١٩٥٨

(١٠) انظر نص الرسالة ،جريدة العمل، لسان حال الحزب الدستوري التونسي، عدد ٠٥ مارس ١٩٥٨

(١١) ضمت علال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد ومحمد بوستة

(١٢) نعتمد رواية أبو بكر القادري ،وهو عضو اللجنة السياسية لحزب الاستقلال ومطلع على خبايا المؤتمر ،انظر شهادته، أبو بكر القادري :مؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي،العلم السياسي ،المغرب ،العدد٤ (أكتوبر ١٩٨٢) ص ــ ص،٤ ــ ٥

(١٣) انظر نص البلاغ المشترك للوفدين، العمل ، عدد ٢٣ مارس ١٩٥٨ .وقد جرت المذاكرة خلال الفترة مابين ١٩ــ ٢٢ مارس ١٩٥٨

(١٤) انظر مصطفى الفيلالي : مفهوم المغرب العربي: تطوره تصورا وممارسة وعلاقته بالوعي القومي: تطور الوعي القومي في المغرب العربي، ط١،م د و ع ، بيروت ، ١٩٨٦، ص١٣

(١٥) انظر ,محمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامع الشعوب, مرجع سابق , ص ــ ص,٥١_٥٤

(١٦) انظر شهادة عبد الحميد مهري ,مقابلة مع الباحث, الجزائر, ٧ اوت ٢٠٠٥

(١٧) انظر العمل ,عدد (٢٨ أفريل ١٩٥٨)

(١٨) انظر المجاهد ,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨)

(١٩) انظر العمل ,عدد ,٢٧ أفريل ١٩٥٨

(٢٠) انظر نص بيان مؤتمر طنجة ,المجاهد ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) والعلم السياسي ع١٠ (أفريل ١٩٨٣), والملحق رقم ٨

(٢١) انظر محمد الميلي : مواقف جزائرية , ط١, م و ك , الجزائر, ١٩٨٤, ص ــ ص,٧٩ــ ٨٠

(٢٢) انظر نص البيان المجاهد ,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨)

(٢٣) انظر, محمد الميلي: مواقف جزائرية , المرجع السابق , ص ــ ص ٧٢ــ٧٣, ٨١

(٢٤) انظر نص البيان المجاهد,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) .ونشير إلى أن إعلام حزب الاستقلال تعمد في البيان ذكر إلحاق سكان موريطانيا بالوطن المغربي في حين أن جريدة المجاهد والعمل تؤكد أن الاتفاق حصل على أن المقصود بالوطن المغربي هو الوطن المغاربي فهل هذا كان سوء فهم, أم توجيه قسري لمقررات طنجة لخدمة أهداف قطرية ضيقة. انظر, المجاهد ,عدد ٢٣ (٧ماي ١٩٥٨) , العمل عدد (٣٠ أفريل ١٩٥٨) ,والعلم السياسي ع ١٠(أفريل ١٩٨٣)

(٢٥) انظر بيان مؤتمر طنجة, المجاهد عدد٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) س ١١

(٢٦) انظر الجابري محمد عابد: فكرة المغرب العربي أثناء الكفاح من أجل الاستقلال, وحدة المغرب العربي ,اشغال ندوة عقدت باريس ,عام ١٩٨٦, ط١ م د و ع ,بيروت , ص ــ ص, ٢٢ ــ ٢٣

(٢٧) انظر حوار عبد الحميد مهري في الندوة الأولى لانعقاد مؤتمر طنجة, المجاهد ,ع (٢٢ جوان ١٩٥٩)

(٢٨) مصطفى الفيلالي : المغرب العربي الكبير, نداء المستقبل , ط٢, م د و ع , بيروت , ١٩٨٩, ص ــ ص,١٦ــ١٩

(٢٩) انظر شهادة مهري عبد الحميد , مقابلة مع الباحث

(٣٠) انظر تأكيدات الفاسي , صحراء المغرب, ع٦٠ (٢١ماي ١٩٥٨)

(٣١) انظر نص البلاغ ,العلم السياسي , ع ١٠(أفريل ١٩٨٣)

(٣٢) المجاهد, ع ٢٣ (٠٧ ماي ١٩٥٨)

(٣٣) انظر المجاهد ، ع٤١، (١ ماي ١٩٥٩)

(٣٤) صحراء المغرب ع٥٨(٠٧ ماي ١٩٥٨)

[35] El Mahdi BEN BARARKA ;Problèmes édification du Maroc et Maghreb, quatre entretiens avec el mahdi ben barka recueillis par raymond gean. Plon. Paris, 1959, P 42

[36] Ibid :p,43

(٣٧) انظر بعض هذه الأصداء في جريدة العمل ، عدد ٣٠ يوم أفريل ١٩٥٨

(٣٨) انظر تقرير كتابة الدولة للشؤون الجزائرية المقدم لوزير الخارجية الفرنسي حول قرارات مؤتمر طنجة، ٥ ماي ١٩٥٨. A .Q.O : Serie Algerie 1953-1959:, B 47,. DOS. A G 5-8

[39] LE MONDE .du 5 Mai 1958

(٤٠) انظر، صحراء المغرب، ع٥٨ (٧ ماي ١٩٥٨)

[41] Henri ALLEG et autres : La Guerre d Algerie .ed Temps actuels, Paris,.T2. p-p, 588-591

(٤٢) الإدماج مصطلح يعني إلحاق الجزائر قانونيا وإداريا بفرنسا ،وإلغاء الحواجز التي أقامها المعمرون في الجزائر لصالحهم وفتح المجال أمام الاستثمارات الرأسمالية خاصة في الصحراء.

(٤٣) اعتدت القوات الفرنسية على منطقتي قفصة ورمادة في تونس، ومناطق ورزازات ونواحي تافيلالت .انظر صحراء المغرب ،ع ٦١(٢٨ ماي ١٩٥٨)

(٤٤) انظر محمد الميلي: مواقف جزائرية، مرجع سابق، ص ٩٤، و Jean LACOUTURE: Cinq homme et la France, edition du seuil . Paris ,1961, p-p .176- 177, 198

(٤٥) انظر محمد الميلي :المرجع السابق ،ص ــ ص ٩٥ــ٩٧

(٤٦) نقصد المناضل محمد الميلي ،الذي حرر مقالات المجاهد بخصوص هذا الموضوع، وأعاد طرق الموضوع فيما بعد في كتابين هامين، انظر تحليلاته لهذه السياسة ,محمد الميلي:مواقف جزائرية .مرجع سابق، ص ــ ص،٩٣ــ٩٧، ومحمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب، مرجع سابق، ص ــ ص ٦٢ ــ ٦٩ .

(٤٧) انظر المجاهد ، ع ٢٦ (١٣ جوان ١٩٥٨) .

(٤٨) انظر "الاستعمار المحتضر يمنحنا مزيدا من الفرص لتحقيق الوحدة المغربية": المجاهد،ع ٢٤(٢٩ ماي ١٩٥٨)

(٤٩) انظر محمد الميلي : مواقف جزائرية ، مرجع سابق، ص٩٩

(٥٠) انظر المجاهد، ع ٢٦،(٢ جويلية ١٩٥٨)، ص ــ ص، ١ــ٨

(٥١) انظر محضر مداولات مؤتمر تونس Mohammed HARBI : Les Archives de la revolution Algerienne, ed .Jeune Afrique ,Paris . p- p,414- 427

(52)Ibid , P-P, 417 - 418 .

(53) Ibid ,P 419.

(54) Mohammed HARBI : Ibid: P-P 419- 423.

(٥٥) انظر خطاب بورقيبة في المهدية يوم ١٧جوان ١٩٥٨، ا العمل , عدد يوم ١٧ جوان ١٩٥٨ .

(٥٦) تضمنت الفقرة الرابعة من البيان بعد التعديل مايلي: " قرر المؤتمر بعد دراسة الوضعية الدولية القيام بعمل مشترك على المستوى الدبلوماسي من أجل الوصول إلى حل سلمي للمسألة الجزائرية وهو يشيد بالاستعدادات الحقيقة للحكومتين التونسية والمغربية في بحثها عن الوسائل الممكنة لوضع حد لحرب الجزائر " انظر Mohammed HARBI : Ibid, P 425

(57) Ibid . P-P ,424- 425.

(58) Mohammed HARBI : Ibid P 425

(٥٩) لم نتوصل إلى نص البيان المشترك فهل كان سريا للغاية أم أن الأطراف الثلاث تعمدت التكتم عليه خاصة وانه لم يكن في صالح الوحدة والتضامن المغاربي، وقد عرض المحضر الذي أورده حربي وصحيفة المجاهد خطوطه العامة ,انظر ,المجاهد ع ٢٦(٢جويلية ١٩٥٨)

(٦٠) محمد الميلي : مواقف جزائرية، مرجع سابق , ص١٠٦

(٦١) انظر، المجاهد ع ٤١ (١ماي ١٩٥٨)،ص ــ ص، ١ ــ ٢ ومحمد مالكي :إشكالية وحدة المغرب العربي، مرجع سابق ، ص٢٩٥

(٦٢) علال الفاسي :منهج الاستقلالية , نص التقرير المذهبي الذي قدمه رئيس حزب الاستقلال للمؤتمر السادس المنعقد في الدار البيضاء، جانفي ١٩٦٢، المكتبة الاستقلالية ،الرباط،١٩٦٣، ص١٤٨ .

(٦٣) علال الفاسي :دائما مع الشعب , التقرير المذهبي الذي قدمه الرئيس علال الفاسي للمؤتمر الثامن لحزب الاستقلال ،الدار البيضاء نوفمبر ١٩٦٧، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٦٧,ص ــ ص، ٥٤ ــ ٥٥ .

(٦٤) انظر عبد القادر لعريبي :تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي١٩٤٧ــ١٩٨٠,رسالة دكتوراه ,قسم التاريخ , كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية, الجامعة التونسية, ص ــ ص،٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

د. نعمة حسن محمد

سباق التسلح البحري بين ألمانيا وبريطانيا قبيل الحرب العالمية الأولى

شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر والأعوام الأولى من القرن العشرين ذروة تعاظم سياسات القوة في أوروبا، حيث شيدت هذه الأمم قوتها العسكرية بصورة مزعجة ، وتكالبت على المستعمرات والنفوذ في أعالي البحار، ودخلت بذلك العلاقات الدولية منعطفاً جديداً، حيث قدمت التطورات في مجال التقنية البحرية لهذه الدول القادرة على استغلالها أداة جديدة ومرنة للقوة .

إن السفن الحربية الحديثة بذراعها المتحركة الطويلة نسبيًا والتسليحات الثقيلة يمكن أن توصل قوة القرار الوطني إلى أبعد أركان العالم. كما أن المقدرة على بناء واستخدام أساطيل ضخمة أصبحت سمة وطابع الاحترام الدولي، وعلى ذلك فقد وسعت الأساطيل الجديدة المجال، وبدلت مقاييس وقواعد لعبة القوة، وظهر لاعبون جدد مثل اليابان والولايات المتحدة، بعد أن كان النظام مقصورًا من قبل على القوى الأوربية. فأدرك القيصر "فلهلم الثاني Wilhelm II" أهمية هذه التغييرات وعزم على إنشاء أسطول قوي، وراحت ألمانيا تعلن عن كونها إمبراطورية

* مدرس بقسم التاريخ – كلية الآداب عين شمس

عالمية تسعى إلى الحصول على احترامها كقوة عظمى، وأسطول تحمي به تجارتها المتنامية. أما بريطانيا سيدة الأمواج فقد أصبحت تنظر بعين القلق لمثل هذه التطورات وقررت أن تفسد مناورات ألمانيا.

وفي طيات هذه التوترات بدأنا نلمح خيوط عنصر أساسي وهو السباق البحري الإنجليزي - الألماني الذي أصبح السمة الرئيسية للعلاقات بين الدولتين، فقد واجهت بريطانيا على مدى تاريخها سلسلة من التحديات كان أغلبها نتيجة اشتراكها في سباق التسلح، حيث كانت فرنسا وروسيا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هما أكبر منافسين لبريطانيا، وسعت للتفوق عليهما، وبنهاية القرن التاسع اختلفت الأمور، ففي الوقت الذي تناقصت فيه قوة التهديد الفرنسي - الروسي، تعاظم التهديد الألماني وأضحت بريطانيا تؤكد غريزة صيانة الذات لديها ،وأصبح عزمها على الحفاظ على سيادتها البحرية صلبًا لا يلين من أجل حماية جلب الطعام والمواد الخام لشعبها.

وتحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على أسباب هذه المنافسة، والعوامل السياسية والاستراتيجية والاقتصادية التي أدت إلى ظهور هذا السباق وتصاعده من جانب الدولتين،والأسباب التي دفعت صناع القرار في الدولتين للدخول في مفاوضات للحد من سباق التسلح، ودور العوامل الداخلية وتأثيرها على سير المفاوضات، وكيف راوغت كل من ألمانيا وبريطانيا للتهرب من القيود التي كان من المفترض أن تنص عليها الاتفاقيات المقترحة أثناء المفاوضات؟ ولماذا لم تترجم المفاوضات الرسمية وشبه الرسمية إلى وقف سباق التسلح أو حتى تحسن في العلاقات الثنائية بين البلدين والوضع الدولي؟ وهل كان للدول الأوربية الأخرى تأثير في ذلك؟

أولاً : توتر العلاقات الألمانية - البريطانية في أوائل القرن العشرين :

في البداية تجب الإشارة إلى إنه لم تكن هناك ثمة أسباب متأصلة للكراهية بين ألمانيا وبريطانيا بل كان هناك على النقيض من ذلك أسباب تبعث على التقريب بينهما، فقد كان الألمان والانجليز ينتمون إلى فرع واحد من أفرع الجنس التيوتوني، ويتكلمون لغة مستمدة من أصل مشترك وكثيرًا ما حاربوا جنبًا إلى جنب في معارك حامية، وآثر الانجليز حكم أسرة مالكة ألمانية الأصل على أن يحكمهم ملك إنجليزي كاثوليكي، وأصبحت ألمانيا بتقدم الأيام أفضل عميل أجنبي للبضائع الانجليزية [٩].

ولكن أخذ العداء الألماني – الإنجليزي يظهر ويتعاظم، لا بسبب أزمات مفاجئة ولكنه كان كـسم يسرى ببطء، وكان السبب الرئيس لهذا العداء الرضا البريطاني وعدم الرضا الألماني بالتوزيع الموجود للقوى العالمية عندما قررت ألمانيا إقامة أسطول لأعالي البحار يماثل في حجمه وكفاءته الجيش الألماني، وهو التطور الذي بدا لبريطانيا كما لو كان سعيًا ألمانياً للهيمنة زمن السلم على كل أوربا وطرقها ومداخلها البحرية، ومن أجل الحفاظ على حالة التفوق البريطاني طورت بريطانيا أسطولها وأقامت وفاقات مع كل من فرنسا وروسيا ،وردت ألمانيا بتقوية أسطولها والتصقت بالنمسا، وحاولت فصم عرى الوفاقات، وأخذت كل منهما تلقى اللوم في هذه المنافسة على الأخرى .

ونظرًا لكون بريطانيا دولة جزيرة فقد ظلت دائمًا تعتمد على الأسطول كعامل حماية وضمان لسيادة أراضيها، وكان ذلك بمثابة عامل يجذب بريطانيا من هامش الدبلوماسية الأوربية إلى مركزها إذا ما هدد التوازن الأوربي . وعلى الرغم مما حققته بريطانيا في مجال الصناعة من تقدم خطير، حيث كانت أولى دول العالم في هذا الشأن، فقد ظلت أمامها مشكلة كبرى أخذت تقلق بالها، خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر، إذ أنها كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الخارج في تدبير السلع الغذائية ، وحرصت بريطانيا على أن تصل هذه السلع إلى ثغورها بسلامة ، وهذه السلامة لا تضمنها إلا قوة بحرية كبرى لإطعام سكانها ولسد حاجة المصانع الدائمة إلى المواد الخام ، وتصدير المصنوعات إلى أقصى الأرض، فلا عجب إذ رأينا بريطانيا تمتلك نصف ما يمتلكه العالم من القطع البحرية[٢] .

وإذا اختلف الإنجليز أحرارًا ومحافظين واتحاديين ونفعيين واشتراكيين فإن الأسطول فوق الأحزاب فهو صمام الأمان ولا درع غيره، فالحفاظ على السيادة البحرية إحدى أسس السياسة البريطانية خاصة في ظل ضعف الجيش البريطاني[٣]. ولا أدل على ذلك من تحرك الأسطول الإنجليزي ضد نظيره الهولندي في القرن السابع عشر للسيطرة على التجارة الأوربية، وكذلك الحروب الفرنسية – الإنجليزية في القرن الثامن عشر من أجل السيادة البحرية، وضرب الأسطول الإنجليزي لكوبنهاجن عام ١٨٠٧ والاستيلاء على الأسطول الدانمركي كغنيمة حرب[٤] ، ذلك هو حال بريطانيا فالأسطول بالنسبة لها حياة أو موت، ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى تحرك ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر لتقوية أسطولها الحربي ؟

ثانياً : الأسباب التي دفعت ألمانيا إلى تقوية أسطولها الحربي :

لم يكن الألمان مغرمين بركوب البحر وصناعة السفن ، ولم يلعب الأسطول دورًا ملحوظـاً خلال حروب الوحدة الألمانية، حيث اشترك في مهام برية وفي نقل القوات العسكرية. وخلال فترة مستشارية "بسمارك"ظل الأسطول الرفيق الدائم للجيش ، ويبدو أن السبب في ذلك كان زهد بسمارك في التوسع الاستعماري، بينما كان هدفه الأسمى عدم تغيير الحالة الراهنة في أوروبا والحفاظ على حدود ألمانيا بعد الوحدة(٥) .

كذلك فقد كانت الطبقة الأرستقراطية البروسية من ملاك الأراضي ، "اليونكرز" Junkers، تنظر للأسطول على أنه مجرد أداة تستنزف الأموال، حيث كان الأسـطول مرتبطـاً بالطبقـة الوسطى الليبرالية الآخذة في النمو، والتي كانت موضع كراهية طبقة اليونكرز، كل ذلك كان في غير صالح قضية الأسطول(٦) . ولكن تغيرت الأمور مع تولي القيصر "فلهلم الثاني" ، آخـر أباطرة الهوهنزلرن وحفيد الملكة "فيكتوريا"، عشق الأسطول منذ نعومة أظافره حيث اصطحبته جدته لمشاهدة الأسطول الإنجليزي عدة مرات فتمنى منذ ذلك الحين أن يكون لألمانيا أسطولاً في أعالي البحار(٧) يماثل الجيش في الحجم والقوة والكفاءة .

ولكن كثيرًا ما وضع "الرايخستاج" العراقيل أمام طموحـات القيـصر البحريـة ورفـض التصويت على الأموال اللازمة للتوسع في الإنشاءات البحرية مؤكدًا أن ألمانيا ، بحكم العـادة، قوة برية وليست في حاجة إلى الأسطول وهنا اختار القيصر "ألفريد فون تربتـز" Alfred Von Tirpitz ليكون وزيرًا للبحرية في يونيه ١٨٩٧ لإنجاز هذه المهمة وإنشاء أسطول ألماني لأعالي البحار على مدى سبعة عشر عامـاً يصل إلى مستوى عالمي(٨) . مما أصاب العلاقات الألمانيـة الإنجليزية في مقتل .

ولكن لماذا فكر القيصر في إقامة مثل هذا الأسطول؟

أولاً : كان القيصر "فلهلم الثاني" يتوق قبل كل شيء إلى أن يحقق لألمانيا مـشروع القـوة العظمى في العالم لكي تتمكن من إعادة توزيع المستعمرات وتنال نصيبها هي الأخرى وتخلق لها على حد قوله مكاناً يليق بها تحت الشمس(٩) .

ثانياً : تأثر "فلهلم الثاني" بأفكار "ماهان" Mahan عن القوة البحرية حيث رأى الأخير أن امتلاك الأساطيل الحربية الضخمة وتمركز القوة البحرية هما قوام السيطرة على المحيطات، ولا

يمكن لأي أمة النهوض دون امتلاك قوة بحرية، وقد أمر " فلهلم" بوضع نسخ من كتب "ماهان" على متن كل سفينة، كما تأثر "تربتز" في وضع خططه البحرية بأفكار "ماهان"[١٠].

ثالثاً : رأت الحكومة الألمانية منذ عام ١٨٩٧ التعامل مع السخط الداخلي بممارسة سياسة خارجية قوية كخيار للخروج من مشكلاتها الداخلية لكبح جماح دعاة الإصلاح والثوريين، واستخدمت الأسطول كمسكن قوى ضد الديمقراطيين والاشتراكيين، بمعنى آخر كان السبب وراء تطوير الأسطول تحويل الانتباه عن المشكلات الداخلية، كما رأت أن تشييد السفن سوف يؤدي إلى رخاء اقتصادي وإلى تطوير الصناعة الألمانية، مما يدعم وضع العناصر الحاكمة ويهدئ المطالبة بمزيد من الديمقراطية من جانب الأحرار والديمقراطيين الاشتراكيين[١١].

رابعًا : مرت ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر بتجربة نمو اقتصادي غير عادية، فقد ازدهرت الصناعة وأصبحت في حاجة متزايدة لأسواق جديدة ومواد خام لصناعتها، فإما أن تكون دولة لها أسطول قوي أو ترضى بدور دولة زراعية فقيرة[١٢]، كذلك فرض عليها ذلك رغبتها في حماية تجارتها فقد كانت كل الطرق النهرية الألمانية التي تستخدمها التجارة الخارجية تصب في بحر الشمال وبحر البلطيق، وتقع بؤرتها هناك، وإذا ما انتشرت السفن المعادية في بحر الشمال وبحر البلطيق فإن أي حصار لهذين البحرين سوف يعرقل التجارة الألمانية، كما أن سيطرة بريطانيا على جبل طارق ومصر وعدن وجنوب أفريقيا وغيرها جعلها تسيطر على طرق التجارة العالمية، لذلك رأت ألمانيا أن إنفراد بريطانيا وحدها بالسيادة البحرية لا يتناسب مع عصر تتطلب فيه المصالح التجارية لكل القوى العظمى الإبقاء على البحار مفتوحة[١٣].

خامسًا : إذا نظرنا لألمانيا نجدها أكثر القوى الأوربية الكبرى في ذلك الوقت فاعلية ونشاطاً وتقدمًا ولكنها كانت أكثرها في الوقت ذاته تقيدًا بموقعها الجغرافي في وسط أوربا مما جعلها تحت رحمة التفوق العددي الروسي والتهديد العسكري الواضح الذي خلقه تحالف روسيا وفرنسا[١٤]. كل ذلك جعل ألمانيا تشعر في كل المسائل الخارجية بالعجز بسبب ضعف قوتها البحرية، وهو الأمر الذي نجد "القيصر" يؤكد عليه في تعليقاته على الرسائل الألمانية[١٥]. فقوتها البرية تعضدها في القارة الأوربية، أما في المحيطات فالقوة البحرية هي الكفيلة بجعل القوى الأخرى تهابها .

سادساً : استنكر الألمان صلف بريطانيا ورفضها معاملتهم على قدم المساواة في الأمور السياسية، فضلاً عن الأزمات التي حدثت بين ألمانيا وبريطانيا كالخلافات الاستعمارية بين عامي (١٨٩٣-١٨٩٤) بشأن النيجر والسامو والكونغو، وكذلك مسألة برقية "كروجر" الشهيرة في يناير عام ١٨٩٦[١٦]، ثم استيلاء الزوارق الحربية البريطانية على البواخر الألمانية التي تحمل البريد على ساحل شرق أفريقيا، أثناء حرب البوير بين عامي (١٨٩٩ - ١٩٠٢)، أوضح كل ذلك عجز ألمانيا عن التدخل لصالح البوير الذين عطفت على كفاحهم، كما فشلت في تكوين عصبة أوروبية ضد بريطانيا فأدركت أن ذلك درس عملي يوضح أن عجز العالم عن ردع بريطانيا يعود إلى تفوقها البحري[١٧].

وعلى هذا قامت "نظرية المخاطرة" Risk Theory التي على أساسها أقام "تربتز" خططه لتطوير الأسطول ، وتتمثل في أن الأسطول سوف يمثل رادعاً لأي هجوم بريطاني وسيجبر بريطانيا على تحسين علاقاتها مع ألمانيا على أساس من التكافؤ ، واعتبر الفترة بين عامي (١٩٠٤ - ١٩١٢) منطقة خطر لا تلبث أن تنتهي عندما يصبح الأسطول الألماني نداً للأسطول البريطاني[١٨]. ولذلك جاء في مشروع القانون البحري لعام١٩٠٠ أن الغرض من إنشاء الأسطول أن تستطيع ألمانيا في حالة الاشتباك مع أعظم قوة بحرية إلحاق الضرر بمصالحها في العالم وبسيادتها[١٩]. ومن الواضح أن بريطانيا كانت هي المقصودة ، حيث سعى الألمان إلى إقصاء بريطانيا عن وضعها المتفوق القائم على الأسطول ، واعتبروا أن تلك السيادة هي العقبة التي تقف في سبيل إقامة نظام دولي جديد على أساس التكافؤ، وإحداث تغيير في علاقات القوى لصالح ألمانيا وتأسيس توازن دولي في البحار كما على اليابس . ونخلُص من ذلك أن ألمانيا رأت أن التهديد الذي يمكن أن يفرضه الأسطول الحربي الألماني على صناع القرار في بريطانيا سيضطر الأخيرة إلى تخفيف معارضتها للسياسات الألمانية عندما ترى ألمانيا قوية على المياه كما هي على اليابس، وكذلك لتحقيق أهداف ألمانيا الاستعمارية والسياسية والتجارية وتقبُل التوسع الألماني المشروع، ولكن اعتبرت بريطانيا أن إقامة ألمانيا لأسطول قوي يمكنها من الهيمنة زمن السلم على أوربا برمتها بطرقها ومداخلها البحرية هو عمل موجه ضدها ،وهكذا فإن بريطانيا التي حافظت على مدى ما يقرب من ثلاثين عامًا بعد موقعة الطرف الأغر Trafalgar عام ١٨٠٥ على أن تكون لها فقط السيادة البحرية، وامتلكت خلال تلك الفترة عددًا من السفن يفوق أساطيل القوى الأوربية مجتمعة، وطبقت "مقياس القوتين" "Two-Power Standard" ، أي أن

تكون قوة بريطانيا مساوية لقوة كل من فرنسا وروسيا مجتمعتين[٣٠] . وهما القوتان اللتان تلياها مباشرة في المقدرة البحرية ، بدأت تواجه منافسة حامية مع ألمانيا .

اتضحت معالم هذا السباق البحري عام ١٩٠٠ عندما وضعت ألمانيا أول خطة متكاملة لبناء قوتها البحرية مما أقلق بريطانيا، ثم أخذ هذا التوتر يتحول إلى أزمة دبلوماسية مع عقد الحلف الإنجليزي – الياباني عام ١٩٠٢، والوفاق الودي عام ١٩٠٤، وهزيمة روسيا على يد اليابان عام ١٩٠٥ كل هذا قوى من جانب بريطانيا وأضعف موقف ألمانيا، خاصة مع التحول الذي نجم عن انتصار اليابان في الحرب الروسية – اليابانية وتأكد أمن المصالح البريطانية في آسيا مما سمح بإعادة توزيع الأسطول البريطاني في البحر المتوسط وتركيزه في بحر الشمال[٣١] . وقد علق "جون فيشر" "Fisher" وزير البحرية البريطاني على ذلك بقوله "من العبث أن نقوى تواجدنا في مسرح ثانوي، بينما نجد أنفسنا من الدرجة الثانية على مسرح أساسي"[٣٢]، وإذا أضفنا إلى ذلك فشل مقابلة "بجوركو" عام ١٩٠٥ بين القيصرين الروسي والألماني في إقامة تحالف بين البلدين[٣٣]، ثم تحول هذا التوتر إلى أزمة دبلوماسية حادة عام ١٩٠٦ تحت تأثير الأزمة المغربية التي هددت باشتعال حرب أوربية كبرى[٣٤] ، فقد أيدت بريطانيا فرنسا في مؤتمر الجزيرة وشعرت ألمانيا بأنها أصبحت معزولة، بل شعرت بأن بريطانيا استخفت بها وكانت النتيجة زيادة الإنشاءات البحرية لتصبح قوة عظمى يحترمها الجميع خاصة بريطانيا[٣٥] .

واعتبرت ألمانيا أن تعزيز بريطانيا لقواتها في بحر الشمال يُعد استعدادًا من جانب بريطانيا للحرب ضدها، ورد الألمان بمزيد من الإنشاءات البحرية الجديدة وأضحى السباق آنذاك بشأن التسلح البحري سافرًا، خاصة مع إدراك ألمانيا أن بريطانيا قد أقدمت على بناء طراز جديد من السفن المدرعة الثقيلة والتي عرفت باسم "الدردنوت" Dreadnought[٣٦] ، لا بقصد استخدامها في جهات نائية بل لمناضلة غريم قوي في بحر الشمال، بل وسرعان ما أعلنت الصحافة البريطانية إن سفينة "الدردنوت" تلك قادرة على إغراق الأسطول الألماني بأسره، مما استفز الحكومة الألمانية وأجبرها على البدء في بناء سفن من نفس الطراز لتهدئة مخاوف الرأي العام[٣٧] .

وعلى الفور استطاع "تربتز" تمرير القانون البحري الثالث عام ١٩٠٦ وحصل على تفويض ببناء ست مدرعات من طراز "الدردنوت"[٣٨] كل ذلك زاد من الصعوبات أمام

بريطانيا ، وهدد بتحطيم تفوقها. فقد أصبح الأسطول الألماني الثاني على مستوى العالم بعد البريطاني مما أدى إلى شعور بريطانيا بعدم الأمان[٢٩].

وفي تلك الفترة تولت حكومة الأحرار مقاليد الحكم عام ١٩٠٦. برئاسة "هنري كامبل بانرمان" H.Campbell-Bannerman "، بناء على وعد قطعته للناخبين بخفض النفقات المخصصة للتسلح من أجل التوسع في الإنفاق على الإصلاحات الاجتماعية والصحية والتعليمية[٣٠]. كما وجد "إدوارد جراي" Edward Grey ، وزير الخارجية البريطاني، أن جيش بلاده ضعيف وأن هناك عدداً كبيراً من أعضاء مجلس العموم من دعاة السلم الراديكاليين يعتبرون زيادة التسلح أمر غير حكيم ويفرض ضغوطـاً مالية على البلاد مما يؤدي إلى خفض إيقاع الإصلاح الاجتماعي . كما رأت معظم قطاعات الرأي العام في بريطانيا أن وضع بلادهم سيظل عظيمًا بقدر ضئيل من الإنفاق على زيادة التسلح أو حتى بدون نفقات على الإطلاق[٣١].

وإذا تفحصنا الأمر نجد أن التسلح البحري لم يكن في مصلحة بريطانيا ذلك أن ألمانيا تستطيع الاستمرار في عملية التسابق والتفوق فيها نظرًا لمقدرة العمال الألمان الفائقة في الميدان التكنولوجي ولانخفاض أجورهم نسبيًا بمقارنتها بأجور العمال البريطانيين[٣٢]. وبناء على كل هذه الحقائق قامت خطة "بانرمان" خلال العامين الأولين من فترة تولي وزارة الأحرار عام ١٩٠٦ – ١٩٠٧ على أساس تقليل السرعة المحددة لتشييد قطع الأسطول الجديدة على أمل أن تفعل ألمانيا المثل[٣٣] . فأعلنت عام ١٩٠٧ تشييد ثلاث سفن دردنوت بدلاً من أربعة خلال السنة المالية الجديدة، أما الرايخستاج الألماني فقد وافق على إنشاء سفينة واحدة من طراز الدردنوت أيضـاً بدلاً من ثلاث، ولكن السبب لم يكن تهدئة التوتر بل كانت رغبة (تربتز) في البدء بسفينة واحدة حتى يستطيع دراسة المشكلات التقنية الخاصة بتشييد هذا الطراز من السفن[٣٤] .

شجع ذلك بريطانيا على أن تعرب خلال مؤتمر "لاهاي" الثاني للسلام (يونيه –أكتوبر ١٩٠٧)[٣٥] عن استعدادها لتبادل تقديراتها الخاصة بالإنشاءات البحرية مع أي دولة أخرى، شريطة ان توافق الدول الأخرى على إجراء مماثل[٣٦] ، على أمل أن يؤدي هذا التبادل إلى تخفيض مشترك في التسلح، وقبيل نهاية المؤتمر عرضت بريطانيا بقاء التسلح البحري على

مستواه آنذاك ووعدت بألا تبني أية سفن حربية بعد ذلك إذا وافقت سائر الدول على ذلك ولكن ألمانيا عارضت المشروع بشدة ونجحت في ذلك[٣٧].

وإذا نظرنا لظروف كل دولة نجد أن "فيشر" قد أعاد تنظيم وتوزيع الأسطول البريطاني بينما كان لا يزال الأسطول الألماني في مرحلة النمو، وقد اعتبرت ألمانيا تلك محاولة لتثبيط عزمها ووقف التشييد البحري،خاصة أن المشاكل الداخلية كانت قد أضعفت حليفتها النمسا ،زد على ذلك خشيتها من خطر القتال في ميدانين متى أفاقت روسيا من حربها مع اليابان واستأنفت نشاطها في البلقان ولذلك أصرت ألمانيا على ألا يكون تحديد التسلح من ضمن الموضوعات التي تضمنتها الدعوة إلى المؤتمر[٣٨].

واعتبرت ألمانيا مؤتمر"لاهاي" مجرد محاولة ريائية زائفة لتأمين الهيمنة البحرية البريطانية بدون نفقات إضافية على دافعي الضرائب البريطانيين ، فضلاً عن ذلك فمن ناحية التقنية والعدد لم يكن الموقف في صالح ألمانيا بشكل كبير خاصة مع تمركز الأسطول البريطاني في بحر الشمال أوضح أن ألمانيا هي المقصودة[٣٩].

أما "جراي" فقد أراد إلحاق الخزي بألمانيا فتكون هي السبب في فشل المؤتمر أمام الدول الأخرى فقد قال "جراي" " إنه – يعني الإمبراطور – سيجبرنا إذا أقر الرايخستاج الألماني الميزانية، على إضافة من ١٠ إلى ١٢ مليون جنيه لميزانية البحرية في السنوات القليلة القادمة ، ولكن في حالة حدوث ذلك ما أريد أن يعرفه الناس هنا وفي ألمانيا، إننا اضطررنا إلى إنفاق المال على الرغم من رغبتنا في تقليل الاتفاق على الإنشاءات البحرية"[٤٠].

ويبدو أن تلك المبادرة البريطانية قامت على شرط مسبق ألا وهو قبول ألمانيا التعايش مع التفوق البحري البريطاني، فضلاً عن تعزيز بريطانيا لتواجدها في بحر الشمال وتحسن علاقاتها مع فرنسا وروسيا، ثم جاء فوز الحزب الإمبراطوري في الانتخابات الألمانية عام ١٩٠٧ ليكون بمثابة انتصار للجناح العسكري الذي يؤيد التشييد البحري[٤١]، وليكون الرد الألماني على مبادرة بريطانيا في "لاهاي" حيث وجد هذا الحزب مع الفائض في الميزانية، أن الوقت مناسب لزيادة الإنفاق على السفن الحربية، فتقرر إنشاء أربع سفن سنويًا ابتداء من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١. كما تقرر في نوفمبر عام ١٩٠٧خفض فترة إحلال السفن الجديدة محل القديمة من ٢٥ إلى ٢٠ عاماً لزيادة كفاءة السفن نظرًا للتطورات التقنية . وقد جاء توقيت هذه

الخطوة ليكون صدمة لبريطانيا لأنه جاء في ختام زيارة "ڤلهلم الثاني" لبريطانيا في الفترة ما بين (١١ – ١٨ نوفمبر)[٤٢]، مما أدى إلى احتدام المنافسة لتأخذ طبيعة ثأرية خاصة مع قيام عمليات التجسس بين الجانبين[٤٣].

ثالثاً : بدء مفاوضات الحد من سباق التسلح البحري عام ١٩٠٨ :

استقال "بانرمان" نظراً لاعتلال صحته في فبراير عام ١٩٠٨ وحل محله "هربرت أسكويث" Herbert Asquith وكان زعيمًا للجناح الإمبريالي لحزب الأحرار، فكان ذلك بمثابة ضربة للراديكاليين الأحرار، خاصة مع كونه أقل ميلاً واهتمامًا من أسلافه بالسياسة الخارجية،فقد ركز على النزاع الدستوري مع مجلس اللوردات[٤٤].ولكن عادت المسألة البحرية إلى بؤرة الاهتمام مع إصدار ألمانيا قوانين بحرية جديدة، وفي ضوء قوة الجيش الألماني، طالبت البحرية البريطانية بزيادة الإنفاق البحري لضمان استمرارية التفوق البريطاني وهو المطلب الذي أدى إلى نزاعات داخل الحكومة كادت أن تعصف بوحدتها[٤٥].

لذلك بدا أمر تحسين العلاقات مع ألمانيا أمرًا ملحًا أيده الكثيرون ، وعلى رأسهم "جراى" اعتقادًا منهم أنه يضمن التفوق البريطاني دون أن يستلزم ذلك نفقات إضافية ضخمة، وآمنوا بضرورة بذل الجهود لتحسين العلاقات وأن حلاً للمشكلة قد يتوفر في هذا التحسن، كما أن "لويد جورج" Lloyd George وزير المالية قاد حملة لتقليص الميزانية البحرية عن طريق التوصل إلى اتفاقية بحرية مع ألمانيا شريطة أن تكون هذه الاتفاقية لصالح السيادة البحرية البريطانية على أمل أن يؤدى ذلك إلى إنهاء الجدل الذى كان يثار سنويًا بشأن التقديرات المالية الخاصة بالبحرية والتي تعد من الخطورة بمكان على وحدة حزب الأحرار[٤٦].

وفي ألمانيا ذاتها ، وطبقــاً للوثائق البريطانية ، اعتبر المستشار الألماني"بيلوف" Bülow أنه من الضروري تقليل سرعة الإنشاء البحري لأسباب داخلية وخارجية على رأسها العبء المالي الذي فرضه التسلح في الوقت الذي كانت فيه الوزارة تحاول إصلاح المالية[٤٧]. وردد "بيلوف" مرارًا أن ألمانيا لا تتحمل الإنفاق على جيش عظيم وأسطول ضخم وسياسة اشتراكية مكلفة، فأراد تقليل النفقات البحرية وأصر على إعطاء الأولوية في الإنفاق للجيش، وأكد أن الأسطول أثار عداء بريطانيا وزاد من خطر اشتعال حرب، وأنه من الضروري الحصول على قروض لتمويله مما سلب ألمانيا الوسائل التي تمكنها من توسيع نفوذها سلميًا[٤٨].

وقد حاولت بريطانيا جس نبض الألمان للتوصل إلى اتفاق للحد من التسلح بعد أن أضحت بريطانيا، من جراء تقوية الألمان لأسطولهم، محصورة بين خيارين هل تعـزز وجودهـا في بحر الشمال ،وتقلص تواجدها في أعالي البحار، وتعتمد على حلفائها أم تتوصل إلى تفاهم مع ألمانيا مستغلة تحرج موقفها المالي والسياسي بعد تكوين الوفاق الثلاثي عام ١٩٠٧ فاختارت الحل الثاني وتوقعت أن تتلقف ألمانيا أي مبادرة بريطانية للتفاهم ،لذا فاتح "جراى" الألمان مـرتين في هذا الشأن خلال عام ١٩٠٨حينما توجه في يوليو بصحبة "لويد جورج" لمقابلة السفير الألماني في لندن "مترنيخ" Metternich واقترح تخفيضاً مشتركاً لبرامج تشييد السفن في البلـدين، وتكرر ذلك مرة أخرى عبر وساطة "تشارلز هاردنج C.Hardinge"، وكيـل وزارة الخارجة البريطانية، أثناء زيارة الأخير لألمانيا، برفقـة الملـك "إدوارد السـابع Edward VI" ،وفي "كرونبرج Cronberg" وخلال مقابلته للإمبراطور في ١١ أغسطس عام ١٩٠٨ اشتد الجدال بين "هاردنج" والإمبراطور حينما أصر "هاردنج" على وجوب الكف عن المنافسة في الإنـشاء البحري فرد الإمبراطور بأنه يفضل الحرب على قبول أن يملى عليه أحد الحد مـن تـسليحاته البحرية[٤٩].

وبناء على ذلك قرر "جراى" الكف عن المحاولات الرامية إلى خلق تفاهم بين البلدين حينما اتضح أنها تؤدي إلى مزيد من التوتر في العلاقات الألمانية – الانجليزية واستشعر أيضـًا إمكانية إثارة ذلك لشكوك فرنسا واعتقادها أن بريطانيا تعتزم عقد صفقه مع ألمانيا على حساب المصالح الفرنسية[٥٠]. وبذلك شهد عام ١٩٠٨ فشل أولئك الوزراء البريطانيين الذين آمنوا بإمكانيـة استمالة ألمانيا .

أخذت العلاقات الألمانية– البريطانية تزداد تدهورًا بعد ذلك من جراء ما تـشرته جريـدة "ديلي تلجراف" Daily Telegraph من مقابلة مع الإمبراطور الألماني في ٢٨ أكتـوبر عـام ١٩٠٨، أكد فيها أن حكومات روسيا وفرنسا طالبته أثناء حرب البوير بتكوين عصبة ضـد بريطانيا لا لإنقاذ جمهوريات البوير فحسب بل لإذلال بريطانيا مما أثار البريطانيين[٥١] .

ولعل أشد ما أثار الألمان في المبادرات البريطانية إنفراد بريطانيا بالسيادة وإنكارها حق أيـة دولة أخرى، بما في ذلك ألمانيا ،أن تمارس هذا الحق الطبيعي ، ويؤكد ذلك ما كتبه القيصر على هامش تقرير أرسله إليه "مترنيخ" في صيف عام ١٩٠٨ "إن ما تريده بريطانيا هو أن تقدم يدها

إلينا مع تحذير بوجوب تحديد أسطولنا إن تلك وقاحة صريحة". وأضاف "ومن هذا المنطلق يمكن لفرنسا وروسيا أن تطالبا أيضـاً بتحديد قواتنا البحرية، إن مشروع القانون البحري سـوف ينفذ إلى آخر حرف سواء شاءت بريطانيا أم أبت" . وعلى هذا الأساس صـدرت تعليمـات القيصر إلى حكومته إزاء الكيفية التي يتم التعامل بها مع المبادرات البريطانية(٥٢).

ولذلك كان طبيعيا أن تصل المفاوضات إلى طريق مسدود ، لقد أراد الألمـان اعترافـاً بريطانيًا بحقيقة وجودهم كقوة عظمى في أوربا ، لذلك لم يشاركوا حكومة الأحرار البريطانية في وجهة نظرها بأن تقليل عدد السفن سيؤدي بالضرورة إلى خلق نوع من التعاون فيمـا بينـهم ورأوا أن هذا التعاون لن يتأتى طالما أن بريطانيا تتفوق عليهم في قدراتها البحريـة. وإذا كـان هناك ثمة تعاون بين البلدين فإنه لن يحدث إلا حينما تتساوى القوتان عسكريًا، وأن السفن رهن الإنشاء آنذاك ستكون ذات أهمية عظمى في الحصول على امتيازات سياسية من بريطانيا.

هنا أعاد صناع القرار الألمان النظر في مسألة رفض العروض البريطانية، حيث أدركـوا أن رفض التفاوض سيكون له نتائج عكسية استراتيجيًا وسياسيًا، فقد زادت مخاوف ألمانيا في ربيع عام ١٩٠٩م عندما أخذت حكومة الأحرار تثير الفـزع في نفـوس البريطـانيين وخاصـة الراديكاليين المعارضين لزيادة النفقات على الإنشاءات البحرية وتعرض صورة قاتمـة للخطـر الألماني، وتؤكد أن ألمانيا ستمتلك عددًا أكبر من السفن المعلن عنها في برنامجها البحري الرسمي، وعلى الرغم من نفى "تربتز" لذلك إلا أن الحكومة البريطانيـة أكـدت ضرورة إنشاء ثمـاني سفن حربية عام ١٩٠٩ بدلاً من أربعة(٥٣) .

واستطاعت حكومة الأحرار بزعامة "أسكويث" أن تخلق موجة من الرعب لكـي تـضمن موافقة الراديكاليين على النفقات الكبيرة على الإنشاءات البحرية، مؤكدة أن ما أعلنته الحكومة الألمانية من تقديرات بحرية لا يعبر عن الواقع وإن هناك مزيداً من الدردنوت يجـري إنـشاؤها سرا(٥٤) .وبهذه التصريحات حرك "اسكويث"، رئيس الوزراء ، المـسألة البحريـة إلى معتـرك السياسات الحزبية، وشجع ذلك المحافظين والصحافة وشركات السلاح وبناء السفن ، وأصبح الجميع يتحدثون عن فجوة الدردنوت وضرورة إنقاذ البلاد من هذا الخطر بمزيد مـن تـشييد السفن، واستغل "التوري" الرعب البحري لأغراض حزبية بعد أن عجزوا عـن الوصـول إلى السلطة عن طريق إصلاح التعريفة الجمركية(٥٥) .

هنا شعر صناع القرار في ألمانيا وعلى رأسهم المستشار ووزير الخارجية "كيدرلن فاختر Kiderlen - Wachter "(٥٦)" أنه من الأفضل لألمانيا تلبية دعوة بريطانيا للدخول في مفاوضات جديدة فقد يؤدي ذلك إلى عدة فوائد منها :

أولاً : تقليل التوتر الذي خيم على العلاقات البريطانية - الألمانية .

ثانيًا : خوف الألمان من أن تؤدي الضغوط على حكومة الأحرار إلى سقوطها، حيث كان من مصلحة ألمانيا أن يظل الأحرار في الحكم، فلو سقطت تلك الحكومة يمكن أن تحل محلها حكومة للمحافظين المعروفين ببرامجهم الدفاعية القوية ورغبتهم في تحويل الوفاقات مع فرنسا وروسيا إلى تحالفات تامة موجهة ضد ألمانيا، فكان هناك اتفاق عام داخل الحكومة الألمانية بضرورة الحفاظ على وجود الأحرار في الحكم لمنع مزيد من التدهور في العلاقات(٥٧) .

ثالثـًا : من الممكن عن طريق التعاون في التحكم في التسلح تقوية العلاقات مع بريطانيا من جهة وإفساد الوفاقات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا من جهة أخرى.

رابعاً : يمكن لألمانيا عن طريق الحد من التسلح عرقلة برامج الإنشاء البحري البريطاني مع إمكانية الاتفاق على تحديد إنشاء السفن بين الدولتين بنسبة معينة لا تستطيع بريطانيا تجاوزها(٥٨) .

لقد تزامن إدراك الحكومة الألمانية لكل هذه المزايا من استئناف المحادثات مع الحكومة البريطانية مع الذعر غير المسبوق الذي انتشر في بريطانيا، الذي أشرنا إليه، والمناقشات الحامية في مجلس العموم وبذلك أصبحت مسألة الدردنوت مسألة حزبية مائة بالمائة بين الأحرار والمحافظين، كل هذا جعل الرأي العام يطالب بالحد من التسلح للوقاية من الهجوم(٥٩) .

دفعت هذه الظروف "جراى" إلى أن يرحب ترحيبًا حذرًا بالدخول في المفاوضات مع الألمان عام ١٩٠٩، فقد عُقدت اتفاقية تعاون اقتصادي مشترك بين فرنسا وألمانيا في المغرب في ٩ فبراير عام ١٩٠٩، وهو ما اعتبرته الخارجية البريطانية خيانة فرنسية(٦٠). أضف إلى ذلك إعلان حكومة النمسا والمجر عزمها على تشييد أربع سفن من طراز الدردنوت في أبريل عام ١٩٠٩. وغني عن البيان أن ذلك يمثل دعماً لألمانيا في حالة قيام صدام في بحر الشمال، لأن وجود أسطول نمساوي ضخم في البحر المتوسط سيجعل من الصعوبة بمكان تمركز القوات

البريطانية في بحر الشمال[٦١] ، في ضوء وجود التحالف الألماني – النمساوي مما زاد من مخاوف بريطانيا وجعلها تعيد النظر في مسألة التفاوض مع ألمانيا .

وإثر ذلك وفي ٢١ أغسطس عام ١٩٠٩ أبلغ المستشار الألماني "بتمان هولفيج" Bethman Hollweg السفير البريطاني في برلين بأنه" رداً على التصريحات المتكررة لحكومة صاحب الجلالة والخاصة بعقد اتفاقية للحد من الإتفاق البحري فإنه يقدم مقترحاته من أجل إجراء ترتيب بحري مع بريطانيا على أن تكون جزءاً من خطة أكبر لإجراء اتفاق سياسي عام له طبيعة تحول دون قيام حرب بين الدولتين"[٦٢] . تلا ذلك عامان من المفاوضات غير المثمرة قطعتها الانتخابات الإنجليزية في يناير ثم في ديسمبر من عام ١٩١٠[٦٣].

وقد رحب "جراي" بمبادرة "هولفيج" ترحيبًا يشوبه الحذر حيث رأى أن أي تصريح سياسي لن يكون مؤثرًا في الرأي العام إلا إذا سبقه أو على الأقل صاحبه اتفاق بحري[٦٤] . وأن اتفاقية بحرية لا تحمل خفضـاً محددًا للبرنامج البحري الألماني ستعتبرها حكومة بريطانيا بلا قيمة من الناحية العملية[٦٥].

وقد رد "هولفيج" بأن البرنامج البحري الألماني أصبح قانونـاً ولا يمكن إجراء أي تعديل عليه إلا بموافقة "الرايخستاج"، ولكن يمكن عن طريق المفاوضات تنظيم إيقاع التشييد وتخفيف العبء المفروض على دافعي الضرائب وتهدئة الشكوك[٦٦] . وفي مقابل ذلك طالب بالتزام بريطانيا باتفاقية تنص على أنه في حالة تعرض أي من الدولتين – بريطانيا أو ألمانيا – لهجوم من جانب دولة ثالثة أو مجموعة من الدول الأخرى تقف الثانية التي لم تتعرض للهجوم على الحياد[٦٧]. وعندما سمع الإنجليز بمطلب الحياد الكريم ، تأكدت شكوكهم في أن هدف ألمانيا هو إيقاع الانقسام بين دول الوفاق، فضلاً عن ذلك كانت بريطانيا تعلم أن أقصى ما يمكن "لهولفيج" تقديمه، مع إصرار "تربتز" والإمبراطور، هو إبطاء معدل سرعة تشييد السفن، ولكن هذا العرض لم يكن جذابًا بالنسبة لبريطانيا، وكذلك لم يكن "جراي" على استعداد للوقوف على الحياد في حالة اشتباك ألمانيا في حرب ضد فرنسا أو روسيا فقد اتفق ساسة بريطانيا على أن يتركوا لأنفسهم دائمًا حرية التحرك فتارة يلتزمون ويتدخلون وتارة يرفضون ويبتعدون بعيدًا حسبما يخدم مصالحهم .

كما لم تكن هناك ثمة فائدة لبريطانيا من وراء ذلك، فقد ارتبطت بوفاقات مع فرنسا وروسيا وتحالفاً مع اليابان، ولم تكن معرضة لهجوم من جانب هذه القوى ولكن الفائدة كانت بلا شك لألمانيا إذا ما هاجمتها روسيا أو فرنسا فتضمن بذلك حياد بريطانيا في مثل هذه الحرب، وكذلك تحييدها إزاء مخططات ألمانيا المستقبلية، وأن تقدم ألمانيا للاتفاق البحري كان بغرض رشوة بريطانيا. كما أن ما خططت ألمانيا لنيله من التزامات وضمانات لم تجرؤ بريطانيا على التعهد بها لفرنسا وروسيا ،وحتى لو استطاعت بريطانيا التوصل إلى اتفاق مع ألمانيا على أساس قبول ألمانيا للتفوق البريطاني كان من الممكن أن تُشيد إيطاليا أو النمسا والمجر مزيداً من الدردنوت وتتحقق بذلك سيادة التحالف الثلاثي علي البحر المتوسط ، كل ذلك جعل بريطانيا تنظر للعرض الألماني على أنه عرض ضئيل القيمة .

وعلى هذا لم يتقدم "جراى" خطوة واحدة على طريق التفاوض مع ألمانيا على مدى ثلاث سنوات[٦٨] وساعده على ذلك النزاع في داري البرلمان على الأمور المالية ومرور البلاد بحملتين للانتخابات العامة[٦٩]. وفي ١٠أبريل سحب "هولفيج" عرضه المحدد واقترح بدلاً منه ميثاق حياد وعدم اعتداء، وأدعى أنه سيحسن العلاقات بين الدولتين، وسيجعل من عقد اتفاقية بحرية أمرًا غير ضروري . وقد أخبر "جراى" الحكومة في ٢٠ يوليو عام ١٩١٠ أن بريطانيا لن تستطيع الاشتراك في مثل هذا الميثاق الذي سيفضي حتماً إلى فقدان الصداقة الفرنسية والروسية[٧٠]، فسوف تعتبر فرنسا تصريح بريطانيا بالحفاظ على الحالة الراهنة في أوربا على أنه إقرار بريطاني بفقدان فرنسا للألزاس واللورين .

استطاع "جراي" إقناع حكومته بالموافقة على مذكرة بريطانية مضادة تقر بأن الاتفاق البحري هو السبيل الوحيد إلى تقليل التوتر بين البلدين، ولكن "بتمان هولفيج" واصل إصراره على المعاهدة السياسية. وقد رأى الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية "أرثر نيكلسون A.Nicolson" أن الأمل ضئيل في الوصول إلى اتفاق بشأن المسألة البحرية،أما "لويد جورج" فقد نفذ صبره [٧١] من بطء سير المفاوضات واستطاع إقناع المسئولين في الحكومة في يناير عام ١٩١١بتشكيل لجنة للشئون الخارجية ضمت كلاً من "أسكويث" "وجراى"، "وإير كرو Eyre Crowe" ، و "مورلى Morley"، و "لويد جورج"، و"والتر رنسمان" Walter Runciman [٧٢] ، وتشكلت هذه اللجنة للسيطرة على "جراي" أكثر من كونها أداة لدعمه، وللاستجابة

لشكاوى "لويد جورج" بشأن انعدام البيانات عن سياسة بريطانيا الخارجية، ولتحفيز تقدم المفاوضات للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا، كذلك جاءت تعبيراً عن الغضب من زيادة التقديرات المالية البحرية للعامين(١٩١١ – ١٩١٢) والتي عجز المسئولون عن إيقافها، وأيضاً ساندها حملة للأحرار والراديكاليين في الصحافة والبرلمان ضد ما وُصف بأنه سياسة بريطانية معادية لألمانيا(٧٣).وكذلك مع التحسن المؤقت الذي طرأ على العلاقات الألمانية – الفرنسية الذي اعتبره الكثيرون أمرًا مفيدًا خاصة للمصالح الفرنسية في الشرق الأوسط، فضلاً عن وجود تيار قوى يفضل المصالحة والتعاون مع ألمانيا ويضمر الكراهية لروسيا الرجعية(٧٤) .

وقد خشيت الخارجية البريطانية من أن تتمكن هذه اللجنة من إجبار "جراى" على قبول الاتفاق مع ألمانيا مما يزعج أصدقاء بريطانيا، ولكن في النهاية حاز "جراى" في ٨ مارس عام ١٩١١ على مسودة مذكرة حوت اقتراحات جديدة تُقدم للألمان فحواها أن تكون الاتفاقية البحرية جزءاً من اتفاقية سياسية(٧٥)

وفي يوليو ١٩١١ حدثت أزمة أغادير التي عانت ألمانيا خلالها هزيمة دبلوماسية ، عندما أثارت مواجهة مع فرنسا بشأن المغرب ثم تراجعت تحت الضغط البريطاني، وقد أمطر "جراي" خلال الأزمة بوابل من المذكرات التي حثته على الوقوف بثبات إلى جانب فرنسا لمقاومة الادعاءات الألمانية في أغادير اعتقادًا منهم أن فرنسا ستضعف أمام المطالب الألمانية إذا لم تثق في مساندة بريطانيا. وبعد مناقشات طويلة داخل الحكومة البريطانية اتفق على إرجاء أي اتصال مع ألمانيا حتى اجتماعهم التالي مما أدى إلى قطع المفاوضات(٧٦).

وقد تم لفرنسا ما أرادت في المغرب وخرجت من الأزمة منتصرة بمساعدة بريطانيا فرأى "تربتز" استغلال هذا الاستياء العام وإظهار أن ألمانيا تحتاج إلى زيادة تسلحاتها البحرية للتغلب على الهزيمة الدبلوماسية التي لحقت بها، وكذلك اقتناعًا منه بأن ألمانيا خسرت قدرًا كبيرًا من مكانتها الدولية ، فشعر أن أفضل طريق لاستعادة هذه المكانة إصدار قانون بحري إضافي عُرف باسم "Novelle" تزداد بمقتضاه أعداد السفن الحربية المزمع إنشاؤها فبدلاً من إنشاء سفينتين كل عام يسير معدل الإنشاء على النحو التالي (٣ – ٢ – ٣ – ٢ – ٣ – ٢) بمعنى تشييد ثلاث سفن في العام الأول ثم سفينتين في العام الثاني ، وهكذا على مدى ست سنوات. وبالفعل أمر القيصر "هولفيج" في ١٤ نوفمبر عام ١٩١١ بأن يلحق القانون الإضافي بميزانية عام

١٩١٢[٧٧] . كل ذلك أدى إلى تصعيد المنافسة وإرهاق حكومة الأحرار وجعلها أكثر استعدادًا لاستئناف المفاوضات .

وقد اقتنعت بريطانيا ، بعد خروج فرنسا منتصرة من أزمة أغادير بفضل مساعدات بريطانيا أنه من الأفضل إنهاء الضغينة مع ألمانيا ، فإذا ما اندمل هذا الجرح الذي ظل ينزف منذ سنوات فربما يصبح باستطاعة بريطانيا حينئذ أن تدير ظهرها للقارة وتكرس طاقاتها وأموالها لإمبراطوريتها ولبرنامج للإصلاح الاجتماعي[٧٨] . كما أن العودة إلى العزلة يمكن أن تؤدي إلى ائتلاف معاد لبريطانيا ، أما إعادة بناء الأسطول البريطاني على نطاق واسع فهو أمر لن يتحمله الرأي العام في الداخل، وستستغله ألمانيا كدليل على العدوان وربما تلجأ إلى الحرب المانعة من جانبها قبل أن تتمكن بريطانيا من الاستعداد لها، فحاولت حكومة الأحرار التوصل إلى تفاهم مع ألمانيا يماثل ما تم التوصل إليه مع اليابان وفرنسا وروسيا[٧٩]،وإقناع ألمانيا بتحديد قواتها البحرية نظير منحها تعويضات في الميدان الاستعماري[٨٠] .

وقد علمت الحكومة البريطانية ، في أعقاب أزمة أغادير من خلال "ألبرت بالين" Albert "Ballin"، أحد كبار أصحاب السفن في "هامبورج" والصديق الشخصي للقيصر الألماني، وكذلك المصرفي "أرنست كاسيل Ernest Cassell" الصديق الحميم للملك "إدوارد السابع" وكان من أصل ألماني واكتسب الجنسية البريطانية، أن برلين سوف ترحب بتبادل وجهات النظر مع لندن[٨١] .

ومع يناير من عام ١٩١٢ خول "كاسيل" السلطة لمقابلة القيصر والمستشار وفي معيته مذكرة تحوى آراء "جراي"، و"تشرشل"، وتؤكد وجوب اعتراف ألمانيا بالسيادة البريطانية على البحار واستعداد بريطانيا، في مقابل تعليق أو إرجاء تنفيذ البرنامج البحري التكميلي، مناقشة الأماني الاستعمارية الألمانية ، وتأكيد الدولتين على عدم مشاركة أي منهما في مخططات عدوانية ضد الأخرى. وقد عاد "كاسيل" إلى لندن يحمل ردًا وديًا على المبادرة فيما عدا التمسك بالبرنامج البحري، وقد أشار الرد إلى إمكانية تخفيضه إذا ما ظهرت الدلائل على توجه ودي للسياسة البريطانية، وقد عاد "كاسيل" كذلك بدعوة ألمانية "لتشرشل" و"جراي" لزيارة برلين .وقد تزامنت عودة "كاسيل" أيضًا إلى لندن مع إعلان "هولفيج" في الرايخستاج في ٧ فبراير عام ١٩١٢ عن القانون البحري الجديد التكميلي فاستبد القلق "بتشرشل" ورأى وجوب اتخاذ

إجراءات عاجلة لإقناع الألمان بخفضه إن لم يكن إلغاؤه[٨٢] . فرأى إرسال "لورد هالدين Haldane"[٨٣]، وزير الحربية، إلى برلين على وجه السرعة .

جاءت مهمة "هالدين" في وقت حرج للغاية فألمانيا شاعرة بالإذلال، والصراع قد وصل إلى ذروته بين "هولفيج" و"تربتز" والأجواء متوترة من جراء خطاب وزير البحرية البريطاني "تشرشل" في "جلاسجو Glasgow" في ٩ فبراير، الذي أكد فيه أن "الأسطول ضرورة لبريطانيا ومجرد رفاهية بالنسبة لألمانيا."[٨٤] وعلى الرغم من ذلك التوتر فقد اشتدت المعارضة في ألمانيا لتشييد مزيد من السفن، فدعاة السلام ورجال الصناعة والمال والجيش هاجموا "تربتز" وأكدوا أن ألمانيا تبني السفن منذ عشرة أعوام خلت ولا زالت بريطانيا متفوقة وآمنة، وأصبحت ألمانيا معزولة في خطر، وحتى إيطاليا والنمسا لم يقدما أي دعم لألمانيا خلال أزمتي المغرب، ودون استشارة ألمانيا شرعت النمسا في القيام بسياسات خطيرة في البلقان، كما أن إيطاليا هاجمت ممتلكات الدولة العثمانية، وربما يقومان، نتيجة إدراكها أن ألمانيا باتت معزولة ومعتمدة عليهما، بجر ألمانيا إلى الحرب. وعلى جانبي ألمانيا تقبع كل من فرنسا وروسيا بتسليحاتهما المتطورة[٨٥] كما أن ألمانيا أنفقت المال الذي كانت تحتاجه لتطوير الجيش على الأسطول ولم تجن إلا ازدياد عداء بريطانيا[٨٦] . وهنا حان الوقت للاستماع إلى المعارضة وفتح باب التفاوض مع بريطانيا .

وعندما بادر القيصر بدعوة تشرشل لزيارة برلين[٨٧]، اعتبر "تشرشل" أن زيارته ستكون شيئاً سابقاً لأوانه، وخشي من أن يثير تواجده في برلين ارتياب فرنسا، ولذلك قرر إرسال "لورد هالدين" في مهمة وصفت بالسرية[٨٨] ليستعلم عما إذا كان هناك أمل يبشر بالوصول بالعلاقات بين البلدين لوضع أفضل[٨٩] .

امتلئ "لورد هالدين بالحماسة والرغبة في تضميد الجراح بين البلدين، وقد مكث في برلين من ٨ إلى ١١ فبراير[٩٠]. وخلال هذه الفترة تحدث حديثاً فضفاضاً مع المسئولين الألمان ولم يتعامل معهم كدبلوماسي محنك ، تلا ذلك ارتباك حيث فشل "هالدين" في إقناع "هولفيج" بقبول تخفيض البرنامج البحري الألماني، بل زوده الأخير بنسخة من القانون البحري الجديد الذي فاق في ضخامته كل التوقعات[٩١]. وكل ما حصل عليه هو مجرد وعد غير صريح بإبطاء تنفيذ البرنامج نظير وعد بعدم الاعتداء وتعهد بالحياد في حالة حرب قارية إذا لم تكن ألمانيا هي المعتدية، وقد قبلت بريطانيا التعهد بعدم الاعتداء ولكنها رفضت التعهد بالحياد والذي يهدد

بهدم الصداقة الفرنسية، كما نوقشت الامتيازات الاستعمارية الألمانية المقترحة في إيران وسكة حديد بغداد[٩٢] .

في الوقت ذاته تصرف "جراي بحكمة، حيث اهتم بأن تكون باريس وسان بطرسبرج على علم بما يجرى، وأوضح أن الهدف من وراء المفاوضات تحسين العلاقات بين لندن وبرلين مع ولاء بريطانيا للوفاقات المعقودة مع الدولتين[٩٣]

وقد عاد "هالدين" إلى لندن سعيدًا بنتائج مهمته وفي معيته صيغة لاتفاقية الحياد المقترحة[٩٤]. أما "جراي" فقد اعتبر مباحثات "هالدين" كارثة، واتهمه بقلة الخبرة وعدم إتقان فنون التفاوض، بل وإفشاء الأسرار للألمان دون الحصول على مقابل، وأكد عدد من مسئولي وزارة الخارجية البريطانية[٩٥] أن مثل هذا الاتفاق ، طبقا لتصور "هالدين"، سيؤدي إلى نهاية الوفاقات مع فرنسا وروسيا، وأن ألمانيا لن تقبل أبدًا بخفض حقيقي لبرنامجها البحري. وخافوا من موافقة حكومتهم على مسودة الاتفاق المقترح، وأكد "كرو" "أن الألمان يخلفون وعودهم وأن الإذعان لهم سيكون خطأ كبيرًا، وإذا كانت ألمانيا حريصة على إقامة صداقة مع بريطانيا فعليها إثبات ذلك بدليل ملموس وهو وقف التصعيد البحري"[٩٦] .

ويسهل على المطلع لمسودة اتفاقية الحياد أن يتوقع أمراً ما وهو أنه في ظل نظام المحالفات إذا ما نشبت حرب بين النمسا وروسيا وهبت ألمانيا لمساعدة الأولى سوف تساند فرنسا الثانية وهنا ماذا سيكون موقف بريطانيا ؟ لم تكن بريطانيا على استعداد للوقوف على الحياد ووضع نفسها في مأزق كهذا .

وقد أكدت الحكومة البريطانية أن مشروع القانون البحري الألماني التكميلي هو العقبة الوحيدة واستمراره سيجعل من المستحيل التوصل إلى اتفاق، وأخذت تحول المفاوضات مرة أخرى من الاتفاقية السياسية إلى الاتفاقية البحرية فاعتبر "فلهلم الثاني" ذلك تنصلاً مما قاله "هالدين" وتدخلاً سافراً في مصير أمة عظمى"[٩٧] ، خاصة مع تأكيد الحكومة البريطانية على أن تمسك ألمانيا بمشروع القانون التكميلي سيؤدي إلى تقديم تقديرات بريطانية مماثلة[٩٨] ، وتحويل جزء من أسطول البحر المتوسط إلى المياه الداخلية، فاستشاط "فلهلم الثاني" غضبًا ورأى أن مثل هذا الأمر يعد بمثابة تهديد بالحرب، وقرر إنهاء المفاوضات والعودة إلى مشروع القانون البحري التكميلي بشكله القديم بلا إبطاء بل والتعبئة . وهنا هدد "هولفيج" بالاستقالة إذا ما تم تقديم

المشروع"للرايخستاج"وهدد "تربتز" بالاستقالة إذا ما رُفض المشروع[٩٩] . وهنا أصبح قرار القيصر هو الفيصل .

أما في لندن فقد جرت مناقشات داخل أروقة الوزارة في ١٤مارس ١٩١٢بعدها قدم "جراى" القرار إلى السفير الألماني "مترنيخ" بأن بريطانيا لن تنضم إلى أي هجوم غير ناتج عن استفزاز يقع على ألمانيا"، وكان ذلك أقل مما قدمه "هالدين" فقد أسقطت تماماً كلمة الحياد ووصلت المفاوضات إلى طريق مسدود[١٠٠] . وهنا أيد "فلهلم الثاني" "تربتز" فقام بقطع المفاوضات في ١٠ أبريل وأعلنت الحكومة التصويت على القانون البحري الذي نص على زيادة كبيرة في حجم الأسطول[١٠١] . ليستأنف السباق بشكل أكثر ضراوة .

وبذلك يمكن القول أن مهمة "هالدين" تمخضت عنها نتائج عكسية، فقد تعهد تشرشل بالتصدي للقانون البحري الألماني في المال والرجال، وفي ١٨ مارس ١٩١٢ قدم "تشرشل" التقديرات البحرية لعامي(١٩١٢ – ١٩١٣) لمجلس العموم، وكانت تلك المرة الأولى التي يعلن فيها وزير بحرية بريطاني صراحة التخلي عن "مقياس القوتين" وعن عزم بلاده منذ ذلك الحين فصاعدًا على تشييد سفنها ضد ألمانيا وحدها،وأنها ستحافظ على نسبة (١٦:١٠) بين بريطانيا وألمانيا طالما أن ألمانيا ستواصل برنامجها التكميلي[١٠٢].وبدأ الاستعداد لاستدعاء أسطول المحيط الأطلنطي للعودة إلى الوطن وتحرك أسطول البحر المتوسط من مالطه إلى جبل طارق[١٠٣].وانتهى بذلك آخر جهد اتضح فيه تصميم الدولتين بشكل بارز على الوصول إلى حل للمشكلة،حتى لا يتم اللجوء إلى القوة.ورغم استئناف المفاوضات بعد ذلك إلا أنها تطرقت لتسوية مشكلات استعمارية محددة ولم تمس جذور المشكلة.

ومع تدعيم بريطانيا لسيادتها في بحر الشمال، تُرك البحر المتوسط، الرابطة الحيوية في شبكة مواصلات الإمبراطورية البريطانية، بلا حماية، فكان من الممكن إذا ما قامت الحرب آنذاك أن تغلق النمسا وإيطاليا الطريق القصير المؤدي إلى الهند، فرأت بريطانيا أن يقوم أسطول فرنسا الحربي في المحيط الأطلنطي بالتحرك إلى البحر المتوسط وأصبح أمر الدفاع عن هذا البحر منوطاً بالفرنسيين[١٠٤] . أدى ذلك إلى قيام محادثات بين بريطانيا وفرنسا في يونيه عام ١٩١٢ أوضح "جراي" الهدف منها حين قال "لقد كانت غايتي من هذه المحادثات لفت نظر الألمان إلى حرج الموقف وإشعار الفرنسيين بالعطف عليهم مع اجتناب إعطاء الوعود"[١٠٥]. واقتصر الأمر

على تبادل الخطابات بين "جراي" ، و"كامبون" وزير خارجية فرنسا في (٢١/ ٢٢ نوفمبر) تمخض عنها تأكيد الحكومتين على قيام الهيئات البحرية والعسكرية للبلدين بتبادل وجهات النظر مع إعلان أن هذه الخطط التقنية لا تتضمن تورطاً بالتعاون في حالة الحرب، كما تم الاتفاق على أنه في حالة التهديد بالحرب على الحكومتين عمل تقيم فوري وشامل للموقف ووجوب البدء فى دراسة خطط هيئتي الأركان المشتركة في البلدين لمواجهة التهديد(١٠٦).

وبذلك أحجم "جراي" عن عقد أي تحالف رسمي مع فرنسا لأسباب معروفة أولها سبب تقليدي وهو أن مثل هذا التحالف سوف يزيد من احتمالية تورط بريطانيا والتزامها بالمشاركة في حرب أوربية، أما السبب الأخر فهو إحجام "جراي" عن إعطاء الألمان انطباعاً بأن بريطانيا قد اصطفت مع القوى المعادية بدون أمل في التسوية . إن غياب مثل هذا التحالف مع فرنسا أعطى "جراي" الحرية لمناورة ألمانيا ولكن هذه المناورة لم تؤد إلى عقد أي اتفاقية بحرية مع ألمانيا(١٠٧) .

وعلى الرغم من أن هذه المذكرات لم تعط لفرنسا أية ضمانات بالتدخل البريطاني في حالة وقوع حرب فرنسية– ألمانية فمن الواضح أن الحكومة البريطانية أصبحت تحت وطأة التزام معنوي أخلاقي، حيث حافظت على حرية القرار بين يديها، ولم تلتزم رسميًا. وبذلك لم تنعم باليقن من ماهية الموقف البريطاني ولكن ما حدث أكد أن لبريطانيا وفرنسا قضية مشتركة، وعدواً واحداً هو ألمانيا وبذلك فإن تصاعد التحدي البحري الألماني جعل بريطانيا أكثر ميلاً للالتزام الأخلاقي تجاه فرنسا، ودفع بريطانيا نحو الوفاق أكثر وقد استمرت المشكلة البحرية قائمة بلا حل حتى بعدما اقترح "تشرشل" في ٢٠ مارس ١٩١٣مشروع "العطلة البحرية "Naval Holiday، أي وقف التشييد البحري في ألمانيا وبريطانيا لمدة عام، حيث قابلها الألمان بفتور لأنها تعني تحطيم القانون البحري، كما رأي القيصر الألماني أن مثل هذه العطلة المقترحة لا يمكن تنفيذها إلا بين حليفين(١٠٨).

على أية حال تراجع التركيز البريطاني – الألماني على المسألة البحرية كنقطة صدام بين الدولتين بعد أن اتضح طيلة هذه السنوات أن التفاوض في هذا السبيل أصبح هباءً منثورا، ساعد على ذلك التوجهات الداخلية ، فقد قوبلت الإضافات الجديدة للقانون البحري في ألمانيا بمعارضة شديدة فى داخل الحكومة حيث دعت المعارضة إلى إعطاء الأولوية في برامج التطوير

العسكري لتطوير الجيش، نظراً لخشية الألمان من أن تؤدي التوسعات المتزايدة في الجيشين الفرنسي والروسي إلى ضياع تفوقهم العسكري البري، وكان على بريطانيا هي الأخرى أن تقلص إنفاقها على الأسطول بسبب وجود صراعات داخل الحكومة على الإنفاق البحري بين "تشرشل" و "لويد جورج"، حيث دعا الأخير إلى تقليص الإنفاق على التسلح البحري وساعده على ذلك حدوث انفراجة في العلاقات بين بريطانيا وألمانيا بعد عام ١٩١٢ نتيجة تعاونهما في حل النزاعات التي نجمت عن الحروب البلقانية(١٠٩) ،كما رأت بريطانيا أن السماح لألمانيا بالتوسع الاستعماري، ربما يؤدي إلى إضفاء نوع من الهدوء على الموقف العام وربما يؤدي ذلك اللين أيضاً إلى استئناف الحكومة الألمانية للمحادثات البحرية . وبالفعل تم التوصل إلى اتفاق بين البلدين في ٢٠ أكتوبر ١٩١٣ قُسمت بموجبه المستعمرات البرتغالية إلى مجالات نفوذ ألمانية وبريطانية(١١٠). ومنذ ذلك الحين بدأ الهدوء يشوب العلاقات، وتوقفت المفاوضات الخاصة بالحد من التسلح وانتهت بالفشل ولكن ظلت المنافسة مشتعلة خلف الستار .

رابعاً : أسباب فشل المفاوضات :

لقد كان من الصعب تخيل نتيجة أخرى سوى الفشل لهذه المفاوضات، لأنه على مدى هذه الأعوام لم تمس المسألة الجوهرية للخلاف ألا وهي كيفية التوفيق بين مصالح دولتين قويتين، تمسكت كل منهما بمواقفها المتشددة، إحداهما ترغب في منع التغير، والأخرى تميل إلى تغيير نظام القوى الأوربية الذي انتظم بشكل ما على مدى سنوات طويلة، والذي تشعر بأنه غير منصف، فقد رغبت ألمانيا في إضعاف الوفاق الثلاثي وكان ذلك أمرًا منطقيًا لتحاشي وقوع هجوم مشترك، وبدت الجهود البريطانية لتحطيم جهود الألمان لتقوية أسطولهم نابعة من رغبة بريطانيا في إبقاء ألمانيا بلا معين مجبرة على طاعة بريطانيا ،فكلاهما كانت له حجج مقنعة ، وكلاهما له أسباب للخوف من الآخر، فالإنجليز اعتبروا أنفسهم الحامي التقليدي لتوازن القوى الأوربية ، عندما وحدوا القارة ضد هيمنة لويس الرابع عشر ومن بعده نابليون بونابرت، ورأوا أن الألمان يريدون الهيمنة على أوربا والشيء الوحيد الذي يحول دون تحقيقهم لذلك هو القوة البحرية البريطانية، وأن القوى المعادية فقط هي التي تعارض سيادة بريطانيا البحرية(١١١) ، كما رأوا أن ألمانيا أحوج إلى زيادة قوتها البرية منها إلى زيادة قوتها البحرية نظرًا لموقعها في قلب أوربا، وأن ألمانيا تُضمر الشر لبريطانيا ، ورفضوا قبول حجة ألمانيا بأن الأسطول الألماني قد

أنشئ بغرض حماية التجارة الألمانية وكانوا محقين في ذلك، لأن التجارة يحميها أسطول متحرك لا أسطول يقبع دائما في قواعده في بحر الشمال بالقرب من الجزر البريطانية

وعلى الجانب الآخر حطمت الظروف الدولية المتغيرة آنذاك حجج بريطانيا وتمسكها بانفرادها بالسيادة البحرية، فقد أصبحت هناك مستعمرات وتجارة للدول الأوربية عبر المحيطات والبحار، وطالما كانت بريطانيا سيدة على البحار بلا منازع فإنها وضعت بذلك التجارة والمستعمرات التابعة للدول الأخرى تحت رحمتها، وسرعان ما أدرك الألمان الموقف وأدركوا أنه في كل نزاع مع بريطانيا ستصبح المستعمرات والتجارة الألمانية، كما قال "جراي" "بمثابة رهينتين تحتجزهما بريطانيا"(١١٢) ، كما استاءت ألمانيا من إنكار بريطانيا عليها الحق في تقوية أسطولها مع كون ألمانيا واقعة تحت رحمة التفوق العددي الساحق للقوة الروسية، خاصة بعد تحالف روسيا مع فرنسا منذ عام ١٨٩٣، وكذلك شعور ألمانيا بالظلم فهي دولة متفوقة في مجال صناعات الحديد والكيماويات وذات قوة ديموغرافية هائلة ، فلماذا يظل الألمان قابعين داخل أراضيهم ولا يمتلكون أسطولاً ينطلقون به إلى فضاء لا نهائي؟ كذلك شعرت ألمانيا بتحامل بريطانيا عليها فلماذا التركيز فقط على الأسطول الألماني؟ بينما كانت كل القوى العظمى تقريباً حينذاك تتوسع في بناء أساطيلها مثل فرنسا والولايات المتحدة وروسيا وإيطاليا وحتى البرازيل(١١٣).

وبلغ التحامل والعداء ببريطانيا إلى حد التفكير في إغراق الأسطول الألماني(١١٤)، على غرار ما فعلته بريطانيا بالأسطول الدانمركي، ويبدو أن ذلك لم يكن أمرًا منطقيًا ومجديًا آنذاك حيث كانت ألمانيا قوة لا يستهان بها فضلاً عن التحالفات التي كانت تربطها بالنمسا وإيطاليا مما جعل مسألة ضرب الأسطول الألماني ليست بالأمر الهين . ووسط كل ذلك اعتقدت ألمانيا أن الأسطول هو الشيء الذي بإمكانه تحقيق نوع من التكافؤ النسبي بين البلدين ، وأن التهديد الذي يفرضه الأسطول الألماني هو الذي سيقود بريطانيا إلى التوقيع على اتفاقية سياسية بشروط ألمانيا، وأن أي تباطؤ في تشييد هذا الأسطول سيقلل من الضغط على بريطانيا مما يدفعها لأخذ مسألة المفاوضات بلا جدية .

كل هذا يقودنا إلى أهم سبب من أسباب فشل مفاوضات الحد من التسلح البحري ألا وهو سوء الظن المتبادل، فكلاهما يشك في الآخر ويريد أن يستفيد على حساب الآخر، فبينما رأت

ألمانيا في المفاوضات وسيلة لابتزاز بريطانيا والضغط عليها، رأت بريطانيا أن اتفاقية ألمانية – بريطانية تضمن حياد بريطانيا في أي حرب مستقبلية ستؤدي إلى سيطرة ألمانيا على القارة ولن تستمر طويلاً بعد أن تحقق هدفها(١١٥) . كما آمن الألمان بأن بريطانيا تخطط لتطويقهم(١١٦) وبالتالي تنضم في النهاية لروسيا وفرنسا في حرب ضدهم. وقد استلزم لنجاح المفاوضات أن يُعدل الجانبان مطالبهما الأمنية ، فكان على بريطانيا أن تقبل بأقل من الهزيمة الكاملة لألمانيا في سباقها البحري، كما كان على ألمانيا أن تُخفض برنامجها البحري وتتخلى عن فكرة إفساد معاهدات بريطانيا مع كل من فرنسا وروسيا، وبسبب عدم قبول ألمانيا وبريطانيا لهذه القيود فشلت المحاولة.

لقد أدار كل طرف المفاوضات من منطلق مصالحه ، فقد أراد "تربتز" التوصل إلى اتفاق دون أن تغير ألمانيا خططها لبناء الأسطول ورتب الأحداث على النحو التالي حدوث انفراجة للأزمة ، ثم معاهدة سياسية للحياد، ثم اتفاقية للحد من التسلح، أما بريطانيا فقد أرادت ترتيبا معاكسا لذلك حيث أرادت أن تبدأ المفاوضات بالتركيز على اتفاقية للحد من التسلح(١١٧) . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن هذه المفاوضات كان من الممكن أن يُكتب لها النجاح في حالة إذا ما كانت هناك درجة ما من التهديد تستشعره كل دولة تجاه الأخرى وإلا فما الحاجة إلى التفاوض، وهذا ما حدث فيبدو أن تهديد ألمانيا لبريطانيا لم يكن خطيرا فحتى عام ١٩١٤لم تكن ألمانيا قد استكملت مشروع قناة كييل Kiel ، الممر المائي الحيوي الذي يربط بحر البلطيق ببحر الشمال، حتى تتمكن من نقل سفن الدردنوت عبرها إلى بحر الشمال ، كما شعرت بريطانيا بالأمان لتطبيقها مقياس القوتين، ويؤكد ذلك ما تذكره وثائق وزارة الخارجية البريطانية أن كون بريطانيا على عداء مع فرنسا أو روسيا هو الأمر الأشد خطورة على بريطانيا من العداء الألماني خاصة في ظل التحالف الفرنسي – الروسي وقوة أساطيل الدولتين، فصحيح أن ألمانيا سببت لهم بعض المضايقات، ولكنها لم تكن تستطيع تهديد المصالح الحيوية، فروسيا كانت تستطيع مثلاً تهديد مصالح بريطانيا في الشرق الأوسط والوجود البريطاني في الهند(١١٨) .

ولا يمكننا تجاهل الدور الفرنسي في الانهيار النهائي الذي أصاب المفاوضات، حيث أكد "إزفولسكي Isvolski"، وزير خارجية روسيا، أثناء محادثاته مع"بوانكاريه"،وزير خارجية فرنسا ، أن الغرض من دعوة هالدين إلى برلين أن تتعهد حكومة لندن تعهداً مكتوباً بالبقاء على الحياد

في حالة تورط ألمانيا في حرب لا تثيرها ألمانيا، وعندما أخبرت حكومة لندن "بوانكاريه" بذلك، أعلن أنه لو حدث ذلك لمثل نهاية فورية للعلاقات الفرنسية – البريطانية. وكان لذلك الاعتراض الأثر المطلوب فرفضت حكومة لندن الاقتراح الألماني(١١٩) وفضلت بريطانيا الاحتفاظ بصداقة روسيا وفرنسا، كما عارض سفير بريطانيا لدى فرنسا "فرنسيس بيرتي .F Bertie" و سفير بريطانيا في برلين "إدوارد جوشن E.Goschen" "مفاوضات الحد من التسلح ورأوا أن بريطانيا مهددة بسعي ألمانيا الحثيث للهيمنة على البحار وعلى أوربا مما يتطلب تقوية وفاقات بريطانيا مع كل من فرنسا وروسيا(١٢٠). وبالفعل تعززت الروابط بين دول الوفاق نتيجة الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٢ على استراتيجية بحرية مشتركة لتقسيم المهام الدفاعية في البحار في حالة الحرب، كما شجعت بريطانيا روسيا على تعزيز قواها المسلحة على الجبهة الشرقية لألمانيا ويمكن القول أن استمرار ألمانيا في عملية التسابق على التسلح أدى إلى زيادة قوة الوفاق وليس إلى تحطيمه(١٢١).

لاشك أن التسابق على التسلح أدى إلى نتائج عكسية وانعكاسات دولية خطيرة، فقد طلبت بريطانيا من استراليا ونيوزيلندا إنشاء قوات بحرية حديثة(١٢٢) لتحل محل أسطولها في المحيط الهادي وتم سحب جزء كبير منه للعمل في بحر الشمال، كما طلبت من كندا أن يتولى أسطولها مهمة الدفاع عن مضيق جبل طارق مما انعكس على العلاقات بين بريطانيا ودول الكومنولث ، فبدأت تلك الدول تطالب بأن يكون لها رأي في توجيه السياسة البريطانية(١٢٣).

وفي النهاية إذا قيمنا هذا السباق البحري نجده يمثل نمطاً من أنماط الصراعات المسلحة بين القوى الكبرى تكرر كثيراً، ولكنه اعتُبر النموذج الأول لفشل القوى الكبرى في التوصل إلى تحديد التسلح عن طريق التفاوض. ونستطيع أن نستشف من كل ما سبق أنه إذا كانت بريطانيا قد كسبت السباق في النهاية فإن حدة التنافس والعداء واستمرارهما كل هذه الفترة أفسد العلاقات بين البلدين، وأكد انقسام القارة إلى كتلتين متصارعتين مما أسهم بدوره في إشعال الحرب العالمية الأولى، وقد عبر "جراى" عن ذلك بقوله: "إن النمو الهائل للتسلح في أوربا، وما تسبب فيه من الشعور بعدم الأمان والخوف جعل من قيام الحرب أمراً محتوماً"(١٢٤).

هوامش البحث

(١) هـ .أ.ل. فشر، تاريخ أوربا الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠)، تعريب: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٠٣.

(٢) عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة (١٨٧٠ – ١٩٦٠) ، القاهرة د. ت ، ص ٧٦–٧٧؛

Bülow, Bernard. Von, Imperial Germany, Translated by Marie Lewenzima, London1914, pp.20 – 24; Smith, Munroe and Scoll ,James. Brown, The disclosures from Germany, New York 1918, p.72;Parry, Jones, "British Foreign policy in the Nineteenth Century," (History, vol. XX III, march 1939), p.323.

(٣) الأهرام، العدد ٩٤٢٥، ١٨ مارس عام ١٩٠٩، ص١؛

endix V., Extract from minutes of the Committee of Imperial Defense at a meeting of nay,1911, in British Documents in the origins of the first world war (1898 – 1914), :d by G.P., Gooch and Harold Temperley, Vol. VI, Anglo-German Tension: aments and Negotiations 1907-1912, H.M.S.O 1930,P.782,(Henceforth cited as

(٤) - Schmitt, Bernadotte. Everly , England and Germany (1790 – 1914), Oxford 1919, p.198.

(٥) - Lee, Stephen, Imperial Germany (1871-1918), New York 1999, p.15.

(٦) -Wilhelm II (ex-Kaiser), My Memoirs (1888-1918), Translated by Thomas R. Ybarra, London 1922, p.223; Herwig , Holger H.,"Luxury Fleet": the Imperial German Navy (1888-1918), London 1980 p.15.

(٧) -Wyckoff, Richard Lane, The Anglo. German Naval Race, Florida Atlantic University, M.A. 1972, p.3.

(٨) - Tirpitz,Von,My memoirs, vol.I ,New York 1919, PP.119-120;Gooch, G.P., Germany, London 1925, p.51; Woodward .A.W. , Great Britain and German navy, oxford 1936,p.23.

(٩) -Bülow, op. cit, p.19; Lambi , Ivo Nikolai,The Navy and German Power Politics (1862-1914), Boston 1984, p.32;

محمد كمال الدسوقي ، تاريخ ألمانيا ، دار المعارف ١٩٦٩ ، ص ١٠٢.

(١٠) محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، القاهرة ١٩٩٠، ص ٦٤٢، ٦٤٣؛

Kennedy, Paul, Strategy and Diplomacy (1870 - 1945), London 1983, p.43.

(١١) - Herwig, op. cit, p.35; Kaiser, David . E . ,"Germany and the Origins of the First world war", (Journal of modern History, Sept. 1983), p.442.

(١٢) - Padfield, Peter, The Great Naval Race: The Anglo. German Rivalry (1900-1914), London 1974, P.41.

(١٣) الجوائب، العدد ١٩ من السنة السادسة، ٢٥ يناير ١٩٠٨، ص ١؛

Schmitt, op. cit, p.197.

(١٤) - Seaman, L.C.B., Post -Victorian Britain (1902-1951), London 1966, p.52.

(١٥) -Bülow, op. cit, p.93; Dickinson , G. Lowes, The International Anarchy (1904 –

1914), London 1926, p. 382; Haldane, (lord), Before The war, London 1920, p. 139;Mr. Cartwright to Sir Edward Grey, August 17, 1907, B .D, Vol. VI, p.42.

(١٦) قام د. جيمسون مدير شركة جنوب إفريقيا البريطانية عام ١٨٩٥ بمحاولة الإغـارة علـى أراضـي الترنسفال فقام قيصر ألمانيا بإرسال برقية تهنئة لرئيس الترنسفال يهنئه على صد الهجوم في يناير ١٨٩٦ مما ألهب مشاعر الرأي العام البريطاني أنظر : نعمة حسن محمد السيد، بريطانيا وسياسة العزلـة المجيـدة (١٨٧٩- ١٩٠٧) ، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس ١٩٩٩، ص ١٤٤-١٤٥؛

Kennedy, Paul , M .,"The Development of German Naval operations against England(1896-1914)"(English Historical Review , Vol . Lxxxiv, No. 350, Jan. 1974) , pp. 49- 55.

(١٧) - Moll, Kenneth .L.," politics, power and panic: Britain's 1909 Dreadnought Gap".(Military affairs, vol.29,No.3, Autumn1985) ,pp.133 ; Woodward, op. cit, pp23,24.

(١٨) -Wyckoff, op. cit, p.296.

(١٩) - Extracts from Memorandum appended to the German Navy Bill 1900, in Snyder, Louis(ed.), Documents of German History, New Jersey 1958, p. 282, Ludwig, Dehio, Germany and world Politics in the Twentieth Century, London 1959, p.79.

(٢٠) - Marder, Arthur .J. , British Naval policy (1880-1905); The Anatomy of British sea power, London W.D, p.105; Stoll, Richard., "Steaming in the dark? Rules, Rivals, and the British Navy (1860-1913)" The Journal Resolution, Vol.36, No.2, Jun. 1992, p.266.

(٢١) -Enclosure in No.1, Captain Dumas to Sir F. Lascelles, Jan.9, 1907, B.D, Vol. VI, p.1; Ensor, P.C.K., England (1870-1914), oxford 1930, pp.263-264 ; Nowell-smith, Simon (ed.), Edwardian England (1901-1914), Landon 1964, p.510.

(٢٢) -Kennedy, P.M, The Rise and Fall of British Naval Mastery, New York 1976, p.217.

(٢٣) -Vagts . Alfred, "Hopes and Fears of American - German war (1870-1915)," (political science quarterly, Vol.54, No.4, Dec.1939) p.521.

(٢٤) جمعان بطرس فرج الله ، العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ، الجـزء الأول (١٨٩٠ - ١٩١٨) الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤ ، ص ٢٦٢؛

Morrow, Ian. F., "The Foreign Policy of Prince von Bülow (1898-1909),"(Cambridge Historical Journal, Vol .4, No.1, 1939),p.85.

(٢٥) -Enclosure in No. 81, Captain Dumas to sir F. lascelles, British Embassy (Berlin), (٢٥)Feb. 12, 1908, B.D, Vol. VI, p.118; Grey, Edward, Twenty Five years (1892-1916), Vol.1, New York 1925, p.46.

(٢٦) لمزيد من التفاصيل أنظر.

Sumida ,John Testuro, "British Capital ship design and Fire Control in the Dreadnought Era", (The Journal of modern History, Vol.51,No.2, Jun.1979), pp.205-230; Massie, Robert .k., Dreadnought: Britain, Germany and the Coming of the Great war, London 1992, p. 172.

(٢٧) فشر ، المرجع نفسه، ص ١٤٣٥؛

Yerusalinsky, Arkady, German Imperialism: its past and present, Moscow 1969, p.68.

(٢٨) سيدني برادشوي، أسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراجيفو، ترجمة محمد إبراهيم الدسوقي ، الجـزء الأول (الأسباب الخفية للحرب)، القاهرة ١٩٣٤، ص ١٥٦.

(٢٩) -Enclosure in No.6, Captain Dumas to sir F. Lascelles, Mar.21, 1907, p.19; Lowe, C.J. and Dock rill, M.L., The Mirage of Power, vol.1 (the British Foreign policy 1902-1914), London 1972, p.30.

(٣٠) جمعان بطرس، المرجع نفسه، جـ١، ص ٢٦٤؛

Members of Oxford Faculty of Modern History , Why we are at War: Great Britain's Case , Oxford 1914, p. 49.

(٣١) -Seaman, op.cit, p.48; Weinroth, Howard, "Left-wing opposition to Naval Armaments in Britain Before 1914," (Journal of Contemporary History, Vol.6, No.4, 1971), p.94.

(٣٢) جمعان بطرس، المرجع نفسه، ج١، ص ٢٦٢.

(٣٣) Trevelyan, G.M, British History in the Nineteenth Century and after (1782-1919), London 1948, P.464.

(٣٤) -Sontag, Raymond James, European Diplomatic History (1871-1932), New York 1933, P.128.

(٣٥) الجريدة، العدد ١١٧، ٢٥ يوليو ١٩٠٧، ص ١.

(٣٦) المقطم، العدد ٥٤٣٤ ، ١٣ فبراير ١٩٠٧، ص ١ ، والعدد ٥٥٧٣، ٢٦ يوليو ١٩٠٧، ص١.

(٣٧) أ.ج جرانت وهارولد تمبرلي ، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠) ترجمة : بهاء فهمي ، مراجعة : أحمد عزت عبد الكريم ، ج٢، مؤسسة سجل العرب د. ت ، ص١٣٠.

(٣٨) سيدني برادشوي ، المرجع نفسه ، ص ١٥٣.

(٣٩) -Woodward, op .cit, p.151.

(٤٠) -Lowe and Dockrill, op. cit, pp30, 31.

(٤١) المقطم، العدد ٥٤٣٤، ١٣ فبراير، ص١.

(٤٢) - Count de Salis to sir Grey, Berlin D., Nov. 19, 1907, B.D.Vol. VI, p.68; Gooch, G.P., Before the war: Studies in Diplomacy, Vol . 1: The Grouping of the power, Longman 1936, p.266.

(٤٣) -Hiley, Nicholas p.,"The Failure of British Espionage against Germany (1907-1914)", (The Historical Journal, Vol.26, No.4, Dec.1983), pp.867- 889.

(٤٤) - Seton- Watson, R.W., Britain in Europe (1789-1914): A survey of Foreign policy, Cambridge University press 1945, p.619.

(٤٥) - Lowe and Dockrill, op. cit, vol.1, p31.

(٤٦) -Ibid, p.33; Hale, Oren James, Publicity and Diplomacy, with special Reference to England and Germany (1890-1914), London1940, p.264.

(٤٧) -Captain Dumas to sir F. Lascelles, Berlin, oct . 23, 1907, B.D, Vol. VI, p.63.

(٤٨) -Kaiser, op. cit, pp. 454-455.

(٤٩) سيدني برادشوف، المرجع نفسه، ص ١٥٩؛

Kennedy, P.M., The Anglo - German Antagonism (1860-1914), London 1980, p.444; Maurois, André, King Edward and his times, translated by Hamish Miles, London1949, pp.249, 250.

(٥٠) -Lowe and Dockrill , op. cit, pp33,34.

(٥١) عن نص المقابلة انظر:

Bülow , Bernard Von , The Memoirs of Prince Bülow, Vol.III , The world war and Germany's Collapse (1909-1919), Boston 1932, pp.59- 60 ; Rich, Norman, Friedrich Von Holstein: Politics and Diplomacy in The Era of Bismarck and Wilhelm II, Cambridge University Press 1965, p.819.

(٥٢) -Yerusalinsky, op. cit, pp.68-69.

(٥٣) -Parliamentary Debates ,5th. Series,Vol.2, March 17, 18 , 22 , 1909,Cols.930-939, 1075-1146,1235-1342,1483-1562 ;Enclosure in No. 160, Translation of Admiral Von Tirpitz's Speech in the Budget Committee of The Reichstag on March 17, 1909, B.D, Vol. VI , p.250.

(٥٤) -Enclosure in No.44, Extract from The Deutsche Tagezeitung, B.D, Vol .VI, p.591; Churchill, Winston .S. ,The World crisis (1911-1918), Vol.1,London 1938., pp.32-33.

(٥٥) -Trevelyan, G. M., Grey of Fall Odon: The life of sir Edward Grey, Longmans (٥٥) 1940, pp.212, 213.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل عنه انظر :

Gooch, G.p., "Kiderlen-Wachter", (Cambridge Historical Journal, Vol.5, No.2, 1930), pp.178-192.

(٥٧) -Lambi , op. cit ,pp. 295-301.

(٥٨) -Maurer, John. H., "Arms Control and Anglo-German Naval Race Before World War I: Lessons for today", (political science Quarterly, Vol.112, No.2, summer 1997), p.295.

(٥٩) -Nowell – Smith, op. cit , P.513 ; Papayoanou , Paul , "Interdependence , Institutions and the Balance of Power : Britain , Germany and World War I" , (international security , Vol . 20 , No . 4 , Spring 1996) , PP. 57-58 .

(٦٠) -Lowe and Dockrill, op. cit, Vol.1, p.38.

(٦١) جريدة الصحافة، العدد ١٢٨، ١٤أبريل عام ١٩٠٩، ص١٤٤

Sir E. Goschen to sir Edward Grey, April 11, 1909, B.D ,Vol .VI, p.262 .

(٦٢) -Enclosure in No. 468, Memorandum respecting Agreement With Germany, B.D,Vol.VI, p.626; sir E.Goschen to Grey, Aug.21, 1909, Ibid, p.284.

(٦٣) -Lowe and Dockrill, op. cit, Vol.1, p.35.

(٦٤) -Notes by Grey, Aug.31, 1909, B.D. Vol.VI, p.288.

(٦٥) -Enclosure in No. 468, Ibid, p.632.

(٦٦) - Sir E.Goschen to sir Grey, oct.15, 1909, Ibid, p.293.

(٦٧) جرانت وتمبرلي، المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٣٣؛ فرانسوا جورج دريفوس ورولان مـاركس وريمـون بوادفان، موسوعة تاريخ أوربا العام: أوربا من عام ١٧٨٩ حتى أيامنا، جـ٣ ، ترجمة حسين حيدر، ومراجعة أنطوان هاشم، بيروت ١٩٩٥ص٣٧٣.

(٦٨) -Gooch,G.P., "European Diplomacy before the war in the light of archives", (international Affairs, vol.18. No.1, Jan & Feb.1939),p.88.

(٦٩) -Sontag ,op. cit, p.141.

(٧٠) - Lowe and Dockrill. op.cit ,vol.1,pp35-36.

(٧١) -Teed, peter and Clark, Michael, Later Nineteenth century (1868-1919), London 1967, p.158;

ولمزيد من التفاصيل عن لويد جورج وموقفه من ألمانيا أنظر:

Morgan, Kenneth.o.,"Lloyd George and Germany", (The Historical Journal, vol. 39, No.3, sept. 1996), pp.755-766.

(٧٢) -Sir A.Nicolson to Lord Hardinge to Penshurst, F.O, Mar.2, 1911, B.D, vol. VI, p.590.

(٧٣) -Dickinson, op. cit, p.388; Lowe and Dockrill, op. cit, p.36.

(٧٤) -Taylor, A.J.P., The Struggle For Mastery in Europe (1848-1918), Oxford 1954, p.465.

(٧٥) -Lowe and dockrill, op. cit, Vol. 1, p.37.

(٧٦) - Ibid, pp.40-41; Thomson, David(ed.), The new Cambridge – Modern History,vol XII: The era of violence (1898-1945), Cambridge University press 1960, pp.329-330 .

(٧٧) -Wyckoff, op. cit, pp. 82-83.

(٧٨) -Sontag, op. cit, p. 168.

(٧٩) - Seton-watson, op. cit, p. 627; Haldane, op. cit, p.6.

(٨٠) بيوتوفان، تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥-١٩١٤) ترجمة جلال يحيى ، دار المعـارف ١٩٦٨، ص ٧٤٧.

(٨١) فرانسوا جورج دريفوس وآخران، المرجع نفسه، جـ٣، ص ٣٥٣؛

Stieve, Friedrich, Deutschland und Europa(1890-1914), Berlin 1926, p.105.

(٨٢) -Dickinson, op. cit, p.389; Seton-watson, op. cit, p.627.

(٨٣) اختير لورد هالدين لهذه المهمة نظراً لإجادته اللغة الألمانية ، حيث درس وتخرج مـن جامعـة جـوتنجن Göttingen الألمانية، واهتمامه البالغ بالفلسفة الألمانية أنظر :

Lowe and Dockrill, op. cit,vol. 1,p.48; Langhorne, Richard," The Naval Question in Anglo-Germen Relations (1912-1914)," (The Historical Journal, vol. XIV,2, 1971),p.360.

(٨٤) -Churchill,op. cit, vol.1,p.101, Wyckoff,op. cit, p.85 .

(٨٥) -Sontag. op. cit. , pp.166-167.

(٨٦) -Rich. op.cit, p.801.

(٨٧) -Grey to Goschen, Feb.12,1912, B.D,vol. VI,p.689;Maurer, John.H.,"The Anglo-German Naval Rivalry and Informal Arms control (1912-1914)". (The Journal of conflict Resolution, Vol. 36, No.2,Jun.1992),p. 293.

(٨٨) -The parliamentary Debates, 5th series, vol. XXXIV,H.C.1912, Col.20.

(٨٩) -Grey to Buchanan, Feb.7,1912, B.D,vol. VI, P.667; Kennedy, A.L. , Old Diplomacy and New (1876-1922); From Salisbury to Lloyd George. London 1922, p. 198.

(٩٠) -Stieve, op. cit, p.106.

(٩١) -Langhorne, op. cit, p359.

(٩٢) -Diary of lord Haldane's visit to Berlin, Feb. 10, 1912, B.D, vol. VI, P. 506; Murray, Gilbert, Foreign policy of sir Edward Grey (1906-1915), Oxford 1915, p. 119.

(٩٣) -B.D, Vol. VI, pp. 498-499; Haldane, op. cit, p.63.

(٩٤) -Appendix. I, sketch of A conceivable Formula, B.D, Vol. VI, p. 682.

(٩٥) -Notes by sir Nicolson on the sketch of A conceivable Formula, Appendix I to lord Haldane's diary and sir Bertie to sir A. Nicolson, Feb.11, 1912, B.D, vol.VI,pp. 686-687.

(٩٦) -Minute (3), E.A.C., Feb. 12,1912, B.D, Vol. VI, p. 684; Lowe and dockrill, op. cit, vol. I, p. 49.

(٩٧) -Sontag, op. cit, p. 170; Seton – Watson, op. cit, p. 628.

(٩٨) -Hansard parliamentary Debates, 5th. Series, vol. XXIV, 1912, cols 1340-1341.

(٩٩) -Sontag, op. cit, p. 170; Seton-watson, op. cit, p. 628.

(١٠٠) -Sontag, op. cit, p. 171.

(١٠١) -Enclosure in No. 524, Memorandum communicated to count Metternich, B.D, Vol, p. 698; Fay, Sidney, the origins of the world war, New York 1928, p.311.

(١٠٢) -Wyckoff, op. cit, p.92, Churchill, op. cit, Vol.1, p.107.

(١٠٣) الشعب ، العدد ١٤٤ ، ٦ يونيه ١٩١٢ ، ص ١؛ الأهرام ، العدد ١٠٤٣٨ ، ٢٩ يونيه ١٩١٢ ، ص ١.

(١٠٤) -Goodlad , Graham . D., British Foreign and Imperial Policy (1865 – 1919), London 2000, p.79.

(١٠٥) ادوارد غراي ، مذكرات لورد غراي وتبعه الحرب العالمية الكبرى ، بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ إلى ١٩١٦ ، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢٩٩ .

(١٠٦) -Renouvin , Pierre ,"Britain and the continent: the Lessons of History" , (Foreign affairs , Vol. 17, No. 2 , Oct. 1938) , pp.119-120; Yerusalinsky , op.cit , p .73 .

(١٠٧) -Seaman , op. cit , p .54 .

(١٠٨) -Lynn, Jones Sean, "Détente and Deterrence :Anglo-German Relations 1911-1914", (International Security, Vol.11, No.2, Autumn 1986), p.133; Members of Oxford Faculty, op. cit, p.51.

-Dickinson, op. cit, p. 398; Lowe and Dockrill , op. cit , pp. 292- 294.

(١٠٩)

(١١٠) -Renouvin, op. cit, pp.122-123.

(١١١) -Sir Goschen to Nicolson , Oct. 22, 1910, B.D, Vol.VI , P. 536 ; Sontag, op. cit, pp. 143- 144.

(١١٢) -Sontag, op. cit, p. 147.

(١١٣) -Lascelles to Grey, Jan .30, 1908, B.D, Vol. VI, p. 111; Kaiser, op. cit, p.102.

(١١٤) -Memorandum by Sir Charles Hardinge, August 16, 1908, B.D, Vol. VI, p.186; Pribram, Alfred Francis, England and the international Policy of the European powers (1871 – 1914) Oxford 1931, p. 110.

(١١٥) -Minute by Grey on Goschen to Grey, 16 April 1909, Ibid, p.174.

(١١٦) لمزيد من التفاصيل انظر :

Kantorowicz, Herman, the Spirit of British policy and the Myth of the Encirclement, London W.D; Sorolea, Charles, the Anglo-German problem, London 1912, p .281.

(١١٧) -Kruszel, Joseph ," From Rush -Bagot to start : the lessons of the arms control " , (orbis : Journal of world affairs, Vol.30, No.1, spring 1986), p.200.

(١١٨) -Sir Nicolson to Sir Goschen , April 15, 1912, B.D, Vol. VI, P.747; Grey , op. cit, p. 47.

(١١٩) -Dickinson, op. cit, pp. 395- 396.

(١٢٠) -Maurer , The Anglo-German Naval Rivalry , pp.295-296.

(١٢١) سمعان بطرس ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٢٦٨؛

Kennedy, the Rise and Fall of the British Naval Mastery, pp.224; Keefer, Scott, A., Reassessing the Anglo-German Naval Arms Race , PhD., University of Trento 2006, p.18.

(١٢٢) -The parliamentary Debates, 5th series , H.C, 1911, XXV, Col.411.

(١٢٣) سمعان بطرس ، نفس المرجع ، ص ٢٦٩.

(١٢٤) -Keefer, op. cit, p. 1.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

أ – الوثائق المنشورة

- Gooch, G.P. and Temperley, Harold (eds.),British Documents On The Origins ay The First World War (1898 – 1914) , Vol. VI (The Anglo-German Tension : Armaments and Negotiations 1907-1912), H.M.S.O 1930.

- Members of Oxford Faculty of Modern History, Why we are at War: Great Britain's Case . Oxford 1914.

- Snyder, Louis(ed.), Documents of German History, New Jersy 1958.

- Teed, peter and clark, Michael, Later Nineteenth century (1868-1919) London 1967.

- The parliamentary Debates, 5th series H.C, vol-2 1909.

- ----------------------------------, 5th series H.C, Vol.XXV. 1911.

- ----------------------------------, 5th series H.C, Vol.XXXIV . 1912.

ب – المذكرات والسير الذاتية

١ – المترجمة :

– إدوار غراى ، مذكرات لورد غراي وتبعة الحرب العالمية الكبرى ، بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ إلى ١٩١٦، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٩.

٢ – الأجنبية

-Bülow , Bernard Von , Imperial Germany , Translated by Marie Lewenzima , London 1914.

- ----------------------------, The Memoirs of Prince Bülow, Vol.III , The world war and Germany's Collapse (1909-1919) , Translated by Geoffrey Dunlop, Boston 1932.

-Churchill, Winston .S. ,The World crisis, (1911-1918), Vol.1.London 1938.

-Grey, Edward. Twenty Five years (1892-1916), Vol.1, New York 1925.

-Haldane. (lord),Before The war, London 1920.

-Maurois, André, King Edward and his times, translated by Hamish Miles, London1949.

-Murray, Gilbert, Foreign policy of sir Edward Grey (1906-1915). Oxford 1915.

-Rich, Norman. Friedrich Von Holstein: Politics and Diplomacy in The Era of Bismarck and Wilhelm II,Vol II, Cambridge University Press 1965.

-Tirpitz, von, My memoirs ,Vol.1,New York 1919.

-Trevelyan .G. M., Grey of Fallodon: The life of sir Edward Grey, afterwards Viscount Grey of Fallodon, Longmans 1940.

-Trevelyan .G. M., Grey of Fallodon: The life of sir Edward Grey, Longmans 1940.

-Wilhelm II (ex-Kaiser), My Memoirs (1888-1918), Translated by Thomas R. Ybarra, London 1922.

جـ - الصحف والمجلات :

- الأهرام ، العدد ٩٤٢٥ ، ١٨ مارس ١٩٠٩ ،العدد ١٠٤٣٨ ، ٢٩ يونيه ١٩١٢

- الجريدة ، العدد ١١٧ ، ٢٥ يوليو ١٩٠٧ .

- الجوائب ، العدد ١٩ من السنة السادسة ، ٢٥ يناير ١٩٠٨.

- الشعب ، العدد ١٤٤ ، ٦ يونيه ١٩١٢.

- الصحافة ، العدد ١٢٨ ، ١٤ إبريل ١٩٠٩.

- المقطم ، العدد ٥٤٣٤ ، ١٣ فبراير ١٩٠٧، العدد ٥٥٧٣ ، ٢٦ يوليو ١٩٠٧

ثانياً : المقالات

- Gooch, G.P., "European Diplomacy before the war in the light of archives", (international affairs, vol.18, No.1, Jan. Feb.1939), PP.77-102.

- --------, Kiderlen-Wachter", (Cambridge Historical Journal, Vol.5, No.2, 1936), PP.178-192.

- Hiley, Nicholas p., "The Failure of British Espionage against Germany (1907-1914),"(The Historical Journal, Vol.26, No.4 Dec.1983), PP.867- 889.

- Kaiser, David. E., "Germany and the Origins of the First world war", (Journal of modern History, Sept. 1983), PP.442-474.

- Kennedy, P.M., "The Development of German Naval operations Plans against England (1896-1914)"(English Historical Review, Vol. LXXXIV, No. 350, Jan. 1974) , PP.48-76.

- Kruzel, Joseph , " From Rush – Bagot to start : the lessons of the arms control " , (orbis; The Journal of world affairs, Vol.30 , No.1 , spring 1986.

- Langhorne, Richand," The Naval Question in Anglo-German Relations. 1912-1914", (Historical Journal, vol. XIV,2 (1971),PP.359-370.

- Lynn-Jones, Sean, M. "Détente and Deterrence: Anglo – German Relatoins (1911-1914)", (International of Security, Vol. II, No.2, Autumn 1986) , PP.121-150.

- Maurer, John. H., "Arms Control and the Anglo-German Naval Race before World War I: Lessons for Today, (political science Quarterly, Vol.112, No.2, summer 1997), PP.285-306.

- ---------,"Anglo-German Naval Rivalry and Informal Arms control (1912-1914), (The Journal of conflict Resolution, Vol.36, No.2, Jun.1992), PP.284-308.

- Moll, Kenneth.L.," politics, power and panic : Britain's 1909 Dreadnought Gap".(Military affairs, vol.29,No.3, Autumn1985) ,pp.133-144.

- Morgan, Kenneth .o."Lloyd George and Germany", The Historical Journal, vol. 39, No.3, Sept. 1996, PP.755-766.

- Morrow, Ian, F.d., "The Foreign Policy of Prince von Bülow (1898-1909)."(Cambridge Historical Journal, Vol .4, No.1, 1932) PP.63-93.

- Papayoanou, Paul," Interdependence, Institutions and the Balance of Power: Britain,

Germany and World war I", (International security, Vol.20, No.4, Spring 1996), PP.42-76.

- Parry, Jones, "British Foreign policy in the Nineteenth Century," (History, vol. XX III, march 1939), PP.322-330.

- Renouvin , Pierre , "Britain and the Lessons of History" ,(Foreign affairs , Vol. 17, No. 2 , Oct 1938) , pp.101-120.

- Scoll. James Brown," Lard Haldane's Diary of Negotiations between Germany and England 1912," (The American Historical Journal of International Law, Vol.12, No.3, Jul.1918), PP.589-596.

- Sumida, John Testuro, "British Capitalship design and Fire Control in the Dreadnought Era: Sir John Fisher, Arthur Hungerford Pollen and the Battle Cruiser,"(The Journal of modern History, Vol.51, No.2, Jun1979), pp.205-230.

- Vagts , Alfred, "Hopes and Fears of American – German war (1870-1915)," Vol.1 (political science quarterly, Vol.54 , No.4, Dec.1939) PP.514-535.

- Weinroth, Howard, "Left-wing opposition to Naval Armaments in Britain Before 1914,"(Journal of Contemporary History, Vol.6, No.4, 1971), PP.93-120.

ثالثاً : المراجع

أ – المراجع العربية والمترجمة :

– أ.ج جرانت وهارولد تمبرلي ، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩–١٩٥٠)، ترجمة : بهاء فهمي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، جـ٢، مؤسسة سجل العرب د. ت.

– سمعان بطرس فرج الله ، العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ، الجزء الأول (١٨٩٠ – ١٩١٨) الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤ .

– سيدني برادشوفي، أسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراجيفو ، الجزء الأول (الأسباب الخفية للحرب) ، ترجمة محمد إبراهيم الدسوقي ، القاهرة ١٩٣٤ .

– عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة (١٨٧٠ – ١٩٦٠) ، القاهرة د. ت .

– فرانسوا جورج دريفوس وآخران، موسوعة تاريخ أوروبا العام: أوروبا من عام ١٧٨٩ حتى أيامنا، ج٣ ترجمة حسين حيدر، ومراجعة أنطوان هاشم، بيروت ١٩٩٥ .

– محمد كمال الدسوقي ، تاريخ ألمانيا ، دار المعارف ١٩٦٩.

– محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، القاهرة ١٩٩٠.

– هـ .أ.ل. فشر، تاريخ أوروبا الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠)، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة ١٩٤٦.

ب – المراجع الأجنبية:

-Dickinson, G. Lowes, The International Anarchy (1904-1914), London 1926.

- Ensor, P.C.K., England (1870-1914), oxford 1930.

-Fay, Sidney, the origins of the world war, New york 1928.

-Gooch, G.P., Before the war: Studies in Diplomacy, Vol. 1: The Grouping of the power, Longman 1936.

-Gooch, G.P., Germany, London 1925.

-Goodlad, Graham D., British Foreign and Imperial Policy (1865 – 1919), London 2000.

-Hale, Oron James, Publicity and Diplomacy: with special Reference to England and Germany (1890-1914), London1940.

-Herwig, Holger H., "Luxury Fleet": the Imperial German Navy (1888-1918), London 1980.

-Kantorowicz , Herman , the Spirit of British policy and the Myth of the Encirclement , London W.D.

-Kennedy, A.L., Old Diplomacy and New (1876-1922); From Salisbury to Lloyd George, London 1922.

-Kennedy, Paul, Strategy and Diplomacy (1870 - 1945), London 1983.

- ————, The Rise and Fall of British Naval Mastery, New York 1976.

- ————, The Anglo- German Antagonism (1860-1914), London 1980

-Lambi , Ivo Nikolai,The Navy and German Power Politics (1862-1914), Boston 1984.

-Lee, Stephen. J ., Imperial Germany (1871-1918), New york 1999.

-Lowe, C.J. and Dockrill, M.L., The Mirage of Power, vol.1 (the British Foreign policy (1902-1914), London 1972.

-Ludwig, Dehio, Germany and world Politics in the Twentieth Century, London 1959.

-Marder, Arthur .J. , British naval policy (1880-1905) The Anatomy of British sea power, London W.D.

-Massie, Robert .k., Dreadnought: Britain, Germany and the Coming of the Great war, London 1992.

-Nowell-smith, Simon (ed.), Edwardian England (1901-1914), Landon 1964.

-Padfield, Peter. The Great Naval Race: The Anglo-German Rivalry (1900-1914), London 1974.

-Pribram, Alfred Francis , England and the international Policy of the European powers (1871 – 1914), Oxford 1931.

-Schmitt, Bernadotte Everly, England and Germany (1790 – 1914), Oxford 1919.

-Seaman, L.C.B., Post -Victorian Britain (1902-1951), London 1966.

-Seton-Watson, R.W., Britain in Europe (1789-1914): A survey of -Foreign policy, Cambridge University press 1945.

-Smith, Munroe and Scoll, James Brown, The disclosures from Germany, New York

1918.

-Sontag, Raymond James, European Diplomatic History (1871-1932), New York 1933.

-Sorolea, Charles, the Anglo .German problem , London 1912.

-Stieve, Friedrich, Deutschland und Europa(1890-1914), Berlin 1926.

-Taylor, A.J.P., The Struggle For Mastery in Europe (1842-1918), Oxford 1954.

-Thomson, David (ed.), The new Cambridge – Modern History, vol. XII: The era of violence (1898-1945), Cambridge University press 1960.

-Trevelyan, G.M, British History in the Nineteenth Century and after (1782-1919), London 1948.

-Woodward .A.W., Great Britain and German navy, oxford 1936.

-Yerusalinsky, Arkady, German Imperialism: its past and present, Moscow 1969.

رابعاً : الرسائل العلمية

أ – العربية:

– نعمه حسن محمد السيد، بريطانيا وسياسة العزلة المجيدة (١٨٧٩–١٩٠٧)، رسالة ماجستير جامعة عين شمس ١٩٩٩

ب – الأجنبية:

-Keefer, Scott, A., Reassessing the Anglo-German Naval Arms Race, Ph D., University of Trento 2006.

-Wyckoff, Richard Lane, The Anglo-German Naval Race, M.A., Florida Atlantic University 1972.

منشورات اتحاد



القاهـــرة
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن عشر

مـــارس ٢٠١٠م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن عشر

مارس ٢٠١٠م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات الخليج - الهرم

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلـة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبّر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية .

* تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.

* لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن ثلاثين صفحة ، منسوخ الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة ونسخة على : CD .

تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

البحوث والأعمال المقدمة للنشر لاترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.

* * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة.

تليفون / ٢٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٢٨٧٠٠٩١

Email : Arabhistoryso@hotmail.com

المحتويات

كلمة الافتتاح

يصدر اليوم العدد الثامن عشر من مجلة (المؤرخ العربى) بعد رحيل المغفور له - بإذن الله تعالى- الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٢٢-٢٠٠٩) مؤسس اتحاد المؤرخين العرب الذى انتقل إلى الرفيق الأعلى صباح يوم الخميس الموافق ٢٠ رمضان عام ١٤٣٠هـ / ١٠ سبتمبر ٢٠٠٩م بعد أن أثرى المكتبة التاريخية بمؤلفاته وبحوثه ودراساته المتميزة . وترك من بعده مدرسة علمية تدين له بالفضل والريادة . ويدين له المشتغلون فى ميدان تاريخ العصور الوسطى فى الجامعات المصرية والعربية والأجنبية بالفضل والعرفان بالجميل لما قدمه من كتب بلغت سبعة عشر كتابًا ومن بحوث أكثر من ثلاثين بحثًا ، وتحقيقات تراثية فتحت كلها آفاقًا جديدة لجميع المشتغلين فى هذا الميدان .

وانتشر تلاميذ الدكتور سعيد عاشور فى شتى الجامعات فى مصر والعالم العربى، بعد أن نهلوا من علمه وعطائه وخبرته ، واقتبسوا منه الخلق الكريم والعلم الغزير ؛ فقد كان - رحمه الله - ينتمى إلى النخبة الممتازة من رواد الكتابة التاريخية فى مصر والوطن العربى ، وهى النخبة التى تمثل عطاء الأمة الثقافى وقدرة الأجيال على التواصل مع أصولها وجذورها الثقافية والفكرية ، ودفع تلك الجذور إلى النمو والتجديد .

رحم الله الفقيد العزيز ، كان عظيمًا فى أستاذيته ، رائدًا فى تخصصه ، مثالاً وقدوة فى خلقه وسلوكه . ولانملك ونحن نعيش فى هذه الدنيا الفانية، إلا أن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتغمده بواسع رحمته ، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن ينزله منازل الأبرار مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وبصدور العدد الثامن عشر من مجلة (المؤرخ العربى) يشرفنى أن أعلن أن هذه المجلة احتلت مكانة علمية متميزة بين الدوريات التاريخية المتخصصة الصادرة من مختلف الجامعات ومراكز البحوث فى الوطن العربى ، وحازت على تقدير كبير فى اللجان العلمية للترقيات فى الجامعات العربية . ويقوم بتحكيم ما تنشره من بحوث ودراسات صفوة من الأساتذة المتخصصين ضمانًا للجودة ، وتحقيقًا للأهداف الرئيسية لاتحاد المؤرخين العرب وبخاصة الارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية، والعناية بالتراث التاريخى.

ويحتوى هذا العدد على عدد من البحوث والدراسات الجديدة فى التاريخ القديم والوسيط والإسلامى والحديث ، ومعيار الانتقاء للصلاحية للنشر هو التميز والجدية والأصالة. ومن الناحية الجغرافية لم تقتصر البحوث المنشورة على تاريخ قطر واحد بعينه ، وإنما احتوى العدد على بحوث تلقى أضواء جديدة على موضوعات من تاريخ مصر والشام واليمن والحجاز وغيرها.

ويناشد اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة السادة الأعضاء بموافاة هيئة تحرير مجلة (المؤرخ العربى) بآرائهم ومقترحاتهم ، وتقارير الندوات والمؤتمرات التاريخية التى تعقد فى الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية المتخصصة فى أنحاء الوطن العربى، وعناوين أهم الإصدارات التاريخية حتى يتسنى نشره على صفحات (المؤرخ العربى) تحقيقًا للتواصل المنشود بين أعضاء الاتحاد حتى تخرج المجلة من المحلية والاقليمية إلى العالمية.

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

كلمة التحرير

يصدر عدد جديد من مجلة المؤرخ العربى ليضيف جديدًا إلى رصيدها الثقافى والعلمى فهى سجل حافل لسنوات عديدة من العطاء الفكرى أسهم أعضاء الاتحاد من المؤرخين فى جميع أنحاء الوطن العربى باثرائه والإضافة إلى رصيده بمؤلفاتهم وأبحاثهم التى شملت شتى نواحى التاريخ وحقبه المختلفة . والمجلة تعتبر مرجعًا أساسيًا للباحث فى تاريخ وطننا العربى بمختلف عصوره وهذا التنوع منحها صفة الاستمرارية والتجديد .

وهذا العدد ضم نخبة من المقالات تبدأ بالتاريخ اليونانى الرومانى وبحث للأستاذ الدكتور محمود السعدنى عن نقش أماسيس المصرى لننتقل إلى عصر الرسالة والإسلام حيث تعرضت الدكتورة هيا بنت على النعيمى لحركة الردة فى البحرين عقب وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم فتحه لبلاد الشام فى عصر الخلافة الراشدة ووضع أهل الذمة للدكتور رضوان الليث ثم ننتقل لليمن فى عهد الدولة الرسولية فى اليمن وعلاقتها بحكام الهند والصين إلى أن يصل لعصر المماليك الذى تناولته من البوابات إلى النهاية عدة أبحاث منها نقابة الأشراف فى مصر عصر سلاطين المماليك والسفارات بين دولة الأمة الزيدية ودولتى الطاهريين والمماليك الجراكسة، ودراسة للجوانب السياسية والحضارية للحجاز من خلال كتابات ابن بطوطة ، كذلك حظيت الخلافة العثمانية وفترة حكمها بعدد من الأبحاث ألقت الضوء على جوانب عديدة عن سياسة السلطان بايزيد الأول فى الفتح العثمانى وموقعة أنقره ، وبحث آخر عن العثمانيين والمغول فى مذكرات يوهان شيلتبر جر، ودراسة حضارية عن الصحة العقلية فى القاهرة العثمانية وبحث التراجم فى المدرسة التاريخية المكية فى القرن العاشر الهجرى، فهى دراسات منوعة شملت الفترة اليونانية والإسلامية الأولى وعصور المماليك والعثمانيين وشملت مصر والحجاز واليمن والصين والهند أى طرقت بنا بأقلام متخصصة عبر الزمان والمكان، وأرجو أن يضيف هذا العدد من المجلة إلى القراء جديدًا .

هيئة التحرير

أ.د. حامـد زيـان

أ.د. عفـاف صبـرة

أ.د. عفيفى محمود

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة عطا

الدكتور عبدالغني علي الأهْجُرِي (*)

سفارتان بين دولة الأئمة الزيدية ودولتي الطاهريين والمماليك الجراكسة

على عهد الإمام الزيدي المتوكل يحيى شرف الدين الحسني

تظل السفارات واحدة من أهم مجليات العلاقات المتشابكة بين القوى السياسية مهما تباينت طبيعة هذه العلاقات ما بين السلم والحرب، التحالف والتنافر، التقارب والتخاصم، وتُعدُّ الوثائق المنقولة بين أطراف السفارات - سواء نُقلَتْ شفاهةً أو كتابياً - واحداً من أهم مصادر المادة التاريخية الأصلية وأكثرها صدقاً، فكاتبو تلك الوثائق ليسوا بشهود عيان فحسب، بل هم الأطراف التي صنعت الأحداث التي حُرِّرَت الوثائق حولها ومن أجلها، مع افتراضنا وجود مراعاة لاعتبارات المجاملات ومراسم التقرب وألفاظ التودد بين الأطراف أثناء صياغتها، فهي تلقي الضوء - من خلال مضامينها الصريحة أو الضمنية - على جوانب مهمة من تاريخ تلك القوى السياسية في فضاءات لا يتطرق المؤرخون - غالباً - إلى تغطيتها، كما أن دراسة السفارات إجمالاً يساعد في تسليط الضوء على جوانب غالباً ما تكون هامشية في ثنايا الحديث عن الجوانب المختلفة للتاريخ، وخاصة بعض حوادث التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعسكري.

وفي مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي يقلُّ وجود القدر الكافي من نصوص الوثائق السياسية التي قامت بنقلها السفارات بين القوى السياسية اليمنية أو بينها وبين

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بقسم التاريخ في كلية التربية - جامعة صنعاء، الجمهورية اليمنية.

غيرها من القوى غير اليمنية، ولعل سبب إغفال كثير من المؤرخين اليمنيين لتضمين تلك النصوص في مؤلفاتهم هو نظرتهم إليها على أنها من ضروب الاستطراد غير المحمود في تفاصيل الأحداث التي أرخوا لها .

في هذا البحث نقف مع اثنتين من أهم وثائق السفارات التي تضمنتها المصادر التاريخية اليمنية، تم تحريرهما في العقدين الثاني والثالث من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولم ينقل إلينا نصهما كاملاً إلا واحداً فقط من المؤرخين اليمنيين، هو المؤرخ الحسن ابن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبدالقادر شرف الدين الحسني (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)[1] في كتابه القيم (المواهِبُ السَّنِيَّةُ مِمَّا مَنَّ بِهِ اللهُ تعالى من الفَواكِهِ الجَنِيَّةِ من أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ المُتَوكِّلِيَّة)، وهذا المؤرخ من أحفاد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين، ذلك الإمام الزيدي الذي يُعدُّ الطرف الرئيس في هاتين السفارتين، ويبدو أن هذا المؤرخ قد وجد نص الوثيقتين كاملاً ونقلهما، إما لاطلاعه على بعض المصادر الخاصة بالإمام المتوكل شرف الدين نفسه مما لم يطلع عليها غيره من المؤرخين، أو أن محتوى الوثيقتين كان متاحاً لغيره من المؤرخين السابقين غير أنهم لم يُقدِّروا أهمية تضمين النَّصَّيْن كاملين في مصادرهم، واكتفوا بالتطرق إلى ذكر حصول تلكم السفارتين .

الوثيقة الأولى هي الخاصة بالسفارة التي بعثها الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين(ت٩٦٥هـ/١٥٥٧م) – رأس الدولة الزيدية باليمن في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكانت وجهتها بلاط السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الظاهر (ت٩٢٣هـ/١٥١٧م)، أقوى سلاطين الدولة الطاهرية باليمن وأكثرهم قوة ونشاطاً عسكرياً، وتنوع محتواها ما بين الوعظ والتحذير والتهديد، وقد جاءت السفارة في سياق الصراع الدموي الكبير بين الدولتين حول مناطق النفوذ على الساحة اليمنية والذي كانت فيه الكفة راجحة لصالح الدولة الطاهرية .

أما الوثيقة الثانية فقد حملتها السفارة التي بعثها الإمام المتوكل شرف الدين نفسه إلى الأمير حسين الكردي، قائد الحملة التي جردتها دولة المماليك الجراكسة على عهد السلطان قانصوه الغوري(ت٩٢٢هـ/١٥١٦م) لمواجهة النفوذ البرتغالي المتزايد في السواحل الهندية ومياه المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي، الذي مثل بؤرة نزيف كبير للمقدرات الاقتصادية

لدول المنطقة بشكل عام، إضافة إلى كونه تهديداً دينياً لوضعه استهداف الأراضي المقدسة بالحجاز ضمن مخططاته الاستعمارية .

السفارة الثانية في أصلها هي نتيجة طبيعية لفشل السفارة الأولى، فقد كانت الغاية منها الاستنجاد بالحملة المملوكية وطلب النصرة والعون من قائدها إزاء العنت الذي واجهه الإمام الزيدي أمام القوات الطاهرية، ومحاولة منه لإيقاف حملة الإبادة التي قادها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب لأفراد الشريحة العلوية الشيعية الزيدية والفاعلة سياسياً وعسكرياً آنذاك .

ومما يزيد من أهمية هاتين السفارتين هى النتائج المترتبة عليهما، فقد تمخضتا عن أحداث كبيرة بلغت حد تحول الحملة المملوكية عن مسارها المرسوم، واقتحام الأراضي اليمنية، والدخول في صراع مسلح دموي مع الدولة الطاهرية، كانت فيه الدائرة على الدولة الطاهرية، قتل في آخر أحداثها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري عند أسوار صنعاء، هو وأخيه الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب وذلك سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وهو ما مثل انهياراً شبه كامل للدولة الطاهرية، واستيلاءً للقوات المملوكية على مساحة واسعة من أراضى اليمن، ولم يوقف استمرار زحفها على المناطق المتبقية سوى هزيمة الدولة الأم – دولة المماليك الجراكسة في مصر– في موقعة مرج دابق الشهيرة في السنة نفسها، ومقتل السلطان قانصوه الغوري على أيدي القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول .

ويجمل بنا في البداية إيراد إشارة تعريفية – بلا إسهاب ولا إخلال– بالشخصيات الثلاث الأهم، التي مثلت المحاور الرئيسة لهاتين السفارتين، وهذه الشخصيات هي: السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، والأمير المملوكي حسين الكردي، والإمام الزيدي المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين.

السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري(٨٩٤–٩٢٣هـ/١٤٨٩–١٥١٧م) :

هو السلطان الظافر الثاني صلاح الدين عامر بن عبدالوهاب بن داود الطاهري، الأموي القرشي نسباً، الشافعي الأشعري مذهباً وعقيدةً، رابع سلاطين الدولة الطاهرية باليمن، وأكثرهم

شُهرةً وسَطوةً وقوةً وهيبةً، وأطولهم حكماً، يُشار إلى مدة حكمه بالبنان، وتسترعي انتباه الباحثين في تاريخ اليمن -والمُطَّلِعين عليه- فيتوقفون عندها، فهي في نظرهم جديرة بالدراسة لأمور عدة، أهمها : أنها أطول مدةِ حَكَمَ فيها مَلِكٌ طاهريٌّ[٢]، ولما عُرِفَ به هذا السلطان من الصفات المتميزة حكماً وإدارةً وعلماً وعمراناً[٣]، وكذلك لما تميز به عهده من شدة الصراع وقوة احتدامه بين القوى السياسية الداخلية الكثيرة، كالصراع في إطار التنافس على العرش بين السلطان نفسه والأمراء الطاهريين من أخواله أبناء السلطان الظافر الأول عامر بن طاهر[٤]، والصراع الكبير بين الدولة الطاهرية والأئمة الزيدية على مناطق النفوذ والتوسع[٥] - وإن أعطى كل طرف منهما تأصيلاً شرعياً يبرر صراعه مع الآخر - والصراع الشديد بين الأئمة الزيدية أنفسهم -مع بعضهم بعضاً- بعد أن تعدد الداعون إلى أنفسهم بالإمامة منهم، والصراع - شبه الدائم - مع أغلب القوى القَبَلِيَّة في تهامة ويافع[٦] وبَيْحَان[٧] وغيرها من المناطق .

ومما يجعل مدة حكم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري مميزةً عن غيرها - أيضاً - أنها تُعد من أخطر المراحل التاريخية التي مر بها اليمن، وخاصة العشرين سنة الأخيرة منها، فقد ظهر على المسرح الدولي - ثم الإقليمي - قوةٌ بحريةٌ استعماريةٌ عاتيةٌ - بمقياس ذلك العصر - ألا وهي قوة البرتغاليين، وكانت اليمن واحدةً من أكثر الأطراف تضرراً من هذا التحول الكبير، ذلك التحول الذي أحدث هزة عنيفة غيرت موازين القوى على مستوى العالم القديم، وهذا التحول بدوره أدى إلى دخول اليمن في صراع مع بعض القوى الخارجية، في مقدمتها قوة المماليك الجراكسة الحاكمين لمصر في هذه الفترة، ونتج عنه - في آخر مراحل هذا الصراع - القضاء على السلطان الظافر الثاني ؛ وتعريض الدولة الطاهرية عموماً إلى الانهيار .

الأمير حسين الكردي (ت٩٦٥هـ/١٥٥٧م):

الأمير حسين الكردي هو أحد القواد البارزين في الأسطول البحري المملوكي، أُوكِلت إليه مهمة القيام بالتصدي للبرتغاليين في الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي، وخاصة أمام الشواطئ الهندية التي تمثل المصدر الأم لتجارة التوابل، التجارة الأهم والأثمن على مدار قرون طويلة في العصرين القديم والوسيط، بل حتى مشارف العصر الحديث، وقد قاد الأمير حسين الكردي حملتين في هذا الصدد، وتكللت مساعي الحملة الأولى في سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)

بالنجاح فيما تغير مسار الحملة الثانية عندما اتجهت صوب عمق الأراضي اليمنية لتدخل في صراع مرير مع الدولة الطاهرية، والذي أسفر عن تمكن القوة المملوكية من القضاء على معظم قوة الطاهريين وقتل آخر سلاطينهم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب السابق ذكره .

الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين[٨](٩١٢هـ-٩٦٥هـ/١٥٠٦ - ١٥٥٧م):

هو الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين[٩] بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني العلوي نسباً، الزيدي المعتزلي مذهباً وعقيدةً، حفيد الإمام الزيدي الشهير المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت.٨٤٠هـ/١٤٣٦م) الذي أعلن نفسه إماماً عام٧٩٣هـ/ ١٣٩١م إثر وفاة الإمام الزيدي الناصر صلاح الدين محمد بن علي الحسني، كما أنه سبطُ الإمام الزيدي المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي الحسني(ت٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) .

أعلن المتوكل على الله يحيى شرف الدين إمامته للزيدية في ظرف من أحلك ظروف تاريخها باليمن، فقد تمكن السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري من كسر شوكتها، وقهر قوتها، وتشتيت جموعها، وزرع الإحباط في نفوس قادتها وأتباعها، إذ انتزع منها أعز حصونها وقلاعها وأمنعها، وفرق كثيراً من رجالها ما بين قتيل أو أسير أو هائم على وجهه في البلاد، ولم يبقَ من متصدري الإمامة الزيدية سوى الإمام الناصر الحسن بن عزالدين بن الحسن الحسني(ت٩٢٩هـ/١٥٢٣م)[١٠]، الذي كان منطوياً على ذاته في أقصى شمال اليمن، ولم يكن بيده من مفاتيح تحريك الأمور ما يجعله يخطو الخطوة الأولى لإقالة العثرة الزيدية أو تحريك ما ركد من مائها .

لما أعلن الإمام المتوكل شرف الدين إمامته سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) بعث رسله منطلقاً من حصن الظفير[١١] طالباً البيعة من خاصة الزيدية وعامتها[١٢]، ولم تكن الاستجابة له كبيرةً في بداية أمره نظراً للسطوة التي كانت للدولة الطاهرية وشدتها في التعامل مع العناصر الزيدية ومن تعاون معها، إضافةً إلى أنه لم يكن قد عُرف لديهم كشخصية يعلق عليها الآمال في إحداث الفرق في الوضع القائم يومئذ .

كانت السنوات التالية لإعلان إمامة المتوكل يحيى شرف الدين تشهد بلوغ القوات الطاهرية إلى ما لم تكن قد وصلت إليه من المناطق في عمق الرقعة الجغرافية الزيدية بشمال صنعاء وغربها، كدخولها حصن ثلا وقلعة كوكبان سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) مع حصنين آخرين بجوارهما، وفي سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) أرسل السلطان الظافر الثاني عامر نائباً عنه إلى صعدة مشفوعاً بحامية صغيرة، غير أنه فشل في بلوغ مرامه، ثم وضع يده على مناطق أخرى إضافية لتبلغ الدولة الطاهرية عندئذٍ أقصى امتدادٍ لها على الأرض اليمنية.

كانت الأساطيل البرتغالية في هذه الأثناء قد رفعت من وتيرة نشاطها العدواني على السفن التجارية العربية في المحيط الهندي بما لا يسع القوى المتضررة السكوت عليه، وكانت مصر المملوكية هي المتضرر الأكبر؛ لذلك أرسلت حملتين بحريتين لمواجهة البرتغاليين، انطلقت الحملة الثانية منهما سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) ورست في جزيرة كمران، وقد رأى الإمام المتوكل شرف الدين في وجود هذه القوة فرصة لكسب موقفها وتوظيفه في دعم جهوده في مواجهة الطاهريين، لذلك قام بمراسلة أمير الحملة، الأمير حسين الكردي، شاكياً إليه السلطانَ الظافرَ الثاني، معدداً مظاهر اضطهاده لآل البيت النبوي ومساوئ حكمه، ومطالباً إياه بالنصرة[١٣]، وكان الأمير حسين الكردي في حاجة إلى استجلاء موقف السلطان الظافر الثاني من حملته، فلما بلغه موقفه المتخاذل منها، واستعداده لمواجهتها بدلاً عن دعمها وتوفير كل أشكال التعاون معها، رد على الإمام المتوكل شرف الدين بما يؤكد دعمه له.

ولما وقع الصراع بين الحملة المملوكية وبين الدولة الطاهرية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وتحققت الهزيمة الكبيرة للطاهريين في السنة التالية، ومقتل السلطان الطاهري في هذا الصراع، وسيطرة المماليك على كثير من المناطق اليمنية بما فيها صنعاء، كان موقف الإمام المتوكل شرف الدين سلبياً من الطرفين، وذلك في انتظار ما سيسفر عنه الصراع الدائر، ولكنه أحس بأن المماليك عازمون على مواصلة التوسع في اليمن، وهو ما دعاه إلى رفض هذا التوجه والقيام بأولى خطوات الصدام معهم بدخوله حصن ثلا في السنة ذاتها (٩٢٣هـ/١٥١٧م)؛ فضرب عليه المماليك حصاراً لم يرفعوه إلا عندما بلغهم خبر مقتل سلطانهم قانصوه الغوري ثم سقوط دولتهم على أيدي الجيوش العثمانية[١٤].

الخلفية الفكرية والسياسية للصراع في اليمن عصرئذٍ :

من المعروف أن الزيدية هي أحد فِرقَتَي الشيعة الرئيستين[١٥]، والحضور التاريخي الحقيقي للزيدية في اليمن – من الناحية الفكرية والفقهية – قديم، تعود بداياته الأولى إلى أواخر القرن الثالث الهجري ، ومن أهم أركان الفكر الشيعي الزيدي القول بالإمامة، فقد تضمنت رسائل المؤسسين والمنظرين للفكر السياسي والعقائدي الزيدي الأوائل إشاراتٍ صريحة بأن الإمامة أصل من أصول الدين التي لا يصح إسلام المرء بدونها ، ومفهوم الإمامة في الفكر السياسي الزيدي يمكن إجماله في حصر أحقية الفاطميين من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب في الحكم دون غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية، وقد زال إحساس العلويين بكونهم ضيوفاً على اليمن منذ السنوات الأولى لوصولهم إليها ، إذ اتخذوا من أتباع الفكر الزيدي وحَمَلَتِه ركيزة للتوسع السياسي على حساب القوى اليمنية الأخرى، واستمر هذا الفكر وقوداً لمعظم أوجه الصراع الدموي بين اليمنيين من أتباع الفرقة الزيدية وغيرهم طوال فترات تاريخ اليمن حتى مطلع التاريخ المعاصر .

كان العامل الفكري هذا مُذْكياً إضافياً لمسببات الصراع الأخرى – الجغرافية والقَبَلِيّة والاقتصادية – التي كانت تدفع اليمنيين للاشتباك مع بعضهم منذ مراحل ما قبل اعتناقهم جميعاً للدين الإسلامي، ومن ضمن الدوافع الفكرية العقائدية أيضاً التي أسهمت – دائماً – في إذكاء الصراع بين اليمنيين اتهام الأئمة الزيدية وعلمائها لبقية اليمنيين بأنهم يقولون بعقيدة الجبر، وبالتالي وجب جهادهم وقتالهم، أو دفعهم – على الأقل – عن المساحات الجغرافية التي يقطنها أتباع الفرقة الزيدية، وقد اتضح ذلك بجلاء في مراسلاتهم الثنائية الأدبية، الشعرية والنثرية، منها تلك القصيدة التي نظمها – في المدة ذاتها – الإمام الزيدي المنصور بالله محمد بن علي الوُشَلي السراجي (ت ٩١٠هـ/١٥٠٤م)[١٦] يهدد فيها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري (ت٩٢٣هـ/١٥١٧م) في غمرة صراعهما على صنعاء، فقال الإمام الوُشَلي:

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لَمْ تَرَوْها وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَيْدِينا نَعَامُ
وَنَجْزِيْكُم بِفِعْلِكُمْ قَدِيْماً جَزَاءً لا خَفَاءَ ولا انكِتَامُ
سَيُهْزَمُ جَمْعُكُمْ يَوْمَ التَّلاقِي ولا يُغْنِي عَنِ القَتْلِ انهِزَامُ

وَلَكِنَّا سَنَقْتُلُ مَنْ أَرَدْنا ... وَنَأسِرُ مَنْ نَشَاءُ ولا نُضَامُ
وَتُشْرِقُ أَرْضُنَا بالعَدْلِ[١٧] فِيْها ... وَيُنْفَى الظُّلْمُ إِذْ حَصَلَ المَرَامُ
ونَحْمَدُ رَبَّنا ونَقُولُ بُعْداً ... لأَهْلِ الظُّلْمِ إِذْ حَصَلَ المَرَامُ
كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ وقَوْمُ عَادٍ ... وأَهْلُ الأَيْكَةِ القَوْمُ اللِئَامُ[١٨]

ومنه كذلك تحريضه واستنفاره لإمامين زيديين معاصرين له كان أحدهما يحكم منطقة صعدة وما حولها - هو الإمام الهادي عزالدين بن الحسن (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، بينما تمركز الآخر في صنعاء - وهو الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد (ت٩٠٨هـ/١٥٠٢م) - لكي يقوما بصد السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري، وجعل مدخله لاستثارة حفيظتهما التركيز على (الجبرية) باعتبارها معتقداً يقول به السلطان، من وجهة نظره، وهي في حدّ ذاتها لدى الزيدية مسوغ كافٍ لقتاله، وسبب مقنع لحربه، وخاصة إذا ما كان قد أصبح خطراً محدقاً بالمذهب الزيدي نفسه ومهدداً إياه بالإزالة، ولذلك قال الإمام المنصور الوشلي في تحريضهما :

وصَنْعَاءُ المَدِيْنَةُ في بَلاءٍ ... أَحاطَ بِسُوْرِها القَوْمُ الطُّغَامُ
ذَوُو الجَبْرِ الذِيْنَ لَهُمْ قِتَالٌ ... يُلازِمُهُ الشَّنَاعَةُ والمَلامُ
إلى البَارِيْ أَضَافُوا كُلَّ فِعْلٍ ... قَبِيْحٍ لا حَيَاءَ ولا احتِشَامُ[١٩]
وأَنَّ زَعِيْمَهُمْ رَجُلٌ غَشُوْمٌ ... عَلَى صَنْعَاءَ نِيَّتُهُ المَقَامُ[٢٠]

وقال أيضاً في السياق نفسه :

فَيَا مَلِكَيْ صَنْعَا وصَعْدَةَ أَنْتُما ... لِفُلْكِيْ نَجَاةٌ في بِحَار تغْرَقُ
ويا مَلِكَيْ آلِ الرَّسُوْلِ تَدَارَكا ... هُدَىً كَادَ في بَحْرِ الضَّلالَةِ يَغْرَقُ
هُوَ المَذْهَبُ الزَّيْدِيُّ مَذْهَبُ جَدِّكُم ... بِطَلْعَتِهِ نُوْرُ الهِدَايَةِ يَبْرُقُ
فَحَامُوا عَلَيْهِ بالصَّوَارِمِ والقَنا ... وأَرْوُوا ظَمَاهَا مَنْ دَمِ القَوْمِ يُشْرِقُ[٢١]

وفيما يتعلق بالمدة التي نتناولها في هذا البحث أضيف عاملان آخران إلى قائمة العوامل السابقة، زادا من حدة الصراع بين الدولة الطاهرية والأئمة الزيدية، أما العامل الأول فهو رغبة السلاطين الطاهريين في الأخذ بالثأر من الأئمة الزيدية الذين قامت قواتهم بقتل السلطان الطاهري المؤسس الظافر الأول عامر بن طاهر سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٦م)، وأما العامل الثاني فهو اجترار الطرفين للماضي المتمثل في استحضار عقدة الصراع الجاهلي بين الأمويين الهاشميين في مكة إضافة إلى ما وقع ضمن أحداث الفتنة الكبرى وفي مدة حكم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، إذ أن السلاطين الطاهريين كلهم ينتسبون إلى بني أمية في حين أن الأئمة الزيدية جميعاً من بني هاشم .

ويقتضي الإنصاف أن نذكر أن اليمنيين من غير أتباع الفرقة الزيدية – من جانبهم – قد بادلوا الزيديين نظرة عدم الرضا بمثلها، فقد نظروا إلى الزيدية على أنها إحدى الفرق الضالة، أو على الأقل المبتدعة[٢٢]، وذلك لعدد من الاعتبارات الفكرية العقائدية والاختلافات الفقهية المذهبية، إذ أن بعض كبار علماء الزيدية وأئمتها قد خاضوا في مسألة الصحبة والصحابة وقدحوا في بعض أعلامهم، إضافة إلى تبني الزيدية للعقيدة الاعتزالية بينما كان بقية اليمنيين متبنين إما للعقيدة السلفية الحنبلية أو الأشعرية، وكلاهما خصمان تاريخيان للمعتزلة؛ فانعكس ذلك على موقفهم السياسي من الإمامة الزيدية نفسها، وكان موقفهم متسماً بديمومة الرفض وعدم القبول، وقد غذَّتْ هذه القناعة أفراد الجيوش التي قادها السلاطين – والطاهريين منهم – في صراعهم مع القوة الزيدية، ومن المعروف بداهة أن أشرس المعارك هي تلك التي تدور بين طرفين كلاهما يزعم أنه يقاتل باسم الله تعالى وجهاداً في سبيله .

السفارة الأولى : أرسلها الإمام شرف الدين إلى السلطان الظافر الثاني عامر الطاهري :

هناك أهمية كبيرة لمعرفة المناسبة التي تم بعث هذه السفارة في أجوائها، وقد سبقت الإشارة إلى أن الزيدية قد واجهت ظروفاً قاسية لم تمر بمثلها طوال تاريخ وجودها في اليمن، إذ تمكن السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب من كسر شوكتها، وقهر قوتها، وتشتيت جموعها، فزرع الإحباط في نفوس قادتها وأتباعها، وذلك لأنه حقق ضدها انتصارات كبيرة جداً، تمكن على إثرها من انتزاع أعز حصونها وأمنع قلاعها، ومد نفوذه إلى معظم الرقعة الجغرافية التي مثلت عمقاً لدولة الأئمة الزيدية، وفرق كثيراً من رجالها ما بين قتيل أو أسير أو هائم على

وجهه في البلاد، ولما فشل الإمام المتوكل شرف الدين في استعادة - ولو بعض - ما فقدته الدولة الزيدية، قام بتحرير هذه الوثيقة وبعثها إلى السلطان الطاهري المذكور وذلك في سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م).

تعليق على وثيقة السفارة الأولى :

تعد وثيقة هذه السفارة - مقارنة مع غيرها من الوثائق السياسية التي تضمنتها المصادر التاريخية اليمنية - هي الوثيقة السياسية الأطول، والأكثر تفصيلاً في موضوعها، ويمكننا أن نجمل أهم ملامح هذه الوثيقة في النقاط الآتية:

(١) تعد هذه الوثيقة واحدة من وثائق الفكر السياسي الزيدي المهمة؛ ذلك لأنها تضمنت تمسكاً بفكر الإمامة الذي أرسى دعائمه قدماء منظري الزيدية ومؤسسو دولتها في اليمن، وفي الوقت نفسه ألمحت بشكل واضح إلى قبول الزيدية - ممثلين بإمامهم يحيى شرف الدين - التفاوض حول حلول وسطى يمكن القبول بها في غمرة حالة الضعف التي أصابت الزيدية تحت وطأة السطوة الطاهرية، وهي نغمة لم تُؤثَرْ عن غيره من الأئمة الزيديين السابقين.

(٢) في ثنايا المحتوى الفكري لهذه الوثيقة ثمة موضوع مناسب لدراسته من قِبَل المتخصصين في الفكر السياسي والسياسة الشرعية، لعلهم يجدون فيها دليلَ تجديدٍ تقدميٍّ اضطراري في فكر الإمامة عند الزيدية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، خاصة أنها صادرة عن واحد من أشهر أئمة الزيدية باليمن على الإطلاق.

(٣) استخدم الإمام شرف الدين في كتابة هذه الوثيقة أسلوباً هو أقرب لطريقة الوعظ الديني والترويج الفكري منه للخطاب السياسي، لذلك ضمنها عدداً كبيراً من الآيات القرآنية الداعمة لوجهته الفكرية وقناعته السياسية، بلغ عددها ستة وعشرين آية قرآنية، معللاً ذلك بقوله : " ... بل ندعوكم إلى تأمل آيات القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ ولهذا استكثرنا في رسالتنا من آيات القرآن للقطع بحفظه من الخلل والزيادة والنقصان، ولم نستكثر من إيراد أحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى أولاد فاطمة البتول وسلم؛ لقلة المتواتر منه والمتلقى بالقبول، واحتياج الأحادي منه إلى معرفة الرجال العدول، والمعروف منهم والمجهول، الذي لا يخبط فيه إلا العلماء الفحول ... "(٢٣).

(٤) قام محرر الرسالة بتكرار التذكير بشواهد التقارب بين المذهب الزيدي والمذاهب السنية الأخرى الشافعية والحنفية والمالكية، ناصحاً السلطان الطاهري الظافر الثاني بمراجعة أقوال العلماء المتقدمين من علماء المذاهب المشار إليها، والدالة على التزامهم الولاء والمودة لآل البيت النبوي، يتضح ذلك في مثل الفقرة التي يقول فيها: " وإذا كنت من أهل التقليد، لمن لم يعرف حكم الشرائع المفيد، فإن عليك فرضاً واجباً، وحتماً لازباً، وهو التزام من تركن على فضله ووعده، وعدم طمعه في الدنيا وهلعه، أن يتلو عليك نصوص العلماء المتقدمين من الشافعية والحنفية والمالكية، إذ لم يكونوا ليميلوا عن علماء أهل البيت الطاهرين ... "[٢٤] إلى أن قال : " ... فلا تظن أن بين المذهب الزيدي وبين مذاهب الفقهاء الأقدمين عداوة، وكلٌ منهم يصوِّب الآخر في اجتهاده، ولا يخطِّيه في مذهبه واعتقاده، وإنما فرق بينهم علماء السوء المتأخرون ..."[٢٥] .

(٥) تضمنت هذه الوثيقة معلوماتٍ تاريخية لم تُشِرْ إليها أيٌ من المصادر التاريخية اليمنية المعروفة والمتداولة إطلاقا، وهي الإشارة إلى أن بعضاً من أقارب الإمام يحيى شرف الدين قد انضم إلى البلاط الطاهري، منابذاً قومه وأهل مذهبه، ومتخذاً منهم موقف الضد السياسي، ولعله كان يلعب دور الدليل والمستشار للسلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب في حربه ضد الزيدية وأئمتها، وأشارت الوثيقة إلى أنه كان متولياً بعض المهام لدى الإمام شرف الدين ثم حدث ما جعله ينقم عليه فاتخذ جانب الطاهريين وأخذ في تحريضهم ضده، تقول الوثيقة : "... وكأني بمن عندك من أهل مذهبنا- بل من بعض قرابتنا - يقول: لقد فعلت هذا الوجه بمن هو عنده، وذلك قول غير صحيح، صادر من غير نصيح، فإنه يعلم - وأنت تعلم - أنك غير فاعل لذلك، لأحد من أهل الممالك، ولعلك تعلم - ونحن نعلم - مما نقمنا على المشار إليه، عدم صلاحه لما عُوِّلَ فيه عليه ..." [٢٦] .

(٦) تَصَوَّرَ محررُ الوثيقةِ ما يمكن أن تكون حُجَجاً للسلطان الطاهري في هجومه الكاسح على الزيدية، فكان يفترضها ثم يقوم بالرد عليها، وهي من أساليب المعتزلة الفلاسفة، والمتضلعين بعلوم المنطق وطرائق الجدل، لذلك نجد تكراراً لعبارات أمثال قوله : فإن قلت ... فلماذا لم ...

(٧) من ملامح البناء اللغوي في هذه الوثيقة حفاظ محررها على ما كان متعارفًا عليه من الإكثار من المحسنات البديعية كالسجع وغيره، واستخدامه التناص واستعارة الألفاظ المشهورة المتداولة، كان أكثر استعارته من ألفاظ الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية .

(٨) عندما أراد محرر الرسالة الاستشهاد بموقف الإمام أبي حنيفة النعمان المؤيد – أو على الأقل المتعاطف – مع ثورة العلويين الزيديين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور سنة (145هـ/762م)، وقع في خلط بين الزعيمين العلويين الشقيقين: إبراهيم بن عبدالله الثائر في البصرة بالعراق[٢٧] وبين أخيه يحيى بن عبدالله الذي أعلن ثورته بعد وفاة الإمام أبي حنيفة النعمان[٢٨]، وهو خطأ تاريخي واضح، إذ يقول: "... وقد كان من تلامذة زيد بن علي عليه السلام أبو حنيفة، ونال بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله ما هو معروف في السير، وكذلك نال الشافعي رحمه الله بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله إلى حد الضرب بالسياط، ..."[٢٩]، ولعله غاب عن محرر الرسالة أن البعد الزمني بين وفاة الإمامين الشافعي وأبي حنيفة النعمان قريباً من مائة سنة، فكيف يقفان سوياً موقف الموالاة من العلوي الثائر يحيى بن عبدالله؟! .

(٩) لم تتضمن هذه الوثيقة أية إشارة إلى كون كاتبها هوأحد رجال حاشية الإمام المتوكل يحيى شرف الدين أم هو نفسه، وهو ما أرجحه، فهو معروف بعلمه الواسع ومعرفته التامة باللغة العربية وآدابها، ويكفي لمعرفة مدى سعة علمه الالتفات إلى أنه بويع بالإمامة الزيدية التي تشترط بلوغ درجة الاجتهاد في متصدري إمامتها، كما لم تتضمن هذه الوثيقة – من جهة أخرى – اسم السفير الذي قام بإيصالها إلى السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب .

السفارة الثانية: أرسلها الإمام المتوكل شرف الدين إلى الأمير حسين الكردي:

كانت الأساطيل البرتغالية في مطلع القرن الهجري العاشر/السادس عشر الميلادي قد رفعت من وتيرة نشاطها العدواني على السفن التجارية العربية في المحيط الهندي وامتداداته حتى توقفت الحركة التجارية فيه بشكل كامل – أو كادت– ولم تكن اليمن ومصر والقوى السياسية والعسكرية الفاعلة فيهما بمنأى عن الأحداث الدائرة في المحيط الهندي لما له من أهمية قصوى بالنسبة إليهما[٣٠]، وكان لموقع اليمن الجغرافي المتوسط بين المجالين الحيويين للمماليك من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى دوره في إجبار اليمنيين على التأثير والتأثر بمجمل ما يدور في المنطقة حتى لو افترضنا – جدلاً – وجود الرغبة لديهم في السكون وعدم الولوج في حلبة الصراع، إذ أنه من المستحيل أن يقوم المماليك بأي نشاط عسكري مضاد للبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر دون الدعم المادي والمعنوي للسلطات القائمة في اليمن، كما أن الاستحالة قائمة في وجه البرتغاليين إذا ما عزموا على سد البوابة الجنوبية للبحر الأحمر في وجه التجار المصريين والشاميين

وبعض الأفارقة، وكذلك الوصول إلى تحقيق الشق الصليبي من أهداف حملاتهم ببلوغ الأراضي المقدسة بالحجاز، الاستحالة قائمةً في وجههم إذا لم يؤكدوا سيطرتهم على الموانئ اليمنية المهمة وجزرها الكبيرة سواءً في البحرين العربي أو الأحمر، أي : إن اليمن كانت نقطة الارتكاز الجغرافية في أحداث هذه المرحلة من تاريخ المنطقة .

ومن الواضح بجلاء، أنه لم يكن هناك ثمة مطامع مملوكية في اليمن، سواءً قبل هذه المرحلة المصيرية من تاريخ المنطقة أو قبلها، وكان هذا الأمر - من خلال اضطراد المسيرة التاريخية للعلاقات الودية القائمة بين القوى والدول الحاكمة في المنطقتين - راسخاً لدى الجميع، فلم نشهد مؤشرات لانعدام الثقة أو حلول الشك على هذه العلاقات، وهو ما تعكسه الهدايا المتبادلة بين العروش الحاكمة، وما استغاثة الطاهريين بالسلطان قانصوة الغوري ضد القرصنة البرتغالية ثم الموقف المُشرِّفُ لحاكم عدن - مرجان الظافري - من الحملة المملوكية الأولى التي قادها الأمير حسين الكردي إلى الهند سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)[٣١] إلا أدلةً إضافيةً على صفاء العلاقات الثنائية بين الطرفين الطاهري والمملوكي عصرئذٍ .

بَيْدَ أن سوء الفهم الذي صاحب مسير الحملة المملوكية الثانية سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) يُعدُ استثناءً في علاقة اليمن بمصر سياسياً، فقد وصلت الحملة المكونة من حوالي عشرين سفينة - محملةً بما يقرب من ستة آلاف جندي معهم كثير من مؤنهم الحربية والحياتية اللازمة - إلى جزيرة كَمَرَان، " وكان هدفها النهائي هو الهند وتأمين التحصينات العسكرية في البحر الأحمر وطرق الهند ضد الأسطول البرتغالي، وخوفاً من معاودة البرتغاليين الهجوم على البحر الأحمر وجدة على شاكلة ما فعلوا عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) "[٣٢] .

ما أن سمع الإمام الزيدي المتوكل يحيى شرف الدين بنزول الحملة في جزيرة كمران حتى حاول استمالة أميرها - حسين الكردي - وإقحامه في الصراع الدائر بينه وبين السلطان الظافر الثاني عامر الطاهري، فأرسل إليه السفارة التي نتناولها هنا[٣٣]، وقد أرجأ الأمير الكردي الرد عليه لأنه لم يضع في حساباته أن يُخْرِجَ الحملةَ عما جُرِّدَتْ من أجله، ولعله لم يؤجل الرد عليه إلا تحسباً للظنون التي تمكن الإمام شرف الدين من إثارتها عنده بخصوص السلطان الطاهري[٣٤] .

بعث الأمير حسين الكردي رسالته الثانية إلى السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب - مشفوعةً بهدايا جليلة من السلطان الغوري - يستعجله في إرسال ما يحتاجه جند الحملة من الزاد

وغيره، فاستشار السلطان بطانته فاختلفوا ما بين مؤيدٍ ومعارضٍ وكانت حجة المعارضين أن دعوى خروج الحملة إلى الهند وجهاد البرتغاليين ما هي إلا ستارٌ لبسط النفوذ على اليمن[٣٥]، وأن هذه المساعدة إذا ما بُذلتْ فإنها ستصبح حقاً مكتسباً يصعب رفض بذلها لاحقاً، وقد مال السلطان الظافر الثاني إلى هذا الرأي، فأغلظ الرد لمبعوثي الأمير الكردي، وأرسل إلى ابنه عبدالوهاب – حاكم زبيد – بمنع السفن من التوجه في البحر الأحمر نحو الشمال[٣٦]، قاصداً بذلك حرمان الحملة من مصادر غذائها، فصدقت الظنون التي كان الإمام شرف الدين قد أثارها لدى الأمير حسين الكردي، فرد عليه رداً يعرب له عن تضامنه معه .

في مثل هذا الوضع أصبح استمرار الحملة المملوكية في مواصلة طريقها بالغ الصعوبة، خاصةً أن المسافة المتبقية بينها وبين وجهتها النهائية مازالت بعيدة جداً، وأنها إذا كانت غير قادرة على الحصول على ما يكفيها من المؤن وهي مازالت في النطاق الحيوي لها فإنها ستكون أعجز في مواجهة قوة عظمى بحجم البرتغاليين وإمكاناتهم، ولعل الأمير حسين الكردي رأى في موقف الطاهريين هذا ممالأةً للبرتغاليين ووقوفاً إلى صفهم، فوجد نفسه مضطراً إلى معاقبتهم، ولما كنا على علم بمدى قوة شخصية السلطان قانصوه الغوري فإننا ندرك أن تغيير مسار الحملة – كما سنراه – كان عن مشورةٍ منه، وليس محض اجتهاد شخصي من قائد الحملة .

تحولت الحملة بقوامها كاملاً إلى السواحل اليمنية، وتقاطرت القوى المعارضة للحكم الطاهري، من القبائل وغيرهم، إلى الأمير حسين الكردي باذلين له المساعدة والعون، مقدمين أنفسهم جنوداً في حملته، فصَعَّبَ ذلك الأمرَ على الطاهريين[٣٧]، الذين انهزموا أمام المماليك في أول اختبار لهم معهم، فوقعت زبيد تحت السيطرة المملوكية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وسقط الأمير عبدالوهاب بن السلطان الظافر الثاني جريحاً ليموت بعدها بأيام في تعز، وكان لبنادق المماليك الحديثة التي لم يعهدها اليمنيون دور الفصل في هذه المعارك[٣٨]، وتتابعت هزائم الطاهريين أما المماليك، بما فيهم السلطان الظافر الثاني نفسه الذي خسر أول معركة يقودها أمامهم سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في منطقة التُرْبَيَة[٣٩]، فانسحب إلى مدينة تعز، ثم غادرها إلى إبَّ أمام زحفهم، فأقاموا الخطبة للسلطان الغوري على منابرها[٤٠] .

واصلت القوات المملوكية تقدمها حتى دخلت المقرانة – مركز الحكم الطاهري، وتقهقر السلطان الظافر عامر الثاني حتى وقعت بين الطرفين المعركة الفاصلة عند أسوار صنعاء، في ربيع الآخر من

سنة ٩٢٣هـ الموافق مايو ١٥١٧م، وانجلت المعركة عن مقتل السلطان الظاهري وأخيه عبدالملك[٤١]، وبذلك استحكمت قبضة المماليك على أهم المناطق في اليمن، في تهامة والجبال، ولم تستعصِ عليهم من المناطق التي قصدوها سوى عدن .

تعليق على وثيقة السفارة الثانية :

اختلفت وثيقة هذه السفارة عن وثيقة السفارة الأولى من نواح عدة، منها أن هذه الوثيقة تضمنت التصريح باسم السفير الذي تصدر للسفارة وحمل الرسالةَ بيده من المُرْسِلِ إلى المُرْسَلِ إليه، فهو الفقيه العالم العامل صلاح الدين بقية المجاهدين-كما وصفته الوثيقة - صلاح بن سراج الله، ومما يؤسف له أن مصادر تراجم علماء اليمن التي صنفها مؤرخو الزيدية أو خصومهم لم تتضمن ترجمة لهذا الفقيه، ومن جانب آخر اختلفت هذه الوثيقة عن سابقتها بأنها صرّحتْ بأن ما تم تدوينه في متن الرسالة ليس كل ما أراد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين تحريره فيها، وأن السفير مفوض في تبيين ما لم يتسع مقام كتابة الرسالة له، فقد قال الإمام شرف الدين في آخر عباراتها : " ... والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لا يتسع له الكتاب، ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب، وصلاة الله على سيدنا محمد وآله وسلم "[٤٢] بينما نجد وثيقة السفارة الأولى لا تصرح بفتح الباب أمام السفير لإضافة شيئ إلى ما تم التطرق إليه من الحجج فيها، وآخر وجو الاختلاف بين السفارتين أن الأولى كانت بين قوتين يمنيتين في حين أن أحد طرفي الثانية كانت قوة إقليمية غير يمنية .

من ناحية أخرى نجد عدداً من أوجه التشابه في البناء اللغوي لوثيقتي السفارتين ومحتواهما الدلالي، فمُحَرِّرُ كلا الوثيقتين قد حافظ على قدر كبير من زخرفة ألفاظهما بالسجع وأخواته من المحسنات البديعية الأخرى، وذلك ما يدعونا إلى ترجيح أن كاتب الوثيقتين هو الشخص نفسه، وربما يكون الإمام المتوكل يحيى شرف الدين شخصياً، كما أن وثيقة السفارة الثانية أكّدَتْ على المعلومات التاريخية التي تضمنتها وثيقة السفارة الأولى عن وجود أحد أقارب الإمام شرف الدين من الزيدية العلويين بين صفوف الظاهريين، يعضدهم وينصرهم على أهل مذهبه، وهي المعلومة التي لم تتضمنها المصادر التاريخية اليمنية، تقول الوثيقة الثانية : " ... وأعانه على ذلك رجل منا أهل البيت، ادعى ما ليس له بحق، فأنكر عليه الإمام الوشلي، فلم يزل صاحبنا يعضد هذا الطاغية، وينصر فرقته الباغية، حتى تمكن من الإمام الوُشَلِي محمد بن علي... »[٤٣].

هناك مجموعة من النقاط المهمة الجديدة بالإبراز في ثنايا ملامح وثيقة السفارة الثانية، يمكننا التطرق إلى أهمها في النقاط الآتية:

(١) مع أن الخلفية الفكرية العقائدية والمذهبية التي يدين بها حكام الدولة الطاهرية بمن فيهم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب هي نفسها الخلفية العقائدية والمذهبية التي يدين بها المماليك الجراكسة بمن فيهم الأمير حسين الكردي ، التي سبقت الإشارة إلى أنهما من دوافع الصراع بين الزيدية وغيرهم من أبناء اليمن، إلا أن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين لم يجد بأساً في الاستعانة بالأخير ضد الأول، وهو ما يعزز القناعة بأن القوى اليمنية وظفت الخلافات الفكرية والمذهبية في صراعها مع بعضها كونها حافزاً كبيراً لأفراد جيوشها للإنخراط في صراع تلك القوى على المصالح السياسية والاقتصادية بحماسة كبيرة، فقد كان الطاهريون - حكاماً ومحكومين- شافعيي المذهب أشعريي العقيدة، وذلك بالضبط ما ينطبق على الأمير حسين الكردي ورؤسائه ومرؤوسيه .

(٢) ألمحت هذه الوثيقة بشكل شبه صريح إلى النسب الأموي للطاهريين وسلطانهم الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، وهو ما غاب تماماً في ثنايا وثيقة السفارة الأولى، تقول الوثيقة في معرض مدحها للأمير حسين الكردي : " ... أمير الأمراء الإسلامية، مفرج كرب العترة الطاهرة الزكية، الناقم بثأر الحسين من الفرقة الغوية، الظالمة العامرية، المتحلي من أجل ذلك بكل زين، المتخلي عن كل شين، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين، الأمير الجليل النبيل حسين، حياه الله من السلام بأسناه، ومن الإكرام بأزكاه وأهناه ... "(٤٤) ، وفي ذلك قرينة واضحة تدل على أن إرث الماضي السحيق من الفتنة الكبرى والصراع بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي بن أبي طالب وما تلاه إبان الحكم الأموي كان ماثلاً بين عيني الإمام يحيى شرف الدين ومستحضراً إياه في صراعه مع الطاهريين .

(٣) ربما يتبادر إلى الذهن أن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين لم يتطرق إلى التلميح إلى ما جرى للحسين بن علي على أيدي الأمويين إلا ليستجيش عاطفة الأمير حسين الكردي كونه يحمل الاسم نفسه وليحمله على التعاطف مع الزيدية المنتسبين إلى حفيد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما .

(٤) استطاع الإمام المتوكل يحيى شرف الدين في رسالته أن يوجز بعبارة غير مخلة ما أوقعه السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب في رجال الزيدية وقادتها ، وذلك من مهارته اللغوية ومعرفته القوية بها ، إذ يقول في ذلك : "... بأنا لم نزل إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين، وبالتجرد لما بدت من عدو الله الجائر عامر ، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده امتثالاً لأوامر الله الملك القادر، ولكن منع من ذلك عدم المعين والناصر ، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر ، وميل من الناس إلى الأطماع الحقيرة، وانخداع بزخارف الأباطيل الفاضحة المبيرة ، حتى

تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهوان في أقصى التخوم، وشمل شره البرئ والغوي، والضعيف والقوي، والشجي والخلي، وتتبع بمعظم جيشه ومكره أهل بيت النبي، ولم يبق في سلطانه لأهل البيت باقية، ولا أجيب لهم بإجابة نافعة واعية، حتى بددهم الظالم في البلاد، وفرق بين الآباء منهم والأولاد، ومات الأكثر منهم في تخوم اليمن مطرودين متبددين، يتمنى الولد أن يحضر موت أبيه، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه، وفعله في آل المصطفى ما حرم الله في ملْكِ اليمين، بل في سبي الكفار الخارجين عن الدين... ولقد هَمَّ - أخزاه الله - بقصد الحرمين، وإخراج من فيه من ولد الحسين ..."(٤٥) .

(٥) أراد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين أن يستحث دواعي الفخر لدى المماليك القادمين من مصر لعله ينجح في تحويلها إلى رد إيجابي على استنجاده بهم، وذلك من خلال التذكير بسلطان مصر قانصوه الغوري، وبما لمصر من ذكر معروف في سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول: " ... فرجعنا ... إلى الله سبحانه وتعالى، وسألناه تعجيل الفرج، وإطفاء وهج المهج، على يد من هو أهل للمحامد المبرورة، والمقاصد المشهورة، في حياطة الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين، وما ذاك إلا لسريرة صالحة، وتجارة رابحة، من السلطان الأكرم، والمستطيل الأعظم، قانصوه أطال الله بقاه وتوفيقه، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه، ولقد رعا لسر الله العظيم في أهل البيت والنسب الكريم، الذي جعله الله في مصر لخليلة إبراهيم، وخاتم أنبيائه محمد عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم، ونرجو أن الله تعالى قد وفقكم، أيها الغزاة الأعلام، لمشابهة من قال فيهم الملك العلام : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم..."(٤٦) .

(٦) جعل محررُ هذه الوثيقةِ الشاهدَ من هذه السفارة وبيت القصيد في هذه الوثيقة الاستنجادية صريحاً واضحاً، إذ هو طَلَبُ المدد من الرجال والعدة لكي يستخلص الزيدية أرضهم من أيدي الدولة الطاهرية، ولم يترك المحررُ الاحتمال قائماً في ألا يتضح المطلب الرئيس من السفارة والسفير، تقول الوثيقة : " ... وهذا كتابنا يحتوي على التهنئة السنية، بما فتح الله به من الفتوحات الهنية، والحث لكم على استدراك هذه البقية، من عترة نبيكم الطاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلاده، ونحن نفتقر إلى الإعانة منكم، بما أمكن من الرجال والعدة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، والله خير الناصرين... "(٤٧) .

الملاحق

- **الملحق الأول** : النص الكامل لوثيقة السفارة الأولى التي بعثها الإمام المتوكل يحيى شرف الدين إلى السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (١٩) (سورة الحشر)، أما بعد : حمداً لله حق حمده، وشهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خائف لوعيده، راجٍ لوعده، والصلاة والسلام على سيدنا رسوله وعبده، وعلى الناحين بنحوه، والقاصدين بقصده، فهذا كتاب ممن هو لجميع أمة محمد كالوالد الشفيق، باعتبار النصيحة التي هي الدين، بنص سيد المرسلين، للخاص والعام والقريب والسحيق، كيف بمن يرجى بقبوله للنصيحة صلاح عامة المسلمين، وسداد كافة المؤمنين، ودفع البلية عن أهل بيت الأمين، وسكون واعيتهم الحاصلة بما نالهم من التمحيص والتمحين، وحقن دمائهم ودماء الناس أجمعين، (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الذاريات)، لا جرم من كان القصد الحسن التصدير بهذا [ص: ٢٢] البلاغ الأنور إلى ملك اليمن، فأقول : ولست مزكياً نفسي، من العيوب ومقارفة الذنوب، ولكن أفعل بالخير المشهور، والأثر المأثور، مُرُوا بالمعروف وإن لم تفعلوه كله، واجتنبوا المنكر وإن لم تجتنبوه كله [٤٨]، واعتصم بالله من أن أكون من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وأسأله أن يكون لي حيث قصدي.

أيها الملك الذي تزينت له دنياه، فظن أن رضى مولاه في فعله ما يطابق هواه، وغرّه قول جهال أوليائه : إن الله أكرمه بالقهر لأعدائه، سلام عليك، والله وسيلتي إليك، في أن تتبع كلامي في كتابي هذا تتبع طالب للرشاد، مفرغ قلبه من الأحقاد، منصف من نفسه، ذاكر قرب حلول رمسه، وحيداً لا مؤنس له ولا وَزَرَ ولا مهرب ولا مفر إلا ما اكتسب من صدق اليقين، واستصحاب تقوى المتقين، ولا يصدنك أنفة المتكبر عن تأمل ما أتى به مُذَكِّرُه، فنصيحة في تخشين، خير من خديعة في لين، إياك أن تتبع هواك فيضلك عن سبيل الله، (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (سورة ص)، فإن دعاك من جلسائك عبيد هواهم إلى ما فيه بقاء التذاذهم ...[٤٩] فـ (قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (سورة الأنعام)، وتيقظ عن سِنَةِ الغفلة قبل أن تُسْتَزْعَجَ للرحلة بموقظ قول نحن إليه صائرون: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (سورة الأعراف)، وتفكر تفكر الذين إذا

علموا هم يعملون، وفي معنى تهديد(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (سورة الحجر) ، (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة المؤمنون) ، واطفِ تأجج نار الكبر بقوله تعالى: (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة البقرة) ، ولا يغرنك قول الجليس والخليل: إن الذي أنت عليه جميل مقبل، (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) (سورة الفرقان) ، وقال – وهو أصدق القائلين– (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (سورة الزخرف) ، وهيهات أن يأتي آمناً من يخبط في ذنبه خبط العشوى، ويضرب بأسباب الهوى إلى غير سبيل التقوى، (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (سورة النازعات) ، هذا وإنا لا نلتمس منكم اتباعنا ، والانقياد لمجرد قولنا ، بل ندعوكم إلى تأمل آيات القرآن المجيد ، الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (سورة فصلت) ؛ ولهذا اسكثرنا في رسالتنا من آيات القرآن للقطع بحفظه من الخلل والزيادة والنقصان، ولم نستكثر من إيراد أحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى أولاد فاطمة البتول وسلم ؛ لقلة المتواتر منه والمتلقى بالقبول، واحتياج الأحادي منه إلى معرفة الرجال العدول، والمعروف منهم والمجهول، الذي لا يخبط فيه إلا العلماء الفحول، قال الله تعالى :(تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (سورة آل عمران) ، فنحتاج إلى معرفة حقيقة العبادة، ولا تُعرف حقائقها إلا بالنظر في أوامر الباري ونواهيه، ثم تتبع أحوالك وأحوال من تعاديه وتناويه، فما وافق الشرع اتبع، وما بعد عنه احترز منه وامتنع، عملاً بما ندب إليه قول من بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة الأعراف) .

وإذا كنت من أهل التقليد، لمن لم يعرف حكم الشرائع المفيد، فإن عليك فرضاً واجباً ، وحتماً لازباً ، وهو التزام من تركن على فضله ووعده، وعدم طمعه في الدنيا وهلعه، أن يتلو عليك نصوص العلماء المتقدمين من الشافعية والحنفية والمالكية، إذ لم يكونوا ليميلون عن علماء أهل البيت الطاهرين، ثم تنظر هل أنت في أفعالك وأقوالك أحق بالأمر أم مَنْ يتأهل لهذا الأمر من أهل البيت الجامع لشروط الزعامة، وأسباب الإمامة، التي هي كلها أمور دينية ومصالح كلية، وإن قلت: إنك لم تحارب من أهل البيت إلا من ظهر ظلمه وجار حكمه، فما سبيلك إلى من لم يظهر منه ذلك ولا سلك في مثل تلك المسالك، بل ما سلطانك على من دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتنزه عن المعاصي في صغره والكبر، ولا يفعل فعلاً إلا وقد نظر في موافقته

للشرع الشريف، ومطابقته للدين الحنيف، ثم انظر في فعالك، هل أنت تحرّي فيها مطابقة ذلك؟ وانظر في أتباعك وأهل مذهبك في زمانك، هل معهم من الزهد والورع مثل أتباع خصومك حتى تأخذ لنفسك؟ فإن قلت: إني ما أجريت العدل في أهل البيت إلا لقيامه مقام الجاهل، فهلا قمت مع العادل منهم على الجائر حتى يستقيم على الحق وينحط الباطل، ثم انظر إلى أعوانك الذين يتعلقون بالأمر ... [٥٠] على مثل مال الذي أجريتهم عليه، من فعل المنكر والجور، والفعل بما لم يطابق الشرع المطهر، فيجري لك في هذا أنّ قَصْدَ نفسك وقَصْدَ من معك ليس إلا رفعة الدنيا لا غير، وكثير من علماء مذهبك يقول: إنك غير جارٍ على شريعة الرسول .

هذه نبذة من أمور ظاهرة، يفهمها العالم وغير العالم، ولا تسأل في علماء مذهبك إلا من ليس يأخذه في الله لومة لائم، ويخاف عقاب ما أشارت إليه هذه الآيات التي قال الله فيها: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) (سورة آل عمران)، (لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(سورة آل عمران)، (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (سورة البقرة) ولا تقبل منهم من غير نظر منك لنفسك، وافتكار فيما ألقوه إليك من الإخبار، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: استفتِ نفسك وإن أفتاك المفتون[٥١]، فإن مجرد التقليد ليس طريقاً إلى السلامة، ولا سبيلاً إلى الأمان عند الندامة، في هذه الأمور القطعية، والعوائد الكلية، بل لابد فيها من البيان حتى [ص:٤٢] يسكن الخاطر والجنان، وإلى هذا المعنى أشار الملك الرحمن: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)(سورة التوبة)، قال ابن عباس: ما عبدوهم، بل قالوا فاتبعوهم من غير برهان، وقال الله تعالى حاكياً عن المقلدين: (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) (سورة غافر)، (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ) (سورة الأحزاب)، وذم المقلدين حيث قال: (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (سورة المائدة)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: من أخذ دينه عن أفواه الرجال ذهبت به الرجال من يمين إلى شمال، وكان في دين الله على أعظم زوال[٥٢] ... [٥٣] .

وليت شعري هل بقي عند علماء مذهبك شرع الإمام كما هو نص الشافعي وغيره من العلماء الأعلام، فإن كان ذلك عندكم باقياً فهل تعتقد في نفسك أنك إمام المسلمين؟! فإن قلت: لا، فما طريقك إلى فعل أفعال الأئمة؟ وما سلطانك على من توليت عليهم من هذه الأمة؟ وكيف حالك

عند خالقك؟ وإن قلت : نعم، قلت لهم: هلّا لها شروط معتبرة، وقواعد محررة، فلابد أن يقولوا: نعم، فانظر هل قد أدركت شروطها وحقائقها؟ واستكملت أسبابها وطرائقها؟ فلا شك أن الإمام خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها هذا، وتعلم أنك في هذا الزمان قد جردت لعداوة أولاد نبيك صلى الله عليه وآله وسلم وتفريقهم، وتبديدهم في البلدان، وقد جرى عليهم منك هذا التمحيص، وما خرجوا من الشام إلى اليمن إلا من مثل هذا البلاء والتنغيص، وليس عليهم في هذا حرج عند الله وعند من يعرف ويعقل سنن الأنبياء والصالحين، وإنما الحرج والمصيبة في الدين والدنيا على من تصدى لمناواتهم، وتعنّى بمعاداتهم، وانظر الذين فعلوا مثل فعلك ممن قد تمكّن أكثر من تمكُّنك من الأموية والعباسية وغيرهم من الملوك، هل كان لهم بذلك في دينهم ودنياهم أثر صالح؟ أم قد أهلكوا أنفسهم، وبطل أمرهم واضمحل، إلا بكل سوء ذكرهم، ولم يعرف لأحد منهم باقية، وكل لسان عليهم بالذم ناعية، وأولاد علي عليه السلام لا يزال يتجدد أمرهم، ولا يبلى على وجه الأرض ذكرهم، وذلك مصداق قول جدهم صلى الله عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[٥٤]، فالله الله في نفسك، احذر أن يكون خصمك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفريقك أولاد بنته في البلاد، وقصدك لهم بالهلاك والفساد، فإن قلت: إنك لم تقصد إلا من كان منهم ظالماً لنفسه، وغير عامل لحلول رمسه، فلا ننكر أن منهم من قد كان كذلك، ولو لم يكن منهم ذلك ما وقعوا في المهالك، لكن مالك لا تعين الصالح منهم على الطالح حتى يكون من أهل النظر في المصالح، بل صرت تجعل همك في نكاية أفضلهم وخيارهم، وتقصد بالسوء علماءهم.

هذا ونحن ندعوك إلى أمور: إما إخلاصك إلى صاحب الإمامة، [ص:٥٢] من أهل الرئاسة بالحق والزعامة، من أولاد بنت نبيك المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار، وعملك على رأيه في الإيراد والإصدار، حتى تكون من جملة أتباعه وأعوانه وأنصاره، فتفوز بخير الدنيا والآخرة، وتظفر بالسعادة التامة، ولا أراك لهذا فاعلاً، والأمر الثاني: أن تعين صاحب هذا الأمر من أولاد بنت نبيك بشيئ من المال والبلاد، تقرّب بذلك إلى رب العباد، وتقتصر على ما قد صار في يدك من الممالك، ولا تضيق على أولاد بنت نبيك المسالك، وتجمع شملهم في أوطانهم، وتقرّب إلى الله باجتماعهم في أعطانهم[٥٥]، والذي تخافه في اجتماعهم لا يضرك مع علم الله بقاء مملكتك، ولا ينفعك حذرك مع علم الله زوالها، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ

بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) (سورة يونس)، مع أن الموت قريب عاجل، والزوال من الدنيا – وإن مُلِكتْ كلها – لا يشك فيه عاقل، فليست الدنيا تسوى هذا الاحتفال، ولا تقابل بهذا الالتفات إليها والإقبال، ولو كانت الدنيا عند الله تسوى جناح بعوضة ما سقى فيها كافر شربة ماء(٥٦)، فلا تغتر بما ملكت فيها من الملك الزائل، والمال الطائل، فقد تملّكه كافرون في كثير من الأرض، ذات الطول والعرض، وكأني بمن عندك من أهل مذهبنا– بل من بعض قرابتنا – يقول: لقد فعلت هذا الوجه بمن هو عنده، وذلك قول غير صحيح، صادر من غير نصيح، فإنه يعلم – وأنت تعلم – أنك غير فاعل لذلك، لأحد من أهل الممالك، ولعلك تعلم – ونحن نعلم – مما نقمنا على المشار إليه، عدم صلاحه لما عُوِّل فيه عليه، وهذا الوجه قد جعله الشيخ علي بن طاهر لحي والدنا الإمام المطهر بن محمد عليه السلام، فإنه أعانه على أخذ ذمار، واستصفى ما حولها من الأقطار، وكان عوناً له على أمره، حتى قيل أنه أخذ منه ولاية فيما يقدم فيه ويحجم، ويقطع ويجزم، فإن صح ذلك فهو إذاً من الموفَّقين، السعداء في الدنيا والدين، ولعل أسرار زيارته الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وروايته التي تُذكر قد أدركته حتى فاز بجزيل الثواب، ونجى من وبيل العذاب .

وإن لم يحصل منك لا هذا ولا هذا، فأمرٌ ثالث، وهو المهادنة لمن بقي من الزيدية في هذه البلاد الحقيرة، والقرى اليسيرة، فإنها لا تزيد في ملكك إن علم الله بقاه، ولا تمنع من هلاكك إن أراد الله انتفاه، وقد صرت في أمهات بلاد اليمن، والله أعلم ما يكون في حرب من بقي، هل لك أم عليك، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (سورة يونس) .

وقد عجبنا من قصدك لنا بالعداوة من غير أن تعرفوا ما عندنا، ولا تتيقنوا قصدنا، وما تنقمون منا إلا أن قمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآن ما قد جرى بيننا وبينكم ما يحرج الصدور، وقد طلبنا منكم أخذ هذه الأمور، والصلاح فيها لكم ولسائر الجمهور، هذا ولا بد أن يكون من عندكم من الناس في رسالتنا هذه على أنصاف:

- منهم من يقول: هذا رجل مغفل يطلب ما لا يتقدر، ويحاول ما لا يتصور .
- ومنهم من يقول: هذا يجرُّ العرض إلى [ص:٦٢] نفسه .
- ومنهم من يقول غير ذلك .

فعليك أن تنظر في القول لا في القائل، فقد قال سبحانه في حق سيد البشر حين جرى في حقه مثل هذه الأقوال ممن كان في زمنه: (وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) (سورة غافر)، (وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) (سورة محمد) .

واعلم – هداك الله – أنه إذا حصل جمع شمل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على يديك كنت أسعد الملوك والسلاطين، وأرفع مشايخ الأولين والآخرين، فتعلم أن زيد بن علي وأبا حنيفة والشافعي ومالكاً رضي الله عنهم أجمعين على شريعة واحدة، وطريقة غير متباعدة، وقد كان من تلامذة زيد بن علي عليه السلام أبو حنيفة، ونال بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله ما هو معروف في السير، وكذلك نال الشافعي رحمه الله بسبب موالات الإمام يحيى بن عبدالله إلى حد الضرب بالسياط، فلا تظن أن بين المذهب الزيدي وبين مذاهب الفقهاء الأقدمين عداوة، وكلا منهم يصوِّب الآخر في اجتهاده، ولا يخطِّيه في مذهبه واعتقاده، وإنما فرق بينهم علماء السوء المتأخرون.

ولنختم كتابنا هذا بما ختم الله كتابه الكريم، حيث قال: ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة)، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم»[٥٧].

– **الملحق الثاني** : النص الكامل لوثيقة السفارة الثانية التي بعثها الإمام المتوكل يحيى شرف الدين مستنجداً بالأمير المملوكي حسين الكردي قائد الحملة المملوكية إلى الهند :

« بسم الله الرحمن الرحيم، نعمة سبقت وشملت، ومنحة تمت وكملت، بلغت من لدن حكيم خبير، على أهل بيت نبيه البشير النذير، أجراها على يد ملك السيف الأمير، الهمام الخطير، أمير الأمراء الإسلامية، مفرج كرب العترة الطاهرة الزكية، الناقم بثأر الحسين من الفرقة الغوية، الظالمة العامرية، المتحلي من أجل ذلك بكل زين، المتخلي عن كل شين، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين، الأمير الجليل النبيل حسين، حياه الله من السلام بأسناه، ومن الإكرام بأزكاه وأهناه، والله المسؤول أن يوفقنا وإياه لإصابة مراده، وهداية عباده، وإجراء أحكام شريعته الطاهرة في بلاده، وتطهيرها من آثار الجائر وتنويرها من ظلمات جرأته وعناده، وبعد : فإن كتابنا هذا لتعريف خاطر الأمير، وفقه الملك القدير، بأنا لم نزل إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين، وبالتجرد لما بدت من عدو الله الجائر عامر، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده امتثالاً لأوامر الله الملك القادر، ولكن منع من ذلك عدم المعين والناصر، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر، وميل من الناس إلى الأطماع الحقيرة، وانخداع بزخارف الأباطيل الفاضحة المبيرة، حتى تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهوان في أقصى التخوم، وشمل شره البرئ

والغوي، والضعيف والقوي، والشجي والخلي، وتتبع بمعظم جيشه ومكره أهل بيت النبي، ولم يبق في سلطانه لأهل البيت باقية، ولا أجيب لهم بإجابة نافعة واعية، حتى بددهم الظالم في البلاد، وفرق بين الآباء منهم والأولاد، ومات الأكثر منهم في تخوم اليمن مطرودين متبددين، يتمنى الولد أن يحضر موت أبيه، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه، وفعله في آل المصطفى ما حرم الله في مِلْكِ اليمين، بل في سبي الكفار الخارجين عن الدين، وأعانه على ذلك رجل منا أهل البيت، ادعى ما ليس له بحق، فأنكر عليه الإمام الوشلي، فلم يزل صاحبنا يعضد هذا الطاغية، وينصر فرقته الباغية، حتى تمكن من الإمام الوشلي، محمد بن علي، ولم يعذرنا أهل زماننا عن القيام في مقامه الجلي، ولقد هَمّ - أخزاه الله - بقصد الحرمين، وإخراج من فيه من ولد الحسين، فرجعنا - مع بذل ما بقي معنا من جهد في دفاع مجهود المذاكرة له كثير من الحدود - إلى الله سبحانه وتعالى، وسألناه تعجيل الفرج، وإطفاء وهج المهج، على يد من هو أهل للمحامد المبرورة، والمقاصد المشهورة، في حياطة الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين، وما ذاك إلا لسريرة صالحة، وتجارة رابحة، من السلطان الأكرم، والمستطيل الأعظم، قانصوه أطال الله بقاه وتوفيقه، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه، ولقد رعا لسر الله العظيم في أهل البيت والنسب الكريم، الذي جعله الله في مصر لخليله إبراهيم، وخاتم أنبيائه محمد عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم، ونرجو أن الله تعالى قد وفقكم، أيها الغزاة الأعلام، لمشابهة من قال فيهم الملك العلام: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة) .

وقد رجحنا إرسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم العامل صلاح الدين، بقية المجاهدين صلاح بن سراج الله، كتب الله هدايته، وأحسن رعايته، وهذا كتابنا يحتوي على التهنئة السنية، بما فتح الله به من الفتوحات الهنية، والحث لكم على استدراك هذه البقية، من عترة نبيكم الطاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلاده، ونحن نفتقر إلى الإعانة منكم، بما أمكن من الرجال والعدة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، والله خير الناصرين، والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لا يتسع له الكتاب، ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب، وصلاة الله على سيدنا محمد وآله وسلم »[٥٨] .

الهوامش

١- أديب آل الإمام المتوكل يحيى شرف الدين في عصره، ومؤرخ أخبارهم، كَوكَبَانِيُّ المولد والنشأة، أخذ عن مشاهير علماء اليمن في زمنه، وكانت له مطارحات ومناقشات ومساجلات مع عدد من علماء وأدباء اليمن، وأشهرهم إبراهيم بن الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، وقد ترك ديواني شعر، أحدهما عامي والآخر بالفصحى، كما اشتهر كتابه المشار إليه (المواهِبُ السَّنِيَّةُ)، انظر زبارة: محمد بن محمد بن يحيى (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ودار العودة، بيروت، (د. ت)، ج١ ص ٣٢٩ - ٣٣٦، الوجيه، عبدالسلام عباس، أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٣٢٢، ٣٢٣ .

٢- قامت هذه الدولة سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م)، وحكمها الملكان الأخوان الظافر الأول عامر بن طاهر والمجاهد علي بن طاهر مدة ٢٥ سنة، ثم حكمها الملك المنصور عبدالوهاب بن داود مدة ١١ عاماً، وامتدت فترة حكم الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب إلى حوالي ٢٩ عاماً، وبقي الأمراء الطاهريون في نزاع دائم حتى انتهى أمرهم بعد وفاة الملك الظافر الثاني عامر بعشرين سنة تقريباً، أي أن ظهورها استمر حوالي ٨٥ عاماً، فتكون مدة حكم الملك الظافر عامر ثلث المدة تماماً، بل تزيد قليلاً .

٣- للاطلاع على جهود هذا السلطان وانجازاته العمرانية والعسكرية والعلمية ينظر المدخلي، د. محمد ربيع هادي عمير، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٤- ابن الديبع، أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، (د. ن)، ص ٤٣١ - ٤٤٦، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٧٩م، ص ١٨٥-١٩٨، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق د. يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٤١-٢٥٧، الكندي، تاريخ حضرموت السياسي [العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة] ، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١ ص ١٥٤، محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٧٦ - ٨٨.

٥- يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٦١٨- ٦٢٥، الكبسي، محمد بن إسماعيل (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٢٦، ١٢٧، أحمد، د.محمد عبدالعال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٣٢٣، ٣٢٤، زبارة، محمد بن محمد بن يحيى

(ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ١٩٥٢م، ص ٣٦٠، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٤٢، ٤٤٥، الفضل المزيد، ص ٢٣٤ - ٢٤٧.

٦- يَافع اسم لقبيلة حِمْيَرِيَّة كبيرة، وأطلق اسمها على المنطقة التي يسكنها أفرادها، وتقع منازلها بين الضَّالع ولَحج، وهي أرض جبلية صخرية شديدة الوعورة، ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢٠٠ قدم، ويبلغ ارتفاع بعض جبالها إلى ٢٥٠٠ قدم، وهي أعلى المناطق في المحافظات الجنوبية من اليمن وأكثرها ارتفاعاً، وبقدر ما أسهمت هذه الطبيعة الصعبة جداً في عزلة أهلها أسهمت أيضاً في إكسابهم قدراً عالياً من الشجاعة والإقدام، وجعلتهم مغرمين بالسفر والهجرة إلى نواح يمنية مجاورة أو أقطار أخرى، بامخرمة، الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، النسبة إلى المواضع والبلدان، نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، تحت رقم(٢٥٦٩)، ق ٤٠٢، الحجري، محمد بن أحمد (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع، مكتبة الإرشاد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج ٤ ص ٧٧٣، ٧٧٤، المقحفي، إبراهيم بن أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ٢ ص ١٨٩٤ - ١٨٩٦.

٧- بَيْحان حقلٌ أثري واسعٌ في قاع فسيح يمتد باستطالة ابتداءً من سفوح الجبال الواقعة شمال مدينة البيضاء إلى أطراف رملة السبعتَين التي تعد أحد أكبر أقسام صحراء الربع الخالي، وبَيْحان أحد منازل قبيلة مُراد المَذْحِجيَّة الشهيرة، التي ينتمي إليها قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الخارجي الشهير عبدالرحمن بن ملجم المرادي، وأرض بَيْحانَ زراعية خصبة، غنية بالمياه المنحدرة إليها من جبال البيضاء، ومياهها الجوفية متوافرة على أعماق قريبة، لذلك تكثر فيها مزروعات الحبوب وبعض الفواكه والخضروات، وتكثر فيها المناحل، وبَيْحان تقع على أطلال مدينة تَمْنَع الأثرية القديمة، التي كانت عاصمة لدولة قَتَبان اليمنية في فترة ما قبل الميلاد، وهي تشكل واحدة من مديريات محافظة شَبْوَة المتاخمة لصحراء الربع الخالي، بامخرمة، المصدر السابق، ق ٧٥، الحجري، المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٢، ١٣٣، المقحفي، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٠٨، ٢٠٩.

٨- تناولت المصادر والمراجع الآتية أخبار هذا الإمام، ابن داعر، صلاح بن داعر المرهبي (ت في القرن العاشر الهجري)، سيرة الإمام يحيى شرف الدين، صورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة زيد الحوثي، صنعاء، ق٤ وما بعدها، زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٦٩ وما بعدها، اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين، مطبعة المقام الشريف، صنعاء، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، ص ٧٤، خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، تحقيق أحمد محمد زبارة، مركز التراث والبحوث اليمني، ساري، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ٣ ص ٥٥ وما بعدها، شرف الدين، الحسن بن عبدالرحمن بن أحمد شرف الدين (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)، المواهب السنية مما منَّ به الله تعالى من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية، مخطوط، صورة عن نسخة إبراهيم عبدالكريم شرف الدين، كوكبان، ص ١٦ وما بعدها، شرف الدين، محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم (ت١٠٨٥هـ/١٦٧٤م)، السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية، (د، ت، ن

)، ص١ وما بعدها، المؤيدي، داود بن الهادي بن أحمد (ت ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م)، ذيل البسامة، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ١٣٩٠، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص٦٣٥ وما بعدها.

٩- حمل الاسمين معاً : يحيى وشرف الدين، أي أن شرف الدين ليس لقباً له، وقد اشتهر باسمه شرف الدين أكثر من شهرته باسم يحيى، انظر مصادر سيرته .

١٠-هو الإمام الناصر الحسن بن عزالدين بن الحسن (ت٩٢٩هـ/١٥٢٣م)، أعلن دعوته وإمامته فور وفاة أبيه، وبعث رسائله إلى كثير من الجهات، وقَبِلَ أمير صعدة محمد بن الحسين الحمزي البهال إمامته، وأقام الدعوة له على منابرها بالرغم من أنه كان معارضاً لأبيه، ورفض إمامته عدد من كبار أهل بيته، وقد وقعت المناظرة بينه وبين معارضه الإمام المنصور بالله محمد بن علي الوُشَلي السراجي في السودة حول مسوغات الخروج والتعارض، ولم يُسَلِّمْ أحدٌ منهما لصاحبه، ولم يذكر في عهد الإمام الناصر بعد ذلك ما يشتهر سوى تحالفه مع الشريف محمد بن عبدالله الشويع - أحد أشراف المنطقة الشمالية الشرقية لليمن - ضد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين سنة (٩٢٤هـ/١٥١٨م)، انظر زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٥٧، اتحاف المهتدين، ص ٧٣، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٤٢، الكبسي، اللطائف السنية، ص ١١٧، المؤيدي، ذيل البسامة، ص١٣٧٤ وما بعدها، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٢١ وما بعدها .

١١-أحد أشهر معاقل العلم والحصون الشهيرة في تاريخ اليمن، به كهوف عديدة وعميقة، يقع في قمة جبل إلى الشمال من مدينة حجة، ويبعد عنها بمسافة ١٥ كيلومتراً تقريباً، وتنتشر على جوانبه الكثير من المدرجات الزراعية، وهو اليوم مركز إداري من مديرية مَبْيَن بمحافظة حجة. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٣ ص ٥٦٧، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٩٧٥، ٩٧٦ .

١٢-زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٧٢، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٥٨، شرف الدين، المواهب السنية، ص ١٧، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ١٩، ٢١، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٣٥.

١٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦- ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ - ٢٩، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، خطاب، عبدالعظيم، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م، ص ٢٠٩ .

١٤-زبارة، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٧٦، شرف الدين، المواهب السنية، ص ٣١، أئمة اليمن، ص ٣٨٨ .

١٥-الفرقة الأخرى هي الشيعة الإمامية، وكل فرق الشيعة - وإن كَثُرَتْ - ما هي إلا من فروع هاتين الفرقتين الرئيستين(الزيدية والإمامية)، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م)، رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ٤ ص ٢١١، الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م،

ج ١ ص٨٨، البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٣٨ .

١٦- هو الإمام المنصور بالله محمد بن علي بن محمد بن أحمد الوَشْلي السراجي الحسني(ت. ٩١٠هـ/١٥٠٤م)، أحد أعلام الزيدية، علمياً وسياسياً وعسكرياً ، كان معروفاً بالفضل وسعة العلم والشجاعة والإقدام، لهذا كان رأس حربة الزيدية في صراعها المرير مع الدولة الطاهرية على عهد السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب قبل تمكنه من اكتساح مناطق نفوذ الزيدية، وكان الإمام المنصور محمد الوشلي يستخدم مهارته العالية في البلاغة وجودة نظم الشعر في تحريض جموع الزيدية وأئمتها المتصارعين على منصب الإمامة ليقوموا بمواجهة خطر الطاهريين الداهم، وقد وقع في أسر السلطان الطاهري الظافر الثاني فألقاه في السجن حتى توفي فيه سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، الزحيف، محمد بن علي بن يونس (ت٩١٦هـ/١٥١٠م)، مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار، تحقيق عبدالسلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣ ص١٢٦٩ ، زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٥٨-٣٦٦ ، الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص ٩٦٩ .

١٧-المقصود بالعدل والظلم في هذا البيت – في تقديري- ليس المدلول البدهي لهاتين اللفظتين الذي يتبادر إلى ذهن القارئ، بل فيها تضمين لاصطلاح عقائدي، فالقائل هنا يشير إلى العقيدة الزيدية الاعتزالية، الشهيرة بـ(عقيدة العدل والتوحيد)، والظلم المشار إليه فيه تلميح إلى وصف الزيدية للعقيدة الجبرية التي اتهموا بها أهل السنة في اليمن .

١٨-إسماعيل بن محمد، سمط اللآل في شعر الآل، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، تحت رقم (١٨٤١ أدب)، ص ٣٣٢ .

١٩-ذلك أن الزيدية – كغيرهم من القائلين بالعقيدة الاعتزالية – يقولون بأن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه، ومن لا يقول بقولهم – في نظرهم – فهو يضيف كل فعل إلى الله سبحانه وتعالى.

٢٠-المصدر السابق، ص ٣٢٩ .

٢١-المصدر السابق، ص ٣٣٥.

٢٢-البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي (ت٩٠٤هـ/١٤٩٨م)، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ١١٣ .

٢٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٣ .

٢٤-المصدر السابق، ص ٢٤ .

٢٥-المصدر السابق، ص ٢٦ .

٢٦-المصدر السابق، ص ٢٥ .

٢٧-الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ج ٧ ص ٥٥٢، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن أحمد (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٢٣٢-٣١٥ .

٢٨-الطبري، المصدر السابق، ج ٨ ص ٢٣٥، الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٤٦٥-٤٧٠، ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ١٥٦، ١٥٧ .

٢٩-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦ .

٣٠-السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤م، ص ٢٨١.

٣١-ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٠٤، ٣٠٥، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٤.

٣٢-السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص ٢٨٢، سليم، محمود رزق، الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د، ت)، ص ١١٨ .

٣٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦– ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ – ٢٩، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٩ .

٣٤-يبدو أن البطانة السيئة كان لها الدور الكبير في إيغار صدر السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري على الحملة التي بلغته أخبارها عندما وصلت إلى جازان، فقد أرسل أميرها -حسين الكردي- رسولاً منه إليه يخبره ببلوغ الحملة جازان، وأن وجهتها الهند بغرض جهاد البرتغاليين، ويستحثه إلى بعث معونته المالية والعينية، انظر شهاب،محمد صالح، أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن، ١٩٧٧م، ١٤٧، شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الطبعة الخامسة، ص ٢٣٣، ٢٣٤، ويحكي المؤرخ بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ١٠٦: أن السلطان انزعج للخبر وأعرض عن الجواب، وإذا أخذنا بهذه المعلومة فإنها ستكون التفسير القوي لإرجاء الأمير حسين الكردي الرد على الإمام شرف الدين، وكأنه لم يكن قد استوثق بعدُ من موقف البلاط الطاهري من حملته .

٣٥-سالم، د. سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية وجامعة صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م، ص ٩٩ .

٣٦-ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٠، الفضل المزيد، ص ٣٥٨، بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ١٠٦، ١٠٧، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، ٦٤٣، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٥، ٢٠٦ .

٣٧-بافقيه، المصدر السابق، ص ١١٤، يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص ٦٤٤، ٦٤٥، ابن الديبع، المصدر السابق، ص ٤٦٤، ٤٦٥، الفضل المزيد، ص ٣٦١ .

٣٨-المصدر السابق، ص ٣٦١، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٤، النهروالي، محمد بن أحمد (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات المدينة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٢١ .

٣٩-تصغير ترية، قرية كبيرة إلى الجنوب الشرقي من مدينة زبيد، وليست بعيدة عنها، وهي اليوم إحدى مراكز مديرية زبيد الإدارية بمحافظة الحديدة، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ٢٢٧، ٢٢٨ .

٤٠-شيبان، أحمد سالم، الوجود المملوكي في اليمن٩٢١-٩٤٥هـ/١٥١٥-١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة وجامعة عدن، الطبعة الأولى، (د. ت)، ص ١٦٥، بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ١٢٥، النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ٢٩، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٨، الفضل المزيد، ص ٣٦٩ .

٤١-المصدر السابق، ص ٣٧٠، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٩، ٤٧٠، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٥١، شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٣٥ . Smith, G. Rex, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p141

٤٢-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٧ .

٤٣-المصدر السابق، والصفحة نفسها .

٤٤-المصدر السابق، ص ٢٦ .

٤٥-المصدر السابق، ص ٢٧ .

٤٦-المصدر السابق، والصفحة نفسها .

٤٧-المصدر السابق، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٤٨-الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ/١٥٦٧م)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عناية إسحاق الطيبي، بيت الأفكار الدولية، أمريكا، (د. ت)، ج ١ ص ٢٤٧ - برقم (٥٥٢٢) .

٤٩-في أصل المخطوطة هنا كلمة لم أستطع تَبيُّنَها فتركت مكانها .

٥٠-وهنا أيضاً كلمة لم أستطع تَبيُّنَها فتركت مكانها .

٥١-الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ١ ص ١٠٣٨ - برقم (٢٩٣٣٩)، أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ/٩٥١م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الفكر، بيروت، (د. ت)، ج ٩ ص ٤٤ ، ونحوه البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، كتاب التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج ١ ص ١٤٥، برقم (٤٣٢).

٥٢-لم أجد هذا الحديث - لا نصاً ولا معنىً - في أيٍّ من كتب الحديث المطبوعة المشهورة التي توافرت لي.

٥٣-هنا أيضاً كلمة لم أستطع تَبيُّنَها فتركت مكانها .

٥٤-الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ/٨٩٨م)، جامع الترمذي، تحقيق عادل مرشد، مكتبة دار البيان الحديثة، الطائف، ودار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٨٢٥، برقم (٣٧٨٨)، وصححه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج ٣ ص ٢٧٧ .

٥٥-أعطان، جمع عَطِن، والعطن للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض. انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد(ت٧١١هـ/١٣٣١م)، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ج٧ ص ٤٤٢، وأراد الإمام شرف الدين هنا معناها المجازي لا الحقيقي.

٥٦-الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢ ص ٣٠٥، برقم (٦٨٦)، الترمذي، جامع الترمذي، ص ٥٢٠، برقم (٢٣٢٠)، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٣ ص ٢٥٣ .

٥٧-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢١ - ٢٦، وأشار إليه شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ باقتضاب.

٥٨-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦ - ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ - ٢٩ .

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

• أحمد: محمد عبدالعال (الدكتور)

٢. بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م .

• إسماعيل بن محمد:

٣. سمط اللآل في شعر الآل، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، تحت رقم (١٨٤١ أدب) .

• الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت٣٣٠هـ/٩٤١م)

٤. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

• الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسن بن أحمد (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)

٥. مقاتل الطالبيين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

• الألباني، محمد ناصر الدين

٦. صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

• البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)

٨. كتاب التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

• البريهي: عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي (ت٩٠٤هـ/١٤٩٨م)

٩. طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م

• البغدادي: عبدالقاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

١٠. الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

• الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)

١١. جامع الترمذي، تحقيق عادل مرشد، مكتبة دار البيان الحديثة، الطائف، ودار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

• الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ/869م)

12. رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ/1964م .

• الحجري: محمد بن أحمد (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)

١٣. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع، مكتبة الإرشاد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

• خطاب: عبدالعظيم

١٤. قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م

• داعر: صلاح بن داعر المرهبي (ت في القرن العاشر الهجري)

١٥. سيرة الإمام يحيى شرف الدين ، صورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة زيد الحوثي، صنعاء .

• ابن الديبع: أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)

١٦. بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٧٩م .

١٧. الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق د. يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٣م .

١٨. قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، (د. ن) .

• زبارة: محمد بن محمد بن يحيى (ت١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)

١٩. أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ١٩٥٢م .

٢٠. اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين، مطبعة المقام الشريف، صنعاء، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م .

٢١. خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، تحقيق أحمد محمد زبارة، مركز التراث والبحوث اليمني، ساري، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

• الزحيف: محمد بن علي بن يونس المعروف بابن فند (ت٩١٦هـ/ ١٥١٠م)

٢٢. مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ويسمى [اللواحق الندية بالحدائق الوردية]، تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمّان، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

• سالم: سيد مصطفى (الدكتور)

٢٣. الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية وجامعة صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م .

• السلمان: محمد حميد

٢٤. الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤م .

• سليم: محمود رزق

٢٥. الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د ، ت).

• شرف الدين: أحمد حسين

٢٦. اليمن عبر التاريخ، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

• شرف الدين: الحسن بن عبدالرحمن بن أحمد شرف الدين (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)

٢٧. المواهب السنية مما منَّ به الله تعالى من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية، مخطوط، صورة عن نسخة إبراهيم عبدالكريم شرف الدين، كوكبان .

• شرف الدين: محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم (ت١٠٨٥هـ/١٦٧٤م)

٢٨. سيرة الإمام شرف الدين المسمى [السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية] ، (د ، ت ، ن) .

• شهاب: حسن صالح

٢٩. أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن، ١٩٧٧م

• شيبان: أحمد سالم

٣٠. الوجود المملوكي في اليمن ٩٢١–٩٤٥هـ/١٥١٥–١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة وجامعة عدن، الطبعة الأولى، (د ، ت) .

• الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)

٣١. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م .

• ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

٣٢. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

• بافقيه: محمد بن عمر الطيب

٣٣. تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد ، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

• الكبسي: محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)

٣٤. اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

• الكندي: سالم بن محمد (ت ١٣١٠هـ/١٨٩٢م)

٣٥. تاريخ حضرموت السياسي [العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة]، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد ، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

• بامخرمة: الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)

٣٦. النسبة إلى المواضع والبلدان، نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، تحت رقم ٢٥٦٩ .

• المدخلي: محمد ربيع هادي عمير (الدكتور)

٣٧. الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

• المقحفي: إبراهيم أحمد

٣٨. معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

• ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد (ت٧١١هـ/ ١٣٣١م)

٣٩. لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

• المؤيدي: داود بن الهادي بن أحمد (ت ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م)

٤٠. ذيل البسامة، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م .

• أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ/٩٥١م)

٤١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الفكر، بيروت، (د، ت) .

• النهروالي: محمد بن أحمد (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م)

٤٢. البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات المدينة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

• الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ/١٥٦٧م)

٤٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عناية إسحاق الطيبي، بيت الأفكار الدولية، أمريكا،(د.ت)

• الوجيه: عبدالسلام عباس

٤٤. أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م

• يحيى بن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي(ت١١٠٠هـ/١٦٨٨م)

٤٥. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

46. Smith, G. Rex, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997.

الدكتور/ كرم حلمى فرحات أحمد(*)

الجوانب السياسية والحضارية لبلاد الحجاز
كما تصورها رحلة ابن بطوطة
في القرن الثامن الهجرى

المقدمــة :

جاء هذا البحث شاملاً في موضوعه ، حيث رصد لنا الجوانب السياسية والحضارية لبلاد الحجاز كما تصورها رحلة ابن بطوطة، مما يثبت لنا أن كتب الرحالة تعد من أهم المصادر التاريخية لرصد تاريخ الحجاز.

وهذا البحث يسهم في إلقاء الضوء على أهمية دراسة كتب الرحلات خاصة رحلة ابن بطوطة، ومدى أهميتها، وأسلوب ابن بطوطة ومنهجه في تدوين رحلته، وتسجيل انطباعاته لا سيما وأن كتب الرحلات عموماً تعدّ من أصدق المصادر التاريخية وأكثرها عناية بما يتعلق بالحجاز سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلميا وجغرافيا، مما تفتقر إليه المصادر الأخرى، إذ اتصف الرحالة - ولو بدرجات متفاوته - بدقة الملاحظة، والوصف والتقصي وتسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق.

• أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد- كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة قناة السويس.

ولعل هذا البحث يكشف لنا القيمة العلمية لرحلة ابن بطوطة بوصفها مصدراً مهما من مصادر تاريخ بلاد الحجاز.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فقد بيّنت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره ومدى أهمية كتب الرحلات كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز.

التمهيد: حياة ومكانة ابن بطوطة الاجتماعية والعلمية ثم خصائص ومميزات رحلته والهدف منها.

المبحث الأول: المشاهدات الجغرافية والعمرانية لبلاد الحجاز.

المبحث الثاني: الجوانب السياسية والادارية لبلاد الحجاز.

المبحث الثالث: الجوانب الاجتماعية لبلاد الحجاز.

المبحث الرابع: الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز.

المبحث الخامس الجوانب العلمية لبلاد الحجاز.

الخاتمة: وقد تضمنت أهم النتائج التى تمخض عنها البحث.

التمهيد

نال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الشهير بابن بطوطة ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م ، لقب أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، وكشفت روايات رحلته عن الإنسان المسلم وعن طبيعة الأمة الإسلامية في القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادي، حيث أبرزت لنا الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية، وإن مما يزيد أهمية الرحلات أنها تكشف لنا النقاب عن الإنسان في فكره وسلوكه وتنظيمه الاجتماعى عبر التاريخ.

لذا فمن الواجب أن نتناول مقتطفات من حياة الرحالة ابن بطوطة ومكانته الاجتماعية والعلمية والهدف من رحلته وخصائصها ومميزاتها. وابن بطوطة هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن[١] بن يوسف اللواتي الطنجى، أبو عبد الله بن بطوطة (٧٠٣-٧٧٠هـ/١٣٠٣-١٣٦٨ م)[٢] الملقب بشمس الدين [٣] رحالة مغربى، يرجع نسبه إلى «لواته»[٤] إحدى القبائل البربرية، ولد سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) يوم الإثنين السابع عشر من رجب بمدينة طنجة.[٥]

ينسب ابن بطوطة لأسرة علم، فمنها القضاة والعلماء، وهو ما ذكره لملك الهند عندما خيره بين الوظائف التى يرغبها، فقال: أما الوزارة والكتابة فليست شغلى، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل أبائى.[٦] درس ابن بطوطة بطنجة، وكان يعدّ نفسه لتولى القضاء مثل كثير من أفراد عائلته، ويؤيد ذلك حديثه عن نفسه بعد وصوله إلى تونس: »وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف عند خروجه من تونس قاصداً الحجاز.[٧] وهذا دليل علمه بالفقه، وقد ذكر ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ أنه لقى العديد من العلماء.[٨] كان ابن بطوطة سريع الاندماج والتأقلم مع أهل المدن والبلدان التى زارها، وألف عادتها نظراً لطول مدة سفره، وكان شديد الحرص على التمسك بتعاليم الدين الإسلامى[٩]، فلا يكاد يسمع برجل صالح أو عالم إلا وسارع إلى لقائه والتبرك بدعائه وهو كثير الزواج، كما عُرف عنه شدة الاعتزاز بوطنه والحنين لأهله طوال غيابه عنهم، ولاشك أن ابن بطوطة حذق فنون الفروسية والقتال، ففى رحلته هذه ما يشهد على اشتراكه في بعض المعارك التى حدثت أثناء تنقلاته.

وما أن بلغ ابن بطوطة الثانية والعشرين حتى تاقت نفسه إلى الرحلة، وعن هذه الرحلة يقول عبدالرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ: كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥هـ وانتهاؤها سنة ٧٥٤هـ»[١٠] وقد حدد ابن حجر العسقلانى ت٨٥٢ هـ خروجه للرحلة في رجب سنة ٧٢٥هـ[١١]،

وبهذا تكون الرحلة قد استغرقت تسعاً وعشرين سنة، جاب فيها جميع الأقطار التى تسنى له الوصول إليها في ذلك الوقت فانتهى به الأمر إلى ترحال وراء آخر وسفر إثر سفر ، ورحلة تعقبها رحلة أخرى، ومثله كثير من الرحالة والتجار المسلمين، وقد قدم زكي حسن مسحًا وتصنيفًا جيدًا لكتاباتهم ، وقد تصدر لكتابة هذه الرحلة محمد بن محمد بن عبدالله بن جزي الكلبي (٦٩٣-٧٥٨هـ/١٢٩٤-١٣٥٧م) ، وهو كاتب السلطان أبي عنان فارس المريني حاكم المغرب حينذاك في الفترة (٧٩٤-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٨م) وبتوجيه من هذا السلطان أملى ابن بطوطة تفاصيل رحلته علي ابن جزي ، وكانت مهمة ابن جزي أن يسمع الحديث ويدونه ويرتبه وينقحه ويوضح ما أغمض منه ،وقد حافظ ابن جزي علي تدوين كل المعلومات التي أملاها صاحب الرحلة ولم يسقط منها شيئا ولم يتعرض ابن جزي لتحقيق ما أورده ابن بطوطة لأنه كان واثقا من صحة ماأورده علي وجه العموم ،وقد عني ابن بطوطة بالشكل والنقط لكل ما أشكل أوغمض لئلا يلتبس علي القارئ وكان يوضح معاني الكلمات الأعجمية ،وقد انتهى ابن جزي من كتابتها في عام (٧٥٧هـ/١٣٥٦ م) .[١٢] كان هدف ابن بطوطة من الرحلة والباعث له على السفر، ومفارقة الأهل هو حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أدى فريضة الحج سبع مرات الأولى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥.م) والثانية سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦.م) والثالثة سنة (٢٨هـ/١٣٢٧.م) والرابعة سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨.م) ،والخامسة سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩.م) ، والسادسة سنة(٧٣٢هـ/١٣٣١.م) والسابعة سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨.م) .[١٣]، ولم يشر ابن بطوطة إلى طلبه العلم في البلدان التي زارها، واكتفى بالإشارة إلى سماعه على بعض الكبار من العلماء، والوعاظ، ولقائه للعديد من العلماء.[١٤] من أبرز صفات ابن بطوطة التي تمتع بها قوة المشاعر الدينية، حيث كان الباعث الأول له على الرحلة والسفر هو حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر ابن بطوطة رسول الله إلا ويقرن ذكره بالصلاة عليه والتسليم، ويبدو هذا الشعور الديني العميق في أحاديثه عن المسجد الحرام والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، وما ماثل ذلك، يقول في حديثه عن الرحلة وهو متجه إلى مكة: «ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك، والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها» [١٥]، وقد قطع في تجواله أكثر من مائة وخمسة وسبعين ألف ميل، واستطاع ابن بطوطة أن يحتفظ بكل مشاهداته في ذهنه دون تمحيص، يدفعه لذلك حب الاستطلاع والتعرف على غرائب وعجائب البلدان.[١٦]

كان ابن بطوطة مثقفاً ثقافة دينية، ودرس في المغرب قبل خروجه إلى الرحلة، ثم درس على مشهوري العلماء في البلاد التى زارها وأجازه كثير من العلماء، يقول عن نفسه: «سمعت بجامع

بنى أمية جميع صحيح الإمام البخارى على الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبى النعم المعروف بابن الشحنة الحجّار، ويقول: ومن أجازنى من أهل دمشق الشيخ أبو العباس الحجازي[١٧] وأكثر ما يلفت الانتباه مدى اهتمامه بالناس بمختلف طبقاتهم وعلى الأخص العلماء والصالحين، فهو بذلك يعدّ مؤرخاً من الناحية الاجتماعية للمسلمين في عصره[١٨]، خاصةً وأن رحلته تحتوي الكثير من الموضوعات في مختلف النواحي، مما دفع كثير من المترجمين ترجمة هذه الرحلة إلى الإنجليزية والفرنسية. وقد تناولها بالدراسة والترجمة المستشرق الفرنسى «بلاتش ترابيه» فى كتابه «الرحالة العرب فى العصر الوسيط».[١٩]

كان ابن بطوطة سخياً كثير الإنفاق يستدين بلا حدود وينفق كما يشتهى، يعطى الفقراء ويعطى الأصدقاء، ويهدى إلى الرؤساء ، وعُرف عنه أنه طاهر السريرة طيب القلب حسن الظن بالناس، يمدح الناس ويشيد بشرف النساء ويحب الصالحين ويلازم المرضى حتى يمن الله عليهم بالشفاء، ويشكر الله ويشكر للناس أياديهم.

وكان فارساً يقاتل، وقد حكى مواقف عديدة تدل على شجاعته، يقول: «ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارساً وخرج في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان، وكان أصحابى ذوى نجدة فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلاً، واصابتنى نشابة، وأصابت فرسى نشابة ثانية، ومنّ الله بالسلامة منها.[٢٠] وأول منصب تقلده ابن بطوطة كان قاضى الركب الحجازى الخارج من تونس، ثم تولى القضاء بالهند وبجزيرة المهل.[٢١] وعقب عودته إلى وطنه ولى قضاء بعض المدن.[٢٢] امتازت رحلة ابن بطوطة بطولها، وحفلت بتنوع حوادثها فجمعت الكثير من الغرائب، وحوت الكثير من المعلومات عن أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان حريصا على الاتصال بالملوك لينال أعطياتهم، ويتمكن من مواصلة رحلته مما يدل على علو مكانتهاالاجتماعية.

ومن الملاحظ اهتمام ابن بطوطة بالجانب الاجتماعى من حيث حالة العلماء والملوك وعادات الناس في البلاد التى زارها ، وقد تمتع بذاكرة قوية خاصة في سرد بعض المعلومات الخاصة بوصف المساجد وأبعادها ، وحفلت رحلته بالحكايات والروايات دون تمحيص فيها ولاتدقيق، لقد جاءت رحلته حافلة بأوصاف دقيقة مع اهتمامه بذكر القصص الغريبة والنادرة في رحلته، مما أكسبه خبرة كبيرة فى هذا المجال ، وقد قيل عن السفر : «إن السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير».[٢٣]

المبحث الأول

المشاهد الجغرافية والعمرانية في بلاد الحجاز

رصد ابن بطوطة مشاهداته الجغرافية والعمرانية في رحلته بدقة وصدق وأمانة، وحفظ لنا هذه المشاهد كتاريخ لبلاد الحجاز في وقت غفل عن حفظها كثير من المؤرخين.

١-المشاهد الجغرافية في الطريق إلى الحجاز: تبوك: طريق الحاج الشامي يبدأ من تبوك، وأرضها خصبة ويكثر به النخيل ، ويري بها سقاؤون حول عين ماء غزيرة، بنيت على هيئة صهريج كبير، أقيمت لهم حولها أحواض كبيرة، يسقون منها الجمال ويملؤون منها القرب.(١)

*- العلا: وهي موضع من ناحية وادي القري بينها وبين تبوك ثمانية أيام وبها أحساء بين الرمال -وهو ماء تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلي صلابة أمسكته، فأتاح لأهلها زراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى، فأصبحت قرية كبيرة جميلة المنظر انتشرت فيها العديد من الدور، واشتهر أهلها بفضلهم وأمانتهم في دفع الكثير من الحجاج إلى ترك الفائض من حاجتهم من الأزواد بها إلى حين قفولهم من الحج وهي أيضاً سوق كبير حيث يقصده تجار الشام النصارى للبيع والشراء مع الحجاج.(٢)

*- حجر ثمود: وتعرف اليوم بمدائن صالح بينها وبين تبوك خمسة أيام وقد أطلق عليه ابن بطوطة بئر الحجر أو حجر ثمود، وأشار إلى كثرة الماء بها، وحدد مكان مبرك ناقة صالح عليه السلام ، بأنه بين جبلين، بجانبه أثر مسجد يصلى الناس فيه.(٣)

*- هدية: آخر وادي العطاس، ماؤها أحساء، وصف بمرارته، يستخرج بواسطة الحفر، وينتشر قطاع الطرق حولها ، مما يضطر الحجيج لقتالهم هناك، وبعدها تظهر أعلام المدينة المنورة.(٤)

٢- المشاهد الجغرافية بالمدينة المنورة: هي مدينة مشرقة جميلة، أرضها سبخة مشرفة على وادٍ ملئ بالنخيل، ولم يتطرق ابن بطوطة لوصفها العام

*- جدة: قال عنها ابن بطوطة: هي بلدة قديمة على ساحل البحر، يُقال إنها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض وهي كثيرة.(٥)

*- جبل الطبول: يشرف هذا الجبل على موضع معركة بدر، وقد شبهه ابن بطوطة بكثيب رمل ممتد، وذكر أيضاً جبل الرحمة على يسار مدخل بدر، يُقال إن الملائكة نزلت عليه يوم بدر.(٦)

٣- المشاهد الجغرافية في الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة:

*- ذو الحليفة : تبعد عن المدينة ستة أو سبعة أميال، وقيل إنها تعرف ببئر عليّ، وأرض ذي الحليفة بطحاء سهلة تشرف على وادي العقيق.(٧)

*- صحراء البزواء: صحراء واسعة مسيرتها ثلاثة أيام، مجهولة المسالك عديمة المعالم.(٨)

*- وادي رابغ: آخر البزواء، يوجد به الكثير من مستنقعات الماء الجارية، تحت الرمال، يحفر الحجاج لاستخراج الماء النقي منها وفي بعض الطريق عقبة محجرة، وتتكون غدران فيها فترة طويلة خاصة بعد هطول المطر.(٩)

*- عقبة السويق: على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل يقصدها الحجاج لشرب السويق بها.(١٠)

*- عسفان: منزل آخر في أرض مُنبسطة تحف بها الجبال متوفر بها آبار عذبة، وبها الكثير من أشجار المقل وبها حصن خرب.(١١)

*- خليص: تقع بين جبلين يكثر بها النخل ، وبها عين دائمة الجريان، أحدثت في الأرض أخاديد تبدو على هيئة الآبار، ويوجد بها بئر تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.(١٢)

*- بطن مرّ أو مرّ الظهران: هو وادٍ خصب يضم قرى كثيرة يزرع بها النخيل والفواكه التي تجلب إلى مكة المكرمة وبها عين ماء كبيرة.(١٣)

٤-المشاهد الجغرافية بمكة المكرمة:

* نظراً لمكانة مكة المكرمة الدينية والعلمية في نفوس المسلمين، فقد وصفها ابن بطوطة وصفاً جغرافياً كوادٍ مجدب ليس فيه زرع، تحيط به الجبال بحيث لا يراها قاصدها إلا عند اقترابه منها ، وعلى الرغم من تكوينها الجغرافي إلا أنها عامرة بالسكان وامتدادها آخذ في الاستطالة.(١٤)

*- جبل أبي قبيس: أشار ابن بطوطة إلى أنه أقرب الجبال للمسجد الحرام يحيط به الجنوب والشرق، يشرف على الحجر الأسود ويقع في أصله ويرقى إليه من ثلاثة مواضع، من شعب عمر وشعب علي وشعب أجياد الصغير، وبه قبر آدم عليه السلام، وعلى هذا الجبل كان انشطار القمر للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أحد الأخشبين.(١٥)

*- جبل قعيقعان: يسمى الأحمر ويسمى هو وأبو قبيس الأخشبان والحبحبان، ويقع جبل قعيقعان شمال مكة.[١٦]

*- جبل الخندمة[١٧]: وهو المشرف على شعبي أجياد الأكبر وأجياد الأصغر.[١٨]

*- جبل ثور[١٩]: وهو على بعد فرسخ من مكة المكرمة على طريق اليمن، وهو الجبل المشهور الذي أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه عند هجرتهما إلى المدينة المنورة.[٢٠]

*- جبال التنعيم: وهي أربعة جبال تقع على طريق التنعيم، اثنان من الجهة اليمنى واثنان من الجهة اليسرى، وعليها أربعة أعلام من الحجارة، يقال إنها الجبال التي وضع عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير.[٢١]

- المزدلفة: وصفها ابن بطوطة بأنها أرض منبسطة فسيحة تقع بين جبلين، وقدروا المسافة بينها وبين عرفات بمثل المسافة بين منى ومكة المكرمة.[٢٢]- عرفات: وقد تميزت بانبساط أرضها، وإحاطة الجبال بها، حيث يقع جبل الرحمة في طريقها بعيداً عن الجبال الأخرى، فهو عبارة عن حجارة منقطعة بعضها عن بعض، وأسفل الجبل وعلى مكان غير بعيد منه مكان وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو عبارة عن جبل قليل الارتفاع، وحول جبل الرحمة جبال وصهاريج للماء، وعلى يسار العلمين اللذين وضعا للمستقبل أيضاً وادي الأراك، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتداداً طويلاً.[٢٣]

٥-المشاهد العمرانية:

تناول ابن بطوطة المشاهد العمرانية في بلاد الحجاز وشمل هذا التناول المساجد والأربطة والمباني والحصون والآبار وأماكن الوضوء.

* الحصون الموجودة بطريق الحجاز: شاهد ابن بطوطة حصن بعسفان وهو حصن قديم ذو أبراج، وشاهد أيضا بخليص حصنين، أحدهما ذو عمارة جديدة مبنى على ربوة، والآخر متهدم يقع أسفل منه.[٢٤]

* الآبار وأماكن الوضوء بالمدينة المنورة: من هذه الآبار بئر أريس. تقع بالقرب من مسجد قباء، وكذلك بئر رومة وهي في جهة الغرب من حصن العزاب بالقرب من الخندق.[٢٥] كما أشار

ابن بطوطة إلى وجود دار للوضوء عند باب السلام، أمر الملك المنصور قلاوون(٦٧٨-٦٨٩هـ) ببنائها.[٢٦]

*- المساجد الموجودة في المدينة المنورة: وفي مقدمتها المسجد النبوي الشريف، وروضته الشريفة، والحديث عن المنبر الكريم.[٢٧] ووصف ابن بطوطة مسجد قباء بأنه مسجد مربع الشكل له مئذنة طويلة بيضاء، وفي وسطه روضة صغيرة هي مكان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم، واحتوت قبلة هذا المسجد على عدة محاريب، وله باب واحد.[٢٨] ومسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢٩]، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه[٣٠] ومسجد الفتح الذي نزل فيه سورة الفتح على النبي صلى الله عليه وسلم.[٣١]

*- الحصون بالمدينة المنورة: شاهد ابن بطوطة حصن العزاب وقد نسب هذا الحصن إلى عمر بن الخطاب الذي قام بإسكان عزاب المدينة فيه.[٣٢]

المساجد في مكة المكرمة: تناول ابن بطوطة المساجد في مكة المكرمة وفي مقدمتها المسجد الحرام، فوصفه ووصف أبوابه، والصفا والمروة، وبئر زمزم والمقام والكعبة المشرفة. وتناول في حديثه الكلام على مآذن هذا المسجد.[٣٣] ومسجد فوق جبل أبي قبيس: وسطحه مشرف على مكة المكرمة. وقد أراد الملك الظاهر عمارته.[٣٤] مسجد الجن: ويقع على يمين المستقبل لمقبرة المعلاة، في وادٍ بين جبلين. ويبدو أن المسجد كان مهدّماً في زمن رحلة ابن بطوطة لإشارته إلى خرابه.[٣٥] ومسجد على طريق التنعيم: يبعد عن مكة المكرمة بنحو ميل، ويقال إن موضع المسجد هو موضع جلوس النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من العمرة مستريحاً، وقد أطلق عليه المتكأ.[٣٦] مسجد المزدلفة: ويقع بوسط المزدلفة وعليه قبة، وتظهر أنواره ليلاً من بُعد.[٣٧] مسجد إبراهيم عليه السلام: يقع هذا المسجد قرب آبار الشبيكة بوادي طوى، والظاهر أن المسجد غير معروف الآن.[٣٨] مساجد التنعيم: وهي عدة مساجد مبنية بالحجارة وتنسب إلى السيدة عائشة رضي الله عنها.[٣٩]

*- الأربطة في مكة المكرمة: أورد ابن بطوطة أسماء عدد من الأربطة بمكة المكرمة منها: رباط الصوفية، وقيل رباط السدرة، وبابه يفتح على المسجد الحرام بجانب باب بني شيبة وسماه باب الرباط.[٤٠] ورباط بأعلى جبل أبي قبيس: وقد أشار ابن بطوطة إلى عزم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري على تعميره[٤١]. ورباط الموفق: بالقرب من باب إبراهيم وإنه من أفضل الأربطة[٤٢] ورباط العباسي: وقد خصص لسكنى المجاورين، وقد شيده الملك الناصر ناصر الدين

محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١ هـ)، وهو بين الصفا والمروة في سنة(٧٢٨ هـ/١٣٢٧.م[٤٣] ورباط الشرابى: يقع عند باب بنى شيبة وقد جعله رميثة بن أبي نمي مجمد بن أبي سعد (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) أمير مكة داراً له.[٤٤] ورباط ربيع وهو من أحسن الأربطة بمكة، وبداخله بئر عذب ورباط كلالة الذي كان شيخه الشيخ سعيد الهندى.[٤٥]

* المبانى بمكة المكرمة: وصف ابن بطوطة المبانى بمكة المكرمة وخاصة القريبة من الحرم، وقد حرص على مشاهدة العديد من الدور بها منها: دار خديجة رضى الله عنها ودار مولد النبى صلى الله عليه وسلم ودار أبي بكر الصديق رضى الله عنه وموضع صلب عبد الله بن الزبير[٤٦] كما تناول وصف أسوار مكة المكرمة وأبواب هذه الأسوار[٤٧].

* الحصون بمكة المكرمة: تم تشييد حصن فوق جبل أبي قبيس لكنه هُدم قبل دخول ابن بطوطة إلى مكة المكرمة بزمن.[٤٨]

* الآبار وأماكن الوضوء بمكة المكرمة: تحدث ابن بطوطة عن آبار عذبة تسمى آبار الشبيكة على طريق التنعيم، وقد أكد ابن بطوطة على وجود بساتين غناء في منطقة الزاهر مما يؤكد على وجود آبار لسقيها.

كما أشار ابن بطوطة إلى وجود بئر عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام، وبئر آخر بداخل رباط ربيع. كما أشار إلى وجود دار للوضوء بجوار رباط العباسى، والذي بناها هو الملك الناصرمحمد بن قلاوون سنة(٧٢٨هـ/١٣٢٧.م) .[٤٩]

المبحث الثاني

الجوانب السياسية والإدارية لبلاد الحجاز

استطاع ابن بطوطة أن يصور لنا العالم الإسلامي من خلال رحلته، وأوضح لنا أنه دولٌ مفككة متناحرة، خلال القرن الثامن الهجري، ولم يقتصر الأمر على أن يستقل كل قطر بكيانه، فقد تفككت بعض الأقطار إلى دويلات متعددة،وكان الحكام يغيرون على جيرانهم ويسلبونهم سلطانهم، ويستولون على مدنهم، ويكون مصير المهزوم القتل أو اللجوء السياسي.[(١)] كما يوضح لنا ابن بطوطة أن الحياة السياسية لم تخل من المظالم والمؤمرات ولم تكن بلاد الحجاز بمعزل عن هذه السياسة التي كانت موجودة في العالم الإسلامي آنذاك.

لقد صور لنا ابن بطوطة الجوانب السياسية من خلال بيان إمارة مكة والمدينة وبيان مدة علاقتهما مع سلاطين الدول الإسلامية ومدى سياستهم مع أفراد رعيتهم، ثم أشار إلى مدن بلاد الحجاز التي تعتبر وحدات إدارية، وتناول التنظيمات المالية، والموارد المالية، كما تحدث عن التنظيمات القضائية، وكذلك الحسبة ومالها من دور مهم في الحياة العامة في بلاد الحجاز.

إمارة مكة المكرمة: عاصر ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مكة المكرمة الأميرين الشريفين الأجلين الأخوين أسد الدين رميثة [(٢)] وسيف الدين عطيفة [(٣)] ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسيني.

وقد أشار ابن بطوطة أن مكة المكرمة كانت تتبع السلطان يوسف بن رسول (٦٤٧-٦٩٤هـ / ١٢٤٩-١٢٩٣م) ملك اليمن المعروف بالمظفر، فيقول: «وبعقربه من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن، وكان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ)/ ١٢٧٧-١٢٨٨م) .[(٤)] وجاء في كتاب غاية المرام، أن بني رسول وصلوا اليمن بصحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب المتوفي سنة(٥٧٦ هـ/ ١١٧٥م[(٥)]، وحظى المنصور نورالدين عمر بن علي بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٤٦م) بمكانة كبيرة لدى الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي حتى أنابه بمكة المكرمة مرة واستنابه نيابة عامة باليمن مرتين، وأوصى له بالملك من بعده

ملك اليمن.[٦] . وكان للملك المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ) نفوذ سياسي وأدبي ببلاد الحجاز، كان كثير الاهتمام بالحرمين الشريفين وتقديم الخدمات للحجاج، وتقديم الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي،ولا يقل عنه في الاهتمام بالحجاج الناصر محمد بن قلاوون ، بل يزيد، فيتحدث ابن بطوطة عن زاوية بناها هذا الملك الناصر بسرياقوس خارج القاهرة لخدمة الحجاج المسافرين. وكان هذا الملك يبعث إلى مكة المكرمة مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين وكل ما يحتاج إليه الحرم الشريف، ومن قول ابن بطوطة متحدثا عن صلاة الجمعة في الحرم: «فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود، كل ذلك من كسوة الملك الناصر محمد بن قلاوون»[٧]

كما عمرالناصر محمد بن قلاوون رباطا وبنى داراً للوضوء داخل الحرم، يقول ابن بطوطة: «وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه، وهو الآن رباط يقطنه المجاورون، وقد عمّره الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله، وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما في السوق والآخر في العطارين، وعليها ربع يسكنه خدامهما» [٨]

إن ماذكره ابن بطوطة عن سلطان اليمن المنصور عمر بن علي بن رسول والملك الناصر محمد بن قلاوون يدل على مدى العلاقة بين أشراف مكة المكرمة وسلاطين مصر واليمن، ولم تقتصر العلاقة على هذين القطرين بل تعدتها إلى بلاد البجة[٩] حيث إن الشريف أبا نمى أمير مكة المكرمة قد تزوج بنت ملك البجة، وأنجب منها ولداً يسمى زيد المعروف بابن السواكنية صاحب جزيرة سواكن[١٠]، فعندما وصل ابن بطوطة إلى سواكن قال: «إن سلطانها الشريف زيد بن أبي نمى [١١] وأبوه أمير مكة المكرمة.[١٢]

كما امتدت علاقة أمراء مكة المكرمة إلى العراق أيضا، فقد تم الدعاء على قبة زمزم في سنة(٧٢٩ هـ/١٣٢٨م) لسلطان العراق أبي سعيد بن خربند بن أرغون الذي حكم العراق قرابة عشرين عاما، وتوفي سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)[١٣]، في عهد الشريفين رميثة وعطيفة أميري مكة المكرمة، ويبدو أن سبب الدعاء لسطان العراق في ذلك العام عائد إلى كثير صدقات أهل العراق وسلطانها المبعوثة إلى مكة المكرمة، فقد ذكر ابن بطوطة وقت وجوده بمكة المكرمة في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧.م و٧٢٩هـ/١٣٢٨.م وصول الأمير أحمد بن الأمير رميثة، ومبارك بن

الأمير عطيفة من العراق حاملين صدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة المكرمة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق، ثم يذكر ابن بطوطة أن الدعاء لصاحب العراق لم يتكرر عقب تلك السنة[١٤]

لقد انفرد ابن بطوطة عن غيره من المؤرخين الرحالة بإلقاء الضوء على علاقات أخرى كجانب من الجوانب السياسية لبلاد الحجاز، وقد أفاض في وصف هذه العلاقة، وهي علاقة أشراف مكة بسلطان مصر الملك الناصر حلوها ومرها، وقد امتدت هذه العلاقة إلى قضاة مكة المكرمة الذين ارتبطوا معه بصلات جيدة، حيث كانت صدقاته وصدقات أمرائه تصل إلى يد قاضي مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيي الدين الطبري، والذي تولى توزيع أعطياته على أشراف مكة المكرمة وكبرائها، وخدمة الحرم الشريف وجميع المجاورين، وعلي الرغم من قوة الصلة بين سلاطين المماليك في مصر وأمراء مكة المكرمة، فإن صلتهم بملوك اليمن كانت قوية أيضا وقد أشار ابن بطوطة إلى الدعاء لسطان بنى رسول وذكر اسمه بعد الدعاء للسلطان المملوكى الملك الناصر في مصر.[١٥] مما يدل على سياسة الموازنة التى اتبعها أمراء مكة المكرمة للمحافظة على علاقتهم ببنى رسول باليمن وسلاطين مصر، إلا أنه يبدو أن علاقتهم بسلطان مصر الملك الناصر قد شابها نوع من الفتور عقب فتنة أشار إليها ابن بطوطة في حديثه عن علاقة الملك الناصر بأمراء مكة المكرمة، إذ حدث في سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م أثناء موسم الحج خلاف بين أمير مكة «عطيفة» وبين «أيدمور» أحد الأمراء بالقاهرة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون[١٦]، بسبب قيام تجار من أهل اليمن بالسرقة، فرفع الأمر إلى أيدمور الذي أوعز لمبارك ابن الأمير عطيفة باحضار اللصوص، فاعتذر عن ذلك لعدم معرفته بهم، ولعل في هذا إشارة إلى عدم رضى أمير مكة المكرمة عن تدخل أيدمور في شئون مكة المكرمة، وخاصة الحجاج اليمنيين حفاظاً على علاقة مكة المكرمة وأهل اليمن، وعندما حدث سرقة لأهل مصر والشام، تكفل أمير مكة المكرمة بحل الأمر فلم يرض عن ذلك أيدمور نظرا لما حدث من قبل فتطاول علي أمير مكة المكرمة مما آثار غضب الناس عليه، ثم ركب أيدمور متوجها نحو عسكره فلحقه أمير مكة وأتباعه فقتلوه هو وولده، فوقعت الفتنة بالحرم، واشتدت وحاول القاضي وأهل مكة المكرمة إيقاف ماحدث وعقد الصلح ودخل الحجاج مكة المكرمة، فأخذوا أمتعتهم ورحلوا إلى مصر، وبلغ الخبر الملك الناصر فاستاء لذلك، وسيّر عساكره إلى مكة المكرمة، ففرّ الأمراء عطيفة وابنه مبارك، ورميثة وأولاده إلى وادى نخلة، فلما وصلت عساكر الناصر إلى مكة المكرمة بعث أمير مكة ابناً له بطلب الأمان فأعطوه الأمان ،ثم خلع عليه مبعوث الناصر وأعاده إلى الحكم.[١٧]

لم تفتر همة أمراء مكة المكرمة عن توطيد أواصر المحبة وحسن العلاقات مع سلاطين الممالك الإسلامية، حيث ارتبط هؤلاء الأمراء بعلاقات ودية مع سلطان كلوة[١٨] وهو أبو المظفر حسن بن سليمان[١٩] حيث كانوا يفدون عليه لنيل أعطياته، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة.[٢٠]

ومن الملامح التي ذكرها ابن بطوطة ظلم الحكام لرعاياهم، حيث بين أن مكة المكرمة لم تنج من ظلم الحكام لبعض أفرادها، فيقول: ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة، وكان هذا الشيخ قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالاً عظيما قدم به مكة المكرمة فسجنه الأمير عطيفة أمير مكة وطالبه بأداء المال فامتنع فعذبه حتى أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وعاد إلى بلاد الهند.[٢١] كما تطرق ابن بطوطة في رحلته إلى معرفة بعض المدن والقرى التى تتبع مكة المكرمة فذكر لنا جُدة حيث كانت تتبع شريف مكة المكرمة وعليها عامل من قبله مهمته تحصيل المكوس والضرائب.[٢٢]ويتبين لنا أن نفوذ أشراف مكة المكرمة قد شمل وادي الصفراء[٢٣] وذكر أيضا أن فيها حصناً يسكنه الحسنيون.[٢٤]

إمارة المدينة المنورة: عاصر ابن بطوطة أثناء رحلته إلى المدينة المنورة أميرين هما طفيل بن منصور بن جماز الحسيني[٢٥] وكبيش بن منصور بن جماز.[٢٦] ولم يكن للمدينة المنورة الحظ الأوفر مثل مكة المكرمة من اهتمام ابن بطوطة، بل إن المدينة المنورة لم تحظ إلا بالقليل من الاهتمام، وبالتالي فالمعلومات السياسية عنها قليلة إذا ماقورنت بما كتبه وماذكره ابن بطوطة عن مكة المكرمة.كما تحدث ابن بطوطة عن كيفية تولى طفيل بن منصور الإمارة فقال: تولى إمرة المدينة المنورة كبيش بن منصور بن جماز عقب قتله لعمه مقبل بن جماز[٢٧] وقيل توضأ بدمه، ثم إن كبيشاً بن منصور خرج سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فأخلدوا إلى الراحة وتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلاّ وأبناء مقبل بن جماز في جماعة من عبيدهم ينادون يالثأرات مقبل. فقتلوا كبيش بن منصور صبراً ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور.[٢٨] وجاء في رواية القلقشندي: أن مقبلاً بن جماز اشترك في إمرة المدينة المنورة مع أخيه منصور على إثر طلبه من الظاهر بيبرس بمصر لذلك، وعندما قام منصور بالإيعاز لابنه في تدبير شئون المدينة المنورة خلال غيابه فاعتبر مقبل ذلك تعدياً على حقوقه في الإمارة فهجم على ابن أخيه وانتزعها منه، مما دفع بكبيش إلى الخروج من المدينة المنورة واللحاق بأحياء العرب طالباً مساعدتهم واستعاد المدينة وقتل عمه مقبل في سنة٧٠٩هـ وعاد منصور إلى إمارته ثم مات

سنة٧٢٥هـ فولى ابنه كبيش فقتله عسكر ابن عمه ودى بن جماز الذي حكم المدينة من قبل الملك الناصر بن قلاوون وعقب وفاته تولاها طفيل بن منصور وانفرد بامارتها.[٢٩]

أورد ابن بطوطة بعض الملامح السياسية حول أمراء المدينة المنورة مثلهم كغيرهم من أمراء العالم الإسلامي، فكما فيهم عدل وانصاف فيهم أيضا سياسة الإغتيال والمؤمرات، فقد عُرفت في المدينة المنورة وسيلة القتل في سبيل الإمارة، بل إنها شملت حتى من يتطاول على شخص الشريف ولو خطأ، فيقتل جزاء ذلك، وذكر ابن بطوطة أن أحد فقهاء ومدرسى المالكية بالمدينة المنورة ويدعى أبو العباس الفاسي، تحدث يوما مع الناس فانتهى به الكلام إلى القول أن الحسين بن على بن أبي طالب لم يعقب، فبلغ ذلك أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسينى فأنكر كلامه واستعظمه وأراد قتله، ثم عدل عنه ونفاه من المدينة، وقيل بل بعث إليه من قام بقتله، واختفى أثره.[٣٠]

إن ما ذكره ابن بطوطة عن أحوال المدينة المنورة السياسية قليل جداً، لكنه أبرز مدى الصراع على الإمارة والسلطة، كما نجد أن ما ينطبق على مكة المكرمة ينطبق أيضاً على المدينة المنورة من حيث علاقتها بمصر في بعض الأحيان وانقطاعها أحياناً أخرى.

فالعلاقة والارتباط بمصر قائم على أساس الوضع الاقتصادي والاستقرار الداخلي، فمتى توفر الاستقرار وعم الرخاء الاقتصادي أصبحت إمارة مستقلة، ومتى تزعزع الوضع الداخلي نجد الأشراف الحسنيين يسارعون إلى الاستنجاد بملوك مصر ضد بعضهم بعضاً فتعود العلاقة مرة أخرى، وبالمقابل حرصت تلك الدول على إقامة علاقة ودية مع أشراف الحجاز وإرضائهم في سبيل الدعاء لهم على منابر الحرمين الشريفين.[٣١]، ولذلك فملوك مصر تكتفي عند ذكر نواب الحجاز بإظهار الطاعة[٣٢]، وأقصى عقاب ينزل بأشراف الحجاز في حالة خروجهم عن الطاعة أو مخالفة ما يصدر إليهم من أوامر هو الاعتقال مدة من الزمن في القاهرة، وإسناد الأمر لمن عليه الدور في تولي السلطة.[٣٣] أما الجوانب الإدارية لبلاد الحجاز: فقد أشار ابن بطوطة [٣٤] إلى أن من مدن الحجاز التى تعتبر كوحدات إدارية ينبع، والوجه، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة وجدة ورابغ ووادي الصفراء، وخليص.[٣٥]، وبجانب الحديث عن هذه الوحدات الإدارية نتناول الحديث عن أمراء تلك البلاد ونظام ولاية العهد ونظام الوزارة، وعندما وصل ابن بطوطة إلى جدة أشار إلى أن متولى أمرها كان من قبل أمير مكة، ولقبه بالأمير وهو أبو يعقوب بن عبد الرزاق.[٣٦]

وحمل حاكم ينبع لقب أمير، وكان أحياناً يلجأ إلى الاستبداد وارتباطه بمصر، كما تبعت مرّ الظهران[٣٧] والصفراء مدينة مكة المكرمة كناحية إدارية ونظام إداري يختص بالمدن التابعة لبلاد الحجاز.[٣٨] نلاحظ من خلال ما ذكره ابن بطوطة أن الأمراء ببلاد الحجاز كانوا أسَرا من الأشراف وقد تولوا حكم البلاد وهم من ذرية الحسن والحسين ابني الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنهم جميعاً، فهي إمارة عربية في تقاليدها[٣٩]، وقد أشار ابن بطوطة وغيره من الرحالة الذين نزلوا بلاد الحجاز إلى بعض حكام مكة فذكروا على سبيل المثال: قتادة بن إدريس، وحسن بن قتادة.[٤٠]، وأبو سعد الحسن، ثم خلفه ابنه أبو نمى، ثم رميثة وحميضة[٤١]، أما المدينة المنورة فخضعت لأسرة من الأشراف من ذرية الحسين بن على رضى الله عنهما، وأشار ابن بطوطة إلى بعض حكامها منهم: طفيل بن منصور بن جماز، وكبيش بن منصور.[٤٢]

كما لم تغفل كتب الرحالة ومن بينهم ابن بطوطة الإشارة إلى الصراع القائم بين الأمراء والأشراف في بلاد الحجاز على السلطة ومحاولتهم الوصول إليها بمختلف الوسائل إلى جانب اشتراك اثنين في إدارة شئون البلاد، ومثال ذلك الصراع على السلطة، ودور الشريف أبي نمى فيها، وما حدث بين رميثة وحميضة. [٤٣] والملاحظ أن الأمر لم يكن مقصوراً على مكة المكرمة، بل نجده واضحاً في المدينة المنورة في عهد طفيل بن منصور وكبيش بن منصور، واشتراك مقبل في الإدارة مع أخيه منصور عقب مقتل كبيش.[٤٤]

أما نظام ولاية العهد كجانب من التنظيمات الإدارية في بلاد الحجاز، فإنها لم تكن موجودة في تقاليد الأشراف، ولكن يعدّ ولي العهد للحكم عن طريق المشاركة أثناء عهد والده أو أخيه فتتاح له الفرصة لإثبات مدة أهليته لهذا المنصب.[٤٥]، وأحياناً يعهد الأمير لأحد أبنائه صراحةً مثلما فعل الأمير أبي سعد الحسن لابنه أبي نمى.[٤٦]، وغالباً ما يكون الفصل في هذا الأمر إما للخليفة ببغداد أو لسلاطين المماليك بمصر، فقد فصل السلطان الناصر في أمر رميثة وحميضة عندما اشتد الخلاف بينهما وبين إخوانهم[٤٧] .

أما نظام الوزارة في بلاد الحجاز فقد أظهرت بعض كتب الرحالة الذين عاشوا في القرن السابع والثامن الهجريين وجود الوزراء في بلاد الحجاز غير أن ابن بطوطة أغفل ذلك، فربما كان الوزير ينوب عن أمير مكة المكرمة في حضور بعض المناسبات مثل إنابة الوزير عن الشريف أبي نمى في حضور ختم القرآن في المسجد الحرام ليلة السابع والعشرين من رمضان.[٤٨]

أما من ناحية التنظيمات المالية، فكل ما أشار إليه ابن بطوطة كان يتعلق بالأعطيات والأوقاف في زمن رحلته، حيث كانت الأعطيات والهدايا والهبات تصل إلى أشراف مكة المكرمة مثل التى وصلت من مصر إلى قاضى مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيى الدين الطبرى وكيل السلطان الناصر فى مصر، حيث تولى توزيعها على كافة أهل مكة المكرمة.[٤٩]، وتلك التي أهداها وزير الشريف أبى نمى للخطيب في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان[٥٠]

وهناك الصدقات والأعطيات التى تصل من العراق لأهل مكة المكرمة. ومنها أيضا التى يأخذها الأشراف من سلطان كلوة.[٥١] أما الأوقاف فقد تمثلت في المساكن التى أسهم الأغنياء في إنشائها من أموالهم الخاصة، سواء من أهل البلاد أو من القادمين عليها، وأوقفت على المجاورين، إلى جانب الأموال المبذولة لهم.[٥٢]

كما أشار ابن بطوطة إلى التنظيمات القضائية في بلاد الحجاز باعتبار أن القضاء أدى دوراً مهمّاً في الحياة العامة، وهو من أجل المناصب[٥٣]، إذ تقوم مهامه على الفصل في الخصومات ومشكلات الأفراد والجماعات، وبيّن ابن بطوطة أن تعيين القاضى يتم في مكة المكرمة من قِبل الخلافة العباسية قبل سقوط بغداد. وعقب انتقالها إلى مصر أصبح مرسوم تعيين القاضى يصدر منها كما يوجد لهؤلاء القضاة نواب يلتزمون بأداء أعمالهم في حالة غيابهم.[٥٤]

وكذلك الأمر في المدينة المنورة فهناك القاضى ونائبه، يقول ابن بطوطة: إن سراج الدين عمر المصري أقام في خطة القضاء بالمدينة المنورة نحو أربعين سنة، وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون. فكان القاضى يقوم بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء وعند ثبوت هلال شهر ذي الحجة يقوم القاضى بإلقاء خطبة شاملة وخاصة بأحكام الحج لكافة الحجاج، موضحاً لهم الطريق السليم لأداء الفريضة[٥٥]

ومن مهام القاضى إلقاء خطبة الجمعة المشتملة على الوعظ والتذكير والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه والدعاء لعمى النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس رضى الله عنهما، وكذلك آلحسن والحسين رضى الله عنهما، وزوجات النبى صلى الله عليه وسلم وفاطمة الزهراء، ثم الدعاء للخليفة العباسي وأمير مكة المكرمة ثم لحاكم مصر وولى عهده.[٥٦]وأشار ابن بطوطة إلى الحسبة ومالها من دور مهم في الحياة العامة في بلاد الحجاز، وهي تسهم مع القاضى

في تنفيذ القوانين المتصلة بالمصالح والآداب العامة في الغش والاحتيال، وقد أورد ابن بطوطة اسم أحد الأشخاص الذين تولوا منصب المحتسب وهو إمام الحنابلة محمد بن عثمان، وإلى جانب قيامه بالحسبة فهو نائب في القضاء، أيضا، ويبدو أن أمير مكة المكرمة يقوم بحماية المحتسب ويعطى عمامة في حضور عدد كبير من الناس ضماناً لعدم التعرض له بسوء.[٥٧] أما التنظيمات الحربية، فالواقع أن الرحالة معلوماتهم عنها قليلة، وعلى الرغم من ذلك فقد ألقى ابن بطوطة بعض الضوء على أسماء بعض القادة، فمنهم: محمد بن إبراهيم، وعلي وأحمد أبناء صبيح، وعلي بن يوسف، وشداد بن عُمر، وعامر الشرق ومنصور بن عُمر، وموسى المرزق.[٥٨] وقد سبق التجيبي في رحلته ابن بطوطة حيث أخبر أن أمر القادة لم يقتصر على أبناء الأسرة الحاكمة في أن يكون منهم قادة الجيش، بل تعداه إلى الموالي حيث برز منهم أحد القادة من ذوي الكفاءة والشجاعة في عهد الشريف أبي نمى حيث نزل التجيبي أثناء رحلته في داره ويدعى محمد بن الحسن.[٥٩]

المبحث الثالث

الجوانب الاجتماعية لبلاد الحجاز

أشار ابن بطوطة في رحلته إلى الجوانب الاجتماعية في المجتمع الحجازي، فتحدث عن طبقات هذا المجتمع وعاداته وتقاليده والاحتفالات التى يقيمها، والملابس التى يرتديها.

١- طبقات المجتمع: استطاع ابن بطوطة أن يوضح لنا صورة المجتمع الحجازي المقسم إلى طبقات بحسب مراتبها الاجتماعية، وظهر من كلامه أن الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز قد تنوعت وأخذت مظاهر عدة، ولاغرابة في ذلك، فالتفاوت الطبقى كان له أثره الكبير في بلاد الحجاز ،وأهم هذه الطبقات:

* الطبقة الحاكمة: تولى حكم الحجاز الأشراف من ذرية الحسن بن علي رضى الله عنهما في مكة المكرمة، ومن ذرية الحسين بن علي رضى الله عنهما في المدينة المنورة واتسم حكمهم بطابع الإمارة فقط.[١]. وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة، فذكر أن من حكام مكة المكرمة الأشراف من نسل الشريف أبي نميّ عطيفة ورميثة، ومقرهما مكة المكرمة.[٢]، ودارهما قرب المسجد الحرام وأقام رميثة أحياناً في حصن الجديد.[٣]، وقد عُرف عن رميثة حُسن السيرة في أهل مكة المكرمة بينما كان الناس يخشون أخاه حميضة لقسوته[٤]، وتولى الحكم من أولاد رميثة عجلان[٥]، وثقبة.[٦]

أما المدينة المنورة فقد أشار ابن بطوطة إلى حكامها وهما كبيش بن منصور بن جماز، وطفيل بن منصور بن جماز من ذرية الحسن بن على رضى الله عنهما، واعتمد الأشراف على حرس يعرفون بالحرابة، وهم يحفون بالأمير وبين يديه وهم يحملون الحراب باعتبارهم حرس أمير البلد.[٧]

* طبقة القوّاد: وهي من الطبقات التى لها أهميتها الكبرى، وتتبع الشريف، ويتم اختيار أفرادها من أكابر الأشراف،وكانوا يخرجون مع موكب الأمراء مثل موكب الأمير رميثة والأمير عطيفة في المناسبات . من هؤلاء القواد: محمد بن الحسن مولى الشريف أبي نميّ في مكة[٨]، وأحيانا قد يكون القائد لايمت للأسرة الحاكمة بصلة، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة من خلال ما أورده من أسمائهم مثل محمد بن إبراهيم، وعلى وأحمد ابنى صبيح،وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق، ومنصور بن عمر،وموسى المزرق وغيرهم.[٩]

* طبقة العلماء: حظى العلماء بأهمية كبيرة لدى الناس، وحظيت بلاد الحجاز بزيارة العديد منهم، وجلسوا لإلقاء الدروس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمن علماء مكة المكرمة الشيخ الفقيه العالم الصالح إمام المالكية أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن. وإمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، وإمام الحنفية المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكى المولد، ومن علماء المدينة المنورة بهاء الدين بن سلامة، وعز الدين الواسطى، وسراج الدين عمر المصرى والفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون، والإمام المحدث جمال الدين المطرى، وأبو عبد الله الغرناطى.(١٠)

* طبقة القضاة: تُختار طبقة القضاة من رجال العلم، فهم يلحقون بفئة العلماء، يقومون بتنفيذ الأحكام الدينية على سائر الناس، وفي بلاد الحجاز أشار ابن بطوطة إلى وجود هذه الطبقة، ووجود قضاة لجميع المذاهب، فكل طائفة تتبع إمامها وقاضيها ،ولكل إمام مكان محدد في المسجد، يصلى فيه مع أتباعه، ومن قضاة مكة المكرمة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيى الدين الطبرى، والعالم شهاب الدين فاضل بن نجم الدين محمد، ومن قضاة المدينة المنورة القاضى سراج الدين عمر المصرى، وبعده جمال الدين الأسيوطى.(١١)

* طبقة أصحاب المهن: ومنها طبقة التجار، الذين كانوا أصحاب دور كبير في بلاد الحجاز، التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على التجارة، وكانت حوانيت التجارة مصفوفة على جانبى الصفا و المروة، وهناك الفلاحون المشتغلون في بساتين مكة المكرمة المتناثرة في "الزاهر" الذي هو مبنى علي جانبي الطريق خارج مكة المكرمة يحتوي علي ديار وبساتين ، والمتناثرة أيضا في "المسفلة" وهو موضع خارج مكة المكرمة بالإضافة إلى مهن أخرى كالسقائين والخبازين، وصناع الحلوى والرعاة(١٢)، والأغوات وهم خدم المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة.(١٣)، ويعملون على العناية بالمسجد خلال ساعات الليل والنهار ونظافته وإشعال وإطفاء قناديله.(١٤)، ومن المهن أيضاً صناعة الثياب، إذ يطلق على أحد أبواب المسجد الحرام باب الخياطين(١٥)، إلى جانب مهنة الطوافة حيث يقوم سدنة البيت بالطواف بالحجاج مقابل أجر علي ذلك .(١٦)، بالإضافة إلى مهنة الحمالة والجزارة والبناء والتنجيد وصناعة الدهان(١٧)، الذين لهم أجرة معلومة، وهذه مجمل المهن التى أشار إليها ابن بطوطة، واستطعت تتبعها، ولايعنى هذا اقتصار أهل الحجاز على هذه المهن فقط، فربما وجدت غيرها ولكن ابن بطوطة أغفل ذكرها.

* طبقة الفقراء والمجاورين: كان بعض فقراء الحجاز يفرغ نفسه للعبادة، وبعضهم يعيش على الصدقات، يقول ابن بطوطة: ومن المجاورين بمكة المكرمة الإمام الصوفى عفيف الدين عبد الله بن أسعد، كثير الطواف أثناء الليل وأطراف النهار وغيره من المجاورين الكثير والكثير.(١٨)

٢- العادات والتقاليد: تحدث ابن بطوطة عن العادات والتقاليد الحسنة والمكارم الجميلة لأهل مكة المكرمة واصفاً إياها بأنها من الأفعال الجميلة، والأخلاق الحسنة، كالإيثار إلى الضعفاء المنقطعين وحسن الجوار للغرباء ودلل على ذلك بأنه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا أطبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له، ولايردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنها يعطى ثلثها أو نصفها عن طيب نفس، ومن عادات المكيين الاحتفاء بالضيوف وإقامة الولائم، كما أدرجوا على إعداد مياه زمزم للشرب في الحرم حيث توضع في دوارق بعد تنظيفها وتوضع حولها الكيزان(١٩) البيضاء وتسمى الغراريف.(٢٠)

ومن عادتهم الحسنة أيضا الاعتناء بالأيتام ومساعدتهم على تعلم طرق الكسب الحلال، حيث اعتاد الأيتام الصغار الجلوس في السوق ومع كل واحد منهم قفتان، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، ويسمون القفة مكتملاً، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر، ويعطى ذلك للصبى يجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى، ويحمل الصبى ذلك إلى دار الرجل ليتهيأ له طعام منها مقابل أجر معلوم، في حين يتجه الرجل لقضاء أعماله.(٢١)

كما أشار ابن بطوطة أن من عادات أهل مكة المكرمة كثرة استعمالهم الطيب والكحل والسواك، وحرص النساء على الطواف في ليلة الجمعة.(٢٢)

ومن عادات أهل المدينة المنورة ما شهده ابن بطوطة في مسجد الفتح حيث يقول: وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلّقوا في صحنه حلقا، وأوقدوا الشمع الكثير، وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة، والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة، ويوزعون الصدقات الكثيرة على المجاورين والضعفاء والمحتاجين.[٢٣]

وإذا كان ابن بطوطة قد أشار إلى العادات والتقاليد الحسنة لأهل مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد أشار أيضا إلى العادات والتقاليد غير الحسنة والتى تتطرق إلى البدع والشائعات مثل اعتقاد بعض أهل مكة في زيادة ماء زمزم في ليلة النصف من شعبان، وقد ذكرها من قبله ابن جبير في رحلته والعبدري أيضاً.[٢٤]، وأشيع أيضاً أن حمام الكعبة لا يهبط على الكعبة أو فوقها، وإذا هبط شفي من علته أو مات لحينه.[٢٥]

ومن الشائعات ما أثير حول جبل ثور، وقولهم من لم يستطع دخول الغار من الفتحة التى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فهو ابن زنا.[٢٦] ومن البدع "أنه في حالة وجود قحط يخرجون مصحف زيد بن ثابت الصحابى الجليل رضى الله عنه ويضعونه في القبة مع المقام بعد فتح باب الكعبة ثم يجتمع الناس وهم حاسرو الرؤوس داعين الله ومتضرعين إليه حتى يتداركهم برحمته.[٢٧]

ومن العادات غير الحسنة المنتشرة بين بعض أهل المدينة المنورة التى أشار إليها ابن بطوطة، أن هناك قطعة من الجذع الذي حنّ للنبي صلى الله عليه وسلم يقبلها الناس، ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح الخدود فيها.[٢٨]

من الشائعات التى سجلها ابن بطوطة أثناء طريقه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، عادة الركب المار بتبوك إعداد الجيش بأسلحته ويتقدم الرجالة والفرسان وخلفهم الركب، في حين يقوم بعضهم بتحميل أكوام الحطب على الدواب لقلته بأرض تبوك، ويقبلون على المدينة بهذه الهيئة زاعمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخلها بتلك الطريقة.[٢٩]

٣- الاحتفالات: درج أهل مكة المكرمة على الاحتفال بمناسبات معينة منها: احتفالهم يوم الجمعة وخروج الخطيب والمؤذنين، واحتفالهم بشهر رجب والعمرة وغيرها من العبادات، واحتفالهم في شهر شعبان بإيقاد المصابيح والمشاعل، والصلاة والطواف والخروج للاعتمار.[٣٠]

كما يحتفلون في رمضان بضرب الطبول عند باب الأمير، وتفرق الأئمة السنيين استعداداً

لإقامة التراويح، وتجديد فرش المسجد، والإكثار من الشمع والمشاعل، واستمرار عادة ختم القرآن الكريم في الوتر من العشر الأواخر لشهر رمضان، وكذلك الاحتفال ببداية شهر شوال، وتزيين الحرم المكى بالمصابيح والشموع الموقدة في جميع أنحاء الحرم وسطحه، وسطح المسجد الموجود بأعلى جبل أبي قبيس، والاحتفال بشهر ذي الحجة، وضرب الطبول في أوقات الصلاة إلى يوم الصعود إلى عرفات، ويقوم الخطيب يوم السابع من ذى الحجة أثر صلاة الظهر بإلقاء خطبة في الناس يرشدهم إلى الطرق الصحيحة في أداء الفريضة، وكان هذا الاحتفال موجوداً وقت زيارة ابن بطوطة لمكة المكرمة.(٣١)

٤- الملابس: حرص أهل الحجاز على لبس الملابس النظيفة الحسنة، وقد أشار ابن بطوطة إلى أمير مكة المكرمة وهو يلبس ثوباً أبيضاً وعمامة بيضاء، متقلداً سيفه، ويلبس القاضى الخطيب في صلاة الجمعة ملابسه السوداء المزينة بخيوط الذهب وعلى رأسه عمامة سوداء مزينة أيضا، وعليه طيلسان شرب رقيق، كما يرتدى رئيس المؤذنين وقت صلاة الجمعة ملابس سوداء، ويحمل على عاتقه سيفه، وساد اللون الأبيض ثياب أهل مكة المكرمة، وقيام الأمير بإلباس المحتسب عمامة تكون له جوازاً، فلا يجرؤ أحد على التعرض له، ولكنها تصبح عديمة النفع عند رحيل صاحبها عن مكة المكرمة.(٣٢)

المبحث الرابع

الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز

سجل ابن بطوطة في رحلته العديد من الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز سواء على المسار الزراعى أو الصناعى أو التجارى وذلك على النحو التالى:

١- الزراعة: نلاحظ أن بلاد الحجاز قد اعتمدت في الزراعة على المياه، ومن ناحية توفّر المياه نجد في القرين بئر مياه عذبة، وفي مكة المكرمة هناك سقاية للماء، وفي بطن مرّ وخليص وبدر والصفراء وقباء مياه آبار عذبة، وبذلك اتسعت الرقعة الزراعية في مختلف مدن بلاد الحجاز، وقد أشار ابن بطوطة إلى المحاصيل الزراعية في بلاد الحجاز فيقول: ولقد أكلت بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لايماثله سواه طيباً وحلاوة، حيث تجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة، وبطن مرّ.(١)

ونلاحظ أن الأراضى الزراعية كانت قريبة من مكة المكرمة وما حولها من القرى والأودية، يقول ابن بطوطة: ثم رحلنا من عسفان، ونزلنا بطن مرّ، ويسمى أيضا مرّ الظهران، وهو وادي خصب كثير النخل ذو عين فوارة سيّالة تسقى تلك الناحية، ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة المكرمة.(٢)

كما اشتهرت الطائف بخصوبة تربتها الزراعية، حيث تحوى الفواكه وتضم بساتينها النخيل والعنب والخوخ والتين، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك عند حديثه عن رباط ربيع بمكة المكرمة عندما يأتي أهل الطائف بالفواكه بأنهم يخرجون العشر من الناتج من النخيل والعنب والخوخ والتين.(٣)

٢- الصناعة: ساهمت الأحجار الكريمة كالجواهر والياقوت وغيرها المجلوبة إلي بلاد الحجاز في ازدهار صناعات رائجة ومعروفة ، وهي صناعة الحلي والمجوهرات وغيرها من صناعات الفضة استخدمت في تزيين المسجد الحرام،حيث كانت هذه المادة من الفضة تجلب إلى البلاد ، وقد أشار ابن بطوطة أيضا إلى توفر الفضة والذهب في بلاد الحجاز ورخص أسعارها.(٤)

٣- التجارة: اعتمدت بلاد الحجاز على التجارة لإقبال الكثير على العمل في مجالها، ويبدو أن طبيعة البلاد قد دفعت السكان إليها ونجد ذلك واضحاً في القرآن الكريم في دعوة سيدنا إبراهيم الخليل لأهلها: "فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" سورة إبراهيم (آية ٣٧) وقال تعالى: "أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ" القصص (آية ٥٧). فالآيات تشير إلى المكان وماخصه الله به من مميزات دينية، وهي اتجاه القلوب إليه، ثم الناحية الاقتصادية المتمثلة فيما ساقه الله لهم من رزق ليكونوا شاكرين لنعمه، ومحافظين عليها، أما الآية الثانية فأشارت إلى قدسية المكان، وإلى الأرزاق والخيرات المحمولة إليه من كل مكان، وقد أشار ابن بطوطة إلى المراكز التجارية في بلاد الحجاز مثل، جدة وهو ميناء بحرى، ومكة المكرمة، وينبع وتبوك والعلا والدهناء ورابغ وعسفان وغيرها من الموانى.[٥]

كما أشار ابن بطوطة إلى أن الورادات التجارية تحمل من داخل بلاد الحجاز إلى مكة المكرمة فيحمل إليها الخضار والفواكه من الأودية القريبة مثل وادي نخلة وبطن مرّ ومن الطائف.[٦]

وقد تعددت الأسواق التجارية في بلاد الحجاز وتنوعت مبيعاتها وأوقاتها، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة فذكر أن في مكة المكرمة يوجد سوق تجاري ما بين الصفا والمروة، تباع فيه الأطعمة، وسوق للثياب والأمتعة، وسوق للعطارين عند باب بنى شيبة وسوق الدقاقين أي التوابل في أجياد، يقول ابن بطوطة: وبين الصفا والمروة سوق عظيمة، تباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه.[٧]

المبحث الخامس

الجوانب العلمية لبلاد الحجاز

حفلت رحلة ابن بطوطة بالجوانب العلمية لبلاد الحجاز، متضمنة المذاهب الإسلامية وبعض المدارس العلمية، وأشهر العلماء الكبار، وذلك على النحو التالي:

١- المذاهب الإسلامية في بلاد الحجاز : تعددت المذاهب الإسلامية في بلاد الحجاز، وقد أشار ابن بطوطة إلى تعدد الأئمة في الحرم المكي تبعاً لتعدد المذاهب، فكان هناك المذهب المالكي، والشافعي والحنفي والحنبلي، ويمثل كل مذهب من هذه المذاهب إمام كبير فهناك الفقيه العالم إمام المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن. وشهاب الدين بن البرهان إمام الشافعية، وشهاب الدين أحمد بن علي إمام الحنفية، والمحدث محمد بن عثمان البغدادي الأصلي المكي المولد إمام الحنابلة. [١] ولفت انتباه الرحالة الذين سبقوا ابن بطوطة وزاد استنكارهم من وجود الفرقة الزيدية حيث كان الإمام الزيدي موجوداً زمن رحلة ابن جبير عام٥٧٩ (هـ/١١٨٣.م) واستمر وجود الزيدية في وقت رحلة التجيبي إلى مكة سنة(٦٩٦هـ/١٢٩٦.م) ولكن هذه الفرقة اختفت واختفى وجود إمامها في وقت رحلة ابن بطوطة الذي زار مكة سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٥.م) وبالرغم من تعدد الأئمة والمذاهب بالحرم الشريف إلا أنه لم يحدث اضطهاد أو تحيز لمذهب على آخر، بل سار أئمة وعلماء المذاهب جنباً إلى جنب لنشر العلم، وربما يحدث تفقه العلماء على أكثر من مذهب.[٣]

٢- المدارس العلمية في بلاد الحجاز: سارت المدارس العلمية بمكة المكرمة جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام في نشر العلم، وقد أشار ابن بطوطة إلى مدرسة واحدة فقط وهي المدرسة المظفرية، التي بناها ملك اليمن المظفر نور الدين عمر بن رسول. [٤] غير أن المسجد الحرام يعدّ مدرسة علمية ومركزاً لنشر العلم والتعليم من أعظم المراكز العلمية، حيث تعقد فيه حلقات العلم المتنوعة، ليس وفق منهج محدد بل كان الأمر متروكاً لكل عالم في تدريس المفيد.[٥]

وقد أشار ابن بطوطة إلى أن الكثير من طلاب العلم قد حرصوا على طلب العلم بالمسجد الحرام، وليس بالمدارس المنتشرة بمكة وحدها. [٦] ولم يشير ابن بطوطة في رحلته إلى وجود مدارس علمية بالمدينة المنورة بسبب ما كان عليه المسجد النبوي والمسجد الحرام من نشاط علمي بسبب وفرة العلماء، والكتب العلمية، وكأنما مكة والمدينة كانتا مقراً للعلم والعلماء.

ويأتي المسجد النبوي مركزاً ثانياً من المراكز العلمية بالحجاز، وظلت المدينة المنورة مقصداً لطلبة العلم، وكان العلماء المجاورون يحتفظون بكتبهم داخل المسجد النبوي في أماكن خاصة بهم، كما ضم المسجد النبوي مكتبة كبيرة وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد.[٧]

وقد شاهد ابن بطوطة وغيره من الرحالة الذين نزلوا بلاد الحجاز خزائن للكتب في المسجد الحرام، وهي كتب وقفت على المسجد الحرام إلى جانب الكتب الخاصة بكل عالم يتولى التدريس، إلى جانب الكتب الموقوفة من قبل علماء مكة المكرمة مما يعطى انطباعًا واضحًا عن وجود اتصال حضارى بين المسلمين فى بلاد الحجاز وشعوب الدول الأخرى، مما أعطى بلاد الحجاز بعض الخصوصيات الثقافية التى تنفرد بها عن باقى المنطقة العربية[٨].

٣- أشهر العلماء الكبار بمكة المكرمة : ضمت مكة المكرمة جمعاً غفيراً من العلماء، سواء كانوا مقيمين بها أو مجاورين للمسجد الحرام، في زمن ابن بطوطة وقد أورد ابن بطوطة عدداً من هؤلاء العلماء مثل: نجم الدين محمد بن محيي الدين الطبري، المولود في سنة(٦٥٨. هـ/١٢٥٩.م) ،تفقه وأفتى وتولى القضاء حتى مات في سنة ٧٣٠.هـ/١٣٢٩.م، لقيه ابن بطوطة وأثنى عليه لفضله وكثرة صدقاته ومواساته للمجاورين وحسن خلقه، وكثرة عبادته وإطالة مكوثه في المسجد الحرام وقيامه بإطعام الأشراف والأعيان والفقراء، وخدم الحرم الشريف والمجاورين، وحظى بمكانة كبيرة لدى الملك الناصر ملك مصر، إذا يعتبر وكيلاً عنه في توزيع صدقاته وصدقات أمرائه على سكان مكة المكرمة. [٩]

والعالم الفاضل جلال الدين محمد الأقشهري، جاور بالحرمين وسمع بها الكثير، وله عناية كبيرة بالحديث الشريف، ولد سنة(٦٦٤.هـ/١٢٦٥.م)، ومات بالمدينة المنورة سنة٧٣٩(.هـ/١٣٣٨.م) وقد لقيه ابن بطوطة وأشار إلى جلوسه عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام[١٠]

وإمام الحنابلة محمد بن عثمان البغدادي، سمع وحدّث وناب في القضاء بمكة المكرمة عن القاضي نجم الدين الطبري، وتوفى سنة(٧٣١.هـ/ ١٣٣٠.م) ولقيه ابن بطوطة وبيّن أنه بغدادي الأصل مكي المولد، وكان المحتسب بعد قتل تقى الدين المصري، وله عند الناس هيبة وسطوة[١١]

ومحمد بن عبد الله بن أحمد الطبري المكي الشافعي، ولد سنة(٦٧٨.هـ/١٢٧٩.م) بمكة المكرمة وتوفى سنة(٧٣٥.هـ/١٣٣١.م) وقد مدحه ابن بطوطة كثيراً لبلاغته وحسن بيانه، وكان يكتب لكل جمعة خطبة خاصة بها.[١٢]

والعالم عز الدين الحسن بن علي الواسطي، ولد سنة(٦٥٣.هـ/١٢٥٥.م) ومات في شعبان سنة(٧٤١.هـ/ ١٣٤٠.م)، ذكره ابن بطوطة من مكة المكرمة والمدينة المنورة وقال عنه: إنه من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي.[١٣]

والعالم أحمد بن محمد بن أحمد زين الدين الطبري المكي، ولد سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣.م)، وتوفي بمكة المكرمة سنة(٧٤٢.هـ/١٣٤١.م) قال عنه ابن بطوطة: إنه الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين من أهل الفضل والإحسان للمجاورين.[١٤]

والعالم أحمد بن علي بن يوسف شهاب الدين الحنفي المكي إمام الحنفية بالحرم الشريف، ولد بمكة المكرمة سنة(٦٧٣.هـ/١٢٧٤.م) وتوفي بها سنة (٧٦٣هـ/١٢٧٤.م)، قال عنه ابن بطوطة: إنه من كبار أئمة مكة المكرمة وفضلائها وكرمائها، قام في كل عام باستدانة أربعين أو خمسين ألف درهم لإطعام المجاورين وأبناء السبيل.[١٥]

٤- أشهر العلماء الكبار بالمدينة المنورة: حفلت المدينة المنورة بالعديد من العلماء القائمين على التعليم ونشر العلم، إضافة إلى العلماء القادمين إليها، وربما جاور بعضهم واستقر بها ذلك في زمن ابن بطوطة من بين هؤلاء العلماء: العالم الجليل سراج الدين عمر بن أبي العباس الأنصاري، ولد سنة(٦٣٥.هـ/١٢٣٧.م) وتوفي سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥.م)، أشار إليه ابن بطوطة بقوله: قاضي وخطيب المدينة المنورة، ظل قاضي وخطيب المدينة نحو أربعين سنة.[١٦]

والعالم جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد العبادي السعدي الشافعي رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الشريف، ونائب القاضي والخطيب والإمام في المدينة المنورة، ولد سنة(٦٧١. هـ/١٢٧٢.م) وتوفي سنة(٧٤١.هـ/١٢٤٣.م) وقال عنه ابن بطوطة: هو الإمام المحدث الفاضل.[١٧]

والعالم محمد بن محمد بن أحمد كمال الدين المصري، نبغ في الفقه، وسمع الحديث، تولى القضاء والخطابة والإمامة بالمدينة المنورة، ولد سنة(٦٧٤.هـ/ ١٢٧٥.م) في القاهرة، وتوفي سنة(٧٤٥.هـ/١٣٤٤.م)، ولقيه ابن بطوطة قائلاً عنه: إنه من مصر وأشار إلى توليه الخطابة والقضاء بالمدينة المنورة.[١٨]

والعالم أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي، جاور بالمدينة وأخذ الحديث وأتقن الفرائض والحساب، توفى سنة(٧٥٤.هـ/١٣٥٣.م) ولقيه ابن بطوطة وأثنى عليه ونعته بالشيخ المجاور المعروف بالتراس وأصبح فيما بعد أحد القائمين على خدمة المسجد النبوي الشريف.[١٩]

والعالم محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون التونسي المولد والمنشأ، أشار ابن بطوطة إلى عمله نائباً للقاضي سراج الدين، وله العديد من الأبناء بالمدينة المنورة، ومات سنة(٧٢١هـ/ ١٣٢٠.م) وقد برع في علم الميقات.[٢٠]

والعالم عبد الله بن محمد بن فرحون قاضي المالكية ومؤرخ المدينة المنورة، ولد سنة(٦٩٣. هـ/١٢٩٣.م)، أخذ العلم على يد علماء عصره، واستوطن المدينة المنورة، وعمل نائباً للقاضي مدة أربع وعشرين سنة، ثم انفرد بقضاء المالكية، وكان عالماً بالحديث ومعانيه والقرآن الكريم وتفسيره، وله العديد من المؤلفات، قال عنه ابن بطوطة: أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم.[٢١]

والعالم البهاء بن سلامة المصري الذي قام بالخطابة، والإمامة بالمدينة المنورة، أشار ابن بطوطة إلى إمامته للمسجد النبوي الشريف وقت قدومه إلى المدينة المنورة، وكان من أكابر المصريين[٢٢]

لقد تمتعت مكة المكرمة والمدينة المنورة بمكانة علمية عظيمة في نفوس المسلمين جميعاً، وهما من أهم المراكز التي تشد إليها الرحال وتضرب إليها أكباد الإبل في سبيل طلب العلم والعبادة، وقام علماؤها بدور كبير في النهوض بالحركة العلمية وازدهارها.

الخاتمة

لقد اعتمدت في هذا البحث على كتاب رحلة ابن بطوطة لإظهار أهميته، والتأكيد على أن هذه الرحلة من المصادر المهمة لتاريخ الحجاز، وقد تمخض هذا البحث عن عدد من النتائج تتعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ومن هذه النتائج نتائج الجوانب السياسية: حيث ظهر من خلال الدراسة أنه قد حدث اضطراب سياسى في بلاد الحجاز نتيجة تصارع أمراء الأشراف فيما بينهم على الإمارة ، وقد استعان الأمراء الأشراف بملوك مصر تارة وبملوك اليمن تارة أخرى في سبيل الحصول على الحكم ، وقد ارتبط أشراف الحجاز ارتباطا وثيقاً في القرن الثامن الهجرى بالمماليك بمصر، الذين تدخلوا في شئون الحجاز الداخلية، وامتد ليشمل الأمراء أنفسهم من ناحية توليتهم وعزلهم ، وامتدت سيطرت أمراء مكة المكرمة على مناطق شاسعة خارج الحجاز ليشمل مملكة سواكن وبلاد البجة.

أما الجوانب الاجتماعية: فقد تعددت الطبقات في المجتمع الحجازى، واختلاف تركيبته السكانية ، وظهرت عادات وتقاليد انفرد بها أهل الحجاز عن سائر الأمصار الإسلامية ، وكذلك الاحتفالات المرتبطة بأكثر الشهور العربية.

أماالجوانب الاقتصادية:فقد ظهر من خلال الدراسة استقرار الأحوال السياسية بالممالك الإسلامية المجاورة للحجاز يعقبه استقرار سياسي واقتصادى بالحجاز بسبب ما يصلها من أعطيات منها بانتظام ، وأن أهل الحجاز لديهم معرفة بأساليب المعاملات التجارية بمختلف أنواعها ، وأن للأسواق وانتشارها وجود كبير .

ومن حيث الجوانب العلمية: كانت رحلة ابن بطوطة مشاهدات في بلاد الحجاز بمثابة موسوعة علمية مصغرة عن هذه البلاد لما حوته من معلومات مهمة لكافة أحوال المسلمين في القرن الثامن الهجري.

وتضمنت هذه الرحلة العديد من أسماء العلماء البارزين في مكة والمدينة ، كما ضمت مكة المكرمة والمدينة المنورة المذاهب الإسلامية الأربعة وسار علماء هذه المذاهب جنبا إلى جنب لدفع الحركة العلمية والنهوض بها وبروز دور المسجد الحرام العلمى، وكذلك دور المسجد النبوى فكان كل منهما بمثابة جامعة مفتوحة يتوافد إليها طلاب العلم المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامى.

كما أبرزت الدراسة دور العلماء المجاورين في رواج الحركة العلمية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، واطلعت الدراسة من خلال رحلة ابن بطوطة على كثير من المشاهد الجغرافية والعمرانية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

هوامش البحث

هوامش التمهيد

١- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، طبعة عالم المعرفة العدد ١٣٨، الكويت ١٩٨٩.م ص٢٧. وانظر ابن الخطيب ذو الوزارتين لسان الدين ت٧٧٦هـ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤.م ، ٢٧٣/٣ .

٢- ابن حجر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلاني ت٨٥٢هـ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة دار الجيل - بيروت بدون تاريخ٣/ ٤٨٠.

٣- ابن بطوطة، الرحلة، طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٥ص٥.

٤- «لواته» بطن من بطون البربر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زهيك. انظر عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨هـ، تاريخ ابن خلدون، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٩.م،١١٦/٦.

٥- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤. و«طنجة» : بلد على ساحل بحر المغرب، وهى مدينة قديمة، آثارها ظاهرة، بناؤها بالحجارة قائمة على البحر، وهى على ظهر جبل، وهى آخر حدود أفريقيا، انظر ياقوت الحموى ت٦٢٦هـ، معجم البلدان طبعة دار صادر - بيروت . بدون تاريخ. ٤٣/٥.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص ٥١١.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨.

٨- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٠.

٩- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤.

١٠-ابن خلدون عبد الرحمن ت ٨٠٨ هـ، المقدمة طبعة دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة بدون تاريخ، ٣٢٢/١.

١١-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة. طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة بدون تاريخ، ٤/ ١٠٠.

١٢-انظر مقدمة ابن جزي برحلة ابن بطوطة ص٩-١٣ ،وانظر ابن الخطيب ،الإحاطة ٢٥٦/٢-٢٥٧، ٢٦٥ ، وانظر زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، طبعة دار المعارف القاهرة ٥٤٩١م ، وانظر:

- M.Zaki: Arab Accounts of India (During The Fourteenth century) dell, Delhi, 1981 .

١٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ١٧٠، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٨٠، ٦٥٤.

١٤-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٠.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ١٣٠.

١٦-كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان، طبعة جامعة الدول العربية ١٩٥٧ .م ٤٢١/١. ونقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ط٣، طبعة المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع- بيروت ١٩٨٢.م ص١٨٠.

١٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٠٨ - ١١٠.

١٨-نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص١٨٢.

١٩-حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب ص٤١، والبستاني، دائرة المعارف ٣٩٩/١.

وانظر :

- Blanche Trapieu : Les Voyageurs Arabes au Mogen Age. Gallimard. 8 eme edition. 1937.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ٤١٠، ٥١٥ - ٥١٦.

٢١-جزيرة المهل، وهي ما تعرف اليوم بجزائر المالديف، انظر محمد محمود الصياد، رحلة ابن بطوطة، طبعة دار المعارف للطباعة، والنشر والتوزيع تونس ١٩٨٥ م ، ص٤٩. وشوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، طبعة عالم المعرفة - العدد (١٥١) الكويت ١٩٩٠، ص١٩٣.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨، ٥١١، ٥٨٢-٥٨٨، وانظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ٤٨٠/٣.

٣٢- انظر مقدمة هذا المرجع :

- C.H.Lockitt. theadventure of Travel. Longman : 15th edition 1960 .

هوامش المبحث الأول

١-ابن رشيد، ملء العيبة، ط دارالغرب الإسلامي- بيروت ١٩٨٨.م ٧/٥، ابن بطوطة، الرحلة ص١١٢.

٢-ابن رشيد، ملء العيبة ١١/٥ - ١٢، ١٥ - ١٦، وابن بطوطة، الرحلة ١١٢ - ١١٣.

٣-البلوي، تاج المفرق تحقيق الحسن السائح - ط بيروت (د . ت) ٢٧٨/١، وابن بطوطة، الرحلة، ١١٢ - ١١٣، وابن رشيد، ملء العيبة ١٤/٥ - ١٥.

٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٣، والبلوي، تاج المفرق ٢٧٩/١.

٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢١٨ - ٢١٩، وابن بطوطة، الرحلة ص٢٤٢ - ٢٤٣.

٦-العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٣ - ١٦٤، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٨ - ١٢٩.

٧-البلوي، تاج المفرق ١/٢٧٩، وابن بطوطة، الرحلة، ص١٢٨.

٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨-١٢٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٦٣ - ١٦٤.

٩-العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٤ - ١٦٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٩.

١٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٦٦.

١١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩.

١٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩-١٣٠.

١٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٠.

١٤- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١، وأبو عبدالله العبدري:الرحلةالمغربية - تحقيق محمد الفاسي - طبعة الرباط - المغرب ١٩٦٨.م ،ص١٧٢ - ١٧٣، التجيبي االقاسم بن يوسف ت ٧٣٠هـ:مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، طبعة الدار العربية للكتاب - ليبيا- تونس ١٩٧٥.م ص٢٣٠.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١-١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥١.

١٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥٠.

١٧-جبل الخندمة: الخندمة جبال مكة الشرقية التى تبدأ من أبى قبيس متجهة شرقا إلى المفجر الذي يفصل بين جبال منى وجبال مكة وتمتد جنوبا حتى تشرف على المفجر الغربى الذي يفصلها عن جبل ثور، انظر البلادى عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، طبعة مطبوعات نادى الطائف الأدبى- السعودية ١٩٧٨.م، ٣/١٦٠.

١٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣.

١٩-وهو الآن يقع داخل عمران مكة، ويشرف على حى الهجرة.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٥، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥٥، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٨٦.

٢١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤-١٤٥، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٦١.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٨٣ - ١٨٤، والحربي، المناسك وأماكن طرق الحج تحقيق حامد الجاسر ط٢ - الرياض ١٩٨١.م ص٥٠٦ - ٥٠٨، والفاسي، شفاء الغرام ١/٤٩١ - ٤٩٢، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٤ - ٥٠٦.

٢٣-العبدري، الرحلة المغربية ص١٨٤ - ١٨٥، والفاسي، شفاء الغرام ١/٤٨٢ - ٤٨٨، وابن بطوطة، الرحلة

ص١٦٩ - ١٧٠.

٢٤-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٢، وابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - تحقيق محمد الحبيب جـ٢ طبعة الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٢.م، جـ٣ طبعة ١٩٨١.م وجـ٥ طبعة دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٨.م ١٥/٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٩ - ١٣٠.

٢٥-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٦، عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة ط٤، طبعة المطبعة العربية الحديثة - بيروت ١٩٨٥.م ص٢٣٩، ٢٤٦، والشنقيطي، الدر الثمين ط٣، طبعة دار القبلة - مكة ١٩٩١.م ص١٦٧.

٢٦-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٨ - ١١٩.

٢٧-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٤ - ١١٩.

٢٨-البلوي، تاج المفرق ٢٨٧/١ - ٢٨٨، وابن بطوطة الرحلة ص١٢٥.

٢٩-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥، والبلوي، تاج المفرق ٢٨٨/١.

٣٠-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥، والبلوي، تاج المفرق ٢٨٨/١.

٣١-البلوي، تاج المفرق ٢٨٨/١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥.

٣٢-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٦.

٣٣-البلوي خالد بن عيسى ت٧٨٠ هـ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق ومقدمة الحسن السائح، طبعة بيروت (د . ت)، ٣٠٥/١ - ٣٠٧، والفاسي محمد بن أحمد الحسيني ت٨٣٢ هـ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥.م، ٣٦٩/١، ٣٨٥ - ٣٨٧، ٣٣٠ - ٣٣١، ٣٤٦، التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٣ - ٤٤٦، ٢٢٧ - ٢٢٨، ٣٠٣ - ٣٠٤، ٢٧٩ - ٢٨٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٢، ١٣٦ - ١٣٩، ١٤٠.

٣٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٢ - ١٤٤، والبلوي، تاج المفرق٣١٢/١.

٣٥-البلوي، تاج المفرق ٣٠٨/١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٢، وسيد عبد المجيد بكر، أشهر المساجد في الإسلام ط دار القبلة - مكة ١٩٨٤.م ص١٠٢ - ١٠٤.

٣٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٩، والبلوي، تاج المفرق ٣٠٩/١.

٣٧-ابن بطوطة، الرحلة ص١٦٩.

٣٨-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٩، والبلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ط دار مكة السعودية ١٩٨٠م ص٢٧٢، وابن بطوطة، الرحلة ص١٦٩ - ١٧٠.

٣٩-التجيبي، مستفاد الرحلة ص١٤٣، والبلوي، تاج المفرق ١/ ٣١٠، والفاسي، شفاء الغرام ١/٤٢٩، وابن ظهيرة، الجامع اللطيف ص٢١٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٣.

٤٠-الفاسي، شفاء الغرام ١/٥٢٧، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٥.

٤١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٢٧.

٤٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٠، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٥٦، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٢.

٤٣-الفاسي محمد بن أحمد الحسيني ٨٣٢هـ- والعقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥م، ١/ ١٢٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤١.

٤٤-ابن فهد، إتحاف الورى ٣/ ٦٠، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٢٨، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨.

٤٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٤، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٣٢ - ٥٣٥، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٠ - ١٢٢، وابن فهد، إتحاف الورى٢/ ٥٦٤، ٣/ ٦٤.

٤٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٣٢ - ٢٣٦، ٢٣٩، والبلوي، تاج المفرق ١/ ٣١١ - ٣١٣، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٤٣٨، ٤٣٩، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٠، ١٤٢.

٤٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١.

٤٨-ابن فهد، إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦ - ٥٣٨، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٥٢، وابن الجوزي، المنتظم ١٠/ ٢٦٠.

٤٩-البلوي، تاج المفرق ١/ ٣٠٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٣٣، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٥٩، ٥٣٢، ٥٤٦ - ٥٥٢، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤١ - ١٤٣، ١٥٤.

هوامش المبحث الثاني

١- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ٢٢.

٢- رميثة بن أبي نمى محمد بن أبي سعد حسن بن أبي علي أمير مكة، وليها نحو ثلاثين سنة، توفى ثامن ذي القعدة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، طبعة مكتبة الخانجي القاهرة (د. ت) ١/ ٣٠٦.

٣- عطيفة بن أبي نمى محمد بن أبي سعد حسن بن أبي علي أمير مكة، وليها إحدى عشرة سنة ونصف، وقتل سنة ٧١٠هـ. انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ١/ ٢٧٩.

٤- السلطان يوسف بن عمر بن علي بن رسول أحد سلاطين الولة الرسولية ،الذين حكموا اليمن أكثر من قرنين واتسع ملكهم فشمل أكثر بقاع اليمن ، وتيرجع تسمية الدولة بهذا الاسم إلي أن نسبهم ينتهي إلي محمد بن هارون الغساني ، وكان أثيرا عند الخليفة العباسي ، فأرسله عدة مرات إلي سلاطين الأيوبيين بمصر فأطلق عليه لقب رسول ، واعتبر المؤرخون أن دولة بني رسول دولة يمنية وليست دخيلة ولذلك يعتبرون محمد بن هارون من حفدة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة .انظر أحمد شلبي ،موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٥.م ، ٣٥١/٧ .وانظر ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٩ ، ١٤٨.

٥- أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب تحقيق ناظم رشدي، ط بيروت (د . ت) ص٥٠ – ٥٥، والزركلي، الأعلام طبعة دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٦.م ٢ /٩٠.

٦- العز بن فهد، غاية المرام تحقيق فهيم شلتوت – طبعة دار المدني السعودية١٩٨٦.م ٥٩٦/١ – ٥٩٨.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ٤٣ ، ١٤٩، ١٦٠، ١٦١.

٨- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤١.

٩- البجة: أرض أسفل مصر، والبجاة هم جنس من الحبش، وبلادهم بين البحر الأحمر ونيل مصر، والبجة من مدن الحبشة، انظر ابن حوقل أبو القاسم النصيبى ت٣٦٧هـ، صورة الأرض، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص١٥١، وياقوت الحموى، معجم البلدان ١/ ٣٤٠.

١٠- سواكن: ميناء سودانى على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه السفن التى تقدم من جدة، وأهل بجاة سود نصارى، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان ٢٧٦/٣.

١١- زيد بن أبى نمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسنى، انظر الفاسى تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى ت ٨٣٢ هـ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، طبعة دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٨٥ .م، ٤٨٣/٤ – ٤٨٤.

١٢- ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٥ .

١٣- أبو سعيد بن خربند بن أرغون بغا ملك التتار وصاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم، كان مسلماً حسن الإسلام، أقام في الملك عشرين سنة، ومات سنة٧٣٦هـ/١٣٣٥.م، انظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ٥٠١/١ ، ١٣٧/٢.

١٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٧٢ ، ٢٤١.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩ ، ١٦١ .

١٦-أيدمور أحد الأمراء بالقاهرة في أيام الملك الناصر، كان أمير جندار، وحج بالناس، انظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة٤٠٧/١.

١٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٢ .

١٨- كِلوة: موضع بأرض الزنج وعلى بعد نحو ٢٤٠ كم، إلى الجنوب من مدينة دار السلام عاصمة تنزانيا حاليا، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٧٨/٤.

١٩-هو أبو المظفر حسن بن سليمان، كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج والإغارة عليهم، فكثرت غنائمة، وعمل على صرفها وفق تعاليم الشريعة الإسلامية في كتاب الله عز وجل، وقد حكم ٢٤ سنة ومات دون عقب. انظر ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٥٨ ، والمالكى سليمان عبد الغنى، سلطنة كلوة الإسلامية، طبعة دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦. م، ص٤٣.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٥٨.

٢١-ابن بطوطة،الرحلة ص ١٥٥ .

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٣ .

٢٣-وادى الصفراء من ناحية المدينة المنورة، وهى فوق ينبع مما يلي المدينة المنورة، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان ٤١٢/٣.

٢٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨ .

٢٥- هو طفيل بن منصور بن جماز الحسينى، استقر في إمرة المدينة المنورة بعد قتل أخيه كبيش بن منصور بن جماز الحسينى في رجب ٧٢٨ هـ/١٣٢٧.م وكان أميراً كبيراً كامل السؤدد وعالى الهمة صاحب جود، محسناً لاسيما إلى المجاورين، استمر حاكما إلى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩.م، انظر السخاوى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عنى بطبعه ونشره أسعد طرا بزونى الحسينى.(د.ت) ٢٥٨/٢-٢٥٩.

٢٦-كبيش بن منصور بن جماز الحسينى، ولى إمرة المدينة المنورة بعد قتل أبيه في رمضان سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤.م، فأقام سنة ونحو خمسة أشهر، وقتل على يد أولاد عمه مقبل بن جماز فى رجب ٧٢٨هـ/١٣٢٧.م، انظر السخاوى، التحفة اللطيفة ٤٢٦/٣-٤٢٧.

٢٧-مقبل بن جماز بن شيحة بن هشام الحسينى، طرق المدينة المنورة في شعبان سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩.م فتغيظ منه كبيش بن منصور بن جماز وهو ابن أخيه، وكان إذ ذاك يخالف أباه على الإمرة فدهمهم مقبل بن جماز ليلاً ونصب سلماً خشبياً كان معه وصعد منه على السور فاستيقظ له كبيش وتقاتلا إلى أن قتل مقبل وقتل معه عدد من أقاربه، انظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٤٢٦/٤.

٢٨-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٤ .

٢٩-القلقشندي، صبح الأعشى شرح وتعليق نبيل الخطيب ط دار الفكر ودار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٧.م ٣٠٤/٤ – ٣٠٥، وأحمد بن محمد بن صالح الحسيني، المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ط بيروت ١٩٧٢.م ص١١٨ – ١٢١.

٣٠- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٣-١٢٤.

٣١-عز الدين بن فهد، غاية المرام ٤١/٢.

٣٢-المصدر السابق ١٨/٢.

٣٣-الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوع ط٢ صنعا،١٩٨٣ م ٢٨٠/١، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٧٨/٤، والعز بن فهد، غاية المرام ٨٠/٢.

٣٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨- ١٢٩.

٣٥-ينبع : مكان بين مكة والمدينة، وتسمى بذلك لكثرة ينابيعها، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٥٠/٥.

- رابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان١١/٣.

- وادي الصفراء: من ناحية المدينة كثير النخل والزرع والخير بينه وبين بدر مرحلة، وماء هذا الوادي كله عيون، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤١٢/٣.

- خليص: مكان بين مكة والمدينة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان٣٨٧/٢.

٣٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٣.

٣٧-مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة، وهو الوادي وبه عيون كثيرة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٠٤/٥.

٣٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨-١٢٩.

٣٩-القلقشندي، صبح الأعشى ٢٨١/٤.

٤٠-التجيبي، مستفاد الرحلة تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس ١٩٧٥.م ص٣٠٥، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٧٧/٤.

٤١-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٥ – ٣٠٦.

٤٢-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٣ – ١٢٤.

٤٣-التجيبي، مستفاد الرحلة ص ٣٠٥ – ٣٠٧.

٤٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٤.

٤٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٧، وأحمد بن عمر الزيلعي، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة. مجلة الدارة العدد (٣) الرياض١٤٠٩هـ ص٧٤ - ٧٥.

٤٦-العصامي، سمط النجوم ٤/٢٢٥.

٤٧-المصدر السابق ٤/٢٢٧.

٤٨-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٣.

٤٩-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٩٤، ١٦٠، وانظر ابن فهد، إتحاف الورى ٢/٥٤٦.

٥٠-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٣.

٥١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٧٢، ٢٤١، ٢٥٨.

٥٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩، ١٧١.

٥٣-القلقشندي، صبح الأعشى ١٢/٢٣٦.

٥٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٩، ١٥١ ، ١٦١ ، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٤١٥، والقلقشندي، صبح الأعشى ١٢/٢٣٦ - ٢٣٧.

٥٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٥، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٩.

٥٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٠.

٥٧-الماوردي، الأحكام السلطانية ، ط دار الكتب العلمية بيروت (د . ت) ص٢٩٩، وابن الأخوة، معالم القربة تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م ص٥١، والسنامي، نصاب الاحتساب تحقيق مونئل يوسف ط دار العلوم القاهرة ١٩٨٣م ص١٢ - ١٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١ - ١٥٢، والفاسي، العقد الثمين ٢/١٣٤ - ١٣٥.

٥٨-ابن بطوطة، الرحلة ص١٦٢.

٥٩-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٩، والقلقشندي، صبح الأعشى ٤/٢٨١.

هوامش المبحث الثالث

١- القلقشندي، صبح الأعشى ٤/٢٨١.

٢- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨٤.

٣- الفاسي، العقد الثمين ٤/٤١٥.

٤- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٦ - ٣٠٧.

٥- عجلان بن رميثة ولي مكة لعدة مرات وتوفي سنة٧٧٧هـ، انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ٤٤٢/١.

٦- ثقبة بن رميثة من أسرة قتادة ولي إمارة مكة شريكاً لأخيه، ثم استقل بها إلى أن مات سنة٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ٢٣١/١، وانظر الفاسي، العقد الثمين ٥٩/٤ - ٦٠.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٢-١٦٣.

٨- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٩، وسليمان المالكي، بلاد الحجاز ط دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٩٨٣م ص١١٠.

٩- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٢.

١٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٠ - ١٥١، ١٢٠ - ١٢١.

١١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩ ، ١٢٠ - ١٢١.

١٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨ - ١٤٩، وجميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي - ط تهامة السعودية ١٩٨٥م ص٢٣٠.وانظر ابن جبير ، الرحلة ص١٢٨،١٢٧،١٢٥ .

١٣-الأغوات، جمع الأغا، انظر عبد الرحيم عبد الكريم الأنصاري، تحفة المحبين تحقيق محمد العروس ط تونس ١٩٧٠م ص٥٣.

١٤-السخاوي، التحفة اللطيفة ٦١/١ - ٦٣.

١٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٧.

١٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٦٤.

١٧-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٣٦/٤، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨ - ١٤٩.

١٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٢ - ١٥٣.

١٩-الكوز: نوع من الأواني ذو عروة وفي حالة عدم وجودها يسمى كوباً. انظر ابن منظور، لسان العرب (ك.و.ز).

٢٠-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣ ، ٤٦٣، والمغرفة ما يغرف بها وهي على قدر ملء اليد، ابن منظور، لسان العرب (غ.ر.ف)

٢١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨-١٤٩.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ضبط وتصحيح أوسكر لونقرين - ط بريل - ليدن ١٩٥١.م ص٩.

٢٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٦-١٢٧.

٢٤-ابن جبير، الرحلة ص١١٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٥ - ١٧٦، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٧.

٢٥-الفاسي، شفاء الغرام ص٣٠٠، وابن ظهيرة، الجامع اللطيف ص٢٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٨٩.

٢٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص ٣٥٣ - ٣٥٦، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٥.

٢٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٨.

٢٨-ذكر هذه البدعة ابن جبير في رحلته ص١٧٠، والعبدري في الرحلة المغربية ص٢١٩ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١١٣.

٢٩-ابن بطوطة، الرحلة ص ١١٢.

٣٠-ذكرها الأزرقي في أخبار مكة تحقيق رشدي الصالح - ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٨.م ٢١٠/١، وابن بطوطة في الرحلة ص ١٢٨ ، ١٥٦٠ ، ١٦٥.

٣١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٦-١٦٩، وابن جبير، الرحلة ص١٤٩.

٣٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥١-١٥٢.

هوامش المبحث الرابع

١- القرين : مكان بالقرب من جدة ، وهومنزل الحجاج يحرمون منه . وبطن مر : موضع من نواحي مكة ،عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران واديا واحدا . وخليص :هو حصن بين مكة والمدينة . والصفراء : واد كثير النخل والزرع من ناحية المدينة المنورة .انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٤٩٩/١، ٣٨٧/٢، ٤١٢/٣، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٢، وقد ذكرها ابن جبير في الرحلة ص٨٨ - ٨٩، ٩٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣.

٢- ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص٤١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٠.

٣- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٤، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٥٣/٤ - ٢٥٤، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ص٩.

٤- العلا : اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام . الدهناء : منزل بطريق مكة من البصرة .رابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٤٩٣/٢، ١١/٣.

١٤٤/٤ ،وابن بطوطة، الرحلة ص ١٧١-١٧٢ ، ومؤلف مجهول، الاستبصار ص١١.

٥- انظر العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٥ - ١٦٦ ، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١١٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٢ ، ١٥٤.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٩ ، ١٤١ ، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ص١٢ - ١٣ ، وجميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص٢٣١ ، والفاسي، العقد الثمين ٤٤٦/٣ ، ١٦١ ، ١٦٦.

هوامش المبحث الخامس

١- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٠ - ١٥١.

٢- ابن جبير، الرحلة ص٧٨ ، ٨٠، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٩٧ - ٢٩٨.

٣- الفاسي، العقد الثمين ١٩٦/٥ - ١٩٩ ، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٢٢/٢.

٤- ابن بطوطة، الرحلة ص١٣٩ ، والفاسي، العقد الثمين ٤٨٩/٧.

٥- علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية طبعة مكتبة الخانجي - القاهرة (د . ت) ص٢٢٩ ، وعبد الرحمن بن صالح عبد الله، تاريخ التعليم في مكة المكرمة طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٨٢م ص٤١ ، ومحمد الحسيني، الحياة العلمية في الدولة الإسلامية طبعة الكويت ١٩٧٣م ص٣٧ - ٣٨.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٠.

٧- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٩٦ - ٢٩٧ ، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٢٣١/٣.

٨- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٦ ، ٣٧٦ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٨ ، والفاسي، العقد الثمين ١٠٢/٥. وانظر :

- Kary Campbell, contem porary Tales from Eastern Arabia, in The lood Nights: critical Essay and Annotated Bibliography, Dar Mahjar Publishing and Distribution Cambridge. Mass P.84-85 . 1985 .

٩- الفاسي، العقد الثمين، ٢٧١/٢ - ٢٧٢ ، وابن شهبة الدمشقي، طبقات الشافعية ،ط عالم الكتب - بيروت ١٩٨٧م ٢٩٣/٢ - ٢٩٤ ، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ط دار الفكر - بيروت (د . ت) ٩٤/٦ - ٩٥ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٩.

١٠-الفاسي، العقد الثمين ٢٨٦/١ - ٢٨٧ ، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٠٩/٣ ، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٦٠/٣ - ٤٦٥ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٠.

١١-الفاسي، العقد الثمين ١٣٤/٢ - ١٣٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١.

١٢-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٤٦٦/٣، والفاسي، العقد الثمين ٤٦/٢ - ٤٩، وابن بطوطة، الرحلة ١٤٩ - ١٥٠.

١٣-السخاوي، التحفة اللطيفة ٤٨٢/١ - ٤٨٣، وابن بطوطة، الرحلة ١٥٣، ١٢٠.

١٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٢، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة٢٤٣/١ - ٢٤٤، الفاسي، العقد الثمين ١١٩/٣.

١٥-الفاسي، العقد الثمين ١١١/٢ - ١١٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١.

١٦-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٣١٢/٣ - ٣١٧.

١٧-الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ط دار إحياء التراث العربي - بيروت (د. ت) ص١١٠، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٦٦/٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢١.

١٨-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ١٥٩/٤ - ١٦٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢١.

١٩-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢١ - ١٢٢. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٣٦/٤.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠ - ١٢١، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٧٠٦/٣ - ٧١٠.

٢١-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٠، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٠١/٢ - ٤٠٩، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠ - ١٢١.

٢٢-السخاوي، التحفة اللطيفة ٥٤/١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠.

المصادر والمراجع

١-أحمد بن إبراهيم الحنبلي ت٨٧٦هـ:شفاء القلوب في مناقب بني أيوب – تحقيق ناظم رشدي. ط بيروت (د . ت).

٢-أحمد شلبي :موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ١٩٨٥ .م

٣-أحمد بن عمر الزيلعي :نظام المشاركة في الحكم لدا الأشراف بمكة المكرمة. مجلة الدارة العدد الثالث. ط. الرياض ١٤٠٩هـ.

٤-أحمد بن محمد بن صالح الحسيني:المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي، طبعة بيروت ١٩٧٢.٢٠.

٥-ابن الأخوة محمد بن محمد القرشي ت٧٢٩هـ:معالم القربة في أحكام الحسبة – تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦.م

٦-الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله ت٢٥٠هـ:أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار – تحقيق رشدي الصالح الطبعة الثالثة. دار الثقافة – بيروت ١٩٧٨.م

٧- البستاني المعلم بطرس:دائرة المعارف – طبعة دار المعرفة، بيروت. لبنان، بدون تاريخ.

٨- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ت٧٧٩هـ:تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٨٥.م

٩- البلادي، عاتق بن غيث:معالم مكة التاريحية والأثرية. طبعة دار مكة – السعودية ١٩٨٠.م

- معجم معالم الحجاز. طبعة نادي الطائف الأدبي، السعودية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨.م

١٠- البلوي خالد بن عيسى ت٧٨٠هـ: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبعة بيروت (د .ت).

١١- التجيبي القاسم بن يوسف ت٧٣٠هـ:مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، طبعة الدار العربية للكتاب – ليبيا- تونس ١٩٧٥.م

١٢- ابن تغري بردي ت٨٧٤هـ:الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، ط مكتبة الخانجي- القاهرة (د . ت).

١٣- ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي ت٦١٤هـ:الرحلة، طبعة دار صادر - بيروت ١٩٨٠.م

١٤- جميل حرب محمود :الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، طبعة تهامة - السعودية ١٩٨٥.م

١٥- ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـ:المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة حيدر آباد - الدكن - مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ.

١٦- ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد ت٨٥٢هـ:الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة دار الجيل بيروت بدون تاريخ، وطبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة (د.ت).

١٧- الحربي الإمام أبو إسحاق ت٢٨٥هـ:المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة - تحقيق حمد الجاسر الطبعة الثانية - الرياض ١٩٨١.م

١٨- حسنى محمود حسين:أدب الرحلة عند العرب، الطبعة الثانية - دار الأندلس سنة ١٩٨٣.م

١٩- حسين محمد فهيم:أدب الرحلات، طبعة عالم المعرفة العدد ١٣٨- الكويت ١٩٨٩.م

٢٠- الحسيني أبو المحاسن محمد بن علي ت٧٦٥هـ:ذيل تذكرة الحافظ النهبي. ط. دار إحياء التراث العربي ،بيروت(د . ت).

٢١- ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي ت٣٦٧هـ:صورة الأرض، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.م

٢٢- الخزرجي علي بن الحسن ت٨١٢هـ:العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية - تصحيح محمد بن علي الأكوع الطبعة الثانية - صنعاء - اليمن ١٩٨٣.م

٢٣- ابن الخطيب ذو الوزارتين لسان الدين ت٧٧٦هـ:الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤.م

٢٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المغربي ت٨٠٨هـ:تاريخ ابن خلدون، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر- بيروت ١٩٧٩.م.ومقدمة ابن خلدون، طبعة دار نهضة مصر-الطبعة الثالثة - القاهرة بدون تاريخ.

٢٥- ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عُمر ت٧٢١هـ: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في

الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – تحقيق محمد الحبيب جـ٢ طبعة الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٢م، جـ٣ طبعة ١٩٨١م وجـ٥ طبعة دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٨٨م.

٢٦- الزركلي خير الدين ت١٣٩٧هـ:الأعلام، طبعة دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٨٦م.

٢٧- السخاوى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت٩٠٢هـ:التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عنى بطبعه ونشره أسعد طرا بزونى الحسيني. د.ت.

٢٨- سليمان عبد الغني المالكي:بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، طبعة دارة الملك عبد العزيز الرياض ١٩٨٣م.

٢٩- السنامي عُمر بن محمد ت٦٩٦هـ:نصاب الاحتساب، تحقيق مونل يوسف، طبعة دار العلوم – القاهرة ١٩٨٣م.

٣٠- سيد عبد المجيد بكر:أشهر المساجد في الإسلام طبعة دار القبلة – مكة ١٩٨٤م.

٣١- الشنقيطي غالي محمد الأمين:الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، الطبعة الثالثة، طبعة دار القبلة الثقافية الإسلامية – مكة ١٩٩١م.

٣٢- ابن شهبة الدمشقي أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عُمر ت٨٨٥هـ:طبقات الشافعية، صححه وعلق عليه الحافظ عبد العليم خان – طبعة عالم الكتب – بيروت ١٩٨٧م.

٣٣- شوقي عبد القوى عثمان:تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، طبعة عالم المعرفة – الكويت، العدد ٥١ لسنة ١٩٩٠م.

٣٤- ابن ظهيرة محمد جاد الله بن محمد ت٩٨٦هـ:الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف – الطبعة (٤) الكتبة الشعبية – بيروت ١٩٧٣م.

٣٥- عبد الرحمن بن صالح بن عبد الله:تاريخ التعليم في مكة، طبعة دار الشروق – مصر ١٩٨٢م.

٣٦- عبد الرحيم عبد الكريم الأنصاري:تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب – تحقيق محمد العروس، طبعة تونس ١٩٧٠م.

٣٧- العبدري أبو عبد الله بن العبدري ت٦٨٨هـ:الرحلة المغربية – تحقيق محمد الفاسي – طبعة الرباط – المغرب ١٩٦٨م.

٣٨- عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، طبعة المطبعة العربية الحديثة بيروت ١٩٨٥م.

٣٩- العز بن فهد بن عز الدين عبد العزيز بن محمد بن فهد ت٩٢٢هـ: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام - تحقيق فهيم شلتوت، طبعة دار المدني - السعودية ١٩٨٦م.

٤٠- العصامي عبد الملك بن حسين ت ١١١١هـ: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي. طبعة المطبعة السلفية - مصر (د . ت).

٤١- علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، طبعة مكتبة الخانجي - مصر (د، ت).

٤٢- ابن العماد الحنبلي ت١٠٨٩هـ: شذرات الذهب، طبعة دار الفكر - بيروت (د . ت).

٤٣- الفاسى تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى ت٨٣٢هـ: - العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، طبعة دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٥. - وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥م.

٤٤- ابن فهدالنجم عمر بن محمد بن محمد بن فهد ت٨٨٥ هـ: اتحاف الوري بأخبار أم القري، تحقيق فهيم شلتوت، ط، مكتبة الخانجي-القاهرة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ م.

٤٥- القلقشندي أحمد بن علي ت٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق نبيل الخطيب طبعة دار الفكر - ودار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧م.

٤٦- كراتشكوفسكى، أغناطيوس يوليا نوفش: تاريخ الأدب الجغرافي العربى، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان، وراجعه أيغور بليابن، طبعة جامعة الدول العربية ١٩٥٧م.

٤٧- المالكى سليمان بن عبد الغنى: سلطنة كلوة الإسلامية، طبعة دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م.

٤٨- الماوردي علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت (د . ت).

٤٩- بن المجاور يوسف بن يعقوب ت.٦٩٠هـ:تاريخ المستبصر ،ضبط وتصحيح أوسكر لونفرين طبعة بريل - ليدن.١٩٥١ م

٥٠-محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ،طبعة الكويت ١٩٧٣ م.

٥١-محمد محمود الصياد:رحلة ابن بطوطة، طبعة دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع تونس ١٩٨٥.م.

٥٢-ابن منظور محمد بن مكرم ت٧١١هـ: لسان العرب. طبعة دار صادر - بيروت (د . ت) وطبعة دار المعارف -
مصر (د . ت).

٥٣-نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الطبعة الثالثة، طبعة المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢.

٥٤-ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي البغدادى ت٦٢٦هـ:معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

المراجع الأجنبية :

55- Blanche Trapieu : Les voyageurs Arabes au Mogen Age. Gallimarl. 8eme edition . 1937 .

56- C.H › Lockitt. Theadventure of Travel Longman: 15 th edition 1960 .

57- Kary Compbell , contem Porary Toles From Eastern Arabia , in The Lool Nights: Critical Essays and An nota ted Bibliog rapraphy, Dar Mahjar Publishing and Distribution , cambridge. Mass. p. 84-85. 1985 .

58- M. Zaki : Arab Accownts of India (During The Fourteenth century) dello, Delhi, 1981 .

د . خلف دبلان خضر الوذيناني (*)

سياسة السلطان با يزيد الأول الجديدة في الفتح العثماني

نهاية طموحاته وتفكك دولته في موقعة أنقرة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م

قبل تولى السلطان بايزيد الأول الحكم

في سنة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م توفي السلطان أورخان بن أرطغرل بن عثمان، وخلفه ابنه السلطان مراد الأول، ليواجه في بداية حكمه أعداء دولته في اتجاهين خطرين.

أولاً : كان في المشرق إمارة القرمان السلجوقية التي بدأت تنظر بعين الخوف الشديد في نمو الإمارة العثمانية، واستطاع السلطان مراد الأول أن يوجه لها ضربات أقعدتها عن التحرك ضده طوال حكمه كما سيأتي الحديث عنها مفصلاً في البحث.

ثانياً : في أوروبا كان الإمبراطور البيزنطي يسعى إلى الانقضاض عليه، ولكن السلطان مراد الأول استولى على أدرنة ١٣٦٦م، واتخذها عاصمة لبلاده، الأمر الذي كان له صدى في مختلف العواصم الأوروبية، وخاصة لدى البابا في روما، وقد دعا إلى حملة صليبية دون جدوى، بينما تابع العثمانيون توسعهم واستولوا على سالونيك[1].

فكان نمو الدولة العثمانية نحو أوروبا سبباً في قيام التحالف من القوى الصليبية البلقانية لصد الغزو العثماني، ولكن السلطان مراد الأول خاض ضد أعدائه الصليبيين معركة قوصوه

* أ / مشارك- بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - بجامعة أم القرى- مكة المكرمة

الكبرى في ١٥ يونيو ١٣٨٩م، سقط فيها السلطان مراد الأول شهيداً بعد أن أسر فيها ملك الصرب، والذي أعدمه السلطان با يزيد الأول في ساحة المعركة[٢].

السلطان بايزيد الأول يعتلي عرش الدولة العثمانية :

فتولى السلطان با يزيد الأول عرش الدولة العثمانية بعد موقعة قوصوه المشهورة، وتمت بيعته في ميدان المعركة بعد استشهاد والده السلطان مراد الأول (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، وكان السلطان با يزيد الأول أكثر من أبيه كرهاً للمسيحية، وأقل تعصباً للإسلام، ولكنه خطا خطو والده في الفتح والجهاد في أول الأمر[٣].

حين واصل حربه وتقدم بجيوشه داخل بلاد الصرب[٤]،حتى انتصر على ملكها استيفن بن لازار وأخذه أسيراً[٥] ولكن استيفن بن لازار ملك الصرب عرض على السلطان الصلح فوافق على ذلك[٦].

فاستهل السلطان با يزيد الأول أعماله بأن عين استيفن ابن ملك الصرب [لازار] حاكماً على بلاد الصرب، وتزوج من أخته[٧] مليحة[٨]، وترك له حكم بلاده على حسب قوانينهم وأنظمتهم وأعرافهم دون التدخل في شئونهم الداخلية على شرط دفع جزية سنوية للدولة العثمانية على أن يدين له بالولاء، مع تقديم عدد معين من الجنود الصربية للانضمام إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب خدمة حربية للدولة على أن يقوم ملك الصرب نفسه بقيادتهم عند الحاجة تحت قيادة السلطان العثماني[٩]، كما تعهد ملك الصرب أيضاً للسلطان با يزيد الأول ببناء المساجد والمدارس والمحاكم للمسلمين في بلاد الصرب[١٠]، وبذلك فقدت الصرب استقلالها منذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر الميلادي حين نالت استقلالها في تلك الفترة[١١]. فأصبح بعد هذا الفتح والتوغل العثماني في البلقان، وجهاً لوجه مع أكبر الشعوب البلقانية عداء للعثمانيين (البلغار والمجر)[١٢].

عندئذ أقام السلطان با يزيد الأول علاقات ودية مع ملك الصرب استيفن بن لازار، وكان هدف السلطان من إقامة هذه العلاقات أن يتخذ من دولة الصرب حليفاً له في حروبه في آسيا الصغرى، كما أراد من هذه الدولة أن تكون دولة حاجزة بين أملاكه في البلقان وبين دولة المجر، التي كان يخشى من انتهازها عند غيابه للحرب في آسيا الصغرى فتغير على أملاكه العثمانية بها[١٣].

وكان من مظاهر هذه الصداقة بين استيفن والسلطان با يزيد الأول أن رد السلطان إلى استيفن كل الميزات والحقوق التي كان يتمتع بها أبيه لازار كملك على بلاد الصرب، كما وعده بمنح

الصرب نصف الغنيمة التي تخرج بها كل من الدولتين في حروبها المنتظرة في آسيا الصغرى، وقد اتبع السلطان با يزيد الأول هذه السياسة، وهو عدم ضم بلاد الصرب إلى أملاكه، بل منحهم الاستقلال الذاتي، ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلاً شاغلاً له نظراً لشهامتهم وحبهم للاستقلال(١٤)، وخاصة أن ملك الصرب استيفن قد وافق على دفع الجزية للسلطان سنوياً، لذلك تمت معاملتهم معاملة أهل الذمة(١٥).

وقد استفاد با يزيد الأول من هذا التحالف مع استيفن ملك الصرب حين برهن هذا الصليبي وقومه الصربيون على إخلاصهم لبايزيد في حروبه مع المجر(١٦)، على الرغم من أن السلطان اشتهر بحدة الطبع والقسوة، حيث اتسمت تصرفاته بالاندفاع والتسرع(١٧).

وعلى أية حال فإنه بعد هذا التحالف مع الصرب اطمأن با يزيد الأول على حدوده الغربية، فاتجه لغزو آسيا الصغرى لتوحيد الإمارات السلجوقية المسلمة في الأناضول لضمها لأملاكه العثمانية(١٨)، وكان في نيته أيضاً القضاء على بيزنطة، وخصوصاً حين ساد الأمن في أوروبا، فأخذ يتدخل في سياسة القسطنطينية مستغلاً أوضاعها المضطربة الداخلية، لأن المدينة تمر بفترة ضعف، فانتهز السلطان هذه الفرصة وسار بنفسه إلى قلعة « الآشهر » المعروفة باسم «فيلادلفيا»(١٩)، عند الأوربيين، ففتحها ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م، وكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية في آسيا الصغرى بالأناضول(٢٠).

السلطان بايزيد الأول يتطلع لضم الإمارات السلجوقية :

لذلك بدأ السلطان با يزيد الأول يتطلع لضم الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، وكانت سياسة السلطان با يزيد شرقية، بمعنى أنه فضل الاتجاه بفتوحاته نحو آسيا الصغرى من أجل تحقيق وحدة الأناضول لتكون تحت راية الدولة العثمانية بعد أن أمن حدود بلاده الغربية(٢١)، وكان يتميز هذا السلطان بالطموح في سياسته، فقد بذل جهداً في توحيد منطقة الأناضول ليقود العالم الإسلامي تحت إمرته(٢٢)، وليس معنى ذلك أنه لم يحدث احتكاك بين الدولة العثمانية والإمارات السلجوقية التركية الإسلامية الواقعة في آسيا الصغرى.

وقد ظهر هذا الاحتكاك قبل حكم السلطان با يزيد الأول في الستينات من القرن الرابع عشر الميلادي بين السلطان مراد الأول والد السلطان با يزيد الأول وبين أمير القرمان كما سبق ذكره، عندما أدرك الأخير أنه لا يستطيع المجازفة بالحرب مع الدولة العثمانية القوية، ولكي يحتفظ باستقلاله وكبريائه، فقد وافق على أن يزوج ابنته لبا يزيد بن مراد الأول.

وبذلك حصل السلطان مراد الأول نتيجة زواج ابنه على أجزاء من إمارة القرمان دون قتال، وكان من هذه الأجزاء، مدينة كوتاهية، ذات الموقع الاستراتيجي الفريد، وكان احتلال العثمانيين لهذه المدينة ضربة قوية لإمارتي تكه وحميد.

وعندما أدرك أمير إمارة حميد ضعفه أمام مقاومة الدولة العثمانية، قام ببيع بعض أجزاء من دولته المطلة على ولاية تكه وكرميان، والقرمان إلى السلطان مراد الأول، وكان أهمها مدينة عك شهر التي تقع على حدود إمارة القرمان، وتم ضم هذه الأجزاء المهمة إلى أملاك الدولة العثمانية.

ويجب أن نلاحظ ملاحظة مهمة أن السلطان مراد الأول لم يقض على كل الإمارات السابقة، بل كان هناك ثلاث إمارات أخرى في آسيا الصغرى وهي (آيدين، وصاروخان، ومنتشا) ظلت هذه الإمارات المسلمة على استقلالها لم يمسها السلطان العثماني آنذاك، وكانت دولة القرمان من أقوى الدول السلجوقية التركية في الأناضول التي عجز السلطان مراد الأول عن إخضاعها، وكانت تربطه بأميرها علاء الدين أواصر المصاهرة[٢٣].

هذا هو الموقف في آسيا الصغرى حين تولى السلطان با يزيد الأول إمارة الدولة العثمانية، حين عزم على توجيه فتوحاته نحو الأناضول بآسيا الصغرى، ذلك التوجه الذي أدى في النهاية إلى سقوطه في معركة أنقره ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م[٢٤].

وكان زعماء الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في الأناضول آيدين[٢٥]، وصاروخان[٢٦]، ومنتشا[٢٧]، الذين احتفظوا باستقلالهم منذ قيام الدولة العثمانية، هي أولى الإمارات التي غزاها السلطان با يزيد الأول، وقد قبلوا في بداية الأمر بحكمه، نتيجة لخوفهم منه، لإنجازاته وفتوحاته العظيمة في أوروبا[٢٨].

وكانت هذه الإمارات تطل على بحر إيجه، وكانت في نزاع دائم مع العناصر التجارية اللاتينية ولا سيما منها جنوة، وتتميز هذه الإمارات التركية بطابع تجاري أكثر منه حربي مثل إمارة القرمان وكيرميان، وكان نزاعها الدائم مع العناصر اللاتينية قد أضعفها، مما سهل للسلطان با يزيد الأول استسلامها وبالتالي احتلالها[٢٩]، ولنفس السبب ترك أمير آيدين للسلطان أملاكه، وخرج منها ليعيش مطمئن البال في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني.

وتلا ذلك قيام كل من أميري منتشا وصاروخان بترك ولايتهما للسلطان با يزيد الأول واحتمائهما لدى أمير قسطموني[٣٠]، وخوفاً من السلطان قام حاكم إمارة القرمان الأمير علاء الدين وتنازل للسلطان عن جزء كبير من أملاكه ليؤمن له ما تبقى من أملاك[٣١]، وباستيلاء السلطان با يزيد الأول على تلك الإمارات فقد حاز على أهم الموانئ وأعظمها والواقعة على بحر إيجه، (آيدين ومنتشا) وبذلك أصبحت الدولة العثمانية تطل على بحر إيجه، كما حازت أيضاً على أسطول إمارة صاروخان، وقد نفذ به العثمانيون من سواحل منتشا إلى البحر الأبيض المتوسط[٣٢]، وهذا الموقع خلق نقطة جديدة للاحتكاك بين الدولة العثمانية من ناحية، وبين البندقية وجنوة من ناحية أخرى.

استدعى هذا الموقف ظهور العثمانيين على بحر إيجه بتكوين بحرية عثمانية، ولو أن البحرية العثمانية لم تنم وتكبر خلال عهد السلطان با يزيد الأول، إلا أن عهد السلطان با يزيد الأول، كان بداية تفكير الدولة العثمانية بالحاجة الملحة إلى بناء أسطول بحري يعتدّ به لمواجهة المعارك البحرية[٣٣]، ولكن هذه الإمارات ما لبث أهلها أن استاءوا من اتجاه السلطان بايزيد الأول لعطفه على العناصر المسيحية، بل والاعتماد عليهم كمستشارين له دون المسلمين[٣٤].

وعلى أية حال فبعد هذه الفتوحات التي كان أغلبها بدون حرب، عاد السلطان با يزيد الأول إلى أوروبا، وحاصر ملك الروم في القسطنطينية مانويل باليولوج، وبعد أن ضيق عليها الحصار، ترك حولها جيشاً كبيراً لمحاولة فتحها، وغادرها لغزو بلاد الأفلاق، فاستطاع قهر أميرها (دوك مانيس) والتغلب عليه، وأرغمه على التوقيع على معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده، ويتعهد للسلطان فيها بدفع الجزية سنوياً مع بقاء بلاده له يحكمها بمقتضى عوائد وقوانين أهلها، وتم ذلك في سنة ١٣٩٣م[٣٥].

وفي أثناء حرب السلطان بايزيد الأول مع الأفلاق في أوروبا أراد علاء الدين أمير القرمان استرداد ما تنازل عنه للسلطان، مستغلاً انشغاله في الحرب، وقد اتحدت معه الإمارات السلجوقية الواقعة في جنوب غربي الأناضول، كما اتحد معه القاضي برهان الدين الذي كان يسيطر على مساحات واسعة وسط الأناضول، ويتمتع بنفوذ كبير في أواسط رعاة التركمان في الشرق في حلف ضد السلطان با يزيد الأول لاسترجاع ما أمكنهم استرجاعه من مساحات كبيرة من المدن والأراضي التي ضمها با يزيد الأول إلى أملاك الدولة العثمانية بالقوة.

وقاد علاء الدين جيشاً قوياً وسار به لمهاجمة أنقره، فاستطاع الانتصار على حاكمها تيمور طاش باشا، وأخذه أسيراً معه، وزحف على بقية المدن الواقعة في الأناضول[٣٦].

ولمّا بلغ السلطان با يزيد الأول الهجوم الذي شنه أمير القرمان على أملاكه في الأناضول، عاد مسرعاً بنفسه لإنقاذ الموقف إلى آسيا الصغرى، فتقابل الجيشان حول أنقره، فكانت الهزيمة على علاء الدين أمام السلطان ثم أسره[٣٧]، واكتسح السلطان إمارات آسيا الصغرى، وأعاد ضم صاروخان وآيدين ومنتشا التي اتحدت مع إمارة القرمان من جديد للطاعة العثمانية، وعاد العثمانيون إلى بحر إيجه وأرسوا قواعد قوتهم البحرية، وفي الجنوب استولوا على (أضاليا) آخر مدن أمير تكه، وكانت هذه المدينة أول ميناء عثماني على البحر الأبيض المتوسط[٣٨].

ولكن السلطان بايزيد الأول كان قلقاً بسبب الأحداث والتطورات في أوروبا التي كانت تحاك ضد الدولة، فلابد له من العودة بسرعة إلى عاصمة بلاده أدرنه وذلك للاستعداد لهذه المؤامرة والقضاء عليها، كما كان هناك بعض الإشكاليات في خطوط مواصلاته الطويلة التي كانت لا تبشر بالخير ولا بالانتصار والهيمنة على الإمارات السلجوقية، لذلك نراه يوافق بمبادرة منه على عقد الصلح مع علاء الدين أمير القرمان مضطراً على أن ينسحب السلطان من قونية على أن يحتفظ بمدينتي (عك شهر، وعك سيرا) الواقعة في الشمال الغربي من إمارة القرمان[٣٩].

وعلى هذا الأساس عاد با يزيد الأول إلى بلغاريا وذلك عندما وقع أول نزاع بينه وبين ملك المجر (سجموند)، ولكن علاء الدين لم يعتبر من المعركة السابقة، بل انتهز انشغال با يزيد في حربه مع بلغاريا، ووطد العزم على طرد العثمانيين من إمارته، للسيطرة على أملاكهم في الأناضول، وقد اتحدت معه الإمارات السلجوقية مرة أخرى، وتمكن بالفعل من استرداد (عك شهر)، واتجه نحو مدينة أنقرة واستطاع الفوز على تيمور طاش باشا في أحد المعارك، وأخذه معه أسيراً مرة ثانية، ثم توجه لأخذ بروسة[٤٠].

لذلك عاد السلطان بايزيد الأول من جديد حينما علم بمحاولة علاء الدين انتزاع السيطرة من العثمانيين للأناضول، ولكن بعد أن حقق انتصاراً باهراً على البلغار، وبالقرب من كوتاهية واجه جيش القرمان جيش السلطان وجيوش أتباعه من المسيحيين (البيزنطيين والصربيين والبلغار والولاش) على آمر سراي، فاستطاع السلطان أن يقضي على الجيش القرماني، فانهزم علاء الدين أمام السلطان با يزيد الأول مرة ثانية، وتم أسره مع ابنيه (محمد وعلي)[٤١].

وقد رافق الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني السلطان با يزيد الأول في حملته إلى الأناضول الثانية، وكان با يزيد الأول ينظر إلى الإمبراطور مانويل على أنه تابع له أو من أتباعه، بينما كان الإمبراطور يرى نفسه حليفاً وعلى قدم المساواة مع السلطان با يزيد الأول.

وقد ظل الإمبراطور ضيفاً في سراي بروسه (بورصة) مدة طويلة، وكان يتحدث التركية بطلاقة، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء بيزنطة[٤٢].

وهذا دليل لما سبق لتشجيع أنصاره الصليبيين على دفع اتجاه السلطان با يزيد الأول إلى المشرق، لذلك تراهم يشاركونه في حروبه ضد الولايات السلجوقية المسلمة في الأناضول، وعلى رأس إمبراطور بيزنطة، وكانت هذه السياسة من السلطان سياسة خاطئة، كادت أن تخسر الدولة العثمانية بسببه، تقدمها في أوروبا وينتهي مدها في أوروبا إلى الأبد.

وعلى أية حال فقد حاول علاء الدين من أسره أن يعرض على السلطان الصلح على أساس الاتفاقية السابقة، ولم يفلح لأن السلطان با يزيد الأول أدرك أن اتفاقه مع علاء الدين لا طائل من ورائه لعدم التزامه بالمعاهدة السابقة، والآن يعد مصدر تهديد للدولة. لذلك وجد السلطان أن الفرصة أصبحت مواتية بين يديه للقضاء عليه وعلى إمارة القرمان نهائياً للتخلص من هذا الخطر، فعلاء الدين قد وفر على السلطان با يزيد الأول مشقة السفر إلى القرمان لإخضاعها عندما حضر بنفسه إلى بروسة (بورصة) لانتزاعها من السلطان، ولكنه خسر المعركة، لذلك رفض السلطان الصلح مع علاء الدين أمير القرمان، وقام بقتله ١٣٩١م، لاستقرار المنطقة، وبذلك انتهت سلطة علاء الدين والقرمان[٤٣]، وعاد السلطان إلى عاصمة بلاده بروسة بعد أن قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة إلى أن أطلق سراحهما تيمور لنك بعد موقعة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م[٤٤].

والحقيقة أنه لم يتم إخضاع القرمان نهائياً فقد ظلت هذه الإمارة حتى سقوط القسطنطينية تقض مضاجع سلاطين الدولة العثمانية بين الفينة والفينة[٤٥]. وواصل السلطان با يزيد الأول فتوحاته في الأناضول بآسيا الصغرى، واكتسح سيواس وتوقات[٤٦]، وكان آخر أمرائها برهان الدين أمير سيواس[٤٧].

في حين أن الإمارة العثمانية في الوقت الذي استشهد فيه السلطان مراد الأول في قوصوه قد أخذت على عاتقها دوراً مهماً وهو الاستمرار في أراضي الأناضول والروملي، وتحولت إلى دولة

كاملة الأركان. ولكن السلطان با يزيد الأول حين اعتلى عرش الدولة (١٣٣٩م)، بدأت الدولة العثمانية بقيادته تطبيق سياسة جديدة خاطئة، كانت من أسباب زوال حكمه ونهاية لطموحاته على يد تيمورلنك في كارثة أنقرة كما سيأتي الحديث عنه في بابه[٤٨]، حين فرض سيطرته المباشرة على هذه المناطق التي طرد منها أسرتها الحاكمة وإخضاعها لسلطته المركزية المباشرة، ولقيت هذه السياسة مقاومة ليس فقط في البلدان المفتوحة بل داخل الدولة العثمانية نفسها، وكانت هذه موجهة ضد التسرع في ضم المدن والإمارات، واعتبرت ذلك خروجاً عن التقاليد العثمانية[٤٩].

فقد كانت سياسة مراد الأول هي ترك الأراضي على شكل إقطاعات عسكرية للأمراء. فبدأت من بعده سياسة تحويل هذه الأراضي إلى الملكية العثمانية بالفعل، إذ حدث فور سماع خبر وفاة السلطان مراد الأول أن ظهرت انتفاضات في الأناضول والبلقان تمرد فيها أمراء الإقطاع في الأناضول، فقام بايزيد الأول مسرعاً نحوهم (١٣٨٩/ ١٣٩٠م) لإخماد هذا التمرد، وأخذ منهم أراضيهم لتصبح أرضاً عثمانية خالصة.

وأصبحت الإمارات القديمة سناجق عثمانية يتولى إدارتها عمال يجري تعيينهم من العاصمة، وكان نتيجة لهذه الجهود التي بذلها أن انخفض عدد الإمارات المناهضة له في الأناضول إلى مركزين أساسيين، - الأناضـول وسيواس - وهذه الأعمال كانت بمثابة التطبيقات الأولى لسياسة استهدف بها السلطان با يزيد الأول، الذي عرف بلقب « الصاعقة » إقامة دولة مركزية قوية تدار من مركز واحد، هو السلطان، وكان هو يفعل ذلك يضع نصب عينيه صفة القائد المجاهد، وقد استطاع أن يصيغ ادعاءات السيادة داخل هذا الإطار[٥٠].

وقد اشتد العثمانيون في انتقاد سلطانهم با يزيد الأول حول إدخاله استعمال الدفتر في النظام الإداري العثماني، يضاف إلى ذلك أنه حاول في الأراضي التي ضمها حديثاً أن يحل عبيده (غلمانه) محل الاستقراطية المحلية فاعتبرت هذه السياسة خروجاً على القاعدة والتقاليد العثمانية، وكانت هذه السياسة من أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى نكبة السلطان بايزيد الأول وزال حكمه في موقعة أنقره، وعودة الأسر الحاكمة في القرمان على أثرها وغيرها من الإمارات السلجوقية الأخرى في الأناضول[٥١] إلى الاستقلال بإماراتهم.

وهذا مما يعزز القول بأن آل عثمان لم يحكموا قبضتهم على إمارة القرمان إلا بعد فتح القسطنطينية[٥٢].

السلطان بايزيد الأول يتابع حروبه في أوروبا :

ثم عاد السلطان با يزيد الأول، متابعة حروبه في أوروبا فأمر بزحف عام على طول حدوده الشمالية والشمالية الغربية، ووصلت قواته الغازية إلى ألمانيا لتثبيت حكمه هناك، وفي عام ١٣٩٣م استكمل احتلال بلغاريا وزود آدين وسلستريا ونيكوبولي وغيرها من قلاع الدانوب بحاميات قوية بعد أن قام بتقوية تحصيناتها تحصيناً قوياً، مما عزز من مكانة السكان المسلمين في تلك المدن، الذين ازدادت أعدادهم على طول الحدود الشمالية للدولة العثمانية، على أثر اعتناق عدد كبير من البلقانيين المسيحيين للإسلام، وهجرة عدد من مسلمي الأناضول إلى البلقان.

وما لبث أن حاصر السلطان با يزيد الأول العاصمة البيزنطية، وشدد عليها الحصار، وطلب من الإمبراطور بعد قهره من منطق القوة أن يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين، وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص سبعمائة (٧٠٠) منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل للسلطان بايزيد الأول عن نصف حي غلطه، التي وضع فيها السلطان حامية عثمانية قوامها ستة آلاف (٦٠٠٠) جندي، وزيدت الجزية التي كانت الدولة البيزنطية تدفعها للسلطان العثماني.

وفرضت الخزانة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة، وأخذت المآذن من تلك اللحظة تنقل الآذان إلى العاصمة البيزنطية، والتي أطلق عليها العثمانيون بعد الفتح « اسطنبول »[٥٣]، وقد فرض عليها السلطان الرقابة من خلال الحامية العثمانية وإحكام السيطرة عليها[٥٤].

وبعد هذه المكاسب الجديدة للسلطان با يزيد الأول فقد أشار عليه مستشاروه المسيحيون بترك أوروبا وشأنها والتوجه إلى الأناضول بآسيا الصغرى، لاستكمال القضاء على الإمارات السلجوقية المسلمة وتوحيدها تحت السلطة العثمانية، وكان هدف المسيحيين من ذلك هو صرف السلطان عن الفتوحات الإسلامية نحو أوروبا، كما كان يفعل أسلافه لحرمانه أولاً من الأجر ومن ثم الثروات الجديدة[٥٥]، وثانياً إبعاد شبح الحرب عن دولهم لتوجيه السلطان وتحريضه للاصطدام بالإمارات السلجوقية المسلمة، وذلك لإضعاف قوته وبالتالي إعطاء فرصة للعالم المسيحي لاستعادة أنفاسه لبناء قواته وتسوية خلافاته لتوحيد جهوده، ضد الدولة العثمانية التي توغلت في داخل البلقان، للانقضاض عليها في أقرب فرصة لطردهم من أوربا كلها.

وقد نجح المسيحيون في تحويل أنظار السلطان إلى الشرق، حينما استصوب قولهم، لذلك لف بعنان فرسه ورايته من الغرب إلى الشرق، مخالفاً لمن سبقه من أسلافه، وعلى أية حال فإنه لم يبق من الإمارات السلجوقية التي ضمها السلطان إلى الدولة العثمانية، والتي قامت على أطلال دولة آل سلجوق في الأناضول سوى إمارة قسطموني[٥٦].

وكانت هذه الإمارة خارجة عن أملاك الدولة العثمانية، وتقف حائلاً بين الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبحر الأسود، وبالاستيلاء على هذه المدينة يعني حصول الدولة على ميناء مهم جداً وهو ميناء سينوب على البحر الأسود[٥٧]، وكان أميرها يسمى با يزيد أيضاً، قد احتمى بإمارته الكثير من الأمراء وأبنائهم الذين استولى السلطان على بلادهم بالقوة ولإيجاد مبرر لغارته عليها فقد أرسل السلطان با يزيد الأول، تنفيذاً لنصيحة مستشاريه المسيحيين إلى أمير قسطموني يطلب منه تسليم أولاد أميري (آيدين وصاروخان)، فامتنع عن تسليمهم فسار السلطان على رأس جيشه، إلى إمارة قسطموني لأخذها بالقوة وهرب با يزيد أمير قسطموني ومعه أمراء الإمارات السلجوقية الذين سبق أن احتموا به إلى تيمورلنك يشكون إليه السلطان با يزيد الأول ويستنجدون به لاسترداد بلادهم، فاستجاب تيمور لرد بلادهم[٥٨]، وهذا هو سبب غزو بلاده من تيمورلنك[٥٩]، أما السلطان فقد ضم وهو في طريقه للاستيلاء على قسطموني، مدن سامسون[٦٠]، وقيصرية[٦١] وجنابك وعثمانجق[٦٢]، وبذلك انقرضت جميع الإمارات السلجوقية القائمة بالأناضول، وصار العلم العثماني كما أراد السلطان العثماني يرفرف أو يخفق فوق صروحها[٦٣]، وبهذا أصبح السلطان با يزيد الأول سيد الأناضول، ولكنه كان سيداً بالاسم، إذ لم يكن العثمانيون قد هضموا بعد هذه المناطق الأسيوية المفتوحة، كما تدل حوادث النزاع بين تيمورلنك والسلطان با يزيد فقد كان سكان هذه المناطق لا يزالون موالين لأسراتها الحاكمة، وقد اتضح ذلك في معركة أنقرة كما سيأتي[٦٤].

وهكذا بعد أن قضى السلطان با يزيد الأول على الفتن في الأناضول سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م وبالتحديد بعد ضم الإمارات السلجوقية في الأناضول وتوحيدها، وظن المسيحيون أنهم قد نجحوا في صرف السلطان عن أوروبا ليستريحوا من الزحف الإسلامي نحو بلادهم للأبد، إلا أن السلطان استشعر بمسئولية الجهاد نحو أوروبا مرة أخرى لذلك حشد قواته وواصل سياسته لغزو أوروبا لاستكمال فتح القسطنطينية، فاستولى على مدينة سالونيك[٦٥]، وتمركز فيها، ومنها اتجه إلى شمال بلاد البلغار، وعندما علم سسيمان ملك بلغاريا داخله الخوف لفقد بلاده من السلطان، وجاء بنفسه إلى الصدر

الأعظم، (علي بن خير الدين قرة خليل باشا وزير السلطان با يزيد الأول، ومعه ولده، ووضع كل منهما - الأب والابن - في عنقه منديل الأمان، فأمنهما على حياتهما، وأرسل الأب إلى مدينة فيليبولي في مقدونية، وأبقى ابنه في معسكر السلطان، ولم يلبث الابن كثيراً حتى اعتنق الإسلام دون إكراه، عندما رأى سماحة الإسلام[٦٦]، وقد قام السلطان باستكمال فتح بلاد البلغار وضمها إلى أملاك الدولة، فأصبحت تلك المناطق ولاية عثمانية[٦٧].

وحين علم سيجموند ملك المجر افتتاح السلطان بعض مدن البلغار التي كان يعتبرها تحت نفوذه وسيطرته، غضب وأرسل إلى السلطان يقول له : من أين لك الحق أن تستولي على بلاد البلغار، فلما حضر الرسول بين يدي السلطان أراه حزمة من الأقواس والنشاب، وقال له : «اذهب وأخبر مولاك بما نظرت »، وكان هذا الجواب دليلاً على الحرب، ولما عاد الرسول وأبلغ مولاه «ملك المجر» بما عاينه ورآه، فكر بأنه لا يقدر على حرب ومقاومة الدولة العثمانية وجنودها[٦٨]، وكان من الطبيعي أن تثير انتصارات الدولة العثمانية جزع الغرب[٦٩]، فعمّ الخوف معظم الأوربيين من سرعة تقدم فتوح العثمانيين في أوربا، فقامت ضجة وفزع للحض على جيوشهم[٧٠] للتصدي للعثمانيين.

سيجموند يدعو لشن حرب صليبية على المسلمين العثمانيين:

لذلك انطلق سيجموند إلى مدينة روما يطلب من البابا بوتيفاس الثاني النجدة والمساعدة والعون[٧١]، كما دعا حكام أوروبا المسيحيين إلى شن حرب صليبية ضد المسلمين العثمانيين، وكان ذلك ١٣٩٤م، لصدهم عن بلاده، ويعتبر سيجموند المحرك الأول لتلك الحرب الصليبية، لأنه أصبح متاخماً للدولة العثمانية في عدة نقاط، فخاف خوفاً شديداً وخشي فقد مملكته، كما فقدها البلغاريون من قبل سنة ١٣٩٣م[٧٢]، لأن بلغاريا كانت بين السلطان العثماني وسيجموند ملك المجر، وكان الأخير يدرك أنه لا يستطيع وحده إنقاذ البلقان. وفي نفس الوقت كان ملوك أوروبا يدركون أن الطريق أمام العثمانيين إلى قلب أوروبا سيصبح مفتوحاً لو نزلت هزيمة كبيرة بالمجر[٧٣]، وكان من نتائج الاستيلاء على بلغاريا يعد تهديد لبيزنطة بصورة دائمة وخطيرة، فأصبحت الدولة العثمانية تتطلع إلى الأراضي المجرية لتحطيم النفوذ المجري هناك، وكان هذا الأمر وراء توحيد دول أوروبا ضد الدولة العثمانية، لتشكيل حملة صليبية[٧٤].

ومن هذا المنطلق انتعشت الروح الصليبية ولقيت دعوة سيجموند استجابة وتأييدًا من البابا - بونيفاس الثاني - الذي دعا أوروبا إلى شن حرب صليبية ضد الدولة العثمانية، لذلك عادت

الفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمدٍ بعيد، تعود إلى الظهور من جديد مرة أخرى[٧٥].

وتلك الدعوة لقيت صدى قوي وأشعلت ملوك أوروبا وأباطرتها حماساً في حركة واسعة للوقوف صفاً واحداً لطرد العثمانيين من أوروبا[٧٦]، فأرسل البابا بونيفاس الثاني من روما أربعة آلاف جندي مقاتل، وكذلك ملك فرنسا كارلوس الثالث بستة آلاف مقاتل للانضمام إلى سيجموند ملك المجر[٧٧]، أغلبهم من نبلاء فرنسا، وفيهم كثير من أقارب ملك فرنسا تحت قيادة الشاب الكونت دي نفر[٧٨] ابن ملك دوك بورغونيا[٧٩]، وقد انضم إلى أولئك الجنود وفرسان القديس يوحنا الارشليمي، أمير الأفلاق وبلغاريا اللذان خلعا ولاءهما للعثمانيين[٨٠].

وقيل التحق بالكونت دي نفر، وهو في طريقه إلى بلاد المجر، من ألمانيا حوالي ستة آلاف مقاتل ألماني، بقيادة الكونت بلاتين روبيرت بن روبيرت الثاني، ومن انجلترا عشرة آلاف مقاتل بقيادة هنتجدون، وانحاز إليه حاكم الأفلاق في عشرة آلاف مقاتل، وقدم من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان ملك المجر سيجموند ينتظر هذه الجيوش ومعه حوالي ستون ألف مقاتل[٨١].

وعلى أية حال فإنه لا يهمنا الأعداد المقاتلة للطرفين، بقدر ما يهمنا في النهاية تشكيل جيش صليبي اشتركت فيه كل دول أوربا الغربية، وكذلك دول المواجهة التي تواجه الزحف العثماني أو مناطق السيطرة العثمانية، وقد توافد هؤلاء الجنود الصليبيون إلى بودا، من انجلترا، واسكتلنده، وبولنده، وبوهيميا، والنمسا، وإيطاليا، وسويسرا، وكذلك من بلدان جنوب شرقي أوربا[٨٢]، تدفعهم الروح الصليبية لسحق وطرد الدولة العثمانية من أملاكها في أوربا.

وبعد تردد من البندقية للدخول في هذه الحرب اشتركت وأعدت أسطولاً صغيراً في الدردنيل، وذلك لتفتيش المضيق لجعل خط الإمدادات الأوربية متصلاً بالقوات الموجودة في المجر، لمحاولة درء الخطر العثماني من استغلال هذا المضيق لقطع الإمدادات الأوربية وبالتالي يعمد إلى فشل الحلف الصليبي[٨٣].

وقد استغرقت هذه الاستعدادات الأوروبية وقتاً طويلاً، وكان البابا صاحب الدعوة، وصرفت أوروبا مبالغ كبيرة من الدراهم لم يسبق أن صرفتها أوروبا في القرون الوسطى[٨٤].

وكان الهدف من هذا الحلف الصليبي أو الحملة الصليبية هي هزيمة وسحق الأتراك العثمانيين وطردهم بصورة نهائية من البلقان إلى الأناضول، ثم محاولة الوصول إلى البقاع المسيحية في بيت المقدس بفلسطين، لتخليصها من يد المماليك، وكانت هذه خطة الحملة[٨٥].

لهذا اجتمع المجلس العسكري الأعلى في بودابست، وتم انتخاب ملك المجر سيجمند الأول للقيادة العامة، فاجتاز الجيش الصليبي الحدود المجرية العثمانية ودخل الأراضي العثمانية[٨٦]، عن طريق بلاد الصرب، التي حافظ أميرها على ولائه وعهده للسلطان با يزيد الأول، مما دعا الحلفاء الصليبيون إلى تخريب أراضيه لعدم تحالفه معهم[٨٧].

وقد عبر هذا الحلف نهر الدانوب (الطونة) وعسكر حول مدينة نيكوبلي[٨٨] لمحاصرتها والاستيلاء عليها[٨٩]، وكانت هذه المدينة من أقوى وأهم المعاقل العثمانية على نهر الدانوب في أوروبا، وكانت محصنة تحصيناً قوياً بأسوار منيعة[٩٠].

وظل هذا الحلف الصليبي متمركزاً حول قلعة نيكوبلي الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر الدانوب (الطونة) لحصارها والاستيلاء عليها، فلم يستسلم القائد العثماني (دوغان بك) والذي حيدهم عن دخول القلعة وقد مضت فترة أسبوعين أي (١٥) يوماً على حصار الصليبيين لها دون فائدة، في حين وردت الأخبار بأن العثمانيين أخذوا يقتربون من القلعة، وكان جيش السلطان بايزيد الأول قد تحرك من تراقيا، فاق فرسانه، خيالة الصليبيين في سرعة الحركة[٩١]، وقد وصلت مقدمة جيشه تحت قيادته إلى نيكوبلي في يوم الاثنين الموافق ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م، وعسكر بجيشه في التلال على مسافة ثلاثة أميال من الجيش الصليبي[٩٢]، يرافقه كثير من الجيش الصربي بقيادة أميرهم استيفن وفاءً للشرط الذي التزم به في الصلح مع السلطان با يزيد الأول، فتقدم السلطان لحرب الحلف الصليبي المذكور، فاشتعلت نار الحرب بين الفريقين، ولكن فقدان روح النظام عند هؤلاء الصليبيين المحاربين جعل حماسهم عديم الجدوى بالكلية، وذهبت جهود سيجموند لقيادتهم أدراج الرياح[٩٣]، حين بادرهم السلطان با يزيد الأول بالهجوم واشتبك معهم في معركة سال فيها الدم بين الفريقين وانتهت هذه المعركة بفوز العثمانيين على الحلف الصليبي بهزيمة ساحقة[٩٤]، بجيش قوامه حوالي سبعين ألف جندي، وكان الجيش الصليبي مؤلفاً من مائة وثلاثين ألف جندي، إلا أنه لم يكن هؤلاء الصليبيين قد شاهدوا حرباً بهذا الحجم ولا طالعوها في الكتب، كانوا جنوداً جيدين، لكنهم لم يعتادوا إلا على مقاتلة خمسة عشر ألف جندي وجهاً لوجه على أكثر تقدير.

فكانوا يجهلون تكتيك الحرب العثمانية، لذلك اضطربوا عندما ضيق عليهم السلطان بايزيد الأول الخناق، وأرادوا النجاة والهرب عن طريق نهر الطونة لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالخيالة الأتراك، فقد حالوا بينهم وبين النهر، فكان العثمانيون الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم[٩٥]، أما سيجموند ملك المجر، فقد هرب من المعركة إلى شاطئ البحر الأسود حيث وثب على إحدى السفن من الأسطول النصراني ففرت به إلى أوروبا، وبذلك تضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوربي، وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة واعتداد بقوة ملكها سيجموند، وبهزيمته أصبح الوضع في البلقان أكثر سوءًا وأصبح الطريق ممهداً أمام العثمانيين لمزيداً من الفتح[٩٦]، وقد أمكن للسلطان إبادة معظم القوة الصليبية الكاثوليكية الضخمة التي احتشدت في (بودا) خلال مدة قصيرة عند قلعة نيكوبلي، وكانت تلك القوة الصليبية خلال زحفها نحو الأماكن تحرق وتهدم ما يصادفها في الطريق وتوقع أنواع المظالم بالسكان الأرثوذكس المحليين، فلما منيت بالهزيمة، تأكد لديهم الرأي القائل باستحالة طرد العثمانيين من الأناضول[٩٧].

وقيل مات من الصليبيين غرقاً في النهر وضرباً بالسيف حوالي مائة ألف جندي، وتمكن من الفرار حوالي عشرة آلاف جندي[٩٨]، كما وقع في الأسر حوالي عشرة آلاف جندي قام الجنود العثمانيون بقتل معظمهم أمام السلطان، منهم كثير من نبلاء فرنسا، وأطلق سراح الباقين منهم يوحنا كونت دي نفر[٩٩]، فقد عفا عنه السلطان لشجاعته وبسالته[١٠٠]، وكانت خسائر الأتراك غير معلومة لديهم، ولكن المصادر الأوربية تقدر حجم الخسائر العثمانية بثلاثين ألف جندي تركي بين قتيل وجريح[١٠١].

وعلى أية حال فقد استطاعت إمارات فيدن البلغارية، من الإفلات والنجاة من السقوط في أيدي العثمانيين ١٣٩٣م، ولكن العثمانيين استطاعوا الاستيلاء عليها في هذه المرة ١٣٩٧م، نتيجة لهزيمة الحلف الصليبي في موقعة نيكوبلي ١٣٩٦م، حيث أصبح الطريق سهلاً وممهداً أمام العثمانيين كما سبق ذكره، لذلك استطاعوا احتلال أثينا، ثم عبروا مدينة اسمبوس، واجتاحوا أرجوس، وانتصروا على القوات البيزنطية هناك، واجتاحوا الشاطئ الجنوبي، وكان ذلك إذاناً بأن القسطنطينية قد جاء دورها، بعد القضاء على كل العناصر الصليبية أو التي باستطاعتها أن تمد يد المساعدة لمدينة القسطنطينية، التي كانت تمر بفترة ضعف في السنوات العشر الأخيرة[١٠٢]، هذا الأمر عمل على ذيوع شهرة السلطان با يزيد الأول في العالم الإسلامي كمجاهد كبير،

وعلى ذلك كان في مقدوره أن يضع القسطنطينية تحت الحصار الشديد ويتطلع إلى احتلال روما، وهذا أثار الخوف في نفوس أهلها، أما الإمبراطور البيزنطي فقد كان يعتقد عن إيمان أن إنقاذ القسطنطينية لن يتم إلا عن طريق المساعدة التي يمكن الحصول عليها من الخارج، كما توقع أن فتح القسطنطينية قريب المنال[١٠٣]، وأعلن السلطان با يزيد الأول أنه سيحتل إيطاليا، بعد فتح القسطنطينية، وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما[١٠٤].

عندما فقدت بيزنطة كثيراً من تأثيرها وهيبتها بعد معركة نيكوبلي، مما جعل الإمبراطور مانويل الثاني يطلب المساعدة من روسيا والبندقية، وملك فرنسا وبريطانيا لإنقاذ القسطنطينية من تهديد العثمانيين لها، فاستجاب شارل ملك فرنسا لطلب مانويل، فأرسل من المضحك فرقة تتكون من ألف ومائتين جندي تحت قيادة المارشال بوكيكو (Boucicaui) الذي سعى لشق طريقه إلى القسطنطينية، ولكن القوة التي كانت معه صغيرة لن تستطيع إنقاذ القسطنطينية[١٠٥].

في نفس الوقت كان حنا السابع منافس الإمبراطور مانويل الثاني على العرش يتفاوض في فرنسا لبيع حقه في العرش لملك فرنسا مقابل قصر هناك، ودخل يقدر بمائتين وخمسين ألف فلورين ذهبي، فقرر الإمبراطور مانويل الذهاب إلى الغرب لطلب المساعدة، وتدخل بوكيكو للصلح بين الإمبراطورين البيزنطيين المتنازعين (حنا ومانويل) وتقرر أن يحكم حنا السابع كإمبراطور في القسطنطينية في غياب مانويل، ومع ذلك فإن مانويل لم يكن يأمن له، فأرسل أسرته عند أخيه في المورة، وذهب في رحلة لطلب المساعدة من الغرب، فزار البندقية وعدداً من المدن الإيطالية، ثم ذهب إلى باريس، ومنها إلى لندن، ولم تحقق رحلته نتائج إيجابية إلا بعض الوعود، التي لم تتحقق لصد الهجوم العثماني المحتمل لفتح المدن فرحل إلى باريس مرة أخرى، وأقام بها عامين، إلى أن وصلته أخبار هزيمة السلطان با يزيد الأول على يد المغول مما جعل القسطنطينية تنعم بفترة راحة من الاستقرار[١٠٦] كما سيأتي ذكره.

وفي الحقيقة أن الصربيين قد أثبتوا ولاءهم للدولة العثمانية في ساحة نيكوبلي، والتي أحرز فيها السلطان با يزيد الأول بمساعدتهم قمة مجده في تلك المعركة، فأرسل من ميدان القتال إلى قاضي بروسه يخبره فيه بانتصاره في نيكوبلي[١٠٧]، كما بعث من أدرنه عاصمة بلاده الرسائل إلى كبار حكام المشرق الإسلامي، يزف فيها بشرى انتصاره في معركة نيكوبلي، وقد أرسل مع الرسل مجموعة من الأسرى الصليبيين كهدايا من المنتصر دليلاً مادياً على انتصاره، واتخذ لقب

« سلطان الروم » كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول[١٠٨]، وبهذا الانتصار العظيم الذي حققه السلطان با يزيد الأول في معركة نيكوبلي رسخت أقدام العثمانيون في البلقان، حيث انتشر الخوف بين الشعوب البلقانية، وخضعت بلغاريا والمجر للدولة العثمانية، وعاقب السلطان حكام جزيرة المورة الذين قدّموا المساعدات للحلف الصليبي[١٠٩]، ويعني ذلك أن العثمانيين بهذا العمل قد سيطروا على شبه جزيرة البلقان كلها ما عدا مدينة القسطنطينية وما حولها[١١٠].

العلاقة المملوكية العثمانية فى بداية عهدهاتختلف عن نهايته :

وكانت العلاقة المملوكية العثمانية في بداية عهدها طيبة، فلم يحدث بين الدولتين صدام، لعدم ظهور أطماع لأي منهما في أملاك الآخر، وقد زاد من تحالفهما الخطر المغولي الزاحف نحو الغرب، المتجه نحو بلادهما[١١١].

لذلك أرسل السلطان با يزيد الأول إلى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة، طالباً منه أن يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي يسبغ على السلطة التي مارسها أو تمتع بها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً لتزداد هيبته لدى العالمين الإسلامي والمسيحي، ولم يكن في استطاعة السلطان برقوق – حامي الخليفة العباسي – أن يتعلل أو يرفض طلب السلطان، بل وافق عليه، إذ كان يرى في السلطان العثماني حليفه الأوحد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد كلا الطرفين بخطر عظيم[١١٢]، لذلك خلع عليه الخليفة العباسي لقب سلطان أقاليم الروم تدعيماً لموقفه هناك، وتوحيداً لجهودهما معاً ضد الغازي المغولي لهما على حد سواء[١١٣]، وعلى الرغم من مخاوف السلطان برقوق من الخطر المغولي نحو بلاده، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين[١١٤]، وهنا يجب التنويه أن السلطان با يزيد الأول، وهو أول من لقب «سلطان آل عثمان»، لذلك لم ينتقل آل عثمان من طور الإمارة إلى دور السلطنة إلا في عهد السلطان با يزيد الأول، وعلى يديه أصبحت الأمارة العثمانية الدولة التي عرفت باسم الدولة العثمانية، كما أن هذا السلطان بحق هو أول من فكر في توحيد العالم الإسلامي، وكانت طموحاته أن يقوده تحت إمرته[١١٥]، وقد تدفق على الأناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية وسلطانها، وكانت هذه الهجرة لم تقتصر على رعايا التركمان، بل كانت مليئة بالجنود الذين أسهموا في الحياة الحكومية والاقتصادية والثقافية، في إيران والعراق، وما وراء النهر، إضافة إلى الجموع الفارة أو الهاربة من أمام زحف قوات تيمورلنك من أواسط آسيا[١١٦].

وقد صدقت مخاوف السلطان برقوق حين أخذ السلطان با يزيد الأول يتطلع إلى المماليك في آسيا الصغرى، شرق الأناضول. فكان احتكاكه أكثر من مرة بدول المماليك في مصر والشام، فقد هاجم قيصرية، وقبض على أميرها الذي كان يتبع لدولة المماليك، وسيطر على بلاد القاضي برهان الدين وسط الأناضول، وحين بدأت انتصاراته[١١٧] حضر بنفسه في ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، إلى سيواس، وشاهد الوضع هناك، وكان ابنه محمد الأول (جلبي)، والياً على هذا الإقليم[١١٨]، ولما علم السلطان با يزيد الأول بوفاة الأمير برقوق، وتولى ابنه فرج الحكم مكانه على مصر أرسل إليه رسولاً يعرض عليه ترك « ملاطية » الآهلة بالسكان الأتراك لأنها تخص القاضي برهان الدين التي آلت بلاده للسلطان العثماني، وعندما تلقى الجواب بالرفض من الأمير فرج المملوكي قام بإعداد جيش لهذا الغرض ونزل به من سيواس إلى ملطية، وقام بحصارها حتى استسلم أهلها في شهر محرم ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، فأخذها عنوة من المماليك[١١٩] وقد أدى ذلك الأمر إلى توتر العلاقات المملوكية العثمانية في الوقت الذي كان فيه خطر تيمورلنك ماثلاً على أبواب الأناضول (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)، فاحتل السلطان العثماني المدن المملوكية الأخرى، كحصن منصور (آدي يمان) كاهته بسني دارنده، ديوريغي البستان، حتى تجاوزت الحدود العثمانية نهر الفرات، كما اعترف بنو دلقادر بالسيادة العثمانية في ١٣٩٩/٩/٢م، وخضعت له مدينة خربوت وارزبجان، وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية التي يسعى من أجلها لإعادة أحياء تركية علاء الدين السلجوقية في آسيا الصغرى[١٢٠].

هذه السياسة الجزئية منه في الشرق أوقعته فيما بعد لأن يدخل ساحة نفوذ تيمورلنك من ناحية والأراضي المملوكية من ناحية أخرى، حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام تيمورلنك[١٢١] كما سيأتي.

وعلى أية حال فقد شعر السلطان با يزيد الأول بما شعر به القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس آنذاك، لما كان على قيد الحياة بالخطر المغولي عقب استيلاء تيمورلنك على بغداد للمرة الأولى حين لجأ للعثمانيين والمماليك في مصر، وشرح لهم هذا الوضع المريب من أطماع المغولي، فاقترح بإعداد حلف ضد تيمورلنك، ولكنهما (العثمانيون والمماليك) لم يهتموا بهذا الأمر[١٢٢].

لذلك أحس السلطان العثماني كما سبق ذكره بحرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه، عندما أحس بالخطر المغولي يقترب من بلاده، ولا نصير له في المنطقة سوى دولة المماليك، فقام بالاعتذار

لسلطان المماليك الناصر صلاح الدين بن فرج بن برقوق عما أقدم عليه، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله، وظل السلطان بايزيد الأول يؤكد صداقته.واحترامه لسلاطين المماليك[١٢٣]، حتى طلب من السلطان المملوكي فرج ما طلبه القاضي برهان الدين وهو التحالف معه ضد الخطر المغولي الذي أصبح على مقربة من بلادهما، فرفض السلطان المملوكي فرج ذلك التحالف بعد التشاور مع أمراء المماليك، الذين تأثروا باحتلال السلطان العثماني لملطية وغيرها من الممالك التابعة للدولة. فقضى هذا الاحتلال على إمكانية التحالف بينه وبين السلطان فرج بن برقوق، وقد استفاد تيمورلنك من هذا الخلاف والتنافر بين المماليك والعثمانيين في صالحه[١٢٤]، حيث تمكن من مداهمة كلا القوتين على انفراد[١٢٥]، فقد غزا سيواس العثمانية وقام بتخريبها وبهذا العمل فقد أنزل بالعثمانيين أول ضربة، واكتفى في بداية الأمر بسيواس، ولم يتقدم نحو الأراضي العثمانية.

أما السلطان با يزيد الأول فقد شعر بأن الوضع في سيواس مؤلم، فقد تأثر كثيراً، لعدم استعداده لملاقاة تيمورلنك على الفور، لكنه سار بقواته إلى قيصرى، وانتظر تيمورلنك، لكن تيمورلنك اتجه نحو سوريا[١٢٦] وهاجم المماليك في مصر والشام وتمكن من هزيمتهم سنة ١٤٠٠م، بالقرب من مدينة دمشق[١٢٧].

ولما رأى السلطان العثماني اتجاه تيمورلنك نحو المماليك قاد الجيش العثماني بنفسه إلى الحدود الشرقية، وأخذ مدينة أزربيجان من أميرها مهتران حليف تيمورلنك، وبعد ذلك خيّره بأن يعيد له المدينة على أن يصبح - مهتران - تابعاً له ويكون حاكماً على أزربيجان ثم أخذ عائلة مهتران كرهينة لديه حتى يضمن ولائه، وأرسلها إلى مدينة بروسة (بورصة) وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م، وبهذه الصورة فقد اتسعت الفجوة بين تيمورلنك وبايزيد الأول لغارته على أمير ازربيجان التابع لتيمورلنك[١٢٨].

وبعد ذلك عاد السلطان إلى عاصمته بروسه (بورصة) ليستريح من عناء الحروب، وليمتع باللذات[١٢٩] ونشوة انتصاراته، وأيضاً مراقبة الزحف المغولي، ورصد اتجاهاته للاستعداد له، وبينما هو على تلك الحال، فقد أرسل تيمورلنك خطاباً أثناء حملته لسوريا يهدد السلطان بايزيد فيه، وينبه من الغفلة، لارتكاب الأخطاء ضد حلفائه وأمراء الإمارات السلجوقية المسلمين الذي اغتصب ممتلكاتهم، وتهديده لدولة المماليك، كما ذكّره بغموض أصل أسرته، فأغلظ له السلطان بايزيد الأول الجواب مع رسوله[١٣٠]، وبين له أنه من أسرة عريقة ذات أمجاد معروفة، ومن نسب

عالي، وطلب بأن يكون تيمورلنك تابعاً له مفاخراً بتاريخهم العظيم، فانصرف الرسول المغولي مخذولاً[١٣١].

استغلال الخلاف بين السلطان بايزيد الأول وتيمورلنك :

استغل إمبراطور القسطنطينية وملوك أوروبا هذا الخلاف الذي وقع بين السلطان بايزيد الأول وتيمورلنك، وطلبوا من الأخير نجدتهم لإنقاذ سقوط القسطنطينية في يد السلطان بايزيد الأول، وكان تيمورلنك قد بدأ مواصلة فتوحاته وزحفه نحو خوارزم وبالتحديد قد وصل إلى ما بين النهرين لمواصلة قتال السلطان با يزيد الأول[١٣٢]، الذي كان ينوي حصار القسطنطينية، ولما علم أن إمبراطور القسطنطينية قد استنجد بتيمورلنك، تقدم بجيشه لحصار القسطنطينية، عقاباً له على موقفه العدائي، ثم طلب السلطان تسليم المدينة، واتبعها بالاستيلاء على الشاطئ الآسيوي وعلى جزء ضيق من مضيق البسفور، ولكن الإمبراطور رفض تسليم القسطنطينية، فأحكم السلطان الحصار عليها مصمماً في هذه المرة فتحها[١٣٣].

وفي أثناء هذا الحصار وصل السلطان بايزيد الأول رسالة من تيمورلنك، يأمره فيها بإعادة جميع أراضي بيزنطة التي سبق للسلطان الاستيلاء عليها ورفع الحصار عنها، وفي نفس الوقت بلغه زحف تيمورلنك إلى أطراف بلاده، فشق على السلطان العثماني هذا الأمر، لذلك رأى رفع الحصار عن القسطنطينية - للاستعداد لصد الزحف المغولي عن بلاده - بعد أن شارفت على السقوط واكتفى بالصلح مع ملكها، مع أن أوروبا كانت تتوقع سقوطها في أي لحظة لعدم استطاعتهم تقديم المساعدة المطلوبة لخوفهم من السلطان العثماني[١٣٤].

غير أن التقدم الذي أحرزه السلطان با يزيد الأول في الأناضول عقب النجاح الذي حققه في الغرب جعله يقف وجهاً لوجه أمام تيمورلنك الذي ظهر من الشرق على مسرح الأحداث لغزو العثمانيين[١٣٥]، نظراً لسياسة السلطان العثماني الخاطئة لاتجاهه نحو المشرق مخالفاً في ذلك سياسة أسلافه الذين كان هدفهم الجهاد لنشر الإسلام نحو الغرب، فاكسبته تلك السياسة عداوة الجميع من مسلمين وأوربيين، فأنقذ هذا الغزو سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني، الذي كان يدعي لنفسه الوصاية في الأناضول كوريث للمغول، ونتيجة لسوء علاقته أيضاً مع سلطان المماليك، وجد نفسه وحيداً أمام تيمورلنك، وكان أمراء الأناضول الذين طردهم من إماراتهم وحولّها أو ضمها لدولته فأصبحت أراضي عثمانية، وكذلك رجال الإقطاعات كانوا غير

راضين عن السياسة المركزية التي أتبعها السلطان وطبقها، هؤلاء جميعاً كانوا يرون في تيمورلنك أنه منقذ لهم[١٣٦].

وكان يمكن لبايزيد الأول اكتساح أوروبا، لولا ما قدّره الله، من قدوم خطر تيمورلنك، الذي عصف بالسلطنة العثمانية، وتسبب في انهيارها لفترة حتى استعادت وحدتها على يد ابنه السلطان محمد الأول[١٣٧].

وعلى أية حال فقد حشد السلطان با يزيد الأول جيوشه التي كانت متفرقة في أنحاء أوروبا وآسيا عائداً بها إلى بروسة (بورصة) عاصمة بلاده للاستعداد لحرب تيمورلنك[١٣٨]، ويعني ذلك تحويل جيشه صوب الشرق، لإبعاد الخطر الجديد خطر المغولي تيمورلنك عن الدولة العثمانية[١٣٩].

وتيمورلنك هذا ينتمي إلى الجنس التركي، ينحدر في أصوله إلى إحدى الأسر الكريمة في بلاد ما وراء النهر، تولى هذا القائد عرش خرسان عام ١٣٦٩م، وعاصمته سمرقند، في الوقت الذي كان فيه السلطانين مراد الأول وابنه بايزيد الأول يرسيان قواعد دولتهما البلقانية، سيطر تيمورلنك على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، فقد انتشرت قواته في آسيا من مدينة دلهي إلى مدينة دمشق، ومن بحر أرآل إلى الخليج العربي، واحتل فارس وأرمينيا، وأعالي الفرات ودجلة، والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود، وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر[١٤٠]، وأعلن بأنه سيجعل الأرض المسكونة ملكاً له، وكان دائماً يردد هذا القول: « أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض، طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء »، وكان يكره أن تكون هناك قوة أقوى منه أو منافسة له.

وقد أتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية، وكان إذا قرر أمراً يطّلع على التقارير التي يبعثها إليه جواسيسه الذين كان يرسلهم إلى ذلك المكان، ليكون ملماً بقوة وضعف أعدائه.

وكان تيمورلنك لا يتسرع في اتخاذ القرارات بل يوازن ويفكر بترو حتى يتخذ القرار المناسب، ثم يتمسك به، لهيبته التي كان يتمتع بها بين جنوده، وكانوا يطيعون أوامره أياً كانت ومهما كانت.

على أن تيمورلنك باعتباره مسلماً صالحاً كان يراعي العلماء ورجال الدين وبخاصة دراويش

الطريقة النقشبندية، وكانت دولته شبيهة بدولة السلطان بايزيد الأول من حيث أنهما قامتا على أنقاض دول صغيرة لجأ أمراؤها إلى كلا الجانبين كما سبق ذكره[١٤١].

ومهما يكن القول فقد واصل تيمور زحفه حتى وصل إلى بغداد في العراق، فهرب حاكمها السلطان أحمد جلائري[١٤٢]، خوفاً من بطشه، كما هرب حاكم أزربيجان قرة يوسف، والتجأ بعائلتيهما إلى السلطان بايزيد الأول، وكان تيمورلنك يسعى لنصرة أمراء القرمان وأوريا الذين استطاعوا استمالته، وقد وافق ذلك ما بنفسه من أطماع لمد نفوذه على بلاد الشام وبلاد الأناضول، لذلك أرسل سفيراً إلى السلطان بايزيد الأول يطلب فيه تسليم أحمد جلائري، وقرة يوسف ولكن السلطان رفض هذا الطلب، وعاد السفير إلى تيمورلنك[١٤٣].

محاولة للصلح بين تيمور لنك والسلطان بايزيد الأول :

وفي رواية أرسل تيمورلنك خطاباً إلى السلطان بايزيد الأول يريد الصلح دون قتال حيث قال: « أنت رجل مجاهد في سبيل الله، وأنا لا أحب قتالك، ولكن انظر أي البلاد التي كانت معك من أبيك وجدك، فاقتنع بها وسلم إليّ البلاد التي كانت من إرثنا ».

وقد أشار الصدر الأعظم العثماني علي باشا على السلطان بايزيد الأول بأن يتبع سياسة السلم والصلح مع تيمورلنك، وقد أرسل سفيراً إلى تيمورلنك للتفاهم في الصلح، وكلفه السلطان بعمل معاهدة إذا اتفقا، ولكن تيمورلنك لم يكترث بالأمر، بل زحف إلى حدود الأناضول، وأخبر سفير السلطان العثماني بأنه ينتظر رد سلطانه بايزيد الأول، وسمح للسفير والوفد المرافق له بالعودة وأرسل معهم سفيره الخاص بالشرط التالي :

أن تيمورلنك يريد استلام قرة يوسف بصفة خاصة حياً أو ميتاً، لكن السلطان بايزيد أجاب السفير، بأن قرة يوسف لم يقدم له أي معلومات أو مساعدة، وأنه في ضيافته الخاصة، لذلك لا يمكن أن يسلم إليه كل من جاء إليه لاجئاً مهما كلفه ذلك من أمر[١٤٤].

بيد أن السلطان العثماني كان لديه خفة وشجاعة، ولم يكن عنده صبر ساعة، كان إذا تكلم وهو في صدر المجلس فإنه لا يزال في حركة زحف أو اضطراب حتى يصل إلى أطراف الإيوان، ولما وصل شرط تيمورلنك إليه رفض تنفيذ هذا الصلح واستهجنه في أسلوبه وفرض ما يريد، لذلك ردّ عليه مهدداً ومتحدياً قوته ومرحباً بقدومه للقتال[١٤٥] دون ضيفه.

لذلك أدرك تيمورلنك أنه لا يمكنه حرب السلطان العثماني على الأقل في هذا الوقت الحاضر مثل ما كان يفعل في الماضي، واضطر أمام ذلك إلى نقل معظم قواته إلى وسط آسيا وبالتحديد في مدينة «قرباغ» حيث قضى الشتاء بها[١٤٦].

وكما لجأ أمراء العراق وأزربيجان إلى السلطان العثماني بايزيد الأول، فقد لجأ من قبلهم إلى تيمورلنك أمراء الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، وفي كلا الجانبين أصبح اللاجئون يحرضون ويحركون كل طرف لشن الحرب ضد الآخر، ولم تجد هذه التحريضات آذاناً صاغية في بادئ الأمر من الطرفين[١٤٧].

الصليبيون يحرضون تيمور لنك للهجوم على العالم الإسلامي :

وقيل أو أشيع بأنه قد دخل طرف ثالث وهم الصليبيون الذين عمدوا إلى تحريض تيمورلنك على هجوم العالم الإسلامي من جهة الشرق وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كن في قصور أمراء وحكام المغول مستغلين هذا عن طريق السياسة والمفاوضات[١٤٨]، وخاصة من المدن الأوربية، (جنوة وقشتالة)، الحاقدة على السلطان بايزيد الأول، فقد شجعت تيمورلنك على حرب الدولة العثمانية[١٤٩].

ولكن تيمورلنك لم يستمع إلى رسلهم بسبب تمسكه بالإسلام من ناحية ومن الناحية الأخرى، لم يكن هناك ما يدل على تقديم أي مساعدات مجدية يمكن أن تقدمها كل من جنوة وقشتالة له، ولكن هذه الاتصالات قد تكون شجعت تيمورلنك على العمل ضد العثمانيين[١٥٠]، ومستغلاً كراهية المماليك وأمراء الأناضول وشعوبهم الإقطاعيين لحكم السلطان بايزيد الأول، وقد هيأت هذه الظروف المناخ لتيمورلنك لغزو بلاد السلطان العثماني.

إضافة إلى أن الصليبيين قد زوجوا بناتهم، وأهدوا بعض جواريهم الحسان للعمل في قصور حكام المغول وأعيانهم لاستمالة قلوبهم قبل عقولهم لتحريكهم لغزو الدولة العثمانية من المشرق حتى تتوقف حركة جهادهم عن الفتح في أوروبا، وهم يتولون الهجوم المعاكس من الغرب ليتمكنوا من إبعاد خطر العثمانيين عن أوروبا كلها بمساعدة المغول، وقد حاولوا من قبل صرف السلطان بايزيد الأول إلى الشرق ليركز جهوده في توحيد الإمارات الإسلامية بالأناضول لتحويله عن أوروبا، وبالتالي يفسح لهم المجال للزحف إلى بلاد الشام للاستيلاء على القدس الشريف في فلسطين[١٥١].

وكانت نتيجة حربه مع هذه الإمارات المسلمة والتي فرّ أمرائها للاحتماء بتيمورلنك وطلب المساعدة منه لاسترداد إماراتهم في نظري أهم أسباب غارة المغول على الدولة العثمانية، إضافة إلى أطماع المغول منذ موجهاتهم الأولى، وقد تكون هذه الحملة استمراراً للغارات السابقة التي قامت في وسط آسيا.

إلا أن ما برره تيمورلنك لهذه الغارة هو خوفه من تحركات السلطان بايزيد الأول ضده، وضربه من الخلف لأنه كان يفكر في غزو الصين لتوسيع ممتلكاته، فخشى تحالف المماليك مع الدولة العثمانية للحرب ضده، وهذا فيه شيء من الصحة لذلك لابد أن يستثمر التنافر الحالي بينهما في صالحه، وكان يتحين الأسباب والفرص وحين سنحت له، بادر بالزحف على الدولة العثمانية[١٥٢].

والحقيقة أن الدولة العثمانية بدأت هي الأخرى منذ فترة من الزمن تستشعر نوايا الخطر المغولي يهددها من الشرق، مما يتيح لبيزنطة فرصة جديدة يتنفسون من خلالها الصعداء وينفكون من الضغط العثماني[١٥٣].

وهذه دلالة واضحة على تأثير أوروبا على فكر تيمورلنك وأمرائه عبر بناتهم وجواريهم، لذلك استجابوا لقلوبهم قبل عقولهم، فكانت الكارثة بين المسلمين كما سيأتي.

وقد أدرك السلطان با يزيد الأول حتمية الصراع مع تيمورلنك، ولهذا السبب قيل أنه سعى إلى تقوية مركزه الحربي في آسيا الصغرى عن طريق القضاء على الإمارات التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة[١٥٤]، وهذا احتمال ضعيف يؤكده الباحث بل تقوده الأطماع لتوحيد أمارات الأناضول تحت حكمه مهما كلفه ذلك الأمر.

لذلك أخطأ حين اتجه إلى ضم دول إسلامية كانوا كثيري العدد، وغير راضين عن سياسة السلطان الذي أخذ يتدخل في شئونهم الخاصة دون مراعاة لهم، وفي هذه السياسة التي اتبعها قد خالف فيها أسلافه في سياسة الفتح العثماني، وهو الاتجاه نحو الغرب للفتح ونشر الإسلام هناك، دون الالتفات إلى الممالك الإسلامية في المشرق[١٥٥]، وكان ينبغي عليه أن يعقد مع تلك الممالك حلف صداقة وحسن جوار ليستعين بهم في أي لحظة ضد أوروبا، ويكونون بجواره في مثل هذه المحن لا ضده كما هو الحال.

لهذا سقط السلطان في طموحاته، عندما تعددت عليه الجبهات واتسعت الفجوات في الغرب والشرق الإسلامي، ولم يبق له صديق، مما أكسبه عداوات المسلمين قبل الأوربيين لتدخله في

شئونهم، وكان عليه أن يكسبهم إلى جانبه دون الدخول في صدام معهم والحقيقة أنه كان شجاعاً مقداماً، ولكن يبدو لم تكن عنده حنكة وسياسة أجداده المؤسسين في الفتح العثماني[١٥٦].

أما السلطان بايزيد الأول فكانت تعيب سياسته التعجل في الفتح العثماني، دون تمييز بين الدول الإسلامية والأوربية، كان أسلافه في فتح أي مدينة في الغرب وليس في المشرق الإسلامي يستريحون حتى تستقر أحوال هذه المدن ويضمنون ولاءها وانتظامها ضمن ممالكهم السابقة حينئذ يبدءون بغزو جديد، وهكذا كانت سياستهم في فتوحاتهم في اتجاه واحد منذ تكوين دولتهم.

وعلى أية حال فعندما رفض السلطان بايزيد الأول تسليم أعداء تيمورلنك إليه بشكل سافر، والتزم بحمايتهم، مهما كلفه ذلك الالتزام، لذلك تردد تيمورلنك في بداية الأمر في غزو السلطان بايزيد الأول حتى لا يثير المشاكل والمشاعر ضده في العالم الإسلامي، والتي لم تكن أساساً في صالحه، باعتباره أحد قوى العالم الإسلامي، ولكنه كان عازماً على فتح بلاد الصين، وإدخالها إلى الإسلام، وكان يعلم أن الدولة العثمانية لا تبالي بأية حدود بينهما، كما كان يخشى من استمرار استيلائها على الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى والتي لجأ إليه حكامها لتخليصهم منه في استرجاع أقطارهم[١٥٧]، وخاصة أن تيمورلنك قد بدأ بغزو الحدود العثمانية.

وكان تيمورلنك يعلم أن غالب جند السلطان بايزيد الأول هم من السلاجقة، أبناء الإمارات المذكورة ففكر في استمالتهم في صفه، لذلك أرسل إلى زعمائهم وكبار رجالهم، يذكرهم بجنسهم ولجوء أمرائهم لديه، ويعدهم ويمنيهم صادقاً بإعادة ممتلكاتهم التي سلبها السلطان بايزيد الأول منهم، فوعدوه سراً بالانضمام إليه عند الحرب[١٥٨]، وقد نجح تيمورلنك في هذه المهمة من اختراق صفوف السلطان العثماني بأخذ هذه الموافقة، والتي تعد من أهم العوامل التي أسقطت بايزيد في الميدان كما سيأتي الحديث عنه.

عندئذ بدأ تيمورلنك بعد أن ضمن ولاء أبناء الإمارات السلجوقية داخل جيش السلطان العثماني غارته في سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، بجيوشه على بلاد آسيا الصغرى التابعة للدولة العثمانية، وفتح مدينة سيواس بأرمينيا، وأسر حاكمها أورخان ابن السلطان بايزيد الأول، ثم قام بقطع رأسه، لرفض والده تسليم أحمد الجلائري، وقرة يوسف له[١٥٩].

ثم أعقب ذلك قتل ما أسره من العثمانيين، لكنه اعترف أنه لم يلق صموداً في الحرب طيلة حياته مثل صمود آل عثمان، لذلك أدرك عدم مقدرته إسقاط القلاع الأناضولية، لكنه كان يطمع

في إبادة الجيش العثماني، عندئذ انسحب من الأناضول إلى قفقاسيا، متجنباً الحرب مع السلطان بايزيد الأول، على أمل أن يعترف له بالتبعية مثل ما اعترف له سلطان الهند والمماليك من قبل، ولكن السلطان بايزيد الأول غيرهم، فقد رفض الاعتراف بتيمورلنك، وبصيغة فيها تحقير، فلم يتحقق أمله، وظن السلطان العثماني بعد ذلك الانسحاب أن المشكلة قد انتهت، ولكن الحقيقة أن تيمور كان ينوي العودة بتخطيط جيد لكسب المعركة[١٦٠].

تيمور لنك يستعد لشن الحرب على الدولة العثمانية:

ولكن آراء أمراء تيمورلنك وأتباعه وحتى أولاده وأحفاده انقسمت إلى من يريد منعه من التحرك إلى الأناضول، لأنه لا يليق بهم حرب الدولة العثمانية السنية، حنفية المذهب والتي تنطق أيضاً التركية مثلهم، وحاملة لراية الجهاد الإسلامي، وهناك من يشكك في قدرة انتصاره على السلطان بايزيد الأول لقوة المقاومة التي لقيها جيشه في سيواس واعترف بها تيمورلنك نفسه، وهناك فريق آخر يحرضه على حرب العثمانيين[١٦١]، ويبدوا أنهم أمراء الأناضول اللاجئين لديه.

وقد حاول تيمورلنك خلال قضائه الشتاء في قفقاسيا إقناع أمرائه وأبنائه المعارضين لشن الحرب على الدولة العثمانية بدفعه شكه باحتمال ضرب السلطان بايزيد الأول لجيشه من الخلف أثناء حملته المرتقبة على الصين[١٦٢]، لأن السلطان بايزيد الأول كان ينوي الاستيلاء على مناطق أزربيجان والجزيرة، والعراق إذا ترك تيمورلنك هذه الأماكن، لذلك كان لا يريد ترك منافس قوي خلف ظهره، وخاصة إذا كان خصمه السلطان بايزيد الأول، إلا أنه في نهاية المطاف طلب تيمورلنك من السلطان بايزيد الأول قبول شروطه لإنهاء الحرب معه وهذه المطالب هي كالتالي :

(١) إطلاق سراح مهتران حاكم أزربيجان مع عائلته.

(٢) إرسال السلطان لأحد أبنائه كرهينة لديه.

(٣) إرسال ما يدل على خضوع السلطان بايزيد له.

(٤) إعادة إمارات الأناضول إلى أمرائها.

(٥) تسليم قرة يوسف وأحمد جلائر وتسليم عائلتيهما مقابل مساعدة العثمانيين في حروبهم مع الصليبيين.

وكان جواب السلطان بايزيد الأول مع صدره الأعظم الذي كلفه بالتحرك لمواجهة تيمورلنك رداً على شروط الصلح قوله : « إن قواتنا سوف ترد لنا شرفنا ، ولن نعيش عبيداً أو خاضعين لأحد » وفي نفس الوقت رفع الحصار عن القسطنطينية، وعقد مع إمبراطورها مانويل معاهدة صلح، ثم سحب جيشه مضطراً للاستعداد لمقابلة المغولي، وعندما كتب السلطان بايزيد الأول رسالته إلى تيمورلنك فإنه كتب اسمه بحروف كبيرة واضحة، بينما كتب اسم تيمورلنك بالحروف السوداء الصغيرة احتقاراً له(١٦٣).

هذا الرد ساعد تيمورلنك على إقناع قادته بالحرب ضد السلطان العثماني، وبين لهم سياسة بايزيد المتسرعة لأطماعه وتحقيق طموحاته، في حين أن قدوم تيمورلنك هو الآخر من الشرق إلى تلك المنطقة تقوده الأطماع والمغامرة للتوسع، فقد أضرم نار الحرب من موسكو إلى نهر الكنج حتى وصل إلى سوريا المملوكية، تدفعه إضافة إلى أطماعه استجابة بعض ملوك أوربا، وملك القسطنطينية، الذين استنجدوا به لصد بايزيد الأول عن فتح القسطنطينية كما سبق ذكره. لذلك اتخذ تيمورلنك من قضيتي أحمد جلائري حاكم العراق وقرة يوسف حاكم أزربيجان اللذين لجأ إلى السلطان بايزيد الأول ذريعة للغارة على الدولة العثمانية(١٦٤).

ويعني أن أطماع تيمورلنك وتوسعاته لا تقل مكراً عن السلطان العثماني، أما السلطان بايزيد الأول فقد قام خلال تلك الفترة، بإعداد جيوشه التي كانت متفرقة في أوربا ، وطلب الاستعانة من حلفائه الصرب، وعاد إلى بروسه العاصمة(١٦٥)، وخاصة عندما علم بسير تيمورلنك إلى سيواس وخذلان أبطاله في مدينة سيواس، حين استقوى عليهم تيمورلنك بجيشه الكبير وقتل ابنه، وملأت انتصاراته الأسماع، وألقت الخوف والرعب في قلوب الجيش العثماني لقساوته في معاملة أسراه(١٦٦)، ولكن هذا الأمر لم يخيف مثل السلطان بايزيد الأول، الذي سار بجيشه لحرب هذا المغولي الذي أفسد عليه فتح القسطنطينية، وانتقاماً لدم ابنه(١٦٧)، حينما علم من عيونه أن تيمورلنك في سيواس، سار إلى أنقرة، يريد أخذ بعض الولايات قبل وصول تيمورلنك لها ، مثل مدينة قاضي برهان الدين، ومدينة اقتراع الجبلية (التي استولى عليها تيمورلنك) كما سبق، لأن أغلب جنوده كانوا من المشاة فلابد أن يختار المواقع المرتفعة، وقد وفق في هذه الخطة ضد تيمورلنك في أول الأمر ، لأن قوات تيمورلنك أغلبهم من الفرسان.

ثم أصدر السلطان بايزيد الأول أوامره إلى الصدر الأعظم للدولة علي باشا وقادة الجيش بعدم

القيام بحرب ميدانية، وأرسل قوة من الجيش تقطع الطريق على تيمورلنك في المنطقة الموجود بها، واعتراض إمدادات جيشه التي ستلحق به، وكان إقدام السلطان على هذه الخطة لاعتداده بنفسه وفي قواته بالانتصار على قوات تيمورلنك.

وعندما تلاقت طلائع القوتين المغولية والعثمانية في مناطق سيواس وتوقاد، رأى تيمورلنك أنه في خطر إذا حارب في هذه المنطقة لسيطرة القوات العثمانية على الممرات الواقعة بين سيواس وتوقات.

لذلك انسحب من تلك المنطقة مسرعاً نحو مدينة قيسرية بناء على ما ورده من معلومات عن القوات العثمانية وتمركزها في المواقع المهمة السابقة، لكنه لم يذهب بكل القوات بل بقواته الاحتياطية، وكانت قليلة حتى يتجنب مواجهة العثمانيين، وبسبب انسحاب تيمورلنك وعدم قبوله للحرب بين توقاد وسيواس، فإن السلطان بايزيد الأول ترك قوة صغيرة في الموقع المذكور واتجه نحو الغرب في نفس الاتجاه الموازي لقوات تيمورلنك[١٦٨].

والحقيقة أن تيمورلنك كان يريد أن يسحب أو يستدرج قوات السلطان بايزيد الأول خلفه، إلا أن السلطان عرف اللعبة ولم تنطل عليه هذه الخدعة، بل كان ينتظر موعد المواجهة مع تيمورلنك، الذي سار نحو مدينة قره سي، فلما علم بقدوم القوات العثمانية نحوه اضطربت أحواله وفشلت خطته، لأن المكان لم يكن مناسب للحرب، لذلك تحدث مع أركان جيشه دون حرج لتدارس هذا الأمر وتغيير الخطط التي تضمن لهم الانتصار، فاستقر الرأي على أن يتقدم بجيوشه بسرعة فائقة، وترك العثمانيون خلفه، فسلك طريق أنقرة، وحين وصلها ضرب الحصار على قلعتها، ولكنه لقي مقاومة عنيفة من محافظها يعقوب بيك من قبل السلطان العثماني، كما توقع أيضاً في هذه المرة أن يأتي السلطان بايزيد الأول من الطريق الذي جاء منه، وكان ينوي السيطرة على أنقرة من ناحية القلعة التي أحكم الحصار عليها والواقعة في الشمال الشرقي لأنقرة، وقبل مجيء السلطان العثماني وقواته، قام تيمورلنك بقطع المياه عن القلعة، وكان الهدف من ذلك هو الإسراع في سقوطها، لأن تيمورلنك كان يتوقع وصول الجيش العثماني متأخراً، ولكن القوات العثمانية كانت تسير في عدة اتجاهات، كما أسرعت في الخروج من الطريق الذي لم يكن يتوقعه تيمورلنك على الإطلاق، لأنه كان ينتظر وصول الجيش العثماني من الشرق الجنوبي، إلا أن الجيش العثماني جاء من الشمال الشرقي، وبالتحديد من ناحية قلعجيك روال، ونزلوا بقرية ملكشاه بوادي جوبوك[١٦٩].

فاضطرب تيمورلنك لهذه المفاجأة، وانشغل بالإعداد للقتال، في تلك اللحظة الحرجة، وطوال الليل، وإزاء هذا الموقف أو الوضع الخطير واللحظة الحاسمة فإن تيمورلنك استطاع أن يحافظ على الهدوء لتمضي هذه المواجهة بسلام، وقد عمل تلك الليلة على تغيير جبهة القتال، حيث انسحب من مكانه جانب القلعة ليتجنب الاصطدام مع السلطان العثماني في هذا الوقت.

ونلاحظ فيما سبق أن تيمورلنك دائماً ما يغير خططه الحربية للمرونة التي كان يتمتع بها إذا أحس بحرج خطته، مع أخذ مشورة قادته بعكس خصمه السلطان العثماني وهذه المرونة هي إحدى عوامل النصر على خصمه السلطان بايزيد الأول كما سيأتي.

أما السلطان بايزيد الأول الذي أوقع تيمورلنك في هذا الحرج الذي كاد فيه أن يقضي عليه في أول مواجهة لو اتبع مشورة أبنائه وقادة جيشه الذين أشاروا عليه بمبادرة الهجوم السريع لمواجهة تيمورلنك في اللحظة التي كان يخشاها تيمورلنك، لكنه رفض الأخذ برأيهم، ففوت فرصة الانتصار على خصمه في تلك المواجهة، حيث رأى أنه من الصواب عدم المواجهة لقرب قاعدة الجيش المغولي، وهذا الأمر أعطى لتيمورلنك وقتاً طويلاً للتفكير للتخلص من هذا الوضع الخطير، والخطأ الذي وقع فيه حسب توقعاته الخاطئة، فقام بتغيير خطته التي تكفل له الانتصار[١٧٠].

وعلى أية حال فقد بدأت المعركة الحاسمة بين القائدين في يوم الجمعة ١٩/ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ الموافق ٢٠ يونية ١٤٠٢م، وقيل في يوم الجمعة ٢٧ ذو الحجة ٨٠٤هـ الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٠٢م[١٧١].

قيل بأن جيش تيمورلنك حوالي سبعمائة (٧٠٠) ألف جندي، وجيش السلطان بايزيد الأول حوالي مائة وعشرين (١٢٠) ألف جندي[١٧٢].

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ العثماني إسماعيل حقي بأن جيش تيمورلنك يقدر بمائة وستين (١٦٠) ألف جندي، أما قوات السلطان بايزيد الأول فتقدر بنحو سبعين (٧٠) ألف جندي، وذلك كما ورد في كتاب (فتحنامه) التيموري.

لذلك لم يكن هناك تناسب بين قوات الفريقين، فقد جاء تيمورلنك بقوة كبيرة مجهزة بالدروع الواقية من ما (وراء النهر) أي من أواسط آسيا الوسطى، عندما علم بأن خصمه السلطان بايزيد الأول الذي يتمتع بصفة الشجاعة والإقدام، وبهذه الصورة نرى كثرة أعداد قوات تيمورلنك

(١٦٠) ألف مقاتل، وبصفة خاصة في أعداد الفرسان، إضافة إلى وجود (٣٢) فيلاً في جيشه، مقابل (٧٠) ألف عثماني مقاتل يغلب عليهم كثرة المشاة[١٧٣]، وقبل جيش السلطان العثماني مائة وعشرون (١٢٠) ألف جندي مقاتل، ولكن كان أكثرهم من المشاة[١٧٤]، والباحث يميل للأخذ بهذا القول، إذا كان جيش تيمورلنك مائة وستين (١٦٠) ألف جندي مقاتل.

وفي الحقيقة لا يهمنا أعداد جيش الفريقين كما أوردته المصادر السابقة بقدر ما يهمنا نتيجة المعركة، لتناقض المصادر التاريخية في تحديد عدد الجيشين بدقة لما فيها من مبالغات في تقدير أعداد المقاتلين في كل فريق.

خيانة تشطر الجيش العثماني نصفين :

والجدير بالذكر أنه لما دارت المعركة أوصى السلطان بايزيد الأول قادته بالتضحية والإقدام لإحراز النصر على خصمه، فاقتتل الجيشان قتالاً شديداً أظهر السلطان العثماني خلاله من الشجاعة ما أبهر العقول من قبيل شروق الشمس حتى غروبها، ولكن فرار عساكر فرسان الأناضول من فرق (آيدين ومنتشا وصاروخان والقرمان) وسرعة انضمامهم وانحيازهم إلى صفوف خصمه تيمورلنك، حسب اتفاقهم معه السري السابق، لوجود أمرائهم وأبنائهم وكبار رجالهم في صفوف الجيش المغولي، قيل أنهم كانوا يقدرون هؤلاء المقاتلين بحوالي خمسين (٥٠) ألف مقاتل، لذلك لم يبق مع السلطان العثماني سوى عشرة آلاف جندي انكشاري[١٧٥] والقوات الصربية التي صمدت في القتال، وقد أثبتوا ولاءهم وصدقهم للدولة العثمانية حين ثبتوا في الحرب ضد تيمورلنك، وقاتلوا ببطولة وبسالة شهد لهم تيمورلنك بقدرتهم الحربية[١٧٦]، على أن ذلك النقص لم يثن السلطان العثماني فقد استمر في الحرب والقتال ضد خصمه[١٧٧].

ولكن هذه الخيانة تسببت في شطر جبهتين داخل صفوف الجيش العثماني وبالتحديد في قلب الجيش الذي كان على رأسه السلطان العثماني، وعلى أثر ذلك تشتت الجيش في الميمنة والميسرة، لفقد السيطرة على إدارة المعركة، فانهزم الجيش العثماني أمام قوات تيمورلنك، فاقترح قادة الجيش العثماني على السلطان بايزيد الأول، الانسحاب لإعادة ترتيب الأوضاع كما كان يفعل تيمورلنك، ولكن السلطان رفض الانسحاب وفضل الاستمرار في القتال دون الانسحاب[١٧٨].

ولكن الصدر الأعظم علي باشا وكذلك مراد باشا، وأغا الانكشارية حسن أغا وغيرهم

من كبار قادة الجيش العثماني انسحبوا لعدم تكافؤ القوتين، ولكنهم قاموا بتخليص أولاد السلطان على الرغم من هزيمة الجيش، فأخذوا سليمان الابن الأكبر الذي شاهد الهزيمة ولاذ معهم بالفرار إلى مدينة بروسه (بورصة) ومن بورصة غادر سلميان إلى مدينة أدرنه بالقرب من مدينة القسطنطينية[١٧٩].

وانسحب محمد الأول الذي استطاع بالتدريج من السيطرة على مناطق سيواس وأماسية ومعه جيش الاحتياط، ولحق به أخيه عيسى.

أما مصطفى وموسى فقد بقي مع والدهما ولم ينسحبا كما انسحب أخويهما حتى وقعا في الأسر معه كما سيأتي[١٨٠]. ولاذ بالفرار ملك الصرب وقواته بعد أن رأى الهزيمة التي لا يقوى على مقاومتها مفضلاً مبدأ السلامة[١٨١].

ولو أخذ السلطان بمشورة أصحابه وحاول الانسحاب لتغيير خطته أو طلب الهدنة للتفاوض على الصلح حتى يستطيع أن يعيد حساباته وتنظيم جيشه من جديد لكان هناك قولاً آخر، ولكنه ثبت في مكانه، وفضل أن يموت بشرف في ميدان القتال ولا ينسحب كما أشار عليه قادته[١٨٢].

هزيمة السلطان العثماني :

لهذا انهارت قوته لاستخدامه الشجاعة والقوة دون العمل بالسياسة والكياسة التي اتبعها خصمه تيمورلنك في عدة لقاءات مع السلطان حيث ينسحب ليتجنب القوة العثمانية ومن ثم يقوم بتعديل خطته التي تضمن له الانتصار والسلطان بايزيد يتعقبه من مكان لآخر دون تخطيط لثقته واعتزازه بقوته حتى أرهق جيشه.

وكان بإمكانه الانسحاب أو الهرب من المعركة حسب رأي مستشاريه كما أسلفنا، لكنه رجل عنيد، واصل الحرب رغم هذه الظروف[١٨٣]، لأنه لم ييأس من النصر على خصمه وظن أنه لا زال قادراً على هزيمته بما بقي معه من خواص رجاله فقد صعد بهم على ربوة، كان يقدر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان، فهاجم بهم قوات تيمورلنك الذين يقدرون بسبعين (٧٠) ألف مقاتل، وبعد قتال شديد، أحاطه المغول بقوات كبيرة، فأخذ بلطة كانت بيده وانقض بها على الجيش الذي أحاط به وبقواته حتى يتمكن من الهرب فاستطاع فك الحصار الذي ضرب عليه من

قبل تيمورلنك وجنوده بقوة قليلة، وفقت هذه القوة من فك الحصار عن سلطانها وهرب هذه المرة بصعوبة بالغة من حلقة الحصار[١٨٤].

وعندما علم تيمورلنك بخروج السلطان با يزيد الأول من الحصار المضروب عليه، أرسل إليه فرقة تتبعه للقبض عليه، ولما وصلت إليه تلك القوة انقض عليها السلطان للقضاء عليها، فاستمر القتال بين الطرفين حوالي ثلاث ساعات حتى سقط آخر النهار، حين وقع به جواده قضاءً وقدراً، وقبل أن يمتطيه مرة أخرى تم الإمساك به وأسره، حيث نقل إلى تيمورلنك، وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٤٠٢م[١٨٥]، فقابله باحترام وحاول تيمورلنك أن يروح عنه، فقال السلطان له أنت السبب في هذا الوضع! ثم ألبسه تيمورلنك عباءة تليق به، وأمر باتخاذ التدابير والإجراءات لعدم هروبه، وقد أسر معه إبناه موسى ومصطفى، وكذلك أمير الأمراء صاري دمرداش باشا، وعلي بيك وغيرهم من خاصته وظلوا معه في الأسر[١٨٦].

يقول الشاعر في شجاعة السلطان بايزيد الأول وإقدامه والغدر به حين انسحب من جنده فرق الأناضول للانضمام إلى عدوه تيمورلنك وقد سبق أن ذكرنا اتصال تيمورلنك بهم سراً وعاهدوه على ذلك وقت الحرب بعد أن وعدهم بإعادة إماراتهم هذه الأبيات من القصيدة التالية:

ورابعهم شمس العلا «بايزيد» هم	موافقه في الحرب مرة مطعم
لئن كان مع تيمور ما انقذ القضا	فإن ارتكاب الغدر منشأ التثلم
ولا عجب للأسد أن ظفرت بها	كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربه وحشي اسقطت حمزة الردا	وحتف علي من حسام ابن ملجم[١٨٧]

وبعد انتهاء الحرب بهذه النتيجة سيطر تيمورلنك على الموقف، فأرسل حفيده محمد ميرزا إلى بروسه (بورصة) بقوة تقدر بثلاثين (٣٠) ألف جندي للقبض على الأمير العثماني سليمان بن السلطان بايزيد الأول، ثم أرسل قوة أخرى من الجيش لتعقب القوات العثمانية التي انسحبت من المعركة.

أما تيمورلنك فظل على مشارف مدينة أنقرة لمدة ثمانية (٨) أيام، ثم غادرها إلى مدينة كوتاهية، وأعجبه المكان فمكث فيها شهراً، وفك فيها أبناء علاء الدين القرماني (محمد علي) من السجن، ثم نقلهم ليكونوا تحت نظره في مدينة كوتاهية[١٨٨]، كما أعاد إلى أمراء الأناضول

مناطقهم التي سلبها منهم السلطان بايزيد الأول[١٨٩] وزاد على ذلك تيمورلنك بأن أعطى أبناء القرمان مناطق: قيسرى واشكي شهر وبنو دلقادر، وغيرها من المناطق الأخرى التي كانت في الأصل تتبع للعثمانيين.

وأرسل تيمورلنك خطاب إلى هنري الرابع ملك إنجلترا وشارل السادس ملك فرنسا، يخبرهم عن انتصاره في أنقره، وأنه هزم السلطان العثماني بايزيد الأول، وأسره، الذي لم يمكنهما القضاء عليه في حربهم معه في نيكوبولي[١٩٠]. ففرحت دول أوربا بما وقع للسلطان بايزيد، وقيل أن ملك فرنسا بعث تهنئة إلى تيمورلنك بهذه المناسبة، فأجابه تيمورلنك على التهنئة[١٩١].

والباحث يميل إلى أن أوربا هي التي أرسلت بالتهنئة بعد أن أرسل لهم تيمورلنك فرحاً بنشوة الانتصار، يخبرهم عن انتصاره على السلطان العثماني الذي لم تستطع أوربا مجتمعة الانتصار عليه.

أسباب هزيمة السلطان العثماني أمام تيمور لنك :

إن أسباب هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول أمام تيمورلنك - هو أنهم لم يألفوا حرب الفيلة التي كانت تجيدها قوات المغول، كما كان انسحاب جنود وفرسان إمارات الأناضول السلاجقة من جيش السلطان العثماني إلى تيمورلنك لوجود أمرائهم معه بعد أن أمطروا العثمانيين بوابل من السهام في ظهورهم، وبالتحديد على الجناح الأيسر مما أدى إلى خلخلة الجيش العثماني، إضافة إلى عدم انسحاب السلطان بايزيد من المعركة حسب رأي مستشاريه، لتغيير خطته الحربية حسب الأمر الواقع، كما فعل خصمه عدة مرات كما سبق ذكره، بل أصر على مواصلة الحرب، على الرغم من هذه الظروف القاسية، مفضلاً ذلك على الانهزام، تلك العوامل من الأسباب التي عجلت هزيمة الجيش العثماني وجعلته يطلب النجاة[١٩٢]، تاركه خلفها سلطانها لمصيره لعدم استجابته لكبار جيشه ومستشاريه.

وكان علي حسون له رأيٌ، ذكر أن جيوش النصارى التي كانت تحت قيادة السلطان بايزيد الأول لم تدخل المعركة إلا وهي مكرهة[١٩٣]، وقد خالفه المؤرخ العثماني إسماعيل حقي (Ismail Hkki) بأن هؤلاء الصرب الذين كانوا تحت قيادة السلطان قد ثبتوا في القتال ضد تيمورلنك، وقد شهد لهم المغول أنفسهم ببطولتهم وبسالتهم ضده، لكنهم هربوا بعدما انكسر الجيش العثماني وهرب العثمانيون طلباً للنجاة لعدم استجابة سلطانهم للرأي والمشورة كما سبق ذكره[١٩٤].

ولكن لعلَّ علي حسون على حق بأن بعضهم دخل هذه الحرب وهو مكره، ولعلهم كانوا يعلمون مدى التحالف الصليبي بين أوروبا والمغول.

وعلى أية حال فقد سعى هؤلاء الصليبيون قبل تقدم المغول نحو العالم بأن يكون هجومهم معاً في آن واحد، مع العلم أن المغول في ذلك الوقت قد دخلوا الإسلام، إلا أن الصليبيين قد استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنة، وما كان عليه تيمورلنك من التشيع، فأقنعوه بوسائلهم التي تقدمت بغزو العثمانيين من الشرق، وهم يهجمون عليهم من الغرب للقضاء عليهم[١٩٥].

ولكننا لم نرى للصليبيين هجوم، كما اتفقوا مع المغول، لأن المصادر العثمانية والأوربية لم تذكر عن ذلك شيئًا، بل ذكرت دورهم التحريضي للمغول لغزو الدولة العثمانية بالأساليب التي سبق ذكرها، للخوف الذي أوقعه العثمانيون في قلوبهم في معركة قوصوه ونيكوبولي التي لازالوا يتذكرونها، لذلك لم يتقدموا، ولم يحركوا ساكناً، بل أنهم تحرروا من الحاكم العثماني بعد المعركة.

ومن الأسباب الأخرى والمهمة في هزيمة السلطان بايزيد الأول، هي أنه عندما دخل تيمورلنك الأناضول في سنة ١٤٠٢م من شهر يوليو، وصل أنقرة، وتجول بها مدة طويلة للتعرف على جغرافيتها لاختيار المواقع المناسبة للقتال، وأخذ السلطان بايزيد الأول يتعقبه من مكان إلى آخر، حتى أرهق جيشه التعب، بعكس تيمورلنك الذي وصل مبكراً إلى الأناضول، فاستراح ونظم جيشه وهيأهم للقتال[١٩٦].

وكان على السلطان بايزيد الأول أن يستريح بعد عناء السفر الطويل من (بروسه إلى أنقرة) إلا أنه لم يتوقف، ليستعد لقتال تيمورلنك، ويبدو أن هدف تيمورلنك فيما تقدم من التحركات هو إرهاق خصمه، لما يعرفه عنه من تعجل وخفة عن طريق عيونه في المنطقة، وأيضاً تحاشي المواجهة معه في بعض المواقع التي نرى أن تيمورلنك ينسحب منها لعدم جدوى المعركة فيها، لذلك كان المغولي يسحبه للموقع الذي يناسب جيوشه وهي المواقع المكشوفة، وكان بإمكان السلطان العثماني أن يتنبه لخداع خصمه ودهائه.

ومن الأسباب كذلك فقد كانت الغالبية في جيش السلطان بايزيد الأول من المشاة، أما تيمورلنك فكان أغلب جيشه من الخيالة، وهو أصلح للقتال في الميادين الفسيحة المكشوفة كموقع

هذه المعركة[١٩٧]، الذي اختاره المغولي، وقبل به السلطان العثماني دون أن يفكر في الانسحاب لموقع آخر يناسب رجاله المشاة.

وقد أخطأ كذلك خطأً كبيراً حينما قبل الحرب الميدانية، بدلاً من حرب العصابات مع خصمه تيمورلنك[١٩٨]، كما أن جهل السلطان في اختيار موقع جيشه للقتال ضد تيمورلنك وضعه في موقف حرج من الناحية التكتيكية العسكرية، فقد فيها توازنه القتالي أمام خصمه، إضافة إلى فارق العدد الكبير في الجيش المغولي، في الوقت الذي هرب فيه معظم الجيش العثماني إضافة إلى أبناء أمارات الأناضول وهو في أحلك الظروف، فتركوه لمصيره، والتحقوا بالجيش المغولي لتيمورلنك[١٩٩].

كذلك من الأسباب دخول المغول الإسلام، لذلك كان الجيش الانكشاري تنقصه الحماسة الدينية لحربه ضد إخوانه المسلمين، وقد كانت هذه من العوامل المهمة في انتصاراتهم ضد البيزنطيين، وتلك من أهم الأسباب في هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول أمام المغول[٢٠٠].

وقد كان العثمانيون قبل هذه الحرب ضد تيمورلنك، يتوسعون وينقلون عاصمتهم من مكان لآخر ليقتربوا بها إلى أرض العدو، أما في حربهم ضد تيمورلنك فوجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن قلب دولتهم (غرب الأناضول)، لهذا أصبحت المعركة حتمية، وضعت الدولة العثمانية في موقف حرج للغاية، بسبب عداوتها مع القوى البلقانية المسيحية، والإمارات السلجوقية المسلمة في الأناضول، وهذه من العوامل التي أدت إلى خسارة العثمانيين إضافة إلى ضخامة الجيوش التي كان يقودها تيمورلنك، والذي لم يهزم من قبل[٢٠١]، فكانت معركة أنقره أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦م - ١٤٥٣م)، وفي هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين المسلمين في التاريخ، الكل منهما يريد النصر على الآخر، وكان يقتسمان الأقطار ما بين الصين وبحر الأدرياتيك، ومعهما أبناؤهما، وقيل كانت خسائر تيمورلنك حوالي أربعين ألف مقاتل وهي خسارة لم يسبق له أن تكبدها، رغم انتصاره الساحق في المعركة[٢٠٢].

فموقعة أنقرة كانت ذات أهمية بالنسبة إلى التاريخ العثماني باعتبارها الهزيمة الساحقة الوحيدة التي حلت بالعثمانيين خلال الثلاثة القرون الأولى من تاريخ الدولة، والمرة الوحيدة التي شهدت أسر عاهل من آل عثمان، ولكنها لم تكن من المعارك التي غيرت مجرى التاريخ للمنتصر والمهزوم على حد سوا ء[٢٠٣].

فالدولة العثمانية كانت تفتقد إلى كل ما يجعل منها دولة في الوقت الذي لم يدرك فيه السلطان بايزيد الأول الاتجاه الحقيقي لإقامة الدولة، فهي دولة غزاه تحارب الكفار، لذلك اتجهت منذ نشأتها الأولى نحو الغرب للفتح ونشر الإسلام، ولكن السلطان بايزيد الأول نراه أخطأ في الاتجاه الحقيقي للدولة، عندما ترك نهج أسلافه في الخط الذي رسموه للدولة واتجه إلى الشرق الإسلامي، لضم دول إسلامية – الإمارات السلجوقية في الأناضول – وكانت هذه الدول كثيرة العدد، وعلى جانب كبير من النفوذ، وغير راضين عن سياسة السلطان العثماني، وتدخله في شؤونهم، دون مراعاة لظروف المنطقة القائمة آنذاك، مخالفاً في ذلك سياسة أسلافه في الفتح، وكان عليه أن يكسبهم في صفه ضد البيزنطيين والمغول، ولكن السبب يعود إلى أن (ماريا دسبينا) والحزب المسيحي في البلاط السلطاني كان لهما الأثر الكبير في توجيه السلطان نحو الشرق الإسلامي لضم الدول الإسلامية وتوحيدها، وكان الهدف من ذلك هو صرف السلطان عن أوروبا وعن نهج أسلافه[٢٠٤]، وقد نجحوا في ذلك عندما أدى ذلك الاتجاه إلى الاصطدام بتيمورلنك وكارثة أنقرة كما سبق[٢٠٥]، وتعد هذه كذلك من العوامل المهمة في هزيمة السلطان العثماني أمام تيمورلنك، لتركه نهج أسلافه في الغزو نحو أوروبا كما أسلفنا من قبل والاتجاه نحو إخوانه المسلمين في العالم الإسلامي، وتلك الأعمال عجلت بسقوطه للأخذ بمشورة أعدائه.

على الرغم من أن السلطان بايزيد الأول قد تهيأ له ما كان مطمع أنظار العثمانيين منذ زمن الغازي عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، وهو فتح القسطنطينية[٢٠٦]، إلا أن سياسة التسرع في الفتح التي اتخذها السلطان بايزيد الأول، مخالفاً فيها أسلافه الذين كان شأنهم شأن الفاتح الحكيم الذي لا يكتفي بفتح البلاد، وضرب الذلة على سكانها، بل كانوا يستريحون بضع سنين من عناء الفتح، ليعيدوا ترتيب جيوشهم، ويوطدوا أركان بلادهم المفتوحة مع البلاد السابقة للربط فيما بينهما لنشر العلم والعدل والسلام، ثم بعد ذلك يتطلعون إلى فتح جديد نحو أوروبا[٢٠٧]، لذلك نرى هذا السلطان لم ينهج هذا النهج بل كان يتخبط في حروبه نحو الشرق والغرب[٢٠٨]، ومن أجل ذلك كسب عداوة المسلمين قبل الصليبيين وهذه من الأسباب كذلك التي عجلت بهزيمته أمام المغول.

فتيمورلنك ما كان يهدف إلى غزو المدن العثمانية، بل إن اتجاه السلطان بايزيد الأول نحو الشرق لتوحيد إمارات الأناضول، ودولة المماليك في مصر هي التي أثارت حفيظة تيمورلنك، ودفعته دفعاً للغارة على السلطان العثماني[٢٠٩].

وفي الحقيقة كانت الضربة قاسية على الدولة العثمانية، ولكن ما خفف منها هو أن تيمورلنك لم يكن يرغب في الاستيلاء على الأناضول بقدر ما أرهبه الفارين إليه من أمراء الإمارات السلجوقية التي استولى عليها السلطان بايزيد الأول، لذلك أراد وقف الزحف العثماني نحو الشرق لحماية حدوده من العثمانيين، ثم بعد ذلك عاد إلى سمرقند للاستعداد لغزو الصين[٢١٠].

وعلى الرغم من تدخل تيمورلنك في الأناضول لفترة قصيرة، فإن نتائج هذا التدخل قد حطمت قوة الدولة العثمانية، وأخر فتح القسطنطينية، وحماها من الانهيار لمدة نصف قرن[٢١١].

لذلك تعد معركة أنقرة في التاريخ العثماني إحدى الكوارث التي أصابت الدولة العثمانية في مقتل، وأطالت عمر البيزنطيين والقرون الوسطى خمسين (٥٠) سنة، بالإضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول حوالي سبعين (٧٠) سنة، حتى أن السلطان سليم الأول لم يتمكن من ضم بعض الأراضي التي كانت في عهد السلطان بايزيد الأول أراضي عثمانية إلا بعد مائة وخمسة عشر (١١٥) سنة من معركة أنقرة[٢١٢].

وعلى كل حال فقد كانت نهاية السلطان بايزيد الأول نهاية حزينة وغير سعيدة في نهاية الموقعة، ولكن تيمورلنك لم يقتل أسيره، بل استقبله استقبالاً يليق بمكانته كسلطان دولة، وفي رواية أخرى قبل أهانه بعد أن شرع في الهرب ثلاث مرات[٢١٣]، بعد أن كانت هناك بعض المحاولات التي قام الأمير محمد ابن السلطان بايزيد الأول، لتخليص والده من الأسر، إلا أنها باءت بالفشل، ولكن لا يعرف مدى صحة هذه الرواية، وكيفية تنفيذها، وإن كانت المصادر التاريخية البيزنطية والعثمانية لم توضح هذه المحاولات[٢١٤].

وعلى الرغم مما قيل فقد عاش السلطان بايزيد الأول في الأسر مدة سبعة (٧) شهور واثني عشر (١٢) يوماً، وكانت هذه الهزيمة هي السبب في موته كمداً وهو في الأسر سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م، وصرح تيمورلنك لابنه موسى بأن يدفن في مقابر سلاطين آل عثمان في بروسه (بورصة)، وهذا يؤكد على حسن معاملة المغولي لأسيره[٢١٥].

وقد دامت سلطنته حوالي ثلاثة عشر (١٣) سنة، وشهر واحد وثمانية (٨) أيام، وقد توفي وعمره ثلاثة وأربعون (٤٣) سنة[٢١٦].

وبعد هذه المعركة نعمت أوربا براحة وخاصة بعد نشوب الصراع بين أبناء بايزيد الأول، فقد تحررت من دفع الجزية التي كانت تدفعها للدولة العثمانية طوال فترة هذا الصراع[٢١٧]، وهذا ما سوف تناولته في بحث مستقل باسم « فترة فاصلة في الدولة العثمانية ».

الهوامش

١- عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ص ٣٤ ـ ٣٥.

٢- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٣٧، عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص ٣٥.

٣- مؤلف مجهول : سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد : مخطوط، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى تحت رقم ٦٧٥ لوحة ١٦ ـ ١٧، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٥١، محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص ٣٥.

٤- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٣٧.

٥- زبيده عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى، الناشر، دار الفكر العربي، ص ١٧٢.

٦- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧.

٧- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، الطبعة الأولى، مطبعة عموم الأوقاف، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ص ٤٧.

٨- وقيل « أوليفرا » وقيل اسمها « ماريا » ـ انظر محمد فريد بك : المصدر السابق، ص١٣٧، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٩- محمد أديب آل تقي الدين الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج١، ص ٢١٤، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الثالثة، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٠.

١٠- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، الطبعة الثالثة، دمشق، دار الطباعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص ٤١.

١١- بيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٢.

١٢- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

١٣- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، الطبعة الأولى، مصر، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٢هـ، ج١، ص ١٣٧، إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٤٠، الحصيني : منتخبات

التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

١٤- إسماعيل ياغي : المرجع السابق، ص ٤٠.

١٥- الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

١٦- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥. .

١٧- زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ٣٥. Moss Baynes : Byzantium, Ox Ford, 1962, p. 81 - 82

١٨- محمد أنيس المرجع السابق، ص ٣٥.

١٩- فيلادلفيا : تقع غرب الأناضول إلى الشرق من مدينة أزمير الحالية باسطنبول. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٧. حاشية رقم (١).

٢٠- إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ص ٤٩٥، الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

٢١- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٢- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، الناشر دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢١.

٢٣- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٤- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٧.

٢٥- تقع في جنوب غرب تركيا جنوب فيلادلفيا. انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧، حاشية رقم (٢).

٢٦- جنوب آيدين على بحر إيجه. انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (١).

٢٧- شمال أزمير على بحر إيجه. انظر : محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (٣).

٢٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٢٩- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٧.

٣٠- تقع في شمال الأناضول، على بعد نحو (١٠٠) كيلو متراً عن البحر الأسود. انظر محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (٣).

٣١- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧ ـ ١٣٨، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٤.

٣٢- يلمار أوز تونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة : عدنان محمود سليمان، تركيا، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م، ج١، ص ١٠٣.

٣٣- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٧.

٣٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٣٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٣٦- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩، أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص٥١، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٥.

٣٧- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج٢، ص ٤١ ـ ٤٢، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٥.

٣٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.

٣٩- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٨.

٤٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩، محمد أنيس : المرجع السابق، ص ١٣٨.

٤١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

٤٢- يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١٠٤.

٤٣- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢، محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٨

٤٤- أحمد تشلبي القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي، الطبعة الأولى، دمشق، دار البصائر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص ١٨ ـ ١٩.

٤٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٣.

٤٦- سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا حالياً. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٩، حاشية رقم (٤).

٤٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٤٨- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة : إشراف وتقديم إكمال الدين إحسان أوغلي، ترجمة، صالح سعداوي، الناشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩م، ج١، ص ١٨.

٤٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

٥٠- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة : المصدر السابق، ج١، ص ١٨، محمد فريد بك : المرجع السابق، ص ١٣٩ – ١٤٠.

٥١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

٥٢- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

53- Solomn, Modell, Ahistory of the Weaskern world, vol, 1 Newjersex, prentice hall, 1974, p. 497 – 498

أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٣ ـ ٥٥.

٥٤- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٥٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٥.

٥٦- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٠.

٥٧- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٩، محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٥٨- أحمد تشلبي القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٨ ـ ١٩.

٥٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٦٠- مدينة صغيرة شمال تركيا على ساحل البحر الأسود. انظر : علي حسون، المرجع السابق، ص٢٠، حاشية رقم (٥).

٦١- مدينة تقع في الأناضول وهي تعد عقدة مواصلات برية مهمة. انظر : علي حسون، المرجع السابق، ص ٢٠، حاشية رقم (٦).

٦٢- تقع إلى الجنوب الغربي من سامسون. انظر : محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٢٠، حاشية رقم(١).

٦٣- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

٦٤- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٩.

٦٥- سالونيك : عاصمة مقدونية اليونانية وثاني كبرى مدن اليونان على خليج يعرف باسمها. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣، حاشية رقم (١).

٦٦- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص١٨.

٦٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٦٨- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣.

٦٩- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس منير البعلبكي، الطبعة السادسة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤م، ص ٤١٩.

٧٠- أحمد شلبي : التاريخ والحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م، ج٥، ص ٤٨٦.

71- Nor man, I. Ottoman Empire and Islamic Tradition, New York, Alrted, A. Knop, 1972, p. 14 – 15.

٧٢- Norman, Ibid, p. 15 محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠، يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٧، أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، الطبعة الأولى، الكويت، دار الوثائق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٨ .

٧٣- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

٧٤- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

٧٥- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤١٩، Nor man, I pid, p. 15.

٧٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص١٩.

٧٧- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤.

٧٨- هذا القائد كونت نيفر، هو ابن ملك يورغانيا والتي تقع حالياً في وسط فرنسا من الشرق. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤، حاشية رقم (١).

٧٩- يورغونيا : كانت ولاية عظيمة في شرق فرنسا، مستقلة لم يكن لملوك فرنسا عليها سوى السيادة، وحق طلب الجنود عند الضرورة منها. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٤١، حاشية رقم (١).

٨٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٣ ـ ١٤٤، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤.

٨١- بسام العسلي : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

٨٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤، .Rosetli, The Battle, Ofnicoplis, p, 619.

83- Recueil des, Historiensdes Groisades publ, Academicdes, Iuscriptions etbellsletters, paris, 1841 – 1905, p. 609. زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٧٥.

٨٤- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧.

٨٥- يوسف آصاف : المصدر السابق، ص ٤٤، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٠.

٨٦- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٧.

٨٧- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤.

٨٨- نيكوبلي : نيكوبول : [Nikopol] مدينة تقع في شمال بلغاريا على الحدود الرومانية. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥، حاشية رقم (١).

٨٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

٩٠- بسام العسيلي : المصدر السابق، ص ٥٠.

٩١- هذه الحركة : اشتهر بها الجيش العثماني منذ تأسيسه.

٩٢- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧، بسام العسيلي : المصدر السابق، ص٥١ - ٥٢.

93- George Ostrogorsky ; History of The Byzantine state Translated to English by joan Hussey, Oxford, Basil, Black Well, 1968, p. 546. كارل بركلمان : المرجع السابق، ص ٤١٩، محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤، يوسف آصاف : المصدر السابق، ص ٤٥.

94- George : Ibid.. يوسف آصاف : المصدر السابق، ج١، ص ٤٥.

٩٥- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

96- The Cambridge, History, of Islam, vol, 1, Cambridge, 1970, p. 285 إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٨، زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٥.

٩٧- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

٩٨- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٨.

٩٩- قيل إن السلطان با يزيد الأول لما أطلق سراح الكونت دي نفر، كان قد ألزمه بالقسم أن لا يعود لمحاربته مرة أخرى، ولكن السلطان قال له : « إني أجيز لك أن لا تحتفظ هذا اليمين، فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي، إذ لا شيء أحب إليّ من محاربة جميع مسيحي أوربا والانتصار عليهم»، انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

١٠٠- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥، محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

١٠١- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٨.

١٠٢- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٥. George Ostogorsky : op, cit, p 493

١٠٣- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

١٠٤- سالم الرشيدي : محمد الفاتح، الطبعة الثالثة، الناشر دار الإرشاد، جدة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص ٣٣.

١٠٥- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٦. George Ostrogorsky : Ibid, p. 493

106- Hussey, J : The Byzntine World, Now, York 1957, p. 282 - 283 زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٦ ـ ١٧٩.

١٠٧- سالم الرشيدي : محمد الفاتح، المرجع السابق، ص ٣٣.

١٠٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

١٠٩- إسماعيل باغي : المرجع السابق، ص ٤٢ ـ ٤٣.

١١٠- ستانلي بول : الدولة الإسلامية، القسم الثاني، ترجمة محمد صبحي فرزات، مطبعة الملاح، دمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦.

١١١- أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومقدماته، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م، ص ٤.

١١٢- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤٢.

١١٣- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٩.

١١٤- أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق، ص ٤.

١١٥- محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢١.

١١٦- أحمد مصطفى عبد الرحيم : المرجع السابق، ص ٥٥.

١١٧- محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، الطبعة الثالثة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص ٥٥٢ – ٥٥٣، Ismail Hkki Uzunc Osmanli Arsili; Tarihi, 5 Baski, I Gilt, Istanbul, 1988, s, 300.

١١٨- يلماز أوزتونا : المصادر السابق، ج١، ص ١٠٦، ابن إياس : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥٢.

119- Ismail Hakki : a. g. e, s. 300.

120- Ismail Hakki, a. g. e, s, 300 .

١٢١- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦.

١٢٢- ابن إياس : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥٢.

١٢٣- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص ١٨.

124- Ismail Hakki, a. g. e, s, 304 - 305.

125- Mehemet Zeki Pakalin : Osmanli Tarih Deyimleri, s, 443 – 444.

١٢٦- أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق، ص ٤، ٩، ١٠، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص٣٦، aynieser, s, 444.

١٢٧- محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢١.

128- Ismail Hakki : a. g. e, s, 304, 305.، عبد العزيز نوار : المرجع السابق، ص ٣٦.

١٢٩- إن الإشاعات التي تقول بأن السلطان بايزيد الأول كان يشرب الخمر والعربدة غير صحيحة، بل كلها لا ترقى إلى الصحة، ولا تروق لأذهان الشعب على أية حال، وقد نعت بذلك من قبل أعدائه، بل الرجل كان لديه خفة وشجاعة – انظر : Mufassal Osmanli Tarihi, s, 214.

١٣٠- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥.

131- Ismail Hakki, a. g. e, s, 305.

١٣٢- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٩.

133- John Hearssy : City of Constantine, Britan, 1880, p, 283
محمد فريديك : المصدر السابق، ص ١٤٤، يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦.

١٣٤- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨.

١٣٥- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

١٣٦- المرجع السابق، ج١، ص ١٩.

١٣٧- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢٢.

١٣٨- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦. Solomon Modell, A History of The Weastern World, 2 vollumes, Newjersey, Prentice hall, 1974, p, 497.

١٣٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٥.

١٤٠- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٦، زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٧.

١٤١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٦ – ٥٧.

١٤٢- أحمد الجلاتري : هو آخر الجلاتريين في بغداد، وهو الذي استعاد مدينة بغداد من تيمورلنك عام ٧٩٧هـ، وولي عليها الوالي فرج، ثم عاد تيمورلنك واستعاد بغداد في شهر ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ، بعد مذبحة عامة، مما جعل أحمد جلاتري يلجأ إلى السلطان بايزيد الأول كما أسلفنا. انظر : يوسف آصاف: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧.

١٤٣- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

144- Ismail Hakki, a. g. e, s, 306.

١٤٥- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

146- Ismail Hakki, aynieser, s, 306.

١٤٧- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٧، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٣.

١٤٨- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢١.

١٤٩- عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ص ٢٦ - ٢٧.

١٥٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٥١- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٥٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٧ - ٥٨.

١٥٣- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤٢٠.

١٥٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

١٥٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٥٨.

١٥٦- يلماز تونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٩.

١٥٧- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٩.

١٥٨- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

١٥٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

160- Runicman. S:History of the Crusades, 3 vols, Cambride,1954, p, 55 - 56..
يلماز اوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١٠٩ - ١١٠.

161- Ismail Hkki : a. g. e. s, 306. يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٦٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٧.

163- Ismail Hkki : a. g. e. s, 306 - 308.

164- J. A. Rmarriott : Dictatorship, and Democrcy, p. 68 - 89، يوسف آصاف :

المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٢، Ismail Hkki : aynieser, p, 306.

١٦٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٦٦- فمن معاملته السيئة لأسراه أنه عندما فتح (سيزاوار) بنى فيها برجاً من أجساد محاربيه وأنه أخذ ألفين من الرجال الأحياء، ثم وضع بعضهم فوق بعض نظير الحجارة، وبناهم بالطين واحداً فوق الآخر، وفي واقعة سيواس أخذ فرسان الأرمن وأحنى رؤوسهم بين أرجلهم وألقاهم في خنادق واسعة وردمهم بالتراب. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦، وإذا كان لي تعليق على هذه المعلومات فأعتقد أن هذا الكلام مبالغ فيه لا يصدقه العقل.

١٦٧- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦، Ismail Hkki, a. g. e, s, 309.

168- Ismail Hkki, op, cit, s, 309. aynieser, s, 309 .

169- Ismail Hkki, aynieser, s, 309 – 310 .

170- Ismail Hkki, Ibid, s, 310. aynieser,s, 310 .

١٧١- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠، Ismail Hkki, aynieser, s, 311.

١٧٢- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠.

173- Ismail Hkki, a. g. e, s, 311 .

١٧٤- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

175- Modell solomon : Ahistory of the Western Warld, vol, 1, p, 497.
إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ٤٩٦.

176- Modell Solomon : I, p, 497, Ismail Hkki, a. g. e, s, 313 : إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ٤٩٦.

١٧٧- محمد حرب : المرجع السابق، ص ١٣١.

178- Modll Solomon, Ibid, 494 - 497. إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠.

179- Osmanlia Nsikloped Disi, Tarih, Medeniyet, Kultur, p, 174, Turkiye Diyanet Vakfi Islm, Ansiklope Dedisi, Cilt, Istanbui, 1995, p, 480.

180- Osmanlia Nsik lopedisi, Tarih, Medeniyet, Kultur, p, 174.

181- Ismail Haki, a. g. e, s, 314.

182- Ismail Hkki, aynieser,s, 314. محمد حرب المرجع السابق، ص ١٣١ .

١٨٣- محمد حرب : المرجع السابق، ص ١٣١.

184- Ismail Hkki, aynieser,s,314, Modell Solomon, op, cit, p, 497. إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠.

185- Osmanlia Nsiklopedisis, Tarih, Medeniyet, Kultyr, p, 174. إبراهيم حليم بك : المصدر السابق، ص ٥٠، Modell Solomon,op,cit,p,497-498 ، Ismail Hakki, a. g. e,s, 315.

186- Osmanlin Nsiklopedisis, Ibid, p, 174, Turkiye Diyanet Vakfi Islm, op, cit, 480.

١٨٧- محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، الطبعة الأولى، الناشر مطبعة المقتطف، مصر، ١٣١١هـ، ج٥، ص ٤٧.

188- Ismail Hakki, a. g. e, s, 315.

189- Osmanlia Nsiklopedisi, Medeniyet, Kultur, p, 174.

190- Ismail Hakki, aynieser, s, 315.

١٩١- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠، Normn. I. Ottoman Fmpire and Islamic tRadition, Newyork, 1972, p, 25 - 26.

١٩٢- محمد حرب : المصدر السابق.

١٩٣- تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣.

194- Osmanli Taihi, op, cit, p, 313.

١٩٥- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٣.

١٩٦- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٩٧- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨، Runicman. S., op, cit, p, 56.

١٩٨- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٩٩- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨.

٢٠٠- أحمد شلبي : المرجع السابق، ج٥، ص ٤٨٧.

٢٠١- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٠٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

٢٠٣- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢٠٤- أحمد عبذ الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢٠٥- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

٢٠٦- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠.

٢٠٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣١.

٢٠٨- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٤، Norman, I, op, cit, p, 25.

٢٠٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢١٠- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٨.

٢١١- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ٧٩، يلماز اوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١١١، The Cambridge, History, of Isiam, voi, I, p, 279.

٢١٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١١.

٢١٣- سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد : المصدر السابق، ورقة ١٧، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ١٩٦، أورخان محمد علي : المرجع السابق، ص ١٨.

214- Ismail Hakki, a. g. s, 315.

٢١٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٧.

٢١٦- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ٥٨.

217- George Ostrogor Sky, op, cit, 496.

د. محمد قائد حسن الوجيه(*)

المطرفية الزيدية في اليمن

ظهورها في القرن الخامس الهجري ومعتقداتها

وقضاء الإمام عبد الله بن حمزة عليها

أهم عناصر البحث:

أولاً: نشأة الفرقة المطرفية وإلى من تنسب:

ثانياً: جهود المطرفية لإقامة هجرهم ونشر أفكارهم:

ثالثاً: صراع المطرفية مع الزيدية المخترعة (التقارب والاختلاف):

رابعاً: صراع المطرفية مع الإمام أحمد بن سليمان واستخدام المناظرات للحسم:

خامساً: خلاف المطرفية مع الإمام عبد الله بن حمزة واستخدام السيف للحسم:

سادساً: أهم معتقدات المطرفية:

سابعاً: القضاء على المطرفية نهائياً من قبل الإمام عبد الله بن حمزة:

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية التربية- جامعة صنعاء.

أولاً: نشأة الفرقة المطرفية وإلى من تنسب:

استمر زيدية اليمن فرقة واحدة تتبع الهادي في الأصول والفروع، حتى ظهر الخلاف والشقاق بين علمائها[١]، فانقسمت الزيدية[٢] نتيجة لذلك إلى ثلاث فرق هي: المطرفية، المخترعة، الحسينية، وقد اختلفت المصادر في تحديد زمن ظهور هذه الفرق، فذهب البعض إلى تحديد زمن انقسام الزيدية إلى مطرفية ومخترعة[٣]، إلى عهد الإمام القاسم بن علي العياني(٣٨٨-٣٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م)[٤]،وإذا كانت اليمن قد استقبلت العديد من المذاهب الوافدة، ومزجت بعضها بطابعها الإقليمي الخاص، ومنحته السمة والشخصية المتمايزتين، فإنها أفرزت بعض المذاهب ذات الطابع المحلي، مثل: الحسينية والمطرفية، وهما فرقتان انشقتا عن المذهب الزيدي، ومن ثم فقد ولدا في اليمن وتلاشيا على مسرحها دون أن يفطن أحد في العالم الإسلامي إلى وجودهما، ولما كانت هاتان الفرقتان تتميزان بالطابع المحلي الخالص فإن المصادر عنهما ظلت محصورة داخل المصادر اليمنية[٥]، ولعل قول يحي بن الحسين هو الأرجح، إذ أن مطرف بن شهاب الذي تنسب إليه المطرفية كان قد بايع الحسين بن القاسم العياني بالإمامة الذي تولاها سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، واستمر إماماً حتى مقتله سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م بل إن مطرف سيشارك في الحروب التي خاضها الإمام الحسين بن القاسم ضد أعدائه[٦]، لكنه رجع عن القول بإمامة الحسين بن القاسم[٧] ،عندما صدر عنه الآراء والأقوال التي عارضها المطرفية.

ومما يؤيد هذا الرأي ظهور العديد من العلماء المخترعة الذين تصدوا للمطرفية زمن الإمام الحسين بن القاسم أو بعد مقتله، فمن علماء المخترعة الذين ترجم لهم ابن أبي الرجال في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، واشتهروا بالرد على المطرفية :الفقيه إسماعيل بن عُلا الذي عاصر الإمام القاسم العياني، وتصدى للمطرفية، وألّف العديد من الرسائل رداً عليهم[٨].أما الحسينية فقد ظهرت في عهد الإمام الحسين بن القاسم، واستمرت بعد وفاته وأخذت بآرائه.

مؤسس فرقة المطرفية[٩] علي بن حرب، أحد كبار علماء الزيدية في ريدة[١٠]،وعنه أخذ علماء المطرفية، وفي مقدمتهم مطرف بن شهاب[١١]، الذي تنسب إليه هذه الفرقة[١٢]، وقد تباينت الآراء حول نشأة المذهب المطرفي حيث يذكر عبد الله العنسي عن زمن ومكان ظهور المطرفية قائلا:"إن الزيدية قد طبقت الآفاق شرقا وغربا، وهذا المذهب..مذهب المطرفية لا يُسْمَع إلا في هذه البلاد من حدود بلاد بني شريف إلى نقيل صيد طولاً ،ومن بلاد بني جبر إلى عنس عرضا، وما عدا

ذلك لا يعرف فيه اسم المطرفية ..دُوْن الوقت الأول الذي هاج فيه مذهبهم.. وقد روي أن القوم إنما أتوا من قبل الباطنية، وإلا فقد كانوا زيدية، وكان حدوث مذهب المطرفية بعد الخمسين وأربعمائة سنة للتاريخ المبارك، وكان..إذا أُحْضِرَ الواحد منهم بين يدي الشيخ يحي بن عمار وناظره قال: لما تناظرني على مذهب أنا أكبر منه سنا"(١٣)،كما تباينت الآراء أيضا عن مؤسس المذهب المطرفي فقال البعض أن المؤسس الحقيقي لهذ المذهب هو أحد مفكري الباطنية، بناحية الأهنوم، وكان قد تظاهر باعتناق المذهب الزيدي، واستطاع بحيله البارعة أن يستغل بساطة العامة في التأثير عليهم وإقناعهم بآرائه ومعتقداته، ويقال أنه رأى يوماً حبة شعير نبتت في جانب مسجدهم داخل الجدار، فسألهم هل يجوز لأحد أن يخدش المسجد؟ فقالوا: لا يجوز ذلك، قال ولِمَ؟ قالوا:لأن هذا قبيح، لو زاد الخَدْش لَخَرِبَ المسجد، وخرابه قبيح، فتركهم أياماً ثم سألهم ما تقولون في هذه الحَبَّة؟ ألم تخدش جدار المسجد؟ قالوا: نعم، قال: أهذا قبيح أم حسن؟ قالوا: هذا حسن-بناء على ما كانت عليه الزيدية من المذهب الصحيح- قال: ألم تقولوا بالأمس إن خدش المسجد قبيح؟ وما زال يحاورهم ويناورهم، وكثُرت المناظرات، وأن الله تعالى لا يفعل القبيح، ثم وصل بهم إلى النتيجة التي يريدها، وهي أن هذا النبات ليس من خلق الله، وإنما هو حاصل من المواد والطبائع.(١٤)

كانت بداية افتراق المطرفية عن الزيدية المخترعة ما حدث من المناظرات بين رجلين من الزيدية الأول علي بن شهر، والآخر علي بن حرب(١٥).

ولمّا اشتدت المناظرات بين الرجلين كان لكل واحد منهما اتباعه ومؤيدوه، "فصاروا فرقتين، فتعصب أولئك على شبهتهم، واستندوا إلى زهادهم ولم يجدوا أزهد من مطرف، فتبعوه وتسموا بالمطرفية بأنفسهم، وبقي المسلمون على بصيرتهم يقولون نحن زيدية التزاما بمذهب العترة الطاهرة الزكية، الذين هم بعد المنصوص عليه زيد بن علي"(١٦)،ولم يزل مطرف ينشر آراءه بين أتباعه إلى أن اكتملت لديهم الصورة الكاملة عن القول بالأصول والإحالة والفطرة والتدبير والطرد والعكس وغير ذلك من الأمور التي صارت تدل على هذا المعتقد الجديد(١٧).

من الصعوبة تحديد زمن دقيق لبداية انتشار المطرفية وإن كان المرجح ظهوره زمن الإمام الحسين بن القاسم العياني،أو بعد وفاته -كما سبق القول-فعبد الله بن حمزة يذكر أن أول من تصدي للمطرفية هو الشريف زيد بن علي بن الحسين(١٨)، ويصف مسلم اللحجي بأن زيد بن علي بن الحسين هذا كان من متكلمي المخترعة، ومعلوم أن اسم المخترعة لم يُطلق على الزيدية إلا بعد

الخلاف بين علي بن حرب وعلي بن شهر، وهما من معاصري مطرف بن شهاب، كما يَذكر أحد علماء الزيدية ودعاتها أن الشريف زيد بن علي بن الحسين رَدَّ على مطرف بن شهاب.[١٩]

كان مطرف بن شهاب يسكن في بيت حُنْبُص[٢٠] ، ثم انتقل إلى سِنَاع[٢١]، فابتنى بها هِجْرَة[٢٢]، ومسجداً ومطاهر[٢٣]، واتخذها مركزاً لتجميع أصحابه، ونشر معتقداته، فأظهر العبادة والطهارة، والزهد، واستدعوا الناس إلى الدراسة، فأقبل إليها كثير من الدارسين والعلماء[٢٤]، فأقيمت المناظرات فيها، بين المخترعة والمطرفية من الزيدية، فيذكر مسلم اللحجي أن علي بن حرب أقنع عليان بن سعد بالتوجه معه إلى سِنَاع، فلما وصلها قال:"فأتينا سِنَاع وبها المشائخ الذين من الطراز الأول فلم أحتج مع النظر إليهم وإلى ما هم عليه من الديانة، وإلى حسن ترتيبهم فيها إلى دليل على فضلهم، وتيقنت أنهم الناس، ثم طالبتهم على ما يعلمون، ويتعلمون من الاعتقاد بالأدلة، فأتوا بما لا مزيد عليه من البرهان، ولا شك معه في البيان، فانقطعتُ إليهم بعد ذلك، ورفضتُ أهلي ووطني إلا من الزيارة في الحين والحين"[٢٥] ومن سناع انتقل الفكر المطرفي إلى أماكن أخرى في اليمن.[٢٦]

وعن زهد المطرفية وما وصلوا إليه من العبادة يقول عبد الله بن زيد العنسي:"...وهم أعني المطرفية أكثر من رَجَعَ إلى الحق على يدي من الفِرَق البدعية.. وأعانني على ذلك ما كانوا عليه من الخوف لباري البرية، وكثرة الخضوع له في الجهر والخفية.. إلا أن ما حملهم على التعصب على مذاهبهم.. ما هم عليه من التشدد والحمية والتقليد لمشائخهم البدعية، وتحسين الظن بهم لما يرون عليهم من آثار التزهدات الجلية والخَيِّرَة منهم، لمخافتهم له في السر والعلانية".[٢٧]

أما الحسن بن زيد ومحمد بن حميد اليرسمي فقد دخلا سناع "وكانا يومئذ يعتقدان بالاختراع، قال: فكانا يأتيان أشياخ الزيدية في سناع، ويتعرفان على ما هما عليه، وفي يوم امتد بهما الكلام..في مسجد سناع حتى غَرُبَت الشمس..فقال الحسن لا أروح حتى أفرغ من هذه المسألة.. وعادوا إلى الكلام، فانقطع الحسن وسلم للمشايخ..ثم انتقل إلى سناع، وانتقل معه ابن حميد، وأتقن الحسن التدريس ورسومه"[٢٨] ،أما نهد بن الصباح فظل يناظر مطرف بن شهاب أربعين يوماً في فنون العلم ومسائل الدين[٢٩].

ونتيجة لهذه المناظرات بين المطرفية والمخترعة أخذت سناع شهرة علمية واسعة نتيجة لتوجه العلماء والطلاب إليها،حتى قال مسلم اللحجي:"فكان ذلك مما ازدادت به شهرة الموضع عند الناس بالعلم والعبادة،والتعليم، فَقُصِد من كل جهة وحيّ"[٣٠].

ثانياً: جهود المطرفية لإقامة هِجَرهم ونشر أفكارهم:

أدى هذا النجاح للمطرفية إلى تفكير علمائها بالمحاولة لنشر فكرهم في مناطق أخرى خارج سناع، فما أن عرض نهد بن الصباح على مطرف فكرة الخروج من سناع لدعوة الناس بقوله:"أيها الشيخ إنك ها هنا خامل ضايع مضيع لعباد الله،قال:فما ترى أن أصنع؟ قال: تسير بنا إلى أرض عنس[٣١] ،حتى نُحْيِي بها من دين الله ما أمكن، قال: فَعَلِمَ أن هذا من صواب الرأي، فسارا معاً إلى ذمار، وكان أهلها مخترعة، فلما نزلا بها أتيا مسجدها ،وسمع بهما الناس، فاجتمعوا إليهما...فافترق المجلس على موافقة من الجمهور لمطرف.. وغلب على أكثر الناس اعتقاد مذهبه"[٣٢] ،ثم توجه مطرف إلى بلج التراخم، واستطاع أن يَضُم إلى صفه شيخها أبا عبد الله محمد أحمد الترخمي بعد مشقة وعسر[٣٣].

غير أن هذا الدور الذي قامت به سِنَاع لم يستمر بسبب ما تعرضت له من هجوم من قِبَل الصليحيين في عهد الداعي سبأ بن أحمد الصليحي، والذي سينازع السيدة أروى بنت أحمد الصليحي شئون الدولة في الفترة ٤٧٨-٤٩٢هـ/ ١٠٨٥-١١٠١م[٣٤] ،حيث سيستجيب لبعض خصوم المطرفية، فيعمل على تخريب سِنَاع، وتخويف أهلها[٣٥] ،مما دفع المطرفية للبحث عن مكان آخر، يقول مسلم اللحجي:"لمَّا اضطرت الزيدية إلى الخروج عن سناع إلى بعض البلدان.. قالوا:نخشى أن نموت في شعاب الأرض، وبطون الأودية..فكثر ترددهم وإحجامهم عن ذلك.. (ف) جعل إبراهيم بن الهيثم بعد ذلك يجول في البلاد ويطلب المساكن..فأصاب وادي وقش خالياً من السكان"[٣٦].

عندما وجد المطرفية أن القبائل المجاورة لوقش[٣٧] يرحبون بنزول المطرفية بينهم، وبعد أن عُقد الجوار بذلك ، انتقل المطرفية إلى وقش، وأقاموا بها "هجرة تقام فيها الصلاة وتُؤدى الفرائض ويُعبد الله فلا يُعصى ويُتعلم العلم ويُحي فيها الدين، حتى قامت بالحجة لله على أهل العصر، فقام الإمام الداعي إلى ربه ،المشهر سيفه"[٣٨]، وقد قَبِلُوا عدداً من الشروط منها أن يكون ابن الهيثم المطرفي حاكماً لا محكوم عليه، فعقدوا له ذلك،[٣٩] ، وأعطت القبائل الحق للمطرفية في أن لا يُدْخِلُوا إلى هجرتهم من لا يرغبون فيه، قال مسلم اللحجي:"وكان (لهم)شروط .. على من يجاورهم،وذمم على من يتغلب عليهم في دارهم ممن يكرهون جواره" [٤٠]، وقد كان للهجرة كثير من الحقوق التي تتمتع بها ، مثل: أنه يجب على جميع القبائل الكف عن الاعتداء عليها ،

وأن يلتزموا بحقوقها، كما أن لهذه الهجرة عدم الالتزام بالعادات القبلية، وبالتالي يجب عليها الابتعاد عن المنازعات القبلية، كما يجب عليها أن تتمسك بأحكام الشريعة الإسلامية، وتعمل على تطبيقها، لذلك كانت الهجرة تزخر بالعلماء، سواء القضاء، أم التعليم، لكل ذلك كانت الهجرة آمنة مُؤَمِّنَة لكل من ورد إليها في ليل أو نهار-سواء، كان ظالما أو مظلوما حتى يؤخذ الحق منه أو له.[٤١]

وإلى جانب ما كانت تقوم به هِجْرَة وقش من مهام الفرائض والتعليم، فقد كانت ملاذاً لمن "خشي علىّ نفسه من ظالم غاشم، هرب إليها للأمن ..ومن أهمَّهُ أمر معاده ومعاشه، أتى متوكلاً على الله"[٤٢] ،ونتيجة لهذه الوظائف الهامة التي كانت تقوم بها هذه الهجرة، فقد "تسامع بها الناس.. نحو ما كانت السمعة بسناع، فانتهى ذكرها إلى أطراف الآفاق، فضُرِبَت إليها آباط الإبل، وطُوِيَت إليها المراحل وَنَفَعَ الله بها من أراد.. من خلقه"[٤٣].

وصل المطرفية في هذه المرحلة إلى الاعتقاد بوجوب هَجْر الظالمين واعتزالهم، ورأوا أنه يجب على الإنسان أن يَهْرُب بنفسه وولده وحرمه من مجامع الناس، وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس والمدن والقرى في دينهم ودنياهم ،ووجوب المهاجرة للظالمين والاعتزال للفاسقين وذلك فرض من رب العالمين في كل وقت وحين"[٤٤] ،ومن هذا المعتقد قاموا بإنشاء العديد من الهِجَر[٤٥]'وبانتشار المطرفية في هذه الهِجَر دون القرى والمدن اليمنية الأخرى يتبين أن هذه الهِجَر كانت بالنسبة للمطرفية ملاذا آمنا يضمنون فيه التمتع بالحرية الفكرية المطلقة في عرض أفكارهم، بل وفي إقامة مدارسهم التي يلقنون فيها مذاهبهم لتلاميذهم[٤٦]، وهكذا كَوَّنُوا مجتمعا خاصا بهم له تعاليمه وتقاليده.[٤٧]

ثالثاً: صراع المطرفية مع الزيدية المخترعة (التقارب والاختلاف):

حرص المطرفية على إقناع معاصريهم بأنهم لم يأتوا ببدعة جديدة، ولكنهم متمسكون بالتعاليم الصحيحة المنسوبة إلى الإمام الهادي، مؤسس الدولة الزيدية باليمن، لذلك قالوا بأن مطرف بن شهاب أخذ المذهب عن علي بن محفوظ بريدة، وابن محفوظ أخذ العلم ومذهب الهادي عن طريقين أحدهما عن أبي الحسين أحمد بن موسى الطبري، عن المرتضى محمد بن الهادي، والأخرى: عن إبراهيم بن بالغ الوزيري، عن أبيه عن الهادي[٤٨].

لهذا عندما سَأَلَ مسلم اللحجي شيخه إبراهيم بن علي عَمَّا إذا كان قد أخذ الاعتقاد من علماء

سناع ووقش، أو أنه التقى بمطرف أو نهد بن الصباح، فإنه غضب من هذه الأسئلة وقال: "أخذته من شيعة الهادي: أوَ مذهب الهادي قد خفي حتى لا يوجد إلا عند أولئك؟. أخذت عن عامر بن صعتر عن عامر بن تميم عن أبيه عن جده عن الهادي إلى الحق"(٤٩).

وهو ما يذكره مطرف بقوله: "لاتحسبوا أننا أخذنا ..واعتقدنا هذا العلم من الأوراق، أخذناه من بين شوارب الرجال، يريد الإسناد إلى الهادي"(٥٠)، واستشهد المطرفية على صحة آرائهم في مناظراتهم مع خصومهم على كتب المرتضى محمد بن الهادي، وهو ما يذكره مسلم اللحجي عندما ناظر المطرفية قوم من آل عَمَّار من المخترعة من مشرق حاشد: "منهم يحي بن عمار المتكلم في الاختراع، فطالبوهم بالمناظرة، حتى دار بينهم الكلام في ذلك.. فطالبوهم [أي المخترعة] على ذلك شهادة سماعية من كتب آل رسول الله صلى الله عليه.. فاستشهدوا [أي المطرفية] بمسألة العدل من كلام المرتضى لدين الله محمد بن يحي"(٥١).

خالف المطرفية فرقة المخترعة عندما تناظر علي بن حرب وعلي بن شهر(٥٢)،وأخذ كل واحد منهما برأيه(٥٣) -كما سبق القول- مما أدى إلى ظهور فرقتي الزيدية (المخترعة(٥٤) ،والمطرفية)، ودخلا في مناظرات بعد أن اجتمع المطرفية في هجرة سِنَاع، واتخذوها مسجداً وهجرة ومطاهر.

اتخذ المطرفية طريقاً مستقلاً بعد أن تراجعوا عن مبايعة الإمام الحسين بن القاسم العياني بالإمامة لما بَدَرَ منه من آراء، ثم استمروا في التجمع في هِجَرِهِم للعبادة والذكر، حتى ظهر الإمام أبو الفتح الديلمي فدخلوا معه في خلاف، لكن هذا الخلاف ظل في هذه المرحلة خلافاً في الجانب الفكري فقط. فيذكر العنسي أن الإمام أبا الفتح الديلمي ردّ على المطرفية برسالة سماها "الرسالة المبهجة في الردّ على الفرقة الضالة المتلجلجة"(٥٥)، مما يؤكد اختلافهم معه على الإمامة.

كما ظل المطرفية على اختلاف مع الشريف حمزة بن أبي هاشم، وابنه الحسين بن حمزة، الذي ألّف رسالتين في الردّ على المطرفية، والتي يقول عنهما عبد الله بن زيد العنسي في حديثه عن العلماء الزيدية الذين تعرضوا للتأليف في الرد على المطرفية: "وكذلك..السيد العالم الحسين بن حمزة.. رأيت له قطعتين من الكلام عليهم[أي المطرفية]"(٥٦).

استفاد المطرفية في هذه الفترة من عدم ظهور منافس قوي لهم، سواء عند الحسينية، أم المخترعة، فزاد نشاطهم، وتعددت هِجَرهم، وكثر أنصارهم،مستغلين للظرف المحيط بهم، فبعد وفاة الإمام الحسين بن القاسم العياني في سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م، تعطلت الإمامة بعده ما يقارب

العشرين عاماً، حتى ظهور الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن سنة٤٢٦-٤٣٣هـ/١٠٣٤-١٠٤١م، وقد يرجع سبب ذلك لاعتقاد اتباع الإمام الحسين بن القاسم في عودته، لدرجة أن أخاه جعفر بن القاسم لم يفكر في القيام بأمر الإمامة، على الرغم من تأييد بعض القبائل له، ورغم أن الظروف تهيأت له باستدعاء أهل صنعاء له لدخولها، ويرجع ذلك لاعتقاده بعودة أخيه.

استغل المطرفية ذلك الفراغ السياسي لنشر أفكارهم، إذ لم يكن هناك أي شكل من أشكال الدولة في المناطق الشمالية، والتي كانت تسمى اليمن الأعلى، حيث كانت صنعاء مقسمة بين ثلاث قوى قبلية هي اليعفريين وآل الضحاك، وابني أبي الفتوح-كما مر سابقاً-.

وحتى عند ظهور الإمام أبي الفتح الديلمي دخل في صراع مع المحتسبين الحسينيين، فلم يتم أي تعاون بينه وبين جعفر بن القاسم العياني، وبوفاة الإمام أبي الفتح تعطلت الإمامة ما يقارب من ثمانية وثمانين عاماً، نشط خلالها المطرفية وعقدوا المناظرات مع المخترعة[٥٧]، فقد كان أبو السعود محمد بن وضاح العنسي(ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م) من علماء المطرفية المناظرين، وكان في بداية حياته من المخترعة، ثم اعتنق التطريف، وتصدى للدفاع عنه، والرد على المخترعة، وله قصيدة يردّ فيها على علماء المخترعة يقول فيها:

والله يخترع المعاني عندهم　　　كالطعم والحركات والألوان

وكذا التكرم والسماحة عندهم　　　فعل الإله وفطرة الأبدان[٥٨].

كما أن العالم المطرفي القاضي شريح بن أسعد الشهابي(ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) تصدى لعلماء المخترعة مثل عبد الله البشاري، وكان بينهما مساجلات شعراً ونثرا [٥٩]،وحين هاجم محمد بن حميد الزيدي المخترعي عقائد المطرفية[٦٠]، قام العالم المطرفي أبو السعود بن زيد بالردّ عليه في أرجوزة شعرية منها:

نحن قلنا النار مثل الماء　　　والقار مثل القُصّة البيضاء[٦١].

الجدير بالذكر أن المطرفية لم تقتصر في مناظراتها مع الفِرَق الزيدية من الحسينية والمخترعة، بل ناظرت الفِرَق الأخرى في اليمن، سواء من أهل السنة أم الأباضية والإسماعيلية[٦٢]، فقد ناظر مطرف بن شهاب القاضي الشافعي سليمان بن عبد الله النقوي أكبر قضاة الشافعية في صنعاء، فأقنعه مطرف بمذهبه وحكم بمذهب مطرف وأصبح من أنصاره، بل ناظر المطرفية

الفرقة الإسماعيلية، وقد اتسمت العلاقة بين المطرفية والإسماعيلية بالعلاقة السلمية حيث كان الصليحيون يرغبون في انخراط المطرفية في جيوشهم لذلك اعترفت بمذهبهم في أول الأمر، إلا أن المطرفية تجنبوا سياستها، بل نجد منهم من يسفه مذهب الصليحيين ويرد عليه مثل أبي السعود بن زيد بن الحسن، الأمر الذي سيدفع بالدولة الصليحية إلى إرسال ابن أحمد الهليجي ليقتل أبو السعود بن زيد وهو يغسل ثيابه.(٦٣)

رابعاً: صراع المطرفية مع الإمام أحمد بن سليمان واستخدام المناظرات للحسم:

بظهور الإمام أحمد بن سليمان، وإعلان خروجه بالإمامة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م(٦٤)، انتهى الفراغ السياسي الذي طالما نعم به المطرفية، ووظفوه لصالحهم، وفي بداية الأمر لم يعلن المطرفية معارضتهم لإمامة أحمد بن سليمان، كما لم يرحبوا بقيامه(٦٥)، غير أن قتل حاتم بن أحمد اليامي للشيخ محمد بن عليان(٦٦)، كان سبباً لجمع فرقتي الزيدية المطرفية والمخترعة على البيعة للإمام أحمد بن سليمان، طالبين منه الثأر لمقتل ابن عليان(٦٧).

غير أن هذا الولاء من المطرفية للإمام لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما تقاعسوا عن نصرته يقول سليمان الثقفي: "فَسَدَ أكثر أهل الهِجَر بالمطرفية، وقعدوا عن الإمام، وأقعدوا الناس،واستمالتهم الدنيا وحطامها"(٦٨)،وكانت بداية الخلاف بين الإمام والمطرفية أن قوما من المطرفية في أشيح والجاهلي(٦٩)،خالفوا الإمام ولم يُقِرُّوا له بالطاعة فخرج لتأديبهم فاستولى على الجاهلي، وألهان، وكاد أن يسيطر على أشيح لولا توجهه إلى مخلاف جعفر بعد أن عين على هذه المناطق ولاة من قبَلِه وطرد المطرفية منها(٧٠).

لم يحتدم الخلاف بين المطرفية والإمام أحمد بن سليمان، حتى حدث الخلاف بين القاضي جعفر ابن أحمد بن عبد السلام(٧١)،وبين المطرفية في سِنّاع، حيث كان القاضي جعفر قد ذهب إلى العراق وعاد بكتب كثيرة من كتب المعتزلة(٧٢)،وقد تأثر الزيدية في اليمن بشكل كبير بكتب المعتزلة التي أدخلها إلى اليمن القاضي جعفر بن عبد السلام، حيث أقبل السواد الأعظم من الزيدية على قراءة كتب المعتزلة هذه، وتركوا كتب قدامى الزيدية، بل وصل بهم الأمر إلى حد رفضها، ومزقوها وجلّدوا بها الكتب الجديدة التي تتضمن أفكار المعتزلة،وهو الأمر الذي سيؤدي إلى ظهور طائفة من علماء الزيدية تندد بهذا التحول وتعمل على إحياء المذهب الزيدي في صورته القديمة، وأطلقوا عليه (مذهب العترة عليهم السلام)،تمييزا له عن أفكار الزيدية الأخرى الممزوجة

بالاعتزال، وأطلقوا على هؤلاء الذين قاموا بعملية المزج- التي أخفت معالم المذهب الزيدي في صورته القديمة النقية- اسم الشيعة المعتزلة.[٧٣]

وعده الإمام أحمد بن سليمان النصرة للقاضي إن وقف في وجه المطرفية وأنكر بدعتهم[٧٤]،يقول صاحب سيرة الإمام أنه لما وصل القاضي جعفر من العراق، قال له الإمام أحمد بن سليمان:"هل علمت يا قاضي أحداً ممن قابلته في العراق يقول بشيء لما تقوله المطرفية أو تعتقده أو تعمل به، أو وجدت في كتاب أو سمعت بأحد يقول بقولهم.فقال: لا، قال له: فإنه يجب عليك أن تردهم عن جهلهم وتنكر بدعهم.. فقال له القاضي: قد عرفت ما تقول ولكن القوم كثير، وقد صاروا ملء يمننا هذا، ولو أبيْتُ أُنكر عليهم لرموني بقوس واحدة، وأنت يا مولانا تقرب وتبعد، وأنا أخاف القوم ولا طاقة لي بهم، فوقع كلام الإمام في أذن القاضي فعمل به"[٧٥].. فناظرهم في سناع ثم في وقش[٧٦] ولما لم يسمعوا منه وآذوه وقاموا في وجهه[٧٧]،عاد إلى سناع مع مجموعة من أنصاره وكان له مدرسة في مسجد سناع فعارضه المطرفية بمدرسة أخرى في جانب المسجد، فقام أحد أنصار القاضي جعفر فأطفأ سراجهم، فعادوا فأطفئوا مصباح القاضي وأصحابه، ووقع بينهم كلام[٧٨].

لمّا علم الإمام بذلك قال:"قد وجبت عليّ فريضة القاضي ونصرة من قد نصره"[٧٩]،فهَمّ بالخروج إلى المطرفية، ومحاربتهم، فتراجعوا وأقرّوا له بالإمامة وطلبوا الصفح، فقبل منهم، ودخل وقش، وأحلّ بها القاضي جعفر، وأقام هناك وكتب كتاباً ألفه وسماه كتاب الرد على من طعن في إمامته[٨٠].

ويرجع سبب تنكر المطرفية للإمام أحمد بن سليمان إلى تشددهم في أمر الإمامة، والشروط الواجب توافرها في الإمام[٨١]،فذهبوا إلى عدم الاعتراف بإمامة أحد بعد الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين، سوى المرتضى ابنه، وأنكروا على الزيدية حصر الإمامة في قريش[٨٢] ،يقول صاحب تاريخ بني الوزير"وقد كانت المطرفية لسعة علومهم وصلابة تدينهم وصبرهم على العبادة والقيام والصيام يحتقرون معارف غيرهم، ويقع من بعضهم إعجاب بالتبحر في العلوم، وللعلم طغيان كطغيان المال، فكان من ذلك أنهم لا يذكرون الإمام أحمد بن سليمان بالإمامة، إنما يسمونه الأمير"[٨٣].

خامساً: خلاف المطرفية مع الإمام عبد الله بن حمزة واستخدام السيف للحسم:

خفت حدّة العداء للمطرفية بعد وفاة الإمام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، والقاضي جعفر بن عبد السلام سنة٥٧٣هـ/١١٧٧م، مما أعطى الفرصة من جديد لازدهار مذهب المطرفية وانتشاره خاصة في عهد الأيوبيين الأوائل في اليمن[٨٤].

مثّل طول الفترة بين موت الإمام أحمد بن سليمان ٥٦٦هـ/١١٧١م، وقيام عبد الله بن حمزة[٨٥] لأوّل مرة محتسباً في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٨٦]،فرصة أمام المطرفية كي تمارس نشاطها وتنشر معتقداتها دون أن تصطدم بصعوبات كبيرة تضعها أمام أزمة سواء من الناحية النظرية حيث لم تصل مع الإمامة الزيدية المخترعة إلى حد القطيعة، ومن الناحية العملية لم تدخل في صراع وحرب معها حتى هذا الوقت[٨٧]،على الرغم من خلو اليمن من حكم الأئمة بعد أحمد بن سليمان لفترة تقارب سبعة عشر عاماً، إلا أن الإمام أحمد بن سليمان كان قد حكم على المطرفية بحكم الكفار، فلا تحل مناكحتهم ولا ذبائحهم ولا تقبل شهادتهم، وهذا الحكم ترك صدىً كبيراً بعده في الأوساط العلمية والسياسية، وجرى الخوض حول هذه المسألة من قبل جماعة من العلماء الذين سبقوا الإمام عبد الله بن حمزة بفترة طويلة[٨٨].

بقيام عبد الله بن حمزة سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، بالإمامة[٨٩]،بايعه المطرفية بالإمامة بعد أن اجتمع مشايخهم بالإمام وأعلنوا اعترافهم باستحقاقه لها، فرحب بهم الإمام وعينهم ولاة على الأقاليم، يقول ابن دعثم:"توجه كل منهم عن أمر الإمام لنفاذ الأوامر الإمامية والتأهل لوقت الحاجة، وإقامة الجمعة في هِجَرهم، والقيام بالمعروف والنهي عن المنكر،وتجبيش الجيوش إلى ثغور الجهاد"[٩٠] ،وقد ظلت العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية حسنة فترة غير قصيرة[٩١]،إلا أن المطرفية أخفقوا في تنفيذ المهام التي أوكلهم بها الإمام لأنهم لم يتعودوا على العمل بالسياسة، وجباية الأموال وإعداد الجيوش، وانصرفوا إلى ما اعتادوا عليه من عقد المجامع العلمية[٩٢]،مثل المجلس العام الذي يعقد في وقش مرة كل عام للدراسة والمناظرة[٩٣].

بدأ الخلاف بين الإمام والمطرفية عندما قام الإمام بعزلهم عن الولاية، ومنع عنهم أموال الزكاة، لِمَا رآه منهم من ضعف وتواني في القيام بالمهام التي أوكلها إليهم[٩٤]،فضاقت عليهم الأحوال، وتشاوروا، واتفقوا على إقامة الأمير المنتصر بالله محمد بن مفضل[٩٥]، محتسباً ليدافع عنهم ويايعوه على ذلك[٩٦].

استمرت العلاقة حسنة والصلة مستمرة بين الطرفين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية، فعند انتصار الإمام على الأيوبيين، أرسل الفقيه يحي بن الحسين البحيري زعيم المطرفية في وقش في عصره رسالة تهنئة للإمام بهذا الانتصار على الأيوبيين في صنعاء[٩٧]، إلا أن عودة الأيوبيين إلى صنعاء سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م، وعقد الإمام الصلح معهم جعلت الخلافات بين الإمام والمطرفية تعود من جديد،لرؤية الأخيرين بضرورة مقاتلة الأيوبيين، وعدم عقد الصلح معهم. فأرسل المطرفية ممثلاً عنهم إلى الإمام ليحثوه على قتال الأيوبيين، لكنه تمسك بالصلح الذي عقده، واستمر في تقدمه إلى صعدة[٩٨]،كما عارض المطرفية الإمام في تولية تهامة للمؤيد السليماني من قبل الإمام، والتي رأت المطرفية في ذلك إعانة له على إحياء رسوم الجور التي جرى عليها الأمراء من بني سليمان، ووصلت المعارضة من المطرفية للإمام إلى حدّ قال ممثلهم للإمام: "إن جَدَّدْتُ له الولاية بغير دليل ولا حجة، فأنا متأخر عن هذا الأمر"[٩٩]،يقصد أي عدم اعترافه بإمامته، إلا أن الإمام لم يبالِ بذلك بقوله: "أنا لا أبالي بمن تأخر عني، مهما كُنْتُ على بصيرة من أمري"[١٠٠].

ظل الأمير المنتصر يدافع عن المطرفية، ويراجع الإمام بشأنهم،وكان الإمام يسمع منه لمكانته عنده،ولم تتوتر العلاقة بين الطرفين حتى وفاة الأمير المنتصر في صفر سنة ستمائة هجرية[١٠١]،ويتبين ذلك من خلال ما أبداه الإمام من حزن عليه في قصيدة رثاء، وأوفد أخاه الأمير عماد الدين يحي بن حمزة مع جماعة من أنصاره إلى وَقَش للتعزية[١٠٢].

لم تلبث العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية أن سادها التوتر من خلال الجهود التي بذلها بعض من أنصار الإمام لإفساد هذه العلاقة، يقول صاحب تاريخ بني الوزير: "ثم أن شيعة الإمام أكثروا في المطرفية إلى الإمام، ورووا عنهم أموراً جمة في المعتقدات على صفة شنيعة صريحة،وكَثُرَ النقل إلى الإمام في ذلك"[١٠٣] ،يضاف لذلك أن الأميرين يحي بن منصور ومحمد بن منصور ابني أخي الأمير المنتصر، واللذين كانا متوليين الدفاع عن المطرفية، بعد وفاة الأمير المنتصر، لم يكن لهما من المودة والألفة مع الإمام مثل التي كانت لعمهما، فتغير الإمام تجاه المطرفية ولم يعد يقبل وساطة الأميرين، ودفاعهما عن أمور المطرفية والمحاجة عنها[١٠٤].

لقد كانت معارضة المطرفية للإمام تشغله لأنها تتميز عن أي معارضة أخرى كونها صادرة من داخل الزيدية التي هو إمامها، خاصة إذا كانت المعارضة في مسألة الإمامة ذاتها، فقد اشترطت المطرفية أن يكون الإمام في الغاية من العلم، وهو مستوى من المعرفة يكاد يكون من المستحيل

تحديده، وهذا في حد ذاته مشروع معارضة مستمرة لأي إمام، فالعلم في نظر كل جماعة ما تعتقده صحيحاً، وليس من السهل إقناع أي مُدَّعٍ للإمامة بأنه أقل علماً من غيره، وكل من يتمتع بقدر من المعرفة يرى نفسه أقدر من غيره على فهم أمور الدنيا والدين(١٠٥).

يقول العنسي: "ومن الظاهر المشهور أنهم لا يقولون بإمامة أحد بعد الهادي سوى المرتضى ولا يقولون بإمامة الناصر الأطروش، ولا بإمامة الناصر بن الهادي ولا من بعده من الأئمة، ويبطلون القتال معهم، منذ ظهر مذهبهم، ولم يقم إمام إلا وهم أعداؤه،وهو عدوهم..ولا يرون تقديمهم في الرياسة، بل يوجبون تقديم شيوخهم"(١٠٦)

زاد من حدّة الخلاف بين المطرفية والإمام ما نقله رجل من المطرفية يسمى عمار بن ناصر الشهابي، حضر اجتماع المدرسة المنصورية في ذي مرمر، فتم فيها الحديث عن المطرفية، وتم التعريض بمذهبهم، فقام هذا الرجل بنقل ذلك لأهل مذهبه من المطرفية في وقش، وبث شكواه إليهم، فجرت مكاتبة بين الفقيه المطرفي على بن يحي البحيري والإمام، فيها مديح وعتاب، ودعوة للمناظرة والمناقشة(١٠٧)،وقد أبدى الإمام استعداده لذلك، وطلب منهم القدوم بجماعة من أهل العقل والعلم لإجراء ذلك(١٠٨) وكان مما قاله الإمام في جوابه على شيخ المطرفية البحيري:"فإن رأيت أن تأتي بجماعة من أهل العلم والعقل والإنصاف..فإن كانوا على بصيرة في تأخرهم ازدادوا يقيناً، وإن كانوا على غير بصيرة فأهل التدين أولى من رجع إلى الصواب، لأن غرضهم طلب النجاة..فلا بأس في ذلك بل هو عين الصواب"(١٠٩).

تردد المطرفية في بادئ الأمر في القدوم لمناظرة الإمام لخوفهم على أنفسهم فـ "كانوا يظهرون أنهم يخافون على أنفسهم، وأن ذلك هو العائق لهم عن الوصول إلى الإمام لمناظرته.."(١١٠)،ثم أظهروا العزم على القدوم جميعاً إلى الإمام لإجراء تلك المناظرة، وحددوا اللقاء إلى ذي مرمر، أو إلى ثلا، ولكن الإمام اشترط إن أرادوا ذلك أن يكون وصولهم إلى صعدة(١١١)،وهكذا أخذ الفريقان يتخاذلان ويتباطأن عن المناظرة، واتهم كل منهما الآخر بالتهرب والخوف(١١٢).

لمّا كثر التباغض والمراسلات بالسب والشتم، وتبارى شعراء الفريقين في هجاء، وتفنيد معتقدات كل فريق وسب مذهبه(١١٣)،زاد الموقف تأزماً وإشعالاً لنار الفُرْقَة بين الطرفين(١١٤)، مما دفع الإمام للحكم بكفرهم، وجعل كفرهم قسمين:إلحاد في ذات الله وإلحاد في فعله، فإلحادهم في ذاته أنهم

أثبتوا لله صفات قديمة، فجعلوه أكثر من واحد، وجعلوا وحدانيته خمسة، وأما إلحادهم في فعله فلأنهم نفوا عنه أعماله مثل الأمراض والمصائب، والبلايا والمضار، وأضافوا إليه أفعال البرية، فقالوا: بأنه تعالى لم يقصد فعل شئ بعد الأصول وهي عندهم الماء والهواء والريح والنار، وقالوا: بأن تحصل هذه الحوادث بإحالات الأجسام واستحالتها، ويأخذ عليهم عجزهم عن تحديد هذه الإحالات وتصريفها"(١١٥) ،بينما يذهب عبد الله بن زيد العنسي إلى أن كفر المطرفية على أربعة أوجه: "كفرهم في الله، وكفرهم في أفعاله، وكفرهم في رسله، وكفرهم في الوعد والوعيد"(١١٦).

سادساً: أهم معتقدات المطرفية:

وعن معتقدات المطرفية وجه أئمة الزيدية المخترعة التهم العدة للمطرفية، واتَّهَمُوهَا بالخروج عن الدين،فالإمام أحمد بن سليمان وجه لهم أكثر من نيف وأربعين تهمة ،قال بَأنَّ المطرفية جَمَعَتْهَا من شتى فِرَق الضلال، حيث ذكر أنها أخذت عشر خصال من الطبيعية الملحدة، وأربع خصال من المجوس والثنوية، وسبع خصال من اليهود، وخصلتين من النصارى، وخمس خصال من عبدة الأوثان، وأربع من الباطنية، وخصلتين من المشبهة، وثمان من القَدَرِيَّة، وثلاث من الخوارج(١١٧) ،لذلك"أخذوا من كل مذهب أخبثه، فخرجوا من جلة المسلمين، وفارقوا أهل الملة"(١١٨).

وللتحقق من هذه التهم لابد من عرضها على الفكر المطرفي، الذي لم يبق منه سوى كتاب واحد، وهو "البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق"، الذي يذكر أن "للعالم أصولا أربعة هي الماء والهواء والرياح والنار، وهي أصل ما خلق الله... والعالم على كماله محدث مخلوق، والله تعالى خالقه، سواءً خلق ما خلق من ذلك جملةً وتدريجاً ،فالذي حصل على معنى التدريج كالحيوان من الماء المهين، والأشجار من الماء، والطين والمطر من السحاب، وكثير منه يزيد بعد النقصان كالإنسان وغير الإنسان من جماد وحيوان، فتبين أن من الأشياء فرعاً ومنها أصلاً "(١١٩).

وقالوا بأن الله تعالى خلق العالم يَحِيل ويَسْتَحِيل"(١٢٠) ،ومعنى ذلك يؤثر وينفع إذا استعمله الإنسان على ما عَلِم الله سبحانه، ومُضِراً إذا خالف تعاليم الله ،كل ذلك جبراً، لا اختياراً، فما حصل منه من تأثير في الوجهين جميعاً هو من فعل الله، لا فعل له غيره، ولا موجد له سواه"(١٢١) ،ومعنى قولنا يستحيل هو يتغير..وذلك كما يقول القائل النار تُحرق والماء يروي، والطعام يشبع، ..والدواء ينفع، والسم يفنى، كل ذلك يخبر الله تعالى له، وكذلك يستحيل أيضاً جبراً من الله سبحانه

لا اختيارا[١٢٢] ،لهذا يتهمهم خصومهم بأنهم نفوا جميع الحوادث عن الله تعالى وأضافوها إلى الإحالة والاستحالة[١٢٣].

كما يعتقد المطرفية بأن الأعراض تسمع سماع العلم ولا تسمع سماع الحس، لأن الحواس لا تقع على الأجسام سواء كان الشيء مسموعاً أم ملموساً أم مشموما[١٢٤] ،لذلك فنزول القرآن يكون بمعنى نزل ووصل لا بمعنى انحدر وانفصل، فسماعه بهذا المعنى يعنى العلم وليس النزول والانتقال[١٢٥] ،ولهذا تم توجيه الاتهام إلى المطرفية بأنهم يقولون بأن الله تعالى لم ينزل على البشر كتاباً من السماء،وأن كتب الله صفة ضرورية لقلب الملك الأعلى لا تفارقه، فيجحدون كتب الله وآياته[١٢٦]،وهو ما يذكره صاحب البرهان الرائق بقوله:"فإن قلتم في قلب الملك فكيف تقولون بنزوله..جواب: قلنا أن الله سبحانه خلقه في قلب الملك الأعلى"، ويستدل بحديث: بأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل كيف تأخذ هذا الوحي، قال: من ملك فوقي، قال: كيف يأخذه ذلك الملك، قال: يلقيه الله في قلبه..."[١٢٧].

ويعتقد المطرفية أن جميع أفعال العباد كلها حسنها وقبيحها فعلهم، لا فعل الله سبحانه، لم يشاركه فيها مشارك، ولم يخلقها فيهم ولا جبرهم عليها، وإنما أقدرهم على فعلها، ومكنهم من إحداثها، وعرّفهم خيرها وشرها[١٢٨] ،وأن أفعال العباد لو كانت خلقاً لله تعالى لَمّا جاز أن يأمر ببعضها وينهى عن بعض،لأن أمر الإنسان بما لا يقدر عليه ونهيه عمّا يعجز عن الامتناع عنه قبيح، وهو تعالى لا يفعل القبيح[١٢٩] ،يقول المحلي:"من قال أنه تعالى خلق لأفعال العباد ولم يفرق بين الحسن منها والقبيح، ومن قال أنه غير خالق لها لم يفرق أيضاً بين الحسن والقبيح منها، وأيضاً فإنه لو كان خالقاً لِمَا هو حسن من فعل العبد، لبطل الأمر كما يبطل النهي، أو كان خالقاً لِمَا هو قبيح من فعله لبطل الثواب كما يبطل العقاب، ولبطل المدح كما يبطل الذم"[١٣٠].

وتقول المطرفية أن الله سبحانه لا يُكلف أحداً من خلقه ما ليس في وسعه لأن تكليف ما لا يطيق قبيح، وهو تعالى لا يقبل القبيح[١٣١] ،وأنه تعالى لا يعذب من لا ذنب له ولا يريد الظلم ولا يرضى الكفر ولا يحب الفساد، لأنه تعالى لا يفعل شيئاً من القبائح[١٣٢] ،وبناءً على ذلك فلن ينال ما عند الله إلا بطاعته،أو بالتفضل، ولا يتفاضل أهل التكليف عند الله سبحانه إلا على حسب تفاضلهم في الأعمال.[١٣٣] ،لا في الأعواض، ويقولون بأن كل ما استحقه العبد المؤمن من ثواب أو عقاب لا يكون إلا بالعمل وبالتالي ينفي ذلك الأعواض عما يصيب المؤمن من أمراض

وآفات(١٣٤)،فالعوض عندهم ثلاثة أوجه:"إما أن يكون مساوياً للثواب أو ناقصاً عنه، أو زائداً عليه، فإن زاد عليه فهو أفضل منه، والقليل أفضل من العامل الصحيح، وذلك مخالف لقوله تعالى"وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما"(١٣٥)، ... وإن كان مثله فقد كان ينال ذلك بعمله، فأين ما في مقابل الألم.. وإن كان العوض دون الثواب فما وجه الحكمة في إيصال النازل إلى العبد مع أنه كان يصل بعمله إلى أفضل من عوضه.."(١٣٦)،وقد وجه خصوم المطرفية الاتهام إليهم بنفيهم للعوض على ما أصاب المؤمنين بأن ذلك إضافة الظلم إلى الله، تعالى الله عنه علواً كبيرا(١٣٧).

وقال المطرفية بأن الله ساوى بين الخلق بستة أمور هي: الخلق والرزق، والموت، والحياة، والتعبد، والمجازاة، وخالف بينهم في ثلاثة هي:الصور، والألوان، واللغات(١٣٨).

والأرزاق عند المطرفية على ثلاثة أوجه:الأول: المساواة في الرزق بين جميع العباد، فيفُقر بعضاً ويُغني آخرين بدون سبب، قال تعالى:"الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم"(١٣٩).. والضرب الثاني: التفضيل في الأرزاق قال تعالى:"والله فضل بعضكم على بعض في الرزق.."(١٤٠)،والضرب الثالث: وهو أن الله يقلل الرزق بالمعصية ويكثره بالطاعة، قال تعالى:"لإن شكرتم لأزيدنكم ولأن كفرتم إن عذابي لشديد" فأخبر أنه يزيد في الرزق بالشكر، ويعذب على الكفر بسلب الرزق وغيره(١٤١).

كما ذهب المطرفية بأن الأرزاق لا تتم إلا بالاكتساب "ولو لم يكسبوه لم يكن معهم، فمن يُمكِّنه الكسب وتَرَكَهُ كان فقره من نفسه لا من ربه"(١٤٢)،وقد تقل الأرزاق بأسباب من العباد كترك العناية بزرايعهم وأراضيهم.. وقد تقل الأرزاق بتدخل من المخلوقين، نحو أن يُهَب له مالاً فَيُغْنَى به، أو يَأخُذ له الظالم مالاً فيفتقر(١٤٣).

واعتبر المطرفية المال الحرام ليس رزقاً (١٤٤) ،وقد نَسَبَ إليهم خصومهم القول بأن الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكتساب والضرب في الأرض، والتحايل وسائر الأسباب، ونفوها عن الله، وبأنه سبحانه لا يرزق العصاة(١٤٥).

أما في الموت فذهبوا إلى أن الأعمار تختلف باختلاف البنية والأوطان والأزمان.."فمن صحت بنيته، واعتدلت مادته وطابت محلته، وبريت من معاصيه ساحته، حتى طالت مدته، واستوفى

عمره، ما لم يظلمه غيره بقتل يقطع به أجله"[١٤٦]،والأجل هو الوقت الذي عَلِمَهُ الله أن الإنسان يموت فيه، أما أنواع الآجال فثلاثة: الأول: أجل ضربه الله سبحانه لعباده إذا سَلِمُوا الهوارم، قال تعالى: "ويلغنا أجلنا الذي أجلت لنا"[١٤٧]،والأجل الثاني: أجل النقمة قال تعالى: "إن أجل الله إذا جاء لا يأخر"[١٤٨]،الأجل الثالث:أجل محتوم وهو الذي يقطع نَسَب من العبد إما عمداً أو خطأ[١٤٩].

أما عن موت الأطفال فيقول المحلي:"وأما الأطفال فإن الله خلقهم للعبادة، فإذا ماتوا قبل البلوغ قلنا أنهم ماتوا في ذلك الوقت لجناية الغير عليهم، وهو تعالى مُميتهم وفاعل موتهم، ومن أنكر أن يكون الموت فعلاً لله سبحانه أنكر خلق السماوات والأرض وذلك الغير الجاني عليهم يسمى لهم مُميتا حقيقة بالجناية الواقعة منه"[١٥٠].

وقد نُسب للمطرفية القول بأن الأعمار والآجال والموت والحياة، تقع بحسب الطبائع والمواد، وأن موت الطفل ليس من رب العباد، كما نسبوا إليهم أن الإنسان يقدر على تأخير عمره إلى مائة وعشرين سنة، بإصلاح معيشته وغذائه، ومعرفة دائه من دوائه[١٥١] ،وتُتهم المطرفية بأنها كفرت بأربعمائة وثلاث وسبعين آية صريحة لا تحتمل التأويل، ولا خلاف من الأمة بكفر من ردّ آية واحدة، فكيف من ردّ كل هذه الآيات[١٥٢].

سابعاً: القضاء على المطرفية نهائياً من قبل الإمام عبد الله بن حمزة:

استقرّ رأي الإمام عبد الله بن حمزة على ضرورة مواجهة المطرفية لِمَا أصبحوا يشكلونه من تهديد خطير له ،وقد تناما شعور الإمام عبد الله بن حمزة بالخطر من جانب المطرفية لما يرونه من عدم اشتراط العلوية في الإمامة، ونفي شرط العلوية يعني عدم شرعية الإمام عبد الله بن حمزة على حساب مقتضى القواعد الزيدية ، خاصة إذا علمنا أن الإمام عبد الله بن حمزة شخصية طموحة، فقد كان يفكر بأن تصل دولته إلى الحجاز والشام[١٥٣]، حيث يذكر يحي بن الحسين بأنه فرض المكوس على أمراء الحجاز وكانوا يدفعونها على مضض.[١٥٤]

فعزم على التحول من سياسة المهادنة والمناظرة إلى سياسة استخدام القوة، وقد ساعدته الظروف في ذلك، إذ استغل عقد الهدنة بينه وبين الأيوبيين في أواخر سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م[١٥٥] ،للقضاء على خصومه من المطرفية، فقد قام الإمام بقتل رجل لشهادة الشهود بأنه مطرفي بعد أن رفض التبرؤ من المطرفية[١٥٦] ،فلما بلغ ذلك المطرفية اشتد جزعهم

عليه، وعظم عندهم الخطب فيه، وأيقنوا بالهلاك، فأنشئوا الأشعار، وبثوا الكتب في الأقطار، وبعثوا الرسل إلى الآفاق بالرسائل(١٥٧)،ويظهر من خلال بعض الإشارات في السيرة المنصورية أن الإمام كان قد أصدر حكمه في المطرفية خلال هذه الفترة باعتبار دارهم دار حرب، فحَكَمَ الإمام على المطرفية بأحكام أهل الحرب،وأن مكامنهم التي سموها هجراً حكمها حكم دار الحرب، فتحرم مناكحتهم وموارثتهم، وأكل ذبائحهم، وقَبْرهم في مقابر الإسلام والمسلمين، إلى غير ذلك من أحكام المشركين (١٥٨)،فالمطرفية في نظرهم أكفر من النصارى واليهود بما لا يرتاب فيه منصف(١٥٩)، بل أجازوا قتلهم غيلة، وغزوهم ليلاً ونهاراً، وتحريقهم(١٦٠).

وقد سعى الإمام عبد الله بن حمزة إلى التنكيل بمذهب المطرفية واعتبار أتباعه كفرة ضالين ويجب عليهم التبرؤ من مذهبهم إن هم أرادوا العيش بأمان في مناطقهم، حيث يذكر ابن دعثم أنه قَبْل قتل الرجل المطرفي كان قد تم القبض على مجموعة من المطرفية، تبرءوا من مذهبهم، وبايعوا الإمام، وأعطوه العهد على الخروج من مذهب المطرفية عندها "كتب (الإمام) لهم كتاباً فيه أسماؤهم، وصفاتهم، وشياتهم، مخافة أن يُطْلَبوا بصعدة، أو غيرها فيجري عليهم حكم المطرفية"(١٦١).

عندما تكررت حوادث قتل الإمام للمطرفية اجتمعوا للتشاور لاتخاذ القرار الذي سيشكل حتمية الصراع بين الفرقتين دون تراجع، ذلك القرار الذي تمثل في إسقاطهم لإمامة عبد الله بن حمزة، وتعيينهم إماماً خاصاً بهم، فاختاروا الشريف يحي بن منصور بن مفضل، في اجتماعهم في ذي مرمر، وأعلن السلطان بشر بن حاتم تأييده لهم(١٦٢)،وأعلنوا قدومهم لمناظرة الإمام في ثلا في الموعد الذي حدده، وإن لم يحضر سقطت إمامته، غير أن الإمام اعتذر عن الحضور(١٦٣)،فحاول المطرفية أن يستغلوا ذلك لمصلحتهم،فـ"أشعروا الناس أنهم جاءوا لمناظرة الإمام وأنه وعدهم لذلك إلى ثلا ليوم عَيَّنُوه،وأنه إن لم يلقهم لذلك اليوم سقطت الإمامة، واعترف لهم بأنهم على الحق،.. وأشعروا الناس خلافهما عليه ..وحضوهم على جمع أهل البلاد والحديث في الأسواق"(١٦٤).

دفع ذلك الإمام إلى كتابة رسالة عامة لكافة الناس يصرح فيها بكفر المطرفية،وردتهم، ويقرر حكمه فيهم إن أظفره الله عليهم "فإن ظهرنا عليهم بنصر الله قتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وبعنا النساء والعيال، كما يفعل بالمشركين، ولم يكن عندنا لكل حالم إلا السيف"(١٦٥).

فعلت هذه الرسالة بالمطرفية فعلها بين القبائل وفي المجتمع، إذ تأثر وضعهم،ونظر الناس

إليهم كفرقة مرتدة، فصار الرجل إذا سبَّ صاحبه قال: يامطرفي، وصار الواحد من المطرفية إذا أراد دخول بعض الأسواق لا يدخلها إلا متكتماً أو في ذمة أو جوار[١٦٦].

ويعود أول خبر عن ابتداء قتل الإمام للمطرفية إلى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، عندما أمر أخاه عماد الدين يحي بن حمزة بمضايقة أهل هجرة قاعة، وقتل من أمكنه منهم، فقطع الأمير موادهم، وأخافهم في طرقاتهم[١٦٧]، فلما ضاقت أحوالهم بقاعة بعثوا صريخاً إلى وقش فأتى إلى مسجدهم وهم على اجتماعهم،فكسر عصاه، وفرق جرابه، وقال:أدركوا إخوانكم وإلا فهم هالكون، وحكى لهم ما انتهى إليه أمرهم، وأن الأمير فرض عليهم الزُّنَّار علامة لهم، فلما بلغهم ما حلّ بأصحابهم من الخزي والنكال تكاتبوا، وأجمعوا رأيهم على الغارة إلى أصحابهم[١٦٨].

تقدم الإمام في ثلاث خلت من جمادى الآخرة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، إلى قرية مُدَع من مصانع حمير فحطَّ بجانب البلد من شرقيها وجمع الناس وأبان لهم أمور المطرفية واتضاح ردتهم وكفرهم، فعظم ذلك على الناس لِمَا كانوا يُجِلُّون المطرفية ومعتقداتهم[١٦٩]،وقد حاجج جماعة من الناس من أهل البلد عن المطرفية وسألوا الإمام عن السبب الذي استحقت به المطرفية اسم الردة؟ فألزمهم إحضار علماء أهل هجرة قاعة إن أرادوا ذلك، وإن لم فيتبرؤا من مذهب المطرفية، وأمهلهم حتى صباح اليوم التالي، فلما حضروا دانوا للإمام وسلموا له، ثم أرسل الإمام رجل من قبله إلى قاعة يعرض على أهلها من المطرفية العودة عن مذهبهم، وأمهلهم ثلاثة أيام، فعقدوا مناظرة في مسجد قاعة، أقرّ المطرفية خلالها للإمام بكل مسائل الخلاف، ما عدا مسألة واحدة وهي قولهم بأن فعل العبد لا يعدوه، ولا يوجد في غيره لظنهم أنهم لا يكفرون بالالتزام بهذه المسألة[١٧٠].

دخل الإمام هجرة قاعة وعرض على أهلها البراءة من مذهب المطرفية ولعن كبارها، والدخول في الإسلام باللفظ، وقبضت دور وأملاك الذين أُجْلُوا عنها لبيت المسلمين، واعتبر مسجد قاعة مسجد ضرار، ثم قبضه ووهبه الإمام للفقيه بهاء الدين علي بن أحمد الأكوع، وأقيمت المدرسة المنصورية بها لتدريس علوم المخترعة،وكلف للتدريس بها مِنْ قِبَل الإمام الفقيه أحمد بن محمد المحلي[١٧١].

لما قبض الإمام على هجرة قاعة وأخرج المطرفية عنها، أقبلت الهِجَر التي حولها بالطاعة والمبايعة للإمام[١٧٢]،وتمت ملاحقة المطرفية في بيت علمان[١٧٣]،وحصن بكر[١٧٤] ،الذي كان فيه شيخ مطرفي أعمى كان يعمل على نشر أفكار المطرفية بقوة، وصدق وعزيمة،وينتقل من هجرة إلى

أخرى، فطلبه أنصار الإمام، مما دفع البعض للتقدم إلى الإمام يطلبون منه الأمان لهذا الشيخ، فرفض الأمام وطلب الشيخ المطرفي وقبض عليه، وأمر بضرب عنقه[١٧٥] .،فأقبلت المطرفية من هجرها من جهة المغرب أفراداً وأزواجاً، ودخلوا في طاعة الإمام، واعتنقوا مذهب الاختراع[١٧٦].

ومن الغريب أن يتهاوى علماء المطرفية في المناظرات التي عقدوها مع الإمام بتلك السرعة، وذلك أن تخليهم عن معتقدات مذهبهم وهم المشهور عنهم السعة والتبحر في العلوم أمر يثير الحيرة، ومن ثم فإننا أمام أحد احتمالين:

الأول: أن تكون هذه المناظرات قد تمت تحت تهديد السلاح.

والثاني:أن يكون أبو فراس بن دعثم قد بالغ في وصف انتصار الإمام عبد الله بن حمزة، وغلبته في هذه المناظرات[١٧٧] ومما يُرَجّح مبالغات ابن دعثم في انتصارات الإمام ما يذكره في السيرة من أن الانتقام الإلهي كان يحل بالمطرفية كلما حاولوا التعرض للإمام بالشتم والسب، فأحد المطرفية سبَّ الإمام فهاجَ عليه أحد الكلاب واستخرج لسانه من بين الأضراس وشدخها[١٧٨]، والمشرقي (محمد بن منصور بن مفضل) شتم الإمام، فزلّت به رجله فعصفها وخرّ مغشياً عليه[١٧٩]، وأهل ذي مرمر بهجرة روسح بوادي السر، استقبلوا المطرفية واستضافوهم فاستدارت عليهم سحابة فأصابتهم ببرد دون سائر البلاد التي حولهم، لم تدع شيئاً من الزروع والأعناب، فرحل المطرفية إلى موضع يسمى القفار، فحدث لأهل هذا الموضع ما حدث لسابقه، ولمّا نزل المطرفية هجرة الظهراوين بشظب، وأطلقوا ألسنتهم بالسبّ والأذى رماهم الله تعالى في موقعهم ذلك ببرد، فاجتاح أعنابهم وزروعهم خاصة دون أهل شظب.[١٨٠]

هدأت الأمور نسبياً بين الإمام والمطرفية حتى سنة ٦١٠هـ/١٢١٢م، عندما خرج محمد بن منصور بن مفضل وكان يُدعى"المشرقي" لتردده بين وقش وممتلكاته في خولان العالية(المشرق)، فجمع المطرفية في وقش وغيرها، وتوجه بهم إلى مسور، وأنكر على الإمام ما وقع من تكفيرهم[١٨١] ،ولعل سلطان مسور كان قد وعدهم النصرة بالمقاتلين ، حيث يتوجه المشرقي ومن معه من المطرفية ومن ناصره من رجال القبائل لحصار قوات الإمام في حصني عران والمصنعة[١٨٢].

عمل الإمام على منع هذا التحالف والمناصرة من القبائل للمشرقي أو المطرفية، فكفر المشرقي ومن تبعه، كما جعل موالاته كفر، ومن شك بكفر المطرفية فهو كافر أيضاً، يقول:"..الشقي المشرقي رأسهم وسنانهم وسيفهم ولسانهم ... المعلوم من حال الشقي أنه بنى أمره على الكذب .. وذلك أنه ادعى الإمامة، وهو غير مستحق لها، وذكر أنه وجد كنوز دقيانوس (دقلد يانوس) وهي

ودائع آل قنبر..فطوقته العار طوق الحمامة،لما استوعب من الوديعة وادعاء من الإمامة"[١٨٣] ،ثم يقول في تكفير من ناصر المشرقي:"..إن حكم من بايع المشرقي كافر شقي وتصويبه كفر، وكذلك حبه والحرب زايد على ذلك، لأنه يتضمن النصرة والولاية..وحكم تابعه حكمه"[١٨٤].

قرر الإمام أن يحسم أمر المطرفية بالقتال،فوجه أخاه يحي بن حمزة إلى بني الفُلَيْحي غربي مُدَع "فقتلهم وسباهم، وأرعب قلوب أهل تلك الجهة"[١٨٥]، كان أَمْر السبي للنساء في هذه المعركة هو الأول من نوعه عند زيدية اليمن منذ عهد الهادي، حيث سُتُسبى نساء المطرفية باعتبار دارهم دار حرب، وعلى أنهم كفار في نظر الإمام، وهناك العديد من النصوص الزيدية التي أباحت سبي النساء،وحرضت القبائل عليه منها: ".. فلأجل ما قلناه جاز قتلهم، وسبي ذراريهم، وغنم أموالهم، لأن هذا حكم المرتدين إذا تغلبوا في دار ... وإنما يُنْكِر سبي الكفار من لا يعرف الآثار.. فكيف يرتاب ذو عرفان في جواز قتل المطرفية وسبي ذراريهم وتغنم أموالهم، وتنزيلهم منزلة الحربيين، مع عقائدهم الكفرية التي زادوا في كثير منها على اليهود والنصارى، وغيرهم من الضلال الحيارى"[١٨٦]، ويقول: "أنزل (الإمام) بهم أنواع النكال من الفتك والسبي وتغنم المال، وجعلهم بمنزلة الكفار الحربيين لأنهم كفروا وصارت لهم شوكة"[١٨٧]، كما انطبقت بقية أحكام دار الحرب والدار الكفرية على المطرفية، فمساجدهم ضرارية، وإذا باع المطرفي ما ورثه من قريبه المطرفي بعد إسلام البائع كان بيعه مختلاً إلا أن تكون الدار دار إسلام وينتقل المطرفي إلى دار الإسلام، فأما في دار الكفر فلا يصح بيع المسلم، وإن أسلم أحد أزواج المطرفية دون الآخر انفسخ النكاح[١٨٨]، وعن قوة النكال بالمطرفية قال حميد المحلي: "وقد اجتهد[الإمام عبد الله بن حمزة] في تدمير المطرفية وصب عليهم كل محنة وبلية، حتى صاروا بين قتيل وطريد، وأجرى فيهم الأحكام من القتل وسبي الذرية في البلاد الحميرية وغيرها من النواحي المغربية"[١٨٩].

كما أمر الإمام بهدم مسجد المطرفية في سناع، وهدم هِجْرَة وَقَش دورها ومسجدها، وخرج أهلها إلى بلاد آنس وخولان، وذهبوا كل مذهب[١٩٠].

كتب أحد المطرفية ويدعى ابن النساخ[١٩١]،رسالة وجهها إلى الخليفة العباسي الناصر أحمد بن المستضيئ[١٩٢]،يحرضه فيها على حرب الإمام[١٩٣]،لكن هذا الخليفة كان من الضعف،بحيث لا يمكنه فعل أي شي في حالة افتراض أن هذه الرسالة قد وصلته[١٩٤]،إلا أن ما يلفت النظر استمرار الإنكار على السبي والقتل للمطرفية، واعتبار دارهم دار حرب، وهو الأمر الذي دفع الإمام إلى كتابة العديد من الرسائل للدفاع عن رأيه في المطرفية، منها:رسالة أسماها "أجوبة تتضمن ذكر

المطرفية"، وهي عبارة عن إجابات عن كثير من الانتقادات والتساؤلات، التي وصلت الإمام عبد الله بن حمزة بسبب قتله المطرفية، وسبيه لأبنائهم، ومصادرة ممتلكاتهم[١٩٥].

ثم ألف "الرسالة الهادية بالأدلة البادية في بيان أحكام أهل الردة"[١٩٦]، لإقناع المنكرين بسلامة قراراته، وأنه بنى حكمه فيهم على أدلة لا تقبل الشك، لكن موجة الإنكار تواصلت مما دفع الإمام إلى تأليف رسالة أخرى بعنوان: "الرسالة الموسومة بالدرة اليتيمية في تبين أحكام السباء والغنيمة"[١٩٧]، حيث يقول في سبب تأليفها: "... فلما تكرر السؤال من الأصحاب وحق كل محب أن يُجاب، أنشأنا هذه الرسالة وسميناها الدرة اليتيمية في تبين أحكام السبا والغنيمة..."[١٩٨].

انحسر الفكر المطرفي وضعف أنصاره نتيجة لتلك الضربات الموجعة، وهو الأمر الذي دفع كثيرا منهم إلى الرجوع عن معتقداتهم، واعتناقهم مذهب الإمام، الذي ارتضاه لهم، وبوفاة الإمام عبد الله بن حمزة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، انحسرت موجة الصراع التي ميزت فترة حكمه، وأفسحت المجال أمام المناقشة والمجادلة التي تبناها بعض علماء المخترعة دون أن يكون ذلك بتكليف من السلطة الإمامية، ويبدو أن جهود هؤلاء العلماء قد حققت نتائج إيجابية[١٩٩]، يقول أحد دعاة المخترعة -في منتصف القرن السابع- أنه قد صنف تصانيف كثيرة في أصول الدين، ثم قام بكتابة رسائل إلى المخالفين، فرجع كثير منهم، وجماعة وافرة من رؤساء المطرفية، والمطرفية أكثر من رجع إلى الحق، وذلك لِمَا كانوا عليه من الخوف لله"[٢٠٠]، وهذا يعنى أن مذهب المطرفية قد خرج من صراعه مع الإمام عبد الله بن حمزة في حالة من الضعف، فبدأ في الذبول، فلم يأت منتصف القرن الثامن الهجري إلا وكان المذهب المطرفي قد تلاشى تماماً[٢٠١]، وقد ذهب البعض بأن الفكر المطرفي استمر في بلاد اليمن نحو ثلاث مائة سنة[٢٠٢].

الهوامش

١- عبد الفتاح فؤاد: الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وآراءه الكلامية، دار الدعوة، الاسكندرية،ط١، ١٩٨٦م،،ص١٤٨.

٢- يذهب الأستاذ الدكتور محمد الحريري إلى تقسيم تاريخ زيدية اليمن إلى ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى تبدأ من عهد الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين حتى انهيار دولة الأئمة الزيدية في سنة ٤٤٤هـ، وخلال هذه المرحلة نجح الإمام الهادي في نقل المذهب الزيدي من مرحلة الفكر النظري إلى مرحلة التطبيق العملي، فازدهر المذهب الزيدي وتعددت المؤلفات فيه حيث كان على رأس المؤلفين في هذه الفترة الأئمة الزيدية أنفسهم وأبناؤهم، والمرحلة الثانية: تبدأ بانشقاق مطرف بن شهاب عن الزيدية ، ونشوء فرقته التي تنسب إليه فرقة المطرفية، ودخولها في صراع مع أئمة الزيدية، ومنهم الإمام أحمد بن سليمان، والقاضي جعفر بن عبد السلام، الذي جلب كتب المعتزلة من العراق، وناظر بها المطرفية، وبذلك تأثر زيدية اليمن في هذه المرحلة كثيرا بكتب المعتزلة، المرحلة الثالثة: تتميز بظهور جيل جديد من علماء الزيدية معارضين للتأثر الزيدي بالتراث المعتزلي، وقاموا بحركة كبرى لأحياء المذهب الزيدي في صورته التي كان عليها زمن قدامى الزيدية، وكانت بداية ذلك في مطلع القرن السادس الهجري، ومن أمثلة هؤلاء العلماء: حميدان بن حميدان، وعبد الله بن زيد العنسي. انظر: (د. محمد عيسى الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، صفحات(٤٤-٧٥)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م، ص٥٣-٥٨).

٣- سُمِّيَتْ المخترعة بهذا الاسم لقولها باختراع الله الأعراض في الأجسام.انظر: (علي بن الحسن بن القاسم:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم١٠٥٦، تاريخ، ورقة١٤٠ ،ابن جمال الدين بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة،رقم٩٥٦، تاريخ، جـ١ ،ورقة١٣٤، جـ٢ ،ورقة٢٠١ ،أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٤م،،ص٩١)، ويستمد دليل الاختراع فحواه من الآيات القرآنية المثيرة لدفائن العقول، في الوقوف على معرفة موجد هذا الكون، وهذه الآيات كثيرة منها :"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار" إلى قوله تعالى:"لآيات لقوم يعقلون"(البقرة/ ١٦٤)، وقوله تعالى:"وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون"(يس/١٦٤)، وكما يقول ابن رشد أن هذا الدليل من أدلة الشرع على الصانع، ويحرره بقوله أن:"هذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في فطر الناس، أحدهما :أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات، وكما قال تعالى:"إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له"(الحج/٧٣)

فإنا نرى أجساماً جمادية تحدث فيها الحياة،فنعلم قطعاً أن هاهنا موجد للحياة ومنعماً بها..أما الأصل الثاني:فهو أن كل مُخْتَرَع فله مُخْتَرِع، فيصح من هذين الأصليين أن للموجودين فاعلاً مخترعاً له، وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات كان واجباً على من أراد معرفة الله أن يعرف جواهرالأشيا،، ليقف على حقيقة الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات.(أحمد عارف:أصول الاتفاق في القضايا الكلامية،رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٤٧ ،١٤٨)، ويذهب المخترعة إلى أن أفعال الله تعالى قسمين: قسم مخترع ابتدا، وقسم مخترع متولد عن سببه، ولو شاء الله لأبطل سببية السبب، فلم يحصل عنه المسبب، وهو ما يذكره الإمام عبد الله بن حمزة إذ يقول في الشافي: "لأنه سبحانه يفعل أفعاله اختراعا سوا، كانت مبتدأة أو متولدة فإن المتولد في حكم المبتدأ". انظر: (بدر الدين الحوثي: حوار حول المطرفية تعليق على مقال: " الجامعات- المساجد في شمال اليمن، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م، ص٧٠).

٤- يحي بن الحسين:طبقات الزيدية الصغرى، نسخة مصورة لدى الباحث عن نسخة لدى الدكتور عبد الرحمن الشجاع،ورقة٧٣ ،٧٤،أحمد عارف:المرجع السابق،ص٣٠،أيمن فؤاد سيد:مصادر تاريخ اليمن، ،ص٩٠.

٥- انظر: عبد الله الحبشي:المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، صفحات(٤٧-٥١)، العدد الثالث، السنة السادسة،نوفمبر ديسمبر،١٩٧٧م،ص٤٧.

٦- يحي بن الحسين: أنبا،الزمن،مخطوط بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعا،، رقم (٤٤٧)، ،ورقة٣٧،عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،ص٤٧، ويذكر مادلونج أن مطرف بن شهاب عاصر الإمام الحسين بن القاسم العياني. انظر: Wilferd Medelung Islam in Yemen, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen(25 April 1987 to 5 April 1988), Published by Pinguin-verlag, Innsbruch .Umschau-Verlag, Franlkfurt/Main,PP.174-177. P.178

٧- يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٢، القاضي إسماعيل الأكوع:هِجَر العلم ومعاقله في اليمن،دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م،جـ١،ص١٦٦، ١٦٧.

٨- ابن أبي الرجال: مطلع البدو، مخطوط مصور لدى الباحث عن نسخة الدكتور عبد الرحمن الشجاع،ر،جـ١،ص١٦٥.

٩- بينما ذهب آخرون إلى أن مؤسس المطرفية هو مطرف بن شهاب. انظر:(ويلفرد ماديلونغ:أصول الهجرة اليمنية،ص٢٠، إسماعيل الأكوع:الزيدية نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م،،ص٥٥).

١٠-رَيْدَة:بفتح أوله،مدينة باليمن على مسيرة يوم من صنعاء،ذات عيون وكروم.(يحي بن الحسين:غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق:سعيد عبد الفتاح عاشور،دار الكتاب العربي، القاهرة،١٩٦٨م، جـ١ ،ص١٧٧ ،هامش٢)، وهي على بعد ٧٠ كيلو مترا من صنعاء.(إسماعيل الأكوع:البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، الجيل الجيد، صنعاي، ط٢، ١٩٨٨م، ،ص١٣٥ ،هامش١).

١١-هو مطرف بن شهاب بن عمرو بن عباد الشهابي .(إبراهيم بن القاسم:طبقات الزيدية الكبرى،ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، تحقيق:عبد السلام عباس الوجيه،مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية،عمان،الأردن،الطبعة الأولى،٢٠٠١م، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص١١٢٥، الأكوع: هِجَر العلم، جـ١ ،ص١٦٥)، كان يعمل حراثاً، ثم كره العمل واتجه إلى طلب العلم، فترك بيت حنبص غربي صنعاء، واستعان بما معه من أموال على الدراسة في صنعاء وريدة على شيوخ عصره.(يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٢، الأكوع: هجر العلم، جـ١ ،ص١٦٥ ،١٦٦)، لذلك ذهب البعض أن مِنْ أبرز مهام المطرفية نشر أفكارها في أوساط القبائل والمزارعين، فنشرت التعليم في أوساط شعبية لم تكن تاريخياً من الأسر والبيوت التي تهتم بالتحصيل العلمي.(علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن، في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي، صنعاء، ط١، ١٩٩٧م، ص٩، وكان مطرف منقطع النظير في المجادلة وإفحام الخصوم بالحجة والدليل، من ذلك مناظرته لعلي بن محمد الصليحي، الذي حاول إخراجه عن مذهبه، فابتدأ الصليحي مناظرة مطرف بقوله: إن النبي ــصلى الله عليه وسلم-قال: "ستختلف أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا وحدة، فقال مطرف: نعم قال صلى الله عليه وسلم، الحق ما اجتمعتْ عليه الأمة والباطل ما اختلفتْ فيه، ولن تجتمع أمتي على ضلالة، وقد اجتمعتُ أنا وأنت على إمامي، -يعني علياً- واختلفنا عند إمامك،يعني إمامة المهدي العبيدي، فأعرض الصليحي عنه.(أحمد عارف:مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية في اليمنفيما بن القرن الثالثا والخامس الهجري، المؤسسة الجامعية، بيروت،ط١، ١٩٩١م، ،ص١٧٨).

٢١- علي بن الحسين بن القاسم بن أحمد بن المنصور:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب،ورقة١٤٠، ابن حمال الدين ابن الهادي بن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية، جـ١ ،ورقة١٣٣ ،جـ٢ ،ورقة١٩٩ يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٢، أحمد عارف:المرجع السابق ،ص١٧٨، د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن، قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس للشرفي،المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد٢٦، المجلد السابع، ١٩٨٧م،صفحات (٤٤- ٧٥) ص٥٥. Al-Qadi Isma'il Bin Ali al-Akwa', Nashwa'n Ibn Sai'd al-Himyari' and the Spiritual, Religious and Political Conflicts of his Era, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at= =The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen (25 April 1987 to 5 April 1988), published by Pinguin-verlag, Innsbruck Umschau-Verlag,Franlkfurt/main,PP.212-231.P.215.

١٣-عبد الله العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، مخطوط مصور لدى الباحث، عن صورة لدى محمد جعفر الباحث في جامعة أسيوط ،ورقة٦ ،لوحقب.

١٤-عبد الله زيد العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة٥٧لوحقب،٥٨لوحةأ.

١٥-علي بن الحسين بن القاسم:ذوب الذهب،ورقة ١٤٠، يحي بن الحسين: طبقات الزيدية،ورقة٨٢.

١٦-عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية،ورقة٥٨ ،لوحقب،عبد الغني عبد العاطي: المرجع السابق، ص١١، ١٢.

١٧-د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص١٢.

٨١- (عبد الله بن حمزة:أجوبة تضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٣، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن للدكتور
عبد الغني عبد العاطي، صفحات١٤٢-١٧٤)عين للدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٩-د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص١٤.

٢٠-بيت حُنَيْص:قرية في الغرب الجنوبي من صنعاء.(المقحفي:معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة ١٩٨٥م، ،ص٦١)،وهي قرية عامرة من مخلاف بني شهاب الأعلى،وكانت قديماً من مخلاف المَعْلَل من بني مطر وأعمال صنعاء،وهي في الغرب الجنوبي منها ،كانت من القرى المشهورة بالعلم والعلماء،وكانت من مراكز المطرفية. (الأكوع:هجر العلم ومعاقله في اليمن،ج١، ص١٦٣، ١٦٤).

٢١-سِنّاع:قرية على بعد ٨ كيلو مترا من صنعاء، كانت مقرا للمطرفية. (المقحفي: المرجع السابق ،ص٢١٤)، وقيل تبعد عن صنعاء ١٠ كيلوا مترا. (د. الحريري:تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٥).

٢٢-هِجْرة:هي مفرد هِجرات،وهو موضع يسكنه العُبّاد وأهل العلم. (محمد رضا الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٥م،ص٦٠).

٢٣-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٠.

٤٢- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري،ص١٦،١٧.

٢٥-مسلم اللحجي: أخبار الأئمة من أهل البيت وشيعتهم باليمن،مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع،ج٤ ،ورقة٩٩.

٢٦-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،ص٤٨.

٢٧-عبد الله بن زيد العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١ ،لوحة أ ،ب.

٢٨-اللحجي: المصدر السابق، جـ٤ ،ورقة٥٢.

٢٩-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة١٢.

٣٠-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٥٢.

٣١-عَنْس:بفتح أوله وسكون ثانيه،وآخره سين مهملة،مخلاف كان يُطْلَق على كثير من مخاليف ذمار المعروفة اليوم،ولكنه اليوم يطلق على مخلاف عنس السلامة،ويقع في مشرق ذمار،على مسافة خمسة عشر كيلو متر أو أكثر،وينسب إليه العلماء بنو العنسي الساكنون في ذمار وغيرها. (الأكوع:البلدان اليمانية،ص٢١٣ ،هامش٣).

٣٢-اللحجي:أخبار الأئمة،جـ٤ ،ورقة١٢ ، يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة ٩٢.

٣٣-المصدر السابق، جـ٤ ،ورقة١٣.

٣٤-حول ذلك أنظر: (عمارة اليمني:تاريخ اليمن، تحقيق: محمد زينهم، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٥١، عبد الرحمن ابن الديبع: قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد على الأكوع، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٩٥٤م، ،ص٢٦٧، عبد الرحمن الوصابي: تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق: عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ،ص٤٠، يحي بن الحسين:غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ،جـ١ ،ص٢٦٧، د.عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٢م، ،ص١٧٠، أيمن فؤاد سيد: المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،ط١، ١٩٨٨م، ص١٥١، عارف تامر: أروى ملكة اليمن،دار الأضواء،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٨م،ص٧٣، السجلات المستنصرية، سجل رقم٣٧، صفحات(١٢٦، ١٢٧) ، وسجل رقم٣٨، صفحات(١٢٨، ١٢٩) وسجل رقم٢٢، صفحات(٨٠-٨٢).

٣٥-د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص١٨، ورغم ذكر ذلك فإنه من غير الواضح أن سبأ الصليحي قام بالهجوم على سناع، وإنما قام بتهديد المطرفية فيها، وما ذكره مسلم اللحجي يؤكد ذلك، حيث يشير إلى أن المطرفية هم من قرر ترك سناع،فيقول:"لمّا فسد على الزيدية أمر سناع،وأجمعوا على الخروج عنها"(اللحجي:المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٨٩)، ويقول:"لما اضطرت الزيدية إلى الخروج عن سناع"(اللحجي: المصدر السابق ،جـ٤ ،ورقة٧٧)، ولكن التساؤل من الذي أفسد عليهم مدينتهم؟أو من أضطرهم للخروج عنها والإجماع على تركها؟ خاصة أنه من المستبعد أن يكون من أفسدها من داخلها.

إذا علمنا أنها كانت هجرة للمطرفية وحدهم، ومن تبعهم، أو من قدم لمناظرتهم ثم يرحل عنهم بعد ذلك، إلا أن خروجهم عنها قد يكون لتأكدهم من هجوم محتمل من قبل سبأ الصليحي عليها، حيث كان قد عزم على ذلك بعد أن استطاع أحد المقربين إليه ويدعى محمد بن حميد التأثير على سبأ وتغييره تجاه المطرفية. (اللحجي:المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة١٤٢) وبالتالي فليس هناك ما يؤكد تقدم سبأ الصليحي إلى سناع وتدميرها.

٣٦-اللحجي:أخبار الأئمة، جـ٤ ،ورقة٧٧، ٧٨، عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٤٨.

٣٧-القبائل التي استشارها إبراهيم ابن الهيثم هي قبائل: بني شهاب، وحمير البدوية،وحضور، وسويد قضاعة، وحدثان نهد. (وليفرد مادلونج: أصول الهجرة اليمنية،ص٢١، ٢٢).

٣٨-اللحجي: المصدر السابق، جـ٤ ،ورقة٧٨.

٣٩-انظر:اللحجي: المصدر السابق ،جـ٤ ،ورقة٧٨.

٤٠-اللحجي:المصدر السابق ، جـ٤ ،ورقة٥٦.

٤١-انظر:د.سيد مصطفى سالم: وثائق يمنية، دراسة وثائق تاريخية، طبعة دار لكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٢٢٠-٢٢١.

٤٢-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٧٨.

٤٣-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٧٨، وقد ازدهرت هِجْرَة وقش بالعلم والعلماء حتى بلغ مجموع من فيها من العلماء والمفتين نحو خمسمائة عالماً وقاضياً، وكان أكثر اجتماعهم في خلوة الحديث بمسجد وقش. (عبد الله الحبشي:المرجع السابق،ص٤٩).

٤٤-سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة ٢٣٧ لوحة أ.

٤٥-مثل هِجْرَة الروعة بالطرف من حضور الأحبوب،وهِجْرَة جنب، التي تعرف بمعين. (اللحجي:أخبار الأئمة، جـ٤، ورقة٩٨، ١٠٤) ،ويظهر من المواضع التي انتشر فيها المطرفية أنها في معظمها كانت (هِجَر) تقع في مناطق قريبة من صنعاء، وفي تهامة، وفي أرض بكيل على الجانب الشرقي للخط الممتد بين صنعاء وصعدة. (د.الحريري:المرجع السابق ،ص٥٥).

٤٦-د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٧.

٤٧-د.محمود إسماعيل: الفرَق الإسلامية في طور الانحطاط، صفحات(١٤٨-١٥٨)، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، السنة الأولى،العدد العاشر،يونيو ٢٠٠٠م،ص١٥٣.

٤٨- إبراهيم بن القاسم بن المؤيد بالله: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص١١٢٥، الأكوع: هِجَر العلم ومعاقله، جـ١ ،ص١٦٦، عبد الغني عبد العاطي: الصراع الفكري في اليمن، ١٣، ١٤.

٤٩- د. عبد الغني عبد العاطي: الصراع الفكري في اليمن، ص١٤، غير أن يحي بن الحسين يذكر: " إن كانت الأصول التي أحدثها المطرفية من أقوال الهادي بعده فيما يستدلون به على الإمالة والاستحالة، فإن أقوال الهادي مجملة لا تصريح فيها بما يذهب إليه القوم، وإنما أحدث هذا الرأي مطرف بن شهاب بفكره ونظرته، وتُوهم أنه يوافق أصول الهادي وهي موافقة بعيدة". انظر: (يحي بن الحسين: طبقات الزيدية، ورقة١٠٨).

٥٠- يحي بن الحسين:المصدر السابق ،ورقة٨٤، الأكوع: هِجَر العلم، جـ١ ،ص١٦٦.

٥١- مسلم اللحجي: أخبار الأئمة،جـ٤ ،ورقة٣، ٤ ،وهو ما يؤكده صاحب البرهان الرائق من أنه سيكتب مصنفه هذا، وينتزع ما يستحسنه من كُتُب العلماء، مما يوافق مذهب الهادي يحي بن الحسين. (سليمان بن محمد بن أحمد المحلي: البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، ورقة٢)، ويستشهد بكلام المرتضى بن الهادي ووالده الإمام الهادي، وخاصة كتاب المسترشد للهادي. (المحلي:الحدائق الوردية، ورقة٧٨، لوحةب).

٥٢- علي بن شهر: هو رأس فرقة المخترعة من الزيدية، وكان إماماً واسع المعرفة في علوم الزيدية، وكان مقيماً في "بيت أكلب" من نواحي جبال عيال يزيد، شمال صنعاء. (ابن المرتضى:تاريخ السادة (بني الوزير)،جـ٢ ،ورقة١٩٩، يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٧٤).

٥٣- الحجوري: روضة الأخبار، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٤٣٦) تاريخ يمن شمالي، جـ٤ ،ورقة١٠٤ ،لوحة ب.

٥٤- سبق القول بأن فِرْقَة المخترعة سميت بهذا الاسم لقولها باختراع الأعراض في الأجسام، إلا أن المطرفية ترى في الاختراع أن الأعراض متفرعة من الأجسام وينسبون هذا القول للإمام الهادي، فإذا كانت الأعراض فرعاً للجسم فالقول باختراعها باطل، لأن القائل باختراع الأعراض في الجسم يلزمه أن يُجَوِّزْ تعرى الجسم منه لا سيما إن أنكر أن له علة. (سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة٧٨، لوحة أ،ب).

٥٥- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٨٨، رسالة ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، للدكتور:عبد الغني عبد العاطي، صفحات(٢٧٤-٢٨٩).

٥٦- المصدر السابق، ص٢٨٨ ،كما دخل الزيدية في جدال ومناظرة مع العديد من علماء المخترعة، مثل محمد بن حميد الزيدي،والعلامة سيعد بن بريه. (عبد الله بن حميد الدين:الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات،مركز الرائد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م،ص١١١).

٥٧-كما قام المطرفية بعقد مناظرات مع الاباضية فقد حدث أن رحل رزام بن أحمد من علماء المطرفية إلى شظب قاعدة الأباضية فصلى بأصحابه في جماعة منفصلة عن جماعة الأباضية، ولما استنكر عليه أحد علمائهم ذلك قال لهم: رزام: إنما صَدَّنَا عنكم ما نَرى من تبرج نسائكم وإباحتكم دخولهن الأسواق،ومزاحمة الرجال،ثم جرت بينهم مناظرة فلم يستطيعوا إجابته. (عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٥٠).

٥٨-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة١٠١.

٥٩-ابن أبي الرجال:مطلع البدور،ج٣،ص٨٤ ،٨٥ ،٨٦، يحي بن الحسين: المصدر السابق ،ورقة١٠٠، ١٠١.

٦٠-من أشعاره ضد المطرفية: يا قوم إنّا مِنْ هُمُ بَرَاءُ هم واليهود عندنا سواء وفي قصيدة أخرى قال: ومرجف يرجف في سوق مَدَر ما بين ذبيان وما بين عدر. (ابن أبي الرجال:مطلع البدور، ج٤،ورقة٢٠٦).

٦١-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية، ورقة٩١، .

٦٢-د.الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٦).

٦٣-أنظر:عبد الله الحبشي:المطرفية مذهب مجهول،ص٥١.

٦٤-بويع للإمام أحمد بن سليمان بالإمامة في صفر سنة٥٣٢هـ/١١٣٧م.(الثقفي:سيرة الإمام أحمد بن سليمان،عين للدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٨، أحمد بن صلاح الشرفي:اللآلئ المضية في أخبار أئمة الزيدية ،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، رمق (١٩٤٠)، تاريخ، ج٢،ورقة١٥٨، لوحة ب، ترقيم من قبل الباحث، د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٦)، وإن كان البعض يذهب إلى أن خروجه كان في سنة٥٣٣هـ/١١٣٨م. انظر: H.A.R. Gibb And J.H.Kramerst, Shorter Encyclopaedia of Islam,.P.652.

٦٥-يتضح ذلك من قول شيخ المطرفية عيسى بن محمد الكرندي عندما سُئِلَ عن الإمام أحمد بن سليمان والثناء عليه، فقال: "إنكم إذا ذكرتم مثل هذا بلغة فطمع فيما لا يحل له ولا لكم، فهلك وهلكتم، فلا يسمعن منكم هذا الكلام".(الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،مجلة اليمن الجديد،العدد الأول،١٩٧٨م،ص٣٨).

٦٦-محمد بن عليان: هو رائد الشيعة في اليمن بوقش، بايع مع خولان للإمام أحمد بن سليمان.(الثقفي: المصدر السابق ، ص١٣٢، ١٣٣).

٦٧-ابن المرتضى: تاريخ السادة (بني الوزير)، جـ٢، ورقة ٢٢٢.

٦٨-سليمان الثقفي: المصدر السابق، ص١٦٩.

٦٩-الجاهلي: قرية من عزلة مخلاف ضوران، ناحية ضوران قضاء آنس محافظة ذمار. (المصدر السابق، ص٢٤٧، هامش ٢ للمحقق).

٧٠-الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٤٧، ٢٤٨.

٧١-هو القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام، كان في مرحلة مبكرة من حياته يتبع المذهب المطرفي، ثم لم يلبث أن خرج منه والتحق بالفرقة المخترعة، وناصر الإمام أحمد بن سليمان، تتلمذ على يد الشيخ زيد بن الحسن البيهقي الذي قَدِمَ من خراسان، ثم عزم على التوجه معه إلى العراق لإكمال تتلمذه على يديه، فمات شيخه في الطريق، ولم يثنه ذلك عن إتمام الرحلة، ففعل وظل في العراق يطلب العلم حتى قيل ذهب الى العراق وهو أعلم أهل اليمن، وعاد وهو أعلم أهل العراق، كان أبوه باطنياً إسماعيلياً، حيث كان قاضي الدولة الصليحية في عهد السيدة أروى بنت أحمد، وعاد القاضي جعفر من العراق بالعلوم التي لم يصل بها سواه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع، وعلوم القرآن، وتوفي بسناع حدّه جنوبي صنعاء سنة ٥٧٣هـ. (إبراهيم بن القاسم: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، المجلد الأول، ص٢٧٦-٢٧٨، يحي بن الحسين: طبقات الزيدية، ورقة ١٢٦، عبد السلام عباس الوجيه: أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، الأردن، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٧٨-٢٧٩، ابن المرتضى: تاريخ السادة (بني الوزير)، جـ٢، ورقة ٢١١، ٢٢٣، ٢٢٤، علي بن الحسن بن القاسم: ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، ورقة ١٣٩، أحمد صبحي: في علم الكلام، (١) المعتزلة، النهضة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م، ص٣٥٣، لزيدية، الزهراء، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢٢٦).

٧٢-وقد ذهب البعض إلى اعتبار القاضي جعفر بن عبد السلام أول من أدخل كتب المعتزلة إلى اليمن وقالوا بأن اليمن لم تعرف كتب المعتزلة قبل ذلك التاريخ، الذي حددوه بسنة ٥٥٤هـ. انظر: (د. صبحي: المرجع السابق، ص٣٥٣، الزيدية، ص٢٢٦)، وقد اعتمد هذا القول على ما ذكره يحي بن الحسين في غاية الأماني: "من أن كتب ومذاهب المعتزلة ظهرت في عهد الإمام أحمد ابن سليمان بعناية القاضي جعفر بن عبد السلام، ولم تكن قد ظهر قبلاً". (غاية الأماني، جـ١، ص٣١٨)، وكان استجلاب الكتب من قبل الأمام أحمد بن سليمان والإمام عبد الله بن حمزة، من أجل الدفاع عن دولتهم، أمام الفرق المنشقة عنهم مثل المطرفية، فملأت خزائنهم بالمعارف المختلفة، والمخزون الثمين من تراث المعتزلة. (أحمد عارف: أصول الاتفاق، ص٥٨-٥٩).

٧٣-د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن، ص٥٦، ٥٧.

٧٤-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العدد الأول، ١٩٧٨م، ص٤٠).

٧٥-سليمان الثقفي:سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٨١-٢٨٢.

٧٦-لم تقتصر مناظرة جعفر بن عبد السلام للمطرفية بل ناظر أهل السنة، أو كما يسميهم بالجبرية والمشبهة، وهو الأمر الذي دعا العالم السني يحي بن أبي الخير العمراني الحنبلي أن يتصدى لهذا القاضي، وقد وضع كل واحد منهما مُؤَلَّفاً يرد فيه على الاتهامات التي أوردها كل منهما على معتقدات الآخر. (أحمد عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية في اليمن، ص١٨٦).

٧٧-الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان ،ص٢٨٣

٧٨-المصدر السابق ،ص٢٤٨.٢٨٣ ، عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول ، ص٤١، الزحيف: اللواحق الندية،جـ٢ ،ص٧٧٣.

٧٩-المصدر السابق،ص٢٨٤.

٨٠-المصدر السابق،ص٢٩٧ ،٢٩٨.

٨١-يرى المطرفية في الإمام أن يكون أعلم الناس وأفضلهم.(أحمد شوقي:الزيدية في اليمن ودورهم السياسي،مجلة كلية الآداب سوهاج، جامعة أسيوط، العدد ١٥، ١٩٩٤م، ص١١٨)، كما ذهبوا إلى عدم حصر الإمامة في أولاد فاطمة. (فؤاد عبد الفتاح: الإمام أحمد بن سليمان وآراؤه الكلامية، ص١٥١).

٨٢-د.محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٥، بل إن بعض علماء المطرفية كا لشيخ محمد بن علي الأهنومي كان ينكر قيام أحد من أئمة الزيدية بالإمامة في اليمن إلى يوم القيامة. (المرجع السابق،ص٥٥).

٨٣-ابن المرتضى:تاريخ السادة (بني الوزير)،جـ٢ ،ورقة٢١٧ ،إسماعيل الأكوع:هجر العلم ومعاقله، جـ١ ،ص٥٣٩.

٨٤-د.عبد الغني محمود عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن، ص٣٥.

٨٥-هو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحي بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. (الزحيف: اللواحق الندية،جـ٢ ،ص٧٩٩-٨٠٠)، ولد سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، وبويع له بالإمامة سنة٥٩٣ هـ/١١٩٦م، وتوفي سنة٦١٤ هـ/١٢١٦م. (العرشي:بلوغ المرام، ص٤٠٩، الواسعي:تاريخ اليمن،ص١٩١، ١٩٢).

٨٦-يحي بن الحسين:أنباء الزمن،ورقة٥٥، غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٢٩، ٣٣٠، حيث تقدر هذه الفترة

بحوالي ١٧ عاماً، ثم ترك عبد الله بن حمزة الاحتساب بعدها وقام بالإمامة سنة٥٩٣هـ/١١٩٦م، فكان الانقطاع للمرة الثانية يقدر بحوالي عشر سنوات، ما بين احتساب عبد الله بن حمزة وقيامه بالإمامة. أنظر(يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٢٩ ،٣٤١).

٨٧-علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٥٩.

٨٨-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العد د الأول، ١٩٧٨م،ص٣٩.

٨٩-يحي بن الحسين:أنباء الزمن،ورقة٥٧ ، غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٤١.

٩٠-أبو فراس بن دعثم:السيرة الشريفة المنصورية،دار الفكر المعاصر، بيروت،ط١ ، ١٩٩٣م، جـ٢،ص٨٩، حيث ولىّ الإمام عبد الله بن حمزة على وقش وبلاد بني مطر وبلاد بني شهاب السلطان محمد بن إسماعيل. (المصدر السابق،جـ٢ ،ص٨٨).

٩١-علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٦٠.

٩٢-د.عبد الغني محمود عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٥.

٩٣-ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٢ ،ص٨٩، د.عبد الغني محمود عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٥.

٩٤-د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٥.

٩٥-هو الأمير المنتصر محمد بن مفضل، أحد الأعلام وسادات أهل البيت الكرام، كان يرى بعدم كفر المطرفية، وإنما هم أفاضل شيعة الهادي، والقاسم وأتباعهم، ولا مصلحة في حربهم واعتقاد كفرهم. (ابن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة(بني الوزير) علماء الزيدية،جـ١ ،ورقة١٣٢).

٩٦-ابن دعثم:المصدر السابق،ص١٦٩ ، يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٧١-٣٧٢ ،د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص ٣٥،٣٦.

٩٧-يحي بن الحسين: غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٦٢.

٩٨-المصدر السابق، جـ١ ،ص٣٧٢.

٩٩-يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٧٩.

١٠٠- المصدر السابق،جـ١ ،ص٣٧٩.

١٠١- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٦.

١٠٢- ابن المرتضى: تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة(بني الوزير)، جـ٢ ،ورقة٢٠٢.

١٠٣- المصدر السابق، جـ٢ ،ورقة٢٠٢ ،٢٠٣.

١٠٤- لمصدر السابق،جـ٢ ،ورقة٢٠٣.

١٠٥- علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٧٥.

١٠٦- عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،مجلة اليمن الجديد،العدد الأول،١٩٧٨م،ص٣٦.

١٠٧- ابن دعثم:السيرة المنصورية، جـ٣،ص٥٣٦،عبد الله الحبشي: المرجع السابق،ص٤٣،وانظر الملحق رقم(١)ص(٣٠- ٣١) عن المراسلات بين المطرفية والإمام عبد الله بن حمزة.

١٠٨- ابن دعثم: المصدر السابق ، جـ٣،ص(٥٤١).

١٠٩- المصدر السابق،جـ٣،ص٥٤٣.

١١٠- المصدر السابق،جـ٣،ص٥٥٠.

١١١- ابن دعثم:السيرة المنصورية،جـ٣،ص٥٥٠.

١١٢- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٧.

٣١١- ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٣،صفحات٨٢٦-٨٣٧.

١١٤- د. عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق ،ص٣٧.

١١٥- عبد الله بن حمزة:العقيدة النبوية، ص١٣٥، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،للدكتور عبد الغني عبد العاطي، صفحات ١٣٠-١٤٢، علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٧٨.

١١٦- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٧٧، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن، للدكتور عبد الغني عبد العاطي، صفحات٢٧٤-٢٨٩.

١١٧- أحمد بن سليمان:الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال،تحقيق:د.عبد الغني عبد العاطي،مجلة كلية الآداب،جامعة المنصورة، العدد الثاني والثلاثون،يناير ٢٠٠٣م،ص(٥٠- ٧١)،عبد الله بن حمزة: العقيدة النبوية، ص١٣٨-١٤٠، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٢٩-١٤٢).

١١٨- أحمد بن سليمان:المصدر السابق ،ص١١٢، الجدير بالذكر أن خصوم المطرفية يحملونهم حتى مسؤولية دخول القوى الأيوبية لليمن يقول عبد الله العنسي: "وكاتبوا الظلمة من خلفاء بني العباس.. في زمن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة .. وحملوهم على تصدير العساكر إلى هذه الديار ديار اليمن، وهو سبب وصل الغز البلاد..".(عبد الله بن زيد العنسي: التميز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١٣٣،لوحةأ).

١١٩- سليمان المحلي:البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، ورقة٦٣، لوحة ب، ٦٤، لوحة أ، عبد الله العنسي: المصدر السابق ،ورقة٤ ،لوحةأ ،د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٢٣.

١٢٠- "ومعنى يحيل بغير، ومعنى يستحيل يتغير، وما أحد منهم على اختلاف مذاهبهم إلا وهو يقول بالإحالة والاستحالة". (عبد الله بن زيد العنسي: المصدر السابق ،ورقة٤ ،لوحةأ).

١٢١- سليمان المحلي: البرهان الرائق،ورقة٦٨، لوحة ب.

١٢٢- المصدر السابق ،ورقة٦٨، لوحة ب.

١٢٣- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن، ص٢٤.

١٢٤- سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة١٠٢ ،لوحة ب.

١٢٥- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٢٥.

١٢٦- المرجع السابق،نفس الصفحة، عبد الله العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١٢ ،لوحةب، ورقة٩٩ ،لوحةأ ،ب،أحمد بن سليمان:حقائق المعرفة،ورقة٤٦٣.

١٢٧- سليمان المحلي: المصدر السابق، ورقة١٨٤، لوحةأ.

١٢٨- المصدر السابق، ورقة١٣٧، لوحة أ.

١٢٩- د.عبد الغنى عبد العاطي:المرجع السابق ،ص٢٧، ٢٨.

١٣٠- سليان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٣٧ ،لوحة ب، ١٣٨ ،لوحةأ.

١٣١- سليمان المحلي:البرهان الرائق،ورقة١٤٩ ،لوحة ب.

١٣٢- المصدر السابق،ورقة١٥٢، لوحة أ.

١٣٣- المصدر السابق ،ورقة١٦٦، لوحة ب.

١٣٤- المصدر السابق،ورقة١٦٧،لوحةأ، ب، ١٦٨،لوحة أ، وانظر:عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة٧٩،لوحةب.

١٣٥- سورة (النساء) من الآية(٩٥).

١٣٦- سليمان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٦٧،لوحة ب.

١٣٧- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٢٩.

١٣٨- سليمان المحلي:المصدر السابق ،ورقة١١٩، لوحة أ، د. عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٠.

١٣٩- سورة(الروم) من الآية(٤٠)

١٤٠- سورة (النحل) من الآية(٧١)

١٤١- سليمان المحلي:البرهان الرائق،أوراق ١٢٠، لوحة أ،ب، ١٢١، لوحة أ.

١٤٢- المصدر السابق،ورقة١٢١، لوحة أ،وانظر:عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، ورقة١٢٢،لوحةأ.

١٤٣- سليمان المحلي: المصدر السابق، ورقة١٢٢، لوحة أ.

١٤٤- المصدر السابق، ورقة١٢٣، لوحة أ، ب.

١٤٥- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣١.

١٤٦- سليمان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٢٤،لوحة ب.

١٤٧- سورة الأنعام من الآية(١٢٨).

١٤٨- سورة(نوح) من الآية(٤)

١٤٩- المحلي:المصدر السابق،ورقة١٢٤، لوحة أ، ١٢٥، لوحة ب.

١٥٠- سليمان المحلي: البرهان الرائق،ورقة١٢٥،لوحة ب.

١٥١- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري،ص٣٢.

١٥٢- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠٣، ضمن كتاب:

الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٩٩-٣٠٣)، عبد الله العنسي:كتاب الفتاوى النبوية المفحصة عن أحكام المطرفية، ص٣١٦، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٩)، ابن دعثم:السيرة الشريفة المنصورية،جـ٣،ص٨٢٤) ، ويذكر أنه ألّف كتاب بأمر من الإمام عبد الله بن حمزة يبين مخالفة المطرفية لكل هذه الآيات وسماه"المجموع من آيات القرآن الشريف المبطلة مذهب الطبيعية أهل التطريف".(ابن دعثم:المصدر السابق ،جـ٣،ص٨٦٥،٨٢٥).

١٥٣- أحمد عبد الله عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن،ص١٨٣.

١٥٤- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١، ص٣٦٢.

١٥٥- يذكر ابن دعثم في السيرة عدداً من الحوادث الفردية التي كانت البدايات الأولى لقتل الإمام لأناس ينتسبون للمطرفية في أواخر سنة ٦٠٢هـ، فقد ناظر أحد أنصار الإمام رجلاً من المطرفية في قرية ثريان من أوطان سفيان في المفاضلة، فانتهى الأمر إلى أن قال المطرفي واسمه على بن موسى الفتلاني: إن الله تعالى ساوى بين النبي(صلى الله عليه وسلم) واليهودي،وما اختص نبيه بفضل ولا اجتباه لرسالة، فلما حُكِيَ ذلك للإمام أمر بضرب عنقه.(ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٣، ص٨٢٥).

١٥٦- ابن دعثم: السيرة المنصورية،جـ٣،ص٣٨٣.

١٥٧- المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

١٥٨- عبد الله بن حمزة:أجوبة مسائل تتضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٤، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات١٤٢-١٧٤، أحمد بن سليمان:الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال، ص١١٢،ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٩٥-١١٢) ، عبد الله بن حمزة:الرسالة الهادية بالأدلة البادية في بيان أحكام أهل الردة، ص١٧٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٨، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٧٥-٢٠٢).

١٥٩- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة،ص٢٨٧، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٧٤-٢٨٩)، عبد الله بن زيد العنسي: الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠٢، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(٢٩٩-٣٠٣).

١٦٠- عبد الله بن زيد العنسي:الفتاوى النبوية المفصحة عن أحكام المطرفية، ص٣١٨، ٣١٩، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٤).

١٦١- ابن دعثم:المصدر السابق،جـ٣،ص٨٣٧.

١٦٢- المصدر السابق،جـ٣،ص٨٤٨، ٨٤٩.

١٦٣- المصدر السابق ،جـ٣،ص٨٥٠.

١٦٤- ابن دعثم:السيرة المنصورية، نفس الجزء والصفحة.

١٦٥- المصدر السابق،جـ٣،ص٨٦٥، وانظر الملحق رقم(٤٣) ص(٦١٦-٦١٨) عن السيرة المنصورية،جـ٣،ص٨٦٣-٨٧١).

١٦٦- المصدر السابق،جـ٣،ص٨٨٧.

١٦٧- المصدر السابق ،جـ٣،ص٨٩١،٨٩٠.

١٦٨- المصدر السابق ، جـ٣،ص٨٩٧،٨٩٨.

١٦٩- المصدر السابق ،جـ٣،ص٩٦٢.

١٧٠- ابن دعثم:السيرة المنصورية، جـ٣،ص ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤.

١٧١- لمصدر السابق،جـ٣،ص٩٦٥.

١٧٢- المصدر السابق،جـ٣،ص ٩٦٨.

١٧٣- بيت عَلْمَان: قرية من عزلة المصانع الخارجية ناحية ثلا. (د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤١،هامش٥).

١٧٤- حصن بَكُر: يقع على بعد ١٢كيلو مترا جنوب قرية قاعة. (المرجع السابق،ص٤١،هامش٧).

١٧٥- ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٣،ص٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠.

١٧٦- المصدر السابق،جـ٣،ص٩٧٠.

١٧٧- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٣).

١٧٨- ابن دعثم: السيرة المنصورية، (جـ٣،ص٨٢٦).

١٧٩- المصدر السابق،(جـ٣،ص٨٢٦).

١٨٠- المصدر السابق،(جـ٣،ص٨٥١).

١٨١- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص٣٩٧.

١٨٢- المصدر السابق،جـ١،ص٣٩٧.

١٨٣- عبد الله بن حمزة:أجوبة مسائل تتضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٧ ،١٤٨،ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(١٤٢-١٧٤).

١٨٤- المصدر السابق ،ص١٤٩ .

١٨٥- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٩٧ ،٣٩٨ . .

١٨٦- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٨٦ ، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٧٤-٢٨٩).

١٨٧- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠١، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٩٩-٣٠٣).

١٨٨- عبد الله بن زيد العنسي:الفتاوى النبوية المفصحة عن أحكام المطرفية،ص٣٢٦، ٣٢٧، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٤)

١٨٩- المحلي: الحدائق الوردية،جـ٢ ،ص١٧١) ، ويقصد بالنواحي المغربية المناطق الغربية من اليمن. (أحمد عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن،ص.١٨٠ ،هامش٤٦) .

١٩٠- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص.٤٠٠ ، د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٣ ، ذكر القاضي الشماحي أن جملة من قتلهم الإمام عبد الله بن حمزة من المطرفية بلغ أكثر من مائة ألف، إلا أنه لا يذكر المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة. انظر: (القاضي عبد الله الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة،دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٤م،ص٨٢) .

١٩١- ابن النساخ:هو الحسن بن محمد النساخ، أحد فقهاء المطرفية في قاعة،ويبدو من نسبه أنه من أسرة عملت بنسخ الكتب، وهو أحد رجال المطرفية الذين نجوا من مقتل المطرفية في قاعة، ولجأ إلى مسور ثم وقش، وبعد خرابها هرب إلى آنس، وهناك ألف رسالته إلى الخليفة العباسي.(علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري،ص١٩٢) .

١٩٢- هو: الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد أبو العباس المستضيء بأمر الله، ولد يوم الاثنين عاشر رجب سنة٥٥٣هـ/١١٥٨م، وبويع بالخلافة في ذي القعدة سنة٥٧٥هـ/١١٧٩م، ولم يَلِ الخلافة أطول منه، فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة.(السيوطي:تاريخ الخلفاء،تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة،ط١، ٢٠٠٣م، ص ٤٣٨) ،غير أن وقت إرسال الرسالة من قبل ابن النساخ للخليفة العباسي وصلت في مرحلة كان الخليفة في حال من الضعف لا يستطيع أن يعمل معها شئ، حتى أن السيوطي يذكر في حوادث سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م هجوم الفرنج على النيل من رشيد، ودخولهم إلى بلدة (فوّة) فينهبونها ويستبيحونها، ثم يرجعوا سالمين في عهد هذا الخليفة.(السيوطي: المصدر السابق، ص٤٤٤)، هذا في افتراض أن الرسالة قد وصلت للخليفة، إذ لا يبدوا أنها قد لاقت أي اهتمام يذكر في بغداد.(علي محمد زيد:المرجع السابق،ص١٩٢) .

١٩٣- يحي بن الحسين:المصدر السابق،ج١،ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ،أحمد عبد الله عارف:المرجع السابق،ص١٨٠-١٨١.

١٩٤- علي محمد زيد:المرجع السابق،ص١٩٢.

١٩٥- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(١٤٢-١٧٤).

١٩٦- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٧٥-٢٠٦).

١٩٧- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات (٢٠٦-٢٥٣).

١٩٨- عبد الله بن حمزة: الدرة اليتيمية،ص٢٥٣، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٠٦-٢٥٣)، كان تكفير المطرفية بالإلزام محل خلاف بين العلماء، فيذكر يحي بن الحسين: "أن الأمير المنتصر بن محمد المفضل العفيف وهو من المعاصرين للإمام عبد الله بن حمزة لم يرى بتكفير المطرفية..وبناء على ذلك رأى من لم يكفر بالإلزام والتأويل كالمؤيد أحمد بن الحسين الهاروني، ورواه عن الجميع من أهل البيت، وقال في (الزيادات) لا أرى أحداً يكفر بالإلزام، وقال مثل ذلك القاضي عبد الله الدواري في "شرح الزيادات" وقال "وهو الذي يصححه أصحابنا وهو المعول عليه"، ومما يؤيد القول بعدم التكفير بالإلزام ما ذهب إليه جماعة من العلماء المتأخرين كالعلامة ابن الوزير صاحب كتاب"فضائل علماء بن الوزير" يقول أنه لو صح التكفير بالإلزام لزم كفر كثير من أهل المذاهب وتفسيقهم، والكفر والفسق إنما يكون بما يدين المكلف قولاً وعملاً، لا فيما ينكره ويتبرأ منه، .. وقال الإمام يحي بن حمزة: الإلزام هو ظني لا يكفر به، وقد نقل أصحابنا عن الهادي والقاسم بن إبراهيم القول بكفر المتأول، فلم أجد لها نصاً ولا وجدتُ ما يخرج عليه ذلك من مذهبهم، ويقول يحي بن الحسين وهو يشرح هذه المسألة: "والتكفير بالإلزام اختلف علمائنا فيه، فالجمهور على أنه لا يكفر به، ولا يفسق"، وقد قال بعدم التكفير من المتأخرين جماعة كالإمام شرف الدين والفقهاء المعاصرين له، والإمام عز الدين بن الحسن، والعلامة محمد بن إبراهيم الوزير وغيره. انظر: (عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول، ص٤٣- ٤٤)، والإلزام: (هو أن تلزم الغير على ما يقول به ما لا يقول به)، انظر: (إسماعيل الأكوع: الزيدية نشأتها ومعتقداتها، ص٥٧، هجَر العلم ومعاقله، ج١،ص١٦٧)، فالإلزام طريقة خطيرة لا تبقي رأيا سليما، إذ في وسع كل خصم أن يلزم صاحبه بما يريد. (زيد بن علي الوزير: تحقيق على مقال العلامة بدر الدين الحوثي -حوار حول المطرفية-، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني،صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،ص٧٩).

١٩٩- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٤، وعن ذلك يقول محمد سالم عزان: "..إنه لا تلازم بين تنزيه المطرفية والطعن في الإمام عبد الله بن حمزة على كل حال، لأنه يمكن أن يقال إن الإمام حكم بما أدى إليه نظره، وهو مجتهد ،ومعنيّ بالأمر أكثر من غيره، فقد بنى فعله تجاه المطرفية على أمور

لا نعلم جميعها بالتفصيل، وهذا يوجب له الحمل على السلامة، وشأنه في ذلك شأن الأئمة الذين وقعت بينهم حروب، قُتِل فيها كثير من الناس، ومع ذلك لم يجزم أحد من الزيدية بهلاك فريق معين منهم وتُرِك أمر الجميع إلى الله تعالى.. ومع ذلك فلا يصح الحكم سلفاً على مخالفيه بأنهم مخطئون خطأ يوجب لهم القتل والتشريد، وسبي الأهل والذرية، اللهم إلا إذا كان معصوما وخُولِف تشريع يوجب هذا النوع من التنكيل، والإمام عبد الله بن حمزة وسائر أئمة الزيدية لا يدعون العصمة لأنفسهم ولا يقطعون بعدم وقوعهم في الخطأ، يقول الإمام زيد بن علي: "إنما نحن مثل الناس، منا المخطئ ومنا المصيب، فسائلونا ولا تقبلوا منا إلا ما وافق كتاب الله وسنة نبيه" صلى الله عليه وسلم. (محمد سالم عزان: المطرفية بين الحقائق والإشاعات، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء،المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،ص٧١، ٧٢).

٢٠٠- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٤.

٢٠١- المرجع السابق،ص٤٤،. يذكر صاحب ذوب الذهب الذي عاش في القرن الثاني عشر، أن المذهب المطرفي مكث في اليمن ثلاثمائة سنة، وانتشر في بلاد الزيدية، ولم يبق منهم أحد في زمنه.(علي بن الحسن بن القاسم:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، ورقة ١٤٠، لوحة أ)، وربما كان يقصد بهذه الفترة من بداية إظهار المطرفية الخلاف للمخترعة، لأنهم عاشوا أكثر من ذلك، "وقد بقي من المطرفية جماعة حتى زمن الإمام المهدي علي بن محمد في القرن الثامن الهجري، ثم تلاشى أمرهم ودخل اتباع هذا المذهب في زمرة الناس فاعتنقوا المذهب الزيدي، فكان في هذا الرجوع فائدة وطنية، حيث ضمن لنا وحدة البلاد وعدم تفرقها".(عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٤٤).

٢٠٢- الأكوع:هجر العلم،جـ١،ص١٦٧.

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات :

الحجوري، محمد بن يحي بن يوسف(ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م).

-روضة الأخبار، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٤٣٦) تاريخ، يمن شمالي، جـ٤.

ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح بن محمد(ت١٠٩٢هـ/١٦٨١م).

-مطلع البدور ومجمع البحور، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

الشرفي، أحمد بن محمد بن صلاح(ت١٠٥٥هـ/١٦٤٥م).

- الآلئ المضية في أخبار أئمة الزيدية، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(١٩٤٠) تاريخ، جزءان، مخطوط غير مرقم. (ترقيم من قبل الباحث).

علي بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن المنصور(ت ق١٢هـ/١٧م):

- ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(١٠٥٦) تاريخ.

العنسي، عبد الله بن زيد العنسي.

-التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، مخطوط مصور عن مخطوط لدى الباحث/ محمد جعفر الباحث بجامعة أسيوط.

اللحجي، مسلم بن محمد بن جعفر(ت٥٤٥هـ/١١٥٠م).

-أخبار الأئمة من أهل البيت وشيعتهم باليمن، الجزء الرابع، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

المحلي، حسام الدين حميد أحمد المحلي(ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م).

-الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، مخطوط مصور بالأوفست.

المحلي، سليمان بن محمد بن أحمد المحلي(ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م)

-البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، ورقة٢).

ابن المرتضى،ابن جمال الدين بن الهادي بن إبراهيم بن علي المرتضى (ت٩٨٥هـ/١٥٧٧م).

-تاريخ السادة العلماء الفضلاء والأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٩٥٦) تاريخ.

يحي بن الحسين ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد الحسني(ت١١٠٠هـ/١٦٨٩م).

-أنباء الزمن، مخطوط بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء، رقم(٤٤٧).

-طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

ثانياً: المصادر المطبوعة :

إبراهيم بن القاسم بن الإمام المؤيد بالله(ت١١٥٢هـ/١٧٣٩م).

-طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، تحقيق:عبد السلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمان،الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- الثقفي،سليمان بن يحي:

-سيرة الإمام أحمد بن سليمان، تحقيق:د.عبد الغني عبد العاطي،عين للدراسات، القاهرة،الطبعة الأولى،٢٠٠٢م.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن عمر الشيباني(ت٩٢٤هـ/ ١٥١٨م).

-قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق:محمد بن علي الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ/١٥٠٥م).

-تاريخ الخلفاء، تحقيق:عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى،٢٠٠٣م.

أبي فراس ابن دعثم.

-السيرة الشريفة المنصورية،سيرة الإمام عبد الله بن حمزة(٥٩٣-٦١٤هـ)، تحقيق: عبد الغني عبد العاطي، دار الفكر المعاصر،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٣م.

الوصابي،وجيه الدين عبد الرحمن(ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م).

-تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق:عبد الله محمد الحبشي،مركز الدراسات والبحوث اليمني،صنعاء،١٩٨٣م.

يحي بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م):

- طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

-غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، القسم الأول.

اليمني،عمارة بن أبي الحسن الحكمي(ت٥٦٩هـ/١١٧٤م).

-تاريخ اليمن،تحقيق:محمد زينهم محمد عزب،دار الجيل،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٢م.

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة:

إبراهيم المقحفي	-معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة ١٩٨٥م
د.أحمد صبحي	-الزيدية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة،الطبعة الثانية،١٩٨٥م.
أحمد عبد الله عارف	-في علم الكلام (دراسات فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين) ،النهضة العربية ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. -الاتجاهات الفكرية في اليمن فيما بين القرن الثالث والقرن الخامس الهجري، المؤسسة الجامعية، بيروت،الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
إسماعيل بن علي الأكوع(جمع وتحقيق)	-البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة،بيروت، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
....	-الزيدية نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية،١٩٩٣م.
....	-هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر، بيروت ، دمشق، الطبعة الأولى،١٩٩٥م.
أيمن فؤاد سيد(الدكتور)	- مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية،القاهرة،1974م.
بدر الدين الحوثي	- المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،ط١ ، ١٩٨٨م - حوار حول المطرفية تعليق على مقال: " الجامعات- المساجد في شمال اليمن، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م.

زيد بن علي الوزير:	تحقيق على مقال العلامة بدر الدين الحوثي –حوار حول المطرفية–، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني،صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م
سيد مصطفى سالم	
عارف تامر	
عبد السلام عباس الوجيه	وثائق يمنية، دراسة وثائق تاريخية، طبعة دار لكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م
	–أروى ملكة اليمن، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٨م.
	أعلام المؤلفين الزيدية،مؤسسة الإمام زيد الثقافية، الأردن،ط١، ١٩٩٩م.
عبد الفتاح أحمد فؤاد	–الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وآراءه الكلامية، دار الدعوة،الإسكندرية، الطبعة الأولى،١٩٨٦م.
عبد الله حميد الدين	–الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات، مركز الرائد، صنعاء، الطبعة الأولى،٢٠٠٤م.
عبد الغني عبد العاطي	–الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، دراسة ونصوص، عين للدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠٠٢م.
عبد الله الشماحي	–اليمن الإنسان والحضارة، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٤م.
عصام الدين الفقي(الدكتور)	–اليمن في ظل الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٨٢م.
علي محمد زيد	–تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي،صنعاء،الطبعة الأولى،1997م.
محمد رضا الدجيلي	–الحياة الفكرية في اليمن، في القرن السادس الهجري، المكتبة الوطنية، بغداد،١٩٨٥م.
محمد سالم عزان	المطرفية بين الحقائق والإشاعات، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء،المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م.

محمد عيسى الحريري -تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م،صفحات(٤٤-٧٥).

رابعاً: المقالات العربية

أحمد بن سليمان -الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال، تحقيق:د. عبد الغني عبد العاطي، مجلة كلية الآداب،جامعة المنصورة، العدد الثاني والثلاثون، يناير٢٠٠٣م

أحمد شوقي العمرجي -الزيدية في اليمن ودورهم السياسي،مجلة كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، العدد ١٥، إبريل١٩٩٤م.

عبد الله الحبشي -المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العدد الثالث، السنة السادسة،نوفمبر ديسمبر،١٩٧٧م، صفحات(٤٧-٥١).

محمد عيسى الحريري -تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م،صفحات(٤٤-٧٥).

محمود إسماعيل الفِرَق الإسلامية في طور الانحطاط، صفحات(١٤٨-١٥٨)، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، السنة الأولى،العدد العاشر،يونيو ٢٠٠٠م

سابعاً: الرسائل العلمية:

أحمد عبد الله عارف -أصول الاتفاق في القضايا الكلامية بين الزيدية والمعتزلة، رسالة ماجستير، قسم فلسفة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة،١٩٨٢.

ثامناً :المراجع الأجنبية:

-Al-Qadi Isma'il Bin Ali al-Akwa, Nashwa'n Ibn Sai'k al-Himyari and The Spiritual, Religious and Political Conflicts of his Era, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen (25 April 1987 to 5 April 1988), Published By Pinguin-VerlaInnsbruckUmschau-Verlag, Franlkfurt/Main, PP.212-231.

-Wilferd Madelung, Islam in Yemen, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen(25 April 1987 to 5 April 1988), Published by Pinguin-verlag, Innsbruch Umschau-Verlag, Franlkfurt/Main,PP.174-177.

الملاحـــق

المراسلات بين المطرفية والإمام عبد الله بن حمزة

في بداية الخلاف بين الطرفين. (*)

قدم رجل من المطرفية يقال له عمار بن ناصر الشهابي إلى ذي مرمر فحضر المدرسة المنصورية هناك، وجرى فيها الحديث عن مذاهب الخصوم ومن بينهم المطرفية، ولما رجع الرجل المطرفي إلى هجرة وقش بث شكواه وحكى غير ما شاهده وسمعته أذناه وذكر ما دار في المدرسة المنصورية من السب للمطرفية فشق ذلك عليهم وزادهم نفارا، وكتب إليهم الإمام يدعوهم فلم يزدهم دعاؤه إلا فرار، وجاء كتاب الفقيه علي بن يحي البحيري معرضا بذلك وعاتباً فيما جرى من السب والأذى، وما خص به ذلك الرجل من الاستخفاف والبذاء، وجعل في صدر كتابه أبياتاً قال فيها:

مقام أمير المؤمنين بن حمزة ... أجل وأعلى أن يحيط به وصفي

رفعتُ إليه الطرف فارتد خاسئا ... ولا غرو أن يرتد من خجل طرفي

وأيقنت أن الصيد ما ضمه الفرا ... فقلتُ لكفي عن كتابته كفي

على أنني في القرب والبعد عنده ... موالاته حصني المنيع ولا أخفي

ومما جاء في كتابه: ... ولعل العواطف الإمامية، والآراء الموفقة المنصورية، أن تؤنس المملوك بكف أهل تلك الأذية، والخيار إليه سلام الله عليه من قبل أن تزيغ قلوب فريق منا، فلإنسان خلق هلوعا، فقد كان في أول الأمر أصبح الناس رحماء بينهم، لا تسمع إلا سلاما سلاما، وكل شي على منتهى أمله من سكون الدهماء وحسن الحال، وتمام النعماء، والدعاء لأمير المؤمنين بطول البقاء لما ساق الله إلى الجميع بسببه، وأجراه من الصلاح على لسانه ويده، بالرفق الذي لا ضعف معه، والشدة التي لا يشوبها عنف، وعلو الهمة وقلة الغفلة، وأحكام السياسة وصواب التدبير، فأشد الناس بعداً عنه كالقريب، وأقربهم منه في حق الله كالغريب، فما أحد يعدو قدره ولا يتجاوز حده، ولا يتكلم إلا فيما يعنيه.

ومع ذلك تزداد الأمور إلا إحكاماً، ولا عقود الدولة الميمونة إلا انتظاماً حتى انطلقت الألسن المعقودة، وانبسطت الأيدي المعقولة بعدل أمير المؤمنين، ولم يكن ينبغي لصاحبه في العموم فما

* - نقلا عن: أبي فراس بن دعثم: السيرة الشريفة المنصورية،جـ٣،ص٥٣٦-٥٤٥.

شأن الخصوص وأمير المؤمنين يعلم ما الوافر كالمقصوص،فإن رأى الإنصاف ممن تولى كبره، ولكل امرئ منا ما اكتسب من الإثم، وليت أنا بقدر الحب نبتسم.

... وفي هذه الدلالة صفة العلة ولعل جوابها أن يروى من الغلة وقد تضمنت فصولاً كثيرة هيج دفينها وصول الشيخ عمار بن ناصر الشهابي، وما انقلب به من تشريف الإخوان. فالله يبقيهم والسلام.

وقد رد عليه الإمام عبد الله بن حمزة كتابا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. سلام عليك.. أما بعد. فإن كتابك وصل إلينا بتحقيق الموجب لما تقدم وتأخر من المراجعة، فيما يقطع المشاحنة والمنازعة، ويؤدي إلى الألفة، ويمنع الخلفة، وتلك سبيل الصالحين، وشعائر أهل الدين، وقد كان ذلك كما ذكرت أولى، وجرت به السنن أولاً ثم نجم بعد ذلك ناجم الخلاف بالطعن والتخلف لغير حدث أوجب ذلك، ولا رأي يقبل، بل على منهاج السلف الصالح... وأهم الأمور علينا ما يعود على الزيدية أصلحها الله بلم الشمل وطرد دواعي الجهل وقد كان فيما تقدم لهم عذر، فإن كان غير واضح في الاختلاف فما العذر بعد قيام قائم من آل محمد صلوات الله عليه وعليهم. إنما الخلاف قبله، وعنده يرجع الجميع إلى رأيه،وتنقطع دواعي الفتنة بميمون نظره.....هذه منابر آل محمد صلوات الله عليهم معطلة من ذكرهم منذ دهر طويل، وفيئهم مأخوذ، وحقهم مغصوب، وثأرهم مطلول، والفرقان فيما اختلفوا فيه موجود، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، فأما إذا لم تبق إلا المغالبة فما أحد يخبئ عن نفسه ما يجده كما قال ضرار بن الخطاب: وعن أي نفسٍ بعد نفسي أقاتلُ، وكان صاحب الأمر إذا اضطرته الأمر هادن، وإن قام عمودها فاتن، فأي الفريقين كان أو متى وصل الأرض قبل صاحبه. نانظر في ذلك بما يوفقك الله سبحانه ويعينك عليه، فصاحب هذا الأمر على وجهين إما أن يظهر. فأقبح الأمور على من ينتسب إلى الدين أن يظهر وليس معه لسان صدق، وإما أن لا يظهر وثد حق له استحقاقه،كانت حسرة، فأكثر الأئمة لم يطبق على إمامته إلا بعد موته، وإن لم تظهر له حجة على استحقاقه كان شبهة يجب أن يكون في حلها على يقين، ولم يرتكبها على الخطر ويتمسك بحبل الغرور وهن متمكن الاستبصار بالوصول إليه،والمراجع له في أموره، والسلام، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

د. رضوان أحمد الليث[*]

المسلمون وأهل الذمة في بلاد الشام في عصر الخلافة الراشدة

يعد الدين الإسلامي ديناً عالمياً لكل البشر، ولذلك نجده يتجاوز حدود البلدان والأقاليم، لأنه ليس ديناً قومياً خاصاً بالعرب، وإنما لكافة الناس في الأرض، يقول الله عز وجل {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[1].

وبما أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية فلا بد على أتباعه من إيصال دعوته إلى كل الناس بمن فيهم أصحاب الديانات ذات الأصل السماوي وأتباع العقائد الوضعية ، والدعوة تقوم على أساس البلاغ فقط لقوله عز وجل {وما على الرسول إلا البلاغ المبين}[2]. وكذلك عدم إكراه الناس على اعتناق الإسلام، لأنه لا يجوز شرعاً لقول الله تبارك وتعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي }[3] ، وإنما الدعوة تقوم على أساس التوجيه الإلهي القائل في محكم كتابه (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[4].

فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، بناءً على هذا التوجيه الرباني بدعوة اليهود في يثرب إلى الإسلام، لكنهم رفضوا وفضلوا الاحتفاظ بدينهم مقابل دفع الجزية، وعرض الإسلام أيضاً على نصارى نجران، لكنهم فضلوا البقاء على دينهم مقابل تسليم الجزية، ولم يحدث أن تعرض اليهود أو النصارى إلى مضايقات أو اعتداءات بسبب عدم إسلامهم، لأنه لا يجوز طالما وقد أقروا بالجزية ودفعها للمسلمين، كما أمر الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}[5].

* أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته المشارك - قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة صنعاء.

وبناء على هذا فقد صار على المسلمين حمايتهم، وعدم التعرض لهم بسوء، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين من ذلك بقوله ((من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة))[٦] ، وأمام هذه النصوص وغيرها، لابد أن يتم التعامل مع أهل الذمة على ضوئها .

وهنا لا بد علينا أن نتعرف على سلوكيات المسلمين مع أهل الشام أثناء الفتح وبعده، سواء كانوا خلفاء، أم قادة أم أفرادا، هل وجد تطابق بين النصوص والعهود وتعامل المسلمين مع أهل الذمة؟ أم كانت النصوص والعهود في واد والتعامل في واد آخر؟ وماذا عن ردة فعل سكان بلاد الشام تجاه المسلمين أثناء الفتح ، هل كانت عدائية أم حيادية أم مناصرة للروم ، أم مؤيدة للمسلمين ؟

وهل تغيرت أحوال سكان بلاد الشام بعد أن أصبحوا من رعايا الخلافة الإسلامية ؟ أم ظلت على ما كانت عليه في عهد الروم ؟ وإذا حدثت تغيرات فما هي وهل كانت سلبية أم إيجابية؟ ولمعرفة ذلك تم تقسيم البحث إلى محورين رئيسين :

المحور الأول: المسلمون وأهل الشام عند الفتح من خلال وصايا الخلفاء الراشدين تجاه سكان البلاد المفتوحة، وتعامل المسلمين مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح، وكذلك موقف سكان الشام من المسلمين .

أما المحور الثاني فهو : حقوق أهل الذمة من سكان بلاد الشام بعد الفتح، ويتناول الحقوق التي صارت لسكان بلاد الشام بعد أن أصبحوا من رعايا المسلمين ، مثل : حرية الاعتقاد، الحرية السياسية، حماية الملكيات، حرية المتاجرة والكسب، حرية التقاضي والعدل، كما يتناول أيضاً واجبات أهل الذمة .

المحور الأول : المسلمون وأهل الشام أثناء الفتح :

تحقيقاً للتكليف الرباني بعد أن انتشر الإسلام واستقرت أركانه في أنحاء الجزيرة العربية كان على المسلمين أن يستكملوا ما كان قد بدأه الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام خارج الجزيرة بدءاً بأقربها داراً وهي بلاد الشام .

فقد تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أول عمل بعد قضائه على حركة الردة، إعداد الجيوش الإسلامية، وإرسالها للقيام بالفتوحات الإسلامية ومنها بلاد الشام، وحرص

على تقديم الوصايا والتعليمات لقادة الجيش الإسلامي، تتضمن الإحسان إلى سكان بلاد الشام، وعدم التعرض لهم بسوء.

إن إقامة العدل بين الناس من الأمور المطلوبة والأساسية، وما أنزل الله سبحانه وتعالى الشرائع إلا للتوحيد ولإقامة العدل ورفع الظلم عن المظلومين، وردع الجبارين .

والشريعة الإسلامية اهتمت بهذا الجانب، ولم يحد عن هذا الخلفاء والمسلمون، لأنهم ملزمون ومكلفون من رب العالمين لقوله تعالى : {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي}[٧]، ويقول سبحانه وتعالى {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}[٨].

وأمام هذه النصوص وغيرها، لا بد على المسلمين أن يوفوا بها ويسيروا عليها، فكانت رعاية الخلفاء لهم كبيرة، والاهتمام بأحوالهم واجبة، فمن توصية الخليفة أبي بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما المتجه نحو بلاد الشام قوله: "يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم، فلا تغلل ولا تمثل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكله، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم "[٩].

هذه الوصية من خليفة رسول الله أمراً صريحاً بأن على المسلمين المشتركين في عملية الفتح (قادة أم أفراد) أن يتجنبوا بعد انتصارهم على القوى المانعة لوصول الإسلام إلى السكان، الغلل أي الحقد والضغينة، وكذلك عدم التمثيل بجثث أعدائهم بعد النصر لأنه لا يجوز، وعدم الغدر، وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعدم حرق الأشجار وتقطيعها لأن الإنسان المسلم وغير المسلم، يستفيد منها، ولأن الإسلام يبني ولا يهدم، لقول الله تعالى {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة}[١٠].

وفسر العلماء هذه الآية بأن المقصود هو التعمير[١١].

وتلزم وصية الخليفة السابقة المسلمين، عدم التعرض لبهائم سكان البلاد التي يتم فتحها إلا بالحق، والأهم من هذا عدم التعرض لرجال الدين، والمتعبدين في دور عبادتهم من النصارى.

ويبدو أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه، لم يكتف بتلك الوصايا، بل كانت توجد لديه عيون لمراقبة أعمال المسلمين في بلاد الشام، وكيفية تعاملهم مع سكانها، والرفع إليه في حالة المخالفة بصورة مباشرة دون علم القادة، فعندما فر أهالي قرى الداريين من قراهم خوفاً على أنفسهم من القتل ظنا منهم أن المسلمين لن يتركوهم وشأنهم كما صور لهم، وصاحب هروبهم ترك دورهم وأراضيهم، وربما وجد بعض المسلمين من ذهب ظنه بأنه أحق بها، فلما وصل الخبر بفساد المسلمين إلى الخليفة كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رسالة قال فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: "امنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الداريين، وإن كان أهلها قد جلوا عنها، وأراد الداريون أن يزرعوها، فإذا رجع أهلها إليها فهي لهم، وأحق بهم والسلام عليك"(١٢).

ولم يكتف بذلك بل أرسل رسالة إلى الداريين أصحاب تلك البلاد يطمئنهم على أراضيهم وحمايتها من العابثين، ويكلف عمرو بن العاص بحراستها والدفاع عنها من كل طامع، جاء فيها "هذا كتاب من أبي بكر أمين رسول الله الذي استخلف في الأرض بعده، كتبه للداريين ألا يفسد عليهم مأثرتهم قرية حَبْرى(١٣) وبيت عينون(١٤)، فمن كان يسمع ويطيع فلا يفسد منها شيئاً، وليقم عمرو بن العاص عليهما فليمنعهما من المفسدين "(١٥).

وهذا الكتاب يمثل اهتمام قيادة الدولة الإسلامية بسكان البلاد أثناء الفتح وحرصها على المحافظة على كافة ممتلكاتهم المالية والعينية، فلم يكن دافع الفتح بالنسبة للمسلمين الحصول على الغنائم بأي صورة من الصور ، كما يصوره البعض، ولكن قد يوجد منهم من له رغبة في الغنائم، غير أنه يواجه بالشدة والمنع والمعاقبة.

وبما أن المنبع المُشْتَق منه واحد فلم يختلف عمر بن الخطاب عن سلفه، أبي بكر رضي الله عنهما في توصية الجيش الإسلامي المتجه نحو الأمصار ومنها بلاد الشام التي لم يكن قد استكمل فتحها في عهد أبي بكر رضي الله عنه ويتمثل ذلك في قوله "بسم الله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، والنصر، ولزوم الحق، والصبر، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ثم لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تتكلموا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة، ولا هرماً، ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الجمعان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات..."(١٦).

ونجد هنا أن وصية عمر رضي الله عنه لم تخرج عن وصية أبي بكر رضي الله عنه، فالرؤيا واحدة تجاه سكان البلاد المفتوحة من أهل الذمة، ونلاحظ هنا تأكيدها على تجنب قتل الأطفال والشيوخ والنساء. مع تفصيل ما أجملته وصية أبي بكر في هذا الجانب من حيث طلب عمر في وصيته أن يتجنبوا قتل الفئات السابقة، حتى وإن كانوا يوجدون في ميدان القتال، وفي مختلف مراحل المعركة، ولم يرد في الأمر إلا من ناحية وصيته في لزوم الحق، وأن يتجنبوا الاعتداء على كل شيء مملوك للسكان .

وبلغ حرص الخليفة عمر رضي الله عنه بشئون أهل الذمة، أنه في مرضه الذي مات فيه أوصى بهم من سيخلفه على المسلمين بهم بقوله "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً أن يوف لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم"[١٧].

وهذا دليل على الحرص على الإيفاء بما عاهد به المسلمون أهل الذمة، بل والدفاع عنهم من أي اعتداء قد يتعرضون له، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم سواءً أكان ذلك بالجزية أم الخراج، وهذا من الناحية المادية أو تكليفهم بأعمال لا يستطيعون القيام بها، فالواجب الرفق بهم.

أما في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، فقد صارت البلاد المفتوحة تحت حكم المسلمين، ولذا كانت وصيته إلى الولاة على الأقاليم ومنها بلاد الشام، أن يستوصوا بأهل الذمة خيراً فقال: "... ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم"[١٨].

وبما أن أهل الذمة صاروا من رعايا الخلافة الإسلامية، فكانت وصية الخليفة عثمان رضي الله عنه بالتعامل معهم وفقاً بما أوجبه الشرع الإسلامي بإعطائهم حقوقهم، وإلزامهم بما عليهم من واجبات.

وبذلك نجد أن وصايا الخلفاء الراشدين نفسها، لم تخرج عن الوصايا التي وردت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

تعامل المسلمين مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح:

كان المسلمون أثناء الفتوحات الإسلامية يتمثلون تعاليم كتاب الله عز وجل وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم، والتي تمثلت خلاصتها في وصايا الخلفاء الراشدين التي سبق الإشارة إليها.

فالمتأمل في العهود التي منحها القادة المسلمون لأهالي المدن الشامية، يجد أن مضمونها وأهدافها واحدة، لم تختلف منذ فتح أول مدينة وحتى اكتمال الفتح للشام، فهذه بُصرى أول مدينة فتحت وعقد أهلها صلحاً مع المسلمين بموجبه يتم منحهم الأمان على دمائهم وأموالهم وأولادهم مقابل دفع الجزية[١٩].

وسار المسلمون بالأسلوب نفسه الذي ساروا عليه مع سكان بُصرى، حيث أعطى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عهد الأمان لأهل لُدّ ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا ملكها، ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، وعلى أهل لُدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام"[٢٠].

ولم تخرج العهود التي أعطاها أبو عبيدة رضي الله عنه لمدن الشام، من حيث المضمون والالتزام مع العهد الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر لأهل لُدّ وسائر أهل فلسطين ، فقد أعطى أبو عبيدة عهد الأمان لأهل بعلبك على الحرية الدينية، وعدم الاعتداء على كنائسهم وأموالهم: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى، ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج، شهد الله وكفى بالله شهيداً"[٢١].

إن العهود التي أوردناها سابقاً على سبيل المثال، لم تختلف عن العهود التي عقدت مع بقية المدن الشامية، فقد تضمنت الآتي:-

- الحرية الدينية فلا يكرهون على اعتناق الإسلام، ولا ينزل المسلمون كنائسهم بغرض السكن أو تهدم أو ينتقص من أجزائها.

- إعطائهم الأمان على أموالهم ودورهم، فلا يجوز التعرض لأموالهم بالمصادرة أو النهب، أو فرض إتاوات بغير حق تتجاوز ما هو مقرر عليهم من الجزية والخراج.

- منح أهل الذمة الأمان على أنفسهم، فلا يجوز التعرض لهم بالأذى الجسدي أو النفسي بالضرب أو الحبس أو السب أو القتل لمجرد الاختلاف في العقيدة، وكذلك عدم التمييز بينهم.

- المساواة بينهم في دفع الجزية، فلا يوجد تمييز بين شخص وآخر، أو مدينة وأخرى، بل الجميع متساوون في تسليمها ومقدارها.

- وعلى الرغم من أن الجنود الروم يعدون أعداء للمسلمين كونهم هم الذين يعدون العدة ويحاربون المسلمين، ومع ذلك نجد أن المسلمين لا يخرجونهم عن عهود الأمان، فأعطوهم مساحات لرعي مواشيهم، ومنحوهم مهلة شهرين للتفكير إما في دخول الإسلام أو البقاء على دينهم، وعليهم الجزية، وإما الخروج إلى حيث يشاءون، وهذا يمثل قمة العدل والتسامح مع أعدائهم.

ويلغ من حسن تعامل المسلمين مع سكان البلاد التي تم فتحها، احترام رغباتهم فيما يريدون، فقد طلب أهل إيليا من أبي عبيدة الأمان والصلح مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام، وشرطوا عليه أن يكون المتولي لعقد الصلح معهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوافق أبو عبيدة وأرسل إلى أمير المؤمنين بالخبر، الذي وافق على ذلك وقدم الشام، وانعقد الصلح معهم[٢٢].

ولو كانت المسألة غالب ومغلوب لرفض المسلمون طلبهم وأصروا على فتحها، ولكن احترام رأي الأهالي وسماع ما يقولونه مطلوب، حتى يكتمل الخير وتعم الفائدة الجميع.

وقد التزم المسلمون أثناء الفتح الإسلامي بوصايا الخلفاء، وطبقت على أرض الواقع فيما يخص عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ سواءً عند المعارك أو شن الغارات على المدن التي لم تدخل في صلح مع المسلمين. ففي معركة من المعارك حمل صفوان بن المعطل على رومي وقتله وبجواره زوجته عليها سلاح، فلما رأت زوجها قتل، حملت على صفوان الذي لم يتعرض لها "فأومأ إليها بالسيف ولم يضربها، لكنه حمل عليها فولت المرأة من بين يديه"[٢٣]. وكان بإمكان صفوان أن يأخذها سبيه له أو أن يستمر في ملاحقاتها حتى يبث الرعب في قلبها ويخيفها، لكنه فضل تركها.

ومثال آخر يؤكد مدى التزام المسلمين بوصايا الخلفاء ، وعدم مخالفتها أنه أثناء إغارة المسلمين على المعرة(٢٤) وبلدة العواصم(٢٥) وقنسرين(٢٦) وكفر طاب(٢٧)، وقع في الأسر نساء وأطفال ورجال، وأصطحبهم الجيش الإسلامي إلى مركز القيادة، فلم يتلذذ عياض بن غنم بمنظر النساء والأطفال وهم يبكون، فأمر بإطلاق سراح الجميع بعد أن أقر الرجال بدفع الجزية(٢٨). ولم تذكر المصادر التاريخية بأن رجلاً من المسلمين انتهك عرض امرأة سواءً كانت أسيرة أم غير ذلك.

ومما يحسب أيضاً للمسلمين أثناء الفتح عدم ترويع سكان البلاد المفتوحة بعدم مهاجمتها مباشرة وإثارة الفزع والخوف بين سكانها ، وكانوا يعسكرون خارج المدن، وهذا ما حصل في بعلبك، فلم يدخلها المسلمون بل عسكروا خارجها ، ولم يسمح لأي فرد من المسلمين بدخولها(٢٩).

والأمر ذاته حدث مع أهالي حمص، فقد عسكر المسلمون خارجها ، ونتيجة لأخلاق المسلمين وحسن تعاملهم مع المدن الأخرى، نجد أهل حمص يعرضون على أبي عبيدة الدخول إلى مدينتهم ليقينهم بصدق المسلمين والتزامهم بعهودهم في عدم التعرض لأموالهم وممتلكاتهم، ولكنه رفض عرضهم واستقر مع جيشه خارج المدينة، وظل المسلمون في معسكرهم ولم يدخلوا حمص إلا بعد معركة اليرموك ١٥هـ/ ٦٣٦م(٣٠).

إن عدم دخول المسلمين المدن وبقائهم خارجها ، لا يعني عدم الاختلاط مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح، فقد كانت العلاقات بين الجانبين تقوم على الاحترام المتبادل، وازدهرت المدن الشامية تجارياً بوجود المسلمين .

فنجد حدوث رواج تجاري في بعلبك لأن المسلمين كانوا يغيرون على المناطق الساحلية التي فيها الروم والعرب الذين لم يدخلوا في صلح معهم، فيعودون محملين بالغنائم فيبيعونها لأهل بعلبك الذين يفرحون ببيع المسلمين وشرائهم. "وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً"(٣١).

ولو كان المسلمون شرهين ومحبين للأموال وجمعها ، لجعل ذلك أهل بعلبك ينفرون منهم ويقاتلونهم، ولكن الأموال الطائلة التي جنوها من وراء وجود المسلمين كان بالنسبة إليهم نعمة، حلت عليهم من السماء .

غير أن فرحتهم بما ربحوه من تلك التجارة لم تكتمل ، لأن تلك الأرباح التي جنوها فتحت شهية بطريق بعلبك الروماني للأموال، فطالبهم بالعشر من أرباحهم فوافقوا لكثرة أرباحهم، فطمع

بهم أكثر وطالبهم بربع أموالهم، ومما قاله لهم: "أنا أعلم أن هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة، ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبداً"[٣٢].

إن ما قام به بطريق بعلبك، يعد شهادة للمسلمين على تعاملهم الراقي مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح القائم على إعطاء كل ذي حق حقه، والبعد عن الجشع والطمع في أموال الآخرين، وأن خروجهم كان للدعوة، وما يحصلون على غنائم يتم بيعها برخص للسكان كونهم لا يريدون إلا متطلبات احتياجاتهم فقط دون تكديس الأموال وجمعها، ولأن هذا يتعارض مع النصوص الشرعية، وأهداف خروجهم.

ونتيجة للفارق الشاسع بين تعامل البطريق وتعامل المسلمين مع السكان، ثار الأهالي ضد البطريق وقتلوه مع غلمانه، وطلبوا من المسلمين دخول المدينة[٣٣].

إن التجارة لا يستقيم أمرها في حالة عدم الاستقرار وغياب الأمن والأمان، وشيوع الحروب أو وجود إدارة فاسدة، تعبث بالأموال والممتلكات.

ومع وجود الجيوش الإسلامية في بلاد الشام، كان تجار المدن يسعون إلى عقد صلح مع المسلمين الذين كانوا يتمتعون برؤية صائبة تجاه التجارة التي يستقيم حال السكان بها، ويطمئنون لتوفر احتياجاتهم وسهولة الحصول عليها بيسر وأمان. فعندما ذهب أهل حلب من التجار والعاملين بالسوق وغيرهم إلى أبي عبيدة يطلبون منه عقد الصلح معهم حفاظاً على مصالحهم، قال: "إن هؤلاء أهل متجر وسوقة وصناع وهم مستضعفون، وقد رأينا أن نحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم"[٣٤].

أما تجار وسوقة حمص فكانوا يخرجون إلى معسكر المسلمين، بعد عقد صلح معهم فيبيعون ويشترون، ويربحون الأموال الكثيرة، وسهل لهم الأمر سماحة المسلمين في بيعهم وشرائهم[٣٥].

والمعروف أن التجار لا يمكن أن يخرجوا للبيع والشراء في معسكر للعدو، لا يأمنوا فيه على تجارتهم وأموالهم، ولكن لما زال الخوف من الجيش الإسلامي، ولمعرفتهم من شواهد سابقة لمسوها أن هؤلاء لا يتعرضون لحقوق الآخرين مهما كانت .

موقف سكان بلاد الشام من المسلمين أثناء الفتح:-

لم تكن الانتصارات العسكرية التي حققها المسلمون هي السبب في ضم بلاد الشام إلى دار الإسلام، بل كان هناك ما هو أعظم منها تأثيراً على السكان، ألا وهو الجانب الأخلاقي، فقد كان له تأثير عظيم على هؤلاء السكان، حيث كان المسلمون يتمتعون بأخلاق عالية وإن شذ عنهم القليل، فلم يغدروا أو يخالفوا ما عقدوه مع السكان من عهود الصلح، أو يعترضوا الطرق بهدف السلب والنهب، فكانت أخلاقهم النابعة عن الدين الإسلامي، تؤثر في السكان وتجعل أهل البلاد التي لم تفتح بعد يسعون بأنفسهم لعقد الصلح مع المسلمين، ليس خوفاً منهم، وإنما لما سمعوه عن سلوكهم وأخلاقهم.

فهذا أمير " قدمه " يجمع رعيته عند سماعه بقدوم المسلمين، ويقول عنهم لقومه "إن قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم، وإنهم لا يطلبون الفساد"[٣٦]. ولما عرض عليهم عقد صلح مع المسلمين فرحوا واعدوا مستلزمات الضيافة لهم دون تكليف أو إكراه من أحد[٣٧].

وأما أهل حماه فخرجوا ومعهم الإنجيل يعرضون الصلح على أبي عبيدة، ويقولون له "نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحب إلينا"[٣٨].

والواضح من ذلك أن سمعة المسلمين الطيبة وحسن أخلاقهم في التعامل مع الأهالي، وكذلك عدلهم ذاع في أنحاء بلاد الشام، حيث صار الأهالي يتحدثون عن سماتهم ويثنون عليهم، فأثناء قدوم الجيش الرومي لقتال المسلمين قبل معركة اليرموك، وكان معهم أحد نصارى العرب والذي روى ذلك بقوله "وأقبلت مع الروم فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد، إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم"[٣٩].

إن ما ذكره هذا العربي النصراني صحيح فلو كان الأمر خلاف ذلك لذكره، ومما يؤكد صدق كلامه أن أهل الذمة في بعض المدن صاروا عيوناً للمسلمين، فنجد أهل شيزر([٤٠]) بعد استقبالهم لأبي عبيدة وعقد الصلح معه، يخبرونه بأن هرقل قد بعث جيشاً بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني ومعه العرب المتنصرة والروم بعشرة آلاف فارس بعد استنجاد صاحب قنسرين، ونزولهم بجسر الحديد، وطُلب منه أن يكون على حذر منهم[٤١]. فكان ينبغي على أهل شيزر أن يقفوا مع الروم إخوانهم في العقيدة ضد المسلمين، ولكن حدث العكس، فقد صاروا عيوناً للمسلمين يراقبون تحركات الروم، وينقلون الأخبار إليهم بدون إكراه أو إلزام، لقناعتهم بعدل المسلمين وإحسانهم، فصاروا أحب إليهم من إخوانهم في العقيدة.

وفي حلب حدث انقسام بين والي المدينة الرومي الذي استعد بجيشه وخرج لقتال المسلمين، وبين الأهالي المرحبين بقدومهم، حيث خرج ممثلو الأهالي سراً وبدون إذن البطريق إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح "جئنا نطلب منكم الصلح"(٤٢). بما يشير إلى رفضهم مبدأ القتال. ولولا حسن تعامل المسلمين مع السكان، لما فعل أهالي حلب ما فعلوه، ولو رافق دخول المسلمين للمدن والقرى القتل ، والسلب والنهب والاعتداء على الأعراض لصمد الأهالي مع الجيش الرومي، وقاتلوا معه وسينتصرون في النهاية، لأن من يقاتلونهم عبارة عن لصوص وقتلة لا هم لهم إلا أنفسهم وتحقيق مصالحهم.

أما سكان حمص فقد بادروا إلى طلب صلح المسلمين قبل وصولهم وكذا طلب الأمان لهم، فأمنهم المسلمون، فرحبوا بهم عند وصولهم وأخرجوا لهم الطعام ولبهائمهم العلف(٤٣).

ووجد من أهل الشام أفراد يتعاونون مع المسلمين، لأنهم لم يروا منهم إلا كل خير، ومن هؤلاء شخص حمل رسالة من المسلمين إلى بطريق حمص، ويبدو أنه كان شخصية لها مكانتها ومعروفة في المجتمع الشامي، حتى إن البطريق استغرب من تصرفه، وسأله: "أرجعت عن دينك إلى دين العرب؟ قال : لا، ولكن في ذمتهم وعهدهم أنا وأولادي وأهلي ومالي، وما رأينا من القوم إلا خيراً..."(٤٤).

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن أهالي حمص استعدوا لقتال الروم إلى جانب المسلمين بعد انسحاب المسلمين منها، وتعاهدوا على قتال جيش هرقل إذا حاول اقتحام المدينة، وأقسم اليهود :"والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد"(٤٥). وأغلق الأهالي الأبواب، وتناوبوا الحراسة عليها، ولما علم أهل الذمة الذين صالحوا المسلمين في مدن الشام الأخرى، بذلك استعدوا لقتال الروم إلى جانب المسلمين، خوفاً من عودتهم إلى العبودية الرومية، بعد أن حررهم الإسلام منها ورفع عنهم الظلم.

ولو سار المسلمون على نهج الروم لوقف أهل الذمة على الحياد، لأنهم لا يريدون الجميع، وربما وقفوا إلى جانب الروم بحكم الرابط الديني ، ولكنهم رأوا مصلحتهم أن يكونوا تحت حكم المسلمين، لأنهم أرحم بهم، وقالوا:"إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه"(٤٦).

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك فتح أهل الذمة مدنهم للمسلمين، وعادت العلاقة بينهم بموجب العهود السابقة.

ويرغم ترحيب الغالبية العظمى من أهل الذمة بالمسلمين، إلا أنه وجد من بينهم من يُكِن للفاتحين الكراهية ويرغب في القضاء عليهم، مثل أهل بيت المقدس، الذين سعوا في البداية إلى الصلح واشترطوا عقده مع الخليفة عمر رضي الله عنه، وعلى الرغم من مجيئه وعقد الصلح معه، إلا أنهم حاولوا بعد ذلك الغدر بالمسلمين وقتلهم وهم في الصلاة بدون سلاح، غير أن بعضهم نصح بعدم الإقدام على هذا العمل، حتى لا ينقضوا الصلح، وطلب منهم بدلاً عن ذلك بإغرائهم بما يملكون من الأموال والمتاع، بعرضها في طريقهم، فإذا اعتدوا عليها كان لهم الحق في قتالهم[٤٧].

فعمل الأهالي بهذه النصيحة وأخرجوا كل ما لديهم من مال ومتاع ووضعوه في الطريق، فكان المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم، وهم يعجبون من ذلك الأمر، ويقولون :"الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم لهم مثل هذا"[٤٨].

ومن ثم فقد حدث عكس ما كان يخطط له، فلم يلتفت أحد من المسلمين لما تم عرضه بل نجدهم يستغربون من تصرفات سكان بيت المقدس، وربما أصاب أهل الذمة الحيرة والدهشة من تصرفات المسلمين، وتغيرت نظرتهم تجاه المسلمين بعد تأكدهم من رقي سلوكهم بعد هذا الاختبار العملي، إذا لم تذكر المصادر التاريخية التي أطلعنا عليها ، وحسب علمنا تكرار مثل هذه الحادثة أو غيرها خلال الفترة الزمنية لهذا البحث.

وقد لفت سلوك المسلمين الراقي انتباه بطريق دمشق ومعه قادته، وأعجبوا بهم، فعندما كانوا "يغيرون على أطراف دمشق وأصابوا نفلاً أتوا به في المقسم فلم يستحل أحد أن يغل شيئاً حتى أن الرجل من المسلمين، كان ربما أتي بكبة من غزل وبكبة من الصوف والشعر والإبرة و المسلة، وما فوق ذلك فيسلمه إلى صاحب المقسم"[٤٩].

والمطلع على كتب التاريخ لا يجد مثالاً مشابهاً لما قام به أهالي بلاد الشام مع المسلمين، ولولا الرعاية لهم والمحافظة على العهود من قبل المسلمين لما حدث من الأهالي هذا التأييد والترحيب وتذليل كافة الصعوبات التي تعترض طريقهم.

المحور الثاني : حقوق أهل الذمة من سكان الشام بعد الفتح :

تغير وضع سكان بلاد الشام بعد أن صاروا من رعايا الخلافة الإسلامية، وأصبح وضعهم

أفضل مما كانوا عليه في عهد حكم الروم، الذي استمر سبعة قرون[٥٠]. حيث أصبح لهم حقوق عديدة لم يكونوا يتمتعون بها مثل : حرية الاعتقاد والحرية السياسية، وحماية ممتلكاتهم، وحرية التقاضي والعدل، وحرية المتاجرة والكسب، وغيرها من الحقوق، وأصبحوا في الوقت نفسه ملزمين بتأدية واجبات تجاه الخلافة الإسلامية.

فقد كفل الإسلام لهم هذه الحريات ورعاها وحافظ عليها، ولم تكن هبة منحها المسلمون- قادة وأفراد- إذ لو كان الأمر كذلك لتغيرت السياسة من قائد إلى آخر وفقاً لأهوائهم .

حرية الاعتقاد :

الحرية بالنسبة للإنسان من ضروريات حياته، فلا يمكن أن يستغنى عنها بأي حال من الأحوال، والحرية تشمل نواح عدة من بينها حرية الديانة وممارسة شعائرها بدون تدخل من أحد، والإسلام لا يدعو أتباع الديانات الأخرى مثل النصرانية واليهودية وغيرها إلى اعتناق الإسلام بالإكراه، وإنما ترك لهم حرية الاختيار وهذا ليس اجتهاد من المسلمين، وإنما أمر ملزم من رب العالمين [لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر][٥١]. وبالتالي فما على المسلمين سوى التنفيذ، والالتزام بما ورد .

فقد انتشر الإسلام بالدعوة القائمة على الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وسار المسلمون في بلاد الشام على هذا النحو، فقد عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء وجوده في بلاد الشام الإسلام على امرأة نصرانية عجوز، لكنها رفضت وفضلت الاحتفاظ بدينها حيث قال لها:"أسلمي تسلمي، بعث الله محمداً بالحق، فكشفت عن رأسها فإذا مثل الثغامة[٥٢]، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن، قال عمر: اللهم اشهد"[٥٣].

وهذا جبلة بن الأيهم الغساني يعرض عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الإسلام"فأبى ذلك وقال: أقيم على ديني"[٥٤].

ويفهم من النصين السابقين أن التبليغ والتعريف بالإسلام من مهام المسلمين وإلا فهم محاسبون على التقصير أمام الله ، وأن الدعوة قد بلغت وبرئت ذمة الخليفة أمام ربه في تبليغ رسالته، ولم يمارس الخليفة أي ضغط لتغيير دين من دعاهم إلى الإسلام، وفي المقابل لم يخافوا أو يعتنقوا الإسلام إرضاء للخليفة.

وكذلك كان الحال بالنسبة لقادة الفتح الإسلامي لبلاد الشام، فكان واجبهم الإبلاغ دون الإكراه، فقد عرض خالد بن الوليد الإسلام على البطريق الرومي على الرستن الذي وقع في أسر المسلمين، فكان رده: "لا أريد بديني بدلا"(٥٥). فلم يعامل معاملة سيئة لأنه رفض الإسلام، بل أطلق سراحه وخرج مع أفراد أسرته إلى حمص، ولم تكن قد فتحت بعد(٥٦).

وحدث الموقف نفسه مع القائد البيزنطي ماهان، فقد عرض عليه خالد بن الوليد الإسلام، فرد بقوله: "أما أن ندخل في دينكم، فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه، ويدخل في دينكم"(٥٧).

أما بالنسبة لسكان بلاد الشام بشكل عام فقد منحوا حرية الاعتقاد بموجب العهود التي منحت لهم من قبل قادة الفتح الإسلامي(٥٨). ولم يجبر إنسان أو جماعة على اعتناق الإسلام، فقد منح خالد بن الوليد أهل الرستن حرية الاعتقاد "فأسلم منهم كثير وبقى الأكثر يؤدون الجزية"(٥٩).

أما حاضر(٦٠) قنسرين التي تسكنها بعض القبائل العربية، ومنها تنوخ، فقد دعاهم أبو عبيدة ابن الجراح إلى الإسلام " فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح"(٦١). ولم يسلموا إلا في عهد الخليفة العباسي المهدي(٦٢).

وهؤلاء أهل طرابلس يُعرض عليهم الإسلام "فأسلم البعض بينما بقى البعض الآخر على دينه مع دفع الجزية"(٦٣).

إن إكراه الناس على اعتناق الإسلام غير جائز شرعاً، ولا يجدي نفعاً لأنه يولد العناد والتمسك بعقيدتهم، والدفاع عنها حتى الموت، والتاريخ يثبت ذلك، فقد حدث في بلاد الشام صراع شديد بين أهل الشام المعتنقين للمذهب المونوفيزي، الذي يؤمن أتباعه بأن للمسيح طبيعة لاهوتية واحدة، وبين المذهب الملكاني الذي يؤمن أتباعه ومنهم الروم (البيزنطيون) بأن للمسيح طبيعتين بشريه وإلهية، ونتيجة لهذا الاختلاف المذهبي، استخدمت الدولة الرومية وسائل عده لإجبار أهل الشام على اعتناق المذهب الملكاني منها القتل والتعذيب بأبشع صوره(٦٤). فهل نفع القتل وخاف الشاميون منها وتحولوا عن مذهبهم؟ وهل نجحت وسائل التعذيب في تحقيق ذلك الهدف ؟ .. والجواب على ذلك أن الدولة الرومانية فشلت في تحويلهم إلى مذهبها .

ونجد هنا الصراع المذهبي لم يزد الشاميين إلا تمسكاً بمذهبهم ومقاومة أساليب القتل والتعذيب بالصبر.

إن الانتقال من دين إلى دين آخر لا يمكن أن يتم إلا عن قناعة وإيمان عميق بالدين الجديد.

لقد مُنح أهل الذمة حرية الاعتقاد وممارسة طقوسهم الدينية، وحفظت أماكن عبادتهم من كنائس وأديرة، ومثلما كان الآذان يرفع من المآذن للإعلان بدخول وقت الصلاة، فقد كانت تضرب نواقيس الكنائس فيسمع أجراسها حتى إن بعض المسلمين قد تذمر منها، لأنها طغت على أصوات المؤذنين فتمنع سماعهم، وهذا بعلم وموافقة الوالي(٦٥)، الذي لا يتدخل لتوقيفها أو منعها لأنها مرتبطة بالناحية العقدية لأهل الذمة، وهذا يؤكد على الحرية الدينية التي تمتعوا بها في بلاد الشام.

إن حرية الاعتقاد لأهل الذمة التي منحت لهم من المسلمين تشهد بها المصادر التاريخية، ويشهد بها الكثير من المؤرخين الغربيين فيقول سيديو(٦٦) عن المسلمين أنهم "ابدوا من الإيفاء بالعهود ما أبدوا مبتعدين عن كل جور".

أما جرجي زيدان(٦٧) فيشهد بعدم تدخل المسلمين في شؤون أهل الذمة في كافة نواحي حياتهم، فيقول: "كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل، لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم".

ولا يشذ عن هذا الرأي غوستاف لوبون(٦٨) الذي يؤكد أن المسلمين عرفوا : " كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبعدون عن أعمال السيف فيمن لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها مكتفين بأخذهم في مقابل حمايتها جزية زهيدة".

بينما نجد ساليفان(٦٩) يقول عن علاقة المسلمين بأهل الذمة من الناحية العقدية أنهم: "سمحوا لهؤلاء الرعايا بممارسة طقوسهم الدينية المحلية... وعلى عكس ما هو معروف لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الإسلام".

كما يذكر لوثروب(٧٠) بأن الخليفة عمر رضي الله عنه "يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيم رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على أثره، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أفجاج العالم الإسلامي".

هذه الشهادات وغيرها تؤكد بأن المسلمين منحوا أهل الذمة الحرية العقدية في ممارسة طقوسهم

الدينية والمحافظة على أماكن عباداتهم مثل الكنائس والأديرة والمعابد من الهدم والمصادرة.

الحرية السياسية :

عند الفتح الإسلامي لبلاد الشام أبقت الخلافة الإسلامية الولاة الروم في المدن التي كانوا يحكمونها ، وذلك بعد عقد الصلح معهم ، وأبقت النظم الإدارية المعمول بها دون تغيير ، فظل الولاة والموظفون في مناصبهم.

فقد ظل صاحب بيت المقدس والياً عليها بعد انعقاد الصلح مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وحاول هذا الوالي عمل وليمة طعام لأمير المؤمنين ، لكنه رفض حتى لا يرهقه ويحمله ما لا طاقة له[٧١].

وعند فتح الرها لم يتم عزل واليها الروماني ميطولس الذي عمل طعاماً كثيراً ودعا عياض بن غنم ومن شاء من المسلمين لتناوله ، لكنه اعتذر اقتداء بأمير المؤمنين عمر ، فصار البطريق محرجاً بين أصحابه وقادته ، فطلب من عياض أن يأمر أصحابه بتلبية دعوته ، فقال : " ما كنت بالذي آمرهم ولا أنهاهم "[٧٢] .

فازداد أمير الرها حرجاً ، وربما ظهرت عليه علامات الخوف حتى أن عياض طمأنه وقال له : " أيها البطريق إنما أنت تفعل بنا ذلك خوفاً على أرضك ، وإنما يجب عليك أن تفعل هذا بمن يأتيك بعدنا ، فأما نحن فقد وفينا لك بالصلح فلا تخف منا ظلماً ، ولا أن نحملك ما لا تطيق"[٧٣] . ويحمل هذا الجواب حُسن تعامل المسلمين مع أهل الذمة ووفائهم بالعهود وعدم نكثها مهما كانت الظروف ، وعدم تحميل أهل الذمة ما لا يطيقون ، وهذا منهج سار عليه جميع المسلمين .

وعلى الرغم من أن بلاد الشام قد صارت تابعة للخلافة الإسلامية إلاَّ إنها لم تتدخل في شئون أهل الذمة الداخلية ، فالولاة كانوا يعينون من قِبَل الدولة الرومية ، ولا يحدث اعتراض من قِبَل المسلمين ، لأنهم يعتبرون هذا شأن داخلي خاص بأهل الذمة ، طالما وأمر دعوتهم قائمة.

فبعد وفاة بطريق شيزر الذي عقد صلح مع المسلمين ، أرسل هرقل امبراطور الروم بطريقاً على شيزر اسمه نكس ، وكان عاتياً جباراً ، وكان أول عمل قام به هو إلغاء الصلح مع المسلمين ، ثم أساء السيرة مع أهل شيزر بالاعتداء عليهم والاستيلاء على أموالهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ولما

علم أبا عبيدة بإلغاء (نكس) الصلح مع المسلمين ، أعد جيشاً لمقاتلته ، وقدر للمسلمين عدم الدخول في قتال معه لأن أهل شيزر ثاروا عليه وعلى أتباعه وقتلوهم جميعاً ، ثم خرجوا إلى أبي عبيدة الذي كان معسكراً خارج المدينة وقالوا له : " أيها الأمير إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم ، فقال : يا أهل شيزر بيَّض الله وجوهكم وأدرر رزقكم ..." (٧٤).

ونجد هنا أن المسلمين لم يتدخلوا في شئون أهل الذمة الداخلية مهما كان الصراع بينهم حاكماً ومحكوماً وأنهم لم يتهيأوا للتحرك ضد والي شيزر الروماني إلا لكونه نقض صلحهم فقط وليس لقيامه بظلم أهالي المدينة الذين قاموا بهذه المهمة وتخلصوا من نكس وأتباعه بدون تحريض من المسلمين أو دعم مادي ومعنوي قُدِمَ لهم . فكل ما قاموا به هو كراهيتهم لبطريقهم الذي أساء السيرة فيهم ، ومحبة في المسلمين لما لمسوه من الصدق والوفاء عندهم .

وتكرر الحدث نفسه في بعلبك ، حيث عقد المسلمون صلحاً مع بطريقها الروماني ، وظلوا في معسكرهم خارج المدينة ، ولكن التعامل بين المسلمين وسكان المدينة كان قائماً وخاصة في الناحية التجارية ، ولما كسب تجار المدينة الأموال الطائلة من تجارتهم مع المسلمين ابتزهم البطريق وفرض عليهم تسليم عُشر أرباحهم ، ورغم استجابتهم لمطلبه فقد زادت أطماعه وفرض عليهم تسليم ربع أموالهم ، فثاروا عليه وتمَّ قتله مع أتباعه ، وبعد هذا الحادث طلب أهل بعلبك من المسلمين دخول مدينتهم ، لكنهم فضَّلوا التشاور مع أبي عبيدة بن الجراح الذي وافق على دخولهم بناء على طلب أهلها ، وهذا ليس مخالفاً للعهود معهم(٧٥) .

إن الدولة - أي دولة - عندما تستولي على بلاد تسعى بكل ما تستطيع إلى ربطها بفلكها عن طريق تعيين ولاة من قِبَلِها ، وبواسطتهم تفرض القوانين والأعراف والتقاليد حتى تضمن ولائهم، لكن الخلافة الإسلامية أبقت الولاة والنظم السائدة في بلاد الشام كما هي دون تغيير ، لأن هدف المسلمين ليس سياسياً أو مالياً وإنما دينياً يقوم على الدعوة إلى الإسلام .

يقول سالبفان (٧٦) بأن المسلمين أبقوا " النظم الحكومية كما هي في البلاد التي فتحوها " ، كما يقول جرجي زيدان(٧٧) عن المنهج الذي سار عليه المسلمون : " كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شيء " .

احترام عادات وتقاليد أهل الذمة :

مع إن العهود التي منحها المسلمون لأهل الذمة لا تتضمن بنداً صريحاً يلزم المسلمين باحترام عادات وتقاليد أهل الذمة من سكان بلاد الشام إلا أن حرص الولاة على الإيفاء بتلك العهود جعلهم يعدون تلك الأمور من بين الأسباب التي يمكن أن يؤدي الاختلاف فيها إلى نقض تلك العهود وبالتالي اعتبروها من خصوصيات أهل الذمة التي ينبغي احترامها عند التعامل معهم، ومما يذكر أنه لما قدم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلاد الشام استقبله جمع من أهل الذمة بالسيوف والريحان ، فاستنكر الأمر وأمر بردهم ومنعهم " فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها يروا في ذلك نقضاً لعهدهم فقال عمر : دعوهم"[٧٨] .

واستقبال هؤلاء الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالسيوف والريحان كان لعبة ترحيبية تقوم بها فئة من أهل الشام تعرف بـ (المقلسين) بين أيدي الأمراء الذين يقدمون إلى بلادهم[٧٩]، وبالتالي فعندما عرف الخليفة أنها من عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة فقد أقرها رغم كراهيته لها . ولم يستخدم سلطته في إجبار أهل الذمة على تركها .

حماية ملكيات أهل الذمة:

كان لأهل الذمة ممتلكات مختلفة مالية وعينية كالبيوت والأراضي وبما أنّ حماية تلك الملكيات حقاً من حقوق أهل الذمة فقد حفظها المسلمون لهم وسَلِمَت من النهب والمصادرة بموجب النصوص الشرعية الإسلامية ووصايا الخلفاء والعهود التي عقدت معهم ..

فبالنسبة لبيوت أهل الذمة فقد كانت محرمة على المسلمين دخولها إلاّ بإذن أصحابها ، فعندما عقد المسلمون صلحاً مع أهل الرها نادى عياض بن غنم في جنده : " ألا إن أهل الرها في ذمتنا وعهدنا ، فلا تؤذوهم ، ولا تدخلوا عليهم في منازلهم إلاّ بإذن ..."[٨٠] .

ونجد في هذه الرواية أن الأوامر لجند المسلمين لم تقتصر على عدم دخول المسلمين البيوت إلاّ بإذن أصحابها ، وإنما عدم إيذائهم في مدينتهم بشكل عام ، سواء كان ذلك بالجلوس في الطرقات ومؤاذاة المارة أم التصنت على السكان في بيوتهم ومراقبتهم ، أو كشف عوراتهم ، وهذا يعني الحفاظ على حرية العيش لأهل الذمة .

ووجدت بيوت خالية من سكانها أثناء الفتوحات تركها أصحابها وفروا منها خوفاً من المسلمين ، وما قد يتعرضون له بحسب رأيهم ، ورغم هذا نجد المسلمين هنا لا يحلون لأنفسهم هذه البيوت الخالية من سكانها وما فيها من ممتلكات ، وإنما تركت حتى يعود أصحابها إليها[٨١]، وصار لزاماً على المسلمين حمايتها من أي طامع أو معتدٍ ، وكان هذا هو تعامل المسلمين مع بيوت أهل الذمة في معظم بلاد الشام .

أما بيوت دمشق فسنتوقف عندها قليلاً ، ونتناول الخلاف بين المؤرخين حولها ، فنجد الطبري[٨٢] يورد رواية عن سيف بن عمر التميمي دون إيراد بنود الصلح أو العهد ، لكنه يذكر بأن الصلح مع أهل دمشق " كان على المقاسمة ، الدينار والعقار " وأخذ بهذه الرواية العديد من المؤرخين[٨٣] .

أما البلاذري[٨٤] فقد أورد رواية انفرد بها ، تضمنت العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد رضى الله عنه لأهل دمشق " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها وأعطاهم أماناً على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلاّ بخير إذا أعطوا الجزية " ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إننا نجده ينفي مسألة المناصفة المذكورة وتمثل ذلك في قوله : " وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم ، وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي : قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ، ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية ، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون "[٨٥] .

وأمام هذا التباين بين ما ورد عند المؤرخين حول هذا الأمر ، فإننا نميل إلى ما ذكره البلاذري لاعتبارات عدة هي :

- إن هذا العهد لا يختلف عن العهود التي منحت لأهل الذمة في مدن الشام كافة .

- لماذا يتم تقسيم دور أهل دمشق دون غيرهم من أهل الذمة في مدن الشام ؟ وما هو الجرم الذي قاموا به حتى يتم تقسيم أموالهم ودورهم ؟

- إذا أقر أهل الذمة بالجزية وسُلمت للمسلمين بعد الفتح ، صار لهم حقوق كما نص العهد وبحسب الشرع بأن أهل الذمة الذين يعطون الجزية " لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم "[٨٦] فكيف للمسلمين أن ينتهكوا العهود ويقاسموا أهل الذمة في دمشق أموالهم وبيوتهم ، وهذا يُعد مخالفة للشرع الإسلامي ولأهداف الفتوحات .

- إن كتب الفتوح لم تشر إلى المناصفة[٨٧] .

ويبدو أنه حدث خلط بين الرواة حول هذا الأمر ، فالبيوت التي نزل فيها المسلمون كانت خالية من سكانها كما ذكرنا سابقاً ، ولو كانت عامرة بأصحابها لما نزلها المسلمون على الإطلاق ، فلم تذكر المصادر التاريخية بأن المسلمين أخرجوا أصحاب تلك البيوت عنها بالقوة ، وتمت مصادرتها ، ولو حدث مثل هذا لذكرت ذلك .

وبالنسبة لحمص فقد أورد الطبري[٨٨] أيضاً أن المسلمين صالحوا أهل حمص " على انصاف دورهم ، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لا ينزلونه عليهم ، فتركوه لهم " . ونجد أن هذا تكرار لما ذكره عن صلح دمشق ، والشيء الجديد فيما أورده عدم المناصفة في أموالهم، وترك أموال الروم وبيوتهم لأهل حمص .

ونحن لا نميل إلى ما أورده الطبري لأنه يتناقض مع ما ورد في بقية المصادر[٨٩] ومنها فتوح البلدان[٩٠] ، الذي ذكر أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص " أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد " . أما الأزدي[٩١] فذكر أن أبا عبيدة كتب لهم " كتاباً بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ..." .

إن عهود الصلح التي عقدها المسلمون مع أهالي مدن الشام لا اختلاف بينها من حيث المضمون والذي منه الأمان لبيوتهم وعدم نزولها ومصادرتها ، وإن اختلف مانحها .

وفي بعض الأحيان ولظروف خاصة تستدعي ذلك يضطر المسلمون إلى إخلاء السكان من دورهم إذا اقتضى الأمر مثلما حدث مع سكان مدينة عرب سوس ، والسبب الذي جعل عمير بن سعد يقوم بهذا العمل أنها كانت عبارة عن مركز تجسس للروم على المسلمين مما ألحق الأذى بهم ، وقبل قيام عمير بذلك استأذن الخليفة : " يا أمير المؤمنين بيننا وبين عدونا مدينة يقال لها عرب سوس يُطلعُ عدونا على عوراتنا ويفعلون ويفعلون ، فقال عمر : خيّرهم بين أن ينتقلوا من مدينتهم وتعطيهم مكان كل شاه شاتين ، ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فإن فعلوا فاعطهم ذلك ، وإن أبوا فانبذ إليهم على سواء ثم اجلهم سنة "[٩٢] .

ولما عرض عمير أمر الخليفة على سكان عرب سوس رفضوا ، فاضطر إلى إخراجهم بالقوة وصاحب إخراجهم حدوث أضرار في دورهم ، فوصلت الأخبار إلى أمير المؤمنين فلم يسامحه وضربه بالدرة[٩٣] . وما قام به عمير شيء طبيعي أن يصاحب عمله ضرر سواء للسكان أو البيوت نتيجة لرفضهم ، ومع ذلك لم يغفر له الخليفة للأذى الذي لحق بأهل الذمة ، وهذا يمثل قمة الأخلاق في التعامل والمحافظة على شعور أهل الذمة.

والإجلاء لم يكن دائماً وإنما كان مؤقتاً ومحدداً بمدة زمنية (لمدة عام) ، ثم يسمح لهم بالعودة ، ولم يذكر بأن المسلمين قد نزلوا هذه البيوت خلال مدة الإجلاء ، وإنما ظلت خالية ، وربما كلف من المسلمين من يحرسها حتى عودة أصحابها .

وقد كفلت العهود أيضاً حماية أراضي أهل الذمة فلا يجوز الاستيلاء عليها أو مصادرتها أو الاعتداء عليها ، وأولاها الخلفاء جل اهتمامهم من خلال المتابعة لما يجري في بلاد الشام ، وقد ذكرنا سابقاً رسالة أبي بكر الصديق رضى الله عنه لأبي عبيدة بن الجراح يطلب منه منع أي فساد قد يلحق بأراضي الداربين ، ويعلمه أن أهلها أحق بزراعتها ، وأنه بعث أيضاً برسالة إلى الداربين يطمئنهم على أراضيهم بمنع المفسدين عنها .

ولم يكتف المسلمون بذلك ، بل نجدهم يحافظون على أشجارها من الاعتداء عليها . فعندما كان أبو عبيدة بن الجراح في شيزر كانت عبيد المسلمين تأتي بالأحطاب من أشجار الزيتون والرمان وغيرها من الأشجار ، فلما علم أنكر عليهم ذلك وقال : " ما هذا الفساد ، فقالوا : أيها الأمير إن الأحطاب متباعدة منه ، وهذه الأشجار قريبة ، فقال الأمير أبو عبيدة : عزيمة مني على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمار لأجازينه ولأنكلن به ، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالأحطاب من أقصى الديار "[٩٤] .

ومثال آخر يؤيد ذلك نلمسه فيما ذكر عن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فأثناء وجوده في الجابية جاء إليه رجل من أهل الذمة يشكو إليه قيام بعض المسلمين بالتعرض لعنبه ، فسارع الخليفة عندها إلى مزرعة ذلك الذمي ولما تأكد بنفسه من ذلك الأمر بعد رؤيته أحد المسلمين يحمل عنباً أمر " لصاحب الكَرْم بقيمة عنبه "[٩٥] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الخليفة " تبرأ إلى أهل الذمة من معرة الجيش "[٩٦] واستخدام الخليفة كلمة معرة يعني أنه نظر إلى ذلك الفعل أنه من الأفعال المستقبحة والمكروهة لدى المسلمين لأن ذلك هو مدلول تلك الكلمة كما يذكر ابن منظور[٩٧] .

والأمثلة السابقة توضح دور الجانب الرسمي في المحافظة على أراضي أهل الذمة وما تحويه من أشجار وثمار ، أما على المستوى الشخصي فيتضح ذلك فيما قام به أبو الدرداء رضى الله عنه حيث كان ينزل في قرية لأهل الذمة ولا يزيد أثناء جلوسه فيها عن شرب مائهم والاستظلال بأشجارهم وعندما ترعى دابته في كلائهم كان يعطيهم مالاً مقابل ذلك[٩٨] .

ومما يذكر أيضاً أن أبا هريرة قال لرجل يريد الغزو : " لا تطأ حرفاً وتطلع شرفاً إلا بإذن إمامك، وإياك والمخلاة ... من أموال أهل الذمة ثم تقول : أنا غازٍ .. ثم لقي الرجل ابن عباس، فقال له مثل ذلك "[٩٩] .

وهنا نلاحظ إلتزام المسلمين على المستويين الرسمي والفردي لحماية أراضي أهل الذمة واحترام ملكيتهم لها بما تحويه من ثمار وكلاءٍ ، وأن العلماء كان لهم دور كبير في التزام بقية المسلمين بتلك الأمور وأن الأمر لم يقتصر على ما ورد في العهود فقط .

ومثلما كانت هناك أراضٍ مملوكة لأهل الذمة ، كانت هناك أراضٍ غير مملوكة من قبلهم أو غيرهم ، وأيضاً كانت توجد أراضٍ تعود ملكيتها إلى الروم قادة وأفرادا ، وأثناء الفتوحات الإسلامية تركوها فصارت ملكيتها للمسلمين ،فتم توزيعها على المسلمين لبناء مساكن لهم ، بعد تخطيطها وتقسيمها فيما بينهم ، كما حدث في حمص[١٠٠] .

وبالنسبة للأراضي التي كانت تعود ملكيتها للدولة الرومانية فقد كان لها وضع خاص ، حيث تم إقطاعها للجنود المسلمين على سبيل المنفعة ، وليس على سبيل التملك ، والسبب الذي جعل القيادة في بلاد الشام تتجه نحو هذا أن القوات الرومانية كانت تُغير على سواحل بلاد الشام من تلك المناطق ، فاضطر المسلمون إلى مهاجمتها ، وعندما فر الروم منها تم إقطاعها للمسلمين وذلك أواخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان رضي الله عنهما[١٠١] .

والإقطاع (من أقطع) يعني إعطاء المسلمين أراضٍ غير مملوكة لأهل الذمة ، وقد يقول البعض أن هذا مخالف للعهود ، وحتى لا يلتبس الأمر نحب أن نوضح أمرين حتى تتضح الصورة عن أراضي بلاد الشام :

الأول : أن الأراضي التي فُتحت عنوة هي ملك المسلمين الفاتحين ، يتم تقسيمها بينهم ، ولكن هذا لم يتم لأن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه رفض تقسيمها ، لأنه كان يرى أن ذلك يؤدي إلى

حرمان من يأتي بعدهم من المسلمين حيث بعث برسالة إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه الذي طالبه المسلمون بتقسيم الغنائم ومنها الأراضي عند فتح العراق : " .. ما أجلب الناس عليك من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمال ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها فيمن حضر لم يكن لمن يجيء بعدهم شيء "(١٠٢)

الثاني : إن الأراضي التي فتحت صلحاً تكون لأهلها وللمسلمين الخراج فقط(١٠٣) .

حرية المتاجرة والكسب :

ومن الحقوق التي كانت لأهل الذمة والتي تمتعوا بها في عهد حكم المسلمين حرية المتاجرة والكسب مهما بلغت ثرواتهم فلا يتم التعرض لتجارتهم سواءً تلك التي مع المسلمين أو تلك التي تخصُّهم في نوعها والمتاجرة فيما بينهم .

فسبق وذكرنا أن أهل بعلبك ربحوا أموالاً كثيرة من البيع والشراء مع المسلمين ، فلم يتدخل المسلمون في شئونهم بعد ربحهم تلك الأموال أو أظهروا الرغبة في المقاسمة ، لأن ذلك رزقهم لا يجوز مشاركتهم فيه طالما وهم ملتزمون بتأدية الواجبات المالية التي عليهم(١٠٤) .

وهو ما افتقدوا وجوده لدى حاكم المدينة الروماني المسيحي الذي سعى إلى مقاسمتهم تلك الأرباح مما جعلهم يثورون عليه ، ويقومون بقتله مع جنده(١٠٥) .

ومما يندرج أيضاً ضمن حرية المتاجرة لأهل الذمة بعد الفتح حرية بيع وشراء الخمور ، رغم أنها تُعد من المحرمات عند المسلمين ، فقد وجدت محلات تجارية لبيع الخمور لأهل الذمة .

ومما يذكر عن ذلك أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ثقب قطارة تحمل خمراً لأحد تجار أهل الذمة ، ولما علم والي الشام معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه بذلك شكاه إلى الصحابي الجليل أبي هريرة وطلب منه أن يمنع عبادة من تكرار ذلك الفعل لأنه :" يغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم "(١٠٦) .

ويفهم من هذه الرواية أن أمير الشام رأى بحكم ولايته جواز متاجرة أهل الذمة للخمور فيما بينهم لإدراكه في الغالب أنها من خصوصياتهم وتدخل في حرياتهم الشخصية من دون أن يعني ذلك علاقة الأمر بتوجيهات أو وصايا الخليفة عثمان رضى الله عنه .

حرية التقاضي والعدل :

لم يتدخل المسلمون في شئون أهل الذمة فيما يخص المنازعات بينهم ، احتراماً لخصوصياتهم الدينية المرتبطة بذلك الأمر وتركوا لهم حرية القرار ، كما التزموا بإنفاذ العدل في الحالات التي يكون فيها التنازع بين مسلم وذمي . ففيما يخص حرية التقاضي يذكر ابن أعثم[١٠٧] بأن امرأة نصرانية اختلفت مع ابن عمها فاحتكما إلى عياض بن غنم في شيء كان بينهما فقضى عياض على المرأة بالحق . ويبدو أنها قبلت حكمه ولم يذكر المصدر خلاف ذلك مما يرجح أنها قبلت حكمه ولم تعترض عليه لأنه أحق الحق وأبطل الباطل وهذا يؤكد على عدل المسلمين في أحكامهم ، ولو لم يكونوا كذلك لما احتكما إليهم وكان بإمكانهما أن يذهبا إلى كبار أهل ملتهم للتقاضي أمامهم .

أما فيما يخص التزامهم العدل عندما يكون النزاع بين مسلم وذمي فتتمثل أولى شواهد ذلك في شكوى تقدم بها رجل يهودي لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عندما قدم الشام ضد أحد المسلمين فقال : " يا أمير المؤمنين إن رجلاً من المسلمين صنع بي ما ترى ـ وهو مشجوج مضروب ـ فغضب عمر غضباً شديداً ثم قال لصهيب : انطلق فانظر من صاحبه ، فأتني به ، قال : فانطلق صهيب فإذا هو عوف بن مالك الأشجي ... فقال له عمر : مالك ولهذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع ، فلم تصرع فدفعها فصرعت ـ فغشيها ـ أو أكب عليها ، قال : أئتني بالمرأة فلتصدق ما قلت ، فأتاها عوف بن مالك ، فقال أبوها وزوجها : ما أردت إلى صاحبتنا ؟ قد فضحتنا ، فقالت : والله لأذهبن معه ، فقال أبوها وزوجها : نحن نذهب فنبلغ عنك ، فأتيا عمر فأخبراه بمثل قول عوف فأمر باليهودي وصلب ، وقال : ما على هذا صالحناكم "[١٠٨] .

لقد غضب أمير المؤمنين من الصحابي عوف بن مالك لما رأى ما وقع لليهودي ، ومثل هذا الغضب مطلوب عندما يرى الظلم يقع على إنسان ، فأراد إنصافه ممن اعتدى عليه مهما كانت مكانته لأنه مسئول عن إقامة العدل ، ولما اتضحت الحقيقة أمر الخليفة بقتل اليهودي وصلبه لأنه انتهك حرمة المرأة المسلمة ، وهذا مخالف لما صولحوا عليه .

وماذا لو ارتكب عوف عمله هذا ظلماً وعدواناً ، هل ممكن لأمير المؤمنين أن يسامحه ويتجاوز عن جرمه ؟ وللإجابة نقول : لا ، لأنه في هذه الحالة يُعد ظالماً ومخالفاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في عدم إقامة العدل بين الناس .

وعندما تثبت القرائن على مخالفة أي إنسان يجب القصاص منه بحسب جرمه وإن كان صحابياً مثل عبادة بن الصامت رضى الله عنه الذي " دعا نبطياً يمسك له دابته عند بيت المقدس ، فأبى فضربه فشجه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فقال له : ما دعاك إلى ما صنعت بهذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أمرته أن يمسك دابتي فأبى ، وأنا رجل في حدة فضربته ، فقال: اجلس للقصاص ، فقال زيد بن ثابت : أتقيد عبدك من أخيك ؟ فترك عمر القود وقضى عليه بالدية "(١٠٩) .

فعلى الرغم من مكانة عبادة إلاَّ أن الخليفة لم يتركه بدون عقاب إحقاقا للحق وإنصافاً للمظلوم .

ومثلما وجد من المسلمين من تكون طباعهم حادة تؤذي الناس بغير حق ، فقد وجد منهم من يحرص على عدم إيذاء أهل الذمة حتى بالكلمة ، حفاظاً على مشاعرهم ، والرفق بهم واللين معهم ، فقد رفض عمير بن سعد أن يجدد له العهد بولاية حمص ، وكان رده لعمر رضى الله عنه :" إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك ،والله ما سلمت بل لم أسلم ، لقد قلت لنصراني أخزاك الله ، فهذا ما عرضتني له يا عمر "(١١٠) .

لقد عدَّ عمير كلمة أخزاك الله للنصراني بمثابة جريمة ارتكبها ، وأراد أن يمحي آثارها بعدم الموافقة على تجديد ولايته ، وهذا يدل على المستوى الأخلاقي الرفيع في المحافظة على شعور رعاياهم ، وإذا كان الإحساس بالذنب من كلمة فهل من المعقول أن يعتدى على حقوق أهل الذمة في ظل أمثال هؤلاء الولاة .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء والولاة في إقامة العدل بين رعاياهم من أهل الذمة ، بل شاركهم العلماء ، لأن رفع الظلم مسئولية الجميع ، فقد مرَّ قس فلعنه بعض المسلمين ، فسمع أبو الدرداء فقال : " من هذا الذي لعنتم آنفاً ؟ فقالوا قس مرَّ بنا فأعجبنا سمنه ، قال : فلا تفعلوا ، فإنه لا ينبغي للعان أن يكون عند الله صديقاً "(١١١) .

وإذا وجد من يجهل بما أمر الله به ، فقد وجد من يردهم إلى الصواب ، لأن الإسلام يأمرهم بهذا وينبغي العمل به وعدم مخالفته .

ومن عدل المسلمين لرعاياهم من أهل الذمة احترام رغباتهم الشخصية كونها من حقوقهم التي

يجب أن تصان ويحافظ عليها ، فقد رأى عياض بن غنم في الرها امرأة نصرانية تتمتع بالحسن والجمال ، فلم يعط لنفسهُ الحق في التعرض لها بل عرض عليها الزواج ، فوافقت بشرط الاحتفاظ بدينها ، فأعرض عنها وتركها ، وهذا السلوك الحسن جعل تلك المرأة تحبه وتوده ، حتى أنها رفضت من تقدم لخطبتها بعده ، وظلت توده حتى أنها كانت تصنع له الطعام وترسله إليه ، فيقبل منها ويبادلها نفس الود حتى أنه وهب لها جارية لتكون خادمة لها(١١٢) .

ومن عدل المسلمين ووفائهم وأمانتهم في الإيفاء بالعهود أن جعلت موقف سكان بلاد الشام يتغيرون في موقفهم من العداء والحقد المفرط ضد المسلمين إلى إظهار المودة لهم وإبداء استعدادهم مشاركتهم حرب الروم ، فنجد أن أهل حمص قبل دخول المسلمين إليها يحملون في قلوبهم الحقد والكره الشديد لهم ، لدرجة أنهم هموا برمي الرسول الذي يحمل إليهم رسالة أبو عبيدة بالسهام والحجارة وهو نصراني على دينهم(١١٣) ، فما الذي جعلهم يتغيرون بهذه الصورة ويصيرون قلباً واحداً مع المسلمين،ومثلما كانوا متحمسين لقتال المسلمين ، صاروا بنفس الحماسة والشدة مدافعين عنهم ويعملون معهم ، أليس العدل والأمن وصون ممتلكاتهم والحرية التي وجدوها مع الإسلام والمسلمين وافتقدوها مع أبناء جلدتهم وعقيدتهم .

ولذلك تحمل أهل الذمة لواء المعارضة ضد الروم ، فقد تعاهد أهل حمص بعد انسحاب المسلمين منها على مقاتلة جيش هرقل إذا حاول اقتحام المدينة ، وأقسم اليهود بأن لا يدخل الروم المدينة " والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود "(١١٤) .

والذي جعلهم يفعلون هذا ويقفون إلى جانب المسلمين ، الخوف من الرجوع إلى عهد الظلم والتعسف الرومي بعد أن عاشوا في جوٍّ يسوده العدل والحرية في عهد المسلمين .

واجبات أهل الذمة :

تحدثنا عن الحقوق (الحريات) التي تمتع بها أهل الذمة في بلاد الشام بعد الفتح ، ولابد أن نتعرف على الواجبات التي كانت عليهم فقد كان من الواجب عليهم الالتزام بواجبات مالية وغير مالية أما فيما يخص المالية فتتمثل في الآتي :

الجزية :

هي موضوعة على رؤوس أهل الذمة ، وتجب على الرجال الأحرار العقلاء ، وتسقط الجزية عنهم بالإسلام[١١٥] . وأموال الجزية هي مقابل الحماية والدفاع عنهم[١١٦] .

وعندما لا يفي المسلمون بما تم في الصلح مع أهل الذمة ، مثل حمايتهم والدفاع عنهم تسقط الجزية عنهم ولا يجوز أخذها ، وطبق هذا المبدأ أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه الذي أمر سويد بن كلثوم القرشي أن يرد على أهل الذمة في دمشق ما كان اجتبى منهم ، فرد عليهم ما كان أخذ منهم وقال لهم : " نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم أماناً ومتمون لكم ما كنا صالحناكم عليه "[١١٧] .

ولم يقتصر الأمر على دمشق عندما انسحب المسلمون منها إلى اليرموك لمواجهة الروم ، بل أمر أبو عبيدة بن الجراح عند الانسحاب أيضاً من حمص لنفس السبب حبيب بن مسلمة المتولي لخراج حمص برد أموال أهل الذمة الذين كانوا قد صالحوا المسلمين : " اردد على القوم الذين كنا قد صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم ، فإنه لا ينبغي لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً وقل لهم : نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح ، لا نرجع عنه ، وإنما رددنا عليكم أموالكم أنا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم "[١١٨] ، فدعا حبيب الناس ورد عليهم ما أخذ منهم من مال وأخبرهم بما قاله أبو عبيدة .

وأمام الوفاء عند المسلمين في المحافظة على عهودهم ، ونتيجة لهذا الموقف النبيل والأخلاق الفاضلة ، كان رد فعل أهل حمص أن قابلوا الإحسان بالإحسان والوفاء بالوفاء ، فقالوا للمسلمين : " ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا ، لا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا "[١١٩] . وفي رواية أخرى قالوا : " لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم "[١٢٠] .

واختلف الفقهاء في قدر الجزية فكان يؤخذ في البداية على كل رجل من أهل الذمة ديناراً وجريباً[١٢١] (من الحنطة)[١٢٢] ، " ثم وضعها عمر رضى الله عنه أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعين درهماً على أهل الورق[١٢٣] ، وجعلهم طبقات ، لِغِنَى الغَني ، وإقلال المُقِلّ ، وتوسُّط المتوسط "[١٢٤] ، وتسلم الجزية آخر السنة ولا يجوز مطالبتهم بها قبل ذلك ، وفي حالة عدم القدرة على دفعها للمسلمين لا يجوز تعذيبهم ولا حبسهم ولا ضربهم على إيدائها[١٢٥] .

ويستثنى من دفع الجزية النساء والصبيان[١٢٦] ، وكذلك المسكين الذي يتصدق عليه ، والأعمى الذي لا حرفة له ولا عمل ، والفقير ، والمترهبون المساكين ، والشيخ الذي لا يستطيع العمل ، وكذلك المجنون[١٢٧] .

إن من عدالة الإسلام مراعاة ظروف أهل الذمة المادية ، فلم يجبر المساكين والفقراء منهم على دفع الجزية ، واستثنى أيضاً النساء والصبيان والمجانين من دفعها . ومع ذلك تهتم الخلافة الإسلامية بهؤلاء وغيرهم إذا اقتضت الحاجة ذلك ، فعندما مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم مجذومين من النصارى في بلاد الشام " أمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت "[١٢٨] .

فقدمت لهم مساعدة عاجلة لتدبير معيشتهم ، إضافة إلى تقديم الأرزاق لهم طوال حياتهم وهذا يمثل قمة العدل في تقديم ما يحتاجه رعايا الدولة من أهل الذمة ، فلم يكن هم المسلمين جمع الأموال دون مراعاة لظروف رعاياهم لأن الإسلام لا يأمر بذلك لأن الهدف هو الدعوة وليس الجباية .

الخراج :

هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها[١٢٩] .

وأراضي الخراج نوعان :

الأول : أراض فتحت عنوة فهي فيئ المسلمين ، يؤدي أهلها الخراج إلى الدولة (الإمام) .

الثاني : أراض افتتحت صلحاً على خراج معلوم[١٣٠] .

أما الواجبات الأخرى غير المالية فتتمثل في الآتي :

ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له ، وألا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء ، وألا يتعرضوا لدين الإسلام بذم له ولا قدح فيه ، وألا يزنوا بمسلمة، وألا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ، وألا يعينوا العدو ومن يناصره على المسلمين[١٣١] وألا يجتمعوا على قتال المسلمين[١٣٢] .

ونخلص في نهاية البحث إلى الآتي :

أن الإسلام حفظ لأهل الذمة حقوقهم ، وبيّن طريقة التعامل معهم من خلال النصوص الشرعية، ووصايا الخلفاء لقادة الفتح في كيفية التعامل مع سكان بلاد الشام ، وتعامل المسلمين أثناء الفتوحات مع سكان بلاد الشام لم يخرج عن النصوص الشرعية ووصايا الخلفاء، فكانت عهود الصلح التي عقدها المسلمون معهم بمثابة تطبيق عملي لما ورد في تلك النصوص والوصايا ، وكان تعامل أهل الشام مع المسلمين حسن ، فقد وجد تعاون وثيق بين الجانبين مبني على الاحترام ، ففتحت الكثير من المدن أبوابها للمسلمين ، وأحسنت استقبالهم ، وبعد الفتح وجدت الألفة بين المسلمين وأهل الذمة ، لأن التعامل كان مبنياً على عقود صلح التزم فيها الطرفان ، وصار بموجبها لأهل الذمة حريات وحقوق يتمتعون بها مثل حرية الاعتقاد ، والحرية السياسية ، وحرية المتاجرة والكسب ، وحرية التقاضي والعدل ، وكانت عليهم واجبات مالية مثل الجزية والخراج وواجبات أخرى تجاه الإسلام والمسلمين .

الهوامش

١- الأنبياء ، آية ١٠٧.

٢- النور ، آية ٥٤.

٣- البقرة ، آية ٢٥٦.

٤- النحل ، آية ١٢٥ .

٥- التوبة ، آية ٢٩.

٦- أبو داود ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) : السنن ، جـ٣، ص ٤٣٧، باب الإمارة، حديث رقم ٣٠٥٢ ، إعداد وتعليق / عزت عبيد الدعاس ، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، دار الحديث، حمص، سورية. انظر أيضاً القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) : الجامع لأحكام القرآن، جـ٨، ص ١١٥، صححه أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، ١٣٧٢- ١٩٥٢م.

٧- النحل، آية ٩٠.

٨- النساء، آية ٥٨.

٩- الازدي، محمد بن عبد الله (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) : فتوح الشام، ص ١٢، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م. انظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م) : كتاب الفتوح، جـ١، ص ٨٢، تحقيق علي شيري، ط١/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دار الأضواء، بيروت.

١٠-البقرة، آية ٣٠.

١١-الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) : جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري ، جـ١، ص ٢٣٧، ط١/ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

١٢-ابن عساكر، أبو القاسم علي بن هبة الله الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) : تاريخ مدينة دمشق، جـ١١، ص ٦٦، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٣-اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام ببيت المقدس [ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص٢١٢ ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م].

١٤-من قرى بيت المقدس ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٨٠ .

١٥-ابن عساكر : تاريخ دمشق، جـ١١، ص ٦٦.

١٦-ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) : سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٦٧، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار التقوى، شبرا الخيمة، منشية الحرية، القاهرة.

١٧-القرشي، يحيي بن آدم (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) : الخراج، ص ٤٦٤، صححه أحمد محمد شاكر، دار الحداثة، بيروت، لبنان.

١٨-الطبري: تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، جـ٥، ص ٢٤٤ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

١٩-الأزدي: فتوح الشام، ص ٨٢. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) : تاريخ خليفة بن خياط، ص ١١٩، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار طيبة، الرياض. البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) : فتوح البلدان، ص ١٥٥، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) : الكامل في التاريخ، جـ٢، ص ٢٦٥، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠-الطبري: تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٤٣٧.

٢١-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧. انظر أيضاً: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ٢٨، ص ١٣٥-١٣٦.

٢٢-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٨.

٢٣-ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ١، ص ١٢٦.

٢٤-مدينة كبيرة من أعمال حمص ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٥٦ .

٢٥-ولاية بين حلب وأنطاكية ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٦٥ .

٢٦-مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٠٤ .

٢٧-بلدة بين المعرة ومدينة حلب ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٠ .

٢٨-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٧١- ٧٢.

٢٩-الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) : فتوح الشام، جـ١، ص ٩٣، ط٤، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٣٠-المصدر نفسه ، ج١، ص ١٠٥.

٣١-المصدر نفسه، ج١ ، ص ٩٣.

٣٢-المصدر نفسه والصفحة .

٣٣-الواقدي: فتوح الشام ، ج١، ص ٩٣- ٩٤.

٣٤-المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٤.

٣٥-المصدر نفسه، ج١، ص ٧١.

٣٦-الواقدي : فتوح الشام ، ج١، ص ١٥.

٣٧-المصدر نفسه، ج١، ص ١٥.

٣٨-المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥.

٣٩-الازدي: فتوح الشام، ص ١٧٥.

٤٠-قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماه يوم ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣، ص٣٨٣ .

٤١-الواقدي: فتوح الشام، ج١، ص ١٧٣.

٤٢-المصدر نفسه، ج١، ص ١٧٣.

٤٣-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٨.

٤٤-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٥.

٤٥-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٧.

٤٦-المصدر نفسه، ص ١٨٧.

٤٧-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ١٦٨.

٤٨-المصدر نفسه، جـ١، ص ١٦٨.

٤٩-ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ١، ص ١٩٩.

٥٠-غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١٤١، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٥١-البقرة آية ٢٥٦ .

٥٢-الثغامة : الثغام حلي الجبل يكون ابيض ، فإذا يبس أبيض ابيضاضاً شديداً فشبه الشيب به [ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) : لسان العرب ، ج١ ، ص٣٦١ ، مادة ثغم ، قدّم له الشيخ / عبد الله العلايلي ، إعداد وتصانيف / يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت] .

٥٣-ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٨، ص ٣٨٩.

٥٤-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٥.

٥٥-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٩.

٥٦-المصدر نفسه والصفحة .

٥٧-البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٧.

٥٨-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧. الطبري: تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٤٣٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٨، ص ١٣٥- ١٣٦.

٥٩-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٩.

٦٠-الحاضر في الأصل خلاف البادي والحاضر الحي العظيم ياقوت : جم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠٦.

٦١-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٧.

٦٢-المصدر نفسه، ص ١٩٧.

٦٣-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ١٩٠.

٦٤-لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ص ٨، نقله إلى العربية / عجاج نويهض ، ط٣، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، دار الفكر. فيليب حتي وآخرون: تاريخ العربالمطول، جـ١، ص ٢٠٦، ط٤ / ١٩٦٥م، دار الكشاف، بيروت.

٦٥-ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص ٢٦، ص ٢٨.

٦٦-ل.أ. سيديو: تاريخ العرب العام، ص ١١٦، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ط٢ / ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٧-جرجي زيدان: تاريخ التمدن العربي، جـ١، ص ٨١، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٨م.

٦٨-حضارة العرب، ص ١٣٤.

٦٩-ريتشارد.أ.ساليفان: ورثة الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٣، ترجمة د جوزيف نسيم، ط١ ١٩٨٥م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٧٠-لوثروب: حاضر العالم الإسلامي، جـ١، ص ١٣- ١٤. وانظر أيضاً، لوبون: حضارة العرب، ص ١٣٥.

٧١-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٧٢-المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٥٢ - ٢٥٣ .

٧٣-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٧٤-الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص٩٩ - ١٠٠ .

٧٥-المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

٧٦-ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ص٧٣ .

٧٧-تاريخ التمدن الإسلامي ، ج١ ، ص٨١ .

٧٨-ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م) : الأموال ، ص٧٢ ، تحقيق مؤسسة ناصر للثقافة، ط١ / ١٩٨١م ، بيروت . لبنان .

٧٩-المصدر نفسه والصفحة .

٨٠-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٨١-الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٢٦٠ - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٠ ، ص١٢٦ - ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص٢٨١ - الذهبي . محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٤٣٦ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٨٢-تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٢٦٠ .

٨٣-ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٠ ، ص١٢٦ - ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص٢٨١ - الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص٢٢ - ابن كثير . إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : البداية والنهاية، ج٤ ، ص٢٠-٢١ ، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

٨٤-فتوح البلدان ، ص١٦٦ .

٨٥-البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٦٨ .

٨٦-القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٨ ، ص١١٢ .

٨٧-الأزدي : فتوح الشام ، ص١٠٦ - الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص١٠٦ - ابن أعثم : كتاب الفتوح، ج١ ، ص١٦١ .

٨٨-الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٤٣٦ .

٨٩-الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص١٤٣ . ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢١٦ . ابن الأثير : الكامل ، ج١ ، ص٢٨١ .

٩٠-البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٩ .

٩١-فتوح الشام ، ص١٤٦ .

٩٢-الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٥٦٠ .

٩٣-المصدر نفسه والجزء والصفحة .

٩٤-الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٧٥-٧٦ .

٩٥-ابن سلام : الأموال ، ص٧٢ .

٩٦-المصدر نفسه والصفحة .

٩٧-لسان العرب ، ج٢ ، ص٥ ، مادة : (قبح) .

٩٨-ابن سلام : الأموال ، ص٧٢ .

٩٩-المصدر نفسه والصفحة .

١٠٠- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٩ ,

١٠١- المصدر نفسه ، ص١٧٣ ، ٢٠٢ .

١٠٢- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) : أحكام أهل الذمة ، ج٣ ، ص١٢٠٢ ، تحقيق / أبو براء يوسف بن أحمد البكري ، أبو أحمد شاكر بن توفيق الهاروري ، ط١ / ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، رمادي للنشر ، الدمام ، السعودية ، توزيع دار ابن حزم ، بيروت .

١٠٣- البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢٠١ .

١٠٤- الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٩٣ .

١٠٥- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٣-٩٤ .

١٠٦- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٦ ، ص١٩٧-١٩٨ .

١٠٧- ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

١٠٨- ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج٤ ، ص٢١٢ .

١٠٩- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) : السنن الكبرى، ج٨، ص٣٢، دار الفكر د. ط د . ت . ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٩ ، ص٢٩٧ .

١١٠- ابن الجوزي ، أبوالفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) : صفة الصفوة ، ج١ ، ص٢٩٩ ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت .

١١١- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤٧ ، ص١٨٧ .

١١٢- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٥٣ .

١١٣- الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٩٥ .

١١٤- البلاذري : فتوح البلدان ،ج١ ، ص٩٥ .

١١٥- الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص١٨١-١٨٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

١١٦- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٨ ، ص١٣ .

١١٧- الأزدي : فتوح الشام ، ص١٦٠ .

١١٨- المصدر نفسه ، ص١٥٥-١٥٦ .

١١٩- المصدر نفسه ، ص١٥٦ .

١٢٠- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٨٧ .

١٢١- الجريب : مكيال قَدْرُه أربعة أقفزة ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٤٢٩ ، مادة جرب.

١٢٢- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٠ . الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٤٢٦ . ابن أعثم: كتاب الفتوح ، ج١ ، ص١٧٠ .

١٢٣- الفضة ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص٩١٢ ، مادة ورق .

١٢٤- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٠ . انظر أيضاً : ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص٧٤، دار الحداثة ، بيروت . لبنان .

١٢٥- ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ج١ ، ص١٣٥ .

١٢٦- ابن ادم : كتاب الخراج ، ص٤٦٣ . انظر أيضاً : ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ج١، ص١٣٧.

١٢٧- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/٧٩٨م): كتاب الخراج، ص٥٢-١٥٢، ط١ / ١٩٩٠م، دار الحداثة، بيروت . لبنان .

١٢٨- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٧ .

١٢٩- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٨٦ .

١٣٠- ابن سلام : الأموال ، ص٣١ ، ٣٨ .

١٣١- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٨٤-١٨٥ .

١٣٢- ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ،ج٣ ، ص١٣٦٦ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

- الكامل في التاريخ ، تحقيق / أبو الفداء عبد الله القاضي ، ط١ /١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

أحمد عادل كمال .

- الطريق إلى دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار النفائس ، بيروت . لبنان .

ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م).

- معالم القربة في أحكام الحسبة ، دار الحداثة ، بيروت .

ابن ادم ، يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) .

- كتاب الخراج ، صححه / أحمد محمد شاكر ، دار الحداثة ، بيروت . لبنان .

الأزدي ، محمد بن عبد الله (ت ١٧٨هـ/٧٩٤م) .

- تاريخ فتوح الشام ، تحقيق / عبد المنعم عبد الله عامر ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٠م .

ابن أعثم الكوفي ، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) .

- كتاب الفتوح ، تحقيق / علي شيري ، ط١ / ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الأضواء ، بيروت .

البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) .

- فتوح البلدان ، تحقيق / عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) .

- السنن الكبرى ، دار الفكر ، (د.ط) (د.ت) .

جرجي زيدان .

- تاريخ التمدن العربي ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) .

- سيرة ومناقب عمر بن الخطاب ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، ط١ / ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، دار التقوى ، شبرا الخيمة ، منشية الحرية ، القاهرة .

- صفة الصفوة ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) .

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق / د . أكرم ضياء العمري ، ط٢ / ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار طيبة ، الرياض .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م) .

- السنن (سنن أبي داود) ، إعداد وتعليق / عزت عبيد الدعاس ، ط١ / ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، دار الحديث ، حمص ، سورية .

الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، ط٣ /١٤٠٩هـ/١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . لبنان .

ريتشارد . أ . سايفان .

- ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة جوزيف نسيم ، ط١ / ١٩٨٥م ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م) .

- الأموال ، ط١/١٩٨١م ، بيروت . لبنان .

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

- تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، دار الفكر ، بيروت . لبنان .

- جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري : ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) .

- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق / محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي ، ط١/ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، دار الفكر ، بيروت . لبنان .

٢٣.
غوستاف لوبون .

- حضارة العرب ، نقله إلى العربية / عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فيليب حتى . ادوارد جورجي . جبرائيل جبور .

- تاريخ العرب (مطول) ، ط٤ /١٩٦٥م ، دار الكشاف ، بيروت .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) .

- الجامع لأحكام القرآن ، صححه / أحمد عبد العليم البردوني ، ط٢/١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) .

- أحكام أهل الذمة تحقيق / أبو براء يوسف بن أحمد البكري ، أبو أحمد شاكر بن توفيق الهاروري ، ط١ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، رمادي للنشر ، الدمام ، السعودية ، توزيع دار ابن حزم ، بيروت .

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .

- البداية والنهاية ، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

ل . م . سيديو .

- تاريخ العرب العام ، نقله إلى العربية / عادل زعيتر ، ط٢/١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

لوثروب ستودارد .

- حاضر العالم الإسلامي ، نقله إلى العربية / عجاج نويهض ، ط٣/١٣٩١هـ/١٩٧١م ، دار الفكر .

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) .

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .

- لسان العرب ، قدَّم له الشيخ / عبد الله العلايلي ، إعداد وتصانيف / يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت .

الواقدي ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) .

- فتوح الشام ، ط٤/١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) .

- كتاب الخراج ، ط١/ ١٩٩٠م ، دار الحداثة ، بيروت .

د .أسعد لهلالي (*)

الشيخ محمد خير الدين وجهوده في مجال التربية والتعليم في الجزائر (١٩٢٨ ـ ١٩٥٤م)

لقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تؤمن بدور التربية و التعليم في خدمة الشعب الجزائري وإيقاظه من سباته ،وحفظ تراثه ،منذ تأسيسها سنة ١٩٣١م وهي تشيّد المدارس الحرة لتعليم وتربية النشء فيتعلمون اللغة العربية و الدين الإسلامي ،كما أنّهم يتلقون معارف أخرى كالتاريخ و الجغرافيا و الحساب،وقامت الجمعية ببناء المساجد الحرة البعيدة عن السيطرة الفرنسية ليتفقّه أبناء الجزائر و ليعرفوا جيّدا تاريخ بلادهم لأنّ الاستعمار الفرنسي كان هدفه القضاء على دين و لغة وتاريخ هذه الأمة.

في ظل تلك الظروف وجد الشيخ خير الدين(*) نفسه أمام مسؤولية كبيرة خاصة بعد أن نال قسطا وافرا من العلوم و المعارف، كانت نهايتها نيل شهادة التطويع العالمية من جامع الزيتونة، لذلك عزم على منح أبناء بلاده ما تعلّمه، وأصبحت الظروف ملائمة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وانضم إلى عضويتها إلى جانب علماء أجلاّء كالإمام عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي وغيرهم ،و كلّهم عزم و إصرار للدفاع عن كيان وشخصية هذه الأمة العربية الإسلامية.

* أستاذ التاريخ المعاصر ، جامعة فرحات عباس ـ سطيف ـ الجزائر

و الحق أنّ الشيخ خير الدين قد بدأ نشاطه التربوي منذ أن عقد اجتماع الرواد سنة ١٩٢٨م حيث كلّفه الإمام ابن باديس بالوعظ و الإرشاد بمسجد فرفار(**)،والقرى المجاورة له، فكان يعلّم أبناء المنطقة مبادئ الدين و اللغة وبعدها يتوجهون نحو قسنطينة أو إلى تونس أو الجامع الأزهر لمواصلة تعليمهم في مختلف العلوم والمعارف وقد أدى هذا النشاط التعليمي إلى تنسيق العمل الإصلاحي مع جماعة من الروّاد في بسكرة أمثال الشيخ الطيب العقبي، والشيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمد العيد آل خليفة، و الأستاذ الأمين العمودي.

لقد ساهم مترجمنا في تكوين "جمعية الإخاء" وتأسيس مدرسة الإخاء للتربية التعليم ببسكرة سنة ١٩٣١م واقترح أن يكون مجلس الإدارة من أعضاء لهم علاقة بالسلطة الفرنسية كي لا تقوم بعرقلتها ،أمّا الشيخ خير الدين فقد عين ككاتب عام فقط وهذا لضمان السير الحسن للمدرسة ونشر الثقافة العربية الإسلامية(١)

ومن النشاطات التي قام بها الشيخ خير الدين في بسكرة توحيد صلاة العيدين التي كانت تؤدي في عدد من المساجد الموزعة بين المدينة القديمة و الجديدة فأصبحت تقام لجميع المصلّين ببطحاء المدينة القديمة وقد وقع اختيار الشيخ خير الدين إماما لصلاة العيدين لمدة أربع سنوات(٢).

لقد انطلق شيخنا في عمله الإصلاحي من فرفار ثم بسكرة و كان يؤمن إيمانا راسخا بدور التربية و التعليم في الحفاظ على كيان و تراث الأمة،خاصة أنّ منطقة الجنوب كانت تعاني من نشاط المرابطين، و حسبما ذكر «شارل أندري جوليان» فإن تقديرات سنة ١٩٣٩م أحصت ٤٠٠ ألف منخرط في الزوايا، نصفهم بأراضي الجنوب وقد وضعت الحكومة يدها عليها(٣)، و عندما أرست الحركة الإصلاحية أسسها ببسكرة وضواحيها ،كان العلماء الآخرون ينشطون في مناطق أخرى من الوطن و أصبح العمل أكثر تنظيما بعدما وزع الإمام ابن باديس المهام على رجال الجمعية وفق مبادئها وأهدافها.

ويبدو أن الجمعية كانت مهتمّة بالتعليم العربي و الديني، لأنّ التعليم العربي الحر كان محصورا في دائرة ضيقة بالنظر إلى أساليبه و كتبه، ولذلك فقد قامت الجمعية بجهود كبيرة لتوسيع ذلك التعليم عن طريق إنشاء مكاتب حرة للتعليم

المكتبي للصغار،وتنظيم دروس في الوعظ و الإرشاد الديني في مساجد وتنظيم محاضرات في النوادي غايتها التهذيب و شؤون الحياة العامة[٤].

والحق أنّ نشاط الشيخ خير الدين كان ينبع من صميم القلب ،ومن جروح ومعاناة أبناء أمته ،وفي إطار أهداف الجمعية ونشاطاتها تم تأسيس جمعية خيرية لإعانة الفقراء والمساكين و تعليم البنين و البنات، مقرها بسكرة كان رئيسها أصيمدة عبد القادر، أما نائبه فهو الشيخ خير الدين وقد تعمّد مترجمنا أن لا يكون الرئيس لتفادي الصدام مع السلطة الفرنسية، و كي تصادق على قانون الجمعية و هو ما تم فعلا[٥]. كما أن تنقلات الشيخ في بسكرة وضواحيها لم تتوقف خاصة إذا تعلق الأمر بوفد لجمعية العلماء و على رأسها الإمام ابن باديس ،ففي جانفي ١٩٣٨م،زار وفد الجمعية قرية القنطرة في ضواحي بسكرة ،وكان الوفد يتكون من الإمام الرئيس والشيخ مبارك الميلي و الشيخ العربي التبسي ،إضافة إلى مترجمنا، وقد ألقى الوفد خطبا في الجامع ،وعند الانتهاء خطب الشيخ خير الدين في الناس، و عرّف بالجمعية و علمائها ومبادئها و أهدافها[٦].

لقد استمر نشاط الشيخ خير الدين مع وفد الجمعية في الجنوب، فقد زار الوفد وادي سوف و طولقة، ومنها إلى بلدة سيدي عقبة و ذلك في سبيل التعريف بالجمعية وتنشيط الحركة الإصلاحية و التأكيد على أنها ليست خاصة بالشمال فقط، بل هي شاملة للقطر الجزائري ،وأنّ الجنوب من اهتمامات الجمعية ،مما أدى إلى تحرك خصوم الجمعية من مرابطين ورجال الزوايا محاولين منع العلماء من أداء رسالتهم الإصلاحية التي كان من بين أهدافها محاربة هؤلاء الخصوم الذين كانوا يعيشون في جمود وبعيدين عن واقع الأمة ومعاناتها ،كما أصبحوا أداة في يد السلطة الفرنسية[٧].

كما أن السلطة الفرنسية فطنت إلى خطر العلماء، لأنّ أصحاب الزوايا والمرابطين كان لهم دور في تحذير الإدارة الفرنسية بما أن مكانتهم أصبحت في خطر لذلك حاربت مدارس الجمعية و نواديها وحتى المساجد،فقد قامت بغلق المدرسة الحرة "دار الحديث"بتلمسان بتاريخ ٣١ديسمبر ١٩٣٧م وأعلن ذلك الإجراء رسميا يوم ٤ جانفي ١٩٣٨م،هذا الإغلاق أحدث انفعالا كبيرا ،وهلّل له أعداء الشيخ

البشير الإبراهيمي وأعداء الجمعية[٨]، حتى أنّ الجرائد في ذلك الوقت عندما أعلنت الخبر ذكرت اسم المكتب الخاص ولم تذكر المدرسة الحرة"دار الحديث"[**].

لقد ركزت السلطة الفرنسية على المدارس لكي تقيّد نشاط العلماء، فأصدر وزير الداخلية "شوتان" قرارا رسميا في ٨ مارس١٩٣٨م يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ومما جاء في ذلك القرار :<<إنّ اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية>>[٨]،وما كان لهذا القرار إلا أنّ زاد الشيخ خير الدين وزملاءه في الجمعية إصرارا على مواصلة جهودهم التربوية ،وبناءً على إحصاء عامل عمالة قسنطينة في سنة ١٩٣٨م ، كان عدد مدارس الجمعية في عمالة قسنطينة ٨٥ مدرسة تضم ٤٠٤٧ تلميذا مسجلا،ويسيرها معلمون مصلحون،أما في عمالة الجزائر فبلغ عدد مدارسها عام ١٩٣٨م ٦٨ مدرسة تضم ٩٠٦٣ تلميذا[٩].

و الحق أنّ مرسوم الثامن من مارس المشؤوم قد عرقل التعليم العربي،كما أنّ ظروف الحرب العالمية الثانية قد أثرت في نشاط الجمعية التي أوقفت نشاطاتها كي لا تستغلها فرنسا في خدمة مصالحها،وعودة التعليم جاء بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حيث خطت الجمعية خطوة كبيرة بإنشائها لأعظم معهد ثانوي في تاريخها وهو معهد عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٧م.

ويقول الشيخ خير الدين[١٠] في ذلك :<< وهنا تبلورت فكرة إنشاء معهد ابن باديس[***]، في قسنطينة ولم يكن من الممكن أن نعود إلى التعليم بالجامع الأخضر لأنه لم يكن لدينا رخصة للتعليم فيه كالتي كانت للإمام ابن باديس، فجمعنا التبرعات واشترينا دارا كبيرة كانت ملك أحد أفراد "إبن الفقون"،و أثّثنا هذه الدار وجهزناها بالطاولات والمقاعد والبسط،ووضعنا البرامج وعيّنا المدرسين الأكفّاء ،وتولى إدارة المعهد الشيخ العربي التبسي تساعده لجنة من الأساتذة>>،وقد عين التبسي مديرا للمعهد أما النائب فكان الشيخ خير الدين ،وقد حقّق المعهد نجاحا كبيرا مما أجبر الجمعية على توسيع المكان و الدخول إلى الجامع الأخضر، والجامع الكبير الممنوع التدريس فيهما وفق قرار منع المساجد على الجمعية الذي صدر في٢٧ فيفري ١٩٣٣م[١١].لكن الجمعية أصّرت على فتحهما وكان مترجمنا على رأس طلبة الجامع الكبير ، والشيخ العباس على رأس

طلبة الجامع الأخضر ،وقد تزايد عدد التلاميذ بشكل سريع بهدف الحصول على الشهادة النهائية من المعهد(****)،وهي تعادل الشهادة " الأهلية " بتونس ويحصل عليها التلاميذ بعد دراستهم في المعهد مدة ٤ سنوات(١٢).

لقد حاولت السلطة الفرنسية أن تقضي على المدارس الحرة وأن تجذب أبناء الجزائر للتعليم في مدارسها ،حيث نص المادة ٥٧ من قانون الجزائر الصادر سنة ١٩٤٧م على اعتبار اللغة العربية إحدى لغات الإتحاد الفرنسي كما أنها تدرّس في مختلف مراحل التعليم،غير أن هذا النص لم يدخل حيّز التنفيذ إلاّ في سنة ١٩٥٤م(١٣).

لم يكن الشيخ خير الدين من الذين يضعون السلاح جانبا ويستسلمون للعدو، بل بالعكس فقد واصل نشاطه التربوي ،حيث قام برحلة علمية في ربيع ١٩٤٨م إلى عمالة وهران ودشّن بها المدارس ونظّم الشعب وألقى دروس الوعظ و الإرشاد ،وفي غليزان أاستقبل مترجمنا بحماس كبير وقد كتبت جريدة البصائر : << وما دقّت الساعة الثانية حتى وقف القطار السريع يحمل إلينا شخصية بارزة من رجال العلماء الذين قاوموا الجهل والاستعباد ،والبدع و الضلال مدى عشرين عاما منذ تأسيس جمعية العلماء ،مع المرحوم الأستاذ عبد الحميد بن باديس ومع خلفائه من بعده،فالشيخ خير الدين رجل مضحّ بنفسه وبنفيسه، و ما من مشروع خيري للصالح العام إلاّ ويؤيّده ويمدّه وينصره...>> (١٤).

وبعد عودته إلى بسكرة رأى أنّ حركة التعليم تسير بشكل سريع وتعرف إقبالا كبيرا ممّا صعّب على مدرسة التربية والتعليم(*****)، استقبال كل التلاميذ لذلك قرّر الشيخ خير الدين مع الأعضاء إنشاء مدرسة جديدة ، فشرع في البناء بنشاط مكثّف وكانت المرحلة الأخيرة قد بدأت في ١٨ ديسمبر ١٩٤٩م عندما حلّ الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية بدعوة من الجمعية المحلية وتمّ توجيه الدعوة إلى سكان بسكرة والزيبان ومن مختلف أنحاء القطر ،فحضر الحفل العلماء، و النواب و الأطباء والمحامون، وتمّ افتتاح المدرسة ،وألقى الرئيس خطابا بليغا كعادته، ثم جاء دور الشيخ خير الدين فألهب الجمهور بكلمات بين العامية و الفصحى ومما قاله:<< إنّكم ستسمعون منّي كلمات ليست من باب الحمد و الشكر و لكنها من باب الحث و الإزعاج ،وسأصل بها مبدأ هذا العمل بنهايته فقد بدأناه مجتمعين

...وما دمنا في موقف استنهاض الهمم وشدّ العزائم وما دمت عارفا بأسرار لغتي وتاريخ أجدادي،فإنّني أؤثر أن يكون افتتاح هذا الحفل التاريخي بالشّعر ...فأنا أريد أن أرجع بكم إلى ذلك الماضي الجليل،ولئن قال لنا أقوام :إنّكم تعيشون في الماضي القديم ، قلنا إننا نعيش بالاستمداد من الماضي و العمل للحاضر والاستعداد للمستقبل...>> (١٥).

وهكذا توالى فتح المدارس و بناء المساجد في شتّى أنحاء القطر ،ففي مدينة سطيف وفي يوم ٨ أكتوبر ١٩٥٠م، تمّ تدشين مدرسة الفتح الجديدة ،وحضر حفل التدشين الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ العربي التبسي و الشيخ خير الدين و الأستاذ فرحات عباس وكان حاضرا أيضا أحد علماء فاس الشيخ إبراهيم الكتّاني، إضافة إلى أساتذة ومديرين آخرين من داخل البلدة وخارجها(١٦)،كما كان للشيخ تنقلات إلى مناطق أخرى ،ففي عام ١٩٤٨م زار بلدة تدرومة، رفقة الشيخ السعيد الزموشي، وكانت هذه البلدة عامرة بالزوايا حيث كان بها سبع زوايا ،ولم تنشأ بها شعبة لجمعية العلماء ،ولم تفتح بها أية مدرسة لتعليم القرآن و اللغة العربية، واقترح الشيخ خير الدين بناء مسجد كبير وتعيين إمام لأداء الصلوات وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ،وتم بناء المسجد وانتشرت الحركة الإصلاحية فيها بشكل سريع(١٧)،ثم زار الشيخان بلدة بريقو، وأسّسا بها شعبة وألقى الشيخ خير الدين محاضرة في المسجد إلى جانب محاضرة سعيد الزموشي بيّن من خلالها مقاصد الجمعية و أعمالها وآمالها(١٨).

وقد زار الشيخ خير الدين بلدة شاطودان، في السابع من أفريل سنة ١٩٥٤م وقام بتجديد هيئة المدرسة و الشعبة ،وقدّم التقرير المالي للجمعية وتمّ انتخاب الهيئة الجديدة بإعادة تجديد الثقة فيها(١٩) ،كما حل الشيخ ببلدة سوق أهراس في صيف ١٩٥٤م وقام بوضع حجر الأساس لبناء المدرسة الجديدة ،وقد أقبل سكانها على البناء و الترميم فرحا بالمشروع العظيم(٢٠).

وفي خريف ١٩٥٤ تنقّل الشيخ خير الدين إلى أقصى الغرب الجزائري إلى بلدة بني صاف،حيث إفتتح بها "مسجد بني صاف" وممّا قاله الشيخ في خطبة الافتتاح:<< إنّ فتح المساجد معناه إحياء أمّة وميثاق مع الله على العمل لنشر الدين الصحيح والتعاليم والنقيّة في هذا الوطن ....أيها الإخوان إنّ الإنسان في

هذه الحياة يحيا ثم يموت ثم لا يرجع إلا بعد أن يقف بين يدي الله، و الأمم كذلك ولكن الأمة لا تقبر بل تموت موتا معنويا وحياتها لا بروح تدخل وتخرج إنما تحيا بالحياة الحقة وما الحياة الحقة إلا العزة والكرامة والقوة...>> (٢١).

لقد استمر شيخنا في خطبه البليغة ،بمختلف المساجد وفي مناسبات عديدة ، وكان ذلك في عهد الإمام عبد الحميد بن باديس الرئيس الأول لجمعية العلماء ، حيث ذكرنا سابقا أنّ النشاط الذي قام به الشيخ خير الدين هو الوعظ والإرشاد في بلدة فرفار وضواحيها، ونشر الحركة الإصلاحية بها ،فكانت تلك البداية التي فتحت له الطريق ليكون ضمن أبرز الوفود التي عيّنها الإمام ابن باديس عام ١٩٣٣م للوعظ في شهر رمضان ،فكان ضمن قائمة وعّاظ مدينة قسنطينة بالجامع الكبير ،ثم عيّن في الوفد الأول من بين ثلاثة وفود كبيرة إلى جانب الإمام ابن باديس و الشيخ مبارك الميلي حيث ركزوا نشاطهم بالشرق الجزائري(٢٢).

وهكذا كان الشيخ خير الدين يقوم بالوعظ في كل شهر رمضان ،ففي شهر ماي ١٩٥١م عيّن ببلدة العلمة(٢٣) ،ثم عيّن بقسنطينة في ماي ١٩٥٢م(٢٤) ،وتنقّل بين مساجدها باعتباره النائب الثاني لرئيس الجمعية،ثم عيّن بالجامع الكبير بقسنطينة في أفريل ١٩٥٤م(٢٥) ،كما تمّ تعيين شيوخ وأساتذة الجمعية في جميع مساجد القطر للوعظ والإرشاد و الدعوة للتمسك بالدين و اللغة و كانت أسماء الشيوخ و المناطق التي عيّنوا فيها تنشر في جريدة البصائر، و الحق أنّ مترجمنا كان حريصا على مدارس الجمعية دؤوب الحركة ،فكان يشرف على نشر الإعلانات الخاصة بأعظم معهد ثانوي شيّدته الجمعية "معهد ابن باديس"، وما يخص شروط قبول التلاميذ و ضمان الالتحاق العادي والحسن بالمعهد ،كما أنّ هذه الإعلانات التي تنشر في البصائر تساعد التلاميذ الجدد الراغبين في الالتحاق للدراسة بالمعهد بتحضير الوثائق اللازمة و الشروط الأخرى التي تدون مع الإعلان،وبعد أربع سنوات من مسيرة المعهد ،أصبح الشيخ خير الدين مديرا للمعهد نظرا للظروف الصحية التي كان يعاني منها الشيخ العربي التبسي لذلك طلب الاستعفاء من مهمته،كما أنّ الشيخ البشير الإبراهيمي طلب من مترجمنا تولي المهمة ،كونه نائب المدير(٢٦).

و كانت لجان الامتحانات تقوم بدور كبير لتعيّن الناجحين بعد الامتحان ،

وكان يشرف على اللجان الشيخ العربي التبسي والشيخ خير الدين ويشاركهم الإمام البشير الإبراهيمي في التنظيم[٢٧].

وقد ورد في إحدى خطابات الشيخ خير الدين [٢٨]في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد: << فإنّ العلم أشرف المطالب وأسمى المقاصد و الرغائب فهو حياة الأمم وهو عزها ومجدها ...لقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبلوا على العلم بجميع فنونه وتهافتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدنيا و قادوا الأمم وفتحوا – مع البلدان- القلوب و العقول ورفعوا مشعل الحضارة و المدنية...>>.

لقد كان الشيخ خير الدين حريصا على تلقين أبناء وطنه مختلف العلوم لأنّه كان يعرف قيمة العلم في بناء الحضارات ،لذلك لم يقتصر حرصه على تلاميذ المعهد والمدارس داخل الوطن بل امتد حرصه إلى خارج الوطن ،ففي جامع الزيتونة كان الشيخ يقوم بزيارات مستمرة ليتفقّد طلبة الجزائر وكان يلقي عليهم خطبا متنوعة،رغم أنّه كان يتعرض في بعض الأحيان للمضايقات من بعض الطلبة كتلك التي تعرض لها في صيف ١٩٤٨م ،لكن رغم ذلك فمترجمنا كان يعي ما يحدث ويعرف أن هناك محاولة للنيل من الجمعية و سمعتها ،لكن الطلبة استنكروا تلك الأفعال وأعلنوا تقديرهم واحترامهم لشيخهم وولاءهم لجمعية العلماء[٢٩].

يمكن القول أنّ الشيخ خير الدين كان يخوض تنقلاته ويقوم بدوره التربوي بكل شجاعة شرق الجزائر إلى غربها ،ومن الشمال إلى الجنوب تاركا وراءه تلك الخطب البليغة الحماسية المثيرة للنفوس وخلفه تلك القلاع الحصينة من مدارس ومساجد، التي و بدون شك قد منعت الاستعمار الفرنسي من تسلّق أسوارها العالية المحصّنة بالدين الإسلامي واللغة العربية، ووراءها جند من أبناء الجزائر ، وبتلك الإنجازات التربوية التي قام بها شيخنا إلى جانب أقرانه العلماء ،حافظت الجمعية على مقومات الشخصية الوطنية.

الهوامش

(*) الشيخ محمد خير الدين من مواليد ١٩٠٢ بمنطقة فرفار ولاية بسكرة ، وفيها وفي كتاتيبها حفظ القرآن وعلى فقهائها وعلمائها أخذ مبادئ العلوم اللغوية وعلوم الشريعة الإسلامية ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة وتتلمذ لمشائخها ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطاهر بن زقوطة. وفي سنة ١٩١٨ ارتحل إلى تونس، وانتظم في سلك طلبة الجامع الأعظم (الزيتونة) ومنه تخرج سنة ١٩٢٥عالما متطوعا وكان الثاني في الخمسين مترشحا في امتحان التخرج ، ثم ساهم مساهمة فعالة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٥ ماي ١٩٣١م ، وتولى فيها عددا من المسؤوليات والمهام فكان أمينا لماليتها ، ومراقبا عاما لها ، ثم نائبا للرئيس ثم رئيسا ..... ، كما تولى في الجمعية – نائب مدير لمعهد عبد الحميد ابن باديس في قسنطينة مع هيئته الادارية ، ومختلف لجانه المختصة . وحين أعلنت الثورة أولى خطوات زحفها في أول نوفمبر ١٩٥٤م كان الشيخ محمد خير الدين سبّاقا إلى الانضمام إليها ، حيث أسندت اليه مهام تمثيلها في المغرب الشقيق ،ثم عيّن عضوا في أول مجلس للثورة سنة١٩٥٨م ، وعند استقلال الوطن سنة ١٩٦٢م شغل الشيخ محمد خير الدين منصب نائب في أول مجلس نيابي تأسيسي ، ساهم في استقرار الأمور واستعادة السيادة الوطنية بعد فقدانها لقرن وثلثه . ثم قرر اعتزال ميدان سياسة والتزام بيته إلى أن وافته المنيّة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٩٣م.

(**)من الذين درسوا على يد الشيخ خير الدين : فرحات بن الدراجي ،أحمد سحنون ،علي بن العرافي المغزي ،الطاهربخوش، المختار المغزي ،عبد الرحمان غريّب،الحسين أبو عبد الله وغيرهم ،أنظر محمد خير الدين، مذكرات ، ج١ ،، ط٢، مؤسسة الضحى، الجزائر ٢٠٠٢م، ص٧٤.

١- محمد خير الدين : المصدر نفسه،ص٧٨.انظر أيضا :محمد خير الدين :" اجتماع هام بدار المحترم الحاج الحفناوي دبابش النائب العمالي و تأسيس جمعية (الايخاء) ببسكرة " ، جريدة النجاح، العدد ١١٨٣ ، ٢٢ جويلية ١٩٣١ .انظر أيضا :مجلة الشهاب: مقال " في المجتمع الجزائري ،دور محمود من أدوار الجزائر الحاضرة "، مج ٧ ،ج٨ ، أوت ١٩٣١ ، ص ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

٢- محمد خير الدين : مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ،ص ص٧٩-٨٢.

٣- شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسير ،ترجمة المنجي سليم وآخرون الدار التونسية للنشر ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،تونس ١٩٧٦م، ص١٢٦.

٤- البشير الإبراهيمي: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي الجزائر، دار الكتب ،الجزائر١٩٨٢م، ص٦٤.

٥- جريدة البصائر: مقال" الجمعية الخيرية الإسلامية " العدد ٤، ٢٤ جانفي ١٩٣٦ ، ص٧ .

٦- عبد اللطيف بن علي: "وفد جمعية العلماء، بزور القنطرة" ،جريدة البصائر،العدد ٩٥ ،١٤ جانفي ١٩٣٨، ص٥ .

٧- أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،ج٣،المرجع السابق،ص ٩٥ .

bulletin mensuel d'informations concernant la politique indigène dans le département d'Oran mois de janvier 1938, S. L. N. A, archive historiques .W. de Constantine

٨- بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ،ط٢،دار النفائس ،بيروت ١٩٨٣م، ص٥٢.

٩- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (١٩٣١-١٩٤٥م)دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة ،منشورات المتحف الوطني للمجاهد ،المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار،١٩٩٦م، ص ص١٣٧-١٣٨ .

١٠-محمد خير الدين : مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ،ص١٧٠

١١-محمد الطاهر فضلاء:التحريف و التزييف في كتاب حياة كفاح ،ط١،دار البعث للطباعة ،قسنطينة،الجزائر: ١٩٨٢م،ص٤٤٨.

١٢-محمد خير الدين : مذكرات ، ج ١ ، المصدر السابق ، ص ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

13- Mohamed Harbi: 1954 , la guerre commence en Algérie .édition complexe, bruxelles.1998.

١٤-فرحات العابد : " الشيخ محمد خير الدين في غليزان" ،جريدة البصائر،العدد٣٦، ١٧ماي ١٩٤٨ ،ص٧٠.

١٥-الحفناوي هالي: "وصف الاحتفال الرائع بفتح مدرسة بسكرة" ،جريدة البصائر،العدد ١٤٠ ـ ١٤١، ٥فيفري ١٩٥١ ،ص ص٦-٧، أنظر جريدة الشعلة:مقال " بسكرة تحتفل بوضع الحجر الأساسي لمدرستها " ،العدد ١٩ ، ٢٠افريل ١٩٥٠م، ص ٢ .

١٦-علي مرحوم: تدشين مدرسة الفتح بسطيف"،جريدة البصائر ،العدد ١٣٣، ٢٣ أكتوبر ١٩٥٠م،ص٢٠.

١٧-محمد خير الدين :مذكرات ، ج١، المصدر السابق ،ص٢٣٢

١٨-السعيد الزموشي: "وفد جمعية العلماء في بريقو ،جريدة البصائر ،العدد ٤٣، ١٢ جويلية ١٩٤٨م،ص٢ .

١٩-جريدة البصائر:" أعمال جمعية العلماء " ،العدد ٢٦٩، ٣٠ أفريل ١٩٥٤م،ص٥٠.

٢٠-محمد مسلاتي:"آثار النهضة الإصلاحية بسوق أهراس"،جريدة البصائر ،العدد ٢٧٦،٢٥ جوان ١٩٥٤م،ص٧٠.

٢١-حمد منيع: " افتتاح مسجد بني مصاف وخطاب الشيخ خير الدين" ،جريدة البصائر ،العدد ٢٨٣، ٣ سبتمبر ١٩٥٤ ،ص٠٧ .

٢٢-محمد خير الدين: مذكرات ، ج ١ ،المصدر السابق،ص ص٢٢١-٢٢٦.

٢٣-جريدة البصائر: " قائمة الوعّاظ " ،العدد١٥٦، ٢١ ماي ١٩٥١م،ص٠٢ .

٢٤-جريدة البصائر: "قائمة الوعاظ لشهر رمضان "،العدد ١٩٠، ١٩ ماي ١٩٥٢م،ص٠٢ .

٢٥-جريدة البصائر: "قائمة الوعاظ لشهر رمضان " ،العدد ٢٦٩، ٣٠ أفريل ١٩٥٤م،ص٠٣ .

٢٦-محمد خير الدين: مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ص١٧٠.

٢٧-جريدة البصائر: مقال " معهد عبد الحميد بن باديس " ،العدد ١٥٨، ٤جوان ١٩٥١م،ص٠٢ .

٢٨-جريدة البصائر: مقال" خطاب فضيلة الأستاذ محمد خير الدين في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد" ، العدد ٢٨١ ، ٣٠ جويلية ١٩٥٤ ، ص ٠١ .

٢٩-جريدة البصائر:مقال "الشيخ خير الدين في تونس ، إستنكار وتبرؤ"، العدد ٤١ ، ٢٨ جوان ١٩٤٨، ص ٠٣ .

د . هيا بنت على النعيمى (*)

حركة الـردة فى البحـرين

عقب وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى عهد عمر بن الخطاب

تبلورت حركة الردة فى البحرين على أساس تخلى مجموعة من أهل البحرين عن ركائز الدين الإسلامى وخروجهم عن الامتثال للقيادة بعد وفاة الرسول ، وما تبع ذلك من ضجة وسخط انتهت إلى محاربتهم كأصناف معارضة فى بدايات العهد الراشدى .

يمتاز أهل البحرين بأسبقيتهم فى اعتناق الدين الإسلامى عن قناعة تامة فى وقت مبكر كانت تابعة فيه للدولة الساسانية ، وهذه حقيقة لانستطيع أن نتجاهلها ، لأن الدين الإسلامى يمتلك من الخصائص ما يؤكد على أنه عقيدة الفطرة ، ومنهج الحياة الذى يستوعب كافة شؤونها ، ولهذا وجد طريقه بين أهل البحرين ، بعيدا عن العنف والاكراه ، يبدو ذلك جليًا فى النصوص القرآنية (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، وبناءً على ذلك فإن هذا الدين يخاطب إنسانية الفرد بأسسه المرنة ، دون أن يجبر الناس على الأخذ به قسراً كمعتقد يحكم أسلوبهم فى الحياة ، ومن هنا نستغرب أن يرتد أهل إلى وثنية حاربها الدين ، لكن يتضح أن حركة الردة حقيقة فى ذات التاريخ على درجة من الخطورة ، وإن لم تدم طويلا ، فإما أن تكون خطأ ليس له أى مبرر من شئ ، وبالتالى لابد من تحطيمها ، وهذا ما حصل فعلا ، أو أن تكون حركة قائمة عن وجه حق، أرادت تحريك الرفض ، والثورة احتجاجا على حالة غير شرعية آنذاك .

---

* عميدة كلية الآداب – جامعة البحرين .

وباختصار ، فإن ما يورده لنا التاريخ هو أنه بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ارتد قوم من البحرين ملكوا عليهم المنذر بن النعمان فيما ثبت مسلمو جواثا كالجارود العبدى ، فحاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم إلى أن أرسل أبو بكر العلاء لنجدتهم ، فهزمهم وقتل منهم مقتلة ، وكان جيش العلاء من الجيوش الإحدى عشر ، التى أرسلها أبوبكر لردع ما عرف بحركة الردة والروايات فى ذلك على أوجه مختلفة وكثيرة .

فهل كانت حركة الردة فى البحرين اعوجاجا باتجاه اللاوعى ، والانحطاط ، وفتنة جرت ويلات إهدار المكاسب ، والعبث بموازين الدولة الإسلامية ، أم أنها لا تعدو أن تكون أسلوبا تلقائيا للتعالى على واقع الأحوال الاقتصادية ، والاجتماعية التى مرت بها ؟ فمن هم رموز هذه التجربة، ولماذا زجوا بأنفسهم فى هذا المأزق ؟ وكيف كانت المؤشرات التى استتبعت تفاصيل هذه الظروف؟ ألم تكن الهوية الإسلامية مترسخة فى مسلك المرتدين ؟ لماذا سادت أكثر من موجة انشقاق، وتفكك فى مجتمع المسلمين ، بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ كما نالت أعمال المؤرخين من حصص الحقيقة ، وإلى أى مدى التزموا بالواقعية والمصداقية ؟ وهل تخلو تفاصيل الأحداث من المبالغة أو التأثر بالظروف السياسية ؟

تساؤلات عديدة تطرح نفسها فى هذا المضمار ، ويجاب عليها إلى حد كبير فى غمار الدراسة.

الردة بين المضمون اللغوى والمحتوى الاصطلاحى

الردة (بالكسر ، الاسم من الارتداد) ، وقد ارتد ، وارتد عنه : تحول ومنه الردة عن الإسلام، أى الرجوع عنه ، وارتد فلان عن دينه ، إذا كفر بعد إسلامه[١] . وكما جاء فى اللسان : الرد : صرف الشئ ورجعه ، والرد مصدر رددت الشئ ورده عن وجه يرده ردًا ومردًا وتردادًا . وقد ارتد عنه : تحول . وفى التنزيل : (من يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة)[٢]، والاسم الردة . يقال ارتد الرجل عن دينه ردة : إذا كفر بعد إسلامه ، وأمر الله لا مرد له[٣].

فالردة ، بالكسر : مصدر قولك رده يرده ورده . وفى حديث القيامة والحوض يقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم أى متخلفين عن بعض الواجبات . قال : لم يرد ردة الكفر ولهذا قيده بأعقابهم لأنه لم يرتد أحد من الصحابة بعده ، إنما ارتد قوم من جفاة الأعراب[٤].

وهناك معان كثيرة أخرى للردة لسنا بصددها ، فما يهمنا فى الواقع معنيان ، أولاهما : الرجوع الحقيقى لعموم الأشياء ، حيث نفهم منهم تصور العودة إلى ما كانت عليه فى مقدمة الأمر ، وذلك بعد حركتها ، وثانيهما : التحول عن الشريعة الإسلامية إلى اعتقال ضال ، ولهذا التحول عدة مقاييس فقد يكون حسيا ، أو معنويا ظاهريا أو خفيا .

تعرف الردة اصطلاحا على أنها التحول ، والرجوع المؤدى بالكفر بعد الإسلام ، وتحصل الردة بقول صريح أو لفظ يؤدى معناها أو فعل يظهر ذلك [٥]، وتكون من إنسان مسلم بالغ عاقل مختار ، كالشرك بالله تعالى أو جحوده ، أو نفى صفة ثابتة ، أو اعتقاد كذب النبى (صلى الله عليه وسلم) فى بعض ما أتى به، أو سب الله سبحانه أو أحد أنبيائه (صلى الله عليه وسلم)، وإنكار ضرورة من ضروريات الدين ، أو أن يحلل الحرام أو يحرم الحلال ، أو الإتيان بفعل صريح يكافئ الاستخفاف بالإسلام . ومن أكره على الكفر فجاء بكلمة الكفر لم يعد مرتدًا [٦]، وذلك لقوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾[٧] .

ولنا أن نوجز مغزى المدلول الاصطلاحى على أنه : "كفر المسلم بقول صريح أو لفظ يقضتيه أو فعل يتضمنه" . ومن الواضح أن الردة تفشت فى صورة جماعية مثلما تبنت ذلك بعض القبائل ممن تناملت حركتهم فى عهد أبى بكر ، وهذا ما يعرف بحركة الردة الجماعية .

ولاشك أن لفقهاء المذاهب فهمهم الخاص إزاء فكرة الردة ، ونكتفى هنا بإيراد بعض التعريفات:

١- مذهب المالكية : الردة هى كفر بعد إسلام تقرر بالنطق بالشهادتين والتزام أحكامها .

٢- مذهب الحنفية : المرتد هو الراجع عن دين الإسلام .

٣- مذهب الشافعية : الردة هى قطع الإسلام بنية أول قول أو فعل يتضمن كفرا ، اعتقادًا أو استهزاءً أو عناد [٨].

وهناك من يعرف الردة عن طريق استقرا ، وتتبع مقومات المصادر التى ذكرت أن العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنها كانت فى المقام الأول ثورة على السلطة المركزية فى الحكم وفى النظام الاقتصادى .

تذكر الكتب الفقهية على اختلاف المذاهب أنه يشترط فى صحة الردة البلوغ ، وكمال العقل ، والاختيار ، أو الطوع حيث لاتقع إلا من المكلف ، العاقل لا المجنون أو السكران ، إلا أن مذهبى المالكية والحنفية لم يشترطا البلوغ ، فاختلف فى وقوع ردة الصبى [٩]. وتحصل الردة كما أشرنا فى الباب السابق ، بنية أو قول كفر أو فعل ، استهزاءً أو اعتقادا ، فمن نفى الخالق أو رسله أو كذب أحدهم ، أو حلل محرمًا بالإجماع كالزنا وعكسه ، أو نفى واجبًا بالإجماع أو العكس أو ترك الصلاة أو الزكاة جحودًا ، أو عزم على الكفر غدًا ، أو خالطه كفر ، والفعل المكفر ما تعمده إهانة صريحة نحو الدين ، أو جحود له كإلقاء المصحف فى قاذورة أو تمزيقه أو إضرار الكعبة ، أو الخضوع لغير الله كصنم أو شمس [١٠].

نستخلص مما سبق أن هناك أربعة أقسام تصدق على حصول قضية الردة :

١- ردة على مستوى الاعتقاد .

٢- ردة على مستوى الفعل .

٣- ردة على مستوى القول .

٤- ردة على مستوى الإسقاط أو الترك [١١].

يبقى أن هناك فروقا طفيفة تدور فى فلك هذه الأقسام الأربعة بين المذاهب المختلفة فيما يصير به المسلم مرتدًا :

١- الحنفية : تتحقق الردة بإجراء كلمة الكفر على اللسان بعد حالة الإسلام .

٢- المالكية : وتتحقق إما بلغة صريحة أو لفظ يبطنها مما علم ضرورة فى الدين ، أو بفعل يختزن الارتداد كالقاء المصحف .

٣- الشافعية : وتتحقق إما بلفظ الكفر أو بجحود الفرض أو استباحة الحرام .

٤- الحنابلة : من أشرك بالله أو جحد ربوبيته أو جحد الحكم الواضح المجمع عليه .

٥- الظاهرية : من كفر بما صدر عن النبى من الصحيح المجمع عليه .

٦- الزيدية : اعتقاد كفر (الله ثالث ثلاثة) ، فعل ما يستنقص شرعة النبى أو ما دعا الله بتعظيمه ، تلفظ الكفر ، والسجود لغير الله .

٧- الإمامية : نية أو قول أو فعل منطقة الكفر.

٨- الأباضية : إنكار وحدانية الله والبعث والرسل أو ما علم من الدين بالضرورة أو شتم النبى أو ملك (١٢).

وحتى يتسنى لنا الربط بين ما سبق ، وما يخص الأمثلة والصور التاريخية فمن الضرورى تحديد أقسام المرتدين تاريخيا حيث تتضمن :

١-جماعة الممتنعين عن الزكاة والمطالبين بالإعفاء منها بعد رحيل الرسول ، وتضم بنى عبس وذبيان ومن تبعهم من بنى كنانة وغطفان فزارة بالإضافة إلى بنى يربوع ، وسيدهم مالك بن نويرة.

٢- فريق كفى بالله ورسوله مثل بنى بكر بن وائل ، وقبائل ربيعة والأزد ، وجماعات فارسية، بالإضافة لمدعى النبوة الذين عاصروا النبى (صلى الله عليه وسلم) كمسيلمة الكذاب وأتباعه والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، وهناك جزء تنبأ بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) كسجاح بنت الحارث التميمية التغلبية (١٣).

المرتد وما ينضوى ضمنه من أحكام

يتسم حكم الردة عن الاسلام بالحرمة والكفر الغليظ ، لأنها بمثابة تكذيب يلحق تصديق . إن المرتد هو الراجع عن دين الإسلام ، أى الذى يكفر بعد إسلامه ، ولو رجع يتوجب قتله، فإذا قتل لا يدفن مع المسلمين ، وتبين منه زوجته بمجرد الارتداد ، فبديهى بالتالى أن تعتد منه عدة الوفاة إن دخلت ، ويقسم ماله بين ورثته المسلمة ، وإن لحق بدار الحرب (١٤). أما الثانى : فهو المسلم عن كفر بمعنى غير المولود على فطرة الإسلام ، فهذا من الواجب استتابته ، وأما أملاكه فتظل محفوظة له حتى يتوب ويوقف نكاح زوجته على انقضاء العدة المساوية لعدة المطلقة .

كما جاء فى ضوء تعريف المرتد : أنه كل من يأبى شفهيًا ويطلق اختياره ركنين جوهريين من أركان الإسلام ، وهما : «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، سواء كان مسلما بالولادة أو مسلمًا بعد كفر ، ويوازى نفى الكل بالنسبة للأصول ، إن باللفظ المباشر ، أو غير المباشر ، إن بالكلام أو بالعمل أو بالاساءة إلى مقدسات الشريعة ، وحكم المرتد فى كلا المذهبين الشيعى والسنى هو القتل (١٥). ويلغى زواج المرتد وتصادر أمواله ، كما فرقت الأحكام بين المرأة والرجل ،

وبالتالى لم تحكم لدى كل من الشيعة والحنفية السنة، وإن كانت مسلمة على الفطرة ، وإنما تسجن حتى تتوب ، أو أنها تمكث مأسورة إلى أن تموت حيث تضرب كل ثلاثة أيام .

ويستتاب المرتد وجوبًا كما ذهب الشافعي وأحمد ، أو استحبابًا كما بالمذهب الحنفى ثلاثة أيام ، فإن تمسك على ما هو عليه قتل لامحالة ولايسترق ، وإن تاب لم يشمله الحكم، وقيل بأن إسلامه غير مقبول إن ارتد لكفر خفى مثل الزنادقة ، والحجة على ثبوت الاستتابة : «أن امرأة يقال لها أم رومان ارتدت فأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يعرض عليها الإسلام ، فإن تابت وإلا قتلت» ونستنتج من الحديث السابق أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أقام عقوبة المرتد ، قبل أن يطبقها الصحابة بعد مماته مع المرتدين ومانعى الزكاة [١٦].

ومن ثم ، فبعد أن تثبت الردة إما بطريق الإقرار ، أو بطريق شهادة يدلى بها اثنان يبرزان نوع الكفر ، فإن المرتد يستتاب ، فإن رجع قبل منه وإن تنكر للدين قتل، وذلك لقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « من بدل دينه فاقتلوه » [١٧]. ويتولى قتله الإمام حسب ما هبت إليه الحنفية والشافعية والحنابلة والظاهرية والزيدية ، ويتولى قتله كل من علم بأمره وفقًا لمذهب الإمامية ، وتذهب الأباضية إلى أكثر من ذلك حيث يصح قتل المرتد حتى على يد امرأة أو عبد مشرك أو مرتد آخر [١٨].

قراءة مقتضبة فى تاريخ البحرين الجغرافى

لم تكن البحرين فى السابق مجرد مجموعة من الجزر الصغيرة فى الخليج العربى التى تبعد لكيلومترات عن الساحل الشرقى للمملكة العربية السعودية كما هو الحال الآن ، بل هى كما قال قوم : « الإقليم الثالث وعرضها أربع وثلاثون درجة ، واسمها يجمع للبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان » ، كما قيل « أنها قصبة هجر ، وقيل هجر قصبة البحرين » ، وقد اعتبرها البعض من اليمن ، فيما صنفها أخرون كقصبة برأسها [١٩].

وقال ابن الفقيه، وأبو عبيدة أن مقدار ما يفصلها عن اليمامة يعادل مسيرة عشرة أيام، وما يفصلها عن البصرة يعادل خمسة عشريوما على الإبل، وما يفصلها عن عمان يقدر بمسيرة شهر، قال : « والبحرين هى الخط، والقطيف ، والآرة، وهجر، وبينونة، والزارة، وجواثا، والسابور ، ودارين ، والغابة » قال : « وقصبة هجر ، والصفا ، والمشقر ، والشبعان ، والمسجد الجامع فى

المشقر ، وبين المشقر والصفا نهر يجرى يقال له العين [٢٠] . ولقد كانت البحرين فى صدر الإسلام تمتد من كاظمة إلى جلفار ، وتشكل المنفذ نحو الجزيرة العربية بموانيها كالعقير والإحساء والقطيف ودارين ، وبجذرها كأول ، والمحرق ، وشفارن وتاروت ، وحوار ، وغيرها [٢١].

نخلص إلى أن ما كان يقصد بالبحرين هو ما كان متعارف عند العرب فى الحقب السابقة من أنحا الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربى بين البصرة وعمان ، وكانت بذلك تضم ما يعرف فى عصرنا اليوم بالكويت والإحساء والبحرين وقطر وتتصل غربا باليمامة وشمالا بالبصرة وجنوبا بعمان [٢٢] .

دخول البحرين فى الإسلام

فى السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م) ، باتفاق البلاذرى ، والطبرى ، وابن هشام وفد الصحابى العلاء بن عبد الله بن عباد بن الحضرمى ، حليف بنى عبد شمس ، سفير الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى البحرين التى كانت تحت إمرة المناذرة التابعين للفرس الساسانيين ، وقد كان قائدا فيما بعد فى حرب المرتدين . إلى أن وافى حاكم البحرين من قبل الفرس آنذاك المنذر بن ساوى التميمى العبدى[٢٣] ، شيخ قبيلة عبد القيس الذى ينتمى إلى بنى دارم ، وإلى سيبخت مرزبان، المتمركز بهجلر يدعو شعبهم إلى الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية ، فتقبلت صدورهم الدين الجديد – الذى قال عنه المنذر : « فما يمنعنى من دخول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت فقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده » [٢٤]– طوعا من غير حرب أو قوة ، حيث أسلم أيضا سائر العرب بالبحرين مع بعض الأعجام . والملاحظ أن هذا يتباين مع ما رواه ابن الأثير فى تاريخه ، حيث يقول : « ولم يكن بالبحرين قتال إنما بعضهم أسلم وبعضهم صالح » ، وما قاله قتادة : «لم يكن بالبحرين قتال ، ولكن بعضهم أسلم وبعضهم صالح العلاء ، على أنصاف الحب والتمر » ،ولوحظ وقتها أن نصارى ومجوس البلد قد كتبوا معاهدة ضمنية بينهم وبين العلاء ، تنص على صيغة للمصالحة ، نسختها « بسم الله الرحمن الرحيم ،هذا ما صالح عليه بن العلاء الحضرمى أهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ،ويقاسمونا الثمر ، فمن لم يفى بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، وبالنسبة إلى جزية الرؤوس ، فإنه قد استوفى لها دينارا من كل حالم ،ممن لا زال على المسيحية واليهودية ، وقد قبل أن رسول الله قد بعث العلاء لما بعث رسله إلى دعوة الملوك سنة ست ، وروى عن العلاء أنه قال : « بعثنى رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) إلى البحرين ، أو قال هجر ،وكنت آتي الحائط بين الأخوة ، قد أسلم بعضهم فأخذ من المسلم العشر ، ومن المشرك الخراج «[٢٥].

وورد على أهل البحرين كتاب أرسل إليهم : «بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد، فإنكم إذا أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ونصحتم الله ورسوله ، وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب، ولم تمجسوا أولادكم ، فلكم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النار لله ورسوله ، وإن أبيتم ،فعليكم الجزية « ،ويقال أن ذلك كان سنة ٦ هجرية ،وفى رواية له (صلى الله عليه وسلم) ، ويحدث أصحابه : « سيطلع عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق « ، وفي رواية : » يسبق ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام ، قد أنضوا الركائب ، وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس «[٢٦] ، وكان ذلك فى وفد عبد القيس عليه بالمدينة قبل فتح مكة ، ففى العام الثامن للهجرة كان قدوم وفد عبد القيس بقيادة(الأشج) ، ومن صاحبه من أهالى هجر ، معلنين إسلامهم السرى بين يدى الرسول ، ومنطلقين برسالة الدين إلى المنذر بن ساوى فى البحرين[٢٧] ، كما قدم وفد بحرينى آخر، فى العام العاشر للهجرة ، بقيادة الجارود بن المعلى العبدى ، الذى اعتنق الإسلام بعد أن كان نصرانيا[٢٨] .والحق ، أننا نستشف من خطاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أن عبد القيس حرصوا على الاستجابة طوعا ، وأن الإسلام قد احتل موقعا عظيما فى أنفسهم ، وبالتالى لم يلق أية معارضات أو مزاجيات رافضة تعترض طريق سيادته ، بل كان مقتضى تعاطى الأغلبية متفتحا وإيجابيا تمثل فى مدى استعدادهم لقبوله واعتناقه .

وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمنذر بن ساوى (التداعيات المرحلية)

قال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين)[٢٩].

تجدر الإشارة إلى أن البداية الفعلية لاندلاع حركات العصيان - كمنعطف على درجة من الحساسية،

والخطوة فى تاريخ هجر - الجزيرة العربية- كانت إبان الفترة الزمنية التى أعقبت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، يوم الثانى عشر من ربيع الأول ، ووفاة المنذر بن ساوى بعده وذلك فى السنة العاشرة ، أو الحادية عشرة للهجرة عل اختلافات الروايات ، وذلك لأن نماذج الردة خلال المدة السابقة لوفاة النبى كانت متمركزة فى محيط محدود شمل كلا من اليمن واليمامة .

وينقل إلينا المؤرخون بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مات ذلك الشهر ،، ومات المنذر بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بفترة وجيزة [٣٠] ، فتبع ذلك الكثير من طوائف العرب ، بين كافر ومانع للزكاة والصدقة [٣١] ، حيث تغلغل النفاق فى ثنايا المجتمع وتتنذ كما جاء فى قول السيدة عائشة : «لما توفى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم حتى جمعهم أبو بكر »[٣٢] وكان أهل البحرين من ضمن من ارتدوا أيضا ، مملكين عليهم المنذر بن النعمان المنذر ، ولهذا السبب غادر أبان بن سعيد العاصى بن أمية من البحرين ، متجها نحو المدينة حيث أشار ابن عساكر فى تاريخه أن أبان بن سعيد قال إلى بنى عبد القيس : » أبلغونى مأمنى »، فقالوا : بل أقدم ، فلنجاهد معك فى سبيل الله، فإن الله معز لدينه « كما نجد أن الجارود حول تنحيته عن السفر فلم يجد ذلك أمام إصراره . والملاحظ لما قدم على أبى بكر لامه قائلا « ألا تثبتوا مع قوم لم يرتدوا »، أو قال لم يبدلوا ، فعقب أبان : « هم على ذلك فما أرغبهم فى الإسلام وأحسن نياتهم ، ولكن لا أعمل لأحد بعد رسول الله »[٣٣] .

وكان ممن ارتدوا أيضا : شريح بن ضبيعة العبدى ، المعروف بالحطم وقبيلة ربيعة ، وبكر التى بقت على ردتها . وبخصوص عبد القيس ، فقد شهر كلامهم عقيدة أن النبى لا يموت ، أو أن النبوة لا تنقضى بمجرد وفاته إلا أن الجارود بن عمرو قد اجتمع إليهم وحدثهم بحديث ينزع إلى فطرة الحق فآمنوا بمنطقه ، واستجابوا لهذا الزعيم الإسلامى بعد المنذر ، برسوخهم من جديد على إسلامهم ولكى تكون الصورة أوضح ، سنذكر ما دار بين الجارود وبينهم ، حيث أنه قال : « تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى » ، قالوا : « نعم » ، قال : « فما فعلوا » « ؟ قالوا : « ماتوا » قال: فإن محمدًا مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله « فعادوا إلى حظيرة الإسلام بنفس الشهادة مضافا عليها وأنك سيدنا وأفضلنا [٣٤] .

وهذا يأخذنا إلى ما حدث به أبو بكر الناس إثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك لما قال « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت [٣٥] » وتجدر الإشارة إلى أن عمرا وغيره قد نصحوا أبا بكر بالتخلى عن قتال المرتدين ، لكنه كان حازما ومتشبثا بكرة النهوض لهم ،حيث قال : «والله لو منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لقاتلتهم على منعها ، » والعقال تعنى زكاة عام من الإبل ،والمقصود بعناق : الأنثى من ولد المعز [٣٦] .

كذلك فإن من أهم ما نطقت به تداعيات حركة الردة ، هو ذهاب فريق من رجالات بكر بن وائل إلى كسرى ملك الفرس ، يخبرونه بموت من كانت قريش ومضر يفتخرون به ، وبنبأ الرجل الذى حل بعده ، ووصفوه على أنه ضعيف البدن والرأى ، ملمحين إلى اتصراف عامله إلى جماعته ، وإلى الضياع الذى تسلل للبحرين بعد أن لم يعد بها مسلمون سوى من عبروا عنهم بشرذمة من عبد القيس لا يساوون شيئا بالنسبة لهم . وسألوه أن يبعث من يأخذ بزمام أمور البلد ، فطرح المنذر بن النعمان ، ولم يكن منهم إلا أن وافقوا عليه بشدة ، وكان من بينهم أبو ضبيعة الحطم بين زيد وظبيان بن عمرو ، فأمره بالخروج معهم وزودهم بسبعة آلاف فارس وراجل .

وقد قال بعض العرب بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) : لو كان محمد نبيا لما مات ، وقال بعضهم الآخر : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحدا بعده [٣٧].

إشكالية الردة ودوافعها

لم تكن حرب الردة أبدا وقفا على المسلمين ، كما أنه لا يوجد أى حكم قطعى على أن عامة العرب ارتدوا عن الإسلام ، لأنه من الواضح وجود جماعات فى الأقطار الإسلامية حافظت على تبعيتها للإسلام ، بل وأن البعض منهم ساهم فى التصدى بصفة خاصة للمرتدين ويحتدم الجدل فى الحقيقة الدائرة حول صحة وقوع الردة على عموم الناس ، خاصة مع انتفاء الاطمئنان إلى الكثير من المعلومات المغرضة الخالية من الدلالة القاطعة فى أخبار الردة ، فيما يعمق من هذه الإشكالية أن التفاصيل كانت مروية بالدرجة الأولى عن سيف بن عمر التميمى المنعوت بالكذب ودس الإفتراءات . فلقد ذكر بأنه كان مع المسلمين فى المواقف ، والمشاهد التى رأوها من أمر العلاء [٣٨] ،كما أن عملية تدوين التاريخ تمت بعد قرن ، أو أكثر من النقطة الزمنية للأحداث فى البحرين بالإضافة إلى ما ضمنه الموالى وأهل الكتاب والإخباريون الجاهلون للعربية من عناصر أسطورية تتطلب الفحص والتدقيق[٣٩] .

فهناك من الأمثلة ما يستبعد ارتدادها إلى الكفر استنادا إلى صلابة الإيمان ، فمثلا هناك نموذج أهل اليمن الذين قال فيهم النبى (صلى الله عليه وسلم) « الإيمان يمان » ، ومثال بنى حنيفة الذين ينتمى إليهم مالك بن نويرة ، وهو من الصحابة الأجلاء ، لا سيما وأنه قال لخالد : « والله ما ارتددت » ، وقد شهد أبو قتادة بعد أسره مع جماعته أنهم أقاموا الصلاة وأن عمرا (رضى الله عنه) سارع بالدغفاع عنه طالبا من أبى بكر (رضى الله عنه) محاسبة خالد لإعتدائه على حرمة مسلم ، ويروى أن أبا بكر قال له أريا ، قتلت إمرئا مسلما [٤٠]؟

ومن الأمثلة الواردة والمغايرة إلى أن الصلاة لم تكن مقامة فى أوساط القبائل المرتدة أن مسيلمة الكذاب حين تزوج سجاح بنت الحارث التغلبية - وهى من نصارى العرب التى ادعت النبوة وأذعن لها دعامة بنى تميم وجماعة من أمرائها -كان قد جعل مهرها لإسقاط صلاتى الفجر والعشاء [٤١].كذلك نموذج مسلمى البحرين اللذين صاروا مسلمين بإرادتهم التامة ، ونال وفدهم شهادة ثناء من النبى (صلى الله عليه وسلم) ، كما تقدم ، ومن أجل ذلك نعجب لمن يلصق بمثل هؤلاء الكفار لأنهم لم يمنعوا الزكاة ، ربما لعدة تماشى النظام مع ما يرتجونه نتيجة لتجاذبات غير مشروعة ؟ حول زحزحة المركزية عن من يعتقدون بأنه الأول باستحقاقها ولعل من الأسس التى تؤكد على وضعيتهم الإسلامية إعلان أبى بكر بعد استعلامه عن الجماعات التى تؤدى الصلاة دون الزكاة بأنه سيقاتلهم حتى لو منعوه عقال بعير كانوا يؤدونها إلى النبى(صلى الله عليه وسلم).

أما فيما يتعلق بدوافع الردة، فسنناقش موضوعها فى النقاط التالية :

١-وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،ونظيرمثل هذا الحدث من اضطرابات لم تكن بالأمر السهل كان لها انعكاس بالغ على نفسية أفراد يواجهون تحديات الشكوك وتعقيدات المستقبل بالجزع ،والضياع ، حيث لم يستطع عدد كبير منهم أن يتقبل خبر وفاته،لدرجة أن عمر أُقد فند نبأ الوفاة قائلا بأن النبى مضى لربه وسيؤوب مثلما آب موسى لقومه بعد غياب أربعين ليلة .

٢- انهيار سلطان المدينة ،حيث سجلت غزوات النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومواقفه الإدارية فى السابق نفوذا عصريا دعم أركان الدولة ، وبسط قدرتها على أغلب مجتمعات العرب فعنصر الارتداد فى هذه الحالة شأنه شأن عدم التعاطى مع المنهجية السياسية القائمة بنفس الحماس السابق ،وليس الاعتداء بالوثنية ، أو الاعتقادات الفاسدة التى أفسدها مشروع الإسلام نهائيا [٤٢] . وهذا الأمر يقترن بانقسام الأمة بعد رحيل النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى اتجاهين ، أحدهما يرى استحقاقات الولاية لعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وقسم يقر برئاسة أبى بكر ملتمسا المبررات أو راضيا بالخيار ،وعلى ذلك فلا عجب لو لم تكن لوحدة كل المسلمين صفحة ناصعة .

٣- التأثر الواضح من قبل بعض العرب بالفرس والروم المحرضين ضد الدين الإسلامى [٤٣].

٤- ظهور العصبيات والنزعات القبلية بقوة حيث كان طموح حركات الردة ذا نسق سياسى أكثر من كونه دينى ، وأضفت عليها العصبيات القبلية واقع الطمع فى السياسة وحيازة كرسى

الملك ، فذلك معقول للغاية حين نقرأ عن ويلات الجاهلية المشينة التى طفحت مقاصدها كرد فعل عنيفة تختزن نفس المحنة فى الحقبة الإسلامية . وعلى ضوء ذلك عادى جمع من بكر بن وائل قوم عبد القيس الملتفين حول إسلامهم ، فما اقترحه بعضهم كان يدور حول تتويج سلالة النعمان بن المنذر كونه أحق بذلك من أبى قحافة [٤٤]ومن منظور أوسع سنم البعض سيطرة قريش واستفرادها بالزعامة كقيادة النبى (صلى الله عليه وسلم) ونجد هنا انطلاق بعض الطوائف لإرجاع المكانة والسلطان الذى كانوا يحتلونه فى زمن الجاهلية [٤٥] .

٥- بسبب جهل تعاليم الإسلام ، بمعنى نقص البينة من امره، و هذا خلاف ما لمسناه فى السبب الثانى ، إذا أنه من المحتمل أن اعتناق الإسلام لم يكن بالضرورة رغبة فى تحقيق الذات بجوهر الدين إنما قد يكون الهدف هو الرغبة فى الأمان خوفا من تعاظم أمر المسلمين أو البحث من فائدة مادية أو اجتماعية ، وعلى هذا وجدت فئات ضعيفة الإسلام ، مشوهة الإيمان تحركت للإسلام إذانًا لعظمة الإسلام واهله، برغم من هذه الهيئة الواهنة ، لابد من التأكيد على ان الأيديولوجية الإسلامية لم تفرض نفسها بالقسر ، إنما كانت تتسم بعقلانية ارقى من هذه النظرة .

٦- جنوح البعض للخلاص من الزكاة بدعوى أنها متعاصره فقد مع حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وفور وفاته تخلفت عن أدائها ، زاعمة أنها لم تجعل لمن يخلفة فلا حق له أن يطالبهم بجمعها ، حيث تذرع بعضهم بقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) [٤٦]، فى أن دفع الزكاة مقتصرة على من تكون صلاته سكنا لهم، وقالوا أنه لاينبغى للخليفة أن يحكم قبضته عليهم ، لأن تقييدهم يعد نوعا من التمرد على تبعية البدو بجماعات الحضر ، يتضح ذلك فى بيت يستحق الإشارة إليه ، وهو قول الحطيئة :

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا فى لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرًا إذا مات ، بعده وتلك لعمر الله قاصمة القصر

٧- عدم تكاثر تأثير الهاجس الإسلامى فى جزء من أفراد الأمة ، الذين افتقروا للانتماء الروحى الأصيل ، وربما لحداثة ارتباطهم بالإسلام ، وبالتالى افتقدوا للنضج العقيدى الرصين ، فعاشوا على قاعدة مهزورة ، تختلف بواطنهم عن ظواهرهم ، وتنطبق عليهم الآية الكريمة التالية: (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) [٤٧].

٨- حنين العديد من العرب إلى ماضى الشهوات ، التى غابت أثناء مرحلة الرسول لأن الأحكام

الإسلامية لم تصادق عليها ، فلم يشأ هؤلاء أن يظل شرب الخمر والزنا مثلا قيد المصادرة .

كانت هذه مجموعة الدوافع الحية التى اعتمادناها وفق سجلات الحركة التاريخية ، ولا يمكن أن نتخذها على أنها الأسباب المثالية لفيضان الردة فى محيط الجزيرة العربية بما فيها البحرين .

مجمل حرب الردة :

لقد برزت فى السنة الحادية عشرة أنباء ارتداد العديد من العشائر العربية عن الإسلام حينما علموا بوفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وامتنعوا عن الزكاة ، فعمل أبوبكر والمسلمون على قتالهم ، مما أسفر عن مقاومة الحركات الآتية :

١- حركة الأسود العنسى : انبثقت كأول ردة فى الإسلام على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إذ كان عبهلة بن كعب بن عوف مشعوذا كاذبا يريهم الأعاجيب ، ويأخذ بقلوب من يستمع طرحه من أصحاب العقول الضعيفة ، وآزره عمرو بن معدى كرب الذى أسر ، ففكه أبو بكر لاحقا . وقتل فيروز الديلمى عبهلة العنسى بالتنسيق مع زوجته المسلمة التى كانت تبغضه، كما أن من تصدى له إضافة لفيروز رجل يدعى عامر بن شهر الهمدانى وداذويه [٤٨].

٢- حركة مسيلمة بن حبيب الكذاب : ارتدت بنو حنيفة ولحقوا بمسيلمة الكذاب الذى ادعى مشاطرته النبوة مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ، يشهد على هذا صديقه الرحال ، ودعا نفسه برحمان اليمامة حيث أضل أهلها ، وأخذ يسجع لقومه ، ثم وضع عنهم الصلاة وشرع حلية الخمر ، والزنا ونحو ذلك ، فمضى خالد بن الوليد لقتالهم ، فالتقى بهم فى عرباء (فى أرض اليمامة) ، بصحبة شرحبيل بن حسنة وعكرمة بن أبى جهل وأبى حذيفة ، فهزمهم وقتل منهم مقتلة، وأطلق وحشى ابن حرب حربته على مسيلمة فأصابته ، فصرعه أبو دجانة [٤٩].

٣- حركة طليحة بن خويلد الأسدى : تنبأ فى بنى تغلب على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكثر أنصاره ، فقويت شوكته بعد رحيل النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وقد سمى نفسه بذى النون ، ومن جهة نزاله ، فقد مضى إليه خالد بن الوليد بجيش عرمرم لما خرج إلى بزاخة ، فهزم صفوف طليحة الذى كان قد بايع عيينة بن حصن، فيما فر هاربا إلى الشام نازلا عند كلب ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وعلى رواية أخرى أن أبا بكر حقن دمه ، وقيل أنه قتل فى نهاوند[٥٠].

٤- حركة سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية : هى نصرانية ادعت النبوة فى بنى

تغلب ، وصممت على مواجهة أبي بكر غير أن مالك بن نويرة ثناها عن فكرة القتال ، تفاعلت مع نبوءة مسيلمة الكذاب وتزوجته ، ثم انتقلت إلى أرض الجزيرة إلى أن نقلها معاوية عام الجماعة سنة ٤٠ هجرية فأسلمت وحسن إسلامها [٥١].

٥- حركة طوائف البحرين (محل الدراسة) : وهم تيار مرتد ، ملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر القائل بعد أن أسلم وأسلم الناس : «لست بالغرور ، والكنى المغرور» . فأرسل إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمى لتقويم مجرى الباطل ، فأنقض بجيشه على القوم ليلاً فى أجواء سكر ، فأجهزوا عليهم، واستحوذوا غنائمهم [٥٢].

٦- حركة لقيط بن مالك الأزدى : وهو من كان يسمى فى الجاهلية الجلنرى ، وهو الآخر انفلت عن ثوابت الإسلام مدعيا النبوة ، فبعث له حذيفة بن محصن الحميرى ، وعرفجة بن هرثمة البارق، وتبعهما عكرمة بن أبى جهل، وشرحبيل بن حسنة بأوامر من أبى بكر ، وحدث اضطراب فى صفوف المسلمين كاد يفت عضدهم ، ويحيلهم مهزومين ، حتى أقبل إليهم المدد من بنى ناحية وعبد القيس ، فأفنوا عشرة آلاف مرتد ، وأسروا الذرارى [٥٣].

٧- حركة الردة فى مهرة : تمثلت فى إقبال عكرمة بقوى نحو مهرة ، مستنصرا أهل عمان ومن حولها ، فاستجاب له الأمير شخريت المختلف مع الأمير المصبح رئيس المرتدين الذى لقى حتفه حين تقابل جيش المسلمين والمرتدين ، ولقنوهم هزيمة قاسية [٥٤].

٨- حركة قيس بن عبد يغوث بن مكشوح : وهو من أهل اليمن ، خافه أهلها ، ووقف معه عمرو بن معدى كرب ، وجماعة من أصحاب الأسود العنسى ، وكان خطرهم ماحقًا لأمراء اليمن الثلاثة ، فتحرك إليهم المهاجر بن أمية الذى ولاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على صنعاء ومعه عكرمة بن أبى جهل الموجه من أبى بكر فى خمسمائة مدد ، هزماهما ، ثم أصبحا مسلمين تائبين ، فقد ورد أنه أسر ، واقتيد إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقام الأخير بتوبيخه ، ثم عفا عنه ، لأنه أنكر الردة [٥٥] .

٩- حركة أبو الفجاءة السلمى : والذى دخل على أبى بكر يبغى سلاحًا للجم المرتدين ، فلما منح ما يريد خرج على وعده وارتد هو الآخر بقتله المسلمين فى جموع سليم عامر وعامر وهوازن [٥٦].

نتوصل من تلك الظواهر إلى تفشى حروب الردة وتعامل الخلافة معها على أساس أنها ثورات

مشوهة تحكمها النوازع القومية ، وطالما رأوها كذلك بدا ضروريا إخضاعها للحكومة الدينية من منطلق الدفاع عن الأطر الإسلامية التى لا تقبل هذه التعددية .

أهل البحرين بين الثابت والمرتد أهل البحرين تولد بعد وفاة المنذر ، ولابد أن نميز فى هذا الباب بين مواقف أهل البحرين المتباينة بالنسبة لحركة الردة حتى لا يحصل أى نوع من الالتباس فى رؤى الفريقين بمجال الأزمة الردوية .

إن الأنماط المرتدة كانوا من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة وقبيلة بكر بن وائل(٥٧) التى هزأ بها أحد المنتمين إلى بنى ضبيعة بن عجل عبر قوله :

ألم تر أن الله يسبك خلقـــه فيخبث أقوام ويصفوا معشر

لحى الله أقوامًا يصيب بخنعـة أصابهم زيد الضلال ومعمر

والتى آثرت أن تتم على ردتها ، إذ أورد إليها المثنى بن حارث الشيبانى خطابًا يطلب منهم أن يكونوا على قدر من المسؤولية عن طريق توجيه اللوم إليهم ومنعهم من موقفهم بالرغبة فى حرب إخوتهم عبد القيس ، وتوعدهم بمهاجمة المهاجرين والأنصار لهم ، وكتب أبيات مطلعها :

طال ليلى لتمنى مسمع وابن ضبيان جميعًا والحطم

إلا أنهم استهجنوا الدعوة واعتبروها مرادفًا للحسد يقودهم الحطم ، وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد ، ارتد بعد إسلامه هو وبنو قيس بن ثعلبة ، وهو من نزل القطيف ، وهجر واستغوى الخط ومن فيها من الرط والسياجة، وأرسل إلى دارين فأصغوا له ليصير عبد القيس وبينهم (٥٨)، والسر فى تسميته بالحطم يكمن فى قوله : « قد لفها الليل بسواق حطم » (٥٩)، حيث اضطرهم الظرف السياسى إلى تمليك المنذر بن النعمان بن المنذر عليهم ليتمكنوا من تشكيل قيادة تضمن مصالحهم ، وهناك من عمم ارتداد كل من اجتمع بالبحرين من ربيعة عدا الجارود ، ومن ساير منهجه من الأهالى ونلفت النظر إلى أن هناك من احتمل بارتداد جميع قبائل العرب ما عدا أهل جواثا مثل ما تطرق له ياقوت الحموى (٦٠). كان الفريق الآخر المناوئ لمن ارتد يحوى عبد القيس يقودهم الجارود ومن تابعه من قومه الذين أمروا عليهم ابن النعمان بن المنذر ، والجارود هو بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى العبدى (٦١)، وهو من قال عندما ارتد العرب : «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله » (٦٢)، وهو من الكوادر المتفقهة على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبالمناسبة يورد الطبرى عن إسلام الجارود أنه لما قدم على النبى ، عرض عليه (صلى الله عليه وسلم) ، أن يسلم ، فقال : إن لى دينا ، فرد النبى (صلى الله عليه وسلم) : إن دينك

يا جارود ليس بشئ وليس بدين ، إلى أن أسلم وقضى فى المدينة لفترة تفقه خلالها ، ثم عاد لقومه يدعوهم للتحول إلى الإسلام ، فأجابوا مباشرة [٦٣]. وهذا من الشواهد التاريخية التى تفسر لنا أيضا اختيارهم المطلق فى أن يصبح الإسلام جزءًا من ذواتهم وكانت نتيجة انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) للرفيق الأعلى أن ارتدوا من زاوية أنه لو أنه كان محمد نبيا لما مات ، ولحسن الحظ فإن براعة الجارود ، ومنطقيته القاطعة ، قد لعبت دوراً فى تنوير ذهنيتهم، وإعادتهم إلى موقف الشهادتين ، فثبتوا على ما يكفل لهم السعادة [٦٤]، وإن من الذين ثبتوا أيضا : قيس بن عاصم المنقرى ، وعفيف بن المنذر ، وعتبة بن النهاسى بن بكر بن ةائل ، أو (عتيبة بن النهاس)، وعامر بن عبد الأسود ، وصسمع وحفصة التميمى ، أو (خصفة التيمى) ، المثنى بن حارثة الشيبانى ، الذى كا بالمرصاد لأهل الردة تدعيمًا لمشروع العلاء ، وعوف والأبناء من سعد ابن زيد مناة الذين امتثلوا للزبرقان ، ودافعوا عن الإسلام وغيرهم كثير ، حيث استطاعوا إخضاع المرتدين تحت لواء العلاء بن الحضرمى [٦٥].

لجوء المسلمين إلى حصن جواثا :

تعرض البلاذرى بدقة إلى العتمة التى كان يتمتع بها هذا الحصن ، فوصفه بأنه حصن البحرين، وينبغى لفت النظر إلى أن آثاره لا تزال باقية حتى اليوم فهو من معالم الإحساء الأثرية، التى كان يشملها قطر البحرين الجغرافى آنذاك ، بالاضافة إلى أوال والقطيف ، ولقد اختاره النفر المسلم كقاعدة ذات دور فعال على مستوى وقائع الردة كما أنه برز كنطاق تجارى متميز فى السابق [٦٦].

إن الواقع التاريخى عكس المعاناة العميقة لمن ثبتوا على الإسلام فى هجر داخل هذا الحصن الذى ظلت جدرانه شاهدة على صراع الحركات السياسية والحصار النفسى الناتج عن محاولات التضييق على من تشبثوا بالأصالة الدينية ، يجسدون مقاومة الجوع والوضع العصيب ، إلى أن تغير مجرى الأوضاع لصالحهم بعد ذلك فقد دفع الإحساس بالخطر والتدهور قبيلة عبد القيس إلى الاحتماء بحصن جواثى أو جواثا على اختلاف الأخبار [٦٧]، غير أن بكر بن وائل أحاط ومن معه تماما بالحصن وحرموهم القوت ، حتى أوشكت هذه المأساة أن تقودهم للهلاك ولقد عبرت أبيات أحد المحاصرين المسلمين- هو عبد الله بن عوف العبدى - عن المعنى الكامل لهذه السطوة ، حيث كان يستعطف أبا بكر بحرارة ، وربما وثوقا من قدرته على معاونتهم وتخليصهم من الضيم الذى هم عليه ، فكان يقول :

ألا أبلغ أبا بكـر رســولاً وفتيـــان المدين أجمعينـــا

فهل لك فى شباب منك أمسوا　　جياعًا فى جواثا محصرينا
تحاصرهم بنو ذهل وعجل　　وشيبان وقيس ظالمينا
يقودهم الغرور بغير حق　　ليستلب العقائل والبنينا
فلما اشتد حصرهم وطالت　　أكفهم بما فيها بلينا
توكلنا على الرحمن إنا　　وجدنا الفضل للمتوكلينا
وقلنا والأمور لها قرار　　وقد سفهت حلوم بنى أبينا
نقاتلكم على الإسلام حتى　　تكونوا أو نكون الذاهبينا
بكل مهند عضب حسام　　يقد البيض والزرد الدفينا[٦٨]

واستمر المسلمون هكذا ، فى جوع متفاقم ينتظرون بصيص أمل إلى أن حان دور العلاء لينهض فى مواجهة عنيفة تحطم أصفاد الحصار ، والجدير بالذكر أن عبد القيس قد لجأوا إلى الحصن بعد أن شعروا بالهزيمة ، أمام اثنى عشر ألفًا من بكر بن وائل ، ثلاثة أرباعهم كانوا من الفرس ، وذلك بعد قتال ضار استمر أياما كثيرة [٦٩]، وسنتناول آفاق حرب التحرير التالية لهذه الحرب ، بصورة أشمل فى الباب التالى .

دور العلاء فى التصدى للمرتدين

بعد أن انتهى خالد من مهمته فى اليمامة ، استجار جمع المحاصرين فى هجر بأبى بكر (رضى الله عنه) ، فاعراه هم بالغ ، فعقر اللقاء للصحابى العالم العلاء بن الحضرمى – كواحد من القادة الإحدى عشر الذين اختارهم أبوبكر ، فى سنة اثنتى عشرة ، على أساس تحرير البلاد الإسلامية من ممارسة الاعتراضات التى بلغت الذروة [٧٠]، فاستبلت ضمائر الكثيرين – وسيره إلى البحرين لكسر الحصار المفروض على الجماهير المتحمسة للإسلام ، مزودًا بألفين من المهاجرين والأنصار مع ستة عشر رجلاً من الفرسان، ليعينوه على مواجهة من عزموا على إطفاء نور الله على حد قوله ، وقال بنو عبد القيس : إن لم يرتدوا فهم جندك ، وغدا مع العلاء حتى بلغه عبد القيس [٧١].

ولما وصل العلاء إلى اليمامة ، وكان فى استقباله ثمامة بن أثال الحنفى الذى عرض عليه العلاء أن ينضم إليه فى الخروج لحرب أبناء عمه بكر بن وائل ، فلم يتوقع إجابة قومه من بنى

حنيفة بسبب التجربة القاسية التى تعرضوا لها مع مسيلمة فى معركته ضد خالد بن الوليد ، إذ عبر أحدهم عنها :

إنما عهدنا بقاصمة الظهر ويوم لنا كيوم القيامة[٧٢]

ولكن الحاصل أن دعوة اليوم جاءت خلافا لدعوة الأمس تتجلى مآربها فى نصرة المنهج السماوى القويم ، الأمر الذى حمل ثمامة على العزم للمضى مع العلاء وإمداده بقوات من قومه، وكان مع جمع من بنى عمهو ممن ضمن ما أنشده :

فلن أثنى الأعنة عن دعاه وعند الله فى ذاك الجـــزاء

وبعدها وصل إلى محل بنى تميم ، فلاقاه قيس بن عاصم المنقرى التميمى، الذى لقبه النبى بسيد أهل الوبر ، فعرض عليه السير معه لتولى الجهاد ووضع حد للردة فلم يكن منه إلا أن سانده وسار معه بصحبة عشرين فارسا من بنى تميم، وقال قائل :

ألم تر أنا أجرنا العلاء على كل من جاره من مضر

فصارت حصيلة جيش العلاء ألفين مقاتلا من المهاجرين والأنصار بالإضافة إلى جماعتى ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم المنقرى ، وينقل أنه لما بلغ العلاء حصن جواثا ، اعترضته جماعات من ربيعة ، كان يقودهم الحطم ، استطاعوا تقييد حركة المسلمين ، وحصارهم ، مما حمل العلاء على أن يطلب المساعدة من أبى بكر ، فأصدر أبو بكر أمراً إلى خالد بن الوليد بالتوجه من اليمامة إلى البحرين ، لمساندة جيش العلاء ، ولكن النصر كان قد سجل للمسلمين قبل مجئ خالد[٧٣].

وأورد أحد المسلمين فى الحصن إلى العلاء بأنه لم يعد هناك حل ناجع للقضاء على المعارضين وتأديبهم ، سوى مداهمتهم ليلا ، وعكس ذلك أحد أبياته التى خاطب بها العلاء :

أسد النهار ضباع الليل ليس لهم إلا البيــات بمـا لا قــل أو كثــرا

والظاهر أن الجارود قد كتب للعلاء : «إن بينى وبينك أسود النهار وضباع الليل» فأدرك أنه يستحثهم للقتال ليلا ويرجح أن العلاء كان نازلا بأصحابه فنفرت دوابهم وما عاد لديهم ما يتزودون به فى الطريق ، فاشتد عليهم الخطب ، ودارت الوصايا فيما بينهم ، ولما حانت صلاة الفجر صلى بهم العلاء ، وجلس يدعو فاهتدوا إلى ماء شربوا منه واغتسلوا ، ولم يزالوا كذلك حتى أناخت بعيرهم (تكرد من كل وجه) . مما غرس فى قلوبهم الأمر ، ودفعهم للأمام .

ولم يلبث العلاء أن دعا الجارود ورجل آخر للاشتراك مع عبد القيس من أجل الهجوم على الحطم وإحاطته ، واقتضت المعادلة حلول العلاء ومن معه بهجر ولقد خندق المسلمون على أنفسهم وهو يتناوبون القتال قرابة الشهر[٧٤] ، ثم أقام المرتدون القتال فتوارى المسلمون بحصن البحرين المتعارف بجواثا ، وأخذ الجوع منهم مأخذه وكان جنود العلاء يتحينون الفرصة للاقتحام فاحتكم العلاء لفكرة البيات ، وأكد على الجماعة المحاصرين أنه ينبغى لهم التهيؤ للانطلاق ، بمجرد أن يستشعروا اقتحام المسلمين ومباغتتهم للقوم . وكان موقف العلاء فى ليلة البيات يتم بروح التحدي والثبات ، لاسيما وأنه استمر فى تحفيز الجيش ورفع معنوياته ، لخوض الصراع من دون وجل أو تردد ، ولم يتوان فى إرسال شخص يستقرئ له خبر القوم عن كثب - قيل أنه عبدالله بن حذف - خاصة بعد سماع ضجيج ، وضوضاء ، فى العسكر الآخر ، فانبرى للتقصى ، وقبيل انبلاج الصبح ، عاد الرجل يحمل بشارة التمكين ، وأعلم العلاء بالأمر المهم الذى تحقق منه ، حيث عاد قائلا : « قد أشرفت إلى معسكرهم فلم أسمع لهم حركة ، والقوم عندى سكارى ، لايعقلون » ، وقد ورد أيضا أنه لما اقترب من خندقهم أخذوه ، فصار يستغيث وأبجراه » فجاءه أبجر بن بجير ، فعرفه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : علام أقتل ، وحولى عساكر من عجل وتيم اللات ، وغيرها ؟ فخلصه ، فقال له : «والله إنى لأظنك بئس ابن أخت أتيت الليلة أخوالك ، فقال : « دعنى من هذا وأطعمنى ، فقد مت جوعًا » فقرب له طعامًا ، فأكل ، ثم قال: «زودنى واحملنى ، يقول هذا لرجل قد غلب عليه السكر» ، فحمله على بعير ، وزوده وجوزه ، وبعد أن دخل عسكر المسلمين أخبرهم أن القوم سكارى ، فلم يلبث العلاء أن دعا صحبه للركوب ، قاصدين هدفهم بترو ، حتى إذا شخصت أبصارهم للعسكر ، أحدقوا بهم وانقضوا عليهم بالخيول التى جالت عليهم حوافرها ، وبالسيوف التى تناولتهم ، حيث أذرع المسلمون فيهم قتلا وأبلوا بلاءً حسنا فى حرب طاحنة ، فهرب الكفار بين متردد ، وناج ومقتول ، ومأسور[٧٥]، وكما ورد عن ابن كثير أنه قل من هرب منهم[٧٦]. أما بالنسبة للجماعة المسلمين المحاصرة ، فإنهم أداروا باب الحصن ، وهموا بالقتال من الجهة الخلفية ، تنفيذا لتعاليم القائد ، فتضافرت القوى مما كبد المشركين خسائر هائلة فى الأرواح[٧٧]، وولت فلولهم بعد الهزيمة الشنعاء إلى قرية الردم ، فى حين تقاسم المسلمون الغنائم ، وقد قتل الحطم إثر انقطاع ركابه مع قدمه[٧٨] ، الذى قال فى قتله مالك بن ثعلبة العبدى :

وتركنا شريحا قد علته بصيرة　　　كحاشية البرد اليمانى المحبـر

ونحن فجعنا أم غضبان بابنهـا　　　ونحن كسرنا الرمح فى عين حبتر

ونحن تركنا مسمعا متجدلا رهينة ضبع تعتريه وأنسر

ويبدو أن السر فى إحراز هذا النصر يكمن فى الموهبة العسكرية ، والمنهجية البارعة فى خطط الحرب حسب تكتيك العلاء . عندها كتب العلاء إلى أبى بكر : بهزيمة أهل الخندق ، وقتل الحطم، إذ قتله زيد ومسمع « أما بعد فإن الله تبارك وتعالى سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم ، فقتلناهم إلا الشريد ، وقد قتل الله الحطم [٧٩] .

ولا يخفى فى مسار هذه الواقعة من أن المنذر بن النعمان قال عندما انتصر المسلمون « لست بالغرور ،ولكنى المغرور » فاستنزل أرض الخط مع شرزمة ربيعة ، حيث أن العلاء شن غارة عليها ، وقتله هناك لولا قول بأن أسلم وحسن إسلامه .

وبعد أن فرغ من جواثا قطع العلاء طريقه إلى جزيرة دارين ، والواقع أن الناس بها كانوا كثيرين، فعمد إلى المشى إليهم فى عز الليل ، فزحف بجيشه إلى طريقها الأوحد الذى كان قد لوحظ عليه الحراس الذين لم تنفعهم هذه الحصانة وغارت عليهم خيل المسلمين فى عقر دارهم، فاشتبكوا معهم وأردوهم عن آخرهم إلا صغارهم ، وأخذوا معهم جميع ما كان فى الجزيرة من النساء والذرية وحملوا الأموال ، واقتسموا الغنائم راجعين إلى عسكرهم ، وأشعر بعضهم يقول :

ألم ترى إلى الليل ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذى شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

ثم واصل العلاء سيره حتى بلغ الردم ، ودنوا من الخصم فى صراع يشتعل شراسة ، حيث دار النزال لساعة ، وتخلل المبارزات ضربة أحد الكفار يدعى أبجر لابن بجير على رأس قيس بن عاصم ، غير أن قيس صدها بالترس ، وأصابه بعد ذلك بسيفه ، وكان يقول :

ألم تر أدميت رمحى وأننى ضربت بحد السيف يا فوخ أبجر

فلم يجد مناصا للهرب وحلت الهزيمة بالخصم أمام الهجوم العاتى للمسلمين[٨٠] ، وشهدوا مصرع رئيسهم الحطم بن زيد [٨١] الذى انثنى به السرج ، وقد انقطع ركاب الفرس حين عاودا الركوب سريعا إثر قضاء حاجة ، وظل واقفا متحيرا لا يعرف كيف يتصرف ، أو إلى أين يذهب إلى أن خر قتيلا على يد أحد المسلمين الذى أنشد :

لما بدا حطم لى وحده يدعو بأعلى الصوت من عاقلى

أقبلت فى النقع إلى فارس أشبه شىء منه بالراجل

منقطع الحيلة فى موضع فيه قصيد من قنا ذابل
فقلت لا تعجل أتاك الرد فلست عما جئت بالغافـــل
فلما انثنى وثنى رجله عممته بالمرهف الفاصـــل
سيفا حساما فوق يافوخه فخر مثل الجمل البازل

وعلى رواية أن قيس بن عاصم هو قاتله ، وهو من أجهز على أبجر بطعنة فى العرقوب أنشد فيها عفيف بن المنذر :

فإن اليرقأ العرقوب لا يرقأ النسا وما كل من يهوى بذلك عالم
ألم ترى أنا قد فللنا حماتهـــم بأسرة عمرو والرباب الأكـــارم

وعفيف ذاته هو من أسر الغرور بن سويد ، فطلبت منه الرباب أن يجيره ، فأجاروه بعد هذا النصر لاذت فلول بكر بن وائل بالصحارى ، ونزل المنذر بن النعمان إلى آل جفنة مستجيرا أما الفرس فقد ولى جزء منهم للزارة والقطيف ، فيما خرج بعضهم لكسرى وأخبروه عن هزيمة عساكرهم، فحزن لذلك وأما القسم الأخير منهم ، فقد سألوا العلاء الأمان ، فمنحهم ذلك ، واشتغلوا بالبحرين حراثين وزراعين . ثم تولى العلاء دفع ما حصل عليه من الغنائم إلى أبى بكر، وأرسل له كتابا بما صار إليهم أمرهم فشعر بقوة العلاء فى إدارةزمام الأمور ، فولاه البلاد . وفى خبر المنذر بن النعمان فقد قيل وقتها أنه قد مسه ندم شديد ، وكتب إلى أبى بكر أبيات تفصح عن رجوعه إلى الرشد وتعبر عن ذلك بصراحة :

عجبا لأمرى والحوادث جمة أدعى الغرور وإننى مغرور
قد قلت لما لم أجد لى مهربا إنى لعمــــرك واتــر موتـــور
وأطعت كسرى فى الذى أملتـه ووترت قوما وترهم محذور [٨٢]

وهناك فى الطبرى ، والبلاذرى ، واليعقوبى من الشواهد ما يروى أنه لقى حتفه يوم جواثا[٨٣].

حركة الردة فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

استؤصلت آخر آثار حركة الردة ، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى) ، حيث أحرز ذلك بمصرع المكعبر الفارسى [٨٤] ، وقد عمد الخليفة على الإبقاء على تعيين العلاء بن الحضرمى واليا على البحرين وقد قيل فى هذا الشأن أن أرناد ابن فيروز بن حشيش (المكعبر الفارسى قد تحصن

بالزارة ، وكان قائد المرتدين ، وحليف كسرى الذى أرسله للانتقام من بنى تميم أيام تعرضهم لغيره، وقد التحقت به قبائل من المجوس الذين تجمعوا بالقطيف ، وعارضوا تأدية الجزية ، فنهض العلاء للزارة لكنه لم يفلح فى فتحها لإبان خلافة أبى بكر ، وإنما عاد ليفتحها فى بدايات الخلافة العمرية ، حيث شهد له بفتح السابون ودارين بالسيف ، وعرف خندق باسمه .

وقد ألحق معمر بن المثنى مجموعة من الحملات العسكرية بالعلاء ، حيث يقول استنادا لما أورده الواقدى فى كتاب الردة : غزا العلاء بعبد القيس قرى من السّابين فى خلافة عمر بن الخطاب ، ففتحها ثم غزا مدينة الغابة ، قتل من بها من العج ، ثم أتى الزارة وبها المكعبر ، فحصره ثم إن مرزبان الزارة دعا إلى البراز ، فبارزه البراء بن مالك ، فقتله ، وأخذ سلبه ، فبلغ أربعين ألف ثم خرج رجل من الزارة مستأمنا على أن يدل على شرب القوم ، فدله على العين العين الخارج من الزارة ، فسدها العلاء، فلما رأوا ذلك ، صالحوه على أن له ثلث المدينة ، وثلث ما فيها من ذهب وفضة ، وعلى أن يأخذ النصف مما كان لهم خارجها ، وأتى الأخنس العارى العلاء، فقال له : إنهم لم يصالحوك على ذراريهم ، وهم بدارين ، ودله كراز المكرى على المخاض إليهم فاقتحم، العلاء فى جماعة من المسلمين البحر ، فلم يشعر أهل الذارى ، والسبى ، ولما رأى المكعبر ذلك، أسلم ، قال كراز :

هاب العلاء حياض البحر مقتحما فخضت قدما إلى كفار دارينا [٨٥]

نتائج حرب الردة

لا بد لنا إذا ما أردنا فهم حركة الردة كجزء من حركات التاريخ الإسلامى ، أن نناقش بالإضافة إلى أصولها كل ما يستتبعها من النتائج والتحولات المنطقية ، باعتبارها مطردة من المنحنى المصيرى لأطوار الحركة ، وأصدائها على المدى القريب والبعيد .

وبناء على ذلك ، اعتمدنا التسلسل الآتى للكشف عن الآثار المترتبة على حركة الردة :

١ - أدت إلى نشوب معارك ، نجم عنها توحيد كلمة المسلمين ، وتقوية مركز الخلافة ، حيث بدا ذلك واضحا فى موازين الفتوحات ، واتساعها بنحو جغرافى فاق حدود الجزيرة العربية، ليشمل أمتى الروم والفرس .

٢- إكساب الناس المقدرة والجرأة على دحض الشبهات الباطلة ، والدعاءات العقيدية الفارغة، مما غذى حيز الوعى والثقة فى الدين .

٣- عكرت فى بادىء الأمر أجواء الاستقرار والتراص الاجتماعى ، بسبب الاضطرابات المسلحة ، وأزمة العدائيات .

٤- استلزمت تجريد النفوس من الشرك وسد المجال على كل من يحاول تضليل الأمة ، سواء بادعاء النبوة، أو الخروج عن الرسالة المحمدية .

٥- لعبت دورا فى تطوير المهارات القيادية وتحسين مستوى القدرة العسكرية ، خاصة وأن حرب الردة قد استمرت لفترات ليست بالقصيرة ، برز خلالها العديد من القادة المحترفين ، كالعلاء الحضرمى الذى كانت له صولات وجولات ، دلت على براعته فى تهيئة الجيش ، وحسن تدبيره المتمثل فى بناء القرار واستعمال منهج التحرى والمباغتة ضد الخصوم فى ميدان الردة [٨٦] .

٦- فتور موجة التساهل فى تطبيق الأحكام .

٧- حضور بعض من ادعى النبوة بصورة حمل السلاح فى فتوح العراق وفارس .

٨- فرض حدود ضيقة على الكيان الآخر ، من خلال ممارسات الإلغاء الصريحة للرؤى والصيغ المخالفة ، بصفتها توسع فجوة النقص والخطأ .

لا شك أن هذه النتائج ليست مصدرة كأحكام نهائية ، بقدر ما تكون نقاطا حصدناها بعد سبر غور التاريخ ، وكشف النقاب عن بيئة الردة .

الهوامش

(١) الزبيدى : تاج العروس من جوهر القاموس ، ص٨٨-٩٠ .

(٢) البقرة : ٢١٧ .

(٣) الأزهرى : معجم تهذيب اللغة ، ج٢ ، ص١٣٩١ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، م٣ ، ص١٧٢-١٧٣ .

(٥) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت ، ج٢٢، ص١٨٠ .

(٦) الصاوى ، أحمد : بلغة السالك لأمر المسالك ، ص٣٨٥-٨٦ .

(٧) النحل : ١٠٦ .

(٨) موسوعة الفقه الإسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر الفقهية ، م٢ ، ص٢٥٢ / بدوى إبراهيم : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية ، ص٣٤ .

(٩) مراوديد على : سلسلة الينابيع الفقهية ١ الحدود ، ص٣٥٢ ؛ النووى : مغنى المحتاج ، ج٤ ، ص١٣٧ .

(١٠) النووى : مغنى المحتاج ن ج٤ ص١٣٤-١٣٦ .

(١١) الموسوعة الفقهية ، ج٢٢ ، ص١٨٣ .

(١٢) موسوعة الفقه الإسلامى المقارن ، الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، ص٢٥٢-٢٥٤ .

(١٣) حسن ، إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى] والدينى والثقافى والاجتماعى ، ص٢٨٦، ٢٨٨؛ المسرى ، حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموى، ص٧٨-٧٩ .

(١٤) بدوى ، إبراهيم : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية ، ص٤١ .

(١٥) النووى : مغن المحتاج ، ج٤ ، ص١٤٠-١٤١ ؛ الصاوى : بلغة السالك لأمر المسالك ج٢، ص٣٨٧ ؛ السمرقندى : تحفة الفقهاء ، ج٣ ، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الكويت : الموسوعة الفقهية ، ص١٩١-١٩٢ .

(١٦) كريزى كلوس : معجم العالم الإسلامى ، ص٥٠ .

(١٧) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت : نفس المصدر السابق ، ص١٩١-١٩٥ ؛ عكام، محمود : الموسوعة الإسلامية الميسرة ، م٦ ، ص١١٦٨ .

(١٨) موسوعة الفقه الاسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، م٢ ، ص١٦٠-١٦١ .

(١٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج١ ص٤٧ .

(٢٠) الوثيقة : العدد السادس ، السنة الثالثة ، ص٥٦ .

(٢١) الوثيقة : نفس المصدر ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٦٧ .

(٢٢) الوثيقة : نفس المصدر : العدد الخامس ، السمة الثالثة ، ص٨٤ .

(٢٣) الوثيقة : العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٥٨-٥٩ .

(٢٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٧ .

(٢٥) الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٨ .

(٢٦) التاجر : عقد اللآل ، ص٧١ .

(٢٧) الوثيقة : نفس المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٢٨) النويرى : سالم : أعلام الثقافة الإسلامية فى البحرين خلال ١٤ قرن ، م١ ، ص٧٥ .

(٢٩) آل عمران : ١٤٤ .

(٣٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج٣ ، ص١٥٢؛ ابن الأثير : الكامل ، م٢، ص٢٢٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٢٧ ؛ النبهانى الطائى : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية، ص٥٤ .

(٣١) المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص٣٤٧ .

(٣٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤ ، ص٣١٦ .

(٣٣) التاجر ، محمد على : عقد اللآل ، ص٧١-٧٢ .

(٣٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، م٢ ، ص١٥١ .

(٣٥) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٤ ، ص٤٣ .

(٣٦) الذهبى : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان ، ص٢٧ ؛ فروخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٩٤-٩٥ .

(٣٧) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج١ ، ٢٠١ .

(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٩ ؛ النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة الإسلامية فى البحرين خلال ١٤ قرن ، م١ ص٧٧ .

(٣٩) الوثيقة : العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة للهجرة ، ص٥٣ .

(٤٠) التاجر : عقد اللآل ، ص٧٢-٧٣ ؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ص٣٢.

(٤١) فروخ : عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٩٤-٩٥ .

(٤٢) سرور ، محمد جمال الدين : الدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسى ، ص١٦٨-١٦٩ .

(٤٣) الموسوعة العربية العالمية : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م م ، ص١٩٩ .

(٤٤) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة «الشيبانى»، ص١٤٧ .

(٤٥) سالم ، السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب - تاريخ الدولة العربية - م٢، ص١٦٤-١٧٠ .

(٤٦) التوبة : ١٠٣ .

(٤٧) التوبة : ١٠١ .

(٤٨) ابن الأثير : الكامل ، ج٣ ، ص٢٢٨-٢٢٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٦ ، ص٣٠٧-٣٠٩ ؛ ابن الجوزى : المنتظم ، ص١٨-٢٠ .

(٤٩) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٥ ؛ ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، ص٢٠-٢٢.

(٥٠) ابن الأثير : نفس المصدر السابق ، ص٢٣٢-٢٣٣ ؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ص٣٠ .

(٥١) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢١-٣٣٢ .

(٥٢) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٧-٣٢٩ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص١٥٢ ؛ ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، ص٨٤ .

(٥٣) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٠٢ ؛ ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٩- ٣٣٠؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج٣ ، ص٢٦١-٢٦٢ .

(٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ، ص٨٦ .

(٥٥) ابن الجوزى ، نفس المصدر السابق ، ص٨٦-٨٧؛ الذهبى المصدر السابق ، ص٣٠-٣١ .

(٥٦) كنعان ، محمد : تاريخ الخلافة الراشدة ، ص٤٤-٤٨ .

(٥٧) الحموى : ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ص٣٤٩ .

(٥٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ، ص١٥٢ ز

(٥٩) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق ، وذكر المثنى بن حارثة «الشيبانى» ، ص١٤٩-١٥٠ .

(٦٠) الحموى ، ياقوت : نفس المصدر ، م ٢ ، ص١٧٤ .

(٦١) التاجر ، محمد على : عقد الآل ، ص٧٢ .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل ، م٢ ، ص٢٢٥ .

(٦٣) الطبرى : نفس المصدر السابق ، ص١٥١ .

(٦٤) نفس المصدر ، ص١٥١-١٥٢ .

(٦٥) نفس المصدر ، ص١٥٣ ؛ الموسوعة العربية العالمية ، ص١٩٩ .

(٦٦) الوثيقة ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٦٩؛ نفس المصدر ، العدد السادس - السنة الثالثة ، ص٥٨ .

(٦٧) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٢ .

(٦٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص١٥٢ ؛ الواقدى : نفس المصدر ، ص١٥٢ ، ص١٥٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج٥، ص٣٢٧ .

(٦٩) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٢ .

(٧٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٧٦ ز

(٧١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ص٨٥ .

(٧٢) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٤-١٥٦ .

(٧٣) المسرى ، حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموى ، ص٨٣-٨٧ .

(٧٤) النبهانى الطائى ، العلامة الشيخ محمد : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية ، ص٥٥ .

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، م٢ ، ٢٢٧ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٨ .

(٧٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٥٠٥ .

(٧٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢ .

(٧٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، م٢، ص١٥٢-١٥٧ .

(٨٠) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر "المثنى" بن حارثة الشيبانى ، ص١٥٤-١٦١ .

(٨١) الحموى : ياقوت ، معجم البلدان ، ص٤٣٩؛ التاجر ، محمد على : عقد اللآل ، ص٧٢؛ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١١٤-١١٥ .

(٨٢) الواقدى ، كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق ، وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" , ص١٤٧-١٦٦ .

(٨٣) اليعقوبى البغدادي : تاريخ اليعقوبى ، ج١ ، ص٨٩ .

(٨٤) النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة ، ص٧٨ .

(٨٥) التاجر ، عقد اللآل ، ص٧٣-٧٤ .

(٨٦) الناطور ، شحادة على : تاريخ صدر الاسلام وفجره ، ص٢٠٦ .

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، المجلد الثانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٢- ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد : المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ج٤ ، ط١٤ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٣- ابن خلدون ، عبدالرحمن : تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج٢ ط٢ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٤- ابن قدامة : المغنى ، ج٥ ، ط٦ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، مكتبة المعارف - بيروت .

٥- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥، ط٦، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٨ م ، مكتبة المعارف - بيروت.

٦- ابن منظور : لسان العرب ، دار صاد - بيروت، ط١ ، ١٤١٠ هـ -١٩٩٠م ، المجلد الثالث.

٧- ابن هشام : السيرة النبوية لابن هشام ، دار إحياء التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٥ م .

٨- الأزهرى ، أبى منصور محمد بن أحمد : معجم تهذيب اللغة ، تحقيق د. رياض زكى قاسم، دار المعرفة - بيروت ، المجلد الثانى .

٩- الباكستانى ، شبير أحمد محمد على : عصر الصديق (رضى) ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٠٤ هـ -١٩٨٣ م .

١٠ - بدوى ، د. إبراهيم عبد العزيز : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية مقارنة) ، ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م .

١١- البستانى ، الشيخ عبد الله : الوافى (معجم وسيط اللغة العرية) ، مكتبة لبنان - بيروت، الطبعة ١٩٨٠ م.

١٢ - البلاذرى ، الإمام أبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

١٣ - بهيج ملاحوش (د) : موسوعة الزاد للعلوم والتطنولوجيا بالكتاب والفيديو ، ج٩ ، التاريخ الاسلامى ، مطابع دايداكو برشلونة ــ اسبانيا .

١٤- التاجر ، الشيخ محمد على : عقد اللآل ، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر - البحرين ، ١٩٩٤ .

١٥- حجازى ، عبد الحميد : موسوعة العالم الاسلامى ، دار الرأى العام ، مصر - القاهرة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٩٧م ، المجلد الثانى .

١٦- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج١ ، دار الجيل- بيروت .

١٧- الخولى ، أ.د. محمد على : معجم الألفاظ الاسلامية (عربى - إنجليزى وإنجليزى - عربى) ، ط١ مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ..

١٨- الديار بكرى ، الإمام الشيخ حسن بن محمد بن الحسن : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس النفس ، ج١ ، مؤسسة ١١ شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت .

١٩- الذهبى ، شمس الدين : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، دار الكتاب العربى- بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .

٢٠- الرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر : مختار الصحاح إخراج دائرة المعاجم فى مكتبة لبنان ، مكتبة لبنان، طبعة مدققة كاملة التشكيل ومميزة المداخل ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٢١- رجب محمد عبد الحليم : الردة فى ضوء مفهوم جديد ، دار النهضة العربية .

٢٢- الزبيدى ، السيد محمد مرتضى الحسينى : تاريخ العروس من جواهر القاموس ، تحقيق د. عبد العزيز مطر ، مطبعة حكومة الكويت ، دار الجيل ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

٢٣- زقزوق ، أ.د. محمود حمدى : الموسوعة الإسلامية العامة ، جمهورية مصر ، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، الاقهرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠١ م .

٢٤- سرور ، محمد جمال الدين : الدولة الاسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسى ، دار الفكر- القاهرة ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٢٥- سلسلة الينابيع الفقهية : الحدود ، إشراف وتحقيق على أصغر مرواديد ، مؤسسة فقه الشيعة والدار الاسلامية - بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٢٦- السمرقندى ، علاء الدين : تحفة الفقهاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الجزء الثالث ٥٩هـ .

٢٧- سمير عبد الحميد ابراهيم : الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى ، دار الصحوة للنشر.

٢٨- السيد عبد العزيز سالم : دراسات ف] تاريخ العرب ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، المجلد الثانى .

٢٩- الشرقاوى ، عبد الرحمن : الصديق أول الخلفاء ، مكتبة غريب .

٣٠- شوفانى ، د . إلياس ، حزوب الردة .

٣١- الصاوى ، الشيخ أحمد : بلغة السالك لأمر المسالك دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢ .

٣٢- الطبرى ، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، مؤسسة الستين للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، المجلد الثانى .

٣٣- عبد الشافى محمد عبد اللطيف : موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى ، شركة سفير - القاهرة ن ١٩٩٦م .

٣٤- عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٣٥- العصفرى ، أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبى هبيرة الليثى : تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٣٦- العقاد ، عباد محمود : عبقرية الصدريق ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ــــ بيروت.

٣٧- عكام ، د. محمود : الموسوعة الإسلامية الميسرة ، دار صحارى للطباعة والنشر والتوزيعع - دمشق ، المجلد السادس .

٣٩- غريب ، حسن : الردة فى الإسلام ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ـــ لبنان .

٤٠- فاروق عمر : الخليج العربى فى العصور الاسلامية ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م ، دار القلم - الامارات العربية .

٤١- الفراهيدى ، أبى عبد الرحمن خليل بن أحمد : كتاب العين ، د . مهندى المخزومى د. إبراهيم السامرائ.

٤٢- الكاندهلوى ، محمد يوسف : حياة الصحابة ، ج١ ، دار صعب ـــ بيروت .

٤٣- الكعبى ، الشيخه زهير : موسوعة خلفاء المسلمين .

٤٤- كلوس كريزر وآخرون : معجم العالم الإسلامى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ط٢ ترجمة د.ج. كتورة .

٤٥- كنعان ، محمد بن أحمد : تاريخ الخلافة الراشدة ، مؤسسة المعارف ، بيروت ـــ لبنان ، ط١ ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٤٦- مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت - لبنان - ج٨ .

٤٧- موسوعة الفقه الإسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، المجلد الثانى .

٤٨- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٣ .

٤٩- محمد الحسينى عبد العزيز : حضارة الكويت ودول الخليج العربى .

٥٠- محمد شاكر : التاريخ الإسلامى ، ج٣ الخلفاء الراشدون ، المكتب الإسلامى .

٥١- محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، القاهرة .

٥٢- مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام : موسوعة العالم الاسلامى ، دار الرأى العام ، مصر- القاهرة ، المجلد الثانى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٥٣- المسرى د. حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النوة إلى نهاية العصر الأموى ، مجلس النشر العلمى- لجنة التأليف والتعريب والنشر ، ٢٠٠٠م .

٥٤- مسعود جيران : الرائد (معجم لغوى عصرى) ، دار العلم للملايين ، ط٤ ، ٢٠٠٠م.

٥٥- المسعودى : التنبيه والإشراف ، دار التراث - بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٥٦- الناطور ، د. على شحاته : تاريخ صدر الإسلام وفجره ، ١٩٩٥م.

٥٧- النبهانى الطائى ، العلامة الشيخ محمد بن الشيخ خليفة بن حمد بن موسى التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية ، دار إحياء العلوم- بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٨- النووى ، أبى زكريا : مغنى المحتاج ، ج٤ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى ، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

٥٩- النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة الإسلامية .

٦٠- الواقدى ، محمد بن عمر بن ةاقد : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة (الشيبانى) ، دار الغرب الاسلامى ، تحقيق د. يحيى الجبورى .

٦١- الوثيقة ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحالدية للهجرة رجب ١٤١٣هـ / يناير ١٩٩٣م.

٦٢- الوثيقة ، العدد السادس ، السنة الثالثة ربيع الآخر ١٤٠٥هـ - يناير ١٩٨٥م.

٦٣- الوثيقة العدد الخامس ، السنة الثالث شوال ١٤٠٤هـ - يوليو ١٩٨٤م.

٦٤- وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية - الكويت : الموسوعة الفقهية ، طبعة ذات السلاسل ، ط٢ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٦٥- اليعقوبى البغدادى : تاريخ اليعقوبى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ط١ ، ج١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

د. محمود إبراهيم السعدني(*)

«نقـش أماسيس المصـري(!!)»
(قراءة تاريخية حضارية في نص باليونانية)

عناصر البحث:-

أولاً : التعريف بالنقش : مكانه وزمانه

ثانيا : ترجمة النقش .

ثالثاً: المضامين الحضارية.

(تقديم):اعتذار واجب :-

لما كان قد تعذَّر عليَّ الحصول علي النص الأصلي اليوناني لموضوعنا المعلن أمامكم في البرنامج ، آثرت كعهدي مع نفسي وحرصي على التميز في المعالجة المباشرة مع كلمات وسطور النص الأصلي الكلاسيكي، أن أقدم نصاً آخر، غالباً ما نجهل قيمته الحضارية والثقافية، تحديداً، كأقدم نص يوناني كامل علي أرض مصر الكنانة، كبداية للتوجه المصري الفرعوني في عصر مجده المتأخر، صوب الغرب ، وحضارته، حيث بدأت مصر القديمة آنذاك الاستعانة بمرتزقة من اليونان!!!

---

* أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية - الرومانية - جامعة حلوان- وعضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب

أولاً : التعريف بالنقش:

(أ) مكانه : محفور علي ساقي تمثال للملك رمسيس الثاني (أمام معبده الجنائزي الشهير ، في منطقة أبي سمبل ،بصعيد مصر الأعلى (Ano Aigyptos) ، أسفل الركبة اليسرى .

(ب) زمانه : يؤرخ ب ٥٩٤ أو ٥٩٦ ق . م ، من عهد الفرعون أبسماتيك الثاني (psmmetikos II) .

(ج) سطوره : (٥) سطور كاملة فضلاً عن توقيعات لأشخاص بأسمائهم ، وتوقعان في آخر النقش .

(د) النشر : تم نشره وترجمة هذا النقش إلي الإنجليزية عند كل من :

(1)- Tod, M.N., A Selection of Greek Historical Inscriptions, I, Oxford 1933, P. 5.

(2)- Jeffery, L. H., The Local Scripts of Archaic Greece, Oxford 1961, P. 348.

(3)- Cook, J. M., The Greeks in Ionia and the East, London 1962, P. 66.

ثانيا: الترجمة

أ. القراءة الصحيحة للسطور الخمسة الكاملة هي كالآتي:-

1. Basileos élthontos es Elephantinan Psamatikho,
2. autá égrapsan toi (s) yn Psammatikho toi Theoklos,
3. èpleon èlthon de Kèrkios kat›upèr Thenis o potamos, Thenis.
4. ealoggos ani os dèkhe Potasimto aigyptios de Amasis.
5. egraphe da me arkhon Amoibikho kaí Pèlexos oudamó. Kai...............

Krí this egraphan em.......Pýthon Amoibikhou

وترجمة هذا النص اليوناني القديم، كأقدم أثر كتابي لليونانيين، على الإطلاق، في صعيد مصر، منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد، تكون كالتالي، وهي أول ترجمة عربية متخصصة، مباشرةً عن الأصل، وليست عن الإنجليزية، كما جاءت عند الناشرين الأول.

السطر الأول: «بوصول الملك أبسماتيك إلى إليفانتين(**)»،

السطر الثاني: كتب (السطور) هذه من أجل الذين مع أبسماتيك،

السطر الثالث: ولكنهم أبحروا، ووصلوا حتى كيركيس(***)،

السطر الرابع: في أعالي النهر حتى ثينيس(****)، ولقد عَيَّنَ أماسيس المصري، بوتاسيمتو على الوحدات التسع حامل الرماح (٤) الرماح.

السطر الخامس: سُجِّلِ هذا بأمر القائد بن أمبيبخوس وبليبيكس، وليس في أي مكان آخر كتب هذا كل من ....أخر.

التوقيعات: كريثيس وبيثون بن أمبيبخوس.

ثالثاً: المضامين التاريخية والحضارية

أ) المضامين التاريخية: ويمكن إيجازها فيما يلي:

١- قيام الملك أبسماتيك الثاني، في عام ٥٩٤/٥٩٣ ق.م، بحملة على أقصى صعيد مصر، وحتى آخر قلعة لحدود مصر الجنوبية، وهي أسوان (عند بيغائين)، وقيادتها بنفسه وذلك، على الأرجح، لتحقيق بعض المهام والأهداف، ومنها:

** هي مثل جزيرة "بجه"، في نيل أسوان ولكنها إلى الشمال منها، أما تلك التي تسمى الآن "فيلة" فهي ترجمة حرفية لاسمها اليوناني أو "الرفيقات" القديم، والمسمى الروماني لها، من بعد ذلك هو "Philae" وأما لماذا سميت كذلك، فلا ندري، إلا إذا كان الاسم يشير إلى حواري ايزيس "الصديقات".

*** لا نعلم يقيناً جغرافياً، ماذا كان المقصود بهذا الموضع على النيل، جنوباً بعد أسوان!!!، والأرجح عندنا أنها هي جرجا، الآن، استناداً إلى أصوات الحروف الصامتة لهذا الاسم اليوناني، الذي هو تحوير أجنبي، في الغالب، للاسم المصري القديم (!!!)

**** كما لا نعلم موقع مدينة "ثيني" هذه، وربما كانت هي ذات الموضع الذي يشير إليه علماء الآثار المصرية باسم "Theni" في أعالي النيل.

أ- إستتباب الأمن الضروري، ولاسيما بعد مرور حوالي (٥٠ عاماً فقط على تأسيس الأسرة الصاوية، وإعلان أبسماتيك الأول المؤسس نفسه ملكاً منفرداً للقطرين، الشمال والجنوب، عام ٦٥٦ ق.م، وقيام خلفائه بالسير على السياسة نفسها أي سير الخلف وسير على سنة السلف!!!

ب- استمرار الإستعانة بالمرتزقة اليونان، حتى في مثل تلك المهام الوطنية الداخلية، مما يعكس الثقة الزائدة فيهم، حتى حينه (!!!).

٢- بقاء الملك في إليفانتيني((Elephantine، واستمرار سير الحملة براً فقط في اتجاه الجنوب، حتى معبد أبي سمبل (أي جنوباً لأكثر من ٥٠م ك.م) بقيادتين إحداهما مصرية، ممثلة في أماسيس المصري (Amasis)، والأخرى يونانية، بقيادة ثيوكليس(theolès).

٣- النقش، (فيما يخص ترتيب أخبار الحملة)، لا يعرض لخط سيرها، بصورة طبيعية، وفق جغرافيا الصعود في النيل، إلى أعالي الصعيد، ففي السطر الأول يتحدث عن الوصول إلى إليفانتين (أسوان)، ولكنه في السطر الثالث، يعود بذاكرته إلى المحطات الأسبق في مشوار الحملة، حيث مرت بمدن كيركيس (kerkes)، (التي ربما كانت هي موضع «جرجا» الآن، وذلك بفضل تشابه مخارج الحروف وإمكانية تبديل حرفي الكاف (K) والجيم (G) في اللغات الأوروبية القديمة، وعلى رأسها اليونانية).

وكذلك مدينة ثينيس (Thènis)، وكلتاهما قبل أسوان، على ضفتي نهر النيل.

ولنا نحن، في ذلك تبرير مقبول، من واقع علمنا بفنيات (Techniques) وأولويات كتابة النقوش القديمة، وبخاصة اليونانية، فلقد كانت تعطى أولوية مطلقة لـ:

١- تسجيل اسم الملك/ الفرعون، أولاً، (وكذلك الملكة منذ العصر البطلمي وما بعده).

٢- تسجيل الكاتب / أو / لمن يُكْتَبُ النقش.

رابعاً: المضامين الحضارية:

١- يتضح الاحترام الواجب من المرتزقة اليونان، في الجيش المصري للأسرة السادسة والعشرين لمليكهم، الذي يعملون في خدمته، وهو أبسماتيك الثاني، وتسجيل خبر وجوده بينهم، على رأس الحملة، بالرغم من كتابتهم بلغتهم هم، اليونانية القديمة، والتي لولاها ما عرفنا شيئاً أبداً عن تلك الحملة العسكرية، شكلاً، والسياسية هدفاً وغرضاً، وبالطبع إقتصادية كذلك، تبعاً للعادة

الفرعونية الراسخة لتحقيق مكاسب عدة من تجريد الحملات، سواء في الداخل، أو حتى صوب الحدود الخارجية لتأمين أملاك مصر القديمة ضد أعدائها.

٢- ويتضح أيضاً تماماً من لفظة «èpleon»، بمعنى «أبحروا»، أن الحملة كانت نهرية، على مراكب وسفن في النيل، مما يؤكد أنها تمت في الصيف أثناء الفيضان الدائم كل عام (في شهور يوليو، أغسطس وسبتمبر)، وهو استخدام أمثل لإمكانات النهر الخالد، في أفضل حالاته المائية مما يعكس تخطيطاً مسبقاً وفكرياً عملياً إلى درجة بعيدة.

٣- لم يسجل المرتزقة اليونان، مثل هذا الأثر في أي مكان آخر، بأمر من قائدي تلك القوات الإيونية والكارية الأصل، وهما بيثون بن أميبيخوس وبيليكس ويبدو أنهما كانا برأسان، كل منهما، جماعته العرقية اليونانية، مما يعكس حالة الإعتزاز والإنتماء للأعراق أكثر من الولاء للحضارة نفسها، كما تعودنا من اليونان دوماً (!!!).

٤- تغيير القيادة الميدانية للقوات في الحملة بقرار من القائد العام المصري لها، وهو أماسيس (Amasis)، الذي أثبت اليونانيون في نقشهم صفته الخالصة، وإمكانية عدم انتسابه للأسرة الحاكمة الفرعونية الملكية، وأنه من الشعب المصري، وينتمي بجذوره إلى العامة، بقولهم «المصري» (Aigyptios) يؤكد، تاريخياً وحضارياً، أمرين:

١- أن هذا القائد العام المصري الخالص، أماسيس، كان هو نفسه، الذي أصبح ملكاً من بعد ذلك عام ٥٧٠ ق.م وفرعوناً البلاد وصدق فيه قول وشهادة هيرودوت اليوناني، أبي التاريخ، بأنه كان من الشعب، وذلك بعد حوالي قرن كامل من الأحداث على الأقل (!!!) عندما جاء زائراً لمصر مما يزيدنا يقيناً، في بعض روايات هيردوت في كتابه الثاني، حول مصر، وعلى الأقل، فيما يخص الشئون السياسية المصري آنذاك.

٢- تسليم قيادة الوحدات التسع لحاملي الرماح، وهم القوة الضاربة للجندية آنذاك، لقائد مصري أصغر هو بوتاسيمتو (Potasimto) كان خطوة ضرورية لمتطلبات المرحلة التالية، براً، صوب الجنوب حتى سمبل، درأ لتجاوزات المرتزقة اليونان مع الأهالي وسكان تلك المنطقة من العناصر الإفريقية (!!!).

٥- جاءت التوقيعات لجنود يونان مشاركين في الحملة، سجلاً خالداً لحرص أولئك على

تخليد الحدث التاريخي، من ناحية، وإشباع رغبتهم الدائمة في إثبات الذات، وتضخم الأنا لدى أولئك ، وعلى كل المستويات الإجتماعية، سواء بسواء، وليست فقط عند الملوك أو الأمراء أو الحكام، كما في شرقنا القديم (!!!).

فالخلود للجميع وليس حكراً على علية القوم، وصدق قولهم في أمثالهم وحكمهم بتمني الخلود ، حيث جاء: " Αἰωνία σου ἡ μνήμη "

أي// «فالتعش ذكراك إلى الأبد

وكان اختيارهم إختياراً موفقاً جداً ، وإن كان قد لوث الأثر العظيم لأحد تماثيل الفرعون رمسيس الثاني، حينما اعتلوا الموقع، وسجلوا ذلك، حسداً على خلود ذلك الفرعون الأشهر في التاريخ المصري القديم. وليسوا هم بأقل منه خلوداً ، ولكن شتان بين الإثنين وإنجاز كلا الفريقين: الخلود المصري (حقاً وصدقاً، والخلود اليوناني (على أرضنا) غصباً واحتلالاً واستغلالاً لظروفنا ، وهو إننا على أنفسنا ، فهنا عليهم، وساروا أنفسهم بنا ، وتطالوا علينا عند نومنا وضعفنا (!!!). وهيهات أن يدوم، هكذا ، حالنا ، لأنه ضد ناموس الخالق ربنا .

أ.د/ محمود السعدني

قراءة كاملة لسطور النقش الخمسة والتوقيعات أسفلها

٢٤

1- βασίλεως ἐλθόντος ἐς Ἐλεφαντίναν

Ψαματίχω

2- αὐτά ἔγραψαν τῷ σὺν Ψαμματίχῳ

τῷ Θεοκλός

3- ἔπλεον ἔλθον δὲ Κέρκιος κατ' ὕπερ

Θένις ὁ ποταμός,

4- ανιεά λόγγος ὃς δέχε Ποτασίμτῳ

αἰγύπτιος δὲ Ἄμασις.

5- ἔγραφε δα με ἄρχων Ἀμοιβίχῳ

καὶ Πέλεκος οὐδαμῶ.

Κρίθις ἔγραφαν καὶ εμ... Πύθων Ἀμοιβίχου.

د. سيد محمود محمد عبد العال(*)

نقابة الأشراف فى مصرعصر سلاطين المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

تعد نقابة الأشراف أول تنظيم اجتماعى يقوم على أساس النسب وخلاصه الدم وهى فى ذلك تختلف عن النقابات المهنية . والنقيب لغة : فهو الرئيس الأكبر . وإنما قيل للنقيب نقيب ، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم ، ويعرف مناقبهم ، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم (١). والنقيب كالأمين والكفيل ، ويقال نقب الرجل على القوم ينقب نقابة فهو نقيب ، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم (٢). والنقيب أيضا شاهد القوم ، وضمينهم . وعريفهم . وقد نقب عليهم نقابة - بالكسر- فعل ذلك (٣). والنقيب فعيل ، قيل بمعنى فاعل مشتقا من النقيب وهو التفتيش ومنه "فنقبوا فى البلاد" وسمى بذلك لأنه يفتش عن أحوال القوم وأسرارهم ، وقيل : هو بمعنى مفعول كأن القوم اختاروه على علم منهم وتفتيش على أحواله. وقيل هو للمبالغة كعليم وخبير (٤).

وقد طلب النبى من الأنصار أثناء بيعة العقبة الثانية أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا فقال: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس " (٥).

والأشراف لغة : هم جمع الشريف وهو مشتق من الشرف والرفعة والسمو . وهو الحسب بالآباء ، والشرف والمجد لايكونان إلا بالآباء ، ويقال رجل شريف ورجل ماجد له آباء متقدمون فى الشرف ، والشرف مصدر الشريف من الناس، وجمع شرفاء وأشراف (٦).

---

* مدرس التاريخ الاسلامى - كلية الآداب - جامعة الفيوم .

واصطلاحًا : أطلق لقب شريف على من كان من آل الرسول صلى الله عليه وسلم شاملاً بنى هاشم وخاصة الطالبيين وهم ذرية أبى طالب بن عبد المطلب والعباسيين ذرية العباس بن عبد المطلب[٧]، بينما حدد ابن تيمية آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم على وجه التحقيق على وفاطمة وأولادهما ومن تناسل منهما حتى تقوم الساعة [٨]، لذا يعد نقيب الأشراف عميد المنتسبين لأولاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٩]. وأشار السيوطى أن لقب الشريف كان يطلق على كل من كان من أهل البيت العلوى أو العباسى فى الصدر الأول للدولة الإسلامية ولما تولى الفاطميون قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين [١٠].

وأشار القلقشندى أن المقصود بالأشراف فى العصر المملوكى "هم أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم [١١].

وقد عرف القلقشندى نقابة الأشراف بأنها "وظيفة شريفة ومرتبة نفيسة ، وموضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم "[١٢]، وكان بنو هاشم ينقسمون إلى : أولاد أبى طالب "الطالبيين" وأولاد العباس " العباسيين" لهم نقيب واحد يطلق عليه "نقيب الهاشميين" . فقد كان الشريف أبو نصر الزينى العباسى المتوفى عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م " نقيب الهاشميين [١٣]". وكان يطلق عليه "نقيب العلويين"[١٣] وأطلق عليه "نقيب الشرفا"[١٤].

وقد نشأت أول نقابة للأشراف فى منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وذلك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية [١٥] إذ يذكر ابن عنبة الحسنى أن الحسين النسابة والذى يرجع نسبه إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، والذى هاجر من الحجاز إلى العراق عام ٢٥١هـ / ٨٦٥م [١٦]. ثم أنشأت نقابات فرعية فى جميع الولايات والأمصار تتبع النقابة الرئيسية ببغداد ومن بينها مصر . وكانت نقابة الأشراف التى وجدت فى بغداد تجمع كل من العباسيين والطالبيين تحت نقيب واحد [١٧].

وقد ظلت نقابة الأشراف فى مصر تابعة لنقابة الأشراف فى بغداد حتى قيام الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون ، فأصبح يولى نقيب الأشراف فى مصر ، مما جعل نقابة الأشراف فى مصر تستقل عن نقابة الأشراف فى بغداد [١٨].

ولكن ما هي الأسباب الى دعت إلى وجود نقابة للأشراف ؟ هل بسبب كثرة عدد الأشراف من العلويين والجعفريين والعقيليين ، مما جعل من السهل على أي إنسان ادعاء النسب الشريف . أم بسبب رغبة الدولة في حصر العلويين والعباسيين وبخاصة العلويين الذين كثرت ثوراتهم على الدولة العباسية في أمصار الدولة الشرقية والغربية على حد سواء . الأمر الذى تطلب معرفة أعداد العلويين في كل ولاية ومدينة وتحت إشراف أحد شيوخ هؤلاء ، مما يسهل للدولة السيطرة عليهم وبخاصة إذا علمنا أن من مهام نقيب الأشراف إحصاء الأشراف في إقليمه وقيد المواليد وإسقاط المتوفين مما جعل الدولة على علم دائم بتحركات العلويين وأعدادهم [١٩].

ويعد على بن الحسن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب المشهور بابن طباطبا المتوفى ٢٨٠هـ / ٨٩٣ م[٢٠] أول نقيب للأشراف في مصر ، ويذكر ابن الموفق بأنه "كان مكينا من أحمد بن طولون" [٢١]. في حين يشير ابن زولاق إلى أن أحمد بن طولون " قد فزع الموفق به" [٢٢]. وذلك أثناء الصراع بين أحمد بن طولون والموفق طلحة والى عهد الخليفة العباسى المعتمد بالله مما يوحى بأن أحمد بن طولون كان يلوح بإقامة خلافة علوية ردًا على الموفق طلحة . وعاصر على بن الحسن كل من أحمد بن طولون وابنه خمارويه وتوفى عام ٢٨٠هـ / ٨٩٣م، ويذكر الصفوى القلعاوى " وكانت له النقابة والتقدم في زمن خمارويه بن أحمد بن طولون"[٢٣] . وتولى النقابة بعده ابن عمه محمد بن إسماعيل بن القاسم الرسى حتى وفاته عام ٣١٥هـ ./٩٢٧م[٢٤]، ثم تولى بعده ابنه اسماعيل بن محمد حتى وفاته عام ٣٣٧هـ /٩٤٨م [٢٥] .

ويذكر المقريزى أنه " كان يتولى النظر في أمور الطالبيين بمصر بإلزام السلطان له لصيانته"[٢٦].

ثم تولى بعده أخوه أحمد بن محمد المتوفى عام ٣٤٥هـ /٩٥٦م [٢٧] . وتولى النقابة بعده ابنه إبراهيم المتوفى عام ٣٦٩هـ /٩٧٩م [٢٨] . ثم تولى النقابة بعد ابنه الحسن بن إبراهيم ، إذ يذكر المقريزى أنه " استقر في نقابة الطالبيين بعد موت أبيه إلى أن مات يوم الجمعة لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، فصلى عليه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله [٢٩] .

أما في العصر الفاطمى فقد اقتصر الأشراف على أولاد على بن أبى طالب " الطالبيين " لذا أطلق عليها نقابة الطالبيين " ، وكان يتولها أحد الأستاذين غير المحنكين [٣٠] ، والذى كان له

الإشراف الكامل على كل الطالبيين الموجودين بالدولة ، " أن قلدك النقابة على الأشراف الطلبيين أجمعين ، المقيمين بالحضرة وسائر أعمال المملكة شرقا وغربا وبُعدًا وقربا " (٣١) .

كما كان لنقيب الأشراف فى العصر الفاطمى اثنا عشر نقيبا ، ويخلع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء ، وله ديوان ومشارف وعامل ونائبه وجارية فى الشهر عشرون دينارا ، ولمشارف ديوانه عشرة دنانير ، ولنائبه فى النقابة ثمانية دنانير ، وللعامل خمسة دنانير (٣٢).

أما فى العصر المملوكى فقد أطلق ابن ناظر الجيش عليه" نقيب السادة الأشراف " وجعله من أرباب الوظائف الدينية ، الذين يكتب لهم المجلس السامى بالياء ، وتوقيعه فى قطع الثلث(٣٣).

كما يذكر القلقشندى أنه كان يكتب لنقيب الأشراف توقيع فى قطع الثلث بقلم التوقيعات : توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى علوه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شُرح فيه (٣٤) .

فضلا عن ذلك فقد ذكر القلقشندى نقابة الأشراف الوظيفة السادسة ضمن الوظائف العشرة التى كانت تصدر عن خلفاء بنى العباس (٣٥) . وهى النقابة على ذوى الأنساب كنقابة الطالبيين، ومن فى معناهم على معنى نقابة الأشراف فى زماننا (٣٦) .

وقد وضع القلقشندى نقابة الاشراف ضمن وظائف أرباب السيوف ، ويكتب فى ألقاب نقيب الأشراف "الأميرى" وإن كان من أرباب الأقلام (٣٧) . ويرجع السبب فى ذلك أن نقيب الأشراف فى نيابة حلب شمس الدين حسن بن محمد بن زهرة أعطى إمارة طبلخانة بحلب عام ٧٤٧هـ /١٣٤٦م (٣٨) وكان للأشراف ديوان يضبط به جميع الأشراف وأنسابهم ، وما يتعلق بهم من الأوقاف ، وله ناظر ومباشرون (٣٩).

وكان السلطان المملوكى هو الذى يتولى تعين نقيب الأشراف وعزله فى مصر ، ويكتب له فى توقيع شريف فى قطع الثلث بقلم التوقيعات ، " توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان الدين : أدام الله تعالى علوه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شرح فيه (٤٠) .

كما كان يكتب فى توقيع نقيب الأشراف : " المجلس السامى الأميرى الكبيرى العالمى المجاهدى المؤيدى الشريفى الحسيبى النسيبى الذخيرى النصيرى الأوحدى الأصيلى عز الإسلام

زين الأنام نسيب الإمام شرف الأمراء نقيب النقباء جمال العترة الطاهرة جلال الأسرة الزاهرة زخر الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين ولى أمير المؤمنين " (٤١) .

كذلك يذكر المنهاجى الأسيوطى من أنه : " يكتب لنقيب الأشراف سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم الفاضل البارع ، السيد الشريف ، الحسيب النسيب ، الطاهر الأصيل العريق ، التقى النقى الذكى ، فلان الدين ، جمال العترة الطاهرة ، كوكب الأسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، زين الذرية العلوية ، طراز العصابة الهاشمية ، خلاصة الأنساب النبوية ، فخر السادة الأشراف فى العالمين ، نسيب أمير المؤمنين ، نقيب السادة الأشراف بالمملكة الفلانية، أدام الله شرفه ، ورحم سلفه ، وأبقى خلفه (٤٢) .

فى حين أن تعيين وعزل نقيب الأشراف فى النيابات الشامية سواء فى نيابة دمشق (٤٣) أو نيابة حلب (٤٤) أو نيابة طرابلس (٤٥) من سلطات نواب هذه النيابات . فيذكر القلقشندى بأن " ولايتها عن النائب بتوقيع كريم " (٤٦) .

وكان يتم اختيار نقيب الأشراف من شيوخ الأشراف وأجلهم قدرا (٤٧) ، كما جرت العادة أن يكون النقيب من رؤوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام (٤٨) وكان يخرج له توقيع كريم من ديوان الإنشاء (٤٩).

وفى أغلب الأحيان ساد مبدأ ورثة وظيفة نقابة الأشراف ، فعند موت النقيب يتولى ابنه النقابة من بعده ، وفى حلات يطلب شيوخ الأشراف من السلطان تولية ابن النقيب المتوفى النقابة بدلا عنه ، مثال ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث رجب عام ٧٧٨هـ / يناير ١٣٧٧م " وفى يوم الاثنين ثالث شهر رجب خلع على السيد الشريف شرف الدين على بن السيد فخر الدين ، واستقر فى نقابة الأشراف بعد وفاة أبيه ، بسؤال عدة من الأشراف ولايته"(٥٠) .

وعندما يتم اختيار نقيب الأشراف يخلع عليه السلطان خلع الولاية ، ويخرج له توقيع كريم من ديوان الإنشاء ، ويتم قراءة هذا التوقيع فى المسجد الجامع على رؤوس الأشهاد . م ذلك ما أشار إليه النويرى فى حوادث عام ٦٣٥هـ /١٢٣٢م وعندما تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسن الحسينى الأرموى (٥١) المشهور بقاضى العسكر نقابة الأشراف بالديار المصرية " قرىء تقليده بجامع مصر - عمرو بن العاص - وحضر قراءته الأمير جمال الدين يغمور ، وفلك الدين

المسيرى وابن النجيلى " (٥٢) . وهو ما يؤكده المقريزى " وقرىء سجله بجامع مصر بحضرة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور والفلك المسيرى " (٥٣) .

واستمر اختيار نقيب الأشراف من قبل الأشراف فى مصر حتى سقوط دولة المماليك عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ودخول العثمانيون مصر والتى أصبحت إحدى ولاياتها ومن ثم فقد أرسلت الدولة العثمانية نقيبا للأشراف . فذكر بن إياس فى حوادث عام ٩٢٥هـ /١٥١٩م " وفى يوم الخميس خامس عشرينه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرر فى نقابة الأشراف ، وقد أظهر مرسوم الخندكار بذلك " (٥٤) .

وكان يحقق السلطان المملوكى أو من ينوب عنه عزل نقيب الأشراف وقد تعددت أسباب عزل نقيب الأشراف إما بسبب تقصيره فى أداء مهامه ، مثل إدخال من ليس شريف ضمن الأشراف، فقد عزل السلطان المملوكى الأشرف شعبان نقيب الأشراف فخر الدين محمد . وذلك فى رجب عام ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م بسبب اتهامه بأنه أدخل فى الأشراف ما ليس منهم (٥٥) .

وقد يعزل نقيب الأشراف بسبب معارضته لبعض الأوامر الصادرة من السلطات المملوكية ، من ذلك عزل نقيب الأشراف شرف الدين على بن فخر الدين ابن قاضى العسكر عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م بسبب أنه رفض أن يعطيه حجة وقف الأشراف للأمير برقوق قبل أن يلى السلطنة (٥٦).

بالإضافة إلى ذلك فقد يعزل السلطان المملوكى نقيب الأشراف بسبب أن السلطان الذى سبقه قد عينه . مثلما حدث عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م عندما عزل السلطان الظاهر برقوق نقيب الأشراف شرف الدين على بعد عودته لسلطنة المماليك على الرغم من أن نقيب الأشراف خرج بالأشراف لاستقباله وذلك لأن الذى ولاه فى منصب النقابة السلطان المملوكى حاجى بن شعبان(٥٧) .

كما كان لسوء مباشرة نقيب الأشراف لأوقاف الأشراف سببا لعزله . مثلما حدث عام ٨٧٤هـ /١٤٦٩م عندما عزل السلطان المملوكى قايتباى نقيب الأشراف حسين بن الشاطر عن نقابة الأشراف والنظر على أوقافهم ، وأساء عليه بلفظ « يا شيطان أنت نحس » (٥٨) .

أما عن موقف سلاطين وأمراء المماليك من الأشراف فقد نظر المجتمع المصرى وعلى رأسهم سلاطين وأمراء المماليك نظره يملؤها الاحترام والتقدير والإجلال للسادة الأشراف على اعتبار أنهم آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم (٥٩) فيذكر ابن تغرى بردى أن الظاهر جقمق « كان معظما

للسادة الأشراف »[٦٠] من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث ذى القعدة عام ٨٤٢هـ /أبريل ١٤٣٩م إلى أن أحد الأمراء المماليك يسمى يخشباى قام بسب أحد أشراف منفلوط ، مما جعل الظاهر جقمق يأمر بقتله بعد سجنه بالإسكندرية [٦١] . وكانت نقابة الأشراف من الوظائف الدينية التى ليس لها حضور مجلس السلطان [٦٢] نقيب الأشراف يذهب للسلام على السلطان فى مطلع كل شهر هجرى مع القضاة ، حيث يجلس على ميسرة السلطان بعد قاضى القضاة الحنبلى[٦٣].

أما عن مقر نقابة الأشراف فى العصر المملوكى فهو غير معروف لنا على الإطلاق ، وإن كنا نرجح أن مقر نقابة الأشراف كان هو بيت النقيب نفسه . فكان بيت نقيب الأشراف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى المعروف بقاضى العسكر المتوفى عام ٦٥٠هـ /١٢٥٢م يقع فى سويقة الصاحب [٦٤] فيذكر ابن أيبك الصفدى فى ترجمة نقيب الأشراف الحسين بن محمد الحسين «وسألته عن مولده فقال : سنة ثمان وتسعين وست مائة بالقاهرة فى دار جده شمس الدين قاضى العسكر فى سويقة الصاحب» [٦٥].

كما أن نقيب الأشراف بدر الدين الحسن بن عز الدين أحمد الحلبى الحسينى المتوفى ٧٤٣هـ/١٣٤٢م [٦٦] ، فكانت داره تقع فى حارة الديلم [٦٧] . فيذكر النويرى فى حوادث عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م « ثم سكن ذلك إلى يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى ، فوقع الحريق فى القاهرة ومصر ، وكان أول الحريق بخط حارة الديلم ، فاحترقت دار الشريف بدر الدين نقيب الأشراف ، وما يجاورها من دور الأشراف والمسلمين ، فكان جملة ما احترق من الدور المتجاورات ما ينيف على الثلاثين دارا يقارب المائة مسكن» [٦٨] .

أما عن الملابس التى كان يرتديها نقيب الأشراف فلم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلى نوع معين من الملابس لنقيب الأشراف عند توليه هذه الوظيفة فى العصر المملوكى ، ولكن فى العصر الفاطمى فكان يخلع على نقيب الأشراف عند توليه هذه الوظيفة أو التجديد له « ثوب ديبقى مذهب مصفف بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت وغلالة مذهبة وعلى رأسه عمامة شرب مذهب» [٦٩] .

وعندما يتولى أحد الأشراف أى وظيفة من الوظائف الدينية أو الديوانية فكان يخلع عليه ثياب من اللون الأخضر وهو اللون الذى يتميز به العلويون ، وقد ذكر السخاوى فى ترجمة أحمد

بن عدنان نقيب الأشراف بدمشق الذي تولى وظيفة كتابة السر بمصر عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م « وكانت طرحته خضراء برقمات ذهب » [٧٠] وهو ما ذكره ابن تغرى بردى « عملت الطرحة خضراء برقمات ذهب » [٧١] .

أما عن أهم أعمال نقيب الأشراف فقد وقع على عاتق نقيب الأشراف العديد من الأعمال والمهام تجاه الأشراف والتى حددها الماوردى بإثنى عشر عمل (حقا) .

ويأتى فى مقدمتها حفظ أنساب الأشراف من الاختلاط بغيرهم ممن لا يكافئهم فى المكانة والشرف حتى لا يدخل فيهم أحدا ويخرج منهم أحد ، ومعرفة بطون الأشراف على اختلافها وتعددها وإثباتهم فى ديوان الأشراف حسب طبقاتهم ، ومعرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى وتسجيل ذلك فى سجلات النقابة ، ومعرفة من مات منهم حتى لا يضيع نسب المولود إذا لم يثبته، ولا يدعى نسب الميت غيره إذا لم يذكره [٧٢] .

فيذكر ابن الطوير « ولهذه النقابة ميزة ، ولصاحبها النظر فى أمور هذة الطائفة ، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء ، وهم منزلون عنده فى جريدة ، ونظيرها فى ديوان الرواتب فمن مات وضعه (ومن ولد أثبته بعد علم بصحة الولادة بقرائن الأحوال ، وإذا إرتاب بأحد أخذه بإثبات ذلك ممن يوثق به من جيرانه ، ثم ينزل فى وقته فى الجريدة » [٧٣] .

وأكدت تلك المهام وثائق تقليد نقابة الأشراف ، فجاء فى تقليد نقيب الأشراف ، يأمره « بحياطة هذا النسب الأطهر ، والشرف الأفخر ، عن أن يدعيه الأدعياء ، إذ يدخل فيه الدخلاء، ومن انتمى كذبا ، وانتحله باطلا ، ولم يوجد له بيت فى الشجرة ، ولا مصداق عند النسابين المهرة .... » [٧٤] ويذكر ابن فضل الله العمرى فى وصية لنقيب الأشراف « وانظر فى أمور أنسابهم نظراً لا يدع مجالا للريب ، ولا يستطيع معه أحدٌ أن يدخل فيهم بغير نسب ، ولا يخرج منهم بغير سبب [٧٥] .

وفى تقليد آخر لنقيب الأشراف يذكر أن أول مهام نقيب الأشراف « .....النظر فى أعراق هذه الأسرة الطاهرة التى قدم عهد ميلادها ، وتكاثرت شعب أعدادها ، واحتاجت إلى الثقات الإثبات من النسابين فى إيصال آبائها بأولادها .... » [٧٦] الأمر الذى يجعل من عملية ضبط وتحقيق الأنساب فى غاية الأهمية ، لأنها عملية ذات وضع معقد وحساس فى الوقت نفسه ، ومن أهم

مسئوليات نقيب الأشراف[٧٧] ، ويذكر أن الإمام مالك بن أنس أفتى بضرب من يدعى الانتساب إلى آل بيت الرسول ، وأن يشهر ويحبس طويلا حتى يظهر توبته » [٧٨] .

ولقد اهتم الأشراف كثيرا بأنسابهم ، لذا اهتموا بعلم الأنساب ، وقاموا بتأليف العديد من الكتب والرسائل فى أنسابهم ، وكان نقيب الأشراف فى أغلب الأحوال ممن مهروا فى علم النسب، وإلا استعان بالنسابة من شيوخ الأشراف ممن يتصف بالأمانة والعلم ، ليساعدوه فى المحافظة على حفظ نسب الأشراف ، حتى لقب أكبرهم وأكثرهم بعلم الأنساب بلقب» نسابة الأشراف » ومن هؤلاء النسابة الشريف جعفر بن محمد بن عبد العزيز الإدريسى الفاوى (٦١١- ٦٩٦هـ / ١٢١٤م -١٢٩٧م) وكان أيضا أديبا ومؤرخا [٧٩] .

ولعل من أشهر نسابة الأشراف فى مصر فى العصر المملوكى الشريف بدر الدين حسن بن محمد الحسنى المتوفى عام ٨٠٩هـ /١٤٠٦م (٨٠) . وقد أشار المقريزى فى المقفى الكبير إلى أنه « استقر نسابة الأشراف بديار مصر دهرا طويلا » [٨١] .

كما أشار فى درر العقود إلى أنه « ولى نسابة الأشراف زمانا » [٨٢] ، ووصفه ابن حجر بأنه « كان عارفا بأنساب الأشراف كثير الطعن فى كثير ممن يدعى الشرف» [٨٣] . ويضيف « بل رام الخلافة على اعتباره حسنى وأمه من بنى العباس ......ونازع نقيب الأشراف » [٨٤] . ومن نسابة الأشراف أيضا الشريف حسن بن محمد بن أيوب الإدريسى المتوفى عام ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م[٨٥] .

أما طريقة إثبات النسب ، فكانت لها أصول وقواعد يسير عليها نقيب الأشراف ، فكان يتم عقد مجلس لشيوخ الأشراف يرأسه نقيب الأشراف مع النسابة ، ومن يريد إثبات نسبه يتقدم إلى النقيب ويرفق معه المستندات الخاصة به ، والتى تؤكد نسبه وشهادة من الأشراف المقيمين بالناحية التى يقيم بها هذا الشخص ، ويقوم نقيب الأشراف بالبحث فى دفاتر النقابة عن اسم والد أو جد الشخص الذى تقدم لإثبات نسبه ، فإن وجد له أبا أو جدا يكفله فى هذه الحالة بتقديم شهود عدول على ذلك ، وأما فى حالة عدم وجود أب أو جد له فى تلك الدفاتر ، فإن نقيب الأشراف يلزمه بتقديم محضر من الشهود العدول ، يشهدون فيه بأنه شريف أبا عن جد [٨٦] . وبناء على ذلك فإن النقابة كانت تصدر محاضر أو شهادات بإثبات صحة النسب أو عدمه [٨٧] .

وقد انتشرت محاضر إثبات النسب أونفيه ، حيث كان الشريف يحمل معه محضر نسبه

بصفة دائمة كإثبات شخصية ، ومع ذلك فإن هذه المحاضر كان يشكك فى صحتها فى بعض الأحيان[٨٨]. ويذكر السخاوى أنه قد رأى هذه المحاضر التى تثبت النسب ، ومحاضر أخرى تنفى النسب [٨٩] .

كما كان على نقيب الأشراف إثبات المولودين من أبناء الأشراف فى جريدة - السجل - الأشراف عند ميلادهم . وقد أشار المقريزى إلى أن الشريف الحسن بن قاضى العسكر الأرموى عندما ولد له ولداه محمد وعلى « ثبت نسبهما بالجريدة » [٩٠] .

وقد اختلف العلماء فى قضية إثبات نسب الشرف هل يكون من أبناء الشريفات أم من أبناء الأشراف ؟ فقد رفض البعض اكتساب الشرف عن طريق الأم ، فى حين أكد كثير من العلماء على صحة نسب أبناء الأمهات ومساواة الإناث والذكور فى النسب ، على اعتبار أن أصل الشرف جاء عن طريق السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى تخصيص الشرف بذرية السبطين ليس بشرعى وإنما هو عرفى ، وقد كتب فى إثبات النسب عن طريق الأم رسائل وكتب كثيرة [٩١] .

ويذكر المرى بأن « الشرف ثابت لأولاد بنات ذرية السبطين لقربهم من النبى من جهة أمهم لأن الإبن وإن كان لفظه جامدا فمادته التى هى الباء والنون والياء أو الواو وتثبت له تأصيل شيء وتفرع آخر عنه » [٩٢] وقد ترتب على إثبات النسب عن طريق الأم أن تسابق بعض الناس وبخاصة الأثرياء إلى الزواج من النساء الشريفات مهما كانت تكاليف هذا الزواج ، الأمر الذى أدى إلى زيادة أعداد الأشراف فى مصر بشكل ملحوظ [٩٣] .

وكثيراً ما وقع الاختلاف بين نقيب الأشراف ونسابة الأشراف حول إثبات نسب بعض الأشراف ، من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث رجب عام ٧٧٤هـ /يناير ١٣٧٢م إلى أن نسابة الأشراف الشريف بدر الدين حسن الحسنى ت ٨٠٩هـ /١٤٠٦م ، نقيب الأشراف فخر الدين محمد بأنه « أدخل فى الأشراف من ليس بشريف ثابت النسب ، وقدح فيه بسبب ذلك » [٩٤] « ولما رمى به من أخذ الرشوة على إدخال من ليس بثابت النسب جملة الأشراف »[٩٥] ، كما يذكر ابن حجر أن « ما أنهاه الشريف بدر الدين حسن النسابة أنه يرتشى ممن ليس بشريف فيلبسه العلامة الخضراء » [٩٦] وقد رفع النسابة الأمر للسلطان الأشرف شعبان الذى أمر بعزل نقيب الأشراف فخر الدين محمد وتعيين الشريف عاصم بدلا عنه ، كما أمر بعرض الأشراف حتى

يتأكد من صحة نسب الأشراف ، وطلب من الشريف حسن النسابة أن يثبت صحة ما رمى به النقيب ، فلما عرض السادة الأشراف على السلطان لم يظهر فيهم من ليس بشريف ولا له نسب ثابت ، ولم يستطع النسابة أن يقيم أى دليل أو بينة على اتهامه لنقيب الأشراف ، مما جعل السلطان يتغير على الشريف النسابة ، وأمر بإعادة النقيب فخر الدين إلى منصبه مرة ثانية وذلك فى شهر ذى الحجة من نفس العام [٩٧] .

وهذا الحادث جعل السلطان الأشرف شعبان يلزم الأشراف فى مصر والشام بوضع علامة خضراء فى عمائم الرجال وأزر[٩٨] النساء . وقد اعتبر مؤرخو ذلك العصر بأن ذلك تعظيما لقدرهم ، فيذكر ابن تغرى بردى بأن ذلك « إجلالا لحقهم ، وتعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، فوقع ذلك ولبس الأشراف العمائم الخضر التى هى الآن مستمرة على رؤوسهم » [٩٩] .

ويعلق ابن تغرى بردى على ذلك بقوله : « قلت : وبهذه الفعلة يدل على حسن اعتقاد الملك الأشرف المذكور فى آل بيت النبوة وتعظيمه لهم ولقد أحدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه ، ولا ألهم الله توالى الملوك ذلك من قبله ولله در القائل : « كم ترك الأول للآخر » [١٠٠].

ويذكر فى المنهل الصافى « رسم السلطان الأشرف المذكور، بأن الأشراف بالديار المصرية الشامية ، كلهم يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصة والعامة ، نظرا فى حقهم ، وتعظيما لقدرهم ن ليقابلوا بالتعظيم ، ويمتازوا عن غيرهم .... قلت : وهذا مما يدل على حسن اعتقاد الملك الأشرف هذا رحمه الله - فى آل بيت النبوة وتعظيمه لهم» [١٠١] . كما أشار السخاوى إلى ذلك بقوله : « ميز الأشراف بعلائم خضر فى عمائمهم تشريفًا لهم لينزلهم الناس المنازل» [١٠٢] وقد اعتبر ابن إياس ذلك بحادثة غريبة فذكر « وفى شهر جمادى الأولى ، وقعت حادثة غريبة ، وهو أن السلطان رسم للسادة الأشراف قاطبة ، الرجال والنساء أن يجعلوا فى عمائمهم شطفات خضر، ليمتازوا بها عن غيرهم» [١٠٣] . وسار على سيرهم العديد من الشعراء فى مصر والشام ، مثل ابن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشتهر

نور النبوة فى كريم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر [١٠٤] .

وكذلك قول الشاعر الدمشقى شمس الدين محمد بن إبراهيم المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس   خضر كأعلام على الأشـراف
والأشرف السلطـان خصهمُ بهـا   شرفا ليفرقهم عن الأطراف [١٠٥].

وكذلك شهاب الدين حجلة قوله :

لآل رسـول الله جاه ورفعـة   بها رفعت عنا جميع النـواب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم   إذا ما بدوا للناس تحت العصائب [١٠٦]

كما مدحهم المؤرخ ابن حبيب الحلبى بقوله [١٠٧] :

عمائم الأشراف قد تميزت   بخضرة رقت وراقت منظرا
وهـذه إشـارة أن لهـم   فى جنة الخلد لباسًا أخضرا

ولابنه طاهر بن حبيب يمدح بنى زهرة نقباء الأشرف بحلب قوله [١٠٨]:

وهذه إشارة لمن يبغى ظهور سيادة   تملكها الزهر الكرام بنو الزهرا
لئن نصبوا للفخر أعلاما خضـرة   فكم رفعوا للمجد ألوية حمرا

كما اتهم السخاوى نقيب الأشراف حسين الملقب بالشاطر المتوفى عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م [١٠٩] بأنه « اشتد تساهله فى إدخال الناس فى الشرف طمعا فى اليسير فانحط مقداره مع عاميته ونقصه » [١١٠] . ويؤكد ذلك « وكان مع نقصه متساهلا فى الإدخالفى الشرف» [١١١] ومن الأعمال الهامة أيضا التى يقوم بها نقيب الأشراف على الأوقاف الموقوفة على السادة الأشراف، وقد ذكر الماوردى فى أحكامه الواجب الثانى عشر الملقى على عاتق نقيب الأشراف: « مراعاة وقوفهم بحفظ أصولهاوتنمية فروعها ،وإذا لم يرد إليه جباتها راعى الجباة لها فيما أخذوه ، وراعى قسمتها إذا قسموه ، وميز المستحقين لها إذا خصت ، وراعى أوصافهم فيها إذا شرطت حتى لا يخرج منهم مستحق ، ولا يدخل فيها غير محق » [١١٢] . وهو ما حددته وثائق تعيين نقيب الأشراف فى العصر المملوكى ، منها : « وينمى بتدبيره ريعهم ......ويضبط أوقافهم ، ويعتمد إنصافهم ، ويثمر متحصلاتهم ، ويكثر بالتدبير غلاتهم ، ويأخذ نفسه بمساواتهم فى جميع حالاتهم » [١١٣] .

وقد جاء فى إحدى وثائق تعيين نقيب الأشراف الأمر له « واصرف اهتمامك إلى حفظ أوقافهم وأملاكهم ومستغلاتهم فى سائر الأعمال ، وحطها من العفاء والاضمحلال ، وتوفر على تثمير ارتفاعها ، وتزجية مالها ، واستخدم لضبط حاصلها ، وجهات منفقها ، من تسكن إلى ثقته وتثق بنهضته ، ووزع ما يرتفع من استغلالها بينهم على رتبهم التى يشهد بها ديوانهم » (١١٤) .

كما جاء فى وثيقة أخرى تطلب من نقيب الأشراف « ولينظر فى الوقوف على المشاهد والذرية، نظرا يحمده عليه من يعلمه من البرية ، ويحظيه بالثواب عند مالك المشيه . ويبتدىء بعمارة أصولها واستكمال فروعها ، وقسمة مغلها على ما تضمنه شرط الواقفين لها ، وليحتط على النذور ، وينفقها على عادتها فى المصالح والجمهور ، عالما أن الله تعلى سائله عما توخاه فى جميع الأمور ، وأنه لا يخفى عليه كل حقى مستور ...... » (١١٥) .

وكان الأشراف يأخذون الأموال من الدولة من سهم ذوى القربى ، ثم أوقفت عليهم الأوقاف ، وأشهر الأوقاف التى أوقفت عليهم فى مصر ، ما أوقفه الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك المتوفى عام ٥٥٥هـ / ١١٦١م ، فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز بعض الأراضى ليصرف ريعها على السادة الأشراف» (١١٧) . وشملت الأوقاف التى أوقفها طلائع بن رزيك (١١٨) على الأشراف « بركة الحبش » (١١٩) وبلقس » (١٢٠) حيث خص الأشراف الحسنيين والحسينيين الموجودين بالقاهرة بستة عشر قيراطا ، وأشراف المدينة المنورة سبعة قراريط وبنى معصوم إمام مشهد الإمام على بالكوفة قيراط واحد . مما جاء فى حجة الوقف « فمن ذلك ما يصرف إلى الأشراف المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة دون من بعد عنها وسكن بغيرها من الأقارب والطالبين الحسنيين والحسينيين النصف » (١٢١) .

كذلك أوقف صلاح الدين الأيوبى على الأشراف قطعة من أرض من ناحية حفصا (١٢٢) بولاية الدقهلية (١٢٣) .

وكان الأشراف يأخذون رواتب من ديوان الأشراف ، كما كان بعض الأشراف يترك نصيبه . فقد ذكر المقريزى فى حوادث عام ٧٣١هـ /١٣٣١م أن الشريف « موفق الدين أبو الفتح عيسى بن عبد الرحيم كان لا يتناول نصيبه من ديوان الأشراف » (١٢٤) .

وقد أعفى السلطان المملوكى حسام الدين لاجين أوقاف الأشراف من المكوس المفروضة عليها ، وكانت تبلغ ثلاثين ألف درهم فى العام فيذكر المقريزى « ووضع عن أهل بلقس الأشراف ما كان

عليهم من المظالم ، وهو يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل سنة ، وعوض مقطعيه بدل ذلك »[١٢٥].

وكان لقاضى القضاة الشافعية الإشراف على أوقاف السادة الأشراف . فذكر المقريزى فى حوادث جمادى الآخرة « خلع على أبى البقاء بهاء الدين محمد السبكى ، وفوض إليه السلطان قضاء القضاة ، وأضاف إليه نظر وقف الأشراف »[١٢٦] .

كما كان قاضى القضاة الشافعى أن ينيب عنه من يقوم بالإشراف على هذه الأوقاف . فقد أشار المقريزى فى حوادث ذى القعدة عام ٧٨٣هـ / فبراير ١٣٨٢م « فى يوم الخميس رابع عشرينها وفيه استناب قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة عنه فى نظر وقف الأشراف الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين إبراهيم بن حمزة »[١٢٧] . والذى استمر فى نيابة نظر أوقاف الأشراف حتى شهر ربيع الأول علم ٧٨٥هـ /مايو ١٣٨٣ م حيث صرف برغبته ، واستقر عوضه صدر الدين عمر بن رزين أحد نواب الحكم[١٢٨] .

وكان من حق نقيب الأشراف أن يحتفظ بحجج الوقف الخاصة بالسادة الأشراف ولذلك رفض نقيب الأشراف أن يسلم هذه الحجج لناظر وقف الأشراف ، حيث أشارت بعض المصادر التاريخية فى حوادث عام ٧٨٠هـ /١٣٧٨م إلى أن « الأمير برقوق والأمير بركة طلبا من نقيب الأسراف السيد على كتاب وقف ناحية بلقس على الأشراف ليتسلمه الشريف مرتضى صدر الدين مرتضى الذى عين ناظرالأوقاف الأشراف ، ولكن النقيب رفض إعطاءه مما أدى إلى قيام الأميرين بإهانته إهانة بالغة وعزله عن نقابة الأشرف »[١٢٩] .

ويبدو أن نقيب الأشراف جمع بين وظيفتى نقابة الأشراف ونظر وقفهم حيث أشارت المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث شهر شوال عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٢م إلى أنه « خلع على نقيب الأشراف السيد جمال الدين عبد الله بن عبد الرحيم الطباطبى ، واستقر فى نظر وقف الأشراف، عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء ، فخرج من حينئذ نظر الإشراف عن القضاة الشافعيين ولم يعد إلى الآن »[١٣٠] .

وقد استمر نقيب الأشراف يجمع بين النقابة ونظر وقف الأشراف حتى وفاة نقيب الأشراف شرف الدين على فى ربيع الأول عام ٨٢١هـ / أبريل عام ١٤١٨م ، إذ أشارت المصادر التاريخية إلى ذلك « وفى ثامن عشرة خلع على الشريف حسن بن الشريف على بن محمد بن على الأرموى بنقابة الأشراف ، عوضا عن والده بعد وفاته ، واستقر الأمير فخر الدين فى نظر وقف الأشراف »[١٣١]

ويبرر المقريزى ذلك « لصغر سن الشريف » (١٣٢) وقد ظل نظر وقف الأشراف بيد الأمير فخر الدين بن أبى الفرج حتى وفاته فى شوال عام ٨٢١هـ / أكتوبر عام ١٤١٨م ، فتولى النظر على أوقاف الأشراف ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر . (١٣٣) ، ثم تولاه الأمير ططر ، ثم تولاه فى يوم الخميس ١٩ المحرم عام ٨٢٤هـ / يناير عام ١٤٢١م القاضى شرف الدين محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله المتوفى عام ٨٣٣هـ / ١٤٩٢م (١٣٤) . وقد أشار المقريزى إلى أنه « كلن قد باشر وقف الأشراف بعفة ونهضة ، وأنفق للأشراف فى كل سنة أزيد مما كانت عادتهم»(١٣٥)

ثم عاد لنقيب الأشراف النظر فى أوقاف الأشراف وذلك فى شهر شوال عام ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م حيث « كان على نقيب الأشراف السيد بدر الدين حسن بن الشريف النقيب على ، وأضيفت إليه نظر وقف الأشراف » (١٣٦) .

ويبدو أن أوقاف الأشراف قد أسالت لعاب كثير من الطامعين من سلاطين وأمراء المماليك . فقد قاموا النشو (١٣٧) ناظر الخاص فى عهد الناصر محمد بن قلاوون بالاستيلاء على « بركة الحبش » وصار ينفق على الأشراف من بيت المال ، واستمر ذلك حتى قام السلطان المملوكى أبو بكر بن محمد بن قلاوون بالإفراج عنها وعودتها إلى الأشراف وذلك فى عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م(١٣٨) .

كما قام بعض أنظار أوقاف الأشراف بنهب أموال هذه الأوقاف مثال ذلك ما ذكره المقريزى فى ترجمة فخر الدين ابن أبى الفرج الأرمينى الاستادار الذى كان يتولى نظر وقف الأشراف ففى عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م « فزاد مبلغ أجرة ناحيتى « بركة الحبش « وبلقس « زيادة كبيرة لنفسه وضيق على الأشراف وتعنت فى صرف ما بأسمائهم ، ومنع جماعة منهم ، فكثر دعاؤهم عليه ووقع فى الأنفس أنه قد قرب زواله » (١٣٩) .

كذلك ذكر البقاعى فى حوادث صفر عام ٨٥٧هت / ١٤٥٣م « وطلع الأشراف إلى السلطان - المنصور عثمان بن الظاهر جقمق - فشكوا إليه ، أن من الموقوف عليهم بلدا اسمها بلقس وأن الإستدار كان يستأجرها منهم باليد العادية بمائتى ألف درهم ، ويأخذ منهم ألف ألف (١٤٠) فقال جانبك الإستدار (١٤١) : أما فى هذا العام فإنها فى إجارة من كان قبلنا ، فنحن نستغلها بتلك الإجارة ، ثم ندفعها إليكم ، فحسن ذلك تمربغا الدويدار الثانى (١٤٢) ومن كان حاضرا ، فلما فرغوا من كلامهم قال الأمير قراجا الخزندار : لم يمنعون حقهم ، وهم آل الرسول صلى الله عليه

وسلم ؟ ادفع إليهم بلدهم . فقال السلطان : نعم فدعوا له وانصرفوا » [١٤٣] وفى نفس اليوم طلع جانبا الاستادار إلى السلطان ، فراجعه فى أمر بلقس ، فرسم له فى إبقائها معه» [١٤٤] . ويضيف البقاعى « ولما صح عند الأشراف ، أن السلطان رسم لجانبك الإستدار باستمرار يده على بلدهم ، طلعوا يوم الثلاثاء حادي عشر صفر المذكور إلى السلطان ، فشكوا إليه أخذ بلدهم منهم قهرا وظلما ، فلم يجبهم إلى شيء ، وراجعه من لديه دين وعقل من أخصائه ، فلم يفد شيئا » [١٤٥] .

وفى الشهر الذى يليه ربيع الأول ٨٥٧هـ / مارس عام ١٤٥٣م عزل المنصور عثمان وتولى الأشرف أينال سلطنة المماليك فرفع الأشراف إليه شكوى فى أمر بلدة « بلقس » فانتزعها من الاستادار وردها عليهم [١٤٦] . كما ذكر بن الجيعان أن ناحية المشعلية بإقليم الدقهلية وكانت وقف الأشرف وأصبحت ضمن أوقاف السلطان المملوكى الأشرف أينال (١٤٧).

كذلك تسلم أوقاف الأشراف من اعتداءات العربان من ذلك ما ذكره البقاعى فى حوادث عام ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م من أن بنى حرام [١٤٨] من قبائل العرب بإقليم الشرقية قاموا بنهب قرية « بلقس » وقف الأشراف مما جعل نقيب الأشراف يأخذ جماعة من الأشراف وشكوا إلى السلطان أينال العلائى « فقال : من فعل ذلك ؟ فقالوا : قرية كذا ، وقرية كذا ، وسموا له المفسدين ، فلما طال سكوته ، قال الأمير بردبك الدويدار [١٤٩] اذهبوا ، حتى يكشف السلطان عن هذا الأمر فانفصلوا على ذلك » [١٥٠] ، ومع ذلك فقد ذكر ابن الجيعان أن ناحية العصرية باقليم البحيرة كانت وقف السادة الأشراف ، ثم أصبحت إقطاع العربان ومن معهم [١٥١] .

وفى بعض الحالات أساء بعض نقباء الأشراف مباشرة أوقاف الأشراف وعدم المساواة فى نفقات المستحقين للوقف من الأشراف ، الأمر الذى جعل الأشراف يقومون بشكوى نقيب الأشراف إلى السلطان المملوكى قايتباى الذى عقد مجلسا لذلك الأمر ، فقد ذكر ابن الصيرفى فى حوادث ٢٦ ربيع الأول عام ٨٧٤هـ / أكتوبر عام ١٤٦٩م « يوم الثلاثاء سادس عشريه عقد مجلس بالقلعة بحضور السلطان بقضاة القضاة بسبب السيد الشريف نقيب الأشراف وأخيه الذى كان إمام المقر الشهابى ابن العينى ، فإن الأشراف شكوا منهما أنهما أخربا البلاد ، وكان استعيض عن الشريف المذكور من نقابة الأشراف واستقرار الشريف نور الدين على الكردى صاحب السلطان نصره الله، فسعى الشريف المقدم ذكره عند السلطان بالأمير برقوق وغيره حتى عقد لهما هذا

المجلس، وغضب السلطان ـــ نصره الله – من نقيب الأشراف وحط عليه ونقم عليه سوء مباشرته فى بلاد الوقف وعدم التساوى بين المستحقين فى النفقة ، ونسب ذلك إلى صنيع أخيه ، وأساء عليه بلفظ: « يا شيطان أنت نحس » فصار يرعد ويقول : « السلطان يعرفنى » ، وخرجت أخلاق السلطان وعنف الشريف نقيب الأشراف ووبخه ، فكان جوابه : « يا مولانا السلطان ، أنا أتوب إلى الله ةاستغفر الله »[١٥٣].

ويضيف ابن الصيرفى « وانفصل المجلس على لآن يعمل حساب الوقف بحضور نواب قضاة القضاة من كل مذهب نائب ، ويعملون ما يقتضيه الشرع ، وأن يكون السيد الكردى ناظرا على البلاد والمال والمصرف ، ونقيب الأشراف يصل إليه معلومه ولايتكلم فى شئ ، وهذا مع جوار السلطان لنقيب الأشراف عدة سنين واتحاده بصحبته »[١٥٤].

يذكر ابن الصيرفى أيضا « وسأل السلطان – قايتباى – عن متحصل الأشراف فقيل له ثمانية آلاف دينار ، فقال : « كم تصرفوا للأشراف ؟ فقيل له : النصف من ذلك وسأل عن المتأخر فذكر المباشرون أن عدتهم عشرون نفرًا فرسم باستقرار أربعة وإبطال ما عداهم ، وأن يضاف المتأخر ويصرف على الأشراف بالسوية »[١٥٥].

ثم خلع فى يوم الخميس ٢٨ ربيع الأول على نقيب الأشراف واستقر كعادته ، وخلع على السيد الشريف علاء الدين الكردى واستقر ناظر الأشراف[١٥٦].

كما يذكر عبد الباسط بن خليل فى حوادث عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م « وفيه عقد مجلس بسبب وقف يتعلق بجماعة من الأشراف ، منهم السيد إبراهيم الذى كان كاتب السر بدمشق ، وخنق السلطان على السيد هذا ووقع منه هو أيضا كلمات ، وانفض المجلس لا على طائل »[١٥٧].

وقد حاول السلطان المملوكى قنصوه الغورى الاستيلاء على أوقاف الأشراف من ذلك ما ذكره ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩١٨هـ / أبريل عام ١٥١٢م «وفى يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان بعرض السادة الأشرف ، وسبب ذلك أن السلطان قصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهات الموقوفة عليهم مثل « بركة الحبش» وبلقس» وغير ذلك من الجهات ، وكان القائم فى مرافعتهم الشريف بن مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان من هذه الجهات فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاة الأربعة بسبب الأشراف وقد طعنوا فى أنساب

جماعة منهم »[١٥٨] . وقد علق ابن إياس على ذلك بقوله : « وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »[١٥٩].

ومن مهام نقيب الأشراف عدم تزويج الشريفات من العوام وقد أوردها الماوردى « أن يمنع أيامهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء لشرفهن على سائر النساء صيانة لأنسابهن وتعظيما لحرمتهن أن يتزوجهن غير الولاة أو ينكحهن غير الأكفاء »[١٦٠].

وأكدت على ذلك كثير من عهود تولية نقباء الأشراف « وأن تحصن الفروج عن مناكحة من ليس لها كفؤا ، ولا مشاركها فى شرفها وفخرها ، حتى لايطمع فى المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساويا ، ونظيرا موازيا ، فقد قال الله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[١٦١]. كما ورد فى سجل تعيين نقيب الأشراف « واحتط فى أمر المناكح رصنها عن العوام »[١٦٢].

فضلا عن ذلك فقد جاء فى الوصية التى كان يوصى بها نقيب الأشراف أن « يمنع من اتصال أيم الأسرة إلى عامى ، ولايفسح أن يعقد عليها عقد إلا لكف ملى : ليبرا هذا المجد الشريف من التكدير ، ولاتزيفه شوائب التغيير »[١٦٣] .

ويبدو أن رغبة كثير من الناس فى الزواج من إحدى الشريفات رغبة فى انتساب أبنائهم إلى هذا الشرف مع قوة الرأى الذى يتيح الانتساب إلى الأشراف عن طريق الأم . من ذلك ما ذكره السخاوى فى التحفة اللطيفة فى ترجمة محمد بن فرحون المالكى صاحب كتاب الديباج المذهب فى طبقات المالكية من أن أباه نزل المدينة المنورة فأشار عليه بعض علمائها أن يتزوج فامتنع « فلم يزال به حتى زوجوه أكبر بنات الشريف عبد الواحد الحسين الأربع ، الثابت النسبة بالقاهرة ، ليتعاطى من وقف « بلقيس » الموقوف على الشرفاء . بل لما حج نقيب الأشراف أوقفته على ذلك الثبوت ، فصار يصرف لابنته مباركة حتى ماتت . وكان فى تزوج أبى بالشريفة البر التام بنا ، إذ ألحقنا بنسب النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيرنا من ذريته إجماعا ، وشرفاء عند أكثر العلماء . كما أفتى به ناصر الدين المشدالى ، وغيره ممن هة مثله فى العلم[١٦٤].

ومع ذلك فإن وجهة نظر بعض المعاصرين عدم الزواج من الشريفات إلا إذا التزم لها بعدة آداب، فقد ذكر الشعرانى فى جملة الأدب مع الشرفاء « لا نتزوج شريفة إلا أن كان أحدنا يعرف من نفسه القدرة على القيام بواجب حقها وأن يعمل على رضاها فلايتزوج عليها ولا يتسرى

ولا يقتر عليها فى المأكل والملبس دون قدرتنا ونقول أن جدك رسول الله صلى عليه وسلم اختار ذلك (وكذلك) لاتمنعها شهوة مباحة سألتنا فيها ونقدم لها نعلها إذا قامت واحتاجت ونقوم لها إذا وردت علينا لأنها بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم» [١٦٥] وللأسف فإن المصادر التاريخية لم تسعفنا فى الوقوف على حالة واحدة لمنع زواج امرأة شريفة وأى رجل من خارج الأشراف مهما كان هذا الرجل بل سنجد تكالب بعض الرجال للزواج من شريفة حتى ينتسب أولاده إلى هذا البيت هذا الشرف .

كما كان على نقيب الأشراف أن يعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، ويسعى فى حوائجهم، ويأخذ على يد المتعدى منهم ، ويمنعه من الاعتداء ، ولايقطع أمراً من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك [١٦٦].

كما لعب نقباء الأشراف دوراً هامًا فى الحياة العلمية إذ كان معظم نقباء الأشراف من العلماء، كما كانت لهم مشاركات فى الحياة العلمية فى العصر المملوكى ، ومن الجدير بالملاحظة أن كل نقباء الأشراف فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك أهل سنة على المذهب الشافعى ، بل كانوا من علماء هذا المذهب ، ورشح بعضهم لتولى أعلى مناصب المذهب الشافعى وهي وظيفة «قاضى القضاة الشافعية» من هؤلاء نقيب الأشراف محمد المعروف بقاضى العسكر المتوفى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م كان يتولى التدريس بالمدرسة الناصرية صلاح الدين الأيوبى – المجاورة لجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، والمعروفة بمدرسة ابن زين التجار ، وبسبب شهرته عرفت هذه المدرسة به وقيل لها « المدرسة الشريفية» وهى مدرسة للفقهاء الشافعية [١٦٧] كما درس أيضا بالمدرسة الشريفية التى بناها الشريف اسماعيل بن ثعلب الجعفرى بالقاهرة [١٦٨] وله من المؤلفات العلمية كتاب « شرح فرائض الوسيط للغزالى » وكتاب شرح المحصول للفخر الرازى » [١٦٩].

ونبغ نقيب الأشراف الشريف أحمد المعروف بابن الحلبى المتوفى ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م . فى علم الحديث حتى لقب بالحافظ وهو أعلى مراتب علماء الحديث ، وله من التصانيف «الأربعين البلدانية فى الحديث » وله «وفيات الشيوخ» ذيل به على كتاب شيخه الحافظ عبد العظيم المنذرى «تكملة وفيات النقلة» وهو من عيون التاريخ [١٧٠] .

كما تولى نقيب الأشراف شرف الدين على المتوفى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٣ م التدريس بمشهد الحسين بالقاهرة [١٧١] وبالمدرسة الفخرية والمدرسة الطيبرسية المجاورة للجامع الأزهر [١٧٢] ويذكر ابن

قاضي شهبة بأنه «اشتغل بالفقه والأصول والعربية وأفتى ودرس» [١٧٣] توضيح الحاوى» [١٧٤]. «شرح المعالم فى أصول الفقه» [١٧٥].

وكان بعض نقباء الأشراف على درجة عالية من العلم فقد كان الشريف صدر الدين مرتضى نقيب الأشراف «فصيحا بالألسن العربية والعجمية والتركية» [١٧٦].

وبالاضافة إلى ذلك فقد تولى بعض نقباء الأشراف فى مصر فى العصر المملوكى العديد من الوظائف الادارية والمالية والقضائية والعلمية.

ومن هذه الوظائف وظيفة «الحسبة» والتى انقسمت فى مصر زمن المماليك إلى حسبة القاهرة ولصاحبها نواب بالوجه البحري ، وحسبة مصر - الفسطاط ولصاحبها نواب بالوجه القبلى ، وحسبة الاسكندرية على المدينة وما حولها .

وقد تولى نقيب الأشراف شرف الدين على المتوفى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٣ م حسبة القاهرة فى التفرة من رجب عام ٧٣٨هـ / فبراير عام ١٣٣٨ م إلى عام ٧٤٢هـ / ١٣٣٧-١٤٣١م [١٧٧].

كذلك تولى نقيب الأشراف عاصم بن محمد الحسنى « حسبة مصر » وذلك فى شوال عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م وعزل فى ربيع الأول عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م [١٧٨] .

وتولى نقيب الأشراف الشريف على «حسبة مصر» فى ربيع الأول عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠ م عوضا عن سراج الدين عمر العجمى ، وعزل فى ٢٧ جمادى الأخرة من نفس السنة (١٧٩) .

كما تولى بعض نقباء وظيفة «قضاء العسكر» [١٨٠] مثل نقيب الأشراف محمد بن الحسين الأرموى المتوفى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م الذى تولى «قضاء العسكر» والتى أصبحت لقب له ولأبنائه وأحفاده الذين عرفوا بـ « ابن قاضى العسكر» [١٨١] .

كذلك تولى بعض نقباء الأشراف وظيفة « نيابة دار العدل» وقد تولاها نقيب الأشراف محمد بن الحسين الأركوى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م للملك الكامل الأيوبى ثم لأبنه الملك الصالح نجم الدين أيوب واستمر يتولاها حتى وفاته عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م .

ومن الوظائف التى تولاها بعض نقباء الأشراف وظيفة « نظر البيمارستان المنصورى» ، وهذه الوظيفة من أجل الوظائف وأعلاها ، ويتولى النظر فيه عادة من العسكريين من أكبر الأمراء بالديار المصرية ، تولى هذه الوظيفة نقيب الأشراف فخر الدين أحمد [١٨٢] .

ومن الوظائف الدينية التى تولاها بعض نقباء الأشراف «مشيخة الشيوخ» [١٨٣]، حيث تولى هذه الوظيفة نقيب الأشراف فخر الدين أحمد وذلك فى ١٩ شوال عام ٧٩٤هـ / أغسطس ١٣٩٢م[١٨٤] ، واستمر بها حتى وفاته فى ذى القعدة عام ٨٠١هـ / يوليو عام ١٣٩٨م [١٨٥] .

أما عن دور نقباء الأشراف فى المناسبات العامة فقد شارك نقيب الأشراف ومعه الأشراف فى بعض المناسبات السياسية والاجتماعية . مثال ذلك ما حدث فى يوم الثلاثاء ١٤ صفر عام ٧٩٢هـ / نوفمبر عام ١٣٨٩م بعد عودة السلطان الظاهر برقوق للسلطنة للمرة الثانية بدلا من «الناصر الحجى» فخرج إلى لقائه الأشراف مع السيد على نقيب الأشراف ، وخرجت طوائف الفقراء بصناجقها ، والعساكر بلبوسها الحربية وذلك فى خارج القاهرة بالريدانية»[١٨٦] .

وشارك نقيب الأشراف والسادة الأشراف فى حوادث عام ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م حيث تعرضت مصر لوباء من أشد الأوبئة ، واختلفت هذه عن بقية الأوبئة السابقة له إذ وقع فى فصل الشتاء ، وعامة الأوبئة تقع فى فصل الربيع – فترة الخماسين– وكان هذا الوباء من الشدة حتى أطلق عليه ابن تغرى بردى «الفناء العظيم» [١٨٧] وأطلق عليه ابن إياس «الفصل الكبير» [١٨٨] .

وقد قام الشريف أحمد بن عدنان كاتب السر بالديار المصرية ونقيب السادة الأشراف بنيابة دمشق بجمع أربعين شريفا اسم كل واحد منهم محمد، وانفق فيهم خمسة آلاف درهم من ماله الخاص ، وأجلسهم بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة يقرأون ما تيسر من القرآن الكريم، وقد غاص الجامع بالناس، ثم أخذ هؤلاء الأربعين فى الدعاء والناس تؤمن على دعائهم ، ثم صعدوا إلى سطح الجامع الأزهر ، وأذنوا جميعا لصلاة العصر ، ثم انفضوا ، وقد أشار بذلك بعض العجم من المشرق الإسلامى ، وأنه حدث عندهم وباء وفعلوا ذلك فارتفع عقيب ذلك [١٨٩] ويعلق ابن الصيرفى على ذلك بقوله : «وكل ذلك ببركة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبركة اسمه ، وبركة ذريته» [١٩٠] .

وساهم نقباء الأشراف فى مصر بالعديد من المنشآت العمرانية كبناء المدارس من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة إلى أن نقيب الأشراف الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى ابن قاضى العسكر المتوفى عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م جعل منزله الموجود بحارة بهاء الدين مدرسة عرفت باسم المدرسة الشريفية [١٩١]، ويذكر ابن قاضى شهبة « وكان عند موته قد جعل داره بحارة بهاء الدين مدرسة للشافعية» [١٩٢] وقام بعض نقباء الأشراف ببعض الأعمال

التعميرية فى القاهرة ، ففى عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م قام نقيب الأشراف السيد بدر الدين حسين بن الفراء بتجديد بعض المساجد والمشاهد منها مشهد السيدة رقية [١٩٣] بالقرب من مشهد السيدة نفيسه [١٩٤] وكان قد اتخذه بعض الناس سكنًا ، وتعطلت زيارته مدة سنين فجدده [١٩٥] ، وجدد جامع الفاكهيين [١٩٦] وجامع الفخر [١٩٧] وجامع الصارم [١٩٨] .

ويتضح لنا مما سبق أن نقابة الأشراف هى أول تنظيم اجتماعى يرتبط بصلة الدم فى الحضارة الاسلامية . وأنها بدأت فى مصر منتصف القرن الثالث الهجرى واستمرت حت الآن . كما نلاحظ أن الفرع الحسنى هم أول من تولى نقابة الأشراف فى مصر زمن الطولونيين والإخشيديين وبداية عهد الفاطميين حيث تحولت إلى الفرع الحسينى واستمر ذلك الفرع يتولى نقابة الأشراف زمن الأيوبيين والمماليك إلا فى فترات قصيرة تولاها نقباء من الفرع الحسنى . كما ساد منصب نقيب الأشراف فى معظم الأحيان مبدأ الوراثة .

كذلك تعددت الواجبات الملقاة على عاتق نقباء الأشراف من حفظ النسب ، والإشراف على أوقاف الأشراف ، والعمل على تزويج الشريفات بمن يكافئهم ، بالإضافة إلى واجبات أخرى .

قائمة بأسماء نقباء الأشراف فى مصر زمن سلاطين المماليك

١- محمد بن الحسين بن محمد ، شمس الدين الأرموى الشافعى الحسينى ، المعروف بـ قاضى العسكر.

ولد عام ٥٧٨هـ وتولى نقابة الأشراف عام عام ٦٣٥هـ حتى وفاته عام ٦٥٠هـ [١٩٩]

٢- على بن الحسين الأموى الأصل المصرى المولد والدار أخو الأول

مولده : عام ٦٠٣هـ ، وتولى النقابة عام ٦٥٠-٦٦٤هـ [٢٠٠]

٣- شهاب الدين الحسين بن محمد الأرموى الحسينى ابن قاضى العسكر

٤- أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد الحسينى المعروف بابن الحلبى مولده عام ٦٣٦هـ وتوفى عام ٦٩٥هـ وتاريخ تولية النقابة غير معروف [٢٠١] .

٥- شمس الدين محمد بن شهاب الدين الحسين بن شمس الدين محمد المعروف بابن قاضى

العسكر . مولده عام ٦٧٦هـ وتولى النقابة عام ٦٩٥هـ عز الدين أحمد بن محمد ابن الحلبي إلى عام ٧٠٤هـ حيث قتل بدمشق وابن الثالث وحفيد الأول [٢٠٢] .

٦- بدر الدين الحسن بن عز الدين أحمد بن محمد الحسيني المعروف بابن الحلبي ابن الخامس مولده عام ٦٧٦هـ [٢٠٣] ابن الرابع . تولى النقابة عام ٧٠٤هـ حتى عام ٧٤١هـ وتوفى عام ٧٤٣هـ[٢٠٤] .

٧- شرف الدين على بن الحسين بن محمد بن الحسين الحسيني الشافعي المعروف بابن قاضي العسكر ابن الثالث وحفيد الأول وأخو الخامس . ولد عام ٦٩١هـ وتولى النقابة يوم الأحد ١١ رجب عام ٧٤١هـ وحتى وفاته عام ٧٥٧هـ [٢٠٥] .

٨- شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين الحسيني الشافعي المعروف بابن قاضي العسكر ويشتهر بأبي الركب بضم الراء وفتح الكاف- ولد عام ٦٩٨هـ وتولى النقابة عام ٧٥٧هـ حتى وفاته عام ٧٦٢هـ [٢٠٦] .

٩- شمس الدين محمد بن شهاب الدين الحسين الحسيني ابن قاضي العسكر ويعرف والده بأبي الركب وتولى النقابة : ٧٦٢هـ - ٧٦٣هـ [٢٠٧] .

١٠- فخر الدين محمد بن على بن الحسين ابن قاض العسكر (الأولى) تولى النقابة عام ٧٦٣هـ وعزل فى شوال ٧٧٤هـ [٢٠٨] .

١١- الشريف عاصم تولى النقابة فى ١٩ شوال ٧٧٤هـ عزل فى ٢٠ ذو الحجة عام ٧٧٤هـ[٢٠٩].

١٢- فخر الدين محمد بن على ابن قاض العسكر (الثانية)

تولى النقابة للمرة الثانية فى ٢٠ ذو الحجة عام ٧٧٤هـ [٢١٠] واستمر حتى وفاته فى أول رجب عام ٧٧٨هـ [٢١١] .

١٣- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الأولى) تولى النقابة فى يوم الاثنين ثالث شهر رجب عام ٧٧٨هـ [٢١٢] عزل فى أول ربيع الآخر عام ٧٨٠هـ [٢١٣]

١٤- الشريف عاصم (الثانية) تولى النقابة فى ١٧ ربيع الآخر عام ٧٨٠هـ [٢١٤] واستمر حتى وفاته عاشر المحرم عام ٧٨٢هـ [٢١٥]

١٥- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الثانية) تولى النقابة للمرة الثانية فى ١٠ المحرم عام ٧٨٢هـ [٢١٦] وعزل فى ذو القعدة عام ٧٨٣هـ [٢١٧]

١٦- جمال الدين عبدالله بن عبد الكافى الطباطبى (الأولى) تولى النقابة فى ٢٢ ذو القعدة عام ٧٨٣هـ [٢١٨] وعزل فى جماد الآخرة عام ٧٩١هـ [٢١٩]

١٧- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الثالثة) تولى النقابة فى ٢٦ جمادى الآخرة عام ٧٩١هـ [٢٢٠] وعزل فى ١٩ صفر عام ٧٩٢هـ [٢٢١]

١٨- جمال الدين عبدالله بن عبد الرحيم الطباطبى (الثانية) تولى النقابة فى ١٩ صفر عام ٧٩٢هـ [٢٢٢] حتى وفاته فى ذو القعدة عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م [٢٢٣]

١٩- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الرابعة) وتولى النقابة فى ١٥ ذو القعدة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م [٢٢٤] ويستمر حتى وفاته فى ١٩ ربيع الأول عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م [٢٢٥] .

٢٠- بدر الدين حسن بن على ابن قاضى العسكر

تولى النقابة بعد والده فى ١٩ ربيع الأول عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م [٢٢٦] وعزل فى جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / ١٤٤١م [٢٢٧] وتوفى فى يوم الاثنين ٦ صفر ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م[٢٢٨] .

٢١- بدر الدين حسين بن أبى بكر بن حسن الحسينى ويلقب بالشاطر ويقال له ابن الفراء تولى النقابة فى يوم الخميس ٧ جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، وتوفى فى شوال عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م [٢٢٩]

٢٢- محمد بن حسن الحسنى خازن الشريخاناه تولى النقابة عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م بعد حسين بن أبى بكر ، وتوفى عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م[٢٣٠]

٢٣- أبو المحاسن حسن بن محمد بن حسن كان موجودا عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م [٢٣١]

٢٤- أبو عبدالله محمد الطنبدى الحسنى كان موجود فى الفترة من ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م[٢٣٢].

الهوامش

(١) ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢ ج١ ، ص٧٧٠ مادة (نقب) ؛ الزبيدى : تاج العروس ، ج١، ص٩٨٣ ؛ الفيومى : المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى ، المكتبة العلمية، بيروت ، ج٢ ص٦٢٠ ؛ ابن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٦ أجزاء ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٤٢٣هـ ، ج٥ ، ص٣٧٤ ؛ ابن الأثير : النهاية فى غريب الأثر ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج٥ ، ص٢١٣ .

(٢) الأزهر : تهذيب اللغة ، ج٣ ، ص٢٤٠ .

(٣) الطاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٣، ج٤ ، ص٤٢١ .

(٤) أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى : الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون ، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٧ ، ج٤ ، ص٢٢٠ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق محمد فهمى السرجانى ، المكتبة التوفيقية (د.ت) ، ج٢ ، ص٢٩.

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، ج٩ ، ص١٦٩-١٧٥ ، مادة «شرف» ، البلاذرى : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، المقدمة ، ص٢٠ .

(٧) القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٥٦-١٦٦ .

(٨) حقوق آل البيت بين السنة والبدعة ، دراسة وتحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) ، ص٥ .

(٩) محمد قلعجى : معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ج١ ص٤٨٧ .

(١٠) السيوطى : الحاوى للفتاوى و طبعة المنيرية ، دمشق ١٣٥٢هـ ، ج٢ ص٣٢ .

(١١) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٢ .

(١٢) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٧ .

(١٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ص١٠٩ .

(١٤) ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر ، ج١ ، ص٥ ..

(١٥) رضوان محمد الجناني : طبقة الأشراف في مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية الدولة الفاطية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٨٦ ، ص٢٦

(١٦) ابن عنبة الحسنى : عمدة الطالب فى أنساب آل طالب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ص٢١٥.

(١٧) الهمذانى : تكملة تاريخ الطبرى ، ص٩٢؛ المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ص١٥٠-١٥١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص ، ٠٨ ، ١٣ ، ٣٤٢، ٥، ج١٢ ، ص١٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٤ ، ص٥٦-٥٧ ، ١٥٧، ٢١٠ ، ٢٢ ، ج٥ ، ص٢١٧ وانظر أيضاً أحمد عبد الرازق : الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص٢٤٨ .

(١٨) رضوان الجناني : طبقة الأشراف ، ص٢٦١-٢٦٢ .

(١٩) كثرة ثورات العلويين ضد العباسيين خلال القرنين الثاني والثالث الهجري ، وقد توافد على مصر كثير من العلويين ؤ، وأصبحت مصر أهم مركز لهم يجتمعون فيه واتخذه طريقا إلى بلاد المغرب ، وساعدهم فى ذلك العاطفة الجياشة فى نفوس أهل مصر نحوهم وحبهم لآل البيت ، مما جعل العباسيين ينظرون إليهم بعينين واستعين ، لذا أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله ٣تلى عهده المنتصر بأمر والى مصر اسحق يحى بإخراج الطالبين من مصر إلى العراق وذلك فى رجب عام ٢٣٦هـ / ٨٥١م انظر : الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ، ص٢٢٤؛ محسن محمد حسن سليم ، « ثورات العلويين فى مصر عصر الولاة مجلة كلية الدراسات الانسانية ، جامعة الأزهر ، العدد السابع ، ١٩٨٩ ، ص١٨٥-٢٢٩ .

(٢٠) طباطبا : هو إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على أبى طالب ، ولقب بذلك لأن أباه أراد أن يقطع له ثوبا وهو طفل فخيره بين قميص وقبا ، فقال : طبا طبا يعنى قباقبا ، ولقبوه بذلك أما ابن خلكان فيذكر أنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء ؛ ويذكر ابن تغرى بردى أنه سمى « طباطبا » لأن أمه ترقصه وتقول طباطبا - يغنى نم نم . انظر :- ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص١٣٠ ؛ ابن حجر : نزهة الألباب فى الألقاب ، ص١٩٦ ؛ الحسنى: عمدة الطالب ، ص١٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٢١٩ .

(٢١) موفق الدين بن عثمان : مرشد الزوار إلى قبور الأولياء ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ، ١٩٩٥ ، ج١، ص٢٥ ؛ البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، القاهرة ١٩٩٩ ، رقم ٥٥ ، ص١٩٩ .

(٢٢) ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق على محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص٤٤ . ولاحظ أن الموقع الرسمى لنقابة الأشراف بمصر يذكر أن الخليفة المعز لدين الله هو أول نقيب للأشراف فى مصر أنظر : www. Niqabat alashraf.oeg

(٢٣) مشاهد الصفا فى المدفونين بمصر من آل المصطفى ، تحقيق على عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص٥٢ .

(٢٤) ابن زولاق : فضائل مصر ، ص٤٤ ، محمد بن اسماعيل بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الحسنى توفى بمصر عام ١٥هـ / ٩٢٧م أنظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٢ ، ص١٠٢-١٠٣ ، رقم ١٠٩٤٣ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق، ج١ ص٢٩٥٢ ؛ الذهبى ، تاريخ الإسلام ؛ حوادث عام ١٥هـ .

(٢٥) إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرسى .

(٢٦) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٢ ص١١-١٢ ، رقم ٧٦٢ .

(٢٧) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وكان من شعراء مصر فى القرن الرابع الهجرى . انظر: ابن زولاق : فضائل مصر ، ص٤٤ ؛ الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ج١ ، ص٣٢٨ ؛ ابن سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول تحقيق زكى محمد حسن وآخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة، ١٩٥٣ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ص٣٦ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٥٥٩ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ؛ ١١٨١ ؛ البغدادى : هدية العارفين، ج١ ، ص٣٣ ؛ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص٢٣٣ ؛ محمد عبد المنعم خفاجى ومحمد مصطفى الماحى : شعراء مصر من الفتح الاسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠، ص١١٠-١١١.

(٢٨) ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص٤٥ ؛ ويذكر المقريزى أنه ولى نقابة الأشراف فى أيام العزيز بالله ، أى أنه عاصر الدولة الإخشيدية والفاطمية حتى أيام العزيز بالله . انظر : - المقفى الكبير ، ج١ ، ص٧-٨ ، رقم ١١ ؛ السخاوى : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة ، ج١ ، ص١٠٤ ، رقم ١٢ .

(٢٩) المقفى الكبير ، ج٣ ص٤٦٥-٤٦٦ ، رقم ١٢٢٢ .

(٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١-٤٨٢ ؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص٧٢-٧٣ ، ص٨٦، ص٨٨؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ج٢ ،

ص٣٣-٣٤؛ عبد المنعم سلطان : الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، دراسة تاريخية وثائقية ، دار الثقافة العلمية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩، ص٢٦ .

(٣١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٩٨ ٩٩ .

(٣٢) ابن الطوير : نزهة المقلتين ، ص١١٣-١١٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٣٤٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٤ ، ج١ ، ص٤٥ .

(٣٣) ابن ناظر الجيش : تثقيب التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق رودلف سلي ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص١٩٢ .

(٣٤) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١١٨ .

(٣٥) القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ج١، ص٣٠٦ .

(٣٦) القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، ج١ ، ص٣٨ .

(٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٢٧٣-٢٧٤ .

(٣٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ، ص١٦٩ .

(٣٩) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، الطبعة ، دار العرب ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص١٠٤ .

(٤٠) القلقشندى : صبح الأعشى : ج١١ ، ص١١٨ .

(٤١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص١٤١ .

(٤٢) شمس الدين محمد بن أحمد المنهاجى الأسيوطى (القرن التاسع الهجرى) : جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدنى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج٢ ، ص٢٧٥ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص١٩٣ ، حيث وضعها ضمن الوظائف الدينية الموجودة فى نيابة دمشق، كما كانت تورد ضمن وظائف أرباب السيوف إذ كان يكتب فى توقيع متوليها الأميرى .

(٤٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص؛ ج٦ ص١٣٢-١٣٣ ؛ ج١٢ ، ج١٢ ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ ص٢٩٦؛

انظر ايضا عادل عبد الحافظ : نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج٢ ، ص٢٤٢ .

(٤٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٩٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ص٩٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٤٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ص١٩٣ . وقد أورد لنا القلقشندى بعض سجل تعيين نقباء الأشراف فى كل من دمشق وحلب وطرابلس .

(٤٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١٦ .

(٤٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٢ .

(٤٩) ابن ناظر الجيش: تثقيف التعريف ، ص١٩٢ .

(٥٠) المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ص٢٦٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٦٩ .

(٥١) نسبة لمدينة أرمية : بالضم ثم السكون وياء مفتوحة وهاء ، مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، كثيرة الخيرات وافرة الغلات ، يزعم المجوس أن زردشت منها . البلاذرى : فتوح البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٥ ؛ ايقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٢ .

(٥٢) نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦ .

(٥٣) المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨ .

(٥٤) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص٣٠٢ .

(٥٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٥ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج٢ ، ج ، ص٤١٣ ؛ بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٣ .

(٥٦) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(٥٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٩ ، ص١٠٨ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الصريفى : نزهة النفوس ، ج١ .

(٥٨) ص٢٩٧ ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص١٤١-١٤٢ ..

(٥٩) المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ص٧٧٧-٧٧٨ ؛ انظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص١٥٣ ؛ محمود إسماعيل : سوسلوجيا الفكر الإسلامى ، ج٣ ، طور الانهيار ، ص١٣١ .

(٦٠) النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص١٩٨ .

(٦١) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١١٣٩ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ص١٢٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥، ص٨٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٤ ، ص١٠٩-١١٠ ، ص١٣٣ ؛ السخاوى : الضوء ، ج١٠ ، ص٢٦٨-٢٦٩ ، رقم ١٠٦٨ .

(٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٧ .

(٦٣) البقاعى : إظهار العصر لأسرار أهل العصر ، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفى ، القسم الثالث ، ص١٦٢ .

(٦٤) وهى من أسواق القاهرة القديمة من أيام الدولة الفاطمية وتعرف بسويقة الوزير يعلى الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس ، ثم عرفت باسم السوق الكبير فى أخريات الدولة الفاطمية ، فلما ولى صفى الدين عبدالله بن شكر الدميرى وزارة العادل أبوبكر بن أيوب سكن فى هذا الخط فعرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب . انظر : المقريزى : الخطط ، ج٣ ، ص١٦٩ .،

(٦٥) الوافى بالوفيات ، مخطوط رقم ٧٠٤ ، ج١٣ ، ص٣٣ .

(٦٦) ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج٢ ، ص٤٢٦ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٩٣ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، تحقيق عدنا درويش ، ج٢ ، ص٣٢٥ .

(٦٧) حارة الديلم من حارات القاهرة القريبة من الجامع الأزهر ، وهى ، وهى منسوبة إلى الديلم الذين نزلوا القاهرة فى العصر الفاطمى . ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، المقريزى: الخطط ، ج٣ ، ص١٢.

(٦٨) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء الثالث والثلاثون ، تحقيق مصطفى حجازى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص١٨ .

(٦٩) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين (٤١٤-٤١٥هـ) تحقيق وليم ج. ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٢٥ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص١٣٣ .

(٧٠) الضوء اللامع ، ج٢ ، ص٥-٦ ، رقم ١٤ ؛ ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، مراجعة وتقديم دكتور عبد الرحمن فهمى محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص٩٧.

(٧١) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص١٦٧ .

(٧٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨م ، ص٨٥ .

(٧٣) ابن الطوير : نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد ، جمعية المستشرقين الألمانية ، فيسبادن ، ١١٣ -١١٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ، د.ت ، المجلد الرابع ، ج١ ، ص١٤٦ .

(٧٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٢٥١ .

(٧٥) التعريف بالمصطلح الشريف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص١٦٩- ١٧٠ . وقد نقل القلقشندى هذه الوصية عن ابن فضل الله فى كتابه صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٧٦) ضياء الدين بن الأثير : رسائل ابن الأثير ، نشر أنيس المقدسى ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ص١٣٥ .

(٧٧) الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الانشاء ، مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، تحت رقم ٢٤٠٤٥ ، ورقة ١٣٣ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢، ج٢، ص٥٦ .

(٧٨) السخاوى : استجلاء وارتقاء الغرف ، ص٧٢-٧٣ الشبلنجى : نور الأبصار ، ص١١٧؛ الجرجاوى : مدارج الأشراف ، ص٥٩ ؛ رضوان الجنانى : طبقة الأشراف ، ص٢٦٨ .

(٧٩) الأدفوى : الطالع السعيد ، ص١٧٩-١٨١ ، رقم ١١٥ ؛ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٤٥٣؛ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، مج ٤ ، ص٢٩ .

(٨٠) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٨ ؛ ابن حجر : إنبأ الغمر ، ج٢ ، ص٢٦٧ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص١٣٦-١٣٧ ، رقم ٩١ ؛ النجوم الزاهرة ج١ ، ص١٦٤ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٧٠ ، رقم ٩٢٨ ؛ ابن الصرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٢ ص٢٣٧ ؛ السخاوى : الضوء اللامع، ج٣ ، ص١٢٣-١٢٤ ؛ ابن آياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٧٧٤-٧٧٥ .

(٨١) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٣ ، ص٤٤٩- ٤٥٠ ، رقم ١٢١٣ .

(٨٢) درر العقود ، ج٢ ، ص٦-٧ ، رقم ٧٥ .

(٨٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣٦٧ ؛ وقد نقل السخاوى عنه ذلك فى الضوء اللامع ، ج ، ص١٢٤ .

(٨٤) ذيل الدرر الكامنة ، ص١٨٣-١٨٤ ؛ المجمع المؤسس المفهرس ، ج١ ، ص٥٦٨ .

(٨٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٢١-١٢٢ ، رقم ٤٧٢ ؛ البقاعى : عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ج٢ ، ص١٦٢-١٦٧ ، رقم ١٩٦ ؛ السيوطى : نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق فليب حتى ، نيويورك ، ١٩٢٧ ، ص١٠٤-١٠٥ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٣٠٥ .

(٨٦) ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ج٣ ، ص١٣٣٠-١٣٣١؛ على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج٣ ، ص٤٠٥ . الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٣٠٥.

(٨٧) ابن عنبة الحسنى : عمدة الطالب ، ص١٥٧ ؛ التقسى : رسالة أحكام الأشراف ، ص٧ ، ٩ ، ١٠ .

(٨٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٧٤-٧٧٥ ؛ ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص١٠١-١٠٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٥٥ .

(٨٩) استجلاء الغرف ، ص٧٣-٧٤ .

وللأسف لم تمدنا المصادر المعاصرة بصورة لما كان يكتب فى هذه المحاضر، ولكن وصلتنا نماذج تعود إلى فترة متأخرة فقد أمدنا السمهودى بصورة لهذه المحاضر : " بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد فاننى اتشرف بأن أشهد بصحة هذا النسب الكريم المتفق على صحته من مشايخنا وعلمائنا وأفاضلنا رضى الله عنهم ونفعنا بهم واسأل الله بوجه نبيه الكريم ورجال هذا النسب العظيم أن يأخذنا إليه مما سواه ويمتعنا من أهله بقربه ورضاه ... كاتبه تراب أقدامهم خادم خدامهم ... أحمد الشرقاوى فى ١٩ الحجة المحرم سنة ١٣١٣ وختم عليه بخاتم الشريف " انظر : - السمهودى : مدارج الأشراف ، ص٨٥؛ رضوان الجنان: طبقة الأشراف ، ص٢٦٩ .

(٩٠) درر العقود الفريدة ، ج٢ ، ص٤٦١ .

(٩١) من هذه الرسائل :

- أسماع الصم فى اثبات الشرف من قبل الأم" لابن أبى زيد المراكشى ت ٧٣٩هـ / ١٢٣٩م .

- " أسماع الصم فى اثبات الشرف من الأم" لابن مرزوق التلمسانى ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م .

- " راسلة الفوز والغنم فى مسألة الشرف من الأم " لخير الدين البرمجلى ت ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م.

- " تبيان الحكم بالنصوص الدالة على الشرف من الأم" للصديقى ت ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ /ز

انظر : البغدادى : إيضاح المكنون ، ج١ ، ص٨١ ن ٢٢٣ ؛ هدية العارفين ، ج١ ، ص٥٢٩ ، ٣١٩ ، ١٨٨ . ومن الكتب :

- " كتاب رفع اللبس ووالشبهات عن ثبوت الشرف من قبل الأم " لأبى العباس أحمد بن سودة المرى.

- "شرف الأسباط" للقاسمى .

(٩٢) رفع اللبس ، ص٢-٤ .

(٩٣) سليمان محمد حسين : الأشراف ودروهم فى مصر فى فى العصر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ، ١٩٩٣ ، ص٤٧ .

(٩٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

(٩٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٠٦ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل فى ذيل الدول ، ج٢ ، ص٤٨.

(٩٦) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج٢ ، ج٢ ، ص٤١٣؛ ابن إياس بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٣ .

(٩٧) ولى الدين العراقى : ذيل العبر ، ق٢ ، ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ص٢٠٥-٢٠٧ ؛ ابن حجر إنباء الغمر ، ج١ ص٣٥ ؛ ابن قاضى شهبة ، تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٤١٤ .

(٩٨) الأزار : عبارة عن ملاءة متسعة فضفاضة تلف جميع جسد المرأة وكان الأزار بالنسبة للمسلمات عامة أبيض اللون ، وللمسيحيات أزرق اللون ، وللبهوديات أصفر اللون ، وللسامريات أحمر اللون . ماير : الملابس المملوكية ، ص١٢٥-١٢٦ .

(٩٩) النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٦ انظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص٢١٤ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم المماليك ، ج٢ ، ص٨٤ .

(١٠٠) النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ .

(١٠١) المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(١٠٢) وجيز الكلام ، ج١ ، ص١٨٦ .

(١٠٣) بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠ .

(١٠٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص١٩٩ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ، ج١ ، ص١٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، دار التراث بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م ، ص٤٦٢؛ حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٠٣ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص٢٣٩ .

(١٠٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٠٣ ؛ عبد الباسط : نيل الأمل ، ج٢ ، ص٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦، ص٢٢٦ .

(١٠٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ .

(١٠٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ .

(١٠٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص١٩٩؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى، ج٦ ص٢٣٩ .

(١٠٩) بدر الدين حسين بن أبى بكر بن حسين الحسينى ويلقب بالشاطر ، ويقال له ابن الفراء ، تولى نقابة الأشراف فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / نوفمبر ١٤٤٠/ وتوفى فى شوال عام ٨٨٥هـ/ يناير ١٤٨١ م . المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٤ ، ص٢٠٥ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل فى ذيل الدول ، ج٧ ، ص٢٧٥ .

(١١٠) الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٨ ، ص٥٤٧ .

(١١١) وجيز الكلام ، ج٣ ، ص٩١٤ .

(١١٢) الأحكام السلطانية ، ص٨٦ .

(١١٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٤ .

(١١٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٤٠٠-٤٠١ .

(١١٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٥٠ .

(١١٦) محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمي ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٣٨ .

(١١٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٣١٣-٣١٤ ؛ المقريزى : الخطط ، جج٤ ، ص٨١-٨٣ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ٢٤٦-٢٥٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣١٤ ؛ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص٣٣٧ ؛ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ص٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، الطبعة الرابعة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٤ ص٣٥٨-٣٥٩ . ومن حسن الحظ أن وصلتنا حجة وقف طلائع بن رزيك سليمة ، حيث تحتفظها بها دار الوثائق القومية بالقاهرة (مجموعة محكمة الأحوال الشخصسة) وهى وثيقة رقم ١ محفظة رقم ١ : وقد قام بنشرها كل من كلور كاهن ويوسف رجب ومصطفى أنور طاهر : محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار بالقاهرة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٣ ؛

Claud Cahen , yusuf Ragib et Mustafa Anouar Taher, L'Achat et le Waqf d'un Grand Domaine Egyptien Par Vizir Fatimide Tolai B. Ruzzik , Annales Islamoloiques , Tome XVI , le Caire , 1978 , pp. 12-126 .

(١١٨) الوزير الفاطمى أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح كان واليا بنى خصيب من أعمال الصعيد ، فلما قتل الخليفة الفاطمى الظافر سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصرا المتفقين على قتله فتوجه طلائع إلى القاهرة وقاتل عباس وولده وتولى الوزارة للفائز ، وقد بنى جامع خارج اب زويلة لكى يدفن فيه رأس الحسين : انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٣٦ ، رقم ٣١١ .

(١١٩) بركة الحبش : وتعرف ببركة المعافر وبركة حمير ، وتعرف أيضا باسطبل قرة ، وتقع فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل ، وكان يقع إلى شرقيها بساتين تعرف بقتادة بن قيس بن حبش الصدفى لذا عرفتهذه البركة ببركة الحبش . انظر :- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت ، ج٤ ، ص٤٥ ؛ المقريزى : الخطط ، ج٣ ، ص٢٤٧-٢٤٩ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣، ص٣٤٠؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص٢٧؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٩٠ .

(١٢٠) بلقس : قرية قديمة كانت تقع ضمن إقليم الشرقية ، ثم إقليم ضواحى القاهرة فى العصر المملوكى ، وهى إحدى قرى محافظة القليوبية الآن . انظر : ابن مماتى : قوانين نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص٢١٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ج٥ ، ص٤٥؛ ابن الجيعان : التحفة السنية بلأسماء البلاد المصرية ، نشر مورتيز ، القاهرة ، ١٨٩٢ ، ص٩ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق٢ ، ج١ ، ص٥٥ .

(١٢١) وثيقة طلائع بن رزيك ، ص١١٣-١١٥ ، أسطر ٢٢-٤٥ ؛ المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص٨٢ .

(١٢٢) حفصا : هى من القرى القديمة اسمها الأصلى دجسفة وردت فى قوانين الدواوين لابن مماتى من أعمال الشرقية ، وذكرها ابن دقماق فى الانتصار ، ق٥ ، ص٦١١ باسم "دجفة الشرفا" ضمن الأعمال الشرقية، وذكرها ابن الجيعان فى التحفة السنية ، ص٣٠ باسم "دجسفه الشرفا ، وهى رحسفة الرهبان لم تمسح فى الروك" ، ويذكر محمد رمزى والصواب دجسفة الشرفا كما ورد فى دليل سنة ١٢٢٤هـ وفى تاريخ سنة ١٢٢٨هـ ، وهى بلدة بمركز ميت غمر محافظة الدقهلية ، القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج١ ، ص٢٥٥.

(١٢٣) سجلات محاكم الأقاليم ، محكمة الدقهلية ، دار الوثائق القومية بالقاهرة ، سجل ٩ ، ملف ٦١٦ ، ص٢٧٠ ؛ مصطفى كامل شملول : عروبة مصر من قبائلها ، القاهرة ١٩٧٠، ص١١٨-١١٩ ؛ سليمان محمد : السادة الأشراف ، ص١١ .

(١٢٤) السلوك ، ج٢ ، ص٣٤٠ .

(١٢٥) المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٨٦٤-٨٦٥ .

(١٢٦) السلوك ، ج٣ ، ص٩٩ .

(١٢٧) السلوك ، ج٣ ، ص٤٥٦ .

الشريف مرتضى صدر الدين مرتضى بن غياث الدين إبراهيم بن حمزة الحسنى العراقى ولى نظر وقف الأشراف عام ٧٩٨هـ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٨٦٧ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٣٧ .

(١٢٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٤٨٨ .

(١٢٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ن ج١ ، ص١٧٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(١٣٠) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٥٠٣ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ، ج١ ، ص٢٧٨ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٨ ؛ إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٣٨ .

(١٣١) السلوك ، ج٤ ، ص٤٤٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٤ ، ص٢٥٠ ، رقم ٦٤٩ فى حين يذكر كل من العينى وابن الصيرفى بأن الشريف هو الذى استقر فى نظر الأوقاف المتعلقة بالاشراف عوضا عن الأمير فخر الدين بن أبى الفرج .. عقد الجمان ، حوادث عام ٨٢١ هـ ، ص٣٣٩ ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٤٣٢ .

(١٣٢) السلوك ، ج٤ ، ص٤٤٠ .

(١٣٣) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٦٧ .

(١٣٤) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٥٨٦ ، ٥٦٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، ص١٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص١٠ ؛ المنهل الصافى ، ج١٠ ، ص١٧٨ ، رقم ٢٢٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس، ج٢ ، ص٤٦٨ ، ج٣ ، ص٢٠٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٨ ، ص١٣٩ .

(١٣٥) السلوك ، ج٤ ، ص٦٤٤ .

(١٣٦) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٤٤ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٣ ، ص٢١ .

(١٣٧) النشو : شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله ، كان يتولى ديوان أنوك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تولى الخاص السلطانى ، ثم تولى ديوان الجيش ، وقد اشتهر بالاحتيال والاستيلاء على أموال الناس، ومصادراتهم حتى كثر أعدائه ، ثم تخلص الناصر محمد منه وقتله عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م. انظر : - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٤٢٩-٤٣٠ ، رقم ٢٥٤٩ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٧، ص٣٩٠-٣٩٣ ، رقم ١٥٠٤ ؛ الدليل الشافى ورقة ٤٣٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٣٢٣ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص١٢٦ .

(١٣٨) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص٥٥٢ ؛ الخطط ، ج٣ ، ص٢٥٢ .

(١٣٩) المقريزى : درر العقود المفيدة رقم ٦١٦ ، ج٢ ، ص٣٠٤ .

(١٤٠) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٤٠ .

(١٤١) جانبك الظاهرى جقمق الجركسى الدوادار وشاد جدة عام ٨٤٩هـ وأطلق عليه نائب جدة ، ثم تولى الاستادارية عام ٨٥٧هـ ، وتوفى عام ٨٦٧هـ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص٢٤٣-٢٤٨ .

رقم ٨٢٩ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٣٩ ، رقم ٨٢٧ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٧ص٥٧-٥٩ ، رقم ٢٣٥ .

(١٤٢) تمربغا الرومى الظاهرى جقمق ، وظل يترقى فى الوظائف حتى تولى السلطنة باسم الظاهر أبو سعيد تمربغا عام ٨٧٢هـ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص١٠٠-١٠٢ ، رقم ٧٨٤ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٢٣ ، رقم ٧٨٢؛ النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص٣٧٣-٣٩٣ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣، ورقة ٤٠-٤١ رقم مخطوط رقم ١٦٧ .

(١٤٣) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

(١٤٤) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٧ .

(١٤٥) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٩ .

(١٤٦) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٤٠ .

(١٤٧) ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص٥١ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج١ ، ص١٧٠ .

(١٤٨) بنو حرام : بطن من جذام من القحطانية بالشرقية بنو حرام القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٣٣ ؛ نهاية الأرب فى أنساب العرب .

(١٤٩) بردبك الأشرفى اينال ملكه فى عام ٨٢٩هـ فرباه واعتقه وعمله خازنداره وزوجه ابنته الكبرى ثم دواداره ، فلما تسلطن عمله دوادارا ثالثا ، ثم نقله إلى الدواداريه فى سنة ٨٥٩هـ ، وتوفى عام ٨٦٨هـ . السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٤-٥ ، رقم ٢٠ .

(١٥٠) البقاعى : إظهار العصر وج٣ ، ص١٤٢-١٤٣ .

(١٥١) ابن الجيعان : التحفة ، ص١٢٠ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج٢ ، ص٢٨٤ .

(١٥٢) على بن محمود بن محمد بن أبى بكر بن الجنيد بن شبلى بن الشيخ خضر بن عبدالملك بن عثمان ، ويعرف بالشريف الكردى ، ولد عام ٨٢١هـ ، وتولى مشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس وكان بينه وبين الأشرف قايتباى صحبة قديمة ، مات بالقاهرة عام ٨٨٢هـ دفن بحوش خانقاة سعيد السعداء . البقاعى: عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشى ، دار الكتب الوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ ، ج٤ ، ص١٠٦-١٠٧ ، رقم ٣٩٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٦ ، ص٣٦-٣٨ ، رقم ١٠٤ .

(١٥٣) ابن الصيرفي : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص١٤١-١٤٢ .

(١٥٤) ابن الصيرفي : إنباء الهصر ، ص١٤٢ .

(١٥٥) ابن الصيرفي : إنباء الهصر ، ص١٤٢ - ١٤٣ .

(١٥٦) ابن الصيرفي : إنباء الهصر ، السخاوى : الذيل التام على دول الإسلام ، ج٢ ، ص٢٣١ .

(١٥٧) نيل الأمل ، ج٧ ، ص٣٦٩ .

(١٥٨) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٦٠ .

(١٥٩) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٦٠ ؛ البيومى إسماعيل الشربينى : مصادرة الأملاك ، ج٢ ، ص٢٠ .

(١٦٠) الأحكام السلطانية ، ص٨٦ .

(١٦١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٢٥١ سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(١٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٤٠٠ .

(١٦٣) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٥٠ .

(١٦٤) السخاوى : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، تحقيق طرابزونى الحسينى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج٣ ، ص٧٠٧ ، رقم ٤٠٦٦ .

(١٦٥) الشعرانى ، لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، المطبعة العامرة العثمانية ، الاقهرة ، ١١١١هـ ، ص١٠١ .

(١٦٦) ابن الطوير : نزهة المقلتين ، ص١١٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٤ ، ج١ ، ص١٤٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١-٤٨٢ ، ج٤ ، ص٣٧-٣٨ .

(١٦٧) المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص١٩٣ .

(١٦٨) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨ ؛ ابن قاضى شهبة : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١ ، ص٤٣٩ ، رقم ٤٢٠ .

(١٦٩) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، ج١ ، ص٤٤٠ ؛ الأسنوى : طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص٩٩؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٣٨٥ × البغدادى : هدية العارفين ، ج١ ، ص٥١٥ .

(١٧٠) المقريزى : المقفى الكبير ، ج١، ص٥٨٧ ؛ البغدادى : هداية العارفين ، ج١ ، ص٥٣ .

(١٧١) الحسينى : ذيل العبر ، ص١٧٢ .

(١٧٢) ابن قاضى شهبة : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج٢ ، ص١١٢ .

(١٧٣) تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨ .

(١٧٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٢ .

(١٧٥) السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٨٩ .

(١٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٥٣ .

(١٧٧) زيترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٧ ، ٢١٧؛ الصفدى : أعيان العصر ، ج٣ ، ص٣٣٤ ، رقم ١١٤٩؛ المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص٤٤٤ ، ٤٨٩ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ؛ ج٣ ، ص٣٢ ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤١؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٣ ، ص٢٠٠ ؛ سهام أبو زيد الحسبة فى مصر الإسلامية ، ص٢٧٦؛

Abd ar – Raziq (Ahmad) , "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks "an isl. XIII, le Caire , 1977 , p. 140 .

(١٧٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٦ ، ٢٧١ ، ٣٣٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٦ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١، ص٢٢٤؛

Abd ar – Raziq (Ahmad) , "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks "an isl. XIII, le Caire , 1978 p. 131 , No .10 .

(١٧٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٨٧ ، ٣٩٥؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢١١ .

(١٨٠) من الوظائف الدينية ، وهى وظيفة جليلة قديمة من زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع قضاة القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٦ .

(١٨١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦؛ ابن أيبك الصفدى ، الوافى ، ج٣، ص١٧ ، رقم ٨٧٧؛

الأسنوى ، طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص٩٩ ، رقم ٨٤٥؛ المقريزى ، المقفى ، ج٥ ، ص٥٩٧ ؛ ابن القاضى شهبه ، طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١ ، ص٤٣٩ .

(١٨٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٧١؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص٣٤٨ .

(١٨٣) مشيخة الشيوخ : وهى من الوظائف الدينية التى لامجلس لها بالحضرة السلطانية . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٨ . وكانت تطلق منذ العصر الأيوبى على من يتولى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، حتى عام ٧٢٥هـ عندما بنى السلطان المملوكى الناصر محمد قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فأصبح يطلق على من يتولى مشيختها شيخ الشيوخ . عبد الرحمن أبو راس : شيخ الشيوخ بالديار المصرية فى الدولتين الأيوبية والمملوكية ، دراسة تاريخية حضارية ، عالم الفكر ، ١٩٨٧ ، ص٥٨ وما بعدها .

(١٨٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٩٤ .

(١٨٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٤٤ .

(١٨٦) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٩ ، ج١ ، ص١٩٩ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٩٤ .

(١٨٧) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٣٣٨ .

(١٨٨) بدائع الزهور ، ج٢ ، ص١٢٨ .

عن هذا الوباء انظر :- المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٨٢١-٨٢٦؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٨٧٣؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٣٣٧-٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ج١٥ ، ص١٥٦ ؛ العينى : عقد الجمان، حوادث عام ٨٣٣هـ ، ص٣٨١ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٣ ، ص١٨٦-١٨٧ ، ٢٠١-٢٠٢ ؛ إبراهيم على طرخان مصر : مصر فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص٢٥٤ ؛ حامد زيان : الأزمات الاقتصادية فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٦، ص٩٨ ؛

Darrage (Ahmad) , L'Egypte Sous Barsbay , Damas , 1961 , p. 5 "The Second Plague pandemic and its recurrences in Middle East" , JESHO, vol . 22 , 1979 , pp 162-189 .

(١٨٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٨٢٨ ح ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ، ص٤٣٨ .

(١٩٠) نزهة النفوس ، ج٣ ، ص١٩١ . لطفى أحمد سيد : وسائل الترفيه ، ص٤٥-٤٦ .

(١٩١) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٨؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ، ص٣١٤ ، رقم ٨٤١؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى ، مج٢ ، ص١٠٨ ؛ السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٢٢٧-٢٢٨ .

(١٩٢) تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٢١٢ .

(١٩٣) رقية بنت على أبى طالب قدمت مصر بعد كربلاء ومسجدها يعرف بجامع شجر الدر على يسار الطالب للسيدة نفيسة وقد بنت هذا المشهد السيدة علم الأمرية أم ابنه الآمر بأحكام الله الفاطمى عام ٥٣٣هـ ١١٣٨م وذكر هذا المشهد على مبارك ضمن التكايا . أنظر :- ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية ، ص٩٣-٩٤؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٤٢٣ ؛ الشلبجى ، نور الأبصار ، ص٢٩٠-٢٩١ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص١٦٠ ؛ سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج٢ ، ص١٢٦-١٣٠ .

(١٩٤) نفيسه بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب توفيت بمصر عام ٢٠٩هـ / انظر :- ابن زولاق، فضائل مصر، ٤٨ ، ٤٣؛ السخاوى ، تحفة الأحباب ، ص١٠٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٣١٣؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٥١١ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٩٣ .

(١٩٥) المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص١٢٢٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣٤٨ ؛ ابن الصيرفى نزهة النفوس والأبدان ، ج٤ ، ص٢١٦ .

(١٩٦) جامع الفاكهيين ويعرف بجامع الظافر والجامع الأفخر عمره الخليفة الفاطمى الظافر بنصر الله أبو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله عام ٥٤٣هـ / ١١٤٥م ، ويقع بسوق السراجين . أنظر :- ابن عبد الظاهر الروضة البهية الزاهرة ، ص٧٤؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٨٠-٨١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٢٣؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص١٥٦-١٥٧ انظر أيضا حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية ، ج١ ، ص٧٤ .

(١٩٧) جامع الفخر أنشاء فخر الدين محمد بن فضل الله العمرى ، ناظر الجيش المتوفى عام ٧٢هـ / ١٣٢م، بناحيه بولاق ، وكان يعرف مكانه بخط الكبالة وهو مكان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة أنظر : المقريزى ، الخطط ج٤ ، ص١٠٩ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص١٥٧-١٠٩ .

(١٩٨) أنشأ هذا الجامع محمد بن صارم ويقع بناحية بقلاق فيما بين بولاق وباب البحر . أنظر :- المقريزى ، الخطط ج٤، ص١٣٢ .

(١٩٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦ ، ج٣٠ ، ص١٤٥-١٤١ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، حوادث عام ٦٥٠ ؛ ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٣ ، ص١٧ ، رقم ٨٧٧؛ الإسنوى : طبقات الشافعية ،

ج٢، ص١٥٢ ، رقم ٤٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٢٣٠، ٢٢٣ ، ٣٠٦ ، ٣٨٥ ؛ الخطط ، ج٤، ص١٩٣ ؛ المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨، ابن قاضى شهبه : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١، ص٤٩-٤٤٠، رقم ٤٢٠ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج١ ، ص٧٦؛ ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٦١٦ .

(٢٠٠) سبط ابن الجوزى : ذيل مرآة الزمان ، ج٢، ص٣٥٥ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج١، ص٤٠-٤١ .

(٢٠١) ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٨ ، ص٤٤ ، رقم ٣٤٤٩ ؛ أعيان العصر وأعوان النصر ، ج١ ، ص٩٢؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٨٣١ ولكنه يذكر وفاته عام ٦٩٦ هـ المقفى الكبير ، ج١ ، ص٥٨٦ ، رقم ٥٦٧ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج٣، ص٣٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٢ ، ص١١٩-١٢٠ ، رقم ٢٧٤؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٧٨، رقم ٢٧٢ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٤٣٠ ؛ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، مج٤ ، ص٤٧ .

(٢٠٢) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص١٤ ؛ درر العقود الفريدة ، ج٢ ، ص٤٦١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٢١٤ . ولكنه يذكر وفاته فى ١٩ شوال عام ٧٠هـ .

(٢٠٣) يذكر ابن حجر أنه ولد عام ٦٩٦ هـ وهذا خطا وغير مقبول إذا أن أبيه توفى فى العام السابق . وكيف يتولى النقابة ولديه ثمان سنوات وهذا غير معقول الدرر الكامنة ج٢ ، ص٩ .

(٢٠٤) ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج٢ ، ص٤٢٦؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج٣٣ ، ص١٨؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، تحقيق عرتان درويش ، مج ١ ، ج٢ ، ص٣٢٥ .

(٢٠٥) المقريزى : درر العقود المفيدة ، ج٢، ص٤٦١-٤٦٢، رقم ٧٨٠ ، ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٣، ص٣٣٤- ٣٣٥ ، رقم ١١٤٩ ؛ الحسينى : ذيل العبر ، ص١٧٢؛ ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج١، ص٣٣٥ ، رقم ٦٩٢ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١٠، ص١٧؛ زيترسين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١٩٧، ٢١٧؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣، ص٥؛ المقريزى : السلوك ، ج٢، ص٤٤٤، ٨٨٩ ، ٨٨٨، ٤٨٩، السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٨٩؛ ابن حبيب : تذكر النبيه ، ج٣، ص٢٠٠؛ درة الأسلاك ، ص٣٩٨؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٠، ص٣٢٢ ؛ ابن قاضى شهبه : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج٢ ، ص١١٢-١١٣ ، رقم ٥٩٩ ؛ تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢، ص٣ ، ص١٠٨ ؛ سهام أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية ، ص٢٧٩؛

Abdar - Raziq, "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks" An. Isl. . XIII, 1977, p. 140

(٢٠٦) ابن رافع السلامى : كتاب الوفيات ، ص٢٤٢-٢٤٣ ، رقم ٧٥٨ ؛ العراقى : الذيل على العبر ، ص٦٩-٧٠؛ ابن حبيب : تذكر النبيه ، ج٣ ، ص٢٤٣-٢٤٤؛ ابن فهد المكي: لحظ الألحاظ ، ص١١؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢، ص١٥٣-١٥٥، رقم ١٦١١؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢ ج٢ / ص١٩٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١، ص١٠ ؛ المنهل الصافى ، ج٥، ص١٦٩-١٧٠، رقم ٩٥٥؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٧٦ ، رقم ٩٥٢؛ السخاوى : وجيز الكلام ،ج١، ص١١٩ .

(٢٠٧) العراقى : ذيل العبر ، ج١ ، ص١٠٨-١٠٩ ؛ ابن قاضى شهبة : مج٢ ، ج٣، ص٢١٢ . ويذكر كل من المقريزى والسخاوى شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بدلا من الحسين . المقريزى : السلوك، ج٣ ، ص٧٨؛ السخاوى : وجيز الكلام، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨ .

(٢٠٨) تاريخ ابن قاضى شهبة، مج٢، ج٣ ، ص٤١٣ .

(٢٠٩) العراقى : ذيل العبر ، ج٢ ، ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ، ج٢ ، ص٤١٣ .

ويذكر ابن حجر أنه تولى النقابة فى ٩ شوال . إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ فى حين يذكر ابن إياس أنه تولى النقابة فى ١٩ رمضان . بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٤ .

(٢١٠) العراقى : ذيل العبر ، ج٢ ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٧؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٤١٤ .

(٢١١) العراقى : ذيل العبر ، ج٢، ص٤٣٩-٤٤٠ ؛ المقريزى / السلوك ، ج ، ص٣٠٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٧٤٥ح ابن قاضى شهبة : تاريخ قاضى شهبة ، مج ٢ ، ص٥٣٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٩٨ .

(٢١٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٦٩ ح ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٦٩ .

(٢١٣) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٥٧٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(٢١٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢، ص٢٢٨ .

(٢١٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٤٠٦ ، ٣٧٧ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢ ، ص٢٨٠-٢٥٣.

(٢١٦) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ص٢٥٣ .

(٢١٧) المقريزى : السلوك ، ج، ص٤٥٦ .

(٢١٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٣٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٢٩٧ .

(٢١٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٣٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(٢٢٠) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٩ ، ج١ ، ص١٠٨ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٣٣ ؛العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٧٩١هـ ، ص٢٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(٢٢١) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمرو ج١ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الصرفى : نزهة النفوس، ج١ ، ص٢٩٧ .

(٢٢٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٩ ، ج١ ، ص٢٠١ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٩٧ .

(٢٢٣) ذكر كل من العينى وابن الصيرفى أنه توفى فى أوائل ذى القعدة عقد الجمان ، حوادث عام ٨٠٠هـ ، ص٤٦٢ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٧٩ . أما المقريزى وابن تغرى بردى فذكر أن وفاته فى ١٤ ذو القعدة . السلوك ، ج٣ ، ص٩١١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٦٢ . وذكر ابن حجر أن وفاته فى ١٢ ذو القعدة إنباء الغمر ، ج٢ ، ص٢٦ ، ١٥ ؛ أما ابن إياس فيذكر وفاته فى شوال . بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٠ .

(٢٢٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٠٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٦٤ . فى حين يذكر ابن حجر أنه تولى فى ١٢ ذو القعدة . إنباء الغمر ، ج٢ ، ص١٥ .

(٢٢٥) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٧٢ ؛ درر العقود ، ج٢ ، ص٤٦٣ ، رقم ٧٨٣ ؛ ابن حجر . إنباء الغمر ، ج٣ ، ص١٨٤ ؛ ذيل الدرر الكامنة ، ص٢٦٣ ، رقم ٤٩٥ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٨ ، ص٣٩ ، رقم ١٥٦٠ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٤٤٩ ، رقم ١٥٥٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص١٤٩ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٤٣٢ ؛ السخاوى : الضوء ، ج٥ ، ص١٧٢ ، رقم ٥٩٤ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ، ج٤ ، ص١٢ ؛ فى حين يذكر العينى وفاته فى ١٨ ربيع الأول . حوادث عام ٨٢١هـ ، ص٣٩ .

(٢٢٦) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٤٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ السخاوى : الضوء ، ج٣ ، ص١٠٥ ، رقم ٤٢٠ .

(٢٢٧) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٤، ص٢٠٥ .

(٢٢٨) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج١ ، ص١٥٢ ، ١٧؛ المنهل الصافى ،ج٨ ، ص٤٠ ؛ السخاوى : الضوء ، ج ، ص١٠٥ .

(٢٢٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٤، ص٢٠٥ ؛ السخاوى: الضوء ، ج٣، ص١٨ ، رقم ٥٤٧ ؛ وجيز الكلام ، ج٣ ، ص٩١٤ ؛ الذيل التام ، ج٢ ، ص٣٣٧-٣٣٨ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ،ج٧ ، ص٢٧٥ .

(٢٣٠) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٨ ، رقم ٥٤٧ ؛ وجيز الكلام ، ج٣، ص٩١٤ ؛ الذيل التام ، ج٢ ، ص٣٣٨؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ،ج٨ ، ص١٦٩ .

(٢٣١) وثيقة وقف رقم ٢٣١ ملف ٢٦ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة : انظر محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة ، ص.

(٢٣٢) وثيقة رقم ٣٧٠ج أرشيف وزارة الأوقاف بتاريخ ٥ ذو الحجة ٩٠٩هـ . وثيقة رقم ٥٥٣ج أرشيف وزارة الأوقاف بتاريخ ١٨ رجب ٩١٤ هـ انظر: محمد محمد أمين : فهرست القاهرة ، ص٢٥١-٢٥٢ .

د. حاتم عبدالرحمن الطحاوى(*)

العثمانيون و المغول فى مذكرات أسير الحرب
يوهان شيلتبرجر ١٣٩٦-١٤٢٧م

تناولت العديد من المصادر التاريخية المعاصرة أحداث تاريخ كل من العثمانيين و المغول. على أن ما رواه الأسيرالألمانى يوهان شيلتبرجر Johan Schiltberger فى مذكراته (١)، يعد فى غاية الأهمية بسبب وقوعه فى الأسر لفترة جاوزت الثلاثين عاما ، جاب فيها العالمين العثمانى و المغولى معا.

حدث ذلك بعد سقوطه فى أسر القوات العثمانية على إثر موقعة نيقوبولس Nicopolis ١٣٩٦م (٢)،التى دارت بين السلطان العثمانى بايزيد الأول Beyazit I (الصاعقة Yildrem). و بين القوى الأوربية المسيحية بقيادة ملك المجر سيجموند Sigmond . فمكث بعدها فى خدمة السلطان العثمانى حتى هزيمته أمام العاهل المغولى تيمورلنك Timur Lenk فى موقعة أنقرة ١٤٠٢م (٣) . ليدخل شيلتبرجر بعدها فى طور جديد من أطوار الأسر والعبودية، عبر التحاقه بخدمة تيمور، حتى وفاة الأخير فى فبراير ١٤٠٥م.

بعد ذلك انتقل للعمل فى خدمة شاه رخ ،ثم إلى خدمة ابنه أبى بكر . الذى قام بإرساله للعمل والخدمة لدى حكام مغول القبيلة الذهبية .

---

* الأستاذ المساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الزقازيق

حدث هذا قبل أن يتمكن شيلتبرجر من الهرب و التخلص من ربقة الأسر و العبودية ، بعد نجاحه فى العودة إلى وطنه ألمانيا عام ١٤٢٧م.

و هكذا عاش أسيرنا البافارى أكثر من ثلاثين عاماً ، هى مدة الأسر ، فى كنف السلطتين العثمانية و المغولية . الأمر الذى جعل روايته عن الأحداث السياسية و العسكرية التى عاصرها خلال تلك الأعوام ،تحمل خصوصية و مصداقية إلى حد كبير عن باقى الروايات التاريخية المتعلقة بالعثمانيين و المغول خلال فترة البحث ، على الرغم من تشوشها فى بعض الأحيان .

حكى شيلتبرجر فى مذكراته – التى أملاها بعد عودته إلى بلاده – عن العديد من الأحداث التى عاصرها ، و كان شاهد عيان عليها لدى العثمانيين و المغول ، و كذا عند المماليك و الأرمن أيضاً ، الذين ساقته الظروف إلى بلادهم و مكث بها فترات معينة .

و بالإضافة إلى ذلك ، فقد تناول العديد من الأحداث و القصص و الأخبار الأسطورية التى سمع عنها و لم يشهدها بنفسه .

و يمكن القول دون مبالغة ، أن ما رواه الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر فى مذكراته يعد مصدراً أصيلاً مليئاً بالحوادث التاريخية . فلم يهتم فقط بذكر الأحداث السياسية العسكرية التى عاصرها ، بل قام برصد العادات الاجتماعية للشعوب التى عاش لسنوات فى كنفها ، فضلا عن مناخاتها الثقافية و الدينية . و هو الأمر الذى يجعلنا نذكر أنه يمكن إدراج مشاهداته ورواياته ضمن إطار ما يمكن تسميته بالأنثروبولوجيا الثقافية للعصور الوسطى.

وسوف يهتم هذا البحث بالتركيز على الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية والأنثروبولوجية التى تناولها فى المجتمعين العثمانى والمغولى إبان فترة الأسر ،دون التطرق إلى رؤيته وانطباعاته عن الدين الإسلامى والمسلمين، وهو مايستحق أن نفرد له بحثا منفصلا .

غادر يوهان شيلتبرجر منزله القريب من مدينة ميونخ عام ١٣٩٤م ، برفقة سيده الألمانى ،الأمير لينهارت ريتشارتنجر Leinhart Richartinger [٤]، بهدف محاربة الأتراك العثمانيين استجابة لمناشدة الملك المجرى سيجموند الذى زحف بجيش يتألف من آلاف المجريين والبلغار، فضلاً عن مئات الفرسان الفرنسيين و الإنجليز، عبر المنطقة المعروفة باسم البوابة الحديدية Iron Gate [٥] ، قبل أن يعبر نهر الدانوب و يستولى على مدينة بودم Pudem عاصمة بلغاريا من قبضة العثمانيين ، متخذا طريقه لضرب حصار بحرى و برى ، استمر لستة عشر يوماً حول مدينة نيقوبوليس [٦].

رصد شيلتبرجر وصول السلطان العثمانى بايزيد لإنقاذ المدينة و مواجهة سيجموند ، كما رصد الاستعدادات المسيحية لمواجهة العثمانيين . من ذلك تقدم سيجموند لمسافة ميل واحد عن المدينة لمواجهة بايزيد ، و سماحه لدوق والاشيا Werterwaywod باستطلاع أحوال الجيش العثمانى ، الذى عاد ليبلغ الملك بأنه شاهد عشرين راية تضم كل منها عشرة آلاف رجل (٧) .

و هو نفس العدد الذى قرره المؤرخ فرواسار Froissart الذى ذكر بأن أعداد المحاربين العثمانيين بلغ مائتى ألف مقاتل (٨) ،و بينما ذكر أيضاً أن قوات الملك سيجموند تألفت من ٣٠ ألف مقاتل بالإضافة إلى ٧٠٠ فارس فرنسى ،فإن شيلتبرجر ذكر وجود ١٦ ألف مقاتل كانوا مع سيجموند بالإضافة إلى ٦ آلاف مقاتل فرنسى مع دوق بورجنى (٩).

على أن شيلتبرجر ، ربما بسبب صغر سنه ، فضلا عن خلفيته العسكرية المتواضعة ، ودوره كتابع لسيده ، لم يذكر لنا بالتفصيل أسلوب الجيش العثمانى فى إدارة المعركة . على حين ذكر فرواسار أن بايزيد قام بتنظيم جيشه على هيئة أجنحة ، بحيث كانت تتقدمه فرقة مؤلفة من ثمانية آلاف جندى ، و بمجرد أن اقترب الجيش المسيحى ، قامت تلك الفرقة باستدراجه ، و حينها انقض آلاف الجنود العثمانيين من الجناحين عليها ، حتى حلت الهزيمة بجيش سيجموند (١٠).

على أية حال ، يبدو أن الأمير الألمانى لينهارت ريتشارتنجر و برفقته تابعه شيلتبرجر ، كانا قريبين من الملك سيجموند و كبار القادة المسيحيين ، إذ ذكر شيلتبرجر أن دوق والاشيا أراد أن يكون البادىء بالهجوم على الجيش العثمانى ، غير أن دوق بورجنى de coucy ناشد الملك المجرى أن يبدأ هو بالقتال (١١). على حين كان سيجموند يرى أن يبدأ المجريون القتال أولاً مع العثمانيين لسابق معرفتهم بأساليب قتالهم (١٢) . وعلى الرغم من ذلك اندفع دوق بورجنى لمحاربة العثمانيين ، الذين تمكنوا من إيقاع الهزيمة به بعد حصاره و إجباره على الاستسلام (١٣).

عندما شاهد الملك المجرى ما حدث ، حمل على الجيش العثمانى ، غير أنه أجبر على الانسحاب . و عندما حلت الكارثة بالجيش المسيحى فى نيقوبوليس ، فر سيجموند إلى نهر الدانوب ، حيث نجح فى الهرب على متن سفينة حملته حتى وصل إلى القسطنطينية (١٤). بينما قتل العثمانيون الآلاف من الجنود المسيحيين الفارين من المعركة . فضلاً عن غرق المئات منهم إبان محاولتهم الهرب عبر نهر الدانوب (١٥).

و لأن التابع شيلتبرجر كان قريباً من سيده الألمانى لينهارت فى ميدان المعركة ، فلم يفته أن

يشير إلى إصابة حصان سيده بسهم قاتل ، الأمر الذى أوجب عليه ضرورة تقديم حصانه إليه ، قبل أن يعود إلى موقعه مع الأتباع الآخرين .حدث هذا قبل أن تسفر المعركة عن مصرع سيده الألمانى فى النهاية [١٦] .

و نتيجة للهزيمة الساحقة التى حلت بجيش الملك سيجموند و القوى الأوربية المسيحية فى موقعة نيقوبوليس ١٣٩٦م ، فقد سقط الآلاف من الجنود المسيحيين فى أسر القوات العثمانية ، إلى جانب العشرات أيضاً من النبلاء الفرنسيين [١٧] .

وعلى الرغم من إشارة شيلتبرجر إلى رغبة السلطان العثمانى بايزيد فى قتل جميع الأسرى لولا تدخل دوق بورجنى الذى توسل للسلطان من أجل بقاء العديد من النبلاء الفرنسيين الذين يعرفهم ، و هو ما حدث بالفعل [١٨] . فإنه لم يشر إلى ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة كفرواسار و دوكاس من أن تدخل دوق بورجنى جعل العثمانيين يدركون أهمية العشرات من الأسرى الفرنسيين ، و هو ما جعلهم يوقفون عمليات القتل ،من أجل الحصول على فديات ضخمة مقابل إطلاق سراحهم ، بينما تم قتل باقى الجنود العاديين [١٩].

و الحقيقة أن الأسرى من النبلاء الفرنسيين فى موقعة نيقوبوليس كانوا يرتدون ملابس فاخرة ميزتهم عن باقى الجنود ، فتمت المحافظة على حياتهم بواسطة العثمانيين التواقين إلى الحصول على أموال طائلة [٢٠] .

و لكى يتأكد السلطان العثمانى بايزيد بنفسه من هويتهم ، قام بإطلاق سراح الفارس الفرنسى جاك دى كريك Jacques de Crequy ، سير هيللى Sire de Heilly ، الذى يجيد اللغة العثمانية – بفضل عمله من قبل فى خدمة السلطان العثمانى قبل العودة لمحاربة العثمانيين فى نيقوبوليس – من أجل التعرف على شخصيات النبلاء الفرنسيين .

و هو الأمر الذى حدث بالفعل ، إذ عاد دى كريك ليخبره بأنهم من أعلى الطبقات الاجتماعية فى فرنسا .ومن جانب آخر فإن النبلاء ناشدوه أيضاً إخبار السلطان بأنهم يستطيعون دفع فديات عالية مقابل الحفاظ على حياتهم [٢١].

و على الرغم من سقوط شيلتبرجر فى الأسر العثمانى لست سنوات تالية حتى العام ١٤٠٢م ، فضلا عن قربه من البلاط العثمانى ، فإنه لم يشر أيضاً إلى المفاوضات التى جرت بين السلطان بايزيد و القوى الأوربية من أجل افتداء أسرى نيقوبوليس .

إذ أنه بات من المعروف أن بايزيد قد أطلق سراح الفارس جاك دى كريك فى الصباح التالى للمعركة حتى يرحل لمقابلة ملك فرنسا ، حيث وصل إلى باريس ليلة عيد الميلاد عام ١٣٩٦م . وبعد مفاوضات طويلة تم دفع الفدية التى تم تحديدها أولاً بمليون فرنك ، ثم مائتى ألف فلورين، بعد أخذ تعهد عليهم بالإقامة فى مدينة البندقية حتى استكمال دفع الفدية التى وصلت فى النهاية إلى مائة واثنين و سبعين ألف فلورين ، تم دفعها فى شهر فبراير من العام ١٣٩٧م ،ليتم تحرير الأسرى بعد ذلك فى شهر يونيه من نفس العام [٢٣].

و هناك مثال آخر على عدم اهتمام شيلتبرجر بذكر و متابعة أحوال الأسرى من النبلاء الفرنسيين الذين جرى تحريرهم ، فقد أغفل تماما الإشارة إلى وجود النبيل الفرنسى الشهير المارشال بوسيكيو Bouciquoi ، ضمن الأسرى الذين عرضوا عراة الصدور أمام السلطان العثمانى [٢٤]، و كان من المفروض أن يتم إعدامه كالأسرى الباقين .

غير أنه بمجرد أن رآه إيرل نافار ، توجه مباشرة للسلطان العثمانى وخر ساجداً أمامه، متوسلاً إرجاء تنفيذ حكم الإعدام فى بوسيكيو ، بوصفه فارساً عظيم الشأن فى فرنسا ، و أن السلطان يستطيع أن يجلب من وراء إطلاق سراحه فدية كبيرة . و هكذا استجاب بايزيد لطلبه ، لينتقل بوسيكيو بعدها للجلوس وسط النبلاء الفرنسيين الذين تم إنقاذ حياتهم [٢٥].

و تنبع أهمية إطلاق سراح النبيل بوسيكيو من كونه لعب دوراً خطيراً ضد العثمانيين فيما بعد ، إبان حصار السلطان العثمانى بايزيد للقسطنطينية ١٣٩٦- ١٤٠٢م ، فقد أرسله الملك الفرنسى شارل السادس Charles VI (١٣٨٢ -١٤٢٢م) لمساعدة الامبراطور البيزنطى مانويل باليولوغس Manuel Palaelogus (١٣٩١- ١٤٢٥م) ضد العثمانيين .

و بالفعل نجح المارشال بوسيكيو فى كسر طوق الحصار البحرى الذى فرضه العثمانيون على القسطنطينية ،كما نجح فى التسلل إليها ليقود عمليات دفاع ناجحة عن المدينة ، وهو ما ساهم فى إفشال الحصار الذى قام به السلطان بايزيد [٢٦].

و بعيداً عن النبلاء الفرنسيين الذين تم حصرهم وتسجيلهم من أجل الحصول على فديات عالية مقابل إطلاق سراحهم ،فإن الإتجاه الغالب لدى العثمانيين ،كان قتل جميع الأسرى الباقين. حيث يذكر شيلتبرجر أن السلطان بايزيد أمر الجنود العثمانيين بعيد انتهاء المعركة ،بضرورة إحضار الأسرى الأوربيين الذين كانوا بحوزتهم وإعدامهم . و أنه كان حاسماً فى هذا الأمر لدرجة أنه كان يعين جندياً بديلاً للجندى الذى رغب عن قتل أسراه [٢٧] .

وهكذا تم جمع الأسرى الباقين عراة الصدور أمام السلطان العثماني الذى أصدر أمره بإعدامهم جميعاً .

وصف شيلتبرجر عملية إراقة الدماء التى استمرت حسب كلماته " من الصباح حتى صلاة المساء (المغرب) حيث تم إعدام عشرة آلاف أسير " . واسترعى انتباهه أن ما حدث قد أثار عطف مستشارى السلطان بايزيد ، فتوسلوا إليه أن يوقف سفك الدماء ، و أن يكظم غضبه إرضاء لله ، حتى لا يحل عليه عقابه نتيجة كثرة الدماء التى أمر بإهراقها [٢٨].

و الحقيقة أن قيام السلطان العثمانى بايزيد بإعدام الأسرى الأوربيين فى نيقوبوليس كان بمثابة رد فعل على تصرف القوى الأوربية المسيحية ضد الأسرى المسلمين . بعد قيام الكونت دى نافار و ملك المجر بإعدام جميع الأسرى المسلمين بعيد سقوط راهوفا Rahova [٢٩]. و هو الأمر الذى أثار غضباً عارماً لدى السلطان بايزيد ، مما دفعه لاتخاذ ذلك التصرف ضد الأسرى المسيحيين .

ولم تكن تلك هى السابقة الوحيدة فى التاريخ الأوربى الوسيط ، فقد قام بعد ذلك الملك الإنجليزى هنرى الخامس Henri V (١٤١٣ – ١٤٢٢م) بإعدام الأسرى الفرنسيين لديه بعيد معركة أزينكور Azincourt ١٤١٥م .. [٣٠]

كما أشار شيلتبرجر أيضا إلى أن العرف الموجود لدى العثمانيين ، والقاضى بعدم إعدام الأسرى الذين يقل سنهم عن العشرين ، قد منحه الحياة . فقد كان لم يتجاوز السادسة عشر عاماً بعد ،وهو ما دعا ابن السلطان بايزيد لضمه حيث الصبية الآخرين ، فالتحق بحاشية السلطان العثمانى كخادم أو جندى مراسلة runner [٣١] .

غير أن بعض التشوش يدخل على حديث شيلتبرجر ، الذى يذكر أنه بعد استمراره فى عمله عبر العدو أمام السلطان لست سنوات ، فإنه قد أصبح جديراً بأن يركب جواداً لست سنوات أخرى [٣٢] . و هو ما يجافى الحقيقة لأنه بنهاية السنوات الست الأولى ، سقط شيلتبرجر فى أسر تيمورلنك بعد هزيمته للسلطان بايزيد فى موقعة أنقره ١٤٠٢م [٣٣].

على أية حال، تابع شيلتبرجر رحلته مع أسرى معركة نيقوبوليس الذين لم يتم إعدامهم ،فذكر أنه تم إرسالهم أولاً إلى مدينة أدرنه Adrianople ،ثم إلى مدينة غاليبولى Gallipolis [٣٤] .قبل أن يستقروا فى العاصمة العثمانية بورصا Brusa .

و اعترافا من السلطان العثمانى بايزيد يلدرم بفضل كبار السن من الأسرى ،جعل إقامتهم فى أدرنه داخل إحدى القلاع ، وفى بورصا فى أحد القصور ، قبل أن يتم نقلهم بعد ذلك إلى مدينة Mikaleditch (قراجابك Karacabey)[٣٥].

بعد ذلك أشار شيلتبرجر إلى عادة السلاطين العثمانيين فى إرسال الأسرى المسيحيين كهدايا ، تعبيرا عن النصر ،الى باقى الممالك الاسلامية . فذكر أن بايزيد أرسل ستينا من الأسرى للسلطان المملوكى الظاهر برقوق (١٣٩٠ - ١٣٩٩ م) بالقاهرة . و أنه كاد أن يرسل فى معية هؤلاء الأسرى ، لولا إصابته بجروح خطيرة فى معركة نيقوبوليس [٣٦]. ليدفع به القدر إلى حاشية السلطان العثمانى .

و لدينا مصدر تاريخى يتحدث عن وجود هؤلاء الأسرى فى مصر ، هو ما كتبه البندقى مانويل بيلوتى Emmanuel Piloti ، الذى أشار إلى إرسال العثمانيين لمائتين من أسرى نيقوبوليس للسلطان المملوكى . و أنه رأى بنفسه أولئك الأسرى من الفرنسيين و الايطاليين وغيرهم . و حسب كلماته " ... لقد رأيتهم جميعاً فى قصر السلطان بالقاهرة ، و تحدثت معهم و كانوا جميعاً من الشبان حسنى الخلقة ،الذين تم اختيارهم بعناية" [٣٧] .

على أن جين ريتشارد J. Richard يرى أنه من الضرورى أن نصدق رواية شيلتبرجر حول إرسال السلطان العثمانى لستين صبياً فقط إلى البلاط المملوكى فى القاهرة ، و أن الباقين الذين شاهدهم بيلوتى إنما كانوا من المماليك الآخرين للسلطان الظاهر برقوق [٣٨].

ويبدو هذا منطقيا فى ظل شهادة شيلتبرجر ، وبفضل معرفتنا بوجود العديد من الأسرى الأوربيين فى البلاط المملوكى.

بعد أن استقر شيلتبرجر فى حاشية السلطان بايزيد بدأ فى رصد التطورات السياسية و العسكرية للعثمانيين . فأشار إلى ما حدث فى العام التالى لأسره من صراع ما بين السلطان بايزيد و صهره علاء الدين القرمانى انتهى بمقتل الأخير بعد موقعة أق جاى Ak Schay عام ١٣٩٧م [٣٩].

و على الرغم من تعرضه لتفصيلات عديدة فان شيلتبرجر لم يتناول جوهر الصراع بين العثمانيين و القرمانيين الذى بدأ قبل ذلك منذ وقت بعيد . فقد ورث القرمانيون سلاجقة قونية فى الوقت الذى حاول فيه العثمانيون إقامة نظام حكم مركزى خاضع لهم فى الأناضول . و هو ما دفعهم إلى الإطاحة بكافة الأسر التركمانية الحاكمة [٤٠].

و هكذا فإن تقاطع الأحداث بين العثمانيين و القرمانيين كان قد ساهم فى نشأة الصراع بينهما منذ عهد السلطان العثمانى مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م) ، حيث استغل علاء الدين القرمانى إنشغال السلطان مراد بتقوية جبهته الأوربية وقام بالاستيلاء على بعض الأقاليم التابعة للعثمانيين فى الأناضول . فما كان من السلطان مراد سوى العودة وحصار علاء الدين القرمانى فى قونية ،قبل أن يلتقى الجيشان فى معركة Efrank – Yazisi عام ١٣٧٨م، حيث دان النصر للعثمانيين ، وهو ما دفع علاء الدين للتفاوض مع حميه مراد الأول، الذى وافق على الصلح[٤١].

وبعد مصرع السلطان مراد الأول فى موقعة كوسوفو الأولى ١٣٨٩م ،قام علاء الدين بمحاولة جديدة لتقويض pp.8-9 ، " Travels و القرمانيين ساهم فى نشأة الصراع بينهما منذ عهد السلطان العثمانى مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م)مالسلطة العثمانية المركزية فى الأناضول ، فاستغل انشغال السلطان بايزيد بن مراد بحصار مدينة القسطنطينية ليقوم بالإستيلاء على مدينة أنقرة Angora عام ١٣٩٧ م، و أسر أميرها تيمور طاش Timur Tas . و هو ما دفع بايزيد إلى الرحيل عن أسوار القسطنطينية والعودة مسرعاً إلى عاصمته بورصا من أجل حمايتها و الاستعداد لملاقاة القرمانيين .

خشى علاء الدين القرمانى من عواقب مواجهة العثمانيين . فأرسل سفارة لتهدئة السلطان بايزيد، و زيادة فى إبداء الود قام باطلاق سراح تيمور طاش . غير أن السلطان العثمانى كان قد اتخذ قراره بالحرب . وبالفعل نجح العثمانيون فى هزيمة القرمانيين فى السهل المواجه لمدينة قونية ، مما دفع علاء الدين إلى الهرب إليها .

و بعد حصار دام عدة أسابيع ، إستولى العثمانيون على المدينة و قاموا بأسر علاء الدين القرمانى ، ليأمر تيمور طاش أمير أنقرة بقتله بسرعة ، قبيل وصول السلطان بايزيد .

و يذكر شيلتبرجر رواية غير دقيقة عن مقتل علاء الدين القرمانى ، مفادها أن بايزيد غضب بشدة لمقتل صهره ، وأمر بقتل من قام بذلك . غير أن ذلك لا يتسق مع حديثه بعيد ذلك ، وكذا أمره ، بأن ترفع رأس علاء الدين القرمانى على رمح ليطاف بها فى باقى أنحاء البلاد[٤٢] .

و تابع شيلتبرجر خضوع مدينة قونيه للسلطان بايزيد ، و خروج أخته وولديها لمقابلته ،وقراره بارسالهم إلى العاصمة العثمانية بورصا.

و ما لم يشر إليه شيلتبرجر ، و ربما كان ذلك بسبب انتقاله إلى الأسر المغولي ، أن هذه المعركة لم تقض تماماً على القرمانيين ، بل إنهم نجحوا بعد ذلك في استغلال هزيمة بايزيد في موقعة أنقره ليعلنوا تحالفهم مع تيمورلنك من أجل استعادة ممتلكاتهم السابقة من قبضة العثمانيين، خاصة بعد قيام تيمورلنك بالإفراج عن ولدي علاء الدين القرماني وتثبيتهما على إمارة قرمان ، بعد أن طلب منهما إعلان التبعية السياسية له عبر إقامة الخطبة وضرب السكة باسمه [٤٣].

عرج شيلتبرجر بعد ذلك إلى الإشارة إلى العلاقات العثمانية المملوكية ، فجاءت رواياته متفقة مع العديد من المصادر المملوكية التي تحدثت عن اجتياح السلطان العثماني بايزيد لمدينة ملطية التابعة للمماليك ١٣٩٩م . فذكر إرسال السلطان بايزيد رسالة للسلطان برقوق يأمره فيها بتسليم ملطية بوصفها من ممتلكات العثمانيين . و إزاء رفض السلطان المملوكي لذلك ، توجه إليها مع مائتي ألف مقاتل ، لتسقط المدينة بعد حصار دام شهرين [٤٤].

ولد استيلاء بايزيد على ملطيه كراهية و توجساً لدى المماليك من أطماع العثمانيين ، لدرجة أن السلطان برقوق رفض عرض السلطان العثماني بايزيد بمساعدته بعد ذلك بعدة سنوات في مواجهته مع تيمورلنك [٤٥]، و أثر عنه قوله " ما أخشى من تيمورلنك ، فإن كل أحد يساعدني عليه.. و إنما أخشى من بني عثمان" [٤٦].

و هكذا حدث لدى السلطة المملوكية في مصر شعور عام بالإستياء مما فعله العثمانيون ، دعمه الرأي الذي ردده ابن خلدون إمام المالكية في القاهرة آنذاك ،حيث ورد على لسانه " لا تخشوا على ملك مصر إلا من أولاد ابن عثمان ، و أشدهم بايزيد الذي تسلطن " [٤٧].

و يخطئ شيلتبرجر حين يذكر أنه بعيد وفاة السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، خلفه ابنه يوسف ، لنجد أن السلطان فرج هو الذي خلف أبيه . قبل أن تستقيم روايته من جديد ليذكر أن السلطان الجديد طلب مساعدة العثمانيين العسكرية لمواجهة اضطرابات داخلية . فأرسل له السلطان بايزيد عشرين ألف رجل ،كان من بينهم شيلتبرجر نفسه ، نجحوا في تثبيت السلطان فرج على سدة العرش المملوكي [٤٨].

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإنه يجب ملاحظة أن بعض روايات شيلتبرجر تبدو غير مرتبة زمنياً من ذلك ذكره لنجاح السلطان العثماني بايزيد في الاستيلاء على سبسطية (سيواس) . بعد نجاح ابنه الأمير محمد في دخولها و طرد حاكمها برهان الدين [٤٩].

و الحقيقة أن السلطان بايزيد قد استولى على سبسطية عام ١٣٩٦م ، و ذلك بناء على طلب أهلها بعد مصرع صاحبها القاضى برهان الدين على يد قرايلك التركمانى ،الذى اتجه للتحالف مع تيمورلنك .كما أن ابنه الأمير سليمان هو الذى نجح فى دخول المدينة (٥٠).

و فى متابعة لأحوال مدينة سبسطية ، رصد شيلتبرجر أيضاً اجتياح القوات المغولية لها عام ١٤٠٠م ، وقتلهم الآلاف من سكانها ، وذلك عبر دفنهم أحياء تحت التراب (٥١). بعدما سبق أن منحهم تيمورلنك الأمان ، وتعهد لحاكم المدينة بعدم إراقة دماءهم .

و لم يفطن الفارس الألمانى إلى أن القتل دون إراقة الدماء هى عادة تركية و مغولية قديمة ، احتفظوا بها بعد دخولهم الإسلام . و تعود تلك العادة إلى أنهم كانوا يقدسون الأرواح، ويعتقدون أن روح الإنسان تسكن فى دمه . فكانوا يحرصون على عدم إراقة الدماء حتى لا تزهق الروح معها (٥٢).

كان من الطبيعى أن يعانى شيلتبرجر من جراء الأسر و العبودية لدى العثمانيين ، و هو ما جعله يفكر فى الهرب من هذا المصير . فأخبرنا أنه قد اعتزم الفرار ضمن ستين أسيراً مسيحياً ، هربوا إلى أحد الجبال ،قبل أن تستعيدهم قوة عثمانية ، ليأمر السلطان بايزيد بإعدامهم ، لولا شفاعة أحد القادة العثمانيين الذى وعدهم بحماية أرواحهم . وهكذا تم إلقاؤهم فى السجن لتسعة أشهر حتى مات بعضهم . و عندما حل أحد الأعياد الإسلامية تشفع فيهم الأمير سليمان بن بايزيد فتم إطلاق سراح الباقين ، بعد وعد منهم بعدم تكرار محاولة الفرار ثانية (٥٣).

على أن أهم الأحداث العسكرية التى عاصرها شيلتبرجر إبان فترة الأسر العثمانى ، والتى مثلت له فى نفس الوقت نقطة تحول فاصلة ، كانت حضوره لمعركة أنقره (٥٤) التى دارت بين السلطان بايزيد و العاهل المغولى تيمورلنك ، حيث نجح الأخير فى إلحاق هزيمة ساحقة بالسلطان العثمانى وأسره ، وبرفقته رجال حاشيته ، الذين كان من بينهم بطبيعة الحال الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر .

والحقيقة أن وجود الأخير فى معية بايزيد قد جعله ينتبه إلى مقدمات الحرب وأسبابها بين العاهلين المسلمين ، فأشار إلى غزو السلطان العثمانى لمدينة أرزنجان Erzencen بأرمينيا الصغرى ، و استنجاد أميرها تخرتين Teherten بتيمورلنك (٥٥)، وكذا رفض بايزيد إعادتها ، مما تسبب فى حتمية نشوب معركة أنقره.

غير أن شيلتبرجر لم يتطرق للجهود الدبلوماسية التى سبقت ذلك الصدام ، حيث أرسل تيمور لبايزيد يطالبه بتسليم قلعة كماخ ، وكذا تسليمه أعداء الفارين لديه، قرا يوسف التركمانى ، و السلطان أحمد بن أوس الجلائرى (٥٦). غير أن السلطان العثمانى رفض ذلك مما أدى إلى نشوب المعركة و هزيمته فى النهاية.

و نظراً لأن شيلتبرجر كان شاهد عيان على هذه المعركة ، فإننا نجد روايته عنها تتصف بالمصداقية الواضحة ، فقد أشار إلى انضمام القوات المغولية الموجودة فى الجيش العثمانى إلى قوات تيمورلنك . كما رصد فرار قوات الإمارات التركمانية : أيدين ، منتشا ، صاروخان ، جرميان ، من الميدان . كما أنه يعد المصدر التاريخى الوحيد الذى انفرد باشراك تيمورلنك لإثنين و ثلاثين فيلاً مدرباً على القتال فى معركة أنقره (٥٧). و يبدو أن الأخير قد تعرف على استخدام الأفيال فى المعارك نتيجة حروبه فى الهند.

كما تناول أيضاً ما حدث بعيد المعركة من أسر بايزيد ووفاته . و زحف قوات تيمور باتجاه العاصمة العثمانية بورصا للاستيلاء على ثروات و خزائن السلطان العثمانى (٥٨).

أما أبرز نتائج موقعة أنقرة ١٤٠٢م على الصعيد الشخصى بالنسبة للأسير يوهان شيلتبرجر فكان انتقاله من العمل فى خدمة و حاشية السلطان العثمانى المهزوم بايزيد ، إلى خدمة و حاشية السلطان المغولى المنتصر تيمورلنك (٥٩).

و يتصف شيلتبرجر بأمانته فى سرد الأحداث التى عاصرها . و هو ما يحدث فارقاً بين روايته للأحداث التى شهدها بنفسه ، وتلك التى سمع عنها . من ذلك ما نجده لدى حديثه عن العلاقة بين سيده الجديد تيمورلنك و دولة المماليك فى مصر و الشام . فعلى الرغم من عدم تطرقه لجذور العداء بينهما ، فإنه عرض لما سمع به من اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام و تدمير مدينة حلب ١٤٠٠م . كما أنه بالغ فى تقدير عدد جيش تيمور و أعداء المدافعين عن المدينة . فضلاً عن أنه لم يشر إلى المقاومة الشديدة التى أبداها دمرداش قائد قلعة حلب ، و كذا لم يذكر فظائع تيمور مع سكان المدينة التى لم تغفل عنها المصادر التاريخية العربية و الفارسية و العثمانية (٦٠) .

بعد ذلك أشار شيلتبرجر إلى استيلاء تيمورلنك على مدن حماه ، وحمص ، ودمشق ، والى الفظائع التى قام بارتكابها داخلها . و يلاحظ على رواية شيلتبرجر حول تلك الأحداث ، على الرغم من أنه سمع عنها ولم يشهدها بنفسه ، أنها تكاد تتطابق مع المصادر التاريخية المعاصرة(٦١) ،

باستثناء بعض التفاصيل المهمة مثل ذكره أن السلطان فرج بن برقوق طلب من تيمور عند حصاره دمشق ألا يعيث فساداً فى المسجد الأموى ، و أن الأخير قد وافق على ذلك.

كما تابع شيلتبرجر أيضاً تحركات تيمورلنك و قواته من الشام إلى بغداد ، و فرار أحمد بن أويس الجلائرى إلى السلطان بايزيد . و هو ما مكن القوات المغولية من اقتحامها و سلبها، وارتكاب الفظائع بأهلها (٦٢).

وتعرض شيلتبرجر لكيفية استيلاء أحد أتباع تيمورلنك على خراج مدينة سلطانية لخمس سنوات ، و تحالفه مع صديقه أمير مازندران . و أن القوات التى أرسلها تيمور لمطاردته قد عادت دون إنجاز مهمتها بسبب الغابات الكثيفة التى تحيط بالمنطقة التى هرب إليها التابعان (٦٣) .

غير أننا نجد صدى مغايراً لهذه الرواية لدى المؤرخ الفارسى خواندمير الذى تحدث عن اسكندر شيخ ، الذى شق عصا الطاعة على تيمورلنك ، فأرسل الأخير وراءه قوة عسكرية فى مطاردة طويلة ، بسبب اختبائه فى الغابات ، حتى نجح فى القبض عليه و قتله . بينما لم يشر المصدر الفارسى إلى مسألة الخراج (٦٤).

كما اتفقت رواية شيلتبرجر حول اجتياح تيمورلنك لمدينة أصفهان ١٣٩٣ م ، و المذابح الوحشية التى ارتكبها ضد السكان و الأطفال ، بعدما قتل الآلاف منهم مع المصادر التاريخية المعاصرة (٦٥) .غير أنه انفرد بذكر أن تيمورلنك أمر بقطع إبهام ١٢ ألف رام للسهام بالمدينة ، نتيجة غدر سكانها بالحامية المغولية (٦٦).

ويبدو أن ذلك الأمر لم يكن جديدا أيضا على طرق العقاب المغولية والتركية، إذ يمكن عقد مشابهة تاريخية بين ما فعله تيمورلنك فى أصفهان فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، و ما سبق أن فعله عماد الدين زنكى قبل ذلك فى القرن الثانى عشر ، حين أمر بحز إبهامات الجرخية فى حصن صور عقاباً لهم على قتل أحد جنوده ، بعد تحذيرهم من ذلك (٦٧) .

و من بين الأحداث التى لم يشهدها شيلتبرجر بنفسه ، بل سمع عنها عندما كان فى معية تيمورلنك ، هو تمكن الأخير من اجتياح الهند و الإستيلاء على العاصمة دهلى ١٣٩٨م . فذكر أن الجيش المغولى سار لفترة أربعة أشهر من سمرقند حتى بلاد الهند عبر الصحراء . وذكر كيفية عبوره أحد الممرات الجبلية الخطرة بأن أمر تيمور بربط الخيل و البعير عبر ألواح خشبية كى تتمكن من الانخفاض حتى تتمكن من اجتيازه . كما أشار إلى أن تيمور كاد يخسر المعركة

بسبب اشتراك أربعمائة فيل مدربة على الحرب . بحيث كان على كل فيل برج خشبي يحمل عشرة محاربين بأسلحتهم . و لما كانت خيول تيمور تخشى الأفيال فقد تراجعت فى ميدان المعركة .

و لم ينته هذا الأمر الا بعد الاستماع إلى مشورة سليمان شاه ، أحد مستشاريه ، بأن تشد الأخشاب على ظهور الإبل ، و أن يتم اشعال النيران بها .وجرى الأمر كما كان مخططا له ، فعندما أحست الإبل بلسع النيران ، إندفعت فى هجوم خاطف وعنيف على الأفيال التى اضطرت للهرب من أمامها (٦٨).

و من الواضح أن السلطان العثمانى بايزيد يلدرم لم يكن قد عرف بتفاصيل تلك المعركة التى جرت قبل مواجهته مع تيمورلنك بأربع سنوات . و هو ما أدى إلى جهل العثمانيين بكيفية التعامل مع الأفيال التى اشتركت إلى جانب الجيش المغولى فى معركة أنقرة ١٤٠٢م .

و على الرغم من عدم ذكر شيلتبرجر لاسم حاكم الهند ، ملو ، فى مذكراته ، فإن ما يحسب له أنه لم يغفل شروط الإتفاق بينه و بين تيمورلنك ، عبر حصول الأخير على مائتى كيلوجرام من ذهب الهند ، فضلاً عن كمية من الأحجار الكريمة ، مع وعد بتزويد العاهل المغولى بثلاثين ألف رجل لمساعدته فى حملاته الحربية (٦٩).

غير أنه من اللافت للنظر أن شيلتبرجر ، الملازم لحاشية تيمورلنك ، لم يتحدث سوى باقتضاب و عبر سطور قليلة ، عن رغبة العاهل المغولى و مشروعه فى زيادة رقعة ممتلكاته شرقاً باتجاه الصين Cathay بداية العام ١٤٠٥م . كما لم يجهد الأسير الألمانى نفسه فى توضيح خلفيات العلاقة بين تيمورلنك و بين إمبراطور أسرة مينج Ming بالصين Ching Tsu (١٤٠٣ - ١٤٢٥م) ، الذى سبق أن أرسل سفارة قبل ذلك بعامين إلى تيمورلنك تطلب منه سرعة تسديد الضريبة السنوية التى كان يقوم بدفعها للصين (٧٠). خاصة وأن انشغال الأخير بحملاته ضد الأتراك العثمانيين فى بلاد الأناضول و ضد المماليك فى بلاد الشام ، كان قد عطل إرسال تلك الضريبة لسبع سنوات .

و يمكننا أن نجد صدى تلك السفارة عبر ما سطره المبعوث الأسبانى كلافيخو Clavijo مبعوث الملك القشتالى هنرى الثالث) ١٣٩٠ ١٤٠٦ -م) إلى بلاط تيمورلنك ، الذى رصد فى مذكراته أن السفراء الصينيين كانوا يجلسون على مقاعد عالية عن تلك التى جلس عليها هو ورفاقه داخل البلاط المغولى . كما لفت نظره أنه ، نتيجة لحنق تيمورلنك على الإمبراطور الصينى و

رغبته فى شق عصا الطاعة، فضلا عن عدم دفع الضريبة المتوجبة عليه ، فإن العاهل المغولى عاد و أمر بأن يجلس كلافيخو و رفاقه على مقاعد أعلى من تلك التى جلس عليها أفراد السفارة الصينية [٧١].

و فى تعبير واضح عن نوايا تيمور تجاه الصين، فقد أسر للسفير الأسبانى بكراهيته للإمبراطور الصينى بسبب غطرسته ، لدرجة وصفه بأنه لص و شرير ، وأنه بمثابة عدو له .

كما لاحظ كلافيخو أيضاً أن المغول كانوا يستهزؤن بامبراطور الصين ، وأطلقوا عليه لفظ Tanguz . أى الخنزير باللغة التركية الجغطائية [٧٢].

و على أية حال ، أشار شيلتبرجر إلى أن سيده تيمورلنك قد شق عصا الطاعة على الإمبراطور الصينى ، فتشاور مع أمرائه على ضرورة الخروج بحملة عسكرية للرد على غطرسته ، وكذلك من أجل تحقيق مشروعه وضم الصين إلى امبراطوريته . غير أنه يشير فى مبالغة واضحة ، إلى أن العاهل المغولى قاد جيشاً مؤلفاً من مليون و ثمانمائة ألف رجل فى حملته لغزو الصين [٧٣].ساروا لمدة شهر كامل قبل أن يشرعوا فى اجتياز صحراء جليدية يقتضى اجتيازها سبعون يوماً . لم تستطع الجحافل المغولية السير عبرها سوى لعشرة أيام فقط ، بسبب الجليد و البرودة القارصة ، فضلاً عن مقتل العديد من الرجال ،وكذا نفوق الخيول و الماشية . وهو ما دفع تيمور إلى اتخاذ قراره بالتوقف عن المضى فى حملته .

ومن الواضح أن شيلتبرجر لم يكن موجوداً بنفسه فى حملة تيمورلنك على الصين ،و لهذا فإنه لم يقم بتغطيتها بشكل كاف . إذ يذكر المؤرخ الفارسى خواندمير أن تيمور خرج من سمرقند بجيش يبلغ ثمانمائة ألف رجل من المشاة و الفرسان ، وإبان عبورهم الصحراء الجليدية فاجأتهم الأمطار الغزيرة، فكان من الطبيعى أن يتوقف تيمور ، ليأمر بعض أمرائه بالتوجه إلى طشقند لاحضار الإمدادات و المؤن و الحبوب [٧٤].

و مرة أخرى فى الطريق من أق صولات Aqsulat إلى أوترار Otrar هبت العواصف الجليدية و الأمطار الغزيرة التى حولت الجبال و الوديان إلى ما يشبه البحار . و نتيجة لهذا البرد القارص، والجليد اللانهائى ، فقد العديدون من رجاله الكثير من أصابع أطرافهم [٧٥].

و عند ذلك الحد توقف تيمور ، غير أنه قام بمحاولة أخيرة لاستطلاع الطريق ، فأرسل الأمير موسى كمال مع آخرين من أجل بحث إمكانية مواصلة المسير ، غير أنهم عادوا ليخبروه باستحالة اجتياز الصحراء الجليدية . و عندها فقط قرر تيمورلنك العودة عن غزو الصين [٧٦].

و قد توافق ذلك مع ما ورد لدى ابن عربشاه ، فعلى الرغم من كراهيته لتيمورلنك ، فإنه وجد تبريراً واقعياً لفشل حملة تيمورلنك على الصين بفضل الطقس القارس إذ ذكر " ... و أصبحت مشارق الأرض و مغاربها من الثلوج المنقضة ...بحر صاغه الله من الفضة " (٧٧).

وكان من الطبيعي أن يتناول شيلتبرجر مسألة وفاة سيده تيمورلنك ، غير أنه لم يهتم بذكر تاريخ وفاته . كما أنه عزى موته لثلاثة أسباب هي هروب تابعه السابق بالخراج ،و خيانة صغرى زوجاته له ، ثم حنقه بعد قيامه بقتلها (٧٨).

ويمكننا أن نشير إلى أنه من الغريب بالنسبة لشخص أجنبي عاش لأكثر من عقدين فى المجتمع المغولى ألا يتعرض بشكل عام لقوانين المغول حول عفة النساء ، و الخيانة الزوجية ، و عقاب الزانية والزاني. و هو الأمر الذى أفاض فيه الرحالة الغربيون أمثال بيانو كاربيني Plano Carpini و ماركو بولو Marco Polo (٧٩).

و إذا كان خواندمير قد ذكر أن تيمورلنك قد تزوج إبان حياته بثماني عشرة زوجة (٨٠)، بينما أشار كلافيخو إلى وجود ثماني زوجات للعاهل المغولى (٨١)، فيبدو أن أسيرنا الألمانى الذى كان فى حاشية تيمورلنك قد لاحظ أن ذلك العدد قد تقلص إلى ثلاث زوجات فقط عندما وافت المنية سيده (٨٢).

كما أن شيلتبرجر لم يحدد مكان دفن تيمورلنك بدقة ، فلم يذكر سوى أنه دفن فى سمرقند بعد جنازة مهيبة . بينما يذكر خواندمير أنه تم نقل جثمان تيمورلنك من أوترار حيث مات إلى العاصمة سمرقند ليوارى التراب فى خانقاه أمير زاده محمد سلطان (٨٣).

و هكذا ، فعلى الرغم من إشارة وليم روبروك William of Rubruck قبل ذلك بقرن و نصف إلى أن مكان دفن الشخصيات الهامة لدى المغول كان يجب أن يظل مجهولاً (٨٤)، فيبدو أن هذا العرف قد تغير بعد ذلك ليصبح قبر تيمورلنك فى سمرقند مزاراً معروفاً حتى اليوم .

على أية حال ، لم يبد شيلتبرجر أى عاطفة تجاه موت سيده الثانى فى رحلة الأسر الطويلة ، غير أنه أشار إلى رواية يذكر أنها حدثت بعيد دفن جثمان تيمورلنك ، لم يجد لها الباحث صدى فى باقى المصادر التاريخية المعاصرة ، سوى فى مصدر أرمينى وحيد يتحدث عن تاريخ تيمورلنك و خلفائه ، تتعلق بسماع شيوخ الخانقاه التى دفن فيها جثمانه صوت عواء ، ليلى من مدفن تيمور

لمدة عام كامل . ويضيف شيلتبرجر أن أصدقاء تيمور قاموا بإخراج الصدقات حتى يتوقف هذا الصوت . غير أن ذلك كان بلا جدوى . فتمت الاستعانة بالفقهاء ، الذين طلبوا من أبناء تيمور ضرورة إطلاق سراح جميع الأسرى من الحرفيين ، الذين سبق أن قام تيمورلنك بإحضارهم قسراً للعمل في العاصمة سمرقند . و ما أن تم ذلك ، حتى توقف صوت العواء بالخانقاه [٨٥].

و يبدو أن شيلتبرجر، المسيحي الكاثوليكي ، الذي عاش شطراً من حياته فيما بعد في بلاد أرمينيا ، كان قد استمع إلى هذه الرواية لدي حديثه مع بعض أصدقائه من الأرمن [٨٦]. الأمر الذي جعلها تتردد لدي المؤرخ الأرمني T'ovma Metsobets في القرن الخامس عشر الميلادي ، الذي ذكر أن " تيمور القذر قد عاد إلى بلاده و مات بها كالكلب . و ظل بعد ذلك يعوي ، قبل نقل جثمانه ووضعه في النار ، ثم بعد ذلك جري تمريره عبر الماء ، و لم يتوقف ذلك العواء البغيض لفترة طويلة " [٨٧].

و عندما أنهي شيلتبرجر حديثه عن تاريخ تيمورلنك [٨٨] ، عاد مرة أخري إلى التشوش الذي لازمه عند الحديث عن سنوات الأسر لدي المغول ،فذكر أنه "روي كل ما شاهده و سمعه خلال الستة أعوام التي قضاها مع تيمورلنك". غير أننا نعرف أنه لم يمكث في كنف تيمور سوى أقل من ثلاث سنوات ،و هي الفترة الفاصلة ما بين شهر يوليو عام ١٤٠٢م حيث معركة أنقرة ،و شهر فبراير عام ١٤٠٥م حيث توفي العاهل المغولي .

خلف تيمورلنك بعد وفاته ولديه شاه رخ على مملكة خراسان و عاصمتها هراة، و ميران شاه الذي حكم مملكة تبريز Taurusوبلاد فارس . فالتحق شيلتبرجر أولا بخدمة الابن الأكبر شاه رخ[٨٩]، و هكذا فإنه لم يغفل الصراع العسكري الذي دار بين قرا يوسف التركماني حاكم كردستان و أرمينيا الصغرى و ميران شاه ، الذي استنجد بأخيه فأمده شاه رخ بقوات مكنته من طرده. و هو ما مكن شاه رخ من الإستيلاء على بلاد التركماني ،و منحها لأخيه ميران شاه قبل أن يعود إلى خراسان ، تاركاً خلفه عشرين ألف رجل لمساعدته ، كان من بينهم الأسير الألماني يوهان شيلتبرجر [٩٠].

و بعد عام واحد قام قرايوسف بهزيمة ميران شاه و أسره في سهل كراباخ بأرمينيا . و فسر لنا شيلتبرجر سبب قيام قرايوسف بقتل ميران شاه بعيد ذلك ،بدعوى أن الأخير قام بقتل أخي قرايوسف ، الذي سبق له أن قتل أحد إخوة ميران شاه الذي كان يدعى Zychanger (جهانجهير)

وهو نفس ما ورد لدى المؤرخ الفارسي شرف خان البدليسى الذى أشار إلى نجاح قرا يوسف فى النهاية فى قتل ميران شاه و الاستيلاء على أرضه [٩١].

بعد ذلك انتقل شيلتبرجر إلى خدمة أبى بكر بن ميران شاه لفترة أربع سنوات حسبما ذكر ، و لم تفته الاشارة إلى القوة الجسدية الواضحة لسيده الجديد متفقاً فى ذلك مع ما ورد لدى ابن عربشاه [٩٢].

و بينما كان لدى سيده الجديد ،أشار شيلتبرجر إلى وجود الأمير التترى جكرة أوغلان Tchekre ، برفقة أبى بكر بن ميران شاه قبل أن تصله سفارة من القبيلة الذهبية تطالبه بالعودة لتولى شئون الحكم بها [٩٣].

و ما لم يذكره أسيرنا الألمانى أن جكرة أوغلان كان من سلالة أوروس خان المعادية لأسرة طقتمش الحاكمة آنذاك [٩٤].و هو ما دعاه للجوء إلى بلاط الأمير أبى بكر . حدث هذا قبل أن يرسل اليه الأمير التترى إديجاى Edigi ، الذى كان يعد شخصاً ذا مرجعية هامة لدى القبيلة الذهبية ، سفارة تدعوه للعودة إلى العاصمة سراى من أجل تنصيبه خاناً جديداً هناك.

و على الرغم من إشارة شيلتبرجر إلى التقليد السياسى التترى الذى يقضى بضرورة وجود مرجعية عليا من سلطتها تعيين الخان وخلعه ، كما تحتفظ أيضاً بسطوة و سلطة كبير على أتباعها [٩٥]. فإنه قد أغفل الدور الكبير الذى لعبه الأمير إديجاى عبر التاريخ السياسى و العسكرى للقبيلة الذهبية لعدة عقود .فقد انحدر من قبيلة قونكرات ، و كان حليفاً للخان طقتمش . قبل أن يتخلى عنه ليتحول إلى معسكر تيمورلنك إبان المواجهة بينهما فى موقعة كوندروشا عام ١٣٩١م [٩٦].

و بعد مقتل طقتمش ، نجح الأمير إديجاى فى الإستبداد بشئون القبيلة الذهبية بشكل تام ، فأعاد لها هيبتها السياسية و العسكرية ، قبل أن يقوم بتعيين تيمور قتلغ خاناً (١٣٩٥ – ١٤٠٠م) . الأمر الذى جعله صاحب التأثير الكبير على مقدرات الأمور . و هو ما دفعه بعد ذلك إلى قيادة جيش من تتار القبيلة الذهبية و إيقاع مذبحة كبرى بالقوات الليتوانية على نهر Varskla عام ١٣٩٩م [٩٧].

وبعد وفاة تيمور قتلغ ،قام إديجاى بتعيين شادى ، أخى تيمور و زوج إبنته ، خاناً على القبيلة الذهبية (١٤٠٠ –١٤٠٧ م) . و كان من الطبيعى أن يقع الخان الجديد تحت تأثير

الشخصية الطاغية لإديجاى ، والذى ما أن اختلف معه حتى أمر بقتله [٩٨]. ليقوم بعد ذلك بتعيين بولاد خاناً جديداً (١٤٠٧ - ١٤١٠ م) [٩٩].

وإبان ذلك ، أظهر إديجاى عداءه نحو مدينة موسكو التى قام بحصارها بنفسه عام ١٤٠٨ م بسبب امتناع أميرها فاسيلى Vasili عن دفع الجزية، فضلاً عن عدم اشتراكه معه فى حربه ضد الليتوانيين من قبل ، و كذلك بسبب منحه الحماية لأبناء طقتمش .

و على الرغم من عدم نجاح الأمير التترى فى اقتحام موسكو ، فانه لم يوافق على رفع الحصار عن المدينة الا بعد حصوله على جزية تقدر بثلاثة آلاف روبل ، بالإضافة إلى استيلاء المغول على العديد من المدن الروسية مثل Ryazan ، Novgord ، Rostov ، فضلاً عن قتلهم و أسرهم للعديد من الروس المسيحيين ، حتى أنهم وصلوا إلى تخوم مدينة Tver التى تقاعس أميرها عن نصرة التتار لدى حصارهم لمدينة موسكو [١٠٠].

بعد ذلك قام إديجاى برفع حصاره عن المدينة ، وعاد إلى العاصمة سراى فى استجابة لنداء الخان الجديد بولاد (١٤٠٧- ١٤١٠م) .

و هكذا استمر الأمير إديجاى فى فرض هيمنته السياسية على الأمور فى القبيلة الذهبية حتى عهد كبك خان (١٤١٤ -١٤١٧ م) ، حيث أعاد مهاجمة موسكو ثانية و قام بإحراقها بالإضافة إلى مدينة Smolensk عام ١٤١٥م [١٠١].

و حدث أن دب الخلاف بين كبك خان و إديجاى ، فقام الأخير بإرسال سفارة إلى الأمير جكرة أوغلان الموجود لدى أبى بكر بن ميران شاه تستدعيه لتولى الأمور فى القبيلة الذهبية .

و هكذا أشار شيلتبرجر إلى موافقة سيده أبى بكر على عودة الأمير التترى إلى بلاده . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قام بارسال ٦٠٠ فارس معه ، كان من بينهم خمسة من المسيحيين ، على رأسهم شيلتبرجر نفسه [١٠٢].

لم ينس شيلتبرجر أن يصف بسرعة البلاد العديدة التى مر بها حتى أراضى التتار برفقة جكرة أوغلان ، مثل بلاد الكرج ،وشروان ثم دربند (البوابة الحديدية) ، فاستراخان حتى العاصمة سراى [١٠٣].

و تم اللقاء فى النهاية بين الأخير و الأمير إديجاى ، الذى كان برحلة صيد فى أراضى

سيبيريا . و بعيد عودتهما معاً إلى بلاد القفجاق ، قاما بإعلان الحرب على كبك خان و قتله ، و هكذا نجحا فى القبض على مقدرات الأمور فى العاصمة سراى.

حدث هذا قبل أن يدب الخلاف فيما بعد بين الأمير إديجاى و الخان الجديد جكرة أوغلان بعد ذلك بتسعة أشهر ، ليقوم إديجاى بعزله و تعيين السيد أحمد أوغلان [١٠٤] بدلا منه.

و بعد مرور فترة من الإضطرابات السياسية لدى مغول القبيلة الذهبية ،قام الأمير إديجاى، بما له من مرجعية عليا ، بمحاولة أخيرة للسيطرة على مقاليد الأمور . غير أن ذلك كان بلا جدوى[١٠٥]، فقد نشب صراع طويل بين أبناء أسرة الخان الأسبق طقتمش ،والأمير إديجاى ، بعدما خرج الإبن للأخذ بثأر أبيه ، و حقق انتصاراً على إديجاى ، الذى فضل الفرار ، قبل أن ينجح كوجك محمد ابن أخى طقتمش فى قتله [١٠٦] فى العام ١٤١٩م .

و يحسب ليوهان شيلتبرجر أنه مع اهتمامه بذكر التقلبات السياسية التى مرت على القبيلة الذهبية ، فإنه قد اهتم أيضاً بتدوين مشاهداته فى منطقة سيبيريا التى مكث بها وقتاً طويلاً برفقة إديجاى و الأمير التترى جكره أوغلان . فقد خلف لنا وصفاً رائعاً لتلك البلاد ، التى اعتقد أهلها أن الصحراء الواقعة خلف الجبل الماثل أمامهم ، إنما تمثل نهاية المعمورة بالنسبة لهم . فضلاً عن أنها منطقة موحشة لايمكن العيش بها بسبب الحيوانات المفترسة التى تجوس فيها .

و فى ملاحظة أنثروبولوجية هامة يذكر شيلتبرجر وجود قوم متوحشين لا يشبهون بقية البشر ، إذ يغطى الشعر أجسادهم بالكامل عدا الوجه و الكفين ، و يدورون حول بعضهم البعض مثل الحيوانات المتوحشة ، يعيشون على ذلك الجبل ، فضلاً عن أنهم يقومون بأكل أوراق الأشجار و الأعشاب و كل ما يقع تحت أيديهم . و أشار إلى أن حاكم تلك المنطقة كان قد أرسل إلى الأمير إديجاى برجل و امرأة من هؤلاء السكان المتوحشين [١٠٧].

ويبدو أن حديث شيلتبرجر هنا كان حقيقيا فيما يتعلق بهذا البعد الأنثروبولوجى للمنطقة ، فقد شاهد الباحث السوفيتى بادزار باراديين Badzar Baradiin أحد هؤلاء الرجال بالفعل فى العام ١٩٠٦م ، الأمر الذى ساهم فى قيام العديد من الدراسات الأنثروبولوجية فى هذا الميدان حول هذا الجنس البشرى الذى عرف علميا باسم Mongolian Almas [١٠٨].

و بعيداً عن إشارته عن تطابق أحجام الخيول و الحمير ، و إلى الحيوانات التى لم يرها من قبل فى بلاده ألمانيا ، فإن أهم ما ذكره شيلتبرجر عن سيبيريا كان وجود العربات و الزلاجات

التى تستخدم لحمل الأشخاص و المتاع . و لم يفته ضخامة حجم الكلاب التى تماثل حجم الحمير[١٠٩].

و يكاد يتطابق وصفه لتلك العربات و الزلاجات مع وصف ماركوبولو ، الذى وصف تلك العربات و الزلاجات فى سيبيريا بشكل أكثر تفصيلاً بوصفها خالية من العجلات ، و مسطحة القاع ، كما يستخدم السكان الكلاب التى تبلغ حجم الحمير أيضاً فى جرها ، بحيث تقوم ستة أزواج من الكلاب بجر العربة التنى يقوم صاحبها بقيادتها ، و برفقته أحد التجار مع سلعه و بضائعه[١١٠].

كما يتطابق ذلك أيضاً مع رواية ابن بطوطة الذى تحدث عن أراضى جليدية فى سيبيريا ، فذكر أن العربة يجرها أربعة من الكلاب التى تحظى بأهمية كبرى فى تلك البلاد لأنها الوحيدة التى تستطيع السير فوق الجليد " فلا تثبت قدم الآدمى ، و لا حافر الدابة فيها ، و الكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد "[١١١].

وفى لمحة أنثروبولوجية أخرى سابقة على ذلك أشار شيلتبرجر إلى أنه حينما كان فى حاشية شاه رخ فى مدينة هراة ، سمع عن وجود شيخ طاعن فى السن يبلغ من العمر ٣٥٠ عاما "... تدلى حاجباه على وجنتيه، ووصلت لحيته حتى الركبة ، بينما تدلى شعر أذنيه على فكه، ويبلغ طول أظافره بوصة واحدة". وأشار إلى احترام وإجلال السكان المسلمين له[١١٢].

ومن المثير أن نرى أن تلك الملاحظة تكاد تتفق مع ماورد فى المصادر الإسلامية القريبة والمعاصرة لفترة أسر شيلتبرجر ١٣٩٦-١٤٢٧م. فقد أشار الرحالة ابن بطوطة فى القرن السابق له ، إلى أنه بعد مغادرته مدينتى نيسابور وبسطام باتجاه جبال الهندكوش ، وصل إلى زاوية الشيخ أطا أولياء (أبو الأولياء) بجبل بشاي ، ليجد شيخا يبلغ من العمر ٣٥٠عاما، يتبرك به حكام المنطقة من السلاطين والخواتين. غير أنه ، وبعكس شيلتبرجر الذى سمع عن الرجل ولم يقابله ، لاحظ أن سنه تبدو أصغر مما قيل له[١١٣].

وقد أشار ابن عربشاه أيضا إلى ذلك الدرويش ، وذكر أنه دعى بالشيخ العريان ، غير أنه ذكر أنه كان يعيش فى مدينة سمرقند . واتفق مع ابن بطوطة أيضا فى أنه على الرغم مما قيل عن عمره الذى بلغ ٣٥٠ عاما ، فإنه تمتع بصحة جيدة ، ولم يبد أنه قد طعن بالسن[١١٤] .

على أية حال ، فبعد عودة شيلتبرجر برفقة جكرة أوغلان و الأمير إديجاى من بلاد سيبيريا

إلى سراى عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، مكث بها حوالى عشرة أعوام حتى تمكن من الفرار بعد ذلك إلى مدينة القسطنطينية عبر البحر الأسود . و من ثم نجح فى العودة إلى بلاده ألمانيا فى العام ١٤٢٧م.

و كان من الطبيعى أيضا للأسير الألمانى أن يتناول بعض العادات الاجتماعية لدى المغول الذين عاش بينهم ، فعلى سبيل المثال ذكر شيلتبرجر أنهم لم يكونوا يزرعون سوى الذرة ، و يأكلون لحوم الخيل ، بينما لا يأكلون الخبز و لا يشربون الخمر ، و لديهم مشروبهم المعروف المستخرج من ألبان أنثى الخيول [١١٥].و هو ما يتطابق مع مشاهدات الرحالة المسيحيين و المسلمين الذين زاروا بلاد المغول من قبل [١١٦].

كما ذكر أنه رأى المغول إبان إقامته لديهم يدمون الخيول و يشربون دما ءها [١١٧]. كما أنهم يقومون بوضع قطع اللحم بعد تقطيعها إلى شرائح و تمليحها تحت أسرجة الخيول خلال سفرهم الطويل ، فإذا شعروا بالجوع ، توقفوا من أجل تناول طعامهم هذا ، بعد تمام نضجه بسبب سخونة الخيول أثناء حركتها .كما أشاد بشجاعة المغول و بسالتهم فى الحروب ، و شدة اهتمامهم بها ، و حسب كلماته " ... لا يوجد من هو مولع بالحرب مثل أهالى مملكة التتر ، فالقتال و السفر عندهم سواء" [١١٨].

وهكذا حدثنا شيلتبرجر عن ولع السكان التتار ، رجالا ونساء بالحرب ، فلم تفته الإشارة كذلك إلى شجاعة وبأس النساء التتريات حينما كان برفقة جكرة خان والأمير إديجاى عندما قدمت إليهما سيدة تترية تقود أربعمائة فتاة وسيدة ، على صهوات الجياد ومسلحات كالرجال، لتطلب الثأر ممن قتل زوجها . ويذكر شيلتبرجر أنها نجحت فى النهاية من القصاص منه بعد أن تم أسره وتقديمه لها ، فأمرته أن يجثو على ركبتيه ،قبل أن تستل سيفها لتطيح برأسه فى ضربة واحدة [١١٩].

وإذا كان ثمة مبالغة فيما سبق فإنها قد تتعلق فقط بأعداد الفتيات والنساء المرافقات لها ، على الرغم من تأكيده لروايته " ..لقد كنت حاضرا هناك ، وشاهدت هذا بنفسى أيضا " [١٢٠] ، وذلك لأننا نعرف من المصادر التاريخية المعاصرة لتاريخ المغول إجادة النساء المغوليات لفنون القتال والحرب . فقد ظهرت المغوليات كمحاربات مثل الرجال تماما فى ثنايا التاريخ العسكرى للمغول ، واتصفن بالشجاعة والإقدام . كما اعتلين صهوات الجياد ببراعة ، فضلا عن مهارتهن

في استخدام السهام والأقواس [١٢١] . وكن يتميزن عن المقاتلين الرجال بغطاء للرأس ، وحزام حول الخصر، فضلا عن شد أثدائهن بحزام آخر [١٢٢].

ويبدو أن اشتراك النساء المغوليات في القتال كان موجودا منذ عهد جنكيز خان ،الذى كانت إحدى بناته زوجة للقائد المغولي تغاجار كوركان الذى قتل بينما كان على حصاره لمدينة نيسابور، فاندفعت الزوجة إلى داخل المدينة بعد اقتحامها لتأمر بقتل جميع سكانها في الحال [١٢٣].

كما أن قوتولون جغان، ابنة قايدو حفيد أوكتاى ، أظهرت شجاعة في القتال بعدما حاربت عدة مرات في صفوف القوات القوات المغولية غير النظامية في القرن الثالث عشر الميلادى[١٢٤].

واستمرت مشاركة النساء المغوليات بعد ذلك في الحروب ، فيحدثنا البدليسي عن إحدى النساء المغوليات التي قتلت عشرة من الرجال بمفردها من أكراد اللر في إحدى المعارك بينهما[١٢٥].

ومن الواضح أن التقليد المغولي الذى قضي باشتراك النساء في القتال لم يستمر فقط حتى زمان شيلتبرجر ، حسبما تأكد من ابن عربشاه الذى أشار إلى شجاعة نساء التتار في المعارك التي خاضتها جيوش تيمورلنك ، بل ظلت النساء المغوليات لفترة طويلة بعد ذلك على عادتها في المشاركة في القتال إلى جوار الرجال ، وهناك العديد من الأدلة على اشتراك السيدات من مغول الهند في الحملات العسكرية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين[١٢٦].

على أية حال ، بعد أن مكث شيلتبرجر في سراى Saray عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، حوالي عشرة أعوام (١٤١٧ - ١٤٢٧م) ، تمكن من الفرار بعد ذلك عبر البحر الأسود إلى مدينة القسطنطينية. و من ثم نجح في العودة إلى بلاده ألمانيا ، ليملى كتابه الحافل بالأحداث التاريخية الهامة حول مجتمعات العثمانيين والمغول و المماليك والبيزنطيين والأرمن .

غاية الأمر أن الأسير الألماني طوف بنا خلال رحلة أسره التي امتدت لواحد وثلاثين عاما (١٣٩٦- ١٤٢٧م) في كنف العثمانيين والمغول ، فرصد الكثير من مظاهر الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والأنثروبولوجية لديهم . وعلى الرغم من اختلاط بعض الأمور عليه ، فإنه يعد مصدرا في غاية الأهمية للعالمين العثماني والمغولي في نهاية القرن الرابع عشر وخلال الربع الأول من القرن الخامس عشر الميلاديين .

الهوامش

1- The bondage and Travels of Johan Schiltberger, A Native of Bavaria, in Europe, Asia, And Africa 1396-1427, Trans. by , Telfer, B , with notes by , Bruun , New York , 1879.

٢- عن موقعة نيقوبوليس ، انظر :-

Froissart ,chronicle of Froissart, Trans. By , John Bouchier, Lord Berners , edited by , Macaulay , G.C , London , 1930 , pp.422-447; Doukas, M, Decline and Fall of Byzantium to The Ottoman Turks,Trans. by, Magoulias, H,J,.Detroit, 1975,pp.83-85, Chalcocondylas,L, Historiarum Demonstrations,ed,B.G.Niebuhrii , book II ,in, C.S.H.B, Bonne,1841,PP.75-77.

وانظر أيضا موقعة نيقوبوليس فى الكتاب الثانى من الترجمة الإنجليزية للكتب الثلاثة الأولى لنفس المؤلف :

Chalcocondylas,L, A Translation and commentary of the Demonstrations of Histories (Books I-III), ed. by ,Nicoloudis , N , Athen , 1996 , pp. 199 - 201 ;

وانظر أيضا

Veszpremy,L, «Some Remarks on Recent Historiography of The Crusade of Nicopolis 1396»,in , The Crusades and The Military orders Expanding The Frontiers of Medieval Latin Christianity , ed. by, Zsolt Hunyadi and Jozsef Laszlovszky , Budapest, 2001 ,pp.223-230

و انظر أيضا هذه الدراسة الهامة على الرغم من كلاسيكيتها:

Atiya,A.S, The Crusade of Nicopolis , London , 1934.

و عن الصراع بين العثمانيين و القوى المسيحية الأوربية حتى سقوط القسطنطينية ،انظر :

Charanis,p,«The Strife among The Palaelogui and The Ottoman Turks 1370-1402 »,in ,Byzantion,xvi,1942- 1943.

Inalcik ,H,«The Ottoman Turks and The Crusades , 1329-1451»,in, A History of The Crusades , ed. By, Setton , K,,M,,vol,,vi, Wisconsin, 1989, pp. 222-275.

٣- عن موقعة أنقرة بين تيمورلنك و السلطان العثمانى بايزيد الصاعقة . انظر المصادر العثمانية والفارسية والعربية التالية :-

Asikpasaoglu, Aşikpasa Tarihi , Hazirlayan,H.Nihal Atsiz , Ankara. 1985,p .78 ;Khwandamir ,Habibus-siyar,Tome Three . TheReign of The Mongol and The Turk , .part one : Genghis khan -Amir Temur .Trans..and ed. By , W.M, Thackston ,Harvard university , 1994,pp. 282-285.

شرف الدين يزدى , ظفر نامه ، تاريخ عمومى مفصل إيران درورة تيموريان بتصحيح واتمام محمدعباسى، أزروى نسخى كه ، در عصر مصنف نوشته شده ، جلد دوم ، تهران ، ١٣٣٦ ه ، ص٣٠٧ -٣٢٣ ، تزوكات تيمور، مقالت أول فى تدبيرات وكنكاشها ، ص ١٥٣ - ٤٠٣ ، ؛ ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى)، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ص ١٩٨٩ ، ص ٣٢٠-٣٢٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١٢ ،القاهرة، د.ت ،ص٢٦٧-٢٦٨

وانظر أيضا المصادر البيزنطية التالية :

Chalcocondylas .L, op.cit,pp.156 -158 ; Doukas , op.cit,pp.91-95: Sphrantzes,G, The Fall of

Byzantine Empire . The Chronicle by George Sphrantzes , Trans.by,M. Philippides,Amherest, 1980,p.21.

وراجع كذلك هذه الدراسة الهامة :

Alexandrescu - Dersca ,La Campagne de Timur En Anatolia , 1402, London , 1972.

4- Schiltberger,J,op.cit,p.1.

٥- هذه المنطقة عبارة عن غور أو مضيق بطول ٢ ميل بطول نهر الدانوب فى مكان يقطع جبال الألب الترنسفالية على الحدود ما بين رومانيا و يوغوسلافيا السابقة . انظر:

Webester New Geographical Dictionary , New York , 1996 , p.145

6- Schiltberger, op.cit,p.2.

7- Loc.cit.

8- Chronicle of Froissart , .p.443.

9- Schiltberger ,op. cit,pp.2-3 .

شرع عزيز سوريال عطيه فى مناقشة جادة لأعداد الجيش العثمانى و الجيش المسيحى . و ذلك عبر استعراض كافة المصادر الأوربية و العثمانية المتاحة , و خلص إلى أن الجيش العثمانى ربما كان قد بلغ عدده ١١٠ ألف رجل و بخلاف جيش القوى المسيحية الذي قدر عدده ب ١٠٠ ألف رجل ,ليذكر أن القوى كانت متكافئة فى ميدان المعركة . رافضاً المبالغة فى تقدير القوات العثمانية بوصفها حققت نصراً ساحقاً , و التقليل من أعداد الجيش المسيحى بوصفه منى بهزيمة ثقيلة . عن ذلك انظر :

The Crusade of Nicopolis , pp.66-69.

10- Chronicle of Froissart , ,p.443.

11- Schiltberger ,op.cit,p.3.

12- Loc.Cit

و يذكر عزيز سوريال عطيه أنه لسابق خبرة المجريين بقتال العثمانيين و معرفتهم بأساليبهم القتالية عن الجنود الأوربيين القادمين من الغرب ,فقد رأى الملك سيجموند أن يبدأوا بالقتال . بالإضافة إلى أنه ، و خوفاً من الخيانة من جانب كلاً من ميرشيا Mercea و لازكوفيتش Laczkovic حكام والاشيا و ترانسالفانيا ، فقد وضعهم فى موقع يجعل انسحابهم من المعركة صعباً .كما أن الملك المجرى كان يدرك أن العثمانيين يدخرون زهرة جيشهم للمعركة الفاصلة ،فأراد أن يدخر أفضل قواته لذلك . عن ذلك انظر :

The Crusade of Nicopolos, p.85.

13- Froissare ,op.cit,p.445

و يرى عزيز سوريال أيضا ،أن دوق بورجنى de coucy و كبار قادته قد تفهموا وجهة نظر الملك المجرى ، غير أن صغار القادة الفرنسيين رفضوا خطة سيجموند ، و ارتأوا ضرورة المبادرة بالهجوم . انظر:

The Crusade of Nicopolis , p.85.

14- Schiltberger, op.cit,pp.3-4 ; Froissart ,op.cit,p.445

الذى ذكر أن الملك فر من ميدان المعركة تاركاً خلفه كافة متعلقاته و خاصة المجوهرات و المعادن النفيسة، و بدا سعيداً أنه نجا بحياته . انظر أيضا : Atiya.op.cit.p.94

15- Schiltberger,op.cit,p.4 ; Doukas ,op.cit,pp.84-85 ; Froissart ,op.cit,pp.445-446

الذى ذكر أيضاً أن عدد الجنود المسيحيين الذين قتلوا فى المطاردات التى تلت المعركة كان أكبر من الذين قتلوا فى المعركة نفسها . و انظر أيضاً : Atiya,op.cit,p.94

16- Schiltberger ,.op. cit.pp.3-4.

17- Loc.cit

18- Loc.cit

19- Chronicle of Froissart « , op.cit,pp.446-447 ; «Decline and Fall of Byzantium « pp.84-85 .

20- Froissart ,op.cit,p.445.

21- Froissart, op . cit,p. 447 ; Atiya , op .cit,p.96

عندما أدرك جاك دى كريك الهزيمة التى حاقت بالجيش المسيحى قام بتسليم نفسه للعثمانيين ، الذين استفادوا من خبراته كما سبق القول .قبل أن يقوموا بإطلاق سراحه فيما بعد مقابل فدية ذهبية و فضية . انظر :Froissart . op. cit, p.445

كذلك أطلق السلطان بايزيد سراح الفارس الفرنسى جاك دوفاى Jacques du Fay ،الذى كان يعمل من قبل فى خدمة تيمورلنك ، و بمجرد أن علم بدخول الفرنسيين الحرب ضد الأتراك ، ترك خدمته و توجه لمساعدة زملائه ، غير أنه سقط فى الأسر بعيد المعركة بواسطة الجنود التتار الذين كان تيمورلنك قد أرسلهم لمساعدة السلطان العثمانى فى حربه ضد القوى المسيحية .انظر :

Froissart,op.cit,p.445; Richard , J, « Les prisonniers de Nicopolis « .in , Annales de Bourgogne , t. 68 ,1996, p.76 .

22- Atiya , op. cit ,pp. 100 -101 .

23- Richard , J, op.cit ,pp. 76-77.

و عن السفارة التى أرسلها السلطان بايزيد إلى أوربا التى كان أبرز نتائجها تحرير الأسرى المسيحيين بعد دفع فديات عالية لهم انظر : Atiya , op. cit, pp. 101 -112

24- Froissart , op. cit,p.447

يعد المارشال بوسيكيو أهم القادة العسكريين الأوربيين الذين نجحوا بعد التحرير من الأسر فى الوقوف فى وجه الطموحات العسكرية العثمانية خاصة عند حصار السلطان بايزيد لمدينة القسطنطينية ١٣٩٦ - ١٤٠٢م . ولد فى مدينة تور بفرنسا عام ١٣٦٤م ، تم تعيينه حاكما على جزيرة جنوه عام ١٤٠١م بعد منحها لملك فرنسا لويس السادس عام ١٣٩٦م .

عن الدور التاريخى للمارشال بوسيكيو ضد العثمانيين و المسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .
انظر :

; Godefroy . T, (ed.) , Histoire de messier Jean de Boucicaut , mareschal de France , gouverneur de Genne , collections.vols. vi , vii, Paris , 182;.

Delaville le Roulx (Joseph) , La France en Orient au XIV siécle: expeditions du marchal Boucicaut , 2vols , paris , 1886. ; Dopp , p. H, (ed.) L›Egypte Au Commencement du Quinzieme siécle , d›Apres Le Traite d›Emmanuel piloti de Créte (Incipit 1420) , Le Caire , 1950 ,pp.84-95.

25- Froissart , op. cit , p. 447 ; Atiya , op. cit, p. 97.

٢٦- عن حصار السلطان بايزيد للقسطنطينية بعد موقعة نيقوبوليس .انظر :

Doukas , op. cit,pp.83-86 ; Aşik pasa oglu , op.cit,, pp. 68 -70 ; Barker , J , Manuel II Palaelougus (1391- 1425), A study in Late Byzantine Statesmanship , New Jersey , 1969, pp.127-128,138-144 ; Gauter . « Un Recit Indet Du Siége De Constantinople Par Les Turcs , 1394-1402 » , in , Revue d, etudes Byzantion, Tom . XIII, 1965,pp.100-110 .

27- Schiltberger , op. cit, p.5 .

28- Ibid, p. 5 ; Atiya ,op. cit, p.97 .

29- Atiya , op .cit ,p. 86 , Hously,N, The Later Crusades from Leon to Alcazar, 1274-1580,Oxford,1992,pp.76 ; Richard ,op.cit,p. 76.

30-Atiya , op .cit ,p. 86 ; Richard ,op.cit,p. 76.

انتصرت قوات هنرى الخامس على قوات الملك الفرنسى شارل السادس على الرغم من التفوق العددى للقوات الفرنسية فى أزينكور فى أكتوبر عام ١٤١٥م . وذلك بفضل استخدامها لسلاح المدفعية . ليتم الإعتراف بعد ذلك بمقتضى معاهدة تروى ١٤٢٠م بهنرى الخامس وريثا للتاج الفرنسى ، بل والزواج أيضا من كاترين ابنة شارل السادس . عن أزينكور وتداعياتها أنظر :

Treveliane,G,M, History of England ,London,1942,p,230; Painter,S, A History of the Middle Ages from 284 to 1500,London,1953,pp.354-358; Previte-Orton,C.W, The shorter Cambridge Medieval History, vol.2, the Twelfth Century to the Renaissance , Cambridge,1979,p.978.

31- Schiltberger ,op. cit,p. 4,7

الذى ينوه إلى أنه أجبر على الهرولة على أقدامه لست سنوات مع رفاقه الآخرين أمام السلطان العثمانى أينما ذهب « .. فقد جرت العادة أن يتخذ السادة (السلاطين) أتباعاً يهرولون أمامهم » .

و انظر أيضاً :- Atiya , op . cit,ppp.96-97

الذى يشير إلى أن الدافع الرئيسى لدى العثمانيين للابقاء على حياة الأسرى من سكان صغار السن هو أنهم مازالوا فى مقتبل العمر و أمامهم سنوات طويلة من العبودية . و هو هنا ينزع صفة الإنسانية عن العثمانيين . على الرغم من أنه تم اعفاء الأسرى الشبان دون العشرين من القتل طوال فترة الحروب الصليبية . عن ذلك انظر : Richard , op. cit,p.77 .

32- « The Bondage and Travels » .p.7

حيث يذكر « ...و هكذا مكثت مع العثمانيين اثنى عشرة عاماً » .

33- Loc.cit,p.21.

« هكذا أصبحت أسيراً لتيمورلنك الذى اصطحبنى إلى بلاده » . وعلى الرغم من حديثه المفصل عن موقعة أنقره و هزيمة سيده بايزيد ووفاته فى الأسر , فإنه نسى أن يحدد عام ١٤٠٢م موعداً لهذه الموقعة و هو ما يشى بوقوعه فى خطأ يتعلق بسنوات الأسر لدى العثمانيين منذ موقعة نيقوبوليس ١٣٩٦م و حتى موقعة أنقرة ١٤٠٢م.

34- Loc . cit, p.6 حيث ذكر أنهم مكثوا فى أدرنه خمس عشرة يوماً قبل أن يتم نقلهم بحراً إلى غاليبولى ، حيث تم سجن ثلاثمائة أسير منهم فى أحد الأبراج لمدة شهرين .

35- Atiya , op. cit, p.97 ; Richard ,op. cit, pp.77.

كما أن الأخير يتحدث عن تحرير تيمورلنك لبعض الأسرى الأوربيين فى مدينة بورصا , بعد سقوطها على أثر موقعة أنقره و هزيمة بايزيد ١٤٠٢م ، فى اشارة صداقة إلى الملك الفرنسى شارل السادس .

36- Schiltberger , op .cit,p.7

الذى ذكر إصابته بثلاث جروح شديدة خلال موقعة نيقوبوليس . فخشى السلطان بايزيد عليه من أن يلقى حتفه فى الطريق إلى مصر.

37- Dopp,, op.cit , pp.109-110

و انظر أيضاً :

Traite d›Emmanuel Piloti sur Le passage en Terre Saint (1420) , paris, 1958 , p.229 .

ولد مانويل بيلوتي عام ١٣٧١م في جزيرة كريت الواقعة تحت السيطرة البندقية ، ومارس التجارة لمدة طويلة في القاهرة والاسكندرية، وكذلك مع الشام . أصبح مقربا من السلطان المملوكي الناصر فرج الذي دفعه للتفاوض مع دوق ناكسوس من أجل دفع الفدية المطلوبة من أجل إطلاق سراح الأخير للأسرى المسلمين لديه . أطلق عليه زملاؤه اسم « مانولي». انظر : Dopp, op.cit.pp.xi-xii

:آن دولف , كم تبعد القاهرة ؟ ترجمة وتقديم قاسم عبده قاسم , القاهرة ,٢٠٠٦م ، ص١٣٥ -١٣٧ .

38- « Les Prisonniers de Nicopolis »,p.82

كما أنه يفسر ذلك بأن السلطان العثماني قد أهدى السلطان المملوكي برقوق 60 أسيراً كما ذكر شيلتبرجر من قبل ، أما باقي المائتين فكانوا من أسرى معركة نيقوبوليس أيضاً ، و قد اشتراهم السلطان المملوكي فيما بعد .

39- « The bondage and Travels » , pp.7-10

الحقيقة أن هناك تضارباً في الآراء حتى بين المصادر العثمانية حول زمان موقعة أق جاي .حيث يذكر كلا من عاشق باشا زاده وأوروج بك أنها قد حدثت إبان حملة السلطان بايزيد الأولى على الأناضول قبل نيقوبوليس بعدة سنوات . انظر:

Aşik Pasaoglu , pp.72-73;Oruç Beğ ,Oruç Beğ Tarihi ,hazirlayan , Atsiz, Istanbul, 1973, pp.55-56 ; و كذلك . Atiya . op.cit,p.17

أما شيلتبرجر فيحددها فيما بعد معركة نيقوبوليس ، أي حوالي العام 1397م .و هو ما يؤيده فيه الباحث التركي أوزون تشارشيلي .

انظر: Uzunçarsili,"karamanögullari",Artin Anadolu Beylikleri ve Akkoyunlu. Karakoyunlu Devleterim, Ankara. 1969 , p.15

معتمداً على المصدر التاريخي المعروف بزم و رزم ، الذي تناول أخبار مدينة سيواس و حاكمها القاضي برهان الدين ، و الذي أشار إلى وجود علاء الدين القرماني على قيد الحياة حتى العام ١٣٩٦م .

٤٠- في الحقيقة فإن سياسة السلطان بايزيد كانت تهدف إلى تصفية الأسر التركمانية الحاكمة في الأناضول، بهدف تحويل إماراتهم إلى ولايات عثمانية . عن ذلك انظر :-

خليل اينالجك « العثمانيون – النشأة و الازدهار » ، بحث في كتاب : دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة و تقديم سيد محمد السيد ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٥٤

٤١- انظر : Uzuncarsili.op.cit,p.13;Nicol,op.cit,288

42- " The Bondage and Travels " ,pp.8-9

٤٣- ابن عربشاه، المصدر السابق،ص٣٤٠-٣٤١. ابن تغرى بردى، المصدر السابق ، ج١٢ ،ص٢٦٩. انظر أيضا: Hously.op.cit,p.81

44- " The Bondage and Travels " ,p .18.

عن ذلك راجع المصادر التاريخية المملوكية و العثمانية التالية :-

الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود) ، نزهة النفوس و الأبدان فى تواريخ الزمان ، ج٢ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٥٥ ؛ ابن إياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى) ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج١ ،ق٢ ، القاهرة ،١٩٨٣ ، ص٥٤٧ . ؛ Aşik pasa ŏglu. op.cit. p. 75 ; Oruç Beg . op. cit. p. 57.

انظر أيضاً : ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ،ص٤٢.

٤٥- أدرك السلطان بايزيد أبعاد الخطر المغولى مبكراً . فأرسل فى العام ٧٩٥/ ١٣٩٢م رسالة للسلطان المملوكى برقوق يحذره من أطماع تيمورلنك . و يخبره أنه يضع تحت تصرفه ٢٠٠ ألف رجل لهذا الأمر . انظر : المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ، ق٢، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٨١٣ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، ج١ ،ق٢ ،ص٤١٧.

و إذا كنا نستطيع تفهم دوافع السلطان العثمانى بايزيد فى مواجهة الأطماع المغولية ، فان ما يثير الاستغراب هنا هو حجم القوات العثمانية التي عرض إرسالها لمساعدة السلطان المملوكى برقوق . فلم يكن لدى السلطان العثمانى ـــ الذى كان يحاصر القسطنطينية منذ عدة أعوام - هذا العدد من القوات لإرسالها للسلطان المملوكى فى القاهرة. و ربما كان الأكثر صحة ما أورده ابن تغرى بردى من أن السلطان العثمانى قد أعد نفقة بمائتى ألف درهم لمساعدة السلطان المملوكى فى حربه ضد تيمورلنك . عن ذلك انظر :ـــ

المصدر السابق ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت،ص ٥٩.

٤٦- ابن إياس ، المصدر السابق ،ج١ ،ق٢ ،ص٤٧٦. و يبدو أن ابن تغرى بردى كان صاحب رؤية أكثر اتساعاً من السلطان المملوكى إذ انتقد قراره بشده ،:لأنه كان يرى ضرورة تحالف القوى المملوكية و العثمانية عبر كثافة أعداد الجيوش المصرية و الخبرة العسكرية العثمانية . و على حد قوله « ... إن المصلحة كانت تقتضى الصلح مع ابن عثمان » . انظر المصدر السابق، ج١٢ ،ص ٢١٧.

٤٧- ابن إياس ، المصدر السابق ، ج١ ، ق٢، ص ٤٧٦.

48- " The Bondage and Travels " ,p .19

كانت تلك المرة الأولى التى توجه فيها شيلتبرجر إلى مصر . قبل أن تعود القوات العثمانية إلى السلطان بايزيد من جديد . انظر أيضاً: Richard , op.cit,p.80

49- Ibid , p.10

٥٠- انظر المصادر التالية :

Aşik pasa ŏglu , op.cit, p.74 ; Tursun Bey , Tarihi , Ebu›l-feth , Hazirlayan ,Mertol Tulum, Istanbul , 1977, p. 159 ; Oruç Beg , op . cit, p.57

المقريزى ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤ ؛ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) إنباء الغمر بأنباء العمر ،ج٢، تحقيق ، القاهرة ، 1971م ، ص 107;.Doukas , op. cit, p.88, p. 283 . not .85

51- « The Bondage and Travels « ,p .20 .

عن غزو العاهل المغولى لمدينة سبسطية (سيواس) انظر :

Khwandamir ,:op.cit. , p.274 ; Aşik pasa ŏglu , op .cit, p.77 ; Oruç Beg ,op. cit,p.58 ;

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ١٩٣- ١٩٤ ؛ شرف الدين يزدى، المصدر السابق، ص١٨٣-١٩٥؛

Doukas , op. cit,p.89 ; Dennis , G, « Three reports from Crete on The Situation in Romania 1401-1402» , in ,Studi Veneziani ,12,1970 ,p.254 . Doc. 1 ; Clavijo , Embassy to Tamerlane 1403 - 1406 , Trans.by , Le strange , G , London , 1928 , pp. 132 . .

غير أنه يذكر أن قوات سليمان بن بايزيد تألفت من مائتى ألف مقاتل ، بخلاف الجيش السلطانى نفسه . و من الواضح أن ذلك من قبيل المبالغة لأن السلطان العثمانى كان على حصاره لمدينة القسطنطينية ذلك الوقت، و لم تكن قواته بمثل هذا العدد .

انظر أيضاً هذا المصدر الأرمنى الهام الذى اتفق مع كافة المصادر التاريخية السابقة فى بيان الوحشية و الفظاعة التى عامل بها العاهل المغولى تيمورلنك سكان مدينة سبسطية عند غزوة لها عام ١٤٠٠م :

Tovma Metsobets›I›s . « History of Tamerlane and His successors « p.13 in . http :// rbedrosian.com/ tm1.htm .

٥٢- سعد زغلول عبد الحميد ، « الإسلام و الترك فى العصر الإسلامى الوسيط » ، مجلة عالم الفكر ، العدد ، الكويت ، ١٩٨٦م ، ص ١٩٨-١٩٩ .

و سبق أن حدثنا ماركو بولو فى رحلته عن أمر قبلاى خان باعدام خصمه تايان عبر وضعه فى بساطين مع تنفيضهما بقوة شديدة حتى فاضت روحه ، و يفسر الرحالة الأوربى الأشهر ذلك بأنه لم يكن يجوز فى عرف التتار أن تشهد الشمس أو الهواء سفك دماء فرد ينتمى إلى الأسرة الامبراطورية . و يعلق مارسدن على ذلك بأن عملية ازهاق روح أى شخص يحظى بمكانة عالية لدى المغول دون إراقة دمائه قد تكررت كثيراً . و ربما ورثها الأتراك عنهم عبر استخدام وتر القوس فى السراى السلطانية العثمانية . انظر :

ماركو بولو ، رحلات ماركوبولو ، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد ،ج٢، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ص١٢ ،٣، ٢٠٣ هامش ١٥ .

و بخصوص ازهاق تيمورلنك لأرواح أهالى سيواس دون أى عملية لسفك الدماء ، فيبدو أن العاهل المغولى قد اعتبر أنه قد احترم أهالى المدينة عندما تنازل و اعتبرهم مثل الطبقة العليا بالمجتمع المغولى ، فحق عليهم الموت عبر ازهاق أرواحهم دون سفك للدماء .

53- The Bondage and Travels ، pp 9-10 ; Richard , op. cit ,p.79. ،

٥٤- تعد معركة أنقره ١٤٠٢م من أهم المعارك التى دارت فى العصور الوسطى ، و على الرغم من أنها جرت بين أكبر عاهلين مسلمين فى ذلك الوقت ، فان نتائجها كانت متباينة على العالمين المغولى الذى اتسعت رقعته عقب الاستيلاء على آسيا الصغرى ، و العثمانى الذى دخل فى دوامة حرب أهلية بعد أن كان على وشك فتح مدينة القسطنطينية .عن هذه الموقعة انظر ما سبق . ص ٢ هامش (٣) .

55- The Bondage and Travels ، .p 21 و انظر أيضاً

Khwandamir , op.cit,p. 280 ; ; Aşik pasa ŏglu, op. cit, p.74.

٥٦- انظر : Khwandamir , op.cit, p.282 .

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ -٣١٣ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٢٦٧ ؛ الصيرفى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٠.

57- The Bondage and Travels ، p.21 .

عن انضمام القوات المغولية بالجيش العثمانى إلى تيمورلنك ، و انسحاب القوات التركمانية من جيش بايزيد . راجع : ; Aşik pasa ŏglu. op. cit, p.78 ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٢،٣٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٦٧ ؛Doukas , op.cit ,p.93.

٥٨- Schiltberger ,op.cit, p. 21 يتطابق هنا ما ذكره شيلتبرجر مع ما ورد فى المصادر المعاصرة. من ذلك :

Khwandamir . op.cit,p.284; ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٢، ص ٢٦٩ .

59- Loc. Cit

60- The Bondage and Travels . . p.22

ذكر شيلتبرجر في مبالغة واضحة أن أعداد جيش تيمورلنك لدى حصار حلب كان مليون و مائتي ألف جندي ، و جعل قوات حاكم حلب تبلغ ثمانية ألف رجل ، و الحقيقة أن دمرداش ، قائد قلعة المدينة كان قد أبدى مقاومة بطولية أمام جحافل القوات المغولية . قبل أن تنجح تلك القوات في النهاية في دخول المدينة و ارتكاب العديد من المذابح و الفظائع فضلاً عن أعمال السلب و النهب . اذا كان شيلتبرجر قد أشار فقط إلى أن تيمور أمر بقذف كافة أهل حلب في خندق المدينة المائي قبل أن يملأه بالماء ، فإن باقي المصادر العربية و الفارسية و العثمانية تتحدث عما هو أكثر من ذلك بكثير .

عن اجتياح المغول لحلب ١٤٠٠م و الفظائع التي قاموا بارتكابها بها . انظر:

ابن اياس ، المصدر السابق ،ج١ ، ق٢، ص٥٩٧ - ٥٩٨ ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٢٤-٢٢٥ ؛ الصيرفي ، المصدر السابق ، ج٢ ،ص٧٤-٧٧ ؛المقريزي ، المصدر السابق ، ج٣،ق٣ ، ص١٠٣٣-١٠٣٤ ؛ ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبد الحي) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج٧ ، بيروت ، د.ت ، ص ٦٤؛شرف الدين يزدي ، المصدر السابق ، ص٢٠٧ ، ٢١٨ - ٢٢١.

Khwandamir ,op.cit, pp.275- 276 ; Aşik pasa ȍglu,op.cit, p.77; Oruç Beg ,op.cit,p.58 ; T›ovma Metsobets›I›s , op.cit , pp.13-14

،تزوكات تيمور ، مقالت أول في تدبيرات وكنكاشها ، تهران، د.ت

61- Loc.cit.

.عن دخول القوات المغولية إلى دمشق . راجع المصادر العربية و الفارسية و العثمانية السابقة

٦٢- Ibid . p.24 . عن غزو تيمورلنك لمدينة بغداد و ارتكاب الفظائع بها انظر:

Khwandamir ,op.cit. p278 ؛ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج٢ و ص ٢٦٦ ؛ المقريزي ، المصدر السابق ، ج٣،قسم ٣ ، ص ١٠٦٧ ؛ ابن اياس ، المصدر السابق ،ج١،قسم ٢ ،ص ٦٣٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ص٦٥؛و انظر أيضاً:

ابن عربشاه ، المصدر السابق ،ص ٣٠٢-٣٠٦ ، الذي أشار إلى أنه نتيجة للوحشية و الفظائع التي ارتكبتها قوات تيمورلنك في بغداد « ...فقد صارت بعد أن كانت مدينة السلام ، دار السام » .

63- Ibid . pp. 26-27 .

64- . Habibu›s - siyar ›. pp.290 - 291

حيث يتحدث مؤرخنا الفارسى عن اسكندر شيخ ، تابع تيمور الذى شق عصا الطاعة عنه . فأرسل العاهل المغولى وراء أمير زاده رستم و الأمير سليمان شاه . و استمرت المطاردة طويلاً بسبب اختباء اسكندر شيخ فى الغابات الكثيفة ، حتى تم القبض عليه فى النهاية و قتله . غير أن رواية حبيب السير لم تشر أيضاً إلى مسألة استيلائه على الخراج . عن ذلك أنظر أيضا : حافظ إبرو ، ذيل كتاب ظفر نامه نظام الدين شامى ، تهران. د.ت، ص ١٤ -١٥ .

٦٥- The Bondage and Travels ، . pp.27-28 ؛انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٩٨ -١٠٦ ، ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، ج٥ ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٥٤٠ .Khwandamir .op.cit. p.257.

66- The Bondage and Travels ، . p.27

٦٧- أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠م، ص ١٥٥ - ١٥٦.

68- The Bondage and Travels ، . p.26

عن استيلاء تيمورلنك على الهند ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م. انظر المصادر و المراجع التالية:

Khwandamir .op.cit. p p.264-268 ؛ شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ -٩٩ ، ١١٢

Tovma Metsobets›I›s . op.cit . p14. غير أنه يذكر أن ذلك تم فى العام ١٣٩٦م ؛ أنظر أيضا : تزوكات تيمور ، المصدر السابق ، ص١٣٥ - ١٣٩ .

انظر كذلك : المقريزى ، المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص٨٩٢،٩٣٤ ؛ ج٢، ص١٠٢٤ ؛ ابن اياس ، المصدر السابق ، ج١ ،ق٢ ، ص ٤٩٥ -٤٩٦ ،٥٩١ ؛ ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، ص٢ ؛ ؛شبولر ، ب ، العالم الاسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد سعد ، مراجعة سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٢ م ،ص ١٢٤ ؛ أحمد الساداتى ، تاريخ الدول الاسلامية فى آسيا و حضارتها ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ، ص ، ٢٠٢ ،فامبرى ، أ ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة أحمد الساداتى ، مراجعة و تقديم يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٢٣٢. حيث يصف بالتفصيل المعركة التى دارت بين تيمورلنك و حاكم الهند ملو ، و كيف نجح جنود تيمور فى خداع و إثارة الأفيال الهندية بحيث انقلبت على أصحابها . و عن حملة تيمورلنك على الهند انظر أيضاً : Clavijo , op.cit.pp. 255 -256 .

الذى تحدث أيضاً عن تحميل المغول للجمال بالأخشاب و اشعال النيران بها ، و فرار الأفيال من أمامها . غير أنه تحدث عن وجود خمسين فيلاً فقط فى الجيش الهندى .

69- Loc.cit .

استخدم شيلتبرجر هنا وحدة الوزن zentner التي تعادل مائة كيلو جرام ، مع اشارة أخرى تظهر معرفته بالسلع و المعادن فى عصره ، عندما نوه إلى أن ذهب الهند آنذاك كان يفضل على ذهب الجزيرة العربية.

٧٠- قام المغول تحت قيادة قبلاى (١٢٥٧- ١٢٩٤ م) بغزو الصين و ترتب على ذلك أن دفع خلفاء الجغطائيين فى سمرقند ضريبة سنوية له . بعد ذلك تدهورت أحوال خلفاء قبلاى ، قبل أن تظهر العام ١٣٧٠ م أسرة ملكية مغولية فى الصين ، عرفت باسم أسرة يوان Yuan بعد ذلك ظهرت أسرة ملكية أخرى هى أسرة مينج Ming ، التى أسسها الامبراطور Hongwan الذى مات عام ١٣٩٩م ، ليحكم بعده الامبراطور Ching tsu الذى أصبح اسمه رسمياً الامبراطور Yuanglo خلال الأعوام ١٤٠٣-١٤٢٥ م. و هو الحاكم الذى أسماه كلافيجو Chayscan أو Chayskan ، و الذى أطلق عليه المغول لقب Tanguz .

و على أية حال أراد هذا الامبراطور الذى عرف أيضاً باسم جودى أو جوتشى أن يرغم تيمور على دفع الضريبة السنوية المفروضة على حكام سمرقند إلى البلاط الصينى . انظر :

Clavijo . J . Embassy to Tamerlane 1403- 1406 . Trans.by Le strange . G . London . 1928 . p.358. not.2

و انظر أيضاً : لويز ليفاثيس ، يوم سادت الصين البحار . مفخرة عرش التنين ١٤٠٥ - ١٤٣٣م ، ترجمة على أحمد كنعان ، بيروت ، ٢٠٠٥ م ، ص ٢٠١- ٢٠٢ .

71- Embassy to Tamerlane . op . cit. p. 222.

٧٢- Ibid . pp. 223 ; p. 327. not .2 ؛ لويز ليفاثيس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

73- The Bondage and Travels « . p.28

يذكر المؤرخ الفارسى خواندمير خروج تيمورلنك لغزو الصين فى جيش يبلغ تعداده ثمانمائة ألف رجل . انظر :

» Habibu›s –siyar «.p. 294 ، أنظر أيضا : شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٤٤٥ - ٤٥٢ ، حافظ ابرو ، المصدر السابق ، ص٢٥ - ٢٧ . و تذكر لويز ليفاثيس أن تيمور خرج على رأس مائتى ألف رجل فقط عبروا نهر سيحون Jaxartez المتجمد قبل أن تعود على أعقابها دون تحقيق هدفها المرجو . انظر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

و انظر أيضاً كلافيجو الذى أشار إلى بعد المسافة ما بين سمرقند عاصمة تيمور، و بكين عاصمة الامبراطور الصينى ، التى تبلغ مسيرة ستة أشهر . انظر : » Embassy to Tamerlane « . p. 291 .

74- " Habibu's-siyar".p.294 74-

٧٥- Ibid . pp. 294 -295 75 ، و ذكر خواندمير أيضاً أن نهر سيحون يتجمد فى الشتاء و يصبح لونه فضياً . كما أن الرياح القوية تدفع بكتل الجليد من الجبال و السهول إلى صفحة النهر ،مما يجعل المشهد كله أقرب إلى تكون البحار.

٧٦- Loc.cit الذى ذكر أيضاً أن تيمور أرسل شخصاً آخر للتحقق من الطريق عبر مضيق قولان Qulan ، غير أنه عاد اليه ليخبره أن المضيق مغطى بالثلج بطول رمحين مما يستحيل اجتيازه . انظر أيضا : شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٤٥٧-٤٦٩.

٧٧- « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » ، ص٣٨٨ .

٧٨- The Bondage and Travels « . p.29 » .وانظر أيضا ابن عربشاه ، المصدر السابق،ص٤٦٦ ،حيث أشار أيضا إلى قتل تيمور لإحدى زوجاته « ... لشئ بلغه عنها ، وكان غير واقع »

بينما يحدد خواندمير تاريخ وفاة تيمورلنك فى الثامن عشر من فبراير عام ١٤٠٥م الموافق للسابع عشر من شعبان عام ٨٠٧ . وعن وفاة تيمور، انظر أيضا Tovma Metsobetsi›s op.cit . p. 14

الذى ذكر خطأ أن وفاته كانت فى العام ١٤٠٨م . غير أن ذلك لم يرد فى المصادر التاريخية المعاصرة لحياة العاهل المغولى التى أشارت إلى تجرع تيمور لكميات من الخمر المقطر الممزوج بالبهارات والتوابل كى يعينه على تحمل البرد القارص إبان حملته باتجاه الصين .انظر : ابن عربشاه،المصدر السابق ، ص٣٩١-٣٩٢ ،ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٣،ص ٢٦٩.

٧٩- ذكر كل من كاربينى و بولو أن نساء المغول يقترن بالعفة و الاحتشام و الإخلاص لحياتهن الزوجية، و لا يرتكبن الأعمال المشينة التى تحط من قدرهن . وأنه اذا ما حدث غير ذلك يتم على الفور إدانة الزانية و الزانى و توقيع عقوبة القتل عليهما فى الحال . انظر :، Dawson . ch.(ed.) Mission to Asia . London .1966 . .pp. 15.17

ماركو بولو ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٣٥ -١٣٦ .

٨٠- » Habibu›s – Siyar «. pp. 299 -300 حيث ذكر أيضا وجود ٢٢ خليلة لديه .

٨١- Embassy to Tamerlane « . p. 261 " لا يعترض لى سترانج – مترجم كتاب كلافيخو – على ذلك مقترحاً أنه إذا كانت الشريعة الاسلامية تتيح لتيمور الزواج من أربعة فقط . فإنه قد استثنى نفسه من ذلك ، تماماً مثلما كان يشرب الخمر دائماً ، فى مخالفة واضحة للشريعة الإسلامية أيضا . انظر:p.359، not. 3 .

83- Schiltberger .op .cit.p 29

84- « Habibu›s – Siyar «. p

85- «Mission to Asia» . p.105.

Schiltberger . op.cit. p. 30 :

وعن الأسرى في سمرقند راجع ما ذكره السفير الأسباني كلافيخو عن آلاف الأسرى من الحرفيين الذين جلبهم تيمورلنك من بلادهم من مسلمي دمشق و بلاد الأناضول و من المسيحيين بمختلف طوائفهم ، كالبيزنطيين و الأرمن و الكاثوليك و اليعاقبة و النساطرة ، بخلاف الهنود و الروس و الصينيين انظر : Embassy to Tamer-lane . pp. 287-288

٨٦- The Bondage and Travels . p.86 . حيث ذكر أنه بعد وفاة تيمورلنك تم نقله إلى حاشية ابنه الأكبر شاه رخ الذى كان يمتلك أراضى خراسان و أرمينيا ، و أنه عندما كان يرافقه شتاء إلى أرمينيا كان يعيش وسط الأرمن الذين امتازوا بالود تجاه الألمان ، فأحاطوه بعطفهم و رعايتهم .

87- « History of Tamerlane and His successors » . p. 14 .

٨٨- The Bondage and Travels » . p.30 . « . و يبدو أن التشوش الذى أصاب شيلتبرجر هنا عند حديثه عن أعوام الأسر لدى المغول قد تأثر به المؤرخ الأرمنى Tovma Metsobets . و هو الأمر الذى يمكن أن نلحظه لديه إذ قرر أن وفاة تيمورلنك كانت العام ١٤٠٨م ، و هو ما يخالف باقى المصادر التاريخية الفارسية و العربية . لكن ذلك يتسق مع الخطأ الحسابى لدى شيلتبرجر ، الذى تأثر به مؤرخنا الأرمنى . و هكذا سقط الأول فى الأسر بعيد موقعة أنقرة ١٤٠٢م و مكث ست سنوات عند تيمورلنك إلى وفاة الأخير عام ١٤٠٨م. انظر : History of Tamerlane » . p.14 ».

و يشى تأثر الرواية الأرمنية بالتشوش الذى لازم حسابات شيلتبرجر . ثم أن نقلها رواية صوت العواء الصادر من قبر تيمورلنك بسمرقند يشى بأن المؤرخ الأرمنى قد استمع إلى أحاديث الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر من أصدقائه الأرمن . كما سبقت الاشارة خاصة و أن مؤرخنا الأرمنى قد ولد العام ١٣٧٨م و مات عام ١٤٤٦م، و كان لديه ٢٧ عاماً عندما وصل شيلتبرجر إلى أراضى أرمينيا مع سيده الجديد شاه رخ .

٨٩- The Bondage and Travels . p.30 . وعن مملكة شاه رخ فى خراسان . انظر : بارتولد ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

90- Ibid . p.31

٩١- شرفنامه ، الجزء الأول ، ترجمة محمد على عونى ، مراجعة يحيى الخشاب ،دمشق ٢٠٠٦م ،ص٣٥٦. الذى ذكر حدوث تلك المعركة فى (نشيب غازان تبريز) ، ومن أهم نتائجها كان سقوط بلاد أذربيجان كلها فى قبضة قرا يوسف .

٩٢- " The Bondage and Travels",p. 33 . انظر أيضا : عجائب المقدور ، ص ٣٩٩ ،... و كان أبو بكر هذا فى الجغطاى من الفوارس و الضاربين بالبيض السهام و القوانس ...و كان يوقف بقرة ... و يضربها

بالسيف ضربة لا ضربتين ، فيجعلها قطعتين مفصولتين" . و عن أبي بكر بن ميران شاه انظر أيضاً :

Clavijo . op. cit. pp.317.

93- The Bondage and Travels «. p.33 »

٩٤- محمد سهيل طقوش ، تاريخ مغول القبيلة الذهبية و الهند ، بيروت ،٢٠٠٧م ، ص ١٢٣ .

95- The Bondage and Travels «.p.35 »

٩٦- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٩ .

97- Halperin .ch. Russia and The Golden Horde . London . 1985 .p.57 .

٩٨- انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٩٩- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ١١٧ -١١٩ .

100- Robert Michell & Nevill Forbes (eds.) . The Chronicle of Novgorod 1016 – 1471 . London . 1914 . p. 183 .

101- Loc.cit. P.33

102-"The Bondage and Travels »

103- Ibid . p. 34 .

١٠٤- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ،ص ١٢٣.

105- Halperin . op.cit.pp.29.57 .

١٠٦- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص١٢٤ .

107- The Bondage and Travels «. p.35

١٠٨- عن ذلك أنظر :

- Heaney .M. The Mongolian Almas : A Historical Reevalution of The Sighting By Baradiin . in . Cryrtozoology 2. 1983. pp. 40- 52 .

- Newton. M. " Almas / Almasti ". in. Encyclopedia of Cryptozoology : A Global Guide. London. 2005. pp. 19- 20

109- Loc.cit.

١١٠- المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٩٦ -٩٧ .

١١١- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٢٥ . حيث تحدث عن سعر الكلب الذى يصل لما يساوي ألف دينار بسبب الحاجة الماسة للكلاب فى جر و سحب العربات و أثر ذلك على حركة التجارة .

و عن استخدام الحيوانات في جر العربات فى مناطق أخرى قريبة تحدث ابن بطوطة عن ما شاهده فى اقليم القرم من عربات تتألف كل واحدة منها من أربع بكرات كبار تجرها الخيول أو البقر و الجمال . انظر ، ص215.

١١٢- " The Bondage and Travels".pp.37-38. وذكر أنه كان يدعى Phiradamschych .

١١٣- المصدر السابق،ص ٢٦٠. « ...بظن رائيه أن عمره خمسون سنة ....وشككت في حاله ، والله أعلم بصدقه".

١١٤- المصدر السابق،ص٤٧٠. « ...من رآه يتصور أنه لم يبلغ أشده ، لم يكن للكبير بوجهه تجعيد ولا أثر » .

115- The Bondage and Travels «. p.48. »

عن ذلك انظر ما ذكره كاربيني و وليم أف روبروك و ماركوبولو :

١١٦- Dawns. ch.op.cit.pp.16.17 . 96-98 .112 ؛ ماركوبولو ، المصدر السابق ، ج١ ، ١٣٤، ١٣٥ ،١٣٨ -١٣٩ ؛ وانظر كذلك ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ ،٢١٩ .

١١٧- The Bondage and Travels «. p.48 » .و هو نفس ما أشار إليه ماركو بولوأيضا من قبل ، الذى ذكر أنه إذا ما زحف المغول فى سفر طويل و انتهت مؤنهم ، يمكنهم العيش لعشرة ايام أخرى عبر الإعتماد على دماء خيولهم ... إذ يشق كل رجل عرقاً و يشرب من دم ماشيته » . انظر رحلات ماركو بولو ،ج١ ، ص١٤٠.

118- The Bondage and Travels «. p.48.

119- Ibid.p.38

120- Loc.cit

121- Carpini.op.cit.p.18.

Howorth. . History of the Mongols.vol.4.London 1888. 162. وانظر أيضا

شبولر ،ب، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد عيسى ،مراجعة سهيل زكار ،دمشق، ١٩٨٢ ،ص٢٨ . كما أشار عطا ملك الجوينى إلى أن النساء والرجال الذين لا يشاركون فى القتال يبقون فى المنازل والخيام لإعداد الطعام والمؤونة للقوات المحاربة.انظر: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي،ترجمة محمد التونجى،المجلد الأول،دمشق،١٩٨٥م،ص٦٦.

١٢٢- سعد الغامدي المغول: بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية،الرياض، ١٩٩٠م،ص ١١٣- ١١٤ .

١٢٣-عطا ملك الجويني، المصدر السابق،ص١٧١. الذي يشير أيضا إلى أنها استثنت - كما عادة المغول- الحرفيين والصناع الذين تم أسرهم وإرسالهم إلى التركستان .

١٢٤ رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قاآن إلى تيمورقاآن ، ترجمة فؤاد الصياد ، ص١٠٧ الذي ذكر أن انها تميزت بقوة بدنية مكنتها من هزيمة عشرات الرجال، وأعلنت أنها لن تتزوج سوى من الرجل الذي يستطيع هزيمتها. وسمح لها القائد قايدو بعد ذلك بأن ترافقه فى كافة المعارك التى خاضها.

ويبدو أن تلك القصة قد تم تداولها في القرن التالى مباشرة ، إذ نجد لها صدى عند حديث ابن بطوطة عن الصين الذى يشير إلى إحدى ملكاتهم التى كانت تقاتل الرجال وتصرعهم، فأخبرت أبيها أنها لن تتزوج سوى بمن يبارزها ويغلبها. انظر المصدر السابق ، ص٤١٣-٤١٤ .

١٢٥- المصدر السابق ، ج١ ، ص ٧٦. واللر الكبير واللر الصغير من أقاليم الجزيرة العراقية، كان غالبية سكانهما من الأكراد. راجع أيضا ص ٧٠.

١٢٦- المصدر السابق، ص ٤٨١. وحسب كلماته « ...يصنعن أبلغ مايصنع الفحول من الرجال فى النزال، من طعن بالرمح وضرب بالسيف ورشق بالنبال».

١٢٧- عن ذلك أنظر: ريخا ميسرا ، المرأة فى عصر المغول ، ترجمة أحمد الجوارنة ، إربد ، ١٩٩٨، ص١٤٦- ١٤٧ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١- ابن بطوطة (أبو عبدالله بن عبدالله اللواتى)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، بيروت ، د.ت.

٢- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت.

٣- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على)

إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج٢ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٧٣م .

٤-ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،ج٧ ، بيروت ، د.ت .

٥ ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،ج١ ، ق٢، القاهرة ، ١٩٨٣م.

٦- ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى)

عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ص ، ١٩٨٦م .

٧- أسامة بن منقذ ،

كتاب الأعتبار ، تحقيق قاسم السامرائى ، الرياض ، ١٩٨٧م.

٨- الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود)

نزهة النفوس و الأبدان فى تواريخ الزمان ، ج٢ ،تحقيق حسن حبشى ، القاهرة،١٩٧١م .

٩- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ،ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

١٠- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، ج٥ ، بيروت ، ١٩٨١م .

ثانياً : المصادر الفارسية و العثمانية:

1- Aşikpasaôglu . Aşikpasa Tarihi . Hazirlayan . Nihal Atsiz . Ankara. 1985 .

2- Khwandamir. Habibus-siyar. Tome Three.The Reign of The Mongol and The Turk Part one : Genghis Khan - Amr Temur . Trans and ed. By . w.M. Thackston. Harvard university . 1994.

3- Oruç Beg . Oruç Beg Tarihi . Hazirlayan . Nihal Atsiz . Istanbul. 1973.

4- Tursun Bey . Tarih-I Ebu'l-Feth . Hazirlayan . Mertol Tulum . Istanbul . 1977.

٥- البدليسي (شرف خان) شرفنامه ، الجزء الأول ، ترجمة محمد علي عوني ، مراجعة يحيى الخشاب ،دمشق ٢٠٠٦م .

٦- الجويني (عطا ملك)، تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ، ترجمة محمد التونجي ، المجلد الأول ، دمشق ، ١٩٨٥م .

٧- الهمذاني(رشيد الدين فضل الله)، جامع التواريخ ، تاريخ خلفا ، جنكيزخان من أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن ، ترجمة فؤاد الصياد ، مراجعة يحى الخشاب ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٨- تزوكات تيمور ، مقالت أول في تدبيرات وكنكاشها ، تهران، د.ت .

٩- حافظ إبرو ، ذيل كتاب ظفر نامه نظام الدين شامي ، تهران. د.ت .

١٠- يزدى (شرف الدين)، ظفر نامه ، تاريخ عمومى مفصل إيران درووزة تيموريان بتصحيح وإتمام محمد عباسى ، أزروى نسخى كه ، در عصر مصنف توشته شده ، جلد دوم ، تهران ، ١٣٣٦ ه .

ثالثاً : المصادر البيزنطية و اللاتينية و الروسية و الأرمينية :

1- Chacocondylas . Historiarum demonstrations . ed. By. I .Bekker . C.S.H.B . Bonne . 1843.

2 - Clavijo . J. Embassy To Tamerlane 1403 -1406 . Trans. By. Le Strange . G . London . 1928.

3 - Dawson . ch. (ed.) Mission to Asia . London . 1966.

4 -Delaville le Roulx (Joseph) . La France en Orient au XIV siécle: expeditions du marchal Boucicaut . 2vols . paris . 1886.

5 - Dennis. G. "Three reports from Crete on The situation in Romania 1401 - 14-2" .in S.V. 12 . 1970.

6 - Dopp.p.H. (ed.) L'Egypte Au Commencement du Qunzieme Siécle . d'Apres Le Traite d'Emmanuel e Au Commencement du Qunzieme Sieomania 1401 - 14-Piloti de Crete (Incipit 1420) . Le Caire . 1950 .

7 - (ed.) Traite d'Emmanuel e Au Commencement du Qunzieme Sieomania 1401 - 14-Piloti sur Le passage en Terre saint (1420). parise . 1958.

8 - Doukas . M. Decline and Fall of Byzantium to The Ottoman Turks . by .Magonlias . H . J. . Detroit . 1975 .

9 - Froissart . Chronicle of Froissart . Trans . by John Bouchier . Lord Berners . edited by . Macaulay . G. C . London. 1930.

10 - Gauter. P. " Un Recit Indet Du Siege de Constantinople par Les Turcs . 1394- 1402 " . in . Revue d.etudes Byzantion. Tom . XIII . 1965.

11- Godefroy . T. (ed.) . Histoire de messier Jean de Boucicaut . mareschal de France . gouverneur de Gennes . collections.vols. vi . vii. Paris. 182 5.

12-Robert Michell & Nevill Forbes (eds.) . The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 . London . 1914

13 - Marco Polo. The Travels. trans. By. William Maresden. London. 1980.

اعتمدت على الترجمة العربية لهذا الكتاب :

- ماركو بولو، رحلات ماركو بولو .ترجمة وليم مارسدن ، ترجمها إلى العربية عبدالعزيز جاويد ، ج٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

14- Schiltberger . J . The Bondage and Travels of Johan Schiltberger . A Native of Bavaria . in Europe . Asia . And Africa 1396 – 1427 . Trans . by .Telfer . B . with notes by . Brunn . P. New York . 1878.

15 - Sphrantzes.G. The Fall of Byzantine Empire . The Chronicle by George Sphrantzes . Trans. by. M.Philippides. Amherest. 1980.p.21.

16- T'ovma Metsobets;I;s . " History of Tamerlane and His successors ". in . http: // rbedrosian . com /Tm 1.htm

رابعا : المراجع الأجنبية :

1 - Alexandrescu – Dersca .La Campagne de Timur En Anatolia . 1402. London . 1972.

2 - Atiya. A. S. The Crusade of Nicopolis . London . 1934.

3 - Barker . J . Manuel II Palaelougus (1391- 1425). A study in Late Byzantine Statesmanship . New Jersey . 1969.

4 - Charanis.p."The Strife among The Palaelogui and The Ottoman Turks 1370-1402 ".in .Byzantion. xvi. 1942- 1943.

5 - Dennis . G. " Three reports from Crete on The Situation in Romania 1401-1402" . in .Studi Veneziani .12.1970.

- Halperin ch. Russia and The Golden Horde . London 6 1985.

7 - Heaney .M. The Mongolian Almas : Historical Reevalution of The Sighting By Baradiin . in. Cryrtozoology. 2. 1983.

8 - Hously.N. The Later Crusades from Leon to Alcazar. 1274-1580.Oxford.1992.

9 - Inalcik . H. "The Ottoman Turks and The Crusades . 1329-1451".in. A History of The Crusades . ed. By. Setton . K. M. vol. vi. Wisconsin. 1989.

10 - Newton. M. " Almas / Almasti ". in. Encyclopedia of Cryptozoology : A Global Guide . London. 2005.

11- Painter.S. A History of the Middle Ages from 284 to 1500.London.1953.

12- Previte - Orton.C.W. The Shorter Cambridge Medieval History. vol.2. the Twelfth Century to the Renaissance . Cambridge.1979.

13- Richard . J. "Les prisonniers de Nicopolis " .in . Annales de Bourgogne . t. 68 .1996 .

14-Treveliane.G.M. History of England .London.1942.

15-Uzun çarşili ." karaman ŏgullari". Art in Anadolu Beylikleri ve Akkoyunlu.Karakoyunlu Devleterim. Ankara. 1969.

14 -Veszpremy.L. "Some Remarks on Recent Historiography of The Crusade of Nicopolis 1396".in . The Crusades and The Military orders Expanding The Frontiers of Medieval Latin Christianity . ed. by. Zsolt Hunyadi and Jozsef Laszlovszky . Budapest. 2001.

القواميس

1-Webester.s New Geographical Dictionary . New York . 1996.

سادسا :المراجع العربية والمعربة :

١ - أحمد الساداتي ، تاريخ الدول الإسلامية فى آسيا و حضارتها ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

٢- خليل إينالجك " العثمانيون - النشأة و الازدهار " ، بحث فى كتاب : دراسات فى التاريخ العثمانى ، ترجمة و تقديم سيد محمد السيد ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

٣- ريخا ميسرا ، المرأة فى عصر المغول ،ترجمة أحمد الجوارنة ، إربد ، ١٩٩٨م .

٤- سعد الغامدى ، المغول : بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية ، الرياض ، ١٩٩٠م .

٥- سعد زغلول عبد الحميد ، " الإسلام و الترك فى العصر الإسلامى الوسيط " ، مجلة عالم الفكر ، العدد ، الكويت ، ١٩٨٦م .

٦- شبولر ، ب ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد سعد ، مراجعة سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٢ م.

٧- عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٨- فامبرى ، أ ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة أحمد الساداتى، مراجعة و تقديم يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

٩- لويز ليفاثيس ، يوم سادت الصين البحار . مفخرة عرش التنين ١٤٠٥ - ١٤٣٣م ، ترجمة على أحمد كنعان ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .

١٠- محمد سهيل طقوش ، تاريخ مغول القبيلة الذهبية و الهند ، بيروت ،٢٠٠٧م .

د. لمياء بنت أحمد عبد الله شافعي(*)

كتب التراجم في المدرسة التاريخية المكية

القرن العاشر الهجري (١٦م) نموذجاً

مقدمة :

تميزت المدرسة التاريخية المكية بالتنوع في مجالاتها الكتابية مما أثرت لنا الموروث الثقافي والذي نستمد منه المعلومات الأساسية لدراسة التاريخ المكي في مختلف الجوانب السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

ولقد أردتُ بهذا البحث المشاركة المتواضعة ضمن البحوث التي تتناول خصائص المدرسة التاريخية المكية ، التي وإن نالت العناية من الدارسين والباحثين فإنها لا تزال تحتاج إلى الهمم العالية والجهود المبذولة لاستجلاء جوانبها وبيان خصائصها التي امتازت بها عن بقية المدارس التاريخية في البلاد العربية الإسلامية الأخرى .

يكاد لا يجد الباحث ميداناً من ميادين الكتابة التاريخية خلا من إنتاج المكيين . ومن بين مشاركاتهم المتنوعة نلاحظ عناية واضحة منهم بالتأليف في مجال التراجم والطبقات ، وهو مجال أساسي في الكتابة التاريخية [1] بما يقدمه من معلومات تفيد في معرفة الأشخاص والجماعات ، مما يوضح الخصائص الاجتماعية لمكة ويبيّن أبعاد القيمة العلمية للمكيين . لذلك رأيت من المفيد أن استجلي أهمية ما أنتجه المكيون في ميدان المؤلفات التي تناولت التراجم والطبقات في القرن العاشر الهجري كمثال لجهودهم في هذا المجال من الدراسات التاريخية .

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك - جامعة أم القرى - مكة المكرمة

وإن الناظر في تنوع كتب التراجم يلاحظ أنها تتنوع إلى نوعين أساسيين :

١- كتب تترجم لشخص واحد معين فأولته كل اهتمامها .

٢- كتب تترجم للعديد من الأشخاص وهي التي تعرف بكتب الطبقات .

ثم إن كتب الطبقات هذه على نوعين :

١- كتب طبقات عامة : وهي التي ترجمت لكل من ذكر في الحياة العلمية والسياسية وغيرها .

٢- كتب الطبقات الخاصة : وهي التي ترجمت لجماعة معينة اجتمعت في اختصاص واحد أو بلد أو انتساب واحد أو غير ذلك .

وسنتناول في هذا البحث كل ما عُرف من الإنتاج المكي المتخصص في فن التراجم الخاصة بالأشخاص والتراجم الخاصة بالطبقات خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، إلا ما كان من كتب السيرة النبوية وكتب التراجم الخاصة برجال الحديث المؤلفة في تلك المرحلة تاركين ذلك للدراسات الحديثية وأصحابها ، وهو ما جعلنا نُعرض عن دراسة الكتب التي حملت العناوين الآتية :

١- كتب السيرة النبوية .

٢- معاجم الشيوخ .

٣- فهارس الشيوخ .

٤- كتب الأثبات .

٥- كتب المشيخات .

٦- تخريج المشيخات .

٧- المنتقيات من كتب المشيخات .

٨- فهارس المرويات .

أما غيرها من كتب تراجم الأشخاص وكتب الطبقات التي اعتنت بها هذه الدراسة فلقد أمكننا أن نضع قائمة هامة منها بعد أن بحثنا في ترجمات المؤرخين المكيين الذين عاشوا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي فحصلنا منها على إنتاج ثري في الموضوع ، ونعرضه بإيجاز في الجدول التالي :

المؤلف	تاريخ وفاته	• عناوين الكتب
العز بن فهد : عبد العزيز بن عمر	٩٢٢هـ/١٥١٧م	• غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام . • نزهة ذوي الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام . • ترتيب طبقات القراء للذهبي .
ابن العليف : أحمد ابن الحسين	٩٢٦هـ/١٥٢٠م	• الدر المنظوم في مناقب بايزيد سلطان الروم .
ابن ظهيرة : محمد بن أبي السعود	٩٤٠هـ/١٥٣٤م	• الأخبار المستفادة فيمن ولي مكة من آل قتادة .
ابن ظهيرة : أحمد بن عطية	كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م	• جواهر العقود في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود .
جار الله بن فهد : محمد بن عبد العزيز	٩٥٤هـ/١٥٤٧م	• الأقوال المتبعة ، في بعض ما قيل في مناقب أئمة المذاهب الأربعة . • بلوغ الأرب ، بمعرفة أي الأنبياء من العرب . • تاريخ يُفيد في معرفة المترجمين في الضوء اللامع من الأحياء . • تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف. • تحقيق الصفا في تراجم بني الوفا . • الجواهر الحسان ، في مناقب سليمان بن عثمان. • القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف. • معجم الشعراء .
ابن حجر الهيتمي المكي : أحمد بن محمد	٩٧٤هـ/١٥٦٧م	• الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان . • معدن اليواقيت الملتمعة في مناقب الأئمة الأربعة. • ترجمة معاوية بن أبي سفيان .

المؤلف	تاريخ وفاته	عناوين الكتب
الفاكهي : عبد القادر بن أحمد	٩٨٩هـ/١٥٨١م	• فضائل ابن حجر الهيتمي . • القول النقي في مناقب المتقي . • مشكاة الاقتباس في فضائل ابن عباس . • مناقب عبد الرحمن العمودي .
النهروالي : قطب الدين محمد بن علاء الدين	٩٩٠هـ/١٥٨٢م	• طبقات فقهاء الحنفية . • زيادات على كتاب دستور الأعلام لابن عزم .

أنواع كتب التراجم التي ألفها المكيون

خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

إذا كانت هذه القائمة قد عرضت أسماء المؤلفين من المؤرخين وما أنتجوه من الكتب في مختلف أنواع الكتابة ضمن مجال التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها ، فإنه بعد البحث والمطالعة تبين لنا أن عدد المؤرخين المكيين من رجال القرن العاشر الذين تناولوا فن التراجم يبلغ ثمانية مؤلفين [٢] ، وأن عدد مؤلفاتهم في هذا المجال بلغ ثلاثة وعشرين كتاباً ورسالة .

وبعد النظر فيها أمكننا أن نصنفها حسب الموضوعات إلى صنفيْن أساسيّيْن :

١- كتب التراجم التي اختصت بشخص واحد ، وقد يكون ذلك الشخص من رجال العلم أو من رجال السياسة .

٢- كتب التراجم التي تتناول التعريف بمجموعة من الأشخاص على اختلاف فئاتهم :

فمنها كتب اختصت بجماعات معينة كالأنبياء أو الصحابة .

ومنها التي اختصت بالأنساب والتي اشتملت على تراجم لجماعات كآل البيت .

ومنها تلك التي اختصت بالحُكّام والملوك .

وتلك التي اختصت بالعلماء ، وأصحاب الوظائف الدينية كالأئمة والفقهاء والخطباء ومناقبهم.

الصنف الأول : الكتب التي تناولت التعريف بشخص واحد .

* ابن العليف : أحمد بن الحسين (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) [٣] .

هو مكيّ ولد بها سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م من عائلة اشتهرت بالشعر .

أخذ العلم عن كبار العلماء المكيين والمصريين . أنتج أشعاراً كثيرة اتسمتْ بالجزالة والبلاغة نُقلتْ في المصادر المكية . واعتبره المؤرخون كبير شعراء مكة حتى وصفه جار الله بن فهد بمتنبّي زمانه وبشاعر البطحاء وبشيخ الأدباء [٤] له ديوان شعر لا تُعرف منه نسخة [٥] .

ومن مؤلفاته التي اختصت بالترجمة لشخص واحد :

كتاب : (الدر المنظوم ، في مناقب بايزيد سلطان الروم) .

نسبه إليه حاجي خليفة [٦] . منه نسخة سلطانية كُتبتْ بخط المؤلف محفوظة في مكتبة فاتح بتركيا رقم ٤٣٥٧ ، تقع في ١١٨ ورقة ، تم نسخها يوم ١٦ ذي الحجة سنة ٩١٠هـ/ ٢١ مايو ١٥٠٥م .

يقول ابن العليف في المقدمة : " أما بعد ، فلما كان تقييد المآثر من أهمّ الأسباب ... جمعتُ هذا الديوان اللطيف ... في مناقب سلطان الزمان ... الملك الأعظم بايزيد ... وجعلته علماً لتخليد مآثره ... وأضفتُ إليه لُمعاً مفيدة من نفائس الأخبار " .

أما محتوى الكتاب وعرض أبوابه وفصوله فإننا ننقله مما كتبه د. الهيلة في كتابه التاريخ والمؤرخون بمكة فجاء فيه :

" الورقة ٣ أ : المقدمة في ذكر نسب الروم ومن اصطفاه الله منهم للنبوة ... والولاية " . ذكر فيها النبي أيوب – عليه السلام – والإسكندر ذا القرنين وأصحاب الكهف وما ورد في فضل الروم وأخبارهم .

الورقة ٢٣ب : الباب الأول في مناقب السلطان بايزيد ومآثر سلفه من أكابر العثمانيين.

الورقة ٣٢أ : ترجمة السلطان بايزيد .

الورقة ٣٣أ : فصل في العلوم النقلية والعقلية التي يُتقنها هذا السلطان .

الورقة ٣٤أ : فصل في ذكر كرمه وإحسانه لأهل الحرمين .

الورقة ٣٦ب : فصل في ذكر المباني التي أحْدَثَها بإسطنبول وغيرها .

الورقة ٣٧ب : فصل في ذكر جهاده ومرابطته وفتوحاته .

الورقة ٤٣أ : فصل في نبذة من حُسْن سيرته وعدله وحِلْمه وسياسته .

الورقة ٥٣أ : فصل في ذكر أولاده .

الورقة ٥٥أ : الباب الثاني في ذكر طُرَفٍ من أخبار ملوك الروم .

الورقة ٨٣ب : الباب الثالث في ذكر خبر القسطنطينية .

الورقة ١١٤أ : الخاتمة في فضل الشعر والشعراء وإكرام الخلفاء والملوك لهم ، ثم أورد قصيدة وضعها في مدح السلطان بايزيد طالعها :

خُذْ مِن ثنائي مُوجِبَ الحمد والشكر

ومِن دُرِّ لفظي مُحكم النَّظم والنَّثر

وهي تقع في ٦٣ بيتاً .

وبآخر المخطوط ما نصّه : " على يد راقم بُردِه ومُفَوِّقِه ، وناظم عقده ومُؤلِّفه ، الفقير إلى الله تعالى أحمد بن الحسين بن محمد بن العُلَيف المكي المدني الشافعي غفر الله ولوالديه ولمشائخه وأحبابه .. " [٧] .

ويبدو من محتوى الكتاب ونصوصه أن ابن العليف أراد بتأليفه هذا أن يتقرب من السلطان ويمدحه طلباً لكرمه وإحسانه فإن من صفات وعادات ملوك العثمانيين أنهم كانوا يغدقون إكرامهم على أهل الحجاز . فكانت هذه النسخة سلطانية جميلة الشكل كبيرة الحجم اعتنى المؤلف بنسخها بيده واهتم بتجميل خطها .

أسلوب ابن العليف ومصادره في كتابه :

كان ابن العليف شاعراً بارعاً يمكن أن يُعتبر أكبر شعراء مكة في عصره ؛ لذلك نراه في كتابه هذا أديباً ناثراً امتلك عنان اللغة ، فجاء أسلوبه فيه بالغ الدقة في التعبير ، يختار ألفاظه ومعانيه ويتصرف في ذلك بلغة جزْلة مع استعمال المحسّنات البلاغية واللّجوء في أحيان كثيرة إلى السجع والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال وأقوال العلماء وبدائع الشعراء .

وبما أنه كان يقصد التقرب من السلطة العثمانية فقد أوغل في مدح السلطان بايزيد كعادة أبناء عصره في مدحهم ، واعتمد في أغلب فصول الكتاب المبالغة في التقرب إليهم بإطراء أصول العثمانيين الذين كان يُطلق عليهم عامة الأدباء والمؤرخين اسم الروم ، فإن لفظ الروم في تلك المرحلة وبعدها يُقصد به الأتراك . وقلما تجد المؤرخين والأدباء يذكرون الأتراك إلا باسم الروم ، وربما كان ذلك بسبب استعمال لفظ الروملي أو أرض روم في تسمية إحدى مناطق مملكتهم . وقد وقع المادحون للأتراك في خطأ كبير عندما وسعوا نسبة الأتراك فأدخلوا فيها من يسمّون بالروم من الرومانيين أو من عامة الأوروبيين حتى ربطوا نسب الأتراك بذي القرنين ونسبوهم إلى ملوك روما وبلغ بهم الأمر أن نسبوهم إلى ملوك البلاد الأسبانية . وفي هذا الخلط الواضح وقع ابن العليف أيضاً فجمع من النصوص الدينية كل ما ورد فيه لفظ الروم وألحقه بتاريخ الأتراك سواء من القرآن أو الأحاديث النبوية أو كتب التفسير أو من النصوص التاريخية والأدبية ، فجمع بذلك العديد من النصوص التي أوردها في كتابه من مصادر عديدة ومتنوعة .

مصادر الكتاب :

وبغض النظر عن وقوع المؤلف في هذا الخطأ الشائع في عصره فإن مصادر الكتاب التي نقل عنها الأخبار والحوادث والأقوال تُعتبر غنية ثرية دالة على ثقافته وسعة اطلاعه ومعرفته بالمؤلفات كبيرها وصغيرها . ولا أبالغ إذا قلت إن مصادر الكتاب قد قاربت المائة بين تفاسير القرآن والكتب الجامعة للأحاديث النبوية والمفسرة لها ، يضاف إلى ذلك كتب الآداب الدينية وكتب التاريخ والبلدان والطبقات مع كتب الأدب الكبيرة التي جمعت الكثير من الأخبار ، وهو يعرضها في أغلب الأحيان بعد أن يذكر عناوينها ومؤلفيها ، ولو أنه في بعض المناسبات يُهمل إيراد اسم المؤلف وعنوان الكتاب .

* ابن ظهيرة : أحمد بن عطية القرشي المكي (كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) [٨].

هو من عائلة بني ظهيرة المكية التي اشتهر منها العديد من العلماء على مر القرون .

ولد سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م . أخذ العلم في صغره على العديد من شيوخ مكة والواردين عليها ومنهم السخاوي الذي وصفه في كتابه الضوء اللامع بأنه ذكي قوي الجنان والحافظة .

ورغم أنه من كبار علماء الشافعية إلا أنه تولى القضاء الحنبلي بمكة لخلوها من فقهاء الحنابلة رغم توليه نيابة قاضي الشافعية .

من مؤلفاته في التعريف بشخص واحد :

كتاب : (جواهر العقود ، في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود) .

وضع فيه ترجمة موسعة للشيخ القاضي جمال الدين أبي السعود بن ظهيرة القرشي المكي الذي توفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م . وهو جد المؤلف حسبما ورد في الكتاب ص٤ .

لا نعرف من الكتاب غير نسخة واحدة محفوظة بدار الكتب المصرية (تيمور) رقم ٥٠٣٧ تقع في ٥٣ ورقة ، نسخها الحافظ المؤرخ المكي جار الله بن فهد مؤرخة بسنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م ونقلها عن نسخة بخط المؤلف مؤرخة سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م .

وبعد الاطلاع على صورة المخطوط المحفوظة بمركز البحوث التابع لجامعة أم القرى (رقم ٢٣٠ تاريخ) تبين لنا أنه رتبه على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة .

فالمقدمة في نسب وولادة المترجم وما حصل عند ظهوره لوالده وأهله من السعادة والباب الأول: في مبدا أمره وما حفظه من الكتب وطلبه للعلم .

والباب الثاني : في تحصيله . وذكر مَن لازمه من الشيوخ ورجال العلم . وما أخذ عنهم من الكتب .

والباب الثالث : في تدريسه وافتائه ووظائفه السنية وعلو قدره ، وعرض فيه الكتب التي دَرسها في الحرم في علوم القرآن والحديث والفقه والآداب والتاريخ وعيَّن بعض مواطن تدريسه وأماكنه في مكة .

والباب الرابع : في ماله من التصانيف وما كتبه العلماء عليها من تقاريض وإجازات العلماء له مثل السخاوي ومن عاصره .

والباب الخامس : في صفاته وشمائله .

والباب السادس : في مهماته النفيسة .

والباب السابع : أورد فيه شيئاً من شعره فعرض فيه العديد من أشعاره وقصائده الطويلة وما مدحه به البلغاء من أدباء عصره .

أما الخاتمة : فقد خصصها لوفاة المترجم وما اتفق له من حسن الخاتمة .

ويشتمل المخطوط على تقريضات كثيرة من كبار علماء عصره من حجازيين ومصريين وشاميين، من بينها إجازات هامة منها إجازة السخاوي للمترجم وهي طويلة .

* جار الله بن فهد : محمد بن عبد العزيز (العز) بن عمر (النجم) بن فهد الهاشمي المكي (ت٩٥٤هـ/١٥٤٧م) (٩) .

من عائلة راسخة الجذور في العلم تعدد علماؤها وكثرت تآليفهم وظهرت مؤلفاتهم طيلة قرنين ونصف من الزمن ، اشتهروا بعلم الحديث وبرعوا في علم التاريخ العام والخاص فأولَوْا عنايةً فائقةً بالتاريخ المكي سجلوا فيه الكثير من المؤلفات ، تنحَّوا عن تولّي الوظائف السياسية والشرعية فلم تظهر لهم غير شهرتهم العلمية (١٠) .

ولد جار الله بمكة سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وتلقى العلم على والده وكبار شيوخ الحرم من المكيين والمجاورين ثم رحل لطلب العلم من القاهرة واليمن ودمشق وغيرها .

ألف العديد من الكتب والرسائل في مختلف الفنون ، واهتم اهتماماً خاصاً بفن التاريخ فبلغت مؤلفاته فيه ٣٥ بين كتاب كبير ورسالة تناولت العديد من المجالات التاريخية .

ومن مؤلفات جار الله في التراجم الخاصة :

كتاب : (الجواهر الحسان ، في مناقب السلطان سليمان بن عثمان) .

هو كتاب ألفه جار الله بن فهد عندما كان في مدينة بورصا العثمانية سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م وقدّمه هدية للسلطان سليمان القانوني العثماني ذكر فيه مناقبه ، كما ضمنه رِسالةً رفعها إليه ، وعرض فيه تاريخاً موجزاً للدولة العثمانية وسجل انتصاراتها وإنجازاتها ، مع اهتمامه الواضح بوقائع فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح . وفي القسم الأخير من الكتاب عرض الكثير من المشاكل المادية التي كانت واجهت مكة وأهلها في عصر المماليك ، ثم سجّل ورود الإنعامات العثمانية عليها مع شكره للسلطان سليمان على عنايته بمكة وأهلها .

ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب الأولى (الورقة ٨ أ) أنه رتبه على مقدمة وبابين وخاتمة.

المقدمة : من الورقة (٩ أ إلى ١٩ أ في الهدية للملوك) بدأها بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " وعرض فيها الأحاديث الواردة في الهدية للملوك ، ثم ألحق بها رسالة رفعها للسلطان العثماني سليمان . وفي النص يصف المؤلف نفسه بأنه (خادم الحديث الشريف ، ومؤرخ بلد الله المعظم المنيف) .

الباب الأول : (من الورقة ١٩ ب إلى ٧٠ أ) عرض فيه تاريخاً موجزاً للدولة العثمانية مع ذكر بطولاتها في فتح القسطنطينية والفتوحات الأخرى ، ومواجهتها للتحرك الشيعي الصفوي القادم من إيران ، مع الاعتناء بانتصارها على المماليك في الشام وفي مصر ، ثم انضواء مكة المكرمة ضمن الولايات العثمانية في عهد السلطان سليم .

الباب الثاني : (من الورقة ٧٠ أ إلى ٩٣ أ) خصصه لذكر فضائل الروم - وهم أصول العثمانيين - مُحيلاً على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ورد فيها لفظ الروم ، مجارياً لما كان يقع من خلط عند الكثير من مؤرخي عصره وتعميمهم لفظ الروم على الأتراك وغير الأتراك . وأورد جار الله بن فهد الكثير من النصوص التي تذكر مكارم الأتراك وفضائلهم ، خاصة في إعاناتهم لمكة المكرمة وعناياتهم بأهلها ، مع إبراز ما قام به السلطان سليمان القانوني في هذا المجال . ثم نقل نص رسالة الوصية التي كان كتبها شيخ مكة محمد بن عراق ووجّهها إلى السلطان سليم والد السلطان سليمان . ثم ختم الباب بأدعية كثيرة وبليغة خصصها لسلطان عصره .

الخاتمة : (من الورقة ٩٣ أ إلى ١٢٧ أ) أورد فيها أيضاً أحاديث في فضل العثمانيين وفَضل نصيحة السلطان ، ثم تطرق إلى أوضاع الحرمين الشريفين ، وشرع في تذكير السلطان بمكانتهما ، ونصحه بالعناية بهما . وبيّن شرف أهل مكة عند الله وعند الناس ، وفضل المجاورة ، منتقلاً إلى بيان معاناة أهل مكة من الغلاء ، ودعاه إلى الشفقة بهم وإعانتهم مع عرضه للمشاكل الاقتصادية وما شاهده من نتائجها في عصره خاصة ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، مشيراً إلى ما أرسله الملوك العثمانيون من عطايا وهبات .

اعتمد جار الله في تأليفه هذا على مصادر عديدة منها كتب الحديث النبوي على مختلف درجاتها وأهميتها مورداً الأحاديث ببعض أسانيدها أحياناً وبمختلف رواياتها أحياناً أخرى ، ومن مصادره كتب التاريخ المكي خاصة والتاريخ الإسلامي عامة دون إهمال لبعض المصادر من كتب

الجغرافيا وأوصاف البلدان . كما استشهد ببعض الأشعار والنصوص الأدبية . وكان سالكاً في جميع كتابه مسلك المحسنات البديعية والتزويق اللفظي والسجع .

من الكتاب نسخة في مكتبة جامعة اسطنبول (دار مثنوي رقم ٣٦٠) تشمل على ١٢٨ ورقة نُقلت عن نسخة المؤلف .

*** ابن حجر الهيتمي المكي : أحمد بن محمد بن حجر شهاب الدين (ت٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م[١١]).**

فقيه محدثٌ مؤرخ مصري المنشأ ، ورد إلى مكة المكرمة فقضى بها ٣٤ سنة من حياته إقامة دائمة بعائلته تاركاً نسله فيها . بدأ تكوينه العلمي في مصر حيث أخذ عن كبار علمائها من الشافعية مثل زكريا الأنصاري وعبد الحق السنباطي والشهاب الرملي . ولما دخل مكة كان متكامل التأسيس العلمي فدرّس الدروس العديدة في الحرم وفي بيوت العلماء ، وألف المصنفات الكبيرة والصغيرة ، وكان واعياً بمشاكل مجتمعه ، فأفتى الفتاوى الكثيرة ، وعاش في مكة محترماً ومفيداً بكتبه العديدة التي تناولت العلوم الدينية والتاريخية والقضايا الاجتماعية والسياسية مما جعله يحتل الدرجة الهامة بين علماء مكة في عصره .

كانت عناية ابن حجر الهيتمي بالتأليف في فنون التاريخ كبيرة ، حيث ألف فيها واحداً وأربعين تأليفاً ، تناولت العديد من مجالاته وفنونه . ومن بين مؤلفاته التاريخية التي تتعلق بالتراجم ، عدة كتب تناولت التعريف بشخص واحد هو الإمام أبو حنيفة النعمان وسنتناولها بالعرض الموجز فيما يلي نقلاً عن دراستي لها في رسالتي للدكتوراه .

كتابات ابن حجر المتعلقة بترجمة أبي حنيفة النعمان :

وضع ابن حجر عدة ترجمات مختلفة الأساليب لأبي حنيفة النعمان فجاءت في خمس ترجمات ، ثلاث منها قصيرة وضعها في ثنايا كُتبه الحديثية وغيرها ، وترجمتان جعلهما في كتابين خاصين بالموضوع .

١- ترجم ابن حجر لأبي حنيفة في كتابه الحديثي (فتح الإله ، في شرح المشكاة) ضمن ترجمته لجماعة من كبار أئمة الحديث والفقه ، شملت نسبه ومولده وعلومه التي تلقاها من الصحابة والتابعين وتلاميذه ومحنته في توليه القضاء لبني أمية وبني العباس وبعضاً من أقوال العلماء فيه ووفاته .

٢- وضع ابن حجر لأبي حنيفة ترجمة موجزة جاءت في شرحه لكتاب عين العلم وطُبعت في مقدمة كتابه الخيرات الحسان الذي سنذكره بعد قليل .

٣- ترجم ابن حجر ترجمة ثالثة قصيرة أيضاً للإمام أبي حنيفة ضمنّها في معجمه المعروف بالإجازة ، اشتملت على اسمه ومولده وشيوخه وسبب تأليفه كتاباً مستقلاً في مناقب أبي حنيفة ، وذلك للرد على من أتهَم الإمام الغزالي الشافعي بوضع كتاب في الحط من أبي حنيفة وهو بريء من ذلك .

٤- الترجمة الرابعة التي وضعها ابن حجر للإمام أبي حنيفة جاءت في رسالة مستقلة بعنوان " رسالة في مناقب أبي حنيفة النعمان " أحال عليها ابن حجر نفسه في مقدمة كتابه الثاني في الموضوع والمعنون بـ " الخيرات الحسان " وقال ابن حجر عن سبب تأليفه لهذه الرسالة بأنه كان استجابة لطلب أحد علماء القسطنطينية . ووضح أنه كتب منه عدة نُسخ وزعت في البلاد وفُقدت منه نسخته الأصل لذا أعاد التأليف في نفس الموضوع وكتبه من جديد تحت عنوان " الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان " .

ورغم أن ابن حجر قد أضاع نسخته في زمانه إلاّ أننا عثرنا في بحثنا على ثلاث مخطوطات منه وهي : نسخة دار الكتب المصرية ضمن المجموع رقم (٢/٢١٢) تشتمل على ٢٧ ورقة ، ونسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (٩٠٠/٢١٥) تقع في ٢١ ورقة ، ونسخة ثالثة بالمكتبة الظاهرية بدمشق برقم (١٠١٠٥) . ولقد ألف ابن حجر رسالته هذه في سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م بمكة المكرمة وقسمها على مقدمة وثلاثين فصلاً ، ذكر في المقدمة سبب التأليف وخصص الفصول الثلاثين لترجمة الإمام ونسبه ومولده وفضله وشيوخه وتلاميذه وفتاويه وصفاته ومحنته ثم وفاته .

٥- الترجمة الخامسة التي وضعها ابن حجر للإمام أبي حنيفة هي كتابٌ بعنوان : الخيرات الحسان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . وجاء هذا الكتاب أيضاً بعنوان آخر وهو : قلائد العقيان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

ذكر ابن حجر مؤلفه هذا وأحال عليه في كتابه الإجازة المعروف بالمعجم كما أحال عليه في كتاب آخر له بعنوان المناهل العذبة في إصلاح ما وهي من الكعبة .

طُبع كتاب الخيرات الحسان طبعات عديدة بمصر ، وله طبعة أخيرة بلبنان . ومنه عدة نُسخ

مخطوطة اطلعت على واحدة منها بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم ١/١٨٣٦ وهي نسخة حسنة واضحة الخط .

يشتمل الكتاب على ٣ مقدمات وأربعين فصلاً .

يقول في أوله إنه ألفه استجابة لرغبة رجل من فضلاء القسطنطينية دعاه إلى وضع كتاب في مناقب أبي حنيفة ، كما يذكر أنه لخصه ونقحه من كتاب آخر في الموضوع وهو كتاب عقد الجمان لمحمد الشامي .

ولابن حجر سبب آخر أهم في تأليفه لهذا الكتاب وضحّه في المقدمة الأولى .

وهو ما شاع عن الإمام الغزالي في تأليفه لكتاب يحط فيه من أبي حنيفة ويسبّه ، وما أحدث هذا الكتاب من ردود فعل عند بعض العلماء ، مثل الكردي الذي ألف كتاباً في الحط من الإمام الشافعي ، إلا أن ابن حجر رفض تطاول العلماء والمؤرخين على الأئمة وانبرى في تأليف هذا الكتاب .

جعل المقدمة الأولى في الرد على ما ورد في الكتاب الذي نُسب إلى الغزالي في الحط من أبي حنيفة مع عرض ما مدحه به كبار العلماء . وفي المقدمة الثانية نهى الناس عن الوقوع في الأئمة والمجتهدين من العلماء . وفي الثالثة فيما ورد من تبشير النبي صلى الله عليه وسلم بالإمام أبي حنيفة ، وفيها استشهاد على فضل أهل فارس (وهم أصول أبي حنيفة) بالأحاديث التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموضوع .

أما الفصول الأربعون فقد قسمها بين العناصر التالية :

- ترجمة أبي حنيفة وذكر شيوخه وتلاميذه .
- مجالسه العلمية والأسس التي بنى عليها مذهبه .
- أخلاقه ودينه : من عبادة وتقى وآداب .
- وفاته وما قيل فيها من روايات .
- الرد على ما قيل فيه من التجريح .

ومن الملاحظ أن منهج ابن حجر في كتابه الخيرات الحسان هذا يختلف عن منهجه في رسالته

الأولى السابقة لأنه توسع في الأخبار التي أوردها في الكتاب الثاني وأضاف معلومات لم يذكرها في الرسالة الأولى [١٢] .

ولنا أن نتساءل هنا بعد هذا العرض : ما الذي يجعل فقيهاً من كبار فقهاء المذهب الشافعي في عصره يؤلف خمس مؤلفات في المدح والثناء على إمام مذهب آخر كالإمام أبي حنيفة ؟ وقد يأتي الجواب من خلال العرض السابق ، فلعل السبب يعود إلى ما أشيع من أن الإمام الغزالي ألف كتاباً في الحط من أبي حنيفة ، فقام بعض الأحناف بردة الفعل ووضع مؤلف في ذم الإمام الشافعي . فيتضح لنا هدف ابن حجر الهيتمي من تعدد كتاباته في مناقب أبي حنيفة بأنه أراد ردع الناس من الكتابات التي تمس رجال العلم وأعلامه الفقهاء نتيجة للتعصب بين المذاهب السنية وبيان وجوب احترام المذاهب الأخرى على اختلافها . كما يمكن أن يكون ابن حجر قد قصد من تآليفه المتعددة هذه عدم تعصب الشوافع وفقهاءهم ضد المذهب الحنفي مذهب الدولة العثمانية القائمة بمكة آنذاك وإطفاءً لنار فتنة ربما تقوم بين مذهب الدولة والمذاهب الأخرى المتعايشة في المجتمع المكي . وذلك هو الدور الحقيقي للعلماء .

* كتاب (تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان) .

وضع ابن حجر كتابه هذا في ترجمة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[١٣] .

نسبه له تلميذه السيفي في ترجمته وقال : " إن ابن حجر وضع كتابين في فضائل معاوية أحدهما أبسط من الآخر " [١٤] . وبعد البحث عن نسخ الكتاب لم نعثر إلا على كتاب واحد يحمل هذا العنوان لذا لم نعرف إن كان هو الأطول أم الأبسط .

طُبع الكتاب مع كتاب آخر لابن حجر الهيتمي وهو الصواعق المحرقة ، لإخوان الشياطين أهل البدع والضلال والزندقة . طبعة مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، وله طبعة حديثة بتحقيق أبي عبد الرحمن المصري دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

سبب تأليف الكتاب :

كما هو واضح من عنوان الكتاب فإن ابن حجر ألَّفه في الرد على من تطاول على الصحابي معاوية - t - ، وهذا دأب العلماء في تحمل مسئولياتهم والدفاع عن الصحابة من اعتداء الرافضة والشيعة وأهل البدع عليهم .

وقال في مقدمته : أنه ألفه استجابة لطلب من السلطان همايون أكبر سلاطين الهند (توفي سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م)[١٥] لظهور هؤلاء الرافضة في بلاده .

فوضع ابن حجر كتاباً بيّن فيه فضل معاوية وصفاته وما قيل فيه من أحاديث وذكر جهاده في نشر الإسلام وتنظيم دولته الأولى بعد عهد الخلفاء الأربعة وغير ذلك من مزاياه .

ورتبه على مقدمة وفصول وخاتمة .

اشتملت المقدمة : على بيان وجوب محبة جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم معاوية رضي الله عنهم أجمعين .

وجاءت فصول الكتاب للحديث عن مناقبه وعلومه وجهاده .

واشتملت الخاتمة : على فوائد منها قضية مقتل عثمان – t – ، وأحداث معركتي الجمل وصفين ، والصلح بين الحسين ومعاوية ، وبعض أخبار خلفاء بني أمية .

ولقد اعتمد ابن حجر في كتابه على مصادر الحديث وكتب المغازي والسير وبعض كتب التاريخ المكي كالفاكهي .

* عبد القادر الفاكهي المكي : عبد القادر بن أحمد بن علي (ت٩٨٩هـ/ ١٥٨١م[١٦]).

ولد الفاكهي بمكة سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ودرس على كبار الشيوخ والعلماء ، فجمع من العلوم زاداً واسعاً في مختلف الاختصاصات ، من تفسير وفقه وأدب وتاريخ . كثُرتْ مؤلفاته حتى شبهه بعض المؤرخين بالجلال السيوطي[١٧] .

له بعض المؤلفات في التاريخ والسيرة . أما كتبه من التراجم التي تناولت التعريف بشخص واحد فقد عرفنا عناوين ثلاثة منها ذكرها المؤرخون وهي :

كتاب فضائل (أو مناقب) ابن حجر الهيتمي :

الذي ذكره الشوكاني ونقل عنه الغزي[١٨] منه نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكي برقم ١٤ تراجم (الفيلم رقم ١٨١٤) تقع في ثمان ورقات .

بعد الاطلاع على نسخة المخطوطة تبين أنها اشتملت على ضبط اسم ابن حجر الهيتمي ونسبه

وانتمائه وأصول قبيلته وولادته ووفاته ، مع ترجمة موجزة له يغلب عليها عرض أوصافه ودرجته العلمية ومختلف اختصاصاته مع ذكر بعض مؤلفاته . ثم أضاف إلى ذلك قصيدة في مدح ابن حجر الهيتمي كتبها الشاعر عبد العزيز الزمزمي ، وقصيدتين كتبهما المؤلف عبد القادر الفاكهي إحداهما في مدح الشيخ والثانية في رثائه .

ويذكر الفاكهي أنه لخص الرسالة مما كتبه أبو بكر با عمرو السيفي في ترجمته لشيخه ابن حجر .

كتاب القول النقي في مناقب المتقي :

لم نعرف منه نسخة وإنما عنوانه وبعض النقول عنه تدل على أنه يشتمل على ترجمة علي المتقي بن حسام الدين بن عبد الملك ابن قاضي خان المتوفى سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م . وهو من كبار علماء مكة ومن المشهور عنه الصلاح والتقوى .

نسب هذا الكتاب لعبد القادر الفاكهي العيدروسي ونقل عنه نصوصاً عدّيدة ، ولا نعرف منه نسخة [١٩] .

رسالة في مناقب عبد الرحمن العمودي :

كذلك لم نعرف من هذه الرسالة نسخة إلا أن عنوانه والنقول عنه تدل على أن فيه ترجمة للإمام العمودي المتوفى سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م ، وهو من علماء مكة وعبادها ، تتلمذ على ابن حجر الهيتمي وغيره ، وله مؤلفات في الفقه الشافعي . وقد نقل العيدروسي عن كتاب الفاكهي في مناقب عبد الرحمن العمودي أنه قال : " ومناقبه أفردتها في رسالة " فيؤكد وجود هذه الدراسة ، كما نقل نصوصاً أخرى منها تدل على مكانته العلمية وقيمته في مجتمعه [٢٠] .

الصنف الثاني : الكتب التي تناولت التعريف بالعديد من المترجمين

وهي كتب الطبقات .

تتنوع كتب الطبقات إلى نوعين رئيسيين هما : كتب الطبقات العامة وكتب الطبقات الخاصة.

فكتب الطبقات العامة هي تلك التي وُضعت لتراجم خاصة الناس وعامتهم على مختلف اختصاصاتهم وأنواعهم وبلادهم ، مثل كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وذيله الوافي بالوفيات للصفدي ، وغير ذلك كثير .

وخلال بحثنا عن كتب الطبقات التي ألفها المكيون في القرن العاشر لم نجد كتاباً واحداً أُلف في هذا المجال . ولعل آخر كتاب مكي من كتب الطبقات العامة ألف قبل القرن العاشر الهجري هو كتاب " دستور الأعلام " الذي ألفه محمد بن عمر بن عزم التونسي ثم المكي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) .

وأما كتب الطبقات التي وضعها المؤرخون المكيون في القرن العاشر فقد خُصصت للتعريف بجماعات معينة وتنوعت إلى العديد من الجوانب :

فمنها كتب اختصت بجماعة معينة من الأنبياء .

ومنها التي اختصت بجماعة يتحدون في انتساب واحد كالتي وضعت لتراجم آل البيت.

ومنها التي اختصت بالحكام والملوك .

ومنها التي خصصت لتراجم العلماء ، وأصحاب الوظائف الدينية كالأئمة والفقهاء ، والخطباء .

ومن هذه الاختصاصات ألف المكيون في القرن العاشر الهجري عدداً من المؤلفات نورد الحديث عنها في ما يلي بمنهجية نذكر فيها مصنفات المؤلفين مرتبين على ترتيب تواريخ وفياتهم.

* العز بن فهد : عبد العزيز بن عمر (ت٩٢٢هـ/١٥١٧م) [٢١] .

هو ثالث كبار المؤرخين والحفاظ من عائلة الفهود ، تتلمذ على كبار علماء عصره من المكيين والمشارقة عامة ، فمن شيوخه : والده النجم بن فهد ، وابن حجر العسقلاني ، وإمام الفقه الشافعي في عصره الشيخ زكريا الأنصاري . وتتلمذ عليه الكبار ومنهم السخاوي .

اشتهر في المجتمع المكي ونال فيه الدرجة اللائقة به ، تنوعت مؤلفاته بين التاريخ والحديث والعقيدة وغير ذلك ، اهتمت كتب التاريخ الكبيرة بذكر أخباره وترجمته والنقل عنه . وترك عدداً وافراً من المؤلفات ، كما نسخ بخطه العديد من كتب التاريخ والتراجم التي ألفها والده النجم أو التي ألفها التقي الفاسي .

وللعز بن فهد ثلاثة كتب وضعها في تراجم الطبقات الخاصة وهي : كتاب غاية المرام ، وكتاب نزهة ذوي الأحلام ، وكتاب ترتيب طبقات القراء للذهبي .

فله كتاب اختص بأصحاب الوظائف كالأئمة والخطباء ، والفقهاء ، وهو :

١- كتاب (نزهة ذوي الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام) .

هو كتاب في الطبقات ، ذكره ونسبه إليه المحبي والكتاني [٢٢] ولم نعرف للكتاب نسخة مخطوطة ، ويبدو من عنوانه أنه خصصه لتراجم الخطباء والأئمة والقضاة في مكة المكرمة .

وله كتاب اختص بأمراء مكة وهو :

٢- كتاب (غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام) .

أما عن كتاب غاية المرام هذا فنشير إلى أنه وعلى ما يبدو قد اشترك فيه الوالد النجم وابنه العز بن فهد في تأليفه ، ونُسب إلى الابن لأنه هو الذي أكمل نصوصه الكثيرة وألحق به قسماً كبيراً من تاريخه ، حسبما أثبته د. محمد الحبيب الهيلة بعد مقابلته المخطوطات [٢٣] .

ألف العز بن فهد كتابه هذا ليقدمه لشريف مكة أبي زهير بركات بن محمد بن بركات الحسني[٢٤] ليكون في خزانته لذا قال عنه في مقدمة كتابه : " وخدُمت بهذا التأليف خزانة من ألف برسمه ، وشرُف قدره باشتماله على اسمه ، وهو السيد الشريف ، والطود المنيف ... أبو زهير بركات ، عين المملكة وسر الذات ، سلطان مكة " [٢٥] .

لذا نرى أن العز بن فهد أكثر علماء عائلته مدحاً لأمراء مكة وأشدهم مبالغة في ذلك ، فجاءت مقدمة كتابه مشتملة على الكثير من أوصاف الأمتداح والتحلية لأمير مكة في عصره أبي زهير بركات ملحقاً ذلك بالعديد من الأشعار المادحة له . ثم تدرج إلى آبائه أمراء مكة التسعة واصفاً كل واحدٍ منهم بالأوصاف العلية والمدح والتشريف مع اختيار الأشعار في تفضيل كل واحد منهم [٢٦] .

تناول كتاب غاية المرام تراجم وأخبار الولاة والحكام الذين حكموا مكة من سنة فتحها في العهد النبوي إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري وهو العام الذي توفي فيه المؤلف ٩٢١هـ/١٥١٥م ، فأشتمل الكتاب على ٢٠٥ ترجمة .

واختلف أسلوب الترجمة حسب الأمير المترجم له فجاءت بعضها موجزة مختصرة وبعضها مطولة كما في ترجمته لعبد الله بن الزبير في قرابة ٣٦ صفحة [٢٧] وكما في ترجمته المطولة لشريف عصره بركات حيث بلغت ٣٠٤ ورقة [٢٨] .

أما عن مصادر هذا الكتاب الهام في تاريخ أمراء مكة وحكامها فقد اعتمد مؤلفه في جزئه

الأول على العديد من كتب الحديث والسيرة وتراجم الصحابة وأورد اختلاف الروايات فيها ، واعتماد العز بن فهد على كتب الحديث والسيرة يعود إلى سعة معرفته بالحديث ومؤلفاته ، كما اعتمد في كامل الكتاب على كتب التاريخ القديمة والقريبة من عصره .

ومن أهم مصادره التاريخية تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير ، وكتاب العقد الثمين للفاسي ، وتاريخ إتحاف الورى وكتاب الدر الكمين وهما لوالده النجم بن فهد ، وكان يعزو كل نص استفاده من المصادر إلى أصله .

ومن المهم في مصادر العز بن فهد أنه نقل وسجل لنا نصوصاً تاريخية هامة رغم ضياعها وعدم توفرها بين أيدينا مثل نقولاته المطولة عن تاريخ ابن محفوظ المكي [٢٩] .

٣- كتاب (ترتيب طبقات القراء ، للذهبي) :

اختص بطبقات خاصة محددة وهم القراء ، ولم نعرف له نسخة وإنما ذكره الغزي وابن العماد والكتاني ونسبوه إليه [٣٠] .

* محمد بن أبي السعود بن ظهيرة (ت ٩٤٠هـ/١٥٣٤م) [٣١] .

هو فقيه عالم ويُعد من المؤرخين الذين ألّفوا في الطبقات ، تولى القضاء بمكة فكان قاضي القضاة بها إلى وفاته .

ذكر جار الله بن فهد بعض أخباره في كتابه نيل المنى [٣٢] .

- كتابه هو (الأخبار المستفادة ، فيمن ولي مكة من آل قتادة) .

ومن عنوان الكتاب نفهم أنه وضعه لترجمة وتاريخ أمراء مكة من القتاديين الذين حكموها بداية من سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م إلى عصر المؤلف [٣٣] ؛ ولم نعرف من الكتاب نسخة موجودة وإنما ذكره ونسبه إليه العصامي في مقدمة كتابه وحاجي خليفة في كشف الظنون [٣٤] .

* مؤلفات جار الله بن فهد في الطبقات [٣٥] :

كما اهتم جار الله بالكتابة في التراجم للشخص الواحد فقد اهتم أيضاً بالتأليف في الطبقات الخاصة ، فصنف منها ثمانية كتب تنوعت موضوعاتها وأغراضها وهي :

١- كتاب الأقوال المتبعة ، في بعض ما قيل في مناقب أئمة المذاهب الأربعة .

وهي رسالة انفرد بنسبتها لجار الله بن فهد الزركلي [٣٦] وذكر بأنها مخطوطة من خمس ورقات حفظت بالمكتبة الظاهرية برقم ٢١٣ . وأنها عبارة عن تلخيص لمناقب الأئمة الأربعة فجاءت موجزة ملخصة من مصادر سابقة . ولم نتمكن من الاطلاع عليها ، رغم حرصنا على ذلك .

٢- كتاب (بلوغ الأرب ، بمعرفة أي الأنبياء من العرب) .

ذكره ونسبه إليه حاجي خليفة [٣٧] ، وقال : ألفه سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٩م .

وهو رسالة صغيرة مختصرة قال مؤلفها جار الله في مقدمتها : " فقد تكرر السؤال عن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هل نسبتهم للعجم أو العرب ، وهل اسمهم ولفظهم أعجمي أو مُعرب ... فأستخرت الله في بيان ذلك فجمعته على أحسن الطرق والمسالك ... الذي ظهر لي من كلام العلماء والمفسرين وقصص الأنبياء وكتب النسب والتاريخ أن العروبية فيهم تنقسم على ثلاثة أقسام عربي الاسم [وقد اعتبر أن اسم آدم عربياً من اديم الأرض] وعربي النسب وعربي اللسان " [٣٨] .

عرض المؤلف في رسالته هذه أصول الأجناس البشرية من أبناء نوح عليه السلام الساميين والحاميين وبني يافث ، بروايات متعددة تتماشى مع آراء وأقوال عصره ، وعرض أسماء الأنبياء من العرب معتمداً على نصٍ من فتاوى الشيخ أحمد العراقي متعلقاً بمعرفة الأنبياء والمرسلين المذكورين في الكتاب والسنة ، وفي نهاية الرسالة يقول : " لما قدم علينا شيخنا الإمام أبو الحسن محمد بن محمد البكري القاهري في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وتسعمائة سألته نظم هذه الأقوال فقال في مجلسه بديهة :

إذا رُمت عدّ الأنبياء من العرب ... فهم خمسةٌ في قول جمع قد اقترب
محمد هود صالح وشعيب مع ... أخي المجد إسماعيل يا صاحب الأدب
وأكثرهم يُعزى ليعقوب غير من ... تقدمه أو للأخير قد انتسب " [٣٩]

وقد اعتمد المؤلف في هذه الرسالة على العديد من المصادر الهامة سواء في الأنساب مثل تهذيب الأسماء واللغات للنووي ، وكتاب نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي ، كما اعتمد على العديد من الكتب اللغوية من أهمها كتاب : المعرب للجواليقي وكتاب المزهر في علوم اللغة للسيوطي .

اعتمدنا في هذا التعريف على مخطوطة حُفظت بمكتبة الحرم المكي ضمن المجموعة رقم ٤٢٣ حديث وقد وقع ترقيمها بالصفحات من ص٣١-٣٩ ، وهي نُقلت من خط المؤلف كتبها علي الحسني سنة ١٠٣١هـ/١٦٢٢م .

٣- كتاب (تاريخ بُفيد في معرفة المترجمين في الضوء اللامع من الأحياء) .

جعله جار الله ذيلاً لكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ، فأكمل فيه تراجم العلماء الذين عاشوا بعد وفاة السخاوي ولم يذكرهم في كتابه ، فأضاف جار الله العديد من المعلومات لتراجمهم .

إلا أننا لم نعثر على نسخة من الكتاب ، وإنما وجدنا عنه نقولاً كثيرة في كتاب النور السافر للعيدروسي حيث اعتمد عليه في النقل عن سبعة عشر من تراجم العلماء .

وفي كتاب السحب الوابلة لابن حميد حيث نقل عنه في أربعة عشر ترجمة .

وتفاوتت هذه النقول في الكتابين بين النصوص الطويلة للترجمة (٤٠) وبين النقول المتوسطة والقصيرة غالباً (٤١) .

ولقد تعددت التراجم التي نقل فيها العيدروسي أخباراً منقولة عن هذا الكتاب لجار الله بن فهد إلا أن أغلبها كانت تهم علماء المكيين من مختلف المذاهب الفقهية ، في حين أن نقول ابن حميد في السحب الوابلة اختصت بالحنابلة من الفقهاء ، وأغلبهم من غير المكيين .

نضيف إلى ذلك أن ابن حميد قد اعتمد في النقل على أكثر من نص عن جار الله (٤٢) ؛ وذلك في الترجمة لشخص واحد من الفقهاء ، فنجده يقول في أول النقل : قال الشيخ جار الله بن فهد القرشي المكي في تذييله على الضوء ، ثم يقول في نقل آخر : قال في الضوء ، ويلحقها في نقل ثالث بقوله : قال جار الله (٤٣) .

وقد يرجح ابن حميد ما ينقله عن جار الله ويبين الأسباب كقوله في ترجمة إبراهيم الشويهي: " ما ذكره الشيخ جار الله في تاريخ وفاته أصح لأنه أجازه سنة أربع عشرة وهو أعرف بذلك "(٤٤).

وعلى كلٍ فإن النصوص التي نقلها الكتابان تعتبر هامة إذ احتوت على إضافات تاريخية لتراجم العديد من المكيين وغيرهم جُمعت من كتاب جار الله بن فهد الذي وضعه تكملة وملحقات على كتاب الضوء اللامع للسخاوي مع اعتمادهما على الكثير من المصادر الأخرى .

٤- كتاب تحفة اللطائف ، في فضل الحبر ابن عباس ووج والطائف .

نسب هذا الكتاب لجار الله بن فهد حاجي خليفة وقال : " ألفه سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م (٤٥) إلا أن مطالعة الكتاب تدلنا على أنه ألفه بعد ذلك التاريخ ، ففي ص٣٤ منه يذكر جار الله أنه زار الطائف سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م ويترحم على والده العز بن فهد المتوفى سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م مما يدل على أن الكتاب ألف بعد ذلك .

على الرغم من أن العنوان يدل على أن الكتاب تناول مدينة الطائف ووج ، وترجمة ابن عباس – t – ، فإن واقع الأمر أنه يحتوي على تراجم ثلاثة ممن دفنوا بالطائف وهم : العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبر الأمة عبد الله بن عباس ، وأبي القاسم محمد ابن الحنفية . وبذلك اشتمل الكتاب على تراجم ثلاثة رجال لا شخص واحد كما دل عليه العنوان .

يذكر جار الله بن فهد في المقدمة أنه وضع كتابه على مقدمة وبابين وخاتمة .

فكانت المقدمة : في فضائل الطائف ووادي وج .

والباب الأول : في أخبار الطائف .

والباب الثاني : يحتوي على ثلاثة فصول .

١- فضائل العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢- فضائل ترجمان القرآن عبد الله بن عباس .

٣- فضائل ابن الحنفية (وهو ابن الإمام علي بن أبي طالب ، وهو من التابعين) .

ويذكر المؤلف أنه أورد ترجمة محمد ابن الحنفية في كتابه هذا لأن نسب بني فهد يتصل به فيقول : " وما نقلت سلسلة نسبه إلا بسبب اتصال نسبي به ، لأنه من ذرية الشريف الفاضل أبي علي أحمد ... " (٤٦) .

والخاتمة : في ذكر الآثار في وادي وج وقرى الطائف . وذكر شهداء يوم فتح الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عرض أشعاراً كثيرة في ذكر زيارة ابن عباس ومدحه وعرض فضائله.

وقد سلك جار الله منهجاً علمياً وثق فيه النصوص التي نقلها من مصادرها المتنوعة . فقد اعتمد العديد من كتب طبقات الصحابة ، والكثير من كتب السيرة النبوية ، وكتب تاريخ

الطائف، بالإضافة إلى أمهات الكتب القديمة في التاريخ الإسلامي ، ومصادر معاصرة له وخاصة كتاب شيخه السخاوي الذي وضعه في تاريخ المدينة نفسها .

وطُبع الكتاب بعناية نادي الطائف الأدبي (دون ذكر تاريخ الطبع) حققه وعلق عليه وراجعه محمد سعيد كمال ، ومحمد منصور الشقحاء .

٥- كتاب تحقيق الصفا ، في تراجم بني الوفاء .

ذكره حاجي خليفة وقال : جمع فيه الوفائية والشاذلية ورتبهم على الحروف [٤٧] ، ولم نعرف منه نسخة .

٦- رسالة في كتاب السر في ديوان مصر . .

لم نعثر على نسخة من هذه الرسالة ، وقد ذكرها المؤلف في كتابه تحفة اللطائف ونسبها إليه العديد من المؤرخين منهم حاجي خليفة ومرداد [٤٨].

٧- القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف .

ذكره ونسبه إليه المحبي والكتاني [٤٩] . تحتفظ مكتبة الحرم المكي بنسخة منه برقم ١١٨ تراجم ، تقع في ثلاث ورقات . درسها د. الهيلة فقال عنها : " كتب جار الله بن فهد رسالته هذه جواباً عن سؤال ورد عليه في ذلك فأجاب ذاكراً العائلات المكية الخمسة : بيت الفاسي ، بيت الطبري، بيت عبد القوي ، بيت البخاري ، بيت الطباطبائي ... أثبت جار الله بن فهد في رسالته هذه أن بيت الفاسي ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، أما بيت الطبري فهو حسيني . وذكر بعض مشاهيرهم كالمحب الطبري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٥م) وتحدث عن أقدميتهم بمكة ، وبيّن أن المؤرخ ابن جرير الطبري لا قرابة له مع هذا البيت ... منكراً انتساب البيوت الثلاثة الباقية وهم بنو عبد القوي ، بنو البخاري ، بيت الطباطبائي إلى السلالة النبوية . اعتمدَ جار الله في رسالته هذه على مصادر كثيرة منها مؤلفات التقي الفاسي ومؤلفات جده النجم بن فهد (وهي كثيرة) ومن مصادره كتاب التشويق ، إلى بيت الله العتيق تأليف جمال الدين الطبري " [٥٠] .

٨- كتاب معجم الشعراء .

جمعه جار الله وخصه بالشعراء الذين سمع منهم الشعر ، ولم نعرف منه نسخة وإنما ذكره الغزي ونسبه إليه في ترجمته لأحمد الباعوني الحلبي الشاعر المعروف بابن الصواف . ونسبه إليه أيضاً الكتاني في كتابه [٥١] .

* مؤلفات ابن حجر الهيتمي المكي في الطبقات الخاصة :

لقد ألف ابن حجر الهيتمي في التراجم التي اختصت بشخص واحد كما ألف كتاباً في الطبقات الخاصة بفئة معينة وهو .

كتاب معدن اليواقيت الملتمعة في مناقب الأئمة الأربعة .

نسب هذا الكتاب لابن حجر ، البغدادي ومن نقل عنه [٥٢] ، ولم نعرف منه نسخة .

ومن الواضح اهتمام ابن حجر العالِم المكي بمناقب الأئمة وفضائلهم لذا نراه يضع مؤلفاً خاصاً بأئمة المذاهب السنية كما كان يترجم لهم في ثنايا مؤلفاته الأخرى .

ومع أننا لم نحصل على نسخة من هذا المخطوط إلاّ أننا عثرنا على تراجم الأئمة الأربعة في معجم شيوخ ابن حجر المعنون بالإجازة [٥٣] حيث وضع ترجمة مطولة للأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل .

كما وضع لهم ترجمات أخرى في كتابه الحديثي فتح الإله في شرح المشكاة وهي ترجمات وافية في فضائلهم .

* النهروالي : قطب الدين محمد ابن علاء الدين (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م) [٥٤] .

ينتسب لأسرة عدنية الأصل انتقلت إلى نهروالة من بلاد الهند فانتسبت إليها . ولد في مدينة لاهور الهندية ثم قدم إلى مكة مع والده وأقام بها وجمع زاده العلمي من شيوخها ومؤرخيها كجار الله بن فهد ، برع في الفقه وعلوم الدين واللغة والتاريخ وألف بالعربية والتركية والفارسية ، كما استعان به الأمراء وكبار الشخصيات العثمانية في حجهم واعتمارهم . تولى الإفتاء والتدريس بمكة المكرمة .

تناول قطب الدين النهروالي الكتابة في التراجم والطبقات في مؤلفين له وهما : كتاب طبقات الفقهاء الحنفية ، وزياداته على كتاب دستور الأعلام لابن عزم .

١- كتاب طبقات فقهاء الحنفية :

لم نعرف منه نسخة وإنما يدل عنوانه على أنه كتاب طبقات لفقهاء المذهب الحنفي ، ذكره الغزي ونسبه إليه ونقل عنه ، وقال عنه حاجي خليفة بأن النهروالي جمع كتاباً في أربع مجلدات في طبقات الحنفية ، كما ذكره البغدادي والكتاني ونسبوه للنهروالي [٥٥] .

وعندما ترجم الغزي لقطب الدين النهروالي في كتاب الكواكب السائرة قال عنه : " وألم باللغتين التركية والفارسية ، ومن مؤلفاته طبقات الحنفية احترقت في جملة كتبه " [٥٦] .

٢- زيادات النهروالي على كتاب دستور الإعلام .

كتاب دستور الإعلام ، بمعارف الأعلام ألفه المؤرخ محمد بن عمر بن عزم التونسي المكي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) [٥٧] ليكون جامعاً للعديد من تراجم العلماء ، في مختلف اختصاصاتهم وبلدانهم ، فجاءت تراجمه موجزة ومفيدة لا تزيد غالباً على بعض الجمل القليلة . وقد رتبه على خمسة أقسام بحسب الشهرة والكنية والنسبة إلى الحرفة أو البلد أو الجد وغير ذلك .

انتشر الكتاب وظهرت فوائده وتعددت نسخ مخطوطاته ، وعلى الرغم من كثرة التراجم الواردة فيه فإن علماء التواريخ شاركوا بالزيادات فيه فوضع عليه أربعة من المؤلفين إضافات عديدة هامة.

فجاءت زيادة القطب النهروالي المكي (ت٩٩١هـ/١٥٨٣م) .

زيادة زين الدين البصروي (ت١١٠٢هـ/١٦٩١م) .

زيادة إبراهيم الجينيني (ت١١٠٨هـ/١٦٩٦م) .

زيادة ابن حمزة (ت١١٢٠هـ/١٧٠٧م) .

وفي أغلب المخطوطات وضعت علامات على كل تلك الزيادات ، فكانت علامة زيادات قطب الدين حرف (ق) [٥٨] .

وعند تتبعي لمخطوطة الكتاب المحفوظة بمكتبة خدا بخش بالهند (برقم ٢٣٧٦) مكنني أن أحصي من إضافات النهروالي ٣٦ ترجمة في ٥٠ ورقة متفرقة من الكتاب . ورأيت أنه سار فيه على نفس أسلوب أصل الكتاب كما وضعه ابن عزم فكانت ترجماته موجزة تكتفي بإيراد اسم المترجم وتاريخ وفاته مع عرض اختصاصاته العلمية ومكانته في مجتمعه .

الخاتمــة

تنوع الإرث الثقافي التاريخي الذي خلفه لنا المؤرخون المكيون فمن مؤلفات تاريخية على منهج الحوليات ، إلى مؤلفات تسجل الأحداث حسب الدول والمناطق ، إلى مؤلفات عديدة في تراجم الشخصيات وكتب الطبقات ، وغير ذلك من النصوص التاريخية ذات المجالات العديدة .

وتتنوع مؤلفات المكيين في التراجم – في القرن العاشر الهجري – إلى نوعين :

١- كتب تراجم خصصت لشخص واحد سواء كان سياسياً أو عالماً أو ذا درجة عالية في دينه وخلقه .

٢- كتب طبقات يترجم فيها المؤرخ للعديد من الأشخاص الذين تجمعهم صفة واحدة أو انتساب واحد كأن يكونوا من الأنبياء أو من آل البيت أو أن يكونوا من الملوك والحكام أو أئمة المذاهب الفقهية السنية أو فقهاء من أحد المذاهب أو أصحاب الوظائف الدينية الشرعية بمكة المكرمة .

وإن المتمعّن في أسباب وضع بعض هذه المؤلفات يلاحظ أنها أُلّفت لغايات شريفة أهمها :

- التعريف برجال لمعوا في مجتمعهم بعلو درجاتهم الدينية والعلمية والأخلاقية .

- محاولة إطفاء الفتن التي يمكن أن تحدث بين أتباع المذاهب السنية ، فنرى أن العديد من المؤلفين يكتبون تراجم وفضائل كل الأئمة الأربعة في كتاب واحد ليعلموا الناس عدم تفاضلهم وعدم تمييز مذهب على آخر .

- كما نرى أن بعض هؤلاء المؤلفين يكون شيخاً كبيراً في مذهبه الشافعي فيضع المؤلفات العديدة في فضائل الإمام أبي حنيفة (كابن حجر الهيتمي الشافعي) ولا يخفى ما في ذلك من تقوية أواصر الوحدة والمحبة بين أتباع مختلف المذاهب الفقهية ، والرد على ما قد يحدث من بعض الكُتاب من تجريح وتطاول يمس أحد الأئمة .

- كما تعدد مؤلفات المؤرخين المكيين في تراجم بعض سلاطين الدولة العثمانية بحكم بسط سلطانها على مكة المكرمة في تلك الفترة ، وأثرها على المجتمع المكي بما أغدقته عليه من أموال وهبات .

- واعتنى بعض المؤلفين بتراجم أمراء مكة على مر العصور وجمع أخبارهم وإنجازاتهم في مكة .

وبسبب هذه الغايات والأسباب ظهرت مؤلفات عديدة في فن التراجم والطبقات لتكون مصادر تاريخية مفيدة وثرية تعين على استجلاء العديد من الأخبار التي لم ترد في كتب التاريخ الكبيرة ، وتفتح آفاق لمعرفة شخصيات المجتمع المكي ودراسة خصائصه .

والله ولي التوفيق فله الحمد سبحانه ،،

الهوامش

١- انظر : التمهيد الذي وضعته داليا عبد الستار الحلومي في رسالتها : كتب التراجم في التراث العربي، ص٤٣-٥٧ .

٢- من هؤلاء المؤرخين الثمانية من ألف كتاباً واحداً فنُعرّف بالمؤلف عند ورود تأليفه ، وبعض المؤرخين تعددت مؤلفاتهم في هذا المجال ؛ لذلك نُعرف بكل واحد منهم عند ورود أول كتاب له .

٣- انظر ترجمته في : العيدروسي : النور السافر ١٢٦-١٣٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٤١-١٤٢ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٠٧ .

٤- جار الله بن فهد : نيل المنى ص٢٩٧ ، ٣٠١ .

٥- نقل عنه العز بن فهد في كتابه غاية المرام أشعاراً كثيرة بلغ عدد أبياتها ٣٦٥ بيتاً . انظر فهرس الأشعار في تحقيق كتاب غاية المرام ص٦٦٤-٦٦٩ ، بالإضافة إلى قصيدته التي وردت في كتابه الدر المنظوم وبها ٦٣ بيتاً .

٦- حاجي خليفة : كشف الظنون ص٧٣٥ .

٧- اعتمدنا في التعريف بهذا الكتاب ونقلنا قسما هاما مما أورده د. الهيلة في كتابه التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٨١-١٨٢ . ونضيف عليه بعض ما ظهر لنا من التعريف بمصادره وبيان أسلوبه .

٨- انظر ترجمته : السخاوي : الضوء اللامع ٢ : ٤ ، ابن حميد : السُحب الوابلة ص٨٠-٨١ ، مرداد : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ص١٠٢ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٨٤-١٨٥ ، ويذكر د/ الهيلة أنه كان حياً سنة ٩٣٣هـ ولكن ما وجدناه في مصادر ترجمته يدل على أنه كان حياً سنة ٩٤٢هـ .

٩- تعددت مصادر ترجمة جار الله بن فهد – انظر مثلاً : السخاوي : الضوء اللامع ٣ : ٥٢ ، العيدروسي: النور السافر ٢٤١-٢٤٢ ، الغزي : الكواكب السائرة ٢ : ١٣١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٠١ ، كحالة : معجم المؤلفين ١٠ : ١٧٥-١٧٦ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٩٥-١٩٧ .

١٠- الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص٩٩-١٠٨ .

١١- انظر ترجمته : العيدروسي : النور السافر : ٢٨٧-٢٩٢ ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١١١-١١٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٧٠-٣٧٢ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص٢٨٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ١ : ١٠٩ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ١٢٢-١٢٤ ، الكتاني : فهرس الفهارس ١ : ٣٣٧-٣٤٠ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون ٢١٦-٢٢٨ ، لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية .

١٢- لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ص٣٨٩-٤١٠ . اعتمدت الدراسة على مؤلفات ابن حجر ومصادر ترجمته منها : ابن حجر : فتح الإله ، في شرح المشكاة ورقة ١٢ب-١٣ب ، : رسالة في مناقب أبي حنيفة ورقة ٢أ ، : الإجازة ورقة ٥٧ب-٦٠ب ، : الخيرات الحسان ص٤-٨ ، العيدروسي : النور السافر ص٢٩١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٧١ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٢٣ .

١٣- أحيل في استنتاجاتي لدراسة هذا المؤلف على ما ورد لي من دراسة سابقة عنه ضمن رسالتي للدكتوراه والتي عنوانها ابن حجر الهيتمي وجهوده في الكتابة التاريخية ص٣٥٢-٣٦٤ .

١٤- السيفي : نفائس الدرر ورقة ٥ ب - كما أحال عليه ابن حجر نفسه في كتابه إخوان الصفابنبذ من أخبار الخلفاء ورقة ١٩ ب ، وأحال عليه حفيد ابن حجر خليفة الزمزمي في كتابه نشر الآس في فضائل زمزم ورقة ١٢ ب ، ٢٣ أ . ونسب هذا الكتاب لابن حجر الكتاني : فهرس الفهارس ص٣٩٣ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ١٤٦ ، سركيس : معجم المطبوعات ١ : ٨٢ ، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ١ : ١٣٤ .

١٥- انظر ترجمة السلطان همايون في : العيدروسي : النور السافر ص٢٥٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٣٣ .

١٦- انظر ترجمته : الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١٦٩ ، العيدروسي : النور السافر ص٣٥٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ١ : ٣٦٠ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ٢٧٢-٢٧٣ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ٥٩٨ ، الزركلي : الأعلام ٤ : ٣٦ ، كحالة : معجم المؤلفين ٥ : ٢٨٣ .

١٧- مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص٢٧٣ .

١٨- الشوكاني : البدر الطالع ١ : ٣٦٠ ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١١٣ .

١٩- انظر ترجمة علي المتقي . العيدروسي : النور السافر ٣١٥-٣١٩ ، والنقول عن الكتاب وردت في ص٣١٧ ، ٣١٨ منه .

٢٠- انظر ترجمة عبد الرحمن العمودي في العيدروسي : المصدر السابق ص٢٦٥-٢٦٦ ، والنقول وردت في نفس الصفحات .

٢١- انظر ترجمته : السخاوي : الضوء اللامع ٤ : ٢٢٤ ، الغزي : الكواكب السائرة ١ : ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٠٠-١٠٢ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ٥٨٣ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٤-٧٥٦ ، الزركلي : الأعلام ٤ : ٢٤ ، والأستاذ فهيم شلتوت في مقدمة تحقيقه لكتاب العز بن فهد : غاية المرام ، ص٧ .

٢٢- المحبي : خلاصة الأثر ٢ : ٤٥٧ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٥ .

٢٣- الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٧٥-١٧٦ .

٢٤- بركات بن محمد بن بركات ولد بمكة سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وحكمها منفرداً لمدة طويلة من سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م إلى أن توفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٥م غير الفترة التي حكمها مشاركاً لوالده وإخوانه . انظر ترجمته : عارف عبد الغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة ص٦٥٩-٦٩١ .

٢٥- العز بن فهد : غاية المرام ، المقدمة ص٤ .

٢٦- العز بن فهد : المصدر السابق ص٤-١٠ .

٢٧- العز بن فهد : المصدر السابق ١ : ١٣٩-١٧٥ .

٢٨- العز بن فهد : المصدر السابق ٣ : ٣٥-٣٣٩ .

٢٩- انظر فهارس كتاب غاية المرام ٣ : ٣٥٧ .

٣٠- الغزي : الكواكب السائرة ١ : ٢٣٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٠٠ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٥ .

٣١- انظر ترجمته : ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٢٤٣ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ص٣٠ ، كحالة: معجم المؤلفين ١٠ : ٢٤ .

٣٢- جار الله بن فهد : نيل المنى انظر فهارس الكتاب ص٨٦٤ .

٣٣- عارف عبد الغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة ص٤٦٢-٦٩١ .

٣٤- العصامي : سمط النجوم العوالي ١ : ١٦ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٣٠ .

٣٥- سبقت الترجمة لجار الله بن فهد . انظر (ص١٠) .

٣٦- الزركلي : الأعلام ٦ : ٢٠٩ .

٣٧- حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٢٥٣ .

٣٨- جار الله بن فهد : بلوغ الأرب ص٣٢ .

٣٩- جار الله بن فهد : بلوغ الأرب ص٣٧ .

٤٠- العيدروسي : النور السافر ص٢٠٦-٢٠٧ ، وما ورد في السحب الوابلة لابن حميد ص١٣٦-١٣٧ وص١١٢-٢١٤ .

٤١- انظر : العيدروسي : النور السافر ص٢١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ . أما نقولات ابن حميد في السحب

الوابلة فجاءت في الصفحات ٢٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٤٣١ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧ .

٤٢- كثيراً ما يقع محقق كتاب السحب الوابلة ، طبعة دمشق في خطأ بأن يورد اسم جار الله بن فهد بلفظ جاد الله كما في الصفحات ٢٤ ، ١٠١ وغيرهما .

٤٣- انظر : ابن حميد : السحب الوابلة ص٢٤ .

٤٤- المصدر السابق : نفس الصفحة .

٤٥- حاجي خليفة : كشف الظنون ص٣٧٢-٣٧٣ .

٤٦- جار الله : تحفة اللطائف ص١٣٧ .

٤٧- حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٣٧٨ .

٤٨- حاجي خليفة : مصدر سابق ١ : ٨٨٥ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٥٣ .

٤٩- المحبي : خلاصة الأثر ٢ : ٤٥٧ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٢٩٧ .

٥٠- الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص٢٠٦-٢٠٧ .

٥١- الغزي : الكواكب السائرة ١ : ١٣٩ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٦٢٠ .

٥٢- البغدادي : هدية العارفين ١ : ١٤٦ ، إيضاح المكنون ٢ : ٥١٠ ، ٥٤٣ ، الزركلي : الأعلام ١ : ٢٣٤ ، كحالة : معجم المؤلفين ٢ : ١٥٢ .

٥٣- ابن حجر : الإجازة ورقة ٥٧ ب – ٧١ ب .

٥٤- راجع ترجمته : النهروالي : البرق اليماني : مقدمة تحقيق حمد الجاسر والتي اشتملت على ٨٠ صفحة ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ٤٤-٤٨ ، العيدروسي : النور السافر ص٣٨٣-٣٨٨ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٤ : ٣٣٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٤٢٠ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص٢٤٢-٢٤٥ ، لمياء شافعي : تذكرة النهروالي المكي وأهمية رحلاته ص٤١٠-٤١٢ .

٥٥- حاجي خليفة : كشف الظنون ص١٠٨٩ ، البغدادي : إيضاح المكنون ٢ : ٧٨ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٩٤٥ .

٥٦- الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ٤٥ .

٥٧- انظر ترجمته : الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص١٦٣-١٦٥ .

٥٨- وعلامة (هـ) للجبنيني ، وعلامة (ز) لابن حمزة ، وعلامة (ب) للبصروي .

ثبت المصادر والمراجع

- البغدادي : إسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) :

إيضاح المكنون ، في الذيل على كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ، ط: إسطنبول سنة (١٩٤٥م) مجلدان .

هدية العارفين ، في أسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين ، ط : إسطنبول سنة (١٩٥١م) مجلدان .

- ابن حجر : أحمد بن محمد الهيتمي المكي (ت٩٧٤هـ/١٥٦٦م) :

الإجازة معجم شيوخ ابن حجر ، نسخة مكتبة برلين – ألمانيا – رقم (١٧٤) .

تطهير الجنان واللسان ، عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان ، تحقيق أبي عبد الرحمن المصري الأثري ، ط : دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

الخيرات الحسان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان ، ط : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، تقديم وتحقيق الشيخ خليل الميس .

- الحلومي : داليا عبد الستار (معاصرة) :

كتب التراجم في التراث العربي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ٢٠٠٨م .

- ابن حميد النجدي :

السحب الوابلة ، على أضرحة الحنابلة ، ط : مكتب الإمام أحمد ، دمشق ، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

- خليفة : حاجي مصطفى بن عبد الله (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) :

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط : إسطنبول (١٩٤١م-١٩٤٣م) ، نشر محمد شرف الدين، مجلدان .

- الزركلي : خير الدين (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) :

الأعلام ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٠م ، ٨ أجزاء .

- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) :

الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع ، نشر مكتبة حسام الدين المقدسي ، ط : القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، ١٢ جزءاً .

- شافعي : لمياء أحمد بن عبد الله :

تذكرة النهروالي المكي وأهمية رحلاته الست ، بحث منشور ضمن سلسلة مداولات جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ص٤٠٧-٤٤٥ ، اللقاء التاسع ١٤١٩هـ/٢٠٠٨م .

ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ، رسالة دكتوراه منشورة ، ط : مكتبة الغد ، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

- الشوكاني : محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) :

البدر الطالع ، بمحاسن من بعد القرن السابع ، مطبعة السعادة ، القاهرة سنة ١٣٤٨هـ ، جزآن .

- ابن ظهيرة : أحمد بن عطية (كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) :

جواهر العقود ، في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، تيمور ، رقم ٥٠٣٧ .

- عبد الغني : عارف :

تاريخ أمراء مكة المكرمة ، ط : دار البشائر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

- العصامي : عبد الملك بن حسين المكي (ت١١١١هـ/١٦٩٩م) :

سمط النجوم العوالي ، في أنباء الأوائل والتوالي ، ط : المطبعة السلفية ، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ٤ أجزاء .

- ابن العليف : أحمد بن الحسين (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) :

الدرر المنظوم ، في مناقب با يزيد سلطان الروم ، مخطوط مكتبة فاتح - تركيا - رقم ٤٣٥٧ .

- ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن علي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) :

شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ط : دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٨٩م، ٨ أجزاء .

- العيدروسي : محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) :

النور السافر ، عن أخبار القرن العاشر ، تصحيح محمد رشيد أفندي الصفار ، مطبعة الفرات - بغداد - (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) .

- الغزي : نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م) :

الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبر سليمان جبور ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٩٧٩م ٣ أجزاء .

- ابن فهد : جار الله محمد بن عبد العزيز (ت٩٥٤هـ/١٥٤٧م) :

تحفة اللطائف ، في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف ، تعليق ومراجعة محمد سعيد كمال ، ومحمد منصور الشقحاء ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، د.ت.

بلوغ الأرب ، في معرفة أي الأنبياء من العرب ، مخطوط ، مكتبة الحرم المكي ، ضمن المجموع رقم ٤٢٣ حديث .

الجواهر الحسان ، في مناقب السلطان سليمان بن عثمان ، مخطوط مكتبة جامعة إسطنبول (دار مثنوي رقم ٣٦٠) .

القول المؤتلف ، في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف ، مخطوط مكتبة الحرم المكي (رقم ١١٨ تراجم) .

نيل المنى ، بذيل بلوغ القرى ، لتكملة إتحاف الورى ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، طبع مؤسسة دار الفرقان للتراث الإسلامي ، ط : بيروت ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، جزآن .

- ابن فهد : العز عبد العزيز بن عمر الهاشمي المكي (ت٩٢٢هـ/١٥١٧م) :

غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ط : مركز البحث العلمي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، دار المدني ، جدة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ثلاثة أجزاء .

- الكتاني : عبد الحي بن عبد الكبير (ت١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) :

فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، طبع باعتناء وفهرسة إحسان عباس، ط : دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، في ثلاثة أجزاء.

- كحالة : عمر رضا :

معجم المؤلفين ، مبطعة الترقي ، دمشق ، سنة ١٩٥٧م-١٩٦١م ، ١٥ جزءاً .

- المحبي : محمد أمين بن فضل الله (ت١١١١هـ/١٦٩٩م) :

خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادي عشر ، ط : دار صادر ، بيروت ، د.ت، ٤ مجلدات .

- مرداد : أبو الخير عبد الله بن أحمد (ت١٣٤٣هـ/١٩٥٤م) :

المختصر ، من كتاب نشر النور والزهر ، في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي ، ط : عالم المعرفة ، جدة ، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- النهروالي : قطب الدين محمد بن علاء الدين المكي (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م) :

البرق اليماني ، في الفتح العثماني ، طبع بإشراف حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

زيادات على كتاب دستور الإعلام لابن عزم ، نسخة مكتبة خدا بخش بالهند (رقم٢٣٧٦) .

- الهيلة : محمد الحبيب (معاصر) :

التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر ، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مكة ، ط : دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

د. ثريا حامد الدمنهوري(*)

التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى

(من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى ستينيات القرن العشرين)

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى (دولة الإمارات العربية المتحدة) منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، حتى ستينيات القرن العشرين. ويرجع السبب الرئيس فى اختيار هذا الموضوع إلى التنافس الشديد الذى ظهر بصورة جلية بين الدولتين على هذه الامتيازات التى شكلت آنذاك استراتيجية واضحة فى سياسة الدولتين، بريطانيا التى هيمنت على الخليج منذ القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة التى ظهرت بوصفها قوة عملاقة، مع نهاية الحرب العالمية الثانية. ويجب أن نشير إلى أن الدراسة لا تهدف إلى تقديم دراسة عن النفط، ولكن عن امتيازات التنقيب عنه.

كما تكمن أهمية موضوع الدراسة فى أن عمليات التنقيب عن النفط من قبل الشركات البريطانية والأمريكية لم تكن عملية اقتصادية بحت، ولكنها أثرت بشكل واضح فى مسار العلاقات السياسية بين الدولتين، والأهم من ذلك أنها أثرت فى الأوضاع الاقتصادية والسياسية فى منطقة الخليج بصفة عامة، والإمارات بصفة خاصة. وقد ظهر ذلك جليا من خلال تدخل الدولتين فى العلاقات التى حدثت بين الإمارات وعدد من دول الخليج، أبرزها

* جامعة الملك عبد العزيز

إيران، ليس بهدف مصلحة الإمارات، ولكن من أجل مصالح تلك الشركات، وذلك من خلال عملها كل ما فى وسعها من أجل الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى الإمارات.

السيطرة البريطانية على إمارات الساحل العمانى:

يقصد بإمارات الساحل العمانى الإمارات السبع(*) التى شكلت فيما بعد دولة الإمارات العربية المتحدة، وكانت تعرف أيضا بساحل القرصنة(**) ومشيخات الساحل العمانى والإمارات المتصالحة والساحل المتهادن[١]، وكانت تابعة لعمان الكبرى(***) التى انقسمت من جراء تكالب القوى الاستعمارية والتناحر الداخلى إلى سلطنة مسقط وعمان الداخل[٢]، وعلى أثر التفكك السياسى فى عمان، حدثت موجة من الهجرات القبلية إلى سواحل الخليج، تمخض عنها ولادة كيانات سياسية جديدة فى المنطقة[٣]، أهمها بنو ياس والقواسم، اللذان بسطا سيطرتهما على إمارات الساحل العمانى[٤].

كان المشهد السياسى فى منطقة إمارات الساحل يكشف هيمنة القواسم على مقدرات الأمور فى المنطقة[٥]، ولكن سرعان ما اصطدم القواسم بالنفوذ البريطانى المتغلغل فى الخليج[٦]، ومع تعاظم الخطر القاسمى كتب المقيم البريطانى فى البصرة إلى حكومته يحذر من خطر القواسم؛ لذا وجهت السياسة البريطانية وجهتها صوب السيطرة على الساحل العمانى، والقضاء على قوة القواسم[٧]، فقامت بثلاث حملات للإجهاز عليهم(****)، كانت الحملة الثالثة عام ١٨١٩[٨] قمة الصراع بين القواسم وبريطانيا، وانتهت بتوقيع عدد من المعاهدات عام ١٨٢٠[٩] التى تحولت إلى معاهدة سلام عامة مع شيوخ الساحل الذين وقعوا عليها تباعا فى مارس ١٨٢٠، وبدأت حقبة ما أسمته بريطانيا بالسلام البريطانى فى المنطقة Pax-Britannica(*****)(١٠). وقد وضعت تلك المعاهدة أسس سياسة التجزئة فى المنطقة، من خلال تفتيت إرث القواسم وبقية إمارات الساحل إلى كيانات صغيرة، منحتها بريطانيا الاستقلال، فشجعت استقلال عجمان وأم القوين والفجيرة وكلبا، وانسلاخ رأس الخيمة عن الشارقة، ومن ثم تمزق الساحل إلى إمارات صغيرة لا حول لها ولا قوة[١١].

وعلى ضوء تزايد حدة التنافس الإقليمى والدولى للهيمنة البريطانية على منطقة الخليج، أبرمت بريطانيا مع شيوخ الساحل الاتفاقية المانعة Exclusive Agreement عام ١٨٩٢[١٢]، ومثلت هذه الاتفاقية تعهدا ضمنيا من بريطانيا بالحماية والاضطلاع بالشئون الخارجية لإمارات

الساحل، وفرض إلزامية الرجوع إليها قبل الشروع فى منح أية امتيازات لدول غيرها(١٣). وقد شكلت هذه الاتفاقية حجر الزاوية للسياسة البريطانية فى المنطقة التى ارتكزت على عزل إمارات الساحل عن العالم الخارجي، وإبقائها فى حالة من التفكك؛ ليسهل فرض السيطرة عليها، وعلى مواردها[١٤]. ويعد تصريح لانزدون Lansdowne فى مايو ١٩٠٣ بمجلس اللوردات البريطانى، وزيارة نائب الملك فى الهند اللورد كيرزون Curzon لساحل عمان فى نوفمبر من العام نفسه، دليلا دامغا على تعاظم أهمية الخليج فى الاستراتيجية البريطانية التى أقرت بأن العلاقة بين منطقة الخليج والأمن البريطانى فى الهند علاقة لا انفصام لها. ويتضح من خلال ذلك التصريح وخطاب كيرزون، الرغبة القوية لدى بريطانيا فى دعم النفوذ البريطانى فى المنطقة، وفرض ستار حديدى عليها، وإبقائها بعيدا عن أية تيارات أجنبية أو عربية[١٥].

التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب عن النفط فى منطقة الخليج:

كان النفط - ولا يزال - عصب الحياة وشريانها فى السلم والحرب. وخير دليل على ذلك ما صرح به الفرنسى كلمنصو فى مطلع القرن العشرين، حينما قال: إن "كل قطرة من النفط تساوى قطرة من الدم"[١٦]، وكذلك الرئيس أيزنهاور عندما قال: "إن الحلفاء سبحوا نحو النصر على بحيرة من النفط"[١٧]. من هذا المنطلق، أدركت بريطانيا ضرورة السيطرة على امتيازات التنقيب عن النفط. وبالفعل، حصلت فى عام ١٩٠١على امتياز التنقيب عن النفط فى إيران، حيث تدفق النفط بكميات تجارية، لأول مرة عام ١٩٠٨ من مسجد سليمان (مدينة صغيرة واقعة جنوب إيران). وقد مثل هذا الاكتشاف، منعطفا مهما فى تاريخ البترول العالمى[١٨].

ومنذ ذلك الحين، فرضت على مستعمراتها فى الخليج - التى كانت تنبئ باحتمال وجود فرص عظيمة لظهور النفط بها - توقيع اتفاقيات تحرم عليها إعطاء حقوق التنقيب لأية شركة غير بريطانية قبل موافقة المقيم السياسى البريطانى. وتأسيسا على هذا، وقع شيخ الكويت على تعهد بهذا فى عام ١٩١٣، وشيخ البحرين فى عام ١٩١٤، وحاكم عمان فى عام ١٩٢٠، وحاكم إمارات الساحل العمانى فى عام ١٩٢٣[١٩].

وترجع إرهاصات التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب فى الخليج إلى الفترة اللاحقة للحرب العالمية الأولى، حينما سعت فرنسا وبريطانيا إلى اقتسام بترول العراق بينهما. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت هذا الإجراء، وطالبت بحصة من هذه الكعكة. وبعد

جدل دام بضع سنوات وافق الحليفان على بيع نسبة ٢٣,٧٥٪ من أسهم الامتياز للأمريكيين. وقد ظفر بهذه الحصة ائتلاف يضم خمس شركات بزعامة موبيل وستاندرد نيوجرسي، في نوفمبر ١٩٢٤[٢٠].

ومع تدفق النفط في البحرين، تطلعت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى الاستئثار بامتيازات التنقيب في المنطقة[٢١]. وبالفعل اتجهت الولايات المتحدة إلى البحرين، في حين كانت إمارات الساحل العماني حتى ذلك الوقت حكرا على الشركات البريطانية، وبدرجة أدنى، الفرنسية، التي تمتعت بهذه الامتيازات لسيطرة حكوماتها على بلدان المنطقة[٢٢]. وبدأ نشاط الولايات المتحدة الأمريكية من خلال شركة ستاندارد نيوجرسي[٢٣]. وفي ظل تزايد الاعتماد على النفط في تحريك عجلة النشاط الاقتصادي الأمريكي، وتناقص الاحتياطات الأمريكية من النفط، اتجه كثير من الشركات النفطية الأمريكية الكبرى للبحث عن النفط خارج حدودها، ومد الاستثمارات النفطية إلى العالم الخارجي. وزاد من ذلك، شعور الشركات الأمريكية الكبرى بالقدرة على توسيع نشاطاتها. وبالفعل بدأ التنافس الأنجلو أمريكي على امتيازات التنقيب عن النفط في المنطقة إلى عام ١٩٢٠، خاصة في ظل تدفق النفط في إيران، وظهوره في عدة مواقع من العراق.

وفي ٢٤ إبريل ١٩٢٤، وقع البريطانيون والفرنسيون اتفاق سان ريمو الذي تضمن ستة بنود تنظم تقسيم الحصص في بترول الشرق الأوسط[٢٤]؛ وهو ما أثار حفيظة الولايات المتحدة الأمريكية التي رأت فيه محاولة من بريطانيا للاستئثار بالسهم الأوفر من تركة المنطقة، بدون مراعاة شركائها الآخرين الذين قدموا لها كثيرا من الدعم والمساندة إبان الحرب، وقد ظهر ذلك في الرسائل المتبادلة بين اللورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا، وسفيره في واشنطن السير أ.جيدس، والسفير الأمريكي في لندن[٢٥]، التي توضح مدى الجدل والتنافس بين لندن وواشنطن حول النفوذ السياسي والمصالح البترولية في الخليج؛ إذ أصبح الصراع على المصالح يدور الآن بين الحكومتين، بعد أن بقي مدة محصورا في إطار الشركات البترولية التابعة لبلديهما. ولعل اتخاذ الموضوع بعدا سياسيا عائد إلى التأثير الحاسم للشركات الثلاث الرئيسية (الأنجلو فارسية، ورويال داتش شل، وستاندارد نيوجرسي)، في صانعي السياسة في البلدين، وطالبت واشنطن بريطانيا بضرورة تطبيق سياسة الباب المفتوح؛ ففي رسالة من السفير باعتماد مبدأ الباب المفتوح، لإتاحة الفرصة أمام الشركات الأمريكية للعمل في الأراضي العربية الواقعة تحت الانتداب البريطاني، أكد أن

عدم اعتماد هذا المبدأ يسيء إلى مصالح بلاده في الشرق، وأشار إلى أن الشركات الأمريكية لا تحصل على فرص متكافئة مع الشركات البريطانية التي تحظى بدعم حكومتها، على حساب بقية الشركات، على الرغم من إقرار بريطانيا، بإمكان إعطاء نسبة محدودة من الاستثمارات للشركات الأمريكية، كما أكد السفير أن بريطانيا تعمل في الخفاء للسيطرة على مصادر النفط في البلاد العربية، على الرغم من أنها اتفقت مع واشنطن على مبادئ عامة في مؤتمر الصلح، تتضمن الإقرار بأن استغلال هذه المصادر هو حق مشاع لكل الأمم، وليس حكرا على أمة واحدة[٢٦].

وعددت واشنطن الأسباب التي تؤكد أحقيتها في الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط في مناطق الشرق الأوسط والخليج، نوجزها فيما يأتي[٢٧]:

أولا- أن (ستاندارد نيوجرسي) الشركة البترولية الرئيسية في الولايات المتحدة، فقدت أسواقها المألوفة، إثر تركيز جهودها في تموين قوات الحلفاء بالبترول في أثناء الحرب في أوربا، لذا فمن الواجب على بريطانيا مساعدة الشركة ودعمها.

ثانيا- منع استئثار بريطانيا وفرنسا باستغلال الثروات الطبيعية للبلدان التي تحت الوصاية، إلا بموافقة الأسرة الدولية، الممثلة في عصبة الأمم.

ثالثا- أن احتياطي البترول المؤكد وجوده في الأراضي الأمريكية أخذ في التقلص، وأنه يوشك - حسب الدراسات المتاحة - على النفاد في خلال مدة تتراوح بين عشر وعشرين سنة.

رابعا- أن بريطانيا تضع العقبات والعراقيل في وجه بعثات التنقيب التي أرسلتها الشركات الأمريكية إلى الخليج[٢٨].

أنكر وزير الخارجية البريطاني هذه الادعاءات، وقال: إن بريطانيا لم تنتهج سياسة تمييز أو محاباة لصالح شركاتها ضد الشركات الأمريكية[٢٩]، وأكد الوزير كيرزون أن الموقف الأمريكي يضم في طياته سياسات متناقضة، ففي الوقت الذي تطالب فيه واشنطن بتطبيق مبدأ الباب المفتوح في الخليج، تضع كثيرا من العقبات في وجه الشركات الأوربية الراغبة في استثمار احتياطيات النفط المتوافرة في الأراضي الأمريكية، كما أنها افتعلت المشاكل والصعوبات أمام الاستثمارات البريطانية في القارة الأمريكية الجنوبية، خاصة في كوستاريكا وهاييتي، ولم يسفر ذلك الجدل عن نتيجة مهمة، وازداد شعور الأمريكيين بأنهم على وشك أن يخسروا مصالح مهمة، كانوا يتوقعون أن تصبح بين أيديهم[٣٠].

ومع رغبة الحكومة البريطانية فى ترسيم الحدود الإقليمية لتركيا (٣١)، ووجود معارضة حادة من جانب الأطراف المشاركة فى مؤتمر لوزان ١٩٢٣؛ وهو ما اضطرها إلى طلب الدعم السياسى من الولايات المتحدة، كان هذا الطلب عاملا مساعدا فى تليين الموقف البريطانى من قضية الامتيازات البترولية التى دار الصراع عليها مع الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وعلى أثر ذلك أعطت الحكومة الضوء الأخضر لإدارة الشركة الأنجلو فارسية للبدء فى البحث عن إطارات المشاركة الأمريكية. وعلى أثر تلك التطورات الإيجابية فى العلاقة بين المصالح الأمريكية والبريطانية، بدأت الشركات الأمريكية تدخل بقوة فى حلبة المنافسة للحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى كثير من بقاع مناطق الخليج[٣٢].

وقد ظهر اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بساحل الخليج العربى واضحا منذ عام ١٩٢٤، وفى عام ١٩٢٨ أخذ بعض الأمريكيين يجوسون فى أنحاء المملكة العربية السعودية، بخاصة منطقة الإحساء، بحثا عن البترول، نتيجة تناقص الاحتياطى الأمريكى[٣٣].

وكانت أراضى المملكة العربية السعودية من أوائل المناطق التى مثلت ساحة لهذا الصراع والتنافس المحموم[٣٤].

وعلى هذا، بدأ التنافس والصراع بين الشركات الأمريكية والبريطانية على التنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية، ودام الصراع والتنافس مدة قصيرة، انتهت باختيار الملك عبد العزيز للشركة الأمريكية "ستاندرد أويل أف كاليفورنيا (سوكال)"، بعد مفاوضات مطولة للفوز بامتياز التنقيب، كما أن اكتشاف البترول فى البحرين عام ١٩٣٢ كان عاملا مهما زاد من شهية الشركات الأمريكية؛ وهو ما شجعها على دخول حلبة الصراع النفطى للحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى، وكسر جدار العزلة الذى فرضته الشركات البريطانية للفوز بامتيازات النفط فى تلك المنطقة[٣٥].

التنافس الأنجلو أمريكى على الامتيازات فى الإمارات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية:

كان للخلفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تكتنف إمارات الساحل العمانى أثر واضح فى احتدام التنافس الأنجلو أمريكى حول الاستحواذ على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل. فالمتتبع للأوضاع السياسية والاقتصادية للمنطقة يتجلى له كيف أن تلك

الأوضاع أسهمت فى تأجج حدة التنافس بين واشنطن ولندن، وأن الأوضاع السياسية التى مرت بها بريطانيا، ولاسيما عقب الحرب العالمية الثانية، كان لها تداعياتها بالنسبة إلى الاستمرار فى السيطرة والهيمنة على مناطق الامتيازات التى حصلت عليها بريطانيا، بحكم علاقاتها التاريخية مع شيوخ إمارات الساحل.

لقد حازت إمارات الساحل العمانى حيزا كبيرا فى الاستراتيجية البريطانية، إثر اكتشاف البترول فى إمارات الخليج المتاخمة لإمارات الساحل العمانى[٣٦]، ووجود الشركات الأمريكية بشكل مكثف فى المنطقة خاصة فى المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى الدراسات التى قامت بها شركة النفط الإنجليزية الفارسية فى منطقة الساحل العمانى، والتى أكدت بقوة احتمالات وجود النفط فى تلك الإمارات[٣٧]، ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى تكبيل شيوخ الساحل بتعهدات اقتصادية وسياسية، تهدف منها فى المقام الأول إلى احتكار امتيازات التنقيب عن النفط فى كل إمارات ساحل عمان[٣٨]، ومرجعيتها القانونية فى ذلك أن مفاوضات التنقيب عن النفط بين الشركات والشيوخ تقع تحت بند العلاقات الخارجية المنوط بها إلى الإدارة البريطانية طبقا للاتفاقية المانعة التى وقعتها بريطانيا مع شيوخ الإمارات عام ١٨٩٢[٣٩]، وبشكل واضح وصريح حصلت بريطانيا عام ١٩٢٢ على تعهدات تلزم شيوخ الساحل بعدم منح امتيازات التنقيب عن البترول فى أراضيهم لأى شخص عدا الذى تختاره الحكومة البريطانية؛ وهو الأمر الذى يعد احتكارا سافرا من أجل الحصول على امتيازات التنقيب فى الإمارات[٤٠]، ويتضح من خلال صيغة التعهدات أنها قد أمليت على الشيوخ، ولم يكتبوها بمحض إرادتهم[٤١].

فلا شك فى أن نجاح شركة ستندارد كاليفورنيا Standerd Oil of California فى الحصول على امتيازات التنقيب عن البترول فى المملكة العربية السعودية(٤٢)، كان له صدى قوى لدى الدوائر الرسمية البترولية البريطانية؛ لذا أبرم المقيم السياسى فى الخليج عام ١٩٢٢ اتفاقية مع حكام إمارات الساحل، منحتها امتيازات التنقيب عن النفط فى تلك المنطقة للشركات البريطانية[٤٣]، وكان لحصول شركة ستندارد على امتيازات التنقيب عن النفط فى البحرين عام ١٩٢٨[٤٤]، وتمكن شركة Gulf Oil Cooperation من مشاركة الشركة الأنجلو فارسية Anglo – Pesian Company فى نفط الكويت، أثر فاعل فى تزايد حدة التنافس بين الشركات الأمريكية والبريطانية فى منطقة إمارات الساحل[٤٥].

ونخلص إلى أن تعهدات عام ١٩٢٢ جاءت لتكريس امتيازات التنقيب عن النفط للشركات البريطانية، وهو ما سعت إليه بريطانيا منذ بدايات اكتشاف البترول فى إمارات الخليج المتاخمة لإمارات ساحل عمان، ومن ثم شددت بريطانيا قبضتها على تعاملات الإمارات الخارجية، خشية تسلل الشركات الأمريكية الطامحة للفوز ببعض امتيازات التنقيب عن النفط فى الإمارات، مع التركيز على إمارتى أبوظبى ودبى، فقد أشارت معظم التقارير الجيولوجية إلى ارتفاع نسبة وجود النفط فى المناطق البرية والبحرية لتلك الإمارات[٤٦].

كان الوضع الاقتصادى لإمارات الساحل قبل الحقبة البترولية يتسم بالبدائية والنمط التقليدى؛ إذ فرض الموقع الجغرافى والبيئة الصحراوية والظروف المناخية العمل فى النشاط البحرى، ومثلت صناعة اللؤلؤ وصيد الأسماك والتجارة أهم الأنشطة الاقتصادية لإمارات الساحل، فى حين كانت الزراعة والرعى والصناعات الحرفية أنشطة اقتصادية ثانوية[٤٧].

وعلى ضوء تلك المعطيات الاقتصادية التى تضيف إليها تردى الأوضاع أكثر إبان حقبة ثلاثينيات القرن العشرين، بسبب أزمة الكساد العالمى التى أدت إلى كساد تجارة اللؤلؤ؛ إذ حدثت تطورات ساعدت على تحسين الوضع المالى، والخروج من تلك الأزمة، كان أهمها البدء فى التنقيب عن النفط[٤٨]؛ إذ أبرمت بريطانيا عددا من الاتفاقيات الخاصة بالامتيازات النفطية مع شيوخ إمارات الساحل فيما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٩؛ وهو مما أسهم فى تحسن الوضع المالى لشيوخ الإمارات[٤٩]. والملاحظ أن امتيازات التنقيب عن البترول فى الساحل تكاد تتوازى مع اتفاقيات إنشاء الطريق الجوى الإمبراطورى التى بدأت فى أوائل الثلاثينيات[٥٠].

ونستنتج مما سبق أن بريطانيا شرعت فى إبرام الاتفاقيات النفطية والجوية فى هذا الوقت لاستغلال الوضع الاقتصادى المتدهور لإمارات الساحل، على خلفية الأوضاع السابق ذكرها، بوصفها ورقة ضغط لإقناع حكام الإمارات بعقد مثل هذه الاتفاقيات، مقابل قدر من المال يسهم فى الخروج من تلك الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى أرخت بظلالها على المنطقة بأسرها. وينهض دليلا على ذلك رصد المسئولين البريطانيين للوضع المالى لإمارات الساحل، مع زيادة إيقاع المباحثات بالنسبة إلى تلك الامتيازات فى خلال فترة الأزمة، وقد استخدمت بريطانيا كثيرا من الآليات لضمان الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل، مستغلة نفوذها التاريخى فى المنطقة، وعلاقاتها الضاربة بجذورها فى القدم مع شيوخ الساحل، فضلا عن استخدام سياسات التهديد والوعيد[٥١].

التنافس الأنجلو أمريكي على الامتيازات فى الإمارات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية:

أسهم الوضع السياسى والاقتصادى فى بريطانيا الذى ألم بها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى تزايد مزاحمة الشركات الأمريكية للشركات البريطانية، بغية الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل. فالملاحظ أنه بعد أن كبلت بريطانيا شيوخ الساحل بتعهدات لتضمن لنفسها امتيازات التنقيب فى تلك المنطقة، كان الوضع العام لبريطانيا فى حالة يرثى لها. فعقب الحرب العالمية الثانية، وهنت الهيمنة البريطانية فى منطقة الخليج، ومن ثم ضعف الدعم الذى كان يقدمه المسئولون البريطانيون للشركات البريطانية؛ وهو ما فتح المجال أمام الشركات الأمريكية للسعى للحصول على امتيازات التنقيب، وكان ذلك إيذانا ببدء فترة عرفت بالوجود الأنجلو أمريكى فى منطقة الخليج، مارست فى خلالها واشنطن ضغوطا قوية على بريطانيا لقبول سياسة الباب المفتوح، والسماح للشركات الأمريكية بالحصول على بعض امتيازات التنقيب عن النفط فى المنطقة(٥٢). والأمر الذى لا مراء فيه أن البترول كان العامل الرئيسى للصراع بين الجانبين(٥٣)؛ لذا صارت العلاقات بين الدولتين فى خط أكثر تعرجا، ولكنها لم تصل إلى مرحلة الصدام المباشر؛ لوجود مصالح حيوية فى المنطقة لكلتا الدولتين(٥٤).

فقد تشابكت سياستهما تجاه عدد من القضايا والأحداث؛ نذكر منها: أزمة تأميم النفط الإيرانى (١٩٥١-١٩٥٣)، وما تبعها من انتقاص هيبة النفوذ البريطانى فى الخليج، ومعارضة الولايات المتحدة فكرة استخدام بريطانيا القوة العسكرية ضد إيران فى خلال الأزمة، خوفا من أن يؤدى ذلك إلى تدخل سوفيتى فى شمال إيران، ومن ثم تصاعد وتيرة الحرب فى المنطقة، واكتفت بتدبير انقلاب ضد الدكتور مصدق (رئيس الوزراء الإيرانى) لإنهاء الأزمة(٥٥). وهناك أيضا النزاع الحدودى بين السعودية وأبوظبى على واحة البوريمى(٥٦)، ورؤية الملك فيصل بأن الاعتراف بالدولة الجديدة لابد أن يسايره تسوية المنازعات الحدودية القائمة بين السعودية وأبوظبى(٥٧).

وبرغم اختلاف الرؤى السياسية بين البلدين تجاه بعض قضايا المنطقة؛ فإنهما كانا أكثر ميلا لتنسيق سياستهما لمواجهة الخطر الشيوعى، وتطويق تيار القومية العربية. وجاء حلف بغداد عام ١٩٥٥ معبرا عن هذا الاتجاه(٥٨). وقد قام نورى السعيد - رئيس الحكومة العراقية - فى فبراير عام ١٩٥٥ بنشاط مكثف فى منطقة الخليج للترويج لحلف بغداد، وبحث إنشاء حلف الخليج،

لمقاومة النفوذ المصرى[٥٩]، والزحف السوفيتى فى المنطقة الذى كان يسعى لنشر الفكر الشيوعى فى كل جنبات المنطقة، عبر إيران، وبسط سيطرته على بترول إيران والعراق[٦٠]. وقد شنت مصر والسعودية حربا إعلامية ضد سياسة الأحلاف، خاصة بعد توقيع الميثاق العراقى التركى الذى عد إضعافا للإرادة العربية[٦١]، وحددت مصر موقفها من مسألة الأحلاف أملا فى تنظيم عملية الدفاع مع الدول العربية، وتفعيل نظام الدفاع العربى المشترك[٦٢].

ونلاحظ أن انضمام إيران لحلف بغداد أحدث قدرا من الارتباك للسياسة البريطانية تجاهها؛ إذ فقدت القدرة على خلق توازن بين سياستها التقليدية تجاه إمارات الساحل؛ "أى التصدى للأطماع الإيرانية"، وكيفية التعامل مع إيران بعد أن أصبحت معها فى بوتقة واحدة[٦٣]. ونلمس هذا الارتباك فى الموقف البريطانى الذى لم يعد متشددا إزاء الادعاءات الإيرانية فى الجزر الإماراتية الثلاث (طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى) وجزر البحرين[٦٤].

ونستنتج مما سبق أن العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، لم تكن علاقة صراع على طول الخط، غير أنها شهدت فترات مد وجزر، حسبما تقتضيه مصلحة كل منهما. ونؤكد أن سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية سجلت نهاية عهد قديم، وبداية عهد جديد فى تاريخ المنطقة؛ إذ لاح فى أفقها جملة من المتغيرات كانت كفيلة بتقويض النفوذ البريطانى فى الخليج.

وحدثت تطورات محلية وإقليمية ودولية، أرغمت بريطانيا على تبنى استراتيجية الانسحاب شرق السويس. وقد حملت تلك التطورات بين ثناياها أوضاعا سياسية واقتصادية واستراتيجية، لم تستطع بريطانيا فى ظلها الاضطلاع بمهامها فى المنطقة؛ لذا كان قرار الانسحاب بغية الحفاظ على ما تبقى لها من نفوذ. ولاشك أن العوامل (الاقتصادية والسياسة والاجتماعية) الدافعة للانسحاب، وإن اختلف معدل تأثيرها؛ فإنها شكلت فى مجملها مناخا ضاغطا على صانعى القرار البريطانى لإقرار سياسة الانسحاب. ومنذ ذلك الحين تنامى الاهتمام الأمريكى بمنطقة الخليج وأمنه ونفطه، مع العمل على استمرار تدفق النفط للغرب، ومواجهة أى مد سوفيتى فى المنطقة[٦٥].

وقعت شركة امتيازات البترول المحدودة البريطانية Petroleum Concessions Ltd Coast اتفاقيات التنقيب عن البترول مع حكام إمارات الساحل عام ١٩٣٩[٦٦] الذين قبلوا ذلك على مضض، تحت ضغط بريطانى، واتباع سياسة التهديد والوعيد؛ إذ هددت بريطانيا بعدم إصدار

وثائق السفر، وحجز السفن التابعة لإمارات الساحل، تحت ذريعة تفتيشها وحجزها، لمكافحة تجارة الرقيق، فضلا عن التلميح باستحقاقات اتفاقية عام ١٩٢٢[٦٧]. وقد حال اندلاع الحرب العالمية الثانية دون مواصلة الشركة أعمالها، حتى انتهت الحرب[٦٨]، فاستأنفت أعمال الاستكشاف والتنقيب. ومع تعثر اكتشاف البترول بكميات تجارية[٦٩]، تخلت الشركة عن امتيازها فى كل الإمارات – ما عدا مناطق أبوظبى البرية، وأضحت تعرف باسم شركة بترول أبوظبى المحدودة[٧٠] لذا منح حكام الإمارات امتيازات التنقيب عن البترول فى إماراتهم لشركات جديدة، كان أهمها: شركة أبوظبى البحرية المحدودة للتنقيب عن البترول فى المناطق البحرية بأبوظبى عام ١٩٥٣[٧١]، وشركة بترول دبى للتنقيب عن البترول فى المناطق البحرية عام ١٩٦٣، فضلا عن الامتياز الذى منحته إمارة الشارقة عام ١٩٦٩ لشركة الهلال[٧٢].

وعقب توقيع امتيازات التنقيب عن النفط وُجدت ضرورة ملحة لتخطيط الحدود، لكى تتمكن الشركات البترولية من القيام بعمليات المسح الجيولوجى والتنقيب، ومن ثم طفت على السطح مشاكل الحدود، وكان من أبرزها مشكلة البوريمى[٧٣] التى جسدت فى جوهرها صراعا واضحا بين الشركات النفطية الأمريكية والبريطانية المتنافسة، أكثر من كونها خلافا بين السعودية وأبوظبى[٧٤]؛ إذ أثار تنقيب شركة تطوير بترول الساحل المهادن (البريطانية) فى واحة البوريمى حفيظة ابن سعود. وقد تزامن ذلك مع وجود شركة أرامكو الأمريكية فى واحة البوريمى لعمل مسح جيولوجى هناك[٧٥]. ولما كانت بريطانيا المسئولة عن الشئون الخارجية لإمارات الساحل، بموجب الاتفاقية المانعة، طردت القوات السعودية التى دخلت قرية حماسا بواحة البوريمى فى أغسطس عام ١٩٥٥[٧٦].

وعلى هذا، قطعت السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا، وسعت لعرض القضية على مجلس الأمن. بيد أنها تراجعت، إثر قيام ثورة اليمن عام ١٩٦٢، وحدوث التقارب البريطانى السعودى، لمواجهة الوجود المصرى فى اليمن[٧٧]. وقد أوكلت بريطانيا إلى الملك حسين فى خلال زيارته إلى منطقة الخليج فى فبراير عام ١٩٦٧ مهمة القيام بدور الوساطة لحل مشكلة البوريمى، ومن ثم حل الاشتباك الذى حدث بين الشركات الأمريكية والبريطانية على أحقية أى منهم فى التنقيب عن النفط. فادعاء السعودية بأحقيتها فى واحة البوريمى يمنح شركة أرامكو الأمريكية حق التنقيب، فى حين أن حق أبوظبى فى البوريمى يمنح شركة تطوير بترول الساحل المهادن (البريطانية) الحق فى التنقيب. ولا شك أن الذى أشعل فتيل الأزمة الحدودية بين المملكة العربية السعودية

وأبوظبى هى شركات النفط الأمريكية والبريطانية المتنافسة[٧٨]. ومع تزايد النزاعات الحدودية بين بعض إمارات الساحل وبعضها؛ مثل النزاع الحدودى بين أبوظبى ودبى عام ١٩٤٥، أعاق عمل شركات التنقيب[٧٩]؛ وسعت بريطانيا إلى إنشاء قوة كشافة ساحل عمان؛ لحماية المصالح النفطية البريطانية، ومنع النزاعات الحدودية بين الإمارات، والدفاع عن إمارات الساحل ضد الأطماع الإقليمية، كما حدث عند طرد القوات السعودية من البوريمى[٨٠].

ومما يسترعى الانتباه أن بعض الإرساليات الأمريكية فى الخليج التى كانت تقدم نوعا من الرعاية الصحية لسكان إمارات الساحل[٨١]، أثارت مخاوف لدى البريطانيين؛ إذ خشيت بريطانيا أن يستغل أطباء تلك الإرساليات فى تيسير حصول الشركات الأمريكية على امتيازات البترول بإمارات الساحل؛ لذا طالب الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين بضرورة وجود إشراف طبى فى ساحل عمان، وفرض قيود صارمة على زيارات البعثات الإرسالية الأمريكية للساحل[٨٢]، ومن منطلق تخوف البريطانيين من نشاط الإرساليات الأمريكية الطبية فى المنطقة قدمت بريطانيا بعض الخدمات الطبية لسكان الساحل، وسعت لمكافحة انتشار وباء الجدرى والملاريا فى المنطقة. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى رغبة بريطانيا فى استمرار عزلة إمارات الساحل، وضمان عدم خروج امتيازات التنقيب عن النفط بعيدا عنها[٨٣].

ومما سبق نستنتج أن الإرساليات الأمريكية فى إمارات الساحل كان لها دور فى فتح باب للتفاوض مع شيوخ إمارات الساحل، للحصول على حق التنقيب عن النفط فى أراضيهم؛ وهو الأمر الذى أرغم بريطانيا على تقديم قدر من الخدمات الطبية لإمارات الساحل، بعد تيقنها من دور أعضاء تلك الإرساليات فى الدعاية لشركات النفط.

وانتهزت إيران حالة التخلف التى كانت تعيشها المنطقة، وبادرت بتقديم عدد من الخدمات التعليمية والصحية، وسعت لكسب ولاء سكان المنطقة، من خلال تقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية[٨٤]. ويُعتقد أن السعودية وإيران استخدمتا العامل الاقتصادى ورقة ضغط لتحقيق أغراض سياسية؛ إذ كانت تحركهما أطماع إقليمية تجاه إمارات الساحل، متمثلة فى البوريمى بالنسبة إلى الرياض، والجزر الثلاث بالنسبة إلى طهران؛ لذا استغلا الوضع الاقتصادى والاجتماعى المتخلف فى المنطقة، لاستقطاب سكان إمارات الساحل، وكسب ولائهم.

ونلاحظ من خلال شركات النفط العاملة بإمارات الساحل (شركة نفط أبوظبى المحدودة، وشركة

مناطق أبوظبي البحرية المحدودة "أدما"[٨٥]، وشركة نفط فيليبس، وشركة زيت الشرق الأوسط، وشركة توتال أبو البخوش، وشركة نفط البندق المحدودة، وشركة نفط أميراداهيس، وشركة بترول دبي، وشركة مناطق دبي البحرية، وشركة بترول الهلال، فضلا عن شركة اتحاد نفط كاليفورنيا، وشركة الغاز الطبيعي الجنوبية) أن معظمها شركات أمريكية؛ إذ استطاعت الشركات الأمريكية أن تخترق الجدار الذى فرضته بريطانيا على المنطقة، وتستحوذ على أكبر قدر من الامتيازات فى إمارات الساحل السبع[٨٦].

وقد آثر شيوخ إمارات الساحل العمانى منح امتيازات التنقيب عن النفط للشركات الأمريكية، بدلا من الشركات البريطانية التى كان لها سبق الحصول على الامتيازات فى بادئ الأمر؛ ويرجع ذلك إلى تركيز المفاوض الأمريكى، فى خلال تلك المفاوضات، على عدم جدية الشركات البريطانية فى عرضها، وأن غاية ما تبتغيه الشركات البريطانية هو التأكد من وجود البترول فى الأراضى الإماراتية، ثم بيع الامتياز للشركات الأمريكية، والحصول على مبالغ طائلة من المال، دونما بذل جهد كبير، كما فعل فرانك هولمز الذى باع امتياز البحرين لشركة جلف أويل الأمريكية، قبل أن تشتريه منها ستاندارد كاليفورنيا، وتأكيد أن الشركات الأمريكية تمتلك إمكانات مادية وفنية كبيرة، وهى لهذا السبب قادرة على الاستمرار فى التنقيب، بدون الإخلال بالتزاماتها المالية. واستدل الوفد الأمريكى على ذلك بالنتائج الباهرة التى توصلت إليها شركة ستاندارد كاليفورنيا فى ذلك العام ١٩٣١؛ إذ تدفق النفط فى البحرين[٨٧]، إضافة إلى كبر المقابل المادى الذى عرضته الشركات الأمريكية، مقارنة بعرض الشركات البريطانية التى كانت عاجزة عن تقديم عروض أكثر سخاء فى ظل الضائقة الاقتصادية التى كانت تمر بها بريطانيا، ولاسيما بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وخرجت منها بريطانيا منهكة اقتصاديا وسياسيا[٨٨]. وهكذا عجزت الشركات البريطانية عن مجاراة الشركات الأمريكية التى حازت معظم امتيازات التنقيب فى إمارات الساحل السبع[٨٩].

وتعد أبوظبى أولى إمارات الساحل التى اكتشف بها البترول؛ إذ اكتشف بكميات تجارية فى حقل أم الشيف البحرى عام ١٩٥٨، وبدأ تصدير أول شحنة منه فى ٣ يونيو عام ١٩٦٢[٩٠]، وفى ديسمبر عام ١٩٦٣ صدر البترول من حقل الباب البرى[٩١]، وجاءت إمارة دبى فى المكانة الثانية من حيث أهميتها البترولية، فقد اكتشفت شركة نفط دبى فى يونيو عام ١٩٦٦ البترول فى حقل فاتح البحرى، وصدرت أول شحنة منه فى سبتمبر عام ١٩٦٩[٩٢].

وهكذا يتضح أن الإمارات دخلت فى ميدان الإنتاج النفطى عام ١٩٦٢، مع بداية تصدير النفط من حقل أم الشيف البحرى، ثم تبع ذلك تصدير النفط من الحقول البرية بأبوظبى والبحرية بدبى، وفى عام ١٩٧٠ اكتشف البترول فى حقل مبارك بإمارة الشارقة[٩٣].

كما استأثرت الشركات الأمريكية بشراكة إماراتية على امتيازات الغاز الطبيعى؛ إذ تنتج إمارة أبوظبى الغاز من جميع الحقول المنتجة للبترول، سواء البحرية أو البرية، واضطلع بدور تصنيع الغاز فى أبوظبى شركتا أبوظبى لتسييل الغاز المحدودة "ادجاز"، وشركة أبوظبى لصناعات الغاز المحدودة "جاسكو"[٩٤].

خاتمـة:

يتضح من خلال هذه الدراسة كيف أن الصراع بين الشركات الأمريكية والبريطانية انتقل من المجال الاقتصادى ليلقى بظلاله على العلاقات السياسية بين الدولتين؛ إذ وقفت كل دولة إلى جانب شركاتها النفطية، تدعمها بكل ما أوتيت من قوة، وتوفر لها كل السبل لتضمن لها التفرد بأكبر مساحة من امتيازات التنقيب عن النفط، وهذا يعد تطبيقا واقعيا لنبوءة أيزنهاور الرئيس الأمريكى فى خمسينيات القرن العشرين الذى أكد أن الشركات سيكون لها تأثير فاعل فى قرارات الحكومات فى خلال الحقبة القادمة.

وقد أدت الصراعات بين الشركات الأمريكية والبريطانية، ومن ثم صراع الحكومات، إلى تفجر مشاكل الحدود فى المنطقة، فمشكلة البوريمى والجزر الثلاث، ينهضان دليلا على أن أساس تلك المشكلات كان صراعا خفيا بين شركات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل، كما أن العلاقات السياسية بين بريطانيا وإيران، ولاسيما ارتباطهما معا بحلف بغداد، جعل بريطانيا تغض الطرف عن الادعاءات الإيرانية فى الجزر الثلاث، وما بهما من امتيازات للتنقيب عن النفط، ولاسيما جزيرة أبو موسى.

نضيف إلى ذلك أنه مع أفول القوة البريطانية السياسية، توارت معها الشركات البريطانية التى كانت تتمتع فى خلال ثلاثينيات القرن العشرين بهيمنة واضحة من قبل شركاتها على معظم امتيازات التنقيب عن النفط، ليس فى إمارات الساحل فحسب، بل فى منطقة الخليج برمتها، لتفسح المجال للشركات الأمريكية التى كانت مدعمة من قبل قوى عظمى خرجت فى أعقاب

الحرب العالمية الثانية، لتسيطر على مقدرات المنطقة، وتدفع شركاتها قدما للأمام نحو مزيد من امتيازات التنقيب عن النفط، وتنحى الشركات البريطانية جانبا، فى ظل وهن بريطانى سياسى واضح.

وعلى هذا فإن العلاقة بين الوضع السياسى للدولتين كان عامل الفصل فى سيطرة شركات كل جانب على الآخر.

وهنا نشير إلى مقولة هارولد لاسكى فى كتابه "تأملات فى ثورة العصر" أنه لا يمكن الفصل بين السياسى والاقتصادى والاجتماعى؛ لأن الفصل بينهم يعد تعسفيا.

ويتضح من ذلك أن الوضع الاحتكارى، والعزلة التى سعت بريطانيا جاهدة لفرضها على إمارات الساحل، والقبضة الحديدية التى ظلت تحكم بها المنطقة، ما يربو على قرن ونصف، كل هذا أخذ يتهاوى، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية التى عصفت ببريطانيا بوصفها قوة عظمى لا تغيب عنها الشمس، وفتحت الباب على مصراعيه أمام قوة أمريكية طامحة تمتلك شركات بإمكانات مالية وإدارية وتقنية ضخمة، استطاعت أن تزيح بريطانيا عن عرشها لتؤرخ لحقبة جديدة من التنافس الأنجلو أمريكى، استطاعت فى خلالها واشنطن أن تقر سياسة الباب المفتوح، وتفسح المجال أمام الشركات الأمريكية، لتحصل على قدر من امتيازات التنقيب عن النفط، ثم أعقب تلك الحقبة فترة ما زلنا نعاصرها حتى هذه اللحظة؛ هى فترة التفرد الأمريكى بمعظم امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى (دولة الإمارات العربية المتحدة).

الهوامش

(*) الإمارات السبع هى: أبوظبى، ودبى، والشارقة، ورأس الخيمة، وأم القوين، والفجيرة، وعجمان. ولتتبع الأصل التاريخى لكل إمارة من إمارات الساحل السبع، ومساحة كل إمارة وموقعها، راجع:

Malakh R. EL:, The Economic Development of the United Arab Emirates, London,1981,pp. 5-9.

(**) ساحل القرصنة: ترجع تسمية المنطقة بساحل القرصنة إلى حقبة الوجود البرتغالى فى الخليج؛ إذ أطلق هذا اللقب على أعمال أئمة دولة اليعاربة، إبان جهادهم من أجل تحرير عمان وساحل أفريقيا الشرقى، من الاحتلال البرتغالى فى القرن السابع عشر، كذلك نعت الإنجليز القواسم بالقراصنة، إثر مهاجمتهم السفن البريطانية التى كانت تبحر فى الخليج، ويمكن إرجاع هجوم القواسم على السفن البريطانية إلى عوامل اقتصادية ودينية وسياسية، وبهذا لم يكن لتلك الأعمال أية علاقة بأعمال القرصنة. ولعل إلصاق تهمة القرصنة بالقواسم حسب الزعم البرتغالى والبريطانى، شبيه بما يلصق فى وقتنا الراهن بمن يدافع عن أرضه ومقدساته بالإرهابى. لمزيد من التفاصيل عن ساحل القرصنة، راجع:

S. M. Al-Qasimi,The Myth of Arab Piracy in the Gulf, London,1986,PP. 31-51. Sir R. Hay& E. Rear, the Persian Gulf States, Washington D. 1959, p.113

(***) كانت عمان الكبرى خاضعة للواء دولة اليعاربة من (١٦٢٤ – ١٧٤٣)، وقد نجحت تلك الدولة فى تحرير عمان من احتلال البرتغاليين، ولكن سرعان ما تشرزمت تلك الدولة، إثر الصراع الداخلى، ودعم القوى الأجنبية الطامحة فى المنطقة لهذا الصراع. لمزيد من التفاصيل عن دولة اليعاربة، انظر: ج. ج. لوريمر: دليل الخليج، ترجمة: مكتب أمير دولة قطر، القسم التاريخى، الجزء الثانى، ص٦٢٦-٦٢٧.

(٢) عادل رضا: عمان والخليج العربى، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٠٠.

(٣) محمد عبد الله مرسى: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، دار القلم، الكويت ١٩٨١، ص١٢٠.

(٤) Long,E,A: The Persian Gulf An Introduction to its Peoples, Politics, and Economics, the Middle East, Colorado, 1978, p.16

(5) Shaban,M.A Arabia and the Gulf from Traditional Society to Modern States, London 1986, p.146

(٦) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ – ١٨٦١، مكتبة القاهرة، القاهرة ١٩٦٨، ص٨٠.

(٧) يوسف أبو الحجاج: دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة تحليلية لملامحها العامة، فى: "دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية شاملة"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨، ص٦.

(****) كانت الحملة البريطانية الأولى ضد القواسم عام ١٨٠٥، والثانية عام ١٨٠٩. ولمزيد من التفاصيل عن الحملات البريطانية الثلاث ضد القواسم، انظر: ج. ج. لوريمر: مرجع سابق، ص٩٧٦-١٠٢٣.

(٨) Anthony,J.D: Arab States of Lower Gulf: People Politics Petroleum, Washington.D.C, 1975, p.240

(٩) Mansfield.P: The Middle East: A Political and Economic Survey, Fifth, Edition,London,1989, p.240

(*****) ما أشبه الليلة بالبارحة؛ إذ أطلق مصطلح السلام البريطاني Pax-Britannica فى منطقة الخليج تعبيرا عن هيمنة بريطانيا على مقدرات المنطقة فى خلال القرنين ١٩ و ٢٠، ومع فرض أمريكا مظلتها على المنطقة وتسلم إرث الإمبراطورية البريطانية، أصبحنا نسمع عن Pax-Americana

(١٠) Country Profile,The Economist Intelligence Unit,London,1987, p.3

(١١) أحمد قاسم البورينى: الإمارات السبع على الساحل الأخضر، دار الحكمة، ب.ت، ص١٧٧.

(١٢) Common House, Record of the Arab World,13 Marsh,1892, p.44

(١٣) Mansfield.P: op. cit, p.184

(١٤) محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٣٣؛ مصطفى عبد القادر النجار: الحركة العربية السياسية، ص١٣٨.

(١٥) سيد فاروق حسن، ترجمة: محمد عبد الغنى المسعودى: مسح تاريخى للمصالح الأوربية فى منطقة الخليج العربى، مجلة الخليج العربى، العدد ٢٥، ١٩٨٧، ص٨٩؛ جمال زكريا قاسم: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى، ص٣٣.

(١٦) إبراهيم شرف: البترول أهم سلاح من أسلحة الحرب الحديثة - بحث مقدم إلى المؤتمر العربى الثانى، بيروت، أكتوبر ١٩٦٠، ص٩، د. راشد البراوى: حرب البترول فى الشرق الأوسط، ط٥، ١٩٦٢، ص٤٥.

(١٧) بيير فونتين: السباق الجديد نحو البترول، ترجمة: د. جلال صادق، ١٩٦٢، ص٩.

(١٨) -Hoskins Halford: Middle East Oil in United States Foreign Policy, Public Affairs, Bulletin, 1977, p.2

(١٩) Roosevelt Kermit, Arabs, Oil and History, New York, 1955, p.12

(٢٠) هارفى أكونور: الأزمة العالمية فى البترول، ترجمة: عمر مكاوى، مراجعة: د.راشد البراوى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧، ص٨٧.

(٢١) محمد صبحى الإتربى: مدخل إلى دراسة الشركات الاحتكارية متعددة الجنسية، منشورات النفط والتنمية، بغداد ١٩٧٧، ص٨.

(٢٢) FCO, British Embassy, Washington, to FCO, September, 7, 1973, U.S Policy in the Middle East

(٢٣) مجموعة من الباحثين: السياسة الأمريكية والعرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص٢٧.

(٢٤) كان اتفاق (سان ريمو) محاولة لتنظيم تقاسم النفوذ والسيطرة بين فرنسا وبريطانيا، وقد خصصت أهم البنود الواردة فيه لتنظيم حصص البلدين فى بترول العراق؛ إذ رفعت حصة فرنسا إلى ٢٥٪ فى شركة البترول التركية، وفى المقابل سمحت فرنسا بتمديد خطوط الأنابيب التى تنقل بترول الموصل إلى شاطئ البحر المتوسط، مرورا بسوريا الخاضعة لسيطرة الفرنسيين، ويمكن عد اتفاق سان ريمو اتفاقا بشأن النفط فى الدرجة الأولى، أندريه نوسشى، الصراعات البترولية فى الشرق الأوسط، ص٧١-١٢٣.

(٢٥) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢٦) مجموعة من الباحثين: السياسة الأمريكية والعرب، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢٧) أندريه نوسشى: مرجع سابق، ص١٥٨.

(٢٨) Arabian Gulf Concessions 1911-1953,Documents from the India Office, Recording the Negotiations and Agreements for the first Land- Based Oil Concessions in Kuwait, Bahrain, Qatar, the Trucial States and Muscat and Oman, London,1989, pp.77-79.

(٢٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربى، عالم المعرفة العدد ٤، الكويت ١٩٦٥، ص١٤. أنتونى سامبسون، الشقيقات السبع: شركات البترول الكبرى والعالم الذى صنعته، ١٩٧٦، معهد الإنماء العربى، ص١٠١.

(٣٠) أندريه نوسشى:، مرجع سابق، ص١٥٩.

(٣١) وقعت معاهدة (سيفر) بين الحلفاء فى أغسطس ١٩٢٠، وقد قضت بسلخ مجموعة من الأقاليم عن تركيا وإلحاقها بدول مجاورة، أو جعلها مفصولة تحت الانتداب، كما تنظم المعاهدة امتيازات رعايا الحلفاء فى تركيا والأراضى العثمانية السابقة، لكن الأتراك قاموا بثورة وحاربوا الجيش اليونانى الذى سلمت إليه بعض أقاليم البلقان، فدحروه فى معركة سافاريه (سبتمبر ١٩٢١)؛ وهو ما أضعف من قيمة المعاهدة، وألغيت أخيرا فى مؤتمر لوزان (صيف ١٩٢٣).

(٣٢) Niblock,T: Social and Economic Development in the Arab Gulf London, 1980 , P 34-35

(٣٣) سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة، الكتاب الأول، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦-١٩٦٧.

(٣٤) أحمد مدحت إسلام: الطاقة ومصادرها المختلفة، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٨، ص٥٧-٥٩.

(٣٥) Witchell K.S. T: Saudi Arabia with an Account of the Development of its Natural Resources – third edition – Greenwood Press 1969- p.222

سيد فتحي الخولي: اقتصاديات البترول، ط١، مكتبة دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٨، ص٣٤٧.

(٣٦) روزماري سعيد زحلان: الوحدة والحكم البريطاني، حالة الإمارات العربية المتحدة، في: "تجربة دولة الإمارات العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، بيروت ١٩٩٩، ص١١٧.

.R. EL Malakh, op. cit, p.1

(٣٧) دكتور سيد نوفل: مرجع السابق،الكتاب الثاني، ص١٩٦-١٩٧.

(٣٨) محمد حسن العيدروس: التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة، ذات السلاسل، الكويت، د. ت، ص١٧٤.

(٣٩) رياض نجيب الريس: صراع الواحات والنفط، هموم الخليج العربي ١٩٦٨-١٩٧١، ط١، بيروت، ١٩٧٣، ص٢٣٢.

(٤٠) وثيقتا تعهد من حاكمي الشارقة ودبي في عام ١٩٢٢حول امتيازات البترول، نقلا عن سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية، ص١٩٤-١٩٥.

(٤١) أحمد زكريا الشلق وآخرون: التاريخ السياسي لإمارات الخليج العربي، ص١٨٠.

(٤٢) .H.Hoskins, The Middle East Problem Area in World Politics, NewYork, 1955, p.208

(٤٣) محمود علي الداود: عوامل الوحدة والتجزئة في الجزيرة العربية،في: "تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة"، ط٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص٢٨؛ روزماري سعيد زحلان: مرجع سابق، ص١١٧.

(٤٤) R. F. Mikesell & Hollis. B. Chenery, Arabian Oil: Americans Stake in the Middle East, the University of North Carolina, 1949 ,p.60

(٤٥) بيتر ر. اوديل: النفط والقوة العالمية، خلفية أزمة النفط، ترجمة: راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٠٨.

.Sir R. Hay & E. Rear, op. cit, p.93-94

(٤٦) إبراهيم إبراهيم: أثر النفط على قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، في: "تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، بيروت، ١٩٩٩، ص١٨٣.

(٤٧) محمد ياسر شرف: مجتمع الإمارات، دار المتنبي، أبوظبي ١٩٩٢، ص٢

(٤٨) محمد عبد الله مرسي: مرجع سابق، ص١٤٥، ١٤٨- ١٤٩.

(٤٩) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٤٨-١٤٩.

(٥٠) روزماري سعيد زحلان: مرجع سابق، ص١٢٠-١٢١.

(٥١) وزارة التخطيط: الملامح الرئيسية للتطورات الاقتصادية والاجتماعية في دولة الإمارات العربية المتحدة في خلال المدة ١٩٧٥-١٩٨٥، ص٢١-٢٥.

(٥٢) محمود علي الداود: الخليج العربي في العلاقات الدولية، ص١٨١.

(٥٣) ف. تروخانوفسكي: سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية، ترجمة: عبد الحميد الجمال، مراجعة وتقديم: عبد الخالق لاشين، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٧٦، ص٤٨٨.

(٥٤) ك.م ووهاوس: السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب الثانية، ترجمة: حسن القباني، المؤسسة الدولية للنشر، ب.ت، ص٣١.

(٥٥) وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة ٤٨٩، الملف الأول، تقرير حول الحديث الذي دار بين سفيري مصر وواشنطن في ١٩٥٢/١٢/١٨، أرشيف سري جديد.

(٥٦) Fenelon, K.G: The Trucial States, p. 89

(٥٧) International Journal of Middle East Studies, vol. 12, no.4, Dec. 1980, pp.541-542.; Melamid, A: op. cit, pp. 542-45

(٥٨) وثائق الخارجية المصرية: محفظة ٥، بغداد، ملف ١٠٣٨/١٠٣٧/١، ج١، حلف بغداد، تقرير رقم ٢٥٨ من القائم بالأعمال المصري بطهران إلى وكيل الخارجية بشأن حلف بغداد والهيكل التنظيمي للحزب ولجانه، في ١٩٥٧/١١/١٦ سري للغاية.

(٥٩) وثائق الخارجية المصرية: محفظة ١٤٠٦، ملف ٣٨/٢٧/١٧، ج٤، حلف بغداد، مرفق بتقرير ١٨٤ من السفير المصري ببغداد إلى وكيل وزارة الخارجية الدائم بشأن اجتماع المجلس الوزاري لحلف بغداد في طهران، في ١٩٥٦/٥/٢٢، سري للغاية.

(٦٠) F.O 371/115514, Extract, From the Hearings before the Committee of Foreign Relation United States Senates, May, 6,1955

(٦١) F.O. 371/113579, Tele, No118, from, British Embassy Cairo to F.O, July, 18, 1955

(٦٢) F.O. 371/113578, Tele, no. 72, from British Embassy Cairo to F.O, March, 29, 1955

(٦٣) صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو، القاهرة، د.ت، ص٣٢٩.

(٦٤) محمد حسن العيدروس: الجزر العربية والاحتلال الإيراني: نموذج للعلاقات العربية الإيرانية، دراسة وثائقية أرشيفية، ج٣، محمد رضا خان والجزر العربية ١٩٤١-١٩٧٩، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٠١.

(٦٥) هادى طعيمة: الخليج العربى والاستراتيجية الاستعمارية البريطانية الخاصة، القاهرة، ١٩٧١، ص٥٦.

(٦٦) دائرة التخطيط: مركز الإحصاء، أبوظبى، يوليو ١٩٨١، ص٤٠.

(٦٧) محمد مرسى عبد الله: مرجع سابق، ص٩٠-٩١؛ روزمارى سعيد زحلان، مرجع سابق، ص١٢.

(٦٨) H. Hoskeins,Op Cit,PP. 208,209, EL- Malakh,op. cit,p. 89

(٦٩) K.G. Fenelon, The United Arab Emirates, p.32

(٧٠) EL- Malakh R., op. cit, p.89

(٧١) R. F. Mikesell & H. B.Chenery, op. cit, pp.116-117

(٧٢) موسوعة زايد: مرجع سابق، ص١٦٢.

(٧٣) كانت مشكلة البوريمى من أكثر النزاعات الحدودية تعقيدا فى منطقة الخليج؛ إذ شمل النزاع ثلاثة أطراف: السعودية وأبوظبى ومسقط، وقد تم التوصل إلى تسوية لتلك المشكلة عام ١٩٧٤، على ضوء الاتفاق الذى أبرم بين الشيخ زايد حاكم دولة الإمارات والملك فيصل العاهل السعودى. لمزيد من التفاصيل عن أزمة البوريمى ومباحثات تسويتها ومؤتمر الدمام، ومسألة التحكيم فى جنيف حتى اتفاق ١٩٧٤ بين فيصل وزايد، راجع: ابتسام حسون: مرجع سابق، ص٢٦١-٢٩٣.

.R.S. Zahlan, The Origin's of the United Arab Emirates, pp.192-194

(٧٤) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٨٧.

(٧٥) Arabian Gulf Concessions 1911-1953,Documents from the India Office, Recording the Negotiations and Agreements for the first Land- Based Oil Concessions in Kuwait, Bahrain, Qatar, the Trucial States and Muscat and Oman, London,1989, p.457

(٧٦) Mikesell & H. B.Chenery, R. F., op. cit, pp.118-119

(٧٧) ابتسام عبد الأمير حسون: مرجع سابق، ص٢٨٩، ٢٩٣.

(٧٨) عن زيارة الملك حسين إلى أقطار الخليج العربى (البحرين - قطر - أبوظبى - دبى - رأس الخيمية) فى فبراير ١٩٦٧، وأهم المباحثات حول قضايا المنطقة، راجع:

F.O 17/299, Tele, no.98, fromBritish Embassy, Amman to F.O, King Hussein's Visit, 27, January,1967. F.O 17/299,Tele, from Political Agency, Bahrain to F.O, no.38, 20, .January,1967

(٧٩) R. S. Zahlan, The Origin's of the United Arab Emirates, p.191

(٨٠) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٩٠.

R. F. Mikesell&H. B.Chenery, op. cit.,p.115.

(٨١) عبد القوى فهمى: مرجع سابق، ص٤١٩-٤٢٢.

(٨٢) محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٧٩، ٨٦.

(٨٣) عبد القوى فهمى: مرجع سابق، ص٤٢٣.

(٨٤) جمال زكريا قاسم: إمارات قديمة ودولة حديثة، ص٦٩. محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٩٢.

(٨٥) تقرير وزارة البترول والثروة المعدنية: البترول فى دولة الإمارات، أبوظبى، ١٩٧٧، ص٢-٧.

(٨٦) محمد على الفرا: جغرافية البترول فى دولة الإمارات العربية المتحدة، فى: "دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية شاملة"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨، ص٤٤٠، ٤٤٣؛ خزعل الجاسم: دور قطاع النفط والغاز فى البرنامج الإنمائى لإمارة أبوظبى ١٩٨١-١٩٨٥، ودوره فى تخطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، دائرة التخطيط، أبوظبى، يوليو ١٩٨١، ص٤٤-٤٥.

(٨٧) سيد فتحى الخولى: اقتصاديات البترول، ط١، مكتبة دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٨، ص٣٤٧.

(٨٨) أنتونى سامبسون: الشقيقات السبع: شركات البترول الكبرى والعالم الذى صنعته، معهد الإنماء العربى، ١٩٧٦، ص١٣٥.

(٨٩) قصة النفط، مرجع سابق، ص٧١.

(٩٠) Fenelon, K.G.: The United Arab Emirates, pp.38-39

(٩١) جمال زكريا قاسم: إمارات قديمة ودولة حديثة، ص٥٣.

(٩٢) موسوعة زايد: مرجع سابق، ص١٦٩.

(٩٣) عبد الرحمن غنيم، محمد إبراهيم الشاعر: الاستراتيجية القومية لدولة الإمارات العربية المتحدة، ط١، دمشق، ١٩٧٨، ص٣٣؛ وزارة التخطيط: التقرير الاقتصادى لعام ١٩٩٢، إدارة التخطيط، أبوظبى، ١٩٩٣.

(٩٤) موسوعة زايد، مرجع سابق، ص١٦٤.

د. سحر علي حنفي (*)

أضواء على
الصحة العقلية في القاهرة العثمانية
٩٢٣ - ١٢١٦ هـ / ١٥١٧ - ١٨٠١ م

كثر الحديث فى الآونة الاخيرة في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية عن الأمراض النفسية، كما تشجع الجامعات الباحثين على دراسة مثل هذه الموضوعات لما لها من تأثير على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولربط العلم بالمجتمع من خلال بحوث تؤدي إلى حل مشكلاته، بغية الوصول إلى أفضل النتائج في مجال التنمية البشرية. وعلى الرغم من عدم تخصصي في الطب أو الاجتماع، غير أنني أردت تناول الصحة العقلية في المجتمع المصري خلال العصر العثماني ٩٢٣ - ١٢١٦ هـ / ١٥١٧ - ١٨٠١م،نظراً لأن المتخصصين في الطب أو الاجتماع لا يستطيعون الرجوع إلى هذه الأزمنة البعيدة لتتبع أنواع وأعراض الأمراض التي كانت تحمل احيانا مسميات مختلفة عن مسميات الوقت الحاضر، وبالتالي لا يستطيعون معرفة ما استخدم من الأعشاب والنباتات لعلاج مثل هذه الأمراض، والتي ربما تكون أفضل مما هو مستخدم حاليا. ومن هنا ليس أمام الباحث في الطب أو الاجتماع إلا أن يقوم باستكمال ما وصل إليه الباحثون السابقون عليه. أما دراسة الباحث في التاريخ لمثل هذه الموضوعات فإن الهدف منها هو معرفة العوامل التي أدت إلى

(*) أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - كلية الآداب -جامعة القاهرة

هذه الأمراض وطرق علاجها، والعلاقة بين الصحة العقلية والصحة البدنية، وأثر الصحة العقلية على السلوك الاجتماعي، ونسبة المصابين بالأمراض العقلية في المجتمع خلال تلك الفترة، وطرق العلاج ، والجهة التي قامت بعلاج مثل هذه الأمراض.

ونظرا للارتباط الوثيق بين الصحة العقلية والنفسية لابد أولا من معرفة معنى الصحة النفسية.

فالصحة النفسية Mental Health هي قدرة الفرد على التوافق والتكيف مع نفسه ومع مجتمعه وعقد صلات اجتماعية تتميز بالأخذ والعطاء والتعاون والتسامح، واختيار الآمال والأهداف التي تتناسب مع واقعه وإمكانياته والقدرة على مواجهة الأزمات النفسية التي تطرأ عليه وإحساسه بالسعادة والرضا. (١)

والمرض النفسي، والمرض العقلي، مظهران لاضطراب الشخصية، غير أن هناك اختلافاً بينهما؛ فالأمراض النفسية هي اضطرابات تكون العوامل النفسية صاحب اليد الطولي فيها، وتتخذ شكل صراعات داخلية، وتصدع في العلاقات الشخصية تؤدي إلى مظاهر خارجية كالقلق Anxiety والتوتر Tension. وتعتبر الظروف البيئية السيئة التي يعيش فيها الفرد من أهم الأسباب التي تؤدي إلى مثل هذه الأمراض. (٢)

أما المرض العقلي Psychosis (موضوع الدراسة) فهو اضطراب في الشخصية، و هو أخطر من المرض النفسي، حيث يبدو في صورة اختلال عنيف في القوى العقلية ، وعجز ظاهر عن ضبط النفس، الأمر الذي يعوق قيام علاقات اجتماعية متوافقة بين الفرد وغيره، بل وعدم قيام توافق بين الفرد وذاته. (٣)

وترجع مصادر العصر العثماني وجود مثل هذه الأمراض – التي نظر إليها على أنها ضرب من الجنون (٤)– إلى ارتفاع درجة الحرارة في مصر وطبيعة أرضها التي أدت إلى جعل بعض سكانها سوداويين (٥) كما أضاف داود الأنطاكي إلى هذه الأسباب الهموم معرفا أياها بأنها (أشغال النفس بما ستلقاه من مكروه، فيغلي الدم) مما يؤدي إلى إفساد الحواس، وقد أوضح بأن أقل الناس هما ذو الأمزجة الباردة Cold Temperament ، وأكثر الناس هما من (غزر عقله وصح حدسه). لتوفر نظرة في العواقب، كما أوضح أنه يترتب على الهموم بدون مخرج لها قتل أصحابها، وأقل ما تحدثه في البدن سرعة الشيب والهرم والهزال والنسيان واختلال العقل(٦) ، يضاف إلى ذلك إقبال بعض المصريين أغنياء أو فقرا، على تعاطي المخدرات بأشكالها المختلفة،

والتي كان مسموحا ببيعها بمحلات خاصة بها ، ويطلق على بائعها ومحضرها المعجوني،والتي اعتقد المصريون أنها سبب السعادة والراحة[٧] ، بالإضافة إلى إقبال البعض على شرب الخمر، إلا أن الإفاقة من هذه المواد المخدرة والمسكرة، مع عدم القدرة على شرائها عند الفقراء، ربما يؤدي إلى تلك النوبات العصبية التي نشاهدها في الوقت الحالي لحالات المدمنين المحاولين الإقلاع عن الإدمان والذين يكون مأواهم المصحات النفسية والعقلية. ويؤكد على ذلك عبد العزيز القوصي، حينما أشار إلى أن (إدمان الخمر أو المخدرات يؤدي إلى تعطيل العمليات العقلية، وإفساد التفكير، واختلال الأحكام التي يصدرها الفرد، واضطراب إدراكاته ، فهي تدفع بعض الناس للبكاء، وبعضهم للانقباض، وبعضاً ثالثاً للمرح، وبعضهم للغضب والهياج ، كما أنها تؤدي إلى نتائج عقلية دائمة كضعف الذاكرة، وتأخر القدرة على التفكير المنطقي المنظم، وتسلط الأوهام والوساوس) [٨] نضيف إلى ذلك سببا آخر وهو ما يثيره أصحاب السلطة والنفوذ في مصر وبخاصة البكوات المماليك من الرعب والفزع لدى الفقراء، والتي يؤدي أحيانا إلى ذهاب العقل ، وخير مثال على ذلك اتهام علي بك الكبير (ت١١٨٧ هـ - ١٧٧٣م) لأحد الشباب بمدينة دمنهور بتهريب السلاح للعربان ، فأمر بقطع رأسه، إلا أنه اكتشف الحقيقة في اللحظة الأخيرة، وأطلق سراحه، ولكن ترتب على الرعب الذي عاش فيه هذا الشاب فقدانه لصوته. [٩]

وأخيرا كثيرا ما كان يتم الزج بأحد الأشخاص بالبيمارستان [٩٠]طمعا في ماله، أو انتقاما منه لسبب ما ، فقد شاهد ديجنت Desgenttes كبير الأطباء في الحملة الفرنسية على مصر عند زيارته للبيمارستان المنصوري- [١٠] وهو البيمارستان الوحيد الذي يأوى المرضى العقليين في مصر خلال فترة الدراسة - فتاة وصفها بقوله (شابة جميلة جالسة على أرض الحجرة ترسف في أغلالها وهي تكاد تكون عارية في أسمالها البالية الممزقة) ، وعند اقترابه منها فرحت برؤيته، وحاولت محادثته بعصبية شديدة، لم يفهم منها ديجنت شيئا لاختلاف لغته الفرنسية عن لغتها العربية، غير أنه أشفق عليها ، وتتبع حالتها قائلاً : (خطر لي أنها ليست مجنونة، وأن بعض الأشرار قد زجوا بها في الموستان ظلما وكيدا) ، وتبين له بعد ذلك أنه كان محقا فيما اعتقد ، وأخرجها من البيمارستان. [١١]

و قد أطلقت المصادر الطبية في العصر العثماني على الأمراض التي تصيب الرأس و تؤدى إلى زوال العقل، مسمى الماليخوليا [١٢]. ويندرج تحت هذا المسمى أنواع عديدة من الأمراض العقلية يوضحها الجدول التالي [١٣]:

البيانات	أنواع الماليخوليا				
	المراقي	القطرب	المانيا	الصبار	الهذيان والجنون
سبب المرض	المعدة	السوداء	السوداء : إذا كان المريض في حالة سكون ونحافة. الصفراء : مادون ذلك.		
وقت المرض	يشتد المرض وقت الجوع أو الهضم	——	——	——	——
أعراض المرض	العزلة، قلة الكلام، تخيلات	اختلاف مشية. تقليب وجهه. نفوره من الناس والأماكن.	اختلاط غضبه باللعب وضحكه بالبكاء والعطش.	اختلاف الأفعال المضادة والرعونة والخوف والتكدر والصفاء	كل ما سبق مع فساد الخلط من الداخل أو الخارج
معلومات إضافية			يسمى هذا المرض أيضا بماتويا وداء الكلب أو الداء السبعي لشبه أفعاله بأفعال الكلاب أو السباع.		

و قد أورد مؤرخو مصر في العصر العثماني نماذج من هذه الأمراض. فهناك من يدعي أنه نبي مرسل [١٤] أو المهدي المنتظر [١٥] أو يكون في حالة هدوء تام لفترة طويلة من الزمن قد تصل إلى اثنين وثلاثين عاما (واحيانا يتكلم، وأحيانا أخرى لا يكلم أحداً ، وإن أتاه الوزير) ثم فجأة يصرخ ويبكي مدعيا أنه قد سلب حقه ،وأنه يرغب في تخليص قريته (أوسيم) من المعتدين. ثم

يعود إلى هدوئه مرة أخرى [١٦] وهناك من تكون حالته هياجاً مستمراً [١٧] (وكأنه يزأر كالأسد، ثم يعود إلى الهدوء، وتعلو شفتيه ابتسامة بلهاء [١٨]) وهناك من هو شارد [١٩] بصفة مستمرة [٢٠] وهناك من هو مصاب بالهوس [٢١] على الدوام [٢٢].

وإذا كانت هذه أمثلة لبعض الحالات التي أودعت في البيمارستان المنصوري، إلا أن هناك العديد من المرضى يجوبون الشوارع والأسواق، ويصيحون، ويصرخون، وتعتقد فيهم العامة الولاية [٢٣]، ومنهم «علي البكري» الذي اعتقد فيه العوام الولاية وأطلقوا عليه «الشيخ علي البكري» وقد وصفه الجبرتي بقوله إنه (رجل طويل، حليق اللحية، يمشي عريانا، وأحيانا يلبس قميصا وطاقية، ويمشي حافيا) وقد تبعته امرأة، وصارت تمشي خلفه أينما توجه وتخلط في ألفاظها وتدخل معه البيوت واعتقدت بها النساء. وتبعهما الأطفال والصغار وهوام العوام، وصاروا يقبلون أيديهما، ويتبركون بهما. وعندما دخل الشيخ والمرأة ومن تبعهما بين القصرين وبه أحد أجناد الدولة العثمانية ويدعى جعفر كاشف، قبض على الشيخ والمراة ومن تبعهم، ثم أطلق الشيخ لحال سبيله ربما لاعتقاده هو نفسه في هذا الشخص، أما المرأة فقد أرسلها إلى البيمارستان، وأطلق باقي من تبعهما بعد أن ضربهم، وتابوا ولبسوا ثيابهم. ويعلق على ذلك الجبرتي بقوله: (بعد أن طارت الشربة [٢٤] من رؤسهم). [٢٥]

و قد أدى تواجد الكثيرين من أمثال علي البكري في الشوارع إلى استفسار نابليون بونابرت عنهم من مشايخ الأزهر خصوصاً مع (اعتقاد العامة فيهم، وهم لا يصلون ولا يصومون، هل هذا حلال أم حرام في الشريعة؟) فأجابه المشايخ بأنه حرام. عندئذ أمر بونابرت بجمع من على هذه الشاكلة والكشف على عقولهم، وأدخل البيمارستان من ثبت عليه الجنون. [٢٦]

وقد حاول المصريون آنذاك وقاية أنفسهم من الأمراض النفسية والعقلية، حيث حرصوا على الهدوء [٢٧] واسترخاء الأعصاب [٢٨] مع عدم شغل العقل بالتأمل والتفكير [٢٩] وعدم الاستجابة للانفعالات العنيفة، وتقبل الواقع بما فيه من محاسن ومساوئ وهو ما يعرف عند علماء النفس بالمنهج الوقائي Preventive Method [٣٠]. كما سعوا إلى زيادة سعادتهم والاستمتاع بمباهج الحياة كالذهاب إلى الحدائق، وسماع الموسيقى، وقضاء وقت في الهواء الطلق [٣١] والمرح والضحك لإزالة التوتروتخفيف آلامهم سواء كانت هذه الآلام، آلاماً بدنية أو نفسية [٣٢]، وهو ما يعرف لدى علماء النفس حاليا بالمنهج الإنشائي Constructive Method [٣٣]. أما إذا أحس

المصريون بإعتلال في الصحة، عللوا ذلك بانسداد مسام الجلد ، وقلة إفراز العرق ، لهذا يتوجهون إلى الحمامات البخارية في محاولة لتبديد ما ظهر من تلك الأعراض. [٣٤]

ولم يعتد أهل مصر استخدام الأدوية إلا في حدود ضيقة ، فالمريض يستخدم ما يناسبه من الأعشاب والنباتات[٣٥]، ولا يستشر الطبيب إلا عند الأمراض الخطيرة وغير العادية[٣٦].

و قد كانت وسيلتهم الأساسية للعلاج ما يطلق عليه (الطب الروحاني) ، وهو الرقي بآيات من القرآن الكريم ، و ما ورد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الرقي بعضها للشفاء من الأمراض بصفة عامة، وبعضها الآخر للشفاء من الأمراض العقلية. غير أنهم أضافوا إلى آيات الله وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، بعض الأدعية والكلمات غير المفهومة والتي ترتبط بالسحر والأحجبة والتمائم[٣٧]، مثل كتابه تسعين صادا في ثلاثة أسطر في كاغد ويعلق على الرأس ، و يكتب بعدها أ ح أ ك ك خ ع ح أ م ح وقوله تبارك وتعالى(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا[٣٨] ، وأيضا (إن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين). [٣٩]

كما حرص المصريون من أجل شفاء المريض على معرفة مكان المرض، وما لذلك العضو من الحروف، والعضوين القريبين منه (فوقه وتحته) ، ويقومون بجمع حروف الأعضاء الثلاثة، ثم ينظرون في القرآن في أي آية جمعت تلك الحروف، ثم تكتب هذه الآية ، وتسقى للمريض ، أو تعلق عليه [٤٠] ، بالإضافة إلى حلقات الزار التي رأى فيها المصريون شفاء من الأمراض العصبية[٤١]

أما إذا فشلت تلك الطرق مع المريض ، فعندئذ يلجأ المريض أو أقاربه للطبيب. و يبدأ مع المريض ما يعرف بالمنهج العلاجي Remedial Method الذي يكون الهدف منه عودة المريض إلى التوازن والاعتدال والتوافق النفسي والاجتماعي.[٤٢]

و تتم معالجة مريض الماليخوليا بعقاقير، بعضها بسيط مكون من نبات واحد، وبعضها الآخر مركب من عدة نباتات. ومن هذه العقاقير الأشربة والمعاجين والسفوف والحبوب والادهان والمفرحات. [٤٣]

فمن الأشربة، شراب أسطوخودس ويتكون من الأسطوخودس وعصير تفاح وسفرجل وحماض

ولسان ثور[٤٤]. وشراب مركب من اللازورد والأفتيمون والسكنجبين بماء الجبن، وشراب بسيط من نبات بزر قطو نامع السكر وماء الورد.[٤٥]

أما المعاجين وهي من أعظم المركبات قدرا وأجلها نفعا وأكثرها في التداوي، والقانون الجامع لسائر المعاجين أن تكون بالعسل: والجدول التالي يوضح المعاجين المستخدمة في علاج الماليخوليا:

اسم المعجون	مكونات المعجون	جرعة المريض اليومية	مدة صلاحية المعجون
معجون النجاح	أهليلج [٤٦]- بليلج - افتيمون- اسطوخودس- بسفايج - غاريقون - حجر ارمني - مرجان - لؤلؤ- بادروج.	مثقالان [٤٧]	سنة واحدة
معجون الفائق	تربد - لوز - سقمونيا - قرنفل - مصطكي - جوزبوا - دار صيني - زنجبيل - أنيسون	أربعة مثاقيل	سنة واحدة
معجون داود	أفتيمون - بسفايج - فستق - صنوبر - حب بلسان - غاريقون - صندل أحمر - بزر خشخاش - قنطريون - انيسون - رازيانج - مصطكي - صمغ - لازورد - حجر ارمني - فاوانيا - مرجان - لؤلؤ	مثقالان	عشر سنين
معجون الافتيمون	أفتيمون - اهليلج - بليلج - أملج - بسفايج - بزر شاهترج - حجر ارمني - لازورد - غاريقون - انيسون - مصطكي	من خمسة إلى عشرة مثاقيل	ــــ
ــــ	سنا - حنظل - صبر - اسارون - أفتيمون - بسفايج - لؤلؤ - ازورد - مسك	ــــ	ــــ
ــــ	زعفران - اسارون - دار صيني - صبر	ــــ	ــــ[٤٨]

ومن السفوف، سفوف اللؤلؤ وتتكون من درونج، وبزر ريحان، وباذر نبوية، ولازورد، ومصطكي ،وحجر أرمني، وذهب، وفضة ،ومرجان، وياقوت، ولؤلؤ. وسفوف أخرى مكونة من قرفة ،وفرنجمشك، وقرنفل، وجوز بوا ،و مصطكي،واسارون، واهليلج، ونار مشك ،ونار قبصر، ودار صيني، وزنجبيل.[٤٩]

ومن الحبوب حبوب اصطميحقون وهي يونانية، و معنى اصطمحيقون منقي الأخلاط الباردة. ويتكون من صبر وبسفايج وافتيمون وسقمونيا وغاريقون وحنظل وزعفران وحب بلسان وأسارون ومصطكي وزراوند ودار صيني. وحبوب تتكون من مسحوق كل من اللؤلؤ وحماض الأترج وصبر وسقمونيا وافتيمون ودار صيني وقصب ذريرة ولازورد وقرنفل(٥٠).

أما الأدهان ، فيقصد بها طبخ الدواء سواء كان على شكل أوراق أو عصير في دهن حتى يذهب الماء ويبقى الدهن . ومن أهم الأدهان، دهن اللبوب السبعة المكون من بندق وفستق ولوز وجوز وصنوبر وسمسم وقرع لب، ودهن البنج وإن لم يذكر- المصدر مكوناته، غير أن تسميته تدل على أن تركيبة الأساسي من نبات البنج.(٥١)

وإلى جانب هذه العقاقير، التي يرى البعض إنها أنواع معتادة من العلاج، استخدم أطباء العصر العثماني نوعا من العلاج يدل على عبقرية الأطباء خلال فترة الدراسة ،ويطلق على هذا النوع الأخير مسمى (المفرحات)، ويقصد به ما يسر القلب ،ويبسط النفس ،وينشط الحواس، ويصقل الذهن. فقد استخدم الأطباء حينئذ كل ما يؤدي إلى تهدئة وإرضاء المريض كالغذاء الجيد، والعقار الذي يخدر العقل والأعضاء. كما حاول الأطباء الاستفادة من حواس الإنسان، و قدموا حاسة السمع على غيرها من الحواس. (٥٢) لذلك كان يتم علاج مريض الماليخوليا في البيمارستان أولا بالموسيقى ورواية القصص المسلية للترويح عنهم. (٥٣) وما إن ينتبه المريض إلى ما يدور حوله يتم الانتقال للاستفادة من الحاسة الثانية للمريض ألا وهي البصر، حيث يتم نقل المريض إلى غرفة أخرى للاستمتاع بمشاهدة الرقص وألوان من الكوميديا(٥٤). مع لفت نظر المريض بالألوان والأضواء. وقد رأى الأطباء أن أكثر الألوان المفرحة هو اللون الأبيض. وأن أفضل الألوان المركبة هي الأبيض والأحمر متساويان مع أصفر بسيط. و في نفس الوقت استفاد الأطباء من حاسة الشم عند المرضى، فأوصوا بإقامتهم وسط الورود والبنفسج والياسمين قرب المياه في الصيف للاستمتاع بالمناظر والروائح الجميلة. وتجنب تيارات الهواء في الشتاء مع تعليق الفاوانيا حول المريض. (٥٥)و قديما كان الأطباء يصعدون كل يوم أعلى البيمارستان لمعرفة اتجاه هبوب الهواء. ثم يتم وضع المريض في المكان المناسب له، ولكن أبطل ذلك من البيمارستان المنصوري خلال العصر العثماني مما كان له أثره في تأخر شفاء المرضى. وكان أطيب الروائح المستخدمة للمرضى هو المسك والعنبر. أما عند وصول الروائح الكريهة . فأن الأطباء كانوا ينصحون المرضى باستخدام السعوطات(٥٦).

كما استغل الأطباء حاسة اللمس عند الإنسان، حيث عالجوا بعض المرضى المحبين للمال بلمس الذهب والفضة طالما أن هذه المعادن تسر نفوسهم. [٥٧] في حين أقام المرضى عموما، بالبيمارستان المنصوري- خلال فترة إزدهار تلك المؤسسة العلاجية- على أسرة حريرية، وأغطيتهم ألحفه حريرية[٥٨]

كما استفاء الأطباء من حاسة التذوق عند المريض، فأوصوا بإطعامه ألذ الأطعمة، و بخاصة ما يناسب ميول المريض. كما صرح للمرضى بالدجاج واللبن والقرع. [٥٩] وقد ذكر البعض أن الدجاج يزيد من جوهر العقل، ويصلح الأعصاب،وشحمه يسكن الماليخوليا والجنون، وغالب الأمراض السوداوية. ومرقه خصوصا مرق الديك الهرم بالبسفايج يستأصل السوداء، وطبخه مع اللوز يصلح الفكر. واللبن يلين الطبع ويخرج الأخلاط السوداوية. كما أن شرب ماء القرع مفيد في إزالة الوساوس والجنون. [٦٠] وقد أجمع الأطباء على أن الحلويات تحظي بقبول ورضا كافة المرضى وأضاف الأطباء أمرا مفرحا أخر للمرضى، فإن كان المريض ممن يحبون مهنتهم، تترك له حرية مزاولة هذه المهنة، لأنها تؤدي إلى إسعاده[٦١].

وبالإضافة إلى الاستفادة من حواس المريض ،أعد الأطباء مركبات كانت تستخدم أيضا للتفريح عن المرضى. والجدول التالي يوضح المفرحات المستخدمة لعلاج الماليخوليا.

اسم المفرح واصله	مكونات المفرح	جرعة المريض اليومية	مدة صلاحية المفرح
مفرح بطولا ماخس أصله رومي بمعنى جبار القلب	حليب بقر – بزر رجلة– صندل – رازيانج– دار صيني– كزبرة يابسة– بارنج – مرجان – لؤلؤ– حماض الاترج.	مثقال	سبع سنين
مفرح الياقوت	شاهترج – باذرنبوية – بهمن – لازورد – صندل – فستق – مرجان – لؤلؤ– حماض الاترج – ماء ورد وسفرجل وتفاح– زعفران– درونج – زرنب – ذهب – فضة – ياقوت أحمر.		لا يبطل مفعوله بمرور الوقت.

مفرح العود	بزر خشخاش – أسارون – مصطكي – قرنفل– فرنجمشك – لؤلؤ– عنبر – ياقوت – ذهب– فضة– مسك– ليمون– ماء العناب والتفاح والريباس.		سنة واحدة
ــــ	أشنة – أظفار طيب – نارمشك – فرنجمشك – قرفة – قرنفل– دار صيني – مصطكي – زعفران – سنبل طيب.		
ــــ	افتيمون – اسطوخودس – قرنفل – حب بلسان – سليخة – اسارون – زرنباد – درونج – لؤلؤ– مرجان – بهمن – سنبل الطيب – زنجبيل – مسك.	درهمان [٦٢]	ثلاث سنين [٦٣]

غير أن هناك حالات مستعصية تشكل خطورة على المجتمع استدعت الضرورة إيداعها بالبيمارستان للعلاج. لهذا كان لابد من الحصول على إذن من الباشا، وذلك لان البيمارستان لا يقبل المريض إلا بأمر منه، لأن المريض يكلف الإدارة العثمانية قرشا [٦٤] كل يوم حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر[٦٥]، في حين أصبح المريض يكلف الإدارة في أواخر القرن الثامن عشر ديناراً [٦٦] كل يوم[٦٧].

وكان البيمارستان ينقسم إلى قسمين، الأول ويشمل كافة الأمراض، والثاني ويشغله المرضى العقليون. وانقسم هذا الأخير بدوره إلى ساحتين، إحداهما تضم ثماني عشرة حجرة للرجال، وثانيتهما تضم ثماني عشرة حجرة للنساء[٦٨].

والمرضى العقليون من الرجال معزولون في حجرات ضيقة ذات قضبان، في أعناقهم السلاسل [٦٩] ويشرف على علاجهم عدد من الحكماء، يساعدهم أتباع من المرضين لهم طبع الجلادين ويصف أوليا جلبي قسوتهم بقوله: (يطعمون بعض الأخوان الفاقدي العقل خشافا من عصا الشوم فيعقلون). [٧٠]

أما المريضات من النساء فكن عاريات أو شبه عاريات [٧١] وحجراتهن ليست جميعها ذات قضبان ومع إنهن كلهن مقيدات فإنهن لسن مشدودات إلى الجدار كما هو الحال بالنسبة للرجال[٧٢] وجميع خدمة هذا القسم من النساء، وليس به رجال غير الحكماء[٧٣] ولم يرحمن لمرضهن، فبعضهن حملن في البيمارستان، فقد ولد غلام في عهد إبراهيم باشا(١٠٧٨- ١٠٨٥ هـ / ١٦٦٧ – ١٦٧٤م) [٧٤] وسمي (شفائي). [٧٥]

وإلى جانب عدم رحمة بعض القائمين على العلاج. عانى المرضى أيضا- خاصة خلال القرن الثامن عشر - من سوء أحوال البيمارستان ذاته. [٧٦] ، فقد كان حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر على درجة كبيرة من الرقي. حيث وصفه أوليا جلبي، الذي زار مصر بين عامي (١٠٨٢ - ١٠٩١هـ / ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م) بقوله:(بناء عجيب لا نظير له في بلاد الترك والعرب والعجم، فقد بنى على أسلوب لو اختل عقل إمرئ عالجه الحكماء فارتد عاقلا) كما أوضح كيفية إقامة المرضى بالبيمارستان، و ما حظوا به من رعاية صحية متكاملة، فهناك اثنا عشر طبيبا مع تلاميذهم يحضرون لكل مريض، في مكان صرف الطعام، ما يوافق مرضه من الطعام والدواء. وإذا ما اقترب المريض من الشفاء سمح له بالاستحمام في المياه الجارية داخل البيمارستان. وحوله المرضون يخدمونه كأنهم فراش حول الشمع . [٧٧]

لكن أوضاع البيمارستان ساءت خلال القرن الثامن عشر بعد أن انتقل الإشراف عليه إلى البكوات المماليك ، فأصبح بعض المرضى يرقد على أسرة خشبية مفروشة بالحصر أو مفروشة بمراتب ممزقة، والبعض ينام على مصاطب مبنية من الحجارة أو الطين ، وطعامهم الخبز والأرز وشوربة العدس[٧٨] ، رغم كثرة الأوقاف المرصودة للإنفاق على هذه المؤسسة العلاجية [٧٩] إلى جانب مصادر دخل أخرى للمؤسسة كالترياق [٨٠] الذي تخصص حصيلة بيعه للعناية بالبيمارستان ، لكن رغم ذلك لا ينفق على البيمارستان إلا القليل نتيجة لنهب البكوات المماليك لمعظم هذه الأموال. [٨١]

وقد استغل رجال البيمارستان حالات المرضى؛ فعندما وضع أحد المرضى بالبيمارستان لإدعائه النبوة، استغل البيمارستاني المشرف عليه ذلك. وأدخل عليه من يرغب في رؤيته من الناس. واصفا المصدر المعاصر هؤلاء الناس بأنهم :(من لا عقل لهم، ويغلب عليهم الجهل)، وصار المارستاني يأخذ منهم مالا، كلٍ على حسب حالته. ويعترف المارستاني بأنه خلال الثلاثة أيام التي أقام فيها المريض بالبيمارستان. استطاع كسوة نفسه وعياله، وعمل كعك العيد، واشترى النقل و دبر مصروفات رمضان، وصار يدعو لعثمان كتخدا [٨٢] الذي أرسل هذا المريض للبيمارستان[٨٣].

وقد أشفق ديجنت، المكلف من قبل نابليون بونابرت بالإشراف على البيمارستان، على المرضى الموجودين به، وأوصى قائده بمنح هذه المؤسسة العلاجية إعانة مالية قدرها خمسون دينارا يوميا رحمة بالمرضى البؤساء إلى أن يتم إنشاء المستشفى العسكري [٨٤] المزمع إنشاؤه[٨٥].

وختاما لابد من الإشارة إلى قلة نسبة المرضى العقليين في مصر العثمانية. فقد أشار كارستن

نيبور الذي زار مصر فى الفترة من (١١٧٤ - ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ - ١٧٦٢م) إلى قلة عددهم بالقياس إلى حجم مدينة القاهرة [٨٦] ، فى حين حدد ديجنت عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر أربعة عشر مريضا عقليا [٨٧] كما أوضح كلوت بك فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر، أن عدد المرضى العقليين يبلغ ما بين ثلاثين إلى أربعين مجنونا من الرجال والنساء في مدينة القاهرة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة [٨٨]

وقلة نسبة المرضى العقليين في القاهرة العثمانية، يدفعنا إلى وضع عدد من الفروض، أولها أن هذه النسبة تؤخذ من البيمارستان المنصوري، وهذا البيمارستان لا يودع به إلا الحالات المستعصية التي تؤذي غيرها في المجتمع. وربما كان ميل المصريين للتدين والقبول بقضاء الله في كل أمور حياتهم المعيشة . مع عدم إجهاد العقل بكثرة التفكير قد أدى إلى قلة المرضى العقليين ، أو ربما كان لرفض البعض إيداع أقاربهم بالبيمارستان وإبقائهم في المنازل دون أن يعلم عنهم أحد شيئاً.

غير أن تتبع طرق العلاج التي اتبعها أطباء مصر في العصر العثماني لعلاج الأمراض العقلية تدل على تقدم علم الطب بصفة عامة، والطب العقلي و النفسي بصفة خاصة، حيث يتضح عدم اكتفاء أطباء العصر بما وصل إليهم من الطب الإسلامي، إذ كانوا على دراية بتطور طرق العلاج في جهات العالم المختلفة. والمستخدمة عند الفرس والروم واليونان، وتسمية كل نبات طبي بمسماه في كل بلاد العالم.

لكن رغم تقدم الطب في مصر العثمانية، إلا أن المصريين أنفسهم رفضوا الخضوع لكشف وعلاج الأطباء، وفضلوا العلاج بالطب الروحاني قبل الأقدام بعرض المريض على الطبيب. والذى كان يتم عند وصول المريض إلى حالة خطرة ربما تؤدي به إلى الموت في النهاية.

فمعظم الحالات التي أشارت إليها المصادر المعاصرة، وتم إيداعها بالبيمارستان المنصوري، هي حالات تم تقييدها بالسلاسل، سواء أكانت من الرجال أو النساء مما يدل على إيذائها لنفسها، أو لمن حولها ، كما أن معظمها كان في حالة هياج مستمر. مما أضطر الأطباء إلى علاجهم بالمهدئات المصنعة من النباتات المخدرة كبذر الخشخاش والبنج. فالمصريون لا يودعون مريضهم بالبيمارستان إلا عندما ييأسون منه، وكأنهم قد أودعوه في قبره.

أما من فقد عقله، ولم يؤذ أحد من المجتمع، فقد نظر إليه المصريون على أنه مجذوب، قد جذبه الله، إذ هم يتبركون به ويتفاءلون برؤيته مثل شخصية الشيخ على البكري، وهناك العديدون من أمثاله في شوارع القاهرة.

ملحق عن

المواد الخام المستخدمة في عقاقير الأمراض العقلية

آس :	باليونانية أموسير، والفارسية مرزباح، والسريانية سن، والبربرية أحماض، والعبرية أخمام، والعربية ريحان، وبمصر مرسين، وبالشام منه البستاني والبري، ورقة دقيق، مر الورق حلو الخشب، زهره وثمره أسود ، غير أن ثمر البستاني كالعنب في الحجم ، ويسمى تكمام. و ينفع في علاج الصداع.
أسارون :	الناردين البري والأقليطي ، وهو نبات ميزر، نحو ذراع، منبسط على الأرض، وغالبه تحت الأرض ، وجميعه أغبر إلى الصفرة، وزهره دقيق الورق، صلب وعريض وهش، أجوده الأصفر الطيب الرائحة القليل المرارة المجتني في يوليو.
أسطوخودس :	يوناني بمعنى موقف الأرواح ، ويسمى أيضا الكمون الهندي ، وهو كالشعير يميل إلى الحمرة ، وأوراقه كالصعتر. أجوده الحديث الطيب الرائحة المر المأخوذ في يونيو، وفائدته أنه يخرج السوداء ، ويفرح ويقوي القلب ، وينقي الدماغ لذلك يسمى المكنسة. والسعوط منه بماء العسل ينقي الدماغ، وشربه مع السكنجبين يشفي من الصداع والماليخوليا، وتقدر جرعة المريض ما بين اثنين إلى خمسة مثاقيل، وفي السعوط مرة واحدة.
أشنه :	يطلق عليها فى العربية شيبه، و فى اليونانية بريون، وهي أجزاء شعرية تتخلق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر والجوز ، تذهب الأعياء والتعب ، وجرعتها إلى ثلاثة مثاقيل.
أظفار الطيب:	قشور صلبة على طرف من الصدف قد حشى تقعيرها لحما رخوا، تخرج من الأرض أواخر مارس، وأجودها الأبيض الضارب إلى الحمرة، وجرعته من واحد إلى ثلاثة مثاقيل، وبدله القاوانيا.

أفتيمون:	يوناني معناه دواء الجنون، وهو نبات شديد الحمرة، وفروعه كالخيوط الليفية وأجوده المأخوذ في يونيو، يزيل أمراض الجنون السوداوي لاسيما إذا أضيف إليه الخل ونقع منه رطل في ثلاثين رطلاً لمدة أربعين يوما. ومتى استعمل منه خمسة أرطال في نصف رطل حليب وأوقيتين سكنجبين أسبوعا أذهب الماليخوليا.
أملج:	يسمى بمصر السنابير، وفي فارس إذا نقع باللبن سمي شير أملج ؛ لأن الشير هو اللبن الحليب ، وأجوده ما يشبه الكمثرى الصغيرة ، وإذا طبخ مع ورقه الأس ، ثم طبخ ماؤه بدهن كالسيرج والزيت، أفاد في تقوية الأعصاب. و جرعته من ثلاثة إلى خمسة مثاقيل.
أهليلج:	وهو أربعة أصناف : الهندي المعروف بمصر بالشعيري، والأسود المعروف بالصيني، والكابلي كالبلح ، والأصفر كالتمر ؛ وأكثرها نفعا الكابلي فالأصفر فالصيني فالهندي. وهو يقوى الحواس والدماغ ، ويساعد على سرعة الحفظ.
بادروج:	باليونانية أفيمن، والعبرية حول، وعندنا يسمى بالريحان الأحمر أو السليماني، لان الجن جاءت به لسليمان فكان يعالج به ،وجرعته إلى ثلاثة.
باذر نجوية:	ويطلق عليه باذر نبوية، وباليونانية لبوفلن، وهو بقلة تنبت وتستنبت خضراء، عطرية ربيعية وصيفية، يستخدم في التفريح وتقوية الحواس والذكاء والحفظ، وجرعته إلى مثقالين.
بزر قطونا:	باليونانية تسليون ، وهو ثلاثة أنواع ؛ الأبيض وهو الأجود ، والأحمر ويعرف بالبرلسية نسبة إلى البرلس، والأسود وهو الأردأ ويسمى بالصعيدي ؛ لأنه يجلب من الصعيد الأعلى.
بسفايج :	باليونانية بولوديون، والفارسية سكرمال، والهندية والسريانية تنكار علا، ومعنى هذه الأسماء الحيوان الكثير الأرجل ، و سمي هذا النبات به لكونه كالدور الكثير الأرجل ، ويدعى بمصر اشتيوان ، وهو نبات طوله نحو شبر ، دقيق الورق أغبر مزغب ، في أوراقه نكت صفرين صفره وحمره وهو الأجود ، وأرداه الأسود ، ربيعي يدرك في يونيو : يبرئ من الجنون ورداءه الأخلاق والماليخوليا.

بليلج:	ثمر شجرة هندية، تجنى بيوليو ، وأجوده الأصفر الرخو يخرج السوداء ، وجرعته إلى ثلاثة مثاقيل.
بنج:	بالعربية السيكران، وباليونانية أفيقوامس ، والسريانية أرمانيوس، والبربرية اقنقيط . ويقال اسقيراسن، وهو نبات ينبسط على الأرض دائرة ، ويرتفع وسطه دون ذراع، شديد الخضرة، مزغب غليظ الورق مائي مشقق الأطراف، زهره يخلف حبا أسود وأصفر وأحمر وأبيض. يدرك في الصيف في يونيو، وأجوده الذي لم يجاوز سنة، يسكن الصداع المزمن، وإذا دق بذره مع بذر خس وخشخاش ، واستخرج دهن ذلك كان ترياقا للماليخوليا والجنون والوساوس وحديث النفس شربا ودهنا وسعوطا.
بهمن:	نبات فارسي جبلي، ساقه شبر، يبسط أوراقا كورق الأجاص، لكنها شائكة. أوراقه ملتفة بلا زهر، يدرك في يوليو.
تربد :	نبت فارسي، يخرج من جبال خراسان، يخلف ثمرا كألسنة العصافير، ويدرك يوليو ، وأجوده الأبيض الخفيف المجوف المصمغ الطرفين. مع الكابلي يشفي غالب أنواع الجنون ، وغالب المستعمل منه الآن بمصر عروق تجلب من أطراف الشام ودياربكر، وجرعته من ثلاثة إلى خمسة مثاقيل، وإذا طبخ تصل جرعته إلى عشرة مثاقيل.
جوزبوا:	يسمى جوز الطيب لعطريته، يخرج بجبال الهند وجزائر آشية، أجوده الحديث السالم من التأكل الهش الذي لم يبلغ ثلاث سنين من يوم قطعه.
حجر أرمني:	لا زوردي لكنه أغبر، وأجوده الهش الخالي من الملوحة، يتولد بأرمينيا وجبال فارس ينفع في السوداء، وأمراضها كالجنون والوساوس والماليخوليا. وجرعته درهم.
حماض:	نبت كثير الأصناف منه نوع دقيق الورق محمر الأصول ، له سنابل بيض ، يخلف بذرا أسود براقا ، ونوع يولد بذره من غير زهر، وكلاهما حامض جيد. والمولد بذراً بلا زهر إذا سحق وشرب فرح النفس وقارب الخمر.

حنظل:	باليونانية دوفوفينا، وقد يسمى أغريسومس ، وحبه يسمى الهبيد، وهو نبت يمد على الأرض كالبطيخ ، إلا أنه أصغر ورقا. وفائدته إذا غلى بالماء والعسل والأفيتمون والقرفة يستأصل السوداء ، ويبرئ الماليخوليا والجنون.
خس الحمار:	الشنجار، خسرو دارو، الخولنجان، الخشخاش:
	يقصد به النبات المعروف في مصر بأبي النوم، وأجوده الأبيض. أوراقه خشنة ، و طوله نحو ذراع ، ويخلف زهرًا ذا رؤوس مستديرة ، غليظ الوسط يجمع آخره قمعًا. ويرزع الخشخاش فى أواخر طوبة إلى تمام أمشير. ويجمع ببرموده. ومنه يستخرج الأفيون بالشرط. وقشره إذا دق رطبا وقرص كان مفيدا لمرضى الأرق. ويصب طبيخة على الرأس فيشفى الصداع وأنواع الجنون والماليخوليا.
دار صيني:	معرب عن دار شين الفارسي، وباليوناني أفيمونا، والسريانية مرسلون ، و هو شجر هندي بتخوم الصين كالرمان، اوراقه كأوراق الجوز ألا أنها أدق، ولا زهر ولا بذر له ، والدار صيني هو قشر تلك الأغصان ، وأجوده الشحم المتخلخل بين حمره وسواد وصفره وحلاوه وملوحه ومراره الكائن بالصين، فالياقوتي الكائن بآشية وجزائر الزنج، فالأسود البراق، فالأصفر الدقيق، وأرداه الأبيض، يستمر مفعوله خمس عشرة سنة، يمنع الخفقان والوحشة والوساوس وضروب الجنون.
درونج:	نبت مشهور بجبال الشام خصوصا ببيروت يدرك بسبتمبر، يستمر مفعوله عشر سنين، مفرح ويقوي الحواس، وجرعته مثقال.
رازيانج:	هو الأنيسون، ويسمى الشمار بالشام ومصر، والشمرة بحلب، والبسباس بالمغرب، وهو برى بستاني، عطري ذكي الرائحة، يجنى بمصر في الربيع.
زراوند:	نبت مشهور يسمى باليونانية رسطولوخيا معناه دواء يبرئ، وهو كثير الوجود بالشام، مر الطعم، يستمر مفعوله سنتين، يفيد في الوسواس والجنون، وجرعته إلى درهمين.

زرنب:	يسمى الملكي ورجل الجراد ، و هو نبات لا يزيد طوله على ثلثي ذراع، له ورق أعرض من الصعتر ، وزهر أصفر ، يوجد بجبال فارس، وهو الأجود ، وقد يوجد بالشام، ولكنه لأحرافه فيه، يدرك ببشنس، و يستمر مفعوله أربع سنين، فيه شدة تفريح حتى أن عصارته تفعل فعل الخمر. يقضي على الصداع سعوطا ، و جرعته إلى درهمين، وبدله الدار الصيني.
زرنباد:	يسمى كافور الكعك، وأهل مصر يسمونه الزرنبة وهو عطري، ينبت بجبال بنكالة والدكن وبجزائرها ، ويطول نحو شبرين، وله أوراق تقارب ورق الرمان، وزهر أصفر يخلف بذرا كبذر الورد ، يدرك بمسرى وتوت، و يستمر مفعوله ثلاث سنين، والمرهو الأجود ، والحلو ضعيف المفعول يذهب الوسواس لشدة تفريحة.
زعفران:	بالسريانية الكركم، والفارسية كركيماس، ويسمى بالجساد و الجاتد والرعبل والدلهقان. وهو نبات بأرض سوس، وينبت كثيرا بالمغرب زهرة كالباذنجان فيه شعر ، إذا فرك فاحت راحتته وصبغ، وهذا الشعر هو الزعفران. يظهر في أكتوبر. وفائدته يفرح القلب ويشفى الأرق.
سقمونيا:	هي المحمودة، وهي عبارة عن نبات ينبت بالأحجار والجبال، يطول نحو ثلاثة أذرع، وله ورق كاللبلاب لكنه أدق وزهره أجوف مستدير أبيض. وطريقة أخذها بأن يشرط الأصل ، ويصفى في إناء ، فيسيل كاللبن ويجمد. وأجودها الخفيف الأسفنجي المائل إلى الزرقة والصفرة. ويستمر مفعوله ثلاثين سنة، وخلطها باللازورد يساعد في علاج السوداء ، وتزيل الوسواس والجنون ومبادئ الماليخوليا.
سكنجبين:	صمغ شجرة بفارس، يخرج منها في يونيو، أجوده الأبيض، تظل قوته عشرين سنة.
سليخة:	باليونانية أسليوس، وهي قشر شجر هندي وعني ، يظل مفعوله سبع سنين، وجرعته درهم، وبدلها الدارصيني.

سنا:	نبات ربيعي له زهر أزرق، وثمره داخلها حب مفرطح محزوز الوسط، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر يسمى بالحجازي، يظهر بالصيف، وفائدته أنه ينقي الدماغ من الصداع الشديد.
شاهترج :	فارسي بمعنى ملك البقول، ويسمى كزبرة الحمار، عريض الأوراق ، وزهره إلى البياض، مر الطعم، يدرك في الربيع، وأهل مصر يسمونه شاتراج، والجرعة من مائة إلى خمسين مثقالا.
صبر:	يطلق عليه صباره ، أضلاعه كالقرنبيط وأعرض ، وعلى أطرافه شوك ، والصبر عصاره، ينقي الدماغ ، ويشفي الجنون والوساوس والصداع.
صندل:	شجر بالصين يشبه الجوز، وهو من الأدوية التي يستمر مفعولها ثلاثين سنة، وأجوده الأبيض المعروف بالمقاصيري، وهو مفرح، وجرعته مثقال.
غاريقون:	رطوبات تتعفن في باطن ما تأكل من الأشجار، يستمر مفعوله أربع سنين، له خاصية عظيمة في علاج الأعصاب خصوصًا مع السكنجبين، وجرعته إلى مثقال.
فاوانيا :	يطلق عليه وفايوتا ، والكهينا ، وعود الصليب، وفي المغرب ورد الحمير. نبت دون ذراع. ولا ينبغي أن يؤخذ إلا يوم نزول الشمس الميزان. ويقطع بحذر، فإن اختل الشرط بطلت خواصه. ويبقى مفعوله سبع سنين. وهو يشفى من الكابوس ، ويجلو الأثار السود ، وهذه الشجرة بجملتها تشفى في الصرع والجنون والوسواس كيفما استعملت ولو تعليقا وبخورا.
فرنجمشك :	القرنفل البستاني، طيب الرائحة، ينبت ببساتين مصر كثيرا ، ودهنه مفيد للأعصاب، وجرعته ثلاثة مثاقيل.
قصب ذريره:	نبت كالقش عقد محشو بشيء أبيض ، وأجوده المتقارب العقد الياقوتي الضارب إلى الصفرة القابض المر.
قنطريون:	يوناني، شديد الحمرة، ساقه مزغب خشن، له زهر كحلي، يخلف بذر كالقرطم، مر الطعم، يدرك بالخريف، يستمر مفعوله عشر سنين، يزيل علل الأعصاب، ويذهب الإعياء والتعب.

لازورد:	معدن مشهور بجبال أرمينيا وفارس، أجوده الصافي الشفاف الضاربة زرقته إلى خضرة ما وحمره، ينفع في الجنون والوسواس والهم وفساد العقل.
لسان الثور:	باليونانية فوغلص، والفارسية كاوزبان، نبت ربيعي، غليظ الورق، خشن يخلف بذرا مستديراً، يستمر مفعوله سبع سنين، وموضعه جبال فارس والموصل ، شديد التفريح ، ويقوى الحواس ، لهذا ينفع في علاج الجنون والوساوس والماليخوليا ، فأوقيه ونصف منه تعادل رطلا من الخمر الخالص في شدة التفريح مع حضور الذهن، وجرعته عشر دراهم.
لؤلؤ:	معدن أجوده الكبير الأبيض الشفاف الكائن ببحر عمان ، وأرداه الصغير الأسود القلزمي ، وهو يمنع الوسواس والجنون وتسعيطه يذهب الصداع.
ماء الجبن:	من لبن الماعز، ينفع في أمراض السوداء، كالوسواس والجنون والماليخوليا وخصوصًا إذا أضيف له اللازورد.
مسك:	دم ينعقد في حيوان دون الظباء ، قصير الرجل بالنسبة إلى اليد ، له نابان معقوفان إلى الأرض ، وقرنان في رأسه معوجان إلى ذنبه ،شديد البياض ، ويفيد في إزالة الغم.
مصطكي:	معرب عن مصطيخا اليوناني، يسمى العلك الرومي والمراد به الصمغ ، وهو نوعان: أبيض ناعم طيب الرائحة فيه لدونة ، حلو يسحق ويسمى المعلق، والثاني يؤخذ من العود الغض والورق بالطبخ ، ولا يوجد إلا في رودس وأشبيلية بالأندلس. يستمر مفعوله عشرين سنة، يذهب الصداع والسوداء والوسواس وحديث النفس ومبادئ الماليخوليا مع الأهليجات ، وزيادة الفهم مع الكندر.
نارقيصر:	نبت دقيق أحمر إلى صفره، يجلب من الروم، ويسمى بمصر سلق الحمام، وهو عطري طيب الرائحة ، مفرح ، جرعته مثقال.
نارمشك:	فارسي معناه رمان بري، يوجد بخراسان ، يزيل الوسواس والماليخوليا ، وجرعته درهمان. (٨٩)

من الملحق السابق يتضح :

براعة الأطباء في مصر العثمانية، فهم يعرفون كافة المواد الخام الموجودة في مختلف أنحاء العالم ، واستخداماتها المختلفة.

اقتصر عند ذكر تلك المواد الخام على فائدتها للأمراض العقلية، وان كانت لكل مادة منها استخدامات لعلاج أمراض أخرى لم يتم ذكرها تركيزا على موضوع الدراسة.

تشمل المواد الخام الأساسية في علاج الماليخوليا كلا من أسطوخودس وأفتيمون وبسفايج وبليلج وبنج وتربد وحجر أرمني وحنظل وخشخاش ودار صيني وزراوندو زرنباد وسقمونيا وصبر وفاوانيا ولازورد ولسان الثور ولؤلؤ وماء الجبن ومصطكي ونار مشك: في حين ان باقي المواد استخدم لإستكمال تركيب المواد الأساسية أو للتفريح.

غير أن هناك قدراً لا يستهان به من تلك المواد الخام يستخدم كمخدر لمرضى الماليخوليا ، أو تفريح لهم كبديل عن الخمور مما يؤدي إلى عيش المريض في الخيال.

إلا أن كثرة استخدام الأطباء للمواد المخدرة والمفرحة تدل على تدهور حالات مرضى الماليخوليا مما يدفع أطباءهم إلى استخدام تلك المواد لتهدئتهم، وربما لإجبارهم على الاستغراق في نوم عميق.

الهوامش

(١) محمد السيد الهابط : حول صحتك النفسية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ص ٣٢ – ٣٣

(٢) عباس محمود عوض : الموجز في الصحة النفسية، الإسكندرية ،١٩٨٩ ، ص ٩١

(٣) نفس المرجع السابق، ص ص ٩١ – ٩٢

(٤) الجنون : مصدر جن وهو زوال العقل وفساده، والجنون في اصطلاح الفقهاء عبارة عن التصرف في المال بخلاف مقتضى الشرع والعقل، وعند الأطباء اختلال القوة المميزة بين الأمور الحسنة والقبيحة.. لمزيد من التفاصيل [أنظر بطرس البستاني : محيط المحيط، بيروت ، ص ص ١٣٠ – ١٣١]

(٥) أوليا جلبي : سياحتنامه مصر ، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٣٤٧؛ كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود ، الجزء الثاني، القاهرة د. ت، ص ٥٦٧.

والسوداء : فساد الفكر، من اليونانية بمعنى الخلط الأسود. وتشير المراجع الحديثة إلى أن السواد هو المالیخولیا Melancholia ، وهو مصطلح يشمل جميع الاضطرابات العقلية المزمنة .. لمزيد من التفاصيل أنظر. بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٤٣٩؛ أحمد محمد عبد الخالق : أصول الصحة النفسية، الإسكندرية ٢٠٠٣، ص ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٦) داوود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) : تذكره أولي الألباب الجامع للعجب العجاب، الجزء الثاني، القاهرة ٢٠٠٨، ص ١٠٩.

(٧) روبية : التداوي بالأعشاب عند المصريين المحدثين، ضمن وصف مصر (قاهرة المماليك)، الجزء الحادي عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ص ١٥٦ ، ١٦٥.

(٨) عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية، القاهرة د.ت، ص ٤٠

(٩) Sonnini, C.S : Voyage dans la Haute et Basse Egypte, Tome Second, Paris, P. 228

(١٠) البيمارستان : لفظ فارسي مركب من بيمار أي مريض، وستان أي محل، أي دار المرضى، ويقال أحيانا البيمرستان، والمارستان ؛ وهو مستشفى لمعالجة كافة الأمراض، ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذي يعد لإقامة المجانين. لمزيد من التفاصيل أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢، ص ص ١٠٣ – ١٠٤؛ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٥٥.

(١١) البيمارستان المنصوري : نسبة إلى المنصور قلاوون، وقد شيده عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م، ويقع هذا البيمارستان بالقاهرة بين القصرين بخط المدارس الكاملية والصالحية والظاهرية .. أنظر محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ص ١٥٥ - ١٧٧.

(١٢) ديجينيت : تقرير عن المورستان أو مستشفى القاهرة، مقدم إلى القائد العام بونابرت، لاديكاد إيجيبسين، العدد التاسع ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١، القاهرة د.ت، ص ١٣٢.

(١٣) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : منهاج الدكان ودستور الأعيان في معرفة العقاقير وطب الأبدان، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، ل ٣٤٨٥، ميكروفيلم ٢٢٩٤٢، بدون صفحة

(١٤) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : ذيل تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، القاهرة ٢٠٠٨، ص ص ١٨٤ - ١٨٥

(١٥) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤، ص ٥٩٩؛ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩٧،ص٢٥٢.

(١٦) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨هـ (١٥١٦-١٥٢٢م)، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٧٢.

(١٧) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : المصدر السابق، ص ص ٥٦٤ - ٥٦٥

(١٨) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧.

(١٩) بله- بلها - بلاهة - بلهاء : الغفلة، ضعف العقل، قلة التمييز.. لمزيد من التفاصيل أنظر الهيئة المصرية العامة للكتاب. المعجم الكبير، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٦٥؛ بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢٠) جومار : وصف مدينة القاهرة، ضمن وصف مصر، ترجمة زهير الشايب وآخرون، الجزء العاشر، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٠٣.

(٢١) يسمى علماء النفس حاليا هذه الحالة بالاكتئاب Depression ويكون المريض فيها في حالة خمول ويأس وحزن، و يشعر بالضعف، ويوجه عدوانه إلى نفسه، وقد يحاول الانتحار.. لمزيد من التفاصيل أنظر عباس

محمود عوض : المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٢٢) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢٣) الهوس : Mania هو اضطراب حاد دون وجود حمى ، ويسمى هذا المرض العقلي الوظيفي بالذهان الدوري أو النواب Manic- depressive psychosis ذلك إن المريض قد تنتابه حالة من الهوس، ثم حالة من الإكتئاب تختلف من حيث الشدة والاستمرار. والهوس، قد يكون هوسا خفيفا Hypomania وهذا النوع يتسم بنشاط وتفاؤل زائدين، أو هوسا زائدا Hypermania وهنا يكون المريض في حالة هياج حاد، ويعرض نفسه وغيره للخطر. فالمريض في حالة الهوس يوجه عدوانه إلى العالم الخارجي .. [لمزيد من التفاصيل أنظر: عباس محمود عوض : المرجع السابق ، ص ص ٩٩ - ١٠٠

(٢٤) جومار : المصدر السابق ، ص ٢٠٢

(٢٥) كلوت بك : المصدر السابق، ص ٥٦٧.

(٢٦) الشربة : يقصد بها هوى النفس، يقولون- وافق الأمر مشربه أي هواه. والشربة أيضا الطريقة يقال مازال فلان على شربة واحدة أي طريقة واحدة .. لمزيد من التفاصيل [أنظر بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٤٥٨.

(٢٧) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٥٥

(٢٨) نفس المؤلف : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣١٤؛ نفس المؤلف : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٣١

(٢٩) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٦٨

(٣٠) Brown, Edward : Voyage en Egypte 1673 – 1674 caire 1974, P. 181

(٣١) Sonnini, C.S : OP. cit, Tome premier, P. 273

(٣٢) عباس محمود عوض : المرجع السابق، ص ٦؛ محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣٣) Sonnini, C.S : Op. Cit, Tome premier, P. 273

(٣٤) Ibid. P. 273

(٣٥) عباس محمود عوض : المرجع السابق ، ص ٦؛ محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٣٠

(٣٦) كلوت بك : المصدر السابق، ص ص ٥٢٩ ، ٥٧٨ - ٥٧٩

(٣٧) روبية : المصدر السابق ، ص ١٥١

(٣٨) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٨

(٣٩) سيريزول : مستخرج من ملاحظات للمواطن سيريزول الطبيب بالجيش عن رحلة له على الضفة الغربية للنيل من القاهرة إلى أسيوط، لاديكاد إيجيبسين، العدد الرابع، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، المرجع السابق، ص ٧٦

(٤٠) القرآن الكريم، سورة الفرقان، آية ٤٥.

(٤١) القرآن الكريم، سورة القلم، آية ٥١.

(٤٢) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٥

(٤٣) نفس المصدر السابق، ص ١١٦

(٤٤) عصمت محمد حسن : جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣، ص ص ١٨٤ - ١٨٥

(٤٥) محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٣٠

(٤٦) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : المصدر السابق، بدون صفحة.

(٤٧) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، ص ١٩٣

(٤٨) داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤٢

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن المواد الخام المستخدمة في العقاقير أنظر الملحق.

(٥٠) المثقال : واحد ونصف درهم، أي أربعة وعشرون قيراطاً أو اثنان وسبعون حبة شعير أو ست وتسعون حبة قمح. وكان المثقال يستخدم في تقييم الذهب والأحجار الكريمة والسلع والعقاقير الثمينة التي تباع بأوزان بالغة الصغر.. لمزيد من التفاصيل انظر، صامويل برنار : الحياة لاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ص ٢٤ - ٢٦؛ سحر علي حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ص ١٠٥ - ١٠٦

(51) Alpin, prosper : plantes d› Egypte 1581 - 1584, caire 1980, PP. 12 - 13

داوود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٣٤٥ - ٣٤٩؛ أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤

(٥٢) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : المصدر السابق، بدون صفحة، داود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٢١٧ - ٢١٩

(٥٣) داود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١٣٢

(٥٤) نفس المصدر السابق ، ص ص ١٧٩ - ١٨٠

(٥٥) نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٦٠

(٥٦) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠١

(٥٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٠١

(٥٨) داورد بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول، ص ١٨١

(٥٩) السعوط : اخترعه جالينوس للصداع، ثم توسع فيه لأمراض الأنف والعين، فإن جعل مائعا فهو السعوط أو مشتدا فالنشوق أو يابسا يسحق وينفخ فنفوخ أو طبخ وكب المريض على بخاره فكبوب ، وكلها مختصة بأوجاع الرأس.. لمزيد من التفاصيل أنظر داوود بن عمر الأنطاكي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٤.

(٦٠) نفس المصدر السابق، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(٦١) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٦٢) أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، ص ١٨٥

(٦٣) داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ١٧٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٨

(٦٤) نفس المصدر والجزء : ص ٣٦٠

(٦٥) نفس المصدر والجزء : ص ص ٣٦٠ - ٣٦٥

(٦٦) الدرهم : يساوي ستة عشر قيرطا أو أربعا وستين حبة قمح. لمزيد من التفاصيل أنظر .. صامويل برنار: المصدر السابق ، ص ص ٢٤ ، ٢٦؛ سحر علي حنفي : المرجع السابق ص ١٠٥

(٦٧) داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٣٦٦ - ٣٦٧

(٦٨) القرش : هناك نوعان من القروش العثمانية، القرش الأسدي الذي ساد منذ عهد السلطان سليمان القانوني وتبلغ قيمته أربعين نصف فضة، والقرش العددي الذي ضرب في عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩ - ١١٠٢هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩١م) وتبلغ قيمته ثلاثين نصف فضة .. [أنظر، صامويل برنار المصدر السابق، ص ص ٨٨ - ٨٩، سحر علي حنفي : المرجع السابق، ص ١١٤]

(٦٩) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٧٠) الدينار : نقد من الذهب، ومن أهم أنواعه في العصر العثماني المحبوب والفندقلي والطرلي و الجنزير صامويل برنار : المصدر السابق، ص ص ٦٦ – ٦٧، سحر علي حنفي : المرجع السابق، ص ١١٣.

(٧١) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠١

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣

(٧٣) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ؛ كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٦٣٦.

(٧٤) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٧٥) جومار : المصدر السابق ، ص ٢٠٢

(٧٦) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣

(٧٧) ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، تعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ٢٠٠١، ص ٣٤٩.

(٧٨) محمد مختار : التوفيات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، المجلد الثاني من سنة ٧٥١ إلى سنة ١٥٠٠ هجرية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠، ص ص ١١١٤ ، ١١٢١

(٧٩) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٨.

(٨٠) كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٤٠

(٨١) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧.

(٨٢) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٨٣) كارستن نيبور : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١- ١٧٦٧، الجزء الأول، رحلةإلى مصر ١٧٦١ – ١٧٦٢، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر، د ت ، ص ٢٢٢؛ جومار : المصدر السابق، ص ٢٠٤

(٨٤) روبية : المصدر السابق ، ص ١٥٧. والترياق : يصنع من لحوم الثعابين والحيات، ويستخدم لعلاج العديد من الأمراض.. أنظر أوليا جلبي : المصدر السابق، ص ص ٣٤٨ – ٣٦١.

(٨٥) جومار : المصدر السابق ، ص ص ٢٠٤ ، ٢٠٦.

(٨٦) الكتخدا : بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء، في التركية كتخدا، من الفارسية كدخدا، والكلمة

الفارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت، و (خدا) بمعنى الرب والصاحب فالكتخدا هو في الأصل رب البيت، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك، ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد... أحمد السعيد سليمان : تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف د.ت، ص ١٧٦

(٨٧) أحمد شلبي بن عبد الغني : المصدر السابق، ص ٦٠٠.

(٨٨) مونج وآخرون : تقرير مقدم إلى الجنرال بونابرت، القائد الأعلى بشأن مشروع إنشاء مستشفى مدني في القاهرة، لأديكاد إيجيبسين، العدد الأول، المجلد الثاني، ضمن كتاب صلاح الدين البتساني : المرجع السابق، ص ص ١٥٣ – ١٥٧.

(٨٩) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣٣

(٩٠) كارستن نيبور : المصدر السابق ، ص ٢٢٢

(٩١) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣١

(٩٢) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٦٧

(٩٣) داورد بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص277,280,284,300,316,321,325,330
255,253,235,228,223,222,219,202

374,342,340, ,201,200,188,172,169,159,151,146,136,125,104,98,96,94,85,84,76,75,71,65,58,53
,49,48

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم.

ثانيا : المخطوطات

أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : منهاج الدكان ودستور الأعيان في معرفة العقاقير وطب الأبدان، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب،ل٣٤٨٥، ميكروفيلم ٢٢٩٤٢.

ثالثا : المصادر العربية المنشورة :

أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : ذيل تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، القاهرة ٢٠٠٨.

أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : أوضح الأشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤م .

داوود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) : تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، الجزآن الأول والثاني، القاهرة ٢٠٠٨ م.

عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الأجزاء الأول والثاني والثالث، القاهرة ١٩٩٧ – ١٩٩٨م. : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٩٨م.

محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨ هـ (١٥١٦ – ١٥٢٢)، الطبعة الثانية، القاهرة١٩٦١م.

رابعا : المصادر الأجنبية المعربة :-

أوليا جلبي : سيا حتنامة في مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، القاهرة ٢٠٠٥م.

جومار : وصف مدينة القاهرة، ضمن وصف مصر، ترجمة زهير الشايب وآخرون، الجزء العاشر، القاهرة ٢٠٠٢م.

ديجينيت : تقرير عن المورستان أو مستشفى القاهرة مقدم إلى القائد العام بونابرت، لاديكاد إيجيبسين، العدد التاسع، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ م ، القاهرة د.ت.

روبية : التداوي بالأعشاب عند المصريين المحدثين، ضمن وصف مصر (قاهرة المماليك)، الجزء الحادي عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢ م.

سيريزول : مستخرج من ملاحظات للمواطن سيريزول Ceresole الطبيب بالجيش عن رحلة له على الضفة الغربية للنيل من القاهرة إلى أسيوط، لاديكاد ياجيبسين، العدد الرابع، ضمن كتاب صلاح الدين البتساني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١م ، القاهرة د.ت.

صامويل برنار : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠م .

كارستن نيبور : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١ - ١٧٦٧م ، الجزء الأول، رحلة إلى مصر ١٧٦١ - ١٧٦٢ م، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر، د.ت.

كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود ،الجزء الثاني، القاهرة د.ت.

مونج وآخرون : تقرير مقدم إلى الجنرال بونابرت، القائد الأعلى، بشأن مشروع إنشاء مستشفى مدني في القاهرة، لاديكاد ايجبسين، العدد الأول، المجلد الثاني، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨- ١٨٠١م، القاهرة د.ت.

خامسا : المراجع العربية :

أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة د.ت.

أحمد محمد عبد الخالق : أصول الصحة النفسية، الإسكندرية ٢٠٠٣م .

الهيئة المصرية العامة للكتاب : المعجم الكبير، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨١ م.

بطرس البستاني : محيط المحيط ، بيروت د.ت.

سحر علي حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، القاهرة ٢٠٠٠م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢ م.

عباس محمود عوض : الموجز في الصحة النفسية، الإسكندرية ١٩٨٩ م.

عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية، القاهرة د.ت.

عصمت محمد حسن : جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣ م.

كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢ م.

محمد السيد الهابط : حول صحتك النفسية، الإسكندرية ١٩٨٩ م.

محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠ م.

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية المجلد الثاني من سنة ٧٥١ إلى سنة ١٥٠٠ هجرية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ م.

ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة محمد إبراهيم، تعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ٢٠٠١ م.

سادسا : المصادر الأجنبية :

lpin, prosper : plantes d› Egypte 1581-1584, Caire 1980.

rown, Edward : Voyage en Egypte 1673-1674, Caire 1974.

›nnini, C.S : Voyage dans la Haute et Basse Egypte, Tome I, II, Paris.



مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد التاسع عشر

أكتوبر ٢٠١١م



مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد التاسع عشر

أكتوبر ٢٠١١م

جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحـاد المؤرخين العرب
مقر الأنشطة : ١٠ شارع فؤاد بدواني – الحي الثامن – مدينة نصر – القاهرة.
تليفون : ٢٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس : ٢٢٨٧٠٠٩١
E. Mail : arabhistoryso@hotmail.com

هـذه المجلـــة

١ ـ مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٢ ـ تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

٣ ـ البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.

٤ ـ تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.

٥ ـ لا يزيد البحث المقدم للنشر عن خمسة وعشرون صفحة، مكتوب علي الكمبيوتر ويقدم من نسختين ورقيتين ونسخة أخري علي الاسطوانة CD.

٦ ـ تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.

٧ ـ يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.

٨ ـ لا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٩ ـ يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي، متبوعاً بإسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

١٠ـ ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.

١١ـ يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي :

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(جـ) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، الجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.

• • •

المحتويـــــات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة الافتتـــاح

للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

يسعد اتحاد المؤرخين العرب أن يقدم اليوم للسادة القراء والباحثين في علم التاريخ العدد التاسع عشر من مجلة (المؤرخ العربي). ويقتضى الرصد التاريخى للحوادث؛ الإشارة إلى صدوره بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ في مصر، وقبلها ثورة الثامن عشر من ديسمبر ٢٠١٠ في تونس .

ومن المعروف أن الثورة تعني تغيير منظومة القيم البائدة، التي ثار المواطنون وبخاصة الشباب ضدها، كما تعني تغيير السياسات والآليات والوسائل لتحقيق الأهداف التي قامت الثورة لتحقيقها. واللحظة التاريخية التي نعيشها الآن، هي لحظة فارقة يمر بها الوطن العربي، ولها أهمية كبيرة في توجيه مستقبله لتحقيق غاياته النبيلة، وحقوق الأمة العربية شباباً وشيبة، نساء وفتيات، في الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية، ليكون هناك التزام كامل بمنظومة الحريات الأساسية في الفكر والرأي، مع الاحترام لحقوق الإنسان وبخاصة المرأة والطفل، والتأكيد علي مبدأ التعددية، واحترام الأديان السماوية كما أقرها ديننا الحنيف، واعتبار المواطنة مناط المسئولية في المجتمع. ويحدونا الأمل جميعا إلى أن يسترد العرب مكانتهم التاريخية الرائدة، ودورهم في مضمار الحضارة الإنسانية، بما قدموه – من قبل – للعالم من انجازات وابتكارات ومخترعات، في شتي مجالات العلوم والفنون والآداب.

ولا ننسى – ولا ينسى العالم معنا – أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروة تقدمها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، عندما أصبح العالم الإسلامي – من إسبانيا غرباً إلي التركستان شرقاً – يمثل وحدة حضارية كبري، لم يسبق لها في التاريخ مثيل. وأهم ما يميز هذه الحضارة أنها صارت عالمية، إذ أسهمت فيها كل الشعوب التي تألفت منها الدولة الإسلامية. كما عبرت هذه الحضارة إلي أوربا

منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. وهرع طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء الغرب الأوربي إلي مراكز الحضارة الإسلامية، يغترفون من معينها ويستفيدون من مؤلفات المسلمين، ويترجمون عيونها. ويقلدون كل ما أمكنهم تقليده من فنون المسلمين وآثارهم. وحين شقت الحضارة الإسلامية طريقها إلي غرب أوربا، سلكت عدة معابر أهمها : بلاد الأندلس (إسبانيا الإسلامية)، وجزيرة صقلية، وبلاد الشرق الأدني وما شهدته من حروب صليبية، لم تخلُ من تفاعلات نشطة بين مجتمعات الشرق والغرب ، وما أعقبها من ازدهار التبادل التجارى والنشاط الثقافي والفني بين الطرفين .

ويبدو من المنظور التاريخى أن ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١؛ تضع علي عاتق المشتغلين بدراسة علم التاريخ مسئوليات عظام، ومهام كبري؛ ترتبط بمواكبة حركة التغيير لتحقيق أهداف الثورة. والجدير بالذكر أن افتتاحية ندوة (العالم العربي وتحديات العصر)، التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب في نوفمبر عام ٢٠٠٥، قد نبهت إلي أن التوقعات في الخمسين سنة القادمة، سوف تؤدي إلي أعمال علمية وتكنولوجية فائقة، تتجاوز في أبعادها وآثارها كل ما شهدته الإنسانية حتى الآن. وتمت الإشارة أيضاً إلي : أن تحديات القرن الحادي والعشرين ستكون حضارية علمية تكنولوجية، وليست حربية عسكرية.

وسيجد الباحث في التاريخ أن بحور العلم أصبحت واسعة وعميقة، وملامح ميادين العلم أصبحت ظاهرة مميزة واضحة. وكان علي المشتغلين في دراسة التاريخ مواكبة التقدم الكبير السريع في هذا العالم المتغير، دون أن نفقد هويتنا الأصيلة، ولا يكون ذلك إلا بالإبداع والابتكار والإتقان والتميز، لأننا نعيش في عالم لا يعترف بالضعفاء أو بالجهلاء. والحياة كانت، وما تزال، عملية كفاح ومثابرة. والآن : فإن الأمر يحتاج إلي جهد واتقان للعلم، وتمكن من استخدام التكنولوجيا. فما يحدث في عالمنا المعاصر أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير، أجسم وأهول بكثير مما شاهده في زمانه المؤرخ والفيلسوف العظيم: عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) عندما كتب: "وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق".

ونحن الآن في أشد الحاجة إلي من "يدون أحوال الخليقة والآفاق"، ذلــك أن "الخلق الجديد الذي نعيشه – حسب عبارة ابن خلدون – وان لــم يكــن أول خلــق للبشرية من نوعه، فهو بدون منازع؛ أكثر جسامة من كل ما سبق.

أما هذا العدد التاسع عشر من مجلة (المؤرخ العربــي)، فيحتــوى علــي مجموعة من البحوث والدراسات التاريخية المتميزة، كتبها زمــلاء مــن مختلــف الجامعات ومراكز البحوث العربية، وقام بتحكيمها صفوة من الأساتذة المتخصصين في الدراسات التاريخية، ضماناً للجودة، وتحقيقاً للأهداف الرئيسية لاتحاد المؤرخين العرب، وبخاصة الارتفاع بمستوي الدراسات التاريخية، والعناية بالتراث التاريخي، والحفاظ علي الهوية العربية.

والله من وراء القصد، إنه نعم المولي ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

عضو بمجمع اللغة العربية والمجمع العلمي المصري

كلمـــة التحريـــر

يأتي هذا العام يحمل معه ربيعاً عربياً والعالم العربي ظل لقرون مصدراً للفكر والعلوم لأوربا والغرب فمازالت أسماء كابن سينا وأبو بكر الرازي وجابر بن حيـان ممثـل للغـرب وحضارته مرحلة أساسية في رحلته نحو المعرفة، كذلك كان فكر ابن رشد مازال يدرس في الغرب وابن النفيس سبق هارفي في معرفة الدورة الدموية.

ونأمل أن ينهض عالمنا ولا يصبح مغلق للحضارة والفكر بل مصدراً للعلم ولحـضارة أصيلة مازالت جذورها قائمة وتحتاج للبحث. ومجلة (المؤرخ العرب) حريصة علي أن تكون دفتراً حياً للدراسات التاريخية الجادة والمجلة صنفت من المجلس الأعلي للجامعـات كأحـد المجلات الجادة ذات المستوى الدولي ولذلك فالمجلة حريصة علي موضـوعيتها ومكانتهـا العلمية. والعدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي يصدر والمقر الجديد علي وشـك الانتهـاء حيث نأمل أن تعقد ندواتنا في العام القادم.

والعدد الحالي يتضمن كالعادة تنوعاً فكرياً يجمع بين الـسياسة والحـضارة وامتـاز بالترابط بين الفترات التاريخية، حيث يبدأ بالتاريخ البيزنطي المبكر، ثم ينتقـل إلـي الفتـرة الإسلامية الأولي وفتح مكة، ثم ينتقل إلي المغرب والحركات الانفصالية ويعـرض للعلاقـات الدولية في عدة أبحاث كبحث "الصفار يون وإشكالية العلاقة مع العباسيين" وبحـث "علاقـة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية. كذلك تلقي بعض البحوث الأضواء علي العديد مـن مظاهر الحضارة كالقضاء في الصعيد، ومدارس خراسان في العصر الـسلجوقي، بالإضـافة إلي الرحلة وأهميتها كما في بحث رحلة ابن العربي الأندلسي. وحظيت الأندلس بعدة أبحـاث تتناول الهوية واختتم بالعصر الحديث تناولت العرب والقدس والقضية الفلسطينية والـصراع العربي الإسرائيلي في حرب ١٩٤٨م.

ونرجو أن يكون العدد الجديد إضافة للمكتبة التاريخية العربية.

الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر

د. محمد عثمان عبد الجليل (*)

مقدمة:

لقد أسهمت الإمبراطورية البيزنطية، خلال عمرها الذي جاوز الأحد عشر قرناً، بدور عظيم في تاريخ البشرية، قدم خلاله شعبها الكثير من الجوانب الحضارية، والتي تخطت في كثير من الأحيان الحدود الجغرافية للأمبراطوريه.

وبطبيعة الحال فليس غريبا علي إمبراطورية بمثل هذا الحجم وهذه المكانة، أن تنجب رجالا عظماء أسهموا بفكرهم وجهدهم في مجالات عديدة، ومنها مجال الطب، والشئ الجدير بالذكر أن هناك فئة غير قليلة من الأطباء البيزنطيين تعدي نشاطهم مجال الطب ومارسوا إلي جانب ذلك أنشطة أخري تميزوا فيها مثلما تميزوا في مجال تخصصهم، فهناك من عمل في مجال الهندسة والعمارة، وهناك من انخرط في السلك الكنسي، وهناك أيضا من انخرط في مجال العمل السياسي.(١) وقد وقع اختيار الباحث علي موضوع " الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر" وتتناول هذه الدراسة الأدوار السياسية التي أسهم فيها الأطباء سلبا وإيجابا، وقياس مدي الاستفادة التي تحققت للإمبراطورية من هذه الأدوار.

وتكمن صعوبة هذا الموضوع في ندرة الكتابات التي تناولته، سواء في المصادر أو المراجع الحديثة. وأقرب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع؛ تلك الدراسة التي قام بها المؤرخ بلوكلي Blockly بعنوان " الأطباء كدبلوماسيين في القرن السادس الميلادي". ويؤخذ علي تلك الدراسة أنها اقتصرت علي دور واحد للأطباء كسفراء، خلال قرن واحد فقط وهو القرن السادس الميلادي. بينما تهدف هذه الدراسة إلي إبراز وتوضيح مختلف الأدوار السياسية وليس دورا واحدا للأطباء.(٢)

(*) أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة بورسعيد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأطباء كانوا يتمتعون بمكانة هامه في المجتمع البيزنطي، برغم ما تعرضوا له من حملات للتشهير والتشكيك في قدراتهم الطبية، التي قادها ضدهم كتاب الهيوجرافي Haiography(٣). وذلك بقصد الدعاية والترويج للقديسين المعالجين، بوصفهم الأطباء الحقيقيين، في مواجهة من أطلقوا عليهم أدعياء العلاج (المقصود بهم الأطباء). وكان هدفهم من وراء رسم تلك الصورة السلبية للأطباء التقليدين؛ انفراد سيطرة القديسين دون غيرهم علي علاج المرضي. وبرغم أن الترويج لمثل هذه الحملة في مجتمع كان الدين والمعتقدات الدينية يمثلان ركنا أساسيا في حياته في مختلف طبقاته، فان ذلك لم يكن ذا تأثير بالغ علي نظرة الإدارة البيزنطية أو الكنيسة أو المجتمع البيزنطي للأطباء. ولذلك فقد احتضن البلاط البيزنطي أمهر الأطباء، وكذلك امتلأت الكنائس والأديرة بالأطباء الذين أسهموا بجهودهم في علاج المرضي ورعايتهم.

وجدير بالذكر أن انتشار المسيحية، والحماية التي كفلها الأمبراطور قسطنطين Constantine I (٣٢٣-٣٣٧م) وأبناءه لها، لم تمنع تواجد الوثنية في بعض أرجاء الإمبراطورية. وفي برجاموس Pergamus إحدى هذه المعاقل الموجودة، في آسيا ألصغري، والتي ارتحل إليها جوليان Julianعام ٣٥١م، لتلقي تعاليم الفلسفة الأفلاطونية علي يد ايدسيوس Aidesios أحد أساتذتها المشهورين في ذلك الوقت، كان لقاءه بالطبيب الفيلسوف اوريباسيوس البرجامي Oribasius of pergamum (٤). ومنذ تلك اللحظة ارتبط اوريباسيوس ارتباطا وثيقا بجوليان، وكان من القلائل العالمين بوثنية جوليان.وكان اعتناق حوليان للوثنية سرا دفينا لم يكن علي علم به إلا المخلصون له، وكان هؤلاء، طبقا لرواية ادوارد جيبون Gibbon، ينتظرون اللحظة التي ينال فيها جوليان الفرصة التي تحقق أمال الوثنين في استعادة الوثنية لمكانتها من جديد(٥).

ووفقا لما أشارت إليه المصادر؛ فإن أورباسيوس الذي صاحب جوليان في حملته علي غالية كطبيب،أسهم بدور سياسي فعال تمكن خلاله من تصعيد رفيقه إلي عرش الإمبراطورية البيزنطية، علي حساب منافسه الإمبراطور قسطنطيوس الثاني Constantus II (٣٧٧ - ٣٦١م). وعن السبل والوسائل التي استخدمها اوريباسيوس من أجل ذلك يجملها المؤرخ اينابيوس Enapius في قوله "كان يتمتع بفضائل أخري مكنته من أن يساعد جوليان لأن يكون إمبراطورا"(٦). وبرغم غموض تلك العبارة التي حالت دون تفسير ذلك الدور، فيرجح الباحث إن تلك الفضائل تمثلت في تقديم المشورة، ورسم السياسة التي مكنت جوليان من الوصول إلي العرش. وكان أهمها بطبيعة الحال الاستحواذ علي ثقة القوات المرافقة له، والتي استطاع من خلالها

أن يعلن نفسه (من طرف واحد) في البداية إمبراطورا مشاركا عام٣٦٠م. وأمام تصاعد تلك الأزمة لم يكن هناك خيار سوي اشتعال الحرب الأهلية بين الطرفين، والتي لم يخمدها سوي موت قسطنطيوس، واعتلاء جوليان العرش في الثالث من نوفمبر ٣٦١م(٧).

وبانفراد جوليان بعرش الإمبراطورية (٣٦١-٣٦٣م) اتسع نفوذ اوريباسيوس السياسي، فإلي جانب كونه مستشارا للإمبراطور ، تولي أيضا منصب الكويستور Quaestor(٨) وهي وظيفة تتعلق بأمور التشريع وصياغة القوانين والقرارات الإمبراطورية، كما اختص أيضا بتلقي المظالم المقدمة للإمبراطور. واستمر اوريباسيوس في ممارسة عمله السياسي حتى كانت الطعنة التي أودت بحياة الإمبراطور، أثناء حروبه مع الفرس في يونيه ٣٦٣م، وكانت سببا أيضا في إنهاء الحياة السياسية لأوريباسيوس. حيث قام الإمبراطور جوفيان Jovian(٣٦٣-٣٦٤م) بتجريده من منصبه ونفيه خارج القسطنطينية،علي خلفية وشاية وصلته بأن أوريباسيوس لم يكن راضيا عن اختيار جوفيان خليفة لجوليان. وظل في منفاه حتي أعاده الإمبراطور فالنتيان الأولValentinian I(٣٦٤-٣٧٥م) ليزاول عمله كطبيب، دون التطرق إلي مجال العمل السياسي، واستمر علي ذلك حتي عام ٣٦٥م(٩).

ويمكن القول بأنه رغم نجاح أوريباسيوس، علي المستوي الشخصي، في أداء دوره السياسي ونجاحه في تغير الأوضاع السياسية والدينية داخل الإمبراطورية، فإن هذا الدور كان ذا تأثير سلبي علي الإمبراطورية إلي حد ما. لأن معني استمراره علي الوضع السابق لسنوات أكثر من ذلك، كان من الممكن أن يعود بعقارب الساعة إلي الوراء بترسيخ الوثنية من جديد. إلي جانب المردود السياسي السيئ علي الإمبراطورية، فالهزيمة التي حاقت بالإمبراطورية، علي يد جوليان، كانت سببا في فرض صلح مهين عليها.

علي أية حال، لم تترك الصورة السلبية التي خلفها أوريباسيوس، برغم خطورتها، مردودا سيئا لدي الأباطرة البيزنطيين تجاه الأطباء، فلم يخل ذلك دون تواجدهم والاستعانة بهم في البلاط الإمبراطوري.ونفس الشئ بالنسبة للاستعانة بهم في مجال العمل السياسي.

رغب الإمبراطور فالنتيان الثاني Valentinian II (٣٧٥-٣٩٢م) في تحسين الأوضاع في افريقية ، وبعد بحث وتمحيص، وقع اختياره علي الطبيب فنديكيانوس vindicianus. وكان اختيار الإمبراطور له يعود لعدة أسباب، فالي جانب ما لمسه فيه من ثقافة وحسن التصرف في الأمور، وكذلك إتقانه لأكثر من لغة، فان أصوله

الإفريقية رجحت اختياره لتولي منصب البروقنصل(١٠) لإفريقيه (٣٧٩-٣٨٢م) نظرا لكونه أكثر دراية بهذه المنطقة عن غيره، وفي نفس الوقت لن يكون دخيلا علي سكان المنطقة، مما يسهل من أداء مهمته. وبالفعل فقد استطاع خلال هذه الفترة من أداء مهمته الإدارية علي خير وجه.(١١) كما أنه استطاع أيضا، وبمشاركة القديس أوغسطين St. Augastin (١٢) من أحياء الحركة الفكرية والثقافية في قرطاج من جديد ، حيث شكلا ثنائيا ثقافيا غير عادي ، وقد وصفه القديس أوغسطين بأنه رجل صاحب فكر عميق.ولم تشر المصادر لأحداث أخري في حياة فندكيانوس.(١٣)

وقد تكرر ذلك الموقف بعد عدة سنوات، فالشهرة التي نالها الطبيب مارسيللوس Marcellus of Bardeaux في مجال عمله، كانت سببا في أن يكون الطبيب الخاص للإمبراطور ثيودسيوس الأول Theodesios I (٣٧٩-٣٩٥م). وخلال ممارسته لعمله، وقربه من الإمبراطور، لمس فيه الكفاءة التي جعلته يصدر مرسوما بتعيين مارسيللوس في منصب رئيس دواوين الحكومة المركزية Magister officiorum(١٤). وكان من مهام صاحب هذا المنصب. التفاوض في بعض المسائل السياسية التي تخص الإمبراطورية. ونتيجة لنجاحه في مهام عمله؛ استمر في نفس منصبه في عهد الإمبراطور اركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م).(١٥)

وهكذا فقد شهد القرن الرابع الميلادي ثلاثة أدوار سياسية مختلفة للأطباء. والملاحظ خلال ذلك أن العامل المشترك في اختيار هؤلاء الأطباء، لأداء مهامهم السياسية، يعود إلي كونهم من الصفوة المقربة إلي الأباطرة، حيث ساعد ذلك علي التعرف علي إمكانهم عن قرب.

علي أية حال ، كان لتصاعد الأحداث في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، ورغبة الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م) في التخلص من نفوذ اسبار Aspar والقوط الشرقيين، أن قام بالاستعانة بعنصر الإيسوريين Isaurians ليحل محل القوطيين(١٦). وإكمالا لعملية الإحلال والتجديد؛ قام بإصدار تعيينات من أجل استعادة السيطرة علي الأمور تماما. وكان ضمن من نال شرف التعيين في المناصب الجديدة : الطبيب يعقوب القليقي Jocabus the Cilician، والذي كان يعمل كبيراً للأطباء Archiatros في القصر الإمبراطوري، حيث تم تعينه قومساً comes(17). وبرغم أن المصادر لم تتناول تقييما وافيا للأداء السياسي ليعقوب، فإننا من الممكن أن نستشف حسن أدائه وتقدير الجميع له، من خلال تكريم مجلس السناتو له بإقامة تمثال له تقديرا لجهوده.(18)

وجدير بالذكر فأن الإمبراطور زينون Zeno (٤٧٤-٤٩١م) قد تعرض لحركة تمرد قادها ضده صهره باسيليكوس Basiliscus (٤٧٥-٤٧٦م)، وبتدعيم من فيرينا Verina زوجة، تمكن الإمبراطور زينون، وبعض أعضاء السناتو، تمكن من اغتصاب العرش لفترة مؤقتة في خريف عام ٤٧٤م. وكان صعبا علي باسيليكوس الاحتفاظ بغالبية القادة والموظفين التابعين للإمبراطور خشية التمرد عليه. فأحدث بعض التغيرات، وكان من بين المعينين الجدد الطبيب ثيوكتسيوس Theoctisus الذي عين رئيسا لدواوين الحكومة المركزية.(19)

وعلي ما يبدو أن هذا الاختيار لم يكن موفقا، فقد استغل ثيوكتسيوس الثقة التي أولاها له باسيليكوس في تحقيق مكاسب شخصية علي حساب الإمبراطور. فقد أوعز للإمبراطور المغتصب بأهمية كسب تأييد سكان الولايات الشرقية من أصحاب المذهب المونوفيزيMonophysitism(20) حتى يضمن استقرار الأمور الداخلية بالإمبراطورية. واستجاب باسيليكوس بالفعل لهذا المطلب، وانتصر لأصحاب هذا المذهب بأن أصدر منشورا ضد مجمع خلقدونيه ورسالة البابا ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١م) وجعل مذهب الطبيعة الواحدة المذهب الأول بالإمبراطورية وأجبر البطريرك اكاكيوس Acacius (٤٧٢-٤٨٩م) علي تقبل ذلك الوضع(٢١). كما أعاد كلاً من تيموثاوس الثاني Timothy II(٤٥٥-٤٧٧م) لكرسي الاسكندرية، وبطرس القصار peter the fuller لكرسي انطاكية(٢٢).

ورغم ما كان يبديه ثيوكتسيوس، ظاهريا، من حرص علي مصلحة الإمبراطور والإمبراطورية معا، فإن تصرفه ونواياه كانتا عكس ذلك. حيث يشير المؤرخ السرياني زكريا المتليني؛ إلي أن ثيوكتسيوس كان يهدف من وراء ذلك إلى وضع تيموثاوس علي رأس الجهاز الكنسي في القسطنطينية. وقد بذلا كلاهما جهدا كبيرا بما في ذلك الرشوة، حسب رواية يوحنا النقيوسي John of Nikius، حتى يمكن من جلوس تيموثاوس علي كرسي القسطنطينية، علي حساب اكاكيوس. وكادت تلك المحاولة أن تنجح، لولا الضغوط الشعبية التي مارسها سكان القسطنطينية، بعدما تفهموا تلك الحيلة. وترتب علي ذلك أيضا عودة باسيليكوس إلي الخلقدونيه لإرضاء سكان القسطنطينية، وفي النهاية تبددت أحلام ثيوكتسيوس، حيث استعاد زينون العرش،وادي ذلك بطبيعة الحال إلي اختفاء ثيوكتسيوس من مسرح الأحداث. ولم تشر المصادر إلى ما آل مصيره بعد ذلك(٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه فإن النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي شهد أيضا نشاطا ملحوظا للقوط الشرقيين Strogoths بعد أن تحرروا من تبعية الهونHuns، بعد انهيار مملكتهم وتفرقها بوفاة زعيمهم اتيلا Attila عام ٤٥٣م

(24)، واستقر بهم المقام خلال العقد السابع من نفس القرن في منطقتين: الأولي منطقة الليريا Illyricum تحت قيادة ثيودريك ابن ثيودمير Theodoric son Theodemir، والذي يعرف أيضا بثيودريك العظيم (٤٩٣-٥٢٦م)، والثانية في منطقة تراقيا Thrace تحت قيادة سميه ثيودريك سترابو Theodoric Strabo أي الأعور، والذي كان يعمل قائدا لكتيبة من بني قومه المحالفين للإمبراطورية(٢٥).

وكان علي الإمبراطور زينون أن يواجه تلك الأزمة، لأن كلاً من الطرفين كانت تتملكه الرغبة في التحالف مع الإمبراطورية، والحصول علي الألقاب والأموال التي تساير ذلك التحالف.وبطبيعة الحال فإن التعامل مع الطرفين في وقت واحد كان في غاية الصعوبة، خاصة وأن الخزانة الإمبراطورية غير قادرة على وفاء بمتطلباتهم. لذلك رأى الإمبراطور أنه من الأفضل التخلص من أحدهما علي حساب الأخر،فأقدم علي استخدام الحيلة لتأليب الطرفين علي بعضهما. ووقع اختيار الإمبراطور علي طبيبه الخاص انتيموس Anthemus لتنفيذ تلك المهمة، لما يتمتع به من قدرات سياسة ومهارة الإقناع وإتقان العديد من اللغات، بالإضافة إلي إلمامه ودرايته بشئون القوط(٢٦).

وبالفعل فقد استطاع انتيموس التغرير بالطرفين حتي أصبحا علي وشك الصدام، ولكن تنبه ثيودريك العظيم في أخر لحظة قبل أن يقع في فخ الإمبراطورية. الأمر الذي جعله يتراجع ويتسامح مع سميه القوطي ويتفقا ضد الإمبراطورية، والعمل علي فرض شروطهما علي الإمبراطورية وابتزازها قدر الإمكان. وهو أمر يمثل عبئا ثقيلا علي الإمبراطورية لقلة الموارد المالية(٢٧). ودعا ذلك الإمبراطور لعقد اجتماع لمناقشة تلك القضية، بحضور أعضاء السناتو وكبار القادة للوصول إلي حل أمثل للخروج من تلك المشكلة، ولتحديد أي من القائدين يتم الاتفاق معه كحليف للإمبراطورية.

ومما لاشك فيه أن الموقف كان شديد الصعوبة بالنسبة للإمبراطور زينون، خاصة وأن وفدا، من قبل ثيودريك سترابو، كان حاضرا بالقسطنطينية ينتظر ما سوف تسفر عنه الأحداث، وكانت المفاجأة هي رفض السناتو وكبار القادة تعامل مستقبلا مع ثيودريك سترابو، لما سبق وارتكبه من جرم في حق الإمبراطورية. وبناء علي ذلك خضع زينون لرأي الأغلبية، وأخذ في البحث عن صيغة ينقل من خلالها القرار لسفراء سترابو(٢٨).

وفي خضم ذلك سرب الطبيب انتيموس تلك الأحداث إلي ثيودريك العظيم، وأرسل له خطابا بمساعدة آخرين، مذيلا بتوقيع بعض القادة الكبار، يخبره فيه بأنه يلقي كل الدعم والتأييد داخل القسطنطينية. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا التصرف يعد

غير منطقي من رجل من المفترض أنه تابع للإمبراطور، ومطلع بحكم قربه وعمله علي العديد من الأسرار. ولسوء حظ انتيموس تم القبض علي حامل الرسالة قبل أن تصل إلي ثيودريك، ومن ثم وجهت له ولرفاقه تهمة الخيانة. وبمقتضي ذلك حكم عليهم بالإعدام، غير أن الإمبراطور تدخل وقام بتخفيف الحكم إلي الجلد والنفي، متذرعا بعدم رغبته في إراقة الدماء(٢٩).

علي أية كان الخيار الوحيد أمام انتيموس اللجوء إلي ثيودريك العظيم، والذي لم يخيب رجاءه فيه، حيث أحسن ضيافته وقربه منه، واتخذه كمستشار سياسي له. والشئ الجدير بالملاحظة هو : استمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون و انتيموس، برغم ما كان من أحداث كادت تصل به إلي الإعدام. حيث تشير المصادر إلي أن انتيموس دأب علي كتابة تقرير شبه دوري للإمبراطور واصفا له فيه القدرات العسكرية للقوط وتنقلاتهم من موضع إلي آخر(٣٠).

وجدير بالذكر أن مهام انتيموس لم تتوقف عند ذلك الحدبل امتدت لما هو أكثر من ذلك، فكان له دور هام ومؤثر في العلاقات البيزنطية- القوطية فيما بعد. فبعد وفاة ثيودريك سترابو عام ٤٨١م، وخلو الساحة لثيودريك العظيم، زادت تهديداته للإمبراطورية، حتى وصلت في بعض الأحيان إلي تهديد القسطنطينية نفسها عام ٤٨٧م. فكان لابد من التفكير جديا من أجل القضاء علي مثل هذه التهديدات. فكانت فكرة عرض إدارة ايطاليا علي ثيودريك، وهو ما يعني البعد عن تهديد القسطنطينية من ناحية، ومن ناحية أخري استنزاف القوه القوطيه من خلال صدامه مع ادواكر Odoacer. وكان لانتيموس دور بارز في التأثير علي ثيودريك من أجل قبول هذا العرض(٣١).

ولا عجب في أن تكون الأحداث السابقة محل تساؤل ونقاش، خاصة فيما يتعلق باستمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون وانتيموس، برغم العقوبات الموقعة عليه والنفي خارج الدولة. خاصة وأن المصادر البيزنطية لم تتناول تلك العلاقة من قريب أو بعيد، وأن ما تم عرضه من أحداث كان من خلال كتابات انتيموس نفسه. وهذا أمر وارد في مجال السياسية - بوجود اتفاق مسبق بين الإمبراطور وانتيموس علي سير هذه الأحداث - مثلما يحدث في عالم الجاسوسية، حتى يطمئن ثيودريك لانتيموس تماماً. والغريب أيضا أن ثيودريك لم يفطن يوما لما يحاك ضده من مكيدة، برغم استمرار انتيموس في أداء دوره لعدة سنوات. والدليل علي ذلك هو احتفاظ انتيموس بمكانته في البلاط القوطي دون غيره من الأطباء، وترؤسه للسفارة التي أرسلها ثيودريك إلي الملك الفرنجي ثيودريكل لبحث سبل السلام بينهما(٣٢).

كيفما كان الأمر فقد خرجت الإمبراطورية سالمة من أزمات القرن الخامس الميلادي، وهو ما منحها قوة دافعة لأن تنتهج سياسية إيجابية خلال القرن السادس الميلادي، بقصد توحيد شطري الإمبراطورية، خاصة وأن فكرة عالمية العالم الروماني Orbis Romanus والعالم اليوناني (المسيحي)Oikoumene. وغالباً ما كان يتأثر هذا المشروع بطبيعة الأوضاع والعلاقة مع الدولة الساسانيه علي الجبهة الشرقية(٣٣).

وكانت طبيعة الموقف تحتم علي الدولة البيزنطية عدم المواجهة القتالية علي جبهتين في وقت واحد، ولذلك غالبا ما كانت تقدم علي إبرام اتفاقيات السلام، التي غالبا ما لا يتم الالتزام بها من الطرفين. وكان ذلك يتطلب التفاوض من خلال السفراء للوصول لأفضل الشروط لصالح الإمبراطورية. ونظرا للأهمية والاحترام والتقدير الذي كان يلقاه الأطباء في البلاط الفارسي، فقد أسهموا بدور هام في إقرار السلام في بعض الأحيان بين بيزنطة وفارس.

وكانت البداية عشية تفجر الصراع علي الجبهة الشرقية مع الفرس عام ٥٣١م، والذي نالت خلاله الجيوش البيزنطية، بقيادة بليزاريوس Belisarius، هزيمة غير متوقعة، أدت إلي إرباك الحسابات البيزنطية. فالإمبراطور جستنيان Justinian I (٥٢٧- ٥٦٥م) كانت تتملكه الرغبة في تحقيق انتصار ساحق، علي يد قائده بليزاريوس، يمكنه من فرض صلح بشروط خاصة تخدم مصالح الإمبراطورية علي المدي الطويل، ليتمكن بعد ذلك من إرسال حملته التأديبية علي الوندال vandals في شمال أفريقيا. ولأن الهزيمة غيرت من الأوضاع، اضطر جستنيان إلي اللجوء إلي الصلح. فأرسل سفارة للتفاوض كان ضمن أفرادها طبيبه الخاص توماس Thomas. وقد استمرت أعمال تلك السفارة ما يقرب من عام، كللت في النهاية بتوقيع اتفاق للسلام في سبتمبر عام ٥٣٢م. وكان أهم بنوده : أن تقوم بيزنطة بدفع أحد عشر جنيهاً ذهبا، وأن تخضع لازيقا للسيطرة البيزنطية، وأيبيريا (جورجيا) لسيطرة الفرس. وبذلك أصبح جستنيان في موقف يسمح له بالتفرغ للجبهة الغربية(٣٤).

وتشير المصادر إلي استمرار توماس في أداء دوره السياسي، حيث كان يتولي إدارة الأمور بالقصر الإمبراطوري أثناء ثورة نيقا Nika، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور جستنيان مختفيا في مكان آمن بعيدا عن الأعين، وذلك تمهيدا للفرار خارج العاصمة إذا دعت الأمور إلي ذلك(٣٥).

علي أية حال لم تستمر حالة الهدوء هذه كثيرا، حيث عاود الفرس الهجوم من جديد، مستغلين انشغال بيزنطة في الغرب، علي أمل تحقيق بعض المكاسب علي حسابها. ففي عام ٥٤٤م قام الفرس بفرض الحصار علي مدينة الرها Edessa بهدف السيطرة التامة عليها ونقل سكانها إلي بلاد فارس بعد تدميرها. ونظرا لطول فترة الحصار وخشية سكان المدينة من تعرضهم للمجاعة أقدموا علي الدخول في مفاوضات مع الملك الفارسي كسري kh لفك الحصار. وقاموا باختيار الطبيب المشهور ستيفن الرهاوي Stephen of Edessa مفاوضا عنهم، نظرا لما يتمتع به من مكانة طيبه لدي الملك الفارسي لسابق عمله في البلاط الفارسي، حيث عالج الملك الفارسي من أمراض عده، إلي جانب إشرافه علي تعليم أبنائه. وكان لذلك أثر في نجاح مهمة الطبيب ستيفن الرهاوي في رفع الحصار عن المدينة مقابل دفع مبلغ من المال(٣٦).

وبرغم رفع الملك الفارسي الحصار عن الرها فقد استمر في ممارسة أعماله العدوانية علي المناطق الحدودية مع بيزنطة، الأمر الذي دفع الإمبراطور جستنيان لعقد اتفاق سلام مع الفرس، تم تفعيله بداية من عام ٥٤٥م لمدة خمس سنوات، علي أن تسدد بيزنطة ألف جنيه ذهبا سنويا. واشترط الملك الفارسي ضرورة حضور الطبيب تريبنوس الفلسطيني Tribunus of Palestine للبلاط الفارسي كشرط لتفعيل هذا الاتفاق، فاستجاب له الإمبراطور جستنيان. وكان لتريبنوس دورا سياسيا هاما. حيث استطاع في نهاية مدته بحسن علاقته أن يطلق سراح عدد من الأسري البيزنطيين من كبار الضباط. وتقديرا لهذا الطبيب فقد زاد الملك العدد أكثر مما طلبه تريبنوس ليصل إلي ثلاثة آلاف أسير(٣٧).

ونظرا لأن معظم الاتفاقيات لم توضع موضع الاحترام، فكان غالبا ما يخرق كل من الطرفين الاتفاقيات المبرمة بينهما. وبناء علي ذلك استغل الفرس سوء الحالة الصحية للإمبراطور جستين الثاني Justine II (٥٦٥-٥٧٨م) وقاموا بهجوم مباغت علي الأراضي البيزنطية،ولم تجد الإمبراطورة صوفيا، التي كانت تدبر أمور الدولة بمساعدة بعض القادة، سوى اللجوء إلي التسوية مع فارس حتى تستتب الأمور بالدولة. فقامت بإرسال سفارة لفارس حوالي عام ٥٧٤م لمناقشة الأمور المتنازع عليها بين الطرفين، من اجل تسوية شامله، وكان أهمها بطبيعة الحال المسألة الأرمينية. وكان علي رأس تلك السفارة طبيب القصر ويدعي زكريا zacharia. وبعد سلسة من المفاوضات توصل زكريا إلي عقد هدنة لمدة عام مقابل دفع مبلغ مالي حوالي ٤٥ ألف جنيه ذهبا(٣٨).

ونظراً لعدم تحسن الأوضاع اضطرت الإمبراطورة صوفيا إلي تجديد الاتفاق مع الفرس، خشية معاودة الهجوم علي الأراضي البيزنطية مرة أخري. فأرسلت سفارة بقيادة البطريق ترجانTrejan وضمت السفارة أيضا الطبيب زكريا، نظرا لما أبداه من براعة في المفاوضات السابقة. وكانت مفاوضات شاقه أراد خلالها زكريا مراوغة الفرس حول تحديد المدة الزمنية للمعاهدة، فزكريا، وبموجب اتفاق مسبق مع القيصر تبريوس Tiberius، أراد تحديد مدة الهدنة بثلاث سنوات، وهي الفترة التي تستطيع بيزنطة خلالها تعبئة جيوشها لمواجهة فعليه مع فارس. وشعر المفاوض الفارسي ميبود Mebod بأن في الأمر شيئا، فطلب من الوفد تحديد المدة بخمس سنوات إذا كانت هناك رغبة فعلية للصلح. فأرسل زكريا في استشارة تيبريوس الذي لم يجد مفرا من الموافقة، وفوض زكريا في اتخاذ ما يراه مناسباً. وبعد سلسلة من المفاوضات اتفق الجانبان علي عقد هدنة لمدة خمس سنوات، تتعهد خلالها بيزنطة بدفع مبلغ سنوي حوالي ثلاثين ألف جنيه ذهب(٣٩).

وبتولي تبريوس عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٧٨-٥٨٢م) أراد أن يطمئن الجانب الفارسي بالتزامه بالسلام، فأرسل سفارة ترأسها الطبيب زكريا، والذي منحه المرتبة الشرفية Ex- Prefect، وأرسل معه حارسه الخاص ثيودورس Theodorus حاملين رسالة إلي الملك الفارسي يرحب فيها الإمبراطور بالسلام، باعتبار أنه هدية من السماء. وكان علي السفارة مواجهة المتغيرات التي طرأت بمجرد وصولهم إلي الأرض الفارسية. حيث توفي الملك الفارسي كسري في حوالي فبراير أو مارس عام ٥٧٩م، وخلفه هرمز الرابع Hormsd IV . وقد حاول زكريا استغلال ظروف عدم خبرة هرمز في تجديد اتفاق السلام، دون أي شروط بما فيها الإتاوات، إلا أن الجانب الفارسي رفض ذلك، وتمسك بما كانت تدفعه بيزنطة من قبل. ولكي يبرهن زكريا علي قوة الموقف البيزنطي؛ أرسل للقائد موريس يطلب منه القيام بمناورة عسكرية علي الحدود، ليشعر الفرس أن خيار الحرب قائم مثل خيار السلام. ولم يثنِ ذلك الأمر الفرس عن موقفهم المتشبث باستمرار دفع الإتاوات، وزادوا علي ذلك عدم احترامهم للوفد البيزنطي، حيث أمر الملك الفارسي بإيداع أعضاء السفارة السجن، بدلا من السماح لهم بالعودة إلي أوطانهم. وبرغم ذلك فقد تمكن زكريا ورفاقه من الهرب والعودة إلي القسطنطينية، ولم تشر المصادر إلي كيفية الطريقة التي مكنتهم من الهرب(٤١).

وقد أشارت المصادر إلي دور سياسي آخر في عهد الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م)، ولكن هذه المرة علي الجبهة الغربية. فأثناء قيام احد القادة البيزنطيين ويدعي بريسكوس Priscus، ببعض التحركات عبر نهر الراين بناء

علي طلب جنوده لقضاء فصل الشتاء في منطقه أكثر دفئا وأمنا، فاعتبر الخان الوندالي ويدعي Hezekian أنه المقصود بتلك التحركات، وأنه علي استعداد للمواجهة. ونظرا لعدم استعداد بريسكوس لأي مواجهة في هذه الظروف، قام بإرسال الطبيب ثيودور Theodor للتفاوض مع الخان وتوضيح صحيح الأمر. وبالفعل استطاع ثيودور احتواء الموقف، والسيطرة علي قلب وعقل الخان البلغاري. ووافق الخان علي الصلح مقابل أن يمنحه بريسكوس جزءا من الغنائم التي بحوزته، لأن قومه سبق وأن تعرضوا لأعمال السلب من تلك القوات. واتفق الطرفان في النهاية علي الصلح، ونظرا لإعجاب الخان البلغاري بالطبيب ثيودور طلب منه أن يكون صديقا دائما له(٤٢).

وهكذا استعرض الباحث، خلال السطور السابقة، العديد من الأدوار السياسية المختلفة للأطباء في العصر البيزنطي الباكر، والتي تراوحت ما بين الإيجاب والسلب، ويمكن القول أن وجود هؤلاء الأطباء وقربهم من الأباطرة، سهل لهم مهمة لعب ذلك الدور، وبالإضافة إلي ذلك فإننا لا سنطيع أن نغفل ما تمتع به هؤلاء الأطباء من قدرات خاصة مكنتهم من خوض ذلك المجال، سواء الثقافة العامة وإتقانهم لعدة لغات، إلي جانب استعدادهم وحضورهم السياسي الذي لاحظناه في العديد من المواقف. فليس من المنطق أن يجامل إمبراطور طبيبا مقربا له علي حساب المصلحة العامة للإمبراطورية. ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن تلك الألقاب لم تكن شرفية مثلما كان يحصل عليها البعض، ولكن مناصب عملية.

ويمكن القول أيضا، أنه برغم وجود بعض السلبيات التي شابت هذا الدور السياسي للأطباء، كما ذكرنا سلفا، فإن الدور الإيجابي، والذي صب في كثير من الأحيان في صالح الإمبراطورية، كان واضحا تماماً.

الهوامــــش

(١) يعد انتيموس الترالسي Anthemus of Tralles أشهر الأطباء الذين عملوا في مجال الهندسة والعمارة، وفي المجال الديني كان هناك علي سبيل المثال البيدوس Elpidius الذي عمل شماسا في القسطنطينية وميلان، وكذلك ديونيسيوس Dionysius الذي عمل شماسا في روما، وكذلك أيضا جيرونتيوس Gerontius الذي عين أسقفا لنيقوميديا، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Jones, A., The Prosopography of the Later Roman Empire, Cambridge, 1980, p 363; Wallis, F., Medieval Medicine: AReader, Toronto 2010, p23; Nutton, V., Ancient Medicine, New York, 2004, p 301.

(2) Blocckley,R.,"Doctors as Diplomats in the Sixth Century A.D", in Florilegtum, 2,(1980),pp 89-100.

(٣) الهيوجرافي مصطلح حديث لنوع من الأدب البيزنطي، يهدف إلي تبجيل القديسين. وقد جذب هذا الأدب اهتمام عدد كبير من الباحثين المحدثين، فوضعوا دراسات عن هذا النوع من الأدب وأشكاله وعناصره وأنماطه التقليدية. والي جانب المعلومات التي تستمد من هذا الأدب في التعريف بالقديسين وأعمالهم البطولية، فهو يفيد الباحثين بالكثير من المعلومات حول التاريخ البيزنطي، ولمزيد من المعلومات انظر:-

عبد العزيز رمضان، البيزنطيون بين علاج الأطباء ومعجزات القديسين، دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الخامس،٢٠٠٦-٢٠٠٧م (ص ٣٣-٩٨) ص٣٣، ١٥، راجع أيضا:-

Magoulias, H.," The Lives of the Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixh and Seventh Centuries", in Byzantinische Zeitschrift, 57,(1964), pp127-150; Brown, P.," The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity", in Journal of Roman Studies, 61, (1971), pp 80-101; Kazhdan, A. ",Byzantine Hagiography and Sex in sixth to Twelfth Centuries", in Dumbarton Oaks Papers,45(1991) ,pp1-22.

(٤) ولد اوريباسيوس حوالي عام ٣٢٥م في برجاموس، وهي نفس مسقط رأس العالم الجليل جالين Galen. وقد بلغ مبلغا طيبا في مجال الطب، حتي كان يطلق عليه لقب Ape of Galen أي شبيه جالين وله مؤلف في الطب يتكون من سبعين مجلدا بعنوان Collecta Medicinalia، ولمزيد من المعلومات حول حياته ولقائه الأول بجوليان انظر:

Dieting for an Emperor: a translation of books 1and 4 of Oribasius' Medicat, Leiden, 1997, p 2; Baldwin, B.,' The career of Oribasius', Acta Classico, 18, (1975) pp 85-97; Gregory, T., A History of Byzantium,UK,2010,p 76.

(٥) ادوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، القاهرة، ١٩٦٧، جـ ٢، ص ٣٠، راجع أيضا:

Gregory, T., A History of Byzantium, UK, 2010, p 76; Kaegi, W., Byzantium and the decline of Rome, Princeton, 1968, 79.

(٦) Eunapius, in: The Fragmentary Classicising Histotians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodorus, Priscus and Malchus, trans. Blokley, R. C., Liverpool, 1983, (pp6-126), p 33; Collins, R., Early Medieval Europe, 300- 1000, London, 1991, p36; Baldwin,B., 'Beyond the House Call: Docotors in Early Byzantine History and Politicos', Dumbarton Oaks Papers,38,(1984),(pp15-19), p 17.

(٧)Theophanes, The Chronicle of Theophanes A.D 284- 813, trans,Mango,c., and Scotte,R.,Oxeord,1992,pp 76; Socrates, The Ecclessiatical History Socrates, trans, Some Account of Authors, London, 1914, p 166; Sozomen, The Ecclessiatical History of Sozomen, trans, Wallfard, E., London, 1855, p 200.

(٨) كانت وظيفة الكويستور ذات تأثير هام في البلاط الإمبراطوري، لكونه مسئولا عن التشريع في البلاط الإمبراطوري، كما كانت ذات صلة بالسفارات والسفراء الأجانب. والمرجح إن أول ظهور لهذه الوظيفة كان في عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، ولمزيد من المعلومات حول تلك الوظيفة، انظر: وسام عبد العزيز فرج، الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرار و الانقطاع، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، الكتاب السنوي الثالث، القاهرة، ١٩٩٨،

(ص٢٩٥-٣٣٩)، ص١٠٠؛ رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٠، راجع أيضا:

http://en.wikipedia.org/wiki/Quaestor

Accessed in 12-9-2010

(٩) Theophanes, op cit, p 84;Baldwen,Doctors, p 17.

(١٠) البروقنصل: ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Anthypatos، وصاحبها حاكم لبعض الأقاليم ذات الأهمية الخاصة، ومن المحتمل أنه أطلق أيضا على المسئول عن إدارة القسطنطينية حتي عام ٣٥٩م حين تم استبداله بـــ Urban Prefect، وكان البروقنصل في إفريقية يخضع للإمبراطور مباشرة، ولمزيد من المعلومات انظر: رانسيمان المرجع السابق، ص ٩٣، راجع أيضا:

http://en.wikipedia.org/wiki/Proconsul

Accessed in 12-9-2019

(١١) St. Augustine: Confessions, trans, Chadwick,H., Oxford,1991, p 54; Lepelley,C., Aspects de L'Afrique Romaino, Edipuglia,2001, p 156;Chastagnol,A., L'Italie et L'Afrique au Bas-Empire,Universite de Lile,1986,p 3.

(١٢) ولد القديس أوغسطين في تاغست Tagast، والتي تعرف حاليا بسوق أهراس بالجزائر في الثالث عشر من عام ٣٥٤م. وبعد أن تلقي تعليمه الأولي في موطنه انتقل إلي قرطاج، وهناك تأثر بالفلسفة الأفلاطونية.ثم انتقل بعد ذلك عام ٣٨٣م إلي روما ومنها إلي ميلانو،وهناك اعتنق المسيحية، وعاد بعد ذلك إلي موطنه وأنشأ ديرا للتعبد في عنابه، ثم عين أسقفا لها عام ٣٩٥م. وسار أبا للكنيسة اللاتينية. وله مؤلفات كثيرة أهم اعترافاتي Mes Confessions، ومدينة الله La Cit de Dieu. وتوفي في أواخر أغسطس عام ٤٣٠، لمزيد من المعلومات انظر:

Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991,vol I pp 232-233; New Catholic Encyclopedia, Washington, D.C, 2003, vol,I, pp 852-858.

http://www.newadvent.org/cathen/02084a.htm

Accessed in 25-11- 2010

(١٣) St.Augustine, op cit, p54; Hegedus,T., Early Chrustianity and Ancient Astrology,NewYork,2007, p 48; Langslow,D., Medical Latine in the Roman Empire, Oxford, 2000,pp 55-56; Baldwen,Doctors,18; Bermon,E.,Le Cogito dans la Pensee ds Saint Augustin, Paris,2001,p 128.

(١٤) تعددت مهام صاحب هذه الوظيفة، فهو رئيس سلك الوظائف المدنية كلها ومدير بريد الدولة، والمهيمن علي المخابرات، وكبير إدارة المراسيم الإمبراطورية. إلي جانب أنه مسئول العلاقات الخارجية بوصفه الوزير المسئول عن استقبال السفراء. ونظرا لتعدد مهام صاحب هذه الوظيفة، كان الإمبراطور يحيط شخصه بعدد من المساعدين، ولمزيد من المعلومات انظر:-

رانسيمان، المرجع السابق، ص٩٤؛ وسام عبد العزيز، المرجع السابق،ص ٣٠٦.

(15) Eunapius, op cit, p 93;Langslow, op cit,p 66; Baldwen, op cit, p28.

(١٦) يعود الموطن الأصلي للايسوريين إلي إيسوريا Isuria، وهي منطقة جبلية تقع جنوب آسيا الصغري، حيث كانت موطنا للعديد من القبائل الأخرى. وقد هدف الإمبراطور ليو من وراء استقدامهم أن يحلوا محل عنصر القوط الذين استفحل نفوذهم داخل الإمبراطورية. وقد أفل نجمهم مع تولي الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨م) عرش الإمبراطورية، وشن ضدهم العديد من الهجمات داخل موطنهم الأصلي، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Oxford Dictionary, vol II, p, 1o14;

(١٧) أطلق هذا المصطلح سابقا علي الخادم، أو الذي يقدم النصح للإمبراطور أو الملوك البرابرة، ثم أخذ معني آخر في عهد الإمبراطور قسطنطين ليمنح لأعوان ورفاق الإمبراطور، ثم أطلق بعد ذلك علي العديد من أصحاب المناصب الرفيعة، ولمزيد من المعلومات انظر: وسام عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٣٠٥؛ راجع أيضا:

Oxford Dictionary, vol I, pp 484-485.

(١٨) عبد العزيز رمضان، المرجع السابق، ص ٨٠، راجع أيضا:

Chronicon Paschale 284-628 AD, trans. Whitby,M., Livrpool, 1986, p 88; Nutton, op cit, pp 304-305.

(١٩) Theophanes, op cit,p 187;The Chronicle of Joshua the Style,ed and trans, Wright, W., Cambridge,1882, p 9. Zacharia of

Mitylene, The Syriac Chronicle known as that of Zacharia of Mitylene, trans. hamilton, F., London, 1899, p 104; Grillmeier, A., Christ in Christian Tradition, trans. Pauline, .A., vol. 2, part.1, Atlanta, 1987, p 243.

(٢٠) يعرف أصحاب هذا المذهب بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وهي مشتقة منMono وتعني واحدة، و Physites و تعني طبيعة. ويرون أن للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين "فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما في الجوهر والأقنوم وفي الطبيعة"، وليس هناك انفصال أو افتراق بين اللاهوت والناسوت في المسيح. ولمزيد من المعلومات انظر:-

اسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، ١٩٧٢، ص٨٨-٨٩؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٢.

(٢١) عقد هذا المجمع عام ٤٥١م بناء علي طلب الإمبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠-٤٥٧م) ويعد هذا المجمع هو المجمع المسكوني الرابع. وقد أدان هذا المجمع قرارات مجمع افيسوس عام ٤٤٥م والذي عرف باسم مجمع اللصوص. وقد أقر هذا المجمع مبدأ طبيعتي المسيح الذي صاغه من قبل البابا ليو، ولمزيد من المعلومات انظر: حسنين ربيع، المرجع السابق، ص٥٢.

(22) Theophanes,op cit,p 187;Grillmeier, op cit, p 243

(٢٣) يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٣٧؛ ميخائيل السرياني، تارخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة جريجوريوس صليبا، حلب، ١٩٩٦، جـ ١، ص ٣٢- ٢٤؛ عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية، ترجمة اسحق عبيد، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٨٩، راجع أيضا:-

Zacharia of Mitylene, op cit, pp 104 – 105 ; Theophanes, op cit, p 188.

(٢٤) Jordones,The Original and Deeds of the Goths, Trans, by , Mierow,C., Priceton, 1908,p 79; Burns,T., A History of the Ostrogoths, Indiana, 1991,p52, Walfarm,H., History of the Goths, trans. Danlap,T.,,California, 1979, p 258.

(٢٥) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State ,trans.hussay,J.,Oxford, 1968,pp58- 59; Burns,op cit, p 57.

(٢٦) Anthimus , De Obseruation Ciborum : On the Observance of Food, London, 2007,p 15.

(٢٧) Anthimus, op cit, p 15, Hinds, K., Goths, New York,2009, p 63, Walfram, op cit, p 271.

(٢٨) Malchus, in : The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodrus , Priscus and Malchus, trans. Blockley, Liverpool, 1983, (pp 402-455), p423.

(٢٩) Anthimus, op cit, p 15; Malchus , op cit, p 423;Dalby,A., Food in Ancient world from A to Z, New York, 2003, p 12.

(٣٠) Anthimus, op cit,op , p 16.

(٣١) Anthimus, op cit, pp 17- 18; Theophanes,op cit, p 201.

(٣٢) استغل القوط الشرقيون وفاة الملك الفرنجي كلوفيس Clovis ، عام ٥١١م، وهاجموا الأراضي الفرنجية من أجل توسيع أملاكهم عي حساب الفرنجة، ولكنهم صدموا من رد فعل الملك الفرنجي الجديد ثيودريك، مما اضطر القوط لعقد الصلح معهم، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Anthimus, op cit, p 20;Gregory of Tours, The History of The Franks, trans.Thrope,L., Penguin Books, 1997,p183; Burns, op cit, p 95-96.

(٣٣) وسام عبد العزيز فرج، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٦٨.

Menander, The History of Menander The Guardsman, trans. Blockley,R.,Liverpool,1985

(٣٤) Procopius, History of Wars,trans. Dewing, B.,London, 1927, p ; Theophanes, op cit, p286- 287.

ويذكر أن بيوري قد حدد تاريخ تلك المعاهدة بربيع ٥٣٢م، وأن المبلغ المفروض علي بيزنطة كان مقابل الدفاع وحماية البوابات القوقازية، انظر:-

Bury,J., History of Later Roman Empire, from the Death of Theodosius to the Death of Justnian, vol.II, p 88;Sykes,P., A History of Persia, London,1921, vol.I, pp 544-545.

(٣٥) اشتعلت ثورة نيقا عام ٥٣٢م والتي تعني النصر في اللغة اليونانية،ويعود سبب اشتعال تلك الثورة الي السياسة التعسفية لاثنين من كبار رجال الحكم في عهد جستنيان، رجل القانون والمشرع تريبونيان Tribonian ووزير المالية حنا القبدوقي John of Cappadocia. وكادت هذه الثورة إن تطيح بجستنيان تماما لولا الدور البطولي الذي لعبته زوجته ثيودورا، بتشجيعه لمواجهة تلك الثورة حتي تمكن من إخمادها، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Chronicon Paschale, pp 122-123; Theophanes, op cit , pp 276-277; Bury, op cit , p 45- 46

(٣٦) Bury, op cit , pp 110 111; Guscin,M., The Image of Edessa, Leiden, 2009, p 170; Segal,J., Edessa "the blessed city" , U.S.A, 2005 , p113.

(٣٧) يطلق على زكريا المتليني اسم "Tribonion"، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Zacharia of Mitylene, op cit,p 331; Bury, op cit, p112.

(٣٨) حدث نوع من الخلط لدي المؤرخ ايفجاريوس Evagarius حول تلك السفارة التي حدثت عام ٥٧٤م، والسفارة التي شارك فيها زكريا مع تراجان فيما بعد، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Menander, op cit, p 59; Evgarius, p261; Theophanes, op cit, p367;Sykes, op cit, p457.

(٣٩) Menander, op cit, p197; Evagrius, op cit, p 271; Theophanes, op cit, p 367. Sykes, op cit, p457.

(٤٠) Menander, op cit, p205; Theophanes, op cit , p 369.

(٤١) Menander, op cit,pp 207- 213.

(٤٢) The History of Theophylact Simocatta , trans. Whitby, M., Oxford, 1986, pp 176-178;

فتح مكة والسرايا التي تلته

" دراسة تاريخية وصفية "

د. محمد بن صامل السلمي (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق فهدى وأعطى فأغنى ، وبعلمه وحكمته بعث الرسل، وكان خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وبعد :

فإن أم القرى والبلد الأمين هي موئل أفئدة المؤمنين، و بها البيت العتيق الكعبة المشرفة، وقد ولد ونشأ فيها خير خلق الله النبي الأمي، ومنها بُعث وأوحي إليه، ومكث بها ثلاث عشرة سنة بعد النبوة، يدعو إلى توحيد الله ونبذ الشرك وترك عبادة الأوثان، فاستجاب له من أراد الله هدايته، ولكنهم أوذوا وعُذبوا من المشركين، مما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم يجتهد صلى الله عليه وسلم في دعوة وفود الحج والقبائل إلى نصرته، فهيأ الله له الأوس والخزرج الذين استجابوا لله ونصروا رسوله وبايعوه على الإسلام في بيعة العقبة الأولى، ثم على النصرة والحماية في بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة، فأذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ثم تبعهم بعد إذن الله له ومعه صاحبه أبا بكر الصديق، فقد خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحبُّ البلاد إليه ولكن أهلها أخرجوه، وقد وعده ربه أن يعيده إلى مكة[١] في قوله تعالى : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾، ولهذا عمل صلى الله عليه وسلم على التخطيط لفتح مكة، بنشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله في أنحاء الجزيرة، ومما فعله صلى الله عليه وسلم من الأسباب لفتح مكة أنه أعلن في السنة السادسة من الهجرة أنه يريد العمرة وزيارة البيت الحرام، فأحرم صلى الله عليه وسلم ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه، لكن قريشاً صدته ومنعته، ففاوضهم، وتم الصلح بينه وبينهم بوضع الحرب عشر سنين، ومن أراد أن يدخل في حلف محمد من قبائل العرب دخل،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة أم القري بمكة المكرمة.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة القصص آية (٨٥)، حديث رقم ٤٧٧٣

ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل، فكان هذا الصلح فتحاً عظيماً كما سماه الله سبحانه وتعالى،وأنزل عليه منصرفه من الحديبية سورة الفتح : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا[٢] ﴾

لكن قريشاً نقضت العهد بعد اقل من سنتين، مما هيأ الأسباب ويسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة. وقد عرضت في هذا البحث لسبب نقض الصلح ، واستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة بدعوة القبائل التي أسلمت لمشاركته في الفتح.

ثم وصفت طريق تحركه إلى مكة حتى نزل مرّ الظهران، ثم إرسال النبي صلى الله عليه وسلم بالأمان إلى أهل مكة مع أبي سفيان، وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم من الأسباب والوسائل ما يحقق الفتح من غير وقوع قتال في البلد الحرام، ثم ذكرت دخوله مكة وتعظيمه البلد الحرام وطوافه بالبيت وتطهيره من الأصنام والشرك ، ودخوله الكعبة المشرفة وصلاته فيها، ثم وقوفه على باب الكعبة والمشركون في صحن المطاف مستسلمون، وإعلانه صلى الله عليه وسلم العفو عنهم، وبيان حرمة مكة، وأن الله قد أباح له القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت، وأوضحت الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم لترتيب أوضاع مكة، وبعض الفتاوى والقضايا التي أوضحها وحكم فيها، ومبايعة أهل مكة له صلى الله عليه وسلم. وكذا بيان السرايا التي تلت الفتح الأعظم والتي كانت حول مكة للدعوة إلى الله وتحطيم الأصنام والطواغيت الكبار التي كانت تعظم عند قريش وغيرها من القبائل.

وقد سلكتُ في الدراسة الجانب الوصفي للأحوال والأماكن، حتى يتصور القارئ المشهد كما هو ، وقد ختمت البحث بجملة من الدروس والعبر المستفادة من الفتح الأعظم وما تلاه من السرايا.

وأسأل الله أن يكون نافعاً للباحث وللقارئ الكريم، وأن يجعله من العمل الخالص المتقبل والحمد لله رب العالمين.

نقض قريش للعهد وخروج أبي سفيان لتجديد الصلح وإخفاقه :

كان من شروط صلح الحديبية أن من شاء من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل. فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وكانوا حلفاء لجده عبد المطلب وكان فيهم إسلام. ودخل بنو بكر إحدى

---

(٢) سورة الفتح آية (١).

القبائل الكنانية في عقد قريش[٣]. وديار بني بكر و خزاعة متداخلة ومتجاوره حول مكة شمالاً وجنوباً، وقد كان بينهم ثأر من قبل البعثة النبوية، حيث عدت خزاعة على مالك بن عباد أحد بني الحضرمي وهم حلفاء الأسود بن رزْن من بني الدئل من بكر فقتلته، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فردّت خزاعه بقتل ثلاثة من أشراف بني بكر من بني الأسود بن رزْن، هم : سلمى، وكلثوم، وذؤيب، وذلك بعرفة عند أنصاب الحرم، وكان بنو الأسود لشرفهم في كنانة يؤدون ديتين ديتين[٤]، وقد حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به وهم على هذه الحال. ولما وقعت الهدنه ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، استعدت بنو بكر قريشاً على خزاعة ليأخذوا بثأرهم فوافقهم بعض القرشيين وأعانوهم بالسلاح والرجال، واستغلوا فرصة الهدنة فعدوا على خزاعة ليلاً على غرة عند ماء لهم أسفل مكة يسمى الوتير، ويذكر الواقدي أن آخر ما كان بين خزاعة وكنانة من الأحداث، أن أنس بن زنيم الديلى هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به وشجه فثار الشر بينهم مع ما كان من العداوة[٥] السابقة.

وقد لجأت خزاعة عند عدوان بني بكر عليهم إلى الحرم، لكن رئيس بني بكر نوفل بن معاوية الدئلي أمر بني بكر بقتلهم حتى ولو دخلوا إلى حدود الحرم، وقال : – كلمة كبيرة لما ذَكَره قومه بحرمة مكة وإلهه – لا إله له اليوم، يا بني بكر خذوا بثأركم[٦].

ولجأ الخزاعيون بعد دخولهم مكة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وحليف لهم يسمى رافعاً، وقتل في هذه العدوة ثلاثة وعشرون رجلا من خزاعة[٧].

وقد قدم الخزاعيون على رسول الله ﷺ في المدينة ليعلموه بما وقع عليهم، وطلبوا منه النصر، منهم بديل بن ورقاء، وعمرو بن سالم، وأنشد عمرو بن سالم بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته.

اللهم إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

---

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٤/٣٠ بإسناد صحيح، تاريخ الطبري، ٣/ ٤٣ والبيهقي، دلائل النبوة ٥/٦.

(٤) ابن هشام، المصدر نفسه ٤/٢٩، تاريخ الطبري ٣/٤٣، الواقدي المغازي ٢/٧٨١. ومعنى يودون: يدفعون دية القتيل.

(٥) المغازي ٢/٧٨٢.

(٦) ابن هشام، المصدر نفسه ٤ / ٣٠، وابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٢٨.

(٧) الواقدي، المغازي ٢ / ٧٨٤ و ٧٨٧.

إن قريشـــاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثـــاقك المؤكـــدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يـــأتوا مـــددا

فقال رسول الله ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم[٨]) ثم عرض لرسول ﷺ عنـان من السماء فنظر إليها وقال : (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)[٩]

ويذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال للوفد الخزاعي ارجعوا إلى دياركم وتفرقوا في الأودية والبلدان[١٠].

وكانت المدة بين عقد صلح الحديبية وهذه الأحداث سـبعة عـشر شـهراً، أو ثمانية عشر شهراً[١١].

وقد ندمت قريش على ما وقع منها في معاونة بني بكر، وخشيت أن يبلغ ذلـك النبي ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه (كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليـشد العقـد ويزيد في المدة)[١٢] فأرسلت قريش أبا سفيان للنبي ﷺ، وفي الطريق لقي بـديل بـن ورقاء مع رجال من خزاعة عند عسفان وتوقع أنه راجع من المدينة، فسأله لكن بديلا أخفى عليه أمره، ثم ذهب إلى مبرك إبلهم وأخذ بعرة ففتها ووجد فيها النوى، فـأدرك أن القوم جاءوا من المدينة.

ولما وصل المدينة لقي رسول الله ﷺ في المسجد، وطلب منه أن يـشد العهـد ويزيد في المدة لكن رسول الله ﷺ لم يرد عليه شيئاً[١٣]. وعند الواقدي أن رسول الله ﷺ قال له : هل كان قبلكم حدث ؟ قال معاذ الله. فقال رسول الله : فنحن علـى مـدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل[١٤].

---

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٣٥ والشعر عند الواقـدي ٢ / ٧٨٩ والطبـري ٣/٤٥، ومعنى الأتلد: القديم وانظر لتخريج الحديث مجمع الزوائد ١٦٣/٦

(٩) الهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٤/٦ وبنو كعب هم خزاعة.

(١٠) المغازي ٢/ ٧٩١، وانظر ابن كثير ٣/ ٥٣٢.

(١١) ابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٢٦ ويذكر الواقدي (المغـازي ٢/ ٧٨٣) أن نقـض العهد كان في شهر شعبان (أي سنة ثمان) وذلك على رأس ٢٢ شهراً من عقد الصلح.

(١٢) ابن هشام، المصدر نفسه ٣٥/٤ وانظر الواقدي ٧٩١/٢ وتاريخ الطبري ٤٥/٣.

(١٣) ابن هشام، المصدر نفسه ٤/ ٣٦.

(١٤) المغازي ٢ / ٧٩٢ ونسبه ابن كثير في السيرة ٥٣٢/٢ لموسى بن عقبه.

ودخل أبو سفيان على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، فطوت فراش رسول الله ﷺ عنه، ثم خرج إلى الصديق، ثم إلى عمر، وإلى علي يستشفع بهم عند رسول الله ﷺ فلم يجيبوه، وقال لفاطمة رضي الله عنها : أجيري بين الناس، أو مري ابنك يجير بين الناس فقالت : إنه لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، ثم قال له علي بعد أن كلّت حيلته: قم أنت فأجر بين الناس، فقام أبو سفيان وقال : اشهدوا أني أجرت بين الناس. فقال رسول الله : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان، فلم يقبل إجارته فعاد من غير نتيجة(١٥).

خروج الرسول ﷺ لفتح مكة

- **الاستعداد لفتح مكة :**

أخذ الرسول ﷺ في الاستعداد لفتح مكة، وقال لعائشة : جهزينا وأخفي أمرك، وأمر ﷺ بحراسة الأنقاب والطرق فلا يخرج أحد أو يدخل إلا وهو معلوم، وكان عمر بن الخطاب هو القيم على الأنقاب(١٦)، وكل من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه(١٧).

ودخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال : أهمّ رسول الله بغزو ؟ فقالت : ما أدري.

فجاء رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله أردت سفراً ؟ قال رسول الله : نعم.

قال : أفلا تجهز ؟ قال : نعم. فقال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر(١٨).

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري في ثمانية نفر إلى بطن إضم، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ يريد تلك الناحية وتذهب بذلك الأخبار(١٩)) ودعا رسول الله ﷺ

---

(١٥) انظر تفصيل ذلك عند ابن هشام ٤/ ٣٧ -٣٧ و مغازي الواقدي ٢ / ٧٩٣ - ٧٩٥.
ومعنى كلّت حيلته : عجزت

(١٦) الأنقاب : الطرق في الحرة.

(١٧) مغازي الواقدي ٢ / ٧٩٦.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه ٢ / ٧٩٧.

ربه أن يعمي على قريش الأخبار[٢٠]، فلا يعلمون عنه حتى يفجأهم بمكة وهم على غير استعداد، مما يجعلهم يستسلمون من غير قتال، إعظاما منه ﷺ لمكة وحرمتها.

ـ كتاب حاطب إلى قريش :

وقد علم بعض خواص الصحابة بقصد النبي ﷺ ووجهته، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة،[٢١] وهو من المهاجرين، وممن شهد بدرا، وله بمكة مال وأهل، فأراد أن يتخذ عند أهل مكة يداً ليحفظ ماله وأهله، فكتب لهم كتاباً، وسمى الواقدي ثلاثة نفر كتب لهم حاطب هم : صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وأرسله مع امرأة من مزينة تسمى كنود، وجعل لها دينارا على أن تبلغ الكتاب[٢٢]، وقال : أخفيه ما استطعت ولا تمري على الطريق فإن عليها حراساً، فسلكت المرأة على غير نقب فأخذت على يسار المحجة المعروفة من فلوق الحرة حتى لقيت الطريق بالعقيق[٢٣].

وأطلع الله رسوله ﷺ على ما فعله حاطب، فبعث علياً والزبير والمقداد وقال : (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[٢٤] فإن بها ضعينة[٢٥]، ومعها كتاب فخذوه منها) قال علي : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالضعينة، فقلنا : أخرجي الكتاب. فقالت : ما معي من كتاب، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبيْ بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول ﷺ : يا حاطب، ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت إمرءً ملصقاً[٢٦] في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون

---

(٢٠) ابن هشام ٤ / ٣٨ ومغازي الواقدي ٢ / ٧٩٦. ومعنى يعمي : يخفي ويحجب.

(٢١) حاطب بن أبي بلتعة عمرو بن راشد بن معاذ اللخمي، حليف قريش، أسلم وهاجر وشهد بدراً والحديبية، وبعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأتاه من عنده بهدية منها مارية القبطية أم إبراهيم، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة ثلاثين عن خمس وستين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه الطبقات الكبرى (١١٤/٣) والإصابة ٢٠٠/١.

(٢٢) ذكر الواقدي رواية أخرى (٢/ ٧٩٩) وسمى المرأة سارة وأنه جعل لها عشرة دنانير.

(٢٣) المصدر السابق ٧٩٨/٢ و ٧٩٩. والمحجة : الطريق العام والرئيس.

(٢٤) في رواية ابن إسحاق في السيرة ٤/ ٣٩ فأدركناها بالخليقة، خليقة بني أحمد، وكذا في مغازي الواقدي ٧٩٨/٢.

(٢٥) الضعينة : المرأة

(٢٦) ملصقاً : حليفاً

بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ومافعلت كفرا ولا ارتدادا، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : قد صدقكم(٢٧)

وقد تجاوز عنه النبي ﷺ لما ظهر له من صدقه وعدم موالاته للكفار، ولما له من السابقة في الإسلام وشهود بدر والحديبية، وقد أوجب الله لمن شهدهما الجنة، مع أن فعله يعتبر خيانة، لكن كفى الله المؤمنين شرها بكشف أمره قبل أن يصل الخبر إلى العدو.

- **مسير الرسول ﷺ إلى مكة :**

لما عزم رسول الله ﷺ على الخروج إلى مكة أبان عن نيته في الغزو ولم يحدد وجهته، وأرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسول الله ﷺ رسله في كل ناحية، حيث أرسل أسماء، وهند ابني حارثة الأسلميان إلى قبيلة أسلم.

وأرسل جندباً، ورافعاً ابني مكيث إلى جهينة. وأرسل إيماء بن رحضة، وأبا رهم كلثوم ابن الحصين الغفاري إلى بني غفار وضمرة. وبعث معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود إلى أشجع. وبعث بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني إلى مزينة. وبعث الحجاج بن علاط السُلمي، وعرباض بن سارية إلى سُليم. وبعث بسر بن سفيان، وبديل بن ورقاء إلى بني كعب من خزاعة(٢٨). ويظهر من بعض الروايات التي أوردها الواقدي(٢٩) أن رسول الله ﷺ لم يظهر مقصده من هذا الغزو لكل الناس، وقد أوهم قبل ذلك بإرسال سرية إلى بطن إضم. وخرج ﷺ في العشر الأول من رمضان، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفاري(٣٠) وعسكر ﷺ ببئر أبي عنبة حتى اجتمع له الناس، وفي رواية عند الصلصل(٣١)، ثم تقدم ﷺ إلى العرج.

---

(٢٧) انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجاسوس حديث رقم ٣٠٠٧ وأخرجه في مواضع أخرى حديث ٣٠٨١ و ٦٢٥٦ و٦٩٣٩ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أهل بدر ح ١٦١.

(٢٨) الواقدي، المغازي ٢ / ٧٩٩ - ٨٠٠.

(٢٩) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٢.

(٣٠) ابن هشام ٤/ ٤٠١ وسيرة ابن كثير، عن ابن إسحاق ٣ / ٥٤٠، وذكر ابن سعد في الطبقات ٢ / ١٢٥ أنه استخلف عبد الله ابن أم مكتوم.

(٣١) الواقدي ٢ / ٨٠٠ و ٨٠١. وأجممنا السيوف : أرحناها. وج : وادٍ بالطائف

وكان الجيش منهم الصائم ومنهم المفطر، وقد أراد كعب بن مالك أن يعرف وجهة النبي ﷺ فألقى بين يديه هذه الأبيات

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاضر إن لم تروها ... بساحة داركم منها ألوفاً
فننتزع الخيام ببطن وجٍ ... ونترك دونهم منها خلوفا

فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك(٣٢).

وقد سمع عيينة بن حصن الفزاري بمخرج النبي ﷺ وهو في أهله بنجد، فجاء في نفر من قومه إلى المدينة فوجد النبي ﷺ قد خرج قبله بيومين، فأسرع وسلك على ركوبة، وسبق إلى العرج، فلما جاء إلى النبي ﷺ سأله : أين وجهك يا رسول الله ؟ قال : حيث يشاء الله. ثم جاءه الأقرع بن حابس بالسقيا في عشرة من قومه فساروا معه(٣٣).

وقد جعل رسول الله ﷺ بين يديه طليعة، فوجدت الطليعة بين العرج والطلوب رجلاً ادعى أنه من غفار، فلما حققوا معه اتضح أنه من هوازن، أرسله قومه عيناً يأتي بخبر النبي ﷺ، فا ستخبره رسول الله ﷺ عن هوازن فأخبره أنهم جمعوا له جمعاً هم وثقيف، وأنهم أرسلوا إلى جرش في عمل الدبابات والمنجنيق، فأمر النبي ﷺ بأن يتحفظ عليه، وبقي معهم إلى أن تم فتح مكة، ثم إنه أسلم وشارك في غزوة حنين(٣٤).
كما ذكر الواقدي رواية عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن رسول الله ﷺ لما كان بين العرج والطلوب، نظر إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له: جعيل بن سراقة أن يحرسها لئلا يعرض لها أحد من الجيش(٣٥).

- **عقد الألوية والرايات :**

وتختلف الروايات في المكان الذي عقد فيه النبي ﷺ الألوية والرايات، فيذكر الواقدي أنه عقد الرايات عندما عسكر ببئر أبي عنبة، ويذكر رواية أخرى أنه ﷺ لم

---

(٣٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٢.
(٣٣) المصدر نفسه ٨٠٣/٢
(٣٤) المصدر نفسه ٨٠٤/٢
(٣٥) المصدر نفسه ٨٠٤/٢ وانظر ترجمة جعيل بن سراقة الضمري في الاستيعاب لابن عبد البر. وفي القصة رحمة النبي ﷺ وشفقته بالحيوان.

يعقد الرايات إلا في قديد، ثم يعطي الواقدي تفصيلات عن عدد الرايات وأصحابها وعدد المشاركين من كل قبيلة كما يلي[٣٦] :-

١- المهاجرون، على ثلاث رايات : راية مع الزبير، وراية مع علي، وراية مع سعد بن أبي وقاص، عددهم (٧٠٠) وخيلهم (٣٠٠) فرس.

٢- الأوس، على سبع رايات : راية مع أبي نائلة من بني عبد الأشهل، وراية مع قتادة بن النعمان من بني ظفر، وراية مع أبي بردة بن نيار من بني حارثة، وراية مع جبر بن عتيك من بني معاوية، وراية مع أبي لبابة بن عبد المنذر من بني خطمة، وراية مع مبيض من بني أمية، وراية مع أبي أسيد من بني ساعدة.

٣- الخزرج على خمس رايات : راية مع عبد الله بن زيد من بني الحارث، وراية مع قطبة بن عامر بن حديدة من بني سلمة، وراية مع عمارة بن حزم من بني مالك بن النجار، وراية مع سليط بن قيس من بني مازن، وراية في بني دينار.

وعدد الأنصار جميعاً (٤٠٠٠) رجل، ومعهم من الخيل (٥٠٠) فرس.

٤- مزينة، وهم على ثلاثة ألوية : لواء مع النعمان بن مُقَرّن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبد الله بن عمرو عددهم (١٠٠٠) رجل ومعهم (١٠٠) فرس.

٥- أسلم، ولهم لواءان : أحدهما مع بريدة بن الحصيب، و الأخر مع ناجية بن الأعجم عددهم (٤٠٠) رجل ومعهم (٣٠) فرساً.

٦- جهينة، وهم على أربعة ألوية : لواء مع سويد بن صخر، ولواء مع ابن مكيث، ولواء مع أبي زرعة، ولواء مع عبد الله بن بدر، عددهم (٨٠٠) رجل ومعهم (٥٠) فرساً.

٧- بنو كعب بن عمرو الخزاعيون، على ثلاثة ألوية : لواء مع بسر بن سفيان، ولواء مع ابن شريح، ولواء مع عمرو بن سالم وعددهم (٥٠٠) رجل.

٨- بنو سُليم وعددهم (٩٠٠) وقيل ألف، وكلهم خيالة، نفروا مع الرسولين اللذين بعثهما لهم رسول الله ﷺ، الحجاج بن علاط، والعرباض بن سارية، ولقوه في قديد ومعهم لواءان وخمس رايات، فجعلهم رسول الله في مقدمته حتى نزلوا مَرّ الظهران[٣٧].

---

(٣٦) المغازي ٨٠٠/٢ وعند ابن سعد في الطبقات ١٢٥/٢ أن عقد الرايات للقبائل كانت في قديد ولعلّ هذا هو الصواب.

(٣٧) المصدر نفسه ٨١٢/٢ و ٨١٣.

ولما رأى عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، عقد الألوية والرايات تأسفا أن لم يكن معهما قومهما ليشاركا في الغزوة ويعقد لهما النبي ﷺ الرايات كما عقد للقبائل المشاركة. وتوضح الروايات في كتب المغازي أن عدد المشاركين في غزوة الفتح عشرة آلاف[٣٨]، وبعضهم قال ثمانية آلاف[٣٩] وبعضهم قال اثنا عشر ألفاً[٤٠] والمشهور عشرة آلاف.

إسلام سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية :

لما وصل النبي ﷺ في طريقه إلى مكان يسمى نيق العقاب لقيه ابن عمه سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها، وشفعت فيهما أم سلمة، فأذن لهما بالدخول عليه، وأسلما وعفى عنهما رسول الله ﷺ ما كانا يؤذيانه به في مكة، وأنشد أبو سفيان بين يديه ﷺ قصيدة يعتذر فيها عما حصل منه في سابق أيامه[٤١] منها قوله:

لعمرك أني يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي
هداني هاد غير نفسي ونالني مع الله من طردتُ كل مُطَرَّدِ.

هجرة العباس بن عبد المطلب :

كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ من المدافعين عنه وقد حضر بيعة العقبة الكبرى مع رسول الله ﷺ، ثم خرج مع قومه قريش إلى بدر وأسر بها، ثم أطلقه النبي ﷺ كما أطلق غيره بعد أن دفع الفداء، ومازال بمكة لم يعلن إسلاماً مع أن زوجه أم الفضل وابنه عبدالله بن عباس قد أسلما، ثم إنه قبيل فتح مكة خرج بأهله مهاجراً إلى الله ورسوله ولقي النبي ﷺ ببعض الطريق كما ذكر ابن إسحاق[٤٢]،

---

(٣٨) ابن هشام ٤٠/٤ و الواقدي ٨١٥/٢ وابن سعد، الطبقات ١٢٩/٢،و البيهقي، دلائل النبوة ٢١/٥ وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢١٧/٢ وابن كثير، السيرة النبوية ٥٢٩/٣

(٣٩) الطبقات الكبرى ١٢٩/٢ عن سعيد بن المسيب.

(٤٠) ابن كثير، السيرة النبوية ٥٢٩/٢، ونسبة إلى عروة، والزهري، وموسى بن عقبة.

(٤١) ابن هشام، السيرة ٤١/٤ و البيهقي، دلائل النبوة ٢٧/٥

(٤٢) ابن هشام ٤١/٤ والراجح أن إسلام العباس كان قبل فتح خيبر، انظر. محسن أحمد الدوم، مرويات فتح مكة، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية غير منشوره ص ٩٨.

ويحدد الواقدي[٤٣] المكان بالسقيا، بينما يحدده ابن هشام بالجحفه[٤٤]، فعاد مع رسول الله ﷺ وأرسل عياله إلى المدينة.

وفي الجحفة رأى الصديق رضي الله عنه رؤيا في المنام فقصها على رسول الله ففسرها النبي ﷺ بأنه قد ذهب كَلَبُ قريش وأقبل دَرُّهم[٤٥].

المكان الذي أمر فيه رسول الله ﷺ الصحابة بالفطر :

ورد في صحيح البخاري عدة روايات عن المكان الذي أمر النبي ﷺ فيه الجيش بالفطر في رمضان بسبب السفر وشفقة منه عليهم، ففي حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى إذا بلغ الكديد – وهو ماء بين عسفان وقديد[٤٦] – أفطر وأفطروا[٤٧]

وفي رواية مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : سافر رسول الله ﷺ فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهاراً ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة[٤٨]

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائما حتى أتى كراع الغميم....فقيل يا رسول الله إن الناس قد اشتد عليهم الصوم، وإنما ينظرون إليك كيف فعلت، فدعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء فرفعه وشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأخبرَ النبي ﷺ، فقال : أولئك العصاة أولئك العصاة[٤٩] وأخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا صواماً حتى بلغنا الكديد، فأمرنا رسول الله ﷺ بالفطر، فأصبح الناس منهم الصائم ومنهم المفطر، حتى إذا بلغنا المنزل الذي نلقى العدو فيه أمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعون[٥٠]

---

(٤٣) المغازي ٨١٢/٢

(٤٤) السيرة ٤١/٤

(٤٥) الواقدي، المغازي ٨١٢/٢. والمراد ذهب شرهم وأقبل خيرهم.

(٤٦) في رواية ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤٠/٤ تحديد الكديد بأنه بين عسفان وأمج، وهذا أدق، فإن أمج هي خليص والمسافة بينها وبين عسفان، قصيرة، والكديد يقع بينهما.

(٤٧) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٧٦)

(٤٨) المصدر نفسه، حديث رقم (٤٢٧٩)

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب الصوم حديث رقم (٩٠)

(٥٠) دلائل النبوة ٢٤/٥

وتوضح رواية الترمذي عن أبي سعيد الخدري المنزل الذي أفطروا فيه جميعاً، يقول : لما بلغ النبي ﷺ عام الفتح مرّ الظهران، فآذننا بلقاء العدو، فأمرنا بالفطر، فأفطرنا أجمعون(٥١)

فحصل من هذه الروايات أربعة أمكنة أفطروا فيها، ثلاثة متقاربة، الكديد، و عسفان، وكراع الغميم وأبعدها هو مرّ الظهران – الجموم اليوم – وهو أقربها إلى العدو في مكة.

قال القاضي عياض بعد أن ذكر الأمكنة الثلاثة الأولى : اختلفت الروايات في الموضع والكل في قصة واحدة وكلها متقاربة، والجميع من عمل عسفان(٥٢). وقال ابن حجر : فيه مجاز القرب(٥٣): أي لقربها من بعض جاز الإطلاق على أي واحد منها، وهو جمع حسن.

معسكر الرسول ﷺ في مرّ الظهران

١- نزول جيش المسلمين في مرّ الظهران :

سار رسول الله ﷺ نحو مكة حتى نزل بمرّ الظهران – الجموم اليوم – وهي تبعد عن مكة نحو عشرين كيلو مترا، وامتد عمران مكة في الوقت الحاضر حتى كاد يتصل بها.

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش أن يوقد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار حتى كان منظراً مبهرا وللعدو مرعباً(٥٤). وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم عنه خبر ولا يدرون ما رسول الله فاعل، وكانت خزاعة قد أخذت الطرق فلا تدع أحداً يمضي وراءها(٥٥)، وخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، ورغب في صحبتهما بديل بن ورقاء الخزاعي، – وكان مقيماً في مكة – يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً عن رسول الله ﷺ، وكان رسول الله قد جعل خيلاً أمامه يقتصون العيون، فوجدوا أبا سفيان وصاحبيه، فجاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ (٥٦). وعند ابن إسحاق أن العباس لما نزل رسول الله مرّ الظهران، أخذ بغلة رسول الله

---

(٥١) سنن الترمذي، كتاب الجهاد باب (١٣) حديث رقم ١٦٨٤ وقال:هذا حديث حسن صحيح.

(٥٢) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٣) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٤) مغازي الواقدي ٨١٤/٢

(٥٥) ابن كثير، السيرة ٥٤٦/٣

(٥٦) مغازي عروة ص ٢١٠، و مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٢.

فخرج عليها ليلاً حتى دخل في غابة الأراك، لعله يجد بعض الحطّابة أو صاحب حاجة، ليرسله إلى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة(٥٧).

قال العباس : فو الله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن رقاء وهما تراجعان، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا. قال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس : فعرفت صوت أبي سفيان فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل؟ قال قلت : نعم. قال : مالك فداك أبي وأمي ؟!

قال ابن عباس : ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز البغلة حتى تأتي رسول الله فأستأمنه لك، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه(٥٨).

قال عروة، والزهري، وموسى بن عقبة، بل ذهبا مع ابن عباس ودخلا على رسول الله ﷺ وأسلما، وأخذ يستخبرهما عن أهل مكة(٥٩).

ولما نزل رسول الله ﷺ في مَرّ الظهران تفرق الصحابة في الأشجار يجتنون الكَبَاث (النضيج من ثمر الأراك) فقال رسول الله ﷺ : عليكم بالأسود منه، فإنه أطيب، فقالوا : يا رسول الله، أكنت ترعى الغنم ؟ قال : نعم وهل من نبي إلا وقد رعاها(٦٠).

وكان عبد الله بن مسعود أحد من اجتنى الكَبَاث، وكان الصحابة ينظرون إلى دقة ساقي ابن مسعود وهو يرقى في الشجرة ويعجبون. فقال رسول الله ﷺ : (تعجبون من دقة ساقيه فو الذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد(٦١)) وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئا جاء به إلى رسول الله ﷺ ليختار منه ما يشاء، ثم قال ابن مسعود :

---

(٥٧) ابن هشام، السيرة ٤٣/٤ وابن كثير، السيرة ٥٤٦/٣. والأراك : شجر الحمض واحدته أراكة. (الجوهري، الصحاح، باب الكافي، فصل الألف.)

(٥٨) (ابن هشام ٤٣/٤) وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٤٠٨/٣)

(٥٩) (ابن كثير، السيرة ٥٤٧/٣)

(٦٠) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الكباث، حديث رقم : ٥٤٥٣، باب ٣١، حديث ٣٤٠٦، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، حديث ٢٠٥٠.

(٦١) البيهقي، دلائل النبوة ٢٩/٥

هذا جناى وخيارُهُ فيه   إذ كل جانٍ يده إلى فيه

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : أثرنا أرنباً ونحن بمر الظهران فسعى القوم فغلبُوا، وأدركتها فأخذتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، وبعث إلى الرسول ﷺ بوركها وفخذيها فقبله(٦٢).

وهذا يدل على أنهم ليسوا بمحرمين، حيث صادوا وأكل رسول الله من الصيد الذي صادوه، وفيه فتوة أنس رضي الله عنه وسرعته في الجري. وفي المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بمر الظهران بني مسجد فيما بعد عرف بمسجد الفتح.

٢- إسلام أبي سفيان بن حرب :

لما وجد العباس بن عبد المطلب أبا سفيان بن حرب أردفه خلفه على بغلة رسول الله ﷺ، وأشار عليه أن يقدم على النبي ﷺ ويطلب منه الأمان لأهل مكة، فجعل العباس كلما مرّ على قوم قالوا : عم رسول الله على بغلته، حتى إذا مرّ على نار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان بن حرب فقال : الحمد لله الذي أمكن منك من غير عهد ولا ميثاق، واستل سيفه ليضربه، فأسرع العباس، وجاء عمر يجري خلفه، فسبقه إلى رسول الله ﷺ، ثم دخل عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله أبا سفيان. فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرته، فقال النبي ﷺ للعباس : أذهب به معك فإذا أصبحت أغد به عليّ، فأخذه العباس إلى رحله، وبات عنده، ولما أُذِّن لصلاة الصبح ثار الناس إلى الوضوء ورأى أبو سفيان أمراً عجباً من الصحابة رضي الله عنهم في ابتدارهم وضوء النبي وتبركهم به فقال : ما رأيت يا أبا الفضل مُلكاً هكذا، لا مُلك كسرى، ولا مُلك بني الأصفر ! فقال العباس: ويحك، آمن قبل أن تضرب عنقك. قال : أدخلني عليه. فأدخله العباس على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

وفي رواية عند الواقدي(٦٣)، أن أبا سفيان قال : يا محمد استنصرتُ إلهي، واستنصرت إلهك، فلا والله ما لقيتُك من مرة إلا ظفرتَ عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتك. ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

---

(٦٢) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب الأرنب، ح ٥٥٣٥، ومسلم ح ١٩٥٣.
وأثرنا : نفّرنا.

(٦٣) مغازي الواقدي ٢/٨١٦

فقال العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
قال : فتشهد شهادة الحق فأسلم[٦٤].

٣- عرض الجيش الإسلامي أمام أبي سفيان :

لما أسلم أبو سفيان في مَرّ الظهران، و أذن النبي ﷺ بتحرك الجيش الإسلامي نحو مكة، أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان أمام الجيش ويحبسه عند مضيق الوادي إلى خطم الجبل بحيث يمر أمامه جميع الجيش على راياته وتشكيله العسكري، ليرى أبا سفيان قوة المسلمين واستعدادهم فييأس من المواجهة، وينقل الصورة كاملة لقريش، فتعجز عن المقاومة وتقبل الأمان وتستسلم لرسول الله ﷺ، فأخذه العباس إلى مضيق الوادي ثم عدل به إلى خطم الجبل فحبسه، فقال أبو سفيان : غدراً بني هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ولكن لي إليك حاجة. فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولا ليكون أفرخ لروعي!! فقال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب[٦٥].

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه، ومرت القبائل على قادتها، والكتائب على راياتها، فكان أول من قدّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في بني سُليم وهم ألف فيهم لواء يحمله عباس ابن مرداس السُلمي، ولواء يحمله خفاف بن ندبة، وراية يحملها الحجاج بن علاط، فقال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول العباس: هؤلاء بنو سُليم. قال أبو سفيان: مالي ولسليم، فإذا حاذوه كبروا ثلاثاً. ثم تمر القبيلة الأخرى، فيقول: من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول : مزينة. قال أبو سفيان: مالي ولمزينة، حتى إذا نفدت القبائل ما تمر قبيلة إلا يسأل عنها، فإذا أخبره العباس يقول: ما لي ولبني فلان، حتى مَرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء (وإنما سميت الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها) من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال : سبحان الله : يا عباس من هؤلاء ؟ قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال : مالأحد بهؤلاء قبل و لا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً قال العباس : يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال.: فنعم إذن[٦٦].

ولما مرت كتيبة الأنصار قال سعد بن عبادة لأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فشكاه أبو سفيان إلى الرسول ﷺ، فعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام، كما في رواية موسى بن عقبة[٦٧].

---

(٦٤) ابن هشام ٤٤/٤
(٦٥) مغازي الواقدي ٨١٨/٢
(٦٦) ابن هشام، السيرة النبوية٤٤/٤، ٤٥ وعند البخاري بمعناه من مرسل عروة، حديث رقم (٤٢٨٠)
(٦٧) ابن كثير، السيرة ٥٥٠/٣

وفي رواية ذكرها الواقدي أن النبي ﷺ لما نزع الراية من سعد بن عبادة أعطاها لابنه قيس[٦٨].

قال ابن اسحاق : زعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً مكة قال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين قال ابن هشام : هو عمر بن الخطاب – فقال يا رسول الله : اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ لعلي : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها[٦٩].

دخول رسول الله ﷺ مكة وفتحها :

١ – رجوع أبي سفيان إلى مكة بالأمان :

أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بالأمان فقال : من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الشرف، فقال ﷺ : ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[٧٠]. فرجع أبو سفيان إلى مكة فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت زوجته هند بنت عتبه تلومه على ما جاء به وقالت : قبّحت من طليعة قوم. قال : ويلكم لا تغركم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: وما تغني عنا دارك، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام[٧١].

و[illegible] رواية موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ قال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن – وكانت بأعلى مكة – ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن – وكانت بأسفل [illegible] أغلق بابه فهو آمن[٧٢]

وقد قبل عامتهم الأمان إلا بعض نفر فيهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وناس من بنى بكر وهذيل، تلبسوا السلاح ويقسمون لا يدخلها عليهم عنوة.

---

(٦٨) المغازي ٨٢٢/٢ وله شاهد في صحيح البخاري من مرسل عروة حديث (٤٢٨٠)

(٦٩) ابن هشام ، المصدر السابق ٤٨/٤

[illegible] ابن هشام ٤٥/٤ وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم، كتاب الجهاد والسير ١٤٠٧/٣

[illegible] المصدر السابق ٤٥/٤ – ٤٦

[illegible] ابن كثير، السيرة النبوية ٥٤٨/٣

٢- دخول رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي مكة :

تحرك الجيش الإسلامي من معسكره في مر الظهران إلى ذي طوى فعسكروا بها حتى تلاحق الناس، ووقف النبي ﷺ على راحلته بذي طوى معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، واضعاً رأسه حتى إن عثنونه يمس واسطة الرحل تواضعاً لله على ما أنعم به عليه(٧٣).

وعند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر(٧٤)، وكان ﷺ راكباً على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرَجّع، قال عبد الله بن مغفل : لولا يجتمع الناس حولي لرجَعت كما رجّع(٧٥).

وسأله أسامة بن زيد فقال : يا رسول الله أين تنزل غداً ؟ قال النبي ﷺ : وهل ترك لنا عقيل من منزل(٧٦) وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله، الخيف حيث تقاسموا على الكفر(٧٧) والمراد حيث تقاسمت قبائل قريش على مقاطعة النبي ﷺ وبني هاشم وحصارهم في الشعب قبل الهجرة عند خيف بني كنانة، كما جاء في رواية أخرى لحديث أبي هريرة(٧٨)، وهو الأبطح. ويحدد الواقدي منزل النبي ﷺ زمن الفتح أنه بالأبطح وُجاه شعب أبي طالب حيث حصر رسول الله ﷺ (٧٩).

وقد قسّم النبي ﷺ جيشه إلى فرق ودخل مكة من أربع جهات(٨٠):

١- أمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط (الحفاير) من أسفل مكة، وكان خالد على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسُليم وغِفار ومزينه وجهينه وقبائل العرب.

٢- وأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدى (جبل الكعبة) وكان على المجنبة اليسرى.

---

(٧٣) ابن هشام، السيرة ٤٦/٤ وله شاهد عند الحاكم في المستدرك ٤٧/٣ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم.
(٧٤) المصدر نفسه حديث٤٢٨٥
(٧٥) المصدر نفسه حديث ٤٢٨١ والترجيع ترتيل القراءة ورفع الصوت بها.
(٧٦) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٢
(٧٧) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٤
(٧٨) المصدر نفسه حديث٤٢٨٥
(٧٩) مغازي الواقدي ٤٢٨/٢
(٨٠) ابن هشام،السيرة ٤٨/٤ و ٤٩ والأمر بالدخول من كداء، وكدى، في صحيح البخاري حديث ٤٢٨٠ و ٤٢٩٠ و ٤٢٩١

٣- وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء (الحجون) من حيث قال حسان في شعره :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء[٨١]

٤- وتقدم أبو عبيدة بن الجراح بالصف - وهم المشاة - من المسلمين بين يدي رسول ﷺ حتى دخل من أذاخر، وأقبل حتى نزل بأعلى مكة وضربت لرسول الله هنالك قبة، وكانت في البطحاء عند مصب شعب أبي طالب.

وكان الزبير بن العوام قد سبق فركز الرايه عند أدنى بيوت مكة من البطحاء وهي أعلى مكة، وقد بني مسجد هناك فيما بعد سُمي مسجد الراية (مسجد خادم الحرمين الشريفين اليوم).

وركَز خالد بن الوليد رايته عند أدنى بيوت مكة من الجهة التي دخل منها وهي أسفل مكة، ومكان الراية اليوم مسجد خالد بن الوليد في حارة الشبيكة قبل الخروج من ريع الرسام.

وقد لقي خالد بن الوليد مقاومة مما اضطره للرد عليهم، وقُتِل من المشركين قرابة اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً[٨٢] وقُتِلَ من أصحابه ثلاثة هم : خنيس بن خالد الخزاعي، وكرز بن جابر الفهري، وسلمة بن الميلاء الجهني. وطاردهم خالد حتى أوصلهم إلى الخندمة فانهزموا وقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد الحرام، وفي ذلك يقول حماس بن قيس بن خالد البكري الذي وعد زوجته بأن يخدمها بخادم من المسلمين إذا جاؤا مكة :

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة   واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة   ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمة   لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة[٨٣]

---

(٨١) البيهقي، دلائل النبوة ٦٦/٥

(٨٢) ابن هشام، السيرة ٥٠/٤ وفي مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٤ أن عدد القتلى من بني بكر قرابة العشرين، ومن هذيل ثلاثة أو أربعه.

(٨٣) المصدر السابق ٥٠/٤ وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٣ والسيرة النبوية لابن كثير ٥٦٢/٣

ورأى النبي ﷺ بارقة السيوف فقال : ما هذا ؟ ألم أنه عن القتال ؟ فقالوا : خالد بن الوليد قوتل فقاتل، ولما انصرف الناس إلى بيوتهم والى المسجد الحرام توقف القتال(٨٤).

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال له : اهتف لي بالأنصار، قال : فأطافوا به ووبّشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً، فقال رسول الله ﷺ : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى، ثم قال : حتى توافوني بالصفا.

قال : فا نطلقنا، فما شاء أحدنا أن يقتل أحداً إلا قتله. وما أحد منهمٌ يوجه إلينا شيئاً قال : فجاء أبو سفيان فقال : أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم(٨٥).

فهذه الرواية فيها إشارة إلى إذن النبي ﷺ للأنصار بأن يقتلوا من يتعرض لهم حتى يلقوا رسول الله عند الصفا، ولكن الأنصار لم يجدوا مقاومة إلا شيئاً يسيراً لم يقف لهم.

وكان ﷺ قد أهدر دماء بعض الأشخاص وأمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وذلك بسبب جرائم ارتكبوها في حق الإسلام والمسلمين.

قال الحافظ ابن حجر: وقد جمعت أسماءهم من مفرقات من الأخبار وهم :

عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ، وسارة مولاة بني المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب، والحارث بن طلاطل الخزاعي، وكعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة، وأرنب مولاة ابن خطل، وأم سعد.

قال : فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان، اختلف في اسميهما أو باعتبار الكنية واللقب(٨٦).

وقد بين الحافظ ابن حجر مصير كل واحد منهم، فعبد العزى بن خطل، قُتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، اشتركا في قتله، وأما الحويرث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ فقتله علي بن أبي طالب يوم

---

(٨٤) مغازي موسى بن عقبه ص٢٧٥ وانظر دلائل النبوة للبيهقي٥/٤٤ وفتح الباري ١١/٨

(٨٥) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما جاء في فتح مكة ١٤٠٦/٣

(٨٦) فتح الباري ١١/٨ ويلاحظ أن الرجال المذكورين تسعة.

الفتح. وأما مقيس فكان أسلم ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ثم ارتد، فقتله نميلة بن عبد الله يوم الفتح، وأما هَبار فكان شديد الأذى للمسلمين، وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت، ولما كان يوم الفتح أعلن إسلامه فعفا عنه رسول ﷺ. وأما الحارث بن الطلاطل فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح، والقينتان استؤمن لإحداهما فأسلمت، وقتلت الأخرى، وأما سارة فأسلمت وعفا عنها رسول الله ﷺ وعاشت إلى خلافة عمر، وأما عبد الله بن سعد، وعكرمة بن أبي جهل فقد استؤمن لهما من رسول الله ﷺ فأمنهما، وأسلما، وكذلك كعب بن زهير، ووحشي، وهند بنت عتبة. لما أسلموا عفا عنهم رسول الله ﷺ، وكان ﷺ لا يرد أحداً جاءه مسلماً وشعاره يوم الفتح (اليوم يوم المرحمة).

وفي بعض ما ذكر الحافظ ابن حجر نظر، فإن عكرمة، وكعب بن زهير، ووحشي، لم يرد نص صحيح في إهدار دمائهم، ولكنهم خافوا وهربوا، ثم جاءوا تائبين مسلمين، فقبلهم رسول الله ﷺ، وهند جاءت مع عامة النساء وبايعت وهي خائفة لكن رسول الله ﷺ عفا عنها وقبل إسلامها.

الرسول ﷺ في مكة بعد الفتح :

١ - الطواف بالبيت :

كان النبي ﷺ قد نزل في القبة التي ضربت له بأعلى مكة في البطحاء، واغتسل هناك فقد أخرج ابن إسحاق، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله بأعلى مكة، فرّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم، وكانت أم هانئ عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي وهما - كما قال ابن هشام - : الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية بنِ المغيرة. قالت : (فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة - إن فيها لأثر العجين - وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل، أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلىّ ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليّ فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ فقال : قد أجرنا من أجرت، وأمّنا من أمنت، فلا يقتلهما[٨٧]).

---

(٨٧) ابن هشام، السيرة ٥٤/٤ والخبر في صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١٥٧/٢

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ اغتسل في بيتها وصلّى ثماني ركعات يوم فتح مكة.(٨٨)

وعند الواقدي عن عطاء قال : بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يدخل بيوت مكة، اضطرب بالأبطح (إي ضربت له خيمة) في عمرة القضية، وعام الفتح، وفي حجته(٨٩)) وذكر أنه كان يأتي لكل صلاة – أي إلى المسجد الحرام –، ومعه في فتح مكة من زوجاته ؛ أم سلمة، وميمونة(٩٠).

ولما اطمأن الناس خرج ﷺ من منزله حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده(٩١) ويعطي الواقدي – على عادته – تفاصيل أوسع فيقول(٩٢): مكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من نهار حتى أطمأن واغتسل، ثم دعا براحلته القصواء فأدنيت إلى باب قبته، ودعا للبس السلاح، والمغفر على رأسه، وقد صفّ له الناس. فركب راحلته، والخيل تموج بين الخندمة والحجون، ومرّ رسول الله ومعه أبو بكر ببنات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبيهن، وقد نشرن رؤسهن يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر

تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء

وكان ﷺ قد بعث عمر بن الخطاب من البطحاء ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يتقدم فيفتح البيت فلا يدع صورة إلا محاها، وكان فيه صور الملائكة، وصور إبراهيم يستقسم بالأزلام، وصورة مريم بنت عمران(٩٣).

---

(٨٨) الصحيح، كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، حديث ٤٢٩٢

(٨٩) المغازي ٨٢٩/٢

(٩٠) المصدر نفسه ٨٢٩/٢

(٩١) ابن هشام، السيرة ٥٤/٤ وطواف النبي ﷺ يوم الفتح على راحلته في صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢٨٩

(٩٢) المغازي ٨٣١/٢ – ٨٣٥

(٩٣) إرسال عمر لمحو الصور من الكعبة ذكره الإمام أحمد في المسند كما عند ابن كثير ٥٧١/٣ وله شاهد في صحيح البخاري من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله !! لقد علموا ما ستقسما بها قط (كتاب المغازي حديث ٤٢٨٨).

وقد جاء رسول الله ﷺ إلى الكعبة على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيرا، حتى جعل رسول الله يشير لهم : اسكتوا - والمشركون فوق الجبال ينظرون - ثم طاف رسول الله ﷺ على راحلته وأخذ بزمامها محمد بن مسلمة، فلما فرغ من طوافه نزل رسول الله عن الراحلة وأخذها معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرجها عن المسجد، وتقدم رسول الله إلى المقام فصلى خلفه، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزعت معكم، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوا فشرب منه، ثم طلب مفتاح الكعبة وأحضره عثمان بن طلحة وهو من الحجبة - وكان قد أسلم بعد الحديبية - وأخذه منه ثم فتح باب الكعبة ودخل ﷺ ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، وأجاف بلال عليهم الباب، فمكث فيها ما شاء، ورأى بقايا صور فأمر أسامة أن يحضر له دلواً من ماء فأخذ ﷺ يبل الثوب ويضرب به الصور حتى زال أثرها ويقول (قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون) وكبر ﷺ في نواحي الكعبة، وكانت على ستة أعمدة، ثم تقدم وجعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وصلى[٩٤]، ثم خرج رسول الله ﷺ ووقف على الباب والمفتاح في يده ثم جعله في كمّه، وأمسك بعضادتي الباب، وأشرف على الناس وقد حضروا له وهم جلوس حول الكعبة، فخطب فيهم - كما سيأتي تفصيله - وأعطى المفتاح لعثمان بن طلحة وهو يتلو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٩٥] ثم قال: خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[٩٦]

وقد تعرض ﷺ لمحاولة اغتيال وهو يطوف بالبيت، حيث ذكر ابن هشام أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : (أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله. قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه[٩٧])

---

(٩٤) ابن كثير، السيرة ٥٧٥/٣ . ومعنى أجاف الباب : أغلقه.
(٩٥) سورة النساء : ٥٨
(٩٦) الأزرقي، أخبار مكة ٣٧٠/١ بإسناد مرسل، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ٨٥/٥
(٩٧) السيرة النبوية ٥٩/٤ والذي يظهر أن هذه المحاولة ليست أثناء الطواف الأول عندما كان على راحلته وإنما في طواف آخر، أو بعد الفراغ من الطواف والنزول عن الراحلة

٢- تحطيم الأصنام :

روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[٩٨]

وعند ابن هشام من حديث ابن عباس رضي الله عنه تفصيل أكثر حيث قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص (أي مثبتة في الأرض بالرصاص) فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً[٩٩]

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك :

وفي الأصنام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب أو العقابا[١٠٠]

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : وأقبل رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ثم طاف بالبيت فأتى إلى صنم إلى جانب البيت كانوا يعبدونه، وفي يد رسول الله ﷺ قوس، وهو آخذ بسية[١٠١] القوس فلما أتى على الصنم جعل يطعن في عنقه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا [١٠٢].

ويحدد الواقدي[١٠٣] مواقع بعض الأصنام فيقول : وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها، قلت : ولعله المراد بحديث مسلم الصنم الذي طعنه النبي ﷺ بقوس في عنقه.

وأما إساف ونائلة فهما بقرب زمزم حيث ينحرون ويذبحون الذبائح عندهما.

ولما كُسر هبل و النبي ﷺ واقف عليه قال الزبير لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كُسر هبل، أما إنك كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير

---

(٩٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٤٢٨٧ وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث ٨٧ ص ١٤٠٨

(٩٩) سورة الإسراء أية ٨١

(١٠٠) السيرة النبوية ٥٩/٤ وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣

(١٠١) سية القوس : ما عطف من طرفي القوس.

(١٠٢) كتاب الجهاد والسير، حديث ٨٤ ص ١٤٠٦

(١٠٣) المغازي ٨٣٢/٢

ما كان. وفي رواية يونس بن بكير، عن ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم قام على باب الكعبة ورمى بها[١٠٤].

وأخرج البيهقي عن ابن أبزى قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوزٍ حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقيل يا رسول الله : رأينا عجوزاً شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقال : تلك نائلة أيست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً[١٠٥]

وقد أمر ﷺ أن لا يبقى صنم عند أحد إلا كسره، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام؛ وكان عند هند بنت عتبة صنم في بيتها فجعلت تضربه بالقدوم حتى صار قطعاً وهي تقول : كنا منك في غرور[١٠٦].

٣- خطبة الرسول ﷺ يوم الفتح :

تدل المصادر على تعدد خطب النبي ﷺ عند فتح مكة حسب المناسبات والحاجات، فكانت أول خطبة بعد خروجه من جوف الكعبة، حيث وقف على باب الكعبة وقد جُمع الناس له فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة[١٠٧] أو دم أو مال[١٠٨] يُدّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحجاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم و آدم من تراب. ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١٠٩] ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[١١٠]. هكذا ذكر ابن إسحاق، أما غيره فذكر أن النبي ﷺ قال لهم : فإني

---

(١٠٤) البيهقي، دلائل النبوة ٧٤/٥

(١٠٥) المصدر السابق ٧٥/٥ وهو مرسل، وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣.

(١٠٦) الواقدي، المغازي ٨٧٠/٢ و ٨٧١

(١٠٧) المأثرة : المنقبة التي يتفاخر بها

(١٠٨) المراد المال المترتب على الربا فإنه موضوع

(١٠٩) سورة الحجرات آية ١٣

(١١٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٥٥/٤ وللخطبة شاهد عند أبي داود ٤٩٢/٢ والترمذي ٦٤/٥ ومسند أحمد ١١/٢ برقم ٤٥٨٣ عدا قوله : اذهبوا فأنتم الطلقاء.

أقول لكم كما قال أخي يوسف ﷺ (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(١١١))

- وروى الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما فتحت مكة على رسول الله ﷺ قال : كفوا السلاح إلا خزاعة من بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال : كفوا السلاح. فلقي رجل من خزاعة رجلا من بني بكر من غدٍ بالمزدلفة فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال :- ورأيته مسنداً ظهره إلى الكعبة - إن أعدى الناس على الله من قَتَل في الحرم، أو قَتَل غير قاتله، أو قتل بذحول(١١٢) الجاهلية. فقام إليه رجل فقال : إن فلاناً ابني، فقال رسول الله ﷺ لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الأثلب، قالوا : وما الأثلب ؟ قال : الحجر، قال: وفي الأصابع عشر عشر، وفي المواضح خمس خمس. قال : ولا صلاة بعد الغداة حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، قال : ولا تنكح المرأةُ على عمتها ولا على خالتها، ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها(١١٣)

-وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن خزاعة قتلت رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يُختلى شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يودى، وإما أن يقاد. فقام رجل من قريش فقال : يا رسول الله إلا الإذخر فإنما نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ : إلا الإذخر(١١٤)) وفي جامع الترمذي

---

(١١١) أبو عبيد، الأموال ص ١٤٣ و البيهقي في دلائل النبوة ٨٥/٥، والآية من سورة يوسف ٩٢ و انظر الواقدي،المغازي ٨٣٦/٢.

(١١٢) الذحل : الحقد والعداوة، يقال : طلب بذحله، أي بثأره، والجمع ذحول (الجوهري، الصحاح، باب اللام، فصل الذال)

(١١٣) المسند ١٨٠/٢ حديث رقم ٦٦٨١ والحديث قال عنه الألباني : حسن صحيح، وقال شعيب : الحديث حسن ولبعضه شواهد يصح بها. ومعنى في الأصابع عشر عشر: أي في كل أصبع عشر من الإبل. والمواضح جمع موضحة، وهي الشجة التي توضح عن العظم، وفيها خمس من الإبل.

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، حديث رقم (٦٨٨٠) ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها ٩٨٩/٢ وبنحوه في صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، حديث رقم (١٨٣٢) من حديث أبي شريح الخزاعي وكذا برقم (١٨٣٣) من رواية ابن عباس.

زيادة وهي قوله ﷺ : يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قتل بعد يومي هذا فهو بخير النظرين: إن أحب فدم قاتله، وإن أحب فعقله(١١٥)

=ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فقال : إن الله ورسوله حَرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل يا رسول الله : أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى به السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال : لا، هو حرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : قاتل الله اليهود، إن الله لما حَرّم عليهم شحومها، أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه(١١٦)

=وأخرج البيهقي من طريق ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ خطب الناس عام الفتح ثم قال : أيها الناس إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة، والمؤمنون يَدٌ على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، تَـرُدُّ سراياهم على قعيدتهم، لا يقتل مؤمن بكافر، دية الكافر نصف دية المسلم، لا جَلَبَ ولا جنب، ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم(١١٧)

=وأخرج البخاري في صحيحه، حديث عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة سرقت في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهُ رسول الله ﷺ فقال : أتكلمني في حد من حدود الله ؟ فقال أسامة، استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال : أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة : فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ (١١٨).

---

(١١٥) جامع الترمذي، كتاب الديات، حديث رقم (١٤٠٦) والعقل : الدية.

(١١٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الميته والأصنام، حديث (٢٢٣٦) ومسلم، كتاب المساقاه، باب تحريم بيع الخمر ١٢٠٧/٣

(١١٧) دلائل النبوة ٨٦/٥. ومعنى لا جلب و لا جنب : أن عامل الزكاة يأتي للناس في محالهم فلا تجلب الماشية ولا تجنب له.

(١١٨) الصحيح، كتاب المغازي، حديث ٤٣٠٤ وفي كتاب الأنبياء، والحدود، ومسلم، كتاب الحدود، حديث (١٦٨٨).

٤- مبايعة أهل مكة :

بعد تطهير الحرم من الأصنام وخطبة النبي ﷺ الأولى جاءه الناس يبايعون، الرجال والنساء والصبيان، فكان يبايعهم على الإسلام والإيمان والخير والجهاد، فقد جاء مجاشع بن مسعود السُلمي بأخيه مجاهد، وكان أسَنّ منه وقال يا رسول الله : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال ﷺ : ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت على أي شيء تبايعه ؟ قال : أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد(١١٩) وفي رواية لمسلم: إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري (أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا(١٢٠)) وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله جلس للناس عند قرن مسقلة، فبايع الناس على الإسلام والشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله(١٢١))

وكان ﷺ يبايع النساء بالكلام من غير مصافحة وعلى مافي سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١٢٢)

وكان ﷺ يمسح على رؤوس الأطفال وعلى وجوههم(١٢٣)، وقد جاء الصديق رضي الله عنه بأبي قحافة - وكان قد كف بصره - فأعلن إسلامه، وفرح النبي ﷺ بذلك وهنأ الصديق بإسلام أبيه(١٢٤).

بعض أعمال النبي ﷺ وقضاياه في مكة :

وفي مدة إقامته ﷺ في مكة قام بعدد من الأعمال وحكم وأفتى في عدد من القضايا. ومن أعماله ﷺ :

---

(١١٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٣/٥ كتاب الجهاد، وفي المغازي برقم ٤٣٠٧ و ٤٣٠٨، ومسلم، في كتاب الجهاد ١٤٠/٢

(١٢٠) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٧٧

(١٢١) المسند ٤١٥/٣ وهو حديث حسن

(١٢٢) المسند (٦٤/٢١ من الفتح الرباني) والآية رقم ١٢

(١٢٣) صحيح البخاري ١٩١/٥ والمسند ٤٣٢/٥

(١٢٤) ابن هشام، السيرة ٤٦/٤ ورواه الحاكم في المستدرك ٤٦/٣ وقال : صحيح على شرط مسلم، وتابعه الذهبي.

١ - تجديد أعلام الحرم :

فقد أمر ﷺ بتجديد أعلام الحرم، وأسند ذلك إلى تميم بن أسد الخزاعي. وكان أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام وجبريل يريه ذلك، ثم جددها إسماعيل ثم جددها قصي بن كلاب، ثم لم تحرك حتى جددها النبي ﷺ يوم فتح مكة[١٢٥].

قال الواقدي : وكل وادٍ في الحرم يسيل في الحلّ، ولا يسيل وادٍ من الحل في الحرم إلا موضع واحد عند التنعيم[١٢٦].

وفي كتاب الأزرقي، والفاكهي، تفصيلات دقيقة عن أعلام الحرم وحدوده، وقياس المسافات من الكعبة إلى الأعلام[١٢٧].

٢- الولاية على مكّة :

لما خرج رسول الله ﷺ من مكّة إلى حنين استخلف عليها عتّاب بن أسيد - بفتح الهمزة- بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان عمره واحداً وعشرين سنة. وقال له: أتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيرا[١٢٨]. وجعل معه معاذ بن جبل الأنصاري إماماً ومقرئاً ومعلما[١٢٩].

وعند ابن سعد : أنه استخلف أولاً : هبيرة بن شبل بن العجلان الثقفي، فلما رجع من الطائف استخلف عتاب بن أسيد[١٣٠].

وذكر ابن سعد : أن رسول الله ﷺ استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بن أميّة على سوق مكة حين فتحها، فلما خرج إلى الطائف خرج معه سعيد بن سعيد فاستشهد بالطائف[١٣١].

وأمر رسول الله ﷺ أبا محذورة القرشي الجمحي (أوس بن مِغْير بن لوذان بن سعد) بالأذان، حيث سمعه مع غلمة يحاكي الأذان فأعجبه صوته، فطلبه وأجلسه

---

(١٢٥) مغازي الواقدي ٨٤٢/٢
(١٢٦) المصدر نفسه
(١٢٧) انظر أخبار مكة للأزرقي ٦٨٦/٢ وأخبار مكة للفاكهي ٢٧٣/٢ وانظر تفصيلاً أكثر في بحث الشيخ عبد الملك بن دهيش، أعلام الحرم وحدوده.
(١٢٨) ابن هشام، السيرة ١٣٩/٤، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٢٨/٢، والفاسي، شفاء الغرام ٢٥٢/١.
(١٢٩) المصدر السابق ١٣٩/٤، وانظر الفاسي، شفاء الغرام ٢٥١/٢.
(١٣٠) كتاب الطبقات الكبير ١٣٥/٢.
(١٣١) كتاب الطبقات الكبير ١٣٤/٢.

أمامه، وألقى عليه الأذان حرفاً حرفاً، ثم دعا له وأمره أن يؤذن بالحرم، فمازال مؤذنا حتى مات سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٧٩هـ[١٣٢]، وتعليم النبي ﷺ الأذان لأبي محذورة، في صحيح مسلم، وسنن الترمذي[١٣٣].

ومن القضايا التي حكم فيها :

١- قضية في النسب :

قضى ﷺ في مسألة رفعت إليه في النسب، فقد روى عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد، أن يقبض ابن وليدة زمعة، وقال: إنه ابني. فلما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح أخذ سعد بن وليدة زمعة فأقبل به إلى النبي ﷺ، وأقبل معه عبد بن زمعة، فقال سعد بن أبي وقاص: هذا ابن أخي عهد إليّ أنه ابنه. فقال عبد بن زمعة : يا رسول الله هذا أخي، هذا ابن وليدة زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى ابن وليدة زمعة فإذا أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ : هو لك، وهو أخوك يا عبد بن زمعة) من أجل أنه ولد على فراشه، وقال رسول الله ﷺ : احتجبي منه يا سودة، لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص. قال ابن شهاب : قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر[١٣٤] الحجر. قال ابن شهاب : وكان أبوهريرة يصيح بذلك[١٣٥].

٢- البيان أنّه لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما حديث أسامة بن زيد } أنّه سأل النبي ﷺ في فتح مكة قائلاً يا رسول الله : أتنزل في دارك بمكّة ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالبٌ، ولم يرثه جعفرٌ ولا عليٌّ شيئاً، لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين)[١٣٦].

---

(١٣٢) انظر ترجمته في ابن عبد البر، الاستيعاب ١٣٢/١٢، وابن الأثير، أسد الغابة ٢٧٨/٥، وابن حجر، الإصابة : ١٢/١٢، وانظر الفاسي، العقد الثمين ٩٩/٨.

(١٣٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب صفة الأذان حديث رقم : ٣٧٩، وسنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ١٤٠ (الترجيع في الأذان) حديث رقم : ١٩١.

(١٣٤) العاهر : الزاني

(١٣٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي حديث رقم ٤٣٠٣ ورواه في مواطن أخرى برقم ٢٠٥٣ و ٢٢١٨ و٢٤٢١ و ٢٥٣٣

(١٣٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب توريث دور مكّة حديث رقم: ١٥٨٨ وأخرجه في مواطن أخرى برقم: ٣٠٥٨ و٤٢٨٢. وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب النزول بمكّة وتوريث دورها حديث رقم : ٤٣٩/١٣٥١ و ٤٤٠.

٣- قضاء النبي ﷺ لهند بنت عتبة أن تأخذ من مال زوجها بالمعروف :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها، أن هند بنت عتبة أم معاوية، قالت لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليّ جناح أن آخذ من ماله سراً ؟ قال : خذي أنت وبنوكِ ما يكفيك بالمعروف(١٣٧).

السرايا بعد فتح مكة :

بعث النبي ﷺ بعد فتح مكّة سرايا حول مكّة للدعوة وتعليم الناس الإسلام وإزالة آثار الشرك والجاهليّة، ومن أبرزها الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، ومن تلك البعوث:

١- سريّة خالد بن الوليد لهدم العزّى:

بعث النبي ﷺ في الخامس والعشرين من شهر رمضان خالد بن الوليد ﷺ في ثلاثين فارساً لهدم صنم العُزّى، وهي من أعظم أصنام العرب، وكانت بنخلة الشاميّة، تعظمها قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها من بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، وهي ثلاث سمرات وعليها بناء، فلما جاءها خالد هرب السادن في الجبل، فقطع خالد السمرات وهدم البناء، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما رآه السدنة هربوا في الجبل وهم يقولون : يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، وإلا فموتي، فنظر خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثوا التراب على رأسها ووجهها، فضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره. فقال : تلك العُزّى(١٣٨).

٢- سريّة عمرو بن العاص لهدم سواع :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة عمرو بن العاص لهدم صنم سواع، وكان في رهاط، وتعظمه هذيل، فسار عمرو ﷺ حتى انتهى إليه وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قال عمرو : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال : لا تقدر

---

(١٣٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع حديث رقم : ٢٢١١ وأخرجه في مواطن أخرى منها رقم : ٢٤٦٠، ٣٨٢٥،وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، حديث ٧/١٤١٧، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٠٠ وما بعدها.

(١٣٨) ابن هشام، السيرة ٤ / ٧٩، والواقدي، المغازي ٢ / ٨٧٠، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، والبيهقي، دلائل النبوة ٥ / ٧٧، وابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٩٧.

على ذلك. قال عمرو : ولِمَ ؟ قال : تُمنع ! قال : حتى الآن أنت في الباطل !! ويحك وهل يسمع أو يبصر ! قال : فدنوت منه وكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا البيت.

ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله.(١٣٩)

٣- سرية سعد بن زيد لهدم مناة :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي في عشرين فارساً لهدم صنم مناة، وكانت بالمشلل من قديد، وأكثر من يعظمها الأوس والخزرج، فلما انتهى إليها وعليها سادن، قال السادن : ما تريد ؟ قال : هدم مناة. قال : أنت وذاك ! فخرجت من الصنم امرأة سوداء عريانة تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد ﷺ حتى قتلها، ثم أقبل على الصنم فهدمه، ولم يجد في خزانته شيئاً فرجع إلى النبي ﷺ.(١٤٠)

٤- سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة :

كان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة، ومعه ثلاثمائة وخمسون من الصحابة، وأمره النبي ﷺ بأن يكون داعياً لا مقاتلا، فخرج ﷺ إلى جنوب مكة قاصداً بني جَذِيمة - بفتح الجيم وكسر المعجمة - ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة(١٤١)، وكانوا ناحية يلملم، بمكان يسمّى الغميصاء(١٤٢). فلما وصل إليهم دعاهم إلى الإسلام لكنهم استعدّوا بالقتال وحملوا السلاح، وقالوا كما في لفظ حديث ابن عمر عند البخاري (فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا)(١٤٣)، فأخبرهم خالد أن الناس قد أسلموا، وعليهم أن يضعوا السلاح، فأعطوا بأيديهم بعد المحاربة، واستأسروا وكتف بعضهم بعضاً، فأعطى خالد كل أسير إلى رجل من أصحابه، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره، فاعترض عبد الله بن عمر فلم يقتل أسيره ولا من أطاعه من أصحابه(١٤٤)، حيث فهم كما في سياق حديثه

---

(١٣٩) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٤٠) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٤١) انظر البيهقي، دلائل النبوة ٥/١١٣، وابن حجر، فتح الباري ٨/٥٧.

(١٤٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، التاريخ ٣/٦٦، والسهيلي، الروض الأنف ٧ / ٢٦٤، وابن سيد الناس، عيون الأثر٢/٢٣٩.

(١٤٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث خالد إلى بني جذيمة،حديث رقم : ٤٣٣٩.

(١٤٤) المصدر نفسه.

أنهم أسلموا لكنهم لم يحسنوا النطق فقالوا : صبأنا، بينما فهم خالد من ذلك أنهم يستهزئون بالمسلمين ولذا أمر بقتلهم فقتلوا. ولما بلغ الأمر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين[١٤٥]. ثم أمر علي بن أبي طالب ﷺ أن يأتي بني جذيمة ويصلح الوضع وأعطاه مالاً، فدفع ديات القتلى لأوليائهم، وعوضهم عن كل شيء فقدوه حتى ميلغة الكلب، وزاد مال مما معه فأعطاه لهم احتياطاً وصلة[١٤٦].

٥- سرية الطفيل بن عمرو لهدم صنم ذي الكفين :

هذه السرية ذكرها ابن سعد في شهر شوال سنة ثمان قبل خروج النبي ﷺ إلى الطائف حيث أمر الطفيل بن عمرو الدوسي أن يسير إلى ذي الكفين (صنم عمرو بن حممة الدوسي) فيهدمه، ويستمد قومه وكانوا قد أسلموا، ويوافيه بالطائف، فخرج الطفيل سريعاً وهدم الصنم وحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا

ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

واستنفر قومه فنفر معه منهم أربعمائة، ووافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ومع الطفيل دبابة ومنجنيق[١٤٧].

٦- سرايا أخرى :

ذكر الواقدي في المغازي[١٤٨]: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة بث السرايا في كل وجه، وأمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام، فخرج هشام بن العاص بن وائل السهمي في مئتين قبل يلملم، وخرج خالد بن سعد بن العاص الأموي في ثلاثمائة قبل عُرَنة، ولم يذكر أي تفاصيل عن هاتين السريتين، وقد تفرد بذكر ذلك عن بقيّة كتاب المغازي والسير، فلم يذكرهما ابن إسحاق، ولا تلميذ الواقدي ابن سعد، ولا الصالحي صاحب سبل الهدى والرشاد مع تبحره واستقصائه، ولم أجد في ترجمتيهما

---

(١٤٥) المصدر نفسه.

(١٤٦)ابن هشام، السيرة ٧٣/٤، وميلغة الكلب : الإناء الذي يسقى فيه ويطعم.

(١٤٧) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٤٥/٢، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢٥٨/٢.

(١٤٨) الواقدي، المغازي، ٨٧٣/٣.

ما يدل على ذلك، سوى ما ذكره ابن حجر في ترجمة هشام بن العاص من أن النبي ﷺ بعثه في سرية في رمضان عام الفتح، ونسبه للواقدي[١٤٩].

الدروس والعبر من الفتح الأعظم :

١- خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحب البلاد إليه، وقد أعلمه الله أنه سيعود إليها، ولذا عمل صلى الله عليه وسلم على تهيئة هذا الفتح، بنشر الإسلام وتقوية الجبهة الإسلامية لمواجهة حلف المشركين، وبعد انفضاض الأحزاب عن حصار المدينة في السنة الخامسة من الهجرة أعلن عليه الصلاة والسلام إستراتيجيته للمواجهة في السنوات القادمة فقال : اليوم نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم [١٥٠]. أي أنه سيحاصر العدو وينقل المعركة إليه.

٢- أعلن صلى الله عليه وسلم في شهر ذي القعدة من السنة السادسة أنه خارج إلى مكة يريد العمرة وتعظيم البيت الحرام، وساق الهدي لينحر في مكة،وهذا الموقف سيحرج قريشاً ،ويكشف أنها ليست أهلاً لرعاية البيت الحرام إذا صدّت من جاء معظماً له، مما يساعد في التضييق عليها وخروج حلفائها عنها.

٣- لما عُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة والصلح قبله، لأنه يريد أن يهدئ النفوس الثائرة حتى تتمكن من النظر الصحيح في دعوة التوحيد، ولهذا سمى الله صلح الحديبية فتحاً مبيناً ، وقد بان أثر هذا الصلح في سعة انتشار الإسلام، ودخول قبائل بأكملها فيه حتى قال الإمام الزهري : فما فُتِح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك[١٥١] قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ،. ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١٥٢].

---

(١٤٩) ابن حجر، الإصابة ٥٤١/٦.

(١٥٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥٢/٣ والحديث في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق حديث رقم ٤١١٠

(١٥١) ابن هشام، السيرة النبوية ٤٤٧/٣.

(١٥٢) المصدر نفسه ٤٤٨/٣.

٤- حافظ صلى الله عليه وسلم على احترام العهد، لكن جاء النقض من قريش بمعاونتها لحلفائها بني بكر على حلفائه خزاعة، فلما وقع منها النقض استبشر صلى الله عليه وسلم بفتح مكة وقد تهيأت الأحوال خلال سنتي الهدنة، ولهذا قال : نصرت يا عمرو بن سالم[١٥٣] ونظر إلى سحابة في السماء ثم قال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[١٥٤].

٥- الاستعداد لفتح مكة بما يليق به، فقد أخفى صلى الله عليه وسلم أمره، ودعا الله أن يحبس الأخبار عن قريش حتى يفاجئهم قبل أن يستعدوا، وأمر بحراسة الطرق المؤدية إلى مكة، والتعرف على الخارجين من المدينة والداخلين إليها، وورّى بإرسال سرية إلى بطن إضم (شمال المدينة) ليُظَنّ أنه باستعداده يريد تلك الناحية؛ وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن حوله من القبائل وأهل البادية بالحضور إلى المدينة، وأنه عازم على الغزو ولم يحدد وجهته.

٦- في قصة حاطب رضي الله عنه ومحاولته إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة لقريش دروس وفوائد وهي أن الضعف والخطأ لا يؤمن وقوعه من الإنسان حتى وإن كان من ذوي السابقة.

٧- وقاية الله لرسوله وللمسلمين بكشف ذلك الكتاب قبل أن يصل إلى العدو، وحسن تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الموقف لما علم صدق حاطب واعترافه بالخطأ. فقال :(قد صدقكم) وعفا عنه.

٨- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته، حيث أوقف أحد أصحابه عند كلبة وجدوها في الطريق ترضع أولادها لئلا يؤذيها أحد، وأمر أصحابه بالفطر وألزمهم بذلك لما قرب من مكة لئلا يشق عليهم، وليكونوا أقدر على مجابهة العدو.

٩- حسن التنظيم والترتيب للجيش وإدارته، حيث عقد الرايات والألوية للقبائل، وجعلها في مجموعات محددة يسهل إدارتها وإبلاغها الأوامر والنواهي ، وعند دخول مكة أحاط بها من كل جوانبها من أسفلها ومن أعلاها ومن وسطها ليتمكن من الفتح ويرهب العدو ويضمن استسلامه وقبول الأمان.

١٠- سماحة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه، حيث تجاوز عن سفيان بن الحارث وعبد الله ابن أبي ربيعة لما جاءا مسلمين، رغم ما قاما به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا حسن تعامله صلى الله عليه وسلم مع أبي

---

(١٥٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥/٤ والهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٣/٦.

(١٥٤) الهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٤/٦.

سفيان بن حرب مما فتح قلبه للحق فأسلم، وعاد إلى قريش بالأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- كان صلى الله عليه وسلم يوازن بين اللين وبين الحزم وإظهار القوة، حيث أمر أن يُوقَفَ أبا سفيان عند مضيق الوادي ليطّلع عن كثب على قوة المسلمين وحسن تنظيمهم، وقد أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله : من كان عنده سلاح فليخرجه) أي يظهره ويعرض به، مما يجعل أبو سفيان ييأس من قدرة قريش على المقاومة، فذهب منادياً بأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

١٢- تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكره لله الذي هيأ له الأسباب ومكّنه من العودة إلى مكة بعد أن خرج منها خائفاً، فكان صلى الله عليه وسلم خافضاً رأسه على الراحلة حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليمس واسطة الرحل تواضعاً لله على ما أنعم به عليه.

١٣- عفوه صلى الله عليه وسلم بعد المقدرة عن صناديد الكفر والمن عليهم، وتأليف قلوبهم ليدخلوا في الإسلام. بل حتى الذين استثنوا من الأمان وأمر بقتلهم عفا عمن جاء منهم مسلماً.

١٤- تطهير رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيت من الأوثان والأصنام المحيطة به وإزالة الصور التي كانت على جدران الكعبة، وتأكيد حرمة مكة وأنها إنما أحلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها كما كانت إلى يوم القيامة.

وأمر منادياً ينادي : لا يبقى عند أحد صنم إلا كسره.

وفي هذا كله إظهار لشعائر التوحيد، وطمس لمعالم الجاهلية والكفر.

١٥- يعتبر فتح مكة أعظم الإنجازات والنجاحات للسياسة النبوية في نشر الإسلام، فبعد الفتح وتحطيم الأصنام، انفتحت قلوب العرب وصدورهم للإسلام، وزال عنهم طاغوت الكفر والرهبة من الأوثان، حيث اتضح لهم يقيناً أنها لا تنفع ولا تدفع، وأنهم منها في غرور.

قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا(١٥٥)﴾.

---

(١٥٥) سورة النصر (١- ٣)

وروى البخاري عن عمرو بن سلمة الجرمي قال: كانت العرب تتلوم (أي تنتظر) بإسلامها الفتح، فيقولون : أتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومه بإسلامهم [١٥٦] وقد سَمّى علماء السيرة النبوية العام التاسع من الهجرة - الذي جاء بعد الفتح - عام الوفود لكثرة وفود العرب فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنين إسلامهم وخضوعهم لطاعته.

---

(١٥٦) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، حديث ٣٠٢.

قائمـــة المصـــادر والمراجـــع

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد الجزري) ت : ٦٣٠ هـ :

– أسد الغابة في معرفة الصحابة، د، ت، دار الشعب بمصر.

الأزرقي (محمد بن عبد الله) ت بعد ٢٤٤هـ :

– أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، ط الأولى ١٤٢٤هـ، مكتبة الأسدي بمكة.

البخاري (محمد بن إسماعيل) ت : ٤٥٦هـ

– الجامع الصحيح، ط الأولى ١٤١٧هـ، نشر دار السلام بالرياض.

البيهقي (أحمد بن الحسين) ت : ٤٥٨هـ.

– دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق : عبد المعطي قلعجي، ط الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت.

الترمذي (محمد بن عيسى) ت : ٢٧٩هـ.

– سنن الترمذي، تحقيق : أحمد شاكر، د، ت، دار إحياء التراث العربي، مصر.

الحاكم (محمد بن عبد الله) ت: ٤٠٥هـ.

– المستدرك على الصحيحين، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني) ت : ٨٥٢هـ.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفيّة بالقاهرة.

– الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق: طه محمد الزيني، ط ١٣٩٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.

ابن حنبل (أحمد بن محمد الشيباني) ت : ٢٤١هـ.

– المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، وإشراف :عبد الله التركي.

أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) ت : ٢٧٥هـ.

– السنن، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) ت : ٢٣٠هـ.

– الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

– كتاب الطبقات الكبير، تحقيق : علي محمد عمر، ط الأولى ١٤٢١هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي) ت : ٥٨١هـ.

– الروض الأنف في شرح السيرة لابن هشام، ط الأولى ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن سيد الناس (محمد بن محمد اليعمري) ٧٣٤هـ.

– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الآفاق ١٩٧٧م، بيروت.

الصنعاني (عبد الرزاق بن همّام) ت : ٢١١هـ.

– المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ سنة:١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

الطبري (محمد بن جرير بن يزيد) ت: ٣١٠هـ.

– تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف بمصر.

ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله النمري القرطبي) ت : ٤٦٣هـ.

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع بهامش الإصابة، تحقيق : طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٦هـ.

أبو عبيد (القاسم بن سلاّم) ت : ٢٢٤هـ.

– الأموال، تحقيق : محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ودار الفكر العربي.

عروة بن الزبير بن العوام، ت : ٩٤هـ.

– مغازي رسول الله ﷺ، جمع وترتيب : محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية بدول الخليج العربي، الرياض ١٤٠١هـ.

الفاسي (محمد بن أحمد الحسني المكي) ت : ٨٣٢هـ.

– العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محد حامد الفقي،مطبعة السنّة المحمدية بمصر.

– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

الفاكهي (أبو عبد الله محمد بن إسحاق) ت : القرن الثالث.

– أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، ط الأولى ١٤٠٧هـ، مكتبة النهضة بمكّة.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي) ت : ٧٧٤هـ.

– السيرة النبويّة، تحقيق : مصطفى عبد الواحد.

محسن بن أحمد الدوم (معاصر)

– مرويات فتح مكّة، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنورة.

الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري) ت : ٢٦١هـ.

– صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

موسى بن عقبة الأسدي، ت : ١٤١هـ.

– المغازي، جمع وترتيب : محمد باقشيش أبو مالك، نشر جامعة ابن زهر بأغادير، المغرب.

ابن هشام (عبد الملك الحميري) ت : ٢١٨هـ.

– السيرة النبويّة، علّق عليها : عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى، دار الريان بالقاهرة.

الهيثمي (علي بن أبي بكر) ت : ٨٠٧هـ.

– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، ط٣.

الواقدي (محمد بن عمر) ت : ٢٠٧هـ.

– المغازي، تحقيق : (مارسدن جونس)، دار عالم الكتب، بيروت.

الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة (١٩٦-٢٩٤هـ/٨١١-٩٠٧م)

د. إبراهيم فرغل محمد (*)

مقدمـــــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، خاتم النبيين، وبعد،

فهذا بحث في التاريخ الإسلامي يتناول موضوع " الخلفية وحركتهم الانفصالية في منطقة طرابلس الغرب وجبل نفوسة"، وذلك في الفترة من سنة (١٩٦-٢٩٤هـ /٨١١- ٩٠٧ م) ويرجع سبب اختيار هذا الموضوع إلى عدم وجود دراسة مستقلة توضح أسباب الحركة الانفصالية للخلفية ودورها في الأحداث السياسية في منطقة المغرب ونتائجها، وإنما كان تاريخها يكتب عرضا ضمن الحديث عن تاريخ الدولة الرستمية.

ونظراً لخطورة هذه الحركة في تاريخ المغرب العربي وأثرها على الأحداث في المنطقة وطول الفترة الزمنية لها، رأيت أن أقوم بدراسة تفصيلية عنها. وقد حرصت فيها على إلقاء الضوء من خلال التعريف بالخلفيين وكيفية قيام حركتهم واستقلالهم بحيز طرابلس الغرب وبيان أهمية خطورتهم على الأئمة الرستميين بتاهرت. وكيف كانت هذه الحركة أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى انهيار الدولة الرستمية وسقوطها سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م.

ترجع أهمية هذا الموضوع أن تلك الحركة، قامت في الجهات الشرقية من الدولة الرستمية، وهذه الجهات كانت حيوية وكان مصدر حيويتها أنها كانت عامرة بالسكان الذين كان من بينهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية دار العلوم جامعة الفيوم.

وقد نجح الخلفيون في السيطرة على الجهة الشرقية للدولة الرستمية لفترة طويلة، بدأت في أواخر عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وكان لهم كيان في جزيرة جربة، ثم بدأ نجمهم في الأفول زمان أبى مسور (في أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي)حتى انقرضوا ولم يبق لهم أتباع، وترتب على قيام حركتهم مجموعة من الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وزادت من الصراع بين النفوسيين الإباضيين المؤيدين لأئمة الدولة الرستمية وبين النفوسيين المؤيديين للخلفية، مما أدى إلى الدخول في حرب أحيانا كثيرة.

كما كان قيام حركتهم سبباً في قيام حركات أخرى في نفس المنطقة، وكان انشقاقهم بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها. ولعل مكمن الخطورة في هذه الحركة أن زعيمها – وهو خلف بن السمح – لم يكن فقط يريد الاستقلال بجبل نفوسة أو حيز طرابلس، وإنما كان يريد أن يكون إماما للإباضيين جميعاً.

ولا شك أن خلفا ظل يتمتع بنفوذ في معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته، وأن أنصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا بالخلفية ظلوا موالين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستمية.

والحقيقة أن منطقة جبل نفوسة تتصف ضمن المناطق التي عانت من إهمال الدارسين فترة طويلة من الزمن، ولذا كانت هذه الدراسة في تلك المنطقة – برغم ما اكتنفني من صعوبات – محاولة لإزالة بعض الغبار عن صفحات من التاريخ والحضارة في هذه المنطقة، ومن جهة أخرى هي محاولة لتمهيد السبيل أمام أولئك الذين يودون الذهاب إلى أبعد من هذا الهدف، وذلك بالسعي لإنجاز دراسات أكثر تفصيلا وعمقا.

الأبعاد الجغرافية لجبل نفوسة وحيز طرابلس ودورها في قيام حركة الخلفية

من الجبال المهمة في بلاد المغرب جبل نفوسة[1]، وقد وصفه المؤرخون بصفات عديدة نظراً لأهميته ومكانته في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقال عنه ياقوت الحموي : " نفوسة : جبال في المغرب بعد إفريقية، عالية نحو ثلاثة أميال، وطول هذا الجبل مسيرة ستة أيام من الشرق إلى الغرب

---

[1] نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكانوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربى، بيروت ٢٠٠٨م.

وبين جبل نفوسة وطرابلس ثلاثة أيام، وبينه وبين القيروان ستة أيام وبه مدينتين، إحداهما سروس في وسط الجبل والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة (٢)

وقد تميز جبل نفوسة بمياهه الجارية وكثرة الفواكه من الكروم والأعناب والتين، وكان أكثر زروع أهل نفوسة الشعير الطيب المتناهي طيبا، مما إذا خبز كان أطيب من سائر الطعام في سائر الأقاليم (٣) ولأهل نفوسة في صنعة الخبز حذق وتمهر فاقوا في ذلك كل الناس، ويمتاز هذا الجبل أيضاً بالنخل الكثير والزيتون (٤).

وكانت تسكن في هذا الجبل قبيلة نفوسة، فعرف الجبل بهم فسمي بجبل نفوسة، وأما قبيلة نفوسة، فهي نسبة إلى نفوس بن زاجيك، وهم نفوس بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها، ونفوسة من قبائل البربر البتر(٥) وكانت قبيلة نفوسة من

---

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٦.
ونفزاوة : هم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة ببلاد نفزاوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور : قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م.

(٣) وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعير هى مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز ألذ من محل طعام، انظر: ياقوت: مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٤) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤ – ٩٥، وأبو زكريا: سير الأئمة ص١١٥، ١١٦، نزهة المشتاق ص٢٩٧–٢٩٩، وابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٣٠.
Despois : Le Djebel Nefousa , p.137 Paris 1935.
Basset : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique, p.426 Paris 1899.

(٥) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي ، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات افترشت أرض المغرب، وقد قسم النسابون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس ومادغيس، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البتر التي ساندت الدولة الرستميه نفوسة ولواته وسدراته ولماية، ومن البرانس، هوارة، وعن البربر انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٩١، السلاوى: الاستقصا ج١ ص٥٤، ابن خلدون: العبر ج٧ ص٩، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٦١ ، ابن منصور : قبائل : قبائل المغرب ج١ص٢٩٩ ، ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقى ص٤٨، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٢٣، ٢٨ ، د. شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى ص ١٢٦، أحمد توفيق : كتاب الجزائر ص١٠.

أوسع قبائل البربر وأكبرها فهم شعوب كثيرة مثل بنــي زمــور[٦] وبنــي مــسكور وماطوسة، وكانت مدينة صبرة [٧] قبل الفتح في مواطنهم، وكانت هي باكورة الفتح الأول للإسلام.

والحقيقة أن قبيلة نفوسة لعبت دورا مهما فــي دعــم الدولــة الرسـتمية ومساندتها، مما جعل أحد الأئمة الرستميين وهو عبد الوهاب بن عبد الــرحمن بــن رستم يصرح بأن المذهب الإباضي والدولة الرستمية، إنما قامت بأسـيـاف نفوســة، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة " وحدثني غير واحد من أصــحابنا أن نفوسة بلغت في التأييد لسلطان الرستميين بأرض تاهرت مبلغا عظيما لم يبلغــه غيرهم في مغربنا هذا، فلذلك قال الإمام: إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأمــوال مزاتة [٨].

وقد بقيت جموع نفوسة في موطنها بالجبل قرب طــرابلس، إلا أن أعــدادا منهم وفدوا على العاصمة لنصرة الإمامة الرستمية ومساندتها في مواجهة المشاكل التي تعترضها واستقروا داخل العاصمة، وأصبحت لهم أحياء تنسب إليهم مثل عدوة نفوسة ودرب النفوسيين[٩].

وأهل جبل نفوسة شراة، إما إباضية من أصحاب عبــد الله بــن أبــاض أو وهبية من أصحاب عبدالله بن وهب [١٠].

---

(٦) وفي ذلك يقول ياقوت الحموى: "وبها – أى نفوسة – قبيلة يقال لهم بنو زمور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المنعة لا يقدر عليه أحد"، انظر : معجم البلدان : ج٨ ص ٣٩٦.

(٧) صبرة : بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا تقــل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظــر : يــاقوت الحمــوى : معجــم البلــدان ج٥ ص١٧٧. وعن قبيلة نفوسة : انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص١١٤ وابن منصور : قبائل المغرب ج٣ ص٢٠٤.

(٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٤ومزاتة : قبائل كثيرة ونسابة البربر يعــدون فــي مزاته بطون كثيرة مثل : بلايان وفرنه وبحيحه ودكمة وحمرة ومدونة، وقد ساندت مزاتة الدولة الرستمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزاتة، انظر : صورة الأرض ص ٩٦ ، أبو زكريا : ســير الأئمــة ص ١٥٥ و ابن خلدون : العبر ج ٦ – ص ٢٣٥.

(٩) د. الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضاً :

(١٠) ابن خلدون : معجم البلدان ج٨ ص٣٩٦، ياقوت الحموى : العبر ج٦ ص ٢٣٠.

وقد شاركت قبيلة نفوسة بصورة فعالة في الوظائف الإدارية في الدولة الرستمية، وساندت الأئمة الرستميين في النواحي العلمية والفقهية وهذا إلى جانب المساندة العسكرية.

وفي النهاية يمكن القول إن قبيلة نفوسة، نظراً لكثرة أعداد أبنائها وشجاعتهم، استطاعت أن تحمي الإمامة الرستمية من الأخطار التي تعرضت لها، ولذلك احتلت قبيلة نفوسة مكانة الصدارة في المجتمع الرستمي، بل وأشرفت على النواحي الإدارية بها.

وذلك مما دفع المؤرخ ابن الصغير المالكي إلى القول " وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه " [١١].

وعن أهمية نفوسة يقول أحد الباحثين : (كانت نفوسة عماد الدولة الرستمية تحتكر أكبر المناصب بها، فهي التي رفعت راية الإمامة في الحرب والسلم، قوية الدولة بقوتها وانتصرت بانتصارها [١٢].

وأما طرابلس الغرب [١٣] فقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه بقوله : (طرابلس، بالرومية والإغريقية، ثلاث مدن سماها اليونانيون طرابليطة، وذلك بلغتهم أيضاً ثلاث مدن، لأن (طرا) معناه ثلاث وبليطة (مدينة)، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهي على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة، وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود، وفي بربرها من كلامه بالنبطية، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح[١٤].

---

(١١) ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرشميين ص٢٧.

(١٢) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٨٨، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة١٩٨٦م.

(١٣) طرابُلس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضا، فقيل لهذه طرابلس الغرب تميزا عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : انظر: البكرى: المغرب ص ٧،الاستبصار : ص ١١٠.

(١٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٦ ص٢٥٤

وذكر البكري أن طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها[١٥] وقد توجه عمرو بن العاص على رأس قواته تجاه مدينة طرابلس سنة ٢١هـ، وضرب حولها الحصار الذي انتهى بفتحها والاستيلاء عليها، وكان استيلاء عمرو بن العاص عليها هو آخر النشاط العسكري الذي مارسه عمرو على أرض المغرب[١٦].

وقد نجح إمام الإباضية (أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى) في الاستيلاء على طرابلس سنة١٤١هـ /٧٥٨ م أثناء التفكك السياسي للمغرب في هذه الفترة، وذلك عندما استغاث به بعض المسلمين لإنقاذ مدينة القيروان لما حَل بها من الدمار والخراب لمساجدها وسكانها على أيدي ورفجومة [١٧] وكان استيلاء الإباضية على طرابلس مقدمة للاستيلاء على القيروان، وبذلك أصبحت السلطة في القيروان للخوارج الإباضية يحكمون أمرها ويوجهون الأمور فيها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نجاح التيار الخارجي في المغرب وإقبال البربر على اعتناق تلك المذاهب الوافدة من المشرق، وتأثير هذه المذاهب في المنطقة، وقيامها بدور فعال في مجريات الأحداث.

وفي سنة ١٥٤هـ/٧٧١م ثار إباضية إقليم طرابلس ضد ولاة الدولة العباسية في المغرب، والتفوا حول أحد زعمائهم، وهو أبو حاتم يعقوب بن لبيب المغيلى مولى كندة، الذي نجح في محاربة والى طرابلس (الجنيد بن بشار الأسدى) وهزمه، وبذلك أصبح إقليم طرابلس خاضعا للإباضية بقيادة أبى حاتم، وهذا النجاح شجع بقية إباضية المغرب على التجمع ومحاولة القضاء على سلطة الخلافة [١٨]

---

(١٥) البكرى : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص٧٢٦

(١٦) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٧١ ط ليدن ١٩٢٠ م / البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٧ ط١١ تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩م و د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(١٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ص٥٩٨، وابن عذارى : البيان المغرب ج١ص٨١ والسلاوى : الاستقصا ج١ ص١١١.وقبيلة ورفجومة : قبيلة صفرية من نفزاوة، من قبائل البربر، عاثوا فسادا في القيروان وسيطروا عليها سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م و نجح أبو الخطاب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلا ذريعا ثم رجع إلى طرابلس. انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٠.

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج٥ص٥٩٨.ابن خلدون : العبرج٤ص١٩٣.

وفي سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م نجح والى العباسيين يزيد بن حاتم في هزيمة الإباضية ومقتل أبى حاتم الإباضى، وبذلك ضعف التجمع الإباضى في طرابلس وجبل نفوسة، ولكن ذلك لم يمنع أن يتطلع الإباضيون إلى اختيار أحد أئمتهم لإعادة نفوذهم مرة أخرى، وبالفعل تمت مبايعة عبد الرحمن بن رستم إماما للإباضية في المغرب الأوسط سنة ١٦٠هـ /٧٧٧م، وهو التاريخ الذي رجحته كتب الإباضية ابتداء من أبى زكريا ومن نقل عنه [١٩]

وبذلك بدأ تاريخ الدولة الرستمية في بلاد المغرب[٢٠] وأما حيز طرابلس الذي أقام فيه الإباضيون، فالمقصود به المنطقة الواقعة بين المدينة(طرابلس) وبين جبل نفوسة.

التعريف بالخلفية :

ينتسب الخلفية إلى خلف بن السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى[٢١] الذي قام بثورة وحركة وتمرد وانفصال عن الدولة الرستميه، وقد اتخذت طابعا دينيا واستفحل خطرها وذلك في الجبهة الشرقية من الدولة، وبخاصة في منطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، خلال السنوات الأخيرة من حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وردحا طويلا من عهد ابنه أفلح. وقد عرف أتباعه بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة وأيدوه في الانشقاق عن إمامة تاهرت [٢٢]،

---

(١٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ص١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على اسم خلف بن السمح بقوله : (ونحن لا ندرى إن كان خلف هو اسمه الحقيقى أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبى بكر الذى اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بأبان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣٣٣،٣٣٤ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩م.

(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الإنشقاقات الإباضية الأخرى هى النكارية والنفاثية والحسينية أو العمرية والسكاكية والفرية، انظر : الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٨٣ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسفراييني : التبصير في الدين ص ٥٧،

وبذلك أصبحت فرقة الخلفية فرقة معارضة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم(٢٣).

والدولة الرستمية تنسب إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسى من مسلمي الفتح، وقد نجح في تأسيس دولة بإقليم تاهرت في المغرب الأوسط بعد أن بايعته القبائل لعلمه وفضله، على أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين.

وقد جمعت الدولة الرستمية بين المغربيين الأدنى والأوسط من خليج سرت شرقا إلى وهران غربا، فشملت كل المناطق التي كان يسكنها الإباضية تقريبا في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد بدأت الدولة إمامة إسلامية انتخابية ثم تحولت إلى ملكية وراثية (٢٤).

القاهرة ١٩٥٥ م ، د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ٩٥ – ١٠٨ ط دار المعارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewicki : Melanges Berberes , p.269

(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذى تولى خلفا لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقد اختلف المؤرخون في مدة حكمه فالشائع بينهم أنها دامت أربعين سنه، وأن سنة توليته الخلافة سنة١٦٨هـ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هـ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذارى أن مدة حكمه عشرين سنه بدأت سنة ١٦٨ وانتهت سنه ١٨٨هـ، أما المؤرخ البارونى في الأزهار الرياضية فقد ذكر أنه تولى الحكم سنة ١٧١هـ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠هـ، انظر : الشماخى : السير ج٢ ص ٢٧٢ – ٣٢٤ / ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ١٩٧.

البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٦ – ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provencal : Histoire de l'Espagane Musulmane , vol, 1, p. 244

(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ – ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

عمرو خليفة النامى : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خورى و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامى ٢٠٠١م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار الثقافة المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ص ٥٦،٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

وتمثل حركة خلف بن السمح الانشقاق الثاني في صفوف الإباضية بحسب رأى المؤرخ أبى زكريا بينما يرى المؤرخ ابن الصغير المالكي أن الإنشقاق الثاني كان يتمثل في موقف قبيلة هوارة المعادى للإمام عبد الوهاب(٢٥).

ومن تأمل في أمر خلف وأتباعه يظهر له أن خلافهم ليس دينيا بل هو سياسي محض لا يخرجهم عن الإباضية في الاعتقاد شيء، وقد عاصرت حركة خلف بن السمح أخريات عهد الإمام عبد الوهاب و فترة من حكم ابنه أفلح، ثم ظهرت على فترات مختلفة حتى نهاية الدولة الرستمية،وقد شكلت خطرا على أوضاع الدولة، إذ نجح خلف في بسط نفوذه على منطقة طرابلس وجبل نفوسة واتخذت لها طابعا دينيا(٢٦).

ومما يؤكد خطورة حركة الخلفية، اتساع المناطق التي كان يحكمها خلف بن السمح في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية ومدى ثرائها الاقتصادي والبشرى، ولذلك فإن ما أقدم عليه خلف كان خطيرا، لأنه أراد أن يجعلها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

وكان والد خلف (السمح بن أبى الخطاب) واليا على جبل نفوسة وحيز طرابلس(٢٧) من قبل الإمام عبد الوهاب وبناء على طلب أهل حيز طرابلس، رغم أن الإمام عبد الوهاب لم يكن راضيا عن ذلك لأن السمح كان وزيره وأحب الناس إليه وأنصحهم له، وكان الإمام قد وافق على توليته عندما قرر العودة إلى تاهرت بعد أن ظل في منطقة طرابلس لفترة طالت إلى سبع سنوات بسبب توتر الأحوال في المنطقة مما اضطره إلى الإقامة في جبل نفوسة، وقد أشارت الروايات الإباضية بأن الإمام عبد الوهاب اتخذ طريق المشرق ليقصد الحج، فرفض أهل جبل نفوسة أن يتركوه يواصل طريقه خشية المسودة فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله(٢٨).

---

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكى لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمح لأن مجال هذا الانشقاق كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإنما انفرد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبى زكريا والدرجينى والشماخى مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وحيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإ سلامى ص١٢١ دار العودة -بيروت، ١٩٧٦م.

(٢٧) حيز طرابلس : هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٣ المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت) / الدرجيني : طبقات الإباضية ج١ ص ٦٥ –

أما السمح فقد أحسن السيرة وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامة، بحيث لم ينكروا عليه شيئا في مدة ولايته كلها، لا يخرج من رأى الإمام ولا يخالف له أمرا"(٢٩)

ولذلك عندما توفي السمح كان لموته صدى عظيم في نفوس الناس الذين أحبوه وعظموه، حتى إنهم ائتمروا بأمر العامة من الناس ممن ليس له بصيرة بأمور الدين ولا علم بأمور المسلمين، فولوا على أنفسهم ابنه خلفاً(٣٠).

ويبدو أن خلفا هذا قد دعا لنفسه على أساس أنه حفيدا لأبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى، الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية (٣١)

ويمكن القول إن انشقاق الخلفية كان بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها.

ويقول المؤرخ الكبير الدكتور سعد زغلول : " وبسبب الولاية على حيز طرابلس وهل يجب أن يستمع الإمام إلى رغبة أهل المنطقة في اختيار واليهم، أم

---

٦٧ / د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص ٢٩. / د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامى ص ٤٦٩.

(٢٩) الشماخى : السير ج٢ ص ٢٩٢- ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجينى : طبقات الاباضية ج ١ ص٦٨، البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغلول : مرجع سابق ج٢ ص٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضى وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلاً، إذ أرسلت= =الخلافة العباسية واليها على مصر ابن الأشعث الذى التقى بأبى الخطاب في سرت سنة ١٤٤هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرًا من أتباعه، انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشماخى : السير ج٢ ص ٢٤٥،٢٤٦، ٢٤٧، الدرجينى: طبقات الدرجينى ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٣٩، ٢٤٠، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

أنه صاحب الحق المطلق في تولية من يشاء حجب ولاية من يشاء، مما يذكر بمسألة الشرط التي كان يطالب بها يزيد بن فندين، كان الانشقاق الثاني أو الافتراق بين إباضية الرستميين [٣٢].

ويرى الأستاذ على يحيى معمر " أن فرقة الخلفية لم يكن لها رأى أو مبدأ، ماعدا قولهم بجواز انفصال ليبيا عن الجزائر في الحكم، ومن ثم فهي ليست فرقة دينية، وأقصى ما يقال فيها أنها فئة باغية على الإمامة الرستمية يرأسها زعيم سياسي وليس إماما دينيا " [٣٣]

وبعد أن أدرج الخلفية في قائمة الفرق التي انشقت عن الإباضية، قال هذا المؤرخ الإباضى : " والعجيب من المؤرخين وكتاب المقالات أن يتأثروا بالجانب السياسي هذا التأثير الكبير، فيعتبروا هؤلاء المقاتلين فرقة، ويعتبرون خلفا إماما لفرقة[٣٤].

ومما لاشك فيه أن حروبا طويلة قد نشبت بين خلف الثائر وبين ولاة الأئمة الرستميين في حيز طرابلس، وقد ثبت هو وأتباعه على عصيانهم، على الرغم من أن فقهاء المشرق أكدوا أن خلفا وأتباعه على خطأ وأنه يجب عليهم طاعة أئمتهم من الرستميين.

ويبدو أن الحروب والمنازعات التي وقعت بين خلف والأئمة الرستميين، شغلته وأصحابه على أن يدلوا بدلوهم في مجال العقيدة والفقه كما فعلت النكارية والنفاثية [٣٥]. ويقول أبو عمر المارغنى الإباضى " ليس بيننا وبين الخلفية مسائل إلا واحدة، وهى قولهم لكل إمام حوزة لا يعدوها إلى غيرها وضلوا ضلالا بعيداً لخلافهم الإجماع ونقضهم ما سارت به الأمة أجمعين، وإنما خرج عن الإمام عبد الوهاب رحمه الله أيضا "[٣٦]

---

(٣٢) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣٣٣.

(٣٣) على يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٣٤) على يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٣٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبا ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٣٦) انظر : د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

موقف الإمام عبد الوهاب من ولاية خلف بن السمح على طرابلس:

بعد وفاة السمح بن أبي الخطاب المعافري، رغبت العامة في تولية ابنه خلفا، وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير الشماخي : " لما مات السمح... بادرت العامة، ومن لا بصيرة له بالأمور، إلى تقديم ولده خلف،ظنا منهم أن ذلك أرفق بالمسلمين وأوفق بأمير المؤمنين " [٣٧]

والحقيقة أن مبايعة العامة لخلف بن السمح، دون الرجوع إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، أمر يستحق التوقف عنده والنظر فيه، وذلك لعدة أمور، منها، المكانة التي وصل إليها العامة في الدولة الرستمية، لدرجة أنهم اختاروا رجلا دون الرجوع إلى إمامهم، ومنها، التصميم على اختيار خلف بن السمح ليكون واليا عليهم، ومنها، بعد الجهات الشرقية عن العاصمة تاهرت، ومنها، فقدان الثقة في أئمة الدولة الرستمية نظراً لتخليهم عن الشورى في الحكم واللجوء إلى نظام الوراثة.

ومن المنطقي تصور أن العامة يقدمون على اختيار خلف بن السمح، لأن والده كان حسن السيرة في ولايته، لدرجة أنهم طلبوا منه أن يوصيهم فيمن يتولى أمرهم بعده، فأوصاهم بتقوى الله وإتباع أمر الإمام وطاعته ما دام مستقيما على الحق الذي عليه السلف، وجهاد من خالفهم [٣٨] ولكن على الرغم من موافقة العامة على مبايعة خلف بن السمح، إلا أن بعض علماء الإباضية اعترضوا على ذلك، وكان في مقدمتهم أبو الحسن أيوب[٣٩]

وأبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي[٤٠] وبعض وجوه أهل النظر الذين رفضوا تعيين خلف واحتجوا بأنه لا يجب أن يستبقوا الإمام في اختيار واليهم،

---

(٣٧) الشماخي : السير ج٢ ص٣١١ ط دار المدار الإسلامي.
وانظر أيضا : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠

(٣٨) أبو زكريا : مصدر سابق ص١٢٢.

(٣٩) أبو الحسن أيوب : هو عامل الإمام عبد الوهاب على جبل نفوسة، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ص٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٤٠) إسماعيل بن درار الغدامسي : هو أحد العلماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة .
انظر : د. عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

ولكن العامة اعتقدوا أن ذلك رأى المسلمين ويوافق رأى الإمام فأصروا على خلف وعلى أن يعزلوه إذا لم يوافق اختياره رأى الإمام.

وأما أهل الصلاح فقد امتنعوا عن مبايعة خلف وبادروا بإرسال كتاب إلى الإمام عبد الوهاب يبلغونه بما حدث.

وفي نفس الوقت أرسل خلف بن السمح ومؤيدوه من الخلفية وغيرهم الكتب إلى الأئمة الإباضية المشارقة، فوصلت رسالتهم إلى أبى سفيان محبوب بن الرحيل [٤١] وكانوا يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيدون عن تاهرت [٤٢].

ومن الواضح أن خلفا بن السمح كان يدعو لنفسه على أساس أنه من أسرة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية – وكان الهدف من دعوته انتزاع حيز طرابلس من حدود الدولة الرستمية والاستقلال بالجبهة الشرقية

وعندما وصلت الكتب إلى الإمام عبد الوهاب من بعض علماء الإباضية وأهل الصلاح بحيز طرابلس، بأن العامة اختاروا خلفا بن السمح واليا عليهم، رفض

---

(٤١) أبو سفيان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات المبثوثة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجرى. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(٤٢) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ط ٣ دار العلوم ، الكويت ، ١٩٨٧م.
وتاهرت : قاعدة الدولة الرستمية، بناها عبد الرحمن بن رستم، وقد تم تأسيسها سنة ١٦١هـ، وقد أحيطت بسور ضخم يحميها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدفء لتربيعه، انظر : البكري : المغرب ص٦٦، وياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

الإمام عبد الوهاب ذلك، وأرسل إليهم كتابا يفضح فيه خطأ خلف ومن انضم إليه[٤٣].

وهكذا كان موقف الإمام عبد الوهاب موقفا معارضا تماما لما حدث، وقد قام الإمام بتوضيح الخطأ الذي وقع فيه خلف بن السمح، وذلك في كتابه الذي أرسله إلى علماء الإباضية بحيز طرابلس والذي أكد فيه أيضا أن أمر التولية والعزل من اختصاصات الإمام وأن الذين أيدوا خلفا بن السمح ووافقوا على توليته بعد أبيه قد أخطئوا في ذلك.

ومما لا شك فيه أن ما أقدم عليه خلف ومن معه من الخلفية كان في غاية الخطورة، وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار مدى اتساع المناطق التي أراد أن يحكمها خلف ومدى ثرائها الاقتصادي والبشرى، ويضاف إلى ذلك أيضا أن الخلفية أرادوا أن يجعلوها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

ويرى الدكتور محمود إسماعيل أن الإمام عبد الوهاب خشي على نفوذه في النواحي الشرقية من جراء قيام حكم وراثي فيها، فأنكر على آل أبى الخطاب ما استباحه هو وأسرته من الخروج على مبدأ الاختيار إلى مبدأ الوراثة في الحكم، كما ضرب صفحا من توسلات إباضية الجبل لإبقائه واليا عليهم من قبله [٤٤].

وهكذا بدأ خلاف فقهي وسياسي يدخل في صفوف الإباضية فاضطربت أحوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رستم، وامتلأت بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصري، مما حدا بالمؤرخ جوليان إلى القول بأن

---

(٤٣) ومما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس، أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله واتباع ما آمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغنى ما كتبتم به إلى من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الير ذلك، فإن من ولى خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابى هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذى ولى عليه إلا خلفا بن السمح حتى يأتيه أمرى وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون "
انظر نص الخطاب في : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥١.

(٤٤) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

تاريخ تاهرت لم يكن سوى سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية [٤٥] ويبدو واضحا أن رأى الإمام عبد الوهاب في خلف يختلف عن رأيه في أبيه السمح، فقد سبق أن ولى الإمام " السمح" نفسه نزولا على رأى الجماعة، أما بعد وفاته واختيار الناس ابنه، كان يقابله الرفض من جانب الإمام.

تطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخلفية

بدأ الخلاف يتطور بين الإمام عبد الوهاب والخلفية وبخاصة بعد أن تمسك أنصار خلف به وكتبوا للإمام ثانية عسى أن يستجيب لرغبتهم ولكنه رفض، وبطبيعة الحال لم يوافق خلف ولا أتباعه على رد الإمام عبد الوهاب، فاستمروا على موقفهم وعنادهم وقد طلب منهم الإمام عبد الوهاب أن يتوبوا وأرسل خطابا إلى خلف [٤٦] يأمره فيه بأن يعتزل أمور المسلمين ولا يأخذ من صدقاتهم ورغم أن خلفا هو الحفيد الأول للجماعة إلا أنه رفض الاعتزال والتف حوله جماعة من أتباعه لم يقتنعوا برأي الإمام عبد الوهاب، ورغبة منهم في اكتساب هذا الموقف الشرعية المذهبية، أرسلوا كتابا إلى غلمانهم بالمشرق وزعيمهم في ذلك الوقت، أبو سفيان محبوب بن الرحيل يعرضون عليه الخلاف القائم بينهم وبين الإمامة في تاهرت، يطلبون رأيهم، إلا أن الرد جاء بغير ما يتوقعون، إذ أوضح لهم أبو سفيان محبوب بن الرحيل خطأ من ولى خلفا وإصابة من لم يوله، وأمرهم بإتباع الإمام عبد الوهاب والتمسك بإمامته لأنها الإمامة الحقة[٤٧]

ولكن الخلفية أهملوا الفتوى ولم يأخذوا بها واستمروا على موقفهم وصبغوا موقفهم بصبغة مذهبية، وبدأوا يدعون أن الإمام عبد الوهاب هو ليس إمامهم لأن إقليمهم ينفصل عن بلاده بإمارة ابن الأغلب[٤٨] فيجب أن يكون لهم

---

[٤٥] Julian, Andre: Histoire de'l' Afrique du nord.p. 335, paris 1931

[٤٦] أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والشماخي : السير ج٢ ص ٣١٢.

[٤٧] أبو زكريا : سير الأئمة صـ١١٢

[٤٨] ابن الأغلب : هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، مؤسس دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان فقيها، أديبا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعلم بالحروب ومكايدها، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها، انظر : ابن أبى دينار : المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ٢ ١٩٦٧ م. / الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجاني ١٩٩٤ م / ابن الأبار : الحلة السيراء ج١ ص ٩٩ الشركة

إمامهم وهو خلف، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة " وزعموا أن عبد الوهاب ليس بإمامهم بغير حدث ولا بدعه، وزعموا أن عليهم خلف بعد سؤالهم الإمام أن يجوز لهم ما فعلوا من توليته وزعموا أن الحوزات منقطعة عن عبد الوهاب وأنه في حوزة وهم في حوزة أخرى[٤٩].

ومن خلال النص السابق يتضح أن هناك نزعة إلى الاستقلال في حيز طرابلس وجبل نفوسة عن الدولة الرستمية وإمامة تاهرت وعن ولاية الجبل وإعلان إمامة خلف وبذا أنكروا إمامة عبد الوهاب من غير حدث ولا بدعه [٥٠].

ومن المنطقي تصور أن يتطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخلفية من مجرد التمسك بوال عليهم إلى عدم الاعتراف بإمامة عبد الوهاب، وبأن سلطته لا تمتد إلى حوزة طرابلس.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عبد الوهاب كان يدرك تماما أن أخطار الانقسام تهدد دولته، وبخاصة لأن هذا الإقليم من دولته كان له أثره في دعمها ماديا وعسكريا، ولذلك تريث في كيفية منع هذه الفتنة الجديدة التي قد تصدع حكمه، وبخاصة بعد أن اقتنع تماما بأن الخلفية بدأوا يدخلون في دور العناد والافتراق عن الدولة والانشقاق عنه.

وبدأ تمرد الخلفية بحيز طرابلس يزداد وبدأ زعيمهم خلف يحرض الناس على التمسك بما فعلوه وبذل لهم الوعود ومناهم بما جعلهم يتمسكون به، كما فعل ابن فندين [٥١] وشعيب المصري[٥٢].

العربية للطباعة ١٩٦٣ م. / د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ص ١- ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦م.

(٤٩) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٢

(٥٠) الدرجيني: طبقات الدرجنى ج١ ص ٥١،٥٣، البارونى: الأزهار الرياضية: ج٢ ص ١٥٠، ١٥١

الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٢، الماوردى : الأحكام السلطانية، عقد الإمامة ص٧

(٥١) يزيد بن فندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية)وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذى تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه

وكان خلف قد غمره الحكم وامتلأ بغطرسة الأمر والنهى واستمر في تمرده وعصيانه، ولكن في نفس الوقت كان هناك من ينكر تصرفاته وعصيانه للإمام عبد الوهاب في تاهرت، ومن ثم طلبوا من الإمام أن يولى عليهم والياً، فكتب بالولاية إلى أحد العلماء في ذلك الوقت وهو أبو الحسن أيوب بن عباس.

ولاية أبى الحسن أيوب بن عباس على حيز طرابلس الغرب

جاء اختيار أيوب بن عباس في الوقت المناسب، فقد بدأت حركة الخلفية تزداد وتنتشر ويزداد أعوانها، وهنا تظهر براعة الإمام عبد الوهاب في اختياره لهذا الرجل، لأن أيوب بن عباس كان رجلا تقيا ورعا، فهلل المسلمون لولايته وبخاصة لأنه كان يتمتع بشخصية قوية مما جعل خلف يهابه، وقد وصفه المؤرخ الشماخي بقوله : " ومنهم – أي علماء المغرب – أيوب بن عباس النفوسي، من أهل التقى والصلاح والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، وكان الغاية في الشجاعة، وقيل إنه قال : " لا أعلم من فاس إلى مصر فارسا يبارزني". وله أخبار في الشجاعة وسير في الحروب ومعرفة فرانسها ومزاولتها" [٥٣] وكان ذا بأس وشدة وشجاعة هابه الخلفية وكان ذا عدل واستقامة.

وبعد أن علم الخلفية بولاية أيوب، تملكهم اليأس، وأفاق خلف، فالتزم بالسكون والطاعة لما يعرفه من مكانة أيوب من الناحيتين العلمية والعسكرية.

الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين النكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فندين وبعض أنصاره.

انظر : أعمال الأعلام ص٥٣، الإباضية بالجريد ص٧٧،٧٨، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص٢٥٨، الفصل في الملل والنحل ج٤ص١٩١، د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣١٥، سير الأئمة ص ٩٣

(٥٢) شعيب المصرى : هو شعيب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجودا بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد نهاه بعض مشائخ الإباضية في مصر عن المسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فندين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسى المؤقت إلى حركة أو مذهب دينى يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢. / ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م. / د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص ٥٢ دار الجبل – بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٥٣) الشماخي : السير ج٢ ص٢٩٤

وقد نجح أيوب بن عباس في ضبط الأمور بحيز طرابلس وجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه حارب خلفا بن السمح عندما سولت له نفسه أن يتمرد مرة أخرى، وبذلك يكون أيوب قد نجح في إخماد فتنة الخلفية لفترة وجيزة، ولكن ما لبث أن توفي أيوب بن عباس، فأسند الإمام عبد الوهاب ولاية المنطقة إلى أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى[٥٤].

ولاية أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى على طرابلس

بعد وفاة أيوب بن عباس، أرسل أهل طرابلس إلى الإمام عبد الوهاب أن يولى عليهم أحدا، فأجابهم أن يختاروا أفضلهم وأولاهم بأمور المسلمين، فكتبوا إليه أنه ليس مثل أبى عبيدة لهذا الأمر، وهو عبد الحميد الجناونى، فأرسل الإمام إليهم أن يولوه بأمره، فاجتمعوا إلى أبى عبيدة وأخبروه بما كتب به الإمام وما أمرهم به من توليتهم إياه على أنفسهم، على أن يقضى بينهم بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين [٥٥].

وقد رفض أبو عبيدة في بداية الأمر الولاية على جبل نفوسة وحيز طرابلس، ولكن ما لبث أن استجاب لرغبة أهل الجبل وقبل الولاية [٥٦] ومن المنطقي تصور أن أبا عبيدة يتردد في ولايته على حيز طرابلس لعدة أمور، منها، أنه خشي من الصعوبات التي قد يسببها له الخلفية بقيادة خلف بن السمح، ومنها، الاضطرابات في هذه المنطقة من الدولة الرستمية وصراعاتها الداخلية، ومنها، أيضا ورع وتقوى أبى عبيدة وتفرغه للعلم، ومنها، خوفه أن تكون هذه الولاية بدون علم الإمام عبد الوهاب.

ولذلك تباينت ردود فعله عندما عرض عليه أهل جبل نفوسة الولاية عليهم، حيث قال لهم : (أنا ضعيف، أنا ضعيف، ولا أطيق القيام بأمور المسلمين، فأرسلت نفوسه إلى الإمام - عبد الوهاب- بامتناعه وقوله : أنا ضعيف، فأجابهم الإمام

---

[٥٤] هو أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى : أحد علماء نفوسة الموصوفين بألاق نفيسه مال إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص والدنيا وترك الطمع، وكان غاية في إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائم بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها، ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، فلما ولى " أحسن السيرة، انظر : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٠.

[٥٥] الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٣

[٥٦] أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٥

وحلف بالله "بلغة العرب وبلغة العجم وبلغة البربر، أن لا يقلد المسلمين وأمورهم إلا رجلا يقول أنا ضعيف، وكتب إلى أبى عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين [٥٧].

وبعد أن تولى أبو عبيدة الأمور، أحسن السيرة وعدل في القضية وساس الرعية وصحب الأشياخ ورضي به أهل الخير مثل أبى زكريا وأبى فراس وأبى الحسن الابدلانى[٥٨].

وكان خلف بن السمح ومن معه من الخلفية في ذلك الوقت يستمرون في تمردهم وعصيانهم وازداد ذلك بعد تولية أبى عبيدة، فبدأوا يغيرون على المناطق الداخلية.

ويبدو واضحا أن خلفا بن السمح قد غضب عندما علم بقبول الناس لولاية أبى عبيدة، ولذلك جدد ثورته وقام بشن الغارات على بعض الأطراف التي تحت حكم أبى عبيدة ونشر الذعر في الطريق وقطع السبل ودس اللصوص على أهل الدعوة من رعية أبى عبيدة [٥٩]

---

(٥٧) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٣.
* وتشير بعض الرويات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة يقصد بها، أنه ضعيف المال والبدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول : إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوى بدنك وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبى زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك " انظر : الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧١، الشماخي : السير ج ١ ص ٣١٣.

(٥٨) الشماخي : السير ج٢ صـ٣١٤.
* وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجوزا معروفة بالعلم والورع والدين، فقال لها: إن أمير المؤمنين بعث إليّ بالولاية، فأشيري عليّ، فقالت: إن علمت في نفوسة أفضل منك فتقدمت، فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشبة في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلي، فرجع إلى المشائخ وقبل الدخول في أمورهم، انظر: الطبقات ج١ ص٧١.

(٥٩) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٢.
البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.
د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٤٣.
الشماخى : ج٢ ص ٣١٣،٣١٤.

وقد ذكر المؤرخ الشماخي مدى غضب خلف بن السمح قائلا: "فلما سمع خلف بولايته – أي بولاية أبى عبيدة – اشمخر واستكبر وشن الغارات على المسلمين ومن كان في حيز أبى عبيدة"[٦٠].

وهكذا استفحل شأن خلف وأتباعه وأخذ في شن الغارات على الأطراف، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له في حرب خلف[٦١].

وقد نجح خلف في الاستحواذ على معظم أنحاء الجبل دون أن يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا أو أن يحث الإمام لمواجهته بنفسه، وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أسلوب التجسس الذي اتبعه الإمام عبد الوهاب، وذلك عن طريق شخص يدعى عمرو بن يانس الذي كان يندس بين أصحاب خلف ويكاتب الإمام بكل ما يسمعه للإيقاع بخلف وأتباعه، كما أن الإمام عبد الوهاب بعث إلى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالأموال والضياع [٦٢]

ومن الملاحظ أن أبا عبيدة لم يكن متسرعا في التعامل مع خلف لأنه لم يرد إراقة دم المسلمين، كما أنه كان يسعى دائما إلى الحلول السلمية دون الدخول في قتال مباشر مع خلف وعندما ازداد خلف في تمرده وعصيانه لجأ أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب، وهو بدوره أيضاً لم يكن يريد القتال، ولذلك أشار إلى أبى عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه بابا للقتال،: "وقد أرسل إليه أبو عبيدة كي يكف عن فعله، فأبى، فأرسل إلى الإمام أن يأذن له في دفاعه فأجابه بأن يلاطفه ويلاينه، إلا إن فاجأه فليدفعه " [٦٣]

وقد امتثل أبو عبيدة للأمر ورد على استفزازات خلف بطلب الكف عن المسلمين وجعل الخلاف نظريا يعتمد على المناقشة والردود عليها، والحوار، وهكذا رغب الإمام في الموادعة والجنوح إلى المسالمة حتى لا تزداد شقة الخلاف بين

---

(٦٠) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٤

(٦١) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية ص ١٣٧.

(٦٢) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

*ومن الواضح أن عمرو بن يانس كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخي في السير، حيث يقول : " كان عمرو بلاء على المسلمين، وصاحب خلفا، وأحدث أحداثا على المسلمين وكان يتبع عوراتهم ويكاتب الإمام "، انظر : السير ج ٢ ص٢٩٨.

(٦٣) الشماخي : السير ج٢ ص ٣١٤.

أنصار وأتباع المذهب وقد هدأت الثورة قليلا من ناحية خلــف، وبــدأ يميــل إلــى السكون قانعا بما في يده ساعيا لاستمالة الناس[٦٤]

وظل أبو عبيدة قائما بدوره في حيزة مواصلا للإمام بما يجب من المال[٦٥] ولكن قدر لهذه الحركة - الخلفية - الاستمرار إلى أن وافت المنيــة الإمــام عبــد الوهاب سنة ٢١١هـــ /٨٢٦ م [٦٦]، وعند وفاته كانت معظم أجزاء الدولة الشرقية في حوزة خلف بن السمح.

ولا شك أن الإمام عبد الوهاب نجح في توطيد دولته واتساعها، رغــم أنــه واجه عدة ثورات، اتخذ بعضها طابعا مذهبيا كحركة النكــار وكالحركــة الواصــلية واتخذ البعض الآخر طابعاً قبلياً كحركة قبيلة هوارة.

كما أنه استطاع السيطرة على حركات التمرد والعصيان المتمثلة في حركــة الخلفية بقيادة خلف بن السمح، وحركة النفاثية بقيادة فرج بن نصر النفوسي[٦٧]

وبذلك ترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان، وقد تحــدث المــؤرخ ابن الصغير عن ضخامة الدولة في عهد الإمام عبد الوهاب وسيطرته على مقاليــد الأمور فقال : "أخبرني بعض الإباضية أن عبد الرحمن بن رستم لمــا مــات قامــت الإباضية فعقدت الإمامة لابنه عبد الوهاب فكان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا " وعــن اجتماع الإباضية حوله وكثرة جيشه واتساع مملكته ومكانته بين الأمراء الرستميين يقول: " وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمــع

---

(٦٤) الباروني : ج٢ ص ١٥٥

(٦٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥٧

(٦٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٦، ود. سعد زغلول : تــاريخ المغــرب العربــي ج٢ ص٣٣٧.

(٦٧) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٦.

*والنفاثية فرقة من فرق الإباضية، أفرزتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر النفوسي المعروف بالنفاث وهــو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانــب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناهضة الدولة الرستمية، ولكن المــصادر الإباضــية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضــية وذلــك لأســباب سياســية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص٥٥- ٥٧.

للإباضيه قبله ودان له ما لم يكن يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله، ولقد حكي لي وجماعة من الناس أنه قد بلغت سمته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان (٦٨).

وقد وصفه المؤرخ الشماخي في السير، بقوله "الإمام الباسل، الشجاع، التقى، اللين، الحليم أمير المؤمنين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم"(٦٩)

موقف الخلفية من الإمام أفلح بن عبد الوهاب(٢١١-٢٤٠هـ/٨٢٦-٨٥٤م)

بعد وفاة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بويع ابنه أفلح بالولاية، وقد اتصف الإمام أفلح بالعديد من الصفات، في مقدمتها الشجاعة، كما عرف شغفه بالعلم ومناظرة العلماء.

وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أن الإمام أفلح قد خلف عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة ونصائح ومواعظ وحكما، كما كان أديبا ذا اقتدار على النظم (٧٠).

ولكن إمامة أفلح بن عبد الوهاب تعد خروجا على مبدأ الانتخاب العام الذي نادت به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج، فقد رفض الخوارج مبدأ التعيين أو الوراثة فطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أي الانتخابات، على أن يكون المرشح من أي جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا (٧١).

وقد علل الإباضية هذا المسلك بإحاطة الأعداء بمدينة تاهرت، ومن ثم كانت المصلحة تقتضى تعيين أفلح المشهور بالشجاعة والعلم درءا لضرر متوقع، وهذا

---

(٦٨) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧
وتلمسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنسمان بالنون عوض اللام بالمغرب، وهي قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفوكهها جمه وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منها حالا، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب مالك بن أنس رحمه الله " انظر : البكرى : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص٧٦،٧٧، الاستبصار ص١٧٦؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان ج٢ص٤٥٤

(٦٩) الشماخى : السير ج٢ص٢٧٢

(٧٠) البارونى : الأزهار ج٢ص١٦٦، وانظر أيضاً : رابح بونار : المغرب العربى، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٣٧ – ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د. ت).

(٧١) د. إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ص٢٠١

تبرير من جانب مؤرخي الإباضية، لأن أفلح بويع بولاية العهد قبل ذلك، خلال معركته ضد هوارة، فضلا عن ممارسته للإدارة في تاهرت خلال عهد والده [٧٢].

ويقول الدكتور إبراهيم العدوى : "ويعتبر خروج الإباضية في الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى، نوعا من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظا على كيان الدولة من التفتت والانقسام من جراء الفتن والقلاقل التي كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجرى عليها سائر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، وهى احترام مبدأ الوراثة" [٧٣].

وعندما علم الخلفية بإمامة أفلح بن عبد الوهاب كان موقفهم موقف المعارض سواء للإمام أفلح أو لأبى عبيدة الجناونى الوالي الشرعي لمنطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد أصر الخلفية على عدم الاعتراف بإمامة أفلح بن عبد الوهاب، واستمرت حركتهم في المناطق الشرقية من الدولة لمدة عشرين عاما من حكم هذا الإمام، وقد تطورت هذه الحركة واتخذت طابع الإغارات على المناطق التي يحكمها أبو عبيدة عبد الحميد والى منطقة نفوسة من قبل الإمام عبد الوهاب.

ومن المنطقي تصور أن الخلفية استغلوا وفاة الإمام عبد الوهاب فازداد تقدمهم وتعديهم وجورهم وفسادهم نظراً لانشغال الدولة الرستمية بتعيين الإمام الجديد، وهى محاولة منهم للسيطرة على الأمور والاستفادة من هذا الموقف.

وفي ظل تلك الأحداث لجأ أبو عبيدة إلى الطرق السلمية، فعرض على خلف بن السمح فكرة النقاش السلمي بين الطرفين على أن يكتفي كل بناحية، لكن خلفا رفض ذلك، وبدأ يشن الغارات على ناحية أبى عبيدة، وانتشرت جماعاته للسلب والنهب والتخريب وقتل النفس التي حرم الله دون تمييز، حتى قيل إنه كان يقتل بالخطأ أناسا من أتباعه، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي " وتمادى- أي خلف – في العتو والفساد فقتل الأنفس ونهب الأموال وقتل بعضا من أصحابه غلطا" [٧٤].

جهود الإمام أفلح بن عبد الوهاب في القضاء على ثورة الخلفية

بعد أن فشل الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في المحاولات السلمية التي بذلها تجاه خلف وأتباعه لمنع سفك الدماء، لم يكن أمامه إلا اللجوء إلى الإمام أفلح بن

---

[٧٢] ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين، ق ١ دراسة وعرض د. حسن على حسن ص ١٥٠.

[٧٣] د. إبراهيم العدوى : مرجع سابق ص٢٠٢

[٧٤] الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

عبد الوهاب لمعالجة الموقف والحقيقة أن الإمام أفلح لم يأل جهدا في القضاء على ثورة خلف بن السمح، تلك الثورة التي كانت تفت في عضد الدولة من أيام والده عبد الوهاب، وبعد أن تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبى عبيدة عامله على جبل نفوسة، رسالة يطلب فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمح للقضاء على حركته.[٧٥]

وفي أثناء ذلك كان خلف قد عظمت شوكته، فطغى واستخدم الترغيب والترهيب واستمال الرجال بالعطايا والأموال وتشبه بالأمراء، فسكن القصور واتخذ الخدم والحشم وأكثر من الموالى والعبيد وأترف في حياته واتخذ زينة الحياة حتى غره متاعها من الحرث والخيل المطهمة والحصير وأجرى على أتباعه الإقطاعيات.[٧٦]

وجاء الرد على رسالة أبى عبيدة من الإمام أفلح، بعدم الدخول في حرب وطلب الإمام من أبى عبيدة أن يساير خلفا ويلاطفه ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطد الأمن وتحقن الدماء.

وبذلك يتضح أن سياسة اللين والحوار التي طلبها الإمام أفلح من أبى عبيدة، هي نفس السياسة التي طلبها والده من قبل، ويتضح من ذلك أيضا أن سياسة الأئمة الرستميين لم ترغب في الصراع العسكري، ولكنهم كانوا يفضلون الطرق السلمية من أجل استقرار البلاد، والسيطرة على الانشقاقات الداخلية حتى لا تضعف الدولة وتؤدى إلى سقوطها سريعا.

ومن العوامل التي ساعدت الخلفية على الاستمرار في التمرد، أن ناحيتهم كانت خصبة وتنعم بالرخاء، مما زاد من أتباع خلف، أما أبو عبيدة فلم يكن في استطاعته أن يجرى على أتباعه الإقطاعيات، لأن ناحيته كانت مجدبة وأقل خصبا من ناحية خصمه خلف الذي ساعده ثراءه كثيرا في حركته، ولذلك يقول أحد المؤرخين "فأخصب الله جهته – أي خلف – استدراجا، وأجدب جهة أبي عبيدة، فمال الناس إلى خلف طلبا للخصب والرخاء وإخلادا إلى الأرض والدنيا"[٧٧].

---

(٧٥) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامى ص ١٤٤، دار القلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص١٤٤.

(٧٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ص١٦٦.

(٧٧) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

والحقيقة أن أبا عبيدة قد ضاق ذرعا من تصرفات خلف بن السمح ومن سياسة اللين والحوار التي يطلبها من الإمام أفلح كلما أستأذنه في الدفاع والدخول في حرب مع خلف.

ومن ناحية أخرى كان خلف يعمل على إقصاء أبى عبيدة ويسعى لضم كافة الأقاليم التي كانت في نطاق حكم جده أبى الخطاب، وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا منتهزا تقاعس أفلح عن مساعدة عامله (٧٨)

وضمن خلف بذلك السيطرة على الأرض الخصبة والمراعى الغنية فضلا عمن بها من الإباضية.

محاولة الخلفية الاستيلاء على أدرف (٧٩) :-

بعد أن أدرك خلف بن السمح، انشغال الإمام أفلح بن عبد الوهاب عن حيز طرابلس وجبل نفوسة، وبعد أن تبين له عدم استطاعة أبى عبيدة على الدخول في حرب معه ورغبته في اللجوء إلى السلم، بدأ يتمادى في تصرفاته ويحاول التوسع والسيطرة على القرى المجاورة له.

ولذلك خرج هو ومجموعة من جنده قاصدا ناحية (جادو)(٨٠) في محاولة منه لاستفزاز أبى عبيدة ولبيان ما إذا كان أبو عبيدة جادا في حربه معه أم أنه يركن إلى السلم والهدوء،وعندما علم أبو عبيدة بتحركات خلف خرج هو أيضا إلى نهاية غابة الزيتون عند قرية يقال لها أدرف وهى ناحية قريبه من الجبل.

---

(٧٨)Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine ,p.115

(٧٩) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها البارونى باسم " درف " ويذكرها الدرجينى باسم " يدوف " أو " يدوف " بينما يسميها أبو زكريا " درف " وهى مشهورة باسم " درف " وينسب إليها أبو محمد الدرفي، انظر : البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ص ١٦٧، والدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٣. والاستبصار ص ١٤٤، والمسالك والممالك ص١٠.

(٨٠) جادو: مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهى مدينة جبلية تقع الآن في شمال غرب ليبيا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهى تبعد عن العاصمة الليبية حوالى ١٨٠ كم تقريباً، وكلمة جادو تعنى الأرض كثيرة التراب، وجادو هى المركز الاقتصادى والسياسى والدينى للجهة الشرقية من جبل نفوسة وكان لهذا البلد القديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر: الشماخى: السير ج٣ ص ٨٤٨.

وتذكر الروايات التاريخية أن جماعة من عسكر خلف قاموا بالاعتداء على أصحاب أبى عبيدة، فأمر أبو عبيدة بعدم التعرض لهم إلا إذا بدأوا بشر، فلما أغاروا على القرية، أكثروا فيهم القتل والسلب والنهب، وبخاصة لأن أهل هذه القرية كانوا ضعافا، وقد أخذوا منهم الدواب واستطاعوا قتل عشرة من أصحاب أبى عبيدة [٨١].

وهكذا نجح خلف في السيطرة على القرية والاستيلاء على مغانمها، ومن المنطقي تصور موقف أبى عبيدة أمام تلك الأحداث، فقد كان يراقب الموقف من مكانه، وكان لابد أن يدافع عن نفسه وعن أهل القرية، وبخاصة بعد أن اتضح له غدر عدوة، ولذلك أمر رجاله بوجوب الدفاع ونزل في مقدمتهم فقاتلوا عدوهم الذي ولى منهزما، وقد جاء بعض من عسكر خلف إلى أبى عبيدة بعد أن هلك من عسكره من هلك، ورغم ما حدث لأبى عبيدة وأصحابه من خلف إلا أنه أمر رجاله أن يخلوا سبيلهم وألا يتبعوهم [٨٢].

معركة إجناون سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م [٨٣].

بعد هزيمة خلف بن السمح في أدرف، اتجه بأتباعه إلى ناحية،" تيمتى" وما يليها شرقا، وهناك استطاع أن يجند جيشا ضخما للدخول في جولة حربية أخرى مع أبى عبيدة، أما أبو عبيدة فإنه عاد إلى (إجناون) وكتب إلى خلف كتابا يعظه فيه، وذلك في إطار سياسة الملاطفة التي أمر الإمام أفلح أبا عبيدة أن يلتزم بها، فأخذ يدعوه إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التي هو فيها، وعدم الكر والفر وقال له : " وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة، فكن في حيزك وأكون في حيزى، فما بال الحرب " [٨٤].

---

(٨١) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٧.

(٨٢) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٥.

(٨٣) إجناون: بلد في منطقة فساطو غربى جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجرى ومازالت عامرة، وقيل إن كلمة (إجناون) بربرية تعنى العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقد ذكر المؤرخ الشماخى أن عين إجناون تدور على اثنى عشر ألف زيتونة: انظر: الشماخى: السير ج ٣ ص ٨٢٥.

(٨٤) الشماخى : السير ج٢ص٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ على خلف قائلا: (فأبى وتمادى في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأنفس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر: ج٢ ص٣١٥.

ومن خلال النص السابق يكون من المنطقي تصور أن أبا عبيدة كان يـدرك تماما مدى قوة وخطورة خلف وأتباعه، ولذلك تعددت محاولاته السلمية معه، ولكن رغم هذه المحاولات من جانب أبى عبيدة إلا أن خلفا كان حريصا علـى اسـتمرار إغاراته وسفك الدماء في حيز أبى عبيدة، ومحاولة قتل أصحابه أينما وجدوا.

وقد ظل الحال على ذلك لمدة عام أو يزيد، كان خلف يـستعد فيهـا للقيـام بجولة حربية كبيرة مع أبى عبيدة.

والغريب في الأمر أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب تجاهل هذا التمـرد مـن جانب الخلفية، رغم خطورة حركتهم، وكان يطلب دائمـا مـن واليـه علـى حيـز طرابلس، وهو أبو عبيدة، أن يلجأ إلى سياسة اللـين والملاطفـة، رغـم أن هـذه السياسة لم تفلح مع خلف بن السمح وأتباعه.

وربما يرجع تجاهل الإمام إلى خوفه من حدوث انشقاق عند الإباضية فـي العاصمة تاهرت، كما أنه كان يخشى أن يترك العاصمة ويتجه إلى المشرق فيحـدث ما هو أسوأ من حركة خلف بن السمح.

وعموما فقد ازدادت حركة خلف الانفصالية وأصبح يدعو إلى فـصل حيـز طرابلس تماما عن العاصمة تاهرت وما حولها [٨٥].

ولم يجد الوالي أبو عبيدة بدا من تجهيز حملة والخـروج لمواجهـة هـذا الخطر الداهم والمستمر من جانب الخلفية، والحقيقة أن أبا عبيدة كـان قـد اشـتد غيظه وضاق ذرعه من تصرفات خلف، ومن هنا بدأ يفكر في الدخول معه في حرب كبيرة وفاصلة.

وفي المقابل بدأ خلف يستعد للقاء أبى عبيدة بعد أن بلغه خبـر اسـتعداده لحربه، فخرج في أربعين ألف مقاتل قاصدا إياه، وقد تلقى أبو عبيدة هذا النبأ علـى غير توقع، فلم يجمع إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر[٨٦] وقيل سبعمائة، وفي ذلـك يقـول المؤرخ الشماخي : " ثم أقام – أي خلف – على ذلك نحو سنه فخرج بعسكره، يريد أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فعسكر أبو عبيدة بعيدا عن الجبل في تله، لكنهم أهل بصائر يموتون على ما أبصروا، وقيل عددهم ثلاثمائة وثلاثـة عـشر رجـلا،

---

(٨٥) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرستمية وهى التي تبدأ مـن خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما يقعان تحـت النفوذ الأغلبي: انظر: محمد على دبور: تاريخ المغرب الكبير ج٣ص٥١٦.

(٨٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٨.

وعسكر خلف في أربعين ألفا، وقيل : عدد من مع أبى عبيدة سبعمائة والله أعلم ......[٨٧].

ومما لا شك فيه أن تلك الأعداد الكثيرة التي كانت تابعة لخلف بن السمح، كانت أحد أسباب تردد أبى عبيدة في مواجهة خلف، كما أنها كانت حافزا لخلف على الاستمرار في التمرد والطغيان، وأعطته ثقة في نفسه وزادت من أتباعه وملأت نفسه بالخيلاء والعظمة والإعجاب بقوته وبما فاق به عدده من الكثرة ورباط الخيل.

ومن المنطقي تصور أن كثرة عساكر خلف، جعلته يتمادى في طلباته ويغتر بقوته، فبدأ يطلب من أبى عبيدة مطلبا خطيرا، وهو أن يخلع بيعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب وأن يبايعه، وكان ذلك عن طريق رسولين أرسلهما خلف إلى أبى عبيدة.

وهكذا حدث تطور جديد في العلاقة بين الخلفية بقيادة خلف بن السمح وبين أبى عبيدة الوالي على حيز طرابلس نيابة عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وهذا المطلب من خلف يبرز عدة أمور، يأتي في مقدمتها، أن خلفا بدأ يتطلع إلى الإمامة على الدولة الرستمية كلها، ويتجاوز تمرده وانفصاله المحلى في حيز طرابلس إلى السيطرة على كافة أقاليم الدولة الرستمية، ومنها أيضا، شعوره بالثقة بنفسه نظرا لكثرة جنده، ومنها أيضا، خوف أبى عبيدة من الدخول معه في حرب،ومنها أيضا، تجاهل الإمام أفلح للمنطقة الشرقية من الدولة الرستمية وتركها في حالة التمرد والعصيان.

ويضاف إلى ذلك أيضا بعد العاصمة تاهرت عن الجهة الشرقية من الدولة الرستمية، وكان خلف قد أرسل الرسولين قبل بدء المعركة إلى أبى عبيدة ليدعوانه على طاعته وخلع طاعة الإمام أفلح، وبطبيعة الحال رفض أبو عبيدة.

وقد ذكر المؤرخون مناقشة أبى عبيدة للرسولين، والحوار الذي دار بينهما، وكان موضوع الحوار حول ما إذا كان الإمام أفلح قد أحدث حدثا يستحق به أن تخلع ولايته، وأن السمح والد خلف، كان عاملا مخلصا للإمام عبد الوهاب، وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية " فقال أبو عبيدة لهما،لما أخبراه بالرسالة، أيخلع بغير سبب وحدث، يستحق به خلع طاعته؟ واحتج عليهم بطاعة السمح للإمام عبد الوهاب، ورد ما ادعوه من انقطاع الحوزات بذلك، فقالا : إن لم

---

[٨٧] الشماخي : السير ج٢ ص٣١٦ – الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.

وخلافا للشماخي في السير وللباروني في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجيني في طبقات الإباضية أن عسكر خلف يعد أربعة الاف، وهذا الرأى هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

تجبه، تخاف إراقة الدماء، فقال – أي أبى عبيدة – إراقة الدماء أهون من عدم القيام بأمر الله ودينه، فقالا : إراقة الدماء أعظم، ورد مقالتهم بفعل أهل النهروان (٨٨) والنخيلة وأبى بلال (مرداس)(٨٩) وعبدالله بن يحيى وغيرهم "(٩٠).

ومن النص السابق يتضح تهديد الرسولين لأبى عبيدة في حالة عدم طاعته لخلف، وقد ظهر ذلك من خلال عبارة " إراقة الدماء أعظم " ويتضح أيضاً أن أبا عبيدة لم يجد بدا من لقاء خلف، رغم قلة عدد قواته، وعندما رجع الرسولان إلى خلف بن السمح أخبراه برأي أبى عبيدة، فأمر عسكره بالتهيؤ للقتال ورتب الصفوف، وبدأ أبو عبيدة أيضاً في تنظيم قواته استعدادا لهذا اللقاء.

وقد بدأت الأحداث تتطور، إذ جاء رجل من بقايا النكار، أتباع يزيد بن فندين، وحاول أن يصرف أبا عبيدة عن حرب خلف ويدعوه إلى خلع طاعته للإمام أفلح بن عبد الوهاب، وقال له: "لا طاقة لك اليوم بخلف وعساكره، ولا حاجة لك في لقائه، فحلف أبو عبيدة بالله، بكل لغة يحسنها من عربية وبربرية وكانمية (٩١) وغيرها، لأقاتلنه، ولو لم ألقاه إلا بسيفي هذا، وضرب بيده على قائم سيفه (٩٢).

وهكذا رفض أبو عبيدة هذه الدعوة مصمما على القتال، ولكن هذه الدعوة من أتباع ابن فندين تبين مدى انتشار أتباعه في منطقة جبل نفوسة، وتكشف عن رغبتهم في خلع الإمام أفلح، كما رغبوا من قبل في خلع والده الإمام عبد الوهاب.

وحين تدانى العسكران واقتربت الحرب على البداية، تقدم رجل ممن كانوا مع خلف بن السمح فقال لأبى عبيدة : آو إلى الجبل بأصحابك، فإن كانت لكم الدائرة، أدركتهم ما رجوتم وإن كانت عليكم، كنت في حصن من عدوكم، فقال أبو

---

(٨٨) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٨،١٦٩.

(٨٩) النهروان : هى بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها على يد أبى طالب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسى سنة ٣٨هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في النخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج٣ ص٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.
الدرجينى : طبقات ج١ ص٧٤، ياقوت الحموى، معجم البلدان ج٨ ص ٤١٨.

(٩٠) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٩.

(٩١) اللغة الكانمية: هى لغة أهل كانم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا في العصور الوسطى، وقال ياقوت الحموى عن كانم : هى من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٢) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

عبيدة لأصحابه : نصيحة نزعها الله من عدو، فأمر أصحابه أن يسندوا إلى الجبل" [٩٣].

ومن النص السابق يتضح عدم إخلاص بعض جنود خلف له وعدم رغبتهم في القتال، وربما يكون هذا الرجل يؤيد خلفا خوفا منه، ولكنه في الباطن غير مقتنع بثورته وتمرده، ولذلك رغب في التخلص منه، ومن هنا جاءت نصيحته لأبى عبيدة

وقد حقق أبو عبيدة رغبة الرجل بعد أن اقتنع بها وأمر عسكره بأن يولوا ظهورهم للجبل، وعندما رأى خلف بن السمح ذلك، ظن أن أبا عبيدة مسالما وضعيفا ويريد الفرار من المعركة وأنه غير قادر على الهجوم، فبدأ يغتر بقوته ويظهر جبروته، فقام بتقديم كبار جنوده وراء أبى عبيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخى في السير :

" فلما تنحى أبو عبيدة إلى الجبل ظن خلف أن بهم ذلا وخوفا، فغشيهم بعساكره، فتنحى أبو عبيدة واستتر، واغتسل وصلى ركعتين، فدعا الله تعالى، فقال : يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره، أعطني دابرهم اليوم" [٩٤].

وفي ذلك الوقت بدأت التحالفات تظهر والنيات تتكشف، فقد أقبل أهل مدينة شروس [٩٥] يريدون خلفا للتعاون معه ضد حربه مع أبى عبيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني " ثم إن أهل شروس أقبلوا يريدون خلفا شاكين بالسلاح [٩٦] فقال أبو عبيدة حين أبصرهم : هيجوا فينا حرارة الخوف، فلا أعدمهم الله ذلك، فبقى فيهم ذلك بدعوته تلك، فقد كان مستجاب الدعاء كما يقول كتاب الإباضية [٩٧].

---

[٩٣] الباروني : الأزهار ج٢ ص ١٧١.

[٩٤] الشماخي : السير ج٢ ص ٣١٧.

[٩٥] شروس: وفي معجم البلدان: سَروس بفتح أوله وضم ثانيه وربما قيل بالشين المعجمة في أوله فتصبح "شروس" وهى مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهى كبيرة آهلة، وهى قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لبدة وهى حاليا آثار، انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٥ ص٤٣.

[٩٦] شاك السلاح أو شاك في السلاح: أى كان لابسا سلاحا تاما وغارقا فيه.

[٩٧] الباروني: الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

ومن المنطقي تصور أن أهل مدينة شروس يقفون بجوار الخلفية، فقد وصفهم المؤرخ ياقوت الحموي بقوله : " وأهلها إباضية خوارج ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى ولم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة "(٩٨).

وقد بدأ أبو عبيدة يستعد للدخول في الحرب مباشرة بعد أن خطب في الناس ورغبهم في الجهاد وأزال الخوف من نفوسهم، وبخاصة لأن عددهم قليل إذا ما قورن بعدد خلف وأتباعه، وكان مما قاله في خطبته : " أطمع الجنة لمن مات تائبا في هذه الوقعة، إلا من كان على فراش حرام، أو قتل نفسا أو غصب مالا"(٩٩).

وبالقرب من جادو، دارت المعركة بين الفريقين والتي تسمى "إجناون" وذلك عشية يوم الخميس، الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م وأبلى كل من الفريقين في المعركة، ولكن رغم قلة عدد جنود أبى عبيدة، إلا أن أبا عبيدة نجح في أن ينتصر على خلف بن السمح ويقتل العديد من أنصاره، وذلك يرجع إلى قوة إيمان أصحاب أبى عبيدة ورغبتهم في الجهاد بحق وعزمهم على النصر.

وتشير الروايات التاريخية أن هذه المعركة انتهت بهزيمة منكرة لخلف وعسكره، وأظهر فيها أصحاب أبى عبيدة بطولات مجيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في السير: " فلما التحم القتال، نظر أبو عبيدة إلى العباس بن أيوب يضرب في أعراض الخيل، ويكشفها يمينا وشمالا وقد حمى الميمنة والقلب والميسرة، فقال - أي أبى عبيدة - صار في عيني كالعقاب، معصما لا أكلته النار "(١٠٠).

وقد لعبت بعض الشخصيات القيادية دورا مهما في هذه المعركة، وفي تحقيق النصر لأبى عبيدة، ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو مرداس(١٠١) والعباس بن أيوب، فقد أشارت الروايات التاريخية أنه في تلك المعركة خرج رجل من عسكر خلف يدعى، عبيد بن سيدي ومعه رجلين من أصحابه يطلبون المبارزة، وكان عبيد هذا ممن يدعى النسك والتقى قبل ذلك، وكان يحمل القمح والكباش للمشائخ، فخرج إليهم أبو عبيدة وأبو مرداس والعباس، وقد أسرع العباس إلى صاحبه فقتله، وأما

(٩٨) ياقوت الحموى: مصدر سابق ج٥ ص ٤٣.

(٩٩) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٧.

(١٠٠) السابق ج٢ ص٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجيني، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(١٠١) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاصر السدراتى، الساكن بتبرست ولذلك يقال له أحيانا : أبو مرداس التبرستي، بلغ في العلوم النهاية، وجرى في أمر الصلاح الغاية، كان ينفق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعبد فيه، انظر : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

أبو عبيدة فقد تماثل مع نده، وأما أبو مرداس فقد جد عليه (عبيد) حتى كاد يفترسه.

فلما رأى العباس ذلك ضرب ركبته بسيفه ثم حز رأسه، ولما رأى رأسه يطير في الهواء من شدة الضربة : قال له : إلى النار، فقال الرأس : " وبئس المصير" فقال العباس : إنا لله وإنا إليه راجعون [١٠٢]، جسد طالما دعوت له بالجنة ستأكله النار[١٠٣] وذلك لأن العباس كان يعتقد في عبيد الصلاح، فقد اشتهر بالنسك والعبادة وسخاء اليد وحب العلم، وقال أبو مرداس للعباس "ضربة فتى لا أكلت معصمه النار".

وفي هذه المعركة اشتهر أن رجلا من أصحاب أبي عبيدة قذف بحربة، فوقعت برجل فخرجت منه وركزت خلفه، وجعلوا مصلى فيه [١٠٤] أي بنوا فيما بعد مصلى في ذلك المكان.

ويذكر المؤرخ الدرجيني في طبقاته أن أبا عبيدة أمر أصحابه – بعد هزيمة الخلفية – ألا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، كما أنه أحسن معاملة المنهزمين رغم بغى الخلفيين.[١٠٥]

ولا شك أن المعاملة الحسنة من جانب أبي عبيدة لأتباع خلف المنهزمين، ترجع إلى ما وصف به من أخلاق نفيسة وعلم غزير وما طبع عليه من ورع.

وبعد أن انتهت معركة إجناون بهزيمة الخلفيين ومقتل العديد من جنودهم، نجح خلف في الفرار من المعركة ومعه عدد قليل من أتباعه واتجه بهم إلى ناحية "تيمتي" وأمر بإخراج من بها من نفوسة وغيرهم من أصحاب أبي عبيدة.

ثم اتبع خلف بن السمح سياسة خاطئة – أدت إلى تفرق من حوله، وذلك أنه بدأ يتشكك في أصحابه ظنا منه أنهم موالين لأبي عبيدة، فبدأ يخرج الكثير من أصحابه خطأ مع الذين أخرجهم من أصحاب أبي عبيدة من نفوسة، وأعطى بعضهم مهلة ثلاثة أيام، فإن لم يخرج أهدر ماله ودمه، كما أنه أخرج اليتامى والأرامل والضعفاء دون جريرة، فاضطروا إلى ترك أوطانهم ومنازلهم وأرزاقهم على كره،

---

(١٠٢) سورة البقرة : آية ١٥٦.

(١٠٣) الشماخي ج٢ ص ٣١٨.

(١٠٤) نفسه ج٢ ص٣١٨.

(١٠٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٥،٧٦ /وانظر أيضا: الباروني: الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٣.

ونتيجة لهذه السياسة الخاطئة، ارتد عنه الكثير من أتباعه، وبعض أصحابه المقربين إليه، وأيقنوا أن أمره قد أدبر، فتفرقوا عنه، وأتوا أبو عبيدة تائبين.

وفي ذلك يقول أحد المؤرخين " ثم إن الناس رجعوا بعد انهزام خلف ورجع من أصحابه من أظهر التوبة فاقبلهم أبو عبيدة إلا من أتى منهم الأمر عمدا، وأتاه سائد القرسطائي فقال : تبت يا أبا عبيدة، قال له : إن لم يسدد بعد يا ابن تحيمة- يعنى باب التوبة - وهو ممن أتى الأمر عمداً [١٠٦]

وكان سائد ومنيب بن إسماعيل بن درار الغدامسي وأبو يوسف حجاج بن وفتين ممن مال إلى خلف بن السمح في حربه ضد أبى عبيدة، وعندما رجع أبو يوسف حجاج بن وفتين -وهو ممن انحازوا إلى خلف - فأتى أهله وأراد الدخول، عيرته زوجته وقالت له امرأته : من عندك يا بائع دينه ؟ فوقف بالباب إلى الصبح، إحدى رجليه داخل الباب والأخرى خارج الباب، يميز بين الحق والباطل، أي بين أبى عبيدة وخلف، فظهر له أن خلفا على خطأ وأبا عبيدة على حق، فتاب، ورجع إلى أبى عبيدة، وكان أبو يوسف بعد ذلك من أفضل الشيوخ[١٠٧].

وهكذا قبل أبو عبيدة الذين أعلنوا التوبة، وكان ذلك انتصارا له وضعفا لشوكة خلف الذي سكنت حركته بعض الشيء، ويقال إنه سار بأعوانه فيما بعد إلى جزيرة جربة[١٠٨] بعيدا عن أحداث الدولة الرستمية وقيل أيضا إن ابنه هو الذي فعل ذلك[١٠٩]

أما المؤرخ الدرجيني فيقول إن حفيد خلف هو الذي انحاز إلى جربة بعيدا عن المشاركة في أمور الدولة [١١٠]

وبذلك يمكن القول إن فتنة الخلفية تكاد تكون قد انتهت بالفعل، وإن بقيت بعد ذلك تظهر على فترات مختلفة، وهى تمثل إحدى الانشقاقات الرئيسية عن الدولة الرستمية ويقول المؤرخ الشماخي معلقا على ضعف الخلفية - بعد هزيمتهم أمام

---

(١٠٦) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١٠٧) السابق: السير ج ٢ ص٣١٨.

(١٠٨) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢، والبكرى : المغرب ص ١٩

(١٠٩) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

(١١٠) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٠

أبي عبيدة - " فلما أوهن الله شوكة خلف وأظهر الإسلام واستقامت الأمور وحسنت الأيام وذهب الجور وقام العدل، فبلغ الخبر المشرق والمغرب، كتب أبو عيسى الخراساني رسالة مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب يوصونهم بالحق وإتباعه، ومنابذة الباطل واطراحه والاقتداء بمن قبلهم من السلف الصالح [١١١].

ومن النص السابق تتضح أهمية وخطورة الحركة الانفصالية التي قام بها الخلفية في جبل نفوسة، وكيف أثرت على الأحداث وأدت إلى فتن كثيرة بين أهالي البلاد. ومن الجدير بالذكر أن تلك الرسالة التي كتبها أبو عيسى الخراساني مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب، تضمنت أيضاً بيان لحالة أهل جبل نفوسة قبل قيام حركة الخلفية، وأن سبب الفتن التي حدثت هو اختيار خلف بدون رغبة الإمام وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في بقية الرسالة " ثم ذكروا من هلك قبلهم من أهل دين المسلمين وخلافهم أئمة الهدى، ثم ذكروا أن عبد الوهاب مضى على الرضا من المسلمين والاستقامة على الدين، لا ينقم عليه أحد من أهل الخير عندنا وعندكم، سيرته سيرة من مضى من أئمة الهدى في حكمه وحربه وقسمه ودينه، وقد أدركنا أبا أيوب وائل بن أيوب، وغيره من الأشياخ ومن بعده أبا سفيان محبوب بن الرحيل وهم راضون عنه، واستعمل السمح فكان على طريقته من العدل والاستقامة، ثم ابتلى القوم بعد ذلك (يقصد فتنة الخلفية) فنسأل الله ربنا أن يعيزنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وبلّغا أن أهل تلك القرية استعملوا خلفا على غير رضي من عبد الوهاب وإجازته، وينبغي لهم إذا أنكر الإمام الأمر ولم يُجزه أن يسمعوا له ويطيعوه ويخلعوا، من خلع وينتهوا إلى رأيه، وطاعته واجبه عليهم، فمن شاقه وبغى عليه، فهو عندنا كافر ضال، حتى يرجع ويتوب، ويستغفر الله مما صنع.

ثم كان بعد عبد الوهاب أفلح ابنه - حفظه الله - عمل بالسنة وقسم بالسوية وعدل في الرعية لا ينقم عليه أحد قبلنا وقبلكم في حكم ولا قسم، متعنا الله بحياته، فخالف خلف وأصحابه وأبوا إلا رأيهم، وقد فسرنا لهم، ولكم معالم ديننا ورأى المسلمين " [١١٢].

ومن الرسالة السابقة يتضح مدى إخلاص الإباضيين لأئمتهم وطاعتهم لهم والدفاع عنهم، ويتضح أيضا مدى كراهيتهم لأعداء أئمتهم. ومعنى ذلك أن خلفا بن السمح بالنسبة لهم هو كافر ضال وغير مطيع إلا إذا تاب واستغفر الله بما صنع.

---

(١١١) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١٢) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٩.

وقد توفي أبو عبيدة بعد ذلك، فوصفه المؤرخون بأنه كان شديد الشكيمة "قوى العريكة" لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان شديدا في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١١٣].

الصراع بين العباس بن أيوب والخلفية في جبل نفوسة

بعد وفاة أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى، قام الإمام أفلح بن عبد الوهاب بتولية العباس بن أيوب [١١٤] على جبل نفوسة وما حوله من البلاد، وكان خلف بن السمح قد بدأ يستعيد نشاطه مرة أخرى بعد وفاة أبى عبيدة، ونجح في أن يضم جماعة من أصحابه الذين كانوا قد تفرقوا بعد هزيمتهم في موقعة إجناون سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، وذلك في الفترة ما بين وفاة أبى عبيدة وتولية العباس.

وهكذا قامت صحوة أخرى للخلفية، جددوا فيها الغارات وأعمال السلب والنهب وتهديد أمن البلاد، وكان خلف يدرك تماما مدى قوة وبأس وبطش العباس بن أيوب، إلا أنه اغتر بقوته وكثرة عدده، وقد بدأ معه العباس سياسة اللين والحوار والنصح والإرشاد، فلم يتوقف خلف عن تمرده.

معركة فاغيس

كان العباس بن أيوب يدرك تماما أن سياسة اللين لن تفلح مع خلف، فاضطر إلى الدخول معه في حرب، ورغم كثرة جنود وأتباع خلف وقلة عسكر العباس إلا أن العباس اختار في جيشه جماعة من الأبطال والفرسان المشهود لهم بالقوة والمغامرة في الحروب، وذلك ليعوض كثرة عسكر خلف.

وكان في مقدمة هؤلاء الأبطال، أبو مرداس التبرستى، الذي حارب ضد خلف من قبل مع أبى عبيدة، وأبو الحسن الأبدلانى[١١٥]، وهو مشهود له بالفروسية

---

(١١٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥
الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص ٧١.
الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٣.
البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٦.

(١١٤) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذى كان واليا على حيز طرابلس وجبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور مهم في الصراع مع الخلفية، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.

(١١٥) أبو الحسن الأبدلانى : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما طلبه

أيضا، ويؤكد ذلك ما ذكرته الروايات التاريخية، فعندما كان خلف بن السمح في كثرة، خاف بعض المسلمين، فأتى أبا مرداس، وأخبره، فقال أبو مرداس، لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني، ثم أتى أبا الحسن فقال له أبو الحسن : لا أخاف على عسكر فيه أبو مرداس (١١٦).

وكان اللقاء بين الخلفية والعباس بن أيوب عند موضع يسمى " فاغيس " وهو يقع بالقرب من تيمتى (١١٧)، وبدأ الجيشان يتصارعان، فلما حمى الوطيس واشتد القتال، قال أبو مرداس : أطمع لمن مات هنا الجنة إلا من قتل نفسا أو كان على فراش حرام أو غصب مالا"(١١٨).

ويبدو أن هذه الحرب أخذت وقتا طويلا وجهدا كبيراً من الفريقين ويتضح ذلك عندما طلب أبو مرداس من العباس بن أيوب الاستغفار والتوبة حين اشتد خلف وعساكره على العباس حيث قال له : " تب إلى الله، فإن الباطل لا يقف للحق أكثر من هذا، فقال العباس : تبت إلى الله " (١١٩).

وبعد ذلك نزل العباس بنفسه للقتال، فتغير الموقف واشتد جيش العباس على خلف وأتباعه فاضطربت جنود خلف، ونجح العباس في هزيمة الخلفية بعد صراع طويل وحرب شرسة، وبعد أن انتهت الحرب كان رأى أبى مرداس ألا يتبعوا

الإمام وهو أحد الاثنى عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماخى في السير ج٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.

* ومن الجدير بالذكر أن كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبدلانى كانت مواقفهما تشهد لهما بصدق النية وصفو القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومفاخر ومناقب ذكرها المؤرخون، انظر البارونى: ج٢ ص ١٧٥/الشماخى: ج٢ ص٣٠٢/الدرجينى: طبقات الإباضية ج ٢ص ٢٩٢، ٢٩٤.

(١١٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٥

(١١٧) تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هى تيمتلت، وقد ظلت تيمتى مركزا لإباضية جهة طرابلس زمن السمح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السمح، وذكرت آر مرة على عهد أبى منصور إلياس في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخى : السير ج ٣ ص ٨٤٦.

(١١٨) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١١٩) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

خلفا وأصحابه، ولكن البعض الآخر كان رأيهم أن يتبعوا الخلفية، ويطلبوهم إلى أن يخرجوهم من حيزهم، فاقتفوا أثرهم حتى تجاوزوا حيز أطراف نفوسة (لالت)[١٢٠]

وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية : " قال أبو مـــرداس للناس : ارجعوا عن طلبهم، فقال له رجل : أين لالت؟ يعنى طرف نفوسة، لأنهم في الحيز بعد، فقال أبو مرداس: نسيت لالت، فأتبعوهم حتى خرجوا حيز لالت " [١٢١].

ويمكن القول إنه بفضل جهود كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبـــدلانى، استطاع العباس أن يسيطر على الموقف وينتصر على خلف، ولذلك عنـــدما رجـــع العباس وجنوده من حرب خلف،أقبل الناس ليقدمون له التهنئة، فقال لهم : هنئـــوا أبا مرداس وأبا الحسن اللذين لم يناما ليلهما، يدعوان ربهما ويرغبانه " [١٢٢].

وبعد هذا الانتصار، لم ينس العباس أن يعزى الشيوخ في أقـــاربهم الـــذين ماتوا مع خلف، وفي ذلك يقول صاحب السير " فلما رجع العبـــاس إلـــى معـــسكره، ترجل وأقبل يعزى الشيوخ في أقاربهم الذين ماتوا مع خلف، وقال: آجركم الله فـــي مصابكم في إخوانكم، فقالوا: يا عباس: ليسوا بإخواننا، ولكـــنهم أرحامنـــا، وإنمـــا إخواننا، أنتم" [١٢٣].

ومن خلال النص السابق تتضح مكانة العباس بن أيوب في قومه، وأنه ينال تقديرهم واحترامهم، ويتضح أيضا أن هذا الرجل كان يجمع بين اللين والـــشدة، ولا شك أن نزوله بنفسه للقتال في المعركة مع خلف كـــان أحـــد الأســـباب الرئيـــسية لانتصارهم على الخلفية، وعندما قالت زوجة أبى مـــرداس لزوجهـــا : رزقـــك الله الجنة، قال لها: إنما يستأهل الجنة توفيق بن أيوب – يعنى العباس – الذي لم يخلع الدرع من عنقه من يوم إلى يوم، فوجد صدأ الحديد في فيه وبه أصبنا" [١٢٤]

---

(١٢٠) لالت : هو الوادى الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين)و(الرجبان)مـــن جهـــة (فساطو) والذى سمى فيما بعد بوادى الآخرة لصعوبته وعمقه، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بنى رستم إلا بعد تلك الواقعة وهى حاليا تالوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : البارونى : الأزهـــار ج٢ ص١٧٧.

(١٢١) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(١٢٢) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١٢٣) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٢٤) الشماخى : ج٢ ص٣٣١.

والحقيقة أن العباس لم يكتف بانتصاره على الخلفية فقط، ولكنه استمر في مطاردتهم، كما أنه نجح في استمالة أصحاب خلف بن السمح نظرا لاستقامته وعدله، وكان لانتصاره على خلف دور كبير في استقرار البلاد وانتشار الأمن، فقد خافه المفسدون والمتمردون، ومن ناحية أخرى بدأت شوكة خلف تضعف وبدأ أنصاره يتفرقون، وبدأ جمعه يتشتت مرة أخرى.

وبعد صراع طويل مع الأئمة الرستميين وولاتهم في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية توفي زعيم الخلفية خلف بن السمح، ذلك الرجل الذي أنهكته حروبه وعصيانه من أجل وصوله للإمامة واستقلاله بجبل نفوسة وحيز طرابلس.

وقد واصل العباس جهاده ضد الخارجين عن الطاعة في جهات الجبل الشرقية [١٢٥] حتى أطاعوا الإمام أفلح واعترفوا بإمامته.

وهكذا نجح العباس في إعادة الأمن إلى الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية بعد مجاهدته للأعداء، والتي تكررت أكثر من مرة في عهد الإمام أفلح، وبذلك بدأت البلاد تستقر وتعود إلى طبيعتها، إلى أن توفي العباس، فكانت وفاته إيذانا ببدء حركات تمردية أخرى وانشقاقات بين إباضية تاهرت، كان في مقدمتها، حركة نصر بن فرج النفوسي بجبل نفوسة[١٢٦].

ومما لا شك فيه، أن الفتن والثورات التي جعلت البعض يخرج عن طاعة الإمام في جبل نفوسة، تدل على حيوية تلك الجهات، وذلك القسم من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وكان مصدر حيويتها أنها كانت عامرة مليئة بالناس ومنهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم انتصار العباس على الخلفية، إلا أن أتباع خلف ظلوا موجودين في جبل نفوسة وحيز طرابلس وكانوا يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة.

تمرد الخلفية في عهد الإمام أبى حاتم يوسف (٢٨١-٢٩٤هـ/٨٩٤-٩٠٧م) في سنة٢٨١هـ /٨٩٤ م توفي الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح، فتولى مقاليد الأمور من بعده، ابنه أبو حاتم يوسف، نظرا لأن أخاه الأكبر يقظان كان غائبا في موسم الحج، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن الصغير المالكي: "ثم مات أبو اليقظان

---

(١٢٥) المقصود بذلك جبل شماخ وجبل يفرن

(١٢٦) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٤٧

Lewicki : Melanges Berberes, ibadites , P.270.

سنة إحدى وثمانين ومائتين وخلف من الولد الذكور عددا منهم، يقظان الذي كنى باسمه.

وكان ابنه يقظان هذا خرج إلى الحج في حياة أبيه، ويوسف وهو المكنى بأبي حاتم، وأبو خالد وعبد الوهاب ووهب وغيرهم ممن له ذكر، وإنه لما مات أبو اليقظان قامت العوام وأهل الحرف فقدموا ابنه أبا حاتم بلا مشورة أحد من الناس لأمن القبائل ولا من غيرهم"(١٢٧).

ومن النص السابق يتضح أنه قد حدث نوع من التغيير في اختيار الأئمة الرستميين، فبعد أن كانت الإمامة تعقد بعد ترشيح واختيار زعماء المذهب، كما حدث لعبدالرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب، اختلفت الأمور فأصبح للعامة دور رئيسى في عقد البيعة (١٢٨).

وقد وصفه المؤرخ الشماخى بقوله : " ومنهم – أي الإباضية– أبو حاتم يوسف، الإمام الماهر والبحر الذاخر، والعالم الذاكر، مكث في الخلافة أربع عشرة سنة"(١٢٩).

وكان أبو حاتم قد دخل في ثورات وحروب مع عمه يعقوب بن أفلح الذي نادي به أهل تاهرت إماما فترة من الوقت، ثم استقر هو في ملكه بعد ذلك، وفي أثناء حكم والده، اكتسب خبرة ودراية إذ أن والده عينه قائدا على جيش من قبيلة زناته(١٣٠) لحماية القوافل المقبلة من المشرق أو التي تتجه إليه حاملة البضائع المختلفة.

---

(١٢٧) ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص٢٩٧،٢٩٨ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(١٢٨) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرستمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضى قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذى أصاب الدولة الرستمية وأدى إلى سقوطها.

(١٢٩) الشماخى : السير ج٢ص٤١٦

(١٣٠) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من أدناها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فمواطنها كما يقول ابن خلدون في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحى إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط

وقد اكتسب أبو حاتم أيضا محبة في قلوب الناس نتيجة كرمه ومروءته التي عرف بها بين الناس وخير دليل على محبة الناس، له مبايعته دون وجوده بالعاصمة، ودون استشارة زعماء القبائل للنظر في الأمر.(١٣١)

وفي عهد أبي حاتم كانت عوامل الانهيار والتمزق تصيب الدولة الرستمية نتيجة لصراعه مع عمه يعقوب بن أفلح فاضطربت الحياة السياسية في العاصمة تاهرت وبدأ التفكك يصيب الدولة الرستمية.

وزاد من هذا الضعف والتمزق تمرد الخلفية، وظهورهم على مسرح الأحداث في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، مما أدى إلى نشوب صراع مرة أخرى في تلك الجهات الشرقية بين الطيب بن خلف بن السمح(١٣٢) ومن انضم إليه من زواغة (١٣٣) وبين أبناء نفوسة المقيمين في هذه المناطق والموالين للإمامة الرستمية.

ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، انظر: ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siecles obscurs du Maghrb.P. 264 – 266, Paris, 1937

(١٣١) الشماخي : ج٢ ص٤١٦ / الباروني : الأزهار ج٢ ص٢٦٥ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج٢ ص٢٦٥- ٢٩١ / عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج٢ ص٢٤.

(١٣٢) وفي بعض الروايات أن الطيب هذا هو حفيد خلف وليس ابنه، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ ص٧٠.

(١٣٣) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي وكانت تقيم في غرب مدينة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : " هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ثلاثة بطون وهي : دمر بن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قسطنطينة أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنواحي فاس آخرون، انظر : العبر ج٦ ص ٢٦١ ٢٦٤.

أبو منصور إلياس وجهوده في القضاء على بقايا الخلفية

كان والى جبل نفوسة وحيز طرابلس في عهد الإمام أبى حاتم يوسف رجل من أهل تندميرت [١٣٤] وهو أبو منصور إلياس النفوسى الذي وصفه المؤرخون الإباضيون بقولهم: "وكان، بعد أن تولى أمور المسلمين، إذا خرج لقتال العدو يركب ولا يتقى نبلا ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه ولا تقع به، ولم يهزم له جيش ولم تنكس له راية". [١٣٥]

ومعنى ذلك أن الخلفية سيواجهون رجلا قويا من الصعب أن يهزم، وقد بدأ أبو منصور في مطاردة بقايا الخلفية بزعامة الطيب بن خلف، وكان الخلفيون في ذلك الوقت قد ضعفوا نتيجة لصراعاتهم السابقة ولكنهم كانوا يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة، فرغم ضعفهم وقلة عددهم إلا أنهم التفوا مرة أخرى وتجمعوا حول الطيب بن خلف، الذي كان متمسكا بمذهب والده وبتعاليمه [١٣٦].

وعندما علم أبو منصور إلياس – والى جبل نفوسة – بتحركات الخلفية، خرج لمطاردتهم خشية أن تزداد ثورتهم ويكثر عددهم ويزداد أتباعهم، وبذلك أراد القضاء على تمردهم والقبض على زعيمهم قبل أن يستفحل أمرهم.

وقد حدث تطور جديد في الأحداث، إذ أن الطيب بن خلف هرب، ولجأ إلى قبائل زواغة عندما علم أن إلياس يبحث عنه ويريد القضاء عليه، ونجح في أن ينشر أفكاره بين الزواغيين.

ومن الملاحظ أنه رغم بعد الزمن بين عصر الطيب وعصر والده إلا أن الزواغيين كانوا لا يزالون على ولائهم للخلفية، ولما كانت منازلهم مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للرستميين، فقد صار الاحتكام بينهما أمراً لا محيد عنه[١٣٧].

---

[١٣٤] تندميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربى من الجبل، وفيها مسجد أبى منصور إلياس، ويقال لها تندنميرت وتين دميرت وتندميرة، انظر الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

[١٣٥] انظر : ابو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦. / الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤ / الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

[١٣٦] بحاز إبراهيم بن بكير : الدولة الرستمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، الجزائر ١٩٩٣ م

[١٣٧] إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م.

وهكذا لجأ الطيب بن خلف إلى تلك القبائل خارج طرابلس في ساحل جزيرة جربة، وقد التف حوله الزواغيون وحصنوه ومنعوه من النفوسيين، إذ كانوا شيعة أبيه وعلى مذهبه[١٣٨].

وفي ذلك يقول صاحب السير : " وخرج مرة – أي أبى منصور إلياس – في طلب ولد خلف [١٣٩] – أي الطيب بن خلف – وقد هرب إلى زواغة، وكان على مذهب أبيه[١٤٠].

وبذلك يمكن القول إن الطيب بن خلف أصبح زعيما على الزواغيين فأصبحوا يدافعون عنه ويحاربون من ضده.

وعندما خرج أبو منصور إلياس لمحاربة الطيب بن خلف والزواغيين في مكان يقال له ريصوا، اجتمع رأى الزواغيين على قتاله ومدافعته ومنعه من النيل من الطيب بن خلف وأتباعه، ولذلك فإن أبا منصور وجدهم يحيطون بالطيب في أعداد غفيرة، وفي ظل هذه الظروف تدخل شيخ من شيوخ بنى يهراسن يسمى أبا سلمة[١٤١] في محاولة منه للصلح بين الطرفين حقنا للدماء والقضاء على الفتنة.

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا : " فقال شيخ من شيوخ بني يهراسن، يسمى أبا سلمة : هل أن تتركوا ريصوا وتتحصنوا بجزيرة جربة، أو ترسلوا إلى الإمام بتاهرت يخرجكم من عمالة نفوسة ويفرد لكم عاملا أو تدفعوا صاحبكم إلى نفوسة وأنا كفيل لكم أن لا يتجاوزوا فيه الحق وحكم الله"[١٤٢].

ومن خلال النص السابق يتضح أن هذا الشيخ عرض على الزواغيين أن يختاروا أحد ثلاثة أمور، فالأمر الأول : أن يتجه الخلفيون إلى داخل جزيرة جربة ليلحقوا بزعيمهم ويبتعدوا عن حيز أبى منصور، والأمر الثاني : أنهم إذا كانوا يريدون أن يستقلوا عن حكم نفوسة وأن هذا هو مطلبهم، فليرسلوا إلى الإمام أبى

---

(١٣٨) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤.
ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخلفية، من نفوسة وزواغة، ظلوا موالين للطيب بن خلف حتى أواخر حكم بنى رستم.

(١٣٩) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والى جبل نفوسة خرج على أيام أبى حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٨٤.

(١٤٠) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤

(١٤١) وفي طبقات الدرجينى يسمى (أبو سلامة) انظر ج١ ص ٨٤.

(١٤٢) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

حاتم ليولى عليهم واحدا منهم، أما الأمر الثالث : فهو أن يقوموا بتسليم الطيب بن خلف إليه – أي إلى هذا الشيخ – ليسلمه إلى نفوسة على أن يضمن سلامته وأنهم لن يخرجوا فيه عن قانون الحق.

ومن الملاحظ في هذه الأمور الثلاثة – وبخاصة الثالث منها – أن الزواغيين اندفعوا اندفاعا دون تفكير مع الخلفية، بمعنى أنهم ربما يكونوا قد تورطوا معهم، وأنهم إذا قاموا بتسليم زعيم الخلفية – بضمان هذا الشيخ – عادت علاقتهم السلمية مع النفوسيين.

ويرى د. محمود إسماعيل، أنه ربما يكون يعقوب بن أفلح ومن معه من مشايخ الكوفيين وراء حركة التفاف الزواغيين مع الخلفية، بعد أن غادروا تاهرت ونزلوا على زواغة سنة ٢٨٦هـ/ ٩٠٠ م[١٤٣]

وبعد أن عرض الشيخ الأمور الثلاثة وأتم كلامه، فإن الزواغيين سفهوا رأيه، ومن المنطقي تصور أنهم يريدون الحرب، ولذلك اتهموا الشيخ بسوء النية، وفي النهاية اجتمع أمرهم على لقاء أبى منصور إلياس – فلما بلغهم ناصبوه الحرب فهزموا[١٤٤] وقتل عددا كثيرا منهم، فاضطر الطيب بن خلف أن يلجأ إلى جزيرة جربه ويتفحصن ببعض قصورها، ولكن أبا منصور إلياس نجح في القبض عليه وسجنه، وفي ذلك يقول صاحب السير :

" فدخل ولد خلف إلى جربه، فتحصن ببعض قصورها، ثم أرشى من نزل عنده، فدفعه لأبى منصور وسجنه"[١٤٥] وبذلك استقرت الأمور في جزيرة جربه، فلم تعرف بها فتنة أو قتال تسبب فيها الخلفية.

أما رئيس الحركة (حفيد خلف) فقد كان مكرما في سجنه معززا لشرفه وفقهه وعلمه[١٤٦] و كان مرجع القوم عندما تنزل بهم نازلة أو تعرض لهم قضية وعرة أو معضلة مما جعله يتساءل متعجبا : يسجنوننى ويسألونني"[١٤٧]

---

(١٤٣) د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٨٠.

(١٤٤) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرستميين وكذلك المؤرخ الدرجيني في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبى اليقظان سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وأبى منصور إلياس الذى توفي قبل سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.
انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤، ٨٥.

(١٤٥) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٥.

(١٤٦) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص ٣٨٧.

(١٤٧) أبو زكريا : ص ٣٣ والدرجينى : الطبقات ج١ ص ٨٤، ٨٥.

وقد أشارت المصادر التاريخية أن حفيد خلف هذا قد تاب وحسنت أحوالـــه، حيث يقول أبو زكريا: "وذكر بعض أصحابنا أنه رجع إلى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله، والله أعلم "[١٤٨] وقال الدرجيني أيضا : " إن الفتى تاب ورجع إلى مـــذهب أهل الحق وحسنت حاله "[١٤٩].

ولا شك هذا انتصار لخصومه من الرستميين، فقد كانت غايـــة آمـــالهم أن تستقر الأمور في هذه المنطقة المضطربة البعيدة عن الدولة

وبذلك نجح أبو منصور إلياس في القضاء على بقايا الخلفية بحيث لم تقـم لهم قائمة بعد ذلك تهدد أمن الرستميين.

وقد حفلت تواريخ الإباضية بذكر انتصارات إلياس بن منصور على الطيـب وأنصاره من الخلفية الذين ولوا الأدبار لائذين بجزيرة جربة وقابس [١٥٠] وسـيوف النفوسيين تجهز على فلولهم، ورغم أن تعاليم المذهب الإباضى تحرم تتبع المـدبر والإجهاز على الجرحى، فلا غرابة فيما حدث.

ذلك لأن هذه التعاليم الإباضية تشترط في الفارّ المدبر أن يكون بدون مأوى يلوذ به، فإن كان له مأوى جاز تتبعه وقتل حريمه، ولما كان للهاربين من زواغـة مأوى في جزيرة جربة، استحل النفوسيون الإجهاز على فلولهم [١٥١].

وبعد وفاة أبي منصور إلياس تولى أفلح بن العباس ولاية جبل نفوسة[١٥٢] وقد استقل جبل نفوسة بعد انقراض الدولة الرستمية وتولى إمارته أحفاد من بنـي

---

* وقد أضاف الدرجيني* أنهم سألوه في قضية رجل رجل، فاختلفوا فقال : تقطـع الرجل دون العقب، وعندئذ قال مقالة، جابر بن زيد لما استفتي في السجن وخبـره مشهور، وهذا يعنى ان مقالة : يسجنونني ويسألونني " هى أصلا لجابر بن زيـد، انظر الطبقات ج ١ ص٨٧.

(١٤٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ٣٣.

(١٤٩) الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص٨٧.

(١٥٠) قابس : مدينة تقع على ساحل البحر الرومى، وتنصب إليها أنهار من بعض الجبـال التي تليها، فهى بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعنابا، انظر:عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبـار المغـرب ص ٢٥٠ دار الكتـب العلميـة، بيروت(د. ت)

(١٥١) الورجلاني : الدليل لأهل العقول ج ٣ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

Motylinski : L'Aqida des Abadhites P. 512

أبى منصور إلياس(١٥٣) كما فر عدد كبير من الإباضية الرستميين إلى واحة وارجلان (١٥٤) وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين فهاجروا إلى مزاب وحولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء، سميت فيما بعد باسم سبع مدن(١٥٥) ومازال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم (١٥٦).

---

(١٥٢) ومن الجدير بالذكر ان أبا منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إمامة تاهرت الرستمية على وجه العموم.

(١٥٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨م.

(١٥٤) وارجلان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات، يسكنها قوم من البربر، وهى حاليا مدينة ورغلة، واحة في الجنوب الشرقى من البلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباضية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: ياقوت الحموى معجم البلدان ج ٨ ص٤٥٣/ والشماخى: السير ج ٣ ص ٨٧٨.

(١٥٥) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصرى، مدريد عدد ٥٤٠، ١٩٥٧ م، ص١٢٧.

(١٥٦) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامى ص ٤٨٠ نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢ م.

نتائــج البحــث:

بعد هذا العرض لموضوع " الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة، يمكن استنتاج النقاط التالية : -

- أن فرقة الخلفية ظلت كافتراق في المذهب مثلها مثل النكارية والنفاثية التي ظلت فرقها منشقة عن المجتمع الإباضى إلى ما بعد سقوط تاهرت سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩ م.
- أن قيام الخلفيين في الجهة الشرقية من الدولة الرستمية كان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى إضعافها وسقوطها فيما بعد.
- أن استقرار الأئمة الرستميين بالعاصمة تاهرت أدى إلى قيام حركات تمردية في مناطق مختلفة من الدولة وبخاصة المنطقة الشرقية وزاد من ذلك إهمال الأئمة لهذه المنطقة.
- كان من نتائج هذه الحركة قيام حروب داخلية بين النفوسيين الإباضيين المؤيديين لأئمة الدولة الرستمية وبين النفوسيين المؤيدين للخلفيين.
- أن قيام هذه الحركة أدى إلى تشجيع البعض الآخر للقيام بحركات مماثلة، فقامت حركة النفاثية بزعامة فرج النفوسى ضد الدولة الرستمية وكانت أحد عوامل إضعافها أيضاً.
- أدى قيام هذه الحركة إلى فقدان الكثير من الرجال والأموال وبخاصة أن منطقة جبل نفوسة كانت تدعم الدولة الرستمية ماديا و عسكريا.
- كان الضعف الاقتصادي في منطقة جبل نفوسة أحد نتائج قيام هذه الحركة نظراً للحروب الكثيرة التي قامت بين زعيم الحركة خلف وأتباعه وبين ولاة الأئمة الرستميين في المنطقة.
- ظهر من خلال هذا البحث مدي حرص الأئمة الرستميين على الجنوح إلى السلم وعدم الدخول في حرب مع معارضيهم خشية أن تزداد شقة النزاع بين الاباضيين.
- أدى قيام فرقة الخلفية وغيرها إلى صراعات حزبية وتكتلات وانشقاقات مذهبية وانشطار في البيت الحاكم نفسه وظهور فرق جديدة أخرى في المذهب الإباضى، وقد عملت كل تلك الآفات على ضعف الدولة وتآكل المذهب فبدأت بوادر الانهيار للدولة الرستمية، ولذلك كان سقوطها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م على يد الشيعة العبيديين أمرا سهلاً.

• أن منطقة جبل نفوسة تحتاج إلى المزيد من الاهتمام من جانب الدارسين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ومن جانب الجغرافيين أيضاً.

(١) نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكانوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٦.

ونفزاوة : هم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة ببلاد نفزاوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور : قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م.

(٣) وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعير هي مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز ألذ من محل طعام، انظر : ياقوت : مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٤) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤-٩٥، وأبو زكريا: سير الأئمة ص ١١٥،١١٦ ، نزهة المشتاق ص٩٧ -٢٩٩، وابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٠.

Despois : Le Djebel Nefousa, p.137 Paris 1935.

Basset : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique , p.426 Paris 1899.

(٥) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي ، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات افترشت أرض المغرب، وقد قسم النسابون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس ومادغيس، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البتر التي ساندت الدولة الرستميه نفوسة ولواته وسدراته ولماية، ومن البرانس، هوارة، وعن البربر انظر : ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٩١، السلاوى: الاستقصا ج١ ص٥٤، ابن خلدون : العبر ج٧ ص٩، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٦١ ، ابن منصور : قبائل: قبائل المغرب ج١ص٢٩٩ ، ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص٤٨، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٢٣، ٢٨ ، د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ص ١٢٦، أحمد توفيق : كتاب الجزائر ص١٠.

(٦) وفي ذلك يقول ياقوت الحموي : "وبها – أي نفوسة – قبيلة يقال لهم بنو زمور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المنعة لا يقدر عليه أحد"، انظر : معجم البلدان : ج٨ ص ٣٩٦.

(٧) صبرة : بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا تقل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدأن ج٥ ص١٧٧. وعن قبيلة نفوسة : انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص١١٤ وابن منصور : قبائل المغرب ج٣ ص٢٠٤.

(٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٤ومزاتة : قبائل كثيرة ونسابة البربر يعدون في مزاته بطون كثيرة مثل : بلايان وفرنه وبحيحه ودكمة وحمرة ومدونة، وقد ساندت مزاتة الدولة الرستمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزاتة، انظر : صورة الأرض ص ٩٦ ، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٥ و ابن خلدون : العبر ج ٦ – ص ٢٣٥.

(٩) د. الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضاً :

(١٠) ابن خلدون: معجم البلدان ج٨ ص٣٩٦، ياقوت الحموي: العبر ج٦ ص ٢٣٠.

(١١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرشميين ص٢٧.

(١٢) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٨٨، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة١٩٨٦م.

(١٣) طرابلُس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضا، فقيل لهذه طرابلس الغرب تميزا عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : انظر : البكري : المغرب ص ٧،الاستبصار: ص ١١٠.

(١٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٦ ص٢٥٤

(١٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص٧٢٦

(١٦) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٧١ ط ليدن، ١٩٢٠ م / البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٧ ط١١ تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩م و د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(١٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ص٥٩٨، وابن عذارى : البيان المغرب ج١ص٨١ والسلاوى : الاستقصا ج١ ص١١١.وقبيلة ورفجومة : قبيلة صفرية من

نفزاوة، من قبائل البربر، عاثوا فسادا في القيروان وسيطروا عليهـا سـنة ١٣٩ هــ / ٧٥٦ م و نجح أبو الخطاب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلا ذريعا ثم رجع إلـى طرابلس. انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٠.

(٨) ابن الأثير : الكامل ج٥ص٥٩٨.ابن خلدون : العبرج٤ص١٩٣.

(٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية فـي عـصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ص١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على اسم خلف بن السمح بقوله : (ونحن لا ندرى إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بـن أبى بكر الذي اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بأبان بن عثمان عندما اتهـم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٣٣،٣٣٤ منـشأة المعـارف الإسكندرية ١٩٧٩م.

(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الانشقاقات الإباضية الأخـرى هـي النكاريـة والنفاثيـة والحسينية أو العمرية والسكاكية والفرية، انظر : الشهر ستانى : الملل والنحـل ج ١ ص ١٨٣ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسفراييني : التبصير في الدين ص ٥٧، القاهرة ١٩٥٥ م ، د. عامر النجار : الإباضية ومدى صـلتها بـالخوارج ص ٩٥ – ١٠٨ ط دار المعـارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewicki : Melanges Berberes , p.269

(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذي تولى خلفا لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقـد اختلـف المؤرخون في مدة حكمه فالشائع بينهم أنها دامت أربعين سنه، وأن سنة توليته الخلافـة سنة١٦٨هــ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هــ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذارى أن مدة حكمه عشرين سنه بدأت سنة ١٦٨ وانتهت سنه ١٨٨هـ، أما المؤرخ البارونى فـي الأزهـار الرياضية فقد ذكر أنه تولى الحكم سنة ١٧١هــ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠هــ، انظـر : الشماخى : السير ج٢ ص ٢٧٢ – ٣٢٤ / ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ١٩٧.

البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٦ – ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provencal : Histoire de l'Espagane Musulmane , vol. 1, p. 244

(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ – ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

عمرو خليفة النامي : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خوري و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامي ٢٠٠١م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار الثقافة المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ص ٥٦،٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكي لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمح لأن مجال هذا الانشقاق كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإنما انفرد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبى زكريا والدرجينى والشماخى مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وحيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي ص١٢١ دار العودة – بيروت،١٩٧٦م.

(٢٧) حيز طرابلس: هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٣ المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت) / الدرجينى : طبقات الإباضية ج١ ص ٦٥ – ٦٧ / د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص ٢٩. / د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٦٩.

(٢٩) الشماخى : السير ج٢ ص ٢٩٢– ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجينى : طبقات الاباضية ج ١ ص٦٨، البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغلول: مرجع سابق ج٢ ص٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضى وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا، إذ أرسلت= =الخلافة العباسية واليها على مصر ابن الأشعث الذي التقى بأبي الخطاب في سرت سنة ١٤٤هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرًا من أتباعه، انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشماخى : السير ج٢ ص ٢٤٥،٢٤٦، ٢٤٧، الدرجينى: طبقات الدرجينى ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكي :

أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٣٩، ٢٤٠ ، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

(٣٢) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٣٣.

(٣٣) علي يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٣٤) علي يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٣٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبا ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ .

(٣٦) انظر : د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(٣٧) الشماخي : السير ج٢ ص٣١١ ط دار المدار الإسلامي.

وانظر أيضا : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠

(٣٨) أبو زكريا : مصدر سابق ص١٢٢.

(٣٩) أبو الحسن أيوب : هو عامل الإمام عبد الوهاب على جبل نفوسة، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ص٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٤٠) إسماعيل بن درار الغدامسي : هو أحد العلماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة .

انظر : د. عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

(٤١) أبو سفيان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات المبثوثة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجري. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(٤٢) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ط ٣ دار العلوم ، الكويت ، ١٩٨٧م.

وتاهرت : قاعدة الدولة الرستمية، بناها عبد الرحمن بن رستم، وقد تم تأسيسها سنة ١٦١هـ، وقد أحيطت بسور ضخم يحميها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدفء لتربيعه، انظر : البكري : المغرب ص٦٦، وياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

(٣٤) ومما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس، أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله وإتباع ما آمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم به إلى من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل البر ذلك، فإن من ولى خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذي ولى عليه إلا خلفا بن السمح حتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون "

انظر نص الخطاب في : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥١.

(٤٤) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

(١) Julian , Andre : Histoire de'l' Afrique du nord.p. 335 , paris 1931

(٥٤) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والشماخي : السير ج٢ ص ٣١٢.

(٦٤) أبو زكريا : سير الأئمة صـ١١٢

(٧٤) ابن الأغلب : هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، مؤسس دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان فقيها، أديبا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعلم بالحروب ومكايدها، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها، انظر : ابن أبى دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ٢ ١٩٦٧ م. / الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجاني ١٩٩٤ م / ابن الآبار : الحلة السيراء ج١ ص ٩٩ الشركة العربية للطباعة ١٩٦٣ م. / د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ص ١- ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦م.

(٨٤) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٢

(٤٩) الدرجيني : طبقات الدرجني ج١ ص ٥١ ٥٣، الباروني : الأزهار الرياضية : ج٢ ص ١٥٠، ١٥١

الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٢، الماوردي : الأحكام السلطانية، عقد الإمامة ص٧

(٥٠) يزيد بن فندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية)وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين النكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فندين وبعض أنصاره.

انظر : أعمال الأعلام ص٥٣، الإباضية بالجريد ص٧٧،٧٨، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص٢٥٨، الفصل في الملل والنحل ج٤ص١٩١، د. سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣١٥، سير الأئمة ص ٩٣

(٥١) شعيب المصري : هو شعيب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجودا بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد نهاه بعض مشائخ الإباضية في مصر عن المسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فندين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسي المؤقت إلى حركة أو مذهب ديني يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢. / ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن علي حسن، القاهرة ١٩٨٤ م. / د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص ٥٢ دار الجيل – بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٥٢) الشماخي : السير ج٢ ص٢٩٤

(٥٣) هو أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني : أحد علماء نفوسة الموصوفين بأخلاق نفيسه مال إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص والدنيا وترك الطمع، وكان غاية في إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائم بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها، ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، فلما ولي أحسن السيرة، انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٠.

(٥٤) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٣

(٥٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٥

(٥٦) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٣.

• وتشير بعض الروايات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة يقصد بها، أنــه ضعيف المال والبدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول : إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوى بدنك وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك " انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧١، الــشماخى : السير ج ١ ص ٣١٣.

(٥٧) الشماخى : السير ج٢ صــ٣١٤.

• وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجوزا معروفة بالعلم والــورع والــدين، فقال لها: إن أمير المؤمنين بعث إليّ بالولاية، فأشيري عليّ، فقالت: إن علمت في نفوسة أفضل منك فتقدمت، فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشبة في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلــي، فرجــع إلــى المشائخ وقبل الدخول في أمورهم، انظر: الطبقات ج١ ص٧١.

(٥٨) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٢.

البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.

د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٣.

الشماخى : ج٢ ص ٣١٣،٣١٤.

(٥٩) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٤

(٦٠) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية ص ١٣٧.

(٦١) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

•ومن الواضح أن عمرو بن يانس كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخي في السير، حيث يقول : " كان عمرو بلاء على المسلمين، وصاحب خلفا، وأحدث أحداثا على المسلمين وكان يتبع عوراتهم ويكاتب الإمام "، انظر : السير ج ٢ ص٢٩٨.

(٦٢) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٤.

(٦٣) الباروني : ج٢ ص ١٥٥

(٦٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥٧

(٦٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٦، ود. سعد زغلول : تاريخ المغــرب العربــي ج٢ ص٣٣٧.

(٦٦) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٦.

*والنفاثية فرقة من فرق الإباضية، أفرزتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر النفوسى المعروف بالنفاث وهو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناهضة الدولة الرستمية، ولكن المصادر الإباضية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضية وذلك لأسباب سياسية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص٥٥- ٥٧.

(٦٧) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧

وتلمسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنسمان بالنون عوض اللام بالمغرب، وهى قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منها حالا، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله " انظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص٧٦،٧٧، الاستبصار ص١٧٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢ص٤٥٤

(٦٨) الشماخى : السير ج٢ص٢٧٢

(٦٩) الباروني : الأزهار ج٢ص١٦٦، وانظر أيضاً : رابح بونار : المغرب العربي، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٣٧ – ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د.ت).

(٧٠) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ص٢٠١

(٧١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، ق ١ دراسة وعرض د. حسن على حسن ص ١٥٠.

(٧٢) د. إبراهيم العدوى : مرجع سابق ص٢٠٢

(٧٣) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

(٧٤) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٤٤، دار القلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص١٤٤.

(٧٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ص١٦٦.

(٧٦) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

(١) Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine ,p.115

(٧٧) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها البارونى باسم " درف " ويذكرها الدرجينى باسم " ويدوف " أو " يدوف " بينما يسميها أبو زكريا " درف " وهى مشهورة باسم " درف " وينسب إليها أبو محمد الدرفي، انظر : الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ص ١٦٧، والدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٣. والاستبصار ص ١٤٤، والمسالك والممالك ص ١٠.

(٧٨) جادو: مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهى مدينة جبلية تقع الآن في شمال غرب ليبيا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهى تبعد عن العاصمة الليبية حوالي ١٨٠ كم تقريباً، وكلمة جادو تعنى الأرض كثيرة التراب، وجادو هي المركز الاقتصادي والسياسي والديني للجهة الشرقية من جبل نفوسة وكان لهذا البلد القديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر : الشماخى : السير ج٣ ص ٨٤٨ .

(٧٩) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٧.

(٨٠) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٥.

(٨١) إجناون : بلد في منطقة فساطو غربى جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجري ومازالت عامرة، وقيل إن كلمة (إجناون) بربرية تعنى العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقد ذكر المؤرخ الشماخى أن عين إجناون تدور على اثني عشر ألف زيتونة : انظر : الشماخى : السير ج ٣ ص ٨٢٥.

(٨٢) الشماخى : السير ج٢ص٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ على خلف قائلا: (فأبى وتمادى في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأنفس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر : ج٢ ص٣١٥.

(٨٣) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرستمية وهى التي تبدأ من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما يقعان تحت النفوذ الأغلبى : انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج٣ص٥١٦.

(٨٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٨.

(٨٥) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٦ – الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.

وخلافا للشماخى في السير وللباروني في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجينى في طبقات الإباضية أن عسكر خلف يعد أربعة آلاف، وهذا الرأي هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

(٨٦) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٨،١٦٩.

(٨٧) النهروان : هي بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها على يد أبى طالب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسى سنة ٣٨هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في النخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج٣ ص٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.

الدرجينى : طبقات ج١ ص٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٨ ص ٤١٨.

(٨٨) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٩.

(٨٩) اللغة الكانمية: هي لغة أهل كانم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا في العصور الوسطى، وقال ياقوت الحموي عن كانم : هي من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٠) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩١) الباروني : الأزهار ج٢ ص ١٧١.

(٩٢) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٧.

(٩٣) شروس : وفي معجم البلدان : سَروس بفتح أوله وضم ثانيه وربما قيل بالشين المعجمة في أوله فتصبح " شروس " وهى مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهى كبيرة آهلة، وهى قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لبدة وهى حاليا آثار، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣.

(٩٤) شاك السلاح أو شاك في السلاح: أي كان لابسا سلاحا تاما وغارقا فيه.

(٩٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

(٩٦) ياقوت الحموي: مصدر سابق ج٥ ص ٤٣.

(٩٧) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩٨) السابق ج٢ ص٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجينى، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(٩٩) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاصر السدراتى، الساكن بتبرست ولذلك يقال له أحيانا : أبو مرداس التبرستى، بلغ في العلوم النهاية، وجرى في أمر الصلاح الغاية، كان ينفق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعبد فيه، انظر : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(١٠٠) سورة البقرة: آية ١٥٦.

(١٠١) الشماخى ج٢ ص ٣١٨.

(١٠٢) نفسه ج٢ ص٣١٨.

(١٠٣) الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٥،٧٦ / وانظر أيضا : الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٣.

(١٠٤) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩

(١٠٥) السابق: السير ج ٢ ص٣١٨.

(١٠٦) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢، والبكري : المغرب ص ١٩

(١٠٧) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

(١٠٨) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٠

(١٠٩) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١٠) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١١) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥

الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص ٧١.

الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٣.

الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٦.

(١١٢) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذي كان واليا على حيز طرابلس وجبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور منهم في الصراع مع الخلفية، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.

(١١٣) أبو الحسن الأبدلانى : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما طلبه الإمام وهو أحد الاثنى عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماخى في السير ج٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.

* ومن الجدير بالذكر أن كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبدلانى كانت مواقفهما تشهد لهما بصدق النية وصفو القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومفاخر ومناقب ذكرها

المؤرخون، انظر البارونى : ج٢ ص ١٧٥ / الشماخى : ج ٢ ص ٣٠٢ / الدرجينى : طبقات الإباضية ج ٢ص ٢٩٢، ٢٩٤.

(١٤) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٥

(١٥) تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هي تيمتلت، وقد ظلت تيمتى مركزا لإباضية جهة طرابلس زمن السمح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السمح، وذكرت آر مرة على عهد أبى منصور إلياس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخى : السير ج ٣ ص ٨٤٦.

(١٦) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١٧) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٨) لالت : هو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين)و(الرجبان)من جهة (فساطو) والذي سمى فيما بعد بوادي الآخرة لصعوبته وعمقه، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بنى رستم إلا بعد تلك الواقعة وهى حاليا نالوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : البارونى : الأزهار ج٢ ص١٧٧.

(١٩) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(٢٠) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(٢١) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(٢٢) الشماخى : ج٢ ص٣٣١.

(٢٣) المقصود بذلك جبل شماخ وجبل يفرن

(٢٤) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٧

Lewicki : Melanges Berberes, ibadites , P.270.

(٢٥) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ص٢٩٧،٢٩٨ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(٢٦) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرستمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضى قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذي أصاب الدولة الرستمية وأدى إلى سقوطها.

(٢٧) الشماخى : السير ج٢ص٤١٦

(٢٨) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من أدناها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فمواطنها كما يقول ابن خلدون في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، انظر: ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siecles obscurs du Maghrb.P. 264 – 266, Paris , 1937

(٢٩) الشماخي : ج٢ ص٤١٦ / الباروني : الأزهار ج٢ ص٢٦٥ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج٢ ص٢٦٥- ٢٩١ / عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج٢ ص٢٤.

(٣٠) وفي بعض الروايات أن الطيب هذا هو حفيد خلف وليس ابنه، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ ص٧٠.

(٣١) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي وكانت تقيم في غرب مدينة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : " هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ثلاثة بطون وهي : دمر بن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قسطنطينية أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنواحي فاس آخرون، انظر : العبر ج٦ ص ٢٦١ ٢٦٤.

(٣٢) تندميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربي من الجبل، وفيها مسجد أبى منصور إلياس، ويقال لها تندنميرت وتين دميرت وتندميرة، انظر الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

(٣٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦. / الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤ / الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

(٣٤) بحاز إبراهيم بن بكير : الدولة الرستمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، الجزائر ١٩٩٣ م

(٣٥) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م.

(٣٦) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤.

ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخلفية، من نفوسة وزواغة، ظلوا موالين للطيب بن خلف حتى أواخر حكم بنى رستم.

(٣٧) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والى جبل نفوسة خرج على أيام أبى حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٤.

(٣٨) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤

(٣٩) وفي طبقات الدرجينى يسمى (أبو سلامة) انظر ج١ ص ٨٤.

(٤٠) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

(٤١) د. محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب ص ١٨٠.

(٤٢) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرستميين وكذلك المؤرخ الدرجينى في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبى اليقظان سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وأبى منصور إلياس الذي توفي قبل سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.

انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجينى ج١ ص٨٤، ٨٥.

(٤٣) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٥.

(٤٤) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٨٧.

(٤٥) أبو زكريا : ص٣٣ والدرجينى : الطبقات ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

* وقد أضاف الدرجينى أنهم سألوه في قضية رجل رجل، فاختلفوا فقال : تقطع الرجل دون العقب، وعندئذ قال مقالة، جابر بن زيد لما استفتى في السجن وخبره مشهور، وهذا يعنى إن مقالة : يسجنوننى ويسألوننى " هي أصلا لجابر بن زيد، انظر الطبقات ج ١ ص٨٧.

(٤٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص ٣٣.

(٤٧) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص٨٧.

(٤٨) قابس : مدينة تقع على ساحل البحر الرومي، وتنصب إليها أنهار من بعض الجبال التي تليها، فهي بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعنابا، انظر:عبد الواحد المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٠ دار الكتب العلمية، بيروت(د. ت)

(٤٩) الورجلانى : الدليل لأهل العقول ج ٣ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

Motylinski : L'Aqida des Abadhites P. 512

(٥٠) ومن الجدير بالذكر إن أبا منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إمامة تاهرت الرستمية على وجه العموم.

(٥١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨م.

(٥٢) وارجلان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات، يسكنها قوم من البربر، وهى حاليا مدينة ورغلة، واحة في الجنوب الشرقي من البلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباضية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٤٥٣ / والشماخى : السير ج ٣ ص ٨٧٨.

(٥٣) محمد بن تاويت :دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصري، مدريد عدد ٥٤٠، ١٩٥٧ م، ص ١٢٧.

(٥٤) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٨٠ نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢ م.

- د. إبراهيم أحمد العدوى: الجزائر ، تكوينها العربي والإسلامي ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة.
- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد ت سنة ٦٥٨هـ): الحلة السيراء ، الشركة الوطنية للطباعة ، الجزائر ١٩٦٣ م.
- ابن الأثير : (على بن أحمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨ م): الكامل في التاريخ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة
- الإدريسى : (أبو عبد الله محمد – ٥٥٨ هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٢ م
- الإسفراينى : (أبو المظفر ت ٤٧١ هـ): التبصير في الدين ، ط القاهرة ١٩٥٦م.
- ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقى ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، ليبيا ١٩٦٩ م.
- البارونى : (سليمان بن عبد الله النفوسى ١٢٥٩هـ): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط القاهرة ١٩٦٧م.

- د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ م.
- البكري: (عبد الله بن عبد العزيز ٤٦٠ هـ):المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ت ، د. ى. سلين، الجزائر ١٨٧٧م.
- البلاذرى : (أبو العباس أحمد بن يحيى ٧٢٩ هـ / ٨٩٢ م): فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩ م.
- جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، الجزائر ، قسم المغرب
- الحبيب الجنحانى: المغرب الاسلامى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ط الدار التونسية.
- ابن حزم الأندلسى:(على بن أحمد، ت٤٥٦ هـ): جمهرة أنساب العرب، ت عبد السلام هارون ، دار المعارف ١٩٧١م
- د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة١٩٥٧م.
- د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، عصر الولاة مطبعة مصر ١٩٤٧ م.
- ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ): فتوح مصر والمغرب ط ليدن ١٩٢٠ م.
- ابن حوقل: (أبو القاسم محمد ت ق ٤ هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م.
- ابن خرداذبة:(عبدالله بن خرداذبة ق٣هـ/٩م): المسالك والممالك،مطبعة ليدن ٩٨٩م.
- ابن الخطيب: (محمد لسان الدين ت ٧٧٦ هـ): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ت. العبادى وآخرون ، أحمد مختار العبادى وآخرون ط الدار البيضاء ١٩٦٤ م
- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بيروت ١٩٧١ م.
- الدرجينى : (أبو العباس أحمد الدرجينى ت ق٧ هـ): طبقات الإباضية، ت. إبراهيم طلاي، قسنطينة(د.ت).

❖ ابن أبى دينار: (أبوعبدالله محمد ت سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،المكتبة العتيقة،ط٢ تونس ١٩٦٧م.

❖ رابح بونار: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر(د. ت)

❖ أبو الربيع سليمان الباروني :مختصر تاريخ الإباضية ، ط ٢ ، تونس

❖ الرقيق القيرواني: (أبو إسحاق إبراهيم ت ق٥ هـ):تاريخ إفريقية والمغرب، دار الفرجانى ، القاهرة ١٩٩٤ م.

❖ أبو زكريا: (يحيى بن أبى بكر ق ٤ هـ / ١٠ م): سير الأئمة وأخبارهم ، المعروف بتاريخ أبى زكريا ت إسماعيل العربي ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٨٩٢م.

❖ د. سعد زغلول عبد الحميد:(تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٩م)

❖ السلوى: (أبوالعباس أحمد١٣١٥هـ): الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ت. جعفر الناصري سنة ١٩٥٤ م

❖ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢م.

❖ الشماخي: (أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد ت ٩٢٨ هـ)، السير، ط دار المدار الإسلامي.

❖ الشهر ستاني: (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ)، الملل والنحل، ط القاهرة ١٩٥٦م.

❖ د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا، دار الجيل، بيروت ١٤٠٥هـ.

❖ صالح باجية : الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية تونس ١٩٧٦ م.

❖ ابن الصغير: (ابن الصغير المالكي ٢٨١ هـ / ٨٩٥ م) :أخبار الأئمة الرستميين ، ت. د /حسن على ، القاهرة ١٩٨٤ م.

❖ د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالوارج ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣م.

❖ ابن عذارى : (ابن عذارى المراكشى)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت إحسان عباس بيروت ١٩٦٧ م.

❖ د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٩٠ م.

❖ على يحيى معمر:

❖ – الإباضية بين الفرق الإسلامية القاهرة ط ١ ١٩٧٦ م.

– الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٧ م.

❖ د. عوض محمد خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، سقط١٩٨٢م.

– نشأة الحركة الإباضية،عمان سنة ١٩٧٨ م.

❖ الماوردى (أبو الحسن علي بن محمد ت سنة٤٥٠هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط القاهرة ١٩٧٣م.

❖ محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة المعهد المصري – مدريد ، ٥٤٠ سنة ١٩٥٧ م.

❖ محمد على دبوز : (تاريخ المغرب الكبير) القاهرة ١٩٦٣ م

❖ د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ط ٣ دار العلم ، الكويت ١٩٨٧م.

❖ د. محمد ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية ، مكتبة الاستقامة سلطنة عمان١٩٨٣م.

❖ د. محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي، دار العودة – بيروت ١٩٧٦م.

❖ المراكشى : (عبد الواحد بن علي ت٦٤٧هـ):المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).

❖ ابن منصور: قبائل المغرب، ط الرباط ١٩٦٨ م.

❖ الورجلانى: (أبو يعقوب يوسف ت ٣٨٠ هـ) : الدليل لأهل العقول ط القاهرة ١٣٠٦هـ.

❖ ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

المراجع الأجنبية:

* Basset , Rene : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa. Jurnal Asiatique , Tome 13,14.Paris 1899.
* Despois, Jean : Le Djebel Nefusa , Paris ,1935.

- Gavtier , E,F: Les Siecles Obscurs du Maghrb. Paris , 1937.
- Julian , Andre : Histire de , L Afrique du Nord , Paris , 1931.
- Lewicki , t : Etudes ibadites Nord Africaine , Warszaw , 1955.

  Melanges Berberes ibadites , Revue des etudes islam iques Annee ,1936 , Cahiar 3 , Paris , 1936.
- Motylinski , A,De ,C : L' Aqida des Abadhites Actes du Cngres international des rientalistes international des orientalistes, Alger ,1905.
- Provencal ,E,I : Histoire de L'ESPane musul mane , vol,1, Alger,1950.

القضاء في الصعيد الأعلى
خلال العهدين الفاطمي والأيوبي
(٣٥٨ - ٦٤٨هـ / ٩٦٨ - ١٢٥٠م)

د. ممدوح محمد حسن (*)

مقدمــــة

يعرف القضاء بأنه فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص، صادر عن ولاية عامة بالأحكام الشرعية، المتلقاه من الكتاب والسنة النبويـــة الـــشريفة[١]. وبوجه آخر؛ فالقضاء يعنى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المـــصالح الدنيوية ودفع المضار، أو جعلهم على مقتضى النظر الشرعي المنوط بسيادة الدارين، وهذا أكمل[٢].

لذا يعد القضاء من أجلّ الوظائف المدنية، بل أرفعها وأسماها مرتبة[٣]، لأنهـــا فرض لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٥].

وكان الرسول ﷺ يتولى الفصل في الخصومات بنفسه، ولاسـيما أن الـسلطة التنفيذية والقضائية في الإسلام، آنذاك، لم تكن مميزة أحدهما عن الأخـرى[٦]. ولمـا توفي النبي ﷺ في ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٨ يونيه سنة ٦٣٢م، وابتدأ عهـد الصحابة بخلافة أبى بكر الصديق (١١-١٣ هـ/٦٣٢-٦٣٤م)، كانت سـلطة القـضاء يتولاها الخليفة أبو بكر، فلم يتخذ قاضيا يخصه بالقضاء[٧].

أما في عهد عمر بن الخطــاب، رضـــي الله عنـــه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م)، الـذي اتسعت في حكمه رقعة الدولة الإسلامية، فقد قام بتعيين قضاة في الأقاليم ينوبون عنه وقدم على الأمصار قضاة أقامهم مقامه[٨]، وأشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "أول مـا دفع (أي القضاء) إلى غيره وفوضه فيه عمر"[٩].

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الآداب، جامعة سوهاج

وأصبح القضاء بذلك من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ومندرجاً في عمومها[١٠]. ومن ذلك أخذ الخلفاء على عاتقهم الإشراف على النظام القضائي، وعينوا في الأقاليم القضاة.

ففي مصر نظم عمرو بن العاص[١١] القضاء بها وفق أحكام الشريعة الإسلامية، فعم العدل، وانتشرت المساواة[١٢]، وكان أول من تولى القضاء بمصر هو قيس بن أبي العاص[١٣]، (ت٢٣هـ/٦٤٣م)، وكان ولاه عمر بن الخطاب، وكتب بذلك إلى عمرو بن العاص واليه على مصر[١٤]، وظل أمر تعيين القضاة في مصر بيد الخليفة ويكتب بذلك إلى الوالي بتا في عهد الخلفاء الراشدين وكذلك في العهد الأموي، وإن كان معظم الأمويين استنابوا عنهم في تولية القضاء أمراء ولاياتهم. وفي عهد الدولة العباسية استرد أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) حق تعيين الخلفاء للقضاة، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي على مصر سنة (١٥٥هـ/٧٧١م)[١٥]، وكان لا يتولى القضاء آنذاك إلا كل عالم فقيه مجتهد[١٦].

وهكذا جاء الفصل بين السلطة القضائية والسلطة الإدارية والسياسية، وصار لكل ولاية قاض يضطلع بشئون العدالة وإقرارها، ويطبق الأحكام وفق الشريعة الإسلامية. ومنذ هذا العهد بدأ انطلاق التطور في النظام القضائي انطلاقاً قوياً شمل جميع الولايات. وكانت الإدارة القضائية في مصر نموذجاً لهذا التطور المهم الذي حدث في النظام القضائي على عهد عمر بن الخطاب، ثم استقر أمره فيما بعد خلال العصر الأموي والعباسي أيضاً[١٧].

وكانت مصادر القضاة في مصر، منذ العهد الراشدي، هي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والاجتهاد[١٨]، شأنهم في ذلك شأن قضاة باقي الأمصار الإسلامية الأخرى، وخلال العهد الأموي لم يتقيد القضاة في مصر بمذهب بعينه، بل كان للقاضي مطلق الحرية في الفصل في الدعاوى والمنازعات بما يراه وفق اجتهاده وعلمه، وذلك إذا لم يجد حكماً منصوصاً عليه في القرآن والسنة النبوية أو إجماع الصحابة[١٩]، إلا أنه عندما ظهرت المذاهب الفقهية وانتشرت بين الناس بدأ القاضي يفقد طريقته في الاجتهاد وأصبح يحكم طبقاً لقواعد مذهب من هذه المذاهب، ففي عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٤م) والإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٤-٩٦٩م) لم يكن القضاة جميعاً تابعين لمذهب واحد، فمنهم الحنفي[٢٠] ومنهم المالكي[٢١] ومنهم الشافعي[٢٢]. فكان القاضي يحكم وفق عقائد المذهب الذي ينتمي إليه[٢٣]، وذلك مما أدى إلى ضعف روح الاجتهاد في الأحكام[٢٤]، وإن كان القضاء آنذاك في الغالب، يسير طبقاً للمذهب الشافعي[٢٥].

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر، وأضحت مقر خلافتهم (٣٥٨هـ/٩٦٨م)، تأثر القضاء بالمذهب الشيعي[٢٦]، وصار قضاة مصر يتبعون ذلك المذهب حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وقيام الدولة الأيوبية، وعادت مصر من جديد سنية المذهب، وعاد معها القضاء إلى ما كان عليه قبل مجيء الفاطميين إلى مصر، حيث عزل قضاة الشيعة جميعاً وتولى الشافعية القضاء بمصر ونواحيها[٢٧].

وخلال الصفحات التالية نتناول بالبحث والدراسة موضوع القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٨-١٢٥٠م)، ولكن ليس في القاهرة وسائر أنحاء مصر، بل يقتصر هذا البحث على الصعيد الأعلى، وذلك لأنه قد سبقنا الكثير من الباحثين في الكتابة عن القضاء في مصر، سواء في العهد الفاطمي أو الأيوبي[٢٨]، وكان جل عنايتهم بالفسطاط والقاهرة، ولم تتعرض تلك البحوث والدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى؛ الذي يشكل جزءاً مهماً من أرض مصر، ولعل تركيزهم الحديث عن القضاء في العاصمة، راجع إلى أنها كانت محور الأحداث ومركز السلطة حينئذ، هذا بالإضافة إلى وفرة المادة العلمية الخاصة بالقضاء في الفسطاط والقاهرة في المصادر التاريخية، بينما دراسة القضاء في صعيد مصر، بصفة عامة والصعيد الأعلى بصفة خاصة، لم تتعرض لها المصادر المعاصرة للعهدين الفاطمي أو الأيوبي في الحديث عنه بالقدر الكافي الذي يجذب انتباه الباحثين، وربما ذلك راجع إلى جذب العاصمة القاهرة والمدن الكبرى في مصر، والقريبة من السلطة المركزية، انتباه الكثيرين من مؤرخي العهدين الفاطمي والأيوبي دون غيرهم.

غير أنني حاولت، عن طريق البحث والدراسة، أن أقف على العديد من المعلومات في بطون بعض المصادر التي بين أيدينا، والتي أعطتنا تصورا لا بأس به عن القضاء في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي- محور هذا البحث- وهذه المعلومات كانت دافعاً لي للسير في الكتابة في هذا الموضوع، والجدير بالذكر أيضاً، أن معظم الدراسات السابقة في وقتنا هذا، والتي تناولت تاريخ الصعيد في العصر الإسلامي، لم تعط القضاء في الصعيد الأعلى القدر الكافي لإيضاحه وإبراز أهميته، فجاءت كتابات أحد هذه البحوث عن القضاء بسيطة لا تتعدى بعض الفقرات التي اقتضتها ضرورة أبحاثهم ليس إلا، بينما لم تتعرض باقي هذه الدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى على الإطلاق[٢٩].

وقبل الحديث عن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وجدنا لزاماً علينا أن نتعرف- بإيجاز- على موقع الصعيد الأعلى محور الدراسة، وذلك لما له من أهمية وأثر كبير في التعرف على النظام القضائي في مدن وقرى هذا الجزء من أرض مصر.

يمثل الصعيد بصفة عامة الشطر الثاني من مصر، فمنذ أن تم الفتح العربي الإسلامي لمصر، أطلق العرب على الوجه البحري أسفل الأرض أو الريف، بينما أطلقوا على الوجه القبلي أعلى الأرض أو صعيد مصر(٣٠). وكان الصعيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: الصعيد الأدنى ويبدأ من الفسطاط حتى البهنسا(٣١)، والصعيد الأوسط ويبدأ من البهنسا حتى أخميم(٣٢)، أما الصعيد الأعلى فيبدأ من شمال أخميم حتى أسوان جنوباً(٣٣).

وكان الصعيد (الوجه القبلي)، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، يشتمل على عدة أقاليم هي: إقليم الجيزية، والإطفيحية، والبوصيرية، وإقليم الفيومية، والبهنساوية، والأشمونيين، والأسيوطية، ثم إقليم الإخميمية ثم إقليم القوصية في الجنوب(٣٤).

وكانت هذه الأقاليم يطلق عليها اسم كورة(٣٥)، إذ كانت مصر مقسمة إلى ثلاث وعشرين كورة، اختص الصعيد بتسع كور منها، وهي التي عرفت باسم الأقاليم. وقد ظل هذا التقسيم على هذا النحو حتى عصر المماليك البحرية في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) بإجراء تعديلات على التقسيم الإداري لمصر، وحلت الأعمال محل الكور(٣٦).

وأياً لما كان الأمر، فقد كان الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي من ولايات مصر المهمة، وقد وصف ناصر خسرو الصعيد الأعلى بأنه "ولاية مصرية في الجنوب يأتي منها ماء النيل إلى مصر، وأكثر ثمارها منه، وهناك على ضفتي النيل كثير من المدن والقرى عظيمة الشأن"(٣٧)، ويمثل الصعيد الأعلى كورة القوصية وقصبتها مدينة قوص(٣٨)، فقد أشار الأدفوى إلى أن الصعيد الأعلى يبدأ من حدود بلاد النوبة جنوباً، حتى مرج بنى هميم المتصلة أراضيه بأراضي جرجا، من عمل أخميم، شمالاً(٣٩).

وعلى هذا النحو فقد ضم الصعيد الأعلى عدة مدن ونواحي جليلة مزدهرة بالأسواق، ودور الصناعة والحوانيت، والحمامات والمارستانات، والمساجد العظيمة، والربط والمدارس والمباني الفخمة. ومن مدن إقليم القوصية من الجنوب إلى الشمال نذكر : أسوان، وأدفو، وإسنا، وأرمنت، والأقصر، وقوص، وقفط، وقنا، ودندرة، ودشنا، وغيرها من النواحي والقرى التي تقع على جانبي نهر النيل حتى شمال أخميم(٤٠)، كما يضاف إلى أراضي الصعيد الأعلى : ثغر عيذاب على البحر الأحمر الذي كان يعد من أعمال قوص آنذاك(٤١)، والجدير بالذكر إن الكثير من مدن الصعيد الأعلى كان له دوره البارز في الحياة السياسية خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وأثر

تأثيراً واضحاً في سير الأحداث، فقامت بها الكثير من الاضطرابات التي أقلقت السلطة المركزية في العاصمة القاهرة[٤٢].

وقد تولى أمر الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وال من قبل السلطة المركزية في القاهرة، وكان يعين مع الوالي عامل للخراج وقاض، وكان القاضي يتم تعيينه من قبل قاضي القضاة[٤٣].

وبعد هذه المقدمة - التي أوضحت فيها (بإيجاز) تطور القضاء، وموقع الصعيد الأعلى وأهم مدنه، وكذلك أشرت فيها إلى مدى أهمية موضوع البحث الذي نحن بصدده - نذكر النقاط التي نتناول هذا الموضوع من خلالها، وهي على النحو الآتي: تعيين القضاة في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ثم نتحدث عن مذاهب القضاة في الصعيد الأعلى، ومكانتهم، ومهامهم، ثم معاوني هؤلاء القضاة، ثم ننهي الحديث في هذا البحث بذكر إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، خلال الفترة البحث، وفيما يلي تفصيل ذلك.

تعيين القضاة في الصعيد الأعلى:

احتفظ القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بمكانته السامية التي كان عليها في العاصمة القاهرة وباقي أنحاء مصر، خاصة وأنه بوصول الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م أضحت القاهرة، مثلها مثل بغداد أو قرطبة، مركز خلافة، وعرفت مصر منذ ذلك الحين منصب قاضي القضاة[٤٤] الذي كان يتم اختياره من الفقهاء الإسماعيلية، ويشترط عليه أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة[٤٥]، واستمر ذلك إلى أن نجح الناصر صلاح الدين الأيوبي في إزالة النفوذ الشيعي من مصر، وحرص على أن يكون قاضي القضاة شافعياً[٤٦]، وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم طوال العهد الأيوبي[٤٧].

وكان هناك قاضي قضاة يشرف على القاهرة والوجه البحري، وآخر يشرف على مصر (الفسطاط) والوجه القبلي[٤٨]، وكان قاضي قضاة مصر والوجه القبلي يعين سائر قضاة مصر والوجه القبلي[٤٩]، بمن فيهم من قضاة الصعيد الأعلى، كما كان عليه أن يضع لقضاته (نوابه) في الأقاليم الخطة التي يسيرون عليها في القضاء بين الناس، والأسس التي يستطيعون بفضلها أن يحتفظوا بهيبتهم أمام المتقاضين، وأخذ الحق للمظلومين[٥٠]، وممن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي نذكر: تاج الدين عبد السلام بن الخراط وقد صرف عنه في سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[٥١].

ثم أسند أمر قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة شرف الدين محمد بن عبد الله الاسكندراني، المعروف بابن أعين، والذي كان يلي أمر قضاء القاهرة والوجه البحري. وظل ابن أعين بجميع أمر قضاء مصر والوجه القبلي وقضاء القاهرة والوجه البحري معاً، إلى أن فصل أمر قضاء مصر والوجه القبلي عن ابن أعين، وأسند إلى القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري، في ربيع الآخر سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وما لبث أن صرف عنه في نفس العام[٥٢]. وتولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي بدلاً منه، وكان الشيخ عز الدين قد قدم من دمشق في سنة ٦٣٩هـ، وكان له مكانته العلمية والدينية، فلما وصل إلى مصر تلقاه سلطانها، الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وأكرمه وولاه قضاء مصر والوجه القبلي[٥٣]، غير أنه لم يستمر طويلاً وعزل نفسه، وولي بعده أفضل الدين محمد الخونجي، وظل في منصبه إلى أن مات سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٥٤].

وممن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي، وكان بيدهم أمر تعيين قضاة الصعيد الأعلى، نذكر أيضاً في أواخر العهد الأيوبي: قاضي القضاة صدر الدين موهوب بن عمر الجزري[٥٥]، ومنهم أيضاً قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص السبكي (٥٨٥-٦٦٩هـ/١١٨٩-١٢٧٠م)[٥٦].

وعلى أية حال، فقد كان قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تابعين لقاضي قضاة مصر والوجه القبلي فهم بمنزلة النواب عنه، وكانوا يسمون في بعض الأحيان بالحكام[٥٧]، وأشار الأدفوى في طالعه، عند حديثه عن القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني، إلى أنه كان حاكماً بأسوان في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وكانت ولايته للقضاء من جهة الخليفة العاضد الفاطمي، وأسند إليه قضاء أسوان واسنا وأرمنت[٥٨]. كما كان علم الملك الأدفوى تغلب بن أحمد بن جعفر بن يونس القاضي حاكماً بأدفو، واستمر لمدة سنتين في ولاية قضاء أدفو، وكانت وفاته في حدود سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م[٥٩]، في عهد الملك الكامل الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٧م)[٦٠]. كذلك كان فخر الدين القنائي القاضي حاكماً بقنا، في أوائل القرن السابع الهجري من جهة قاضي قضاة مصر والوجه القبلي آنذاك[٦١].

والجدير بالذكر أنه كما كان لأصحاب منصب قاضي القضاة مصر والوجه القبلي سلطة تعيين نواب عنه في أقاليم الوجه القبلي كان أيضاً من اختصاصاته عزلهم عن القضاء، ففي الصعيد الأعلى في أواخر العهد الأيوبي كان القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي، الفقيه الشافعي، يلي أمر القضاء في قوص، فجاءه يوماً كتاب قاضي القضاة بصرفه عن قضاء قوص دون أن يبين له سبب ذلك، ويبدو أن أحد الحاقدين عليه قد وشى به عند قاضي القضاة، فتوجه القاضي أحمد بن محمد بن هبة

الله الأرمنتى إليه، ليتبين أسباب ذلك، وحضر مجلس قاضى القضاة آنذاك وأنشده شعرا لنفسه[٦٢]، فأزال غضب قاضى القضاة عليه، وأصدر مرسوماً له بالاستمرار في نيابة القضاء بقوص[٦٣].

وظل القاضي أحمد بن أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتى يلي أمر القضاء في قوص حتى نهاية الدولة الأيوبية، وكان من الشعراء المجيدين والفقهاء المتأدبين، وقد قرأ الفقه على الشيخ الإمام أبى الحسن على بن وهب القشيرى بن دقيق العيد (٥٨١-٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م) وكان القاضي أحمد شديد الرحمة بالفقراء، وكانت وفاته في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[٦٤].

وكان يتم اختيار القضاة بعناية، وفقاً لشروط معينة، ومن أهم هذه الشروط التي يجب أن تتوافر فيما يتولى منصب القضاء: حبه للإنصاف والعدالة، ومعرفته بالفقه وأحكام الدين[٦٥]. ففي الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي كان يتم اختيار قضاته بدقة، ووفق الشروط المعروفة والتي نصت عليها كتب الفقه[٦٦]، ومن أبرز قضاة الصعيد الأعلى حينئذ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: القاضي الحسين بن إبراهيم بن جابر بن على الأدفوى، المعروف بابن أبى الزمام، المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[٦٧]. أما القاضي أبو على محمد بن حيدر العبدلى الأسوانى، فقد كان من ألمع قضاة الأعمال القوصية في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[٦٨].

ومن قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر المائة السادسة من الهجرة، والذين عرفوا بعد لهم وإنصافهم: القاضي البهاء بن العجمي، الذي كان يلي أمر القضاء باسنا وأدفو معاً[٦٩]، وكذلك كان القاضي كمال الدين بن شكر قاضي أسوان، في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م)[٧٠].

ومن قضاة الصعيد الأعلى البارزين، خلال العصر الأيوبي، نذكر: القاضي إسماعيل بن محمد بن حسان بن جواد بن على بن خزرج أبو الطاهر الأنصاري الشافعي، كان فقيهاً ومحدثاً، وتولى قضاء أسوان مدة ودرس بمدرستها أيضاً، ثم رحل إلى القاهرة وتوفي بها في السابع من شهر رمضان سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م[٧١]، في عهد الملك العادل الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م)[٧٢]، ومن القضاة النابهين في ذلك الوقت: القاضي الموفق عبد المنعم بن عبد الله بن محمد القفطى، الذي كان يلي قضاء مدينة قوص في حدود سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م[٧٣]، والقاضي مظفر بن نوفر بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن يونس الثعلبي الأدفوى، كان من قضاة أدفو في العصر الأيوبي، وعرف بعدله وعلمه، وتوفي بأدفو في سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م[٧٤].

ومن قضاة الصعيد الأعلى أيضاً، خلال العصر الأيوبي: القاضي أبو الفضل القنائى جعفر بن محمد بن عبد الرحيم القنائى، كان مولده بقنا سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م

ونشأ وتعلم بها، حتى صار شيخ عصره في الفقه الشافعي، وكان يفتي أكثر من خمسين سنة، ثم ولى أمر القضاء بالأعمال القوصية، ورحل إلى القاهرة وأقام بها يدرس بالمشهد الحسيني[٧٥]، وطال به العمر حتى توفي في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م[٧٦]، أما القاضي الحسين بن الحسين بن يحيى بن محمد بن أبي علي الأرمنتي. فقد كان من فضلاء عصره، وشعراء أرمنت وقضاتها المشهورين، وتوفي بها سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م[٧٧]. كذلك كان القاضي المفضل الأسواني عبد العزيز بن الحسن من قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر العصر الأيوبي، وكان قاضياً كريماً عادلاً محباً للعلم، وكانت وفاته في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[٧٨].

وقد ظهرت في الصعيد الأعلى، أبان العصر الفاطمي والأيوبي، بعض الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء، والتي كانت تهتم بالشرع وعلومه، ومن أشهر هذه الأسر نذكر: أسرة بنو الفضل في أسوان، وذكرهم الأدفوي بقوله: «كان بأسوان القضاة، الفضل وبنوه، وهم أهل علم وكرم ورياسة وحشم،ولهم في المناصب الدينية رسوخ قدم»[٧٩]، أما بنو يحيى في أرمنت، فقد عرفوا بأنهم أصحاب جاه ووجاهة ورياسة ومكارم ومناصب[٨٠]، كذلك كان بنو السديد في إسنا : بيت رياسة ووجاهة وتولى المناصب الدينية، فكان منهم القضاة والفقهاء[٨١]، ومنهم القاضي محمد بن عبد الوهاب بن علي بن السديد الإسنائي وكان شافعي المذهب، وتولى قضاء إسنا في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[٨٢]. وبمدينة إسنا أيضاً كانت هناك أسرة بنو النضر رؤساء أعيان[٨٣]، وكان منهم القضاة المشهورين أمثال القاضي علي بن النضر الإسنائي قاضي الصعيد الأعلى وكان يلقب (بقاضي القضاة)، وكان يتظاهر باعتناق مذهب الإسماعيلية خوفاً من الفاطميين، وتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م[٨٤]، في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٢٩م)[٨٥]، ومن قضاة بني النضر أيضاً : القاضي أبو المظفر بن النضر الذي كان يلي أمر القضاء في إسنا في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م في أواخر العصر الأيوبي[٨٦].

ومن الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء أسرة بنو الزبير الأسواني ومنهم: إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير القرشي الأسواني القاضي،وكان قد تولى قضاء قوص وأعمالها في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م[٨٧]، وكان يلقب بالقاضي الرشيد الموفق ثقة الملك[٨٨]، أما حفيدة القاضي الرشيد[٨٩]، الذي يعرف بالقاضي الرشيد بن الزبير، فقد كان قاضياً على الصعيد الأعلى في أيام وزارة المأمون البطائحي[٩٠]، وتوفي القاضي الرشيد في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[٩١]، كذلك كانت أسرة بنو عبد الظاهر من الأسر التي تولى بعض أفرادها القضاء في نواحي الصعيد الأعلى، فقد كان بنو عبد الظاهر بيت رياسة وعدالة بقوص، ومن أبرز قضاتهم القاضي ذخيرة الدين،

محمد بن عبد الظاهر بن عبد المولى، القرشي الهاشمي القوصي، وكان قاضياً بقوص، ثم تولى القضاء بالقاهرة وكان موجوداً في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٩٢].

مذهب القضاة في الصعيد الأعلى:

أما عن مذهب القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ففي عهد الفاطميين سار القضاة على المذهب الشيعي، خاصة وأنه قد أصبحت رياسة القضاء في يد الإسماعيلية الشيعيين، وعين القضاة، ومعظمهم من الإسماعيلية، وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الإسماعيلية، لا بمذهب الشافعي أو غيره من أئمة المسلمين[٩٣]، وتأثر الصعيد الأعلى بسياسة الفاطميين الرامية إلى نشر مذهبهم وسيادته في أنحاء البلاد، وما زالوا على ذلك حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير، واعتنقوا المذهب الشيعي رغبة أو رهبة[٩٤]، وغلب على العديد من مدن الصعيد الأعلى التشيع مثل أسوان، وأدفو التي انتشر بها التشيع بصورة كبيرة، فكان أهلها طائفتين الإسماعيلية والأمامية، وكذلك كان التشيع منتشراً في أرمنت[٩٥]، وإسنا التي كان بها التشيع فاشياً[٩٦]، كذلك كانت بلدة أسفون[٩٧] التي وصفها ابن دقماق بأنها معروفة بالتشيع الشنيع، ولكنه خفي منها وقل بعد ذلك[٩٨]، وقد نجح الفاطميون إلى حد كبير في نشر مذهبهم بمدن الصعيد الأعلى مما كان له أثره الواضح على القضاء هناك في عهدهم.

ولكن الأمر تبدل وتغير بمجئ صلاح الدين الأيوبي، الذي أخذ على عاتقه مهمة القضاء على المذهب الشيعي فبدأ بقطع خطبة الفاطميين[٩٩]، وامتدت أيديه إلى مدن الصعيد الأعلى لإزالة المذهب الشيعي من هناك، حتى قل إتباعهم واضمحل نفوذهم[١٠٠]، وانحسر التشيع في أماكن بعينها، واستمر صلاح الدين في محاربة التشيع حتى فقد من أرض مصر كلها[١٠١]، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة فقام بعزل قضاة مصر الشيعة، وقطع أرزاقهم وولى بدلاً منهم قضاة سنية على المذهب الشافعي الذي كان يتبعه غالبية المصريين قبل مجئ الفاطميين إلى مصر[١٠٢].

ففي الصعيد الأعلى كان المذهب الشافعي أكثر المذاهب الفقهية انتشاراً بمدنه، قبيل امتداد النفوذ الفاطمي إليه، وتمتع الصعيد الأعلى بوجود نخبة كبيرة من فقهاء الشافعية البارزين، من أشهرهم في أسوان على سبيل المثال: أبو ضيف الأسواني المتوفي سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م[١٠٣]، وكذلك الفقيه أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني الأديب الشاعر، المتوفي في سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م[١٠٤]، لذا سرعان ما عاد نفوذ الشافعية من جديد، بعد زوال نفوذ الشيعة أمام جهود صلاح الدين الأيوبي الذي شرد دعاتهم وألغى مجالسهم[١٠٥]، وحل القضاة الشافعية محلهم في القضاء[١٠٦].

وذاع صيت القضاة الشافعية في الصعيد الأعلى، وذلك لعدلهم وحسن سيرتهم بين الناس، ومن بين هؤلاء القضاة : القاضي أبو طاهر الأنصاري إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني، الذي كان يلي قضاء أسوان في العصر الأيوبي وكان قد رحل إلى بغداد لطلب العلم، وتفقه على يد كبار علمائها ثم عاد إلى وطنه، وكانت وفاته سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م[١٠٧].، ومما ينبغي الإشارة إليه؛ أنه إذا كان المذهب الشافعي هو السائد في العهد الأيوبي، وأن السواد الأعظم من القضاة كانوا شافعية، إلا أنه كان يوجد البعض من القضاة السنة ليسوا شافعية، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه الأدفوي بأن قاضى قنا الحسين بن رضوان القنائي[١٠٨] كان مالكي المذهب، وكان عالماً، وربما تولى أمر قضاء قنا من جهة قاضى القضاة بمصر[١٠٩].

وأياً ما كان الأمر فقد وقف القضاة والعلماء أيضاً في وجه بقايا الشيعة، في بعض مدن الصعيد الأعلى التي ما زال بها أتباع للشيعة الإسماعيلية، فمن العلماء الذين أخذوا على عاتقهم ضرورة القضاء على التشيع واتبعوا في ذلك كافة الطرق، بعقد حلقات الدرس في المساجد - العالم الفقيه النحوي شيث بن إبراهيم بن الحاج القفطى، (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م)، الذي لم يدخر جهداً في التصدي للشيعة في قفط وغيرها[١١٠] من مدن الصعيد الأعلى، كذلك استطاع على بن هبة الله بن دقيق العيد القشيرى المنفلوطي[١١١]، ثم القوصى (٥٨١-٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م)، أن يزيل المذهب الشيعي ويجرى المذهب السني على أسلوب حكيم، فقد كان ابن دقيق العيد يجمع بين العلم والعبادة، والورع والتقوى والزهد، والإحسان إلى الناس مع اختلافهم، وكان كثير التردد إلى والى قوص في قضاء حوائج الناس، وتولى أمر التدريس بالمدرسة النجيبية بقوص في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وظل بقوص حتى مات في سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م[١١٢].

ومن بين القضاة الذين تصدروا لبقايا الشيعة في الصعيد الأعلى: القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العذري، الذي كان قاضيا لإسنا في أوائل القرن السابع الهجري، وكان يطلق عليه فاتح إسنا، لأنه قضى على التشيع بها[١١٣]، وألف كتابا لمحاربة التشيع أسماه: النصائح المفترضة في فضائح الرافضة[١١٤]، وامتد العمر بالقاضي هبة الله، فكان مولده في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وتوفي في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م[١١٥].

ونتيجة لذلك، فقد اندثر التشيع في الصعيد الأعلى في العصر الأيوبي، وأصبح من الأمور المشينة، التي إذا ادعى بها على أحد أمام السلطة الحاكمة، يتعرض إلى القبض عليه وتصادر أمواله[١١٦]، وإذا كان صاحب سلطة يستبعد من منصبه، ففي مجال القضاء نذكر القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن النخعى القوصى، الذي كان يتولى قضاء الأعمال القوصية، وكانت له الصدارة والرياسة والمكانة

الكبيرة، وتصدر أيضاً للفتوى والخطابة بقوص، فرماه بعض الحاقدين عليه بالتشيع وأنه رافضي[١١٧]، ثم حكم بسقوط عدالته واستبعد عن القضاء فغادر قوص إلى القاهرة وتوفي بها في سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م[١١٨]، في عهد الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م)[١١٩].

مكانة القضاة في الصعيد الأعلى:

تبوأ قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، مكانة كبيرة لدى السلطة الحاكمة آنذاك، فتمتعوا بثقة السلطة المركزية في القاهرة، وكان ذلك نتيجة لمكانتهم الدينية والعلمية البارزة، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنهم من عدل ونزاهة فذاع صيتهم، ونالوا بذلك ثقة الخلفاء الفاطميين، وكذلك السلاطين الأيوبيين من بعدهم، ففي العهد الفاطمي كان الكثير من قضاة الصعيد الأعلى محل تقدير الخلفاء ورجال دولتهم، فقد كان القاضي «حيدر بن الحسين القوصى»، متولي القضاء بالأعمال القوصية في النصف الأول من القرن السادس الهجري، يلقب «بالقاضي النفيس ثقة الخلافة»[١٢٠]، كذلك كان القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني قاضى أسوان سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، ممن نالوا ثقة الخلافة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي، ولقبه برضي الدولة[١٢١].

ولم يكن قضاة الصعيد الأعلى في عهد الدولة الأيوبية أقل مكانة عن سابقيهم في العهد الفاطمي، بل كان حكام الدولة الأيوبية يقدرونهم وينزلونهم مكانة عالية لديهم، فيذكر أن القاضي علم الملك الأدفوى، المتوفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، قاضى أدفو، كان الملك الكامل يكاتبه، مما يدل على عظم مكانته لديه[١٢٢].

كما كان للقضاة مكانة رفيعة لدى العامة والخاصة من أهالي الصعيد الأعلى، فكان يقدرهم العلماء والأدباء وغيرهم، فقد حدث أن حضر مرة قاضى قوص إلى أسوان، فخرج منها أربعمائة راكب بغلة للقائه[١٢٣]، وكان أكثرهم من العلماء، إذ كانت أسوان، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بها الكثير من أهل العلم والدراية والأدب[١٢٤]، وحظي القضاة في هذا العصر بمدح الشعراء، فنجد الشاعر داود بن الحسن الإسنائى، الذي يعد من أشهر شعراء عصره في الصعيد الأعلى، يمدح قاضى إسنا نجم الدين البهنسي لعدله وحسن سيرته في الناس[١٢٥]، كما حدث أن أحد قضاة أرمنت قد مدحه، في أحد الأعياد، خمسة وعشرون شاعراً من مدينة إسنا[١٢٦].

وليس أدل على ارتفاع منزلة قضاة الصعيد الأعلى، لدى رجال العلم والأدب أيضاً، ما قام به أحد أدباء قوص، ويدعى الأديب الفاضل على بن صادق بن على بن محمد بن محمد الخزرجي، من مدح القاضي محمد بن إبراهيم بن محمد بن على بن رفاعة القرشي القوصى، قاضى الأعمال القوصية في العصر الأيوبي، وقد مدحه على

بن صادق بقصائد كثيرة، وكان القاضي محمد بن إبراهيم من أشهر قضاة قوص لعلمه الواسع في كثير من العلوم، وكان ينعت بالكمال، ويكنى بأبي الفتوح، فجمع الأديب الفاضل على بن صادق هذه المدائح في كتاب وقفاها على حروف المعجم، وعمل فيها مقدمة وصفه فيها فقال: «إن القاضي أبا الفتوح، أطال الله بقاءه إطالة، تمدح بأصناف البلاغات، وتمنح بألطاف الكرامات، ويرقى سعدُها في أعلى المنازل، ويبقى مجدها في أمنع المعاقل، متحوفة بتحقيق الآمال، محفوفة بتوفيق الأقوال والأفعال»، وظل القاضي أبا الفتوح، طوال فترة توليه القضاء في الأعمال القوصية، يتمتع بمنزلة كبيرة لدى الناس لعدله وعلمه حتى توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م(١٢٧).

مهام القضاة في الصعيد الأعلى:

تنوعت مهام القضاة واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فكانت سلطة القاضي غير قاصرة على الأعمال القضائية، بالإضافة إلى الأمور المتعلقة بالقضايا الدينية والمدنية والنظر في الجرائم والشرطة(١٢٨)، بل أسندت إليهم أيضاً بعض الأمور الدينية التي ليس لها علاقة بالقضاء، وضمت إلى نظر القاضي بسبب معرفته للشرع الإسلامي، وأصبحت مقررة في سلطته واختصاصاته، فكانت الأعمال الإضافية تتكون غالباً من الصلاة والخطابة في الجوامع، والإشراف على الأماكن الدينية، والإشراف على أموال الغائبين المفقودين، وغير ذلك من الأعمال الأخرى(١٢٩).

ومن بين هذه الأعمال التي أسندت إلى القضاة آنذاك : مراقبة أموال اليتامى(١٣٠)- أي الإشراف عليها- وكان المتبع في نواحي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، عند وفاة أحد الأثرياء وعظم ثروته، أن يوكل الوالي أحد القضاة لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها، ففي أواخر العصر الأيوبي، على سبيل المثال، عندما مات أحد تجار مدينة إسنا وترك بعد وفاة تركة كبيرة، انتدب لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها قاضي قوص نجم الدين عمر بن إبراهيم البهنسى(١٣١).

كذلك تولى قضاة الصعيد الأعلى الإشراف على أموال الأحباس(١٣٢).التي كانت تعد من موارد الدولة وهى الأموال الموقوفة على المساجد والمدارس وغيرها(١٣٣). وكان ناظر الأحباس بقوص في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م على بن محمد الإسنائى(١٣٤). وقد عظم أمر الأحباس في الصعيد الأعلى خلال العهد الفاطمي وظل أيضاً على مكانته طوال العهد الأيوبي، إذ كان أهالي الصعيد الأعلى الأثرياء يتسابقون في وقف الأوقاف، ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قام أحد أهالي إسنا، ويدعى أحمد بن على الإسنائى ببناء مدرسة بها ووقف عليها أملاكاً جيدة، ووقف على الفقراء بإسنا أملاكاً جيدة أيضاً(١٣٥)، وإلى جانب ذلك، كان يوكل للقضاة الإشراف

على دور الضرب، ففي الصعيد الأعلى أسند لقاضي قوص الإشراف على دار الضرب بقوص[١٣٦]، كذلك كان يوكل لبعض القضاة بعض المهام الأخرى مثل: الإشراف على المنشآت الدينية، ففي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أسند للقاضي أبي الحسين على بن النضر، قاضي أسوان، مهمة الإشراف على بناء مسجد النضر[١٣٧]، وذلك من قبل الأمير بدر الجمالي (٤٨٧هـ/١٠٩٤م؟) [١٣٨]، كما كان من مهام القضاة في ذلك الوقت أيضاً: تفقد الجوامع والمساجد والإشراف على صيانتها ونظافتها وجمالها، وكان القضاة يحرصون أن لا يدخلها إلا من كان مصلياً أو عالماً أو متعلماً أو مستمعاً[١٣٩].

ومن بين المهام التي أسندت للقضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، الإمامة في الصلاة والخطابة، وذلك لما توافر فيهم من تفقه في أمور الدين، وبراعة العديد منهم في الخطابة، ومن أشهرهم : القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، قاضي أسوان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م في أيام الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، فقد كان خطيب أسوان بلا منازع[١٤٠]، كذلك كان القاضي أبو المظفر بن النضر من القضاة والخطباء البارعين في بلدة إسنا، في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وذاع صيته في أنحاء الصعيد الأعلى خلال العهد الأيوبي[١٤١]. وكان أيضاً عبد الرحمن بن محمد النخعي القوصى المتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م من أشهر خطباء قوص وقضاتها[١٤٢].

وعلى الرغم من كل تلك المهام التي كان يقوم بها القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إلا أنهم لم يكونوا بعيدين عن الأهالي، بل كانوا قريبين منهم، ووقفوا بجانبهم في حل ما شجر بينهم، وإزالة كل المشاكل التي تواجههم، فحينما وقعت المناوشات بين أسرة بني السديد بإسنا، وبين عبد القوى بن عبد الرحمن الإسنائى (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) الذي تولى الخطابة بإسنا بعد أبيه فاعترض بنو السديد على ذلك، لأنه كان عاقاً لأبيه وأحضر بنو السديد من شهد على عبد القوى الإسنائى بذلك، واشتد الأمر بينهما حتى حضر قاضي قوص آنذاك ليفصل بينهما، وأسند الخطابة لأحمد بن السديد، وذلك عندما ثبت لديه عدم رغبة الناس في عبد القوى الإسنائى، فكان تدخل القاضي سبباً في حسم النزاع بين الطرفين، وهدأت الأوضاع بإسنا[١٤٣].

كما نجح القاضي نجم الدين عمر البهنسى قاضي مدينة إسنا، أواخر العصر الأيوبي، في مساعدة أحد شباب مدينة إسنا ويدعى داود بن الحسن بن منصور الإسنائى، وتوسط له في الزواج من المرأة التي يريد أن يتزوجها، وذلك بعد إقناع أهلها به وكانوا رافضين في أول الأمر واستقر الحال بعدها لداود بن الحسن بن منصور الإسنائى وطال به العمر إلى أن توفي في بداية القرن الثامن الهجري[١٤٤].

وعلى أية حال، فإن وساطة القاضي نجم الدين البهنسى هذه، من الأمور التي تدل على مدى مشاركة القضاة في الصعيد الأعلى للناس في حل مشاكلهم، وذلك على الرغم من أن عمل القاضي الأساسي كان الفصل في الخصومات المدنية والجنائية، وقضايا الأموال الشخصية والمعاملات، إلا أنه كان يجمع بين هذه الاختصاصات والأعمال الأخرى التي لا تقل أهمية وخطورة عما سبق، والتي شملت حق النظر في أمور عدة جعلت سلطته كبيرة، ونفوذه عظيماً، وقريباً من الناس(١٤٥).

كما شارك القضاة في الصعيد الأعلى الناس في العديد من احتفالاتهم، ففي معظم المناسبات الدينية الإسلامية، كان الأهالي في مدن الصعيد الأعلى يقيمون الاحتفالات الدينية في الزوايا والمساجد، ويلقون القصائد الجميلة في مدح الرسول ﷺ وتلاوة القرآن الكريم، ومن أهم هذه الاحتفالات : الاحتفال بموسم الحج، ففي مدينة قوص كان يقام احتفال عظيم بهذه المناسبة، خاصة وأن قوص كانت مركزا لتجمع الحجاج، فيجتمع الأمراء والوجهاء والفقهاء والصوفية والقضاة للذهاب إلى الحج، وكانوا يقضون الأشهر الطوال بقوص، وكانوا يأتون من مختلف الجهات الإسلامية، وكانوا يقيمون الندوات الإسلامية داخل المساجد، طوال مدة إقامتهم أثناء رحلة الذهاب والعودة، وكان قضاة قوص يشاركونهم في هذه الاحتفالات(١٤٦).

كذلك كان لقضاة الصعيد الأعلى مشاركات واضحة في الاحتفالات التي تقام في أنحاء الإقليم، وخاصة بمناسبة افتتاح دور العلم أو المساجد، حيث كانت العادة المتبعة، عند إنشاء مسجد أو دار علم، أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً رسمياً، فيمد السماط ويحضر الأمراء والولاة وعلية القوم، والعلماء والفقهاء والقضاة، ثم يقوم الشعراء وينشدون قصائدهم، ويلقى الخطباء خطبهم، التي يمدحون فيها هذا العمل الإنساني المهم عند المسلمين، وقد ظهر العديد من خطباء الصعيد الأعلى وعلمائه وقضاته الذين كانوا يسهمون بالاشتراك في هذه الاحتفالات الجليلة(١٤٧)، ففي مدينة قوص، عندما أنشأ والى قوص سابق الدين دار الحديث بقوص، وأسند للإمام أبى الفتح محمد بن على بن وهب القشيرى(١٤٨) إدارتها والتدريس فيها، وأقيم الاحتفال بهذه المناسبة، فشارك في افتتاحها القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس الشافعي، (ت٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، قاضى قوص، وكانت له خطبة طويلة أثنى فيها على منشئ هذه الدار وأهميتها للمسلمين، وأشاد بالإمام أبى الفتح محمد القشيرى القائم على هذه الدار ومدرسها الأول(١٤٩)، وقد كشفت هذه الخطبة عن قدرة القاضي أحمد بن هبة الله على الخطابة ومكانته، وحرص القضاة في الصعيد الأعلى، آنذاك، على الإسهام في هذه المناسبات المهمة لأهالي الإقليم.

معاونو القضاة في الصعيد الأعلى:

كان لاتساع مهام القضاة واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أن وجد من يعاونهم في أداء مهامهم ومعاونتهم لإقرار العدل بين الناس، شأنهم في ذلك شأن باقي قضاة مصر، فكان هناك الشهود والأمناء والكتاب وغيرهم، وفيما يأتي ذكر هؤلاء المعاونين للقضاة في الصعيد الأعلى، وذلك بالقدر الذي أفصحت عنه المصادر التي بين أيدينا.

- الشهود:

كان الشهود من أوائل المعاونين للقضاة، وتعد الشهادة من الوظائف الدينية المهمة التي يقوم بها الشهود العدول(١٥٠) التابعين للقضاء(١٥١)، وذلك لأن الشاهد دليل يمشى القضاء على منهاجه ويستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه(١٥٢)، ويعاونون القاضي في أداء مهامه القضائية، وكان يُعرف الشاهد منهم باسم شاهد العدل، ويعرف رئيس الشهود باسم مقدم الشهود(١٥٣)، وقد كثر الشهود في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حتى إنه كانت لهم «حوانيت خاصة بهم»(١٥٤) في مدن الصعيد الأعلى مثل مدينة قوص(١٥٥)، وكان يطلق على كل منها : «حانوت الشهود»(١٥٦).

وكان يتم تعيين هؤلاء الشهود واختيارهم من قبل القضاة، وكان معظمهم من الفقهاء، فأورد لنا الأدفوى ما يدل على ذلك، عندما تحدث عن أحد فقهاء قوص ويدعى : عثمان بن مفلح أبو عمرو النجيب، في النصف الأول من القرن السابع الهجري، فقال:... وكان القاضي بقوص أراد أن يثبت عدالة عثمان بن مفلح ويجلسه بحانوت الشهود بقوص، غير أن عثمان بن مفلح لم يتمكن من ذلك، لوقوف جماعة من سادة قوص لمنعه، حسداً منهم لعثمان بن مفلح في أن ينال ذلك، ولعل هذا يبين لنا مدى مكانة الشهود في المجتمع آنذاك، حتى كان يُحسد من يوكل إليه هذا الأمر، ولم يقف عثمان بن مفلح مكتوف الأيدي أمام ذلك، ولجأ إلى قاضي القضاة في مصر حينئذ، والذي سمع شكايته وما فعله أعيان بلده به، واعتراضهم على انضمامه إلى حانوت الشهود بقوص، فكتب قاضي القضاة إلى قاضي قوص بإجلاسه بحانوت الشهود بقوص وإكرامه(١٥٧)، وعاد عثمان بن مفلح، وظل معززاً مكرماً في قوص، حتى رحل عنها بعد ذلك، وقام بالتدريس بالمدرسة العزية بإسنا، وكانت وفاته سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م(١٥٨).

وجدير بالذكر، أنه لما كان الشهود العدول يختارهم القاضي ويعزلهم بنفسه، فإنهم كانوا يعزلون بعزله أو موته أيضاً(١٥٩)، وكان عدد الشهود يزيد وينقص حسب ما يرى القاضي، وحالة الناس في المجتمع، فإذا ما تفشى الانحلال في المجتمع فإن

القاضي كان يستكثر منهم، وكان عدد الشهود- بصفة عامة في المتوسط - يبلغ نحو ثلاثين شاهداً[١٦٠]، ففي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، لم تعطنا المصادر التي بين أيدينا أعدادهم ولكن يمكننا القول بأن تواجد الشهود بالحوانيت الخاصة بهم، كحانوت الشهود بقوص، يدل على أن أعدادهم لم تكن بالقليلة، ولذا كانوا يتجمعون في مكان خاص بهم.

وكان الشهود يحضرون مجلس الحكم والقضاء، فإذا حضر القاضي المجلس جلس الشهود المعدلون حول القاضي، عن يمينه ويساره، على مراتبهم في أقدمية تعديلهم ويشاهدون ما يقع من الأحكام[١٦١]، وكان القاضي يتصفح أعمال الشهود ويتابع حسن سيرتهم، ليطمئن على عدالتهم، ويأخذ القاضي برأيهم فيما له علاقة بالمتخاصمين. وكان اختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام[١٦٢]، وقد اقتصر بعض الشهود على الشهادة في بعض القضايا دون الأخرى، منهم شهود القيمة[١٦٣]، وهي تكون عند تقويم ما يتنازع فيه الشركاء والتوصل للتقسيم، ويتولى هذا في اصطلاح العصر الخبراء[١٦٤]، وهناك شهادة الأيتام[١٦٥]، ومن الذين اقتصروا على شهادة الأيتام بقوص: الفقيه مظفر بن حسن المجد الإسنائي، وكان دائم الجلوس بحانوت الشهود بقوص، في أواخر العصر الأيوبي، وطال به العمر، وكانت وفاته سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[١٦٦].

وقد تمتع الشهود العدول، في الصعيد الأعلى، بثقة القضاة والناس، وذلك لما يتمتعون به من علم ودراية بما أسند إليهم، فكان أبو بكر محمد بن إبراهيم بن خالد الأسواني، (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، مقبول القول عند القضاة[١٦٧]، كذلك كان الفقيه عبد الرحيم بن على الفخر القصوى من الشهود العدول، المعروفين بالأمانة والصدق، وذكره الأدفوى بأنه «اطلع على مكتوب تزكيته والشهادة له بالاتصاف بصفات العدالة والعلم، وإثبات الحكم بقوص في سنة ٦٤٨هـ»[١٦٨]، أيضاً كان على بن مظفر الثعلبي الأدفوى (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م) من الشهود العدول ببلدة أدفو، ومن مقبولى القول عند قضاتها[١٦٩]، ومن الشهود العدول الذين نالوا ثقة القضاة بمدينة قوص: على بن إبراهيم بن عبد الملك القصوى، الذي كان من أبرز علماء قوص ومحدثيها في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م[١٧٠].

- **الأمناء والكتاب**:

ومن أعوان القضاة أيضاً : الأمناء (أمناء القاضي) وهم الذين يتولون التحفظ على أموال الأيتام الغائبين[١٧١]، في الصعيد الأعلى، ومن أشهر الأمناء آنذاك بقوص: نور الدين على بن إبراهيم بن عبد الملك القوصي، وكان من خيار الناس بقوص وعقلائها، عادلاً ثقة، وكانت وفاته سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م[١٧٢]، كذلك كان يعاون القضاة

بالصعيد الأعلى بعض الكتاب[١٧٣] لتسجيل القضايا وأحكامها[١٧٤]، فكان كاتب الجلسة يقوم بتدوين كل ما يدور فيها تحت سمع القاضي وبصره، وتأكيداً لصحة ما دوّن كان يكلف بقراءة ما كتبه على شهود الجلسة، ولذلك كان الكاتب يختار بدقة من العدول الأمناء، حتى لا يضعف أمام رشوة أو محسوبية لقرابة[١٧٥]، ومن أمثلة هؤلاء الكتاب في الصعيد الأعلى : الفقيه إسماعيل بن يوسف بن حلى بن هبة الله، المكنى بالصدر القوصى المستملى فقد كان يتولى كتابة مجالس الحكم والقضاء بقوص، وكان إلى جانب ذلك فقيهاً فاضلاً محدثاً[١٧٦].

وهناك من يعاونون القضاة في الصعيد الأعلى في أداء مهامهم، من غير الشهود العدول والأمناء والكتاب، وهم الذين كانوا يباشرون التوقيع للقضاة، ونذكر منهم : أحمد بن ناشر بن عبد الله القوصى المولد سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وكان من علمائها المعروفين بالأمانة والعدل بين الناس، وباشر التوقيع للقضاة، ثم تولى قضاء قوص بعد ذلك، وطال به العمر حتى توفي في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م[١٧٧]، كذلك كان هناك الحجاب الذين يقفون خارج مجلس القضاة عند الباب ومعهم صاحب الشرطة[١٧٨].

- مجالس القضاة في الصعيد الأعلى:

كانت مجالس القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تتميز بالبساطة فقد استمر جلوس القاضي للحكم، بنفس البساطة التي كان عليها في جميع أنحاء مصر الأخرى، فكان يجلس القاضي في الغالب في المسجد، ولم يكن الجامع، كما في أيامنا، مهيئاً للصلاة فحسب، وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل في أمور الناس[١٧٩]، والجدير بالذكر أن القضاة قد حرصوا على عقد مجالس القضاء في كنف المساجد، لارتباط أحكام القضاء بالشريعة الإسلامية، طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليطمئن كل إنسان على الحصول على حقوقه كاملة[١٨٠]، وكان في الجامع مكان معين يجتمع فيه القاضي بالخصوم، يعرف باسم «مجلس الحكم»[١٨١]، كما كانت تعقد مجالس القضاء في دار القاضي أيضاً[١٨٢].

وكان مجلس الحكم يعقد علناً في أيام محددة[١٨٣]، ويتكون عادة من: القاضي، والشهود العدول، والموقعين الذين يكتبون ما يدور في الجلسة، والحجاب الذين يدخلون المتخاصمين، وعادة كان القاضي يجلس في وسط المجلس، وقد تزيا بالبياض إذا كان شيعياً، وبالسواد إذا كان سنياً، ووضع على منكبيه الطيلسان زى القضاة، الذي هو عبارة عن طرحة وعقد بوسطه سيفاً، ويكون جلوسه على مخدة، وخلفه مسند، وأمامه كرسي توضع عليه الدواة، والشهود العدول عن يمينه وعن يساره[١٨٤].

- إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى:

شاهد الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حركة علمية وأدبية نشطة في كافة أنحاء مدنه، التي كانت تضاهي باقي عواصم مصر الكبرى، مثل الفسطاط، والقاهرة، والإسكندرية، فقد كانت مدينة قوص عاصمة الإقليم تزخر بنخبة من العلماء والأدباء في كل علم وفن(١٨٥)، وبها العديد من المدارس التي قدرت بحوالي ست عشرة مدرسة(١٨٦). هذا بالإضافة إلى دار الحديث النبوي الشريف(١٨٧)، أما مدينة أسوان فكانت تعد هي الأخرى من كبريات مدن الصعيد الأعلى، وخرج منها الكثير من أهل العلم والرواية والأدب(١٨٨)، وبها نحو ثلاث مدارس(١٨٩)، كما اشتهرت مدينة إسنا بعلمائها وأدبائها البارزين، حتى قيل أنه كان بها في وقت واحد سبعون شاعراً، وكانت بها مدرستان(١٩٠)، وقد نسبت إلى إسنا بعض الأسر التي كانت لها اهتماماتها العلمية الظاهرة، ومنهم : بنو السديد، وبنو الخطيب، وبنو شواق، الذين كانوا أصحاب علم وفضيلة وأدب(١٩١)، أما أرمنت فقد ازدهرت فيها الحياة العلمية والأدبية، وخرج منها أفاضل العلماء والأدباء والشعراء، وكذلك كانت مدينة فقط، وأيضاً مدينة قنا، من أجل مدن الصعيد بفضل علمائهما وأدبائهما(١٩٢)، وأياً ما كان الأمر، فقد خلف لنا علماء هذه المدن مصنفات عدة في شتى العلوم التي تدل على نبوغهم وعلمهم الغزير، فأسهموا بنصيب وافر في النهضة العلمية والأدبية بالصعيد الأعلى.

وأسهم قضاة الصعيد الأعلى بقسط كبير في هذه النهضة العلمية والأدبية، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فقد كانوا كسائر قضاة مصر، يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء والفقهاء والمحدثين، بل كان من بينهم عدد كبير من البارزين في علوم اللغة والأدب والشعر، وكذلك في العلوم العقلية، كالطب والفلك والفلسفة وغيرها، كما شارك العديد من قضاة الصعيد الأعلى في التدريس بمدارس قوص وإسنا وأسوان وغيرها، ووضعوا لنا الكثير من المصنفات في مجالات عدة.

ففي مجال العلوم الدينية : برع الكثير من قضاة الصعيد الأعلى في علم الفقه، فمن بين هؤلاء القضاة كان القاضي الفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني الأنصاري الشافعي، (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، محباً للعلم كثير الرحلة في طلبه فرحل من بلده أسوان إلى بغداد، وتفقه على كبار علماء عصره، وحدث بها ثم عاد وولى قضاء أسوان، وشارك في التدريس بمدرستها(١٩٣).

كما كان القاضي أبو الفتوح محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن رفاعة القرشي القوصي، من أبرز قضاة الصعيد الأعلى وعلمائه في علم الفقه والأصول، وكذلك التفسير والنحو واللغة(١٩٤)، ومدحه الشعراء لسعة علمه، وذكر أنه «صاحب

علم ثاقب، استوعب أصول الفقه والدين استيعاباً أفحم به فرسان الجدل»[١٩٥]، وكانت وفاة القاضي أبى الفتوح بعد الستمائة من الهجرة في مدينة قوص[١٩٦].

ومن القضاة الذين برزوا في مجال الفقه الشافعي: القاضي أحمد بن محمد بن إسماعيل بن على البعلبكى[١٩٧]، وقد نزح الفقيه أحمد البعلبكي المولد والإسنائى الموطن، من مدينة بعلبك، إلى مدينة إسنا، وكان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، وقد اشتغل فترة من عمره بالفقه بمدارس بغداد، ثم رحل إلى مصر وتولى القضاء بمدينة قمولا[١٩٨]، ثم أدفو، ثم استوطن إسنا وخلف أولاد بها، وكانوا من علماء الفقه المعروفين باسنا أيضاً، وكانت وفاة القاضي والفقيه البعلبكي في سنة ٦٧٠هـ/١٢٦٩م بإسنا[١٩٩]. كذلك كان القاضي جمال الدين محمد بن عبد الوهاب بن على بن السديد الإسنائى، قاضى إسنا في وقته، من فقهاء المذهب الشافعي المعروفين، وقد مات بإسنا سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[٢٠٠]، بعد أن بذل جهد كبير في ازدهار الفقه الشافعي، وذاع صيته بالصعيد الأعلى، فقد كان القاضي والفقيه جمال الدين ينسب إلى أسرة بنى السديد التي اشتهرت بالعلم والرياسة بإسنا[٢٠١].

أما القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطى (٦٠٠-٦٧٩هـ/١٢٠٣-١٢٨٠م) قاضى إسنا، فقد كان من أكابر العلماء والمثقفين، وتتلمذ على يديه العديد من الفقهاء والعلماء، ولم يتوان في الاشتغال بالعلم بجانب القضاء، وبرز في العديد من العلوم، ودرس في عدد من المدارس حتى قيل عنه: إنه على معرفة بعشرين علم[٢٠٢]، فذكر السيوطي: "أنه انتهت إليه رياسة العلم في إقليمه (الصعيد الأعلى)، وصنف تفسيراً وكتباً كثيرة في علوم متعددة"[٢٠٣].

ومن قضاة الصعيد الأعلى، النابهين في مجال الفقه، القاضي إسماعيل بن هبة الله بن على بن الصنيعة، المعروف بعز الدين الإسنائى، فقيه إسنا وقاضيها، وكان قد ترك إسنا وذهب إلى مدينة حلب[٢٠٤]، بعد أن مكث بالقاهرة فترة، وتولى بحلب نظارة الأوقاف، غير أنه لم يلبث بها طويلاً، واتهم بالتشيع ونفي ذلك عن نفسه، وألف كتاباً في فضائل أبى بكر الصديق ﷺ، ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها إلى أن توفي في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٤م[٢٠٥].

ومن القضاة المحدثين (حفاظ الحديث)، قبل العصر الفاطمي، بالصعيد الأعلى: القاضي إبراهيم بن موسى الأسواني، وهو من مواليد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[٢٠٦]، وقد قرب القضاة إليهم حفاظ الحديث، وعملوا على توجيههم حتى نهضوا بعلم الحديث، فكان هناك الكثير من حفاظ الحديث موضع ثقة عند القضاة في الصعيد الأعلى ومن المقربين إليهم، ومنهم: محمد بن إبراهيم بن خالد أبو بكر الأسواني، المتوفى سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م، وقد حدث عن كبار محدثى عصره، وكان

مقبول القول عند القضاة بأسوان(٢٠٧)، واستمر تشجيع القضاة للمحدثين في الصعيد الأعلى، في العصر الفاطمي، ومن أمثلة هؤلاء : محمد بن هلال الأسواني، المتوفي سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م(٢٠٨)، وكذلك كان إبراهيم بن أحمد الأسواني، المتوفي سنة ٤١٠هـ(٢٠٩)، ومحمد بن عتيق الأسواني، المتوفي سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م(٢١٠)،من الحفاظ الثقات الذين تأثر بهم القضاة بنواحي الصعيد الأعلى.

ومن قضاة الصعيد الأعلى الذين أسهموا في ازدهار علم الحديث ونبغوا فيه، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي : القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، الذي كان من أبناء أسوان، وولاة الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م) قضاء أسوان وإسنا وأرمنت، عام ٥٥٨هـ/١١٩٢م(٢١١)، ومنهم أيضاً: القاضي محمد بن المفضل بن محمد بن حسان الأنصاري الأسواني، المتوفي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، والذي ضرب بسهم وافر في علم الحديث، وولى قضاء أسوان(٢١٢)، كما كان القاضي إسماعيل بن هبة الله الإسنائى- السابق الذكر في علم الفقه- عالماً في الحديث وقاضياً، سمع الحديث من كبار عصره، ومنهم الشيخ قطب الدين أبى بكر محمد بن القسطلانى(٢١٣)، رحل إلى العديد من المدن الإسلامية في طلب العلم، واستقر به الحال في القاهرة، ومات بها سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م(٢١٤).

وفي مجال علم اللغة والأدب: كان لقضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إسهامات كبيرة في هذا المجال، مما ساعد على ازدهار الحياة العلمية والأدبية في معظم مدن الإقليم، ومن هؤلاء القضاة : القاضي على بن النضر الإسنائى (ت٥٠٥هـ/١١١١م) كان من كبار قضاة الصعيد الأعلى، يحفظ كتاب الله القرآن الكريم، وكان أديباً شاعراً، حفظ كتاب سيبويه في النحو،وله شعر كثير حسن(٢١٥)، وكان يتظاهر بالتشيع خوفاً من الخلفاء الفاطميين، وكان يعرف بالأديب، وحدث أن قدم القاضي على بن النضر على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧-٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م) طالباً منه أن يقضى حاجة له، فلم يجبه الأفضل فأنشده قصيدة منها:

بين التعزز والتذلل ... بادي المنار لعين

فاسلكه في كل المواطن ... كبر الأبي وذله

ولقد جلبت من الصنائع ... لأجل مختار وأكرم

ورجوت خفض العيش ... لايدغ أن نفقت

ومن القضاة الأدباء في الصعيد الأعلى: القاضي النفيس ثقة الخلافة حيدرة بن الحسين بن حيدرة بن على بن أحمد بن الغمر، أبو المناقب سراج الدين القوصى، كان عالماً أديباً فاضلاً، ولم تمنعه أعمال القضاء بقوص من اهتماماته الأدبية، حتى أصبح من المعروفين بقوص، وتوفي بها في حدود سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م[٢١٦]، ومن شعره يرثى قزازاً (بائع الحرير) قوله:

بكـــي فقـــدك المكـــوك ونـــاح عليـــك النيـــــر

وأعولـــــــت الألفـــــاخ تـــدوره فيهـــا أنـــا ملـــك

أنامـــــل لـــم تخلــــق ولقـــط وتخلـــيص وبـــا

ومن القضاة الشعراء نذكر: القاضي محمد بن إبراهيم القوصى، المولود سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، وكان من القضاة البارعين في اللغة والنحو، هذا بجانب كونه عالماً في الفقه والأصول والتفسير أيضاً، وكانت وفاته بقوص سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، بعد أن ولى قضائها عدة سنوات[٢١٧]، أما القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس الأرمنتى، الفقيه الشافعي، فقد كان من الشعراء المجيدين والفقهاء المتأدبين، وذكره الأدفوى "بأن له النظم الرائق، والنثر الفائق"[٢١٨]، وكان يلي أمر القضاء في قوص، ومات ببلدة أرمنت في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[٢١٩]، وكان له شعر جيد[٢٢٠].

وبالإضافة إلى ما سبق، كان هناك العديد من القضاة في الصعيد الأعلى الذين شاركوا في ازدهار العلوم العقلية، فكانت لهم اهتماماتهم البارزة في علم الرياضيات والفلك والطب والإلهيات والمنطق، وغير ذلك من العلوم العقلية المعروفة في مصر، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي. ومن هؤلاء القضاة الذين تعددت مواهبهم ولم تشغلهم مهام القضاء عن العلم ودراسته، القاضي على بن النضر الإسنائي، فقد كان من علماء إسنا الذين ذاع صيتهم في علم الفلك ونبغ فيه[٢٢١]، ومنهم أيضا: القاضي محمد بن إبراهيم القوصى (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) قاضى قوص، برع في علم المنطق، وذلك بجانب تفوقه في علم اللغة والنحو والفقه والأصول والتفسير[٢٢٢]، وقد ذكره ناصر خسرو بقوله: «عرفت وأنا في أسوان رجلاً تقياً صالحاً، يعرف شيئاً من علم المنطق»[٢٢٣].

كذلك كان القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطى (٦٠٠-٦٩٧هـ/١٢٠٣-١٢٩٧م) من بين المهتمين بالعلوم العقلية، وخاصة علم الرياضيات والمنطق، فقد ذاعت شهرته، ووضع المصنفات في الجبر والمقابلة والحساب والمنطق أيضاً[٢٢٤]، ومن قضاة الصعيد الأعلى، الذين عرفوا باهتماماتهم بالطب

آنذاك، القاضي علي بن منصور بن محمد بن المبارك الإسنائي، ويعرف بابن شـواق، الذي برع في مهنة الطب(٢٢٥)، وأخذ الطب عن ابن بيان(٢٢٦)، واشتهر فيه بالمعرفة والحذق. ومما يدل على براعته الفائقة أنه كان يطلب من الأماكن البعيدة، وكان ابن شواق حسن الخلق وتولى قضاء أسفون(٢٢٧) وغيرها، وتوفي في حدود سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م(٢٢٨).

الخاتمــة:

وصفوة القول أنه تبين لنا من، خلال هذا البحث، أنه كان للقضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أهمية كبرى وأثر لا بأس به على أحوال هذا الإقليم من أرض مصر، كما تبين أيضاً مدى الدور الذي قام به قضاة الصعيد الأعلى في إقرار العدل والمساواة والأمن بين الناس، وتطبيق الأحكام الشرعية وحماية الأوقاف وأموال الأيتام، هذا بالإضافة إلى مشاركتهم الواضحة في بعض جوانب الحياة الاجتماعية، كالاحتفالات والمناسبات، والعمل على حل ما شجر بين الناس من منازعات، والسعي في قضاء مصالحهم. كما أظهر البحث أن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، كان يسير وفق الأسس والشروط المتعارف عليها في اختيار القضاة آنذاك، واتخاذهم معاونين لهم كالشهود والكتاب، وغيرهم من الذين كانوا يساعدونهم في تأدية مهامهم القضائية.

كما بين هذا البحث ما بلغه قضاة الصعيد الأعلى من مكانة وتقدير لدى السلطة الحاكمة، وكذلك بين الخاصة والعامة من أهالي الصعيد الأعلى،وأبان البحث أيضاً: إسهامات هؤلاء القضاء في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، فقد ظهر من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والشعراء البارزين، وكان لكثير منهم مصنفات عدة تدل على نبوغهم وتفوقهم كما تتلمذ على أيديهم العديد من طلاب العلم والمعرفة في مدن وقرى الصعيد الأعلى.

ولعل ذلك يدفعني في النهاية إلى القول إن القضاة في الصعيد الأعلى كانت لهم مكانة ونفوذ كبير في ولاياتهم شأنهم في ذلك شأن قضاة العاصمة في القاهرة وباقي مدن مصر الكبرى.

الهوامـــــش

(١) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ طبـع، ص١٥٤؛ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، ١٩٣٤، ص٨٣.

(٢) عادل بسيوني: تاريخ القانون المصرى- مصر الإسلامية، طبعة مكتبة نهـضة الـشرق جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص٥٧.

(٣) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة وزارة الثقافة، د.ت ج٣، ص٣٧٨.

(٤) سورة ص من الآية ٢٦.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٤٨.

(٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلـو المصرية، ط٥ ١٩٨٦م، ص٤٨.

(٧) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ص٩٢.

(٨) ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥. وولى عمر أبا الدرداء علـى قـضاء المدينـة المنورة، وولى شريحا بالبصرة، وقيس بن أبى العاص في مصر، وولى أبا موسـى الأشعرى بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاة وهى مستوفاة فيه. (ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥). وعن نص كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى (الماوردى الأحكام السلطانية، طبعة القاهرة مكتبة الحلبى، ١٩٧٣م، ص٧١-٧٢).

(٩) المقدمة: ص١٥٥.

(١٠) ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥.

(١١) عمر بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعـب بن لؤى بن غالب القرش السهمى، وكان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل فتح مكـة بستة أشهر، وقال فيه رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»، وكانت وفاته في سـنة ٤٣هـ/٦٦٣م (انظـر: ابـن الأثيـر: أسـد الغابـة فـي معرفـة الصحابة،تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، طبعة دار الشعب بدون تـاريخ، ج٤، ص٢٤٤-٢٤٧).

(١٢) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٣١.

(١٣) هو قيس بن أبى العاص بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم، شهد فتح مـصر،واختط بها دارا له (ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، م٤، ص٤٣٢).

(١٤) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٠١، ص٣٤٨.

(١٥) الكندى: المصدر السابق، ص٣٦٨؛ عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٥٩؛ عبـد الله بن لهيعة الحضرمى: هو عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان بن ربيعة بـن ثوبان الحضرمى، وكان أول قاضٍ في مصر استقضاه خليفـة فـي عـصر الدولـة

العباسية. (ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق جابر عبد المجيد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦١م، جـ٢، ص٢٨٧-٢٨٨).

(١٦) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٥١.

(١٧) إبراهيم أحمد العدوى: النظم الإسلامية، طبعة ١٩٨٨م، القاهرة، ص١٤٤-١٤٥.

(١٨) مناع القطان: النظام القضائي في العهد النبوى وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة ١٩٩٣م، ص٦٧، ص٦٨.

(١٩) الكندى: المصدر السابق، ص٣٠٩؛ الماوردى: المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٠) المذهب الحنفي: ينسب إلى الإمام أبى حنيفة وهو النعمان بن ثابت بن زُوطى فارسي الأصل ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ/٦٩٩م ونشأ بها، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، وتعلم منذ صغره وجلس إلى الاستماع لحلقات العلم بمسجد الكوفة، ودرس الفقه في مدرسة الكوفة، وكانت مدرسة لها رجالها ولها طابعها الخاص، وتوفي أبو حنيفة في بغداد سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويذكر ابن النديم أن لأبي حنيفة كتاب الفقه الأكبر، كتاب رسالته إلى البستى، كتاب العالم والمتعلم، كتاب الرد على القدرية، وله رسالة في نصرة أهل السنة. (الفهرست طبعة بيروت بدون تاريخ، ص٢٨٤، ص٢٨٥؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص١٧٦، صس١٨٠، ص١٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، طبعة دار المعارف مصر سنة ١٩٨٣م، جـ٣، ص٢٣٥، ٢٣٧).

(٢١) المذهب المالكي: ينسب للإمام مالك بن أنس الأصبحى المدنى، والأصبحى نسبة إلى ذى أصبح قبيلة يمنية، فهو عربى الأصل، ولد سنة ٩٣هـ/٧١١م وعاش حياته بالمدينة المنورة، وتعلم ودرس بها وسمع الحديث من كثير من شيوخ عصره بالمدينة، ومن أشهر كتبه الموطأ، يعد من أوائل الكتب التى ألفت في الحديث والفقه وقد نشره الآخذون عن مالك في الكثير من الأمصار الإسلامية، وكان للإمام مالك أثر كبير في الحركة العلمية الدينية على اختلاف العصور، وكانت وفاته في سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م ودفن بالبقيع. (ابن النديم: الفهرست، ص٢٨٠-٢٨١؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص٢٠٦، ص٢١٥؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، جـ٣، ص٢٧٤-٢٧٦).

(٢٢) المذهب الشافعي: ينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع بن السائب، أحد الأئمة الأربعة عن أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، ونشأ بمكة، ودرس الفقه والحديث، وأفتي وهو ابن عشرين سنة، زار بغداد مرتين الأولى سنة ١٩٥هـ/٨١٠م، والثانية سنة ١٩٨هـ/٨١٣م، ثم قصد مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م، وصنف بها كتبا عدة منها الأم، والأمالى الكبرى والإملاء الصغير ومختصر البويطى وغيرها وكانت وفاته بمصر سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودفن بالقرافة. (ابن النديم: المصدر السابق، ص٢٩٤-٢٩٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص٩-ص١٠؛ أحمد أمين: المرجع السابق، ص٢١٨-٢٣٤).

(٢٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٧١؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص١٥٦.

(٢٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣م، جـ٤، ص٣٧٧.
(٢٥) عادل بسيوني: تاريخ القانون المصري- مصر الإسلامية، ص٦٢.
(٢٦) المذهب الشيعي: هو المذهب الذي يشايع علي بن أبي طالب على الخصوص وقال بإمامته وخلافته وقد اعتقد الشيعة أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وهم خمس فرق: كيسانية وزيدية وإمامية، وغلاة وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه (الشهرستاني: الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام العالمية، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص١٥١، ص١٥٢).
(٢٧) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٤٣، ص٣٦٣، عبد الناصر هاشم محمد، تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، دكتوراة، آداب سوهاج، ١٩٩٩م، ص١٩٥.
(٢٨) ومن هذه البحوث والدراسات نذكر: عطية مشرفة: القضاء في الإسلام؛ عبد الخالق حسين محمد: القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين، ماجستير سنة ١٩٧٥م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة؛ عبد الناصر هاشم محمد: تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي؛ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام.
(٢٩) ومن هذه الدراسات التي تناولت تاريخ الصعيد نذكر: رسالة الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد محمد: مظاهر الحضارة في الوجه القبلي منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكي، دكتوراة، آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٣م؛ نعمة علي مرسي: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية، طبعة المنيا سنة ١٩٩٨م؛ صلاح سليم طايع: مدينة قفط ودورها السياسي والحضاري منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري من ٢١-٤٧٨هـ، ماجستير، آداب قنا سنة ٢٠٠٢م؛ أحمد حامد أحمد: مدينة اسنا منذ الفتح الفاطمي لمصر حتى نهاية العصر المملوكي الأول (٣٥٨-٧٨٤هـ)، ماجستير، آداب قنا، سنة ٢٠٠٤م.
(٣٠) المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ص١١٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م، جـ١، ص٢٨.
(٣١) البهنسا: من مدن الصعيد الأدنى وتقع غربي النيل، وكانت مدينة عامرة كبيرة كثيرة الدخل، وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم: أبو الحسن أحمد بن عبد الله البهنسي (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) (ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٥١٦-٥١٧؛ المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ص٣٨٢).
(٣٢) إخميم: تقع على الشاطئ الشرقي للنيل بالصعيد، وهي من أهم بلدان الصعيد وأجلها، وينسب إليها ذو النون بن إبراهيم الإخميمي المصري الزاهد المتوفي سنة (٢٤٦هـ/٨٦٠م)، (ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص١٢٣-١٢٤).
(٣٣) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٤٠٨. أسوان مدينة كبيرة تقع في شرق النيل في آخر صعيد مصر وكان تشتهر بتمورها الجيدة، وينسب إليها الكثير من العلماء والأدباء. (ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص١٩١، ١٩٢).

(٣٤) ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية طبعة مصر سنة ١٩٤٣م، ص١٠٨؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م، ص٢٨٩.

(٣٥) الكورة: اسم فارسى أطلق على كل صقع يشتمل على عدة قرى (ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣٦).

(٣٦) المقريزى:: الخطط، ج١، ص١١٨.

(٣٧) سفرنامة: ترجمة يحيى الخشاب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص١٣١.

(٣٨) ياقوت: المصدر السابق، جـ٤، ص٤١٣؛ وقوص: مدينة كبيرة وعظيمة تقع شرق النيل في الصعيد الأعلى وبينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً أهلها أصحاب ثروة واسعة وهى محط التجار القادمين من عدن (ياقوت: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، وانظر المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ص٣٨١).

(٣٩) الأدفوى: الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص٨.

(٤٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، طبعة باريس، بدون تاريخ، ص١٠٤.

(٤١) ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ط القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٩٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، ١٩٧٩م، ج١، ص٢٧.

(٤٢) عطية القوصى: تاريخ الكنوز الإسلامية، طبعة القاهرة، ١٩٨١م، ص ٧٥، ص٧٦.

(٤٣) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٤٤؛ محمد عبده الحجاجي: قوص في التاريخ الإسلامى من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة لثانية، سنة ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٤٤) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م، ج١، ص١٤٠.

(٤٥) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص٣٦٤.

(٤٦) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جـ٢، ص٢٥٢.

(٤٧) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٦م، ص١٧٤.

(٤٨) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٣.

(٤٩) أيمن فؤاد: المرجع السابق، ص٣٦٢.

(٥٠) حسن إبراهيم حسن: طه أحمد شرف: المعز لدين الله الفاطمى إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة ١٩٤٧م، ص١٩٠

(٥١) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٠؛ وابن الخراط: هو عبد السلام بن على منصور الدمياطى ولد بدمياط في سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، ودرس بها ورحل إلى بغداد

في طلب العلم وتفقه بها، وتميز في الفقه الشافعي، ثم رجع إلى دمياط فأقام بها قاضيا ودرس بمدرستها، ثم ولى قضاء مصر والوجه القبلي، وكانت وفاته سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م. (السيوطي: المصدر السابق، جـ١، ص٤١٠).

(٥٢) السيوطي: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٠.

(٥٣) السيوطي: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٦١، ص١٦٢.

(٥٤) السيوطي: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٣، ص١٦٤.

(٥٥) السيوطي: المصدر السابق، ج٢، ص١٦٤.

(٥٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الغد العربى سنة ١٩٩٢م، م٧، ص٢٥٥-٢٥٦؛ والقاضى شرف الدين السبكى: هو الذى أصدر قرار في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م بتولية على بن وهب بن دقيق العيد القشيرى (٥٨١ -٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م) بولاية القضاء في أسيوط ومنفلوط وأعمالها (الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٣٤).

(٥٧) الأدفوى: الطالع السعيد، ص١٣٥، ص١٣٦.

(٥٨) المصدر السابق، ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٥٩) الأدفوى: المصدر السابق السابق، ص١٧٦.

(٦٠) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ١، ص١٤٢.

(٦١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٤؛ فخر الدين القنائى هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن الفهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يغمر بن سعيد بن الحارث الهزلى، وينعت فخر الدين القنائى، وكان عالما ورعا، وكان حيا في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م. (الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٣-٢٢٤).

(٦٢) ومن بين الأبيات التى أنشدها القاضى أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتى لقاضى القضاة:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذى •• أو تصرفوا علم المعارف أحمدا

هو مبتدا نجباء أبنا جنسه •• والله يأبى غير رفع المبتدا

أغريتم الزمن المشت بشمله •• وحذفتموه كأنه حرف الندا

(الأدفوى: المصدر السابق، ص١٣٦).

(٦٣) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٥-١٣٦.

(٦٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٣٥، ١٤٢، ص٤٣٤.

(٦٥) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٦٥-٦٧.

(٦٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٥٢.

(٦٧) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢١٩، ص٢٢٠.

(٦٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٥١٩، ص٥٢٠.

(٦٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٧٠) عطية القوصى: تاريخ دولة الكنوز، ص١٢٦.

(٧١) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٦٥، ١٦٦؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص١٨٥.
(٧٢) أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، جـ١، ص١٤٢.
(٧٣) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٤٥.
(٧٤) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٤١٧.
(٧٥) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٨٢.
(٧٦) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحى، عبد الفتاح الحلو، طبعة القاهرة ١٩٦٤م، جـ٥، ص٥٣؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص١٩١؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، جـ٥، ص٤٣٥.
(٧٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٢.
(٧٨) الأدفوى: نفسه، ص٣٢١-٣٢٢.
(٧٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، ١٩٦٩م، ص٦٨.
(٨٠) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١.
(٨١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٨.
(٨٢) الأدفوى: نفسه، ص٥٤٧.
(٨٣) الأدفوى: نفسه، ص٣٨.
(٨٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٨٩؛ القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط مكتبة المتنبى القاهرة، د.ت، ص١٥٩.
(٨٥) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ١، ص١٣٣.
(٨٦) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٠٧؛ القاضى أبو المظفر: هو على بن محمد بن على بن إسحاق بن على بن محمد بن الحسن الإسنائى وينعت بالبدر.
(٨٧) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٦٧.
(٨٨) المقريزى: المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، طبعة بيروت، ١٩٩١م جـ٢، ص٥٣٣.
(٨٩) هو أحمد بن على بن إبراهيم بن على بن الزبير أبو الحسن القرشى الأسدى الأسوانى، ينعت بالرشيد، كان ذو علم غزير شاعراً. لكن أخوه المهذب الحسن بن على بن إبراهيم بن على بن الأثير (ت٥٦١هـ)، كان شاعراً مجيداً وأشهر منه في مجال الشعر والأدب. (انظر: الأدفوى: البدر السافر عن أنس المسافر، تحقيق محمد فتحى، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م، جـ١، ص٢٥١-٢٥٢؛ الأدفوى: الطالع السعيد، ص ٩٨، ص١٩٤).
(٩٠) نعمة على مرسى: مصر العليا من الفتح العربى حتى سقوط الدولة الفاطمية، ص١١٠، والمأمون البطائحى: هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى واتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش سنة ٥٠١هـ/١١٠٧، وترقى به الحال إلى أن وصل إلى

منصب الوزارة في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله وظل في خدمته إلى أن غضب عليه الأمر وقتله في سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م (المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٤٠-٣٤١).

(٩١) المقريزى: المصدر السابق ، جـ١، ص٥٣٤.

(٩٢) الأدفوى: المصدر السابق، ص٥٣٤.

(٩٣) حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية، ص١٩٨.

(٩٤) محمود الحويرى: أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف، ١٩٨٠م، ص١٦٢، وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين أهالى البلاد التى ضمت إلى حوزتها، فإنها لم تنجح في ذلك السبيل، فظل المذهب السنى محتفظا بقوته، برغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى، خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم في المذهب، كذلك كان من الأسباب التى جعلت أهل السنة، في مصر، يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم، تلك التشريعات التى أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة (محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص٨٤، ٨٥).

(٩٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٣٤، ص٣٧.

(٩٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٨.

(٩٧) أسفون: ذكرها ياقوت برسم (أصفون) وهى تقع غرب النيل بالصعيد الأعلى جنوب إسنا (معجم البلدان: جـ١، ص٢١٢)

(٩٨) الانتصار، لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، طبعة بيروت، د.ت، جـ٥، ص٣٠.

(٩٩) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، طبعة الخانجى القاهرة، سنة ١٩٦٢م، ص٨٦.

(١٠٠) الأدفوى: المصدر السابق ،ص٣٤، ص٣٧.

(١٠١) محمود الحويرى: المرجع السابق، ص١٦٣.

(١٠٢) عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٧م، ص٨٤.

(١٠٣) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٦٩.

(١٠٤) السيوطى: المصدر السابق، جـ١، ص١٨٧.

(١٠٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص٨٤.

(١٠٦) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٧٤.

(١٠٧) السيوطى: المصدر السابق ، جـ١، ص٤٠٨؛ الأدفوى: المصدر السابق ، ٢١٦٥، ١٦٦.

(١٠٨) هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن الفهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يعمر بن

سعيد بن الحارث الهزلي، ينعت فخر الدين القنائي، كان حياً في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م (الأدفوي: الطالع السعيد، ص٢٢٣، ٢٢٤).

(١٠٩) الأدفوي: المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١١٠) القفطي: أنباه الرواه على إنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، ١٩٨٦م، جـ٢، ص٧٣؛ الأدفوي: المصدر السابق ، ص٢٦٢-٢٦٥.

(١١١) المنفلوطي: نسبة إلى مدينة منفلوط التى تقع في غربى النيل بالصعيد الأوسط، (ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٢١٤).

(١١٢) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٤٢٤، ص٤٣٤.

(١١٣) السبكي: طبقات الشافعية، جـ٥، ص١٦٣؛ المقريزي: المقفي، جـ١، ص٥٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص١٩١؛ الداوودي: طبقات المفسرين، طبعة بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، جـ٢،ص٣٤٨، ٣٤٩؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر، ١٩٧٩م، جـ٢، ص٣٢٥.

(١١٤) الداوودي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٠.

(١١٥) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٦٩١؛ السيوطي: المصدر السابق ، جـ١، ص٤٢٠.

(١١٦) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٢١٠، ص٢١١.

(١١٧) الرافضة: سموا بذلك لرفضهم أبا بكر وعمر ﷺ، وقيل لرفضهم زيد بن علي ﷺ. وقال زيد ﷺ رفضوني فسموا رافضة (الحنبلي: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق بسام العموشي، ط الأردن، ١٩٨٨م، ص٦٥).

(١١٨) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٢٩٤، ص٢٩٥.

(١١٩) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، جـ١، ص١٤٢.

(١٢٠) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٢٣٥.

(١٢١) الأدفوي: المصدر السابق، ص٤٧٧.

(١٢٢) الأدفوي: المصدر السابق، ص١٧٦.

(١٢٣) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣٨١؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص٦٧.

(١٢٤) الأدفوي: المصدر السابق ، ص٢٩.

(١٢٥) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١م، جـ٢، ص٩٧.

(١٢٦) الأدفوي: المصدر السابق، ص٤١.

(١٢٧) الأدفوي: المصدر السابق، ص٤٨٢؛ المقريزي: المقفي، جـ٥، ص٧٣-٧٤.

(١٢٨) نعمة على مرسي: مصر العليا من الفتح العربى حتى سقوط الدولة الفاطمية، ص١٠٩.

(١٢٩) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٤٨.

(١٣٠) الكندي: الولاة والقضاة، ص٥٦٢؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلامي، ص١٧١.

(١٣١) ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص١٠٧.

(١٣٢) كان ديوان الأحباس من الدواوين المهمة، وذكر القلقشندى "أن الخدمة في ديوان الأحباس لا يخدم فيها إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين وفيها عدة مدراء بسبب أرباب الرواتب، وكان فيه كاتبان ومعنيان لنظم الاستمارات ويورد استمارة كل ما في الرقاع والرواتب، وما يجبى له من جهات كل من الوجهين القبلى والبحرى، وكان يوجد في الصعيد الأعلى ديوان للأحباس". (انظر: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩٨).

(١٣٣) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٣٥٧.

(١٣٤) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٨.

(١٣٥) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٠٣.

(١٣٦) المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٧٧.

(١٣٧) عطية القوصى: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ص٥٩؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م، جـ٢، ص٦٦

(١٣٨) كان ذلك عندما نجح الأمير بدر الجمالى في الانتصار على قوات كنز الدولة بأسوان حيث التقيا عند بلدة إسنا، وهناك دارت معركة شديدة بين الطرفين، قضى فيها بدر الجمالى على غالبية قوات كنز الدولة الذى فر هاربا إلى أسوان، وتخليدا لهذا الانتصار أمر بدر الجمالى قاضى المدينة الحسن بن على بن النضر ببناء جامع في مكان المعركة، والإشراف عليه عرف باسم جامع النضر (انظر النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٦، ص٧٠؛ عطية القوصى: المرجع السابق، ص٥٨).

(١٣٩) القلقشندى: صبح الأعشى: جـ١٠، ص٢٥٢، ومن أهم المساجد في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمى والأيوبى، المسجد العمرى بأصفون، وجامع النصر بإسنا، والجامع العتيق بقوص الذى يرجع تاريخ إنشاؤه إلى العصر الفاطمى، والمسجد الجامع بأرمنت الذى لازمه العديد من العلماء والفقهاء للتدريس فيه، ومسجد قفط الذى كان معقلاً لنبذ التشيع، كما اشتهرت الأقصر بمسجد أبى الحجاج الأقصرى نسبة إلى العالم الفقيه " أبو الحجاج الأقصرى " (ت٦٢١هـ/١٢١٥م). (انظر الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٧٩، ص٥٠٧-٥٠٩؛ سعاد ماهر: محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامى، طبعة القاهرة، ١٩٦٦م، ص٣٢، ص٣٣؛ سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، طبعة القاهرة، ١٩٧١م، جـ١، ص٧٥، ص١٦٤، ص٢٤١).

(١٤٠) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٤٧٦-٤٧٧.

(١٤١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٠٧.

(١٤٢) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٩٤.

(١٤٣) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٣٣-٣٣٤.

(١٤٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٤١.

(١٤٥) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٢٨.

(١٤٦) ممدوح عبد الرحمن الريطي: دور القبائل العربية في صعيد مصر، طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٢٨.
(١٤٧) محمد عبدة الحجاجي: قوص في التاريخ الإسلامي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م، ص٧٠.
(١٤٨) هو محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى، أبو الفتح تقى الدين من علماء قوص ورجالها المعروفين البارزين توفي يوم الجمعة حادى عشر صفر عام ٧٠٢هـ (انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، جـ٤، ص٥٠؛ الأدفوى: المصدر السابق ، ص٥٦٧-٥٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد ٧، ص٣٩٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٦، ص٥).
(١٤٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٧، ١٣٨، ص١٤٢.
(١٥٠) القلقشندى: المصدر السابق ، جـ٣، ص٤٨٦.
(١٥١) ابن خلدون: المقدمة، ص١٥٧.
(١٥٢) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٧.
(١٥٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٦٩.
(١٥٤) ابن خلدون: المقدمة، ص١٥٨.
(١٥٥) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٤٦.
(١٥٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٥٠٢، ص٦٤٧.
(١٥٧) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٥٨، ص٣٥٩.
(١٥٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٥٩.
(١٥٩) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٧٦؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٥م، ص٣١٤.
(١٦٠) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، ص٣٢٤.
(١٦١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٦، ٤٨٧.
(١٦٢) محمود عرنوس: المرجع السابق، ص١٣١، ص١٣٢؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٤.
(١٦٣) السبكى: معيد النعم، ص٦٤.
(١٦٤) السبكى: المصدر السابق، نفس الصفحة، هامش ١.
(١٦٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٦٤٧.
(١٦٦) الأدفوى: المصدر السابق، نفس الصفحة.
(١٦٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٧٩.
(١٦٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٠٨.
(١٦٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١٦-٤١٧.
(١٧٠) الأدفوى: المصدر السابق، ٣٦٣.
(١٧١) السبكى: المصدر السابق ، ص٦٢.
(١٧٢) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٦٣.

(١٧٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٦٣.
(١٧٤) نعمة على مرسي: مصر العليا، ص١١٠.
(١٧٥) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص١٤٩؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٣.
(١٧٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٧٢، ص١٧٣.
(١٧٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٥٠.
(١٧٨) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٥١.
(١٧٩) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ج١، ص١٤٨، ص١٤٩.
(١٨٠) محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٠.
(١٨١) الكندى: الولاة والقضاة، ص٦٠٤.
(١٨٢) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٧٣.
(١٨٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج٣، ص٤٨٧.
(١٨٤) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٥٠، ص٥١.
(١٨٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٢، ص٦٣.
(١٨٦) ابن دقماق: الانتصار، ج٥، ص٢٨؛ الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٤.
(١٨٧) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٦٦.
(١٨٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٩؛ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص٦٧.
(١٨٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٤.
(١٩٠) المقريزى: الخطط، ج١، ص٣٨٢.
(١٩١) الأدفوى: نفس المصدر، ص٣٨.
(١٩٢) الأدفوى: نفسه، ص٤١.
(١٩٣) الأدفوى: نفسه، ص١٦٥، ص١٦٦.
(١٩٤) الأدفوى: نفسه، ص٤٨٢.
(١٩٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٨٣.
(١٩٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٨٤.
(١٩٧) هذه النسبة إلى بعلبك، مدينة بالشام، بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل، وينسب إليها العديد من العلماء والفقهاء والمحدثين (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣- ص٤٥٥؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ص١٦١-١٦٢).
(١٩٨) قمولا: ذكرها ياقوت بأنها بليدة تقع غرب النيل بأعلى الصعيد، كثيرة النخل والخضرة (المصدر السابق، ج٤، ص٣٩٨-ص٣٩٩)
(١٩٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٢٨.
(٢٠٠) الأدفوى: نفس المصدر، ص٥٤٧.
(٢٠١) الأدفوى: نفس المصدر، ص٣٨.
(٢٠٢)السبكى: طبقات الشافعية، ج٥، ص١٣١؛ السيوطى: بغية الوعاة في طبقات اللغويين، ج٢، ص٣٢٥.
(٢٠٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٢٠.

(٢٠٤) حلب: مدينة كبيرة بالشام عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وبينها وبين دمشق تسع أيام، ولها قلعة يضرب بها المثل في الحسن والحصانة، وكان الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى قد اعتنى بها فعمرها. وينسب إلى حلب الكثيرين من أهل العلم والأدب، والنسبة إليها الحلبى، (ياقوت: المصدر السابق ، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١، ص٣٧٩).
(٢٠٥) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص٢٩٩.
(٢٠٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٧٨.
(٢٠٧) المقريزى: المقفى، جـ٥، ص٨٥.
(٢٠٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٦٧، ص٣٦٨.
(٢٠٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٨.
(٢١٠) الأدفوى: نفس المصدر، ص٥٥١-٥٥٢.
(٢١١) المقريزى: المصدر السابق ، جـ١، ص٤١.
(٢١٢) المقريزى: المصدر السابق ، جـ٣، ص٤٤.
(٢١٣) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، جـ٢، ص٢٩٩.
(٢١٤) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٥٤٣.
(٢١٥) ياقوت: المصدر السابق ، جـ١، ص١٨٩.
(٢١٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢٣٥، ص٢٣٦.
(٢١٧) الداوودى: طبقات المفسرين، جـ٢، ص٥٢، ص٥٣.
(٢١٨) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٥.
(٢١٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٤٢.
(٢٢٠) كان قاضى القضاة في وقته أراد أن يصرفه عن القضاء بقوص فحضر إليه القاضى أحمد بن محمد بن هبة الله وأنشده لنفسه قصيدة منها:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذى ∴ أو تصرفوا علم المعارف أحمدا

هو مبتدا نجباء أبنا جنسه ∴ والله يأبى غير رفع المبتدا

أعريتم الزمن المشت بشمله ∴ وحذفتموه كأنه حرف الندا

فأقره قاضى القضاة في منصبه بعد هذه الأبيات (انظر الأدفوى: الطالع السعيد، ص١٣٥، ص١٣٦).
(٢٢١) القفطى: أخبار العلماء، ص١٥٩.
(٢٢٢) الداوودى: طبقات المفسرين، جـ٢، ص٥٢، ص٥٣.
(٢٢٣) سفرنامة: ص١٣٢.
(٢٢٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص٦٩١-٦٩٥.
(٢٢٥) كان هبة الله بن صدقه الأسوانى من أمهر أطباء الصعيد الأعلى في العصر الفاطمى، وكان من أهل أسوان فقد ولد بها سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وبرع في مهنة الطب حتى أنه تولى رئاسة الأطباء في مصر أواخر العصر الفاطمى في عهد الخليفة العاضد

الذى كان يستعين به للاستفادة من مهارته الطبية وتوفي هبة الله الأسوانى في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م (الأدفوى: المصدر السابق، ص٦٩٠-٦٩١).

(٢٢٦) ابن بيان: هو سديد الدين أبو الفضل داود بن أبى البيان سليمان بن أبى الفريج إسرائيل بن أبى الطيب سليمان بن مبارك إسرائيلي، ولد بالقاهرة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م، وكان ابن بيان شيخا متقنا للطب متميزا فيه وخبيرا بالأدوية المفردة والمركبة، وقد خدم الملك العادل الأيوبى، وعاش فوق الثمانين سنة، والشيخ سديد الدين بن أبى بيان بعض المصنفات في الطب والأدوية أجاد في جمعها (ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، علق عليه محمد باسل، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨م، ص٥٣٩).

(٢٢٧) أسفون: سبق التعريف بها من قبل.

(٢٢٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١٨.

المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر

١- ابن الأثير: أبو الحسن بن أحمد بن أبى الكرم الشيبانى (ت٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)
- اللباب في تهذيب الأنساب، طبعة بيروت سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب- د.ت

٣- الأدفوى: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت٧٤٨ هـ/١٣٤٨م)
ـ الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن مراجعة طه الحاجرى- طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م.

٤- البدر السافر عن أنس المسافر، تحقيق محمد فتحى محمد الجزء الأول، طبعة الجمعية المصرية لرعاية المواهب، سنة ١٩٩٧م.

٥- ابن أبى أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ/١٢٦٩م)
ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تعليق محمد باسل، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨م.

٦- ابن الجيعان: شرف الدين يحيى بن علم الدين بن الجيعان (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)
ـ التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٤م.

٧- ابن حجر: أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م)
ـ رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١م.

٨- الحنبلى: أبو الفضل عباس بن منصور القرينى (ت٦٨٣ هـ/١٢٨٤م)
ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق بسام العموشى، طبعة الأردن، ١٩٨٨م.

٩- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هـ/١٤٠٥م)
ـ المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ.

١٠- الداوودى: شمس الدين محمد بن على (ت ٩٤٥ هـ/١٥٣٨م)
ـ طبقات المفسرين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١١- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت٨٠٩ هم١٤٠٦م)
ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

١٢- السبكى: تاج الدين أبى النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠م)
ـ طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م.

١٣- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار وآخرون،الخانجى القاهرة، ١٩٩٣م.
١٤- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
١٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٩م.
١٦- ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٢م.
١٧- الشهرستانى: ابن أبى الفتح محمد بن أبى القاسم (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)
ـ الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام العالمية، القاهرة، د.ت.
١٨- ابن ظهيره: برهان الدين إبراهيم بن على (٨٨٥ هـ/١٤٨٠م)
ـ الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٦٩م.
١٩- ابن العماد: عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة المكتب التجارى للطباعة، بيروت، د.ت.
٢٠- أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢ هـ/١٣٣١م).
- المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبى، بدون تاريخ.
٢١- ــــــــ: - تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٥٠م.
٢٢- القفطى: جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م)
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبى، بدون تاريخ.
٢٣- ــــــــ: - إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة ١٩٨٦م.
٢٤- القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة مصر، نسخة عن الطبعة الأميرية، بدون تاريخ.
٢٥- ابن كثير: الحافظ إسماعيل عمر الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م)
ـ البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الغد العربى، سنة ١٩٩٢م.
٢٦- الكندى: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١م)
ـ الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.

٢٧- الماوردى: على بن محمد بن حبيب البغدادى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨م)
ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة مكتبة مصطفي البابى الحلبى مصر سنة ١٩٧٣م، الطبعة الثالثة.
٢٨- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥ هـ/١٤٤١م)
ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٩- المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، طبعة بيروت، سنة ١٩٩١م.
٣٠- ابن مماتى: شرف الدين أبو المكارم أسعد (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م)
ـ قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية، طبعة مصر ١٩٤٣م.
٣١- ناصر خسرو علوى: (ت٤٨١ هـ/١١٨٨م)
ـ سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٣م.
٣٢- ابن النديم: محمد بن إسحاق الكاتب (ت٣٨٣ هـ/٩٩٣م)
ـ الفهرست، طبعة دار المعرفة- بيروت بدون تاريخ.
٣٣- النويرى: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (٧٣٣ هـ/١٣٣٢م)
ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، تحقيق محمد فوزى العنتيل، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٥م.
٣٤- ياقوت: عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت٦٢١ هـ/١٢٢٤م)
ـ معجم البلدان، طبعة دار صادر بيروت، سنة١٩٧٦م

ثانياً: المراجـــع :

٣٥- إبراهيم أحمد العدوى: (دكتور)
ـ النظم الإسلامية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٨م.
٣٦- أحمد أمين: (دكتور)
ـ ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
٣٧- أحمد السعيد سليمان: (دكتور)
ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الأول، طبعة دار المعارف مصر، ١٩٦٩م.
٣٨- آدم متز:
ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥م.
٣٩- أيمن فؤاد سيد : (دكتور)
ـ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٧م.
٤٠- بروكلمان (كارل):
ـ تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، طبعة دار المعارف مصر، سنة ١٩٨٣م.
٤١- حسن إبراهيم حسن: (دكتور)
ـ تاريخ الإسلام، ج٤، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣م
٤٢- تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م.

٤٣- طه أحمد شرف:
ـ المعز لدين الله الفاطمى إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٤٧م.
٤٤- حسن عبد الوهاب:
ـ تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م.
٤٥- سعاد ماهر: (دكتور)
ـ محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامى، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧١م.
٤٦- سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)
ـ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٤٧- عادل بسيونى: (دكتور)
ـ تاريخ القانون المصرى (مصر الإسلامية)، طبعة مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م.
٤٨- عبد المنعم ماجد: (دكتور)
ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٦م.
٤٩- ــــــــ نظم الفاطميين ورسومهم، الجزء الأول، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٧٣م.
٥٠- ــــــــ الدولة الأيوبية وتاريخ مصر الإسلامى، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.
٥١- عبد الناصر هاشم: (دكتور)
ـ تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاة العصر الفاطمى، رسالة دكتوراة، كلية الآداب بسوهاج، ١٩٩٩ (غير منشور)
٥٢- عطية القوصي: (دكتور)
ـ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٨١م.
٥٣- عطية مشرفة: (دكتور)
ـ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
٥٤- عمر رضا كحالة:
ـ معجم المؤلفين، طبعة بيروت، ١٩٨٠م.
٥٥- محمد جمال الدين سرور: (دكتور)
ـ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٧٤م.
٥٦- محمد رمزى:
ـ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م.

٥٧- محمد عبده الحجاجي:
ـ قوص في التاريخ الإسلامي من الفتح العربي حتى نهاية عصر المماليك، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
٥٨- محمود الحويري: (دكتور)
ـ أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف ١٩٨٠.
٥٩- محمود عرفة: (دكتور)
ـ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
٦٠- محمود محمد عرنوس:
ـ تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٣٤م.
٦١- ممدوح عبد الرحمن الريطي: (دكتور)
ـ دور القبائل العربية في صعيد مصر، طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦٢- مناع القطان:
ـ النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

القدس في رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي
دراســة حضاريــة

د. محمـــد علي دبـــــور (*)

مقدمـــــة

يرتبط مفهوم الرحلة في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل أو الجياد ونحوهما، وترويضها حتى تصير "راحلة"، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله: "أرحل الرجل البعير(...) إذا أخذ بعيرًا صعبًا، فجعله راحلة"([1])، ثم يضيف ابن منظور: "الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله.."([2])، ونستنتج من هذا القول أن تحقيق متعة الاكتشاف من ناحية، والرغبة في مكابدة الشدائد والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة، ويختم ابن منظور هذا العرض اللغوي بقوله: "وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرُّحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"([3]).

وتختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها، غير أن هناك أغراضًا أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فنًا أدبيًا مميزًا، حدده الباحثون حديثًا، وصنفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعًا له، لكن فريقًا آخر من الباحثين يرون أن لهذا الفن قيمتين: **الأولى علمية، والأخرى أدبية**؛ فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية: "إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"([4]).

(*) مدرس بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(1) ابن منظور: لسان العرب- دار صادر- بيروت، ١٩٥٥ م، مادة: "رحل".

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب- دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ط ٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ٦.

وهذا يعني أن أي رحلة، كي تعد فنًا، لا بد أن تحمل في الوقت نفسه هاتين القيمتين، أعني: العلمية والأدبية، لكن نسبة إحداهما إلى الأخرى متفاوتة في الرحلات العربية على الأقل، فبعض الرحلات يغلب عليه الجانب العلمي، الجغرافي والتاريخي، وبعضها الآخر يغلب عليه الجانب الذاتي أو الأدبي الوجداني.

وقد بيَن ابن خلدون أهمية الرحلة العلمية في قوله: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»([٥]).

فقد كانت الرحلة سجلاً يكشف عن المنابع الثقافية التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت – دون شك – مرجعًا له فيما ألف من كتب([٦])، كما عُدَّت الرحلة جانبًا مهمًا في تقدم الأدب الجغرافي الإسلامي، ومصدرًا موثوقًا به إلى حدٍّ كبير؛ إذ كان الرحالة – في الغالب – دقيق الملاحظة، حاضر البديهة حتى أصبحت كتب بعضهم من معالم الأدب العالمي([٧]).

وقد كان اهتمام الرحالين بتدوين رحلاتهم كبيرًا جدًا، ويضيق بنا المقام هنا لتعداد كل المؤلفين في الرحلة، من جغرافيين ومؤرخين وأدباء، وغيرهم من المتخصصين، ولكن نخص بالذكر أشهرهم : اليعقوبي (ت٢٩٢هـ/٩٠٤ م)، مؤلف كتاب: "البلدان"([٨])، وأحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، صاحب كتاب: "فتوح البلدان"، والمقدسي (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) مؤلف "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"([٩]). كما تواصل تأليف الرحلات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي، وعظم على

([٥]) ابن خلدون: المقدمة. تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي. مكتبة الأسرة. القاهرة، ٢٠٠٦ م، ٢/ ٥٣٩-٥٤٠.
وراجع: حسين محمد فهيم: أدب الرحلات. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، ١٩٨٩ م، ص ٨٠.

([٦]) د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون– دار البيان العربي– جدة، د. ت، ص ٣٢٢.

([٧]) د. حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس– نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم– مدريد– ط ٢، ١٩٨٦ م، ص ٩.

([٨]) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى–دار الرائد العربي– بيروت، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٣٥-٣٦. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٧١-٧٨.

([٩]) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٢٩-١٣٥. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٢-٤٣.

يد عدد من الشخصيات ذات الصيت الذائع أمثال : أبي عُبيد البكري (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) صاحب كتاب:"المسالك والممالك" أو "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"(١٠)، وابن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، صاحب كتاب: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"(١١)، وابن بطوطة المغربي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) صاحب كتاب: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(١٢)، والقاسم بن يوسف التجيبي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) صاحب كتاب: "مستفاد الرحلة والاغتراب"(١٣)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) صاحب كتاب: "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"(١٤).

وقد ألف الرحالون المغاربة والأندلسيون المذكورون رحلاتهم؛ في الفترة ما بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين/ العاشر والخامس عشر الميلاديين. وبعد هذه الفترة شهدت الرحلات المغربية والأندلسية بعض التراجع في التأليف؛ لاشتداد وطأة الحروب بين المسلمين والأعداء الأوروبيين كالإسبانيين والبرتغاليين، ولكن الرحلات ما لبثت أن عادت إلى نشاطها ورواجها المعهود في القرن الحادي عشر وما بعده، والمؤسف أن الكثير منها تعرض للضياع، بسبب الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي شهدها الغرب الإسلامي.

وكان المشرق لا يزال محط أنظار المغاربة والأندلسيين، ويسترعي اهتمامهم؛ لما تضمّه بيئته من معالم روحيّة ودينيّة تقصد للعبادة والتبرك والاعتبار، والرغبة في لقاء علماء كبار في مختلف العلوم ومجالستهم والأخذ عنهم، ولما يحسّه الرّحالة من روابط تاريخيّة وحضاريّة تربط بين المشرق والمغرب، واشتراك في الأهل والنسب أحيانًا كثيرة، فالإحساس بالوحشة والاغتراب والحزن يكاد ينعدم عند المغاربة

---

(١٠) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٥. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٤٥-١٥٩.

(١١) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ١٩. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٢٣-٣٣٨. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ٧٠-٨٨.

(١٢) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٣٦-١٧١. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٦٩-٣٨٦. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٣٥.

(١٣) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٥٥-٣٥٩.

(١٤) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٥٥-٦٧. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٢١-٢٣٢.

والأندلسيين وهم يزورون المشرق، أو يمكثون فيه لفترات طويلة، بسبب تلكم الروابط الدينية والروحية والاجتماعية التي تربط بين الإقليمين.

ومن هنا كان أدب الرحلات هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، حيث يسجل انطباعاته، ويصف ما يراه من عادات البشر وسلوكهم وأخلاقهم، كما يهتم بذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية التي يشاهدها ويتفاعل معها، لذلك فإن أدب الرحلات يُعدُ مصدرًا مهمًا للدراسات التاريخية المقارنة، كما تَعدُ كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية من ناحية، ومفيدة تاريخيًا وحضاريًا من ناحية أخرى.

* * *

أبو بكر بن العربي وأهمية رحلته

أولاً: أبو بكر بن العربي: المولد والنشأة:

وُلد أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي في أشبيلية، ونشأ نشأة دينيّة، وحفِظ القرآن الكريم ابنَ تسع سنين، ثم أتقن العربيّة والشعر وعلم الحساب على يد أبيه وخاله، وجلس إلى العُلماء واستمع منهم حتى أصبح من حفاظ الحديث، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، كما برع في الشعر والأدب([١٥]).

"وكان أبوه أبو محمد بأشبيلية بدرًا في فلكها، وصدرًا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عبّاد، .... وولاة الولايات الشريفة، وبوّأه المراتب المنيفة"([١٦])، "وكان من أهل التفنن في العلوم، متقدمًا في المعارف كلها، متكلمًا على أنواعها، حريصًا على نشرها، وقام بأمر القضاء أحمد قيام، مع الصّرامة في الحق، والقوّة والشدّة على الظالمين والرِّفق بالمساكين ...... وقيّد الحديث، وضبط ما روى، واتّسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام"([١٧]).

ثانياً: أبو بكر بن العربي: الأديب الرحالة:

عرف النّاس أبا بكر بن العربي قاضيًا وفقيهًا إسلاميًا كبيرًا، ومفسّرًا للقرآن وشارحًا للسنّة، كما أنه يعدُّ أصوليًا عظيمًا، وتناسى الجميع أنّه أديب ورحّالة مشهور، ربّما ساعد على ذلك أنّ أصل رحلة ابن العربي "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" يُعدُّ

([١٥]) انظر: ابن العربي: قانون التأويل- دراسة وتحقيق: محمد السليماني- منشورات دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت- ط١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ٤١٥-٤١٩. سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي- دار الغرب الإسلامي- بيروت - ط١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ١٨٧-١٩١. حيث ذكر ابن العربي بنفسه نشأته العلمية وما تلقاه من العلوم والمعارف في هذه الفترة الأولى من حياته. وانظر أيضًا: ابن بشكوال: الصلة - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة- سلسلة المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م، ١/ ٥٩٠-٥٩١، الترجمة رقم ١٢٩٧. الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس- دار الكاتب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا) - القاهرة - سلسلة المكتبة الأندلسية (٦) - ١٩٦٧ م، ص ٨٣.

([١٦]) المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس- دار صادر - بيروت، ١٩٦٨ م، ٢/ ٣٤.

([١٧]) المصدر السابق، ٢/ ٢٩.

من مؤلّفاته المفقودة والّتي لم تصل إلينا كاملة، وقد فقد الكتاب في حياة مؤلّفه، ويخبِرُنا بذلك ابن العربي نفسُه عندما يقول: "إن الحوادث قد استلبته"([١٨]).

ولكن ابن العربي حفِظ لنفسه مكانة متميِّزة في تاريخ الأدب العربي، كرائد من روّاد أدب الرحلات، عندما قام بتجريد جانب من رحلتِه: "ترتيب الرحلة للتّرغيب في الملة"، أسماه: "شواهد الجلّة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان"([١٩]). كما قام ابن العربي بكتابةِ تلخيص آخر لرحلته، في مقدمة كتابه: "قانون التأويل"، وقد قام الأستاذ سعيد أعراب بتجْريد هذه الخلاصة، وعمِل على تحقيقها، وألْحقها بدراسة له عن ابن العربي([٢٠]).

وما قام به ابنُ العربي من تلْخيص لرحلتِه، لا يمكن أن يعوِّضَنا أبدًا عن الأصلِ المفقود لكتابه: ترتيب الرحلة، ولا يمكن تتبُّع كلّ خطوات رحلة ابن العربي، ولكنّه يُمكّننا من أن نرسمِ صورةً واضحةً لملامح رحلته، وسوف نعمل على توضيح هذه الصورة أكثر، إذا قُمنا بتجميع ما تناثر في بطون الكتب التي صنّفها ابن العربي، ووصلت إلينا، مثل كتاب: أحكامِ القرآن، وكتاب: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، والتي جاء فيها إشارات مهمّة عن رحلاته.

ثالثًا: أهمية رحلة أبي بكر بن العربي:

إنّ ما يجعلنا نهتمّ برحلة أبي بكر بن العربي المعافري إلى المشرق؛ أنّها كانت أسبق الرّحلات الأندلسيّة، فهي من حيث التّاريخ أسبق بنصف قرن، على الأقلّ، من رحلة ابن جُبير الكناني (المتوفى سنة٦١٤هـ/١٢١٧م)، فأبو بكر بن العربي هو أوّل أندلسي يصف رحلتَه إلى بلاد المشرق وصفًا دقيقًا، وأوّل مَن دوّن رحلته في كتاب أسماه: "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"([٢١])، وهو بذلك يعدُّ رائدًا لأدب الرحلة

([١٨]) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤١٤.

([١٩]) تمّ نشْر هذا الكتاب بتحقيق محمد يعلى- ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي: (كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ/١٤ م - كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول- كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٩ م)- سلسلة المصادر الأندلسية (٢٠)- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي- مدريد-١٩٩٦م.

([٢٠]) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م. وانظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٢٢ حيث أشار إلى أن ابن العربي كان من أوائل الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم.

([٢١]) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤١٤.

المشرقية والرحلة إلى طلب العلم، ليس في بلاد الأندلس وحسب، بل في بلدان العالم الإسلامي كله بصفة عامة، وفي الغرب الإسلامي بصفة خاصة(٢٢).

عندما أقدم ابنُ العربي على تدوين رحلته إلى بلاد المشرق، وتدوين مشاهداتِه وانطباعاته التي تركتها هذه الرحلة في نفسه، ووصف البلاد التي مرَّ عليها، وتدوين الأحداث التاريخيَّة التي شاهدها وعايشها، وذِكره للعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم؛ لفتَ ابنُ العربي بذلك العمل الأنظارَ إليه، وإلى أهميَّة العمل الأدبي الذي قام به، حيث كانت هذه الخطوة هي أوَّل خطوة في عمليَّة تدوين أدبِ الرحلات، فابنُ العربي هو أوَّل مَن وضع أسُسِ فنِّ الرحلات، وتدوينها على هيئة مذكَّرات يوميَّة، ووصف مشاهداتِه وانطباعاته بكلِ دقَّة وأمانه في الوصف.

والَّذي يؤكِّد على أهميَّة عمل ابن العربي وتميُّزه: أنَّه جاء عملاً مخالفًا لكلِّ أنْماط الكتابة السَّائدة، والتي كانت تنحصر – في الغالبِ– في كتابة التَّقارير العسكريَّة من قادة الجيوش الإسلاميَّة عن طبيعة البلاد المراد فتحها، أو مشاهدات الجغرافيِّين، ومعاينتهم لطبيعة الأرض، ووصف تضارِيسها ومظاهرها الطبيعيَّة في البلدان المختلفة، أو الحكايات العجيبة والغريبة التي شاهدها بعض التجَّار المغامرين في أسفارهِم ورحلاتِهم، أو كتب المسالك والممالك، وكتب البلدان، وكتب فضائل المدُن، وكتب الخطط والآثار وغيرها.

رابعًا: الغرض من الرحلة وخط سيرها:

أما عن خطِّ سير الرِّحْلة فسوف نقوم الآن بمحاولة رسم خطِّ سير رحلة ابن العربي، وتتبُّعها من خلال التَّلخيص الَّذي قيَّده في كتاب: "قانون التَّأويل"، ثمَّ نقوم بتجْميع ما تناثر في بطون الكتب التي صنفها ابن العربي، والتي جاءت فيها إشارات مهمَّة عن رحلتِه، ثمَّ ترتيبها حسب السِّياق الزَّمني، لتكون سرديَّة متَّصلة متماسكة، ولا يوجد بين مراحلها أيَّة فجوات تحرِم القارئ لذَّة تتبُّع هذه الرحلة.

أ- الغرض من الرحلة:

تعددت آراء المؤرخين حول الغرض من رحلة القاضي أبي بكر بن العربي إلى المشرق، وسنحاول في السطور التالية أن نسرد تلك الآراء ونناقشها.

---

(٢٢) أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي– ترجمة: صلاح الدين هاشم– لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة، ١٩٦٣ م، ص ٢٩٨.

١- أداء فريضة الحج:

عندما بلغ ابنُ العربي سنَّ السابعةَ عشرة، ارتحل به أبوه من إشبيلية Sevilla إلى المشرق، بعد سقوط مملكةِ بني عباد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، واستولى المرابطون على إشبيليةَ، وصادروا أموال أمرائها ووزرائها(٢٣)، فما كان من الوالد إلاَّ أن اختار أن ينأي بنفسِه وولده عن جحيم السياسة، بالارتحال إلى المشرق؛ لأداء فريضة الحج، حيث كان الوالد من رجالات بني عباد الملازمين لهم، والعاملين في خدمتهم(٢٤).

٢- طلب العلم:

يذكر ابن العربي غرضًا آخر للرحلة وهو طلبه للعلم، فيقول: "وكانِ الباعث على هذا التشبُّث - مع هول الأمرِ - همَّة لزمت، وعزمة لَجمت، ساقتها رحمة سبقت، ولقد كنتِ يومًا مع بعض المعلمين، فجلس إلينا أبي- رحمة الله عليه- يُطالع ما انتهى إليه علمي.... فدخل إليّنا أحد السَّماسرة وعلى يديه رزمةِ كتب... فإذا بها من تأليفِ السمناني شيخ الباجي، فسمِعتُ جَميعَهم يقولون: هذه كتب عظيمة، وعلوم جليلة، جلَبها الباجي من المشرق، فصدعتَ هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يُوردون في ذكره ويُصدرون، ويحكون أنَّ فقهاء بلادِنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون... ونذرت في نفسي طيَّة، لئن ملكت أمري لأهاجرنَّ إلى هذه المقامات، ولأفدنَّ على أولاء الرِّجالات، ولأتمرسنَّ بما لديهم من المعاقد والمقالات، واستمررتُ عليها نيَّة، واكتنتُها عزيمة"(٢٥).

٣- الغرض السياسي:

يذكر ابن خلدون (المتوفى سنةِ ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) غرضًا آخَر من أغراض الرِّحلة، وهو الغرض السياسي؛ حيثُ خرج عبد الله بن العربي وابنه، مُوفدَين من يوسف بن تاشفين إلى عاصمة الخلافة، فيقول: "ولمَّا مُحي رسم الخلافة وتعطَّل دَستُها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسُف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العُدوتين، وكان من أهل الخيرِ والاقتداء، نزعت همَّته إلى الدُّخول في طاعة الخليفة، تكميلاً لمراسم دينِه، فخاطَب المستظهِر العبَّاسي، وأوْفد عليه ببيعتِه عبد الله ابن العربي،

---

(٢٣) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٧٧ (مقدمة المحقق).

(٢٤) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصدفي-سلسلة المكتبة الأندلسية (٧)- دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا)-القاهرة-١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م، ص ٦.

(٢٥) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٠-٤٢٢.

وابنَه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية، يَطْلبان توليَته إيَّاه على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبا إليه بعهد الخلافة له على المغرب"(٢٦).

٤- **هذا بِخلاف غرَض السِّياحة والتجْوال**، وهذا الغرض واضح جدًا من خِلال تتبُّع رحلة ابن العربي، وقيامه بِجولات استِكشافيَّة ووصفيَّة.

قد تتعدَّد الأغراض في الرِّحلة الواحدة، ورحلَة ابن العربي من ذلك النَّوع من الرحلات، وهو نوعٌ يَحتاج رحالةً مختلفًا من طراز خاصّ، يكون صاحب ملكات، ومواهب خاصَّة، وثقافة واسعة، وإحاطة بعلوم شتى، وله من العلاقات ما يَجعله يواصل رحلتَه بنفس الكفاءة التي بدأ بها، وقد توافرت هذه المواصفات في ابن العربي.

قلت: إنَّ رحلة ابن العربي كانت لها أغراضها المختلفة، منها أداء فريضة الحج، وطلب العلم، والسياحة والتجوال، ولا يستبعد أبدًا أن يكون لها غرض سياسي، ولكن سياق الرحلة، وما تحصَّلنا عليه من نصوص مكمِّلة للرِّحلة لا يدلّ على ذلك، ربَّما يفيدنا كتاب "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان" في إثبات ذلك، ولكنا حتى هذا الوقت لم يتيسَّر لنا الاطلاع عليه.

ب- خط سير الرحلة ومضمونها:

إشبيلية ومدن الأندلس: هنا نحاول أن نرسم خط سير هذه الرحلة وما شاهده فيها ابن العربي من معالم حضارية، وآثار ثقافية، وجوانب علمية، وقد بدأه ابن العربي بوصف يوم خروجه هو وأبيه من إشبيلية **Sevilla** بأنه كان يومًا صعبًا، بل يصفه بأنَّه أعجب يوم مرَّ عليه(٢٧)، ويصف ساعة خروجهم من إشبيلية فيقول: "خرجنا والأعداء يشمتون بنا"(٢٨)، "خرجنا مكرمين، أو قل: مكرَهين، آمنين، وإن شئت خائفين"(٢٩).

خرج الشيخ والفتى من إشبيليَّة **Sevilla** صبيحة الأحد مستهلَّ ربيع الأوَّل عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، متوجِّهين إلى مالقة **Málaga**، ومنها إلى غرناطة **Granada**، التي لم يُطِل فيها المقام، فتابع سيرَه إلى المرية **Almería**، وأوَّل

---

(٢٦) ابن خلدون: مقدِّمة ابن خلدون – تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي- مكتبة الأسرة- القاهرة، ٢٠٠٦م، ٢/ ٦١٦-٦١٧.

(٢٧) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٠.

(٢٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٠.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٤٢٢.

عمل يقوم به أبو بكر بن العربي في كلّ بلد ينزل إليه هو البحث عن العُلماء، ومحاولة الاتصال بهم، والجلوس إليهم([٣٠]).

* * *

بجاية ومدن إفريقية (المغرب الأدنى): ثمّ ركب البحر إلى بجاية، وكان بمرفأ بجاية بعض العلماء، حرص ابن العربي على لقائهم، وكان يجد من حفاوة التّرحاب والاستقبال من كبار القوم والمبالغة في إكرامهم، ولمَ لا وابن العربي الأب وزير سابق في حكومة إشبيلية السابقة؟!

ثمّ تابعا سيرَهما طورًا بالبرّ وطورًا بالبحر، ومرًا في طريقهما على بونة (أو عنابة)، ثمّ دخلا تونس، ثم زارا سوسة، والمهدية. وقد التقى أبو بكر بن العربي بجملة من عُلماء وفقهاء القيروان، وقد أبدى إعجابه بما سمع وتعلم، حيث قال: "فلمّا لمح لي هذا الكوكب بطريقة القيروان، واستنارت لي فيها بنوع من البرهان، واستبرأتُها بواضح من الدلالات غضّ النبات والأفنان، قلت: هذا مطلبي، فأخذت في قراءةِ شيءٍ من أصول الدين، والمناظرة فيها مع الطّالبين، ولزمتِ مجالس المتفقهين"([٣١])، ولم ينسَ أن يقيّم ابن العربي حالة الأدَب في القيروان بأنّها: "على حالة وسطى"([٣٢]).

* * *

برقة وساحل طرابلس: ثمّ ركبا البحر من المهدية متّجهين إلى الحجاز، ويصف ابن العربي ركوبَه البحر أثناء رحلتِه من إفريقية وصفًا دقيقًا ممتعًا، وكيف عصفتْ بهم الرّيح، وقسا البحرُ عليهم، فتحطّمت السّفينة، ونجا أبو بكر وأبوه من الغرق، وكان خروجُهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة)، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم، قال: "وقد سبق في عِلْم الله أن يعظم علينا - أي البحر- بزوله([٣٣])، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميّت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم، ونحن من السّغب([٣٤]) على عطب، ومن العري في أقبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مزّقت الحجارة هينتها، ودَسَمَتِ الأدهان وبَرَها وجلدتَها، فاحتزمناها أُزرًا، واشتملناها لففًا، تمجّنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف

([٣٠]) المصدر السابق، ص ٤٢٣-٤٢٤.

([٣١]) المصدر السابق، ص ٤٢٧-٤٢٨.

([٣٢]) السابق، ص ٤٢٨.

([٣٣]) أي: بعجائبه.

([٣٤]) السغب: الجوع مع التعب.

أميرُهم علينا..... فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا"(٣٥).

ثمَّ يحدِّثنا أبو بكر بن العربي عن المبالغة في وصف ما نالهم من إكرام الأمير لهم، وعرضه عليهم البقاء: ".. وأقمنا عنده حتى ثابت إلينا نفوسنا، وذهب عنا بؤسنا، وسألنا الإقامة عنده على أن يُصيِّر إلينا صدقات بني سليم كلها، فأبينا إلاّ الاستمرار على العزيمة الأولى، والتصميم إلى المرتبة الكريمة التي كانت بنا أولى، ففارقناه، ..... وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، فألفينا بها جماعة من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين"(٣٦).

* * *

مصر: نزل ابن العربي في مرفأ الإسكندريَّة ولم يطل بهم المقام بها، ومن ثمَّ واصلا سيْرَهُما إلى القاهــرة، وكان وصولهما إليها في أواخــر ربيع الثاني سنة ٤٨٥ هـــ/ ١٠٩٢ م.

ويصف ابن العربي حالة الركود العلمي لعُلماء مصر، والظروف السيِّئة التي تمرُّ بها البلاد في ذلك الوقت قائلاً: "ألفينا بها – أي مصر – جماعةً من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، والسلطان عليهم جريٌّ(٣٧)، وهم من الخمول في سرب خفي، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد إليهم جريء، لا ينبسون إلى العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحدٌ منهم في فنّ إلى المعرفة، بله الأدب.."(٣٨).

ورغم هذه الحالة التي كان عليها علماء مصر، إلاَّ أنَّ أبا بكر بن العربي كان يتردَّد على مجالس القرَّاء، ويبدي إعجابه بطريقة القراء المصريين فيقول: "وقَدْ سَمِعْتُ تَاجَ القُرَّاء ابْنَ لُفْتَة بجامع عَمْرٍو يَقْرَأ: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} [الإسراء: ٧٩]، فكأنِّي ما سَمِعْتُ الآيَةَ قَط، وسَمِعْتُ ابْنَ الرُّفَّاء – وكَانَ مِن القُرَّاء العِظَام – يَقْرَأ، وأنَا حَاضِرٌ بالقَرَافَةِ: {كهيعص} فكأنِّي ما سَمِعْتُهَا قَط،..... والقُلوبُ

---

(٣٥) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٣٧) الجريُّ هو الوكيل، والسلطان الذي يعنيه ابن العربي هنا هو: معد بن الظَّاهر بن الحاكم بأمر الله، خامس خلفاء مصر من بني عُبيد (٤٢٠-٤٨٧ هـــ/ ١٠٢٨-١٠٩٣ م). انظر: قانون التأويل، ص ٤٣٢، حاشية رقم ٢. وراجع: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة– المؤسسة المصرية للترجمة والنشر– القاهرة – (د. ت)، ٥/ ١٤٠.

(٣٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٢.

تَخْشَعُ بالصَوْتِ الحَسَنِ كَما تَخْضَعُ للوَجْهِ الحَسَنِ، وما تَتَأثَّرُ به القُلوبُ في التَّقْوَى فهُوَ أعْظَمُ في الأجْرِ وأقْرَبُ إلى لِينِ القُلوبِ وذَهابِ القَسْوَةِ مِنها"(٣٩).

وفى مصر تدرَّب أبو بكر على الجدل، وناظر الشِّيعة والقدريَّة، ويصف هذه الطَّوائف قائلاً: "أمَّة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشنت من غير فطم بلبن العناد، واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد"(٤٠).

* * *

فلسطين: ومن مصر انطلقا إلى فلسطين، وواصلا السير إلى بيت المقدس، وفى هذه الجولة من الرحلة يمدنا ابن العربى بمعلومات مهمة عن الجوانب الدينية والعلمية فى القدس فى هذه الفترة، ويحدثنا عن العديد من جولاته الأثرية فيها، وسنأتى عليها بالتفصيل، فهى موضوع البحث.

* * *

عسقلان وما جاورها: وبعدها يزور مدينة عسقلان، فينجذب إليها، ويعجب بنشاط أهلها، وخفة روحهم، فيقيم بها نحو ستة أشهر، ويتخذ جملة من الرُّفقاء والإخوان، لولا هاتف ديني أوحى إليه بالرحيل ما كان يترك تلك البلدة رغم إلحاح أبيه عليه بالرَّحيل، وأفصح لأبيه عن نيَّته فى الرَّحيل، فسرَّ بذلك، وركبا البحر إلى عكا، ثم عرجا على طبرية وحوران، ثمَّ دمشق(٤١).

* * *

دمشق: وقد وصل أبو بكر بن العربى وأبوه إلى دمشق فى الشُّهور الأولى من سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، واختار ابن العربى من باب الفراديس مقرًا له، ويصف هذا الباب فيقول: "بابُ الفراديس لَيْسَ في الأرْض مِثْله، عِنْدَهُ كَانَ مَقرّي، وإليْهِ مِن الوَحْشَةِ كَانَ مَفرّي، وإليه كانَ انفرادي لِلدَّرْسِ والتَّقرّي"(٤٢).

لم يطل المقام بابن العربى فى دمشق؛ لأنَّ الحركة العلميَّة فيها تكاد تكون متشابهة مع الحركة العلميَّة التى فى القدس كما سنرى، فدمشق لن تضيف إليه جديدًا، فنوى الرَّحيل إلى بغداد، وعلى الرَّغم من قِصَرِ مدَّة الإقامة فى دمشق، إلاّ أنَّ ابن العربي كانت له جوَلاته ومشاهداته التي لم يفته تدوينها، فوصف لنا المعالم

---

(٣٩) ابن العربي: أحكام القرآن- تحقيق: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- ط ٣، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م، ٤/ ٤-٥.

(٤٠) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٣.

(٤١) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٤٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

الأثريّة والتّاريخيّة في دمشق، كما صوّر عمران دمشق وتقدُّمَها في أسباب الرّفاهة والصّيانة والنّعيم(٤٣).

* * *

بغداد: لم يطل المقام بابن العربى فى دمشق، فرحل إلى بغداد، في شعبان سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وأهلّ هلال رمضان والقافلة على مشارف العراق، فلمّا دخل دار السّلام، كان أوّل شيء يفعله هو السّؤال عن حلقات أهل العلم، فدلّوه على المدرسة النظاميّة، ولكنّ إقامة ابن العربى لم تطل بالعراق أكثر من ثلاثة أشهر(٤٤)، حيث نوى أداء فريضة الحجّ هذا الموسم، ورحل ابن العربى إلى الحجاز أواخر ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م.

* * *

الحجاز: خرج ابن العربى من بغداد، إلى بلاد الحجاز، قاصدًا الحجّ، فأحرم من ذات عرق – وهو ميقات الحجيج القادمين من العراق ونواحيها – يقول ابن العربى: "وأمّا أنا فجئت مراهقًا من ذات عرق إلى الموقف ليلة عرفة، نصف الليل، فأصبحت بها، ووقفت من الزّوال يوم الجمعة سنة سبع وثمانين وأربعمئة(٤٥)، ثمّ دفعت بعد غروب الشمس إلى المزدلفة، فبتّ بها"(٤٦).

ولا يُخفي ابنُ العربى شعورَه الجارف بالسّعادة لأدائه فريضة الحجّ فى هذا الموسم؛ لأنّ وقفة عرفة جاءت في يوم الجمعة، فاجتمع للحجيج فضل اليومين، "لمّا كانت سنة تسع وثمانين وأربعمائة(٤٧) أهلّ علينا هلال ذي الحجّة ليلة يوم الخميس...

---

(٤٣) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٤-٤٤٦.

(٤٤) أفاض ابن العربي في رحلته إلى العراق في الحديث عن العلماء الذين قابلهم وتلقى عنهم، وكانت له معهم مداخلات ومناظرات علمية، حيث يذكر أنه لقي أبا بكر الشاشي فقيه الوقت وإمامه (قانون التأويل، ص٤٤٩)، ولقي الشيخ الطوسي شيخ الشيوخ وصاحب الباع والرسوخ في العلم (قانون التأويل، ص٤٥٢)، كما سرد عددًا من الكتب التي قرأها واطلع عليها خلال هذه الرحلة، مثل: تفسير الثعالبي، وكتاب الماوردي، ومختصر الطبري، وغيرها(قانون التأويل،ص٤٥٥-٤٥٦).

(٤٥) هذا تصحيف والصّحيح أنّها سنة تسع وثمانين وأربعمئة.

(٤٦) ابن العربي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي- دار الكتب العلميّة – بيروت – ط١، ١٩٩٥م، ٤/ ١٥٣.

(٤٧) اتّخذ البعض من هذا النّص، والنّص السّابق عليه، حجّة بأنّ ابن العربي قام بأداء فريضة الحج مرّتين: المرّة الأولى: كانت في عام ٤٨٧هـ/١٠٩٣م. والمرة الثانية: كانت في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م. وهذه مغالطة بُنيَت على تحريف في النّصّ، فالفرق بين سنة سبع وثمانين

وقد فرح الناس بوقفة الجمعة ليجتمع لهم فضل اليومين: فضلُ يوم عرفة وفضل يوم الجمعة؛ ولأنَّ حجَّ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أيضًا كان يوم عرفة يوم الجمعة"(٤٨).

وقد شاهد قافلةً من الحجيج الشِّيعة القادمين من العراق سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وقد تركوا الإحرام من ميقات ذات عرق، فـ "الشيعة لا يُحرمون منه"(٤٩).

ومنَ المشاهد المهمَّة التي سجَّلها ابن العربي أثناءِ إقامته بمكَّة في موسم الحجّ: مشهدِ مبيت الحجَّاج بعرفة ليلة عرفة، قال: "مررتُ من ذات عرق، فألفيت الحاجَّ كلَّه بائتًا بعرفة ليلة عرفة"(٥٠).

"وهذا بخلاف السنَّة النبويَّة؛ إذ ينبغي أن يكونَ مبيت الحاجَّ في تلك الليلةِ بمنى لا عرفة"(٥١)، "وليس على مَن فعل ذلك شيء، ولكنه تركَ فعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ولقد خاب مَن تركه" كما قال ابن العربي(٥٢).

ويعلِّق أحد الباحثين على هذا المشْهد، ذاكرًا سبب عدم مبيت الحجيج في منى فيقول: "الحجيج في ذلك الوقت كانوا غير آمنين على أنفُسِهم أثناء تأديَتهم لمناسك الحجّ، فاضطروا إلى ترك سنَّة المبيت بمني في اليوم الثَّامن من ذي الحجَّة، فكانوا يصعدون إلى منى في ذلك اليوم، ثمَّ يتوجَّهون منها مباشرة إلى عرفة؛ خوفًا من غارات محتمَلة قد يشنها بنو شعبة على الحجَّاج أثناء صعودهم لعرفات"(٥٣).

وأربعمئة، وتسع وثمانين وأربعمائة يسير، والدَّليل على أنَّ ابن العربي لم يحجَّ في سنة سبع وثَمانين وأربعمئة أمران: أوَّلًا: أنَّه بدأ رحلته، سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكما يقول ابنُ العربي: إنَّه أقام في القدس ثلاث سنوات، فمعنى ذلك أنَّ ابن العربي كان ما زال في القدس سنـــة ٤٨٧ هـــ/ ١٠٩٣ م. ثانيًا: أنَّ ابن العربي جاء الحجاز قادمًا من العراق، والدَّليل على ذلك أنَّه أحرم من ذات عرق - وهو ميقات الحجيج القادمين من العراق - فكيف لابن العربي أن يَخرج من العراق لأداء فريضة الحج سنة سبع وثَمانين وأربعمئة، وهو ما زال بالقدس، والصحيح المتَّفق عليه أنَّ ابن العربي لم يؤدّ فريضة الحجّ إلاَّ مرَّة واحدة سنة تسع وثَمانين وأربعمئة.

(٤٨) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٤٩-٥٠.

(٤٩) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٤٩.

(٥٠) المصدر السابق، ٤/ ١١٠.

(٥١) انظر: محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة"- مجلة العرب (ج١١- ١٢) سنة ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م - الرياض- دار اليمامة، ص ٨٩٧-٨٩٩.

(٥٢) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ١١٠.

(٥٣) محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة"، ص ٨٩٧-٩٠٠.

ثم يقولِ ابنُ العربي: "لقد كُنْت بمكَّةَ مُقيمًا في ذي الحِجَّةِ، سنَةَ تِسْع وثَمانِين وأَرْبعمِئةٍ، وكُنت أَشْرَبُ ماءَ زَمْزَمَ كثيرًا، وكلَّما شَرِبْته نويْت به العِلمَ والإيمانَ، حتَّى فَتَحَ اللَّه لي بَرَكَتَه في المِقْدار الَّذي يَسَّرَهُ لي من العِلم، ونَسِيت أنْ أَشْرَبَه للعَمَل، ويا لَيْتَني شَرِبْته لهُما حتى يَفْتَحَ اللَّهُ عليَّ فيهما، ولَمْ يُقَدَّرْ، فكانَ صَغْوي إلى العِلم أكْثَرَ مِنهُ إلى العَمَل"(٤).

وصف ابن العربي مشاهداتِه ودوَّن انطباعاته، فصوَّر لنا معالم الحرم المكِّي، كما توقف عند المعالم الأثريَّة والتاريخيَّة بمكَّة، وتحرَّى الدقَّة في استِقْصاءِ الأخبار، وحرص على وصْف نظم التعليم ووسائله في مكَّة، وأبدى إعجابه الشديد بتلك الوسائل، كما أثْنى على الطَّريقة المتبعة في التعليم، والتي تقوم على أساس التدرُّج في اكتِساب العلوم، فيقول: "كنت أحضَرُ عِنْدَ الحاسِبِ بِتِلْكَ الدِّيار المُكَرَّمَةِ، وهُوَ يَجْعَلُ الأعْدادَ على المُتَعَلِّمينَ الحَاسِبِينَ، وأَفْوَاهُهُم مَمْلُوءةٌ مِن الماءِ، حتَّى إذا انْتَهَى إلْقاؤَهُ، وقالَ: ما مَعَكُم؟ رَمَى كُلُّ واحِدٍ بما في فَمِه، وقالَ ما مَعَهُ لِيُعَوِّدَهم خَزْلَ اللِّسَانِ عَن تَحْصيلِ المَفْهُوم عَن المَسْموعِ، وللقَوْم في التَّعلم سِيرَةٌ بَديعةٌ، وهيَ أنَّ الصَّغيرَ مِنْهُم إذا عَقِلَ بعَثُوهُ إلى المكتَب، فإذا عَبَرَ المَكتَبَ أخَذَهُ بِتَعْلِيم الخَطِّ والحِسَاب والعَرَبيَّةِ، فإذا حَذَقَهُ كلَّهُ أوْ حَذَقَ مِنْهُ مَا قُدِّرَ لَه، خَرَجَ إلى المُقْرِئ فلَقَّنَهُ كِتَابَ اللَّهِ، فحَفِظَ مِنْهُ كلَّ يَوْم رُبْعَ حِزْب، أوْ نِصْفَه، أوْ حِزْبًا، حتَّى إذا حَفِظَ القُرْآنَ خَرَجَ إلى مَا شَاءَ اللَّهُ مِن تَعْلِيم العِلم أوْ تَرْكِه، ومِنْهُم- وهُم الأكْثَرُ- مَنْ يُؤَخِّرُ حِفْظَ القُرْآن، ويَتَعَلَّمُ الفِقْه والحَدِيث وما شَاءَ اللَّهُ، فَرُبَّمَا كانَ إمامًا وهُوَ لا يحفَظُه، وما رَأَيْت بعَيْنَي إمامًا يَحْفَظُ القُرْآنَ، ولا رَأَيْت فَقِيهًا يَحْفَظُه إلاَّ اثْنَيْن، ذَلكَ لتَعْلَموا أنَّ المَقْصودَ حُدُودُه لا حُرُوفُه، وعُلِّقَت القُلُوبُ اليوم بالحُرُوفِ وضَيَّعُوا الحُدُودَ..."(٥).

وحدثنا عن مقام إبراهيم وزيارته له وتحديده بدقة فقال: "إن المفسرين استرسلوا فيه على عادتهم، فقالت طائفة: المقام هو مناسك الحج كلها، وقيل: هو الحجر في أقوال لا يتحصل منه على مقتضى الدليل مراد، والصحيح أنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم يدعو حين خلف تركته بمكة، وهو الذي قام عليه حين جاء يُطالع تركته في إسماعيل وأهله، وأثر قدمه فيه إلى اليوم، رأيته ولمسته بيدي وخدي؛ تبركًا به في ذي الحجة من سنة تسع وثمانين وأربعمئة، والحمد لله رب العالمين"(٦).

وابنُ العربي في مكَّة والمدينة لا ينسى طلبَه للعلم، فيواصل ابن العربي طلبَ العِلم على يد مشايخ وعلماء مكَّة والمدينة، فجلس إليهم مدَّة، ثم "عاد إلى بغداد .

---

(٤) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٩٨.

(٥) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٤٩.

(٦) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١١/ ٨٠-٨١.

* * *

العراق: ثمَّ ارتحل ابن العربي راجعًا إلى بغداد مرَّة ثانية بعد أدائه فريضة الحجِّ، وأقام فيها بعض الوقت، "وصحب بها كثيرًا من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم وتفقه عندهم، وسمع العلم منهم"(٥٧)، فتتلمذ على يد التبريزي العالم اللغوي (٤٢١-٥٠٢هـ/١٠٢٩-١١٠٨م)، وأبي بكر الشاشي الشافعي (٤٢٩-٥٠٧هـ/ ١٠٣٧-١١١٣م). واستمع إلى دروس أبي حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨-١١١١م)، في المدرسة النظاميَّة، وقد التقى به برباط أبي سعيد بمدينة السلام، في جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، ولا يُخفي ابن العربي فرحته بلقاء الإمام الغزالي، وكان يفتخر بالأخذ عنه، فيقول: "ورد علينا دانِشْمَنْد(٥٨) فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظاميَّة، معرضًا عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيَّتنا عليه، وقلت له: أنت ضالَّتنا التي كنَّا ننشد، وإمامُنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أنَّ الذي نقل إلينا من أنَّ الخبَر عن الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم، ولو رآه عليُّ بن العباس(٥٩) لما قال:

إذَا ما مَدَحْتَ امْرَأً غَائِبًا ... فَلا تَغْــلُ فِي مَدْحِهِ وَاقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى الأَمَدِ الأَبْعَــدِ
فَيَصْغُرُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْــلِ المَغِيبِ عَلَى المَشْهَدِ

فقصدت رباطَه، ولزمتُ بساطه، واغتنمت خلْوته ونشاطه"(٦٠).

ثمَّ قام ابنُ العربي بجولة في أنحاء العراق، فزار البصرة، والكوفة، والكرْخ، والموصل.

* * *

في طريق العودة: غادر ابنُ العربي بغداد أواخر سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وغادر العراق إلى الشام، فمرَّ على دمشق والقدس، فجدَّد أبو بكر العهْد بشيوخه في الشام، وطاف على مزارات بيت المقدس(٦١).

---

(٥٧) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٩-٣٠.

(٥٨) دانشمند: كلمة فارسية تعني العارف، أو الحكيم العلامة، والمقصود بها هنا الإمام الغزالي.

(٥٩) هو الشاعر العباسي المعروف بابن الرومي.

(٦٠) ابن العربي: قانون التأويل، ٤٥٠-٤٥١.

(٦١) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥-٤٣٨. أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥، ٦، ٧، وسيأتي الحديث عن هذه المزارات بالتفصيل بعد قليل.

* * *

الإسكندرية: ثم انتقل إلى الإسكندرية أوائل سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، ونزل على أستاذِهِ أبي بكر الطرطوشي، الذي انتقل هو الآخر إلى ثغر الإسكندريّة ليتخذه مقرًا له – وكان الصليبيُّون قدِ استولوا على بيت المقدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م – وقد حرَص بها على لقاء جماعةٍ من المحدِّثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادَهم.

ويَحكي عن بعضِ مشاهداتِهِ بالإسكندرية فيقول: "وقدْ شاهَدْت بثَغْر الإسْكَنْدَرِيَّة إذا مَاتَ مِنْهُم ميِّتٌ صَوَّرُوهُ منْ خَشَبٍ في أحْسَنِ صُورةٍ، وأجْلَسُوهُ في مَوْضِعِه منْ بَيْتِه وكَسَوْهُ بِزَتَّه إنْ كَانَ رَجُلًا، وحِلْيَتَها إنْ كَانَتْ امْرأةً، وأغْلَقُوا عَلَيْه البابَ، فإذا أصَابَ أحَدًا مِنْهُم كَرْبٌ أو تَجَدَّدَ لَه مكرُوهٌ، فتَحَ البابَ عَلَيْه وجَلَسَ عِنْدَهُ يَبكي ويُناجيهِ بكَانَ وكانَ، حتى يَكسِرَ سَوْرَةَ حُزْنِهِ بإهْرَاقِ دُمُوعِه، ثُمَّ يُغْلِق البابَ عليْه وينصَرِفُ عَنْه، وإنْ تَمَادَى بِهِم الزَّمانُ يَعْبُدُوها من جُمْلَةِ الأصْنَامِ والأوْثَانِ"(٦٢).

وكانت وفاة والده بالإسكندرية، في محرَّم سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، أحد الأسباب القويّة، التي دفعته للرجوع إلى وطنه، في العام نفسه، بعد رحلة استغرقت ثمانية أعوام(٦٣)، قضاها ابن العربي، متجولًا في بلاد المشرق الإسلامي، طالبًا للعلم تارةً، وحاجًا تارة، وسائحًا تارة أخرى.

* * *

المغرب: ومن الصعوبة تحديد طريق العوْدة إلى الأندلس، أكانت بحرًا أم برًّا؟، إلاّ أنّه نزل بتلمسان، وفاس وأملى بهما مجالس علم كانت مثار إعجاب الحاضرين، ثمّ مرَّ بأرض دُكّالة، ثمّ دخل مرّاكش عاصمة المغرب وقابل ابن تاشفين، فتسلم منه المراسم السلطانية التي حملها إليه من عاصمة الخلافة العباسية– بغداد– بتقليده لقب "أمير المسلمين"، وجعله نائبًا عن الخليفة العباسي في أقطار الغرب الإسلامي(٦٤).

* * *

---

(٦٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٩.

(٦٣) لقد استغرقت رحلة ابن العربي ثمانية أعوام حتى وفاة والده، وحوالي عشْر سنوات حتى عودته إلى إشبيليّة، حيث ابتدأ رحلته في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكانت عودته سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م.

(٦٤) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٨٨–٨٩ (مقدمة المحقق).

الأندلس: ثم عبر من المغرب إلى الأندلس، "وقدم إلى بلده إشبيليّة، بعلم كثير لم يدخله أحد قبله، ممّن كانت له رحلة إلى المشرق"(٦٥)، "فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمّعة"(٦٦).

ويبدو أنّ ابن العربي، بعد عودته إلى بلاد الأندلس، أكثرَ من الحديث عن رحلتِه، ومشاهداته وانطباعاته عن بلاد المشرق، "ولكثرة حديثه وأخباره، وغريب حكاياته ورواياتِه، أكثر الناس فيه الكلام، وطعنوا في حديثه"(٦٧).

وكما شاهد ابن العربي سقوطَ دولة بني عباد على يد يوسف بن تاشفين في أوّل شبابه، شاهد كذلك سقوط دولة بني تاشفين أو دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن علي، صاحب دولة الموحّدين في أواخر شيخوختِه.

وفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م ترأس ابن العربي وفد (إشبيلية)، لمقابلة عبد المؤمن بن علي بمراكش، إلا أنّ عبد المؤمن حبس هذا الوفد في مراكش نحو عام لانشغاله بحرب بعض الخارجين عليه، ثم سرّحوا، وأُذن لهم بمقابلته، فتقدموا للسلام عليه، ثم قدموا له بيعة أهل إشبيلية، فقبلها منهم واستحسن صنيعهم(٦٨)، وتوفّي ابن العربي في طريق العودة سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م بمقربةٍ من مدينة فاس، ودفن بها(٦٩).

* * *

---

(٦٥) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٩-٣٠.

(٦٦) المصدر السابق، ٢/ ٣٤.

(٦٧) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٠.

(٦٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ١٠٥-١٠٦ (مقدمة المحقق).

(٦٩) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٥٩١.

القدس في رحلة أبي بكر بن العربي

كانت القدس والمسجد الأقصى المبارك في طليعة الأماكن التي يتوجه إليها العلماء الرحالة من كل أنحاء العالم الإسلامي، لاسيما من المغرب والأندلس، لأنها تمثل مركز جذب رئيسًا، نظرًا للمكانة الدينية التي كانت تتمتع بها باعتبارها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفضل الصلاة في مسجدها الأقصى كبير، وإليه يشد الرحال، وكانت عملية التواصل معها من قبل علماء الغرب الإسلامي تمثل معلمًا بارزًا من معالم الوحدة الثقافية والحضارية مع العالم العربي والإسلامي عبر العصور.

وفي هذا البحث نحاول أن نتعرف على ظروف القدس وأحوالها السياسية والحضارية من خلال رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث يمثل رصده لأحوال القدس خلال هذه الحقبة، مصدرًا مهمًا لمرحلة متميزة من مراحل حياة القدس العربية والإسلامية، ويسد نقصًا حقيقيًا عجزت المصادر التاريخية التقليدية عن سده؛ لأنها اهتمت بالظروف السياسية وأغفلت الجوانب الحضارية المختلفة إلا ما ندر. ومع هذه الندرة لا نملك إلا الرجوع إلى كتب الرحلات، بمختلف أنواعها، لتكوين صورة متكاملة عن القدس وتاريخها وحضارتها في حقبها المتعددة.

ولا يقف الأمر عند حد الاستفادة مما رصده الرحالة من ظروف وأحوال حضارية في القدس، بل نقف أيضًا عند جهود هؤلاء العلماء القادمين من الغرب الإسلامي، ونشرهم للعلم والمعرفة في القدس، وتواصلهم مع علمائها، واندماجهم معهم، والأخذ عنهم، ومن ثم الرجوع بإرث حضاري متميز من المشرق لنشره في المغرب والأندلس.

القاضي أبو بكر بن العربي في القدس:

بعد زيارة مصر خرج أبو بكر بن العربي وأبوه منها منطلقَيْن إلىَ فلسطين، وفي نيَّتِهما مواصلة السَّير، فواصلا المسير إلى بيت المقْدس، قُبَيْل نهاية سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكانت مقاليد الحكم بيَد السَّلاجقة، وكانوا يعتنقون المذهب السنيّ، ويعملون على نشرِ الوعْي الإسلامي، فأسسوا المدارس، وأسقطوا المكوس، وقربوا

العلماء، فوجد فيها ابن العرَبى بُغيَته من طلب العلم، فبها كثرة من العُلماء، وتنوُّع في المذاهب، ووفرة في المدارس، وتعدُّد في الأذيان([٢٠]).

أولاً: الحركة العلمية في القدس:

وقد بُهر ابن العربى بازدهار الحركة العلمية فى القدس آنذاك، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام، وأملنا الإمام، فدخلنا الأرض المقدّسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لى بدرُ المعرفة، فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام... فقلت لأبى رحمة الله عليه: إن كانت لك نيّة فى الحجّ فامض لعزْمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتّى أعلم علْمَ مَن فيها، وأجعل ذلك دستورًا للعلم، وسلمًا إلى مراقيها، فسَاعدني حين رأى جِدّي، وكانت صحبتُه لي من أعظم أسباب جَدّي.."([٢١]).

ونلاحظ من خلال هذا النص مدى تعلق ابن العربى بالقدس وجوها العلمى الذي كان يبحث عنه ليروي غلته، حيث تخلى عن صحبة والده حينما أراد الذهاب إلى الحج، مفضلاً البقاء فى القدس لطلب العلم وإجادة ما يجيده علماؤها من علوم مختلفة.

وفي رحاب المسجد الأقصي كان ابن العربي يقْضِي معظمَ أوقاته، يظلُّ نهارَه في الدرس والتحصيل، ويبيت ليله في التهجُّد والعبادة، وحرص على طلب العلم، واستيفاء تحصيله العلمي من شيوخها، فحرص على لقاء جماعة من العُلماء والمحدِّثين الفقهاء الذين أخذ عنهم، وتتلمذ على يد شيخِه الأندلسي أبي بكر الفهري الطرطوشي (٤٥١-٥٢٠هـ/١٠٥٩-١١٢٥م)، حيث لازمه أكثر من خمس سنوات ما بين القدس والإسكندرية، وسمع منه، وتلقى عنه العديد من العلوم حتى بزغ نجمه، وذاع صيته في الجدل وعلم الكلام، وأصبحت الأنظار ترنو إليه، واحتل مركزه في صفوف العلماء، واعترف له الشيوخ بالفضل والمزية([٢٢]).

وقد أشار ابن العربى إلى أهمية مجلس الطرطوشي العلمى، وتأثيره عليه وعلى سواه من المترددين على مجالس العالم والمعرفة في القدس آنذاك، فقال عن لقائه به: "فشاهدتُ هديه، وسمعت كلامه، فامتلأت عيني وأذني منه..... وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، ويسَّر لي على يديه أعظم أمل،

([٢٠]) ابن العربي: قانون التأويل، ٤٣٣-٤٣٦. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ١٩-٢٠.

([٢١]) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٣-٤٣٥.

([٢٢]) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٧.

فاتخذتُ بيت المقدس مباءة، والتزمتُ فيه القراءة، لا أُقبل على دنيا، ولا أُكلّم إنسيا، نواصل الليل والنهار فيه، وخصوصًا بقبة السلسلة....".(٧٣)

وقد طالت إقامة ابنِ العربي ببيت المقدسِ أربعين شهرًا – أي: ما يزيد عن ثلاثة أعوام– حيث وجد القدس بيئة صالحة للتعلم والتحصيل، كما وجد بها مدارس للشافعية والحنفيّة، كما أنّ الشيوخ والعلماء يعقدون مجالس العلم والمناظرة بين أصحاب المذاهب المتعددة، والمناظرة بين أصحاب الديانات المختلفة، لقد أغراه هذا الجوُ العلمي في القدس، فأقبل على علوم عصره يلتهمُها، فاستوفى علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، الأمر الذي من أجله اتخذ قرارَ تأجيل رحلته إلى الحج، رغم إلحاح والده عليه(٧٤).

المناظرات العلمية في القدس:

أشار ابن العربي أكثر من مرة إلى حضوره التناظر بين الطوائف المختلفة، وتردده على المدارس الموجودة في القدس، وحلقات العلم فيها، من ذلك– مثلاً– قوله: "وحين صليت بالمسجد الأقصى، فاتحة دخولي له، عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفيتُ بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحي....وهم يتناظرون على عادتهم....."(٧٥)، وكذلك قوله: "وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي، وتقاة عدو"(٧٦).

---

(٧٣) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥. د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل"-مجلة الأبحاث- ج ٢-٣، بيروت، ١٩٦٨م، ص٨٠-٨١. وقبة السلسلة: قبة صغيرة تقع إلى شرق مسجد الصخرة، وهي على مثاله. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي– دار إحياء التراث العربي– بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ١٧٠/٤. مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل-منشورات المطبعة الحيدرية–النجف، ١٩٦٨ م، ٢/ ١٨.

(٧٤) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥-٤٣٨.

(٧٥) المصدر السابق، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٧٦) انظر: د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل"، ص ٨١. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٦.

ومن جملة المناظرين الذين أشار إليهم في مدرسة الشافعية التي تقع بباب الأسباط، شيخ الشافعية بالمسجد الأقصى أبو الفضل عطاء المقدسي(٧٧)، والقاضي يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ، وقاضي القضاة مجلي بن جميع المخزومي(٧٨).

ويعود الفضل إلى ابن العربي في إشارته إلى المدرسة الحنفية التي تدعى بمدرسة أبي عقبة ببيت المقدس، والتي لم نسمع بوجودها من مصدر آخر(٧٩)، فقد ذكرها في ثلاثة من كتبه(٨٠)، وأشار إلى المناظرات التي كانت تجري فيها، وأن شيخها كان يدعى القاضي أبو الفضل الريحاني(٨١)، وأورد مناظرة جرت أمامه بين هذا القاضي وعالم غريب دخل إلى المدرسة في أحد أيام الجمع، يدعى الصاغاني(٨٢)، وابن العربي بذلك يوثق لأقدم المعاهد العلمية التي كانت موجودة في القدس قبل احتلال الصليبيين لها، وتدميرهم لتلك المراكز العلمية المهمة.

ويظهر كذلك من كلامه أن القدس كانت مركزًا لنشاط المدارس الإسلامية المختلفة، وملتقى المتناظرين المسلمين وغير المسلمين، فقد ذكر أنه حضر مناظرات لعلماء من ملل مختلفة(٨٣)، كما أشار إلى وجود ثمان وعشرين حلقة لطلب العلم في المسجد الأقصى(٨٤)، وإلى وجود عدد كبير من العلماء الوافدين على المدينة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي(٨٥).

كما ناظر هو بنفسه بعض أحبار اليهود، وجرت بينه وبين الباطنية الإسماعيلية مناظرة عظيمة، تحدث عن صعوبتها فقال: "وهي كانت الشدة الرابعة من شدائد

---

(٧٧) انظر: القاضي مجير الدين الحنبلي: الأُنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١/ ٢٩٨. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٦.

(٧٨) د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص ٨٠. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٠.

(٧٩) انظر: كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس- جمعية المطابع التعاونية- عمان، ١٩٨١ م، ص ٣١.

(٨٠) انظر: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص٨٣. ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢، وقد ذكرها في هذا الكتاب باسم "مدرسة أبي عتبة" ولعله تصحيف، حيث ذُكرت في بقية المصادر باسم "مدرسة أبي عقبة". ابن العربي: العواصم من القواصم: تحقيق: د. عمار الطالبي- مكتبة دار التراث - القاهرة - د.ت، ص ٤٥. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤١.

(٨١) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٨٣. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٩، ٤٤١.

(٨٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢. قانون التأويل، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٨٣) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨١، ٨٢.

(٨٤) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٥.

(٨٥) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨٢.

عمري التي أنقذني الله منها......"([٨٦])، كما ناظر بعض رجالات الشيعة، وخاض معارك كلامية مع الكرّامية([٨٧]) والمعتزلة وغيرهم، وكانت له الحجة في كل مناظراته، فخرج منها ظافرًا منتصرًا([٨٨]).

العلوم والمعارف في القدس:

وكانت العلوم الشائعة في فترة زيارته للقدس هي: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، حيث يشير إلى اطلاعه عليها هناك([٨٩])، كما يذكر أيضًا أنه اطلع على كتاب المدونة بالطريقة القيروانية، التي تقوم على التنظير والتمثيل، والطريقة العراقية التي تقوم على الاستنباط واستخراج العلل ومعرفة الدليل، وبيّن أن دراسة المدونة- وهي الأصل الثاني للفقه المالكي بعد موطأ مالك- في مدينة القدس، كانت تقوم على الجمع بين هاتين الطريقتين([٩٠]).

واهتم ابن العربي بدراسة كتب الحديث في القدس، وأسهم في نقلها إلى المغرب والأندلس، من ذلك مثلاً: كتاب المصباح والداعي إلى الفلاح في حديث رسـول الله، تأليف أبي الفتـح نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، تـوفي سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦- ١٠٩٧م)، الذي سمعه منه بلفظه، وحدّث به أحد تلامذته (علي بن خلف بن ذي النون العبسي)، الذي سمعه بدوره أيضًا عن مؤلفه في القدس([٩١])، واستمرت رواية هذا الكتاب في الغرب الإسلامي لمدة ليست بالقصيرة، حتى وردت

([٨٦]) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٨.

([٨٧]) الكرّامية: هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرّام السجستاني (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) يوافقون أهل السنة في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل. انظر: ابن حزم: الفِصَل في الملل والأهواء والنحل- دار المعرفة- بيروت- ط ٢، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ٤/ ٤٥، ٢٠٤، ٢٠٥.

([٨٨]) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٥٤. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٣.

([٨٩]) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٨٢. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٨.

([٩٠]) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨٢. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٨. وانظر: عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي- مكتبة الأقصى، ١٩٨٠ م، ص ٣٢.

([٩١]) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٤، ٤٤٤. وراجع الحاشية رقم ٥ من ص ٤٤٤.

ضمن ما سمعه ابن خير الإشبيلي في فهرسته عن شيوخه في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي(٩٢)

ويتبين مما سبق أن ابن العربي قضى أكثر من ثلاث سنوات في القدس- كما أشرنا من قبل - رافق فيها الشيخ الطرطوشي في حلقاته العلمية، وزار مدارس القدس، ومعاهدها، ومشايخها، وأخذ العلم عنهم. ومن المرجح أن هذه السنوات الثلاث هي التي تقع بين سنتي ٤٨٦ و ٤٨٩ هـ، لأنه غادر في السنة الأخيرة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى بغداد، حيث لقي فيها أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الغزالي، وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم غادر إلى مصر، ومنها إلى الأندلس، حيث عاد إليها بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وتوفي سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م(٩٣).

* * *

ثانياً: المعالم الأثرية في القدس كما شاهدها ابن العربي:

برغم اشتغال ابن العربى بالدّرس والتّحصيل وطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، إلا أنه حرص خلال جولاته، على زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وتسجيل مشاهداته وانطباعاته، والوقوف على الآثار، وقد سجل لنا فى زياراته مشاهد حية للعديد من الأماكن الأثرية التى زارها، واهتم اهتمامًا بالغًا بوصف كل ما شاهده، فكان دقيق الوصف، جيد الملاحظة، مستغرق الفكر فيما يشاهده، ويظهر هذا من دقته فى حديثه عن الآثار التى استمتع بمشاهدتها، فلم يكن وقوفه أمامها وقوفًا عابرًا، بل وقوف المتأمل المدقق المتريث، فتشعر وكأنه التقط لها صورة فوتوغرافية كاملة المعالم، واضحة المشهد، بحيث لا يغيب عنك شيء من تفاصيلها وجمالها وعظمتها، فكان من أهم هذه المعالم:

- **المسجد الأقصى**: لا شك أنه أكثر الأماكن التى ارتادها ابن العربى، حيث الحلقات العلمية ومجالس العلماء التى هى المطلب الأسمى له فى رحلته تلك، ولكن الجديد هنا أنه يمدنا بمعلومات مؤكدة عن مكان هذا المسجد، فيقول: "هذا أمر مستفيض متفق عليه بين الصحابة أن المسجد الأقصى على شرف من الأرض، في سوره

---

(٩٢) ابن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه- نشر: فرانشيسكو قديرة إي زيدين، وخليان ريبيرة طراجو- سرقسطة، ١٨٩٣ م، وأعادت نشره في بيروت- دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩ م، ص ١٥٩.

(٩٣) ابن بشكوال: كتاب الصلة- الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة، ١٩٦٦ م، ٢/٥٩١. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر- بيروت، ١٩٦٨ م، ٤/ ٢٩٦.

الشرقي باب التوبة والرحمة، يقول الناس إنه الباب الذي أخبر الله عنه بقوله (باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)، يليه خندق يقال له خندق جهنم، وعليه يُنصب الصراط، وفي ضفة الوادي شرقًا الساهرة، وهي أرض المحشر، فيها مسجد عمر بن الخطاب، صلى به حين افتتحها، وقال: هذه أرض المحشر"(٩٤).

- **قبرَ يُوسف-عليه السلام** – حيث زاره وقضى فيه عدة ليالي، فقال: "لا جرم شاهدت قبره في قبلة قبور آبائه إبراهيم وإسحاق وزوجاتهم في قبلة الحرم الذي فيه هذه القبور، زرناه مرارًا، وذكرنا الله فيه، وبتنا ليالي آمنين عنده والحمد لله"(٩٥)، وقال عنه أيضًا: "شاهدناه سنة سبع وثمانين، وجاورنا فيه أعوامًا وأيامًا آمنين في نعم فاكهين، وعلى الدرس والمناظرة متقابلين، وهو في قرية جَيْرُون(٩٦) التي كانت لإبراهيم الخليل، بينها وبين المسجد الأقصى ستة فراسخ في سفح الجبل الذي كان فيه بيت رامة مُتعبَّد إبراهيم الخليل عليه السلام المشرف على مدائن لوط...."(٩٧).

ولم يكتف ابن العربي بذلك، بل يمضي في جولته الأثرية ليحدثنا عنْ قبور بقية آل يعقوب، فيقول: "وفي وسط القرية (يقصد قرية جَيْرُون المذكورة آنفا) بنيان مرصوص من حجارة عظام، سورًا عظيمًا، في داخله مسجد، في الجانب الغربي منه مما يلي القبلة إسحاق (يعني قبر إسحاق عليه السلام)، ويليه في الجانب المذكور إبراهيم الخليل، ويليه في الطرف الجَوَّاني من الجانب الغربي يعقوب على نسبة متماثلة، وفيما يقابلها من الجانب الشرقي قبور أزواجهم على الاعتدال، على كل قبر حجر عظيم واحد، له الطول والعرض والعمق، حسبما بيناه في كتابي ترتيب الرحلة..."(٩٨).

ثم يعود ابن العربي ليحدد بدقة موقع قبر يوسف عليه السلام، ويصف لنا مدى العناية والاهتمام به، حيث كان له قَيِّمٌ مسئول عن صيانته، وكانت له أم تنوب عنه في صيانة القبر إن غاب لأي عارض. ويؤكد على أن هيئة قبر يوسف وشكله الخارجي كهيئة بقية قبور أسرته دون تمييز، فيقول: "وفي الجانب القبلي منه خارج هذا الحرم

---

(٩٤) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١٣/ ٢٧٧.

(٩٥) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٢٧٤.

(٩٦) ذكر ابن العربي في موضع آخر من كتابه أحكام القرآن هذا الاسم على أنه باب من أبواب دمشق، حيث قال عنها: "ولها باب جَيْرُون بن سعد بن عُبادة، وعنده القبة العظيمة والميقاتات لمعرفة الساعات...". انظر: ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

(٩٧) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٧٣-٧٤.

(٩٨) المصدر السابق، ٣/ ٧٤.

قبر يوسف منتبذًا، كان له قيم طرطوشي زَمِنَ، وله أم تنوب عنه، وهيئة قبر يوسف كهيئة قبورهم، وهذا أصح الأقاويل في موضع قبره....."(٩٩).

- **قبر يونس- عليه السلام** – حيث كان يقع في طريقه من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وتلقى الكثير من العلم عنده، وقد أشار إلى ذلك فقال: "قصدت قبره مرارًا بقرية جلحون في مسيري من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وبت فيه، وتقربت إلى الله بمحبته، ودرسنا كثيرًا من العلم عنده....."(١٠٠).

- **باب حطة**: وهو الباب الثامن من أبواب المسجد الأقصى من جهته القبلية، دخله ابن العربي سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٢م، فقال: "....هو باب المسجد الثامن، وهو من جهة القبلة معلوم مذكور، دخلته سنة ست وثمانين، وسجدت وخضعت، وقلت لا إله إلا الله، اللهم احطط عني ذنبي واغفر لي، وبقيت فيه أعوامًا، وكل مرة أكرر هذا الكلام، وأكثر من الدخول والقول: سمعنا وأطعنا، والحمد لله رب العالمين"(١٠١).

- **مسجد عمر بن الخطاب**: زاره ابن العربي وصلى فيه، وقال عنه: "روي عن عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس، وقف على الطور بشرقيه وقال: هذه أرض المحشر، واتخذ به مسجدًا، رأيته وصليتُ فيه ما لا أحصي، بينه وبين المسجد وادٍ يُسمى وادي جهنم، وللمسجد باب يقال له باب التوبة والرحمة، يقال إنه الباب الذي باطنه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب...."(١٠٢).

- **المائدة بطور زيتا**: تُعد صخرة المائدة من أروع الأماكن الأثرية التي وصفها ابن العربي في جولاته الأثرية، حيث قال عنها: "شاهَدْت المَائدةَ بطُور زَيْتَا(١٠٣) مِرارًا، وأكلْت علَيْها لَيْلا ونَهارًا، وذَكَرْت اللَّهَ – سُبْحانَه – فِيهَا سِرًّا وجهارًا، وكانَ ارْتِفاعُها أسْفَلَ مِن القَامَةِ بنَحْو الشِّبْرِ، وكانَ لهَا دَرجَتَان قَلْبِيًّا وجَوْفِيًّا، وكانَتْ صَخْرَةً صَلْدَاءَ لا تُؤثِّرُ فِيها المَعاوِلُ، فَكانَ النَّاسُ يَقُولُون: مُسِخَتْ صَخْرَةً

---

(٩٩) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٠٠) ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ١٩٧.

(١٠١) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١١/ ٧٨.

(١٠٢) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٩/ ٤٦، ١٣/ ٢٧٧.

(١٠٣) طور زيتا: هو جبل الطور المقدسي، ويُعرف في اصطلاح اليوم بجبل الزيتون، وتقع عليه قرية الطور، وهو إلى الشرق من قبة السلسلة الواقعة إلى شرق مسجد الصخرة، واسمه مأخوذ من شجر الزيتون الذي كان موجودًا عليه بكثرة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ١٧٠. ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ٤. مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ٢/ ١٨.

إذْ مُسِخَ أَرْبَابُها قِرَدَةً وخَنَازِيرَ، والَّذي عِنْدي أنَّها كَانَتْ في الأصْلِ صَخْرَةً قُطِعَتْ مِن الأرْضِ مَحلاً للمَائدةِ النَازِلَةِ مِن السَّماءِ، وكل ما حَوْلَها حِجَارَةً مِثْلها، وكَانَ ما حَوْلَها محْفُوفًا بقُصُورٍ، وقَدْ نُحِتَ في ذَلِكَ الحَجَر الصَّلْدِ بُيُوت، أَبْوَابُها مِنها، ومَجالسُها مِنْها مَقْطُوعَةً فِيها، وحَنَايَاها في جَوانبِها، وبُيُوت خِدْمَتِها قَدْ صُوِّرَتْ مِن الحَجَرِ، كما تُصَوَّرُ مِن الطِّين والخَشَبِ، فإذَا دَخَلْتَ في قَصْرٍ مِنْ قُصُورِها، ورَدَدْتَ البَابَ، وجَعَلْتَ مِنْ وَرَائه صَخْرَةً كَثُمْنِ دِرْهَم، لم يَفْتَحْه أهْلُ الأرْضِ للصُوقِهِ بالأرْضِ، فإذَا هَبَّت الرِّيحُ وحَثَّت تَحْتَهُ التُّرَابَ، لم يُفْتَحْ إلاَّ بَعْدَ صَبِّ المَاءِ تَحْتَهُ والإكْثَارِ مِنْهُ، حتَّي يَسِيلَ بالتُّراب ويَنْفرجَ مُنْعَرَجُ البَابِ، وقَدْ مَاتَ بها قَوْمٌ بهَذِه العِلَّةِ، وقَدْ كُنْتُ أخْلو فِيهَا كَثيرًا للدَّرْسِ، ولكنى كنت في كل حِين أكْنُسُ حَوْلَ البَابِ مَخَافَةً ممَّا جَرى لغَيْرِي فِيها، وقَدْ شَرَحْتُ أمْرَها في كِتَاب "تَرْتِيب الرِّحْلَة" بِأكثَرَ مِن هَذا"([١٠٤]).

- **محراب داود عليه السلام**: وصف ابن العربى أيضًا محراب داود-عليْه السلام - بالدقة المعهودة عنه فقال: "شاهَدْتَ مِحْرَابَ دَاوُد - عليه السلام - فِي بَيْتِ المَقْدِس بِناءً عَظِيمًا مِنْ حِجارَةٍ صَلْدَةٍ لا تُؤثِّرُ فِيها المَعاول، طُولُ الحَجَرِ خَمْسُونَ ذِرَاعًا، وعَرْضُه ثَلاثَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، وكُلَّما قَامَ بِناؤهُ صَغُرَتْ حِجارَتُه، ويُرَى لَه ثَلاثَةُ أسْوَارٍ؛ لأنَّهُ في السَّحاب أيَّامَ الشِّتاءِ كُلِّها لا يَظْهَرُ لارْتِفاع مَوْضِعِه وارْتِفاعُهُ فى نَفْسِه، لَهُ بَابٌ صَغِيرٌ، ومَدْرَجَةٌ عَرِيضَةٌ، وفِيه الدُّورُ والمَسَاكِنُ، وفي أعْلاهُ المَسْجِدُ، وفِيه كُوَّةٌ شَرْقِيَّةٌ إلى المَسْجِد الأقْصَى في قَدْر البابِ... ولَيْسَ لأحَدٍ في هَدْمِه حِيلَةٌ"([١٠٥]).

- **مقارنة بين حال أهل القدس وأهل الأندلس وموقفهم من الثورات**:

خلال الجولة الأثرية لابن العربى، في ربوع القدس، تثير انتباهه بعض المواقف التي تفرض عليه المقارنة بين أهل بلده الأندلسيين وأهل القدس، وموقفهم من الثورات والاضطرابات التي تحدث بين الحين والآخر، فيصف مشهدًا لثائر على واليه، ويُقارن بين حال أهل القدس وموقفهم من الثورة، وحال أهل الأندلس وموقفهم من هذه الفِتْنَة لو حدثت في بلادهم، فيقول: "ورَأَيْت فيه - أي: محراب داود عليْه السَّلام- غَرِيبةَ الدَّهْر، وذَلك أنَّ ثائرًا ثارَ به على واليه، وامْتَنَعَ فِيه بالقُوتِ، فحَاصَرَهُ، وحَاوَلَ قِتَالَهُ بالنُّشاب مُدَّةً، والبَلَدُ على صِغَره مُسْتَمِرٌّ على حَالِه، ما أُغْلِقَت لِهَذِه الفِتْنَةِ سُوق، ولا سَارَ إليْها مِن العَامَّةِ بَشَرٌ، ولا بَرَزَ للحَالِ مِن المَسْجِدِ الأقْصَى مُعْتَكِفٌ، ولا انْقَطَعَت مُناظَرةٌ، ولا بَطَلَ التَّدْرِيسُ، وإنَّما كَانَت العَسْكَرِيَّةُ قَد تَفَرَّقَتْ فِرْقَتَيْنِ يَقْتَتِلُونَ، ولَيْسَ عِنْدَ سائِرِ النَّاسِ لِذَلِك حَرَكَةٌ، ولو كَانَ بَعْضُ هذا في بِلادِنا لاضْطَرَمَتْ نارُ

([١٠٤]) ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥.

([١٠٥]) المصدر السابق، ٤/ ٦.

الحَرْب في البَعيدِ والقَريب، ولانقَطَعَت المَعَايشُ، وغُلِّقَت الدَّكَاكينُ، وبَطَلَ التَّعامُلُ لكَثْرةِ فُضولِنا وقِلَّةِ فُضولِهم"(١٠٦).

• **وصفه لنساء نابلس**: تَجوَّل ابن العربي في ربوع القدس وشرق الأردنِ، فزار أكثرَ من ألفِ قرية ومدينة، منها **مدينة نابلس**، ووصف نساءَها قائلا: "ولقد دخلت نَيِّفًا على ألفِ قَرْيَةٍ من بَرِيَّةٍ، فَمَا رَأيت نِسَاءً أصْوَنَ عِيالاً، ولا أعَفَّ نِساءٍ مِن نسَاءِ نابُلُسَ... فإني أقَمْتُ فِيها أشْهُرًا، فَمَا رَأيت امْرَأةً في طَرِيق نَهارًا، إلاّ يَوْمَ الجُمُعةِ، فإنهُنَّ يَخرُجْنَ إليها حتى يَمْتَلِئَ المَسْجِدُ مِنْهُنَّ، فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ، وانقَلَبْنَ إلى مَنَازلِهنَّ، لم تَقَعْ عَيْنِي على وَاحِدَةٍ مِنهُم إلى الجُمُعَةِ الأُخرَى، وسائرُ القُرى تَرَى نِساؤها مُتَبرِّجاتٍ بزِينَةٍ وعُطْلَةٍ(١٠٧)، مُتفرِّقاتٍ في كلِّ فِتْنَةٍ وعُضْلَةٍ(١٠٨)، وقدْ رَأيْت بالمَسْجِدِ الأقْصَى عَفائفَ ما خَرَجْنَ مِنْ مُعْتَكَفِهِنَّ حَتَّى استُشْهِدْنَ فِيه"(١٠٩).

* * *

كلمة ختامية:

لقد انشغل القاضي أبو بكر بن العربي في القدس بطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، واضعًا نصب عينيه تدوين مشاهداته وانطباعاته وملاحظاته بدقة متناهية، فلم يترك شيئًا مما حدث له أو رآه إلا وسجله بعناية، مما أعطى مشاهداته وانطباعاته قيمة تاريخية وحضارية مهمة، فأصبحت رحلته إلى القدس سجلاً حافلاً بالعديد من المعطيات العلمية والثقافية والأثرية في آن واحد، تكشف لنا بوضوح عن التطور العلمي والثقافي لتلكم المدينة التاريخية التليدة، وتمكن المشتغلين بالآثار من الوقوف على التطور الأثري للعديد من المنشآت في القدس، وما أدخل عليها من تعديلات وترميمات، كما تكشف لنا عما ازدانت به المدينة من أساطين العلم وجهابذته، خلال هذه الفترة من تاريخ القدس، في العصر الوسيط.

ومن الجدير بالملاحظة أن رحلة ابن العربي تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها، وشهادة العيان هي قمة ما يصبو إليه المؤرخ لتسجيل الروايات التاريخية، وقد دون خلال هذه الرحلة الكثير من المعلومات التي تعد وثائق من الدرجة الأولى، لما تميزت به هذا الرحالة من دقة الملاحظة، وصريح العبارة، وسلاسة

---

(١٠٦) السابق، ٤/ ٧.

(١٠٧) عطلة: عارية من الزينة.

(١٠٨) عضلة: شجرة تشبه الدفلي.

(١٠٩) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٥٦٩.

الأسلوب، فكما كان فقيهًا ومفسرًا، كان أيضًا أديبًا يمتلك ناصية البيان واللغة، إذ إنه اعتمد أسلوبًا مرنًا أثبت فيه تمكنه من آليات الرصد والتوصيف، فلم يدع تفصيلاً بسيطًا يغيب عنه، ولم يغفل شيئًا مما وقعت عليه عينه، فكانت رحلته من المصادر الأساسية لتاريخ كل مدينة أو قرية مر بها، كما تعد مصدرًا مهمًا للباحثين في مجالات التاريخ والاجتماع، والحضارة الإسلامية، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر:

*- ابن الأبّار (أبو بكر محمد بن عبد الله، ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م):

- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي-سلسلة المكتبة الأندلسية (٧)-دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا)-القاهرة-١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

*- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م):

- الصلـــة- الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - سلسلة المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م.

*- ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية للترجمة والنشر- القاهرة - (د. ت).

*- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م):

- الفِصَل في الملل والأهواء والنحل - دار المعرفة- بيروت - ط ٢، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.

*- الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م):

- معجم البلدان -دار إحياء التراث العربي -بيروت، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

*- ابن خَلْدُون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):

- المقدمة- تحقيق وتعليق: د. على عبد الواحد وافى - مكتبة الأسرة - القاهرة - ٢٠٠٦ م.

*- ابن خلّكان (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٨ م.

*- ابن خيـــر الإشبيلي (أبو بكر محمد بن خـــير بن عمر بن خليفة الأمـــوي، ت ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م):

- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف - وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الإسكوريال الشيخ/ فرانشسكة قدارة زيدين، وتلميذه/ خليان ربارة طرّاغوه - سلسلة ذخائر التراث العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط٢ منقحة ومنقطة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

*- الضبي (أحمد بن يحي، ت ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م):

– بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس – دار الكاتب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا) – القاهرة – سلسلة المكتبة الأندلسية(٦) – ١٩٦٧ م.

*- ابن العربي(أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي،ت٥٤٣هـ/١١٤٩م):

– قانون التأويل- تحقيق: محمد السليماني- منشورات دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت- ط١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

– أحكام القرآن – تحقيق: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت- ط٣، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

– العواصم من القواصم – تحقيق: د. عمار الطالبي – مكتبة دار التراث – القاهرة – د.ت.

– عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ١٩٩٥ م.

– شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان – تحقيق: د. محمد يعلى – ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي (كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ/ ١٤ م – كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول – كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٩ م)- سلسلة المصادر الأندلسية (٢٠)- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي- مدريد- ١٩٩٦ م.

*- مجيرالدين الحنبلي(أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد العليمي،ت٩٢٧هـ/١٥٢١م):

– الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل – منشورات المطبعة الحيدرية – النجف، ١٩٦٨ م.

*- المقَّرى (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢ م):

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر – بيروت- ط ١، ١٩٦٨ م.

*- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت٧١١هـ/ ١٣١١م):

– لسان العرب – دار صادر – بيروت – ١٩٥٥ م.

ثانياً: المراجع العربية والمترجمة:

*- د. أحمد رمضان أحمد:

– الرحلة والرحالة المسلمون – دار البيان العربي- جدة، د. ت

*- أغناطيوس كراتشكوفسكي:

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ترجمة: د. صلاح الدين هاشم- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ١٩٦٣ م.

*- حسني محمود حسين:

- أدب الرحلة عند العرب - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - ط٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

*- د. حسين مؤنس:

- الجغرافية والجغرافيون في الأندلس - منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مدريد، ١٩٨٦ م.

*- حسين محمد فهيم:

- أدب الرحلات- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ١٩٨٩م.

*- زكي محمد حسن:

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى-دار الرائد العربي- بيروت، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

*- سعيد أعراب:

- مع القاضي أبي بكر بن العربي - دار الغرب الإسلامي - بيروت- ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

*- عبد الجليل حسن عبد المهدي:

- الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي - مكتبة الأقصى- ١٩٨٠ م.

*- كامل جميل العسلي:

- معاهد العلم في بيت المقدس - جمعية المطابع التعاونية- عمّان، ١٩٨١م.

ثالثاً: الدوريات:

*- د. إحسان عباس:

- "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل" - مجلة الأبحاث (ج ٢-٣)- بيروت، ١٩٦٨ م.

*- محمد أحمد العقيلي:

- "قبيلة بني شعبة" - مجلة العرب (ج ١١-١٢)- دار اليمامة - الرياض، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

الإسلام وتنوع الهوية دراسة في الأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية
ـ الأندلس نموذجاً ـ

د. عبير زكريا سليمان بيومي (*)

الهويــة الأندلسـية :

من المعروف أن الهوية هي مجموعة من الخصائص والصفات والمميزات التي تشكل شعباً أو مجتمعاً بعينه وتميزه عن باقي الشعوب أو المجتمعات، والهوية الأندلسية بدأت مع دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وتسميتهم لها بالأندلس، وظلت باقية إلى الآن على الرغم من زوال الحكم الإسلامي من الأندلس، لتغلغلها في نفوس أتباعها مع اختلاف عروقهم وأصولهم وماضيهم، لأنهم عاشوا حاضراً مشتركاً وحلموا بمستقبل واحد[1]. ومن هنا جاءت القومية التاريخية الأندلسية التي تجسدت من خلال الخصوصية التي سعى إليها الأندلسيون واستطاعوا تحقيقها.

وهذا البحث يحاول إلقاء الضوء على العوامل التي ساعدتهم على تحقيق هذه الهوية، والمعوقات التي واجهتهم وكيف استطاعوا التغلب عليها، أو التأقلم معها قدر الإمكان، حتى وصلوا في نهاية الأمر إلى هوية تتحدى كثير من الظروف وأكدت حرصهم على البقاء، من خلال العديد من المنظمات والجمعيات والأحزاب التي أصبحت جرسا يدق باسم الأندلس.

الإسلام والهوية السياسية للأندلس

على الرغم من أن جل الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، تمت في عصر الخلافة الأموية وهو أمر لا يستطيع أحد إنكاره عليها، إلا أن الحكومة الأموية لم تسع لترسيخ قواعد الإسلام في الأقاليم المفتوحة، ولم تحدد سياسة بعينها تجاه هذه الأقاليم، التي لم تنل منها اهتماماً، وتركت ذلك للولاة الذين أعطتهم قدراً من الحرية في إدارة شئون أقاليمهم وحل مشكلاتها مقابل مبلغاً من المال يرسله الولاة إلى الخلافة. وهذا ما حدث في الأندلس بالفعل، حيث وجد الوالي نفسه

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الآداب ـــ جامعة سوهاج

أمام مجتمع متعدد الديانات والهويات والأجناس، وكان عليه أن يؤلف هذا المجتمع حتى يستطيع أن يحكم البلاد بشكل آمن مستقر. وكانت مهمة استتباب الأمن وتحقيق الاستقرار مهمة صعبة للغاية، نتيجة للصراعات السياسية التي عاشها الأندلس في ذلك الوقت، متخذة شكلاً عصبياً أو عنصرياً أو كلاهما معاً، وهي في الحقيقة طمعاً في السيادة والسلطة بما تقدمه من مميزات اقتصادية واجتماعية. ولم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة التي كانت تطفو على السطح في الأندلس، بل هناك مشكلات اقتصادية برزت في تعدد مسئوليات الوالي ومنها مسؤوليته حول الإنفاق على إقليمه من واردات هذا الإقليم، وإرساله قدر من المال للخلافة سنوياً[٢]، كما كان عليه أن يقوم بإنشاء مدن ومساجد ومؤسسات دينية ؛ كمراكز ثقافية لنشر الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، وكذلك كان عليه أيضاً أن ينفق على الجيش لاستكمال مهمة الجهاد وراء جبال ألبرت، والتوغل في القارة الأوروبية الذي لم يتوقف إلا بعد هزيمة موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ /٧٣٢م).

وقد حاول الولاة، بإمكانياتهم الضعيفة، تحقيق التوازن بين كل هذه الأمور و تحدي المشكلات، والحقيقة أنهم لم يجدوا عناء في إنجاز مهمتهم الأساسية الممثلة في نشر الدين الإسلامي، حيث إنهم باحترامهم للعهود والمواثيق، مثل اتفاقية أو معاهدة تدمير التي عقدت في شرق الأندلس، بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتودمير حاكم هذا الإقليم، ظلت موضع احترام من المسلمين[٣]، كما أنهم بتسامحهم مع أهل الذمة وبترك الحرية لهم في كل أمورهم الحياتية، قد قدموا نموذجاً طيباً دفع كثيرين للدخول في الدين الإسلامي. إضافة إلى الدور الذي لعبه الفقهاء والعلماء في نشر الإسلام، كذلك تبني الولاة فكرة الجهاد والحفاظ على كيان الدولة الجديدة، وتتبع القوط إلى الشمال، وكلها أمور رسخت قواعد الإسلام في الأندلس من جهة، ونالت إعجاب الأسبان الذين تكالبوا على الدين الإسلامي من جهة أخرى.

ولكن الصراعات المستمرة في الأندلس بين عرب الشام وعرب الحجاز، وبين العرب والبربر، وبين عنصري العرب القيسية واليمنية[٤]، كلها أمور أضعفت من الكيان السياسي الجديد وعرقلت مسيرة الولاة نحو تحقيق الهوية السياسية في الأندلس، خاصة و أن الولاة أنفسهم وقعوا فريسة لهذه الصراعات التي اشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم السياسية.

وهكذا فإن الاضطرابات السياسية التي عاشتها الأندلس كانت في حاجة إلى تغيير جذري ينهي هذه الصراعات، ويحقق العدل والمساواة، خاصة وأن الشرق شهد نهاية الخلافة الأموية، وقيام الدولة العباسية وانشغالها بتوطيد أركانها وتتبع الأمويين للقضاء عليهم.

وكان من الطبيعي أن يمر الأندلس بهذه الفترة التي تعتبر مرحلة انتقالية بين حكومات ولت بأنظمتها ومعتقداتها وتوجهاتها وثقافتها، وبين الحكم الإسلامي الذي أحدث تغييراً جذرياً في كل ذلك بما قدمه من إصلاحات وتغيرات في كل جوانب الحياة. وإذا كان الاضطراب السياسي الذي عاشته الأندلس في عصر الولاة سبباً رئيسياً في نهاية هذا العصر فلم تكن بمنأى عن عبد الرحمن بن معاوية الذي فر من المشرق بعد انهيار الخلافة الأموية[٥]، وسار في رحلة طويلة حتى أقام في المغرب الأقصى يتتبع ويراقب شئون الأندلس، ويتعرف على أحوالها السياسية عن كثب، ومعه بقايا البيت الأموي ومواليه الذين عبروا معه إلى الأندلس حيث هزم بهم الولاة، وأقام حكماً جديداً مستنداً فيه إلى مبادئ الحكم الإسلامي في إرساء العدل والمساواة والتسامح مع الآخر، وترك الحريات الدينية ما لم تتعرض للكيان السياسي. وبرغم عدائه للعباسيين، الذين قضوا على دولة آبائه وأجداده، إلا أنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة، ولكنه اكتفى بلقب الأمير حفاظاً على وحدة الخلافة الإسلامية، خاصة وأن المسلمين في ذلك الوقت لم يألفوا تعدد الخلافات وربطوا شرعية الحكم بالخلافة التي هي رمز الوحدة السياسية والدينية.

ولعل كثرة ما واجه الأمير عبد الرحمن الداخل(١٣٨ــ١٧٢هــ /٧٥٦ ــ ٧٨٨م) من مشكلات ــ وثورات حاولت الإطاحة بنظامه الجديد معتمدة على القوى الخارجية المناهضة لها ــ جعلته يعتمد على عناصر الموالي والصقالبة والمتطوعين من البربر في الجيش، كما اهتم في توطيد دعائم دولته بتحصين الثغور، وإنشاء قواعد إستراتيجية دفاعية لحماية الشمال. و مما ساعد على تقوية الدولة أن سكان الثغور، والمنضمين إليهم لحمايتها، أنشأوا الأربطة والحصون[٦]، وتهيئوا للجهاد ضد القوى الخارجية. كما أنه اتخذ سياسة الدفاع والسلم ولم يقم بالهجوم على الأسبان في الشمال[٧] لانشغاله بتقوية دولته داخلياً.

واستطاع بما امتلك من قدرات سياسية ومهارات عسكرية أن يتغلب على أغلب هذه المشكلات وإن كلفه ذلك بعض القسوة أو العنف، كما استعان بالرجال المخلصين من بيوت الموالي في ترسيخ قواعد النظام الإداري في الأندلس[٨]، وحمل على كاهله عبء بناء الهوية السياسية بالتخلص من العنصرية والعصبية بالتسامح ونشر العدالة والمساواة وتقوية دولته لمواجهة الصعوبات داخلياً وخارجيا. وإذا كان البعض قد اتهمه بالأنانية أو الميكافيلية والاستبداد بالحكم[٩] ؛ فإن هذا الاستبداد كان أحد العوامل التي حققت الوحدة السياسية، وسارت بالهوية الأندلسية خطوات ناجحة وساهمت في تذويب العنصرية والقضاء عليها.

ويتضح دور المنهج الإسلامي جلياً في بناء الهوية السياسية للأندلس في عهد الأمير هشام الرضا(١٧٢ ١٨٠هــ/٧٨٨ــ٧٩٦م) الذي لم يكن أكبر أبناء عبد

الرحمن سناً، ولكنه تولى الحكم بسبب ورعه وزهده وتدينه ومساندة الفقهاء له، ويرى البعض أن اختياره شكل تذويباً للعنصرية، حيث كان من أم إسبانية وأنه ولد وتربى في الأندلس[١٠]، وهو نوع من تفتيت القومية الإسبانية وقد يجتمع السببان معاً في بناء الهوية السياسية للأندلس، وهو أمر متفق تماماً مع سياسة الأمير عبد الرحمن الداخل في التقرب من عناصر المولدين الذين شكلوا غالبية السكان، كما أن ورعه وتدينه قد أعطاهم قوة، أي أن هوية الدولة اعتمدت على الوحدة السياسية والوازع الديني[١١]. ومما ساعد على ذلك أن طبقة الفقهاء بدأت تظهر في الحياة الاجتماعية، وخاصة بعد اتساع انتشار الدين الإسلامي، كطبقة مميزة لدى الطرفين الدولة والشعب وتلعب دوراً فيما بينهما.

وأمام اتهام الحكام الأمويين بالاستئثار بالسلطة، جاء استناد الأمير هشام إلى الفقهاء مما جعله أكثر تقرباً من العامة ومحبباً لديهم[١٢]، حيث كان الفقهاء لهم مكانة اجتماعية مرموقة أهلتهم للعب دور الوساطة بين السلطة والشعب ازدادت بازدياد انتشار الإسلام واتساع تأثيره في نفوس غالبية السكان[١٣].

كما قام الأمير هشام بالسماح للفقهاء وعلماء الإسلام بالرحلة إلى المدينة وأخذ العلم من الإمام مالك[١٤]، وسمح لهم بنشر تعاليم الإمام مالك وبخاصة فيما يتعلق بالتكاتف والوحدة وترك عوامل التمزق والتفرق، وكلها أمور احتاج إليها الأمويون لتوطيد دعائم دولتهم.

وإذا كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد انشغل بإخماد الثورات وحل المشكلات السياسية في الداخل، وحقق الإستقلال الياسي عن المشرق، فإن ابنه الأمير هشام قد رفع راية الجهاد ضد الأسبان في الشمال، وهو أمر لقي قبولاً لدى العامة الذين ربطوا بين الجهاد كفرض وواجب ديني وبين قوة الدولة وعظم شخصية الحاكم من جهة، كما أدركوا قيمة الجهاد في بقاء الهوية السياسية للأندلس من جهة أخرى.

والحقيقة أن الأمير عبد الرحمن بذل جهده في إقرار الأمن الداخلي والقضاء على كل الثائرين بكل توجهاتهم؛ ليرسخ قواعد الحكم، وفضل إتباع سياسة السلم والمهادنة مع الأسبان الشماليين. ثم قام الأمير هشام من بعده باستكمال بناء الهوية الأندلسية برد الهجوم الإسباني والتحول إلى الهجوم وإرهاب الأسبان في الشمال، والاهتمام بالثغور لحماية هذا البناء[١٥]، واختيار مذهب مخالف لمذهب العباسيين وهو المذهب المالكي، وبالتالي ساعد على بروز الخصوصية للشخصية السياسية للأندلس.

ومع ذلك ظل استئثار الأمويين بالحكم يشكل عقبة نحو استكمال تحقيق الهوية السياسية للأندلس، فالعرب اليمنيون الذين لم يحصلوا على امتيازات من السلطة ـ ولم تكن لهم مشاركات سياسية بالقدر الذي طمعوا فيه، برغم وقوفهم

إلى جوار عبد الرحمن الداخل أملاً في تحقيق هذه الأطماع ـ قاموا بالثورة على النظام الجديد ولكن الأمير عبد الرحمن تصدى لهم، ولكنهم ما لبثوا أن نشطوا مرة أخرى بعد أن وجدوا الفرصة سانحة أمامهم بسبب خلاف أبناء عبد الرحمن على الحكم[١٦]، وتدخلوا لتوسيع الخلاف وإيجاد ثغرة لتحقيق منافعهم[١٧]. وكأن الاستقرار السياسي داخل الأندلس قد ارتبط بوجود زعامات قوية تستطيع أن تتصدى للمنافسات والأطماع السياسية[١٨]، وهو أمر ساهم في زعزعة الهوية السياسية في الأندلس خلال هذه الفترة.

ويبدو أن هناك عقبات واجهت استكمال بناء الهوية السياسية في الأندلس بتولي الأمير الحكم بن هشام (الربضي)(١٨٠ـ٢٠٦هـ/٧٩٦ـ٨٣٢م) الذي شعر بخطر النزاع القائم بين أبناء البيت الأموي المتمثل في خلافه مع أعمامه حول السلطة، واستغلال الأسبان هذه الفرصة في التقدم نحو الجنوب للإستيلاء على مدينة برشلونة(١٨٥هـ/٨٠١م)، وتكرار المحاولة في الاستيلاء على طرطوشة ووشقه (١٩٣هـ/٨٠٩م). وتحول موقفه من الهجوم إلى الدفاع[١٩]، وهو أمر أضعف من مكانته أمام الأندلسيين ؛ الذين اقترن لديهم نجاح سياسة الحاكم أو إخفاقه بقدرته على مواصلة الجهاد، أو بما يحققه من انتصارات في الشمال، للحفاظ على الوجود السياسي لدولتهم. وقد أدرك الأمير الحكم ذلك وحاول تغييره من خلال الحفاظ على الكيان السياسي فقبض على الحُكم بيد من حديد، وتعامل مع الثائرين عليه ـ والرافضين لسياسته وبخاصة الفقهاء بكل قسوة وعنف ـ وقتل عدداً كبيراً منهم سواء في يوم الحفرة (١٨٩هـ/٨٠٥م) أو في ثورة الربض (٢٠٢هـ/ ٨١٧م)[٢٠].

وبرز خلال هذه المرحلة دور الفقهاء في بناء الهوية السياسية للأندلس متمثلا في تدخلهم في أمور الحُكم كلما استشعروا خروج الحاكم عن الإطار الذي رسموه له وحاول الاستهتار بهم، وهذا ما حدث حين اتجه الفقهاء إلي أبي القاسم القرشي وهو من أبناء البيت الأموي، لتعيينه مكان الحكم، لولا أن اكتشفت هذه المؤامرة[٢١]، مما دفع البعض إلى اتهامهم بأنهم هدفوا إلى إنشاء دولة دينية وانتزاع السلطة[٢٢].

وعلى أية حال فإن الحكم الربضي حاول أن يحافظ على قوة الأندلس، ويتابع التقدم نحو تحقيق الهوية السياسية للأندلس، مستنداً إلى فكرة الجهاد ومحاربة الأسبان، ومحاولة استعادة برشلونة من جهة، وإدخال المذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة لتأكيد فكرة الوحدة الدينية والسياسية، واسترضاءً للعامة من جهة أخرى[٢٣].

ومن العوائق التي صادفت استكمال أو استمرار الهوية الأندلسية منذ عصر الأمير هشام تكون بعض الممالك التي تعبر عن الهوية الإسبانية، التي شكلت تحديا للهوية الأندلسية[٢٤]، فقد كانت هذه الممالك تتحين الفرص للتخلص من هذه الهوية أو التغلب عليها، كما حدث من انتهازهم فرصة انشغال الحكم الربضي في الصراع مع عميه، والاستيلاء على مدينة برشلونة، وهي عقبة أخرى واجهت الحكومات الأندلسية. وكان انشغال عبد الرحمن الداخل بتوطيد أركان دولته داخلياً واكتفائه بحماية حدوده هو الذي سنح لهم بتكوين نواة دولتهم، ومهاجمة الأندلس بعد ذلك.

ثم جاء عهد عبد الرحمن الثاني(٢٠٦ ــ ٢٣٨هـ /٨٢٢ ــ٨٥٢ م) ليشكل تقدماً ملحوظاً في بناء الهوية السياسية للأندلس حيث كادت تكتمل أركان هذا البناء السياسي المميز بما قام به من أعمال تمثلت في مواجهة قوات النورمان والتصدي لهم، وتحصين السواحل الأندلسية[٢٥] وإنشاء الأسطول البحري، وتأسيس العديد من القواعد الإستراتيجية البحرية، التي قامت بمهمة كبيرة في الحفاظ على الكيان السياسي بصد هجمات النورمان، والتصدي للأسطول الفاطمي[٢٦]، بل والامتداد نحو الجزائر الشرقية. كما أحرز تقدماً ملحوظاً في حماية الحدود الشمالية للأندلس وتوسيع هذه الحدود، وعين على الثغور قادة أكفاء، وقاد بعض الحملات بنفسه، وحقق انتصارات على الأسبان في موقعة فج جولين (غرنيق)[٢٧].

وحاز الفقهاء في عصره على مكانة مرموقة وزاد عددهم، فاستقطب عبد الملك بن حبيب وأعطاه لقب رئيس الفقهاء المشاورين[٢٨]، ثم تولى هذا المنصب يحي بن يحي الليثي، بعد وفاة عبد الملك بن حبيب الذي أشار على الأمير عبد الرحمن ببناء سور إشبيليه فأخذ برأيه[٢٩]، فكأن تقريبه للفقهاء نوعا من التغلب على معارضة الشعب لمسألة الانفراد بالحكم، على النهج الذي سار عليه الأمويون، والذي شكل عائقاً أمامهم في السعي وراء الخصوصية السياسية والحضارية للأندلس.

وجاء اكتمال نضج الهوية السياسية بالتنظيم الإداري الذي أدخله عبد الرحمن من نظام الوزارات[٣٠]، وتحديد اختصاصات كل وزارة، واجتماعه بهذه الوزاري للإشراف عليها، وأنشأ دار للسكة في الأندلس بعد أن كانوا يتعاملون بدنانير أهل المشرق[٣١]، وتلك عوامل أسهمت في نضج الهوية السياسية الأندلسية، ولذا استحق أن يطلق عليه أحد بناة الحضارة الإسلامية.

والحقيقة أن الشخصية الأندلسية المستقلة عن الشرق، الحريصة على الوحدة السياسية، قد ظهرت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني(الأوسط)، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، وإن كان قد واجه مشكلة كبيرة تهدف إلى عرقلة مسيرة الهوية السياسية، وهي حركة المستعربين (أو الاستشهاد كما

عرفت) التي ظهرت في عهده، وعبرت عن الشعوبية أو القومية الإسبانية التي ظلت تحتفظ بوجودها أمام هذا السيل الجارف من التغيرات الدينية واللغوية والثقافية التي شهدتها بلاد الأندلس. وإن كان البعض يرى أن القومية الإسبانية ظلت موجودة وتتحين الوقت للظهور[٣٢]. ولكن هذا الحدث أكد من جهة أخرى نجاح خطوات الأندلسيين، حكاماً وشعباً، في تحقيق الهوية السياسية والثقافية للأندلس، بشكل أثار بعض المتعصبين لدينهم والقلة المتمسكة بقوميتها، وأرادوا أن يواجهوا هذا التيار المتنامي الجارف ــ الذي يزداد المنضمون إليه يوماً بعد يوم ــ نحو تحقيق هوية جديدة على الأراضي الأيبيرية[٣٣].

ولم يتهاون الأمير عبد الرحمن في هذه الأمور التي استشعر أنها تهدد الوحدة السياسية والدينية للأندلس، ولم يكن موقفه ذلك تشدداً أو اضطهاداً لأهل الذمة لأنه حاول استتابتهم، ولم يجد أمامه إلا أن يحكم بالشرع في قتل المرتد[٣٤]. ولم يفعل ذلك مع المستعربين فقط، وإنما ورد عند ابن عذارى أنه قتل رجلا ادعى النبوة وتأول على القرآن، والتف حوله العديد من الناس، بشكل هدد الوحدة السياسية وزرع بذور التفرق والتمزق في الدولة، فقتله وتخلص من حركته[٣٥] وهو أمر أقره الفقهاء في أحكامهم وأجمعوا عليه في شتى العصور[٣٦].

وعلى الرغم من نجاح الحكام الأمويين في تحقيق الهوية السياسية الأندلسية والسير بها خطوات واسعة، إلا أن عصر الطوائف الأول ــ الممتد من عصر الأمير محمد وحتى عصر الأمير عبدالله ــ (٢٣٨ ــ ٣٠٠هـ /٨٥٢ ــ ٩١٢ م) قد شهد انتكاسة كبيرة في الهوية السياسية، لما أصاب الأندلس من النزاع والتفرق والخروج على السلطة المركزية. وتعددت الآراء حول تفسير ذلك فاعتبر البعض أن الثوار خرجوا على الدولة بدافعين هما : القومية الإسبانية والحساسيات العربية[٣٧]، بينما رجح البعض الآخر أن هذه الثورة كانت تعبيراً عن ظلم اجتماعي، أو إهمال من الدولة لشئون هذه الطبقة، كما أشار آخرون إلى أن سيادة النظام الإقطاعي في أوروبا دفعهم إلى تحقيق ذلك النموذج[٣٨]، ورأى أحد المستشرقين أن الوحدة السياسية في الأندلس كانت رهينة لقوة الحاكم، وأن ظهور زعيم ضعيف قد أسهم في أن تطفوا على السطح كل العناصر الثائرة[٣٩].

وكان استئثار الأمويين بالحكم وإصرارهم على المركزية قد أديا إلى غضب العديد من العناصر الداخلية، التي بدأت تتجه نحو الانعزال بالسلطة، وساعدهم على ذلك طبيعة المكان الجغرافية[٤٠]، وربما كان ذلك تأثراً بنظام الدويلات المستقلة الذي ظهر في المشرق وحَول النظام العباسي من المركزية إلى اللامركزية، أو تأثراً بالنظام الإقطاعي السائد في أوروبا[٤١]. وقد أثرت هذه الأمور سلبياً على مسيرة الهوية السياسية للأندلس، والتي أصبحت في حاجة إلى البناء بعد انفراط عقد

الوحدة وتوقف حركة الجهاد، وتقوي الشمال الإسباني على حساب السلطة الإسلامية، وتدخله في شئون الأندلس الداخلية، بمساندة بعض الحركات الانفصالية أملاً في انهيار هذه الهوية.

والجدير بالذكر أن القومية الإسبانية لم تكن قوية بالقدر الكافي وكان بإمكانها أن تعبر عن نفسها بحركة انفصالية مستقلة مستندة إلى القوى المسيحية الأوروبية، ولكنها لم تستطع أن تقف بمفردها فوقفت إلى جانب حركة عمر بن حفصون[٤٢]، وربما لم تفكر في القضاء على الحكم الإسلامي الذي حقق لها الحرية والعدالة وقضى على الخلافات المذهبية، واقتصرت رغبتها على المشاركة السياسية في بلادها.

على أن الحركات الانفصالية الداخلية أو الشعوبية الأندلسية قد شكلت العامل الأساسي في مساندة الأسبان في تحجيم الهوية الأندلسية من خلال اعتمادها على المساعدة التي كانت تأتي إليها من القوى الإسبانية الكامنة في الشمال، والتي كانت تنتهز هذه الفرص لتفتيت وزعزعة القوة السياسية والاجتماعية والفكرية للأندلس، وبالتالي ساعدت على نمو حركة الاسترداد الإسباني التي لم تشهد نمواً إلا في فترات الضعف السياسي للأندلس[٤٣]. ويرى البعض أنها نتجت عن حركة الشعوبية[٤٤]، أي أن الشعوبية سواء في الداخل أو الخارج أو اتحادهما معاً، كانت تهدف إلى القضاء على الهوية الأندلسية.

وحاول الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ/٩١٢ ــ ٩٦١ م) التصدي لهذه الظاهرة أملاً في استعادة الهوية السياسية، من جديد بعدما ذبلت وضعفت خلال عصر الطوائف الأول. على أن ذلك لم يكن يعني أن الأمراء السابقين عليه قد وقفوا عاجزين أمام موجة التمزق السياسي التي كادت أن تطيح بدولتهم ولكنهم حاولوا إيقاف هذا التيار، فقد كان للأمير عبد الله (٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ/٨٨٨ ــ ٩١٢م) دوراً مميزاً في مواجهة الثائرين الذين كانوا على وشك الاستسلام بعد أن أضعف قواهم[٤٥]، كما ضعفت أقوى الحركات الانفصالية وهي حركة عمر بن حفصون، وخاصة بعد أن أعلن تنصره، وفقد عدداً كبيراً من المنضمين تحت لوائه، واقتصرت ثورته على المستعربين، وأصبحت محاربته واجبة، كما أشار ابن عذارى إلى اعتبار محاربته جهاداً، وتتابعت عليه الصوائف والشواتي[٤٦].

ولعل ذلك قد أكد تغلب الهوية الإسلامية على الهوية القومية الإسبانية التي ربطت الدين المسيحي بالأراضي الأيبيرية، وهي أمور ساعدت على بقاء الهوية السياسية في الأندلس مرتبطة بحكام بني أمية، لأنهم مع استئثارهم بالحكم كانوا يمثلون الشرعية، ويرفعون راية الإسلام، ويشكلون كياناً سياسياً مستقلاً.

أما عن جهود عبد الرحمن الناصر في استعادة الهوية الأندلسية فقد أدى إعلانه العفو والتسامح مع الثائرين إلى استسلام الكثير من دعاة الشعوبية والثائرين ودخولهم في طاعة الدولة، وبخاصة بعد أن قام بحملة استطاع فيها إسقاط العديد من الحصون[٤٧]، وقام كذلك بإعادة إخضاع الأراضي الأندلسية إلى حوزة الدولة ؛ فعادت الوحدة السياسية إلى الأندلس مرة أخرى، كما اتخذ إجراءات عديدة أكدت القوة السياسية للأمويين، وعادت الهوية السياسية للأندلس قوية بعد أن أدرك الأندلسيون ارتباط الهوية السياسية بالحكام الأمويين ؛ فأعلن الخلافة وبايعه بها الخاصة والعامة[٤٨]، وقام بضرب العملة وتحديد وزنها من الذهب والفضة مما أدى إلى تثبيت العملة واستقرار التعامل بها[٤٩]، وأنشأ مدينة الزهراء كعاصمة جديدة لدولته، واتخذ ألقاب الخلفاء فدُعي بأمير المؤمنين الخليفة الناصر[٥٠]، وحقق انتصارات باهرة على الأسبان في الشمال[٥١]، وهي أمور أبهرت الأندلسيين، ودفعتهم للاعتزاز بوطنهم وحاكمهم.

وقد قامت الهوية السياسية في عهد "الناصر" على أساس الحوار مع الغرب من خلال السفارات المتبادلة بينه وبينهم، فأرسل ريسموند أو ربيع بن زيد المستعرب القرطبي إلى حاكم ألمانيا، وخرجت في عهده سفارات عديدة إلى الشمال [٥٢]، وكأنه بلور كل الخطوات التي سار فيها الحكام نحو الهوية السياسية التي نضجت واكتملت على يديه ؛ فظهرت الشخصية السياسية للأندلس بشكل مستقل أسميا وفعلياً، وظهرت الخلافة بكل مراسمها، وقوى من القواعد العسكرية البحرية لمواجهة الخطر الفاطمي، وطور الأسطول البحري واستولى على سبته وطنجه في البحر المتوسط حماية لحدود دولته ؛ فوصلت في عهده الهوية السياسية إلى أوج عظمتها وازدهارها[٥٣].

ولأن الهوية الثقافية للأندلس قد ارتبط بناؤها بتوفر الأمن والاستقرار السياسي؛ فإن عصر الحكم المستنصر(٣٥٠- ٣٦٦هـ /٩٦١ - ٩٧٦م) شهد بروز عنصر آخر لهذه الهوية وهو البناء الثقافي للمجتمع الأندلسي بعد أن عادت إليه قوته ووحدته من جديد، وهذا لا يعني أن المستنصر لم يقم بأعمال سياسية للحفاظ على المقوم السياسي لهذه الهوية، بل أنه استمر على سياسة أبيه في الدفاع عن الحدود، والحفاظ على الدولة قوية باستكمال الحملات إلى الشمال، واستمرار السفارات بين الأندلس ودول الشمال[٥٤]، والعناية بالسواحل وحمايتها، أي أنه بشكل عام قد حافظ على المقومات السياسية والثقافية للشخصية الأندلسية.

ومع أن الحكم المستنصر قد ارتكب خطأ فادحاً حينما ترك ولاية العهد لابنه الذي كان لا يزال طفلاً، جعل الخلافة مطمعاً لكل العناصر المحيطة به من رجال الدولة، حتى انتهى الأمر بتولية الحاجب المنصور محمد بن أبي

عامر(٣٦٦ـ٣٩٢هـ/ ٩٧٧ ـ ١٠٠٢م) وصياً على الخليفة وحاجباً له [٥٥]. إلا أن مواصلته حركة الجهاد، و تحقيقه انتصارات عديدة على الشمال الإسباني فقام باثنين وخمسين غزوة دافع فيها عن الأراضي الإسلامية، واستمرار السفارات في عهده التي كانت تأتي إلى قرطبة طالبة الود والصداقة[٥٦]، واحتفاظه بلقب الحاجب حفاظاً على شرعية الخلافة[٥٧]. قد كفلت الحفاظ علي الوحدة السياسية للأندلس، ودفعت الأندلسيين إلى تقبل حكمه، وقد أدرك ذلك جيداً فنراه يوصي ابنه قبل وفاته بألا يفكر في الانفراد بتدبير دولته، ويحثه على البقاء وفياً لصاحب القصر، الذي كان رمزاً للوحدة السياسية (يقصد الخليفة هشام المؤيد)[٥٨].

ولعل تجرؤ ابنه عبد الرحمن(شنجول)(٣٩٩هـ/١٠٠٩م)على أخذ ولاية العهد من الخليفة، واختراق الشرعية، كانا من أهم أسباب انهيار الدولة وضعف الهوية، أما الموالي المساندين للسلطة الأموية والمخلصين لها، فقد استبعدهم العامريون وحذر المنصور بن أبي عامر أبناءه من التعامل معهم[٥٩]، وكون حزبا بديلاً عرف بالحزب العامري، ولذلك سعى الموالي إلى إعادة الحكم الأموي الممثل للشرعية السياسية، والمحقق لمصالحهم وأطماعهم السياسية ، ودبروا فتنة للقضاء على الدولة العامرية[٦٠]، وانتهت الفتنة التي اشتعلت بين كل الطامعين في السلطة إلى انفراط عقد الوحدة الساسية، وقيام عصر ملوك الطوائف (٤٢٢هـ/١٠٣١م) وعودة الشعوبية التي أسهمت في تواري الهوية الأندلسية سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، فتخلى ملوك الطوائف عن الجهاد المهمة الأساسية للحكام في الأندلس، وتخاذلوا عن الدفاع عن أراضيهم، وتحولوا من موقف الهجوم على الشمال إلى الدفاع عن أراضيهم فاضمحلت بذلك هويتهم السياسية[٦١]، وفضلوا الخضوع ودفع الإتاوات عوضاً عن المواجهة العسكرية[٦٢]، وبدلاً من الإتحاد ووحدة التوجه والاتجاه السياسي حاربوا بعضهم البعض ليوسع كل منهم أراضيه على حساب الآخر، ولم يتنبه هؤلاء الحكام للشعوبية الكامنة في طليطلة المسنودة من الشمال الإسباني والتي ظلت عقبة أمام الحكام رافضة للخضوع والاندماج حتى قويت مع الضعف السياسي[٦٣]، فكان أمراً طبيعياً أن تسقط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ/١٠٠٨٥م) الذي يعد سقوطها إنذاراً بسقوط الأندلس هوية ودولة [٦٤].

وعبثاً حاول الأندلسيون استعادة دولتهم، وبقاء هويتهم السياسية الإسلامية، فلم يكن أمامهم سوى العبور إلى المغرب ليستنجدوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين[٦٥]. الذي رفع لواء الإسلام، وتبنى الوحدة السياسية في المغرب، وبدافع من الحفاظ على الهوية الإسلامية فضل الأندلسيون الانضواء تحت لواء المغرب بعد كل ما عرفوه عن شخصية يوسف بن تاشفين : من الحرص على العدالة والجهاد على أن تسقط سلطتهم وينهار الكيان السياسي لدولتهم.

ولعل معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) شهدت مشاركات بين الأندلسيين والمغاربة للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد نجح المرابطون (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) في الحفاظ على الكيان السياسي للأندلس بالجهاد والوحدة السياسية، والتمسك بوحدة المذهب المالكي، ورفع شأن الفقهاء والأخذ برأيهم، واستشارتهم في الأمور السياسية لاسترضاء العامة، واستقطاب هذه الفئة الهامة، مع الحرص على المركزية[٦٦]، وكأنهم ساروا على نفس نهج الأمويين، ولكنهم ضموا المغرب والأندلس تحت حكم واحد، واتخذوا المغرب مركزاً لحكم دولتهم.

على أن الأندلسيين لم يقبلوا استمرار الانضواء تحت حكم المرابطين، وحاولوا بعد انتهاء الأزمة استعادة هويتهم خاصة بعد أن اكتملت شخصيتهم السياسية المستقلة حيث لم يعتادوا التبعية سياسياً أو حضاريا ، فقاموا بالعديد من الثورات ضد المرابطين في أخريات حكمهم للأندلس لتوقفهم عن الجهاد ــ وهو المهمة الأساسية التي تقبلهم الأندلسيون كحكام على بلادهم من أجله بعد أن تهاوت قوتهم العسكرية (٥٣٩هـ/١١٤٧م)[٦٧]، وفتح هذا الباب لقوة جديدة هي قوة الموحدين (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) الذين لم يجدوا مقاومة، وبخاصة أنهم أحيوا الجهاد ونجحوا في استرجاع المدن التي كانت قد سقطت في غرب الأندلس في أيدي الأسبان.

واستطاع الموحدون القضاء على الشعوبية الإسبانية التي وقفت ضدهم في شرق الأندلس تحت زعامة ابن مردنيش، ونجحوا في تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية والدينية للأندلس، وساروا على سياسة المرابطين نفسها في الحفاظ على الهوية الأندلسية، بتقريب مجموعة من الفقهاء والعلماء الأندلسيين لهم، والاهتمام بأحوال الرعية، ورعاية العلماء، وعلى الرغم من أنهم أدخلوا المذهب الظاهري كمذهب رسمي للمغرب والأندلس إلي جانب المذهب المالكي ؛ إلا أنهم لم يفرضوه على الرعية أو يضايقوا فقهاء المالكية في الأندلس[٦٨]. ولكن سرعان ما انتهى الوجود السياسي للموحدين في الأندلس بعد هزيمة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) ونزاع الموحدين حول السلطة، ففقدوا قدرتهم في الحفاظ على الهوية السياسية بفقدان الدور العسكري.

أما عن الهوية السياسية في عصر بني الأحمر(٦٢٦ــ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٢ــ ١٤٩٢م) فقد وصف ابن خلدون عصبية الدولة بالقلة أو الضعف[٦٩]، وهو يعني أن الأسرة الحاكمة كانت قليلة العدد، ورأى أن ذلك سبب في ضعفها، وإن كان الصحيح أن الضعف الذي انتاب بني الأحمر لم يكن راجعاً إلى قلة أعدادهم، وإنما إلى ضعف التلاحم بينهم، أو الخلافات التي دارت حول الحكم، وانشغالهم بمصالحهم الشخصية، واستغناءهم عن مساعدات بني مرين خوفاً من أطماعهم في الوصول إلى حكم

الأندلس، واضطرارهم إلى التعاون مع الأسبان أحياناً في استيلائهم على بعض المدن الأندلسية[٧٠]، وكلها أمور أضعفت الكيان السياسي، لأن خوفهم على الحكم كان أكبر من خوفهم على استمرار الكيان السياسي تحت مظلة الإسلام، أو بمعنى آخر أن المصالح السياسية تغلبت على الهوية الإسلامية، فكان اتحاد جبهة الممالك الإسبانية في الشمال يقابله تفرق الحكام المسلمين في الجنوب، وكان للوازع الديني في الشمال دوره في تقويتهم، فنشطت الجماعات العسكرية الدينية متأثرة بنظام الأربطة التي تولت الجهد الإسلامي، بينما ضعف الوازع الديني في الجنوب أمام صراع السلطة والمصالح، فكأن العوامل التي بني عليها الوجود الإسلامي في الأندلس ـ من الوحدة السياسية واتحاد الكلمة والقوة العسكرية وهيمنة الأيدلوجية الدينية ـ تهاوت لدى المسلمين في عصر بني الأحمر، بينما انتقلت بأكملها إلى الشمال، فكان من الطبيعي أن ينتهي الوجود الإسلامي في الأندلس دولة وهوية [٧١].

ولعل وجود عناصر المدجّنين يؤكد أن بناء الهوية الأندلسية كان يحتاج إلى اكتمال الأضلاع الثلاثة، لأن هذه العناصر كانت على العقيدة الإسلامية ومن الجنس الأندلسي، إلا أن وجودهم في المدن التي سقطت تحت يد النصارى، وفقدانهم للهوية السياسية، أديا إلى فقدانهم لهويتهم الثقافية والاجتماعية، فكانوا أقرب في العادات والتقاليد والثقافة واللغة من الأسبان إلى الأندلسيين[٧٢].

هناك نقطة مهمة تتركز في أن الأمويين تحملوا عبء بناء الشخصية الأندلسية، وسعوا لتحقيق الهوية الأندلسية بمزيج من الهوية الدينية والقومية، وبذلوا جهوداً كبيرة وساعدهم الموقع المتطرف على تحقيق ذلك، ولكنهم ارتكبوا العديد من الأخطاء التي أودت بالهوية السياسية للأندلس، بعد مرور حوالي أربعة قرون من انهيار دولتهم، وهي أمور كاد أن يجمع عليها المؤرخون، وعلى رأسها : أنهم لم يستأصلوا شأفة الممالك الإسبانية التي نشأت في الشمال منذ بداية العصر الأموي، ونمت واتحدت مع نهاية دولتهم، إضافة إلى أنهم اعتمدوا على عناصر المولدين في حماية الثغور برغم تذبذب ولائهم للحكومة، كما أن إصرارهم على الاستئثار بالسلطة وحرمانهم للشعب من المشاركة في الحكم جعل نظامهم مسئولا عن عدم وجود شعوب قادرة على الحفاظ على هويتها، وارتباط الحفاظ على الهوية السياسية بالحكومات لا بالشعوب.

التسامح الديني والتعايش وبناء الهوية الاجتماعية:

أولى الكثير من الدراسات اهتماماً بالمجتمع الأندلسي، وتعرضت هذه الدراسات إلى بنيته ومكوناته والعلاقات الاجتماعية بين عناصر سكانه، وتناولت

قضية التعايش والتسامح الديني بين عناصر السكان في الأندلس، من خلال الاستناد إلى كتب النوازل الفقهية التي ألقت الضوء على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس، بشكل كبير وعلى فترات متعددة، ومن خلال الرجوع إلى كتب الحسبة التي أشارت بشكل واضح إلى تلاحم المجتمع الأندلسي بكل عناصره، برغم ما وجهه الفقهاء من تحذيرات، وكذلك من خلال شهادة العديد من المستشرقين المنصفين المعتنين بالدراسات الأندلسية(٧٣).

ولا يهتم هذا البحث بأوضاع أهل الذمة في الأندلس وهم عناصر المستعربين من النصارى واليهود الذين عاشوا في الاندلس تحت مظلة الحكم الإسلامي، ونعموا بكل أوجه التسامح، فالمسلمون منذ أن وطأت أقدامهم شبه الجزيرة الأيبيرية سمحوا لليهود أن يظلوا في المدن التي تم فتحها مع الحاميات العسكرية الإسلامية، رغم أن هذه الجاليات كانت قليلة العدد والخبرة بالأمور العسكرية، وإنما كان قصد الفاتحون من ذلك غرس الاطمئنان في نفوسهم (٧٤).

وبعد أن تمت الفتوحات الإسلامية للأندلس نعم الأسبان بكل الحريات في ممارسة عقائدهم وطقوسهم ومزاولة حياتهم اليومية، والاحتكام إلى قضاتهم، وامتلاك أراضيهم، والتصرف في أحباسهم، والدفن في مقابرهم، والعيش في مدن أو أحياء خاصة بهم، فأمكنهم الاحتفاظ بتقاليدهم، وعاداتهم دون التعرض لهم أو المساس بحقوقهم(٧٥) .

وكان في احترام المسلمين للمعاهدات والاتفاقات التي أبرموها مع كل مدينة تم فتحها والالتزام بها، وعدم تعديهم على الملكيات وإتباعهم نظام المزارعة(٧٦)، ونشرهم العدل والمساواة بين السكان، دافعا لكثير من الأسبان للانضمام إلى الدين الإسلامي، وواكب انتشار الإسلام في الأندلس انتشار اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، ووسيلة التعرف على تعاليم الدين الإسلامي، والتعامل مع الحكام، والتواصل مع المجتمع الجديد (٧٧).

ولعب الأمويون دوراً رئيسيا في بناء الهوية الاجتماعية بإعلانهم اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، وبتعريبهم لغة الكنائس، فساهم ذلك في إقبال الأسبان الذين ظلوا على دينهم على تعلم اللغة العربية، لتأدية طقوسهم ومحاولة للاندماج في المجتمع، وتحقيقا لمصالحهم الاقتصادية، والحصول على الوظائف الحكومية. وظهر ما سمي باللغة الرومانسية، وهي خليط بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، والتي انتشرت وتغلغلت في المجتمع الإسباني، وأصبحت إحدى أهم ميزاته وأبرز سماته الشخصية، الأمر الذي دفع مستعربي طليطلة للاحتفاظ بهذه اللغة بعد سقوط المدينة بعدة قرون(٧٨). كما حرص الأمويون على صبغ الأندلس بالصبغة العربية

التي أطلق عليها التقليد الشامي[٧٩]، ونشأ تقليداً أندلسياً مميزاً امتزجت فيه التقاليد الإسبانية بالتقاليد الشرقية العربية.

ومع الاعتراف بدور الحكام في حركة التعريب ؛ فإن التعريب الحقيقي جاء من خلال احتكاك وتلاحم الشعب الأندلسي نفسه، وكما كان لهذه الحركة دور كبير في المزج بين عناصر السكان، كان لظاهرة الزواج المختلط دور لا يمكن إغفاله في استكمال حركة التعريب، وتحقيق الهوية الاجتماعية للأندلس، وانتشرت هذه الظاهرة بشكل كبير منذ عصر الولاة وحتى عصر بني الأحمر، وبدأت بالولاة وعلى رأسهم عبد العزيز بن موسى بن نصير(٩٥هـ/٧١٤م)، وزادت في عصر الحكام الأمويين، ثم في عصر العامريين، وامتدت إلى الشعب الأندلسي نفسه، خاصة أن الفاتحين كان منهم الأفراد والقبائل[٨٠]، حتى إنه مع بدايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حدث امتزاج تام بين السكان، وتشابكت الأجناس والأنساب، وتكون جنس جديد هو الجنس الأندلسي، وظهر ذلك جلياً في كتب التراجم والنوازل، وغيرها من المصادر التي تعرضت لأسماء الأندلسيين، حيث اختفى الانتساب إلى القبائل والعائلات، وظهر الانتساب إلى المدن الأندلسية أو إلى الأندلس بأسرها، وهو أمر يؤكد الانتساب إلى الوطن وبزوغ الهوية الأندلسية.

وقد اشترك في هذه الظاهرة كل من الشعب والحكام، في محاولة منهم لتذويب العنصرية والتغلب على القومية الإسبانية، وظهر نتيجة لذلك جيل من المولدين مثل : ابن القوطية وابن حفصون وغيرهم[٨١]، وأسرات مولدة ساهمت بدور كبير في الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية، منهم كأسرة بني عمروس وأسرة بني قسيٍ وهؤلاء تولوا حماية الثغور الأندلسية، وأسرات وصلت إلى الحكم مثل أسرة بنو مردنيش [٨٢].

وقد واجهت موجة التعريب الجارفة نوعاً من الاعتراض من بقايا الممثلين للقومية الإسبانية، الذين استاءوا من انتشار الإسلام والعروبة، وتناقص أعداد الأسبان المتمسكين بدينهم ولغتهم، وانجذاب الجميع نحو الثقافة واللغة العربية، مما هدد اللغة اللاتينية بالانقراض والاختفاء التام من الساحة الأندلسية. وتجسد ذلك الاعتراض في حركة الاستشهاد التي قام بها بعض القساوسة في عهد عبد الرحمن الأوسط، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحركة وما آلت إليه من فشل، نتيجة لتغلب التعايش والتسامح بين السكان.

وإذا كان البعض يرى أنها حركة قومية، واستدل بها على أن القومية الإسبانية ظلت باقية في الأندلس[٨٣]، فالحقيقة أن المسلمين لم يعارضوا حب الوطن واحترموا القوميات، ولكن متطلبات الحكم الإسلامي، ومقتضيات المجتمع الأندلسي، وما أفرزاه من ثقافة جديدة، وما سار عليه المسلمون في المناطق المفتوحة من

سياسة عرفت بنظام المواطنة، قد فرض هوية جديدة تغلبت بدورها على كل الهويات السابقة عليها.

ومن مظاهر التعايش بين سكان الأندلس ؛ مشاركة المسلمين للأسبان في أعيادهم برغم معارضة الفقهاء لذلك[٨٤]، وفي تقويم قرطبة لعريب بن سعد ما يؤكد معرفة المسلمين بأسماء ومواعيد أعياد النصارى الأسبان[٨٥]، كما اتخذت بعض الحكومات الأندلسية من يوم الأحد يوم عطلة رسمية، وهذا دليل على وجود أعداد كبيرة من الأسبان في الوظائف الحكومية[٨٦]، ودليل أيضاً على محاولة الدولة التقرب لهذه العناصر واحترام طقوسهم، كما استخدم الذميون في العديد من الوظائف الدبلوماسية والإدارية والمالية والعسكرية، كسفراء وحرس وأطباء وجباة أموال وعناصر نظامية في الجيش، وغير ذلك[٨٧].

وقد ربط البعض بين القوة السياسية والهوية الاجتماعية، ورأوا أن الشعوبية عبرت عن القومية الإسبانية في فترات الضعف السياسي[٨٨]، وهذا الأمر صحيح إلى حد ما، برغم أنها ظهرت في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني، وهو عصر قوة واستقرار سياسي. وكذلك الأمر بالنسبة لعصر مجاهد العامري حاكم دانية في عصر ملوك الطوائف، وظهور ابن غرسيه الذي أظهر الشعوبية في عصره وربما يكون ذلك بتشجيع منه لانتمائه لأصول صقلبية [٨٩]، وعلى أي حال فإنها حركات ضيقة المجال لا تضم إلا أعدادا قليلة من السكان، ولا تعبر عن الغالبية العظمى من الأندلسيين، واعتبرها البعض احتجاجاً على تخلي بعض المولدين عن أسمائهم وأصولهم، والانتساب إلى قبائل عربية واتخاذ أسماء عربية، لتحقيق مصالح بعينها، مما أثار البعض[٩٠].

وإذا جاز هذا التفسير في القرون الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس أو فترات القوة فقد تفاقمت هذه المشكلة في قرون لاحقة وأصبحت عقبة واجهت الحكام في تحقيق الهوية الأندلسية، فنرى النصارى المعاهدين يتفقون مع ألفونسو المحارب على الدخول إلى الأندلس[٩١]

برغم ما تمتعوا به من تسامح تحت حكم على بن يوسف، بدافع من القومية وتحقيق الهوية الإسبانية، خاصة وأن الدولة المرابطية كانت قد بدأت مرحلة الضعف في هذه الآونة. وكذلك اليهود الذين فتحوا أبواب غرناطة لابن همشك وخانوا الموحدين(٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)[٩٢]. ومن الواضح أن بعض هذه العناصر لم تشعر بالانتماء الكامل للمجتمع الأندلسي، ولم تكن جزءاً من الهوية الأندلسية في كثير من الأوقات، وخاصة عناصر اليهود التي انضمت إلى الأسبان بعد توالي سقوط المدن الأندلسية[٩٣].

وإذا كانت الصراعات السياسية قد شكلت عائقاً في بناء الهوية الاجتماعية للأندلس، لما نتج عنها من فقدان للأمن والاستقرار، وحدوث أضرار اقتصادية وخسائر بشرية، فإن أصحاب النظرية العنصرية رأوا أن العصبية قد استأصلت شأفتها في عهد عبد الرحمن الناصر، بعد قضائه على الحركات العنصرية وإعادته للوحدة[٩٤]، بينما رأى آخرون أن تفتيت العصبية حدث في عهد المنصور بن أبي عامر، حينما غير التقسيم القبلي للجيش فتكونت عصبية جديدة هي العصبية الأندلسية[٩٥]. والحقيقة أن السلطة قامت بمحاولات وجهود للقضاء على العصبية منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، الذي اعتمد في جيشه على البربر والصقالبه والأسبان، كما اعتمد في تأسيس النظام الإداري على الموالي[٩٦].

ولا يمكن اعتبار الفتنة القرطبية (٣٩٩-٤٢٢هـ/ ١٠٠٩/١٠٣١م) فتنة عصبية، ولكنها صراعات قوى سياسية لم تؤثر على بناء الهوية الاجتماعية، وإن كانت قد عرقلت مسيرتها نتيجة لحدوث المجاعات والأوبئة، وانتشار السلب والنهب وعدم استقرار الأمن، وكذلك هجرة أعداد كبيرة من سكان قرطبه إلى مدن أخرى[٩٧].

وحسب إجماع المؤرخين، فإن الهوية الاجتماعية والثقافية للأندلس اكتملت في القرن الخامس الهجري حيث ظهر ذلك جلياً في رسالتي ابن حزم والشقندي في الافتخار بالأندلس وعلمائها[٩٨].

وقد حرص الحكام المرابطون والموحدون على الحفاظ على الهوية الأندلسية بأبعادها الاجتماعية والثقافية، ولعل في وصية يوسف بن تاشفين لابنه "علي" بتقبل المحسن من أهل قرطبه والتجاوز عن المسيء[٩٩]، ما يؤكد احترام المرابطين للهوية الأندلسية، وخاصة في قرطبه التي استمرت عاصمة للأندلس على مدى أربعة قرون، وكان لأهلها اعتزازاً بأنفسهم وبقوميتهم بل وأحسوا بالتمايز عن غيرهم من الشعوب[١٠٠]، وعاش المرابطون ومن بعدهم الموحدين كطبقة عسكرية شبه منعزلة عن السكان، ولذا لم يحدث في عهدهم تغير في البنية السكانية[١٠١]. ولكنهم ساروا على نظام نشر العدل الاجتماعي بين السكان، والاهتمام بالشعب وتفقد أحواله، إضافة إلى تقريب طبقة الفقهاء كرموز دينية حظيت بتقدير واحترام المجتمع، نتيجة سيطرة الأيدلوجية الدينية عليه[١٠٢]، وبذلك ساهموا بشكل كبير في الحفاظ على الهوية الاجتماعية.

أما ما يخص التعايش بين السكان، أو التسامح مع غير المسلمين، وأثره على بناء الهوية الاجتماعية ؛ فهناك اتهامات من بعض المستشرقين، أو من سار على نهجهم، للمرابطين والموحدين باضطهاد هذه العناصر، مستندين إلى بعض المواقف ومنها : ما ذكر حول مطالبة يوسف بن تاشفين لليهود بالوفاء بالعهد الذي

أخذوه على أنفسهم في عصر الرسول بترك اليهودية واعتناق الإسلام إذا مرت خمسة قرون ولم يظهر المهدي المنتظر(١٠٣)، وورد أن هذه الوثيقة تم العثور عليها في أوراق ابن مسرة المعتزلي، ويبدو أن هذه القصة كان متفقا عليها بين الأمير يوسف بن تاشفين والفقهاء الأندلسيين، لتقليص نفوذ اليهود الذي وصل إلى درجة كبيرة في عصر ملوك الطونف(١٠٤). ونجم عن هذه القصة فرض ضريبة على اليهود القاطنين في مدينة الليسانة(١٠٥)، ولو أن يوسف بن تاشفين كان مضطهدا لليهود لطردهم من مدينة الليسانة وهدم المدينة، خاصة وأنهم كانوا يشكلون قوة اقتصادية قد تهدد أمن دولته، ولكنه اكتفى بتقليص نفوذهم.

أما عصر علي بن يوسف (٥٠٠ـ٥٣٧هـ/١١٠٧ـ١١٤٢م) فقد شهد تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة حتى وصف بصديق النصارى، وقد استخدمهم كحرس خاص، واستخدم اليهود في جباية الأموال كما اعتاد الحكام المسلمون(١٠٦).

وفي عصر الموحدين اتهموا باضطهاد اليهود وإخلاء البلاد منهم، مستدلين على ذلك بهجرة أعداد من اليهود إلى المشرق، إضافة إلى ما ورد في كتاب عبد الواحد المراكشي من أنه لا يوجد ذمي في المغرب والأندلس، بعد قرار الخليفة عبد المؤمن ألموحدي بإخراج هذه العناصر من المغرب والأندلس(١٠٧)، وهو أمر مبالغ فيه، لأن الدراسات أثبتت وجود أعداد من اليهود في عصر بني الأحمر(١٠٨)، كما أن اليهود هاجروا إلى المشرق بعد أن فتح لهم صلاح الدين باب العودة إلى فلسطين(١٠٩). واستمر التسامح في عصر بني الأحمر واحتفظت الهوية الاجتماعية الأندلسية بقوتها برغم وجود أعداد من المدجنين في المدن الساقطة في أيدي الأسبان، وهجرة أعداد كبيرة من السكان خارج الأندلس(١١٠).

الهوية الثقافية ودور الحكام فيها :

كانت الهوية الثقافية في الأندلس إفرازاً طبيعياً للهوية السياسية والاجتماعية، ولعبت السلطة دوراً رئيسياً في ذلك منذ بداية حكمهم للأندلس، وظهر ذلك في حرص الولاة مع قلة الإمكانات المتاحة لهم على بناء المساجد كمؤسسات دينية وعلمية وثقافية حيث كان لها دوراً كبيراً في نشر الإسلام وبناء الشخصية الثقافية للأندلس(١١١).

وكما كان للأمويين دوراً رياديا في بناء الهوية السياسية والاجتماعية لم يقبلوا بأقل منه في بناء الهوية الثقافية، وبرز ذلك من خلال إجراءات اتخذوها وخطوات ساروا عليها، بدأت بإصرارهم على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في مراسيمهم وأوامرهم وقوانينهم ومعاملاتهم وعملتهم فكانت خطوة إيجابية نحو بناء الهوية الاجتماعية والثقافية، بما قدمته من التقريب بين عناصر السكان وتذويب

العنصرية بكل صورها، وحدوث التلاحم الاجتماعي الذي أدى إلى انصهار ثقافي نتج عن وجود لغة للتواصل الاجتماعي والفكري، كما سبقت الإشارة.

ولعل في اتخاذ الأمويين للمذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة، والسعي لنشره في الأندلس، ما رسخ الوحدة الفكرية، ورجح المذهب السني في نفوس الأندلسيين على غيره من المذاهب، وأبعد الفكر الأندلسي عن الأفكار السائدة في الشرق، كالخوارج والمرجئة وغيرهما، ويرجع ذلك لأن المذهب المالكي قد دخل الأندلس مع بدايات تكون الشخصية الأندلسية، فأحبوه واقتنعوا به، وبخاصة لما امتاز به من المرونة والتناسب مع البيئة الأندلسية، فدافعوا عنه وأصروا عليه، ولم يكن المذهب المالكي مذهباً دينياً فحسب بل كان فكراً وأسلوبا حضارياً دفعهم لحب العلم(١١٢). ولم يكن تمسك الأندلسيين بالمذهب المالكي حجراً على الفكر، ولكن سادت أجواء من الحرية الفكرية في الأندلس، أو ما سمي بوحدة التنوع.

وكان لأمراء بني أميه دوراً كبيراً في العناية بالدراسات الفقهية، وتشجيع الفقهاء بشتى السبل، حتى ظهر أقطاب للمالكية خلال القرن الخامس الهجري من أشهرهم: أبو الوليد الباجي بمؤلفاته الشهيرة، والطرطوشي وابن عبد البر وغيرهم(١١٣)، واستمرت لهذا المذهب الريادة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، رغم ما أصابه من جمود وتوقف الاجتهاد، والاقتصار على المختصرات والشروح التي تخدم الفقهاء في وظائفهم فقط(١١٤).

مع أن الموحدين دخلوا الأندلس بمذهب وفكر مغاير للمذهب المالكي، وسعوا لنشر مذهبهم الظاهري؛ إلا أن غالبية الأندلسيين تمسكوا بالمذهب المالكي لأنه كان يشكل جزءاً من هويتهم. ولأن ثورة الموحدين كانت فكرية مذهبية، فإنهم سعوا للقضاء على الجمود الذي أصاب المذهب المالكي، بالتخلص من كتب الفروع والعودة إلى الأصول، فنهضوا بالمذهب المالكي.

وعلى الرغم من سيادة المذهب المالكي على الفكر والثقافة الأندلسية، إلا أن هذا لا يعني جموداً فكرياً أو حجراً من السلطة على حرية الفكر الأندلسي التي ظلت سائدة على مر العصور. وهذا يعارض ما رآه البعض من خلال تعرض بعض المفكرين من قبل الحكام على فترات متعددة دليلا على جمود الفكر الأندلسي أو معوقاً للهوية الثقافية، فهذا أمر بعيد عن الصواب، حيث ترجع هذه المحن إلى أسباب سياسية وليست فكرية مثل محنة "أبو الوليد بن رشد" الذي اتهم بالإلحاد ثم تم نفيه(١١٥)، أو لما حدث مع ابن مسرة المعتزلي(١١٦) وابن حزم الظاهري(١١٧). والحقيقة أن السلطة حاولت استرضاء الفقهاء من جهة، وحافظت على الحرية الفكرية من جهة أخرى، فسمح الأمير محمد للفقيه بقيّ بن مخلد أن ينشر فكره ومذهبه الشافعي، وحماه من فقهاء المالكية(١١٨)، ودخلت في عهده رسائل إخوان

الصفا التي جلبها الفيلسوف الكرماني من الشرق[١١٩]. وكذلك المنصور بن أبي عامر الذي أحب الفلسفة، ولكنه حرق بعض كتبها إرضاء للفقهاء[١٢٠]، ووجود تلاميذ لابن مسرة وعلى رأسهم إسماعيل ارعيني في القرن الخامس الهجري، ما يؤكد تسامح السلطة معهم خلال القرن الرابع الهجري. واستمرت هذه المدرسة إلى القرن السادس الهجري، حيث يعد محيي الدين بن العربي، آخر روادها دليلاً آخر على حرية الفكر خلال عصر المرابطين[١٢١]. ولم تكن المحن هي السائدة في الأندلس، ولكنها مواقف فردية لا يمكن الحكم على الحياة الثقافية من خلالها، كما أن هذه الأمور تكررت في شتى المناطق وعلى مر العصور[١٢٢].

وقد شهد عصر الموحدين، الذي واكب عصر النضج والاستقرار للهوية الاجتماعية، نهضة ثقافية وحرية فكرية نتيجة لتعدد المذاهب الدينية، سواء المذهب المالكي أو المذهب الظاهري، أو المذهب الشافعي الذي انتشر في عصر الموحدين لأنه مذهب الإمام الغزالي الذي تتلمذ ابن تومرت على يديه، وقيام المناظرات والمجالس العلمية بين هذه المذاهب، وازدهار ثقافات جديدة كعلوم الجدل والكلام والمنطق والفلسفة، وغيرها من العلوم العقلية[١٢٣]

واستمرت الحرية الفكرية في عصر بني الأحمر، وتنوعت الثقافات مع تزايد الاختلاط بالحضارة الإسبانية، وتوارى الاهتمام بالفلسفة ليحل محلها الفكر الصوفي نتيجة الضغوط السياسية، ومع ذلك ظهر أكبر عدد من العلماء في هذه الفترة وازدهرت العلوم بشكل كبير[١٢٤].

وساهمت السلطة في البناء المادي للحضارة الأندلسية، من خلال الاهتمام بالعمارة التي تمثلت في بناء العواصم (كالزهراء والزاهرة)، والمدن كمراكز ثقافية وعلمية(مثل غرناطة ومرسية وبطليوس وقلعة رباح وغيرها)، وما تحتويه هذه المدن من المساجد الهائلة الأعداد، والتي شكلت مؤسسات تعليمية وتثقيفية في آن واحد وكان لها دور رئيسي في الحركة العلمية، وخاصة مع تأخر ظهور المدارس إلى عصر بني الأحمر[١٢٥]، إضافة إلى القصور والقلاع والحصون والأسوار والأبراج والقناطر والأسواق والقيساريات[١٢٦]، وغيرها من المعالم التي كانت شاهداً على الحضارة الأندلسية[١٢٧].

وقد ظهر الفن المعماري الأندلسي بكل خصوصياته، حيث مزج بين الحضارات القديمة والحضارة الإسلامية، فيشير بعض المؤرخين إلى أن ثمة تشابه بين مسجد قرطبة الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، وبين مسجد دمشق الذي أسسه أجداده الأمويون في المشرق[١٢٨] وبين قصر قرطبة والقصر الدمشقي كنوع من التأكيد على التأثير الشامي على الأندلس[١٢٩]، وهناك الكثير من الكتابات التي تؤكد على تأثر المعمار الأندلسي بالمعمار الشامي طوال عصر الأمويين. ومن ناحية

أخرى نجد الخليفة الناصر لا يستنكف أن يوجه سفارة إلى روما لشراء بعض الأعمدة الرومانية المتخلفة من معابدها، ليستفيد بها في تشييد مدينة الزهراء، كما أرسل سفارة أخرى إلى القسطنطينية لشراء بعض التحف والسواري الرومانية القديمة. وفي عهد الخليفة المستنصر أوفد سفارة إلى بيزنطة لإحضار صانع بيزنطي مختص في تنزيل الفسيفساء في زيادة المسجد الجامع بقرطبة[١٣٠].

واعتنى الحكام أيضاً ببناء المكتبات تشجيعاً للعلماء ومشاركة في ازدهار الحياة العلمية. ومن أشهر هذه المكتبات: المكتبة التي أسسها الخليفة الحكم المستنصر، والتي كانت أكبر مكتبة في العصور الوسطى[١٣١]، والمكتبة التي أنشأها المنصور بن أبي عامر في مدينة الزاهرة[١٣٢]، والمكتبات التي أسسها ملوك الطوائف في العديد من المدن[١٣٣]، ومكتبات أشبيلية التي شهدت نهضة علمية في عصر الموحدين[١٣٤]، والمكتبات التي تأسست في عصر بني الأحمر[١٣٥]، ناهيك عن مكتبات القصور والمكتبات الخاصة التي تواجدت في بيوت العلماء والمثقفين، وشملت حتى غير المهتمين بالعلم، الذين حرصوا على اقتناء الكتب كنوع من التفاخر والتباهي، إضافة إلى مكتبات المساجد، وبدأت هذه الظواهر منذ العصر الأموي، ثم صارت سنة متبعة كجزء من حياة الأندلسيين[١٣٦]. ولا يمكن إنكار دور الحكام الأمويين في سيادة المناخ العلمي في الأندلس، وغرس حب العلم في نفوس الأندلسيين حرصاً منهم على تحقيق السيادة السياسية والتميز الحضاري لدولتهم، ثم اعتنى من جاء بعدهم بالعلم إرضاء للعامة، وإتباعا لسنة الحكام السابقين، وأملاً في الوصول لنفس التميز الحضاري الذي حققه الأمويون وأهم من كل ذلك : السعي للخصوصية التي حازها الأندلسيون وحرصوا على بقاءها.

كما قام الحكام الأندلسيون بتشجيع الرحلات العلمية إلى المشرق الإسلامي للإفادة من الحضارة العباسية، وفتحوا أبواب الأندلس للمشارقة، فتوافدوا على الأندلس، وأثروا على الثقافة الأندلسية بشكل كبير، ومن أشهرهم زرياب المغني، وأبو علي القالي اللغوي، وسنان بن ثابت الحراني الطبيب وغيرهم. وكان للرحلات وما نجم عنها من انتشار الكتب المشرقية في الأندلس، وسعي الحكام لجلبها إلى الأندلس[١٣٧]، دور رئيسي في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، التي اعتمدت على الشرق في البداية، ثم أضافت إليه، ومن ثم خرجت بإبداعات ميزتها، وبذلك نضجت الشخصية الأندلسية. ولا يمكن إغفال دور الرحلات الدائمة والمستمرة بين المغرب والأندلس، وخاصة تحت حكم المرابطين والموحدين، وانضمامهم تحت كيان سياسي واحد، ووجود مراكز علمية في المغرب، وخاصة مراكش العاصمة السياسية ومركز الإشعاع الحضاري لكلا الدولتين.

ومن الملاحظ أن الدراسات الدينية كان لها مكان الصدارة من عناية واهتمام العلماء، فقاموا بإنتاج مؤلفات خاصة بهم، وبرزت شخصيتهم من خلال استبعاد الأفكار المتطرفة، وإن قرأوا فيها وتعرفوا عليها ونقدوها، وظهر ذلك جلياً في كتاب ابن حزم الفِصَل في الملل والأهواء والنحل.

وفي مجال الدراسات اللغوية والأدبية نمت الشخصية الأندلسية بشكل مبكر، نتيجة للبيئة السياسية الآمنة المستقرة في أغلب الأحيان، والبيئة الجغرافية ذات الطبيعة الخلابة والمناخ المعتدل، فتميز الشعر الأندلسي بأغراضه، وظهر النثر الأندلسي بصورتيه الموشح والزجل الذي نتج من انصهار الثقافة الأيبيرية والثقافة الإسلامية، كما أنهم كتبوا بالخط الأندلسي الذي ميزهم عن الخط المشرقي[١٣٨].

وساهمت حركة الترجمة، التي قام بها الخليفة عبد الرحمن الناصر، في تطور العلوم العقلية في الأندلس وخاصة علم الطب، وكان للتسامح الديني أهميته في إتمام هذه الحركة، حيث استعان بطبيبه حسداي بن شبيروط وعدد من النصارى واليهود، ومنهم نيقولا الذي أرسله ملك الروم لمعرفته باللغتين الإغريقية واللاتينية، والذين قاموا بترجمة كتاب ديسقوريدس في الطب[١٣٩]. واستمرت هذه الحركة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي حوت مكتبته أعدادا من كتب أجنبية تمت ترجمتها[١٤٠]، وآتت ثمارها في القرن الخامس الهجري حيث اكتملت الشخصية الأندلسية في العلوم، وانتقلت إلى أوروبا عن طريق مدرسة الترجمة في طليطلة[١٤١].

ومع الإقرار التام بفضل السلطة في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، فإن العلماء والمثقفين ساندوا السلطة بشكل كبير في بناء الهوية السياسية للأندلس، من خلال ترسيخهم للمذهب المالكي، الذي يخدم أهداف الدولة، ويحقق مطلبها في الوحدة سواء السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية.

وقد أشار الدكتور إبراهيم حركات ــ في سلسلة مقالاته عن الثقافة الأندلسية من النشأة حتى الاستقرار ــ إلى الدور الذي قام به العلماء في التقريب بين السلطة والمجتمع في مرحلة النشأة[١٤٢]، ودورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو وتحميس الناس له[١٤٣]. والحقيقة أنهم استمروا في التقريب بين السلطة والمجتمع حتى في مرحلة النضج، وليس أدل على ذلك من وصية الباجي لولديه بطاعة ولي الأمر، والبعد عن التفرق، وأن الحاكم الظالم أفضل من التعرض للفتن[١٤٤]، كما أن دورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو استمر في كل المراحل والعصور[١٤٥].

وقد برز دور الفقهاء جلياً في الحفاظ على الهوية السياسية للأندلس، حينما استدعوا المرابطين لإنقاذ دولتهم من السقوط نتيجة لضعف ملوك الطوائف، وسعياً للحفاظ على الوحدة السياسية[١٤٦]، وكان تدخلهم في بعض الأمور السياسية،

خلال عصر المرابطين، بهدف الحفاظ على الهوية السياسية الإسلامية لدولة المرابطين سواء في المغرب أو في الأندلس، مثل فتوى ابن رشد ببناء سور مراكش، أو فتواه بتغريب النصارى المعاهدين بعد اشتراكهم في حملة ألفونسو المحارب (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)[١٤٧].

وإن كان للأدباء والشعراء الأندلسيين، الذين برزوا خلال عصر ملوك الطوائف[١٤٨]، دور سلبي تجاه السلطة المرابطية التي أهملتهم ولم تجزل لهم العطاء، أو تحشدهم في بلاطها للتملق والالتفاف حول السلطة كما اعتادوا، فأظهروها بشكل الدولة المتخلفة البعيدة عن العلم، واستغلوا نضج هوية الأندلسيين الثقافية في غرس روح القومية والتعالي[١٤٩] وتوارت الهوية الإسلامية وراء الهوية الأندلسية، فكأنها أعادت روح العنصرية التي حاربها الإسلام، ولذا كره الأندلسيون الحكم المرابطي برغم ما قدمه لهم من جهود حافظت على هويتهم السياسية.

ولم تكن العلاقة طيبة دائماً بين السلطة والمثقفين، فقد سبقت الإشارة إلى تعرض العلماء للمحن من قبل السلطة، فنتج عن ذلك نفور عدد كبير منهم من المناصب أو من التقرب للسلطة، وسبقت الإشارة إلى أن هذه المحن لم تكن مسؤولية السلطة دائما، إذ لعبت الوشايات والدسائس دوراً هاماً فيها، كما أن السلطة كانت تساند المثقفين أحياناً إذا تعرضوا لمثل هذه الوشايات أو الدسائس، مثلما حدث مع بقيّ بن مخلد الذي كان على المذهب الشافعي، وأنصفه الأمير محمد على الفقهاء، وسمح له بنشر فكره، وكذلك مساندة الخليفة المنصور الموحدي لأبي بكر بن زهر وحمايته من الوشايات[١٥٠]. وإن كان هذا لا يعفي السلطة من الانقلاب على بعض المثقفين أحياناً مثلما حدث مع أبي حفص الهوزني[١٥١] وابن حزم[١٥٢] وأبي الوليد بن رشد[١٥٣].

أما عن علاقة السلطة بالمثقفين والعلماء في عهد بني الأحمر، والتي أسهمت في ضعف الهوية الثقافية الأندلسية فقد كانت مليئة بالتملق من جانب المثقفين للوصول إلى المناصب، وانتشرت الدسائس بين المثقفين نتيجة ضيق فرص العمل بعد سقوط غالبية المدن الأندلسية وسوء الظروف الاقتصادية والاضطرابات السياسية، ولذلك أصاب الحياة الفكرية نوع من الجمود[١٥٤].

وهناك عثرات واجهت الهوية الثقافية في الأندلس وعرقلتها بعض الشيء كالفتن والاضطرابات السياسية والصراعات حول السلطة، مثلما حدث بعد ثورة الربض من حرمان الأندلس من عدد من علمائها ومثقفيها[١٥٥]، فكان لفتنة قرطبة أثر بالغ على المسيرة الثقافية، حيث تعرضت مدينة قرطبة ومنشآتها للتخريب، وخربت مكتبة الخليفة المستنصر، وتم بيع الكتب الموجودة فيها، كما نهبت سائر

مكتبات قرطبة بعدما تعرض الشعب للمجاعة والقحط، وتعرض عدد من العلماء والمثقفين للسجن[١٥٦].

وكان للتمزق السياسي، الذي عاشته الأندلس في عصر ملوك الطوائف، أثره على الحياة الثقافية، فنشأت طبقة من المتملقين للحكام، والباحثين عن المال والمنصب، من الأدباء والشعراء والطامعين من الفقهاء[١٥٧]، وفي المقابل ظهر العديد من الفقهاء الذين تمسكوا بفكرة الوحدة، ونددوا بملوك الطوائف منهم ابن حزم، وأبو الوليد الباجي، والقليعي، وأبو العباس بن الرميلة، وغيرهم[١٥٨].

وإذا اعتبرنا أن القرن الخامس الهجري شهد نضج واكتمال الشخصية الثقافية للأندلس فإن الفضل في ذلك يرجع إلى جهود بني أمية التي أثمرت في هذه الفترة، ولا يمكن إنكار الإضافة الإسبانية من خلال الحضارة الأيبيرية القوطية والرومانية، وانصهارها مع الثقافة الإسلامية الشرقية بالشكل الذي صبغ الثقافة الأندلسية بطابع شديد الخصوصية[١٥٩]. كما أن تعدد المراكز الثقافية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف وحرص الحكام على إنمائها ورعايتها، والتنافس الثقافي فيما بينها وتنوع اهتماماتها، إلى بروز الشخصية الثقافية في عصرهم وظهور الأعلام بإبداعاتهم في المجالات المختلفة[١٦٠].

وبالطبع كان لنمو حركة الاسترداد الإسباني أثراً سلبياً على الحياة العلمية، فهاجرت أعداد كبيرة من العلماء خارج الأندلس، وسادت أجواء الركود والمؤامرات حول الوصول إلى الوظائف كما سبق التنويه في عصر بني الأحمر.

وكما كان للأمن والاستقرار دور رئيسي في نمو الهوية الثقافية، فإن العامل المادي كان له أهمية كبرى في رعاية السلطة للمثقفين ولذا ارتبطت المسيرة الثقافية بالمسيرة الاقتصادية في أحيان كثيرة[١٦١]. وإذا كانت الشعوبية التي ظهرت في الأندلس تأثراً بالمشرق، قد شكلت عائقاً أمام الهوية الإسلامية بكل صورها، فإن نظام المواطنة الذي سارت عليه السلطة، قد فتح باب الأندلس على الحضارات الأخرى، وجعلها تتغلب على مثل هذه النظرات القصيرة الأفق. وهكذا فإن الهوية الثقافية للأندلس بنيت على التسامح، والانفتاح على الحضارات، وتقبل فكر الآخر، وقبول التعددية الثقافية، فيما عرف بتنوع الوحدة أو وحدة التنوع.

الهوامـــش

(١) Andlucia un pais con historia , apuntes para una Historia de Andalucia.

(٢) عبد الواحد طه ذنون: نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧م.

(٣) العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة١٩٦٥م، ص٤، ٥ .

(٤) عبد الواحد طه ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة١٩٨٧م، ص١٨٣ ـ١٨٥.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، ط٣، ج٢، ص٤٢.؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، ج٤، دار الفكر، بيروت، سنة١٩٨٦م، ص٢٨

(٦) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج٢، ج١ـ النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف اليمبي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص٧٣. يشير المؤلف إلى أن الثغور التي أنشأها الأمويون في الأندلس صورة مطابقة للثغور العباسية في المشرق.

(٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م، ج١، ص١٩٩.؛ محمد أحمد أبو الفضل: بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م، ص٦٢.

(٨) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر باسكوال جارثيا جومس، سنة ١٩٦٨م، ص٣٠ وما بعدها.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م، ص٩١.؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٤٧.

(٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، سنة ١٩٩٢م، ص٣٠٤.

(١٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٦١.؛ عبد المجيد النعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة١٩٨٦م، ص١٧٢.

(١١) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون ـ المسلمون ـ اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط. سنة١٩٩٤م، ص٥٩.

(١٢) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١٤. حيث يرى أن الأمير هشام تظاهر بالتدين ولم يكن كذلك، وإنما كان سياسياً يجتذب الناس إليه، واستدل على ذلك بأنه سمل عيني شاعر لأنه مدح أخاه .

(١٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديجاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨م، ص٩٢.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، ط٢، سنة ١٩٥٦م، ص ١٢. وصف ابن الخطيب الأمير هشام بأنه بمنزلة عمر بن عبد العزيز في قومه.

(١٤) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط١، سنة٢٠٠٣م، ص١٩٧.

(١٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٦٣، ٦٤.

(١٦) ابن حيان: المقتبس، ص١١٦.

(١٧) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص١٧٤.

(١٨) أميركو كاسترو: المرجع السابق، ص٦٠. يرى أن قوة الإسلام مرتبطة بالزعامات القوية القادرة على تشحيذ الهمم بالانتصارات وإبهار الجماهير بالثورات التي كانت في الأندلس. والصواب أن قوة الكيان السياسي الإسلامي في إسبانيا هي التي ارتبطت بالزعامات، وليس الإسلام نفسه لأنه متغلغل في نفوس أتباعه سواء كان الكيان السياسي قائماً أو لم يكن.

(١٩) ابن عذاري: البيان، ج٢، ص٧٢، ٧٤.؛ عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص١٩٥ــ٢٠٠

(٢٠) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٤١، ٥٠، ٥١.؛ ابن حيان: المقتبس، ص١٠٥، ١٠٦.؛ ابن عذاري: نفس المصدر، ص٦٩.؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١١٤.

(٢١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص٤١،٥٠،٥١.؛ ابن حيان: المقتبس، ص١٠٥ ــ ١٠٧.؛ ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، م١، ج٢، سنة ١٩٥٥م، ص١١٤.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٩٠.؛ ابن عذاري: البيان، ج٢، ص٦٩.؛ ابن السماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ت. محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد، ص١١٥.

(٢٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، ص٢٣٣.

(٢٣) ابن حيان: المقتبس، ص١٩٧ ــ١٩٩.

(٢٤) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١١، ٣١٢.

(٢٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٣ ــ ٦٥.

(٢٦) ابن حيان: المقتبس، ص٤٥٠.

(٢٧) نفس المصدر، ص٢٠٨.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٩.

(٢٨) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: محمود مكي، سنة١٩٧١م، ص١٨٠.

(٢٩) نفس المصدر، ص٢٨٣.

(٣٠) نفسه، ص٢٩٤.

(٣١) ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص١٣١.

(٣٢) ورد أن سيمونيت أرجع سبب حركة الشهداء إلى اضطهاد النصارى ثم عاد وناقض نفسه حينما أشار إلى توليهم الوظائف والمناصب الكبرى واستخدامهم كعناصر في الجيش، أما ألتاميرا فأشار إلى أن المضايقات جاءت من الشعب نفسه وليس من الحكام. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص٢٧٠، ٢٧١. وللرد عليهم نقول: إن حركة الشهداء لم تكن نتيجة ضيق اقتصادي أو تضييق اجتماعي، وإنما هي ناتج إلحاح الشعور الوطني، والرغبة في المشاركة السياسية، والوصول إلى الحكم، لأنهم سكان البلاد الحقيقيين، أي أن أسباب الحركة سياسية وليست عقائدية أو اجتماعية.

(٣٣) ورد أن زعيم حركه الشهداء يسمى ألبرو يرجع إلى أصل يهودي وهو أمر يفسر تشدده وتعصبه ضد الإسلام خاصة أن اليهود لم يشعروا بالهوية والانتماء تجاه أي شعوب أو حكومات أو دول، لأسباب تخص عقيدتهم.

Simonete: Historia de Mozarabes , Amesterdam ,Oriental ,Press , ١٩٧٦ , p.١١٣.

(٣٤) دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م، ص١٠١، ١٠٢.

(٣٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٩٠.

(٣٦) القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٠م، ص ٨١. يشير إلى أن ذمي استخف بالنبي صلى الله عليه وسلم و بالإسلام فأفتى بأن يسجن فإذا ثبت عليه الأمر يحكم القاضي بقتله.

(٣٧) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص٢٩١.

(٣٨) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٧.

(٣٩) أميركيو كاسترو: أسبانيا في تاريخها، ص٦٠.

(٤٠) عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط١، سنة ١٩٩٥م، ص٤٠ حيث يشير إلى أن الطبيعة الجغرافية أثرت على الأندلسيين فعاشوا في مجتمعات منعزلة بعضها عن بعض حتى أصبح الميل إلى الإقليمية يفوق الولاء للدولة الكبيرة.

(٤١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٤. انظر أيضاً محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، سنة١٩٩٦م، ص٢٤. حيث يشير إلى أن الحركات الانفصالية تعود إلى سيادة النظام الإقطاعي في الأندلس و تأثرها بفكر إخوان الصفا الليبرالي الذي يعد ثورة على النظام الإقطاعي السائد في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً .

(٤٢) اعتبر المستشرقون عمر بن حفصون بطلا قوميا يسعى لإحياء القومية الإسبانية، رغم أنه استغل هذه العناصر لتحقيق أطماع سياسية. بدرو شالميتا: ضوابط عمر بن حفصون، فصوص من تاريخ الأندلس، بداية النهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإنسانية، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٩٠.

(٤٣) ساعدت هذه الحركة على توسع الدول الإسبانية المعارضة للعرب في الشمال والتي تمثل صلب حركة الاسترداد. علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربه في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ع١، سنة ٢٠٠٢م، ص١٦٦.

(٤٤) فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، من مظاهر الحركة الشعوبية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٢، سنة ١٩٨٧م، ص١٥٤. يرى د/ حسين مؤنس أن هذه الثورات اجتماعية تعبر عن إهمال الحكومة لهذه العناصر وسوء أحوالهم: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٩.

(٤٥) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: إسماعيل العربي، ط١، سنة ١٩٩٠م، دار الأفق الجديدة، المغرب، ص١٤٤،١٤٥. ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٠ وما بعدها.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م، ص٩١.

(٤٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٣٩.

(٤٧) ابن حيان: المقتبس، الجزء الخامس، ت: بدرو شالميتا، ف..كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة١٩٧٩م، ص٥٨ وما بعدها .؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٣.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٥٣.

(٤٨) مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروفنسال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م، ص٣٠ يشير إلى حرصه على مظاهر البيعة في الإسلام، كما كانت أيام الخلفاء الراشدين، وهو أمر يؤكد دور الإسلام في تدعيم الهوية السياسية للأندلس.؛ ابن حيان: نفس المصدر، ص٢٤١.

(٤٩) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص٢٤٣.

(٥٠) يشير صاحب الحلل الموشية إلى أن العامة لقبوه بالخلافة قبل أن يعلنها رسمياً وهذا دليل على سعادة الأندلسيين بالعودة إلى الوحدة وحرصهم على شرعية الحاكم السياسي وارتباطه بالنظام السياسي للحكم. مؤلف مجهول: الحل الموشية في الأخبار المراكشية، ت. سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م، ص٣١.

(٥١) ابن حيان: المصدر السابق، ص٤٣١ وما بعدها.؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٨٥.

(٥٢) Ann Christys: Christian in Andlus , published in ٢٠٠٢ , British library , p. ١٠

(٥٣) ابن عذاري: نفس المصدر، ص٢١٢.
(٥٤) نفسه، ص٢٢٥.
(٥٥) اعتبر ابن خلدون أن العصبية أساس قيام الدولة، وأن الدولة الأموية في الأندلس فسدت لما فقدت عصبيتها من العرب، وأن الأمويين استظهروا أنفسهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة. ابن خلدون: العبر، ج١، ت. خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر- بيروت، سنة ١٩٨١م، ص١٩٥.
(٥٦) ابن عذاري: البيان، ج٣، ص١٠.
(٥٧) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٩٧.؛ أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس ـ مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٣٧.
(٥٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٨١.
(٥٩) نفس المصدر، ص٨٢.
(٦٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٥٠.
(٦١) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط٢، سنة ١٩٨٧م، ص٣٣. يشير إلى الضعف السياسي وتسليم الحصون دون قتال.
(٦٢) علق الطرطوشي على ذلك بأن المسلمين في الأندلس في عصر الطوائف اعتنوا بجمع المال، بينما تقوى العدو على حسابهم بجمع الرجال. سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٢هـ، ص١٠٨. أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص٦٥. يشير إلى أن الهيبة العسكرية للمسلمين بدأت في الاضمحلال ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.
(٦٣) يشير سيمونت إلى أن طليطلة مستقلة تحت حماية ملك ليون منذ عصر الأمير محمد.
Simonete : Historia los Mozarabes , Tom x١١١ , Madrid ,١٨٩٧ , P.٥٠٤ -٥٠٦.
(٦٤) مؤلف مجهول: الحلل الموشيه، ص٤١.؛ الناصري: الاستقصار في تاريخ المغرب الأقصى، ت. جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج٢، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م ، ص٢٠٩.
(٦٥) الناصري: الاستقصار، ج٢، ص٢٠٦.
(٦٦) محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م، ص١٤٣، ١٢٦، ١٤٤ .؛ مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٩٠.
(٦٧) الناصري : المصدر السابق، ص٢٦٠.
(٦٨) ابن أبي زرع: روض القرطاس (الأنيس المطرب)، دار المنصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م، ص٢٠٦، ٢٠٧.؛ الناصري: الاستقصار، ج٣، ص١١، ١١٥ .
(٦٩) ابن خلدون: العبر، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨.
(٧٠) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٥٣.

(٢١) علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني، ص١٧٨.

(٢٢) رابح عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠م، ص٣٨.

(٢٣) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص٢٤٢.؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص١٦٣، ١٦٢. رأوا أن التسامح في الأندلس استمر أربعة قرون وانتهى بمجيء المرابطين.؛

Simonete: Historia de los Mozarabes ,p.٧٤ ,٧٥

(٢٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبارغرناطه، ت: محمد عبد الله عنان، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٥م، ص١٠١.؛ اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤م، ص١٦.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢.؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٥٢.

(٢٥) عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، القاهرة، سنة ١٩٩٣م ، ص٨٥ ـ ١٠٧.؛ عبد الواحد ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة ، ص١٨٨ ـ ١٩١.؛

Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espange , Leyde ١٨٨١ , p. ٣ – ٦ , Ann chrristys :Christian in Andalus , p.١١.

(٢٦) أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ٢٠٠٤م، ص٢٢ ومابعدها.

(٢٧) نفس المرجع، ص١٤٧ ـ ١٤٩.

(٢٨) نشر المؤرخ جونثالث بالنثيا مجموعة من الوثائق في أربعة مجلدات تتعلق بمستعربي طليطلة خلال القرون ١١، ١٢، ١٣، ١٤ م. عصمت دندش: علاقة الأندلس بمملكة قشتاله من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محمد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥م، ص١٠٢. ويؤكد العديد من المؤرخين استمرار تأثر المستعربين بالعرب حتى بعد سقوط المدينة.

Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E socicety, Leiden, ١٩٩٨ , p. ٣١١.

(٢٩) حسين مؤنس: المغرب والأندلس، ص٣١٠، ٣١١.

(٣٠) سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠م، ص٤٢.

(٣١) Alberto Ferreiro : The Visigoths studies in culture , p. ٣١١

(٣٢) كمال أبو مصطفى: المولدون في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ودورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة ١٩٩٣م، ص٤٧، ٥٠ .

(٨٣) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص٢٦٣، ٢٦٤ .

(٨٤) عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب ـ الرباط، ص٢٠.؛ سحر سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط، ص٧٠.

(٨٥) عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: دوزي، ليدن، سنة ١٨٧٣م، ص١٤.

(٨٦) ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص٧٣. ورد في التحقيق أن هذا النظام كان سائدا منذ عصر الأمير محمد.

(٨٧) حول ذلك انظر: عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، ص١١٣، ١١٤.؛ محمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص٧١.؛ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م، ص٢٣.؛ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من التقلبات والإعطاءات، سنة ١٤١٤هـ، ص٢٣٧.

(٨٨) فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، ص١٥٣.

(٨٩) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق٣، مج٢، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة ١٩٨١م، ص٧٠٥.

(٩٠) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة، مج٢، ج١، ص١٧٣.

(٩١) Claudio Sanchez Albomoz: La Espana muslimana Segon los autares ,Tom ٢, Madrid , Espasa – clape , S.A , ١٩٧٤ , p. ٢٢٢

(٩٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التازي، ص ١٢٤، ١٢٥، ط٣، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م

(٩٣) عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج٤ من النت.

(٩٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٧٣.

(٩٥) نفس المصدر، ص ٣٨٩.؛ ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص١٦٨.؛ إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م، ص٥٢.

(٩٦) ابن خلدون: العبر، ج١، ص١٩٥.

(٩٧) ابن حزم: رسائله، رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٧م، ص٣٢.

(٩٨) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ج٢، ص١٧١.؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٨٠.

(٩٩) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٨٣.

(١٠٠) عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص٦٦.

(١٠١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٦، ١٣٧.؛ السلاوي الناصري: الاستقصا، ج٣، ص١١٥.

(١٠٢) الناصري: المصدر السابق، ص١١٥.؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص١٣٦، ١٣٧.؛ داود عمر سلامه عبيدات: المرابطون والأندلس، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٧م، ص٦١.

(١٠٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٨٠.

(١٠٤) ظريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أميه وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٣م، ص١٥٩ ومابعدها.

(١٠٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م، ص٥٧١.

(١٠٦) نفس المصدر، ج١، ص٢٣٥.؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة ــ بيروت، ط٢، سنة١٩٨٢ م، ص٥٤٦.؛ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع النصارى، ص٢٣٧.

(١٠٧) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت. محمد سعيد العريان، إشراف محمد توفيق عويضه، القاهرة، سنة ١٩٦٣م، ص٣٨٣.

(١٠٨) ابن الخطيب: الإحاطه، ج١، ص٣٨٨.؛ رابح المغراوي: الأوضاع الحضارية لغرناطة، ص ٣٦.

(١٠٩) عطية القوصي: صلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٢٤، سنة ١٩٧٧م، ص٣٩ .

(١١٠) رابح المغراوي: المرجع السابق، ص٣٦، ٣٧.

(١١١) محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرنانديث، تقديم: د/عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٨٢م، ص ٢٧٤.

(١١٢) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في ق.٥هـ، تطوان، مجلة دراسات مغاربية، مجلة البحث والبيلوجرافيا المغاربية، ع١ ــ ٢، سنة ١٩٩٦م، ص١٠.؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٤.

(١١٣) عبير زكريا: دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، دار العلم والإيمان، ط١، سنة ٢٠١٠ م، ص٢٣٢ ومابعدها.

(١١٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٣٦.؛ مجموعة رسائل موحدية، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة ١٩٤١ م، ص١٣٢.

(١١٥) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص٣٨٤. ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٥٣١، ٥٣٢.

(١١٦) ابن حزم: رسائله، ج٢، ص١٨٨.

(١١٧) ابن بسام: الذخيرة، ق١ ــ ج١، ص١٦٨.؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ص٣٥٤، ٣٥٥.

(١١٨) الحميدي: جذوة المقتبس، ج١، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ــ اللبناني، سنة ١٩٨٣م، ص٤٠.

(١١٩) أنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م، ص٣٣٣.

(١٢٠) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعلوان، بيروت، سنة ١٩٨٥م، ص١٦٤.

(١٢١) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣٣١، ٣٣٢.

(١٢٢) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب جوانب من الواقع الأندلسي، ص١٠.؛ إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع٧، سنة ١٩٩٨م، ص٩٨. يشير إلى أن هذه المحن انتشرت في المغرب ومصر وغيرها.

(١٢٣) فاروق حمادة: النهضة الفقهية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع٤، سنة ١٩٩٧م، ص١٦٤.

(١٢٤) محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، ب. ت، ص٨٢.؛ فاروق حماده: النهضة الفقهية في عصر الموحدين، ص١٥٤ وما بعدها.

(١٢٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٧٦.؛ خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت. الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٢١٠.

(١٢٤) تأثر الأندلسيون في بناء القناطر بالآثار الرومانية مثل قنطرة رباح التي بنيت في العصر الإسلامي على نفس نسق قنطرة الوادي التي بنيت في عصر الرومان . Andalucia para Ninas Y Ninos

(١٢٧) تؤكد الدراسات أن الحضارة الأندلسية تأثرت إلى حد كبير بحضارة مصر والمغرب و سوريا، وتأثرهم ببغداد في بناء الأسوار .

.Ann christys: Christian in Andlus , p.١٤

(١٢٨) محمد أبوالفضل : التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩٦م، ص٢٧١.؛

Ann Christys : opsit , p.١٦

(١٢٩) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة١٩٨٤م، ص٤٨ ومابعدها.

(١٣٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٣٧٢.؛ محمد أحمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص٧١، ٧٢، ٨٧.

(١٣١) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص١٦٢،١٦٣.؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ت. حسين مؤنس، ج١، سنة ١٩٦٣ م، ص٢٠١. وينسب بناء نواة هذه المكتبة إلى عبد الرحمن

الناصر. حول ذلك انظر. ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دارعين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠ م، ص٦ .

(١٣٢) ابن صاعد: المصدر السابق والصفحة.

(١٣٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص٢٢٤ ــ ٢٢١.

(١٣٤) نفس المرجع، ص٢٢٠.

(١٣٥) نفس المرجع: ص٢٢٠، ٢٢١.

(١٣٦) نفس المرجع، ص٢١٨.؛ ساميه مسعد: المرجع السابق، ص٢٣ ــ ٢٦

(١٣٧) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٦٩.

(١٣٨) نفس المصدر، ج٤، ص١٥٠.

(١٣٩) ابن جلجل: طبقات الأطباء ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥م، ص٩٨.؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٤.؛ السيد عبد العزيز سالم: الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥م، ص٢٨٣.

(١٤٠) Claudio Sanchez : la Espana muslimana ,p.٢٣١.

(١٤١) عن مدرسة الترجمة: محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الاستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع١٥، سنة١٤٢١هـ.

(١٤٢) إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتبليغها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع٦، سنة ١٩٩٨ م، ص١٢٥.

(١٤٣) المراكشي: المعجب، ص٣٢٨.

(١٤٤) أبوالوليد الباجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع٣، مج١، سنة١٩٥٥م، ص٤٣

(١٤٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٢٨.؛ المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ١٧٧.؛ إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في عصر الريادة، ص١٢٥.

(١٤٦) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.؛ محمد عبد الجليل: كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الأسباني التونسي، سنة ١٩٨٥م، ص١٣.

(١٤٧) نفس المصدر، ص٩٠، ٩٢.؛ محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص١٢٤.

(١٤٨) Claudio Sanchez Albornoz : La Espana muslimana , t . ١, p. ١١٤

(١٤٩) محمود مكي: وثائق مرابطية، ص١٢١.

(١٥٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء، ص ٥٢٣.

(١٥١) ابن بسام: الذخيرة، ق١، ج٢، ص٨٢.

(١٥٢) نفس المصدر، ق١، ج١، ص١٦٨.؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٣٥٤، ٣٥٥ .

(١٥٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٨٤.؛ ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص٥٣١، ٥٣٢.

(١٥٤) إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة الإستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨ م، ص٣٩ .

(١٥٥) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، ص١٤٣.؛ حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٢٠

(١٥٦) ابن صاعد: طبقات الأمم، ص١٦٤، ١٦٥.؛ خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧م، ص٢٧ ــ ٢٩.

(١٥٧) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩م، ص١٤١، ١٤٢.؛ عبير زكريا : دور الفقهاء السياسي والحضاري، ص ١٣١ ــ ١٣٥.

(١٥٨) عبير زكريا: نفس المرجع، ص ٢٠٦ ومابعدها

(١٥٧) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، مج ٢، ج ١، ص١٧٥.

(١٦٠) خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس، ص ١٢١،١٢٢.

(١٦١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص٢٢٦.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس (الأنيس المطرب)، دار المنصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م .

ـ ابن الأبار: الحلة السيراء، ت. حسين مؤنس، ج١، سنة ١٩٦٣ م .

ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، ط٢، سنة ١٩٥٦م .

ـــــــ: الإحاطة في أخبارغرناطه، ت: محمد عبد الله عنان، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، سنة١٩٧٥م.

ـــــــ: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤م.

ـ ابن السماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ت: محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد.

ـ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديجاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨م .

ـ ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق٣، مج٢، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة١٩٨١م

ـ ابن جلجل: طبقات الأطباء، ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥م .

ـ ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط٢، سنة ١٩٨٧م .

ـــــــ: رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٧م.

ـ ابن حيان: السفرالثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط١، سنة ٢٠٠٣م.

ـــــــ: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت. إسماعيل العربي، دارالأفق الجديدة، المغرب، ط١، سنة ١٩٩٠م.

ــــــــــ: المقتبس، الجزء الخامس، ت: بدرو شالميتا، ف. كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة١٩٧٩م

ــ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، ت. خليل شحاده، سهيل زكار، دار الفكرــ بيروت، سنة ١٩٨١م.

ــ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م .

ــ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التازي، ط٣ دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م.

ــ ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعلوان، بيروت، سنة ١٩٨٥م .

ــ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ت: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، ج٢، ط٣، الدارالعربية للكتاب

ــ ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م١، ج٢، سنة ١٩٥٥م.

ــ الإدريسي: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

ــ الباجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع٣، مج١، سنة ١٩٥٥م .

ــ الحميدي: جذوة المقتبس، ج١، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ــ اللبناني، سنة ١٩٨٣م.

ــ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة ــ بيروت، ط٢، سنة١٩٨٢م.

ــ الطرطوشي: سراج الملوك، دارالكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٢هـ.

ــ العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة١٩٦٥م.

ــ القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة١٩٩٠م

ــ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، سنة١٩٨٦م.

ــ الناصري: الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، ت: جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج٢، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م .

ــ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، إشراف محمد توفيق عويضه، القاهرة، سنة ١٩٦٣م .

ــــــــــ: مجموعة رسائل موحدية، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة١٩٤١م.

ـ عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: دوزي، ليدن، سنة ١٨٧٣م.
ـ مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروفنسال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م.
ـ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م.
ـ مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ت. سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م.
ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ت: محمود مكي، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م.

ثانيا: المراجع العربية:

ـ أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون ـ المسلمون ـ اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط. سنة١٩٩٤م .
ـ إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م.
ـ أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ٢٠٠٤م.
ـ أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس ـ مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م.
ـ السيد عبد العزيز سالم: الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥م .
ـــــــــــ: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة١٩٨٤م.
ـ أنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م .
ـ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، سنة ١٩٩٢م .
ـ خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت. الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
ـ داود عمر سلامه عبيدات: المرابطون والأندلس، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٧م.
ـ دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م.

ـ ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دارعين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠م

ـ شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩م .

ـ عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، القاهرة، سنة١٩٩٣م .

ــــــــ: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط١، سنة ١٩٩٥م.

ـ عبد المجيد النعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة١٩٨٦م.

ـ عبير زكريا: دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار العلم والإيمان، سنة ٢٠١٠م.

ـ كمال أبو مصطفى: المولدون في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ودورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط. سنة ١٩٩٣م .

ـ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج٢، ج١ ـ النظم والمؤسسات والحياة الإجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف اليمبي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٠م.

ـ محمد أبو الفضل: التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة١٩٩٦م.

ــــــــ: بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م.

ـ محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.

ـ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م.

ـ محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرنانديث، تقديم: د/عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٨٢م.

ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

ـ محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، سنة١٩٩٦م.

ثالثا: الدوريات:

ـ إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتبليغها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع٦، سنة ١٩٩٨م.

ــــــــ: الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع٧، سنة ١٩٩٨م.

ـــــــــــــ: الثقافة وتبليغها في مرحلة الإستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨م .

ــ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من التقلبات والإعطاءات، سنة ١٤١٤هـ .

ــ بدرو شالميتا: ضوابط عمر بن حفصون، فصوص من تاريخ الأندلس، بداية النهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإنسانية، ط١، سنة ٢٠٠١م.

ــ رابح عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الإجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠م.

ــ سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠م .

ــ ظريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أميه وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٣م.

ــ عبد الواحد طه ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة١٩٨٧م.

ـــــــــــــ: نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧م.

ــ عصمت دندش: علاقة الأندلس بمملكة قشتاله من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥م.

ــ عطيه القوصي: صلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٢٤، سنة ١٩٧٧م.

ــ عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب ــ الرباط، المغرب، د. ت.

ــ علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربه في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ع١، سنة ٢٠٠٢م.

ــ فاروق حماده: النهضة الفقهية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع٤، سنة ١٩٩٧م.

ــ فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، من مظاهر الحركة الشعوبية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٢، سنة ١٩٨٧م .

ــ محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الإستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع١٥، سنة١٤٢١هـ.

ـ محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في ق.٥هـ، تطوان، مجلة دراسات مغاربية، مجلة البحث والبيلوجرافيا المغاربية، ع١ـ ٢، سنة ١٩٩٦م.
ـ محمد عبد الجليل: كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الإسباني التونسي، سنة ١٩٨٠م.

رابعا: الرسائل العلمية والموسوعات:

ـ خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧م.
ـ عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج٤ من النت.

خامسا: المراجع الأجنبية:

Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E socicety , Leiden , 1998— .
Ann Christys: Christian in Andlus , published in 2002 , British library —
(internet) Andlucia un pais con historia, apuntes para una Historia de Andalucia—
(internet) Andalucia para Ninas Y Ninos—
Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espange , Leyden , 1881 —
Claudio Sanchez Albomoz : La Espana muslimana Segon los autares ,Tom 1,—
Madrid , Espasa – clape , S.A , 1974 .
Simonete: Historia de Mozarabes , Amesterdam ,Oriental , Press , 1976. — , Tom x111 , Madrid , 1897 .

دور مدارس خراسان في تطور النهضة العلمية في العصر السلجوقي

(٤٢٩ - ٥٥٢ هـ / ١٠٢٧ - ١١٥٧م)

د. صلاح الدين على عاشور (*)

خراسان في التاريخ:

خراسان في الفارسية القديمة معناها " البلاد الشرقية " وكان هذا الاسم يطلق في القرون الوسطى بوجه عام على جميع الأقاليم التي تقع شرق الدولة الإسلامية[١]. وتمتد أهمية خراسان في التاريخ من الناحية السياسية بجذورها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد فارس (إيران) حيث ارتبط اسم هذه الولاية سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا عند الفرس ببلاد الشمس المشرقة المزدهرة[٢]. ويتمتع إقليم خراسان بموقع جغرافي ممتاز جعله معتدل المناخ ليس فيه مناطق شديدة الحرارة، ولا شديدة البرودة، هذا مع توافر تربة صالحة، وتجارة رائجة مما كان له أكبر الأثر في وفرة أسباب المعيشة، وإنجاب كوكبة من العلماء، والأدباء، شهد لهم بذلك المقدسي في تقاسيمه[٣]. كما وصفهم ياقوت[٤] بقوله:" هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز البليغ عن عدهم " وكانت خراسان قديما في مدلولها الواسع تضم كلاً من "بلاد ما وراء النهر"[٥] ما عدا "سجستان"[٦]، ومعها "قوهستان"[٧] في الجنوب، إلا أن

(*)أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر

(١) كانت خراسان إحدى الأقاليم المزدهرة في العصور الوسطى، وهى اليوم تشمل القسم الغربي من أفغانستان. كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٢٣، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م.

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٢ ص٣٥٠ دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٥٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧م.

(٤) معجم البلدان : ج ٢ص ٣٥٤. كي لسترانج : بلدان الخلافة، ص ٤٢٤.

(٥) ما وراء النهر: لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال، وسكان تلك المنطقة من العنصر التركي. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

حدودها في العصور الإسلامية صارت أكثر تحديدا، فأصبحت تشمل أربعة أقاليم كبرى هي : "نيسابور"[٨]، "ومرو"[٩]، و"هراة"[١٠] و"بلخ"[١١]. وبعد الفتح الإسلامي كانت عاصمة خراسان تنحصر في "مرو" ثم "بلخ"، وفي عصور الأمراء الطاهريين (٢٠٥ــ٢٩٥هـ/٨٢٠ــ٨٧٢م)[١٢] أصبحت "نيسابور" دار الإمارة الطاهرية. وفي العصر لصفاري[١٣] (٢٥٤ــ٢٩٠هـ/٨٦٧ــ٩٠٣م) كانت "خراسان" هي الصخرة التي

---

(٦) سجستان : ناحية كبيرة وولاية واسعة، واسم مدينتها "زرنج "وهي قريبة من هراة.معجم البلدان : ج ٣ص ١٩٠.

(٧) قوهستان : معناها موضع الجبال بالفارسية، وهي الجبال التي بين هراة، ونيسابور، وهي أكبر بلاد العجم، أحد أطرافها متصل بنواحي هراة. معجم البلدان : ج ٤ص ٤١٦.

(٨) نيسابور :مدينة عظيمة من أهم مدن خراسان، خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى، النسبة إليها نيسابوري. ياقوت : معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٣١.

(٩) مرو : يقال لها أيضاً "مرو الروز" و "مرو الشاهجان" وهى من أشهر مدن خراسان وقصبتها العظمى بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً وبينها وبين سرخس ثلاثون فرسخاً، والنسبة إليها مروزى ومرزوى. ياقوت : معجم البلدان ج٥، ص١١٢.

(١٠) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان قال عنها ياقوت : "لم أر بخراسان عند كونى بها في سنة (٦٠٧ هـ/١٢١١م) مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج٥، ص٣٩٦.

(١١) بلخ : من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيرا، وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان، وإلى خوارزم، ينسب إليها كثير من العلماء، والنسبة إليها بلخي. ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ص ٤٧٩.

(١٢) الطاهريون : تنسب الإمارة الطاهرية إلي "طاهر بن الحسين" الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ولم يلبث أن ولاه على إقليم خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فاتخذ من نيسابور(حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تظفر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد.ابن خاوندشاه: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ص ٤٧،٤٨. ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م ــ محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، ص ٦٨، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(١٣)الصفاريون: تنسب هذه الجماعة إلي "يعقوب بن الليث الصفار" الذي كان يعمل في صناعة الصفر(النحاس) وقد ظهرت إمارتهم في إقليم سجستان، والتي كانت في بداية أمرها تتكون من المتطوعين الذين أرادوا معاونة الخلافة العباسية ضد أعدائها من الخوارج وقطاع الطرق، ثم سيطر على حركة المتطوعة " يعقوب بن الليث الصفار " الذي

تحطمت عليها الآمال الصفارية في الاستيلاء على المشرق الإسلامي كله[١٤]، على الرغم من أن الصفاريين لم يتخذوا من خراسان مقرا لحكمهم، وفضلوا البقاء في سجستان مهد حركتهم، ومنشأ قادتهم، وبنوا سياستهم على تحويل خراسان ولاية ممولة لحكمهم في سجستان، مما أفقدها امتيازها السياسي في عصرهم[١٥]. ونتيجة لمعطيات تلك المنطقة السياسية آنذاك، كان طبيعيا أن يدخل إقليم خراسان في حوزة السامانيين[١٦] (٢٦١ـ٣٨٩هـ/٨٧٤ ـ٩٩٩م) المتطلعين إلى السيطرة والنفوذ، والذين أغرتهم إمكانات الإقليم الاقتصادية والبشرية على تثبيت سلطانهم[١٧]. ولكن الحقيقة أن خراسان بأهميتها السياسية سال عليها لعاب كثير من المغامرين الجدد في المنطقة للاستحواذ عليها، حتى أصبحت مطمعا لقوى سياسية جديدة أهمها الدولة

قويت شوكته، واستطاع أن يستولي على سجستان، ثم أخذ يتحرش بالإمارة الطاهرية، حتى تمكن من إسقاطها سنة(٢٥٩هـ/٨٧٢م). خليل السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ ـ ١٢٥٨ م)ص١١٩، طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م.

(١٤) ساءت العلاقات بين الصفاريين، والخلافة العباسية وذلك عقب استيلاء "يعقوب بن الليث الصفار" على إقليم خراسان، على الرغم من تحذير الخليفة العباسي بعدم إقدامه على هذا العمل ــ وذلك للعلاقة القوية التي كانت تربطهم بالطاهريين ــ إلا أن يعقوب استسلم لأطماعه، ولم يستمع لصوت العقل، ودخل في صراع مع الخلافة مما عجل بنهايته، ونهاية دولته من بعده. للمزيد من التفاصيل أنظر، محمود عرفة : الدول الإسلامية المستقلة، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٥) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهرين إلى بداية الغزنويين، ص ٨٥، مكتبة سعيد رأفت،ط١ ١٩٨٨ م.

(١٦)السامانيون: تنسب هذه الجماعة إلي إحدى الأسر الفارسية التي ظهرت في المشرق الإسلامي، لاسيما في عهد الخليفة المأمون، حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهم بلاد ما وراء النهر.ومن أشهر حكام هذه الأسرة "إسماعيل بن أحمد الساماني" و" نوح بن نصر" وقد ظهر في عهد هذه الأسرة العديد من العلماء الأجلاء الذين خدموا الفكر الإسلامي. النرشخي : تاريخ بخاري، ص ١١٣، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٦٥م ــ أرمنيوس فامبري : تاريخ بخاري،ص٩٣، ترجمة : أحمد محمود الساداتي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة (د.ت).

(١٧) محمد سعد السيد عزب: الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي (٤٢٩ــ ٥٥٨هـ/ ١٠٣٧ــ١١٦٢م).، ص ٥٥، ٥٦،شركة نوابغ الفكر،ط١ القاهرة ٢٠٠٩م.

الغزنوية[١٨]، التي بدأ حكامها يعملون على مد نفوذهم السياسي إلى خراسان باعتبارها من أهم الولايات السامانية[١٩]. ولما كان التغير السياسي قدرًا تاريخيا حتميا، وبخاصة في تلك المنطقة الحيوية، دخلت خراسان في حوزة الدولة السلجوقية سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) [٢٠]عقب معركة "سرخس"[٢١] الشهيرة، التي انتصر فيها الجيش السلجوقي على الغزنويين، فكان ذلك إيذانا بقيام دولتهم، حيث سار السلطان "طغرل بك" إلى نيسابور فدخلها، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي، ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدين والدنيا أبو طالب محمد، وأمر أن تضرب النقود باسمه[٢٢]. وقد بلغت خراسان أوج ازدهارها وتفوقها الثقافي في العصر السلجوقي، حيث اعتمدت الدولة السلجوقية على غنى هذا الإقليم اقتصاديا، وبشريا، مما جعل له الزعامة السياسية في منطقة المشرق الإسلامي، واستتبع ذلك زعامة ثقافية على جميع أقاليم المشرق، لاسيما بعد أن تحولت خراسان إلى مركز الثقل الثقافي بين الولايات الشرقية .

---

(١٨)الدولة الغزنوية :هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولة الإسلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلي " البتكين " كبير حجاب الأمير " عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البتكين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه وزاد طموحه حتى أصبح مقربا لرجال الدولة، مما أتاح له أن يتبوأ مناصب رفيعة في الدولة. لمزيد من التفاصيل أنظر : محمود عرفة محمود : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٩) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي، ص ٧.

(٢٠)السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعى الوفيرة، وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم " سلجوق بن دقاق " الذى جمع شملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبنائه وأحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم " طغرل بك " و " ألب أرسلان " و "ملك شاه بن ألب أرسلان" "وسنجر بن ملكشاه". الحسينى : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار إقرأ ط١ بيروت ١٩٨٥.

(٢١) سرخس: مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان وتقع في وسط الطريق بين نيسابور ومرو.ياقوت : معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨.

(٢٢) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٦٨٥،، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م ـ الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ١٥٨ ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربى وزميلاه دار القلم القاهرة ١٩٦٠م .

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام أشار إليها أحد الباحثين[٢٣]، وهي: ذلك التناقض الذي وقع فيه كثير من المؤرخين القدامى، والمحدثين، عندما اعتبروا أن نمو الحركات القومية ـ المتمثل في تجزأ العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية متعددة ـ كان نوعا من الضعف أصاب العالم الإسلامي، والذي أدى في النهاية إلى انهياره، متأثرين في ذلك بالأفكار السائدة في عصرهم، والتي كانت ترى عدم استفادة القوميات من هذا الضعف، وهم يتصورون أن التمسك بالوحدة السياسية هو العلاج الناجح للإصلاح السياسي للخلافة العباسية، بما يعتنقونه من فكر تقليدي ساد كتابات هؤلاء المؤرخين، ولم يلتزموا الحيدة التاريخية، إذ كانوا يتمنون عودة الخلافة الإسلامية إلى سابق عهدها وحدة سياسية واحدة، كما كان عليه الحال أيام الخلافة الراشدة، والدولة الأموية. ومع ذلك نجدهم يقعون في تناقض عجيب، وآية ذلك أنهم يذكرون مثلا: فضل الطاهريين، والسامانيين، والغزنويين في حماية الثغور الشرقية، وحين يتحدثون عن التفكك يذكرون أن الحركة الثقافية الإسلامية أفادت من هذا الوضع، الذي كان له مردود إيجابي من الناحية العلمية، واعتبروه نوعا من الحيوية المتدفقة التي دبت في أرجاء العالم الإسلامي، وأوجد نهضة علمية عارمة، وانعكس ذلك في ظهور مراكز علمية في:" بخاري " و " سمرقند " و " خراسان " و " أصفهان " و" القاهرة "و" القيروان " و " قرطبة " وغيرها، نافست بغداد، بل وتفوقت عليها في بعض الأحيان.

وعلى أية حال فإن الفتح السلجوقي لمنطقة خراسان لم يكن حدثا سياسيا، وحربيا فحسب، بل إن هذا الفتح قد تبلور في شكله إلى حدث علمي وثقافي واسع، فقد اختطت الحضارة الإسلامية لنفسها في بلدان المشرق جداول ظلت تتدفق في كل ركن من أركانها، فانتشرت تلك الجداول في كل من: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وأصفهان، والري، وبخارى، وسمرقند، وخوارزم، وطبرستان، وهمذان، وجرجان. فاتقدت فيها مشاعل العلم، وأنارت تلك المدن، وحملت كل واحدة مشعل الحضارة والثقافة والنور في المشرق، وأضحت مركز إشعاع للعلوم والثقافة، وموطن رحل العلماء، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة والباحثين عن المعرفة، وأخرجت تلك المدن الكثير من العلماء النابهين، التي تفيض بهم المصادر لتدون أعمالهم الجليلة في خدمة العلم والدين. والواقع أن الطبقة العليا في المجتمع السلجوقي،وكبار رجال الدولة اتخذوا من خراسان مقرا لإقامتهم، فيذكر الراوندي[٢٤] أن قصور السلطان سنجر كانت بمدينة "مرو"، وبجوارها قصور أمراء السلاجقة،

---

(٢٣) حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٠٢ دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٢٤) راحة الصدور : ص ٢٦٠.

وكانت في غاية من الروعة والفخامة والإبداع. بيد أن النهضة العلمية في المشرق الإسلامي (إيران) اقترنت إلى حد كبير بأسماء العديد من المدن التي قامت بدور بارز في إنعاش الحياة العلمية، وخاصة في العصر السلجوقي، وكان طبيعيا ألا تصل الحياة العلمية إلى هذا الطور من التقدم إلا بفضل تشجيع السلاجقة، واهتمامهم بتلك المراكز العلمية وتقديرهم لرجالها.

هذه إطلالة سريعة على إقليم خراسان وملامحه السياسية والجغرافية عبر التاريخ، لأن البيئة في أي مجتمع تشكل ـ كما هو معروف ـ حياة البشر الذين يعيشون في هذا المجتمع، وتؤثر دائما على تفوقهم الذهني والفكري، فالإنسان دائما ابن بيئته، ولذلك لا نعجب إذا رأينا أن خراسان بثقلها السياسي والثقافي، كانت تهفو إليها نفوس الطلاب والعلماء من شتى بقاع الأرض على اختلاف تخصصاتهم. ومن المسلم به، في العصر الإسلامي، أنه كان لا ينبغ أحد في علم من العلوم إلا إذا كان متمكنا في علوم شتى، ذلك لشدة الارتباط بين العلوم آنذاك، ولم يكن للتخصص الذي ساد بعد ذلك مكان، بل إن الطابع الموسوعي هو الذي كان سائدا.

النهضة الثقافية في إقليم خراسان

استأثرت خراسان باهتمام السلاجقة منذ أن وطئت أقدامهم هذا الإقليم، انطلاقا من عدة معطيات وضعت هذا الإقليم على مستوى التكافؤ مع المشرق كله، إذ تعود أهميته إلى طابعه المركزي، فهو يشكل قلب المشرق، ولحمته وسداه، نظرا لأهميته الاستراتيجية، والاقتصادية، فإقليم خراسان دائما كان نواة لدول أهلها أن تلعب دورا مهما في المنطقة، كما كان الإقليم متاخما لمناطق حضارية عريقة مثل: "خوارزم"، و"بلاد ما وراء النهر" و"أصفهان" و"طبرستان" مما جعله مفتاح النهضة الثقافية للمشرق، وسر قوته، ونهوضه.

وكان طبيعيا أن يعمد السلاجقة إلى اغتنام الفرصة، في تلك التربة الطيبة، التي زخرت بالعلماء والأدباء على مر العصور، لاسيما أنهم ورثة نهضة علمية زاهرة في هذا الإقليم، فكان للتشجيع المادي والأدبي الذي قدمه السلاجقة لهؤلاء العلماء أثر كبير في ازدهار الثقافة في خراسان، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على العلماء، ويقيمون الندوات العلمية والأدبية، والمباريات الشعرية، ويمنحون الجوائز للمبرزين.

كما يمكننا أن نعزو النهضة الثقافية التي عمت إقليم خراسان، في العصر السلجوقي، إلى تعاقب الثقافات المختلفة عليه، بتعاقب الدول من: صفاريين وسامانيين وبويهيين، والذين أغرموا بالثقافة ونشر العلوم، فكان تنوع الثقافات في هذا الإقليم من الأسباب المهمة في وجود حياة علمية وأدبية عالية. كل هذا كان أساسا صالحا بنى عليه صرح النهضة الفكرية والعلمية الشاملة في العصر السلجوقي. ولقد تأثرت النهضة العلمية في خراسان بالعناصر المكونة للأمة الإسلامية والأجناس الداخلة تحت

سلطان الدولة من: فرس وترك وعرب والأقليات الأخرى، حيث قدم كل جنس من هؤلاء ذخائر ما لديه من علوم وفنون، لبناء الصرح الثقافي الإسلامي، مما جعل جغرافيا كالمقدسي [٢٥] يصف الإقليم بقوله: "هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلّة وعلماء، ومعدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام وحصنة الأعظم" ويصفه في موضع آخر بقوله: "فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك" [٢٦]. والواقع أن العصر السلجوقي هو العصر الذي انصهرت في بوتقته جميع التيارات والثقافات الإسلامية، مستفيدًا من التراث العلمي الهائل، الذي خلفه علماء العرب والمسلمين في شتى الآداب والفنون، فتفجرت ينابيع الثقافة في العلوم العربية والعقلية وأثمرت تلك العلوم والفنون بفضل تعهد السلاطين والخلفاء لها بالرعاية، فقد أقاموا المساجد والمدارس ودور العلم والمكتبات، وجعلوا منها مجامع علمية تدور فيها المناقشات والمطارحات، حتى أصبح التهافت على نيل العلم واحتواء المعرفة ظاهرة ملموسة في ذلك العصر، واحتشد فيه طائفة من أجل العلماء والأدباء والفقهاء، طبقت شهرتهم الآفاق، وامتازوا بسعة الأفق، وضخامة الإنتاج، وخلفوا لنا ثروة علمية وأدبية في مختلف فروع العلوم الإسلامية والإنسانية.

ازدهار الحركة المدرسية بخراسان في العصر السلجوقي

ازدهرت الحركة المدرسية في العصر السلجوقي ازدهارا ملحوظا، وأصبحت خراسان محوراً لنشاط علمي واسع، ويرجع ذلك إلى ولع سلاطين السلاجقة بالعلم وأهله، محاكين في ذلك البويهيين وحبهم للعلم والعلماء، إذ أحاط السلاجقة أنفسهم بالعلماء والأدباء والشعراء من العرب والفرس، كان لهم نصيب من عنايتهم وتشجيعهم، وكان لحب سلاطين السلاجقة للعلم أبعد الأثر في اختلاط الإيرانيين بالعراقيين، وامتزاج حضارة كل من البلدين، فأصبحا يمثلان صورة صادقة للحضارة الإسلامية.

فقد كان السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م) على ما وصفه المؤرخون [٢٧] مسلما يحب أهل السنة ويميل إليهم، ويحرص على أداء الفرائض والتقرب إلى أئمة الدين، ويبني المساجد، ويقول: "أستحي من الله تعالى أن

---

(٢٥) أحسن التقاسيم: ص٢١٢

(٢٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢١٢

(٢٧) العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق. ص ٢٨ (اختصار الفتح بن علي البنداري). دار الآفاق الجديدة. ط٣. بيروت ١٩٨٠م.

أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً"، كما كان شديد التقرب إلى العلماء مكرماً إياهم [٢٨].

وعلى الرغم من أن السلاجقة أتراك، وكان من المنتظر أن تروج اللغة التركية في عهدهم، لأنهم أصحاب السيادة والسلطان، إلا أنه حدث عكس ذلك، حيث راجت اللغة والثقافة العربية وكذلك الفارسية في ذلك العصر، وأصبحتا لغتي الكتابة والأدب، ويرجع ذلك إلى اتخاذ السلاجقة مدنا فارسية عواصم لهم أقاموا فيها [٢٩]. ويمتاز عصر السلطان سنجر بن ملكشاه (٥١١ـ٥٥٢هـ/١١١٧ـ١١٥٧م) ـ الذي اتخذ من مدينة مرو عاصمة لمملكته ـ من الناحية العلمية والأدبية بكثير من البهاء، إذ يعتبر عصره من العصور الهامة في تاريخ الثقافة في الدولة السلجوقية، ويتجلى ذلك في سياسته الرامية إلى توفير كل الرعاية للعلماء والأدباء والشعراء، فزخر بلاطه بكثير منهم، تركوا تراثا ضخما من المصنفات في كل علم وفن.

والواقع أنه، في عصر السلطان سنجر أصبحت اللغة الفارسية هي لغة الكتابة والأدب، فقد زاحمت الفارسية العربية، وخاصة في مدن خراسان وما وراء النهر، التي تعد من أهم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي إبان ذلك العصر، وبرز كثير من العلماء في شتى فروع المعرفة، يثرون الحياة العلمية بتراثهم، بفضل اهتمام وتشجيع السلطان سنجر لهم، وأصبح التأليف بالفارسية والعربية معا، سمة من سمات ذلك العصر، وصارت خراسان في عصره مقصد كثير من العلماء، ومنهلا للعلوم والمعرفة [٣٠]. كما أصبحت مدن خراسان في عهد سنجر من أكبر مراكز الثقافة، وذات كيان ثقافي مستقل، وغدت تتمتع باستقلال سياسي، لذلك نلحظ تغلب الفارسية على العربية،

---

(٢٨) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٨ ص١١٦، دائرة المعارف العثمانية ط١ حيد أباد ١٣٥٣هـ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج٨ ص ٣٩. دار الفكر. بيروت، ١٩٧٨م.

(٢٩) اتخذ سلاطين السلاجقة حواضر خاصة بهم في بلاد المشرق الخاضعة لسلطانهم ولم يتخذوا من بغداد مقرا لإقامتهم كما فعل البويهيون لكنهم أرسلوا نوابا لهم ليراقبوا نشاط الخلفاء العباسيين ووزرائهم، وصاروا يصرفون شؤون الحكم من عاصمتهم فاتخذ طغرل بك أول سلاطين السلاجقة في أول الأمر مدينة "الري" لتكون حاضرة ملكه ثم جعل "نيسابور" واتخذ ألب أرسلان مدينة "مرو" واتخذ ملكشاه مدينة "أصفهان" التي كانت أحب المدن إليه بينما اتخذ السلطان سنجر مدينة "مرو" عاصمة لدولته، ومنذ أن تولى السلطان محمد بن محمود أصبحت "همذان" عاصمة للسلاجقة إلى آخر أيامهم. محمود إدريس: رسوم السلاجقة ص٤٥.

(٣٠) محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقي ص١٢٤، المطبعة التجارة الحديثة،القاهرة ١٩٨٨م.

إذ اهتم بالفارسية سائر أفراد المجتمع، وظهرت مصنفات كثيرة في العلوم الدينية واللغوية، وتم خلال عصره تأليف عدد من أمهات الكتب العربية والفارسية، ومن أشهر المؤلفات الفارسية كتاب: "ذخيرة خوارزمشاهي" وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألفه زين الدين أبو إبراهيم الجرجاني المتوفى سنة (٥٣١هـ/١١٣٦م)(٣١) ومقامات القاضي حميد الدين أبي بكر البلخي المتوفي سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م)، (٣٢) وكتاب "جهار مقالة" أو "المقالات الأربع" التي ألفها نظامي عروضي السمرقندي المتوفي سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) وهو من أقدم الكتب الفارسية التي عالجت جوانب الحياة الأدبية والعلمية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري(٣٣).

كذلك زخر عهد سنجر بكثير من الأدباء والشعراء بفضل تشجيعه لهم، ودعوتهم إلى بلاطه، وجعلهم من جلسائه، إلى درجة أنه يمكن تعداد أكثر من خمسين شاعرا منهم، غير الوزراء، والأمراء، والأطباء، ومن أشهرهم: "معزى" (٣٤) الذي لقب بالأمير معزى، ويعد من أحسن شعراء الفرس وأجلهم إنشاداً، وقد بلغ من تقدير السلطان سنجر للمعزى أنه كان يناديه بأبيه، ويملأ فمه بالجواهر حين يستحسن أشعاره، ومنحه لقب أمير الشعراء (٣٥).

وقد خدم وزراء السلاجقة الحياة العلمية خدمات جليلة ويرجع الفضل في ذلك إلى سلاطينهم الذين كانوا لا يستوزرون إلا من بلغ مرتبة عالية من الثقافة والمعرفة، وخير دليل على ذلك أن السلطان طغرل بك – أول سلطان سلجوقي – عندما أراد أن يتخذ وزيرا، حرص على أن يكون من رجال العلم والأدب، وأن يكون متقنا للغتين العربية والفارسية، فلما علم أن عميد الملك الكندري على دراية بهما ؛ استدعاه وولاه

---

(٣١)العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص ١٦٦، ترجمة : عبد الوهاب عزام ويحيي الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١ القاهرة ١٩٤٩ م.

(٣٢)السابق: جهار مقالة، ص ٩٩.

(٣٣) براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ص ٤٢٥، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي. مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤م.

(٣٤) معزى: هو محمد بن عبد الملك البرهاني المعروف بمعزى النيسابوري من مشاهير شعراء عصره امتدح السلطان ملكشاه والسلطان سنجر ووزرائهما ولكن نهاية المعزى كانت حزينة فقد قتله سهم انفلت خطأ من قوس سنجر عندما كان يقوم بالرماية وذلك سنة ٥٤٢هـ.رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ص٨٩.

(٣٥) محمد غنيمي هلال: مختارات من الشعر الفارسي ص ١٤٧، ١٤٨.

وزارته. وكان الكندري معروفاً بالذكاء والفراسة، ومشهوراً بالفضل والكياسة، وكانت له أياد بيضاء في الكتابة والفصاحة[٣٦].

وكان مجلس الوزير نظام الملك [٣٧] عامرا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الدين والتدين، حتى كانوا يشغلونه عن أمور الدولة وأعمالها، فقال له بعض خاصته: هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلا ونهارا، فقال: "هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلست كلا منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك[٣٨].

وتعد المدارس النظامية، التي أسسها الوزير نظام الملك في خراسان، من أول المدارس العلمية المنظمة في الإسلام، بل وذهب البعض[٣٩] إلى أن التعليم الجامعي بأسلوبه الذي نعهده اليوم، عرفته إيران منذ القرن الخامس الهجري، فكانت صاحبة ابتكار هذا النوع من الدراسة، الذي نقله عنها الأوربيون بعد ذلك. ويصف العماد الأصفهاني[٤٠] نظام الملك، فيقول: "ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكره، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله، ويحيي به حقه، ويميت باطله". وقد أقام الوزير نظام الملك الكثير من المؤسسات العلمية في سائر أقطار وأطراف البلاد في فارس والعراق وخراسان، وأوقف على هذه المؤسسات مزارع وضياعاً عامرة[٤١]

---

(٣٦) خواندمير: دستور الوزراء، ص١٣٨، ترجمة : د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م ـ الراوندي: راحة الصدور ص ١٨٦، ١٨٧

(٣٧) نظام الملك: هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) بقرية من نواحي طوس عمل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان فلما أفل نجمهم انتقل إلى خدمة السلاجقة الذين ورثوا الغزنويين بخراسان ثم لم يلبث أن اتخذه ألب أرسلان وزيرا له فلما قتل ألب أرسلان عام (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) اتخذ ملكشاه بن ألب أرسلان وزيرا له إلى أن قتل عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) على يد أتباع الحسن الصباح.ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٤. الحسيني: الزبدة، ص١٤٠-١٤٥.

(٣٨) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٥ ـ خواندمير: دستور الوزراء ص٢٤٨.

(٣٩) صادق نشأت: صفحات عن إيران ص ١٤٢، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٠م.

(٤٠) آل سلجوق: ص٥٩.

(٤١) يحيى الخشاب: نظام الملك المدارس النظامية، ص ٥٥٦، ٥٦٧، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥م.

ولا شك أنها أصبحت كما تقول الآية الكريمة: {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} [٤٢].

وتفوق على جميع العظماء والفضلاء، وأهل الدولة والسلطان مدة ثلاثين عاما، خلال سلطنة السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، لجمعه لأسباب الفضل والرفعة، وأدوات العلم والمعرفة، وظلت مدارسه تؤدي دورها العلمي والثقافي، وخدمة المعرفة، حتى بعد انقضاء العصر السلجوقي[٤٣]. ويذكر عن نظام الملك أنه كان كثير الإحسان على أهل العلم، حتى إنه رتب رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام، بحيث كان رزقه يجرى على اثني عشر ألف عالم من فقيه وغيره[٤٤]، كما كان يحوط العلماء برعايته وتأييده، فيذكر المؤرخون [٤٥] "إنه كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري[٤٦]وأبو المعالي الجويني[٤٧] يقوم ويجلسهما، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي قام وأجلسه مكانه وجلس بين يديه". وتذكر الروايات[٤٨]أن تاج الملك أبا الغنائم، صاحب خزانة السلطان ملكشاه، نقم على الوزير نظام الملك، فوشى به عند

---

(٤٢) سورة الرعد: آية ١٧.

(٤٣)خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٤٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٦، ٦٧.

(٤٤)ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١. مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨م.

(٤٥)ابن الجوزي: المنتظم ج٩، ص٦٦، السبكي: طبقات الشافعية ج٣، ص١٣٧.

(٤٦)أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري القشيري الفقيه الشافعي شيخ خراسان في عصره كان علامة في الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف وكان ثقة حسن الوعظ وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التيسير في علم التفسير" وتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م). ابن الجوزي: المنتظم، ج٨ ص٢٨٠.ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص٢٧٤.

(٤٧) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها وحضر دروسه الأكابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م).
ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص ٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعي ج٣، ص ٢٤٩.

(٤٨) الحسيني: زبدة التواريخ ص ١٤١، ١٤٢.

السلطان قائلا: "إنه ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جيش بها جيشا لطعن باب القسطنطينية". فاستحضر السلطان ملكشاه نظام الملك وعاتبه، وطلب منه أن يبرر تصرفاته، فأجابه: "إنك تنفق على الجيوش المحاربة كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلا، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشا تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله"، فبكى السلطان وقال له: "استكثر من هذا الجيش والأموال مبذولة لك، والدنيا بين يديك"[٤٩]. وقد تضمنت كتب التراجم والتاريخ، والأدب والطبقات، معلومات مفصلة عن العلماء الذين اختصهم نظام الملك برعايته، واستعان بهم في تولي مهنة التدريس في مدارس النظامية، منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي أكبر فقهاء الإسلام في عصره.

وكان نظام الملك أينما وجد عالما متميزا، يتبوأ منزلة مرموقة بين العلماء، بنى له مدرسة، وأوكل إليه التدريس بها، والقيام على شؤونها. فيذكر ابن الأثير[٥٠] أن العالم الجليل أبا بكر بن ثابت الخجندي[٥١] سمعه نظام الملك وهو يعظ بمرو، فأعجب به وعرف محله من الفقه والعلم، فحمله إلى أصفهان، وعينه مدرسا بمدرستها النظامية فنال جاها عريضا، كما اهتم نظام الملك بأبي المظفر السمعاني[٥٢] ورفع من قدره، وأناط به مهمة التدريس بمدرسته النظامية بمرو، ووكل له جميع شئونها [٥٣]، كما أن نظامية نيسابور قد بنيت برسم إمام الحرمين أبي المعالي

([٤٩]) السابق: زبدة التواريخ ص١٤٢.

([٥٠]) الكامل في التاريخ ج٨ ص٢١٩

([٥١]) أبو بكر الخجندي: محمد بن ثابت بن علي أبو بكر الخجندي نزيل أصفهان وأصل بيت الخجندي من مدينة خجندة بما وراء النهر، وهو إمام غزير الفضل، حسن السيرة، تفقه فبرع في الفقه حتى صار من جملة رؤساء الأئمة وتخرج به وبكلامه جماعة من أهل العلم وانتشر علمه في الآفاق، وولاه نظام الملك مدرسته التي بناها بأصفهان وتوفي سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م). الصيريفيني:المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور،ص٦٨، ٦٩.

([٥٢]) أبو المظفر السمعاني: نصور بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله التميمي الإمام الجليل العالم الزاهد أحد أئمة الدين أبو المظفر بن الإمام أبي منصور المعروف بالسمعاني كان الإمام أبو منصور من أئمة الحنفية ثم صار إلى مذهب الشافعي،وكان إمام عصره بلا مدافعة وصار إمام الشافعية بعد ذلك يدرس ويفتي ويصنف في مذهب الشافعي،وتوفي سنة(٤٨٩هـ/١٠٩٥م).اللكنوي:الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٧٣،تحقيق السيد محمد بدر الدين مطبعة السعادة،ط١ القاهرة ١٣٢هـ

([٥٣]) اللكنوي: الفوائد البهية في تارجم الحنفية ص١٧٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢.

الجويني، الذي ظل يدرس بها ثلاثين سنة إلى حين وفاته [٥٤]. وكان الوزير نظام الملك على الجملة يحوط هؤلاء العلماء برعايته، ويمده بتأييده، حتى تبوؤا منزلة رفيعة في البلاد التي حلوا بها، وأصبح يشار إليهم بالبنان.

وقد تمكن نظام الملك أن يجذب إلى جانبه عطف وتأييد أعلام العلماء في جميع المراكز المهمة، التي امتد إليها سلطان السلاجقة فتحول كبار العلماء إلى مدرسين في مختلف المدن، حتى راجت سوق العلم في أيامه، وظل العلماء في عهده مرفوعي الهامة.

وثمة حقيقة تاريخية ظاهرة وجدت في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وهي: أنه قبل ظهور السلاجقة كان يسود جو من التعقيد الذي أثر على الفكر الديني، وبخاصة في منطقة خراسان التي ظهرت فيها قوى متصارعة، ومتناقضة فيما بينها من أجل البقاء، أو السيطرة، وبرزت مشاعر الشك والريبة المتبادلة بين المذاهب الدينية، مما سبب تنافرها، وحال دون تآلفها وتفاهمها [٥٥].

كان المذهب الشيعي قد انتصر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقامت دولتان شيعيتان كبيرتان في طرفي العالم الإسلامي الشرقي والغربي، أصبحت السيادة والسلطان لهما، فالدولة الفاطمية في الغرب، وتضم إليها بلاد المغرب ومصر واليمن والحجاز والشام، والدولة البويهية في الشرق، ولها السيادة على إيران والعراق قلب الدولة الإسلامية نفسها.

ولم يلبث أن حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد، بعد أن ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي ألا وهي: " الدولة السلجوقية "، والتي كان هدفها الرئيس القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان جل اهتمام سلاطينها المحافظة على المذهب السني وذيوعه، ويرون ضرورة التخلص من كل الحركات المناوئة له في العالم الإسلامي، وإعادة هيبة الخلافة الإسلامية من جديد على أساس متين.

ويلاحظ أنه حين ظهر السلاجقة ؛ كان المذهب السني مضيقا عليه، سواء في داخل الدولة العباسية أو في خارجها، ففي الداخل كان يسيطر على الحكم "بنو بويه"

---

(٥٤) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص٢٧٨، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج٣ ص٣٥٨.

(٥٥) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق (٤٢٩-٥٩٠هـ/ ١٠٣٨-١١٩٤) ص ٢٣، دار النفائس ط ١ بيروت ٢٠١٠ م.

الشيعة، الذين ظلوا جاثمين على صدر الخلافة العباسية ما يزيد على قرن من الزمان، أما في الخارج فكانت مصر والشام والحجاز والمغرب واليمن بحكمها الفاطميون، الذين لم يكتفوا باتخاذ التشيع مذهبا رسميا داخل دولتهم، بل عملوا على بث دعاتهم في سائر أنحاء الدولة العباسية، لاسيما في المشرق الإسلامي، من أجل القضاء على دولة السلاجقة (٥٦).

وكان السلاجقة متحمسين للمذهب السني، فتصدوا للدفاع عنه خاصة، وعن الإسلام عامة، وعملوا على تحقيق ذلك بشتى الوسائل، سواء بالقوة العسكرية، أم بالتعليم ونشر المعرفة. والواقع أن العصر السلجوقي يمثل، من الناحية العلمية، ثورة الفكر السني ضد تيارات الفكر الشيعي، والتصدي لها بقوة، حتى خفت صوت الشيعة، وأصبح أمرهم إلى زوال.

كما كان للعلماء المنتمين إلى المذاهب الأربعة دور عظيم في تنشيط الحركة الفكرية، في إقليم خراسان في العصر السلجوقي تمثل في: إنشاء العديد من المدارس الشافعية، والحنفية، والحنبلية، فكان لكل مذهب مدارسه المعروفة. وكان رجال الأمة، الحريصون على مصالح الإسلام، جادين في العمل على دعم النشاط العلمي والثقافي، وإشاعة العلوم الشرعية، وتبني استخدام المنطق والجدل وعلم الكلام للدفاع عن عقيدة أهل السلف. وقد أدي ذلك كله إلي انتعاش علمي هائل تمثل فيما ظهر من مؤلفات علمية مختلفة للدفاع عن العقيدة، وشرح أصولها، وأكبر دليل على ذلك تلك المؤلفات الضخمة لتي خلفها علماء المذاهب المختلفة (٥٧).

وكانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجرى قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما: الحنفية، والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلاجقة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسي، الذي بني عدة مدارس عرفت بالنظاميات في

---

(٥٦) قام الفاطميون بمحاولات واسعة لبث الدعوة إلى مذهبهم، وبدأ نشاطهم واضحا في المشرق، وبخاصة منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى "الرودكي" شاعر البلاط الساماني يتغنى بالمذهب الفاطمي، ويعلن صراحة تامة محبته، وإخلاصه، للخلفاء الفاطميين الشيعيين. ولم يلبث أن فشا المذهب في خراسان حتى كان يعتنقه الأمير "نصر بن أحمد الساماني" المتوفي سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م) فغضب عليه علماء السنة هناك، وأفتوا بتكفيره، وحثوا الجند على أن ينفضوا من حوله، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يقبلوا حكاما يجهرون بتشيعهم، أو يدعون إلى التشيع، حتى أجبروه على التخلي عن العرش. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص١٠٤، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: تاريخ المذهب السني ص١٠٢.

(٥٧) محمد سعد عزب: الحياة الفكرية في إقليم خراسان، ص ٩٦.

جميع أنحاء خراسان، في نيسابور، ومرو، وهراة وبلخ. وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وقفاً على المذهب الشافعي[٥٨].

وقد عمل نظام الملك ـ في السنوات العشر التي وزر فيها لألب أرسلان، والعشرين سنة التي عمل فيها مع ملكشاه ـ على جعل المذهب السني مذهبا عاما للمسلمين، عن طريق إنشاء المؤسسات التعليمية في جميع أرجاء السلطنة، كي تعمل على نشر العلم، ومحاربة الفكر الشيعي حربا لا هوادة فيها، وإقامة الوحدة على أساس متين، وجعل المدارس النظامية ـ التي جد في إنشائها ـ تضاهي أزهر الفاطميين، وتقوم بنشر الدعوة للمذهب السني، ردًا على تحدي الدعوة الفاطمية المنظمة [٥٩].كان الحدث العلمي الكبير في عهد السلاجقة، هو: تأسيس المدارس النظامية، ويذكر القزويني[٦٠]: أن إنشاء نظام الملك لهذه المدارس كان بتكليف من السلطان "ألب أرسلان"، فقد دخل يوما مدينة نيسابور، فرأى جمعًا من الفقهاء وطلاب العلم على باب أحد المساجد، وهم في ثياب رثة، فلم يلتفتوا إليه عندما مر بهم، فسأل وزيره عن ذلك، فقال: "هؤلاء طلبة العلم، وهم أشرف الناس نفسًا، ولا حظ لهم من الدنيا، ويشهد زيهم على فقرهم" فلان قلب السلطان لهم، فاستأذنه نظام الملك في بناء أماكن لهم، ليمارسوا بها العلم، وإجراء الأرزاق عليهم، ليتفرغوا لطلب المعرفة [٦١].

ولم يلبث أن أقام الوزير نظام الملك عدداً كبيراً من المدارس، وبخاصة في خراسان، نظرا لأهميتها السياسية، والعلمية، والدينية، وألحق بها مكتبات نفيسة، لينتفع بها الطلبة والعلماء في تحصيل العلم والمعرفة [٦٢].

والواقع أن المدارس التي أنشأها نظام الملك، لم تكن هي بداية ظهور المدارس في العالم الإسلامي، ولم تكن من مستحدثات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بل كانت من منشآت القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأن نيسابور كانت مهدًا للمعاهد العلمية، وأن أول مدرسة بنيت بها كانت لأبي إسحاق الإسفراييني[٦٣].

---

(٥٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢١١.

(٥٩) يحيى الخشاب: نظام الملك والمدارس النظامية ص٥٥٧.

(٦٠) آثار البلاد: ص ٤١٢.

(٦١) محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠.

(٦٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٤، السبكي: طبقات الشافعية، ج٣ ص١٣٧.

(٦٣) أبو إسحاق الإسفراييني: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران بن الإسفراييني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له أهل العراق وخراسان بالعلم والفضل، وله التصانيف الجليلة، واختلف

وكذلك المدرسة البيهقية للإمام البيهقي[٦٤] المتوفي سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، بل وتشير بعض النصوص التاريخية إلى أن المدارس في الإسلام أنشئت منذ وقت مبكر، يدل على ذلك ما ذكره ياقوت [٦٥] عند حديثه عن ابن حبان البستي[٦٦] المتوفي سنة (٣٥٤هـ/٩٦٥م) إذ قال: "أبو حاتم بن حبان وداره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي مسلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجه منها" وجاء في بعض المصادر [٦٧]: "إن أبا بكر الحسن بن فورك الأصفهاني [٦٨] المتوفي سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م) أقام بالعراق مدة يدرس العلم، ثم توجه إلى الري، فراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه إليهم، ففعل وورد نيسابور، فبنى له فيها مدرسة ودارا وأحيا الله به أنواعا من العلوم". وعلى هذا لم تكن النظاميات أول ما أنشئ من المدارس، ولكن يمكن أن توصف بأنها أول مؤسسات تعليمية تدخلت الدولة في تحديد أهدافها، ودراسة مناهجها، واختيار طلابها وأساتذتها، والقيام بالإنفاق عليها، وإمداد طلابها بجميع ما يحتاجون إليه من مرتبات وأرزاق شهرية، فضلا عن الحبر والورق اللازمين للحركة التعليمية.

وكانت هذه النظاميات من المدارس المستقلة عن المساجد، أي أنها لم تكن تابعة لها، ولكن كان ملحقا بكل مدرسة منها مسجد، تؤدى فيه الفرائض والشعائر الدينية [٦٩].

إلى مجلسيه أبو القاسم القشيري والحافظ البيهقي وتوفي الإسفراييني سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م).ابن خلكان:وفيات الأعيان ج١ ص٢٨،ابن كثير:البداية والنهاية ج١٢،ص٢٤.

(٦٤) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمانه، وفرد أقرانه في الفنون رحل كثيراً وحصل علما واسعا بالحديث وطلب إلى نيسابور لتدريس فقه الشافعي.ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٧٥، ٧٦، ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٦٥.

(٦٥) معجم البلدان: ج١ ص٤١٧، ٤١٨.

(٦٦) ابن حبان البستي: أبو محمد بن أحمد بن حبان البستي كان من فقهاء الذين عالما بالطب والنجوم وفنون العلم واللغة والفقه والحديث وألف كتاب "المسند الصحيح". ياقوت: معجم البلدان ج١ص٤١٧، ٤١٨.

(٦٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤ ص٢٧٢، ابن الأثير: اللباب، ج٢ ص٢٤٢.

(٦٨) ابن فورك الأصفهاني: الأستاذ أبو بكر محمد بن بن فورك المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصفهاني، كان أحد أوعية العلم وبلغت مصنفاته قريبا من مائة. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٧٢.

(٦٩) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص١٢، مطبعة الإرشاد ط١ بغداد ١٩٧٣.

وكان التعليم في هذه المدارس قائماً على تلقي العلوم الدينية واللغوية، ونشر الفقه الشافعي على وجه خاص، إذ كان من الشروط الواجب توافرها في الملتحق بهذه المدارس، أن يكون شافعياً أصلاً وفرعاً [٧٠] ثم أخذت هذه المدارس تتوسع يوما بعد يوم في إدخال موضوعات جديدة. ولم يبخل نظام الملك بتوفير الإمكانات المادية، التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها العلمية على أكمل وجه، ولذا نراه ينفق عليها بسخاء، ويخصص لها الأوقاف للإنفاق على عمارتها ودور كتبها، فيذكر ابن الجوزي[٧١] أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعًا وأملاكاً كثيرة، بينما يذكر المافروخي [٧٢] أن نظامية أصفهان قدرت نفقاتها وقيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، كما كان لنظامية نيسابور أوقاف عظيمة للإنفاق عليها.

واستقدم السلاجقة لهذه المدارس خيرة العلماء والفقهاء والأدباء في مختلف فروع العلم، وأغدقوا عليهم المال والعطايا، ونقلوا إليها الكثير من الكتب ليستعين بها طلاب العلم، وشجعوا الطلاب من البلاد الإسلامية الأخرى للالتحاق بها، والعلماء للتدريس لطلابها، إذ كان يقوم بالتدريس في هذه المدارس نخبة من مشهوري العلماء المشهود لهم بالعلم والمعرفة وبعضهم كان له من الصيت والشهرة ما يدفع بعض طالبي العلم من البلاد المختلفة لتحمل المشاق للحضور إلى هذه المدارس، للتزود بالعلم على أيدي هؤلاء العلماء، فكان لهم تلامذتهم ومريدوهم، الذين يفدون خاصة لتلقي العلم منهم، والتتلمذ على أيديهم.

وقد أجمعت المصادر على وصف رجال هذه المدارس ــ والذين تعاقبوا على منصب التدريس بها ــ بالفضل والعلم والتقوى، والقدرة على التأليف والإنتاج العلمي، فأبو إسحاق الشيرازي[٧٣] -مدرس نظامية بغداد- عندهم إمام وقته، فاق أهل زمانه بالعلم والزهد، وأكثر علماء الأمصار من تلامذته، ومحاسنه أكثر من أن تحصر[٧٤]. وأما أبو بكر الشاشي – مدرس نظامية بغداد أيضا- فتصفه المصادر بأنه فخر الإسلام، يضرب المثل باسمه [٧٥].

---

(٧٠) خواندمير: دستور الوزراء ص٢٥٣، ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٦.

(٧١) المنتظم: ج٨ص ٢٥٦.

(٧٢) محاسن أصفهان: ص١٠٤.

(٧٣) أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الملقب جمال الدين ضرب به المثل في الفصاحة والمناظرة وكانت الطلبة ترحل إليه من المشرق والمغرب وصنف التصانيف المفيدة منها "المهذب" و"اللمع" و"التنبيه" وغير ذلك وتوفي سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص٣٠

(٧٤) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٧.

(٧٥) السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٥٧.

وأما حجة الإسلام الغزالي – مدرس نظامية نيسابور – فيصفه ابن خلكان [٧٦] بقوله: "لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله"، بينما يصفون الجويني – مدرس نظامية نيسابور أيضا – بأنه أعلم المتأخرين على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه [٧٧] والسمعاني مدرس نظامية مرو إمام عصره بلا مدافعة [٧٨] في حين يصفون الخجندي – مدرس نظامية أصفهان – بأنه من جملة رؤساء الأئمة، ومن الذين انتشر علمهم في الآفاق [٧٩].

وهذا خير دليل على المستوى العلمي للمدارس النظامية، وتفوق علماء العصر وأساتذة الجيل بين علماء المسلمين، ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس.

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود إلى رواج سوق العلم، فأقبل الجميع على طلبه حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ثلاثمئة طالب، كانوا يتلقون العلم على الإمام الغزالي[٨٠] أما في نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم أربعمائة طالب من الأئمة والطلبة، فقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، حتى قصده الكثيرون من جميع البلدان، يطلبون العلم على يديه [٨١].

وكان تأسيس المدارس النظامية رائعًا، والدافع الذي قامت عليه دافعًا قويًا لإيجاد غيرها من المدارس في خراسان، إذ أصبح إنشاء المدارس وإقامة دور العلم والمكتبات ظاهرة طيبة،شملت جميع أفراد المجتمع من مختلف الطبقات.

ووجدت إلى جانب النظاميات عشرات المدارس التي يؤمها أفاضل العلماء وأجلهم، وكان المؤسسون يبغون الثواب، أو خدمة مذهبهم، أو منافسة معارضيهم. ومنذ ذلك الوقت ونتيجة لهذا الاهتمام، ارتبطت رسالة العلم بتلك المدارس، التي أصبحت من المنارات العلمية الكبرى، وسمة ظاهرة من سمات العصر السلجوقي. ولا ريب أن السلاجقة، ببنائهم هذا الكم الهائل من المدارس العلمية والفقهية، تمكنوا من إرساء قواعد النشاط الثقافي في بلادهم على أسس منظمة، إذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافية لتخريج واستقبال المدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها. وحسبنا أن نقول: إن إقليم خراسان، وإن كان أعجمياً، إلا أنه خرّج مئات العلماء

---

(٧٦) وفيات الأعيان ج٤ ص٢١٦، ٢١٧، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص٢٥٥.

(٧٧) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص ٢٧٨، ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ج١ ص٨٥.

(٧٨) اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص ١٧٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢.

(٧٩) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٥٠، ابن الأثير: الكامل، ج٨ ص٢١٩.

(٨٠) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٥٥، السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص١٠٣، ١٠٤.

(٨١) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص ٢٧٨.

والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، والأدباء، الذين كان لهم أثر كبير في الدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي، وخلفوا لنا أنهارا من الكتب القيمة. ومن الجدير بالإشارة أن أكثر علماء خراسان – خاصة في العصر السلجوقي- لم يقتصروا على فن واحد من فنون العلم والمعرفة، وإنما كانوا شعراء وكتاباً ثم فقهاء ومحدثين وفلاسفة، وقد حاز بعضهم قصب السبق في العلوم الدينية واللغوية، حتى ظهرت بعض الشخصيات التي أسهمت في كثير من ميادين الحياة العلمية، بل وفرضت نفسها على النتاج العلمي بشتى ميادينه، ويتجسد هذا في المؤلفات الضخمة والأسفار الزاخرة في شتى ميادين الفن والعلم التي ظهرت في هذا العصر، حتى يمكن القول: إن العصر السلجوقي كان من العصور التي وصلت فيها الحياة العلمية إلى قمة ازدهارها وتقدمها، فضلا عما امتاز به هذا العصر من كثرة المؤسسات العلمية في كل ركن من أركان الدولة السلجوقية، إضافة إلى المكتبات الحافلة بأنواع العلوم والفنون والمعرفة.

وهكذا كان العصر السلجوقي هو عصر رواج وانطلاق الحركة المدرسية في خراسان، واستجابة لتطور الحياة العلمية ونموها، حتى أصبحت قاعدة مهمة للتعليم، فلم يكن إنشاء هذه المدارس والإنفاق عليها بسخاء، يرمي إلى نشر العلوم الدينية فحسب، وإنما كان الهدف الأكبر منه هو تحقيق إصلاح جذري في المجتمع، وجمع القلوب والعقول والأفئدة حول سلاطين السلاجقة، والإخلاص للمذهب السني، بعد أن كانت هذه القلوب متفرقة مزعزعة.

ومن أشهر مدن خراسان التي ازدهرت بها الحركة المدرسية: مدينة " نيسابور"، ومدينة "مرو" و مدينة " هراة " و مدينة " بلخ ".

أولاً: الحركة المدرسية بمدينة نيسابور في العصر السلجوقي:

نيسابور من أهم مدن خراسان الأربع (هراة ومرو وبلخ ونيسابور) وإحدى مدن إيران الهامة، وهي مدينة قديمة ذات شهرة في تاريخ الإسلام، وحسب الإنسان أن يقرأ وصف الجغرافيين لها ليعجب لهذه الحركة، التي تعج بها المدينة، في شتى نواحي النشاط الإنساني، يقول ياقوت الحموي [٨٢] "لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها"، بينما يصفها القزويني [٨٣] بأنها "مجمع العلماء، ومعدن الفضلاء، ومن أحسن بلاد الله وأطيبها".

وكانت نيسابور أول مركز علمي مزدهر في المشرق الإسلامي، ظل محتفظا بمكانته العلمية حتى العصر السلجوقي، وقد تقلب حظ هذه المدينة بين الانتعاش

---

(٨٢) معجم البلدان: ج٥، ص٢٣١.
(٨٣) آثار البلاد، ص٤٧٢.

والانتكاس، حتى اتخذها السلاجقة عاصمة لدولتهم منذ قيامها سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، فبدأت تنتعش ولمع اسمها، ووصلت إلى ذروة نهضتها، وأصبحت عنوانا للنهضة الثقافية الإسلامية.

وقد توفرت لنيسابور في هذه الفترة مقومات الازدهار العلمي، وأهمها: الانفتاح الثقافي الذي كان يسود العالم الإسلامي آنذاك، فمن المسلم به أن أهم ما يميز الحياة العلمية أنها حركة عامة، وليست خاصة بإقليم معين، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما ينقل إلى البلدان الأخرى، من أقصى المشرق في خراسان إلى أقصى المغرب في الأندلس، وكان لموقعها الجغرافي (على أبواب خراسان) ما جعلها مجمع العلماء وملتقى الفضلاء والأدباء. وإذا كان انتشار المدارس في العصر السلجوقي هو الحدث الأكبر والأهم ؛ الذي حققته الحضارة الإسلامية على المستوى الثقافي، والقفزة الكبرى في سلم التطور العلمي ــ بعد أن كان التعليم محصورا في المساجد ــ فقد كانت مدينة نيسابور أولى المدن التي عرفت هذه المؤسسات في العالم الإسلامي، فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من المدارس منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فكانت أول مدرسة بنيت بنيسابور لأبي إسحاق الإسفراييني المتوفي سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) ومن قبلها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)، فقد كانا من كبار الأئمة وأولى العلم في نيسابور[٨٤].

وسار السلاجقة على هذا النهج الثقافي، فأنشأوا فيها العديد من المدارس الجديدة، التي أدت دورا مهما في ذيوع العلم وانتشار الثقافة، وطبقت شهرة مدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق، ونمت فيها العلوم والفنون، وبرز العلماء في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب، والعلوم الرياضية من هندسة وفلك وحساب، ثم في علوم الطب وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان، فعطرتها المعرفة بنخبة فريدة من رجال العلم والأدب، بسطوا عليها نور الثقافة، وأضاؤا فيها مصابيح المعرفة.

وكان من أهم علماء نيسابور المشهورين: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المتوفي سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، كان حجة في الحديث وفقه الشافعي، رحل كثيرا وحصل علما واسعا، قال إمام الحرمين في حقه: "ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة، إلا البيهقي فإن له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرة مذهبه"[٨٥].وقال الذهبي [٨٦]: "لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه ؛ لكان قادرا

([٨٤]) السبكي: طبقات الشافعية: ج٣، ص٥٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٧٢.

([٨٥]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص٧٥، ص١٥٩، ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٢٤٢.

([٨٦]) تذكرة الحفاظ: ج٣ ص١١٣٢.

على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالخلاف" وله تصانيف كثيرة منها : "السنن الكبرى" وغير ذلك [٨٧]. وقد خرجت نيسابور كثيرا من العلماء والأدباء، نخص بالذكر منهم: أبا القاسم القشيري، صاحب الرسالة القشيرية في التصوف، والمتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، وهو أحد مشاهير الدنيا في الفضل والعلم والزهد، وكان يعد شيخ خراسان، في عصره، زهدا وعلما بالدين[٨٨].وكان له ابن يقال له عبد الله بن عبد الكريم القشيري، كان إماما كبيرا أشبه أباه في علومه ومجالسه، وقد أنجب عدة أولاد كلهم فضلاء وعلماء مشهورون[٨٩].

ويكفي لفخر هذه المدينة وفضلها أنه ولد فيها علي بن محمد بن علي الواحدي المتوفي سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م)، صاحب التفاسير، وأستاذ عصره في النحو والتفسير وغير ذلك من العلوم، ورزق السعادة في تصانيفه التي أجمع الناس على حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم [٩٠]. قال ياقوت[٩١] عنه: هو الإمام المصنف المفسر النحوي أستاذ عصره وواحد دهره، أنفق صباه وأيام شبابه في التحصيل، وطاف على أعلام الأمة، وقعد للإفادة والتدريس سنين، وتخرج عليه طائفة من الأئمة سمعوا منه وقرءوا عليه وبلغوا محل الإفادة، وكان حقيقا بكل احترام وإعظام، ومن تصانيفه المشهورة "البسيط" في تفسير القرآن، وكذلك "الوسيط" و"الوجيز"، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب: "أسباب النزول" [٩٢].

وإمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الذي بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور، وعهد إليه بالتدريس فيها، ظل فيها مدرسا ثلاثين سنة، يحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يحضر بين يديه كل يوم نحو من أربعمئة رجل من الأئمة والطلبة، وتخرج على يديه جماعة من الأئمة والفحول وأولاد الصدور في زمانه، حتى بلغوا محل التدريس [٩٣]. كما خرجت هذه المدينة الوزير الكبير والعالم الجليل: نظام الملك الطوسي، المتوفي سنة

---

(٨٧) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٢٤٢، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص٤٣٢.
(٨٨) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص ٢٨٠، السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص٢٤٣.
(٨٩) الصريفيني : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، ص ٢٩٨،تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٩ م.
(٩٠) القفطي: إنباه الرواة. ج٢ ص٢٢٣، ياقوت: معجم الأدباء، ج٣، ص٥٥٦.
(٩١) معجم الأدباء، ج٣ ص٥٥٦.
(٩٢) السيوطي: طبقات المفسرين، ص٧٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٣٢٩.
(٩٣) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص٢٧٨، ابن الجوزي : المنتظم ج٩، ص١٩.

(٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[٩٤].

ومن مشاهير العلماء النيسابوريين الإمام الغزالي، المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م)[٩٥].

وأبو المظفر الأبيوردي، المتوفي سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م)، الشاعر المشهور، كان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية، وكان مهيبا محترما معظما لا يخاطب إلا بمولانا لغزارة علمه، وقد دأب على التدريس والإفادة والتصنيف، وله مؤلفات كثيرة [٩٦]. ومن علمائها الحكيم والفلكي النيسابوري عمر الخيام، المتوفي سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م)[٩٧].

ومنهم الميداني النيسابوري، المتوفي سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م) كان فاضلا عارفا باللغة، وأتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصانيف المفيدة، منها كتاب: "مجمع الأمثال" وكتاب "السامي في الأسامي" [٩٨].

ومن أعلام نيسابور:عبد الغافر الفارسي المتوفي سنة (٥٢٩هـ/١١٣٤م) الفقيه الشافعي، كان إماما في الحديث واللغة والأدب والبلاغة، والتاريخ وله فيه مؤلفات، تفقه على إمام الحرمين، ثم رحل فأكثر الأسفار ولقي العلماء، وله تصانيف منها: "السياق في تاريخ نسيابور" وغير ذلك كثير[٩٩]. ومحمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، الملقب محيي الدين، المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) أستاذ المتأخرين وأوحدهم علما وزهدا، برع في الفقه وصنف فيه، وانتهت إليه رياسة الفقهاء بنيسابور، ورحل إليه الناس من البلاد، واستفاد منه كثير حتى صار أكثرهم سادة وأصحاب طرق [١٠٠]، وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية.

وقتله الغز [١٠١] لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر

---

(٩٤) السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص١٣٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٥، ٦٦.
(٩٥) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص ٢٩١، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص٢٩٣.
(٩٦) السبكي: طبقات الشافعية، ج٤، ص٦٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ٢٨٣.
(٩٧) البيهقي: تاريخ الحكماء، ص١١٩، ابن خاوند شاه: روضة الصفاء ص٢٣٥.
(٩٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٨٩، ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص٢٨٨.
(٩٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٢٧٥، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٥٥.
(١٠٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤ ص٢٢٣، الذهبي: العبر، ج٤، ص١٣٣.
(١٠١) الغز: طائفة من التركمان يسكنون في بلاد ما وراء النهر ويدينون بالإسلام ثم أخرجهم منها القرة خطائيون (الخطا) عندما هاجموا بلاد ما وراء النهر واستولوا عليها فسار الغز إلى إقليم خراسان واستقروا في بلخ، وكانوا يدينون بالطاعة للسلطان سنجر

السلجوقي. ومن بينهم ابن فندق البيهقي، المتوفي سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) كان باحثا ومؤرخا ودرس علم الكلام، واشتغل بعلوم الحكمة والحساب والفلك، وتعلم المناظرة والمجادلة، وصار يعقد مجالس الوعظ، وله تصانيف كثيرة منها: "تاريخ حكماء الإسلام"، و"تاريخ بيهق"، وكتاب "أسامي الأدوية وخواصها ومنافعها" وغير ذلك كثير[١٠٢]. كما كانت نيسابور مركزا هاما للعلماء والأدباء، وكثيرا ما جذبت إليها علماء العالم الإسلامي آنذاك، كي يتلقوا العلم على علمائها، وأوضحت بذلك متدفقة بالحياة والنشاط، زاهرة بمجالس العلم على اختلاف أنواعه، يتصدرها مدرسون من كبار شخصيات الإسلام، ويتزاحم الطلبة الوافدون إليها من مختلف البلدان.

وكانت نيسابور من أولى المدن التي عرفت المدارس في العالم الإسلامي، كما تشهد بذلك النصوص التاريخية فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من معاهد العلم منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وسار السلاجقة على هذا النهج، فأنشأوا فيها العديد من المدارس، حيث أدّوا معا دورا مهما في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية. والواقع أن كثيرا من مدارس خراسان قد ورد ذكرها في المصادر عرضا، وذلك عند الحديث عن تراجم العلماء والأدباء، في الوقت الذي لم ترد فيها أية معلومات خاصة عن هذه المدارس، ولا تاريخ بنائها وتأسيسها، وإنما يفهم ذلك من خلال تراجم مدرسيها أو العلماء الذين نزلوها أو عقدوا فيها مجالس الإملاء أو المناظرة أو الوعظ.

ويعدد أحد الباحثين[١٠٣] أكثر من ثلاث وثلاثين مدرسة، أنشئت في مدينة نيسابور كان يرتادها العلماء والأدباء والفقهاء، وعقدوا فيها مجالس الوعظ والمناظرة، وبعض هذه المدارس كان موجودا قبل العصر السلجوقي. ولكني سأقصر الحديث على المدارس التي استمرت المصادر والنصوص التاريخية تشير إلى وجودها واستمر العمل بها، وارتادها علماء وأدباء عاشوا في العصر السلجوقي[١٠٤].

السلجوقي ولكن لم يلبث أن انقلبوا عليه فهاجموا مرو ونيسابور وجميع بلاد خراسان ودارت بينهم وبين سنجر حروب انتهت بهزيمة السلاجقة، ووقع السلطان سنجر في الأسر وذلك سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م). الراوندى : راحة الصدور، ص ٢٦٨ ــ محمود إدريس: السلطان سنجر، ص ٨٤.

(١٠٢) ياقوت: معجم الأدباء، ج٤ ص١١٣.

(١٠٣) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص ١٢٣، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣م.

(١٠٤) صلاح الين على عاشور: الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧ــ٥٩٠هـ/١٠٥٥ــ١١٩٣م) ص١٦٠، ١٦١ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦م.

١-المدرسة الصاعدية:

ورد ذكر هذه المدرسة في كتاب : "منتخب السياق لتاريخ نيسابور" في عدة مواضع، وذلك عند ترجمته لكثير من العلماء، فقد ورد ذكرها عند الترجمة لأبي القاسم الصاعدي المتوفي سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) قال عنه: "كان رجلا كبيرا فاضلا مشهورا من الدوحة الصاعدية، حسن الطريقة متعصبا لأهل السنة، تولى القضاء بنسيابور ودرس بالمدرسة الصاعدية سنين، وكانت إليه الفتوى على مذهب أبي حنيفة ". ومن مدرسيها أيضا أبو العلاء صاعد بن منصور المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م) أحد وجوه الصاعدية، كان يحضر المجالس والمحافل مع أبيه، وينوب عن والده في الخطابة، وأقعده في المدرسة للتدريس [١٠٥]. كما جاء ذكر المدرسة أيضا عند الحديث عن عبد الملك الصاعدى المتوفي سنة (٥٠١هـ/١١٠٧م) قال عنه: شيخ فاضل فقيه مدرس من وجوه الصاعدية" [١٠٦].

٢-مدرسة سهل الصعلوكي:

ورد ذكر هذه المدرسة في "منتخب السياق" في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي زكريا المزكي المتوفي سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م)، وكان من أكابر العلماء، ويحكى أنه كان يحضر مجلس إملائه أكثر من خمسمئة محبرة، وعند وفاته دفن خلف مدرسة سهل الصعلوكي بنيسابور [١٠٧] وقد ذكر المؤرخون [١٠٨] أن سهل الصعلوكي هذا هو: أبو الطيبان بن أبي سهل الصعلوكي العجلي المتوفي بنيسابور (٤٠٤هـ/١٠١٣م) فعلى هذا تكون مدرسته قد أنشئت قبل هذا التاريخ، وكان سهل الصعلوكي مفتي نيسابور، ووصف بأنه جمع بين رياستي الدنيا والدين، ويلقب بشمس الإسلام [١٠٩].

٣- مدرسة الصابوني:

يظهر مما ورد في المصادر أن هذه المدرسة أنشئت قبل سنة (٤٠٥هـ/١٠١٤م) فقد ورد ذكرها في ترجمة لعبد الله بن طاهر البوشنجي، جاء فيها: محترم فاضل قدم نيسابور سنة (٤٠٥هـ، وعقد له مجلس الإملاء في مدرسة الصابوني [١١٠]، مما يدل على أن المدرسة كانت موجودة قبل هذا التاريخ، وقد ذكر المؤرخون أن الشيخ أبا عثمان الصابوني المتوفي سنة (٤٤٩هـ) لما حضرته الوفاة طلب من

---

(١٠٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص٢٦٠.

(١٠٦) السابق: منتخب السياق، ص٣٣١، ٣٣٢

(١٠٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣ ص١١٨٣.

(١٠٨) ابن العماد: شذارت الذهب ج٣ ص١٧٢.

(١٠٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٢٧

(١١٠) السيوطي: طبقات المفسرين ص٣٦ ــ ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص٧٦

أصحابه أن يجلسوا في المدرسة، ويساعدوا الأصحاب على قراءة القرآن، كما طلب أن يدفن في المدرسة [١١١]، وبعد وفاته قام ابنه عبد الرحمن الصابوني المتوفي سنة (٥٠٠هـ) بمهمة التدريس بالمدرسة [١١٢].

٤-المدرسة الناصحية:

ذكرها العديد من المؤرخين[١١٣] بصدد ترجمتهم لأحد مدرسيها، وهو: أبو عبد الله الفراوي الملقب بفقيه الحرم، والمتوفي سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م)، قالوا فيه: درس الأصول والتفسير على زين الإسلام القشيري، وتفقه على إمام الحرمين، وحج وعقدت له مجالس العلم بالحرمين، ويروى أنه أملى أكثر من ألف مجلس، وعاد إلى نيسابور ودرس بالمدرسة الناصحية وأفاد الطلبة فيها.

٥- المدرسة البيهقية:

ذكر المؤرخون أن المدرسة البيهقية بنيسابور أنشئت قبل أن يولد نظام الملك أي قبل سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م) ومؤسسها هو: علي بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م) كان كاتبا وأديبا من وجوه أصحاب الشافعي، بنى مدرسة من خالص ماله وأنفق على عمارتها ومصالحها آلافاً مؤلفة [١١٤] ومن العلماء الذين ورد ذكرهم في المدرسة البيهقية: الحافظ أحمد بن عبد الملك بن عبد الصمد المتوفي سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) الذي كان عليه الاعتماد في الودائع وكتب الحديث المجموعة في الخزائن المعروفة عن المشايخ والموقوفة على أصحاب الحديث وكانت موضوعة عنده في حجرته في المدرسة البيهقية، فكان يصونها ويتعهد حفظها، ويتولى أوقاف المحدثين من الحبر والورق وغير ذلك، كما وكلت إليه أوقاف المدرسة وعمارتها، و كان يقوم إلى جانب ذلك بالوعظ والتدريس بهذه المدرسة[١١٥]، وبعد وفاته قام ابنه أبو الفضائل مقامه في حفظ الكتب ومهمة الوعظ والتدريس في المدرسة [١١٦].

كما ورد في ترجمة إمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) أنه كان يذهب طالبا إلى مدرسة البيهقي لتلقي العلم على أساتذتها [١١٧]. وأبو القاسم

---

(١١١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٨ ص٤٠.
(١١٢) الصريفيني: منتخب السياق ص٣١٨
(١١٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٤٦، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٩٢
(١١٤) الصريفيني: منتخب السياق، ص١٠٧، ١٠٨، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣ ص١١٦٢.
(١١٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص١٠٨، الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٣ ص١١٦٣.
(١١٦) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٣٥.
(١١٧) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٢٤٩.

الأنصاري المتوفي سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) كان يخلف الشيخ أبا صالح بعد وفاته في مدرسة البيهقي وعمارتها والسعي في مصالحها وحفظ الكتب، كما كان يقوم بالوعظ في المدرسة [١١٨]. وأبو بكر البوشنجي المتوفى سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) كان إماما فاضلا ورعا اشتغل بالعبادة وانزوى عن الخلق في مدرسة البيهقي [١١٩].

٦-المدرسة النظامية:

أنشأها الوزير نظام الملك قبل نظامية بغداد بنحو عشر سنوات، فقد أجمع المؤرخون[١٢٠] أن مدرسها الأول إمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، درس بها نحو ثلاثين سنة، وعلى هذا يكون وقت إنشائها في حدود سنة (٤٤٨هـ/١٠٩٥م)، وذلك وقت أن كان نظام الملك يعمل وزيرا لألب أرسلان أيام ولايته على خراسان، وقبل أن يلي أمور السلطة خلفا لعمه طغرل بك [١٢١].

وتعد نظامية نيسابور من أشهر المدارس الإسلامية التي أنشئت بها، فقد نالت صيتا ذائعا في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتولى التدريس فيها أكابر العلماء، ممن كانت لهم قدم السبق في تطوير الحياة الثقافية وإنعاشها، وبما تركوا من مؤلفات نفيسة أصبحت من أمهات الكتب المعتمد عليها في العصر السلجوقي والعصور اللاحقة له "وبما خرجوا من طلبة نجباء فضلاء كان لهم فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهناك عدد كبير من الأساتذة الذين أسندت إليهم مهمة التدريس بها، أو الذين عقدت لهم مجالس الإملاء أو المناظرة، عدا من تخرج منها، وأشهر مدرسيها: إمام الحرمين الجويني وابنه أبو القاسم المتوفي سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)[١٢٢]، وأبو حامد الغزالي المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) [١٢٣]،

---

(١١٨) الصريفيني: منتخب السياق، ص٢٤٩، الذهبي: العبر، ج٤ ص٢٧.

(١١٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٣٨.

(١٢٠) ابن الأثير: اللباب ج١ ص٣١٥، ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٣٥٨.

(١٢١) بعد النصر الذي حققه قادة السلاجقة باستيلائهم على منطقة خراسان، رأى السلطان "طغرل بك" كي يضمن قيام الوحدة والترابط بين أفراد البيت السلجوقي أن يستعين بهم في حكم البلاد تحت سلطانه فقسم البلاد فيما بينهم وعين كل واحد منهم حاكما على إقليم وسيره إليه وأعطى له الحق بفتح وضم ما يشاء من البلاد المجاورة لمملكته بحيث لا يتعدى على ممتلكات الآخر فجعل لأخيه جغري بك منطقة خراسان الذي عهد بها لابنه ألب أرسلان وعينه حاكما عليها وعين له وزيرا من قبله هو نظام الملك ثم لم يلبث أن توفي جغري بك فخلفه على الإمارة ابنه ألب أرسلان وأصبح نظام الملك هو المسئول عن كل أعمال ألب أرسلان إلى أن آلت السلطنة إليه، فعلت منزلة وزيره.الحسيني: زبدة التواريخ ص٧٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٧

(١٢٢) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ص٤٤.

وقطب الدين النيسابوري المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)[١٢٤].

٧-المدرسة القشيرية:

هي منسوبة إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري المتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) صاحب الرسالة القشيرية الشهيرة في التصوف. ومن الذين تولوا مهنة التدريس بهذه المدرسة: الفضل بن محمد الفارمذي المتوفي سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) [١٢٥] والمطهر بن علي بن العباس الهمذاني المتوفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) فقيه فاضل، ومناظر كبير، عقد له مجلس الوعظ والإملاء في المدرسة القشيرية بنسيابور[١٢٦].

ثانياً: الحركة المدرسية بمدينة مرو في العصر السلجوقي:

مرو حاضرة إقليم خراسان وعاصمتها في عصر السلاجقة العظام، وتعد بلا مراء من أعظم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي، إذ كانت واسطة العقد، والمدينة الكبرى، ومنبع العلماء والفضلاء، ودار الملك لجماعة من سلاطين السلاجقة دهرا طويلا، فبلغت الحضارة الإسلامية فيها مبلغا كبيرا، وأقيم فيها العديد من المدارس العلمية لنشر العلم.

وكانت نظامية مرو، التي أنشأها الوزير نظام الملك، من أهم المدارس التي أسست لأصحاب الشافعي، ووكل أمر التدريس فيها لابن المظفر السمعاني المتوفي سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)، وقد تولى التدريس بعده جماعة من مشاهير العلماء [١٢٧]، وبقيت تلك المدرسة مقصد طلاب العلم من مختلف البلدان الإسلامية، ينزلون بها ويتعلمون فيها كلما وفدوا على مرو[١٢٨]. كذلك كانت هناك مدرسة لأصحاب أبي حنيفة، وهي المدرسة العميدية التي أنشأها عميد خراسان "محمد بن منصور،" المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، وجعلها وقفا لأصحاب مذهبه، وكانت تحتوي على خزانة كتب[١٢٩].

وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم في عصر السلطان "ألب أرسلان" الذي اتخذ من مرو حاضرة لدولته، حيث ظهرت في عهده نهضة علمية شاملة، فقد بنى الرئيس أبو

---

(١٢٣) ابن عساكر: تبين كذب المفترى، ص٢٩١، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص١٦٨.

(١٢٤) ابن قاضي شهبة:طبقات الشافعيةج٢ ص٢٠،السبكي،طبقات الشافعية ج٤ ص٣٠٩.

(١٢٥) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص١٥٠.

(١٢٦) ناجي معروف: السابق، ص ١٥١، ١٥٢.

(١٢٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٢١٢.

(١٢٨) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦١، ٦٢.

(١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص ٢٤٥، ابن الأثير: الكامل، ج٨ ص٢٠٥.

علي المنيعي، المتوفي سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، جامعا بمرو تقام فيه الجمعة والجماعة، وصار جامع البلد المشهور، يدرس فيه العلوم والآداب وشتى نواحي المعرفة[١٣٠].

وكان السلطان "سنجر بن ملكشاه" مع سعة ملكه، قد أختارها على سائر بلاده لتكون مقرا له، وكان يجل العلماء ويقدرهم، فقصده عدد كبير من مشاهير العلماء والأدباء، وتولوا المقاعد التدريسية وحلقات الطلبة، وأسهموا في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة، ووكلت إليهم كبرى المناصب القضائية والإدارية، بما عرف عنهم من مقدرة علمية وأدبية رشحتهم لأرقي المناصب، مما يشير إلى مدى ما كانت تتمتع به هذه المدينة من ازدهار علمي وأدبي.

كما بلغت حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب بها شأوا كبيرا. وقد اشتهرت مدينة مرو، فضلا عن مدارسها ومساجدها، بمكتباتها الحافلة بأنواع العلوم والفنون، فيذكر ياقوت الحموي[١٣١] وكان معاصرا، لهذه الفترة: أنه أقام طويلا في مدينة مرو، وأخذ العلم من علمائها، وأفاد من خزائن كتبها، وأن هذه الكتب قد أعانته على جمع مادة كتابه المعروف بـ "معجم البلدان" ويقول: "فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة" ، وكانت خزائن كتبها ملحقة بالمساجد أو المدارس، وكان الاطلاع على تلك الكتب سهلا ميسورا دون قيود، حيث كان يرتع فيها ويقتبس من فوائدها، حتى إن حبه لها أنساه كل بلد، وألهاه عن الأهل والولد [١٣٢].

وقد خرّجت مرو كثيرا من الأعيان والعلماء، وكان لواء الرياسة والصدارة في مرو معقودا لأسرة السمعاني، وهي أسرة علم وفضل، فقد برز من البيت السمعاني أكثر من أربعة عشر، ما بين عالم ومحدث وفقيه وأديب يشار إليهم بالبنان، قد شغلوا وظائف مهمة في القضاء والإفتاء والتدريس، والخطابة ومجالس الوعظ والإملاء، وما كان لهم من خزانة الكتب بمدينة مرو، والتدريس في المدرسة النظامية، وكذلك المدرسة العميدية، كما كانت لهم الخطابة بجامع مرو، وعقدوا فيه المجالس العلمية[١٣٣].

ومن أشهرهم: الإمام أبو منصور محمد بن عبد الجبار بن الفضل بن منصور السمعاني المروزي، المتوفي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، كان إماما في النحو واللغة

---

(١٣٠) الصريفيني: منتخب السياق ص٢١٤.

(١٣١) معجم البلدان: ج٥ ص١١٤.

(١٣٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص ١١٤، ١١٥. محمد محمود إدريس : السلطان سنجر، ص ١٣٩.

(١٣٣) منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني ص ٣٤، ٢٥.

العربية، صنف فيها التصانيف، وكان حنفيا ورعا ومن رؤساء الحنفية بمرو[١٣٤].

أما ولده منصور فكان أولا حنفيا، ثم تحول شافعيا بعد ثلاثين سنة، فصار أولاده وأحفاده كلهم شافعية، وكان أبو منصور هذا مفتي خراسان، قدمه نظام الملك على أقرانه في مرو، وعهد إليه بمهمة التدريس بنظامية مرو[١٣٥] ويوصف بأنه أحد أئمة الدنيا، رفيع القدر، عظيم المحل، صنف في مختلف العلوم والفنون، ومن كتبه: "تفسير السمعاني"، و"المنهاج لأهل السنة"، و" الانتصار لأهل الحديث"، وهو جد أبو سعد السمعاني صاحب "الأنساب" [١٣٦]. ومنهم أيضا تاج الإسلام أبو بكر السمعاني، المتوفي سنة (٥١٠هـ/١١١٦م)، برع في الفقه، وتبحر في علم الحديث ومعرفة الأسانيد والرجال والجرح والتعديل، مع الإحاطة بالتواريخ والأنساب، خلف أباه في مجالس التدريس بنظامية مرو، وخلفه في الوعظ، وزاد عليه في الخطابة والقبول التام بين الخاص والعام، عظمه الملوك والأكابر، وقصر أيامه على الإفادة ونشر العلم، وصنف تصانيف في الحديث، وهو والد صاحب الأنساب [١٣٧]. وأشهرهم جميعا أبو سعد السمعاني المروزي صاحب "الأنساب"، المتوفي سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) ، كان بيته من أرفع البيوت، وأعلمهما في بلاد الإسلام، وأقدمها في العلوم الشرعية والأمور الدينية، طاف بمراكز العلم في بلاد الإسلام عدة سنوات، ورحل إلى خراسان وأصفهان ونيسابور، والري وهمذان وما رواء النهر، والعراق والحجاز والشام، وطبرستان والجزيرة، وزار بيت المقدس وحج مرتين ثم رجع إلى وطنه [١٣٨].

ومن كتبه المشهورة : "الأنساب"، و"التحبير في المعجم الكبير"، وتاريخ مرو"، و"ذيل تاريخ بغداد للخطيب" [١٣٩]، وانتهت إليه رياسة آل السمعاني. قال فيه ابن الأثير[١٤٠]: "وأما تاج الإسلام أبو سعد فإنه كان واسطة عقد بيت السمعاني، وعينهم الباصرة، ويدهم الناصرة، إليه انتهت رئاستهم، وبه كملت سيادتهم"، وقد درس بالمدرسة العميدية بمرو ودرّس بها، كما درّس بنظامية مرو، وصارت له شهرة

---

(١٣٤) الذهبي: العبر ج٣ ص٢٢٣.
(١٣٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص٤٤٢، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص ٢١.
(١٣٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٣ ص٣٩٣.
(١٣٧) ابن الجوزي:المنتظم،ج٩، ص١٨٨،ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص١٢.
(١٣٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤ ٣١٦.
(١٣٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٤ ص٣١٦، اليافعي: مرآة الجنان ج٤ ص٣٧١.
(١٤٠) الكامل: ج٩ ص٩٨.

فائقة، وقصده الطلبة من سائر البلاد الإسلامية لتلقى العلم على يديه (١٤١).

وعلي بن محمد بن أرسلان بن محمد الكاتب، المتوفي سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، كان مليح الخط فصيح العبارة، وله شعر وترسل وبلاغة في غاية الحسن، قيل عنه: "اجتمعت فيه أسباب المنادمة والكتابة وصحبة الملوك" (١٤٢)، وله مصنفات كثيرة منها : "تعلة المشتاق إلى ساكني العراق" ويذكر ياقوت الحموي(١٤٣)، نقلاً عن الزمخشري الخوارزمي، أنه قال: "أنشدني الكبير المنتخب أبو علي محمد بن أرسلان لنفسه بيتا لو وقع في شعر المتقدمين لسيرته الرواة، وخلدته الأئمة في كتبهم، وكم من أخوات له ضيعت بضياع الأدب، وقلة النقلة، واتضاع الهمم، وتراجع الأمور على أعقابها (١٤٤). وأبو منصور المظفر بن أبي الحسين أردشير بن أبي منصور العبادي الواعظ المروزي المتوفي سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م) له اليد الطولى في الوعظ، حسن العبارة حتى صار عين ذلك العصر، وشهد له الكل بالفضل وحيازة قصب السبق، قدم بغداد وأقام فيها ثلاث سنوات يعقد فيها مجالس الوعظ ولقي من الخلق قبولا تاما (١٤٥). وأبو محمد الخرقي المتوفي سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) كان فقيها فاضلا، ثم اشتغل بالحساب وحصل منه طرفا صالحا وجاوزه إلى العلوم الفلسفية وغيرها، وجمع تاريخا لمرو ذكر فيه أحوال الأئمة والمحدثين والعلماء، وله مصنفات غير تاريخ مرو منها "فضائل الأوقات" و"منتهى الإدراك في تقاسيم الأفلاك" (١٤٦) وخرق قرية بين قرى مرو (١٤٧).

١-المدرسة النظامية:

أنشأ هذه المدرسة الوزير السلجوقي الكبير: نظام الملك الطوسي، ولعل تاريخ إنشائها يوافق تاريخ انتقال أبي المظفر السمعاني إلى المذهب الشافعي سنة

---

(١٤١) صلاح الدين علي عاشور: أبو سعد السمعاني وكتابه الأنساب، ص٢٧٢٥، ٢٧٢٦، مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث،العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥

(١٤٢) السمعاني: التحبير في المعجم الكبير ج١، ص٢٤١، تحقيق منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥م.

(١٤٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٢ ص٣٦٠.

(١٤٤) معجم الأدباء: ج٤ ص٣١٧.

(١٤٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٢١٢،ابن الجوزي:المنتظم ج١٠ ص١٥٠، ١٥١.

(١٤٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج٥ ص١٥٧.

(١٤٧) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٠.

(٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، وربما يكون نظام الملك قد بنى هذه المدرسة باسم هذا العالم الجليل، فيذكر المؤرخون أن هذا الوزير قد رفع من قدره وقدمه على أقرانه، وعقدت لـه مجالس الـوعظ والتـدريس بنظاميـة مـرو، وكانـت وفاتـه سـنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)[١٤٨].

وقد درس في هذه المدرسة أغلب الأسرة السمعانية، ومن أشهر مدرسيها: أبو المجد الرازي من أهل الري، فقيه فاضل نزل مـرو فـي المدرسـة النظاميـة عـام (٥٢٩هـ/١١٣٤م)، وتولى مهمة التدريس بها [١٤٩]. وأبو القاسم أحمد بن منـصور السمعاني المتوفي سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) وهو العم الأصغر لأبي سـعد الـسمعاني [١٥٠]ثم درس بها الإمام أبو سعد السمعاني صاحب الأنساب، المتوفي سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م). ويكفى للدلالة على المنزلة العلمية الرفيعة التى بلغها هذا البيت: أن الوزير نظام الملك الطوسى بنى "المدرسة النظامية" بمرو لأبى المظفر الـسمعانى جـد أبـى سعد، وذلك بعد انتقال أبى المظفر جـد أبـى سـعد إلـى المـذهب الـشافعى سـنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، فرفع نظام الملك من مقامه، وقدمه على أقرانه، وعقد له مجلس التذكير والتدريس في مدرسة أصحاب الشافعى بمرو[١٥١]. وقد درس بها أيضاً أبو بكر السمعانى والد أبى سعد، وكذلك درس بها أبو القاسم عم أبى سعد، ثم درس بها أبـو سعد نفسه[١٥٢]. وعندما بنى عميد خراسان محمد بن منصور النسوى، المتوفى سـنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)،المدرسة العميديـة بمرو،أوقفهـا علـى أبـى بكـر الـسمعانى

---

(١٤٨) الصريفيني: منتخب السياق ص٤٤٢.

(١٤٩) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦٢.

(١٥٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٨٦.

(١٥١) كانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجرى قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما الحنفية والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلاجقة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقى نظـام الملك الطوسى، فبنى عدة مدارس عرفت بالنظاميـات فـي جميـع أنحـاء المـشرق الإسلامى في نيسابور وهراة وبلخ ومرو، وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وقفاً على المذهب الشافعى، فكان من غير المستبعد أن يتطلع أبو المظفر السمعانى (جد أبو سعد) للتدريس في نظاميه مرو لما كان له من مكانة عالية بين الفقهاء، الأمر الذى أدى إلى حدوث اضطرابات شديدة في مدينة مرو، حتى كادت الحرب تقـع بـين أصحاب أبى حنيفة والشافعى، ومنذ ذلك الحين صار أولاده وأحفاده كلهم شافعية. ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢١١.

(١٥٢) الصريفينى : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ص ٤٤٢، ٤٤٣، تحقيـق محمـد أحمد عبدالعزيز ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٩ م.

وأولاده[١٥٣]، حتى قال ابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧هـ /١٢٠١م): فهم فيها إلى الآن[١٥٤]. وقد برز من هذا البيت مجموعة كبيرة من العلماء ما بين عـالم ومحـدث وفقيه وأديب يشار إليهم بالبنان، شغلوا وظائف مهمة فى القضاء والإفتاء والتـدريس والتحديث والخطابة ومجالس الإملاء والوعظ والتذكير. وكانت لهـم خـزائن الكتـب بمدينة "مرو"وكذلك فى المدرسة العميدية الخاصة بالبيت السمعانى.

والواقع أن البيت السمعانى كان بيت نعمة ويسار فكان لهم عدد من الـضياع فى مرو وسرخس[١٥٥]، إضافة إلى ما كان لهم من عبيد وخـدم وجـوار ومـؤدبين ومربيين لأولادهم، كما أن معظم أعيان البيت السمعانى قاموا برحلات كبيرة فى سبيل تحصيل العلم، يوم كانت الرحلة قطعة من العذاب، فضلا عـن التكلفـة الكبيـرة مـن النفقات، إضافة إلى ما اقتنوه من كتب ومجلدات أثناء رحلاتهم، فتركوا دوياً هائلا فى دنيا البحث والدراسة. وأكبر دليل على المنزلة العلمية الرفيعة التى بلغها هذا البيـت: ما كان لهم من خزائن الكتب،(المكتبات) بمدينة مرو، إذ كان لهم فيها ثـلاث خـزائن للكتب قال عنها ياقوت الحموى عند زيارته لهذه المدينة : " إنها كانت سهلة التنـاول لا يفارق منها منزلى منتا مجلد وأكثرها بغير رهن... فكنت أرتع فيها وأقتـبس مـن فوائدها، وأنسانى حبها كل بلد، وألهانى عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتـاب – يقصد معجم البلدان – وغيره مما جمعته، فهو مـن تملـك الخـزائن "[١٥٦]. وكانـت مساجد مدينة مرو، لاسيما في العصر السلجوقي، من أكبر وأهم المؤسسات العلميـة، فعلى الرغم من كون الهدف الرئيس من إنشاء هذه المساجد هوجعلها أماكن للعبـادة، إلا أنها قامت بدور مهم في نشر الثقافة والمعرفة، والوعي الديني، فقد ضمت حلقـات لتدريس مختلف أنواع العلوم النظرية، والعقلية، حتى صارت أشبه بجامعـات يـدرس فيها مختلف أنواع التخصصات، وكان يتولى التدريس فيها مـشاهير العلمـاء الـذين استقدمهم السلاطين، والأمراء والوزراء للقيام بهذا العمل[١٥٧].

---

(١٥٣) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ص ص٨٤، ٨٥ ترجمة د. أحمد كمال الـدين حلمى جامعة الكويت ١٩٨٤ م. صلاح الدين عاشـور: أبـو سـعد الـسمعاني، ص ٢٧٢٦.

(١٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ج٩ ص ١٢٨.

(١٥٥) سرخس : مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان، تقع في وسط الطريق بين نيـسابور، ومرو. ياقوت : معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨

(١٥٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٥ ص ١١٤.

(١٥٧) يحيي بن حمزة الوزنة : مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، ص ١٣٥، مكتبـة الثقافة الإسلامية، ط١ القاهرة ٢٠٠٧ م.

٢-المدرسة العميدية:

أنشأ هذه المدرسة عميد خراسان:محمد بن منصور المستوفي، المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، ووقف فيها كتبا نفيسة ووقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وأولاده[١٥٨]، ويذكرابن الجوزي، المتوفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) أنهم فيها إلى الآن[١٥٩].

وقد أشار إليها ياقوت الحموي عند زيارته لها سنة (٦١٦هـ/١٢٢٠م)، وذكر أن إحدى خزائن كتب البيت السمعاني كانت موجودة بهذه المدرسة[١٦٠] ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ظلت تؤدي دورها العلمي والتعليمي حتى ذلك الوقت.

ثالثا:الحركة المدرسية بمدينة هراة في العصر السلجوقي:

كانت مدينة هراة من أمهات مدن خراسان، يقول عنها القزويني[١٦١] : "ما كان بخراسان مدينة أجمل، ولا أعمر، ولا أحصن، ولا أكثر خيرا منها،" بينما يقول عنها ياقوت الحموي[١٦٢] :"لم أر بخراسان عند كوني بها أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها".

وكانت مدينة هراة من المدن التي اهتم السلاجقة بنشر الثقافة فيها، فقد أسس بها الوزير "نظام الملك" إحدى نظامياته، واستدعى لها العالم الجليل" أبا بكر الشاشي" للتدريس بها، والقيام على شؤونها، فأصبحت منارة للعلم والمعرفة[١٦٣]. ومن مشاهير علماء هراة : أبو المظفر الإسفزاري، المتوفى سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) وهو من الذين اشتغلوا مع الخيام بالعلوم الرياضية، وأحد عظماء المنجمين الذين كلفهم ملكشاه بعمل "التقويم الجلالي"، المعروف بالرصد الملكشاهي[١٦٤]. والشيخ عبد الله الأنصاري الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م)، من مشاهير الصوفية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ومن الذين أجادوا اللغتين الفارسية والعربية وألف بهما، وقال الشعر العربي والفارسي، وفرق في أشعاره بين الشعر الصوفي والشعر التعليمي، وكان يلقب بشيخ الإسلام، وتنسب إليه مجموعة من الرباعيات تتضمن أفكارا دينية وصوفية، غير أن شهرته ترجع في المقام الأول إلى

---

(١٥٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٣١٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٧٨.

(١٥٩) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص١٢٨.

(١٦٠) ياقوت: معجم البلدان: ج٥ ص١١٤.

(١٦١) آثار البلاد: ص٤٨١.

(١٦٢) معجم البلدان: ج٥ ص٣٩٦.

(١٦٣) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٧٩، ٨٠.

(١٦٤) البيهقي: تاريخ الحكماء، ص١٢٥، العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص١٦٠.

مؤلفاته النثرية العديدة الفارسية والعربية، فمن مؤلفاته الفارسية :"رسالة أسرار"، و"كنز السالكين"، أما تصانيفه العربية فمنها: كتاب "ذم الكلام"، وكتاب "منازل السائرين" [١٦٥].

ومن مشاهير علماء هراة أيضا: عبد الرحمن بن عثمان بن منصور المعدل الهروي، المتوفي سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م)، وكان حافظا أديبا يلقب ثقة الدين، وقيل عنه: "حافظ فاضل مقدم المحدثين بهراه له معرفة بالحديث والأدب" [١٦٦].

نظامية هراة:

أنشأها الوزير نظام الملك، وعهد بالتدريس فيها إلى محمد بن علي بن حامد الإمام أبو بكر الشاشي المتوفى سنة (٤٨٥هـ/١١٥٣م) فقيه عصره بقى مدة بهراة يدرس في المدرسة المنسوبة إلى نظام الملك [١٦٧] وقد ذكر ابن الجوزي نظامية هراة في حوادث سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) عندما وقعت الفتنة بهراة بين الشيخ عبد الله الأنصاري المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) وكان حنبلي المذهب، وأحد الشافعيين فهجم الحنابلة على المدرسة النظامية، فبعث نظام الملك من قبض على الشيخ عبد الله الأنصاري وأبعده عن هراة حتى خبت الفتنة، ثم أعاده إلى هراة مرة أخرى [١٦٨]. ومن أشهر الذين تولوا مهنة التدريس بها الشيخ محمد بن يحيى المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية، وحضر دروسه فضلاء عصره في مدينة هراة [١٦٩].

رابعا: الحركة المدرسية بمدينة بلخ في العصر السلجوقي:

من أجل مدن خراسان وأكثرها خيراً[١٧٠]، يقول عنها ابن حوقل [١٧١] :"مدينة قديمة أزلية، تجمع جميع التجارات، وتقصد بالأمتعة من سائر الجهات، وفي أهلها علم، ويغلب عليهم الأدب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة، وقد خرجت غير رئيس، وعرف من أهلها غير نفس".

وقد عنى السلاجقة بهذه المدينة وعمروها، وأقاموا فيها المساجد والمدارس

---

(١٦٥) نظام الملك: سياست نامه ص١٧٥. السيوطي: طبقات المفسرين ص٥٧.
(١٦٦) السبكي: طبقات الشافعية، ج٤ ص٢٤٥، ٢٤٦.
(١٦٧) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص٢٧٠،السبكي: طبقات الشافعيةج٣ص٧٩
(١٦٨) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص١٥، ١٦.
(١٦٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٢٣.
(١٧٠) القزويني: آثار البلاد ص٣٣١.
(١٧١) صورة الأرض: ص ٣٧٤.

والربط، وأسس فيها الوزير نظام الملك مدرسة لأصحاب الشافعي، هي المدرسة النظامية (١٧٢).

وفوض أمر التدريس بها لعبد الله بن طاهر بن محمد بن شهفور، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان إماما في الفروع والخلاف والأصول، وله الجاه والمال الكثير والمنزلة الرفيعة، حتى إنه لما قدم بلخ استقبله أهل البلد بحفاوة بالغة (١٧٣).

وعمر بن أحمد بن الليثي الطالقاني البلخي المتوفى سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م) الفقيه الشافعي، كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب، هذا إلى جانب إجادته الفقه وعلم التفسير والحديث مما جعله من أكابر علماء عصره، وبلغ من قدره وعلمه أنه كان أمر بالتدريس بنظامية بلخ، وظل يدرس بها إلى حين وفاته (١٧٤).ويعد القاضي ظهير الدين أبو بكر البلخي من الكتاب الذين تفوقوا في الكتابة الأدبية باللغة الفارسية في العصر السلجوقي، ويتجلى ذلك من خلال مقاماته التي كتبها في سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م)، والمسماة "مقامات حميدي"، فهي خير مثال للصورة الأدبية النثرية الفارسية، وهو تقليد فارسي للمقامات العربية التي وضعها "بديع الزمان الهمذاني" و"الحريري". وعلى الرغم من أنها لا تصل إلى مستوى المقامات العربية، من حيث الموضوع وسبك العبارة، إلا أنها تعد من الكتابات النثرية الجيدة (١٧٥). وينسب إلى هذه المدينة الجليلة جماعة من أهل العلم، على رأسهم محمد بن عبد الجليل الملقب برشيد الدين الوطواط المتوفي سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) الأديب الكاتب الشاعر، كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته، وسار في الأقاليم ذكره، وبلغ به الإتقان أنه كان ينشئ في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسة من بحر آخر ويمليهما معا، وله من التصانيف "حدائق السحر في دقائق الشعر" باللغة الفارسية، وللوطواط أيضا ديوان شعر، وديوان رسائل عربي، وديوان رسائل فارسي، وغير ذلك كثير (١٧٦).

---

(١٧٢) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص١٣٥.

(١٧٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج٥ ص٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص٢٢٦.

(١٧٤) السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٨٥.

(١٧٥) بروان: تاريخ الأدب، في إيران، ص٤٤١، محمود إدريس، السلطان سنجر السلجوقي ص١٢٧.

(١٧٦) ياقوت: معجم الأدباء، ج٥ ص٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص٢٢٦.

نظامية بلخ:

أنشأها الوزير نظام الملك، ووكل مهنة التدريس فيها للشيخ عبد الله بن طـاهر الإسفراييني، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان لعبد الله ابن يقـال لـه "أبـو المحاسن" ثقة فاضلا مناظرا، تولى أمر التدريس بعده [١٧٧]. ومن الذين تولوا مهنـة التدريس بها عبد الله بن الحسين البلخي، المعروف بابن الظريف، المتوفى في نفـس العام، وكان إماما كبيرا في الفقه والأصول ذا علوم متعددة [١٧٨] وأبو حفص عمر بن أحمد بن الليث الطالقاني البلخي المتوفي سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)، كان مـن أكـابر العلماء[١٧٩].

وبعد، فهذا موضوع البحث، وهذه رؤيتي، حاولت فيها قدر جهدي الاقتراب من الصواب، فإن وفقت فهذا ما كنت أبغي، وإن جانبني الصواب فحسبي أنني اجتهـدت، والله من وراء القصد، وهو يهدي إلي سواء السبيل.

---

(١٧٧) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ص٧٠.

(١٧٨) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٢٠٤.

(١٧٩) السابق: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٨٥.

المصادر والمراجع

أولا ـ المصـــادر :

* ابن الأثير (ت ـ٦٣٠هـ) على بن أبي الكرم.

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

* البنداري (ت ـ٥٩٧ هـ) الفتح بن علي البنداري الأصفهاني

٢ـ تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن على البندري) دار الآفاق الجديـدة ط ٣ بيروت ١٩٨٠م

* البيهقي (ت ـ٤٧٠هـ) أبو الفضل محمد بن حسين.

٣ ـ تاريخ البيهقي، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نـشأت، مكتبـة الأنجلو المصرية القهرة ١٩٥٦ م.

* الثعالبي (٤٢٩هـ) أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري.

٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د. مفيد محمد متميـة، دار الكتـب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.

* ابن الجوزي : (ت ـ ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي

٥ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعـارف العثمانيـة، ط١ حيـدر أبـاد ١٣٥٩هـ.

*الحسيني (ت ـ ٦٢٢هـ) صدر الدين علي بن ناصر

٦ـ زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك الـسلجوقية،تحقيق: د/ محمـد نـور الدين. دار اقرأ. بيروت. ١٩٨٢م.

* ابن حوقل (ت ـ٣٦٧ هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي

٧ ـ صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٧٩ م.

* ابن خاوند شاه. (ت ـ٩٠٣ هـ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.

٨- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبـد القـادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

* ابن خلدون (ت ـ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

٩ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

* ابن خلكان (ت ـ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد

١٠ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

*خواندمير(ت ـ٩٤٢هـ) غياث الدين خواندمير

١١ـ دستور الوزراء، ترجمة : د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م

*الذهبى (٧٤٨هـ) أبو عبدالله شمس الدين بن محمد الذهبى

١٢ـ تذكرة الحفاظ. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ.

١٣ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ١٩٨٤.

• الراوندي (من علماء القرن السادس الهجري) محمد بن علي بن سليمان

١٤ـ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة د / إبراهيم أمين الشورابي وزميلاه، دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٠ م.

*ابن الساعي (ت ـ٦٧٤هـ) علي بن أنجب

١٥ ـ تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.

*السبكى (٧٧١هـ) تاج الدين بن تقى الدين السبكى

١٦ ـ طبقات الشافعية الكبرى دار المعرفة ط٢ بيروت (د. ت).

*السمعاني (ت ـ٥٦٢هـ)أبو سعد بن محمد بن منصور.

١٧ ـ الأنساب، وضع حواشيه : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت ١٩٩٨.

١٨ ـ التحبير في المعجم الكبير، تحقيق : منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.

*السيوطى (٩١١هـ) جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر

١٩ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤م.

*الشهرستاني(ت ـ ٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٢٠ ـ الملل والنحل. مؤسسة ناصر للثقافة. ط١. بيروت. ١٩٨١م.

*الصريفينى (٦٢٢هـ) إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفينى

٢١ـ المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م

• ابن العبري (ت ـ٦٨٥هـ) غريغوريوس أبوالفرج بن هارون.

٢٢ – تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١ ، القاهرة، ٢٠٠١م.

•ابن عساكر (٥٧١هـ)أبو القاسم علي بن الحسين.

٢٣ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧هـ.

•العماد الأصفهاني (ت ـ٥٩٧هـ) عماد الدين محمد بن حمد الكاتب.

٢٤ ـ تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن علي البنداري). دار الآفاق الجديدة. ط٣. بيروت ١٩٨٠م.

•ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) أبو بكر أحمد بن محمد.

٢٥ ـ طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.

• القزويني (ت ـ٦٨١هـ) زكريا بن محمد بن محمود.

٢٦ـ آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

• ابن كثير(ت ـ ٧٧٤هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.

٢٧ –البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

•الكرديزي (ت ـ٤٢٢هـ)أبو سعيد عبد الحي الضحاك

٢٨ـ زين الأخبار،ترجمة: د/عفاف السيد زيدان،دارا لطباعة المحمدية،القاهرة١٩٨٢م

• أبو المحاسن (ت ـ٨٧٤هـ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردي الأتابكي.

٢٩ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م.

• المقدسي(ت ـ ٣٨٧هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

٣٠ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

• ناصر خسرو (ت ـ٤٨١هـ) ناصر خسرو علوي

٣١ـ سفرنامة:، ترجمة : د/ يحيي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.

• النويري (ت ـ٧٣٣ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

٣٢ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب دارا لكتب المصرية القاهرة ٢٠٠٧.

• ياقوت الحموي (ت ـ٦٢٦هـ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.

٣٣ ـ معجم الأدباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.

٣٤ ــ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانيا ـ المراجـــع :

• أحمد السعيد سليمان (دكتور)

١ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.

•أحمد كمال الدين حلمي(دكتور)

٢ــ السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية. ط١، الكويت، ١٩٧٥.

•أدورد براون.

٣ــ تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي. مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤م.

•بارتولد.

٤ــ تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

• بدر عبد الرحمن محمد (دكتور)

٥- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، القاهرة، ١٩٨٩م.

• تامارا رايس (دكتور)

٦ ــ السلاجقة تاريخهم وحضارتهم،ترجمة لطفي الخوري،مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٨م.

•حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٧ــ تاريخ الإسلام السياسي،دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

•حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٨ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

• حسن سلهب (دكتور)

٩ــ تاريخ العراق في العهد البويهي (دارسة في الحياة الفكرية ٣٣٤ـــ٤٤٧هـــ/ ٩٤٥ــ١٠٥٥م) دار المحجة البيضاء، ط١ بيروت ٢٠٠٨ م.

• حسين أمين(دكتور)

١٠ــ تاريخ العراق في العصر السلجوقي،مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٥م.

• خليل السامرائي(دكتور) وزميلاه د/طارق فتحي سلطان د/ جزيل عبدالجبار الجومرد

١١ـ تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ / ٧٤٩ ـ ١٢٥٨ م) طبع جامعة الموصل ١٩٨٨ م

• شوقي ضيف (دكتور)

١٢- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيـران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣م.

•فتحي أبو سيف (دكتور)

١٣ـ خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنـويين، مكتبـة سعيد رأفت،ط١، ١٩٨٨ م.

• عباس إقبال .

١٤ ـ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولـة الطاهريـة حتـى نهايـة الدولـة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .

•عبد المجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور)

١٥ ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي مـن القـرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والنشر. ط٢ المنصورة. ١٩٨٨م.

• عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)

١٦ ـ سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية. ط١. القاهرة ١٩٥٩م.

•عصام عبد الرؤوف الفقي (دكتور)

١٧ ـ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.

• علي محمد الصلابي (دكتور)

١٨ـ دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومـة التغلغـل البـاطني والغـزو الصليبي، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة ٢٠٠٦م .

• كلود كاهن :

١٩ـ تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطوريـة العثمانية، نقله إلي العربية : د/ بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط ٣ بيروت ١٩٨٣ م.

• كي لسترانج

٢٠ ـ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسـة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م

•محمد سعد السيد أحمد عزب (دكتور)

٢١ـ الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي (٤٢٩ـ٥٥٨هـ/ ١٠٣٧ـ١١٦٢م) شركة نوابغ الفكر، ط١ القاهرة ٢٠٠٩ م.

*محمد عبد العظيم أبو النصر (دكتور)

٢٢ـ السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م.

*محمد محمود إدريس (دكتور)

٢٣ـ سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقي (سياسته الداخلية وأهم مظاهر الحضارة في عصره) المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة ١٩٨٨ م.

*محمود عرفة محمود (دكتور)

٢٤ـالدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

*يحيى بن حمزة الوزنة (دكتور)

٢٥ـ مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، مكتبة الثقافة الإسلامية ط١ القاهرة ٢٠٠٧م.

ثالثا ـ الرسائل الجامعية :

*صلاح الدين علي عاشور

١ـ الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧ـ٥٩٠هـ/١٠٥٥ـ١١٩٣م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦م .

رابعا ـ الدوريات :

*صلاح الدين علي عاشور (دكتور)

١ ـ أبو سعد السمعاني وكتابه الأنساب، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث، العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥ م .

*ناجي معروف (دكتور)

٢ـ مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣م.

*يحيى الخشاب(دكتور)

٣ـ نظام الملك والمدارس النظامية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥م.

الصفاريون وإشكالية العلاقة مع العباسيين
(٢٥٤-٢٩٦هـ/٨٦٨-٩٠٨م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (*)

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.... وبعد

فقد أثار انتباهي منذ زمن بعيد عندما كنت طالبا في الكلية، وبخاصة عند دراسة " تاريخ الدولة العباسية " ذلك التشرذم، والتفكك الذي أصاب العالم الإسلامي، لاسيما بعد عصر القوة الذى تمتعت به تلك الدولة، فخرج من أحشائها كثير من الدول المستقلة، التي رغبت في إقامة كيان سياسي مستقل عن الدولة الأم، وكان من بين تلك الدول "الدولة الصفارية" التي كانت نتاج صراع القوي المحلية للاستئثار بالسلطة والنفوذ في تلك المنطقة وظلت فكرة هذا البحث تراود فكري وعقلي. ولما كانت مادة البحث متوفرة، ولكنها متفرقة متنوعة، ومتناثرة هنا وهناك، دون أن تقوم عليها دراسة مستقلة ــ على حد علمي ــ فكان ذلك حافزا لي للسعي لإخراج هذا البحث.

وتطالعنا الروايات التاريخية أن الدولة العباسية، والتي آل إليها أمر المشرق الإسلامي دأبت على إيجاد كيانات سياسية تابعة لها في تلك المنطقة، إذ كان الطاهريون ــ صنيع العباسيين ــ يعتبرون أنفسهم شركاء في توجيه سياسة الدولة العباسية في منطقة المشرق، وفي مقابل ذلك تمتعوا باستقلال داخلي. ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، وتضاءلت أهمية الطاهريين، وتقلص دورهم، وازداد ضمور هذا الدور مع ظهور قوة الصفاريين المتنامية، مما أغري العباسيين إلى الاستعانة بهم ضد الخارجين عليهم، لاسيما فرق الخوارج في المشرق.

وكانت إشكالية العلاقة المتوترة والمتأزمة ؛ هي المحور الذي ارتكزت عليه، وحاولت إبرازه في تلك الدراسة ، إذ كان الصفاريون والعباسيون دائمي التشاحن

(*)الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى مكة المكرمة

والتباغض، إلى درجة يصعب معها إقامة توازن بينهما. والمتابع لسير الأحداث يشعر، من الوهلة الأولي، بأن صراعا عربيا فارسيا قد نشأ نتيجة للاحتقان السياسي بينهما، يدفعه شعور بالحقد والكراهية وعداوة شرسة، من جانب الصفاريين الفرس، ضد استئثار العنصر العربي بالخلافة والسلطة. و ما لبث أن تحولت المجابهة السياسية إلى مجابهة عسكرية ؛ فرضت معطياتها الجديدة على المنطقة. وقد وقر في ذهن الصفاريين أن يكونوا مستقلين، وألا يكونوا أداة تستخدمها الخلافة لضرب القوي المحلية، أو استعمالهم كرديف لسد الفراغ الذي تركه الطاهريون، فعملوا على ترسيخ كيانهم السياسي في المنطقة، في ظل التلاحم القوى بين تلك الثلة السياسية المتشرذمة في المنطقة وبين الخلافة، والتي كانت تحركها مصالحها الخاصة، ولكن كانوا أحيانا يجدون أنفسهم مضطرين للارتماء في أحضانها لدرء غضب حكامها، وغضب الرأي العام الإسلامي آنذاك . بينما كان العباسيون يتعاملون مع الصفاريين بحذر، وبشعور من الخوف نتيجة طموحهم السياسي المتنامي، ولما أحس العباسيون بخطرهم الداهم، وتوجهاتهم الفارسية التسلطية بدأوا يميلون إلى اتخاذ مواقف حاسمة ضدهم، لاسيما وأن الاختلاف في الفكر السياسي بين الطرفين كان عميقا. فبينما كان العباسيون يريدون حكما مستقرا في المشرق الإسلامي، دون خلق أية مشاكل في تلك المنطقة الاستراتيجية، نرى أن الصفاريين كانوا دائمي التنازع والتخاصم مع الخلافة، ولذلك عمل العباسيون للقضاء عليهم بكل ما أوتوا من قوة، واستعانوا في ذلك بقوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة الدولة السامانية الصاعدة، الذين جدوا بدورهم في القضاء على فلول تلك الأسرة وأعوانها، فكانت النهاية الحتمية للدولة الصفارية من على المسرح السياسي للعالم الإسلامي.

حول بلاد سجستان:

سجستان أطلقت عليها المصادر العربية القديمة " سيستان " وهي بلاد سهلية يقع أغلبها حول بحيرة "ذره" [١]. وسيستان: يقال لها بالفارسية " نيمروز" أيضاً، ومعناها الأرض الجنوبية. يصفها ابن حوقل[٢] : بأنها أرض خصبة كثيرة الطعام والتمور والأعناب.... يرتفع منها غلة عظيمة من الحليت (البقل) حتى إنه غلب علي طعامهم. وتنسب سجستان إلي" سجستان بن فارس". وجاءت شهرة سجستان في الأساطير الفارسية القديمة علي أنها موطن "زال" أبي البطل القومي رستم، الذي كان

---

(١) كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٢، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م.

(٢) صورة الأرض: ص ٣٥٢، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩ م

بالغاً في الشجاعة والفروسية إلي حد أن "الفردوسي" ذكره في الشهنامة [٣]. وسجستان كما وصفها المقدسي [٤] بلاد حارة، أهلها من خيار الناس، مفردة بمحاسن لم تعرف لغيرها من البلدان، وما في الدنيا سوقة أصح معاملة، ولا أكبر مجاملة منهم، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة، ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة"

ولم يكن البلدانيون العرب المتأخرون يعرفونها إلا بمدينة سجستان. وعاصمة الإقليم مدينة " زرنج " وقد وصف لنا " ابن حوقل [٥] " هذه المدينة وصفاً دقيقاً، وكان بها دار الإمارة الصفارية [٦]. وقد أشار المقدسي [٧] إلي غني أهل سجستان وأنهم أصحاب عقل وعلم، ونوّه بقلعتها الحصينة وبمنارتيها المشهورتين في مسجدها الجامع. وكانت قاعدة الإقليم مدينة " زرنج " الشهيرة [٨]. ويؤخذ من أقوال الجغرافيين [٩] العرب أنها كانت قاعدة سجستان، ومن أشهر مدنها "بست" وهي ثانية المدن الجليلة في سجستان، وزي أهلها زي أهل العراق، وبها متاجر الهند، وبها نخيل وأعناب، قال عنها المقدسي [١٠] : لها جامع حسن وأسواق عامرة) وبها بلدة يقال لها " كركوية " كلهم خوارج.ومن عاداتهم أن المرأة لا تخرج من منزلها أبداً، فإن أرادت زيارة أهلها فبالليل. ويقول ياقوت [١١]: وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم، ولا يتحاشون منه، ويفتخرون عند المعاملة. ثم أردف قائلاً: حدثني رجل من التجار قال : تقدمت إلي رجل من سجستان لأشتري منه حاجه فماكسته (جادلته) فقال: يا أخي أنا من الخوارج لا تجد عندي إلا الحق، ولست ممن يبخسك حقك، وإن كنت لا تفهم حقيقة ما أقول فسل عنه، فمضيت وسألت عنه متعجباً.

---

(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية. ص٩٧، ٩٨، ترجمة د/ محمد علاء الدين منصور. دار الثقافة والنشر والتوزيع القاهرة. ١٩٨٩م

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٤٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧م.

(٥) صورة الأرض: ص ٣٤٩.

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٣ ص ١٩٠، دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٧) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤. تحقيق : د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٣.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥٠. ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص ١٩٠.

(١٠) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١،٢٤٠.

(١١) معجم البلدان: ج ٣ ص ١٩٠.

الفتح الإسلامي لإقليم سجستان:

بدأ الفتح الإسلامي لإقليم سجستان في عهد الخليفة الراشد " عثمان بن عفان سنة (٣٠ هـ/٦٥٠م) إلا أن شعب تلك المنطقة كان عصيا على الفتح الإسلامي، إذ ثار عدة مرات على الحكومة المركزية في المدينة المنورة، وكان عمال العرب يؤدبونهم في كل مرة، إلا أنه بعد مرور الوقت أخذ نفوذ الإسلام، والآداب العربية، يزيد يوماً بعد يوم ويتأصل في هذا الإقليم(١٢). وبعد مقتل عثمان دخلت الدولة الإسلامية في حالة من الفتن والقلاقل، ولحق بكثير من الناس الأذى فسلكوا سبيل المخالفة ولحقوا بالخوارج. ولما كان أهل سجستان في شدة نتيجة إيذاء عمال بني أمية لهم، اعتصموا بالولايات البعيدة عن أعين الخلافة، ومن هذه البلدان سجستان التي اتخذوها ملجأ من بطش الحكام(١٣).

ظهور الصفاريين وموقف الخلافة:

في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ /٦٨٤-٧٠٥ مذ) قام شيخ من كبار العرب يدعي" قطري بن الفجاءة " كان شاعراً فصيحاً وورعاً - من أهل سجستان - على مظالم الحجاج، وفساد أجهزته، فبايعه جمع كبير منهم وقام بهم ثائراً، ومع أن الحجاج أرسل جيشاً كبيراً لدفعه إلا أنه تمكن من هزيمته، وقتل عدد كبير من جند الحجاج في هذا المعركة.

وكانت سجستان قد أصبحت مركزاً رئيسياً للعيارين(١٤) الذين استطاعوا تنظيم صفوفهم، وتكوين فرقة حربية للوصول إلي مراكز القوة السياسية، والاستيلاء على الحكومة، لأن البلاد كانت تعج بالفقراء والمعوزين الذين امتهنوا حرفة صيد السمك من نهري "هيرمند"(١٥) و"ولي" (١٦) ونسج الخوص، وعمل القفاف، وعاش أهلها في

---

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٨٥، عني بمراجعته والتعليق عليه. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٨٧.

(١٤)العياريون: العيار في اللغة هو الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل هو الذكي الكثير التطوف، والعرب تمدح بالعيار وتذم به فيقال: غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في الطاعة لله عز وجل. ابن منظور في لسان العرب مادة (عير) ج٦ ص ٥٣، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣.

(١٥) نهر هيرمند: ويطلق عليه أيضا "هيلمند" وهو من أنهار سجستان المشهورة، ويقع على بعد ثلاثين ميلا من مدينة "زرنج" عاصمة الإقليم. لسترانج: بلدان الخلافة، ص ٣٧٧

ضيق وشدة لاسيما بعد سنة (٢٢٠هـ/٨٣٥ م) إذ تعرضت البلاد لقحط شديد فحدث كثير من الانفلات الأمني، والفوضى العارمة،الأمر الذي أدي إلي انعدام الأمن، وانتشار الفوضى، فكانت الظروف مهيأة لظهور رجل قوي يستطيع أن ينقذ البلاد و العباد(١٧).

والواقع أن التكوين التاريخي لإقليم سجستان كان خاضعا لمجموعة من المعطيات الجغرافية، والظروف الاقتصادية التي تدخلت بصورة فاعلة في إبراز شخصية سكانها، فظروف سجستان الاقتصادية كانت هي المحرك الرئيس لأهلها لإعلان التمرد علي السلطة المركزية في بغداد، لاسيما بعد تعرض بلادهم للعديد من سنوات القحط والجفاف التي تتعرض لها البلاد معظم الأحيان، بالإضافة إلي قلة المياه الصالحة للزراعة، ثم إن سجستان بحكم موقعها الجغرافي، وبعدها عن مركز الخلافة، أغرت زعماء المعارضة السياسية والمذهبية علي اتخاذها مقراً للعمل ضد الخلافة(١٨).

وكانت قد نشأت في معظم مدن إيران جماعات من الشباب والكبار، من الطبقات الدنيا والمتوسطة، من أهالي سجستان عرفوا بالعيارين، الذين تجمعهم روح التعاون والغيرة والحميّة علي رفعة ومكانة بلدهم، وكانت تجمعهم تقاليد وشروط هي : الفتوة والشجاعة، والاستقامة والصدق وحفظ الأسرار، ولما زادت أعدادهم أخذوا في تنظيم صفوفهم تحت إمرة رؤسائهم.

وكان الصفاريون ينقسمون إلي عدة فرق متناثرة في أنحاء سجستان، لذلك كان من الضروري توحيد صفوفهم تحت قيادة واحدة، وكان الصفاريون يعانون من جشع الطاهريين بهذه المناطق(١٩).

ومن المعروف أن العيارين بدأ ظهورهم في بغداد أواخر القرن الثاني الهجري (٨م) وكان تدخلهم حاسما بين الأمين والمأمون، فاستعان بهم الأمين لما فقد معظم

---

(١٦) نهر لي: ينشق من نهر" هيلمند" كمية كبيرة من الماء تجري في خمسة أفرع كبري تسقي كمية كبيرة من الأراضي بين مدينتي " بست " و" زرنج " منها نهر " لي ". لسترانج : بلدان الخلافة، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(١٧) مجهول المؤلف: تاريخ سجستان، ص ١٥٥، ترجمة :محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

(١٨) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهرين إلى بداية الغزنويين، ص ٤١، مكتبة سعيد رأفت،ط١ ١٩٨٨ م.

(١٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٥٦.

جيشه، حتى إنه اضطر إلي بيع أواني الذهب، والفضة، والمتاع، والأقمشة النفيسة، وأعطاها للعيارين للدفاع عنه، وعن العاصمة بغداد [٢٠].

لاشك أن ظهور الصفاريين يعتبر الخطوة الأولي في سبيل استرجاع الاستقلال الفارسي للبلاد الفارسية، وحلقة من حلقات التآمر الفارسي علي السيادة العربية[٢١].

ويرجع ظهور هذه الدولة على مسرح الأحداث السياسية إلي زمن خلافة " المتوكل على الله "العباسي سنة(٢٣٧هـ/١٨٥١م) حينما كان يلي إقليم خراسان وملحقاته " طاهر بن عبد الله " [٢٢]أحد أمراء الدولة الطاهرية [٢٣]. ولما تولي خراسان " محمد بن طاهر"[٢٤] (٢٤٨_٢٥٩هـ/٨٦٢_٨٧٢م) لم يعبأ بدولته، في الوقت الذي وقعت فيه السلطة المركزية في بغداد تحت نفوذ الأتراك [٢٥]، وكثرة

---

(٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤.

(٢١) محمود عرفة محمود : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، ص١٠٨ ، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٢٢) طاهر بن عبد الله: تولي الإمارة بعد موت أبيه " عبد الله بن طاهر " (٢١٣_٢٣٠هـ/٨٢٨_٨٤٤م)وكان الخليفة العباسي قد أنابه مكان أبيه، وقد ظل يحكم المشرق الإسلامي مدة ثمانية عشر عاما على خراسان وسجستان بعدالة وتقوى. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

(٢٣) الدولة الطاهرية:(الطاهريون) تنسب هذه الإمارة إلي " طاهر بن الحسين " الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ثم لم يلبث أن ولاه على إقليم خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فاتخذ من نيسابور(حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تظفر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد. محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ٦٨، ٦٩.

(٢٤) كان محمد بن طاهر آخر حكام الأسرة الطاهرية في المشرق الإسلامي، حيث قدّر لهذه الأسرة أن تزول على أيدي الصفاريين، وكان محمد بن طاهر معاصرا لندين قويّي الشكيمة هما : الداعي الكبير " الحسن بن زيد العلوي " و" يعقوب بن الليث الصفار " فكان ضحية لثورتيهما على الخلافة العباسية. وقد وصفة المؤرخون بأنه كان رجلا غافلا ضعيف النفس ماجنا، وكان عماله يعاملون الناس في ولاياتهم باستبداد وظلم حتى تمنوا زواله. عباس إقبال : إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

(٢٥) نفوذ الأتراك في الدولة العباسية: اعتمد الأمويون على العنصر العربي في جميع شؤون الدولة، وأسندوا إليهم مناصب الدولة، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية، ولما آل الأمر إلى العباسيين اعتمدوا على الموالي من الفرس الذين قامت على أكتافهم دولتهم، وأخذوا عنهم كثيرا من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني، ولما ولي

منازعاتهم، مما أضر بمركز الخلافة في الأطراف الشرقية، لاسيما خراسان، مما مهد الطريق أمام " يعقوب بن الليث " للظهور على المسرح السياسي للدولة الإسلامية [٢٦].

التوسع الصفاري وموقف الخلافة العباسية:

كان يعقوب مقرباً من القادة والجند كريماً معهم، ينفق ما يكتسبه علي إطعامهم، فساعده طموحه على أن ينتقل من زمرة الصفاريين إلي جماعة العيارين، وأخذ يترقى حتى أصبح رئيس جماعتهم، وزادت أمواله، وكثر أتباعه، لأنه كان يرسل أصحابه إلي المناطق القريبة لمراقبة الطرق، وإرشاد القوافل، وأخذ إتاوات الطريق لها، كما فرض الإتاوات علي الأثرياء في كل المدن، ومنها كان ينفق علي متطلبات العيارين وتسلحهم، وكان ينفق كل ما يحصل عليه بسخاء علي أقاربه وأصحابه، مما كان له أبلغ الأثر في احترام يعقوب وتقدمه علي زملائه في كل ما يقومون به[٢٧]. وتمكن يعقوب بقوة جماعته المنظمة أن يفرضوا سيطرتهم وسيادتهم علي مدينة "زرنج" عاصمة سجستان، ثم أخذ طريقه نحو التوسع على حساب ضعف الطاهريين[٢٨].

وبعد أن وطد "يعقوب بن الليث" سلطانه، وأمن شر كل من الأتراك والخوارج[٢٩]، تطلع إلي التوسع، علي حساب الطاهريين ولم يقنع بما تحت يديه،

المعتصم الخلافة، وكانت أمه تركية، تواجد الأتراك بشكل واسع، وأسند إليهم مناصب الدولة، حتى إنه عني بشرائهم من الأسواق، وبذل في ذلك أموالا طائلة. ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا معول هدم في جسد الدولة العباسية عندما ضعف خلفاؤها، غير قادرين على الوقوف في وجوههم. بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٠٠، ١٠٢.

(٢٦) خواندمير: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ص٥٧. ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م

(٢٧) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤ ص٤١٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢٨) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول. ص٣٣٥، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢٩) شهد عصر يعقوب في بدايته معارك طاحنة بينه وبين الأتراك المتحصنين بجبال سجستان المنيعة، إذ كانوا يتمتعون بوفرة الجند والعتاد، وكان يعقوب يعلم أن هؤلاء الأتراك الدائمي التمرد لن يتركوه مطمئنا، وكان هو نفسه يدرك هذه الحقيقة، ويقول :" إذا أنا استرحت فإنهم لن يدعوني أستريح ". أما بالنسبة للخوارج فقد لقنهم يعقوب درسا قاسيا سنة (٢٥١هـ/٨٦٥ م) بعد أن أعلنوا العصيان عليه أكثر من مرة، لاسيما في عهد " عمار

فاتجه صوب " هراة " سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) والتي كان يحكمها " الحسين بن عبد الله بن طاهر " من جانب الأمير محمد بن طاهر الثاني آخر أمراء هذه الأسرة، وكانت هذه المدينة مثل سائر ولايات خراسان في هذا الوقت ضمن ملك آل طاهر[٣٠]. وكانت هراة تعد بوابة خراسان الشرقية، وهي من الحصانة والمنعة مما يجعل اقتحامها أمرا صعبا، إذ كانت المدينة تقع في أحضان الجبال، ويخترقها نهر عظيم (نهرهراة) ولها قلعة حصينة، فتحصن بها الحسين، الذي أمر بملء الخنادق بالمياه، وتخزين المواد الغذائية، بما يكفي المدينة مدة كبيرة، وهيأ نفسه لحصار طويل، ولكن يعقوب استطاع الاستيلاء عليها بعد أن ضرب حولها الحصار، بل إنه تمكن من القبض على حاكمها " الحسين بن عبد الله "، ثم أرسل إلي الخليفة " المعتز بالله "[٣١]يخبره بانتصاره،ويقول: "إنني طائع لكم وتابع"[٣٢] فأرسل إليه المعتز كتابا أورد ابن خلكان[٣٣] نصه نقلا عن رواية للرسول الذي أرسله الخليفة للصفار، قال فيه: " صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زرنج (كرسي بلاد سجستان) فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت ولم أسلم عليه، وجلست بين يديه من غير أمره، ودفعت الكتاب إليه، فلما أخذه قلت له: قبّل كتاب أمير المؤمنين، فلم يقبّله، وفضه، فتراجعت القهقري إلى باب مجلسه الذي كان فيه، ثم قلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، فأعجبه ذلك، وأحسن مثواي، ووصلني، وأطلق الطاهرية "، وتخلي يعقوب عن هراة، ثم حاول ترضية الخليفة بأن أرسل إليه "نموذجاً مصغرّ لمسجد من الفضة وكثير من الدواب والثياب الفاخرة" [٣٤]. وبعد عودة يعقوب منتصراً إلي سجستان أنشده أحد الشعراء شعراً بالعربية فلم يفهم واستنكف ذلك، فطيب وزيره " محمد بن صيف السجزي "

الخارجي " الذي علا شأنه وزاد نفوذه، وجمع جيشا عظيما في مدينة " نيشك" (إحدى مدن سجستان) من أجل محاربة يعقوب، ولكن الأخير استطاع القضاء عليه وعلى تمرده. لمزيد من التفاصيل أنظر، محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١١٦، ١١٧.

(٣٠) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٢٢٩، ٢٣٠، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٨٥م ـ خواندمير: روضة الصفا، ص٥٨.

(٣١) المعتز بالله: هو أبو عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة (٢٣٢هـ/٨٤٦م) وأمه أم ولد رومية تسمي " قبيحة " بويع له بالخلافة عند خلع المستعين بالله سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م) وله تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٦. تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٩م.

(٣٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ٤٧٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٧٩م.

(٣٣) وفيات الأعيان: ج ٦ ص ٤٠٤.

(٣٤) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧١، ١٧٢.

خاطره، وأنشده شعراً بالفارسية، عده صاحب تاريخ سجستان أول ما قيل بالفارسية من شعر. وهذا يدل علي حقد يعقوب وشعوبيته علي كل عربي[٣٥].

اتجه يعقوب بقواته ناحية " بوشنج " لمحاربة " إبراهيم بن الياس " (أحد قادة الطاهريين) وترك أخاه " علي بن الليث " مع الأسلحة والأسري في هراة ، فلما التقي الطرفان في بوشنج تلقي إبراهيم وجيشه هزيمة نكراء، وولي منهزما إلي نيسابور، حيث التقي هناك بـــ "محمد بن طاهر" وأفهمه أنه لا يمكن القتال مع هذا الرجل (يقصد يعقوب) لأن جيشه مخوف، مما دفع حاكم خراسان الطاهري إلي استمالة "يعقوب" بأن فوض إليه ولاية سجستان، وكابل، فضلا عن كرمان، وفارس، وأرسل إليه الخلع [٣٦].

ويري البعض[٣٧] أن محمد بن طاهر كان يهدف من وراء هذا التفويض صرف نظر يعقوب عن إقليم خراسان، وشغله بصحاري فارس وكرمان، لأنه كان يدرك أطماعه في هذين الإقليمين[٣٨]، غير أن هذه الخدعة لم تنطل على يعقوب، الذي قفل عائدا إلي سجستان، وكتب إلي الخليفة العباسي " المعتز " أن يوليه علي البلاد التي تم الاستيلاء عليها [٣٩].

واتجه فكر يعقوب من أجل زيادة سعة بلاده إلي كرمان وفارس. وكانت كرمان في هذا التاريخ جزءا من أملاك الطاهريين، ولكن بسبب ضعف الأمير "محمد بن طاهر" لم يكن له نفوذ بها، حتى طمع والي فارس "علي بن الحسين بن قريش"، من طرف المعتز، في كرمان، ولما كان الخليفة يخشي من هذا الرجل وعصيانه، واستيلائه علي خوزستان والعراق، فقد أمره بالسيطرة علي كرمان، وأرسل بنفس الأمر إلي يعقوب [٤٠].

والمستغرب أن الخليفة العباسي أعطي ولاية "بوشنج" إلي أكثر من حاكم. فعندما كتب إليه يعقوب أن يوليه علي كرمان وفارس. كان " علي بن الحسين " أحد عمال الطاهريين قد أقره الخليفة علي حكم هذه المناطق نظرا لضبطه الأمور هناك، لاسيما بعد أن ضعف الطاهريون عن حماية تلك المناطق وفي الوقت نفسه أصدر مرسوماً بتولية يعقوب أيضا، مستخدما أسلوب المراوغة السياسية، حتى يتجنب

---

(٣٥) السابق: ص ١٧٠.

(٣٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥ ـ خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

(٣٧) فتحي أبو سيف: خراسان، ص٥٤، ٥٥. محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١٢٠.

(٣٨) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص٢٥٧، تحقيق. سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١بيروت، ٢٠٠٣.

(٣٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧٥.

(٤٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٣٨٥. ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩.

الصدام مع الصفاريين، وخاصة بعد تصاعد قوتهم، هادفاً إلى أن يتوالد العداء والقتال بين علي ويعقوب ــ وكان كلاهما يتظاهر بطاعة الخليفة ويبطن العداء له ــ فيستريح من شر الاثنين[٤١] لاسيما أن "علي بن الحسين" حاكم فارس كان قد تلكأ في إرسال الخراج إلي الخلافة، مما اعتبره الخليفة نوعا من الخروج عن الطاعة غير المقبول، والذي يُعد آنذاك نوعا من الخضوع السياسي للخليفة العباسي[٤٢].

ويري البعض[٤٣] أن الخليفة العباسي كان يعلم أن كلا من يعقوب بن الليث وعلي بن الحسين يظهران طاعة غير حقيقية، من أجل خدمة مصالحهما الشخصية، ولذلك كان يريد ضرب أحدهما بالآخر.

وزحف "يعقوب بن الليث" نحو كرمان، ولكن علي بن الحسين كان قد وجه أحد قواده ويدعي "طوق بن المغلس" إلي هناك فتحصن بها، فلجأ يعقوب إلي خداع طوق بأن موّه عليه، فانصرف عنه مرحلتين، فوضع طوق آلة الحرب، وأقبل على الشرب والملاهي، فباغته يعقوب، وأحاط به وبأصحابه، وتمكن من أسره، ودخل كرمان وملكها، ثم سار في العام التالي إلي "شيراز" عاصمة فارس، واستولي عليها بعد أن هزم ابن الحسين، وأخذ ما في بيت المال، وجبي الخراج، فأرسل إليه الخليفة " المعتمد على الله "[٤٤] ينكر عليه فعله بقوله: "طالما أن مملكة فارس لم نعطك إياها، فلماذا تقود الجيوش إليها من فترة إلى أخرى"[٤٥]، وكتب إليه الموفق بولاية " بلخ " و "طخارستان" و"السند" فقبل يعقوب ذلك، وعاد إلي"بلخ" ثم عاد إلي سجستان، وأرسل إلي الخليفة رسولا يحمل إليه كثيرا من الهدايا[٤٦]. ولما فارق يعقوب بلاد فارس استعاد الخليفة سلطانه عليها، وأرسل إليها أحد عماله[٤٧].

---

(٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥.

(٤٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ١٩٧.

(٤٣) السابق: ج ٦ ص ١٩٧.

(٤٤) المعتمد على الله: هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة (٢٢٩هـ/٨٤٣م) وأمه رومية اسمها " فتيان " ولما قتل " المهتدي " كان المعتمد محبوسا من قبل أخيه، فأخرجوه وبايعوه، ثم استعمل أخاه " الموفق طلحة " وجعله وليا لعهده، لما كان من ضعفه وعدم قدرته على شؤون الحكم، وانهمك المعتمد في اللهو الملذات، واشتغل عن الرعية فكرهه الناس، وأحبوا أخاه الموفق طلحة.ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٢٧، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٤٥) خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٨.

(٤٦) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٣٨٣.

(٤٧) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩، ٤٢.

ويعتبر "يعقوب بن الليث" أول من عمل علي نشر الإسلام في الجزء الشرقي من الدولة العباسية (أفغانستان الحالية) ومد اتساع ورقعة الدين حتى القسم الأعلى لوادي السند قبل الغزنويين(٤٨). والواقع أن يعقوب كان مدفوعاً بهجومه على تلك المناطق بتصرفات حاكمها رتبيل (أي راكب الأفيال) الذي أقدم علي مساعدة منافسه " صالح بن نصر الكناني " في سجستان، فلم يتردد في السير بقواته ناحية كابل، وألحق برتبيل هزيمة ساحقة في سنة(٢٥١هـ/ ٨٦٥ م) ومن ثم أصبحت هذه الولاية ضمن الولايات التابعة للصفاريين(٤٩). ولكن يبدو أن انشغال يعقوب بحروبه في كرمان وفارس جعل الخليفة المعتز يدخل هذه الولاية في طاعته مرة أخري، فغضب يعقوب بسبب أن خراجها يحمل إلي بغداد وليس إلي سجستان، وكان يفكر في العودة إليها مرة أخري لولا أن "ابن رتبيل"، الذي ألقي به في السجن، استغل انشغال يعقوب وهرب من محبسه سنة (٢٥٦هـ /٨٦٩م) حيث تجمع حوله أنصاره ومن والاهم من الناقمين علي حكم يعقوب، ومطالباً بدم أبيه، فسارع يعقوب بجيشه إليهم واستعاد سيطرته علي كابل من جديد، وخرّب كثيراً من المعابد والأصنام البوذية هناك وحمل معه غنائم ضخمة، وعددا من الأصنام الذهبية والفضية البوذية، وأرسل خمسين منها هدية للخليفة المتعمد على الله ليظهر له خدمته للإسلام(٥٠) .

التوجه نحو خراسان:

لما كانت خراسان هي أهم الولايات في شرق الخلافة العباسية، ومركز حكم الطاهريين، رأي "يعقوب بن الليث " أنه لا يكون مطمئناً في حكمه في سجستان إلا أن يصبح هذا الإقليم بين يديه، حتى يأمن شر الطاهريين المتحالفين مع الخلافة ـ لاسيما وأن الأخيرة كانت تماطل في الاعتراف بشرعية حكمه ـ قبل أن يشعرهم بقوته(٥١). وفي المقابل كان الطاهريون قد وصلوا إلي درجة كبيرة من الضعف والانهيار، الأمر الذي أطمع يعقوب في حكم هذه الولاية، مستندا في ذلك إلي قوة الجيش الذي يمتلكه، وخاصة عندما تمكن من هزيمة "الحسن بن زيد العلوي"(٥٢) صاحب طبرستان، والذي

(٤٨) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٠٧.

(٤٩)الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ٢٤٤، ترجمة عن الفارسية : د/ عفاف السيد زيدان، دار الطباعة المحمدية، ط١، القاهرة ١٩٨٢ م - تاريخ سجستان: ص١٧٦، ١٧٧.

(٥٠) الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ٢٤٤.

(٥١) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٢٥٩.

(٥٢) الحسن بن زيد العلوي: كان الحسن بن زيد في الكوفة منضما إلى حركة "يحيي بن عمر العلوي" ضد الخلافة العباسية السنية، ولما قتل يحيي فر بعض من أصحابه ممن نجوا خوفاً من بطش الخليفة العباسي، وكان من بينهم " الحسن بن زيد " الذي توجه إلى الري لاجئاً إليها، وبقي فيها مدة حتى سمحت الظروف أن ينتقل إلى طبرستان ويؤسس ما

كان قد استولي لتوه على جرجان من "محمد بن طاهر" سـنة (٢٥٧هـ/٨٧٠م)[٥٣] فتوطدت أقدام يعقوب بذلك في سجستان، وهراة، وما حولهما، ولم يبق للطاهريين في خراسان سوي "نيسابور" التى تحصنوا فيها، بعد أن تقلصت ممتلكـاتهم فـي معظـم المشرق الإسلامي، والتي تقاسمها كل من يعقوب بن الليث، والحسن بن زيد العلـوي، فضلا عن الخوارج، فوجد يعقوب أن الفرصة مواتية ليضم المشرق كله تحت لوائـه، وخاصة بعد أن اتصل به بعض أهل نيسابور (عاصمة خراسان) وطلبوا إليه القـدوم، لما أحسوا عدم قدرة ابن طاهر على حمايتهم [٥٤].

وقد حاول أمير خراسان آنذاك من قبل الخلافة " محمد بـن طـاهر" (٢٤٨-٢٥٩هـ /٨٦٢-٨٧٢م) استرضاء يعقوب بأن أرسل إليه بكتاب يعترف فيه بشرعية حكمه علي سجستان، فكان أول اعتراف رسمي من جانب الطاهريين بحقيقة الوضـع الجديد[٥٥]. والحقيقة أن " هراة " كانت البوابة الرئيسية لاستيلاء يعقوب علـي إقلـيم خراسان، فبعد أن أخضعها سنة (٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م) توجه إلي مدينـة " بلـخ " ثـم توالي سقوط المدن الخراسانية، لاسيما بعد أن عين يعقوب عمالاً من قبله علي هـذه الولايات، ولم يبق أمام يعقوب سوي نيسابور عاصمة الإقليم[٥٦].

ولما رأي الصفار أن الخلافة تمر بمرحلة صعبة نتيجة سيطرة الأتراك عليهـا، ورغبة منه في الحصول علي موافقة الخلافة علي إقراره علي الولايات التي اسـتولي عليها ؛ قام بمراسلة الخليفة المعتمد سنة (٢٥٧هـ/٨٧٠م) لاسترضـائه، وأرسـل إليه العديد من الهدايا كان من بينها أصنام الذهب والفضة - التى استولي عليها مـن معابد البوذية أثناء استيلائه علي كابل - حتى يبين للخلافة دوره فـي الـدفاع عـن نصرة الإسلام. ولم تجد الخلافة بدأ من الاعتراف بولايته علـي فـارس، وكرمـان، وسجستان، فضلاً عن كابل[٥٧].

ويري البعض[٥٨] أن يعقوب أراد أن يؤمن وجوده في كل من كابل، وسجستان، وكرمان، وفارس بضم ولاية خراسان، وأنه أجل هجومه عليها حتى يتمكن من توطيد

يعرف بالدولة الزيدية مستغلاً بعدها من مركز الخلافة، وارتباك الأوضاع السياسية فيها. إبـراهيم سـلمان الكـردي: البويهيـون والخلافـة العباسـية ص٦٣، دار العروبـة للنـشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥٣) خواندمير: روضة الصفا، ص٩. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي،ج٣ ص ٧٤.

(٥٤) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٨٥.

(٥٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٣٣.

(٥٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧.

(٥٧) مجهول: تاريخ سجستان، ص١٨٦.

(٥٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

سلطاته علي تلك الجهات أولاً، أو لأنه أراد أن يستغل موارد تلك الولايات الاقتصادية لتزويد جيشه بالعتاد اللازم حتى يتمكن من تحقيق أهدافه، باعتبار أن خراسان هي أهم الولايات التابعة للطاهريين، ومقر حكمهم(٥٩). فضلاً عن أن يعقوب أحس بالزهو والفخر عندما اعترفت الخلافة بشرعية حكمه في الولايات التي استولي عليها، فأراد أن يحل محل الطاهريين في خراسان. وكان حكم الطاهريين قد تعرض في السنوات الأخيرة للضعف والتراجع، خاصة حكم محمد بن طاهر، وذلك بعد أن فقد الطاهريون هيبتهم وقوتهم، وتفتت أملاكهم بخروج العديد منها مثل: سجستان، وطبرستان، وبلاد ما وراء النهر، مما أدي إلي ضعف اقتصاديات الدولة، ولم يلبث أن كثرت المنازعات بين أبناء البيت الطاهري. وتذرع يعقوب في سنة (٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م) بمطاردة بعض الفارين منه إلي نيسابور عاصمة الطاهريين في خراسان، ويدعي "عبد الله بن محمد بن صالح"، وطلب من الأمير الطاهري تسليمه إياه فاستنكف الأخير من طاعة أمره فهيأ بذلك له حجة قوية لمهاجمة نيسابور(٦٠). ولما كان يعقوب يعلم جيداً مدي العلاقة القوية التي تربط الطاهرين بالعباسيين، فلم يرد أن يعلن حربه علي الطاهرين مباشرة، حتى لا يظهر أمام الرأي العام الإسلامي بصورة العاصي أو المتمرد، فتحرك إلي نيسابور مدعياً أنه يريد محاربة علويي طبرستان الذين عصوا الخليفة، واستولوا علي طبرستان من يد عمال الخليفة، وطلب عبد الله بن محمد بن صالح من الأمير محمد بن طاهر أن يمنع يعقوب، لكنه رفض مجابهته لشدة ضعفه ، قائلاً : لا طاقة لنا اليوم بيعقوب وجنوده، فاضطر عبد الله وأخواه الهرب إلي الدامغان، وجرجان، واعتصموا بالحسن بن زيد الداعي الكبير الذي كان يسيطر آنذاك علي طبرستان، وجرجان. ولما اقترب يعقوب من نيسابور – راسله أتباع محمد بن طاهر وحاشيته وأطلعوه سراً علي سوء وضع الطاهريين، وسهولة استيلائه علي نيسابور(٦١)، وطمأنوا محمد من ناحية يعقوب وحسن سيرته، حتى وصل يعقوب (٢٥٩ هـ/٨٧٢م) إلي نيسابور فقبض علي محمد بعد أن وبخه كثيرا علي عدم كفايته، وضعف رأيه، وعمله، ثم صفده بالأغلال وأرسل معه نحو مئة وستين من حاشيته إلي سجستان فحبسوا هناك، وبذلك سقطت الأسرة الطاهرية علي يد يعقوب(٦٢).

وبعد هذا الانتصار الذي حققه يعقوب،أصبح هو القوة الوحيدة المسيطرة على المشرق الإسلامي، فأراد أن يوليه الخليفة العباسي أمر المشرق، حتى يستمد من تلك

(٥٩) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٥٩، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

(٦٠) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص٢٢٤.

(٦١) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٦٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦. ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٢.

التولية نفوذا روحيا يضمه إلي ما حصل عليه من نفوذ عسكري [٦٣]. ويذكر ابن الأثير: أن " يعقوب بن الليث " أرسل إلي الخليفة العباسي المعتمد يصف له أحوال خراسان، وكيف تمكن من القبض على آخر أمرائهم وهو محمد بن طاهر، لعجزه وضعفه، وأن أهل خراسان سألوه المسير إليهم، كما يذكره أيضا بتغلبه على الزيديين في جرجان وطبرستان.

والواقع أن الموقف الذي اتخذه يعقوب بن الليث من الطاهريين كان تحديا سافرا لهيبة الخلافة، وحرماتها من نصير موال لها، على الرغم مما وصل إليه الطاهريون من ضعف وهوان، وإن كان يعقوب نفسه قد وعد الخلافة بالتأييد والطاعة، كما تعهد أن يقدم إلي الخليفة كل ما يحتاجه من أموال، فضلا عن حمله خراج الأقاليم الخاضعة له[٦٤]. على أن الخليفة العباسي لم يكن راضيا عن تصرف يعقوب هذا، على الرغم من حرصه على هيبة الخلافة في المقام الأول، وأن يشعر ولاة الأقاليم بأنهم خاضعين لها، تمام الخضوع، في كل ما يقومون به من أعمال، ولذلك لم تلق مطالب يعقوب بشأن خراسان قبولا حسنا، وردت رسله محملين برسالة من الخليفة جاء فيها: " إن أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وأنه يأمره بالانصراف إلي الذي ولاه إياه، وإنه لم يكن ليعقوب أن يفعل ما فعل بغير أمره، فليرجع، فإن فعل كان من الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين " [٦٥] .

يعقوب والحسن بن زيد العلوي:

بعد أن أكمل يعقوب فتح نيسابور، وإسقاط الدولة الطاهرية، ظل مقيما في خراسان حتى جاءته الأخبار بأن "محمد السجزي" سار من الدامغان إلي جرجان، متحالفا مع "الحسن بن زيد العلوي" فقرر مهاجمة جرجان، على الرغم من علمه مدي الخطورة التي يشكلها عبور تلك المناطق لطبيعتها الجبلية، لاسيما غاباتها الكثيفة التي يستعصى معها عبور القوات، فضلا عن أمطارها الغزيرة الدائمة [٦٦]. ومن أجل تجنب ذلك أرسل رسالة إلي الحسن بن زيد يطلب منه تسليم غريمه والذين التجئوا معه إلي جرجان، ولما رأى أن الحسن يماطله تحرك بجيشه متوجها إلي جرجان سنة (٢٦٠هـ/٨٧٣م) وفي نفس الوقت حاول استخدام الحيل العسكرية بأن استمال إليه أحد أعوان الحسن بن زيد ووعده بولايتي جرجان واستراباذ، إن انضم إليه وسهل له مهمته العسكرية [٦٧]. ولما علم الحسن بما عزم عليه يعقوب من مهاجمة بلاده هرب

([٦٣]) بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٣٣.

([٦٤]) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧.

([٦٥]) خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

([٦٦]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢.

([٦٧]) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٤.

إلي بلاد الديلم، فما كان من يعقوب إلا أن تعقبه، واستمرت تلك المطاردة مدة شهرين متتاليين حتى أنهك يعقوب وقرر العودة إلي بلاده، وفي أثناء العودة واجهه غضب الطبيعة المتمثل في هطول الأمطار الغزيرة، وما يعقبها من سيول عارمة، والتي قدره المؤرخون بأنها استمرت أربعين يوما دون انقطاع، مما أعاق تحرك الجيش من مكانه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعرضت المنطقة إلي زلزال عنيف، دفن معه أكثر من ألفي جندي من جنود يعقوب تحت الطين والتراب(٦٨).

ولا شك أن ما تعرض له يعقوب وجيشه قد فت في عضده، وكان له أسوأ الأثر على جيشه فاضطر للعودة إلي بلاده منهكا، وفشلت حملته التي لم تؤت ثمارها، بل دمرت معظم جيشه، ولم يحصد منها أية مكاسب(٦٩).

استيلاء يعقوب علي خراسان وانتهاء العلاقة الحسنة:

أكدت الأحداث التاريخية أن يعقوبا في تعامله مع الخلافة لم يصل إلى مرحلة النضج في تكوينه السياسي، وأثبت أنه قليل الخبرة والدراية السياسية، إذ كان استيلاؤه علي خراسان هو السبب في تغير العلاقة الحسنة التي جمعت بين الصفاريين والعباسيين، حيث شعرت الخلافة بخطورة أطماع يعقوب التوسعية التي أصبحت واضحة، لاسيما بعد سيطرته علي خراسان، وإنهاء الوجود الطاهري فيها. وقد حاول يعقوب أن يبرر فعله بأنه حريص علي هيبة الخلافة في نظر أعدائها لاسيما الشيعة المتربصة بها. وعدم قدرة الطاهريين في الحفاظ علي مكتسباتها السياسية.

وحدث ما لم يكن متوقعاً إذ جاء رد الخلافة مستنكراً لما فعله يعقوب في خراسان، ومطالبته بتركها و ألا يشق عصا الطاعة، وعودته سريعا إلي ولايته في سجستان، وإلا اعتبرته الخلافة خارجاً عن الشرعية، وعاملته معاملة المتمردين(٧٠). وكان يعقوب قد أقدم علي هذا العمل دون مشورة الخلافة وعلي غير رضاها، فزادت هوة الخلاف بينهما. من ناحية أخري أرسل أهالي " جرجان " جماعة من كبرائهم إلي بغداد لمقابلة الخليفة يتظلمون فيها من ظلم يعقوب وسوء معاملته لهم، فغضب غضبا شديدا، وأعلن استنكاره لما قام به يعقوب واعتبره خروجاً عن الطاعة، وأمر أن يلقي القبض على أصحاب يعقوب وغلمانه. الذين أرسلهم يعقوب من قبل لإقناع الخلافة بتفهم موقفه تجاه استيلائه على نيسابور. وسجنهم وصادر أموالهم(٧١).

---

(٦٨) ابن الأثير: السابق، ص ٢٤٦.

(٦٩) تاريخ سجستان: ص ١٩١ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣ ص٧٥.

(٧٠) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥٠٧ - ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٣.

(٧١) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

وكان واضحا منذ البداية من أن أطماع "يعقوب بن الليث " ليس لها حدود، وظهر ذلك واضحا من خلال طموحاته المتزايدة، ولما أدرك الخليفة العباسي" المعتمد "مدي الخطورة التي يشكلها يعقوب على دولته أضمر له العداء. وتأزمت العلاقة بينهما، وذلك عندما أصدر الخليفة "المعتمد على الله" أوامره لـ" عبيد الله بن عبد الله بن طاهر" وإلي شرطة بغداد [٧٢] بجمع حجاج خراسان، وطبرستان، وجرجان، والري، وهى الولايات التي اشتكت من حكم يعقوب، وألقي عليهم منشور الخلافة الذي جاء فيه : "... لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سجستان والآن وقد ظهرت على وجناته علامات الطغيان فإننا نحكم بلعنه "[٧٣]. وفي هذا المنشور يعلن الخليفة أن يعقوبا لم يعد حاكما على خراسان، كما أعلن أنه يعتبر كافرا، بل اتهمه بالتشيع، وعليه أن يعود إلى رشده، وأن سلطته غير شرعية[٧٤]. وقد حاولت الخلافة إثارة المدن الخراسانية ضد يعقوب فأعلنت تشككها في تحول يعقوب إلي المذهب الشيعي لإثارة الأهالي ضده، والتحاقه بأحد الفرق الشيعية، وخاصة فرقة الإسماعيلية التي بدأت تظهر في المشرق الإسلامي[٧٥]، والتي اتخذت طابع السرية في انتشارها فحاولت الخلافة الإساءة إليه، وروجت الإشاعات ضده[٧٦]. ويبدو أن تلك الشائعات قد آتت أكلها، فما إن عاد يعقوب إلي إقليم سجستان سنة (٢٦١هـ/٨٧٤م) حتى سارع عمال المدن الخراسانية بالخروج علي طاعته مستندين إلي ما أشاعته الخلافة ضده، وانتسابه للمذهب الشيعي[٧٧]. ويبدو أن ما أشاعته الخلافة ضد يعقوب قد شجع كثيرا من الأقاليم للخروج عليه، فما إن عاد من جرجان حتى بلغه أن أهل بخاري قد

---

(٧٢) جرت العادة أن يتولي الشرطة في بغداد أحد أعضاء الأسرة الطاهرية، إذ كان الخليفة العباسي عندما يعين أحدهم لإمارة خراسان ينيب أخاه، أو ابنه، أو أحد من بني عمومته في هذا المنصب. والواقع أن الطاهريين كانوا أوفياء للخلافة العباسية، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم أمناء على توجيه سياسة العباسين في المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، ولذلك تمتعوا بنفوذ داخلي في إدارة شئون الإقليم طوال العصر العباسي. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧ ـ بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٢٩.

(٧٣) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٢. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٧٢.

(٧٤)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٣.

(٧٥) فرقة الإسماعيلية : الإسماعيليون من أشهر فرق الشيعة وأكبرها، وهي الفرقة التي ادعت أن الإمام جعفر الصادق قد نص على إمامة ابنه إسماعيل من بعده. وقد ظهرت هذه الفرقة منذ القرن الثالث الهجري(٩م) فصاعدا وهي مزيج من فرق غالية معظمها من الشيعة. محمد السعيد جمال الدين:دولة الإسماعيلية في إيران،٤٧، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥ م.

(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية ،ج ١١ ص ٣٩.

(٧٧)الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٢.

أسقطوا اسمه من الخطبة، وأحلوا محله اسم "نصر بن أحمد الساماني" فضلا عن خروج أحد أعوانه المقربين وهو "أحمد بن عبد الله الخجستاني" الذي كان من أشد المخلصين ليعقوب، حتى إنه هاجم نيسابور سنة (٢٦٢هـ/٨٧٦م) واستولي عليها وأخرج عامل يعقوب منها، مستغلا الكوارث والمحن التي تعرض لها الأخير، وضرب السكة باسمه [٧٨].

وقد يسأل البعض: لماذا وقفت الخلافة هذا الموقف العدائي تجاه يعقوب، ألم يكن من الممكن السيطرة علي طموحاته؟. يري البعض[٧٩] أن السبب المباشر لهذا الموقف هو تحريض الطاهريين في بغداد حيث كانت لهم ولاية الشرطة، ولاشك أن الطاهريين كان يملؤهم الحقد والكراهية تجاه الصفاريين لما نالهم منه من إسقاط دولتهم وزوالها[٨٠]. بينما يري البعض الآخر[٨١] أن السياسة التي انتهجتها الدولة الصفارية ،المتمثلة في استعادة أمجاد الفرس، والمناداة بعودة الوجود الفارسي، لاسيما بعد أن أعلن يعقوب انه من سلالة آل ساسان، والتى كان لها صداها السلبي عند العباسيين.

على كل حال لم يعبأ يعقوب بما جاء في رسالة الخليفة، وراح يوطد سلطانه على الأقاليم المتاخمة، حتى بلغت حدوده العراق مقر الخلافة العباسية.

تقدم يعقوب ناحية العراق سنة (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م)

ويتضح من معارضة الخلافة سيطرة يعقوب علي خراسان ؛ أنها حاولت أن تضعه في وقف حرج من الناحية الشرعية – وذلك بتحريض أهالي الولايات التابعة له، وأقدمت علي عزله ولعنه، وسارع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر – والي شرطة بغداد – بإرسال عشرات النسخ من المنشور إلي كافة الولايات لتذاع بين الناس، وخاصة خراسان لإحراج يعقوب أمام الأهالي، وتحريضهم علي الخروج عليه[٨٢].

وقد أثارت كل تلك التحركات غضب يعقوب، وبدلا من أن يتدارك الموقف، اثبت عدم درايته وقصر نظره السياسي، فتحرك يريد احتلال بغداد، متحديا الخلافة، معتمدا على قوة جيشه وطاعة جنده، وفوجئت القوات الصفارية بأمر يعقوب بالتوجه ناحية العراق، رغبة منه في إسقاط الخلافة العباسية، فسار إلي "الأهواز" وهناك كاتب الخليفة، وسأله ولاية خراسان، وبلاد فارس، وكل ما في حوزة الطاهريين من البلدان،

---

(٧٨) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

(٧٩)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢. فتحي أبو سيف: خراسان، ص ٥٩.

(٨٠)فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

(٨١) فتحي أبو سيف: المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٣.

كما سأله أن يعطيه شرطة بغداد، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأصر يعقوب على أن يحضر الخليفة ومعه الحُجاج، وكل من قرئت عليهم الكتب التي نسخت بعزله ولعنه، في دار "عبيد الله بن عبد الله بن طاهر"، ويذيع فيهم كتاباً آخر يعلن فيه رضاه عنه، فيبطل بهذا الكتاب الجديد الأثر السيئ الذي تركه الكتاب الأول[٨٣].

وتمادي يعقوب في طلباته، فزاد على ذلك بأن طلب من الخليفة أن يقلده شرطة سامراء إضافة إلي شرطة بغداد [٨٤] الأمر الذي أزعج الخليفة، فبادر بإرسال الرسل إلي يعقوب محاولة منه لإثنائه عن التقدم صوب العراق، إلا أن يعقوبا لم يستمع إلى صوت العقل، وقرر المضي في طلبه، فما كان من الموفق أخو المعتمد[٨٥] إلا أن جمع حجاج خراسان في بغداد، وأعلن لهم موافقة الخليفة علي توليه يعقوب خراسان، بالإضافة إلي الولايات التي تحت نفوذه مثل: سجستان وكرمان وفارس وكابل، بل وبلغ تدليل يعقوب بأن أوكلت إليه شرطة بغداد التي كان يتولها أبناء البيت الطاهري[٨٦].

والواقع أن الحكمة السياسية كانت تتطلب كل هذا الخضوع لمطالب يعقوب، ومن يطالع تاريخ تلك الفترة يجد أن الكثير من الأخطار كانت تحيط بالخلافة العباسية، وعلى رأس تلك الأخطار " ثورة الزنج "[٨٧] الذين ثاروا منذ سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨ م) والتي كانت قد امتدت إلي الأهواز، وكان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتالهم، وخوف

---

(٨٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص٤١٣.

(٨٤) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٦.

(٨٥) كان الخليفة المعتمد هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، فللمعتمد الخطبة والسكة، والتلقب بأمير المؤمنين، ولأبي أحمد الأمر والنهي، وقيادة العسكر، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء. وعلى الجملة لم يبق للخليفة سوي مكانته الروحية. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٢٧.

(٨٦) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٦.، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٩.

(٨٧) كان صاحب الزنج قد عرض على يعقوب فكرة التعاون بينهما ضد الخلافة العباسية، لاسيما وأن صاحب الزنج قد خرج على العباسيين في نفس التوقيت الذي خرج فيه يعقوب، ولكن الأخير لم يحاول الاستفادة من هذا العرض، حيث رأي أن أي تعاون مع صاحب الزنج سوف يكون له مردود سلبي، ويصبح أمام الرأي العام الإسلامي متهما بالزندقة والكفر، وفي هذه الحالة لا يأمن من تعرض جيشه لغضب عارم أمام كافة المسلمين ، ولذلك نراه يأمر كاتبه بأن يرسل إليه برسالة شديدة اللهجة جاء في آخرها سورة الكافرون : " قل يا أيها الكافرون الآية. محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١٣٨، ١٣٩.

الخلافة من حدوث تقارب بينهم وبين الصفاريين حال حدوث مواجهة بينه وبين يعقوب، فرأي من الحكمة ترضية الأخير لكسب ولائه، وإبعاده عن المعركة لحين التفرغ له، فضلا عن ثورات الأتراك المستمرة في بغداد، والذين شكلوا معول هدم في جسد الخلافة، فليس من المستغرب أن يقدم الموفق ـ مدبر أمر المعتمد ـ على اتخاذ مثل هذه الخطوة، و التساهل مع يعقوب ليأمن مكره [٨٨]

ويذكر المؤرخون[٨٩]أن أطماع " يعقوب بن الليث " لم تقف عند حد، ولم يقنع بما تحت يديه، بل إنه كان مصمما على قصد بغداد نفسها لحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه، وكان يساعده في ذلك جيش قوي، قدر البعض أن مساحته كانت ميلا في ميل[٩٠]، ولذلك أعاد يعقوب الرسل إلي الخليفة بكتاب ذكر فيه : إنه لا يرضيه ذلك دون أن يسير إلي باب السلطان (يقصد الخليفة) فاستشعر الخليفة الخطر، وخاصة بعد أن علم أن يعقوب قد تحرك ناحية " عسكر مكرم "[٩١]. والحقيقة أن "يعقوب بن الليث" لم يكن مطمئنا لموقف الخلافة المتأرجح، فقرر السير تجاه بغداد، علي الرغم من محاولات الخلافة الوقوف في وجه تقدمه، إلا أن يعقوب كانت تدفعه عوامل نفسية لعلها كانت هي المحرك الرئيسي له[٩٢]. ولكن ما هي الأسباب الحقيقة التي دفعت يعقوب للإصرار علي هذا الفعل ؟.يري البعض[٩٣]أن الدافع العنصري كان هو المحرك إذ كان يعقوب فارسيا يكن الحقد والكراهية للعرب ويرغب في القضاء عليهم لأن العرب هم الذين أذلوا أجداده من قبل، وبدأ ذلك واضحا من تلك الحركات الشعوبية التي تجسدت في كثير من الحركات السياسية، ولا ننسي أيضا أن وجود الطاهرين في بغداد وهم الأعداء التقليديون ليعقوب، جعله يفكر في الأمرين معا: القضاء علي الطاهريين، وإزالة الخلافة.

ويشترط البعض في رأيه بقوله: إن يعقوب كان يريد أن يجلس علي كرسي الخلافة، وهذا أمر مستبعد، لا يمكن قبوله علي مستوى الرأي العام الإسلامي [٩٤]. وحرصا من الخلافة علي منع يعقوب من التقدم صوب بغداد، بعث إليه برسالة مفادها، أنه لا عمل لك في بغداد، وخير لك العودة إلي خراسان وبلاد فارس.

---

(٨٨)ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣١.

(٨٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص٤١٤.

(٩٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ص ٤١٥.

(٩١)ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٢.

(٩٢)الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ص ٤١٥.

(٩٣) محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٦.

(٩٤) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

وزاد من خطورة الوضع أن يعقوب اغتر بما حققه من انتصارات علي الجبهات الفارسية والهندية، حتى جاءته الوفود من مختلف الأقاليم تعكس ولاءها له حتى زاد إحساسه بالفخر وعدم المبالاة علي رد الخلافة. ولم يلبث أن وصلت الخلافة أخبار الوفود التي أتت إلي يعقوب وانضمامها إليه، الأمر الذي أقلق بال الخلافة، وبدأت تستشعر خطورته.

وكانت قوة يعقوب المتنامية وعلو شأنه، قد أغريا الطامعين في تبؤ منصب الخلافة بالاستعانة به للوصول إلي أهدافهم، فيذكر الكرديزي(٩٥) أنه كانت هناك مراسلات بين الموفق طلحة ـ أخي المعتمد وولي عهده ـ وبين يعقوب للتآمر ضد المعتمد، كما كان الموفق يريد أن يستغل قوة الصفارين الفارسية ضد الأتراك المستحوذين علي بغداد. والمحتمل أن الخلافة أرادت أن تستعين بالصفاريين في ولاية شرطة بغداد لمواجهة سيطرة الترك علي اعتبار أنهم من الفرس المناوئين للترك.

وتذكر الروايات التاريخية (٩٦) أن هناك مكاتبات دارت بين يعقوب وبعض أبناء الواثق ـ خليفة العباسيين السابق – وطلبوا مساعدته ضد أبناء المتوكل الذين تولوا الخلافة واستأثروا بها. فقد التقي" عبد الله بن الواثق " بيعقوب، ودعاه للقدوم إلي بغداد للقضاء على المعتمد، ومساعدته على تولي سدة الخلافة، مما جعل يعقوب يبتعد عن محالفة الموفق.

بيد أن السبب الرئيسي الذي كان وراء إصرار يعقوب على التوجه إلي عاصمة الخلافة ؛ تلك الانتصارات المتعاقبة التي حققها في المشرق الإسلامي، وجعلت طموحه لا حدود له. ولما تيقن الموفق من فشل خطته، وتصميم يعقوب على السير إلي بغداد ؛ قرر القضاء عليه حتى إنه تولي قيادة جيش الخلافة بنفسه.

واستدعي الخليفة المعتمد كبار رجال الدولة، وأعلن فيهم: أن يعقوب شق عصا الطاعة، وهو قادم إلي هنا، ولم آذن له في الحضور إلينا، وأمرته بالعودة فلم يرجع، وإذن فهو يحمل في قلبه الخيانة، ولهذا لا يجب الغفلة عن اتخاذ الحيطة. وأمام الخطر الداهم الذي شكله يعقوب فكرت الخلافة في درء هذا الخطر عن طريق استدراج يعقوب للقدوم إلي بغداد ليحظى بتقدير الخلافة ومكافأته علي ما قام به من أعمال ضد أعدائها، فأرسل إليه المعتمد رسالة جاء فيها : " ولتعلم أننا نرضي بالخطبة، لأننا من بيت المصطفي صلي الله عليه وسلم، وتقي أنت دينه، لأن لك غزوات كثيرة في ديار الكفر... وأثر سيفك واضح على الكفار في كل مكان، وقد

---

(٩٥) زين الأخبار: ج١ ص ٢٢٥.

(٩٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٩.

أصبح حقك واجبا على كل المسلمين، وقد أمرنا أن يخطب لك في الحرمين... ونحن والمسلمون الآن عون لك حتى تعود الدنيا على يديك إلي دين واحد هو دين الإسلام".

والواقع أن تلك الرسالة، وهذا الأسلوب الاستعطافي، من جانب المعتمد جعل يعقوب متحرجا أمام جيشه برفض طلب أمير المؤمنين. وهكذا نجح المعتمد في خداع يعقوب وإيقاعه في حرج أمام جيشه. ولكن يبدو أن يعقوب كان متوجسا خيفة من الخليفة وأخيه، فسار يعقوب بجيشه من "عسكر مكرم" إلي "واسط"، ومن هناك أرسل برسالة إلي الخليفة يطلب منه أن يصدر منشورا بحكم الولايات التي وعده إياها من قبل[٩٧]. ولكن الخليفة لم يرد على طلب يعقوب، بل أمر بلعنه على المنابر ووصفه بالعاصي، ولابد من حربه. ولما وصل يعقوب إلي مدينة عسكر مكرم " بالأهواز"[٩٨]، أرسل من هناك كتابا إلى الخليفة العباسي يعلن فيه الخضوع والتضرع، ويخبره أنه لم يجيئ إلا لخدمة أمير المؤمنين، والتشرف بالمثول بين يديه، والنظر إليه، وأن يموت تحت ركابه [٩٩].

ولكن الخلافة أعلنت استنكارها لفعل يعقوب، واتهمته بالتشيع، وخروجه عن المذهب السني، وأظهر يعقوب تحديه للخليفة وأمره بترك بغداد ليدخل هو وجنوده إليها. أوكل المعتمد قيادة جيش الخلافة إلي أخيه الموفق[١٠٠] الذي سار بالجيش إلي قرية " دير العاقول (شرق دجلة) ولما التقي الجمعان، خرج أحد قادة الخليفة وخاطب الجيش الصفاري بصوت مرتفع قائلا: " يا أهل خراسان وسجستان، ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان (يعني الخليفة) وتلاوة القرآن، وحج البيت وطلب الإنكار، وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام، وما نشك أن هذا الملعون قد موّه عليكم، وقال لكم إن السلطان قد كتب إليه بالحضور، وهذا السلطان قد خرج لمحاربته، فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاقا للعصا محاربا للسلطان..." [١٠١].

---

(٩٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

(٩٨) الأهواز إقليم مهم جدا بالنسبة للعراق وبالنسبة لفارس، ولم تكن أهميته خافية على كل من يريد قصد العراق، فالذي يملك الأهواز يستطيع أن يسد كل الطرق المؤدية إلي فارس، لاسيما العسكرية منها، فوجود أي قوة عسكرية قوية في هذه المنطقة الاستراتيجية، سوف يكون حائلا أمام أي تقدم ناحية العراق، فالأهواز مفتاح الدخول إلي العراق من ناحية فارس. وكان يعقوب يدرك ذلك، ولهذا حاول وضع يده على هذه المدينة لأنها المعبر الرئيسي له للعراق. حسن أحمد محمود :العالم الإسلامي، ص ٥١٦.

(٩٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٧.

(١٠٠) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥ ص ٣٣، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.

(١٠١)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٨.

والحقيقة أن أغلب جيش يعقوب، وكبار قادته، قد تأثروا برؤية الخليفة العباسي أمامهم في ميدان القتال، وتخلوا عن يعقوب، ولحقوا بجند الخلافة، وقالوا: "لقد ظننا أنه قادم إليك طائعا مسلما، ولكن لما بدت لنا مخالفته وعصيانه تركناه" (١٠٢).

ولما بدأت المعركة جعل الموفق على ميمنة الجيش " موسي بن بغا " وعلى ميسرته "مسرور البلخي" وتولي هو قيادة الجيش بنفسه. وقد أحرز يعقوب نصرا أوليا في بداية المعركة، إذ حملت ميسرته على ميمنة الموفق فكسرتها، وقتل جماعة من قادة الموفق، وكادت الهزيمة تحل بجيش الخلافة، إلا أن الموفق ثبت في المعركة، وكشف رأسه وقال: "أنا الغلام الهاشمي" وهجم ومن معه على جند يعقوب، واقتتلوا قتالا شديدا حتى العصر، وتحولت الهزيمة إلي نصر مؤزر، حتى اضطر يعقوب أمام شدة المقاومة إلي التقهقر ومن معه من الجنود، وأصيب هو بثلاثة أسهم في حلقه وفي يديه، ولم تزل الحرب قائمة حتى انهزم يعقوب وجنوده، وتبعهم أصحاب الموفق قتلا وأسرا، وغنموا ما في معسكرهما، واستطاعوا تخليص " محمد بن طاهر" من الأسر – والذي كان قد اصطحبه يعقوب معه في المعركة. فخلع عليه الموفق وأعطاه شرطة بغداد (١٠٣). بينما أصدرت الخلافة كتابا بلعن يعقوب، واعتبرته خارجا على أمير المؤمنين، منكرا للنعم، ساعيا إلي الفساد.

وقد أورد الطبري(١٠٤) مضمون الكتاب الذى أمر الخليفة بأن يقرأ على الناس ببغداد، والذي أخذ يعدد مساوئه فيه قائلا: " ولم يزل الملعون المارق المسمّى يعقوب بن الليث ينتحل الطاعة، حتى أحدث الأحداث المنكرة، من مصيره إلى صاحب خراسان، وغلبته إياه عليها، وتقلده الصلاة والإحداث بها، ومصيره إلى فارس مرة بعد مرة، واستيلائه على أموالها، وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مظهر المسألة في أمور أجابه أمير المؤمنين منها ما لم يكن يستحقه، استصلاحا له، ودفعا بالتي هي أحسن، فولاه خراسان والرى وفارس وقزوين وزنجان والشرطة بمدينة السلام، وأمر بتكنيته في كتبه، وأقطعه الضياع النفيسة، فما زاده ذلك إلا طغيانا وبغيا، فأمره بالرجوع فأبي، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط، وأظهر يعقوب أعلاما على بعضها الصلبان، فقدم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله ولى عهد أمير المسلمين في القلب... فحاربه حتى أثخن بالجراح، وحتي انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر سالما من أيديهم، وولوا منهزمين مسلوبين، وسلم الملعون كل ما حواه ملكه".

---

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

(١٠٣) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٧، ٥١٨.

(١٠٤) الرسل والملوك: ج ٩ ص ٥١٨، ٥١٩.

وتتراجع الحملة الفاشلة بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها يعقوب فقفل عائدا إلي "خوزستان" بعد أن تفرق عنه معظم جيشه، وهلك كثير من دوابه[١٠٥]. ولم يلبث أن جاءه نبأ استيلاء " أحمد بن عبد الله الخجستاني" (أحد رجاله السابقين) على نيسابور، مستغلا غيابه، وسيطرته على الأوضاع هناك، فزاد ذلك من مرارة الهزيمة، مما كان له بالغ الأثر على صحته، وضعف روحه المعنوية إلي درجة كبيرة[١٠٦].

والواقع أن تساهل الخلافة مع يعقوب جعله يبالغ في ثقته بنفسه، لاسيما وأن معه جيشا كثيفا، ولكن الحقيقة التي غابت عن ذهن يعقوب؛ أن الأوضاع كانت قد تغيرت في عاصمة الخلافة، التي بدأت تسترد هيبتها ومكانتها، وخاصة بعدما تولى الموفق قيادة دفة الحكم في بغداد، فخانه التوفيق في ذلك، حتى اتهمه البعض[١٠٧] بالغباء السياسي، إذ لم يكن بعيد النظر حين خاصم الخلافة، كما كان في إمكانه الاستعانة بصاحب الزنج الذي عرض عليه التعاون ضد الخلافة[١٠٨]، فرفض ذلك مستنكرا فعله. كذلك كان الصفار قصير النظر حين أفرط في ثقته بجنده، خاصة وإنه كان مقربا منهم، شديد الإحسان إليهم، ضابطا لأمورهم، حتى أحبوه وأخلصوا له، ولكن نسي يعقوب أن هؤلاء الجنود من المتطوعة الذين جندتهم الخلافة لنصرتها ضد الخارجين عليها في المشرق الإسلامي. ولم يكن من المتوقع أن ينتصروا ليعقوب ضد الخليفة العباسي، لاسيما لما خرج الخليفة المعتمد مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحي على جند الصفار حين يرونه يقاتل صاحبهم[١٠٩]، فكان ولاء أكثرهم لشخص الخليفة لا لشخص يعقوب. ولذلك كان طبيعيا أن يتخاذلوا عن يعقوب عندما رأوه يقاتل خليفتهم، فتخاذلوا عنه وانضموا للموفق، فكانت بداية النهاية ليعقوب الصفار[١١٠]. ويذكر ابن خلكان[١١١] أن الموفق أخي الخليفة كشف رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل على أصحاب الصفار، وقتل بين الطائفتين خلق كثير، فلما رأي الصفار تلك الحال ولي راجعا تاركا أمواله وخزائنه وذخائره، ومضي على وجهه فلم تتبعه العساكر، وما أفلت من أصحابه رجل إلا بسهم أصابه، وأدركهم الليل فتساقطوا في الأنهار لازدحامهم، وثقل الجراح بهم. وأعادت الخلافة محمد بن طاهر

---

(١٠٥) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٢.

(١٠٦) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(١٠٧) حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي، ص ٤٦١.

(١٠٨) المسعودي : مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٢٨.

(١٠٩) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٨.

(١١٠) تاريخ سجستان: ص١٨٩، ١٩٠.

(١١١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٥.

ـ الذي كان قد فرّ من أسر الصفار ـ إلي منصبه [١١٢] رئيسا لشرطة بغداد، بينما عاد يعقوب إلي إمارته ليستعد لخوض معركة أخري ضد الخلافة، فاستولي على الأهواز من صاحب الزنج، والأهواز كما هو معلوم مفتاح العراق من ناحية فارس.

حاول يعقوب إرضاء الخلافة العباسية بشتى الطرق فنراه يحارب الخوارج في سجستان وكرمان، وينكل بزعمائهم [١١٣]، بل ويرسل برؤوسهم إليها، كما نراه يشن حرباً ضد الزيديين في جرجان وطبرستان لينال ود الخليفة السني [١١٤]. ولكن، في الواقع كانت سيطرة يعقوب علي خراسان هي التي فجرت الصراع بينه وبين الخلافة، فتحولت العلاقة إلي عداء سافر. ولما رأي الخليفة المعتمد انتصارات يعقوب المتعاقبة، وأيقن أن القوة الصفارية أصبحت لها الزعامة، أرسل برسالة إلي يعقوب عبّر فيها عن رضا الخلافة عن الصفاريين، ومحاولا أن يثنيه عن معاودة التفكير في مهاجمة بغداد مرة أخري، واسترضائه بأن عفا عنه وعما بدر منه تجاه الخلافة، بل ومنحه إمارة خراسان. وتأكيدا على العلاقات الطيبة أطلق الخليفة المعتمد أسري الصفاريين الذين تم القبض عليهم من قبل،عندما استولي يعقوب على خراسان، وحبس محمد بن طاهر عامل الخليفة هناك [١١٥].

ولما انتهي يعقوب من سماع رسالة الخليفة، أمر أن يحضروا له قطعة من الخبز الجاف، وبصلة، ووضعوهما بجانب سيفه الذي كان أمامه، ثم قال للرسول: "إنني صفار وقد تعلمت هذه الصنعة من أبي، وكان طعامي خبز الشعير والسمك والبصل والكرات، وحصلت على هذا الملك والثروة والنعمة عن طريق العيارة والشجاعة، وليست ميراثا عن أبي، أو عطاء منك... وقد عقدت العزم على ألا أستريح حتى أقهر الخليفة، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف، حتى آخذ بثأري أو تكسرني، وأعود إلي هذا الخبز والبصل" [١١٦].

([١١٢]) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١ ص ٣٩.

([١١٣]) حاول يعقوب استرضاء الخلافة بقتله عبد الرحمن الخارجي الذي استغل غياب يعقوب عن سجستان وأعلن خروجه عن الخلافة، وأطلق علي نفسه لقب المتوكل علي الله، ولكن يعقوب تمكن من القبض عليه وأرسل برأسه إلي الخليفة المعتمد الذي أمر بأن يطاف برأسه في شوارع بغداد، وعاودت الخلافة الاتصال بيعقوب وعادت العلاقات الدافئة بينهما. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦.

([١١٤]) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨.

([١١٥])الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٦.

([١١٦]) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٣ ـ خواندمير: روضه الصفا، ص ٥٩.

ويبدو أن يعقوب لاحظ عدم جدية الخلافة، وتناقض مواقفها حول شرعية حكمه سواء في خراسان، أو سجستان، وكانت الهزيمة التي لحقت بـه جعلتـه يفكـر فـي الانتقام ليثأر لنفسه، ويسترد كرامته التي أهدرت أمام جنوده ورعاياه، فقرر مواصـلة الحرب ضد الخلافة، حتى إنه بدأ بتحريك جيوشه ناحية العراق[١١٧]. ولكن القـدر لـم يمهله إذ لم يلبث بعد عودة الرسول أن توفي يعقوب في "جند يسابور" إحـدى مـدن الأهواز، بعد حكم دام إحدى عشرة سنة (٢٥٤ـ٢٦٥هـ/٨٦٨ـ٨٧٨م) ودفـن بهـا بعد مرض ألم به دام ستة عشر يوما[١١٨]. ويقول صاحب تاريخ سجستان: "ثم مرض يعقوب هناك، وكان مرضه شديدا، وعندما تم له أمر الـدنيا كلهـا لحـق النقـصان بالتمام". ثم يقول في موضع آخر: "وكان له عمال في خراسـان وسجـستان وكابـل والسند والهند وفارس وكرمان...ودان له الناس في مختلف الأماكن وامتثلوا لأمـره، وكانت بلاد الكفر ترسل إليه في كل عام الهدايا، وكانوا يسمونه ملك الدنيا لمدة طويلة من الزمان، وإذا أحصيت مناقبه كلها لكانت قصصا كثيرة ولطال هذا الكتـاب..."[١١٩]. وبعد دفنه وجد مكتوبا على قبره :

ملكـت خراسان وأكتاف فارس وما كنت من ملك العراق بآيس

سلاما على الدنيا وطيب نسيمها إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس[١٢٠]

ومن هذين البيتين يتضح أن يعقوب بن الليث كان قد امتـد طموحـه بالفعـل ليشمل عاصمة الخلافة نفسها، وإعادة دولة الفرس كما كان يحلم جميع من خرج على العباسيين من الفرس. ولكن من سوء حظ يعقوب أن حركته جاءت في وقـت كانـت فيه الخلافة في أوج نشاطها، خاصة في عهد المعتمد وأخيه الموفق إذ كانا من القـوة بحيث أمكنهما كبح جماح الطامعين، ومع ذلك يحسب ليعقوب أنه استطاع الوقوف في وجه كل الحركات المناهضة للخلافة، لاسيما الخوارج المنشقين عن الدولة العباسـية، والزيديون الذي كانوا شوكة في ظهر العباسيين في منطقة المـشرق الإسـلامي[١٢١]. ومع ذلك فقد تمكن يعقوب في النهاية من الحصول على اعتـراف الخلافـة بـشرعية حكمه على خراسان، والتي كانت سببا في تدهور علاقته بالعباسيين.

---

(١١٧) فتحي أبو سيف: خراسان، ص ٨٠.

(١١٨)ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥ ـ خواندمير: روضه الصفا، ص ٥٩.

(١١٩) مجهول:تاريخ سجستان، ص ١٩١.

(١٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٠.

(١٢١) بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية، ص ١٣٨.

عمرو بن الليث والخلافة العباسية (٢٦٥-٢٨٧هـ/٨٧٨-٩٠٠م)

كان طبيعيا أن يخلف عمرو بن الليث - الرجل الثاني في الدولة الصفارية. أخاه يعقوب[١٢٢]، الذي حاول أن يكون حسن السياسة والتدبير حتى قيل عنه: ما أدرك من حسن السياسة للجنود، والهادية إلي قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث[١٢٣]. وكان الجند قد بايع عمرو بن الليث بعد وفاة أخيه يعقوب سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) لاسيما بعد أن كتب عمرو إلى الخلافة بطاعته، فأرسل إليه الموفق التقليد بولاية خراسان، وفارس، وأصفهان، وسجستان، والسند، وكرمان، وبذلك أصبح يمتلك ما كان بيد أخيه [١٢٤]، وزادت الخلافة على ذلك بأن أعطته شرطة بغداد، الذي أوكلها بدوره إلي " عبيد الله بن عبد الله بن طاهر"[١٢٥]. بيد أن عمرو بن الليث لم يجد مبررا للاستمرار في حرب الخلافة، لاسيما بعد أن أعطته ولاية خراسان خالصة له[١٢٦]. ولكن بدا لعمرو أن الجيش الصفاري في حاجة إلي الراحة، خاصة بعد الحروب الطاحنة التي خاضها يعقوب ضد الخلافة [١٢٧]، حتى إن بعض فرق الجيش وخاصة الخراسانية كانت ترفض الاشتراك في حروب ضد الخلافة،على اعتبار أن الخليفة العباسي هو الرمز الديني للمسلمين في العالم الإسلامي، كما أن ولاية خراسان كانت تربطها علاقة قوية بالخلافة، على اعتبار أنها كانت مهد الدعوة العباسية في مراحلها الأولى[١٢٨]. وهكذا فضل عمرو أن يهادن الخلافة - متخليا عن فكرة سلفه يعقوب بالسير إلى بغداد - وأن يعقد صلحا مع الخليفة المعتمد العباسي، تم بموجبه إنهاء الحرب بين الطرفين، وتقليد عمرو على ولايات خراسان، وسجستان، فضلا عن كرمان، وفارس، على أن يرسل مقابل ذلك خراج قدره عشرون مليون درهم سنويا [١٢٩]. وتأكيدا من " عمرو "على حسن المودة والصداقة بينه وبين الخلافة، بعث إلى الموفق بالعديد من الهدايا من بينها عمود من الذهب[١٣٠].

---

(١٢٢) كان عمرو بن الليث قد تولي قيادة جيوش الصفاريين لأخيه يعقوب في حروبه ضد الخوارج في سجستان كما تولي عمرو أيضا قيادة الجيش الصفاري في حروب يعقوب بكرمان، وفارس. أبو سيف : خراسان تاريخها السياسي، ص ٨١.

(١٢٣) تاريخ سجستان: ص١٩١.

(١٢٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٩.

(١٢٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٤.

(١٢٦) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٥.

(١٢٧) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٣٢٢.

(١٢٨) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٠ - خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٠، ٦١.

(١٣٠)الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٤٩.

وعلى الرغم من أن عمرا كان أبعد من أخيه نظرا ورؤية وحسن سياسية ؛ إلا أن طموحه الزائد، ورغبته المتعطشة للحكم، جعلته غير راض عما حققه من مكاسب، وجعلته يبذل المزيد من الجهد للحصول على الأراضي المتاخمة له. وكانت الخلافة من جانبها تدرك هذا الطموح، والرغبة التوسعية الجامحة لدي الصفاريين، ولـذا كانـت تتوجس خيفة من تلك الرغبة، وتترقب الفرصة للقضاء عليهم. ولـم يلبـث إلا قلـيلا حيث ساءت العلاقات بين الخلافة العباسية والصفاريين، وذلك عنـدما أقـدم الخليفـة المعتمد على عزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياهـا، وأمـر بلعنـه علـى المنابر، ومن العجيب أنه أعلن هذا القرار على ملأ من حجاج خراسان، حتى إنه لعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد "محمد بن طاهر"محله(١٣١). ولكن محمد بن طاهر فـضل المقام في بغداد، وأناب بدلا منه أحد قادته ويدعى "رافع بن هرثمـة" لإدارة شـؤون الإقليم(١٣٢).

ولكن ما هو السبب الذي دفع الخلافة لاتخاذ هذا الموقف من "عمرو بن الليث"، لاسيما بعد أن هادنها وأظهر الطاعة والولاء ؟. يقـول المؤرخـون(١٣٣) إن الخلافـة بررت العزل بوصول شكايات من أهالي خراسان للخليفة ضد عمال الصفاريين، الـذين وصفوا بالتعسف في معاملة الأهالي، كما كان الخطأ الفادح الذي ارتكبـه الـصفاريون هو: عدم اتخاذهم خراسان عاصمة لملكهم ـ كما جرت العادة لمن سبقهم ـ ولكـنهم فضلوا البقاء في سجستان موطنهم الأصلي، مما أفسح المجال للطامعين والمحرضـين ليلعبوا دورا مهما في غضب الخلافة المتزايد على الـصفاريين(١٣٤). كمـا أسـهمت الخلافة بزيادة حدة التوتر الدائر بين الأمراء الطامعين في السيطرة علـى خراسـان، فبعد أن هادن عمرو الخليفة "المعتمد على الله" وأظهر الطاعة والولاء، اصطدم بقـوة "أحمد بن عبد الله الخجستاني"،(١٣٥) الذي كان قد استفحل أمره بعدما استولي على كثير

---

(١٣١) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٧.

(١٣٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٦ ـ خواندمير : روضه الصفا، ص ٦١.

(١٣٣) النرشخي: تاريخ بخاري، ص ١١٨، ترجمة وتحقيق: د/أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(١٣٤) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٦.

(١٣٥) أحمد بن عبد الخجستاني: أحد قادة يعقوب بن الليث الصفار، وأحد القوميين الخراسانيين الذين تولوا مهمة الدفاع عن خراسان ضد العدوان الخارجي، إذ عمل في بداية حياته بحراسة القوافل التجارية، ثم أصبح أحد قادة الطاهريين المشهورين، وطمع أن يكون له شأن فالتحق بخدمة الصفاريين، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم، وجمع حوله الأنصار والأعوان لإخراج الصفاريين من خراسان، وكان يظهر الميل للطاهريين مستميلا

من أملاك الصفاريين ـ مستغلا حالة الإرباك التي كانت تعاني منها الأخيرة قبيل وفاة عاهلها الأول. والذى تعتبر حركته من أقوى حركات المعارضة الخراسانية للحكم الصفاري ـ حيث هاجم "جرجان" سنة (٢٦٥هـ/٨٧٩م) وبلغ من جرأته أنه سار إلى نيسابور واستولى عليها، غير مكترث بقوة الصفاريين[١٣٦].

ولما علم "عمرو بن الليث" بذلك توجه على رأس جيش كبير، هو وأخوه "علي بن الليث" وابنه "محمد" ناحية نيسابور لمحاربة الخجستاني، ولكن حلت الهزيمة بالصفاريين، وفرّ عمرو إلى هراة، بينما استقر الأول في نيسابور، وأحكم السيطرة عليها، وكان ذلك سنة (٢٦٧هـ/٨٨٠م) ثم قام بسك العملة باسمه، واسم الخليفة العباسي دليلا على تبعيته للعباسيين [١٣٧]. ولم يلبث أن قتل "الخجستاني" في العام التالي على يد أحد غلمانه[١٣٨]، فأجمع جيشه على تولية "رافع بن هرثمة"[١٣٩] حاكم هراة، فسار بجيشه إلى نيسابور، فدخلها سنة (٢٦٩هـ/٨٨٢) وخطب فيها باسم "محمد بن طاهر"[١٤٠].

وظلت خراسان عقبة كؤوداً في وجه أي تقارب صفاري عباسي، فعندما حاول "عمرو بن الليث" استرداد إقليم خراسان، نراه يواجه غضب الخلافة، التي كانت قد أوكلت أمر خراسان إلي "رافع بن هرثمة". ويبدو أن الخلافة حاولت إثارة القلاقل في وجه عمرو عن طريق تأييدها لحركات المعارضة الخراسانية ضده، إذ كانت تستشعر دائما الخوف من طموح الصفاريين المتزايد، المتحفز دائما للخروج عن الطاعة، وخوفها أيضا من أن يفكر عمرو بالسير مجددا تجاه بغداد، كما فعل أخوه من قبل. ولذلك حاولت أن تجد لعمرو منافسا قويا من أجل الإيقاع به. وظلت العلاقات يحكمها

بذلك قلوب أهل نيسابور، لمعرفته بمحبتهم للطاهريين. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٧٢.

(١٣٦) الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ١٢٦ . ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥، ٤٢٦.

(١٣٧) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٦٠٠.

(١٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١٣٩) رافع بن هرثمة: كان " رافع بن هرثمة " أحد الأعوان " لأبي ثور " وكان أبو ثور أحد قادة " محمد بن طاهر" فلما استولي يعقوب على نيسابور، دخل أبو ثور في طاعته منصرفا عن محمد بن طاهر، ولما رجع يعقوب إلى سجستان، اصطحب معه أبا ثور، ومعه رافع بن هرثمة، يصفه " ابن خلكان " بأنه رجلا طويل اللحية، كريه الوجه، فدخل يوما على يعقوب، فلما خرج من عنده قال يعقوب: إني لا أميل إلى هذا الرجل، فليلحق بما شاء، فترك سجستان، وظل مبعدا حتى استقدمه " أحمد بن عبد الله الخجستاني " وجعله قائد جيشه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(١٤٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٧٧.

سوء الفهم بين الطرفين حتى نجح رافع في حمل الخليفة "المعتمد على الله" على إصدار منشور بمعاقبة عمرو[١٤١].

والواقع أن هناك عدة اعتبارات جعلت الخلافة تقدم على هذا العمل ضد عمرو، كان في مقدمتها تخلص الخلافة من أكبر خطر كان يتهددها، ألا وهو "ثورة الزنج" والقضاء عليها التي أقلقت مضاجع العباسيين، فالتخلص من ثورة الزنج كان معناه أن الخلافة أصبحت حرة طليقة ؛ في مواجهة الخارجين عليها من حكام الأقاليم بكل قوة وإصرار، كما أن الخلافة بدأت تعتمد على ظهور قوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة السامانيين الفتية، الراغبين دائما في كسب رضا الخلافة، فأصدر المعتمد العباسي قرارا بعزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا البيان على ملأ من حجاج خراسان الذين حضروا إلى بغداد، وأعلن فيهم: "إنني عزلت عمرو بن الليث عن خراسان، وأمرت بلعنه"[١٤٢] ثم كلف "محمد بن طاهر" بأمر خراسان[١٤٣]. ولم يلبث أن أرسل المعتمد جيشا من واسط بقيادة "صاعد بن مخلد" لمحاربة عمرو بن الليث، فلما التقى الجمعان هزم الأخير، ونجا بأعجوبة بعد أن كاد يقع في الأسر، حيث غادر أرض المعركة متجها إلى "فارس" ثم اتجه منها إلى"سجستان" إعادة تنظيم صفوفه، وتدبير أمره لخوض مرحلة جديدة ضد الخلافة[١٤٤].

ومن المستغرب، خلال تلك الحقبة التاريخية، ذلك التردد الواضح من العباسيين تجاه حكام الأقاليم في المنطقة الشرقية لاسيما الصفاريين، فنراهم يتحالفون معهم، ثم يعودون في سرعة عجيبة وينقلبون عليهم مرة أخري، في تسارع عجيب. فبعد أن استفحل أمر "رافع بن هرثمة "، بعد أن استولي على "الري" و" بلاد الجبل"، حتى اتصل بحدود "قزوين" تتطاير خبره إلي الخليفة "المعتضد بالله" الذي أمر بتخليه عن مدينة الري، و لكن رافعا لم يذعن لأمر الخليفة، وشق عصا الطاعة، فكتب الأخير إلى "عمرو بن الليث" يعلمه بتوليته أمر خراسان، وبالمسير إلى رافع للقضاء عليه، فلما تقابلا عند الري انهزم عمرو، لكنه اتجه إلى "نيسابور" من أجل إرباك رافع، بينما اتجه الأخير إلى "طبرستان" سنة (٢٨١هـ/٨٩٥م) وخلع طاعة الخليفة العباسي، وقام بمراسلة "محمد بن زيد العلوي" وخطب له على منابر طبرستان، لكنه لم يستجب لطلبه، ولم يمده بأحد، وتفرق عنه أصحابه، وغلمانه، ثم سار رافع إلى نيسابور لمداهمة عمرو هناك، وجرت بينهما معارك حامية الوطيس انتهت بهزيمة ساحقة لرافع الذي فر ملتجئا إلى "أبيورد" ـ من نواحي نيسابور ـ ولكنه لم يلبث أن قتل سنة

---

(١٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١٤٢) مجهول: تاريخ سجستان، ص ٢٠٥.

(١٤٣) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٧.

(١٤٤)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٥.

(٢٨٣هـ/٨٩٦م) وحمل رأسه إلى "عمرو بن الليث" وهو بنيسابور[١٤٥]، الذي أرسلها بدوره إلي الخليفة العباسي المعتضد بالله [١٤٦].

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين عمرو والخلافة بعد النصر المؤزر الذي حققه على "ابن هرثمة"، والذي كان يصب في المقام الأول في مصلحة الخلافة، وذلك لردع كل من تسول له نفسه الخروج عليها[١٤٧].

والواقع أن الخليفة "المعتضد بالله" فرح فرحا شديدا، وقد عبّر عن فرحه ذلك بأن أرسل إليه الخلع واللواء، دليلا عن رضائه عنه، وأمر الخليفة أن يكتب اسم "عمرو بن الليث" على الفرش والمقاعد والأعلام، بل إن الخليفة، وكالعادة، أمر بجمع حجاج خراسان، وأن يقرأ عليهم منشورا بتوليه خراسان وملحقاتها[١٤٨]. ورد عمرو على ذلك بأن أرسل هدايا قيمة إلى قصر الخلافة في بغداد، وذلك سنة (٢٨٤هـ/٢٨٤م) قدرها البعض بأربعة ملايين درهم، تعبيرا عن فرحته هو الآخر، وامتنانه لفعل الخليفة . ولكن في الوقت نفسه طالب عمرو بضم ولاية "ما وراء النهر" إلى أملاكه، وهي الولاية التى كانت تابعة إداريا للسامانيين، بحجة أن تلك الولاية، كانت تتبع من قبل إقليم خراسان[١٤٩].

ثم ساءت العلاقات بين عمرو بن الليث والخلافة، وذلك عندما طلب الأول من الخليفة المعتضد أن يوليه على "بلاد ما وراء النهر" [١٥٠] التابعة للسامانيين[١٥١]. ويبدو أن عمرا لاحظ نمو وازدياد العلاقة الودية التي كانت تربط بين العباسيين

---

(١٤٥)ابن الجوزي: المنتظم،ج ٥ ص ١٦١ ـ تاريخ سجستان: ص ٢٠٦.

(١٤٦)المعتضد بالله:هو أبو العباس ابن ولي العهد طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) وأمه أم ولد اسمها " صواب " وصفه المؤرخون : بأنه كان ملكا شجاعا مهيبا، وكان فهما جلدا، موصوفا بالرجولة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٢٣ ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤١٧.

(١٤٧)ابن الجوزي: المنتظم،ج ٥ ص ١٧٠.

(١٤٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٩.

(١٤٩) كانت بلاد " ما وراء النهر " منذ الفتح العربي، وبخاصة منذ عهد " الوليد بن عبد الملك " تتبع إقليم خراسان، ولما جاء العباسيون أبقوا لعامل خراسان حق الإشراف الإداري على هذه البلاد، لاسيما في عهد الدولة الطاهرية، وظل هذا الوضع قائما حتى صدر منشور من الخلافة سنة(٢٥١هـ/٨٦٥م) بفصل ولاية ما وراء النهر عن إقليم خراسان، نظرا لقوة حكم السامانيين في تلك المنطقة. النرشخي: تاريخ بخارى، ص ١١٨ ـ ابن الأثير: الكامل، ج ٦ص ٢٨٨ـ فتحي أبو سيف: الدولة العباسية ص١٦٨.

(١٥٠) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٣١.

(١٥١) خواندمير: روضه الصفا، ص ٦٣.

والسامانيين، فأراد أن يختبر متانة تلك العلاقة بهذا الطلب، وفي الوقت نفسه كان يحلم بمد نفوذه إلى "ما وراء النهر"، بحكم أنها كانت من قبل تتبع إقليم خراسان. والواقع أن الخلافة من جانبها كانت تخشى من اتساع نفوذ "عمرو بن الليث" وتحاول تطويق طموحه والحد من خطره من أجل المحافظة على توازن القوي السياسي في المنطقة، فانتهز الخليفة الفرصة فأراد أن يضرب عمراً بقوة السامانيين النامية في بلاد ما وراء النهر، فوجه إليه الخلع واللواء وهو بنيسابور، وأظهر له موافقته على مطلبه، بينما كانت الخلافة تتصل سرا بـ" إسماعيل بن أحمد الساماني " وتثبته على ولايته[١٥٢]. غير أن عمرا اعتذر عن قبول هذه الخلع، وأصر على طلبه، ولم يجد الخليفة مفرا من إجابته لطلبه، وهو يقدر مدي الخطر والمغامرة التي يتعرض لها عمرو الذي لم تقف أطماعه عند حد[١٥٣]. وقد صدق تقدير الخليفة، حيث إن "إسماعيل بن أحمد الساماني" هب للدفاع عن مكاسبه السياسية، ورفض الانصياع لأمر الخليفة، وتسليم الإقليم، وكتب إلى عمرو يثنيه عن الإقدام على مثل هذا العمل: إنك قد وليت دنيا عريضة (يقصد أملاكا كثيرة) وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيما في هذا الثغر، فأبي إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ، وشدة عبوره. ولكن عمرا أخذته العزة والغرور، ورد عليه قائلا: "لو شئت أن أسكره ببدر الأموال، وأعبره لفعلت"[١٥٤]. ولكن عمرا لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله، وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته لجيش جرار قدره المؤرخون بسبعين ألف، فعبر "نهر جيحون" سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م) والتقيا في "بلخ" ـ من أعمال خراسان. ولكن دارت الدائرة على "عمرو بن الليث"، وحلت الهزيمة به وبجيشه، ووقع أسيرا في قبضة "إسماعيل بن أحمد الساماني"، بعد أن تشتت شمل جيشه[١٥٥] فقال قولته الشهيرة: " أصبحت أميرا، وأمسيت أسيرا "[١٥٦].

ولما علم الخليفة "المعتضد" بما حل بعمرو بن الليث من الهزيمة ؛ سر غاية السرور، وأشاد بفعل "إسماعيل بن أحمد"[١٥٧]. ويذكر خواندمير[١٥٨] : أن إسماعيل الساماني لم يكن راغبا في تسليم عمرو للخلافة، بل إنه أكرمه، وأحسن إليه، بعدما قبض عليه، إلا أن الخليفة المعتضد أرسل إليه يقول: "الرحمة لإسماعيل واللعنة على

---

(١٥٢) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٨، ١٦٩.
(١٥٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٨٩.
(١٥٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٧.
(١٥٥) خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٢.
(١٥٦) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١.
(١٥٧) خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٢.
(١٥٨) روضة الصفا: ص ٦٢، ٦٣.

عمرو"، وأرسل الرسل بعد ذلك لإسماعيل ليسلمه عمرا. ولم يلبث أن سير إسماعيل "عمرو بن الليث" إلى الخليفة في بغداد، الذي أمر بحمله على جمل له سنامان، كان عمرو قد أهداه للخليفة من قبل، وأدخل إلى دار الخلافة مشهرا ذليلاً، وعمرو رافع يديه بالتضرع والدعاء دهاء منه، حتى رقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه، ثم قام الخليفة بتوبيخه بقوله: "شكرا لله الذي أوقعك في يدي، وكفانا شرك"[١٥٩]. ثم أمر الخليفة بحبسه في غرفة قد أعدت لذلك، وظل محبوسا بها حتى مات ودفن، وقيل إنه قتل[١٦٠]. وأرسل "المعتضد" بالخلع إلى إسماعيل الساماني، وولاه ما كان بيد عمرو من البلدان، وأصبحت خراسان ضمن ممتلكاته[١٦١].

على كل حال كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة التي أدت إلى سقوط الدولة الصفارية، وقيام الدولة السامانية على أنقاضها[١٦٢].

خلفاء "عمرو بن الليث" والخلافة:

كانت الأمور في الدولة الصفارية تسير بخطى سريعة نحو الانهيار، إذ انتقل حكم الصفاريين بعد أسر الأمير "عمرو بن الليث" إلى أحد أحفاده وهو "طاهر بن محمد بن عمرو" سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)، وأرسل إليه الخليفة بالخلع بولاية فارس وسجستان، إلا أنه لم يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه. فقد وصفه المؤرخون[١٦٣] بأنه تشاغل باللهو والصيد، ولم يهتم بالملك، وقضى ليله ونهاره في الشرب، وترك الأمور كلها بيد أحد غلمان "عمرو بن الليث" المقربين، ويدعى "سبك السبكري"[١٦٤].

ولما رأي كبار القادة والأمراء هذا السلوك خشوا من عاقبة الأمور، وقالوا له: لقد أخذنا هذا الملك بسيوفنا، فهل تريد أن تحفظه بلهوك، إن الملك لا يبقى بالهزل[١٦٥]. ولكن طاهرا لم يعبأ بهذا الكلام، واستمر في لهوه، الأمر الذي مكن للسبكري من القبض عليه، وعلى، أخيه "يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث" سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) وبعث بهما إلى بغداد تقربا إلى الخلافة، حتى تصفو له الأمور، ولا يبقى له شريك في الملك، وتغلب على البلاد، وضرب العملة باسمه[١٦٦]. ظل السبكري

---

(١٥٩) السابق: ص ٦٣.

(١٦٠) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١، ٢٣٢.

(١٦١) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٩٩.

(١٦٢) تاريخ سجستان: ص٢١١.

(١٦٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٢.

(١٦٤) خواندمير : روضه الصفا، ص ٧٢.

(١٦٥) السابق: ص ٦٥.

(١٦٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٦٧.

يحكم سجستان، فضلا عن بلاد فارس، حتى طرده" الليث بن علي بن الليث الصفار" فاستنجد السبكري بالخليفة "المقتدر بالله" فأمده بجيش استطاع أن يلحق الهزيمة بالليث سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) ووقع في الأسر[١٦٧]. ولم تلبث الخلافة أن واجهت ثورة جديدة بسبب عصيان السبكري، الذي امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه إلى بيت مال الخلافة، مما اضطر الخلافة لإرسال الجيوش للقضاء عليه، ولكن فشلت جميع الحملات التي شنتها عليه، حتى تمكن "أحمد بن إسماعيل الساماني" من الاستيلاء على سجستان، والقبض على "محمد بن على بن الليث الصفار" الذي كان قد غلب على سجستان، ثم على "السبكري"، وبعث بهما إلى بغداد في سنة (٢٩٨هـ/٩١٠م) فأدخلا بغداد مشهرين على فيلين[١٦٨]. ثم طارد "أحمد الساماني" جميع أفراد الأسرة الصفارية، حتى أسرهم جميعا، ونكل بهم، ومن ثم زالت الدولة الصفارية من الوجود، والتي لم يقتصر خطرها على إقليم المشرق الإسلامي، بل امتد خطرها إلى بغداد نفسها.

وهكذا زالت الإمارة الصفارية بعد عمر قصير، على الرغم من قوة جيشها، وحسن تسليحها وبرغم اتساع البلاد التى وقعت تحت يديها، وامتلاء خزائنها بالأموال. ويعود السبب في ذلك إلى أن الصفاريين وجهوا جهدهم الحربي إلى الداخل، واتجهت أطماعهم إلى قلب نظام الحكم في عاصمة الخلافة، الأمر الذي أفقدهم تعاطف القوي المحلية في المنطقة، فضلا عن غضب الرأي العام الإسلامي. ولو أنهم وجهوا جهدهم العسكرى إلى المجال الخارجي، واكتساب أقاليم جديدة، تدخل في حوزة الإسلام لكان خيرا لهم، ولاكتسبوا عطف الخلافة، وعطف مؤيديها، لكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإمارتهم، وسقطوا سريعا.

والحقيقة أن ضعف الإمارة الصفارية وزوالها ؛يعود إلى موقف الخلافة العباسية العدائي منها،إذ لم تدخر وسعا في القضاء عليهم،لاسيما بعد التعامل غير المسئول من جانب الصفاريين تجاههم، فضلا عن موقف السامانيين العدائي للصفاريين المدفوع من قبل العباسيين،كما كان لعصيان"سبك السبكري" غلام"عمرو بن الليث" أسوأ الأثر في التعجيل بانهيارها، وزوالها في النهاية من على مسرح التاريخ.

وأقول، كما قال الشافعي رحمه الله: (ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولابد أن يوجد فيها الخطأ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فما وجدتم في كتابي هذا، أو كتبي مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه).

---

(١٦٧)ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٧.

(١٦٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولا ـ المصـــــادر :

= ابن الأثير (ت ـ ٦٣٠هـ) على بن أبي الكرم.

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

= البلاذري (ت ـ ٢٧٩ هـ) الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيي البلاذري

٢ ـ فتوح البلدان، عُني بمراجعته والتعليق عليه. رضـوان محمـد رضـوان، دار الكتـب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.

= البيهقي (ت ـ ٤٧٠هـ) أبو الفضل محمد بن حسين.

٣ ـ تاريخ البيهقي، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نشأت، مكتبـة الأنجلـو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م.

= ابن الجوزي : (ت ـ ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي

٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.

= ابن حوقل (ت ـ ٣٦٧ هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي

٥ ـ صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٧٩ م.

= ابن خلدون (ت ـ ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

= ابن خلكان (ت ـ ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.

٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عبـاس، دار صـادر، بيـروت، ١٩٦٨م.

= خواندمير (ت ـ ٩٠٣ هـ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.

٨- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الـشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

= السيوطي (ت ـ ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

٩ ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.

=الطبري (ت ـ ٣١٠هـ) محمد بن جرير الطبري.

١٠- تاريخ الأمم والملوك، دار المعارف، ط ٤ القاهرة، ١٩٧٦م.

= ابن العبري (ت ـ٩٨٥هـ) غريغروريوس أبو الفرج بن هارون.

١١ – تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١ ، القاهرة، ٢٠٠١م

= ابن كثير(ت ـ ٧٧٤ـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.

١٢ –البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

=الكرديزي (ت ـ٤٢٢هـ)أبو سعيد عبد الحي الضحاك

١٣ـ زين الأخبار، ترجمة: د/ عفاف السيد زيدان، دارا لطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٨٢م.

=مجهول المؤلف

١٤ـ تاريخ سجستان، ترجمة :محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

= المسعودي (ت ـ٣٤٦هـ) على بن الحسين بن على المسعودي.

١٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥.

= ابن مسكويه (ت ـ٤٢١هـ) أحمد بن محمد بن يعقوب.

١٦ ـ تجارب الأمم. تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١بيروت، ٢٠٠٣.

= المقدسي(ت ـ ٣٨٧هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

١٧– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

=ابن منظور (ت ـ٧١١هـ) محمد بن مكرم المصري

١٨ـ لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦ م.

=النرشخي (ت ـ ٣٤٨هـ) أبو بكر محمد بن جعفر

١٩ـ تاريخ بخاري، ترجمة وتحقيق: د/أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

= ياقوت الحموي (ت ـ٦٢٦هـ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.

٢٠ ـ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانيا ـ المراجع :

= إبراهيم سلمان الكروي (دكتور)

١ــ البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع ط١ بيروت، ١٩٨٢م.

= أحمد السعيد سليمان (دكتور)

٢ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.

=حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٣ ــ تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

= حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٤ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

= عباس إقبال .

٥ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .

=عصام عبد الرءوف الفقي (دكتور)

٦ ــ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.

= فتحي أبو سيف (دكتور)

٧ ــ الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، دار المؤيد، الرياض، ط ١ ٢٠٠٧.

٨ــ خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، مكتبة سعيد رأفت، ط١ القاهرة ١٩٨٨م.

=كي لسترانج

٩ــ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، كوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م.

= محمود عرفة محمود (دكتور)

١٠ ــ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية،دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

تاريخ المسلمين في فراكسنيتوم
٢٧٧ - ٣٦٥هـ/٨٩٠ - ٩٧٥م

د. وفاء مختار غزالي علي (*)

بداية نزول المسلمين إلى فراكسنيتوم عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م :

سنتناول في هذا البحث تاريخ المسلمين في فراكسنيتوم Fraxinetum[١] ذلك الموضوع الذي لم ينل حظه الكافي من الدراسة سواء من الباحثين العرب أو الأوروبيين، وربما يرجع ذلك إلى ضآلة المعلومات التاريخية الواردة عنه في المصادر العربية واللاتينية على السواء ففي الوقت الذي اكتفت فيه المصادر العربية بالإشارات المختصرة له نرى المصادر اللاتينية تسهب بعض الشيء لكن تورد أخباراً مختلطة يغلب عليها التحامل على المسلمين وتشويه تاريخهم في تلك المنطقة ووصفهم – كما اعتادت دائماً – بالقرصنة واللصوصية والاعتداء على الأرواح والمقدسات دون مراعاة للأديان أو الأعراف.

أطلق المؤرخون العرب اسم جبل القلال على الحصن أو القلعة التي اتخذها المسلمون قاعدة لهم لشن هجماتهم على غرب أوربا في الوقت الذي أطلق عليها

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطي بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

(١) يجب أن نشير إلى أننا نعرف القليل جداً عن هذه الدولة التى استمرت نحو خمس وثمانون عاماً وعن نظام حكمها وعن قادتها ومؤسسيها، فالغموض يحيط بتاريخها بصفة خاصة وبتاريخ مملكة البروفانس التى كانت فراكسنيتوم جزءاً منها بصفة عامة خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي فليس هناك سجل محلي يدون ذلك التاريخ بل إشارات عابرة جاءت ضمن سجلات بعيدة عن ذلك الموضوع وغير دقيقة لذلك كان الوقوف على تاريخ المسلمين في تلك المنطقة صعباً ويشوبه الريب.

Previte – Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917, P. 335.

عبدالرحمن على الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٣٦٦هـ/ ٧٥٥-٩٧٦م) دراسة تاريخية، أبوظبي، الإمارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤م، ص٢٧٤.

المؤرخون الأوروبيون فراكسنيتوم؛ فقد ذكر ابن حوقل "ولجبل القلال الذي بنـواحي إفرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراضي تقوت من لجأ إلـيهم، فلمـا وقع عليه المسلمون عمّروه وصاروا في وجوه الإفرنجة والوصول إلـيهم ممتنـع لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهـة هـم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين"(٢).

أما الأصطرخي فيقول: "وأما جبل القلال فإنه كان جبلاً فيه مياه خرارة فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر علـيهم لامتنـاع مواضعهم ومقداره في الطول يومان"(٣).

اختلف المؤرخون الأوربيون في موقع فراكسنيتوم التي احتلهـا المـسلمون فترة طويلة فالفرنسيون يذكرون أنها في خليج سانت تروبيز St. Tropez وهـو المعبر بين فرنسا وإيطاليا بالقرب من جبل المـور. أمـا المؤرخـون الإيطـاليون فيذكرون أن موقع فراكسنيتوم في البروفانس بالقرب من آرل أو خلف جبال الألـب وآخرون يعتقدون أنها تقع في شبه جزيرة S. Ospizio قرب نيس (نيقه) Nice. لكن من المرجح أن موقعها هو نفس الموقع الذي تقع عليه حالياً قريـة لاجـارد فريينة La Garde- Freinet في سفوح جبال الألب في البروفانس جنوب شـرق فرنسا على خليج سانت تروبيز بين هيير Hyeres وفريجوس Frejus(٤).

يعتبر ليتوبرانـد أسـقف كريمونـا Liudprand of Cremona (٩٢٠-٩٧٢م) الذي عاش في القرن العاشر الميلادي شاهد عيان لكثير من الأحداث التـي أرخ لها وتختص بتاريخ المسلمين في فراكسنيتوم، ولقد انفرد بذكر تفاصيل كيفيـة وصول المسلمين واتخاذهم فراكسنيتوم قاعدة لهم في عام ٢٧٧هـ/٨٩٠م فيقـول: "بناء على إرادة الله التي لا يدرك سرها، فقد جاء عشرون مسلماً في مركب صـغير من سواحل أسبانيا قذفت بهم الريح فاضطروا للهبوط رغماً عنهم في خليج سـانت تروبيز في البروفانس فنزلوا إلى البر في جنح الليل على عادة اللصوص وتـسللوا

---

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة القاهرة، د. ت، ص١٨٥.

(٣) الاصطرخي، مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٧، ص٧١.

(٤) Gallega, S. History of piedmont, London, 1955, P.149.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, Paris, 1836. p.160.
- Kaeppen Adolphus, The World in the Middle Ages New York, M. Dcce. LIV (1854), P.52.
- Setton K.M, A History of the Crusades, Vol.1, Wisconsin, 1969, P.51.

إلى قرية ترويز وفتكوا بأهلها المسيحيين واستولوا على المكان، ثم اتخذوا الجبل المُسمى موروس Maurus معقلاً لهم ليكونوا في مأمن من أعدائهم وللتصدي لهجمات جيرانهم ، وكان هذا الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ولم يجعلوا فيها سوى ممراً ضيقاً جداً لأنفسهم يمرون منه وما عداه أصبح مستحيلا، وهذا المعقل سُمي فراكسنيتوم ويحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة متشابكة الأغصان ومن أراد الدخول عرقلته الأشواك الحادة مثل: "السيف" أو "الحراب" فلا يستطيع أن يتقدم أو أن يتأخر، فأمنوا في هذا المعقل المنيع وصار لهم مركزاً يهجمون منه على الجهات المجاورة بدون خوف واثقين في مناعة معقلهم هذا ثم أنفذوا رسولاً إلى أسبانيا ليرغب الآخرين من رفاقهم في الالتحاق بهم، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه، وقال إن أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بقوة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى عاد ومعه مائة رجل من المسلمين جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته"[٥].

يتضح مما ذكره ليتوبراند طبيعة فراكسنيتوم ذلك المكان الحصين الذي يمتد بين التلال والغابات والذي امتاز بمميزات طبيعية خاصة، فالبحر كان للمسلمين باباً لتلقي الإمدادات التي يحتاجون إليها والبر كان منفذاً إلى النواحي التي يريدون الإغارة عليها والغابة المتشابكة ذات الأحراش والأشواك كانت لهم معقلا يلجئون إليه عند الضرورة؛ مما جعل فراكسنيتوم بمنأى عن التهديدات الخارجية وملائماً للتصدي لأي محاولة تستهدف الوصول للمسلمين والقضاء عليهم؛ مما جعلهم آمنين في سربهم وأدى إلى استقرارهم هناك وتوسعهم فلم تمض أعوام قلائل حتى أنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون التي تمتاز بالقوة والمناعة واستطاعوا من خلالها شن الهجمات على المناطق المحيطة بعد أن سيطروا على الساحل الجنوبي للبروفانس فجنوا مغانم كثيرة من تلك البلاد الخصيبة مما أدى إلى توسيع ممتلكاتهم ونفوذهم واستمرار وجودهم ككيان إسلامي قوي يبث الرعب والذعر في مناطق غرب أوربا لمدة خمس وثمانون عاماً تقريباً[٦].

---

(5) Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, ed., Bekker, Trans, Wright. F. A., London, 1930, Antapodosis, Book1, Chapter 3, PP.33-34.

(6) Rēinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 161.

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy , University Press of Cambridge, 1912, P.5.

- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ، ص١٦١.

اختلف المؤرخون في ماهية المسلمين الذي استقروا في فراكسنيتوم فبينما ينظر إليهم المؤرخون المسلمون على أنهم مجاهدون مسلمون استطاعوا أن يفرضوا سيادتهم ويؤسسوا حصناً قوياً للإسلام في غرب أوربا اتخذوا منه مركزاً ثابتاً ومستقراً لغزو جنوب فرنسا وشمال إيطاليا حتى حدود ألمانيا(٧)، إلا أن المؤرخين الأوربيين ينفون عنهم ذلك (تلك الصفة) ويصفونهم بالقرصنة ويذكرون أن أهدافهم لم تكن دينية وأن الهجمات التي قاموا بها لم تكن ذات مغزى سياسي ولا ترمي إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية وقصارى ما كانت ترمي إليه هو أن تستولي على الغنائم وتنهب الأديرة والمدن، والمعاقل ويعتبرونهم جاليات مرتزقة مستقلة استغلت الفوضى والنزاعات المحلية للبلاد فقامت بالسرقة والنهب في ريف البروفانس وفي المياه الساحلية للبحر المتوسط بدليل أنهم لم يخلفوا وراءهم أية وثائق خاصة بهم تزيل الغموض عن أصلهم وعن حجمهم وهدفهم ووضعهم السياسي(٨).

نلاحظ من رواية المؤرخ المعاصر ليتوبراند أن عدد المسلمين الذين استقروا في فراكسنيتوم كان قليلاً جداً ولنا أن نتساءل كيف استطاعت هذه المجموعة الصغيرة أن تنشأ لها معقلاً قوياً ظل يمثل مصدر رعب وذعر لغرب أوربا مدة

- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان، ضمن كتاب تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، ص٢٤٥.

(٧) محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٨١م، ص١٩٠-١٩١.

- عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٩٨-١٩٩.

- على بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوربا وأمريكا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ص١٩٩.

- عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٠٥.

(8) Bruce, An abbot between two Cultures, Maiolus of Cluny Considers The Muslims of La Garde – Freinet , Early Medieval Europe, Journal Compilation, 15, (4), Oxford, 2007, PP. 431-432.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٥-٢٤٦

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,pp.161 – 163

طويلة؟!

لكن بالنظر إلى الأحوال السياسية العامة لتلك البلاد نجد أن النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي شهد انهيار إمبراطورية الفرنجة الموحدة وتفسخها إلى عدة ممالك مستقلة ذاتياً فبالإضافة إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا – الممالك الثلاثة الكبيرة – نشأت عدة كيانات صغيرة مستقلة كان منها برجنديا والبروفانس في جنوب فرنسا والتي نشأت عندما ضعفت السلطة المركزية في فرنسا فاندلع الصراع بين النبلاء والسلالة الكارولنجية مما أدى إلى قيام الثورات في تلك المنطقة واستغلال النبلاء تلك الفوضى في الخروج على السلطة وإعلان الاستقلال، فقد أعلن أحد النبلاء ويسمى بوزو Boso استقلاله بولايتي الدوفيني Dauphiny والبروفانس Brovence، ولقب نفسه بملك آرل فتصدى له بعض المنافسين الطامعين في السلطة مما أدى إلى اندلاع حروب أهلية وصراعات داخلية استغلها المسلمون ووجدوا فيها فرصة كبيرة لغزو واحتلال تلك المناطق[٩]. التي تركت للدفاع عن نفسها[١٠].

ولقد وجد المسلمون الفرصة مواتية ليس للإغارة والعودة محملين بالغنائم والأسرى فقط وإنما للاستيلاء والاستقرار في جهات كثيرة من جنوب فرنسا وحفزهم على ذلك ما كان بين أهل البلاد من الشقاق والتنافس وقتال بعضهم البعض مما جعلهم في غفلة عما يحيط ببلادهم من خطر المسلمين حتى أنهم استعانوا بهم في قتال بعضهم البعض وبذلك ازدادت وطأة المسلمين في تلك الجهات وازداد

---

(9) Reinaud, Invasions, des Sarrazins en France P. 158.
- Chambers R., Medieval History, London, 1855, PP. 74-75, Gibbon. E, The History of The Decline, and fall the Roman empire.vol. 6 , Boston ,1854. p. 324.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, PP.1-4.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٦٧.
- Comyn R., The History of the Western Empire, Vol.1, London, 1841, P.88.

(10) Gregorovius, History of the City of Rome in The Middle Ages, Translated from the fourth German edition by Hamilton A, vol. III, London, 1895, Book VI, Chapter1, P,262.

عددهم بالتعزيزات المستمرة التي كانت تأتي لهم من أسبانيا حتى أصبحوا قوة كبيرة وهاجموا المناطق المحيطة وثبتوا أقدامهم فيها(١١). واستقروا في هذه الأقاليم وتزوجوا من نسائها وقاموا بزراعة الأراضي ولم يسع الحكام المحليون إلا أن يسلموا بالوضع الجديد واكتفوا بجباية الضرائب منهم(١٢).

اجتياز مسلمي فراكسنتيوم جبال الألب والتوغل في أراضي ايطاليا وسويسرا

بدأ المسلمون بشن هجماتهم في النواحي القريبة منهم في البروفانس حتى نمت شوكتهم وأصبحوا قوة يُخشى بأسها وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يطلبون مساعدتهم فلبوا الدعوة بعد أن رأوا في ذلك فرصة لفرض نفوذهم وتوسعهم فيما حولهم وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة وبثوا الذعر والرعب في جنوب البروفانس لما امتازوا به من القوة والبأس وكانت هذه أول خطوة في توسع المسلمين في جنوبي فرنسا والتي استندت إلى مركز ثابت مستقر استطاعوا من خلاله الوصول إلى بلاد الدوفيني لفرض سيادتهم على جنوبي فرنسا والانطلاق إلى غزو بيمونت Piemont وسويسرة وشمال ايطاليا(١٣).

---

(11) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book1, Chapter IV, P.34.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,PP. 161-162
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٧- ٤٦٨.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٥.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة، ص١٦١.

(١٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠١.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins, en France P. 179.

(13) Liudprand of Cremona, Antapodosis, BookII, Chapter XLIII, P.90.

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.138.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٦- ٢٤٧

بيمونت: اقليم إيطالي يقع غرب ايطاليا يحده شرقاً اقليم لومبارديا وغرباً فرنسا وإقليم ليجوريا Liguria وجنوباً وادي أوستا Aosta وسويسرة من ناحية الشمال

اخترق مسلمو فراكسنيتوم بلاد الدوفيني Douphine وتقدموا نحـو جبـال الألب شمالاً وغرباً وعبروا مونت سني Mont Cenis أهم ممرات الألب الفرنسية واستولوا في عام ٩٠٦م/٢٩٤هـ على دير نوفاليزا Novalesa أشـهر الأديـرة وأغناها والذي يقع على مقربة من سوسا Susa بحذاء جبل سنيس Senis علـى حدود بيمونت فهرب الرهبان حاملين معهم ما في الدير من النفائس ومـن جملتهـا خزانة الكتب النفسية وأغار المسلمون على المنـاطق المجـاورة ونهبوهـا ودارت اشتباكات بينهم وبين سكان تلك المناطق أدت إلى أسر بعض المـسلمين واقتيـادهم إلى تورينو Turin بإيطاليا حيث تم اعتقالهم في دير القـديس أنـدرواس إلا أنهـم استطاعوا أن يحطموا القيود وأشعلوا النيران في الدير وفي المدينة وفروا عائـدين إلى زملائهم(١٤).

اشتد بأس المسلمين في تلك الأنحاء واحتلوا معظـم ممـرات جبـال الألـب فسيطروا بذلك على الطرق التي تربط بين فرنسا وإيطاليـا وعانـت إيطاليـا مـن هجماتهم حتى أقفرت وديان الألب والطرق العظيمة والأديرة الغنية ثم انحدروا مـن

CanderJ., Dictionary of Geography, London, 1834, p. 526

الدوفيني: هى مقاطعة فرنسية تحدها سافوى Savoy وهى عبارة عن سلاسل جبلية تمتد من جبال الالب الى وادى الرون Rhon، ومن أهم أنهار الدوفيني بالاضافة الى نهر الرون نهر ايسرIsere , والذى يصب في سافوى ونهر دورانس Durance , ونهر دروم Drome، وأهم المدن هى فيينا Vienne , وجرينوبل Grenoble وفالينسيا Valence وجاب Gap

- Cander, Dictionary of Geography, p185.

(14) Chronicon Novalicienes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846, libri IV, PP.59-60.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.
- تورينو هي مدينة تقع شمال غرب إيطاليا وتحديداً على الضفة الغربية لنهر البو PO وهـي عاصـمة إقليم بيمونـت. Cander, Dictionary of Geography, PP. 576-677.

آكام الألب إلى سهول بيمونت واخذوا في شن الغارات على سهولها(١٥).

أغلق المسلمون طريق الألب إلى ايطاليا والذي كان يمر به آلاف الحجاج قاصدين روما ولم يسمحوا لهم بالمرور إلا بعد أن يتقاضوا منهم الأموال الباهظة(١٦). وروى المؤرخ فلودوارد Flodoard أسقف ريمز Reims (٨٩٤-٩٦٦م) أن المسلمين في عام ٩٢١م أتوا على قافلة حجاج إنجليزية كانت ذاهبة إلى روما فلقوها في بعض أودية الألب واستأصلوها وبعد ذلك بعامين لقوا قافلة إنجليزية أخرى ففتكوا بها ثم أنهم في عام ٩٢٩م تصدوا لقافلة أخرى من الحجاج فاضطرت إلى الرجوع قبل الوقوع في أيديهم(١٧).

([15]) Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922, Chapter VII, P.152.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.
- عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ،، ص٢٠٠. محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٨.

([16]) Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third edition, London, 1868, P. 420.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In Cam. Med. His, Vol. III, P.152.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٨.

([17]) Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905 a. 921, P.5-6, a.923, P.19, a. 929, PP.43-44.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٨-٢٤٩.

بالغ المؤرخون الأوربيون في وصف الهجمات التي قام بها مسلمو فراكسنيتوم وما نجم عنها من تنكيل بالأهالي والسكان؛ لذا لابد من توخي الحذر عند تعاملنا مع هذه الروايات خاصة وأن مؤرخي ذلك العصر كانوا من القساوسة ورجال الدين الذين غلب عليهم النظرة العدائية للإسلام والمسلمين لكن ذلك لا يجعلنا نرفض كل ما جاءت به هذه الروايات والأجدر بنا أن نشير إلى تباعد مسلمي فراكسنيتوم عن الأهداف الدينية الجليلة التي نادى بها الإسلام وهي الجهاد في سبيل الله واقترابهم إلى حد كبير من الأهداف الدنيوية والعمل على الفوز بالمغانم والأسلاب وجعلها هدفاً سياسياً وما يدل على ذلك ما أشارت إليه المصادر من منعهم الحجاج الذاهبين إلى روما من المرور لأداء المناسك المقدسة وغير ذلك من الأعمال التي يرفضها الإسلام والعقيدة القويمة.

اتسعت أراضي مسلمي فراكسنيتوم حتى أنها امتدت إلى الشمال والشرق واستولوا على ممر سانت برنارد العظيم وأسسوا مستوطنات لهم في سانت موريس St. Maurice وشمالي لومبارديا في ايطاليا وسانت جال St.Gall وخور "كور" Chur في سويسرة(١٨).

استمر مسلمو فراكسنيتوم في التقدم إلى أواسط أوربا فاندفعوا بهجماتهم إلى بيمونت ومونتفرات Montferrat في ايطاليا فيخبرنا مؤرخ دير نوفاليزا أنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر الميلادي إلى حدود ليجوريا Liguria في ايطاليا على شاطئ خليج جنوة(١٩). كما يذكر المؤرخ ليتوبراند أن مسلمي فراكسنيتوم قاموا في عام ٩٠٦م بغزو مدينة آكي Aqui من أعمال مونتفرات الشهيرة بحماماتها المعدنية وأنهم قاموا بغزوها مرة أخرى عام ٩٣٥م بقيادة زعيم لهم يدعى ساجيتوس Sagittus لكنهم هزموا وأنهم دخلوا جنوة وقتلوا ونهبوا وأسروا كثير من النساء والأطفال وروعوا المنطقة بأسرها(٢٠).

استمرت السرايا الإسلامية في الهبوط على سواحل فرنسا الجنوبية لاسيما البروفانس للإغارة والاستيلاء على الأموال والغنائم فقد كانت الأديرة والكنائس تغص بالأموال والنفائس لذلك كانت مطمح أنظارهم ففي عام ٩٠٨م/٢٩٦هـ هبطت سرية قوية من البحارة المسلمين على شاطئ البروفانس وانتشرت في جميع الأنحاء المجاورة ونهبت الأديرة واجتاحت ما في طريقها من الأراضي وهاجمت مرسيليا وهدمت كنيستها وغزت ايكس Aix وأسرت النساء للزواج منهن وهجر

---

(18) Previte–Orton, The Early History, of the House of savoy P.5.
- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, P. 420.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٤٩-٩٥٠.

عبد الرحمن على الحجي: العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية، ص٢٧٣.

(19) Chronicon Novalicienes, libri IV, P.67.
- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle Ages, London, N. d, P.24.

ليجوريا: أحد اقاليم ايطاليا يقع في غرب البلاد ويطل على البحر الليجوري جنوباً ويحده شمالاً اقليم بيمونت وشرقاً اقليمي إميليا رومانيا وتوسكانيا Tuscany وعاصمته جنوة.

- Cander Dictionary of Geography, P. 362.

(20) Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book II, Chapter XLIII, P.90, Book IV, Chapter IV, P.144.

- مدينة أكوي Aqui مدينة إيطاليا تبعد حوالي خمسين ميلاً من بافيا شمال إيطاليا.

- Liudprand of Cremona,Antapodsis,Book IV,Chapter IV, P.144.

الأهالي حصونهم وقصورهم خشية القتل والأسر فاحتلها المسلمون(٢١).

هاجم المسلمون في عام ٩٣٠م/ ٣١٨هـ فريجوس Frejus أكبر وامنع ثغور فرنسا الجنوبية(٢٢). وكذلك ثغر تولوز فهرب السكان إلى الجبال، وفي عام ٩٣٩م/٣٢٧هـ غزا المسلمون منطقة فاليس Valais في جنوب سويسرة ونهبوا أديرتها واتخذوها قاعدة لهم للإغارة على المناطق المحيطة في سويسرة وايطاليا ومنها اخترقوا منطقة جريزون Grisons إلى وسط وشرق سويسرة(٢٣). حتى وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف وجاوزوها إلى مفارز جورا Jura الواقعة في شمالها المتاخمة لبرجنديا ، وانبسط المسلمون في المناطق الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance في الشمال الشرقي من سويسرة وبين مدينة كور Chur في شرق سويسرة(٢٤).

اشتدت وطأة المسلمين في تلك النواحي وعاثوا في الجهات المجاورة وأنزلوا الخراب والدمار بالمدن والحصون وأضرموا النيران في الأديرة والكنائس وحملوا معهم الغنائم والأسلاب وبلغ السخط من هجماتهم ذروته(٢٥). إلا أنه لم يكن هناك من يستطيع التصدي لهم وفشلت المحاولات الاوربية في مقاومتهم فلقد ضعفت

---

(21) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 166.
محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٨.
محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٣.

(22) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 167.
- Daniel N., The Arabs and Medieval Europe, London, 1975, P.52.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- عبد العظيم رمضان ، الصراع بين الغرب وأوروبا ، ص ٢٠٠ ، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ، القسم الثاني ، ص ٤٦٩ .

(23) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 172.

(٢٤) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ، ص٢٠٠-٢٠١.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الاندلس في الاندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسره في أواسط القرن العاشر، ص٢٥١-٢٥٢.

(25) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.59-60.
محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٥.

السلطة المركزية في المقاطعات وكان لكل بلدة قلعة غير محصنة وتركت الأديرة للدفاع عن نفسها[٢٦]. وحارب القادة منفردين في الوقت الذي كان يجب توحدهم لمواجهة ذلك الخطر لكنهم انشغلوا بمنافسة بعضهم البعض ومنافسة الملك في الوقت الذي انضم إلى المسلمين عدد من سكان تلك المناطق بالإضافة إلى الأمراء الذين استعانوا بهم في قتال بعضهم البعض[٢٧].

وبذلك نرى أن نفوذ مسلمي فراكسنيتوم امتد خلال القرن العاشر الميلادي، الرابع الهجري الي مناطق البروفانس وسافوي Savoy وسويسرة وسيطروا على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين جنوبي فرنسا ولومبارديا في شمال ايطاليا وبينها وبين سويسرة واستولوا في سويسرة على ولاية فاليس وبعض جهات كور واحتلوا في ايطاليا ولاية ليجوريا بعد أن اخترقوا إلى بيمونت ومونتفرات بايطاليا وأنشأوا مراكزاً وقواعداً وحصوناً لتكون نقط انطلاق لهم في شمال أيطاليا وسويسرة مثلما فعلوا في البروفانس وجنوبي فرنسا حتى أصبحت البلاد الواقعة بين نهري البو Po والرونRhon مجالاً لغاراتهم[٢٨].

المحاولات التي قامت بها القوى المسيحية الغربية للقضاء على مسلمي فراكسنيتوم

أثارت الإغارات التي قام بها مسلمو فراكسنيتوم وما تبعها من تدمير وتخريب ضد مناطق جنوب فرنسا وسويسرة وشمال ايطاليا حنق الشعب المسيحي بصفة عامة والحكام بصفة خاصة وقامت عدة محاولات للقضاء على المسلمين في تلك الجهات لكنها لم تحقق الأهداف المرجوة منها وكانت أولها ما قام به

([26]) Gregorovius, History of the City of Rome, Book VI, Chapter1, P. 262.

([27]) Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, P. 152.

- Bruce, An abbot between two Cultures, P. 430.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا، ص١٦٩ ، عبد الرحمن على الحجى، العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية ، ص ١٧٣ .

([٢٨]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٠.

- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠١-٢٠٢.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسره في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٧.
- Keappen ., The World in The Middle Age, P. 52.
- سافويSavoy: منطقة في أوربا الغربية تقع بين بحيرة جنيف Geneve في الشمال وموناكو Monaco وساحل البحر المتوسط في الجنوب وكانت تابعة لمملكة برجنديا في تلك الفترة
- Cander., Dictionary of Geography, P. 574.

البيزنطيون عام ٩٣١م/٣١٩ هـ إذ استطاع الأسطول البيزنطي أن يهاجم معقل المسلمين في فراكسنتيوم على ساحل البروفانس وهو المعقل الذي ربما كان المسلمون يتصدون منه لتجارة المدن الساحلية الإيطالية إلا أن هذا الأسطول فشل في تحقيق أهدافه ولم تؤد هذه المواجهات إلى نتائج حاسمة بسبب حاجة الأسطول إلى مساعدة من القوات البرية[٢٩].

أدى الضعف السياسي لإيطاليا إلى زيادة الطامعين في عرشها فقام هيو كونت البروفانس بالاستيلاء على عرش المملكة اللومباردية وذلك بناء على استدعاء الإيطاليين له وتوج ملكاً عام ٩٢٦م[٣٠].

ازدادت هجمات مسلمي فراكسنيتوم على ممرات الألب الغربية وازداد صريخ رعايا الملك هيو مما عانوه من عيث العرب فصحت عزيمته للقضاء عليهم ومهاجمة حصنهم المنيع فراكسنيتوم الذي يلوذون به ويتخذون منه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع الأندلس من ناحية ومع أفريقيا من ناحية أخرى ومركزاً للهجوم على الجهات الداخلية[٣١].

([29]) Annales de Flodoard, a. 931, P.47.
- Liudprand, Antapodosis, Book IV, Chapter 4, P. 144.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist., III), P.155.

أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٢٣٤.

([30]) Regesta Chronologico– Diplomatica Karolorum,ed. Bohmer, Frankfort,1833, P. 129.
- Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book III, Chapter XII, P. 114.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scripteres Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994, Book1, Chapter1.

(٣١) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٦.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 176.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٣.

لذلك أرسل الملك هيو إلى القسطنطينية للتحالف مع الامبراطور البيزنطي رومانوس الأول ليكابنوس[٣٢] Romanus LLecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) ضد مسلمي فراكسنيتوم الذين ازدادت هجماتهم على ممرات الألب حتى وصلت إلى سوابيا كما أنهم أزعجوا البيزنطيين بحراً أيضاً وليطلب منه امداده بالنار الإغريقية التي تحرق السفن وأراد هيو تطويق المسلمين من ناحيتي البر والبحر فعندما يقوم هو بمهاجمتهم براً يقوم البيزنطيون بحصارهم بحراً وبذلك يمنع بالكامل وصول أي امدادات غذائية أو عسكرية لهم من أسبانيا[٣٣].

---

(٣٢) ارتبط الملك هيو بعلاقات وطيدة مع القسطنطينية وذلك يخالف ما عرف عن طبيعة العلاقات العدائية التي غلبت على الفترات السابقة بين حكام ايطاليا والأباطرة البيزنطيين وربما يرجع ذلك إلى حاجته لتدعيم حكمه فقد كان يعاني اضطرابات كثيرة ومنافسين له لذلك عمل على التحالف مع الامبراطور البيزنطي بعد أن مكن البيزنطيين مع استعادة أملاكهم المفقودة في أبوليا في جنوب ايطاليا وأكد هذا التحالف بزواج ابنته من الامبراطور البيزنطي القادم رومانوس الثاني Romanus II وقد استجاب البيزنطيون لطلب هيو في التحالف ضد المسلمين لأنهم عانوا أيضاً كثيراً من هجمات المسلمين على أملاكهم.

- Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter XIV, P. 184.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist. III), P.155.

(33) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter IX, PP. 181-182.

- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-178.

النار الاغريقية اختراع لمهندس يوناني من أصل سوري يدعى كالينكوس

والنار عبارة عن مخلوط كيماوى قابل للاشتعال يجرى قذفه باتابيب خاصة فاذا احتك بسفينة العدو اشتعلت واحترقت ومن خصائص هذه النيران أنها تستعمل في الماء.

Oman,C.Ahistory of The Art of War in The Middle Ages,vol .2,London 1924,pp.206- 209

لويس أرشيبالد القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،ترجمةأحمد عيسى القاهرة ١٩٦٠ ص٩٧

وافق البيزنطيون على خطة الملك هيو لذلك جمع هيو جيشه عام ٩٤٢م/ ٣٣١هـ ومضى براً من ناحية بافيا في شمال ايطاليا ووصل الأسطول البيزنطي إلى خليج سانت تروبيز St. tropez على ساحل البروفانس وحاصر سفن المسلمين واستطاع حرقها بالنار الإغريقية مما أدى لتدميرها بالكامل في الوقت الذي استطاع الملك هيو وجيشه أن يشق طريقه بالقوة إلى حصنهم المنيع وأرغم المسلمين على التراجع إلى جبال المور (موروس) المجاورة والاعتصام بالآكام والربى وكانت النتائج تنذر بالقضاء الحاسم على مسلمي فراكسنيتوم واستئصال شأفتهم إلا أن الظروف التي كانت تمر بها ايطاليا حالت دون ذلك وأدت لفشل المحاولة الثانية للقضاء عليهم[٣٤].

كان برنجار الثانيBrenger II ماركيز افرياIvrea الواقعة في شمال غرب ايطاليا منافساً قوياً للملك هيو في ايطاليا فهو الحفيد والوريث الشرعي للإمبراطور برنجار الأول (٩١٥-٩٢٤م)[٣٥]. وأراد الاستيلاء على العرش الايطالي فقام الملك هيو بمحاولة قتله عندما رأى ازدياد نفوذه فهرب برنجار الثاني عبر المضائق الجبلية الوعرة لممر القديس برنارد العظيم[٣٦]. إلى دوقية سوابيا Swabia

---

([34]) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter XVI, PP. 186-187.
- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-179.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 139.

([٣٥]) استولى برنجار الأول حاكم ماركية فريولي وحفيد الإمبراطور لويس التقي (٨١٤-٨٤٠م)- من ناحية أمه جزيلا ابنه الامبراطور- على حكم ايطاليا عام ٨٨٨م وتوج امبراطوراً عام ٩١٥م وفي عام ٩٢٢م استدعى النبلاء الإيطاليون رودولف الثاني ملك برجنديا وطلبوا منه طرد برنجار والاستيلاء على العرش وحدث ذلك فعلاً وتوج رودولف ملكاً على ايطاليا في نفس العام وظل برنجار الأول محتجزاً في ملكه في ماركية فريولي حتى مقتله عام ٩٢٤م.
- Regesta Chronologico, Diplomatica karolorum PP. 122- 129.

([٣٦]) يعتبر ممر القديس برنارد العظيم أهم وأعظم ممر خلال جبال الألب الغربية ويمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي لايطاليا خلال فاليس الألب Valais Ales المعروفة سابقاً بأنينين الألبApenine Alps وتأتي أهمية هذا الممر من أنه يربط

الألمانية فاصطحبه دوقها إلى بلاط الملك أوتو الأول Otto1 (٩٣٦-٩٧٣م) ملك ألمانيا الذي استقبله استقبالا حسناً وأمده بالأموال والقوات التي تمكنه من دخول ايطاليا ومواجهة الملك هيو بعد أن حصل منه على قسم الولاء والتبعية(٣٧)، وعندما علم الملك هيو بذلك عدل عن عداوة المسلمين المتحكمين في تلك الطرق التي تربط بين ايطاليا وسوابيا إلى مسالمتهم لأنه كان يخشى أن يتمكن برنجار من جمع القوات من فرنسا وألمانيا وينقض على ايطاليا ويغتصب منه عرشه لذلك أثر مصالحه الخاصة على المصلحة العامة وأمر بعودة البيزنطيين إلى بلادهم وأوقف مشروعاته ضد المسلمين وأبرم معهم معاهدة ترتب عليها الاعتراف لهم بحق البقاء في مواقعهم في جبال الألب وممراتها بشرط أن يمنعوا خصمه برنجار الثاني من المرور إذا حدث وقاد جيشه خلال ذلك الطريق إلى ايطاليا(٣٨).

بذلك اقتنع الملك هيو بأنه من الأفضل له محالفة المسلمين واتخاذهم سنداً له ضد منافسه برنجار الثاني وذلك لمعرفة المسلمين بتلك المناطق بعد أن تمرسوا

بين سويسرة Switzerlano وإيطاليا عن طريق اقليم فاليس السويسري ووادي أوستا الايطالي Aosta ويذلك يعتبر المدخل الرئيسي الايطالي.

- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950, PP. 1731- 1732.

(37) Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935, Liber III, Chapter II, P. 110, Liudprand, of Cremona Antapodosis, Book V, Chapter X-XII, P. 182-184.
- Gregorovius, History of the City of Rome Vol. III, Book VI, Chapter2, P.320.

(38) Liudprand, Antaposis, Book V, Chapter XVII, P. 187.
- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-179.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 139.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٠.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٤.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist. III), P.155.

على الحرب بها والتحكم في دروبها وممراتها والمناطق المجاورة وغدى بوسعهم إغلاق هذه الممرات في وجه من يريدون[٣٩]. وكانت نتائج المعاهدة التي أبرمها هيو ملك ايطاليا في صالح مسلمي فراكسنيتوم فلقد جاءت كاعتراف من السلطة الإيطالية بشرعية وجودهم في مواقعهم لذلك استعادوا قلاعهم وحصونهم وسيادتهم في جنوب البروفانس وازدادت جرأتهم واستقرت أقدامهم في البلاد كأنهم سيلبثون فيها أبداً وواصلوا مشروعاتهم التوسعية في تلك الجهات وزادت سيطرتهم على ممرات الألب وفرضوا المكوس والضرائب على المسافرين وتقدم المسلمون بعد ذلك إلى نيس أونيقة التابعة يومئذ لمملكة آرل ولا يزال إلى اليوم حي يعرف بحي العرب Canton des sarrazims ثم نفذوا إلى المناطق التي تجري فيها روافد نهر الرون بعد أن استولوا على جرينوبل Grenoble وواديها الخصيب وشكلوا عنصراً هاماً في الأحداث في تلك الأنحاء بعد أن تزوجوا من السكان المحليين وأخذوا يزرعون ويحرثون الأرض كسائر الفلاحين وأصبحت لهم سطوة بين السكان وتحكموا في المرور بين فرنسا وايطاليا وبين سويسرة وايطاليا[٤٠].

قامت عدة محاولات أخرى لطرد مسلمي فراكسنيتوم منها ما قام به الأمراء والزعماء والأهالي في البروفانس بعد أن أدت إغارات المسلمين على المناطق المجاورة إلى تأليب سادة هذه الجهات لحربهم ومحاولة طردهم من مستعمراتهم الجديدة، فقد جمع كونت البروفانس وبعض سادة المناطق المجاورة قوات كبيرة واتفقوا على مواجهة المسلمين والقضاء عليهم[٤١].

ويذكر مؤرخ دير نوفاليزا تفاصيل ذلك قائلاً "إن العرب كان يسبون النساء والأطفال والخيل وغير ذلك وكان قد دخل معهم آفاق يدعى أيمون Aymon طمعاً في الغنائم وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة فائقة الجمال فأستأثر بها أيمون لنفسه، فجاء أحد زعماء المسلمين وانتزع تلك الجميلة من يد أيمون بالقوة فغضب وثار للانتقام منهم وذهب إلى الكونت روتبلدسRotbadus صاحب السيادة في

---

(٣٩) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٧.

(40) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 180-181.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٤-٢٥٥.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٨-١٩٩.

(41) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 182.
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٢-٢٠٣.

البروفانس العليا وأخبره سراً عن الرغبة في طرد المسلمين من البلاد وكان للمسلمين جواسيس في كل مكان فعمل أيمون على إخفاء مخططة بكل وسيلة ممكنه حتى تمكن من استنفار الناس بدون أن يشعر المسلمين واجتمع الزعماء والأمراء وقادوا الأهالي وهاجموهم وأخمدوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن أعناق الأهالي(٤٢).

نزلت بالمسلمين تلك الكارثة بعد أن أخذوا على غرة فاضطروا إلى الجلاء عن كثير من قلاعهم وحصونهم في تلك الجهات واستولى عليها الاوربيون الذين استمروا في مطاردتهم ووضعوا بذلك حدا لإغارات المسلمين وتوسعهم في لومبارديا وشمال ايطاليا وعلى حدود ليجوريا.

قامت محاولة أخرى للقضاء على مسلمي فراكسنيتوم عام ٩٥٢م/٣٤١هـ في جورا Jura في سويسرة وتذكر الروايات المعاصرة أن كونراد الأول(٩٣٧-٩٩٣م) ملك برجنديا عاني كثيراً من إغارات مسلمي فراكسنيتوم بالإضافة إلى الهنغاريين الذين اكتسحوا الألزاس وصارت جميع بلاد جورا مُعرضة لغزواتهم(٤٣). لذلك فكر في التخلص منهما معاً بالحيلة والدهاء فأرسل رسالة إلى المسلمين يحرضهم على محاربة الهنغاريين وانتزاع ما بأيديهم من أراضي وضياع وفي نفس الوقت أرسل إلى الهنغاريين يستحثهم على حرب المسلمين ومحاولة إجلائهم من قلاعهم وحصونهم وامتلاكها لأنفسهم واقترح على كل فريق مكاناً يصلح للقاء والمعركة وفي نفس الوقت جهز جيشه وأخذ يترقب ما سوف تسفر عنه الأحداث(٤٤).

تم فعلاً ما خطط له الملك كونراد فاشتبك المسلمون مع الهنغاريين في حرب ضروس هلك فيها جمع كبير من الفريقين وعندئذ انقض كونراد بقواته فبدد شمل الباقين من الفريقين وبذلك تخلص من عدويه معاً(٤٥). وبالرغم من أن الرواية لم تحدد المكان الذي تمت فيه المعركة والذي كان قد اقترحه كونراد على الفريقين إلا

([42]) Chronicon Novalicienes, lipri IV, PP.71-72.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 146.

([43]) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 183.
جورا: عبارة عن سلسلة من الجبال تمتد من الشمال الى الغرب ويحدها بحيرة جنيف على طول حدود فرنسا وسويسرة حتى الوصول الى الجزء الفرنسى من نهر الراين
Cander., Dictionary of Geography, P.338.

([44]) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.56-85.

([45]) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.56-85.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٧.

أن من المعتقد أنه كان في سافوى لأنها نقطة متوسطة بين أملاك المسلمين في البروفاس وأملاك الهنغاريين في الإلزاس[٤٦].

على الرغم من تلك المواجهات العسكرية التي تمت بين مسلمي فراكسنيتوم والقوى السياسية المعاصرة فلازال المسلمون يحتلون مواقع كثيرة في سويسرة وفي معابر الألب الغربية[٤٧] وذلك يرجع إلى قوة بأسهم وتمرسهم في حرب العصابات وبراعتهم في القتال في الجبال والآكام مما أدى إلى استمرار تلك المواجهات للقضاء التام عليهم[٤٨]. فلقد ذكر مؤرخ سانت جال Saint Gall أن رئيس دير سانت جال الذي كان يدعى فالتون Waltone جمع عدداً من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفئوس وهاجموا المسلمين بغته فقتلوا كثيراً منهم وقبضوا علي الباقين وأخذوهم إلى الدير فرفض هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا حتى هلكوا جوعاً[٤٩].

على الرغم من تلك المواجهة فقد ارتد كثير من المسلمين إلى حصونهم وظلت الامدادات تصل إليهم من الأندلس ومن المغرب التي تمدهم بأسباب الجرأة والقوة على أن هذا الوجود العربي الإسلامي في تلك المناطق الأوربية لم يلبث أن أخذ يقترب من نهايته منذ منتصف القرن العاشر الميلادي [٥٠] فقد حدثت مواجهة أخرى معهم عام ٩٥٦م اسفرت عن طردهم من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصيب، بعد أن قام أحد أساقفة هذه المدينة ويدعى إيزارون Isarn باستنهاض الهمم لتجميع القوات لقتال المسلمين عن طريق الوعود التي وعد بها الناس بتقاسم أملاك المسلمين الخصبة إذا هم ظفروا بالنصر عليهم وتقاسمها بينهم كل بحسب شجاعته في القتال واقدامه على الحرب حتى تشجع الناس وقاتلوا بحماسة كبيرة أدت إلى انتصارهم على المسلمين وتوزيع أملاكهم فيما بينهم مما أدى إلى ثراء بعض العائلات وإعلان ايزارون نفسه أميراً على جرينوبل وعلى واديها الخصيب[٥١].

---

(46) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 184.

(٤٧) فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٧.

(٤٨) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٤.

(49) Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829, PP.137-138.

(٥٠) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧١-٤٧٢.

(51) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 198.

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس،العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.

وفي عام ٩٦١م اضطر المسلمون للخروج من معاقلهم في ممر سانت برنارد وعلى الرغم من أنه لا توجد تفاصيل عن تلك الواقعة إلا أنه من المعتقد أن المسيحيين تجمعوا في تلك الأنحاء لحرب المسلمين وطردهم من ذلك المعقل المهم الذي يتحكم في المرور بين سويسرة وإيطاليا ويربط إيطاليا ببقية دول أوربا ويبدو أن القديس برنارد الذي بني له حصناً في أعلى ذلك الجبل ونسبت إليه سلسلة هذه الجبال كلها كان أحد قادة تلك المعركة التي أدت إلى طردهم من تلك المنطقة[٥٢].

بذلك نرى أن استقرار المسلمين في تلك البقاع الأوروبية أخذ في التراجع وأن ذلك التقهقر كان يزيد من أطماع الأهالي في التخلص منهم والقضاء عليهم تماماً، ففي عام ٩٦٨م نادى أوتو الأول ملك ألمانيا بهذا المشروع وكان يخطط له، وذلك بعدما ازدادت قوته ونجح في إخضاع ما حوله من الشعوب وتأمين حدوده وهزيمة الهنغاريين في موقعة ليخفيلد Lechfeld عام٩٥٥م[٥٣]. كما استطاع أن يفرض سيطرته على منطقة برجنديا عام ٩٤١م[٥٤]، وعلى لومبارديا في شمال

- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.

(52) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 195.

- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٢-٤٧٣.
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٦.

(53) Widukindi Monachi Corbeiensis, , Liber III, Chapter 70, PP. 146-147.

وضع أوتو الأول حداً لغارات الهنغاريين المدمرة على أوربا الغربية بعد انتصاره الكبير عليهم في معركة ليخفيلد وأزال خطرهم وحقق بذلك شهرة كبيرة وتبوأ موقع الزعامة في أوربا مما مهد لتتويجه الإمبراطوري في الثاني من فبراير عام ٩٦٢م . عن تفاصيل ذلك انظر:

Widukindi Monachi Corbeiensis, Liber III, Chapter 70, PP. 126- 128.

Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum Germanicarum in Usum Scholarum ex monumentis Germaniae Historicis Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889, Liber III, Ch. 10, P. 23-24.

(٥٤) قام أوتو الأول عام ٩٣٨م بغزو برجنديا وأخذ الملك كونراد الشاب بن رودولف الثاني الوريث الشرعي لعرش برجنديا أسيراً إلى ألمانيا وبقى مدة ثلاث سنوات هناك تابعاً له يخضع لأوامره وبذلك استولى أوتو الأول على الملك والمملكة.

إيطاليا عام٩٥١م وأصبح حكام هذه المناطق أفصالاً إقطاعيين يدينون بالولاء والتبعية له(٥٥).

شكى الرهبان والأمراء في البروفانس وشمال إيطاليا إلى الملك أوتو الأول من غارات المسلمين المدمرة والذين ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراش مما أدى إلى توسعهم في غاراتهم على تلك المناطق وأسسوا المزيد من الحصون وهددوا المسافرين عبر جبال الألب وأصبحوا يمثلون مصدر رعب وخطر كبير هدد القوى الأوربية المجاورة لهم عندما هاجموا الأديرة وأسروا الرهبان والنساء وانضم إليهم العديد من سكان تلك المناطق ولجأ إليهم العديد من الثائرين الذين طلبوا مساعدتهم ضد منافسيهم وتضرر أوتو الأول منهم عندما هرب أدالبيرت الثاني Adelpert II بن برنجار الثاني وشريكه في حكم إيطاليا أثناء مطاردة أوتو الأول له بسبب تمرده عليه ونقض يمين الولاء والتبعية الذي أداه له وإثارة القلاقل في إيطاليا ولجوئه إلى مسلمي فراكسنيتوم وطلب مساعدتهم وحمايته ضد الملك الألماني(٥٦).

كما تعرضت بعض أملاك ألمانيا للخراب نتيجة لغارات المسلمين عليها فتوجد كتابة في دورنبورج Dornburg مؤرخة بعام ٩٥٥م تفيد أن الإمبراطور أوتو الأول كان عائداً من إيطاليا فشاهد بعينيه آثار تخريب المسلمين وبناء على التماس

- Widukindi, Liber II, Chapter 35, PP. 94 - 95.
- Annales de Flodoard, a. 940, P.78.
- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947, PP. 50-51.

(٥٥) قام الملك أوتو الأول بحملة لغزو إيطاليا عام ٩٥١م وحاصر بافيا Pavia عاصمة اللومبارديين ودخلها منتصراً في سبتمبر من نفس العام واستولى على التاج اللومباردى وتوج ملكاً على اللومبارديين وأدى برنجار الثاني ملك إيطاليا يمين الولاء والتبعية له وأصبح فصلاً إقطاعياً لملك ألمانيا الذي أرغمه على التنازل عن حقوقه في حكم إيطاليا.

Widukindi, Liber III, Chapter 9-10, PP. 109- 110.
Thietmar Chronicon, Liber II, Chapter 5, P.21.
Annales de Flodoard, a. 951, P.131.

(56) Liudprand of Cremona, Gestis Ottonis, Chapter 4, PP. 216-217.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,PP.158-167, 1980.

أخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا أنعم على دير كور Chur بهبات كثيرة، وكان ذلك من قبيل نذر نذره من أجل عودته موفقاً من إيطاليا عن طريق جبال الألب وأتبع ذلك هبات أخرى كثيرة، كما شكا أساقفة كور من غارات المسلمين المدمرة على أملاكهم فأقطعهم أوتو الأول أملاكاً على سبيل تعويضهم مما لحق بهم من أضرار وذلك بموجب مرسوم مؤرخ بعام ٩٥٦م(٥٧).

اعتبر أوتو الأول أن مسلمي فراكسنيتوم تابعين لخليفة الأندلس ويحظوا بحمايته وتأييده(٥٨). وهو آنذاك عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله(٥٩)، والذي كان في ذلك الوقت قد بلغ مكانه كبيرة في العالم الإسلامي، وأصبح يمثل أكبر قوة للإسلام في الغرب، وهذا ما دفع أوتو الأول لإقامة علاقات سياسية معه بهدف وقف اعتداءات مسلمي فراكسنيتوم عن برجنديا ولومبارديا وجنوب فرنسا، وقد اتجه أوتو الأول للطرق السلمية في البداية للوصول إلى أهدافه لانشغاله بمشاكله الداخلية والخارجية، واعتمد على المفاوضات الدبلوماسية مع الخليفة الأندلسي لردعهم، وقد تحدثت المصادر عن تلك السفارات التي أرسلها أوتو الأول والتى كان أهمها سفارة يوحنا الجورزى Johan of Gorze عام ٩٥٦/٣٤٤هـ والتي بدأها أوتو الأول

---

(57) Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884, PP. 256-257.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 174-175.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٥-٢٥٦.

(58) Liudprand of Cremona, Antapodsis,Book 1,Chapter II,P.33.

(٥٩) عبدالرحمن الناصر هو إبن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن أمير الأندلس تولى الخلافة في غرة ربيع الأول ٣٠٠- ٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م بعد وفاة جده عبدالله وكان آنذاك لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره لكنه أظهر نبوغاً في العلم والمعرفة ومهارة في الحرب والفروسية وبراعة في النحو والشعر والتاريخ وهو ما خول أنظار الناس إليه وتعلقت به آمالهم للنهوض بالخلافة الأموية في الأندلس من نير الفتن والاضطرابات وكان هو أول من تلقب بأمير المؤمنين في الأندلس، وقد بلغت الأندلس في عهده مكانة كبيرة بعد أن أخمد الثورات في الداخل وأذعن له الأعداء في الخارج وجاءته السفارات من كل البلدان تتقرب إليه وتخطب وده.

ابن خلدون، العبر، ج٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٧٦

محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٣٧٣-٤٦٣.

إلى عبد الرحمن الناصر ويشكو فيها من غارات مسلمي فراكسنيتوم على رعاياه ويطلب فيها منه التدخل لقمع عدوانهم واستعمال نفوذه للحد من خطرهم لكن عبدالرحمن الناصر اعتذر عن تلبية طلبه وذلك لأن تلك المستعمرات الإسلامية لا تدخل في نطاق سلطته ولا يملك أي نفوذ عليها(٦٠).

نلاحظ أن ما ذكره عبدالرحمن الناصر يتناقض مع ما ذكرته المصادر الغربية المعاصرة فيؤكد المؤرخ ليتوبراند الذي عاش في تلك الفترة وكان شاهد عيان لأحداثها أن إمارة فراكسنيتوم كانت تحت حماية عبدالرحمن الناصر خليفة قرطبة ويمدها بالتشجيع والعون(٦١)، وربما ذلك هو ما حمل أوتو الأول إلى التجهيز لحملة كبيرة ضد مسلمي فراكسنيتوم، وجاء ذلك في الخطاب الذي أرسله من إيطاليا إلى قادته في ألمانيا عام ٩٦٨م لكن انشغاله بمشاكله الداخلية والخارجية حال دون ذلك(٦٢).

---

(60) Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctoro Johanno Abbato S. Arnulf, MGH, SS., IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841, PP. 369-377, Daniel, The Arabs and Medieval, Europe, PP. 65-69.
O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975, PP. 119-120
ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٨٣.
المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، ط١، المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢هـ، ص١٧٠، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة كولون، ج.س، ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ص٢١٨.
Leyser. K, Communication and Power in Medieval Europe, ed., Reuter T. London, 1994, PP. 126- 135.
عبدالمجيد نعنعي، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٣٧٤، ٣٧٥.
عبدالرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م، ص٣١٩.

(61) Antapodsis, Book1, Chapter II, P.33.
(62)Widukindi Monachi Corbeiensis, Liber III, Chapter 70, PP.146-147.

وبذلك فشلت المحاولات العديدة العسكرية والسلمية التي قامت بها القوى الاوربية للقضاء عل مسلمي فراكسنيتوم حتى وقعت حادثة مهمة كانت بداية النهاية لوجودهم في تلك البقاع.

حادثة القديس مايول St. Maioli

كانت سيطرة مسلمي فراكسنيتوم على ممرات الألب وآكامها تمثل خطراً كبيراً هدد الاوربيين في بلاد غرب أوربا، وذلك لأنها تتحكم في الطرق الموصلة إلى المزارات والأماكن المقدسة في روما التي يقصدها الحجاج المسيحيين كما أنها تعتبر طريق تجاري هام للمسافرين يربط بين إيطاليا وبقية دول أوربا يسلكه التجار سعياً وراء الربح الذي سيحصلون عليه من تجارتهم(٦٣)، وقد استغل المسلمون تلك المميزات في فرض المكوس والضرائب والإتاوات، وقاموا بالتعرض بالأسر أو القتل لمن يرفض الإذعان لابتزازهم وهكذا ابتعدوا عن الأهداف السامية التي خرجوا من أجلها والتي دعي لها الإسلام مما أدى إلى ازدياد الحنق عليهم والرغبة في الانتقام منهم والقضاء عليهم وذلك في الثلث الخير من القرن العاشر الميلادي(٦٤).

في تلك الفترة اشتهر رجل بصفاته الكريمة وأعماله الجليلة وكان يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتبجيل وبلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمنصب البابوية وهو القديس مايول St. Maioli الذي كان راهباً(٩٥٤-٩٩٤م)، في دير كلوني Cluny الشهير في برجنديا(*). وقد قام مايول بالذهاب إلى روما للحج وزيادة الأضرحة المقدسة وانضم إليه وهو عائد عدد غفير من الحجاج القافلين من روما رغبة في صحبته والاحتماء به من خطر المسلمين الذين كانوا يحتلون البلاد الواقعة بين جاب Gap وإمبران Embrun ويتمركزون في أعالي وادي دراك

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.5.
- Cam. Med. His, Vol. III, P.168.

(63) Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 429-430.

(٦٤) محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٧.

(*) قام دير كلونى بدور هام في عملية الاصلاح الكنسى وتحرير الكنيسة من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم واستطاع دير كلونى أن يتزعم مجموعة من الاديرة ذات الطابع الخاص التى نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين ، لتصبح تحت السيطرة المباشرة للبابا وكان مقدم دير كلونى لـه الحق في تعيين رؤساء هذه الأديرة وبذلك أصبح دير كلونى بمثابة الدير الرئيسى العام في هذا التنظيم الكنسى الجديد.
سعيد عاشور،أوربا العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، النظم والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية ،١٩٩١،ص٣٥-٣٦ .

Drac[٦٥] .

عبر القديس مايول ورفاقه في ٢٢ يوليو عام ٩٧٢م مرتفعات جبال الألب حتى وصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبر سانت برنارد العظيم على ضفة نهر درانس Drance تسمى بونز أرساري Pons Arsarii وعندما وصلوا إلى ضفاف الوادي سائرين في الوادي المنحصرة بين الجبل والنهر انقض عليهم المسلمون وحصرهم وقبضوا عليهم وأوثقوهم بالقيود وجردوهم من كل ما يملكون ثم ساقوهم إلى أحد الكهوف وسجنوهم فيه وأصيب القديس مايول بجرح غائر في يده عندما أراد أن يفتدي أحد رفاقه من طعنة وجهها له المسلمون، ولقد عرف المسلمون في القديس مايول الصلاح والتقى وظنوا أنه من أثرياء القوم فسألوه عن ذلك فأجابهم أنه كان منهم لكن زهد كل ما يملك فتجرد من أملاكه وتفرغ لعبادة الله وهو الآن راهب في دير ذي أملاك وأراضي كثيرة فساوموه على فداء نفسه بألف قطعة من الفضة وطلبوا منه أن يرسل أحد رفاقه إلى ديركلوني لجمع الفدية وحددوا له موعداً لا يتأخر عنه إلا عرض نفسه ورفاقه للقتل[٦٦].

كتب القديس مايول إلى رفاقه في الدير قائلاً: "مايول التعس الأسير، يرسل التحيات إلى القادة والأخوة، رهبان ديركلوني، قد أحاط بي حشود من Belial[٦٧]

---

(65) Syrus[, Vita Sancti Maioli, in Agnimmaculati, Paris, 1988, III, 5, P. 253.
- Rodulphus Glaber, Historiarum, Libri Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989, PP. 18-24.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201.

(66) Rodulphus Glaber, Historiarum, libri Quinque 1, 4, 9, PP. 18-20.
- Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 426-432.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201- 203.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146

(٦٧) استعمل مايول في خطابه كلمة Belial للدلالة على المسلمين والتي تعني أبناء إسماعيل وشاع ذلك الوصف للمسلمين عند الغرب الأوروبي.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 434.

وقبضوا على، لذلك أرجو منكم بكل الوسائل إرسال الفدية لفك أسرى أنا وأولئك الذين معي".

"Dominins et Fratibus Cluniensibus Frater Maiolus Miser et Captus Torrentes Belial Circumded erunt me, Praeccupauerunt me Laquei Mertis Nunc Uero Si Placet at his qui mecum capti tenentur redemptionem mittite"(٦٨).

لما وصل هذا الكتاب إلى دير كلوني ارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل من قبل رفاقه الرهبان وهبوا جميعا في تدبير الأموال اللازمة لذلك حتى أنهم جردوا الكنيسة من زخرفها فقد كان محبوباً لديهم وأرسلوا كل ما استطاعوا جمعه من الأموال إلى المسلمين حتى يطلقوا سراح القديس ورفاقه، وتم ذلك بعد أن أخذ المسلمون ألف قطعة من الفضة لفك أسر القديس وقطعة واحدة عن كل واحد من رفاقه وعادوا جميعاً بعد إطلاق سراحهم إلى بلادهم وكلهم حنق وكراهية ضد المسلمين(٦٩).

انتشرت أخبار حادثة القديس مايول وصار له صدى كبير بين الناس وأثارت غضب واستياء الرأي العام وسعى القادة والنبلاء للأخذ بالثأر وبتأثير من القديس نفسه عمل الاقطاعيون في شرق وغرب الألب على توحيد جهودهم وتقديم المساعدات للتجهيز لحملة ضد مسلمي فراكسنتيوم الذين روعوا أهالي تلك المناطق(٧٠).

تزعم هذا المشروع أحد النبلاء ويدعى بوبون **Bobon** الذي اجتهد في تجميع القوات وتوحيد الجهود ثم بنى حصن في نواحي سيسترون **Sisteron** موازياً لحصن المسلمين هناك الذي يقع على رأس جبل بترا إمبيا **Petra-Empia** وقام بمراقبتهم حتى أتيحت له فرصة اقتحام حصنهم مستخدماً عامل

([68]) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 20- 22.

- **Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.**

([69]) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 18- 24.

- **Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.**

([70]) Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.

- **Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.**

الخيانة بمساعدة أحد الحراس وتمكن من ذبح المسلمين داخل الحصن بعد مداهمتهم وأخذ الباقين أسرى واضطر بعضهم للتنصر، ورفعت الكنيسة بوبو إلى مصاف القديسين(٧١) .

ألهبت هذه الانتصارات حماسة الاوربيين في الجهات الأخرى خاصة في الدوفيني فقد ثار سكان جاب Gap مركز مقاطعة الألب العليا والتف المحاربون حول قائد يدعى وليام William وهاجموا قلاع وحصون المسلمين في الدوفيني ونجحوا في الانقضاض عليهم وتفتيت شملهم وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وبذلك تخلصت بلاد الدوفيني العليا من قبضتهم ولم يبق للمسلمين سوى حصونهم في البروفانس(٧٢).

معركة تورتور Tourtour وسقوط معقل فراكسنيتوم عام ٩٧٥م/٣٦٥ هـ

تشجع وليام بعد انتصاره على المسلمين في الدوفيني على مواصلة حربه ضدهم في البروفانس بعد أن استطاع الوصول إلى السلطة وتلقب بلقب كونت البروفانس واستغل حب شعبه له فعمل على استنفار أهالي البروفانس والدوفيني ونيس لقتال المسلمين وإسقاط معقلهم الحصين فراكسنيتوم وتصفية الوجود الإسلامي نهائياً من تلك المناطق، ووحد وليام كونت البروفانس جهوده مع القادة والزعماء المجاورين له وحشد القوات الضخمة لتحقيق هدفه وبدأ بالتخطيط للهجوم على فراكسنيتوم(٧٣).

---

(4) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 205
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(72) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٨-٢٠٩.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.

(73) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22-24.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.

عندما علم المسلمون بأن وليام كونت البروفانس يخطط لحربهم عملوا على الاستعداد للمعركة للحفاظ على وجودهم في تلك المناطق لكنهم تخلوا في هذه المرة عما اعتادوا عليه من وسائل الكر والفر والهجمات الخاطفة التي ميزت حربهم في الماضي وكانت السبب في نصرهم واعتمدوا في هذه المعركة على الحرب المنظمة فنزلوا من الجبال واحتشدوا حشوداً في السهول المجاورة ودافعوا عن أنفسهم في صفوف منتظمة وبذلك فقدوا أهم ميزة تميزوا بها خلال تاريخهم في هذه البلاد(٧٤).

اندلعت المعركة في عام ٩٧٥م / ٣٦٥ هـ في مكان يسمى تورتور Tourtour في منطقة دراجينجمان Dragengman وشن القادة الاوربيون هجمات شديدة أدت إلى هزيمة المسلمين وارتدادهم إلى معاقلهم للاحتماء بها خاصة فراكسنيتوم المعروف بحصانته، لكن الاوربيين طاردوهم وحاصروهم في معقلهم فراكسنيتوم وأخيراً وبعد مقاومة مستميتة من المسلمين اقتحموا المعقل وقبضوا على من حاول الهرب منهم وأمعنوا فيهم القتل والأسر وأبقوا على من استسلم منهم وعلى المسالمين وأجبروهم على التنصر فظل كثير منهم باقين يمارسون حرفة الزراعة في الضياع المجاورة واختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم ولا تزال آثارهم باقية مبعثرة في أماكن كثيرة(٧٥).

بسقوط معقل فراكسنيتوم المركز الأساسي لجميع المسلمين المنتشرين في فرنسا وشمال ايطاليا وسويسرة لم يبق شيء للمسلمين بعد أن استولى الاوربيون على ممتلكاتهم وكنوزهم المكدسة هناك، فوزع وليام كونت البروفانس هذه الغنائم على جنوده ومقاتليه الذين أبلوا بلاءاً حسناً في الحرب ضد المسلمين كما نالت الكنيسة أيضاً نصيباً كبيراً منها فقد كان رجالها في طليعة المنادين بحرب المسلمين وكان لهم دوراً واضحاً في تلك المعركة بعد أن عانوا كثيراً من هجماتهم المدمرة

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(74) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207.
- محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٤.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٩.

(75) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207-212.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146 - 147.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.
- عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ، ص١٠٥.

على الكنائس والأديرة(٧٦).

كما قضى الاوربيون على المستعمرات الإسلامية في الألب وممراته ولم يقترب القرن العاشر الميلادى من نهايته حتى كانت سيادة المسلمين قد زالت من تلك المناطق ولم يستطع حكام الأندلس أن يمدوا لهم يد العون لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية(٧٧).

هكذا انهارت بسقوط معقل فراكسنيتوم سيادة المسلمين في البروفانس وجنوب فرنسا وشمال ايطاليا وسويسر بعد أن استمروا في تلك المناطق زهاء الخمس والثمانين سنة معقلاً للإسلام والمسلمين وبذلك انتهت السيادة الإسلامية في تلك الجهات(٧٨).

---

(76) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(77) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.

- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤١٤.

(78) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.

قائمة المصـــادر والمراجــع

أولاً: المصادر الاجنبية:

The Original Sources:

- Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scripteres Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994.
- Chronicon Novalicienes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846.
- Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884.
- Gregorovius, History of the City of Rome, in The Middle Ages, Translated from The Fourth German Edition by Hamilton A., Vol. III, London, 1895.
- Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, Translated from The First Time into English by Wright. F. A., London, 1930.
- Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829.
- Regesta Chronologico - Diplomatica Karolorum, ed. Bohmer, Frank Fort, 1833.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, 1836.
- Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989.
- Syrus, Vita Sancti Maioli, in Agni immaculati, Paris, 1988.
- Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum

Germanicarum in Usum Scholarum ex monumentis Germaniae Historicis Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889.

- Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935.

- Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctoro Johanno Abbato S. Arnulf, Monumenta Germaniae Historica Scripteres IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841.

<u>ثانياً</u> : <u>المصادر العربية</u>:

- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٢م) كتاب صورة الأرض، طبعة القاهرة، د.ت.

- ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، العبر، ج٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م.

- ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة كولون ج. س، ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣

- الاصطرخي أبو القاسم إبراهيم (ت القرن الرابع الهجري)، مسالك الممالك، مجلد ١، ط ليدن، ١٩٣٧.

- المقري أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العين التلمساني، ج١، ط١، المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢هـ.

<u>ثالثاً</u>: <u>المراجع الأجنبية</u>:

<u>Modern Works</u>:

- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.

- Bruce, An abbot between two Cultures: Maiolus of Cluny considers The Muslims of La Garde – Freinet, <u>Journal Compilation, Early Medieval Europe, , 15, (4), Blackwell Publishing, Oxford, 2007</u>.

- Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.

- Cander J., Dictionary of Geography, London, 1834.
- Chambers R., Medieval History, London, 1855.
- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950.
- Comyn R., The History of the Western Empire, Vol.1, London, 1841.
- Daniel, The Arabs and Medieval Europe, London, 1975.
- Gallega, S. History of piedmont, London, 1955.
- Gibbon. E, The History of The Decline, and fall of the Roman Empire, Vol.6, Boston, 1854.
- Kaeppen Adolphus, The World in the Middle Ages New York,1854.
- Leysey. K, Communication and Power in Medieval, Europe, ed., Reuter T. London, 1994.
- O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975.
- Oman,C.Ahistory of The Art of War in The Middle Ages ,vol . 2 ,London ,1924.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, University Press of Cambridge, 1912.
- Previte – Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.
- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third Edition, London, 1968.
- Setton K.M, A History of the Crusadas, Vol.1, Wisconsin, 1969.
- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle

Ages, London, N. d.

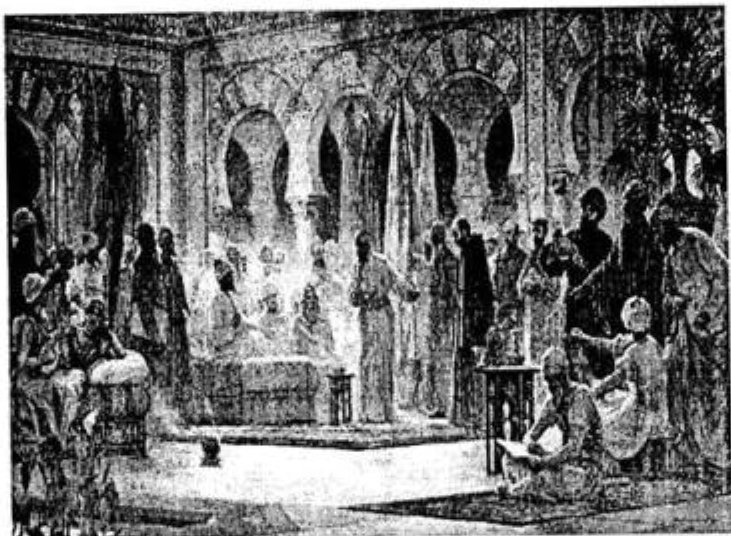
رابعاً: المراجع العربية والمترجمة للعربية:

- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- سعيد عاشور،أوربا العصور الوسطى ،الجزء الثانى ، النظم والحضارة،مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة ،١٩٩١.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- عبد الرحمن علي الحجّي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
- عبدالرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٣٦٦هـ/ ٧٥٥-٩٧٦م)، دراسة تاريخية، أبو ظبي، الامارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤م.
- عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- عبد المجيد نعنعي، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
- علي بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوربا وأمريكا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان ضمن كتابه تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، الخلافة الأموية والدولة العامرية، ط٤، مكتبة الخانجي،القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.



خريطة لفراكسنيتوم الاسلامية من ٨٨٩ ـ ٩٧٥ م نقلا عن :-

www.Timediver.de



سفارة يوحنا الجورزي الى عبد الرحمن الثالث عام ٩٥٦ م www.google.com

معركة ميركيفالون (٥٧١هـ/١١٧٦م) بين سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية

د. آمال حسن عبد الحافظ الخطيب (*)

مقدمـــــة

في (٤٦٧هـ/١٠٧٥م) وبعد خمسة وثلاثين عاما من تكوين إمبراطورية السلاجقة في فارس، تأسست دولة سلاجقة الروم في الأناضول على يد "سليمان بن قتلمش" كنتيجة مباشرة لمعركة مانزيكرت في ٤٦٣هـ/١٠٧١م. فقد اتجه "قتلمش" أبن عم "طغرلبك" مع طائفة من التركمان، إلى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين، إذ اعتبر نفسه أحق بالملك منه، ولأن أباه كان أرشد أفراد الأسرة السلجوقية، ويرجع نسل هؤلاء السلاجقة إلى أبي الفوارس "قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق الذي عينه السلاجقه في فترة الفتوحات الأولى حاكما على الموصل ودياربكر والشام.(١)

تطلع زعيمهم "قتلمش" إلي الاستقلال بالحكم عقب وفاة السلطان "طغرلبك" في عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وتولية ألب أرسلان عرش السلاجقة، فخرج قتلمش على الب ارسلان فقتله الأخير، وأراد أن ينتقم من أسرته ويقضى عليها، لولا تدخل وزيره "نظام الملك" الذي أعدله خطة تدل على ذكائه ونفذها السلطان ألب أرسلان، فمنح أسرة قتلمش جيشا ليشغلهم بالفتوحات، وأصدر أوامره إلى "سليمان بن قتلمش" بالتوجه إلى الحدود البيزنطية مع أسرته، ونجح السلطان ألب أرسلان في تثبيت السلاجقة في آسيا الصغرى، حين وجه سليمان بن قتلمش إليها، لأنه رأى أن سهول وسط آسيا، التي عمل البيزنطيين على تحويلها إلى مراعي للمواشي، خير ما يلائم جماعته الأتراك السلاجقة، فسمح لسليمان ورجاله بأن يستوطنوا تلك البقاع ويقيموا فيها دولة لهم، وهكذا تأسست دولة "سلاجقة الروم" كنتيجة لموقعة ملاذكرد (مانزكرت) التي تعتبر هزيمة البيزنطيين فيها نقطة تحول خطيرة في التاريخ الإسلامي والتاريخ البيزنطي. ولا تقل أهمية هذه المعركة ونتائجها عن معركة اليرموك، فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام، فإن معركة " منازكرد " قررت أيضاً مصير آســـيا الصغرى ، إذ نجح

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي بكلية التربية للبنات بجدة

الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، ولم تستطع بيزنطة الوقوف في وجه توسعهم. وكانت هذه الأقاليم الشرقية ـــ وبخاصة أرمينية وقبادوقيا ـــ على جانب كبير من الأهمية للدولة البيزنطية، لأنها أمدت الإمبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة، وعدد لا حصر له من أمهر الرجال في شئون الحرب والسياسة، وكانت خسارة هذه الولايات، التي استقر فيها الأتراك السلاجقة، إرهاصا بقرب موت الدولة البيزنطية أو بداية النهاية لحياتها. وكما يقول الأستاذ فريونس Vryonis : عندما فقدت الدولة البيزنطية ولايتها الغنية في آسيا الصغرى؛ أصبحت القسطنطينية رأساً حُرم من الجسد الذي يسنده. وبتوغل السلاجقة في آسيا الصغرى انتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية، والديانة والآداب المسيحية، إلى العقيدة والحضارة الإسلامية. وخلال السنوات العشر التالية لموقعة "منازكرد"؛ غمرت القبائل السلجوقية معظم آسيا الصغرى، ولم يجد السلاجقة سوى مقاومة ضعيفة، فعاشوا واندمجوا مع السكان الأصليين.(٢)

وكان الأتراك السلاجقة قد أتوا إلى آسيا الصغرى لكي يستقروا، فأحضروا مع جيوشهم كل قبائلهم وأسرهم ومواشيهم. ويشير الأستاذ كلودكاهن، في دراسة له عن المراحل الهامة للغزو السلجوقي في آسيا الصغرى، إلى أن حادثة منازكرد كانت مرحلة هامة ضمن مراحل طويلة للتوغل التركي في آسيا الصغرى، وتم توحيد الأتراك فيها تحت ظل دولة سلاجقة الروم وعاصمتها قونية. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر كان الفارق واضحا، أمام المؤرخين البيزنطيين، بين الأتراك المستقرين والأتراك الرحل، الذين أطلقت عليهم حنة كومنين AnnaComnena اسم تركمان Turcomans، تمييزا لهم عن الأتراك المستقرين. وبرغم أن سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل بن سلحوق مؤسس دولة سلاجقة الروم، فإنه لم يكن بين القادة الذين أرسلهم الب أرسلان بعد مانزكرت، فقد أرسل أرتوك بك، وإليه يرجع الفضلِ في التوغل التركي داخل الأناضول، ولقد استغل سليمان بن قتلمش فرصة انشغال كلّ من السلاجقة وبيزنطة في مشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى(٣).

واستمر حكم هذه الدولة مدة ٢٢٠عاما من (٤٧٠ ــ ٧٠٠هـــ / ١٠٧٧ ــ ١٣٠٠م)، ويعود الفضل إليها في تتريك المنطقة، أي صبغها بالصبغة التركية، والتمهيد فيما بعد لدولة غزية أخرى أستطاعت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وهي الدولة العثمانية". ويعتبر استقرار الترك في الأناضول أو آسيا الصغرى، أفدح خسارة لحقت بالكنيسة والإمبراطورية" من وجهة نظر "إدوارد جيبون". وكان سليمان أهلا لأن يلقب بالغازي ــ البطل المقدس لنشره الدين الإسلامي. وقد أضيفت مملكته الرومية الشرقية الجديدة إلى جداول الجغرافية في المشرق، وكانت تمتد من الفرات إلى القسطنطينية، ومن البحر الأسود إلى حدود سورية، وكانت غنية بمناجم الفضة والحديد والشب والنحاس، وذات إنتاج وفير من الحبوب والكروم، زاخرة بالماشية والخيول الأصيلة. (٤)

وقد بدأ استقرار سلاجقة الروم، في آسيا الصغرى، بقيادة "سليمان بن قتلمش" – في زمن الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل السابع" الذي استعان بسليمان أكثر من مرة في مواجهة الخارجين عليه. وحين ثار "نقفور بوتنياتيس" قائد ثغر الأناتوليك استعان "ميخائيل" بقوات سليمان، وبدخول السلاجقة إلى الجيش البيزنطي بدأ استقرارهم الدائم في أراضي بيزنطة، ثم تخلى سليمان وأخوه منصور عن ميخائيل وانضما إلى "بوتنياتيس" الذي أعلن نفسه إمبراطورا في ٧ يناير١٠٧٨م وأدخلهما إلى نيقية. وبعد ذلك عاونوه في الاستيلاء على نيقوميديا وخلقدونية وكريسوبوليس، وأجُبر ميخائيل على الذهاب إلى الدير.ولما حاول الإمبراطور الجديد إجلائهم عن الأراضي التي دخلوها رافعوا راية العصيان، وأعلن "سليمان نيقية" عاصمة لدولتهم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٥م، وكانت تبعد مئة ميل عن القسطنطينية.(٥)

ثم سيطر سليمان على كل آسيا الصغرى من" قيليقيا إلى هلسبونت، " وبذلك تكونت مملكة سلاجقة الروم. وسارع التركمان المنتشرون في آسيا الصغرى إلى الاعتراف بسلطانها عام (٤٦٩هـ/١٠٧٧م)، وكان هذ إيذانا بفقد بيزنطة لآسيا الصغرى وانهيار نظام الدفاع والإدارة في الولايات الآسيوية.(٦)

وهكذا فقدت الإمبراطورية البيزنطية ممتلكاتها في آسيا الصغرى، التي حرص البيزنطيون منذ القدم على أن تكون هي وبلاد الأرمن والكرج ـــ باعتبارها من أهم طرق العبور إلي البلاد الشرقية المتاخمة لهاـ تحت سيطرتهم. ولم يفلح الفرس أو المسلمون، قبل ظهور السلاجقة، في إخراج البيزنطيين من آسيا الصغرى. وحين انشغلوا عن حماية حدودهم الشرقية والجنوبية، بمطامع قادتهم ونبلائهم، جعل الجنود يتركون مهامهم الأساسية ليؤيدوا هذا أو ذاك، في حروب أهلية داخلية، مما مكن السلاجقة من مد نفوذهم والاستيلاء على آسيا الصغرى والاستقرار بها تماما.(٧)

سلاجقة الروم بعد مقتل سليمان بن قتلمش :

تمكن القائد البيزنطي "الكسيوس كومنين" من عزل الإمبراطور "نقفور بوتنياتس"، وتم تتويج "الكسيوس" سنة ١٠٨١م. وفى أيامه اتجه "سليمان بن قتلمش" إلى محاولة الاستيلاء على بلاد الشام، وبعد عدة معارك لقى مصرعه سنة ١٠٨٦م في مواجهة مع تتش حاكم دمشق، وكان لذلك أثر سلبى على دولة الروم السلاجقة. فبعد مقتل سليمان انهارت الوحدة السياسية التي أقامها السلاجقة، وأرُسل أبناؤه إلى ملكشاه، في الفترة ما بين ٤٧٩ـ٤٨٥هـ/١٠٨٥ـ١٠٩٢م، كرهينة لضمان عدم تدخل سلاجقة الروم في شئون الشام، ولقد تركت آسيا الصغرى بدون حاكم يسيطر على أمورها. فلقد ترك سليمان طفلا صغيرا هو "قلج أرسلان" الذي ظل في أسر ملكشاه فترة ، وتولى أمر إدارة. الدولة السلجوقية "أبو القاسم" الذي كان سليمان قد أنابه عنه أثناء ذهابه إلى قيليقية وأنطاكية وقد أراد ملكشاه، بعد مصرع سليمان، إخضاع دولة سلاجقة الروم، لكن وفاته ٤٨٥هـ/١٠٩٢م أنقذت نيقية من الحصار،

وساعدت المنازعات التي ثارت على العرش بعد وفاته "قلج أرسلان الأول" بن سليمان على العودة إلى منصبه ١٠٩٢م حيث أستقبله الترك بحفاوة بالغة، ويدأ عهده بتجديد بناء عاصمته وتعيين قادة جدد.[٨]

ثم دخل في صراع مع بيزنطة حيث قامت قواته بطرد القوات البيزنطية التي حاولت الاستقرار على شواطئ بحر مرمرة، ولكنه ما لبث أن عاد للتحالف معها، فعاونته القوات البيزنطية في التخلص من خصمه حاكم أزمير، ووفقا لمعاهدته مع بيزنطة أصبح من حقه التوسع في إتجاه الشرق. وفي (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) حاصر ملطية ولكن أهل المدينة عرضوا عليه تسليمها صلحا، تخلصا من حاكمهم جبريل الذي كان يضطهدهم لمخالفتهم له في المذهب الديني. ولكن قلج أرسلان أضطر للعودة للدفاع عن عاصمته أمام الخطر الصليبي[٩]؛ القادم من الغرب، فيما سمى بالحرب الصليبية الأولى.

ولم يكن سلاجقة الروم الطائفة الوحيدة التي استقرت في آسيا الصغرى، فهناك فرق تركية أخرى من الغز استقرت في المنطقة، وكانت أشد خطرا على بيزنطة، واستغلت ضعف الدولة السلجوقية بعد وفاة سليمان لإقامة ممالك مستقلة دخلت في صراع مع سلاجقة الروم وبيزنطة. وهذه الممالك تعتبر أهم، في تاريخ الترك، من الإمبراطورية السلجوقية نفسها، فقد امتدت أراضي دولة سلاجقة الروم من نيقية إلى قونية وعلى الممرات بشمال جبال طرسوس.[١٠]

الأسرة الكومنينية :(١١٤٣ــ١١٨٠م) :ــ

ينتمى الكومنينيون إلى أسرة من الأسرات الإقطاعية الكبيرة في الإمبراطورية البيزنطية. وقد نجح آل كومنين في أن يقيموا من جديد السلطان الإمبراطوري المنهار، ويعيدوا الحيوية للإمبراطورية التي أنهكت قواها الفوضى التي استمرت نحو ثلاثة عقود، ويعطرها قرنا آخر من العظمة والمجد، وبالرغم من الصعاب الكبرى التي صادفوها، كان أباطرة الأسرة الكومنينية محاربين قبل أي شئ آخر، ويظهر اسمها في كل صفحة من صفحات التاريخ البيزنطي في القرن الحادي عشر الميلادي. ويرجع أصل هذه الأسرة إلى قرية "كومن" في وادي تونجا قرب ماوريانوبل، وقد حصلت الأسرة بجدها وكفاحها على ثروة طائلة ، وغدت من كبار الأسرات الإقطاعية في آسيا الصغرى وأباطرة الأسرة هم :ــ

١ــ "الكسيوس" وهو مؤسس الأسرة (١٠٨١ــ١١١٨م) يمثل اعتلاؤه العرش انتصار الجهاز العسكري على الجهاز البيروقراطي، ويعتبر من أكثر الأباطرة كفاءة عسكرية وإدارية، ومن أشهر رجال هذه الأسرة وباني مجدها الحقيقي، اتصف هذا الإمبراطور بالحنكة السياسية والبراعة العسكرية، وكان رجلا ذكيا، حاضر الذهن، قوي الإدارة، قائدا عظيما، ودبلوماسيا ماهرا، وقد ظهر في تلك الفترة العصيبة من

تاريخ الإمبراطورية إذ أعاد سلطة القانون والنظام داخلها. وكانت أهم الأخطار التي واجهته حين صعد العرش البيزنطي. خطر النورمان، وخطر الأتراك السلاجقة.

٢ ـ أما "حنا كومنين John Comnenus" (٥١٢-٥٣٨هـ/١١١٨-١١٤٣م) فقد خلف أباه الكسيوس كومنين الذي توفى بعد مرض أليم لازمه زمنا طويلا، وهو الابن الأكبر له، ولم يكن دونه في التحلي بالمؤهلات العالية؛ وقد نشأ نشأة صارمة، وكان على خلق قويم، كما كان لا يقر حياة الترف والإسراف ، وقد عرف عنه الكرم والذكاء. وهكذا استحق بفضل شخصيته وخصاله لقب "يوحنا الطيب".(١١)

٣ ـ الإمبراطور مانويل كومنينوس :

خلف مانويل كومنين (١١٤٣ـ ١١٨٠م) والده يوحنا الرابع بعد وفاته، وهو أصغر أبنائه الأربعة، من زوجته الهنغارية، وكان يبلغ من العمر آنذاك عشرين عاما، وكان أحب الأبناء إلى قلب أبيه.

وكان أباطرة بيزنطة يمتازون بعامل السياسة والدهاء والحكمة وبعد النظر مما كان له أكبر الأثر في الإبقاء على الدولة البيزنطية عشرة قرون أو يزيد. ونلمس هذا بوضوح في موقف حكام بيزنطة من الأجناس الجرمانية ومن المسلمين ومن جيرانها العرب سواء كانوا فاطميين أو عباسيين أو سلاجقة. (١٢)

السلاجقة ومانويل كومنين :

بعد أن فرغ مانويل من مشكلاته في أوروبا وعقد الصلح مع البنادقة بدا يتجه إلى الاهتمام بشؤون آسيا الصغرى، بعد حوالي أثني عشر عاما قضاها "قلج أرسلان الثاني " في تدعيم نفوذه ، وأدرك أن إحكام السلطان قبضته على المنطقة، دون منازع، يشكل خطرا كبيرا على السياسة البيزنطية، بالإضافة إلى أنه أراد أن يكفل الأمن للطريق الذي يجتاز بلاد الأناضول أمام البيزنطيين، فشعر نتيجة ذلك بقصر نظره وتقصيره في حقل سياسة الأناضول ، إذ أتاح للسلطان أن يوحد كلمة الأتراك، كما راح شعر بالضغط التركي المتزايد على حدود الإمبراطورية الشرقية بسبب قيام السلاجقة بتهديد وادي المياندر، وإنزالهم بأهل الريف خسارات متتالية. وقد شغلت شئون آسيا الصغرى آل كومنين أكثر من البلقان، فإن نجاح الأتراك السلاجقة المتواصل قد تسبب في طرد البيزنطيين تدريجيا من معظم ممتلكاتهم في الشرق، وحكم سليمان في "قيزيقوس ونيقية"، واضطر الكسيوس كومنين- الذي كان يرزح تحت مهام أخرى أكثر خطورة – لأن يعترف عام١٠٨٢م بما نجح الأتراك في غزوه من البلاد، وسقطت أنطاكية عام١٠٨٥م في أيدي السلاجقة. وكان من حسن حظ بيزنطة أن موت ملكشاه عام (١٠٩٢م) أدى إلى تجزئة الإمبراطورية السلجوقية، واستغل البيزنطيون ذلك ليستعيدوا مركزهم في "بيثينية" ، واضطر سلطان قونية

الجديد وهو " قلج أرسلان الأول " (١٠٩٢ــ١١٠٦م) للموافقة على عقد الصلح مع الإمبراطورية. وعندما مات أول الأباطرة الكومنينية كانت الإمبراطورية تشمل (الأناضول وطرابيزون وكل ساحل البحر الأسود وكل الشريط الساحلي في جنوب آسيا الصغرى حتى مشارف أنطاكية وكل البلاد الواقعة غرب الخط الممتد من سينوب وجانجرا وعمورية وفيلوميلون). وهكذا نجح "الكسيوس " فإعادة نفوذ بيزنطة ومجدها في آسيا، مثل نجاحه في شبه جزيرة البلقان. وواصل "مانويل كومنيين" في بادئ الأمر سياسة أبيه، فتقدم حتى وصل إلى أسوار"قونية" عام (١١٤٦م) ولكن الغزو النورماني والحملة الصليبية الثانية عام (١١٤٧م) اضطرته ليولي اهتمامه إلى اتجاه آخر، ولكنه بالرغم من تطلعه إلى فرض سيادته على الدويلات الأرمينية واللاتينية ونجاحه في هذا الصدد، إلا أن سياسته مع الأتراك كانت أقل ثباتا وقوة. والواقع أنه، عند منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لم يستلزم الأمر إلا بعض الجهد للقضاء على سلطنة الروم، واستعادة كل البلاد الآسيوية حتى جبال طوروس. كما أن القبائل السلجوقية الرحل كثيرا ما قامت بانتهاك حدود الإمبراطورية، ولكن السلطان قلج أرسلان كان في منتهى الذكاء والدهاء، عندما اعتذر للإمبراطور عن مثل هذه الأعمال، موضحا أنه غير راض عن هذه الانتهاكات، وقدم له بعض الهدايا. وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقي في كسب الوقت لدعم نفوذه في آسيا الصغرى، على العكس من الإمبراطور الذي لم يقم بأي عمل في آسيا الصغرى، سوى إقامة بعض التحصينات الدفاعية، والقضاء على منافسيه الواحد تلو الآخر، وخلق دولة متجانسة بدلا من الإمارات المتنافسة. وبدلا من أن يقوم مانويل لمقاتلته أتبع لمدة إحدى عشرة سنة (١١٦٤ــ١١٧٥م)، سياسة دفاعية محضة اقتصرت على إقامة التحصينات على حدوده، وعندما تنبه في النهاية لازدياد الخطر السلجوقي، وبدأ هجومه كان متأخرا في عمل ذلك.

إلا أن الأتراك أصبحوا عند نهاية حكم "مانويل" أقوى بمراحل منهم عند توليه للعرش، وقد أصبحت إمارة سلاجقة الروم دولة قوية. وأتبع مانويل الوسائل الدبلوماسية المعتادة، التي اشتهر بها البيت الكومنيني، في التفريق بين سلاطين البيت السلجوقي وأمرائهم في قونية وأنقرة. وكانت العلاقات البيزنطية السلجوقية قد بدأت في التوتر عام ١١٧٣م، عندما تحالف نور الدين مع قلج أرسلان لقتال البيزنطيين، وأتصل بالسلطان السلجوقي وأوضح له أنه على استعداد لمهاجمة نور الدين مقابل انسحاب قلج أرسلان من هذا التحالف، ويبدوا أن قلج أرسلان وافق الإمبراطور مانويل على طلبه، ثم ما لبث أن توفى نور الدين، فارتاح الإمبراطور البيزنطي من خطر كان يهدده، وبدأت علاقات ودية ظاهريا، ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل جانب يستعد ليغتنم الفرصة لقتال الطرف الآخر، وهو أحسن استعدادا من خصمه.

وفي عام ١١٧٤م فر أميرن من وجه قلج أرسلان وهما "شاهنشاه وذو النون" والتجأ إلى الإمبراطور مانويل في القسطنطينية، فرحب بهما، مما أثار مخاوف قلج أرسلان، وطلب منه أن يعيد أملاك الأميرين، وإعادة المدن التي لم يكن قد أعادها من قبل، وكانت الجيوش البيزنطية على أهبة، في حين لم يكن قلج مستعدا، فأرسل يعلن موافقته للإمبراطور حتى يجهز جيشا، وليظهر حسن نواياه للإمبراطور وأن الرفض لم يأت من جانبه، وأن سكان المدن يرغبون ببعض المزايا فانحاز السكان للسلاجقة ورفضوا تسليم المدن للمندوب البيزنطي، مما أغضب الإمبراطور. وعمد مانويل إلى تحصين مراكز الحدود لإغلاق المداخل إليها، وبخاصة "برغمة" "وكلبارا" وخطي الدفاع على نهري "الميانذر"و"هرمز" و"ملاجنة" في مقاطعة نيقية التي جعل منها خط دفاع آخر. وبهذا العمل يكون مانويل قد بنى ما يشبه السد لحماية ممتلكاته في غربي آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة، وتقع دور يليوم المهمة عسكريا على هذا الخط الذي يصل إلى قونية، وتتحكم في العديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات، وقد اتخذها قاعدة لعملياته وحصنها بشكل لافت(١٣).

أسباب معركة ميروكيفالون :

استغل مانويل حالة التشرذم والانقسام التي كان عليها أمراء سلاجقة الروم، في محاولة لاستعادة ممتلكات إمبراطوريته منهم في آسيا الصغرى، فحاول إشعال نار الوقيعة بين أمراء قونية في الجنوب وأنقرة في الشمال، والد انشمند أمراء قبادوقيا في الشرق، غير أن وجود سلطان ذكي وقوي في قونية، واسمه "قلج أرسلان" أفسد مخططاته، وبالرغم من أن سياسة مانويل، مع هذا السلطان، اتسمت بالود لبضع سنين في بداية توليه العرش، لكنها تحولت إلى عداء محكم فيما بعد.

اتجه "قلج أرسلان الثاني "للتوسع في آراضي بيزنطة ،وشجعه على ذلك أمور منها: انصراف الإمبراطور البيزنطي إلى الاهتمام بالأمور السياسية في أوروبا، ومنها النزاع مع الإمبراطور"فريدريك بربا روسا"، إذ عمد فريدريك إلى إثارة المتاعب ضد الإمبراطور البيزنطي، بتشجيع "قلج أرسلان" على الثورة على بيزنطة ،والتوغل في أراضي آسيا الصغرى عام ١١٧٥م. وتحول "قلج أرسلان" إلى صداقة عدوه "فريدريك بربا روسا"، وقام قلج أرسلان الثاني بزيارة رسمية إلى القسطنطينية في (ربيع عام٥٥٨هـ/١١٦٢م)، ونزل ضيفا على مانويل الذي استقبله بالحفاوة والتكريم، وأنزله أجمل قصوره وغمره بالهدايا ، وشاهد كنوز وثروات القسطنطينية، وشاهد عرضا للنار الإغريقية، ويبدو أن الذي حمله على القيام بهذه الزيارة ، هو الوقوف عن كثب على ما يجرى في البلاد البيزنطية من مؤامرات تحاك ضده، من قبل ياغي أرسلان وأخيه خلعه عن الحكم ، وإحلال أخيه مكانه. وأثناء إقامة السلطان السلجوقي في العاصمة البيزنطية، التي استمرت ثمانين يوما، تباحث العاهلان خلالها في إمكان إعادة النظر في الاتفاقية المبرمة بينهما، وإجراء بعض التعديلات عليها،

استنادا للظروف السياسية التي استجدت منذ إبرامها في العام الماضي ، وقد وافق الطرفان على التعديلات الخاصة بقلج أرسلان الثاني وهى أن:

- يعترف بأن أعداء الإمبراطور هم أعداء له أيضا.
- يعيد لمانويل المدن التي كانت سابقا جزءا من الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة أماسية وجوارها.
- يتعاون مع مانويل وفقا لرغباته.
- يشكل فرقا عسكرية تجوب مناطق الحدود، بشكل مستمر، لحمايتها من غزوات القبائل التركمانية.
- لا يبرم أي معاهدة، ولا يعقد أي صلح مع طرف ثالث، إلا بعد موافقة الإمبراطور.

أشاعت زيارة قلج أرسلان الثاني للقسطنطينية جوا من الارتياح في العاصمتين السلجوقية والبيزنطية ، وقد سر الإمبراطور أن يقوم أقوى الأمراء المسلمين بزيارته ليقدم له الولاء أمام شعبه.غير أن الزيارة لم تؤد إلى نتائج سياسية مهمة ، ولعلها كانت نوعا من التجسس على مانويل للوقوف على مواطن الضعف والقوة في الإمبراطورية. ومما لاشك فيه أن السلطان السلجوقي اطلع على أسرار كثيرة من أسرار لقصر الإمبراطوري، وبخاصة مدى اتصال الدانشمنديين بالإمبراطور، دليل أن قلج أرسلان الثاني صرح أمام أتباعه، بعد عودته إلى عاصمته، أنه بقدر ما يلحق بالإمبراطورية البيزنطية من أضرار. ولقد ظن مانويل أنه أخضع السلاجقة لسلطانه ، لكن هذا الخضوع كان مؤقتا، وكل ما حققه هو نصر ظاهري، استغله قلج أرسلان الثاني في صراعه مع الدانشمنديين، إذ استمرت الغارات السلجوقية على طول الحدود البيزنطية الشرقية خلال الأعوام (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م). ومن ناحية أخرى استطاع "فريدريك برباروسا" أن يكسب إلى جانبه السلطان "قلج أرسلان" ودخل في مفاوضات معه باعتباره أشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق وحثه على قتال الإمبراطور مانويل، وأوغر صدره ضده، وأغراه على التقدم لفتح ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى، وذلك عندما تورط "مانويل" في محاولة فتح جنوب ايطاليا، وكان "فريدريك" يقصد من وراء ذلك أن يتحول الإمبراطور"مانويل" عن المسائل الأوربية إلى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى. وعلى الفور قام سلطان قونية السلجوقي بالقضاء على مناوئيه من الدانشمند، وهم العدو الذي كان يهدد ظهره أثناء حروبه مع الإمبراطورية البيزنطية، كما ذلك إن آل دانشمند اعتمدوا على مساندة "نور الدين" الذي ازداد نفوذه في الفترة الأخيرة، وقيام الخليفة العباسي في بغداد بإصدار إعلان يقضى بتعيين "نور الدين"حاكما على "الموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وديار بكر وبلاد قلج أرسلان. "وأخيرا فإن أمن السلاجقة لا يتحقق من ناحية الحدود الغربية إلا باستيلائهم على بقية الممتلكات البيزنطية الواقعة في آسيا الصغرى. أما

الإمبراطور "مانويل" فهناك عوامل أدت إلى قيام الحرب بينه وبين السلاجقة في هذا الوقت. فمن الأسباب الأوربية يمكن القول : إن الإمبراطور مانويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت، بعد ما عقد الصلح مع البنادقة، يضاف إلى ذلك أن استئناف الصراع بين البابا وفريدريك برباروسا، قد أعطى الفرصة للإمبراطور مانويل لاستئناف الحرب مع السلاجقة، وإعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي.[١٤]

أما الأسباب الشرقية: ـ فمما لاشك فيه أن فرار ذي النون وشاهنشاه كان من العوامل التي ساعدت على تجدد القتال بين الإمبراطورية والسلاجقة، خاصة وأن هذين الأميرين كانا يعتمدان على بعض العناصر المؤيدة لهما في الإمارات الدانشمندية، يضاف إلى ذلك أن التحصينات التي أقامها مانويل في مدينة "لاودكيا"، في وادي نهر المياندر وهرموس، قد شجعت بعض العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة، وتعميرها وإمداد الخزانة البيزنطية بالضرائب في هذه المناطق، حتى لا يهجروها ويكفوا عن دفع الضرائب.

ابتدأت العلاقة بين السلاجقة والبيزنطيين بالتوتر في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م) عندما تحالف قلج أرسلان الثاني مع نور الدين محمود، حيث عد مانويل هذا التحالف موجها ضده، فاشتد به القلق، وراح يعمل على إفشاله، فاتصل بالسلطان السلجوقي وأبدى استعداده بمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة السلاجقة مقابل انسحابه من التحالف. ويبدو أن قلج أرسلان الثاني وافق على العرض الإمبراطوري، لكن وفاة نور الدين محمود أوقفت الجهود المبذولة للتفاهم. وعادت العلاقة لتكون ظاهريا ودية، لكن في حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل طرف يستعد لمهاجمة الطرف الآخر، ويتحين الفرصة لذلك. أما السبب المباشر الذي أدى إلى قيام الحرب بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، فهو هي أن الإمبراطور مانويل أتيحت له الفرصة فعلا، في عام (٥٧٠هـ/١١٧٤م) حيث ظهرت في الأفق السياسي بعض العوامل التي ساعدت على نشوب الحرب، منها ما يختص بالسلاجقة، ومنها ما يختص بالبيزنطيين"١٥".

ففيما يختص بالسلاجقة يمكن رصد العوامل التالية:

التجاء كل من شاهنشاه وذي النون إلى القسطنطينية، وترحيب الإمبراطور بهما، مما أثار مخاوف قلج أرسلان الثاني. دخول الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا على الخط السياسي، حين تبادل الرسائل مع قلج أرسلان الثاني بوصفه أقوى وأشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق، وحثه على قتال البيزنطيين ،وكان يهدف إلى تحويل أنظار مانويل عن الاهتمام بالمسائل الأوربية.

أن قضاء قلج أرسلان الثاني على الإمارة الدانشمندية، في سيواس، شجعه على قتال مانويل ،بعد أن شعر بأن أمن السلاجقة على الحدود الغربية لا تحقق إلا بضم ما تبقى من الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى "١٦".

وفيما يختص بالبيزنطيين يمكن توضيح العوامل التالية: ــ

أن فراغ مانويل من مشكلاته في أوروبا، بعقده معاهدة مع البندقية، الإضافة إلي استئناف الصراع بين البابوية وفريدريك بربروسا، أعطياه الفرصة للتفرغ لأمور الشرق، واستئناف القتال مع السلاجقة، إعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي.

أن لجوء كل من الأميرين شاهنشاه وذي النون إلى البلاط البيزنطي، شجعه على القيام بحملة على آسيا الصغرى، وأعطاه حجة استغلها بذكاء.

أن تحصين مدينة "لاذيق" في وادي نهر الميائدر شجع العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها، فأمدوا الخزانة الإمبراطورية بالضرائب، وشعر مانويل بهذه الفائدة، فرأى أن عليه تأمين بقاء السكان فيها"١٧".

فأرسل إلى السلطان :قلج أرسلان" يطلب منه إعادة المدن التي لم يكن قد أعادها حتى ذلك الوقت، طبقا لمعاهدة عام(٥٥٨هـ/١١٦٢م)، وفي الوقت الذي أرسل فيه مانويل إلى السلطان السلجوقي يطلب منه تحقيق ذلك، كانت القوات البيزنطية على أهبة للقتال، مما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي قد عقد العزم على قتال السلاجقة ، وافترض مقدما عدم قيام السلطان بتحقيق رغبات الإمبراطور. وعلى ما يبدوا أن " قلج أرسلان" لم يكن قد استعد للقتال، ودل بتصرفه على أنه رجل دولة من الطراز الأول ، إذ إنه نفذ خطة ذكية، وحتى يعمل على كسب الوقت أبدى موافقته على رد المدن للإمبراطورية البيزنطية، وطلب من الإمبراطور مانويل إرسال مندوب عنه لاستلام هذه المدن، فأرسل الإمبراطور البيزنطي قائده "الكسيوس أوف أولبس " Alexius of Aulps"، ومعه قوة بلغ تعدادها ما يقرب من ستة الآف من الجنود البيزنطيين لتنفيذ هذه المهمة، ولما كان "قلج أرسلان" عازما على عدم رد هذه المدن للإمبراطور"مانويل"، وحتى يظهر حسن نواياه تجاه الإمبراطور، وأن الرفض لم يأت من جانبه ، أرسل إلى سكان هذه المدن واعدا إياهم على ما يبدو ببعض المزايا إذا بقيت مدنهم تابعة للسلاجقة، كما وعد أيضا بمساندتهم ضد البيزنطيين، فانحاز السكان إلى جانب السلطان السلجوقي، ورفضوا تسليم المدن إلى المندوب البيزنطي، فعاد دون أن يحقق المهمة التي أوفد من أجلها، الأمر الذي أغضب الإمبراطور "مانويل" وأعتبره خدعة من جانب السلطان "قلج أرسلان "١٨".

وإذا كان الإمبراطور "مانويل" قد أحس بالدور الذي لعبه " قلج أرسلان الثاني " ونتج عنه عدم رد المدن للإمبراطورية، فإن الإمبراطور أدرك أيضا أن السلطان

السلجوقي سوف لا يوافق على رد أملاك آل دانشمند وذي النون، وكذلك إعادة مدينتي ــ أنقرة وجانجرس ــ Gangres ــ إلى شاهنشاه، وبدأ التفكير في استعمال القوة ضد السلاجقة في الوقت الذي وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور "مانويل" إلى مدينة "ضورليوم" Drylaeum، والواضح أن شاهنشاه قد لعب دورا في هذا الوقت، وحرض الإمبراطور على مهاجمة مدينة "أماسية" التي تقع إلى الشرق من "جانجرس"، وهون الأمر على الإمبراطور، وأوضح له أن بعض أعوانه في هذه المدينة، التي لا تخضع للسلطان السلجوقي، سوف يقدمون له المساعدة، ولعل شاهنشاه كان يقصد من وراء ذلك أن يتسلم هذه المدينة ليحكمها، عوضا عن أملاكه التي استولى عليها أخوه " قلج أرسلان الثاني ". وفي ذلك الوقت، أو بعده بقليل، بدأ الإمبراطور "مانويل" في العمل على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية في آسيا الصغرى، والحقيقة أن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية للقيام بمثل هذا العمل، بعد ما سيطر"قلج أرسلان" تقريبا على معظم آسيا الصغرى، وهزم منافسيه واحدا بعد الآخر، وكون دولة متجانسة قوية تحل محل الإمارات الصغيرة المتنافسة ،التي طالما خدم تنافسها الإمبراطورية، وعلى أية حال فقد خطط "مانويل" لإقامة عدة تحصينات عند مدينة "ضروليوم"، التي كانت خربة في هذا الوقت، لأن هذه المنطقة تمثل نقطة إستراتيجية هامة في قلب آسيا الصغرى ، وتتحكم في عديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات."١٩"

ولكي يقيم "مانويل" مثل هذه التحصينات ،كان عليه أن يقوم بطرد السلاجقة الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم حول هذه المنطقة ، ثم بدأت أعمال التحصينات، وسار العمل على قدم وساق حتى تم إعداد السور خلال أربعين يوما، كما تم حفر خندق أمام هذا السور، ولم تسلم القوات البيزنطية من مهاجمة القبائل السلجوقية أثناء إقامة هذه التحصينات، كما أن السلطان "قلج أرسلان" اعتبر قيام مثل هذه الأعمال الدفاعية دليلا على سوء نية الإمبراطور، وأنه يعد العدة لمحاربته، لذلك أرسل "قلج أرسلان " إلى الإمبراطور"مانويل" يستفسر منه عنه الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات، فأوفد "مانويل" أحد قواده ويدعى " توماس "Thomas" ليبلغ السلطان بأنه الذي بدأ بالعدوان، وأنه كان السبب في إخفاق "جابراس" في مهمته، وطالب أيضا السلطان بتسليم مدينة"أماسية"،ولكن "قلج أرسلان" لم يوافق على طلب الإمبراطور،فعاد المبعوث البيزنطي فاشلا في مهمته.

بدأ الموقف يزداد توترا بين السلطان والإمبراطور، وبازدياد هذا التوتر زادت إقامة التحصينات، فبعدما فرغ "مانويل" من إقامة التحصينات عند "ضروليوم" اتجه إلى مدينة "لوباديون Lopadium" لتفقد القوات البيزنطية هناك، ثم اتجه جنوبا إلى وادي نهر "المياندر"، وأقام هناك لبعض الوقت تم فيه تحصين المنطقة، وخاصة مدينة "سوبلايون Soublaion"، للسيطرة على الطرق المواجهة لمدينة "قونية"، ثم عاد إلى

العاصمة البيزنطية في أواخر عام ١١٧٥م، وأثناء إقامة الإمبراطور"مانويل" في القسطنطينية حدث أمران:

أولهما: أن الإمبراطور عاقب "جابراس" بالسجن لفشله في الاستيلاء على مدينة "أماسية ".

ثانيهما : أن السلطان "قلج أرسلان " أرسل إلى الإمبراطور "مانويل" رفض هذا العرض، وبذلك بات واضحا أن الحرب واقعة لا محالة بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، وأخذ كل منهما يستعد للقتال ،والواقع أن الإمبراطور "مانويل" كان أكثر استعدادا للقتال بعد ماكرس كل همه لهذا الغرض ، وأعد العدة لحرب طويلة مع السلاجقة، وظل حتى ربيع عام ٥٧١هـ/١١٧٦م، تقريبا يعمل على خزن كميات كبيرة من المؤن عند معسكره الذي أقامه عند "لوباديون"، كما قام بحشد قواته في هذا المعسكر، بالإضافة إلى القوات التي انضمت إليه من الصرب وهنغاريا، بحكم ولائهما للإمبراطورية، ولم يكتف الإمبراطور بهذا الحشد من القوات البيزنطية التي اشتملت أيضا على عناصر صليبية وإنجليزية، وهي العناصر اللاتينية التي تعمل في القوات البيزنطية، بل أرسل إلى البابا "الكسندر الثالث" ١١٥٩ــ١١٨١م خطابا في التاسع والعشرين من يناير عام ١١٧٦م، يبلغه بتطورات الموقف في آسيا الصغرى، ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب الأوربي لمساعدة الإمبراطورية في حروبها ضد السلاجقة ، وقد لبى البابا نداء الإمبراطور، وكلف أحد الكرادلة ويدعى "شريزوجون Chrysogone" بالتوجه إلى ملك فرنسا يحثه على حمل الصليب، وانتشرت الأخبار في كل ربوع أوروبا باستعداد الإمبراطور "مانويل" لحرب السلاجقة، وظهر أمام الغرب والبيزنطيين والصليبيين، أن الإمبراطور "مانويل" يــعد العدة لحملة صليبية ضخمة لقتال السلاجقة والمسلمين على حد وصف بعض المؤرخين. وفي أوائل عام (٥٧٢هــ/ صيف ١١٧٦م) كانت القوات البيزنطية البرية قد استعدت للقتال."٢٠"

أحداث معركة ميرو كيفا لون :

تقدم مانويل في أواخر(٥٧١هــ/صيف ١١٧٦م) باتجاه الأراضي السلجوقية، على رأس جيش كبير بلغ تعداده مئة ألف مقاتل، مصطحبا ديلون التركي وذي النون الدانشمندي ، متخذا طريق "لاذيق" والوادي الأعلى لنهر المياندر، وعندما وصل إلى منطقة الجبال الواقعة قرب الحدود، وصلت إليه رسالة من السلطان السلجوقي، يطلب منه تجديد المعاهدة، لكنه رفض ذلك أيضا، وتجمع الجيش كله أمام لوباديوم أرتأى مانويل قبل الخروج من لوباديوم ، أن يقسم جيشه إلى قسمين، تولى القسم الأول أبن عمه أندرونيكوس فاتازس، ومعه ذو النون حاكم سيواس السابق، وتقدم قواتهما بثلاثين ألف جندي، ومهمته مهاجمة السلاجقة من الشمال وإعادة ذي النون إلى بلاده

، في حين قاد مانويل القسم الثاني وهو القسم الرئيسي ، ومهمته التوجه إلى قونية من ناحية الغرب"٢١".

اجتاز القسم الأول من الجيش "بافلاجونيا" متوجها إلى "نيكسار"، وكانت تحت حكم ذي النون من قبل ، وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فيها، ولما وصل أفراده إلى المدينة ضربوا الحصار عليها مركزا وشديدا، ونظرا لضخامة القوات وفر بها من إقليم بافلاجونيا، التي أمدها بالرجال والمؤن والسلاح ولما رأى قائد حامية المدينة أنه لا طاقة له بمقاومة الجيش البيزنطي والمتحالفين معه، لجأ إلى الخدعة، فأمر بإرسال السهام إلى المعسكر البيزنطي، وهي تحمل رسائل موجهة إلى القائد البيزنطي، تتضمن إنذارا بأن الدانشمنديين، الذين سلمت إليهم القيادة، يحاولون خيانة البيزنطيين، ويعملون على إيقاع القائد البيزنطي في أيدى السلاجقة الذين أعدوا الكمائن، وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. صدق "فاتزاس" مضمون الرسائل بعد أن أطلع عليها، وبدأ يتوقع خيانة ذي النون، فتأخرت بذلك عملية اقتحام المدينة، كما أشاعت الفوضى داخل المعسكر البيزنطي، وبدأ التوتر ينتشربين الجنود البيزنطيين، ومما زاد في إشاعة الفوضى والاضطراب بين القوات البيزنطية، تلك الإشاعة التي أطلقها السلاجقة عن موت الإمبراطور مانويل؛ فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة والإنسحاب دون نظام، فتعقبهم السلاجقة وقاتلوهم أمام أسوار المدينة وانتصروا عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح، كان من بينها القائد فاتازس الذي حمل رأسه إلى السلطان السلجوقي "٢٢".

انزعج مانويل عندما بلغته نبأه هزيمة جيشه أمام نيكسار، و كان في طريقه إلى قونية، فظن أن القوة السلجوقية لازالت في الشمال ، و أن العاصمة السلجوقية خالية ممن يحميها و يدافع عنها ، فأغذ السير ليفاجئ السلاجقة ، فلم يسلك طريق دوريليوم، وهو الطريق الطبيعي للوصول إلى قونية ، و إنما توجه إلى لاأديق الواقعة على نهر الميانذر، واخترق وادي النهر حتى وصل إلى "سوبلايون"، ثم سار شمال بحيرة أجر دير، ومضى إلى التلال المؤدية إلى سلسلة الجبال الضخمة المعروفة باسم جبال السلطان، إلى الشرق من سوبلايون، بالقرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز الذي يقع في نهايته حصن "ميريوكيفالون" الخرب، ليكون في مواجهة قونية مباشرة. كان قلج أرسلان الثاني، في غضون ذلك، يرصد زحف الجيش البيزنطي متبعا خطة البدو، فدمر الطرق التي لابد أن يجتازها الجيش، وأحرق المحاصيل الزراعية، وأتلف المؤن في المدن والقرى التي تقع في الأراضي التي سيمر بها، كما سمم الآبار والينابيع لمنع البيزنطيين من الاستفادة من التموين والاستراحة والماء. وجند في الوقت نفسه، العساكر حتى صار جيشه يضارع الجيش الإمبراطوري في العدد، غير أنه يقل عنه عدة، لكنه يتفوق في التعبئة وسرعة الحركة نظرا لما يمتاز به الفرسان السلاجقة من الخفة وحرية

الحركة، ثم وزع قواته على المرتفعات والتلال، وأقام هو على مرتفع يشرف على تحركات الجيش البيزنطي."٢٣"

ارتكب مانويل أثناء زحفه خطأين جوهريين:

الأول: عندما أهمل استكشاف المنطقة،وهو أول عمل يقوم به العسكريون عادة.

الثاني: عندما رفض نصيحة قادته بالتروي والحذر، وعدم سلوك الممر الجبلي المواجه للعدو.

والواقع أن مانويل تأثر بآراء الأمراء الذين غرهم إقدامهم حتى وثقوا من بسالتهم، واشتد حماسهم لإحراز نصر كبير، كما أن الإمبراطور نفسه كان متحمسا للقتال بعد الاستعدادات الضخمة التي أنجزها من أجل القيام بهذه الحملة.

قرر مانويل المضي في سلوك الممر الضيق، فأمر جيشه بالتقدم. ولم يتعرض السلاجقة في تلك اللحظات للجيش البيزنطي، واكتفوا بمناوشة أفراده فقط، ثم انسحبوا وفق خطة عسكرية لإغراء الجيش البيزنطي على الدخول في الممر. وهكذا اجتازت مقدمة الجيش مدخل الممر وأوغلت فيه، وتوهم البيزنطيون أن السلاجقة غير قادرين على خوض الحرب، فتمادوا في التوغل في داخل الممر وهم مطمئنون، في الوقت الذي انتشرت فيه القوات السلجوقية فوق رؤوس الجبال، وفي الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية، وتركزت على جانبي الممر ومن حوله. كان الجيش البيزنطي يحاول أن يقطع الممر البالغ طوله عشرة أميال بسرعة، للخروج بعد ذلك إلى السهل المنبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع أفراده مع عرباتهم ومعداتهم حتى تكدس بهم الممر، وسار الجنود إلى جانب الدواب والعربات المتلاصقة، وانتشر بينهم مرض الإسهال فخارت قواهم. على أن العربات الثقيلة، التي حملت آلات الحصار والمؤن، أبطأت في سيرها، فوجد الجنود أنفسهم وقد حشروا حشرا، وتعذر عليهم التقدم حين تسببت المقدمة والمؤخرة في غلق الممر من الأمام ومن الخلف. حدث هذا تحت بصر السلاجقة الذين كانوا يراقبونهم، منتظرين اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم دون تهور أو اندفاع. أدرك مانويل، في هذا الوقت الحرج، مدى ما ارتكبه من خطأ عسكري عندما حشر جيشه ونفسه في ذلك الممر الضيق. وحتى يشغل القوات السلجوقية، أرسل صهره بلدوين الأنطاكي على رأس قوة عسكرية من الخيالة، ارتقى معها التل وهاجم قوة سلجوقية، غير أنه هزم ولقي مصرعه مع رجاله. وشهد الجنود الذين في الوادي ما حل بالفرقة من هزيمة، فدب الذعر فيهم وتضعضعت صفوفهم وهبطت معنوياتهم. وضربت القوات السلجوقية، في اللحظة المناسبة، مقدمة الجيش البيزنطي بهدف شل حركته ومنعه من التقدم. نجحت بالصمود واحتمى أفرادها ببعض التلال، بينما بقيت المعدات في الممر، فأدت إلى وقف تقدم الجيش الذي أضحى أسيرا

في قبضة القوات السلجوقية. وبعد أن نجح السلاجقة في وقف تقدم الجيش البيزنطي، هاجموا القلب بهدف شطره إلى قسمين، ونجحوا في ذلك عندما ارتكب قائد المؤخرة خطأ بابتعاده عن جسم الجيش، وشكلت الحيوانات حاجزا ففصلته عن القلب. عندئذ ركز السلاجقة سهامهم على الثيران التي تجر العربات، وقتلوا عددا كبيرا منها، مما زاد في العرقلة واتساع الهوة بين شطري الجيش، فتفككت عندئذ، الجحافل البيزنطية، وتجمع كل شطر حول نفسه مكونا جسما ضخما جامدا، وبلغ من شدة التصاق الجنود ببعضهم أنه لم يكن بوسعهم أن يحركوا أيديهم إلا نادرا، ففقدوا بذلك حرية الحركة التي هي عنصر أساسي من عناصر الانتصار، كما تعذر عليهم القيام بالحركات العسكرية الضرورية، التي تجعلهم قادرين على مجابهة العدو بصفوف منتظمة ومتأهبة للقتال. ثم هاجمت القوات السلجوقية مؤخرة الجيش البيزنطي، فتشتت، ولما حاول أفرادها بلوغ إحدى القمم أثار تحركهم الفوضوي الغبار، والتراب من حولهم، فاستحالت رؤية القوات لبعضها، فاصطدمت ببعضها، مما أدى إلى وقوع كارثة حقيقية. ركز السلاجقة بعد ذلك ضغطهم على القسم الآخر من الجيش، وأمطروه وابلا من السهام، كما دفعوا بكتل الأحجار الضخمة من أعلى قمم الجبال، مما زاد في إرتباك القوات البيزنطية" ٢٤".

نتيجة لهذا الوضع العسكري المتردي، حاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق الصعب بأي وسيلة، لكنها فشلت في ذلك بعد أن أغلق السلاجقة المنافذ، كما سدت العربات الطريق الضيق، فدب اليأس في نفوس الأفراد وانهارت قواهم، وفقدوا شجاعتهم. وكان مانويل أول من استبد به الذعر والقلق، فحاول الفرار طلبا للنجاة. وحتى يزيد السلاجقة من إثارة الذعر في نفوس القوات البيزنطية، فإنهم عمدوا إلى وضع رأس القائد بلدوين الأنطاكي على عصا طويلة وطافوا به أمامها، كما عمدوا إلي ترديد نداءات ليلية تشير إلي أنهم أعدوا العدة لإبادتهم مع طلوع الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوسهم.

وجاءت أخيرا لحظة الإجهاز على الجيش البيزنطي المرتبك، فانقض السلاجقة عليه، وراحوا يقتلون أفراده كيف شاءوا، وتوغلوا بينهم حتى وصلوا إلى مكان وجود الأمتعة والعربة الملكية التي تركها الإمبراطور خلفه حين تقدمه، فنهبوها وأحرقوها، واستمر القتال حتى حلول الظلام. ونجح مانويل بعد ذلك في الخروج من الممر إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، لكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد، فانقضوا عليهم، وقتلوا وأسروا عددا منهم، وتمكن مانويل من الفرار، وراح يتنقل في الوديان المجاورة حتى اتصل ببعض قواته، فطارده السلاجقة أيضا وحاصروه من جديد. واستمر القتال مدة سبعة أيام في ظروف غير عادية.

كانت حالة الجيش البيزنطي بعد الهزيمة تدعو للرثاء، فقد قتل وأسر العديد من أفراده، وتشرد من نجا بين هائم على وجهه في شعاب الوديان، وجريح في أرض

المعركة. ولم يجد مانويل أمامه، في هذه الظروف الصعبة سوى طلب الصلح. ويروى ميخائيل السرياني أنه أرسل إلى قلج أرسلان يعرض الصلح عليه وتسليمه المدن التي حصنها الإمبراطور مؤخرا، وهي دوريليوم وسوبلايون، مقابل إنقاذ ما تبقى من القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب."٢٥"

ويذكر المؤرخ "نيكتاس" أن السلاجقة تقدموا "باتجاه القوات البيزنطية، وينتقل فجأة إلى القول بأن أحد القادة الأتراك أصدر أوامره إلى القوات السلجوقية بالتوقف عن القتال، ثم تقدم إلى الإمبراطور وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان، وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايون. ويروى الإمبراطور البيزنطي حول الصلح مع السلاجقة – في الكتاب الذي أرسله إلى الملك هنري الثاني – أن السلطان السلجوقي توسل إليه في عقد الصلح مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين، والتحالف مع الإمبراطورية ضد أعدائه، وأنه استجاب لهذا النداء، بعد أن أدرك أن لا جدوى من مواصلة القتال بسبب فقدانه آلات الحصار ومعدات الحرب. ووصف مانويل، في رسالة أخرى، أرسلها إلى الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، موقف السلطان السلجوقي بأنه ضعيف، لكن فريديريك اعلم بعد ذلك بحقيقة الموقف ، وأجابه على رسالته بأن الإمبراطور الألماني، الذي استمد قوته من الأباطرة الرومان العظماء، يجب أن يحكم الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي."٢٦"

وتتفق الروايات الثلاث على بأن مبدأ الصلح قد تقرر بين السلطان والإمبراطور، وأن القوات البيزنطية كانت في حالة سيئة للغاية لا تمكنها من مواصلة القتال، في حين كانت القوات السلجوقية لا تزال في حالة تأهب ومستعدة لمواصلة القتال، ولكنها تختلف في تحديد البادئ بطلب الصلح وبنوده. وتتبني الباحث رواية ميخائيل السرياني، لأنها صادرة عن مؤرخ محايد من جهة، ومن جهة ثانية، كانت حالة الجيش البيزنطي يرثى لها، ولا يستطيع المقاومة ولا الحرب، لكن يختلف معه في أن الصلح كان في مقابل تدمير تحصينات مدينتي دوريليوم وسوبلايون، وليس تسليم هاتين المدينتين إلى السلاجقة، وذلك استناد إلى الأحداث التاريخية التي تلت ذلك. ومهما يكن من أمر فقد استقرت قاعدة الصلح على البندين التاليين:

ـ يبادر مانويل فورا بالانسحاب من الأراضي السلجوقية.

ـ يدمر التحصينات التي أقامها مؤخرا في دوريليوم وسوبلايون.

ولهذا البند الأخير أهمية كبيرة للسلاجقة، لأنه سمح لهم بالتقدم دون عائق إلى وادي نهر المياندر. وهناك إشارة عند ميخائيل السرياني تسمح بافتراض أن السلطان فرض على الإمبراطور دفع ضريبة باهظة.

وأرسل قلج أرسلان الثاني بعد عقد الصلح قوة عسكرية بقيادة ثلاثة من الأمراء رافقت مانويل حتى حدود، بلاده لئلا يتعرض لغارات التركمان"٢٧".

ويبدوا أن القبائل البدوية التركمانية غضبوا لهذا الصلح ولاموا السلطان على تصرفه. والواقع أنهم الفئة الأكثر احتكاكا بالبيزنطيين لقربهم من مناطق الحدود، وهم أعلم بمصلحتهم من السلطان الذي يعيش بعيدا عنهم. لقد كانوا بحاجة إلى أراض جديدة نظر الظروف حياتهم المتنقلة، وازدياد أعدادهم بفعل الهجرات المستمرة، لذلك اختلفت وجهة نظرهم مع وجهة نظر السلطان، وكان الأجدر به أن يأخذ بوجهة نظرهم، لكنه لم يستمع إليهم وأصر على رأيه. ونتيجة لذلك راح هؤلاء يهاجمون الجيش البيزنطي المنسحب، فاستاء البيزنطيون من هذا التصرف، وألقوا اللوم على القوة السلجوقية المرافقة لهم، إلا أن هؤلاء برروا موقفهم بأن ذلك من عمل التركمان ولا سلطان لهم عليهم.

وهذه المعركة الهامة سجلها المؤرخ البيزنطي "نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates" ووصفها "فريونس Vryonis" بأنها كانت "منازكرد" ثانية للعسكرية البيزنطية، تلك المعركة التي حدثت قبل ذلك بقرن من الزمان، كما شبهها مانويل نفسه بهزيمة "منازكردعام٤٦٣هـ/١٠٧١م" ليقارن نفسه "برومانس الرابع ديوجينيس" حين أسر في حين ظل هو حرا مطلق السراح. "٢٨".

نتائج المعركة :

قال "شارل ديل Charles Diehl": معقبا على نتائج هذه المعركة: أن بيزنطة فقدت في يوم واحد (٥٧١ هـ/١٧سبتمبر١١٧٦م) كل المكاسب السابقة التي عمل من أجلها الأباطرة السابقون عبر قرون طويلة ، ووضعت هذه المعركة نهاية لسيادة بيزنطة على آسيا الصغرى إلى الأبد، وأملى السلطان السلجوقي المنتصر شروطه على إمبراطور الروم المهزوم. وصور المؤرخ البيزنطي نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates الموقف بقوله " أن اللتين يطمعون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سلالتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجها ت نظرنا تختلف إختلافا تاما وطريقنا يسير في اتجاه معاكس "٢٩".

ـ فرار الإمبراطور بعد أن خانته شجاعته ، وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه، ولكن لم يحظ بذلك إلا عـــدد قـــليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار."٣٠"

– حدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، وأنفذ "قلج أرسلان " رسولا يعرض الصلح على الإمبراطور الذي كان يجمع فلول جيشه في السهل، في مقابل أن يعيد إليه قـلعتي "ضريليوم وسيليوم Doryleaum Sublaem، بعد نزع سلاحهما، فبادر الإمبراطور بقبول العرض، وأرسل بصحبة الإمبراطور ثلاثة من الأمراء الترك، وحامية لحما يته من التركما ن أثناء تراجعه نحو القسطنطينية."٣١"

– هدم وإزالة جميع الحصون والقلاع الحربية في آسيا الصغرى، التنازل عن ادعاءاته في أراضي السلاجقة.

وكان قبول هذا الشرط هو بمثابة الاعتراف بعجز الإمبراطورية عن طرد السلاجقة الأتراك من آسيا الصغرى ، وكان من نتائجه:– أن بدأت جحافل التركمان تتدفق من منابع الأنهار الأسيوية فوق المرتفعات متجهة نحو مصباتها في بحر إيجه.

– ضياع هيبة البيت الكومنيني ،فــقــد قضي على الجيش البيزنطي الذي أعده كلٌ من "الكسيوس وحنا كومنين ".

– ضياع أمل الدولة البيزنطية في استرجاع ممتلكاتها في آسيا الصغرى من قبضة السلاجقة القوية، على نحو يجعل "ميروكيفالون" مكملة لمانزيكرت. ولكن "قلج أرسلان الثاني " لم يدرك أهمية انتصاره كما حدث مع "ألب أرسلان " من قبل، ولعل ذلك إلا أنه ركز كل اهتمامه في الجهة الشرقية، إذ كان كل ما يريده هو تأمين حدوده فقط، فقد استولى على ملطية عام ١١٧٧م، كوتيا، وإسكى شهر عام ١١٧٢م، وحاصر انطاليا، وأصبحت الأناضول فعلا أرض الترك، وفي أواخر القرن الثاني عشر أصبحت المصادر الغربية تطلق عليها أرض الأتراك"٣٢".

ــ وضعت حدا لمحاولات الإمبراطور "مانويل" في طرد السلاجقة نهائيا من آسيا الصغرى، فقد استولوا عليها للأبد.

ضاعت هيبة الإمبراطورية البيزنطية ومكانتها السياسية والعسكرية، التي كانت سلاحها الأول في مواجهة منافسيها في الغرب الأوربي، وكذلك كحامية للأمارات الصليبية في الشرق اللاتيني.

ثم إن هذه الهزيمة التي نزلت بالدولة البيزنطية عام ٥٧١هــ /١١٧٦م على يد القوى السلجوقية التي كان معظمها آخذ في التدهور والإنحلال ،تتضح أهميتها في أن قوى عربية جديدة كانت قد أخذت في الظهور ذلك الوقت لتحل محل القوى السلجوقية المفككة في آسيا الصغرى ،ونعني بذلك ظهور"الدولة الأيوبية "بمصر والشام، التي أخذت تتزعم الجبهة العربية في الشرق الأدنى ضد اللتين الدخلاء "٣٣".

ــ والواقع أن هزيمة الجيوش البيزنطية على يد السلاجقة أتاحت الفرصة للدولة الأيوبية الناشئة لتعزيز مركزها حتى تستطيع مجابهة كلٍ من البيزنطيين والصليبين.

ــ اعتبرت المعركة انتصارا كبيرا للإمبراطورية الغربية و"لفريدريك بربارسا ١١٥٢ــ١١٩٠م" نفسه، والذي توهم الإمبراطور البيزنطي أنه ندله، فبعد هزيمة "مانويل" أمام السلاجقة أرسل "فريدريك بربروسا" – وكانت فرحته لا توصف بهزيمة "مانويل" وسخر من خسارته وتشفى فيه – بخطاب يقطر احتقارا، ويسخر فيه من

أحلامه الواهمة في استعادة الإمبراطورية الرومانية القديمة تحت عرشه، ولا ينقصه سوى استعادة سيطرته على الإقليم اليوناني الشرقي (يقصد الإمبراطورية البيزنطية)، وأنه ليس من حق "مانويل" أن يحمل لقب إمبراطور، وأن عليه أن يتنازل عن لقب (ملك الروم) إلى الإمبراطور الروماني. ولما كان "فريدريك برباروسا " قد أعلن نفسه وريثا لأباطرة الرومان، لذلك رأى أن يمتد سلطانه على بلاد الروم (الدولة البيزنطية) ذاتها.

ــ أضعفت مشروعات "مانويل "موارد الدولة المالية،وبرهنت على استحالة إبقاء سيادته على كل من أوروبا والشرق الأدنى، أمام دول غربية لاتينية مسيحية، وحلقة قوية من القوى الإسلامية، ففشلت كل مشروعاته الشرقية، بل وانهار وضع بيزنطة في العالم، فطردت بيزنطة من إيطاليا، وأصبحت تواجه القوى الغربية ضعيفة منهكة. حتى مشروع التعاون مع روما انتهى وصور المؤرخ البيزنطي Nicetas Choniates الموقف بقوله "أن اللتين يطمعون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سلالتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجهات نظرنا تختلف اختلافا تاما، وطريقنا يسير في إتجاه معاكس"٣٤".

ــ وإذا كان انهيار الدولة البيزنطية قد بدأ بعد موت "باسيل الثاني "عام ١٠٢٥م، أي في عصر الأسرة المقدونية، ونجح كل من الكسيوس كومنين وحنا كومنين في تأخير سرعة هذا الانهيار، إلا أنهما فشلا في إيقافه. أما السياسة الخاطئة التي أتبعها "مانويل كومنين " فقد قادت الدولة البيزنطية مرة أخرى إلى طريق الانهيار التام"٣٥".

ــ كانت الهزيمة بالغة الأهمية بالنسبة للاتي في الشرق، فقد أدركوا أهمية بيزنطة بالنسبة لهم وشعروا بأن وجود بيزنطة مهم لمواجهة القوى الإسلامية النامية، في حين أن الزنكيين في الشام، الذين تنازعوا الوصاية على "إسماعيل" بعد وفاة "نور الدين"، لم يشعروا بأهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللتين في الشرق.

ــ حاول الإمبراطور في سبتمبر عام ١١٧٦م، التحالف مع بلدوين ملك بيت المقدس لمهاجمة صلاح الدين في مصر، ولإزالة آثار هزيمة "ميريوكيفالون " وأرسل أسطولا لعكا، ولم يلقى البيزنطيون استجابة، وكانت هذه آخر محاولة من جانب "مانويل".

– جاءت هزيمة ميريوكيفالون، وعلى ذلك النحو المهين، من جانب الأتراك السلاجقة، لأنها كانت بمثابة " الاحتفال المنوي بكارثة مانزيكرت "، وقد جاء الانتصار السلجوقي على بيزنطة في أحد الممرات الجبلية بآسيا الصغرى، ليقضى على ما بقى للجيش البيزنطي من هيبته.

– ومما يدل على عظمة كارثة ميريوكيفالون على الإمبراطورية البيزنطية؛ أنه بعد (٢٨) عاما فقط من تلك الهزيمة، كانت القوات الصليبية من الغرب الأوربي تعبث فسادا في القسطنطينية. وتحتلها لأول مرة في تاريخها وذلك عام ١٢٠٤م، بعد أن تزايدت الأطماع اللاتينية فيها، وجاءت المعركة المذكورة تعبيرا عن الضعف الداخلي الذي لم يدرك الإمبراطور المذكور حقيقته، فقد تصور مانويل أنه ند لأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة مثل فردريك بربروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠م) وكان ذلك قصر نظر واضح تماما. "٣٦"

أحوال السلاجقة والبيزنطيين بعد معركة "ميريوكيفالون" :

رفض مانويل بعد أن عاد إلى عاصمته، تنفيذ البند المتعلق بتدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايوم، على الرغم من أنه أصدر أوامره بإزالة تحصينات المدينة الثانية أثناء مروره فيها، في طريق عودته إلى بلاده. ويبدو أنه عدل عن قراره هذا عندما وصل إلى عاصمته، على الرغم من معاتبة قلج أرسلان الثاني له، الذي استاء أخيرا من عدم استجابة الإمبراطور لنداءاته المتكررة بشأن ذلك. ولم يكن أمام الزعيم السلجوقي سوى الضغط عليه بمهاجمة الأراضي البيزنطية قبل أن يستعيد الجيش البيزنطي قوته التي فقدها في ميريوكيفالون، فأرسل جيشا مؤلفا من أربعة وعشرين ألف مقاتل للإغارة على وادي نهر الميانڈر، في الجزء الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وتمشيط المنطقة حتى البحر. ونجح الجيش السلجوقي في تنفيذ المهمة بدليل توغله في وادي النهر،ونهبه مدن "بلاتيه" و"ترالس" وأنطاكية.

خشي مانويل بعد أن علم بأنباء التوغل السلجوقي في أراضيه، أن يقود الجيش بنفسه للقاء العدو، لأنه كان لا يزال يعاني من أثر الصدمة التي لحقت به في ميريوكيفالون، كما أن حالته الصحية كانت لا تسمح له بالقيام بذلك؛ فعهد إلى بعض قادته بالتصدي للسلاجقة، وطلب منهم عدم التسرع في الدخول في معركة إلا بعد ضمان النصر حتى يتجنبوا كارثة أخرى مثل ميريوكيفالون، وحقق الجيش البيزنطي نصرا جزئيا على الجيش السلجوقي. وقرر مانويل أن يقوم بنفسه بمحاربة السلاجقة ووقف تسللهم ، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه. وتشير المعارك التي حصلت بين السلاجقة والبيزنطيين، بعد ميريوكيفالون، أن السلاجقة عملوا على كسب أراض جديدة على حساب الدولة البيزنطية"٣٧".

مات الإمبراطور مانويل كومنيين في عام(٥٧٧هـ/ ١١٨١م)، كسير الفؤاد، تاركا إمبراطورية البيزنطيين تعاني من التدهور والاضطرابات والضعف والإفلاس، بسبب سياسته وأحلامه الواهمة، فعلى الصعيد الداخلي أدت الحروب الكثيرة إلى زيادة نفوذ الإقطاعيين الذين استفادوا من نظام الهبات العسكرية، "برونويا Pronoia، الذي ضمن لهم حقوقا مالية وقضائية جعلتهم دويلات داخل الإمبراطورية، وهذا مما أضعف السلطة المركزية للدولة، فلم يعد بوسعها مواجهة ضغط العناصر التركية النازلة على

حدودها. وواكب ذلك تردي الأحوال الاقتصادية، بسبب كثرة الضرائب لتمويل المعارك والحروب، فضلا عن أن طرد التجار البنادقة، دون ترتيب مخطط وبطريقة مفاجئة غير مدروسة، أحدث هزة في السوق التجارية، وانهيارا مفاجئا في الاقتصاد البيزنطي.

وفي أثناء إنشغال مانويل بالمعارك مع السلاجقة عام ١١٦٨م، كانت زوجته الأنطاكية "ماريا" قد أنجبت له وريثا للعرش، أسمته "الكسيوس الثاني كومنين "، كما اتخذت لها عشيقا راحت تلهو معه، غير عابئة بمشاعر الناس، حتى لاكت الألسن سيرتها. وبعد موته عام ١١٨٠م أصبحت الملكة الأنطاكية هي الوصية على أبنها الصغير، وكما تركت نفسها لعشيقها، تركت له تصريف شئون حياتها، وتركت له أيضا تصريف شئون الإمبراطورية المنهارة ومن حولها بطانتها من اللتين الأجانب."٣٨".

وتدل معركة "ميروكيفالون" على قوة السلاجقة الحربية ، بل إن الدولة السلجوقية شرعت في إعداد نظم إدارية، وتنمية مظاهر الحضارة الإسلامية، وفي إثارة النشاط الاقتصادي، وإيجاد قانون منظم، فكان هذا نواة الوحدة السياسية التي اكتملت في القرن التالي، على أن هذه الحقبة في التوسع كانت فترة لازمة، وهذا الازدواج استمر طوال تاريخ سلاجقة الروم"٣٩".

وكان اهتمام السلاجقة بفرض سيطرتهم على الغزاة والتركمان، وخاصة الدانشمند، أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم مع بيزنطة، وكان اهتمامهم في هذه الفترة موجها للشرق، وظهرت منذ عام ١١٨٥م، ولأعوام عديدة، حركة تركمانية واسعة، بدأت من أعالي الجزيرة، وانتشرت إلى أرمينية ثم إلى حدود جورجيا، ومنها إلى قبادوقيا السلجوقية، ثم امتدت إلى قيليقة وشمال الشام، وكان زعيم تلك الحركة شخص يدعى "رستم " لا توجد عنه تفاصيل واضحة، بالإضافة إلى أن التركمان في شرق الأناضول تأثروا ببني عمومتهم في إيران: حضاريا وثقافيا "٤٠".

التفت قلج أرسلان الثاني بعد انتصاره في ميريوكيفالون نحو الشرق، للقضاء على آخر إمارة دانشمندية في ملطية، وضم أراضيها إلى سلطنته، وتوحيد أتراك الأناضول تحت قيادته. وأضحت هذه الإمارة ساحة للصراع الجديد بين القوتين السلجوقية والدانشمندية. شن السلطان السلجوقي هجوما عنيفا على ملطية في عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) منتهزا فرصة نشوب نزاع داخلي بين أعيانها حول وراثة العرش، بعد وفاة الأمير الدانشمندي أبي القاسم بن ذي القرنين، حيث انقسموا إلى فريقين، ونجح السلطان السلجوقي في مهاجمتها بقوات كثيفة، وضرب عليها حصارا مركزا، استمر مدة أربعة أشهر تعرض السكان خلالها للضيق، بسبب تناقص الأقوات وحلول فصل الشتاء. ودخل قلج أرسلان الثاني إلى المدينة في (٢٩ربيع الآخر٥٧٣هـ/٢٥أكتوبر١١٧٧م) وبذلك سقطت آخر إمارة دانشمندية، ولم يعد في بلاد الأناضول سوى الأتراك السلاجقة. وكان"قلج أرسلان" قد تقدمت به العمر وأراد إرضاء أبنائه، وخشي من تضارب الأطماع وقيام صراع عند وفاته، أو استغلال

البعض لتلك الظروف، فبدأ بتوزيع مملكته بينهم، فقسم المملكة أحد عشر إقطاعا؛ وزعها على أبنائه التسعة وشقيقه وابن أخيه ، وذلك في عام ١١٨٦م، غير أن الخلاف يلبث أن دب بين الأخوة، وترتب على ذلك الاستعانة بالتركمان بقيادة رستم، فاستعان بهم "قطب ملكشاه" أمير سيواس، أكبر أبناء "قلج أرسلان "،فقد أراد أن يلي أمر السلاجقة بعد أبيه، والاستئثار بالأمر دون إخوته، فأرغم أباه على أن يجعله قسيما في الحكم ، وفي أثناء ذلك وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة، التي كان من قادتها "فريدريك بربروسا " حليف "قلج أرسلان "، وكان أبناء "قلج أرسلان " الباقيين مشغولون في التوسع على حساب بيزنطة. كل هذه العــوامل جعلت بيزنطة تبحث عن حليف ولم تجد غير الإلتجاء إلى " صلاح الدين الأيوبي"٤١"

الهوامــش

١- البيروني: الآثار الباقية، ص١٣٢، ابن الأثير: الكامل، ج٩،ص٥٣٤، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي،ج٢، ص٢٤٠، سعيد عاشور: الحركة الصليبية،ج١،ص٧٥، حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية،ص١٩٣؛ محمد كرد على: خطط الشام ،ص٢٦١. كانت آسيا الصغرى تضم أهم الولايات البيزنطية، كأرميناك والأناتوليك، ومن مدنها خرج عدد كبير من أباطرة الدولة، إلى جانب أنها مصدر بشري عام لجند الإمبراطورية.أنظر: زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى،ص٤٣.

2- Vryonis: Byzantium and Europe. London,1967,p134.

٣- سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى،ص ص٢٢٧،٢٢٦، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٣٨، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ، ص٦٤، أحمد حلمي : السلاجقة، ص٨٧ احمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص٥٠، فيليب حتى: تاريخ سورية، ج٢،ص٢٠٥، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، كامبردج ١٩٥٤م، ص١٠١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية،ج١، القاهرة،١٩١٣م، ص٩٦

Crousset, L Empiredu Levant.p169.،Setton: Hist of Crusades,p21

شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق انشق على حكم أبن عمه "طغرل"، وانضمت إليه أعداد كبيرة من الترك، وكان أبوه أكبر أفراد الأسرة السلجوقية ،فاعتبر نفسه أحق بالملك من طغرل ، وقام أبناء قتلمش بالثورة على "ألب ارسلان" وانضمت إليهم العناصر التركمانية. أنظر: الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣١،٣٠؛ زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى،ص٥٦ص٥٧.

طغرل بك: أحد زعماء الأتراك السلاجقة، خرج مع جماعته من براري القرغيز في التركستان، واستقر بالقرب من بخارى في بلاد ما وراء النهر، وهناك اعتنق وجماعته الإسلام على المذهب السني، وفي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م دخل طغرل بك بغداد، وأنهى بذلك نفوذ بني بويه. أنظر: ابن الأثير: الكامل ،ج٩، ص ١٧٦؛ الأصفهاني: مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص١٢؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،ج ٢،ص٧٣؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر،ج ١،ص٥٣٦.

٤- سعيد عاشور : الحركة الصليبية،ج١،ص٩٢، حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٩٠، أحمد العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص١٨٧، إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامي، ص٣٥٦، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي،ج٣، ص٤٣٨، عبد القادر احمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية ،ص٩٣، أحمد عبد الكريم

سليمان: المسلمون والبيزنطيون (في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس هـ/التاسع والثاني عشر الميلادي) ج١،الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م،ص٢٤٢.

مانزيكرت: مدينة من مدن أرمينية شرق الأناضول على امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، في ولاية موش الحالية على نهر مرادصو "الفرات الشرقي" وتسمى "مانزيكرت" الآن "زابيسكي" Zapiski ، وكانت جزءا من الاتحاد السوفيتي. وقد استفاد السلاجقة من موقعة "مانزيكرت" فوسعوا نفوذهم في آسيا الصغرى وسقطت في أيديهم "قونية" ثم "نيقية" واستولى الأتراك السلاجقة على الأراضي البيزنطية شرقي "كبادوكيا"، وأقرت المسلمين نهائيا في أرمينية. انظر:ياقوت: المصدر السابق، ج٥، ص٢٠٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٨٨، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٧٤، أسد رستم: الروم، ج٢، ص١١٢، فليب حتي : تاريخ سورية، ج٢،ص٢٠٥.

5- Grousset : Histoire de Aremeni, p628

Setton and Baldwin: AHist.of Crusades,Vol,1P150,Cedrnos,Synopsus Historon,ed.Bekker.C.H.S,1938,II,PP.634,638,Zonoras,Epitomeed Buttner,Wobst.Bonn,1989,II,pp.189,191Crousset: H istoire.der Aremeni,p 628

ـ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٥٨، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللتين، ص٢٢٢-٢٢٣، اوستركورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: جون هسي، اكسفورد، ١٩٥٤م، ص٣٠٧.

نيقية: مدينة شرق القسطنطينية عقد بها أول مجمع مسكوني في تاريخ الكنيسة، دعا إلى عقده الإمبراطور "قسطنطين الأول" لحل الخلاف بين أريوس Arius، وأثناسيوس Athanasius، وهما قساوسة من كنيسة الإسكندرية، اختلفا حول ألوهية السيد المسيح، فدعا الإمبراطور إلى عقد المجمع عام٣٢٥م،ولبى الدعوة ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي. أنظر: حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٨، ص٢٩، أسد رستم: الروم،ج١،ص٥٥ـ٥٩، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٢٨ـ٢٩، إسحاق عبيد: الإمبراطورية الرومانية ،ص٨٣.

٦- ستروكورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ترجمة: جون هيسي، اوكسفورد، ١٩٥٤، ص٣١٤،

Vasiliev:History of the Byzantine Empire324-1453,2vols,Madison,II,PP395-6,Camb.Hist of Islam vol I,p23.

٧- ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١١،١٢؛ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ،ص٥٥؛ حسين محمود، احمد الشريف: العالم الإسلامي، ص٥٧٣ ؛ أسد رستم: الروم، ج٢، ص١١١، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٤٥، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص١٠٥،

Stevenson: The Crusadersin theEast,p:6

٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص١٩٤، Camb.Hist. of Islam,vol1, P236

٩- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٦٣، Setton: AHist. Of the Crusades,1Vols,p213

١٠- زبيدة عطا: المرجع السابق،ص٦٥، استركورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ص٣٢٠،

Camb.Hist.of Islam,vol1,P237

١١- الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٣٢، ص٧٣٣، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٤٤، ص١٥٠، محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل الأول، ص٥٢، هسي: العالم البيزنطي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٦٠-٦٢، محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٣٤٦، ص٣٤٧،

Anna Comnena: The Alexiad, london1969.p93.Ki nnamos :Deeds of John and Manuel Comnenus,Trans.byCharles M. Brand, Colombia 1976.pp.13-31

١٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥ــ١٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٠٣ــ٦٠٧، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ،ج١، ص٢٥٩ــ٢٦٤، حسنين ربيع: جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، ص١٨٣، أسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية في ضوء وثائق كيناموس، الإسكندرية ١٩٨٧م،

Setton, Hist. of the Crusades, I. pp. 460-462.

عن أحداث الحملة الصليبية الثانية ، انظر : ابن العبري : تاريخ الزمان ،١٦٣، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ،ج٢، ص٦٠٧-٦١٦، حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢١٩-٢٢٣، محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية ، ص ١٥١، حسن حبشي : نور الدين والصليبيون، ص ٥٥-٥٦، عبد القادر اليوسف : العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، ١١٨-١٢٠، حسين مؤنس : نور الدين محمود، ص ٢٠١-٢٠٢، إسحاق عبيد: روما وبيزنطة، ص١٨٦-١٩٠، عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب تجارية ثقافية، ترجمة: فليب صابر يوسف، ص٦٠،

Nicetas: op. cit. p.80-81, Kinnamos; op. Cit. P.58,Setton: op. cit. Vol.I, P. 469-470

لويس السابع : اعتلى عرش فرنسا بعد وفاة أبيه لويس السادس ، وقد أشتهر لويس السابع بالرقة والعطف والتقوى ، وكان يميل إلى الزهد والتقشف، كان الملك لويس السابع مصرا على اتخاذ الطريق الذي سلكه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى ،وبعودة الملكين لويس السابع وكونراد الثالث إلى بلديهما تكون الحملة الصليبية الثانية قد انتهت بالفشل ،ولم تحقق أي هدف من أهدافها. أنظر: الباز العريني: أوروبا العصور الوسطى، ص٥٢٤-٥٢٥، Setton: op.cit.vol 2 ,P422

١٣- سيد أحمد الناصري: الروم، ص٤١٨، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١م، علية الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م، عبد الحفيظ محمد علي : المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦هـ/٩-١٢م،ج٢، القاهرة ١٩٨٢م. ص٢٧٥، رنسيمان : المسيحيون العرب في فلسطين، اسكس ١٩٦٨م، ص١٤.

١٤- ابن العبري : تاريخ الزمان، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧٥، الذهبي: دول الإسلام، ج١، ص٧٤، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٧٩، حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٢٩-٢٣٠، فشر: المرجع السابق، ص ١٩٠، سيد أحمد الناصري : الروم، ص٤١٨،٤١٩.، أسد رستم : الروم، بيروت.١٩٥٥-١٩٥٦م، ج٢، ص٤١٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٧٦.،

Kinnamos,John: Epitome Historiarum -in C.S.H.B,Bonn 1836.pp204-205-207,Michel Le Syrien:vo 111,pp319-355.

١٥- عمر توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص١٤٠، محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص٣٣١.

١٦- أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٤١٧ ، رنسيمان :ج ٢ ، ص٥٦٧.

١٧- محمود عمران: المرجع السابق، ص٣٣٣، عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص ١٤٤.

١٨- محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٣٣٣، ٣٣٤، Kinnamos: p292، Nicetas:p159

١٩- حسنين ربيع: دراسات ،ص٢٢٩، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٧٦، عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ،الإسكندرية ١٩٥٨م، ص١٤٠، هسي: العالم البيزنطي، ص٦٢،

Vryonis, Byzantium, p.145,Vasiliev,Byz. Empire,II,pp.427-428,Kinnamos:p292,Michel le Syrien:vol 111,p368.

٢٠-ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥، التاريخ الباهر، ص١٦٠-١٦١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٥٦-٣٥٨، أبو شامة: الروضتين، ص ٣٠٨، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص٢٣٣، سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٨، حسنين ربيع: دراسات،ص٢٣٠، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٨٧-٢٨٨، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، القاهرة،١٩٦٧م، ج٢، ص ٤١٢، استركورسكي: المرجع السابق، ص٣٣٩،

Camb. Med. Hist, vol.2.p.355.4.p377

٢١- Kinnamos:pp296-297. يقدر ميخائيل السرياني عدد هذا القسم من الجيش بخمسين ألف مقاتل ص ٣٦٩.

٢٢- ابن العبري: تاريخ الزمان ،ص١٩٢ــــ١٩٣؛ Michel le Syrien:vol 111.p 369

٢٣- Nicetas:p 230.Vasilev:vol 11 .p82.، استوركورسكي: تاريخ الدولة البيزنطية، ص٣٤٧.

٢٤- Nicetas:pp236-248.Michel le Syrien:vol 111.PP369-372

٢٥- Nicetas :p249.Kinnamos:p297.

٢٦- أشار إلى الرسالة المؤرخ "روجر هوفندن" في كتابه "التاريخ" الجزء الثاني، ص١٠١، أسد رستم : الروم، ج٢، ص٤٣، Vasiliev: vol11.p 436

٢٧- ابن العبري ، المصدر السابق ص١٩٣؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل الأول، القاهرة '١٩٨٥م ، ص٣٤٩.

٢٨- حسنين ربيع : دراسات، ص٢٣٠ــ٢٣١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢، ص٧٠٥، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٩، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى ،ص٩٩؛ محمد عبد الشافي المغربي : آسيا الصغرى في العصور الوسطى دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القرن (١١-١٣) ط. الإسكندرية،٢٠٠٣م، ص٢٢٠-٢٢١، محمد مرسي الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٢، ص ٢٧٣، أسد رستم : الروم، ج٢، ص١٥٧ - ١٥٨، علي صالح المحيميد : الداتشمنداليون وجهادهم في بلاد الأناضول ، ط. الإسكندرية ،١٩٩٤م، ص ٢٣٣، محمد زكي نجيب :علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ــ١٠٨١ــ١١٨٥م، ص ١٨٤، فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٠٢ــ٢٠٣، فازيليف: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ج، ص٤٢٨-٤٣٠؛ استركورسكي: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص٣٤٧، شارلز أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص٢١؛ رنسيمان. الحضارة البيزنطية ،ج٢،ص٤١٢؛ هسي: العالم البيزنطي، ص٦٢.

Kinnamos.p.146-147 .Camb.Med.Hist.vol.Iv.p37.Diehl:Hist.of

the Byzantine Empire,p114.

ميركيفالون"MyroKephalon: في منطقة فريجيا Phrygia في آسيا الصغرى Asia Minor إلى الشرق من كوما Choma، ويلاحظ أن كلمة ميركيفالون ذاتها – تعني ألف رأس – ومما يذكر أن الآلاف من البيزنطيين هلكوا في ذلك الموقع أكثر من مرة. أنظر:

Nicetas Choniates,O, city of Byzantium,Annales of NiKetas Choniates,Trans by:Harry Magoulias,Detriot,1984,pp.101-107,Diehl,History of the Bzantine Empire,p.119.

.Vryonia Byzantium,pp.144-145,Charles Diehl,Byzantium,p.208,Camb,Med,Hist,vol IV,p.378.

٢٩- استركورسكي:المرجع السابق، ص٣٤٧، رنسيمان: المرجع السابق، ج٢،ص ٤١٨، فازيلييف: المرجع السابق، ج٢ص، ص٤٣٠، هسي : العالم البيزنطي ، ص٦٢-٦٣، Diehl: Hist,of the Byzantine Empire,p 114

٣٠- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٩٩، رنسيمان: المرجع السابق،ج٢، ص٣٧٨، استركورسكي، المرجع السابق، ص٣٤٦، Camb.Hist. of Islam,vol,12,p.233,Came.Med.Hist,vol,1V,P378,.

٣١- زبيدة عطا :المرجع السابق، ص١٠٠، هسي: العالم البيزنطي، ص٦٣، فازيلييف: الإمبراطورية البيزنطية، ج٢، ص٤٢٦، رنسيمان :الحضارة البيزنطية،ج٢، ص٤١٤، Vryonis,Byzantium,p144

٣٢- حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٣٠-٢٣١، زبيدة عطا: المرجع السابق،ص١٠١،

Diehl: Hist.of Byzantine Empire,p114,Nicetas Choniates : History, Bonn 1835,p629.

٣٣- أراد الإمبراطور البيزنطي أن يقوم بعمل حربي ضد "صلاح الدين"، يعوضه الهزيمة القاسية التي أنزلها به سلاجقة الروم في (سبتمبر١١٧٦م)، والتي قضت على هيبة الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، فضلا عن بلاد الشام، فأرسل سفارة إلى بيت المقدس لتعرض على الملك "بلدوين الرابع " إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ولكي يكسب الإمبراطور "مانويل كومنين" عرضه صفة جدية ، أرسل إلى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كثيرة من المحاربين أستعدادا لغزو مصر. وحاول التحالف مع "بلدوين الرابع" ملك بيت المقدس، ولما كان "بلدوين الرابع" مريضا لا يستطيع المشاركة بنفسه في الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، وبعد أن طال الأخذ والرد حول ذلك الموضوع والأسطول البيزنطي رابض في مياه عكا يئس المبعوثون البيزنطيون من جدية تفكير الصليبيين في مشروع غزو

مصر فأنسحبوا ومعهم سفنهم إلي البسفور. أنظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٢٦، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى،ص ١٠٢، p.595,Michel Le Setton:AHistory of the Crusades ,1vols, Syien,p.367-372

٣٤- جدير بالإشارة أن الإمبراطور المذكور حل العقدة المستحكمة في العلاقات البيزنطية الصليبية ممثلة في المشكلة الأنطاكية، والواقع أنه كان أضعف من أن يجد لهاحلا. وعلى الرغم من استخدامه كافة الوسائل السياسية والدبلوماسية، إلا إن ذلك لم يمكنه من تجاوزها، ولقد ألزم "مانويل كومنين" أميرانطاكية "ريموند دي بواتيه Raymond de Poiticers ١١٣٦ - ١١٤٩م، بالحضور إلى القسطنطينية، - وهو فارس فرنسي قدم إلى بلاد الشام خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م برفقة الملك لويس السابع، وقد تزوج من الأرملة "كونستانس" أميرة انطاكية عام ١١٥٣م، وقد وقع في أسر المسلمين سبعة عشر عام، وتزوج ستيفاني دي ميلي، وقد أخضع قلعة الكرك لسطرته، وبالتالى اعترض طريق دمشق- القاهرة. وأعد حملته على الأماكن المقدسة الإسلامية عام١١٨٢م، ولكن تم إجهاضها، وقد قتل صلاح الدين الأيوبي "أرناط" في ٤ يوليو ١١٨٧م، في معركة حطين الحاسمة - وقد قدم اعتذاره للإمبراطور بل إنه أعتبر نفسه تابعا له عام ١١٤٥م. ومن بعد ذلك، وفي عام ١١٥٨م قام ذلك الإمبراطور بغزو كليليكيا Cilicia في آسيا الصغرى، وعامل أمير انطاكية "رينودي شاتيون" Renauld de Chatillon (١١٥٣-١١٦٢م) على نحو قاس الزمه بالخضوع له. أنظر: عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧م، ص٧٤، عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى: الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧م، ص٣٢،عائشه بنت عبدالله: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، مكة المكرمة ١٩٨٠م، ص٤١-ص٤٤، محمد مؤنس عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص١٩٢، William of Tyre,vol.11,p.276,Diehl.History of the Byzantine Empire,p.125.

٣٥- حققت الإمبراطورية البيزنطية في عهد "باسيل الثاني" ما حقق في عهد "جستنيان" من انتصارات حربية عظيمة والتي أعادت الهيبة والإحترام للإمبراطورية البيزنطية. ومن الناحية الدينية : حققت كنيسة القسطنطينية أعظم انتصار لها باعتناق الروس في "كييفKiev" المسيحية في عهد الإمبراطور "باسيل الثاني"، وصاحب هذا التقدم، في الزراعة والصناعة والتجارة ونشر المسيحية، تقدم في الحياة الفكرية في الدولة البيزنطية. وإستعادت الإمبراطورية على يديه قوتها لتدافع عن نفسها ضد أعدائها الذين كانوا يتربصون بها من كل جانب، وجعل من جيوشها قوة مرهوبة الجانب، ومن عاصمتها منارا يستطع نوره على ثقافات وفنون وحضارات العالم ، فكان آخر الأباطرة العظام. أنظر: حسنين ربيع، دراسات، ص١٦٢، جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٨٢-١٨٣، أسمت غنيم : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ،١٩٨٧م، ص٩٨-٩٩، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٤٩.

Vryonis, Byzantium, p.110,Bury.Roman Emperos from Basil11 to Isaac,p52.

٣٦- ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٨٦- ٨٩، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٤، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٦٦، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص١١، Camb. Hist of Islam,vol 1,p 238

عن فردريك بربروسا أنظر: حامد زيان: فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٠، كمال الدسوقي : تاريخ ألمانيا ، القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٩.

37- Nicetas:p251-254-257,Ramsey,Sir William Mitchell:Historical Geography of Asia Minor.London1890,p401,Camb. Hist.of Ialam;vol 1,p244.

يكاد يكون المؤرخ البيزنطي نيكيتاس الوحيد الذي أرخ لهذه الفترة بعدميريوكيفالون.

٣٨- حسنين ربيع : دراسات، ص ٢٣٢، هسي : العالم البيزنطي، ص١٩٧-١٩٨، Nicetas:op.cit.p 356,Vasiliev,Byz. Empire.11,pp432-433.

وإذا تتبعنا أحوال الدولة البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور "مانويل الثاني" نجد أن ابنه القاصر "الكسيوس الثاني" Alexius 11 قد اعتلى عرش بيزنطة، وكان في الثانية عشرة من عمره، تحت وصاية أمه اللاتينية "ماريا الأنطاكية". ولكن لم يهنأ ذلك الإمبراطور بتوليه العرش إلا لمدة ثلاث سنوات. فقد اضطربت الأحوال في القسطنطينية وثار سكانها نتيجة لسيطرة العنصر اللاتيني على الأحوال الأقتصادية، وعندئذ تمكن "اندرونيقوس الأول" - Anderonicus 1- من انتزاع الحكم من "الكسيوس الثاني" وأمه اللاتينية وقتلهما. وأدى الشغب الذي جرى في شوارع العاصمة، في ابريل١١٨٢م، الى هجوم على أرواح وممتلكات اللاتين في المدينة. ولذا يرى البعض أن حوادث سنة ١١٧١م - عندما تم القبض على جميع البنادقة في أنحاء الدولة البيزنطية، وحوادث سنة ١١٨٢م - كانت علامة هامة أدت إلى الغزو اللاتيني للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص٢٣٢، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٩٥، اسمت غنيم : تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٤٨-١٤٩، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥٠، هسي: العالم البيزنطي، ص١٩٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٩١، Vryonis, Byzantium, p 145, Vasiliev. History of the Byzantine Empire 424-1453, vol 2, pp 430-433.

٣٩- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ١٠٢، Setton,op. cit. vol 1,p 48, Camb. Hist., of Islam, vol 1,pp244-299.

٤٠- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٠٣، استركورسكي: المرجع السابق، ص٣٥١، رنسيمان: المرجع السابق، ج٢ص٩،

Camb.Hist,of Islam,vol,1,p244,Setton,op.cit.vol,1p 49.

٤١- إمارة الدانشمند: أقامها احمد غازي دانشمند في عام (٤٧٤هـ/١٠٨٤م)، ودانشمند هو أحد زعماء التركمان التابعين لسليمان بن قتلمش، واشترك معه في حروبه ضد ملطية، وسيطر على سيواس وأماسية وقيصرية وأنقرة، وكل الطرق التي تجتاز شمال آسيا الصغرى، ومالبث أن نقض عهده لسلاجقة الروم، وأعلن تبعيته لملكشاه، وبعد وفاته خلفه ابنه غازي كمشتكين الذي سار على سياسة أبيه في مناصبة سلاجقة الروم العداء. أنظر. أبن العديم : زبدة الحلب، ج٢، ص٨٦-٨٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ،ج١، ص١١٤؛ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٦٦؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص١١؛ Camb.Hist. of Islam,vol 1,p238.

٤٢- ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٣٨، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٥١، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٦،، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٤-١٩٤، Michel Le Syrien: vol 111,p 373

انتهت أسرة كومنين بثورة سنة ١١٨٥م، وتولى عرش الدولة البيزنطية، في الفترة من سنة ١١٨٥ الى سنة ١٢٠٤م، أباطرة من بي-ت انجيلوس، وتنسب هذه الأسرة الى قسطنطين انجيلوس Constantine Angelus الذي كان معاصر الالكسيوس كومنين، وتزوج من ابنة الكسيوس. وقسطنطين انجيلوس هو جد اسحاق الثاني انجيلوس أول أباطرة هذه الأسرة التي تنتمي إلى أسرة كومنين من ناحية الأم. أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص٢٣٧، Vasiliev, Byz. Empire.11.p437-438,Vryonis,Byzantium,p.145.

المصادر والمراجع

أولا:المصادر والمراجع باللغة العربية :-

أ ـ المصادر:

١ـ ابن الأثير(عزالدين محمد ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

ـ الكامل في التاريخ ،أجزاء ٩-١٠-١١،،ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م،

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣ م.

٢ـ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧١هـ/١٤٦٩م):

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جزءـ ٥، القاهرة ١٩٢٩م.

٣ـ ابن خلكان (أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ/١٢٨١م):

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق : إحسان عباس ،بيروت، ١٩٦٨م

٤ـ ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد)

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ.

٥ـ ابن شداد (بهاء الدين يوسف ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م):

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،تحقيق: جمال الدين الشيال،القاهرة١٩٦٢م.

٦ـ ابن العبري (غريغوريوس الملطي ت ٦٨٥هـ/١٢٥٦م):

ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٦م.

ـ تاريخ الزمان ، ترجمة الأب إسحاق أرمله، ١٩٤٩-١٩٥٦م.

٧ـ ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م):

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب،تحقيق:سامي الدهان ،جزءـ١ـ دمشق ١٩٥١م.

٨ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد ،٥٥٥هـ/١١٦٠م):

ـ ذيل تاريخ دمشق، تحقيق : آمدروز، بيروت - ليدن ١٩٠٨م.

٩ـ ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت ٧٤٤هـ/١٣٧٣م):

ـ البداية والنهاية ،القاهرة ب ـت.

١٠ــ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٧٧هــ/١٢٧٨م):

ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جزء ١-٣، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧م، الجزء الرابع تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٤م.

١١- ابن الوردي (أبو حفص زين الدين عمر المظفربن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، ت ٧٤٩هــ/١٣٤٩م):

ــ تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢،بيروت. ب.ت.

ــ خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٩٣٩م.

١٢- أبوشامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٥٥هــ/١٢٦٧م):

ــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٢٨٨هــ.

١٣ــ أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد ت٧٣٢هــ/١٣٣١م):

ــ المختصر في أخبار البشر، جزء ٢-٣، بيروت ١٩٦٠.

١٤ــ البيهقي (أبوالفضل محمد بن حسين البيهقي ،ت ٤٧٠هــ/١٠٧٧م):

ــ تاريخ البيهقي ،ترجمة : يحي الخشاب وصادق نشأت ،القاهرة ١٩٥٦م.

١٥ــ البلاذري(أحمد بن يحي بن جابر):

ــ فتوح البلدان ، نشره : صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م

١٦ــ البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هــ/١٠٤٨م):

ــ الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة أدوارد سخاو.

١٧ــ الإدريسي (الشرف الإدريسي ت ق ٦هــ/١٢م):

ــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ١٩٨٩م.

١٨ــ الحسيني (صدر الدين علي بن ناصر أبو الحسن القرن ٦هــ/١٢م):

ــ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق :عباس إقبال ، بيروت ١٩٨٤م.

١٩ــ الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٨٧٦هــ/ ١٢٢٨م):

ــ معجم البلدان ،٦أجزاء ، بيروت ١٩٧٩م.

٢٠ــ الراوندي (أبو بكر محمد بن علي):

– راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: شواربي، الصياد وحسنين، القاهرة ١٩٦٠م.

٢١– زامبا ور(ادوارفون):

– معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ،ترجمة: زكي حسن، وحسن محمود جامعة القاهرة ١٩٥١.

٢٢– الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني ،ت ٧٤٨هـ):

– دول السلام ،جزءان ،حيدرأباد ،١٣٦٤هـ.

٢٣– سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي هلي بن عبد الله ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ،ج٨، حيدر آباد،١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٢٤– الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن قدير بن خالد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

– تاريخ الأمم والملوك،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزءان ١٠،١١القاهرة ١٩٩٦م.

٢٥– عماد الدين الأصفهاني(عبدالله محمد بن صفي الدين ،ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

– تاريخ دولة آل سلجوق ،إختصار الفتح بن علي البنداري، بيروت ،١٩٧٨م.

٢٦– العيني (بدر الدين محمود):

– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،ج١،تحقيق: محمد أمين ،القاهرة ١٩٨٥.

٢٧– القرماني (أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي):

– أخبار الدول وآثار الأول،تحقيق :محمد أمين،بغداد١٢٨٢هـ.

٢٨– القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

– آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م

٢٩– المسعودي (أبو الحسن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):

– التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٦٨م.

– أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان، بيروت ١٩٩٦م.

٣٠– المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشاري):

ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م.

٣١ــ المقريزي (أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هــ/١٤٤١م) :

ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ،الجزء الأول ،القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧م.

٣٢ــ النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر):

ــ تاريخ بخارى ،القاهرة ١٩٦٢م.

٣٣ــ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح):

ــ تاريخ اليعقوبي،بيروت ١٣٧٩هــ/١٩٦٠م.

٣٤ــ يحي بن سعيد الأنطاكي :

ــ تاريخ يحي بن سعيد الأنطاكي، نشر: كراتشوفسكي وفازيلييف ،باريز ١٩٢٤م،بيروت.

المصادر المعربة :

١- مجهول :(مؤرخ سرياني مجهول) الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية ،ضمن كتاب الحروب الصليبية ،ترجمة: سهيل زكار،دمشق ١٩٨٤م.

٢- وليم الصوري :

ــ تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار،بيروت، ب-ت.

ــ تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ،عمان ١٩٩٠م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١- إبراهيم العدوى :

- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ،القاهرة ١٩٥١م.

٢- أحمد رمضان :

- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام،

٣- أحمد عبد الكريم سليمان:

- المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري/ التاسع والثاني عشر الميلادي،الجزء الأول ،القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٤- أحمد شلبي:

- موسوعة التاريخ الأسلامي ،القاهرة ١٩٧٨م.

٥- أحمد كمال الدين حلمي :

- السلاجقة في التاريخ والحضارة ،الكويت،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٦- أحمد مختار العبادي :

- التاريخ العباسي والأندلسي ،بيروت ب ـــ ت.

٧- إدوارد جيبون :

- إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج١،ترجمة :محمد علي أبوريدة، القاهرة ١٩٩٧م.

٨- أرنست باركر:

- الحروب الصليبية ، ترجمة :السيد الباز العريني،بيروت،١٩٦٧م.

٩- إسحاق أرملة :

- تاريخ الأمة الأرمينية ،الموصل ١٩٥١م.

١٠- إسحاق تاوضرس عبيد:

- روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، ٨٦٩هـ/ ١٢٠٤م، القاهرة ،١٩٧٠م.

- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ،القاهرة ١٩٧٢م.

١١- أسد رستم :

- الروم في سياستهم وحضارتهم ،دينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ،الجزء الثاني ، بيروت ١٩٥٦م.

١٢- أسمت غنيم :

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤هـ/١٤٥٣م،الإسكندرية ،١٩٨٧م.

- "معركة مانزكرت في ضوء وثائق بسللوس"كلية الآداب ،الأسكندرية عدد عام ١٩٨٣م.

١٣- السيد الباز العريني:

- الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م،القاهرة ،١٩٦٠م.

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت، ١٩٦٨م

- المغول، بيروت ١٩٦٧م.

١٤- أوستركورسكي:

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة :جون هسي،إكسفورد ١٩٥٤م.

١٥- بارتولد :

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى ،ترجمة:أحمد السعيد،القاهرة ١٩٥٨م.

١٦- جوزيف نسيم :

- تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م)، الأسكندرية،١٩٨٤م.

- العرب والروم واللتين في الحروب الصليبية الأولى ،الأسكندرية ،١٩٨١م.

- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها،بيروت ١٩٨٧م..

١٧- ج.م هسي :

- العالم البيزنطي ،ترجمة :رأفت عبد الحميد،القاهرة،١٩٨٢.

١٨- حامد زيان غانم :

- الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة،القاهرة ،١٩٧٧م

١٩- حامد غنيم أبوسعيد:

- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ،الجزء الأول،القاهرة ١٩٧١م.

٢٠- حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ،الجزء الرابع ،القاهرة ١٩٦٧م.

٢١- حسن حبشي:

- نور الدين والصليبيون حركة الإفاقة الإسلامية في القرن السادس الهجري ، القاهرة.١٩٤٨.

٢٢- حسن محمود وأحمد إبراهيم الشريف:

- العالم الإسلامي في العصر العباسي،القاهرة ١٩٨٠م.

٢٣- حسنين محمد ربيع :

- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ،القاهرة ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ،رسالة المسجد،العدد الرابع (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)

٢٤- رايس (تامارا تالبوت):

- السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الداقوتي، بغداد ١٩٦٨م.

٢٥- زبيدة عطا :

- الترك في العصور الوسطى -بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون—د.ت.

٢٦- ستيفن رنسيمان :

- تاريخ الحروب الصليبية ،نقله إلى العربية السيد الباز العريني،٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.

- المسيحيون العرب في فلسطين ،إسكس ١٩٦٨م.

- الحضارة البيزنطية ،ترجمة :عبد العزيز توفيق جاويد ،مراجعة زكي علي ،القاهرة ١٩٦٤م.

٢٧- سعيد عبد الفتاح عاشور:

- الحركة الصليبية،جزءان،القاهرة ١٩٧١م.

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،بيروت ١٩٧٧ م.

- أوروبا العصور الوسطى ،القاهرة ١٩٦٢م.

٢٨- سهيل زكار:

- المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،بيروت ،١٩٧٢م.

٢٩- سيد أحمد الناصري :

- الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربي ،القاهرة ١٩٩٣م.

٣٠- شارلز أومان :

- الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م –١٩٦٠م.

٣١- شاكر أبو بدر:

- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ،بيروت ،ب- ت.

٣٢- عبد الغني محمود عبد العاطي:

- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الكسيوس كومنين ١٠٨١- ١١١٨م، القاهرة ١٩٨٣م.

٣٣- عبد القادر اليوسف :

- لإمبراطورية البيزنطية ،بيروت ١٩٦٦م.

- العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، صيدا ١٩٦٩م.

٣٤- عبد المنعم ماجد:

- الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ،القاهرة ١٩٩٧م.

- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،بيروت ١٩٦٦م.

٣٥- عبد النعيم حسنين:

- سلاجقة إيران والعراق،القاهرة ١٩٧٠م.

- دولة السلاجقة ،القاهرة ١٩٧٥م.

٣٦- عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى :

- الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،القاهرة ١٩٤٧م.

٣٧- عزيز سوريال عطية :

- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ،ترجمة :فيليب صابر، القاهرة ١٩٧٧م.

٣٨- عصام الدين عبد الرؤوف :

- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، القاهرة، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٣٩- علي صالح المحيميد:

- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١- ١١٨٥م.

٤٠- علية عبد السميع الجنزوري :

- مارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٤م.

- المرأة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٠م.

٤١- عمر كمال توفيق :

- تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م.

٤٢- ديفـــــز:

- أوروبا في العصور الوسطى ،ترجمة :عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية ١٩٥٨م.

٤٣- زاكية رشدي :

- الخلفاء العباسيون والحروب الصليبية من مخطوطة ميخائيل السرياني، كلية الآداب، جامعة القاهرة،١٩٧٢م.

٤٤- فازيليف:

- العرب والروم، ترجمة : محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة فؤاد حسين، القاهرة، ب- ت.

٤٥- فيليب حتى :

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة : كمال اليازجي ،بيروت ١٩٥٩م.

٤٦- فايز نجيب إسكندر:

- البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد(٤٦٣هـ/١٠٧١م) في مصنف نقفور برنيبوس مقارنة للمصادر، الإسكندرية ١٩٨٤م.

٤٧- قاسم عبده قاسم:

- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية ،القاهرة ١٩٨٣م.

٤٨- كارل بروكلمان :

- تاريخ الشعوب الإسلامية ،ترجمة :نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ،بيروت ١٩٩٨م.

٤٩- كمال الدسوقي :

- تاريخ ألمانيا،القاهرة ١٩٦٩م.

٥٠- محمد عبد الشافي المغربي:

- آسيا الصغرى في العصور الوسطى -دراسة في التاريخ السياسي والحضاري للقرنين (١١-١٣م)، الإسكندرية ،٢٠٠٣م.

٥١- محمد زكي نجيب :

- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١- ١١٨٥م،

٥٢- محمد سهيل طقوش :

- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ٤٧٠-٧٠٤هـ/١٠٧٧- ١٣٠٤م، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ،بيروت ،١٩٩٩م.

٥٣- محمد كرد علي :

- خطط الشام ،القاهرة ،١٩٥٧م

٥٤- محمود سعيد عمران:

- عالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية مدخل إلى التاريخ السياسي والحربي الإسكندرية ١٩٨١م.

- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الإسكندرية ١٩٨٥م

- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٨م

٥٥- محمود شاكر :

- التاريخ الإسلامي -الدولة العباسية -الجزء الثاني ،بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٥٦- نور الدين حاطوم :

- تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دمشق ١٩٨٢م.

٥٨- نبيه عاقل:

- الإمبراطورية البيزنطية.دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري.دمشق ١٩٦٩م.

٥٩- نورمان بينز :

- الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة: حسين مؤنس ومحمود زايد ،القاهرة ١٩٥٧م.

٦٠- نورمان كانتور:

- التاريخ الوسيط ،ترجمة قاسم عبده قاسم،القاهرة ١٩٩٧م.

٦١- وديع فتحي :

- العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (١٢٤-٢٠٥هـ/٧٤١-٨٢٠م)، الإسكندرية ١٩٩٠م.

٦٢- هربرت فشر:

- تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، القاهرة ١٩٥٧م.

المصادر البيزنطية :

- Anna Comnena:

  The Alexiad (tran, From the Greek by E.R.A.Sewter)Great Britain 1969.

- Kinnamos:

  Deeds of Gohn and Manule Comnenus (tran, by C.M.Brand) Columbia university pres New York 1976.

- Nicetas, ch:--

  Historia in (C.S.H.B)Bonn1835.

- Zonaras:

  Epitomae Historiatum in (C. S. H. B)

المصادر اللاتينية :

- William of Tyre:

  A History of Deeds done beyond the Sea (tran, by E. A. Babcock and A.C.Krey)New York 1943.

المصادر السريانية :

- Michel le Syriens:

  Chronigue de Michel le Syrien Patriarch d'Antioche 1166-1199(editee et traduit en Français Par J.B. Chapot.) Paris 1906.

المراجع الأجنبية :

- Bury,J.B.: --

A History of the Eastern Roman Empire , London, 1952.

Vol 1V, V,Cambridge,1926. Cambridge Medieval History,

- Cambridge History of Byzantine E mpire, ed. By J.M.Hussey,Camb.Univ.Press 1966.—

- Cambridge History of lalam.

• Diehl,Charles :

By zantium Great ness and Decline, New York 1957.

• Gibbon E.:

The decline and Fall of the Roman Empire ,vol 111,New York 1995.

• Cedrnos ,:-

Synopsus Historon, ed. BeKKer.C. H,1936.

• Grousset, R:

Histoire des Aremeia ,le monde Mongol, Paris 1922.

• 0strogorsky, G:

History of the Byzantine state, (tran by John Hussey)O xford 1968.

• Runciman, S :-

History of Crusades vol. 1,1968, vol. 2,1962.

Ramsey,Sir William Mitchell:

Historical Geography of Asia Minor. London 1890.

• Setton, K. M.:

A History of the Crusades, university of Wisconsin Press, vol.1, Edited by Marshall W.Baldwin, London, 1969.

• Sevenson, W,B :

The crusades in the East, Cambridge Universty press Lebanon Bookshops, Beirut, 1969.

- Vasiliev,H:--

History of the Byzantine Empire 424—1453,2vols The university of Wisconsin press 1980.

- Vryonis,S :

Byzantium and Europ ,London 1967.



حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢١٧



أنظر محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص٣٧٦

البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
(دراسة وثائقية)

د. مصطفى حبشي محمد زهران (*)

مقدمـــــة

يتناول هذا البحث، بالدراسة والتحليل، جوانب من أحـوال مدينـة البـصرة ومحاولات إصلاحها ، ولا سيما أوضاع الأسطول ، والدور الذي قـام بـه متـصرف البصرة "معشوق باشا" بخصوص إيجاد صلات متينة وعلاقات وطيدة ومـستمرة مـع الكيانات العربية القائمة في الخليج العربي، أواسط القرن التاسع عشر ، ومدى النجاح المتحقق في هذا المجال ، وأسباب ذلك ، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة بالنـسبة لسياسة الباب العالي في اسطنبول، الرامية إلى امتداد السيادة العثمانية علـى الخلـيج العربي بصفة عامة، والبصرة بصفة خاصة، في وقـت اشـتد فيـه الـصراع وازداد التنافس بين القوى الدولية والمحلية، لإيجاد مواطئ قدم ومصالح اقتصادية وسياسـية دائمة في المنطقة الذي يبرزها هذا البحث واتجاهاته، محدده بحدود المعلومات التـي أمدتني بها الوثائق العثمانية المتوافرة لدى، والتي حصلت عليها من مركز الوثـائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة : حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧ د (شئون إسلامية وعربية)، وهذه الوثائق تمثل المراسلات المتبادلة بـين متـصرف البـصرة والمندوب العثماني، في لجنة تحديد الحدود مع إيران، درويش باشا، ورسالتين باللغة العربية موجهتين من سلطان مسقط وعمان (سعيد بن سلطان وإبنـه ثـويني) إلـى (معشوق باشا)، إضافة لما يتطلبه البحث من معلومات توضـيحية ومكملـة للـنقص الحاصل في معلومات الوثائق المذكورة، مما تضمنته الكتـب والدراسـات المنـشورة المتخصصة في شئون العراق[1].

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث صراع حاد وتنـافس محمـوم بين القوى البحرية البرتغالية والهولندية والإنجليزية والفرنسية . وقد تنازعت السيادة على المنطقة قوى عربية متعددة : كالعمـانيين (اليعاربـة والبـوعلي والبوسـعيد) والقواسم والوهابيين وبني كعب . وحاول الإيرانيون منذ عهد نادر شـاه (١٧٣٦-

---

(*) أستاذ مساعد بكلية السياحة والفنادق بكينج مريوط – الأسكندرية.

١٧٤٧) تأسيس قوى بحرية فعالة في الخليج العربي لغرض هيمنة إيرانية على المنطقة، والتوسع باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيد انهم فشلوا فشلا ذريعا في هذا الميدان .اما القوة البحرية العثمانية في البصرة؛ فقد كانت متخلفة وضعيفة ، ولم تقم بدور يذكر في التأثير على مجريات الصراع الدائر وتوجه مساراته ، وترتب على ذلك انحسار نفوذ ولاة بغداد والبصرة عن منطقة الخليج العربي، وتعرض الأمن الوطني للعراق لمخاطر عديدة ، ولا سيما منطقة البصرة التي تعرضت للحصار وللاحتلال الأجنبي عدة مرات، نتيجة لإهمال القوة البحرية وضعف القوات البرية .واستمر الوجود العثماني في الخليج العربي، حتى أواسط القرن التاسع عشر، ضعيفا وهامشيا ، بل لا يكاد يذكر في خضم صراع الاستراتيجيات الدولية المحتدم حينذاك ، وذلك يعود لعدة أسباب ، منها : ضعف الأسطول العثماني بوجه عام، وضعف أسطول البصرة بوجه خاص ، وانشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية المستعصية: كمشكلة محمد علي باشا والي مصر، واندلاع الانتفاضات القومية في ولايات البلقان والوطن العربي ، وحروبها الخارجية مع روسيا وإيران، والقوى الأوروبية الأخرى الجامحة والهوجاء، وقد جرت عدة محاولات للتوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي، إلا أن ضعف القدرات المالية والعسكرية للدولة العثمانية ، ونجاح السياسة البريطانية في إبعاد العثمانيين عن المنطقة المذكورة ، بإشغالهم في الصراع مع إيران تارة، والوهابيين وقوات محمد علي باشا تارة أخرى حالا دون إنجاح ذلك التوجه. فقد كانت البصرة من المراكز التجارية الحيوية في الشرق، حيث تكدست في أسواقها ومخازنها مختلف السلع والبضائع الهندية والصينية والأوروبية؛ المتدفقة عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط، والمنقولة منها إلى بغداد والموصل وبلاد الشام، وشبه جزيرة العرب والأناضول وإيران، عن طريق نهري دجلة والفرات، وأيضا القوافل البرية، وصولا إلى سواحل البحر المتوسط فأوربا، عن طريق وادي الفرات إلى بيروت وموانئ الساحل الفينيقي، مرورا بدمشق وطريق وادي دجلة إلى الإسكندرية مرورا بحلب .كما أن صادرات تلك الأقطار، وخاصة المنسوجات وأدوات الزينة كانت تتجمع في مخازن البصرة لتنقل منها إلى الهند ، وهكذا كانت التجارة تشكل موارد أساسية لخزينة بغداد واقتصاديات الولاية. وكان الأسطول العثماني في البصرة يتولى مهمة الدفاع عن المدينة وحماية الملاحة في الخليج وشط العرب ونهري دجلة والفرات، وأنيطت مهمة قيادته إلى ضابط يلقب بـ (قبودان باشا) أي قائد الأسطول، ويأتي في المرتبة الثانية بعد متصرف البصرة من حيث التسلسل الإداري، وكانت له دار خاصة تقع على شط العرب في قرية المناوي، تصطف أمامها قطع الأسطول ، وهي سفن صغيرة مسلحة تعرف بـ (الثكنات) ، تتميز بقعرها المسطح المطلي بالقار السميك. وكانت هذه السفن تشكل العمود الفقري لأسطول البصرة حتى سنة ١٨٦٥، وتم استبدالها بعد ذلك بالغلافات وهي أنواع حديثة من

السفن العصرية، وبأنواع أخرى من السفن المتطورة، لمواجهة التحديات البحرية الجديدة في شط العرب والخليج العربي[٢].

وفي أواخر عام ١٨٦٥ انضمت إلى إسطول البصرة سفينتان كبيرتان نسبيا تم بناؤهما في الهند ، تحمل كل منهما أربعة عشر مدفعا ، واطلق عليهما اسما دجلة والفرات ، ومع ذلك فإن هذا الأسطول ظل دون مستوى الأهداف المطلوبة منه، بسبب النقص في عدد السفن التي يتألف منها ، وتدني نوعياتها ، ونقص الأعداد والكوادر الفنية والعسكرية المستخدمة على ظهر هذه السفن وقلة خبرتها. كما حاول والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩- ١٨٠٢) تحت إدارة السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩- ١٨٠٧) في بداية حكمه. تعزيز أسطول البصرة، فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي بناء ست غلافات كبيرة، تحمل كل واحدة منها ستة مدافع ، بيد أن تلك المحاولة كانت بدون جدوى، لأن الإنجليز لم يكن من مصلحتهم في ذلك الوقت تعزيز القدرات العسكرية لولاة بغداد، وذلك لاخضاعهم لمشيئتهم وابتزازهم، من أجل الدوران في أفلاكهم والارتماء بين أحضانهم، فادّعوا أنهم يخشون وقوع تلك الغلافات بأيدي أعداء والي بغداد، وأعداء الإنجليز من القواسم وكعب، فعملوا على شرنقتها[٣] .

تقرير معشوق باشا متصرف البصرة عام ١٨٦٦ :

بدءا من منتصف القرن التاسع عشر أخذ العثمانيون يبدون اهتماما،وإن كان سطحيا، بشئون الخليج العربي ، ويرقبون تطورات الأحداث فيه ، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والأجنبية الموجودة في هذه المنطقة الحساسة من العالم في القرن التاسع عشر ، فشرعوا في إرسال المبعوثين إلى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو إسميا، أو التعاون مع الدولة العثمانية؛ على أقل تقدير بصفتها دولة إسلامية ، وانطلاقا من هذا الموقف الجديد في السياسة العثمانية كلف الباب العالي متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة ، فبادر الأخير إلى إرسال عدة أشخاص إلى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط، واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة، بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الأمراء والمشايخ العرب .فورد في تقرير معشوق باشا، المرفوع إلى الصدارة في أواخر عام ١٨٥٠م، معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة امارة الكويت ، حيث يشير إلى أن بعض عربان نجد كانوا يأتون إلى الكويت لأجل صيد الأسماك، وأثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة؛ شيدوا لهم بيوتا صغيرة من القصب، تحولت بمرور الزمن إلى بيوت مبنية

باللبن ، وكان منشأ هذه الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد اصبحت ملجأ ومسكنا آمنا للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت، وكان أهالي الامارة غير مكلفين بدفع أي نوع من الضرائب ، عدا الجمرك المفروض على الأمتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر ، وبمعدل ريالين عن كل نوع ، وبلغ وارد الجمرك مئة ألف ريال سنويا. ونظرا لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبيا ، لذا كان اغلب التجار يفضلون انزال تجارتهم في الميناء المذكور ، ونقلها برا إلى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها. وكان أمير الكويت " الشيخ جابر " يبادر إلى تقديم الإمدادات والمساعدات إلى أهالي البصرة، برا وبحرا، عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين أو تسلط الكعبيين، ومقابل هذه الخدمة كان امير الكويت يحصل على مئة وأربعين كارة(٤) من التمور سنويا من حكومة البصرة .وذكر معشوق باشا أن مسألة ربط الكويت بإدارة البصرة، واستثمار موارده الاقتصادية لحساب خزينة البصرة، وقطع عطية التمور السنوية؛ رهين بتقوية أسطول البصرة، وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على أقل تقدير ، وأضاف أن أهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة ، إلا أن موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع إلى مشايخه؛ الذين لا يراجعون إدارة البصرة في أي موضوع أو مادة ، وإذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية – على الرغم من إظهارهم الميل إلى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافي والديني لكون السلطان العثماني خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين– فإن واقع الحال يقتضي إظهار سطوة السلطة السنية وجانب من قدراتها العسكرية ، لكي لا يعطوا أذنا صاغية لدسائس بعض الأطراف الدولية والمحلية . وبخصوص مقاطعتي الحسا والقطيف، اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود، تشير معلومات معشوق باشا إلى أن الأمير السعودي يستوفي منهما سنويا مئة ألف ريال (أربعة آلاف كيس) باسم بدل جمرك وميري ، مقابل مبلغ زهيد يدفعه إلى خزينة جدة، وأنه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمئتي عسكري في كل منهما ، واستنادا إلى إفادة عدد من أبناء الحسا والقطيف القادمين إلى البصرة؛ فإن الأهالي هناك مستاءون ومتنفرون، وراغبون في الانضواء تحت الحكم العثماني. ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على أهمية وضرورة بناء الأسطول، وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة، حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات . وقد تضمن تقرير معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، عدة مقترحات لإصلاح أحوال مدينة البصرة، وانتشالها من حال التردي الذي أصابها، وتطويرها حسب الإمكانات المتاحة. ومما يذكر أن أهالي البصرة والعاملين فيها، من أتراك وأجانب، كانوا يعانون من وخامة الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة، بسبب إحاطة المدينة بالمستنقعات والبحيرات الناتجة من طغيان نهر الفرات، وانهيار بعض السدود التي كانت تتحكم في توزيع فائض مياهه، لدرجة ساد فيها التفكير

بضرورة نقل البصرة إلى موقع آخر ، فقد أرسلت الصدارة في عـام ١٨٦٧م، بنـاء على طلب والي بغداد السابق، لجنة مكونة من قائم مقام مكتب الحربية علـى بـك ، والخواجة الثاني للمكتب المذكور أمين أفندي، وقد تضمن تقريرهمـا تحديـد سـبب وخامة طقس البصرة بوجود المقبرة العامة بين محلات المدينـة ، وجريـان المياه الآسنة والثقيلة في أزقة المدينة، وعدم تطهير مضيق العشار منذ مدة طويلة ، وتجمع المياه داخل الحدائق الموجودة بالمدينة وعدم تصريفها ، وتعفنهـا ، ووجـود سـوق الأسماك وسط المدينة وما يعثه من عفونة وروائح كريهة تزكم الأنـوف ، وانهـدام السدود القريبة من البصرة، والمعروفة باسم (سلحه)، وتحول نهر الفرات عن مجراه القديم، مما أدى إلى انتشار المستنقعات والبحيرات، وتعرض المدينة إلى وباء الكوليرا الذي أهلك وشرد عددا كبيرا من أهاليها، يقدر بخمـسمائة شـخص عـام ١٨٦٤م، تحولت بيوتهم إلى خرائب ومزابل ، وحدوث ظاهرة المد والجزر باستمرار .لذا تقـرر في الصدارة اختيار موقع العشار لبناء المدينة الجديـدة عليـه بـصورة تدريجيـة، وكمرحلة أولى تقرر بناء جامع يحمل اسم السلطان العثماني، ودائرة للجمرك، ومقـر القائمقام والأبنية الاجتماعية، وعدد مناسب من الحوانيت الكبيرة والدكاكين الصغيرة، وحمام يوقف لحساب الجامع، ودور للعلم، وعلى أن تتم تسوية تكاليف هذه المنشآت، البالغة بصورة تخمينية (ثلاثة آلاف كيس) من ناتج الحاصلات الجديدة للمدينة. ولكن معشوق باشا، بعد توليه لمهام منصبه، ومطالعته لجميـع التقـارير المكتوبـة حـول إصلاح أحوال البصرة، واطلاعه ميدانيا على واقع المدينة، أقنـع الـصدارة بإمكـان معالجة مشاكل المدينة دون الحاجة إلى نقلها إلى مكان آخر، فعمل على إزالة الأسباب المؤدية إلى وخامة الجو، وطلب من الصدارة إرسال طبيب وصيدلي لمعالجة المرضى، حيث ينعدم وجود الطبيب في المدينة وقتذاك، كما قام ببناء دوائر للحجر الـصحي ((تحفظ خانة)) وجمركا وخانا وعددا من الدكاكين في العشار، وابدى مـساعدته لكـل راغب من الأهالي في بناء دور لهم في الموقع المذكور، وتعهد معشوق باشا للصدارة بأنه سيعمل على اتخاذ التدابير والإجراءات المؤدية إلى عودة المهاجرين من أهـالي البصرة الذين تركوها في الأزمان السابقة وسكنوا في الكويت والمحمـرة وغيرهـا ، وحدد أسباب هجرة الأهالي بما يلي :

١- الظلم والتعدي الذي لحق بهم .

٢- عدم تمكن حكام البصرة السابقين من إنقاذ الأهالي من تعديات العشائر .

٣- وجود إدارة حرة ومستقلة في كل من الكويت والمحمرة جذب أهل البصرة إليهما.

٤- تعرض البصرة إلى الوباء عام ١٢٤٦ هـــ/١٨٣٠م والكـوليرا عـام١٢٦٢هـــ/ ١٨٤٦م، لانعدام المؤسسات الاجتماعية المختلفة.

٥- وخامة جو البصرة الزائد عن التحمل، بسبب انتشار المستنقعات والبحيرات، وامتلاء الأزقة بالمياه الآسنة والثقيلة، وانتشار الخرائب والمزابل، وما شابه ذلك من انبعاث الروائح الكريهة المكتنفة بالزواحف والقوارض الخطيرة.

وبذل معشوق باشا مجهودات كبيرة – حسب ما ذكر في تقريره – من أجل إعادة النازحين والمقيمين في الكويت والمحمرة من أهالي البصرة إليها وتحويلها إلى منطقة جذب، فاتصل سرا بهم ورغبهم في العودة إلى بيوتهم، واستخدم أقاربهم وأصدقاءهم لتحقيق هذا الغرض وانخراطهم معًا، كما عمل على منع تعدي عشائر المنتفق على الحاصلات الزراعية العائدة إلى أصحاب بساتين النخيل في منطقة البصرة[٥].

بيد أن الباب العالي – الذي كان مشغولا بحرب القرم حامية الوطيس مع روسيا (١٨٥٣– ١٨٥٦) التي سال لعابها وظلت تلهث من أجل تسييس الباب العالي لهويتها لكن خاب أمل روسيا بعد تدخل قطبي القوى الأوروبية (إنجلترا وفرنسا) بجانب الباب العالي الذي سحب البساط من تحت أقدام روسيا التي تجرعت مرارة الهزيمة الدبلوماسية قبل العسكرية منهما وتمرغت في أوحالها – وجد نفسه عاجزا عن تلبية مطالب متصرف البصرة، ولم يجد بدا من التوصية باتخاذ التدابير الممكنة لاستمالة أهالي الخليج العربي وترغيبهم بقبول التبعية للدولة العثمانية (السلطنة السنية)[٦] .

تقرير درويش باشا متصرف البصرة عام ١٨٧٥:

من خلال قيام المندوب العثماني في اللجنة الدولية لتحديد الحدود مع إيران بمهام عمله – الذي يتطلب التجوال والمشاهدة الشخصية للمناطق المتنازع عليها، من أجل إعادة ترسيم الحدود العراقية الإيرانية – اطلع درويش باشا عن كثب على الأوضاع المزرية لأسطول البصرة وقواتها العسكرية البرية والبحرية، فبادر إلى تسجيل ملاحظاته ورفعها بتقرير مستعجل إلى الصدارة، في ٢١ ربيع الثاني ١٢٧٠ هـ / ٦ مارس ١٨٧٥م، بناء على التعليمات السرية التي زودته بها الأجهزة الخاصة في الباب العالي، عند تكليفه بهذه المهمة، والتي كانت تقتضي جمع المعلومات وتقصي الحقائق عن أحوال وأوضاع إيالات العراق، زيادة على مهمته الأساسية. ابتدأ درويش باشا تقريره بتبيان أهمية موقع البصرة ، فذكر إن البصرة من المواقع التي تتطلب العناية الكبيرة والاهتمام الاستثنائي، نظرا لإشرافها على عدد كبير من القرى والمقاطعات وديار العشائر، ولمجاورتها إيران وعشائر عربية غير منقادة (كعب والمنتفق وبني لام)، مما يتطلب وجود قوات برية وبحرية قادرة على تحقيق الأمن الداخلي، وحماية الحدود البرية ومياه شط العرب وخليج البصرة، بيد أن واقع الحال يشير إلى خلاف متصاعب، إذ أن موجود القوات العسكرية في البصرة لا يتعدى ٧٠

– ٨٠ جنديا من صنف المدفعية و ٢٥٠ جندي مشاة (باشبوزق بيادة)، علما أن أكثر من نصف صنف المدفعية المذكورين أعداد غير صالحة للخدمة العسكرية لكونهم مرضى ومعوقين، أما المدافع فهي على قلتها فإنها من النوع القديم وينقصها بعض قطع الغيار (المواد الاحتياطية). وتناول في تقريره واقع أسطول البصرة ، فذكر أنه يتألف من ست قطع بحرية كبيرة، إلا أن إحداها غير صالحة للخدمة على الإطلاق، وقد سحبت إلى البر في مضيق العشار لأجل تعميرها فأهملت ، وهي الآن معرضة للتلف يوما بعد يوم ، والسفينة الأخرى يمكن استعمالها بعد إجراء صيانة واسعة عليها ، أما السفن الأربع الباقية فهي أيضا غير صالحة، ليس لركوب البحر فحسب، وإنما غير صالحة للاستخدام حتى في مياه شطِّ العرب ، وينقص أشرعتها جميع الأدوات اللازمة لتشغيلها، لذلك وضعت كل واحدة من هذه السفن الأربع في موضع معين لتحصيل الرسوم الجمركية. في حين يتجول في خليج البصرة أسطول انجليزي يتألف من ٥ – ٦ قطع بحرية نوع ((بريق)) و ((فروت)) بحجة ملاحقة القراصنة، ومنع تجارة الرقيق، وحماية صيادي اللؤلؤ، لكن في الحقيقة هي إحكام قبضتها القوية على تلك الأصقاع. وكان قائد الأسطول الانجليزي يقيم في البصرة أو في ميناء بوشهر أو البحرين خلال تجوال سفنه في مياه الخليج وشط العرب، حتى إن القائد المذكور يرابط قبل عدة أيام من تاريخ كتابة هذا التقرير بسفينة القيادة التابعة للأسطول الإنجليزي أمام ميناء المحمرة. واستنادًا للمعلومات المتجمعة لدى درويش باشا فإن النفوذ الانجليزي امتد إلى عدة جزر في سواحل خليج البصرة، ومنها جزيرة ((قشم)) الواقعة في مضيق هرمز، والتي أقام الانجليز على الجانب الشمالي منها، في غضون عام ١٨٧٥م، أبنية ومنشآت عديدة مثل: الحصون والأبراج لمراقبة حركات وسكنات أهلها، وحتى لو لم تحصل هذه التطورات فإن من أهم مهام السلطنة السنية إزاء موقع مهم كالبصرة – التي تعتبر من المناطق الحدودية الرئيسية والموانئ الكبيرة – لتهيئة أربع سفن حربية على الأقل، نوع ((فرقتين وفروت وبريق))، وسفينة بحرية تجارية كبيرة، وباخرتين للنقل النهري في دجلة والفرات، تعملان بين بغداد والبصرة ومدخل الخليج ((مضيق خليج البصرة))، وإعادة تنظيم وتشغيل ترسانة البصرة القديمة .وأضاف درويش باشا : إنه في حال تعزيز القوات البرية والبحرية في هذه المنطقة، فإن كل أمور وأوضاع إيالة البصرة سوف تسير في الاتجاه الصحيح، ويتحقق الإصلاح المطلوب والرقي المنشود، وسوف تعود الحسا والقطيف – اللتان كانتا تعدان قديما من مضافات البصرة ثم خرجتا من التبعية العثمانية بسبب تسيب وضعف الإدارة في العراق – إلى السيادة العثمانية، وأنه لأمر واضح أن يبادر سلطان مسقط – الذي يخشى الانجليز ويدور في أفلاكهم ويخاف – إلى طلب حماية دولة إسلامية عظيمة . وبقصد تسهيل إعادة تنظيم أسطول البصرة، اقترح درويش باشا تعيين ((مباشر)) للإشراف على ذلك، وعند صدور الأمر السامي ببناء السفن والبواخر المذكورة في بومباي، وحين إكمالها يصار إلى تعيين قائد

مناسب لقيادة الأسطول من ضباط قيادة البحرية في اسطنبول مع عدد مناسب من الضباط المختصين بفنون البحر لتعليم وتدريب العساكر والسفانة المحليين. ولما كان تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وقت ليس بالقصير؛ فان المصلحة العامة للدولة تتطلب الإيعاز إلى قائد فيلق الحجاز والعراق ليقوم بإرسال طابورين مشاة من القوات النظامية، ومقدارا مناسبا من جنود الفرسان والمدفعية، مع عدد من المدافع إلى البصرة كتعزيز سريع لقدراتها الدفاعية (٧) .

وفي مذكرته المرفوعة إلى متصرف البصرة "معشوق باشا" في غرة شعبان ١٢٧٠ هـ / ١٢ حزيران ١٨٧٦م، أشار درويش باشا إلى وجود سفينتين من أسطول البصرة وهما (فتجعلي وصالحي)، ترابطان أمام مضيق نهر بهمشير(٨) .

وفي عام ١٢٧١ هـ / ١٨٧٧م كلف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) متصرف إيالة البصرة معشوق باشا بدراسة أحوال منطقة الخليج العربي ، ومعرفة مدى إمكان مد جسور التعاون والالتقاء مع الكيانات المحلية القائمة هناك ، لا سيما مع سلطان مسقط وعمان السيد سعيد الثاني بن سلطان (١٨٧٢- ١٨٩٨) ، والعمل على جذبها إلى حظيرة الدولة العثمانية، وكان الباب العالي يرصد حينذاك دخول سعيد بن سلطان في دائرة واسعة من العلاقات والمصالح مع سائر الدول ، على الرغم من تظاهره بالميل نحو الدولة العثمانية، لذا طُلب من متصرف البصرة مراسلته سرا من أجل استمالته إلى الصف العثماني، ومعرفة حقيقة الأخبار الواردة إلى مسامع الخارجية العثمانية حول حدوث نزاع بين سلطان مسقط والانجليز، بسبب عدم إيفائه بالاتفاق المعقود معه من جانب بريطانيا بخصوص منع تجارة العبيد(٩).

أفاد معشوق باشا في مذكرته الجوابية، المرسلة إلى الباب العالي بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٢هـ/١٥ حزيران ١٨٧٨م، استنادا إلى المعلومات المتجمعة لديه من التجار العاملين بين البصرة ومسقط ، وأن علاقات سلطان مسقط مع الدول الأجنبية متأتية من الصلات والمعاملات التجارية القائمة بين سلطنة عمان والموانئ الهندية القريبة من سواحل بلاد العرب الجنوبية الشرقية ، وبحكم خضوع بلاد الهند للهيمنة البريطانية، فإن الضرورة تقتضي عقد العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بريطانيا كذلك. واحتمال ميل سلطان مسقط للدولة العثمانية يقع في إطار السياق السابق نفسه؛ الذي تحتمه المصالح التجارية التي تقوم وترتكز عليها سلطنة مسقط وعمان. وبغية الوقوف جليا على هذا الحال، ومد جسور الاتصال مع السلطنة المذكورة، أرسل معشوق باشا رسالتين : إحداهما إلى السلطان سعيد الموجود وقتئذ في عمان، والأخرى إلى ابنه ثويني وكيله في مسقط ، تضمنتا عبارات المودة والاستفسار عن الخاطر، وكيفية وصوله إلى البصرة ومباشرته مهام منصبه. ويلاحظ هنا ابتعاد

متصرف البصرة معشوق باشا ، بناء على توجيهات الباب العالي، عن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بمصالح الدولة العثمانية في الخليج العربي في رسالتيه المذكورتين، وذلك تجنبا من وقوع الطرف الآخر في دائرة سوء الفهم، أو الشكوك في المقاصد العثمانية التي تنطوي عليها سياستهم الجديدة في المنطقة المذكورة ، كما يلاحظ في هذه الوثيقة، وفي الأدبيات العثمانية كافة، ورود اسم سعيد بن سلطان مقترنا بلقب (الإمام)، بينما المعروف أن لقب الإمامة لم يحمله من أسرة البوسعيد إلا مؤسس هذه الأسرة الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٤ – ١٧٨٣) الذي قضى على حكم أسرة اليعاربة في عام ١٧٤٤ م وورث اللقب من بعده سعيد (١٧٨٣ – ١٨٠٣) دون انتخاب أو مبايعة أو اعتراف، فقد اتخذ حكام البوسعيد المتأخرون لقب (السيد) [١٠]

كما شاع استخدام لقب (السلطان) لا سيما في الأدبيات والكتابات والتقارير الأوروبية ، ويبدو أن الأتراك العثمانيين فضلوا استخدام لقب (إمام) لأنهم لا يعترفون بالسلطنة وألقاب السلطان إلا لملوكهم من آل عثمان .وفي الوقت والسياق ذاته أرسل معشوق باشا رسالة ثالثة إلى أحد تجار البصرة البارزين ، يدعى (عبد الله جمال الجلبي) كان مقيما منذ فترة طويلة في سلطنة مسقط وعمان وبالرغم من وصول رسالة ثويني الجوابية، المؤرخة في الرابع عشر من شوال ١٢٧٣هـ / ٢٣ آب ١٨٧٩م، إلى البصرة في شهر رمضان ١٢٧٤ هـ / حزيران ١٨٨٠م، إلا أن معشوق باشا آثر تعليق إرسالها إلى الصدارة لحين ورود رسالة والده الجوابية. وعندما عاد السيد سعيد بن سلطان من عمان إلى مسقط، في ٩ رجب ١٢٧٥ هـ / ١٠ مايو ١٨٨١م، بادر إلى تحرير رسالة جوابية إلى متصرف البصرة، مؤرخة في ٢٩ رجب ١٢٧٥ هـ / ٣٠ مايو ١٨٨١م، وصلت إلى البصرة في الشهر التالي لتحريرها ، وفيما يلي نصها الحرفي، يليه نص رسالة ثويني :

(الجناب المستطاب ذو الشوكة والإجلال العالي جاه الأفخم الأحشم الأخ معشوق باشا المكرم دام إجلاله وحرسه الله سبحانه من شر الأشرار وأمنه من عواطف الأكدار ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار آمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأتم من تحرير قيمة الوداد وتأنيق أنيقة الاتحاد هو السؤال عن أحوال سلامة تلك الذات الجامع لمكارم الأخلاق والصفات حرسها رب الأرضين والسموات وفي أبك الأوقات وأشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن الود القويم والاتحاد والجنان ونحن قد وصلنا مسقط في ٩ من رجب وإن شاء الله المحبة من الطرفين ثابتة الأركان مشيدة البنيان ، لا يغيرها غيَر ، ولا يشوبها كدر والمأمول إدرار المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو من المهمات بعون الله ليقضي بمجرد الإعلام والسلام خير مبدأ وختام) [١١] .

هذا من المحب

الواثق بالله عبده سعيد بن سلطان

تحرير ٢٩ في رجب الأصم سنة ١٢٧٥هـ

وفيما يلي نصر رسالة ابنه ثويني :

(الجانب المستطاب ، مركز كرة الأبهة والرأي ، ثمرة شجرة العزة والسياسة نتيجة الأشراف من آل عبد مناف ، الأفخم المحترم معشوق باشا المكرم والي حكومة البصرة ونواحيها دام إجلاله وحرسه الله سبحانه وتعالى من شر الأشرار وآمنة من عواطف الاكدار ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار آمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأوفى الأتم من تحرير رقيمة الوداد وأنيقة المودة والاتحاد هو السؤال عن أحوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الأخلاق والصفات ، حرسها رب الأرضين والسموات ، وفي ابك الأوقات وأشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن الود القويم والاتحاد المستقيم فكان أعز واصل وأجل نازل ، وجميع ما اشتمل عليه من درر المعاني وغرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ، لا سيما من طرف وصولكم إلى البصرة وتفويضكم أمر ايالتها وحومتها مع جميع ملحقاتها وعشيرة المنتفك ، فقد استبشرنا بذلك غاية البشارة وسررنا بذلك كثيرا ، فكذلك من طرف إثبات المحبة والمودة فنحن من جانبنا ثابتة الأركان لا يغيرها غير ولا يشوبها كدر ما دامت الأرواح في الصور ، والكتاب الذي باسم جناب سيدنا الوالد حفظه الله وصلنا حال تحريره لنرسله لجنابه إن شاء الله ليكون معلوما . . هذا والمأمول إدرار المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو لكم من المهمات في هذه النواحي والجهات ليقضي بعون الله بمجرد الإعلام ، والسلام خير مبدأ وختام) (١٢) .

هذا من المحب

الواثق بالله عبده ثويني بن سعيد بن سلطان

تحرير ١٤ في شوال المكرم سنة ١٢٧٦هـ

لقد تضمنت مذكرة معشوق باشا – زيادة على ما تقدم من معلومات مهمة عن أحوال الأسرة الحاكمة للسلطنة العمانية– أن السلطان سعيد كان يميل إلى اشتراك ابنه الصغير ثويني في تدبير شئون الإدارة في مسقط أثناء غيابه، فجعله وكيلا عنه، مما أثار حفيظة ابنه الكبير هلال وأوغر صدره فهرب إلى مصر، ومكث هناك مدة من الزمن بأمل تحقيق مطالبه الشخصية ولكن بدون جدوى، إذ إنه لم يجد أذنا صاغية لمطالبه، فشد الرحال إلى انجلترا، وبعد مرور سنتين على مكوثه في انجلترا عاد إلى

مسقط بواسطة الحكومة البريطانية ، بيد أن والده لم يغير موقفه منه ولم يسند إليه أي عمل إداري أو رسمي (١٣) .

ومن الجدير بالذكر هنا إن السيد سعيد بن سلطان كان له عدد كبير من الأبناء من بينهم : هلال وخالد وثويني وتركي وبرغش ، وأنه كان على خلاف عميق مع ابنه البكر هلال تسبب في حرمانه من ولاية العهد. أما أسباب الخصام العائلي فتعود على ما يبدو إلى أن الابن الأكبر يعتبر في قصور الملوك والسلاطين موضع ريبة أبيه وشكه ، وخصوصا إذا امتلك الابن قدرا من الشجاعة وعلو الهمة وسعة الطموح، وكانت أم خالد الأخ الأصغر لهلال ، ذات حظوة ونفوذ لدى زوجها السلطان فاستغلت منزلتها لتحصل لابنها على ولاية العهد ، بالرغم من كونه غير محبوب من الناس لا نهماكه في التجارة وجمع المال ، في حين اتصف هلال بالشجاعة والفروسية ، فحظي بحب الناس واحترامهم ، إلا أن ميل أبيه إلى أخيه خالد وتفضيله عليه دفعه إلى الشكوى ثم المعارضة فالتمرد .وزاد الطين بله اكتشاف السلطان سعيد قيام صلات وثيقة بين سلوك ابنه الأكبر وشكوكه فيه ، وكان السيد سعيد يشعر بالشك والريبة في نوايا الفرنسيين تجاهه ، تلك النوايا المتمثلة في بسعيهم إلى الاستحواذ على أملاكه في إفريقيا الشرقية ، لذا أقدم في عام ١٨٤٤ على استشارة الحكومة البريطانية برغبته في أن يرثه على ملكه في عمان ابنه ثويني، وعلى ملكه في إفريقيا الشرقية ابنه خالد، وكان جواب الحكومة البريطانية أنها لا تتدخل في الشئون الداخلية للسلطنة، ولكنها نصحت السلطان سعيد بصورة غير مباشرة بضرورة المصالحة والتفاهم مع ابنه .ويبدوا أن سيل غضب الأب على ابنه قد بلغ الأفق، عندما قام هلال في شهر أيلول من عام ١٨٨١ بزيارة سرية مفاجئة إلى لندن، فصمم أبوه على حرمانه من حقوقه، وتعيين أبنية ثويني وخالد وكيلين له في مسقط وزنجبار. وعند عودة هلال إلى زنجبار على ظهر باخرة بريطانية، في شباط ١٨٨٢، ازداد والده حنقا عليه وضاق به ذرعا ، فنفاه عام ١٨٨٤ إلى جزيرة "لامو" حيث مكث فيها ولم يغادرها إلا لأداء فريضة الحج ، ثم وافته المنية في ٢٢ أيلول ١٨٨٦ في مدينة عدن، في طريقه إلى مكة المكرمة (١٤) .

نعود إلى مذكرة معشوق باشا؛ لنستعرض بعض الجوانب الخفية من الصراع الدائر بين النفوذين البريطاني والأمريكي في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي ، فقد ذكر معشوق باشا أن إحدى السفن الأمريكية جاءت إلى سواحل عمان وأخذت أعدادا كبيرة من العبيد ، وأن هذا العمل أثار استياء وعدم رضا قائد الوحدة البحرية البريطانية المتواجدة في هذه المياه ، والمؤلفة من سفينتين من نوع (بيلك) وطلب القائد المذكور من سلطان مسقط منع الأمريكان وأهالي السلطنة الذي يتعاطون هذه التجارة ، استنادا إلى الاتفاقية المعقودة بين الطرفين بخصوص العمل المشترك من اجل منع ممارسة تجارة العبيد في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية

.وقد أجاب السلطان سعيد بعدم إمكانية منع هذه التجارة داخل سلطنته، وعدم اقتداره على منع الأمريكان من ممارستها .وبالفعل أخذ الأمريكان ما يشاؤون من العبيد ، وأثناء مغادرتهم السواحل المذكورة لم يفعل القائد البريطاني سوى الادعاء بأنه سوف يتعقب السفن الأمريكية ويمنع نشاطها ، بيد أنه لم يصنع شيئا ، بل استمر الأمريكان في مزاولة تجارة العبيد في السواحل المذكورة وداخل السلطنة ، مما أثار الجدل المستمر بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط (١٥) .

والمعروف أن مسقط كانت تعتبر سوقا كبيرة من أسواق بيع الرقيق، وتصديره إلى أوربا وأمريكا، ومدن الخليج العربي والبصرة وبغداد ، وكان حكام عمان يمارسون هذه التجارة لحسابهم الخاص ، ويحصلون على دخل سنوي يقدر بثلاثة عشر ألف باون. وذكر كرزن (Curzon) أن إيراد السلطان سعيد من تجارة الرقيق، قبل إلغائها، كان يشكل ربع إيراده الإجمالي البالغ ثمانين ألف باوند سنويا ، واستنادا إلى معلومات شركة الهند الشرقية، عام ١٨٧٢، فإن عدد الرقيق المصدر من زنجبار إلى مسقط والهند وجزر موريشيوس، يتراوح بين ٦٠٠٠ – ١٠٠٠٠ نفر سنويا ، وأن عدد السكان الأحرار في هذه الأماكن لا يتجاوز ٢٥ % من التعداد العام للسكان، ومن المألوف هناك أن يمتلك بعض الأشخاص من الأثرياء حوالي ٨٠٠ – ٩٠٠ نفر من العبيد، يعملون على خدمته كمًا وكيفًا، وذوبانهم في خدمة إقطاعاته قلبًا وقالبا(١٦) .

لذلك خسر السلطان سعيد موردا ضخما عند توقيعه معاهدة ١٨٦٢ مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق، وأصبح لسفن الأسطول البريطاني الحق في تفتيش السفن المشتبه في ممارستها هذه التجارة المحرمة دوليا. كما أثارت هذه المعاهدة استياء التجار العمانيين الذي كانت تجارة الرقيق تشكل مهنتهم الرئيسية ، ومعارضة رجال الدين المتعاطفين مع التجار ، ولذا فإن حجما واسعا من هذه التجارة ظل مستمرا ، مما تطلب التأكيد على تحريم تجارة الرقيق بالمعاهدات المبرمة في أعوام ١٨٦٣، ١٨٦٩، ١٨٨٠. ولكن نجاح الفرنسيين في إبرام معاهدة مع السيد سعيد عام ١٨٧٠ منحتهم الحصانة الدبلوماسية ، وأمنت لهم ولنا الحماية من المتابعة والتفتيش ، مما أدى إلى استمرار تجارة الرقيق تحت العلم الفرنسي ، ولم تستطيع صرامة معاهدة ١٨٦٩م مع انجلترا مكافحتها والقضاء عليها نهائيا(١٧) .

ومما يجدر ذكره هنا أن الفرنسيين كانت لهم علاقات تجارية مبكرة مع عمان، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر، وخشية بريطانيا من سيطرة الفرنسيين على طريق الهند، سارعت إلى عقد معاهدة مع عمان في ١٢ تشرين الأول أكتوبر ١٧٩٨ حصلت بموجبها على حق فتح وكالة لها في بندر عباس تكفلت بحمايتها ذاتيا ، وبعد عامين عقدت معاهدة ثانية تضمنت وجوب وجود وكيل بريطاني مقيم في

مسقط ، إلا أن هذا البند من المعاهدة لم يدخل حيز التنفيذ إلا بعد مرور أربعين عاما .ويبدو أن الحكومة البريطانية ، حتى عام ١٨١٦ ، كانت غير راغبة في التدخل المباشر في شئون عمان ، ليس عزوفا عن مبدأ التدخل في شئون الغير ، وإنما لخوفها من مغبة التورط، ولقصور رؤيتها عن إدراك نطاق مصالحها الحقيقية في تلك المنطقة الحيوية ، ومقدار الفوائد المتحققة نتيجة هذا التدخل ، وقد تصدت سفن بعض المواطنين من العمانيين والقواسم للسفن الانجليزية، وأنزلوا بسفن أعدائهم خسائر جسيمة ، سواء أكانت تجارية أو حربية(١٨) .

لذلك أطلق الإنجليز على ساحل عمان الذي يمتد غربا إلى شبه جزيرة قطر اسم (ساحل القرصنة)، وبعد إخضاع العمانيين والقواسم لمشيئتهم وتقييدهم باتفاقيات غير متكافئة أطلقوا على الساحل نفسه اسم (ساحل عمان المهادن) أو (ساحل عمان المتصالح)(١٩).

وعندما اقتنع سلطان عمان بعدم جدية الانجليز والإيرانيين في تحالفهم معه، لأن كل واحد منهم كان يبحث عن تأمين مصالحه الذاتية في ميدان الصراع ، عاد مجددا لمغازلة الفرنسيين ، وعقد لتفاقا معهم في ٣ آذار(مارس) ١٨٧٧، اتفاقا ظل معمولا به حتى توقيع المعاهدة التجارية الفرنسية – العمانية عام ١٨٩٠(٢٠) .

وبعدم نجاح قوات محمد علي باشا في احتلال الدرعية، وأسر عبد الله بن سعود (١٨١٨ – ١٨١٩) وجد السيد سعيد بن سلطان إن الوقت قد حان للقضاء على القواسم بمعاونة القوة البحرية البريطانية (٢١)

فتم له ما أراد هذه المرة، بالرغم من المقاومة الضارية للقواسم الذين اجبروا على توقيع معاهدة في ٨ كانون الثاني ١٨٢٠، تعهدوا بموجبها بعدم ممارسة أعمال الغزو في البر والقرصنة في البحر مستقبلا (٢٢) .

وفي تموز (يوليه) ١٨٧٠ حاول السلطان سعيد محاصرة بوشهر والاستيلاء عليها، ولكنه عدل عن ذلك بناء على طلب من المقيم البريطاني ، وقد تمكن من أسر حاكمها الإيراني الذي كان مبحرا إلى بلاده ، ومكث في الأسر عدة أشهر ، كما أرسل في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها حملة بحرية إلى البصرة، لإرغام الوالي العثماني على دفع المنحة السنوية التي قررها السلطان مصطفى الرابع، عام ١٨٠٦، إلى الإمام أحمد بن سعيد، مقابل نصرته للبصرة عند حصار الإيرانيين لها (٢٣) .

وخلال السنوات الممتدة بين ١٨٥٨ – ١٨٧٦ تمكن سلطان أفريقيا الشرقية السلطان خالد من الاستيلاء على ممباسة وزنجبار .ومن الجدير بالذكر إن بريطانيا كانت تعتمد على سعيد بن سلطان للحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي، بما يؤمن استمرار المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية ، لذلك قدمت إليه الدعم

والإسناد المباشر وغير المباشر في صراعه مع القواسم وآل سعود، ومع الطـامعين في السلطة من أبناء أسرته وغيرهم من زعماء القبائل في السلطنة(٢٤) .

وإزاء تصاعد نشاط محمد علي باشا ونزوعه نحو تكوين دولة كبيرة، وبعـد سير الخديوي إسماعيل باشا على منواله (١٨٦٣/ ١٨٧٩) بهدف التوسع في جزيرة العرب والهلال الخصيب ، إضافة لمصر والسودان - اقتنعت حكومة الهند البريطانيـة بضرورة إقامة علاقات أوثق بين سلطنة عمان وبومبـاي ، فقـررت إرسـال وكيـل بريطاني إلى مسقط ، وبناء على ذلك فقد عين اللورد دامون (Lord Damon) في عمان عام ١٨٧٠ ، ولكن اتخاذ السلطان سعيد زنجبار مقرا لحكومته، في ذلك الوقت، جعل القنصل المذكور يتجه إليها ويتخذها هو الآخر مقرا له (٢٥) .

وقد ذكرنا في بداية البحث ، ومن خلال عرض ما ورد في تقريـر درويـش باشا ، أن أسطول البصرة لم يقم بدور مؤثر في مياه الخليج العربي، مـن النـواحي السياسية والعسكرية والتجارية ، وأنه كان عاجزا حتى عن تأمين الحمايـة للبـصرة ذاتها بسبب تدهوره وتردي الأحوال فنيا ونوعيا ، كما وكيفا. وقد اشرنا إلى أسـباب هذا التدهور والتردي الكامن في الولاة الحاضرين بشخوصهم الغائبين بـسلطاتهم، ولا نجد ضرورة لتكرار ذلك. كان يوجد في ترسانة البصرة أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر سبع سفن إحداها تصلح للتجارة البحرية بعد صيانتها وتسمى (فتح على) والست الأخرى تصلح للتجارة النهرية ، وهي : بتار، وفتح خيبر، وتكبيـر، وبغـداد، وعطية الرحمن، وصالحي ، وبناء على طلب كل من والي بغداد وقائد أسطول البصرة من الصدارة الموافقة على شراء خمس سفن صغيرة إحداها من نوع (قروت)، واثنين من نوع (بريق) واثنين من نوع (أوسقونة)، وكذلك سفينتين كبيرتين نهرية وبحرية، بغرض تحديث ميناء البصرة، فقد تمت مفاتحة الجهـات المعنيـة فـي لنـدن لبنـاء السفينتين الأخيرتين ، وتقرر تصنيع السفن الخمس الأخرى فـي ترسـانة اسـطنبول (٢٦).

وبناء على مقترحات مجلس البحرية، في الباب العالي، الواردة في المـذكرة المرفوعة إلى الصدارة، بتاريخ ٥ جمادى الثاني ١٢٧٨هـــ / ٢٨ نيسان ١٨٧٩م، من قائد (قبودان) البحرية العثمانية سليمان باشا، والمقترنة بموافقة الـصدارة فـي السابع من جمادى الثانية ، ومصادقة السلطان عبد الحميد الثـاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) في الثامن منه، تقرر ما يلي : للنهوض بالبصرة والمشمول بـإحلال وتجديـد جميـع المؤسسات الاجتماعية والدواوين الأخرى:

١-تعيين قائد السفينة الحربية (مسعودية) ميرالاى بيريك قائدا لأسطول البـصرة ، ومنحه صلاحية إعادة تنظيم القوات البرية وتعمير السفن الموجـودة فـي ترسانة البصرة ، ومنحه كذلك رتبة (رياسة همايون).

٢-تعيين رستم أغا ، وهو أحد ضباط البحرية في اسطنبول ، مساعدا لقبطان البصرة ، ومنحه رتبة (بكباشى)

٣- إرسال مجموعة من الضباط والمراتب من صنف البحرية الحربي والفني وكما هو مبين أدناه:

الرتبة	الصنف	العدد
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشي	حربي	٣
ملازم	حربي	٢
جاويش	حربي	٥
اونباشي	حربي	٥
أونباشي أغاسي	حربي	١
يوزباشى أغاسي	حربي	٣

جنود فنيين حدادة ونجارة، وذلك لبناء عدد مناسب من تلك الوحدات، بهدف تحديث البصرة لكونها مدينة هامة وميناءً حيويا للباب العالي[٢٧].

تم تعاقد مجلس البحرية مع أحد التجار الأجانب المدعو (قرة يـن) لاستيراد أربع بواخر من انجلترا لاستخدامها في البصرة وجدة ونهر الطونة ، مع آلاتها وأدواتها ولوازمها الأساسية والاحتياطية كافة ، مقابل ١٥٦٥٠ كيس [٢٨] .

وقد تضمنت المقاولة المعقودة بين الطرفين، في ١٧ رمضان ١٢٨٠ هـ / ١٦ تموز(يوليه) ١٨٨٤م، تعهد الطرف العثماني بقيام خزينة الدولة المركزية بدفع ١٢٠٠٠ كيس من أصل المبلغ المذكور، على شكل أقساط شهرية اعتبار من شهر تموز، وبمعدل ٧٥٠ كيسا للقسط الواحد ، أما المبلغ المتبقي فيدفع بنسبة الأقساط ذاتها من قبل خزينة ترسانة اسطنبول ، على أن لا يطلب الطرف الثاني أي شئ كتعويض للضرر والخسائر؛ التي قد يدعي حصولها عند تسديد مستحقاته، عن طريق النقد أو القوائم أو أي وسيلة أخرى. كما نصت المقاولة على وجوب تسليم الباخرتين لأسطول البصرة بعد مرور ثمانية شهور من تاريخ إبرامها [٢٩] .

ولكن الطرف العثماني لم يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية، بسبب تردي الهوية العثمانية حسب المواعيد المقررة بين الطرفين ، ففي ظرف ثمانية شهور سددت وزارة المالية ٢٢٥ كيسا من أصل ستة آلاف كيس، واجبة الدفع خلال المدة المذكورة ، مما أدى إلى تأخير تسليم الباخرتين [٣٠] .

واستمر الحال على هذه الشاكلة لعدة سنوات ، بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية الحاضرة بشخصها الغائبة بسلطانها، ولانشغالها بحرب

القرم، وغيرها من الحروب الخارجية، مع القوى الأوروبية المستأسدة والفتن والاضطرابات الداخلية التي أجهزت على الإدارة العثمانية وتأثير سلبيات ذلك على ميناء البصرة، وما تعرضت له من مصاعب وعقبات، ومعوقات مقصودة من جانب انجلترا التي كانت تسعى سعيًا حثيثًا من أجل نجلزة أملاك الرجل المريض، وغيرها من القوى البحرية التي كانت لها مصلحة في إبقاء الأسطول العثماني في البصرة على مياه شط العرب والخليج العربي، بحرية تامة ودون مضايقة أو رقابة أو منافسة، لتثبيت أقدامها في تلك المنطقة البحرية الزاخرة بالثروات، وأيضًا لموقعها الحيوي وكبح جماح الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تمهيدًا لسحب البساط من تحت أقدامها، وابتلاع أملاك الدولة العثمانية التي داعبت أحلام إنجلترا كثيرًا، بعد تحزيم وتطويق غريمتها فرنسا. وعند ورود رسالة سلطان عمان؛ جدد والي بغداد مطالبته بإرسال عدد من السفن من ترسانة اسطنبول، بالشراء من انجلترا وبومباي لتعزيز أسطول البصرة، واستمالة السيد سعيد بن سلطان ، كما أعلم الصدارة بأن من مقتضيات المصلحة العامة للدولة إرسال مبعوث مناسب ، أو قائد أسطول البصرة القومندان بيربك (PruBic) إلى المنطقة المذكورة ، وأرسل بالفعل رسالة أخرى إلى حاكم عمان تضمنت تبريكه وتهنئته بمناسبة عودته إلى مسقط ، كما تضمنت عبارات التلطيف والمجاملة دون التطرق إلى أي شئ آخر (٣١).

وفي الباب العالي تقرر إجابة متصرف البصرة بتخويله اتخاذ التدابير المؤدية إلى جلب حاكم مسقط واستمالته إلى الصف العثماني، وإعطائه التأمينات والتأكيدات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، لحين تشكيل القوة البحرية المطلوبة في خليج البصرة (٣٢).

وكان متصرف البصرة "معشوق باشا" قد اعد دراسة مفصلة إلى الصدارة تضمنت جملة من المقترحات لأحياء أسطول البصرة، وتنشيط الحركة التجارية مع الهند، ووضع أسس جديدة لدور عثماني مؤثر في الخليج العربي (٣٣)

وتتمثل هذه المقترحات في الأمور التالية من أجل الارتقاء بالبصرة التي تمثل القلب النابض بالنسبة للسلاطين العثمانيين:

١- بناء خمس سفن إحداها بحرية مسلحة لمقاومة القراصنة ، والأربع الأخرى نهرية من نوع (قروت ، وبريق ، وأوسقونة)، واقترح ثلاثة طرق لتأمين هذه السفن وهي : المبادرة ببناء هذه السفن في ترسانة البصرة ، ويتطلب ذلك جلب الأخشاب والمواد الأخرى اللازمة لبناء السفن من الهند مباشرة، أو عن طريق الكويت ، وكذلك جلب عدد من العمال والمهندسين من الهند أو اسطنبول، والطريق الثاني هو استيرادها من أحواض بناء السفن في بومباي وكلكتا ! أو عن طريق بنائها في ترسانة اسطنبول. وأضاف أن

طريق الشراء الجاهز، أو التوصية على بنائها بالمواصفات المطلوبة من الهند، يوفر وقتا أقل وكلفة تقل بنسبة ٣٠ % مما لو تقرر بناء هذه السفن في البصرة أو اسطنبول أو انجلترا، كما أن الأخشاب الهندية المستخدمة في صناعة السفن أكثر مقاومة من الأنواع الأخرى. وقد استقى معشوق باشا هذه المعلومات من قبطان السفينة الانجليزية العاملة في نقل البريد البريطاني بين الهند وبغداد، وكذلك من التجار المترددين على المواني الهندية .

٢- تعيين قنصل (شهبندر) عثماني في ميناء بومباي، لرعاية المصالح العثمانية الهندية ، كالقيام بمعاملات بناء وشراء السفن من الموانئ الهندية ، وحماية مصالح التجار من التبعية العثمانية المترددين على الموانئ المذكورة، وإنقاذهم من الاضطرار إلى قبول الحماية البريطانية تحت مغريات الامتيازات والضمانات والتسهيلات التي يحصلون عليها من جراء ذلك، سواء في الموانئ الهندية أو في عرض البحار ، في حين يلاقي التجار وأصحاب السفن العثمانيين، الرافضين قبول الحماية الأجنبية، صنوف الأذى والمعاملة الجافة في الموانئ الهندية ، بقصد إرغامهم على قبول الحماية البريطانية. وطلب من الباب العالي أن تقوم وزارة الخارجية العثمانية بلفت نظر سفارة انجلترا في اسطنبول وتنبيهها إلى العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه السياسة التعسفية .

٣- وضع النجمة العثمانية على مقدمة السفن التي يمتلكها رعايا الدولة العثمانية كافة، وتزويدهم مجانا بالأعلام العثمانية، وأوامر تحريرية باللغتين العربية والتركية تتضمن منح حامليها الحرية والرعاية عند دخولهم المياه العثمانية في شط العرب وسائر الجهات الأخرى. وقد اتخذ معشوق باشا هذا الإجراء كرد وقائي على قيام قائد الأسطول البريطاني، المتجول في الخليج العربي وساحل عمان، بمحاولة فرض الحماية البريطانية على أهالي الكويت والبحرين، إذ إن القائد المذكور كلف أهالي الكويت والبحرين قبول الحماية البريطانية، مقابل تأمين سلامة سير سفنهم بحرية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي، وطلب منهم إجابته خلال ستة أشهر، ولكن أهالي الكويت والبحرين رفضوا العرض البريطاني بطريقة دبلوماسية .

٤- تأسيس أسطول حربي عثماني، يتألف من عدة سفن مسلحة، للتجول في مياه شط العرب والخليج العربي، لتأمين الحماية للسفن التجارية العثمانية ولمدينة البصرة بقوة عسكرية برية إضافية، لما لذلك من أهمية في امتداد النفوذ العثماني إلى الكويت والحسا والقطيف، والوقوف بوجه التوسع

الإيراني. ومن الجدير بالإشارة أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك أية سفينة بحرية في مياه الخليج العربي ، حربية كانت أم تجارية، وكان التجار والحجاج من رعايا الدولة العثمانية يركبون السفن البريطانية إلى ميناء جدة بقصد الحج، أو إلى بومباي بهدف المتاجرة. وقد خصص الانجليز سفينة بحرية للقيام برحلة سنوية واحدة بين البصرة وجدة في موسم الحج ، مرورا بميناني بوشهر ومسقط ، وكانت هذه الرحلة تستغرق اثني عشر يوما للذهاب فقط، وحققت في عام ١٢٨٣هـ / ١٨٨٦ م إيرادا مقداره ٣٥٠٠٠ روبيه هندية، من نقطة انطلاقها في ميناء البصرة. يضاف إلى ذلك ما حققته من إيرادات مضاعفة أثناء مرورها بميناني بوشهر ومسقط .لذا طالب "معشوق باشا" حكومته المركزية بشراء سفينة بحرية من انجلترا، أو إرسال إحدى السفن البحرية الموجودة في ترسانة اسطنبول لاستخدامها في الملاحة مع ميناء جدة في موسم الحج ، وبمعدل رحلة أو رحلتين، ومع بومباي بمعدل أربع رحلات سنويا، وأكد على ما سوف تحققه هذه العملية من فوائد مادية ومعنوية ، حيث ستمخر عباب البحر أمام السواحل العربية والهندية سفينة يرفرف على ساريتها العلم العثماني ، ومن الناحية العسكرية والإدارية فإن هذه العملية ستحقق اتصالات ومخابرات سريعة بين اليمن والبصرة أو الحجاز ، ومنها إلى اسطنبول[٣٤] .

نتائــج البحــث

١- ألقى هذا البحث الضوء على الأحوال العامة لمنطقة بلاد الرافدين وتخومها من سكان الخليج العربي، في خضم التكالب العالمي على تلك المناطق الحيوية الزاخرة بالثروات الطبيعية والبشرية التي أسالت لعاب قوي الضد.

٢- أشار هذا البحث إلى أبعاد العلاقات الحيوية بين ميناء البصرة وحواضر التخوم المجاورة لها والتي استلهمت منهم العطاء.

٣- تناول هذا البحث أبعاد التضعضع والضعف في هياكل الدولة العثمانية المتشرنقة، والتي كانت حاضرة بشخصها غائبة بسلطانها، تمهيدًا لسقوطها في حبائل الذئاب الأوربية الجامحة والهوجاء، بعد أن تنازلت عن كبريائها .

٤- أوضح هذا البحث مدى انصهار ميناء البصرة ديموغرافيًا مع شتى القوى الإسلامية في تلك الإصقاع، كمًا وكيفًا، عمقًا وإتساعًا.

٥- ابرز هذا البحث مدى أهمية مدينة البصرة التي جسدت مركز إشعاع تجاري وثقافي، سواء في الداخل أو الخارج، اشرأبت الأعناق إليها بعد أن اتجهت إنذار الحشود العربية إلى هذا الصقع كمدينة وميناء حيويين.

٦- عالج البحث حرص الإدارة العثمانية على ميناء البصرة لحيويته، ولكونه صمام أمان لها، وبالتالي إرسال كيانات قوية لإدارته ودرأ الأخطار التي تهدده.

٧- برهن هذا البحث على مدى احتقان الكيان العثماني وعجزه عن الدفاع عن مدينة البصرة، فصار يدور في أفلاك القوى العظمى من أجل الارتماء بين أحضانها.

٨- أكد هذا البحث على محاولات حكام البصرة درأ الأخطار التي حيكت على ميناء البصرة، الذي يجسد صمام أمان للحكم العثماني، لكن هيهات .

٩- أوضحت الدراسة مدى المحاولات الكثيرة، من جانب حكام البصرة العثمانيين، في تكتل وضم العديد من الحواضر المتاخمة للبصرة، من أجل إعطائها دماء جديدة، وكانت إحدى المحاولات المطروحة للحفاظ على هوية مدينة البصرة.

١٠- ألقى البحث الأضواء على انغماس الباب العالي، الذي عفا عليه الزمن، في المشاكل الملتهبة، سواء في الداخل والخارج، التي جعلته يغمض عينيه عن ميناء البصرة.

١١- كشف هذا البحث النقاب عن العديد من الرسائل المدونة من جانب متصرف البصرة العثماني إلى الباب العالي، لتبيان الأحوال المتدنية لمدينة البصرة، في ظل التنافس الاستعماري المحموم.

١٢- أشار هذا البحث إلى العديد من التقارير الصادرة والواردة من متصرف البصرة العثماني وحكام دول التخوم، من أجل تطبيع العلاقات بينهما، ورد الفعل في ذلك الصدد.

١٣- قنن هذا البحث مدى قوة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في استقطاب تلك الكيانات العربية وتطويقها، من أجل نجلزة ميناء البصرة الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع بين براثن هذا المغامر العنيد.

١٤- حققت الدراسة عدة قرائن عن أسطول البصرة البحري وقوتها البحرية، وهيكل النظام المعمول به في تلك الحاضرة البحرية التي تمثل القلب النابض للتجارة، وأيضًا مقترحات تحديثها كمًا وكيفًا.

١٥- عالجت الدراسة العديد من الاقتراحات الحيوية للنهوض بمدينة البصرة، بحكم موقعها الاستراتيجي وأهميتها للباب العالي المحتقن في تلك الفترة .

١٦-أثبتت الدراسة أن محاولات الباب العالي قد ضاعت سدى، وعجز عن تحقيق أهدافه، حيث كان يعاني من سكرات الموت، بعد أن ظل يترنح أمام القوى العالمية الكاسرة التي سعت سعيا حثيثا من أجل تمزيقه، تمهيدًا للانقضاض على أملاكه، بعد أن توارى مأسوفًا عليه، وتحويلها إلى فرائس سائغة الالتهام والابتلاع.

الهوامـــش

١. يمثل الخليج العربي أحد الطرق العالمية القديمة الثلاثة (الجنوبي والأوسط والشمالي) التي تربط الشرق بالغرب ، فالطريق الأوسط للتجارة الشرقية يمر عبر الخليج العربي وسهول العراق وبلاد الشام إلى موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط ،وقد قام هذا الطريق بدور هام في النقل التجاري والبشري والحضاري منذ أقدم العصور حتى إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، ففقد كثيرا من أهميته، واستطاع العرب اعتمادا على سواحلهم الطويلة التي تسيطر على بعض مداخل ومخارج التجارة الشرقية في البحر العربي والمحيط الهندي ، خلال حقبة طويلة من التاريخ الإنساني، أن يكونوا سادة للتجارة والملاحة المارة عبر الطرق البحرية والبرية الموصلة بين العالمين القديم والجديد، وانتشرت مسكوكاتهم ومعارفهم على هذه المسالك بين الصين وشبه جزيرة اسكنديناوة، مما يدل على عمق نفوذهم الاقتصادي وتأثيرهم الحضاري . انظر : د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ((دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق)) ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ - ٢٤ .

٢. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty (Iraq Affais). (N.Y, 1970).

٣. كارستين نيبور : مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري ،(بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٢٠ . ستيفن همسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط ، (بغداد ، ١٩٨٥) ط ٦ ، ص ٣٦٢ . د. عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٩ - ١٢ ، ٦٥ ، ٧٤ - ٧٥ .

٤. د. عبد الأمير محمد أمين: المصدر السابق، ص ٦٥، ٧٥ - ٧٦ - ٨٣.

٥. الكارة : أحد أنواع المكاييل المستخدمة وقتذاك وتعادل ألف أوقية اسطنبولية .

٦. أرشيف الباب العالي في اسطنبول / تركيا / إرادة : مجلس والا ، رقم الوثيقة ٥٥٠٠ .

٧. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of notion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London,1960].

٨. أرشيف الباب العالي: إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٢١٢٦، لف ٦ (من المأمور المخصوص لتحديد حدود إيران محمد أمين درويش باشا إلى الصدارة، ٢١ ربيع الآخر ١٢٦٦ هـ / ٦ مارس ١٨٥٠ م).

٩. أرشيف الباب العالي:إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٣٢٧٩، لف ١ (مذكرة درويش باشا إلى متصرف البصرة معشوق باشا، غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م).

١٠. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ (من متصرف إيالة البصرة إسماعيل معشوق باشا إلى الصدارة ، ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ / ١٥ حزيران ١٨٥١ .

١١. Hammer,J: History of Empire Ottoman (IraqAffais) (N.Y, 19).

١٢. ينظر : رودولف سعيد روث : سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي ، (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) ، ص ٤١ - ٤٧ . د.جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١ ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٠ - ٤٦ . عايشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٨٢وما بعدها .

١٣.أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف٣) .

١٤. Cales, R: The Ottoman impact in Europe, (Iraq Affais) (London, 1965).

١٥.أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف١) .

١٦.رودولف سعيد روث : المصدر نفسه ، ص ١٢٤ – ١٢٥ . السيدة سالمة بنت السيد سعيد : مذكرات أميرة عربية ، ترجمة عبد المجيد القيسي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٤ – ١٨٨ .

١٧. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in tourkey (Iraq Affais) (London , 1960).

١٨. رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٩ – ١٦٤ .

١٩. رود لف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٦٤ – ٦٥ – ٦٧ – ٧٦ – ١٥٦

٢٠. د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ، ص ٢٥ .

٢١. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (N. Y, 1970).

٢٢. كانت القوة العسكرية البريطانية بقيادة السير دبليو كرانت كير ، وتضم السفينة ليفربول المجهزة بخمسين مدفعا ، والسفينة ايدن المجهزة بستة وعشرين مدفعا والسفينة كورلا المجهزة بثمانية عشر مدفعا . وست سفن أخرى وكان على ظهرها ١٦٠٠ جندي من الأوربيين و ١٤٠٠ من الهنود. زيادة على ثلاث سفن عمانية و ٤٠٠٠ جندي عماني . انظر : رودلف : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٢٣. من المعروف أن الأسطول العماني تدخل كذلك في أيلول ١٧٧٥ لفك الحصار الذي فرضه الحاكم الإيراني صادق خان على البصرة ، وأخذت القطع البحرية العمانية موقعها في مدخل شط العرب وسيطرت على الشط لفترة من الزمن ، وقامت بتأمين وصول المؤن والذخيرة إلى المدافعين عن البصرة، فعززت صمودهم في وجه الغزاة الفرس . ولكن الأسطول العماني انسحب فجأة وعاد إلى بلاده . ويبدو أن ابتعاد الأسطول عن قواعده وخوف سلطان عمان من قيام الإيرانيين بالتعرض إلى عمان نفسها، وربما مداخلة الانجليز ومشورتهم، دفعت العمانيين إلى الانسحاب. وكان الأسطول العماني المرابط بمدخل شط العرب مؤلفا من عشر سفن كبيرة وعدد أكثر من الغلافات والترانكي والسفن الصغيرة الأخرى. وقد أدت هذه المشاركة العمانية إلى حدوث خلاف عنيف بين سلطان عمان ووالي بغداد، وذلك لادعاء الأول أن له ديونا في ذمة الوالي الذي اضطر إلى تسوية خلافه مع حاكم عمان تجنبا لمجابهة بحرية لا له بها. ينظر: رودولف سعيد : المصدر نفسه، ص٨٦. د.عبد الأمير محمد أمين: المصدر نفسه، ص٧٣ –٧٨.

٢٤. Brokleman.C: History of Islamic People (Iraq Affais) (London, 1960).

٢٥.رودلف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، ١٢٢ .

٢٦.أرشيف الباب العالي :إرادة / مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١١٠٠٧ (تلطيفات لف ١)، مذكرة قبودان سليمان باشا إلى الصدارة ، ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥ هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م

٢٧. الكيس: وحدة حسابية عثمانية تساوي ٦٠٠٠٠ آقجة ، أو ٥٠٠ قرش أو ٢٠٠٠٠ بارة ،والكيس الرومي يساوي ٥٠٠٠٠ آقجة . ينظر : د.مهدي جواد حبيب البستاني : أزمة النقود في ولاية بغداد ومحاولات معالجتها ١٨٢٠ – ١٨٥٦ ، المجلة التاريخية ، تونس ، العدد الأول .

٢٨. أرشيف الباب العالي :إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف٢)

٢٩. أرشيف الباب العالي:إرادة / داخلية، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ١) من ناظر المالية إلى الصدارة، ١٤ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ.

٣٠. أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف٣).

٣١. أرشيف الباب العالي:إرادة / داخلية، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف٤) مذكرة الصدارة إلى السلطان ومصادقة السلطان عليها، ١٩ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ.

٣٢. أرشيف الباب العالي :إرادة / مجلس وإلا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

٣٣. أرشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

وثائق عثمانية منشورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة- حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧، شئون إسلامية وعربية.

١- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة مجلس والا- رقم الوثيقة ٥٥٠٠ نقلا عن دار الوثائق والمخطوطات، د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية، مركز الوثائق- مارس ١٩٧٧.

٢- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية- رقم الوثيقة ٣١٢٦- لف رقم ٦، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية- مركز الوثائق والمخطوطات، مارس ١٩٧٧.

٣- أرشيف الباب العالي في أسطنبول- تركيا- إرادة خارجية- رقم الوثيقة ٣٢٧٩- لف رقم ١، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

٤- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ لف ٢- ٤ سبتمبر ١٩٧٧، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية- مركز الوثائق والمخطوطات.

٥- أرشيف الباب العالي في إسطنبول تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة١١٠٠٧ لف رقم ١ إبريل ١٨٦٩م، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

٦- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٣٨٣٠ لف رقم ٣ إبريل ١٨٦٩، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

١- إبراهيم شريف: الشرق الأوسط- دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في الواحة- بغداد ١٩٦٥.

٢- جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١- ١٨٦١) القاهرة ١٩٦٢.

٣- رودلف سعيد روث: سلطنة عمان خلال حكم سعيد بن سلطان (١٧٩١- ١٨٥٦) (ترجمة عبد المجيد القيسي) البصرة ١٨٦٢.

٤- ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر الخياط) بغداد ١٩٥٨.

٥- عائشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا (١٦٢٤- ١٧٤١) بيروت ١٩٧٥.

٦- عبد الأمير محمد أمين: القوي البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر بغداد ١٩٦٦.

٧- كارستين نيبور: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة ١٧٦٥، ترجمة (سعاد هادي العمري) بغداد ١٩٥٥.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

1. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of wotion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London,1960].
2. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty. (Iraq Affais) (N.Y, 1970).
3. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in Turkey (Iraq Affais) (London , 1960).
4. Brokleman.C: History of Islamic People (IraqAffais) (London, 1960).
5. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (Iraq Affais) (N. Y, 1970).
6. Cales, R : The Ottoman impact in Europe, (London, 1965).
7. Hammer, J : History of Empire Ottoman (Iraq Affais) (N.Y, 1966)

موقف العرب العمانيين في زنجبار من القضية الفلسطينية في الفترة ما بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ في الصحافة العربية العمانية في زنجبار صحيفة الفلق نموذجا

د. ناهد عبد الكريم (*)

مقدمــــة

منذ صدور وعد بلفور البريطاني عام ١٩١٧ بالعطف على أماني اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين مرورا بقيام الانتداب البريطاني على أرض فلسطين عام ١٩٢٠ وسعيه لتحقيق هذا الهدف تصدرت القضية الفلسطينية والأراضي المقدسة وفي مقدمتها القدس، قضايا العرب والمسلمين، وتركت تأثيرها في مختلف نواحي حياتهم، واستنزفتهم نفسيا وسياسيا واقتصاديا وأمنيا.

وأسهمت أخبار فلسطين والظلم الذي لحق بالفلسطينيين إلى جانب أخبار الثورات التي عمت الأراضي المقدسة وصولا إلى ثورة عام ١٩٣٦، التي أربكت كلا الطرفين البريطاني والإسرائيلي، والتي ردت عليها السلطة البريطانية بكل عنف وقسوة، كل هذا أسهم في خلق استياء عربي وإسلامي عام انصب على بريطانيا واليهود، ولم تخل بقعة عربية مهما كان موقعها بعيدا من تعقب ما كان يجري في فلسطين، وكان لوقع ثورة عام ١٩٣٦ الأثر الأكبر لتخطيها حدود الأراضي الفلسطينية وانخراط مقاتلين عرب من أنحاء الوطن العربي في القتال إلى جانب الثوار الفلسطينيين ضد بريطانيا والعصابات الصهيونية. وتحولت القضية الفلسطينية إلى محفز لحركات التحرر العربية.

وخلال السنوات التي تلت ثورة عام ١٩٣٦ والأحداث التي ألمت بها وواكبتها، كان الشعب العربي والإسلامي يقف متابعا لكل ما يحدث، وتنوعت أشكال استجابته، بين مشاركة واحتجاج وثورات ومظاهرات. إضافة إلى دور مميز للإعلام العربي وفي مقدمته الصحف والمجلات المصرية والعربية عموما، فقد تولت نقـل أخبـار فلسطين

(*) أستاذ مساعد بجامعة السلطان قابوس ــ مسقط.

والممارسات القمعية للسلطة البريطانية ومعاناة الشعب الفلسطيني، ونشرت نداءات الهيئات الفلسطينية والعربية الداعية للوقوف مع الفلسطينيين، إضافة إلى استنهاض المشاعر العربية والإسلامية، ودعوات للتبرع وغير ذلك.

ولم يحل البعد المكاني بين فلسطين وزنجبار([١]) من معايشة عرب ومسلمي زنجبار لمأساة إخوانهم في فلسطين، لذلك تأتي أهمية هذا البحث من كونه أول بحث – حسب علمي- يكشف عن أثر القضية الفلسطينية وما كان يحدث في القدس الشريف على العرب العمانيين والمسلمين المقيمين في زنجبار في شرق أفريقيا من خلال ما كانت تنشره الجرائد العربية هناك كجريدة الفلق بشكل أساسي في الفترة التي تلت ثورة عام ١٩٣٦، وهي الأعوام الأشد على الشعب الفلسطيني.

ثم بعد ذلك جريدة النهضة([٢])، وهذه تأخر صدورها حتى عام ١٩٥١، أي في وقت متأخر عن موضوع البحث، لكن مؤسسها كان قبل ذلك من رواد جريدة الفلق.

أما أهداف البحث فهي الكشف عن موقف العرب العمانيين في زنجبار من قضية فلسطين ووقائعها كما عكستها صحيفة الفلق. بالإضافة إلى التعرف على ردود أفعالهم. وتوضيح مدى إطلاعهم ومتابعتهم لما كان يجري. وبالتالي التعرف على أحد نماذج تداعيات القضية الفلسطينية لدى الشعب العربي في أقصى البقاع فكيف هي في قلب الوطن العربي؟

وتكمن إشكالية البحث في الإجابة على عدد من التساؤلات منها:

١- ما هي الصورة التي نقلتها الصحافة العربية العمانية في زنجبار عن القضية الفلسطينية وما هي المواضيع التي طرحتها جريدة الفلق بشكل محدد فيما يخص فلسطين.

٢- ما هوأثر أخبار ما كان يحدث في فلسطين على العرب العمانيين في زنجبار؟

٣- ما أشكال الدعم الذي قدمه العرب العمانيون والمسلمون في زنجبار لفلسطين.

٤- ما هوأثر أحداث فلسطين على العلاقة العربية البريطانية في زنجبار؟

٥- ما أهمية الدور الذي قامت به جريدة الفلق وغيرها للوقوف إلى جانب الفلسطينيين.

وسيتم تناول البحث وفق منهجية العرض والتحليل والربط، وذلك بتعريض النصوص التي نشرتها صحيفة الفلق للمناقشة والتحليل ومن ثم إعادة ربط أحداثها للخروج بصورة عما كان يحدث هناك بشأن القضية الفلسطينية.

كما يتألف البحث من عدة محاور هي:

١- تمهيد عن أهم أحداث القدس وفلسطين في الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩.

٢- تعريف بالصحافة العمانية في زنجبار بشكل عام وجريدة الفلق بشكل خاص.

٣- تصنيف الموضوعات المتعلقة بفلسطين كما نشرتها الفلق

٤- دور الفلق كصحيفة عربية في الكشف عن ما كان يخطط لفلسطين والقدس

٥- أثر أحداث فلسطين على نظرة عرب عمان لبريطانيا كما عكستها مقالات جريدة الفلق.

٦- ثم خاتمة البحث وأهم ما تم التوصل إليه من نتائج.

وقد تم اعتماد أعداد جريدة الفلق الصادرة في فترة البحث بشكل رئيسي، على الرغم من بعض الأخطاء في أرقام أعدادها وسيتم التركيز على تواريخ صدورها كلما دعت الحاجة. كما سيتم اعتماد بعض المراجع العربية الحديثة التي تناولت مواضيع ذات صلة بالبحث مثل كتاب الدكتور محسن الكندي الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها، وكتاب الدكتور عبد الله الكندي بدايات الصحافة العمانية في زنجبار. بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبية التي تناولت تاريخ زنجبار.

أ- الأوضاع في فلسطين بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ (الثورة الفلسطينية الكبرى):

بسبب سياسة سلطة الانتداب البريطانية الداعمة لليهود، والتسهيلات التي كانت تقدمها لهم منذ عام ١٩٢٠؛ تاريخ بدء الانتداب، أكان عن طريق فتح الأرضي الفلسطينية للمهاجرين اليهود، أوتمكينهم من الاستيلاء على الأراضي العربية، إضافة إلى تردي أوضاع الفلسطينيين وانتشار البطالة بين الشباب الفلسطيني نتيجة خسارتهم لأراضيهم من جهة وإعطاء سلطات الانتداب الوظائف لليهود المهاجرين من جهة أخرى، كل ذلك جعل النظرة المعادية واحدة للبريطانيين واليهود، بل غدا الاتجاه ضد بريطانيا متقدما بحكم كونها السبب في ما أصبح عليه الوضع في فلسطين (٣)، فاشتعل الشارع الفلسطيني عام ١٩٣٦،متأثرا بشجاعة ثورة الشيخ عز الدين القسام التي سبقتها وأسست لها منذ عام ١٩٣٥ وانتشار أفكاره الثورية(٤).

ولتوحيد الصف تجمعت القوى الفلسطينية وشكلت اللجنة العربية العليا برئاسة الشيخ أمين الحسيني ؛ مفتي القدس، وأعلنت إضرابا عاما في ٢٠ نيسان ١٩٣٦ شمل أنحاء فلسطين كلها بما فيها القدس بهدف الضغط على سلطة الانتداب البريطاني للاستجابة للمطالب الفلسطينية بوقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ووقف انتقال الأراضي الفلسطينية لليهود وغير ذلك. لكن تجاهل سلطات الانتداب البريطانية للمطالب الفلسطينية واستمرار فتح باب الهجرة نقل العمل الفلسطيني إلى مرحلة الكفاح المسلح.

حققت الثورة في مرحلتها الأولى حتى عام ١٩٣٧ انتصارات حقيقية استعادت فيها بعض القرى الفلسطينية من أيدي الصهاينة والبريطانيين([٥]) ، وهاجمت المستعمرات اليهودية والمراكز البريطانية مما يدل على ربط الفلسطينيين بين البريطانيين واليهود.

لكن هذه الانتصارات استفزت بريطانيا ودفعتها إلى ممارسة شتى أصناف العقوبات على الشعب الفلسطيني ، وعملت مجتمعة مع العصابات المسلحة اليهودية لقمع الثورة ولما فشلت في تهدئة الأوضاع استعانت ببعض القيادات العربية لإقناع الزعماء الفلسطينيين بإيقاف العمل المسلح وتولي بريطانيا حل الأزمة مع الزعماء العرب. وأرسلت الحكومة البريطانية اللجنة الملكية التي عرفت باسم لجنة بيل عام ١٩٣٧ لتقصي الحقائق في فلسطين وانتهت هذه اللجنة إلى وضع تقرير أكدت فيه أن مخاوف العرب من إقامة الوطن القومي الصهيوني على أراضيهم، وزيادة أعداد الهجرة اليهودية السبب الرئيس في هذه الثورة. كما قدمت اللجنة توصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية مع إبقاء القدس وبيت لحم تحت الحماية البريطانية. وبناء عليه وافقت عصبة الأمم على إرسال لجنة فنية إلى فلسطين بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٣٧ لوضع خطة التقسيم وتحديد الحدود. عندها قاطع العرب لجنة التقسيم وانتشرت الدعوات لحث الشعب العربي لنصرة الموقف الفلسطيني ([٦])، وخلال تلك الأحداث قامت الصحافة العربية بدور كبير في تعميم أخبار ما يجري في فلسطين على الشعب العربي، مما أسهم في خلق حالة شعبية عربية حانقة على التمادي الاستعماري في خيانة العرب والاعتداء على حقوقهم.

وكان من أبرز تبعات الثورة الفلسطينية التي استمرت حتى عام ١٩٣٩؛ وهوالعام الذي شهد قيام الحرب العالمية الثانية، محاولة بريطانيا تهدئة العرب بدعوة زعمائهم إلى مؤتمر لندن (مؤتمر سان جيمس) في العام نفسه، ولكن هذا المؤتمر فشل وانسحب العرب منه([٧]). ومع بداية الحرب العالمية الثانية هدأت أحداث ثورة فلسطين ليس بسبب وقف الهجرة اليهودية ولا وقف التعديات اليهودية على حقوق الفلسطينيين ولكن بسبب السياسة القمعية البريطانية وتدهور أوضاع الفلسطينيين الاقتصادية وانحلال اللجنة العربية([٨])، وانقسام الرأي حول الاستفادة من ظروف الحرب، كل ذلك كان وراء حالة الهدوء والترقب في فلسطين وحتى في غيرها من الدول العربية.

ألقت التطورات السابقة بثقلها على الشعب العربي في كل مكان، ومن ضمنه العرب العمانيين الذين كانوا يعيشون في زنجبار ويحكمونها في ظل الهيمنة البريطانية عليهم، لذلك لم يكن الشعور بالمصير المشترك مع الفلسطينيين غريبا وقد عكسته الصحافة العربية في زنجبار وعلى رأسها جريدة الفلق. التي أسهمت بدور فاعل في

تأكيد التواصل مع كل ما يحدث في فلسطين ونشر أخبارها بل والتشجيع على دعم الفلسطينيين بكل الإمكانات، إلى درجة أثارت بريطانيا نفسها.

ب- الصحافة العمانية العربية في زنجبار، جريدة الفلق نموذجا:

تعود نشأة الصحافة العربية العمانية في زنجبار إلى مطلع القرن العشرين[٩]؛ وهي الفترة التي أعقبت نقل إدارة زنجبار من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات[١٠] وإلغاء الإشراف الثنائي البريطاني العماني على زنجبار بعد عام ١٩١٣ وخروج النفوذ السياسي من يد العرب العمانيين وانتقاله إلى البريطانيين مع بقاء شخصية السلطان العماني كشخصية رمزية[١١]. وفي هذه الفترة اشتدت الهيمنة البريطانية على زنجبار بعد إطاحتها بحكم السلطان علي بن حمود البوسعيدي لتوجهاته العربية والإسلامية[١٢]. وإيصال السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي إلى السلطة ومن ثم جعل الإشراف المباشر على زنجبار مسؤولية المعتمد البريطاني[١٣].

وتجسد رد الحركة الوطنية في زنجبار على السياسة البريطانية بتأسيس أول حزب وطني عام ١٩١٧، تألف من المثقفين العرب الذين طالبوا بإنهاء الحماية البريطانية على زنجبار وقد اعتقلتهم بريطانيا ونفتهم إلى سانت هلينا[١٤]. ثم تأسست الجمعية العربية بزنجبار عام ١٩٢٥ كرد فعل على دور الجمعية الهندية في زنجبار[١٥]، التي تلقت دعما واضحا من البريطانيين[١٦]. ويمكن القول أن ظهورها كان تجسيدا حقيقيا لوعي الذات العربية عند العمانيين في زنجبار، وردا على سياسة التهميش والغبن وإثارة الطائفية والقومية خاصة في فترة الثلاثينات[١٧].

وأسهم في نموهذا الوعي أثر البعثات العلمية على الطلبة المبعوثين إلى بلدان عربية كانت تشهد تحولات سياسية واجتماعية وثقافية وتحررية مثل العراق ومصر ولبنان وبلدان غير عربية مثل الهند. حيث شاهدوا وعاصروا ما جرى هناك[١٨]. وقد رفضت بريطانيا إقامة الجمعية العربية وسعت لدى السلطان خليفة بن حارب لإقناع الشيوخ العرب بإيقافها[١٩]. ولكن الجمعية تمكنت من الظهور، ولإيصال أفكارها اقترحت عام ١٩٢٦ إنشاء صحيفة عربية لنقل أفكار الجاليات العربية في زنجبار. فتم إصدار جريدة الفلق عام ١٩٢٩ وباتت تطبع وتنشر من قبل الجمعية العربية، وغدت أحد أهم إنجازاتها وبمثابة الناطق الرسمي لها والمجال الخصب للتيار الوطني الممثل لهموم العرب[٢٠]. وقد اختير محمد البرواني مديرا للجريدة ورئيسا للتحرير. وتلقت هذه الجريدة دعما من الفئات العربية العليا في المجتمع، وكانت تصدر باللغتين العربية والانكليزية وأحيانا بالسواحلية.[٢١] وقد أقبل العرب على قراءتها في مناطق مختلفة من الوطن العربي لأهمية المواضيع التي كانت تطرحها[٢٢].

وعلى الرغم من أن نشأة بعض الصحف العمانية في زنجبار يعود إلى عام ١٩١١ كما هوحال جريدة النجاح[٢٣]، التي صدرت في عهد السلطان علي بن حمود إلا

أن الدور المميز الحقيقي يبقى لجريدة الفلق التي استمرت في الصدور حتى عام ١٩٦٤([٢٤]). وكانت جريدة سياسية من الدرجة الأولى حيث بلغت نسبة مقالاتها السياسية ٤٠% من مقالاتها([٢٥]). ركزت فيها على قضايا العرب العمانيين في زنجبار وعمان، والقضايا العربية في كل بلد عربي مما جعلها محط اهتمام متابعيها([٢٦]). وقد تبنت قضايا التحرر العربية فأبرزتها. وأبرزها قضية العرب الأولى، قضية فلسطين خاصة في الفترة التي أعقبت ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، لذلك عكفت على نقل أخبارها وقدمت ما كان بإمكانها لدعم الحقوق الفلسطينية بالقول والعمل.

١- الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦:

أ- موقف عرب زنجبار من الثورة وأصداؤها في جريدة الفلق:

أججت أحداث الثورة في فلسطين مشاعر الغضب لدى المواطنين العرب العمانيين في زنجبار خاصة وأنهم كانوا يشاركون الفلسطينيين جهة الاحتلال البريطاني نفسها، ويتعرضون إلى عملية تطهير عرقي مماثل، لذلك كثيرا ما ربطوا بين رغبتهم في تحررهم وتحرير فلسطين من السيطرة الاستعمارية([٢٧]). وتمحور موقفهم مما يجري في فلسطين حول أمرين، الأول: إجرائي عملي. والثاني: استخدام الصحافة للتوعية بما يجري في فلسطين وإيجاد موقف شعبي مؤيد للثورة.

فبالنسبة للأمر الأول: أنشأت الجمعية العربية في زنجبار لجنة "لإغاثة منكوبي فلسطين"([٢٨]). وكان من أشكال الدعم التي قدمها عرب عمان في زنجبار:

- **التبرعات**:

كان الدعم الشعبي العربي والإسلامي لفلسطين في زنجبار أسرع من الدعم الرسمي الذي ركز على الجانب السياسي. وكانت أخبار الفواجع في فلسطين تثير الضمير الشعبي وتدفع الناس لجمع التبرعات لمنكوبيها ومشرديها وكانت جريدة الفلق تنقل عن اللجنة العربية الفلسطينية في مصر الدعوة إلى الإسراع في جمع هذه التبرعات، كما كانت تعين أسماء الهيئات الموثوقة لتوصيل الإعانات([٢٩]).

ومن الاجتماعات التي عقدت لهذا الغرض، اجتماع الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين بدار اللجنة العربية في ليلة الجمعة ٢٢/٤/ ١٩٣٨، بهدف أولا تقديم احتجاج للمقيم البريطاني في زنجبار على الممارسات السيئة للسلطة البريطانية ضد عرب فلسطين، وثانيا جمع التبرعات لمساعدة منكوبي فلسطين، وقد ألقى رئيس جمعية الشبان المسلمين الشيخ سالم بن عبد الله ودعان كلمة حث فيها المسلمين على جمع التبرعات لمساعدة المتضررين في فلسطين. ويلاحظ شمولية كلمة المتضررين من العرب وغيرهم باعتبار أن القضية الفلسطينية عربية إسلامية. وسعى في هذا الاجتماع إلى دعوة اللجنة العربية إلى اجتماع عام لهذا الغرض([٣٠]).

وانتخبت لجنة لمساعدة الفلسطينيين باسم(لجنة إعانة مسلمي فلسطين) وتألفت من رئيس هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل([٣١])، وعدد من الأعضاء وذلك بناء على اجتماع عمومي للجمعيات الإسلامية في زنجبار دعت إليه جمعية الشبان المسلمين وكان الهدف من الاجتماع " الكلام عن فلسطين وما يعانيه هناك إخواننا العرب من الظلم والعدوان على يد السلطة، ولمناشدة المسلمين أن يمدوا يد المعونة والنصرة نحو منكوبي فلسطين، ولتقديم احتجاج إلى فخامة مقيم بريطانيا على ما ترتكبه سلطة فلسطين(سلطة الانتداب) من الفظائع نحو عرب فلسطين"([٣٢]) وكانت لجنة إعانة مسلمي فلسطين تعقد اجتماعاتها بشكل متكرر في دار الجمعية العربية لمتابعة تحقيق أهدافها الثلاث التي سبق ذكرها([٣٣]).

ومن هذه الاجتماعات، الاجتماع العمومي الذي دعت إليه لجنة إعانة مسلمي فلسطين في زنجبار يوم ٢٧ مي ١٩٣٨ بهدف إعانة منكوبي فلسطين([٣٤])، وكان مؤسس هذا الاجتماع والمحرض لعقده هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل الذي اشتهر بمساعيه الكبيرة في إثارة الشعور الإسلامي لدى مسلمي زنجبار لمساندة الفلسطينين([٣٥]). وجاء انعقاد هذا الاجتماع في الموعد المحدد حيث عقد أمام مدرسة البحرة، وتم فيه انتخاب حافظ بن محمد؛ رئيس الجمعية العربية، رئيسا لهذا الاجتماع. كما سعى المجتمعون لضم مسلمي زنجبار لتأييدهم وترجموا كلمات المتحدثين من العربية إلى السواحلية ليفهمها من هو غير عربي. كما حدث في الكلمة التي ألقاها رئيس الاجتماع والتي أوضح من خلالها أغراض الاجتماع([٣٦]).

وكان من المشاركين ممثلا عن فلسطين علي محمد الجمالي وقد ألقى كلمة وضح فيها معاناة الشعب الفلسطيني([٣٧]).

كذلك شارك غلام علي المحامي الذي ألقى كلمة مطولة باللغة الانكليزية حاول فيها استنهاض المقيم البريطاني في زنجبار هثورني هول لحث حكومته على تخفيف معاناة الشعب الفلسطيني ووقف المجازر ضده. وقد ترجمت الكلمة من الانكليزية إلى السواحلية بواسطة الشيخ راشد رضا ناتاني([٣٨]).

وكان من الشخصيات التي حضرت الاجتماع الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي([٣٩])، والنائب علي بن عمير المرهوبي. وقد أيدا كلمتي غلام علي المحامي وعلي محمد الجمالي. وخرج الاجتماع بقرار جاء فيه: " قرر هذا الاجتماع العام من مسلمي زنجبار أن يظهر عواطفه وإحساساته الصادقة الأخوية نحو إخوانه مسلمي فلسطين لما يقاسونه من أرزاء ومصائب، ضارعا لله تعالى أن يمن عليهم بالأمن الشامل والهناء الدائم"([٤٠]).

وقد لفت النظر في هذا الاجتماع العام غياب عدد من الشخصيات العربية والهندية وربما كان ذلك لعدم إثارة غضب البريطانيين، مما دفع جريدة الفلق إلى التعليق

على هذا الغياب بهدف إثارة حميتهم للتبرع. كما أظهر بوضوح مدى الدور الإسلامي في دعم ثوار فلسطين، حيث كانت الدعوة لتقديم الدعم المادي للفلسطينيين تقترن دائما بتذكير المتبرع أن "ما يبذله في سبيل تخفيف ما يقاسيه عرب فلسطين من المحن والآلام إنما يبذله في نصرة دينه وقرآنه ونبيه"(٤١).

وكان من أبرز نتائج هذا المؤتمر: جمع المال والتبرعات، والاتفاق على تكليف رؤساء الجمعيات والفرق الإسلامية بجمع الأموال وإيجاد طريقة سريعة لذلك. أما عن إيصال هذه الأموال إلى فلسطين، فاقترح أن يتم ذلك بواسطة الشخصيات أو المؤسسات المعروفة التي تولت إعانة منكوبي فلسطين.

وتحسبا من إعاقة البريطانيين توصيل هذه الأموال للفلسطينيين تم التمني على المقيم البريطاني هول أن يسمح بإرسال أموال الإعانة مباشرة للمتضررين الفلسطينيين، دون مرورها على حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين. وقد ذكرت جريدة الفلق أن المسلمين والبلدان الإسلامية لم تكن ترسل إعاناتها لفلسطين عن طريق حكومة الانتداب بل كانت تنقلها "بواسطة الشخصيات المعروفة، أو المؤسسات الشهيرة في مصر وسوريا والعراق وغيره"(٤٢). ويؤكد ذلك قلة ثقتهم بتلك السلطة ويقينهم بتحيزها إلى الجانب الإسرائيلي ضد العرب.

وتحسبا لرفض المقيم البريطاني هول إرسال المعونات مباشرة للفلسطينيين وإصراره على مرورها عبر سلطات الانتداب البريطانية، كان هناك اقتراح بتسليمها لشيخ جامع الأزهر بمصر لمكانته الدينية في العالم الإسلامي وأنه لن "يوصل المال المرسل من زنجبار للثوار في فلسطين" أي أنه سيتم توصيلها للمدنيين الفلسطينيين(٤٣).

- الاحتجاجات:

بقيت الأوضاع في فلسطين تلقى انتقادا حادا من العرب والمسلمين في زنجبار، وكان البعدان القومي والديني للأراضي الفلسطينية المقدسة محفزين على توحيد الصفوف والمواقف واضطر القياديون المثقفون العرب العمانيون في زنجبار إلى الاعتماد على الاحتجاج أكثر من غيره من وسائل المقاومة، لذلك تكررت لقاءات مناصري فلسطين لجمع المعونات ورفع الاحتجاجات، وهذا أقصى ما كان من الممكن عمله بسبب وجود الاستعمار البريطاني في زنجبار، ولعدم امتلاكهم القوة الكافية والوعي الشعبي الداعم لهم(٤٤). ويمكن رصد حركة الاحتجاجات هذه من خلال ما نشرته جريدة الفلق والذي سيرد لاحقاً.

- التعاون مع القيادات الفلسطينية:

في عام ١٩٣٥م قام الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي بزيارة لافتة للنظر إلى فلسطين وذلك قبيل وفاته. وتزامنت زيارته مع قيام ثورة عز الدين القسام هناك، ولسنا

نعرف بالضبط غرض هذه الزيارة، ونرجح أنها كانت للاطلاع على ما كان يجري هناك(٤٥).

كما جرى تواصل بين قيادات الحركات العربية من جهة والشخصيات القومية العربية والإسلامية العمانية في زنجبار مثل "الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين" و" الجمعية العربية" وذلك لتنسيق المواقف وتقديم الدعم للفلسطينيين. فقد أرسل أسعد داغر؛ السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، رسالة إلى الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي(٤٦) يدعوه فيها إلى تأييد السياسة والمطالب التي يستشهد العرب من أجلها. وتضمنت الرسالة قرار اللجنة العربية العليا لفلسطين بمقاطعة اللجنة البريطانية الفنية التي دعا وزير المستعمرات البريطاني لتشكيلها. وأوضحت أسباب مقاطعة اللجنة العربية ولماذا تدعو العرب لدعم هذه المقاطعة ومما جاء من أسباب في تلك الرسالة أن أهل فلسطين يدعمهم العالمين العربي والإسلامي رفضوا مشروع التقسيم من أساسه لأن اللجنة التي شكلتها بريطانيا تقوم على أساس التقسيم وبالتالي فهي مرفوضة بطبيعة الحال(٤٧).

وأشارت الرسالة إلى أن موعد حضور لجنة التقسيم إلى فلسطين سيكون في ٢٧ أو ٢٨ أبريل ١٩٣٨، وأن مقرها سيكون في القدس، لذلك فإن الغرض من الرسالة رغبة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة، أن يكون هنالك موقف عربي موحد يدعم ويؤيد موقف الشعب الفلسطيني الرافض للتقسيم، وحرصا على مصلحة البلاد الفلسطينية المقدسة. والمطلوب أيضا أن يرسل زعماء العرب والمسلمين وهيئاتهم في العالم كله برقيات إلى لجنة تقسيم فلسطين يرفضون فيها التقسيم ويطالبون بإعطاء العرب الفلسطينيين حقوقهم كاملة، وأن ترفع بريطانيا الظلم والجور الواقع على الفلسطينيين(٤٨).

وذكر أسعد داغر أن اللجنة التنفيذية هي التي كلفته بمهمة الاتصال بالشيخ سليمان بن ناصر اللمكي ليقوم الأخير بمهمة الحصول على تأييد الشعب العربي والمسلم في زنجبار للموقف العربي الرافض للتقسيم وحتى تدرك لجنة التقسيم البريطانية والحكومة البريطانية "أن العرب والمسلمين جميعا يؤازرون أهل فلسطين مؤازرة حقيقية ويؤيدونهم في جميع أعمالهم الوطنية"(٤٩) واختتم الرسالة بدعوته الشيخ اللمكي للإسراع في تنفيذ الطلب.

أصداء القضية الفلسطينية في جريدة الفلق:

اهتمت جريدة الفلق بمتابعة أخبار فلسطين بشكل مبكر(٥٠). وحظيت القضية الفلسطينية بحضور مكثف في مقالاتها وخاصة في الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ وذلك بسبب تصاعد المقاومة الفلسطينية في مواجهة زيادة الأعمال القمعية البريطانية وارتفاع أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبسبب انتقال المقاومة الفلسطينية إلى مرحلة

الاحتضان الشعبي العربي ممثلة بمشاركة العديد من القادة والعسكريين العرب الذين وقفوا إلى جانبها ودربوا المقاتلين واشتركوا في القتال نفسه.

وقد أسهمت جريدة الفلق بدور فعال في جمع التبرعات للفلسطينيين، وحرصت على نقل مقالات الاحتجاج على الوجود الصهيوني والسياسة الاستعمارية في فلسطين بهدف إثارة مشاعر عرب زنجبار ومسلميها وإطلاعهم على مواقف غيرهم من العرب في المناطق الأخرى ليشدوا أزرهم في مواجهة ما يخطط لفلسطين ومثال ذلك ما نشرته جريدة الفلق من كتاب الاحتجاج الذي أرسله المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين بمصر إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين عام ١٩٣٨ والذي لفت فيه نظر المندوب إلى سياسة العنف والقمع والإرهاب التي مارستها وتمارسها سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، وأشار الكتاب إلى أن ما تنشره الصحف من فظائع على الرغم من الرقابة المسلطة عليها كاف لإثارة غضب وقهر الشارع العربي والإسلامي فأخبار القتل والمصادرة والتشريد والاعتداء بكل أشكاله تدفع إلى استفحال الثورة في فلسطين وتدفع بأبنائها إلى التضحية بأرواحهم لإنقاذ " كيانهم المهدد بالزوال وأراضيهم المهددة بالتهويد والضياع، ومقدساتهم المهددة بالاجتياح، وذراريهم المهددين بالموت جوعا أو بالجلاء من البلاد"(٥١).

وعلى الرغم من تقطع أخبار فلسطين وانشغال العرب والمسلمين في زنجبار بمشاكلهم، إلا أن ارتفاع الصوت العربي في زنجبار استمر وخاصة في الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٣٩ وما بعده، لدعم الفلسطينيين والأراضي المقدسة فيها، وجاء كشكل من أشكال الرفض للنفوذ البريطاني في زنجبار نفسها الذي اضطهد الوطنيين العرب وشتت شملهم في المعتقلات. لقد كان هناك تشابها كبيرا بين ما كان يحدث في فلسطين وما يحدث في زنجبار، ففي كلا الطرفين كان العنصر العربي يعاني اضطهادا لصالح عرقيات أخرى غريبة كاليهود في فلسطين والهنود والشيرازيون في زنجبار. إضافة إلى سياسة نقل الأراضي من العرب إلى اليهود في فلسطين، ومن العرب إلى الهنود في زنجبار حتى خسر العرب أراضيهم في البلدين. فمنذ عام ١٩٣٧ أدرك عرب زنجبار وطأة الدعم البريطاني للهنود وسيطرتهم على تجارة القرنفل، مصدر رزق كثير من العرب العمانيين، لذلك تصاعدت مطالبهم بمراعاة حقوقهم وأمدتهم مقاومة أهالي فلسطين بالقوة(٥٢)، وتزامن هذا مع نمو الوعي الوطني وتحوله إلى حركة وطنية في زنجبار قادها العرب بشكل أساسي(٥٣).

وتنوعت عناوين موضوعات جريدة الفلق المتعلقة بفلسطين، حتى بلغ عدد مقالاتها خلال عامي ١٩٣٨ و١٩٣٩ ما يزيد على عشرين مقالة(٥٤)، وكان منها مقالات تفصيلية تحليلية عن القضية الفلسطينية ونشأتها، ومنها بيانات ونداءات

واحتجاجات لرفع الروح المعنوية وشحذ الهمم لتقديم المساعدة والتبرعات(٥٥). ويمكن تصنيف هذه الموضوعات كالتالي:

أولا: موضوعات إخبارية:

اهتمت فيها جريدة الفلق بنقل أخبار الحوادث التي تقع في فلسطين، وكانت مصادر أخبارها إما عن طريق أشخاص يراسلونها من فلسطين مباشرة أي مراسليها، أومن اللجان الفلسطينية في الخارج وأحيانا كثيرة من جرائد أخرى إذا تعذر حصولها عليها مباشرة، وقد أشارت إلى ذلك عند إيرادها كل خبر(٥٦).

ومن تلك الحوادث، إصدار المحكمة العسكرية في فلسطين حكما بالإعدام على فلاح عربي يدعى منجد حمدان(٥٧). كما نقلت عن (رويتر) خبر مقتل أربعة من اليهود وفقد ثلاثة كانوا يركبون سيارة في صفد في فلسطين على يد الثوار الفلسطينيين، وأن الشرطة قامت بتفريق الثوار وقتلت ثلاثة أشخاص(٥٨).

ونقلت الفلق عن أخبار رويتر حادثا لافتا للنظر وله دلالة مهمة في المعنى والتوقيت حيث جاء في الخبر أن طالبين ألمانيين متخصصين بعلم الأديان وجدا مقتولين بعيارات نارية " على مقربة من مدفن قتلى الحرب في القدس"(٥٩)، ويظهر وراء هذا الخبر، التعصب الصهيوني إذا ما أخذنا بالاعتبار وضع اليهود في ألمانيا في ذلك الوقت.

ولعل من الأخبار الهامة التي أوردتها جريدة الفلق، أخبار الثورة الفلسطينية في مختلف المناطق ومنها: معركة حدثت في ناحية جنين في فلسطين بين المجاهدين العرب وبين الجيوش البريطانية، وانتهت بمقتل جنديين بريطانيين وجرح آخرين، ومقتل ١٥ من العرب، أما جرحى العرب فغير معروف عددهم. وذكرت في الخبر أن خمس طائرات بريطانية اشتركت بالقتال(٦٠). مما يشير إلى التفاوت الشديد بين قدرات المقاومة العربية والقدرات البريطانية. كما يؤكد سياسة البطش المفرط التي اتبعتها بريطانيا.

وعن أخبار القدس في ٢٢ ديسمبر ١٩٣٨، أشارت إلى نشوب معركتين في منطقة نابلس بين الثوار وجنود الاحتلال البريطاني وذلك بعد أن حاصرت القوات البريطانية قرية (بورين) بعد تلقيها أنباء عن وجود ثوار فيها. ويبدو أن القتال هناك كان شديدا حيث استخدمت فيه القنابل المضينة التي كانت الطائرات تقوم بإلقائها، وأسفرت المعارك عن مقتل ١٥ وجرح كثيرين من الطرفين(٦١).

ومن أنباء الثورة في جبال نابلس، في شهر يناير ١٩٣٩، نقلت الفلق أخبارا عن اشتداد المعارك هناك ونجاح الثوار في أسر ستة من الجنود البريطانيين. كذلك نقلت أخبار معركة وقعت في ٢٢ ديسمبر على طريق جنين نابلس بين الثوار ودورية لسيارة مصفحة لقوات الاحتلال البريطاني بعد أن أقام الثوار كمينا على الطريق، وأنه بسبب

وصول نجدات للطرفين؛ اشتد القتال واستمر الثوار في استهداف إمدادات الاحتلال من القوات، ونتج عن المعركة مقتل جنديين بريطانيين وثلاثة من العرب، كما أسر الثوار ستة من جنود الاحتلال(٦٢). واعتمدت جريدة الفلق في نقل هذه الأخبار على بعض مراسليها من الأراضي المحتلة وعلى البرقيات الأجنبية التي كانت تردها. وذكرت أن فرحة كتاب الفلق بانتصارات الثوار كبيرة(٦٣). وحسب رواية جريدة الفلق فإن القوات البريطانية قامت بالانتقام من مدينة نابلس وروعت الأهالي بجرائمها ضدهم. وردا على ما فعلته ذكر تلغراف قادم من القدس لجريدة الفلق في ٢٣ ديسمبر أن زعيم الثورة الفلسطينية أصدر بيانا جرى تعليقه على الجدران في مختلف المدن الفلسطينية يدعو إلى إضراب عام احتجاجا على ما قامت به قوات الاحتلال من الجرائم في نابلس والقدس(٦٤).

ثانيا- الموضوعات التحليلية ووصف معاناة الشعب الفلسطيني:

وهي موضوعات تناولت ما يحدث في فلسطين من جانب العرض والتحليل ولعل من أبرزها ما نشرته جريدة الفلق من أحداث ثورة عام ١٩٣٦ بعد محاولات السلطة البريطانية حجب أخبارها واعتماد الفلق على منشور وصلها من (مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي) يفند ما عرف بأحداث يوم الثلاثاء ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ في فلسطين؛ وهو اليوم الذي اقتحمت فيه بريطانيا مدينة يافا الفلسطينية بعد أن مهدت لهجومها بالحصار الذي فرضته على فلسطين بشكل عام، وبمنع الصحافة من الدخول أو الخروج إليها بهدف التعتيم على ما كان يجري. وبحسب المنشور فإنه في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم أرسلت سلطة الانتداب عددا من المهندسين من ضباط الجيش البريطاني ترافقهم قوات عسكرية تحميهم، وكان الهدف محاصرة يافا ثم اقتحامها ونسف بيوتها، ومعاقبتها باستخدام المهندسين المتخصصين بالتدمير بواسطة الديناميت للإجهاز على المدينة ودفع أهلها للفرار منها، ولم يترك الانكليز في يافا "دورا بل أنقاضا"(٦٥) حيث انتشرت أصوات الانفجارات ونسف البيوت في المدينة، مما سهل السيطرة التامة عليها.

وقد علق المراسل الذي نقل أخبار مجزرة يافا على ما قامت به القوات البريطانية بقوله: " وأخذ ضباط الدولة المتمدنة يقومون بعملية التخريب الفظيعة ليؤمن بفضائل الاستعمار من لم يكن مؤمنا بها إلى الآن"(٦٦).

وكان مما نقلته الفلق أيضا أخبار الزيادة اللافتة في أعداد القوة العسكرية البريطانية في بعض المراكز في فلسطين والتي بدت حين رست البارجة (ربلس) في حيفا يوم ١٢ يوليه ١٩٣٨، ونزل منها ٢٠ ضابطا و٢٥٤ جنديا من جنسيات متعددة للمساعدة في ضبط الأمن أو قمع الثورة الفلسطينية، وكانت حمولة البارجة سبعة آلاف طن(٦٧). وقد أثارت هذه الأعداد بعض مراسلي الفلق ودفعت بأحدهم لسؤال المندوب

السامي عن سبب هذه الزيادة الكبيرة في قواتهم مع أن الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين لم يتعد تعداده ستمائة ألف نسمة بين رجل و امراة وطفل. وتساءلت الفلق كيف سيتمكن الفلسطينيون من التزود بالسلاح لمواجهة هذه الأعداد من قوى الاحتلال(٦٨). وتجدر الإشارة هنا إلى تنبه جريدة الفلق إلى التصعيد العسكري البريطاني في فلسطين وتزايد أعداد العسكريين حيث ارتفع عددهم بعد ثورة عام ١٩٣٦ ومنذ حوالي عام ١٩٣٧ إلى ٢٠ ألف ويزيد في مقابل أعداد المقاومين الذين كانت تطلق سلطات الاحتلال البريطانية عليهم اسم (الإرهابيين) والذين قدرت عددهم بـستة آلاف عام ١٩٣٨(٦٩). وعلى الأرجح فإن بريطانيا تذرعت بتصاعد أعمال المقاومة ضدها لتبرير زيادة أعدادها في فلسطين لضبط الأوضاع المتفجرة بين الفلسطينيين واليهود بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة من ناحية، وتحسبا للتطورات الدولية التي سبقت الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى، وكذلك بسبب ظهور تحول في مواقف اليهود المهاجرين المتشددين الذين كانوا يؤيدون بريطانيا في بادئ الأمر بسبب كرههم للنازية في ألمانيا، ثم انقلبوا عليها لمحاولاتها تهدئة العرب بضبط الهجرة اليهودية إلى فلسطين(٧٠).

وبعد انقضاء عامين على بدء ثورة عام ١٩٣٦ نشرت جريدة الفلق تقييماً للأوضاع في فلسطين أكدت فيه أنه على الرغم من مضي عامين على قيام الثورة الفلسطينية، أي حتى عام ١٩٣٨، فإن الأمور في فلسطين كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، والتدخل العربي لإيقاف الثورة على أمل المساعدة البريطانية أثبت فشله، وزادت السياسة البريطانية القمعية تجاه عرب فلسطين فأتلفت مؤن القرى، ودُمر كثير من المنازل وتم إلقاء القبض على الزعامات والقيادات الفلسطينية فمنها من أودع السجن ومنها من نفي خارج فلسطين، ومن اتهم بالجهاد تم إعدامه. هذا عدا الغرامات التي فرضت على الشعب الفلسطيني لزيادة الضغط عليه وإجباره على قبول الأمر الواقع. وكان أيضا أن أغلقت المدارس الفلسطينية وتحولت إلى ثكنات للجنود البريطانيين وتصف جريدة الفلق الحالة في فلسطين في تلك الفترة بأنه "لا يرى فيها إلا شهيدا أو قتيلا، ولا تسمع إلا نوح أيم أو يتيم فالخراب والدمار في كل مكان"(٧١).

ويظهر المقال عمق الأسى الذي خلفته أحداث فلسطين. وأن الهدف من نشره هو وضع العرب العمانيين في زنجبار في صورة ما كان يحدث لكسب تعاطفهم مع إخوانهم الفلسطينيين من ناحية ، ولفت النظر إلى تنسيق العمل الذي كان قائما بين البريطانيين والإسرائيليين لتحويل حياة العرب الفلسطينيين إلى جحيم يدفع بهم إلى مغادرة فلسطين وتركها للإسرائيليين يقيمون دولتهم عليها.

وبسبب تصاعد أعمال العنف التي تقوم بها قوات السلطة البريطانية ضد الفلسطينيين وانتشار أخبارها من جهة، ومخاوف بريطانيا من زعزعة ثقة العرب بها

في وقت بدت فيه نذر الحرب العالمية الثانية واضحة، سارعت بريطانيا لتقديم بيان عن طريق وزارة خارجيتها عام ١٩٣٩ نقلا عن وزارة الحربية، تكذب فيه الاتهامات الموجهة ضد جنودها، واعتبرت أن هذه شائعات مغرضة للنيل من بريطانيا في إشارة إلى الدعاية التي كانت تبثها دول المحور ضد السياسة البريطانية في فلسطين بشكل خاص(٧٢).

ونظرا لأهمية الموضوع، ووقوفا مع الفلسطينيين، سارعت جريدة الفلق لنشر رد الزعماء الفلسطينيين على بيان وزارة الخارجية البريطانية الذي تضمن عدة نقاط هي:

١- أن البيان هو التفاف على الحقائق لإخفاء السياسة البريطانية القمعية القائمة وأشار إلى وجود شهود ومستندات تؤكدها.

٢- ذكر الرد الفلسطيني أن عدد الثوار الفلسطينيين يتجاوز العشرة آلاف ثائر وليس كما ذكره البيان البريطاني ١٥٠٠ ثائر.

٣- وبالنسبة لتكذيب إعدام السلطة البريطانية للمعتقلين العرب ، أكد الفلسطينيون خبر الإعدامات واستشهدوا على ذلك بقضية مقامة في يافا على أربعة من النبلاء الانجليز.

٤- وأشار الرد الفلسطيني إلى الشهداء المدنيين من الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم عدد الشهداء من الثوار.

٥- وعلق الرد الفلسطيني على أعمال تدمير الأحياء والمنازل الفلسطينية في يافا مستشهدا بما أورده تقرير لجنة بيل عن الأحداث في فلسطين واعتبار اللجنة " أن تدمير الأحياء في يافا انتقام لا مبرر له"(٧٣). وذكر الرد الفلسطيني أن أعمال تدمير المنازل طالت جنين والسبيلة، وكثير من المدن والقرى الفلسطينية.

٦- ونفى الرد الفلسطيني المزاعم البريطانية عن وجود خلاف بين الثوار، واعتبر أن بريطانيا تستخدم رجالا ضعاف النفوس لنشر أخبار كاذبة لتزعزع ثقة الفلسطينيين بقياداتهم.

٧- ورد الفلسطينيون على تكذيب البيان البريطاني وادعائه بعدم المساس بالمساجد، واتهم البيان السلطة البريطانية بتدمير أو إصابة ثلاثين جامعا في فلسطين بأضرار منها جوامع جنين وشراب ويافا وغيرها.

٨- وبالنسبة للجامع الأقصى في القدس لم يسلم هو الآخر من الاعتداء عليه، حيث أصيب برصاص أدى للتخريب فيه. والأكثر إثارة لمشاعر المسلمين إقدام سلطات الانتداب على إقامة مخافر عسكرية في نطاق الحرم بالقدس، حيث كان الجنود

البريطانيون يشربون الخمر علنا مما أساء لمشاعر المسلمين واعتبروه تعديا على حرمة المسجد([٧٤]).

٩- وعن التضييق على المواطنين الفلسطينيين والضرائب والغرامات التي أنكرت بريطانيا فرضها رد البيان بأن هذه الضرائب استنفذت ثروات الفلسطينيين واعتبر أن السبب الرئيس في الثورة هي حالة الإحباط واليأس عند الفلسطينيين([٧٥])، وليست من عمل المفتي أمين الحسيني، وأن المفتي واللجنة العربية العليا تمثل حالة اليأس عند الشعب العربي. وفي ذلك إشارة إلى الاتهامات التي وجهتها بريطانيا للمفتي الشيخ أمين الحسيني عن دوره في التحريض ضد بريطانيا.

١٠- واتهم الرد السلطة البريطانية بمنع حرية الرأي على الفلسطينيين وصحفهم في حين يترك لليهود ومناصريهم حرية الكتابة وحرية الصحافة ليقوموا بالترويج للسياسة البريطانية المعادية للعرب. وأخيرا اقترح الرد الفلسطيني مدعوما من العرب تشكيل لجنة محايدة لتقصي الحقائق في فلسطين ([٧٦]).

ثالثا- استنهاض الشارع العربي:

سعت جريدة الفلق باستمرار للربط بين القضايا التحررية المختلفة التي يعاني منها الشعب العربي وبين ما يحدث في فلسطين، فعندما قام التحالف الثلاثي بين السعودية والعراق واليمن عام ١٩٣٨، عقد العمانيون في زنجبار عليه الأمل في توحيد الصف العربي بل دعوا لتوسيعه بانضمام سورية ومصر وذلك بهدف توحيد الجهود بحيث يكون تحالفا خماسيا بهدف تحرير فلسطين والإمارات العربية الواقعة على الخليج العربي وشمال إفريقيا، وحضرموت وزنجبار من سيطرة الغرب ولإنهاء الويلات التي تتعرض لها هذه الأقطار بالإضافة للنهوض بالعرب وتوحيد طاقاتهم بعد أن ضاق العرب بما يحدث من تعديات على بلدانهم([٧٧]).

وكانت الفلق تنشر لمحب الدين الخطيب([٧٨]) مقالات داعية للوحدة العربية للوقوف في وجه الاستعمار في الجزائر وفلسطين وفي عدن ومن مقالاته: " قد يكون العربي في الجزائر أوفي فلسطين أوفي عدن لا يستطيع أن يحقق أمانيه القومية بقوة من جنس القوة التي سلبته تلك الأماني، ولكن هل يستطيع العربي في الجزائر أوفي فلسطين أوفي عدن أن يدعي بأن قوة في الدنيا قادرة على منعه من الإيمان بحقه واقتناعه بأن سعادته لا تتم إلا إذا اجتمع شمل قومية الضاد"([٧٩]).

وعلى الرغم من وصف ما قامت به جريدة الفلق بأنه " أقرب إلى الانفعال العاطفي نصرة وتمجيدا، أكثر من عنايتها بالمستوى التحليلي والخطاب التفكيكي" ([٨٠]) إلا أننا نرى أن هذا الكلام ربما انطبق على بعض دعوات الاحتجاج والنداءات، لكن ما تعلق بشرح الواقع الفلسطيني ووضعه في إطاره التاريخي مثل اتفاقية سايكس بيكو

ووعد بلفور، والمقارنة بين وضع اليهود في العالم وكيفية التعامل معهم ووضعهم في فلسطين يشير إلى فكر تحليلي يسعى لنقل وجهة نظر عربية متضامنة مع معاناة الفلسطينيين وغيرة على الأماكن المقدسة وخاصة هوية القدس.

رابعا: كشف الدور البريطاني في دعم الأماني الصهيونية في فلسطين:

فقد نشرت جريدة الفلق مقالا أكدت فيه أن بريطانيا تسعى لخلق كيان على الضفة الأخرى لقناة السويس يكن لها الولاء، وتساءل كاتب المقال:" هل من عاقل يظن أن الانكليز يريدون فعل ذلك محبة باليهود أو عداوة للعرب بل هي المصلحة التي تهم الدول الاستعمارية"(٨١). لقد أكدت أحداث ما يجري في فلسطين والقدس قناعة العرب بالدور الاستعماري الذي كانت تمارسه بريطانيا في جميع مراكز نفوذها في المنطقة العربية.

وللدلالة على الدور المزدوج الذي مارسته بريطانيا مع العرب واليهود وفي وقت متقارب، استشهدت الفلق بوعود بريطانيا للعرب بتخليص أرضهم من الأتراك وذلك خلال مراسلاتها مع الشريف حسين بن علي التي انتهت بقيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، وفي الوقت نفسه منحت اليهود وعد بلفور عام ١٩١٧ بحجة العطف على أمانيهم في وطن قومي لهم في فلسطين. وقد ورد في مقال نقلته جريدة الفلق عن قس بريطاني قوله أن " بريطانيا خدعت العرب"(٨٢).

وأكدت مقالات عديدة في جريدة الفلق أن بريطانيا تعرف المطالب العربية في فلسطين ورغبتهم في استقلالها، وأن هذا أيضا ما "يريده العالم الإسلامي رضيت اليهود أم لم ترض"(٨٣).

وكما استغربت ما تفعله بريطانيا في فلسطين من تشجيع للهجرة الصهيونية ودعم وتعصب لليهود ضد الفلسطينيين وهو أقسى وأشد غرابة مما فعلته ايطاليا في طرابلس الغرب من حيث إحلال الايطاليين محل العرب، ففي حين تتهم بريطانيا ايطاليا بالتعصب، تمارس هي دعما مطلقا لليهود ضد العرب، وفي الوقت الذي كانت تتباهى به بريطانيا بالعدالة والديمقراطية فإن ما كانت تفعله في فلسطين كان منافيا لذلك، وهذا ما دفع أحد الكتاب إلى التساؤل إن كان العدل هو" ما نشاهده من الفظائع بالأراضي المقدسة"(٨٤). وذكر بريطانيا بصداقتها لبعض حكام العرب مثل ملك الحجاز والملك عبد العزيز، وملك مصر والعراق، وسلطان المكلا وسلطان لحج. وطالب المقال بريطانيا بإيجاد حل للمعضلة الفلسطينية، وأن عليها تقدير وقوف العرب إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى وعلى الأخص الفلسطينيين ، مشيرا إلى الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ والدور الذي لعبته قبائل بلاد الشام إلى جانب بريطانيا(٨٥).

لقد أفقد ما كان يحدث في فلسطين ثقة المواطن العربي في كل ما تقوم به حكومة الاحتلال البريطاني فيها، وعزز فكرة تواطئها مع الأطماع الإسرائيلية في فلسطين وقد نشرت صحيفة الفلق نماذج من هذا التواطؤ من ذلك ما أوردته عن قيام القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين بتحويل حكم للإعدام كان قد صدر من المحكمة العسكرية بحق اليهودي (التمان) لقيامه بإطلاق الرصاص على بعض العرب، إلى حكم بالمؤبد، وشكك صاحب الخبر بأن يقضي التمان حكم المؤبد وذكر: "رأينا في هذا القرار أو الحكم أن الخواجا (التمان) سوف يعود إلى بيته وإخوانه وأصدقائه ومسدسه أو بندقيته بالسلامة دون أن يقضي أياما كثيرة في السجن فضلا عن أيام حياته كلها"(٨٦).

وتابعت جريدة الفلق نشر المقالات التي تكشف التواطؤ البريطاني وكان منها ما كتبه علي الجمالي موضحا التعديات التي تقوم بها السلطة البريطانية في فلسطين على المقدسات الإسلامية وعلى القرآن الكريم، فقد استعرض أساليب الاستفزاز التي يتعرض لها المسلمون على يد القوى الاستعمارية في كل مكان " من مكافحة الإسلام في بلاده وبين أهله وأبنائه، إلى نشر للنصرانية بل بث الرذائل الغربية بينهم، إلى قتل اللغة العربية لتصرفهم عن النظر إلى محاسن الإسلام وفضائله، إلى السعي في إغلاق المدارس، إلى التضييق على زعماء المسلمين وعلماء الإسلام وأئمة الأدب وفطاحل اللغة العربية، بل إلى اضطهادهم ونفيهم......"(٨٧).

كما اهتمت الفلق بتعقب المقالات والكتب المختلفة التي تناولت القضية الفلسطينية مثل الكتاب الذي نشره موزلي؛ رئيس اتحاد الفاشست البريطاني، عن المشكلة اليهودية وبريطانيا، والذي أكد فيه على أن حل مشكلة اليهود لا يكون على حساب العرب في فلسطين لأن العرب حصلوا على وعد من بريطانيا ووثقوا بها لتحرير بلادهم وإقامة دولتهم، وأن أقصى ما يمكن أن يطمع به اليهود في فلسطين هو احترام أماكنهم المقدسة، والسماح لهم بزيارتها. كما رأى صاحب الكتاب أن حل مشكلة الوطن القومي لليهود يمكن أن تكون في أي مكان في العالم غير فلسطين لأن فلسطين وطن للعرب(٨٨).

وعبرت جريدة الفلق عن الشعور بالإحباط الكبير والغبن والقهر من السياسة البريطانية في فلسطين فنشرت الآتي: "إن قرأت عن حرية فاعلم أنها حرية القاتل القوي لا حريتك أنت أيها القارئ. فإن قرأت عن المساواة فاعلم أنها مساواة الفرنسي بالانجليزي مثلا ومساواتنا بالبهائم على الأكثر"(٨٩).

وسعت مرارا لتذكير قراءها بال عهود البريطانية التي لم تنفذ للعرب مثل اتفاقياتها مع الشريف حسين بن علي ممثل العرب في التفاوض مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وكان مما ركزت على نشره تعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة داخليا وخارجيا وأن تكون حدودها شرق من الخليج العربي إلى البحر الأحمر

وحدود مصر والبحر المتوسط، وشمالا حتى حدود ولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات بما في ذلك نهر دجلة حتى مصب النهرين في الخليج العربي(٩٠). ووصفت تلك العهود بالعرقوبية (٩١). وعن وعد بلفور لمن أسمتهم شياطين الصهاينة نشرت: " إن في المسألة مهزلة وجب أن تؤلف منها رواية أشخاصها بلفور ولويد جورج والحسين شريف مكة وأمثالهم"(٩٢).

وخلال سعي القائمين على جريدة الفلق للحصول على المعلومات، تم اللجوء إلى ما كانت تنشره الصحف والجرائد العربية الأخرى مثل (الشباب) و(الفطرة الإسلامية) لإعادة نشره حتى تعم الفائدة أكثر. وقد نقلت عن جريدة الفطرة الإسلامية نص المعاهدات السرية التي عقدتها فرنسا وبريطانيا وروسيا وخاصة اتفاقية سايكس بيكو. وركزت على ما ورد في هذه الاتفاقات بشأن فلسطين واعتبارها منطقة خارجة عن النفوذ العثماني. وأشارت الفلق إلى عدم ذكر فكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين وإنما أشير إلى وضعها تحت إدارة خاصة وقد توقعت جريدة الفلق أنه بسبب عداوة روسيا الشديدة لليهود تجنبت بريطانيا ذكر الوطن القومي واكتفت بوصف الإدارة في فلسطين بأنها إدارة خاصة. لكننا نستبعد مجاملة بريطانيا لروسيا بهذا الأمر، فقد خططت بريطانيا لهذا مع زعماء الحركة الصهيونية لإبعاد فرنسا عن فلسطين وحتى لا تتلامس مناطق نفوذها في مصر مع مناطق النفوذ الفرنسية. وعند صدور وعد بلفور كانت معطيات جديدة قد دخلت بما فيها وقوف الصهاينة مع بريطانيا ماديا وسياسيا وعلميا خلال الحرب العالمية الأولى وجر أمريكا للحرب بجانب بريطانيا تحت ضغط النفوذ اليهودي الأمريكي.

لكن الاستنتاج الذي توصلت إليه الفلق من أن الوطن القومي اليهودي ليس إلا لحماية الاستعمار البريطاني فيه كثير من الصحة حيث تم فصل الجسد العربي بكيان عازل هو إسرائيل. وقد أثبتت الأحداث ذلك لاحقا(٩٣).

وكان ممن أثارتهم سياسة التعسف البريطانية ضد علماء المسلمين وملاحقتهم واضطهادهم فئات إسلامية مختلفة منها جماعة الإخوان المسلمين بقيادة المرشد العام بمصر الذي أرسل كتابا إلى المندوب السامي البريطاني لحكومة فلسطين في القدس تضمن احتجاجا على السياسة التعسفية والإرهابية التي تمارس ضد الفلسطينيين(٩٤).

الموقف العربي من القضية الفلسطينية، كما أوردته جريدة الفلق:

في أعقاب الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، وقيام اللجنة العربية الفلسطينية في القاهرة لمتابعة الأوضاع القائمة في فلسطين، كان السخط العربي والإسلامي عاما للأخبار الواردة من فلسطين، وكانت اللجنة العربية الفلسطينية تقوم بالرد على التساؤلات الكثيرة التي ترد من العرب والمسلمين من أنحاء العالم عما حدث ويحدث في فلسطين(٩٥). وقد أسهمت جريدة الفلق في نقل البيانات الهامة التي كانت تصدر عنها

من ذلك بيان اللجنة العربية عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام ١٩٣٨ والذي تضمن احتجاجا على استمرار تدفق الهجرة اليهودية، وأوضحت اللجنة سخط الشعب العربي على ما ورد في كتاب وزير المستعمرات البريطاني المرسل إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين بتاريخ ١٩٣٨/٣/١٠ والمتضمن سياسة الهجرة للأشهر الستة القادمة.

كذلك أكد البيان أن بريطانيا لا تزال مستمرة في سياستها الضارة بالشعب الفلسطيني رغم الاحتجاجات لذلك لا يركن إلى حسن نيتها(٩٦)، وهي بدلا من أن تسعى إلى تهدئة الأوضاع، وإنهاء الاضطرابات بالاستجابة لنداءات الفلسطينيين وبعض الأقطار العربية بوقف تدفق الهجرة اليهودية، فهي تيسر دخول الآلاف منهم، وقد تمادت في استهانتها بالمطالب العربية بأن تراجعت حتى عن بعض القيود التي وضعتها عام ١٩٣٥ بناء على توصية اللجنة الملكية البريطانية، فتركت الحد الأعلى الموصى به للمهاجرين وأطلقتها بشكل كامل في مناطق أخرى وخاصة "للطلاب والأقرباء"(٩٧) معا يسمح بتدفق أعداد كبيرة من اليهود تحت هذين المسميين.

وعبرت اللجنة العربية العليا لفلسطين في هذا البيان عن غضبها من الاعتذار الذي وجهه وزير المستعمرات للمفوض السامي في فلسطين عن القيود الموضوعة على الهجرة اليهودية التي وصفها بأنها " قيود تحكمية" وأن بريطانيا ستسعى إلى تخفيفها بمجرد وضع المشروع النهائي لتقسيم فلسطين، وعندها سيعود تدفق اليهود بكثرة، ولكن على اليهود أن يصبروا(٩٨).

ومما نبه إليه البيان؛ خطورة الهجرة اليهودية على فلسطين واعتبرها " في مقدمة الأخطار الواقعية التي تهددها في كيانها وفي مصيرها وأنها: "في مقدمة الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات في " الأراضي المقدسة" وتسببت بالضيق والفقر والبطالة، وحتى الجوع. كما أن وقف الهجرة اليهودية كان دائما من المطالب الرئيسية للشعب العربي(٩٩).

وعن تشكيل لجنة تقسيم فلسطين ومغادرتها لندن متجهة إلى فلسطين في ٢١ أبريل عام ١٩٣٨ نقلت جريدة الفلق عن جريدة " ديلي تلغراف" أن هذه اللجنة ستمضي الصيف هناك في "البحث وفي الطواف بداخلية البلاد"(١٠٠). ولم يلق تشكيل هذه اللجنة ترحيبا من اللجنة العربية العليا لما يحمله من غبن للشعب الفلسطيني. لذلك أصدرت بيانا إلى الشعب العربي نشرته جريدة الفلق حول لجنة تقسيم فلسطين التي عرفت باللجنة الفنية، وأكد البيان أن هذه اللجنة تقوم على فكرة تقسيم فلسطين التي أجمع العرب والمسلمون على رفضها من أساسها لأنها تهدد بفقدان الأمة العربية لأراضي فلسطين المقدسة. كما اعتبر البيان أن عملية تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية في قلب البلاد العربية تحمل أخطارا ليس على فلسطين وحدها بل على الأمة العربية كلها

ومن جميع النواحي القومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وأكد البيان على عروبة فلسطين ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعلى فشل حل مشكلة اليهود بإحلالهم مكان الفلسطينيين. وأوضح بشكل خفي الدور البريطاني في خلق هذه المشكلة وأنه ليس من حقها منح اليهود فرصة إقامة وطن لهم في فلسطين التي لا تملكها وأنه " ليس في الوطن العربي أقسام للمنح والهبات"(١٠١).

وردا على أن هذه اللجنة ليس هدفها إلا التقسيم، وهو مضر بالمصلحة العربية؛ أعلنت اللجنة العربية العليا مقاطعتها لهذه اللجنة ورفض الاتصال بها. كما دعت جميع العرب في فلسطين وخارجها إلى مقاطعة هذه اللجنة.

وفي هذا السياق أبدت جريدة الفلق موقفها من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بإشارتها إلى أن الأحوال في فلسطين قبل الاحتلال البريطاني لها عام ١٩٢٠، وخلال الوجود العثماني كانت هادئة، عاش فيها أعداد من اليهود مع سكان فلسطين العربية بهدوء وسلام، ومع بروز فكرة إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، وما تلاها من صدور وعد بلفور والممارسات التي لحقت به لتنفيذه، كل ذلك أساء للعلاقة بين الفلسطينيين واليهود المقيمين والقادمين الجدد(١٠٢).

وأشارت جريدة الفلق إلى أنها تتفهم رغبات اليهود في إنشاء وطن قومي لهم ولكن لم يكن مقبولا أن يأتي هذا الوطن على حساب السكان العرب في فلسطين. وذكرت أنه: "على ساسة أوربا، وبالأخص بريطانيا أن يفتشوا عن اقليم يفيدهم لإنشاء وطن لهم – اليهود– غير فلسطين العربية،.... وأن فلسطين العربية للعرب وحدهم ولا يمكن إنشاء وطن قومي لليهود فيها، هذه كلمة واحدة يقولها العالم العربي والناطقون بالضاد أجمعون"(١٠٣).

ولم تكن بيانات اللجنة العربية العليا وحدها التي تفند وتندد بما يحدث في فلسطين، فقد نشرت جريدة الفلق احتجاجا أرسلته جمعية الإخوان المسلمين بمصر للمندوب البريطاني في فلسطين ومما جاء فيه "إننا لا ننكر على فخامتكم أن العالمين الإسلامي والعربي قد يئسا كل اليأس من عدالة الحكومة البريطانية، وإن ما يتشدق به المسؤلون في لندن والقدس وجنيف عن الرغبة في إنصاف العرب وتأمينهم على حقوقهم وبلادهم ومقدساتهم إن هو إلا كلام أثبتت الوقائع عدم صحته، بل إن السلطة البريطانية تعمل على النقيض من ذلك"(١٠٤) وأشار الاحتجاج إلى ضيق المسلمين في كل أنحاء العالم للظلم والفظائع التي يتعرض لها الفلسطينيون لأنهم يعتبرون فلسطين جزءا منهم. وأن المسلمين لن يسكتوا على ما يحدث في فلسطين " ويأسفون لهذا العناد والإصرار من جانب السلطة البريطانية على خدمة شديدة الضرر عظيمة الخطورة"(١٠٥). وقد أكد الإخوان المسلمون أن الحل الوحيد لفلسطين ليس في سياسة القمع والتعذيب والاضطهاد وإنما " بالاعتراف بحقوقهم في بلادهم والتسليم بمطالبهم الأساسية التي

عاهدوا الله على تحقيقها"(١٠٦). وقد وقع الاحتجاج حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين.

الدور البريطاني والإسرائيلي في تهويد مدينة القدس ورصد جريدة الفلق له:

شكلت أوقاف فلسطين الموجودة في المسجد الأقصى أهمية عالية-ليس فقط لقيمتها المادية ولكن أيضا لما كانت تمثله من تثبيت حقوق ملكيات الشعب الفلسطيني في فلسطين فهي " تمثل نوعا من الارتباط بالأرض واندماج الفرد في مجتمعه الذي عاش فيه قرونا"(١٠٧).

وقد تنوعت أوقاف القدس فمنها: ما أوقف على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وما أوقف على المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، وعلى قبور الأنبياء في القدس وعلى قبر الخليل عليه السلام وغيره(١٠٨). ونظرا للحقوق التاريخية التي تمثلها تلك الأوقاف سعت السلطة البريطانية مدعومة من الحركة الصهيونية إلى طمس الهوية العربية للقدس عن طريق وضع يدها على وثائق الممتلكات العربية المحفوظة في المسجد الأقصى تمهيدا لإخفائها، وانتقاما من الحاج أمين الحسيني أحد زعماء الثورة الذي اعتصم بالمسجد الأقصى بعد محاولة اغتياله(١٠٩)، كذلك انتقاما من أهالي القدس لتشكيلهم اللجان القومية التي قادت الإضراب في فلسطين عام ١٩٣٦. وقد رصدت جريدة الفلق السطو البريطاني على تلك الوثائق في مقالاتها وبينت أساليب تهويد مدينة القدس معتمدة على بيان أصدره مسلمو فلسطين عن هذه الإجراءات التي اتخذت. وفيما يلي أهم النقاط التي تضمنها كما نشرتها جريدة الفلق(١١٠):

١- قيام الحكومة البريطانية في فلسطين بتنفيذ مخططها لنقل دوائر المجلس الإسلامي الأعلى والأوقاف من مكانها الحالي في المسجد الأقصى إلى إحدى دوائر حكومة فلسطين في القدس.

٢- غاية الحكومة البريطانية من نقل هذه الجهات هووضع يدها على سجلات هذه الدوائر بما فيها " من وثائق ومستندات وحجج مثبتة لوقف عقارات الأوقاف وأملاكها وأراضيها في فلسطين".

٣- وجود عدد من موظفي الحكومة البريطانية من اليهود ممن يسعون لإجلاء العرب والمسلمين الفلسطينيين عن هذه المناطق المقدسة وحرمانهم من حقوقهم فيها، وبالتالي فإن وجود هذه الوثائق والحجج عند حكومة الانتداب البريطانية سيسهل لهؤلاء الموظفين إتلاف حجج أوقاف المسلمين ووثائقهم ومستنداتهم أكان بذريعة التلف أو الحرق غير المتعمد

٤- دور السلطة البريطانية في فلسطين في تسهيل الهيمنة اليهودية على المسجد الأقصى لتحويله إلى كنيس يهودي على أنقاض هيكل سليمان المزعوم وجوده تحت المسجد الأقصى وتحقيق وعد بلفور الذي ألزمت بريطانيا نفسها به عام ١٩١٧.

٥- إذا تحقق للصهاينة إتلاف تلك الحجج فإن حقوق الأوقاف الإسلامية وممتلكاتها الموقوفة للإنفاق على الأماكن المقدسة سيقضى عليها وستحرم تلك الأماكن بما فيها المسجد الأقصى والمساجد الإسلامية الأخرى في فلسطين من الإنفاق عليها وسيؤدي ذلك إلى خرابها وبالتالي تعطيل إقامة الشعائر فيها وتشتيت رجال العلم والشؤون الدينية، الذين تعتقد بريطانيا والصهاينة معا أن دورهم محوري في بث الوعي الوطني والديني في الشعب الفلسطيني مما يعرقل المخططات الإسرائيلية التي تهدف إلى ترحيل الفلسطينيين والسيطرة على أراضيهم وممتلكاتهم، وهذا يطرح رمزية المكان المقدس بالنسبة لليهود، لأنهم ينتمون إلى أعراق مختلفة لا يجمعها سوى الرابط الديني، لذلك كان لابد من إيجاد مكان يحج إليه يهود العالم ويكون جاذبا لهم.

٦- قيام سلطة الانتداب البريطانية المشرفة على إدارة الأوقاف الإسلامية بعدة خطوات لتأمين السيطرة الصهيونية على المسجد الأقصى والأماكن المقدسة الإسلامية وعلى مراحل منها: إلغاء دائرة المعاهد الدينية في المجلس الإسلامي الأعلى وعزل مديرها([١١١]). وهدفها من ذلك إزالة عقبة من أمام عملية التبشير والتضليل التي لجأت إليها السلطة البريطانية والتي قامت بتمويلها وحمايتها لتهيئة البيئة الحاضنة للوطن الصهيوني الذي وعدت بتحقيقه عام ١٩١٧.

٧- ومع بدء أحداث الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ وحتى من قبل ذلك أي منذ ثورة الشيخ عز الدين القسام أدركت بريطانيا خطورة دور رجال الدين المسلمين وتأثيرهم على الشارع الفلسطيني لذلك عمدت إلى " اعتقال جماعة من خيرة العلماء والوعاظ والمدرسين والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية ". وزجت بهم في السجون دون أن تتمكن من توجيه تهم معينة. وبدا واضحا أن الهدف هو الحيلولة دون نشر الوعي ضد الاحتلال وضد الوجود الصهيوني، ومنع نشر ثقافة المقاومة بين الفلسطينيين.

٨- قيام السلطة البريطانية بعزل مراقب شؤون التبشير في المجلس الإسلامي الأعلى وألغت وظيفته من ميزانية عام ١٩٣٨. ثم عزلت واعظ سجن القدس.

٩- ومما يؤكد رغبة السلطة البريطانية في إضعاف النفوذ الإسلامي في القدس هو تسهيلها عقد المؤتمر التبشيري المسيحي على جبل الزيتون بالقدس منذ عام ١٩٢٧. حيث حضره مبشرون من كافة أنحاء العالم.

وخوفا على عروبة القدس نشرت الفلق النداءات التي كان يوجهها الفلسطينيون لإخوانهم العرب والمسلمين ومنها أخبار المحاولات التي كانت تقوم بها سلطات الانتداب البريطاني لطمس هوية القدس العربية والهيمنة على مقدسات المسلمين وأوقافها. ودعوة العالم الإسلامي لتدارك الخطر الذي يهدد النفوذ الإسلامي في القدس. ومما نشرته في أحد مقالاتها هذا البيت من الشعر:

" تداركونا وفي أغصاننا رمق   فما يعود اخضرار العود إن يبسا"(١١٢).

مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ والموقف العربي منه، ورصد جريدة الفلق له:

سبق انعقاد المؤتمر الذي دعت إليه بريطانيا في لندن عام ١٩٣٩؛ مؤتمر المائدة المستديرة، انعقاد مؤتمر عربي في القاهرة في فبراير عام ١٩٣٩(١١٣)، حيث عقدت ثلاثة اجتماعات في رئاسة مجلس الوزراء في القاهرة برئاسة محمد محمود باشا رئيس الحكومة المصرية بهدف بحث الموقف العربي الذي سينقله الوفد إلى مؤتمر لندن. وقد صدر عن هذا المؤتمر ثلاثة بلاغات أصدرتها رئاسة مجلس الوزراء المصرية تضمنت توحيد وجهات النظر العربية حول المطالب التي سينقلها الوفد العربي إلى لندن. وقد نشرت جريدة الفلق خبر انعقاده باسم؛ مؤتمر القاهرة التاريخي، وأوردت فيه أسماء ممثلي الدول العربية المشاركة(١١٤). كما أوردت تشكيل الوفد المصري المشارك للوفد العربي كما أمر به الملك فاروق، وتشكيل الوفد الفلسطيني(١١٥).

وبعد ذلك تابعت الفلق تطور أخبار الوفد العربي منذ وصوله إلى لندن، وأكدت أن ما يطالب به الوفد هوحق وأنه يمثل مطالب العالمين العربي والإسلامي(١١٦). في محاولة منها لدعم موقف الوفد العربي.

وفي ٢٥ فبراير ١٩٣٩، نشرت مقالا بعنوان "العالم العربي ينتظر إنصاف عرب فلسطين" وطالبت الوفد العربي؛ الذي حسب قولها يمثل حكومات عربية مستقلة لها صداقة مع بريطانيا، طالبته أن لا يرجع "بدون فائدة للفلسطينيين"(١١٧).

الخاتمـــــــة:

لقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج منها:

١- أن القضية الفلسطينية كانت حاضرة في أذهان العرب العمانيين في زنجبار، كما كانت حاضرة لدى جميع الشعوب العربية، ولم يؤثر البعد الجغرافي ولا الوجود الاستعماري البريطاني في زنجبار على التعبير عن مشاعر الغضب لما يتعرض إليه الفلسطينيون والأماكن المقدسة الفلسطينية.

٢- أن الصحافة العربية في زنجبار وجريدة الفلق بشكل خاص أسهمت بدور فاعل في نقل أحداث ما يجري في فلسطين، وفي إثارة مشاعر الجماهير العربية والإسلامية لدعم القضية الفلسطينية.

٣- أن اللجنة العربية العليا؛ التي أشرفت على إدارة المقاومة العربية في فلسطين منذ عام ١٩٣٦، كانت على تواصل مع الزعماء والمثقفين العرب العمانيين في زنجبار للاستفادة من دعمهم للقضية الفلسطينية.

٤- تنوعت أشكال الدعم العماني العربي في زنجبار للقضية الفلسطينية، وخاصة بعد تشكيل اللجنة العربية في زنجبار" للجنة دعم مسلمي زنجبار" بين الاحتجاجات التي كانت تقدمها للمقيم البريطاني في زنجبار، وبين جمع التبرعات وإرسالها إلى منكوبي فلسطين، بالإضافة إلى دعم الموقف العربي والإسلامي الرافض لسياسة تقسيم فلسطين وللممارسات القمعية للسلطة البريطانية فيها. كذلك الكشف عن الممارسات البريطانية والصهيونية في تهويد القدس وفلسطين والاستيلاء على حجج الأوقاف الفلسطينية لطمس الوجود التاريخي والحقوق الفلسطينية في أرض فلسطين.

٥- وأوضح البحث الأسى الذي كان يستشعره عرب زنجبار العمانيين جراء ما يلقاه إخوتهم في العقيدة والعروبة من معاناة.

٦- أن النداءات التي كانت ترد على صفحات جريدة الفلق حملت في طياتها تحذيرا من مغبة النوايا الصهيونية والبريطانية تجاه فلسطين ودعوة للعرب حتى لا يخذلوا الفلسطينيين.

٧- وأخيرا لابد من القول أن من يستعرض مواقف عرب عمان في زنجبار كما عرضتها الصحافة هناك لابد أن يصل إلى مدى عمق الأذى الذي ألحقته الممارسات البريطانية الداعمة للحركة الصهيونية في العلاقات العربية البريطانية. ويفتح هذا الباب واسعا أمام دراسة الأخطاء التي ترتكبها القوى الداعمة لإسرائيل على حساب الحق العربي.

الهوامـــــش

1- تقع جزيرة زنجبار في مقابل الساحل الشرقي لإفريقيا، وتعتبر اليوم جزءا من تنزانيا، وقد استقر العرب فيها منذ عهود مبكرة ، ثم امتد إليها نفوذ دولة اليعاربة العمانيين مع غيرها من مناطق الساحل الشرقي لإفرقيا في بدايات النصف الثاني من القرن السابع عشر، وفي عام ١٨٣٢ غدت زنجبار عاصمة لدولة آل بوسعيد العمانية زمن السيد سعيد بن سلطان، واستمر الحكم العربي فيها حتى عام ١٩٦٤م على الرغم من تقسيم الدول الاستعمارية لها وفصلها عن عمان عام ١٨٦١. لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى مقدمة كتاب
Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Indpendent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Puplishing,2002

2- جريدة النهضة صاحبها ورئيس تحريرها سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد، جريدة أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل أسبوع. بدأ صدورها عام ١٩٥١م

3- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨- ١٩٤٨، شرق برس، نيقوسيا، قبرص، ١٩٩٠، ص ١٥٧- ١٦٣.

4- الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٩، ١٩٨٥، ص ٢٦٠. وانظر إبراهيم إبراش، البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص ٦٤ ، للإطلاع على أسباب ثورة ١٩٣٥

5- الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٦٩.

6- حول الدعم العربي للفلسطينيين انظر، حوراني، مصدر سابق، ص ٢٤٥- ٢٤٦

7- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥-١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٧.

8- مصطفى، المصدر السابق، ص٨.

9- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية_ تحليلية. المجلة العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد ٨٨، خريف ٢٠٠٤، ص ٧٥.

10- Middleton , John & Jane Campbell, Zanzibar, Its Society and its Politics, Green wood press, Publishers, Oxford University, 1965, p 43. كما يمكن العودة إلى Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890- 1913, Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut, pp 207- 216.

11- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي ١٩١١- ١٩٦٠، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩، ص ٩٤. كما يمكن العودة إلى Middleton مرجع سابق ص ٤ ، للإطلاع على تطور زنجبار السياسي.

١٢- زاهر بن حارث المحروقي، الصحافة العمانية في زنجبار /1324 /
www. Alfalaq. Com

13- قاسم، جمال زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١- ١٩٧٠، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠. ص ٣٥٦- ٣٥٧. وانظر حول ذلك

Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins of London, 1941, p 22 :
للاطلاع على التطور السياسي الذي طرأ على زنجبار في أعقاب الحرب العالمية الأولى والسيطرة البريطانية.

14- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطاني ١٩١٤- ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠، ص ٨٧.

15- طنش، مصدر سابق، ص٨٨. وكان ظهور هذه الجمعيات(الشيرازية، والقمرية، والإفرقية وغيرها) بتشجيع من السلطات البريطانية بهدف تعزيز العنصرية في زنجبار وقتل الولاء الوطني وتفتيت الوحدة الاجتماعية. حيث أشاعت ومنذ نهاية القرن ١٩ أن الأفارقة الذين يشكلون ٨٠% من السكان يعاملون كأرقاء. حول ذلك انظر
Holligsworth, op. cit., p. 216

16- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, Oxford, Clarendon press, 1965, pp 663-666. حول الدعم البريطاني للهنود على حساب العرب والسواحليين في زنجبار وخاصة في الفترة من١٩٣٣إلى ١٩٣٩

17- قاسم، مصدر سابق، ص ٣٥٨- ٣٥٩. وانظر، ناجية محمد الصالح الخريجي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا ١٨٠٦- ١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣، ص١٠٤-١٠٥ للاطلاع على الضغوط التي مارسها الهنود على العرب في تجارة القرنفل.

18- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٧٧. كما يمكن العودة إلى جريدة الفلق، ١/٩/ ١٩٣٧. وإلى جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص ٣٩٥.

19- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٣٤.

20- Shahbal, op.cit, p 97-98
كما يمكن العودة إلى الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق أفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط،٢٠٠٦.ص٤٠.

21- الكندي، محسن، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها ا الشيخ هاشل بن راشد المسكري نموذجا، رياض الريس، لبنان، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٦٤.

22- الحارثي. مصدر سابق، ص ٤٠.

23- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٤٠- ٤٥. كما يمكن العودة إلى الكندي عبد الله، بدايات الصحافة، مصدر سابق، ص٧١.

24- أغلقت هذه الصحيفة لمدة عام في الفترة من ١٩/٦/١٩٥٤ إلى ١٩/٦/١٩٥٥، بتوجيه ثمانية اتهامات ضدها منها أربعة بتهمة تحريض الشعب. انظر عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٩١..

25- الكندي، عبد الله، مصدر سابق، ص ٨٢. ويذكر عبد الله الكندي ثلاثة أهداف لاهتمامها بالموضوعات السياسية، حول ذلك انظر المصدر نفسه ص ٨٣.

26- الحارثي، مصدر سابق، ص ٤٠.

27- الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبروري ١٩٣٨، ص١

28- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٤٢.

29- الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب إغاثتها العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨، ص ٢.

30- الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٦٥، ٣٠ مي ١٩٣٨، ص ٤.

31- الأمير سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد ١٩١٩- ١٩٦٣م، واجه سلطات الاحتلال البريطاني في زنجبار وترأس الجمعية العربية فيها، وشارك في جريدة الفلق بعدة مقالات وتولى رئاستها من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٠. ثم أسس جريدة النهضة عام ١٩٥١م. حول تاريخه انظر ناصر بن عبد الله الريامي، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩، ص ص ٢٠٣- ٢٠٦. وقد وصفه جمال زكريا بأنه كان من أبرز الزعماء المتشددين الذين تحدوا بريطانيا حتى أنه تعرض للسجن والاعتقال مرات عديدة. انظر جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص ٣٦١. وحول إصداره جريدة النهضة يمكن العودة إلى Bin shahbal,op.cit, p 97-98

32- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

33- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

34- الفلق، إعلان، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٤.

35- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

36- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

37- الشيخ علي محمد الجمالي هوموظف مساعد للمستشار المالي لسلطان زنجبار.

38- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

39- الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي ١٨٨٦- ١٩٧١م. من أعضاء الحزب الوطني في زنجبار. وصف بأنه أحد أقطاب الأدب العماني، وبأنه أحد قادة التنوير في زنجبار. وبأنه " محرك عقيدة الرأي العام العربي في زنجبار"، حول ذلك انظر الريامي، مصدر سابق، ص ص ١٦٢- ١٦٥.

40- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

41- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

42- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٤.

43- شكلت التبرعات التي جمعت من الدول العربية والإسلامية لدعم الثورة الفلسطينية ومساعدة المنكوبين هناك مخاوف لكل من البريطانيين واليهود. انظر الكيالي مصدر سابق، ص ٣٨٠- ٣٨١ وغيرها من الصفحات.

44- طنش، مصدر سابق، ص ٨٩.

45- المغيري، سعيد بن علي بن جمعة، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥ ص ٤٦٩.

46- يعتبر الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي ١٨٦٣- ١٩٣٥م من رواد السياسة والدبلوماسية في زنجبار، ومن الذين نفتهم بريطانيا إلى الهند خلال الحرب العالمية الأولى، حول ذلك انظر الريامي، مصدر سابق ، ص ص ٨٧- ١٠٦.

47- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٣. كما يمكن العودة إلى عبد الوهاب الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٤ ، حول موقف اللجنة العربية العليا في فلسطين.

48- الفلق،هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني،العدد٢١،٤٨٨ مي١٩٣٨، ص ٣

49- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني،العدد٢١،٤٨٨مي ١٩٣٨، ص٣

50- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.

51- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣-٤.

52- حول دور جمعية منتجي القرنفل يمكن العودة إلى كتاب المغيري، مصدر سابق، ص ٤٣٦.

53- قاسم، مصدر سابق، ص ٣٦٠- ٣٦٢.

54– الكندي، محسن، المصدر السابق، ص ٢٠٤– ٢٠٥.
55– الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب اغاثتها، العدد ٤٨١، ٢ أبريل١٩٣٨، ص٢. كما يمكن العودة إلى الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٧٧– ٨٠.
56– الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير ١٩٣٨، ص٤. وهناك إشارات كثيرة في أعداد مختلفة إلى جهات حصول الفلق على معلوماتها. كما يمكن العودة إلى عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٨٠.
57– الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير١٩٣٨، ص٤.
58– الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨،
59– الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨،
60– الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨، ص٤.
61– الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
62– الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
63– الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
64– الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، الشباب، ص ٣
65– الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨، ص١.
66– الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨، ص١.
67– الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ٣. ويمكن العودة للمقال نفسه للإطلاع على جنسيات الجنود.
68– الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص٣.
69 – Hilton, Richard, The Thirteen Power The Middle East and The World Situation, Christopher Johnson, London, 1958, p. 96.
70 – Hilton, op.cit,pp 96-97.
71– الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
72– الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يدحضون الدعاوي الانكليزية، ، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
73– الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، المصدر السابق، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢
74– الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، مصدر سابق،، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
75– حول تردي أوضاع الفلسطينيين في تلك الفترة انظر، الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٢– ٢٨٣.
76– الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، مصدر سابق،، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
77– الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨. ص١.
78– محب الدين الخطيب ولد في دمشق عام ١٨٨٦، وأسهم في تأسيس عدد من الصحف، كما أنشأ جمعية الشبان المسلمين في القاهرة بعد أن لجأ إليها فارا من وجه الاحتلال الفرنسي، له الكثير من المؤلفات. لمزيد من الإطلاع يمكن العودة إلى كتاب الأعلام للزركلي.
79– الفلق، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨.
80– الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.
81– الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٢
82– الفلق، قس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب،العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨، ص٣.
83– الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
84– الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.

85- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
86- الفلق، نقلا عن أخبار رويتر، العدد ٤٧٤، ١٢ فبراير، ١٩٣٨، ص ٤.
87- الفلق، أمس واليوم، العدد ٤٨٩، ٢٨ مي ١٩٣٨، ص ١.
88- الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧، ص ٣. ونلاحظ في هذا المقال إدراك دول المحور مدى تأثر العرب بأحداث القضية الفلسطينية ومحاولة استغلالها لزيادة كراهية العرب ببريطانيا المؤسسة للكيان الصهيوني في فلسطين.
89- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد، السبت١٦ جولاي ١٩٣٨. ص١.
90- الفلق، أخبار وحوادث عهود بريطانيا للعرب في الحرب الكبرى، العدد ٥٣٠، ١٨ مارس، ١٩٣٩، ص ٢.
91- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد ، السبت ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ١.
92- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد ، السبت ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ١.
93- الفلق، المعاهدات السرية، العدد ٥٣٢، ٢٥ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
94- الفلق، احتجاج، العدد ٤٨٦، ٧ مي ،١٩٣٨، ص ٢
95- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
96- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
97- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
98- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
99- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
100- الفلق، أخبار خارجية ، العدد ٤٨٣، ١٦ أبريل ١٩٣٨، ص٤
101- الفلق، مشكلة فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨، ص ٣
102- الفلق، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨، ص٣.
103- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
104- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣-٤.
105- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣.
106- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣.
107- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٧ ، ص ١٣٨.
108- عطا، مصدر سابق ، ص ٢٤.
109- الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٥.
110- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
111- كانت هذه الدائرة مؤلفة من تشكيلات لها نظمها وقوانينها ويتبعها عدد من الوعاظ والمدرسين والخطباء ورجال الدين، وكانت تمارس دورا هاما في التوعية والإرشاد عن طريق إرسال عدد من رجال الدين للمدن والريف وحتى إلى البادية لإلقاء الخطب والدروس الدينية وإبعاد المواطنين هناك عن خطر التبشير والتضليل. حول ذلك انظر جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
112- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
113- الفلق، مؤتمر القاهرة التاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢

114– الفلق، مؤتمر القاهرة التاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢. وكان من المشاركين الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ممثلا عن السعودية ومعه في الوفد فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية، وإبراهيم السليمان بن عقيل رئيس ديوان نائب الملك في الحجاز. وحضر ممثلا لليمن الأمير سيف الإسلام الحسين، يرافقه القاضي العمري. وعن العراق حضر نوري السعيد رئيس الوزارة العراقية. وعن حكومة شرق الأردن حضر الشيخ فؤاد الخطيب. أما الوفد الفلسطيني فتألف من عدد من الشخصيات وغاب عن وفدها أحمد حلمي بدعوى اعتلال في صحته. ومن بيروت جاء جمال الحسيني. وحضر ألفريد روك من أعضاء اللجنة العربية العليا لفلسطين. حول ذلك انظر المصدر نفسه.

115– تألف الوفد المصري من: الأمير عبد الله المنعم نجل الخديوي السابق، وعلي ماهر رئيس الديوان العالي الملكي، وحسن نشأت سفير مصر في لندن. أما الوفد الفلسطيني فقد قررت اللجنة العربية العليا تمثيله برئاسة المفتي أمين الحسيني، وكانت هذه اللجنة تتألف من عشرة أعضاء. لكن المفتي أمين الحسيني امتنع عن رئاسة الوفد إلى لندن وأرسل جمال الحسيني نائبا عنه لرئاسة الوفد. كما امتنع عضوان آخران من اللجنة العربية العليا عن المشاركة في الوفد وهما: أحمد حلمي، وعزة دروزة. فاستعاض الوفد عنهم من غير هيئة اللجنة بثلاثة هم: جورج أنطونيوس وأمين التميمي، وموسى العلمي. وكان سبعة فقط من أعضاء الوفد الفلسطيني سيتولون المفاوضات وهم: جمال الحسيني وعوني عبد الهادي وحسين الخالدي وألفريد روك وموسى العلمي، وأمين التميمي، وجورج أنطونيوس الذي استلم أعمال السكرتارية. أما الثلاثة الباقون فكانوا بصفة مستشارين وهم: عبد اللطيف صلاح، ويعقوب الغصين، وفؤاد سابا. انظر: مؤتمر القاهرة التاريخي، الفلق، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢.

116– الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.

117– الفلق،العالم العربي ينتظر إنصاف عرب فلسطين، العدد ٥٢٨، ٢٥ فبراير ١٩٣٩، ص٢

المصـــــادر والمراجـــــع

- إبراش، إبراهيم، البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- جريدة الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير١٩٣٨
- جريدة الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب إغاثتها، العدد ٤٨١ ، ٢ أبريل ١٩٣٨.
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، مشكلة فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، قس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨
- جريدة الفلق، النظرات، العدد ٤٩٥، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩
- جريدة الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يدحضون الدعاوي الانكليزية، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩
- جريدة الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩
- الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق أفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠٠٦.
- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨شرق برس، نيقوسيا، قبرص، ١٩٩٠
- الخريجي، ناجية محمد الصالح، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا ١٨٠٦- ١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣.
- الريامي، ناصر بن عبد الله، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩،
- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي ١٩١١-١٩٦٠رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩.
- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطانية ١٩١٤- ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠
- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر
- قاسم، زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتي نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١- ١٩٧٠، مركز زايد التراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠.

- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية تحليلية. المجلةالعربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد٨٨،خريف ٢٠٠٤
- الكندي، عبد الله بن خميس، *www.nizwa.com/articles* بحث بعنوان مكونات التنوير وشخصياته في صحافة المهجر العماني صحيفة الفلق الزنجبارية نموذجا، منشور في مجلة نزوى،العدد ١٨ تاريخ ٢٨/٦/ ٢٠٠٩.
- الكندي، محسن بن حمود، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصيتها الشيخ هاشل بن راشد المسكري نموذجا، ط٢، رياض الريس للكتب والنشر. ٢٠٠٩.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥-١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦
- المغيري،سعيد بن علي بن جمعة، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥
- Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Indpendent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Puplishing,2002
- Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins of London, 1941
- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, Oxford, Clarendon press, 1965
- Hilton, Richard, The Thirteen Power The Middle East and The World Situation, Christopher Johnson, London, 1958
- Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890-1913, Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut

القدس في حرب ١٩٤٨م

د. هيا عبد المحسن محمد البابطين (*)

مقدمة

تعد مدينة القدس من أهم المدن في العالم، ولها منزلة خاصة في التاريخ، فهي من أقدم مدن العالم، واستهدفت من قبل معظم القادة والحكام .

وهي تتألف في العصر الحديث من قسمين: القدس القديمة، والقدس الحديثة، أما القدس القديمة فهي التي تقع على جبل موريا، ويحيط بها سور قديم من جهاتها الأربع، وفيها كل المقدسات الإسلامية والمسيحية، كالمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة، وفي الجهة الغربية من الحرم القدس يقع حائط البراق[١]، وفي الجهة الشمالية مقبرة مأمن الله ، ويروى أن فيها قبور سبعمائة شهيد استشهدوا في الحروب الصليبية[٢].

أما القدس الجديدة فتقع خارج السور الكبير القديم، وهي تتميز بالعمران الحديث، والأحياء الجديدة، وفيها مسجد الصحابي الجليل سلمان الفارسي، ومسجد رابعة العدوية، واحتلها اليهود سنة ١٩٤٨م، وأكملوا احتلالها سنة ١٩٦٧م .

وكان اليهود يحلمون بالسيطرة على فلسطين عامة، والقدس بصفة خاصة، منذ أن طردهم منها الملك البابلي، نبوخذ نصر، وشتتهم في أماكن عديدة فيما يعرف بالأسر البابلي . وتناقلت هذه الأطماع أجيال اليهود، حتى ظهرت بصورة واضحة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، على يد زعيمهم هرتزل، الذي طلب من السلطان

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

(١) يسمى بالبراق لأن الرسول ﷺ عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربط الدابة التي حملته في رحلته عنده، وكانت تسمى البراق، ويطلق عليه اليهود حائط المبكى لأنهم يبكون عنده مجدهم الضائع، أو حائط هيكل سليمان الذي تم تدميره كما يزعمون، ويريدون إعادة بنائه.

(٢) حول اليهود هذه المقبرة إلى حديقة بعد تسوية قبورها.

العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٨٩٦م ، الحصول على مستعمرة بالقرب من القدس، مقابل دعم مادي كبير للدولة العثمانية، ولكن السلطان رفض عرضه[٣].

ولم ييأس اليهود فقاموا بمحاولة أخرى سنة ١٩٠٢م، وأرسلوا وفداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، ولكنه رفض مقابلتهم، فقدموا عرضاً لرئيس الوزراء تحسين باشا يتضمن تعهد اليهود بسداد ديون الدولة العثمانية، وتقديم قرض قيمته ٣٥ مليون ليرة ذهبية لإنعاش خزينة الدولة، مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل فيها أبناء ديانتهم، في القدس الشريف أثناء حضورهم للزيارة ، وأن تكون الزيارة مباحة في أي يوم من أيام السنة .

ولكن السلطان رفض عرضهم مرة أخرى وقال لتحسين باشا : مرهم فليخرجوا ولا يحاولوا مقابلتي بعدها، أو : الدخول إلى هذا المكان أبداً . ويبدو أن السلطان أدرك أن هذا المطلب لا يتناسب مع الثمن الضخم الذي عرضه اليهود، وأيقن أن هؤلاء يريدون الحصول على موطن قدم في بداية الأمر ليتطلعوا بعد ذلك لاحتلال القدس وفلسطين كلها.

وقد كتب هرتزل عن هذا الموقف للسلطان في مذكراته يقول: (إن السلطان رد كالتالي: انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا حرقت إمبراطوريتي يوماً؛ فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن)[٤].

وبالفعل أدت المؤامرات الصهيونية والاستعمارية إلى خلع السلطان عبدالحميد، بل وإسقاط الخلافة الإسلامية برمتها .

وبعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٠م ، تدفقت جموع كبيرة من اليهود إلى مدينة القدس، وساعدتهم قوات الاحتلال في ذلك عندما أمرت بمنع البناء في الحي الشرقي العربي، وشجعت البناء في الأحياء اليهودية، حتى بلغ عدد اليهود في القدس سنة ١٩٤٨م مائتي ألف نسمة تقريباً [٥].

---

(٣) عبد الحميد الثاني(السلطان) مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة : محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار، القاهرة – ١٩٧٨م، ص٦٥,٢

(٤) مذكرات هرتزل (شبكة المعلومات الدولية – الإنترنت).

(٥) إسماعيل أحمد ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية – دار المريخ ، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٦– ٣٧.

وبدأ نفوذ اليهود يتزايد تحت ظل الاحتلال البريطاني وبدعم منه، وبدأوا الاحتكاك بالعرب لإثبات قوتهم في القدس، كما حدث سنة ١٩٢٩م، فيما يعرف بأحداث ثورة البراق، عندما قامت منظمة بيتار الصهيونية بمظاهرة في القدس، في ذكرى تدمير هيكل سليمان - كما يزعمون - يوم ١٤ أغسطس، ووصلوا إلى حائط البراق الذي يعرف عند اليهود بحائط المبكى، ووقعت اشتباكات بين العرب واليهود سقط فيها كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين، وتدخل الجيش البريطاني مع اليهود ضد العرب، وألقوا القبض على كثير من العرب وقلة من اليهود، وقدموا للمحاكمة التي حكمت بإعدام ٢٥ عربي ويهودي واحد .

وأمام ازدياد الأطماع الصهيونية، في فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة، قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦م، فاضطرت بريطانيا لإرسال لجنة تحقيق تعرف بلجنة بيل الملكية سنة ١٩٣٧م، أصدرت بعد دراسة، الوضع ما يعرف بمشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، بينما تبقى منطقة القدس تحت سيطرة الانتداب البريطاني [٦].

وقد رفض العرب قرار لجنة التقسيم بينما وافق عليه اليهود، لأنه يمنحهم موضع قدم طالما حلموا به منذ ظهور الحركة الصهيونية .

وبعد عدة سنوات قامت الحرب العالمية الثانية، ودخلت الولايات المتحدة طرفا جديدا مساند لليهود في أطماعه بالقدس وفلسطين، وازدادت الهجرة اليهودية بدعم من أمريكا ويضغط منها على سلطات الانتداب البريطاني [٧].

ورأت بريطانيا بعد الحرب أن تعرض القضية على الأمم المتحدة، وخاصة بعد أن اطمأنت إلى لقوة موقف اليهود، بل إن اليهود أنفسهم لم يعد لديهم رغبة في بقاء الانتداب البريطاني بعد أن أدى دوره في مساندتهم، وقاموا بالعديد من الأعمال

---

(٦) أكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة - المجلد العاشر - العدد الأول سنة ٢٠٠٢م، ص٢١، د. حسين شريف، المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، ط١، ص٤٤٠.

(٧) د. سعد بدير الحلواني، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩م، ط٢ - القاهرة ١٩٩٥م، ص ص١٠٤ - ١٠٥.

الإرهابية ضده، مثل تفجير منظمة الأرجون الصهيونية [٨] فندق الملك داود بالقدس، وكان مركزاً للحكومة البريطانية في فلسطين سنة ١٩٤٦م. وإزاء هذه الأحداث قررت بريطانيا عرض مشكلة فلسطين على الأمم المتحدة التي أصدرت، بعد مشاورات في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م، ما يعرف بالقرار ١٨١ أو مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين : دولة يهودية تشمل نحو ٥٥% من أرض فلسطين، ودولة عربية على نحو ٤٠%، بينما تخضع مدينة القدس لإدارة دولية نظراً لأهميتها [٩]، وإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وجلاء القوات البريطانية تدريجياً حتى أول أغسطس سنة ١٩٤٨م [١٠].

وقد رفض العرب قرار التقسيم، بينما فرح به اليهود، وعبروا عن فرحتهم بالرقص في الشوارع مبتهجين، وبدأت بعده حرب العصابات بين الطرفين، وكان للقدس النصيب الأوفر منها لطمع اليهود في السيطرة عليها، وتمسك العرب بالاحتفاظ بها .

الصراع العربي – الصهيوني في القدس منذ قرار التقسيم حتى حرب ٤٨ :

قبيل حرب ٤٨ بدأ الطرفان العربي واليهودي في حشد كافة قواهم للسيطرة على البلاد، أو على أكبر قدر ممكن منها، وكانت القوة العربية تتكون من جيش الجهاد المقدس الذي يضم المجاهدين من عرب فلسطين، وجيش الإنقاذ العربي المكون من متطوعين من البلاد العربية، وكان تسليح العرب – بدائياً – بينما تتكون القوة اليهودية من عدة منظمات مسلحة تسليحاً حديثاً، أهمها منظمة الهاجاناة، ومنظمة الأرجون، وقوة شتيرن، وأعدادهم تتزايد باستمرار ، بانضمام المتطوعين إليهم من البلاد الأوربية وأمريكا[١١].

وكان رفض العرب لقرار التقسيم يعني ضمناً أنهم سيستخدمون القوة لمنع تنفيذه، لذلك بدأت مواجهة مسلحة، بين الطرفين من أول ديسمبر ١٩٤٧م، حتى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨م، وهي ما يعرف فترة الحرب غير المعلنة [١٢].

---

(٨) كان زعيم هذه المنظمة حينذاك والذي أعطى الأوامر لهم مناحم بيجين الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد.

(٩) د. حسين شريف – المفهوم السياسي، ج١، ص٦٢٦.

(١٠) عبدالرحمن الرافعي – في أعقاب الثورة المصرية، ج٣ ص٢٦٠.

(١١) د. إبراهيم شكيب – حرب فلسطين ١٩٤٨م – رؤية مصرية، ص٧١.

(١٢) حسن البدري، الحرب في أرض السلام، ص١٧٥.

وكان هدف العرب من هذه الحرب الحفاظ على عروبة فلسطين، بينما كان هدف اليهود هو سرعة السيطرة على الرقعة المخصصة لليهود في قرار التقسيم، وتفريغ فلسطين من أكبر عدد من العرب. وسوف نقتصر في حديثنا عن العمليات التي دارت في القدس بين الطرفين وأهمها : ما قام به اليهود في ٢٧ إبريل سنة ١٩٤٨م فيما يعرف بعملية جيبوس لعزل القدس، وذلك بتدمير حلقة لقرى العربية المحيطة بها، والسيطرة على طريق رام الله – القدس وطريق أريحا– القدس، وطريق بيت لحم – القدس، ولكن العرب تصدوا لليهود، وهزموهم.

وفي ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م قامت قوة يهودية باحتلال منازل عربية في القدس الجديدة، وطرد سكانها منها فيما يعرف بعملية بتشفورك، وفي نفس اليوم كانت هناك قوة يهودية أخرى تقوم بمحاولة لاحتلال القدس القديمة، فيما يعرف بعملية شيفيفون ولكنها هزمت، وتصدت القوات العربية لها [١٣].

وكان سكان القدس قد انخفضت روحهم المعنوية بشكل كبير، خلال شهري إبريل ومايو سنة ١٩٤٨م، بعد وقوع مذبحة دير ياسين في التاسع من إبريل سنة ١٩٤٨م، وهي قرية من ضواحي القدس قامت منظمتا الأرجون وشتيرن اليهوديتان بالهجوم عليها، وذبح جميع سكانها وعددهم ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً، وألقوا بجثثهم في بئر القرية [١٤]، وذلك لبث الرعب والفزع في نفوس العرب، مما يجعل الكثير منهم يهجر قراه ومدنه، دونما تعب من اليهود [١٥].

ويعبر عن ذلك مناحم بيجن زعيم منظمة الأرجون التي نفذت المذبحة بقوله: " كنا في القدس وغيرها أول من انتقل من الدفاع إلى الهجوم، وبدأ العرب يفرون خائفين ... وراح العرب يفرون مذعورين : دير ياسين .. دير ياسين " [١٦].

وقد أصدر مجلس الأمن في ١٧ أبريل سنة ١٩٤٨م قراراً يدعو فيه الطرفين إلى وقف أعمال العنف والنشاط العسكري، كما توصلت الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية إلى اتفاق بوقف القتال داخل مدينة القدس، إلا أن شروطه لم تحدد، كما أن السلطة أو القوة التي تشرف على تنفيذه لم يتفق عليها، ولذلك لم يلتزم به اليهود كعادتهم وأصدرت الأمانة العامة للجامعة العربية بياناً، في ١٩٤٨/٤/٢٨م، أعلنت فيه حرص العرب على حماية الأماكن المقدسة داخل أسوار مدينة القدس القديمة،

---

(١٣) د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص١٠١.

(١٤) د. حسين شريف، المفهوم السياسي، ج١ ص٦٣٢.

(١٥) عبدالله التل، مذكراته، كارثة فلسطين، ص٢٢.

(١٦) د. إبراهيم شكيب : وحرب فلسطين، ص١٠٢.

وموافقتهم على وقف القتال داخل المدينة، وعدم الهجوم عليها من الخارج، أو منها إلى الخارج. كما أعلنت الأمانة العامة استعدادها للمساهمة في نفقات القوة التي ستتكون من رجال الدين لتنفيذ شروط الهدنة [١٧].

كما قررت الأمم المتحدة تشكيل لجنة لتنظيم مستقبل القدس، وطريقة الحكم فيها حسب دستور تضعه هذه اللجنة، وقد نشرت هذه اللجنة مسودة الدستور الذي وضعته لمنطقة القدس، وهو مؤلف من عشرة بنود، قدمته إلى اللجنة العاملة في مجلس الوصاية الدولي لدراسته، وأهم تلك البنود :

١- يضمن الدستور سلامة أراضي مدينة القدس وتبلغ مجلس الأمن عن أي اعتداء يقع فيها.
٢- تجريد منطقة القدس من السلاح وجعلها ذات صبغة عسكرية [١٨].
٣- انتخاب حاكم للمنطقة على أن تكون مدة خدمته ثلاث سنوات، وأن لا يكون من العرب أو اليهود .
٤- يمنح الحاكم سلطات واسعة ولا يكون خاضعاً إلا لمجلس الوصاية الدولي.
٥- يمنح هذا الحاكم سلطات حماية الأماكن المقدسة في فلسطين .
٦- تأليف مجلس تشريعي ينتخبه سكان المدينة، والمنتخبون يكونون ممن تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين .
٧- يتألف هذا المجلس من ٤٠ عضواً ينتخب السكان العرب منهم ١٨ عضواً، وينتخب اليهود مثلهم، ويضاف إلى هؤلاء أربعة آخرين من سكان المدينة.
٨- السماح لرعايا الطرفين(العرب واليهود) بدخول المنطقة دون عائق، على أن يتولى الحاكم مراقبة الهجرة إلى المدينة [١٩].

الصراع العربي اليهودي حول القدس في حرب ١٩٤٨م :

ما أن أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، في ١٥ مايو ١٩٤٨م، حتى أعلن اليهود في نفس اليوم قيام دولة إسرائيل، وكانت سلطات الاحتلال البريطاني قد مكنتهم من السيطرة على القواعد والمواني والأماكن الهامة التي تساعد على قيام الدولة. وشهدت القدس صدور بيان، في منتصف ليلة ١٥ مايو سنة

---

(١٧) د. إبراهيم شكيب : وحرب فلسطين، ص١٢٠.

(١٨) عبدالوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص٤٨.

(١٩) د. وائل عبيد، تاريخ العرب الحديث.

١٩٤٨م، أصدره هو الصهيوني ماير هاي عوزيل، رئيس حاخامية الأراضي المقدسة ومقره القدس [٢٠]، إلى اليهود في الشرق مبينا لهم فيه أنهم قد حققوا، بعون الله، مثلهم الأعلى الذي عمل من أجله جميع الصهيونيين وما زلوا منذ ثلاثة قرون، ألا وهو إنشاء دولة إسرائيل التي اعترفت بها الدول في أرض فلسطين المقدسة .... [٢١].

وكان القادة والرؤساء العرب قد قرروا، في اجتماعهم بعمان بالأردن في ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٨م، دخول الجيوش العربية الحرب في فلسطين [٢٢]، وأوصوا بتعيين الملك عبد الله بن الحسين، ملك الأردن، قائداً أعلى للجيوش العربية، وأن يعين اللواء الركن نور الدين محمود، من العراق، في منصب القائد العام التنفيذي للجيوش العربية.

وفي ١٠ مايو سنة ١٩٤٨م تم عقد اجتماع في القصر الجمهوري بدمشق، بحضور شكوى القوتلي الرئيس السوري، وعدد من القادة العسكريين من الأردن وسوريا ولبنان والعراق، لوضع خطة نهائية للعمليات في فلسطين، وتعيين هدف لكل جيش دولة عربية يصل إليه في وقت محدد [٢٣].

---

(٢٠) علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربيةبيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص ص٣٨٨ – ٤٠٥.

(٢١) د. إبراهيم شكيب، حرب فلسطين، ص١٢٠.

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج٣ ص٢٦٠، ٢٦١.

(٢٣) كانت خطة الجيوش العربية تتضمن ما يلي:

أ – الجيش اللبناني يحتشد في منطقة رأس الناقورة على حدود لبنان فلسطين، ويتقدم منها على الساحل في اتجاه نهارية شمال عكا، ويدمر المستعمرات اليهودية الموجودة في هذه المنطقة.

ب – الجيش السوري يحتشد في منطقة فيق غرب الجولان، ويتقدم لاحتلال صفد والناصرة بعد تصفية ما يقابله من مستعمرات يهودية.

ج – الجيش العراقي يتقدم إلى جسر المجامع على نهر الأردن وبعد ذلك إلى بيسان والعفولة والناصرة.

د – الجيش الأردني يتوجه قسم منه نحو بيسان والعفولة لمساندة الجيش العراقي وقسم آخر يتقدم من قلب فلسطين بعد السيطرة على القدس إلى حنين.

وكانت السيطرة على القدس جميعها من واجبات الجيش الأردني، ثم يتقدم بعد ذلك لمساندة الجيوش العربية الأخرى .

وتم وضع اللمسات الأخيرة لخطة الحرب يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٤٨م، في قصر رغدان بالأردن، بحضور الملك عبد الله بن الحسين، ومندوبى الجيوش العربية المشاركة في الحرب (مصر والأردن ولبنان والعراق وسورية والسعودية)، كما حضره أعضاء اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، برئاسة عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام للجامعة .

وقد أبدت هيئة المستشارين العسكريين المصريين بعض الملاحظات على خطة الحرب التي سبق وضعها في الاجتماع السابق، وأهمها : استحالة تحقيق أهداف كل جيش من الجيوش العربية على حدة، لضآلة القوات وعدم، الاستعداد، واقترحت تجميع الجيوش العربية على هدف رئيس واحد، وذلك بأن تتقدم الجيوش الأردنية والسورية والعراقية نحو القدس، والسيطرة عليها وما حولها من المناطق نظراً لأهميتها، بدلاً من التركيز على أهداف ثانوية لا أهمية لها على مركز اليهود العام في البلاد. ولكن القيادة السياسية العليا لم تأخذ باقتراح الوفد المصري، وأصرت على تنفيذ الخطة السابقة [٢٤].

وفي المقابل كانت القوات اليهودية، الموجودة في القدس والمحيطة بها، تشمل اللواء السادس من الهاجاناة بقيادة دافيد شالتيل، وحول القدس يوجد اللواء الحادي عشر لبالماخ بقيادة يوسف تابنكين، وكذلك لواء الهاجاناة السابع مدرع بقيادة شالوم شامير.

ولعل وجود ثلاثة ألوية يهودية في القدس وحولها؛ يؤكد مدى تركيز اليهود على احتلال القدس لأهميتها، ولأنها بمثابة قلب فلسطين، ويسهل لهم منها السيطرة على مناطق عديدة في فلسطين، بينما لم تعطِ القيادة العربية نفس الاهتمام بالقدس، بل ورفضت المقترح المصري الذي كان يواجه مخطط اليهود، ويتصدى لهم .

وكان جلوب باشا (إنجليزي الجنسية)، القائد العام للجيش الأردني، يرى عدم دخول الجيش العربي القدس لوجود هدنة بين العرب واليهود في القدس حينذاك (والملتزم بها العرب فقط)، واحتمال جعلها منطقة دولية، هذا في الوقت الذي يحشد

هـ - الجيش المصري يتقدم من حدود مصر في رفح إلى الشمال نحو تل أبيب، وتصفية جميع المستعمرات اليهودية التي في طريقه، د. إبراهيم شكري، ص١٥٩، وانظر إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية، ص٨٩.

(٢٤) د. إبراهيم شكري، ص١٦٤.

اليهود قواتهم فيها – كما ذكرنا –.

وقد أسفر إعلان اليهود عن قيام دولة إسرائيل، يوم ١٥ مايو، ثم إعلان الحرب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، عن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، وما يهمنا هو منطقة القدس التي كانت ضمن هدف الجيش الأردني [٢٥].

وقد عبرت ثلاثة ألوية تابعة للجيش الأردني نهر الأردن باتجاه القدس، للدفاع عنها وطرد القوات اليهودية التي تسعى لاحتلالها، ويقدر عددها بحوالي خمسة آلاف مقاتل، حسبما ورد في أغلب التقريرات .

في اليوم التالي للحرب، وهو يوم ١٦ مايو، وصلت وحدات من الجيش الأردني إلى ضواحي القدس الشمالية، وبدأت خوض المعارك ضد اليهود .

وقد تمكن اليهود، تحت شعار الهدنة المعقودة مع العرب في القدس، من احتلال مناطق عربية عديدة في القدس في : يومي ١٥، ١٦ مايو، وأهمها : معسكر النبي – معسكر العلمين – دير ألجاطور – باب النبي داوود – المسكوبية – المستشفى الإيطالي – نوتردام – المصرارة – باب العمود – سعد وسعيد – الشيخ جراح، ولم يبق للعرب من أحياء خارج سور القدس إلا باب الساهرة ووادي الجوز .

وكان العرب كلما احتجوا، للجنة الهدنة والصليب الأحمر، على خرق اليهود الهدنة أجاب اليهود بأن الجماعات اليهودية المنشقة هي المسئولة عن ذلك ولا حول لهم في منعها [٢٦].

وساءت حالة العرب في القدس القديمة، لأن اليهود لم يكتفوا بما احتلوه من مواقع استراتيجية، بل أخذوا يهاجمون الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، محاولين اقتحام المدينة القديمة، التي احتشد فيها أكثر من ٦٠ ألف عربي، نزح أكثرهم من الأحياء العربية في القدس الجديدة، وكان العرب في القدس يتوقعون دخول اليهود في أي وقت للفتك بهم، وتدمير المقدسات الإسلامية والمسيحية، إلا أن بطولة جنود الإنقاذ والجهاد المقدس وشرطة القدس بقيادة أحمد حلمي باشا، وخالد الحسيني، وفاضل عبدالله، تصدت لليهود بالرغم من نقص الذخيرة وتأخر وصول الجيش العربي

---

(٢٥) وثائق المقاومة الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م، ص ص٣٠٥- ٢١٧.

(٢٦) مذكرات مفتي فلسطين، جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد ١٠، ١٢، بتاريخ ٥/١٠/ ١٩٥٧م.

الأردني إلى القدس[٢٧].

وكان جلوب باشا، القائد العام للجيش العربي الأردني، لا يرغب في إرسال أي مساعدات حربية للقدس لتآمره مع اليهود، إلا أن الاستغاثات المتتالية، من زعماء القدس وسكانها، للملك عبدالله جعلته يأمر بانتقال الكتيبة السادسة من أريحا إلى القدس للدفاع عنها، دون أن يتشاور مع جلوب وقادته، ومعظمهم إنجليز – كما ذكرنا[٢٨].

وبعد أن أخذت الكتيبة السادسة، بقيادة عبد الله التل، أماكنها في القدس، قام اليهود بمحاولات مستميتة لاقتحام أبواب المدينة القديمة، وخاصة باب النبي داوود، وذلك من أجل إنقاذ يهود القدس القديمة الذين يحاصرهم المجاهدون، وشهدت أبواب المدينة معارك طاحنة، وكانت المسافة أحياناً بين اليهود والعرب لا تتعدى خمسين متراً، وتم توحيد كافة القوات العربية بالقدس، وانضوائها تحت لواء الجيش العربي الأردني الذي تمثله الكتيبة السادسة .

وقامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بالقدس القديمة بالمدافع [٢٩]، وأظهر المجاهدون بطولات رائعة، وتم وضع قوة عربية في دير الأرمن بالقرب من باب النبي داوود، لفصل حي الأرمن عن الحي اليهودي، وحماية الأرمن من هجمات اليهود الذين كانوا يعتبرونهم موالين للعرب، وعمدوا إلى ضرب الحي الأرمني بمختلف أنواع الأسلحة، ولذلك تكبد الأرمن خسائر فادحة .

معركة باب النبي داوود واستسلام اليهود في القدس القديمة:

استمر هجوم اليهود على الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، واستماتوا في القتال للوصول إلى اليهود المحاصرين في القدس القديمة، وكان أكبر هجوم قاموا به في مساء ١٩٤٨/٥/٢٤م، حينما قامت فرقة من البالماخ بالهجوم على الجنود العرب

---

(٢٧) عبدالله التل، ص١٠٠.

(٢٨) قبل سفر المندوب السامي البريطاني من القدس إلى حيفا في ١٩٤٨/٥/١٤م اتصل بالفريق جلوب في عمان هاتفياً وودعه بمناسبة تركه فلسطين نهائياً، وقال له الجملة التالية: "Keep your master on the Hills". ومعناها احتفظ بسيدك على الجبال، ويقصد بذلك أن يبقي جيش الملك عبدالله على التلال المحيطة بالقدس ولا يهاجمها، مما يدل على إحكام المؤامرة بين القادة والساسة الإنجليز ضد العرب. عبدالله التل، ص١٠٢.

(٢٩) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ص١٥٩.

المرابطين في منطقة باب النبي داوود، وبدأت جموعهم تقترب من باب النبي داوود، حاملين معهم لغماً كبيراً لنسف السور، وانتظر العرب حتى اقترب اليهود منهم، وفي لحظة واحدة انهالت القنابل اليدوية على اليهود، وانفجر اللغم الذي يحملونه بينهم، ومزق أجسادهم، وولى الباقون الأدبار بعد أن حصدت الرشاشات منهم ٦٠ قتيلاً (٣٠).

وشجع هذا النصر القوات العربية والمجاهدين في القدس على الانتقال لما هو أهم، وهو حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، وكان به حوالي ١٨٠٠ يهودي بينهم كثير من قوات الهاجاناه والأرجون واشتيرن، وقبل انتهاء الانتداب البريطاني، كان الجيش البريطاني يحميهم من جميع الجهات، ويمونهم بالمواد اللازمة، والأسلحة والذخائر، مما مكنهم من الاستمرار في المقاومة أثناء حصار العرب لهم بعد انتهاء الانتداب، ولغموا مداخل الحي، وحفروا الخنادق والممرات ليسهل للمحاربين التنقل من بيت لآخر دون التعرض للرصاص أو القنابل، وجمعوا من المؤن الشيء الكثير، واقتصدوا في استهلاكهم، استعداداً للحصار بعد جلاء حماتهم (الإنجليز)، وكانت أوامر الوكالة اليهودية لهم أن يدافعوا عن الحي حتى النهاية .

وكانت خطة القوات العربية : تدمير المنازل اليهودية التي اتخذت أبراجاً واستحكامات، تمهيداً لتقدم المشاة، وذلك لتقليل الضحايا من القوات المهاجمة، نظراً لطبيعة الحي الذي يتكون من ممرات ضيقة.

وبدأت فرقة التدمير عملها بنسف منظم للمنازل، فدب الرعب في قلوب اليهود، وأخذوا يضيقون خطوط دفاعهم شيئاً فشيئاً، وهم بذلك يضيقون الخناق على المدنيين الذين تضطرهم هجمات العرب للنـزوح عن منازلهم، وينـزلون على غيرهم، وبالتالي يسببون للمحاربيون متاعب جمة (٣١).

ثم قامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بمدافع الهاون في فترات متقطعة من الليل والنهار، لإجبارهم على التسليم، وشبت النيران في أغلب المنازل اليهودية المواجهة للقوات العربية في رأس العامود، وتحطمت الاستحكامات البارزة (٣٢).

وطلب قائد الكتيبة السادسة العربية، من قيادة فرقة المدفعية الأردنية، قصف بعض المواقع اليهودية الهامة في القدس الجديدة، لتخفيف هجماتهم على أبواب القدس القديمة، ومنعهم من تقديم أي مساعدات للحي اليهودي المحاصر في القدس

---

(٣٠) عبد الله التل، ص١٠٩.

(٣١) صالح مسعود/ جهاد شعب فلسطين، ص ص٤١٠ – ٤١١.

(٣٢) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ص١٧٦.

القديمة ، ولكن قادة الفرقة، وهم إنجليز، ماطلوا في الرد عليه، فقام بعض الضباط العرب الصغار في المدفعية بمغافلة الضباط الإنجليز وقصفوا بعض المواقع الهامة، وتهدمت منازل كثيرة، فتعالت صيحات اليهود للاستغاثة بحلفائهم الإنجليز، وتدخل حليفهم الأكبر جلوب، وأمر بنقل الضابط محمد المعايطة إلى عمان وهو أكبر ضابط عربي في المدفعية، بحجة أنه يختلف مع الضباط الإنجليز، ولم يسأله أحد في الحكومة الأردنية عن أسباب خلافه مع الضباط الإنجليز [٣٣].

ونجحت القوات العربية في القدس، بمساعدة بعض أهالي المدينة، في إدخال ثلاث مدرعات إلى القدس القديمة رغم ضيق شوارعها، في ليلة ١٩٤٨/٥/٢٦م، للمساعدة في حصار الحي اليهودي، وبدأت مهمتها في رمي مواقع اليهود بالقنابل والرشاشات، فلما رأى اليهود ذلك لم يبق لهم أمل في النجاة [٣٤].

وكعادة اليهود لا يتركون أي وسيلة أو ورقة تفيدهم إلا واستخدموها، وكانت آخر أوراقهم لإنقاذ الحي اليهودي هي تدخل الصليب الأحمر الدولي، فاستغاثوا بمندوب منطقة القدس، ويسمى كروفوازيه، الذي استجاب لهم، واجتمع بقائد القوات العربية في القدس، وطلب منه أن يسمح بنقل النساء والأطفال والشيوخ والجرحى إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، وترك المحاربين في الحي، ولكن القائد العربي، وهو عبد الله التل، أجاب عليه بأن هذا الطلب صعب التنفيذ من وجهة عسكرية، فلجأ مندوب الصليب الأحمر إلى التهديد، وقال للقائد العربي: " إذا لم تلب طلب الصليب الأحمر هذا فستكون في عداد مجرمي الحرب في المستقبل "، ولكن القائد لم يكترث بتهديده،

وضيق العرب الخناق على اليهود في يوم الجمعة ٥/٢٧ [٣٥]، فانكمشت خطوطهم الدفاعية حتى وصلت إلى الكنيس الكبير المسمى قدس الأقداس، وتجمع المحاربون اليهود بداخله، فوجه لهم القائد العربي إنذاراً، عن طريق مندوب الصليب الأحمر، إلى المحاربين بإخلاء الكنيس، وأعطاهم مهلة لذلك، حتى الرابعة عصراً، وكان الإنذار في العاشرة صباحاً، ولكن اليهود رفضوا الإنذار، فقامت القوات العربية بعد انتهاء المهلة بالهجوم على الكنيس، وقتل من فيه، وهدم أجزاء كثيرة منه نتيجة لتعنت اليهود، وعدم استسلامهم.

وفي ليلة ٥/٢٨ استمرت المدرعات ومدافع الهاون في قصفها المتقطع،

---

(٣٣) عبد الله التل، ص١١٦.

(٣٤) علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص٤٥٥.

(٣٥) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص١٨٧.

وضيق الجنود العرب الخناق على المدافعين من اليهود، وفي صباح يوم الجمعة اضطر اليهود إلى إرسال رجل دين للتفاوض على الاستسلام، ووافق القائد العربي على استسلامهم، فأرسلوا وفدا عسكريا برئاسة قائد الهاجاناة في الحي اليهودي، للتفاوض على شروط التسليم، وحضر المفاوضات السنيور اسكراتي مندوب الأمم المتحدة في القدس، وطلب اليهود نقل جميع سكان الحي إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، ولكن القائد العربي أصر على الشروط التالية وهي : تسليم السلاح والذخائر، وأخذ المحاربين والقادرين على حمل السلاح أسرى حرب، واحتلال الحي، وتسليم النساء والأطفال والمرضى والجرحى إلى اليهود، بواسطة الصليب الأحمر الدولي [٣٦].

وبعد جدال استمر ثلاث ساعات اضطر اليهود للموافقة على الشروط، وكتبت وثيقة التسليم باللغتين العربية والإنجليزية، ووقعها عن الجانب العربي عبد الله التل قائد القوات العربية بالقدس، وعن الجانب اليهودي موشه روزنك قائد الهاجاناه [٣٧].

وأمر القائد العربي بعد توقيع وثيقة التسليم بوقف الرمي، وطلب من اليهود التجمع في وسط الحي اليهودي، ونشر جنوده على أطراف المنطقة للحفاظ على اليهود من هجوم العامة للانتقام منهم لما فعله إخوانهم في دير ياسين وغيرها، ولذلك كان اليهود في شدة الخوف والرعب، متوقعين أن تفتح عليهم الرشاشات فتبيدهم كما يفعلون في القرى العربية، ولكن القوات العربية عاملتهم بهدوء ولين، وقدموا لهم الماء والطعام، وقاموا بنقل المحاربين وعددهم ٣٤٠ إلى عمان، وتسليم النساء والشيوخ والمرضى إلى الصليب الأحمر، وحافظوا عليهم للمرور عبر باب النبي داوود إلى الأحياء اليهودية بالقدس الجديدة، ولم يتعرض أحد من العرب لأي يهودي، بل إن بعض الجنود حملوا العجائز منهم على ظهورهم حتى الباب الرئيسي، وذلك بشهادة مندوب الصليب الأحمر والأمم المتحدة [٣٨].

وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل ما يزيد على ٣٠٠ يهودي من المحاربين، معظمهم من عصابة الأرجون، بالإضافة إلى ٣٤٠ أسيراً، وأدت إلى بقاء القدس القديمة في يد العرب حتى حرب يونيه ١٩٦٧م، بينما كانت خسائر العرب في هذه المعركة ١٤ شهيداً من جنود الجيش وعشرة من المتطوعين، والجرحى ٢٥ جندياً .

وحاولت القوات العربية في القدس احتلال جبل سكوبس؛ الذي شرف على

---

(٣٦) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ص٤١١ – ٤١٢.

(٣٧) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج١ ص٦٦١، ج٢ ص٣٥.

(٣٨) عبد الله التل : ص١٣٦.

القدس من الجانب الشمالي الشرقي، والذى أقام فيه اليهود مستشفى هداسا وملحقاتها، والجامعة العبرية، وجعلوها أماكن حصينة، ولكن جلوب قائد الجيش الأردني منعهم من التعرض لهما بحجة أن هاتين المؤسستين شيدتا بأموال الأمريكان لا بأموال اليهود (٣٩)، وكذلك ادعت قيادة الجيش في عمان أن هداسا مؤسسة صحية عالمية لا يجوز التعرض لها، وكذلك الأمر مع الجامعة العبرية التي اعتبرتها عمان مؤسسة ثقافية (٤٠).

وحاولت بعض القوات العربية والمتطوعين قصف جبل سكوبس بقنابل الهاون، لاقتناعهم بأن ما به أماكن حربية حصينة، وليست مجرد مستشفى أو جامعة، ولكن قنصل أمريكا تدخل لوقفه، وكذلك جلوب أقنع الملك عبد الله أن يأمرهم بوقف القصف، واستجاب الملك، وأمر بعدم التعرض لجبل سكوبس (٤١).

معركة رامات راحيل :

عند دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في ١٩٤٨/٥/١٥م، وصلت كتيبة مصرية من المجاهدين المتطوعين، بقيادة البطل أحمد عبد العزيز، بمساعدة مجموعة من الضباط التابعين للجيش المصري إلى جنوب القدس، وانضمت إليه بعض قوات الجيش العربي الموجودة في جنوب القدس، وأصبح القائد أحمد عبد العزيز مسؤولاً عن جميع القوات العربية في المنطقة..

وكان أول هدف لهذه القوات هو السيطرة على مستعمرة رامات راحيل، لأنها تشكل نتوءاً قوياً في خطوط الدفاع العربية بجنوب القدس، وكانت مبنية من الحجر الصلد، فهي حصن منيع لليهود .

وتقرر القيام بالهجوم يوم الاثنين ١٩٤٨/٥/٢٤م، واشتركت فيه وحدات من الجيش العربي الأردني مع القوات المصرية، وتعاونت الكتيبة السادسة بالقدس مع الهجوم، حيث قامت بقصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة لشغلهم، وتحويل أنظارهم عن الهجوم على مستعمرة رامات راحيل (٤٢).

وبدأت المدافع المصرية بقصف المستعمرة، ونجحت في تخريب أغلب البيوت المحصنة والاستحكامات، ثم زحفت قوات المشاة المصرية والأردنية، وكانت خطتهم

---

(٣٩) موسوعة ويكيبيديا الحرة.

(٤٠) عبد الله التل : ص١٦٠.

(٤١) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص٢٠٣.

(٤٢) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص٢١٢.

تدمير المستعمرة تدميراً تاماً لصعوبة احتلالها، وفي منتصف النهار كان المهاجمون قد دمروا معظم منازل المستعمرة، وتجمع اليهود في أحد المنازل الحصينة للدفاع عن أنفسهم، وهنا حدث أمر لم يكن في حسبان القائد أحمد عبد العزيز، فقد تدفق المئات من العرب المدنيين في هذه المنطقة إلى المستعمرة لجمع الغنائم، وقلدهم بعد الجنود العرب، وتحول الهجوم عن الهدف الذي رسمه القائد، وحاول منع المحاربين عما يقومون به، والتركيز على الهدف الرئيسي، ولكن فشل في ذلك، بعد أن أصبح المحاربين محملين بالغنائم. وفي الليل أمر القادة الإنجليز في الجيش الأردني بسحب القوات الأردنية المشاركة مع القوات المصرية، في الوقت الذي أرسل فيه اليهود نجدات إلى المستعمرة .

وفي الصباح وجد القائد أحمد عبد العزيز أن الوضع قد تغير، لأن اليهود عادوا واستحكموا في المستعمرة، ولابد لإخراجهم من هجوم منظم جديد، ولم يعد هذا بالإمكان، واقتصرت العمليات على بعض المناوشات بين العرب واليهود[٤٣].

معركة اللطرون :

وهي معركة دارت بين القوات الأردنية المكونة من ١٢٠٠ جندي، برئاسة القائد حابس المجالي، والقوات الصهيونية برئاسة أرئيل شارون (الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد) وتبلغ ٥٠٠ مقاتل، وتقع هذه المنطقة شمال غرب القدس عند نقطة التقاء طريق الرملة بالقدس، وكذلك تتحكم في طريق القدس يافا العام .

وقد حاول اليهود السيطرة عليها في يوم الثالث عشر من مايو قبل انسحاب القوات الإنجليزية من قاعدتهم بها، ومقرها مخفر اللطرون، ويبدو أن الإنجليز أوعزوا إليهم بذلك ليحلوا محلهم، ويمكنوهم منها قبل جلائهم. فأرسل اليهود حشوداً كثيرة إلى سهل عمواس بالقرب من المكان، ليسيطروا عليه، ويتحكموا بذلك في موقع استراتيجي حاسم يتحكم في مدخل القدس[٤٤] .

وعندما علم فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي بهذه الحشود، أمر قواته بالتوجه إلى هذه المنطقة مع قوات من جيش الجهاد المقدس، للتصدي لها، وبالفعل أخذت القوات العربية أماكنها على مقربة من الحشود الصهيونية، وعندما أحس الإنجليز بوجود العرب طلبوا من الطرفين عدم الاشتباك طوال مدة جلائهم عن المخفر

---

(٤٣) حسن البدري : الحرب في أرض السلام، دار الوطن العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ص١٠٣.

(٤٤) موسوعة ويكيبيديا الحرة.

ولكن اليهود، وربما أيضاً بتواطؤ من الإنجليز، تقدموا للسيطرة علىٰ المخفر يوم ١٣ مايو قبل أن يتم جلاء الإنجليز، فانصبت قنابل المدافع العربية عليهم، وكانت المسافة بين الطرفين تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر، لذلك كانت الإصابات مباشرة، وصعق اليهود لسرعة الرد العربي، ولم يتمكنوا من الرد عليه لكثافته، فتركوا مواقعهم وأمعنوا في الهرب تتبعهم سرية مصفحات عربية، وتنهال عليهم المدافع العربية، حتى ابتعدوا عن سهل عمواس، وامتلأ السهل بقتلى اليهود، وكثير من الأسلحة والذخائر (٤٥).

وبعد جلاء الإنجليز، ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، صدرت الأوامر إلى قوات الإنقاذ بتسليم أماكنها حول القدس للجيش الأردني، فانتهز اليهود هذه الفرصة وقاموا بشن العديد من الهجمات للسيطرة على منطقة اللطرون التي تتحكم في مدخل القدس، ونجح هجومهم في السيطرة عليها يوم ١٦، ١٧ مايو، مستغلين فرصة عدم تمركز الجيش العربي الأردني في مواقعه بعد، إلا أن الجيش الأردني قد استردها منهم بعد يومين فقط من السيطرة عليها (٤٦).

وبعد أيام قليلة شن اللواء السابع الإسرائيلي، والكتيبة الثانية من لواء ألكسدروني، هجوماً كبيراً فيما يعرف بعملية بن نون، للسيطرة على اللطرون، ولكن الجيش الأردني تصدى لهم، وكبد القوات الإسرائيلية خسائر فادحة في الأفراد، وتجدد القتال بين الطرفين يومي ٢٥، ٢٦ مايو، ولم يحقق اليهود أي نجاح بعدَ وصول إمدادات للجيش الأردني نجحت في هزيمة اليهود، وتراجعهم (٤٧).

وفي يوم ٣٠ مايو تسللت وحدات إسرائيلية إلى مخفر شرطة اللطرون، وحاولوا زرع ألغام لتدميره، فتصدى لهم الجيش الأردني، وأجبرهم على التراجع والانسحاب، بعد تدمير بعض المباني بالقرية .

وأدت هزيمة اليهود، وإخفاقهم في السيطرة على اللطرون، إلى البحث عن مدخل آخر للقدس يتجاوز اللطرون، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فعاودوا الهجوم على اللطرون في ليل ٨، ٩ يونيو، فيما يعرف بعملية يورام، وكانت تقضي بالهجوم على القرية من جهة الجنوب الشرقي، بوحدات عسكرية من لوائي هرئيل ويفتاح، ولكن

---

(٤٥) الفريق عفيف البزري : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، بدون طبعة، ص٥٦.

(٤٦) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية١٩٨٩م، ص ص٩٨ – ١٠٠.

(٤٧) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص١٩٤.

القوات الأردنية صدت هجومهم، وردتهم على أعقابهم .

وقد جرح في أثناء هذه المعارك أريل شارون قائد الجيش الإسرائيلي المهاجم للقرية، وتم أسره ونقله إلى الخطوط الخلفية في معسكر اعتقال الأسرى اليهود، وتم مبادلته بأسير عربي عندما جرت عملية تبادل الأسرى بعد الهدنة الثانية .

وبلغت خسائر الجيش الإسرائيلي في معارك اللطرون حوالي ألفي قتيل، حسبما روي على لسان النائب الإسرائيلي في الكنيست عوزي لاندو، وإن كان قد تراجع عن تصريحه فيما بعد، عندما تعرض لانتقادات شديدة من الساسة اليهود، وذكر أن خسائر اليهود كانت لا تتعدى ألف قتيل (٤٨).

معركة باب الواد :

كانت بعض قوات جيش الإنقاذ العربي – والمكون من المتطوعين العرب – بقيادة فوزي القاوقجي تحاصر أحياء اليهود في القدس منذ مطلع مايو سنة ١٩٤٨م، وتصب نيران مدافعها على الأماكن التي يتحصن بها اليهود في القدس الجديدة، وذلك رغبة منهم في تخفيف ضغط الحصار عليهم، فحاولوا الهجوم على القدس القديمة والسيطرة عليها – كما ذكرنا سابقاً – ولكن محاولتهم فشلت، وتصدت لها القوات العربية (٤٩).

وفي الخامس من مايو فتحت القوات العربية نيران مدافعها على مواقع اليهود في بعض مناطق القدس، مثل القطمون، والشيخ جراح، وشيرم والنبي داوود،وقامت قوة عربية باسترداد حي الشيخ جراح من الصهاينة – وكانوا قد سيطروا عليه منذ فترة – واستمرت نيران المدفعية العربية تنصب على اليهود طوال ليلة السادس من مايو، مما دعا البريطانيين للتدخل لحماية اليهود، وأرسل المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي يهدده ويتوعده إن توقف القتال، ولكن القاوقجي رفض تهديده، فجرت اتصالات سرية بين البريطانيين والجامعة العربية، انتهت إلى عقد اجتماع عاجل في أريحا حضره من الجانب العربي : عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة، والقائد العام لقوات الإنقاذ اللواء إسماعيل صفوة، والقنصل المصري في القدس فراج طايع، وعن الإنجليز المندوب السامي البريطاني، وتم في هذا الاجتماع عقد هدنة تشمل القدس .

وكما هي العادة، لم يحترم اليهود الهدنة، واحتلوا بعض الأحياء العربية في

---

(٤٨) موسوعة ويكيبيديا الحرة، معركة اللطرون.

(٤٩) الفريق عفيف البزري : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، ص٥٦.

القدس الجديدة، وكذلك حي الشيخ جراح [٥٠].

كما حاول اليهود استغلال الهدنة لفتح الطريق من القدس إلى تل أبيب، وكسر حصار القوات العربية لهذا الطريق، وحشدوا قواتهم للهجوم على باب الواد، شمال غرب القدس، الذي يتحكم في هذا الطريق، وجاءت لهم إمدادات من داخل القدس ومن الرحبوت، تقدر بلواءين، وبدأوا هجومهم الكبير ليلة الثامن من مايو، تتقدمهم جرافات لإزاحة الكتل الصخرية التي وضعها العرب على الطريق لسده أمامهم، وتمكن اليهود في أول الأمر من احتلال سيرس، وبيت محيسير، وهما موقعان هامين يتحكمان في باب الواد، واستمرت المعارك الطاحنة حول الطريق، وبلغت ذروتها في العاشر من مايو، عندما حاولت قوات الصهاينة، الآتية من داخل القدس، الاتصال بالقوات الخارجية القادمة من رحبوت، ولكن القوات العربية منعت هذا الاتصال[٥١] .

ووصلت إمدادات للقوات العربية تمثلت في كتيبة مشاة، وقوات من جيش الإنقاذ المؤلف من عرب فلسطين أخذت مواقعها أمام بيت محيسير المحتل من قبل الصهاينة، وبدأ العرب هجومهم المضاد في الرابعة فجر الحادي عشر من مايو، وقد وصف القائد فوزي القاوقجي هذه المعركة بقوله: " بدأ هجومنا المضاد في الساعة المحددة له، واندفع مجاهدونا من الإنقاذ والجهاد المقدس، بحماسة تكاد تكون جنونية، والمدفعية تقصف أهدافها، مساندة الهجوم، قصفاً عنيفاً ببراعة فائقة، بشكل لا أتذكر أنني شهدت مثله في الحروب النظامية التي اشتركت فيها من قبل، وانطلق آمر المصفحات بمصفحاته، غير مكترث بوعورة الأرض وكثافة النيران، يهاجم المصفحات اليهودية، ويدمر كل ما يصادفه من الأعداء في طريقه، ويرغمهم على

---

(٥٠) لم يتعلم العرب أبداً من دروس التاريخ، فكلما كان الموقف العسكري في صالحهم، يسارع اليهود وحلفاؤهم الإنجليز إلى طلب الهدنة، وخداع السياسيين العرب بقبولها، ويجبر السياسيون القادة العسكريين على قبولها، بل والالتزام بها، في الوقت الذي لا يلتزم بها اليهود، ويحولون الموقف العسكري لصالحهم، وحدث هذا في الثورة الفلسطينية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩م التي كادت أن تنجح لولا تدخل الزعماء العرب لوقفها، وكذلك حرب ١٩٤٨م التي حقق فيها العرب انتصارات كبيرة في مرحلتها الأولى لولا قبول زعماء العرب للهدنة التي استغلها اليهود في جلب المقاتلين والسلاح، والتزم بها العرب، فتحول الموقف لصالح اليهود بعد تجدد القتال. عفيف البرزي، التحرير في قفص المستعمرين، ص٥٩.

(٥١) محمد حسين هيكل : العروش والجيوش، ص ص١٦٣ - ١٦٥.

الهزيمة، ولم تستطع القوات اليهودية الصمود في وجه جنودنا، واستمرت المعركة بهذه الحدة حتى الساعة العاشرة، وتصدع الخط اليهودي كله، وتخلت القوات اليهودية عن مراكزها، وبدأت في صفوفهم هزيمة جماعية تامة. وفي الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ وصلتني من المقدم مهدي – أحد القادة الميدانيين هذه البرقية(٥٢):

استولت قواتنا على جميع المرتفعات والأحراس، قتلى اليهود لا تحصى، غنائمنا إلى الآن ٣٥٠ بندقية، طاردنا اليهود المنهزمين، تخطينا طريق باب الواد – القدس في اتجاه بيت محيسير لاحتلالها. وبعد ساعة وردت برقية أخرى تقول:

فصلنا ما يقارب الألف يهودي في بيت محيسير عن بقية القوات اليهودية، لم ينجح منهم إلا من فر باتجاه مستعمرة عرطوف، طهرت قواتنا بيت محيسير وخربة حرسيس، تستمر المعركة في الأحراش بعنف شديد، عدد القتلى اليهود وكميات الغنائم بازدياد في كل لحظة، نتقدم باستمرار إلى جانبا الجهاد المقدس، نطارد اليهود نحو القدس. وفي الساعة الخامسة عشرة لم يبق لليهود في المنطقة أي أثر، وكانت الغنائم من الأسلحة كثيرة بينها أربع مصفحات صالحة للاستعمال عدا ما تحطم من المصفحات اليهودية التي بلغ عددها ١٣ مصفحة، وإن نتيجة هذه المعركة كانت تختلف عن غيرها من المعارك السابقة بوفرة الغنائم وتنوعها، وظهور أسلحة جديدة لم نعثر على مثلها قبل ذلك، كمدافع مضادة للطائرات وللمصفحات في آن واحد، وصنوف من التجهيزات المتنوعة (٥٣).

وأحكم العرب بذلك الحصار على مستعمرات اليهود في القدس، بل وقامت قوات عربية بالسيطرة على مستعمرة النبي يعقوب الواقعة على طريق القدس – رام الله، يوم ١٤ مايو، وفر منها اليهود حاملين جرحاهم وقتلاهم .

وعندما صدرت الأوامر لقوات جيش الإنقاذ العربي بتسليم مواقعها للجيش الأردني، الذي أعلن الحرب رسمياً مع الجيوش العربية ضد إسرائيل يوم ١٥ مايو، انتهز اليهود الفرصة، وسيطروا على حي الشيخ جراح قبل أن تتمكن القوات الأردنية من التمركز في مواقعها، بل وقاموا بشن عدة هجمات على المواقع العربية في القدس القديمة، وتوجهت كتيبة أردنية لتسلم مواقع باب الواد، وكانت برئاسة ضابط إنجليزي وهو الميجر سليد(٥٤)، فقام هذا الميجر بتسليم الضفة الجنوبية عبر باب الواد إلى

---

(٥٢) وائل عبيد : تاريخ العرب الحديث، ص ص٢٤٨، ٢٥٥.

(٥٣) مذكرات فوزي القاوقجي : نقلاً عن كتاب الفريق عفيف البرزي، التحرير، ص٥٦.

(٥٤) كان الجيش الأردني حينذاك يضم العديد من الضباط الإنجليز على رأسهم جلوب باشا القائد العام للجيش الأردني، واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٦م حينما قام الملك

الصهاينة، كما سلم لهم بيت محيسير وسيرسي التي طردهم العرب منها قبل ذلك، وبذلك تم فك الحصار العربي المفروض على التجمعات اليهودية بالقدس .

ولا أدري كيف سلمت السلطات الأردنية مواقع بهذه الأهمية لضباط إنجليز، والكل يعلم بأن الإنجليز هم الذين زرعوا اليهود في فلسطين، وساعدوهم على اغتصابها. فهل كانت السلطات الأردنية تجهل ذلك، أم كانت تعلم ولكنها تثق في هؤلاء الضباط ؟ وهذا خطأ فادح كلف العرب الكثير في هذه الحرب، وخاصة في ميدان القدس، ولعل هذا ما دفع كثيراً من المؤرخين العسكريين إلى اتهام السلطات الأردنية بالخيانة وموالاة اليهود، والتآمر معهم ضد باقي الجيوش العربية، وأدت هذه الاتهامات إلى وجود صدى لها عند بعض الشباب العرب، وهذا ما دفع بعضهم إلى اغتيال الملك عبدالله فيما بعد .

إلا أننا نتحفظ كثيراً، ولا نميل إلى اتهام البعض بالخيانة، قد نتهمه بالخطأ أو بالجهل بالنواحي العسكرية، أو عدم الحنكة السياسية، إلا أن تهمة التآمر والخيانة يصعب علينا إصدارها، إلا مع وجود وثائق مؤكدة تثبت ذلك وتؤيده(٥٥) .

وفي يوم التاسع عشر من مايو تمكنت كتيبة عربية من قوات جيش الإنقاذ، بقيادة غسان جويلد، من طرد اليهود من حي الشيخ جراح، بعد إمطارهم بوابل من قذائف المدافع والرشاشات، وتم انسحاب الكتيبة العربية بعد ذلك، لتحل محلها كتيبة أردنية كانت بقيادة الضابط نواف جبر الحمود، وشتان ما بين قائد عربي تجري في عروقه دماء العروبة، وضابط إنجليزي نشأ على حب الصهاينة واليهود، مهما تظاهر بغير ذلك .

وقد خاضت الكتيبة الأردنية، وما جاء لها من إمدادات أخرى، معركة هامة مع القوات الصهيونية عند باب الواد، في أواخر مايو بعد هزيمة اليهود على يد الجيش العربي وموقعه اللطرون، ويبدو أنهم أرادوا الثأر لما حدث لهم في موقعة اللطرون، بضرب القوات العربية المرتكزة عند باب الواد(٥٦) .

وتصدت القوات العربية للهجوم اليهودي، وقتلت من اليهود المئات، وجرح

الحسين بن طلال بطرد جلوب ومعاونيه من الإنجليز وتعريب قيادة الجيش الأردني، أحمد يوسف التل، بطل معركة القدس، ص ص١١١- ١١٣.

(٥٥) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ص٢٦١ - ٢٦٢.

(٥٦) أنور الجندي : العالم الإسلامي، ص٢٢٣؛ موسوعة ويكيديا الحرة.

أكثر من ألف، وخسر الجيش الأردني عشرين شهيداً (٥٧).

وأدت هذه المعركة إلى نجاح الكتيبة السادسة من الجيش الأردني في إحكام حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، واستسلام من فيه، وأخذ الشباب المقاتلين فيه أسرى إلى معسكر الأسرى عند منطقة أم الجمال – كما سبق وذكرنا – .

كما أصبحت باقي التجمعات اليهودية بالقدس تحت الحصار العربي، وكان عدد من بها من اليهود يبلغ مائة ألف، وكانوا مهددين إما بالفناء أو الاستسلام، حتى أنقذتهم الدول الكبرى المتآمرة مع اليهود، وفرضت هدنة على العرب واليهود يوم ١١ يونيه سنة ١٩٤٨م، وتم تعيين الكونت برنادوت وسيطاً دولياً من قبل هيئة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة، أو بمعنى أدق مراقبة التزام العرب بالهدنة وغض الطرف عن انتهاكات اليهود لها. بل وإنقاذ يهود القدس من مصيرهم المحتوم الذي كانوا سيتعرضون له في حال عدم انعقاد الهدنة (٥٨).

ولا أجد وصفاً لهذا الموقف أبلغ مما ذكره عبدالله التل (٥٩) في كتابه كارثة فلسطين فقال: " إن الحكومة الأردنية لها دور كبير في الضغط على الدول العربية لقبول الهدنة، ورغم ذلك فليس هناك جريمة أكبر من موافقة جامعة الدول العربية على شروط الهدنة التي قدمها برنادوت بدون قيد أو شرط، فقد وافق أعضاء اللجنة

---

(٥٧) قال بن جوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل في يونيه سنة ١٩٤٩م عن هذه المعركة: " لقد خسرنا في معركة باب الواد وحدها أمام الجيش الأردني ضعفي قتلانا في الحرب كاملة "؛ محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص٨٩.

(٥٨) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج٢ ص٣٥.

(٥٩) كان عبدالله التل قائدا عسكريا ومفكرا إسلامي، وكان أحد قادة الجيش الأردني في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، وخاض العديد من المعارك في القدس، وعين حاكماً على القدس العربية بعد انتهاء الحرب سنة ١٩٤٨/ ١٩٤٩م، وله كتاب كارثة فلسطين الذي اتهم فيه القيادة العربية بصنع الهزيمة، وله كتاب آخر بعنوان الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، وأدت كتاباته الجريئة، وآرائه الحرة، إلى صدامه مع السلطات الأردنية فتوجه إلى مصر، وعاش بها لاجئا لمدة ١٦ سنة، حتى أصدر الملك حسين قانون العفو العام سنة ١٩٦٥م، فعاد إلى الأردن، وأخذ يعمل بنشاط في مجالات الدعوة الإسلامية، حتى توفي في أغسطس سنة ١٩٧٣م. أحمد يوسف التل، عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.

السياسية على أكبر خطيئة في تاريخ الحروب بالشرق العربي، ألا وهو السماح بفك الحصار عن مدينة القدس، وإنقاذ مائة ألف يهود كانوا على وشك التسليم أو الموت جوعاً وعطشاً، وافقوا قبل أن يفكروا قليلاً في نتائج ما أقدموا عليه، وافقوا قبل أن يفكر أحدهم فيما سيقع بعد عشرة أيام فقط من ذلك اليوم المشؤوم، وافقوا لأنهم وثقوا في وفد الأردن في اللجنة السياسية، وصدقوا رئيس الحكومة الأردنية الخائن. وافقوا قبل أن يفهموا أن القدس هي كل شيء في فلسطين وأن من يحتلها ينهي المعركة كلها (٦٠).

وكان من شروط الهدنة أن تقوم جمعية الصليب الأحمر الدولي بتزويد القدس بالماء والمؤن خلال فترة الهدنة، وتفتح طريق تل أبيب – القدس لهذه الغاية، وكانت هذه الهدنة بمثابة إنقاذ لليهود، ليس في القدس فحسب، بل في فلسطين كلها .

القدس أثناء الهدنة الأولى :

بدأ سريان الهدنة يوم ١٩٤٨/٦/١١م، وبما أن الملك عبدالله كان أول الموافقين عليها – بل إن قادة جيشه الإنجليز أمروا القوات الأردنية بعدم إطلاق النار على اليهود قبلها بعدة أيام، والاكتفاء بصد هجماتهم – فقد قام الملك عبدالله بزيارة القدس في أول أيام الهدنة، وكان موافقا الجمعة حيث صلى في المسجد الأقصى، وبعد الصلاة وتحية أهلها أصدر أمراً بتعيين أحمد حلمي باشا حاكماً عسكرياً للقدس، وترقية بعض الضباط الذين أبلوا بلاءًا حسناً في الدفاع عن القدس (٦١).

وفي اليوم التالي زار القدس الوسيط الدولي المشرف على الهدنة، وهو برنادوت، واطلع على الحالة الحربية فيها، وكيف أن القوات العربية تطوقها من جميع الجهات، ولولا الهدنة لسقطت في قبضة العرب كلها في خلال أيام قليلة. وتم عقد اجتماع بين برنادوت وقائد الفرقة الرابعة بالجيش الأردني وهو لاشي الإنجليزي (٦٢)،

---

(٦٠) عبدالله التل : كارثة فلسطين، ص١٨٨؛ إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص١٠٣.

(٦١) لم تعجب هذه الترقيات جلوب باشا قائد الجيش الأردني، وحاول تعطيلها، بل ورقى بعض الضباط الذين لم يشاركوا في الحرب، ربما مكافأة لهم على عدم إيذاء اليهود إخوانه، عبدالله التل، ص٢١٠.

(٦٢) كانت الكتيبة السادسة الموجودة بالقدس تتبع الفرقة الرابعة، لذلك اجتمع برنادوت مع قائدها للتباحث حول القدس؛ عفيف البرزي، التحرير في قفص المستعمرين، ص ص٥٨ – ٦٣.

ولم ينشغل الطرفان سوى بكيفية إمداد الأحياء اليهودية بالقدس بالمياه والمؤن[٦٣]، وعين برنادوت مراقبين للقدس قاموا بتخطيط الحدود بين العرب واليهود في القدس، ووضع الخرائط .

وبدأت قوافل اليهود بتموين الأحياء اليهودية بكميات وفيرة من المؤن والغذاء، بل والسلاح أيضاً، تحت سمع وبصر المراقبين الدوليين دون رقابة أو تفتيش .

وفي ١٩٤٨/٧/٤م وضع برنادوت مقترحاته لحل مشكلة فلسطين، وكان فيها ما يخص القدس، وهو أن تضم القدس إلى المنطقة العربية، على أن يكون للجالية اليهودية فيها بلدية مستقلة استقلالاً ذاتيا، وتتخذ التدابير اللازمة لحماية الأماكن المقدسة .

إلا أن العرب رفضوا هذه المقترحات، لأنها ترمي إلى قيام دولة يهودية في فلسطين، وتسمح باستمرار الهجرة الصهيونية، كما رفضها اليهود لأنها تأخذ منهم القدس والنقب،وتعطي العرب حق الإشراف على الهدنة.

ونجح اليهود خلال فترة الهدنة في شق طريق جبلي إلى القدس، استطاعوا من خلاله نقل الأسلحة الثقيلة والإمدادات العسكرية إليها، وكذلك تقوية مراكزهم الدفاعية فيها، كما أقاموا محطة كهرباء ومياه في أحيائهم بالقدس، حتى لا يحتاجون إليها من خارجها. وكل ذلك تحت سمع وبصر برنادوت ورجاله، وقادة الجيش العربي الأردني من الإنجليز.

أما ما فعله الجانب العربي في القدس : فقد قام بإعادة بناء بعض الاستحكامات في برج داوود ومنطقة الثوري، وإعادة تمركز بعض السرايا وتنظيمها.

بينما لم تقدم الحكومة العربية أي إمدادات جديدة، أو ذخائر أو أسلحة لقواتها، بحجة التزامها ببنود الهدنة، رغم علمهم بما يفعله اليهود، وإن لم يكونوا يعلمون فهذا أدهى وأمر.

ومما حققه اليهود من مكاسب في القدس أثناء الهدنة، بتآمر الضباط الإنجليز، هو موافقة حكومة عمان على اعتبار جبل سكوبس وما عليه من مؤسسات، وهي مستشفى هداسا والجامعة العبرية، منطقة دولية يرفع عليها علم هيئة الأمم المتحدة، وتجرد من السلاح، بعد أن كانت تلك المنطقة في حكم الخاضعة لسلطان العرب، نظراً لانقطاعها عن الاتصال بيهود القدس الجديدة .

ووقع هذه الاتفاقية لاش الإنجليزى قائد الفرقة الأردنية الرابعة، الذي وافق

---

(٦٣) هيكل : العروش والجيوش، ص٢٧٧.

على بقاء اليهود في هذه المنطقة في شكل بوليس وهو يعلم أنه لا فرق بين بوليس اليهود وجيشهم، كما وافق لاش على تموين اليهود المرابطين في تلك المنطقة، وتبديلهم من يهود القدس مرة في كل أربعة أسابيع، بل ضم إليها أيضاً قصر المطلع المجاور للجبل، وقرية العيسوية، لتصبح بذلك ثكنة عسكرية يهودية في قلب القدس العربية [٦٤].

القدس بعد تجدد القتال :

رفض العرب خطة برنادوت لتمديد الهدنة، برغم عدم قيامهم بأي إجراءات لتحسين وضعهم الحربي في فلسطين، بينما وافق عليها اليهود برغم ما قاموا به من استعدادات، ربما ليظهروا أمام العالم بأنهم الطرف الضعيف، فتزداد معونات الدول الكبرى لهم ومساندتهم.

وانتهت الهدنة في الساعة الثامنة صباح الجمعة ١٩٤٨/٧/٩م، وبدأ اليهود يستعدون للهجوم على القدس القديمة، بعد أن كانوا محاصرين عند بداية الهدنة في القدس الجديدة، وكل ما فعلته قيادة اللواء الرابع الذي تتبعه الكتيبة السادسة المرابطة في القدس، أن أرسلت لهم تحذيراً من قرب وقوع الهجوم اليهودي، دون أن تمدهم بأي تعزيزات أو إمدادات[٦٥].

واقتصرت الأعمال الحربية، في الأيام الأولى لنشوب القتال، على تبادل القصف بالرشاشات ومدافع الهاون بين القدس القديمة والقدس الجديدة، وسقط عدد كبير من قنابل اليهود على ساحة الحرم الشريف، وأصابت إحداها قبة الصخرة، وكذلك كنيسة القيامة، ورد العرب بقصف منطقة الوكالة اليهودية ومقر قيادتهم في المسكوبيّة .

وكانت الأحداث تكشف كل يوم تآمر القادة الإنجليز مع اليهود. ولا أدري كيف كانت حكومة عمان ترضى بهذه الطعنات التي يوجهها هؤلاء الضباط إلى ظهور الجيش العربي في فلسطين، ومنها بعد تجدد الحرب : أمر جلوب بنقل السرية الثانية عشرة من مواقعها في جنوب القدس، لإضعاف القوات المصرية المدافعة عنه ، وسحب سرية من القدس القديمة وإرسالها إلى رام الله، دون أن يحاسبه أحد في حكومة عمان .

وفي مساء يوم ٧/١٢ قام اليهود بهجوم مفاجئ على منطقة باب العمود والشيخ جراح، ومهدوا لهذا الهجوم بقصف شديد من مدافع الهاون، ودامت المعركة

---

(٦٤) عبدالله التل : ص٢٣٤.

(٦٥) سعد بدير الحلواني: تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار النشر للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ص٦٥ – ٦٧.

حتى الفجر، مع قوات الكتيبة الثالثة الأردنية التي ردتهم على أعقابهم دون أن يكسبوا شبراً واحداً، وخسر اليهود عشرات القتلى والجرحى[٦٦].

معركة مشيرم :

بعد هجوم اليهود السابق على مواقع الكتيبة الثالثة الأردنية اتفق ضباطها العرب مع قائد الكتيبة السادسة بالقدس عبدالله التل على القيام بهجوم مضاد على مناطق اليهود في حي مشيرم والمناطق المجاورة له، لأن احتلالها يؤدي إلى وصول القوات العربية إلى الأحياء اليهودية، وتطويق القوات اليهودية المرابطة في المسكوبية[٦٧].

وادعى الضباط العرب أمام قادتهم الإنجليز أن اليهود سيقومون بهجوم على الكتيبة الثالثة، لذلك سيبادرون هم ببدء الهجوم لتأديبهم، وفي فجر الجمعة ١٩٤٨/٧/١٦م بدأ العرب في قصف الأهداف اليهودية، ثم تقدم المشاة لطرد اليهود من قلاعهم ومنازلهم، وسط استماتة من اليهود المدافعين عن هذه المناطق، واستمر القتال حتى الثانية عشرة ظهراً، حيث أصدر القادة الإنجليز للجيش العربي قراراً بوقف القتال، وتهديدهم من يواصل القتال بوقفه ومعاقبته، وبذلك حرموا القوات العربية من نصر محقق كاد أن يتم، وإن كان العرب قد سيطروا على بعض المناطق، ولكن لم يحققوا الهدف الرئيسي وهو السيطرة على حي مشيرم [٦٨].

ورد اليهود على هجوم العرب سريعاً، ففي مساء نفس اليوم الجمعة ٧/١٦ قاموا بهجوم شامل على القدس القديمة لاحتلالها، وبدأوا بقصف المدينة بجميع ما لديهم من مدافع ثقيلة وخفيفة، وخاصة ما وصلهم منها أثناء الهدنة، وشمل القصف جميع مناطق القدس القديمة وما حولها من أحياء عربية خارج السور .

وبدأ زحف اليهود في الساعة الواحدة صباح ٧/١٧ متوجهين إلى الأبواب الرئيسية التي تؤدي بهم إلى المدينة القديمة، وتحقق أحلامهم في السيطرة على المسجد الأقصى وحائط المبكى وقبة الصخرة، وكانت مقدمتهم تحمل الألغام لنسف سور المدينة، وفتح ثغرات به للتسلل منها إلى الداخل، وانتظرت القوات العربية حتى اقترب اليهود من الأسوار، وأمطروهم بوابل من القنابل والرشاشات، فانفجرت الألغام التي يحملونها بينهم وتناثرت أشلاؤهم، وقتل الكثير منهم، وحاولت بقية القوات الهجوم على القوات العربية المدافعة، ولكن العرب تصدوا لهم في كافة المناطق،

---

(٦٦) موسوعة ويكبديا الحرة.

(٦٧) حسن البدري : الحرب في أرض السلام، ص ص١٥٧ - ١٥٩.

(٦٨) عبدالله التل : ص٢٧٤ ؛ محمد قاسم، التاريخ الحديث والمعاصر، ص٣٩٤.

وردوهم على أعقابهم .

وكرر اليهود الهجوم مرات عديدة حتى الصباح، ولكن تصدى لهم المدافعون عن المدينة من القوات العربية وأهل المدينة، كما ساهمت القوات المصرية في جنوب القدس في قصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، لتخفيف ضغطهم على القدس القديمة، حتى انسحب اليهود تاركين وراءهم ٢٢٥ قتيلاً وعشرات الجرحى، في حين استشهد من العرب ٢٣ شهيداً من الجيش والمدنيين، وما يقرب من خمسين جريحاً (٦٩).

وقد كشف هذا الهجوم عن مقدرة اليهود الحربية، وما وصل إليهم من معدات حربية ثقيلة لم تكن موجودة من قبل، مما يؤكد عدم احترامهم للهدنة وكافة المواثيق الدولية. وسلمت المدينة من احتلال اليهود لها في هذه المرحلة من الصراع بين العرب واليهود.

القدس في الهدنة الثانية :

تدخل مجلس الأمن وقرر فرض هدنة ثانية بين العرب وإسرائيل، وقد قبل الطرفان الهدنة التي بدأ سريانها في القدس، اعتباراً من الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين، من صباح السبت ٧/١٧، وفي بقية أنحاء فلسطين اعتباراً من الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد ١٨/٧/ ١٩٤٨م .

وبرغم موافقة اليهود على الهدنة، إلا أنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة لاحتلال القدس القديمة دون أي اعتبار للهدنة، ولذلك استبدلوا بقائدهم في القدس ديفيد شالتيل، لفشله أكثر من مرة في هجومه على القدس قائدا جديدا هو موشيه ديان، وكلفوه بالإعداد لهجوم جديد لاحتلال القدس .

وبدأ ذلك الهجوم بالفعل في فجر يوم ١٩٤٨/٨/١٦م (٧٠) وقاموا بقصف شديد بقنابل الهاون والمدافع الثقيلة، غير عابئين بالهدنة، أو وجود مراقبين دوليين، وكانت القوات العربية على أتم استعداد لصد الهجوم لعلمهم بغدر اليهود،وعدم احترامهم للاتفاقيات، فكانوا على أهبة الاستعداد، وانتظروا تقدم مشاة اليهود للفتك بهم،

---

(٦٩) عبدالوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، ص٤٨؛ عبدالله التل، ص٢٨١.

(٧٠) يوافق هذا اليوم – كما يزعم اليهود – عيد خراب هيكل سليمان، وهذا العيد يذكرهم بماضيهم المؤلم، ويدفعهم إلى التضحية والانتقام في سبيل مجدهم الغابر ؛ محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص١٠١.

وسلطوا عليهم نيران رشاشاتهم، فارتدوا خاسرين بعد أن قتل الكثير منهم .

ولكن القائد الجديد، موشيه ديان، لم ييأس من إخفاق هجومه على الجهات الأمامية للقدس، فعاود الكرة مساء الثلاثاء ٨/١٧ بقصف منطقة النبي داوود، شمال القدس، قصفاً شديداً، وكذلك مواقع القوات المصرية جنوب القدس، واستطاع اليهود احتلال جبل المكبر، والسيطرة على مواقع المصريين والأردنيين به، وكذلك دار الحكومة التي يقطنها مندوبوا الصليب الأحمر الدولي .

وقد ردت القوات العربية، ومعها المناضلون من قوات الجهاد المقدس، بهجوم مضاد في الساعة الرابعة فجر يوم ٨/١٨، وقصفت تجمعات اليهود، ومعسكراتهم، كما قامت القوات المصرية بقصف الأحياء اليهودية التي جاء منها الهجوم، فتشتت شمل اليهود، وفروا مذعورين ليعتصموا بالكلية العربية، ووقع بعضهم أسرى، واستردت القوات المصرية والأردنية مواقعها في الثانية صباحاً .

وخسر اليهود في هذا الهجوم الفاشل أكثر من خمسين قتيلاً، من بينهم اثنان من كبار ضباط الهاجناه، باعتراف الإذاعة العبرية في صباح ٨/٢٢، وغنمت القوات العربية كميات كبيرة من الأسلحة، بينما كان شهداء العرب عشرة فقط [٧١].

وقد شهد الوسيط الدولي الكونت برنادوت بخرق اليهود للهدنة في برقيته إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٩٤٨/٩/٥م، ثم دعا إلى عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبي الطرفين في يوم ١٩٤٨/٩/٢٦م تم الاتفاق فيه على جعل جبل المكبر منطقة دولية، ومنع دخول أي قوات مسلحة إليه .

وبرغم ما قام به برنادوت في تأييد المكاسب التي حصل عليها اليهود بالقوة، وفرض الأمر الواقع على العرب، إلا أن ذلك لم يكف اليهود منه، ورأوا أنه إذا ما شهد يوماً ما شهادة حق حول قيامهم بخرق هدنة، أو عدم احترام اتفاقية ما، فإنه يصبح معادياً لهم، ولذلك قاموا باغتياله يوم ١٩٤٨/٩/١٧م أثناء تجواله في الأحياء اليهودية بالقدس، ومما يدل على تدبيرهم للمؤامرة : أنهم لم يصيبوا رئيس المراقبين الأمريكي الكولونيل بيجلي الذي كان مع برنادوت في نفس السيارة [٧٢].

بالطبع تظاهرت السلطات اليهودية بالأسف العميق، واستنكرت الجريمة، ووعدت بإلقاء القبض على الجناة، ناسية أن هذه العصابات تعمل بأمرها، وتحت سيطرتها، إلا أنها تتبرأ منهم في كل جريمة يقومون بها .

واكتفت الدول الغربية بالأسف، حتى إن السويد نفسها، الذي ينتمي إليها

---

(٧١) عبدالله التل : ص٣٢٨ ؛ محمد قاسم، التاريخ الحديث والمعاصر، ص٣٩٤.

(٧٢) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص٣١٢.

برنادوت، اعترفت بإسرائيل بعد هذه الحادثة بمدة قليلة، ولم تطالب بدم مواطنها، وهنا نتساءل : ماذا لو أن العرب هم الذين قاموا بهذا الحادث ؟

وكان برنادوت قد وضع مقترحات، قبل اغتياله، لحل مشكلة فلسطين نشرت بعد وفاته، وكان منها : وضع القدس تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، وإنشاء إدارة دولية للمدينة تكفل الحرية للجميع . وقد رفضها اليهود لأنهم يحلمون بجعل القدس عاصمة لهم.

وفي نفس الوقت كثف اليهود اتصالاتهم بعملائهم من الضباط الإنجليز في الجيش الأردني، لإضعاف القوات العربية في القدس، ونجح كبير عملائهم وهو جلوب باشا قائد الجيش الأردني؛ في إقناع الملك عبدالله بإبعاد قائد القوات العربية في القدس عبدالله التل عن قيادتهم، وتعيينه في منصف الحاكم العسكري للقدس، وهو تغيير في ظاهره ترقية للتل، ولكنه في حقيقة الأمر إضعاف للجيش العربي، لأن الحاكم العسكري مهمته الإشراف على الأمور المدنية والأهالي، ولا سلطة له على القوات العربية، بل وألحق جلوب الكتيبة السادسة التي دافعت عن القدس أمام هجمات اليهود إلى قيادة اللواء الأول وقائده جولدي إنجليزي، لتعمل بإمرة الإنجليز[٧٣].

كما سعى جلوب لإقناع الملك بحل قوات الجهاد المقدس الفلسطينية، التي تساعد القوات الأردنية في الدفاع عن القدس، وسحب أسلحتهم، ونجح في ذلك إلى حد ما، وطارد بعض زعمائها، وأمر بالقبضِ عليهم، وبذلك وجه جهود القوات الأردنية إلى محاربة إخوانهم الفلسطينيين، بدلاً من مطاردة اليهود والهجوم عليهم[٧٤].

وظلت المناوشات بين العرب واليهود في القدس حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨م حيث تم عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبين عن الجيش العربي واليهودي، للاتفاق على إيقاف الرمي في القدس بناءاً على أوامر مجلس الأمن، وتم في هذا

---

(٧٣) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، ص ص٢٦٠ – ٢٦٢؛ أحمد التل، ص٣٣٨.

(٧٤) أرسل جلوب لواءاً كاملاً مكوناً من ثلاث كتائب لمهاجمة قوات الجهاد المقدسي في قرية بئر الزيت برام الله ومصادرة أسلحتها، وانسحبت هذه القوات إلى بيت لحم لتكون في حماية القوات المصرية، وعندما دخلت القوات الأردنية القرية لم تجد بها أحداً، ومن الغرائب أن جلوب لم يرسل يوماً لواءاً كاملاً لمحاربة اليهود، وإنما أرسله لمحاربة العرب، عبدالله التل، ص٣٦٦.

الاجتماع أيضاً وضع خرائط توضح مناطق كل طرف، والمناطق الدولية.

وأقيمت احتفالات أول عيد ميلاد للسيد المسيح بعد انتهاء الانتداب البريطاني، في ظل الهدنة واتفاق وقف إطلاق النار، وأشرف عليها الحاكم العسكري العربي الذي تقع المقدسات المسيحية تحت سلطاته، مما كان له أحسن الأثر عند الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبها (٧٥).

وبدأت بعد ذلك الاتصالات السرية بين زعماء اليهود والملك عبدالله، للاتفاق على هدنة دائمة بشأن القدس بصفة خاصة، وبين الأردن وإسرائيل بصفة عامة (٧٦).

وقد اقترحت الأردن على إسرائيل أن تردّ الأحياء العربية في القدس الجديدة، كدليل على رغبتهم بالتفاهم، ولكن الجانب اليهودي رفض ذلك، وطلب ترك مصير القدس القديمة والجديدة لمفاوضات مباشرة مع الملك، فرد الملك عبدالله عليهم بمقترح آخر وهو : أن تكون القدس القديمة للعرب والجديدة لليهود، وتترك باقي المسائل للمباحثات، وهكذا بدأت التنازلات العربية : وبرغم هذا رفض اليهود هذا المقترح أيضاً بقولهم: إن مسألة القدس دقيقة جداً، وتسبب إزعاجاً كبيراً لحكومة تل أبيب، ونحن نلاقي مصاعب من الشعب اليهودي - الذي يعتبر القدس مدينة اليهود - أكثر من صعوبات حكومة جلالة الملك، لذلك نترك هذه المسألة الآن، خاصة وأن الأحياء العربية أصبحت مزدحمة باللاجئين اليهود (٧٧).

وهكذا كشف اليهود صراحة عن نيتهم في السيطرة على القدس كلها، وأعلنوا أنهم لن يفرطوا فيها، في الوقت الذي يرون تفريط العرب في أراضيهم وعدم إستماتتهم في الحفاظ على القدس كما يفعل اليهود .

وقد لمس اليهود، أثناء مفاوضاتهم مع الجانب الأردني، مدى ضعف الجانب

---

(٧٥) يحتفل المسيحيون الغربيون الكاثوليك بعيد الميلاد يوم ٤٨/١٢/٢٤، والشرقيون الأرثوذكس يوم ٧ يناير، والأرمن يوم ١٨ يناير.

(٧٦) ذكر بعض المؤرخين أن الاتصالات بين اليهود والملك عبدالله بدأت منذ فترة طويلة، وكان بينهم اتفاق على قرار التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة، ولذلك لم تهاجم القوات الأردنية أي أراضٍ فلسطينية تخص إسرائيل في قرار التقسيم؛ أكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، ص ص٢٩ - ٣٥.

(٧٧) عبد الله التل : ص٤٥٢؛ علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص٤١٥.

العربي [٧٨]، ولذلك قاموا في ١٩٤٩/١/٢٣م بإطلاق النار على المراكز العربية في دير أبي طور جنوب القدس، وردت القوات العربية عليهم، لكنها لم تستمر لعدم وجود ذخيرة لديها تكفي ساعة واحدة .

وزادت نبرة اليهود في التمسك بالقدس، فقد صرح موشيه دايان في ٤٩/١/٢٣ بقوله: " إن القدس تربطها بإسرائيل روابط روحية، فهي هدف يهود العالم منذ آلاف السنين، بينما لا تربطها بالعرب روابط قوية، وإسرائيل مستعدة للمحافظة على جميع الأماكن المقدسة بما في ذلك مقدسات المسلمين، كانت القدس لنا وستبقى لنا".

وبذلك تغيرت لهجة اليهود بعد أن أفصح الجانب الأردني عن ضعفه، خاصة وأن كلا من الجانبين كان يستعد لمفاوضات، ردوس لعقد هدنة دائمة بين الطرفين، فأراد اليهود توضيح موقفهم قبل الذهاب إلى المفاوضات، وكان يجب على الجانب الأردني أيضاً ذلك، ولكن الملك عبدالله ساعد اليهود على تشددهم، بتصريحه لجريدة التايمز في ١٩٤٩/٢/٢٢م بشأن القدس فقال: ليس لي أي مطلب في القدس الجديدة، ولكني لا أوافق على منح القدس القديمة لليهود، أو جعلها دولية، وأنا لا أرى سبباً لجعل القدس دولية، وإن شرق الأردن مستعدة لضمان حرية الوصول إليها".

وكانت الحنكة السياسية تقتضي أن يطالب الملك بالأحياء العربية في القدس الجديدة، حتى يشغل اليهود عن أي مطامع في القدس الجديدة، ولكنه تطوع وتنازل عن هذه الأحياء ليتفرغ اليهود للمطالبة ببعض مناطق القدس القديمة، إن لم تكن كلها.

وسافر الوفد الأردني إلى ردوس يوم ٤٩/٢/٢٨، برئاسة أحمد صدقي الجندي، وكله أمل في توقيع الهدنة خلال يومين أو ثلاثة، حسب التفاهمات السابقة بين الملك واليهود، ظناً منه أن اليهود يحترمون ما اتفقوا عليه، ولكنه فوجئ في ردوس بمطالب يهودية كأساس لقبول الهدنة وهي:

---

(٧٨) حدث اجتماع بين الملك عبدالله واثنين من زعماء اليهود هما ساسون وموشيه دايان، في قصره يوم١٩٤٩/١/٢٦م، وفيه قال الملك كاشفاً أوراقه لليهود: "أنت تعلم يا ساسون أننا لم نحاربكم، ولم نعتد على ما خصص لكم، وأنا الآن لا أصغي لنصائح حلفائي الإنجليز فهم أصدقاؤكم المخلصون، وقد أحجموا عن مساعدتنا، ولم يبعثوا لنا خرطوشة واحدة منذ نشوب الاضطرابات، وكانت تنقصنا الذخيرة ولا زال..." عبدالله التل: ص٤٤٠، موسوعة ويكيديا الحرة.

١- حرية المرور بطريق اللطرون – القدس – تل أبيب .
٢- السماح لهم باستعمال سكة حديد تل أبيب – القدس .
٣- حرية المرور لمستشفى هداسا والجامعة العبرية في الجانب العربي .
٤- إزالة استحكامات جبل المكبر التي شيدها الجيش العربي أثناء الهدنة المؤقتة.
٥- حرية المرور بحائط المبكى .

وأسقط في يد الوفد الأردني، وطلب الانتظار حتى يستفسر من عمان، وظلت المفاوضات في أخذ ورد حتى يوم ١٩٤٩/٤/٣م، حيث تم التوقيع على الهدنة الدائمة، ونجحت إسرائيل أثناء المفاوضات باحتلال النقب والوصول إلى خليج العقبة بعد انسحاب القوات الأردنية منها، واحتلال منطقة المثلث بعد تآمر الملك عبدالله واليهود على الجيش العراقي الذي كان مرابطاً بها [٧٩].

وتضمنت اتفاقية ردوس إهداراً للحق العربي في القدس، مثل غيرها من المناطق العربية، وتم بموجبها تسليم اليهود قسماً كبيراً من الأراضي العربية جنوب القدس أهمها : أراضي قرية صور باهر واستحكاماتها الأمامية، وثلاثة أرباع جبل المكبر، ونصف قرية بيت .... التي تعتبر خط الدفاع العربي جنوب القدس، وكذلك تسلموا خط سكة حديد القدس – تل أبيب دون مقابل [٨٠].

وهكذا حصل اليهود على أراضٍ من القدس لم تطؤها أقدامهم، وبقيت القدس القديمة في يد العرب، حتى إشعار آخر يحقق فيه اليهود حلمهم بالسيطرة عليها، وقد تحقق بالفعل في يونيه ١٩٦٧م، ومازالوا حتى الآن بها بعد أن جعلوها عاصمة لدولتهم، ويسعون إلى تهويدها، وطمس معالمها العربية، بل والسعي إلى هدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل المزعوم، فماذا نحن فاعلون ؟؟

---

(٧٩) وثائق المقاومة الفلسطينية : ص ص٣٢٠ – ٣٢٣، وانظر: محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص ص١٥٩ – ١٦٢.

(٨٠) موسوعة ويكيبديا الحرة، وانظر: أحمد يوسف التل، معركة القدس، ص٤٥٣.

المصـــادر والمراجـــع

١- د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، رؤية مصرية، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .
٢- أحمد يوسف التل : عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.
٣- إسماعيل أحمد ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، دار المريخ، القاهرة.
٤- أكرم محمد عدوان : مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد العاشر، العدد الأول سنة ٢٠٠٢م
٥- أنور الجندي : العالم الإسلامي ، الكتاب اللبناني ، ط ١، سنة ١٩٧٩م .
٦- حسن البدري : الحرب في أرض السلام (دار الوطن العربي – القاهرة ١٩٧٦م).
٧- حسن الخولي : سياسة الاستعمار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د ت .
٨- حسين شريف : المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م .
٩- سعد بدير الحلواني : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩م، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥م .
١٠- سعد بدير الحلواني : تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار البشر للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
١١- صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين .
١٢- عبدالله التل : كارثة فلسطين، القاهرة ١٩٥٩م .
١٣- عبدالحميد الثاني (السلطان) : مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة محمد حرب عبدالحميد، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٨م .
١٤- عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م .
١٥- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٩٠م .
١٦- عبدالوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .
١٧- عفيف البرزي : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق، سنة ١٩٨٨م .
١٨- علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م .
١٩- محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .
٢٠- أحمد قاسم : التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٦م.

٢١- مذكرات مفتي فلسطين : جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد (١٠ – ١٢) بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٥م .
٢٢- مذكرات هرتزل : من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) .
٢٣- موسوعة ويكبيديا الحرة .
٢٤- وائل عبيد : تاريخ العرب الحديث ، الرياض ، سنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ، د ت.
٢٥- وثائق المقاومة الفلسطينية : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م.



مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد العشرون

أكتوبر ٢٠١٢ م



مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد العشرون

أكتوبر ٢٠١٢م

جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحـاد المؤرخين العرب
مقر الأنشطة : ١٠ شارع فؤاد بدواني – الحي الثامن – مدينة نصر – القاهرة.
تليفون : ٢٢٨٧٠٠٩٠ فاكس : ٢٢٨٧٠٠٩١
E. Mail : arabhistoryso@hotmail.com

هـذه المجلـــة

١ ــ مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٢ ــ تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

٣ ــ البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.

٤ ــ تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.

٥ ــ لا يزيد البحث المقدم للنشر عن خمسة وعشرون صفحة، مكتوب علي الكمبيوتر ويقدم من نسختين ورقيتين ونسخة أخري علي الاسطوانة CD.

٦ ــ تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.

٧ ــ يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.

٨ ــ لا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٩ ــ يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي، متبوعاً بإسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

١٠ــ ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.

١١ـ يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي :

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(جـ) الرسـائل الجامعية يتم تسـجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، الجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.

• • •

المحتويـــــات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة الافتتـــاح

للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

يسعد اتحاد المؤرخين العرب أن يصدر العدد العشرين من مجلة (المؤرخ العربي) في أيام تاريخية هامة يمر بها الوطن العربي في أعقاب ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ المجيدة، التى أضافت أبعادا جديدة إلى معالم تاريخ العالم العربي، ومفاهيم جادة لتحقيق آمال الأمة العربية وأهدافها، وبخاصة في مجالات تحقيق الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية. وكان على المؤرخين العرب مواكبة حركات التقدم السريع وتلاحق موجاته، دون أن تتأثر ركائز هويتنا، أو نجحف بقيم تراثنا الراسخ المجيد، بل نعمل من أجل الإبداع والابتكار والإتقان والتميز في هذا العالم المتغير.

ونشكر الله سبحانه وتعالى – أن تبوأت مجلة (المؤرخ العربي) مكانة علمية مكينة بين الدوريات التاريخية المتخصصة؛ التى تصدرها الجامعات ومراكز البحوث التاريخية في الوطن العربي، ولعلها أخذت مكان الصدارة بينها، وكانت موضع التقدير في اللجان العلمية لترقيات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية، لما تمتاز به هذه البحوث من الجدية والموضوعية والأصالة، وتحقيق الأهداف الجوهرية التى ينشدها اتحاد المؤرخين العرب، وبخاصة الارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية، والعناية بالتراث التاريخي العربي.

ويحتوى هذا العدد الجديد من مجلة (المؤرخ العربي) على مجموعة متنوعة من البحوث والدراسات التاريخية الجديدة، تعرض موضوعات في التاريخ القديم والوسيط والإسلامي والحديث، كتبها مجموعة من صفوة الباحثين من مختلف الجامعات العربية، بهدف استشراف آفاق جديدة لدراسة تاريخ العرب عبر العصور.

ويرحب الاتحاد بالبحوث والدراسات التاريخية من سائر الجامعات ومراكز البحوث، لنشرها بعد تحكيمها، ضمانا للجودة. ويشترط – بالإضافة إلى الجدية والأصالة والموضوعية– ألا يكون العمل المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية أخرى، ويراعى أن تتراوح صفحات البحث ما بين ١٥– ٣٠ صفحة.

ويناشد اتحاد المؤرخين العرب أعضاءه من أنحاء الوطن العربي، بموافاة هيئة تحرير مجلة (المؤرخ العربي) بمقترحاتهم، وتقارير الندوات والمؤتمرات التاريخية التى تعقد في الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية المتخصصة. كما يرجو الاتحاد موافاته بالسير الذاتية

(C.V.) لأعضائه لتحقيق التواصل العلمي، وبعناوين أهم الإصدارات التاريخية في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، حتى يتسنى النشر على صفحات المجلة.

ويسعدني أن أذيع نبأ سوف يسعد كل مؤرخ عربي غيور، وهو أن المبنى الجديد؛ الذى تفضل صاحب السمو "الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي" بتشييده، وتبرع به لاتحاد المؤرخين العرب، سوف يفتتح قريبا – إن شاء الله تعالى – ليكون بيت المؤرخين العرب. وسوف يسجل هذا الصرح الكبير في سجل إنجازات سموه الرائعة، لخدمة تاريخ العرب والمسلمين. ولسموه الشكر والتقدير والامتنان من جميع أعضاء اتحاد المؤرخين العرب. والشكر موصول للسادة الزملاء الذين تقدموا ببحوثهم القيمة لنشرها في مجلة المؤرخ العربي، وإلى الأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا، رئيس تحرير المجلة، وإلى الأساتذة الزملاء أعضاء هيئة التحرير، وإلى جميع العاملين على رفع شأن اتحاد المؤرخين العرب.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير وطننا العربي، ومدنا بعون منه، حتى نتمكن من رفع شأن الدراسات التاريخية في الوطن العربي، والله من وراء القصد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع
رئيس اتحاد المؤرخين العرب
أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

عضو مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي المصري

كلمة التحرير

يسعدنا أن يصدر العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي مع قرب الانتهاء من إعداد المبنى الجديد لاتحاد المؤرخين العرب. فالاتحاد سيكون لديه مبنى مجهز لإقامة الندوات، ومكتبة وقاعات محاضرات، وبذلك يصبح مؤسسة علمية متكاملة.

والعدد كالعادة يحمل ثراءً فكرياً متنوعاً، وأبحاثاً متميزة. والمجلة الخاصة بالاتحاد من المجلات التي سبق اعتمادها من المجلس الأعلى للجامعات في مصر، كإحدى الدوريات العلمية دولية النشر، لما لها من ثقل علمي، وما تمثله كمنبر عربي فكرى لجميع المؤرخين العرب.

والعدد الجديد يحوى سبعة عشر بحثاً، تطوف بنا عبر التاريخ، فمن العلاقات وتأثير المصادر اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات والفلاحة والعلوم ، إلى صدر الإسلام وسياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة، وبعضها تناول موضوعات اجتماعية وسياسية عن المرأة كأثر المرأة اليمنية في الحياة السياسية في عصر بني رسول، انتقالاً إلى الأندلس وأثر فتنة قرطبة على الحياة العامة فيها، وبعضها عرض لجانب حضاري، كالمكانة العلمية لمجاورى مكة إبان العصر السلجوقي.

فالعدد موسوعة تاريخية تنتقل بنا بين الشرق والغرب، فهناك دراسات للحروب الصليبية، كالأسيرات في المشرق العربي زمن الحروب الصليبية، إلى أوربا عصور وسطى، عن عصر المماليك و هنرى الثامن. وامتاز العدد بمجموعة من البحوث تتناول عصر سلاطين المماليك، ثم مجموعة بحوث تناولت التاريخ الحديث، سواء ما عرض لمستوطنات إسرائيل في القدس، أو وضع الهندوس في شرق أفريقيا، وتطور أوضاع واحة جغبوب.

فالعدد موسوعة شاملة تثرى أى مكتبة بدراسات منوعة. ونحن نأمل من القارئ الفاضل أن يمدنا برأيه، وما يمكننا من تطوير المجلة، سواء في المضمون أو الإخراج. وسنضيف باباً لأهم الدراسات والإصدارات في خلال العام القادم، كما نأمل أن يكون هناك مشاركة من أعضاء الاتحاد؛ بإضافة مؤلفاتهم إلى مكتبة الاتحاد لتكون ذخيرة علمية لأى باحث.

والله الموفق

هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم

أ.د. عفاف سيد صبرة

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

ترجمات المصادر اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات والفلاحة والعلوم المتعلقة بها

د. إيناس أحمد السيد عباس(*)

كان لانفتاح العرب على ثقافات الشعوب، التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية، أثره في القفزة العلمية التي حققها العرب في شتى العلوم، في فترة أقل ما توصف به أنها كانت وجيزة. وذلك بدءا بتشجيع العلماء ثم تبني حركة الترجمة إلى اللغة العربية، تزامنا مع الرغبة المتزايدة في اقتناء المؤلفات التي تشتمل على مختلف المعارف، وما استتبع ذلك من إنشاء المكتبات ودور العلم التي ما لبثت أن تعددت مراكزها، في شتى حواضر الدولة الإسلامية، مع اتساع رقعتها شرقا وغربا. كما أثبتت اللغة العربية، شيئا فشيئا قدرتها على استيعاب هذه المعارف، بحيث صار من الأفضل للعلماء، حتى من غير العرب التعبير عن أفكارهم باللغة العربية.

ومنذ بدأ التعامل مع هذه المعارف التي توفرت عليها جهود الترجمة، اجتذبت المعارف اليونانية الهلينية المفكرين العرب، ثم رأوا في المساهمات الهلينستية ما يلبي حاجات عملية، إلى جانب الحاجات الفكرية المعرفية. ومن ثم تعرف العرب على أنواع العلوم وتقسيماتها عند اليونان، ثم ما لبثوا أن وضعوا تقسيمات للعلوم التي أصبحت شائعة عندهم، وفق نظرية خاصة بهم. وقد كان علم النبات ضمن ما تناوله علماء اليونان من علوم.

سنحاول في هذا البحث أولا: معرفة موقع علم النبات من هذه العلوم، وكيف تناوله علماء اليونان في مؤلفاتهم التي اطلع عليها العرب، ضمن ما وصل إليهم من ترجمات، وهي التي شكلت الأساس الذي انطلقت منه المؤلفات العربية في هذا العلم، ثم الوقوف على المنحى الذي اتخذه هذا العلم في مؤلفات العلماء العرب. على أن نتابع بعد ذلك: كيف تفرع عن علم النبات فرع آخر هو علم الأدوية والعقاقير؛ القائم على النباتات الطبية. ثم أتى علم آخر في مرحلة لاحقة، ضرب فيه العرب بسهم وافر، وأضافوه إلى أنواع العلوم، وهو علم الفلاحة، الذي ألفوا فيه كتباً وضعوا فيها خبراتهم في نطاق هذا العلم. ومن ثم نعرف كيف أسهم ما أنتج من هذه المؤلفات في طرح أفكار للتطبيق، وما

١(*) مدرس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

استتبع ذلك من الحديث عما تعلق بهذا العلم، من تطورات التقنيات، التي أدت إلى تقدم الزراعة عند العرب وتطورها.

تناول علماء اليونان علم النبات مبكرا، فقد نظر إلى طبيعة النباتات، ضمن دراستهم للأشكال المختلفة للكائنات الموجودة في الطبيعة. إذ تناوله أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في هذا الإطار، في مؤلف منسوب إليه عنوانه "عن النبات". قدم فيه أفكارا منها أن للنبات قدرات ثلاث هي: التغذية، النمو، والتكاثر، بينما تنعدم لديه القدرة على الحركة أو الإدراك. غير أن أهمية أرسطوطاليس بالنسبة إلى هذا العلم، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية، تكمن فيما وضعه من نهج للدراسة يقوم على الملاحظة والاستقراء، ثم التحليل والتفسير[١]. في حين سبق Hippocratēs أبقراط الطبيب (٤٦٠-٣٧٥ ق.م) تصوره لطبيعة النبات في مراحل نموه، بدءا بالبذرة ثم النبتة، وذلك على سبيل القياس، أثناء وصفه لمراحل نمو الجنين[٢].

بيد أن تناول النبات، كموضوع قائم بذاته، تصدى له Theophrastus ثيوفراستوس (٣٧٠-٢٨٨ ق.م) أو ثاوفراستوس حسب الاسم العربي، تلميذ أرسطوطاليس؛ إذ أفرد له مؤلفين، يحمل أحدهما اسم "تاريخ النبات"، والآخر "أسباب النبات" أو بالأحرى "أسباب الإنبات"، ردد فيهما بالطبع أفكار معلمه[٣]. ولم تصل من هذين الكتابين إلا شذرات متفرقة، تدل على أنه قدم فيهما معلومات تنم عن ملاحظة شديدة الدقة، عند تمييزه بين أصناف النبات وأنواعه، وكذا عند إيضاح إدراكه لأسس العلاقة بين حالتي الإزهار والإثمار. كما أدرك ما لجغرافية المكان من أثر في اختلاف النباتات، من حيث الشكل والخصائص. وبذات الدقة وصف أجزاء النبات: من جذر وساق وأوراق وأزهار وثمار. كما وضع تصنيفا للنباتات كشجر ونبت وعشب[٤]. بالإضافة إلى أنه أفرد فصلا للاستخدامات المختلفة للنبات، سواء كعقاقير طبية أو في الوصفات السحرية. ويعد هذا الفصل – في حد ذاته – أول دليل يوناني يتعرض لاستخدامات النبات، تم الاعتماد فيه على معلومات استقاها من خبراء في الأعشاب، ممن يعرفون في التراث اليوناني باسم "قاطعي الجذور"، وهم محترفون هذه المهنة، يعتمد عليهم كل من الأطباء والسحرة في تزويدهم بالنباتات[٥] وقد ترددت أفكار ثيوفراستوس في كتابات من تعرض لهذه الموضوعات من بعده؛ إذ يعد أبا لعلم النبات اليوناني.

أما عن معرفة العرب به؛ فقد تردد اسمه كتلميذ لأرسطوطاليس، وخليفة له على رئاسة المدرسة المعروفة بالـ"ليقيوم" Lyceum في أثينا. أما مؤلفه فقد ذكر ابن النديم كتابه "أسباب النبات" أو "الإنبات"، وأشار بأن إبراهيم بن بكوس قام بترجمته إبان القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. غير أن الترجمة قد ضاعت[٦]. هذا ولم يذكر غيره تفاصيل أكثر عن هذه الترجمة، كما لم يعرف عن صاحبها سوى أنه كان طبيباً

بالمارستان العضدى، لما بناه عضد الدولة فى بغداد. وقد نقل كتباً كثيرة إلى العربية، ثم كف بصره، ولم ترد له ترجمة فى أى من كتب التراجم، حيث أخذت هذه الإشارة عن ابن النديم، ولم يزد أحد عليه شيئا.(٧)

ويبدو أن آفاق علم النبات لم تتسع، إلا بالكاد، خلال العصر الهلينستى. حقيقة أن كتابات بعينها مما كتب فى هذا العصر لم تصل إلينا بل فقدت، فيما خلا إشارات واقتباسات وردت عند Dioscorides ديسقوريدس من عين زربه (ازدهر حوالى ٦٥م) فى كتابه "مادة (النباتات) الطبية" Materia Medica. حيث أشار فى مقدمته إلى أنه جمع من هذه الكتابات وأخذ عنها. وهو الذى تناول النباتات من حيث استخداماتها الطبية، أكثر من تناوله لها من حيث طبيعتها وخصائصها؛ حيث إن ما أورده منها فى كتابه جاء مرتبا من حيث وظيفته كعقار، بمعنى ارتباطه بالعلة التى يؤخذ من أجلها.(٨)

وسوف نعود إلى الحديث عن هذا المؤلف وكتابه بالتفصيل، لما له من أهمية لدى علماء النبات من العرب.

ويلى ديسقوريدس فى الأهمية ممن تناولوا النبات، وخاصة النباتات الطبية، Galenus جالينوس الطبيب (١٢٩-٢١٠م)، الذى أقر بأنه أخذ كثيرا من معلوماته من مصادر سابقة، وأنه دائما ما يحاول ترتيب هذه المعلومات(٩). وقد كان لجالينوس مكانة كبيرة لدى مؤلفى الكتب، ذات المحتوى الطبى النباتى، من العرب؛ إذ كثيرا ما نوقشت أفكاره ومعلوماته من قبلهم - كما سيتضح فيما بعد - خاصة أنه ترجم من كتبه، فى هذا الشأن "كتاب الأدوية المفردة وقوى الأغذية"، الذى ترجمه اصطفن بن باسيل (الذى عاش فى عهد الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢-٢٤٧هـ)(١٠). كما ترجم حنين بن إسحق (٢٦٤هـ/٨٢٢م) مقالة له بعنوان "فى سر ثمر البلاذر ومنفعته وتدبيره"، وأتبعها حنين برسالة من تأليفه بعنوان "سر البلاذر وبعض أمر استعماله"(١١).

وإذا كان علم النبات قد خبت جذوته بعد هذه الأسماء التى وردت، ولم يستمر الاهتمام به إلا عن طريق ارتباطه بالطب، فإن هذا أمر يثير الدهشة والاستغراب، إذ كانت هناك مادة متوفرة تستدعى الدراسة، كما كانت الظروف مهيأة للعلماء. غير أنهم صرفوا جهودهم، التى اقتصر معظمها على تجميع الآراء والتعليق على الأعمال الموجودة بالفعل، الأمر الذى لم يسجل تطورا يذكر بعد أرسطوطاليس وثيوفراستوس؛ بحيث لا نجد فى قائمة علماء النبات، منذ العصر الهلينى حتى نهاية العصر الرومانى، سوى هذه الأسماء، يضاف إليهم Plinius Maior بلينيوس الأكبر (كان حيا ٧٧م)، صاحب موسوعة "التاريخ الطبيعى" Historia Naturalis، التى تعد من الأهمية بمكان بالنسبة إلى تاريخ العلم فى الغرب، نظرا لأنها الموسوعة الوحيدة المكتوبة باللغة اللاتينية.(١٢)

من هذا العرض يتضح كيف أن أسس التراث الهلينى، فى علم النبات، قد أرسيت على يد كلٍّ من أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أما التراث الهلينستى فقد انصب اهتمامه على موضوع النباتات الطبية واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير. وإذا كان هؤلاء المذكورون قد شكلوا ملامح هذا العلم؛ فإن تأثيرهم فى مساره قد حفظته لنا العلماء العرب من الضياع. وسوف نتابع كيف استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتى والطبى، ثم المنحى الذى اتخذوه عند تناولهم لعلم النبات.

وإذا ما حاولنا تتبع عناية العرب بموضوع النبات، نجد أن اللغويين كانوا أسبق من العلماء فى هذا الشأن؛ إذ أفرد الكثير من علماء اللغة فى مؤلفاتهم: إما كتبا أو فصولا لتناول النباتات. حقيقة أن مدخلهم كان لغويا بالأساس، لكنه أفصح عن خبرة علمية حيث دلت أقوالهم فى هذه المؤلفات عن مصادرها، وعن النهج الذى اتبعوه فيها. وسوف نتوقف عند بعض منهم، وسنقتصر فى إيراد الأمثلة على من أورد فكرا علميا، أو استحدث منهجا فى التأليف، أو فى عرض مادته.

ــ أحمد بن داود الدِّينَوَرِى (ت ٢٨١هـ/ ٨٩٥م) فى كتابه "النبات" أو "أعيان النبات" الذى يقع فى ستة أجزاء؛ يتضمن أحدها معجما لأسماء النبات، فى الفصل الخامس منه، وهو جل ما وصل من الكتاب ــ أبان فيه المؤلف عن المنهج الذى اتبعه فى تأليف كتابه، فقال: "قد أتينا فيما قدمنا من أبواب كتابنا هذا على ما استحسنا تقديم ذكره قبل ذكر النبات نبتا نبتا، فلم يبق إلا ذكر أعيان النبات. ونحن آخذون فى تسميتها، ومحللون كل واحد منها بما انتهى إلينا من صفته أو شاهدناه. وإن كان فى شئ من ذلك اختلاف، عما ينبغى أن يذكر، ذكرناه إن شاء الله. وجعلنا تصنيف ما نذكر منها على أوائل حروف أسمائها. وإن وصف إياها نبتا نبتا سيلحق كل واحد منها بجنسه، وإن اختلط، من شجر وعشب وبقل. وإنما آثرنا هذا التصنيف على توالى حروف المعجم، لأنه أقرب إلى وجدان المطلوب، وأهون مئونة على الطالب من كل تصنيف سواه".[١٣]

بهذه الكلمات يوقفنا الدينورى على طريقته المعجمية فى ذكر أسماء النبات، ونهجه فى الاستشهاد بأقوال من سبقوه من الثقات؛ فى إيراد ما قالته العرب عن النباتات، وممن نقل عنهم تأييدا لآرائه أو حتى من يختلف معه. ثم اعتماده على ما رآه بنفسه مسترشدا بسؤال أهل البلاد، وما ينتهى إليه من ملاحظاته الشخصية. فكانت محصلة ما أتى فى كتابه وصفا دقيقا لمئات النباتات، وأسماءً لأدق الأجزاء ومختلف الصور والأنواع، وذلك بناء على رأى من تصدى لدراسة منهجه. حيث وجد أن أهم ما يتميز به هو : وجود مفهوم علمى فيما يتعلق بالشكل، أو ما يعرف "بمورفولوجيا النبات". يدل على ذلك التسميات المستخدمة لأجزاء النبات المختلفة، وكذلك إقدامه على إيضاح صور النبات المعقدة بمقارنتها بأشكال معروفة؛ إذ كان يستخدم، لعقد هذه المقارنات، عددا ضخما من أنواع النبات كنماذج موضحة. فبلوغه هذه الدرجة؛ يبين أنه

أطلع على معارف ومعلومات تجمعت فى التراث الذى استفاد منه، الأمر الذى يؤكد – على الرغم من أن وصفه جاء خاليا من التأملات النظرية – أن أثر علم النبات وعلم اللغة واضح بصورة عجيبة فى كتابه، مما يجعله يناظر كتاب ثيوفراستوس،(١٤) يشهد على ذلك كثرة النقول والاقتباسات عنه، فى كتب من جاء بعده، سواء من واضعى المعاجم أو علماء النبات.

ـ وهناك لغوى آخر هو: أبو الحسن على بن إسماعيل المرسى الأندلسى، الشهير بابن سيدة (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٢م) الذى عالج فى كتابه "المخصص" فى اللغة، الذى يقع فى سبعة عشر جزءاً ـ كثيراً من الموضوعات التى تتصل بالعلوم الطبيعية. ففى القسم الذى أفرده للنبات وهو مرتب على الأبواب، عنى فى كل ما عالجه من موضوعات بالأسماء المختلفة، والصفات والأوصاف الدقيقة للكلأ والشجر والعشب. وزاد عليها من الشواهد ما لم يورده من سبقه.(١٥)

كتب هؤلاء اللغويون إذن : قدمت الأساس اللغوى العربى الذى يستخدم فى التحقيق، والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، ودقائق أجزائها وصفاتها. فصارت معاجما يعتمد عليها من يتصدى لدراسة النبات.

ويلحق باللغويين الرحالة والجغرافيون، وخاصة من أفرد منهم مؤلفات للحديث عن النباتات، سواء فى إطارها الإقليمى، مثل أبو عبيد الله البكرى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، الذى خصص كتابا أسماه "أعيان النبات والشجريات الأندلسية"، ينتهج فيه – نظرا لتعدد معارفه – نهجا علميا إذ يبدو محققا، لا يزال يبحث وينقب، حتى يصل إلى آخر شئ فى الموضوع، كما تدل على ذلك كتاباته الأخرى. وإن كان هناك من يعلل عدم اشتهار أمثال هذه الكتب، وبالتالى نسيانها وفقدانها، بأنه لم يكن ينظر إليها إلا المعنيون بها. فضلا عن أن التأليف فى هذه الفروع كان هواية يأخذها رجل عن رجل، إذا صادفت من نفسه ميلا.(١٦)

أما من عنى بدراسة النباتات، فى إطارها الأشمل والأوسع، فعول فى تأليفه على المعاينة والوقوف بنفسه على أشخاص النبات فى أماكنه، مثل الشريف الإدريسى (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م) فجاء كتابه "الجامع لأشتات أصناف النبات" يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب، يمتاز بدقة فى رسم أسمائها ووصف خصائصها.(١٧)

يضاهيه فى ذلك أيضا أبو العباس ابن الرومية (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) الذى جال البلاد الإسلامية والرومية؛ لمعاينة الأعشاب وتمييزها ومعرفة منابتها. إذ أهتم فى كتابه الذى عرف "بالرحلة"، أو "الرحلة النباتية" بتحقيق الأسماء العربية للعشب والبقل والشجر، وإثبات أعيانها، معتمدا فى ذلك على علمه وعلى المشاهدة العينية، وسؤال أهل المكان، وطاف من أجل ذلك بالأقطار، وقضى فى رحلاته زهاء ثلاثين عاما. فجاء

كتابه دالا على معرفة واسعة وتثبت وتحقق، إذ تمكن من إصلاح الأخطاء التي تردى فيها من سبقه من العلماء.[١٨]

حقيقة إن هذه المؤلفات لم تصل منها إلا شذرات، غير أنه بقيت منها فصول ونقول مطولة، في أعمال من تدارس هذا العلم، وصرح الكثير منهم بذلك.

ولا ينبغي أن نختتم هذه الطائفة، ممن أثروا موضوع النبات بمؤلفاتهم، قبل أن نشير إلى من انتهج نهجا أكثر من النهج الوصفي، فعمد إلى التصوير، وهو رشيد الدين الصورى (ولد بصور عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م)، الذى اهتم برسم النباتات في بيئتها مسجلا مراحل نموها. وقد قيل إنه كان يصطحب معه رساما يحمل أدوات الرسم، من ألوان وفرش ليرسم له النبات وقت بذره، وبداية إزهاره وإثماره، وحالة يبوسه وجفافه[١٩]. وهو النهج الذى استفاد منه وطبقه من سنعرض لهم – فيما بعد – من النباتيين.

وهكذا راق عالم النبات للكثير من المؤلفين العرب، حتى إنه بعد ـ أن تبين استيعاب اللغة العربية لأدق المصطلحات والتسميات ـ وجد العلماء، الذين تضمنت اهتماماتهم علوما منها علوم الطبيعة والكون، في اللغة العربية وفرة من المصطلحات والتعريفات، أنى لهم بها لولا جهود اللغويين وواضعي المعاجم، مما أمكنهم خوض مجال هذه العلوم.

ففى إطار دراسة علوم الطبيعة من قبل الفلاسفة، خاصة الموسوعيين والطبيعيين منهم، عولج علم النبات كأحد موضوعاتها تأثرا بما سار عليه فلاسفة اليونان، خاصة إذا كانت هناك معلومات تشير إلى وصول آراء أرسطوطاليس في النبات، عن طريق كتابه الذى يقال إن له مقتطفا سريانيا وصل إلى العرب مترجما. أما الكتاب فقد أشير إلي أن اسحق بن حنين (ت٢٩٨هـ) قد ترجمه بعنوان آخر، في حين قام ثابت بن قرة (ت٢٨٨هـ) بإصلاح كتاب بعنوان "تفسير كتاب أرسطوطاليس في النبات لنيقولاوس".[٢٠] مما يعنى أن أفكار أرسطوطاليس إن لم تصل عن طريق الكتاب المنسوب إليه، فقد وصلت عن طريق هذا التفسير المذكور لنيقولاوس، إذ كان عالم النبات موضوعا أساسيا لكل من تصدى لدراسة العلم الطبيعي. نذكر منهم هنا من يمكن الوقوف على آرائه ونظرياته في هذا العلم.

ففى رسائل إخوان الصفا (الجماعة التى ازدهرت خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى)، التى شكلت في مجموعها موسوعة متكاملة عرضت لنظرة خاصة إلى الكون، استمدت مصادرها من فلاسفة اليونان والفرس والهند. كانت الرسالة السابعة عن الجسمانيات الطبيعيات، وما تحوى الطبيعة من صور الموجودات، وعن أجناس النبات؛ فتكلموا عن تكوينها ونشوئها واختلاف أنواعها، كما تعرضوا إلى

نظرية التطور والارتقاء، واعتبروا النخل آخر المرتبة النباتية.[٢١] وتعد هذه النظرية من النظريات التى أولاها أرسطوطاليس اهتماماً كبيراً.[٢٢]

فى حين خصص أبو على بن الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م)، جريا أيضا على عادة المؤلفين الموسوعيين، قسما لا بأس به من كتابه "الشفاء" لدراسة النبات من منظور العلم الطبيعي، وضمنه نظريات وأفكارا عن النبات بوصفه كائناً حياً. فذكر أن النباتات مثلها مثل الحيوانات، فى التعامل مع الغذاء فى امتصاصه وهضمه، وتوزيعه على بقية أجزاء أو جسم النبات. وأوضح أن النبات يحصل على غذائه عن طريق ما ينجذب إليه بفعل قوة طبيعية، وليس عن طريق شهية أو رغبة فى الطعام – كما فى حال الحيوان – وأنه ليس لديه مقاومة لدفع الضرر أو جلب المنفعة. كما قال بأنه من الخطأ الاعتقاد بأن النبات لديه إدراك أو وعي؛ فالتصرف فى الغذاء يدل على الحياة وليس عن إدراك منه.[٢٣] وهنا نلاحظ كيف أنه انطلق من أفكار أرسطوطاليس التى سبقت الإشارة إليها، غير أنه تابعها بالملاحظة والاستقراء والتحليل، وأوجد التفسيرات. كما تحدث عن نظريات تخص تكاثر النبات، وتحدث عن الذكورة والأنوثة فى النبات، مما يدخل فى باب "فسيولوجيا النبات". أشار أيضاً إلى تنوع النباتات فى الطعم والرائحة واللون، أى تعرض لمسألة التصنيف. كما دفعه الاهتمام بالنباتات، من أجل التعرف على خصائصها، إلى دراسة البيئة التى تنمو فيها، سواء أكانت رملية أو مالحة أو رطبة. ويعتبر هذا الجزء، دون شك، دراسة علمية واصل فيها بالبحث والتحقيق، ما ألمح إليه علماء اليونان فى هذا الصدد – كما سبق وتبينا.

ومما يثبت أن علماء العرب قد أدلوا بدلوهم فى علم النبات لذاته، إلى جانب دراستهم للنباتات لارتباطها بالطب والصيدلة، أن ابن سينا كان فى مقدمة هؤلاء؛ إذ خصص الجزء الثاني من كتابه "القانون فى الطب" لدراسة النباتات، حين قسم الشطر الأول منه إلى ستة فصول، تناول فيه التعريف بالنباتات التى تستخدم كعقاقير. فكان فى البداية يقوم بوصف كل نبات بدقائقه، بالمقارنة مع نباتات شبيهة أو مماثلة. موضحا خصائصه العامة عن طريق إيراد ما ذكره الأقدمون عنه، من أمثال ديسقوريدس وجالينوس، ثم يقدم ما خبره بنفسه عن تلك النباتات، من حيث طبيعتها وخصائصها. كما قام بعمل تصنيف للأشجار والأعشاب والنباتات الزهرية والفطريات والطحالب، بعد أن لاحظ اختلاف أنواعها والخصائص المميزة لكل نوع والمتشابه منها. وميز بين النباتات البرية والمزروعة. ويعتبر أفضل فصول هذا الجزء ما قدم فيه قائمة بأسماء النباتات المعروفة فى اللغة اليونانية، وأضاف إليها التسميات المحلية لها[٢٤].

وقد اعتمد ابن سينا فى وصف النباتات على مصدرين رئيسيين، أولهما: النبات فى الطبيعة فى صورته الطازجة، فكان يصف طوله وسمكه وأشواكه وأزهاره وأوراقه، مما يدخل فى باب علم الشكل "مورفولوجيا النبات". أما المصدر الثاني: فكان النباتات

اليابسة أو الجافة، مما يهتم به صانعو العقاقير. فقد وصف من هذه النباتات الطبية أربعمائة نبات، تشمل معظم ما كان معروفا في عصره. مما يعني أنه قام بتطبيق المنهج العلمي في دراسة النبات، القائم على المشاهدة والاستقراء، من خلال ما وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة الطبيعة. وكذا من خلال دراسته لطريقة عمل الظاهرة الطبيعية، أى دراسة التركيب العضوى للكائن الحي، والتعرف على وظائف أعضائه، وذلك بإخضاعه للملاحظة أثناء حياته. ثم الانتقال إلى التحليل والمقارنة والتصنيف. أى السير في مسار يؤدى بالانتقال من مرحلة العلم الوصفي، التي سار فيها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبي[٢٥].

وبالنهج ذاته تكلم أبو الوليد بن رشد (ح٥٥٧م/١١٩٨م) في الجزء الخامس من كتابه "الكليات" عن النباتات، في معرض حديثه عن الأدوية والأغذية، من حيث طبيعتها الفسيولوجية، وكذا عن دلالات الطعوم والألوان مستعينا في ذلك بالعلم الطبيعي. ولم يكن مشايعًا تماما للأقدمين، - كما هو مظنون- فقد تقدمت عنده الدراية على الرواية؛ إذ تمثل التراث السابق بعين الناقد، وكانت له مرجعية إسلامية عربية، وبخاصة ابن سينا[٢٦].

عندما نحا علم النبات، نحو الاتجاه الطبي، المنحى الذي سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس، لفت هذا المنحى نظر العلماء العرب الذين أقبلوا على العلوم الطبية، فكان منهم من درس النبات، كتابع لهذه العلوم، وهم الأطباء. بينما تخصصت طائفة منهم في دراسة النباتات الطبية، فظهر منهم ما يعرف بالعشابين، الذين حفلت مؤلفاتهم بالأفكار والآراء التي شهدت على إسهاماتهم في هذا الفرع. وهؤلاء يشكلون قائمة طويلة، تضم أسماءً عديدة، سنقصرها على من تعامل منهم مع مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس في النباتات الطبية، للوقوف على منهجهم في التعامل معهما، وماذا أسفر عنه هذا المنهج من خلال ما ظهر في مؤلفاتهم.

لقد اعتبر كثير من المحدثين أن الترجمة العربية لكتاب ديسقوريدس، ذى الخمسة أجزاء، الذى يشرح فيه المؤلف، بالتفصيل، حوالى خمسمائة نبات قام بدراستها أثناء خدمته العسكرية، في الجيش الروماني، في آسيا الصغرى، قد شكلت (أى هذه الترجمة) الأساس لكثير من الإنجازات الجديدة التي حققها الباحثون والأطباء العرب في علم الأدوية والصيدلة. كما أكدوا أثره الكبير في الممارسات الطبية إبان العصور الوسطى وما بعدها[٢٧].

بيد أن الوقوف على المنهج الذى اتبعه من توفر على دراسته من العرب؛ يوضح هذا الأمر بجلاء. فمنذ أن ترجمه اصطفن بن باسيل في بغداد، على عهد الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ) وأصلحه أستاذه حنين بن اسحق[٢٨]، أثارت قصة هذه الترجمة الشهيرة، نظراً لحالتها، فضول الكثيرين للاطلاع على هذا الكتاب. هذا

فضلا عن محتواه وطبيعة موضوعه الذى يهم كل المشتغلين بالطب، حيث حفلت كتب التراجم بأسماء الكتب والمؤلفين الذين تناولوا شرح الكتاب.

ويلخص الإدريسي، في مقدمة كتابه السابق ذكره، موقع الكتاب ومكانته وموقفه منه، كأنموذج يوضح منهجه فى التعامل معه، فيقول: "إنى نظرت إلى البحر الذى منه اغترفوا والكنز الذى منه استلفوا، فإذا هو كتاب ديسقوريدس اليونانى، الذى وضعه فى الأدوية المفردة من نبات وحيوان ومعادن، فجعلته مصحفى، وأوقفت عليه نظرى، حتى حفظت علمه جملة، بعد أن بحثت ما أغفله". وقد علل الأدريسي عدم ذكر ديسقوريدس لبعض الأدوية بقوله: "إما أنه لم يبلغ علمها، أو لم يسمع عنها، لأن أكثر هذه الأدوية ليست فى شئ من بلاده". كما يذكر أنه اطلع على كتاب اصطفن فى المفردات، وكتاب جالينوس فى المفردات، وكتاب الأدوية المفردة لحنين، ويقول إنه سيتجنب ما وقع فيه غيره من خلط أو تشويه أو اضطراب. كما استوفى ذكر جميع النباتات التى أغفلها شيخه ديسقوريدس[٢٩].

هذه الفقرة تطلعنا على أن تدارس كتاب ديسقوريدس استتبعه ظهور أكثر من مؤلف فى الأدوية، ربما لأكثر من سبب، منها عدم الاستفادة الكاملة من الكتاب، نظرا لحالة الترجمة. كما تبين أيضا أن الانتباه إلى إغفال ديسقوريدس، أو عدم ذكره، لنباتات طبية موجودة بين أيدى العرب، فيما يعيشون من مناطق، استدعى الحاجة إلى ضمها إلى ما ذكره.

إذن فإن الاهتمام بكتاب ديسقوريدس، على أهميته، يفصح عن حاجة ماسة، لدى من اطلع عليه من العرب، إلى إجراء مزيد من الدراسة فى مجال النباتات الطبية. ومن ثم توالت المؤلفات فى هذا الفرع"، خاصة بعدما وصل الكتاب بترجمة اصطفن إلى الأندلس حوالى عام ٣٣٧هـ، ثم وصول نقولا الراهب من القسطنطينية عام ٣٤٠هـ، لترجمة النسخة المهداة إلى الخليفة الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وما قام به، بالاشتراك مع هيئة من الأطباء الباحثين، لتصحيح أسماء عقاقير الكتاب، وتعيين أشخاصها، وتصحيح النطق بأسمائها[٣٠].

نذكر من هذه المؤلفات مؤلف "ابن الروميه" الذى يحمل عنوان "شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها"، بالإضافة إلى كتاب آخر فى "الأدوية المفردة"، ولم يصل منهما إلا شذور نقلها تلميذه ابن البيطار[٣١]. كما جاء ذكر مؤلف يحمل عنوان "شرح لكتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب"، جمعه مؤلف مجهول من القرن السادس الهجرى[٣٢].

ولذات الغرض؛ أقدم أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين المالقى المعروف بابن البيطار (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، بعد أن أخرج كتابا عنوانه "تفسير كتاب ديسقوريدس"، أقدم على وضع مؤلفه "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" الذى ذكر فى

مقدمته أنه استوعب فيه جميع ما ورد في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصه. وكذا فعل أيضا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه. ثم ألحق بقولهما، من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه. ووصف فيه، مما قال به ثقات المحدثين والعلماء النباتيين، ما لم يصفاه. وأسند في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها. وأوضح أن منهجه هو أن ما صح عنده بالمشاهدة والنظر وثبت لديه ادخره حتى يدونه ويثبته. وأما ما كان مخالفا، في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذه. ولم يحاب في ذلك قديما لسبقه، ولا محدثا اعتمد غيره على صدقه[٣٣]. لذا جاء كتابه به مئات من النباتات التي تتخذ منها العقاقير، مسهبا في الوصف والشرح، معتمدا على المشاهدة والتجربة وتحرى الصدق والدقة في النقل. فقد كان ثمرة دراساته العلمية والعملية، حيث جاب البلاد باحثا عن النباتات في مواطنها دارسا لصفاتها، ولم يكتف بوصف أكثر من ألف نبات مختلف، لكنه قارن كذلك بينهما وبين تلك التي سجلها من سبقه[٣٤].

وقد غطى بعض العلماء موضوعا لم يلق اهتمام ديسقوريدس، في حين تناوله جالينوس في رسالة بعنوان "الترياق" بترجمة حنين، ثم تبعها تصنيف حنين نفسه الذي اعتمد فيه على كتابات طبية جمعها من مصادر كلاسيكية[٣٥]. حيث تمثل الأدوية المضادة للسموم إضافة لمنافع النباتات، فقد صنف ابن جلجل رسالة في هذا الموضوع، وللزهراوى (ح٩٣٦هـ/١٠١٣م) أيضا في كتابه "التصريف" في المقالة الرابعة منه حديث فيه. مما يشهد على تقدم علم السموم عند العرب، حيث كانت حوادث التسمم سواء بواسطة الحيوانات أو الزواحف والحشرات، من الكثرة بحيث دفعت إلى تطوير أنواع عديدة من الأمصال، منها ما هو من مصادر طبيعية نباتية أو حيوانية.

وقبل أن نصل إلى معالجة الموضوع الثاني، الذى تجلت فيه أصالة المؤلفات العربية، وهو كتب الفلاحة، رأينا أن نختتم هذا الموضوع الأول، وهو علم النبات، بمصنف أندلسي متفرد في العناية بأعيان النبات وأجناسه وأحواله في منابته، كما يقول محققه.[٣٦] إذ تناول مؤلفه الموضوع وعالج فيه مسائل تجعل منه صالحا لأن يوضع بين كل من كتب النبات والفلاحة على السواء. ألا وهو كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات"، تلك الموسوعة الأندلسية التي ترجع إلى القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى، والتي يمكن نسبتها – على ما يرى المحقق – إلى ابن عبدون الإشبيلي.

يدرس مؤلفها النبات من أجل خصائصه الطبيعية والمورفولوجية، ولا يهتم إلا بالنبات، ولا يحفل بما قد يكون فيه من منافع دوائية أو مضار. ومع ذلك انتهج منهجا يعنى بالجانب العملي، فيفسر ماهية العشبة ويعدد أجناسها وفصائلها. ويصف كل نبات من جهة شكل جذره وساقه وزهره وبذره وثمره. كما يذكر منابت الأعشاب وبيئتها الطبيعية وأماكن وجودها، فضلا عن عنايته بالجانب اللغوى الصرف؛ إذ اهتم بألفاظ اللغة

ومصطلحاتها الخاصة بأحوال العشب وأطوار نموه وأجزائه، وشرح ما أورده منها شرحا موجزا، كما فسر عددا من المصطلحات غير العربية المتداولة بين العشابين. وهو يمحص أقوال من سبقه من العلماء، وكثيرا ما يعقب عليها لتصحيح خطأ، أو زيادة شرح أو إضافة فائدة؛ لاسيما إذا كان الأمر متعلقا بأعشاب وقف عليها بنفسه، أما ما لم يتحقق من صفات الأعشاب التي نبتت في غير بلاد الأندلس والمغرب، فإنه يقتصر على إيراد أقوال غيره من الثقات العارفين، مع بيان اختلاف الأقوال فيها، وترجيح ما يظهر له أنه الصواب.(٣٧) وقد تردد في الكتاب ذكر ديسقوريدس وجالينوس، فما من عشبة إلا وحرص المؤلف على بيان ما إذا كان قد ذكرها أحد هذين الحكيمين أو كلاهما، أو أنهما لم يذكراها.(٣٨)

وكان غالبا ما يعين بيئة كل عشبة يصفها، إذ يشير إلى بعض ما يجلب من البلاد البعيدة، إلى الأندلس، من بذور لاستنباتها في بساتينها، مشيرا إلى ما أنجب منها وما لم ينجب، مما يوضح اهتمامه بالتجارب الزراعية، وحرصه على التأكد من حقيقة بعض الأعشاب الغريبة عن بلده، وذلك بمعاينتها وفحصها، مما يدل على عناية بشؤون الفلاحة والغراسة، ومزاولة أعمالها بنفسه.(٣٩)

وعليه: يتضح من هذه المتابعة كيف أظهرت كتب الأدوية خبرة العلماء العرب بالنبات، وخاصة موضوع الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية. كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات، ودراسة خصائصها لاستخدامها في العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان من الاهتمام بالنباتات الطبية على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التي دونت في هذا الشأن مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص في الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية، لتدوين النتائج.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد شملت علوما أساسية تفرعت عنها فروع، حيث يصاحب نضوج العلوم كثرة المؤلفات في العلوم وفي أجزاء العلوم، بل وفي مباحث متعددة من العلم نفسه، فإن علم النبات قد تفرع عنه علم العقاقير الطبية، أما في جزئه أو شقه التطبيقي نجد علم الفلاحة.

فعندما عالج علماء اليونان النبات مبكرا ضمن موضوعات العلوم الطبيعية، من وجهة نظر فلسفية أو علمية بحته، وجد أن علم العقاقير قد تفرع عنه في مرحلة تالية، ثم حدث الشئ نفسه في الجانب التطبيقي منه الذي أتى في مرحلة لاحقة. فبعد أن اطلع العرب على كتب النبات، والمؤلفات اليونانية في العقاقير، وجدوا كتب الفلاحة، التي ما لبثت أن لقيت في أوساط علماء النبات العرب اهتماما كبيرا. من هذه الكتب ما كان مترجما إلى اللغة السريانية، ومنها ما ترجم من اليونانية إلى العربية مباشرة، وقد توفرت بعض الدراسات على تتبع هذه الكتب.

وأول ما يطالعنا منها، كتاب فى الفلاحة، منسوب إلى أبولونيوس التيانى، المعروف عند العرب باسم "بليناس الحكيم"، يحمل تاريخ ترجمته عام ١٧٩هـ/٧٩٥م، من قبل يوستاسيوس، بالاشتراك مع بطريرك الإسكندرية "بوليتيانوس"، لصالح يحيى بن خالد البرمكى عن اللغة اليونانية إلى العربية. وتكمن أهمية الكتاب وتوقيت ترجمته – فى نظر البعض – فى أنه إشارة إلى أن العرب كانوا فى ذلك الوقت مؤهلين، لا للاهتمام بالترجمات المتوافرة باللغة السريانية فقط، وإنما كذلك بالأصول اليونانية(٤٠).

أما ما يهمنا هنا؛ فهو ما جاء به الكتاب، إذ يقول مطلع المخطوطة: "هذا كتاب ألفه بليناس الحكيم، جمعه من حكم الحكماء الذين جربوا الأمور فى سائر الدهور، ووضعوا الحكم فى التدبير لكل أمر، وهو كتاب ظريف. وقد سمى لك الحكماء الذين اجتمعوا على وضع الكتاب وصنفوه وعملوا بما فيه وجربوه." وقد جاء نص هذا الكتاب فى مخطوط يضم كتاباً عربياً فى الفلاحة(٤١).

هذه العبارة تدلنا على أن الكتاب يتناول معرفة علمية وعلما تجريبيا مبنيا على خبرات سابقة، ثم جاء من اهتم بجمع هذه المعرفة والتصنيف فيها.

أما موضوعات هذه المعرفة، فقد أفصح عنها مطلع كتاب آخر يقول "هذا ما وضع ديمقراطيس، الفيلسوف، أدبا للفلاحين، وما جرب من علم الزرع والغرس، وما فيه من دفع الآفات، وكيف تزرع البقول...."(٤٢) . وديمقراطيس هذا هو Bolos Democritus بولس ديمقريطوس (ازدهر خلال القرن الثانى ق.م) فى مصر. ويعرف عند العرب ببولس أو ديمقراطيس.(٤٣)

ثم نجد فى فاتحة كتاب آخر: "هذا كتاب يونيوس بن أناطوليوس (نهاية القرن ٤م)، الذى كان من مدينة بيروت، فى فلاحة الأرضين. فيه أبواب جمعها من .... وقسم كتابه على أربعة عشرة مقالة .... منها: فى الضيعة، ومن يعمل فى الضيعة، وفى المياه، وفى غرس الأشجار، وفى قسمة أوقات السنة، ومعرفة تغيرات الأرض". ويعد كتاب أناطوليوس هذا كتابا جامعا لمجموعة من الرسائل عن الفلاحة. وقد قام بترجمته إلى السريانية سرجيوس الرأس عينى (ت ٥٣٦م)، ثم تمت ترجمته إلى العربية من قبل المترجم المشهور قسطا بن لوقا البعلبكى (ت ٩١٢م)(٤٤).

كما حفظت لنا ترجمة عن اللغة اليونانية كتابا للمؤلف Cassianus Bassus كاسيانوس باسوس (عاش فى القرن ٦م)، حمل عنوان "الفلاحة". هذا الكتاب أشار إليه ابن النديم فى باب: ما وجد من الكتب المصنفة فى الآداب لقوم لم يعرف حالهم على استقصاء ونسب الترجمة لعلى بن محمد بن سعد(٤٥). وقد عرف هذا الكتاب باسم "الفلاحة الرومية"، كما عرف مؤلفه عند العرب باسم قسطوس. حيث أورد حاجي خليفة، بالإضافة إلى اسم المؤلف، أن من ترجمه من اليونانية إلى العربية هو سرجيوس بن هليا الرومى. بالإضافة إلى ثلاثة آخرين من بينهم قسطا بن لوقا.(٤٦)

ويتضح من هذه الكتب أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين، مما يوحى بأن ما تحمله من معرفة قد راج خلال هذه الفترة التاريخية، دون أن نعرف – على وجه اليقين – ما إذا كان لعلماء اليونان قبل هذا العصر فيها تأليف. غير أن المتتبع للمؤلفات العلمية يجد مؤلفات من هذا النوع، ترجع إلى القرن الأول ق.م، منها موسوعة زراعية للمؤلف الرومانى "Varro فارو" بعنوان (Rerum Rusticarum Libri، فى الأمور الفلاحية) يرجع تاريخها إلى ٣٧ ق.م. وقد أشار فيها إلى أن أكثر من خمسين عملا مكتوبا باللغة اليونانية فى ذات الموضوع[٤٧]. الأمر الذى يفهم منه أن هناك مؤلفات سابقة قد ظهرت، ربما لم تشتهر، وبالتالى لم تحفظ. أما المؤلفات التى ترجع إلى العصر الرومانى لفارو وكولوميلا Columella – الذى أتى بعده بقرن – فقد سبقت تلك البيزنطية التى ذكرناها. غير أنها كتبت باللغة اللاتينية فلم تصل إلى أيدى العرب منها ترجمات أثناء حركة الترجمة.

والجدير بالذكر؛ أن مؤلفى هذه الكتب البيزنطية، التى ذكرناها، كانوا معروفين لدى المؤلفين العرب، إذ كثيرا ما رددوا أسماءهم وأفكارهم – كما سيتضح فيما بعد – عند متابعة كتب الفلاحة العربية.

ومن يتابع المصادر العربية وكتب التراجم؛ يجد كتبا تحمل عناويناً تعالج تلك الموضوعات، التى صادفناها، فى كتب الفلاحة اليونانية البيزنطية. فقد ذكر أن لأبى عبد الله محمد بن زياد الأعرابى (ت ٢٣١هـ) من الكتب: "كتاب النبت والبقل"، "وكتاب صفة الزرع". كما أن لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى (ت ٢٥٥هـ) كتاب عن "العشب والبقل"، وكتاب عن "الخصب والقحط". كما نجد إشارة إلى كتاب يحمل عنوانه: "كتاب الفلاحة والعمارة"، وهو من كتب المتأخرين[٤٨].

"وكتاب فى الفلاحة ينقل مؤلفه عن الكشاجم وابن الساعاتى وابن وقيع وابن رافع. أوله: الحمد لله الذى أنزل الماء الفرات.. وبعد فهذا أنموذج طريف الوضع فى ذكر الأشجار والثمار والرياحين، وينحصر المقصود منه فى أربعة كتب..."[٤٩]

ونستطيع أن نلحظ هنا؛ أن مؤلفى هذه الكتب فى معظمهم لغويون. وأن أمثال هذه الكتب قد صادفناها عند الحديث عن المؤلفات التى كتبت فى النبات. وبالتالى يمكن أن تعتبر بمثابة المعاجم التى تورد الأسماء المختلفة للعشب والمزروعات وأجناسها.

أما كتب الفلاحة التى تبحث فى النبات من حيث: زرعه ومراحل نموه والأوقات المناسبة لبذره وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة، فأول نص عربى، تضمن شرحا لها، كان لأبى بكر أحمد بن المختار المعروف "بابن وحشية النبطى" خلال القرن الثالث الهجرى/أخريات التاسع الميلادى. ويعرف بكتاب "الفلاحة النبطية". الذى يعد مرجعا أساسيا لكل من تصدى للكتابة فى هذه الأمور. غير أن هناك الكثير من الجدل حول ما إذا كان كتابا مؤلفا أم ترجمة عربية لنص قديم[٥٠].

غير أن أثر الأصول اليونانية، في المؤلفات العربية في الفلاحة، يتضح بصورة جلية في التراث الأندلسي الزراعي، الذى يمثل جزءا كبيرا ومهما من التراث العربي الذى نحاول تدارسه في هذا المجال. وذلك لأكثر من عامل: فقد جمعت المدرسة الأندلسية الزراعية كل المعارف السابقة. وكان التراث اليوناني الهليني والهلينستي في النبات والبيزنطي في الفلاحة أحد أهم الروافد التي أمدت هذه المدرسة بمصادر المعرفة في هذا المجال. وهو ما سنناقشه بالتفصيل. أما العامل الآخر فهو: أن ما بقى من مؤلفات هذه المدرسة كفيل بأن يعطينا صورة، غاية في الوضوح، عن أنماط التأليف المختلفة التي تناولتها المؤلفات العربية في الفلاحة. هذا بالإضافة إلى أن هذه المدرسة تتميز بخصوصية الإلمام بتراث زراعي متنوع، تعاملت معه بنهج خاص قائم على التوفيق بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي. مما يشهد لهذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة في مجال مؤلفات علم الفلاحة، من حيث الشكل والمضمون.

ويمتد تراث المدرسة الأندلسية، في الفلاحة، من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجرى/ العاشر إلى الحادى عشر الميلادى. ويمثل القرنان الخامس والسادس الهجرى/ الحادى عشر والثاني عشر الميلاديان؛ أكبر وأهم نشاط لمؤلفي هذه المدرسة[٥١]. غير أن ندرة التراجم عنهم جعلت المعلومات عن شخصياتهم محدودة، بالمقارنة بالمؤلفين في مجالات أخرى من العلوم.

وسوف نشير إلى أهم المعلومات المتوافرة عنهم، قبل أن نتطرق إلى مؤلفاتهم ونصنفها حسب أنماط التأليف، ثم نقف على الموضوعات التي تناولوها بالتفصيل.

تصدر أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد (ت ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) ويمكن تسمية عمله "المجموع في الفلاحة" الذى ورد في مخطوط متنوع المواد. وهو يعد الأقدم زمنيا بين كتب الفلاحة الأندلسية. وقد حظى بشهرة واسعة[٥٢]. والمؤلف أيضا له شهرة كبيرة على عكس أقرانه من مؤلفي كتب الفلاحة، نظرا لكونه طبيبا ووزيرا. أما ما يهمنا هنا؛ فهو أنه كان يشرف على حديقة، أو مُنية، المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، على ضفاف نهر التاجة[٥٣].

ثم يأتي بعده معاصره أبو عبد الله محمد بن بصال (ازدهر حوالى ٤٦٦هـ/١٠٧٣م)، مؤلف كتاب "القصد والبيان" الذى كتبه ليحيى بن ذى النون، حيث خلف ابن وافد على حديقة النباتات للمأمون وابنه، ثم واصل المهمة نفسها في اشبيلية، في بستان صاحبها المعتمد، المسمى "حائط السلطان"[٥٤].

بعد هذين المؤلفين، الذين ينتميان إلى مدرسة طليطلة، تأتي طائفة أخرى من مدرسة تكونت في اشبيلية، بعد وصول ابن بصال إليها، منهم: أبو الخير الإشبيلي، الذى لا يعرف عنه الكثير، عدا أنه كان ضمن من اجتمعوا حول ابن بصال، وقد وصل كتابه المسمى "كتاب الفلاحة" في أجزاء متفرقة[٥٥].

ومن المدرسة نفسها أيضا، يشكل ابن حجاج وكتابه "المقنع في الفلاحة"، الذي ألفه عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، موقعا خاصا بين هذه المؤلفات، سنتعرض له بالتفصيل.

أما "الطغنري"، الذي يختتم القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فقد دون كتابه أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بعد أن انتقل من غرناطة إلى المرية، ليقوم بالإشراف على حدائق القصور الملكية. وقد أهدى كتابه المسمى "زهرة البستان ونزهة الأذهان" إلى حاكم موطنه الأصلي غرناطة، الأمير المرابطي أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين. ولم يصل هذا الكتاب كاملا(٥٦).

وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي؛ خرجت رسالة لابن العوام، الذي نجهل تاريخ ولادته ووفاته، تحمل عنوان "الفلاحة في الأرضين". وهو أحد المؤلفات القليلة التي وصلتنا كاملة. ولنا معه وقفة، إذ يعد كتابه أحسن ما كتب من كتب الفلاحة(٥٧).

بينما يمثل عمل "ابن ليون" من المرية (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) آخر الأعمال التي وصلتنا كاملة، وهو عمل يختلف عن المؤلفات السابقة – كما سنوضح فيما بعد.

من هذا الحصر، لهؤلاء المؤلفين، وتسمية أعمالهم التي وصلتنا، نستطيع أن نصنف أعمالهم تبعا لنمط التأليف الذي اتخذوه. فمؤلف ابن وافد يمثل الأعمال الموسوعية، فهو كتاب جامع، النص الموجود منه مكون من مائة فصل وستة، مرتب طبقا للترتيب المتبع في مثل هذه الكتب. فقد بدأ بتناول الموضوعات الأولية في كتب الفلاحة مثل: دراسة الأرض والمياه واختيار المزروعات، كما تناول التقويم الزراعي، بالإضافة إلى قسم خصصه للبيطرة(٥٨).

أما ابن بصال، وأبو الخير، والطغنري، فيمثلون بأعمالهم الرسائل المتخصصة، التي يعتمد مؤلفوها بشكل كامل على تجاربهم الشخصية. لا تتداخل فيها أمور أخرى غير ما يخص طرق الزراعة والمزروعات. باستثناء ابن حجاج الذي يبدو نحويا لغويا، أكثر منه مؤلفا مختصا بالفلاحة(٥٩).

بينما يمثل مؤلف ابن العوام نموذجا للأعمال الموسوعية، فهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة(٦٠)، غير أنها قائمة على المنهج النقدي؛ إذ تحوي جميع المعارف الزراعية الشائعة في عصره، يستوعب مؤلفها التراث السابق ويختصره، ثم يحييه ويمحصه.

أما آخر الأعمال، وهو ما كتبه ابن ليون، فهو من الأعمال المتفردة، إذ يعد قصيدة تعليمية تحتوي على معارف زراعية، تضم ٦٣٥ بيتا، يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية، قياسا على قصيدة فرجيليوس، الرومانية اللاتينية، المسماة "Georgica" (الزراعيات). ومع ذلك فهي تقدم معارف زراعية بحتة استقاها من

كتابات المتخصصين، ليس فيها من المحسنات البديعية الموجودة عادة فى الشعر، فيما عدا المواضع التى يتطرق فيها إلى وصف البساتين وما تحويه، فإنه يجنح إلى استخدام أدوات الشعر من ألفاظ وصور بلاغية؛ لذا فهو يعد نموذجا فريدا لهذا النوع من أنماط التأليف(٦١).

أما أثر المؤلفات اليونانية، فى أعمال هؤلاء المؤلفين، فهو ما يمكن استخلاصه من نصوص هذه الأعمال ذاتها. فمن حيث الشكل تتبع هذه المؤلفات نفس النمط الكلاسيكى، الذى اتبعته المؤلفات البيزنطية، فى ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. إذ تبدأ جميعا بالحديث عن التربة فالأسمدة أو المخصبات، ثم يأتى بعد ذلك الحديث عن المحاصيل، وأخيرا تتناول التقاويم الزراعية، ثم تختتم بنصائح عن إدارة المزارع وتنظيم العمل، وكيفية السيطرة على الآفات(٦٢).

بينما لوحظ، من حيث التناول، تأثر هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية لكل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة. وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات(٦٣).

أما إذا ما بحثنا فى كل عمل على حدة، فإننا نجد لكل مؤلف شأناً فى مدى تأثره بهذه المؤلفات، وتعامله مع ما جاء بها من أفكار. فنجد ابن وافد – على الرغم من أنه لم يشر كثيرا إلى أسماء مؤلفين كما هو معهود فى أعمال غيره – يشير أحيانا إلى ما يسميهم "الحكماء". غير أنه ذكر بالإسم كلا من أناطوليوس وديمقراطيس. فضلا عن أنه استعمل – مثله مثل المؤلفين الآخرين – أسماء الأشهر الرومية ذات الأصل السريانى مثل تموز وآب. هذا، بالإضافة إلى أن النص الموجود فى نسخته القشتالية جاء مرتبا طبقا للترتيب المتبع فى مثل هذه الكتب. بل إنه كان غاية فى التنظيم، وأكثر تنظيما من المؤلفات اللاتينية(٦٤).

أما فى كتاب أبى الخير؛ فنجد فقرات جاءت فيها عبارات ترددت فيها أسماء المؤلفين البيزنطيين، حينما يقول على سبيل المثال: ... على مذهب قسطوس اليونانى، ... ذى مقراطيس (ديمقراطيس) الرومى ، ... انطوليوس (أناطوليوس) الإغريقى... إلخ(٦٥).

بينما ابن حجاج، الذى جمع اقتباسات مثيرة من المؤلفين السابقين، فقد قامت دراسة عن عمله، أظهرت إلى جانب التأثير اليونانى البيزنطى ما يشير إلى تأثير التراث اللاتينى، وخاصة من كولوميلا، وإن كان هذا الأمر لا يزال موضع دراسة(٦٦).

فى حين سمى ابن العوام المصادر التى استقى منها ورمز لمؤلفيها بحروف كلما أراد؛ فجالينوس (ج)، وقسطوس (ق) وهكذا. ويقول: إنه لم يثبت إلا ما جربه مرارا فصح. ثم يقول: إنه لم يقطع بأن هذا يصح فى بلادهم لبعد بلادهم عنا. وقد اتسم

بالأمانة فى العرض، فيقول: "لى" وذلك حين يعرض رأيه هو. وفيما عدا ذلك فإنه ينسب الأقوال إلى قائليها، مثل يونيوس وقسطوس. وعندما يرغب فى تأكيد آرائه يقول: هذا إجماع من حذاق أصحاب الفلاحة[٦٧].

وعلى هذا، وفى ضوء ما توافر من هذه النصوص، نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص فى الكتابة والتأليف، عند العرب، بشكل واضح، حيث صارت من التخصصات التى تحمل سمات عامة، تظهر تقريبا فى أغلب مصنفات هذا النوع. فنادرا ما تختلط فيها العلوم، عدا العلوم المتعلقة أو ذات الصلة بهذا النوع.

أما ما لفت انتباه العلماء والدارسين، للمؤلفات المتعلقة بمجال الفلاحة، فهو ما تميزت به هذه المؤلفات الأندلسية من الاهتمام بموضوعات بعينها. ولا يتسع المجال هنا إلا إلى الإشارة فى إيجاز عن هذه الموضوعات، فقد ركزت أغلب هذه المؤلفات على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التى أجراها المؤلفون بأنفسهم فى هذا الصدد. وهو موضوع جديد لم تتطرق إليه كتب الفلاحة البيزنطية.

كما احتوت هذه الكتب العربية الأندلسية؛ على معلومات قيمة تخص أنواعاً بعينها من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق، وكيفية رعايتها، وطريقة تنسيق أشجارها ونباتاتها، واختيار الأنواع المناسبة لزراعتها فى كل جزء من أجزاء الحديقة. واستعانوا فى ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، وما استعانوا به من خبرة الممارسين الذين تخصصوا فى هذه الزراعات. والأكثر من ذلك أنهم تعرضوا لمسألة تطبيع النباتات البرية، فكانت هذه الموضوعات من الملامح البارزة فى كتبهم[٦٨]، وقد تفوقوا فى معالجتها، نظرا لأنهم مارسوها بأنفسهم فى البساتين والحدائق النباتية التى تفردت بها الأندلس.

ولقد كانت موضوعات علم الفلاحة – فى مجموعها – تحوى معارف متشعبة يصعب التسليم بأن شخصا واحدا بإمكانه أن يمتلكها جميعا، حتى إن أحدهم، وهو المؤلف الرومانى كولوميلا، قد صرح بهذا فى مقدمة كتابه ("De Re Rustica" فى أمور الفلاحة)[٦٩].

وما كان لهذه الكتب أن تتناول الموضوعات الكبيرة التى كانت تتناولها، مثل الأرض والمياه وأوقات الزراعة، دون أن تستند على معلومات توفرها مؤلفات تختص بهذه الموضوعات. وقد بينت إشارات واضحة، فى كتب الفلاحة، أهمية الحصول على هذه المعارف، وعرضت المتوافر منها. لذا كان من الضرورى التطرق إلى المؤلفات التى تحوى تلك المعارف، وتقدم التقنيات التى يحتاجها علم الفلاحة لتطبيق الأساليب الجديدة فى الزراعة.

وفيما يخص العنصر الأول وهو الأرض، وهي أول مراتب علم الفلاحة، فنجد - بالإضافة إلى ما نقله ابن وافد عن علماء النبات مما تحصلوا عليه من معلومات بشأن تركيب التربة- ثم المعلومات التى ألمح إليها ابن بصال، حين ذكر أنه "ليس كل أرض يطلق عليها جيدة ولا رديئة، حتى يعلم ظاهرها وباطنها. وأن هذا كله يعرف بالاختبار والامتحان ودوام الحركة بالعمل فيها". وكذا المعلومات التى جاء بها ابن العوام، فى هذا الشأن، حين عرض من أقوال "يونيوس" تجارب بسيطة لمعرفة نوع الأرض، فقال: "إن أنت مارست الطين بيدك فأصبته شبيها بالشمع يلصق جيدا، فاعلم أنها أرض غير موافقة للقبول، وإن كان طعم التراب عذبا معناه أنها خالية من الأملاح. والأرض الشديدة الغبرة تظهر أن فيها تخلخلا (أى مسامية)... "[٢٠]، إلى غير ذلك من الإشارات التى تعنى ما يمكن أن يجنيه علم الفلاحة إذا ما توسعت هذه المعرفة.

هذا ولم يظهر هذا الأثر إلا عندما توسعت تلك المعرفة وتم استيعابها، فأخرج رضى الدين الغزى (ت ٨٦٢هـ/١٤٥٨م)، كتابه المسمى "جامع الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة"، وعالج فيه باستفاضه نظريات تكوين التربة، وقام بتوضيح الفروق بين التربة السطحية والتربة التحتية، وأى منها يحتوى على المخزون العضوى. كما أشار إلى مسألة تقليب الأرض، وأكد ضرورة مراعاة ذلك عند إنشاء بساتين الفاكهة، فيقول: "تقلب الأرض إذا أريد إنشاء الغراس فيها". والغرض من هذه العملية دفن الجذور بالتراب السطحى أولا، لاحتوائه على نسبة أكبر من المواد الغذائية[٢١]. وفى مجال إصلاح الأراضى؛ أشار إلى ضرورة إزالة الطبقة السطحية من التربة، فى أعمال التسوية لكى تظهر التربة التحتية التى تكون ضعيفة الإنتاج، فيقول: "ما يخرج من أعماق الأرض كالآبار والمطامير، لا ينبت أول عام حتى تطبخه الشمس، وتتلطف أجزائه، ويكتسب من حرارتها". كما تحدث عن مفهوم التربة المنقولة عندما يحدث انجراف للطبقة السطحية من التربة، بفعل الأمطار الشديدة فى الأرض غير المغطاة بالغابات أو المراعي، فتزيد الطبقة المنجرفة من خصوبة الأماكن التى تترسب عليها، وتضر بالتربة التي انجرفت منها. وقد أفرد فى تصنيف أنواع الأرض، كما أوضح طرقاً متعددة للتعرف على جودة الأرض ومدى تخلخلها ومساميتها[٢٢]. وكانت هذه المعلومات - على ما يبدو - أكثر تطورا من تلك التى أوردها السابقون عليه، نتيجة التوسع فى هذه المعرفة.

أما العنصر الثانى، الذى يلاحظ فى جل كتب الفلاحة الدور الحيوى الذى يؤديه، ألا وهو عنصر المياه. فبالإضافة إلى التعريف بأنواع المياه وخصائصها ومعالجة مشاكلها، مما أشار إليه علماء النبات، كان الاهتمام بطرق الحصول عليها. وكان الطغرى هو أحد المؤلفين الأكثر أصالة ضمن أولئك الذين تناولوا موضوع المياه، ولاسيما ما يتعلق بحفر الآبار والتنقيب عن المياه. كما حاول نقل الأساليب التى اطلع عليها خلال أسفاره فى بلاد الشام وشمال إفريقية[٢٣].

أما فيما يتعلق بطرق الحصول على المياه، فقد عرض العلماء فـي مؤلفـاتهم طرقا علمية تعكس الحالة المتقدمة، التي وصلت إليها هذه التقنية، في مجال اسـتخراج المياه الجوفية والإفادة منها. فكتاب "إنباط المياه الخفية" لأبي بكر محمـد بـن الحسن الكرخي، الذي صنفه بين سنى ٤٠٦، ٤٢٠هـ/ ١٠٢٠م، يتـضمن ٢٩ بابـا بحثـت مختلف المسائل المتعلقة بالمياه الجوفية وهندستها، وعرضـت بالتفـصيل للإجـراءات الهندسية قبل تنفيذ الحفر، واستفاد في ذلك الصدد من معارفـه الهندسـية وتطبيقاتـه العملية. وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه "بدأ يتصفح كتابات القدماء في هـذا الموضـوع، فوجدها قاصرة عن الكفاية واقفة دون الغاية..."[٧٤]

وفي مقابل هذا القصور؛ الذي بدا واضحاً في المؤلفات في هذا الشأن، أثبتـت الدراسات الأثرية تطبيقات لتقنيات متعددة خاصة بالمياه ترجع إلى عهود طويلة. فهـو مجال وراءه تاريخ طويل من الممارسة، أسهم فيه المهندسون والمخترعون على مـدى كل العصور. فالآلات مثل طاحونة المياه والمضخة الرافعة للمياه، التي جاء ذكرها فـي مؤلفـات كـل مـن Hero of Alexandria "هيـرون الـسكندري" وCtesibius "كتيسبيوس" (ما بين القرنين الأول والثاني ق.م)، -وعلى الرغم من أهميتها في وقتها- فإن أيا منها لم يدخل حيز التطبيق العام، ولم تحدث أثرا في أداء النشاطات العملية التي يمارسها الناس[٧٥].

غير أنه عندما سعى العلماء العرب لتطبيق معارفهم النظرية، للإفادة منها فـي كل ما يخدم متطلبات الناس، وجعلوا الغاية من العلم "الحصول على الفعل الكبيـر مـن الجهد اليسير"، عملوا على ابتكار المزيد من الآلات، ومـا أسـموه "بالحيـل النافعـة"، وإجراء التحسينات على ما هو معروف منها، وتطوير استخداماتها.

إذ قدمت حيل بني موسى (ازدهروا ١٩٨هـ) ابتكـارات قابلـة للتطبيـق، منهـا خزانات تثبت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرا، ويمكن بواسطتها الـسيطرة علـى عملية ري المزروعات.

أما بديع الزمان إسماعيل بن الجزري (ت ٦٠٢هـ/ ١٢٠٧م) - في كتابه الذي يعرف "بالجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"- فقد عالج موضوع آلات رفع المياه، وقدم تصاميما منها ما يصلح لرفع المياه من الآبار العميقة إلى سـطح الأرض، وكذلك ما يستعمل في رفع المياه من منسوب النهر، إذا كان منخفضا، إلى الأماكن العليا بواسطة مضخات.

وكان هؤلاء المخترعون يصنعون منها نماذج مصغرة، ويقدمون شـروحا يـتم الاستعانة بها في تركيب الآلات الموصوفة في تلك المؤلفات[٧٦].

وكذلك قدم أحمد بن خلف المرادى الأندلسى (ق.٥هـ/ ١١م) – فى كتابه "كتاب الأسرار ونتائج الأفكار"– أكثر من ثلاثين نوعا من الآلات الميكانيكية قابلة للاستخدام، منها الطواحين، والمكابس المائية، والعجلات التى تستخدم لتدوير الطواحين، والساعات المائية التى تستخدم لقياس كمية الماء، وخاصة فى حالة شح المياه[٧٧].

وبفضل الحصول على هذه المعارف وتطبيق ما بها من تقنيات، تم تطوير نظم ووسائل الرى وتحسين أدواتها.

أما العنصر الثالث، من العناصر الأساسية لعملية الفلاحة، وهو ما يتعلق بالأوقات المناسبة لكل زرع، التى تختلف باختلاف البلدان وأجوائها. حيث ترتبط الدورة الزراعية بالمناخ وتغيراته، فهو عنصر يجب الرجوع فيه إلى العلم الذى يختص بدراسة التغيرات الجوية. وهو من العلوم التى قامت على أساس ما قدمته كتب الأوائل من نظريات عن الظواهر الطبيعية المناخية، مثل ما قدمه أرسطوطاليس فى كتابه "الميتورولوجيا" الذى توفر على ترجمته ودراسته سنان بن ثابت (ت ٣٦٠هـ)[٧٨] العالم بالظواهر الجوية. ثم ما قدمته المؤلفات التى اهتمت بالتعريف بهذه الظواهر، وتفسير ما يصاحب حدوثها من تغيرات، مثل كتب "الأنواء". وقد عدد ابن النديم ما يربو على ١٥ كتابا عربيا مؤلفا فى الأنواء[٧٩]. مما مهد الطريق لظهور المؤلفات التى اهتمت بدراسة أثر هذه التغيرات فى الأنشطة الحيوية، ومنها الفلاحة. وعلى هذه المعلومات استندت كتب اهتمت بدراسة علاقة الفصول والتغيرات فى أشهر السنة المختلفة وأثرها فى المحاصيل الزراعية. منها المعلومات التى قدمها كتاب "تقويم قرطبة" لعريب بن سعيد(ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، الذى أدرج فيه المواد الزراعية المناسبة لكل شهر من شهور السنة، كما أكمل تلك المعلومات نص آخر يرجع تاريخه إلى القرن ٤هـ/١٠م، لمؤلف مجهول، يحمل عنوان "كتاب فى تاريخ أوقات الغراسة والمغروسات"، جاء فى عشرة فصول، قدم فيها حصرا للأوقات المناسبة لزراعة الأشجار ومزروعات البساتين[٨٠].

وكان لهذه المعارف أثرها فى ضرورة اختيار أنسب البذور التى تلائم هذه الظروف المناخية، وكذا اختيار الوقت المناسب لمراحل إنبات المحاصيل وجمعها وحصادها، والتنبه لمدى مقاومة النباتات للأمراض الناتجة بفعل التغيرات الطقسية؛ التى قد تؤدى إلى هلاك المحاصيل[٨١].

وهكذا؛ نستطيع أن نؤكد أن السعى فى اكتساب هذه المعارف – من العلوم ذات الصلة بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها، والإلمام المسبق بالتراث الزراعى، والتعامل معه بالمنهج التجريبى الذى اعتمده مؤلفو كتب الفلاحة – هو العامل الذى أدى إلى التطور الكبير فى الأساليب الزراعية وتقنياتها، وهو الأمر الذى كانت تهدف كتب الفلاحة إلى التعريف به، ومن ثم تطبيقه.

الخاتمـــــة:

تابع هذا البحث موقع علم النبات، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية التى تتناول الكائنات الموجودة فى الطبيعة، ضمن ما تناوله مبكراً علماء اليونــان مــن علوم، ثم تابعه العلماء خلال العصر الهلينستى بإسهاماتهم، فى المؤلفــات التــى اطلـع عليها العرب ضمن ما وصل إليهم من ترجمات.

ولقد اهتم البحث أولا بالوقوف على المنحى الذى اتخذه هذا العلم فى مؤلفــات العلماء العرب، التى تتابعت فى شكل موسوعات ودراسات علمية، قامت علــى عــرض نظريات تخص ذلك العلم، تأثرا بما سار عليه علمــاء اليونــان. ثــم ظهــرت مؤلفــات متخصصة فى موضوع بعينه، عندما تفرع عن علم النبات علــم العقــاقير أو النباتــات الطبية. وقد صاحبت هذه المؤلفات مرحلة الدراسة وتنقيح الأفكار، والنظريات الموروثة عن اليونان، ثم جاء الاتجاه إلى تأليف أبحاث ورسائل تناقش، أو تطرح، فرضيات جديدة خاصة بالعلماء العرب، قدموها بناء على ما قاموا به من تجارب ومشاهدات.

ثم تابعنا بعد ذلك: كيف أن طرح تلك الأفكار لم يستمر داخل الإطــار النظــرى المعرفى فقط، بل انتقل إلى الجانب العملى التطبيقى، فظهــرت مؤلفــات فــى الفلاحــة. وناقشنا كيف أسهم ما أنتج من مؤلفات فى طرح أفكار للتطبيق، أدت إلى تقدم الزراعــة وتطور تقنياتها. فكان ما عرف بالثورة الزراعية العربية أحد ثمار الاهتمام العلمى بعلوم النبات والفلاحة، والعلوم التطبيقية التى قدمت وسائل التقنية.

وقد اعتمدنا فى تناولنا لهذه المؤلفات، وتصنيف نوعياتها، ومتابعة ما جاء بها من أفكار، على ما كتب عنها من تعليقات، من مــصادر تناولــت المــؤلفين وإنتــاجهم الفكرى، إلى جانب ما جاء فى مقدمات سطرها مؤلفو هذه الأعمال بأنفسهم، بالإضــافة إلى الدراسات التى تناولت تاريخ العلوم.

ولقد استهدف البحث: إظهار الدور الذى قام به علماء العرب فى الحفاظ علــى تراث السابقين، ثم تنقيحه وتأصيله، حتى تمكنوا من وضع إضافاتهم بصورة أسهمت فى تطور علم النبات، وعلم الفلاحة الذى أضافوه إلى قائمة تقسيمات العلوم لديهم، بوصفه علماً يمثل الجانب التطبيقى من علم النبات.

وتبين من المتابعة: كيف أن أسس التراث اليونانى الهلينى، فى علم النبات، قد وضعت على يد كل من أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أمــا التــراث الهلينــستى فكــان ديسقوريدس أبرز ممثليه، حيث انــصب اهتمامــه علــى موضــوع النباتــات الطبيــة واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير.

وقد استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتي والطبي. فقدم اللغويون الأساس اللغوى العربى الذى استخدم فى التحقيق والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، وحقائق أجزائها وصفاتها.

بينما اهتم العلماء وخاصة الموسوعيون منهم، بعالم النبات من منظور العلم الطبيعي، فانطلق ابن سينا من أفكار أرسطوطاليس، غير أنه طبق المنهج العلمى القائم على الملاحظة، والاستقراء والتحليل والتفسير، وهو المنهج الذى وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة العلوم الطبيعية. فوصف النبات من حيث الشكل، وصنفه من حيث الخصائص، ثم قام بمقارنته من حيث أوجه التشابه والاختلاف، فانتقل بذلك من مرحلة العلم الوصفى، التى اقتصر عليها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبي.

وعندما نحا علم النبات نحو الاتجاه الطبى، الذى سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس خلال العصر الهلينستي، لفت هذا المنحى اهتمام العلماء العرب، بيد أن الوقوف على النهج الذى اتبعه من توفر على دراسة علم النبات الطبى، من العرب، يبين كيف أظهرت مؤلفاتهم فى مجال الأدوية -خاصة الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية- خبرة بعلم النبات، كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات ودراسة خصائصها لاستخدامها فى العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان، من الاهتمام بعلم النباتات الطبية، على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التى دونت فى هذا الشأن، مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص فى الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية لتدوين النتائج.

أما عن المحور الثانى من البحث، الذى تابعنا فيه الشق التطبيقى من علم النبات وهو علم الفلاحة، الذى تفرع عنه فى مرحلة لاحقة بعد ظهور علم العقاقير الطبية، فقد تبين أن العرب عثروا على كتب الفلاحة ضمن مؤلفات اليونان، واتضح لهم أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين. فتعرف العرب من خلالها على مؤلفيها، ورددوا أفكارهم وناقشوها عندما أقدموا على كتابة مؤلفات فى ذات الموضوعات التى تناولتها كتب الفلاحة البيزنطية. وكذلك قدم اللغويون المفردات العربية والأسماء المختلفة للعشب والمزروعات، وأجناسها، وأطوارها المختلفة.

وقد بحثت هذه المؤلفات فى النبات، من حيث: زرعه ومراحل نموه، والأوقات المناسبة لبذره وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة. وتبين أن أثر الأصول اليونانية فى هذا النوع من المؤلفات، يتضح بصورة واضحة فى التراث الزراعى الأندلسي، الذى امتد من القرن الرابع حتى القرن الثامن الهجرى/ العاشر حتى الرابع عشر الميلادى. وقد تميزت هذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة فى مجال كتب الفلاحة؛ من حيث الشكل والمضمون، حيث يمكن تصنيفها إلى أعمال موسوعية، إلى

جانب رسائل متخصصة، ثم أعمال قائمة على المنهج النقدى، فضلاً عن أعمال يمكن أن توصف بالأعمال المتفردة. ونقصد بها تلك القصيدة التعليمية التى احتوت على معلومات زراعية، حيث يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية.

أما عن وضوح أثر هذه المؤلفات اليونانية فى كتب الفلاحة العربية التى تناولناها، فقد تبين أنها، من حيث الشكل، تتبع نفس النمط الكلاسيكى، الذى اتبعته المؤلفات البيزنطية، فى ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. أما من حيث التناول فقد لوحظ تأثر هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية عند كل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة، وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات.

وعلى ضوء ما توافر من هذه النصوص؛ نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص فى الكتابة والتأليف عند العرب. حيث إنها أصبحت من التخصصات التى تحمل سمات عامة، تظهر تقريباً فى أغلب مصنفات هذا النوع.

أما عن الموضوعات التى تناولتها هذه المؤلفات الأندلسية؛ فقد تركزت فى أغلبها على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها، ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التى أجراها المؤلفون بأنفسهم فى هذا المجال. كما احتوت على معلومات قيمة تتعلق بأنواع معينة من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق. وقد استعانوا فى ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، إذ كانت هذه البساتين بمثابة مزارع تجريبية لهم. كما كان أبرز سماتها هو المنهج التجريبى؛ القائم على مزج النظرية بالتطبيق. كما كان السعى فى اكتساب معارف ذات صلة بالعلوم الطبيعية، وتطبيقاتها، هو الذى أدى إلى التطور الكبير فى الأساليب الزراعية وتقنياتها، وكان التعريف بها، ومن ثم تطبيقها، هو الهدف من وراء كتب الفلاحة.

الحواشـــى

(١) Lorande Loss Woodruff, 'History of Biology', The Scientific Monthly, vol.١٢,
No.٣, ١٩٢١, US, pp.٢٥٣-٢٨١, pp. ٢٥٣-٥٤.
(٢) Simon Hornblower & Antony Spawforth, eds. The Oxford Companion to
Classical Civilization, Oxford, ٢٠٠٤, p.١٢٥.
(٣) Ibid.
(٤) Charles Singer, Greek Biology & Greek Medicine, Oxford, ١٩٢٢, pp.٦٠-٦١
(٥) Simon & Spawforth, op.cit, p.١٢٥.
(٦) محمد بن إسحق النديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م)، الفهرست، تحقيق وتقديم مصطفى الشويمى، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٣٥٢.
(٧) جمال الدين أبو الحسن بن يوسف القفطى (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، تحقيق جوليوس ليبرت، ليبسك، ١٩٠٣م، ص٧٥.
(٨) Simon & Spawforth, op.cit, p.١٢٦.
(٩) Charles Singer, op. cit., p.٦٩.
(١٠) ابن النديم، مصدر سابق، ص٤١٦-٤١٩.
(١١) القفطى، مصدر سابق، ص٨٣.
(١٢) Charles D. Wise, "The Status of Biology in Alexandrian and Greco-Roman Science', The American Biology Teacher, vol.٢٧,No.٨،١٩٦٥,US.,pp.٦٢٣-٦٣١;pp.٦٢٨-٦٢٩.
(١٣) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى، كتاب النبات، أبواب من الكتاب الخامس، نشر محمد حميد الله، حيدر أباد، ١٩٥٦م، المقدمة.
(١٤) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربى، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازى، الرياض، ١٩٨٦م، المجلد الرابع، ص ٥٠٦-٥٠٨.
(١٥) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، القاهرة، ط٩، ١٩٩٦م، ص ١٧٩.
(١٦) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م، ص ١٠٨- ١٠٩، ص ١١٩، ص١٢٣.
(١٧) نفسه، ص ٢٢٦- ٢٢٧.
(١٨) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠م، ص ٣٣٨- ٣٣٩.

---

(١٩) ابن أبى أصيبعه، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٩.
(٢٠) جاء ذكر هذا الكتاب فى ترجمة نيقولاؤس عند القفطى. مصدر سابق، ص٢٢٠.
(٢١) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص٢٠٠.
(٢٢) Charles Singer, op.cit., pp.٢٩-٣١.
(٢٣) Islamic and Arab Contribution to the European Renaissance, issued by:
Associated Institution for The Study and Presentation of Arab Cultural Values, Cairo, ١٩٧٧,pp.١٩٢-١٩٣.
(٢٤) ابن سينا، القانون فى الطب، كتاب الأدوية المفردة والنباتات، شرح جبران جبور، قدم له خليل أبو خليل، تعليق أحمد الشطى، بيروت، د.ت، المقدمة.
(٢٥) Lorande, op.cit. ,p. ٢٥٧; p.٢٦٦; p.٢٨١
(٢٦) ابن رشد، الكليات فى الطب، تحقيق سعيد شيبان، وعمار الطالبى، مراجعة أبو شادى الروبى، القاهرة، ١٩٨٩م، مقدمة المحقق.
(٢٧) هوارد تيرنر، العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، ومراجعة أحمد عبد الله السماحى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٨٤، ص ١٩٠.
(٢٨) القفطى، مصدر سابق، ص ١٧١.
(٢٩) المكتبة الصقلية، نشر ميخائيل أمارى، ليبسك، ١٨٥٧م، ص ٥١٢.
(٣٠) سليمان ابن جلجل (كتب ٣٧٧هـ/٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى، القاهرة، ١٩٥٥م، المقدمة.
(٣١) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٤٠.
(٣٢) محمد العربى الخطابى، الأغذية والأدوية عند مؤلفى الغرب الإسلامى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٢٨.
(٣٣) ابن البيطار المالقى، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، المقدمة.
(٣٤) هوارد تيرنر، مرجع سابق، ص ١٧٤.
(٣٥) نفسه، ص ١٨٧.
(٣٦) محمد العربى الخطابى، مرجع سابق، ص ٤٢.
(٣٧) نفسه، ص ٤٥.
(٣٨) نفسه، ص ٤٤.
(٣٩) نفسه، ص ٤٨.
(٤٠) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص ٤٣٤.
(٤١) Emilio Garcia Gomez,"Sobre Agricultura Arabigoandaluza," Al-Andalus, vol.١٠،١٩٤٥,Madrid & Granada,pp.١٢٦-١٤٦; p.١٤٢,n.l.
(٤٢) Jose M. Millas Vallicrosa, "La Traduccion Castellana del Tratado de Agricultura

de Ibn Wafid", Al-Andalus. vol.٨،١٩٤٣, pp. ٢٨١-٢٩٩; pp.٢٩٥-٢٩٦.

(٤٣) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص ٤٦٣-٤٦٦.

(٤٤) Mustafa Al-Shihabi, s.v. 'Filaha', Encyclopedia of Islam, New dition, Leiden, ١٩٩١, pp. ٨٩٩ff.; p.٩٠٠

(٤٥) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٧٤٩.

(٤٦) حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، بيروت، ٦ مجلدات، ١٩٩٢م،ج٢،ص١٦٠.

(٤٧) Simon Hornblower & Spawforth, op. cit., p. ١٩.

(٤٨) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣-٣١٤، ص ٢٦٣-٢٦٥، ص ٦٨٠.

(٤٩) مختارات من المخطوطات العربية النادرة فى مكتبات تركيا، إعداد رمضان ششن، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلى، استانبول، ١٩٩٧م، ص ٩٠٦.

(٥٠) أحمد عيسى، تاريخ النبات عند العرب، القاهرة، ط١، ١٩٤٤م، ص٩٤-٩٩؛ Mustafa Al-Shihabi, op.cit., p.٩٠٠.

(٥١) اكسبيراثيون سانشيز، "الزراعة فى أسبانيا الإسلامية"، بحث منشور فى كتاب "الحضارة العربية الإسلامية"، تحرير سلمى الخضراء الجيوسى، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، المجلد الثانى، ص ١٣٦٨.

(٥٢) نفسه، ص ١٣٧٢.

(٥٣) أحمد مختار العبادى، "الزراعة فى الأندلس وتراثها العلمى"، بحوث ندوة الأندلس - الدرس والتاريخ - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ١٠٧-١٢٩، ص ١٢٧.

(٥٤) نفس المكان.

(٥٥) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٣.

(٥٦) نفسه، ص ١٣٧٤.

(٥٧) أحمد مختار العبادى، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٥٨) Jose Vallicrosa, op. cit., pp. ٢٩٤-٢٩٥.

(٥٩) Emilio G. Gomez, op. cit., pp.١٣٥-١٣٦; ١٣٩.

(٦٠) أحمد مختار العبادى، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٦١) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٥.

(٦٢) Jose. M. vallicrosa, 'La Traduccion Castellana del 'Tratado de Agricultura' de Ibn Bassal', Al- Andalus, vol. ١٣, ١٩٤٨, pp.٣٤٧-٣٥٥; p.٣٥٣.

(٦٣) J. Esteban H. Bermejo & Expiracion G. Sanchez, "Economic Botany and Ethnobotany'. Al-Andalus", Economic Botany, vol.٥٢, no:l, ١٩٩٨, pp. ١٥-٢٦; p. ٢٠; p.٢٤.

(٦٤) Jose M. Vallicrosa, op. cit., p. ٢٩٥.
(٦٥) Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٥.
(٦٦) J. Esteban & Expiracion, op. cit., p. ١٩.
(٦٧) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧، ١١٨، ١٢٠.
(٦٨) John H. Harvey, 'Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain." Garden
History, vol. ٣, no:٢, ١٩٧٥, pp. ١٠-٢١; pp. ١٢-١٣.
(٦٩) Simon Hornblower & A. Spawforth, op. cit., p.١٩.
(٧٠) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٨؛
Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٦, p.١٣٩.
(٧١) أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٨-٢٠٩.
(٧٢) نفسه، ص ٢١٠-٢١١.
(٧٣) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٩.
(٧٤) أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي، كتاب إنباط المياه الخفية، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة، ١٩٩٧م، المقدمة.
(٧٥) M. I. Finley, "Technical Innovations and Economic Progress in the Ancient
World" The Economic History Review, vol. ١٨, no. I, ١٩٦٥, pp. ٢٩-٤٥; pp. ٣٥-٣٧.
(٧٦) أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٤٦ وما بعدها.
(٧٧) خوان فيرنيه، "العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس"، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٠٢.
(٧٨) Franz Rosenthal, The Classical Heritage in Islam, trans. E & J. Marmorstein, London, ١٩٧٥, pp.١٦٢ ff
(٧٩) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣.
(٨٠) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٦٩.
(٨١) محمد حامد محمد، الميتورولوجيا، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٣.

الدور العسكري لأبناء مقرن في صدر الإسلام
٥-٢٢هـ / ٦٢٦ – ٦٤٢ م

د. عوض سعد محمد عيسى (*)

تمهيــد

هذا البحث يلقي الضوء على الدور العسكري لأبناء مقرن ، وينقسم إلى تمهيد: يبين نسبهم ، وموقع ديارهم وحياتهم قبل دخولهم الإسلام ، و مبحثين: المبحث الأول: يوضح عددهم والمكرمة التي نالوها في الإسلام ، ثم اشتراكهم في الغزوات بدءاً من غزوة الخندق ، والمبحث الثاني يتتبع دورهم العسكري في حروب الردة وفتح العراق وفارس.

ينسب أبناء مقرن إلى قبيلة مزينة ، ومزينه هي: أم عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(١). وسمي عمرو بن أد باسمها ، وهي مزينة بنت كلب بن وبره ابن تغلب بن حلوان من قضاعة ، وقد أنجب عمرو ولدين: عثمان وأوسا ، فكل من جاء من نسبيهما سمي مزينة ، ومن نسل عثمان جاء حبشية بن كعب ومن حبشية جاء أبناء مقرن(٢).

وكانت مساكن مزينة بين المدينة ووادى القرى، إلى الجنوب من ديار "بلى"، وهى في الشرق من منازل "جهينة"، وإلى الغرب من ديار "سعد"، وإلى الشمال من بلاد "خزاعة"(٣).

ومن ديارهم وقراهم: فيحة الروحاء – تبعد عن المدينة واحدا وأربعين ميلاً والعمق: وتقع بحذاء سقيا مزينة، والعطش، وهو موضع خلف المدينة وله ذكر في المغازى، وكذلك: قيف، ودهماء مرضوض، والجوار، وألاب، والأكاحل، والأحوص، وكذلك ثبير(٤).

ومن أوديتهم: ثور، وشس، وصوري، وظبر، وقرار، ورئم، وشمس ولاى، ويدوم، وساية وهو واد عظيم به أكثر من سبعين بئراً، وأشهر الأودية هناك: العقيق، حيث كان وادياً كبيراً، وفيه بئر على مقربة منه، وهو مجموعة كبيرة من الأودية شقتها السيول(٥).

(*) مدرس بقسم التاريخ والحضارة ــ كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر.

ومن أشهر الجبال هناك[٦]: جبل خشوب، وروادة، والعرجاء، وجبل غراب الذي قال عنه ابن هشام[٧] في غزوة النبي - ﷺ- لبني لحيان: خرج من المدينة فسلك على غراب وهو جبل من منازل مزينة، وجبل قلس، وآره، وميطان، وقدس، ونهبان، وعينب[٨].

حياتهم الاقتصادية قبل البعثة:

هي كحياة معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية، حياة بدوية قائمة على تربية المواشي، والترحال من مكان إلى آخر تبعاً لوفرة الماء والكلأ لرعاية مواشيهم، بينما تقوم منتجاتهم على ما تنتجه حيواناتهم من: ألبان، وأصواف، ولحوم، حيث كانت تتم المقايضة مع أبناء الحواضر، وهذه الحياة كانت عاملاً مشتركاً لجميع أبناء القبائل في الجزيرة العربية[٩].

وكانت حياة مزينة الدينية في الجاهلية وثنية، وهي حياة معظم القبائل العربية قبل الإسلام، فكانت تعبد الأصنام وأشهرها صنم يقال له "نهم" وبه كانت تسمى "عبد نهم"، وكان سادنه يسمى - خزاعي بن عبد نهم[١٠] فلما سمع بظهور النبي - ﷺ- ثار إلى الصنم فكسره، ولحق بالرسول وأعلن إسلامه[١١].

ثم قدم النعمان بن مقرن على رأس وفد مزينة إلى النبي - ﷺ-، وقد بلغ عددهم أربعمائة رجل، ولابد أن أبناء مقرن جميعاً كانوا ضمن هذا الوفد، وهو أول وفد يفد على الرسول من مضر، وتاريخ وفوده في شهر رجب من العام الخامس الهجري[١٢] فعن النعمان بن مقرن قال:[١٣] قدمنا على رسول الله - ﷺ- أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر: "زود القوم" فقال: ما عندي إلا شئ من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعاً، قال: "انطلق فزودهم"، قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزله ثم أصعدهم الطابق الثاني، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: فكنت آخر من خرج فنظرت فما أفقد موضع تمرة من مكانها.

وكان الرسول -ﷺ - قد جعل لهم الهجرة في دارهم، وقال "أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم". فرجعوا إلى بلادهم وأموالهم.

ولا شك أن هذا الذي حدث في بيت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لهو إحدى معجزات النبي -ﷺ -، حيث أخذ القوم حاجتهم من التمر وبقي كما هو بشهادة شاهد عيان، وهو الصحابي الجليل: النعمان بن مقرن رضي الله عنه.

وضع مزينة العسكري:

يبدو أن مزينة – قبل البعثة – كان عندها من القوة ما جعلها تدخل في أحلاف عسكرية مع غيرها أثناء الحروب، يتضح هذا من حرب "يوم بعاث"[١٤] حين انضمت للأوس ضد الخزرج، وكان يقودهم آنذاك "مقرن" والد أبناء مقرن [١٥] موضوع بحثنا.

المبحث الأول: دور أبناء مقرن في الغزوات :

حول عددهم وفضلهم :

وأبناء مقرن: النعمان بن مقرن[١٦]، وسويد[١٧]، ونعيم[١٨]، وسنان[١٩] معقل[٢٠] وعقيل[٢١] وعبد الرحمن[٢٢].

قال صاحب كتاب الشذا الفياح[٢٣] هؤلاء هم بنو مقرن "المزينون، سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله – ﷺ – ولم يشاركهم فيما ذكر ابن عبد البر وجماعة – في هذه المكرمة غيرهم، وقد قيل إنهم شهدوا موقعة الخندق كلهم.

غير أنه – بعد البحث – اتضح أنهم لم يكونوا سبعة فقط، فكان هناك ضرار بن مقرن[٢٤].

وكذلك عبد الله بن مقرن[٢٥] وسعيد بن مقرن[٢٦].

هؤلاء عشرة، وزاد ابن حجر العسقلاني اثنين وهما: معاوية بن مقرن[٢٧] وسواد بن مقرن[٢٨] بينما زاد آخر[٢٩] واحداً وهو: هند بن مقرن.

وبهذا يكون آل مقرن أحد عشر رجلاً كلهم صحبوا النبي – ﷺ–، وإنما اشتهر كونهم سبعة لما في صحيح مسلم من حديث سويد بن مقرن، قال "لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله – ﷺ– أن نعتقها"[٣٠].

ويحتمل: أن من أطلق كونهم سبعة، أراد من هاجر منهم.

وأعتقد: أن سبب شهرة هؤلاء السبعة من أبناء مقرن، دون غيرهم من الإخوة، اشتهارهم في ساحات المعارك والغزوات والفتوح، فبمجرد دخول هؤلاء السبعة في الإسلام، في العام الخامس الهجري، اشتركوا في الغزوات وأولها "غزوة الأحزاب" التي وقعت في نفس العام الذي أعلنوا فيه إسلامهم، هذا بالإضافة إلى أن معظم فتوحات العراق وفارس كانت على أيديهم، كما سنوضح بعد ذلك إن شاء الله.

أما عن فضلهم: فقد ذكر بعض أصحاب كتب تراجم الصحابة[٣١] أن أبناء مقرن إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله – ﷺ– ولم يشاركهم في هذه المكرمة غيرهم.

ومما ورد في فضل مزينة – وفيهم آل مقرن – قوله – ﷺ – "مزينة وجهينة وأسلم وغفار؛ خير من بني تميم وأسد وغطفان ومن بني عامر بن صعصعة".

ولقد اجتمع الرسول – ﷺ – بأصحابه من المهاجرين والأنصار، ويبدو أن الاجتماع كان سراً للغاية، لذلك قال لهم "هل فيكم من ليس منكم؟ قالوا: لا إلا ابن أخت لنا، فقال: ابن أخت القوم منهم" والمعنى بابن أخت القوم منهم: النعمان بن مقرن، والحديث يدل على أن بين النعمان. وباقي الصحابة ارتباطاً وقرابة، وسياق الحديث يقتضي أن المراد أنه كالواحد منهم في إفشاء سرهم بحضرته ونحو ذلك، وهذه ثقة كبيرة من الرسول – ﷺ – في النعمان وقال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – "إن للإيمان بيوتا، وإن بيت آل مقرن من بيوت الإيمان"[٣٢]

دورهم في الغزوات

ارتبط إسلام آل مقرن بقدوم وفد مزينة على الرسول – ﷺ – في العام الخامس الهجري، وبمجرد إشهار إسلامهم بدأوا يشتركون مع إخوانهم المسلمين في العمليات العسكرية ضد الأعداء، وكان أولها كما يذكر معظم المؤرخين[٣٣] غزوة الأحزاب في العام الخامس الهجري.

ومما يذكر حول هذه الغزوة: أن الرسول – ﷺ – جعل أربعين ذراعاً من الخندق بين كل عشرة، فوقع نصيب النعمان بن مقرن مع تسعة من كبار الصحابة[٣٤]، فلما حفروا عرضت لهم صخرة كبيرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، فذهب النعمان بن مقرن لاستشارة النبي – ﷺ – في ذلك، وحين حضر ضربها ثلاث ضربات ففتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة[٣٥].

وفي صلح الحديبية وأثناء بيعة الرضوان سنة ٦هـ:

يظهر دور النعمان بن مقرن، فعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عمر: أشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله – ﷺ –؟ قال: نعم، قلت فما كان عليه؟ قال: قميص من قطن وجبة محشوة ورداء وسيف، ورأيت النعمان بن مقرن المزني قائماً على رأسه، قد رفع أغصان الشجرة عن رأسه والناس يبايعونه[٣٦] وقد انتهى الأمر إلى عقد صلح الحديبية بعد ذلك.

وفي العام الثامن الهجري: أصبحت قريش بحالة جمود في إدارة سياستها؛ جعلتها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية،

وقد جرها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً، وذلك أنها – مع حلفائها من بني بكر – هاجموا خزاعة – وهي مع المسلمين في حلف واحد – وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالاً، فأمر الرسول – ﷺ – أصحابه بالتجهز للغزو ولم يعلمهم بوجهته، وقد استنفر القبائل التي حول المدينة ومنها مزينة ، وكان الذي قام بحشد مزينة: بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني، بالإضافة إلى النعمان بن مقرن(٣٧).

قال الواقدي: وكان النعمان بن مقرن أحد من حمل ألويه رسول الله – ﷺ – لذلك وجدناه يقود مزينة يوم فتح مكة حين دفع إليه الرسول اللواء، وكان تحت لواء النعمان يومئذ حوالي ألف مقاتل، ومائة فارس، ومعهم مائة دارع شاركوا إخوانهم المسلمين فتح مكة.

وبنفس التشكيل العسكري الذي خاضت به مزينة الفتح، دخلت به معركة حنين في العام الثامن الهجري، وكانت بين المسلمين من ناحية وهوازن وثقيف من ناحية أخرى، غير أن النبي – ﷺ – جعل مزينة في مقدمته، يقودهم ويحمل رايتهم النعمان بن مقرن(٣٨).

وفي العام التالي مباشرة – التاسع الهجري – عزم رسول الله – ﷺ – على قتال الروم الذين كانوا يفكرون في غزو المدينة المنورة، لأنهم أقرب الناس إلى حدود دولته، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين"(٣٩).

لذلك: كانت غزوة تبوك، وسميت – أيضاً – بغزوة العسرة، لما أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها.

وعلى الرغم من تسابق الصحابة للإسهام في تمويلها، إلا أن الأمر بلغ بأناس ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج، إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن "... ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون"(٤٠).

فقد رأى بعض المفسرين لهذه الآية أنها نزلت في البكائين الذين قصرت بهم النفقة عن الجهاد، وأن المقصود بالبكائين أبناء مقرن الذين كانوا متشوقين للقتال في هذه الغزوة، وقد كانوا سبعة: النعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسنان، وعبد الرحمن، ونعيم(٤١).

وقد قال القرطبي: "نزلت في بني مقرن، وعلى هذا جمهور المفسرين وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي - ﷺ -، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم.

ومال بعض المفسرين إلى قول مجاهد بأن البكائين أبناء مقرن، لكن ثلاثة منهم فقط وليس السبعة، والثلاثة هم: معقل بن مقرن ، وسويد، والنعمان، سألوا النبي - ﷺ - أثناء الاستعداد لغزوة تبوك أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والنعال المخصوفة، فقال "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون.

وحين رآهم بعض الصحابة خارجين من عند الرسول وهم يبكون سألوهم عن سر بكائهم، واتضح أن السبب هو عدم استطاعتهم الخروج بسبب الفقر، وهم يكرهون أن تفوتهم غزوة مع رسول الله، فتعاون البعض ووفر لهم الزاد والراحلة فخرج البعض في الغزوة، ولم يستطع الباقون الاشتراك في هذا الجهاد فبقوا في المدينة(٤٢).

والواضح من الروايات المختلفة أن السبعة تسابقوا في الذهاب إلى الجهاد ، لكن في النهاية لم يستطع اللحاق بالجيش إلا ثلاثة منهم ، وقد خص النبي - ﷺ - هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم بقوله "إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر"(٤٣).

إنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، وإنها لصورة جميلة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين من أيام الرسول - ﷺ - وأود أن أقول: بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء.

ولم لا وقد مدح الله تعالى أبناء مقرن في كتابه العزيز حين قال "ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته والله غفور رحيم".

عن مجاهد قال: المقصود بالممدوحين في الآية من الأعراب هم بنو مقرن، وهم الذين قال الله فيهم "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت..." الآية.

ومما جاء حول هذه الآية (٤٤) أن النعمان بن مقرن جاء بغنم يسوقها للنبي - ﷺ - فنزلت الآية.

المبحث الثاني: دورهم العسكري في حروب الردة و فتح العراق وفارس

١- دورهم في حروب الردة :

أبناء مقرن أبطال معركة ذي القصة[٤٥]:

توقع أبو بكر الإغارة على المدينة من قبل المرتدين، بعد وفاة الرسول ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ/٦٣٢م، فجعل على مداخل المدينة أربعة من كبار الصحابة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الإغارة من العدو لقربهم، وبالفعل طوق المعتدون المدينة ليلاً وحاولوا اقتحامها من الداخل، إلا أن المقاتلين المسلمين منعوهم من دخولها، ليس هذا فحسب بل أتبعهم أبو بكر على رأس قوة حتى أبعدوهم عن المدينة تماما، وبعد عدة اشتباكات عاد المسلمون للمدينة[٤٦].

ظن الكفار بالمسلمين الوهن بعد انسحابهم إلى المدينة، فقد انضم إلى رجال طليحة الأسدى غيرهم من أصحابه، فبات أبو بكر يعبئ الجيش، ثم خرج ليلا لقتال الأعداء، وجعل على ميمنته: النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته: عبد الله بن مقرن أخو النعمان، وعلى الساقة "المؤخرة": أخوهما سويد بن مقرن وخرجوا من آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعيد واحد، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل "بذي القصة"، فوضع فيها النعمان بن مقرن على رأس حامية، ثم عاد إلى المدينة"

وقد كانت هذه الموقعة صغيرة ولكن كان للنصر الذي حدث شأن كبير، ووقع عظيم في النفوس، وقد ازداد المسلمون في المدينة، وفي كل قبيلة، بهذا الانتصار عزا وثباتا على دينهم، بعد أن كان المرتدون يتحدثون – فيما بينهم – بقلة عدد المسلمين. وعلى أثر هذا الانتصار[٤٧] أقبل كثير من وفود القبائل تؤدى زكاتها إلى خليفة رسول الله، معلنين التزامهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وحين وثب المشركون في كل قبيلة يقتلون المسلمين الثابتين على دينهم، ويمثلون بهم، حلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتل من المسلمين، لذلك: حين قدم أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه – وقيل بعد سبعين – عقد أبو بكر أحد عشر لواء، وجهها إلى المرتدين في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة، وكان ضمن هذه الألوية: لواء عقد لسويد بن مقرن، وكانت وجهته إلى تهامة باليمن[٤٨].

٢- دورهم في فتح العراق

بعد انتهاء حروب الردة سار المثنى بن حارثة الشيبانى[٤٩] حتى قدم المدينة على أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه التصريح بعمليات حربية ضد العراق تنطلق من البحرين موطن المثنى وقبيلته، وهى منطقة قريبة من أرض العراق، وكان المثنى – بمن معه من المسلمين – قد طاردوا المرتدين في هذه المنطقة حتى دخلوا

جنوب العراق، الأمر الذي شجع المثنى على التوغل في تلك المنطقة، وحين قبل أبو بكر ذلك رجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق، تارة على نواحي كسكر فيما بين دجلة والفرات، وتارة على أسفل الفرات، ويعد هذا بداية اكتساح المسلمين لجنوبي العراق[٥٠].

وقد نظر أبو بكر – بعد الأخبار التي وصلته بإحراز المثنى انتصارات هناك – إلى موضوع العراق نظرة أخرى، وأسند قيادة فتحه للبطل/ خالد بن الوليد – رضي الله عنه – وكان أبناء مقرن ضمن جيوش خالد التي فتحت العراق.

أبناء مقرن في فتح الأُبُلّة ١٢هـ / ٦٣٣م

كان أمير الأبلة "هرمز" من أبرز قادة الفرس، وقد دعاه خالد إلى واحدة من ثلاث: الإسلام، أو عقد الذمة، أو القتال، فكانت الثالثة، واستعد الفرس وربطوا بعضهم بعضاً بالسلاسل حتى لا يفروا، فسميت أيضاً "بذات السلاسل".

وطلب هرمز خالداً للمبارزة، مبيتاً الخيانة والغدر، إذ اتفق مع أصحابه على الغدر به، وبرز له خالد، وتضاربا فاحتضنه خالد، ولكن حامية هرمز حملت عليه غدراً، فلم يكترث خالد وقتل هرمز وسلبه، فحمل المسلمون وفيهم القعقاع بن عمرو التميمي عليهم، وانهزم أهل فارس وفر الباقون[٥١].

سويد بن مقرن قائداً لمؤخرة الجيش

وبعد أن سيطر الجيش الإسلامي على "الأبلة" وما حولها من القرى[٥٢] نظر خالد فرأى أن الأبلة التي يريد أن يخلفها وراء ظهره ليتقدم نحو "الحيرة"[٥٣] منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجي، فهي أكبر ثغور فارس البحرية وهي مدخل السفن إلى دجلة وإلى الفرات، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه إلى الحيرة، ومنها يمكن أن تتوغل القوات الإسلامية في باقي قرى فارس، وهذا كله قد يدفع الفرس إلى محاولة استردادها[٥٤].

لذلك وتأميناً لسلامة قواته، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل، حتى تكون يقظة لما عسى أن يأتي منها[٥٥].

وتنتهي قيادة هذه الحاميات جميعاً إلى سويد بن مقرن، الذي تولى جباية الجزية وجمع السبي عن طريق عماله الذين انتشروا في المنطقة لأجل ذلك، وكذلك نزل سويد "الحفير" في موقع خلفي متوسط بأطراف الصحراء ليجعلها قاعدة له، وليحمي ظهر جيش المسلمين المتقدم، وعلى الجملة: كانت الحاميات التي تولى قيادتها سويد بن مقرن أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها، وينظر بعضها إلى بعض[٥٦].

ويبدو أن اختيار سويد بن مقرن لهذه المهمة، وهي قيادة مؤخرة جيش المسلمين – لم تأت من فراغ، فقد سبق أن ذكرنا أن سويداً كان قائداً لمؤخرة جيش المسلمين الذي خاض معركة "ذي القصة" ضد المرتدين مع أبي بكر، وقد أثبت شجاعة في ذلك، مما جعل أبا بكر يختاره قائداً لأحد الفيالق التي تحركت لقتال المرتدين.

وكان لأبناء مقرن إسهام في فتح الحيرة ١٢هـ/٦٣٣م

كان ذلك في سنة ١٢هـ/٦٣٣م، حين وصلها الجيش الإسلامي فوجد أهلها في قصورهم – وكانت أربعة – متحصنين، فأمر خالد بحصارهم، وعين لكل قصر قائداً من قادته على رأس كتيبة من جنده[٥٧].

أوكل لضرار بن مقرن حصار أحد القصور الأربعة وهو "قصر بني مازن"، وفيه: جبري بن أكال، وطلب خالد من ضرار – كما طلب من القادة الآخرين – دعوة جبري بن أكال إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فاختار القتال.

وبعد انتهاء المهلة التي منحها خالد لأهل الحصون – وكانت يوماً – نشب القتال مع كل الحصون، فشدد ضرار بن مقرن في حصاره للقصر، واشتبك مع من فيه، وحين أدركوا أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال، وانسحاب القوات الفارسية من الحيرة، نادي العرب الموجودون "يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بها وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً".

بعد توقف القتال: خرج جبري بن أكال من قصر بني مازن وسلم نفسه إلى ضرار بن مقرن، فقام بإرساله إلى خالد، بينما ظل هو ومن معه على مواقفهم محاصرين القصر[٥٨].

ويذكر بعض المؤرخين[٥٩] أن معقل بن مقرن – أحد الإخوة للنعمان – كان له أيضا دور أثناء فتح الحيرة، وهو الذي عين على الأموال والسبي.

وهكذا – بعد أن استسلمت باقي الحصون للمسلمين – فتحت الحيرة أبوابها لهم، وازداد الأمل أمامهم في فتح العراق المحتل من الفرس كله – وضمه إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة[٦٠].

واتخذ خالد الحيرة مقراً لقيادته، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج الجزيرة العربية، وأول عاصمة من عواصم الأقاليم التي يحكمها بنو ساسان تسقط في أيدي المسلمين.

وقد أقام خالد – رضي الله عنه – سنة بعاصمته الجديدة، وصفها بأنها "سنة كأنها سنة نساء" فقد كان تواقا إلى مواصلة القتال، إلا أن أبا بكر كان قد أمره ألا يبرح

الحيرة، أو يوغل في الفتح، ولذلك بعث خالد بعمال للجباية وبلغ عددهم خمسة، وكان منهم سويد بن مقرن حيث كانت وجهته مدينة "تستر" شرقي دجلة، فأشرف على جبايتها[٦١].

أما ضرار بن مقرن فكان أحد أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات ؛ وكذلك أخوه سويد.

ثم أدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور بعض التعديلات، فقسم ما فتح من العراق أحد عشر قسما، سبعة بالحيرة، تولى ضرار بن مقرن قسماً منها، وكان أمراء الأبلة أربعة، فتولى سويد بن مقرن إدارة شئون قسم منها[٦٢].

وفي معركة القادسية[٦٣] ١٤هـ/ ٦٣٥م

لم تسلط الأضواء على أبناء مقرن في العمليات العسكرية في العراق، التي وقعت بين معركتي الحيرة والقادسية[٦٤] حيث اتجه اهتمام المؤرخين – كعادتهم – إلى القادة المشهورين، ولا شك أن معركة القادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة، ليس في تاريخ المسلمين وحدهم، وإنما في تاريخ العالم، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، فسقطت الإمبراطورية الفارسية من الناحيتين الحربية والسياسية، وسقطت المجوسية من الناحية الدينية، ومن هنا انتشر الإسلام في العالم شرقاً وغرباً.

وفي هذه المعركة حشد الفرس حوالي مائة وعشرين ألفاً، يتقدمهم عدد من الفيلة بلغ ثلاثة وثلاثين فيلاً، ويقود هذا الجيش الكبير أشهر قادة الفرس، وهو "رستم"

وفي ذات الوقت: استطاع المسلمون حشد جيش بلغ ستة وثلاثين ألفاً، يقوده الصحابي الجليل سعد بن أبى وقاص – رضي الله عنه –، وعلى الرغم من أن العدد يقل كثيراً عن عدد جيش الفرس؛ إلا أنه يعد أضخم جيش إسلامي عبأه المسلمون لغزو العراق[٦٥].

وقبل أن ينشب القتال بين الطرفين، بعث عمر إلى سعد – رضي الله عنهما – أن يرسل وفداً إلي يزدجرد ملك الفرس يعرض عليه: الإسلام أو الجزية أو القتال " وابعث إليهم رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونهم..."[٦٦].

فاختار سعد – رضي الله عنه – أربعة عشر داعية[٦٧] وقائدهم النعمان بن مقرن، والملاحظ على هؤلاء الناس: أنهم من سادات القوم، كي يستطيعوا دعوة يزدجرد بالحكمة والموعظة الحسنة، لعل الله يهديه هو وجنده للإيمان وتحقن دماء الطرفين.

ولقد كان هذا الوفد منتقى على درجة عالية من الكفاية والقدرة لما أوفد له، وكان يتمتع بميزتي الرغبة والرهبة التي تتوافر في جسامتهم ومهابتهم وجلدهم وشدة ذكائهم.

وتحرك هذا الوفد الميمون بقيادة النعمان بن مقرن، وأُدخلوا على ملك الفرس، فسألهم بواسطة ترجمانه، ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا؟ فأجابه النعمان مبيناً بعثة الرسول - ﷺ -، وتاريخ الدعوة الإسلامية، وأهدافها وموقف العرب منها، وانضواءهم تحت لوائها، و "أن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر الشرين هو أهون من آخر أشر منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم وإلا قاتلناكم"، فغضب يزدجرد وقال "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شئ لكم عندي"، وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم في خندق القادسية(٦٨).

وجدير بنا أن نلاحظ في هذا البيان الرائع: أن التحرك لبدء الآخرين بالدعوة إلى الإسلام هو خصيصة ذاتية من خصائص هذا الدين، يدل على ذلك قول النعمان بن مقرن الآنف الذكر: "ثم أمرنا النبي - ﷺ - أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف" وفيه دليل على أن الحرب في الإسلام ليست دفاعية فقط، ولكنها قد تكون حرباً لإزالة العقبات من طريق الدعوة الإسلامية لتهيئة المناخ المناسب لدخول الناس في دين الله تحقيقاً لسعادتهم الحقيقية في العاجلة والآجلة، وأنه ينبغي أن ينشر المسلمون دعوتهم في إطار من القوة، كما فعل هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد خاض النعمان بن مقرن معركة القادسية مع إخوانه المسلمين، واستمرت أربعة أيام، كانت المعارك سجالاً بين الطرفين في البداية، إلى أن حسمها المسلمون بعد مقتل القائد الفارسي "رستم" وفرار باقي الجنود، وقد استشهد فيها قرابة ثمانية آلاف من المسلمين، وقتل من الفرس ثلاثون ألفاً"

وقد قال النعمان شعراً بمناسبة هذا النصر العظيم قال:

نزلنا بأحساء العذيب ولم تكن ... لنا همة إلا اختيار المنازل

لنحوى أرضاً أو نناهب غارة ... يضج لها ما بين بصري وبابل(٦٩)

وفي هذا الصدد؛ يذكر أن النعمان بن مقرن هو الذي قدم على الخليفة عمر بشيراً بنصر المسلمين في القادسية(٧٠).

كذلك شارك أبناء مقرن المسلمين فتح "المدائن"[٧١] :

حيث لم يحدث فيها قتال كثير، فقد انسحب يزدجرد بعياله وتبعه أهل المدائن، واستسلمت البقية الباقية من الفرس للمسلمين، وقد غنم المسلمون ما تركه الفرس وما في خزائن كسرى من أموال وذخائر كثيرة، فجمعها سعد - رضي الله عنه - وولى أمرها النعمان بن مقرن[٧٢].

هذا وقد وقف المسلمون بحركة الفتح شرقاً عند نهاية العراق العربي[٧٣] وذلك بأمر من الخليفة بعدم التقدم إلى ما وراءها، كي لا يتورط المسلمون فيما لا يعرفون مسالكه من البلاد، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم في المناطق التي استولوا عليها من الفرس. وبعد تقسيم غنائم القادسية ولى الخليفة عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص على ما غلب عليه، وولى النعمان وسويد " ابني مقرن" الخراج، سويداً على ما سقى الفرات، والنعمان على ما سقى دجلة، ثم استعفيا وقالا: اعفنا من عمل يتغول علينا ويتزين لنا فأعفاهما[٧٤].

إلا أن عمر كان مقتنعاً تماماً بقيادة أبناء مقرن، فأسند حكم مدينة كسكر"[٧٥] للنعمان، إلا أنه لم يمكث فكتب إليه "يا أمير المؤمنين اعزلني عن كسكر وابعثني في بعض جيوش المسلمين، فإنما مثل كسكر مثل مومسة تعطر وتزين في اليوم مرتين" فعزله، فكان عمر إذا ذكر النعمان بن مقرن بعد موته يقول: "يا لهف نفسي على النعمان"[٧٦].

٣- دورهم في فتح فارس:

بعد اشتراك أبناء مقرن في الغزوات - بدءا من الخندق - ، وفي حروب الردة، وفي فتوح العراق ، اشتركوا - أيضا - في فتح فارس ، وفي كل هذا كان منهم قادة ميدانيين ، ومن المعارك التي تولوا قيادتها في فارس:

فتح الأهواز[٧٧] سنة ١٧هـ / ٦٣٨م

ويرجع سبب فتحها إلى: أن يزدجرد، ملك الفرس، كتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى التعاون مع أهل الأهواز ضد المسلمين قائلاً "قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما ولاه والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم - غزوكم - في بلادكم، وعقر داركم، فتحركوا أهل فارس تنصروا"، فتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز، وتعاهدوا على العمل المشترك ضد المسلمين[٧٨].

وحين نقل سعد إلى عمر - رضي الله عنهما - هذه الصورة؛ كتب إليه أن يبعث إلى الأهواز جيشاً كبيراً من أهل الكوفة يقوده النعمان بن مقرن، وجيشاً مثله من أهل البصرة يقوده أبو موسى الأشعري[٧٩].

اتجه النعمان بجيشه صوب الأهواز، حيث يتحصن الهرمزان - حاكم الأهواز - برامهرمز[٨٠] فلما سمع بمسير النعمان إليه التقاه على رأس جيش في أربك بناحية رامهرمز واشتد القتال بين الجيشين، وتراجع الهرمزان إلى رامهرمز ثم إلى تستر، فاستولى النعمان على رامهرمز ثم تحول إلى ايذج فهاجمها، فصالحه أهلها عليها، ورجع إلى رامهرمز فأقام بها في انتظار أوامر جديدة[٨١].

وفي تستر تحصن الهرمزان بأسوارها وبروجها، واجتمع جيش الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن بجيش البصرة، وعليه أبو موسى الأشعري، وتوجه الجميع لحصار الهرمزان في قلعة تستر، واستمر المسلمون في محاولاتهم لقهر قوة الهرمزان دون فائدة، بل كانوا يتعرضون لخسائر فادحة نتيجة لخروج الفرس من مواقعهم ومهاجمتهم، ثم العودة إلى الحصن، وبلغت المعارك في تستر ثمانين معركة، مرة ينتصر الفرس، وأخرى ينتصر المسلمون[٨٢].

وحين طالت الحرب، وشدد المسلمون حصارهم، جاء رجل من أهل تستر إلى النعمان وطلب منه الأمان لنفسه على أن يدل المسلمين على مكان يكون منه فتح المدينة، ودله الرجل على مدخل الماء للمدينة، فندب أبو موسى مجموعة من جند البصرة، وندب النعمان مجموعة من جند الكوفة، والتقت المجموعتان ليلاً عند مخرج الماء، ودخلوا المدينة من سرب يجرى إلى جانب مدخل الماء، وقتلوا الحراس ثم علوا الأسوار وكبروا، وكبر المسلمون من الخارج وفتحت الأبواب، واشتبكوا مع الفرس وهزموهم بإذن الله. وحين سمع الهرمزان التكبير تولاه الفزع، وتوجه إلى القلعة وتحصن بها وهو يردد جزعاً "ما دل العرب على عورتنا إلا بعض من معنا ممن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا"[٨٣].

وفتح المسلمون أبواب المدينة، واضطربت أمور الفرس داخلها، حتى إنهم كانوا يقتلون أولادهم وأهلهم خوفاً من أسرهم على أيدي المسلمين، وأحاط النعمان بالهرمزان في القلعة، ثم سلم نفسه، فبعثوا به إلى عمر في المدينة[٨٤].

وأثناء حصار تستر كان أهل مدينة السوس[٨٥] يناوشون المسلمين، وكان يقودهم شهريار أخو الهرمزان، لذلك اتجه النعمان - بعد أن أنهى مهمته في تستر - إلى السوس وحاصرها، وبقى على حصارها حتى نفد ما بها من طعام، ثم أمر سلاح الفرسان باقتحام أبواب المدينة ففتحت فنادى المشركون: الصلح الصلح، فأجابهم إلى ذلك بعد ما دخلوها عنوة، ثم وصلته أوامر من عمر - رضي الله عنه - بترك مدينة السوس والتوجه بجيشه لقتال الفرس بنهاوند[٨٦].

أبناء مقرن أبطال معركة نهاوند ٢١هـ/٦٤١م :

بعد هذه الهزائم المتتالية، التي منى بهـا الفـرس، أراد أمـراؤهم أن يعـودوا صفوفهم من جديد للوقوف في وجه الزحف الإسلامي، فتجمعوا وكتبـوا إلـى كـسرى ليكون على رأس التجمع الجديد والحشد المنتظر، فوجه رسله إلى البلدان يحثهم علـى القتال ويثير حماسهم، وكتب إلى جميع الولايات في مملكته يشجعهم على وحدة الصف، واستجاب الناس لدعوته، فبعث كل أمير جنداً من عنده إلى نهاوند – منطقة الحـشد – حتى أصبح عدد الجند بها مائة وخمسين ألفاً، واستقر الرأي على أن يتولى "الفيـرزان" قيادة الجيش الذي جمع جنده، وخطب فيهم خطبة ألهبت حماسهم، وضح لهم فيها أنهـم فقدوا العراق والأهواز، وأن عمر بن الخطاب "لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنـا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، فأخذ بيت المملكة وانتقصكم السواد والأهـواز، وهو آتيكم إن لم تأتوه..." ، وحين سمع الجند هذه الخطبة؛ أقـسموا أن يبـذلوا غايـة جهدهم حتى يتم لهم النصر(٨٧).

وتحركت القوات الفارسية من منطقة تجمعها وتابعت سيرها إلـى حلـوان(٨٨)، وبلغت أخبار التحرك عمر بن الخطاب حين وصلته رسالة تصف له التجمـع والمـسير، وكان لزاماً عليه أن يطلع الناس في المدينة على خطورة الأمر، لذلك: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وبين لهم فضل الإسلام عليهم، وأن أهل فارس حشدوا قـوات ضـخمة واستعدوا لقتال المسلمين، بل اجتياح أملاكهم أيضاً(٨٩).

اختيار النعمان بن مقرن قائداً للمعركة:

قرر الخليفة عمر مواجهة الفرس، وبدأ اختيار القائد المسلم الذي تـسند إليـه هذه العملية الخطيرة، وعرض الأمر على أصحابه قائلاً "أشيروا علي برجل أولـه أمـر هذه الحرب"، فقالوا له "أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة، وأبصر بجندك"، ففكر مليـاً ثـم قال: "أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون غداً لأسنة القوم جـزراً" فـي إشـارة إلـى أن استئصال الجيش الفارسي سيكون على يديه، ولم يكن هذا سوى: النعمان بـن مقـرن، الذي ما سمع الصحابة ترشيحه حتى كبروا وقالوا "هولها"(٩٠).

كان النعمان في هذا الوقت محاصراً لمدينة السوس بالأهواز، فكتب إليه عمـر يبلغه أن جموعاً من الفرس كثيرة قد استعدوا لقتال المسلمين بمدينة نهاونـد، وأمـره بالتحرك بمن معه من الجنود صوب العدو، على أن يوافيه باقي جيش الكوفة بعد ذلـك، وقال له: وإن حدث بك حدث (يقصد النعمان) – فعلى الناس حذيفة بن اليمان، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن (٩١).

ثم استنفر عمر رضي الله عنه قوات الكوفة، وأمّر عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي بهم إلى النعمان، وكتب أيضاً إلى أبي موسى الأشعري أن يتحرك على رأس قوات البصرة حتى ينتهي إلى النعمان، وأمر قواد الأهواز ألا يبرحوا مكانهم قائلاً "أشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري"(٩٢).

ولا شك: أن هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة تدل على خطورة وأهمية اللقاء القادم، لذا تم حشد قوات الكوفة والبصرة لها، وقد علم عمر أن قائد الجيش الإسلامي لا يكون بعيداً عن أرض المعركة، لكنه يعيش في الصفوف الأولى، ويتقدم جنده والمعركة القادمة ستكون معركة فاصلة بالنسبة للقتال الدائر في بلاد فارس، لهذا لم يأمن عمر – رضي الله عنه – أن يظل النعمان قائداً للجيش الإسلامي طوال المعركة، لأنه يعرف عنه بسالته وشجاعته منذ أن دخل الإسلام، وشارك الرسول – ﷺ – وباقي الصحابة خوض الغزوات، ولهذا قدر عمر أن يقتل النعمان خلال الاشتباك مع العدو، ولأجل هذا جعل القيادة للنعمان، ثم لحذيفة، ثم لأخي النعمان: نعيم بن مقرن، ولا شك أن هذا الإجراء يجعل المقاتلين في اطمئنان نفسي، فلا ينزعجون إذا ما استشهد قائدهم.

على مشارف نهاوند تجمعت قوات المسلمين وقد بلغت ثلاثين ألفاً، وما أن تولى النعمان قيادتها حتى بعث بالعيون تأتيه بأخبار فارس وحين جمع معلومات مهمة، أمر بالتحرك إلى هناك، وكان قائد مقدمة جيش النعمان، أخوه: نعيم بن مقرن، بينما كان أخوه الثاني: سويد قائداً لإحدى المجنبتين، وما إن وصلت القوات إلى قرب مواقع الفرس حتى أمر رجاله أن يكبروا ثلاث تكبيرات ، فلما كبروا اهتزت لها قلوب الأعداء(٩٣).

المعركة:

أمر النعمان بحصار المدينة، فتقدمت القوات وحاصرتها، فحدث اشتباك كان سجالاً بين الطرفين، وأحاط الفرس أسوار المدينة بحسك الحديد، فتعذر على خيل المسلمين اجتيازه، بينما ترك الفرس فرجاً يخرجون منها فيهاجمون المسلمين، ثم يعودون إلى داخل الأسوار(٩٤).

وحينئذ عقد النعمان مجلساً مع مستشاريه، بعد أن رأى خوف المسلمين من إطالة مدة الحصار وقال لهم "قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف، فما الرأي الذي نستخرجهم به إلى المنابذة وترك التطويل؟" ، واتفق المجتمعون على خطة فحواها: أن يتظاهر المسلمون بالانسحاب، بحجة أن أمير المؤمنين مات، فإذا رأى الفرس ذلك فسيظنون أنها فرصة كبيرة للقضاء على المسلمين أثناء انسحابهم، فيتركون

حصونهم للحاق بهم ، وبالفعل نجحت الخطة، فاندفع الجيش الفارسي خلف المسلمين، وتركوا المدينة خالية من حماتها، كما تركوا حسك الحديد وراءهم[٩٥].

وقع الاشتباك بين الطرفين خارج المدينة ثلاثة أيام – من الثلاثاء إلى الخميس – دون حسم، بينما كان يوقع أحدهم بالآخر جراحات، فلما كان يوم الجمعة اقترب الفرس من المسلمين فرموهم بالسهام حتى قبيل وقت الزوال، والمسلمون في مواقعهم لا يتحركون، فإن النعمان لم يأذن لهم بالقتال انتظاراً لزوال الشمس، وهي الساعة التي كان الرسول – ﷺ – يقاتل فيها، فقال له المغيرة بن شعبة: إن القوم قد أسرعوا فينا فاحمل، فقال النعمان: إنك ذو مناقب، ولكني شهدت مع رسول الله إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح، وينزل النصر"[٩٦].

وفي هذا يقول ابن حجر العسقلاني[٩٧] يظهر أن فائدة التأخير لكون أوقات الصلاة مظنة إجابة الدعاء، وهبوب الريح قد وقع النصر به في "الأحزاب" فصار مظنة لذلك.

ومر النعمان بين الصفوف، وتحدث إلى جنده فقال: "كل رجل منكم مسلط على ما يليه، فإذا قضيت أمري فاستعدوا، فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، وإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً" ، ثم اتجه النعمان إلى ربه وقال "اللهم أعز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك"[٩٨]. وهكذا يكون النعمان قد حدد ساعة الصفر وحث الناس وأعدهم للمعركة. ونظر الناس إلى الراية، وحين كبر النعمان الثالثة اندفع واللواء في يده، وانقض على الفرس، والمسلمون من خلفه تشد عليهم، ففوجئوا بالهجوم، وسقطوا يتخطبون في دمائهم، والمسلمون يطيحون بالرؤوس، وعندما زال عن الفرس أثر المفاجأة، هاجموا هم أيضاً المسلمين، واشتد القتال، وكثر القتل في الفرس لكثرة عددهم، وانهمرت الدماء ، فلما رأى النعمان أن الله قد استجاب له، ورأى الفتح جاءته نشابة فأصابت خاصرته فوقع، فجاءه واحد من قبيلته وبه رمق، فصب على وجهه ماء حتى غسله من التراب، فقال له النعمان: ما فعل الناس؟ فقال له: فتح الله عليهم، فقال: الحمد لله اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت نفسه[٩٩].

وحين رأى معقل بن مقرن أخاه النعمان قد قتل غطاه بثوب، وتقدم الجنود ثم قال: تقدموا رحمكم الله، فتقدموا يقاتلون. أما أخوهما سويد: فقد حمل أخاه النعمان إلى فسطاطه وخلع ثيابه فلبسها، وتقلد سيفه، وركب فرسه، واتفق مع حذيفة بن اليمان أن يخفيا خبر استشهاد النعمان حتى لا يؤثر على معنويات المقاتلين، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان، وأكمل المسيرة، وثبتوا يقاتلون عدوهم حتى أكملوا النصر، فتراجع الفرس

منهزمين بعد أن أصابهم الإعياء، فإذا بحسك الحديد يوقف تراجعهم، وهذا أعطى المسلمين فرصة أن يمعنوا فيهم القتل، وهوى كثير من الفرس بخيلهم في خندق لم يروه من شدة الظلام، فهلك منهم في الخندق ثمانون ألفاً، وقتل منهم ثلاثون ألفاً، وفر الباقون، ولما انتهت المعركة اجتمع الناس وقالوا: أين الأمير – يعني النعمان؟ فقال معقل: هذا أميركم قد أقر الله عينيه بالفتح وختم له بالشهادة ، واغتبط المسلمون بالنصر العظيم وسموه "فتح الفتوح". وكان عمر أشد الناس اغتباطاً وتقديراً وإعجاباً، إلا أنه حين جاءه خبر مقتل النعمان نعاه على المنبر، ووضع يده على رأسه وهو يبكي[١٠٠].

وبسبب انتصار المسلمين على الفرس في نهاوند انحطت معنويات الفرس، وفقدوا العودة بدولتهم إلى ما كانت عليه، بل واهتم كل والٍ من الولاة الفرس بولايته التي من الممكن أن يزحف عليها المسلمون في أي وقت للاستيلاء عليها، وانقطعت صلتهم بكسرى، بل انقطعت صلتهم بعضهم ببعض، وترك كل منهم أيضاً أمره للقدر يفعل به ما يشاء.

وعلى الجانب الآخر: ارتفعت معنويات المسلمين بعد النصر العظيم الذي أحرزوه، فقرروا أن يكونوا سلاحاً طيعاً في يد الخليفة يوجهه أينما شاء، ولهذا قرر الخليفة أن يقضي على ما تبقى من الإمبراطورية الفارسية[١٠١].

إخوة النعمان يكملون مسيرة الفتح:

"لم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه"[١٠٢] بهذه الكلمات توجه الأحنف بن قيس[١٠٣] إلى عمر بن الخطاب بعد انتصار المسلمين في نهاوند، ثم أكمل حديثه قائلاً "...فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعز أمته، هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم"[١٠٤]

ولقد آمن الخليفة عمر بكلامه، وقرر أن يفتح باقي ملك الإمبراطورية الفارسية، لأن هذا سيحمي ظهر المسلمين، ويؤمن خط رجعتهم، ويعطيهم فرصة للسيطرة على طرق الإمداد من شبه الجزيرة العربية والعراق (العراق العربي).

وعلى الرغم من استشهاد النعمان بن مقرن في معركة نهاوند؛ إلا أن باقي إخوته استلموا راية القيادة بأمر الخليفة عمر، وشاركوا باقي إخوانهم المسلمين في معارك الاستيلاء على ما تبقى من أملاك الفرس، ومن هذه المعارك:

معركة همذان[١٠٥] ٢٢هـ/٦٤٢م:

ارتبط فتح همذان – أولاً – بفتح نهاوند، وذلك أن الفيرزان ومن بقي معه حياً من الفرس في نهاية معركة نهاوند، هربوا يريدون النجاة صوب همذان، فشاهده، نعيم بن مقرن فمال إليه بقوة إسلامية، وأمر القعقاع بن عمرو التميمي – قائد المجردة وهي

قوة من الفرسان - بمطاردته وتعقبه، فأدركه في ثنية همذان، حيث سدت بعض الدواب من الحمير والبغال الطريق أمامه، فترجل يريد الهرب في الجبال، فتبعه القعقاع راجلاً، وأدركه وقتله، وأطلق المسلمون على هذه الثنية اسم "ثنية العسل" وقالوا حين عرفوا أن الدواب كانت تحمل عسلاً "إن لله جنوداً من عسل".

وأما الفارون من الفرس: فقد لجأوا إلى داخل همذان، فأسرع وراءهم نعيم، وحاصرهم فيها، فلما علم أميرهم ما أصاب القوم، عند مدخل همذان، بعث يطلب الصلح فوافق المسلمون على أن يضمن لهم همذان، وألا يخونوا المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك[١٠٦].

ولكن لم يدم هذا الصلح طويلاً، ففي الوقت الذي كانت تدور فيه معركة أصبهان[١٠٧] تجمعت أعداد ضخمة من الفرس تحت قيادة اسفنديار الرازي، شقيق رستم، وعلم أهل همذان بأخبار هذا التجمع؛ فتشجعوا ونقضوا صلحهم مع المسلمين فأمر عمر رضي الله عنه نعيم بن مقرن بالسير إليهم، وحين رأى أهل همذان القوات الإسلامية، عادوا وندموا، وحين حاصرهم نعيم طلبوا الصلح، فوافق نعيم بشرط أن تبقى قوة من المسلمين في المدينة يقوم أميرها باستلام الجزية[١٠٨] لذلك بقيت قوات نعيم كاملة غير مجهدة حتى تلقى القوات المتجمعة تحت قيادة اسفنديار.

نعيم بن مقرن في مواجهة اسفنديار في "واج روذ"[١٠٩] ٢٢هـ / ٦٤٢م

لما تزايدت القوات التي حشدها اسفنديار، وبدأت تتقدم نحو نعيم من جهات مختلفة: الديلم وعلى رأسهم أمير يسمى "موتا"، وأهل الري يقودهم الزينبي أبو الفرخان، وأهل أذربيجان وعليهم اسفنديار، وكانت هذه الجيوش تتجه إلى واج روذ، بعث نعيم بن مقرن بجماعات استطلاع تأتيه بأخبار التجمعات المعادية وتحركاتها، ثم غادر همذان - بعد أن ترك فيها حامية - وتحرك بقواته حتى أصبح في مواجهة مباشرة مع جيوش الفرس التي لم تمنحه فرصة للراحة، حيث سارعت بشن هجوم مفاجئ صمد له المسلمون، واشتد القتال، ولم يأت المساء إلا وكانت قوات الفرس قد انهزمت بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً كبيراً، وبعث نعيم بأنباء الانتصار إلى عمر بالمدينة[١١٠].

وقال ابن الأثير[١١١] "وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، فانهزم الفرس هزيمة قبيحة، وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون. وقتل ملك الديلم موتا، وتمزق شملهم، وانهزموا بأجمعهم فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين، وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعلمه باجتماعهم فهمه ذلك، واغتم له، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقرئ على ناس ففرحوا وحمدوا الله عز وجل".

وبمناسبة هذا الانتصار العظيم في واج روذ قال نعيم بن مقرن شعراً منه[١١٢]:

ولما أتاني أن موتاً ورهطه بني باسل جروا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مسامياً لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
إلى أن يقول:
تبعناهم حتى أووا في شعارهم فنقتلهم قتل الكلاب الجواجم
كأنهم في واج روذ وجوه ضئين أصابتها فروج المخارم

نعيم يزحف إلى الري[١١٣] ٢٢هـ/٦٤٢م

"أما بعد: فاستخلف على همذان وسر حتى تقدم الري، وتلقى جمعهم ثم أقم بها، فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد"[١١٤] بهذه الأوامر بعث الخليفة عمر إلى نعيم بن مقرن حيث تجمعت قوات الفرس والديلم، المنهزمة في واج روذ، في الري، وكان ملكها – سياوخش بن مهران – قد أيقن أن المسلمين سيهاجمونه بعد أن يفرغوا من معركة واج روذ، لذلك: طلب المدد من ولايات فارسية أخرى[١١٥] فأمدوه بقوات كبيرة حتى أصبحت قواته ضعف قوات نعيم عدداً وعدة، وتحصنت القوات داخل الري وهي ذات مناعة وقوة.

وحين انسحب الزينبي بقواته منهزماً في واج روذ، اتجه إلى الري وانضم للقوات الفارسية المتمركزة هناك بقيادة سياوخش. وقد حدث خلاف بين الزينبي وسياوخش ملك الري، إذ عنف الأخير الزينبي لانهزامه أمام المسلمين، وعزله عن عمله، فغضب الزينبي وقرر الانضمام إلى نعيم وحالفه[١١٦].

وبدأ القتال واشتد، حتى مضى يوم دون حسم بسبب الحصون، فدل الزينبي نعيماً على طريق يدخلون منه المدينة، فقامت معه كتيبة فرسان ودخلت المدينة ليلاً، وأخذت المدافعين عن المدينة على غرة، فانهزموا، فدخل نعيم المدينة، وأمعن المسلمون في قتل أهلها، وفر ملك الري، وصالح نعيم الزينبي وعينه ملكاً مكان سياوخش، وهدم قلاع المدينة، وخرب حصونها، ثم كتب إلى الخليفة عمر بالفتح[١١٧].

ثم مال نعيم بقواته إلى دنباوند – تقع على جبل قريب من الري – فلما علم ملكها – اسمه مراد نشاه – بمسير نعيم إليه راسله في الصلح علي شئ يفتدى به منهم، من غير أن يسأله النصر والمنعة، فقبل منه، وكتب بينه وبينه كتاباً على غير نصر ولا معونة[١١٨].

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

بعد استيلاء نعيم بن مقرن على همذان وواج روذ والري ودنباوند وما حولها، استقر بجنوده في هذه المناطق في انتظار أوامر جديدة.

وبالفعل: فقد كتب الخليفة عمر، رضي الله عنه، إلى نعيم أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس[١١٩] وكان سويد في جيش أخيه نعيم في الفتوحات الأخيرة، فترأس جيشاً وترك الري متوجهاً إلى قومس، فلم يجد مقاومة تذكر، وبعد حصار سهل لقومس؛ أخذها سلماً وعسكر بها، وكتب لهم كتاب صلح[١٢٠]

سويد يفتح جرجان[١٢١] وطبرستان[١٢٢] ٢٢/٦٤٢م :

تقدم سويد بقواته وعسكر في بسطام[١٢٣] ، وبعث إلى ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو القتال أو الإسلام، فبعث إليه ملك جرجان يطلب الصلح، فصالحه سويد على جزية يؤديها أهلها، ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم[١٢٤].

وبمناسبة إنجاز هذا الصلح، قال أحد المسلمين شعراً منه[١٢٥]:

بلغ أسيداً أن عرضت بأننا ... بجرجان في خضر الغياض النواضر
فلما أحسونا وخافوا صوالنا ... أتانا بن صول راغماً بالجرائر
وأدى إلينا الخرج عن كل كورة ... أقامت بها أخرى الليالي الغوابر
وهل لكم في العيش غضا فإنني ... أرى العيش قد ولى بتلك الحظائر

ولاحظ ملك طبرستان أن المسلمين قد أحاطوا به من الجنوب والشرق، فقد استولوا على الري، وصالحوا أهل جرجان، فآثر مصالحتهم، وراسل سويداً في الصلح على أن يتوادعا، ويجعل له شيئا على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه، وكتب له كتاباً[١٢٦].

انتهت – إذن – حروب العراق وفارس في عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – [١٢٧] وانتهت معها الإمبراطورية الفارسية على أيدي المسلمين.

وهكذا: كان المسلمون يواجهون، في قتالهم الفرس، عدواً فاقهم في كل نواحي المعركة فناً وعدة وعدداً وممارسة سابقة، على مستوى لم يعهده المسلمون من قبل، وبرغم هذا الفارق الكبير، فقد خاض المسلمون فوق أرض العراق وفارس المعارك، وواجهوا جيوش الفرس على كثرة عددها ووفرة عددتها، وانتصر المسلمون ودانت لهم كل بلاد العراق وفارس.

الخاتمـــــة

وبعد استعراضنا لهذا البحث يمكن استنتاج بعض النقاط، منها:

أولاً: أن النعمان بن مقرن وإخوته عاشوا داخل قبيلة مزينة، وهى العيشة التى لم تكن تختلف عن عيشة بقية القبائل في الجزيرة العربية.

ثانياً: أن عددهم لم يكن سبعة فقط، وإنما أثبت البحث أنهم كـانوا أكثـر مـن عشرة، وإن لم يشتهر منهم إلا البعض فقط.

ثالثاً: نال أبناء مقرن مكرمة في الإسلام لم ينلها غيرهم، كإخوة عشرة أسـلموا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا ضمن أول وفد من مضر يشهر إسلامه.

رابعاً: وبمجرد إشهارهم الإسلام انخرطوا في العسكرية الإسـلامية، وبـدايتهم معركة الخندق.

خامساً: تميز بعضهم بأنهم من الذين حملوا ألوية رسول الله، فأسند إليهم قيادة قبيلتهم في الغزوات لكفاءتهم، وكان يعز عليهم أن تفوتهم غزوة من الغزوات، فقد كانوا حريصين على متابعة القتال في سبيل الله.

سادساً: قاد النعمان بن مقرن وإخوته جيش المسلمين – تحت إشراف الخليفـة أبى بكر – في التصدي للمرتدين والمتنبئين الذي أغاروا على المدينة عقب وفاة الرسول مباشرة، وأوقعوا بهم الهزيمة في معركة عرفت "بذي القصة".

سابعاً: ولثقة أبى بكر الصديق – رضي الله عنه – في قيادة أبناء مقرن بـسبب كفاءتهم، فقد أسند قيادة أحد الألوية التي وجهها لقتال المرتدين، في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة العربية لواحد منهم وهو: سويد بن مقرن الذي كانت وجهته إلى مرتـدي تهامة باليمن.

ثامناً: وحين أنشب الخليفة أبو بكر القتال على جبهتي الفرس والروم في وقـت واحد، كان قدر أبناء مقرن أن يكونوا ضمن الجيش الذي توجه للعراق بقيادة: خالد بـن الوليد رضى الله عنه، وشهدوا معه فتح العراق العربي، وكان لهم أثر عسكري واضـح في فتح مدنها.

تاسعاً: كذلك كان لهم دور دبلوماسي أثناء فتح العراق، حيث وقع الاختيار على النعمان بن مقرن من قبل سعد بن أبى وقاص، ليقود وفد الدبلوماسية الإسلامية إلى ملك الفرس، وقد أجاد في مهمته أثناء حديثه مع يزجرد.

عاشراً: وعلى الرغم من الفتوحات الإسلامية الكثيرة التي جاءت على أيدي النعمان وإخوته، إلا أنهم زهدوا في تولي مناصب إدارية حتى لا تجعلهم يركنون للدنيا، فقد كانت ساحات القتال رغبتهم.

أحد عشر: دفع الخليفة عمر بأبناء مقرن كقادة عسكريين لفتح بلاد فارس، فقاد كل من النعمان جيشاً، وأخوه نعيم جيشاً للاشتراك في فتح مدن الأهواز مع باقي القادة الآخرين.

ثاني عشر: وحين أعاد الفرس تنظيم صفوفهم بالقرب من نهاوند لخوض معركة فاصلة مع المسلمين، لم يجد عمر – ومعه كبار الصحابة في المدينة – أفضل من النعمان بن مقرن لقيادة المسلمين في هذه المعركة، والتي سميت "بفتح الفتوح" بعد انتصار المسلمين.

ثالث عشر: عمل تحت قيادة أبناء مقرن كبار الصحابة في معارك فتح بلاد فارس – مثل حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عمر – وهذه منقبة عظيمة لهم.

رابع عشر: وعلى الرغم من مقتل النعمان في معركة نهاوند – بعد أن قرت عيناه بالفتح – إلا أن باقي إخوته، كنعيم وسويد، أكملوا عملية الإنسياح في بلاد فارس كقادة ميدانيين، ونجحوا في فتح أجزاء عدة منها.

خامس عشر: ويتضح من عهود الأمان التي كتبها القادة من أبناء مقرن لأهالي البلاد المفتوحة، أن الإسلام دين عدل وإنصاف في ضوء: فرضت الجزية لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم – لم تفرض جزية على الأطفال والنساء والمرضى – لا يدفع الجزية من يشترك مع المسلمين في عمل عسكري – وضمنت هذه العهود حرية العقيدة والتنقل والأمان للمغلوبين.

وأخيراً...

إن كفاءة أبناء مقرن التى ظهرت في الغزوات أيام الرسول – ﷺ – هي التي رشحتهم لأبى بكر ليسند إليهم قيادة جوانب من حروب الردة بعد وفاة الرسول، وهي التى رشحتهم لعمر بن الخطاب فأسند لهم قيادة الجيوش في معارك كبرى في فتح العراق وفارس – كمعركة نهاوند مثلاً – وقد أجادوا في ذلك وجادوا بأرواحهم في سبيل رفعة الإسلام ونشره، وستظل العسكرية الإسلامية تتذكر النعمان بن مقرن وإخوته بكل فخر واعتزاز.

الهوامـــــش

(١) ابن حزم "أبو محمد على بن أحمد بن سعد" – جمهرة أنساب العرب – دار المعارف – مصر سنة ١٩٤٨م ص٤٨٠، السمعاني "أبو سعد عبد الكريم بن محمد" – الأنساب – تحقيق/ عبد الله عمر البارودي دار الجنان – بيروت ط(١) ١٩٩٨م ح٥ ص٢٧٧.

(٢) الوزير المغربي "الحسين بن على بن الحسين" – الإيناس بعلم الأنساب تحقيق: المرحوم حمد الجاسر – الرياض ١٩٨٠م ح١ ص١٢، ابن خلدون "ولى الدين عبد الرحمن بن محمد" – العبر وديوان المبتدأ والخبر – بيروت – لبنان سنة ١٩٦٨م ح٢ ص٣١٨.

(٣) جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦١م ح٥ ص٣٥٧.

(٤) ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومي" – معجم البلدان – دار الفكر – بيروت – لبنان – بدون تاريخ ح٢ ص٧٢، ٢٩٢، ١٦٤، ٢٥٧، ٤٤٧، ح٣ ص٢٥٤، ٣٤٦، ٣٤٩، ح٤ ص١٥٦، ٢٨٥، وثبير هذا: هو الموضع الذي أقطعه النبي – ﷺ – شريحاً بن ضمرة المزني، وهو أول من حمل صدقته للنبي.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٢ ص٨٧، ح٣ ص١١٤، ٤٣٢، ٣٤٢، ووادى العقيق: أقطعه النبي – ﷺ – بلالاً بن الحارث المزني.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٢ ص٣٧٤، ٣٤٥، ح٣ ص٧٥، ٢٦٦، ٢٧٧.

(٧) "عبد الملك بن هشام بن أيوب" – السيرة النبوية – دار الفجر للتراث – القاهرة مصر ط (٢) ٢٠٠٤م ح٣ ص١٦٥.

(٨) وجبل "عينب" هو الجبل الذي أقطعه النبي – ﷺ– لمعقل بن سنان المزني. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٤ ص١٧٤.

(٩) محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام – أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم – دار الثقافة – مصر سنة ٢٠٠٤م ص٢٨١. وقد امتلك أهل مزينة بئرا في المدينة يبيعون للناس مياهها وهي بئر رومة ، وكانت رومه إمرأة منهم تبيع الماء للناس فنسبت إليها ، ثم اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعمائة دينار فتصدق بها على المسلمين ، فدعا له النبي ﷺ فقال " اللهم أوجب له الجنة " ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة البصري" تاريخ المدينة المنورة – تحقيق/ فهيم محمد شلتوت – دار الأصفهاني للطباعة – جدة سنة ١٩٧٤م، ح١ ص١٥٤.

(١٠) خزاعي بن عبد نهم بن ربيعة بن عدى بن ذؤيب المزني، أخو عبد الله ذي البجادين لأبويه، وعم عبد الله بن مغفل بن عبد نهم، أسلم مع وفد مزينة في العام الخامس الهجري، ودفع له رسول الله - ﷺ- لواء مزينة يوم الفتح ابن سعد: الطبقات الكبرى ح١ ص٢٩١.

(١١) الكلبي "أبو المنذر هشام بن محمد السائب" - كتاب الأصنام - دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤م ص٣٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٤ ص٢٦٢، ابن قيم الجوزية "شمس الدين محمد بن أبي بكر" - زاد المعاد في هدى خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - سنة ١٩٨٢ ح٣ ص٥٤٥، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٢ ص٢٧٦.

(١٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح١ ص٢٩١، السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر" - الخصائص الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة ١٩٨٥م ح٢ ص٣٨.

(١٣) ابن الجوزى "عبد الرحمن بن على بن محمد" - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تحقيق/ محمد عبد القادر مصطفي، وعطا عبد القادر مصطفي - دار الكتب العلمية - بيروت ط(١) ١٩٩٢م ح١ ص٣٤٢، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ح٣ ص٥٤٥، ابن ابن كثير "إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي" البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ ح٥ ص٤١.

(١٤) بعاث: هو حصن للأوس على ليلتين - ٨٩ كيلو متراً تقريباً - من المدينة وكان يوم بعاث آخر العداء والقتال بين الأوس والخزرج، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما هاجر النبي - ﷺ- طهر الله به قلوبهم من هذه الإحن، وأنعم عليهم بأخوة الإسلام ياقوت الحموي: معجم البلدان ح١ ص٤٥١.

(١٥) ابن خلدون: العبر ح٢ ص٢٨٩، جواد علي: المفصل ح٥ ص٢٣٠.

(١٦) النعمان بن مقرن بن عائذ بن ميجا بن هجير بن نصر بن حبشية أبو عمرو المزني، كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وحنين، وقائد معركة نهاوند حيث استشهد بها سنة ٢١هـ/٦٤١م.

ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٦ ص١٨، ١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ح١ ص٤٧٥.

(١٧) سويد بن مقرن بن عائذ أبو عدى المزني، أخو النعمان بن مقرن بطل الإنسياح في بلاد فارس، فتح همذان، والري، وجرجان، ابن سعد: الطبقات الكبرى: ح٦ ص١٩، ابن حجر العسقلاني "أحمد بن على بن حجر" - الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق / على محمد البجاوي - دار الجبل - بيروت ط(١) ١٤١٢هـ ح٣ ص٢٢٩.

(١٨) نعيم بن مقرن: أبو عمارة المزني، أخو النعمان، خلف أخاه النعمان حين قتل بنهاوند، وكانت على يديه فتوح، وهو وأخوه من جلة الصحابة وكانوا من وجوه مزينة، وكان عمر بن الخطاب يعرف لنعيم والنعمان موضعهما ابن عبد البر: الاستيعاب ح١ ص٤٧٦، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٣ ص١٩٩.

(١٩) سنان بن مقرن المزني أخو النعمان، له صحبة، قال ابن مندة: له ذكر في المغازى. ابن عبد البر: الاستيعاب ح١ ص١٩٩ ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٣ ص١٩٠.

(٢٠) معقل بن مقرن أبو عمارة المزني أخو النعمان، أثناء فتح خالد بن الوليد للعراق أرسله إلى "الأبلة" ففتحها، وجمع الأموال بها وسبى .ابن سعد: الطبقات الكبرى: ح٦ ص١٩ ابن عبد البر: الاستيعاب ح١ ص٤٥٠.

(٢١) عقيل بن مقرن أبو حكيم المزني، قال ابن حجر العسقلاني: ذكره البخاري في الصحابة، وذكره الواقدى فيمن نزل الكوفة الإصابة ح٤ ص٥٣٢، وينظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات الكبرى ح٦ ص١٩، وابن عبد البر: الاستيعاب ح١ ص٣٣٢.

(٢٢) عبد الرحمن بن مقرن المزني، قال ابن سعد: له صحبة، ويقال: كان اسمه عبد عمرو بن مقرن، فغيره النبي -ﷺ-. الطبقات الكبرى ح٦ ص١٩، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٤ ص٣٣٥، ٣٦٣.

(٢٣) الأبناسي "برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب" الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح، تحقيق/ صلاح فتحي هليل - مكتبة الرشد الرياض - السعودية ط(١) ١٩٩٨م ح٢ ص٥٤٨.

(٢٤) كان مع خالد بن الوليد أثناء فتح الحيرة سنة ١٢هـ / ٦٣٣م ، وقال ابن حجر العسقلاني:... وأن خالد بن الوليد أمره لما حاصر الحيرة، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم) - أسد الغابة في معرفة الصحابة - تحقيق د. محمد البنا - ود.محمد عاشور - دار الشعب - مصر ١٣٩٣هـ ح٢ ص٣٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٣ ص٤٨٥.

(٢٥) كان على ميسرة جيش أبى بكر في "ذي القصة"، روى عنه ابن سيرين، وعبد الملك بن عمير. ابن الأثير: أسد الغابة ح٢ ص١٧٨، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٣ ص٤٨٥.

(٢٦) قال ابن حجر العسقلاني "أحد الإخوة، ذكره الطبري في الصحابة، أمره خالد بن الوليد على شئ من العراق حين توجه إلى الشام في خلافة أبى بكر". الإصابة ح٣ ص١١٥.

(٢٧) لم يزد ابن حجر العسقلاني على قوله: ومعاوية بن مقرن المزني معروف هو وأخوته. الإصابة ح٣ ص١٠٦.

(٢٨) أحد الإخوة، له ذكر في الفتوح، بعثه أخوه نعيم بن مقرن إلى "قومس" ففتحها صلحاً، وكاتبه صاحب جرجان فصالحه على الجزية، وقد رجح ابن حجر أن "سواد" هذا هو "سويد" لعله لقب بالتصغير. الإصابة ج٣ ص٢٢٦.

(٢٩) العصامي "العصامي بن الحسين بن عبد الملك" – سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي – بعناية: قاسم درويش فخرو، القاهرة ١٣٧٩هـ ج١ ص٣٥٧.

(٣٠) مسلم "أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم" – الجامع الصحيح دار الجيل – بيروت ودار الآفاق الجديدة – بيروت – بدون – ج٥ ص٩١.

(٣١) ابن عبد البر: الاستيعاب ج١ ص٤٧٦، الأبناسي: الشذا الفياح ج٢ ص٥٥٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج٣ ص١٩٩.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري – دار المعرفة – بيروت سنة ١٣٧٩هـ ج٦ ص٥٤٣، ٥٥٢.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٦ ص١٨، ١٩، ٢٠، الحاكم "محمد بن عبد الله بن محمد" – المستدرك على الصحيحين وبهامشه تلخيص المتشابه للذهبي – تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت ط(١) ١٩٩٠م ج٣ ص٣٣٢، ابن الجوزى: المنتظم ج٢ ص٣٢ ، الذهبي "محمد بن أحمد بن عثمان" – سير أعلام النبلاء – تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ١٩٨١م ج١ ص٤٠٣.

(٣٤) منهم: سلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن عوف المزني، بالإضافة إلى ستة من الأنصار.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ص٨٣، الطبري: تاريخ ج٢ ص٩٢، ابن الجوزى: المنتظم ج٢ ص٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٣٠٤ ، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج٧ص٢٧٩ ، ٢٨٠.

(٣٦) الطبراني "سليمان بن أحمد بن أيوب" – المعجم الكبير – تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم – الموصل ط(٢) ١٩٨٣ ج١١ ص٦٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ج١ ص٤٠٣، الهيثمي "نور الدين على بن أبي بكر" – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – دار الفكر – بيروت – لبنان. سنة ١٩٨٨م ج٦ ص٢١٦.

(٣٧) الواقدى "أبو عبيد الله محمد بن عمر" مغازى رسول – ﷺ – تحقيق/ د. مارسدن جونس – عالم الكتب – بيروت – لبنان ط(١) ٢٠٠٦م ص٥٤٠ ابن الجوزى: المنتظم ج٢ ص١٩٤.

(٣٨) المصدر السابق. ص ٥٤١، ٥٩٨، ٥٩٩.

(٣٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ص٢١٨ ، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج٨ص٨٧ ، ابن كثير: البداية والنهاية ح٢ ص٥، والآية من سورة التوبة رقم ٢٣

(٤٠) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة – محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية – مكتبة العبيكان – الرياض ط(٥) ٢٠٠٣م ،ح٢ ص٥٢٤، وذكر أن تبوك تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨كم حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر والآية من سورة التوبة رقم ٩٢.

(٤١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن – تحقيق/ أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة – بيروت ط(١) ٢٠٠٠م ح١٤ ص٤٢١، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي – بيروت ط(٣) ١٤٠٤هـ ح٣ ص٢١٨ ، البغوى 'أبو محمد الحسين بن مسعود' – معالم التنزيل – تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي – دار طيبة ط(٤) ١٩٩٧م ح٤ ص٨٦، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع ط(٢) ١٩٩٩م ح٤ ص١٩٩، السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول – دار إحياء التراث – بيروت – بدون، ح١ ص١٩٥.

(٤٢) 'محمد بن أحمد الأنصاري' – أحكام القرآن – تحقيق/ محمد البهلاوى وآخرين – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – بدون، ح٨ ص٢٢٨، ويراجع أيضا: الواحدى 'أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى' – أسباب النزول دراسة وتحقيق/ السيد الجميلي – دار الريان للتراث – مصر – بدون – ص٢١٠، الرازي 'محمد بن عمر بن الحسن' – مفاتيح الغيب – دار الفكر – بيروت – ط(٣) ١٩٨٥م ح٨ ص١٢١، أبو السعود 'محمد بن محمد بن مصطفى' – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – دار إحياء التراث – بيروت – بدون تاريخ ح٣ ص٦١، وقد استطاع يامين بن عمير النضرى، والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان – رضوان الله عليهم – تمويل بعضهم فخرجوا مع النبي – ﷺ – الواقدى: مغازى ص٦٥٨، ابن سيد الناس 'أبو الفتوح محمد بن محمد'عيون الأثر في فنون المغازى والشمايل والسير – دار الفكر ودار الآفاق مصر ١٩٨٢م ح٢ ص٢٥٤، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ح٣ ص٤٦٠.

(٤٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ح٨ ص١٢٦.

(٤٤) الطبري: تفسير ح١٤ ص٤٣٣، البغوى: معالم التنزيل ح٤ ص٨٦، القرطبي: أحكام القرآن ح٨ ص٢٣٥، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٣ ص١٩٥، والآية من سورة التوبة رقم ٩٩.

(٤٥) ذي القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً- ٤٤ كيلومتراً تقريباً-، وهو طريق الربذة ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٣٦٦.

(٤٦) الطبري: تاريخ ج٢ ص٢٥٥، وذكر أن الأربعة الصحابة هم: علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعاً

(٤٧) عن موقعة ذي القصة يراجع: الطبري: تاريخ ج٢ص٢٥٥ ، ابن الجوزي: المنتظم ج١ص٤٧٧ ، ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج٢ص٦٦.

(٤٨) الطبري: تاريخ ج٢ ص٢٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج٦ ص٣١٥، ابن خلدون: العبر ج٢ ص٦٩.

(٤٩) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم...ابن شيبان، صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم سنة ٩هـ/٦٣٠م، وغزا بلاد الفرس أيام أبي بكر، وشهد عدة وقائع في أيام عمر، وتوفي متأثراً بجراحه سنة ١٤هـ/٦٣٥م، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٧ ص٢٣٩، ٢٩٧، ابن الأثير: أسد الغابة ج١ ص٩٧٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج٥ ص٧٦٦.

(٥٠) الطبري: تاريخ ج٤ ص١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ج٣ ص٤٩٧، البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة شمالاً وعمان جنوباً. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٣٤٦.

(٥١) الطبري: تاريخ ج٢ ص٣١١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٣٨٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج٦ ص٣٧٩، والأبلة: في موقع البصرة الحالية، وكانت الأبلة مرسى السفن الوافدة من الهند والسند، وقد كانت أعظم موانى فارس شأناً. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٧٧.

(٥٢) مثل: المذار، والولجة، وأليس، وأمغيشيا.

(٥٣) نشأت إمارة الحيرة سنة ١٦٥م أو ٢١٢م مع قيام الدولة الساسانية في فارس، وكانت على حافة سواد العراق وحافة البادية تبعد عن موضع الكوفة نحو فرسخ = ٥,٥ كيلو متر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٣٢٨.

(٥٤) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن – دار النفائس – بيروت ط(٢) ١٩٧٣م ص٢٢٦.

(٥٥) خلّف خالد سويد بن قطبة الذهلي على ناحيته من منازل بني ذهل من جهة البصرة، وقطبة بن قتادة بن جرير السدوسي على جهته، وشريح بن عامر بن قين من بني سعد بن بكر بن هوازن على الخريبة. البلاذري. فتوح البلدان – تحقيق/ صلاح الدين المنجد

– مصر سنة ١٩٥٦م ح٢ ص٤١٨. ابن عبد البر: الاستيعاب ح٣ ص٢٤٧، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٥ ص٤٤٥.

(٥٦) الطبري: تاريخ ح٢ ص٣١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ح٦ ص٣٤٥، أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص٢٢٧، والحفير أول منزل لمن يريد مكة من البصرة، ويبعد عن البصرة أربعة أميال – حوالي سبعة كيلو مترات – ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٢ ص٢٧٧.

(٥٧) حاصر ضرار بن الأزور الأسدى "القصر الأبيض"، وحاصر ضرار بن الخطاب الفهرى "قصر العدسيين"، وحاصر ضرار بن مقرن "قصر بني مازن"، وحاصر المثنى بن حارثة الشيبانى "قصر ابن بقيلة".

(٥٨) الطبري: تاريخ ح٢ ص٣١٦، ابن الجوزى: المنتظم ح١ ص٤٥٠، ابن الأثير: أسد الغابة ح٢ ص٣٢.

(٥٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح١ ص٣٨٣، ابن خلدون: العبر ح٢ ص٧٩.

(٦٠) محمد فرج: الفتح العربي للعراق وفارس – تقديم/ أحمد حسن الباقورى – دار الفكر العربي – مصر ١٩٦٦م ص٩١.

(٦١) البلاذرى: فتوح البلدان ص٦٠٧، وتستر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج، وكانت أعظم مدينة بالأهواز. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح١ ص٤١٣.

(٦٢) الطبري: تاريخ ح٢ ص ٣١٢ ، ٣١٦.

(٦٣) القادسية: موقع شرقي نهر الفرات جنوبي الكوفة، على سيف الصحراء، جرت فيه معركة القادسية سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٤ ص٢٩١.

(٦٤) مثل: معركة الأنبار، وعين التمر، والفراض، وبابل، والجسر، والبويب، وسوق الخنافس، وتكريت.

(٦٥) الطبري: تاريخ ج٣ ص١٤.

(٦٦) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء – تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين على – عالم الكتب – بيروت ط(١) ١٤١٧هـ ح٤ ص١٥٦.

(٦٧) وهم: النعمان بن مقرن، وبسر بن أبى رهم، وحملة بن جوية الكنانى، وحنظله بن الربيع التميمي، وفرات بن حيان العجلى، وعدى بن سهيل، والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب، وعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس الكندي، والحارث بن حسان الذهلى، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدى، والمغيرة بن شعبة

الثقفي، والمعنى بن حارثة الشيباني. الطبري: تاريخ ج٣ ص١٧، ابن الأثير: الكامل ج١ ص٤١٠.

(٦٨) الطبري: تاريخ ج٢ ص٣٩١، ٣٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ج١ ص٤٧٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤١٠، الكلاعي: الاكتفاء ج٤ ص١٥٦ ابن كثير: البداية والنهاية ج٧ ص٤١، ابن خلدون: العبر ج٢ ص٩٣.

(٦٩) الطبري: تاريخ ج٢ ص٤٢٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤١٥، الكلاعي: الاكتفاء ج٤ ص١٤٦.

(٧٠) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج٩ ص٤٢٧.

(٧١) المدائن: عبارة عن مدينتين متقابلتين إحداهما على الشاطئ الغربي لدجلة وهي المدائن الدنيا أو بهرسير، وقد بناها السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدوني وكان يسكنها طبقة العامة من الفرس، والثانية على الشاطئ الشرقي لدجلة وهي المدائن العليا وقد بناها ملوك الفرس وبها إيوان كسرى (القصر الأبيض). ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٧٤، لسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد – مؤسسة الرسالة – بيروت ط(٢) ١٩٨٥م ، ص٣٤

(٧٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤٣٣، الكلاعي: الاكتفاء ج٤ ص٢٥٢.

(٧٣) تعد مدينة حلوان في العراق هي حد العراق العربي الذي كان محتلاً من الفرس، وكان المسلمون قد احتلوا حلوان، وتمكنوا من الاستيلاء على تكريت والموصل من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٢٩٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص٩٧، ٩٨.

(٧٤) الطبري: تاريخ ج٣ ص١٣١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤٣٤.

(٧٥) كسكر: كورة واسعة في العراق العربي كانت مدينة واسط قصبتها، قيل سميت بكسكر بن طهمورت الملك الذي هو أصل الفرس. فتحها النعمان بن مقرن صلحاً سنة ١٤هـ / ٦٣٥م. من قبل سعد بن أبي وقاص. البكري "أبو عبد الله بن عبد العزيز". معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع – القاهرة سنة ١٩٥٤م ج٣ ص٤٨٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٤٨٢.

(٧٦) ابن المبارك "عبد الله بن المبارك بن واضح" – الزهد – تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ – ج١ ص١٧٢، الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٢٤.

(٧٧) تقع الأهواز إلى الجنوب الشرقي من العراق، ويجرى فيها من فروع دجلة نهيردجيل وكارون، وتفصلها بعض المرتفعات عن العراق العربي، واسمها مختصر من "سوق الأهواز" وهى قاعدة الإقليم، وهى منطقة خوزستان الآن في إيران. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح١ ص٢٨٥، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٧٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح١ ص٤٤٤.

(٧٩) الطبري: تاريخ ج٢ ص٣١١.

(٨٠) سميت بذلك نسبة إلى الملك هرمز حفيد أردشير بابكان، وأحياناً كان يختصر اسمها إلى رامز، كان يكثر في أرجائها القمح والقطن وقصب السكر، وهى إحدى مدن إقليم خوزستان في إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٣ ص١٧، لسترنج: بلدان الخلافة ص٢٥٨.

(٨١) الطبري: تاريخ ح٢ ص٣١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ح١ ص٤٤٥، وأيدج: بين خوزستان وأصبهان ، كثيرة الزلازل والمعادن ، وهي وسط الجبال ، وكان بها بيت نار قديم كان يوقد إلى أيام الرشيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٨٨.

(٨٢) الطبري: تاريخ ج٣ص١٨٠.

(٨٣) المصدر السابق ج٣ص١٨٢.

(٨٤) الطبري: تاريخ ح٣ ص١٨٢، ابن الجوزى: المنتظم ح٢ ص٤٦، الكلاعى: الاكتفاء ح٤ ص٢٩٠، ابن كثير: البداية والنهاية ح٧ ص٨٥.

(٨٥) السوس: بلدة بالأهواز، كانت المقر الشتوي لملوك فارس، كما كانت عاصمة لملوك عيلام من قبل، هدمها آشور بانيبال ملك الأشوريين سنة ٦٤٠ق.م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٣ ص٢٨٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص٢٧٤.

(٨٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح١ ص٤٤٦، ونهاوند: مدينة عظيمة تقع شرقي مدينة همذان، بينهما أربعون ميلاً – ٧٤ كيلو متراً –، كان يحمل خراجها مع خراج البصرة، وكانت مدينة جليلة منذ أيام الساسانيين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٥ ص٣١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص٢٣٢.

(٨٧) أبو حنيفة الدينورى "أحمد بن داود بن ونند" – الأخبار الطوال – تحقيق/ عبد المنعم عامر – مطبعة عيسى البابى الحلبي – القاهرة ١٩٦٠ح١ ص١٣٤.

(٨٨) حلوان: وهى آخر سواد العراق مما يلي إقليم الجبال ليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، فتحها جرير بن عبد الله البجلى صلحاً سنة ١٦هـ / ٦٣٧م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح٢ ص٢٩٠، ٢٩١.

(٨٩) الدينوري: الأخبار الطوال ح١ ص١٣٤، وذكر أن الذي بعث الرسالة: الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه فقد انضم مجموعة كبيرة من الصحابة تحت لواء النعمان خرجوا من المدينة ليحضروا موقعة نهاوند، وكان أميرهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٩٠) الدينوري: الأخبار الطوال ح١ ص١٣٥، الطبري: تاريخ ح٢ ص٥١٢. الكلاعي: الاكتفاء ح٤ ص٣٠٢.

(٩١) كتب عمر رضي الله عنه إلى النعمان رضي الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار، فسر في وجهك هذا حتى تأتي ماه (يعني نهاوند) – فإني كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم". الطبري: تاريخ ح٢ ص٥١٨، ابن كثير: البداية والنهاية ح٧ ص١٠٨.

(٩٢) الطبري: تاريخ ح٢ ص٥٢٥.

(٩٣) الطبري: تاريخ ح٣ ص٢١٤، الكلاعي: الاكتفاء ح٤ ص٣٠٤، ابن كثير: البداية والنهاية ح٧ ص١٠٩، وقد اعتمد النعمان في جمع المعلومات الحربية على: عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد، وجرير بن عبد الله البجلي، وعلباء بن الهيثم، وعمرو بن أبي سلمى المزني، وكانوا أيضاً مستشاريه في الحرب فقط. الطبري: تاريخ ح٢ ص٥١٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح٤ ص٦٨٩.

(٩٤) الدينوري: الأخبار الطوال ج١ص١٣٦ ، الطبري: تاريخ ج٣ص٢٠٣ والحسك من الحديد: ما كان يلقى حول العسكر ويبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها، وهو يشبه ما يسمى الآن بالأسلاك الشائكة. ابن منظور "محمد بن مكرم المصري" – لسان العرب – دار صادر – بيروت – ط(١) – بدون تاريخ – ح١٠ص ٤١١، مجمع اللغة العربية بمصر – المعجم الوجيز – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٩٧م ص١٥٠.

(٩٥) الدينوري: الأخبار الطوال ح١ ص١٣٦، الطبري: تاريخ ح٣ ص٢٠٣.

(٩٦) الحاكم: المستدرك ح٤ ص٤٥١، الطبري: تاريخ ح٣ ص٢٠٤، وقال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث منقبة للنعمان، وفيه فضل المشورة، وأن الكبير لا نقص عليه

في مشاورة من هو دونه، وأن المفضول قد يكون أميراً على الأفضل، لأن الزبير كان في جيش النعمان، والنعمان أميره، والزبير أفضل منه باتفاق: فتح الباري ج٦ ص٢٦٦.

(٩٧) فتح الباري ج٦ ص٢٦٦.

(٩٨) الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٢٧.

(٩٩) الحاكم: المستدرك ج٣ ص٣٣٢، وذكر أن الذي جاءه من قبيلته هو: معقل بن يسار المزني.

(١٠٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٦ ص١٨ ، البلاذرى: فتوح البلدان ص٣٧٣، الدينورى: الأخبار الطوال ج١ ص١٣٥، الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٢٧، ابن عبد البر: الاستيعاب ج١ ص٤٧٥، ابن الجوزى: المنتظم ج٢ ص١٣.

(١٠١) محمد فرج: الفتح العربي ص٢٤٠.

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤٤٧.

(١٠٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدي المنقرى التميمي، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان، الفاتحين، يضرب له المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي - ﷺ - ولم يره، شهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وولى خراسان، ومات سنة ٧٢هـ/٦٩١م، والأحنف لقبه، واسمه الضحاك. ابن سعد: الطبقات ج٧ ص٩٣، الزركلي: الأعلام ج١ ص٢٧٦.

(١٠٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٤٤٧.

(١٠٥) همذان: إحدى محافظات إيران الآن، وتقع على خط العرض الشمالي ٥٣٥، في الطرف الغربي من جبال زاجروس، إلى الشرق من كرمنشاه، وإلى الغرب من قم، وهى على بعد مائتين وتسعين كيلو متراً للعاصمة طهران، وعلى ارتفاع ١٨٠٠متراً فوق سطح البحر- يحيى الخشاب: موسوعة المدن العربية الإسلامية - دار الفكر العربي - لبنان ط(١) سنة ١٩٩٣م ص٢٨١.

(١٠٦) الطبري: تاريخ ج٤ ص١٣٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٧.

(١٠٧) أصبهان - أصفهان - مدينة عظيمة من أعلام المدن، من نواحي إقليم الجبال، قيل سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح فتحت في عهد: عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ/٦٤٣هـ على يد عبد الله بن عتبان وقيل على يد أبي موسى الأشعري، وهى إحدى محافظات إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٠٦ - ٢١٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص٢٣٨.

(١٠٨) الطبري: تاريخ ج٤ ص١٣٤، ١٤٦، ابن الجوزى: المنتظم ج٤ ص٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٧، ٢٢.

(١٠٩) واج روذ: موضع بين همذان وقزوين، جرت فيه وقعة بين المسلمين والديلم لا تقل في أهميتها عن وقعة نهاوند. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٣٤١.

(١١٠) الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٧ ص١٢١.

(١١١) الكامل في التاريخ ج٧ ص١٢١، ويراجع أيضا الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٣٧ ، ٥٣٨

(١١٢) الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٣٧، ٥٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٧ ص١٢١، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٣٤١.

(١١٣) الري: مدينة تقع في الطرف الشمالي الشرقي من إقليم الجبال، واسمها عند اليونان "راكس"، وفي المائة الرابعة للهجرة/العاشرة للميلاد خرب أكثرها وتحول أهلها إلى طهران القريبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ص١١٦، لسترنج: بلدان الخلافة ص٢٤٩، ٢٥٠.

(١١٤) الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣٠.

(١١٥) مثل: دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان.

(١١٦) الطبري: تاريخ ج٣ص٢٣١.

(١١٧) الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣١، وكتب نعيم لأهل المدينة عهد أمان جاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى نعيم بن مقرن، الزينبي بن مهران، أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء - الجزية - طاقة كل حالم في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلوا، ولا يغلوا ولا يسلوا وعلى أن يقروا - يضيفوا - المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن يفخموا المسلم فمن سب مسلماً، واستخف به استحق عقوبة، ومن ضربه قتل، ومن بدل منهم فلم يسلم برمته". الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣٢.

(١١٨) كتب نعيم كتاباً لمراد نشاه جاء فيه "أنت آمن ومن دخل معك على الكف أن تكف، وتتقى نفسك بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة، لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن ما أقمت على ذلك حتى تغير، ومن غير فلا عهد له". الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣٢.

(١١٩) قومس: منطقة واسعة تمتد بين الري ونيسابور، بها مدن وقرى ومزارع وتفصلها عن بحر قزوين جبال طبرستان التي تقع في شمالها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٤١٤، لسترنج بلدان الخلافة ص٤٠٤.

(١٢٠) جاء في هذا الكتاب "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية على كل حالم – بالغ – بقدر طاقته، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلوا وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة". الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣٢، ٢٣٣.

(١٢١) جرجان: هي المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين وتحتوى على عدة مدن أهمها جرجان التي سميت المنطقة باسمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص١١٩، لسترنج: بلدان الخلافة ص٤١٧.

(١٢٢) طبرستان: هي المنطقة الجبلية التي تحيط بجنوب بحر الخزر "قزوين" وتضم بلداناً واسعة وحصوناً كثيرة، ومن أعيان مدنها آمل، ويطلق على طبرستان اسم "مازندران" أيضا وكانا اسمين مترادفين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص٤٠٩.

(١٢٣) بسطام: من مدن إقليم قومس وثاني مدينة فيه بعد الدامغان على جادة الطريق إلى نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٤٢١، لسترنج: بلدان الخلافة ص٤٠٦.

(١٢٤) نص الكتاب "بسم الله الرحمن الرحيم من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ومن استعنا به منكم فله جزاء في معونته عوضا، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شئ من ذلك، هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سل ولا غل ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حل دمه". الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٣٣، السهمي "حمزة بن يوسف أبو القاسم" تاريخ جرجان – تحقيق/ محمد عبد المعيد خان – عالم الكتب بيروت ط(٣) ١٩٨١م ص٤٤، ٤٥.

(١٢٥) الشعر لسواد بن قطبة، السهمي: تاريخ جرجان ص٤٥.

(١٢٦) جاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو، إنك آمن بأمان الله عز وجل، على أن تكف لصوتك وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوى لنا بغية وتتقى من ولى فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالأذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا

تؤزون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم". الطبري: تاريخ ح٢ ص٥٣٨.

١٢٧) انتهت بعد أن أتم باقي الفاتحين الاستيلاء على بقايا فارس ففتح عتبة بن فرقد، وبكير بن عبد الله أذربيجان، وفتح عبد الرحمن بن ربيعة فرضه والجبال المجاورة لها على بحر قزوين، وفتح عثمان بن أبي العاص الثقفي ولاية فارس، وفتح مجاشع بن مسعود سابور وأردشير وفتح سهيل بن عدى كرمان، وعاصم بن عمرو سجستان، والأحنف بن قيس خراسان كلها، ووقف المسلمون عند حدود الترك.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــــادر:

• الأبناسى "برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب" ت٨٠٢هـ

١) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح – تحقيق/ صلاح فتحي هلـل – مكتبـة الرشـد – الرياض – السعودية ط(١) ١٩٩٨م.

• ابن الأثير "على بن أحمد بن أبى بكر" ت ٦٣٠هـ

٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة – تحقيق د/ محمد البنـا، و د. محمـد عاشـور – دار الشعب – مصر سنة ١٣٩٣هـ

٣) الكامل في التاريخ – بيروت – لبنان – سنة ١٩٧٨م.

• البغوى "أبو محمد الحسين بن مسعود" ت ٤٣٦هـ

٤) معالم التنزيل – تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي – دار طيبة للنشر – السعودية ط(٤) ١٩٩٧م.

• البكري "أبو عبد الله بن عبد العزيز" ت ٤٨٧هـ.

٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع – القاهرة ١٩٥٤م.

• البلاذرى "أحمد بن يحيى البغدادي" ت ٢٧٩هـ.

٦) فتوح البلدان – تحقيق/ صلاح الدين المنجد – مصر ١٩٥٦م.

• ابن الجوزى "عبد الرحمن بن على بن محمد" ت ٥٩٧هـ

٧) زاد المسير في علم التفسير – المكتب الإسلامي – بيروت ط(٣) ١٤٠٤هـ.

٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – تحقيق/ محمد عبد القادر وعطا عبد القادر مصطفى – دار الكتب العلمية – بيروت ط(١) ١٩٩٢م.

• الحاكم "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد" ت ٤٠٥هـ

٩) المستدرك على الصحيحين، وبهامشه تلخيص المتشابه للذهبي تحقيق/ مـصطفى عبـد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت ط(١) ١٩٩٠م.

• ابن حجر العسقلاني "شهاب الدين أحمد بن على" ت ٨٥٢هـ.

١٠) الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق/ على محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت - ط(١) ١٤١٢هـ.

١١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - تحقيق ومراجعة/ محب الدين الخطيب وآخرين - دار الريان للتراث - مصر (١) ١٩٨٦م.

• ابن حزم "أبو محمد على بن أحمد بن سعيد" ت ٤٥٦هـ.

١٢) جمهرة أنساب العرب - دار المعارف - مصر سنة ١٩٤٨م.

• أبو حنيفة الدينورى "أحمد بن داود بن ونند" ت ٢٨٢هـ

١٣) الأخبار الطوال - تحقيق/ عبد المنعم عامر - مطبعة عيسى البابى الحلبى - مصر ١٩٦٠م.

• ابن خلدون "ولى الدين عبد الرحمن بن محمد" ت ٨٠٨هـ

١٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٨م.

• الذهبي "محمد بن أحمد بن عثمان" ت ٧٤٨هـ.

١٥) سير أعلام النبلاء - تحقيق/ شعيب الأرناءوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٩٨١م.

• الرازي "محمد بن عمر بن الحسن" ت ٦٠٦هـ.

١٦) مفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت ط(٣) ١٩٨٥م.

• الزبيري "أبو عبد الله المصعب بن عبد الله" ت ٢٣٦هـ.

١٧) كتاب: نسب قريش - دار المعارف - مصر سنة ١٩٥٣م.

• ابن سعد "محمد بن سعد بن منيع" ت ٢٣٠هـ.

١٨) الطبقات الكبرى - تحقيق/ إحسان عباس - دار صادر - بيروت سنة ١٩٨٥م.

• أبو السعود "محمد بن محمد بن مصطفى" ت ٩٨٢هـ.

١٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ.

• السمعانى "أبو سعد عبد الكريم بن محمد" ت ٥٦٢هـ.

٢٠) الأنساب - تحقيق/ عبد الله عمر البارودى - دار الجنان - بيروت ط(١) ١٩٩٨م.

• السمهودى "على بن عبدالله بن شهاب" ت ٩١١هـ.

٢١) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي – مطبعة الآداب والمؤيد – مصر سنة ١٣٢٦هـ.

• السهمي "حمزة بن يوسف أبو القاسم" ت ٤٢٧هـ.

٢٢) تاريخ جرجان – تحقيق/ محمد عبد المعيد خان – عالم الكتب – بيروت ط(٣) ١٩٨١م.

• ابن سيد الناس "أبو الفتح محمد بن محمد" ت ٧٣٤هـ.

٢٣) عيون الأثر في فنون المغازى والشمايل والسير – دار الفكر ودار الآفاق – مصر ١٩٨٢م.

• السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن محمد" ت ٩١١هـ.

٢٤) الخصائص الكبرى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٥م.

٢٥) لباب النقول في أسباب النزول – دار إحياء التراث – بيروت – بدون تاريخ.

• ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة النميرى البصري" ت ٢٦٤هـ.

٢٦) تاريخ المدينة المنورة – تحقيق/ فهيم محمد شلتوت – دار الأصفهاني للطباعة – جدة ١٩٧٤م.

• الطبراني "سليمان بن أحمد بن أيوب" ت ٣٦٠هـ.

٢٧) المعجم الكبير – تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم – الموصل ط(٢) ١٩٨٣م.

• الطبري "أبو جعفر محمد بن جرير" ت ٣١٠هـ.

٢٨) تاريخ الرسل والملوك – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.

٢٩) جامع البيان في تأويل القرآن – تحقيق/ أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – بيروت ط(١) ٢٠٠٠م.

• ابن عبد البر "أبو عمر يوسف بن عمر القرطبي" ت ٤٦٣هـ.

٣٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب – دار الكتاب العربي – بيروت – بدون تاريخ.

• العصامي "العصامي بن الحسين بن عبد الملك" ت ١٢٦٣هـ.

٣١) سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي – بعناية/ قاسم درويش فخرو – القاهرة ١٣٧٩هـ.

• القرطبي "محمد بن أحمد الأنصاري" ت ٦٧١هـ.

٣٢) أحكام القرآن – تحقيق/ محمد البيلاوى وآخرين – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

• ابن قيم الجوزية "شمس الدين محمد بن أبى بكر" ت ٧٥١هـ.

٣٣) زاد المعاد في هدى خير العباد – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٤م.

• ابن كثير "إسماعيل بن عمر القرشي" ت ٧٧٤هـ.

٣٤) البداية والنهاية – مكتبة المعارف – بيروت – بدون تاريخ.

٣٥) تفسير القرآن العظيم – تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – السعودية ط(٢) ١٩٩٩م.

• الكلاعى "أبو الربيع سليمان بن موسى" ت ٦٣٤هـ.

٣٦) الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء – تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين على – عالم الكتب – بيروت – ط(١) ١٤١٧هـ.

• الكلبي "أبو المنذر هشام بن محمد السائب" ت ٢٠٤هـ.

٣٧) كتاب الأصنام – دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.

• ابن المبارك "عبد الله بن المبارك بن واضح" ت ١٨١هـ.

٣٨) الزهد – تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمى – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.

• مسلم "أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم" ت ٢٦١هـ.

٣٩) الجامع الصحيح – دار الجيل – بيروت – بدون تاريخ.

• ابن منظور "محمد بن مكرم المصري" ت ٧١١هـ.

٤٠) لسان العرب – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى.

• ابن هشام "أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى" ت ٢١٣هـ.

٤١) السيرة النبوية – دار الفجر للتراث – القاهرة – مصر ط(٢) سنة ٢٠٠٤م.

• الهيثمى "نور الدين على بن أبى بكر" ت ٨٠٧هـ.

٤٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – دار الفكر – بيروت ١٩٨٨م.

• الواحدى "أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى" ت ٤٦٨هـ.

٤٣) أسباب النزول – دراسة وتحقيق/ السيد الجميلى – دار الريان للتراث – مصر – بدون تاريخ.

• الواقدى "أبو عبيد الله محمد بن عمر" ت ٢٠٧هـ.

٤٤) مغازى رسول الله – – تحقيق/ مارسدن جونس عالم الكتب – بيروت ط(١) ٢٠٠٦م.

• الوزير المغربي "الحسين بن على بن الحسين" ت ٤١٨هـ.

٤٥) الإيناس بعلم الأنساب – تحقيق المرحوم/ أحمد الجاسر – الرياض – ١٩٨٠م.

• ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومي" ت ٦٢٦هـ.

٤٦) معجم البلدان – دار الفكر – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

ثانياً: المراجــــع:

• أحمد عادل كمال.

١) الطريق إلى المدائن – دار النفائس – بيروت ط(٢) ١٩٧٣م.

• أكرم ضياء العمري.

٢) السيرة النبوية الصحيحة. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية – مكتبة العبيكان – الرياض ط(٥) ٢٠٠٣م.

• جواد على

٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – المجمع العلمي العراقي – سنة ١٩٦١م.

• الزر كلى "خير الدين"

٤) الأعلام – دار العلم للملايين – لبنان ط(٤) ١٩٧٩م.

• لسترنج كي.

٥) بلدان الخلافة الشرقية – ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد – مؤسسة الرسالة – بيروت ط(٢) ١٩٨٥م.

• مجمع اللغة العربية.

٦) المعجم الوجيز – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم مصر سنة ١٩٩٦م/١٩٩٧م.

• محمد فرج
٧) الفتح العربي للعراق وفارس – تقديم/ أحمد حسن الباقوري – دار الفكر العربي – مصري ١٩٦٦م.

• محمود عرفة محمود.
٨) العرب قبل الإسلام – أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم – دار الثقافة مصر ٢٠٠٤م.

• يحيى الخشاب.
٩) موسوعة المدن العربية الإسلامية – دار الفكر العربي – لبنان ط(١) ١٩٩٣م. ؤ

سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة علي البلدان

د. محمد سعد إسماعيل (*)

إن الحاكمية فى الدولة الإسلامية ومجتمعها هى لله تعالى، فهو المختص بوضع التشريعات التى ينبغى على المسلمين الالتزام بأحكامها، وقد تمثلت هذه الشريعة فى القرآن الكريم، ومن ثم فقد اقتصر دور الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده على تنفيذ هذه الأحكام والاجتهاد فى فهمها أو تفسيرها، ولقد كان لتوقف نزول الوحى بعد وفاة الرسول فرصة كبرى منحت الخلفاء وقادة المسلمين حرية واسعة فى الاجتهاد وبشكل خاص فى مجالى السياسة والإدارة العامة.

كان الرسول والخلفاء من بعده قد أخضعوا إدارة الدولة والمجتمع وفق الأهداف والأحكام التى جاء بها القرآن الكريم، وكانت من أهم الأعمال التى ظهرت لتحقيق ذلك إمامة المسلمين فى الصلاة فى المسجد وتنظيم السرايا والغزوات للجهاد، وتعيين العمال أو الولاة على المدن التي تدخل فى إطار الدولة العربية الإسلامية كمكة والطائف وغيرها لإدارة شئونها، أما المدينة فكان يتولى إدارتها الرسول مباشرة والخلفاء من بعده وكذلك الإمارة على موسم الحج فى مكة وإرسال العمال إلى مختلف القبائل والأمصار لأخذ الصدقات والقضاء بين الناس وحسم المنازعات التى تنشأ بينهم من قبل الرسول أو أحد الصحابة.

وبعد اتساع حركة الفتوحات الإسلامية ظهرت هناك حاجة ماسة للاستعانة بالولاة لحكم البلاد المفتوحة، وفى هذه الفترة المبكرة كان يتم اختيارهم من الصحابة ومن قواد الجيش الفاتحين جريا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ودراسة سياسة الخلفاء الراشدين ونظمهم فى اختيار الولاة والنظام الذى سار عليه الولاة فى إدارة أعمالهم والمهام التى كانت التى توكل إليهم لهى جديرة بالاهتمام، وإدارتها من أهم الملامح التى تبرز سلطان الخلفاء الراشدين وترسم شخصيتهم وتستحق البحث، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال واقع ملموس تمثله قائمة الولاة الذين تعاقبوا على ولايات الدولة المختلفة، فكانوا هم الأداة التى وقع عليها عبء تنفيذ هذه السياسة نجاحها أو فشلها فى ولايات الدولة المختلفة.

(*) مدرس بكلية آداب بورسعيد جامعة بورسعيد.

الولايات قبل الاسلام :

يقصد بالولاية الامارة على البلاد فيولي السلطان أو الملك من يقوم مقامة في حكومة الولايات، وهي الاعمال في اصطلاحهم، وكانت الشام لمافتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم ويسمونها ولاية الشرق، وقد قسمت إلي ١١ أقليماً تحت كل اقليم عده بلاد ولكل اقليم قصبه، وكان لكل إقليم حاكم أو عامل سماه الروم بطريقاً و هو لقب جماعة من أشراف المملكه الرومانية، وبعد أنقسام الدولة قل شأن البطريق ولم يعد له عمل في الحكومة ولكن لما امتد شأن الرومان إلي أفريقيا وسائر المشرق أعادت الحكومة التفكير في الاستفادة من هذه الولايات البعيدة فولوا البطريرق حكومة تلك المستعمرات وفي جملتها الشام ومصر.(١)

فكان علي كل اقليم من أقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع، وكان علي كل من هذه الأقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ولهذا الحاكم أن يولي ويعذل من يشاء من حكام الاقاليم كما يتولي أيضاً جباية الخراج والانفاق علي الجند وسائر أعمال الولاية.(٢)

الولايات في الاسلام :

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح، كانوا إذا أرسلوا قائد إلي فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه، أو شرطوا عليه إذا فتحه فهو أمير عليه وكان ذلك شأنهم من أيام النبي، وجاءت كتب الاحاديث لتوضح وجهة نظر النبي في هذا الأمر، في باب تأمير الامام الأمراء علي البعوث ووصيته اياهم : " كان رسول الله إذا أمر أميراً علي جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوي الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال (أغذوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغذوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا...) كما قال أيضاً (إن والله لا نولي علي هذا العمل احدا سأله ولا أحد حرص عليه).(٣)

وقال النبي "صلي الله عليه وسلم" (ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)، كما قال أيضاً في هذا الشأن (اتقوا الله وسودوا أكبركم) جاء رجل للنبي فقال : أنت سيد قريش، فقال النبي: السيد الله تبارك وتعالي، قلنا وأفضلنا وأعظمنا طولاً فقال.. قولوا لقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان) سؤل رسول الله من السيد ؟ فقال يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قالوا : فما امتك من سيد قال : بلي من اتاه الله مالاً ورزقه سماحة فأدي شكره وقلت شكايته في الناس.(٤)

ولما تولي أبو بكر الخلافة وبعث البعوث لفتح الشام، كان إذا عقد لأحدهم لواء علي بلد أو إقليم ولاه قبل ذهابه بفتحه، فعقد لواء لعمرو بن العاص وأمره ان يسلك طريق ايله عامدا فلسطين، وعقد لواء آخر ليزيد بن سفيان وأمره أن يسلك طريق تبوك إلي دمشق، وولي كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم : " إذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله، ولما تولي عمرو بن الخطاب الخلافة ولي ابا عبيده بن الجراح أمر الشام كله وأمرة الأمراء في الحرب والسلم فتشابه في عمله هذا

علي ما كانت عليه الشام قبل فتحها، وهي أن يكون علي كل إقليم عامل، وعلــي عمــال الاقاليم وال عام، وهكذا كان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند اللذين افتتحوا تلك الاعمال وتركز عملهم في مراقبة سير الأحكام في البلاد التي فتحوها وأقامة الصلاه وجمع الخراج(٥)

<u>النظام المركزى فى إدارة الدولة الإسلامية:</u>

كانت السلطة المركزية تتكون من الرسول الكريم الذي جمع بين صفتي الرسول والحاكم، وكان اصحابة أشبه بحكومته يشاورهم في الأمور العامة والخاصة وحل مشاكل المسلمين وعلي رأسهم أبو بكر وعمر ومن باقي أفراد حكومته من العمال الــذين كــان يختارهم من الأكفاء القادرين علي القيام بالعمل علي خير وجه(٦)

كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية قد خــضعت إدارتهــا وإدارة المنــاطق المجاورة لها لسلطة النبى، أما بلاد العرب فقد قسمت إلى مقاطعات هى المدينة وتيمــاء والجند، ومقاطعة بنى كنده، ومكة ونجران اليمن وحضرموت، وعمان والبحرين، وعين على كلا منهما والياً عهد إليه بإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام فضلاً عــن حفــظ النظــام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء ومن أمثلة هؤلاء عتاب بن أسيد على مكة وعثمــان بن أبى العاص على الطائف وعمرو بن حزم الانصاري نجران، وزياد بن لبيد من بنــي بياضة من الأنصار حضر موت، وخالد بن سعيد بن العاص بن اميه صنعاء والمهــاجر بن أميه المخزومي كنده والصدف، ومعاذ بن جبل الانصاري الجنــد والقــضاء وتعلــيم الاسلام وشرائعة وقراءة القرآن وقبض الصدقة من عمال اليمن.(٧)

والى جانب هؤلاء الولاة اختار النبى عمالاً علــي كــل قبيلــة لجمــع الزكــاة (الصدقات) وقد تميز هؤلاء بالنزاهة والخلق الكريم فضلاً عن خبرتهم فى ذلك لان النبى دربهم على القواعد الخاصة بجباية الزكاة، ومن أمثلة هؤلاء عبد الرحمن بــن عــوف على صدقات كلب، وعدى بن حاتم على الحليفين طيء وأسد' وعباد بن بشر الانصاري صدقات بني المصطلق من خذاعه والأقرع بن حابس التميمي صدقات بنــي دارم بــن مالك بن حنظلة.(٨)

وقد حدث تطور إدارى بعد الفتوحات واتساع رقعة الدولة ومبايعة القبائل للنبى على الطاعة والولاء، حيث أسند النبى إدارة المناطق الخاضعة لبعض القبائل لرؤســاء القبائل بها كما استخلف نواباً عنه فى المدينة حينما كان يخرج عنها كما عــين عمــالاً على المناطق الأخرى من الأمراء والملوك على أعمالهم سواء من أسلم منهم أو من قبل دفع الجزية، وقد نجح هؤلاء العمال فى إنشاء نظام عامة للمراقبة وجبايــة الــضرائب وذلك لحماية الدولة الناشئة من أى خطر يهدد بانفصال هؤلاء عنها(٩).

حرص النبى على الرقابة الإدارية على عماله أو ولاته بصورتيها سواء كانــت على أشخاصهم أو على أعمالهم ٭ فمن صور مراقبته على الــولاة حيــث كــان يمتلــك سلطات تعينهم وتوقيع السلطات التأديبية عليهم، فقد ولى عثمان بن أبى العــاص علــى

الطائف، كما قام بعزل العلاء الحضرمى أميره على البحرين لأن وفد عبد قيس شكاه وتبين صحة ما نسب إليه(١٠).

كما مارس النبى الرقابة على أعمال هؤلاء الولاة أو العمال ومن وسائله في ذلك: توجيه النصيحة والإرشاد والتوجيه وإصدار التعليمات سواء في صورة دوريات أو إرسال مفتش لإعداد تقارير عن ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن "وعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم" كما سبقت الإشارة إلى قيام النبى بالتفتيش على الولاة والتحقيق في الشكاوى المقدمة ضدهم مثلما فعل وعزل العلاء الحضرمى أميره على البحرين(١١).

ومن الملاحظ أن النبي أعلا من شأن بني أميه بعد أن اخلصوا في إسلامهم وفي زودهم عن العقيدة والدولة فولاهم الولايات فعين عتاب بن أسيد بن أميه علي مكه وخالد بن سعيد بن أميه علي صنعاء وصدقات اليمن وابان بن سعيد بن العاص علي البحرين وعمر بن سعيد بن العاص علي تيماء وخيبر تبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب علي نجران، وهكذا عمل النبي علي القضاء علي عوامل النزاع والتنافس بين بني هاشم وبني أميه، فإذا كانت النبوه ورئاسة الدولة في يد بني هاشم أيام الرسول، فقد ولى الرسول بني أميه الولايات وأعلا من شأنهم واختارهم لأنهم كانوا أهل جزاء وغناء وكفاية ودراية بالحكم والادارة والسياسة(١٢).

وكان الرسول لا يستعمل الرجل إلا لمصلحة راجحة وخبرة ودراية معينة لا توجد في غيره ومثال ذلك : تأميره لعمرو بن العاص في عمان لأنه كان يعرف ان عمرو أعلم من غيرة ممن كان معه من كبار الصحابة، كما ولي عتاب بن اسيد علي مكه بعد فتحها وكان سنه لا يتجاوز الثالثة والعشرين ، كما ولي معاذ بن جبل منصب القضاء في اليمن وعمره دون العشرين(١٣)

وكان الرسول قد ربي هؤلاء الرجال من الأمراء أو العمال علي أساس ان يحكموا بين الناس حسب الكتاب والسنة وألا يشقوا علي الرعيه وان يشاورا الناس خاصهم وعامهم فيما يعرض عليهم من أمور ليس فيها نص صريح من كتاب أو سنة، وأن يقبلوا رأي الأغلبية وكان الرسول مثلهم في ذلك يعلمهم ويضرب لهم الأمثلة كما رباهم، علي ان يحكموا الناس بالعدل (فالظلم ظلمات يوم القيامة) كما علمهم ألا يمدوا أيديهم لأموال الرعية فحرم الرشوة وجعل (هدايا العمال غلول)(١٤)

وهكذا قامت الدولة الجديدة علي أساس مبادئ الإسلام في كل شيء، في إدارتها وسياستها وحربها وسلمها وصلاتها بالأفراد والجماعات، واتخذ المسلمون حاكمين ومحكومين من القرآن وسنة الرسول دستورا لهم ينظم شئونهم، ويهيمن علي شئون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع، وهكذا جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين التشريع والتنفيذ والقضاء.

<u>مركزية الحكم في الدولة الإسلامية زمن الراشدين</u>

لم يخرج الخليفة أبو بكر في مدة خلافته القصيرة التي تولي خلالها أمور المسلمين عن الخطه التي رسمها رسول الله، فكان نهجه علي غرار النهج النبي في طراز حكومته وأسلوب إدارته، فكان هوالخليفة (الرئيس الاعلي للدوله) المسيطر علي جميع الأنظمة السياسية والادارية والمالية والحربية والقضائية في الدولة،

أقر الخليفة أبو بكر عمال الرسول ولكن قام بتعديل أماكن هؤلاء فولي زياد بن لبيد كنده والصدف إلي حضر موت وولي المهاجر بن أبي أميه صنعاء مكان خالد بن سعيد فولي عتاب بن أسيد مكه والطائف ثم ولي عثمان بن أبي العاص الطائف ثم أقر عتاب بن أسيد علي مكه فقط(١٥).

فاستمر أبو موسى الأشعرى واليا على زبيد ورفع، كما عينه الخليفة عمر بعد ذلك على الكوفة والبصرة وفتحت على يده عدة أمصار(١٦).

وولى الخليفة أبو بكر العلاء الحضرمى أميراً على البحرين وكان له أثر عظيم فى قتال أهل الردة(١٧).

وجعل أبو بكر يعلى بن منيه التميمى على اليمن فى عام ١٣ هـ /٦٣٤ م كما عمل واليا لعمر بن الخطاب فى اليمن والطائف وصنعاء(١٨).

وجعل أبو بكر الصديق عمرو بن العاص احد قادة الفتح أميراً فى بلاد الشام ثم عينه عمر بن الخطاب على فلسطين وسيرة فى جيش إلى مصر لفتحها وعين أميرا عليها بهد ذلك وأستمر فيها لعدة سنوات من خلافة عثمان بن عفان، وانحاذ عمرو بن العاص بعد ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان فى صراعه مع الإمام على بن أبى طالب(١٩).

سار أبو بكر على سياسة الرسول فقام بتولية بعض بنى أمية الولايات(٢٠) كما ولى بعضهم قيادة الجيوش ثم أقرهم بعد ذلك أمراءً وحكاماً على البلاد التى فتحوها ومن أمثلة هؤلاء خالد بن سعيد بن العاصى ولاة على مخاليف اليمن، واستمر عثمان بن العاص والياً على الطائف منذ أن عينه النبى وكذلك فى عهد أبى بكر، كما احتفظ بعتاب بن أسيد وأبقاه أميراً على مكة وعلى موسم الحج، وعين يزيد بن أبى سفيان قائداً لأحد الجيوش التى أنفذها لفتح بلاد الشام فى بداية عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م، وأرسل أبا سفيان بن حرب فى جيش اليرموك يسير بين المقاتلين يحمسهم على القتال ويذكرهم بأخبار الوقائع والفروسية والأمم وشجاعتها وانتصاراتها(٢١).

ولما أخذت حركة الفتح فى التوسع لجأ أبو بكر رضى الله عنه إلى تعيين ولاة جدد أمثال المثنى بن حارثة على الكوفة، وعياض بن غنم الفهرى إلى دومة الجندل كما عين سليط بن قيس والياً على اليمامة وسويد بن قطبة على البصرة، وحذيفة بن اليمان فى عمان والبحرين(٢٢).

وهكذا كان عمال أبي بكر هم قادة جيوشة وقد جمعوا بين ولاية الجهاد وولاية الخراج والجزية والقضاء علي اقاليمهم بل تولوا تعيين عمالاً من قبلهم في الأرض التي يفتحونها وأصبح هؤلاء لا يشغلهم مراجعة الخليفة في كل الأمور وتمتعوا بنوع من الاستقلال الذاتي ويبدو من النظرة الأولى للباحث أن سياسة الخليفة أبى بكر الصديق

فى اختيار الولاة كانت امتداداً لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فالكفاية والصحبة كانت من أبرز الخصال فيمن اختارهم، كما جعل أهل الحنكة والدراية والسن من أهل قريش على العراق والشام وهو بذلك أراد أن يظهر للناس بولايتهم إمرة البيت القرشى على البيوت فى مكة والمدينة ولاسيما وقد استقرت الخلافة فى قريش، وأراد أن يضبط بالولاة من قريش أمور العراق والشام ويأمن ثورتهم لاستمرار ملكهم، ومن جهة أخرى أراد أبو بكر أن يضبط بالولاة من بنى أمية أمور الحجاز بغرض السيطرة عليه وضبط أموره لما لهم من خبرة سابقة ودراية بالحكم والإدارة والسياسة حيث سبق أن استعان بهم الرسول بعد أن أخلصوا فى إسلامهم وفى دورهم عن العقيدة والدولة(٢٣).

لم يحدث الخليفة أبو بكر تغييرات جوهرية واضحة بالنسبة لنمط الرقابة الإدارية فإدارته الحكومية على نهج الرسول فلم تكن بحاجة إلى نظام غير النظام الذى أنشأه الرسول من قبل فكان أبو بكر هو الرقيب الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تتبعها كى يعرف مدى تنفيذ أحكام الشريعة فى العدل والمساواة والإخاء بين المسلمين، وكان الخليفة يحرص على إنصاف المظلوم ورد الحق إلى أصحابه وذلك من خلال سؤاله لرعيته : هل من أحد يشتكى ظلامه(٢٤).

وتعد الإدارة فى عهد عمر بن الخطاب استمراراً لما وضعه الرسول وخليفته أبو بكر من أسس وتنظيمات فى هذا المجال إلا أنه نظراً للمستجدات العسكرية التى حدثت فى هذا العهد فى ميدان حروب التحرير والفتوحات وما ترتب عليها من توسعات كثيرة فى مساحة الدولة مما دعى الخليفة عمر بن الخطاب إلى تطوير هذا النظام والقيام ببعض التعديلات التى تمكن الدولة من تلبية احتياجاتها الجديدة(٢٥).

وقد اتبع الخليفة عمر بن الخطاب أسلوب المركزية فى الحكم والتنظيم الاداري وذلك بأن حصر الوظيفة الإدارية فى يده وفى العاصمة، وفى يد ممثلى الحكومة المركزية فى الأقاليم، وهكذا جمع الخليفة فى يده السلطة التنفيذية فكان هو رئيس الحكومة فى الدولة الإسلامية، كما مارس سلطاته الرئاسية على عماله وولاته من حيث تعيينهم أو نقلهم، كما كان يصدر لهم التوجيهات والأوامر الإدارية(٢٦).

وكان الوالى أو العامل يحرص على أن يكون قيامه بمهام عمله فى إطار خضوعه لمركز الخلافة محرزاً بذلك شكلاً مثالياً للحكم المركزى الذى شاع آنذاك، وتأتى الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عاملة على مصر فى شأن مصالحة أهل مصر مقابل أدائهم للجزية دليلاً وشاهداً على ذلك(٢٧).

وتأتى إشارات المصادر تؤكد حرص الخليفة عمر بن الخطاب على تحقيق هذا الشكل المثالى فى الحكم فلا يترك عماله وشأنهم، بل كان يسعى إلى مراقبة أحوال الولايات عن كثب وذكر عنه قوله (لئن عشت إن شاء الله لأسير فى الرعية حولاً فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى إما أعمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم اسير إلي الكوفه فأقيم بها شهرين... والله لنعم الحول هذا)(٢٨).

كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني استعملكم علي امة محمد علي أشعارهم ولا علي أبشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل .. وكان يقتص من عماله إذا شكي إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه (٢٩).

وكان عمر بن الخطاب يستدعي ولاته من آن لآخر، لمعرفة ما يدور في الولاية فكان قدوم عمرو إلى عمر، ليتعرف على ما طرأ على حياته من تغيير حتى إنه كان يحتم على عماله أن يدخلوا المدينة نهاراً(٣٠).

فأبقى الخليفة عمر بن الخطاب بعض الولاة في أماكنهم مثل عتاب بن الأسيد في مكة كما غير أماكن البعض منهم كيعلى بن منية على الطائف وعثمان بن العاص على اليمامة والبحرين وحذيفة بن محصن على عمان وكان لهؤلاء خبرة ودراية في بعض الإدارة والحكم اكتسبوها منذ فترة سابقة(٣١).

واحتفظ بيزيد بن أبى سفيان وعينه أميراً على دمشق بعد فتحها كما ولى أخاه معاوية على الأردن ولما مات يزيد في طاعون عمواس عام ١٨ هـ - ٦٣٩ م اسند لمعاوية ما كان لأخيه فاجتمع لمعاوية حكم بلاد الشام كلها وفي نفس الوقت لم يعهد عمر بن الخطاب لأحد من بني هاشم بإمارة الجند أو إمارة البلدان سواء في بلاد العرب أو في البلاد المفتوحة وأبقاهم بجواره في المدينة لمشاورتهم في أمور المسلمين أو لخوفه من افتتان الناس بهم إذا سمح لهم بالهجرة إلى الأمصار الإسلامية الجديدة(٣٢).

وكان عمر بن الخطاب يختار ولاته من العرب بناء لمقدرتهم في فهم أصول الشريعة الإسلامية وفهمهم لأصول الدين وليس تعظيماً لعرقهم أو جنسهم لأن عليهم أن يقيموا للناس الصلاة ويقضوا بينهم بالحق ويقسموا الغنائم والفيء والعشور(٣٣).

لقد تولى الخليفة عثمان بن عفان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب وألزم الخليفة نفسه بإتباع كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر وقد اتبع أسلوب المركزية في تنظيم وإدارة شئون الدولة، ففي البداية كان الخليفة على رأس الجهاز الإداري ويباشر سلطاته الإدارية تجاه ولاته وعماله وذلك بالإبقاء عليهم في أعمالهم لمدة عام كما أشار عليه الخليفة عمر بن الخطاب بذلك لأنه كان يشفق أن يتعجل الإمام من بعده في عزلهم وتولية غيرهم مما يؤدى إلى تعطيل ما بدأه هؤلاء في أعمالهم، فيضطرب أمر المسلمين والأمصار والثغور، وقد عمل عثمان رضى الله عنه بهذه الوصية وألزم هؤلاء بسياسة ما اتبع سلفه في اختياره لعماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبت كفايتهم(٣٤).

ولم تمض سنة كاملة على خلافة عثمان حتى أسرع وعزل ولاة عمر بن الخطاب وعين رجالاً من قريش على الأقاليم بدلاً منهم لأنه كان يريد التقرب من قريش على عكس ما كان يتبعه عمر من إبعاده لأهل البيت وذوى العصبية من قريش من إدارة الأقاليم والتحكم في الناس وحتى الرسول نفسه كان يرى مثل عمر في ذلك، ولكن

عثمان رضى الله عنه فضل قريش دون العرب وآثر أقاربه بل وآثر فريقاً منهم على البقية[٣٥].

ولكن عثمان بن عفان سار على نفس المنهج العمرى فقام بعزل عمرو بن العاص رغم مكانته وفضله وبولى بدلاً منه عبد الله بن سعد وقام بمراقبة هذا الوالى كما كان يستدعيه للمدينة فى موسم الحج، ويحاسبه نفس الحساب الذى كان يقوم به عمر من قبل وذلك حتى يتسنى له القيام بعمله فى إطار خضوعه لمركز الخلافة[٣٦].

عمل الخليفة على بن أبى طالب على قيادة الدولة وفق المبادئ التى فهمها من رسالة الإسلام والتى جاهد من أجلها وكان بحاجة إلى قدر كبير من الاجتهاد لكى يتمكن من إدارة الدولة بصورة حسنة، لكنه تولى وسط ظروف صعبة لم تساعده على تحقيق أهدافه، كما فقد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار امتيازهم فى إدارة شئون الدولة واختيار الخليفة بحكم تميزهم بصحبة الرسول والجهاد فى سبيل الله فأتى أهل الأمصار وبقوة لمشاركتهم فى هذا الأمر، وحرص الخليفة على إتباع أسلوب المركزية فى تنظيم وإدارة الدولة، وباشر سلطاته الإدارية من خلال عزله وتعيينه لعمال وولاة جدد [٣٧].

حرص الخليفة على بن أبى طالب فى إتباع سياسة جديدة فى اختياره لولاته وعماله على الأمصار فقام أولا بعزل ولاة عثمان وعين بدلاً منهم آخرين يتمتعون بثقته الكاملة ويدركون أبعاد سياسته فى إدارة شئون الدولة رغم نصيحة بعض أنصاره والمقربين له أمثال المغيرة بن شعبة وابن عباس بإبقائهم على ولايتهم حتى تستقر الأمور وتؤخذ له البيعة فى الأمصار، ولكنه رفض أن يداهن فى دينه حسب قوله وعزلهم[٣٨].

وفى سنة ٣٦ هـ أرسل الخليفة ولاته إلى الأمصار فبعث عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن عبادة على مصر، وسهل بن حنيف على الشام، ويلاحظ على ولاة على بن أبى طالب أن ثلاثة منهم كانوا من الأنصار وأن الاثنين الآخرين كانا من قريش مما يدل على حرص الخليفة على تقريب الأنصار والاعتماد عليهم فى إدارة الدولة ولم يول أحداً من الخارجين على الخليفة عثمان[٣٩].

ونظرا لتطور الأحداث والصراع المستمر فى البلاد بين الخليفة على ومعاوية فدعا ذلك علياً إلى الاعتماد على بعض أقاربه فى تولى أمر الولايات فعين قثم بن العباس والياً على المدينة ثم عاد وعينه على مكة والطائف فى أعوام خمس وثلاثين ثم سبع وثلاثين حتى سنة أربعين من الهجرة[٤٠].

كما عين بعض الولاة استجابة لرأى أقاربه فقد أشار عليه ابن عباس بتولية زياد بن أبيه بلاد فارس فوافقه على ذلك، كما استعان ببعض مشاهير الصحابة وأبنائهم فى تولى بعض الولايات، فولى مالك بن الحرث بن الاشتر ولاية مصر ثم وليها بعد ذلك محمد بن أبى بكر الصديق[٤١].

ومما يلفت النظر في اختيارات الإمام علي في الولاة والعمال والتي جرت على وجه السرعة كانت على مبدأ القرابة والكفاءة والمعرفة والدراية بأمور الحكم والسياسة فضلاً عن مشاهير الصحابة والشرف والشجاعة ولم تختلف كثيراً عمن سبقه من الخلفاء.

ويبدو مما سبق أن السياسة الإدارية في عهد الراشدين تميزت بالمركزية الشديدة فكان الخليفة في المدينة المنورة بيده الأمر كله سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية فهو الذى يسير الجيوش وينظم أمور الولايات ويحل مشاكل التشريع.

وتنفيذ هذه المركزية تتطلب أن يكون للدولة منهج خاص في تعيين الولاة أو عزلهم ورقابتهم حيث لم يكن هؤلاء حكاماً عاديين بقدر ما كانوا دعاة إلى الإسلام وعنوانا للمثل العليا والدولة الجديدة، وكان يتم اختيار هؤلاء في البداية من الصحابة أصحاب الجهاد الأكبر والمكانة السامية في الحياة الإسلامية، ولم تكن للقرابة اعتبار، بقدر ما كان الاعتبار الأول هو للمصلحة العامة للمسلمين فقط، وكان اختيار الوالي إذا ما تم وفق ذلك كان لابد أن تراقبه الدولة وتلزمه بتنفيذ هذه السياسة وإذا ما ثبت مخالفتهم في أى شيء كانوا يعزلون على الفور ولأتفه الأسباب.

أختيار الولاه في ضوء تطور الأماره علي البلدان في زمن الراشدين

١- <u>في عهد أبي بكر الصديق</u>

ومن الأمور التى استحدثت على النظام الإدارى للدولة العربية الإسلامية في عهد أبي بكر تمتع نوابه وأمراء الجند في أقاليم الدولة لسلطات واسعة منها تعيين نواب لهم، وعقد معاهدات مع أهالي الإقليم أى ما يطلق عليه الاستقلال الإدارى وظهر ذلك واضحاً في العراق والشام نظراً لبعدهم عن قاعدة الخلافة، فقد كان أكثر الولاة أحراراً في تصريف شئون ولاياتهم الإدارية بما يرونه ويخطرون الخليفة بما يطرأ إليهم من عظائم الأمور، فلم يكن الأمر قد استقر في تلك النواحي استقراراً نهائيا، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما فعله خالد بن الوليد في العراق حيث صالح أهل الحيرة واشترط عليهم شروطاً، كما عقد المعاهدات مع أهل عين التمر وأهل اليس بل وصل الأمر به أن كتب إلى رؤساء أهل فارس يدعوهم إلى الدخول في الإسلام (٤٢).

كما باشر الخليفة أبو بكر توقيع السلطات التأديبية بالقدر المناسب لدرجة المخالفة فقد أنب خالد بن الوليد لزواجه من ابنة مجاعة بن مرارة بأرض اليمن، نظراً لما ترتب عليه من انشغاله عن أمور المسلمين بتلك البلاد، كما وصلت صلة التأديب إلى حد العزل، كما فعل أبو بكر حين عزل خالد بن سعيد عن صنعاء وصدقات اليمن وعين مكانه شرحبيل بن حسنه لأنه أصلح للأمر وأقوى منه عليه، وعزل عامله على كندة زياد بن لبيد نظرا لسوء تصرفه فأدى ذلك إلى هياج الأهالي ورجوع بعضهم عن الإسلام ومنعهم الزكاة، فأرسل بكتاب إلى الأشعث ابن قيس ومن معه من قبائل كنده أعلن فيه عزل هذا العامل وأن يولي عليهم من يحبون(٤٣).

٢- <u>في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه</u>

لما وتولي عمر بن الخطاب الخلافة سار على نهج النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فى الحكم والإدارة ومن ثم فهو يتحمل مسئولية حكم وإدارة من يعيشون فى حضرته بصورة مباشرة، أما الذين يعيشون بعيداً عنه فى المدن والأمصار فإنه مسئول عن تعيين ولاة قادرين على إدارة شئونهم بنفس الطريقة من أهل القوة والأمانة(٤٤).

قسم عمر بن الخطاب الدولة العربية من الناحية الإدارية إلى ثماني ولايات وهى مكة والمدينة والشام والجزيرة (وهى بلاد ما بين النهرين) البصرة والكوفة ومصر وفلسطين، وأبقى على الأقسام الإدارية التى كانت قائمة فى عهد الدولة الفارسية وهى:فارس وكرمان، وخراسان ومكران وسجستان، وأزربيجان، وكانت الدولة الفارسية بأسرها جزءاً من الإمبراطورية الساسانية القديمة(٤٥).

كما أتخذ العديد من الأعمال والتغييرات الإدارية التى كان لها أكبر أثر فى تطور الأوضاع الإدارية في الدولة من بعده ومن أهم تلك الأعمال والتى تقع ضمن مفهوم الإدارة بمفهومها الواسع، تمصير الأمصار، ووضع التقويم الهجري، وتنظيم القضاء.

وقد طرأت عدة تغيرات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على من سبقوه فى اختيار الولاة أو العمال خاصة فى ولايتى البصرة والكوفة وطريقة محاسبتهم نظرا لاضطراب أمورهما وكثرة القلاقل فضلا عن كثرة شكاوى الأهالى بهما، وانطلاقا من حرص الخليفة على استقرار الأمور بالبلاد فكان يختار لهما رجالا من صحابة رسول الله والمشاهير فضلاً عن كفاءتهم فى أمور الحكم والإدارة،ففى سنة ١٥م /٦٣٦م عين المغيرة بن شعبة والياً على البصرة ثم عاد وعزله بعد شكوى الأهالى منه، ولما استدعاه وحضر معه الشهود وواجههم فلم تثبت عليهم التهم فعاقب الشهود، ثم عاد وولاة الكوفة في سنة ٢٢هـ /٦٤٣م كما عاد إليها بعض الوقت فى خلافة على بن أبى طالب، ووقف هذا الوالى على الحياد فى الأحداث التى جرت بعد ذلك بين على وخصومه(٤٦).

ومن ولاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الكوفة سعد بن أبى وقاص على الكوفة فى عامى ١٤،١٥هـ /٦٣٦،٦٣٧م، فاختط الكوفة ثم حدث وأن شكاه الناس فجمع الخليفة بينه وبينهم فثبتت براءته ومن ولاة الكوفة أيضاً عمار بن ياسر فى أعوام ١٨،٢١،٢٢ هـ/٦٣٩،٦٤١،٦٤٣م ثم حدث وأن اشتكى أهلها وذكروا للخليفة بأنه لا يصلح للإمارة فأمره بالقدوم إليه مع وفد من الكوفة فلما سأله لم يحسن الإجابة فى بعض ما وجه إليه فعزله ثم أراد أن يسترضيه بعد ذلك فرفض أن يعود للعمل كأمير للولاية(٤٧).

ومن ولاة الخليفة عمر بن الخطاب فى ولايتى الكوفة والبصرة أبو موسى الأشعرى فى أعوام ١٧،١٨،٢٢هـ/٦٣٨،٦٣٩،٦٤١م ويذكر أن هذا الوالى استأذن الخليفة وأخذ معه تسعة وعشرين رجلا من المهاجرين والأنصار وكان منهم أنس بن مالك، وقد

فتحت على يده عدة أمصار، كما عمل واليا لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه ووقف على الحياد فى الخلاف الذى نشأ بين الخليفة على ومعاوية وأخيراً كان الحكم لعلى بن أبى طالب فى واقعة التحكيم(٤٨).

ويبدو من خلال ما سبق أن هناك عدة تغيرات ظهرت على الإدارة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان من أهمها :

١- كان إمام الخليفة مهمة كبيرة عليه انجازها وهى مواصلة سياسة التحرير والفتح فى جبهات العراق والشام ومن ثم فقد شغل قادة الجيوش بمهامهم الأساسية فى التحرير والإدارة فى تلك البلاد مما أدى إلى صعوبة الفصل فى هذه المرحلة بين أعمال كل من قائد الجيش أو العامل أو الوالى فكثيراً ما كان القائد الأعلى للجيش فى المنطقة منوطاً بمسئولية الإدارة كما هو الحال بالنسبة لعمرو بن العاص فى مصر وأبو عبيدة بن الجراح فى الشام.

٢- استعان ولاة الأقاليم بالأنظمة الإدارية السابقة فى إدارة أمور البلاد نظراً لانشغالهم بأمور الحرب والجهاد ولكن فى ضوء ما يتفق مع روح الشريعة الإسلامية سواء فى بلاد العراق وفارس أو مصر وبلاد الشام.

٣- شهدت الدولة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب توسعاً كبيرا أو تغيرات واسعة مما دعاه إلى إجراء تغييرات دائمة فى أوضاعها الإدارية مما أدى إلى كثرة تغيير الولاة مع عدم استقرار تلك الولايات عند حد معين(٤٩).

٤- عندما أستقر النظام الإدارى فى البلاد حصر الخليفة سلطة عماله فأصبح إلى جانب العامل،القاضى وصاحب الخراج، وأعتبر العمال أقل سلطة من الولاة فلم تكن لهم أية صفة سياسية وانحصرت طبيعة عملهم فى الشئون الموضوعية.

٥- ويلاحظ على الولاة والعمال الذين استعان بهم الخليفة فى أقاليم الدولة لم يكن كلهم من قريش ولم يوجد فيهم أحد من بنى عدى رهط عمر، ولم يقتصر فى التولية على حى من العرب وإنما كان الأساس فى الاختيار عنده حسن إسلامه وكفايته فى العمل فضلاً عن ضميره الدينى اليقظ الذى امتلأت به صدور الرجال من صحابة الرسول ومثل هؤلاء أداة الحكم فى عهدى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فكان منهم الخليفة والقواد والولاة والعمال.

٦- كان عمر بن الخطاب عندما يعين والياً فأنه كان يعطيه عهد تعيين يحتوى على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول له من سلطات، ويحمل هذا الأمر خاتم الخليفة ويشهد عليه جماعة من المهاجرين والأنصار ويقرأ على الملأ حتى يعرف كل فرد حقيقة سلطات الولاة والعمال(٥٠).

وراقب الخليفة عمر بن الخطاب الولاة مراقبة مالية دقيقة بحيث كان على كل منهم أن يقدم عند تعيينه قائمة بكل ما يملك ثم يراقب أية زيادة تطرأ عليه ثم يتخذ إجراء ضده، وكان يحرم عليهم العمل بالتجارة مع عملهم الأصلى ومن أمثلة ما فعله فى هذا الصدد : ومصادرته لمال عتبه بن أبى سفيان والى كنانة عندما زاد ماله من خلال

التجارة، وكذلك الثروة الطائلة لكل من أبى هريرة وعمرو بن العاص والياه على البحرين ومصر(٥١).

٧- سن الخليفة سنة جديدة فى تعيين الولاة وهى أن يعين بعضهم بموافقة ورضاء أهل الإقليم، كما حدث وسمح لأهالى البصرة والكوفة اختيار جباة الضرائب بهما، كما أن بقاء الوالى كان مرهونا برضاء أهل الإقليم مثلما حدث وشكا أهل الكوفة من سعد بن أبى وقاص ثم من عمار بن ياسر فقام بعزلهم ثم اقر عليهم أبا موسى لما أرادوا ذلك(٥٢).

٨- اتبع عمر بن الخطاب عدة أساليب للرقابة الإدارية للولاة لم يكن معروفه من قبل منها السؤال والتحرى عن ولاته وذلك بسؤال أهل البلد عن حالهم معه وكذلك إرسال مفتشين عليهم ثم يرفعوا إليه تقرير بنتيجة هذا التفتيش كما كان أسلوب الرقابة يتم بإجراء التفتيش بمعرفة الخليفة بنفسه(٥٣).

٣- فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

بادر الخليفة عثمان بن عفان فور توليه الخلافة بكتابة رسائل إلى عماله وولاته وإلى عامة الناس حدد فيها المبادئ التى سيمضى عليها فى إدارة الدولة ومما جاء فيها :

أ- بأن يكون هؤلاء رعاة لمصالح الأمة وحذرهم أن يكونوا جباة وإلا سينقطع عنهم الحياء والوفاء والأمانة.

ب- أشار عليهم بأن يسيروا بالعدل فى كافة الأمور سواء للمسلمين أو غيرهم مع إعطائهم كافة الحقوق وإلزامهم بما عليهم من واجبات.

ج- أكد الخليفة عثمان تمسكه بسياسة سلفه عمر بن الخطاب وبخاصة فى مجال حروب التحرير كما حذرهم من أى تغيير أو تعديل على ما وضعه لهم عمر بن الخطاب فى ذلك، ووجه كتاباً إلى عامة الناس دعاهم فيه إلى اليقظة والحذر من المتغيرات التى بدأت تواجه مجتمعهم والتى قد تهدد وحدتهم بالخطر(٥٤).

وبدأ الخليفة عثمان بن عفان فى تنفيذ سياسته الجديدة وقد تحقق فى عهده ضم إقليم أرمينيه فى الشمال وبلاد الهضبة الإيرانية وخراسان فى المشرق، وطرابلس وتونس فى المغرب، كم تابع حركات التمرد والثورات فى خراسان والإسكندرية فنجده يجند الأجناد ويبعث الجيوش فاستطاع القضاء على التمرد والثورات وإعادة البلاد إلى الطاعة وذلك بفضل مساعدة الولاة وقادة الجيوش فى هذه المناطق(٥٥).

وسار الخليفة عثمان بن عفان على طريق الخليفة عمر فى سياسة اختيار الولاة ومراقبتهم مراقبة دقيقة، ففى الكوفة أقر عليها المغيرة بن شعبة ثم عزله وولى عليها سعد بن أبى وقاص حيث أوصاه عمر رضى الله عنه بأن يستعين به من بعده، حيث أنه لم يعزله عن سوء ولا عن خيانة، ولكن سرعان ما عزله الخليفة لخلاف ثار بينه وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال لأنه عجز عن سداد قرض أخذه منه، وولى الوليد بن عقبة فاستمر فى عمله لمدة خمس سنوات وكان محبوباً من الناس ثم

سرعان ما عزله، عندما بلغه أشياء ذكرها عليه بعض أهل الكوفة فأشاعوا أنه يشرب الخمر وصلى بالمسلمين أربع ركعات وهو سكران، وولى بعده سعيد بن العاص[٥٦].

أما البصرة فقد أقر عليها أبا موسى الأشعرى ثم عزله عنها عام ٢٧ هـ - ٦٤٨ م وذلك لكثرة خروجه عن البلاد غازيا واستخلافه عليها برجال آخرين أمثال : عمران بن حصين، وأحياناً زياداً وأخيراً غيلان بن خريشه فلم يرض الخليفة عن ذلك وعزله وعين عليها عبد الله بن عامر، وجمع له جند أبا موسى وجند عثمان بن العاص الثقفى من عمان والبحرين افتتح بهم بلاد فارس ثم بلاد خراسان فى سنة ٣٠هـ - ٦٥١ م[٥٧].

وأقر على بلاد الشام معاوية بن أبى سفيان وكانت سلطته تقتصر على عهد عمر بن الخطاب على ولايتى الأردن وفلسطين فأقره عليهما ثم ضم إليه حمص وقنسرين وجمع له قيادة الأجناد الأربعة بل وأطلق يده على تلك الجهات وذلك أصبح معاوية واليا على بلاد الشام كلها[٥٨].

أما مصر فأقر عليها عمرو بن العاص حتى سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ثم عزله نتيجة لمؤامرة دبرها عبد الله بن سبأ لأنه كان يخشى من قوة عمرو ودهائه ويرى إنه لن تنجح مخططاته مادام عمرو على مصر فاتفق مع بعض رؤساء العرب أمثال كنانة بن بشر و سودان بن حمران، على عدم زراعة الأرض كلها فتقل الجباية وينكسر الخراج فيؤدى ذلك لقلة دخل البلاد فيتشكك الخليفة فى عمرو بن العاص فتتهيأ الفرصة للدس لعمرو عنده مما يؤدى إلى عزله فيتولى شخص آخر ضعيف لا يقف ضد أهدافهم فنجحت المؤامرة وقل الخراج فعين الخليفة عبد الله بن سعد على الخراج وجعل عمرو على الصلاة والحرب ثم استمرت المؤامرة للتخلص من عمر ونهائياً فأوقعوا بينه وبين عبد الله بن سعد فتشاجرا وتشاحنا فاعفى عثمان رضى الله عليه عمرو من عمله وجمع لعبد الله جميع أمور مصر صلاتها وخراجها وحربها[٥٩].

ويلاحظ على العديد من ولاة البلاد السابق ذكرهم أمثال سعد ابن أبى وقاص، وأبو موسى الأشعرى ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص سبق وأن استعملهم النبى صلى الله عليه وسلم وآخرين من جنسهم ومن نفس قبيلتهم كما استعان ببعضهم أبو بكر الصديق ثم جاء عمر بن الخطاب واستعان ببعضهم أيضا فى الإدارة، فالخليفة عثمان بن عفان وإن استعان بهؤلاء الرجال فلم يكن بمغير او بمجدد عمن سبقوه ولكنه سار فى نفس الاتجاه و السياسه السابقة.

ولقد تشابه الخليفة عثمان بن عفان مع سلفه عمر بن الخطاب فى بعض النواحى الإدارية منها : مراعاته لرأى أهل الإقليم إذا ما أرادوا تعيين واليا عليهم وأصبح بقاءه فى منصبه مرهون برضاهم عليه، مثلما حدث وغضب أهل الكوفة على واليهم سعيد بن العاص وأخرجوه فمضى إلى الخليفة وأخبره بأنهم يريدون أبا موسى الأشعرى أميرا عليهم بدلا منه فوافقهم عثمان رضى الله عنه على ذلك[٦٠].

ومنها إتباع الخليفة عثمان سياسة إدارية تتمتع بمقتضاها ولاته في الأقاليم بسلطات واسعة وبدرجة كبرى من الاستقلال عن السلطة المركزية بل وأطلقت أيديهم على هذه الأقاليم ومما يدل على استقلال الوالي ما فعله مروان بن الحكم واليه على المدينة في أول خلافته فكان يجمع أصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل برأيهم، وهذا دليل على استقلال الوالي بسلطة البت النهائي في بعض الأمور دون الرجوع إلى الخليفة[٦١].

أما عن سياسة الرقابة الإدارية التي مارسها عثمان بن عفان على عماله وولاته فقد تحققت ولكن بصورة مختلفة جدا عن سلفه عمر بن الخطاب مما نتج عنها عواقب وخيمة، فكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم، كما كتب إلى الأهالي في الأمصار أن يأمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر وسار الناس على ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلة لتفريق الأمة[٦٢].

ولما كثر الدس على الولاة للتقليل من شأنهم كما دس بعض الولاة من يمدحونهم عند الخليفة، اكتفى عثمان بن عفان بمواجهة هذا الخطر بتحذير الولاة والعمال من خطر الانحراف وترك هؤلاء يباشرون أعمالهم الإدارية دون التدخل فيها والتحقق من صحة الاتهامات، كما باشر الخليفة سياسة الرقابة الإدارية للولاة والعمال عن طريق الاستفسار عن هؤلاء من الوفود، كما بعث العيون للكشف عن أحوالهم، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر إلى مصر ولما عاد هؤلاء وأخبروه بأن ما وصله مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة[٦٣].

كما اتخذ عثمان سلطته الرقابية على ولاته وأعمالهم متخذاً بعض أسلوب التوبيخ كما فعل سلفه عمر، وقد حدث ذلك عندما فوض عبد الله ابن عامر في توزيع الأموال والكسوة على قريش والأنصار فأرسل إلى على بن أبي طالب ثلاثة آلاف درهم وكسوة فاعترض على ذلك ولما بلغ عثمان ذلك وبخ عبد الله بن عامر وأمره بإرسال عشرين ألف درهم واسترضاءه، كما كان العزل وسيلة من وسائل الرقابة الإدارية على نحو ما سبقت الإشارة لعزلة سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة لعلمه بارتكابه خطأ مالياً وعجزه عن تسويته[٦٤].

دور الولاة في مواجهة الفتنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان

تعرضت الخلافة في عهد عثمان بن عفان لأزمة حقيقية بدأت بوادرها في الظهور منذ عام ٣٠ هـ ثم تطورت واستمرت حتى سنة ٣٤ هـ، ولما شعر الخليفة بخطورة الموقف أرسل إلى بعض ولاته المقربين للحضور لمناقشة الوضع الراهن فحضر كل من معاوية بن أبي سفيان والي الشام وعبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر وسعيد بن العاص عن الكوفة وعبد الله بن عامر عن البصرة واختلفت وجهة نظر هؤلاء وأبدى كل منهم رأيه في هذا الأمر خاصة بعدما عرض عليهم الخليفة ما وصل إليه من شكاوى الناس ومطالبتهم إياه بعزل ولاته وتبديل سياسته العامة[٦٥].

وأشار عليه المجتمعون أن هذه الشكاوى لا أساس لها من الصحة وأن أصحابها هم دعاة فتنة، ثم عرض عليه المجتمعين ما يمكن عمله لمواجهة الموقف والقضاء على أسباب النقد والخلاف على نحو ما أشاروا عليه بعدة حلول للأزمة.

نجح دعاة الفتنة والمعارضة فى كل من مصر والكوفة وفى غيرهم فى خلافة عثمان بن عفان، وفشل ولاته بالرغم من كفاءتهم الإدارية فى مواجهة هؤلاء والقضاء عليهم وأصر الثوار على مطالبهم والتى تركزت على عدم قصر الوظائف على قريش بل يجب أن يتولوها وعدم قصر العطاء على المحاربين فقط، وأدت فى النهاية إلى قيام الثورة على عثمان بن عفان، وذهب الثوار إلى المدينة المنورة وقاموا باغتيال الخليفة(٦٦).

٤- فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه :

وتشير المصادر فى البداية إلى امتناع على بن أبى طالب عن قبول الخلافة نظراً لما كان يتوقعه من ظهور الفتن والاضطرابات من بنى أميه، وخاصة من المقيمين منهم فى المدينة ومن فر منهم إلى الشام أو إلى مكة، لكن نجح أحد زعماء الكوفة وهو الأشتر النخعى فى النهاية فى إقناعه، وقد شجع ذلك على دعوة الناس للاجتماع به ومبايعته(٦٧).

عمل الإمام على بن أبى طالب على إتباع سياسة جديدة فى اختيار الولاة وكان منها استبعاد الولاة من بنى أمية لقناعته بأن هؤلاء لا يصلحون لهذا الأمر وشرع فى تنفيذ ذلك وقد خالف فى ذلك سياسة من سبقوه ولكن جاءت اختياراته على وجه السرعة نظراً لتطور الأحداث بينه وبين معاوية من ناحية وبينه وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة من جانب آخر فعين عبد الله بن عباس والياً على اليمن، وقثم بن العباس على المدينة ولم يولى أحداً ممن خرج على عثمان رضى الله عنه(٦٨).

كما أبقى على بن أبى طالب على بعض الولاة أمثال والى مكة بعبد الله بن عامر الحضرمى وأبقاه فى مكانة ظناً منه أن يمنحه ولاءه ولكن لم يلبث وأن خاب ظنه وأظهر وقوفه إلى جانب المعارضين، فقام بعزله وعين قثم بن العباس بدلاً منه(٦٩).

واختار على بن أبى طالب أفضل رجاله لتولى أمر الولايات وكانوا من ذوى الرأى والبأس أمثال قيس بن سعد ثم الأشتر النخعى على ولاية مصر، ولكن ساءت اختياراته فى نهاية عهده، مثلما حدث وعين محمد بن أبى بكر والياً على مصر، وكان غلاماً حدثاً ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء مما أدى إلى قتلة(٧٠).

ولقد تشابه على بن أبى طالب مع سلفه عثمان بن عفان فى مراعاته لأهل الإقليم إذا ما ارادوا والياً عليهم ففى سنة ٣٦ م بعث عمارة ابن شهاب والياً على الكوفة فلقيه طلحة بن خويلد وذكر له أن أهلها يتمسكون بأميرهم أبى موسى الأشعرى الذى لذم الجماعة وأرسل بالبيعة للخليفة الجديد(٧١).

وتشابه مع سلفه عمر بن الخطاب فى كتابته كتابا يسمى التقليد أو العهد يحدد فيه للوالى مهمة ويوصيه بالآداب التى ينبغى له التجمل بها والسياسة التى يلزم إتباعها فقد كتب إلى الأشتر النخعى "هذا ما أمر به على أمير المؤمنين الحارث بن مالك فى عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح حالها، وعمارة بلادها،أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته وإتباع ما أمر به من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد إلا بإتباعها[٧٢].

واتبع على بن أبى طالب أسلوباً خاصا فى الرقابة الإدارية عن طريق السؤال والتحرى عن ولاته عن طريق جواسيس، كما حدث وعزل واليه عن مصر قيس بن سعد لما نما إلى علمه أن قيس من شيعة معاوية، كما عزل واليه على الكوفة أبو موسى الأشعرى عندما علما بعدم تعبئته للناس وتجهيزهم للخروج لمعاونته فى قتال المعارضين له[٧٣].

كما اتبع على بن أبى طالب الرقابة العامة على الولاة من خلال كتاب التولية الذى كان يقدمه لهم ومن أمثلة ذلك كتاب التولية الذى أنفذه الخليفة على بن أبى طالب إلى قيس بن سعد واليه على مصر.

جاء فيه " من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين سلام عليكم أما بعد قد بعثت إليكم بقيس بن سعد عبادة أميرا فآزروه وعاشروه وأعينوه على الحق،وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم...وأرجو صلاحه ونصيحته.."[٧٤].

ويبدو ومما سبق أن الإدارة المركزية فى عهد الخلفاء الراشدين تأثرت كثيراً بسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن طرأ عليها تغيرات طفيفة في عهد أبو بكر وبشكل واسع فى عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وجاءت اختيارات الخلفاء الراشدين للولاة والعمال على نمط سياسة الرسول وتركزت فى العنصر العربى بشكل واضح لأنهم كانوا أكثر فهما للشريعة الإسلامية وقواعدها فضلاً عن خبرة الكثير منهم فى النواحى الإدارية بالإضافة إلى الخبرة الحربية التى اكتسبوها من كثرة الحروب التى خاضوها.

الهوامـــش

١- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي، دار الهلال، ١٩٦٨ ص ١٥٠
٢- جرجي زيدان : المرجع السابق: ص، ١٥١
٣- الامام مسلم : صحيح مسلم، حديث رقم ١٧٣١، ١٧٣٣، ج٢ ص٩٢٢، ٩٨١
٤- الامام مسلم صحيح مسلم، حديث رقم ١٨٢٩، ج٢، ص٩٨٤، حديث رقم ٢٣٧٨، ج٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١، ابي داود.. سنن أبي داود، ج٤ مج ٤ ص ٢٥٥.
٥- الطبري: تاريخ الرسل والملوك،ج٣ ص٦١٧،جرجي زيدان:المرجع السابق،ص١٥١-١٥٣
٦ - مسعود أحمد : أقاليم الدولة الاسلامية، ص٨٦
٧- ابن خياط : تاريخه،ص ٤٨، مولوى -ان. الإدارة العربية،ص٤٨ - ٤٩
٨- بن الخياط : تاريخه ص ٤٨، البلازري : أنساب الاشراف، الجزء الأول ص٣٠، مولوي: المرجع السابق ن ص٤٩
٩- ابن خياط: المصدر السابق،ص٤٨-٤٩، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص٨٧
١٠- ابن خياط:المصدر السابق، ص٤٨، ابن الأثير الكامل فى التاريخ، ص٢ ص٢٨٩،مسعود أحمد:المرجع السابق، ص ٩٠-٩١
١١- ابن خياط:المصدر السابق، ص٤٨، مسعود أحمد :المرجع السابق، ص ٩١-٩٢
١٢- البلاذري : انساب الأشراف، ج١، ص٥٢٩، رجب محمد : تاريخ عصر النبي والخلافة الراشدة، ص ٣١١
١٣- البلاذري : أنساب الشراف، ج١، ص ٥٢٩ - ٥٣٠
١٤- الدرامي : سنن الدرامي، ج٢، ص٣٤٠، ٢٢٤، رجب محمد : المرجع السابق ص ٢٦٤
١٥ - البلازري : المصدر السابق، ج١ ٥٢٩
١٦- ويذكر أن أبا موسى كان قد أسلم بمكة وهاجر إلى ارض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله بخيبر كما بعثه الرسول هو ومعاذ إلى اليمن، وسبق أن عينه الرسول على عدن، ابن خياط: تاريخه، ص ١٨١،الطبرى: تاريخ الرسل والملوك،ص٢ ص ٤٦٤ ص ٥٣٢،الذهبى :العبر، ص ٥٢، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٤٩١، الخميسى : تاريخه، ص ١٤٣ -١٤٤.
١٧- كان العلاء الحضرمى من سادة الصحابة وقد بعثه النبى إلى المنذر الساوى العبدى ملك البحرين وكتب إلية كتابا دعاه فيه إلى الإسلام فاسلم، كما كان أمير الرسول على البحرين.الطبرى:تاريخ الرسل،ج٢،ص٦١٧ -٦٦٠،ابن الجوزى:المنتظم،ج٣،ص١٩.
١٨- ومنيه هى امة واسم أبيه أمية التميمى كان إسلامه يوم الفتح ثم شهد حنين وكان الرسول قد ولاه أميرا على الجند فى مأرب ثم تولى فى عهد أبو بكر خولان ثم اليمن كلها.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٣٨٨،٣٤٠،٣٥٤،ج٣، ص٤٠.

١٩- وكان الرسول قد سبق وان عينه واليا على عمان وأعمالها ثم عينه أبو بكر أميرا على الجند فى بلاد الشام، ابن خياط : تاريخه،ص٤٨-٨٩

٢٠- كان الرسول قد عين عتاب بن أسيد بن أبى العاص على مكة وخالد بن سعيد على صنعاء وصدقات اليمن وإبان بن سعيد على البحرين وعمر بن سعيد على تيماء وخيبر وتبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب على نجران وذلك من منطلق القضاء على عوامل النزاع والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية، فإذا كانت النبوة والرياسة فى يد بنى هاشم أيام الرسول فقد ولى الرسول بنى أمية الولايات وأعلى من شأنهم الطبرى :المصدر السابق، ج٢، ص ٥٣٢ - ٥٣٤ ، رجب محمد : عصر النبوة، ص ٣١١.

٢١- الطبرى : المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٧ - ٥٣٢، ٥٣٤، ٦٦٠، ابن الجوزى المنتظم، ج٣، ص١٩، الخميسى : تاريخه، ص١٨١

٢٢- كان المثنى بن حارثة من زعماء بنى شيبان كان أبو بكر استعمله على من أسلم من قومه وعياض هذا هو فاتح الموصل والقرى المحيطة بها وكان أبو عبيدة قد استخلفه على عمله بحمص وقنسرين ببلاد الشام فاقره عمر كما عين بعد ذلك والياً على الجزيرة، وكان حذيفة بن اليمان قد كلفه عمر بمسح ارض العراق وتحديد مقدار الخراج عليها، ابن خياط: تاريخه، ص ٦٥، الطبرى : تاريخ الرسل، ج٣، ص ٦٦٠، ٦١٧، اليعقوبى: تاريخه، مج٢، ص ١٣٨ - ابن الأثير : الكامل، ط٣، ص٤٠ - ٤٥، ابن خلدون: تاريخه، مج٢، ص٥٣١، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٩٧ القلقشندى: مآثر الأناقة، ج١، ص٩٢ - ٩٣، الخميسى: تاريخه، ص ٢٨١ - ٢٤٢.

٢٣- رجب محمد : تاريخ عصر النبوة، ص ٣١١ - ٣١٢

٢٤- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١١٦

٢٥- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٣٩٠

٢٦- مسعود أحمد : المراجع السابقة، ص ١١٨

٢٧- محمد أحمد : تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر، ص ١٤١

٢٨- الطبرى : المصدر السابق، مج٢، ص٤١١

٢٩ - الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٤

٣٠- أحمد مجاهد مصباح : دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٨٩

٣١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٢، ص٣٥٤

٣٢- ابن خياط : تاريخه، ص٨٩، ابن الأثير : الكامل، ج٣ ص٤٠

٣٣- حسين الحاج حسن : النظم الإسلامية، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٠٨

٣٤- اليعقوبى : تاريخه، مج٢، ص١٦١، ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص٤٠، محمد الخضرى : محاضرات فى التاريخ الإسلامى، ج٢، ص٢٧

٣٥- مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٢٨

٣٦- ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ٤٧

٣٧- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٤٢٩ - ٤٣٠

٣٨- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٤، ص٣٨، محمد الخضرى : المرجع السابق، ج٢، ص٥١، إبراهيم أحمد العدوى، التاريخ الإسلامى، ص ٤٢٩

٣٩- كان قيس بن سعد من أعيان الصحابة ومن ذوى الرأى والبأس وصاحب راية الرسول مع الأنصار، كما كان عمارة بن شهاب من المهاجرين، ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ١٠٣ - ١٠٥، ١٣٦، أبو الفدا : تاريخه، ج١، ص ١٧٢، المقريزى : الخطط، ج٢، ص ٣٠٠، ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ١١٤١

٤٠- ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ١٠٣، ١٧٧، ١٨٨، ١٩٤، ٢٠٠

٤١- ابن خياط : تاريخه، ص ١٢٢، ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ١٣٩ - ١٧٧، ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ١١٤ - ١١٦

٤٢- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١١٦

٤٣- مسعود أحمد أحمد : المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧

٤٤- ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٢٥٥، الطبرى : المصدر السابق، ج٣، ص ٤١٤، هاشم يحيى:المرجع السابق، ص٣٥٨-٣٦٢

٤٥- مولوى: الإدارة العربية،ص٨٠-٨١

٤٦- كان المغيرة بن شعبة من دهاة العرب وعقلائها وأشرافها، ابن الأثير:الكامل،ج٢، ص٣٥٤-٣٤٠، ج٣، ص٤١،١٩،١٦،٩، الذهبى: دول الإسلام، جزءان، ص٥١-٥٢، أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، مج ١، ص٢٧٧، ابن خلدون :تاريخه، مج٢ ص٥١٥-٥١٦

٤٧- كان سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة كما دعى له النبى فكان مستجاب الدعوة فضلاً على أنه كان فاتح القادسية، أما عمار بن ياسر كان من أصحاب النبى وبشره كذلك بالجنة،أبن الأثير : الكامل، ج٣،ص١٦،٩،ج٢،ص٣٧٨ الذهبى: العبر، ص٢٥، القلقشندى: مآثر الأناقة، ج٢، ص١٢

٤٨- الطبرى: المصدر السابق،ج٤، ص٤٧٧-٤٨٧، أبن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص١١٦-١١٨، الذهبى: المصدر السابق، ص٥٢،ابن خلدون: تاريخه، مج٢ ص٥٢٣-٥٢٤.

٤٩- هاشم يحيى: الوسيط، ص٣٩١- ٣٩٢

٥٠- مولوى: الإدارة العربية، ص ٨٢-٨٣، إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامى ص ١٧٣-١٧٤، أحمد إبراهيم : دور الحجاز، ص ٣٦٢

٥١- الذهبى: دول الإسلام، ص٥١ -٥٢، محمد الخضرى: محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢ ص ١٣

٥٢- ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٣٧٨-٣٨٨، ص١٦-١٩، مسعود أحمد: المرجع السابق، ص١٢٣

٥٣- كان الخليفة يسأل أهل البلد فان اثنوا عليه حمد الله،وان قالوا لا استدعاه للقدوم كما كان يرسل محمد بن مسلمة كمفتش من قبله على ولاته، كما فتش عمر بنفسه على حذيفة

بن اليمان عامله على المدائن،الذهبى :العبر،ص٢٥،القلقشندى : مآثر الأناقة، ج١ ص٣٤٣،مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٤ – ١٢٥

٥٤- الطبرى : المصدر السابق، ج٤، ص ٢٤٤ – ٢٤٥، ٤١٧، ٢٤٣، رجب محمد : تاريخ النبوة، ص ٣١٥، هاشم يحيى : الوسيط، ص ٤٠٣ – ٤٠٤

٥٥- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص١٠٦، صالح أحمد : الإدارة، ص ١١٥

٥٦- كان الوليد بن عقبة بن أبى معيط وهو أخ لعثمان من أمه أروى بنت كريز وأمها البيضاء بنت عبد المطلب (أخاً لعثمان من الرضاعة) فأم الوليد عمه رسول الله، وكان الوليد والياً على عرب الجزيرة وعلى بنى تغلب وغيرهم من العرب، ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ٤١ – ٤٣، أبو الفداء : تاريخه، مج١، ص ٢٣٣، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٤٦.

٥٧- كان عبد الله بن عامر بن كريز ابن خال الخليفة، ولكنه لم يولى عليها لأنه كريم العمات والخالات ولكنه كان شجاعاً وشهماً، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٩ – ٩٥، الذهبى : العبر، ص ٣٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٥١، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٥١

٥٨- كان معاوية بن أبى سفيان من كتاب الوحى لرسول الله، وأخ أم المؤمنين أم حبيب بنت أبى سفيان زوج الرسول، ابن خياط : تاريخه، ص ٨٩ – ١٠٦، اليعقوبى : تاريخه، مج ٢، ص ١٧٦، ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ٩٥

٥٩- ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ٤٥، الذهبى : دول الإسلام، ص ٥١ – ٥٢، المقريزى : الخطط، طبعة بولاق، ج٢، ص ٢٩٩، ابن آياس : بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ١١٢ – ١١٤، ٢٩٩، رجب محمد : تاريخ عصر النبوة، ص ٣٤٠.

٦٠- الطبرى : المصدر السابق، ج٤، ص ٢٦٨، ابن كثير : المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٧٢

٦١- مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٩

٦٢- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة

٦٣- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة

٦٤- ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص ٤٢، ابن خلدون : المصدر السابق، مج ٢ ص ٥٤٦

٦٥- الطبرى : المصدر السابق، ج٤، ص ٣٣٢ – ٣٣٤

٦٦- المسعودى : مروج الذهب، مج ٢، ص ٢٣٦ – ٢٣٧، ابن كثير : تاريخه، ج ١٠، ص ٢٧٠ – ٢٧٧، صابر محمد : المرجع السابق، ص ٧٣

٦٧-ابن قتيبه : الإمامة والسياسة، ص ٤٦، الطبرى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٣٣ – ٤٣٤

٦٨-ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٤ – ١٠٥، أبو الفدا : تاريخه، ج ١، ص ١٧٢، القلقشندى : مآثر الأناقة، ج ١، ص ١٠٤

٦٩- بن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٢٠٠

٧٠-ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٩، ١٧٧

٧١-ابن الأثير:الكامل،ج٣،ص١٠٣،أبو الفدا تاريخه،ج١،ص١٧٢

٧٢-الطبرى:تاريخه،ج٥،ص٩٥-٩٦،ابن آياس:بدائع الزهور،ج١،ق١،ص١١٤.

٧٣-الطبرى:تاريخه،ج٤،ص٤٧٧-٤٩٩،طبعة دار المعارف، ابن الأثير:الكامل،ج٣،ص١٣٦-١٣٩، المقريزى:الخطط،ج٢،ص٣٠٠

٧٤-الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٥٤٧-٥٤٨ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص٩٧، محمود عرفة : الرقابة الإدارية والمالية فى الدولة العربية فى القرنين الأول والثانى الهجريين مجلة البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية- العدد السادس عشر، ١٩٨٨، يصدرها معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ص٢٠-٢١

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : المصـــادر

١- ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ/ ١١٦٠ - ١٣٣٨ م): أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى الملقب بعز الدين.
أ- الكامل فى التاريخ - دار الكتاب العربى - بيروت.
ب- أسد الغابة فى معرفة الصحابة.

٢- الامام مسلم (٢٠٤-٢٦١هـ) ابي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة مميزة بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار بن رجب مصر، ط٢، ١٤٢٧/٢٠٠٦م ج٢، ج٣.

٣- البخارى (١٩٤ - ٢٥٦ هـ): أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة الجعفى البخارى. صحيح البخارى حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر المجلد الثالث جـ٥، جـ٦ المدينة المنورة - دار طوق النجاة.

٤- الدرامي (ت٢٥٥م/٨٦٩هـ) الامام أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام سنن الدرامي، دار الكتب العلمية، مصر بدون جزء ٢٩ .

٥- أبي داود (٢٠٢ -٢٧٥هـ): أبي داود : أبي داود سليمان ابن الاشعث السجستاني الازدي، سنن أبي داود، دار الخيل - بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢، المجلد الرابع)

٦- البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى فتوح البلدان - حققه وشرحه وعلق على حواشيه واعد فهارسه عبد الله أنيس الطباع - عمر أنيس الطباع ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ مؤسسة المعارف بيروت.
انساب الاشراف، تحقيق د/ محمد حميد الله، دار المعارف مصر بدون.

٧- ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٦٣ م) : عبد الرحمن المغربى
أ- المقدمة - مقدمة ابن خلدون - الجزء الثاني، جـ٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ م
ب- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر - دار الكتاب اللبنانى، جـ٢ بيروت ١٩٨٦ - ط١ - ١٤٠١هـ /١٩٨١م.

٨- ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١-١٢٨٢م): أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان جـ١- ٨ حقق د/ يوسف على طويل د/مريم قاسم طويل - دار الكتب - بيروت - لبنان ط١ ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٩- ابن خياط (ت٢٤٠هـ) : أبى عمرو خليفة بن خياط بن أبى هبيرة الليثى العصفرى الملقب بـ شباب، تاريخ ابن خياط - راجعه وضبطه ووضع حواشيه د. مصطفى نجيب فواز د. حكمت كشملى فواز - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٠-الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٧ م) : الإمام أبو عبد الله شمس الدين

أ- كتاب دول الإسلام وقد اختصره من كتاب تاريخ الإسلام وطبقت المشاهير والإعلام المسمى بتاريخ الإسلام الكبير حقق فهيم محمد شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم جزءان.
ب- العبر فى خبر من غبر دول الإسلام تحقيق د/ صلاح الدين المنجد - الكويت ١٩٦٠.
١١-ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القريشى الهاشمي ولاء البحرى البغدادى، الطبقات الكبرى - طبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م - تحقيق د/ على محمد عمر - مكتبة الخانجى - القاهرة.
١٢-الطبرى (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٨ - ٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الرسل والملوك : راجعه نخبة من العلماء تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت - لبنان.
١٣-ابن قتيبة الدينورى (٢١٣-٢٧٦هـ / ٨٢٨ - ٨٨٩م): (أبو محمد عبد الله مسلم ابن قتيبة الدينورى) الإمامة والسياسة - المعروف بتاريخ الخلفاء لابن قتيبة، المعارف القاهرة ١٩٣٤.
١٤-القلقشندى (ت ٨١١ هـ - ١٤١٨م): أبو العباس احمد بن على،مآثر الأناقة فى معالم الخلافة جـ١ تحقيق عبد الستار احمد فرج - عالم الكتب.
١٥-ابن كثير القرشى (٧٧٤هـ/١٣٧٣م): عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى. البداية والنهاية فى التاريخ، جـ٦،٥، المجلد الثالث جـ٧،(المجلد الرابع) دار الفكر العربى، ط٢، سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٦-ابن منظور : لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر - بيروت
١٧-أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل ن تاريخ أبو الفداء، المؤيد جـ١
١٨-الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) : جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم، العصر الراشدى حققه د. سهيل ذكار- الجزء الثالث دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
١٩-الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية، القاهرة، ٢٠٠٥
٢٠-الديار بكرى (ت ٩٩٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن.
تاريخ الخميسى فى أحوال أنفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، (د.ت).
٢١-المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على.
مروج الذهب ومعادن الجوهرجـ١،جـ٢،قدم له مفيد محمد قتيحه- دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦.
٢٢-المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): تقى الدين أبو العباس احمد بن على،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، طبعة بولاق.
٢٣-النوبجتى : ابو محمد بن الحسن بن موسى، فرق الشيعة، بيروت، دار الفكر - بدون

٢٤-اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ /٨٩٧م) : احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح. تاريخ اليعقوبى جـ٢ - دار صادر بيروت بدون تاريخ.

ثانيا المراجع

٢٥-إبراهيم احمد العدوى، التاريخ الإسلامى - منابعه العليا وفروعه العظمى دار الفكر العربى - ١٢٩٤.

٢٦-احمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، دار الفكر العربى.

٢٧-احمد مجاهد، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، بدون.

٢٨-جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي، دار الهلال، مصر، ١٩٦٨

٢٩-حسين الحاج حسن، النظم الإسلامية ط١ الأولى بيروت ١٩٨٧.

٣٠-رجب محمد عبد الحليم - دراسات فى تاريخ عصر النبوة والخلافة الراشدة - دار النهضة العربية.

٣١-صالح احمد العلى، الإدارة فى العهود الإسلامية الأولى شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

٣٢-مسعود احمد مصطفى : أقاليم الدولة الإسلامية، بين اللامركزية السياسية واللامركزية الإدارية تقديم الإمام جاد الحق على جاد الحق - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٣-الشيخ محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية - الجزء الأول - الجزء الثانى.

٣٤-مولوى س. ا ت - حسينى، الإدارة العربية - ترجمة د. إبراهيم احمد العدوى راجعه عبدالعزيز عبد الحق.

٣٥-هاشم يحيى الملاح - الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، العراق بدون.

٣٦-عبد السميع البراوى : لغة الإدارة فى صدر الإسلام، بدون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب بدون.

ثالثا: الدوريات

٣٧-مجلة البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية العدد السادس عشر، ١٩٨٨ - معهد البحوث والدراسات العربية.

٣٨-مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، العدد الثالث، السنة الثامنة عشر، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة، ١٤١٣ هـ.

أثر المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي في اليمن

د. عبد الحكيم عبد الحق محمد سيف (*)

يعالج هذا البحث أثر المرأة في الحياة السياسية، في العصر الرسولي، في اليمن، وهو يجيب، في الوقت ذاته، عن بعض التساؤلات التي أثارتها بعض الكتابات، ذلك أن أقلاماً كثيرة حاولت النيل من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فقللت بداية من وجود فكر سياسي إسلامي، ثم حاولت تسطيح ما اعترفت بوجوده، فقصرت الحياة السياسية في التاريخ الإسلامي على المؤامرات والاغتيالات والتنافس على السلطة، إلى جانب المعارك والحروب والأسر الحاكمة، ولم توغل إلى عمق الفكر السياسي الإسلامي، ولم تعرض لما ألف فيه من مصنفات، في الفقه السياسي، ملأت المكتبات، وما قدمته من مفهوم للسياسة التي لا تعدو حسن التدبير، لا المراوغة والكذب، وعن محددات العلاقة بين الراعي والرعية.. وغير ذلك من القضايا.

وفي الوقت ذاته؛ صورت هذه الكتابات المرأة في التاريخ الإسلامي مجرد سلعة للتسلية، ودمية يتم تحريكها من خارجها، ليس لها رأي ولا دور في حياة مجتمعها، بل حتى فيما يتعلق بشأنها وحياتها الخاصة، متجاهلة التطور الضخم الذي أحرزته المرأة فيما يتعلق بحقوقها، ودورها في مجتمعها بظهور الإسلام، والمكانة الكبيرة التي حظيت بها في مجتمعها، والتأهيل المستمر الذي نالته، والأدوار الكبيرة التي قامت بها لتنمية مجتمعها.

إذاً، فقد ارتبط حضور المرأة في التاريخ العربي باعتناقها للإسلام، الذي انتشلها من حياة الذل والظلم والاضطهاد، ثم صنع وعيها بنفسها وبمجتمعها، ومكنها من دورها الطبيعي في حياة مجتمعها، فمكنها من حقوقها الكاملة: حق الحياة بعد أن كانت موؤدة، وحق التملك بعد أن كانت تُتملك، وحق الاختيار للدين والزوج بعد أن كانت تُختار، دون أن تَختار..[١]

وبمرور العصور الإسلامية؛ كانت مكانة المرأة تتمكن، وأثرها يتزايد في الحياة وحضورها يتكثف في مجتمعها.

والمرأة في اليمن كان لها أدوار مشهودة، عبر مراحل التاريخ، في ميادين السياسة والعلم والأدب، لاسيما في الحقبة الرسولية التي شهد اليمن فيها استقراراً سياسياً واضحاً، ونهضة علمية لافتة، لم تكن المرأة الرسولية بمعزل عنها، لا بل كان

(*) أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي بجامعة تعز.

لها دور مهم فيها، سواء في ميادين السياسة أم في مجالات العلوم، فكان للمرأة اهتمامات ومشاركات في الحياة السياسية، سواء في صنع القرارات أو في اختيار الملوك، أو في تقديم الاستشارات والآراء، وكذا حضوراً في الحياة العلمية، سواء في بناء المدارس والإنفاق عليها من الأوقاف التي كانت تخصصها نساء بني رسول لهذا الغرض، أو في تحصيل العلوم أو في التعليم.

التمهيد:

الأوضاع العامة التي ساعدت على بروز دور المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي :

حَدّدت وضع المرأة في اليمن، ودورها في الحياة العامة، مجموعة من العوامل، منها ما كان داخلياً، ومنها ما ارتبط بوضع المرأة في البلاد الإسلامية، في عصر بني رسول وما قبله.

ولنبدأ بوضع المرأة ومكانتها في الحياة العامة في بقية الأقطار الإسلامية: فالواضح أن المرحلة التي عاصرت الدولة الرسولية، وما قبلها، قد شهدت حضوراً واضحاً للمرأة في الحياة العامة، فنساء العباسيين شاركن في الحقبة الأخيرة من عصر الدولة العباسية، في السياسة والإدارة، وكن يباشرن الحكم نيابة عن أبنائهن أو معهم؛ لاسيما الأطفال، وكان للمرأة في عصر الدولة الأيوبية - التي سبقت وعاصرت جزءاً من العصر الرسولي - دور في الحياة السياسية توّج بمشاركة شجرت الدر زوجة الملك الصالح أيوب له في الحكم، ثم قيامها بأمر الدولة بعد وفاته. واستمرت مشاركة المرأة في الحياة العامة في العصر المملوكي، سواء في السياسة أو في مجالات الحياة العلمية، أو في غيرهما.

وفي اليمن؛ حظيت المرأة قبل العصر الرسولي بمكانة مهمة في المجتمع، وشاركت بناءً على ذلك في الحياة السياسية، فكانت الملكة بلقيس تحكم اليمن في مراحلٍ تاريخية موغلة في القدم، قال تعالى على لسان هدهد سليمان :" إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ " حتى وصلت - قبيل العصر الرسولي- نساء إلى مراكز مرموقة في قيادة الدولة، فلمعت نساء مثل السيدة (أسماء الصليحي)[٢]، و(السيدة أروى بنت أحمد الصليحي)[٣]، وغيرهما ممن لم يأخذن حقهن في الذكر، ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه المكانة التي تمتعت بها المرأة في اليمن قبل العصر الرسولي، وتلك الأدوار التي قامت بها في الحياة السياسية، قد هيأت الأرضية المناسبة للمرأة في العصر الرسولي لأن تقوم بأدوار مهمة في الحياة العامة، والحياة السياسية على وجه الخصوص، وقدمت ثقافة عامة تتقبل مشاركة المرأة في إدارة الدول، أو المشاركة فيها على الأقل.

وهكذا انطلق الرسوليون في تعاملهم مع المرأة، وفي تمكينها من دورها في الحياة العامة، وفي أشراكها في إدارة الدولة، من معطيات خارجية وداخلية، فهم منذ البداية أتوا من خارج اليمن، فكانوا يعملون لدى العباسيين، ولا شك أنهم قد احتكوا بهم، ثم عملوا لمدة مع الأيوبيين ولا ريب أنهم قد تأثروا بتعاملهم مع المرأة، في تمكينها من المشاركة في الحياة العامة، ثم استمروا في التعاطي مع المماليك طوال عصر دولتهم. ومن المؤكد أن التأثيرات قد تحركت هنا وهناك فيما بينهما، وكان لأسلوب التعامل مع المرأة نصيب من ذلك التأثير والتأثر.

وكان للمعطى الداخلي دوره الواضح في تهيئة المجتمع، في اليمن، لتقبل مثل هذه الأدوار من المرأة من ناحية، وفي تشجيع بني رسول في إتاحة مجالاً لمشاركتها في الحياة العامة، وفي تشجيعها على الولوج إلى ميادين الحياة العامة، والقيام بأدوار في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، وهي تحمل في خواطرها ذكرى بلقيس وأسماء، وأروى.

مكانة المرأة في العصر الرسولي :

حظيت المرأة بمكانة فائقة وباحترام كبير في عصر الدولة الرسولية، وَضَحَ ذلك من أكثر من جهة، فأول ما يجد الباحث، بل والقارئ العادي، في مصادر تاريخ الدولة الرسولية، الألقاب التي تحلت بها المرأة الرسولية، التي تدل على التقدير الكبير والمكانة العالية للمرأة، من هذه الألقاب(الملكة)[٤]، و(أم الملوك)[٥] والجهة الكريمة، والدار الكريمة [٦]، وذات الشرف، والشريفة، وصاحبة القدر العالي، وذات المقام الرفيع والستر العالي، والحرة، وغيرها من الألقاب التي وصفت بها نساء بني رسول، ودلت على مكانة المرأة في العصر الرسولي، بل إن بعض المصادر تشير إلى أن بعض النساء، في العصر الرسولي، كن يتمتعن باحترام كبير في مجتمعهن، كان منهن مريم بنت محمد بن الحسن بن مرزوق، التي كان لها كرامات، وكانت من عالمات عصرها[٧].

وكان من مظاهر اهتمام ملوك بني رسول بالمرأة؛ اصطحابها في رحلاتهم، سواء داخل اليمن أو خارجها، بما في ذلك معاركهم التي كانوا يخوضونها لتثبيت أركان حكمهم، في بداية عهد الدولة، أو في مواجهة الخارجين عليهم، وفي تنقلاتهم بين عواصم الدولة مثل تعز وزبيد، وغيرهما، فكان الملك المظفر يصطحب بعض نساءه في زياراته لبعض المواقع في دولته، مثل المدن والمدارس وغيرها، وهو ما أكدته المصادر حيث يقول (ابن حاتم)[٨] :" ثم سار (الملك المظفر) إلى المدرسة المنصورية فجعل نزوله بها هو والجهات التي معه "،أو في رحلاتهم الخارجية لاسيما رحلاتهم إلى الحجاز – التي كانت جزءاً من الدولة الرسولية – للحج والعمرة، سواء كانت زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم.

وتشير المصادر التاريخية إلى صور من إجلال بني رسول للمرأة، من ذلك أن الملك المظفر حج بوالدته، وكان يطوف حاملاً لها على ظهره [٩]، وكان الملك المجاهد يصطحب أمه في رحلاته للحج [١٠]، ويجل أخته (الدار الفائز)[١١] إجلالاً عظيماً.

وثمة مجموعة من المظاهر الأخرى دلت على المكانة الكبيرة التي تبوأتها المرأة في اليمن، في العصر الرسولي، تتضح في أسلوب تعامل السلاطين معهن، وطريقة مخاطبتهن، وتنفيذ طلباتهن، فهذا الملك المظفر يخاطب عمته (النجمية)[١٢] بعد أن ظفر بالسلطان، وهي (بحصن التعكر)[١٣]، بلغة كلها أدب ولطف بالرغم من أنها كانت تعمل لتحويل السلطان عنه :" إن رأيت أن تنزلي تلقي أخويك فافعلي"[١٤]. وكان من مظاهر الاهتمام بالمرأة في العصر الرسولي، لاسيما نساء بني رسول، بناء المدارس بأسمائهن ومساعدتهن على القيام بغير ذلك من أعمال البر، فقد أسس الملك الظاهر مدرسة باسم أمه، بعد وفاتها، في المكان الذي دفنت فيه بزبيد، ووقف عليها الأوقاف [١٥].

وكان اهتمام المؤرخين بالمرأة، في العصر الرسولي، أحد مظاهر المكانة التي حظيت بها، فذكر عدد من المؤرخين المعاصرين أدوارا للمرأة في مجريات الحياة في عصرها، وسجلت تراجم للنساء، وفعاليات الحياة العامة للمرأة، ومن ذلك النساء اللواتي كن يعتنقن الإسلام من اليهود وغيرهم، فيذكر (الخزرجي)[١٦] في أحداث سنة ٧٩٦هـ – وهو مؤرخ الدولة الرسولية– أن امرأة من اليهود أسلمت، وأن القاضي فرّق بينها وبين زوجها اليهودي. ويذكر المؤرخون أن (بدرة بنت محمد)[١٧] كانت من المشاركات في سياسة عصرها.

وبالرغم من الاهتمام اللافت بالمرأة، في العصر الرسولي، فإن هناك بعض المظاهر تشذ عن هذا الاتجاه، من ذلك استخدام النساء رهائن لضمان تنفيذ المعاهدات والاتفاقات السياسية، بين السلاطين والأمراء والمعارضين السياسيين، ومع ذلك فقد كانت المرأة المرهونة تحاط بالعناية والرعاية، وتفرض شروط لضمان سلامتها، فقدم الملك المظفر كريمته رهينة لدى أم قطب الدين، لضمان وفائه بعدم إيذاءها وابنها[١٨]. وكان يحدث أحياناً ما يسمى (بالزواج السياسي) فتستخدم المرأة للتقريب بين القوى المتصارعة، ولعقد التحالفات بين القوى المختلفة، فتذكر (المصادر)[١٩] أنه لما تقرر، في سنة ٧٧٨ه، الصلح بين الإمام وهمدآن، دبر الإمام الحيلة في أخذ صنعاء من أيدي الأشراف فخطب والدة الأمير (إدريس بن عبد الله بن داود)[٢٠]، فأجابه الأمير إدريس إلى مطلبه"، وتزوج (صلاح بن علي)[٢١] بالشريفة (فاطمة بنت الحسين)[٢٢] التي كانت تحكم صنعاء وما حولها من البلاد[٢٣].

أثر المرأة في تولية السلاطين في العصر الرسولي:

لم يكن حضور المرأة في العصر الرسولي، في الحياة السياسة، مجرد حضور ترفي شكلي لإكمال المشهد، وإنما كان حضوراً مؤثراً في توجيه الأحداث، وترجيح بعض القوى والشخصيات المتنافسة على السلطة على بعضها الآخر، فأسهمت بعض النساء في اختيار السلاطين، سواء كانوا من أبنائهن أو من إخواتهن، أو من أزواجهن،

وفي تهيئة الظروف لاعتلائهم كرسي السلطة، أو في الحفاظ على سلطانهم في أوقات الأزمات والاضطرابات.

فكان لـ (بنت جوزة)[٢٤] زوجة السلطان نور الدين، أثر في تفضيله ولديها المفضل والفائز على أخيهما المظفر، وعقد ولاية العهد للأفضل، بالرغم من أن المظفر أكبر منه، كما حملته على خلع ابن أخيه (أسد الدين)[٢٥] عن صنعاء وتولية ابنها المفضل مكانه[٢٦].

وكان لأخت الملك المظفر (الدار الشمسي)[٢٧] دور مهم في تهيئة الظروف لتوليه حكم بني رسول، بعد مقتل والده الملك المنصور، سواء في ائتلاف العسكر والأتباع[٢٨]، أو في شراء بعض القلاع، أو في كف بعض المناوئين[٢٩]، قبل أن يصل المظفر إلى دار ملكه زبيد[٣٠] إذ كان حينذاك بعيداً في (المهجم)[٣١]، ولما مات مالت إلى ابنه الملك المؤيد، وعملت على ترجيح كفته على أخيه الأشرف، وعندما عجزت عن ذلك خرجت معه من تعز إلى (الشحر)[٣٢]،[٣٣] وإن كان الأشرف لم يدم في الحكم أكثر من عام واحد، وآل الحكم من بعده إلى أخيه الملك المؤيد.

وكان لوالدة الملك المجاهد دور كبير في ترجيح كفته، في النزاع الذي نشأ على الحكم بينه وبين عمه المنصور بن المظفر، بعد وفاة أبيه الملك المؤيد، بعد أن مال المماليك مع عمه المنصور، وقبضوا المجاهد وأودعوه دار الأدب في حصن تعز، فتدخلت والدته المعروفة بـ(جهة صلاح)[٣٤]،واستخدمت الرجال وبذلت لهم المال حتى أخرجوه من سجنه، واستولى على الملك[٣٥].

ولم تقف أم المجاهد عند هذا الحد، بل عملت على تثبيت أركان الحكم لابنها بشراء الحصون، وائتلاف المعارضين، فاشترت (حصن الدملوة)[٣٦]، وأغدقت الأموال والهدايا على القائمين عليه، لاستمالتهم إلى ابنها المجاهد[٣٧].

وعملت (جهة صلاح) أم الملك المجاهد، على استخلاصه من الأسر، عندما أسره المماليك في الحجاز واقتادوه إلى مصر، وأعادته إلى ملكه من جديد، بعد أن نابت عنه في إدارة اليمن في فترت غيابه[٣٨].

وكان لوالدة السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، المعروفة بـ (جهة طغي)[٣٩] دور مهم في وصوله إلى حكم اليمن، بعد وفاة أبيه الملك الأفضل، عندما استدعت الأمراء وقادة الجُند ووجوه الأشراف والمشايخ، وأغدقت عليهم الأموال، ووعدتهم بالتمكين لهم في دولة ابنها، إن هم أيدوه وانقادوا له، فكان لذلك أثر كبير في تهيئة الملك لابنها[٤٠].

وهكذا قدمت لنا النصوص التاريخية، التي تعاملنا معها في هذه السطور، صورة واضحة للدور الأساسي الذي كانت تقوم به المرأة، في العصر الرسولي، في تولية السلاطين أو عزلهم.

مباشرة المرأة للحكم في العصر الرسولي :

لم تقف مشاركة المرأة، في العصر الرسولي، في الحياة السياسية، عند التأثير في اختيارات الحاكمين وترجيح بعضهم على بعض، وإنما تعدته إلى المشاركة الفاعلة في الحكم، بل في أحيان كثيرة: الانفراد بحكم اليمن، أو أجزاء منه.

وتشير المصادر إلى مناسبات عديدة باشرت فيها بعض نساء بني رسول حكم اليمن، فنعمت اليمن في تلك الفترات بالعدل والاستقرار، ونالت إدارتهن للبلاد القبول ورضا الناس.

فباشرت أم الملك المجاهد حكم اليمن، في فترة غياب ولدها الملك المجاهد في مصر(٤١) مدة خمسة عشر شهراً، ضبطت فيها البلاد، ودوخت فيها الجبابرة من المناوئين، حتى وصل السلطان المجاهد من مصر(٤٢)، فنعمت بالعدل والإحسان والأمن والاستقرار(٤٣).

وكان لبعض النساء، من خارج البيت الرسولي، مشاركة في الحياة السياسية، فحكمن بعض أقاليم اليمن، سواء كان تحت مظلة الدولة الرسولية أم خارج سلطانها، فتذكر (المصادر)(٤٤) في أحداث سنة ٧٤٠هـ، أن الملك المجاهد ولىّ على (المعازبة)(٤٥) في تهامة امرأة تعرف بـ(بنت عاطف)(٤٦) فانقادوا إليها واتمروا بأمرها.

وحكمت صنعاء امرأتان من خارج البيت الرسولي، ففي سنة ٧٩٤هـ إستخلف (الإمام المنصور) والدته (فاطمة بنت أسد الدين) على صنعاء، عندما توجه إلى (جهران)(٤٧) لمواجهة بعض خصومه، فحفظت صنعاء وغيرها من دولة ابنها حتى صعدة، وأرسلت بالمدد إلى ابنها في (جهران)(٤٨). وبعد ما يقرب من نصف قرن حكمت صنعاء امرأة أخرى، هي الشريفة (فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين)(٤٩) وما تبعها من أقاليم، بعد وفاة أهل بيتها الذين كنوا يحكمون صنعاء سنة ٨٤٠هـ(٥٠).

وهكذا تتضح مكانة المرأة اليمنية في مجتمعها، والمؤهلات التي تمتعت بها، والأدوار التي قامت بها في توجيه الأحداث في عصرها، من خلال هذه الصور التي قدمناها، فهي تحكم باستقلالية تامة، وتقف على رأس هرم السلطة في بعض الأحيان.

مشاورة المرأة في بعض القضايا السياسية في العصر الرسولي :

كان للمرأة، في العصر الرسولي، حضور واضح في مراكز صناعة القرار، وفي المداولات التي تسبق اتخاذ القرارات المهمة في الدولة، وكان يعتد برأيها ويؤخذ به في كثير من الأحيان، فهي جزء من الهيئات الاستشارية التي يرجع إليها في اتخاذ بعض القرارات المصيرية، مثل اختيار الحكام، والولاة، وفي إدارة الدولة، حتى في بعض المواجهات العسكرية، وفي غير ذلك من القضايا. ونورد في هذا السياق بعض النماذج التي تبين استشارة المرأة، في بعض القضايا، في شؤون للدولة، وهي على سبيل المثال لا الحصر: استشارة الملك المظفر اخته "الدار الشمسية" في قضايا الحكم والدولة، وكان لا يخالف رأيها(٥١).

بل كانت المرأة، في عهد بني رسول، تستشار في تعيين السلاطين، وهو أمر يبين المكانة المرموقة للمرأة، لأنها تشارك في تحديد رأس الدولة، وهو دور بدأ بالضمور والاختفاء في المراحل التاريخية اللاحقة، فعندما توفي الملك الأشرف عمر بن يوسف، سنة ٦٩٦هـ[٥٢]، كان لبعض نساء بني رسول دور في ترشيح خليفته، الملك المؤيد، للحكم، وهو ما يشير إليه (ابن عبد المجيد)[٥٣] في قوله :" لما دخلت سنة ٦٩٦هـ توفي السلطان الملك الأشرف، فأجمع أراء من (بالحصن)[٥٤] من الخاصة والعامة و(الستور)[٥٥] المصونة، على تولية السلطان الملك المؤيد.

شفاعة المرأة لدى السلاطين:

من الثابت أن الشفاعة لا تكون إلاّ من الشخصيات التي تتمتع بنفوذ كبير لدى من يشفع عنده، لكن المرأة الرسولية كانت تقوم بمثل هذا الدور، فكانت تشفع للمذنبين ولبعض المعارضين السياسيين- الذين كانوا يقعون تحت طائلة العقاب – لدى السلاطين، وهو أمر يشير إلى الحضور المكثف للمرأة في الحياة السياسية، وإلى مكانتها لدى السلاطين، وإلى وعيها بالقضايا السياسية التي تعتمل في مجتمعها، وإلى السياسة العامة، للدولة الرسولية، التي اتسمت باللين والمداراة وغض الطرف، وترك هامش كبير للآراء الأخرى، وهي أمور أطالت من عمر الدولة، وسمحت بالتنوع السياسي والمذهبي، والأهم من ذلك، في سياق هذا البحث: إعطاء المرأة مساحة للقيام بمثل هذه الأدوار، لتخفيف العقوبات أو إيقافها، للتقليل من خصوم الدولة ومناوئيها، ولحفظ كبرياء السلاطين وهيبة الدولة.

وتقدم المصادر التاريخية صوراً لقيام بعض نساء بني رسول في الشفاعة للناس، سواء كانوا من الخاصة أم من العامة ، لاسيما المعارضين السياسيين، أو بعض من يعمل في الجهاز الإداري للدولة، فشفعت الدور الكريمة (بنت أسد الدين) لدى زوجها الملك المؤيد، في إطلاق القاضي (حسان بن أسعد بن محمد العمراني) وابن أخيه (عمران بن عبد الله بن اسعد)، وبعض أهلهما، فأطلقهم، ثم إنه قبض عليهم وأودعهم السجن بعد وفاة زوجته بنت أسد الدين[٥٦]، فمات القاضي حسان في السجن، ومكث الباقون حتى قدمت (ماء السماء) ابنة الملك المؤيد من (ظفار الحبوظي) فشفعت له عند والدها قائلة : " اجعلهم ضيافتي "، فأمر السلطان بإطلاقهم من السجن "[٥٧]، وكانت (جهة معتب)[٥٨] كثيرة التوسط للناس لدى السلاطين، سواء زوجها السلطان الأشرف إسماعيل أو لدى ابنها السلطان أحمد الناصر، وهو ما يؤكده (الخزرجي)[٥٩] في قوله :" وكانت (جهة معتب) واسطة خير إلى السلطان لكافة الناس ".

وفي المقابل، كان العلماء يشفعون لبعض نساء بني رسول لدى السلاطين، فشفع (الشيخ الزين) (لجهة شقيق) أخت السلطان الظاهر، لدى ابن أخيها (الأشرف بن الظاهر) فقبل شفاعته فيها، ولو أنه اغتالها بعد عودتها إليه[٦٠].

تدخل المرأة لتسوية الخلافات داخل البيت الرسولي :

ومما يدل على مستوى الوعي السياسي لدى المرأة الرسولية، وحرصها على حفظ سلطان بني رسول ودوام دولتهم – ولإدراكها نتائج الخلافات الداخلية، وما يمكن أن تؤدي إليه من صراعات في قمة السلطة، تؤدي في نهاية الأمر إلى زوال السلطان عنهم – أنها كانت تتدخل، في كثير من الأحيان، لتسوية الخلافات بين السلاطين وإخوانهم،أو بين الأمراء الرسوليين وأعوانهم، فكان لزوجة الملك المنصور المعروفة بأم قطب، دور في إنهاء الخلاف بين الملك المظفر، الذي خلف والده الملك المنصور، وبين إخوته من أبنائها الذين تمردوا عليه في حصن الدملوة، فنزلت من الحصن المحاصر، وطلبت مقابلة الملك المظفر، وجرى بينهما حوار كان مما قالت له فيه :" سبحان الله أما هؤلاء إخوتك فكيف تحاصرهم؟ فقال لها أنت الذي أردت هذا الأمر، وطلبت الاستيلاء على المال، ولم يخلفه الوالد لنقتتل عليه بل لنستعين به على خارجي يخرج علينا وننفقه على من يحمي عنا، فقالت : قد جرى ما جرى ونعود إلى ما يعاد إليه، فقال ذلك إليك ولا خلاف مني"[٦١].

بهذا الحوار العقلاني؛ الهادئ استطاعت هذه المرأة أن تنهي خلافاً كان من الممكن أن يؤدي إلى اهتزاز في قمة السلطة، وسينتهي بقتل أحد الأخوين، وسيكون لهذا الحدث ما بعده من تأثير سلبي داخل البيت الرسولي، وعلى سلطانهم في اليمن.

وعندما رجع الملك المجاهد من مصر؛ طلبت منه أمه المعروفة بجهة صلاح، أن يُطلق جميع من في السجن (ممن يعرفون اليوم بالسجناء السياسيين)، من بني رسول[٦٢] فأطلقهم وأسكنهم قرية السلامة[٦٣].

مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية :

قد تبدو مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية، غريبة لدى بعض المطلعين على التاريخ الإسلامي، خصوصاً أولئك الذين رسخت في تصوراتهم صورة نمطية للمرأة، في أنها مجردة من أي دور في الحياة السياسية لمجتمعها، وأنها هضمت وصودرت حقوقها في إبداء الرأي، والمشاركة في صنع القرارات المهمة.

لكن مصادر التاريخ الإسلامي تقدم ما يؤكد على أن المرأة المسلمة كانت مؤثرة في مجتمعها، وأن مجالات عديدة أسهمت فيها، من بينها المواجهات العسكرية، سواء في تقديم العون للمقاتلين، أم في المشاركة الفعلية في المعارك بالسلاح إلى جانب الرجل، لكن مصادر التاريخ اليمني، في العصر الرسولي، تقدم لنا أدوارا للمرأة في المعارك العسكرية، تخطيطا، وإدارة.

فكان (لبنت جوزة) أربعمائة فارس تسيطر بهم على قلعة الدملوة، وتغزو بهم إلى (الحوبان)[٦٤] بعد مقتل الملك المنصور[٦٥]. وفي الوقت ذاته عندما علمت (الدار الشمسي) بمقتل والدها الملك المنصور، استولت على مدينة زبيد، بمساعدة الخدم، ومنعت (فخرالدين) والمماليك من دخولها، حتى أتى أخوها الملك المظفر[٦٦].

وثمة أدوار للمرأة في إدارة الحروب والمواجهات العسكرية، خارج البيت الرسولي، فقد جمعت إحدى الشريفات وتعرف (بامرأة أبي سفين) عددا من القبائل

اليمنية لاستنقاذ زوجها (أبا سفين) وولدها من أمير حرض، بعد أن وقعا في أسـره[٦٧]، ومنعت (أم إدريس) زوجها الإمام من دخول صنعاء، سنة ٧٨٣هـ، فخرج منهـا إلـى حصن (الفص)[٦٨]، وساندت فاطمة بنت الأمير أسد الدين ولدها علي بن صلاح عسكريا ضد خصومه، سنة ٨٠٢هـ، في جهران، فأرسلت إليه المدد من المقاتلين والعتاد[٦٩].

الخاتمـــة :

وهكذا يتضح لنا، من خلال هذه الدراسة المتواضعة، لدور المرأة فـي الحيـاة السياسية، في عصر الدولة الرسولية – أن المرأة حظيت بمكانة مرموقة في مجتمعهـا، وأنها كانت حاضرة في الحياة السياسية، مشاركة في مجمل فعالياتها، بدءاً من تنـصيب السلاطين، ومروراً بالمشاركة في الحكم والانفراد به أحياناً، وتسوية النزاعـات التـي كانت تنشأ بين أفراد البيت الرسولي، وانتهاءً بإدارة المواجهات العسكرية.

نتائج الدراسة :

١- أن القيم الإسلامية لا تعارض مشاركة المرأة في الحياة السياسية، فكان رسول الله يستشير بعض نسائه في بعض القضايا السياسية. وأن الذي أعاق المـرأة فـي مراحل لاحقة بعض التقاليد القبلية.

٢- أن المراحل السابقة للعصر الرسولي، سواء في اليمن أو في الدولة الإسلامية قد هيأت لتقبل الدولة والمجتمع، في اليمن، دوراً للمرأة في الحياة الـسياسية فـي العصر الرسولي.

٣- أن سلاطين بني رسول كانوا يدفعون المرأة دفعاً للمشاركة في الحياة السياسية.

٤- أن مشاركة المرأة في الحياة السياسية فـي العـصر الرسـولي – كمـا تقدمـه المصادر–ارتبطت بشرائح محدده، فاقتصرت على نساء بني رسول، ونساء بعض الولاة والمشايخ والأشراف.

٥- أن كثيراً من زوجات الملوك الرسوليين كُنَّ من بنات العلماء والفقهاء، وهو أمـر يشير إلى درجة إجلال ملوك بني رسول للعلماء، وعلى التعلـيم والـوعي الـذي أحرزته بنات الفقهاء.

الهوامـــش

١ - انظر : المقدم. محمد أحمد إسماعيل. المرأة بين تكريم الإسلام وإهانـــة الجاهليـــة، دار الإيمان، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هــ / ٢٠٠٥م.

٢- زوجة الداعي علي بن محمد الصليحي، وقد كانت امرأة شريفة عفيفة عاقلة، وهي والدة المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي، وكل إليها زوجها التدبير فلم يكن يخالفها في غالب الأمور، وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين، وقد عملت على تولية أخيها التهائم (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٨٥، انظـر:عفـت وصـال حمـزة.نساء حكمـن اليمن.ص ١٣٥،١٥٢، دار ابـن حـزم، بيـروت، ط١،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٣ - الحرة الملكة (سيدة) بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موســى الـصليحي،اختلف فـي اسمها، فذهب بعضهم إلى أن السيدة صفة وليست اسما، مثل محمد بن إسماعيل الكبسي في كتابه اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص ٣٦، والحبشي في معجمه ص ١١، بينما ذهب آخرون إلى أن اسمها سيدة وليس أروى، بمعنى أن السيدة اسم وليس صفة، ولدت سنة ٤٤٠هــ وتولت أسماء بنت شهاب كفالتها وتأديبهـا، كانـت كاملـة المحاسن تجيد القراءة والكتابة وتحفظ الشعر، راوية للأخبار عارفة بالأنساب والتواريخ، وكانت توصف ببلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك، تزوجها المكـرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٨هــ في حياة أبيه، فلما توفي علـي بـن محمد الصليحي ورجع المكرم بوالدته إلى صنعاء بعد الاعتقال فوض أمور مملكته كلها إلى زوجته أروى، فاستبدت بالأمر، وانتقلت من صنعاء إلى جبلة بجيش جرار، توفيـت بجبلة سنة ٥٣٢هــ وقد بلغت بضعاً وتسعين سنة.(الخزرجي. العقد الفاخر الحـسن، ج٥، ص ٢٤٩٠،٢٤٨٨، ٢٤٩٧، عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، تاريخ اليمن (المعروف بــ تاريخ عمــارة اليمنـــي)، ص ١٧٢، مكتبـــة الإرشـــاد، صـــنعاء، ط٢، ١٤٣٠هــ / ٢٠٠٩م، انظر : عفت وصال حمزة، نساء حكمن اليمن، ١٥٥، ٢٠٢).

٤ - أطلق على الدار الشمسي أخت السلطان الملك المظفر لقب الملكة الشمسية، وقد كان لها دور كبير في ترجيح كفة أخيها الملك المظفر بالحكم بعد أبيها الملك المنصور، بنت عدداً من المدارس، توفيت سنة ٦٩٤هــ، قال عنها الإمام المطهر عندما بلغه موتها " ماتت بلقيس الصغرى" (ابن عبد المجيد.عبد الباقي ت ٧٤٣هــ. بهجة الزمن فـي تـاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمـد الـسنباني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هــ / ١٩٨٨م، الحمزي. عماد الدين إدريس بـن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، ص ١٢١، تحقيق : عبد المحسن المدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط١، ١٩٢٢م).

٥ - أم الملوك : هي أم الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل، جهة الطواشي جمال الدين فرحان، لها مآثر بمكة وبتعز وبزبيد، منها المدرسة الفرحانية بزبيد، بنتها سنة ٨١٥هـ، ماتت سنة ٨٣٦هـ.(ابن الديبع الشيباني. بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، بامخرمة. أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد ت ٩٤٧هـ ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١٢، ص ١٥٥، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ).

٦ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٥٦٦.

٧ - الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ. طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٨ - الأمير بدر الدين محمد (ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤م.

٩ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٣٥٠.

١٠- المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢،ص ١٨٤.

١١- الدار الفائز : ابنة السلطان الملك المؤيد داوود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، تعرف بالدار الفائز نسبة إلى الطواشي كمال الدين فائز بن عبد الله المؤيدي، شقيقة السلطان الملك المجاهد، عرفت بعلو الهمة وسمو النفس، بنت مسجداً في زبيد قبالة باب سهام، وعددا من المرافق العامة مثل أسبلة الماء للناس وللدواب، وأوقافاً للفقراء والمساكين في وادي زبيد، توفيت سنة ٧٦٨هـ (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٣).

١٢- بنت الأمير شمس الدين على بن رسول، أما نسبتها الدار النجمي فإلى زوجها الأمير نجم الدين أحمد بن أبي بكر، أحد الأمراء الذين جاؤوا مع الأيوبيين من مصر، عرفت بالصلاح والإحسان، بنت عدداً من المدارس مثل المدرسة النجمية نسبة إلى زوجها، وبنت مدرسة أخرى نسبتها لأخيها شمس الدين الذي توفي بمصر، وكانت تنفق على من بالمدرسة من طلبة وفقهاء وأيتام، كانت غالباً تلبس القطن من غزل يدها، توفيت ودفنت بذي جبلة، الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص٢٥٠٨، ٢٥٠٩،٢٥١٠.

١٣- التعكر. جبل مطل على جبلة، وفيه قلعة عظيمة مكينة في مخلاف جعفر، والمؤرخون على خلاف في ضم التاء وفتحها، فيورد ياقوت الحموي في معجم البلدان التعكر بضم الكاف، فيما يورده الحجري بفتح الكاف، ويوجد في عدن حصن يعرف بالتعكر (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص ٣٦، ٣٧، تحقيق إسماعيل الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

١٤- الجندي. السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج٢، ص ٥٤٦، الخزرجي. العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج١،ص ٩٥.
١٥- زبيد مساجدها، ص ٩٠-٩١.
١٦- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج٢،ص ٧٨٦.
١٧- بدرة بنت محمد بن علي بن صلاح، كانت زوج الناصر بن محمد ثم قرر الفقهاء فسخ عقد زواجها منه أثناء غيابها، فتزوجها الإمام المطهر بن محمد بن سليمان، كانت موجودة سنة ٨٤٩هـ (كحالة. معجم النساء، ص ٣٤).
١٨ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٢٩٥-٢٩٦.
١٩ - يحيى بن الحسين.غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص٥٢٧، ٥٢٩ ، تحقيق. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٢٠ - إدريس بن عبد الله
٢١ - صلاح بن علي
٢٢ - فاطمة بنت الحسين
٢٣ - يحيى بن الحسين. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ج٢،ص ٥٧٣.
٢٤ - ابنة الأتابك سيف الدين، وأرملة الملك المسعود الأيوبي آخر ملوك الأيوبيين في اليمن، لكنها تعرف ببنت جوزة، ثم تزوجها الملك نور الدين عمر بن علي بن رسول، فولدت له المفضل والفائز (الحداد. التاريخ العام لليمن، ج٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء،١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)
٢٥ - الأمير أبو الحسن محمد بن الحسن بن علي بن رسول الجفني الغساني، يلقب بأسد الدين، أحد قادة بني أيوب العسكريين، ابن أخ السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول، ولاه صنعاء وكلفه ببسط سيطرة الدولة على اليمن العليا، فاستولى على صنعاء وحكمها حكماً شبه مستقل، ولما ولي المظفر تقرب منه أسد الدين، وزوج السلطان المظفر ابنتة، توفي سنة ٦٧٧هـ، وعمره نيف وستون سنة (الخزرجي.العقد الفاخر الحسن، ج٤، ص ١٨٥٥،١٨٥١).
٢٦ - العقد الفاخر الحسن، ج٤، ص ١٨٥١، انظر الأكوع. إسماعيل بن علي، الدولة الرسولية في اليمن، ص ٣٢،، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠٣م، الفيفي. الدولة الرسولية في اليمن (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية) ص ٤٧، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
٢٧- الدار الشمسي نسبة إلى أخيها الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ابنة السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، كانت من أعيان النساء وأعقلهن، عفيفة حازمة، كان لها دور كبير في وصول أخيها الملك المظفر إلى عرش الدولة الرسولية بعد وفاة والده الملك المنصور، لها مآثر كثيرة في نواحي اليمن من مدارس

ومساجد وأوقاف، توفيت سنة ٦٩٥هـ، وأوصت بأملاكها لابن أخيها المؤيد (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٩٧،٢٤٩٨، عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤، الجندي. كتاب السلوك، ج٢،ص ٤١، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار، ص ١٠٠، هامش العطايا السنية، ص ٢٤٩).

٢٨ – لما بلغ الملكة الدار الشمسي موت والدها أخرجت خادمها تاج الدين بدر من السجن وأنفقت على من بزبيد من العسكر وغيرهم من العوارين من اهل المدينة وحفظت المدينة من المماليك الذين أتوا مع فخر الدين للاستيلاء على المدينة (عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤،١٤٥، الجندي. بهاء الدين محمد بن يوسف، السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج٢،ص ٤١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار، ص١٠٠، هامش العطايا السنية، ص ٢٤٩.

٢٩ – الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار،ص ١٠٠، تحقيق : عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي،الكويت، ط١، ١٩٩٢.

٣٠ – دخل الملك المظفر زبيد وملكها في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ (الوصابي. وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحبيشي ت سنة ٧٨٢هـ، تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، مجهول. تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ٢٧، تحقيق. عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م).

٣١ – المهجم : إحدى مدن تهامة قبالة ساحل اللحية شرق مدينة الزيدية على ضفاف وادي سردد ، كانت ثاني مدن تهامة في العصر الرسولي ، بها جامع كبير جدد بناءه الملك المظفر (الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب. صفة جزيرة العرب، ص٩٧، تحقيق محمد بن علي الأكوع،مكتبة الإرشاد، صنعاء،ط٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م،ابن الديبع. قرة العيون، ص ١٧١).

٣٢ – الشحر :بكسر الشين وسكون الحاء المهملة – كما قال ياقوت- الساحل الضيق، فيما يعزي با مخرمة سبب التسمية إلى أن سكانها كانوا جيلاً من المهرة يسمون الشحراء بفتح الشين، وهي الآن مدينة معروفة على ساحل حضرموت، وإليها ينسب اللبان الشحري، وهي بلاد كثيرة الآبار والنخيل.(ياقوت شهاب الدين أبو عبد الل الحموي. معجم البلدان، ج٣، ص ٣٢٧،٣٢٨، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت. الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٤٤٧، المقحفي، معجم المدن والقبائل اليمنية، ص٢٢٧).

٣٣ – ابن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٣.

٣٤ – جهة صلاح أو الدار الصلاحي، اسمها آمنة بنت الشيخ إسماعيل بن عبد الله الحلبي المعروف بالنقاش، زوجة السلطان المؤيد داوود، وأم ابنه السلطان الملك المجاهد علي بن داوود، كانت،كما تصفها المصادر،شريفة النفس عالية الهمة رفيعة الأخلاق حسنة التدبير سديدة الرأي لبيبة رشيدة عاقلة، كثيرة الصدقات تحب العلماء وتقربهم، تقوم بالوافدين والمنقطعين، تدور على بيوت الفقراء وتتفقدهم وتواسيهم بالعطايا، أنشأت عدداً من المدارس والخانقاوات والمساجد، منها المدرسة الصلاحية بزبيد، ومدرسة ومدرسة في قرية المسلب بوادي زبيد وأخرى في قرية السلامة، وخانقاه أمام المدرسة الصلاحية، ومسجد في قرية التربية، وآخر في المجلية بتعز، توفيت في مدينة تعز سنة ٧٦٢هـ (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٩٩، الحبشي. عبد الله محمد. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، عبده علي هارون. الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، ص ٧٠٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

٣٥ – لما توفي الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول واستولى ولده المجاهد على المملكة اليمنية بأسرها تآمر عليه المماليك واستمالوا عمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف وأطمعوه في الملك، فلزموا المجاهد في قصر ثعبات وحملوه إلى عمه المنصور فأودعه دار الأدب من حصن تعز، واستولى المنصور على الملك، ثم أن والدة المجاهد المعروفة بجهة صلاح استخدمت رجالاً وبذلت لهم الغرائب الجزيلة فقصدوا الحصن ليلاً وطلعوا من ناحية الشريف بمساعدة جماعة من داخل الحصن، فلما صاروا في الحصن دخلوا على المنصور، وساروا به إلى مجلس المجاهد، ثم سجنوه وأخرجوا المجاهد من سجنه، وبذلك استولى على الملك مرة ثانية بمساعدة والدته (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٩٩، با مخرمة. تاريخ ثغر عدن ، ص ١٤٥، ١٤٦، انظر كذلك الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩).

٣٦ – الدملوة : بضم أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو، حصن عظيم باليمن بمحافظة تعز في عزلة الصلو، فيه قلعة في أعلى قمة في جبال الصلو، كان يسكنه آل زريع، وتسمى القلعة كذلك بقلعة أبي المغلس، يصعد إلى الحصن بسلمين، وفي الحصن مسجد وبركة للماء (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص ٣٣٦، ٣٣٧).

٣٧ – با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ١٧٧.

٣٨ - المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢،ص ١٨٤.

٣٩ - ابنة الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله البركاني من ناحية لحج أبين، والدة السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، عرفت بجهة طغي نسبة إلى الطواشي جمال الدين طغي بن عبد الله الأفضل، عرفت بالعقل والحزم، لما مات الأفضل قامت وشمرت عن ساعد الجد، واستدعت الأمراء وأعيان العسكر ووجوه الأشراف ومشايخ العرب وأمرت بالنفقة على سائر العسكر، وعلى الكافة في القيام بطاعة الله، ولولدها السلطان الأشرف، ووعدتهم بما

تطيب به نفوسهم فانضوا جميعاً تحت طاعته وانقادوا له، وكان لها دور في إنشاء المرافق العامة مثل المدارس والمساجد والمسقايات، والإنفاق على الفقراء والمساكين، كثيرة العتق للعبيد والجواري، توفيت سنة ٧٨٤هـ (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٢، الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص٥٥).

٤٠ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص٥٥.

٤١ - المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢،ص١٨٤، ١٨٧، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣، ص١٦٤ انظر كحالة. عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج١، ص ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.

٤٢ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٠.

٤٣ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٠، كحالة. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج٣، ص٥.

٤٤ - ابن الديبع. قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٣٣٨، يحيى بن الحسين. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني،ج٢، ص٥١٣،الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص٣٩.

٤٥ - هم بعض سكان تهامة بلادهم بين حيس وزبيد

٤٦ - كانت شيخة على قبيلة المعازبة، تقود قومها على دابة أو جمل وتتقدمهم سنة ٧٤٠هـ، وكانت من النساء العاقلات (الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٩)

٤٧ - جهران : سهل فسيح على بعد (٦٦) كيلو متر إلي الجنوب من صنعاء، من أعمال آنس محافظة ذمار، ينسب إلى جهران بن يحصب بن دهمان بن مالك، من ولد سبأ الأصغر، ويعرف بقاع جهران (المقحفي. إبراهيم أحمد، معجم المدن والقبائل اليمنية، ١٢٥، ١٢٦، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م).

٤٨ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.

٤٩ - فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين

٥٠ - يحيى بن الحسين. غاية الأماني، ج٢،ص ٥٧٣.

٥١ - الخزرجي. العقود اللؤلؤية، في تاريخ الدولة الرسولية، ج١، ص ٢٤٦، الزركلي. الأعلام، ج٢،ص ٣٢٩، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ٢٠٠٢م.

٥٢ - ابن الديبع. قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٩.

٥٣ - بهجة الزمن، ص ١٧٦.

٥٤ - المقصود به حصن تعز (قلعة القاهرة الآن) كان اسم الحصن تعز، فيما كانت المدينة التي يطلق عليها الآن تعز تعرف بذي عدينة، وشيئاً فشيئاً بدأ اسم الحصن ينسحب على المدينة، فأطلق اسم الحصن على المدينة، وكان الحصن مقراً للحكم في العصر الرسولي، وفي العصور التالية، على أن أول من أقام فيه كما تشير المصادر عبد الله الصليحي، وفيه دار للأدب (سجن) للمعارضين السياسيين (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٦٤٦، المقحفي. معجم المدن والقبائل اليمنية، ص، ٦٩، ٣٢٢).

٥٥- الستور : لقب للمرأة المجلة المحتجبة عن الناس، كان مستعملاً في العصر الرسولي للدلالة على نساء بني رسول لاسيما زوجات السلاطين والأمراء.
٥٦- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٢ص ٦٧١، ٦٧٢، با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص٨٠.، انظر : الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٧.
٥٧- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٢، ص ٦٧٣.
٥٨- جهة معتب : هي جهة الطواشي جمال الدين معتب بن عبد الله الأشرفي، والدة الملك الناصر أحمد بن السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي بن داوود بن يوسف بن عمر بن علي رسول، اجتمعت فيها صفات الحلم والعفة والكرم، لها كثير من المآثر الدينية، لعل أهمها المدرسة المعتبية في ناحية الواسطة بمدينة تعز، وقد رتبت فيها فقهاء ومحدثين وطلبة، ومعيدا، وأيتاما، والمدرسة ما زالت إلى الآن وان اقتصرت وظيفتها على أداء الصلوات الخمس، وكانت مهتمة بالمرافق العامة مثل إصلاح الطرقات العامة، وتقديم الخدمات للمارة فيها مثل أسبلة الماء وتمهيد الطرقات، توفيت بدار النصر بزبيد سنة ٧٩٦هـ (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٤، ٢٥٠٥).
٥٩- العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٥.
٦٠- البريهي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م
٦١- ابن حاتم.السمط الغالي الثمن، ٢٩٥- ٢٩٦.
٦٢- هم ابن عمه محمد بن المنصور بن المظفر، وأحمد بن الناصر بن عمر الأشرف، وعمر بن حسن بن داوود بن يوسف المظفر (يحيى بن الحسين. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص٥١٦).
٦٣- يحيى بن الحسين. غاية الأماني، ج٢ص ٥١٦.
٦٤- إلى الشمال من مدينة تعز، وهو سهل فسيح فيه مدينة الجند ومسجد معاذ بن جبل، وكان الجند في العصر النبوي وما بعده أهم مخاليف اليمن ومقر لإدارة ولاية اليمن(المقحفي. معجم المدن والقبائل اليمنية،ص ١٣٢.
٦٥- ابن عبد المجيد. بهجة الزمن، ص ١٤٧.
٦٦- الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص١٠٠.
٦٧- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٤٣٦، ٤٣٧.
٦٨- يحيى بن الحسين. غاية الأماني، ج٢، ص ٥٢٩.
٦٩- يحيى بن الحسين. غاية الأماني، ج٢، ص ٥٥٤، ٥٥٦، الحبشي، معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

با مخرمة. الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م).

١- تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، تحقيق علي حسن الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

٢- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

البريهي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن.

٢- طبقات صلحاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م.

ابن تغري بردي.

٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

الجندي. بهاء الدين محمد بن يوسف.

٤- السلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

ابن حاتم. الأمير بدر الدين محمد (ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)

٥- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤م.

الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي.

٦- تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، تحقيق : عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي،الكويت، ط١، ١٩٩٢.

الخزرجي. أبو الحسن علي بن الحسن ت ٨١٢ هـ.

٧- العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن، تحقيق عبد الله بن قائد العبادي وآخرين، الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

٨- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

ابن الديبع. عبد الرحمن بن علي الشيباني الزبيدي ت ٩٤٤هـ.

٩- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

١٠- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦ م.

السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن .

١١-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.

الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ.

١٢- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
ابن عبد المجيد. عبد الباقي ت ٧٤٣هـ.
١٣- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني.
١٤- تاريخ اليمن (المعروف بتاريخ عمارة اليمني)، ص ١٧٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).
المقريزي.
١٥- السلوك لمعرفة دول الملوك،.
ابن منظور. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي.(ت ٧١١هـ/١٣١١هـ).
١٦- لسان العرب، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.
وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الوصابي ت ٧٨٢هـ.
١٧- تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م
الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب
١٨- صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
ياقوت.شهاب الدين أبي عبد الله الحموي
١٩- معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
يحيى بن الحسين.
٢٠- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ثانياً : المراجـــع:

الأكوع. إسماعيل بن علي
٢١- الدولة الرسولية في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.
الحبشي. عبد الله محمد.
٢٢- معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
الحجري. محمد بن أحمد
٢٣- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، جـ٢، ص ٤٦٢،تحقيق : إسماعيل بن علي الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة،صنعاء، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤.
الحداد. محمد يحيى.

٢٤- التاريخ العام لليمن، ج٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء،١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
الزركلي.
٢٥-الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ٢٠٠٢م.
عبده علي عبد الله علي هارون.
٢٦- الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).
عفت وصال حمزة.
٢٧- نساء حكمن اليمن، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)
كحالة. عمر رضا.
٢٨- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.
الفيفي. محمد بن يحيى.
٢٩- الدولة الرسولية في اليمن (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
المقحفي. إبراهيم
٣٠- معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م).
المقدم. محمد أحمد إسماعيل.
٣١- المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار الإيمان، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

المطبخ السلطاني في اليمن في عصر بني رسول

(٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)

د. سـلوى عبد القادر السليمان (*)

كان للاستقرار السياسي الذي عرفه اليمن في عصر الدولة الرسولية[1]، انعكاس واضح على الجوانب الحضارية التي وجدت كل الاهتمام والعناية من سلاطين هذه الدولة، حيث أولوا اهتماماً خاصاً بالتنظيم الإداري والمالي، وأوجدوا وظائف ودواوين متعددة، وشهد الجانب الاقتصادي نمواً وازدهاراً كبيراً، نتيجة للاستقرار السياسي والتنظيم الإداري والمالي، وكان التطور الثقافي والعمراني من أهم ثمار هذا الاستقرار، وأدى كل ذلك إلى مظاهر الرفاهية التي عاشها سلاطين آل رسول.

فقد حرص هؤلاء على بناء القصور والدور والحدائق، وتوفير كافة وسائل الترفية والرفاهية لهم ولنسائهم وأبنائهم[2]، وكان من ذلك الموائد السلطانية، وما تحتويه مما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة للسلطان وعائلته، وضيوفه على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية، وهذا ما يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات حول المطابخ السلطانية وأنواعها، وموظفيها وإدارتها وطريقة تموينها، وأنواع الوجبات الغذائية والأشربة التي كانت تقدم في مختلف المناسبات.

وذلك للوصول إلى هدف الدراسة وهو: إبراز دور المطابخ السلطانية في تنويع الوجبات اليمنية وكيفية إعدادها، والطريقة التي يتم فيها تنظيم الموائد السلطانية، وأهم عادات تلك الموائد.

أولاً: أنواع المطابخ السلطانية وملحقاتها:

تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً للمكان والتخصص، ومن تلك المطابخ، المطبخ الذي يتموضع داخل القصر السلطاني، وله عدة تسميات هي: المطبخ الكبير أو المطبخ داخل، أو المطبخ، وإن تعدد ذكره بصفات مختلفة فان المقصود واحد، وهو أنه المطبخ الخاص بتحضير الطعام للسلطان وعائلته، داخل القصر.

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الدمام.

كما عرف المطبخ العام أو المطبخ الخارجي(٣)، وهذا المطبخ تخصص في تحضير الطعام الذي يوزع على الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.

وعرف نوع آخر يسمى مطبخ شُكر، وهو أحد المطابخ السلطانية الملحقة بقصر السلطان "الملك المظفر الأول يوسف بن عمر" (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م)، ويبدو أن هذا المطبخ كان مخصصاً لإعداد المشروبات والمزة الخفيفة مثل السلطة والمخللات التي تعد من بعض الخضروات، وسمي مطبخ شكر باسم الطبّاخ المسئول عن إدارته. كما ورد اسم مطبخ البوارد، ويبدو أنه مخصص لطبخ وجبة غذائية بنفس الاسم(٤).

وهناك نوع من الخيم مخصصة لأعمال المطابخ، فيها يتم طهو الطعام، وبها تحفظ القدور والصحون وأدوات المائدة المختلفة، وحاجات الطباخة من الدقيق والزيت والسمن وغيرها(٥)، ومن الواضح أنها مطابخ متنقلة للرحلات.

وكانت هناك مطابخ أصغر، أو ما يسميه كتاب نور المعارف "بيت"، وهو مكان ملحق بالمطبخ، مخصص لإعداد الحلويات الخاصة بالسلطان والحاشية الملكية، كما أعتبر الساقي مكاناً مخصصاً لإعداد المشروبات يتبع المطبخ السلطاني، ويسمى أيضاً بيت المشروبات أو الشرابخانة السعيدة(٦)، والمخبز وهو المكان المخصص لإعداد الخبز بأنواعه المختلفة، وبيت اللحوح، وهو المكان المخصص لإعداد اللحوح وهو أحد الوجبات المشهورة في اليمن حتى عصرنا الحالي، وبيت التحويج(٧) وهو المكان المخصص للتوابل والبهارات، وهو تابع للمطبخ السلطاني، وتصرف فيه الحوائج أي التوابل للطباخين وفقاً للمقادير المطلوبة والمحددة لكل وجبة(٨).

ثانياً: أدوات المطابخ السلطانية:

تنوعت أدوات المطبخ السلطاني في عصر الدولة الرسولية، إلى أدوات معدنية من نحاس وفضة، وخزفية وفخارية وخشبية وزجاجية وبلورية وحجرية، وفيما يلي نذكر بعض تلك الأدوات:

- الكراسي: وتصنع من الخشب خصيصاً للجلوس عليها عند تقطيع الخضار أو الطبخ على الموقد، وهي مقاعد واطئة يبلغ ارتفاعها شبرا تقريباً(٩).
- المناسف: طبق كبير من سعف النخيل لتنقية الحبوب(١٠).
- المناخل: لنخل الدقيق وتنقيته، والغرابيل لغربلة الحبوب، وتكون فتحتها أكبر من المناخل.

– الثياب الخام: وهي أقمشة بيضاء غير مصبوغة، كانت تستعمل بكثرة في المطابخ السلطانية مثل (بيت الحلوى، والمخبز، والشرابخاناه... وغيرها) (١١)، ونرى أن هذه الأقمشة كانت تستخدم لتغطية القدور والأطباق، إلى جانب استخدامها في مسح الأيدي وإزالة العرق من قبل العاملين في المطابخ.

– الملاكد: المكلد هو الوعاء الذي تدق فيه البهارات، والحبوب ومواد أخرى عديدة، ولا تعرف له في بلاد اليمن إلا هذه التسمية، بينما يسمى في بعض البلاد العربية الهاون، وهو مصنوع من الخشب أو النحاس أو الحديد(١٢).

– المهارس: ومفردها مهراس آلة الهرس، وهو الهاون، يهرس به وفيه الحب(١٣).

– القدور: وهي آنية للطبخ مصنوعة من أحجار مخصوصة غالباً، وهي ذات سعات وأحجام مختلفة عديدة، منها الزُخميات وهي نوع من القدور الضخمة يطهى بها اللحم، حيث يستوعب بعضها ثلاثة من الأغنام(١٤).

– المقالي: المقلى إناء يخرط من الحجر مازال معروفاً بنفس الاسم في اليمن الى يومنا، تطبخ فيه على النار الوجبات الشعبية، وميزت المقالي عن غيرها من أواني الطبخ بأنها تظل محتفظة بسخونتها مدة طويلة . وهي تختلف من حيث أحجامها، فمنها الصغير ومنها الضخم ويسمى مقلى الزُخمي(١٥).

– المشـــافة : آنية من الحجر، مازالت معروفة، وان كانت في عصرنا تعمل من الفخار، وهي أصغر من الملحة (آنية اللحوح) ويتم عمل نوع من الأرغفة الإسفنجية الشكل على سطحها، وهي ما يعرف بـ (القطايف) وهي المعروفة ايضاً في عصرنا، وخاصة في شهر رمضان، وجاء ذكر هذه الآنية باسم المشوفة وهو نفس النوع الذى ينضج عليه الخبز(١٦).

– الصحون و الزبادي: وجدت الصحون في عصر الدولة الرسولية من مواد مختلفة، كالفخار والصحون والزبادي الصيني، ويحدد من هذه الصحون ما يستخدم لطعام السلطان أثناء سفره، فتكون مفروزة وحدها ولا تستعمل إلا أثناء سفره، فاذا استقر به المقام استعملت أطباق وأوان من الصيني الخاص بطعام الملك، مخصصة لطعامه عند إقامته سواء في عاصمة الدولة أو المدن التي يزورها.

وتحفظ الأواني والأطباق الخزفية الصينية في الخزانة العامة للدولة، ومنها تصرف للمختصين لاستعمالها في الموائد الملكية، وحفظها في خزانة الدولة التي تحتوي على الأموال العامة يدل على قيمتها النفيسة، وعلى قصر استعمالها كامتياز على الأسرة المالكة وحاشيتها(١٧).

وهناك نوع من الصحون يصنع من الحديد والنحاس، بمقاسات مختلفة، منها ما يسمى المعاشر (جمع مَعْشرة) وهي طبق من النحاس كبير الحجم، توضع داخله أطباق الطعام: وِيستخدم بعض أنواعه الصغيرة كإناء للطعام، وتقدم بالمعاشر الصغيرة من النحاس مشهيات الطعام (المقبلات) ولا يزال هذا المصطلح مستخدم عند أهل اليمن، كما استخدمت صحون مخصصة للحلوى أطلق عليها البقلدانية، وهي مخصصة لتقديم البقلاوة[١٨]. إلى جانب ما يسمى قصاع (عُلب) بأحجام مختلفة للحلوى.

- الملحّات: مفردها ملّحَة وعاء من الفخار، ومازال معروفاً بنفس التسمية، يستعمل لتحضير الخبز الهش المسمى"اللحوح"[١٩].
- المعاجن: مفردها معجنة، وهي أوعية فخارية مازالت معروفة في مدينة زبيد[٢٠] وهي ذات شكل دائري سميكة القاعدة، وعمقها يختلف تبعاً لاختلاف مقاساتها، وبها يعجن الدقيق ويهيأ ليكون خبزاً.
- الأقشمة: أوعية فخارية خاصة بالخضروات .
- السُفر: جمع سُفْرة تتخذ من خوص النخيل، تفرش على الأرض وتقطع عليها اللحوم.
- القرّامي: جمع (قِرْمَة) وهي قطعة من الخشب تقطع عليها اللحوم[٢١].
- التُور: جمع (تَوْرة) طبق مصنوع من خوص النخيل، يستخدم لأغراض متعددة، مثل وضع بعض الأطعمة لنقلها إلى المائدة مثل الخبز واللحوح، كما تحفظ فيه أطعمة أخرى[٢٢]. وتستخدم في زماننا وبنفس الاسم.
- قصور الحلوى: هي عبارة عن تشكيلة خشبية تصمم على هيئة قصر، ترتب عليها صحون الحلوى في المآدب السلطانية، وربما تخيلنا شكل هذه القصور لتقريب فهمها للأذهان، بما يماثل النظام المتبع في ترتيب أنواع الحلوى في أفخم الفنادق في عصرنا، مع فارق الزمن وتغير نوع المواد الحاملة لأصناف الحلوى[٢٣].

هذه هي أهم أدوات المطابخ السلطانية، بالإضافة إلى الملاعق أو السكاكين، والجرار التي تنقل المياه و الأقداح التي يشرب فيها الماء، أو أنواع الشراب المختلفة، والقناني وهي الآنية الزجاجية التي كان يوضع فيها ماء الشرب أو الخل، والمغارف التي تغرف بها السوائل والمواد الجافة[٢٤].

ثالثاً: موظفي المطابخ السلطانية:

ضمت المطابخ السلطانية، بمختلف أنواعها، عدداً من موظفي الدولة العاملين فيها، حيث يتولون إعداد الموائد الخاصة بالسلطان وأفراد أسرته، وكبار رجال الدولة المقيمين في قصوره، والأطعمة التي تجهز لضيوف السلطان والوافدين اليه في الدار السلطانية المعروفة بدار الضيف[٢٥].

الطباخون: انقسم الطباخون إلى قسمين: قسم ارتبط بالسلطان ومطابخه، وهم الطباخون الدائمون، أو المستمرون في الخدمة داخل المطبخ السلطاني لا يغادرونه، سواء بقي السلطان في مقر إقامته أم غادره إلى دار أو موضع آخر. ومما يؤكد لنا ذلك الإرتباط؛ ما كان يطلق عليهم في زمن السلطان الملك المظفر "يوسف ابن عمر الرسولي" الذي اضيف اليه لقب الخليفة الى جانب تسميته بالسلطان والملك، وأطلق على الطباخين الخاصين بمطبخه السلطاني (الخليفتيه)[٢٦].

أما القسم الثاني فكان تحت تصرف السلطان، ينتقل معه حيثما ذهب أو سافر، وعرفوا بطباخي الطوارئ؛ وقد يكلفون بمهام خاصة كمرافقة قوات السلطان عند غزو أي منطقة، وقد يخرجون إلى بعض المناطق ضمن وفود السلطان التي تكلف باستقبال بعض كبار الشخصيات من الأشراف وغيرهم، إذ يتولون عملية الطباخة في خيمة تنقل معهم، تكون مخصصة لأغراض الطباخة وإعداد الأطعمة، وتخزين الحوائج وأدوات المطبخ[٢٧].

- السِباسَلاَرِيَّة: يطلق هذا اللقب على الطباخ المشرف والمسئول الأول عن المطابخ السلطانية (كبير الطباخين)[٢٨].
- الشواء: هو الذي يعمل على إعداد اللحم وتحويجه (إضافة التوابل) وشويه.
- الشرائحي: هو من يعمل على تجهيز اللحم وتقطيعه إلى شرائح.
- المُهَرِّس (الهرائسي): هو من يتولى إعداد وجبة الهريسة التي تتكون من القمح واللحم[٢٩].
- الخبازون: ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الخبازين (ذكور و إناث) ممن يصنعون أنواع الخبز التي يتم وضعها إلى جانب الأطعمة[٣٠]، أو التي قد تكون من المقادير الرئيسية لوجبات يمنية شعبية، كخبز الرقاق الذي يعتبر العنصر الأساسي لأكثر من وجبة غذائية، وخبز اللحوح الكعك اليمني الذي يدخل في إعداد بعض الأطباق أيضاً.
- الكماخي "المخللاتي": هو الذي يعد ما لذ وطاب من (الكوامخ) وهي المخللات التي تقدم كمشهيات للطعام[٣١]. (ما يسمى في عصرنا الحالي المقبلات).

-القنبريسي: وهو الذي يتولى إعداد القنبريس، وهو من الحليب الطبيعي الحيواني المجمد (اللبنة في عصرنا الحالي)[٣٢].

-الحلواني: هو الذي يتولى إعداد الحلويات.

وإضافة إلى هؤلاء الطباخين؛ ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الموظفين والحرفيين ممن لا دخل لهم في الطبخ وإعداد الطعام مثل:

-الكتّاب: الذين يعملون على تسجيل الداخل والخارج من هذه المطابخ، وتسجيل كل ما يحتاج اليه الطباخون من حبوب وخضار وفواكه، وحوائج وأوعية وأدوات.

-الوزانون: الذين يعملون على وزن الأشياء من متطلبات المطابخ، وتحديد مقاديرها بشكل يومي، وجاء ذكر أحدهم في عصر السلطان المظفر الأول وهو (صبح الوزان)[٣٣].

-القمّاط: وهو الموظف المختص بشراء الأغنام والحيوانات بالجملة، وإيصالها إلى المطابخ السلطانية، ويكون ذلك بتكليف من المسئول الأول عن هذه المطابخ بعد إعطائه مبالغ مالية لهذا الغرض، للحصول على لحوم طازجة بشكل يومي؛ ومن هؤلاء شخص يعرف بأبي بكر بن مُرّي القمّاط[٣٤]. ومازال هذا اللقب (القمّاط) يطلق على كل من يجلب الحيوانات والحبوب، ويبيعها في القرى والأسواق الأسبوعية أو في أسواق المدن.

-الجزارون: الذين يقومون بذبح الأغنام وتنظيفها وتقطيعها في المسالخ التابعة للمطابخ السلطانية، وممن عُرف منهم في عصر السلطان "المظفر الأول" شخص يعرف بمقبل الجزار. وتضم هذه المسالخ عدداً من الغلمان المعروفين بغلمان السلخانة[٣٥]. ويبدو أن مهمتهم تقتصر على أعمال التنظيف والحمالة.

-المرقدار: الذي يتولى الإشراف على إعداد المائدة الملكية (السماط) وترتيب الأطباق والأطعمة عليها، ويكون مسئولاً عن كافة الأواني والأوعية من الصحون والزبادي والأطباق، وعن طرق حفظها وتخزينها[٣٦].

-الساقي: هو الذي يتولى بسط المائدة (السماط) وتقطيع اللحم عليها، ثم سقي المشروبات بعد رفعها. وإلى جانب هؤلاء؛ عمل عدد من الموظفين والمتخصصين في صنع أنواع المشروبات والعصائر التي تجهز للسلطان، فيما يسمى بالشرا بخاناه، وهو بيت المشروبات، ويحتوي مختلف أنواع المشروبات، وما يحتاج اليه من مواد لتحضيرها مثل: السكر والمربيات والحلوى والفواكه والعطور، إلى جانب أدوات المشروبات من آنية زجاجية، وخزف صيني، ومحلي، وكيزان، وصحاف وصحون من نحاس[٣٧].

–الغرافون: وهم من يتولون غرف الأطعمة في الصحون والآنية المختلفة[٣٨].

–الحوائج كاش: وهو الموظف المختص بشراء كافة احتياجات الحوائج خاناه[٣٩]. التابعة للمطابخ السلطانية، وتكون تحت يده مبالغ مالية سائلة، بصورة دائمة تمكنه من الحصول على ما يريد. ولفظ (كاش) يعني دفع القيمة نقداً[٤٠].

–المُبَرصح: لقب لشخص يعمل في المطابخ السلطانية ومهمته غير معلومة، واللفظ ليس له ذكر في العربية، وهو من الألفاظ الخاصة المستعملة في بلاد اليمن، ويطلق لفظ (البرصاح) وجمعه (براصح) على الموضع الفسيح الذي يكون ملحقاً بالحقل، ترمى فيه الأحجار وغيرها، وتبعا لهذا ربما كانت مهمة (المبرصح) هي نقل الأدوات والأشياء وتنظيمها في المطابخ لإيجاد فسحة واسعة في المكان، تتيح حرية الجلوس والحركة للعاملين به من الطباخين والمشرفين وغيرهم[٤١].

–الصكار: وهو من الحرفيين العاملين في المطابخ السلطانية، ومهمته العناية بالقدور النحاسية المستعملة في تلك المطابخ[٤٢].

رابعاً: أنواع الموائد السلطانية (السماط):

السماط لفظ يطلق على مائدة الطعام الخاصة بالسلطان، ونستطيع أن نطلق عليها بلغة عصرنا: المائدة الملكية وكانت تنقسم إلى :

–السماط العام: ويسمى (الخرجي) أو المائدة الملكية العادية غير الفخمة، والتي يمكن أن يأكل منها أيا كان من الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.

–السماط الكريم: هذا هو السماط السلطاني، أو المائدة الملكية التي تُعد للسلطان في الدار المخصص للضيوف[٤٣].

–السماط الطّاري: السماط الخاص الذي يعمل للسلطان يومياً، بعد السماط الأول الذي يمد أول النهار لا يأكل منه السلطان، ثم السماط الثاني ويسمى السماط الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ،ثم ثالث بعده يسمى الطاري ومنه مأكول السلطان[٤٤].

–سماط القدوم المبارك: هو أول سماط يمد للسلطان بعد وصوله مباشرة إلى ثغر عدن أو غيره، وهو يماثل في عصرنا (مأدبة استقبال حاكم البلاد ورئيسها عند زيارته لعاصمة محافظة من المحافظات[٤٥].

-السماط الكبير: خيمة كبيرة كانت تنصب للسلطان ومن معه، من أجل أن تتسع للناس في المناسبات الكبيرة مثل العيد، أو زيارة السلطان لبعض المدن[٤٦].

وقد يطلق سماط على (بدل تغذية) أو (مقابل طعام الجندي) وكان يخصم من مرتب الجندي السنوي؛ مرتب شهرين مقابل حصوله على تغذية لمدة عام، في الموقع الذي يقيم فيه[٤٧].

خامساً: مناطق تموين المطابخ السلطانية:

عرف اليمن زراعة أصناف عديدة من حبوب الطعام، اختلفت أنواعها حسب المواقع التي زرعت بها، والظروف المتوافرة لها، إضافة إلى فترات زراعتها، وبذلك وفر لنفسه ولماشيته الغذاء خلال أغلب فترات السنة، كما غرس أصنافاً عديدة من الأشجار المثمرة كاللوز والتين والعنب في اليمن الأعلى والنخيل في اليمن الأسفل، فوفر لنفسه غذاء إضافياً. وإلى جانب ذلك سمحت له الظروف الطبيعية، أو حتمت عليه، تربية أنواع مختلفة من الدواب، مكنته من إثراء غذائه النباتي بغذاء حيواني أساسه الحليب واللحم، أما البحر فوفر مصادر للرزق والغذاء، تمثلت في أصناف عديدة من الأسماك.

وتعتبر الذرة بأنواعها المختلفة، البيضاء والحمراء؛ من أهم المحاصيل في اليمن قديماً وحديثاً، وتسمى عند أهل اليمن "الحَبّ" أو الطعام، وأهم مناطق زراعتها هي الأراضي التهامية والأراضي الجبلية[٤٨]. وغالباً ما يكون الحديث عن الذرة مصحوبا بالحديث عن الدّخن الذي يدخل في صناعة أصناف عديدة من الوجبات كالذرة[٤٩]، وتكثر زراعته في كل من تهامة ولحج[٥٠] وابين[٥١] ، وتنتشر زراعته في الجبال أكثر، وخاصة في الأراضي المتوسطة الخصوبة مثل: تعز[٥٢] وإب[٥٣]، والضالع[٥٤]. ويافع[٥٥] وشبوة[٥٦]، ووصاب[٥٧] وحَجّة[٥٨]. ويعرف أهل اليمن مايسمى (الطهف) وهو حب من نفس فصيلة الدخن لكنه أصغر منه حجماً، ويصنع منه ومن الدخن الخبز اليمني، ويزرع في نفس ظروف زراعة الدخن[٥٩].

أما القمح، فهو من المحاصيل الزراعية التي تحتل الموقع الثاني بعد الذرة، وكان ينتشر في اليمن الأعلى بمختلف مناطقة وخاصة المرتفعات. ويحتل الشعير مكانة متميزة ضمن محاصيل اليمن قديماً وحديثاً، ويعد من المحاصيل الهامة، خاصة وانه يمثل طعاماً للإنسان وعلفاً للحيوانات المختلفة، ويزرع في المناطق الباردة والمرتفعات. والقمح من المكونات الرئيسية لصناعة الخبز وبعض الحلويات.

وللجلجلان (السمسم) أهمية في المطبخ السلطاني، وهو نبات حولي زراعي دهني يزرع لبذوره المأكولة والتي تشكل عنصراً هاماً من عناصر بعض الأطعمة

والحلويات اليمنية[٦٠]، ويستخرج من بذوره السَّيرج، وهودهن السمسم بعد تحويله في معاصر خاصّة. هذا الدّهن له استعمالات عديدة – فإلى جانب الغذاء والاستعمالات الطبية مثل زيت السمسم – فهو مادة أوليّة في صناعة الصابون، أما مناطق زراعته فهي المناطق الحارة لذلك نجده في أودية تهامة، وعلى الأخص الكدراء[٦١]، والمحالب[٦٢]، ولحج، وأبين، وأحور[٦٣]، وتعز والجَنَد[٦٤]، وخدير[٦٥]، وجبَا[٦٦]. وقد استخدمت المطابخ نوعان من السكر الأبيض المنتج في زبيد، والآخر المصري المنسوب إلى البلاد المصرية، واشتهرت مدينة جِبْلة[٦٧]بعملية تكرير السكر واستخراجه من قصبه.

ولا تخلو المائدة السلطانية من أنواع التمور والرطب التي تنتجها زبيد[٦٨]، وفشال[٦٩]، والقحمة[٧٠]، والكدراء، ولحج، والشحر[٧١]. أما الجوز فهو من الأطعمة المعروفة في المطبخ السلطاني حيث تؤخذ ثماره فيشرب عصيرها، ويؤكل لحاؤه الداخلي أو بقشر، ويضاف على الحلويات لإعطائها مذاقاً طيباً، وتكثر زراعته في بعض بلاد تهامة وبعض بلاد حضرموت[٧٢].

أما تموين المطابخ السلطانية باللحوم فكانت مهمة يتولاها القمّاط، وهو الموظف المسئول عن شراء الدّواب، وخاصة الأغنام التي تحتل لحومها المرتبة الأولى ضمن اللحوم المستهلكة في اليمن قديماً وحديثاً. وكان يتم جلبها من عدة مناطق وأهمها: أعمال وادي رَمَع[٧٣] بتهامة. حيث تعد لحوم أغنامها من أجود اللحوم في اليمن ويماثلها في الجودة: لحوم أغنام لحج وأبين وبلاد حضرموت والمَهَرة[٧٤]. وبلاد ذمار[٧٥] التي يكثر فيها رعي الأغنام، لأن طباع اهلها تميل إلى البداوة[٧٦].

هذا إلى جانب ما يجلب من أغنام الصومال التي يطلق عليها "البرابر"[٧٧] وهي معروفة إلى يومنا في سائر أرجاء الجزيرة العربية.

أما الأبقار فكانت من اللحوم الحاضرة في الموائد والمآدب السلطانية، وذلك للأهمية الغذائية للحومها وألبانها. وامتلك المزارعون ما أمكنهم من الأبقار في الكثير من المناطق الزراعية، من ذلك ما امتلكته قبيلة المعازبة[٧٨].

ويأتي تموين المطابخ السلطانية، من الأسماك الطازجة، من مدن السواحل التي اشتهر أهلها بانهم يزاولون حرفة صيد الأسماك، كاهل عدن الذين قال عنهم ابن بطوطة[٧٩] إنهم كانوا مابين تجار وحمّالين وصيادين للسمك، أما ابن المجاور[٨٠] فذكر ان صيد السمك هو حرفة أهل عدن الأولى، وكذلك الشأن بالنسبة لسكان غلافقة[٨١]، الذين كانوا يزودون مدينة زبيد بخيرات البحر[٨٢].

كما أكد الكثير من الرحالة على مهارة الصيادين في الشحر، وفي ذلك قال احدهم: " وهؤلاء الناس صيادو أسماك مهرة، يصيدون التونة بمقادير ضخمة"[٨٣].

أما توابل وبهارات المطابخ السلطانية، فهي من الواردات التي تصل إلى ميناء عدن من الهند والصين. وقد تعددت أصناف التوابل وكان أهمها الفلفل، والقرنفل، والدار صيني القرفة والزنجبيل وجوز الطيب، والهال "الهيل"، والكركم (الهرد) والزعفران وغيره[٨٤].

سادساً: أصناف الأطعمة التي يعدها المطبخ السلطاني :

أولاً :أصناف اللحوم والطيور والأسماك:

–شراح ممرح: هي وجبة غذائية كاملة الأساس فيها إعداد شرايح من لحم الأغنام، وأهم مقاديرها العسل، النشا، الزعفران، الخل، الودك، (السمن)، الجبن، السليط (الزيت) الفلفل، الكزبرة، القرفة، الملح[٨٥].

–شواء: وهي وجبة الأساس، فيها لحم الغنم المشوي، وأهم مقاديرها إلى جانب اللحم: الزعفران، الخبز، السليط (الزيت)، والملح، الموز، الشقر (الريحان)، الليمون، الدقيق[٨٦].

–شوي مدقوق: وجبة شواء من لحم أغنام مفروم أو (مدقوق)، وكان اللحم – قبل ظهور المفارم اليدوية أو الآلية في عصرنا – يدق بأدوية خشبية في مدقات ضخمة مخروطة من الأحجار أو الأخشاب، وكان اللحم يدق بها حتى يصير ناعماً، ثم يشوى إما على هيئة كرات توضع في الزيت وتغلى فيه، أو يجمع على أسياخ من الحديد ويشوى على نار الفحم، فيما يعرف في أيامنا بـ (الكباب) و(الكفتة). وأهم مقادير هذه الوجبة الأغنام عربية، الزعفران، السليط، الخل، الباذنجان، الموز، الشقر (الريحان) الليمون، الملح[٨٧].

–الكروانات: وجبة غذائية من طيور الكروان، جنس من فصيلة دجاجيات الأرض طوال الساق، وهي طوال المناقير دقاقها، تعيش حول الأنهار والمناقع وشطوط البحار، وأهم مقادير هذه الوجبة الي جانب الطيور، الأرز، والحمص، والزيت، والسليط (زيت السمسم)، والدقيق[٨٨].

–السحتور: وهي وجبة غذائية تتكون من لحم الأغنام البربرية، والأغنام الكسوب وهي الأنثى من الأغنام المحلية، وأغنام عربية[٨٩]، والودك[٩٠]، والسليط، والزيت والفلفل والكزبرة والجوز، والبصل اليابس، والبصل الأخضر، والحمص والقرفة والكمون والزنجبيل والمصطكي، والسماق، والكراويا، والزعتر، والثوم والأرز والقنبريس[٩١].

- السـالة: وجبة غذائية قوامها مكون من: الغنم والسكر الأبيض، والدجاج والحمام والارز، والفستق، والحمص، والسليط، والجوز والبندق، والزعفران، واللوز، والمصطكى والفلفل، والكزبرة، والزنجبيل، والكمون، والجبن، والشقر (الريحان)، والعسل، والقرفة والبصل، والنشا[٩٢].

- الرُمّانية: وجبة منسوبة إلى فاكهة الرمان لدخولها في قوام الوجبة، هي وجبة اختفت من المطبخ اليمني ،وليس لها وجود في عصرنا، وأهم مقوماتها لحم الغنم، السكر الأبيض، الودك (الدهن) الرمان، خضار ورقية، بصل أخضر[٩٣].

- الكُشك: وجبة غذائية قوامها لحم الغنم، دقيق البُرّ، الودك (الدهن) [٩٤].

- المُحشْحشة: وجبة غذائية معدة من اللحوم، وما يطلق علية مُحَشْحش في اليمن هو (اللحم المحشش) وقيل له ذلك لأنه يطبخ مقلياً بالزيت مع المواد المضافة إليه، ولا يتم إنضاجه إنضاجاً كلياً، بل يكون إنضاجه متوسطًا، ليس بالنّي وليس بالمطبوخ غاية، وأهم مقومات هذه الوجبة لحم الغنم، الودك (الدهن) الفلفل، الكزبرة، البصل، خضار ورقية.

- الهريس: هي وجبة غذائية مكونة من خليط من القمح المجروش خشناً، او السمن واللحم الخالي من العظم، يطبخ الجميع في قدر بعد خلطها ببعض[٩٥]، ومازالت معروفة. وتسمى بنفس التسمية في اليمن وبلاد الجزيرة العربية، وخاصة في شهر رمضان.

- السميط: نوع من الشواء، حيث يشوى الحيوان بعد نتف صوفه بالماء الحارّ[٩٦].

- السَطيط: وجبة قوامها الأساسي لحم الغنم ويضاف اليه السليْط (زيت السمسم) والفلفل، والكزبرة، والملح، والدقيق.

- قديد العدس: وجبة مكونة من قطع لحم أغنام بربرية مقددة، أي جافة، تخلط بحبوب العدس، ويضاف اليها الودك (الدهن) والسليط، والجبن، والفلفل، والزعتر، والزعفران، والمصطكي، والقرفة، والسُمَاق، والكزبرة، والجوز، والزنجبيل والخضار الورقية، والبصل اليابس والأخضر، والثوم، والزيت، والكمون.

- المَصُوْص: وجبة مكونة من لحم الأغنام العربية، والسكر الأبيض، والخل، والبصل، والزعفران[٩٧].

- رأس غَنَم: وجبة قوامها راس غنم، بيض، سكر أبيض، عسل ،تمر، أرز، سُماق، خشْخاش، زبيب، حب رُمّان، زعفران مصطكى، قرفة، جوز، طحينة،

نشا، ودك (دهن) سليط، فلفل، كزبرة، كمون، ثوم، زنجبيل، باذنجان، يقطين، جزر، قلقاس، خضار ورقية، قنبريس، جبن، ملح[٩٨].

– البوارد: وجبة غذائية من الوجبات التي تعد وتجهز في المطابخ السلطانية وقوامها لحم غنم، بيض، عسل، تمر، سليط، زعفران، باذنجان، يقطين، عُصفر، جبن، موز، نشأ، طحينية، شقر (ريحان)، خردل[٩٩].

– الملوحات: وجبة غذائية قوامها الأساسي السّمك، وسمك الظيراك على وجه الخصوص وهو الاسم القديم لسمك دَيْرَك، ويعد من أجود أنواع الأسماك في بلاد اليمن، وهو ما يسمى سمك الكنعد في الكثير من البلاد العربية. ولإعداد هذه الوجبة في المطابخ السلطانية يضاف اليها اللفت، الجبن، البصل، السليط، الخردل، الكراويا، الزعتر، الحليب، الزيت، السكر الأبيض، الجوز، الفلفل، الكزبرة، الثوم، الزنجبيل، الزعفران[١٠٠].

ثانياً: أطعمة منوعة :

– الفسيل: وجبة غذائية تتكون من الأرز، السكر الأبيض، الزعفران، المصطكى، السُماق، القرطم (العُصفر)، حَب رُمّان طري (طازج)، الفلفل، الكمون، الكزبرة، الحمص، الثوم، البصل اليابس والأخضر، الباذنجان، اليقطين، الجزر، القلقاس، الترمس، السليط، الخل، الليم (الليمون) الزيت[١٠١].

– العجة: هي البيض المقلي بالزيت[١٠٢].

ثالثاً : أصناف الخبز :

– خبز الرقاق[١٠٣]: هو عبارة عن أقراص هشة تخبز على قِرص حديدي، ويتم مراعاة السرعة في تحضيره حتى لا يحترق، فهو هش جداً، ومازال هذا النوع من الخبز من أكثر الأكلات الشعبية في البلاد العربية، وبعض الدول في شرق آسيا وهناك وجبة يدخل الرقاق في أهم مقاديرها، وهذه الوجبة تسمى فَت: وهو ما يفت من خبز الرقاق، ومعنى الفت هو تقطيع الخبز قطعاً صغيرة في وعاء أو دست من نحاس أو غيره، وإضافة المرق والسمن اليه، أو السمن والعسل وخلطه بهما ويقدم للمائدة[١٠٤].

– والتخثير: هو وضع أقراص الخبز في القدر، بعضها فوق بعض، ثم يسكب السمن أو غيره من الدهون عليها، وتقدم إلى المائدة على هذه الصورة.

– الخمير: نوع من الخبز يسمى (خمير) مازال معروفاً باسمه إلى يومنا[١٠٥].

– خبز الكعك: صنف من الخبز معروف، ويتفنن أهل اليمن في عمله وإعداده، ويدخل الشمار والكزبرة والحبة السوداء في إعداده، وهو ما يزال معروفاً

وبنفس الاسم. وهناك نوع من الكعك الحلو يسمى البَستَدود، والكعادد اسم آخر للكعك المحلا، لم يعد له وجود في عصرنا[١٠٦].

–خبز اللحوح: جمع لَحُوحَة، ويعمل من دقيق الذرة أو البر مع الخميرة، ويكون ليناً رقيقاً يكاد يشف عما وراءه، وتثنى الخبزه الكاملة منه حتى تصير بحجم الكف وأصغر[١٠٧]. ولايزال اللحوح من أهم الأكلات الشعبية في بلاد اليمن، حيث يؤكل مع المرق أو اللبن أو الحلبة اليمنية. ومازال سقاء اللحوّح مصاحباً لعملية إعداد خبز اللحَوح، اذيتم صب كمية من الزيت على خرقة من القطن، تسمى (المَدَسنة)، يمسح بها سطح الملَحة بعد قلع اللحوح عن سطحها وقبل عمل اللحوحة الجديدة.

رابعاً : المقبلات :

–الكوَامخ : وهي المخللات التي تستعمل كمشهيات للطعام، والكماخي هو لقب لمن عمله في المطبخ السلطاني إعداد الكوامخ[١٠٨].

–المَتَوَّره : من مشهيات الطعام (أشبه بطبق السلطة) وهو عبارة عن السليط، والودك(الدهن) والثوم، والزنجبيل، والبصل، والفلفل، والكزبرة ،والمصطكى.

–القنبريس المحَوَجُ: وهو من القنبريس (اللبنة) والزنجبيل والبصل

خامساً: الحلويات الشعبية اليمنية :

–الحلوى الصابوني: نسبه إلى أن شكلها يشبه الصابون من حيث النعومة والشكل، وهي مكونه من السكر، والعسل، والنشا، والسليط ،و البيض.

–الأستُبوطيّة: حلوى مكونة من السكر الأبيض، والعسل ، والفستق ،والبندق ،والخشخاش، والزعفران ، والسليط، والدقيق[١٠٩].

–هريسة الفستق: نوع من أنواع الحلوى الممزوجة بلحم صدور الدجاج والفستق ومحتواها هو صدور الدجاج ، والفستق، والسكر الأبيض، والعسل، والنشا، والسليط[١١٠].

–حلاوة الدجاج: وهي حلوى مقوماتها: الدجاج والسليط والبندق ،والجوز، واللوز، والخشخاش ، والسكر ، والنشا ، والرجلة[١١١]، والزعفران والهيل والقرنفل والقرفه[١١٢].

–سنبوسك مُحلا: هو نوع من الحلوى وقوامه: الدقيق والدهن ، واللوز ، والسكر الأحمر[١١٣]. ولا يزال معروفاً في اليمن وغيرها من البلاد العربية.

–الفانيد: هو نوع من الحلوى يعمل بالنشا، وهو من أصل فارسي[١١٤].

- المسقُوح : هو صنف من الحلويات قوامه السكر الأبيض، العسل، والسليط، والزعفران، والبيض، والخل[١١٥].

- النَاطف: نوع من الحلوى المعمول من العسل أو الدبس.

- البَسيسَه: نوع من الحلوى فسره الزبيدي[١١٦] على أنه الشعير يلت بالزيت أو في السمن، وهو يشبه الفتوت أو الفتيت، في عصرنا الحالي، ومازالت البسيسه معروفه في مصر إلى يومنا.

- القطايف: نوع من الأرغفة الإسفنجية وهي الحلوى المعروفة بنفس الإسم في العصر الحالي[١١٧].

- مربى الزنجبيل: ويصنع من العسل والزنجبيل[١١٨].

- القرعية: يصنع من القرع والسكر، أو القرع والعسل، وهو معروف حتى عصرنا.

- المشبك: يصنع من الدقيق، والزيت والنشا، والهيل والزعفران، والسكر، وهو من الحلويات المعروفة في عصرنا[١١٩].

سادساً : الأطعمة الخاصة بالمناسبات الدينية :

طبق المكسرات في الشعبانية: وهي لون من الأغذية يحمل التسمية المذكورة، ويبدو أن هذا الطبق كان يعد خصيصاً للسلطان بمناسبة الاحتفال في شهر شعبان، والشعبانية إسم يطلق في اليمن، إلى يومنا هذا، على ليلة منتصف شهر شعبان، وهذا الطبق يحتوي على المشاش وهو الموضع اللين الواقع في راس العظام والذي يمكن مضغه ولونه يكون أبيضاً أو مائلاً للصفرة، وهو يكون في الركبتين والمرفقين ومابين الكتفين في الحيوان والإنسان، ويتضح من هذا الوصف. أن المواضع اللينة من أطراف العظام كانت تنتزع من مواضعها، وتسلق وتوزع على كامل الطبق وتقطع حبوب الليمون دوائر وأقراصا، وتوضع في وسط المشاش مع بعض ثمر فاكهة الأجاص والرطب والملفوف (الكرنب). وقرص حلوى من نوع خاص سبق وأن عرفناه يسمى ناطف[١٢٠].

سابعاً: المشروبات السلطانية :

- الحُلاَّية: شراب يتكون من ماء وسكر يمزج بماء حب الليمون (يشبه الليموناضة في عصرنا)، ويطلق لفظ الحُلاَّية في اليمن على ما يتم تناوله، من مشروبات أو حلويات، بعد وجبة الطعام.

– الفُقاع: شراب يتخذ من الشعير، ويسمي بهذا الاسم لما يرتفع في رأسه من الزَبَد (الفقاعات) أي أنه يشبه البيرة.

– السوبيا: هو شراب ناتج عن نقع الحنطة أو الأرز[١٢١]. ويوضع معه أحياناً الزبيب وغيره من المنكهات، وهو من المشروبات الشعبية في رمضان، في عصرنا الحالي في اليمن والحجاز، وقد عرفه البعض على أنه نوع من أنواع النبيذ[١٢٢]، وربما كانت هذه حالته عند زيادة أيام نقع المواد السابق ذكرها

– الفضيخ: هو نوع من أنواع النبيذ، اشتهرت زبيد بصناعته لوفرة التمر فيها، حيث يصنع هذا الشراب من التمر والبر والرطب، ويستغرق صنعه يوماً وليلة، وشاع تناوله في سبوت النخيل، وهو الإحتفال المشهور في زبيد يوم السبت من كل أسبوع[١٢٣]، وذلك للاحتفال بنضج التمر، كنوع من التشجيع على زراعة النخيل، وقد واجهت تلك الاحتفالات الكثير من المعارضة من فقهاء اليمن لما يحدث فيها من الاختلاط والمجون.

وهناك أشارة إلى نوع آخر من النبيذ؛ وهو نبيذ الزعفران، يصنع في عدن، إذ كان بها بئر يستخرج منها الماء خصيصاً لصنع النبيذ، يعرف ببئر الزعفران، فيقوم أهل عدن باستخراج مائه، ومزجة بثمرة الكادي ذات الرائحة النفاذة، ويترك في الشمس حتى يخمر، ويتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى عسل. ويتم حمل هذا النبيذ وتصديره الى كافة أرجاء اليمن[١٢٤].

سابعاً: ترتيب المائدة الملكية (السماط) :

جرت العادة أن تنقسم الأسمطة التي يأمر الملوك والسلاطين بتقديمها؛ إلى طعامين، طبقاً لما ذكرة ابن بطوطة[١٢٥] وهما " طعام العَامة وطعام الخاصة" فأما الطعام الخاص، فهو الطعام الذي يأكل منه السلطان وقاضي القضاة، والفئات المرموقة في المجتمع اليمني وعلى رأسهم كبار الأشراف، وذلك لنسبهم الشريف العائد إلى آل البيت، فميزهم سلاطين بني رسول، ومن ذلك مشاركتهم للسلاطين في المناسبات والإحتفالات والأعياد الخاصة بهم، حيث كانوا يجلسون، في أثناء قيام مراسيم هذه الاحتفالات، على مائدة طعام السلطان الخاصة، إلى جانب كبار رجال دولته من القضاة والفقهاء والضيوف[١٢٦].

أما الطعام العام فيأكل منه سائر الأشراف والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد، ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعدّاه، ولا يزاحم أحدٌ منهم أحداً. ويعلق ابن بطوطة على هذا الترتيب بقوله إن هذا الترتيب شبيه بترتيب ملك الهند في طعامه، ولا يعلم أي منهما أخذه عن الآخر[١٢٧].

ويختلف عدد الصحون والدسوت الكبار، والزبادي الصغار والكبار، بحسب إختلاف المناسبة والضيوف، فيحدد عدد الأبقار والأغنام ونوعها، وعدد الصحون لكل وجبة من الوجبات، وعدد أرغفة الخبز وصحون الحلوى[١٢٨]، وتزين المائدة الملكية أخيراً بالورود والرياحين والأطياب الفاخرة[١٢٩].

الخاتمـــــة :

تبين لنا من خلال الدراسة النتائج التالية:

- تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً لأماكنها، وتخصصها، فمنها مطابخ القصور السلطانية الدائمة، ومطابخ متنقلة، ومنها ما هو مختص بإعداد الوجبات الرئيسية، وأخرى تهتم بالخبز، وثالثة تهتم بالحلويات والمشروبات.
- يظهر اهتمام المطابخ السلطانية بإعداد الوجبات الغذائية المتنوعة؛ والتي تقوم على لحوم الحيوانات أو الطيور والأسماك.
- أهمية إعداد أنواع الخبز المصنوعة من الذرة، أو الدخن أو القمح.
- حرص سلاطين الدولة الرسولية على تزويد المطابخ السلطانية بعدد ضخم من الموظفين منهم الطباخين، ومن يقوم بتموين المطابخ بما تحتاجه من مواد غذائية للمطبخ، وأوان وأوعية وأدوات للمطابخ.
- للمائدة السلطانية آداب خاصة؛ يلتزم بها جميع من يشاركون السلطان المائدة (السماط)

الهوامـــــش

(١) تنسب الدولة الرسولية إلى السلطان" نور الدين عمر بن علي بن رسول ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م" وقد قامت على أنقاض الدولة الأيوبية،حيث كان عمر بن علي من قواد الدولة الأيوبية،وكان نائباً لآخر ملوكها في اليمن الملك المسعود،ثم استبد بالأمر ودعا لنفسه ثم توالى أبناؤه وأحفاده في الملك وامتدت دولته من حضرموت إلى مكة بل في بعض الأحيان من ظفار إلى مكة وامتد حكمهم من سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلى سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م، للمزيد عن قيام الدولة الرسولية أنظر: الخزرجي " علي بن الحسن ت٨١٢هـ/١٤١٠م": العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوع، القاهرة، مطبعة الهلال ، ١٩٨٣م، جـ١، ص ص٥١-٨٥.

(٢) الجندي " بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م": السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد ، ١٩٩٥م، جـ٢، ص ص ٦٥-٦٦.

(٣) مجهول: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٣م، جـ١، ص ٥٣٧.

(٤) المصدر السابق، جـ١، ص٥٣٤، جـ٢،ص٢٢.

(٥) المصدر السابق، جـ١، ص٢٠١.

(٦) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ص ٨٩، ٩٠.

(٧) التحويج: في لهجة أهل اليمن يقصد به إضافة التوابل والبهارات إلى المأكولات، أنظر: المصدر السابق، جـ٢، ص١٥، هامش(١).

(٨) المصدر السابق، جـ١، ص١٥.

(٩) المصدر السابق، جـ١، ص٢٣١؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٠م ،ص٤٦١.

(١٠) المرجع السابق، ص٤٦١.

(١١) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٥.

(١٢) مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص٥٤ ؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص٤٦١.

(١٣) الزبيدي " محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م": تاج العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م، جـ٤، ص٢٧١.

(١٤) طه حسين هديل: الحياة الإجتماعية، ص٤٦١ .

(١٥) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٥٠.

(١٦) المصدر السابق، جـ١، ص٥٠.
(١٧) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص١٩٥؛ مجهول: المصدر السابق، جـ٢١، ص ١١٦.
(١٨) مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٩٩.
(١٩) الخزرجي: المصدر السابق، جـ٢،ص١٣٥.
(٢٠) زبيد: تقع في سهل تهامة اليمن، للمزيد عن المدينة وتاريخها أنظر: ابن الديبع" عبدالرحمن بن علي ت٩٤٤هـ/ ١٥٧٣م": بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، ٢٠٠٦م، ص٧٥؛ إبراهيم المقحفي: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص١٨٩.
(٢١) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١٤٦؛ جـ٢، ص٧ هامش (٧) (٨).
(٢٢) المصدر السابق، جـ٢، ص١٣، هامش (٥).
(٢٣) مجهول " ت بعد ٨٣٠هـ/١٤٣٦م": تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، دار الجيل، ١٩٨٤م، ص ٢٧٩.
(٢٤) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص١٩٥؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص٤٦٢.
(٢٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١٦؛ طه حسين هذيل: المرجع السابق، ص١٢٦.
(٢٦) المصدر السابق، جـ١، ص ٥٦٩.
(٢٧) ابن حاتم "الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٢هـ/١٣٠٢م": السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز في اليمن، تحقيق: ركس سميث، جامعة كمبردج (د.ت)، ص ص ٣١٢، ٥١١؛ يحي بن الحسين " ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م": غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨م، القسم الأول، ص٤٤١.
(٢٨) القلقشندي " أحمد بن علي ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م":صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق، محمد حسين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، جـ٤، ص١٣؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص١٢٦.
(٢٩) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٥٣٨.
(٣٠) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص ص٢١١-٢١٢.
(٣١) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١٤٨.
(٣٢) الزبيدي : تاج العروس ، ص٢٧٦.
(٣٣) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١٢٨.
(٣٤) مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ص١٣،٥.
(٣٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص ٣٤؛ مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٤٨.

(٣٦) القلقشندي: صبح الأعشى،جـ٥، ص٤٧٠؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م، ص١٣٧.
(٣٧) المصدر السابق، جـ٥، ص ٤٥٤؛ مجهول: نور المعارف، جـ١، ص٩٧؛ جـ٢، ٨٩؛ محمد دهمان: المرجع السابق، ص٩٧.
(٣٨) مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص١٢٢.
(٣٩) الحوائج خاناه: هو المكان أو المستودع الذي يخزن فيه جميع المشتريات الخاصة بالمطبخ السلطاني من الحبوب، والبهارات والتوابل والأوعية وكافة الأدوات، أنظر: مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٤٨.
(٤٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٥.
(٤١) المصدر السابق، جـ٢، ص١٢٨، هامش (٨).
(٤٢) المصدر السابق، جـ٢، ص ص ٩٥، ٩٩، ١٤٨.
(٤٣) المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣.
(٤٤) ابن فضل الله العمري "شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م": مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، القاهرة، دار الإعتصام، ١٩٨٧م، ص٤٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى،جـ٤ ، ص٥٦؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص٩٢.
(٤٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص١٨.
(٤٦) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٤.
(٤٧) المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٨.
(٤٨) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص١٥٤؛ مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية، ص ص ٣١، ٩٨..
(٤٩) البريهي"عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م": طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م، ص٢٠٤ .
(٥٠) لحج: مخلاف كبير في الشمال الغربي من عدن، انظر إبراهيم المقحفي: معجم المدن، ص٣٥٥.
(٥١) أبين: مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن، أنظر: المرجع السابق، ص٨.
(٥٢) تعز: مدينة مشهورة في سفح جبل صَبِر الشمالي: بينها وبين صنعاء جنوباً ٢٥٦ك.م. أنظر: المرجع السابق، ٦٩.
(٥٣) إبّ: مدينة في الجنوب من صنعاء بمسافة ١٤٠ك.م أنظر: المرجع السابق،ص٥.
(٥٤) الضالع: بلدة على بعد ٩٦ميلاً من عدن، انظر: المرجع السابق، ص٢٥٧.
(٥٥) يافع: بلدة في الشمال الشرقي من عدن، أنظر: المرجع السابق، ص٤٦٩.

(٥٦) شبوة: منطقة أثرية بين مأرب وحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص٢٢٥.
(٥٧) وصاب: جبل متسع بالغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ١١٢ك.م. أنظر: المرجع السابق، ص٤٦٥.
(٥٨) حَجّة: مدينة كبيرة في الشمال الغربي من صنعاء بمسافة ١٢٧ ك.م، أنظر: المرجع السابق، ص١١٠.
(٥٩) محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨م، ص٦٢٩.
(٦٠) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص٣١٠؛ أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر دولتي بني أيوب وبني رسول" ، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م، ص٢٥٩.
(٦١) الكدراء: من مدن تهامة القديمة تقع في وادي سهام. أنظر : ابراهيم المقحفي: معجم المدن، ص١٤.
(٦٢) المحالب: قرية تهامية خربة تقع في وادي مور على مقربة من (الزهرة)، أنظر: المرجع السابق، ص٣٤٦.
(٦٣) أحور: وادٍ فيه قرى شرقي أبين، أنظر: المرجع السابق، ص٣٦٤.
(٦٤) الجَنَد: بلدة مشهورة بالشرق الشمالي من مدينة تعز بمسافة ٢٢ ك.م، أنظر: المرجع السابق، ص٩٥.
(٦٥) خَدَير: تقع في الشرق الجنوبي من تعز بمسافة ٤٢ك.م، أنظر: المرجع السابق، ص٧٨.
(٦٦) جَبَا: مدينة خربة غربي جبل صَبِر المطل على تعز، أنظر: المرجع السابق، ص١٤٢.
(٦٧) جِبْلَة: مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إبّ بمسافة ٧ك.م، أنظر: المرجع السابق، ص٨١.وللمزيد عن مسابك تكرير السكر في اليمن، أنظر: مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ص ١٠٢-١٠٥.
(٦٨) ابن مجاور"جمال الدين يوسف بن يعقوب ت٦٩٠هـ/١٢٩١م":صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة" تاريخ المستبصر" إعتنى بتصحيحها: أوسكر لوفقرين، بيروت ، دار التنوير، ١٩٨٦م،ص٤٥.
(٦٩) فشال: بلدة تهامية خربة من أعمال رِمَع، شمالي زبيد، عمرت محلها قرية الحسينية، أنظر: المرجع السابق، ص٣١٦.
(٧٠) القحمة: قرية تهامية خربة في الشمال الشرقي من زبيد، أنظر: المرجع السابق، ص٣٢٤.
(٧١) الشحر: ميناء لحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص٢٢٧.
(٧٢) حضرموت: مدينة كبيرة تُعرف باسم الأحقاف، بها مركز المحافظة الخامسة من محافظات الشطر الجنوبي من اليمن، أنظر: المرجع السابق، ص١٢٢

(٧٣) وادي رَمع: وادي مشهور إلى الشمال من وادي زبيد: أنظر: محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م، م١، ص٣٧٠؛ ابراهيم المقحفي: معجم المدن، ص١٨١.

(٧٤) المَهَرة: من قبائل قضاعة في حضرموت ، أنظر: محمد الحجري: المرجع السابق، م٢، ص٧٢٥؛ ابراهيم المقحفي: المرجع السابق، ص٣٥٥؛ عبدالرحمن السقاف: معجم بلدان حضرموت المسمى (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت)، تحقيق: أحمد المقحفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م، ص١٠٩.

(٧٥) ردَمان: اسم مشترك بين عدد من الأماكن والقبائل، بلدة من رداع، وبنو ردمان من قبائل أرحب، وبنو ردمان بوادعة حاشد عرفوا ببني الزرقة، أنظر: ابراهيم المقحفي: المرجع السابق، ص١٧٦.

(٧٦) مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية، ص٣٦١.

(٧٧) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص٨.

(٧٨) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص ٢٢٠؛ محمد سعيد: الحياة الاقتصادية، ص٦٨٥.

(٧٩) تحفة النظّار، ص٢٥١.

(٨٠) صفة بلاد اليمن، ص١١٦.

(٨١) غلافقة: قرية تهامية شمال غربي مدينة زبيد، وهي مرسى زبيد، أنظر: ياقوت الحموي "شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م": معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م، ص٢٠٨؛ ابراهيم المقحفي: معجم المدن، ص٣٠٦.

(٨٢) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن، ص٢٤٣.

(٨٣) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ترجمه للإنجليزية: وليم مارسدن، ترجمه للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م، جـ٣، ص٩٤.

(٨٤) ابن بطوطة: تحفة النظّار، ص٣٢٣؛ ماركوبولو: الرحلة، جـ٣، ص ص٦٩-٧٢؛ سونيا هاو: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص ص ٣٣، ١١٥.

(٨٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ص١، ٨٤.

(٨٦) المصدر السابق، جـ٢، ص١؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٣٠.

(٨٧) المصدر السابق، جـ٢، ص٨٥.

(٨٨) المصدر السابق، جـ٢، ص٨٥؛ أسامة حماد، المرجع السابق، ص٥٣٠.

(٨٩) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٧.

(٩٠) الودك: السمن والدهن الحيواني.

(٩١) القتبريس: هي لبنة حليب الماعز الطبيعي غير المبستر والمصنعة في الجرّة www.wikipedia.org.

(٩٢) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٨.
(٩٣) المصدر السابق، جـ٢، ص٩١.
(٩٤) المصدر السابق، جـ٢، ص٩١.
(٩٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٩١؛ جـ١، ص٣٠٨.
(٩٦) الزبيدي : تاج العروس، جـ٥، ص١٦٠.
(٩٧) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٧.
(٩٨) المصدر السابق، جـ٢، ص٩١.
(٩٩) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٤.
(١٠٠) المصدر السابق، جـ٢، ص٨٦.
(١٠١) المصدر السابق، جـ٢، ص٩ .
(١٠٢) المصدر السابق، جـ٢، ص٩٧.
(١٠٣) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص٦١.
(١٠٤) المصدر السابق، جـ٢، ص٩٢؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٢٩.
(١٠٥) المصدر السابق، جـ٢، ص١١١.
(١٠٦) المصدر السابق، جـ٢، ص١١٢، جـ١، ص٦١.
(١٠٧) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص ١٣٥؛ مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص٥٣٩؛ أسامة حماد، المرجع السابق، ص٥٢٨.
(١٠٨) الزبيدي : تاج العروس، م٢، ص٢٧٦؛ مجهول: نور المعارف، جـ١، ص١٠.
(١٠٩) مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص٨٦.
(١١٠) المصدر السابق، جـ٢، ص١٠٠.
(١١١) الرجْلة: وتسمى الرجلة في كل من عدن وتعز وإب ومن اسمائها "البقلة" يؤكل ورقها مطبوخاً أو على شكل سلطة، أنظر: مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م، ص٥٨٦
(١١٢) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص١٠١.
(١١٣) المصدر السابق، جـ٢، ص١٠١.
(١١٤) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ٢،ص ١٩٥؛ الزبيدي : تاج العروس، جـ٢، ص٤٥٥.
(١١٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص٢٣.
(١١٦) تاج العروس، جـ٢، ص١٣٧.
(١١٧) مجهول : نور المعارف، جـ١، ص ص ٢١٦-٢٥٨؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٢٨.
(١١٨) المصدر السابق، جـ٢، ص١٠٦.
(١١٩) الخزرجي: المصدر السابق ،جـ٢،ص١٩٥.

(١٢٠) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص١٣٧.
(١٢١) المصدر السابق، جـ٢، ص ص ١٤-١٦؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٣٢.
(١٢٢) الزبيدي : تاج العروس، جـ٢، مادة سوية.
(١٢٣) ابن المجاور:صفة بلاد اليمن ، ص ص ٨٠-٨١؛ ابـن بطوطـة: تحفـة النظّـار، ص٢٢٤؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٠٥.
(١٢٤) ابن مجاور:المصدر السابق ، ص ١٣١؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٣٢.
(١٢٥) تحفة النظّار، ص٢٢٦.
(١٢٦) الملك الأشرف ' عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م': طرفة الأصـحاب في معرفة الأنساب، تحقيق، ك وسترستين، صنعاء، دار الكلمـة، ١٩٨٥م، ص١٠٣؛ الخزرجي: العقود اللؤلؤية ،جـ١،ص ص١١٥، ٣٢٦؛ جـ٢،ص ١٩٢؛ أسـامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٠٢.
(١٢٧) الملك الأشرف: المصدر السابق، ص٢٢٦.
(١٢٨) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص٩٢-٩٣.
(١٢٩) الخزرجي: العقود اللؤلؤية،جـ٢،ص ١٩٥؛ مجهول: تاريخ الدولة الرسولية، ص٩٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المطبوعة:

١. البريهي"عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م": طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م.

٢. ابن بطوطة " محمد بن عبدالله ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م" تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعه: درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٧م.

٣. الجندي " بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م": السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٥م.

٤. ابن حاتم "الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٢هـ/١٣٠٢م": السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق: ركس سميث، جامعة كمبردج (د.ت).

٥. الخزرجي " علي بن الحسن بن أبي بكر ت٨١٢هـ/١٤١٠م": العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوع، القاهرة، مطبعة الهلال ، ١٩٨٣م.

٦. ابن الديبع" أبو الضياء عبدالرحمن بن علي ت٩٤٤هـ/ ١٥٧٣م": بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، ٢٠٠٦م.

٧. الزبيدي " محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م": تاج العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م.

٨. ابن فضل الله العمري "شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م": مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، القاهرة، دار الإعتصام، ١٩٨٧م.

٩. القلقشندي " أحمد بن علي ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م":صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق، محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

١٠. ابن المجاور"جمال الدين يوسف بن يعقوب ت٦٩٠هـ/١٢٩١م":صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة" تاريخ المستبصر" اعتنى بتصحيحها: أوسكر لوفقرين، بيروت ، دار التنوير، ١٩٨٦م.

١١. مجهول " ت بعد ٨٣٠هـ/١٤٣٦م": تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، دار الجيل، ١٩٨٤م.

١٢. مجهول: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية، ٢٠٠٣م.

١٣. مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية ، تحقيق : محمد عبدالرحيم جازم ، صنعاء ، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية،٢٠٠٩م .
١٤. الملك الأشرف " عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م": طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق، ك وسترستين، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٥. ياقوت الحموي "شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م": معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م.
١٦. يحي بن الحسين " ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م": غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨م.

المراجع العربية:

١٧. إبراهيم المقحفي: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٨. أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر دولتي بني أيوب وبني رسول "، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.
١٩. طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٠م.
٢٠. عبدالرحمن السقاف: معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق: ابراهيم المقحفي وعبدالرحمن السقاف، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م.
٢١. محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م.
٢٢. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م.
٢٣. مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في معجم مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م.

المراجع المعربة:

٢٤. سونيا هاو: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.
٢٥. ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ترجمه للإنجليزية: وليم مارسدن، ترجمه للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م.

رسائل علمية:

٢٦. محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨م.

أثر فتنة قرطبة على الحياة العامة فيها

٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م

د. منيرة بنت عبد الرحمن الشرقي (*)

تعريف الفتنة وتسميتها :

عرف علماء اللغة الفتنة بكسر الفاء بمعاني كثيرة منها: الابتلاء والاختبار والامتحان، وأصلها مأخوذ من الفتن وهو إذابة الذهب والفضة بالنار، لتميز الردئ من الجيد. ومنها القتل والحروب، والاختلاف بين فرق المسلمين، اذا تحزبوا، وهو ما ينطبق على موضوع البحث.(١) وقد وردت كلمة الفتنة بمعنى القتل في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾(٢). وقوله تعالى﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾(٣). " وقد أشار الرسول صل الله عليه وسلم إلى الفتنة بمعنى القتل بقوله "هل ترون ماأرى؟ إني لأرى مواقع الفتن من خلال بيوتكم كمواقع القطر"(٤) وقوله "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي"(٥). وبذلك يكون القتل والحروب هو المدلول اللغوي للفتنة.

اما المدلول التاريخي للفتنة، فقد أطلق المؤرخون مسمى الفتنة على الأحداث والثورات والحروب التي شهدتها قرطبة، في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وفي الوقت الذي اكتفى بعض المؤرخين بتسميتها بالفتنة، نسبها البعض إلى البربر، فسميت بفتنة البربر. فمن النوع الأول: ابن بسام(٦) والايلاني(٧) وابن بلكين(٨) وابن عذاري(٩) ومن النوع الثاني الذي ينسبها للبربر ابن حيان معاصر الفتنة الذي وصفها بقوله "الفتنة البربرية الشنعاء المدلهة، المفرقة للجماعة، الهادمة للملكة المؤثلة(١٠)، ويعرفها كل من: ابن الخطيب(١١) وابن سعيد(١٢) بالفتنة البربرية، ويطلق النباهي عليها اسم فتنة البرابر(١٣) ولعل تسمية الفتنة بفتنة قرطبة، نسبه للمكان الذي حدثت فيه، أكثر دقة من تسميتها بفتنة البربرحيث أن الصراع انحصر في قرطبة وشارك في هذا الصراع سكان قرطبة من البربر، وعامة أهل قرطبة، ولم تكن قاصرة على البربر وحدهم.

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك سعود.

الحدود الزمنية والمكانية للفتنة :

تمتد الحدود الزمانية للفتنة، من الثورة على عبدالرحمن ابن أبي عامر المعروف بشنجول بزعامة محمد بن هشام المعروف بالمهدي، في جمادى الآخر عام ٣٩٩هـ/فبراير ١٠٠٩م(١٤)، وحتى إعلان الوزير أبو الحزم بن جهور عزل آخر خلفاء بني أمية، وإسقاط الخلافة الأموية في الأندلس في ذي القعدة عام ٤٢٢هـ / فبراير١٠٣١م(١٥)، أي أن الفتنة امتدت لمدة اثنين وعشرين عاماً.

أما الحدود المكانية للفتنة فقد تركز الصراع في هذه الفترة على قرطبة، والتي تقع وسط الأندلس، وتمتد في سهل متسع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وعلى سفح جبل العروس(١٦) بطول ثلاثة أميال من الغرب الى الشرق، وعرض ميل من الشمال الى الجنوب(١٧) وتتكون قرطبة من خمسةأقسام، وتضم واحدا وعشرين ربضا(١٨)، وهي قرطبة العاصمة في الوسط، وشقندة جنوباً، والزاهرة شرقاً، والرصافة شمالاً، والزهراء غرباً(١٩)، وكان يحيط بقرطبة سور، أما البقية لها فلم تحط بها الأسوار إلا في الفتنة(٢٠)، أما الأرباض فكانت ربضان في الوسط تابعة لقرطبة، وستة أرباض في الجانب الشرقي تابعة (للزاهرة) وتسع أرباض في الغرب تابعة (للزهراء) وثلاثة أرباض في الشمال تابعة للرصافة، وربض واحد في الجنوب تابع لشقندة(٢١).

الفتنة وأسبابها وأحداثها :

كان تعيين عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر، المعروف بشنجول، ولياً لعهد هشام المؤيد، في ربيع الأول ٣٩٩هـ/ نوفمبر ١٠٠٨م(٢٢)، الشرارة التي أدت إلى اندلاع الفتنة والثورة على هشام المؤيد، وحاجبه عبدالرحمن شنجول، وأظهرت رفض سكان قرطبة نقل الخلافة من بني أمية القرشيين إلى بني عامر المعافريين القحطانين. وعلى الرغم من محاولة عبدالرحمن شنجول إضفاء الشرعية على ذلك التعيين، معتمدا على الأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه. " وقد ضمن ذلك الكتاب التعيين لولاية العهد(٢٣).

وإذا كان التعيين لولاية العهد هو السبب المباشر لاندلاع الثورة، فقد وجد عدد من الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الفتنة ثم استمرارها، وتمثلت تلك الأسباب برفض بني أمية تحجيم مكانة الخليفة، وعزل الخليفة هشام عن الناس، وسحب الصلاحيات منه(٢٤)، وقتل الكثير من المؤهلين للخلافة من بني أمية على يد المنصور بن أبي عامر(٢٥) وفي المقابل زيادة مكانة الحاجب على حساب الخليفة، واتخاذه الألقاب السلطانية واستبداده بالحكم والدولة، وظهر ذلك مع المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر(٢٦). كما كانت تغيرات المنصور بن أبي عامر في الجيش وتقريبه للبربر والصقالبة – الفتيان العامرين – سبباً في حقد عامة أهل قرطبة على بني عامر، وتطلعهم للقضاء عليهم(٢٧). وكان العداء بين بني عامر انفسهم سبباً في الفتنة، وتمثل

ذلك في حقد "الذلفاء" والدة عبدالملك المظفر، على عبدالرحمن شنجول، لاعتقادها أن لشنجول دورا في موت ابنها المظفر(٢٨)، كما أن عبدالرحمن شنجول لم يكن بحنكة والده المنصور وأخيه المظفر السياسية، فكان ضعيف الشخصية ميالاً للهو والمجون وشرب الخمر، ولم يغير سيرته واخلاقه بعد توليه الحجابة وولاية العهد، مراعاة لمكانته السياسيه ولكسب رضى السكان عنه، بل على العكس؛ استعجل باتخاذ الألقاب السلطانية التي لم يكن أهلا لها ومنها: المأمون وناصر الدولة، دون أن يحقق أمجادا للبلاد تؤهله لتلك الألقاب، فكرهه الناس(٢٩). ولم يكن كره شنجول قاصرا على العامة، بل تعداه الى رجال الدولة عندما أساء معاملتهم، وأمرهم بطرح قلانسهم الطويلة الملونة المميزة لهم، وأمرهم بلبس العمائم، فاعتبر رجال الدولة ذلك إهانه لهم، وتقليلا لمكانتهم لتأثرمكانتهم عند العامة.(٣٠) علاوة على حقد محمد بن هشام، الذي عرف بالمهدي، على عبد الرحمن شنجول لقتله والده هشام بن عبدالرحمن الناصر، بأمر من اخيه عبدالملك المظفر(٣١) وكان خروج عبدالرحمن شنجول للغزو الى جليقية، في ظروف غير مناسبة، حيث خرج في فصل الشتاء ببرده القارص وامطاره الكثيرة، اضافة الى عدم ولاء كثير من الرجال المصاحبين له(٣٢) قد مكن أهل قرطبة الناقمين عليه من إعلان ثورتهم، حيث قدمت الذلفاء الاموال لمحمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، التي مكنته من جمع المؤيدين حوله من عامة أهل قرطبة، وأعلن الثورة ضد هشام المؤيد وحاجبه عبدالرحمن شنجول .(٣٣)

ونجح محمد بن هشام بثورته، وقتل عبدالرحمن شنجول وعزل هشام المؤيد عن الخلافة، وبويع له بالخلافة وتلقب بالمهدي في ١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ/٦ فبراير ١٠٠٩م. وبدأت مناطق الأندلس ترسل البيعة للمهدي، وبذلك عادت الخلافة لبني أمية، وقضى على بني عامر(٣٤)، وكادت ثورة المهدي أن تعيد الأمور إلى نصابها، بعد إعادة الخلافة إلى بني أمية، وتحافظ على استقرار الأندلس ووحدتها، إلا أن المهدي لم يكن الشخص المؤهل للخلافة، فكان لجهله السياسي، وعدم قدرته على الموازنة بين الأعراق والقوى السياسية في قرطبة، وحقده على بني عامر، واضطهاده للبربر والصقالبة – ساعدي بني عامر – الأثر البالغ في اندلاع الفتنة في قرطبة، والتي فشل جميع خلفاء بني أمية في عصر الفتنة في إخمادها، وكانت نتيجتها سقوط خلافة بني أمية. ونظرا لسوء معاملة محمد المهدي للبربر، ورغبة البربر في المحافظة على مكانتهم السياسية، قرروا الثورة على المهدي وطالبوا بالخلافة باسم سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر، وتلقب بالمستعين بالله وبدأ الصراع ظاهريا بين اثنين من بني أمية محمد المهدي، وسليمان المستعين وجوهريا بين عامة قرطبة مساندي المهدي والبربر مؤيدي المستعين واستنجد كل منهم بالنصارى فاستنجد المستعين، والبربر بملك قشتاله سانشوغريسه، وطلب المهدي العون من بوريل الثالث Borell صاحب برشلونة وأرمنغول Ermangol صاحب اورخل(٣٥)، وحدثت بين الطرفين معركتي قنتيش(٣٦) وعقبة البقر(٣٧)، وعانت قرطبة وسكانها الأمرين من هذا الصراع، والذي نتج عنه قتل

المهدي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وإعادة هشام المؤيد للخلافة حتى عام ٤٠٣هـ/١٠٣١م، ولم يكن سليمان المستعين بأفضل سياسية من المهدي، فأساء إلى سكان قرطبة، كما أنه أقطع زعماء البربر جنوب وغرب الأندلس وجنوب المغرب للإنفراد بحكم قرطبة. وكانت نتيجة تلك السياسة أن زادت قوة البربر على قوته، وتطلع بنو حمود الى الخلافة، فقرروا خلع المستعين، فدخل علي بن حمود قرطبة، وأدعى أن هشام المؤيد قد ولاه ولاية العهد وقتل سليمان المستعين في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/يوليو١٠١٦م، وبذلك خرجت الخلافة من بني أمية إلى بني حمود الحسنيين، لمدة سبع سنوات، حتى خلع القاسم بن حمود في جمادى الثاني عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م(٣٨). وقد تضرر سكان قرطبة من سياسة بني حمود التصفية معهم، وكان ذلك سببا في خلع سكان قرطبة للقاسم بن حمود، وإعادة الخلافة إلى بني أمية، وذلك بمبايعة عبدالرحمن بن هشام المستظهر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م(٣٩). إلا أن الأوضاع السياسية لم تتحسن بعودة الخلافة إلى بني أمية، فاستمر التدهور العام في قرطبة، وتحكم العامة في الخلافة والخلفاء، بقتل هذا وخلع الآخر، حتى سئم السكان من هذه الأوضاع المتدهورة، وتقبلوا رأي الوزراء بزعامة الوزير أبي الحزم بن جهور، بإسقاط خلافة بني أمية في الأندلس، في ذي القعدة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وعزل آخر خلفاء بني أمية: هشام بن محمد المعتد بالله، وتعيين أبو الحزم بن جهور على قرطبة(٤٠).

كانت السمة البارزة للأحداث في قرطبة، في عصر الفتنة ٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م، هي الصراع على منصب الخلافة، وانحصر الصراع على قرطبة وتدخل العديد من الأطراف في هذا الصراع، وخرجت الخلافة لفترة من الزمن من بني أمية إلى بني حمود، وتولى الخلافة أشخاص غير أكفاء لمنصب الخلافة. وكان لهذا الصراع أثر كبير على الحياة العامة في قرطبة، في جوانبها المختلفة، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في بحثنا هذا.

أولا : الآثار السياسية للفتنة :

لقد كان للفتنة آثار جسيمة على الأوضاع السياسية داخل قرطبة، ومدى قدرة خلفاء الفتنة على فرض قوتهم ونفوذهم داخل الأندلس، والمحافظة على حدود دولتهم الخارجية. وعند النظر في الآثار السياسية داخل قرطبة، يتبين لنا كثرة من تولى منصب الخلافة، فقد تولى الخلافة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين في مدة لا تتجاوز اثنين وعشرين عاما(٤١). ومن الآثار السياسية أن جميع الخلفاء في الفتنة وصلوا إلى الخلافة، إما بالثورة أو باختيار سكان قرطبة لهم، فمن وصل الى الخلافة بثورة: محمد المهدي وسليمان المستعين، وعلي بن حمود، وعبدالرحمن المستظهر بالله(٤٢). وممن وصل إلى الخلافة بدعوة من سكان قرطبة – سواء أكانوا من البربر أو من العامة – القاسم بن حمود ومحمد المستكفي بالله وهشام المعتد(٤٣). وكانت جميع الشخصيات التي وصلت إلى الخلافة غير مؤهلة لهذا المنصب فاتسموا بالضعف وقلة الخبرة

والحنكة السياسية، فعجزوا عن ضبط الأوضاع في قرطبة، وإعادة الاستقرار السياسي لها. ونتج عن الضعف السياسي للخلفاء: ضياع هيبة الخلافة، ومكانة الخليفة الروحية لدى العامة، فخلع الخلفاء في فترات وقتلوا في فترات أخرى، وتولى خليفتان في وقت واحد أحيانا أخرى، وظل منصب الخلافة شاغرا فترة من الزمن. فممن انتهت خلافته بالخلع: هشام المؤيد الذي خلع عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م(٤٤) وخلع محمد المستكفي بالله في ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ/ ١٠٢٥ م(٤٥) كما خلع هشام المعتد بالله في ذي القعدة عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م(٤٦). وممن انتهى حكمه بالقتل محمد المهدي، الذي قتل في ذي الحجة عام ٤٠٠هـ/٢٣ يوليو عام ١٠١٠م(٤٧) وسليمان المستعين، الذي قتل في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/١٠١٧م(٤٨) وعبدالرحمن المستظهر بالله الذي قتل في ٣ ذي القعدة ٤١٤هـ/١٠٢٤م(٤٩). وشهدت الأندلس، ولأول مرة منذ قيام حكم بني أمية فيها، وجود خليفتين في وقت واحد ومكان واحد ولكل منهما انصاره ومؤيدوه وهما محمد المهدي، وسليمان المستعين(٥٠). وبعد مقتل محمد المهدي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م وإعادة هشام المؤيد للخلافة أصبح هناك خليفتان وهما: هشام المؤيد وسليمان المستعين، واستمر الوضع حتى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، عندما نجح سليمان المستعين في دخول قرطبة وقضى على هشام المؤيد، وأصبح هو الخليفة الأوحد(٥١). وظل منصب الخلافة شاغراً في قرطبة، عندما هرب يحي بن علي بن حمود، المعروف بالمعتلي بالله وترك تدبير أمور قرطبة لوزيريه: احمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في محرم عام ٤١٧هـ/١٠٢٥م وطرد الوزيران منها في ربيع الأول من السنة نفسها(٥٢) وظل المنصب شاغرا حتى قدم هشام المعتد بالله إلى قرطبة في ذي الحجة عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، على الرغم من أن أهل قرطبة كانوا قد أرسلوا بيعتهم لهشام المعتد في مقره بالبونت، في ٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ/١٠٢٦م(٥٣). ولعل هذا الفراغ السياسي لمدة عامين وسبعة أشهر، وضعف الخلفاء، وضياع هيبة الخلافة حيث كان الخليفة صورياً يعزل ويقتل ويتطاول عليه، وليس له من الخلافة سوى الاسم من العوامل التي ساعدت على تقبل سكان قرطبة إسقاط خلافة بني أمية عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور وذلك في عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م، مقارنة بمعارضتهم وثورتهم على عبدالرحمن شنجول عندما حاول نقل الخلافة من بني أمية لبني عامر، بتوليه ولاية العهد لهشام المؤيد.

ومن الآثار السياسية: أن السياسة لم تعد نخبوية يسيرها الخاصة من الخلفاء والوزراء، بل تدخل الجميع في السياسة، على اختلاف أعراقهم ومكانتهم الاجتماعية، من البربر والصقالبة والسودان، ومن الفقهاء والجند والعامة وغيرهم(٥٤).

ومن الآثار السياسية: تقلص نفوذ بني أمية داخل الأندلس وخارجها، ففي داخل الأندلس، انحصر الصراع على قرطبة، وعلى منصب الخلافة، فشهدت بذلك الأندلس بداية التشرذم والتمزق السياسي، والانسلاخ عن الخلافة، حيث لم تتجاوز سلطة الخليفة العاصمة قرطبة. وكان ذلك الانسلاخ إما بإقطاع من بعض الخلفاء، كما فعل سليمان

المستعين عندما أقطع قبائل البربر جنوب وجنوب غرب الأندلس، ليحكم قرطبة منفرداً بعيداً عن سيطرته(٥٥) أو استقطاعاً وخروجا عن الطاعة، كما فعل الصقالبة في شرق الأندلس(٥٦) أو انفراداً بحكم مناطقهم، كما فعل بنو عباد في إشبيلية وبنو تجيب في سرقسطة، وبنو الأفطس في بطليوس(٥٧) وفي عصر الفتنة هذه بدأت بذور دول الطوائف في التشكيل والظهور.

وظهر تقلص نفوذ بني أمية خارج الأندلس بخروج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن سيطرة بني أمية، إذ كان بنو أمية قد نجحوا في مد نفوذهم على تلك المنطقة منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، واستمرت سيطرتهم على تلك المنطقة حتى بداية عصر الفتنة، حيث استغل سكان المغرب إنشغال بني أمية بصراعهم على الخلافة، واستقلوا بحكم منطقتهم، وبذلك خرجت المغرب من تبعيتها لبلاد الأندلس(٥٨).

ومن الآثار السياسية لهذه الفتنة: استغلال ملوك وأمراء النصارى للأحداث السياسية، وبدأوا في التدخل في الصراع، فلعب سانشو غريسه ملك قشتاله دوراً في إيصال سليمان المستعين إلى الخلافة وشارك كل من بوريل الثالث صاحب برشلونة وأرمغول صاحب أورخل، في إعادة محمد المهدي إلى الخلافة(٥٩) ونتج عن تلك المساعدات التي بذلها ملوك وامراء النصارى، لخلفاء الفتنة، أن فقد المسلمون في الاندلس أجزاء من مناطق الحدود في الشمال عندما تعهد سليمان المستعين بالتنازل لسانشو غريسه عن بعض الحصون والقلاع على نهر الدويره(٦٠) كما تعهد محمد المهدي بمساعدة النصارى بالاستيلاء على مدينة سالم، وان يخليها لهم من المسلمين(٦١). وعندما رأى النصارى مدى الضعف الذي حل بالمسلمين، أخذوا يهددون بني أمية ويطالبونهم بالتنازل عن عدد من المناطق في الشمال، كما فعل سانشو غرسية ملك قشتاله؛ عندما أرسل لهشام المؤيد يتهدده، ويطالبه بالتنازل عن الحصون الواقعة على الحدود بينهم، والتي افتتحها المسلمون منذ عهد الحكم وحتى عهد المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر فاضطر هشام المؤيد إلي قبول ذلك وتنازل عن ٢٠٠ حصن، ووقعت معاهدة بذلك بحضور الفقهاء(٦٢) وبذلك بدأت حركة الاسترداد النصراني في الازدياد، مستغلين الصراع الدائر في قرطبة خاصة، وفي الأندلس عامة، لمصالحهم.

مما سبق يتبين أن للفتنة آثارا جسيمة على الأوضاع السياسية داخل الأندلس وخارجها، فمن آثارها: أسقاط حكم بني أمية في الأندلس، بعد أن دام قرابة الثلاثة قرون، وفقدت الأندلس وحدتها السياسية، وبدأ معها عصر التشرذم وملوك الطوائف، كما تقلصت حدود دولة بني أمية جنوبا وشمالا ففي الجنوب خرج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن حكم بني أمية وفي الشمال تراجعت الحدود بسيطرة النصارى على العديد من المناطق والحصون وكان ذلك دافعا للنصارى لضرب المسلمين بعضهم ببعض، والتقدم في حركة الاسترداد النصراني للأندلس.

ثانياً : أثر الفتنة على الإدارة :

لقد تأثرت الإدارة بالفتنة، فاختفت بعض المناصب التي كان لها دور رئيسي في إشعال الفتنة وهما: منصب الحجابة، وولاية العهد، فاختفى منصب الحاجب في بداية عصر الفتنة على الرغم من أن محمد المهدي كان قد عين ابن عمه، عبدالجبار بن المغيرة، في منصب الحجابة(٦٣) إلا أن المصادر لا تذكر أي دور سياسي لعبد الجبار بن المغيرة ولعل في هذا دلالة على تحجيم هذا المنصب. وكانت هناك محاولة فاشلة لإعادة منصب الحجابة مع واضح الصقلبي الذي تولى الحجابة على هشام المؤيد بعد مقتل محمد المهدي في ذي الحجة ٤٠٠هـ/١٠١٠م، ولكنه لم يستمر طويلاً في منصبه هذا، حيث قتل في عام ٤٠١هـ/١٠١١م، على يد أهل قرطبة الذين رفضوا السيطرة على الخليفة من قبل الحاجب(٦٤). ولعل اختفاء هذا المنصب يوضح كره السكان لسيطرة متولي هذا المنصب على الخليفة، والذي ارتبط بالسيطرة العامرية على الخليفة والخلافة.

وتأثر منصب ولاية العهد في الفتنة، فلم يظهر إلا في حالات ثلاث: اثنان بالتعيين وواحدة بالادعاء، وظهرت الحالة الأولى عندما عين محمد المهدي ابن عمه سليمان بن هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر، ولياً لعهده، إلا أنه لم يستمر طويلاً في منصبه، حيث سجنه المهدي ثم قتله، عندما ثار والده هشام بن سليمان على المهدي لسوء سياسته، وادعى أنه أحق منه بالخلافة، وفشلت محاولات ابن حزم وابن ذكوان في إعادته للطاعة(٦٥) أما الثانية، فكانت عندما ادعى علي بن حمود أن هشام المؤيد قد ولاه عهده عام ٤٠٥هـ/١٠١٥م، وأظهر كتاب نسبه إلى هشام المؤيد، وجعل ذلك سبباً للثورة على سليمان المستعين، ونجح في دخول قرطبة عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م، ومبايعته بالخلافة(٦٦) وكانت الثالثة عام ٤١٥هـ/١٠١٥م، عندما عين محمد المستكفي ابن عمه سليمان بن هشام بن عبدالله بن الناصر ولياً لعهده، إلا أن هذا التعين لم يوصله إلى الخلافة، لأن من ولاه العهد خلع من الخلافة، عام ٤١٦هـ/١٠١٦م(٦٧).

كما تأثر منصب الوزارة بالفتنة، وظهر ذلك جلياً بوصول طبقة غير مؤهلة للوزارة، وكان السبب الرئيس لوصولها هو: مساندتهم للخليفة لإيصاله إلى الحكم، كما حدث مع محمد المهدي، عندما ولى الوزارة لبضعة عشر رجلاً من أراذل العامة " من الحجامين والخرازين والزبالين والكنافين ". لمساندتهم له في القضاء على بني عامر(٦٨) على الرغم من انه لم يكن لهم أي معرفة بالإدارة أو السياسة، وكان الحسين بن يحي التجيبي ممن تقرب إلى المهدي وكان أحد دعاته فولاه الوزارة ثم ضم له المظالم(٦٩) فجمع له بين وظيفتين مدنية ودينية، وهذا يدل على مدى الاختلال والفوضى الذي عانت منه الإدارة في عصر الفتنة. واستمر صغار الناس في الوصول إلى منصب الوزارة، مع محمد المستكفي، الذي ولى الوزارة لأحمد بن خالد وهو رجل حائك ليس له دراية بالسياسة، فأساء إلى السكان(٧٠). وجعل عبدالرحمن المستظهر القرابة والتأييد هما الأساس للتعيين في الوزارة بعد أن أعيدت الخلافة لبني أمية فعين عددا من بني

مروان من صغار السن ولم يكن لهم معرفة بالسياسة، فاستبدوا بالحكم عن غيرهم ممن كان لهم دراية سياسية، فكان ذلك سبباً في خلع المستظهر وقتله(٧١). وبلغ الأمر غاية السوء مع هشام المعتد، الذي ولى الوزارة ابن القزاز وأطلق يديه في الحكم، فحجر ابن القزاز على الخليفة واستبد بشئون الدولة وأساء إلى جميع السكان كما أساء إلى بقية الوزراء والجند، فأخر أعطياتهم مما كان سبباً في تحالف الجند مع الوزراء، وأثاروا العامة على ابن القزاز، فكانت سياسته سبباً في قتله ومن أسباب إسقاط حكم بني أمية في الأندلس(٧٢).

وبلغ من اضطراب الأوضاع الإدارية، في عصر الفتنة، أن المناصب كانت تشترى ونتج عن ذلك أن وصل للادارة أشخاص لم يكن لهم دراية بالسياسة، من العامة والفقهاء(٧٣). وليس أدل إضطراب الإدارة في عصر الفتنة، من تباين صلاحيات وقوة الوزراء، ففي الوقت الذي كانت سلطة بعض الوزراء محدودة، واستبد الخلفاء في الأمور دونهم كما حدث مع أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبدة، وزير عبدالرحمن المستظهر فقد كان المستظهر يبت في كثير من الأمور دون الرجوع إليه(٧٤). وقد فاقت صلاحيات وقوة البعض الآخر قوة الخلفاء أنفسهم، كما حدث مع احمد بن خالد الحائك وزير محمد المستكفي(٧٥) وابن القزاز وزير هشام المعتد(٧٦) وبلغ من قوة بعض الوزراء أن نقضوا أحكام الخلفاء، كما حدث في عصر عبدالرحمن المستظهر، عندما سجن بعض شيوخ قرطبة لرغبتهم في تولية الخلافة سليمان المرتضى، فكاتبوا صاحب المدينة الذي أخرجهم من السجن مخالفاً لرأي المستظهر(٧٧). وكان من استغلال الوزراء لمناصبهم وتسلطهم على العامة، أنهم هم الذين قاموا بالسلب والنهب في عهد محمد المهدي دون رادع لهم(٧٨). وبلغ استغلال بعض الوزراء لمناصبهم أن استولوا على بعض ممتلكات الخلافة، كما فعل ابن منا ذو الوزراتين، وزير هشام المؤيد عندما رأى تردي الأوضاع السياسية عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، فأخذ كل متاع رفيع من قصر الخلافة، وحمله ليلا وهرب إلى بطليوس(٧٩).

وبلغت قوة الوزراء، في بعض الأحيان، أن تولوا تعيين وعزل الخلفاء، وظهر ذلك جلياً عندما قاد الوزراء الثورة على القاسم بن حمود، وقرروا إعادة الخلافة إلى بني أمية(٨٠). ووصلت تلك القوة ذروتها في اجتماع الوزراء، بزعامة أبو الحزم ابن جهور، عندما قرروا عزل هشام المعتد، وإسقاط خلافة بني أمية، وانصاع لقرار الوزراء هذا الخليفة هشام المعتد، وجميع سكان قرطبة، وبذلك قطعت خلافة بني أمية بأمر من الوزراء(٨١). ولعل هذا التباين في أوضاع الوزراء وقوتهم، جعل الكثير يتنافسون على منصب الوزارة وغيره من المناصب الإدارية، على الرغم من أن بعضهم لم يحصلوا على مرتبات من تلك المناصب(٨٢). ومن اللافت للنظر إيجاد عدد من الخطط والمناصب الجديدة في عهد عبدالرحمن المستظهر مثل خطة المدينتين الزهراء والزاهرة – على الرغم من تدميرها وكتابه التعقيب المحاسبة، وخطة الحشم، وخطة مواريث الخاصة وخطة الطراز وخطة المعالي وخطة خزانة الطب والحكمة وغيرها. ووصف ابن حيان

هذه المناصب بأنها عبث، ومراتب نصبت لغير طائل(٨٣). والجدير بالذكر، أن هذه القوة التي وصل إليها بعض الوزراء لم تعن استمرار قوتهم ونفوذهم، بل تغيرت أوضاعهم بتغير الخلفاء، كما فعل المهدي عندما نكب وزراء بني عامر، بعد أن قضى على حكمهم(٨٤) ونكب سليمان المستعين مؤيدي المهدي، ومنهم الوزير الحسين بن حي بن عبدالملك التجيبي(٨٥) وتعرض الوزراء من بني حزم للنكبة عدة مرات، ونهبت منازلهم وممتلكاتهم، وكانت أول نكبة تعرضوا لها على يد المهدي عندما نكب احمد بن حزم، لأنه من وزراء بني عامر، ونهبت منازلهم في شرق الزاهرة، فانتقلوا إلى بلاط مغيث في الجانب الغربي لقرطبة فماكان من احمد بن حزم الا أن نقل ولاءه لمحمد المهدي، ليضمن استقرار وضعه. وبعد قتل المهدي وعودة هشام المؤيد للخلافة، كان احمد بن حزم من وزراء المهدي الذين امتحنهم المؤيد وسجنوا وأغرموا وظل احمد بن حزم مسجونا حتى مات عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م(٨٦). وعند وصول المستعين للخلافة المرة الثانية، استمر في الإساءة إلى بني حزم، حتى اضطروا إلى الهرب من قرطبة عام ٤٠٤هـ/١٠١٤م(٨٧). كما نكب محمد المستكفي علي بن حزم وابن عمه أبا المغيرة الذين عادوا إلى قرطبة في عام ٤٠٩هـ/١٠١٩م، لأنهم كانوا من وزراء عبدالرحمن المستظهر(٨٨)، كما اضطهد علي بن حمود عددا من وزراء المستعين، منهم احمد بن برد وأبو الحزم بن جهور، فاعتقلهم وصادر أموالهم(٨٩).

وكان للفتنة تأثير على الجيش، وكان الجيش في عهد بني عامرجيشا قويا وضم ذوي الخبرة العسكرية من البربر والصقالبة، وقد بلغ عدد الصقالبة في جيش المنصور ١٠٥٠٠(٩٠). ونظرا للعداء بين المهدي وبني عامر، فقد غير المهدي بعد وصوله إلى الخلافة في الجيش، فضم إليه الآفا من عامة قرطبة، من سفلة الناس، من المهن المختلفة، ولم تكن لهم خبرة ولا دراية في الحرب والقتال فكانوا عبئاً عليه أكثر من كونهم دعما له(٩١). وأخذ العامة في التطوع في جيش المهدي فرساناً ومشاة ووزعت عليهم الأسلحة رغبة في الحصول على الأموال والعطاء والغنائم في حروب المهدي(٩٢). ولم يقتصر وجود العامة في الجيش على الجند في جيش المهدي بل تعداه إلى القادة، فمن قادة المهدي: الفضائري الطبيب وابن الوكيل، وغيرهما من الحواتين والجزارين وأشباههم(٩٣). وتضخم جيش المهدي من العامة حتى بلغ عدد جيشه في عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، ثلاثين ألفا في حربه لسليمان المستعين عندما دعى كل من بلغ الحلم وقدر على حمل السلاح إلى الانضمام للجيش(٩٤). وأصبح هذا العدد الكبير من الجند عبئا على خزانة الدولة(٩٥). مما دفع المهدي الى إخراج سبعة الاف من جنده وقطع ارزاقهم(٩٦) وعندما عجز المهدي عن ضبط الأوضاع في قرطبة؛ فكر في الاستعانة بالجند من خارج قرطبة لذا دفع إلى واضح الصقلبي ٥٠ ألف دينار ليفرقها في جند مدينة سالم للانضمام إليه إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل.(٩٧)

وفي الوقت الذي استكثر فيه المهدي من العامة في جيشه، أساء إلى البربر والصقالبة، وهما عماد جيش بني عامر فنفى جماعة من الصقالبة العامريين إلى خارج

قرطبة، فاتجهوا إلى شرق الأندلس(٩٨). كما أساء إلى البربر عندما أمرهم بوضع السلاح، وحاول إخراجهم إلى المغرب وإعادتهم للعمل بالزراعة(٩٩). ولعل محاولة المهدي إخراج البربر من الجيش، وسحب صلاحياتهم العسكرية والمالية، من أهم الأسباب التي دفعتهم للثورة ضده، ومبايعة سليمان المستعين بالخلافة.

وقد اضطرب وضع الجيش كإضطراب الأوضاع السياسية، ففي الوقت الذي اعتمد فيه المهدي على العامة، جعل سليمان المستعين البربر عماد جيشه، كما حاول استقطاب الجند الصقالبة وجذبهم إلى صفه، رغبة في تقوية مركزه ضد مناؤيه، فأرسل إليهم يدعوهم إلى الانضمام إليه والدخول في الطاعة، مع استمرار سيطرتهم على مناطقهم وزيادة العطاء لهم، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل(١٠٠).

ولقد تفوقت قوة الجند، في عصر الفتنة، على قوة الخلفاء، وحرصوا على المحافظة على تلك القوة، لذا ثار الجند من عامة قرطبة على واضح الصقلبي، وقتلوه عندما فكر في مصالحة البربر، حفاظاً على وجودهم وقوتهم(١٠١). وبلغ من نفوذ الجند أن أوكل إليهم هشام المؤيد، عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، تسيير أمور الدولة، وتولى الصراع مع البربر، بالتعاون مع وزيره ابن مناو دون الرجوع إليه(١٠٢). ونظرا لزيادة قوة البربر في جيش سليمان المستعين، وهم الذين ساعدوه للوصول إلى الخلافة، ورغبة من سليمان المستعين في ابعادهم عن العاصمة قرطبة ليخلص من نفوذهم وليتسنى له حكم قرطبة منفردا، قام بإقطاعهم مناطق في جنوب وجنوب غرب الأندلس(١٠٣). وعندما وصل علي بن حمود إلى الخلافة ٤٠٧هـ/١٠١٧م، ورأى ما وصل إليه كل من العامة والبربر في الجيش قرر أن يحدث تغيير في الجيش وبدأ بإدخال السودان في الجيش لإضعاف نفوذ البربر وسار أخيه القاسم بن حمود على نهجه فزاد من السودان في الجيش(١٠٤). وبلغ من قوة الجند قتلهم كل من حاول التصدي لأطماعهم من متولي الوظائف العامة كما حدث في عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، عندما قتل البربر كل من تولى الشرطة في قرطبة زمن هشام المؤيد لمعارضتهم مصالحهم، فقتلوا كلا من محمد بن قاسم الأموي المعروف بالجالطي، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم(١٠٥). كما لعب الجند دوراً في قتل الوزير ابن القزاز وزير هشام المعتد، عندما أخر أعطياتهم(١٠٦).

لقد تأثرت الوظائف الدينية بالفتنة كتأثر الوظائف المدنية، ومن أبرز الوظائف التي تأثرت في الفتنة: خطة القضاء، وعلى الرغم من أهمية هذا المنصب الدينية والاجتماعية، فقد تأثرت أوضاع القضاة بالأحداث السياسية، فأسقطت عن بعضهم الألقاب ونفي البعض الآخر، وسجن البعض، وبلغ الأمر بتعطيل خطة القضاء في بعض الفترات. فبعد نجاح محمد المهدي بالقضاء على بني عامر، أسقط لقب قاضي القضاة عن القاضي أبى العباس احمد بن ذكوان، وقصره على قاضي الجماعة، لقرب ابن ذكوان من بني عامر وتوليه القضاء في عهدهم. واكتفى المهدي بإسقاط اللقب عنه، ولم يستطع عزله أو ايذاؤه لمكانته من الخاصة والعامة(١٠٧) وتعرض القاضي ابن ذكوان

هو وجميع أسرته للنفي إلى المغرب عام٤٠١هـ/١٠١١م، لمناصحته لهشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلبي، في حربهم مع البربر واتهم بميله للبربر(١٠٨). واكتفى سليمان المستعين بسجن القاضي يحي بن وافد اللخمي، عند دخوله قرطبة عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، بعد استعطاف الكثير من الناس عليه حيث كان ينوي قتله لأن ابن وافد كان من مؤيدي هشام المؤيد، ومعارضاً لسليمان المستعين وظل ابن وافد مسجوناً حتى مات عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م(١٠٩). ولعل خوف سليمان المستعين من قوة القضاة وتأثيرهم على الناس، كان سبباً في تعطيله خطة القضاء طوال حكمه الذي دام ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر، وبذلك تعطل مذهب القاضي حتى أعاده علي بن حمود وعندما عين عبدالرحمن بن بشر على القضاء، واستمر قاضياً حتى عزله في خلافة هشام المعتد عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م لسعاية بعض الفقهاء ضده لسوء معاملتهم له(١١٠).

ومن اللافت للنظر تدخل القضاة، في عصر الفتنة بالسياسة كثيراً، ومن ذلك: أن هشام المؤيد أشهد القضاة والفقهاء، على خلع نفسه لمحمد المهدي(١١١)، وأرسل محمد المهدي قاضيه ابن ذكوان مع وزيره ابن حزم، لإعادة هشام بن سليمان للطاعة، ومنعه من الثورة ضد المهدي(١١٢). كما أرسل محمد المهدي القاضي ابن ذكوان إلى البربر يدعوهم للطاعة على أن يعيد هشام المؤيد للخلافة ويكون نائباً عنه(١١٣). وشارك القاضي والفقهاء في صياغة المعاهدة التي وقعت بين هشام المؤيد والنصارى، على تسليم جميع الحصون الشمالية التي استعادها الحكم والمنصور والمظفر، مقابل عدم تهديدهم لأراضي المسلمين(١١٤). ولعب القاضي ابن ذكوان دوراً في الصراع الذي دار بين هشام المؤيد وواضح الصقلبي وسليمان المستعين والبربر، فشجع القاضي ابن ذكوان على محاربة البربر وتعهد بتأمين ٥٠٠ فرس من مال الأحباس، ليحمل عليها مرتجلة العبيد(١١٥). وتزعم القاضي ابن ذكوان وفد الفقهاء إلى سليمان المستعين ورؤساء البربر، عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، لتأمين سكان قرطبة بعد انتصارهم عليهم(١١٦).

ولعل انغماس القضاة بالسياسة، وتطاول الخلفاء عليهم، كان سبباً في ضياع هيبتهم أمام العامة، الذين تطاولوا بدورهم عليهم، وهذا ما حدث مع القاضي ابن ذكوان، الذي رفض طلب العامة بدفع أموال الأحباس للنصارى اتقاء لشرهم فتطاولوا على القاضي وكسروا مقصورة الجامع وأخذوا الأموال دون موافقته ودفعوها للنصارى(١١٧).

وفي عصر الفتنة، لم يعد العلم والكفاءة هما المعيار الرئيس لتولي منصب القضاء، بل كان التأييد للخلفاء والثوار هو الأساس لتولي هذا المنصب، فكان هذا سبباً في أن وصل البعض إلى القضاء مع قلة علمهم(١١٨). ولعل اضطراب الأوضاع السياسية، والتطاول على القضاة وعدم مقدرتهم على إمضاء أحكامهم، وخوفهم على أنفسهم وأموالهم من الأسباب التي دفعت البعض للاستعفاء أو رفض منصب القضاء، فممن طلب الاستعفاء: عبدالرحمن بن احمد بن أبي المطرف المعافري الذي استعفى من هشام المؤيد عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م بعد توليه القضاء مدة سبعة أشهر وثلاثة وعشر

يوماً(١١٩)، ورفض القضاء كل من: أبي العباس احمد ابن ذكوان، وأخيه أبي حاتم، بعد عودتهم من نفيهم في المغرب، بعد قتل واضح الصقلبي، كما رفض عبدالله بن احمد الجذامي القضاء، عندما عرضه عليه محمد المستكفي(١٢٠). وفي الوقت الذي رفض البعض القضاء، نجد أن هناك من استفاد من القضاء واستغنى بعد فقر، مثل يونس بن مغيث بن الصفار آخر قضاة بني أمية(١٢١).

ولقد تأثرت بقية الوظائف الدينية بالفتنة كتأثر القضاء، منها خطة الرد والمظالم والشورى والشرطة. وليس أدل على اضطراب تلك الوظائف من زيادة محمد المستكفي للمشاورين من خمسة إلى أربعين(١٢٢). كما ولى محمد المستكفي خطة الشرطة لبعض العامة، والتجار الذين استغلوا مناصبهم دون رادع، وأساؤا إلى السكان(١٢٣)، وانتهت حياة بعض متولي تلك المناصب بالقتل، كما حدث مع راشد بن إبراهيم بن راشد، متولي خطة الرد، الذي قتل عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م(١٢٤). ومن الملاحظ في هذه الفترة الجمع بين الوظائف الدينية والمدنية كالجمع بين القضاء والوزارة، كما حدث مع عبدالرحمن بن محمد بن فطيس وعبدالرحمن بن بشر(١٢٥)، وجمع الحسين بن حي بن عبدالملك التجيبي بين المظالم والوزارة(١٢٦).

أثر الفتنة على العمران :

بلغت قرطبة أوج ازدهارها العمراني في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وتفوقت على سائر المدن الأندلسية(١٢٧) وكانت قرطبة في عصر الخلافة تتكون من خمسة أقسام وإحدى وعشرين ربضاً(١٢٨)، وقد استحدث اثنتان منها في عصر الخلافة وهما: الزهراء التي أسسها الناصر، والزاهرة التي أسسها المنصور بن أبي عامر(١٢٩). وبلغ من توسع العمارة في قرطبة، أن اتصلت العمارة فيها وامتدت بطول ضفة نهر الوادي المسمى الوادي الكبير، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع. وامتدت الأرباض حتى تلاصقت ببعضها، حتى إن الزاهرة في الجانب الشرقي اتصلت عمرانيا بالزاهرة في الجانب الغربي المقابل مروراً بقلب المدينة. وبلغ من ازدهار عمارة قرطبة وتطورها، أنه كان يمشي فيها بالأنوار بالسرج مسافة عشرة أميال(١٣٠). وقد صور المؤرخون والجغرافيون المسلمون، تطور قرطبة العمراني، بإحصاء لإعداد مرافقها العامة فبلغ عدد مساجدها ١٣٨٧، وقيل ١٨٦٧، وفي رواية ٣٨٧٧(١٣١) وعدد دور العامة أو منازلهم ١١٣٠٧٧ داراً، أما منازل الأمراء والوزراء والقادة فبلغت ٦٠٠٣٠٠ دار وكانت الرصافة هي مساكن الخاصة، أما العامة فكانت مساكنهم في أرباض قرطبة(١٣٢)، وبلغ عدد الحمامات ٣٧١١ حماماً(١٣٣)، وعدد الخانات والفنادق ١٦٠٠فندق(١٣٤) ووصل الازدهار والتطور العمراني إلى الأسواق، حيث وصلت أعداد الجوانب إلى ٨٠٤٥٥(١٣٥). علاوة على القصور والمنتزهات، فمن قصور قرطبة: قصر الخلافة، وقصر الزاهرة، والكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والزاهر، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، والتاج، والبديع(١٣٦). ومن منتزهات قرطبة:

المستدرة مقر السرادق شمال قرطبة، ومنتزه السد، ومنتزه قصر الرصافة الذي زرع فيه غرائب الغروس والأشجار والمنية المصحفية، والمنية العامرية(١٣٧).

ونتيجة لاهتمام خلفاء وحجاب بني أمية بالعمارة، أصبحت قرطبة تنافس العواصم الإسلامية الأخرى، بالتخطيط والتنظيم وفخامة العمارة وتنوعها، إلا أن هذا التطور لم يقدر له أن يستمر، حيث تأثرت العمارة كثيراً بالفتنة التي حصلت بقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكانت الزاهرة – مقر بني عامر – أول مناطق قرطبة العمرانية تأثراً بالفتنة، فبعد وصول محمد المهدي إلى الخلافة عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، أطلق يد مؤيديه من العامة في الزاهرة فنهبت الممتلكات، وأمر بنقل الأموال والذخائر الخاصة إلى قصر الخلافة. وقيل إن المهدي نقل منها ٥ ملايين و ٥٠٥ آلاف درهم ومليون و ٥٠٠ ألف دينار، واستخرج من الدفائن ٢٠٠ ألف(١٣٨). واستمر نهب الزاهرة لمدة يومين، وقيل لأربعة أيام. وبعد أن فرغ المهدي من نقل الأموال والذخائر أمر بهدمها، وتدمير قصورها واقتلاع أبوابها ثم إحراقها، ونجح في طمس آثارها فلم يترك حجرا فوق حجر فلم يعد للزاهرة أي أثر سوى اسمها، ليمحو بذلك كل أثر لبني عامر(١٣٩).

ولم يقف التدمير العمراني، في عصر الفتنة، على تدمير الزاهرة وإزالتها، وإنما استمر التدمير والتخريب لقرطبة، طوال الفتنة وبدأت الزهراء تتعرض للتدمير بعد هزيمة سليمان المستعين في عقبة البقر عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وخروجه من الزهراء – حيث كان قد اتخذها قاعدة له ولأتباعه من البربر، ليبتعد عن اهل قرطبة – فهاجم عامة قرطبة الزهراء ونهبوا ما وجدوا من آلات البربر، ودخلوا المسجد الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح أبوابه(١٤٠). وتعرضت الزهراء للتدمير مرة أخرى، بعد خروج المستعين منها للمرة الثانية، عام ٤٠١هـ/١٠١١م، بعد حصار دام ثلاثة أيام، وأشعلت النيران في المسجد الجامع فيها، وكان المسجد الوحيد الذي دمر في الفتنة(١٤١). كما تعرضت الزهراء للتدمير مرة ثالثة في عام ٤١٥هـ/١٠١٥م، في عهد محمد المستكفي الذي كان بحاجة إلى الأموال فتطلع إلى قصور الزهراء التي تضم ثروات معمارية هائلة، فاقتلعت أبواب النحاس والرصاص والمرمر والأخشاب الجديدة(١٤٢). كما تعرضت الرصافة للتدمير والتخريب على يد واضح الصقلبي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، عندما أطلق يد العامة فيها فخربوها وقطعوا أشجارها وأحرقوها، ليحول دون دخول البربر إلى قرطبة من جهتها(١٤٣). واستمر التدمير لقرطبة، فدمر سليمان المستعين طرق المواصلات بين الزهراء وقرطبة، محاولة منه للضغط على سكان قرطبة ثم أخذ في تدمير أرباض قرطبة ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٣م بدأ البربر أتباع سليمان المستعين في تدمير أرباض قرطبة وعاثوا فيها فساداً(١٤٤)، واستمر تدمير تلك الأرباض حتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م. كما تعرضت أرباض قرطبة للتدمير ومنه ربضها الغربي– بلاط مغيث – فخربت مبانيها ودمرت حتى هجرها سكانها(١٤٥). واستخدم سليمان المستعين، وأتباعه من البربر، التدمير العمراني للضغط على أهل

قرطبة لتسليمه المدينة، وذلك بتخريب بنائها وقطع مرافقها(١٤٦). وعندما تمكن سليمان المستعين والبربر من دخول قرطبة، عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، أخذ في تدمير وإحراق أي منطقة تقاومهم(١٤٧). واستمر تدمير قرطبة مع علي بن حمود الذي هدم دور بعض أهل قرطبة بعد إساءته لهم(١٤٨). كما تأثرت أسواق قرطبة بالثورة، فبعد قيام محمد المهدي أحرق سوق السرادق(١٤٩). وفي عام ٤٠١هـ/١٠١١م أحرق عدد من أسواق قرطبة، منها سوق السراجين وسوق الخشابين(١٥٠).

ولم تكن الحروب هي السبب الأوحد للتدمير العمراني الذي حل بقرطبة، فقد تعرضت قرطبة، في عام ٤٠١هـ/١٠١١م، لفيضان نهر الوادي الكبير والذي استمر لمدة ثلاثة أيام وكان سبباً في هدم ألفي دار وعدد من المساجد والقناطر، وهدم معها أجزاء السور الجنوبي لقرطبة(١٥١).

كما تأثرت طرقات قرطبة بالفتنة فعندما خاف محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، من البربر قام بحفر الخنادق حول فحص السرادق، وفي أرباض قرطبة، ليحول دون تقدم البربر إلى قرطبة(١٥٢). وبعد عودة محمد المهدي لقرطبة، في خلافته الثانية، أمر ببناء سور يدور حول أرباض قرطبة جميعاً، حيث كان السور في السابق للمدينة دون أرباضها، وأحيط السور بخندق وجعل للسور ثلاثة أبواب وهي: باب عباس وباب الحديد وباب الفرج(١٥٣). ولقد تأثرت شوارع قرطبة، فخربت الشوارع من جراء الصراع داخل قرطبة، ومن حفريات الخنادق حتى تراكمت أكوام التراب والحجارة على جوانب الشوارع(١٥٤). ونتيجة للتدمير فقد تراجعت مرافق قرطبة العاصمة، فتقلصت حماماتها من ٣٧١١ إلى ٧١١ حماماً(١٥٥). وأحرقت الأسواق وقلت أعداد المنازل لهدم الكثير منها(١٥٦). وقد دمرت بعض المساجد، ومنها مساجد الزاهرة والزهراء، وتعرضت أجزاء من المسجد الجامع في قرطبة للتدمير حيث كسروا ودمروا باب مقصورة الجامع، عندما رفض القاضي ابن ذكوان إعطائهم أموال الأحباس(١٥٧). كما تحولت المنتزهات الخاصة إلى منتزهات عامة لجميع الطبقات، ولم تعد تلقى الاهتمام والعناية من الخلفاء كالسابق(١٥٨).

أثر الفتنة على الحياة الاقتصادية :

نتيجة للاستقرار السياسي في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، اهتم خلفاء بني أمية وحجابها بالاقتصاد بأشكاله المختلفة، فزادت موارد الدولة، وسكت العملة الذهبية وبرز إثر الاقتصاد بازدهار النواحي الحضارية المختلفة، من العمارة وغيرها، إلا أن الاقتصاد تدهور تدهوراً واضحاً، في عصر الفتنة، لعدم قدرة خلفاء الفتنة على المحافظة على أموال الدولة العامة والإسراف في العطاء في بداية الفتنة، وتحول ملكيات الدولة إلى ملكيات شخصية، واستنزاف الأموال في الحروب، ونقل أموال الأندلس إلى خارجها، وتوقف مناطق الأندلس عن إرسال الخراج السنوي إلى قرطبة،

لخروج سكانها عن طاعة خلفاء بني أمية، وإطلاق يد أتباع الخلفاء في السلب والنهب والمغارم والمصادرات التي فرضت على العامة.

ويبدأ أول تأثير على الاقتصاد مع انتصار محمد المهدي؛ على عبدالرحمن شنجول وقتله عندما أسرف في العطاء لكل من تبعه، فانضم إليه عامة أهل قرطبة من العلماء والتجار، فأغدق عليهم العطاء(١٥٩). كما أطلق يد أتباعه في نهب ممتلكات بني عامر في الزاهرة، وشارك محمد المهدي بنهب الأموال من الزاهرة، ونقل بيت المال من الزاهرة إلى قصر الخلافة في قرطبة، وحوله إلى ملكية خاصة. وبلغ مقدار ما استولى عليه ٥ ملايين و٥٠٠ ألف دينار فضة، ومليون و٥٠٠ ألف دينار ذهب، ومن الدفائن ٢٠٠ ألف دينار(١٦٠). كما سمح المهدي بنهب منازل بعض الخاصة من البربر فأثر ذلك على أوضاعهم الاقتصادية، ودفعهم إلى مساندة سليمان المستعين(١٦١).

ولقد استنفذت مدخرات بني أمية وأموالها، وأموال الخاصة، في الحروب الدائرة على منصب الخلافة(١٦٢) وفي جمع المؤيدين كما فعل محمد المهدي عندما أعطى "واضح الصقلبي" ٥٠ ألف دينار، ليوزعها على جند مدينة سالم لينضموا إليه(١٦٣) وفي دفع الأموال للنصارى طلبا لمساعدتهم، كما فعل محمد المهدي عندما طلب العون من النصارى ضد سليمان المستعين، مقابل الكثير من الاموال، فتعهد لبرويل الثالث صاحب برشلونة وارمنجول صاحب أورخل بدفع مائة دينار لكل منهما عن كل يوم ولكل جندي من جنودهما دينارين في اليوم، طوال مساندتهم له ضد سليمان المستعين، إضافة إلى إطلاق أيديهم في الغنائم(١٦٤). وزاد تناقص الأموال باستيلاء النصارى والبربر على الكثير من الأموال والأمتعة لأهل قرطبة، في حروبهم معهم، مثل معركة وادي آرة عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، حيث بلغ مقدار ما استولى عليه الوزير اليهودي لملك قشتالة ٣٠ ألف مثقال علاوة على ما استولى عليه بقية الجند النصارى الذين امتلأت مناطقهم بالدراهم والدنانير(١٦٥). وبذلك أخذت أموال من قرطبة في الانتقال الى الخارج إلى النصارى. وبلغ من قلة الأموال لدى الخلفاء، أن اضطر سكان قرطبة لجمع الأموال، إضافة إلى أموال الأحباس، لدفعها للنصارى ليخرجوا عن قرطبة(١٦٦).

ونتيجة لقلة الأموال في أيدي خلفاء بني أمية، فقد عمدوا إلى فرض المغارم والضرائب والمصادرات على سكان قرطبة، ليوفروا الأموال للإنفاق على الحروب والجند، ففرض محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م على سكان قرطبة المغارم والضرائب التي عرفت باسم " الفريضة " ليتمكن من تجهيز الجيوش لمحاربة البربر وسليمان المستعين(١٦٧). كما فرض هشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلبي الكثير من المغارم على التجار عام ٤٠١هـ/١٠١١م(١٦٨). وزاد هشام المؤيد بفرض الضرائب والمغارم على سكان قرطبة وأجحف عليهم عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م(١٦٩). وكان من نتائج معارضة عامة قرطبة لسليمان المستعين، أنه فرض عليهم المغارم والضرائب، عندما دخل قرطبة عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، والتي فاقت طاقتهم، حتى إنه أغرم أحدهم، ويدعى ابن السرح، مائة ألف دينار(١٧٠). وصادر البربر، بتأييد وموافقة من سليمان المستعين،

ممتلكات وأموال عامة قرطبة حتى اضطر البعض إلى الهرب، تاركين أموالهم وديـارهم، حفاظاً على أرواحهم(١٧١). وأسرف على بن حمود عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م مـع سـكان قرطبة، بعد محاولة عبدالرحمن المرتضى الثورة بشرق الأندلس بتأييد من أهل قرطبـة ففرض عليهم المغارم وشاطرهم أموالهم وأسلحتهم ودورهم حتى خافه الناس واضطروا إلى التخفي في الأقبية تحت الأرض(١٧٢). كما صادر علي بن حمود أموال عـدد ممـن خدموا سليمان المستعين وسجن البعض الآخر حتى افتدوا أنفسهم بالأموال، ومنهم أبـو الحزم بن جهور، واحمد بن برد الأكبر وغيرهما(١٧٣). وعند عودة الخلافة لبني أميـة، من بني حمود، لم تتحسن أحوال سكان قرطبة المالية، بل استمروا في فرض الـضرائب والمغارم، حيث فرض عبدالرحمن المستظهر المغارم على علية القـوم، مـن الـوزراء والمشيخة، ليسد حاجات الدولة ودفع مرتبات الجند ومتطلبات القصر(١٧٤). وصادر ابن القزاز، وزير هشام المعتد، أموال التجار ليغدق بها علي البربر(١٧٥). ولعل تأثر سـكان قرطبة ماليا بالمصادرات وقلة دخلهم، من بين الأسباب التي جعلـتهم يتقبلـون إسـقاط خلافة بني أمية، رغبة منهم في عودة أوضاعهم الاقتصادية إلى سابق عهدها.

وبلغ من قلة الأموال، في عصر الفتنة، أن توقفت مرتبات الجنـد فـي بعـض الفترات، أو أن مرتباتهم لم تعد تكفي متطلباتهم، ويشير إلى ذلك ابن عذاري عن وضـع الجند في عصر هشام المؤيد بقوله: " الجنـــد فقـــــراء "(١٧٦)، كما يشير ابـن حزم إلى قلة موارد الدولة وأن مرتبات الجند كانت تدفع من الضرائب المفروضة علـى المواد الغذائية في الأسواق، من الدقيق والزيت والجبن(١٧٧). ولـيس أدل علـى قلـة الأموال ونفادها عند مبايعة هشام المؤيد للمرة الثانية، من اضطراره إلى بيع مقتنيـات قصره من الحلي الثمينة والذخائر، وأواني الذهب والفضة والثياب، وبلغ الأمـر ببيـع الكتب والأدوية(١٧٨). كما لجأ محمد المستكفي إلى تدمير قصور الزهراء وبيع ثرواتهـا المعمارية، من أبواب النحاس والمرمـر والأخـشاب ليحـل المـشكلة الماليـة التـي واجهته(١٧٩). وأجبر الوزير ابن القزاز، وزير هشام المعتد، كبار تجـار قرطبـة علـى شراء الرصاص والحديد المجلوب من قصور بني أمية، ليحل المشكلة المالية(١٨٠). ولم تكن الحروب وحدها هي التي أثرت على الأموال بل كان للسيول التـي تعرضـت لهـا قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، واستمرت لمدة ثلاثة أيام أثر على الأموال، فذهب كثيـر من أموال سكان قرطبة وأمتعتهم في تلك السيول(١٨١).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي وقلة الأموال في قرطبة، في عصر الفتنة، فقد أثرى البعض في هذه الفتنة، ومنهم الحاجب واضح الصقلبي، الذي وجد معـه بعـد قتله عام ٤٠١هـ/١٠١٠م الكثير من الأموال، وكان عازماً على الهروب بها إلى خارج قرطبة(١٨٢)، وأثرى ابن مناو- ذي الوزارتين. أحد وزراء هشام المؤيد، فـي خلافتـه الثانية، وهرب إلى بطليوس عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، بعد أن استولى علـى الكثيـر مـن الأموال والأمتعة(١٨٣). وأثرى زاوي بن زيري في الفتنة، حيث استولى على الكثير من الأموال وخرج بها من الأندلس إلى المغرب، عام ٤١٦هـ/١٠١٦م(١٨٤)، كمـا أثـرى

الوزير ابن القزاز عندما أطلق هشام المعتد يده في الأموال(١٨٥). كما أصبح ابن باسه من أكبر الاغنياء من خلال تدميره لقصور بني أمية، ونهب كل ما تحتويه تلك القصور(١٨٦).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي التي شهدته قرطبة، في عصر الفتنة، فقد استمر سك العملة في الفتنة، ولعل ذلك لكون العملة شارة من شارات الخلافة، فوجدت دنانير لكل من: محمد المهدي، وسليمان المستعين، وهشام المؤيد في خلافته الثانية، وبني حمود ومحمد المستكفي وسليمان المستعين إلا أن التزييف كان ظاهراً في عملة هذه الفترة ولعل ذلك لقلة الذهب والفضة ولضعف الرقابة(١٨٧).

ولم يقف تأثير الفتنة على الاقتصاد، على قلة الأموال والمغارم، بل تعداه إلى التأثير على النشاط الاقتصادي لقرطبة، بكافة أشكاله من زراعة وصناعة وتجارة. ولقد كان للفتنة أثر سلبي على الزراعة، وذلك لانشغال الخلفاء بالصراع والحروب وإهمالهم الاهتمام بالأراضي الزراعية ولهجر بعض الزراع مناطقهم، وتركوا العمل في الزراعة وشاركوا في الحروب رغبة في الحصول على الأموال. وتعدى الأمر ذلك عندما استخدم الخلفاء التدمير الزراعي من بين أساليب الضغط على السكان، ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، فخرب واضح الصقلبي مدينة الرصافة وقطع ثمارها(١٨٨)، واستخدم كل من محمد المهدي، وسليمان المستعين أسلوب التدمير الزراعي لقرطبة(١٨٩)، ولم يقف التدمير على المدن بل تعداه إلى القرى والبوادي، من ذلك استخدام البربر أسلوب التدمير من عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، وحتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، لقرى قرطبة، فنسفوا زروعهم وفنيت مواشيهم(١٩٠). وكان من سبب الضغط على القرى والبوادي، انه في عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، عندما شدد سليمان المستعين والبربر الحصار قرطبة أن خرج السكان إلى السواحل والبوادي فاتجه البربر إلى تدمير تلك المناطق للضغط على السكان ومنع سكان قرطبة من الخروج عنها فخلت تلك البوادي والقرى من السكان(١٩١).

كما تأثرت الصناعة بالفتنة، فهجر الكثير من الصناع الحرفيون حرفهم، فأنضم بعضهم للجند، في الفتنة، في حين أن البعض الآخر هاجر من قرطبة إلى أماكن أكثر استقراراً حاملين معهم أصول صناعتهم فانتقل بذلك عدد من الصناعات، ذات الشهرة في قرطبة إلى المدن الأندلسية المختلفة. كما تأثرت الصناعة بإحراق الأسواق وتدمير المنشآت، وظهر تأثير الصناعة بإحراق الأسواق، مثل سوق السراجين والخشابين، فخلت حوانيت الحرفيين من أصحابها والتي كانت مدارس لتعليم الصبيان أصول الصنعة. كما تأثرت صناعة المنسوجات بتدمير دار الطراز عام ١٠١٠م(١٩٢). ومن الصناعات التي انتقلت من قرطبة: صناعة الحرير والوشي، حيث انتقل إلى المرية(١٩٣) والتي أصبحت من أفضل مدن الأندلس بتلك الصناعة(١٩٤). كما انتقلت صناعة نسخ الكتب والتسفير بعد شلت هذه الصناعة في قرطبة، إلى مدن الأندلس المختلفة، بسبب المنافسة العلمية لدى ملوك الطوائف(١٩٥)، وانتقلت صناعة العاج إلى طليطلة بعد تدمير دور

صناعة العاج فهاجر بعض صناعها إلى طليطلة(١٩٦) حيث شجعهم المأمون بن ذي النون، فبرزت قونكة(١٩٧) كمركز بارز في صناعة العاج بالأندلس(١٩٨).

وقد ظهرت صناعة الخمر، في عصر الفتنة، والتي حاول خلفاء بني أمية، في عصر قوة الخلافة، منعها والحد منها في قرطبة، وذلك عندما فكر الحكم المستنصر بقطع أشجار العنب من قرطبة لمنع صناعة الخمر والنبيذ(١٩٩). ولعل شيوع شرب الخمر بين خلفاء الفتنة، وجنود النصارى، شجع على ظهور تلك الصناعة، والتي قيل إنها تصنع سراً(٢٠٠).

ولقد تأثرت التجارة بالفتنة نتيجة للظروف السياسية وضرب الحصار على قرطبة، وقطع المواصلات حولها(٢٠١)، فتوقفت التجارة الداخلية والخارجية بين قرطبة وبقية مناطق الأندلس وبينها وبين العالم الخارجي، ففقدت قرطبة دورها التجاري الهام، حيث أنها كانت مركزا للتبادل التجاري وكان التجار الأجانب يقدمون إليها تجارتهم المختلفة(٢٠٢).

كما تأثرت التجارة المحلية بالفتنة، فأحرق عدد من الأسواق مثل: سوق السرادق، وسوق السراجين، والخشابين وغيرها(٢٠٣). ودمرت السيول بعض أسواق قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١١م(٢٠٤)، وتعرضت الأسواق للنهب بأمر بعض الخلفاء، كما حدث عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م عندما أمر محمد المهدي بنهب سلاح الصياقلة والتراسين(٢٠٥)، كما تأثرت التجارة عندما هجر البعض تجاراتهم وانضموا إلى المهدي بثورته(٢٠٦)، وكان للخوف الذي أشاعه البربر، إتباع المستعين، أثر على حركة البيع والشراء(٢٠٧)، وبلغ الأمر بالفقهاء أن أفتوا للتجار بجواز الصلاة في حوانيتهم، حفاظاً على أملاكهم من السرقة(٢٠٨)، وظهر أثر الفتنة على التجارة خلت الأسواق من الناس في خلافة علي بن حمود نتيجة لسوء معاملتهم للناس وللتجار(٢٠٩). كما تعرض التجار للمصادرات المالية من قبل الخلفاء والوزراء، كما فعل محمد المهدي والوزير ابن القزاز وزير هشام المعتد(٢١٠). وحاول هشام المؤيد في خلافته الثانية، وحاجبه واضح الصقلبي، الاستفادة من أموال التجار لمواجهة سليمان المستعين والبربر، إلا أن التجار رفضوا لتعرضهم للمصادرات وعدم توفر الأموال لديهم(٢١١)، كما فرضت الضرائب على المواد الغذائية في الأسواق(٢١٢).

وكان للاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي، والسيول والأمطار، أثر على الأسعار فعانى سكان قرطبة من الغلاء، ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، بلغ الأمر بارتفاع الأسعار وعجز السكان عن الشراء أن أكلوا الميتة والدم(٢١٣). واستمر الغلاء في عصر سليمان المستعين وقلت المؤن في عهده(٢١٤)، وبلغ من ارتفاع الأسعار أن وصل سعر مد القمح ٣٠٠ دينار(٢١٥). وتحسنت الأسعار قليلا في بداية حكم علي بن حمود ولحسن معاملته للسكان فرخصت الأسعار إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، حيث تغيرت معاملته بعد ثورة المرتضى في شرق الأندلس، فتشدد مع السكان فتأثرت الأسعار والتجارة في عهده(٢١٦).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الاقتصاد كثيراً، فبعد الازدهار الاقتصادي والثراء في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حدثت الفتنة في أوج ثراء بني أمية بعثر خلفاء الفتنة تلك الأموال وأنفقت على الحروب، ومحاولة جمع المؤيدين والأتباع داخل قرطبة وخارجها. كما تدهور النشاط الاقتصادي في قرطبة بالنواحي المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة.

أثر الفتنة على الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع القرطبي، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، يتكون من عدد من الأعراق وهم: العرب والبربر والمولدون والصقالبة. في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بدأ العرب والبربر الداخلون إلى الأندلس مع الفتح بالتمازج مع المولدين مكونين ما عرف بالأندلسيين. على الرغم من محافظة بعض العرب على أصولهم(٢١٧). وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بدأ أعداد من البربر في الدخول إلى الأندلس بأمر من الحكم المستنصر، والمنصور بن أبي عامر الذي اعتمد عليهم في الجيش، وقد حافظ هؤلاء الوافدون حديثاً على الأندلس - على أصولهم ولعبوا دوراً سياسياً وعسكرياً(٢١٨). كما دخل أعداد من الصقالبة إلى الأندلس مع المنصور بن أبي عامر، عندما أراد تغير - صقالبة بني أمية - حتى إنهم أصبحوا يعرفون بالفتيان العامرين، وقد بلغ عددهم ثلاثة عشر ألف وسبعمئة وخمسين ١٣٧٥٠(٢١٩). ونظراً لأن البربر والصقالبة كانوا ساعدي بني عامر، فقد تأثروا بالفتنة .

وعند قيام الفتنة في قرطبة، شاركت جميع الأعراق فيها، وكان لهذه المشاركة أثر على التركيبة الاجتماعية، فعندما وصل محمد المهدي إلى الخلافة، تعسف مع الصقالبة وأمرهم بالخروج عن قرطبة، فقرروا النزوح إلى مناطق شرق الأندلس المختلفة، وتمكنوا من تأسيس مناطق لحكمهم هناك، مثل مجاهد العامري الذي اتجه إلى دانية(٢٢٠) وتمكن من تأسيس حكم هناك. وأسس خيران حكم في المرية والجزائر الشرقية، واتجه مبارك إلى بلنسية مؤسساً حكماً هناك(٢٢١). إلا أن هذا لا يعني خروج جميع الصقالبة، بل خرج جلهم وبقي البعض، بدليل تأييد واضح الصقلبي لهشام المؤيد، وأن علي بن حمود قتل على يد جنوده من الصقالبة(٢٢٢). كما أساء محمد المهدي إلى البربر الذين قرروا المحافظة على مكانتهم العسكرية والسياسية في قرطبة، فاتجهوا إلى تأييد سليمان المستعين فأيدوه ونجحوا في إيصاله إلى الخلافة، فزاد المستعين من البربر، واستقدام أعداد منهم من المغرب. وعندما نجح سليمان في القضاء على هشام المؤيد، وأراد الانفراد بالحكم في قرطبة أقطع قبائل البربر مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس(٢٢٣) وأخرجهم بذلك عن قرطبة، وبذلك أعطاهم فرصة للسيطرة على مناطق في الأندلس، وتأسيس حكم لهم هناك. وعلى الرغم من استقرار

جل البربر في الأندلس، إلا أن البعض قرروا العودة إلى المغرب، مثل زاوي بن مناد الصنهاجي الذي خرج الى المغرب عام ٤١٦هـ/١٠١٦م، حاملاً معه أهله وماله(٢٢٤).

لقد أثرت الفتنة على التركيبة الاجتماعية، حيث خرج أعداد كبيرة من سكان قرطبة إلى خارجها، وكان ذلك الخروج إما بأمر من الخلفاء، كما حدث مع الصقالبة الذين أخرجهم محمد المهدي، أو البربر الذين أخرجهم سليمان المستعين بإقطاعهم مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس، أو هرباً من قبل بعض السكان أنفسهم، للمحافظة على أرواحهم، سواء أكانوا من مؤيدي الخلفاء السابقين، مثل بني حزم الذين خرجوا إلى شرق الأندلس بعد اضطهاد المستعين لهم(٢٢٥) وكما فعل الوزير أبو عامر بن شهيد(٢٢٦)، أو من العلماء أو العامة ممن رغبوا في المحافظة على أرواحهم وعلومهم. ونتيجة لقلة أعداد السكان في قرطبة لهجرة البعض إلى خارجها، زاد سكان بعض مدن الأندلس، كما حدث في المرية التي زاد سكانها لقدوم الفارين إليها من قرطبة وغيرها(٢٢٧). ولم يكن النفي أو الهجرة من قرطبة لداخل الأندلس وخارجه هو السبب الوحيد لقلة سكان قرطبة، بل كنت الحروب من الأسباب التي أدت إلى قتل أعداد كبيرة من سكان قرطبة، فقد قيل إن عدد من قتل في كل من معركتي: عقبة البقر، وقنتيش، يتراوح بين ٢٠ ألفا و٣٥ ألفا(٢٢٨)، وعلى الرغم مما في هذا العدد من مبالغة إلا أن له دلالة على كثرة القتلى. واستمر القتل طوال عصر الفتنة حيث قتل البربر أعدادا كثيرة من سكان قرطبة، عندما نجحوا في السيطرة عليها عام ٤٠٣هـ/١٠١٢م(٢٢٩). كما أساء علي بن حمود، عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م، إلى سكان قرطبة بعد ثورة المرتضى، فقتل أعدادا كبيرة من السكان وعزم على إبادتهم وإخلائها من السكان(٢٣٠). وبلغ من كثرة القتل أن الناس قتلوا في المسجد الجامع، في عهد عبدالرحمن المستظهر(٢٣١). وكانت السيول من أسباب قلة السكان فغرق في السيل الذي تعرضت له قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، خمسة الآف شخص(٢٣٢)، وتناقصت أعداد من سكان قرطبة بسبب الأمراض والأوبئة، مثل الطاعون الذي تعرضت له قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م(٢٣٣). وكما كان الجوع وقلة الغذاء من الأسباب التي أدت إلى موت أعداد من سكان قرطبة(٢٣٤)، ولعل السبي من أسباب قلة السكان، حيث سبى النصارى أعدادا من سكان قرطبة، وخاصة النساء، وبلغ الأمر أن سبيت حرم الخلفاء، كما حدث مع حرم عبدالرحمن بن هشام الملقب بالظافر بالله(٢٣٥). وكان لهذه الأسباب مجتمعة أثر على أعداد سكان قرطبة، فلم يبق منهم إلا أعداداً قليلة(٢٣٦). وفي الوقت الذي خرج فيه الكثير من السكان إلى قرطبة قدم بعض الأعراق إليها من السودان الذين اعتمد عليهم بنو حمود وجعلوهم جنداً لهم(٢٣٧). كما دخل أعداد من النصارى إلى قرطبة، سواء أكانوا من مملكة قشتالة أو أرجون أو برشلونة(٢٣٨). ونتيجة للفتنة، فقد خلت بعض المناطق من السكان فأخذ الناس يتنقلون من منطقة إلى منطقة أخرى بحثا عن مناطق أكثر أمناً، كما حدث مع آل حزم الذين انتقلوا إلى بلاط مغيث في الربض الغربي في عام

٣٩٩هـ/١٠٠٩م، بعد أن خرب الجانب الشرقي من الزاهرة(٢٣٩)، ثم دمر كل من بلاط مغيث والرصافة وخلت من السكان(٢٤٠).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: قلة الأمن فكثر السلب والنهب، وتعرضت منازل الخاصة للنهب في الرصافة وقرطبة، مثل منازل بني زيري، وبني حزم(٢٤١). وبلغ من قلة الأمن وانتشار الخوف أن قتل كل من خرج منفرداً، وبلغ الخوف في سكان قرطبة في عصر علي بن حمود أن اختفوا في الإنفاق في باطن الأرض(٢٤٢). ونتيجة لقلة الأمن كثر السبي وبيع الأحرار، وفقد البعض حرياتهم وهتكت الأعراض(٢٤٣). وبلغ من شدة الخوف وانتشار العصابات أن تأخر دفن الأموات إلى ثلاثة أيام، وكان بعض الموتى يدفنون دون تغسيل أو تكفين أو صلاة، وبلغ الأمر أن دفن البعض قرب منازلهم وليس في المقابر وامتنع السكان عن أداء صلاة الجنائز(٢٤٤). كما جمعوا بين صلاتي المغرب والعشاء(٢٤٥).

كما أثرت الفتنة على مظاهر الحياة الاجتماعية العامة، فقل الزواج نتيجة للخوف وقلة الأموال، وقتل الشباب والشيوخ(٢٤٦)، وانشغلت النساء عن الاهتمام بالزينة والتي جبلت المرأة عليها، فأصبحت المرأة تبدوا أكبر من سنها(٢٤٧). وتوقفت الاحتفالات بالأعياد فتوقف الاحتفال بآخر رمضان وبعيد الفطر، ولم يخرج الناس إلى المصلى خارج قرطبة، واكتفوا بأدائها في المسجد الجامع(٢٤٨). ومن آثار الفتنة انتشار الخمور والفجور والزنا واللواط والمعازف والغناء، وكان شرب الخمر منتشراً بين خلفاء الفتنة، فكان لمحمد المهدي مائة خابية من الخمر ومائة بوق للزمر، ومائة عود للعزف، وكان له فتى صقلياً يعشقه، وكان مجاهراً بالفسق وشرب الخمر والزنا حتى تعرض الشعراء لسيرته(٢٤٩). وانغمس محمد المستكفي بالشهوة والنساء والشرب، وبلغ الأمر أن لبس ثياب المغنيات عندما أراد الهرب من قرطبة(٢٥٠)، وانغمس هشام المعتد بالنساء والشرب والملهيات، بتدبير من الوزير ابن القزاز ليشغله عن الحكم(٢٥١). ولم يكن سوء الأخلاق قاصرا على طبقته الخاصة من الخلفاء وجلسائهم، بل أصبح ظاهرة في قرطبة في عصر الفتنة(٢٥٢). وأشار ابن بسام إلي أن تأثير الفتنة وصل حتى الغناء والملاهي فقد قتل في الفتنة قنبوط الملهي وزريوط المغني (الطنبوري)(٢٥٣).

ومن آثار الفتنة ظهور المناوئين للإسلام من النصارى، ومجاهرتهم بسب الدين وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وحدث في عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م أن وقف رجل نصراني في أعظم شوارع قرطبة، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يوجد من ينكر عليه أو يمنعه من فعله(٢٥٤) وكان النصارى إذا سمعوا الأذان يتلفظون بكلام بذئ ولا يعترض عليه أحد بشيء(٢٥٥).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: زيادة الفوارق المالية في المجتمع، ففي الوقت الذي أثرى فيه البعض من الوزراء والخاصة، المقربين للخلفاء، عانى جل السكان من الفقر والمصادرات والجوع، حتى اضطروا إلى أكل الميتة والسرقة لسد الجوع(٢٥٦).

كما أثرت الفتنة على المهن الحرفية، فهجر أصحاب الحرف مهنهم وانضموا إلى الجيش، رغبة في تحسين أوضاعهم المالية(٢٥٧).

مما سبق يتبين أن للفتنة أثرا على الحياة الاجتماعية، فقد تغيرت التركيبة الاجتماعية بخروج عدد من الأعراق من قرطبة، وقل عدد السكان لأسباب متعددة، وانتشر الكثير من العادات السيئة، وظهرت الفوارق المالية بين السكان، وهجرت بعض الحرف .

أثر الفتنة على الحياة العلمية :

كانت قرطبة المركز العلمي الأوحد، دون منافسة، في الأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، نتيجة لجهود خلفاء بني أمية، وخاصة الحكم المستنصر الذي قام بجهود كثيرة لتشجيع العلم والعلماء، فأصبحت لقرطبة مكانة علمية متميزة في الأندلس خاصة وفي العالم الإسلامي عامة، وقدم إليها الراحلون لطلب العلم من داخل الأندلس وخارجها(٢٥٨). إلا أن هذه المكانة العلمية المتميزة لقرطبة تأثرت بالفتنة، نتيجة للاضطرابات السياسية وكثرة الحروب وقلة الأمن والتدهور الاقتصادي، حيث إن الاستقرار السياسي وما يترتب عليه من الأمن والرفاهية الاقتصادية، مطلبان أساسيان لازدهار العلم. ولم يول خلفاء الفتنة أي اهتمام للعلم أو العلماء، على الرغم من أن بعض خلفاء الفتنة كانوا شعراء وأدباء مثل سليمان المستعين، وعبدالرحمن المستظهر(٢٥٩) لانشغالهم بالصراع السياسي. ولم يكتف بعض الخلفاء بإهمال العلم والعلماء بل تعدوا ذلك إلى اضطهاد العلماء، فقتل بعض العلماء بأمر الخلفاء، أو في الحروب والمعارك التي شاركوا فيها، وسجن البعض وصودرت أملاكهم ونفي البعض الآخر(٢٦٠) واضطر البعض إلى الهرب والخروج من قرطبة بحثاً عن أماكن أكثر أمناً واستقراراً، كما توقفت عطايا الشعراء الذين كانوا يتكسبون بالمدح، مما دفعهم للخروج عن قرطبة بحثاً عن الأمن والعطاء(٢٦١).

لقد أثرت الفتنة على أعداد العلماء، فتناقصت أعدادهم تناقصاً واضحاً، نتيجة لقتلهم أو هجرتهم، وقتل الكثير في معركة قنتش، مثل احمد بن مطرف بن هانئ المكتب(٢٦٢)، وسعيد بن سعد بن أبي سعيد(٢٦٣)، وعمرو بن عثمان بن خطار بن بشر(٢٦٤)، ومحمد بن عبدالسلام الأديب(٢٦٥). وبلغ من تأثير معركة قنتش على التعليم أن قتل فيها من المؤدبين أكثر من ستين مؤدبا، ويشير ابن حيان على أثر قتلهم بقوله " وأعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم وتعطل صبيانهم لعدمهم "(٢٦٦)، وقتل أعداد من العلماء في معركة عقبة البقر، مثل سليمان بن هشام ابن الوليد بن كليب المقريء(٢٦٧)، وعبدالله بن احمد بن قتد اللغوي(٢٦٨)، ومحمد بن احمد بن يحي المعروف بابن الفصال(٢٦٩)، وقتل الكثير من العلماء على يد البربر عند دخولهم قرطبة، مثل أبي الوليد ابن الفرضي(٢٧٠)، واحمد بن محمد بن مسعود(٢٧١)، وخلف بن مسلمة بن سليمان ابن خميس(٢٧٢)، وسعيد بن منذر بن سعيد البلوطي(٢٧٣)، ومحمد بن سعيد

السري الأموي(٢٧٤)، وحمد بن قاسم بن محمد الأموي(٢٧٥)، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم(٢٧٦). ومات بعض العلماء في الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها قرطبة مثل احمد بن محمد بن احمد بن سعيد بن الجباب بن الجسور(٢٧٧)، وعمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي(٢٧٨). وهاجر عدد من علماء قرطبة إلى داخل الأندلس وخارجها، بحثاً عن مناطق أكثر استقراراً، فاتجهوا إلى إحدى المدن واستقروا بها، وتنقل البعض بين عدد من المدن بحثاً عن أفضل مكان(٢٧٩)، وخرج عدد من العلماء من قرطبة هرباً من الاضطهاد وسوء المعاملة التي لحقت بهم، مثل علي بن احمد بن سعيد بن حزم حيث تعرضت دورهم للنهب، وسجن فترة من الزمن(٢٨٠)، وكذلك الحال مع أبى عامر احمد بن عبدالملك بن شهيد، الذي سعي به للمعتلي، يحي بن حمود، فسجنه وخرج من قرطبة بعد سوء معاملة هشام المعتد ووزيره ابن القزاز(٢٨١)، وخرج راشد بن إبراهيم بن عبدالله بن راشد فاراً من سوء معاملة البربر(٢٨٢)، وكذلك الحال مع أبى عبدالله محمد بن يحي بن الحذاء(٢٨٣)، وخرج محمد بن عمر بن يوسف المالكي لخوفه من البربر(٢٨٤).

ولم يقتصر تأثير الفتنة على العلماء أنفسهم الذين تعرضوا للقتل أو السجن والمصادرة والهجرة، فتعطلت مجالس العلم، وترك تعليم الصبيان، بل تعداه إلى الكتب والمؤلفات فكانت قرطبة تضم عددا من المكتبات العامة والخاصة، ومن أبرزها مكتبة الخليفة الحكم المستنصر، ومكتبة الجامع بقرطبة ومن المكتبات العلماء الخاصة: مكتبة القاضي عبدالرحمن بن فطيس، وعائشة بنت احمد بن محمد بن قادم(٢٨٥)، وتأثرت تلك المكتبات بالفتنة فنهبت الكتب وبيع بعضها، ونقل بعضها الآخر إلى داخل الأندلس وخارجها من المغرب والمشرق، وأحرق البعض(٢٨٦)، وكانت حاجة الخلفاء للأموال سببا في بيع الكتب والمؤلفات من مكتبات بني أمية، كما فعل هشام المؤيد(٢٨٧)، وبذلك تراجعت مكانة قرطبة العلمية تراجعاً واضحاً، نتيجة التدهور السياسي وإهمال الخلفاء للعلم، وقلة أعداد العلماء لقتلهم أو لهجرتهم، كما فقدت الكتب والمؤلفات فتوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، بعدما كانت هي الوجهة الأولى للعلماء. ونتيجة للتراجع العلمي لقرطبة وهجرة كثير من علمائها إلى مناطق الأندلس المختلفة برزت مراكز علمية في الأندلس لترحيب حكام تلك المناطق بالقادمين إليهم من العلماء وتوفير الجو المناسب لنشر علمهم، فتعددت المراكز العلمية وتنوعت العلوم التي اشتهرت بها تلك المناطق تبعاً لرغبة الحكام، فبرزت دانية بالعلوم الدينية والفقه، وطرطوشة في القراءات، وإشبيلية في الأدب والشعر، وطليطلة وسرقسطة في العلوم العلمية(٢٨٨).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الحياة العلمية في قرطبة، ففقدت مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها، وأتلفت الكتب وأخرجت من قرطبة، وقل علماؤها بقتلهم أو بهجرتهم، وتوقفت الرحلة إليها، وبرزت مراكز علمية منافسة لها في الأندلس.

الخاتمـــــة :

حدثت فتنة قرطبة في الفترة من ٣٩٩هـــ/١٠٠٩م إلــى ٤٢٢هـــ/١٠٣١م، وكان السبب المباشر لهذه الفتنة هو معارضة عامة قرطبة تعيين عبـدالرحمن شـنجول ولياً لعهد هشام المؤيد، لأن ذلك يعني انتقال الخلافة من بني أمية إلــى بنــي عــامر، فشهدت قرطبة سلسلة من الحروب، والتي تدخل فيها عامة أهل قرطبة والبربر، وكــان الصراع منصباً على منصب الخلافة ومنحصراً في قرطبة. وتولى خلال هذه الفترة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين.

حدثت الفتنة في فترة كانت قرطبة في أوج استقرارها السياسي داخلياً وخارجياً، وازدهارها الحضاري في كافة مجالاته، فأثرت الفتنة على الحياة العامة في قرطبة. فعند النظر في أثر الفتنة على الناحية السياسية داخل الأندلس وخارجها، تبين أن أبرز آثارها في داخل الأندلس هو: إسقاط خلافة بني أمية بالأندلس، بعد أن دام حكمهم قرابة ثلاثــة قرون وفقدت الأندلس وحدتها وبدأ عصر التــشرذم وملــوك الطوائــف. وكمــا أثــرت الفتنةعلى حدود الدولة فقدت الأندلس سيطرتها على الجزء الغربي من بــلاد المغــرب، ونجح النصارى في الشمال باقتطاع العديد مــن المنــاطق، وبــدأت حركــة الاســترداد النصراني في التقدم. كما أثرت الفتنة على الإدارة، سواء أكانت مناصب مدنية أو دينيه فاختفى منصبا ولاية العهد والحجابة، وكان تأييد الخليفة هو السبب الــرئيس للوصــول إلى الوزارة، مما كان سبباً في وصول أشخاص غير مؤهلين لهــذا المنــصب. وتــأثر الجيش بالفتنة فأبعدت القيادات العسكرية السابقة، وأصبح العامة هم الجند، ولم تكن لهم خبرة عسكرية. وتأثر منصب القضاء بالفتنة، ففقد القاضي مكانته المتميزة، وانغمــس القضاة بالسياسة، وعطل منصب القضاء في بعض الفترات.

كما تأثرت العمارة بالفتنة، فدمرت مناطق بأكملها، مثــل الزاهــرة، أو أجــزاء كبيرة منها مثل الزهراء والرصافة، ووصل التدمير للقصور والمنازل والمساجد، وقطعت المواصلات بين مدن قرطبة المختلفة، وخربت الشوارع، وحفرت الأنفــاق والخنــادق، وأقيمت الأسوار حول قرطبة وأرباضها المختلفة. كما أثرت الفتنة على الاقتصاد، فقلت الموارد المالية للدولة واستنفد الخلفاء مدخرات بني أمية، حتى اضطروا إلى المصادرات والمغارم وبيع الممتلكات لسد حاجاتهم وتوفير المال. وتأثرت الحياة الاقتصادية بأشكالها المختلفة فتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة الداخلية والخارجية، واضــطربت التجــارة المحلية، وتأثرت الصناعة بانتقال عدد من صناع قرطبة إلى مناطق الأندلس المختلفــة، حاملين معهم صناعتهم فبرزت مراكز صناعية جديدة في الأندلس، مثــل المريــة التــي اشتهرت بصناعة الحرير والوشي. كما أثرت الفتنة على الحياة الاجتماعيــة، فتغيــرت التركيبة الاجتماعية بخروج البعض مثل الصقالبة، وقدوم عناصر جديــدة مثــل البربــر الذين قدموا من المغرب والسودان. وقل عدد سكان قرطبة لكثرة القتل والهجرة منهــا. وتأثرت العادات الاجتماعية فانتشر الفساد وقل الزواج، وتعطلت بعض الاحتفالات، وساد الخوف، وزادت الفوارق المالية بين السكان. كما أثرت الفتنة علــى الحيــاة العلميــة،

ففقدت قرطبة مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها وأتلفت واحرقت، وأخرجت بعض الكتب من قرطبة، وقل علماء قرطبة بقتلهم أو هجرتهم داخل الأندلس وخارجها، وتوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، وبرزت مراكز علمية منافسة لقرطبة، لخروج علماء قرطبة لتلك المناطق، مثل دانية، اشبيلية، طليطلة، سرقسطة .. وغيرها.

ملحق رقم (١)
خلفاء الفتنة وفترات حكمهم

م	اسم الخليفة	فترة حكمه
١	محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمهدي	١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ / فبراير ١٠٠٩م إلى ١٣ ربيع الأول ٤٠٠هـ / نوفمبر ١٠٠٩م (خلافته الأولى) .
٢	سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمتسعين بالله.	١٥ ربيع الأول ٤٠٠هـ /٧ نوفمبر ١٠٠٩م إلى شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م (خلافته الأولى).
٣	محمد بن هشام المهدي	شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م إلى ذي الحجة ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م (خلافته الثانية) .
٤	هشام بن الحكم المؤيد بالله	شوال ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م إلى ٢٧ شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٣م (خلافته الثانية)
٥	سليمان بن الحكم المستعين بالله	٢٧ شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣م إلى ٢٢ محرم ٤٠٧هـ / يوليو ١٠١٦م (خلافته الثانية)
٦	علي بن حمود بن ميمون بن حمود الحسني المعروف بالناصر	٢٢ محرم ٤٠٧هـ / ١٠١٦م إلى ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م (خلافته الثانية)
٧	القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الحسني المعروف بالمأمون	٨ ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م إلى ٢٣ ربيع الأول ٤١٢هـ / أغسطس ١٠٢٢م
٨	يحي بن علي بن حمود الحسني المعروف بالمعتلي بالله	جمادى الأول ٤١٢هـ / ١٠٢٢م إلى ذي القعدة ٤١٣هـ / فبراير ١٠٢٣م
٩	القاسم بن حمود الحسني المعروف بالمأمون	ذي القعدة ٤١٣هـ / فبراير ١٠٢٣م إلى جمادى الثاني ٤١٤هـ / سبتمبر ١٠٢٣م
١٠	عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر المعروف بالمستظهر بالله	١٦ رمضان ٤١٤هـ/ يناير ١٠٢٤م إلى ٤ ذي القعدة ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤
١١	محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر المعروف بالمستكفي بالله	٣ ذي القعدة ٤١٤هـ/ يناير ١٠٢٤م إلى ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ / مايو ١٠٢٥م
١٢	يحي بن علي بن حمود الحسني المعتلي بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ/ مايو ١٠٢٥ إلى محرم ٤١٧هـ / مارس ١٠٢٦م
١٣	هشام بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر المعروف بالمعتد بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ/ يونيو ١٠٢٧م إلى ذي القعدة ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٣١م

١٧٧

- انظر ابن عذاري ، ابن الخطيب ، النويري ، المقري .

ملحق رقم (٢)
علماء قرطبة الخارجين منها إلى داخل الأندلس وخارجها

م	اســـــم العـــالـــــم	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
١	أبو أمية بن هشام	تطيلة	ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ١٨٣
٢	احمد بن محمد بن هشام الأيادي	الثغر	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٦١
٣	احمد بن إبراهيم بن أبي سفيان الغافقي	البيرة	عيـــاض، ج٨ ،ص ٢٢ ، ابن بشـــكوال ، ج١ ، ص ٦٣
٤	احمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي	طليطلة	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٦٥-٦٦
٥	احمد بن عفيف بن عبدالله بن مربول الأموي	المرية	عيـــــاض ، ج٨ ، ص ٩ ، ابن بشـــــــكوال ، ج١ ، ص ٧٤-٧٥
٦	احمد بن خلف بن عبدالله اللخمي	اشبيلية	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٩٦-٩٧
٧	احمد بن يحي بن احمد بن واصل	طليطلة	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٠٢
٨	احمد بن عبدالله بن مفرج الأموي	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٠٤
٩	اسماعيل بن زيد بن محمد الأنصاري	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٠
١٠	أحمد بن خصيب بن احمد الانصاري	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٠٧
١١	حكم بن منذر بن سعيد بن عبدالله	مدينة سالم	المصدر نفسه،ج١،ص٢٣٩-٢٤٠
١٢	حماد بن عمار بن هشام الزاهر	طليطلة	عيـــاض ، ج٧ ، ص ٢٩٨ ، ابن بشـــــكوال ، ج١ ، ص ٢٥١
١٣	خلف بن سعيد بن احمد بن محمد الأزدي	اشبيلية	ابن بشـــــكوال ، ج١ ، ص ٢٦٣
١٤	خلف بن مروان بن احمد التميمي	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٧١ ، الذهبي ، ص ٦٢٥-٦٢٦
١٥	خلف بن محمد بن باز القيسي	اشبيلية	ابن بشكـــوال ، ج ١ ، ص ٢٧٠-٢٧١
١٦	خلف بن غصن بن علي الطائي	ميورقة	ابن بشكـــــــوال ، ج١ ، ص ٢٦٥ ، الذهبي ، ج٤ ، ص ٥٧٨
١٧	خلف مولى جعفر الفتى	طرطوشة	ابن بشكـــــوال ، ج١ ، ص ٢٦٦-٢٦٧
١٨	سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ	طليطلة	المصدر نفسه ، جذ ، ص ٣١٥
١٩	سليمان بن بيطر بن سليمان بن ربيع	مالقة	عيـــاض ، ج٨ ، ص ١٥ ،

١٧٩

بن بيطر بن خالد

ابن بشكـــــوال ، ج١ ، ص ٣١٢-٣١٣

م	اســـــم العــالـــــم	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
٢٠	سلمه بن سعيد بن سلمه بن حفص الانصاري	اشبيلة	ابن بشـــــكوال ، ج١ ، ص ٣٥٠-٣٥١
٢١	سراج بن سراج بن محمد	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٥٣
٢٢	عبدالله بن عمر بن عبدالله بن عمر القرشي	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٤٠٦
٢٣	عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي	البيرة	عيـــــاض ، ج٧ ، ص ٢٨-٢٨٥ ، ابن بشـــــكوال ، ج٢ ، ص ٤٠٠
٢٤	عبدالرحمن بن مخلد بن عبدالرحمن بن احمد بن بقي بن مخلد	طليطلة	ابن بشـــــكوال ، ج٢ ، ص ٤٨٨-٤٨٩
٢٥	عبدالرحمن بن احمد بن نصر بن خالد القرشي	اشبيلية	ابن شـــــكوال ، ج٢ ، ص ٥٢٧
٢٦	عبدالوهاب بن احمد بن سعيد بن حزم	طليطلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٥٥٥
٢٧	عامر بن إبراهيم بن عامر بن عروس الحميري	طليطلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٤
٢٨	الليث بن احمد بن حريش العبدري	المرية	عيـــــاض ، ج٨ ، ص ١٢ ، المغني ، ص ٤٣٩
٢٩	محمد بن نعمان الغساني	مالقة	ابن بشـــــكوال ، ج٢ ، ص ٧٣٤
٣٠	محمد بن يحي بن احمد بن محمد التميمي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه، ج٢ ،ص ٧٤١ – ٧٤٣
٣١	محمد بن يوسف بن محمد الأموي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٦١
٣٢	محمد بن عبدالله بن مزين	اشبيلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٦٧
٣٣	محمد بن عبدالرحمن بن عيسى الحجري	اشبيلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧٠
٣٤	محمد بن عيسى بن محمد الأموي	اشبيلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٨٣-٧٨٤
٣٥	محمد بن عبدالرحمن بن يحي القرشي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٨٠-٧٨١
٣٦	وليد بن عبدالله بن عباس الأصبحي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٢٩
٣٧	محمد بن عبدالله بن احمد البكري	مرسية	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ص ٧٧٠-٧٧١
٣٨	يحي بن سعيد بن يحي بن بكر الرصافي	تطيلة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٩٥٧-

م	اسم العالم	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
٣٩	إسحاق بن الحسن	سرقسطة	ابن الابار : الصلة ، ج١ ، ص ١٣٦
٤٠	أصبغ بن محمد بن أصبغ بن السمح	غرناطة	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٤٤
٤١	عبدالرحمن بن غلبون	بلنسية	ابن الابار : الصلة ، ج٢ ، ص ٢٨٤
٤٢	عبدالرحمن بن احمد بن مثنى	بلنسية	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨٥
٤٣	محمد بن سعيد التاكراني	بلنسية	الضبي ، ص ٧٠ ، ابن الابار : المعجم ، ص ٢٠١-٢٠٢
٤٤	يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر	شاطبة	الحميد ، ج٥ ، ص ٥٨٦ – ٥٨٨ ، الضبي ، ص ٤٧٤-٤٧٦
٤٥	سعيد بن أدريس السلمي	اشبيلة	الذهبي ، ج٢ ، ص ٦١١
٤٦	احمد بن محمد بن احمد الأديب	تنقل بين اشبيلة والمرية	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٦٩
٤٧	احمد بن مطرف	تنقل بين الثغر وميورقة	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٧١ ، الذهبي ، ج٢ ، ص ٥٨١-٥٨٢
٤٨	احمد بن حمد بن عبدالله بن أبي عيسى المعافري	تنقل بين المرية ومرسية وسرقسطة	عياض ، ج٨ ، ص ٣٢-٣٣ ، ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٨٣-٨٥
٤٩	تمام بن غالب بن عمر اللغوي	تنقل بين مرسية والمرية	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٢٠٠-٢٠١
٥٠	عثمان بن سعيد الأموي	تنقل بين سرقسطة و دانية	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٥٩٢-٥٩٣ ، الذهبي ، ج٢ ، ص ٦١٧
٥١	محمد بن معافي بن جميل	طليطلة وسرقسطة	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٣٥٠-٣٥١
٥٢	هشام بن غالب بن هشام الغافقي	غرناطة واشبيلة	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٣٧

م	اسم العالم	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
٥٣	حسن بن عبدالعزيز بن حسن بن أبي عبدة	بلنسية والمرية	ابن الابار : الصلة ، ج١ ، ص ١٧٥
٥٤	احمد بن خصيب الأنصاري	القيروان	ابن بشكوال ، ج١ ، ص ١٠٥
٥٥	صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي	صقلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧١
٥٦	محمد بن عبدالله بن نصر بن أبيض الأموي	العدوة	المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٤٥-٧٤٦
٥٧	مروان الأسدي القطان	بونة في افريقية	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٨٨٨-٨٨٩
٥٨	مفرج بن عبدالله المالكي	مكة	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص
٥٩	أحمد بن عباس بن أصبغ بن عبد العزيز	مكة	٨٩٣
٦٠	الهمداني	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج١ ، ص٧٣
٦١	احمد بن عبدالرحمن بن غالب بن حزم	المشرق	ـ ٧٤
٦٢	احمد بن محمد بن عيسى بن اساعيل	اشبيليا	المصدر نفسه ، ج١ ، ص٨٠
٦٣	البلوي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج١ ، ص٨١
٦٤	احمد بن محمد سعيد الاموي	اشبيلية	ـ ٨٢
٦٥	احمد بن يحيى بن احمد بن واصل	سرقسطة ـ	المصدر مفسه ، ج١ ،
٦٦	احمد بن الحسين بن حي بن عبدالملك	المرية	ص٨٥ ـ ٨٦
	التجيبي	داخل الاندلس دون	المصدر نفسه ، ج١ ،
٦٧	احمد بن محمد بن يحيى بن محمد	تحديد مدينة	ص١٠٢، ١٠٧
	التميمي	غرب الاندلس	المصدر نفسه ، ج١ ،
٦٨	حبيب بن احمد بن محمد بن نصر		ص١١٠ ـ ١١١
٦٩	حمام بن احمد بن عبدالله بن محمد	الحجاز	المصدر نفسه ، ج١ ،
٧٠	خلف بن مروان بن امية بن حيوية	دانيه	
		مالقة	ص٢٤٩
٧١	عبدالله بن محمد بن سليمان	الثغر	المصدر نفسه ،ج١ ،ص٢٥٠
٧٢	عبدالله بن عبيدالله بن الوليد بن محمد	اشبيلية	ـ ٢٥١ ، عياض ج٨
٧٣	بن يوسف	سرقسة ـ دانيه	ص٢٤
			بن بشكوال ، ج١ ، ص ٢٥٩
٧٤	عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن القيسي		ـ ٢٦٠ ، عياض ج٨ ص

٧٥	عبدالله بن سلمه بن حزم اليحصبي	لورقة	٢٤ ـ ٢٥
٧٦	عبدالملك بن احمد بن محمد بن عبدالملك	اشبيلية ـ المشرق	بن بشكوال ، ج٢ ، ص٤٠٥
٧٧	بن الاصبغ	بلنسية	ـ ٤٠٦
٧٨	عثمان بن سعيد الاموي المقرئ	الاندلس دون	بن بشكوال ، ج٢ ، ص٤١٢
٧٩	علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال	تحديد وجهة	، ٤١٣ ، عياض ج٨ ص
٨٠	محمد بن عبدالرحمن بن عثمان بن سعيد	مرسية	٢٦ ـ ٢٧
٨١	الخولاني	غرناطة ـ اشبيلية	بن بشكوال ، ج٢ ، ص٤١٥
٨٢	محمد بن عمر بن يوسف المالكي	بجانة	المصدر نفسه ، ج٢ ،
٨٣	محمد بن فتحون بن مكرم التجيبي	اوريولة	ص٤٥٥ ـ ٤٥٦
٨٤	محمد بن عبدالله بن احمد البكري	غرناطة	المصدر نفسه ، ج٢ ،
٨٥	هشام بن غالب بن هشام الغافقي	سرقسطة	ص٥٢٧ ، ابن فرحون ، ج٢
٨٦	يحيى بن احمد بن محمد بن عبدالله	بلنسية ـ المرية	، ص١٨
	التميمي	سرقسطة	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص٥٩٢
٨٧	ابراهيم بن محمد بن احمد بن عبيد الله		ـ ٥٩٣ ، ابن فرحون ، ج٢
٨٨	اصبغ بن محمد بن اصبغ بن السمح	الجزائر الشرقية	، ص٨٤
	المهري	بلنسية	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص٦٠٣
٨٩	اسحاق بن الحسن	بلنسية	المصدر نفسه ، ج٢ ،
٩٠	حسن بن عبدالعزيز بن حسن بن ابي	بلنسية	ص٧٣٩
	عبدة	اشبيلية	المصدر نفسه ، ج٢ ،
٩١	محمد بن الحسن بن الحسين المذحجي	المرية	ص٧٤٧ ت ٧٤٨، عياض ،
٩٢	محمد بن عبدالرحمن بن معمر اللغوي	تنقل في عدد من	ج٧ ، ص٢٨٦ ـ ٢٨٩
٩٣	عبدالرحمن بن غلبون	مناطق الاندلس	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص٧٥٨
٩٤	عبدالرحمن بن احمد بن مثنى الكاتب		المصدر نفسه ، ج٢ ،
٩٥	محمد بن سعيد التاكراني		ص٧٧٠ ـ ٧٧١
٩٦	سعيد بن ادريس السلمي		
٩٧	علي بن احمد بن سعيد بن حزم		
٩٨	ابو عامر احمد بن عبدالملك بن شهيد		

ملحق رقم (٣)
علماء قرطبة الذين قتلوا في الفتنة

	اسم العالم	المصدر
١	احمد بن مطرف بن هاني الجهني المكتب	ابن بشكوال ، ج١ ص٤٧
٢	احمد بن بريل المقرئ	المصدر نفسه ج١ ص٥٠ ـ ٥١
٣	احمد بن محمد بن مسعود	المصدر نفسه ج١ ص٥٩
٤	الحسين بن حي بن عبدالملك بن حي التجيبي	المصدر نفسه ج١ص٢٢٩ـ٢٣٠
٥	خلف بن سلمه بن سليمان بن خميس	المصدر نفسه ج١ ص٢٦٠
٦	راشد بن ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم بن راشد	المصدر نفسه ج١ص٢٩٥ـ٢٩٦
٧	سليمان بن هشام بن وليد بم كليب المقرئ	المصدر نفسه ج١ ص٣٠٩ ـ ٣١١
٨	سعيد بن عثمان بن ابي سعيد بن محمد بن سعيد	المصدر نفسه ج١ ص٣٢٧ ـ ٣٢٩
٩	سعيد بن منذر بن سعيد	المصدر نفسه ج١ ص٣٣٣
١٠	سعيد بن احمد بن خالد بن عبدالله الجذامي	المصدر نفسه ج١ ص٣٣٤ ـ ٣٣٥
١١	عبدالله بن احمد بن فتد اللغوي	المصدر نفسه ج١ ص٣٨٩
١٢	عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي المعروف بابن الفرضي	المصدر نفسه ج١ ص٣٩١ ـ ٣٩٢
١٣	عمرو بن عثمان بن خطار بن بشير بن عمرو بن يزيد	المصدر نفسه ج٢ ص٦٥٠
١٤	عريب بن مطرف بن عريب	المصدر نفسه ج٢ ص٦٥٤ ـ٦٥٥
١٥	محمد بن عبدالسلام الاديب	المصدر نفسه ج٢ ص٧١٥
١٦	محمد بن احمد بن يحى المعروف بابن الفصال	المصدر نفسه ج٢ ص٧١٥ ـ ٧١٦
١٧	محمد بن سعيد السري الاموي	المصدر نفسه ج٢ ص٧١٧
١٨	محمد بن قاسم بن محمد الاموي	المصدر نفسه ج٢ ص٧١٨ ـ ٧١٩
١٩	عبدالله بن حسين بن ابراهيم بن حسين بن عاصم	ابن الابار ، التكملة ، ج٢ ص٢٠٨

الهوامــــش

م	الهـــــوامـــــش
١	ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ) : لسان العرب، القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠١م ، ج٧ ، ص ١٨ -٢٠، الفيروزبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) : القاموس المحيط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ص ١٥٧٥ ، الزبيدي ، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني (ت ٥ ١٢٠هـ) : تاج العروس من جواهر القاموس ، وضع هوامشه عبدالمنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٧م، ص٣٥، ص٢٥١-٢٥٢.
٢	ســورة النساء آيــة ١٠١.
٣	ســورة يونس آيــة٨٣.
٤	مسلم،أبو الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ):صحيح مسلم، الرياض ،دار المغني -دار ابن حزم ،١٤١٩هـ،ص ١٥٤١.
٥	المصدر نفسه ،ص ١٥٤٢.
٦	ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩م ، ق ٣، ج١، ص ٩ .
٧	الإيلاني ، أبو علي صالح بن عبدالحليم (ت بعد ٧١٢هـ) : مفاخر البربر ، تحقيق عبدالقادر بوباية ، الرباط ، دار أبي رقراق ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٨م ، ص ١٤٧ .
٨	ابن بلكين، عبدالله بن بلكين بن زيري(ت ٤٨٣هـ) : مذكرات الأمير عبدالله المسماة بكتاب التبيان ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ، مصر ، دار المعارف ، د. ت . ن ، ص ٥٦-٥٨ .
٩	ابن عذاري ، أبو العباس احمد (في نهاية القرن السابع الهجري) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٣م ، ج٣ ، ص ٢٧ ، ٤٢ .
١٠	ابن بسام ، نقلاً عن ابن حيان ، ق١ ، ج٢ ، ص ٥٧٦ .
١١	ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله الغرناطي (ت ٧٦٦هـ) : تاريخ أسبانيا الإسلامية الجزء الثاني من أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦م، ص٩٨.
١٢	ابن سعيد ، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨م، ج١ ، ص ١٥٥-١٥٦ .

م	الهوامش
١٣	البناهي ، أبو الحسن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي (ت بعد ٧٩٢هـ) : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، تحقيق لجنة إحياء التراث الاسلامي في دار الأفاق، بيروت، دار الافاق الجديدة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م، ص ٨٨.
١٤	ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني (٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣م ، ج٧، ص٨٤،ابن عذارى ، ج٣، ص٤٨-٤٩، النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت ٧٣٢هـ): نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق:احمد كمال زكي ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، الهئية المصرية العامة للكاتب، ١٩٨١م، ج٢٣، ص٤١٠-٤١١، ابن الخطيب، ص١٠٩، ابن خلدون، ج٤، ص١١٤٩-١٥٠، المقري ، شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني (ق ١٠٤١هـ) : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت، دار الفكر ،١٩٨٦م، ج١، ص٤٠٩.
١٥	ابن الاثير ،ج٧، ص٢٩٠، ابن عذارى، ج٣، ص١٥٠-١٥١، النويري، ج٢٣، ص٤٣٧، ابن الخطيب، ص١٣٨، ابن خلدون، ج٤، ص١٥٢، المقري، ج١، ص ٤٢٠.
١٦	ياقوت ، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن بن عبد الله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ) : معجم البلدان، بيروت، دار صادر ،١٩٧٩م، ج٤ ،ص ٣٢٤ ، ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري ، (ت ٦٨١هـ) : وصف الاندلس وهو جزء من صلة السمط وسمط المرط ، تحقيق : احمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الاسلامية،١٩٧١م، ص١٤٢، احمد فكري : قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة ، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٦٩.
١٧	الإدريسي، ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس الحموي الحسنس (ت٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الافاق، بيروت، عالم الكتب١٩٨٩م، ج٢، ص٥٧٥.
١٨	كلمة ربض المقصود بها : الضاحية وهي المكان المحيط بالمدينة خارج مركزالمدينة السكني ومنها اشتقت الكلمة الاسبانية (اربال) arrabal وترد في معظم المعاجم العربية بمعنى الكلمة الاسبانية. نفسها انظر : الزبيدي، ج١٨، ص ١٧٤، ليوبولدونورس بالباس : المدن الاسبانية الاسلامية، ترجمة: اليودروردي لابنيا، مراجعة: نادية محمد جمال الدين وعبد الله بن ابراهيم العمير، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٣م، ٢٥٧.
١٩	الادريسي ، ج٢، ص ٥٧٥.

م	الهـــوامـــش
٢٠	ابن حوقل ، ابو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (ت نحو ٣٦٧هـ):، صورة الأرض ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م ، ص ١٠٨، المقري ، ج٢، ص١٥.
٢١	المقري ، ج٢،ص١٤،احمد فكري ،ص١٧٢-١٧٣، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨م، ص ١٨-١٩.
٢٢	ابن عذارى ،ج٣،ص٤٢،ابن الخطيب ،٩٠-٩١، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول – القسم الثاني للخلافة الاموية والدولة العامرية ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الرابعة ،١٩٩٧م، ص ٦٢٦-٦٢٧.
٢٣	ابن عذارى ،ج٣،ص٤٥،ابن الخطيب ، ص٩٢، امحمد جبرون ، الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري في تشكيل الهوية السياسية في المغرب وتكريس الفتنة في الأندلس ، الرباط ، دار ابي رقراق للطباعة والنشر ،٢٠٠٨م، ص٢٢٨.
٢٤	ابن عذارى ،ج٢،ص٢٧٢،النويري ،ج٢٣، ص٤٠٤-٤٠٥،حمدي عبدالمنعم حسين : تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، الإسكندرية ،دار المعرفة الجامعية ،ص ٥١٠-٥١١، عبد المجيد نعنعي : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس – التاريخ السياسي ، بيروت ، دار النهضة العربية ،١٩٨٦م، ص ٤٣٣-٤٣٤.
٢٥	النويري ، ج٢٣،ص٤٠٦، ابن الخطيب ، ص ٧٦-٧٧.
٢٦	ابن عذارى ،ج٢، ص٢٨٠،ج٣ ، ص٤٠٣، النويري ، ج ٢٣، ص٤٠٤، ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة ، بيروت ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م، ص٣٢٦، صالح محمد فياض ابو دياك : الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى بداية العصر المرابطي وملوك الطوائف دراسة سياسية وحضارية ، الأردن ،مكتبة الكتاني ، ١٩٨٨م، ص٣٨٠-٣٨١.
٢٧	ابن عذارى ، ج٢، ص٢٧٤، ٢٧٩-٢٨٠، ابن الخطيب ، ص٨٩، دينهرت دوزي : المسلمون في الاندلس الجزء الثاني اسبانيا الاسلامية ، ترجمة : حسن حسين ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص١١١-١١٢، ١٦٠.
٢٨	ابن عذارى ،ج٣،ص٥٢،محمد عبدالله عنان ، ص٦٣٠-٦٣١، حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، دار مطابع المستقبل ، ١٩٨٠م، ص ٣٥٣-٣٥٤، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ٤٩٦ ، scole, (pater): the fall of caliphat of cordobu, P260 , Leiden-NewYork, 1994,P.40, Arodo, Bleye(p.P Manual de la Historia de Espana, Madrid 1947 p.441

م	الهــــوامـــش
٢٩	ابن الاثير ، ج٧ ، ص٨٤، ابن عذارى ، ج٣، ٤٧، ٤١، ٣٩؛ محمد عبد الله عنان ، ص ٦٢٤.
٣٠	ابن عذارى ،ج٣،ص٤٨ .
٣١	المصدر نفسه ،ج٣،ص٣٤-٥٢،٣٥.
٣٢	ابن الخطيب ،ص٩٦.
٣٣	ابن عذارى ،ج٣، ص ٥٠ ،ابن خلدون،عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ):العبر وديوان المبتدأوالخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ،بيروت ،مؤسسة جمال للطباعة والنشر ،١٩٧٩م ،ج٤،ص ١٥٠.
	ابن الاثير ،ج٧، ص٨٤، ابن عذارى ،ج٣، ص٦٦-٦٧؛ ابن خلدون ، ج٤،ص١٥٠.
٣٥	ابن عذارى ، ج٣، ص٩٤، المقري ، ج١، ص٤١١، عبد المجيد نعنعي ، ص٥٠٨. شكيب ارسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، القاهرة ، دار الكتاب الاسلامي ، د.ت.ن، ص ٢١٨-٢١٩ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة : العامة في الأندلس في عصر الدولة الأموية، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٧م ، ص٥٠٤ .
٣٦	معركة قنتيش حدثت في ١٣ ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ /٥ نوفمبر ١٠٠٩م في سفح جبل قنتيش بين محمد المهدي وأتباعه وعامة قرطبة وسليمان المستعين وأتباعه من البربر وانتهت بانتصار سليمان المستعين وقتل فيها الكثير من سكان قرطبة قيل حوالي ١٢٠ ألف وبهذه المعركة بويع سليمان المستعين بالخلافة في خلافته الأولى انظر : ابن الاثير، ج٧ ، ص ٨٤-٨٥، ابن عذارى ، ج٣، ص ٩٢، عبدالواحد المراكشي ، محيي الدين ابو محمد (ت ٦٤٧هـ) : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق: محمد سعيد العريان ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٦٣م ، ص ٨٨-٨٩؛ ابن خلدون ، ج٤، ص١٥٠ ، المقري ، ج١ ، ص٤١ ، محمد عبد الله عنان ، ص ٦٤٧ ، احمد إسماعيل احمد الجمال : دراسات في تاريخ الاندلس دويلات الصقالبة العامريين في شرق الاندلس ، الإسكندرية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ٢٠٠٧م، ص١٢٧ .
٣٧	معركة عقبة البقر حدثت في شوال ٤٠٠هـ /مايو ١٠١٠م في شمال قرطبة على بعد ٢٧ كيلو و١٧ ميلا بين محمد المهدي وأتباعه من النصارى وسليمان المستعين وانتهت بانتصار محمد المهدي وبويع له بالخلافة للمرة الثانية انظر : الحميدي ، ابو عبد الله محمد ابو نصر الازدي ، (ت ٤٨٨هـ) : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، تحقيق: ابراهيم الابياري، القاهرة - بيروت، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٥م، ص ٤٨-٤٩، الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، (ت

٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، مدريد ، مطابع روخس ، ١٨٨٤م ، ص٢٠-٢١، ابن عذاري،ج٣، ص ٩٤-٩٥، عبد الواحد المراكشي، ص٨٩، شكيب ارسلان ، ج٢، ص٢١٨-٢١٩، محمد عبد الله عنان ، ص٦٤٨.

٣٨ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢٠، ابن الخطيب ، ١٢١، ابن خلدون ، ج٤، ص١٥٢، لويس سيكردي لوثينا : الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة : عدنان محمد ال طلحة ، دمشق ، مطبعة الشام ، ١٩٩٢م، ص ١٩-٢٠ .

٣٩ ابن عذاري ، ج٣، ص ١٢٨، ابن الخطيب ، ص١٣٤، النويري ، ج٢٣، ص٤٣٥، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص٥٦٤، عبد المجيد نعنعي ، ص٥٢٣.

٤٠ ابن عذاري ، ج٣، ص ١٥٠-١٥١، ابن الخطيب ، ص١٣٨، النويري ، ج٢٣، ص٤٣٧، ابن خلدون ، ج٤، ص١٥٢، ابراهيم بيضون ، ص٣٤٦، حمدي عبد المنعم حسين ، ص ٥٦٧.

٤١ انظر الملحق – اعداد وفترات من تولى الخلافــة بقرطبة .

٤٢ ابن عــذاري ، ج٣ ، ص ٥٢، ٨٣ ، ١١٥، ابن الخطيب، ص ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٧، ابن خلدون، ج٤، ص ١٤٩-١٥٠، ١٥٢، المقري ،ج١، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، صالح محمد فياض أبو ديــاك، ص ٣٩٠-٣٩٢، إبراهيم بيضون، ص٣٤١، ٣٤٣ ، لويس سيكودي لوثينيا ، ص ١٩-٢٠ .

٤٣ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥٢-١٥٣ ، لويس سيكودي لوثينيا ، ص ٢٣ .

٤٤ ابن الأثير ، ج٧ ، ص ٨٤ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٥٩ ، المقري ، ج١ ، ص ٤٠٩ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٤ .

٤٥ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٣ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٣٦ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦٦ .

٤٦ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٥١ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٣٧ ، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥٢ .

٤٧ ابن الأثير، ج٧ ، ص ٨٥، ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٠٠، المقري ، ج١ ، ص ٤١١.

٤٨ الأثير، ج٧، ص ٢٨٥ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١١٧، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥٢.

٤٩ الأثير ، ج٧ ، ص ٢٨٧ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٣٨ ابن الخطيب ، ص ١٣٥ .

٥٠ الأثير ، ج٧ ، ص ٨٤ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩١ ، ٩٥ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٤ .

٥١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٠ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، ص ١١٦ ، ١١٩ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٩.

٥٢ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٣-١٤٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦٨ ، لويس سيكودي لوثينيا ، ص ٣١ .

م	الهـــوامـــش
٥٣	ابن الاثير ، ج٧ ، ص ٢٩٠ ، ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، النويري ، ج٢٣، ص ٤٣٦ -٤٣٧ ، المقري ، ج١ ، ص ٤٢٠ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦٨ .
٥٤	ابن سعيد ، ج١ ، ص ٢١٥-٢١٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية ، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٩٨٤م ، ص ٧٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، القاهرة ، المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٩٢م ، ص ١٠٤-١٠٥ .
٥٥	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢-٨٣ ، ١١٥ ، ابن ابي زرع ، أبو الحسن على بن عبدالله (ت ٧٢٦هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبدالوهاب بمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ص ١٤٩، عبدالعزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٢٦٠-٢٦١، عبدالاله بنملح: الرق في بلاد المغرب والأندلس، بيروت، دار الانتشار العربي، ٢٠٠٤م ، ص ٥٣١ ، ٥٤٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٨ .
٥٦	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٢-٨٣ ، احمد محمد اسماعيل احمد الجمال ، ص ١٢٥-١٢٦، ١٣٥ ، البير حبيب مطلق : الحركة اللغوية في الأندلس من الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٧م ص ٢٥٢-٢٥٣، كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة طرطوشة الإسلامية وحضارتها في عصر دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، الأندلس قرون من التقلبات والعطاء ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٧٢، نانسي فيصل الرواشده : الحياة العلمية في مرسية الإسلامية في القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص ٤٠.
٥٧	ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٧٥، ١٩٣، ٢٣٥ -٢٣٦، النويري، ج٢٣، ص ٤٤٢، ابن خلدون، ج٤، ص ١٥٦، ١٦٣، عبدالرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، ص ٣٣٢-٣٣٣ ، سحر السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩١م، ص٣٥٦-٣٦٠.
٥٨	الإيلاني ، ص ٤١-٤٢، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٧١ .

م	الهـــــوامـــــش
٥٩	ابن عذاري،ج٣، ص ٨٣، ٩٤، ابن الخطيب، ص ١١٣، عمر مصطفى لطف: تاريخ الصقالبة في الأندلس دراسة تاريخية جديدة ، القاهرة ، د . م . ن ، ٢٠٠٣م ، ص ٦٨-٦٩، إبراهيم عبدالمنعم سلامة، ص ٥٠٥، Scales, (Peter): The Handing over the Duero of fortreses- 1009- 1002 AD Al Quntar, Mudrid, 1984, p.112-112, AlFonso Elsabio: primeracornica General despan, tTTpor Ramom, Mendendas, pided, Madrid, 1933, p.436
٦٠	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٦ ، النويري، ج٢٣، ص ٤٢٥، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥٠٦، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٦-٦٤٧ ، السيد عبدالعزيز سالم ، ص ٨٦ .
٦١	ابن عذاري ،ج٣ ، ص ٩٣-٩٤ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥٠٨ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٨ ، رجب محمد عبدالحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بين أمية وملوك الطوائف، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني . د. ت . ن ، ص ٢٦٥ ، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٤.
٦٢	ابن الأثير ، ج٧ ، ص ٢٤٨، ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٠٣-١٠٤، النويري ، ج٢٣، ص ٤٢٧ ، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥١ ، رجب عبدالحليم ، ص ٢٦٧ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥١٢-٥١٣ ، السيد عبدالعزيز سالم ، ص ٨٧ ، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٦ .
٦٣	محمد عبدالله عنان،ص٦٣٣،إبراهيم عبدالمنعم سلامة،ص٥٠٠، Le'vi Provencal, L' Espange Musulmane au xesiede. Paris,1932, P.49
٦٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٤-١٠٥ ، ابن الخطيب ، ص ١١٧-١١٨ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٠ .
٦٥	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٧٨-٧٩ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ ، امحمد جبرون ، ص ٢٣٩-٢٤٠ .
٦٦	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١١٦ ، ١٢٠ .
٦٧	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٤٢-١٤٣ .
٦٨	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٧٤ ، احمد فكري ، ص ١٢٢ ، حمد صالح السحيباني : الحالة الأمنية في قرطبة خلال الفتنة البربرية (٣٢٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩م-١٠٣١م) ، الرياض ، الجمعية التاريخية السعودية ، ١٩٩٩م ، ص ٩١ .
٦٩	عياض ، عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد احمد أعراب ، الرباط ، مطبعة فضالة، ١٩٨٢م، ص١٩٩-٢٠٠، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس، ص ٥٥٢.

٧٠ عبدالواحد المراكشي، ص١٠٧، عبدالمجيد نعنعي، ص٥٢٦، حمد صالح السحيباني، ص ٨٩-٩٠.

٧١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٣٧ .

٧٢ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٤٧-١٤٩، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة ، ص ١٠٧.

٧٣ محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص١١٦، عبدالمجيد نعنعي، ص ٥٢٦.

٧٤ الفتح بن خاقان، ابو النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي (ت ٥٢٩هـ) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، القاهرة، تحقيق محمد شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ، ١٩٨٣م ، ص ٢١٢-٢١٤ .

٧٥ عبدالواحد المراكشي ، ص ١٠٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٨٩-٩٠ .

٧٦ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٧-١٤٩ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠٧ .

٧٧ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٣٧، حمد صالح السحيباني ، ص ٧٩ .

٧٨ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٣٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٠ .

٧٩ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٩ .

٨٠ المصدر نفسه، ج٣، ص ١٣٥-١٣٦، السيد عبدالعزيز سالم قرطبة، ص١٠١-١٠٣

٨١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥-١٥١ ، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥٢ .

٨٢ ابن بسام ،ق ١،ج١،ص ٥١،ابن عذارى ،ج٣،ص١٣٦.

٨٣ ابن بسام ،ق ١،ج١،ص٥١، محمد عبدالله عنان ،ص٦٨٦.

٨٤ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٧٤ .

٨٥ عياض ، ج٧ ، ص ١٩٩-٢٠٠ ن ابن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨هـ): الصلة ، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهـرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م/ج١، ص ٢٢٩-٢٣٠. محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ٥٥٢ .

٨٦ ابن حزم ، ابو عبدالله علي بن احمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) : طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، تحقيق حسين كامل الصيرفي ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٦٤م ، ص ١١١، محمد حسن قجة : محطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب الفني الأندلسي، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥م ، ص ١٣٢ ، عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي :" أثر فتنة قرطبة على المرتكزات النفسية والأخلاقية لأبن حزم الأندلس في كتابه طوق الحمامة" ، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات = القسم الأول ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ١٩٩٦م ، ص ١٣٨ .

٨٧ ابن حزم ، ص ١١١ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٣٩ .

٨٨ ابن حزم، ص ١١٢ ، ابن سعيد ، ج١ ، ص ٥٤-٥٥ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٤٢ ، محمد حسن قجة ، ص ١٣٢ .

م	الهوامش
٨٩	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢٣-١٢٤ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٤٦ .
٩٠	ابن بلكين، ص١٦-١٧ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٦ ، وفاء عبدالله سليمان المزروع ، نفوذ الصقالبة في الأندلس في عصر الإمارة أو الخلافة، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات – القسم الأول ، ١٩٩٦م ، ص ١١٥ .
٩١	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٧٤-٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٨ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥٠٢-٥٠٤ ، كمال السيد ابو مصطفى ، ص ١٧٢ .
٩٢	محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٤ ، شكيب ارسلان ، ج٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ .
٩٣	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٨ .
٩٤	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٦-٩٨ ، ابن الخطيب ، ص ١١٣ .
٩٥	عبد العزيز نعنعي ،ص ٥٠٤
٩٦	ابن عذاري، ج٣ ، ص ٧٨ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٤-٦٤٥ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ص ٥٠١ ، Le'vi – Provencal p.436 , Guichard (pierre) Al-Andalous Estrctura Antro Polgica de una socieded islamica en occidente, Bordeon, 1976, P.109
٩٧	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩١ .
٩٨	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢-٨٣ ، كمال السيد مصطفى ، ص ١٧٣-١٧٤ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٦١-٢٦٢ ، البير مطلق ، ص ٢٥٢ ، عبدالآله بتمليح ، ص ٥٢٩-٥٤٥ .
٩٩	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٣ .
١٠٠	ابن بسام ، ق١ ، ج ١ ، ص ١١٠-١١٢ ، عبدالآله بتمليح ، ص ٧٤٨-٤٨٠ .
١٠١	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٤ .
١٠٢	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١١٣-١١٤
١٠٣	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٨٥ ، لويس سيكودي لوثينا ، ص ١٩ .
١٠٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٣٠ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٩٤ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٦٦ .
١٠٥	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٧١٨-٧١٩ ، ابن الآبار، ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ) : التكملة لكتاب الصلة، ضبط وتعليق جلال الاسيوطي ، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م، ج٢، ص ٢٠٨، حمد صالح السحيباني، ص ٦٤.
١٠٦	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٩-١٥٠ .
١٠٧	عياض ، ج٧ ، ص ١٧١ ، البناهي ، ص ٨٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ .

م	الهوامش
١٠٨	عياض ، ج٧ ، ص ١٧٣-١٧٤ ، البناهي ، ص ٨٦-٨٧ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ص ٧٩ .
١٠٩	عياض، ج٧، ص ١٧٨-١٧٩، ابن سعيد ، ج١، ص ١٥٥-١٥٧، النباهي، ص ٨٨، حمد صالح السحيباني، ص ٥٠ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ٧٩ .
١١٠	عياض ، ج٧ ، ص ١٠-١١ ، البناهي ، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ٨٩ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٧٩.
١١١	ابن عذاري، ج٣ ، ص ٦٠، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس ، ص ١٠٤.
١١٢	ابن عذاري، ج٣ ، ص ٧٩، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس ، ص ١٠٧ .
١١٣	ابن عذاري، ج٣، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥.
١١٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٣.
١١٥	المصدر نفسه، ج٣،ص١٠٤، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص ١٠٥.
١١٦	ابن عذاري، ج٣ ، ص١١٢، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥.
١١٧	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ٢٢١، حمد صالح السحيباني ، ص ٤٩ .
١١٨	محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس،ص ٢٢١،حمد صالح السحيباني، ص٥٥.
١١٩	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٤٧٢ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٧ .
١٢٠	النباهي ، ص ٨٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٧ .
١٢١	عياض ، ج٨ ، ص ١٦-١٧ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٩ .
١٢٢	ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٤٣٥-٤٣٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس، ص ٣٦٣-٣٦٤.
١٢٣	ابن بسام، ق١، ج١، ص ٤٣٥، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص٥٠١.
١٢٤	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ٥٢٣ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٦٨-٦٩ .
١٢٥	ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٤٧٢ ، النباهي ، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ١١٣ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٧٩ .
١٢٦	عياض ، ج٧ ، ص ١٩٩-٢٠٠ ، ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ٥٥٢ .
١٢٧	ابن بسام ، ق١، ج١ ، ص ٣٣ ، يوسف احمد بني ياسين : بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية دراسة مقارنة ، الامارات المتحدة ، دار زايد للتراث والنشر ، ٢٠٠٤م، ص٢٤١-٢٤٢، محمد كمال شبانه: الأندلس دراسة تاريخية حضارية ، القاهرة ، دار العالم العربي ، ، ٢٠٠٨م ، ص ١٢٤ ، ليوبولدو تورس بالباس ، ص ١٧٤.

م	الهــــوامـــش
١٢٨	انظر الحدود المكانية .
١٢٩	ابن عــذاري ، ج٢ ، ص ٢٠٩ ، ٢٧٥، النــويري، ج٢٣، ص ٣٩٩ ، ٤٠٦، ابــن خلدون، ج٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٨ .
١٣٠	مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة الاسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥-١٩٦٦م ، ص ١٦٨ ، المقري، ج٢ ، ص ٦-٧ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، يوسف احمد بن ياسـين ، ص ٤٢١ ، محمد عبالوهاب خلاف : قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر المـيلادي – الخامس الهجري الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، الــدار التونـسية للنـشر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٥-٢٦ ، محمد عبدالله الحماد : التخطيط العمرانــي لمــدن الانــدلس الاسلامية ، الاندلس قرون من التقلبات والعطاءات – القسم الثالث الحضارة والعمــارة والفنون ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٩٩٦م ، ص ١٦١.
١٣١	المقري ، ج٢ ، ص ٧٩ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٤٦-٤٧.
١٣٢	مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٦٩ ، المقــري ، ج٢ ، ص ٨٠ ، البيــر مطلق، ص ٢٥٣ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبــة، ص ٢٦، احمد فكــري ، ص ١٨٥، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٦٠.
١٣٣	مؤلف مجهول: وصف جديد لقرطبة، ص ١٩٦، احمد فكري، ص ١٨٥، البير مطلــق، ص ٢٥٣،محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة، ص ٢٦، محمد عبدالله الحماد، ص ١٦٠.
١٣٤	البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٥٩.
١٣٥	المقري، ج٢ ، ص ٨١ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبــة ، ص ٨٣ ، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٥٩.
١٣٦	ابن عذاري ، ج٢ ، ص ٢٥٧ ، المقري ، ج٢ ، ص ١٢-١٣ ، محمــد عبـدالوهاب خلاف: قرطبة ، ص ٢٣ ، احمد فكري ، ص ١٨٠ ، ليوبولد تــورس بالبــاس ، ص ١٠٠.
١٣٧	ابن عــذاري، ج٢، ص٢٧٧، المقــري ، ج٢ ، ص ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٤ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبــة ، ص ٢١٢-٢١٣، احمد فكري، ص ١٨٢-١٨٣.
١٣٨	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٦٣-٦٤ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤١٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٥ ، امحمد بن عبود : جوانب من الوقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، تطوران ، مطبعة النور ، ١٩٧٨م ، ص ٥٥ .
١٣٩	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٦٣-٦٤ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤١٣-٤١٤ ، المقري ، ج٢ ، ص ١٢٢-١٢٣ ، إبراهيم بيضــــون ، ص ٣٤١ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ليوبولد تورس بالباس ، ص ١٠١ ، محمد احمد اسماعيل الجمال ، ص ١٢٤ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٢٤ .

م	الهوامش
١٤٠	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٥ ، احمد فكري ، ص ١٢٣ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٢٥١ ، احمد بن عبود : جوانب من الواقع الأندلسي ، ص ٥٥ .
١٤١	الضبي ، ص ١١٤، ابن عذاري، ج٣، ص ١٠٢، ١٠٧، الحميري، ص ٢٩٥، احمد فكري، ١٢٤، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ٢٥٢، محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة، ص١٥٣.
١٤٢	ابن بسام، ق١، ج١، ص٤٣٦، ابن سعيد، ج١، ص ٥٤-٥٥، ابن عذاري، ج٣، ص ١٤٢، السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس ، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ، الطبعة الثانية، ١٩٦١م، ص ٤٧، احمد عبود: البنية الاقتصادية في الأندلس خلال عصر الطوائف، المغرب والأندلس دراسات في التاريخ والاركيو لوجية، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٦م، ص ٤٨-٤٩.
١٤٣	ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٠٢، احمد فكري، ص ١٩٦، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١١٢-١١٣.
١٤٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٢ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٣٠ ، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٦ .
١٤٥	ابن حزم ، ص ٩٤ ، مؤلف مجهول : أخبار الأندلس ، ص ٢٣٩ ، ابن الخطيب ، ص ١٠٦-١٠٧ ، يوسف احمد بن ياسين ، ص ٤٢١-٤٢٢ ، محمد كمال شبانه ، ص ١٢٧، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٢ ، ١١٤-١١٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٦ .
١٤٦	عياض ، ج٧ ، ص ١٧٦-١٨٠ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٤ ، ليوبولد تورس بالباس ، ص ١٢٤ .
١٤٧	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١١٥ ، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٨ .
١٤٨	ابن عذاري، ج٣ ، ص ١٢٣ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٤٦ ، امحمد بن عبود: البنية الاقتصادية ، ص ٥٤ .
١٤٩	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٠ .
١٥٠	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٠٧ ، ليوبولد تورس بالباس ، ص ١٤١ .
١٥١	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ ، احمد فكري ، ص ٢٦٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة، ص ٣٩ ، ٧٥ .
١٥٢	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٧-٨٨ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٩٨ .
١٥٣	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٩٨ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١٧١ .
١٥٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٧ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٩٨.

م	الهوامش
١٥٥	مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٧١ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٣٢-٣٣.
١٥٦	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٧ ، ١٢٣ .
١٥٧	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبدالوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٤٩ .
١٥٨	محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٥ .
١٥٩	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٦١-٦٢ .
١٦٠	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٦١ ، ٩٥ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٣-٨٤ .
١٦١	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨١ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ .
١٦٢	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٦ .
١٦٣	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٥ .
١٦٤	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٤-٩٦ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥٠٨ ، شكيب ارسلان ، ج٢، ص ٢١٨-٢١٩ .
١٦٥	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٨ .
١٦٦	المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٤٤ ، امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٩٦ .
١٦٧	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٩ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٢٤ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥١٠ ، امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٦٢.
١٦٨	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٤.
١٦٩	المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٠٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٣ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥١ -٦٥٢ .
١٧٠	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١١٢ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٢٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٣ .
١٧١	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١١٥ .
١٧٢	ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٩٩ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٩ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٤٦ ، امحمد عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦١.
١٧٣	ابن بسام ، ق١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
١٧٤	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٣٧ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٣ ، عبدالمجيد نعنعي ، ص ١٢٥ .
١٧٥	ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٩٨ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٧ .
١٧٦	ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ .

١٧٨ ابن الخطيب، ص١١٧، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص١١٤، محمد عبدالله عنان، ص ٦٥١.

١٧٩ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٤٣٦ ، ابن سعيد ، ج١ ، ص ٥٤-٥٥ ، أحمد فكري ، ص ١٢٦ ، امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٤٨-٤٩

١٨٠ السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٦ .

١٨١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ .

١٨٢ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٠٥ .

١٨٣ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٠٩ ، وبطليوس تقع في اقليم ماردة وتبعد عنها أربعين ميلاً على نهر وادي أنه وقد بنيت تلك المدينة على يد عبدالرحمن بن مروان الجليقي بموافقة الأمير عبدالله بن محمد انظر الحميري ، ص ٩٣ ، سحر السيد عبدالعزيز سالم ، ص ١٦١ .

١٨٤ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٤٥٨ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢٨ .

١٨٥ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤٧ .

١٨٦ امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٧٣-٧٤ .

١٨٧ محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٧٢-١٧٣ ، ١٨٥-١٨٦ ، ١٩٠ .

١٨٨ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٢ ، رجب محمد عبدالحليم ، ص ١٨٠ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣١ .

١٨٩ عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥٠٩- ٥١١ .

١٩٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٢ ، رجب محمد عبدالحليم ، ص ١٨٠ .

١٩١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٦-١٠٧ ، ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٥١ المقري ، ج١ ، ص ٤١١ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣١ .

١٩٢ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٧ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٣٠ .

١٩٣ المرية مدينة بشرق الأندلس من كورة البيرة وهي مرسى ميناء الأندلس في الشرق انظر ياقوت ، ج٥ ، ص ١١٩ .

١٩٤ الإدريسي ، ج٢ ، ص ٥٦٢ ، ياقوت ، ج٥ ، ص ١١٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٠٤ ،٦٧، السيد عبدالعزيز سالم : في تاريخ وحضارة الأندلس ، ص ٢٧٥-٢٦٧ ، ليفي بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة مراجعة عبدالحميد العبادي ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥١م ، ص ١٠٤ .

١٩٥ محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٧٠ ، إبراهيم بن عبدالمنعم سلامة ، ص١٨٨ .

١٩٦ طليطلة مدينة خصبة في وسط الأندلس على ضفة النهر الكبير وتشتهر بالزراعة وتربية المواشي التي تصدر إلى المناطق المختلفة انظر الحميري ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

١٩٧ قونكة مدينة وسط الأندلس من أعمال شنتبرية انظر ياقوت ، ج٤ ، ص ٤١٥ .

١٩٨ السيد عبدالعزيز سالم : في تاريخ وحضارة الأندلس ، ص ٢٦٥ .

١٩٩ المقري ، ج٤ ، ص ٢٠٤ .

٢٠٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٦٣ ، إبراهيم سلامة ، ص ١٨٢ – ١٨٦، Levi-Provencal, P200

٢٠١ عبدالمجيد نعنعي ، ص ٥١١ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٩٨ ، ١١٨ .

٢٠٢ أوليفيا ريمي كونستيل : التجارة والتجار في الأندلس ، ترجمة فيصل عبدالله ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ٢٠٠٢م ، ص١١٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣١ .

٢٠٣ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٥٧ ، ٨٠ ، ١٠٧ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٩٧ ، ليوبولد تورس بالباس ، ص ٤٤ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ٢٠٠ ، L'evi-Provencal, P44

٢٠٤ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ .

٢٠٥ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٥٧ .

٢٠٦ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٥٦ ، ٦٢ .

٢٠٧ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٢ .

٢٠٨ حمد صالح السحيباني ، ص ٩٨ .

٢٠٩ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ١٠٠ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٢٣ .

٢١٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٩ ، ١٤٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٧ .

٢١١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٤ .

٢١٢ امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٤٤ .

٢١٣ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٦ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٤ ، ٢٣١ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩-١٠ .

٢١٤ النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٨ .

٢١٥ المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ٤٢٧ .

٢١٦ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٩٨ .

٢١٧ محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣٥ ، عصمت عبداللطيف وندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين في عصر الطوائف الثاني ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م ، ص ٢٤٧-٢٤٨ ، عبدالسلام بن المختار شعتور : اليونان الأندلسية بحث في المكونات والضوابط والنتائج : الأندلس قرون من التقلبات والعطاء ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، القسم الأول التاريخ وفلسفة ، ١٩٩٦م ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

٢١٨ ابن بلكين ، ص ١٦-١٧ ، الإيلاني ، ص ١٤٧ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣٧-٢٣٩ ، ٢٥٤ ، محمد حقي : البربر في الأندلس ، دراسة التاريخ مجموعة أثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، شركة النشر والتوزيع ، ٢٠٠١م ، ص ٢١٨-٢١٩.

٢١٩ وفاء المزروع ، ص ١١٥ ، عمر مصطفى لطف ، ص ٥٥ ، حسن يوسف دويدار ، المجتمع

الأندلسي في العصر الأموي ، القاهرة، مطبعة الحسني الإسلامية ، ١٩٩٤م ، ص ٢٨٩ .

٢٢٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٦٠-١٦١ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ٢١٦-٢١٧ ، عمر مصطفى لطف ، ص ٦٧ .

٢٢١ ابن الخطيب ، ص ١٢٢-١٢٣ ، احمد فكري ، ص ١٢٢ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، محمد حقي ، ص ٩٠-٩١ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ .

٢٢٢ ابن بسام ، ق١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٥٥ .

٢٢٣ ابن الخطيب ، ص ١١٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٤ .

٢٢٤ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢٨ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ .

٢٢٥ ابن حزم ، ص ١١٢ ، ابن الأثير ، ج٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٣٩-١٤٠ .

٢٢٦ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٣٠٥ .

٢٢٧ ليوبولد تورس بالباس ، ص ١٢٦ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ١٣٩ .

٢٢٨ ابن بسام ، ق ١ ، ج١ ، ص ٤٣-٤٤ ، ابن خلكان ، أبو العباس احمد بن محمود (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د. ت . ن ، ج٢ ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، ج٧ ، ص ٨٤-٨٥ ، عبدالواحد المراكشي ، ص ٨٨-٨٩ ، المقري ، ج١ ، ص ٤١١ ، شكيب أرسلان ، ج٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٤ ، رجب عبدالحليم ، ص ٢٦٤-٢٦٨ .

٢٢٩ ابن الآبار : الحلة ، ج٢ ، ص ٧ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٢ ، عبدالواحد المراكشي ، ص ٨٧ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٤٠ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٦٥-٦٦ .

٢٣٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٢١ .

٢٣١ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٥٤ .

٢٣٢ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ .

٢٣٣ ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٥٧٦-٥٧٧ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٤٤ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٥٥ .

٢٣٤ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٢-١٠٣ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٢٧ .

٢٣٥ ابن الخطيب ، ص ١٣٥ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ .

٢٣٦ الأدريسي ، ج٢ ، ص ٥٧٩ ، ياقوت ، ج٤ ، ص ٣٢٤ ، الحميري ، ص ٤٥٨ .

٢٣٧ عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٦٥ ، L'evi Provencal P.481.

٢٣٨ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٤ ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص ١٧٠ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ ز

٢٣٩ ابن حزم ، ص ١١١ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٣٨-١٤٠ .

٢٤٠ ابن عذاري،ج٣،ص١٢، احمد فكري، ص ١٩٦، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة،ص١١٢-١١٣

٢٤١ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨١ ، محمد حقي ، ص ٢١٨ ، عبدالرحمن الخـانجي ، ص ١٣٩ ، امحمد بن عبود : جوانب الواقع ، ص ٣١ .

٢٤٢ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، ج٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ٢٠٩ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ٥٠٩ ، Al-Fonso P.462

٢٤٣ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٥٤ ، ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٩٧-٩٨ ، النويري ، ج٢٣ ، ص ٤٢٩ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٣٩ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٤ .

٢٤٤ ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٤٠٢-٤٠٤ ، ابن الأبار : الصلة ، ص ٢٠٨ ، محمـد عبـدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

٢٤٥ حمد صالح السحيباني ، ص ٩٣ .

٢٤٦ محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٧٢ .

٢٤٧ ابن حزم ، ص ١١٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٧٣ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٠٤ .

٢٤٨ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٣ .

٢٤٩ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٨٠ ، ٩٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٣١٢ .

٢٥٠ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٣١٢ .

٢٥١ ابن عذاري،ج٣،ص١٤٩،محمد عبدالوهاب خلاف ،ص٣١٢ .

٢٥٢ ابن حزم ، ص ١١٩ ، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٤٩-١٥١ .

٢٥٣ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٤٤ .

٢٥٤ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٦١ .

٢٥٥ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٩٧-٩٨ ، حمد صالح السحيباني ، ٨٠-٨١ .

٢٥٦ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٦ ، ١٤٦ .

٢٥٧ المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٦١ .

٢٥٨ محمد عبدالله عنان ، ص ٧٠١-٧٠٤ ، وفاء عبدالله سليمان المزروع : الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، جده ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، د . ن . ن ، ص ١٢٣-١٤٥ .

٢٥٩ ابن عذاري ، ج٣ ، ص ١٠٥ ، ١٠٩ ، امحمد بن عبود : البنية الاقتصادية ، ص ٧٣-٧٥ .

٢٦٠ عياض ، ج٧ ، ص ٢٩٧ ، ج٨ ، ص ١٠ ، ابن سعيد ، ج١ ، ص ١٥٥-١٥٧ ، النباهي ، ص ٨٨ ، حسين مؤنس : شيوخ العصـر ، ص ٧٨-٧٩ .

٢٦١ ابن بسام ، ق ١ ، ج١ ، ص ٦٧ .

٢٦٢ ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٤١ .

٢٦٣ المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٢٧-٣٢٩ .

٢٦٤ المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٦٥٠ .

٢٦٥ المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٤-٧١٥ .

٢٦٦ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٤٤ .

٢٦٧ ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٣٠٩-٣١١ ، الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد بـن

عثمان (ت ٧٤٨هـ) : طبقات القراء ، تحقيق احمد خان ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٧م ، ج٢ ، ص ٥٧٣-٥٧٤ .

٢٦٨ ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٣٨٩ .

٢٦٩ المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٥-٧١٦.

٢٧٠ ابن حزم ، ص ١١٩ ، ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٦١٤-٦١٥ ، ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٣٩١-٣٩٣ ، ابن خلكان ، ج٢ ، ص ١٠٦ ، ابن سعيد ، ج١ ، ص ١٠٣-١٠٤ .

٢٧١ ابن بشكوال، ج١ ، ص ٥٩ .

٢٧٢ المصدر نفسه، ج١ ، ص ٢٦٠-

٢٧٣ ابن حزم، ص ٤٤-٤٥، ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٣٣٣ .

٢٧٤ ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٧١٧ .

٢٧٥ عياض، ج٧ ، ص ٢٠٥ ، ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٧١٨ -٧١٩ ، الضبي ، ص ١١٤ .

٢٧٦ ابن الآبار: الصلة ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .

٢٧٧ الحميدي ، ج١ ،ص ٢٧٢ ، ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٥٤-٥٥ ، الضبي ، ص ١٤٣ .

٢٧٨ ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٥٧٦-٥٥٧ .

٢٧٩ انظر ملحق رقم (٢) علماء قرطبة الخارجين منها إلي داخل الأندلس وخارجها.

٢٨٠ ابن حزم، ص ١١٨ ، امحمد بن جبرون ، ص ١٤٥، عبدالرحمن الخانجي ، ص ١٣٩-١٤٢.

٢٨١ ابن بسام ، ق١ ، ج١ ، ص ٣٠٤-٣٠٥ ، ابن الآبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر (ت ٦٥٨ هـ) : إعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الأشتر ، دمشق ، مجمع اللغة ، ١٩٦١م ، ص ٢٠٣-٢٠٥ .

٢٨٢ ابن بشكوال ، ج١ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ .

٢٨٣ عياض ، ج٧ ، ص ٧، ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٧٤١-٧٤٢ .

٢٨٤ عياض ، ج٧ ، ص ٢٨٦-٢٨٩ ، ابن بشكوال ، ج٢ ، ص ٧٤٧-٧٤٨ .

٢٨٥ حامد الشافعي دياب : الكتب والكتاب في الأندلس ، القاهرة ، دار قباء للطباعة والنشر ، ١٩٩٨م، ص ١٠١ ، ١١٠ ، وفاء عبدالله المزروع : الحكم المستنصر ، ص ١٣١-١٣٢ .

٢٨٦ حامد الشافعي دياب : الكتب والكتاب في الأندلس ، ص ١٣٤ .

٢٨٧ ابن الخطيب، ص ١١٧، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص١١٤، محمد عبدالله عنان، ص ٦٥١.

٢٨٨ البير مطلق، ص٢٥٩، محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة، ص ٢٣٧، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص٨٥، كمال السيد مصطفى، ١٨٩-١٩٠، احمد محمد اسماعيل الجمال، ص١٦٠-١٦١، ١٨٧، ١٨٨، محمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص٣٧.

النظم القضائية والتشريعية في انجلترا عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩م

د. أسامة إبراهيم حسيب (*)

مقدمـــة:

لفظ القانون Law ليس بعربي وجمعه قوانين ومفرده قانون، والقوانين هي الأصول[١]، وكتب في عهد الملك هنري الثاني Henry II الذي تأثر بدوره بالعديد من القوانين السابقة منها القانون الروماني وقوانين جستنيان والانجلوسكسون والنورمان.

ويُعد القانون الروماني أساسا للعديد من النظم القانونية السائدة في العالم اليوم والمعروفة بالنظم القانونية اللاتينية، وترجع القيمة العلمية لدراسة القانون الروماني إلى ما يحتويه من مفاهيم ونظريات قانونية تبلورت عبر مئات السنين وما زالت راسخة في علم القانون حتى اليوم[٢].

ولعب العرف Mores Majorum دوراً مهماً، في نشأة القانون الروماني وتطوره، سواء كان ذلك بشكل صريح أم مستتر، والعرف بمثابة قاعدة للقانون الذي يستند إلى عادات الناس ، مادام التشريع يستمد قوته من قبول الشعب لحكمه، فإن ما يرتضيه الشعب دون أن يكون مدوناً ينبغي أن يكون ملزماً للجميع[٣].

ولقد تصدى رجال الدين لمهمة تفسير القانون والإفتاء وظل القانون يقوم على مجموعة من الأعراف والتقاليد الدينية التي ينفرد رجال الدين العلم بها، وبذلك يعد القانون تقنيناً للأعراف المتبعة، حتى وإن كان لا يتناول بالتنظيم كافة تفصيلات النظم والمعاملات القانونية، واقتصر تفسير القانون في البداية على رجال الدين، ثم ظهرت طائفة من المدنين شاركوا رجال الدين في تفسير القانون[٤].

ومن القوانين التي استفاد منها الملك هنري الثاني قوانين الإمبراطور جستنيان التي أسفرت جهوده عن تقسيم القانون الروماني إلى أربع مجموعات، المجموعة الأولى وهي مجموعة الدساتير أو الشرائع Institutions ٥٢٨-٥٣٤م، وقسمه إلى اثنى عشر كتاباً وينقسم كل كتاب إلى عدد من الأجزاء، ويضم كل جزء منها عدداً من الدساتير الإمبراطورية ويحمل كل دستور اسم إمبراطور بداية من تراجان (١١٧-١٣٨م) حتى جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، ثم المجموعة الثانية وهى الموسوعة القانونية

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة سوهاج.

الديجستا Digest ٥٣٠ - ٥٣٣م ، ثم المجموعة الثالثة وهي النظم وتتكون من أربعة كتب ينقسم كل منها إلى عدة أجزاء يبلغ عددها تسعة وتسعين جزءا، وكانت محل إعجاب القانونيين ، وتتمثل المجموعة الرابعة في التجديدات Novella Leges وبلغ عدد الدساتير مائة وثمانية وستين دستورا، أصدر منها جستنيان مائة وأربعة وخمسين والباقي في عهود لاحقة(٥).

وكانت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis والتي تعد أكبر مجموعة قانونية جمعت وقد جعلت قوانين جستنيان السلطة المطلقة في إصدار القوانين وتنفيذها رهناً بمشيئة الإمبراطور أو القانون الملكي Lex Regia (٦).

وكانت انجلترا هي البلد الأوروبي الوحيد التي لم يخضع نظامها القانوني لتأثير قوانين جستنيان خضوعا كاملا، فبينما كان القانون قد بدأ يتسرب داخل النظم القانونية في ألمانيا وفرنسا في القرن الثاني عشر، كان القانون الانجليزي يسير في اتجاه آخر، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التي كانت تختلف اختلافا بينا عن الأسس النظرية والإجراءات التي يقوم عليها القانون الروماني ، ولا يمكن تجنب الموضوع الذي يطرح نفسه في أن انجلترا قد طورت نظامها القانوني الخاص بمنأى عن النظام القانون الروماني(٧).

وليس حقيقياً أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة في انجلترا فقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البولونين وهو ايرنيريوس Irnerius يقوم بالتدريس في انجلترا في أربعينات القرن الثاني عشر، كما أن كثيراً ممن عملوا في الجهاز الإداري والملكي في الشطر الأخير من عهد هنري الأول (١١٠٠-١١٣٥م) تلقوا تعليمهم في فرنسا وايطاليا، كما كانت غالبية القضاة في عهد هنري الأول والثاني من رجال الكنيسة الذين تلقوا الدراسات التمهيدية المعتادة في الإجراءات القانونية الخاصة بالقانون الروماني والقانون الكنسي ومبادئ كل منهما، ومن المؤكد أنهم كانوا علي درجة كافية من الدراية بالقانون الروماني بحيث يدخلونه إلى انجلترا، والقانون الجرماني الذي يرجع أصلا إلى الفترة الانجلوسكسونية كان من النقاء والقوة بحيث لم يكن أمام القانون الروماني الدارج في انجلترا إلا التأثر به، بحيث صار النظام القانوني الجرماني هو الذي يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الانجليزية خلال فترة ما قبل الغزو النورماني، ولم يكن الحكام الانجلو-نورمان بعد الغزو ليهتموا بالحفاظ علي القانون الروماني. وقد فرض هنري الثاني القانون المدني الروماني علي انجلترا لأنه يتلاءم مع ميوله العامة مثلما كان مناسباً لألمانيا وفرنسا. وينبغي في النهاية أن نشير إلى وجود قانون جرماني بسيط في الإمبراطورية لم يمنع الحكام الألمان من تطبيق القانون المدني الروماني في بلادهم، أما سلطة هنري الثاني في انجلترا فكانت أعظم كثيرا(٨).

واستعان الملك هنري الثاني بالقوانين التي سنها الملوك الانجلوسكسون مثل قوانين الملك اثلبرت Athelbert (٥٥٠-٦١٦م) ملك كنت Kent ، والملك أين Ine (٦٨٨-٧٢٦م) ملك وسكس Wessex ، والملك أوفا Offa (٧٥٨-٧٩٦م)، والملك

الفرد Alferd (٨٧١-٨٩٩م)، والملك إدوارد Edward (٨٩٩-٩٢٤م)، والملك ايثلستان Ethelstane (٩٢٥-٩٣٩م) ، والملك إدموند Edmund (٩٣٩-٩٤٦م)، والملك إدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م)، والملك إثلرد Ethelred (٩٧٥-١٠١٦م)، والملك كانوت Canute (١٠١٦-١٠٣٥م)، وكذلك قوانين سجلات الأراضي Land Book ، كل هذه القوانين استفاد منها الملك هنري الثاني في تشريعاته القانونية بالإضافة إلى القوانين النورمانية[٩].

والتنظيم القانوني والقضائي عند الانجلوسكسون ينقسم إلى قسمين: قوانين القضاء المحلي، وقوانين القضاء الملكي، فالقسم الأول : لم تكن توجد محاكم خاصة في البلديات الصغيرة Township أو القرى نظراً لصغر حجمها، ولكن توجد محكمة تسمى المائة Hundred Court وتعقد كل شهر ، كما توجد محكمة المقاطعة Shire Court وتعقد مرة أو مرتين في العام[١٠].

ولم تضم هذه المحاكم قضاة متخصصين يطبقون القانون عن دراسة وعلم، ولكنها كانت أشبه باجتماع يعقد للنظر في المنازعات بين الأفراد ، حيث كانت اختصاص المحاكم تشريعياً وتنفيذياً وقضائياً ويقتصر الحضور علي الأحرار فقط[١١].

والقسم الثاني، القانون الملكي أو مجلس شورى الملك واتان Witan[١٢]، وكان يتكون من كبار رجال المملكة من النبلاء والأساقفة وكبار ملاك الأرض، وكانت اختصاصاته محدودة للغاية، فيأخذ رأيه في المراسيم والقوانين التي يُصدرونها، كما يفصل في النزاع بين أفراده فقط، وليس له حق الفصل في المنازعات التي تنشب بين العامة، أو الحق في التدخل في أحكام المقاطعات ومحاكم المائة[١٣].

ولقد وجه الملوك الانجلو سكسون اهتماماً كبيراً لضمان سير العدالة وتطبيقها علي جموع المواطنين دون تميز، فراجع الملك الفرد الأحكام التي صدرت من القضاة، وإن جاءت بها أخطاء تعرض القضاة للتوبيخ، ويجبرونهم علي الاستقالة أو يقبلوا علي دراسة المزيد من القانون بإتقان، وعاش المواطنون في جو من العدالة والطمأنينة فأمنت البلاد، لعلم اللصوص والقتلة والخارجين عن القانون أنهم لن يفلتوا من العدالة[١٤].

أما القانون النورماني فكانت محكمة المقاطعة تُعقد تحت رئاسة الشريف[١٥]، مرتين كل عام، أما محكمة المائة فتعقد برئاسة شخص يتم تعيينه من قبل الشريف لإدارة إقليم المائة يسمى المعاون Bailiff واختصاصات المحكمتين إدارية وتنفيذية وقضائية. وتصدر قراراتها بالأغلبية، وكان الاختصاص النوعي لكل من محكمة المقاطعة ومحكمة المائة في كافة المسائل المدنية والجنائية، وللمدعي حرية رفع دعواه أمام أي من المحكمتين[١٦].

وقد تبلور النظام القانوني في انجلترا وفي عهد الملك هنري الثاني، فاستحق بجدارة أن يطلق عليه لقب مؤسس القانون الانجليزي، فبدأت الدولة في عهده تبسط سيادتها ممثلة في سيادة القانون علي كافة أرجاء المملكة، وانحسار سلطان القانون

الديني والأعراف المحلية التي كانت سائدة، ولم يكن تطور القانون يتم فجأة بل كان يحدث تدريجياً إلى أن تبلور النظام القانوني الانجليزي[١٧].

يذكر بعض المؤرخين أن هنري الثاني يعد من أعظم شخصيات العصور الوسطى علي الإطلاق وحاكم ذو عقلية قانونية إنشائية، بلغ بقوة عقله ومضاء عزيمته مبلغ العباقرة، وأعطى للقرن الثاني عشر أعظم نموذج للملكية القوية المستبدة، وكان هو الدولة حقاً، وأفاد انجلترا في تقوية قواعد الحكم القانونية[١٨].

وكان الملك هنري الثاني هو رأس الحكومة المركزية في البلاد ويعاونه مجلس البلاط Curia Regis ويتكون من رجال الحاشية المقربين والقواد العسكريين وكبار الإقطاعيين وكبار رجال الدين فضلاً عن كبار الموظفين، ويجتمع ثلاث مرات في العام[١٩]، أما مجلس البلاط لا يجتمع إلا مرات قليلة في العام. ولإدارة شئون البلاد اليومية تم تقسيم مجلس البلاط إلى مجلسين؛ الأول يسمى المجلس الكبير Magnum Concilium، والثاني يسمى المجلس الصغير Concilium Regis ومع مرور الزمن أصبح المجلس الكبير نواة البرلمان الانجليزي والمجلس الصغير نواة المحاكم القضائية[٢٠].

ويؤكد هلدروث Holdswoth [٢١]، أن مجلس البلاط هو الهيئة القضائية العليا في البلاد، وقد كان له في هذا العصر نوعان من الاختصاصات فهو بوصفه محكمة إقطاعية تضم كبار الإقطاعيين، كان يختص بالنظر في المنازعات التي تنشب بين الإقطاعيين والمتعلقة بالأرض والمجلس بوصفه مجلساً للعرش يجمع أعيان المملكة، فكان ينظر في القضايا العادية، واختصاصه الأخير ذو شقين، شق ابتدائي، ينظر بوصفه محكمة من الدرجة الأولى في كافة القضايا الجنائية التي تمس امن المملكة.

ويؤكد جلانفيل Glanvill [٢٢]، أن محاكم أمن الملك Kings Peace كان ينظر إليها بوصفها محكمة استئنائية في الطعون التي ترفع إليه من أحكام المحاكم المحلية أو الإقطاعية ، وكان الطعن يقدم من المتضرر من الحكم، ثم يصدر المجلس أوامر إلى المحكمة الدنيا بإرسال ملف الدعوة مصحوباً بمذكرة الدفاع، وما هو مطلوب منها بصحبة أربعة من أعضائها يتولون الدفاع عن حكمها أمام مجلس البلاط، ولمجلس البلاط أن يؤيد حكم المحكمة أو يعيد القضية إليها بطلب إعادة النظر أو التصدي للنظر فيها، وفي الحالتين الأخيرتين يحكم علي المحكمة بغرامة يدفعها أعضاؤها .

ويمكن الطعن في الحكم بعد صدوره عندما يتظلم أحد الخصوم إلى مجلس البلاط، ويكون لديه أسباب تدفع إلى الشك في حيدة المحكمة ونزاهتها. فيصدر الملك أوامره بإحالة الدعوى إلى مجلس البلاط، أو يحذر المحكمة التي تنظر القضية بتوخي الحذر والحيدة، وللملك الحق في أن يصدر أمر استحضار Writ of Certiorari تسحب عن طريق الدعوة إلى محكمة مجلس البلاط، وكان للمحاكم اختصاصات في القضايا، وللملك الحق أن يصدر أوامره للمحكمة بالامتناع عن الاستمرار في نظر الدعوى Writ of Prohibition إن كانت المحكمة غير مختصة، أو يصدر أمراً بنظر الدعوى Writ of

Mandamus إذا كانت مختصة[٢٣]

من الواضح أن امتيازات الملك في القانون الانجليزي في تلك الحقبة كانت واسعة حتى الأوامر الملكية التي يصدرها لم يكن منحها بمثابة حق للخصوم، وغالبا كانت هذه الأوامر تشتري نظير مبلغ من المال يدفعه طالب الأمر إلى الملك.

وساعد الملك هنري الثاني في أحكام قبضته القانونية ثلاثة موظفين، الأول هو نائب الملك ويحل محله عند غيابه، وينوب عنه في رئاسة مجلس البلاط، ويفوض عنه في إصدار القوانين[٢٤]. ونائب الملك في النظام القانوني وهو المسئول عن تنفيذ المهام الصعبة مثل تحصيل الضرائب وقيادة الجيش، والسهر علي الأمن Watch and ward وتعقب المجرمين الفارين من وجه العادلة Hue and Gry. فضلاً عن أنه يرأس الإقليم Shire Moot الذي يجتمع فيه الملاك الأحرار علي فترات معينة لتصريف الشئون القانونية. وكان القضاة المتنقلون Justices in Eyre ، يقومون من آن لآخر بزيارة تلك الأقاليم – كما يفعل المبعوثون أيام الفرنجة – لسماع الشكاوى ضد الملك وللتفتيش علي الإدارة ومحاكمة المجرمين، ولنظر القضايا المدنية وخاصة القضايا المهمة التي رؤى حفظها لإصدار حكمهم فيها، وهؤلاء القضاة المتنقلون يختارون من بين هيئة محكمة الملك وهي محكمة مقسمة إلى ثلاث محاكم للقانون العام ومقرها وستمنستر[٢٥].

وثاني هؤلاء الموظفين المستشار Chancellor وقد لعب دوراً مهماً للغاية في تطور النظام القانوني الانجليزي، ونظرا للطابع الديني للمملكة، كان المستشار هو كبير قساوسة القصر، ثم أصبح فيما بعد مدنياً ذا اختصاصات مدنية، وكاتم أسرار الملك ورئيس ديوانه، ويُعد المرجع القانوني الأول في البلاط، وكثيراً كان يوفده المجلس الملكي إلى بعض أرجاء المملكة للفصل في القضايا المهمة[٢٦].

وثالث هؤلاء الموظفين هم الحكام Justices وكان لقب الحاكم يُطلق علي كل عضو من أعضاء مجلس البلاط، ثم أصبح يُطلق علي الموظفين الذين يرسلهم الملك إلى أرجاء المملكة للتفتيش علي إدارة البلاد والحكم في الدعاوي[٢٧].

قانون كلارندون Assise Clarendon ١١٦٤م:

لم يصادف الملك هنري الثاني توفيقاً في حل المشاكل المترتبة علي ازدياد سلطة رجال الدين، الذين أرادوا الاستقلال بالكنيسة عن السلطة العلمانية ومضاعفة نفوذها وممتلكاتها في ضوء الحرب الأهلية التي أعقبت وفاة هنري الأول، وساعدهم في ذلك ازدهار القانون الكنسي في القرن الثاني عشر، مما زاد من سلطان المحاكم الدينية، حتى أصر رجال الدين علي ألا يحاكموا إلا أمام المحاكم الكنسية وحدها[٢٨].

والحقيقة أن الكنيسة ورجالها تمتعوا بنفوذ عظيم منذ حكم الانجلوسكسون، فكان لهم الحق في تتويج الملك عن طريق رئيس أساقفة كانتربري، ولهم كذلك صلاحيات قانونية عديدة، فهم الذين يشرفون علي المحاكمات وتنظيم القسم والشهادة والعديد من

الامتيازات[٢٩]، وكانت الكنيسة حسب القانون تتقاضى جزءاً من أموال الغرامات التي تقع على المواطنين، وتحصل غرامات عديدة على مرتكبي الجرائم كل حسب جرمه، وكان القانون الكنسي يحمي رجال الدين من التعدي عليهم من قبل أي مواطن[٣٠].

لذلك قرر الملك هنري الثاني اختيار صديقه الحميم ومستشاره توماس بيكت Tomas Beaket لمنصب رئيس أساقفة كانتربري، الذي درس القانون المدني في بولونيا، أملاً أن يؤدي اختياره إلى إحكام سيطرته على رجال الدين ، على أن بيكت تمسك بقوة بحقوق الكنيسة وسموها،وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين، ومن هنا كان الصدام مع الملك[٣١].

ومما يستوجب الالتفاف إليه في سياسة هنري الثاني أنها اصطدمت اصطداما عنيفاً مع الكنيسة. لأنها كانت الهيئة الوحيدة دون غيرها من الهيئات العامة التي انفردت بالوقوف في وجهه وناقشة الحساب في أعماله، حين عمد إلى الحد مما تمتعت به من حصانة قانونية Benefit of clergy كي يجعلها خاضعة لسلطة المحاكم الملكية، وقد لاحظ الملك أن تطبيق القانون الكنسي على المتهمين من رجال الدين أخف وطأة من القانون العادي، مما جعل الناس تفضل في عرض قضاياهم المدنية أمام المحاكم الكنسية، حيث يمكنهم استئناف أحكامهم أمام المحاكم البابوية في روما، وأصبح من حق البابا عن طريق الاستئناف أن يتدخل في سلطة القضاء الانجليزي، وإن كان هناك الآلاف من رجال الدين وأتباعهم في انجلترا، ارتكب الواحد منهم العديد من الجرائم ولم ينل أحكاماً رادعة من المحاكم[٣٢].

وكان الملك هنري الثاني يرى بسط سلطانه على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين، خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنسية تتواطأ مع رجال الدين ولا تعاقبهم على ما يرتكبوه من جرائم[٣٣]، وانتهز الملك الوضع السياسي المتردي للبابوية في ضوء النزاع على العرش البابوي بعد وفاة البابا هارديان الرابع سنة ١١٥٩م بين البابا اسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م) في ليون الفرنسية والبابا المضاد فيكتور الرابع (١١٥٩-١١٦٤م). وقرر حسم جميع القضايا القانونية المتعلقة بالإصلاحات الكنسية بدون الرجوع إلى روما، ومنها عرقلة الالتماسات البابوية، وإعادة حقوق التاج على الأسقفيات الشاغرة، وتأكيد حقه في محاكمة رجال الدين المذنبين، وفرض ضريبة على الكنيسة وأصدر تحريماً عاماً على رئيس أساقفة كانتربري ثيوبالد ورجال الدين بالاعتراف بأي من البابوين المتنازعين[٣٤].

وكانت أولى مراحل النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة توماس بيكت أوائل أكتوبر ١١٦٣م في المجمع الذي عقد في وستمنستر، وطالب الملك فيه بوضع قانون لمحاكمة رجال الدين المذنبين في حضور القاضي الملكي، وإذا تمت إدانتهم يجردوا من مناصبهم الدينية ويسلموا للمحكمة المدنية للعقاب مرة أخرى على جرائمهم. ورفض بيكت هذا القانون الذي من شأنه تقييد سلطة الكنيسة في الحل والعقد، ورفض إنزال عقوبتين عن إهانة واحدة طبقا للقانون[٣٥].

وتعارضت رغبة بيكت المدافع عن الحقوق الكنسية وامتيازاتها علي رأسها عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية، ورغبة الملك هنري الثاني الذي يطمع في بسط سلطانه علي كافة الطبقات، وانقسم رجال الدين بين مؤيد ومعارض رغم إعلان احترامهم للحقوق والتقاليد الملكية الموروثة، ومنهم هيلاري أسقف شستر Hilaryof Chester الذي وعد باحترام التقاليد، وارنولف ليسيوس Arnulf of Lisieux، وريتشارد أسقف روستر Worcetr وأسقف وينشستر Winchester الذين صمموا علي تأييد البابا[٣٦]، في المقابل نجد أساقفة سالسبوري ونورتش Norwichرفضوا الوقوف مع بيكت ووقفوا في صف الملك خوفاً من بطشه، كما أنهم حاولوا إقناع بيكت بتسوية الأمر مع الملك[٣٧].

وجاء رد الفعل البابوي علي غير المتوقع، فقد طلب البابا من بيكت الاعتذار وعدم الدخول في نزاع مُعلن ومباشر مع الملك، ويرجع بعض المؤرخين وعلي ، ذلك لعدة أسباب منها ؛ أن البابا في منفاه في فرنسا ولا حول له ولا قوة، وتأييد الإمبراطور الألماني فردريك الأول بقوته للبابا المضاد، وخوفاً من انضمام حليف قوي مثل هنري الثاني إلي معسكر فردريك الأول، وفي هذا الصدد لم نتوقع من البابا أكثر من ذلك، وأصاب أسقف بواتييه كبد الحقيقة ١١٦٣م بقوله : " لا نتوقع المساعدة من البابا في أي شيء يمكن أن يؤدي إلى الإساءة إلى الملك".[٣٨]

وفي غضون ذلك، أرسل الملك مبعوثيه إلى انجلترا وهما ؛ فيليب رئيس دير ايمون L'Aumone وروبرت ميلون R. Melun حاملين تعليمات البابا ورسائله لحث توماس علي طاعة التقاليد الملكية القديمة الموروثة، ورداً علي رسائل البابا أعلن الملك احترامه لأية توصية يتم التوصل إليها[٣٩].

واستدعى الملك هنري الثاني أشراف انجلترا وفرسانهم وأساقفتهم في اجتماع عقد في مدينة كلارندون Clarendon –الواقعة في الجنوب الشرقي لسالسبوري- في الثالث عشر من يناير ١١٦٤م، لإقرار القانون الخاص بالتقاليد الملكية والذي تمت صياغته باسم قانون كلارندون Assize of Clarendon [٤٠].

واجبر الملك هنري الثاني الحاضرين علي التوقيع علي القانون الذي يقضي علي المزايا التي تمتع بها رجال الدين لفترات طويلة، ووقع العديد من الأسماء البارزة في المملكة بالموافقة علي القانون[٤١].

ويعد هذا القانون ذو أهمية فائقة في تاريخ القانون الانجليزي ، نظرا لما تضمنه من تغيرات في إدارة العدالة سواء في القانون الكنسي أو القانون العلماني ، التي مهدت الطريق أمام الحكم النيابي في انجلترا.

وأهم بنود هذا القانون :

١) إذا اندلع نزاع بين العلمانيين أو بين رجال الدين والعلمانيين أو حتى بين رجال الدين أنفسهم بخصوص أملاك أو تركات فإنه ينظر في ذلك من خلال محكمة الملك.

٢) تعد الكنائس إقطاعا تابعاً للسيد الملك، ولا يمكن أن تُمنح لأحد دون موافقته أو التنازل منه .

٣) في حالة ثبوت الاتهام علي رجال الدين يتم استدعاؤهم بواسطة محكمة الملك، وإرسال قاضي ملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة للإشراف علي المحاكم دون تدخل وإذا ثبتت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .

٤) لا يحق للأساقفة ورؤسائهم وكبار رجال الدين مغادرة المملكة بدون إذن من الملك نفسه، وفي حالة موافقة الملك علي مغادرتهم، يجب أن يقدموا ضماناً للملك بعدم إلحاق الأذى بالملك والمملكة.

٥) لا يحق للأشخاص المحرومين كنسياً أن يُعطوا عهداً أو يؤدوا قداساً أو قسماً، ولكن عليهم فقط التعهد بالمثول أمام محكمة الكنيسة ليتم تبرئتهم.

٦) المتهمون العلمانيون لا يجب اتهامهم إلا من خلال القانون وشهود في حضور الأسقف، وإذا ألقيت التهمة علي أحدهم حينئذ ليس من حق أحد آخر أن يجرؤ علي اتهامهم، وعلي الشريف حاكم المقاطعة بناءً علي التماس يقدم للأسقف أن يدعو اثنى عشر من الرجال والقانونيين من المناطق المجاورة أو المدينة التابع لها هؤلاء للقسم في حضور الأسقف (المحلفين) الذين يستطيعون التوصل إلى الحقيقة.

٧) لا يحق لأي شخص حرمان أي فرد من إتباع الملك، وعدم وضع احد منهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، إلا إذا عرض ذلك علي الملك سواء كان المحروم داخل المملكة أم خارجها، أما فيما يتعلق بحقوق المحكمة الكنسية فيجب إرساله إلى هناك لتسوية الأمور.

٨) وينظر في الالتماسات إذا استدعت الضرورة، حيث إن الالتماسات يجب أن تصدر من رئيس الشمامسة للأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة وتنظر القضية أمام محكمة الملك، وبناءً علي أمره يحسم النزاع في محكمة رئيس الأساقفة، ولا يجب اتخاذ إجراء آخر بدون إذن الملك.

٩) عند حدوث نزاع بين رجل دين وآخر علماني بخصوص أحد الأبنية، ما يرى رجل الدين أنه يتعلق بالممتلكات الكنسية، وفي المقابل يرى العلماني انه إقطاع دنيوي، حينئذ يتم تحكيم اثنى عشر رجلاً من العدول، ويحسم الأمر عن طريق القاضي الرئيسي الذي يصدر حكمه في القضية الرئيسة الخاصة بالبناء المتنازع علي ملكيته، وإذا رأى القاضي أن البناء خاص بممتلكات الكنيسة في هذه الحالة تستأنف القضية أمام محكمة الملك. وفي حالة عدم التحقق من ملكية الإقطاع أمام المحاكم العلمانية أو الكنسية فإن الذي يمتلك البناء في البداية لا يفقده حتى يتم إثبات ذلك من خلال الأستئناف (يبقى الحال علي ما هو عليه).

١٠) إذا تم استدعاء أي فرد يعمل في المدينة أو القلعة أو الضيعة الإقطاعية التابعة للسيد الملك، من الكنيسة متمثلة في رئيس الشمامسة أو الأسقف عن إهانة

اقترفها أو غير ذلك عليه الاستجابة فوراً، وإذا رفض يتم وضعه تحت طائلة عقوبة اللعنة وليس الحرمان الكنسي، حتى يقوم التابع الرئيسي للملك في التنفيذ، ويضع نفسه تحت رحمة عقوبة الملك الصارمة، ويكون من حق القاضي الملكي والأسقف زيارة المتهم.

١١) يطبق القانون الملكي علي رؤساء الأساقفة والأساقفة، وكل الأشخاص في المملكة الذين يحوزون أملاكاً بوصفهم من مستأجري أراضي الملك Tenants in cheif مثلهم مثل سائر البارونات عليهم الحضور لسماع أحكام الملك ، والالتزام بالحكم سواءً كان في صالحهم أم ضدهم.

١٢) للملك الحق في اختيار رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير عندما يصبح هذا المنصب شاغرا (التقليد العلماني في المناصب الكنسية) ويحصل الملك علي جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب الكنسية الشاغرة ، يقوم الملك باستدعاء أكثر رجال الدين نفوذاً في الكنيسة، ويتم الأنتخاب في كنيسة الملك وبموافقة رجال الدين في المملكة، يقدم رجال الدين فروض الولاء والطاعة لسيدهم الملك بوصفه سيدهم الإقطاعي الأعلى، ويتعهد رجال الدين بذلك قبل رسامتهم.

١٣) إذا أقدم أحد النبلاء في المملكة علي سلب اختصاصات رئيس الأساقفة أو أحد الأساقفة أو حتى رئيس الشمامسة، يقوم الملك برد الحق لأصحابه وإرغامه علي تنفيذ العدالة، وإذا ما تجرأ أحدهم علي انتهاك حق من حقوق الملك الأصلية ، يحق لرؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشمامسة إرغامه علي تقديم التعويض للملك حسب القانون.

١٤) الذين توقع عليهم عقوبة فقدان إقطاع الملك، لا يحتفظ هؤلاء بملكية الكنيسة أو المقبرة، لأن ممتلكاتهم صودرت وأصبحت من حق الملك، سواء كانوا داخل الكنائس أم خارجها.

١٥) تنظر الالتماسات الخاصة بالديون في دائرة اختصاص الملك وليس الكنيسة.

١٦) من المعروف أن رسامة الأشخاص من اختصاص الكنيسة ورجال الدين، ولكن الملك نهى عن ذلك، فلا يجب أن تتم رسامة أبناء الريفيين بدون موافقة سيد المنطقة التي ينتمون إليها لمعرفته بمواليد المنطقة وهو كذلك فصل إقطاعي للملك[٤٢].

من الواضح أن هذه البنود القانونية قضت علي كثير من الحصانات التي تمتع بها رجال الدين، وأدت إلى تفاقم النزاع بين الملك ورئيس أساقفته بيكت، الذي رفض التوقيع علي هذه القوانين المهينة، ورفض ختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى[٤٣].

وأرسل الملك هذا القانون للبابا الكسندر الثالث الذي رفض الموافقة عليه رغم صعوبة موقفه في فرنسا، ومن الواضح أن إصرار بيكت وعناده علي عدم التوقيع علي القانون يرجع إلى اتفاق مسبق بين البابا وبيكت علي عدم مراعاة أي وعد علماني من

شأنه الحط من حرية الكنيسة أو حقوق الأسقفية الكبرى.

وفي غضون ذلك، أجبر الملك هنري الثاني الحاضرين علي التوقيع علي قانون كلارندون، غير عابئ برفض رئيس الأساقفة، وقدمه إلى المحاكمة ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية، وجاء بيكت وعارض في هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك انه مذنب لخروجه علي قوانين سيده الإقطاعي الأعلى ملك البلاد، وأعلن بيكت من جانبه انه سيستأنف القضية أمام محكمة البابا ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التي لم يجرؤ أحد علي لمسها(٤٤).

وفي محاولة من جانب الملك لإذلال بيكت وتشويه سمعته طالبه بدفع ثلاثمائة جنيه إسترليني إيراد قلاع آي وبركهامستيد **Eye and Berkhamsted** أثناء عمله مستشاراً للملك، وخمسمائة جنيه إسترليني اقترضها من اليهود بضمان الملك، وإيرادات جميع الإقطاعيات التي بقيت شاغرة أثناء عمله مستشاراً للملك، مما دفع بيكت للهرب سراً إلى فرنسا(٤٥).

واستقبله البابا بترحاب وأعلن علي الفور إدانته ثانيةً لقانون كلارندون، وأعاد ترسيم بيكت رئيس أساقفة كانتربري، وألغى البابا العقوبات التي فرضها الملك علي رئيس الأساقفة في نورثهامبتون، وأعلن البابا إذا ظل الملك علي عناده حتى ١١٦٦م سوف يكون لبيكت مطلق الحرية في توقع العقوبات الكنسية عليه وعلي أتباعه الكنسيين(٤٦).

ونتيجة لعناد الملك قام البابا بتعيين بيكت في ابريل ١١٦٦م مبعوثاً بابوياً في مقاطعة كانتربري، وأصدر له تفويضاً بمعاقبة الذين اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربري، وإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد ما يقرب من ثلاثين من خصومه في انجلترا وعلي رأسهم رئيس أساقفة لندن وسالسبوري، ولذلك مال رجال الدين في انجلترا إلى التزامهم بطاعة مبعوث البابا بيكت، وأصبح وضع الملك صعباً بسبب فقدان ولاء رجال الدين، وعاد الملك ليؤكد من جديد للبابا أن قانون كلارندون لا يتضمن أي شيء من شأنه أن يؤدي للاستياء الحقيقي للأسقفية المقدسة(٤٧).

وباءت المفاوضات بين الملك من ناحية والبابا ورئيس الأساقفة والأساقفة من ناحية أخرى بالفشل، وخوفاً من وقوع المملكة تحت عقوبة اللعنة اتخذ الملك شروطاً صارمة تضاف إلى قانون كلارندون وهي :

١. يُعاقب بالخيانة العظمى للملك والمملكة كل من يحاول إحضار عقوبة اللعنة والحرمان الكنسي للمملكة سواء من البابا أم من رئيس الأساقفة.
٢. لو وافق أي شخص من أتباع الكنيسة أو حتى العلمانيين علي مثل هذه العقوبة، يتم نفيه هو وأقاربه من المملكة ويجردوا من مناصبهم وممتلكاتهم.
٣. من يثبت تعاطفه مع البابا أو رئيس الأساقفة بكتابة التماس أو غير ذلك يُعاقب كخائن للملك والمملكة، وعلي رجال الدين عدم مغادرة المملكة بدون إذن من الملك.

٤. من يثبت تردده علي البابا أو رئيس الأساقفة يُعرض ممتلكاته للضياع.

وأقسم الجميع علي مراعاة ذلك، وتم جمع بنس القديس بطرس للخزانة الملكية[٤٨].

وفي الرابع عشر من يونيه ١١٧٠م أقدم الملك علي تتويج ابنه هنري ملكاً نكاية في رئيس الأساقفة ، وطلب الملك تتويجه في كنيسة ويستمنستر علي يد روجر رئيس أساقفة يورك، وعلم البابا بالتتويج الوشيك فأرسل رسالة إلى روجر لمنع التتويج، إلا إذا قام الملك هنري الثاني بإلغاء قانون كلارندون[٤٩]. وقام البابا في التاسع من أكتوبر ١١٧٠م بإرسال عدد من رجال الدين لحثه علي تنفيذ وعده بإلغاء قانون كلارندون، وفوض البابا بيكت بأتخاذ ما يتراءى له في حالة عدم موافقة الملك[٥٠].

غير أنه تم اغتيال توماس بيكت في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١١٧٠م علي مذبح كاتدرائية كانتربري، وبعدها تم إصدار مرسوم من البابا بموافقة الملك يقضي ببطلان قسم الأساقفة في اجتماع كلارندون وأن التوقيع علي هذا القانون يعد باطلا ولاغيا[٥١].

من الواضح مع نهاية عهد الملك هنري الثاني بدأ انحسار الأمور القانونية الدينية، فبدأ بفصل الشئون الدينية للكنيسة عن الشئون الدنيوية للدولة، وهذا واضح من خلال عرض قانون كلارندون.

والدليل علي انحسار القانون الديني في عهد هنري الثاني وهو اختصاص المحاكم الكنسية في عهده بالدعاوي الدينية دون غيرها من الزندقة والحنث باليمين، ودعاوي تأديب رجال الدين، ودعاوي الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق في الكنيسة والمواريث وغير ذلك من الأمور التي ترتبط بالدين، ولذلك أصبح نظر تلك الدعاوي يدخل في اختصاص محكمة الأسقف بدلاً من محاكم المئات كما كان متبعاً من قبل [٥٢].

ومع اتساع لختصاص المحاكم الملكية التي تنظر في القضايا المدنية وأحيانا الكنسية، قابل ذلك عدم إقبال واضح من المواطنين علي السلطة القضائية في الكنيسة، وفضلوا التقاضي أمام محاكم الملك، الذي قام بتشكيل هيئة قضائية استئنافية لكل مقاطعة تسمى محكمة المفوضين[٥٣].ولعل هذا يدل على ضعف السلطة القضائية الكنسية في الانتقال التدريجي لاختصاصاتها إلى المحاكم الملكية، وأصبح اختصاصاتها في القضايا الجنائية والمدنية ضئيل.

قانون نورثامبتون Assize of Northampton ١١٧٦م:

أن تأثير كل من القانون الروماني والقانون الكنسي علي القانون الانجليزي قد توقف عن هذه المرحلة وعند ذلك الحد، واتسم هذا القانون الأخير في عهد هنري الثاني بعدة سمات من أهمها العدالة والإنصاف Equity التي سن لها الملك هنري الثاني قانوناً خاصاً.

ولم يكن هذا القانون له بنود مثل سابقيه، ولكنه مجموعة من القواعد القانونية والأحكام المنتقاة التي ذهبت بانجلترا إلى مصاف الدول الأوروبية في التطور الدستوري، وبذلك أصبحت أول دولة برلمانية في أوروبا، ومن هذه الأحكام والقواعد الإجرائية في

المحاكمات، وتعديل نظام التقاضي في المحاكم، وتوسيع نظام المحلفين في التقاضي، ووضع سلطة للقضاة الملكيين المتنقلين، ومحاولة إرساء العدالة عن طريق الأوامر الملكية والابتعاد عن محاكم السادة الإقطاعية غير العادلة إلى غير ذلك من القواعد القانونية المهمة(٥٤).

القواعد الإجرائية:

القانون الانجليزي في عهد الملك هنري الثاني تم التمييز فيه بين الدعاوي الخاصة والعامة، فالخاصة تتعلق بحقوق الأفراد القانونية سواء كانت مدنية أم جنائية، أما العامة فتتعلق بمصلحة الملك بصورة مباشرة سواءً بالجرائم الخطيرة المتعلقة بأمن الملك أم بالإيرادات العامة، وترفع الدعاوي الخاصة بطلبٍ من المدعي، أما العامة فيدعي فيها موظف ملكي للملك(٥٥).

وكانت المحاكمات في عهد هنري الثاني قد تطورت، فعند نظر أي قضية تُحدد الجلسة، ويحضر المُدعي والمدعي عليه، ويقوم المُدعي بعرض قضيته ويحلف يميناً علي صدق دعواه ويزكي اليمين بحضور عدد من الشهود لا تنصب شهادتهم علي صحة وقائع الدعوى كما ذكرها المدعي، بل علي صحة يمين المدعي لثقتهم فيه واشتهاره عندهم بالصدق والأمانة، ويستغني عن التزكية يمين المدعي بالشهود إذا توفرت دلائل دامغة علي صحة دعوى المُدعي كالدليل الكتابي في المسائل المدنية أو حالة التلبس في المسائل الجنائية. ثم يجيء دور المُدعي عليه، إذا أقر حكم المُدعي، وإن أنكر يحلف يميناً علي عدم أحقية المُدعي فيما يطلب، وفي هذه الحالة تلجأ المحكمة للإثبات علي طريق ما يلي: التزكية Compurgation من المُدعي عليه، والبينة، والمحنة أو الاختبار الإلهي Chaneary والتقاتل Battle (٥٦).

والتزكية هي أن يذكي المُدعي عليه بيمينه بإنكار الدعوى بعدد من الشهود – ضعف شهود المدعي عليه – يشهدون لا علي وقائع الدعوى ولكن علي ثقتهم في المدعي عليه حسب العرف القانوني، وعادة يكون المزكون اثني عشر شخصاً وقد يقل العدد إلى ثلاثة، ويزيد إلى اثنين وسبعين شخصاً(٥٧)، وقد يكون المزكون أقارب للمدعي عليه، وهم عادة يحلفون علي الكتاب المقدس أو أثر مقدس مهم بجله السكان في المقاطعات، وتختلف قيمة اليمين باختلاف صاحبه فاللورد يوزن أضعاف يمين الرجل الحر، ولا يمين لغير الأحرار(٥٨).

ووجدت فئة من الرجال تحترف التزكية، لا يردهم العقاب عن الحنث في اليمين مقابل المال. مما دعا إلا إنكار عمل هذه الفئة وتحريمها في بنود قانون كلارندون ١١٦٦م(٥٩).

وثاني طرق الإثبات البينة – شهادة الشهود– وهي شهادة علي صحة الوقائع التي يذكرها المُدعي والمدعي عليه، وشهادة الشهود من أدلة الإثبات الشكلية بمعنى أنه بمجرد قسم الشهود ثم النطق بالشهادة يُقيم أركانه، ولا سُلطة للمحكمة علي الشهود في

مناقشتهم أو وزن أقوالهم. وليس للمحكمة من سلطة في التقدير إلا إذا تعارضت أقـوال المدعي والمدعي عليه في واقعة واحدة، وفي هذه الحالة فقط يجوز للقاضي الملكـي أن يُقدر شهادة الشهود لكل طرف منهما علي حده للتوصل للحقيقة، وإظهار علي من تكون البينة[٦٠].

أما الإثبات الثالث فهو المحنة Ordeal أو الاختيار الإلهي، وهي إرادة إلهيـة لا تدخل للبشر فيها، وتصدر في كل قضية علي حدة، فالإدانة والبراءة كانت تحدد بتـدخل الآلهة إلي جانب البريء وضد الجاني، ولهذا تم اللجوء إلى الاختبارات القضائية الغيبية والتي يطلق عليها المحنة مؤمنين أن الإلهة ستقف إلى جانب العدل وكانت أكثـر تلـك الاختبارات شيوعاً واستخداما النار والماء والسم، فكان يطلب من المتهم لعـق حديـدة مُحماة فإذا ظهر به أثر النار كان كاذباً مذنباً، أو يُلزم بغمس يده في الماء المغلي لالتقاط قطعة حديد يُلقي بها في الإناء، أو يُلقي به في النهر مكبلاً بـالأغلال علـي اعتبـار أن الماء مقدس[٦١]. أو استعمال نظام البشعة ومفاده أن أهل القتيل إذا ما أعوزهم الـدليل، فإنهم يلجئون إلى المُبشع الذي يثبت ما إذا كان المتهم بريء أم مذنب، بإحماء إناء من النحاس علي النار ثم يطلب من المتهم أن يلعقه ثلاث مرات، ثم يرد للحاضرين فإذا وجد أن هناك أثر للنار علي لسانه حكم بإدانته، وإلا فيقضي ببراءته، أو أن يُطعم لقمة مـن الخبز عليها التعاويذ من قبل الكنيسة لتقف في حلقة[٦٢].

من الواضح أن سلطة تقدير الأدلة كانت رهناً بوسائل الغيب، ولكن كان ضـرورياً وجود جهاز قضائي يعتمد علي قواعد العقل والمنطق في دراسة الأدلة للحكـم بالعـدل علي الأفراد.

وإن كانت طريقة الحكم في المحنة تختلف باختلاف الجرم في عهد هنري الثـاني أو باختلاف شخصية المتهم. ففي جرائم ممارسة السحر والشعوذة، يُقذف بالساحر فـي النهر. أما المتهمون من المثقفين ورجال الدين – الهراطقة – فكانوا يُطعمـون اللقمـة المقدسة في ساحة الكنيسة، أو إشعال نار ضخمة ويُقذفون فيهـا أو يمـسكون قـضيباً محمياً من النار، أو يُغمس ذراعهم في ماء مغلي[٦٣].

وظل نظام المحنة مطبقاً فعلياً في أنجلترا حتـى ١٢١٥م عنـدما قـرر مجمـع اللاتيران Lateran بإدانته ومنع الأساقفة من المشاركة في إجراءاته[٦٤].

ورابع طرق الإثبات التقاتل – ادخله النورمان عند فتح انجلتـرا سـنة ١٠٦٦م– وفي عهد هنري الثاني أصبح من ركائز القانون الإقطاعي، فأصبحت المبـارزة وسـيلة إثبات رئيسة، وهي معركة حقيقية تتم أمام المحكمة وفق إجراءات معينة، والمنتصر هو صاحب الحق، فكان انتصار المتهم دليلاً علي براءته والعكس صـحيح، وجـوهر هـذه الطريقة هو وقوف عدالة السماء إلى جانب الحق، وتتبع المبارزة في دعاوي الأراضـي والدعاوي الجنائية، ولم يكن يسمح بالمبارزة إلا بين الرجال البـالغين الأقويـاء، أمـا النساء المسنون والأطفال والمعوقون فيحق لهم بموجب القانون أن ينيبوا أحدا عـنهم،

ومع مرور الزمن أصبح الشهود هم الذين يتبارزون من أجل إظهار الحق، فاستأجر الأغنياء الشهود الأكثر قوة لينالوا الحق بالقوة لا بالعدل[٦٥].

ومع مرور الوقت اتسع اختصاص المحاكم الملكية وبخاصة في تكاثر القضايا بإشكالها المختلفة أمام مجلس بلاط الملك، ونظرا لكثرة مشغوليات الملك وتعدد انتقالاته الخارجية تفرع مجلس البلاط إلى عدد من المحاكم المختصة وكانت كالتالي:

١- محكمة الطلبات العامة Court of Common Pleas :

اختصت هذه المحكمة بنظر المنازعات التي لا تتعلق بحق الملك، وهي الدعاوي المدنية ودعاوي الأراضي، وتتشكل هذه المحكمة من عدد من أعضاء مجلس البلاط وهم الشريف والمستشارون وأمين الخزانة العامة بالإضافة إلى كبار القساوسة وحكام المقاطعات[٦٦]، وقد انفصلت هذه المحكمة تماماً عن مجلس البلاط، في أواخر القرن الثاني عشر.

وكانت هذه المحكمة قبل انفصالها عن مجلس البلاط تنتقل مع الملك حيث يُقيم، ولما كثرت أعمالها عين لها رئيساً من القضاة Chief Justice واستقرت في العاصمة لندن بعد انفصالها واستقلالها[٦٧].

٢- محكمة منصة الملك Court of the King's Bench :

دعاوي هذه المحكمة تتعلق بمصلحة الملك ودعاوي الجرائم الماسة بـه، وهـذه كلها من الدعاوي العامة، وبالطعون التي تُرفع أمامها في أحكام المحاكم الدنيا، وفي بداية الأمر لم يكن تشكيل هذه المحكمة يختلف عن تشكيل مجلس البلاط، فمجلس البلاط ينظر في القضايا التي لم تخرج عن اختصاصه بعد. ولما درج الملك علي عدم حضور اجتماعات مجلس البلاط لأسباب مختلفة، وأصبحت محكمة منصة الملك تعقد جلساتها للنظر في الدعاوي المرفوعة إليها، مما أدى إلى تميزها عن مجلس البلاط من ناحية، والى عدم اعتبار حضور الملك جلساتها أمراً رئيسيا من ناحية أخرى. وكان يساعد هذه المحكمة الملكية لجنة من القضاة الملكيين Circuits[٦٨].

٣- محكمة بيت المال Court of Exchequer :

وقد تفرعت هذه المحكمة من ديوان الخزانة العامة أو ديوان بيت المال، وكان يتكون من عدد من أعضاء مجلس البلاط، فكانت تختص بكل ما يتعلق بالأحوال العامة من رقابة علي الإيرادات والمصروفات وضبطها، ودعوة شريف كل مقاطعة للحساب مرتين في العام[٦٩]، وقد استقل هذا الديوان من مجلس البلاط وأصبح له رئيسه الخاص به بدأ من ١٢٣٤م.

وكانت طبيعة عمل ديوان بيت المال تحتم عليه أن يفصل في المنازعات المتعلقة بحسابات الدولة، كمنازعات الضرائب وجباية الأموال وهي منازعات تقوم بين الملتزمين ودافعي الضرائب بشأن تقدير قيمة الضريبة وأصل استحقاقها.

وتميزت محكمة بيت المال ببساطة الإجراءات وتيسيرها التي كانت تتقيد بها المحاكم الأخرى. ولقد ابتدعت محكمة بيت المال مبادئ جديدة علي النظام القانوني في

عهد هنري الثاني، ومنها إلزام الخصم بتقديم دليل لديه ولو لم يكن في صالحه(٧٠).

ونظراً لسهولة إجراءات محكمة بيت المال ولجوئها إلى مبادئ العدل والإنصاف، فقد تحايل الأفراد علي عرض قضيتهم أمامها حتى ولو لم تكن القضايا متعلقة بالأموال الملكية، ويتم ذلك بأن يدعو أنهم مدينون بأموال عامة ويعجزون عن سدادها، وسميت هذه الدعوة المقدارة Quo Minus أي الدعوة المقدرة في حدود الدين المزعوم للخزانة العامة(٧١)، وتوسعت محكمة بيت المال حتى أصبحت تنظر أحياناً الدعاوي المدنية التي تدخل في اختصاص محكمة الطلبات العامة أو محكمة منصة الملك.

القضاة الملكيون المتنقلون Itinerant Justices :

هم قضاة يوفدهم الملك هنري الثاني للتفتيش علي الإدارة والمحاكم، وفي البداية كانت إقامتهم محددة في المحاكم الملكية في العاصمة الانجليزية لندن، بحيث تنظر فيما يدخل في اختصاصها علي قواعد قانونية، إلا انه كان لابد أن يمتد سيادة قضاء الدولة (القضاة الملكي) إلى كافة أنحاء انجلترا ومن هنا ظهرت فكرة نظام القضاة المتنقلين في كل أرجاء البلاد(٧٢).

ومع مرور الوقت أصبح الملك هنري الثاني يرسل مندوبين عنه للتفتيش علي المقاطعات تفتيشاً إدارياً ومالياً وقانونياً، وكانت لجان مندوبي الملك تدعو شريف المقاطعة وأعيانها وجميع رجالها الأحرار وزعماء المدن والقرى وتباشر في حضورهم الاختصاصات المنوطة بها، ومنها نظر المظالم والتفتيش علي المحاكم الأهلية لتطبيق القانون، وكانت أعلى سلطة في انجلترا في عهد هنري الثاني هو المجلس القضائي The Cariaregis (٧٣).

واعتاد الملك هنري الثاني علي إرسال قضاة متخصصين ليست لهم أي اختصاصات سوى القانونية فقط في الفصل في المنازعات، وانقسم هؤلاء القضاة إلى لجنتين في المملكة، واحدة تفصل في القضايا المدنية والأخرى في القضايا الجنائية التي يكون المتهمون فيها محتجزين رهن المحاكمة، وتسمى بلجنة الاستماع والحكم Commission of yet and terminer واللجنة الأخرى تنظر في الدعاوي الجنائية التي يكون المتهمون فيها محجوزين رهن المحاكمة، وهي التي أطلق عليها لجنة إخلاء السجون Commission of Goal Delivery(٧٤).

وظهر في عهد هنري الثاني "نظام قاضي الحيازة" المتنقل الذي حل بالتدريج محل اللجان القضائية، وكانت دعاوي الحيازة تدخل في اختصاص المحاكم الإقطاعية، التي تتبع وسائل الإثبات كالتقاتل، فاستحدث هنري الثاني نظام القاضي الملكي (فرد أو هيئة) تطوف البلاد للفصل في المنازعات المتعلقة بالحيازة. ويلجأ القاضي الملكي في إثبات الدعوى إلى أهل المقاطعة أو الاسترشاد برأي أربعة من الأعيان يجلسون إلى جواره في المحكمة، ومارسوا دورهم علي قدر كبير من الكفاءة والعدل، وكان يتم إرسال هؤلاء القضاة مرة واحدة كل عام، وعرفوا باسم قضاة الشرع Justices in Assize (٧٥).

نظام المحلفين في انجلترا Jury :

كلمة محلف مشتقة من الحلف باليمين، لأن المحلفين يقسمون علي أن يؤدوا مهمتهم بالأمانة والحياد التام [٧٦]، ويعد من النظم التي تميز بها القانون الانجليزي وبنية هذا النظام أن يجلس في هيئة المحكمة مع القضاة عدد من المواطنين بتطبيق حكم القانون في الوقائع حسبما انتهى إليها المحلفون[٧٧].

ويرى بعض المؤرخين أن أصل هذا النظام يرجع إلى النورمان، حيث رأى الفاتحون النورمان أن عليهم إشراك الأهالي في تمحيص وقائع الدعوى، واتخذ النظام طريقا أفضل من الطرق البدائية المتبعة لدى الانجلوسكسون والغالب أن هذا النظام يرجع أصله إلى لعام ٨٢٩م حين أمر الإمبراطور لويس التقي(٨١٤-٨٤٠) Louis le Pieux ألا تثبت حقوق الملكية إلا بإقرار من جيران موثوق بهم بعد أن يحلفوا اليمين، ويعتقد بعضهم أن أصله انجلوسكسوني وضعه الملك اثلرد[٧٨].

في حين يؤكد المؤرخ ستبس أن نظام المحلفين أصله نورماني ويرجع بالتحديد إلى عهد الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م) في محاولة منه لتحسين الوضع القانوني في انجلترا، فادخل نظام الاستجواب الفرنجي وكلف القضاة أن يستخدموه في الدعاوي التي تخص المقاطعات في البداية مثل الضرائب والأراضي الملكية، ثم أصبح اللجوء إلى هذا الاستجواب امتيازا يمنحه الملك لمن يشاء وغالبا بمقابل مادي، ثم استخدم في فض المنازعات بين كبار البارونات، وخولت محاكم المقاطعات حتى استجوب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة، وكانت شهادتهم من عوامل الحسم في القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية، وفي إطار إصلاحات هنري الثاني القضائية استخدم نظام المحلفين – صار أساس العملية القانونية في انجلترا – في القضايا المدنية[٧٩].

أما الدعاوي الجنائية فيرجع تاريخ نظام المحلفين فيها إلى قرار قانون كلارندون سنة ١١٦٦م، الذي أوجب أن تنتخب كل مقاطعة اثنى عشر في كل إقليم، فيها أربعة من كل قرية يحلفون علي إخبار القضاة المتنقلين، عن كل ما ارتكب من جريمة قتل أو سرقة أو نهب أو إيواء مجرمين، ويحاكم المتهمون أمام الشريف في حالة غياب القضاة المتنقلين وبمرور الوقت انتقل الاختصاص الجنائي من الشريف إلى قضاة الأمن[٨٠]، وأصبح هؤلاء القضاة يطلبون من الشريف اختيار اثنى عشر من المشهور عنهم بالصدق يقومون بالفصل ما إذا كان الشخص مذنباً أمر بريئاً[٨١].

ولقد مكن ذلك الملك هنري الثاني من تنظيم إجراءات الإثبات ومبادئه، وقام المحلفون بالحكم في الدعاوي المدنية والجنائية، وهو نظام يترك تقدير الأدلة لسلطة المحلفين طبقا لقناعتهم[٨٢]، وإن كان القانون الفرنسي المعاصر للانجليزي في عهد الملك هنري الثاني قد أنعش الأدلة القانونية، فأصبح الاتهام من شأنه أن يؤدي مباشرة إلى إدانة الشخص، كما أن شهادة شخصين علي المتهم دليل علي إدانته.

وامتد نظام المحلفين ليشمل اكتشاف الجرائم والمجرمين إلى جانب المسائل المدنية، وكان المحلفون في الأصل يقضون بما يعلمون، وتتكون هيئة المحلفين من اثنى

عشر محلفاً ويجب أن يصدروا حكمهم بالإجماع، ثم أدخلت تعديلات علي نظام المحلفين فأصبح لا يشترط الإجماع واكتفوا أن يصدر القرار بموافقة عشرة فقط من العدول الانجليز[٨٣].

وأكد المؤرخون علي أن عنصر جماعة المحلفين Local Juries هم الفئة المختارة من أعيان انجلترا والمقيمون فيها، والعارفون لجميع المواطنون والملمون بالقانون العام، ويستعين بهم القضاة المتجولون في تحقيق الجنايات والدعاوي ومعرفة أسرار الأمن ومخالفي القانون من اللصوص والأشرار وقطاع الطرق، والتبليغ عنهم وتقديمهم للمحاكمة، وبذلك أحل هنري الثاني نظام المحلفين محل النظم البدائية الشائعة وقتذاك في تحقيق الجنايات والدعاوي المدنية، كامتحان المدعي عليه بالنار أو الماء الساخن أو البارد أو تأدية اليمين علي من أنكر، والاحتكام إلى السيف، وغير ذلك من الوسائل التي اعتمدت علي القضاء والقدر للوصول إلى الحق[٨٤]، واقتضى نظام المحلفين أن ترسل كل مدينة أربعة رجال من أبنائها وكل مائة مزرعة اثنى عشر رجلا للمثول أمام الشريف للتبليغ – بعد أداء القسم – عمن ارتكب جريمة قتل أو سرقة في دائرتهم. ثم يدعي المتهم فوراً أمام المحكمة بحضور المحلفين، وتجري الاختبارات البدائية السابقة الذكر، فإن دلت علي براءته وأصر المحلفون علي إدانته، اخذ هنري الثاني بوجهة نظر المحلفين وأمر بنفي المتهم[٨٥].

وكانت المحاكم المألوفة عند الانجليز وسائر القبائل الجرمانية ادعاء ودفاعاً بين المدعي والمدعي عليه أمام القضاة، وكان الحكم يبني إما علي الشهادة أو الامتحان التعذيبي أو علي الامتحان في القتال، ولكي يُنجي هنري الثاني ملاك الأراضي الأحرار من خطر المجازفة في هذه الامتحانات، قرر أن تبنى الأحكام علي الحقائق فجرى ذلك أولا: في الدعاوي المدنية ثم في الدعاوي الجنائية، وذلك كان بداية المحكمة التي تدعي الآن مجلس المحلفين، وأما كيف نشأت طريقة المحاكم فمسألة مختلف عليها، ولم يستنبطها هنري الثاني ولكن أجراها وعممها في القضاء الانجليزي[٨٦].

وكانت محكمة المحلفين في عهد هنري الثاني نوعين:

أولا: محلفو التحقيق في القضايا المدنية :

مثال: إذا نازع زيد قطعة ارض لعمر تجري المقاضاة هكذا: يستحصل عمر من المجلس القضائي علي أمر بإيقاف كل عمل شرعي، وأما زيد فينتدب أربعة فرسان محلفين من مقاطعته وهؤلاء ينتدبون اثنى عشر فارساً محلفين آخرين ينظرون في ما إذا كانت الأرض له أو لعمر، ويؤيدون رأيهم بالإيمان الصادقة، وحينئذ يمثل كل من زيد وعمر أمام المحلفين الستة عشر لدى القضاة، حالما يتفق القضاة علي أحد وجهي القضية يصدرون حكمهم، وإذا تعذر اتفاق المحلفين الستة عشر يُنتخب محلفون آخرون[٨٧].

ثانيا: المحلفون العظماء:

كان المتقاضون يلجئون إليهم في القضايا الجنائية وهؤلاء ينتخبون محلفي

التحقيق، وكان عددهم محدوداً كعدد هؤلاء - ستة عشر أو علي الغالب اثنى عشر - وكانوا شهوداً محلفين يشهدون بما يعلمون من حقائق القضية. وكانوا يختلفون عن المحلفين في الوقت الحاضر بأنهم لا يصدرون حكماً. وظلت الأحكام وقتاً طويلاً تبنى علي نتائج الامتحانات التعذيبية، وفي أول الأمر كان الشريف (أي رئيس محكمة الولاية الثاني) هو الذي ينتخب المحلفين، ولكن بعد ذلك صارت المحكمة الجزئية تنتخبهم، لأنها تعد ممثلة للمقاطعة كلها، فلهذا هي أحق بانتخابهم، ولا يخفي أن من شروط الانتخاب أن يكون المحلفون من جيران المتداعي(٨٨).

وهكذا أصبح المبدأ الانتخابي هو السائد، وشمل أنواع الحكم الانجليزي من قضاة وغيرهم، فالمحلفون تنتخبهم المحاكم الجزئية المؤلفة من نواب ينتخبهم الشعب.

وسرعان ما ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إلى عدالته مع قلة تكاليفه، وبذلك وضعت أسس القانون العام الانجليزي، ولقد تطور نظام المحلفين، فيجلس اثنا عشر رجلاً في منصتهم جنباً إلى جنب مع أعضاء المحكمة العادية، ويصدرون رأيهم في القضية سراً قبل أن يعلن رئيس المحكمة حكمه(٨٩).

الأوامر الملكية Writs :

بدأ الملك هنري الثاني حقيقة نسج الموارد الحكومية في انجلترا لتكون قوة موحدة، ويبرز هذا بوضوح أكثر في مجال العدالة، فقد كان إرساء العدالة هو الواجب الأول المتوقع من المحاكم في القرن الثاني عشر. ولم يشهد عهد هنري الثاني جهداً كبيراً للتحقيق في الجرائم والسيطرة عليها فحسب، ولكنه شهد أيضا سعياً حثيثاً لكي يقدم للمجنى عليهم وسيلة سريعة وفعالة لتعويضهم، وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال الأوامر القضائية، وهي عبارة عن خطابات رسمية باسم الملك توضح الإجراءات التي يتم اتخاذها بمقتضى القانون لتصحيح الأخطاء التي كان الأفراد قد شكوا منها(٩٠).

واستعانت المحاكم الملكية في بسط سلطانها وتحقيق سيادتها علي كافة أنحاء المملكة بوسيلة هذه الأوامر الملكية، وكان الملك هو رأس السلطة القضائية في المملكة، فالشخص الذي يتعدى علي حقه يقدم تظلمه للملك، أو حكم عليه في محكمة دنيا، يصدر الملك أوامره للمحكمة الدنيا يبين فيها موضوع الطلب وما يجب علي المحكمة عمله، وبهذا الأمر تنشأ دعوى جديدة تمثل سابقة قضائية علي المحاكم ويجب الأخذ بها في المستقبل، ونظراً لكثرة التظلمات أصبح مستشار الملك هو الذي يصدر هذه الأوامر ويختمها بخاتم الملك(٩١).

وعندما يتعلق الأمر الملكي بموضوع الدعوى كان يأمر الملك المحكمة أن تجيب الشاكي إلى طلبه، وقد يتعلق الأمر بالإجراءات القضائية الخاصة بإرسال ملف الدعوى أو إحالة الدعوى إلى المحكمة الملكية أو الرد علي التظلمات وفحصها بدقة، وكل ذلك كان من اختصاص محكمة الملك بعد الاطلاع علي الأوامر الملكية(٩٢).

وثمة نوع آخر من الأوامر الملكية القضائية، مثلاً، كان علي شكل خطاب موجه إلى المقاطعة يأمره إذا رأى أن رجلاً قد أساء لآخر عمداً بالاستيلاء علي أرضه أو

بضاعته أو اتهامه زورا، بأن يتخذ الخطوات اللازمة لتعويضه، أو يحضر إلى بلاط الملك ليشرح السبب في عدم قيامه بذلك، وكل ما كان علي كتبة الملك أن يقوموا به، إذا اشتكى رجل من ضرر لحق به هو أن يسجلوا اسمه علي الأمر الملكي القضائي المناسب ويرسلوه إلي الموظف المختص. وكان الملك يرسل القضاة من بلاطه بانتظام إلى المقاطعات لتتناول القضايا المرفوعة بهذا الشكل، ولكي يحكموا فيها باسمه. وعندما كانت الضرورة توجب تأكيد حقائق القضية، كانت الأوامر الملكية القضائية تطلب من حكام المقاطعات ممن يعرفون الحقيقة أن يحضروا أمام القضاة للإدلاء بها(٩٣).

كان مستشارو الملك هنري من الرجال القانونيين، إذ أبدوا من خلال ممارستهم روح المدارس القانونية السائدة آنذاك، وكانت الأوامر الملكية القضائية لديهم تصنيف الأخطاء الواجب تصحيحها بيد الملك، والتفريق بين الضرر الواقع علي الأفراد أو الممتلكات والأضرار بالسمعة الطيبة وتقديم الوسيلة المناسبة للتعويض في كل الحالات(٩٤).

وبمرور الزمن قننت الأوامر الملكية وأصبح هناك قياس علي الأوامر الملكية السابقة. وبسبب كثرة الأوامر الملكية تم صدر "قانون ويستمنستر" سنة ١٢٨٥م حظر بمقتضاه إصدار أوامر جديدة وقضي بالقياس علي الموجود. ومن ثم زاد عدد المتقاضين الساعين إلي تحقيق العدالة بشكل أساسي مما كان متاحا قبل ذلك. وخاصة بين أبناء الطبقات الدنيا أي المستأجرين في غير الضياع الملكية، وهكذا بدأت السلطة الملكية تصبح شيئا ذا معنى بالنسبة لقطاع من الناس أكبر من ذي قبل، حينما كانت الحماية التي وفرها الملك من خلال الأوامر الملكية والقضائية في محاكمة بدأت تشكل قانوناً عاماً للبلاد كلها(٩٥).

قانون حمل السلاح لسنة ١١٨١م Assisa de Armis :

أصدر الملك هنري الثاني قانون السلاح في العقد الأخير من فترة حكمه، وبمقتضاه يسمح به لرجال الدين الأحرار في المملكة من جميع الطبقات إحراز السلاح وحمله للدفاع عن البلاد، وخاصة وأن الأخطار قد أحاطت بها من الداخل في ثورات أولاده عليه أو من الخارج من ملوك فرنسا، وأمر الملك نوابه في كل المقاطعات بجمع أولئك المسلحين في عاصمة الإقليم ثلاثة أو أربعة مرات سنويا لتدريبهم وإعدادهم إعدادا عسكرياً قوياً ليكونوا في أهبة الاستعداد لمساعدة الملك(٩٦).

وأهم بنود هذا القانون الاثنى عشر هي:

١- يحق للفرسان الحائزين علي الإقطاع امتلاك الأسلحة من خوذة ودرع وترس ورمح، ويحق لهم ملكية هذه الأدوات كل حسب سعة الإقطاع الذي يملكه، فكلما زاد الإقطاع كان من حق الفارس زيادة حيازته من الأدوات الحربية.

٢- من حق كل رجل حر لديه ممتلكات منقولة أو إيجار ستة عشر مارك أن يمتلك خوذة ودرع ورمح، وأن كان لديه منقولات اقل أو إيجار يبلغ عشر ماركات يملك غطاءً للرأس ورمحا وخنجراً فقط.

٣- يسمح لكل الأحرار في المملكة في امتلاك صدرة واقية وغطاء للرأس ورمح.

٤- يجب أن يقسم كل رجل حر في المملكة قبل عيد القديسة هيلاري St. Hilary علي أن يمتلك الأسلحة السابقة كل حسب وضعه ويكونون في خدمة الملك إخلاصاً وولاءً لشخصه والمملكة. ولا يحق لهؤلاء الذين يملكوا تلك الأسلحة أن يبيعوها أو يرهنوها أو إهدائها لأحد المقربين لهم، كما لا يحق لأي سيد إقطاعي مهما كانت سلطته أن يحرم رجاله الأحرار من امتلاك تلك الأسلحة، التي ترفع من شأن الملك والمملكة في مواجهة الأعداء.

٥- إذا توفى أحد حائزي هذه الأسلحة يحصل الوريث عليها كاملةً وان كان دون السن القانوني - أي غير مؤهل لاستخدامها - حينئذ يتعين علي الوصي لهذا الوريث أن يكون وصياً علي أسلحته أيضا، حتى يبلغ السن القانونية ويستخدمها في مصلحة الملك والمملكة.

٦- وحدد قانون الملك هنري نوع الأسلحة وعددها التي يمتلكها كل رجل حر، وغير مسموح بموجب هذا القانون أن يمتلك أسلحة أكثر من المسموح بها، وإذا حدث وامتلك أكثر فعليه أن يقوم ببيعها للأشخاص الذين حددهم الملك وهم الأحرار، أو منحها لأي رجل يحتفظ بها لخدمة سيده الملك.

٧- لا يجوز لأي يهودي أن يمتلك درعاً أو سيفاً وإذا أحدث فعليه التخلص منها فوراً، لأي شخص بحيث تبقى في خدمة الملك، وذلك لأنهم ملكية خاصة للملك.

٨- لا يُسمح لأي شخص مهما كان بحمل السلاح خارج المملكة إلا بأمر مباشر من الملك، وكذلك لا يجوز لأي فرد أن يبيع الأسلحة لشخص يستخدمها خارج المملكة، ومن يفعل ذلك يُعرض نفسه للمساءلة.

٩- يتعين علي القضاة حسب القانون أن يجعلوا البارونات والفرسان وكبار الإقطاعيين أن يقسموا بإعطاء أسماء كل الرجال الأحرار في مقاطعتهم، ممن يمتلكون دخل ستة عشر مارك سواء إيجار أو أملاك أو ما قيمته عشرة ماركات، ويقوم القضاء بتسجيل أسماء الذين اقسموا في السجلات الملكية Close Rolls، ويتلى عليهم بنود قانون السلاح، ويقسمون علي الحصول علي تلك الأسلحة طبقاً لقيمة الممتلكات الشخصية لهم، وتكون رهن خدمة الملك والمملكة، وإذا تصادف عدم وجود احد الأشخاص المتملكين لهذه الأسلحة داخل المملكة أثناء وجود القضاة، يحدد له القضاة ميعادا أخر للمثول أمامهم للقسم، وإذا تخلف للمرة الثالثة فيحدد مكان معلوم في مدينة وستمنستر ووقت معلوم في الثامن من عيد القديس مخائيل St. Michael للقسم، حتى يحوز الأسلحة قبل عيد القديسة هيلاري، وإلا سيُعرض حياته وممتلكاته للخطر.

١٠- علي القضاة أن يعلنوا في كل أنحاء المملكة بأن كل الذين لا يملكون الأسلحة طبقاً للشروط سالفة الذكر، فإن الملك سوف يأمر بالقبض عليهم، وسوف يعرضون أنفسهم للقتل أو مصادرة أراضيهم ومنقولاتهم.

١١- لا يجب أن يقسم أحد في المملكة مهما كانت مكانته نيابة عن رجل حـراً آخر وأعظم سيد إقطاعي من الذين يملكون الستة عشر ماركاً أو حتى العشرة ماركـات سواء إيجار أو ملكية.

١٢- يتعين على القضاة بأمر من الملك أن يصدروا الأوامر فـي كـل أنحـاء المملكة بأن لا يُسمح لأي شخص إذا كان حريصاً علي حياته وممتلكاته، بأنه لا يحق له شراء سفينة أو بيعها لأعداء المملكة في الداخل والخارج أو تصدير الألـواح الخشبية الخاصة بها خارج المملكة، ومن يخالف يعارض نفسه لعقوبات مملكة قاسية(٩٧).

وفي النهاية يأمر الملك بعدم قبول القسم على قـانون الـسلاح إلا مـن الرجـال الأحرار فقط.

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان ضرورةً عسكرية ملحة، فعلى المستوى الداخلي كانت هناك شحناء دائمة بين الملك هنري وزوجته اليانور - وضعها في عزلـة زهـاء ستة عشر عاماً - التي دائما كانت تحرض أولادها ضده، حتى أن الملك ريتشارد اكبـر أولاده لم يتورع عن التحالف مع الملك الفرنسي ضد والده، والخطر الخارجي يتمثل في أسرة آل كابية في فرنسا التي تنتظر أي فرصة للانقضاض على الملك والمملكة.

وأدرك الملك هنري الثاني تماما أن النظام الإقطاعي في تكوين الجيش لا يتناسب مع هذا العصر لأنه بموجب هذا النظام كان على الأفصال أن يخدموا في جـيش الملـك أربعين يوماً فقط في السنة، وهو الأمر الذي لم يجد الملك هنري له حلا فـي الحمـلات العسكرية الطويلة ضد أعدائه من ملوك فرنسا. وأمر الملـك هنـري الثـاني الـسماح للأفصال بإرسال الفرسان للخدمة في الجيش الملكي الإقطاعي لقاء مبلغاً يـتم تقـديره حسب حجم إقطاع الفصل، وعُرف هذا النظام باسم البدلية أو الاسكوتاج Scutage (٩٨).

وأصبح النظام الإقطاعي الذي كرهه هنري الثاني ومحاكمـه إلـى زوال، فكـان للمحاكم الإقطاعية اختصاص عام في منازعات الأراضي التي تنشب بين أواسط الحائزين وصغارهم ونوع من الاختصاص الجنائي الذي كان يُعد منحة من الملك، أما المنازعـات المدنية ومنازعات الأراضي بين كبار حائزي أرض الملك، وكذلك الجرائم التي تمس أمن الملك تدخل في اختصاص المحاكم الملكية، وانتشر أمر هذه المحاكم الملكية وطغى علي المحاكم الإقطاعية حتى تلاشت، وأصبحت المحاكم الملكية في عهد هنري الثـاني لهـا السيادة(٩٩).

ويرجع السبب في كراهية المواطنين للمحاكم الإقطاعية إلى تحيزها وعدم تحـري الدقة والعدل في أحكامها، وفي تخلف إجراءاتها البالية، ولجوئها إلى الوسائل البدائيـة، وقصور مبادئها القانونية التي تطبق على المجتمع، وقد تقلص اختصاص هذه المحـاكم الإقطاعية في عهد الملك هنري الثاني، وخاصة بعد إدخالـه أمـر الإحقـاق Writ of Right في المحاكمات وهو أمر ملكي يوجه من الملك إلى المحكمة الإقطاعيـة إذا لـم يسبقها أمر الإحقاق(١٠٠).

فقد كان أمر الإحقاق هو أول خطوة في الابتعاد عن المحاكم الإقطاعيــة، وكانــت الخطوة الثانية هي نظام المُحلفين بدلاً عن المحنة، التقاتل، وفــي هــذه الحالــة تحال الدعوى وجوباً إلى المحاكم الملكية لنظرها، أما الثالثة هم قضاة الشرع وهم ملكيــون، ويطلق عليهم القضاة المتنقلين الملكيين، وكانت مهمتهم الفصل في المنازعات التي من اختصاص المحاكم الإقطاعية(١٠١).

وكان هناك بديل آخر أمام الملك هنري الثاني وهو الاستعانة بالمرتزقة واثبت هذا النظام فشله، وكرهه الانجليز كراهية شديدة بسبب معاناتهم منه، عنــدما احــل الملــك ستيفن (١١٣٥-١١٥٤م) المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، وخاضت الــبلاد حروبــاً إقطاعية طاحنة استمرت عشرين عاماً دمرت وخربت الأراضي الزراعة وإصابتها حالــة من الركود، وانتشرت المجاعات والأوبئة المدمرة بين الفلاحين، وهذه الحــروب تعنــي ضياع الإيرادات وخسارتها وتكررت هذه الأفكار والمبادئ الفوضوية في عهــد هنــري الثاني ١١٧٤م في حروبه مع أولاده(١٠٢).

ولم يكن أمام الملك هنري الثاني بديلاً عسكرياً سواء لإحيــاء النظــام القــانوني الانجلوسكسوني القديم Fyrd أم المقاومة الشعبية إلا من خلال إصدار قــانون الــسلاح ١١٨١م، الذي بمقتضاه يسمح ولكل الرجال الأحرار في المملكة بحمل السلاح والــدفاع عن المملكة ضد أي خطر في الداخل أو الخارج، وذلك عــن طريــق إعــدادهم إعــدادا عسكرياً ليكونوا عوضاً له عن الجيش النظامي(١٠٣).

قانون الإنصاف Law of Equity :

سن الملك هنري الثاني هذا القانون لاعتبارات إنسانية ولرفع الظلم عــن كاهــل المواطنين وتطبيق ما يسمى بروح القانون، وخاصة بعد ظهور العديد من حالات الظلــم الصارخ، ويبدو فيها تقيد القضاء بالمبادئ القانونية علي حساب المصالح الاجتماعيــة، وتطبيق قانون الشريعة العامة وأحكام محاكمها، لذلك كثرت الشكاوى والتظلمــات التــي تقدم إلى الملك لرفع الظلم، فكون الملك محكمة المستشارية Chancery Court للنظر في تظلمات المواطنين، وحكمها يبني علي اعتبارات العدالــة ولــيس علــي الــسوابق القانونية والقضائية التي تقيد المحاكم الملكية، وأصبح بجانب قانون الــشريعة العامــة قانون يسمى قانون الإنصافEquity Law وابتدع مبادئ قانونية طورت مــن النظــام القانوني الانجليزي(١٠٤).

ولقد أنشا في البداية مكتباً للمستشار Chancellor office سواء ملكي أم لأحد الأمراء، يمثل ذلك المكتب النواة الأساسية لظهور المحكمــة المستــشارية التــي كــان المستشار فيها هو رأس القضاء فكانت عادة الملوك والأمراء أن يتخذوا لهم مستــشاراً يكون عمله الأساسي صياغة الوثائق كالمواثيق والمراسلات الدبلوماســية كالخطابــات والمعاهدات وغير ذلك، وتمهر هذه الوثائق بخاتم الملــك ثــم يعهــد بهــا للمستــشار لحفظها(١٠٥).

وكان الملك ادوارد المعترف (١٠٤٣-١٠٦٦م) أول من اتخذ لنفسه مستــشارا،

وأول من اصطنع خاتماً وكان يتحتم علي الملك اختيار أفضل من تلقى قدراً عالياً من العلم والثقافة، لذلك اختار رجال الدين والقساوسة فهم أفضل علماً وجمعوا بين العلوم الدينية ودراسة القانون ، فكان المستشار الأمين الأول لسر الملك، والقائم علي الأحكام القضائية ويتمتع بنفوذ هائل في البلاد(١٠٦).

ومع اختفاء وظيفة قاضي القضاة حل محلها المستشار الذي أصبح بالفعل هو الذي يشرف علي العمل القضائي في المملكة كلها، فكانت تخرج من تحت يده الأوامر الملكية Writs التي توجه مباشرة إلى محكمة شريف المقاطعة أو أتباعه الإقطاعيين الذين يقومون بالفصل في أي نزاع مدني أو جنائي، ولعبت هذه الأوامر الملكية دوراً مهماً في تطور التقاضي أمام المحاكم الملكية، وكانت هذه الأوامر الملكية تكتب بواسطة المستشار وأتباعه وتختم بدون مراجعة من الملك، بخاتمه، فأصبح المستشار من الناحية القانونية هو الشخص الأول في انجلترا ويمارس عمله باستقلال تام دون تدخل من أحد(١٠٧).

وأصبح المستشار الملكي في عهد هنري الثاني يمثل حلقة الوصل بين محاكم الشريف العامة التي كان لها وجود مستقل عن الإدارة المركزية القضائية وبين مجلس البلاط الملكي، فكان المستشار هو أمين سر الملك وناصحه الأمين، وبالتالي أصبح أكثر الأعضاء في مجلس البلاط أهمية، وبخاصة أن الأوامر الملكية كانت تخرج من تحت يده، فأصبح علي صلة وثيقة بمحاكم الشريعة العامة(١٠٨).

وفي نهاية عهد الملك هنري الثاني تحول هذا الجهاز القضائي وعلي رأسه المستشار إلى محكمة قضائية تفصل في المنازعات وليس مجرد جهاز قضائي يصوغ الأوامر الكتابية، وسار العمل في القضايا التي يكون فيها أحد موظفي جهاز المستشار طرفاً في القضية يفصل فيها بنفسه، ثم أضيف اختصاص قضائي آخر للجهاز وهو النظر في القضايا التي ترفع ضد الملك(١٠٩)، وكان علي المستشار أن يطبق القانون العام أو قواعد الشريعة العامة في أحكامه القضائية.

وبعد دخول نظام المحلفين في القانون العام الانجليزي أدخلها المستشار علي جهازه، وأصبحت من الأنظمة المهمة للفصل بين وقائع الدعاوى المختلفة ولقد كان الرأي الأخير في الفصل في القضايا يرجع إلى هذا المستشار نفسه ليطبق الحكم والقانون(١١٠).

لقد كانت أحكام الشريعة العامة الانجليزية جامدة وتطبق كما هي ، ولم تعدم نهائيا وسائل إكسابها طابع المرونة ولكن في حدود ضيقة، فقد كفلت الصلة بين المحاكم الملكية وبخاصة محكمة منصة الملك وبين مجلس البلاط تحقيق بعض المرونة لتكون هناك روح للقانون يطبق علي من يرى القاضي أنه مظلوم فيرفع الظلم عنه، ولا يطبق نص الشريعة العامة وإن كانت هناك أوامر ملكية تصدر لقضاة بذلك لتحقيق مبادئ العدل(١١١).

وكانت الطبقات الفقيرة هي التي يقع عليها الظلم، ومن الصعب رفع هذا الظلم

بسبب التكلفة المادية، فكان علي الفقراء أن يستصدروا دعوة من محكمة الشريعة العامة ويدفعون مبلغ كبيراً استصدار إعلان للدعوى المرفوعة أمام القضاء، ويمكن للمحكمة قبوله أو رفضه، فكانت العملية صعبة لذلك لجأ هؤلاء المعدمون إلى المحكمة الملكية يطلبون إنصافهم لا علي أساس قواعد الشريعة والقانون، ولكن علي أساس العدل لرفع الظلم، ومن ثم تقدم الالتماسات مباشرة إلى الملك أو مجلس الملك(١١٢).

وأصبح المستشار بعد ذلك هو الذي ينظر في الالتماسات مكان الملك وكانت تذهب له من مجلس الملك وخاصة أن المستشار كان أحد أعضاء المجلس الملكي البارزين، ثم أصبح بعد ذلك المستشار هو صاحب الحل والعقد فيها وحده وبدون الرجوع إلى الملك(١١٣).

ولقد تجاوزت المحكمة المستشارية القائم علي رأسها المستشار الملكي أحكام الشريعة العامة، وأصدرت أحكاماً تتفق ومبادئ العدل، وقضائها يتسم بالغموض أحياناً لاعتياد المستشارين أن يصدروا في أحكامهم بوازع من الضمير، متأثرين بالقانون الكنسي، فاهتموا برفع الظلم أكثر من اهتمامهم بتشريع القوانين، وأدى ذلك إلى ظهور نظم ومبادئ تشريعية جديدة(١١٤).

مثال ذلك اشترط تكاليف مؤيده علي مشتري الأرض مثال: يبيع الشخص أرضه ويشترط علي المشتري أن يحتفظ البائع بغلتها مدى حياته، أو تخصص لورثته أو للغير، فكانت محاكم الشريعة العامة تحكم البيع وانتقال الملكية من البائع إلي المشتري مع بطلان الشرط وإعفاء المشتري من تنفيذه، وكان هذا البيع شائعا في انجلترا بقوة وبخاصة مع خروج الحملات الصليبية من انجلترا، فكان المواطنون يبيعون أراضيهم قبل التوجه للأراضي المقدسة، ويشترطون علي المشتري أن يخصص ريعها لهم في حال حياتهم إذا عادوا من الحرب، ولورثتهم أو للكنيسة إن قتلوا في الحرب، وهذا النظام يشبه الوقف، يقتصر حق المالك فيه علي مجرد الإدارة، وكان المالك يسمى المؤتمن Owner in trust ومنها جاء نظام الترست Trust الانجليزي(١١٥).

واتبعت محكمة المستشار نظام التنفيذ العيني للالتزام إذا كان التعويض عن الإخلال بالالتزام أو التعهد فلا يقوم مقام الوفاء به عيناً، إذا كان مبدأ التنفيذ العيني الجبري غير معروف في الشريعة العامة، وفي الوقت الذي كانت هذه المحاكم لا تملك الحكم بالأمر بالامتناع عن فعل معين سيجلب ضرراً محققاً كل ما تفعله محكمة المستشارين هي أن تأمر هذا الشخص بالامتناع عن الفعل لأنه سيلحق ضرراً بالآخرين، وحتى يكون الالتزام ملزماً للمدين فلابد من سبب قانوني(١١٦)، لو تعهد شخص بمبلغ قرض لم يحصل عليه فهو تعهد ملزم له أمام محاكم الإنصاف وليس أمام محاكم الشريعة ، وكذلك لو تعهد شخص بدفع ثمن بضاعة وثبت انه لم يتسلم الشيء المباع في محكمة المستشارية كأن شيئا لم يكن، أما في الشريعة العامة تدفع المبلغ الذي تعهد به رغم انه لم يتسلم البضاعة.

ومن الواضح أن المحكمة المستشارية كان لابد أن يطلق عليها محكمة الإنصاف

لأن أحكامها كانت تتميز بالعدل والإنصاف وروح القانون حتى أنها اعترفت باستقلال الزوجة ومن حقها التصرف في أموالها بحرية تامة، في حين أطلقت الشريعة العامة يد الزوج في أملاك زوجته(١١٧).

وكانت هناك نظرية العقد الناقل للملكية Writ of debt في عهد هنري الثاني كان يطلق عليها أحيانا دعوى الدين وكانت هذه الدعوى كغيرها من الدعاوى التي يمكن الحصول على أمر ملكي بشأنها بدفع مبلغ من المال إلى الديوان الملكي موجه إلى المحكمة الذي يلجأ إليها من له حق برفض المدين الوفاء به(١١٨).

وقد حددت محاكم الشريعة العامة بموجب كتابة العقود في القانون لإثبات الحق، فلا دعوى على المدين في هذه العقود إذا لم يكن ثمة سند كتابي، ولكن المحكمة المستشارية -عملاً بمبدأ رفع الظلم- انتهت إلى إلزام المدين بتعهده في مثل هذه العقود إذا اعترف بالعقد أو أخفى السند(١١٩).

واستحدث الملك هنري الثاني دعوى تحقيق استلاب الحيازة Assize of Novel desseisin فلم تعرفه انجلترا لفترة سابقة على الغزو النورماني، وظهرت دعوى تحقيق استلاب الحيازة عن طريق الشراء Writ من الملك أو من ديوانه لحماية الملاك من اغتصاب حيازتهم، وكانت الدعوة في هذه الأنظمة تحمي الحيازة في ذاتها، حتى ولو لم يكن الحائز الذي استلبت حيازته هو المالك الحقيقي على العكس من دعوى ذلك نجد دعوى تحمي المالك نفسه(١٢٠).

وطبقا لما ذكره أحد المؤرخين فإن الملك هنري الثاني هو الذي أدخل دعوى تحقيق استلاب الحيازة في الفترة من ١١٥٥م إلى ١١٦٦م حتى يسمح للمالكين الذين نزعت منهم حيازتهم قهراً وقسراً، وبدون رضاهم من استعادة ما يملكون وكانت هذه طريقة قانونية تحقق كثيراً من الفاعلية وأكثر ملاءمة من استخدام طريق المبارزة التي تؤدي إلى الموت(١٢١).

وفي النهاية تعلم الانجليز بعد وفاة هنري الثاني أن الإجرام جريمة ضد الدولة وتفصل فيه محكمة الملك، وتعلموا كذلك وجود قانون واحد يسري على جميع البلاد، وتقوم محكمة الملك بتطبيقه عن طريق قضاتها المتنقلين، وكذلك التعاون في شئون الحكم وتضامن المواطنين عامة في القبض على الفارين من وجه العدالة وقيام المحلفين بتقدير الضرائب، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية، فضلا عن الفصل في القضايا المدنية في المحاكم المركزية(١٢٢).

الخاتمة ، تعود جذور النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وأن شجرة الليبرالية الباسقة لابد وأن تكون نمت من بذرة القانون الجرماني، ولكن التطور القانوني في تاريخ انجلترا يسير في اتجاه الحكم المطلق، واستغرق الأمر عده قرون من التجريب والنضال السياسي قبل أن تنتصر سيادة الشرعية القانونية. ولكن الحقيقة أن انجلترا أخذت عن القانون الجرماني تقاليد سيادة الجماعة القانونية على الملك. وكان من الممكن أن ترث كل بلدان

أوربا الغربية التقاليد القانونية نفسها، إلا إن ما حدث هو مبدأ الحكم المطلق الذي عرفه القانون الروماني وقد ساد أنحاء أوربا سنة ١١٠٠م، على حين كانت انجلترا وحدها هي التي حافظت على الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوحد بين أفراد الشعب وليس مرهوناً بإرادة الملك[١٢٣].

لم يكتف الملك هنري الثاني بإصلاح مبادئ القوانين الجرمانية والنورمانية القديمة التي ورثها عن الملوك السابقين عليه، ولكنه جاء بأفكار قانونية راديكالية جديدة ليس لها مثيل من قبل في أي قانون أوروبي آخر ومعاصر له.

لقد ساعد القانون في عهد هنري الثاني في القضاء على النظام الإقطاعي القضائي السائد، وحلت محله محاكم لا ترتبط بالسلطة المركزية، ولذا كانت تعد نوعا من القضاء الخاص الذي يحكم قضاته في منازعات الأرض وأحيانا امتد ليشمل المسائل الجنائية التي تنشب بين حائزي الأرض.

ولقد شهدت انجلترا تغيرات قانونية أساسية راعت متطلبات الوضع، والتغيرات كانت بارزة في النظم القانونية والقضائية السائدة، وهي تغيرات حدثت في نظم الإدارة والحكم من ناحية وفي نظام القضاء من ناحية ثانية، وفي القواعد المطبقة من ناحية ثالثة.

لقد أسهم القانون بشكل كبير في تطوير مجال اللغة الانجليزية في العصور الوسطى نحو ما يمكن أن يسمى " الدولة "،إذ أولا : حفز التفكير السياسي إلى حد كبير من الاشتباكات بين الملوك والكنيسة على السلطة النسبية. وثانيا : قدمت دراسة القانون الروماني والكنسي في القرن الحادي عشر حتى وقت متأخر كثيراً من اللغة والعديد من الأفكار القانونية الخاصة في الدولة، وثالثا: كثيراً ما يستخدم القانون لاختبار وجود الدولة هو انه ينبغي أن يكون لها احتكار العنف المشروع في العصور الوسطى – كما هو الحال في جميع الدول– وكان القانون هو الطريق الوحيد لتسوية المنازعات، وبديلاً عن اللجوء للعنف، وسعى الحكام للحد أو منع العمل المباشر من هذا القبيل، لتوجيه النزاعات من خلال قانون الملكية، ورابعا: كان القانون مهماً في إقامة علاقة بين الملك وشعبه في إطار من القانون .

وفي النهاية تبلور النظام القانوني والقضائي في عهد الملك هنري الثاني في انجلترا، وتتلخص ملامحه في أن الدولة بدأت تدريجياً تبسط سيادتها ممثلة في سيادة قضائها على كافة إرجاء المملكة، وهذا يعني سيادة القضاء الملكي، وانحسار القضاء الديني والمحلي والإقطاعي، وسيادة القواعد القانونية التي يطبقها هذا القضاء، وهي ما تسمى بقواعد الشريعة العامة، ولم يكن التطور هذا يتم فجأة بل يحدث تدريجياً إلى أن تبلور النظام القانوني ليصل إلى الصورة التي عليها الآن.

المصــــادر والمراجـــع

أولاً : المصــــادر :

1. Asser, Life of king Alfred (ed.) E.H.D., 2vols, London , 1968.
2. Glanville R ., The Law and Customs of the Kingdom of England (ed.) John B.E, London , 1812.
3. Heinrich B., The Sources of English Law, The Jury of presentment and Assize of Clarendon, vol.56, No.223, Boston,1908.
4. Henderson, Select Historical Documents, London,1916.
5. Incipit Assisa de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet Secund in Stubbs (ed.) select chatters , Oxford , 1921.
6. Materals for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson in (R.S.), 1965.
7. Roger Wendover , Flower history, trans. Gilles, London, vol.1, 1849.
8. Stubbs W., select charters, oxford, 1921.
9. The Laws of Alfred (ed.) E.H.D, vol.1, London , 1968.
10. William of Newburgh, Historical rerum Anglicarum, in chronicles of the reigns of Stephen , Henry II and Richard I , ed., R. Hewlett, 2 vols, (R.S), 1884-1885.

المراجع الأجنبية :

1. Adams G.B, The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216), London , 1905.
2. Arthuy Ogle M.A., The Canon Law in Mediaeval England , London , 1912.
3. Belloc H., A shorter history of England , London , 1934.
4. Coilint P. et Ciffard A., Precis de Droit Romain, T.1, Paris , 1926.
5. Crook A., Law and life in Rome, London, 1971.
6. Cross A.L., A History of England and Greater Britain, New York , 1921.
7. Davis H. W, England under the Normans and Angevins,

London, 1930.

8. Doroth Whitelok, The Beginning of English society, Penguin Book, 1984.
9. Frederick P. & Maitland F.W, History of English Law, press, 1953.
10. Gastonmay ,Elements de Droit Romanain , paris , 1932.
11. George Duby, Feodalite Encyclopedia,vol.9,Paris, 2002,
12. Henry Hallam, view of state of Europe during the Middle Age, 2 vol , London, 1855.
13. Holdswoth, history of England law , London , 1903.
14. Hume D., The History of England, from the invasion of Julius Caesar to Revaluation , London , 1930.
15. Knowles, Tomas Backet, Stanford , 1970.
16. Lord Mackenzie, Studies in Roma Law, London , 1876.
17. Maitland F.W, The constitutional history of England, London , 1919.
18. Maitland F.W, Law Renaissance , Press, 1953.
19. Melville R.D., A manual of principles of roman law, Edinburgh, 1918.
20. Petit-Dutaillis C.H., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre, Paris , 1933.
21. Radcliff G.R.Y & Cross G., The England legal system ,London , 1946.
22. Stenton, English society in the early ages (1066-1307), penguin book, 1959.
23. Stephenson G., Mediaeval history, New York , 1943.
24. Stubbs W, The constitutional history of England, oxford, 1873.
25. Trevelyan G.M.,A short end history of England, New York,1942.
26. Vinogradoff P., English society in the Eleventh century, oxford, 1908.
27. Willson D.H., A history of England, London, 1972.
28. Whitelok D, The Beginning of English society, Penguin Book, 1984.

المراجع العربية والمعربة:

١. موريس كين: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤.

٢. هـ. و. ديفز: أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨.

٣. نظير حسان سعداوي: تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسيطة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨.

٤. دافد واطسن راني: تاريخ أساس الشرائع الانجليزية، ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرقية، ١٩٢٣.

٥. نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ج٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧.

٦. ول ديورانت: قصة الحضارة، م ١٥- ١٦، عصر الإيمان، ترجمة: محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.

الهوامـــــش

(1) المختار من صحاح اللغة، محمد محي الدين وآخرون، دار الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٤٣٧.

(2) Walton , Historical introduction to the Roman Law, London , 1916, p.255.

(3) Glanville R., The law and customs of kingdom in England (ed.) John B. E, London , 1812, p. xxxviii ; Crook A., Law and life in Rome, London, 1971, p. 21.

(4) Melville R.D., A Manual of principles of Roman law, Edinburgh, 1918,p. 35.

(5) Lord Mackenzie,Studies in Roma Law, London, 1876, pp.28-29; Roly H.,Roman Law in C.M.H.(ed)Bury, vol.11,p.59.

(6) نورمان ف . كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة : قاسم عبده قاسم، ج٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٧، ص ٤٣٠.

CF: Wailton, Historical introduction to the Roman Law, London, 1916,p.292; Gaston May, Elements de Droit Roman, paris, 1923, p.9.

(7) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٣٨.

CF. also. Lord Mackenzie , op.cit, pp.25-26.

(8) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٣٨- ٤٣٩.

- Radcliff G.R.Y & Cross G., The English legal system, London, 1990, pp.2-3.

(9) الواقع أن البدايات الأولى لنشأة القانون الانجليزي وتطوره تبدأ مع الغزوات الانجلوسكسونية في القرن الخامس الميلادي، مروراً بالفتح النورماني، حتى تبلور الشكل القانوني، وتطورت القواعد الموضوعية للقانون من خلال تطور المحاكم وطبيعتها واختصاصتها وتشكيلها علي يد الملك هنري الثاني. انظر:

- Asser , Life of king Alfred (ed.) E.H.D., vol.1, London , 1968, pp. 264-265; Frederick P. & Maitland F.W, History of England Law, press, 1953, p.64 ; Cross A.L., A History of England and Greater Britain , New York , 1921, p. 80 ;

Trevelyan G.M., A shortend history of England, New York, 1942, p. 118.

(10) قسمت البلاد إلى مقاطعات Shires والمقاطعات إلى وحدات اصغر تسمى المئات Hundred والمئات إلى وحدات أصغر تسمى عشرات Tenths . ويذكر البعض أن المائة تشير إلى مساحة الأرض وهي مائة هايد Hide (٢٢٠ ياردة) بشرط أن تكون وحدة واحدة، ومنهم من أرجعها إلى عدد ملاك الأراضي في المقاطعة الواحدة، ومنهم من ذكر أنهم عدد العائلات الارستقراطية في المقاطعة. انظر :
Roger Wendover , Flower history, Tr.Gilles, London, vol.1, 1849, p.227; Henry Hallam , view of state of Europe during the middle Age , London, 1855, vol.2, pp. 280-281.

(11) Vinogradoff P., English society in the Eleventh Century, oxford, 1908, pp.28-29.

(12) يكون الملك ومجلس الواتان محكمة عليا للقضايا المدنية والجنائية، مما يعني أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية في المراسيم والقوانين التي تصدر. انظر:
- Willson D.H., A history of England, 1972, p.58; Gross, op.cit p.79; Stenton, English society in the early Ages (1066-1307), penguin book, 1959, p.209.

(13) White Lack D., The Beginning of England society, penguin, 1959, p.149; Hume D., The History of England , from: the Invasion of Julius Caesar to Revolution of 1688 , London , 1930, p.52.

(14) Laws Alfred (No.33) , 43; Roger of Wendover, vol.1, pp.227-228.

(15) يعد الشريف هو الحاكم العلماني الرئيسي للمقاطعة، ويرأس محكمة المقاطعة، والمختص بالأمن وتنفيذ العدالة والقانون وفقا لتوجيهات المحاكم، ويتمتع بنفوذ هائل وسلطة واسعة، وكانت تعقد جلسات المحكمة برئاسته في الأقاليم المختلفة، وأصبحت هذه المحاكم تسمى طواف الشريف Court of sheriffs tour نظرا لطوفه بإقليم المئات لإقرار العدالة، ويشرف على تنفيذ الأحكام وخاصة الإعدام. انظر:
- Stubbs , The constitutional history of England , oxford , 1873, vol.1, pp.225-226 ; the Cambridge historical

encyclopedia of great Britain and Ireland, London , 1985, p.62.

([16]) Glanville, op.cit, pp. 277-278; Maitland F.W, The constitutional history of England , London , 1919 , p.45.

([17]) Holdswoth, History of England law , London , 1903, vol.1,p.5.; Petit-Dutaillis C.H., La Monarchie feodle France et en Angleterre , Paris, 1933, p.123.

([18]) ينظر حسان سعداوي: تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسيطة، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٥٨، ص ٧٨.

([19]) Maitland , The constitutional history of England, p.61.

([20]) Holdswoth, op.cit, vol.1,p.42.

([21]) History of England , op.cit, vol.1,p.27.

([22]) يعد رانولف جلانفيل من ابرز القضاة في انجلترا، ولد في نورماندي، وانتقل إلى انجلترا فعينه هنري الثاني رئيس قضاة وستامفورد ثم سوفولك، ثم خازن لبيت المال، وعين شريفاً لمقاطعة يورك سنة ١١٦٣م حتى موت هنري الثاني. وأبقى عليه الملك ريتشارد وعينه كبير قضاة لانجلترا سنة ١١٧٦م، ثم رئيسا للقضاة سنة ١١٨٠م، وتوفي في بلاد الشام سنة ١١٩٠م.

The law and customs, op.cit , p. x-xiii ; Holdswoth, op.cit, vol.1,pp.21-22.

([23]) Holdswoth, op.cit, vol.1,p.22.

([24]) Maitland , The constitutional history of England, p.61

([25]) هـ . و. ديفز : أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨، ص ١٦٨ - ١٦٩.

Dorothy Whitlok,The Beginning of English society Penguin book, 1984,p.67.

([26]) شغل المستشار وضعاً مهماً في المملكة باعتباره الأمين الأول لسر الملك، وأصبح له دور قضائي مهم في البلاد، وكان يطلق عليه اسم القضاء اللاتيني Latin Jurisdiction لأن سجلات الأحكام Reperts تكتب باللاتينية، وأصبح بعد ذلك القضاء الانجليزي England Jurisdiction لأنه كتب بالانجليزية ، وكان يرأس كل موظفي القصر، وكان له دور كبير في القضاء الانجليزي في عهد هنري الثاني.أنظر:-

Glanvill, op.cit , p. 98 ; Stubbs W. Historical introduction to the (R.S) , New York , 1902, p. 139 ; Radcliff & Cross , op.cit , p. 110.

([27])Glanvill, op.cit , p.205 ; Holdswoth, op.cit, vol.1,p.32.

([28]) Stephenson G., Mediaeval history, New York , 1943, p.422.

([29]) Laws of Alfred (No.33),8.

([30]) كانت هناك حماية لرجال الدين من خلال القانون، فمن يعتدي علي رئيس الأساقفة يغرم بثلاثة جنيهات، وإذا اعتدي علي الأسقف أو القس أو أي رجل دين أخر يغرم بجنيهين، ولرجال الدين الحق في تحصيل الغرامات علي مرتكبي الجرائم.

-Laws of Alfred (No.33),5.

وإذا اقتحم شخص بيت رئيس الأساقفة يدفع غرامة تسعون شلن، وإذا حدث مع الأسقف أو القس ستون شلناً.

-Laws of Alfred (No.33),40.

([31]) Paniter S., A History of the Middle Ages , New York , 1954, p.251.

([32]) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٦.

([33]) كانت محاكمة رجال الدين تتم في الكنيسة بشكل صوري علي سبيل المثال، عندما قتل احد رجال الدين فارس من لنكولن، حكمت عليه المحكمة الكنسية بالبراءة، وأراد أهله الانتقام وعرضت القضية علي محكمة الملك فلم يجد بديلا سوى الموت، وفي القانون الانجلوسكسوني:

- إذا اتهم رجل الدين بقتل أو إثم خطير يطرد من رحمة الكنيسة، ويذهب للحج ويقرر مصيره البابا.
- وإذا أدلى رجل الدين بشهادة زور أو ساعد في جريمة التواطىء في سرقة يحرم من منصبه الكنسي.

CF: Knowles, Tomas Backet, Stanford , 1970, p. 78.

([34]) Knowles , op.cit, p.63 ; Adames , op.cit, p.280.

([35]) Materals for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson in (R.S.), 1965, vol.1, p.12 ; Knowles , op.cit, p.78 : Lunt, History of England , London , 1928, p. 203.

([36]) Adams , op.cit, pp. 280-281 ; Lunt, op.cit, p.212.

([37]) Materals , op.cit, vol.1 , p.16.

([38])Adams , op.cit , p. 282 ; Knowles , op.cit , pp.86-87 ; Lunt , op.cit, p. 204.

([39]) Belloc H., A shorter history of England , London , 1934, pp. 135-136 ; Davis H. W, England under the Normans and Angevins, London,1930, p.212.

([40]) Assize تعني مرسوم أو قانون أو إقرار استعملها جلانفيل Glanvill كبير قضاة هنري الثاني، وكلمة assize نسبة إلى assideo الجلوس المشترك في مجلس واحد، وتطلق الكلمة علي قرارات المحلفين والأحكام الصادرة عنهم، ويذكر أن القانون صدر لتخفيف صرامة الإجراءات ضد المجرمين المدنيين، ونص في احد بنوده علي السماح للمتهمين بجرائم خطيرة ولم يعد أمامهم سوى النفي من البلاد، ولعجزهم عن تطهير أنفسهم أن يبقوا في البلاد أربعين يوماً للتدبير من يمدهم بما يحتاجون إليه في المنفى . انظر:

-Holdsworth , op.cit, vol.1 , p. 153 – p. 441.

([41]) حضر التوقيع علي القانون الملك هنري الثاني واللوردات والبارونات ورؤساء الأساقفة ورجال الدين والقضاة والعديد من أشراف المملكة منهم من وافق ووقع ومنهم من رفض ولم يوقع وعلي رأسهم رئيس الأساقفة بيكت، ومن الحضور: الملك ورئيس أساقفة كانتربري وروجر Roger رئيس أساقفة يورك، وجيلبرت Gilbert رئيس أساقفة وينشيسر، ونيجل Nigel أسقف الاي Ely، ووليم أسقف نورتش، وروبرت أسقف هيرفورد Hereford، وروبرت أسقف لنكولن وهيلاري اسقف شيستر وجويسلين Joceliyn أسقف سالسبوري، وريتشارد أسقف تشستر، واللوردات منهم: روبرت ايرال ليستر وريجنالد ايرل كورنول Reginald of Cornwall وكونان Conan ايريل بريتاني ، وروجر اير كلير Clare، وايرل جيوفري دي ماندفيل Geoffrey de Mandeville ، وريتشارد دي وسي R.Luci وريجنالد دي موبراي R.Mowbray وليم مالت W. Malet، وروبرت دي دنستفيل R. de Dunstaville ، وجودفري دي فير G.Vere ، وليم هاستنجز W. Hastings، هيو دي مورفيل H.Moreville ، آلان دي نيفل Alan de Nevill، وليم تشامبرلين W. Chambriain (الحاجب)، وجون مارشال وبيتر دي ماريا P. de Mara ، والعديد من العظماء والنبلاء علي حدا سواء من رجال الدين والعلمانيين . انظر:

- Henderson, Select historical of documents, London, 1916, p. 11; Materials, op.cit , p. 18.

([42]) عن بنود قانون كلارندون . انظر:

Incipit A assica de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet in stubbs (ed.) select charters , Oxford , 1921, pp. 170-173 ; Henderson , Select historical , pp. 11-16 ;

Materials for the history of Thomas Becket , vo.,1 , pp. 18-23 ; Knowles , op.cit , pp.87-90.

([43]) Davis , op.cit , p. 215 I Belloc H. , op.cit , p.136.

([44]) ول ديورانت : قصة الحضارة ، مج ١٥-١٦، عصر الإيمان ، ترجمة، محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ١٩٠.

([45]) الجدير بالذكر أن الفترة القانونية المسموح بها لبقاء عرش الكنيسة شاغراً هي ثلاثة أشهر ويتم خلالها انتخاب راع لها، وأكد على ذلك مجمع اللاتيران في نوفمبر ١٢١٥م، ويتمتع الملك خلال تلك الفترة بريع الكنيسة وممتلكاتها ، حتى يحصل جماعة الرهبان في الكنيسة على رخصة من الملك للانتخابات، وكان الملك يمد المدة أصول فترة ممكنة ليتمتع بريع الكنيسة. انظر:

- Roger of Wendover, Flowers of history , trans: Gilles, London , 1849, vol.2, p. 345 ; Knowles , op.cit, p. 104 ; Adams , op.cit , pp. 287-288.

([46]) Davis, op.cit, p. 218; Knowles, op.cit, p. 105-106; Belloc H., op.cit, 136.

([47]) Adams, op.cit, p.293 ; Knowles, op.cit, pp.212-213.

([48]) كانت ضريبة بنس القديس بطرس يجمعها رجال الدين، وتنقل إلى رؤساء الكهنة والموظفين والأساقفة أو جامعي الضرائب البابوية ، ثم ترسل الأموال إلى روما حوالي ثلاثمائة مارك فقط، ويحتفظ جامعي الضرائب من رجال الدين بالجزء الأكبر الذي يقدر بنحو ألف مارك، ولكن الملك هنري الثاني أصدر قرار بجمعهما لحساب الخزانة الملكية. انظر :

-Knowles, op.cit, pp.124; Davis, op.cit, p. 220; Adams, op.cit, p.293 ; Lunt, op.cit , p. 213.

([49]) William of Newburgh, vol.1, p.160; Davis, op.cit, p. 220 ; Lunt, op.cit, p. 213

([50]) Knowles, op.cit, pp.. 106- 107.

([51]) يذكر المؤرخون في هذا الصدد أن الملك هنري وهو في نورماندي وصلته أخبار بصورة محرفة من بعض رجال الدين من حرمان لرجال الكنيسة وأتباع الملك، وأثناء مأدبة للطعام وجه هنري حديثه لمن حوله قائلا: " عجبا أيجرؤ رجل يطعم خبزي ... على أن يهين الملك والمملكة، ولا يأخذ بحقي واحد من أولئك الكسالى الذين يطعمون على مائدتي ". فاتجه أربعة فرسان دون علم الملك وذبحوا رئيس الأساقفة أمام مذبح كنيسة كانتربري. انظر:

-William of Newburgh, vol.1, p. 160; Knowles, op.cit, pp.139; Adams, op.cit, pp. 294 – 295.

([52]) Holdworth , History of English law , vol.1, pp. 371-372.

([53]) Holdworth , History of English law , vol.1, pp. 373.

([54]) Holdsworth , op.cit, p. 21 ; Heinrich B., The Sources of England , pp. 26-27 ; George Duby , Feodalite Encyclopedia , Paris , 2002, vol.9, p. 308.

([55]) Frederick P. & Maitland F.W., op.cit, vol.1, p.138 ; Mchugh W. D., English law courts , pp. 9-10.

([56]) Glanville, op.cit, p.346 ; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140

([57]) Fredric P. & Maitland , F.W, op.cit , vol.1, p.601.

- نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨١.

([58]) Maitland , The constitutional history of England , p. 117.

([59]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 153.

([60]) Stubbs W., Historical introduction , pp. 142.

([61]) كانت المحاكمة عن طريق المياه الباردة هي الوسيلة المفضلة في انجلترا، حيث يوجد عدد كبير من الأنهار والبحيرات، فكان يلقي بالمتهم في الماء وهو مقيد اليدين والقدمين، فإذا غاص كان بريئاً، وإذا طفا علي سطح الماء يكون مذنباً علي أساس أنهم يعتبرون الماء عنصراً مقدساً يرفض قبول الشخص المذنب. انظر :

حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨١؛ نورمان كانتور: المرجع السابق، ج١، ص١٨٠-١٨١.

([62]) Holdsworth, op.cit, vol. 1, p. 142; Stubbs W., Historical introduction, pp. 142

([63]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 142 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 396-397.

([64]) أولى البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) مجمع اللاتران الرابع اهتماماً كبيراً، فنجده يحضر له قبل انعقاده بعامين تقريباً، وفي نوفمبر ١٢١٥م انعقد المجلس وحضره كل مندوبي الكنائس اللاتينية واليونانية ومندوبي الملك والأمراء، وناقش عدد من القضايا الدينية المهمة، وقام بإلغاء نظام المحنة ordeal بالنار والماء، ويقال في هذا الصدد أن رئيس حركة الفرنسيسكان أراد مقابلة الملك الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة علي دمياط (١٢١٩- ١٢٢١م) ، وحاول إقناعه

بالمسيحية وعرض عليه امتحان النار أو الماء المغلي، ولكن الملك رفض، وكان ذلك في فترة انعقاد مجلس اللاتران الذي ألغى نظام المحنة، ولم يكن الخبر قد وصله. عن قرارات مجمع اللاتران انظر:

Roger of Wendover , op.cit , vol. 2, p. 345 ; Matthew of westminster , The Flowers of history , Tr. Yong , London , 1853, vol.2, pp. 121-122 ; Thatcher , A source book for , Medieval history , New York , 1905, pp. 538-539.

(65) لم يتوفر العدل المقدس في الإثبات عن طريق النزال، لأن الإدانة أو البراءة تتقرر وفقاً لقوة الخصم، فكان بوسع الرجل الثري أن يستأجر أضخم رجل في البلاد ليحل محله، وبذلك يستطيع أن يتخلص من أعدائه بتلفيق التهم لهم، فلم تقدم الحل الكافي للعدل، والغريب أن هذه الطريقة ظل معمولاً بها في انجلترا حتى عام ١٨٦٩. انظر: نورمان كانتور: المرجع السابق، ج١، ص ١٨١.

-Stubbs W., Historical introduction, pp. 142-143 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 397

(66) Glanville, op.cit , p.33; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 34-35; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140.

(67) Glanville, op.cit , p.223; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 398 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 35.

(68) Holdsworth, op.cit, vol.1,p.78; Stubbs W., Historical introduction, pp. 132.

(69) يطلق عليه ديوان المحاسبة ويشرف علي أعمال نواب الملك والقضاة من الناحية المالية وتسلم إليه إقرارات نواب الملك التي يقومون بإعدادها كل ستة أشهر، كما تعد فيه المواد التي ستكون موضع تحقيق القضاة المتنقلين وديوان المالية - في الأصل فرع من المحكمة المالية وخزينة لأموال الملك - ظل دائما علي اتصال وثيق بالنظام القضائي طالما أن إحدى محاكم القانون الثلاثة تختص أصلا بنظر القضايا التي تتصل بالإيرادات الملكية . انظر : هـ. و. ديفيز: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشاة المعارف، ١٩٥٨، ص ١٦٨-١٦٩.

(70) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.28-29 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 390.

(71) Stubbs W., Historical Introduction, pp. 131-132 ; Henirich B., The source of England law , p. 23.

(72) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.22-23.

(73) Henirich B., The source of England law , p. 26-27 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 398 ; Stubbs W., select charters , p. 99.

(74) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 112-123.

(75) كلمة Assess بالانجليزية تعني يفرض الشخص أو يقدر شيئا ، الاسم Assessor يفرض أو يقرر ، ويبدو أنها مشتقة من الفعل الفرنسي Asseoir وتعني جلس، واصطلاح Courd Assises تعني بالفرنسية القضاء الجالس ويقابلها الوقف Parquet وكانت الكلمة في عهد هنري الثاني Assize وتعني قانون وتم تحريفها كما سبق. انظر في ذلك:

- C. Oxford Dictionary , pp. 68-69 .

معجم القانون العصري، ص٥٧ ؛ المعجم القانوني: حارث سليمان الفاروقي، ج١، ص ٥٩.

(76) المحلفون هم مساعدون شعبيون لا يتمتعون بنفس التكوين القانوني والمهني للقضاة، وبالتالي ليس لديهم الإلمام الكافي بالقوانين حتى يصدروا أرائهم بناء علي الأدلة القانونية التي ينص عليها القانون في ظل نظام الإثبات المقيد هذا من جهة، ومن الجهة الثانية فان المحلفين يطلعون علي وقائع القضايا التي يبدون رأيهم فيها أثناء الجلسة، بينما القضاة يمكنهم الاضطلاع علي وقائع القضية أثناء دراستها وتحضيرها للجلسة، لذلك فإن المحلفين يبنون حكمهم بما يمليه عليه ضميرهم وقناعتهم الشخصية في ظل مبادئ العدالة. انظر:

Naomi D. Hurnard , The English historical review , p. 374 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681; Lunt , op.cit, p. 213.

(77) Pellock & Maitland , op.cit, p.138 .

(78) يذكر بعض المؤرخين أن نظام المحلفين أصله إسلامي، وكان معروفاً في شمال إفريقيا بداية إنتشار الإسلام بها ويسمى " اللفيف " ، أي مجموع الناس الذين يعيشون في المنطقة ويستعين بهم القضاء في أحكامهم. انظر : حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨١.

Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681.

(79) Stubbs W; The constitutional of England, p. 681-682; Lunt, op.cit, p. 213.

(80) قضاة الأمن Justices of the peace ، كان اختصاصهم معظمه مدني، أما الجنائي فكان مقتصراً علي الجرائم التي تدخل في المحاكم الملكية، وتحقيق الأمن

من اختصاص الشريف في المقاطعة، فهو الذي يحقق في الحوادث الجنائية، ويستمع إلى رأي المحلفين، ويجس المتهمين، ويتولى إدارة السجن، وأصبحت لهم هيئة قضاة الأمن، وتم توسيع اختصاصها على حساب اللجان القضائية وقضاة الشرع المتنقلين. انظر:

Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.131-133 ; Maitland , The History English Law , vol.1 , pp. 206-207.

(81) Stubbs W., select charters, p. 99 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 223.

(82) Stubbs W., select charters , p.100.

(83) Glanville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681-682

(84) Adams G.B, The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216), London , 1905, pp.322-323.

(85) دافد واطسن راني : تاريخ أساس الشرائع الانجليزية ، ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرقية، ١٩٢٣، ص ٣٩.

(86) دافد واطسن راني: المرجع السابق، ص ٣٩ – ٤٠.

(87) دافد واطسن راني: المرجع السابق، ص ٤٠.

(88) Glanville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W., select charters , p.99.

(89) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٠.

Stubbs W., select charters , p.100.

(90) موريس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤، ص ١١٧.

(91) Glanville , op.cit, p. 293 ; Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172-173

(92) من الأوامر الملكية المختصة التي نقلت من اختصاص مجلس البلاط إلى محكمة منصة الملك:

أ- أمر استحضار الأوراق من المحاكم.

ب- أمر الامتناع الذي تصدره محكمة الملك إلى المحاكم الدنيا بالامتناع عن نظر الدعوى.

ت- أمر يصدر لمحكمة أدنى أو موظف عام بالقيام بعمل مفروض عليه قانونيا.

ث- أمر تحقيق للبحث والتنقيب عن الأساس القانوني.

ج- أمر الإحضار للمحكمة الحق في إحضار الشخص لتنظر في قانون حبسه.

موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧.

Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 92-93.

([93]) Radcliffe & Cross, The English legal system, p. 20 ; Holdsworth , op.cit, vol. 1, p.95.

([94]) موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧ – ١١٨.

([95]) Mchugh W.D, English law Courts , p. 23 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 130.

([96]) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٨.

([97]) Roger Hovden, Chronicles (ed.) Stubbs W., vol. II, (R.S), London , 1816, p.261; Stubbs select charters, op.cit, pp.183-184; English historical documents,1042-1189(ed.)David G. Douglas, pp. 416-417; Basic Documents of English history (ed.) Stephen B. Baxter , Boston , 1968, p. 22.

([98]) استحدث الملك هنري الثاني ضريبة البدلية، وهي رسم يدفعه إتباع الملك الإقطاعيين إذا ما رغبوا بدلا من تقديم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم تجاه ملكهم، وفرض هذه الضريبة وفقا للحاجة، ويذكر المؤرخ جروس، أن الملك هنري الثاني فرضها سنة ١١٦٢م لأغراض حربية لمواجهة النفقات ، وتوالى الملوك الانجليز بعده في فرضها. انظر :

جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في التاريخ، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٢، ص ١٣١- ١٣٢.

-Cross , op.cit, p. 81.

([99]) Stubbs W. , Historical introduction , p.141; Belloc, op.cit , p.132.

([100]) كان أمرا الإحقاق ضروري للمتنازعين قبل رفع الدعوى أمام محكمة الإقطاعي خوفاً من ظلم الإقطاعي الذي يحكم حسب السطوة والمال، فيطلب الملك منه الحكم بالعدل، وهو أمر الإحقاق، وإلا أحيلت الدعوى إلى محكمة الشريف، وأصبح أمر الإحقاق في عهد هنري الثاني ضرورياً قبل انعقاد المحكمة الإقطاعي. انظر:

- Glanville m op.cit, p. 239 ; Maitland , the constitutional history of England , pp. 111-112.

([101]) Glanville m op.cit, p. 240.

(102) Sayles G. O., The medieval foundation of England, press , 1950, p. 323.

(103) المقاومة الشعبية كان لها دور بارز في الحروب، وكان أعضائها يمثلون ملاك الأراضي الأكثر ثراء، ولديهم قواتهم الخاصة، والذين يدفعون بهم في وقت الحروب، وتحول نظام المقاومة الشعبية إلى قانون الخدمة العسكرية الإجباري فإذا لم يكن هناك في العائلة احد يصلح عليهم أن يستأجر شخص من خارج الأسرة ليتقدم إلى الخدمة العسكرية. انظر:

- جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ٨٩ – ٩٠.

Stubbs , op.cit, p. 181 ; Trevelyan , op.cit, p. 144.

(104) Glanville , op.cit, p. 55 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 398 ; Stubbs W. , Historical introduction , pp. 139.

(105) Holdsworth, op.cit, vol.1, pp. 398-399; Radcliff G. R. Y & Cross,op.cit,pp.109-110; Petit. T.Dataillis, op.cit, p. 123.

(106) Derry , Great Britain History from Earliest times to present day, oxford , 1962, p. 55.

(107) Glanville , op.cit, p. 293 ; Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 96- 97.

(108) Stubbs W. , Historical introduction , pp. 139-140.

(109) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 111.

(110) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

(111) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399

(112) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

(113) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114.

(114) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399.

(115) كان نظام الترست من النظم الشبيه بالوقف في الإسلام، ويقال انه مأخوذ منه، والوقف هو نقل ملكية المال الموقف إلى شخص آخر يتصرف فيه لمصلحة المستفيدين، ففي شمال إفريقيا يسمى الوقف بالحبوس وهو حبس المال علي ذمة حكم الله، فينقل الملكية من الواقف إلى حكم الله، وبالتالي يصبح المال غير قابل التصرف فيه ، وفي الترست إذا انتقلت الملكية من دير أو كنيسة كمؤسسة يكون استثمار هذا المال وتصريف غلته طبقاً لنص الترست المنشئ عليه. انظر:

- Monica Gaudiosi ; The Influence of the Islamic Law and The Development of the trust in England , 1988, p.55 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 239-240

([116]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 400 ; Stubbs W. , Historical introduction , p. 139 ; Mchugh W.D, English law Courts , p. 23 .

([117]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 400.

([118]) Glanville , op.cit, p. 249 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 424.

([119]) Glanville, op.cit, pp. 205-206; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 – 197

([120]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 – 197.

([121]) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 – 197.

([122]) انظر ، حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٩١

([123]) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ١٨٣.

المكانة العلمية لمجاوري مكة إبان العصر السلجوقي (٤٢٩-٥٩٠هـ/١٠٣٧-١١٩٣م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (*)

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.... وبعد

فقد تمتعت مكة المكرمة بمكانة سامية بين جماهير المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي الذين توافدوا عليها طلبا لجوار بيت الله الحرام، تبركا بها، واستجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام: في سورة إبراهيم "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ .

ومصداقا لقول الرسول الكريم ﷺ:" والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أهلك أخرجوني منك ما خرجت"[(١)] .

وعلى أرض مكة الطاهرة، وبجوار بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا، فضل كثير من الناس لاسيما العلماء والأدباء منهم، وأهل الفكر والرأى، بعد أداء فريضة الحج - الإقامة بها، مفضلها على بلده الأم .

والمجاورة في اللغة هي الاعتكاف في المسجد، أما المجاورة بجوار الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فيراد بها الإقامة بهما، بغير الالتزام بشرائط الاعتكاف الشرعي[(٢)].

وكانت المجاورة، على مر عصور التاريخ الإسلامي، هدفاً يسعى إليه كثير من أئمة العلماء والمفكرين، حتى إن الإمام الشافعي جعلها قربة يتقرب بها إلى الله. والإمام "أحمد بن حنبل" (رحمه الله) روي عنه أنه قال : " ليت لى الآن مجاورة بمكة " .

وتعتبر المجاورة، في رحاب بيت الله الحرام، ظاهرة دينية واجتماعية، أملتها رغبة بعض المسلمين، من جميع طبقات المجتمع الإسلامي، في قضاء فترة صفاء روحي وذهني بجوار مكة المكرمة[(٣)].

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة أم القرى

والحق أن هجرة العلماء والأدباء إلى مكة، ومجاورتهم لبيت الله الحرام، اختلفت دوافعها وأسبابها المحركة لها خلال فترة البحث.

الرحلة العلمية وأثرها في دفع حركة المجاورين:

كانت الرحلة معلما قويا حرص عليه طلاب العلم في العصر السلجوقي، ودأبوا عليه، لاسيما الراغبين في مجاورة بيت الله الحرام، إذ كانت المجاورة الرافد الذى يغذيهم بمختلف المعارف والعلوم آنذاك .

والواقع أن الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة المدينة المنورة، مما زاد المسلمين إقداماً على الأسفار، ولهذا ارتحل العلماء إلى البلاد القاصية لطلب العلم ولقاء الشيوخ، إذ كان البعض منهم ينتهزو موسم الحج فيعرج على الشيوخ أثناء سفره، للسماع منهم، وكانوا ينفقون جهداً كبيراً وأموالاً طائلة خلال تلك الرحلات .

وكان الخلفاء العباسيون وسلاطين السلاجقة[٤] ، يعنون عناية فائقة بتنظيم طرق الحج وتعبيدها وتوفير آبارها، كما فعل السلطان السلجوقي"ملكشاه بن ألب أرسلان"، عندما أمر بحفر الآبار في طريق مكة، كما بنى منارة القرون في طريق مكة، كي يهتدي بها الحجيج المتجهون إلى بيت الله الحرام[٥] .

ويؤكد ابن الجوزي[٦] (وهو من مؤرخي القرن السادس الهجرى) على بقائها واستمرار تأدية مهمتها حتى عصره، بقوله : "وهي باقية إلى الآن، وتسمى منارة القرون"[٧].

وتعتبر الرحلة من أهم وسائل المسلمين في طلب العلم، إذ كان العلماء يحثون الطلبة عليها، فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يحصل ما لدى علمائها، فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، ويكابد مشاق السفر وأخطاره التي يعجز عن وصفها آنذاك، ولم يقف بعد المشقة، وتلك الأخطار حائلاً دون تلك الرحلات، التي ملأت أخبارها بطون الكتب، لاسيما بعد أن وفرت لهم السلطات السلجوقية الأمن على الطرق المؤدية لمكة المكرمة .

وبفضل هذه الرحلات استمر تبادل الأفكار بين سكان مختلف الأقاليم الإسلامية، مما أبقى على الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي، وزاد من تماسكها بعد انقسامها سياسيا، حين ضعفت الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، ولكن هذا الانفصال لم يكن إلا انفصالا سياسيا وحسب، ذلك لأن الدول التي انسلخت عن الجسم العباسي، كانت كلها ذات طابع واحد، هو الطابع العربي الإسلامي، وكانت الحياة العلمية والمذاهب التربوية وحدة متسقة تمام الاتساق، وكان العالم الإسلامي في أية بقعة من بقاع العالم، يجوب الديار، فيحاضر ويناقش

ويناظر، وهو بين قوم يفهمونه ويفهمهم، لا فرق بين العراقي والفارسي، والمصري والمغربي، والأندلسي والحجازي، فالكل يدرس في فلك واحد، ويسيرون إلى هدف واحد، ويدرسون برنامجا تعليميا واحدا، وربما اختلفت الصور والأشكال والهيئات والأساليب، أما حقائق الأمور وطبائع الأشياء فثابتة متحدة، حيث استمر هذا النشاط العلمي في دار الإسلام، من أقصى المشرق الإسلامي إلى أقصى المغرب الإسلامي .

وهكذا كان للعلماء المسلمين أثر كبير في ربط أجزاء العالم الإسلامي المترامية الأطراف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، إذ كانوا يعتبرون كل بلد يحلون به في هذه الأقطار الشاسعة بلدهم، وأهله أهلهم، يقيمون بينهم ويرتحلون ولا يشعرون بالاغتراب، وكان همهم الأكبر منصبا حول تحصيل المعرفة والاغتراف منها، يأخذون أصولها على علمائها، ثم يعودون بعد أن يتزودوا بكل نفيس، فيفيدون بما تعلموا أبناء البلاد التي يحلون بها، كما أن العلماء المسافرين كانوا يعقدون مجالس الدرس للطلبة من أهل المدن التي يمرون بها، كذلك يحضرون مجالس المناظرة التي تعقد مع علمائها.

ومن أجل هذا؛ سن العلماء الارتحال إلى البلاد القاصية في طلب العلم ولقاء الشيوخ، فلم يكن ينبغ عالم أو فقيه أو أديب، ويركن إلى علمه حتى يطوف في الأقطار، يلقي كبار العلماء وأجلاء الشيوخ، ويحصل العلم من شيوخ كثيرين في بلاد مختلفة.

وقد عقد "ابن خلدون"، في مقدمته الشهيرة، فصلا عن الرحلة في طلب العلم، يشير فيه إلى أن الرحلة في طلب العلوم، ولقاء المشيخة، لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، فيحصل الطالب على ملكة علمية أقوى مما لو درس على شيخ واحد، ويعلل ذلك بأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ، يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال [٨].

وكان العلماء في العراق والمشرق الإسلامي في رحلات دائمة، وأسفار غير منقطعة، فهم ينتقلون من بلد إلى بلد آخر دون أن تكون ثمة حواجز أو موانع تعوق تنقلهم بين مدن خراسان، وما وراء النهر، والعراق، والشام، ومصر، وديار المغرب والأندلس، ومنهم من يجاور بمكة، وكان هؤلاء العلماء يلقون الحفاوة والتقدير من أعيان وأبناء البلد الذي يحطون فيه .

التخاصم والتنازع المذهبي وانعكاساته الاجتماعية :

كان في الحجاز لهذا العصر إمارتان، إمارة مكة وإمارة المدينة[٩] وكانت إمارة مكة للحسنيين[١٠] من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين[١١]

من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت الإمارتان تدينان بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر [١٢].

وقد شجع البويهيون مبعوثي الفاطميين، غير أن هدفهم من ذلك لم يكن تمكين الخليفة الفاطمي من تولي الخلافة على المسلمين أجمعين ؛ لأنهم كانوا يريدون خليفة مسلوب القوى، لتتحقق لهم السيطرة عليه، ولذلك لم يعملوا على خلع الخليفة العباسي، غير أنهم وإن كانوا قد أبقوا على الخليفة السني، إلا أنهم عملوا على التنكيل به وبأتباعه[١٣].

ومن العجيب، في العصر البويهي، أن يكون السلطان الشيعي حاميا للخليفة السني، وإن كان هذا السلطان لا يعتقد في صحة خلافة العباسيين، حمله علي ذلك رغبته في المحافظة على مكتسباته السياسية، وذلك بناء على نصيحة أحد مستشاريه بالإبقاء على الخليفة السني الضعيف آنذاك، وعدم الاعتراف بسلطان الخليفة الفاطمي الشيعي لأن ذلك خطر عليه . ويحدثنا ابن الأثير عن الحوار الذي دار بينهما بقوله : إنك أنت اليوم مع خليفة عباسي تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتي أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأهلك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه "، فأعرض عن ذلك (١٤) .

وكان من جراء هذه السياسة أن تأزمت الأمور بين الفريقين أكثر من مرة، حتى إن عصر البويهيين كان يعرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، واضطر كثيرون منهم إلى الرحيل عن ديارهم، احتجاجا على ما كان يقع فيها من أمور تشين كرامتهم .

ظهور السلاجقة :

بقيت البلاد التي كان يسيطر عليها البويهيون على هذه الحال زهاء قرن من الزمان، إلى أن ظهر السلاجقة لأول مرة في خراسان حوالي سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م)[١٥]، واستتب لهم الأمر حوالي سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وكانوا يتبعون المذهب السني، واتجهت أنظار التابعين للمذهب إليهم، مما مهد لهم السبيل للسيطرة على الولايات المجاورة لخراسان رويدا رويدا.

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي، وزيادة نفوذهم فيه، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر، في كثير من الأحيان، عن حوادث دامية يذهب ضحيتها كثير من الأهلين[١٦].

وكانت صلة الدولة السلجوقية بمكة والمدينة وثيقة منذ قيامها، لأنهما المنبع الأصلي للإسلام، حيث كان لإمارة مكة المكانة الأولى في العالم الإسلامي، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمونها سنوياً من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج، وكان من يدعو لنفسه من الخلفاء على منابرها - سواء من الخلفاء العباسيين، أو الفاطميين - يعد نفسه خليفة للمسلمين قاطبة .

والواقع أنه لم يوجد عالم من علماء المسلمين ـ في الغالب ـ إلا وشد الرحال إلى مكة لأداء فريضة الحج، ووجد من العلماء من استهواه بريقها، فظل يدرس بها ويفتي، ومنهم من كان ينتهز فرصة وجوده هناك ليأخذ من الشيوخ ويسمع عنهم، ويقطف من جناهم أطيب الثمار وأشهى الأكل من مختلف العلوم والفنون.

ومن الأمور التي تلفت النظر، في العصر السلجوقي، أن هناك عددًا غير قليل من كبار المثقفين، كالفقهاء والأدباء وعلماء النحو واللغة، قد تركوا ديارهم ونزحوا إلى مكة، ومن غير الممكن أن يكون هؤلاء قد تركوا بلادهم ولديهم أسباب الحياة الكريمة، فلا يعقل أن رجالاً بهذه الدرجة من الثقافة والعلم يهجروا أوطانهم دون أسباب وجيهة، مع العلم أنهم لم يهاجروا في طلب العلم، لاسيما وأن كلا من العراق والمشرق الإسلامي، في العصر السلجوقي، كانا منارة للعلم والمعرفة، يحج إليهما طلاب الثقافة من كل فج عميق. إذن لماذا تركت هذه الصفوة المختارة بلادها واتجهت إلى الأراضي المقدسة؟.

والواقع أن العصر البويهي عرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، مما اضطر كثيرًا من العلماء إلى الرحيل عن ديارهم احتجاجًا على ما كان يقع من أمور تشين كرامتهم، إلا أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي، واستتب الأمر لهم في العراق، وكانوا يتبعون المذهب السني، فاتجهت أنظار التابعين للمذهب إليهم .

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي أولاً، ثم في العراق ثانيًا، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة بين أصحاب المذاهب الإسلامية في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر في كثير من الأحيان، عن حوادث دامية يذهب ضحيتها الكثير.

ولم يكن العراق وحده مرتعًا للحوادث العنيفة، بل امتدت نيران الفتنة إلى غيره من مدن المشرق. وكانت "نيسابور" مسرحًا لفتن كثيرة، منها ما حدث في عصر السلطان "طغرل بك"، عندما أمر بلعن الرافضة الشيعة على منابر خراسان أيام الجمع، فاستغل وزيره "عميد الملك الكندري" (١٧) هذه الفرصة وقرن اسم الأشاعرة ـ لما كان بينه وبين الشافعية من عداء ـ بأسماء أرباب البدع والأهواء(١٨) .

ولما كان معظم الأشعرية(١٩) شافعية، فقد غلف الكندري طعنه على الشافعية بغلاف الأشعرية، حتى لا يتهم بالتعصب لمذهبه (٢٠).

ولم يقف الأشاعرة مكتوفي الأيدي، فقاموا بأعمال عنف وشغب احتجاجًا على ما نالهم من المحنة، عندئذ أمر السلطان طغرل بك بالقبض على زعماء الأشاعرة، وعلى رأسهم الإمامين "أبي القاسم القشيري" و أبي المعالي الجويني"، ولكن إمام الحرمين أحس بالأمر فاختفى، بينما كان "أبو سهل بن الموفق" بعيدًا عن خراسان فلم يقبض عليه، وإنما قبض على القشيري

وآخرين، إلى أن عاد أبو سهل إلى نيسابور فجمع أعوانه وهاجموا السجن، وأخرجوا من فيه من الأشاعرة، بعد أن ظلوا في السجن أكثر من شهر [٢١].

ويذكر السبكي[٢٢]أن الوزير الكندري صار يقصد الأشاعرة بالإهانة والأذى والمنع من الوعظ والتدريس، وعزلهم عن الخطابة، وأغرى السلطان السلجوقي "طغرل بك" بمذهب الشافعي عموما، وبالأشعرية خصوصًا، حتى طار شرر هذه الفتنة في الآفاق، وطال ضررها وعظم خطبها .

كانت هذه المحنة سببًا في مغادرة كثير من أعلام المذهب الشافعي منطقة خراسان، فمنهم من ذهب إلى العراق، ومنهم من جاء إلى الحجا ز[٢٣]، فممن ذهب إلى الحجاز الإمام "البيهقي"[٢٤] و"القشيري" [٢٥] و "إمام الحرمين الجويني" [٢٦]، حتى قيل إن عدد من خرج من خراسان بسبب هذه الفتنة، أكثر من أربعمائة من فقهاء الشافعية [٢٧].

وتختلف المصادر بصدد الدافع الذى أدي إلى خروج الإمام الجويني من نيسابور : يذكر عبد الغافر الفارسي- ويوافقه على ذلك السبكي وابن العماد [٢٨]- أن عبد الملك اضطر إلى النزوح عن نيسابور مع بعض المشايخ من بينهم أبو القاسم القشيري وذلك بعد أن ظهر التعصب بين الفريقين، ويذكر ابن خلكان[٢٩] أنه سافر إلى بغداد، ولقي بها جماعة من العلماء، كما يذكر ابن الجوزي[٣٠] أن الإمام تنقل في كثير من البلاد، وتلقي العلم في بغداد على أبي محمد الجوهري وأخيرا قال ابن تغري بردي إنه سمع بالبلاد، وجاور بمكة، ثم عاد إلى نيسابور[٣١].

هكذا نجد أنه باستثناء عبد الغافر ومن نقل عنه- لا يشير المترجمون للإمام إلى أن قيام التعصب، بين فريق أهل السنة والشيعة، يعتبر سببا من أسباب خروج مشايخ الأشاعرة من نيسابور، وهم - إذ لا يذكرون التعصب المذهبي كدافع لنزوح مشايخ الأشاعرة عن هذه البلدة - يرون أنهم سافروا ليتلقوا العلم عن كبار العلماء وأجلة المشايخ، بمختلف البلدان على عادة القوم في ذلك الحين.

غير أننا نرجح ما ذكره عبد الغافر الفارسي تلميذ الإمام، فقد كان أعلم بظروف حياة أستاذه من غيره من المترجمين، ويكون نزوح الإمام عن نيسابور بسبب ما كان قائما من الفتن المذهبية، خصوصا وأن المؤرخين للحوادث العامة يثبتون ما يؤيد قول عبد الغافر الفارسي، على نحو ما تبين لنا ذلك من سرد حوادث العصر في ذلك الحين. وسواء كان خروجه بسبب هذه الفتن أو غيرها، فقد استغل فترة ابتعاده هو ورفاقه عن هذه البلدة أحسن استغلال، فقصدوا كبار العلماء وجلسوا معهم للمناظرة وتثبيت أمور العقائد.

على أية حال؛ تذكر المصادر أن الإمام الجويني نزح عن نيسابور واتجه إلى بغداد، وقد ذاع صيته أثناء وجوده ببغداد، واشتهر أمره، وبعد أن أقام فترة بها رحل بعدها إلى الحجاز، وأقام بمكة أربع سنوات يناظر ويفتي وينشر العلم، حتى صار مقصد الطلاب والمتعلمين من كل قطر، بعد

أن تألق نجمه وعقد له لواء الزعامة بين علماء مكة، وقد بلغ من فضله أن حرص المسلمون على تلقيبه بإمام الحرمين تكريما له، واعترافاً منهم بجهوده في نشر العلم (٣٢).

ويقول السبكي(٣٣) في ذلك "وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة ونشر العلم، شرف به ذلك النادي، وأشرقت قلاع ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها كلما أسود جنح الليالي، بيض ديجورها وصفت نيته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافهته جهاراً، وشكر له المسعى بين الصفا والمروة إقبالاً وإدباراً.

ولم يلبث أن عاد إمام الحرمين إلى نيسابور، وذلك بعد وفاة السلطان "طغرل بك"، وتولى من بعده ابن أخيه "ألب أرسلان" سدة الحكم، الذى اتخذ لنفسه وزيراً شافعيًا هو "أبو الحسن بن علي" الملقب بنظام الملك، فأمر بعودة علماء الشافعية الذين هاجروا من قبل، وأكرمهم وأحسن إليهم وأسقط ذكرهم من السب، والاقتصار على لعن الرافضة (٣٤).

ومن العلماء الذين حطوا الرحال في مكة، العالم الجليل "طراد بن محمد الزينبي" مسند العراق، ونقيب النقباء الهاشمي العباسي البغدادي، الذى كان حنفيا من جلة الناس وكبرائهم، ثقة ثبتًا، ساد الدهر رتبة وعلوًا وفضلاً، ومتع بسمعة طيبة حتى إنه ذهب إلى أصفهان وحدث بها، وأصبح له في مكة مكانة علمية بارزة نظرا لنبوغه وتفوقه، وكان له مجلس علم في رحاب الحرم، وكان يحضر مجلس إملائه جميع أهل العلم (٣٥) ثم ذهب إلى مكة والمدينة وأملى بهما (٣٦) حتى قال عنه الذهبي(٣٧): "ألحق الصغار بالكبار".

فضلا عن "أحمد بن سلمان النيسابوري" الذى سافر الكثير ولقي المشايخ ووقف نيفا وثلاثين موقفا بمكة، وكانت له علاقة طيبة مع شيخ الحرم بمكة المكرمة (٣٨).

ويذكر عبد الغافر الفارسي (٣٩) أن "أحمد بن على بن محمد النيسابوري" تبوأ مكانة سامية في مكة حتى إنه أصبح قاضي الحرمين، وكان يكرم كل من دخل مكة من المعارف والبلديين (أهل بلده) والأصدقاء . إلى جانب "القاسم بن الفضل بن أحمد" رئيس أصفهان وابن رئيسها، يقول عنه عبد الغافر الفارسي(٤٠): " صدر التجار في وقته، أيسر أهل عصره ثروة ونعمة وتجارة وبضاعة، سمع ببلده وبمكة من "ابن نظيف"، وعقد له مجلس الإملاء بأصفهان فأملى سنين" .

ولهذا لا تعجب إذا رأينا الحافظ الكبير والمحدث الشهير أبا طاهر السلفي الأصفهاني المعروف بـ"الحافظ السلفي" يترك موطن رأسه في أصفهان، ويتجه إلى مكة المكرمة، ويتخذها دار إقامة (٤١).

والحقيقة أن التعطش لطلب العلم هو الدافع الأكبر للسلفي ليطوف في البلاد ويرحل إلى أماكن عدة، يلتقي فيها بالشيوخ فينهل من علمهم في كل مكان يحل فيه، فذهب إلى بغداد حاضرة البلاد وكعبة القصاد، وفي أرجائها ازدهر العلم واستوى على سوقه، فأقبل السلفي على علماء بغداد ينهل من علمهم، فدرس عدة علوم لا يمكن أن يستغني عنها دارس الحديث، فدرس الفقه

الشافعي على كبار فقهاء بغداد، ودرس اللغة والحديث على فطاحل الأئمة الأفاضل (٤٢) ثم غادرها إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج وسمع بها من علماء الحديث، ولم يترك عالماً بارزاً من علماء العراق والحجاز إلا اتصل به وأخذ عنه (٤٣)، ثم اتجه إلى الشام وقدم دمشق فأقام بها فترة، ثم وصل إلى الإسكندرية بعد أن حصل من العلوم الكثير، فاشتغل بالتدريس، وتدريس الحديث بوجه خاص، وقصده طلاب الحديث من جميع أنحاء مصر وخارج مصر (٤٤).

ولم يمكث السلفي في مكة إلا قليلاً حتى عرف واشتهر، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات درسه، وتكاثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه، حتى أصبح مقصد الطلاب والمتعلمين من كل قطر، وأصبح مرحولا إليه بعد أن كان راحلاً، فلم يكن في أفق من الآفاق في عصره من هو أسند ولا أحفظ منه (٤٥).

وممن رحل إلى الحجاز قادما من المشرق لنشر العلم "أبو نصر البندنيجي" المعروف بفقيه الحرم؛ لأنه جاور بمكة أربعين سنة ينشر العلم، وكان من كبار أصحاب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي(٤٦)، من كبار المحدثين والفقهاء، ولا شك أنه قد بث بمكة قدراً كبيراً من علمه الغزير الذي حصله في المشرق، حتى قيل إن الشيخ "أبا إسحاق الشيرازي" كان يتبرك به، ويحضر مجالس علمه(٤٧).

الواقع أن عددا من العلماء المجاورين، العراقيين والمشرقيين، قد فرضوا تميزهم العلمي وثقافتهم الواسعة باعتلاء رئاسة بعض العلوم في مكة حتى إن بعضهم أصبح مفتى مكة ومحدثها الأول بلا منازع .

وممن كان له جهد تأليفي وتعليمي بالحجاز الإمام "أبو عبد الله الحسين بن علي الطبري" الشافعي مفتي مكة ومحدثها، كان من كبار الشافعية، تفقه عليه جماعة كبيرة من أهل مكة حتى كان يدعي بإمام الحرمين ؛ لأنه جاور بمكة نحواً من ثلاثين سنة يدرس ويفتي ويسمع(٤٨) وكان قد سافر إلى بغداد، ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، حتى تولي التدريس بنظامية بغداد ثم غادرها إلى مكة، بعد أن حصل من العلوم الشيء الكثير، وظل مقيمًا بها حتى وفاته (٤٩).

والملاحظ أن العلوم الشرعية بفروعها المختلفة من "فقه" و"تفسير" و"حديث" وما يرتبط بها من علوم ومعارف إسلامية أخري، مثل : "علوم اللغة العربية وآدابها" و"السيرة النبوية والتاريخ" كانت تلك العلوم هي محور التدريس، ومن أجلها تشد الرحال إلى جوار مكة المكرمة (٥٠) .

لعل هذا يفسر لنا كثيراً من مظاهر الحياة الثقافية في العصر السلجوقي، وكيف اتجهت هذه الحياة في معظمها إلى العناية بالعلوم الدينية بجميع فروعها، وفي مقدمتها علم الحديث، حتى قال بعضهم: "من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام"(٥١).

الجدير بالملاحظة أن الإقامة بمكة، أو ما اصطلح عليه بالمجاورة، لم يكن يلزم صاحبه بقضاء فترة محددة فيها، سوى الإقامة بجوار الحرم مدة قد تطول وتقصر ولقاء العلماء والمشايخ، أو نشر العلم والفكر.

كما كان "علي بن يوسف بن محمد الجويني" النيسابوري، من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، جاور بمكة مدة ، حتى صار يطلق عليه "شيخ الحجاز"، وهو أخو ركن الإسلام أبي محمد الجويني، ثم عاد إلى بلده، وكان يعقد له مجلس الإملاء في مسجد "المطرز" بنيسابور(٤٢).

وأحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ، من أهل الحديث، ومن المجاورين بمكة، وكان من كبار مشايخ الحرمين . كان ورعا زاهدا عالما، لا يدخر شيئا للغد، حتى أصبح يشار إليه بالتصوف (٤٣) .

وكان من أبرز هؤلاء "الزمخشري" الذي كان يكنى بأبي القاسم ويلقب "بجار الله" وشهر بالزمخشري نسبة إلى بلدة "زمخشر"، فقد كان محبًا للعلم والمعرفة، نشأ في عصر ازدهرت فيه الحياة العلمية، وانتشرت في كل ركن من أركان البلاد، حتى كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة (٤٤).

درس الزمخشري صبياً في خوارزم، ثم رحل إلى بخارى لطلب العلم ؛ لأنها كانت على حد قول الثعالبي(٤٥) "مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أبناء العصر" وهناك لقي الزمخشري العلماء والأفاضل وأفاد منهم الكثير، وساعده على ذلك حفظه الكثير للأدب واللغة، حتى صار يضرب به المثل في هذين العلمين(٤٦).

وبعد أن ارتوى الزمخشري من العلم والأدب ومن فنون المعرفة الأخرى، قرر الرحيل إلى خراسان، وورد العراق، ثم عاد إلى خوارزم، قال عنه القفطي (٤٧)، "كان علامة الأدب ونسابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال".

بيد أن كثرة النابهين المشهورين في شتى صنوف المعرفة، في العصر السلجوقي، صار من المتعذر على أي عالم، مهما علت منزلته العلمية، أن يلفت الأنظار إليه وسط هذا الحشد الهائل، فشعر قسم من هؤلاء النوابغ أن سبل العيش الرغيد ليست ميسورة، فضلاً عن أن الكثرة بطبيعتها تؤدي إلى التحاسد والتباغض بين أصحاب الحرفة الواحدة، فصار الغني والجاه العريض من نصيب قوم، على حين كانت الأكثرية تشكو الفقر وضيق ذات اليد.

وتشير المصادر إلي أن "الزمخشري" دفعه طموحه إلى الاتصال برجال الدولة السلجوقية، محاولاً أن يبين لهم أنه على الرغم من علمه وفضله، لم يظفر بالمكانة اللائقة به، بينما ظفر من هم دونه بذلك ويظهر ذلك من خلال أبيات ألقاها يتباهى فيها بنفسه وبمجالسه وعلمه حينما قال:

ألم تر أني حيثما كنت كعبة	يحفون بي كالطائفين طوائفا
فشرقيهم يهوى إلى النور قابسا	وغربيهم يسعى إلى البحر غارقا (٥٨)

ولكن يبدو أن رجال الدولة السلجوقية أعرضوا عنه ؛ لأن الزمخشري كان معتزليا مجاهراً باعتزاله(٥٩)، ولذلك قرر الرحيل إلى مكة المكرمة، وفي طريقه إليها مر بالعراق ومكث فيه حقبة من الزمن، سمع فيها الكثيرين من علمائها ومناظريها، حيث التقى بالشريف ابن الشجري، الذي مدحه بقصيدة طويلة، مهنئا بقدومه ومثنياً عليه، كما اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي "الدامغاني" والشيخ "أبي منصور الجواليقي"، ثم سافر إلى مكة (٦٠) فوجد بها الشريف السيد الفاضل الكامل "أبا الحسن علي بن عيسى بن حمزة الحسني"(٦١) الذي عرف محله وفضله فرفع من قدره، وقدمه على كثير من أقرانه، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري، وأخذ الزمخشري عنه، وكان له دور كبير فيما ألفه من مصنفات، حتى قيل إن الزمخشري ألف تفسيره الكشاف من أجله(٦٢).

قال الشريف مادحًا الزمخشري:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي	تبوأها داراً فداء زمخشرا
وأحر بأن تزهى زمخشر بامرئ	إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرى (٦٣)

وكان الشريف عيسى بن حمزة جليل القدر من علماء مكة وشرفائها وأمرائها، وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة، قرأ على الزمخشري بمكة حتى فاقه ونبغ عليه (٦٤) يقول عنه ياقوت (٦٥) الحموي "وصرفت أعنة طلب العلم إليه" كما كان محبًا للعلم والعلماء يقربهم إليه ويغدق عليهم، ولهذا جمعت الصداقة بينه وبين الزمخشري فأشاد بذكره في عدة أبيات.

بقي الزمخشري مجاوراً لبيت الله الحرام حتى لقب بجار الله، وعلى الرغم من حبه لمكة، وهدوء نفسه بتلك المجاورة، لم يستطع البقاء هناك طويلا ؛ لأنه اشتاق إلى موطنه وأهله، فترك مكة وسافر إلى خوارزم، ولكنه ما إن وصلها حتى حنت نفسه إلى مكة ثانية وندم على تركه إياها، وأخذ ينظم القصائد المليئة بالحنين والشوق إليها، وعندما سئل عن ذلك قال: "القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا"(٦٦)، ولم يلبث أن عاد مرة ثانية إلى مكة ليستأنف سيرته الأولى وليتفرغ للعلم والتعليم (٦٧).

ويبدو أن الزمخشري كان راضيًا عن نفسه بذلك الارتحال الذي نأى به عن الضيم الذي رآه في بلاده، وعدم وضعه في المكانة اللائقة به، وعدم إصابته منزلة التدريس، أو حظوة عند الأمراء والوزراء، فتقلب في البلاد لطلب العلم والبحث اللذين لقي في سبيلهما التعب.

ومع ذلك لم تنقطع علاقة الزمخشري، أثناء وجوده بمكة، بعلماء المشرق ورجاله، فقد كتب إليه منتخب الملك "أبو جعفر محمد" أحد كبراء السلطان "سنجر بن ملكشاه" رسالة وقصيدة وسيرهما إليه إلى مكة عند مقامه بها، توضح مدى العلاقة بينهما. "كتابي إلى جار الله العلامة عن سلامة كمل الله أسبابها، ونعمة أوطف بالرغائب سحابها والحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله الطاهرين (٦٨)

بعد الملتقى وشـط المزار وتمادى لوصلك الانتظار(٦٩).

ولا نغفل أيضاً عن ذكر المراسلات الفكرية التي كانت متصلة بين الزمخشري والحافظ السلفي، مما يدل على عمق الصلات العلمية بين العلماء من أجل الحصول على المعرفة وتنمية الفكر(٧٠).

ومن العلماء الذين رحلوا إلى الحجاز، وأقاموا به ينشرون العلم، الإمام الفقيه المفتي مسند خراسان وفقيه الحرم "أبو عبد الله الفراوي" النيسابوري الشافعي المعروف بفقيه الحرم، لأنه أقام بالحرمين مدة طويلة، ينشر العلم ويسمع الحديث ويعظ الناس ويذكرهم، وكان من تلاميذ إمام الحرمين الجويني، تفقه عليه حتى صار من جملة المذكورين من أصحابه (٧١)، حتى يقال إنه قد أملى أكثر من ألف مجلس، وحكي عن بعضهم أنه قال الفراوي : "ألف راوي" (٧٢).

ولاشك أن امتزاج ثقافة هؤلاء الوافدين من بلدان المشرق الإسلامي بثقافة أدباء وعلماء مكة، كان له أثر جلي، لاسيما بعد أن عادوا إلى بلادهم، وقد نهلوا من منابع ثقافات البلاد التي طوّفوا بها . ومن أمثلة هؤلاء " الزمخشري " الذى جاور بمكة سنين كثيرة، واستفاد من علم وأدب الأمير "ابن وهاس" وغيره (٧٣) .

كان "ابن وهاس" يحترم الزمخشري ويجله، ويتضح ذلك من خلال أبياته التى مدحه بها عندما قال :

وكم للإمام الفرد عندى من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا

فليس ثناه بالعراق وأهله بأعرف منه بالحجاز وأشهرا

وقد مدحهم الزمخشري بنسبهم للرسول الكريم، ومساندتهم للدين الإسلامي، كما يمدحهم بالشجاعة والكرم، ويبين فيها مقدار حبه وتقديره له، كما يتضح فيها فضل هذا الأمير عليه في قوله :

بمكة آخيت الشريف وفتيـة حواليه من آل النبى غطارفا (٧٤)

وكان ابن وهاس لجنبي حارسا كما تفعل الأم الحفية لاحفا (٧٥)

وكانت الرغبة الملحة لدى كثير من علماء المسلمين في الاطلاع على شئون تلك البلدان، التي تربط بينها وشائج الدين والقربى، ودرس أحوالها عن كثب هي الحافز المهم لشد الرحال

للسفر والتجوال بين تلك البلدان المتباعدة شرقا وغربا، فمنهم من كان يرحل للعلم، والوقوف على جغرافية الممالك الإسلامية، والتعرف على أحوال إدارتها ودرجة رفاهة أهلها وخيرات بلادها، مثل الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" الذي قام برحلة زار فيها بلاد خراسان وأرمينية والشام ومصر والحجاز، وصف فيها أحوال أهل تلك البلدان وعاداتهم وتقاليدهم، وما شهد فيها من أراض وبلاد وأمم ودول وملوك وعلماء وعادات وأخلاق [٧٦]، وكتب كتابا اسماه "سفرنامه" الذى يعد مرجعا رئيسا للتعرف على أحوال بلاد إيران في العصر السلجوقي، بما احتواه الكتاب من معلومات قيمة في التاريخ والجغرافيا وأحوال المجتمع [٧٧].

ويحدثنا "ناصر خسرو" عن زيادة أعداد الوافدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وزيادة الرسم أو الضريبة التى كانت السلطات الفاطمية تفرضها على الحجاج والمعتمرين القاصدين مكة[٧٨] وكان الحجاج والمعتمرين يؤدون هذا الرسم في مدينة جدة - وأميرها تابع لأمير مكة -. ويذكر لنا " ناصر خسرو " من خلال رحلته المشهورة، قصة قدومه إلى مكة، وكيف أن أمير جدة أكرم وفادته، وأعفاه من دفع المكس المفروض عليه ولم يطلبه منه شيئا، بل إنه كتب إلى أمير مكة آنذاك " تاج المعالي بن أبى الفتوح "[٧٩] (الذي هو أمير المدينة أيضا) يقول له:" هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شيء منه[٨٠] .

وقد زار الرحالة "ناصر خسرو" مكة أربع مرات، ومكث بها مجاورا ما يقرب من عام، وصف لنا خلالها مشاهداته الكثيرة التى تعتبر من الوثائق المهمة التى تحكى لنا عن مكة في ذلك العصر. إذ يذكر لنا أنه يوجد بمكة لكل مدينة من مدن خراسان، وما وراء النهر، والعراق، منازل، ولكن أغلبها كان خرابا وقتذاك، وقد بني بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة، وكان بعضها وأنا هناك خرابا، والبعض الآخر اشتراه الناس (أصبح ملكا خاصا) [٨١] .

ويحدثنا أيضا أن آبار مكة لم تكن صالحة للشرب لملوحة مياهها، لذلك أنشئ بها كثير من الأحواض والمصانع الكبيرة، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار . وهى تملأ من ماء الأمطار الذي يتدفق من الأودية .

ويذكر أنه رأي بمكة "الخيار" و "الأترنج" و"الباذنجان"، وكانت كلها طازجة، وكانت الفاكهة متوفرة طوال الشتاء لم تنقطع قط [٨٢] .

والواقع أن مذهب الاعتزال قد انتشر في إقليم خوارزم انتشارا كبيرا، وهو مذهب يؤمن بسلطان العقل، ولذلك نشطت عندهم الدراسات البلاغية، وهي دراسات متأثرة بالفلسفة والمنطق، حتى أصبحت لفظة الخوارزمي مرادفة للفظة المعتزلي من حيث العقيدة، يؤكد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي، عندما سأل الأديب الشاعر القاسم بن الحسين الخوارزمي عن مذهبه، فقال: حنفي، ولكن لست خوارزميا. ينفي عن نفسه أن يكون معتزليا [٨٣] .

وظهر كثير من علماء هذا الإقليم في العديد من المجالات، عرف عنهم المقدرة، والتبحر في فنون مختلفة، منهم الزمخشري المتوفى سنة(٥٣٨هـ/١١٤٣م) وشهرة الزمخشري، وخاصة في التفسير، لا تحتاج إلى إشارة، فقد شهد له معاصروه بالعلم والفضل والأدب، وأثنى عليه معظم مؤرخيه، قال عنه ياقوت الحموي[٨٤] : كان إماما في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفننا في علوم شتى" وقال ابن خلكان [٨٥] : كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحال في فنونه، وصنف التصانيف البديعة .

أما القفطي[٨٦] فقد قال عنه: نسابة العرب، تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال، وكان أعلم فضلاء العجم في زمانه بالعربية، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها، وبه ختم فضلاؤها".

وهذا السيوطي[٨٧] يقول فيه: كان واسع العلم كثير الفضل غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفننا في كل علم، معتزليا قويا في مذهبه .

المجاورون المتصوفون ومكانتهم العلمية في المجتمع المكي:

اتخذ التصوف أشكالا سلوكية تتلخص في الانقطاع عن ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، والتفرغ لممارسة الشعائر الدينية وحدها، مع قهر النفس وترويضها على تحمل أشق حالات الزهد في الحياة، وحرمانها من كل مشتهيات العيش [٨٨] .

وقد اتسعت في العصر السلجوقي موجة التصوف، لاسيما بعد أن انتشرت فلسفة الفقر بين الناس، وانكفاء العديد من رجال الدين والعلماء يحتجون على الوضع الاجتماعي، والأوضاع السائدة على المسرح السياسي، والذين راحوا يدافعون عن فلسفتهم الجديدة، معلنين تمسكهم بمبادئ الإسلام الأساسية، زاهدين في الدنيا، حتى فاضت تلك النزعة على البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وهناك أقوالا مختلفة في اشتقاق كلمة "صوفي" وهل هي من الصوف، لأن المتصوفين كانوا يلبسونه تمييزا لهم عن أهل الرَّفه والتنعم، أم هي من صفاء النفس، ونقاء الروح ؟ أو هي من الصُّفّة نسبة إلى "أهل الصُّفّة" الذين كانوا ينقطعون للعبادة في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ ؟ والذين كان الرسول الكريم يسبغ عليهم بره ورحمته، وبه اقتدى سائر القادرين من أصحابه . والواقع أن نسبة صوفي إلى أهل الصفة لا تجد قبولا عند كثير من المؤرخين والباحثين، لأنه لو كان الانتساب إلى أهل الصفة، لقيل "صُفّي" بضم الصاد وتشديد الفاء بغير واو بينهما [٨٩] . والأقرب إلى الحقيقة أنها مشتقة من لبس الصوف، لأن كثيرا من الزهاد بداية من القرن الثاني الهجري (٨م) كانوا يلبسونه، ثم شاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك [٩٠] .

وكان لجوء المسلمين في ذلك العصر إلى علم المنطق، ثم تحوله إلى علم الكلام، رديفا طبيعيا لتلك الظواهر التي أصبحت أكثر بروزا في هذا العصر، والذي كان التصوف أحد روافده وفنونه[٩١].

والواقع أن بزوغ تلك النزعة الفلسفية، في ذلك العصر، كان انعكاسا طبيعيا فرضته معطيات فكرية واجتماعية فرضت نفسها على المجتمع الإسلامي آنذاك ،لاسيما بعد اطلاعهم على ذلك الكم الهائل من التراث العلمي والأدبي، الذي خلفته حركة الترجمة من الكتب اليونانية بجميع فروعها، من طب ومنطق وطبيعة وكيمياء، وبخاصة بعد أن ترجمت الكثير من الكتب الهندية والفارسية والسريانية، ونتج عن هذا التلاقح الفكري، والمزج بين الثقافات المختلفة، أن تفتحت آفاق جديدة للمعرفة أمام المسلمين، فتكونت نزعة زاهدة لحمتها التقوى وسداها الورع والتدين، حمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاح وحب الحق والتمسك بأهداب الدين .

وكان تنافس محبى الخير على إقامة العديد من "الربط" [٩٢]، وتخصيص مساكن مختلفة في أزقة مكة وشوارعها ، لإقامة الطلاب والعلماء الذين يرغبون في تلقي العلم من مفكري عصرهم، لاسيما ذوي الدخل المحدود[٩٣] .

ويذكر ابن الجوزي[٩٤]: أن أمير الحاج "ختلغ بن كنتكين" المتوفى سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) لبث في إمرة الحاج اثنى عشرة سنة، كان حسن السيرة، محافظا على الصلوات في جماعة، يختم القرآن كل يوم، ويختص به العلماء والقراء، وله آثار جميلة في المشاهد والمساجد والمصانع بين مكة والمدينة .

ومن هذا المنطلق فقد شخص إلى مكة عدد كبير من العلماء من أجل التزود بالعلم على أيدي مثقفي مكة، فضلا عن نشرهم العلم، وراغبين في المجاورة .

وقد ساعدهم على تلك المجاورة كثرة "الربط" التي أنشئت في مكة من ذوي اليسار، والتي أسهمت بدورها في إيجاد سكن مناسب لهؤلاء المجاورين [٩٥].

ومن هذه الربط التي كانت قائمة آنذاك في مكة "رباط السدرة" والذى يرجع بناؤه إلى مطلع القرن الخامس الهجري (١١م) ويقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل من باب بني شيبة، وكان من شروط واقفيه أن يكون لسكني المجاورين المنقطعين للعبادة [٩٦] .

ورباط القاضي "صدر الدين أبى بكر المراغي" ويقع بجوار باب الجنائز بمكة، وقد جاء في وصية واقفيه سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) أن يكون لإقامة الغرباء الواصلين إلى مكة والنازلين فيها [٩٧].

كما وجدت "ربط" بمكة اشترط واقفوها أن تخصص لسكنى المتصوفين والزهاد من المجاورين، مثل رباط "أم الخليفة الناصر العباسي" وتاريخ وقفه سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م)، ورباط

الخاتون "فاطمة بنت محمد بن أنوشروان" والتي أوقفته على الصوفية والرجال الصالحين سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) [٩٨].

ولما كانت الغاية الكبرى لمعظم هؤلاء المجاورين الانقطاع للعبادة، والاحتماء بحرم الله، وابتغاء فضله ورضوانه[٩٩] جاور عدد غير قليل من العلماء المشرقين، لاسيما المتصوفين منهم، الذين ألزموا أنفسهم الزهد في متاع الحياة الدنيا، كما ألزموا أنفسهم ضروبا من المجاهدات والرياضات التى قصد بها تصفية النفس وتقوية الروح.

ومن الملاحظ أن هناك العديد من المجاورين، سواء من العراق أو المشرق الإسلامي، قصدوا مكة من أجل حياة الزهد والورع التى كانت سائدة في ذلك العصر، واتخذوا من التصوف مسلكا لهم.

وتحدثنا المصادر التاريخية[١٠٠] أن "أبا نصر محمد بن هبة الله البندنيجي" المتوفى سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، على الرغم من كونه ضريرا، إلا أنه كان عالما مبرزا، مضي إلى مكة مجاورا بها أربعين سنة، متشاغلا بالعبادة والتدريس والفتيا، ورواية الحديث.

ويذكر أن "أبا المعالي الجويني" جاور بمكة أربع سنوات، يناظر ويفتي وينشر العلم، محاولا أن يدخل الطمأنينة إلى النفوس التي اعتراها القلق، بسبب سياسة بلبلة العقول التي اتخذها البويهيون، وقد بلغ من اجتهاده في ذلك أن حرص المسلمون على تلقيبه بإمام الحرمين تكريما له، واعترافا منهم بجهوده.

ويبدو أن إمام الحرمين قد بلغ من انغماسه في العلوم الإسلامية أنه كان يواصل ليله بنهاره في الانشغال بها، كل ما هنالك أنه كان يبقى نهاره للناس يفتيهم ويناقشهم ويهديهم إلى سواء السبيل، معتمدا في ذلك على البراهين والحجج العقلية، ويكرس ليله للتعبد والتهجد للتقرب إلى الله عز وجل، فقد ورد عنه أنه كان يقضي ليله طائفا متعبدا في الكعبة الشريفة، حتى علا قدره، وصفت نيته، فكان من الواصلين.

يقول السبكي في ذلك: "وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة، ونشر العلم حتى شرف به ذلك النادي، وأشرقت تلاع ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها، كلما أسود جنح الليالي بيض ديجورها، وصفت نيته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافهته جهارا، وشكر له المسعى بين الصفا والمروة إقبالا وإدبارا"[١٠١].

وهكذا نتبين كيف كانت فترة وجود إمام الحرمين في مكة فترة مجاهدة لنفسه، ومراجعة لها ليردها عن الدنيا وطلائها الزائف، وليخلصها من المادة وشوائبها وأدرانها، وذلك لكي تصفو نيته، فيصل إلى التحقق بالمعرفة السنية.

وقد ورد عنه أيضا أنه كان في مجالسه الصوفية، التي كان يمارس فيها رياضته الروحية، يبكى الحاضرين ببكائه، لاحتراقه في نفسه، وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار، فكأن

الفترة التي أمضاها في مكة (بين الصفا والمروة) فترة ممارسة لأحوال الصوفية ليرتقي بنفسه بين مقاماتهم، وما يترتب عليها من أحوال .

والحقيقة أن ما ورد عن تصوف إمام الحرمين قليل، لا يعدو تلك العبارات التي ذكرها السبكي وأثبتناها في معرض حديثنا، ولم يرد عنه أنه كتب في علوم الصوفية، أو أرخ لهم على نحو ما فعل معاصروه ورفيقه أبو القاسم القشيري في رسالته، التي تعرف باسم "الرسالة القشيرية" غير أنه يكفينا أن يكون القشيري من بين مرافقيه في رحلته هذه لنرجح صدق مدلول إشارات السبكي التي تنبئ عن ممارسته لأحوال الصوفية، وليكون لدينا إثبات على أن إمام الحرمين كان من الذين خاضوا في هذه الأحوال عن علم ثابت، وطريقة قويمة في تحصيلها .

وبعد قضاء فترة الأربع السنين بمكة رجع إمام الحرمين إلى نيسابور، وذكر السبكي أنه رجع بعد انتهاء نوبة التعصب بين أهل السنة والشيعة، باعتلاء الملك "ألب أرسلان" كرسي الحكم بنيسابور، وعمله على إرجاع شيوخ الأشاعرة الذين هاجروا من قبل عن ديارهم .

ومن المجاورين المتصوفين "سعد بن علي بن الحسين الزنجاني" المتوفى سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) كان إماما حافظا ورعا متعبدا متقنا، انقطع أواخر عمره بمكة، قال عنه ابن الجوزي(١٠٢): " كان الناس يتبركون به، فإذا خرج يطوف قبلوا يده أكثر مما يقبلون الحجر الأسود" . ويقول أيضا : " لما عزم سعد على الإقامة بالحرم؛ عزم على نفسه نيفا وعشرين عزيمة أنه يلزمها من المجاهدات والعبادات، ومات بعد أربعين سنة، ولم يخل منها بعزيمة واحدة" (١٠٣) .

ومما يجدر ذكره أن المجاورة، في العصر السلجوقي، لم تكن قاصرة على الرجال فقط، بل شاركت المرأة فيها مشاركة واضحة، فقد ترجمت كتب التراجم والطبقات للعديد من النساء المشتغلات بالعلوم الدينية، وفي مقدمتهن محدثة كبيرة اسمها "كريمة بنت أحمد المروزية" من أهل "مرو"، اشتهرت برواية الحديث، طافت البلاد والأقطار لسماع الحديث وروايته، وأخذ عنها الكثير من علماء عصرها (١٠٤).

كما كانت بارعة في كثير من العلوم، لاسيما الحديث والوعظ ، قرأ عليها عديد من الأئمة البارزين كالخطيب البغدادي وأبي سعد السمعاني صاحب الأنساب، وظلت تلقي العلم حتى توفيت في مكة وهي مجاورة لبيت الله الحرام سنة(٤٦٣هـ/١٠٧٠م) (١٠٥) .

كما كانت إسهامات المرأة السلجوقية عظيمة في مكة لاسيما أعمال البر والخير، كان من أبرزها ما بذلته الخاتون(١٠٦) ابنة صاحب أصفهان(١٠٧) يقول عنها "ابن جبير" وقد شاهد موكبها أثناء وجوده في مكة لأداء فريضة الحج (١٠٨) : " وهي كبيرة القدر عظيمة الشأن منافسة في أفعال البر ..." .

كما يصف لنا ابن جبير[١٠٩] جانبا من الأعمال الخيرية التى كان يقوم بها نساء سلاطين السلاجقة في مكة لاسيما في موسم الحج بقوله : " ولهؤلاء النسوة الخواتين في كل عام، إذا لم يحججن بأنفسهن، نواضح مسبلة من الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء، وفي الطريق كله، وبعرفات، وبالمسجد الحرام، في كل يوم وليلة، فلهن في ذلك أجر عظيم ... فتسمع المنادي على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل، فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملئونها، ويقول المنادي في إشادته بصوته : أبقي الله الملكة خاتون ابنة الملك الذي من أمره كذا، ومن شأنه كذا، ويحليه بحلاه، إعلانا باسمها وإظهارا لفعلها، واستجلابا للدعاء لها من الناس" .

التلاقح الفكري بين علماء العراق والمشرق وعلماء مكة :

لم تكن الحواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتقف حجر عثرة دون أماني العراقيين والمشرقيين الراغبين في المعرفة، والطامحين إلى علم غيرهم من إخوانهم المكيين، حيث لم يمنع العداء السياسي من تدفق العلماء إلى مكة يحملون معهم تراثهم العلمي . ويقينا تمتع المجاورون العراقيون والمشرقيون بكرم أهل مكة الذين أحسنوا استقبال جوار هؤلاء الغرباء، بحسن أخلاقهم ومكارمهم .

ومن الأمور التى تسترعى النظر ما ذكره "ابن بطوطة" [١١٠] من أن أهل مكة بلغ بهم الكرم وحسن الضيافة أنهم متى صنع أحدهم طعاما، أو وليمة، إلا دعا إليها أولئك المنقطعين المتعبدين، ويتوخى أن يستدعيهم برفق، وحسن خلق، ثم يطعمهم، كما كان أهل مكة يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين، والمحتاجين في الليالي المباركة [١١١] .

وهكذا فتحت مكة أبوابها ، وذراعيها للعديد من العلماء والأدباء، من الذين تاقت أنفسهم إلى المجد والشهرة في هذا البلد المضياف، وفي جوار المسجد الحرام أمن هؤلاء العلماء على أنفسهم، وأحدثوا بها نهضة علمية كبيرة أثرت في مسيرة الثقافة والفكر الإسلامي.

وكان لاشتداد النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة، أن ساد الحياة السياسية اضطراب وتشتت ومنازعات، مما أدى إلى ضعف مركز الخلافة العباسية، في وقت دقت فيه حجافل الحروب الصليبية أبواب العالم الإسلامي[١١٢]، واستخدم العلم والفلسفة أداة للمجالات المذهبية .

ولما كانت الحياة العقلية جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، فقد كان من الطبيعي أن تتأثر بما تأثرت به الحياة العامة من ضعف وتخاذل، وينعكس ذلك على سلوك الناس، مما أدى إلى تزلزل الروح المعنوية من تردي تلك الأوضاع، ودعا العلماء والمفكرين للبحث عن واحة أمان يفرون إليها بعلمهم وفكرهم، فحطوا رحالهم في مكة المكرمة مجاورين لبيت الله الحرام .

ويبدو أن العلاقات السياسية الطيبة، التي جمعت بين أشراف مكة والخلفاء العباسيين، كان لها دور كبير في ارتحال هؤلاء العلماء في جو من السكينة، فيذكر ابن الجوزي(١١٣): أن "جعفر بن يحيى التميمي" كان من ذوى الهيئات النبلاء و العلماء الأفاضل الذين يشار إليهم في عصرهم، والذي رحل في طلب العلم ولاسيما الحديث إلى كل من الشام، والعراق، وفارس، كان يترسل (رسول) عن ابن أبى هاشم أمير مكة إلى الخلفاء والأمراء، ويتولى ما يوقع له من مال وكسوة .

وكان أبو حامد الغزالي (١١٤) من الذين ارتحلوا إلى مكة، حيث قضي أخصب فترات حياته العلمية، إذ برع في المنطق والمحاورة، وعرف مناهج الفلاسفة وطرق الرد عليهم، وبدأ يكتب ويؤلف حتى قيل إن إمام الحرمين كان يغار منه، وإن حرص على ألا يبدي له شيئا من ذلك (١١٥).

وكانت شهرة الغزالى العلمية وقوته العقلية قد بلغتا مسامع الوزير "نظام الملك" (١١٦) فدعاه إلى مجلسه، وأظهر له احترامه وتقديره، وعينه أستاذا في المدرسة النظامية في بغداد(١١٧).

وفي سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) كلفه الخليفة "المستظهر بالله" (١١٨) العباسي، أن يكتب له كتابا يدحض فيه أراء الشيعة الإسماعيلية (١١٩)، فأجابه إلى سؤاله، وكتب ثلاث رسائل حمل فيها على آرائهم ومعتقداتهم حملة قاسية؛ تدل على تعمقه في دراسة مذاهبهم واستبطان خفايا عقائدهم(١٢٠) .

غير أنه بعد هذا المجد الذى أحرزه في سنى التدريس والتأليف؛ لم يلبث أن أحس بحاجة ملحة إلى العزلة، والتخلى عن جميع مظاهر الحياة المادية، فترك كرسي التدريس، كما هجر أسرته، وارتحل إلى مكة فأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى مسقط رأسه في مدينة "طوس" ثم أكب على تأليف أهم كتبه وأرقاها وهو كتاب "إحياء علوم الدين" الذى كان قد صنفه إبان رحلته (١٢١).

ويبدو أن نضوج ملكات الغزالى العلمية قد اكتملت في هذه المرحلة من مراحل حياته، حتى يقال إن تلك الرحلة كانت لها انعكاسات قوية في تصنيفه للكثير من مؤلفاته، التى امتدت إلى الفقه والفلسفة والجدل والخلاف، إلى غير ذلك .

ومن العجيب أن الإمام "أبا بكر البيهقي" المتوفى سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) الحافظ الفقيه الدين الورع واحد زمانه في الحفظ والإتقان والضبط ، كانت له رحلة إلى بلاد الحجاز سمع خلالها من مشايخ مكة وتلقي العلم على أيديهم (١٢٢) .

وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الصيدلاني يقول عنه عبد الغافر(١٢٣) :" من أولاد المياسير سمع ببغداد والحجاز، ومن المشايخ الذين سمع منهم: أحمد البيهقي، والإمامين : أبى محمد الجويني، و"أبو القاسم القشيري"، وسمع من "ابن نظيف" في مكة " .

وعبد العزيز بن محمد الحافظ، كان ثقة ورعا مجتهدا طاف البلاد وحج . سمع القاضي أبا الحسن محمد بن على بن صخر بمكة (١٢٤) .

ومحمد بن منصور السمعاني، سليل الأسرة السمعانية بمرو، كان عالما بالحديث والفقه والأدب والوعظ، وبلغ من شهرته أنه جلس للوعظ بالمدرسة النظامية ببغداد، رحل إلى مكة لتلقي الحديث على علمائها، وعقد له مجلس التدريس هناك (١٢٥) .

ومن هؤلاء "محمد بن أحمد بن جعفر الحاكم العدل الشاذياخي، من وجوه العلماء النيسابوريين ومن وجوه المشايخ، سمع بمكة على كبار العلماء (١٢٦) .

ومحمد بن أبي سعيد بن سختويه الأسفرايني، من العلماء الكبار، حدث بصحيح البخاري بمكة، وظل مجاورا بها إلى أن توفي (١٢٧) .

ومحمد بن علي بن عمير القهندزى من أهل هراة، سمع بها، ثم رحل إلى مكة، ونيسابور، وسجستان، قال عنه ابن الجوزي (١٢٨) : "كان متقنا فهما فقيها فاضلا خيرا دينا ورعا زاهدا، حدث بالكثير" .

ومن الذين كان لهم جهد تعليمي بمكة "طراد بن محمد الزينبي" نقيب العباسيين ببغداد المتوفى سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) من بيت معروف بالرئاسة، وكان يترسل من ديوان الخلافة إلى الملوك والأمراء . كان يحضر مجلسه جميع المحدثين والفقهاء، وأملى بمكة والمدينة (١٢٩) .

والذي تجمع عليه المصادر التي ترجمت للزمخشري، أنه قضى الفترة التي عاشها في الحجاز يعلم الناس، فأقبلوا عليه وأحبوه وأفادوا منه فعلاً اسمه، وبعد صيته، كما أجمعت على وصفه بأنه أستاذ الدنيا وفخر خوارزم ومن أكابر الأئمة ألقت إليه العلوم أطراف الأزمة، وجمع بجوار بيت الله الحرام بين الفضائل والمحاسن (١٣٠) .

الهوامـــش

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، ص ١٥١ ، ط٢،القاهرة ١٩٣٨م .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، دار الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة، ٢٠٠٣.

(٣) عبد العزيز بن راشد السنيدي : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠ـ٦٦٠هـ/١١٧٤ـ١٢٦١م) ص ٧ "بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ" .

(٤) السلاجقة : هم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم "الغز" ، ونظراً لسوء الأحوال الاقتصادية في تلك المنطقة هاجرت إلى شرق العالم الإسلامي. وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة نسبة إلى زعيمهم "سلجوق بن دقاق" الذي وحدهم تحت زعامته فأصبحت تعرف باسمه. واعتنقت الإسلام وفق مبادئ المذهب السني. وأخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة بعد أن جلس أول سلاطينهم "طغرل بك" على عرش السلطنة في مدينة نيسابور سنة (٤٢٩ هـ/١٠٣٧م) .الحسيني: زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص ٢٣ ، تحقيق د. محمد نور الدين ، دار اقرأ بيروت ١٩٨٢م . عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ١٦ ـ ١٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة١٩٥٩ م.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩ ، ص٥٦ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ١٩٨٤.

(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : طبع دائرة المعارف العثمانية، ج ٩ ص ٣٥ ، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ

(٧) يذكر أن السلطان "ملكشاه" خرج للصيد ، فاصطاد هو وعسكره ألوفا من الأنعام ، بنى من حوافرها تلك المنارة ، حتى قيل إنه كان فيها أربعة آلاف رأس . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ٣٥ .

(٨) ابن خلدون: المقدمة ، ص ٥٤١ ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ١٩٨٠م.

(٩) ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة والنفوذ على مكة والمدينة لا ينازعهم في ذلك منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم في إفريقيا فأخذوا يتطلعون إلى بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة في الحجاز حتى يكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي، وقد تحقق لهم ذلك في خلافة المعز لدين الله حتى أقيمت الخطبة الفاطمية في كل من مكة والمدينة سنة ٣٥٨هـ، وأصبح الحجاز خاضعًا للنفوذ الفاطمي ومنذ ذلك الحين احتدم النزاع بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة على السيادة الرسمية على بلاد الحجاز، وقد تمخض هذا الصراع عن محاولات عدة من كلا الطرفين على هذه السيادة إذ أن ذلك سوف يكسبها سمعة طيبة في نظر العالم الإسلامي وينظر إليها في نظر عموم

المسلمين على أنها الخلافة الشرعية الواجب اتباعها. أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ) ص ٢٣ . محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٣، دار الفكر العربي، ط٤، القاهرة ١٩٧٣م.

(١٠) كان يحكم مكة لهذا العصر من الحسنيين أسرة الهواشم وهم ينسبون إلى محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن أبي الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان يتقلد الحكم آنذاك من الهواشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الذي عظم ذكره بين قومه فحارب بني سليمان بمكة سنة ٤٥٤هـ للاستيلاء على الحكم وأوقع بهم الهزيمة وأخرجهم من الحجاز وقد بدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله تعبيراً عن ولائه للفاطميين في مصر. القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص١٦١، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣ م .

(١١) كان يحكم المدينة آنذاك الحسينيون وهم فرع من بني الحسين بن علي الذين عملوا على تأسيس دولة لهم بزعامة رجل علوي يدعى طاهر بن مسلم من أحفاد الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي حتى نجحوا في ذلك سنة ٣٦٠هـ، والذي أعلن ولاءه للخلافة الفاطمية في مصر. القلقشندي: قلائد الجمان، ص١٦٣، محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين ، ص٢٢.

(١٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج٥، ص١٢. دار المعارف ، ط٣ القاهرة ١٩٧٣ م .

(١٣) حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد ، بعد أن ضعفت الدولتان "الفاطمية" و "البويهية" (الشيعيتان) بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي ، كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان سلاطينها مهتمين بالمحافظة على المذهب السني وذيوعه، ويرون ضرورة التخلص من كل الحركات الهدامة في العالم الإسلامي ، وإعادة الوحدة الإسلامية من جديد على أساس متين.فوقية حسين محمود : الجويني إمام الحرمين ، ص ٣٢ . سلسلة أعلام العرب ، العدد (٤٠) الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م .

(١٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٠٨، راجعه وصححه: د / محمد يوسف الدقاق دار الكتب العلمية ط ٣ بيروت ١٩٨٨م.

(١٥) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ، ج١٢، ص٣٩ ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة ، ١٩٣٢م..

(١٦) لعبت الخلافات المذهبية دورا كبيرا في احتقان الوضع السياسي في العراق ، فقد حدث في بغداد سنة (٤٤٣هـ) أن كتب أهل الكرخ (محلة الشيعة ومكان تجمعهم) بأحرف من ذهب على أبراج باب السماكين "محمد وعلي خير البشر": " وهنا قامت الفتنة ، وتشابك الفريقان. وحدث أن قتل هاشمي وحمله أهله وطافوا بنعشه في المدينة، وأثار هذا

الحادث نفوس أهل السنة فتوجهوا إلى قبور الملوك والوزراء من بني بويه ونهبوها وسلبوها، فازداد بذلك الاضطراب والفوضى. وهذه حادثة أخرى تنم عن مدى تأزم الأمور بين الفريقين لتتابع حوادث التصادم: حدث سنة (٤٤٤ هـ) أن اختطفت جماعة القواد الأتراك السنيين رجلا شيعيا من أهل الكرخ وذبحوه على مرأى من نسائه، فصرخن ونثرن شعورهن. فأثار ذلك شعور العامة من أهل الكرخ وتشابكوا بعنف مع أهل السنة فما كان من القواد الأتراك إلا أن أحرقوا أسواق الكرخ وتكبد كلا الفريقين خسائر فادحة، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن انسحب القواد الأتراك، وتأسفوا على ما بدر منهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قامت فتن سنة (٤٤٧هـ) بين فقهاء الشافعية والحنابلة عندما قال الأخيرون بمنع الجهر بسم الله الرحمن الرحيم ، والترجيع في الآذان والقنوت، إذ غضب فقهاء الشافعية لذلك، وقبل أن يتطور الأمر إلى أكثر من ذلك رجع الحنابلة عما قالوا . ولم تكن بغداد وحدها مرتعا للحوادث العنيفة، بل امتدت نيران الفتنة إلى غيرها من البلدان، وكانت نيسابور مسرحا لفتن كثيرة . لمزيد من التفاصيل حول الصراعات الدامية بين السنة والشيعة أنظر : ابن الجوزي : المنتظم في أكثر من جزء .

(١٧) عميد الملك الكندري : محمد بن منصور الكندري ، ولد سنة (٤١٥هـ/١٠٢٤م) في كندر' إحدى قرى نيسابور ، بدأ حياته العلمية بدراسة الفقه ، حتى وصل فيه إلى درجة عالية من الاتقان والشهرة ، " فلفت نظر السلطان'طغرل بك' . فقربه وجعله مشيره ، ثم أعطاه حكومة " خوارزم' إلا أن عميد الملك حاول التمرد على السلطان في خوارزم ، فما كان من السلطان إلا أن تحرك ضده وتحرك بجيشه ، ثم قبض عليه وأمر بخصيه . ويقال إن سبب هذه العقوبة البدنية أن 'طغرل بك' أرسله ليخطب له امرأة ، فزوجها لنفسه وعصاه ، فلما ظفر به أقره على خدمته بعد أن خصاه . الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج ١ ص١٢٠ ، تحقيق ودراسة د/ محمد التونجي ، دمشق ١٩٧٢ م.

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم ج٨، ص١٥٧، السبكي: طبقات الشافعية ج٣، ص٢٥٥.

(١٩) الأشاعرة : هم أصحاب 'أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري' المتوفى سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م) وهو من جملة العلماء الذين يثبتون الصفات لله تعالى ، وأيد عقائد السلف بحجج كلامية متخذا من سلطان العقل وسيلة للإقناع ، ولكنه اتخذ مذهبا وسطا بين المعتزلة والسلف الصالح وهو الذى حارب المعتزلة بسلاحهم من منطق وفلسفة ، وأصبح من مؤسسي نزعة علم الكلام في الإسلام ، وهي النزعة التي تحاول التقريب بين تعاليم الدين وبين مبادئ الفكر اليوناني . والمعتزلة من أهم الفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي ، ولاسيما في عصر الخليفة المأمون العباسي الذى وافق المعتزلة على القول بخلق القرآن ، واستخدم نفوذه في إقرار هذه الفلسفة في أذهان الناس . الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ٧٣ مؤسسة ناصر للثقافة. ط١. بيروت. ١٩٨١م. عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران ، ص ١٧٤ ـ ١٧٧.

(٢٠) عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد . ص١٠٩. دار الوفاء للطباعة والنشر. ط٢ المنصورة ١٩٨٨م .

(٢١) السبكي: طبقات الشافعية، ج٢، ص٢٧١.

(٢٢) طبقات الشافعية: ج٢، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٢٣) عملت التغيرات السياسية التي مرت بها بلاد الحجاز آنذاك على تشجيع مجموعة من العلماء وطلاب العلم للقدوم إلى مكة والمجاورة فيها . والمتمثلة في الصراع بين العباسيين والفاطميين على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . ولما بسط العباسيون سيطرتهم الكاملة على مكة ، وأصبحت الطرق آمنة ، كان ذلك حافزا مغريا لمجموعة كبيرة للمجاورة لاسيما بعد تهيأت لهم الأجواء العلمية المناسبة . عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة ، ص ٤٤ .

(٢٤) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمانه، وفرد أقرانه في الفنون رحل كثيراً وحصل علما واسعا بالحديث وطلب إلى نيسابور لتدريس فقه الشافعي. ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ج١ ص٧٥، ٧٦ ، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م. ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ص ٢٦٥ ، مطبعة التوفيق ،دمشق ١٣٤٧هـ.

(٢٥) أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري الفقيه الشافعي ، شيخ خراسان في عصره ، علامة الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف . وكان ثقة حسن الوعظ وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التيسير في علم التفسير" وتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م).ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص٢٧٤. ابن الجوزي: المنتظم، ج٨ ص٢٨٠

(٢٦) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التي درس فيها، وحضر دروسه الأكابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م). ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص ٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعي ج٣، ص ٢٤٩، ٢٩١.

(٢٧) ابن عساكر: كذب المفتري، ص١٠٩، السبكي: طبقات الشافعية، ج٢، ص٢٧٢.

(٢٨) ترجم عبد الغافر الفارسي لشيخه أمام الحرمين في طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٥٨.
(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٣٦١ .
(٣٠) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ٨ ص١٨.
(٣١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥ ص١٢١، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م .
(٣٢) ابن هداية: طبقات الشافعية، ص ١٧٤، ١٧٥ تحقيق. د.عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ط٣ ، بيروت، ١٩٨٢م.
(٣٣) طبقات الشافعية: ج٣، ص٢٥٢.
(٣٤) ابن عساكر: كذب المفتري، ص١٠٨.
(٣٥) أبو طاهر السلفي: معجم السفر ، ص ٢٧١ . تحقيق : عبد الله عمر البارودي ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣ م ابن الجوزي: المنتظم ج٩، ص١٠٦.
(٣٦) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٢، ص١٥٥، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٢٢٨. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ .
(٣٧) سير أعلام النبلاء: ج١٩، ص٣٩ .
(٣٨) عبد الغافر الفارسي : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، ص ٩٩ . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ .
(٣٩) المنتخب من السياق : ص ٩٧ .
(٤٠) المنتخب من السياق : ص ٤٢٢ .
(٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ١٠٥.
(٤٢) السيوطي: طبقات الحفاظ، ص٤٦٩،
(٤٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٠٦.
(٤٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٥٤.
(٤٥) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية ص١٢٦.
(٤٦) ابن قاضي شبهة: طبقات الشافعية ج١ ص٢٧٢. تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.
(٤٧) ابن الأثير: اللباب، ج١، ص١٤٧، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.
(٤٨) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ، ج١ ص ٢٦٣، ٢٦٤.
(٤٩) السكبي: طبقات الشافعية، ج٣، ص١٥٢.
(٥٠) عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة ، ص ٤٥ .
(٥١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٣، ص١١٢١، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص٤٢٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٥١.
(٥٢) عبد الغافر الفارسي : المنتخب من السياق ، ص ٣٨٤ .
(٥٣) السابق : ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٥٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٥، ص٤٨٩، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص١٦٨.

(٥٥) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ج٤، ص١١٥. تحقيق د. مفيد محمد متمية، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.

(٥٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥، ص٤٩٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص١٦٩.

(٥٧) إنباه الرواة: ج٣، ص٢٦٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط١ القاهرة ١٩٨٦م .

(٥٨) هند حسين طه: الأدب العربي في إقليم خوارزم منذ الفتح العربي ٩٣هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨هـ، ص٢٢٠، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.

(٥٩) تأثر المعتزلة تأثرا شديدا بالفلسفة الإغريقية ، فاقتبسوا منها ، وأجهدوا أنفسهم في أن يضيفوا إلى المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من أفكار علمية وفلسفية وأن يلائموا بينها ، ويخرجوا منها مزيجا جديدا يتفق وتعاليم الإسلام وأصوله ، وظل المعتزلة أقوياء ، لا ينازعهم منازع حتى تصدى لهم "أبو الحسن الأشعرى" الذي حمل عليهم وحاربهم حربا شعواء ، ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه . ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص١٦٨.عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٦٠) القفطي: إنباة الرواة، ج٣، ص٢٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٩.

(٦١) علي بن عيسى الحسني: علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس، ويعرف بابن وهاس من ولد سليمان بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان شريفا جليلا من أهل مكة وشرفائها وأمرائها وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة قرأ على الزمخشري بمكة وتوفي في سنة نيف وخمسين وخمسمائة. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٤، ص١٩٧، ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص٢٩٠. الأدباء تحقيق د/ إبراهيم السامرائى مكتبة المنار ط١ الأردن ١٩٨٥ م .

(٦٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٤، ص١٩٧، القفطي: إنباه الرواة، ج٣، ص٢٦٨.

(٦٣) القفطي: إنباه الرواة، ج٣، ص٢٦٨.

(٦٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٤، ص١٩٧.

(٦٥) معجم الأدباء: ج٤، ص١٩٧.

(٦٦) القطفي: إنباه الرواة، ج٣، ص٢٦٦، هند حسين طه: الأدب العربي في إقليم خوارزم، ص٢٢٨.

(٦٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص١٦٩.

(٦٨) القفطي: إنباه الرواة، ج٣، ص٢٧١.

(٦٩) القفطي: إنباه الرواة، ج٣، ص٢٧١.
(٧٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٥، ص١٧٠.
(٧١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩، ص٦١٥، ابن عساكر: كذب المفتري، ص٣٢٢.
(٧٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٦١٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١١.
(٧٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ص .
(٧٤) غطارفا : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف .
(٧٥) الحفية : كناية عن المبالغة في الكرم .
(٧٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٤، ص٥٨٣.
(٧٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص١٢٢، ١٢٣.
(٧٨) ابن جبير : رحلة ابن جبير المسماه (تذكرة بالأخبار من اتفاقات الأسفار) ص ١٢٨ ، بيروت ١٩٨١ م
(٧٩) تاج المعالي بن أبي الفتوح : هو أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني العلوي أمير مكة تولى إمارة مكة سنة (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) واستمر في حكمها حتى سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٢١.
(٨٠) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٣٧ . ترجمة : د/ يحيي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
(٨١) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤٠ .
(٨٢) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤١ .
(٨٣) معجم الأدباء :ج ٥ ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ . القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٢٠. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
(٨٤) معجم الأدباء : ج ٥ ص ٤٨٩ .
(٨٥) وفيات الأعيان : ج ٥ ص ١٦٨ .
(٨٦) إنباه الرواة : ج ٣ ص ٢٦٥ .
(٨٧) بغية الوعاة : ج ٢ ص ٢٧٩ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت ، ١٩٦٤م.
(٨٨) كان في صدر الإسلام الإقبال على الدين والزهد في الدنيا غالبا على المسلمين ، ولم يكونوا في حاجة إلى وصف يمتازون به عن غيرهم ، وإنما كان يشار إليهم بمسلم ومؤمن ، ثم تطور الاسم إلى زاهد وعابد ، ومن رحم تلك النزعة نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، واتخذوا ذلك طريقة تميزوا بها ، وكان ذلك ردة فعل لما زاد إقبال الناس على الدنيا ، وجنوحهم إلى مخالطة المتاع الدنيوي . مريزن سعيد مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، ص ١٤٤ . مكتبة الطالب الجامعي ، مكة الكرمة ، ط١ ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧ م .

(٨٩) آمنة محمد نصير : أبو الفرج ابن الجوزي (٥١٠هـ/٥٩٧م) وآراؤه الكلامية والأخلاقية ، ص ١٩٦ . دار الشروق ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٧ م .
(٩٠) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) ص ١٠٦.
(٩١) عبد المنعم حمادة : من رواد الفلسفة الإسلامية ، ص ١٢٨ . مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١ القاهرة ١٩٧٣ .
(٩٢) الربط : والرباط والمرابطة هي ملازمة العدو ، وربما سميت الخيل نفسها رباطا ، مصداقا لقوله تعالى في سورة الأنفال : "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ" والرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب . وفي هذا العصر أصبحت الكلمة تطلق على الأماكن التى يرتادها المتصوفون والزهاد للعبادة والانقطاع إلى الله ، ومجاهدة النفس ، كما أصبحت تلك الربط تؤدي خدما اجتماعية ودينية وثقافية في الوعظ والإقراء والتحديث ، ومنح الإجازات العلمية ، وتصنيف الكتب . ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ص ٤١ . مريزن سعيد مريزن : الحياة العلمية ، ص ٢٣٩ .
(٩٣) عبد العزيز بن راشد : المجاورون ، ص ٤٦ .
(٩٤) المنتظم : ج ٩ ص ٣١ .،
(٩٥) حسين سيد عبد الله مراد :المجاورون المصريون ، ص ١٢١ .
(٩٦) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ص ٣٣٠ . ١٢١ . حسين سيد عبد الله مراد :مرجع سابق ص ١٢٢ .
(٩٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ ص ٦٧ . حسين سيد عبد الله مراد :مرجع سابق ، ص ١٢٢ .
(٩٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ص١١٩ .
(٩٩) حسين سيد عبد الله مراد : المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين (٥٦٧ـ٦٤٨هـ/ ١١٧١ـ١٢٥٠م) ص ١٠٨ ، المجلة التاريخية المصرية ، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد (٣٨) ١٩٩٥م .
(١٠٠) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص١٣٣ .
(١٠١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٣ ص٣٥٢ .
(١٠٢) المنتظم : ج ٨ ص ٣٢٠ .
(١٠٣) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ص ٣٢٠ .
(١٠٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٢٧٠.
(١٠٥) السابق : ج ٨ ص ٢٧٠ .
(١٠٦) الخاتون : معناها السيدة الجليلة القدر في اللغة التركية ، وهو ما يليق بهذا اللفظ الملوكي من نساء الملوك والأمراء في العصر السلجوقي . ابن جبير : الرحلة ، ص١٤٧ .

(١٠٧) لم يذكر لنا ابن جبير اسم الخاتون المشار إليها في رحلته ، ولكنه قال ابنة الدقوس ، ولعله يذكر السلطان خوارزمشاه . الرحلة ص ١٤٤ .

(١٠٨) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٥ .

(١٠٩) الرحلة ص ١٤٧ .

(١١٠) رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار) ص ١٦٨ ، شرحه وكتب هوامشه : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٧م.

(١١١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ .

(١١٢)الحروب الصليبية : هي الحروب التي جرت وقائعها في الشرق العربي الإسلامي خلال الفترة من (٤٨٩- ٦٩٢ هـ/ ١٠٩٥ - ١٢٩١م) بين المسلمين وبين جيوش الغزو الأوربي ، التي جاءت على شكل حملات متعددة بقيادة بعض ملوك أوربا الغربية وبعض أمرائها الإقطاعيين ، مستغلين حالة التمزق السياسي المخيم على الشرق الإسلامي حتى نجح الصليبيون في زرع إمارتهم وممتلكتهم ومحو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام واحدة تلو الأخرى . ولم يمض قليل من الوقت حتى نجحت الحملة الصليبية الأولى في تأسيس إمارات أربع: ثلاث منها في الشام وواحدة في شمال غرب الجزيرة. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٢٩١، ترجمة د/ السيد الباز العريني، دار الثقافة ط ١، بيروت ١٩٦٧م. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٤ سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٠ م.

(١١٣) المنتظم : ج ٩ ص ٦٤ .

(١١٤)الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، الملقب بحجة الإسلام ، الفقيه الشافعي لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله ، كان صديقا للوزير نظام الملك وهو الذي فوض إليه التدريس في نظامية بغداد ، وله التصانيف الكثيرة ولد سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١ م) . السبكي : طبقات الشافعية ج٤ ص ١٠١ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢١٦ ، ابن الجوزي : المنتظم ج٩.

(١١٥)ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ص ٢١٦ . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩.

(١١٦) الوزير نظام الملك الطوسي : هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد بقرية من نواحي طوس سنة (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) عمل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان فلما أفل نجمهم وسقطت دولتهم على أيدي السلاجقة ، انتقل إلى خدمتهم ، ثم ما لبث أن اتخذه "ألب أرسلان" وزيرا له ، ولما قتل ألب أرسلان عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) اتخذه "ملكشاه بن ألب أرسلان" وزيرا له . قتل على يد اتباع "الحسن الصباح سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م).ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٤. الحسيني: الزبدة، ص١٤٠-١٤٥. ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص١٦١. السبكي: طبقات

الشافعية الكبرى، ج٣، ص١٣٥. خواندمير: دستور الوزراء. ص٢٤٥. ترجمة : د/ حربي أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠ م .

(١١٧)ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ص ٢١٦ .

(١١٨)الخليفة المستظهر بالله : هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله ، تولي الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدي بأمر الله ، وكان عمره ستة عشر سنة . وكان كريم الأخلاق لين الجانب سخي النفس ، متصفا بالعدل والإحسان ، وكان حسن الخط جيد التوقعات لا يقاربه فيها أحد ، يدل علي فضل غزير وعلم واسع .ابن الجوزي : المنتظم ج٩ ص ٨١ ، ٨٢ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٧٦ ـ ٤٨٠ .

(١١٩) الفرقة الإسماعيلية : هم الفرقة التي أدعت أن الإمام : جعفر الصادق قد نص علي إمامة ابنه إسماعيل ، وقد ظهرت هذه الفرقة في القرن الخامس الهجري ، وهي مزيج من فرق غالية معظمها من الشيعة . البغدادي: الفرق بين الفرق ص٦٢.

(١٢٠)الشهرستاني : الملل والنحل ص ٨٢ ، ٨٣ .

(١٢١) السبكي : طبقات الشافعية ،ج٤ ص ١٠١.

(١٢٢)عبد الغافر الفارسي : المنتخب من السياق ، ص ١٠٣ .

(١٢٣) المنتخب من السياق ، ص ٣١٥ .

(١٢٤)عبد الغافر الفارسي : المنتخب من السياق ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(١٢٥) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ١٨٨ .

(١٢٦) عبد الغافر الفارسي : المنتخب من السياق ، ص ٣٩ .

(١٢٧) السابق : ص ٤٦ .

(١٢٨) المنتظم : ج ٩ ص ١٠١ .

(١٢٩) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٩ ص ١٠٦ .

(١٣٠) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٥ ص ٤٨٩-٤٩٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ـ المصـــادر:

=ابن الأثير: علي بن أبي الكرم (٦٣٠هـ) .

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

٢- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.

=ابن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (٥٧٦هـ) .

٣ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي مكتبة المنار ط١، الأردن ١٩٨٥ م .

=الباخرزي:علي بن الحسن بن أبي الطيب (٤٦٧هـ) .

٤ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق ودراسة د/ محمد التونجي، دمشق ١٩٧٢م.

=ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (٧٩٧هـ).

٥ـ رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٨٧م.

=البغدادي: عبد القاهرة بن طاهر بن محمد البغدادي (٤٢٩هـ).

٦ـ الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق: محمد عثمان الخشب. مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٨م.

=الثعالبي: أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري (٤٢٩هـ).

٧ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.

=ابن جبير:محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ).

٨ـ الرحلة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) بيروت ١٩٨١ م .

=ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (٥٩٧هـ).

٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.
=الحسيني: صدر الدين علي بن ناصر (٦٢٢هـ) .
١٠ـ زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ،تحقيق: د/ محمد نور الدين،
دار اقرأ، بيروت. ١٩٨٢م.
=ابن خاوند شاه: محمد بن خاوند شاه بن محمود(٩٠٣هـ).
١١ـ روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.
=ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ).
١٢ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
=ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ).
١٣ـ وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت،
١٩٦٨م.
=خواندمير: غياث الدين خواندمير (٩٤٢هـ) .
١٤ـ دستور الوزراء، ترجمة : د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة ١٩٨٠ م
=الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين بن محمد الذهبي (٧٤٨هـ) .
١٥ـ تذكرة الحفاظ . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ .
١٦ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنـؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة
الرسالة، ط١، بيروت ١٩٨٤.
=السبكي: تاج الدين بن تقي الدين السبكي (٧٧١هـ).
١٧- طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة، ط٢ بيروت (د.ت).
=السمعاني: أبو سعد بن محمد بن منصور (٥٦٢هـ).
١٨ ـ الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت
١٩٩٨.
١٩ ـ التحبير في المعجم الكبير، تحقيق : منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.
=السيوطي:جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ).

٢٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة
المصرية، بيروت، ١٩٦٤م.
٢١- طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ١٩٨٣م.
=الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ).
٢٢ ـ الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة. ط١. بيروت. ١٩٨١م.
=أبو طاهر السلفي:أحمد بن محمد السلفي (٥٧٦هـ) .
٢٣ـ معجم السفر، تحقيق : عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م .
=عبد الغافر الفارسي: إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفيني (٦٢٢هـ).
٢٤ـ المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب
العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م .
=ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين (٥٧١هـ) .
٢٥ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧هـ.
=الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد (٨٣٢هـ) .
٢٦ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مكة المكرمة ١٩٥٦ م.
٢٧ـ العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة ١٩٦٧ م .
=ابن قاضي شهبة: أبو بكر أحمد بن محمد (٨٥١هـ).
٢٨ ـ طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.
=القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (٦٨١هـ).
٢٩ـ آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
=القفطي: جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف (٦٤٦هـ) .
٣٠ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي،
ط١ القاهرة ١٩٨٦م .
=القلقشندى: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ) .
٣١ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣ م .
=ابن كثير: عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ).
٣٢ـ البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
=أبو المحاسن: جمال الدين بن تغرى بردي الأتابكي (٨٧٤هـ).
٣٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م.

=ابن منظور: محمد بن مكرم المصري (٧١١هـ) .
٣٤ـ لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦ م.
=ناصر خسرو: ناصر خسرو علوي (٤٨١هـ) .
٣٥ـ سفرنامه:، ترجمة : د/ يحيي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
=ابن هداية: أبو بكر بن هداية الله الحسيني (١٠١٤هـ).
٣٦ـ طبقات الشافعية. تحقيق: د/ عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ط٣، بيروت، ١٩٨٢م.
=ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (٦٢٦هـ).
٣٧ـ معجم الأدباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.

ثانياً ـ المراجـــع :

=آمنة محمد نصير (دكتور)
١ـ أبو الفرج ابن الجوزي (٥١٠هـ/٥٩٧م) وآراؤه الكلامية والأخلاقية، دار الشروق،
ط ١، القاهرة ١٩٨٧ م .
=حسن إبراهيم حسن (دكتور)
٢ ـ تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.
=ستيفن رنسيمان
٣ـ تاريخ الحروب الصليبية ترجمة د/ السيد البازالعريني دار الثقافة، ط ١ ١٩٦٧م .
=شوقي ضيف (دكتور)
٤ـ تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف ط٣، القاهرة، ١٩٧٣م.
٥ـ تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٨٣م .
=عبد المجيد أبو الفتوح بدوي(دكتور)
٦ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس
الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والنشر،ط٢، المنصورة ١٩٨٨م.
=عبد المنعم حمادة (دكتور)
٧ـ من رواد الفلسفة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٧٣ .
=عبد النعيم حسنين(دكتور)

٨ـ سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م .
=فوقية حسين محمود (دكتور)
٩ـ الجويني إمام الحرمين، سلسلة أعلام العرب، العدد (٤٠) الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م .
=قاسم عبده قاسم (دكتور)
١٠ـ ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون
والآداب، الكويت ١٩٩٠ م .
=مريزن سعيد مريزن عسيري (دكتور)
١١ـ الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط١ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م .
=هند حسين طه(دكتور)
١٢ـ الأدب العربي في إقليم خوارزم منذ الفتح العربي ٩٣هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨هـ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.

ثالثا ـ الدوريـــات:
=حسين سيد عبد الله مراد (دكتور)
١- المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين(٥٦٧ـ٦٤٨هـ/١١٧١ـ١٢٥٠م) المجلة التاريخية المصرية، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد
(٣٨) ١٩٩٥م .
=عبد العزيز بن راشد السنيدي (دكتور)
٢- المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠ـ٦٦٠هـ/ ١١٧٤ـ١٢٦١م) بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ .

الأسيرات في الشرق الأدنى الإسلامي زمن الحروب الصليبية

د. محمد عبد الله المقدم (*)

مقدمـــة :

اندلعت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / أواخر القرن الخامس الهجري واستمرت في أدوارها النشطة طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ القرنان السادس والسابع من الهجرة وتوسعت من بلاد الشام لتشمل أجـزاء من مصر والعراق وبلاد الجزيرة الفراتية، ورافقتها عمليات أسر واسعة، شملت النساء جنباً إلى جنب مع الرجال والأطفال.

في البداية ينبغي التنويه إلى أن موضوع الدراسة تكتنفه بعض الصعوبات، مثل ندرة الإشارات المصدرية وتناثرها، وقلة المعلومات الإحصائية، كما أن غالبية مـؤرخي ذلك العصر تجاهلوا العنصر النسوي، وأدواره الهامة في الحرب والسلم.

فمن المعلوم أن الدوافع التي حركت الجموع الصليبية كانت مزيجاً من البواعث الدينية والدنيوية، فقد تأجج الحماس الديني مصحوباً بالمطـامع الماديـة، والمطـامع السياسية، والرغبات الشهوانية، والأحلام الرومانسية بنساء في غاية الحسن والجمـال، فحب النساء، ومفاتن المرأة الشرقية استثار سائر فئـات المجتمـع الأوربـي، الـذين تصوروا أن البلاد الشرقية مليئة بالمتع والملذات الحسية[١].

ومن المفارقات أن الرجل الغربي الذي راودته المتع والشهوات في بلاد الشرق، خشي على المسيحيات الغربيات من أهل تلك البلاد الذين دأبت الكتابات المسيحية علـى وصمهم باللهو والانغماس في الشهوات، واغتصاب الأسيرات المسيحيات [٢].

ونتيجة لتلك المخاطر المحتملة، لم تتحمس البابويـة لمـشاركة النـساء فـي الحملات الصليبية، وأوصت بمكوثهنّ في ديارهن[٣] لكن الوصـايا البابويـة لـم تلـق استجابة كاملة، حيث اندفعت نساء من مختلف فئات المجتمع الغربـي للمـشاركة فـي الحملات الصليبية، فقمن بخدمة أهلهنّ، وإعداد الطعام والشراب، ومـداواة المرضـى، وتضميد الجرحى، والتضرع للرب، وتحفيز المحاربين على القتـال، وحملـت بعـضهنّ السلاح، وساهمت أخريات في توفير وسائل الترفيه للمحاربين الصليبيين[٤].

(*) أستاذ مساعد بجامعة تعز.

وفي هذا السياق يميز الفقه الإسلامي بين النساء العجائز والفتيات الشابات، فلا يُجيز خروج الشواب بصحبة الجيوش الإسلامية، خشية الخلطة والفتنة، وخوفاً من وقوعهنّ سبايا بأيدي الأعداء، ويسمح للنساء المُسنات بمرافقة المحاربين للقيام بأعباء الخدمة والطبخ والسقي والمداواة [٥].

ولم يكن لتمييز الفقه الإسلامي إي أثر عملي في أرض الواقع، فالمسلمون كانوا في مرحلة جهاد الدفع وليس جهاد الطلب، فقد اتسمت الحروب الصليبية في بواكيرها الأولى بطابع هجومي استهدف المسلمين في مدنهم وقراهم، وبالتالي وقعت سائر الفئات العمرية النسوية بأيدي الفرنجة، فالقس فوشيه الشارتري يفاخر بأن قومه ذبحوا رجال أنطاكية، وأبقوا على " زوجاتهم وعائلاتهم" [٦].

ومع توالي تساقط المدن الإسلامية، وقع كثير من النساء المسلمات أسيرات في أيدي الغزاة الصليبيين في الكثير من المدن الشامية والجزرية والمصرية [٧] والغريب أن عبيد أوربا الذين تاقوا للتخلص من قيود القنية وأصفاد العبودية، فرضوا العبودية على نساء المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي.

وشملت قائمة الأسيرات المسلمات فئات متنوعة، ويأتي على رأسها نساء من أصحاب الشوكة والسلطان، كزوجة قلج أرسلان الأول سلطان سلاجقة الروم (٤٨٥-٥٠١هـ/١٠٩٢-١١٠٧م) التي أسرتها القوات البيزنطية الصليبية في عام ٤٩١هـ / ١٠٩٧م[٨] كما أن ياغي سيان صاحب أنطاكية فرّ من مدينته عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م تاركاً زوجته سبية بأيدي الفرنجة[٩] ووقعت أميرة سلجوقية من عقائل[١٠] الأمير جكرمش في أيدي تانكرد الذي صد هجوماً سلجوقياً على الرها في عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م[١١] ووجدت زوجات بلك بن بهرام أنفسهنّ أسيرات بعد احتيال الأسرى الفرنج في الاستحواذ على قلعة خرتبرت[١٢] عام ٥١٧هـ/١١٢٣م[١٣] وداهم الفرنجة في عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م حصن القبة[١٤] وأسروا حريم خلف بن ملاعب وبنت سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر[١٥].

ومع أن المسلمين تعرضوا لهزائم مريرة في البواكير الأولى للحروب الصليبية، إلا أنهم استعادوا زمام المبادرة، ووقعت كثير من نساء الفرنج سبايا في أيدي المسلمين[١٦]، فعقب فتح بيبرس مدينة أنطاكية عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م "تقاسم الناس النسوان والبنات"[١٧] وتمكنت أسرة قلاوون من طرد البقايا الصليبية من بلاد الشام، وسيقت كثير من الأسيرات الصليبيات إلى ديار الإسلام[١٨].

وتضم قوائم الأسيرات الصليبيات فئات عمرية واجتماعية متنوعة، فكما أن هناك أسيرات كثر من الشرائح الدنيا، فكذلك وجدت أسيرات نبيلات، حيث يُعتقد أن الكونتيسة إدا النمساوية Ida of Austria التي شاركت في صليبية ٤٩٥هـ/١١٠١م وقعت أسيرة بأيدي المسلمين[١٩] وإذا كانت الشكوك تحوم حول قتل أو أسر إدا النمساوية، فإنه من المؤكد أن زوجة رينيه بروس Renier Brus صاحب بنياس وقعت مع العديد من النساء الصليبيات أسيرات في أيدي قوات شمس الملوك إسماعيل

بن بوري أمير دمشق (٥٢٦ – ٥٢٩ هـ/١١٣٢ – ٢١١٣٥) الذي استطاعت قواته فتح مدينة بانياس سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م[٢٠].

وجرت العادة على معاملة الأسيرات بحسب أهميتهنّ السياسية، ومكانتهنّ الاجتماعية، وجاذبيتهنّ الجمالية، وقدراتهنّ العقلية، وخبراتهنّ العملية، ومردوداتهنّ المادية[٢١] وينسحب هذا الأمر على عصر الحروب الصليبية، والعصور الوسطى بشكل عام.

فقد اندهش الفرنجة من المعاملة الكريمة التي حظيت بها زوجة قلج أرسلان من قبل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنيين[٢٢] وبالطبع كانت الجموع الصليبية تتوق لإرضاء غرائزها الإنتقامية، وإشباع رغباتها المادية، فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري يُشير إلى وليم William رفيق كونت تولوز ريموند الصنجيلي Raymond de Saint-Gille الذي كان من "حسن طالعه" [٢٣] أن وقعت زوجة ياغي سيان في قبضته مع طفلين صغيرين لابنها شمس الدولة، فلم يتخلى وليم عن تلك الغنيمة إلا "بقدر كبير من المال"[٢٤].

ومما يؤكد حقيقة النهم الصليبي للأموال أن الأمير جكرمش عرض فداء أميرة سلجوقية، إما بمبادلتها بكونت الرها الأسير بلدوين دي بورج، أو بدفع فدية كبيرة، ففضل بوهيمند وتانكرد الأموال على رفيقهما الذي ظل قابعاً في محبسه[٢٥] ولا ريب أن هذه الواقعة تكشف حقيقة أولئك الأشتات المتنافرة الذين لا تجمعهم وشائج أسرية، ولا روابط اجتماعية، ولا قيم دينية أصيلة.

بل كثيراً ما دبت الغيرة والكراهية بين الصليبيين نتيجة الأموال التي يحصدونها من افتداء الأسيرات المسلمات ذوات المكانة العالية في المجتمع المسلم [٢٦] غير أن ذلك لا يعني انعداماً تاماً للجوانب الإنسانية في الشخصية الصليبية، فالملك الصليبي بلدوين الأول الذي هاجم إحدى القبائل العربية في الأردن عام ٤٩٥هـ /١١٠٢م، تعامل بروح إنسانية راقية مع زوجة أحد كبار شيوخ القبيلة، والتي كانت تعاني من آلام المخاض،حيث أطلق سراحها، ووفر لها كل ما تحتاجه من الفراش والزاد والشراب، وخصص لها وصيفة تقوم بخدمتها ورعايتها[٢٧].

وبالطبع كان ذلك التعامل الإنساني يمثل حالةً استثنائية في الجانب الصليبي، بينما تعامل المسلمون برفق ورحمة مع سائر الأسيرات الفرنجيات، ففي أثناء فتوحات صلاح الدين وقعت كثير من النساء الصليبيات سبايا بأيدي المسلمين، وعاملهنّ صلاح الدين بغاية الإجلال والاحترام، ومنح الأمان لنساء كبار الأمراء الفرنجة، وأذن لهنّ بالخروج من بيت المقدس بكرامة[٢٨].

وإذا كانت سيدات المجتمع الأسيرات قد حظين بمعاملة كريمة سواءً من قبل المسلمين أو الصليبيين، فإن ذلك لا ينسحب غالباً على الأسيرات اللاتي ينحدرنَ من الفئات الدنيا في المجتمعين الصليبي والإسلامي، فهؤلاء النسوة عانينَ من سلسلة

الحروب والهزائم، وما يتلوها من متاعب ومعاناة، وحياة ذل وعبودية، وعيش في الغربة والمنافي بعيداً عن الأهل والديار.

إذ تعرضت الأسيرات للقتل والضرب والتعذيب والتمثيل والاغتصاب، واعتاد الفرنجة في فجر الحروب الصليبية على قتل الأسرى والأسيرات، لكنهم غيروا من سياستهم في المراحل الزمنية التالية، حيث خفت حماستهم الدينية، وهدأت رغباتهم الانتقامية، وأصبحت حروبهم ذات طابع توسعي، وازدادت حاجتهم للأيدي العاملة [٢٩].

وتجدر الإشارة إلى أن احتمالية بقاء الأسيرات على قيد الحياة كانت أكبر بكثير من بقاء الأسرى الرجال، ويعود ذلك للأعراف والتقاليد السائدة في تلك العصور، ومساهمة المرأة المحدودة في الحروب، وكذلك مطامع الرجال في إشباع رغباتهم وغرائزهم.

لذلك كانت فرص بقاء الأسيرات على قيد الحياة تتفاوت بحسب مظهرهنّ الجمالي، فالأسيرات الجميلات كنّ أكثر حظاً في البقاء على قيد الحياة، مقارنة بالأسيرات الأقل جمالاً، فالمغول اقترفوا مذبحة مروعة عند اجتياحهم لبغداد، لم يسلم منها سوى البنات الحسان [٣٠].

وكما أن للجاذبية الجمالية دوراً في الإبقاء على حياة الأسيرات، فكذلك يرتبط الأمر بفئاتهنّ العمرية، فكثيراً ما أقدم الغزاة الفرنجة والمغول على قتل العجائز واستحياء الفتيات الصغيرات والشابات [٣١] وهذا التوجه ينسجم مع ما ورد في الكتاب المقدس من حض على قتل النسوة اللاتي سبق لهنّ مضاجعة الرجال والإبقاء على حياة الفتيات العذارى [٣٢].

وكان يتم قتل الأسيرات والتمثيل بجثثهنّ أحياناً، فالقس فوشيه الشارتري يفاخر ويتلذذ بوحشيه رفاقه الصليبيين الذين اجتاحوا أنطاكية ولم يؤذوا النساء الأسيرات ولم يقترفوا شراً معهنّ بحسب قوله "وإنما بقروا بطونهنّ فحسب" [٣٣].

ولم تقتصر الوحشية الصليبية على الأسيرات المسلمات فقط، بل تعدتها أحياناً إلى المسيحيات الشرقيات، فلم تتورع إحدى كتائبهم عن نزع نهدي امرأة مسيحية كانت تدافع عن دارها أثناء صليبية عام ٤٩٥هـ/١١٠١م [٣٤] وبدورها تتهم الكتابات الصليبية الخوارزمية باستباحة بيت المقدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وتشريح صدور الأسيرات الفرنجيات، ونزع أثدائهنّ من أماكنهنّ وهنّ ما زلن على قيد الحياة [٣٥].

ولا شك أن الأسيرات تعرضن للإيذاء والضرب [٣٦] كما كان يتم توثيقهن بالحبال والقيود، ويتم اقتيادهنّ وهنّ مكبلات بأصفاد الحديد، فتدمع لرؤيتهنّ العيون، وتتفطر لانكسارهنّ الأكباد، وتذوب لمواجعهنّ القلوب بحسب تعبير ابن جبير [٣٧] وإجمالاً فقد تعرضت الأسيرات للتركيع والإذلال، وكان يتم سوقهنّ إلى المدن والأسواق كما تساق المواشي والأغنام [٣٨].

فالنساء الأسيرات غالباً ما يتحولن إلى إماء، يُبعن في أسواق النخاسة، في حين يفضل بعض الآسرين الاحتفاظ بسباياهم للقيام بالخدمات المنزلية، بالإضافة طبعاً إلى

الخدمات الترفيهية لسادتهنّ، وهذا الأمر كان شائعاً لدى المسلمين والصليبيين، مع الفارق أن هذا السلوك له مسوغ شرعي ضمن قواعد الفقه الإسلامي، بينما قام به السادة الفرنج تجاوزاً للقواعد الكنسية.

وكان يتم فرز وتصنيف الأسيرات بحسب قدراتهنّ البدنية، ومحاسنهنّ الجمالية، وما يُحسنّ من الحرف والأعمال، فالأسيرات ذوات القدرات البدنية يسخرن للقيام بالأعمال الشاقة، والأعباء المنزلية، فالفرنج الذين قاموا بمذابح لسكان المدن الإسلامية في فجر الحروب الصليبية(٣٩) احتفظوا بأسيرات قيسارية(٤٠) في رجب ٤٩٤هـ/مايو١١٠١م لتدوير الطواحين اليدوية(٤١) ومن المؤكد أن كثير من الأسيرات قمن بالخدمة في بيوت سادتهنّ المسلمين والصليبيين كطباخات وغسالات، وفي كافة الشئون والأعمال المنزلية، والأشغال اليدوية(٤٢).

أما الأسيرات ذوات الفطنة والذكاء، فكن يعملن كمدبرات للقصور، ومربيات لأطفال سادتهنّ، كما يستخدمهنّ القادة الطموحين في أعمال الجاسوسية(٤٣) وبالنسبة للأسيرات ذوات الطبائع الرقيقة، واللاتي يتسمن بقدر عال من الحسن والجمال، فقد تم استغلالهنّ للقيام بالعزف والرقص والغناء والطرب، وفي كل ما يتعلق بالترف والرفاهية، فقد استخدم فرنج يافا الأسيرات المسلمات في الحانات للتسلية وإشباع رغبات السادة الفرنج(٤٤) وهذا الأمر يدل بوضوح على تعرض المرأة الأسيرة للامتهان والإذلال.

ولعل أفظع ما تخشاه المرأة هو وقوعها في أسر الأعداء، وكان هذا الهاجس يفزع آبائهنّ وإخوانهنّ وأزواجهنّ، فقبيل هجوم تانكرد على الأثارب(٤٥) سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م قام أهالي البلدة بترحيل نسائهم إلى حلب(٤٦) وهو إجراء يبدو الغرض منه الحرص على سلامتهنّ، وتجنيبهنّ أي فظائع وتجاوزات قد يقترفها الفرنج.

كما أن أهالي مدينة صور المحاصرين من قبل الصليبيين عام ٥١٨هـ/١١٢٤م هموا بقتل نسائهم وأطفالهم "غيرة من تملك النصارى لهم"(٤٧) لكن فقهاء المدينة زجروهم عن القيام بتلك المذبحة(٤٨).

ولا شك أن أهالي صور خافوا على نسائهم من السبي والفضيحة، وهذا النوع من التفكير يذكرنا بنحر اليهود لنسائهم وأطفالهم في مدن حوض الراين خلال الصليبية الأولى.

ويتجسد خوف المرأة على شرفها وعفتها في قصة الفتاة الكردية رفول بنت أبي الجيش (ت ق٦هـ/١٢م) والتي أسرها الفرنجة، لكنها تمكنت من القفز من فوق فرس آسرها، وألقت بنفسها في النهر(٤٩) حرصاً على عفتها، وفضلت الموت على ذلك، وحافظت على شرفها وشرف أهلها وعشيرتها، ولذلك أورد الفارس والشاعر أسامة بن منقذ قصتها في سياق مدحه لنخوة النساء الشريفات وشجاعتهنّ.

كما أورد أسامة قصة أمه مع أخته أثناء قيام النزارية بالهجوم على شيزر- شمال غرب حماة - حيث وضعت الأم ابنتها في شرفة البيت، لتقذف بها إلى الوادي إذا

ما وصل النزارية إلى الدار، مفضلة موت ابنتها على أن تراها مسبية بأيدي الفلاحين الأجلاف من النزارية(٥٠).

ومن جهة أخرى، كان الفرنجة يتخوفون من وقوع نسائهم أسيرات بأيدي المسلمين، فالحشود الصليبية التي تجمعت قبيل حطين، أسرعت لإنقاذ الكونتيسة إشيفا Eschiva أميرة الجليل وزوجة ريموند الثالث Raymond III صاحب طرابلس التي حاصرها صلاح الدين في مدينة طبرية (٥١).

وأثناء حصار صلاح الدين للقدس، عزم الفرسان الفرنجة على القتال مهما كانت النتائج، لكن البطريرك الصليبي للقدس هرقل Heraclius (١١٨٠ - ١١٩١م) نصحهم بالتفاوض مع صلاح الدين، بهدف إنقاذ النساء الفرنجيات من الوقوع في براثن العبودية، مع ما قد يترتب على ذلك من تغيير دينهنَّ، وانتهاك شرفهنَّ (٥٢).

وعاشت سيدة فرنسا الأولى الملكة مارجريت دي بروفانس Marguerite de Provence زوجة لويس التاسع Louis IX (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) أياماً عصيبة في دمياط، حيث كانت تخشى الوقوع في شباك الأسر بعد أسر زوجها أثناء الحملة الصليبية السابعة (٥٣).

وتعكس قصة نور الدين ومريم الزنارية ضمن قصص ألف ليلة وليلة، مخاوف الأمهات من امتهان بناتهنَّ، فبعد أن عادت مريم بعد فترة أسر طويلة، بادرتها أمها بالسؤال إن كانت ما زالت بكراً، فاندهشت مريم من سؤال أمها، إذ كيف يمكن للمرأة أن تحافظ على موطن شرفها بعد سبيها وبيعها، وأخبرتها بأن التاجر الذي اشتراها هددها وتوعدها وضربها وأكرهها وافتض بكارتها(٥٤).

ومن الطبيعي أن تتعرض الأسيرات الحسناوات للاغتصاب بشكل أكبر من الأسيرات الأقل فتنة وجمالاً، فخلال الحملة الصليبية الرابعة، غطى البيزنطيون وجوه نسائهم الجميلات بالطين والأوساخ والأوحال، لمنع استثارة الفرنج الذين كانوا يبحثون عن النساء ذوات الهيئة الجميلة والوجوه المليحة(٥٥).

وكان من الصعوبة أن تستطيع المرأة الأسيرة الحفاظ على عفتها وشرفها في ظل الظروف الصعبة للأسر، وإزاء ذلك فقد اعتقد كل من المسلمين والفرنجة واليهود أن أسر المرأة العفيفة النظيفة أسوأ من الموت، فخلال اندفاع حملة الرعاع الصليبية باتجاه الشرق، تعرضت نساء يهوديات للاغتصاب في مدن حوض الراين، وهذا الأمر أدى إلى حالة من الذعر في أوساط يهود تلك البلاد، فأقدمت يهوديات على الانتحار، بينما قامت أخريات بشد الأحزمة بقوة على مواضع عوراتهنَّ، وذبحن بناتهنَّ خشية تعرضهنَّ للإغتصاب(٥٦) ولم يكتف الفرنجة باغتصاب يهوديات شمال فرنسا وحوض الراين، بل واصلو افتراسهم للأسيرات اليهوديات عند اجتياحهم للقدس ومدن الشرق الأدنى الإسلامي(٥٧).

كما تعرضت الأسيرات المسلمات للاغتصاب عند احتلال الفرنجة لأنطاكية والقدس، حيث انتابت الفرنجة شهوة عارمة لافتراش ومضاجعة الوثنيات بحسب

توصيف الكتابات الفرنجية(٥٨) وانتُهكت حُرمة نساء الأمير بلك بن ارتق أثناء استيلاء الفرنجة على قلعة خرتبرت عام ٥١٧هـ /١١٢٣م(٥٩) ووقع الأمير جوسلين الثاني Joscelin II في الأسر أثناء انتهاكه حرمة أسيرة تركمانية ٥٤٥هـ / ١١٥٠م (٦٠).

ولوث الفرنجة شرف الأسيرات المسلمات خلال اقتحامهم لمدينة دمياط في عام ٦١٤هـ / ١٢١٩م ، حيث باتوا في المسجد الجامع "يفجرون بالنساء ويفتضون البنات"(٦١) وتكررت الانتهاكات الصليبية للأسيرات المسلمات أثناء مباغتة القبارصة الصليبيين مدينة الإسكندرية عام٧٦٧هـ/١٣٦٥م (٦٢).

والحقيقة أن النساء الأسيرات تعرضن لعمليات اغتصاب فردية وجماعية، كنتيجة متوقعة للإباحية التي تعقب الانتصارات والفتوحات، حيث يُطلق المنتصرون غرائزهم المكبوتة، وشهواتهم الجامحة، وتكون الأسيرات ضحايا لتلك الرغبات المسعورة، والمشكلة أن تلك التجاوزات والانتهاكات التي تعرضت لها الأسيرات لم تكبحها أي ضوابط دينية أو أخلاقية أو إنسانية، بل صارت جزءاً من ثقافة الحرب في العصور الوسطى.

وفي المقابل يتهم الفرنجة المسلمين بأنهم لم يحترموا حُرمة الأسيرات الصليبيات (٦٣) فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري أشار إلى أن زوجة رينييه دي بروس فشلت في الحفاظ على عفافها خلال فترة أسرها عام٥٢٧هـ / ١١٣٢م (٦٤) كما أن الكتابات الصليبية اتهمت الجنود المماليك بالتحرش بفرنجيات عكا عام ٦٩١هـ/١٢٩١م(٦٥).

ومن المفارقات المؤلمة سبي النساء المسلمات من قبل المسلمين أنفسهم، فبلك بن بهرام بن ارتق الذي خسر مدينة سروج لصالح الفرنجة، توجه في عام ٤٩٧هـ/١٠٩٧م إلى مدينة عانة (٦٦) الإسلامية، وسبى نساءها (٦٧) كما أن الخوارزمية عاثوا فساداً في المدن الشامية عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وسبوا نساء المسلمين، وارتكبوا الموبقات بحقهنّ في الجوامع (٦٨) مع أنه لا يجوز في الفقه الإسلامي سبي المسلمات، فالمسلمة لا تسبى ولا تسترق من قبل إخوانها المسلمين (٦٩) ناهيك عن اغتصابها، كما أن التشريعات الكنسية الصليبية لا تجيز للصليبي سبي المسيحية الكاثوليكية واسترقاقها(٧٠).

وكما اغتصبت النساء المسلمات، فقد اغتصبت النساء المسيحيات على أيدي الصليبيين، فالعصابات الصليبية انتهكت حرمة المسيحيات في البلقان أثناء الحملة الشعبية (٧١) كما أن القائد الصليبي رينو دي شاتيون Renauld de Chatillon وجنده عاثوا فساداً في جزيرة قبرص عام٥٥١هـ/ ١١٥٦م، واغتصبوا نساءها(٧٢) وأثناء الحملة الصليبية الرابعة انتهكت أعراض النساء البيزنطيات في بيوتهنّ وأديرتهنّ وكنائسهنّ(٧٣).

وبالرغم من كل ضروب المعاناة التي تعرضت لها الأسيرات، إلا أنه كان يتم أحياناً مراعاة بعض الجوانب الإنسانية، كزيارة الأسرى وتفقد أحوالهم، وكان هذا

السماح يتم بشكل شخصي أو بطرق رسمية، فقد سمح الحكام المسلمون للفرنجة بتفقد أسراهم في دمشق في عهد كل من مجير الدين أبق وصلاح الدين الأيوبي[٧٤] كما تعاطف أفراد من المجتمع الإسلامي مع محنة الأسيرات الصليبيات بعد معركة حطين، وسمحوا لهنّ باللقاء والتزاور لتخفيف مصائبهنّ وأحزانهنّ[٧٥].

وفي المقابل سمحت بعض الفئات الصليبية الرسمية والشعبية للمسلمين بتفقد أحوال أسراهم لدى الجانب الصليبي[٧٦] ولم يكن سماح الجانبين الإسلامي والصليبي بزيارة الأسيرات ذا جانب إنساني صرف، بل تداخلت عوامل دينية ومادية في هذا الجانب، فأهالي الأسيرات خافوا على نسائهم من التحول الديني، كما تطلع الآسرون أحياناً للفدية المالية، وسمحوا بالزيارات من أجل تحقيق هذا الهدف .

ونتيجة للمخاطر الجمة التي تتعرض لها النساء الأسيرات، أولت المجتمعات الإسلامية والمسيحية واليهودية عناية خاصة لتحرير الأسيرات، فقُدمت الأسيرات في الفدية على الأسرى الرجال، وبالطبع كانت الأولوية في الفدية للأسيرات حتى لا يفقدن حريتهنّ، وتنتهك عفتهنّ، ويُفتن في دينهنّ.

وتجدر الإشارة، إلى أن طرق تحرير الأسيرات كثيرة ومتنوعة، فالمنّ والتبادل والفداء، كانت من أبرز الطرق والوسائل التي تحرر من خلالها الكثير من الأسرى والأسيرات[٧٧] ففي بعض الأحيان تطوع الملوك والأمراء وبعض الفئات الاجتماعية في المنّ على الأسيرات وعتقهنّ بدون فدية، ومن المحطات التاريخية التي تجسد فيها هذا النهج، قيام الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنيين بإطلاق زوجة السلطان قلج أرسلان وحاشيتها بدون فدية مالية [٧٨] وإطلاق بلدوين الأول سراح زوجة أحد الأعراب مع وصيفتها في رجب ٤٩٥هـ/مايو ١١٠٢م[٧٩] وبرزت هذه الطريقة بجلاء أثناء فتوحات صلاح الدين، وخصوصاً عند تحرير بيت المقدس، حيث أُطلق سراح كثير من الأسرى والأسيرات الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم[٨٠].

كما نظمت العديد من الهُدن والمعاهدات والمفاوضات الدبلوماسية بين الدويلات الإسلامية والصليبية عملية تبادل الأسرى بين الجانبين[٨١] وبذلت جهود فردية ومجتمعية من أجل تحرير الأسيرات وافتدائهنّ بالأموال، فالزوج كان ملزماً دينياً وأخلاقيا وأدبياً بافتداء زوجته، فالكثير من الأفراد المسلمين والمسيحيين واليهود سعوا بهمة من أجل افتداء زوجاتهم، حتى مع احتمال عدم استمرارية الحياة الزوجية، نتيجة للانتهاكات التي تعرضن لها أثناء فترة الأسر[٨٢].

فكوهين اليهودي افتدى زوجته الأسيرة لدى الفرنجة [٨٣] والنبيل الصليبي رينيه دي بروس Reinier de Brus افتك زوجته الأسيرة لدى الدماشقة [٨٤] والحقيقة أن أي تقاعس عن افتداء الأسيرات، وخصوصا المتزوجات منهنّ، يعني تحلل العلاقات الزوجية، وتفكك الروابط الأسرية، ويبدو أن المسلمين كانوا أكثر انسجاماً وتماسكاً في نسيجهم الاجتماعي والقيمي من الصليبيين.

فنتيجة للروابط الاجتماعية والأسرية الوثيقة لدى المسلمين، ونتيجة أيضاً لتفوق الجانب الأخلاقي لديهم، اهتم رجال مسلمون ليس في إطلاق سراح زوجاتهم فحسب، بل والسعي لافتداء طليقاتهم، فسلطان بن منقذ عم الفارس أسامة بن منقذ افتدى طليقته التي أسرها الفرنجة بخمسمائة دينار قائلاً " ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الفرنج"(٨٥).

ومثلما كان الأزواج ملزمين بفداء زوجاتهم، فلا شك أن الآباء اهتموا بفداء بناتهم، واهتم الإخوة بفداء أخواتهم وعماتهم وخالاتهم، وسائر قريباتهم وأرحامهم، بل إن النساء اللائي لا عائل لهنّ بذلن ما في وسعهنّ لافتداء قريباتهن(٨٦).

كما رأى الميسورون وأهل الثراء من المسلمين والصليبيين واليهود أن من واجبهم إنفاق أموالهم في افتكاك الأسرى والأسيرات، فالأثرياء المسلمون ضحوا الكثير من أموالهم في الوقفيات التي خصصت لافتداء الأسرى والأسيرات(٨٧) كما أن الصليبيين الأغنياء في الشرق والغرب أنفقوا بسخاء على الجمعيات المهتمة بالأسرى والأسيرات(٨٨).

وأسهم الأمراء والحكام في شراء حرية الأسيرات، فبذل كلّ من معين الدين أنر ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وأخوه العادل وتقي الدين عمر الأيوبي وغيرهم أموالاً طائلة سواءً من ممتلكاتهم الخاصة، أو من الخزائن العامة لإماراتهم ودولهم في عملية افتداء الأسرى والأسيرات(٨٩).

كما أسهم ملوك وأمراء ونبلاء غرب أوربا والدويلات الأسبانية، بالإضافة إلى ملوك وأمراء الصليبيين في الشرق في دعم أنشطة المنظمات الدينية المسيحية المهمومة بشئون الأسرى في مشرق الوطن العربي ومغربه(٩٠).

وشاركت الخواتين(٩١) وسيدات المجتمع أيضاً في عمليات تحرير وافتداء الأسرى والأسيرات(٩٢) كما أن نساءاً من الفئات الدنيا والوسطى قمنّ بدورٍ مهمٍ في شراء حرية الأسيرات المختطفات لدى الفرنجة(٩٣).

وإذا كانت البابوية قد وقفت بقوة من وراء تأسيس المنظمات المهتمة بالأسرى والأسيرات، فقد اقتصر دور المؤسسات الإسلامية على تشجيع الأثرياء والحكام ورعاياهم في دعم الوقفيات التي رُصدت لافتداء الأسرى والأسيرات(٩٤) مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجهد المسيحي لتحرير الأسرى كان منظماً ومنسقاً عبر جمعيات وهيئات خصصت جزءاً من نشاطها أو جُل اهتماماتها لقضية افتكاك الأسرى، بينما اكتفى المسلمون بحبس الأوقاف دون إنشاء أي منظمات متخصصة في افتداء الأسرى .

ومن نافلة القول أن الفئات التي اهتمت بافتداء الأسرى والأسيرات، كان لها مزيج متداخل من الأهداف الدينية والإنسانية والدعائية والسياسية، فكل الشرائع السماوية حضت على افتكاك الأسرى والأسيرات لتخليصهم من حياة الرق والعبودية، وجعلت جزاء ذلك المغفرة وتكفير الخطايا(٩٥) ولا شك أن أناس كثر من الشرائح المهتمة بافتداء الأسرى حركتهم الدوافع الدينية.

وإلى جانب الدوافع الدينية نجد الدوافع السياسية، فالملوك والأمراء والحكام جنوا مكاسب سياسية ودعائية من وراء عمليات افتداء الأسيرات، إذ أصبح هذا الأمر ميداناً للتباهي والاستعراض في أوساط مجتمعاتهم وبين رعاياهم، فشاع ذكرهم، وازدادت مكانتهم، وتعزز حكمهم وسلطانهم.

كما أن مبادرة الملوك والأمراء بإطلاق سراح أسيرات الأعداء، قد خفف من حالة العداء بين المتحاربين، وقارب بين الخصوم، وسمح بقيام نوع من العلاقات بين الدول قائمة على الاحترام، ولم يقتصر الكسب الدعائي على الساسة بل تعداه إلى المنظمات التبشيرية المهمومة بالأسرى، إذ ارتفعت أسهمها في الغرب الأوروبي، وذاع صيتها في عوالم المسيحية برمتها، نتيجة لتنافسها وتفانيها في افتداء الأسيرات والأسرى المسيحيين، فلفتت الأنظار إلى نشاطاتها، وجذبت الانتباه لمنظماتها وقادتها ومبشريها، كما ضُخت الكثير من الأموال في خزائنها، وبالطبع لا يعني هذا غياب البعد الإنساني في عمليات تحرير الأسرى.

ويقودنا الحديث عن افتداء الأسيرات إلى الكلام عن أثمانهنّ والاتجار بهنّ، فقد تأرجحت أسعار الأسيرات وفقاً لمواصفات الأسيرات وكنتيجة طبيعية للعرض والطلب، إذ ارتفعت أسعارهنّ في أوقات السلم، وانخفضت أسعارهنّ بعد اجتياح المدن ذات الكثافة السكانية، وفي أعقاب المعارك الكبرى بين المسلمين والصليبيين، ولا ريب في أن المكانة الاجتماعية ، والمواصفات الجمالية والعقلية والبدنية لعبت دوراً مهماً في تحديد قيمة الأسيرات.

ونتيجة لكثرة الأسرى والأسيرات بعد معركة حطين، كان يباع الأسير الصليبي في أسواق دمشق بثلاثة دنانير[٩٦] وبما أن المرأة الأسيرة يتم شراؤها عادة بنصف سعر الرجل، فمن المفترض أن يتحدد سعرها بدينار ونصف.

وسمح صلاح الدين لصليبي القدس بمغادرة المدينة عام٥٨٣هـ /١١٨٧م، على أن تفدي المرأة نفسها بخمسة دنانير، والرجل ضعف فدية المرأة [٩٧] وفي العصر المملوكي انخفضت أسعار الأسيرات الصليبيات بشكل لافت، فعقب فتح السلطان بيبرس لمدينة أنطاكية عام ٥٦٤هـ /١١٦٨م، انخفض سعر الأسيرة إلى خمسة دراهم [٩٨] وازداد انخفاض أسعار الأسيرات مع طرد البقايا الصليبية من عكا عام٦٩١هـ/ ١٢٩١م إذ تدنى سعر الأسيرة الصليبية إلى درهم واحد فقط [٩٩].

تلك كانت هي أسعار الأسيرات العاديات، أما الأسيرات ذوات الجمال والحُسن، فلم يبالي الناس بشرائهنّ مهما ارتفع سعرهنّ [١٠٠] كما أن الأسيرات النبيلات لم يكنّ يُعرضن في أسواق النخاسة، وإنما يقوّم سعرهنّ، ويتم افتداؤهنّ، فعقيلة الأمير جكرمش تم افتكاكها بخمسة عشر ألف دينار[١٠١] كما تم شراء حرية زوجة ياغي سيان بمبلغ كبير من المال[١٠٢].

وتجدر الإشارة؛ إلى أن عكا كانت من أهم أسواق الرقيق لدى الجانب الصليبي، في حين اشتهرت القاهرة ودمشق وحلب بهذه التجارة لدى الجانب الإسلامي[١٠٣] وتفوق

البنادقة والجنوية على غيرهم في تجارة الرقيق زمن الحروب الصليبية [١٠٤]، وتعجب ابن جبير من التجارة النشطة بالسبايا بين المسلمين والصليبيين، وعدّ ذلك نوعاً من الاعتدال في السياسة[١٠٥].

وكما تم بيع وشراء الأسيرات، تم أيضاً إهداؤهنّ، فبعد انقشاع غبار المعارك، كان يتم تقسيم السبايا بين المنتصرين، وتنتقى الأسيرات الجميلات، ويتم إهداء بعضهنّ للقادة الذين أسهموا في الفتوحات والانتصارات، وتهدى أخريات للأصدقاء ولذوي الحظوة والسلطان[١٠٦].

وإضافة إلى فقدان الأسيرات لحرياتهنّ، وانتهاك عفتهنّ، والانتقاص من إنسانيتهنّ، فقد تعرضت الأسيرات لمخاطر تحويلهنّ عن دينهنّ، فقد حاول السادة الصليبيين إغراء الأسيرات اليهوديات والمسلمات باعتناق المسيحية مقابل توديعهنّ لحياة العبودية[١٠٧].

ومثلما استخدم الفرنجة أساليب الإغراء، استخدموا أيضا أساليب الإكراه لإجبار الأسيرات على الولوج في عالم المسيحية، فقد اختطف صليبيو صور فتاة مسلمة ونصّروها بعد إن كانت أمها قد نجحت في افتدائها من أسرهم عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م[١٠٨]. وبدورهم شجع المسلمون الأسيرات الصليبيات على الدخول في الإسلام كبوابة لنيل الحرية والكرامة، والاندماج في المجتمع الإسلامي بيسر وسهولة [١٠٩].

لما كان الزواج دليلاً على الاندماج والتفاعل الاجتماعي، ونتيجة لقلة النساء في صفوف المستوطنين الصليبيين [١١٠] فقد تزاوج العديد من الملوك والأمراء والنبلاء الفرنجة بمسيحيات شرقيات، بينما ارتبط بعض فرنج الفئات الدنيا بأسيرات مسلمات اعتنقن المسيحية [١١١].

ومع أن الكتاب المقدس يرغّب بالزواج من السبايا الحسان[١١٢] إلا أن حاجز العقيدة كان يقف حائلاً دون التزاوج بين الفرنجة والأسيرات اللاتي لم يغتسلن بماء المعمودية[١١٣] لكن من المعلوم أن الفرنجة اتخذوا لهم محظيات من بين الأسيرات الحسناوات، إذ شاع لدى الفرنجة التسري بالأسيرات المسلمات، والتمتع بهنّ تحت غطاء الخدمات المنزلية في تحد واضح للقواعد التشريعية الكنسية[١١٤].

وكانت الأسيرات الصليبيات يُقسمن على المجاهدين المسلمين ضمن الغنائم، فيُصبحن ملك يمين لهم [١١٥] ولم توجد عوائق دينية لدى المسلمين تحول دون زواجهم من حرائر صليبيات، لكن المانع العقدي وجد لدى الفرنجة، إذ ترفض المؤسسات الكنسية زواج المسيحية من مسلم ، كما يتضح ذلك جلياً من خلال مقررات مجلس نابلس لعام ٥١٤هـ/١١٢٠م التي حرمت الارتباط بأهل عقيدة مخالفة[١١٦].

وكان لسبي النساء تأثيرات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، ودينية وثقافية ونفسية في زمن الحروب الصليبية، إذ أدى أسر النساء أحياناً إلى قيام تحالفات عسكرية جديدة، فابن عمر صاحب حصن عزاز – شمال حلب – تحالف مع القائد

الصليبي جودفري عام ٤٩١هـ/١٠٨٩م ضد سيده رضوان السلجوقي صاحب حلب، بتأثير من أسيرته الفرنجية التي أحبها(١١٧).

وكما أن أسر النساء أسهم أحياناً في إعادة ترتيب شبكة العلاقات والتحالفات بين المتحاربين، فكذلك أدى تحويل الأسيرات عن دينهنّ إلى تداعيات عسكرية في بعض الأحيان، فالسلطان بيبرس شن في عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م هجوماً عسكرياً على صليبي صور الذين خطفوا إحدى الأسيرات المحررات وفتنوها عن دينها(١١٨).

ويتضح جلياً أن الخشية من وقوع النساء في الأسر، سواء في ميادين المعارك الحربية، أو أثناء حصار المدن، مثل عامل ضغط على المحاربين، فدفعهم أحياناً إلى الحرب حتى النهاية، وأجبرهم على الاستسلام في أحيان أخرى، وفي كلا الحالتين كان ذلك من أجل الحفاظ على سلامة وحرية النساء، فمن المتصور أن النساء المرافقات للجيوش المتحاربة ألهبن حماسة المحاربين، ودفعنهم للقتال بكفاءة عالية لخشيتهم من رؤية نسائهم مكبلات في سلاسل العبودية.

كما أن وجود النساء داخل المدن المحاصرة كان عامل ضغط آخر على القوى المدافعة، فقبيل معركة حطين اندفع الفرنجة بمغامرة عسكرية للحفاظ على مدينة طبرية من السقوط بأيدي صلاح الدين، وإنقاذ صاحبتها اشيفيا من الأسر(١١٩) كما أن فرنج بيت المقدس فضلوا الاستسلام بدون قتال لصلاح الدين خشية وقوع نسائهم في الأسر(١٢٠).

ومما لا شك فيه أن أسر النساء كان له آثار وتداعيات سياسية، فالأسيرات المحظوظات صرنّ زوجات وأمهات لقادة وحكام في عصر الحروب الصليبية، وأصبح لهنّ دور في الحياة العامة، وفي تدبير شئون الحكم، فالأسيرة الفرنجية التي صارت ملك يمين لشهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، سيطرت على مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها، وأصبحت هي "الآمرة الناهية"(١٢١) في دولة ابنها بدران(١٢٢).

ويبدو أن تلك الأسيرة الفرنجية كانت أثيرة في حياة زوجها، حيث استغلت سحرها وحظوتها في ارتقاء ابنها بدران إلى ولاية العهد، وحكم قلعة جعبر، وهو أمر يبدو أنه قد أوغر صدر أخيه علي بن مالك الذي تآمر على حياة بدران، وملك القلعة سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م(١٢٣).

كما أن أسر النساء وإطلاق سراحهنّ فيما بعد استخدم أيضاً لتحقيق مكاسب سياسية، فالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أطلق سراح زوجة قلج أرسلان كبادرة حُسن نية، ورغبة في "اكتساب مودة الترك"(١٢٤) ونزع فتيل التوترات المستقبلية بين البيزنطيين وسلاجقة الروم.

وبالإضافة إلى التداعيات السياسية والعسكرية لسبي النساء، فكذلك كان لأسرهنّ آثار اقتصادية واجتماعية، فاستخدمت الأسيرات في زمن الحروب الصليبية كأيد عاملة، فمنهن من عمل في الخدمة المنزلية، وقامت أخريات بالأشغال اليدوية وتدوير

الطواحين(١٢٥) ولا شك أنهنّ نقلن مهارتهنّ الحرفية وخبراتهنّ الاقتصادية التي اكتسبنها في مواطنهنّ الأصلية إلى مجتمعاتهنّ الجديدة.

ونشطت تجارة السبي في كبريات المدن الإسلامية والصليبية، كنتيجة طبيعية لاتساع دائرة الحروب الصليبية واستمراريتها لفترة زمنية طويلة، وأصبحت المتاجرة بالأسيرات مصدر دخل لغزاة البر والبحر، وحققت الدول والمدن والأفراد أرباحاً وفيرة من وراء هذه التجارة ، كما أن تجار السبي راكموا أموالاً طائلة نتيجة لشغف بعض الفئات الاجتماعية بشراء الأسيرات الحسناوات بأسعار مغرية(١٢٦) حيث مثل امتلاك الجواري في ذلك العصر عنواناً للثروة والرفعة.

وقلدت الفئات الدنيا الشرائح العليا في شراء الأسيرات والتسري بهنّ، ومن المتوقع أن ذلك قد انعكس سلباً على اقتصاديات الأسر الفقيرة التي تكاثر عدد أفرادها وقلت مداخيلها، ولا شك أن إنفاق علية القوم على شراء الأسيرات أو افتدائهنّ بأموال هائلة، قد أرهق الاقتصاد، وأضاف أعباءً جديدة على العامة ومصادر رزقهم المحدودة، إذ إن تلك الكلفة الاقتصادية الثقيلة يتحملها في النهاية المجتمع وليس النخب الحاكمة.

وكما كان للأسيرات تأثيرات على الحياة الاقتصادية، كان لهنّ أيضاً تأثيرات على شتى الجوانب الاجتماعية، كالزواج والطلاق والروابط الأسرية والأمراض الاجتماعية، فمن المتصور أن الأسيرات العازبات كن مرغوبات لدى آسريهنّ أكثر من الأسيرات المتزوجات، ومن المتوقع أن فرص الزواج بالأسيرات العازبات قد قلت بعد إطلاق سراحهنّ، كنتيجة متوقعة للشكوك التي تراود أبناء مجتمعاتهنّ في سلوكهنّ، واحتمال انتهاك عفتهنّ أثناء محنة الأسر.

وبالنسبة للأسيرات المتزوجات، فبالرغم من أن الفقه الإسلامي يحكم بانقطاع الربطة الزوجية للأسيرات غير المسلمات اللاتي يقعن بأيدي المسلمين، واستمرارية رابطة الزوجية للأسيرات المسلمات اللاتي يقعن بأيدي أعدائهم(١٢٧) إلا أن الزواج ينقطع عملياً بوقوع الأسيرة المتزوجة بأيدي الأعداء بغض النظر عن ديانتها، مع الافتراض بإمكانية استمرار الرابطة الزوجية عند إطلاق سراح الأسيرات المتزوجات، لكن هذا الأمر يعتمد على أوضاع المرأة الأسيرة أثناء فترة الأسر، ومدى رغبة زوجها في استمرارية عقد الزوجية.

فلا شك أن انحراف المرأة الأسيرة اختيارياً أو انتهاك حرمتها جبرياً يقلل من احتمالية عودة المرأة المتحررة من الأسر إلى زوجها، وخصوصاً في الحالة الأولى، حتى وإن حافظت المرأة الأسيرة على طهرها، فإن كلاً من المسلمين والصليبيين واليهود نظروا بريبة وتوجس إلى الزوجة الأسيرة، وافترضوا مسبقاً عدم قدرتها المحافظة على عفتها(١٢٨).

وبينما يجد المسلمون واليهود الحل في طلاق الزوجة المتحررة من الأسر، والارتباط بأخرى لم تطلها قيود الأسر والعبودية، فإن الصليبيين لا يستطيعون الارتباط بزوجة ثانية، بل هم ملزمون بموجب القانون الكنسي بالاستمرار في عقد الزوجية حتى

وفاة الزوجة (١٢٩) ولكن يجب التنويه إلى أن استمرار عقد الزوجية بين الصليبي وزوجته المحررة من الأسر لا يعني بأي حال من الأحوال استمرارية الحياة الزوجية الطبيعية بين الزوجين، فالنبيل الصليبي رينيه دي بروس هجر زوجته بعد أن تبين له أنها لم "تحافظ محافظة المرأة الشريفة على فراش الزوجية" (١٣٠) أثناء فترة الأسر، فتم إيداعها في أحد أديرة القدس، وانضمت بشكل قسري إلى زمرة الراهبات، لكنه لم يتمكن من الزواج إلا بعد موتها(١٣١).

ومن النتائج الاجتماعية لاستمرارية الحروب الصليبية، واكتظاظ الأسواق بالسبايا، عزوف الشباب عن الزواج بالحرائر(١٣٢) طالما كان بإمكانهم إشباع غرائزهم ورغباتهم مع النساء الأسيرات بدون تحمل الكثير من التكاليف المالية والالتزامات الأسرية.

كما لا يستبعد أن يكون الرجال المتزوجون قد فضلوا معاشرة الأسيرات والتمتع بهنّ على حساب الزوجات اللاتي فترت علاقتهنّ بأزواجهنّ، وأصبحت حياتهنّ الزوجية رتيبة كنتيجة طبيعية لمزاحمة الأسيرات للزوجات الحرائر، مع ما ترتب على ذلك من وهن الأسر وتصدعها. والخلاصة أن كساد الزواج من الحرائر، وفتور العلاقات الزوجية ساهم في انغماس الحرائر في اللهو والمجون والمتع الحرام، وكل ذلك أدى إلى التحلل الأسري والتفكك الاجتماعي.

ولا يستبعد أن تكون الجرائم الأسرية التي شاعت في المجتمعات الصليبية، والتي أشار إليها رجل الدين الصليبي جيمس الفيتري Jacques de Vitry (١٣٣) نتاجا للتفسخ الأسري الذي ساهمت الأسيرات في تغذية جذوره ومنابعه. كما أن كثرة الأسيرات أدى إلى انتشار الدعارة ودور البغاء بشكل سافر أحياناً، وتحت ستار الفندقة والخانات(١٣٤) ودور القيان والخمارات في أحيان أخرى(١٣٥).

ومما تجدر ملاحظته، أن الإسلام ينظم الأوضاع الاجتماعية للأسيرات، إذ يُحرم مواقعة الأسيرة الحامل(١٣٦) ولا يجيز التفريق بينها وبين أبنائها وأخواتها وأقاربها(١٣٧) كما يمنع بيع الأسيرات اللاتي صرن أمهات أولاد(١٣٨).

فلا مراء بأن زواج الأسيرات من رجال أحرار يعني فيما يعني تكريمهنّ ورفع شأنهنّ، إذ كان هذا الزواج بمثابة رافعة نقلتهنّ من طور العبودية إلى طور الزوجية، وتعاظمت مكانة الأسيرات وزادت رفعة وعلواً بعد أن صرن أمهات أولاد حيث نعمن بالحرية والمنزلة الاجتماعية الرفيعة(١٣٩).

وأدى التسري بالأسيرات مع تعدد الزوجات إلى كثرة الأبناء من أمهات مختلفات، ونتج عن ذلك اختلاف توجهات الأبناء وتنوع مشاربهم(١٤٠) ومن المتوقع أن بعض الفئات الاجتماعية دأبت على التفرقة بين أبناء الأسيرات وأبناء الحرائر، إذ تلقى أبناء الحرائر معاملة تفضيلية من قبل بعض الآباء، كما أن أبناء الحرائر كانوا ينظرون بدونية لإخوانهم من أبناء الأسيرات، وهذا الأمر أوغر الصدور، وأثار الشحناء وكان له انعكاسات سلبية على الصلات بين الأبناء.

ومما تجدر ملاحظته، أن أسر الفتيات الصغيرات[١٤١] كان له آثـار اجتماعيـة بعيدة المدى، إذ تكالبت على تلك الأسيرات الصغيرات، حياة الغربة عن الأهل والديار، مع الشعور بالحرمان، وتجرع مرارة اليتم، والافتقاد لدفء الحياة الأسرية والعائلية، فعشن حياة يعتريها العذاب والنكد والبؤس والشقاء.

ومن المعلوم أن مجتمعات الشرق الأدنى الإسلامي كانت غنية بأعراقها وأجناسها وطوائفها، وازدادت هذه التركيبة الاجتماعية غنى، بتزاوج المسلمين من أسيراتهم الصليبيات من فرنسيات وإيطاليات وإنجليزيات وألمانيات وأسبانيات، ومن سائر أجناس أوربا، كما عاشر الفرنجة أسيراتهم المسلمات من عربيات وتركيات وكرديات وبربريات وفارسيات، ولا شك أن كل ذلك الإخصاب والتهجين والتلاقح كان له تأثيرات اجتماعية عميقة، حيث تفاعلت الأعراق واختلطت الدماء، وتمازجت الأجناس، وهذا الأمر وفر للمنطقة ثراءً عرقياً نادراً، وسيولة اجتماعية غير مسبوقة، مما جعل منها مجتمعاً عالمياً مصغراً.

وبقي أن نشير إلى التأثيرات الدينية للأسيرات، فمن المعروف أن الحاجز بين الإسلام والمسيحية قد تم اختراقه ، وخاصة من قبل الأسرى والأسيرات، ففي هذا الوسط وقعت تحولات دينية قسرية واختيارية، فبعض الأسيرات تشربن دين الإسلام[١٤٢] كما أن أسيرات مسلمات ويهوديات حولن أو تحولن إلى المسيحية الكاثوليكية[١٤٣] ولا يستبعد أن يكون لهؤلاء الأسيرات تأثيرات دينية على آسريهن، كما لا يستبعد أيضاً قيام الأسيرات بمحاولات لتحويل أزواجهنّ وأبنائهنّ إلى ديانتهنّ الأصلية.

ومن نافلة القول أن الأسيرات كان لهنّ تأثيرات ثقافية ومعرفية، فمن غير المستبعد أن يكون من بين الأسيرات نساء على درجة عالية من الخبرة والمعرفة في كلا الجانبين الإسلامي والصليبي، ولا شك أنهنّ أسهمنّ في نقل تجاربهنّ الكثيرة وخبراتهنّ المتراكمة وثقافتهنّ الأصيلة إلى مجتمعاتهنّ الجديدة.

ومن المؤكد أن الأسيرات قد واجهن صعوبة في التواصل والتفاهم مع آسريهنّ في المراحل الأولى لأسرهنّ، بسبب الحواجز اللغوية والثقافية، ومن المتصور أن الصعوبات التي واجهت الأسيرات الصليبيات كانت أكبر بكثير من العوائق التي واجهت الأسيرات المسلمات، لأن بعض الفئات الصليبية حرصت على تعلم اللغة العربية، بينما لم تكترث الغالبية العظمى من المسلمين بتعلم لغات ولهجات المستوطنين الصليبيين[١٤٤].

ومن المحتمل أن تكون الأسيرات قد أسهمن في التفاعل الثقافي والتأثير اللغوي بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، فمن المعلوم أن بعض الألفاظ والمصطلحات العربية تسربت إلى اللغات الأوربية في عصر الحروب الصليبية [١٤٥] ولا يُستبعد أن يكون للأسيرات دور في نقل الكلمات المتعلقة بالشئون المنزلية والأطعمة والأشربة وشئون الطبخ والفن والغناء والطرب إلى اللغات الأوربية.

ومن المحتمل أن يكون أبناء الأسيرات قد تعلموا لغات أمهاتهم، وتشربوا أسلوب حياتهنّ، ونهلوا من ثقافتهنّ وحضارتهنّ، وبالتالي كانوا قناة للتواصل الثقافي

بين المسلمين والفرنجة، خصوصاً وإن كتب التراجم والطبقات تُطلق مصطلح "ابن الفرنجية" على العديد من الفقهاء والوجهاء المسلمين[١٤٦].

ولا ننسى أيضاً تأثير سبي النساء وأسرهنّ على الحياة الأدبية، إذ كان الأسر من الموضوعات الأدبية لكتاب وشعراء ذلك العصر، والذين حرصوا على استثارة همم المسلمين وغيرتهم لمجاهدة الفرنجة الذين انتهكوا حرمة الأسيرات المسلمات[١٤٧] وتصور قصص من ألف ليلة وليلة أحوال الأسيرات ومعاناتهنّ في قالب قصصي جميل، كقصة مريم الزنارية، وقصة الصعيدي وزوجته الفرنجية[١٤٨] ولا ريب أن كل تلك الكتابات الشعرية والقصصية قد أسهمت بشكل أو بآخر في إثراء الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية.

أما تأثير الأسيرات في مجالات التغذية والصحة والنظافة والجودة، فقد كان تأثير الأسيرات في غاية الوضوح، حيث أسهمت الأسيرات المسلمات في نقل تقاليد وعادات وفنون الطهي الشرقي إلى المطبخ الصليبي، فتمتعت بعض الفئات الصليبية بطعام "في غاية النظافة والجودة"[١٤٩].

ويبدو أن بعض الصليبيين قد تكيفوا مع أساليب الحياة الشرقية، فهم بحسب وصف أسامة "قد تبلدوا وعاشروا المسلمين"[١٥٠] وهؤلاء القوم تبنوا طرائق المعيشة الشرقية، وتشربوا أذواقها وفنونها ورغباتها في مجالات الأطعمة والأشربة، وطرق تقديم الطعام، وترتيب المائدة وتزينها، حيث يُباهي أحد الصليبيين بأن لديه طباخات مصريات لا يأكل "إلا من طبيخهن"[١٥١].

ولم تشر المصادر إلى تأثر المسلمين بالأطعمة الفرنجية وفنون الطهي المجلوبة من أوربا عن طريق الأسيرات الصليبيات، لكن لا يستبعد تذوق بعض الفئات الإسلامية لقوائم الأطعمة الغربية، مع الإشارة بالطبع إلى تواضع فنون ومهارات المطبخ الفرنجي مقارنة بنظيراتها الشرقية.

وتعتبر المؤثرات النفسية من أخطر المؤثرات التي انعكست على المرأة الأسيرة، فلطالما دغدغ منظر النساء الأسيرات أحلام رجال الشرق والغرب، ولكم كانت هذه الأحلام المجنونة تثير الذعر في نفوس النساء، فقد عاشت النساء في زمن الحروب الصليبية في قلق وتوتر وخوف خشية وقوعهنّ في الأسر، فزوجة القديس لويس عاشت في دمياط في رعب بعد أسر زوجها، وكان يُخيل إليها أن حجرتها مليئة بالمسلمين، وكانت تقوم من نومها مفزوعة، وهي تصرخ النجدة النجدة، ولم تعد قادرة على النوم لوحدها في حجرتها [١٥٢] وعاشت الأمهات أياماً وليالي عصيبة خوفاً وفزعاً على بناتهنّ الشابات من الوقوع في الأسر[١٥٣].

وعانت الأسيرات الكثير من المتاعب النفسية إذ عشنّ في ذل وهوان وعبودية، مع ما رافق ذلك من الحرمان والآلام والأحزان، وتعاظمت الصدمات النفسية للأسيرات بتركيعهنّ وامتهانهنّ، وتكرار عمليات اغتصابهنّ، ويكون الاغتصاب أكثر إيلاماً للنفوس عندما يحدث أمام آبائهنّ وأزواجهنّ وأقاربهنّ[١٥٤] ويشعر الأهل بالخزي والعار لانتهاك

حرمة قريباتهم الأسيرات مع ما يسببه ذلك من جروح نفسية غائرة، فوالد رفول الكردية انتابه الذعر والاضطراب عندما علم بأسر الفرنج لابنته، لكن حاله تبدل عندما تأكد أن ابنته فضلت الموت على انتهاك عفتها، فهدأت نفسيته، واطمئن قلبه، وسكنت لوعته[١٥٥].

والخلاصة أن النساء في عصر الحروب الصليبية عشن في رعب وخوف وهلع وضغط نفسي رهيب، وسادت في أوساطهنّ مشاعر القلق والتوتر، والشعور الدائم بالخوف والتهديد المستمر، وقلة الطمأنينة، ولا شك أن كل تلك المشاعر السلبية قد أفسدت حياتهنّ الطبيعية، وحطمت معنوياتهنّ، وضغطت على أعصابهنّ، وهو أمر أدى بلا ريب إلى انتشار الأمراض النفسية والعصبية في أوساط النساء العائشات في معمعة الصراع الإسلامي الصليبي.

وأخيراً نحب أن ننوه إلى جنسية الأسيرات وهويتهنّ الدينية، والأطوار الزمنية لأسر النساء، والتوزيع الجغرافي للأسيرات، وأماكن أسرهنّ، فبالنسبة لجنسية الأسيرات وديانتهنّ، فقد وقعت أسيرات من جميع الأعراق الإسلامية القاطنة في الشرق الأدنى الإسلامي، كما أن أسيرات من شتى أجناس غرب أوربا وقعنّ في شباك الأسر، وتنوعت ديانة الأسيرات ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى الوثنية التي جلبتها القبائل المغولية من جوف آسيا .

أما بالنسبة للأطوار الزمنية لعمليات السبي، فيلاحظ تصاعد عمليات السبي في فجر الحروب الصليبية النشطة وفي خواتيمها، بينما تراجعت عمليات السبي في مراحل توازن القوى الإسلامية الصليبية، وحول التموضع الجغرافي للأسيرات، فقد وقعت أسيرات في أيدي الفرنجة من كل البلاد التي هاجموها أو احتلوها، ويُعتقد أن أكثر الأسيرات تعود جذورهنّ للبلاد الشامية وتليها الديار المصرية والجزرية، فبلاد الشام تعتبر البؤرة الأساسية للصراع الإسلامي الصليبي، وقد استمر الاحتلال الصليبي لبعض أجزائها مدة تقارب القرنيين من الزمان.

ومن المنطقي أن أكثر الأسيرات الصليبيات كُن من مملكة بيت المقدس، مقارنة بإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس، باعتبار أن مملكة بيت المقدس كانت الجبهة الرئيسية للصراع، وفيها أبرز الكتل الاستيطانية الصليبية.

وتنوعت الأماكن التي أُخذت منها الأسيرات، في البر أو البحر، من خلال الرحلات البحرية أو أثناء سفر القوافل التجارية، من داخل المدن والقلاع الحصينة أو من الأماكن المحيطة بها، وأُخذت الأسيرات من البيوت والمساجد والكنائس والحمامات، أثناء اقتحام المدن أو بعد المعارك الفاصلة أو خلال الغارات الخاطفة.

ولا نعرف على وجه الدقة أو التقريب أعداد الأسيرات في عصر الحروب الصليبية، سواء تلك التي أُطلق سراحهنّ بعد أسرهنّ، أو اللاتي مكثن في قيود الأسر طوال حياتهنّ، كما لا نعرف إلا أسماء قليل من الأسيرات النبيلات، أما أسماء أسيرات الفئات الدنيا فقد طواهنّ النسيان.

وفي الختام نشير لأهم نتائج البحث:-

- يُعد عصر الحروب الصليبية من أكثر العصور التاريخية التي برزت فيه ظاهرة الأسيرات، وأصبحت سمة من السمات المميزة له، نظراً لتوسع الحروب الصليبية واستمراريتها.
- تعرضت الأسيرات للاستعباد والتحول الديني عند كلا الجانبين الإسلامي والصليبي.
- تعرضت الأسيرات لشتى صنوف الذل والهوان، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، نظراً لقسوة الفرنجة ووحشيتهم، وقلة احترامهم للتشريعات والقوانين الكنسية.
- كان المسلمون أكثر رفقاً ورحمة في تعاملهم مع الأسيرات مقارنةً بالصليبيين، وهذا يعود بالدرجة الأول لامتثالهم لتعاليم الدين الإسلامي ووصاياه.
- ساهمت جل الفئات الإسلامية والمسيحية واليهودية في فداء الأسيرات، لكن الجهد المسيحي اتخذ طابعاً مؤسسياً ومنظماً.

كان للأسيرات تأثيرات ايجابية وسلبية على كلا المجتمعين الإسلامي والصليبي في شتى جوانب الحياة العامة والخاصة.

الهوامـــــش

(1)- عن ذلك، انظر : أنّا كومنينا: ألكسياد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤ م ، ص ٣٨٩ ؛ علي محمد عودة الغامدي : الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٩م، ص ٦١ ؛ وانظر ايضاً

Brandt :The Recovery of the Holy Land,New York,1956,p.124.

(2)- عن صورة المسلمين في المخيلة الغربية، انظر : جيمس أ. بروندیج : « الزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية »، ترجمة وتحرير: حسن عبد الوهاب حسين، ضمن مقاولات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م، ص ١٧٩- ١٨٠؛ وانظر ايضاً

Jeusset:François d'Assise et les Musulmans, Abidjan, 1986, p.59.

Munro : The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades Speculum, Volume 6,Issue 3(Jul.,1931), p.342.

(3)- ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلي القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٣ م، ص ٦٥ ؛ بروندیج : مرجع سابق، ص ١٧٢ - ١٧٣ ؛ وانظر ايضاً

Strayer and Others:The Middle Ages 395-1500, New York,1970 , p..229.

Strayer : op. cit, p.229.

(4)- عن الأدوار التي قامت بها المرأة الصليبية ، انظر : ميشيل بالار : مرجع سابق ، ص ٦٦ ؛ بروندیج : مرجع سابق، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بدران ،، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، مج ٨ ، ص ١٩؛ جوزيف شاخت و كليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ ١، ترجمة : محمد زهير السمهوري و حسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شاكر مصطفى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣٣ ، يناير ١٩٧٨ م، ص ٤١؛ وانظر ايضاً

Krijnie and Others: East and West in the Crusader States, leuven,1999 , pp.136- 137.

(5)- أبي الحسن علي عبد الجليل الرشداني ، ٥٩٣هـ / ١١٩٦م : الهداية شرح بداية المبتدى، المكتبة الإسلامية ، عمان ، (د. ت) ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ؛ وانظر ايضاً

Thorau: The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century, Translated by p.m. Holt London ,1992 , p. 165.

(6)- فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلي بيت المقدس الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قاسم عبده قاسم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٢٤؛ وانظر ايضاً

Hay : « Gender Bias and Religious Intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » in : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, p.9.

(7)- عن الأسيرات المسلمات ، انظر : فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ١٢٤؛ أولفر أوف بادربون : الاستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، جـ ٣٤ ، ص ٥٢ ؛ محمد صلاح بني يونس و عيسى محمود العزام : دور سكان الشام في مقاومة الغزو الفرنجي حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى ٤٩٠ – ٥٤٢هـ / ١٠٩٦ – ١١٤٦م من خلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، جـ ١ ، نوفبر ١٩٩٩م ، ص ٤٢٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ؛ وانظر ايضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985, p . 48.

Hadia : « Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction, » in : Conversion and Continuity : Indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries,ed. by:M. Gervers and R. J. Bikhazi,Toronto,1990, p.171.

(8)- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي الهيئة العامة ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (ط ١٩٩١م)، جـ ١، ص٢٢٢ ؛ ستيفن رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ،١٩٩٤م ، جـ ١ ، ص ٢٩١ .

(9)- وليم الصوري : الحروب الصليبية جـ ٢ ، ص ٣٢؛ وانظر ايضاً

Gabriell : Arab Historians of the Crusades, selected and translated from the Arabic sources translated from the Itallan, by: E.J Costello, New York,1989,p.16.

ويذكر ابن الأثير أنها ابنته وليست زوجته ، عن ذلك ، انظر: عز الدين أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م : الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت، طـ ٦ ، ١٩٩٥م، جـ ٩ ، ص ٥٦ ، ويشير في موضع آخر إلى ندم ياغي سيان لتركه أهله وأولاده في قبضة الفرنج ، انظر : المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ١٥.

(10)- العقيلة : هي المرأة النفيسة، كريمة الأصل، والعقيلة جمعها عقائل، ويطلق هذا المصطلح على سيدات النساء وخيارهن، عن ذلك، انظر: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، ت : ٧١١ هـ /١٣١١م : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، (د. ت)، جـ ١١؛ ص ٤٧٣؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ت ٧٢١:هـ/١٣٢١ م : مختار الصحاح ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ، بيروت، ١٩٥٠، جـ ١ ، ص ١٨٧.

(11)- فاطمة عبد اللطيف سيد أحمد الشناوي : معاملة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١م / ٥٣١ - ٦٩٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧م، ص ١٢١ ؛ علية عبد السميع الجنزوري :إمارة الرها الصليبية ، سلسله تاريخ المصريين (٢١١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١ م ، ص ٢٢٤ ؛ علي السيد علي : العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦ م ص ١٢٧ ؛ رانسيمان : مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ؛ وانظر أيضاً
Oldenbourg: The Crusades,Translated from the French, by: Anne Carter, New York, 1967, p.234.

(12)- خرتبرت : يُسمى حصن زياد ، ويقع في أقصى ديار بكر ، انظر : ياقوت بن عبد الله الحموي ، ت : ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م) : معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، (د. ت) ، جـ ٢ ، ص ٣٥٥.

(13)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٩٦.

(14)- حصن القبة: حصن يقع في أطراف حلب في الطريق ما بين حلب والسلمية، ويُطلق عليه قبة ابن ملاعب، لأن الذي بناه هو خلف بن ملاعب الأشهبي ، عنه انظر : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي، ت : ٦٦٠هـ/١٢٦١م : بغية الطلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٨٨ ، جـ ٧ ، ص ٣٣٥٤.

(15)- كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وضع حواشيه : خليل منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ،١٩٩٦م، ص ٣٠٨.

(16)- عن الأسيرات الصليبيات، انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٧ ؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس المعروف بأبي شامة ، ت : ٦٦٥هـ /١٢٦٧م : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طـ ١ ، ١٩٩٧م ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ ؛ وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٢؛ وانظر ايضاً
Hitti : op. cit, p.48.; Duggan: The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963,p.161,Pernoud: The Crusades, London, 1962 . p. 110.

(17)- محي الدين ابن عبد الظاهر ، ت : ٦٩٢هـ/١٢٩٢م : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، (د. ن.) ، الرياض ، ط١، ١٩٧٦م، ص ٣٢٤؛ وانظر ايضاً Pernoud : op. cit, . p. 280.

(18)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤٦٩.

(19)- تحكي الأساطير الغربية أن عماد الدين زنكي يعود في جذوره لأصول مسيحية، فهو ابن للكونتيسة آدا ، عنها ، انظر : مكسيم رودنسون : جاذبية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرقص ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٩ ؛ وانظر ايضاً
Cate : « The Crusade of 1101. », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London ,1969, p. 362 ; Munro : op. cit, p. 339.

(20)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ،جـ ٣ ، ص ١٢٥ ؛ وانظر ايضاً
Friedman : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » in : Cross Cultural Convergences in the Crusader Period, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995, p . 83.

وبانياس: هي مدينة الجولان الحالية، وتبعد عن دمشق حوالي ستين كيلو متر مربع، وهي تختلف عن بانياس الساحلية التي تقع شمال مدينة طرطوس، لذلك تسمى الأولى بانياس الداخلية . انظر : الحموي : معجم البلدان ، جـــ ٤ ، ص ٣٤ .

(21)- عن معايير معاملة الأسرى و الأسيرات ، انظر : محمد مؤنس عوض : « دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ،٢٠٠٥ م ، ص ١٧٢ ؛ شادي إبراهيم عبد القادر : السبي في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، ٢٠١٠م، ص ٧٣ – ٧٤؛ علي السيد علي محمود : دور الأسرى الأجانب في المجتمع المصري في

عصر سلاطين المماليك ، مجلة التاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، العدد ٣ ، مج ٢ ، ١٩٨٨م ، ، ص ١٣٨ ؛ وانظر ايضا

Hay : op. cit, p.9 ; . Lev : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » in : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001,p.16.

(22)- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١ ؛ وانظر ايضا

Runciman: « The First Crusade : Constantinople to Antioch », in: A History of the Crusades, volume. I, Ed. by: Setton, London,1969, p.291.

(23)- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(24)- المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(25)- فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ علية الجنزوري :مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ وانظر ايضا Oldenbourg : op. cit, p.234.

(26)- متى الباريسي ، ت :٦٧٢هـ/١٢٧٣م : التاريخ الكبير ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م، جـ ٤٠ ، ص ١١١٧.

(27)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢١١ – ٢١٢ ؛ وانظر ايضا

Friedman:Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem,Leiden,2002,p.81

(28)- ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ، ص ١٥٧ ؛ أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٤٠٣؛ ول ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٣٨ ؛ وانظر ايضا

Baldwin:«The Decline and fall of Jerusalem,1179-1189 », in : A History of the Crusades,volume.1,ed. by:Setton, London, 1969 , p.617 ; Lev: op. cit, p . 24;

Lamp: The Crusades The Flame of Islam, London, 1930,p.80.

(29)- عن حاجة الفرنجة للأيدي العاملة المسلمة ، انظر : سعيد البيشاوي : الاستيطان الفر نجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ – ١١٨٧م ، ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٩١ ؛ راغب حامد البكر : الاستيطان الفر نجي في القدس ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، نوفبر ١٩٩٩م ، جـ ٢ ، ص ٦٢١ ؛ حسين محمد عطية :« المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، مج ٢٧ ، العدد ٢ ، ١٩٩٩م ، ص ٦٧ ؛عبد المجيد بهيني : أوضاع المسلمين

تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة أبن جبير ، النصوص التاريخ الواقع التاريخي ، مجلة التاريخ العربي ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٩٠؛ وانظر ايضا Mayer :«Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem»,In: Problem des lateinischen K□nigreichs Jerusalem, ed.by:H.E. Maye, London,1983, p.180.

(30)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣، ص ٣٥٧.

(31)- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، ت : ٨٤٥هـ /١٤٤١م: السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، جـ ١ ، ص ٤٧٧؛ وليم الصوري ، الحروب الصليبية، جـ ٢، ص٢٢٢ .

(32)- ورد في الكتاب المقدس " اقتلو ا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة " عد ٣١: ١٧.

(33)- فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ١٢٢.

(34)- بروديج : مرجع سابق ، ص ١٨٠.

(35)- قاسم عبده قاسم : المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر، عين للدراسات ، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ١٣٧ ؛ ميخائيل روتليدج : الأغاني ، ضمن كتاب تاريخ اوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة ، طـ ١ ، ٢٠٠٧م ، ص ١٥٩ .

(36)- عن ضرب الإماء ، انظر : ناجلا محمد عبد النبي : المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، مجلة بحوث كلية آداب المنوفية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م، ص ٧٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور:المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٤٩.

(37)- أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير بن محمد أبن جبير ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م : رحلة أبن جبير ، ضبطه ووضع فهارسه : محمود زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص ٢٤٤ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية، ص ٦٦ ؛ محمد عبد الله المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة ، ٢٠١٠م، ص ١٧٦.

(38)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٣٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠٧.

(39)- ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ؛ ريموندجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نقلة إلي الإنجليزية جون هيوم هيل و لوريتال هيل ، نقله إلي العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط١ ،١٩٩٩م ، ص ١٦٣، ٢٤٧ ؛ بطرس توديبود : الرحلة إلى بيت المقدس ، نقله إلى العربية

وعلق عليه ، حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١م ، ص ١٨٤، ٢٥٧ ، ٣١٨؛ فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ١٢٨ ؛ وانظر أيضاً

Hay : op. cit, p.4.

(40)- قيسارية : مدينة على الساحل الفلسطيني ، تقع بين مدينتي يافا وحيفا ، الحموي:مصدر سابق،جـ ٤ ، ص ٤٢١.

(41)- فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ١٧١ ؛ حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م، ص ٧٢ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩ ؛ محمود محمد الحويري : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ص ٨٧ ؛ وانظر أيضاً

Mayer : op. cit, p . 187; Hay : op. cit, p.8.

(42)- مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن منقذ بن مرشد الكناني الشيزري ، ت : ٥٨٤هـ/١١٨٨م : الاعتبار ، حرره : فيليب حتى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٨١م، ص ١٤٠ ؛ جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ، ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقاولات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ، ص ١٦٤ ؛ عطية : المسلمون ، ص ٧٧ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٦٥ ؛ سهير محمد إبراهيم نعينع : التأثيرات الحضارة المتبادلة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن ندوة العرب وأوربا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد (٧) ، ١٩٩٩م ، ، ص ١٨٥ ؛ وانظر أيضاً

Hussein : Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteenth Centuries, Journal of Medieval History, Volume 25, Number 3, September 1999 p.208, Holmes : «Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : A History of the Crusades, volume. IV, ed. by : Setton, London ,1975, p . 22 , Lev : op. cit, p . 17..؛

(43)- حسين محمد عطية : مجلس نابلس " ٢٣ يناير ١١٢٠م " وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية ، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط ، مج ١ ، جـ ١ ، ٢٠٠٠/ ٢٠٠١م ، ص ٥٠ ؛ أحمد رمضان أحمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في

عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ،١٩٧٧م، ص ٩١.

(44)- ابن عبد الظاهر :مصدر سابق، ص ٢٩٣ ؛ يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩م، ص ١١٥ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٠ ؛ الحويري : مرجع سابق ، ص ٢٤٣ ؛ سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٨٩.

(45)- الأثارب : قلعة واقعة بين حلب وأنطاكية ، وهي إلى حلب أقرب ، انظر : الحموي: مصدر سابق ، جـ ١ ، ٨٩.

(46)- ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣ ؛ وانظر أيضاً

Azhari: The Salguqs of Syria, Berlin , 1997, p.130.

(47)- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٣.

(48)- المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ؛ يونس : مرجع سابق ، ص ٤٤.

(49)- ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ؛ عوض : دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ص١٧٢؛ وانظر أيضاً Friedman: Captivity , p 84

(50)- ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٢٥ ؛ وانظر أيضاً

Friedman: aptivity , p . 84.

(51)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ ؛ رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ٢، ص ٥١٤ ؛ وانظر أيضاً

Stevenson: The Crusaders in the East, Beirut, 1968, p.242.

Hindley : Saladin, London, 1976 , pp. 132- 133.

(52)- مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصوري ، ترجمة ، حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١١١ ؛ جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٢٦؛ وانظر أيضاً Lamp : Islam,p.79.

(53)- مذكرات جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته علي مصر والشام ، ترجمة وتعليق : حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٨م، ص ١٤٩.

(54)- محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام ، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٤٩م، ص١٢٧–١٢٨ ؛ عاشور: المماليك ، ص ١٤٨ .

(55)- فايز نجيب اسكندر : نيكيتاس خونياتس واعترافه بتسامح المسلمين وبربرية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ ، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، د . ت ، ص ٦٥ .

(56)- عن مخاوف النساء اليهوديات من الاغتصاب، انظر : محمد مؤنس عوض : « الإضطهادات الصليبية لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ من خلال حولية الربي اليعازر بن ناثان » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ،٢٠٠٥ م ، ص ١٩ ، ٢٣ ؛ قاسم عبده قاسم : الإضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية الظاهرة ومغزاها ، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، مج ١، ص ١٥٠؛ المقدم : مرجع سابق ، ص ٣٥.

(57)- كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة: أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٥م، ص ٢٨٧ ؛ هانس ابرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، طرابلس الغرب ، ١٩٩٠م ، جـ ١ ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(58)- حسن عبد الوهاب حسين : « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام(١٠٩٥ – ١١٨٧ / ٤٨٨ – ٥٨٣ هـ » ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ،(المجتمع الصليبي في بلاد الشام) . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م ، ص ١٤ ؛ ماير : مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٨٩ – ٩٠.

(59)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٢، ص ١٩٦.

(60)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ؛ عبد الوهاب : الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٣٩ .

(61)- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ، ت : ٨٧٤هـ/١٤٦٩م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ، (د ت) ، جـ ٦ ، ص ٢٣٨ .

(62)- سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(63)- عن ذلك ، انظر :

Cate : op. cit, p. 357.

(64)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣، ص ١٢٥؛ عبد الوهاب: الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٣٠ ؛ وانظر ايضاً

Friedman: Women , p 83.

(65)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤٨١؛ وانظر ايضاً

Pernoud : op. cit,. p. 284.

(66)- عانة : مدينة في أعالي الفرات، وتقع حالياً في غرب العراق، عنها، انظر : الحموي : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٧٢.

(67)- ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧٠ .

(68)- ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٥٠٤ ؛ المقريزي: مصدر سابق، جـ ١، ص ٤٠٦.

(69)- علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م : الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ م ، جـ ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، ت : ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م : كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن محمد النجدي، مكتبة ابن تيمية،(د. ب)، جـ ١٨، ص٣٤٥.

(70)- عن ذلك ، انظر :

Prawer: « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities", » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985, pp.111- 112.

(71)- قاسم : المسلمون وأوربا ، ص ١٢٤ ؛ وانظر ايضاً

Pernoud : op. cit,. p. 31.

(72)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٠٢.

(73)- اسكندر: مرجع سابق ، ص ٦٢ ؛ ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص٥١- ٥٢.

(74)- أبو شامة: مصدر سابق، جـ ١، ص ٣٠١؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية، ص ١٩.

(75)- ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٥١؛ وانظر ايضاً

Pernoud : op. cit, . p. 173.

(76)- ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٢ ؛ ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ ؛ وانظر ايضاً Kedar: Crusade and Mission, New Gersey, 1984,p.153.

(77)- عن آليات وأساليب تحرير الأسرى والأسيرات ، انظر : المقدم : مرجع سابق ، ص ٢١٤ ؛ وانظر ايضاً

Friedman: Captivity , p . 77 : Prawar : op. cit, p.111.

(78)- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١ ؛ وانظر ايضاً

Runciman : op. cit, p.291.

(79)- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢١١- ٢١٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ ؛ وانظر ايضاً

Friedman: Captivity , p . 81 : Duggan : op. cit, p.88 :
Lamb : The crusades, Iron Mien & Saints, London, 1934, P.246.

(80)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ٣، ص٤٠١ ؛ ديورانت : مرجع سابق، مج ٨، ص ٣٨؛ وانظر ايضاً Baldwin :op. cit, p.617: Lamp : Islam,p.80.

(81)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ٤ ، ص ٤٣.

(82)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ؛ فاطمة الشناوي : مرجع سابق، ص١٢١؛ علية الجنزوري: مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٢٧ ؛ رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٥.

(83)- عن فداء كوهين اليهودي لزوجته، انظر :

Friedman: Captivity , p . 81- 82.

(84)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥.

(85)- ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١.

(86)- ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧.

(87)- عن دور الأثرياء المسلمين في افتداء الأسرى والأسيرات، انظر : ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ٨٢ – ٨٣ ؛ ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢١٤، صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي ، ت :٧٦٤هـ/١٣٦٢م : الوافي بالوفيات ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م، جـ ١٨ ؛ ص ٢٠٢ ، ٢٠٨ ؛ وانظر أيضاً

Selim : « Captives Waqf in Syria and Egypt (491-589h/1097-1193ad), » in : La liberazione dei 'captivi' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il ğihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p.560..

(88)- عن جهود الأغنياء الصليبيين، انظر :

Vasilescu : « Even more special Sons ? : the Importance of the Order of the holy Trinity to Pope Innocent III, » in : La liberazione dei 'captivi' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il ğihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p . 722.

(89)- عن دور الحكام المسلمين في افتداء الأسيرات، انظر: أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٧١؛ ابن منقذ : الاعتبار،ص ٨٢؛ ابن جبير: مصدر سابق ، ص ٢١٤؛ وانظر أيضاً Lev: op. cit, p . 27 ; Selim : op. cit, p.561.

(90)- عن دعم الحكام المسيحيين للمنظمات المهتمة بالأسرى ، انظر: المقدم: مرجع سابق ، ص ١٢٣ ؛ وانظر Vasilescu : op. cit, p . 722.

(91)- الخواتين جمع خاتون، وهي المرأة الجليلة الشريفة، ويُطلق المغول والترك هذا اللقب على زوجات وبنات الملوك والأمراء والسلاطين ، عن ذلك ، انظر : محمد بن

يعقوب الفيروز آبادي ، ت : ٨١٧هـ/١٤١٤م : القاموس المحيط ، (د.ب)، جـ ١ ، ص ١٥٤٠.

(92)- ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢١٤.

(93)- ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧.

(94)- عن الأوقاف ودورها في تحرير الأسرى ، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٢، ص١٠٤ ؛ ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧، المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٧ ، ص ٩٩ ؛ وانظر ايضاً

Selim : op. cit, pp.559 –570. Lev: op. cit, p . 27.

(95)- شمس الدين السرخسي ت : ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م : المبسوط ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت ، جـ ١٠ ، ص ١٣٩ ؛ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى السبايا في الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، طـ ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٨٨؛ أش ٦١ : ١ ، وحث الإسلام على افتكاك الرقاب ، قال تعالى " فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ " سورة البلد ١١ : ١٣ .

(96)- أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٢٩٩،؛ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٣٧؛ وانظر ايضاً

Duggan : op. cit, pp.160 – 161: Baldwin : op. cit, p.614.

(97)- ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٥٦؛ وانظر ايضاً

Baldwin : op. cit, p.616: Lamp : Islam,p.79: Pernoud : op. cit, . p. 172.

(98)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩؛ وانظر ايضاً

Stevenson : op. cit, p . 341.

(99)- رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤٨١.

(100)- عن أسعار الجواري والأسيرات ، انظر : عاشور : المماليك ، ص ١٤٦ ؛ هايد : التجارة في الشرق الأدنى ، جـ ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١م، جـ ٤ ، ص ٥٨.

(101)- فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ علية الجنزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ وانظر ايضاً Oldenbourg : : op. cit, p.234.

(102)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(103)- ناجلا : مرجع سابق ، ص ٨٠ ؛ سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٧٦ ؛ عاشور : المماليك ، ص ١٤٧.

(104)- سهير نعينع: مرجع سابق، ص ١٧٦ ؛ علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ٦٣.

(105)- ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢٠٩؛ وانظر ايضاً

Smail: The Crusaders in Syria and the Holy Land, Printed in Great Britain, 1973, P.78.

(106)- ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٠؛ وانظر ايضاً

Hitti: op. cit, p.47: Pernoud : op. cit,. p. 110.

(107)- علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٦٥؛ وانظر ايضاً

Mayer : op. cit, p.187.

(108)- ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧؛ وانظر ايضاً

Kedar : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », in : The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries, ed. by : B.Z. Kedar, London , 1993, ,p163.

(109)- جمعة محمد مصطفى الجندي : الاستيطان الصليبي في فلسطين ٤٩٢ – ٦٩٠هـ / ١٠٩٩– ١٢٩١م) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٧٦؛ وانظر ايضاً Friedman : Women,p.85 : Hitti : op. cit,p.49.

(110)- عن قلة النساء الصليبيات في الشرق، انظر: جاك دي فيتري، ت : ٦٣٨هـ/١٢٤٠م : تاريخ القدس ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣٤ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨م ، ص ١٨٧؛ وانظر ايضاً

Prawer : « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985 , p.120.

(111)- فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ٢٨١ ؛ عوض : دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١٦١ ؛ وانظر ايضاً

Prawer: Franks,p.120:Lamp:Crusade,p.262:Hadia: op. cit,p.170.

(112)- تثنية ٢١ : ١٠.

(113)- عطية : نابلس ، ص ٥١ ؛ عطية : المسلمون ، ص ٨٥ ؛ وانظر ايضاً

Friedman : Captivity,pp.141 – 142: Zeitler : op. cit,p.33.

(114)- بالار : الحملات ، ص ٦٦ ؛ برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٨ ؛ وانظر ايضاً Holmes : op. cit,p.18.

(115)- ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٠؛ عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد ، ت : ٦٨٤هـ/١٢٨٥م : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، حققه : يحيي زكريا عبادة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩١م، جـ ١ ، ص ١٣١ ؛ فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٤٤ ؛ وانظر ايضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985 ,p.47.

(116)- عن الموانع الكنسية لزواج مسيحية بأهل عقيدة مخالفة، انظر : عطية : نابلس ، ص ٥١ ؛ سهير محمد مليجي: المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨م،رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٥ ؛ وانظر ايضاً

Zeitler : Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith': the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript, Mediterranean Historical Review, (MHR) Vol. 12, no. 2, (1997,p.33, Friedman : Captivity,p.141.

(117)- علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٧ – ١٨ ؛ رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٩٣.

(118)- ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ ؛ وانظر ايضاً

Kedar : Mission,pp.153- 154.

(119)- عن ذلك ، انظر : Friedman : Captivity,p.82.

(120)- مؤلف مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ١١١ ؛ رستون: مرجع سابق، ص ١٢٦.

(121)- ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٠.

(122)- عن أم بدران الفرنجية، انظر : الصفدي ، مصدر سابق ، جـ ١٠ ، ص ٦١ ؛ محمد مؤنس عوض : الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ١٩٩٥م، ص ٢٥٢ ؛ وانظر ايضاً

Hillenbrand: The Crusades Islamic perspectives, Edinburugh, 1999,p.377.

Lamp : Crusade,p.299 : Holmes : op. cit,p.23.

(123)- عن مقتل بدران ، انظر : ابن شداد : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٣١.

(124)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١.

(125)- فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ٧١ ؛ حسن عبد الوهاب: قيسارية ، ص ٧٢ ؛ عطية : المسلمون ، ص ٩٠ ؛ وانظر ايضاً

Lev : op. cit,pp.18 – 19 : Mayer : op. cit,p.187.

(126)- عن المتاجرة بالأسيرات، انظر : ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ ؛ علي السيد علي : المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م، ص ١٩، علي السيد: الأسرى الأجانب ، ص ١٣٠ – ١٣٦؛ عاشور : المماليك ، ص ١٤٦ – ١٤٧.

(127)- الماوردي : مصدر سابق ، جـ ٩ ، ص ٣٥٦ ؛ عامر : مرجع سابق ، ص ٣٣٠ - ٣٨٠.

(128)- عن شكوك المسلمين والنصارى واليهود بالأسيرات المتزوجات، انظر:
Friedman : Captivity,p.83.

(129)- عن القيود التي يفرضها القانون الكنسي، انظر : وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ؛
Friedman : Captivity,pp.82 -83 .

(130)- وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٥؛ وانظر ايضاً
Friedman : Women,p.83.

(131)- وليم الصوري، مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ١٢٥؛

(132)- عن كساد الزواج بالحرائر عند وفرة الأسيرات والجواري ، انظر : عبد السلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣، نوفمبر ١٩٧٩م ، ص ١٢٧.

(133)- عن جرائم القتل بين الأزواج الصليبيين ، انظر : محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنيين ١٢- ١٣ م / ٦ - ٧ هـ ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٩ م / ٢٠٠٠م، ص ١٣٤؛ وانظر ايضاً
Holmes : op. cit, p. 26.

(134)- الخانات ومفردها خان : وهي كلمة فارسية الأصل، وتُطلق على نُزل مبيت المسافرين والرحالة والتجار، كما تُطلق أيضاً على الحوانيت والمتاجر، وأقيمت الحوانيت عادةً في مفارق الطرق ومداخل المدن، عنها، انظر : ابن منظور : مصدر سابق ، جـ ١٠ ، ص ٣١٣ ؛ الرازي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٨١ .

(135)- عن الدعارة ودور البغاء، انظر : عوض : الحروب الصليبية ، ص ١٣٣ ؛ الترمانيني : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ؛ ريتشارد : مرجع سابق ، ص ١٦٩ - ١٨٣ ؛ براور : عالم الصليبيين ، ص ١١٥ - ١١٨.

(136)- ابن تيمية : مصدر سابق ، جـ ٣٢ ، ص ٣٣٨ ؛ شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨.

(137)- عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ت : ٢٩٠هـ / ٩٠٢م : مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله ، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م، جـ ١ ، ص ٢٥٥ ؛ عامر : مرجع سابق ، ص ٣٢٠ ؛ علي السيد: الاسرى الأجانب، ص ١٣٦ .

(138)- الماوردي : مصدر سابق ، جـ ١٨ ، ص ٣٠٩؛ شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨.

(139)- عن زواج الأسيرات وارتفاع مكانتهن، انظر : الماوردي : مصدر سابق ، جـ ١٨ ، ص ٣٠٩ ؛ فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٤١ – ١٤٤ ؛ شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨.

(140)- عن علاقة الإخوة من أبناء الأسيرات والحرائر، انظر: الترمانيني : مرجع سابق ، ص ١٣٠.

(141)- عن الأسيرات الصغيرات ، انظر : وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ؛ رانسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ – ١٨٨.

(142)- جمعة : مرجع سابق ، ص ٢٧٦؛ وانظر ايضاً

Friedman : Women,pp.85 – 87: Hitti: op. cit,p.49.

(143)- عن ذلك، انظر : ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ ؛ فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ٢٨١ ؛ وانظر ايضاً

Kedar : Mission, pp. 153 – 154 : Hadia: op. cit, p. 170.

(144)- عن تعلم فئات الصليبية للغة العربية، انظر: عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي : أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، الرياض، ط ١ ، ١٩٩٤م، ص ٥١ ؛ وانظر ايضاً Kedar : Mission, p 137 Hussein : op. cit, p.206.

(145)- عن المصطلحات العربية في اللغات الأوربية ، انظر : عوض : الحروب الصليبية ، ص ٣٦٥ ؛ الحويري : مرجع سابق ، ص ٢٢٩؛ الربيعي : مرجع سابق ، ص ٥٤ – ٥٦ ؛ وانظر ايضاً

Hitti : op. cit, pp.40– 44.

(146)- عن أبناء الفرنجيات، انظر : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، ت : ٧٤٩هـ/١٣٤٩م : تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م ، جـ ٢ ، ص ١٩٩؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت ، جـ ١١ ، ص ١١٤ .

(147)- عن شعر الجهاد ، والشعر الذي يصور مصائب النساء الأسيرات، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ؛ ابن تغري بردي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ١٥١ – ١٥٢ ؛ محمد علي الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار المعالم الثقافية ،الأحساء ، ١٩٧٩م، ص ١٢٢ – ١٢٧ ؛ يونس : مرجع سابق ، ص ٤٣٥؛ وانظر ايضاً

Hillenbrand : op. cit, pp.166– 167.

(148)- كيلاني : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ؛ وانظر ايضاً

Hitti : op. cit, p.49.

(149)- ابن منقذ: الاعتبار ، ص ١٤٠ ؛ الربيعي : مرجع سابق ، ص ١٤٣ ؛ وانظر ايضاً

Holmes : op. cit, p 22.

(150)- ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٤٠ ؛ وانظر ايضاً
Lamp: Crusade, P.262.

(151)- ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٤٠؛ وعن تكيف الفرنجة مع البيئة الشرقية واكتسابهم لتقاليد الطهي الشرقي، انظر : سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٨٥ ؛ الحويري : مرجع سابق ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ؛ براور : عالم الصليبيين ، ص ١١١ ؛ يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين(مملكة بيت المقدس) ، ترجمة: عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م، ص ٦١٦ ؛ وانظر ايضاً
Krijnie: op.cit, p 131: Hitti: op. cit, p.45: Smail: op. cit. P.182.

(152)- جوانفيل : مصدر سابق ، ص ١٤٩.

(153)- عن خوف النساء من الأسر، انظر : ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ ؛ جوانفيل : مصدر سابق ، ص ١٤٩.

(154)- عن مخاوف الناس من اغتصاب نسائهم أمام أعينهم ، انظر : أحمد بن محمد المقري التلمساني ، ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م ، جـ ٤ ، ص ٤٥٠ ؛اسكندر : مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(155)- ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ١٤٩ ؛ عوض : دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١٧٢؛ وانظر ايضاً Friedman : Captivity,p.84.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

القرآن الكريم + الكتاب المقدس

- ابن الأثير (ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) : عز الدين أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ ٩ ، ١٠ ، دار صادر، بيروت، ط ٦ ، ١٩٩٥م.
- ابن تغري بردي (ت : ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٥ ، ٦ ، ٧ ، مطبعة وزارة الثقافة ، القاهرة، (د ت) .
- ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ ١٨ ، ٢٨ ، ٣٢ ، تحقيق : عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة أبن تيمية،(د . ب).
- أبن جبير(ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) : أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير بن محمد أبن جبير: رحلة أبن جبير ، ضبطه ووضع فهارسه محمود زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠م.
- ابن حنبل (ت : ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ت : ٢٩٠هـ / ٩٠٢م : مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله ، جـ ١ ، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م.
- أبن تيمية (ت : ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م): أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ ١٨ ، ٢٨ ، ٣٢ ، تحقيق : عبد الرحمن محمد قاسم النجدي ،مكتبة أبن تيمية،(د . ب).
- ابن عبد الظاهر (ت : ٦٩٢هـ/١٢٩٢م): محي الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، (د. ن.) ، الرياض ، ط١، ١٩٧٦م.
- ابن العديم (ت : ٦٦٠هـ/١٢٦١م) : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي: بغية الطلب من تاريخ حلب ، جـ ٧ ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٨٨.
- ابن العديم : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وضع حواشيه : خليل منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ،١٩٩٦م.
ابن منظور (ت : ٧١١ هـ /١٣١١م): محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري :، لسان العرب ، جـ ١٠ ،١١ ، دار صادر، بيروت ، ط١ ، (د. ت) .
ابن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني الشيزري ، ت : ٥٨٤هـ/١١٨٨م : الاعتبار ، حرره : فيليب حتي ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٨١م.

- ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، ت : ٧٤٩هـ/١٣٤٩م : تاريخ ابن الوردي ، جـ ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .
أبو شامة (ت : ٦٦٥هـ /١٢٦٧م) : شهاب الدين عبد الرحمن المقدس المعروف بأبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جـ ١، ٢، ٣، ٤ ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- الحموي (ت : ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م): ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان ، جـ ١، ٢، ٤، دار الفكر، بيروت، (د. ت).
- الرازي (ت :٧٢١هـ/١٣٢١ م) : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ،: مختار الصحاح، جـ ١ ، تحقيق : محمود خاط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٥٠.
- الرشداني (ت : ٥٩٣هـ / ١١٩٦م) : أبي الحسن علي عبد الجليل الرشداني: الهداية شرح بداية المبتدى، جـ ٢ ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، (د. ت).
- السخاوي (ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ ١١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .
- السرخسي (ت : ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) : شمس الدين السرخسي : المبسوط، ، جـ ١٠ ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .
- الصفدي (ت :٧٦٤هـ/١٣٦٢م): صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات ، جـ ١٠ ، ١٨ ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م.
- الفيروز أبادي (ت : ٨١٧هـ/١٤١٤م): محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط ، جـ ١ ، د.ب .
- الماوردي (ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م): علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي : الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني ، جـ ٩ ، ١٨ ، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ م .
- المقري (ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م): أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، جـ ٤ ، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م .
- المقريزي(ت : ٨٤٥هـ /١٤٤١م): تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ٧، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م .

ثانياً: المصادر الأجنبية المترجمة

- أنّا كومنينا: ألكسياد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م .

- أولفر أوف بادربون : الإستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣٤ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ص ٧ – ١١٩.
- بطرس توديبود : الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة : حسين عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١م .
- جاك دي فيتري ، ت : ٦٣٨هـ/١٢٤٠م : تاريخ القدس، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣٤ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨م ، ص ١٢٧ – ٢٤٦.
- جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته علي مصر والشام، ترجمة:حسن حبشي،دار المعارف، القاهرة،ط١، ١٩٦٨م.
- ريموندجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نقلة إلي الإنجليزية جون هيوم هيل و لوريتال هيل ، نقله إلي العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط١ ،١٩٩٩م .
- فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلي بيت المقدس (الإستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قاسم عبده قاسم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ،٢٠٠١م.
- مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصوري ، ترجمة ، حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م.
- متى الباريسي ، ت :٦٧٢هـ/١٢٧٣م : التاريخ الكبير ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م.
- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي الهيئة العامة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، جـ ١ (ط ١٩٩١م)، جـ٢ (ط ١٩٩٢ م)، جـ٣ (ط ١٩٩٤م)، جـ ٤ (ط ١٩٩٥م).

ثالثا: المراجع العربية

- أحمد رمضان أحمد (دكتور) : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ،١٩٧٧م.
- جمعة محمد مصطفى الجندي : الإستيطان الصليبي في فلسطين ٤٩٢ – ٦٩٠هـ / ١٠٩٩ – ١٢٩١م ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .
- حسن عبد الوهاب حسين(دكتور) :
١- « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام . (١٠٩٥ – ١١٨٧ / ٤٨٨ – ٥٨٣ هـ » ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، (المجتمع الصليبي في بلاد الشام) . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م ، ص ٣ – ٦١.

٢- تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م.
- سعيد البيشاوي (دكتور): الإستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ - ١١٨٧م ، ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٨١ - ٣٢٦ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
١- الحركة الصليبية ، صفحه مشرقه في تاريخ الجهاد الإسلامي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٨٦ م .
٢- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٩٢م .
- سهيل زكار(دكتور) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تأليف وتحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٥م.
- عبد اللطيف عامر (دكتور): احكام الأسرى السبايا في الحروب الاسلامية ، دار الكتب الاسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م .
- عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي (دكتور) : أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، الرياض، ط ١ ، ١٩٩٤م.
- علي السيد على (دكتور):
١- العلاقات الإقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات، القاهرة، ط١ ١٩٩٦م.
٢- المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م.
- علية عبد السميع الجنزوري (دكتور): إمارة الرها الصليبية ، سلسله تاريخ المصريين (٢١١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١ م .
- فايز نجيب اسكندر (دكتور): نيكيتاس خونياتس واعترافه بتسامح المسلمين وبربرية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ ، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، د . ت ، ص ٥٥ - ٧٦ .
- قاسم عبده قاسم (دكتور): المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر، عين للدراسات ، القاهرة ، ٢٠٠٩م.
- محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩م .
- محمد علي الهرفي (دكتور): شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار المعالم ،الأحساء ، ١٩٧٩م.
- محمد مؤنس عوض (دكتور):

١- الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنيين ١٢- ١٣م/ ٦ - ٧ هـ ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٩ م / ٢٠٠٠م..
٢- « الإضطهادات الصليبية لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ من خلال حولية الربي اليعازر بن ناثان » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ،٢٠٠٥ م ، ص ٧ - ٥٢.
٣- «دراسات التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة »، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ، ط١،٢٠٠٥ م ، ص ١٣٩ - ١٧٧.
- محمود محمد الحويري (دكتور): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م

رابعا: المراجع المترجمة

- جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ، ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقاولات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٥٥ - ١٦٨.
- جوزيف شاخت و كليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ ١ ، ترجمة : محمد زهير السمهوري و حسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شاكر مصطفى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣٣ ، يناير ١٩٧٨ م .
- جيمس أ. برونديج : « الزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية » ، ترجمة وتحرير : - حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقاولات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٦٧ - ١٨٨.
- جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢م .
- ستيفن رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ،١٩٩٤م .
- كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة: أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٥م.
مكسيم رودنسون : جاذبية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرقص ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م .
- ميخائيل روتليدج : الأغاني ، ضمن كتاب تاريخ اوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة ، طـ ١ ، ٢٠٠٧م ، ص ١٣٧ - ١٦٥.

- ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ، ترجمة : بشير السباعي ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣ م.
- هانس ابرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، طرابلس الغرب ، ١٩٩٠م .
- هايد : التجارة في الشرق الأدنى ، جـ ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١م.
- ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بدران ، مج ٨ (جـ ١٥، ١٦)، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- يوشع براور :
١- عالم الصليبيين ، ترجمة: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة،عين للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
٢- الأستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

خامساً : الرسائل العلمية

- سهير محمد مليجي علي : المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ م.
- شادي إبراهيم عبد القادر: السبي في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، فلسطين، ٢٠١٠م.
- فاطمة عبد اللطيف سيد أحمد الشناوى : معاملة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١م / ٥٣١ - ٦٩٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧م .
- محمد عبد الله المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ٢٠١٠م.

سادساً: الدوريات

- حسين محمد عطية (الدكتور):
١- « المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، مج ٢٧، العدد ٢، ١٩٩٩م ، ص ٦١-١٠٤.
٢- مجلس نابلس " ٢٣ يناير ١١٢٠م " وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية ، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط ، مج ١ ، جـ ١ ، ٢٠٠٠/ ٢٠٠١م ، ص ٣٦ - ٦٩ .
- راغب حامد البكر (الدكتور): الإستيطان الفرنجي في القدس، ضمن مؤتمر بلاد الشام، جـ ٢، نوفبر ١٩٩٩م ، ص ٦١٧ - ٦٢٧.

- سهير محمد إبراهيم نعينع (الدكتور): التـأثيرات الحـضارة المتبادلـة بـين المـسلمين والصليبيين في بلاد الشام في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن ندوة العـرب وأوربا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد (٧) ، ١٩٩٩م ، ص ١٦٩ - ٢٠٧ .
- عبد السلام الترمانيني (الدكتور) : الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العـدد ٢٣، نوفمبر ١٩٧٩م .
عبد المجيد بهيني : أوضاع المسلمين تحت الإدارة الصليبية من خـلال رحلـة ابـن جبيـر ، النصوص التاريخ الواقع التاريخي ، مجلة التاريخ العربي ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٧٧ - ١٩٨ .
- علي السيد علي محمود (الدكتور): دور الأسرى الأجانب في المجتمع المصري فـي عـصر سلاطين المماليك ، مجلة التاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، العدد ٣ ، مج ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٣ - ١٤٨ .
- علي محمد عودة الغامدي (الدكتور): الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٩م، ص ٥٩ - ٨٧.
- قاسم عبده قاسم (الدكتور): الإضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حوليـة يهوديـة الظاهرة ومغزاها ، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، دار المعارف ، القاهرة ، مج ١ ، ١٩٨٢م ، ص ١٣٥ - ١٦٦ .
- محمد صلاح بني يونس و عيسى محمود العزام : دور سكان الشام فـي مقاومـة الغـزو الفرنجي حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى ٤٩٠ - ٥٤٢هـ / ١٠٩٦ - ١١٤٦م من خـلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، جـ ١ ، نوفبر ١٩٩٩م ، ص ٤٢٧ - ٤٦١ .
- ناجلا محمد عبد النبي (الدكتور): المسلمون في مملكة بيت المقـدس الـصليبية ، مجلـة بحوث كلية آداب المنوفية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٥٣ - ٩٦.

سابعاً : المراجع الأجنبية

- Baldwin M.W. : « The Decline and fall of Jerusalem, 1179 -1189 », in : A History of the Crusades, volume. 1, ed. by: Setton, London,1969 .pp. 590 – 619.
- Brandt W.I. : The Recovery of the Holy Land, New York, 1956.
- Cate J.L.: « The Crusade of 1101, », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London ,1969, pp.343 – 367. .
- Duggan A. : The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963.
- El- Azhari T.K. : The Salguqs of Syria, Berlin , 1997..

- Friedman Y. : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » in : Cross Cultural Convergences in the Crusader Period, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995,pp .75 – 89.

- Friedman Y. : Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem, Leiden, 2002.

- Gabrieli F. : Arab Historians of the Crusades, selected and translated from the Arabic sources translated from the Italian, by: E.J Costello, New York,1989

- Hadia D.S.:«Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction,» In: Conversion and Continuity : indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries, ed. by : M. Gervers and R. J. Bikhazi, Toronto, 1990,pp. 161– 184.

- Hay D.: « Gender Bias and Religious Intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » in : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001,pp. 3– 10.

Hillenbrand C. : The Crusades Islamic perspectives, Edinburugh, 1999. –

- Hindley G. : Saladin, London, 1976.

- Hitti P.K.:«The Impact of the Crusades on Moslem Lands,» in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985,pp .33 – 58.

- Holmes U.T.: « Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : A History of the Crusades, volume. IV, ed. by : Setton, London ,1975,pp .3 – 35.

- Hussein M.T. : Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteenth Centuries, Journal of Medieval History, Volume 25, Number 3, September 1999 , pp. 203–213.

Jeusset G. : François d'Assise et les Musulmans, Abidjan, 1986 –

Kedar B.Z. : Crusade and Mission, New Gersey, 1984.

- Kedar B.Z. : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », in : The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries, ed. by : B.Z. Kedar, London , 1993, pp. 135 – 174..

- Krey A.C. : The First Crusade The Accounts of Eye Withesses and Participants, Princetan, 1958 .

Krijnie C. and Others: East and West in the Crusader States, leuven, 1999.
Lamp H.: The Crusades The Flame of Islam, London, 1930.-
Lamb H.: The crusades, Iron Mien & Saints, London, 1934.-
- Lev Y. : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » in : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in th› Age of the Crusades, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse,2001,pp. 11-27.
- Mayer H.E.:«Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem », in: Problem des lateinischen K□nigreichs Jerusalem, ed. by : H.E. Mayer, London , 1983, pp. 175 - 192.
- Munro D.C. :The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades, Speculum, Volume 6, Issue 3 Jul., 1931, pp. 329-343..
- Oldenbourg Z.:The Crusades, Translated from the French,by: Anne Carter, New York, 1967. .
Pernoud R. : The Crusades, London, 1962 -
- Prawer J.: « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities", » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985,pp .59 - 115.
- Prawer J.: « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985,pp .117 - 192.
- Runciman S. : « The First Crusade : Constantinople to Antioch », in : A History of the Crusades, volume. I, Ed. by: Setton, London,1969,pp.280-307.
- Selim H.A.W.: « Captives Waqf in Syria and Egypt 491-589h/1097-1193ad,» in : La liberazione dei 'captivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il ğihād, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000,pp. 559- 570.
- Smail R.C.: The Crusaders in Syria and the Holy Land, Printed in Great Britain, 1973 .
Stevenson W.B. : The Crusaders in the East, Beirut, 1968 -
Strayer J.R. and Others: The Middle Ages 395-1500, New York,1970 -

- Thorau P. : The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century, Translated by p.m. Holt London ,1992.
- Vasilescu M. : « Even more special Sons ? : the Importance of the Order of the holy Trinity to Pope Innocent III, » in : La liberazione dei 'captivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il ğihād, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000,pp. 721- 736.
- Zeitler B. : Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith': the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript, Mediterranean Historical Review, MHR Vol. 12, no. 2, 1997 pp. 25-50.

الأمير الزياري "عنصر المعالي كيكاوس" وكتابه قابوسنامه
(قراءة تاريخية تحليلية)

د. صلاح الدين علي عاشور (*)

مقدمـــــة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وبعد...

فقد خلّف لنا أسلافنا تراثا ضخما، وكنزا ثمينا من العلوم العربية والإسلامية، جدير بالإجلال والإكبار. ومن هذا التراث الخالد كتاب "قابوسنامه" لصاحبه الأمير الزيارى "عنصر المعالى كيكاوس" وهو من الكتب التى شهرت في التاريخ الفارسى باسم "كتب النصائح"، والتى تزخر بالروائع الفكرية الشامخة التى تقف مرفوعة الهامة أمام روائع الآداب الإسلامية.

ولما كانت قيمة أي عمل علمى مرهونة ــ إلى حد كبير ــ بما يضيفه إلى الفرع الذى ينتسب إليه من إثراء، كلما كان الإسهام في تنمية مباحثه، وكشف غوامضه، عملا جديرا بالبحث والتنقيب، لاسيما وأن "عنصر المعالى" من الفلائل الذين تركوا الحياة بعد أن خلّفوا لنا أثراً خلّد ذكراه، بعدما أحسن في تمثيل عصره، وأظهر ما كانوا يتعاطونه من فنون المعرفة، وما كانوا يدعون.

ولاشك أن لكل كتاب منهجاً، ولكل مصنف معلماً، ومنهجاً يختص به، وإن شاركه غيره في بابه، فكتب النصائح كثيرة، ولكن لا تكمل الاستفادة منها إلا بالوقوف على أفكار مصنفيها باعتصار دخائلها حتى تفصح عن كنه جوهرها. وكتاب هذه شهرته جدير بأن نتعرف منهجه لنقف على شهرة صاحبه، وحقيقة المادة التاريخية القابعة بين دفتيه، وبهذا نجلى تراثا غرسه الأولون كدّا واجتهادا، وتعهده من بعدهم لحفظه وتنميته.

وقد حاولت أن أدرس حياة هذا الرجل بمقدار ما أمدتني به المصادر، وما أسعفتني به تراجمه، وهي قصيرة بوجه عام، جعلت من الصعب التوسع في تفاصيل تعطينا صورة وافية عن حياته، ولكن من خلال استقراء ما ورد في كتابه، وبعض أقواله وآرائه، وحال العصر الذى عاش فيه، أمكن الوصول إلى ما يشبه الحقيقة من شأنه، ولذلك عنيت بشرح أفكاره ونصائحه وأمانيه، وحاولت الوقوف عند بعض النصوص كلما استطعت.

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر.

وقد بهرني من الرجل أنه كان مثلا بليغا لنبل الخلق، فلم تورثه مكانته السياسية زهوا ولا غرورا، لذلك لا نلمس في كتابه ما يشير إلى شيء من الفخر والكبرياء.

والمتصفح لكتاب "قابوسنامه" يتبيّن أن صاحبه قد هاله انحراف ابنه عن الدين، وعدم النظر في أخبار الرسول وصحابته، فأخذ ينكر عليه تلك النزعة البشرية اللاهية، فأخذ يعرض عليه نماذج خلقية رفيعة، ليعلمه آداب المعاشرة والسلوك والتقاليد، وكسب الفضائل وتهذيب الخصال، وكيف يعيش ويحكم، وتجلّت تلك النصائح من خلال القصص التاريخية التى يستشهد بها في حكاياته، ويمكن اعتباره واحدا من الكتب ذات الأطروحات الأخلاقية.

وهكذا نرى الكتاب متنوع المعارف، لا يستغنى عنه من غشى مجالس أهل العلم، ولعل اسم النصيحة يشير في غير خفاء إلى ما يضمه الكتاب بين دفتيه من كل ما من شأنه أن يثقف العقل، ويهذب النفس، ويكوّن الرجل المستنير.

وقد استمد "عنصر المعالى" مادة الكتاب من مصادر متعددة أشار إليها في مواطن متعددة من كتابه، والتي يبدو فيها رجلاً واسع الأفق لا يستنكف أن يلتقط الجوهرة من الوحل — كما يقال — فلا يضيره أن يأخذ عن الحديث سنا لحداثته، ولا عن الصغير قدرا لخساسته، ولا عن الأمة الوعكاء لجهلها. والكتاب بصفة عامة يعد دستورا وضعه "عنصر المعالى" في تهذيب ابنه "كيلانشاد" ونصحه، ليكون نبراسا له، يرده أنّى شاء إلى آفاق الإصلاح، لاسيما بعدما خوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصارت التقوى عارا على صاحبها، والفضل نقصا، وتكالب الناس على شهوات النفوس.

وإذا كان لنا أن نرد الفضل إلى ذويه؛ يجب علينا ألا نغفل اقتداء "عنصر المعالى" بنصائح النبى "لقمان" لابنه، وما ورد في السياق القرآني، وكذلك الأعمال الفارسية الخالدة مثل: "شهنامة" الفردوسي، و"رسالة الصحابة" لابن المقفع، التى كانت بمثابة منتجع لكل قاصد من المفكرين والعلماء الذين شادوا عليها مؤلفاتهم، حتى أوصلها هو إلى ذروتها.

وقد زادني إقبالاً على دراسة هذا الرجل أنه لم يأخذ حظه من عناية الباحثين، فوجدته جديراً بالدرس الواعي المتئد، ورأيت أن اكتب عنه دراسة مستقلة، بلا جنوح إلى الغلو، ولا إلى التقصير، وهي أيضا دراسة تعني باستقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف في تناول الحدث التاريخي.

وعلى كل حال؛ فالدراسة تهدف إلى الغوص في شخصية الأمير "عنصر المعالى" وتحليل مادته التاريخية التي حواها كتابه "قابوسنامة"، مع تقديم فكر صاحبه على نحو أكثر رؤية وتفصيلا، والتعقيب على أفكار الكتاب من خلال استعراض بعض نصوصه، لنستبيّن خصائصه ومميزاته، فضلا عن مدي قدرة الدراسة على منحنا الحقيقة التاريخية الصادقة.

ومن الله أرجو التوفيق والسداد، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عصر المؤلف ومعطياته السياسية والثقافية والاجتماعية

تميز عصر الأمير "عنصر المعالى" بخصائص ومعطيات عديدة، تجلت في كافة جوانب الحياة، ولما كان المفكر ابن عصره، ونتاجاً من نتاجه، يتأثر به سلبا أو إيجابا، وجب عليّ كشف وتوضيح لروح العصر الذى عاش فيه، لأن ذلك يعيننا على تفهم العوامل المختلفة التى صبغت عصر المؤلف بألوان خاصة، وضحت من خلال تجلياته الفكرية، وآرائه التربوية والأخلاقية، والتى تبدت في بيئته السياسية، والجغرافية، والثقافية، والاجتماعية.

أولا ـ المعطيات السياسية:

الدولة الزيارية هى إحدى الأسر التى استقلت بجزء من أراضى الدولة العباسية في شرق الدولة الإسلامية[٢]. وتنسب هذه الأسرة الزيارية إلى رجل ديلمى يدعى "مرداويج بن زيار"، الذى بدأ نجمه في الظهور حينما التحق بخدمة الأئمة العلويين في طبرستان[٣]، لاسيما بعد أن اعتنق هؤلاء الديالمة الإسلام، عقب دخول الحسن بن علي العلوي الملقب بـ "الأطروش"[٤] بلاد الديلم[٥] في حدود سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م) وأقام فيها نحو ثلاث عشرة سنة يدعو الديلم إلى ترك المجوسية واعتناق الإسلام، حتى كسبهم إلى جانبه، ثم دعاهم للخروج معه إلى طبرستان سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) فسيطر عليها منتزعا إياها من السامانيين[٦].

ولما مات الحسن بن علي الأطروش تنازع القادة، وهم: "ماكان بن كالى" و"ليلى بن النعمان" و"أسفار بن شيرويه" و"مرداويج بن زيار" (وكلهم من الديلم) على إمارة الجيش[٧]، ولاسيما بعد أن قام "الحسن بن القاسم" (خليفة الأطروش) بتصفية سبعة من قادة الديلم (لشكه في نواياهم تجاهه) مما حمل الباقين على الفرار، وتشكيل جيوش خاصة بهم[٨].

وقد عرف هؤلاء الديالمة بروح المغامرة العسكرية، فأخذوا يتطلعون إلى احتلال مناصب عسكرية لهم في ظل الإمارة العلوية التى كانت تحتضر آنذاك[٩].

ولما قتل "ليلى بن النعمان" الديلمى (وهو أشهرهم) وهو يقود جيش الديالمة ضد الإمارة السامانية، تولى مكانه "ماكان بن كالى" القيادة، ولكن أحد قواد "ماكان" ويدعى "أسفار بن شيرويه" خرج عليه، وتعاون مع قائد أخر وهو "مرداويج" فأحرز نصرا مؤزرا ضد "ماكان"[١٠]. ولكن سرعان ما وثب مرداويج على "أسفار" وقتله عام (٣١٦هـ/٩٢٨م) وملك البلاد، مؤسسا لأسرته إمارة في "جرجان"[١١] و "طبرستان" و "همذان" [١٢] وأصفهان[١٣] جنوبى "بحر قزوين" أو ما يسمى "بحر الخزر"، وحاكما هذه البلاد باسم الخليفة العباسى[١٤]. وكانت الثغرة الأساسية في حكم "مرداويج بن زيار" أن الجيش الزياري كان يتكون من عدة عناصر رئيسية، منها: الجيل، والديلم، والأتراك، والأكراد. وكان من تعدد عناصر الجيش واختلاف كل عنصر عن الآخر في اللغة، والوطن، وتفضيل بعض العناصر على الأخرى، أثر واضح في قيام بعض النزاعات الداخلية، حيث فضل "مرداويج" عنصري الديلم والجيل على غيرهم، مما أدي في النهاية إلي قتله على يد غلمانه الأتراك[١٥].

وبعد مقتل "مرداويج" أخذ شأنهم يعظم لاسيما في عهد أخيه، وخليفته "وشمكير بن زيار" (٣٢٣ـ٣٥٦هـ/٩٣٤ـ٩٦٦م) ويقال إنه ركب فرسا وشبّ وهو غافل عنه، فسقط

ميتا[١٦]. فخلفه ابنه "قابوس بن وشمكير" (٣٥٦-٤٠٣هـ/٩٦٦-١٠١٢م) وكان كاتبا وشاعرا[١٧]. وفي عهده تعرض سلطان الزياريين إلى خطر شديد، عندما علا شأن الأمراء البويهيين الذين تطلعوا إلى أملاك الزياريين، حتى انحصر ملك بني زيار في "جرجان" وطبرستان".

وفي أيام "قابوس بن وشمكير" أغار "عضد الدولة" البويهي على أملاك الزياريين سنة (٣٧١هـ/٩٨١م) وانتزعها من يد قابوس، ولكن قابوس عاد واستردها سنة (٣٨٨هـ/٩٩٨م) بمساعدة السامانيين[١٨]، ووسع من ملكه حتى إنه ضم بلاد "جيلان" (كيلان).

ولم يلبث "قابوس" أن عتا وتجبر في أواخر إمارته، فأجمعت حاشيته على خلعه، وأجبرت ابنه "منوجهر" (٤٠٣-٤٢٦هـ/١٠١٢-١٠٣٤م) أن ينزل على إرادتها، وحبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد[١٩].

وقد ازدحمت السنوات التي أعقبت وفاة " قابوس بن وشمكير" بالاضطرابات بين أبناء البيت الزياري، من أجل الوصول إلى سدة الحكم.

والواقع أن عصر"قابوس" كان بمثابة حد فاصل بين عصرين: عصر القوة، وعصر الضعف والتفكك، فهذا "منوجهر بن قابوس" يسارع إلى توطيد علاقاته بالسلطان "محمود الغزنوي" ويعقد معه معاهدة صلح ذليلة استرضاءً للغزنويين[٢٠] فأتاحت فرصة التدخل في شؤون الإمارة الزيارية، وفرض هيمنتهم عليها، فضاع استقلالها وسط هذا الزخم من التنازلات، والتي أدت بها في النهاية إلى الضعف ثم الانهيار[٢١]. ولم يلبث أن توفي"منوجهر" فخلفه ابنه "أنوشروان" (٤٢٦-٤٣٠هـ/١٠٣٤-١٠٣٨م) الذى استمر في حكم بلاده مواليا للغزنويين[٢٢]. وكانت أمواج السلاجقة[٢٣] قد بدأت في مدّها، ولم يستطع أحد وقفها، فاستولوا على جرجان، وطبرستان سنة (٤٣٣هـ/١٠٤١م) من يد " أنوشروان" الزيارى الذى لم يحرك ساكنا أمام جحافل القوات السلجوقية الفتية [٢٤].

ومنذ ذلك التاريخ؛ ظل الأمراء الزياريين يحكمون بتفويض من السلاجقة، ويقال إن آخر أمراء هذه الأسرة، وهو كيلان شاه بن عنصر المعالى كيكاوس" (ابن صاحب قابوسنامه) الذى انحصر حكمه في مدينة "جيلان" حتى خلعه السلطان "ملك شاه بن ألب أرسلان"[٢٥]، ثم لم يلبث أن توفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، وبوفاته انقضت الأسرة الزيارية كأن لم تكن شيئا مذكورا.

ثانيا - المعطيات الجغرافية:

إذا كان يقال إن الإنسان ابن بيئته، فمن الجائز أن يقال أيضا إنها أبوه، ولا تصدق هذه المقولة بشقيها على أحد بقدر ما تصدق على "عنصر المعالى" الأديب الفليسوف، فهو ابن للظروف الاجتماعية، والسياسية، والعقلية، والجغرافية، التى حكمت بيئته وعصره، التى لم يستطع أن يكون بمنأى عنها، فقد كان لها بالغ الأثر في تشكيل نفسه وتكوين شخصيته، وظهر ذلك جليا من خلال كتابه "قابوسنامه" ومن خلال القضايا التى تناولها في نصائحه.

وتعتبر منطقة الديلم (أو بلاد جيلان) هى الموطن الأصلي للزياريين[٢٦]، ويصفها ياقوت الحموي بقوله[٢٧]: "بلاد واسعة يشملها هذا الاسم" ومن أشهر مدنها "طبرستان" والتى تعرف أيضا بـ"مازندران"[٢٨].

وقضى عنصر المعالى عمره في مدينة طبرستان التى شهرت ــ على مر التاريخ ــ بمنعتها وقوة شكيمة أهلها وحصانة موقعها الجغرافي الذى جعل منها دائما حجر عثرة أمام القوات الإسلامية في عصري الأمويين والعباسيين، من أجل إقرار نفوذهم هناك[٢٩]، وظل الأمر على هذا الحال حتى استولى عليها "حسن بن زيد العلوي" المعروف بالداعى الكبير سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) وطرد منها عمال الخلفاء العباسيين[٣٠].

وشهرت طبرستان بطبيعتها الساحرة، وخصب أراضيها، ووفرة مياهها، وكثرة ثمارها وخيراتها، وصناعتها الزاهرة، ومدنها العامرة، وتجارتها الواسعة[٣١].

ويصف ابن أسفنديار[٣٢] طبيعة طبرستان بقوله: "مناخها معتدل، وشتاؤها خريف، وصيفها ربيع، وكل أرضها رياض وحدائق، لا تقع العين فيها إلا على الخضرة، ومدنها وقراها متصلة بعضها ببعض، وهواؤها معتدل لطيف..."

كل هذا الرخاء جعل من طبرستان موطنا لأهل العلم والفضل. والثعالبي[٣٣] الذى كان يحمل إجلالا عميقا لتلك المدينة جعله يخصها بفصل في يتيمته بعنوان: "فصل في ذكر شعراء طبرستان" يذكر فيه "قابوس بن وشمكير" جد مؤلف قبوسنامه.

كما أن صاحب كتاب "تاريخ طبرستان"[٣٤] نراه يتحدث عن أهل العلم والفضل من شعراء وكتاب وزهاد وأطباء وحكماء، مع ذكر أسماء الكثير منهم ونبذا من سيرهم وأخبارهم.

و"جرجان" مدينة شهيرة وصفها ياقوت[٣٥] بقوله: "مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وهى أكبر مدينة بنواحيها، وهى أقل ندى ومطرا من طبرستان، وأهلها أحسن وقارا، وأكثر مروءة ويسارا،... وخرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى..." حتى وصفها البعض بأنها جنة الدنيا[٣٦].

ولاشك أن هذه البيئة كان لها أكبر الأثر في ظهور كثير من الأفذاذ الذين لا يشق لهم غبار في الفكر، والثقافة، واللغة، بل وفي كل فن من فنون المعرفة. وكان الأمير "عنصر المعالى" رائدا من الرواد الذين ولجوا أبوابها، بعد أن وجد الأرض ممهدة، والزرع مخضرا، والشجرة المورقة بدأت تؤتى ثمارها حلوة المذاق. وبالرغم من تربعه على كرسي الإمارة، إلا أنه ناله من علو المكانة، ورفعة الشأن الكثير؛ لأنه كرس حياته للدرس والتحصيل، والتزود بالعلم.

كل هذه العوامل ساعدت الرجل على ظهوره كشخصية عبقرية قوية، استطاعت أن توفق بين العلم والعمل، وتكون فكره وثقافته، وهو ما ظهر جليا في مؤلفه.

ثالثا - المعطيات الثقافية:

ورث القرن الخامس الهجرى جهود أربعة قرون بذلها العلماء في الدرس والتحصيل والإنتاج، وتعددت ينابيع الثقافة بين عربية خالصة، تتمثل في الكتب التى ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية، وثقافة تجمع بينهما في إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين. كما ورث المذاهب الدينية والعقيدية: من أهل سنة يتخذون القرآن الكريم والسنة النبوية إماما لهم، ومعتزلة يحكمون العقل في مسائل العقيدة، وأشاعرة يحاولون أن يوفقوا بين السنة والعقل، وروافض. وكثيرا ما كان يحتدم النزاع بين المعتنقين لهذه المذاهب.

وإذا كان تاريخ تلك الفترة مصبوغاً بالدماء، إلا أن كثيرا من العلماء رأى أن الحياة الهادئة إنما تكون في ظلال العلم ؛ فأخلص لها، وعكف عليها ؛ ولذلك حفظ لنا التاريخ أسماء كثير من العلماء المخلصين في فروع العلم المختلفة في ذلك الوقت [٣٧].

وقد يبدو غريبا أن تزدهر العلوم والآداب في عصر سادته الفتن والقلاقل، وغلبت عليه أحداث عصفت بالوحدة السياسية، بيد أن الوضعين السياسي والثقافي يختلفان في كثير من الأحايين، ولا يحدث انسجام بينهما، فعلى الرغم مما ساد من فوضى واضطراب سياسي، فإن الأمر كان على العكس تماما بالنسبة للحياة العلمية، إذ كان من العصور التي ازدهرت فيه العلوم، وانتشرت الثقافة [٣٨].

وكانت الدولة الزيارية قد شهدت في عهد الأمير "شمس المعالي قابوس بن وشمكير" (جد المؤلف) نشاطا ثقافيا وأدبيا واسعا، وذلك بفضل تشجيعه للعلماء والشعراء، لذا فقد كان بلاطه يزخر بالكثير منهم، هذا في الوقت الذى كان فيه قابوس شاعرا ماهرا، وكاتبا بارعا، له في النثر العربي روائع، ورسائله في البلاغة في مرتبة رسائل العرب.

وعلى الرغم من كونه غير عربي، ولا ينحدر من أرومة عربية، إلا أنه له نظم ونثر بالعربية، ولم يكد ينظم بالفارسية إلا أبياتا معدودات، فاستحق بذلك أن يعتبر من شعراء العربية وكتابها[٣٩].

وقد أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه، إذ لم تمنع المعاصرة بينه وبين الثعالبى[٤٠]، أن يعترف بشدة إعجابه بقابوس، والذى كان يحمل إجلالا عميقا له، حتى يصفه بأنه كان أديب الملوك، ومليك الأدباء [٤١]. ويقول في حقه في يتيمته: " أنا أختم هذا الجزء بذكر خاتم الملوك، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان، ومن جمع الله سبحانه وتعالى إلى عزه بسطة العلم، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم، فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات... وآن لى أن أعمل كتابا في أخباره وسيره، وذكر خصائصه، ومآثره التى تفرد بها عن ملوك عصره..."[٤٢].

وكان الشعراء ينظمون فيه مدائح بالفارسية والعربية، إلا أنه كان يكره منهم أن ينشدوا تلك المدائح في حضرته، ويقول إنه لا يحب سماع الأكاذيب، وذلك لعلمه بأنه في حقيقته على غير ما يذكرون في مدائحهم، فهو يتحرز من أن يخدع نفسه[٤٣].

وكانت حاضرة الزياريين مرتاد الشعراء الذين تدفقوا عليها من كل فج ليشهدوا منافع لهم، و ليعرضوا ما تجود به قرائحهم من روائع النظم في قصور الأمراء والكبراء.

والذى يدعو للإعجاب، ويبين مدى إزدهار العلوم والآداب في ذلك العصر، ما كان بين الأمراء من تنافس في أن يهدى إليهم الكتاب مؤلفاتهم، وحرصهم على أن تعمر ندواتهم بالأدباء والفلاسفة. وقد امتاز هذا العصر بتقدير الأمراء لرجال الأدب، والسعى إلى إرضائهم وخطب ودهم، فقد كان كل أمير يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه بكثرة من يحوطه من رجال العلم والأدب.

وكان من عادة الشعراء ورجال العلم والأدب في ذلك الزمان أن يتنقلوا بين قصور الأمراء وينظموا القصائد، أو يؤلفوا الكتب، ويهدونها إلى الأمراء والحكام، فنجد "الثعالبى" يهدى كتبه إلى الأمير "قابوس بن وشمكير" في طبرستان مثل : كتاب "المبهج" والتمثل والمحاضرة" . وكذلك فعل العلامة الكبير "أبو الريحان البيروني" (٤٤) فقد انتقل إلى قصر شمس المعالى، وهنالك أهدى إليه كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية".

ويذكر ياقوت(٤٥) أن شمس المعالى قابوس أراد أن يستخلصه لنفسه، ويرتبطه في داره على أن يكون له الإمرة (أى الولاية) المطاعة في جميع مايحويه ملكه، فأبى عليه ولم يطاوعه، ويقال إنه بلغ من منزلته عنده أنه أسكنه معه في داره، وأنزله معه في قصره(٤٦).

أما الأديب الكبير "بديع الزمان الهمذانى(٤٧)، فقد اتصل بالأمير قابوس أثناء إقامته بخراسان وتبودلت بينهما الرسائل، إذ كان بديع الزمان أحد المعترفين من فضله.

وقد حفظت لنا المصادر جانبا من تلك الرسائل المتبادلة منها ما كتبه بديع الزمان إلى شمس المعالى وقد ورد حضرته: " لم تزل الآمال تعدنى هذا اليوم، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة، وسدته المريعة، وقد صرت بين إثبات النوائب، وتجشمت هول الموارد، وسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحضرة البهية أو كدت، وبلغت الأمنية أو زدت(٤٨). والواقع أن قرض الشعر ونظمه أصبح تقليدا متبعا في ذلك العصر عند حكام ذلك الزمان فمن مشهور ما ينسب إلى قابوس من شعر :

خطرات ذكراك تستثير مودتى ... فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لى إلا وفيه صبابـــة ... فكأن أعضائي خلقن قلوبــا

ويذكر صاحب كتاب "جهار مقالة"(٤٩)أن الطبيب الشهير "ابن سينا" كان يمارس مهنة الطب أثناء وجوده بجرجان على عهد الأمير قابوس بن وشمكير، حتى إن الناس بجرجان كانوا يحضرون إليه للتداوى.

وقد استطاع ابن سينا أثناء إقامته هناك أن يشفي أحد أقارب قابوس، فاستدعاه الأخير ناحيته ليعبر له عن إعجابه بمهارته، ثم استبقاه في بلاطه مكرما، وفي أثناء إقامته بجرجان انتهى ابن سينا من تأليف أجزاء عديدة من كتابه "القانون في الطب"

والواقع أن ابن سينا لم يخدم الأمير قابوس، ولم يره طيلة حياته، بل إن قابوس قد حبس وقتل قبل بلوغ ابن سينا جرجان، إذ يقول ابن سينا في ترجمته لحياته (نقلا عن القفطى،

وابن أبى أصيبعة): " ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصدى الأمير قابوس، فاتفق في أثناء هذا القبض على قابوس وحبسه في بعض القلاع وموته هناك".

وعلى الرغم من أن بعض الأمراء الزياريين كانوا يعتقدون في علة النجوم، إلا أن "قابوس بن وشمكير" كان لا يقرب المنجمين إليه، وربما كان يطاردهم في بلاده. وتوجد لقابوس رسالة في بطلان أحكام المنجمين يقول فيها : "اعلم أن أضعف هذه العلوم هو الموسوم بأحكام النجوم، إذ هو علم معلول الأصل، مختلف الأقاويل، مدخول الفرع، مزخرف الأباطيل، ولو لم يكن الأصل واهيا لما سمته الفلاسفة فلكيا... وأما ما يزعمه أهل هذه الدعوى من أن الكواكب هى التى تأتى بالخير والشر لجميع البشر، لاختلاف حركاتها وسيرها في السماء، فباطل، لأن سبب وصول الخير والشر إلى الناس ظاهر، وذلك أنا نرى الإساءة والإحسان من فعل الإنسان "(٥٠).

وبرغم من أن "قابوس بن وشمكير" كان أديبا وشاعرا، ولا يعتقد في علم النجوم، إلا أنه نبغ في علم الفلك وعلوم الأوائل، حتى يقال إنه كتب في الأسطرلاب كتابا، أعجب به الصاحب بن عباد، وأطراها أبو إسحاق الصابى(٥١).

رابعاً ـ المعطيات الاجتماعية:

لاشك أن الحياة الاجتماعية مرتبطة إلي حد كبير بالحياتين السياسية والعلمية، بل إن الحياة الاجتماعية كالمرآة تنعكس عليها دائما آداب العصر، وتتفاعل معه، فيظهر لنا نتاج مترف أو خليع أو وقور أو قلق، كل ذلك نتيجة للحياة التي يحياها الشعب، والإحساسات التي تحسها الأمة.

والمعروف أن القرن الرابع الهجري هو القرن الذي انقسمت فيه الدولة الإسلامية ـ كما ذكرنا ـ إلي دويلات شبه مستقلة لكل منها أميرها ووزراؤه(٥٢) وكان أغلب الأمراء من غير العرب، فكانت لهم مجالس ذات التقاليد الخاصة المترفة(٥٣). حتى إن الخلفاء أنفسهم في بغداد قد أدخلوا ألوانا من الترف والنعيم لم يعهدها المسلمون من قبل(٥٤).

وقد ارتقى الزياريون السلطة جنودا هدفهم الإثراء، لذا كان الدور الذى لعبه قادتهم في التاريخ الإسلامي عسكريا إلى حد ما، لاسيما بعد أن اعتمدوا على بنى جلدتهم من الديلم، واستندوا بعض الشيء على جماعات من الأتراك المرتزقة الذين كان استخدامهم مألوفا آنذاك.

ويبدو أن الحياة في بلاد الديلم كانت بدائية وصعبة، إذ كانت ملابسهم فقيرة ومرقعة، وبمثل هذه الفرص المحدودة، لم يكن هناك ما يثير العجب في أن تكون الحرب ديدنا لهم(٥٥).

وشكل "الديالمة" و "الجيلاويون" الخلفية القومية للدولة الزيارية، وقد أشادت المصادر العربية والفارسية في أكثر من مناسبة بمقدرة الجندى الديلمى العالية على تحمل الصعاب، كما نوّهت بشجاعته وقدرته على المقاومة، بالمقارنة مع الجنود الأتراك، حتى إن "أبا الفضل بن العميد"(٥٦) شهد لهم بالصبر على الجوع، وقبولهم بالقليل من الطعام في حال قلته(٥٧).

ولقد كان لاعتناق الديلم الإسلام تأثير فاعل في إطلاق قوتهم، وتحريرها خارج منطقة الديلم. ولاشك أن اختلاف عناصر المجتمع الزيارى وتباين أصوله، ودخول كثير منهم في الإسلام، أدى إلى نمو الحضارة نموا يتطلب دارية واسعة بكثير من شؤون الحياة، من هندسة وطب وفلك ونظم حكم وسياسة، ولغة وأدب، الأمر الذى انعكس بالإيجاب على الدولة الزيارية التى انتشرت فيها ثقافات مختلفة لأمم مختلفة(٥٨).

ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تلتقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية التى صبغت بالصبغة الإسلامية، وهى ما تعرف بالثقافة الإسلامية.

هذا هو العصر الذى نشأ فيه الأمير "عنصر المعالى" فلم يكن غريبا أن يبرز اسمه، ويتفوق على أقرانه، فلا يستغرب نبوغه في عصره، ولا في بيئته، بل الغريب أن يكون العصر والوطن والبيت على هذه الحالة، ثم لا يظهر فيه هذا النابغ والفيلسوف.

التعريف بالمؤلف:

لم يرد في المصادر القديمة التي وصلت إلينا حتى اليوم ذكر بالتفصيل عن حياة الأمير "عنصر المعالى" يجيب على الكثير من الأسئلة المطروحة أمام دارسيه، والغموض يكتنف الكثير من مراحل حياته، وكل ما لدينا نصوص مبعثرة في هذا المصدر أو ذاك، وما هي إلا أسطر قليلة للغاية، لا تعطينا صورة نستطيع أن نستشف منها شيئا واضحا عن حياته الأولى، ومن حسن الحظ أن المؤلف استعرض نتفا من أخباره بين ثنايا كتابه. ومؤلف الكتاب هو الأمير كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار الملقب بـ "عنصرالمعالى" الذى ينتمى إلى أسرة عريقة في النسب، فنسبه يمتد إلى سلسلة طويلة من الأجداد كل واحد منهم له مكانته وشأنه، وزعامته المهيبة (٥٩).

ومن خلال النصوص التى وردت إلينا من كتابه؛ نستطيع أن نتلمس بعض الأشياء عن تاريخ حياته تلقى الضوء على بعض مما خفي علينا عن ميوله واتجاهاته، وتكوينه العلمي، منها ما ورد في مقدمة الكتاب حينما كان يخاطب ابنه كيلانشاه"، ويفتخر بأجداده الزياريين الكبار بقوله :"وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا، وكان جدك الأعلى الملك شمس المعالى قابوس بن وشمكير حفيد أرغش فرهادان... وكان له ملك كيلان...وجدتك أمى كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شروين مصنف "مرزبان نامه" وجدها الثالث عشر كايوس بن قباذ كان أخا أنوشيروان العادل. وأمك ابنة الملك الغازي محمود بن ناصر الدين، وكان جدى حسن فيرزان ملك الديلم، فكن فطنا، واعرف قدر أصلك..."(٦٠).

وهو الملك الزياري السابع الذي حكم في كيلان (جيلان) ما بين عامي (٤٤١-٤٦٢هـ/١٠٤٩-١٠٦٩م) وكان هذا الأمير على صلة كبيرة بالأسرة الغزنوية، حيث تزوج ابنة السلطان محمود الغزنوي. كما توجه إلى الهند في صحبة السلطان مسعود الغزنوي أثناء حملاته لنشر الإسلام هناك، ولذا فقد ذكر المؤلف في كتابه أنه شارك في الجهاد من أجل نشر الإسلام في كل من الهند وجورجيا وأرمينية، ولعل مشاركته في نشر الإسلام في كل من

جورجيا وأرمينية كانت أثناء توليه الحكم في كوهستان، وبعد أن تخلى عن مصاحبة الغزنويين في الهند، فقد قيل بأنه ظل مقيماً في الهند، بعد وفاة السلطان مسعود الغزنوي، مدة ثماني سنوات كان خلالها نديماً للسلطان مودود بن مسعود[٦١].

وعلى كل حال فالأخبار المتوافرة لدينا والمتعلقة بحياة المؤلف، وفترة حكمه، ضئيلة للغاية في كتب التاريخ، كما أنه لم يشأ أن يذكر الكثير عن أخباره في كتابه قابوسنامه، بل إن أغلب المؤرخين يعرفونه بأنه مؤلف "قابوسنامه" أكثر من تعريفهم إياه بأنه كان حاكماً وملكاً، ووسط هذا الغموض لم نعرف عنه إلا القليل النادر[٦٢].

ويجمع مؤرخوه أنه توفى سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) وله من العمر ثلاثة وستون عاما، وأن ابنه "كيلانشاه" فارق الدنيا سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، ومع ذلك فهناك رواية وردت ضمن فصول كتابه وهو الباب (الرابع والأربعين) تقول "وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة" ولكن الحقيقة أن البداية كانت سنة (٤٥٧هـ) وليس (٤٧٥هـ) [٦٣].

ويرى البعض[٦٤] أن الناسخ قد أخطأ في نقل العبارة فكتب خمس وسبعين، بدل سبع وخمسين، ويعلل ذلك بحدوثه كثيرا في حياتنا اليومية. ويرجح أيضا أن تأليف الكتاب كان بين سنتي (٤٥٧–٤٦٢هـ) وأنه توفي بعد الفراغ من تأليف كتابه بفترة وجيزة.

وإذا كنا لم نهتد إلى السنة التى ولد فيها الأمير "عنصر المعالى" إذ لم يتحدث مؤرخوه عن سنة وفاته، ولكن ربما كان ميلاده حوالى سنة (٣٩٩هـ/١٠٠٨م)على اعتبار أنه توفي وله من العمر ثلاثة وستون عاما، وأنه توفى سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م).

بيد أن هذا شأن المؤرخين مع أفذاذ الرجال لا يهتمون بمولدهم، لأنهم لا يعرفون ما سيكون من أمرهم بين آلاف المولودين، حتى إذا برزوا في ميادين الفكر والفن وذاع صيتهم في الآفاق، ومضوا إلى جوار ربهم عنوا بحياتهم، وأرخوا سنى وفاتهم، وكذلك كان حالهم مع عنصر المعالى. وعلى كل حال فإن الاهتمام بفكره وأدبياته أفيد وألزم من تاريخ جسده، حتى إن مؤرخيه ذكروا اسمه مقرونا باسم كتابه، فاشتهر بأنه مؤلف قابوسنامه[٦٥].

وهو الكتاب الذى وضعه في أواخر أيامه نابعا من فكره ووجدانه ؛ ليكون إماما ومرشدا ومعلما لابنه أصول الحياة وسياسة الملك، وليضع بين يديه ثمار تجارب ثلاثة وستين عاما من العلم والتعلم. وهدفه الحقيقي التأثير على عقلية ابنه كي يقبل على أفكاره، ويؤمن بها، ويعمل بمقتضاها.

ثقافتــــه:

صمت المؤرخين مطبق حول مصادر ثقافة "عنصر المعالى"، وربما حالت الحياة الرقيقة التى كان يحياها دون التعرض في كتابه لحياته الشخصية، وذلك يدلنا على أن الرجل تثقف ثقافة ذاتية أدبية. وأغلب الظن أن ليس في حياته من غريب يذكر، وأنه طوي أيامه بين الإفادة من العلم وقراءة آثار السابقين من العلماء، وكان حبه للدرس والتحصيل يدفعه دائماً إلى الاجتهاد، وتكبد مشقة التحصيل، وتأليف كتابه القيم "قابوسنامه" اثبت فيه أنه كان كاتبا مجيدا،

وفيلسوفا بارعا. ويبدو أن العلوم التى تلقاها في ريعان حداثته ظلت راسخة في ذهنه حتى زمان نضجه، والدليل على ذلك أنه لما بدأ بتأليف كتابه كان قد تجاوز الخمسين من عمره ــ كما يعترف هو في كتابه ــ وكان يكتب بلا كتاب يحضره، ولا أصل يرجع إليه، بل كان يستحضر وعن ظهر قلب ما كان قد تلقاه من الثقافة منذ صباه، لاسيما وأن والده كان يجلب إليه المعلمين الذين مهدوا له طريق المعرفة بشتى ألوانها، فضلا عن تجاربه لشخصية التى أشار أليها في مواطن متعددة من كتابه.

وكان الأمير "عنصر المعالى" مولعا بتحصيل العلم على اختلاف ألوانه، وكان منهوما بالمعارف نهما شديدا، ومن حسن الحظ أن مؤلفه حوى الكثير من سماته الشخصية، وذلك من خلال النصائح التى جاءت في كتابه "قابوسنامة"، حيث تعرفنا على بعض تفاصيل حياة المؤلف المعرفية التى لم يرد ذكرها في كتب التاريخ، منها بأنه تعلم الفروسية والسباحة والرمى بالقوس في سن مبكرة بأمر من أبيه، حتى إن أباه أحضر له المعلمين لذلك الغرض(٦٦)، كما عرفنا أيضا أنه ذهب لأداء فريضة الحج زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ــ٤٦٧هــ/ ١٠٣٠ــ ١٠٧٤م)(٦٧) وهو في سن الخمسين، إذ شكلت منعطفا مهما في حياته، فرزقه الله التوبة، وأعرض عن اللهو والشراب، وغلب عليه الزهد والورع(٦٨).

وأنه إلى جانب كون "عنصر المعالى" كاتبا ذا أسلوب متميزــ كما سنعرف عند الحديث عن كتابه ــ كان يقرض الشعر كذلك، ولكن قدرته على النظم كانت أقل بكثير من قدرته على الكتابة النثرية، ولهذا جاء شعره ركيكاً إذا ما قيس بفصاحة نثره (٦٩).

وهكذا ورث الأمير عنصر المعالى عن أسرته حب العلم والأدب فأكب على الدرس والتحصيل منذ صباه، وأقام على ذلك إلى آخر أيام حياته، ولما أحس بدنو أجله جمع ما حصل ووعى من تجاربه في الحياة وقدمه إلى ابنه وخليفته "كيلانشاه" قائلا له :"فاعرف الآن يابنى أنى ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا في كل باب، وكل ما كان من عاداتى جعلته جملة في أربعة وأربعين بابا من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائما عادتي من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة"(٧٠).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، هل كان الأمير "عنصر المعالى" يستحق أن يطلق عليه لفظ عالم، الذى يجمع بين علوم شتى ؟. والحق أنه يمكن اعتباره من المفكرين الواعين المثقفين، أو الفلاسفة الذين يتوخون البحث عن الحقيقة وربطها بالواقع. فالفرق بين علم العالم وعلم العامي من الناس، كما يقول أحد الباحثين(٧١)، هو أن العامة تقتصر على معاينة الأشياء، ولكن العلماء يحاولون أن يتعرفوا أسباب هذه الأشياء، وبهذا يمكن اعتباره رجلا شغوفا بالمعرفة، لا يجد لها بابا إلا ولجه.

ولكن إذا أريد بلفظة "العالم" غزارة المادة، وسعة المحصول، فهو دون ريب بعيد عن هذا، ولكن المطلع على أبواب قابوسنامه يدرك عمق تفكير صاحبه، وروعة أسلوبه، وتصدّره بين أقرانه، ومدى انعكاس قراءته التاريخية والأدبية على معطياته الثقافية، يعينه على ذلك

ذكاء قوي، وطبع سليم، ونفس قويمة تجافت عن ابتذال العامة وإسفافها، فجاء هذا العمل كمرآة صادقة للمجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية، لاسيما فترة حكم الزياريين.

اسم الكتاب والهدف من تأليفه:

وكتاب قابوسنامه يعرف أحيانا باسم كتاب النصيحة، وقد أخذ الاسم الأول من اسم مؤلفه وهو قابوس معرب كيكاوس، أما الاسم الثاني فهو يتفق وطبيعة الكتاب والغرض من تأليف، وقد وردت العبارة التالية في آخر مقدمة الكتاب: "اعلم بعد ذلك يا بني أن كتاب النصيحة هذا، وهو هذا الكتاب المبارك، قد وضعته على أربعة وأربعين بابا"(٧٢).

ولهذا يرجح أن يكون الاسم القديم لهذا الكتاب هو "نصيحت نامه" (كتاب النصيحة) ولكن هذا الاسم تواري وراء اسم مؤلفه فأصبح يعرف باسم قابوسنامه(٧٣).

وقد ألف الأمير عنصر المعالي كتابه هذا ليكون بمثابة إرشاد ونصح لابنه الأمير "كيلانشاه"، يحثه فيه على التحلي بمكارم الأخلاق، وأن ينهج في حياته نهجا فاضلا، بل ويجعل من نفسه قدوة له، فقد ذكر في المقدمة شكوى الآباء من عدم امتثال الأبناء للنصح، فأراد بهذا الكتاب أن ينصح ابنه متخذا طريق الرفق واللين والتشويق، حتى يؤثر في نفس ابنه وقلبه، لعله يمتثل لنصائحه" ومع ذلك فالكتاب يزخر بالأخبار المتصلة بالأسرة الزيارية، إذ يعتبر المصدر الوحيد الذى يقدم لنا أسبابا حقيقية عن الظروف التى عزل بسببها ثم قتل جده "قابوس بن وشمكير" وكيف قتل أيضا "وشمكير بن زيار" بطريق القضاء والقدر، حينما سقط من على ظهر حصانه، عندما كان يقوم بالصيد"

ومما يعلي من قدر الكتاب، أن جميع ما ورد به كان من واقع تجارب المؤلف وقراءاته وثقافته، وقد عرض علينا المؤلف أفكاره في خلط عجيب من الصنعة والبساطة، والشك والزهادة، والاستخفاف والعفاف، فنراه يعالج الموضوعات الأخلاقية دون أن يتعرض لناحيتها الروحية، فيكتفي ببيان فائدة الصلاح والصوم حتى يقبل القارئ عليهما لما فيهما من نفع شخصي له. ويقول في كتابه بوجوب اتباع أحكام الإسلام، لأنه لا توجد حكومة أقوى من حكومة الإسلام، وفي رأيه أن إلزام الأغنياء بتأدية فريضة الحج يعتبر من أفضل الوسائل التى يمكن بواسطتها السياحة والتجوال في أنحاء الأرض، ويختم حديثه عن المسائل الدينية بأن ينصح ابنه بعدم التعمق في بحث الاختلافات المذهبية، لأن كثرة الأسئلة بشأنها، لا تبلغ صاحبها إلا الشك والريبة(٧٤). ومن أبدع ما كتبه أيضا نصيحته التى نصحنا فيها بأن نقيس حالنا فيها بحال جارنا الفقير، لا بحال جارنا الغنى، لأننا متى فعلنا ذلك شكرنا الله على ما وهبنا إياه من نعمة، ولا نحسد الغنى على غناه وثرائه، فخرج علينا بفكر سداه النصائح، ولحمته دقة الفكر والنظر(٧٥).

ولا نعدو الحق إذا قلنا: إن الأمير "عنصر المعالي"، في كتابه هذا، كأنما فارق طفولته وشبابه، وأصبح يجنح إلى التفكير والتروي، بعدما أودع فيه صنوفا من العلوم والمعارف، من

فقه، وأدب، وتاريخ وفلسفة، وطب، وهندسة، بسط فيها أفكاره وتأملاته التى أسرف فيها إسرافا حتى بلغت أبواب كتابه أربعة وأربعين بابا، مقلدا في ذلك الكتاب والمؤرخين العظام.

محتوى الكتاب :

كتاب "قابوسنامه" هو مزيج من معارف وعلوم مختلفة ؛ فهو كتاب أقرب ما يكون إلى السياسة ونظم الحكم؛ منه إلى علمي التاريخ والاجتماع، كأنه مستودع ضخم من العلوم والمعارف السياسية والحياتية.

وحسبنا دليلا على دقة فكر ونظر الأمير "عنصر المعالى" أنه كان أبا عاقلا مجربا حكيما، نهج في تربيته ولده نهجا عمليا واقعيا، ولم يغفل ما كان جاريا في زمانه من عيوب ونقائص اجتماعية، ولم يسر وراء المثاليات النظرية التى لا تغير في واقع الأمر شيئا، فبصّر ابنه بجانبي الخير والشر من حياته، ولم يفرض عليه، قسرا، التزام طريق بعينه، بل كان يعلم أن ابنه مثل أغلب شباب عصره، يحوم حول الملذات والشهوات، فعلمه كيف يتجنبها، مذكرا له من وقت لآخر بمضار تلك الأفعال، وأن الخير كل الخير هو في الابتعاد عنها [٧٦].

ففي الباب الحادى عشر من كتابه؛ يحذر ابنه من الوقوع في ارتكاب الآثام، ولكنه يخلط وصيته لابنه بملحة لاذعة، فهو يحذره من أن شرب الخمر من الأمور المنهي عنها في الدين الإسلامي، ولكنه يؤكد لابنه أنه لم يستمع لنصحه، بقوله: "أما حديث الشراب فلا أقول تعاطى الشراب، ولا استطيع أيضا أن أقول لا تشرب، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لى كثيرا، ولم اسمع حتى منحتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين"[٧٧].

وعلى الجملة يشتمل الكتاب بعد المقدمة على أربعة وأربعين باباً أو فصلاً، كل باب منها في مطلب مستقل، مطالب ترجع في معظمها إلى تيسير دقة الحكم، والحياة الخاصة بالأشراف ومن هم على صلة بهم من أهل العلم والفضل والفضيلة، فهو مزيج من الحكم والنوادر والأشعار.

ويمكن تقسيم الموضوعات التي تناولها الكتاب إلى ثمانية موضوعات هي:

في الحكم.

في الوعظ والإرشاد.

في العلوم المتصلة بفن الحياة، والحياة الاجتماعية.

في الأخلاق والتربية.

في طلب العلم وتحصيل الفضل.

في الرياضة كالفروسية.

في الأعمال والحرف، كالتجارة والطرب والفلاحة والصناعة.

في السياسة وإدارة المملكة.

في وسط هذه الأبواب أو الفصول كان الكاتب يورد حكايات بلغ عددها إحدى وخمسين حكاية، ليوضح بها آراءه ونصائحه، وذلك بأسلوب سلس شيق، يدل على تفوق المؤلف في سرد الحكايات والقصص، فهي بلا شك لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء.

فإذا تحدث المؤلف عن حكاياته ذكر ما ورد من أقوال، وأفعال، وحكم عن الخلفاء والأمراء، والسادة، وأيضا جملة من حكماء اليونان أمثال: "فيثاغورث" و "سقراط" و"أفلاطون" و"أبقراط" و"الإسكندر الأكبر"، ومن بينهم جملة من الساسانيين ووزرائهم، أمثال: "أنوشيروان" و"بزرجمهر" و "شهربانو" بنت يزدجر الثالث التي وقعت أسيرة في أيدي العرب، وتزوجت بالحسين ؛ وكذلك طائفة من أقوال آل الرسول ﷺ، كعلي، والحسن والحسين، وذكر المؤلف من الأمويين "معاوية"، ومن العباسيين "هارون الرشيد" و "المأمون" و "المتوكل " و" القائم" كما ذكر طائفة من حكام فارس المسلمين ووزرائهم، أمثال: "عمرو بن الليث" و"السلطان محمود "و"السلطان مسعود" الغزنويين، و" أبي الفضل البلعمي" و"الصاحب بن عباد" و"أبي علي سميجور" و"طغرل بك" السلجوقي" و"أنوشتكين" و "الحسن بن الفيروزان الديلمي" و" شمس المعالي قابوس" و"شرف المعالي" وغيرهم ممن لا يبلغون مبلغ هؤلاء في الأهمية ووضوح الشخصية (٧٨).

وبذلك يستطيع القارئ في يسر وسهولة أن يتعرف على هذه الأقوال والأفعال، فضلا عن التعرف على سير الملوك وآثار السلف، ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة، وسيرة قويمة، وأدب كريم، وخلق عظيم، ويصل بها كلامه إذا حاور، وبلاغة إذا كتب. فالكتاب في مجمله مظهر راق لامتزاج الثقافات المختلفة، لاسيما في المشرق الإسلامي. وهو يدل على أن مؤلفه رجل متوقد الذهن، ثاقب الفكر، يمثل ثقافة عصره خير تمثيل(٧٩). والواقع أن لكل حكاية هدفا تهدف إليه، أو مشكلة تحل في آخرها، والمعاني التي تدور حولها الحكايات هي : "المروءة" و "الأمانة" و "حب الخير" و"الشجاعة" والشطارة والجاسوسية" و "الاحتيال" والعدالة" و"البلاغة" و"النفور من الجهل" و"ادعاء العلم" وغير ذلك من المعاني الأخلاقية والحكمية الأخرى.

ويعتمد أشخاص الحكايات في حوارهم على الفقه والمنطق والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة. ويجرى المؤلف خواطره وأفكاره ونظرياته على ألسنتهم بعبارات في غاية الجمال والبلاغة (٨٠). ويضع "عنصر المعالي" في كتابه دستورا في أدب الحديث ينبئ عن شيء غير قليل من الحصافة وسداد الرأي فيقول لابنه: "ولا تطيلن لسانك على من يستطيع أن يطلق عليك لسانه إذا أراد، ولا تكن أبدا ذا وجهين، وابتعد عن ذوي الوجهين، وخف من النمام، لأن ما يفتقه في ساعة لا يمكن رتقه في سنة، يقول الحكيم : أعمل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة، أولا: لا تحارب شخصا أقوى منك، ولو كنت محتشما وعظيما، ولا تلج مع من يكون حاد الطبع، ولا تصحب البخلاء، ولا تناظر الجهلاء، ولا تشرب الخمر، ولاتجالس النساء كثيرا، ولا تفش سرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريائك، وإذا أخذ عليك شخص عيبا، فاجتهد أن تبعده عن نفسك، ولا تحمل نفسك على التكلف، ولا تثن كثيرا على أي شخص، ولا تذمه أيضا، ولا تلتمس

الأخطاء لمن هم دونك، وأصلح من شأن أتباعك لأنهم ضياعك، فإذا عمرت ضياعك صلح شأنك، وإذا أمرت بشغل، فلا تأمر به شخصين، فقد قيل : لا يغلى القدر بشخصين، كما أن البيت لا يكنس بسيدتين" ثم استشهد ببيت شعر قاله الشاعر "الفرخي": البيت الذى فيه سيدتان، ترى فيه التراب دائما إلى الركبتين(٨١).

ويمكن تقسيم حكايات "قابوسنامه" إلى ثلاثة موضوعات هى :

١ــ حكايات عن أشخاص مجهولين.

٢ــ حكايات واقعية عن كيكاوس .

٣ــ حكايات عن أشخاص غير معروفين.

أولا ــ حكايات عن أشخاص مجهولين وهى :

رئيس بخارى والدرويش في الحج، الرجل وغلامه، الرجل الشيخ ، الخياط والجرة، الطراز وعابر السبيل، الشيخ والشاب، التاجر والبياع، صاحب القطيع والراعي، الملك والوزير المعزول، حكايات عن المتصوفين.

ثانيا ــ حكايات واقعية عن كيكاوس وهى :

كيكاوس وأبى الأسود، كيكاوس ومجاهد الحاجب، كيكاوس وتعلم السباحة، كيكاوس وعادات السلطان مودود وملوك الروم.

ثالثا ــ حكايات عن أشخاص معروفين وهى :

الخليفة المتوكل وغلامه الفتح، أفلاطون والرجل الجاهل، محمد بن زكريا والمجنون، خسرو برويز ووزيره بزرجمهر، هارون الرشيد والمعبر، بزرجمهر والمرأة، الصاحب والفقيه الشافعي والشاب العلوي،الخليفة المأمون وتربة أنوشيروان، الصاحب بن عباد وضيفه، ابن مقلة ونصر بن منصور التميمي، الخليفة المعتصم والرجل المجرم، النبى والعجوز في بيت عائشة، شمس المعالى والغلام الجميل، السلطان مسعود ونوشتكين، عمرو بن الليث وأزهر الحمار، شمس المعالى وعبد الله الجمازي، أحمد بن فريغون والراعي، كشتاسف في مدينة القسطنطينية، شهربانو ابنة ملك العجم، سقراط وتلاميذه، مهذب العيّار وقشرة الشمامة، أرملة فخر الدولة والسلطان محمود، ذو القرنيين ووصيته، معاوية والرجل المجرم، قاضى القضاة أبى العباس الرويانى والشجرة، فضلون بن مامان ومستشاره، فضلون وأبى البشير الحاجب، القاضى عبد الملك العكبري والمأمون، الصاحب بن عباد والكتبة، السلطان محمود والخليفة القادر، الأمير أبى علي سميجور وكاتبه، ربيع بن المطهر القصرى والصاحب إسماعيل بن عباد وفخر الدولة، أبو الفضل البلعمى وسهل الخجندى، السلطان طغرل بك والفارابي، السلطان محمود وأبى الفرج البستى، السلطان مسعود والعجوز المظلومة، فخر الدولة وقابوس بن وشمكير، الإسكندر ومقاتلة العدو الغافل، أبو الفضل الهمذانى العيّار، الشبلى والصبيان في المسجد.

ولما كان الكتاب يحتوى على شكوى صاحبه من تناقص طاعة الأبناء لآبائهم، وحث ابنه فيه على أن ينهج في حياته نهجا فاضلا، مذكرا إياه بأنه ينتسب إلى أرومة ملكية فاضلة، كان حرى بنا أن نستعرض أوراق الكتاب، وما احتوته من فصول [٨٢].

ويتلو المقدمة محتويات الكتاب وهى على النحو التالى:

الباب الأول (في معرفة الله تبارك وتعالى).
الباب الثانى (في خلق الأنبياء ورسالتهم).
الباب الثالث (في شكر المنعم).
الباب الرابع (في ازدياد الطاعة عن طريق القدرة).
الباب الخامس (في معرفة حق الوالدين).
الباب السادس (في ازدياد الجوهر بازدياد الفضل).
الباب السابع (عن الحسن والقبيح في الكلام).
الباب الثامن (في نصائح أنوشيروان لابنه).
الباب التاسع (في الشيخوخة والشباب).
الباب العاشر(في فائدة الإقلال من الأكل وتنظيم الطعام).
الباب الحادى عشر (في ترتيب الشراب وشرائطه).
الباب الثانى عشر (في الضيافة والاستضافة).
الباب الثالث عشر (في المزاح والنرد والشطرنج).
الباب لرابع عشر (في العشق والحب).
الباب الخامس عشر (في التمتع بالحياة).
الباب السادس عشر (في فائدة الحمام الساخن وآدابه).
الباب السابع عشر (في النوم والاستجمام).
الباب الثامن عشر (في الصيد).
الباب التاسع عشر (في لعبة الكرة والصولجان).
الباب العشرون (في قتال الأعداء).
الباب الحادى والعشرون (في الغنى وجمع المال).
الباب الثانى والعشرون (في حفظ الأمانات والوفاء بالعهود).
الباب الثالث والعشرون (في شراء الرقيق).
الباب الرابع والعشرون (في شراء العقارات والمنازل).
الباب الخامس والعشرون (في شراء الخيول والدواب).
الباب السادس والعشرون (في الزواج وشروطه).
الباب السابع والعشرون (في تربية الأطفال).
الباب الثامن والعشرون (في اختيار الأصحاب).
الباب التاسع والعشرون (في الحذر من العدو).

الباب الثلاثون(في العفو والعقاب).
الباب الحادى والثلاثون (في طلب العلم والفقه).
الباب الثانى والثلاثون (في التجارة).
الباب الثالث والثلاثون (في علم الطب).
الباب الرابع والثلاثون (في علم النجوم والهندسة).
الباب الخامس والثلاثون (في فن الشعر).
الباب السادس والثلاثون (في فن الغناء والموسيقي).
الباب السابع والثلاثون (في خدمة الملوك).
الباب الثامن والثلاثون (في منادمة الملوك وآدابها).
الباب التاسع والثلاثون (في الكتابة والإنشاء وآداب الكتاب).
الباب الأربعون (في شرائط الوزارة).
الباب الحادى والأربعون (في صفات القائد وواجباته).
الباب الثانى والأربعون (في صفات الملك وواجباته).
الباب الثالث والأربعون (في الزراعة والفلاحة وأصحاب الحرف).
الباب الرابع والأربعون (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) (٨٣).

ونظرًا لأن كتاب قابوسنامه يضم أربعة وأربعين بابا، وإحدى وخمسين حكاية، فسنورد نماذج لهذه الأبواب، ونماذج أخرى للحكايات

الباب التاسع: في الشيخوخة والشباب

يا بني! مهما كنت شابا فلتكن لك رجاحة عقل الشيخ. لا أقول: تخل عن الشباب، ولكن حافظ على شبابك، ولا تكن من الشباب الخامل، فالشاب الحصيف ما أعظمه، فقد قال أرسطاطليس: الشباب شعبة من الجنون، وكذلك لا تكن من الشباب الجاهل، فالبلاء لا يتولد من الحصافة وإنما يتأتى البلاء من الجهل، وخذ حظك من أيام الشباب قدر الطاقة، فإن أصبحت كهلا، فلن تستطيع التحكم في نفسك، وهكذا قال ذلك الشيخ: كم من السنين تحملت الحسرات والغم، فعندما أصبح شيخا، فلن تهواني الحسان، وعندما أصبحت الآن كهلاً، فإنني الآخر لا أهواهن، وإن أهواهن فلا يليق ذلك، وطالما كنت شابا فلا تنس الله عز وجل، ولا تأمن دنو الأجل، فالموت لا يفرق بين شاب وكهل، وهكذا قال العسجدي:

بيت

لا يرتبط الموت بالمشيب أو بالشباب ولا أن يموت الشيخ ويعمر الشباب

الباب الثاني والعشرون: في إيداع الأمانة

إن يودع شخص لديك أمانة، فلا تقبل بأي حال مطلقا، وإن قبلت فكن حذراً، وذلك لأن قبول الأمانة قبول للبلاء،... وإن يعطك شخص أمانة، فعليك أن تردها إليه مرة أخرى، امتثالاً لأمر الله عز وجل في محكم تنزيله {أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} فطريق الرجولة والآدمية والفتوة هو ألا تقبل أمانة، ولكن إن قبلت فلتحفظها، وتعيدها سالمة إلى صاحبها.

الباب الخامس والثلاثون: في فن الشعر وشروط الشاعر

إن تكن شاعرا، فاجتهد أن يكون كلامك من السهل الممتنع، وتجنب الكلام الغامض، ولا تقل الشيء الذي تعرفه ولا يعرفه الآخرون، وإنما يحتاج إلى شرح وتوضيح، فالشعر ينشد من أجل الجميع، لا من أجل النفس.

ولا تقنع بالأوزان والقوافي الجوفاء، ولا تنظم شعراً بلا صنعة وحسن ترتيب، فالشعر المباشر غير مقبول.

فإما أن تكون فيه صنعة وحركة كما يجب، وبه حرارة وغليان كما يجب، سواء في طريقة النظم أو في تحريك الأحاسيس أو في الصوت حتى يكون مستحسنا من الخلق، وأن تكون تلك الصناعة متعلقة بقوانين الشعر مثل: الجناس والطباق والمتضاد والمتشاكل والمتشابه، والمستعار والمكرر، والمرادف والمزدوج، والموازن والمضمون، والمضمر والمسلسل والمسجع والمستوي، والمرشح والموصل، والمقطع والمخلع والمسمط، والمستحيل ذي القافيتين، والرجز والمتقارب والمقلوب. وإن كنت ترغب في الارتفاع بكلامك وتضمن له الخلود، فليكن معظم حديثك مقرونا بالاستعارة، ولتقل الاستعارة المقبولة، ولتستخدم الاستعارة في المديح، وعندما تنشد غزلاً أو أغنية فلتكن سهلة لطيفة. وأن تكون قوافيها شائعة معروفة، ولا تضمنه الكلمات العربية الباردة والغريبة.

ولتقل بما يتفق وحسب الأحوال العاطفية والكلام اللطيف، ولتستعمل الأمثال المستحسنة كتلك التي يستحسنها كل من الخاص والعام، ولا تقل شعرا عروضيا ومستهجنا.

الباب الثاني والأربعون: في صفات الملك وواجباته

أيها الغلام! إن تكن ذات يوم سلطاناً، فلتكن زاهداً عفا، ولتبعد عينك ويدك عن حرمات المسلمين. ولتكن طاهر الذيل، فطهارة الذيل من الدين. ولتجعل رأيك في كل أمر خاضعا لمنطق العقل، وأي عمل تريد إتيانه، فلتستشر فيه أولاً من يصغرك، فرئيس الوزراء سلطان صغير، وإن تزوجها للتأخير، فلا تسلك طريق العجلة، وفي أي عمل تريد أن تخوض فيه فلتنتظر أولاً طريق الخروج، ولا تنظر إلى البداية إن كنت لا ترى النهاية، ولتسلك طريق المداراة في كل الأمور، وفي كل أمر لا يتم إلا بالمداراة، لا تمض فيه بغير المداراة، ولا تستحسن الظلم، ولتنظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين الإنصاف، حتى تستطيع رؤية الحق والباطل في كل الأمور، فإن يعدم السلطان العين المبصرة للإنصاف والتعقل، فلن أمامه طريق الحق والباطل، ولتكن صادقا فيما تقول دائما، ولكن لتكن قليل الكلام، قليل الضحك، حتى لا يتجرأ عليك الصغار، فقد قيل: أسوأ ما يصيب السلطان تجرؤ الرعية عليه، وعدم الطاعة من الحاشية، والعطاء الذي يتصدق به فلا يصل إلى مستحقيه!

وفي الباب التاسع يتحدث عن الشيخوخة والشباب فيقول: "يابني كن فطنا، ولا تغتر بالشباب، واذكر الله عز وجل في الطاعة والمعصية في أي حال تكون، واخش الموت، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرتك مع الشبان، وجالس الشيوخ كذلك، واجعل رفقاءك وندماءك خليطا من الشيوخ والشباب، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان، ومهما كان الشبان يعدون

أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة مثل هؤلاء الشبان، وقر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافا، وكن دائما رحيما بالشيوخ"[٨٤].

ثم يعنى 'عنصر المعالى' بالحديث عن مراحل العمر، فحث ابنه على اغتنام مرحلة عمره الوسطى، لأن أوائل العمر زمن الطلب، فإذا جاوز السبعين يجعل الغالب عليه ذكرا لآخرة والتهيؤ للرحيل فيقول: 'ومما قرأت في الكتاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم في القوة والتركيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لا يزيد ولا ينقص، كالشمس وقد بلغت كبد السماء، تكون بطيئة السير حتى الزوال، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام في نفسه نقصانا لا يكون قد رآه في السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر في نفسه نقصانا لا يكون قد وجده في الشهر الماضي، ومن الستين إلى السبعين يرى كل أسبوع في نفسه نقصانا لا يكون قد رآه في الأسبوع المنصرم، ومن السبعين إلى الثمانين يرى كل يوم في نفسه نقصانا لم يكن قد رآه بالأمس، وإذا جاوز الثمانين يرى في نفسه كل ساعة ألما وعناء لا يكون قد رآه في الساعة الأخرى"[٨٥].

حكاية عن الشيخوخة:

كان من بين حجاب والدي حاجب يقال له: الحاجب الكامل، وكان شيخاً قد تجاوز الثمانين فأراد أن يشتري حصانا، فأحضر إليه السائس حصانا مكتنزا وحسن المنظر، وذا قوائم مستقيمة، فرأى الحاجب الحصان وأعجب به، وسأل عن ثمنه، ولكن عندما رأى أسنانه، وجد الحصان مسنا، فلم يشتره، واشتراه رجل آخر. فقلت له: يا حاجب، هذا الحصان الذي اشتراه فلان، لم لم تشتره؟ قال: إنه رجل شاب ولا يدري شيئا عن متاعب الشيخوخة، وهذا الحصان الكبير مجرد منظر، فإن يخدع هو بذلك، فله عذره، أما بالنسبة لي وقد خبرت آفة الشيخوخة وألمها، وأدركت ضعفها وعجزها، فكيف أكون معذورا حين اشترى حصانا عجوزا؟.

أهمية قابوسنامه:

هناك حقيقة علمية ثابتة تطالعنا عند دراسة الحياة العلمية في العصر الإسلامي هي: أن علماء ذلك العصر قد أبدعوا في أكثر من جانب من مجالات العلوم المختلفة، فنرى العالم آنذاك قد تبحر في علوم القرآن والحديث واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية.

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في تاريخ الفكر الإسلامي، ولا يحدث أدنى صعوبة للتدليل عليها، فنظرة فاحصة في كتب التراجم والسير والطبقات وكتب الفهارس التى اهتمت بإحصاء المصادر العربية ومؤلفيها، نجد العشرات من المؤلفين المسلمين الذين كتبوا في أكثر من فن، إلا أن الشهرة التى حصل عليها هذا العالم، أو ذاك قد لا تتعدى بضعة جوانب، بينما طويت أو نسيت الجوانب الأخرى بين ثنايا الكتب، وأصبحت في حكم المجهولة

ويبدو أن التجارب علمت "كيكاوس" أن نوال المعالي منوط بسهر الليالي، فنشأ جامعا لرفه الرخاء الذى نشأ فيه، وخشونه الحروب التى تقلبت عليه مدة أبيه، وأكسبته تصاريف السياسة، وكانت للظروف القاسية، التى عناها في حياته السياسية، أثر بالغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع الفلسفي الذى غلب على نثره (٨٦).

وتبدو أهمية كتاب قابوسنامه في نقاط عدة أهمها:

صدق الكاتب فيما يكتب، فلم يكن يقدمه لملك أو أمير حتى يتملقه، أو يكتب غير ما يقصد، بل كان الكاتب ملكاً مهيبا، لذا يعد كتابه خاليا من التملق والرياء والنفاق. وكان أباً يكتب لابنه، فكان صادق الأحاسيس عندما يوجه النصح والإرشاد لابنه وفلذة كبده، كما كان صاحب تجربة واسعة وعلم وفير، مكنه كل ذلك من أن يحسن العرض والنصح، ويقدم الكثير من المعلومات والنصائح، مع إسناد بعض الحكم إلى قائليها، سواء من الفرس، أو العرب، أو اليونان.

كان المؤلف شاعرا إلى جانب كونه كاتبا، لذا أورد كثيرا من أبيات الشعر في ثنايا النثر وهو يعد من أوائل الكتاب التي نهجت هذا الأسلوب في التأليف، وتبعه في ذلك سعدي في "الكستان"، وقد كانت بعض الأشعار من تأليف الكاتب نفسه وبعضها من نظم غيره، ولكن من الملاحظ أن عنصر المعالي قابوس كان يصرح أحيانا باسم الشاعر، وأحيانا يورد البيت دون ذكر صاحبه، كما أن الحق يوجب القول بأن أسلوبه النثري يفوق أسلوبه الشعري، وعلى هذا فإن الدارسين يعتبرون شعره ركيكا إذا ما قيس بفصاحة أسلوبه النثري وسلاسته.

أورد المؤلف كثيرا من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو التي اطلع عليها المؤلف في قراءاته، فأثبتها في مواضعها من الكتاب، لتكون عوناً له على هداية ابنه، وحمله على تقبل النصح والموعظة، ومن هذه الأمثال والحكم نسوق ما يلي:

كل طائر يطير مع شاكله

المرء في داره كالملك في مملكته

عصفور في اليد خير من طاووس مرتقب

من أتعس الأمور أن يحتاج الرقيب إلى من يراقبه

إذا أردت أن تدخل مكانا، فانظر أولاً كيف تخرج منه.

مهما بلغ الأمر، فلن يؤتمن القط على الشحم "الدهن"

الحيوان المجرب خير من الإنسان عديم التجربة.

ضاع الحمار وسرق الرسن.

أن تحظى بالقليل نقدًا، خير من توعد بالكثير أجلا.

ليس في مقدور من نام في القبر أن ينام في الدار.

منهج عنصر المعالي في كتابه:

يعد كتاب "قابوسنامه" من الناحية التاريخية ثبتا مليئا بالخبرة العملية الواعية، وهو أيضا من الكتب المهمة، في النثر الفارسي، التي أطلعتنا على الكثير من مظاهر التمدن والتحضر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية، قبل الغزو الصليبي للعالم الإسلامي.

ويعتبر نثر قابوسنامه من أفضل نماذج النثر في اللغة الفارسية، وأسلوبه يتسم بالإيجاز في اللفظ مع الإشباع في المعنى، وخلوه من المترادفات اللفظية، كما أن الألفاظ العربية المستعملة فيه جاءت عفوًا ودون قصد، إذ لم يستعمل إلا ما كان سائدًا في زمانه من ألفاظ كانت في متناول فهم الجميع، فالكتاب للنصح والإرشاد، وعلى هذا يجب أن يكون واضحًا قريب المنال، حتى لا يضيع فكر القارئ في معرفة المحسنات والصور البلاغية، ثم ينسي النصيحة وهي لب الكتاب وهدفه الأول، وليس معنى هذا أي ضعف أو وهن في الأسلوب، بل إنه أسلوب قوي سلس، يدخل في باب السهل الممتنع من الأساليب(٨٧).

ويري البعض أن الأمير "عنصر المعالي" قد أحيا الطريقة القديمة التي كانت سائدة قبل الإسلام، وهي تأليف كتب النصيحة للملوك والسلاطين والأمراء، وقد تبعه في ذلك عدد من الكتاب الفارسيين(٨٨). إما عن طريق التأليف ككتاب "سياست نامه" لنظام الملك، و"نصيحة الملوك" المنسوب إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، أو عن طريق النقل والترجمة والتقديم والتأخير والحذف، من الكتب العربية أو الفارسية الأخرى مثل أخلاق ناصري(٨٩).

ونتيجة أيضا لشهرته الواسعة وتميزه في مجال النثر الفارسي، وفي طريقة سرد الحكايات والقصص المشوقة، نقلت عنه كثير من الكتب القديمة، ومنها "حديقة الحقيقة" لسنائي و"جوامع الحكايات" لمحمد عوفي، و"كارستان" للقاضي أحمد غفاري، و"مطلع الأنوار" لخسرو الدهلوي، و"روضة الأنوار" لمحقق سبزوار، وغير ذلك من الكتب التي ألفت بعده(٩٠). والحقيقة أن قابوسنامه لم يكن أول كتاب في بابه يتميز بهذا اللون من الكتابة التاريخية، لاسيما في الأدب العربي والفارسي، فقد نحا هذا النحو كثير من المؤلفين الإسلاميين السابقين عليه، والتى اعتمدت إلى حد كبير على الأدبيات الفارسية القديمة، لاسيما الخاصة بالنصائح والرسوم والعادات الفارسية القديمة، أمثال: "رسالة الصحابة" لابن المقفع(٩١)، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينورى، و"الآثار الباقية" للبيرونى، و"ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" "للثعالبى" و"الفهرست" لابن النديم، و"تاريخ طبرستان" لابن أسفنديار، وغيرهم كثير(٩٢).

وقد وصف بعض المستشرقين كتاب "قابوسنامه" وصفا دقيقا في كلمات موجزة، إذ قال المستشرق الإنجليزي "إدوارد براون"(٩٣) في حقه: فاز كتاب قابوسنامه بشهرة عريضة وهو بغير شك قمين بها، وأهل لها، لأنه ملئ بالحكمة والبراعة، غني بالحكايات والأمثلة، يضاف إلى هذا أنه كتاب ملكي، كتبه صاحبه بأسلوب صريح لا موارية فيه، مستمدًا موضوعاته من تجاربه الكثيرة الناضجة وخبرته الطويلة الكاملة(٩٤).

ويعتبر كتاب "قابوسنامه" من أعظم المصادر التى تناولت فكرة النصائح التي لا يستطيع باحث أن يغفلها، فقد نهج فيه نهجاً يدل على ثقته بعقله، وجمع فأوعى، فهو كتاب متنوع المعارف نفيس الفوائد، برز فيه الكم الهائل من المعلومات التى أوردها، من حيث إحاطته بهذا الكم الكبير من التفاصيل الدقيقة التى يوردها.

والجدير بالملاحظة أن أغلب الحكايات التى ورد ذكرها في قابوسنامه؛ توجد في مجموعات الحكايات الفارسية السابقة عليه، دون أن تنسب إلى شخص بعينه، بينما نجدها عند عنصر المعالى تنسب إلى أشخاص معروفين(٩٥)، كتلك الحكاية التى جاءت في الباب الحادى والثلاثون، والتى تتعلق بحكمة القاضى "أبى العباس الروياتى" (قاضى طبرستان) وكيف استشهد في إحدى قضاياه المعروضة عليه بشهادة الشجرة، والتى استغل فيها مهارته الفكرية في الإيقاع بالجاني، وأن الشجرة التى وقعت عندها الجريمة سوف تأتى إلى مجلسه وتشهد بالحقيقة، الأمر الذى دعى الجانى إلى الاعتراف بالحقيقة(٩٦). بينما توجد نفس الحكاية مذكورة في باب الحكايات في كتاب "النحو الفارسي" دون أن تنسب إلى شخص معين(٩٧).

ومع ذلك فهناك حكايات نسبها المؤلف لأحد من الناس، بينما ذكرها من قبله منسوبة إلى أناس آخرين، مثال ذلك: الحكاية الشهيرة التى جاءت في قابوسنامه عن التهديد الذى أرسله السلطان "محمود الغزنوي" إلى الخليفة العباسي "القادر بالله"، عندما أراد السلطان أن يصدر إليه الخليفة منشورا بمنحه إقليم ما وراء النهر، ولما امتنع الخليفة عن إجابته، هدده بأنه سوف يأتى على بغداد ويخربها تحت أقدام الفيلة، فرد عليه الخليفة برسالة صدرها بعد (بسم الله الرحمن الرحيم) بالحروف "أ. ل. م "، وفي آخر الكتاب (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين)، ولم يفهم السلطان في البداية قصده من كتابة هذه الأحرف، حتى استطاع أحد حاشيته وهو "أبو بكر القهستاني" أن يحل هذا اللغز، وأنه رقي إلى منصب أعلى بفضل مهارته في حل لغز رسالة الخليفة (٩٨).

بينما نجد أن تلك الحكاية وردت في "شهنامة" الفردوسي (السابقة على قابوسنامه) ولكن أبطالها أناس آخرون، وخلاصتها أن "الفردوسي" الشاعر المشهور، وصاحب الشهنامة، وقعت الجفوة بينه وبين السلطان "محمود الغزنوي" لعدم تقديره له في إنشاء شهنامته الرائعة، فكتب كتابا يهجو فيه السلطان، وتركه عند أحد أصدقائه، وأوصاه بعدم إذاعته إلا بعد أن يتمكن من الفرار إلى طبرستان والاحتماء بحاكمها(٩٩).

فلما ذاعت تلك الرسالة اللاذعة، وقرأها السلطان محمود، استشاط غيظا من قائلها، وأرسل إلى أمير طبرستان يطلب إليه تسليم الفردوسي، وهدده بأنه سيزحف عليه بأفياله، ويخرّب بلاده ودياره، ويقتل شعبه ورجاله، إذ هو امتنع عن إجابته إلى مطلبه، فلما وصلت الرسالة إلى الأمير، اكتفي بأن يكتب على ظهرها الحروف الثلاثة " أ. ل. م " ثم بعث بها ثانية إلى السلطان، فلما لم يفهمها فسرها له أحد وزرائه أنه يقصد من ورائها، أنه سوف يحدث له ما حدث لأبرهة، عندما قصد مكة بأفياله في العام الذى ولد فيه النبي ﷺ، والتى نزلت فيها سورة "الفيل" والتى جاء في مطلعها هذه الأحرف الثلاث(١٠٠).

وكان مقصد صاحب طبرستان من التلميح بهذه الأحرف وافيا بالغرض حتى إنها أثنت السلطان محمود، وعاد عن تهديده[١٠١].

ويعلق براون على تلك الراوية بقوله[١٠٢] "ولا شك أن إبداء المهارة في اقتباس الآيات القرآنية، او التلميح إليها يعتبر من أجمل الصناعات التى يعجب بها المسلمون عامة، والتى تحتل مكانة أثيرة في قلوبهم".

وعلى أي حال تبدو القيمة العلمية للكتاب، أوضح ما تكون، في اعتماد المصنف على السماع في إيراد بعض الأخبار، والمعارف التى يسوقها توضيحا لآرائه، وهى في الغالب مستقاة من تجاربه الشخصية، وبعض حكاياته توجد في مجموعات الحكايات الفارسية، والتى في الغالب ينسبها إلى أشخاص معينين[١٠٣].

وفى القصة التالية، التى يسوقها "عنصر المعالى" نفسه، ما يدل على ذلك، إذ يقول: "سمعت أن الشبلي رحمة الله عليه ذهب ذات يوم إلى مسجد، لكي يصلي ركعتين ويستريح بعض الوقت. وكان بالمسجد تلاميذ يدرسون، ومصادفة كان الوقت وقت تناول الأطفال طعامهم، فجلس على مقربة من الشبلي رحمة الله عليه طفلان ؛ أحدهما ابن غني والآخر ابن فقير، فوضع كل منهما زنبيله بجواره، فكان في زنبيل الولد الغني خبز وحلوى، وفي زنبيل الفقير خبز فقط، ثم أخذ الولد الغني يأكل الخبز والحلوى، وكان الطفل الفقير يطلب منه قطعة من الحلوى، فقال الطفل الغني: إن أعطك قطعة من الحلوى، فلتكن كلبي! فقال: لأكن فقال: لتنبح حتي أعطيك الحلوى، فأخذ ذلك المسكين ينبح نباح الكلب، والطفل يعطيه الحلوى، وهكذا فعل عدة مرات، والشيخ الشبلي ينظر إليهما ويبكي. فقال المريدون: أيها الشيخ ما أصابك حتى تنتحب هكذا ؟ قال: انظروا كيف يفعل الطمع وعدم القناعة بالناس. ماذا كان يحدث لو أن ذلك الطفل قنع بخبزه الجاف وحده، ولم يطمع في حلوى ذلك الطفل، ولما أحال نفسه كلبا بهذه الصورة التي لا تليق؟[١٠٤].

وأنت يا بني سواء أكنت زاهدا أو فاسقا، فلتكن قانعا غير طامع، حتى تكون أعظم وأطهر من في الدنيا، واعلم يا بني أنني في هذه الأربعة والأربعين بابا في هذا الكتاب؛ قد حدثتك بكل ما أعرفه، وذلك قدر استطاعتي، وفي كل باب جعلت بعض الكلام بمثابة النصح والموعظة لك[١٠٥].

وثمة ملاحظة مهمة هى أن الأمير "عنصر المعالى" كتب كتابه "قابوسنامه" باللغة الفارسية أسوة بما فعله جده لأمه "مرزبان بن رستم بن شروين" صاحب "مرزبان نامه"، والكتاب تم ترجمته إلى اللغة العربية[١٠٦].

ولا عجب أن يعرف "عنصر المعالى" الفارسية، وإنما المستغرب ألا يعرفها، فقد ولد من أبوين فارسيين، فأبوه هو "إسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار" الديلمي، وأمه هى بنت السلطان"محمود بن ناصر الدين" الغزنوى، وجده هو "حسن فيروزان" ملك الديلم [١٠٧].

وكان الفرس ـ لاسيما الديلم منهم ـ حريصين على الاحتفاظ بمقوماتهم من لغة، وعادات وتقاليد، فلا عجب إذاً أن يكون والداه قد لقناه لغتهم الأصلية.

والواقع أن الأدباء العرب كانوا يعكفون على تعلم الفارسية ويتقنونها، وأوضح مثال على ذلك "العتابي" الشاعر العباسي المعروف (وهو عربي من تغلب)، وقد سأله رجل: لم كتبت كتب العجم ؟ فقال: وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعاني لهم"[١٠٨].

وفي الكتاب ظاهرة تستثير الإعجاب، وهي أن صاحبه يعتمد على القصص التمثيلية الذي يستشهد بها في ثنايا حكاياته، فالكتاب يمتاز بالإيناس، لما يورده من طريف الأخبار، ومليح الفكاهة، فهو ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب أدب وأخلاق، جمع قدرا عظيما من الأخبار السياسية والأخلاقية.

الجانب الديني والأخلاقي عند عنصر المعالي:

المطلع على كتاب "قابوسنامه" يلحظ أن مؤلفه تأثر، إلى حد كبير، بالتعاليم والآداب الإسلامية الأصيلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١٠٩] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[١١٠] وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١١١]، وما ورد أيضا في الأحاديث النبوية التي تحث على مكارم الأخلاق.

وتتجلى الثقافة الدينية في تكوين شخصية "عنصر المعالي" الفكرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأشعار الفارسية والعربية التي تخدم الغرض الذي يكتب من أجله[١١٢]، الأمثلة التي يضربها لنا المؤلف عن آداب السلوك تبدو أحيانا لاذعة ماهرة، وفي بعض الأحيان تبدو نابعة من تجاربه الشخصية، فنراه يطلب من ابنه أن يتعلم الحكمة حتى من الجهلاء، فإن العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه، وقد قال ابن عباس (رضي الله عنه) "خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير رام"[١١٣]. ولكنه في الوقت نفسه يحذره من الإغراق في التواضع، لأن كثيرا من الرجال قد أخفقوا بسبب ما امتازوا به من أدب جم[١١٤].

والقارئ يطالع فيه طرفا من أخبار الرسولﷺ، وأهل بيته، والخلفاء، وأكاسرة الفرس وحكمائهم ووزرائهم، وعمالهم ورجال بلاطهم، كما يلتقي أيضا بالكتاب والشعراء والقضاة والفقهاء والزهاد والمتصوفين، وكأنه يعيش وسط هؤلاء جميعا[١١٥]. ولكل حكاية هدف تسعى إليه، أو بها مشكلة تحل في نهايتها، والمعاني التي تدور حولها هذه الحكايات هي المروءة، والأمانة وحب الخير، والشجاعة، والشطارة، والجاسوسية، والاحتيال، والعدالة، والبلاغة، والنفور من الجهل، وادعاء العلم، وغير ذلك من المعاني الأخلاقية. ويعتمد أشخاص الحكايات على الفقه والمنطق، والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة، وكلها أفكار نابعة من فكره ووجدانه، بأسلوب في غاية الروعة والبلاغة[١١٦].

وعلى الجملة فحكايات "قابوسنامه" عبارة عن قصص واقعية وتاريخية، وبعضها أخلاقي وأحيانا يمزجها بالمزح، حتى لا يمل القارئ.

ويحرص "عنصر المعالي" على التأكيد لابنه على بيان أن الله تعالى لا يريد الإيمان من عباده إجبارا، وإنما اختيارا، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطى عباده فرصة الاجتهاد، وإعمال الفكر فيما يجب عليهم، وما لا يجب من الأعمال، هذه هى إرادة الله، فالله سبحانه وتعالى متفرد بالخلق. ولما كان الأفراد غير مجبرين على الإيمان، إذ لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، إلا أنهم ارتضوا الإيمان، فلابد أن يعملوا بأحكام المشرّع. ويقول عنصر المعالي[١١٧] في الباب الأول وعنوانه (في معرفة الله تبارك وتعالى) "اعلم يا بنى أنك في معرفة الله الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ما عداه صار معروفا، وإنما تكون عارفا لله عندما تكون غير معروف، ومثال المعرفة كالمنقوش، والعرف كالنقاش، فما لم يكن في المنقوش قبول للنقش، لا يستطيع نقاش أن ينقش عليه. ألا ترى أن الشمع لما كان أكثر قبولا للنقش من الحجر، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر! فعليه يكون في كل معرفة قبول للعرفان، والخالق غير قابل للمعرفة، فتأمل في نفسك ولا تتأمل في الخالق".

أما حديث تناول الشراب فينصحه بعدم تعاطى النبيذ، فيقول: "فلا أقول تعاط الشراب، ولا استطيع أيضا أن أقول لا تشرب ؛ لأن الشباب لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لى كثيرا ولم اسمع، حتى منحتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين، فإذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين، وتنال رضا الله تعالى، وتنجو من ملامة الخلق، ومجالسة غير العقلاء، وفعل المحال"[١١٨].

ويرسم "عنصر المعالي" لابنه قواعد السلوك والمعاشرة، وذلك في الباب الثاني والعشرين وهو بعنوان: (في إيداع الأمانة) فيقول: "إذا استودعك شخص أمانة فلا تقبلها، وإذا قبلتها فاحفظها، لأن قبول الأمانة للبلاء، إذ إن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء، إما أن ترد إليه الأمانة، كما أمر الله عز وعلا في محكم تنزيله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" فإن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هى أن لا تقبل الأمانة، وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالمة"[١١٩].

ومؤلف الكتاب ينصح ابنه بكيفية التعامل مع الآخرين، لاسيما عند التحدث و مخالطة الناس، فإن الحديث ومخالطة الناس أمران يحتاجان إلى قدرة بارعة، فقد يحسن المرء الكلام في موضع قد يحسن فيه السكوت، وقديما قالوا "حتف المرء في منطقه". وهو يبين لنا ذلك وهو ينصح ابنه في باب (طلب العلم) فيقول: "إذا كنت عالم فتوى فكن دينا وكثير الدرس والحفظ، ومتعبدا وصائما، ولا تتجاوز عن ذلك، وكن ورعا طاهر الثوب، حاضر الجواب، تفت في أية مسألة، ولا تعمل بغير قول الثقات، ولا تعتمد على خبر الآحاد، ولا تتعصب كثيرا، ولا تتكلم عن تعصب، وإذا ناظرت فانظر إلى الخصم، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه في الكلام، فتداخل في المسائل، وإلا فتوقف عن الكلام، وإذا كانت المناظرة فقهية فقدم الآية على الخبر، والخبر على القياس، وتكلم بالممكنات، وقل الكلام مرتبا، ولا تقله أبتر، وكذلك لا تتكلم طويلا بغير جدوى"[١٢٠].

أما الأمثلة التي يضربها المؤلف عن آداب المجتمع، فهو يقرر أنه من الواجب على المضيف ألا يكثر الاعتذار لضيفه عن تفاهة ضيافته، لأن هذا يشعر الضيف بالحرج وضيق الصدر، كما يجب على المضيف ألا يؤنب خدمه على ما يبدو منهم من تقصير في حضور ضيوفه. فإذا انتهى من ذلك أوصى ابنه ألا يلعب "النرد" أو "الشطرنج" بالدراهم والدنانير، وأن يتجنب القسم وحلف الإيمان، ويحذر من إعارة النقود لأحد من أصدقائه، ما لم يكن واثقا منه، لأنه يمكن أن يعتبرها هبة، إذا لم يستطع ردها، طمعا في صديقه[١٢١].

ويلاحظ أيضا أن روح التصوف ظاهرة في كتابه، فنراه مثلا لا يترك مناسبة تمر دون أن يورد كثيرا من كلام الزهد والورع عند نصيحته لابنه، حتى إنه أفرد له بابا مستفيضا مليئا بحكايات أهل التصوف في كتابه، وذلك في الباب الرابع والأربعين وهو بعنوان: (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) إذ يقول: "اعلم يابني أن من صفات الناس ثلاثة أشياء، لا تجد آدميا قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست في... وأول هذه الأشياء الثلاثة العقل، وثانيهما الصدق، وثالثهما المروءة، ولا يوجد جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاثة... وحقيقة التصوف بإجماع كل المشايخ، ثلاثة أشياء: التجريد، والتسليم، والتصديق...فاسع يابني واجتهد حتى ترقى بقدر ما في وسعك واستطاعتك...".

ثم يستعرض حكاية مفادها أن صوفيين، ذات مرة، كانا يسيران معا، وكان أحدهما معدما ومع الآخر خمسة دنانير، فكان المعدم يمشي جسوراً غير خائف، وحيثما وصل كان يستشعر الأمن، كما كان يستسلم للنوم في أي مكان من الخوف، ولكنه مضطر لمصاحبته، إلى أن جاء وقت ووصلا إلى حافة بئر، وكان المكان مهيبا، وعلى مفرق عدة طرق، فأكل الصوفي المعدم طعامه ونام هانئا، أما صاحب الخمسة دنانير فلم يستطع النوم، وأخذ يقول: ماذا أفعل! معي خمسة دنانير ذهبية وهذا المكان جد مخيف، لقد استسلمت أنت النوم، أما أنا فقد جفاني النوم، أي أنني لا أستطيع النوم، كما لا أستطيع المضي! فقال الصوفي المعدم: أعطني الدنانير الخمسة، فأعطاه إياها، فألقاها في قاع البئر، وقال: لقد تحررت، فنم مطمئنا واجلس وامض، فالمعدم قوي صلد في المعارك![١٢٢].

وبعد، فقد أسفر البحث عن النتائج التالية:

١ــ كان ظهور الزياريين، في منطقة المشرق الإسلامي، هو الخطوة الأولى في سبيل استرجاع النعرات القومية للبلاد الفارسية بصورة سافرة وعلنية، بل وحلقة من حلقات التطلع الفارسي لاستعادة مجدهم القديم ــ والتي عرفت عند المؤرخين المسلمين بالشعوبية ــ بعد أن ظلت تلك الأماني حبيسة الصدور، فلما سنحت لدعاتها الفرصة تفجرت وأعلنت عن نفسها وقد ظهر هذا جليا فيما دعا إليه "مرداويج بن زيار" من استعادة الأمجاد الفارسية البائدة، ومحاولا إزالة دولة العرب، وإقامة دولة الفرس.

٢ــ على الرغم من أن الدولة الزيارية دولة فارسية ديلمية؛ إلا أن الثقافة العربية ازدهرت فيها ازدهارا واسعا، برغم أن السلطات العليا كانت في أيدى عناصر من أصول غير عربية.

٣ــ مؤلف الكتاب شخصية لها قيمتها السياسية، فقد كان أميرا من أمراء الأسرة الزيارية ولذلك فإن الآراء التي قدمها في كتابه آراء مستمدة من واقع عمله وتجاربه، ولم تكن مجرد آراء نظرية غير قابلة للتنفيذ أو التجريب، بعكس ما كتبه غيره من المؤلفين الذين لم تتح لهم فرصة العمل السياسي، كابن سينا الذي ألف رسالة في السياسة، أو الغزالي في كتابه نصيحة الملوك... وغيرهما.

٤ــ لم يكن الأمير "عنصر المعالى" أول من نحا هذا النحو من التأليف، بل كان مقلدا إلى حد كبير لكتب الحكم، والنصائح الفارسية القديمة، والتى كان يتداولها العلماء، ويتأدب بها الناس.

٥ــ يتميز أسلوب "قابوسنامه" بأنه سلس واضح بعيد عن الغموض، كما جاء خاليا من المحسنات البلاغية، وهو أسلوب أجمع الكل على فصاحته وجزالته.

٦ــ يتجلى في كتاب "قابوسنامه" أثر الثقافة الدينية في تكوين شخصية "عنصر المعالى" الفكرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأشعار الفارسية والعربية التي تخدم الغرض الذي يكتب من أجله

٧ــ ورد في "قابوسنامه" بعض القصص، ولكنها اتسمت بالقصر،وتعد مرحلة من مراحل الانتقال من الحكاية، أو ما أطلق عليه فيما بعد اسم المقامات بعد ذلك.

٨ــ الكتاب يمتاز بالإيناس، لما يورده من طريف الأخبار، ومليح الفكاهة، وعلى الرغم من كونه كتابا ليس تاريخيا، إلا أنه جمع قدرا عظيما من الأخبار السياسية والأخلاقية الحري بنا العمل بها .

٩ــ يعد كتاب "قابوسنامه" ثبتا مليئا بالخبرة العملية الواعية، فهو من الكتب المهمة في النثر الفارسي التي أطلعتنا على الكثير من مظاهر التمدن والتحضر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية في القرن الخامس الهجرى (١١م).

١٠ــ أورد "عنصر المعالى" كثيرا من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو التي اطلع عليها في قراءاته، فأثبتها في مواضعها من الكتاب، لتكون عونًا له على هداية ابنه، وحمله على تقبل النصح والموعظة.

ولعل أجمل ما يسرني ويشرح صدري أن أجد صدى طيبا لهذا العمل، وأن يكون حظ عملي القبول والرضا الوفير لدى الجميع، والله ولي التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

* ابن الأثير:علي بن أبي الكرم (ت ــ٦٣٠هـــ).

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

٢- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.

* ابن اسفنديار: بهاء الدين محمد بن حين بن أسفنديار(ت ــ٧٥٠ هــ)

٣ــ تاريخ طبرستان، ترجمة :أحمد محمد نادي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٢ م.

* البيهقي: أبو الفضل محمد بن حسين (ت ــ٤٧٠هــ) .

٤ ــ تاريخ البيهقي، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.

* الثعالبي: أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري (٤٢٩هــ).

٥ ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.

* ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي(ت ــ ٥٩٧هــ)

٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هــ.

* ابن خاوند شاه: محمد بن خاوند شاه بن محمود (ت ــ٩٠٣ هــ).

٧- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

* ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ــ٨٠٨هــ).

٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

* ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ــ٦٨١هــ).

٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

*ابن الساعي: علي بن أنجب (ت ــ٦٧٤هــ)

١٠ - تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.

*السمعاني: أبو سعد بن محمد بن منصور (ت ــ٥٦٢هــ).

١١ــ الأنساب، وضع حواشيه : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت ١٩٨٨م.

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ــ ٩١١ هــ)

١٢ــ تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.

* ابن العبري: غريغوريوس أبو الفرج بن هارون(ت ـ٦٨٥هـ).
١٣ - تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١، القاهرة، ٢٠٠١م.
*العروضي السمرقندي: النظامي العروضي السمرقندي (٥٥٠هـ)
١٤ـ جهار مقالة، ترجمة : عبد الوهاب عزام، ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط١، القاهرة ١٩٤٩م.
*عنصر المعالي كيكاوس: اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار (٤٦٢هـ)
١٥ـ كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ترجمة، د/ محمد صادق نشأت، د/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٥٨م.
*ابن الفقيه الهمذاني (من علماء القرن الثالث الهجري) أبو بكر أحمد بن محمد.
١٦-مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي ط١، بيروت، ١٩٨٨م.
* القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ـ٦٨١هـ).
١٧ـ آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
*القيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (٤٥٣هـ).
١٨ـ زهرالآداب وثمر الألباب، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٢م.
* ابن كثير:عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ـ ٧٧٤هـ).
١٩ -البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
* المسعودي :علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ـ٣٤٦هـ).
٢٠ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥.
*ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ـ٤٢١هـ).
٢١ ـ تجارب الأمم. تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١بيروت، ٢٠٠٣.
* المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ـ ٣٨٧هـ).
٢٢- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
* النرشخي: أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي(٣٤٨هـ) .
٢٣- تاريخ بخاري : ترجمة : د/ أمين عبد الحميد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي
* ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ـ٦٢٦هـ).
٢٤ـ معجم الأدباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.
٢٥ ـ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
*اليزدادي: عبد الرحمن بن علي (من علماء القرن الخامس الهجري)
٢٦ـ كمال البلاغة (وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير) المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ.

ثانيا ـ المراجـــع:

* إبراهيم سلمان الكروي (دكتور)

١ــ البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع ط١ بيروت، ١٩٨٢م.

*أحمد أمين

٢ــ ضحي الإسلام (نشأة العلوم في العصر الأول) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.

* أحمد السعيد سليمان (دكتور)

٣ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م.

*ادوارد براون(مستشرق)

٤ــ تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: أمين الشواربي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.

*بديع محمد جمعة(دكتور)

٥ــ من روائع الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.

*حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٦ ــ تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨، بيروت ١٩٩٦م.

*حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٧ ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

*حسن منيمنة (دكتور)

٨ــ تاريخ الدولة البويهية، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧م.

* رضا زاده شفق(دكتور)

٩ــ تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسي هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.

* شوقي ضيف (دكتور)

١٠- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣م.

* عباس إقبال .

١١ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م

*عبد الحميد سند الجندي (دكتور)

١٢ــ ابن قتيبة(العالم الناقد الأديب) سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

*مصطفى الشكعة(دكتور)

١٣ــ بديع الزمان الهمذاني، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩م.

*ــ نعمة علي مرسي (دكتور)

١٤ــ دولة آل زيار في طبرستان وجرجان وما جاورهما، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥ م.

ثالثا ـ الرسائل الجامعية:

* الشحات إبراهيم

١- التطور السياسي والحضاري لدولة بني زيار في جرجان وطبرستان، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة المنصورة ١٩٩٣م.

رابعا ـ "...

*رشيد ،

 ، مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع،

الهوامـــــش

(١) في العصر العباسي الأول نشأت الدولة الطاهرية التي أسسها "طاهر ابن الحسين" في خراسان والتي استمرت من (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م) وفي العصر العباسي الثاني استطاع الفرس تكوين دويلات مستقلة لهم عن الخلافة العباسية حينما شعروا بضعف خلفائها، وهذه الدويلات هي: الدولة الصفارية التي أسسها "يعقوب بن الليث الصفار" واستمرت من (٢٥٤-٢٩٦هـ/ ٨٦٨-٩٠٨م) والدولة السامانية ومؤسسها "نصر بن أحمد الساماني" في ما وراء النهر وقد استمرت من سنة (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٨م) والدولة الساجية وقد أسسها "أبو الساج" في أذربيجان واستمرت من (٢٦٦-٣١٨هـ/ ٨٧٩-٩٣٠م) وكان ظهور هذه الدويلات تعبيراً حقيقياعن القومية الفارسية التي بدأت تطفو على السطح منذ أواخر العصر العباسي الأول. محمد محمد عبد القادر الخطيب: دراسات تحليلية في تاريخ الدويلات الإسلامية ج١ صـ٣٣٩-٣٤٠، مطبعة الجبلاوي ط١، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) طبرستان: بلاد جبلية تمتاز بالحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها، وهي بلاد معروفة والعجم يقولون "مازندران" وهي بين الري وقومس وبحر الخزر. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد صـ٤٠٣، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

(٣) هو الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة سنة (٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م) من جارية خراسانية. كان يلقبه الزيدية وأهل الدين بـ "الإمام الناصر الكبير"، وفد على طبرستان في عهد الداعي الكبير " الحسن بن زيد " والذي سعي إلي إقامة دولة شيعية في المشرق مستعينا في أول الأمر بعامل نيسابور"محمد بن عبد الله الخجستاني" الذي استولي على جرجان من القائم الساماني، ولكن ما لبث أن انقلب عليه الخجستاني ــ بعد أن أوقع بينهما أصحاب الوشايات ــ وسجنه ونكل به حتى فقد سمعه فلقب بـ " الأطروش ".ولم يلبث أن فرّ "الأطروش" إلي بلاد الديلم مستغلا حالة الفوضى في الدولة السامانية عقب وفاة القائم، وأقام بين قبائل الديلم ثلاثة أعوام يلقنهم مبادئ المذهب الزيدي، و يدعوهم إلي الإسلام، ويبني لهم المساجد، فأسلم منهم عدد كبير، ودانوا له بالطاعة والولاء بعد أن ضاقوا ذرعا من ظلم العباسيين، وحكامهم من الطاهريين، الذين كانوا يحكمون إقليم خراسان، وبلاد الديلم وسجستان، وكانوا شديدي الظلم والبطش. توفي سنة (٣٠٤ هـ /٩١٧ م). ابن الأثير : الكامل، ج ٦ ص٤٩٥، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

(٤) الديلم: تقع بلاد الديلم في المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر (بحر قزوين)، وهم قبائل فارسية تتكلم اللغة الفارسية بلهجة محلية، وقد اشتهروا

بالشجاعة والكرم، ووصفوا بالطيش، والعجلة، وقلة المبالاة، كما غلب عليهم الجهل والحماقة وكثرة التنازع فيما بينهم ، كما اتصفوا ـ أيضا ـ بالقسوة وغلظة الطبع والتأبي علي الانقياد، كما اشتهروا بالجمال حتى قال عنهم المقدسي : " والديلم حسان اللحى والوجوه أيضا ولهم طلل ". وحين كتب المقدسي كتابه في القرن الرابع الهجري (١٠م) كانت بلاد الديلم تعني أقاليم طبرستان وجرجان وقومس. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٨٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٠٧، ترجمة وتعليق: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ م.

(٥) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص ٢٣٢،٢٣٣، ترجمة :أحمد محمد نادي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة ٢٠٠٢ م.

(٦) ابن الأثير: الكامل: ج ٦ ص٤٩٥ .

(٧) ابن خاوندشاه:روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص ٨٨، ٨٩. ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

(٨) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص٩١، ٩٢، تحقيق. سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١، بيروت ٢٠٠٣.

(٩) رشيد عبد الله الجميلي: الزياريون في جرجان وطبرستان، ص ١٤٩، ١٥٠ – مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع، بغداد ١٩٨٤ م.

(١٠) جرجان: مدينة كبيرة تقع في جنوب شرق بحر الخزر، ويحدها جنوباً إقليم خراسان، وشرقاً إقليم خوارزم، وغرباً بحر الخزر وإقليم طبرستان وهي بلاد كثيرة الأنهار. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٨٠ – ٢٨٥.

(١١) همذان: أكبر مدينة بإقليم الجبال، بين طبرستان وأصفهان. ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص ٤١٠.

(١٢) أصفهان: ويقال لها "أصبهان" و"أسبهان"، وهى مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهى من بلاد الجبل. القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٦٩.

(١٣) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٤٢٧، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية.

(١٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ١٧٨. ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ١٠٨، ١٠٩.

(١٥) ابن مسكويه: التجارب، ج٥ ص ٣٥٢.

(١٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٦٩ معجم الأدباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.

(١٧) السامانيون: تنسب هـذه الدولة إلى أحدي الأسر الفارسية، وقد ظهر أمر هـذه الأسرة في عهـد الخليفة المأمون حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهـم بلاد ما وراء النهـر، ومن أشهـر حكام هـذه الأسرة إسماعيل بن أحمد الساماني، "ونوح بن نصر الساماني". وقد ظهـر في عهـد هـذه الأسرة العديد من العلماء الذين خدموا الثقافـة الإسلامية. النرشخي: تاريخ بخاري، ص ١١٣ ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف ط ٣ القاهـرة ١٩٦٥ م

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملـوك والأمـم، ج ٧ ص ٢٦٤ دائـرة المعـارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ..

(١٩) الدولة الغزنوية : هي أحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولـة الإسـلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلي"البتكين" كبير حجاب الأمير " عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البتكين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه وزاد طموحه حتى أصبح مقربا من رجال الدولة، مما أتاح له تبوأ مناصـب رفيعة في الدولة. لمزيد من التفاصيل أنظر : محمود عرفة محمود : الدول الإسـلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، ص ٢٥٣، ٢٥٥، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٢٠) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص٢٢٥، ٢٢٦، ترجمة: يحيي الخشاب وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة ١٩٥٦ م.

(٢١) رشيد الجميلي : الزياريون، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢٢) السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الـصحراء الواسـعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المنـاطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعي الوفيرة، وقـد عـرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم " سلجوق بن دقاق " الـذى جمـع شـملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبنائه واحفاده من بعده، ومـن أشـهر ملـوكهم" طغرل بك "و"ألب أرسلان" و"ملك شاه".الحسينى: زبدة التـواريخ فـي أخبـار الأمـراء والملوك السلجوقية، ص٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار اقرأ، ط١، بيروت ١٩٨٥.

(٢٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٨ ص٢٥٠ ــ ٢٥٨.

(٢٤) كان السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ــ٤٨٥هـ/١٠٧٢ــ١٠٩٢م) ملكا مظفـرا مهيبا، استولت جيوشه على كثير من البلاد حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكـه أحد من السلاطين، فكانت مملكته تشتمل على جميع بـلاد مـا وراء النهـر، وإيـران والعراق، وآسيا الصغرى، والجزيرة، والشام ، وكانت جيوشه غادية رائحة بين أرجاء

مملكته الواسعة. الروانديم، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ٢٠١-٢٠٢. الحسيني: زبدة التواريخ، ص ص١٤٧- ١٥١.

(٢٥) ابن الفقيه الهمذاني: كتاب البلدان،ص٥٦٤، ٥٦٥. تحقيق، يوسف الهادي، عالم الكتب ط١، بيروت ١٩٩٦ م.

(٢٦) معجم البلدان، ج ٤ ص ١٣ ــ ١٦، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

(٢٧) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٠،٤٠٩ .

(٢٨) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج ١ ص ٢٧٣، دار الجيل، ط ٨، بيروت ١٩٩٦م.

(٢٩) كان إقليم الديلم يخضع في الغالب لسيطرة مجموعة قبائل،وأسر أمراء محليين، كانوا يترأسونهم وكانوا يتمتعون باستقلال كبير،لذلك لعبت الاتجاهات الشعوبية دورا كبيرا في استقلال بعض الأمراء المتغلبين بولاياتهم عن الخلافة العباسية. فمنذ قيام الدولة العباسية واعتماد خلفائها على العناصر الفارسية بصورة كبيرة، أقصيت العناصر العربية بصورة تدريجية عن الوظائف ولاسيما العسكرية، وتبعا لذلك بدأت النزعات القومية الفارسية تطفو على مسرح التاريخ نازعة إلي الاستقلال على النفوذ العباسي، بدعوى أن كل المسلمين أخوة، ثم ما لبث أن تحولت إلي المناداة بأن العرب أقل شأنا من غيرهم فظهرت الشعوبية بوجهها القبيح منادية بعودة دولة العجم، وتكوين كيانات سياسية فارسية. إبراهيم سلمان الكروي: البويهيون والخلافة العباسية، ص ٤٦، ٤٧.

(٣٠) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ١٥.

(٣١) تاريخ طبرستان: ص٨٩، ٩٠.

(٣٢) يتيمة الدهر: ج ٤ ص ٧٣.

(٣٣) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص١٣١ــ ١٣٩.

(٣٤) معجم البلدان: ج ٣ ص ٧٤.

(٣٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣ ص ٧٥.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن الحضارة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، انظر، كتاب "دولة آل زيار في طبرستان وجرجان وما جاورهما" لنعمة علي مرسي.

(٣٧) الشحات إبراهيم السيد: التطور السياسي والحضاري لدولة بني زيار في جرجان وطبرستان، ص١٦٥، رسالة ماجستير(غير منشورة) قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المنصورة ١٩٩٣م.

(٣٨) نعمة علي مرسي: مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.

(٣٩) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كان أديبا فاضلا صنف كتبا كثيرة، منها : "يتيمة الدهر" و"سحر البلاغة" وكتاب "فرائض القلائد" وإلى

غير ذلك من الكتب. القيرواني: زهر الآداب،ج ١ ص ١٦٩. ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج١٢ ص ٤٤.

(٤٠) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٦٧.

(٤١) السابق: ج ٤ ص ٦٨.

(٤٢) الشحات إبراهيم: التطور السياسي، ص ١٦٧.

(٤٣) أبو الريحان البيروني:هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، مؤلف شهير وكان "البيروني" ذا حظوة عند الملوك والأمراء ملما بعدد كبير من الفروع العلمية كالرياضيات والفلك وعلوم النجوم، ولم يكن في نظرائه في زمانه أحذق منه بعلم الفلك. ياقوت: معجم الأدباء، ج٥ ص ١٢٢.ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج١ ص ١٩٧.

(٤٤) معجم الأدباء: ج ٥ ص ١٢٤.

(٤٥) السابق: ج٥ ص ١٢٥.

(٤٦) بديع الزمان الهمذاني: هو أحمد بن الحسين بن يحيي بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحر يرى مقاماته واحتذى حذوه، وهو أحد الفصحاء وله الرسائل البديعة، والنظم المليح، سكن "هراة" من بلاد خراسان، وتوفي سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م). الثعالبي: يتيمة الدهر، ج١ ص ١٣٩. ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤ ص ٢٨٧. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، ج٥ ص ٣٤١.

(٤٧) القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، ج٢ ص ٤١٧، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٤، بيروت ١٩٧٢ م..

(٤٨) العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص ١٤٦،، ترجمة : عبد الوهاب عزام، ويحيي الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط١، القاهرة ١٩٤٩م.

(٤٩) اليزدادي: كمال البلاغة (وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير) ص٦٧ وما بعدها، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ.

(٥٠) حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية، ص ٨٣، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧م.

(٥١) محمد الخطيب: تاريخ الدويلات الإسلامية ج١ ص٣٣٩-٣٤٠

(٥٢) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، ص١٤-١٥، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٥٣) ورثت الحضارة الإسلامية حضارات الفرس والروم والسريان، وورثت معها كل أساليب اللهو في هذه الأمم، إذ تجمعت الأموال، وما تستدعيه من نوافل الشهوات والمجون، وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم خاص يتقنه أربابه وعلماؤه، ويقرب أهله إلي الخلفاء والأمراء، حتى الرقص والغناء يذكر "المسعودي" في مروجه أن الخليفة "المعتمد

علي الله" العباسي قال لبعض من حضر من ندمائه: صف لي الرقص، وأنواعه والصفة المحددة من الرقاص، واذكر لي شمائله، فقال: يا أمير المؤمنين أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم إلى أخر الرواية. والواقع أن الغناء انتشر في العصر العباسي انتشارا عظيما، حتى أصبح حاجة من حاجات المجتمع الضرورية، وأصبح المغنيون والمغنيات في المحال العامة، وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء، والفقراء على السواء، وملئت الكتب بالحكايات الغناء، حتى إن صاحب الأغاني يذكر لنا أن أحد المغنيين يغني على الجسر فيجتمع السامعون حوله حتى يخاف من سقوط الجسر بهم، وأن بعضهم كاد أن ينطح الحائط برأسه ؛ من شدة الإعجاب بحسن الغناء. لمزيد من التفاصيل أنظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٢٤٩، ١٢٥٠ ـ الأصفهاني: الأغاني في أكثر من موضع طوال فنوات الكتاب.

(٥٤) فهمى عبد الرزاق سعد: العامة في بغداد، ص ٢٩.

(٥٥) أبو الفضل بن العميد: هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده،لقب بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب، وأما ولده هذا فقد كان وزير ركن الدولة بن بويه الديلمي والد عضد الدولة. وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه حتى سمي بالجاحظ الثاني. قال عنه الثعالبي:" بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد توفي سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م). الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٣ ص ١٨٣، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ج ٥ ص ١٠٣ تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م..

(٥٦) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ٢٣٢.

(٥٧) نعمة علي مرسي: دولة آل زيار في طبرستان وجرجان وما جاورهما، ص ١١٧، دارا لهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥ م.

(٥٨) نعمة علي مرسي: مرجع سبق ذكره، ص١١٨.

(٥٩) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص٥٦، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩م.

(٦٠) عنصر المعالي كيكاوس: كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ص٤٧، ترجمة، د/ محمد صادق نشأت، ود/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٥٨ م

(٦١) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٤، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
(٦٢) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٦، ترجمة: أمين الشواربي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥ م.
(٦٣) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥.
(٦٤) بديع محمد جمعة: المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦.
(٦٥) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٧٤.ترجمة محمد وموسى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
(٦٦) القائم بأمر الله: أبو جعفر عبد الله بن القادر العباسي ولد عام (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م) وأمه أم ولد اسمها بدر الدجى وقيل قطر الندى ولي الخلافة بعد موت أبيه القادر عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) وكان ولي عهده في حياته. ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس. ص١٣٦. تحقيق عباس العزاوي، بغداد. ١٩٤٦م. السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص٤٦٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.
(٦٧) عنصر المعالي: قابوسنامة، ص٩٢.
(٦٨) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥.
(٦٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
(٧٠) عبد الحميد سند الجندي: ابن قتيبة(العالم الناقد الأديب) ص ١٨٨، ١٨٩سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
(٧١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
(٧٢) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
(٧٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٧٥.
(٧٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص٩٢.
(٧٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥، ٧٦.
(٧٦) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص٥٨، ٥٩.
(٧٧) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب "قابوسنامه" صفحات متعددة طوال فصول الكتاب.
(٧٨) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٥٣.
(٧٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٣٨.
(٨٠) السابق: ص ١٥٦، ١٥٧.
(٨١) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٧، ٣٤٨.
(٨٢) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٨، ٤٩.
(٨٣) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٥.

(٨٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٧.
(٨٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
(٨٦) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٦.
(٨٧) لم يكن الأمير "عنصر المعالي" أول من نحا هذا النحو من التأليف، بل كان مقلدا إلى حد كبير لكتب الحكم والنصائح الفارسية القديمة، والتى كان يتداولها العلماء ويتأدب بها الناس مثل : كتاب "كليلة ودمنة" الذى ترجمه "ابن المقفع" من اللغة الفارسية القديمة، والذى كان قد نقل بدوره من اللغة الهندية، وحذا حذوه كثير من المؤلفين، وعرفت العربية فى ضوئه القصص على ألسنة الحيوان والطير، ووضع الأمثال والحكم والعظات على أفواهها، وبخاصة فى عصور الاستبداد وتكميم الأفواه وتحريم النقد، وكان الملوك يجعلون تلك الكتب دستورا لهم في حكم الرعية ونشر العدل، كما يوجد في نصائح "الحسن البصري" الفارسي، و"ابن قتيبة" في عيون الأخبار، و"الطرطوشي" في سراج الملوك، حتى إن "ابن عبد ربه" عقد فصلا في كتابه "العقد الفريد" تحث فيه عن أمثال "أكثم بن صيفي" و"بزرجهمر" مثال: "إذا اشتبه عليك أمران، فم تدر فى أيهما الصواب، فانظر أقربهما إلى هواك فاجتنبه" وقوله: "احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع" وغير ذلك من الأمثال التى نرى منها كثيرا في كتب الحكم والأخلاق. أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٨١، ١٨٢.
(٨٨) حظى كتاب "قابوسنامه" بشهرة عريضة بين قراء العربية، سواء من الأدباء أو من العامة، ونتيجة لما حظي به من اهتمام فقد ترجم إلى عدة لغات أجنبية، منها: الفرنسية، الإنجليزية والروسية، وترجم ثلاث مرات إلى اللغة التركية، ثم ترجم إلى اللغة العربية في عام ١٩٥٢، وذلك بفضل الدكتور أمين عبد المجيد بدوي.
(٨٩) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران : ج٢ ص ٣٤٨.
(٩٠) كان "ابن المقفع" على مقربة من الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية، لاسيما في العصر الخليفة "أبى جعفر المنصور" الذى كان شديد البطش، فألف كتابا في النصائح، أسماه "رسالة الصحابة" وهو لا يقصد به صحابة رسول الله، وإنما صحابة الولاة والخلفاء، والذى وجه فيه نقده للخليفة وبطانته بشيء من النصح والإرشاد. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ص ٢٣٧.
(٩١) جاء في الأدبيات الفارسية القديمة أن الملك "دبشليم" لما تجبر وطغى، وكان يغزو من حوله من الملوك والأمراء، وصار مؤيدا مظفرا منصورا، هابته الرعية، ولما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعية، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان في زمانه رجل فيلسوف يدعى "بيدبا"، فلما رأى الملك وما هو عليه من ظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة حتى يصرفه عن فعله، ورده إلى العدل والإنصاف، فكتب كتابا وجهه للملك مزج نقده له بكثير من المدح، بينما نسب أغلب الشدة التى يراها إلى غيره، ومن

هنا ظهر ما يعرف في التاريخ بكتب النصائح، التى كان "ابن المقفع" رائدا من روادهـــا.
أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٩٢) تاريخ الأدب العربي في إيران: ج٢ ص ٣٤٦.

(٩٣) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتـــى نهايـــة الدولـــة القاجاوية، ص٥٦، ترجمة د / محمد علاء الـــدين منـــصور، دار الثقافـــة، القـــاهرة ١٩٨٩م.

(٩٤) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ج٢ ص ٣٤٩.

(٩٥) لمزيد من التفاصيل حول تلك القصة، انظر قابوسنامه، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٩٦) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ج٢ ص ٣٤٩.

(٩٧) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٩٨) الفردوسي هو أحد شعراء الفرس المشهورين، والتى كانت له ثروة عظيمة أنفقها على نظم الشهنامة بناء على طلب من السلطان "محمود الغزنوي" ، واستغرق تأليفها ما يقرب من ثلاثين عاما، ولكنه أصبح موضع نقمة السلطان، بسبب إسراف الفردوسي في مدح ملوك إيران القدماء. ولما كان السلطان سنيا متحمسا، لذلك أعطاه درهما على كل بيت، بدلا من دينار كما كان وعده، فتألم الشاعر، ونظم أبياتا يهجو بها الـــسلطان، فـــساءت العلاقات بينهما. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، صر ١٠٨، ترجمة :حمزة طـــاهر، دار المعارف، ط ٥، القاهرة ١٩٨٣ م.

(٩٩) إدوارد براون: المرجع السابق، ج٢ ص ٩٣.

(١٠٠) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٢٠٢.

(١٠١) الأدب في إيران: ص ٩٤.

(١٠٢) إدوارد براون: المرجع السابق، ج٢ ص ٣٤٨.

(١٠٣) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٨٦.

(١٠٤) السابق: ص ٤٨.

(١٠٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.

(١٠٦) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٤٧.

(١٠٧) تاريخ طيفور: تاريخ بغداد، ص١٥٧. عبد الحميد سند الجندى: ابن قتيبة، ص ٢٦.

(١٠٨) سورة الأنعام: آية (١٥٢)

(١٠٩) سورة المائدة: آية (١)

(١١٠) سورة النحل: آية (٩٠)

(١١١) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٣٩.

(١١٢) عبد الحميد سند الجندى: ابن قتيبة، ص ١٠٣.

(١١٣) براون: الأدب في إيران، ص ٣٥٥.

---

(١١٤) عنصر المعالى: قابوسنامه، ص ٣٤، ٣٥.
(١١٥) السابق: ص ٣٨.
(١١٦) قابوسنامه: ص٥٠.
(١١٧) عنصر المعالى: قابوسنامة، ص ٩٢.
(١١٨) عنصر المعالى: قابوسنامة، ص ١٢٣.
(١١٩) السابق: ص١٦٣، ١٦٤.
(١٢٠) السابق: ص٩٦،٩٥.
(١٢١) عنصر المعالى: قابوسنامة، ص ٢٣٠ ــ ٢٣٥.

المغنيات ودورهن في دولة سلاطين المماليك
عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون
(٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤١-١٣٦١م)

د. حسن أحمد عبد الجليل البطاوي (*)

هذا البحث يلقي الضوء على قضايا مهمة في تاريخ دولة سلاطين المماليك، وتختص هذه القضايا بالجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والفنية. فهي تقدم سبباً من أسباب الاضطرابات السياسية والعسكرية التي جرت في دولة سلاطين المماليك أثناء حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون.

ثم نتعرف البذور الأولى للتدهور الاقتصادي الذي أصاب البلاد وكان سبباً وراء سقوط تلك الدولة فيما بعد، والذي جاء جراء الانهيار السياسي والإداري للفترة موضوع الدراسة.

ثم إن الموضوع يقدم صفحة عن حالة اجتماعية عاشتها البلاد ممثلة في الحياة الخاصة للسلاطين، وأثر هذه الحياة على عوام الشعب. هذا فضلاً عن إلقاء الضوء على النشاط الفني في تلك الدولة خلال فترة الدراسة.

وفي البداية تجدر الإشارة إلى أن المغنيات هن الجواري اللواتي يقمن بالغناء، وعرفت المغنيات في المصادر المعاصرة باسم المغاني. وسماع المغاني أي سماع المغنيات، والكلمة محمولة على الغناء المعروف بين أهل اللهو واللعب، أو أرباب الملاهي. والغناء من الصوت هو ما طُرب به، ويقال غنى فلان أغنية، وتغنى بأغنية حسنة، وجمعها الأغاني. ولما كان الغناء مرتبطاً بالموسيقى فإن كثيراً من المغنيات كن يجدن استخدام آلاتها[1].

وأسواق الرقيق كانت المصدر الأساسي للجواري اللواتي يصبحن مغنيات فيما بعد، وكانت سلعتهن رائجة، فالعاملات في تقيين[2] الجواري يذهبن إلى أسواق الرقيق وينتقين الجواري اللواتي تراهُن مناسبة للغناء، فتختبر صوتها، وتتفحص جمال وجهها وظرفها، ثم ترى مهاراتها في استخدام آلات الطرب، واذا كانت الجارية تحسن الغناء فإن ثمنها يتضاعف[3].

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب جامعة أسيوط.

وتدخل الجارية في مراحل متعددة من التدريب المستمر حتى تصبح مغنية، فتتعلم القراءة والكتابة والأدب والشعر، فضلاً عن فنون أخرى تضيف إليها حسناً وظرفاً. وأما من تتفوق منهن على غيرها من الجواري في تحصيل ما تعلمته، علاوة على امتلاكها صورة وصوتا حسنا، فإنها تلحق بجواري الحاكم أو أحد الأمراء فيلمع نجمها، وإذا كانت ذات حظ أوفر فإنها تملك ثروة ونفوذاً جراء التحاقها بدائرة السلطة(٤).

وأقبل سلاطين المماليك على سماع المغاني إقبالاً زائداً عن الحد، ولم يكن هؤلاء المماليك مستحدثين لهذا الأمر، وإنما ورثوه عن سابقيهم من بني العباس والفاطميين والأيوبيين. وشجعهم على ذلك توافر الجواري المغنيات داخل سلطنتهم، وقلدهم في ذلك أمراؤهم وكبار رجال الدولة والموسرون من الشعب(٥). ولاشك أن اهتمام ذوي السلطة والنفوذ والمال في دولة سلاطين المماليك بالغناء والمغنيات رفع من قدر هؤلاء النساء، وحظين بالاهتمام والرعاية، وجمعن ثروات طائلة ونفوذاً عريضا.

وأصبح سوق الجواري رائجا، وزاد الاقبال على اقتنائهن، فتوافر عدد كبير من هؤلاء المغاني اللواتي اتسع نشاطهن في مختلف أرجاء دولة سلاطين المماليك. وترتب على ذلك اتجاه الدولة إلى تقنين عمل هؤلاءالمغنيات، وإدرج نشاطهن ضمن الأنشطة الرابحة والتي ينبغي أن تدفع من ترغب في ممارستها ضريبة. ولما كانت هذه الضريبة غير شرعية فقد دخلت تحت نظام الضمان(٦). وعرفت الضريبة بضمان المغاني أو مقرر الملاهي والأفراح (٧).

هذا وقد در ضمان المغاني أموالاً طائلة لهذه الجهة(٨)، فذكر المقريزي أن ضامنة المغاني تحصل عن فرح واحد خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العريس، هذا فضلاً عن المناسبات الأخرى التي شاركن بالغناء فيها(٩). وأكد ابن حجر على هذا المعنى، فقال إن أحداً لايستطيع أن يقيم عرساً بدون دفع عشرين إلى ثلاثين مثقال ذهب(١٠).

وحرصاً من الدولة في عهود عدد كبير من السلاطين على تحصيل الأموال من هؤلاء المغاني فإنهم أولوا ضمان المغاني عناية فائقة، وحرصوا على ترتيب العمل به، وإخضاعه للمراقبة الصارمة. وبلغ الأمر حداً أنه ما من مناسبة يقام فيها فرح إلا ودفع صاحبه مالاً باسم مقرر الملاهي والأفراح. وجرى الأمر على أن واحدة من النساء تتولى مهمة ضمان المغاني، وذلك كونها سيدة ومحترفات الغناء هن من الجواري، وغالباً ما كانت ضامنة المغاني واحدة من المغنيات اللواتي تقدم بها العمر فلم تعد مرغوبة للغناء. وكانت ضامنة المغاني تسجل أسماء المغنيات لديها، وعلى كل مغنية ضريبة مقررة تدفعها للضامنة(١١).

وفرضت رقابة صارمة على المغنيات حتي لايغنين بدون دفع الضريبة المقررة، وتولت الضامنة وفريق عمل لديها مهمة المراقبة، فكن يذهبن إلى بيوت المغاني ليلاً للتأكد من وجودهن، وإن لم تكن واحدة منهن في منزلها اعتبرت في مهمة عمل، وتقرر عليها دفع الضريبة عن هذا العمل(١٢).

والواقع إن ضريبة المغاني كانت محل نقد من وجهة نظر كثير من الخاصة والعامة، كما لم يقبل بعض السلاطين بوجود هذا النشاط. وكان الناصر محمد بن قلاوون واحداً من هؤلاء السلاطين فقد ألغى هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م عندما لمس الظلم الذي تسببه لبعض الناس، فضلاً عن الرذائل التي ترتكب مصحوبة بها، ولكن عاد العمل بها مرة أخرى بعد هذا التاريخ[١٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر مهم، وهو ارتباط الغناء باللهو، إذ إن طبيعة العصر كانت تلقي بظلالها على الغناء، وكذا على الاحتفالات عموماً والخروج إلى المتنزهات. وكانت آراء الفقهاء وفتاواهم تنطلق صارمة تجاه الغناء وأربابه والمشاركين في مجالسه. والحقيقة إن الغناء في الأفراح والملاهي والاحتفالات ومواضع التنزه والمجالس الخاصة كان مصحوباً في أغلب حالاته بوقوع تجاوزات ومفاسد أخلاقية؛ مثل شرب الخمور والحشيش وارتكاب الفواحش وغير ذلك. ولما كانت المغنيات يقمن بالغناء في هذه المناسبات فإنهن حملن وزر هذه الجرائم، وارتبط الغناء بالبغاء، وأصبحت المغنيات عنواناً للهو والفجور[١٤].

والحقيقة إن عامة الشعب أخذوا حظهم من سماع المغنيات، ولكن نشاط المغنيات وأثره البارز هو ذلك النشاط الذي لعبنه في حجور أصحاب السلطة، واعتنى برصده مؤرخو تلك الفترة، وهو الذي ركزت الدراسة عليه هنا. فنجد الناصر محمد بن قلاوون، اعتنى بالجواري عموماً والمغنيات منهن على وجه الخصوص، فاشترى أعداداً كثيرة منهن، واختص بواحدة تدعى دينا، كانت حاذقة في الغناء، وبلغ اهتمامه بها درجة جعلت البعض يقول إنه تزوجها[١٥]. وكذا أعجب بواحدة أخرى تدعى طغاي، وبلغ إعجابه بها حد الشغف، ثم تزوجها فكانت أقرب زوجاته إلى قلبه، وأنجب منها ولده آنوك، وهذا الولد فاق حبه في قلب والده حب إخوانه الآخرين. ثم إن أبناء الناصر الآخرين أنجبهم من جواريه أيضاً، وعلى سبيل المثال، فإن أم ابنه أحمد مغنية تدعى بياض، وهي ليست إلا جارية كانت تجيد الغناء، فاشتراها واختص بها وأنجب منها ولده هذا، ولايستثنى من أولاده سوى الصالح صالح فإن أمه هي ابنة الأمير تنكز[١٦].

وكذلك امتلك أمراء المماليك جواري مغنيات كثيرات، وأنفقوا على شرائهن مبالغ طائلة. ومن ذلك أن الامير بكتمر الساقي[١٧] أعجبته جارية تدعى خوبي، كانت بارعة في الغناء وضرب العود فاشتراها بعشرة آلآف دينار مصرية. وأما الأمير بشتاك[١٨] فإنه انتظر حتى واتته الفرصة بوفاة بكتمر الساقي، فاشترى جاريته خوبي بستة آلآف دينار، مضافة إلى ما كان عنده من الجواري اللواتي زاد عددهن عن ثمانين جارية[١٩].

عصر أبناء الناصر محمد:

بدأ عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون بتولي ابنه أبي بكر السلطة بعد وفاة والده في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/مايو ١٣٤١م. وانتهى عصرهم بمقتل الناصر حسن في جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م، وهو آخر أبناء الناصر الذين تولوا السلطنة، ثم خلفه عدد من أحفاد الناصر.

وبالرغم من اهتمام المماليك بالمغنيات، اقتناءً وتربيةً وإيثاراً، فإن فترة حكم أبناء الناصر محمد هي الفترة الأبرز في تاريخ دولة سلاطين المماليك من حيث الاهتمام بالمغنيات، واللهو في حضرتهن، وهي الفترة التي لعبت فيها المغنيات دوراً بارزاً في تاريخ هذه الدولة، فاستلكن قلوب السلاطين المراهقين والشباب من أبناء الناصر، وتحكمت بعضهن في مور مهمة من مقدرات البلاد. وانعكست تدخلاتهن على جوانب عدة من أوضاع البلاد بصورة سلبية، وهو الأمر الذي سيتضح من خلال العرض التاريخي الآتي.

تولى أبوبكر السلطة بعد وفاة والده مباشرة، وكان شاباً بلغ عمره حوالي العشرين سنة. انشغل أبو بكر بالغناء والمغنيات، وتحولت مجلسه إلى مجالس سكر وعربدة. فاختص بنفر من الغلمان[٢٠] أسند إليهم مهمة إحضار المغنيات ليلاً له ولندمائه. وانخرط في لهوه بدون وعي، وعدم إدراك لموقعه أو لمسئولياته، وتناقلت ألسن الناس إنحرافات السلطان. وتحركت غائرة النفوس في صدور كبار الأمراء، ونصحه بعضهم بالتخلي عن مصاحبة المغنيات، والبعد عن اللهو والسفه. ولكن السلطان أخذته العزة بالإثم، ولم يكن ذا أذن صاغية لتلك النصائح الرشيدة، واستمر على لهوه، بل زاد على ذلك فتجاهر بفسوقه. واتخذ سوء سلوك السلطان حجة عند بعض الأمراء وعلى رأسهم الأمير قوصون[٢١] لخلع السلطان. فخرجوا عليه وخلعوه في صفر سنة ٧٤٢هـ/يوليو ١٣٤١م. وبذلك خسر المنصور أبوبكر عرشه بسبب انهماكه في اللهو مع المغنيات، وانشغاله بهن عن إدارة أمور البلاد[٢٢].

واختار الأمراء أخوه كُجُك ونصبوه سلطاناً، ولقبوه بالملك بالأشراف، وكان عمره حوالي خمس أو ست سنوات فقط. وهو ما يعني أنه كان طفلاً صغيراً أثناء سلطنته، وليس معنياً بأمر المغنيات، وما يجري في محيطهن من تجاوزات. هذا فضلاً عن أنه لم يستمر في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً، وخلعه الأمراء، واختاروا أخاه أحمد بدلاً منه في أول شعبان سنة ٧٤٢هـ/يناير ١٣٤٢م، ولقبوه بالناصر[٢٣].

وكان الناصر أحمد هذا شاباً يافعاً عند توليه السلطنة، تزوج في حياة والده، ولم يكن والده راضياً عنه، فأرسله ليقيم في الكرك[٢٤]، وظل مقيماً بها، إلا من زيارات قليلة قام بها إلى القاهرة، وبقي على حاله حتى بعد وفاة والده. وفي خلال إقامته في الكرك عرف عنه شغفه بشباب أهلها، وانهماكه في معاقرة الخمور. وعندما تولى السطنة كانت إقامته في الكرك أكثر من إقامته في القاهرة، وهناك استمر في لهوه ولعبه، واعتزل الناس من أجل ملذاته. وأما أمراء المماليك فإنهم وجدوا حجتهم في سوء سيرة الناصر أحمد للخروج عليه وخلعه، فخلعوه في المحرم سنة ٧٤٣هـ/يونيو ١٣٤٢م، وأقاموا أخاه إسماعيل سلطاناً، ولقبوه بالصالح. وبذلك لم يدم الناصر أحمد في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً[٢٥].

المغنية اتفاق وثلاثة سلاطين:

ومع بداية حكم الصالح إسماعيل بدأت فترة هي الأكثر ظهوراً ونفوذاً وأثراً للمغنيات في دولة سلاطين المماليك. وتميزت هذه الفترة بظهور مغنيات بعينها أصبحن نجمات مجتمع، ومشهورات عند الخاصة والعامة في كافة أرجاء الدولة. وعلى رأس هؤلاء المغنيات واحدة تدعى "اتفاق"، تلك المغنية حظيت بمكانة مرموقة عند ثلاثة من السلاطين أبناء الناصر هم: إسماعيل وشعبان وحاجي، وتزوجت منهم جميعاً على التوالي كما سنوضح بعد.

وأشير في البداية إلى أن الصالح إسماعيل كان عمره قد تخطى السبع عشرة سنة حين تولى السلطنة، وأقبل على حب الجواري المغنيات، وأرباب الملاهي والمطربين عموماً، وانخرط في مجالس اللهو مع هؤلاء، وحرص على اصطحاب هؤلاء الجواري معه في رحلاته إلى أماكن التنزه والسرحات(٢٦). بل إنه جعل لوالدته موكباً مهيباً من تلك النساء عند خروجها معه إلى إحدى السرحات. وبلغ عدد النساء المشاركات في موكب أم السلطان مائتي امرأة في كامل زينتهن، يرتدين الثياب الأطلس الملون، ويضعن على رءوسهن الطراطير الجلد المرصع بالجواهر واللآلئ. ويسير الخدام في صحبتهن منذ خروجهن من القلعة وحتى وصول الموكب إلى السرحة(٢٧).

وأما السلطان نفسه، فإنه كان يبالغ في تدليل حظاياه، واللعب واللهو معهن، فيجلب لهن الخيول العربية الأصيلة، ويدعوهن لركوبها والمرح عليها، ويفسح لهن المجال ليتسابقن بها، وتارة أخرى يركبهن بالكامليات الحرير ويلعبن الكرة(٢٨) بل إن السلطان بالغ في اللهو والعبث مع جواريه إلى حد فاق الوصف، وكثر سفهه معهن في المواسم والأعياد وأوقات التنزه ومناسبات الأفراح(٢٩).

وعلاوة على ما سبق فإن الصالح إسماعيل سلك درب البذخ والإسراف في الانفاق على الجواري المغنيات، وجعل لهن الرواتب، وأنعم عليهن بعدة أرزاق(٣٠). وكان لايغمض له جفن حتى يتأكد من حصولهن على إنعاماته وهداياه، فصارت لهن مهابة في نفوس كبار موظفي الدولة، وصارت كلمتهن نافذة، فيقضين ما يرغبن في قضائه من أمور الدولة، ويمنعن ما لايرغبن في قضائه، حتى وإن صدرت به مراسيم كبار الموظفين. واتجه أولوا الحاجات من أبناء الشعب إلى جواري السلطان ليقضين لهم حاجاتهم. وبلغ الأمر بالأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة (٣١) أنه كان يتحسر على ما وصلت إليه البلاد من أوضاع مزرية، وما وصلت إليه نيابة السلطنة من انحطاط قدرها، في مقابل ما بلغته مغاني السلطان من نفوذ في إدارة أمور الدولة. وكان إذا جاءه أحد يطلب منه قضاء حاجة؛ كإقطاع أو مرتب أو غير ذلك، رد عليه في حسرة ساخرة قائلا:"يا ولدي ! رح إلى باب الستارة ابصر طواشي، أو توصل لبعض المغاني تقضي حاجتك"(٣٢).

ثم إن الصالح إسماعيل كان يميل إلى الجواري السود، فإذا كان قد أقبل على المغنيات عموماً، وأكثر منهن في بلاطه، وشغف بهن، فإنه فضل السوداء على من

دونها من رفيقاتها، وأفرط في حبهن[٣٣]. وبالرغم من إن الصالح إسماعيل أكثر من شراء الجواري حتى بلغت عدتهن خمسمائة جارية فإنه اختص بالمغنية اتفاق، فحازت هذه المغنية إعجابه بدرجة فائقة، واتفاق هذه جارية سوداء حالكة السواد، كانت ماهرة في ضرب العود، فبلغت فيه درجة عالية، لا يفوقها فيه أحد، وامتلكت صوتاً جميلاً مع مهارة الغناء. فأقبل عليها السلطان، وشغف بها شغفاً زائداً، وأفرط في حبها وتدليلها، حتى نجحت في امتلاك قلبه وملكه، ولما كان على هذه الحال من الشغف بها، فإنه لم يتردد في الزواج منها[٣٤].

ولما كانت اتفاق على هذه الدرجة من المحبة والقرب من قلب السلطان الصالح إسماعيل، فإنه من الطبيعي أن يفتح أبواب خزان الدولة ليأخذ منها كل نفيس من الجواهر والهدايا الثمينة وينعم عليها بتلك الهدايا. ومن العجب أن السلطان توقع اللوم والمعارضة من بعض العقلاء من كبار رجال دولته، فرتب لهذا الأمر الاحتياطات اللازمة التي تستر عليه إسرافه وسفهه مع مغنيته، فاختار شخصاً تتوافر فيه الشروط المناسبة للقيام بمهام خاصة هي؛ حفظ سره مع اتفاق والتستر على سفهه، ثم يكون هذا الشخص مسئولاً عن إحدى الإدارات المالية الكبرى. ووجد السلطان ضالته في شخص جمال الكفاة ناظر الخاص[٣٥]، وجعل منه كاتم سر هواه مع المغنية اتفاق، وممولاً سخياً للأموال التي يحتاجها السلطان للإنفاق عليها. وازدادت أواصر الثقة بين السلطان وجمال الكفاة، ورأى السلطان أن يرفع قدره في الدولة، ويزيد في راتبه، فجعله مشير الدولة. ثم تمادى السلطان في منحه لجمال الكفاة، فأمر كاتب سره علاء الدين علي بن فضل الله العمري أن يكتب لجمال الكفاة في توقيعه "الجناب العالي". ولم يكن من المعتاد أن يُكتب في مكاتبات الدولة وأوراقها لواحد من كتاب الديوان هذا اللقب، وإنما يُكتب للأمراء أصحاب الوظائف الكبرى[٣٦]. ولذلك أثار هذا الأمر حفيظة كاتب السر، واعتبره خرقاً لتقاليد الدولة، ورفض أن يخط هذا اللقب بيده. وأما الصالح إسماعيل فإنه أصر على تنفيذ ما أمر به، فبلغ بذلك جمال الكفاة مرتبة لم يبلغها أحد غيره من كتاب الدواوين في تلك الفترة من عمر دولة سلاطين المماليك[٣٧].

ونجح جمال الكفاة في استغلال علاقة الصالح اسماعيل بالمغنية اتفاق على أحسن ما يكون الاستغلال، فطلب من الصالح أن ينقله من رتبة الكتاب إلى الالتحاق بجماعة الأمراء، وأن يكون أمير مائة مقدم ألف[٣٨]. وهذا الأمر لم يحلم به كاتب قبله، ولم يكن هذا الطموح مشروعاً لكاتب في ظل نظام دولة سلاطين المماليك عسكرية الطابع. وما بلغه جمال الكفاة من طموح، وخروقات السلطان لتقاليد السلطنة، وانتهاك حرمتها، وتبديد أموالها من أجل مغنيته اتفاق، كل ذلك أثار حفيظة نفر غير قليل من أمراء المماليك على هذا الكاتب والسلطان معاً. واشتغلوا في التآمر على جمال الكفاة، وتصيد الأخطاء له، كل ذلك والسلطان يحوطه برعايته، ولايصدق فيه قالة السوء، أو ربما لايريد أن يصدقها. ولم ينجح المتآمرون في الوقيعة بين السلطان وجمال الكفاة إلا

عندما أثبتوا للسلطان أن هذا الرجل يفشي أسراره مع المغنية اتفاق، عندئذ خسر جمال الكفاة أمواله وحياته في صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م[٣٩].

والواقع إن اتفاق أخذت لب الصالح إسماعيل، فانغمس في لهوه وملذاته معهـا، تاركاً أوضاع البلاد في جوانب عدة في حالة اضطراب متزايد. فعلى الصعيد السياسي والأمني؛ تمردت قبائل عدة من عرب الصعيد والفيوم، وكذا نحت نحوهم قبائل أخرى في بلاد الشام. واضطربت الأوضاع الاقتصادية للبلاد، ما أدى إلى انهيار حالة العملة، وزيادة فرص غشها وزناً ونقاوةً. وزادت الضرائب المفروضة على الشعب، وتضررت الحركة التجارية داخلياً وخارجياً، ولم يقبل البنادقة زيادة الضرائب المفروضة على تجارتهم، وانتظروا لعل الأوضاع تؤول إلى التحسن. ولما زادت الحال عما كانت عليه تقدموا بشكوى ينهون فيها إلى السلطان ما تكبدوه من خسائر جراء ما يدفعونه من ضرائب باهظة، ويرجونه شمولهم بعطفه، وتخفيف هذه الأعباء عن كواهلهم[٤٠].

ولم تفلح الجهود الإصلاحية التي تبناها الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة، فقد اصطدمت جهوده برغبة مغاني السلطان، الطامحات الجامحات، وكذا تعارضت جهوده مع رغبات بعض الأمراء الذين حرصوا على استمرار أوضاع البلاد على ما هي عليه من انشغال السلطان بمغانيه، ما يعود عليهم بالنفع، وتحقيق ما يصبون إليه من أطماع[٤١].

ولم ينه هذا الاحتقان إلا سقوط السلطان الصالح إسماعيل فريسة للمرض، وتزايد عليه المرض حتى عجز عن الحركة. وفي ربيع الآخر ٧٤٦هـ/أغسطس ١٣٤٥م لفظ السلطان أنفاسه الأخيرة، وعمره آنذاك كان قد بلغ العشرين. واتفق الأمراء على تنصيب أخيه شعبان سلطاناً، ولقبوه بالكامل. ومن المؤسف أن هذا الفتى سار على نفس الدرب الذي سار فيه أخوه إسماعيل. واستهل سلطنته بالاستيلاء على جواري أخيه، وخص نفسه بالمغنية اتفاق، وصرح بإعجابه بها منذ أن كانت تحت أخيه، فباتت عنده في أول ليلة له وهو على عرش السلطنة[٤٢].

وجرت علاقة الكامل شعبان بالمغنية اتفاق مثلما كانت عليه علاقتها بأخيه إسماعيل، فقدم لها الهدايا الثمينة، وعدد من العقارات والممتلكات وما شابه ذلك، فحققت ثروة طائلة، وكذا أصبحت سيدة ذات نفوذ واسع في بلاط السلطنة، بله في أرجاء البلاد كلها كما سنرى بعد.

وأما عن ثراء اتفاق، فإن ما قدمه السلطان الكامل شعبان لها من هدايا نفيسه وثروات كانت مضرب الأمثال، ومثار عجب الخاصة والعامة، حتى قيل إنه لم يكن لامرأة في زمانها من الحظوة والسعادة مثلما كان للمغنية اتفاق. ومما قدمه لها السلطان من هدايا أنه أقام لها داير بيت[٤٣] طوله اثنين وأربعين ذراعاً، وعرضه ستة أذراع، وأنفق على تكلفته خمسة وتسعين ألف دينار مصرية، هذا فضلاً عما أضيف إليه من البشخانة والمخاد والمساند[٤٤]، ومن جملة ما تملكه اتفاق من الأغراض باهظة الثمن أربعون بدلة ثياب مرصعة بالجوهر، وست عشرة بدلة بداير زركش، وثمانون بدلة أخرى

مقتعة، بلغت قيمة بعضها عشرين ألف درهم، وأقلها قيمتة بلغ ثمنه خمسة آلاف درهم، هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى ذات قيمة عالية(٤٥).

وإذا كان إسراف الكامل شعبان على المغنية اتفاق أمراً مثيراً للعجب، فإن ما يفوقه عجباً أنه خصها بجزء من الأموال التي صادرها من بعض الذين غضب عليهم من رجال دولته. ومن ذلك أنه في جمادى الأولى سنة ٧٤٦هـ/سبتمبر ١٣٤٥م ألقى القبض على أحد الرجال الأثرياء، وصدر الأمر بمصادرة ممتلكاته، واختار السلطان واحدة من دوره العظيمة، وقدمها هدية لمغنيته المحبوبة اتفاق(٤٦).

ومن المؤسف أن الكامل شعبان اتبع سياسة مصادرة الأموال لتوفير ما يلزمه ليقدمه بين يدي مغنيته المحبوبة، ويبقى مغيباً في لهوه مع اتفاق ورفيقاتها. ومن المعروف أن الكامل شعبان كان ينفق أموالاً طائلة لإرضاء شهواته مع جواريه، وعلى رحلات التنزه التي بالغ في الإنفاق عليها، وطالت مدة إقامته في أماكن التنزه، ما جعله في حاجة مستمرة للأموال. ومن ذلك على سبيل المثال، أنه خرج في مستهل في جمادى الأخرة سنة ٧٤٦هـ/٢٩ سبتمبر ١٣٤٥م إلى سرحة سرياقوس، واصطحب معه حريمه، وأمر بنصب الخيام لهن في البساتين، وأخلى لهن المناظر المخصصة للأمراء، فنزل أكثرهن بها. وفي هذه الرحلة انشغل السلطان بتحصيل ملذاته، واقتفى المماليك أثر سلطانهم، فأسرفوا في شرب الخمور، والمجاهرة بارتكاب الفواحش، وساءت سيرتهم في الناس(٤٧).

وتابع الكامل شعبان السعي وراء شهواته فقرر الزواج بواحدة من بنات المماليك المعروفات بالجمال. وفي شعبان ٧٤٦هـ/ديسمبر ١٣٤٥م جرت الاحتفالات بمناسبة زواج السلطان، وكانت الفرصة مواتية لكي تضج القلعة سبعة أيام بلياليها من الاحتفالات البهيجة التي أقامها السلطان. واجتمع في هذا العرس عدد ضخم من المغنيات، وعلى رأسهن اتفاق. وأطلق السلطان يده للانفاق بسخاء على المغنيات، فحصلن على هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحرير، هذا فضلاً عن هدايا أخرى يجل وصفها. وبلغ نصيب ضامنة المغاني بمفردها من هدايا السلطان ثمانين ألف درهماً، بالإضافة إلى ما أخذته المغنيات الأخريات(٤٨).

ولما كان السلطان يذوب عشقاً في مغنيته اتفاق، فإنه لم يدع فرصة أو مناسبة تفوته بدون أن يقدم لها هدية تعبر عن مكنون قلبه. فبعد خروجها من عرسها السابق ذكره بهدايا ثمينه، إذا بالكامل يقدم لها هدية في رمضان من نفس العام عبارة عن دولابين كانا ملكاً لأحد رجال الدولة، وعوض صاحبهما بثمانية وعشرين ألف درهم(٤٩).

وما أن انتهي شهر رمضان سنة ٧٤٦هـ/يناير ١٣٤٦م حتى عاد الكامل شعبان إلى سابق عهده في إقامة الاحتفالات. ومن ذلك أنه أقام حفلاً ضخماً في ذي القعدة احتفالاً بزواج طواشي من جارية من مماليكه. وحضر السلطان العرس، وكعادته اصطحب اتفاق ورفيقاتها، وأنفق عليهن في هذا العرس أموالاً طائلة، ونثر فيه الذهب على العروسين(٥٠).

ولازالت المغنية اتفاق صاحبة المكانة لدى السلطان، فعندما صودرت أموال الأمير قماري نائب طرابلس[٥١]، ووصلت خزائنه إلى القلعة في المحرم سنة ٧٤٧هـ/مايو ١٣٤٦م أخذ الكامل منها قماش نساء هذا الأمير وقدمه هدية لاتفاق وبعض المغنيات الأخريات. ثم خص اتفاق بثروة نائب طرابلس، والتي بلغت ما يصل وزنه إلى سبعين مثالاً من الجوهر[٥٢].

وبالغ السلطان في احتفائه بالمغنية اتفاق حداً فاق الوصف، وانشغل باللهو معها هي وصواحبها عن إدارة شئون البلاد. ومن ذلك أن اتفاق أنجبت للسلطان ولداً في ربيع الآخر سنة ٧٤٧هـ/أغسطس ١٣٤٦م، ففرح بمولوده فرحاً عظيماً، ويبدو أنه كان في طريقة إلى إقامة احتفالات أسطورية تعجز عنها خزائن الدولة، وتثير حفيظة نفر من المماليك، لذلك نصحه الأمير أرغون العلائي[٥٣] زوج أمه ومدبر دولته بالتوقف عما يسعي اليه، واختصر السلطان احتفالاته فجاءت في سبعة أيام. وأما اتفاق أم الولد[٥٤] فقد أقام السلطان لها بشخانه ودابر بيت، وغشاء مهد الولد، وقماطة، تكلفت ستة وثمانين ألف دينار. هذا فضلاً عما أنفقه على أرباب الملاهي الذين شاركوه احتفاله بمولوده الأثير[٥٥].

وبذلك قضى الكامل شعبان سلطنته شغوفاً باللهو واللعب وسماع الأغاني، والميل إلى المغنيات، والوقوع تحت تأثيرهن، وسعى ما وسعه السعي نحو تحقيق رغباتهن. فخرج بهن إلى أماكن التنزه والصيد ولعب الكرة، وهن على أحسن ما يكون من الزينة، هذا مع عدم التزامهن بالآداب العامة التي انتقدها المعاصرون[٥٦]. كما أطلق أيديهن في أخذ أموال الناس، كالبساتين والرزق والدواليب ونحوها. ومن ذلك على سبيل المثال أن المغنية اتفاق أخذت عدة ممتلكات كانت ملكاً لأحد الأثرياء، وسارت أم السلطان على نهجها، فأخذت من هذا الرجل أيضاً بعض الممتلكات الأخرى[٥٧].

وأصبح من المتوقع أن تأتي نهاية السلطان الكامل شعبان جراء اتباعه شهواته، وانصرافه إلى اللهو واللعب، والإسراف بسفه على المغنيات. كما سعى بكل جهده لإرضاء رغباتهن، وتنفيذ ما يطمحن إلى تحقيقه. ومن ذلك أنه اتخذ قراراً في نهاية سنة ٧٤٦هـ/مارس ١٣٤٦م بالخروج إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج مدفوعاً برغبة نسائه. وسعى الكامل شعبان إلى إعداد تجهيزات أسطورية لهذه الرحلة، ولما كانت خزانة الدولة لا تفي بتغطية نفقاتها، فإن السلطان لجأ إلى مصادرة الأموال. ومع مطلع سنة ٧٤٧هـ/أبريل ١٣٤٦م اشتد في مطالبة أهل النواحي بتجهيز متطلبات سفره إلى الحجاز، والإسراع في توفير الأموال من مصر وبلاد الشام جميعاً[٥٨].

والواقع إن السلطان وجد من بين أمرائه مخلصين نصحوه بتأجيل حجه، وهؤلاء الأمراء مدفوعون بعلمهم أن أوضاع البلاد الاقتصادية لاتحتمل مثل هذه النفقات التي يعتزم السلطان إنفاقها، وأبلغوه أن الزراعة في البلاد قد تضررت وتراجع إنتاجها، وأن بعض العربان خرجوا عن طاعة الدولة. ولكل هذه الأسباب لايجب عليه أن يخرج إلى الحجاز، واقتنع السلطان بمشورة ناصحيه، وتراجع عن قرار سفره[٥٩].

وجاءت الطامة على حياة السلطان وملكه من قبل نسائه، فقد رفضن فكرة تراجعه عن السفر، وأخذن في تقوية عزمه على متابعة الاستعدادات اللازمة. ومن المؤسف أن السلطان مال إلى رغبة نسائه، ولم يقدر أوضاع البلاد بما تستحق من الاهتمام. وخرجت كتبه إلى أرجاء الدولة، بإعلان النواب قرار سفر السلطان إلى الأرضي الحجازية، ويأمرهم بتجهيز ما يحتاج إليه. هذا القرار أزعج أمراء الدولة وكبار موظفيها، وعكر صفو الناس جراء ارتفاع الأسعار لهذا القرار، وتوقفت أحوال البلاد. وللمرة الثانية حاول عدد من عقلاء الأمراء إقناع السلطان بالتخلي عن السفر هذا العام، ولكنه لم يقو على مخالفة رغبة نسائه. وقرر عدد من الأمراء الخروج عن طاعة السلطان، وتبعهم عدد آخر، وتزايد عدد الأمراء المتمردين، واشتعلت الفتنة بين السلطان وهؤلاء الأمراء، واشتبك المعسكران في قتال عنيف. وفي نهاية المطاف نجح الأمراء في الانتصار على السلطان، وألقوا القبض عليه، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/سبتمبر ١٣٤٦م. ثم نصبوا أخاه حاجي سلطاناً، ولقبوه بالمظفر، وعمره آنذاك حوالي خمس عشرة سنة(٦٠).

ولما كان شطط المغنية اتفاق وهواها من الأسباب القوية التي أودت بالسلطان الى التهلكة، وأثرت سلباً على أوضاع الدولة، فإنه مع جلوس المظفر حاجي على عرش السلطنة صدر الأمر بطردها من القلعة، ثم مصادرة ما بحوزتها من أموال، فأخذوا منها أربعين بدلة مكللة بالجواهر واللآلئ، وثمانين بدلة مقنعة، بلغ ثمن أقلها مائتي دينار، ووصل أجودها إلى ما يزيد عن ألف دينار، واستردوا منها أيضاً ما أخذته من الناس(٦١).

وبعد أشهر قلائل من تولي المظفر حاجي السلطنة سار في الطريق الذي سلكه إخوته الذين جلسوا قبله على العرش. ففي أوائل شوال سنة ٧٤٧هـ/يناير ١٣٤٧م تزوج ابنة الأمير تنكز، وهي أرملة أخيه شعبان، ثم في أواخر الشهر نفسه انخلع عن ثوب الحياء، وطلب المغنية اتفاق معشوقة أخويه إسماعيل وشعبان، وصعدت اتفاق إلى القلعة وجواريها بصحبتها مع الخدام، وتزوجها السلطان في الخفاء، واحتفل بها السلطان احتفالا بهيجا، فكشف عن وجهها، وفرش تحت قدميها ستون شقة أطلس، ونثر عليها الذهب. وتقدمت اتفاق المشهد فضربت بعودها، وشدت بصوتها، فأعجب السلطان بأنغامها، فأنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات، قدر ثمنها بأربعمائة ألف درهم(٦٢).

ثم أمر المظفر بإعادة المرتبات التي قطعت عن اتفاق وجواريها وخدامها إليهن. وأعاد مجالس الغناء إلى القلعة، وانهمك في اللهو والإنفاق على أرباب المغاني. وشغف باتفاق شغفا شغله عما دونها من النساء، وملكت قلبه بفرط حبه لها. ولما رأى الأمراء ما دهى السلطان من هيامه بتلك المغنية صرحوا بانتقادهم لمسلكه هذا، وغضب السلطان غضبا شديدا لمّا بلغه انتقادهم إياه، ولولا تدخل بعض العقلاء منهم لاشتعلت الفتنة بين السلطان وأمرائه(٦٣).

وعلى كل حال، فإن نهاية سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م شهدت تدهورا ملحوظا لاقتصاد دولة سلاطين المماليك، ولم يعد في استطاعة خزانة الدولة تحمل النفقات الباهظة التي ينفقها السلطان على مغنيته وجواريها ومجالس لهوه معهن. واتخذت الدولة إجراءات تقشفية لعلها تفيد في إعادة اقتصاد البلاد إلى نصابه الصحيح(٦٤).

ولم يعد أمام كبار الأمراء إلا التدخل بالنصح لدى السلطان ليعدل عن سلوكه تجاه مغنياته، وينتهي عن اللهو والإسراف في الإنفاق عليهن. وأصغى السلطان إلى بعض من ذكروه باحتمال وقوع فتنة لا تحمد عقباها على ملكه وحياته شخصيا، وأن هناك بعض الأمراء لايأمن لهم مكرا. وقبل السلطان نصيحتهم على مضض، وظهر وكأنه وعى دروس الماضي مما جرى على بعض إخوته السابقين. ورسم السلطان بإخراج المغنية اتفاق، واثنتين أخريين من حظاياه؛ واحدة تدعى سلمى، والأخرى معروفة بالكركية. أخرجهن وهو مجبر على ذلك غير مخير، وضائق بهذا الأمر صدره. وأما هؤلاء المغنيات فقد خرجن بدون أن يحملن شيئا مما حصلن عليه من هدايا جوهر وزركش. بل أجبرت اتفاق على نزع عصابتها عن رأسها، وهي عصابة مشهورة عند الخاصة والعامة بقيمتها الغالية، فقد صنعتها من الهدايا التي أخذتها من الصالح إسماعيل والكامل شعبان ثم المظفر حاجي. وكانوا جميعا أسخياء في هداياهم لها، فبلغت قيمة هذه العصابة مايزيد على مائة ألف دينار مصرية(٦٥).

وبرغم طرد اتفاق من القلعة، وابتعادها عن حجور السلاطين، فإنها لم تكن امرأة عادية ككل النساء. بل إنها ظلت تحتفظ بشيء جذب الرجال المرموقين إليها. فتزوجها الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة إبراهيم(٦٦)، واستغل هذا الرجل موقعه في الدولة أسوأ استغلال، فخصص سبعمائة ألف درهم من خزانة الدولة راتبا سنويا لزوجته اتفاق وخدامها ومن يلوذ بها. وظل هذا الراتب يصرف لها حتى بعد وفاة موفق الدين هذا في ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/مايو ١٣٥٤م(٦٧).

وظلت اتفاق مرغوبا فيها من الرجال حتى بعد تقدمها في السن، ففي شوال سنة ٧٦٦هـ/يوليو ١٣٦٥م وصل إلى مصر رجل يدعى حلي عبدالحكيم فارا من المغرب، ونعته المقريزي بـ"السلطان"، فأكرمه السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، وأجرى له الرواتب السنية، وبعد استقراره في مصر زوجه السلطان من اتفاق، ثم لم يعد يعلم لها خبر بعد ذلك(٦٨).

وعودة إلى المظفر حاجي ننظر أحواله بعد إجباره على التخلص من مغنياته، فإنه لم يعد إلى جادة الصواب، بل اتجه إلى نوع آخر من التسلية، قضى فيه وقته في لعب ولهو، فقد أنشأ حظيرة حمام، وجلب إليها أنواعاً مختلفة منه، فبلغت تكلفة ذلك سبعين ألف درهم. وانشغل المظفر عن إدارة أمور السلطنة بما استجده من اللعب بالحمام. ثم قرب إليه نفر من عوام الناس، وجعلهم صحبته في حله وترحاله، وشاركهم في ألعابهم الساخرة. ووجد مسلك السلطان هذا انتقاد بعض الأمراء، واعتبره إنحرافا عن تقاليد السلطنة. وأما السلطان فإنه غضب من هؤلاء الأمراء، وثارت ثائرته ضدهم، وقام إلى

الحمام فذبحه بيده، ولم يتمالك تلابيب أمره فصرح بتهديده للأمراء المعارضين قائلاً أنه سيذبحهم كما ذبح الحمام. وفي ربيع الآخر ٧٤٨هـ/يوليو ١٣٤٧م سنحت الفرصة للسلطان بتنفيذ تهديده، ونجح في التخلص من بعض الأمراء، وبدى أن الأجواء قد صفت للمظفر، وأن بقية الأمراء جنحوا للسلم(٦٩).

ولما اعتقد المظفر حاجي أنه قد ملك زمام الأمور في البلاد عاد إلى سابق عهده من الانهماك في اللهو واللعب، وجمع أرباب الملاهي وأفرط في تحصيل ملذاته أكثر من ذي قبل. ومن ذلك أنه في مستهل شعبان سنة ٧٤٨هـ/نوفمبر ١٣٤٧م رأى أن يخرج جماعة كبيرة من الأمراء في مهمة بعيداً عن القاهرة، فيخلو له الجو ويلهو على هواه. فتوجه جماعة من الأمراء إلى الصيد، وأخرج أرقطاي النائب(٧٠) إلى الوجه القبلي. وإمعاناً من المظفر في طلب المتعة، والاختلاء مع مغانيه وأرباب الملاعيب، فقد حدد ميعاد عودة الأمراء من مهامهم في العشر الأخير من شهر رمضان. وانطلق السلطان إلى اللعب واللهو، وشارك بنفسه العبيد وأرباب الملاعيب والأوباش وأراذل الطوائف ألعابهم، وقلدهم فيما يفعلون. فكان يقضي نهاره في اللعب مع هؤلاء، ويصعد إلى القلعة ليلاً وبصحبته المغنيات وأرباب الملاهي(٧١).

وفي هذه الفترة شغف المظفر حاجي بمغنية تدعى كيدا، ونزلت لديه منزلة اتفاق. وفتح خزائنه لإرضاء مغنيته، فاشترى لها أملاكاً بالقاهرة بلغت قيمتها مائة ألف درهم، وصاحبته في ليله ونهاره، وحله وترحاله. وتناقلت الألسن سفه السلطان مع مغنيته ورفقتها، ولما بلغت هذه الأخبار الأمراء الذين أخرجهم السلطان بعيداً عن القاهرة، فإنهم أسرعوا في إنهاء مهامهم، وقرروا العودة قبل الميعاد الذي حدده السلطان لهم من قبل، فوصلوا القاهرة في أواخر شعبان(٧٢).

وعلى الرغم من عودة الأمراء إلى القاهرة فإن السلطان لم يرتدع عن السفه الذي انخرط فيه، وواصل سلوكه الطائش. ومن ذلك فإنه في أوائل شهر رمضان وصلت إلى القلعة أموال يلبغا اليحيوي(٧٣) نائب دمشق بعد إلقاء القبض عليه ومصادرة ممتلكاته، فأخذ السلطان منها عشرين ألف دينار وأهداها إلى كيدا، ثم أعطاها جملة أخرى من الجواهر واللآلئ. ونثر الذهب على الجواري والخدم، ثم ألقى ذهباً ولؤلؤاً على لاعبي الحمام والفراشين والعبيد، وأنفق مال يلبغا جميعه عليهم، وكان يقدر بثلاثين ألف دينار وثلاثمائة ألف درهم، فضلاً عن الجواهر والحلي واللؤلؤ والزركش والمصاغ، وقدر ذلك بما يزيد على ثمانين ألف دينار، ولم يترك من مال يلبغا سوى القماش(٧٤).

وما فعله السلطان من سفه وسوء تدبير أثار حفيظة عدد كبير من أمراء المماليك، ولم يعد هناك مفر من وقوع الصدام بين الفريقين. ثم إن نجاح السلطان من قبل في التخلص من الأمراء المعارضين جعله يستهين بشأن هؤلاء الأمراء، واعتقد أن غضبهم سيهدأ بمجرد تهديده إياهم، أو ربما يضطر إلى التخلص من بعضهم ليبث الرعب والحذر في نفوس الآخرين. ولكن الأمراء كانوا قد عقدوا العزم على التخلص

من المظفر قبل أن تطول يده أحدهم. وخرج كل فريق منهما بآلة الحرب، واشتعلت القلعة وشوارع القاهرة بالفتنة، ولم تنته إلا وقد ألقى الأمراء القبض على السلطان، ثم عاجلوه بالذبح في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م، واختاروا أخاه حسن سلطاناً، ولقبوه بالناصر، وعمره آنذاك إحدى عشرة سنة[٧٥].

وأما السلطان الناصر حسن هذا فإنه تولى السلطنة مرتين؛ الأولى انتهت بخلعه وتولية أخيه الصالح صالح في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/يوليو ١٣٥١م، ثم تولاها في المرة الثانية بعد خلع الصالح في شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، واستمر سلطاناً حتى مقتله في جمادى الأولى ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م. ولما كان الناصر حسن في سلطنته الأولى صبياً صغيراً فقد تولى إدارة شئون البلاد عدد من كبار الأمراء، وعلى رأسهم أرقطاي النائب، ومنجك اليوسفي، ثم شيخو العمري[٧٦].

اتخذت إجراءات صارمة تجاه حواشي السلطان المظفر حاجي لتصحيح ما تم إتلافه على أيديهم، واسترداد ما أخذوه من أموال الدولة بغير وجه حق. وفتح شاد الدواوين[٧٧] باب التحقيقات مع عدد من هؤلاء الحواشي، واعترف الخدام على المغنية كيدا أنها حصلت وحدها في مدة شهرين على نحو خمسة وثلاثين ألف دينار، ومائتين وعشرين ألف درهم. كما حصل باقي أرباب الملاهي على أموال طائلة، فضلا عما حصل عليه العبيد والفراشين ومطيري الحمام[٧٨].

وفي منتصف شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م كان قد تم حصر الأموال التي أنفقها المظفر سفها بغير حق على المغاني وأرباب الملاعيب، ثم بدأ موظفو الأموال بالدولة في تتبع هؤلاء المنتفعين واسترداد ما أخذوه من أموال. ففي البداية كتبت أوراق بمرتبات أرباب الملاهي والخدام والعبيد والجواري، وصدر المرسوم بقطعها جميعا. وأما الثروات التي أخذتها المغاني من باب الهدايا وما شابه ذلك، فإنها كانت على قائمة الأموال المطلوب استردادها. وجرى التحقيق مع المغنيات اللواتي خارج القلعة، وجاءت على رأسهن مغنية عرب الجيزة، وتدعى دبيقة. وكانت دبيقة هذه تصعد إلى القلعة، فتغني وترقص هناك. كما تم استدعاء ضامنة المغاني، وخضعن للتحقيق، ثم ألزمت تلك السيدتان بدفع مبالغ معينة من الأموال مقابل ما حصلن عليه من بيت المال[٧٩].

وأما الجواري اللواتي بالقلعة فإنهن عُرضن للتفرقة بين من أعتقت منهن، ومن هي على حالها. ورُسم بتزويج الحرائر منهن، ووزُعت الباقيات على الأمراء. ثم في شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م أحيط بأموال المغنية كيدا، كذا جرى مع بقية حظايا المظفر، ثم أنزلن من القلعة[٨٠].

وكانت الأوضاع المالية في الدولة ككل في حاجة إلى إعادة نظر، وليس الأمر قاصراً على حركة التصحيح والتطهير التي جرت لاسترداد الأموال المنهوبة من أرباب الملاهي وأرباب الملاعيب وغيرهم من حواشي السلطان السابق. بل إن الأمر كان في حاجة إلى تقليل نفقات الدولة. وجلس الأمراء لبحث الإجراءات الضرورية، واتفقوا على

تخفيف الكلف السلطانية، وتقليل المصروف بسائر الجهات. وبدأ موظفو الأموال في جرد وإحصاء حسابات الدولة، وكتابة أوراق بما على الدولة من نفقات[٨١].

واستمر التوجه الإصلاحي اقتصاديا واجتماعيا، فعلى الصعيد الاقتصادي كان أرباب الأموال قد انتهوا في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م من ضبط أوراق الدولة، وحصر ما استجد عليها من التزامات منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون وحتى المحرم سنة ٧٥٠هـ/مارس ١٣٤٩م. فوجدوا أن جملة ما أنعم به وما خرج إقطاعا من بلاد الصعيد وبلاد الوجه البحري وبلاد الفيوم وأراضي السلطان وأراضي الرزق لصالح الخدم والجواري وغيرهن بلغ سبعمائة ألف ألف أردب، وألف ألف وستمائة ألف درهم كل هذه الأموال قد جرى تخصيصها لصالح أناس من الأمراء والخدم والنساء. وكشف فحص تلك الأوراق ما وقع فيه نفر من كبار الأمراء من تجاوزات، ولذلك عندما قرأت الأوراق بحضرتهم، وانكشفت تجاوزاتهم لم ينطق أحد منهم بكلمة[٨٢].

وأما على الصعيد الاجتماعي، فإنه أيضا في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م خرج الوزير منجك اليوسفي بتوجه إصلاحي اجتماعي، وذلك أنه رأى إنحرافا فيما أحدثته عوام النساء في ملابسهن، فقد ذهبت كثيرات منهن إلي تقليد نساء السلطان وجواريهن اللواتي بالغن في الإنفاق على أزيائهن، وأحدثن قمصانا غاليات الثمن، ويمتد طولها على المرأة حتى ينسدل ذيلها على الأرض. وأفتى بعض القضاة بتحريم هذه الأزياء، وهذه الفتوى شجعت الوزير على الخروج إلى الشوارع وبيوت أرباب الملاهي لإرهاب النساء ومنعهن من ارتداء هذه الأزياء[٨٣].

وامتدت سلطنة الناصر حسن الأولى ثلاث سنوات وتسعة أشهر وأياما، وتولى السلطنة وعمره إحدى عشرة سنة، وهو ما يعني أن الفترة الأولى لحكمه كان ما يزال صبيا، ولم يكن قد بلغ من السن ما يجعله يسعى وراء شهواته، هذا فضلاً عن أنه أحيط بعدد من الأمراء الأقوياء الذين يتربصون به الدوائر، فوقع تحت حجرهم، وحتى عندما رشد نفسه فإنه لم يستطع الانفراد بالسلطة من دونهم. وهذه الأمور منعت الناصر حسن من القيام بدور البطولة في مسلسل سقوط السلاطين أبناء الناصر محمد في مستنقع أرباب الملاهي. ولم تشهد سلطنة حسن الأولى تجاوزات من السلطان تجاه المغنيات وأرباب الملاهي، وحتى عندما أقام عدة احتفالات بمناسبة زواج إحدى أخواته وبعض مماليكه فإن هذه الاحتفالات لم تشهد ابتزالاً أو سفهاً أخلاقيا، مثلما كان يجري من إخوته السابقين. وخسر الناصر حسن سلطنته ولم يخسر حياته، فقد وقع ضحية الدخول في صراعات أمراء المماليك مع بعضهم البعض[٨٤].

وأما الصالح صالح فإنه تولى السلطنة وعمره حوالي خمس عشرة سنة، وانقضت سلطنته وهو تحت حجر الأمراء، وبخاصة شيخو وصرغتمش[٨٥]. وعندما سعى للتحرر من قبضة الأمراء، فإن عاقبة ذلك لم تحمد له. ففي رمضان سنة ٧٥٥هـ/سبتمبر ١٣٥٤م اتجه الصالح إلى سرياقوس وأقام بها، واستدعى أرباب الصنائع وانشغل باللهو معهم، وانفق عليهم أموالاً كثيرة، فقام الأمير شيخو للسلطان

وأنكر عليه هذه الأمور، واعتقد الصالح خطأ أن بإمكانه التخلص من هذا الأمير، فكان تدميره في تدبيره، وخرج عليه الأمير شيخو، وألقى القبض عليه وسجنه، وأعاد أخاه حسن إلى السلطنة[٨٦].

وتولى الناصر حسن السلطنة للمرة الثانية في أوائل شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، وكان قد تجاوز الثماني عشرة سنة. وأبى الناصر حسن إلا أن يكون مثل إخوته السابقين الذين هاموا بسماع المغنيات طربا، وانخرطوا في اللهو مع أرباب الملاهي. فأشارت عدة مصادر إلى أن السلطان الناصر حسن أقبل على النساء الجميلات، واقتنى منهن عدداً كبيراً فاق الحد، وشغف بهن شغفاً زائداً، واشتهر سفهه بين الناس فعرفه القاصي والداني. وانشغل باللهو والطرب، فضم إلى مجلسه النساء المغنيات وأرباب الملاهي، بل إنه اعتنى عناية خاصة بأرباب الفن من المغاني قاطبة، وكان إذا خرج في سفر اصطحب النساء معه[٨٧].

وعلى الرغم من إن الناصر حسن لم يرد عنه أنه اختص بواحدة من المغنيات، كبعض إخوته الذين ارتبطوا بمغنيات بعينهن، فإنه سلك نفس الدرب الذي سلكه إخوته السابقون في المجون مع أرباب المغاني، والسفه في الانفاق عليهن. ومن عجيب الاتفاق أن هلاك الناصر حسن جاء مقروناً بعلاقته بواحدة من النساء المغنيات. ففي جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م علم الناصر أن الأمير يلبغا الخاصكي ينكر عليه منحه إقطاعات كبيرة للنساء، وأن يلبغا يستعد للوثوب عليه، فأسرع السلطان بالقبض عليه وأهانه، ثم ثبت له أن يلبغا بريء، وقيل إن إحدى حظايا السلطان هي التي شفعت في يلبغا، فأفرج عنه واعتذر له. وبعد أيام قلائل خرج يلبغا بالفعل عن طاعة السلطان، وأعلن تمرده عليه. ولبس السلطان رداء الحرب ليحمي ملكه وروحه، ولكنه كان أعجز عن أن يفعل ذلك، فقد انتصر يلبغا على السلطان وضربه، وألقى القبض عليه وقتله[٨٨].

وكتب أحد شعراء العصر أبياتاً من الشعر، عرّض فيها بأخلاقيات الناصر حسن، والسفه والمجون الذي ارتكبه، وذم تقريبه القينات وأرباب الملاهي. وكتب هذا الشاعر أبياته مستخدما أسماء سور القرآن الكريم للتعريض على ما سلكه الناصر خلال سلطنته الثانية من أخطاء، وما جرى عليه من سوء خاتمة، فقال:

لما أتى للعاديات وزلزلت ... حفظ النساء وما قرا الواقعة
فلأجل هذا الملك أضحى لم يكن ... وأتى القتال وفصلت بالقارعة
لو عامل الرحمن فاز بكهفه ... وبنصره في عصره للسابعة
من كانت القينات من أحزابه ... عطعط به الدخان نار لامعة
تبت يدا من لا يخاف من الدعا ... في الليل إذا يغشى يقع في النازعة[٨٩]

وهكذا انتهت فترة حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون، وبلغ عدد أبناء الناصر الذين تولوا السلطنة ثمانية، وتولى الناصر حسن السلطنة مرتين. ثم انتقلت السلطنة من بعدهم إلى عدد من أحفاده.

وارتبط هؤلاء السلاطين بالغناء والمغنيات، ومجالس اللهو، ويستثنى اثنان منهم هما: كجك وحسن في سلطنته الأولى، وذلك لصغر سنهما عند توليهما السلطنة.

وفي هذه الفترة اشتهرت مغنيات بعينها، وذاع صيتهن في أرجاء البلاد. وارتبطن بعلاقات قوية بالسلاطين الذين عاصروهن من أبناء الناصر. وبلغ حد الحميمية في العلاقة أن ثلاثة من أبناء الناصر هم: إسماعيل وشعبان وحاجي تزوجوا بالتعاقب بواحدة من هؤلاء المغنيات هي اتفاق.

ترك ارتباط السلاطين من أبناء الناصر بالمغنيات آثاراً سلبية على البلاد؛ فتأثرت الأوضاع المالية للدولة جراء إنفاق السلاطين ببذخ على المغنيات ومجالسهن حتى بلغ حد السفه، وعانت الدولة معاناة شديدة جعلت الأمراء القائمين على أمرها يتخذون تدابير تقشفية لمواجهة تلك الأزمة المالية.

وعلى الصعيد الاجتماعي سرت عدوى تقليد نساء الشعب للمغنيات ونساء السلاطين في أزيائهن، فخرجن عن المألوف من وجهة نظر المعاصرين. ووجهت انتقادات لاذعة إلى أزياء النساء، وصدرت فتاوى العلماء التي تمنع ما ابتدعنه، وسعى بعض رجال الدولة لمواجهة مثالب النساء.

ثم إن أخطر ما تركه وجود المغنيات في بلاط السلاطين من أبناء الناصر هو أن كثيراً منهم دفع حياته ثمناً لمجونه، والإنصراف نحو اللهو مع هؤلاء المغنيات. فقد قدموا الحجة للأمراء الطامعين في النفوذ للقيام بالتمرد عليهم، ففقدوا عرشهم، بل منهم من فقد حياته أيضاً. وجرت أمور السلطة في أيدي الأمراء الأقوياء فينصبون من يرونه منهم مطيعاً، أو خادماً لمصالحهم.

الهوامـــش

(١) ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مج ٥، ص ٣٢٠٩ – ٣٢١٠؛ عبد السلام الترمانيني، الرق، ماضيه حاضره، عالم المعرفة، عدد ٢٣، الكويت، نوفمبر، ١٩٧٩، ص٩٧ – ٩٨؛ محمد قنديل البقلي، الطرب في العصر المملوكي (الغناء – الرقص – الموسيقا) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص ١٠؛ على السيد محمد، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨٧، ٨٨؛ جبور عبد النور، الجواري، القاهرة، ١٩٤٧، ص٥٦؛ لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص١١٤.

(٢) التقيين في الأصل هو تزيين المرأة للزفاف، ثم أطلق على تزيين الجارية وإصلاحها وتعليمها الغناء. عبد السلام الترمانيني، المرجع السابق، ص ١٠٣، ح١، وقال ابن منظور في لسان العرب : التقيين التزين بألوان الزينة، وهي الزينة للرجل والمرأة، وتقين أي تزين لزفافها، والقينة الأمة المغنية، لأنها تتزين، وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية، وقيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها. وذلك من عمل الإماء دون الحرائر. ابن منظور، المصدر السابق، مج ٥، ص ٣٧٩٩.

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، حققه محمد على النجار وآخرون، ط٣، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٤٤؛ ابن الإخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، صححه روبن ليوي، كمبردج، ١٩٣٧، ص ١٥٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٣٣.

(٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢ تحقيق محمد مطصفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦ – ١٩٥٨، ج ٣، ٤ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠ – ١٩٧٣، ج ٢، ص ٥٩٣ – ٥٩٤، ٧١٥؛ عبد السلام الترمانيني، المرجع السابق، ص ٩٧ – ٩٨؛ على السيد محمد، المرجع السابق، ص ٨٨؛ جبور عبد النور، المرجع السابق، ص٥٦.

(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص١٠٣–١٠٤؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ١٣٦؛ أحمد عبدالرازق، المرأة في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٤٢؛ عبد السلام الترمانيني، المرجع السابق، ص٩٧ – ٩٨؛ لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص١١٤؛ محمد قنديل البقلي، الطرب، ص ٩.

(٦) الضمان لغة هو الكفالة، أو الالتزام بالشيء، والضامن والضمين هو الكفيل أو الملتزم، وجمعه ضمان أو ضمناء، وتجمع أيضاً ضمن، بضم الضاد وتشديد الميم، وضمن الشيء أي كفل به، وضمنه أياه أي كفله، ويقال فلان ضامن وضمين أي كافل وكفيل، وضمنت

الشيء، أضمنه ضماناً، فأنا ضامن، والشيء مضمون، ابن منظور، المصدر السابق، مج٤، ص ٢٦١٠ - ٢٦١٣.
والضمان اصطلاحاً هو التزام شخص بتحصيل ضريبة من الضرائب، أو مكس من المكوس التي يفرضها السلطان أو الأمير، ويتكفل هذا الشخص في مقابل توليه هذا العمل بدفع مبلغ مقرر من المال إلى الديوان المختص، في أوقات معلومة من السنة. وإذا زاد متحصل الضريبة عن المقدار المقرر دفعه للديون أخذ الضامن الزيادة لنفسه، وإذا نقصت فعليه أن يكمل المقدار الذي نقص، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩١٣ - ١٩١٧، ج٣، ص ٤٧٠.
- Rabie,H., the Financial System of Egypt A.H. 564-741=A.D. 1169-1341, London, 1972, pp. 136-138.
محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٢٥.

(٧) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج٣٢ تحقيق فهيم محمد شلتوت) القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٢٩؛ النويري المكندري، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، ١٩٧٠، ج٤، ص١٥١؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤، مج١، ص ٢٤٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٨٦، ١٨٢.

(٨) الجهة تعني الضريبة ، فيقال أبطل فلان جهات منكرة ، وزادت أموال الجهة الفلانية أو نقصت، وفلان وكيل جهة محرمة. ومن ذلك أن القلقشندي (صبح الأعشى، ج٤، ص٣٣) ذكر ديواناً باسم نظر الجهات. ابن الحاج، المدخل، القاهرة، د.ت، ج٢،ص٣١١؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق، محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٢، ج٢، ص٨٠؛ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص٩٣؛ محمد مصطفى زيادة في تعليقاته على كتاب المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك(ج١، ٢ القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨)ج١، ص ٣٧٣، ح٢. وأضاف د.زيادة على غير الصواب أن الجهة المفردة هي الضريبة المقررة لديوان المفرد، وذلك عند تعليقه على حوادث السبت العشرين من شوال٦٤٨هـ/ الخامس عشر من يناير ١٢٥١م. والمعروف أن السلطان برقوق الذي تولى سلطنته الأولى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، هو الذي أحدث الديوان المفرد (القلقشندي، صبح الأعشى،ج٣، ص٤٢٧). وأعتقد أن الصواب هو أن الجهة المفردة هي الجهة المستقلة عن المعاملات الديوانية، ويباشرها ضامن مفرد، وأحياناً يرتب عليها مقطعون يأخذون حقوقهم منها. راجع المقريزي، السلوك ،ج٢، ص١٥١؛ الخطط المقريزية، مج١، ص٢٤٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٩٢، ج٩، ص٣٨.

(٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١٥٢؛ ج٣، ص٢٦٦.

(١٠) ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٩٤ – ١٩٩٨، ج١، ص١٢٧.

(١١) النويري السكندري، الإلمام، ج٤، ص١٥١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٦٦؛ الخطط، مج١، ص٢٨٦ ؛ ابن حجر، أنباء الغمر، ج١، ص١٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢ – ١٩٨٤، ج١، ق٢، ص١٦٦.

(١٢) النويري السكندري، الإلمام، ج٤، ص١٥١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٦٦ ؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١،ص٤٨٦.

(١٣) ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠، ج٩، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ، ٢٩٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٢٩ – ٢٣٠؛ النويري السكندري، الإلمام، ج٤، ص١٤٦ – ١٥٤؛ ابن حبيب، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٩؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، ١٩٨٥، ج٢، ص٧٤، ٧٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٥١ ، ١٥٢؛ الخطط، مج١، ص ٨٩ . ٢٣٩ ، ٢٤٠، ٢٤١؛ مج٢، ص٤٩٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٤٨٦.

(١٤) ابن الحاج، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت، ج١، ص٢٤٦، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ – ٢٨٧ ، ٣١٠.

(١٥) مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، نشره Zettersteen، لندن، ١٩١٩، ص٢١٧.

(١٦) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن، ١٩٧٨، ص١١٠، ١١١، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبوزيد وآخرون، بيروت، ١٩٩٨، ج١، ص٦٣٠ – ٦٣٤ ؛ ج٢، ص٥٩٩ – ٦٠١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، تحقيق وداد القاضي، فيسبادن، ١٩٨٢، ص٤٤٧ – ٤٤٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٣١ ، ٢٤٠، ٢٤١ ، ٥٧١ ، ٥٩٣ – ٥٩٤ ، ٦٨٠ ، ٧٤٥؛ المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، ١٩٩١، ج٢، ص٣١٠ – ٣١٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٤٨ ؛ ج٢، ص٢٢١؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٦٠؛ ج١٠، ص٦٧ ، ١٤٨. وتنكز هو الأمير المشهور نائب الشام، تولى نيابته سنه ٧١٢هـ/١٣١٢م، له إنجازات عديدة في مدة نيابته، فحصل على منزلة ومكانة عظيمة في الدولة لم يحصل عليها غيره، وظل نائباً للشام مقيماً في دمشق حتى ألقى الناصر القبض عليه وقتله في ذي الحجة ٧٤٠هـ/مايو ١٣٤١م. انظر ترجمة مطولة في الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٢٦٠ وما بعدها. ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٥٦ – ١٦٧.

(١٧) بكتمر الساقي من مماليك السلطان بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وقربه الناصر وعظم عنده، وزوج ابنته بابن بكتمر، ولم يكن يفارق السلطان، وحج مع السلطان وتوفي وهما في طريق عودتهم سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م. الصفدي، الوافي، ج١٠، ص١٢٢ وما بعدها.

(١٨) بشتاك أحد مماليك الناصر محمد، وقربه الناصر بعد وفاة بكتمر الساقي، فنال حظوة ومكانة، فتكبر وتجبر، وظل على سيرته حتى وفاة الناصر، فألقي القبض عليه في أول سلطنة المنصورأبي بكر، ثم قتل في الحبس بالإسكندرية أول سلطنة الأشرف كجك في شهر ربيع الأخر سنة ٧٤٢هـ/سبتمبر ١٣٤١م. الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٨٨ وما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، ١٩٩٧م، ج١٨، ص٤٢٧.

(١٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٦١؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٦.

(٢٠) الغلمان مفردها غلام، وهو الذي يتصدى لخدمة الخيل، وهو في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدام، وكأنهم سموه بذلك لصغره في النفوس، وربما أطلق علي غيره من رجال الطست خاناه ونحوهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧١.

(٢١) قوصون واحد من أقرب الأمراء إلى الناصر محمد، ولم يكن أصله مملوكاً، زوجه السلطان واحدة من بناته. وبعد وفاة الناصر ساند ابنه أبا بكر حتى جعله سلطاناً، ثم سعى إلى خلعه، وأجلس أخاه كجك على عرش السلطنة. ولما أمر بقتل أبي بكر في قوص كان ذلك سبباً لخروج عدد كبير أمراء المماليك الناصرية على استبداد قوصون بالدولة، وكذلك انتفض ضده العوام. وألقي القبض على قوصون، ثم قتل في شوال سنة ٧٤٢هـ/مارس ١٣٤٢م. الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص٢٠٧ وما بعدها.

(٢٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص ٢٢٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ١٥٧ – ١٥٨؛ ابن كثير، المصدر السابق،ج١٨، ص ٤٢٩؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٦٦ – ٥٦٧ ، ٥٧٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٠ – ١٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه محمود الأرناؤوط، وأشرف على تحقيقه عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦، ج ٨، ص ٢٣٦.

(٢٣) الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص٢٤٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٨، ص٤٢٩؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٩٣، ٧٥١ ؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٨ ص٢٥٨.

(٢٤) الكرك قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القلزم (خليج العقبة) وبيت المقدس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت، مج٤، ص٤٥٣.

(٢٥) الصفدي، الوافي، ج٨، ص ٥٧- ٦٠ ؛ ج ٩، ص١٣١؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٧٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩.

(٢٦) السرحات، الدلالة اللغوية للكلمة هي أنها أماكن الرعي التي تنطلق فيها الدواب لتأخذ حظها من نباتات الرعي. والمقصود بالسرحات إنما هو خروج السلطان وأعوانه إلى الأماكن التي يتوافر فيها من المراعي الطبيعية أو الحضارية ما يكفي للخيول التي تمثل عماد الأنشطة الاجتماعية للسلطان وحاشيته وهي؛ الترويح والصيد والفروسية. وبلغ عدد السرحات السلطانية في مصر المملوكية حوالي عشرين سرحة؛ ومن أشهرهم سرحة سرياقوس وسرحة أوسيم. عبدالعال عبدالمنعم محمد الشامي، السرحات السلطانية، أماكن الترويح والصيد والفروسية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ٥٦٧هـ -٩٢٣هـ، الكويت، ١٩٩٤، ص٢١ وما بعدها.

(٢٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٧٨ - ٦٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٨٠.

- الثياب الأطلس هي ثياب حريرية منسوجة، ولفظ أطلس ليس عربياً، فالأطلس في الفارسية يعني الحرير. ونوعاً من الحرير يمتاز بلمعان أحد وجهيه، ويعرف في الإنجليزية Stain، وفي الفرنسية Atlas. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٣٦.

- الطراطير، مفردها طرطور، وهو غطاء الرأس، أو طاقية مرتفعة ترتديها النساء على رؤوسهن. فايزة محمود عبد الخالق الوكيل، الشوار، جهاز العروس في مصر في عصر سلاطين المماليك، دار نهضة الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٩١.

- الخدام أو الخدام الخصيان هم الذين يعرفون بالطواشية آنذاك، ولهم ألقاب كالأمين والمقرب والمؤتمن. ومنهم من له الإشراف على باب ستارة السلطان أو الأمير، ويسمى بالزمام دار أو الزنان دار. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص٤٤٠؛ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١١٦.

(٢٨) الكامليات الحرير ويقال الكوامل أيضاً، ومفردها كاملية، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص٤٤٩.

- لعب الكرة كانت رياضة موجودة في مصر قبل دخول الإسلام، وظلت موجودة حتى عصر سلاطين المماليك. وكانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة كالفلين ونحوه، تلقى على الأرض ويتسابق الفرسان راكبين في التقاطها بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم إلى إصابتها وأرسلها في الهواء كانت له الغلبة. ويبدو أن تلك اللعبة استمرت على نفس الهيئة في عصر سلاطين المماليك. لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٢٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٧٨ - ٦٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠ ص٨٠.

(٣٠) أرزاق ومفردها رزق، هي المرتبات، سواء كانت يومية أو شهرية. سعيد عبدالفتاح عاشور. العصر المماليكي، ص ٤٢٥.

(٣١) الأمير الحاج آل ملك، هو آل ملك بن عبد الله، من كبار أمراء المماليك، وتولى وظـائف كبرى، ومنها نيابة السلطنة، وتوفى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٨٥-٨٨.

– نيابة السلطنة هي أعلى وظائف أرباب السيوف، وصاحبها سلطان مختصر، بل هـو السلطان الثاني، فيحكم فيما يحكم فيه السلطان، وجميع نواب المملكة يكاتبونـه فيمـا يكاتبون فيه السلطان. ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر، وله عادات مهيبة في مراسيم الدولة. القلقشندي، صـبح الأعشى، ج٤، ص١٦ وما بعدها.

(٣٢) الصفدي، الوافي، ج٩ ، ص ٢١٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ، ص ٦٢٧ ، ٦٥٣، ٧٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠ ، ص٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠.

(٣٣) الصفدي، الوافي، ج٩ ، ص١٣١؛ المقريزي، الـسلوك، ج٢ ، ص ٦٧٨ ، ٧١٥؛ ابـن تغري بردي، النجوم، ج١٠ ، ص١١٩؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة في مـن ولـي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المـصرية، ١٩٩٧، ج٢، ص٧٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق ١، ص٥٠٥؛ ابن العماد الحنبلـي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٥٥.

(٣٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧١٥؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠؛ ابن تغري بـردي، النجوم، ج١٠، ص ١١٩.

(٣٥) جمال الكفاة اسمه إبراهيم، ولاه الناصر محمد بن قلاوون وظيفتي نظر الخـاص ونظـر الجيش، ولم يتفق لأحد غيره الجمع بين الوظيفتين. واستمر على حاله في سلطنة كـل من أبي بكر وكجك وأحمد وإسماعيل أبناء الناصر، ثم أضيفت إليه وظيفة نظر الدولة في سلطنة إسماعيل، حتى قيل إن هذا الرجل أصبح عبارة عن الدولة. ثم نكب وقتـل فـي صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م. الصفدي، الوافي، ج٦، ص١١٥ وما بعدها؛ ابن تغـري بردي، المنهل الصافي، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص١٩٣ وما بعدها.

(٣٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، حققه محمد حسين شمس الـدين، بيروت، ١٩٨٨، ص٩٧-١٠٣، ١٠٦؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف بالمـصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلي، المعهد العلمي الفرنـسي للآثـار الـشرقية بالقـاهرة، ١٩٨٧، ص٩١، ١٨٧.

– مشير الدولة هو أحد الرجال المعدودين، ووظيفته القيـام مقـام الـسلطان إذا أراد استشارة أولي الرأي في دولته؛ كالخليفة وقضاة القضاة والـوزير والأمـراء مقـدمي الألوف وأتابكهم، فإن السلطان يخبر المشير بما يريد. ويقوم المشير بتداول الأمر مـع هؤلاء الجماعة واحداً بعد الأخر، إلى أن يتفقوا على رأي بدون تدخل السلطان. فيكـون معنى المشير هنا أنه يحفظ هيبة السلطان، فإن السلطان إذا تكلم وردوا كلامـه يكـون انتقاصاً لقدره، وإن سكتوا حفظاً لكرامة السلطان ربما يحدث خلل في الأمر، فهذه فائدة

المشير في الرأي والتدبير. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص١٠٦.

– علاء الدين على بن يحيى بن فضل الله العمري تولى كتابة السر للناصر محمد بن قلاوون وهو صبي صغير نيابة عن والده الذي كبر سنه. ولما توفي والده استقل بكتابة السر في سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م. وظل على حاله في أيام أبناء الناصر: أبو بكر وكجك وأحمد وإسماعيل، وحاجي، وحسن، وصالح، ومحمد بن حاجي، وشعبان بن حسين، وتوفي في رمضان سنة ٧٦٩هـ/مايو ١٣٦٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٨، ص٢٤٠ وما بعدها.

(٣٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٦٢ – ٦٦٣.

(٣٨) أمير مائة مقدم ألف، هى أعلى مراتب أرباب السيوف، وتكون عدته مائة فارس، وربما زاد العشرة والعشرين، وفى الحروب يكون مقدماً على ألف فارس، القلقشندى، صبح الأعشى،ج٤، ص١٤.

(٣٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٦٢ – ٦٦٤.

(٤٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٦٥ ، ٦٧١ ، ٦٧٩ – ٦٨٠.

(٤١) الصفدي، الوافي، ج٩، ص٢١٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٦٧ – ٦٧٠.

(٤٢) الصفدي، الوافي، ج١٦، ص٩٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧١٥؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٩٧.

(٤٣) يرجح أن يكون معنى داير البيت هو داير السرير، ويكون عبارة عن نسيج من الحرير المطرز، ويحيط بأعلى أعمدة السرير. ومازال دائر السرير يستخدم بنفس الاسم في الأسرّة ذات الأعمدة الموجودة في الريف المصري. أو ربما كانت لفظة داير البيت مأخوذة من لفظة دبيت الفارسية، وهو نوع من الأقمشة التيلية والتي عرفت بعد ذلك في العامية العربية باسم درابية وهي المفرش الأعلى للسرير، وهذا يكون من الحرير، وينجد بثمين الحشو، ويكون الحشو بسيطاً، ويزركش وجهها بالتطريز والخرز واللؤلؤ. فايزة الوكيل، المرجع السابق، ص٤٨.

(٤٤) البشخانة، كلمة فارسية معربة، مركبة من بشه ومعناها البعوض، ومن خانه ومعناها البيت، والمعنى الكلي بيت البعوض، وهي الناموسية التي تحمي صاحبها من الناموس والبعوض وسائر الهوام. رجب عبد الجواد ابراهيم، المرجع السابق، ص٦٦.

– مخاد مفردها مخدة، وهي ما يستخدمه الناس للراحة عند النوم أو الجلوس، ويبدو أنها كانت مثل تلك المعروفة في زماننا؛ حيث تحشى قطعة قماش وتوضع في كيس، وكان القماش المستعمل يختلف بحسب الحالة الاجتماعية، فقد يكون قماشها من الحرير أو المشتهر أو القماش العادي، وحشى بالقطن أو تحشى بورق الموز واللبد الأبيض. وألوانها تكون زرقاء أو بيضاء، أو بيضاء بكيس أحمر أو زيتي حرير، وأحيانا تطرز بالحرير الأحمر أو الأبيض، أو تكون من الديباج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش

النعام، وكان للمخدات أكياس من القماش لحفظها، وهذه الأكياس كانت مجالاً خصبا لكتابة الأشعار بالتطريز. فايزة الوكيل، المرجع السابق، ص٧٤-٧٥.

- المساند مفردها مسند، وهو وسادة تعمل للظهر، والنهايات العليا لهذه المساند مدببة بشدة. وهذا المسند للظهر له وظيفة في الأثاث محددة وواحدة، ولا يمكن أن يستخدم للنوم مثلاً، وذلك بخلاف بعض المخدات التي يمكن أن تستخدم كمساند للظهر. فايزة الوكيل، المرجع السابق، ص٨١-٨٢.

(٤٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١١٩-١٢٠.

(٤٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٨٥ – ٦٨٦.

(٤٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٨٨ – ٦٨٩.

(٤٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٩٠-٦٩١.

(٤٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٦٩٢.

- والدولاب وجمعها دواليب، وهي الآلات العجلية المستعملة في الزراعة والصناعة عموماً، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٢٣.

(٥٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٠٠-١٠١.

(٥١) الأمير سيف الدين قماري، أخو بكتمر الساقي، ترقى في الوظائف حتى صار أستاذ الدار للصالح إسماعيل، وعندما تولى الكامل شعبان السلطنة ولاه نيابة طرابلس، وفي ذي الحجة سنة ٧٤٦هـ/مارس ١٣٤٦م ألقى القبض عليه محبوساً مقيداً، وكان آخر العهد به، فإنه نقل إلى سجن الإسكندرية، وقتل في سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص٢٠٦؛ ابن حجر، الدرر، ج٣، ص ٢٥٦.

(٥٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٠١.

(٥٣) أرغون العلائي، هو أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، تولى وظيفة رأس نوبة الجمدارية منذ أيام الناصر محمد. تزوج أرملة الناصر وهي والدة الصالح إسماعيل والكامل شعبان ابني الناصر محمد، وكان مدبر الدولة في عهديهما، ثم ألقي القبض عليه بعد خلع الكامل شعبان، وسجن بالإسكندرية إلى أن قتل في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. الصفدي، الوافي، ج٨، ص٢٣٠.

(٥٤) أم الولد هي الجارية أو الأمة التي تلد من سيدها، فتسمى أم ولد، وترتفع مكانتها عن الجارية التي لم تلد منه، ولا يجوز للرجل أن يبيع أم ولده، وإذا مات صارت حرة، وأما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار. عطية القوصي، الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٩٣.

(٥٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٠٣ – ٧٠٤ ، ٧٠٧؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١٠٤، ١٠٧.

(٥٦) وعلى الرغم من إن الصفدي (الوافي، ج١٦، ص٩٠) امتدح الكامل شعبان على خلاف باقي المؤرخين، إلا إنه اتفق معهم في أن السلطان كانت له ميول نحو اللعب واللهو

دائماً. المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧١٣، ابن حجر، الدرر، ج٢، ص١٩١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١١٢-١١٣؛ مورد اللطافة، ج٢، ص٨٠، ٨٤؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، حققه عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤، مج٢، ج١، ص٤٨٩ - ٤٩٠؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٨ ، ص٢٦٠.

(٥٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٥٣ ، ٧١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١١٣؛

(٥٨) المقريزي، السلوك، ج٢ ، ص٧٠٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ١٠٦، ١٠٧.

(٥٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٠٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١٠٧.

(٦٠) الصفدي، الوافي، ج١١، ص١٨٢-١٨٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٠٨ - ٧١٤ ، ٧٤٤؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص ٣ - ٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٠٧ - ١١٣. وفي تحقيقه لكتاب السلوك (ج٢، ص٧١٤) وقع د/مصطفى زيادة في اضطراب خاص بتحديد عمر المظفر حاجي، فقد وجد بياضاً في مخطوطاته مكان عمر المظفر، فأكمل البياض محدداً عمره بخمس عشرة سنة، معتمداً على ابن حجر في الدرر الكامنة، وابن إياس في بدائع الزهور. ولم ينتبه د/زيادة إلى ما جاء في السلوك (ج٢، ص٧٤٤) عن عمر المظفر بعد مقتله، فقد حدده المقريزي هنا بنحو عشرين سنة، ثم إنه من المؤكد أن المظفر حاجي ولد أثناء وجود والده في رحلة حجه سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ولذا تسمى بحاجي نسبة إلى هذه المرحلة المقدسة، وعلى ذلك فإن عمره يوم توليه السلطنة يكون حوالي خمس عشرة سنة، ومن المعلوم أن مدة حكمه استمرت سنة وثلاثة أشهر وأياماً، فإن عمره يوم مقتله نحو ست عشرة سنة وأشهراً. الصفدي، الوافي، ج١١، ص١٨٢ - ١٨٣؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٦٣.

(٦١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧١٥؛ ابن حجر، الدرر، ج١ ، ص٨٠.

(٦٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٧٢٠ - ٧٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٢٣.

(٦٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٢٤.

(٦٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٢٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٢٥.

(٦٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٢٥-٧٢٦؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠؛ ج٢، ص٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٢٥-١٢٦؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٨، ٢٦٣.

(٦٦) هبة الله بن سعد الدولة إبراهيم، كان نصرانيا وأسلم، فسمى نفسه عبدالله، تولى نظر الخاص في سلطنة الصالح إسماعيل سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وتولى نظر الجيش والوزارة الواحدة بعد الأخرى، ثم اجتمعت له الوظائف الثلاث جميعا في سلطنة الصالح صالح. انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر، ج٤، ص٤٠٠-٤٠١.

(٦٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٩٢٠؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠.

(٦٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٩٢٠؛ ج٣، ص١٠٠؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٠.

(٦٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٢٦-٧٣١؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٢٥-١٣٢.

(٧٠) أرقطاي النائب كان من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، وأصبح جمداراً في أيام الناصر محمد، تولى نيابة حمص، ثم نيابة صفد، واستدعاه الناصر إلى القاهرة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م، وعمل نائب غيبة إذا غاب الناصر في الصيد، ثم انتقل أواخر أيام الناصر إلى طرابلس نائباً. واعتقل في سلطنة الأشرف كجك، ثم أفرج عنه في سلطنة الصالح إسماعيل، وتولى نيابة حلب في سلطنة الكامل شعبان، ثم عزل بعد أشهر قليلة. ولما تسلطن المظفر حاجي رسم له بنيابة مصر، وبعد خلع المظفر وسلطنة الناصر حسن طلب نيابة حلب بدلاً من نيابة مصر، فرُسم له بذلك. وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ/يوليو ١٣٤٩م. الصفدي، الوافي، ج٨، ص٣٣٣ ومابعدها.

(٧١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٣٥، ٧٣٩-٧٤٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٣٢، ١٣٥.

(٧٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٠، ٧٤١.

(٧٣) يلبغا اليحيوي نائب دمشق، كان واحداً من أقرب الأمراء إلى الناصر محمد بن قلاوون. وظل أميراً جليل القدر في عصر أبناء الناصر فتولى نيابة حماه ثم دمشق، إلى أن غضب عليه المظفر حاجي، فألقي القبض عليه، ثم قتل في جمادى الأولى ٧٤٨هـ/أغسطس ١٣٤٧م. الصفدي، الوافي، ج٢٩، ص٢٢-٢٦.

(٧٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٣٦؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٥١٥-٥١٦.

(٧٥) الصفدي، الوافي، ج١١، ص١٨٤؛ ج١٢، ص١٦٦؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤١-٧٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٣٦-١٣٨؛ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٥، ص٥١٠؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٦٣.

(٧٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٨٤٢، ٨٤٣؛ ج٣، ص٦٠-٦١.

- منجك اليوسفي هو أحد المماليك الكبار في دولة الناصر محمد بن قلاوون وأبنائه، تولى وظائف عدة منها الوزارة والإستادارية في شوال سنة ٧٤٨هـ/يناير ١٣٤٨م. وكان قوياً في وظائفه معتمداً على أخيه بيبغاروس نائب السلطنة. وبعد نكبة أخيه سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢م ألقي القبض عليه وسجن، ثم أفرج عنه سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، واستقر في نيابة طرابلس، ثم ولي حلب في ربيع الآخر سنة ٧٥٩هـ/مارس ١٣٥٨م، ومات في سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م. الصفدي، الوافي، ج٢٦، ص١٨ وما بعدها؛ ابن حجر، الدرر، ج٤، ص٣٦٠-٣٦١.

- شيخو العمري هو أحد المماليك الناصرية محمد بن قلاوون، وأصبح واحداً من أمراء المشورة في سلطنة الناصر حسن، وصار متحكماً في أمور الدولة، ثم ألقي القبض عليه

وسجن في سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م. ولما تسلطن الصالح صالح أفرج عنه في رجب سنة ٧٥٢هـ/أغسطس ١٣٥١م. وعاد الناصر حسن إلى السلطنة، وظل شيخو قويا في دولته، فصار أتابك العسكر، ولقب بالأمير الكبير، وهوأول من سمي بهذا اللقب. طعنه أحد المماليك، ومات على إثر هذه الطعنة في ذي القعدة سنة ٧٥٨هـ/أكتوبر ١٣٥٧م. الصفدي، الوافي، ج١٦، ص١٢٤ ومابعدها؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٥٧ وما بعدها.

(٧٧) شاد الدواوين أو المشد، مفتش، فيقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها، ومثله شاد الجوالي وشاد الزكاة، ويسمى التفتيش شد فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٣٣.

– Rabie, op. cit., pp 150–153.

(٧٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٥؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٨.

(٧٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٥–٧٤٦؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٤٩.

(٨٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٦؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٤٩.

(٨١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٨–٧٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٥٠.

(٨٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨٠٩–٨١٠.

(٨٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨١٠–٨١١.

(٨٤) الصفدي، الوافي، ج١٢، ص١٦٦–١٦٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨٢٢، ٨٤٠، ٨٤١.

(٨٥) صرغتمش هو أحد المماليك الناصرية، وهو مدبر دولة الناصر حسن بعد وفاة الأمير شيخو. ألقي القبض عليه وسجن بالإسكندرية إلى أن مات في ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ/نوفمبر ١٣٥٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦،ص٣٤٢.

(٨٦) الصفدي، الوافي، ج١٦، ص١٥٦؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨٤٣، ٩٢٩–٩٣٠؛ ج٣، ص١.

(٨٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٢٤٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٥٧٩.

(٨٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٨، ص٦٢٤؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٠–٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٢٤٣–٢٤٥.

(٨٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٢٤٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٥٧٩. وعطعط هذا اسم أحد ندماء السلطان، وكذا الدخان اسم مشبب من ندمائه.

ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. سيد محمود محمد عبد العال (*)

يتناول هذا البحث ثورات العربان في مصر زمن سلاطين المماليك، مفهومها وأسباب قيامها، والأثر الذي تركته علي الاقتصاد المصري في ذلك العصر، وذلك في مجال الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية والإنتاج الصناعي، وعلي النشاط التجاري الداخلي والخارجي، وحركة الأسواق والأسعار.

فقد شكل العربان شريحة اجتماعية متميزة في مصر عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري(١) وبخاصة في أقاليم الشرقية والبحيرة والمنوفية في الوجه البحري، وأقاليم قوص وأسيوط والأشمونين في الوجه القبلي(٢).

وقد حمل العربان راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك، دون شرائح المجتمع المصري جميعها، وعلي الرغم من الأساليب الوحشية التي استخدمها ضدهم المماليك؛ فلم تخمد ثورات العربان طوال العصر المملوكي، ولم تخل سنة من السنين من ثورة في الصعيد أوفي الوجه البحري، وكانت هذه الثورات تستهدف ضرب المماليك ومهاجمة الاقطاعات التي يحوزونها، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية، وحرمان المماليك من خيرات البلاد(٣).

ومن ثم اتسم عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات العربان، وانتفاضاتهم ضد الدولة المملوكية التي وصفتها المصادر التاريخية المعاصرة بأنها نوع من "الفساد"(٤) و"العبث"(٥) و"الفتنة"(٦) و"العصيان"(٧) و"النفاق"(٨) و"الخروج علي الطاعة"(٩) و"الأذي" و"الضرر"(١٠).

الأمر الذي يبين لنا أن المصادر التاريخية المعاصرة قد تبنت وجهة نظر الدولة في ثورات العربان وفتنذ، مما يفقدها في أغلب الأحيان الموضوعية، لأنها لم تتبن وجهة نظر الطرفين، لم تبحث عن وجهة نظر الطرف الآخر، وفي المقابل لا نجد أي مصدر تاريخي يعرض لوجهة نظر العربان بشكل صريح.

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة الفيوم.

وهناك بعض المصادر التاريخية المعاصرة يمكن أن نعثر فيها على إشارات جهة نظر العربان، مثل المؤرخ عبد الباسط بن خليل الذي استعمل الفعل ثار ومصدره ثورة قائلاً: "كان عرب الصعيد في الثورة"[١١] كما ذكر أيضا "وقعت بالاطفيحية فتنة وأمور ثار بها العربان"[١٢] وكذلك لفظ "ثارت العربان"[١٣] واستعمل المقريزي وبيبرس الدوادار الفعل نفسه ليصف انتفاضة عرب الاحامدة[١٤] "ثارت الأحامدة من عرب الصعيد"[١٥] و"ثاروا في البلاد وأكثروا من الفساد"[١٦]. كما وردت بلفظ "ثوران"، من ذلك ما ذكره عبد الباسط بن خليل" بسبب ما ذكرناه من ثوران الأحمدي"[١٧] و"لإخماد ثوائرهم"[١٨].

وقد أطلقت المصادر التاريخية المعاصرة علي القبائل العربية – التي كانت تعيش في أجزاء مختلفة في الوجهين القبلي والبحري – اسم العربان، وهو اسم مرادف لكلمة "البدو". ويري بعض الباحثين أن السبب في إطلاق اسم العربان أنهم كانوا يعيشون في طور الانتقال من حياة التنقل إلي حياة الاستقرار[١٩] وأن اسم العربان جاء عنوانا للإخلال بالأمن والاعتداء علي الآمنين من أهالي القرى والمدن، ومن ثم عرفوا بذلك[٢٠]. ويبين لنا ذلك وجود نظرة انتقصت من شأن القبائل العربية وقتئذ، بحيث يصبح الحديث عنها أمراً غير ذي أهمية، وهذا يفسر لنا استخدام هذه المصادر كلمة "عربان" بدلا من "العرب" دليلا علي ذلك.

أسباب ثورات العربان:

تعددت أسباب ثورات العربان، في العصر المملوكي، بين أسباب سياسية وأخري اقتصادية أو اجتماعية. فقد جاءت ثورات العربان وانتفاضاتهم نتيجة عوامل اجتماعية ودينية متبادلة بينهم وبين المماليك. فمن جانبهم نظر العربان إلي المماليك علي أنهم غرباء عن البلاد، وأنهم أحق بحكم مصر منهم. فقد ذكر المقريزي "أن عربان مصر أنفت من تملك أيبك لأنه مملوك قد مسه الرق"[٢١] لذا فما أن تولي عز الدين أيبك السلطنة عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى ثار العربان ضده بقيادة حصن الدين بن ثعلب في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م وقال: "نحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج، وصرح هو وأصحابه: بأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفي أنا خدمنا بني أيوب، وهم خوارج خرجوا علي البلاد. وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا: إنما هم عبيد للخوارج"[٢٢].

كما ذكر القلقشندى أن العربان "كانت نفوسهم قد سمت إلي الملك خصوصاً الشريف حصن الدين بن ثعلب، وكان قد أنف من إمارة المعز أيبك التركماني"[٢٣].

ولم يكن هذا موقف العربان وحدهم من المماليك بل كان موقف معظم المصريين الذين كرهوا حكم المماليك الذين مسهم الرق. فقد ذكر ابن تغري بردي عن موقف المصريين من سلطنة عز الدين أيبك : " وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك إلي أن مات، وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلا

سلطانا رئيسا مولوداً علي الفطرة "(٢٤). وهو ما يؤكده السيوطي: "وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعونه ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد علي الفطرة"(٢٥) أي إنسانا حرا لم يمسه الرق مثل المماليك"

ونظر المماليك بدورهم إلي العربان نظرة استعلاء واحتقار واستخفاف، وقد عبر عن هذه النظرة ابن فضل الله العمري بقوله(٢٦): "أما العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل، لكنهم علي سعة أموالهم واتساع نطق جماعاتهم ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ليس منهم من ينجد ولايتهم، ولا يعرق، ولا يشام. لا يخرجون عن جدر الجدران علي كل حال". ويدلل هذا علي استهانة المماليك بالعربان، وإن ارتفعت مكانتهم وكثرت أعدادهم.

وقد عبر البوصيري(٢٧) أيضا عن نظرة المماليك إلي العربان بقوله(٢٨):

أناس لا خلاق لهم ... الشؤم شيمتهم واللؤم والدبر
تلثموا ثم قالوا:إننا عرب ... فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعي ولا ذمم ... ولا بيوتكم شعر ولا وبر
يشكو جميع بني الدنيا أذيتهم ... فهم بطرقهم الأحجار والحفر

وتوضح الأبيات النظرة العنصرية من جانب البوصيري تجاه العربان، حتى اتهمه أحد الباحثين بالشعوبية، لأنه لم يكتف بذم العربان، ومدح المماليك الترك(٢٩)

كذلك جاءت ثورات العربان، ضد السلطات المملوكية، نتيجة للوضع الاقتصادي المتدهور بفعل قسوة الطبيعة، وما ترتب عليها من أوبئة ومجاعات وفرض الضرائب علي الرعية وإلزامهم بالسداد، مما أدي إلي تذمرهم وشق عصا الطاعة، وانتشرت الاضطرابات والقلاقل والثورات التي كان يصعب علي السلطات المملوكية حسمها إلا بالقهر والاستبداد(٣٠)

يضاف إلي ذلك: حرمان العربان من الاقطاعات التي كانت تعد مورداً مالياً مهماً؛ فقد استولي الأيوبيون، والمماليك من بعدهم، علي جميع أراضي مصر عن طريق نظام الإقطاع الحربي وإذا أعطي العربان إقطاعات فإنها تكون في أطراف البلاد وغيرها، وهذا النوع من الإقطاع الذي عرف بـ"الاعتداد" كان ضعيف الإنتاج(٣١).

وقد قام صلاح الدين، في عام ٥٧٧هـ/١٢٨١م، بنزع ثلثي إقطاعات العربان في مصر(٣٢)، مما جعلهم ينقلبون عليه ويثورون ضده ويرفعون لواء العصيان في مصر، وعلي الأخص في الصعيد، فجرد حملات عسكرية ضدهم فقتلت الآلاف منهم. وقد سارت علي هذا النهج سياسة المماليك تجاه العربان حتى سقوط دولتهم.

وكان رد فعل العربان إزاء هذه السياسة قطع الطرق، وقد ذم السبكي هذا التصرف بقوله:" ومن قبائحهم أنه إذا قطع السلطان إقطاع واحد منهم تسلط علي قطع

الطرقات وأذية من لم يؤذه، وأخذ مال من لم يظلمه، ولا يتوقفون في سفك الدماء لأجل هذا الغرض"[٣٣].

كما كان من سياسة المماليك فرض الرسوم المالية المجحفة، من أجل تجهيز الجيش المملوكي تجاه أعدائه، وكانت هذه السياسة عاملاً مباشراً في ثورات العربان، مثلما حدث في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م حين تجهز المماليك لحرب المغول، ففرضوا أموالا علي المصريين، وندبوا الوزير سنقر الأعسر[٣٤] " ليجبي الأموال من الناس، فجبي منهم الأموال في أربعين يوما، أو دون ذلك، فتحصل من هذه الحركة نحو مائتي ألف دينار وكسور"[٣٥] وسمي ذلك" مقرر الخيالة"[٣٦].

كذلك كان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحيانا، من الأسباب التي دفعت العربان إلي القيام بالثورة ضد المماليك[٣٧]. وأدي احتكار بعض أمراء المماليك للغلال، وبخاصة بالوجه القبلي إلي الإضرار بالناس بكل أرجاء البلاد، فتزايد الغلاء بسببها، مثلما حدث في عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م بسبب احتكار الأمير يشبك من مهدي لغلال الصعيد، ومنع المراكب من حمله إلي القاهرة"[٣٨]

من الأسباب التي أدت إلي ثورات العربان: سوء سلوك أمراء المماليك ضدهم، ومحاولات إذلالهم من خلال سبي نسائهم، وهي إهانة كبيرة دفعت هؤلاء العربان إلي قطع الطرقات، والإغارة علي القرى والمدن المصرية. وأوضح دليل علي ذلك ما حدث في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، بعدما وصل يشبك من مهدي[٣٩] من بلاد الصعيد بعد ما نهبه، وخرب عدة قري، وبدد شمل العربان، وسبي أربعمائة من نسائهم، وحبسهم في وكالة الأتابك قانم، وتركهن دون طعام. فثار عربان الصعيد وقاموا بقطع الطريق، وأخذوا بعض المراكب المحملة بالغلال القادمة من الصعيد، وأخذوا ما فيها ثم قاموا بإحراق تلك المراكب، مما تسبب في ارتفاع أسعار القمح وبقية الغلال في القاهرة[٤٠]

كما كان لاعتقال أحد زعماء العرب أثر مباشرً في قيام هؤلاء العربان بقطع الطرق والاستيلاء علي الأموال. ففي عام ٧١٧هـ/١٣١٧م قام والي قوص باعتقال قياض أمير عرب برية عيذاب[٤١]، فقام هؤلاء العرب بقطع الطريق علي رسول صاحب اليمن، والاستيلاء علي الهدايا التي يحملها، وعلي أموال التجار، فجهزت الدولة حملة عسكرية لعربان برية عيذاب وصلت إلي سواكن[٤٢].

وكانت بعض الوقائع المشابهة، مثل قتل أحد شيوخ العربان، أو قتل أحد أبنائهم سببا لثورة العربان، وقيامهم بأعمال التخريب. وقد حدث ذلك في جمادى الآخرة عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، عندما "حضر قانصوه العادلي كاشف الشرقية وصحبه شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمي صالح، وهو من بني حرام، فسلخ جلده وحشاه تبنا، وأركبوه علي فرسه، وألبسه زمطه علي رأسه وكبرة حرير. وكان شابا جميل الهيئة، فتأسف عليه الناس، فلما أعرضه علي السلطان شق ذلك عليه، ولم يكن يرسم

بسلخه قبل ذلك، فلما جري ذلك ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية فساح علي الأرض في غير مستحقه وكان ذلك ليالي الوفاء"[٤٣].

وقد استغل العربان الأخطار الخارجية التي تعرضت لها دولة المماليك، وحاولوا الإفادة من انشغال المماليك بتلك الأخطار في الخروج علي الدولة، والسيطرة علي الأقاليم المصرية. مثلما حدث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، عندما هزم غازان المماليك في بلاد الشام فيذكر النويري "واشتد طمعهم إثر وقعة غازان"[٤٤]. وفي عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، كثر في هذه الأيام فساد العربان علي غالب البلاد القبلية والبحرية حتى أخربوها وكذلك غالب البحيرة، وذلك لاشتغال السلطان(قايتباي) بتجهيز العساكر وتكفيتهم بالنفقة لأجل شاه سوار[٤٥].

ونلاحظ أن دولة المماليك الأولي(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) قد شهدت ثلاث ثورات عربية كبري، وكان مركزها الصعيد:الأولي ثورة الشريف حصن الدوين بن ثعلب عام ٦٥١هـ/١١٢٥٣م[٤٦]. والثانية ثورة عام ٧٠١هـ/١٣٠١م. ولم تذكر المصادر المعاصرة أسماء من قاموا بها ولكنها ذكرت أن بعض أمراء العرب تسموا بأسماء أمراء المماليك [٤٧]. والثالثة كانت عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م بزعامة محمد بن واصل المعروف بالأحدب، من قبيلة عرك بالصعيد، وذلك في عهد الملك الصالح صالح[٤٨].

وفي عصر دولة المماليك الثانية(٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) شملت ثورات العربان جميع أقاليم مصر، وبخاصة البحيرة والشرقية مع استمرارها في الصعيد، فلا يمر عام إلا ويخرج العربان علي الدولة في أحد أقاليم . وكان أكثر هذه الثورات فردية، وليست جماعية، مما سهل القضاء عليها من قبل المماليك الذين تميزوا بالبراعة القتالية[٤٩]

الوسائل التي استخدمها المماليك تجاه ثورات العربان:

وقد قابلت دولة المماليك تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي دمرت البلاد التي مرت بها. واستمرت الصراعات بين العربان والسلطات المملوكية حتى سقوط دولة المماليك. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعددت أساليب القتل من التوسيط[٥٠] والتسمير[٥١] والعصر[٥٢] ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلي، وسبى النساء ومصادرة الأموال[٥٣]

ولتبرير ذلك : لجأت السلطات المملوكية إلي استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتال هؤلاء العربان، علي اعتبار أنهم "مفسدون" و"خارجون علي الطاعة" تجب محاربتهم، ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أحضر السلطان القضاة والفقهاء، واستفتاهم في

قتال العربان، فأفتوا بجواز ذلك(٥٤). وكان المماليك يستخدمون هذه الفتوى سنداً شرعياً يبررون به أعمالهم الانتقامية ضد هؤلاء العربان والتي وصلت للإبادة الجماعية.

فضلاً عن ذلك حرص المماليك في حملاتهم ضد العربان على أن يسبوا النساء الحرائر انتقاما منهم، بالرغم من تعارض هذا العمل مع الشرع الإسلامي الذي لا يبيح استرقاق المسلمات(٥٥) فبعد أن قضى المماليك على ثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قاموا بسبي نساء العرب "فحووا من الأسلاب والنسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشي ما عجزوا عن ضبطه، وعندما هزم المماليك عرب الغربية والمنوفية، من قبيلتي سنبس ولواتة(٥٦)" أوقعوا بهم وسبوا حريمهم، وقتلوا الرجال"(٥٧)، وبعد هزيمة ابن الأحدب في الصعيد عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م على يد الأمير شيخو والمماليك "سبوا حريمهم وأولادهم، فاسترقوا كثيرا منهم، وصار إلى الأجناد والغلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عددا كثيرا بالقاهرة بعد عودهم"(٥٨)

كما قام المماليك، في عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، بعد هزيمة بدر بن سلام بإقليم البحيرة، بـأن "أسروا من أولادهم ونسائهم ما لا يحصي وقبضوا على أولاد بدر بن سلام، ونسائه وبناته، وغير ذلك من بنات ونساء"(٥٩).

ولم يقتصر الأمر على عربان الوجه البحري، بل شمل عربان الوجه القبلي، ففي عام ٨١٦هـ/١٤١٣م قدم الأمير فخر الدين الاستادار من الصعيد، وأحضر من العبيد والإماء والحرائر اللاتي استرقهن، ثم وهب منهن وباع باقيهن وسلب النساء حليهن وكسوتهن، بحيث لا يسير عنها إلى غيرها حتى يتركها أوحش من بطن حمار(٦٠).

وكرر هذا الأمير الفعل نفسه، في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، عندما قدم من الصعيد ومعه "عدة بنات من أهل الصعيد استرقهن بعد الحرية، ففرق من خيارهن طائفة على الأعيان وطئوهن ــ على زعمهم ــ بملك اليمين، واختار لنفسه طائفة، وباع باقيهن مع ما جلبه من العبيد(٦١).

وكذلك فعل الأمير آقبردي الدوادار(٦٢) في عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، عندما رجع من الصعيد منتصرا على العرب الحامدة" فقتل منهم ما لا يحصى، وأسر نساءهم وأولادهم، وبعث بهم إلى مصر، فباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج"(٦٣)

ولجأ المماليك إلى سياسة تقديم أصاغر أمراء العربان على أكابرهم ، وكانت تهدف هذه السياسة إلى بث الخلافات داخل القبائل العربية وإشغالها بصراعات عربية – عربية بدلا من أن يتطلعوا إلى السيادة على المماليك(٦٤). وهي سياسة فرق تسد بين العربان، أو ما يعرف بـ"عرب الطاعة "و"عرب المعصية "، واستخدام ما يعرف بـ"عرب الطاعة " في قتال عرب المعصية في مقابل جعلهم أمراء للعرب في هذه الأقاليم، ومنحهم بعض الاقطاعات.

وبدت ثورات البدو، شبة الدائمة أحيانا، خطيرة، ولكن المماليك استطاعوا دائما التغلب عليها، ويرجع السبب في إخفاق هذه الثورات إلى الطبيعة المتنافرة، ومصالحها

المتناقضة إلي حد ما، فبعضهم ما زال في طور التنقل، بينما كان البعض الآخر نصف مستوطن، ومجموعة ثالثة مؤلفة من الفلاحين الذين أبقوا علي تنظيمات أسلافهم العشائرية[٦٥].

كما اضطرت السلطات المملوكية، إزاء ثورات العربان، إلي استحداث بعض الوظائف العسكرية، مثل نيابة الوجه القبلي" و"نيابة الوجه البحري. فقد كثرت الاضطرابات التي أحدثها العربان في الصعيد، ووصل الأمر إلي قتل كاشف الوجه القبلي، وقطع الطريق علي التجار والمسافرين، كما كان لدي الدولة رغبة في إحكام السيطرة علي أعمال الوجه القبلي، ووضعه في قبضة قوية. خاصة وأن هذه الفترة اتسمت بضعف شخصية سلاطين المماليك من أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، ولقلة مهابة شخصية الكشاف والولاة [٦٦] فقد استحدثت السلطات المملوكية وظيفة جديدة وهي نيابة الوجه القبلي، ويعرف صاحبها بـ"نائب الوجه القبلي"[٦٧]. الذي كان له الإشراف علي شئون الوجه القبلي من الجيزة شمالا حتى أسوان جنوبا، وقد اتخذ من مدينة أسيوط مقرا له[٦٨] وكان له نائب يتخذ من مدينة أخميم مقرا له[٦٩].

وقد أوضحت الوثائق المملوكية الواجبات الملقاة علي عاتق نائب الوجه القبلي، فكان عليه " ألا يمكن أحداً من العرب، ولا الفلاحين أن يركب فرسا، ولا يمكنهم من حمل السلاح ولا ابتياعه، ولا استعارته ولا استيداعه، لأنه يعده للخروج علي الدولة، وعلي ذلك فقد وجب علي نائب الوجه القبلي تحذير هؤلاء العرب من مخالفة هذه الأوامر وإلا تعرضوا للقتل من جانب الدولة"[٧٠]

وكذلك أدت ثورات العربان بالوجه البحري، وبخاصة في إقليم البحيرة، إلي استحداث وظيفة نائب للوجه البحري. وله من المهام ما لنائب الوجه القبلي[٧١]

كما لجأت السلطات المملوكية، لكبح جماح العربان والقضاء علي عصيانهم إلي تعيين حكام إداريين للأقاليم يتصفون بالقسوة والشدة، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) عندما عين كاشفا لإقليم الشرقية قال له: " أريد منك أن تعمل عملاً أرضي به عنك في أهل الشرقية، وأكبرك بعدها، فقال له: "علي أن أرضيك واسخط الله تعالي، فخلع عليه وركب إلي بلبيس، وشرع في كبس أهلها وبلادها، وابتدأ مهمته بقتل ستين شخصا، وادعي أنهم من المفسدين، وأمعن في قتل الناس، حتى قيل:"إن الرطب الذي يأتي من بلبيس لا يأكله أحد لا في الشرقية ولا في غيرها من كثرة الطير الذي يقف علي جثث الموسطين ثم يطير علي النخل"[٧٢]

أثر ثورات العربان علي الاقتصاد المصري:

ترك الصراع بين العربان والمماليك أثره علي جميع أوجه النشاط الاقتصادي في مصر وقتئذ، سواء علي النشاط الزراعي أو الصناعي أو التجاري.

أثر ثورات العربان علي الإنتاج الزراعي:

تعد الزراعة الحرفة الرئيسية للسواد الأعظم من الشعب المصري، فضلاً أنها المصدر الرئيس للثروة في مصر، عبر تاريخها، بصفة عامة، وعصر سلاطين المماليك بصفة خاصة لأنها المورد الأساسي لنظام الإقطاع الحربي الذي تقوم عليه دولة المماليك[٧٣]. وقد تركت ثورات العربان أثرها السلبي علي الإنتاج الزراعي، حيث دمرت الزراعات، وآلات الري كالسواقي[٧٤] والدواليب، وقتلت الأبقار التي تقوم بإدارتها [٧٥]. مثلما حدث في عام٨٤٢هـ/١٤٣٨م، عندما قام عربان الصعيد بـ "هدم الدواليب" [٧٦].

كما لجأ العربان إلي منع مياه الري من الوصول إلي الأرض الزراعية الأمر الذي يمنع زراعتها. من ذلك ما حدث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عندما قام عربان الفيوم فقطعوا المياه، حتى شرق أكثر بلاد الفيوم[٧٧]

كذلك قام العربان بقطع الجسور[٧٨] التي تحمي الأرض الزراعية من الغرق، مما تسبب في غرق الأرض المزروعة، وبالتالي عدم زراعة الأرض، أو غرق الزرع، أو غرق الجرون. وذلك كما حدث، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٢م، من قيام "عرب منفلوط والمراغة وغيرهم وقطعوا بعض الجسور بالأشمونين" [٧٩]. ومثلما حدث في عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م من قيام عربان الشرقية بقطع جسر سنيت[٨٠] والحلفاية علي الجرون حتى غرقت، وكان النيل قد أشرف علي الوفاء، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل وتوقف النيل عن الزيادة، لأجل المقاطع التي قطعت عليه "[٨١]. وتكرر ذلك في عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م حيث " ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية بإقليم الشرقية فساح علي الأرض في غير مستحقه وكان ذلك ليالي الوفاء"[٨٢].

فضلاً عن ذلك فقد اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة الفيضان- عندما تكسو مياه النيل أراضي الحياض- فيصبحون في مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم، وعندئذ يغيرون علي القرى، فيذبحون الفلاحين ذبح المواشي، ويستولون علي كل ما تصل إليه أيديهم من غلال وحيوانات[٨٣]

ولجأ العربان أيضا إلي إحراق جرون الغلة، كي يحرموا المماليك من الحصول علي الغلال. وقد ذكر ابن إياس في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م: "ولما وقعت الفتن بمصر بين الأتراك، وقعت الفتن أيضا بين العربان، وأحرقوا القمح والشعير وهو في الجرون، ونهب عدة بلاد، فوقع الغلاء بالديار المصرية وانتهي سعر القمح إلي ألف درهم كل إردب، واستمر علي ذلك مدة طويلة"[٨٤]

وقام العربان بالاستيلاء علي الغلال الموجودة في الجرون[٨٥] ونهبها. مثلما حدث في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، حيث "كثر عبث العربان بأرض مصر، وكثر سفكهم للدماء ونهب الغلال من الأجران، مع هيف الغلة"[٨٦]. وفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م قتل العربان كاشف الوجه القبلي وشنوا الغارات علي البلاد، وأمعنوا في نهب الغلال وقطع الطرقات[٨٧]

وكذلك قام عربان الوجه القبلي في عام٧٥٢هـ/١٣٥١م بنهب الغلال، ومعاصر السكر وكبس البلاد وكثرت حروبهم وشرورهم وأذاهم[٨٨].

وقام الأحدب شيخ قبيلة عرك في الصعيد، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م، بالثورة ضد المماليك فكان يأتي في زمن الغلال فيغير بمن معه علي أطراف البلاد، فيأخذ ما يحتاج إليه من الغلال والميرة وغيرها، قهراً من أيدي الفلاحين وغيرهم، وعجز الولاة عن مقاومته[٨٩] ونهب الغلال من الجرون[٩٠].

كذلك أشارت المصادر المعاصرة، في حوادث عام ٧٨٠هـ/١٣٨٢م، إلي خروج عربان البحيرة عن الطاعة وأنهم "نهبوا الجرون"[٩١] وهو ما تكرر في عام ٧٨٢هـ/١٣٨٤م حيث قدمت الأخبار من البحيرة، بأن سائر قبائل العربان تحالفوا علي العصيان، وخرجوا عن الطاعة، ونهبوا المغل من البلاد[٩٢].

كما ذكر ابن تغري بردي، في حوادث عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، حادثة وقعت في قرية قليب أبيار[٩٣]، حيث نزل بدوي إلي أحد الجرون ليأخذ ما فيه من الغلال، وعندما حاول الفلاح منعه، استل سكيناً وحاول ذبحه، ففر الفلاح " فتبعه البدوي وبيده السلاح ليتم قتله حتى دخل داره فألقي الفلاح نفسه من داره إلي دار أخري، وسار إلي النحرارية، فلما علم البدو أنهفاته، عاد إلي جهة جرن الفلاح ونادي بأعلى صوته: متي راح من هذا الجرن القدح الواحد نهبت جميع أجرانكم وتوجه ليأتي بما يحمل القمح، عليه ثم عاد بعد ساعة وأخذ جميع ما بالجرن بتمامه وكماله واختلف في مقداره فقيل ثلاثون إردباً وقيل ستة عشر، وقيل أزيد من عشرين، واستولي عليه ولم يتنطح في ذلك شأتان فهذا نوع من أفعال العربان بالغربية والمنوفية وقس علي هذا، مع قلة محصول الزرع بسائر الوجه البحري لاسيما القمح فإنه في غاية الخس"[٩٤].

وقد أدي الصراع بين العربان والمماليك إلي فقد الأيدي العاملة في الزراعة؛ المتمثلة في الفلاحين الذين كانوا وقود هذا الصراع، حيث قتل من الفلاحين عدد كبير، وبالتالي خراب البلاد المصرية. ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م صدرت الأوامر لأمراء المماليك بوضع :" السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ويحتاطوا علي سائر الأموال" [٩٥] فأحاطوا ببلاد الصعيد وطرقوه علي حين غفلة من أهله، ووضعوا السيف من الجيزة بالبر الغربي والاطفيحية من الشرقي، فلم يتركوا أحدا إلا قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبوا حريمه، وإذا أمسكوا رجلا يريدون قتله " فيقول الرجل حضري، فيقولون له: قل (دقيق) فإذا قالها (دكيك) يقتلونه، وإذا قال (دقيق) يتركونه "فضلا عمن أسروه في تلك الحملة من العربان المستفلحين الذين يقدرون بنحو ألف وستمائة أسير لهم فلاحات وزروع. وقد نزلت كارثة كبري ببلاد الصعيد من جراء هذه الثورة، حتى "خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحدا، وينزل القرية فلا يري إلا النساء والصبيان"[٩٦].

ومن ذلك ما أشار إليه ابن إياس في حوادث عام ٩٢١هـ/١٥١٥م من أن الأمير قاني باي قرا توجه إلي جهات الشرقية بسبب فساد العربان، فكان إذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه علي أقدامه، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان العصاة(٩٧).

كذلك أدي هذا الصراع إلي هجرة كثير من أهل البلاد من الفلاحين إلي القاهرة كمتسولين في شوارعها للحصول علي لقمة العيش، أو لصوص ومنسر يقومون بأعمال السرقة. وكانت تصدر الأوامر من السلطات المملوكية برجوع أهل الريف من الفلاحين والعربان إلي بلادهم، مثلما حدث في عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، حيث نودي في القاهرة "بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر إلي بلادهم فلم يعمل بذلك "(٩٨)

وقد أشارت المصادر المعاصرة، في عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م، إلي أن " أن كثيرا من أهل الأرياف والقرى ومن الأعراب تزاحموا بالديار المصرية(٩٩) و"قاست الناس في هذه الأيام من البلاء والشدائد والغلاء والجهد ما لا مزيد عليه، واتضع جانب أهل الديار المصرية رئيسها ووضيعها، بل أشرفت القاهرة علي الخراب، ونزح عنها خلائق من أهلها لا تدخل تحت الحصر إلي البلاد الشامية، وورد عليها من أهل القرى ومن الأعراب أمثال من خرج منها، وكثرت الفقراء منهم بالقاهرة حتى صاروا فوجاً فوجاً في الطرقات، ومات منهم خلائق كثيرة من شدة القحط "(١٠٠) وهؤلاء عرفوا بـ"الحرافيش" و "الزعر" و "زعر العامة"(١٠١) فكانت تأمر السلطات بإعادتهم إلي بلادهم، كما كانت ترجع الفلاحين الأسري إلي بلادهم ليس بروح العطف والتي نزعت من قلوب المماليك بقدر خوفهم من بوار الأرض الزراعية فيقل المحصول وبالتالي يقل دخل المماليك(١٠٢)، وقد علق الأسدي علي وضع فلاحي مصر بين العربان والمماليك بقوله:

"وصارت الفلاحين قفا بين اثنين لا يستطيعون أن يرضوا الجهتين فأهل الدولة أمامهم يطلبون منهم ما لهم وما ليس لهم، والعرب المحاربون من خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، لا يسعهم لكل أحد إلا الطاعة والإكرام، واستمر عليهم هذا الحال وطال ودام وخاض شهرا وعام، وتسحب أيضا من تسبب وخالط الأقوام، وبقي بعد ذلك من اضطر إلي الإقامة علي الدوام، وآل الحال إلي أن غلب القوي الضعيف وضاع الملهوف، وضعف حال البلاد وتزايد الخراب(١٠٣)" وأصبح حال الفلاح " كأنه عند بعضهم أسير ذليل حقير لا بال له عندهم ولا روح "(١٠٤).

أثر ثورات العربان علي الثروة الحيوانية:

أثر الصراع بين المماليك والعربان علي الثروة الحيوانية الموجودة في مصر، والتي أصبحت مصدراً رئيساً للمماليك للحصول علي الحيوانات وخاصة الخيل، إذ عمد المماليك إلي تقليم أظافر هذه القبائل بالاستيلاء علي كل ما تملك من الثروة الحيوانية. مثلما حدث في عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م حيث سار نائب السلطنة الأمير طرنطاي(١٠٥) إلي

بلاد الصعيد فقتل جماعة من العربان، وحرق كثيرا منهم بالنار، وأخذ خيولا كثيرة وسلاحا ورهائن من أكابرهم. وعاد بمائة ألف رأس من الغنم، وألف ومائتي فرس، وألف جمل وسلاح لا يقع عليه حصر"[١٠٦].

كما خرج الأمير سنقر الأعسر إلي الصعيد، في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وأخذ سائر الخيول التي ببلاد الصعيد، فلم يدع بها فرساً لفلاح ولا بدوي ولا قاض ولا فقيه ولا كاتب، وتتبع السلاح الذي مع الفلاحين والعربان فأخذه عن آخره، وأخذ الجمال. وعاد من قوص إلى القاهرة، ومعه ألف وستون فرساً، وثمانمائة وسبعون جملاً، وألف وستمائة رمح، وألف ومائتا سيف، وسبعمائة درقة، وستة آلاف رأس من الغنم، فسكن ما كان بالبلاد من الشر، وذلت الفلاحون، وأعطوا الخراج[١٠٧].

كذلك استولي المماليك من العربان، في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، حسب رواية النويري، على "خمسة آلاف فرس وعشرين ألف جمل ومائة ألف رأس من الغنم وعدة كثيرة من الأبقار والجواميس والحمر ومن السيوف والرماح عدة كثيرة"[١٠٨]

ويلاحظ أن المماليك عند تنفيذهم للمصادرة حرصوا علي إيقاع الحوطة علي الخيول، لأنها كانت ذات أهمية كبري في هذا الزمان، سواء في وسائل المواصلات أو الحرب أو التدريبات العسكرية أو الرياضية[١٠٩].

فقد استغل المماليك الصراعات التي كانت تنشب بين العربان، وتتدخل للقضاء عليهم والاستيلاء علي أملاكهم، ففي عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقع عداء بين عرب بني صورة بالمنوفية فاستغل المماليك ذلك فاستولوا علي خيلهم وسلاحهم[١١٠]، وعندما نشب قتال بين قبيلتي جابر ومرديش بإقليم البحيرة، في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ووصل الخبر إلي السلطات المملوكية قامت بتجهيز حملة عسكرية ضدهم، وذلك "لإخماد فتنتهم، وإطفاء جمرتهم وردع المعتدين منهم " فيذكر بيبرس الدوادار" فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام" [١١١] "وغنموا منهم جمالاً وخيلاً وأغناماً، وأسروا نساءهم"[١١٢]

وفي عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م كبست بلاد الجيزة، بعد ما كتب لمتوليها ومشايخها وأرباب أدراكها أنهم لا يخفون أحداً من العرب، ولا من أولادهم ونسائهم، فأخذ الصالح والطالح. وقبض الأمراء على الخيول والسيوف، حتى لم يبق ببلاد الجيزة فرس ولا سيف، وأحضروا أصحابها إلى الوطاق. واستدعى الوالي ومشايخ العربان وعرضت الخيول، فمن عرف فرسه من الفلاحين رسم له ببيعها في سوق الخيل تحت القلعة، وحمل ثمنها إلى الديوان مما عليه من الخراج. ورسم بمثل ذلك فيما يحضر من خيول فلاحي بقية النواحي، أي أن الفلاح يبيعها ويورد ثمنها فيما عليه من الخراج، إما للأمير أو للجندي. فامتثل ذلك وعمل به، وسيقت خيول المفسدين، ومن لم يعرف له صاحب حمل إلى إصطبل السلطان[١١٣]. وأخذ منها المفسدين، فوسط وسمر جماعات منهم، وسير إلى القاهرة مائة وخمسين رجلاً في الحديد، ومائة وعشرين فرساً، وسلاحاً كثيراً. وأرسل متولي البحيرة من خيل عربها ستمائة وأربعين فرساً، فلم يتأخر في

الوجه البحري فرس واحد من خيول العربان. ورسم لقضاة البر وعدوله بركوب البغال والأكاديش[١١٤]. وحازوا من الخيل والسلاح شيئاً كثيراً[١١٥]، وصار بمال كثير ما بين مواشي وقماش، وحلي ونقود، وعروض وأقوات، وأزواد وروايا ماء. وسبوا حريمهم، فاسترقوا كثيراً منه، وصار إلى الأجناد والغلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عدداً كثيراً بالقاهرة، بعد عودهم[١١٦]. وعرضت الدواب، فكانت ألفا وثلاثمائة فرس، وألفا وخمسمائة جمل، وسبعمائة حمار، وأغناماً كثيرة، سوى ما نهبه العبيد وأكلوه. وعرض السلاح، فكان مائة حمل رماح، وثمانين حمل سيوف، وثلاثين حمل درق[١١٧].

وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م "سار الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري إلي الصعيد، ليحضر الخيل والجمال والرقيق وغير ذلك من العربان وأهل البلاد [١١٨]. ناهيك عن منع العربان من دخول القاهرة راكبين الخيل، ومن ذلك ما حدث عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م من النداء " بأن أحداً من العربان لا يدخل القاهرة راكباً، ومن وُجد راكباً بعد اليوم أخذ فرسه"[١١٩] وكان للحملات المملوكية ضد العربان أثرها السلبي في خراب الريف المصري.

أثر ثورات العربان علي الإنتاج الصناعي:

وكان لهذا الصراع أثر ظاهر علي الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر، فقد نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها، ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر. ففي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م قام أحد زعماء العربان، يسمي ابن الأحدب، بالاستيلاء علي المعاصر والسواقي، ونهب حواصل المعاصر والقنود والسكر والاعسال وذبح الأبقار التي تدير هذه المعاصر"[١٢٠]

كما هجم عدة من العربان، في عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م " علي الصناع الذين يعملون في صناعة الجبس بجبل المقطم، فحصل منهم تقاتل، وعلت العرب وقتلوا بعضاً من الجباسة، وسلبوا الباقين بعد أن تعطبوا بجراح ونحوها [١٢١]

أثر ثورات العربان علي التجارة الداخلية:

وأثرت ثورات العربان علي التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء علي المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلي القاهرة، وبالتالي ارتفعت أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية، مثل اللحوم والغلال والبقول[١٢٢]. فقد ذكرت المصادر التاريخية في حوادث عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م أن " العربان بالوجه القبلي تعرضوا إلي الفساد وقطع الطرقات وقتلوا بعض الوكلاء وخرجوا عن الواجب"[١٢٣]

وذكر العيني في حوادث عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أن عربان الصعيد "قطعوا الطريق، وأوغلوا إلي أن كانوا يدخلون مدينة أسيوط ومنفلوط ويتقسمون تجارها، ويأخذون من كل واحد مبلغا علي زي الجالية [١٢٤]" وهو ما يؤكده ابن تغري بردي بقوله: "وتعدى شرهم في قطع الطريق إلي أن فرضوا علي التجار وأرباب المعايش

بأسيوط ومنفلوط فرائض جبوها شبه الجالية (١٢٥) وكانت أسيوط تمثل مركزاً مهماً من مراكز التجارة علي نهر النيل، حيث كانت بداية طريق درب الأربعين(١٢٦) المار بالواحات إلي دارفور ومنها إلي الممالك الإسلامية في وسط وغرب إفريقيا(١٢٧). وذكر المقريزي في حوادث عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م أن عربان الصعيد "اقتتلوا وقطعوا الطريق"(١٢٨)، وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م "قدم الخبر بكثرة حشود العربان بالصعيد وبلاد الفيوم، وشدة فسادهم، وتعذر السفر من قطعهم الطرقات علي المسافرين" (١٢٩)

ولم يقتصر قطع العربان للطرق علي الصعيد، فقد قام عربان الوجه البحري بالدور نفسه، ففي عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م هاجم بدر بن سلام مدينة دمنهور قاعدة أعمال البحيرة، ففتك فتكا ذريعا في دمنهور، ونهب أسواقها، وأخرب بيوتها، وقتل جماعة من أهلها(١٣٠).

كما ذكر ابن الفرات، في حوادث عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م، قيام عرب الزهور بالوجه البحري بقطع الطريق علي المسافرين وأخذ أموالهم(١٣١)، فقد "كانوا يقطعوا الطريق بالشرقية وحصل للناس منهم ضرر عظيم(١٣٢)

كذلك اعتدي بنو حرام علي أهل الخانكة، في عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م، "وفرضوا علي دُور الخانكة وحوانيتها قدراً معلوما من المال، وجبوا منه نحوا من ثلاثمائة دينار وستين دينار، وهددوا الناس إن رفعوا حالهم إلي السلطان بالنهب والقتل(١٣٣) وهو ما أكده ابن الصيرفي من أن أهل الخانكاه شكوا " ما نزل بهم من عرب بني حرام، فإنهم أخذوا من كل دار شيئاً معلوماً، ومن كل حانوت كذلك، ومن كل معصرة كذلك، ومن كل طاحون، وجاء ما أخذوه من أهل الخانكاه نحواً من ثلاثمائة دينار وستين ديناراً، وشاع هذا وتواتر، وصاروا في وجل، فإنهم هددوهم أنهم إن شكوهم للسلطان ينهبونهم ويقتلونهم(١٣٤).

وفي المقابل جردت السلطات المملوكية حملة عسكرية ضدهم، وكان من خطتهم أن يمنع سائر المسافرين في البر والبحر، ومن خرج من مصر كان عقابه الشنق؛ وذلك منعا لوصول أية أخبار عن هذه التجريدة إلي العربان(١٣٥)، وبالتالي كان للمماليك أيضا دور في التأثير السلبي علي طرق التجارة البرية والنهرية في الوجه القبلي.

أثر ثورات العربان علي الملاحة في نهر النيل:

يعد نهر النيل شريان الحياة في مصر عبر تاريخها، وكان له دوره في حركة التجارة بين شطري مصر، الوجه القبلي والوجه البحري، وربطهما بعاصمة البلاد(١٣٦)، وقد كان لثورات العربان وبخاصة في الصعيد، دورها في شل حركة التجارة في نهر النيل، سواء كانت تجارة داخلية من مدن وقري مصر إلي العاصمة، أو تجارة خارجية استخدمت النيل طريقاً للوصول إلي خارج مصر كتجارة الكارم

فلم يعد نهر النيل طريقا مأمونة للتجارة والسفن التي تحمل البضائع في كل الأحوال، إذ كثيراً ما هاجم العربان المراكب والسفن النيلية التي تحمل الغلال وغيرها من البضائع واستولوا علي ما بها، ومن الطبيعي في تلك الأحوال أن يتخوف التجار من جلب تجارتهم إلي القاهرة[١٣٧]. وحدث في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م أن ثار العربان بالصعيد " وقطعوا الطريق برا وبحرا، فامتنع التجار وغيرهم من السفر"[١٣٨]، كما قام عربان الصعيد في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م "بقطع الطريق، وأخذوا بعض مراكب المغل(الغلال) القادمة من الصعيد، ونهبوا ما فيها، ثم يحرقون المراكب، مما جعل أسعار القمح وبقية الغلال ترتفع في القاهرة[١٣٩].

وقد أشار ابن إياس في حوادث عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م إلي وقوع" فتنة كبيرة بين بني حرام وبني وائل، وكثر الفساد من العربان بالشرقية، حتي امتنع مرور الناس من الأسفار إلي الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين[١٤٠] بل وتزايد الأمر أن هجم العربان من بني حرام وبني وائل علي القاهرة حتى وصلوا إلي رأس خط الحسينية، ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس[١٤١]. كما ذكر في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، امتناع الناس من الأسفار إلي الشرقية والغربية لتزايد فساد العربان في الطرقات[١٤٢].

وذكر ابن إياس أيضا في حوادث عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م " أن العربان بالشرقية قد قطعوا الطريق علي القفل الذي جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه، وكان فيه حمل مال للسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ[١٤٣].

أثر ثورات العربان علي التجارة الخارجية:

لم يقف دور العربان في التأثير علي طرق التجارة الداخلية، بل تجاوزها إلي طرق التجارة التي تربط مصر بالعالم الخارجي، مثل الطريق من عيذاب إلي قوص[١٤٤]، فقد كان تجار الكارم يعبرون الصحراء من عيذاب إلي قوص، أومن عيذاب إلي أسوان[١٤٥] علي ظهور الإبل، ثم يركبون النيل إلي ساحل مصر والفسطاط. كان هؤلاء التجار يلجأون إلي أدلاء القوافل الذين لا يضلون، ويعرفون الطريق بعلامات لا يدركها غيرهم، ويعرفون موارد الماء وأنواعها، وقد قاسي تجار الكارم كثيراً علي يد هؤلاء الأدلاء الذين كانوا يرغمون التجار علي دفع مبلغ يسمونه الجمالة(العادة) بالإضافة إلي الأجر الكبير الذي يتقاضونه[١٤٦].

كما هاجم العربان القوافل التجارية بين عيذاب وقوص ونهبوها، ومن ثم فقدت عيذاب مكانتها التجارية[١٤٧]، مما أدي إلي ازدياد نفوذ البدو في الصحراء الشرقية إلي أن قضي نهائيا علي الطريق البري التجاري[١٤٨]، وذلك لعجز المماليك عن تأمين قوافل الكارم، وتحول النشاط التجاري إلي ميناء الطور علي خليج السويس، وتحولت سياستهم إلي تأمين الطريق البحري الجديد[١٤٩]. أما السبب الرئيس الذي أدي إلي ضعف هذا

الطريق؛ فهو تقلص نفوذ مصر في المناطق الجنوبية، وزيادة عصبية البدو في تلك الطريق، وكثرة فسادهم، فقد عبروا الصحراء وهاجموا القوافل التجارية المتجهة من عيذاب إلي قوص، ونهبوها وقتلوا أصحابها[١٥٠] مما أثر علي تجارة الكارم[١٥١] التي كانت تمر عبر أراضيه[١٥٢]، لذا كان من الواجبات الملقاة علي عاتق نائب الوجه القبلي كما جاءت في مراسيم تعينه الاهتمام بتجار الكارم وإكرامهم؛ لأنهم " سمار كل نادي، رفاق كل ملاح وحادي، ولابد أن يتحدث السمار، وتتداول بينهم الأسمار، فأجعل شكرنا دأب ألسنتهم، ومتناحلية أعناقهم، ومنحنا سببا لاستجلاب رفاقهم، فهم من مواد الإرفاق، وجواد ما يحمل من طرق الآفاق"[١٥٣].

واعتدي عربان صحراء عيذاب، في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، علي رسل ملك اليمن، وأخذوا منهم الهدية واستولوا علي أموال التجار، مما جعل الملك الناصر يبعث حملة عسكرية لتأديبهم بقيادة الأمير علاء الدين مغلطاي[١٥٤]. وكرر عربان صحراء عيذاب نفس الفعل في عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، فاعتدوا علي رسل ملك اليمن والتجار، وأخذوا جميع ما معهم، فخرجت السلطات المملوكية حملة عسكرية لتأديبهم وصلت إلي سواكن وقد رجعت تلك الحملة في تاسع جمادى الآخرة عام ٧١٧هـ/١٣١٧م[١٥٥] كما قام العربان في عام ٧١٩هـ/١٣١٩م بالفساد في ثغر عيذاب وقتلوا الشاد المقيم به[١٥٦]

ومن الطرق التجارية التي تأثرت بثورات العربان، طريق مصر والنوبة، وتعد أسوان أهم مراكزها، وقد تعرضت لعمليات نهب وسلب من القبائل العربية، وبخاصة من بني الكنز[١٥٧]

وتأثر الطريق بين مصر والشام بثورات العربان أيضا، وقد اعتني سلاطين المماليك بتوفير الأمن فيه، ليكون السفر آمنا، فاهتم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) بتأمين هذه الطريق حتى " أن المرأة تسافر من القاهرة إلي الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاد ولا ماء "[١٥٨]. وكان عربان الشرقية يقومون بدرك هذا الطريق في خمس عشرة منزلة، من جهة مصر منزلة السعيدية وآخرها من جهة الشام منزلة رفح، وكانت عدتهم ألف وسبعمائة فارس لهم أخباز، وبعد الروك الناصري عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، تضرر العربان من اتساع الدرك، فحملت عنهم السلطنة منزلتين، وهما رفح والزعقة، وصار آخر أدراكهم منزلة تعرف بالخروبة[١٥٩]

وكان لثورات العربان أثرها السيئ علي حركة التجارة والمسافرين علي هذه الطريق. وضعفت الحركة التجارية بين مصر والشام منذ عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م، فقد كانت القوافل تحتاج إلي قوة عسكرية كي تحميها عند اجتيازها الصحراء من القاهرة إلي غزة خوفا من هجمات العربان[١٦٠]

ففي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م "كثر الفساد من العربان بالشرقية، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلي الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين"(١٦١)، وفي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م " كانت الطريق من قطيا(١٦٢) إلي القاهرة مخيفة بواسطة العربان المفسدين"(١٦٣) بحيث " لا يقدر واحد يمشي أقل من مائتي جمل أو أكثر، خوفا من العربان وفسادهم "(١٦٤).

وأدت زيادة غارات العربان في عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ(٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)، مع عوامل أخري، إلي حدوث أزمة اقتصادية وارتفاع الأسعار في القاهرة(١٦٥) فقد ذكر المقريزي في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أنه " في هذا الشهر تزايد ضرر قطاع الطريق في عامة أرض مصر، قبليها وبحريها، لخروج العربان عن الطاعة، وتعديهم علي المسافرين في البر والبحر، وقتل كثير من الناس فامتنع خروج الأجناد إلي النواحي، وعجزوا عن قبض مغلاتهم من قلة مهابة العربان للسلطنة، وقوة تجرئهم (١٦٦). وفي عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م كثر فساد لهانه وهواره ببلاد الصعيد، وقطعهم الطرقات علي المسافرين وشنهم الغارات علي البلاد، وإحراقهم عدة نواحي بما فيها"(١٦٧). وفي عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م كان العربان بإقليم الشرقية "يقطعون الطريق ويفسدون في الأرض"(١٦٨).

وأثرت ثورات العربان في الأسعار، فقد أدى انعدام الأمن في الطرقات إلي أن يمنع التجار من نقل بعض الأصناف، فشحت في الأسواق مع الاحتياج إليها، مما أدي إلي ارتفاع أسعارها. فقد ذكر عبد الباسط بن خليل، في حوادث عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م، أن "ارتفع سعر الغلال بمصر لشدة احتراق النيل وقلة مائه حتى تأخر حمل الغلال في المراكب، ولكثرة عبث عربان الوجه القبلي، وغيره، وسفكهم لدماء بعضهم البعض ولدماء الناس، ونهب الغلال من الأجران، مع هيف الغلة "(١٦٩)

كذلك كان العربان يستولوا علي المال الموجود في "بيوت المال" الموجودة في الأقاليم (الأعمال)(١٧٠). كما حدث في عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، إذ قام عرب الصعيد بالاستيلاء علي الأموال من بيوت المال، وجبوا الجزية من أهل الذمة في تلك الأعمال(١٧١).

أثر ثورات العربان علي نظام الإقطاع الحربي:

ولعل أهم آثار ثورات العربان علي الاقتصاد المصري، كان علي نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، وبلغ ذروته في العصر المملوكي(١٧٢) ويعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم، وكان الخراج عموماً المصدر الرئيس لدخل الدولة في عصر المماليك(١٧٣) ولأن الامتناع عن دفع الخراج يعني ضرب نظام الإقطاع في مقتل، وحرمان المقطعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء

والجنود، ومن ثم إضعاف الجيش المملوكي. وهذا ما حرص العربان عليه حتى يقضوا علي دولة المماليك[١٧٤].

فعندما ثار الشريف حصن الدين بن ثعلب، عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قال: "نحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج"[١٧٥]، وفي عام٧٠٠هـ/١٣٠٠م طمع العرب"في مغل الأمراء والجند، ومنعوا الحقوق، فأصلح تلك البلاد حتى أخذ الناس مغلهم كاملا"[١٧٦]. وأشار ابن ايبك الدوادار، في حوادث عام٧٠٠هـ/١٣٠٠م، إلي أن العربان " تسلطوا تسلطا عظيما حتى منعوا الجند والأمراء إقطاعاتهم وخراجاتهم بجميع الصعيد[١٧٧]، وأكد بيبرس الدوادار أنهم " منعوا الحقوق واعتمدوا العقوق. وقطع أراذلهم الطريق وهاشوا علي الأجناد، وثاروا في البلاد وأكثروا من الفساد" [١٧٨].

كما قام عربان الصعيد، في عام٧٠١هـ/١٣٠١م، "ومنعوا حقوق الجند والأمراء من المغل"[١٧٩] و"هاشوا على الأجناد"[١٨٠]، و"منعوا الخراج"[١٨١]. وذكر المقريزي في عام ٧٤٥هـ/١٣٤٦م أن عربان الفيوم "منعوا الخراج"[١٨٢] وعندما ثار عربان الصعيد بقياد الأحدب، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، " كسروا مغل الأمراء والأجناد "[١٨٣].

وهكذا صار الصراع بين العربان والمماليك نحو محاولة كل طرف حرمان الطرف الآخر من مصدر قوته، في بلد يعتمد اقتصاده علي الزراعة، فإذا كان الأيوبيون، ومن وراءهم المماليك، قد حرموا العربان من الاقطاعات سوي اقطاعات ضعيفة قليلة الدخل، وصاروا يسيطرون علي كل الأراضي المصرية عدا أرض الوقف وبعض الأملاك القليلة، فإن العربان حاولوا في كل ثوراتهم حرمان المماليك أيضا من هذه الإقطاعات، من خلال منع إيراداتها من الوصول للمماليك. ومن ناحية أخري حرص المماليك علي الانتقام من هؤلاء العربان أشد الانتقام وسلبهم كل ما يحوزون من أموال وغلال وحيوانات. وتمتلئ المصادر التاريخية المعاصرة بكثير من حوادث استيلاء أمراء المماليك علي ثروات العربان الصامتة والناطقة.

وحرص المماليك، عند إخراج التجريدات ضد العربان، على ألا تكون وقت حصاد المغل(الغلال) حرصاً عليه. وقد أشار المقريزي إلي ذلك في حوادث عام ٧٤٦هـ/١٣٤٧م" وفيه نافقت العربان بالوجه القبلي والفيوم، وكثرت حروبهم وقطعهم الطرقات فلم يمكن خروج العسكر إليهم، فإنه كان أوان المغل خوفاً عليه"[١٨٤].

أثر ثورات العربان علي نظام الوقف:

وتأثر نظام الوقف[١٨٥] بشدة، ومن المعلوم أن عصر سلاطين المماليك يعد العصر الذهبي للأوقاف، فقد خضعت له كثير من الأراضي الزراعية[١٨٦] التي تعرض لها العربان وقد حدث في عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م أن بني حرام[١٨٧] من قبائل العرب بإقليم الشرقية قاموا بنهب قرية "بلقس[١٨٨] مما جعل نقيب الأشراف يأخذ جماعة من الأشراف، وشكوا إلي السلطان أينال العلائي فقال: من فعل ذلك؟ فقالوا: قرية كذا، وقرية

كذا، وسموا له المفسدين، فلما طال سكوته، قال الأمير برديك الدويدار"[١٨٩]. اذهبوا، حتى يكشف السلطان عن هذا الأمر فانفصلوا علي ذلك"[١٩٠].

الخلاصة :

ويتضح لنا – مما سبق- أن العربان شكلوا شريحة اجتماعية متميزة في مصر، في عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية وقوص وأسيوط والأشمونين. وأن العربان حملوا راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك دون شرائح المجتمع المصري جميعها، بحيث تميز عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات وانتفاضات العربان ضد الدولة المملوكية، والتي تعد سمة بارزة من سمات العصر المملوكي.

وكشفت الدراسة تحيز المصادر التاريخية المعاصرة لوجهة نظر الدولة، واعتبرت ثورة العربان نوع من "الفساد" و"العبث " و"الفتنة" و"العصيان " و"النفاق". و" الخروج علي الطاعة" و "الأذى" و"الضرر".

وأوضحت الدراسة موقف السلطات المملوكية من ثورات العربان، حيث قابلت تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي تسببت في تدمير البلاد التي مرت بها. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعدد أساليب القتل من التوسيط والتسمير والعصر ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلي، وسبى النساء ومصادرة الأموال

وكشفت الدراسة عن لجوء السلطات المملوكية إلي استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتال هؤلاء العربان علي اعتبار أنهم "مفسدون "و"خارجون علي الطاعة "تجب محاربتهم، فأفتوهم بجواز ذلك. وكان الحصول علي هذه الفتوى سندا شرعيا يبرر الأعمال الانتقامية التي يقوم بها المماليك ضد هؤلاء العربان، والتي وصلت حد الإبادة الجماعية.

كما كشفت الدراسة عن أثار ثورات العربان السلبية علي الاقتصاد المصري وبخاصة الإنتاج الزراعي حيث تم تدمير الجسور وإغراق الأرض الزراعية بمياه الفيضان وتكسير آلات الري وحرق الغلال في الجرون.

كذلك كشفت الدراسة حجم الثروة الحيوانية الكبير وبخاصة من الخيول والإبل والأبقار والأغنام؛ التي تم الاستيلاء عليها من العربان، بحيث لم تستطع المصادر المعاصرة أن تمدنا بأرقامها لأنها تخرج عن الحصر.

فضلا عن ذلك فقد أثر هذا الصراع علي الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر حيث نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر

بالإضافة إلي ذلك فقد أثرت ثورات العربان علي التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء علي المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلي القاهرة وبالتالي ارتفاع أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية مثل اللحوم والغلال والبقول

كما أوضحت الدراسة أن تأثير ثورات العربان لم يقتصر علي التجارة الداخلية وطريقها، بل امتد تأثيرها إلي التجارة الخارجية وطرقها، سواء طريق عيذاب إلي قوص والخاص بتجارة الكارم، أو علي الطريق بين مصر والنوبة، أو علي الطريق بين مصر والشام مما ساهم في إضعاف التجارة الخارجية بالاشتراك مع السياسة الاحتكارية للمماليك، والحصار الاقتصادي من جانب الغرب الأوروبي، وحركة القرصنة علي الشواطئ المصرية، ومحاولة إيجاد طرق بديلة بعيداً عن سيطرة المماليك.

كذلك كان لثورات العربان تأثيرها علي نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، والذي بلغ ذروته في العصر المملوكي، وكان يعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم. كما كان الخراج يعد المصدر الأساسي لدخل الدولة في عصر المماليك، والامتناع عن دفع الخراج معناه ضرب نظام الإقطاع في مقتل وحرمان المقطعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء والجنود وبالتالي إضعاف الجيش المملوكي.

بالإضافة إلي ما سبق من تأثير ثورات العربان علي الاقتصاد المصري، فقد تأثر نظام الوقف الذي خضعت له كثير من الأراضي الزراعية، بسبب اعتداءات العربان من قتل الفلاحين، وغرق الأرض، ونهب الغلال، وبالتالي الأثر السيئ علي الجهات الموقوف عليها هذه الأراضي. كما أدي الصراع بين العربان والمماليك إلي تدمير البنية البشرية لسكان مصر في عصر كانت المجاعات والأوبئة بمثابة معول هدم لهذه البنية البشرية من ناحية أخري.

هوامش البحث

(1) إبراهيم أحمد زرقانه:"القبائل العربية في مصر عند المقريزي"، ضمن كتاب دراسات عن المقريزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص٨٥؛ أحمد مصطفى الصغير:المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨، ص٦٢.
انظر الخرائط الملحقة بالدراسة أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٤، ص٣٢٣.

(3) حبشي سيد نصر:المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٨٠، ص١٦.

(4) أوردت المصادر المعاصرة مصطلح الفساد بمشتقاته مثل "فساد العربان"، و"كثر فسادهم" و "أكثروا من الفساد" و"غاية الفساد" و"كثر فساد لهانة وهوارة" و"المفسدين" و"مفسدي العرب"و"العرب المفسدين" و"الأعراب المفسدين". ابن تيمية:السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، كتاب الهلال، عدد ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨١، ص٦٧؛ بيبرس الدوادار:زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، الطبعة الثانية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ج٩، ص٣٩١؛ النويري:نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢، ص١٦؛ ابن الفرات:تاريخ ابن الفرات، مج٩، ج٢، تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، ص٢٦٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٣٩٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩، ج٥، ص٤٥٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ص٣٥٢، ٦٠٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ج٣، ص٩١؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ج٤، ص١٧٣؛ ابن الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٢٨٦؛ عبد الباسط بن خليل:نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٢٩؛٢٢٨؛ ابن إياس:بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر، القاهرة، د. ت. ، ج١، ق١، ص٤٤٣؛ق٢، ص٣٨٨، ج٣، ص٣٤٦؛ج٤، ص٢٥٨، ٤٥١؛ ج٥، ص٤٧.

(5) مثل "عبث العربان"و "عبث عربان الوجه القبلي" و" قد كثر عبثهم وعظم فسادهم" و"فإنهم بالغوا في العتو والفساد". المقريزي: السلوك، ج٣، ص٦٣٨، ج٤، ص٦٧٨؛ ابن الصيرفي:نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، ص٢٣٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٤٤

(6) مثل"خمدت فتنة العرب" و "الفتنة الواقعة" و "وقوع الفتنة"، و"مال عربان الصعيد إلي الفتنة" و" كانت الفتن ونفاق العربان". ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص٥١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٤١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٤٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٤١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥١.

(7) مثل "عصيان الشريف حصن الدين بن ثعلب" و "تظاهر بالعصيان" و "أظهروا العصيان" و "كانوا يتجاهرون بالعصيان" و "كان قبل عصيانه" و "العربان العصاة" و " عصاة العربان" و"عصوا علي الولاة" و " ازدادوا عصيانا فوق عصيانهم" و "ما ظهر منهم من العصيان والنفاق والعدوان". زتيرسين: تاريخ سلاطين المماليك، ليدن، ١٩١٩، ص١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩١ ؛ التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٣٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٣٩؛ ج٣٢، ص١٦؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدي الأيام والشهور، ج١، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص١٢١؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٥٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٣؛ ابن إياس: بدائع، ج١، ق١، ص٥٥٠؛ ج٤، ص٢٥، ٩٦، ٢٥٦، ٤٥١

(8) وذلك مثل"تظاهروا بالنفاق والعصيان" و "فيه وصل الخبر بنفاق العربان بالوجه القبلي" و " نافق عربان الصعيد" و "نافقت العربان بالوجه القبلي والفيوم" و "نافقة العربان بالصعيد" و "أن العرب نافقوا" زتيرسين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩٩؛ التحفة الملوكية، ص٣٣؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٦٥٦، ٦٩٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٨

(9) فذكرت "خرجوا عن الطاعة" و "فيه خرج عربان الوجه القبلي عن الطاعة" و "العرب الخارجة عن الطاعة" المقريزي: السلوك، ج٢، ص٩٠٧؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٨٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٩٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٠٠ ؛ ق٢، ص٢٣٥.

(10) "وفيه كثر أذي عرب الأطفيحية وضررهم" عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٤.

(11) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٠.

(12) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢٠٠.

(13) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٧٥.

(14) الاحامدة: بطن من جرم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة وميم في الآخر) طيي من القحطانية. القلقشندى: نهاية الأرب، ص١٦٤؛ قلائد الجمان، ص٨٣-٨٤.

(15) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٣١٦.

(16) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٣؛ابن إياس: بدائع، ج٣، ص١٤٣.

(17) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢٢٧.

(18) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٦٠

(19) محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٦١.

(20) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦١؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطي، ص٢٦١.

(21) المقريزي:البيان والإعراب، ص٩.

(22) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٦؛ البيان والإعراب، ص٣٨. جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثاني العصران الأيوبي والمملوكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١١٧-١١٨؛ أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري، ص٦٢؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٤٣-١٤٤؛ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص٦٧-٦٨؛

Poliak (A. N.)," Les révoltes populaires en Egypte à l' époque des mamelouke ",Revue des Et. Islam,1934,pp. 251-273; Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à l'époque mamluke" ,Annales Islamologiques, (IFAO), XIV, PP. 147-163.

(23) القلقشندى: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٣٩.

(24) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٣.

(25) السيوطي:حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص٥٨.

(26) ابن فضل الله العمري:التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨، ص١٠٧-١٠٨.

(27) شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صهاج بن ملال الصنهاجي، أصله من قلعة حماد بالمغرب، ولد بدلاص إحدى قرى إقليم البهنسا وقرية تابعة لمركز ناصر – محافظة بني سويف الآن ، حيث كانت أمه من دلاص، وأبوه من أبو صير الملق – قرية تابعة لمركز الواسطى – محافظة بني سويف – لذا أطلق على نفسه الدلاصيري، واشتهر بالبوصيري، وانتقل إلى القاهرة، وتعاني صناعة الكتابة، وباشر ببلبيس بإقليم الشرقية، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وانضم إلى الطريقة الشاذلية وتتلمذ على يد أبو العباس المرسي خليفة أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية، وظل بالإسكندرية حيث وافته المنية بها في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م ومسجده مجاور لمسجد أبو العباس المرسي بميدان المساجد الآن ويعرف بالأباصيري، لمزيد من التفاصيل انظر :-

ابن أيبك الصفدي، الوافي، جـ٣ ، ص١٠٥-١١٣، رقم ١٠٤٥؛ المقريزي، المقفى الكبير، جـ٥، ص٦٦١-٦٦٩ رقم ٢٢٦٢؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، جـ٣، ص٣٦٢-٣٦٩، رقم ٤٥٦؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ٢، ص٦٢٢ رقم٢١٣٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٣٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١ ص٥٧٠؛ عبد اللطيف حمزة، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، ص١٠٤-١٠٥؛ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٧٤ .

(28) البوصيري: ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٥٥، ص١٣٨.

(29) مدح البوصيري المماليك بقوله:

ترك تزينت الدنيا بذكرهم فهم لها الحلي إن غلبوا وإن حضروا
حكت ظواهرهم حسنا بواطنهم فهم سواء أسروا القول أو جهروا
بيض الوجوه يجن الليل إن ركبوا إلى الوغى ويضيء الصبح إن سفروا

ديوان البوصيري، ص١٣٦؛حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، ص٣٤.

(30) محمود السيد:تاريخ القبائل العربية، ص٢٤٨.

(31) ابن الطوير:نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، بناء وتحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢، ص٨٦؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٧-٤٥٨؛السيد الباز العريني:الإقطاع الحربي، ص١٩.

(32) المقريزي:السلوك، ج١، ص٧٢؛ حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة،١٩٦٤،ص٢٩؛ محمد فتحي الشاعر: الشرقية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، ص٥١.

(33) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخران، القاهرة، ١٩٤٨، ص٥٤-٥٥.

---

(34) سنقر بن عبد الله الأعسر المنصوري قلاوون تولي الوزارة مرتين وتوفي عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. انظر: الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٨٨، رقم١٢٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٩٦-٩٨، رقم١١٢٤؛

Abd Ar-Raziq (Ahmad), ' Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks ', An. Isl. XVI, le Caire , 1980 . No. 20,22.

(35) ابن إياس:بدائع، ج١، ق١، ص٤٠٩.

(36) بيبرس الدوادار:زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٧٧.

(37) أحمد مختار العبادي:قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٢٩؛ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص١١٧.

(38) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤٢؛ عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب بسوهاج، ١٩٩٠، ص٤٨؛ ماهر أحمد مصطفي: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، الطبعة الأولي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٥٢.

(39) يشبك من مهدي الظاهري جقمق، تولي نيابة الوجه القبلي عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م وكانت له حروب مع عرب هوارة، وساعد الاشرف قايتباي في تولي السلطنة وأصبح الرجل الثاني في الدولة وله العديد من المنشآت المعمارية في القاهرة والإسكندرية، وقاد حملة عسكرية ضد القبائل التركمانية في شمال الفرات وقتل بمدينة الرها عام ٨٨٥هـ /١٤٨٠م. السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٢-٢٧٤، رقم١٠٧٧.

(40) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور، ج٣، ص٦٩٥؛ ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص٤٤-٤٥؛ عبد الباسط بن خليل الحنفي: نيل الأمل، ٦ نص٣٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك، ج١، ص١٥٣؛ ماهر أحمد مصطفي: صعيد مصر، ص٥٢.

(41) عيذاب: بالفتح ثم السكون، وذال، وآخره باء موحدة، بليدة علي بحر القلزم هي مرسي المراكب التي تقدم من عدن إلي الصعيد. عن أهمية ميناء عيذاب في خدمة التجارة. انظر:- ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٧١؛ أحمد دراج 'عيذاب '، مجلة نهضة أفريقية، السنة الأولي، العدد ٩، ١٠(يونيو – أغسطس)، ١٩٥٨؛ عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص١٢٨ – ١٣٠؛ حسنين محمد ربيع "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ١٠ – ١٥ مارس ١٩٧٩، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٠٥ – ١٢٣؛ بشير إبراهيم بشير، 'عيذاب حياتها الدينية والأدبية'، مجلة الدراسات السودانية، جامعة الخرطوم ، مج٥، ع٢، يوليو، ١٩٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص٣٩ –٨٠؛ رجب محمد عبد الحليم ، ' ميناء

عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م '، ندوة الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٢٧ - ٣٠٥.

(42) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٤٠.

(43) ابن إياس: بدائع، ج٤، ص٣٢٤-٣٢٥.

(44) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦.

(45) ابن الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء ، ص٩.

(46) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٢٧-٤٢٨؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٣٧؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٤٣-٢٤٤؛ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار قبائل العرب في القرنين السابع والثامن، تحقيق دورو تياكرا فولسكي، الطبعة الأولي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥، ص ١٦١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص١٠٨؛ أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص٤٧٧-٤٧٨؛ محمود محمد الحويري: مصرفي العصور الوسطي، دار عين، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٦١-٢٦٢؛ حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، ط. ٢، الكويت، ١٩٩٤، ص١٦؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام ، ص١٣٠ -١٣٢؛ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٨-١١٩؛ محمود محمد السيد: القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص١٣١-١٣٣؛ أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٧١ ؛

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, .fourth edition, London ,1925, pp.259-260

(47) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٤٧؛ مختار الأخبار، ص١١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٤٨؛

Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et .fellahs",P. 148

(48) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٣٩٤-٣٩٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٤٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩١٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥٠-٥٥١؛

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages,p. 320, Poliak (A. N.)," Les révoltes populaires en Egypte à l' .époque des mameloukeP. 260

(49) احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٧.

(50) التوسيط: وهو أن يعري الشخص من الثياب ويضرب بالسيف بقوة تحت السرة لينقسم إلي نصفين وتنهار أمعاء المحكوم عليه إلي الأرض. عاشور:العصر المماليكي، ص٤٢٤.

(51) التسمير: عقوبة تقضي بتعرية المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلي خشبتين علي شكل صليب، وتدق أعضاءه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ تربطه بالخشب. عاشور: العصر المماليكي، ص٤٢٣.

(52) العصر: وهو عقاب المذنب بآلة العصر المسماة المعصرة، وهي عبارة عن خشبتين مربوطتين ببعضهما ويوضع بينهما الجزء المراد عصره في المذنب ثم تشد الخشبتان بشدة فيؤدي ذلك إلي أضرار بالغة بالجلد والعظام المعصورة بينهما. دهمان:معجم الألفاظ التاريخية، ص١١٣؛ ماجد: نظم المماليك، ج١، ص١٣٤.

(53) احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٧؛ علاء طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٥٨.

وقد اثني البوصيري علي ما فعله المماليك بالعربان متفاخرا بقوله:

فمعشر قطعت أوصالهم قطعا ... فما يلفقها خيط ولا أبر
ومعشر بالظبا طارت رؤسهم ... عن الجسوم فقلنا أنها أكر
ومعشر وسطوا مثل الدلاء ولم ... تربط حبال بها يوما ولا بكر
ومعشر سروا فوق الجياد وقد ... شدت جسومهم الألواح والدسر
وآخرون فدوا بالمال أنفسهم ... وقالت الناس خير من عمي عور
موتات سوء تلقوها بما صنعوا ... ومن وراء تلقيهم لها سقر

ديوان البوصيري، ص١٣٥.

(54) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥٠.

(55) البيومي الشربيني: مصادرة الأملاك، ج١، ص١٩٥.

(56) سُنْبس: بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة في الآخر. وهي البطن الخامس من طيء. ومن سنبس طائفة بالجيزة حول سقارة ومنشاة دهشور وما والاهما. والإمرة الآن بالديار المصرية في الغزاعلة في بني يوسف، ومقرهم بمدينة سخا بالأعمال الغربية. نظر: القلقشندى: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص٨٧؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص٧-٨.

كانت الإمرة في عمل المنوفية العمل الثاني المنوفية لأولاد نصير الدين من لواته ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب، وكانت الإمرة في عمل الغربية في أولاد يوسف من الخزاعلة من سنبس من طيء من كهلان من القحطانية ومقرتهم مدينة سخا من الغربية. القلقشندى: صبح الاعشي، ج٤، ص٧١.

(57) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٧.

(58) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٩١٢.
(59) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٦٨.
(60) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٢٧٤-٢٧٥.
(61) المقريزي:السلوك، ج٤، ص٣٩٦.
(62) اقبردي الاشرفي قايتباي وابن عمه وتزوج أخت زوجته، واستقر في الدوادارية الكبرى وأضيف إليه الوزارة. السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٣١٥، رقم ١٠٠٢.
(63) ابن إياس:بدائع الزهور، ج٣، ص٢٤٠. وقد حاول أحد الباحثين تبرير سلوك المماليك ذلك بزواج الشغار السائدبين بعض القبائل آنذاك، مما جعل نظرة المماليك إلي تلك النسوة الأسيرات لم تتعد كونهن جواري. أنظر: علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢٣.
(64) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢١٣.
(65) آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطي، ترجمة عبد الهادي علبة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥، ص٣٧٣.
(66) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٤٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٧٦.
(67) كان نائب الوجه القبلي يختار من أمراء المئين مقدمي الألوف، وهم أعلي رتبة عسكرية في الدولة المملوكية، وهو في رتبة مقدم العسكر بغزة في الممالك الشامية، وفي رتبة نائب الوجه البحري، بل أعظم خطرا منه، ومقر نيابته مدينة أسيوط. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤-٢٥؛ الخالدي: المقصد الرفيع، ورقة ١٤٢-١٤٣؛ عاشور: العصر المماليكي، ص٣٤٠؛ الأيوبيون والمماليك، ص٣٣٠؛ محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩، ص٨٠.
(68) ابن دقماق: الانتصار، ق٥، ص٢٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٦.
(69) ابن دقماق: الانتصار، ق٥، ص٢٥.
(70) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٣.
(71) القلقشندى: صبح الاعشي، ج٤، ص٢٥، ٦٥، ج١١، ص ٤٣٨؛ ضوء الصبح المسفر، ص٢٦٥-٢٦٦.
(72) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق احمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٥٤-٢٥٥.
(73) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص٢٨٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٨٣؛ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص٣١١؛ مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص١٩٧-١٩٨.

(74) السواقي: مفردها الساقية:وهي آلة قديمة عرفها الفلاح المصري منذ أقدم العصور. وهي تتكون من دولاب أو عجلة أي قرص خشبي مستدير ومسنن يصنع من خشب السنط يحيط به حبل، وتربط به أوان من الفخار أو الخشب المغلف بالصفيح تعرف بالقواديس ويتحرك الدولاب بعجلة مسننة أخري تدور حول محور يحرك هذه العجلة الأخيرة الدواب من البقر والجاموس أو الخيول. النابلسي:لمع القوانين المضيئة، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١، ص٤٨؛ الأدفوي:الطالع السعيد، ص٢١٢؛ المقريزي:السلوك، ج٢، ص١٥٦؛وليم نظير: الزراعة في مصر الإسلامية، ص٤٣؛ Lane-Poole, Social life in Egypt,1883,pp. 50-51.

(75) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٠٨؛ أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص٤٢٣.

(76) المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٣٢.

(77) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٦٦٨.

(78) الجسور: عبارة عن سد ترابي علي حافة النهر أو الترعة. حيث ترجع أهمية الجسور في أنها تعمل علي حماية الأراضي الزراعية والبلاد من مياه الفيضان، وتحقق أقصي فائدة ممكنة منها. وانقسمت الجسور في مصر إلي نوعين: النوع الأول: الجسور السلطانية: وهي التي يعم نفعها كل الأراضي. وكانت الدولة تعيين أحد الأمراء للاهتمام بهذه الجسور أطلق عليه " كاشف الجسور" أو "كاشف التراب" والنوع الثاني: الجسور البلدية: وهي تخص ناحية دون أخري وعلي أهل هذه الناحية الاهتمام بها. انظر:- ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٢٣٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤٨-٤٤٩؛المقريزي: الخطط، ج١، ص١٦٢-١٦٣؛ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٢٩؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٣.

(79) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٨٩٦.

(80) سنيت: احدي نواحي إقليم الشرقية. أنظر:- ابن مماتي: قوانين الدين، ص١٤٥. وتعرف منذ العصر العثماني باسم "اسنيت" هي تتبع مركز بنها بالقليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي ، ق٢، ج١، ص١٩.

(81) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٩٦.

(82) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٣٢٤-٣٢٥.

(83) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري ، ص٥٢-٥٣.

(84) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٧٠.

(85) وهي أماكن درس الغلال من القمح والفول والشعير.

(86) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٢٨.

(87) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٧٠.

(88) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٨-٢١٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٠.
(89) السخاوي: الذيل التام علي تاريخ الإسلام، ج١، ص١٣٣
(90) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥٠.
(91) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٣٥.
(92) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٧٩.
(93) احدي قري إقليم المنوفية ومقر عمل أبيار وجزيرة بني نصر، وهي مدينة كبيرة، عامرة جليلة آهلة ولها أسواق وقياسر ومشهور بصناعة النسيج، حيث يعمل بها القماش الفائق المعروف بـ "القماش الابياري" مما يضاهي عتابي بغداد، ويفوق القماش السكندري. الواطواط: مباهج الفكر، ص١١٧؛ القلقشندي:صبح الأعشى، ج٣، ٤١٠؛ ابن دقماق: الانتصار، ق٥، ص٩٩؛ابن الجيعان: التحفة السنية، ص١١١؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٨، ص٢٨-٣٠؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص١١٩.
(94) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور، نشر وليم بوبر، ج٣، ص٦٥٣-٦٥٤؛ نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٤٤-٤٥؛ مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٧٠، القاهرة ، ١٩٩٩، ص٣٢٩-٣٣١.
(95) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥٠.
(96) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٢٠-٩٢٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٣-١٧٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٤٩-١٥٤؛
Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages,pp. 300-301.
(97) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٥١-٤٥٢.
(98) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٧٢.
(99) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٤٦-٣٤٧.
(100) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٦٨.
(101) احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٧.
الدعارة أو الزعار والزعرة والزعر: أيضا جمع زاعر، وهو اللص والمحتال والعيال والحرفوش والمتشرد. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٧٠؛ علاء طه رزق: عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٤٦، ٥٠.
(102) حنفي محمود خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولي، ص٣٣.

(103) الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٦٨، ص٩٤.
(104) ابن الحاج:المدخل، ج٣، ص٣٩.
(105) الأمير حسام الدين طرنطاي بن عبد الله المنصوري تولي نيابة السلطنة للمنصور قلاوون والاشرف خليل الذي قتله عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٤، رقم١٣٩؛ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٣٨٦-٣٨٨، رقم١٢٤١؛محمد عبد الغني الاشقر:نائب السلطنة المملوكية، ص٣٧٠-٣٧١.
(106) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٩٠؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٧٥١.
(107) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٧٩؛ مختار الأخبار، ص١١٦؛المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٣٩-١٤٠. .
(108) النويري:نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦؛مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠٧؛ بيبرس الدوادار:زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٣-١٧٤.
(109) البيومي الشربيني: مصادرة الأملاك، ج١، ص١٩٥.
كان السلطان المملوكي يوزع الخيل علي أمرائه مرتين في العام. الأولي عند خروجه إلي مرابط خيوله علي القرط في الربيع، والثانية: عند لعبه الكرة بالميدان، فينعم علي الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول علي قدر مراتبهم، بحيث يحصل بعضهم علي مائة فرس في السنة . وكل من مات له فرس من مماليكه دفع إليه عوضه، وربما أنعم بالخيول علي أكابر الأمراء المسنين عند الخروج إلي الصيد. انظر:- القلقشندي: صبح الأعشي، ج٤، ص٥٤؛ السيد البار العريني: الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي، ص٤٢٨؛ آمال العمري: 'وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي' ، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١٠، ج٢، نوفمبر ١٩٦٤، ص٢٢٦-٢٢٧؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية(عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٠، القاهرة، ١٩٩٧، ج١ ، ص٢٧-٢٨؛
Ayalon," The System of Paymen in Mamluk Military Society',JRAS,1946,pp. 268-270.
(110) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٠-٧٠١.
(111) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٧٦؛العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٢٢.
(112) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٦٠؛ ابن إياس: بدائع، ج١، ق١، ص٤٠٧.
(113) السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٠٩- ٩١٠.
(114) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩١٠.
(115) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩١٠.

(116) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩١٢.
(117) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩١٣.
(118) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٧٢٢.
(119) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج٨، ص١٩٠.
(120) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٠٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٤٥.
(121) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج٨، ص١٣٨.
(122) حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، ص٢٠٣.
(123) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٢، ص٥٦٢؛ بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، ص٩٣.
(124) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٤.
(125) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٤٩.
(126) درب الأربعين: سمي هذا الطريق بهذا الاسم لأن القوافل تقطعه في أربعين يوما من أسيوط إلي دار فور. أنظر:- محمد بن عمر التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفي محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفي زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٤١-٥٢.
(127) شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٧٠؛ محمد رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام في دار فور في العصور الوسطي، ص٨٣-٨٤؛ ماهر أحمد مصطفي: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص١٢٨.
(128) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٥٦.
(129) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٣١.
(130) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٦٦.
(131) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٧٣٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٤٢١.
(132) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٩، ج٢، ص٢٥١.
(133) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج٧، ص٣٣.
(134) ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص٤٢٧-٤٢٨.
(135) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٥.
(136) عن أهمية نهر النيل في التجارة. انظر: ــ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨ ، ص١١٣-١٣٣؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢؛ إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٧-٦٤.
(137) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٨٤.

(138) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٦.

(139) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور، ج٣، ص٦٩٥؛ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص٤٤-٤٥؛ عبد الباسط بن خليل الحنفي: نيل الأمل، ٦نص٣٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك، ج١، ص٥٣؛ ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر، ص٥٢.

(140) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٧٠-٧١.

(141) ابن إياس:بدائع الزهور، ج٣، ص٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور:" التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك في ضوء كتابات ابن إياس"، ضمن كتاب ابن إياس(دراسات وبحوث)، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص٧٥.

(142) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٤٦.

(143) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٤.

(144) قوص: بالضم ثم السكون، وصاد مهملة، مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة الصعيد، تعد أعظم مدن الصعيد الأعلى، ومن أهم المراكز التجارية في الصعيد، لذا فإن أهلها أرباب ثروة واسعة.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص٤١٣؛ ابن إياس: نزهة الأمم في العجايب والحكم، نشر محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥ ، ص٢٢٥.

(145) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطي، ص١١١-١١٤.

(146) محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل، ص٢٩٥.

(147) محمد محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطي، ص١٣١؛ عثمان عطا: الأزمات الاقتصادية، ص١٣٠؛ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادي العلاقي، ص٢٧٦.

(148) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ج٣، ص٣١٨؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٤٣.

(149) محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل، ص٨٢.

(150) محمود محمد الحويري:أسوان في العصور الوسطي، ص١٣٤.

(151) عرفت مصر ومنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطي مجموعة من التجار الذين يتاجرون فيما عرف بالكارم أي التوابل. عطية القوصي: "أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة "، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثاني والعشرون، ١٩٧٥، ص١٧؛ محمد بركات البيلي": بداية الكارم ومعناها في العصر الفاطمي"، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٣، يوليو ١٩٩٤ ، ص٩٤؛

Goiten," New lights on the beginning of the Karim Merchants" ، J. R. A. S ، Vol. 1, 1958, P. 173 ;

؛ شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، العدد ١٥١ يوليو ١٩٩٠، الكويت، ص٢٧٠-٢٧١؛محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٩-٣١ .

(152) Peter Thorau,The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century ,London,1987, p. 171

(153) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٣٧.

(154) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ١٤٥-١٤٦؛ كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٢٤.

(155) السلوك، ج٢، ق١، ص١٦٢؛ كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي، ص١٢٤-١٢٥.

(156) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٩٤.

(157) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٣٥؛ عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص١٠٢-١٠٤.

(158) المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٦٧؛ محمد فتحي الشاعر: الشرقية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧، ص٨٩.

(159) ابن أيبك الدوادار: الدر الفاخر، ص١١٤.

(160) إيرا لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧، ص٧٩؛ عثمان علي محمد عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢١٣، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٣٠.

(161) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٧١.

(162) قطيا أو قطية: بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة، قرية في طريق مصر والشام في شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربي بالقرب من ساحل البحر. أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس،١٨٤٠، ص١٠٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٠١؛ عادل عبد الحافظ: قطية جمرك مصر الشرقي في العصور الوسطى، مجلة التاريخ والمستقبل، يصدرها قسم التاريخ كلية الآداب - جامعة المنيا، يوليو٢٠٠٩، ص١٨٥-٢٠٧.

(163) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج٧، ص٣٠.

(164) ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص٤١٩.

(165) حياة ناصر الحجي: "الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ /١٤١٢ -١٤٢٠م)"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية- جامعة الكويت، العدد٣٦، عام١٩٨٩، ص٢٨.

(166) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٣١.

(167) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٠٣.

(168) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٤، ص٣١٩-٣٤٠.

(169) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٤٤.

(170) وجد في كل إقليم(عمل) من الأقاليم المصرية " بيت مال " يجمع فيه ناظر المال بالعمل موارد الدولة من الخراج الزائد عن المقرر للمقطعين، وغير ذلك من الموارد المالية. إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٤٩؛مجدي عبد الرشيد بحر:القرية المصرية، ص٥٤.

(171) العيني:عقد الجمان، ج١، ص١٠٨.

(172) إبراهيم علي طرخان:النظم الإقطاعية، ١٩٦٨، ص١٢.

(173) عماد بدر الدين أبو غازي:دراسة دبلوماتية في وثائق البيع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٥، ص١٧٢.

(174) إبراهيم طرخان:النظم الإقطاعية، ص٣٣٧.

(175) المقريزي:السلوك، ج١، ص٣٨٦.

(176) العيني:عقد الجمان، ج٤، ص١٣٨-١٣٩.

(177) ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر:ج٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ص٦٣

(178) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩٢؛العيني:عقد الجمان، ج٤، ص١٧٣.

(179) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص ١٧٤.

(180) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص ١٧٣

(181) مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠٧.

(182) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٦٦٨.

(183) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٩٠٧.

(184) المقريزي:السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٩٥.

(185) الوقف: هو الحبس، وهو صدقة محرمة، لا تباع ولا تشترى ولا تورث. انظر: الطرابلسي: الإسعاف في أحكام الأوقاف، القاهرة، ١٩٢٩، ص٣؛ الخصاف: أحكام الأوقاف، القاهرة ، ١٩٠٤، ص٢٠؛ عيسى الصفتي: عطية الرحمن في أرصاد الجوامك والأطيان، القاهرة، ١٣١٤، ص٤-٦؛ ابن نجيم: الرسائل الزينية، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٣١.

(186) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠.

(187) بنو حرام: بطن من جذام من القحطانية بالشرقية بنو حرام. القلقشندى: صبح الأعشى، ج١، ص٣٣٣؛ نهاية الأرب في أنساب العرب، ص٢٣١؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص٦٣.

(188) بلقس: قرية قديمة كانت تقع ضمن إقليم الشرقية، ثم إقليم ضواحي القاهرة في العصر المملوكي، وهي إحدى قري محافظة القليوبية الآن . أنظر:-ابن مماتي :قوانين، نشر عزيز سوريال عطيه، لقاهرة، ١٩٤٠، ص١١٠؛ ابن دقماق : الانتصار، ج٥، ص٤٥؛ ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر مورتيز، القاهرة، ١٨٩٢، ص٩؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، ق٢، ح١، ص٥٥.

(189) الأمير بردبك الأشرفي اينال: ملكه في عام ٨٢٩هـ فرباه واعتقه وعمله خازنداره وزوجه ابنته الكبرى ثم دواداره ، فلما تسلطن عمله دوادارا ثالثا، ثم نقله إلي الدوادارية في سنة ٨٥٩هـ، وتوفي عام ٨٦٨هـالسخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٤-٥، رقم٢٠

(190) البقاعي: إظهار العصر لإسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٢، ج٣، ص١٤٢-١٤٣؛ سيد محمود محمد عبد العال: "نقابة الأشراف في مصر عصر سلاطين المماليك"، مجلة المؤرخ العربي، العدد١٨، مارس ٢٠١٠، ص٣٠٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً:المصادر العربية :-

الإدريسي: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي من علماء القرن السادس الهجري.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت .
الأدفوي : كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م .
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ، ١٩٦٦ .
الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨
ابن إياس : أبي البركات محمد بن أحمد الحنفي ، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- نزهة الأمم في العجايب والحكم ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبد الله ، ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م .
- كنز الدرر وجامع الغرر .
جـ٨ : " الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية " تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١ .
جـ٩ : " الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر"، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠ .
ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .
- الوافي بالوفيات، صدر منه ٢٢ جزء والباقي مخطوط، نشر جمعية المستشرقين الألمانية ، فسبادون.
البقاعي : إبراهيم بن عمر ، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م .
- إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، القاهرة، ١٩٩٢.
البوصيري : شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م .
- ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٥٥ .
بيبرس الدوادار: ركن الدين بن عبد الله المنصوري، ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م .
- التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٣٣.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، دار عيد للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠١ .
ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف بن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين جـ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧، ٨، ٩، ١٠ونبيل محمد عبد العزيز جـ٣، ٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥-١٩٩٤.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزاءان، تحقيق فهيم محمد شلتوت، منشورات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، القاهرة، ١٩٨٤ .
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجزء الأول، ١٩٩٠ .
- مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية ١٩٩٧
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٢.
التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧.
ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، كتاب الهلال، عدد ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨١
ابن الجيعان : شرف الدين أبو البقاء يحيى علم الدين شاكر، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م .
- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر مورتيز، بولاق، ١٨٩٨م .
ابن حبيب : الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م .
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦-١٩٨٦
ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦ .
- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٩٦٩-١٩٩٢.
الحميري : محمد بن عبد المنعم، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م .
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٤ .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م .
- تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩ .
الخالدي : عبد الله بن لطف الله محمد بن بهاء الدين، ت ٩٣٧هـ/١٥٣٠م
- كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء، مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، تحت رقم ٢٤٠٤٥.
ابن خلكان : أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م .
- الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الرياض ١٩٨٦
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، د. ت .
الدمشقي : شيخ الربوة شمس الدين محمد بن أبي طالب، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م .
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر Merhen، ليبزج، ١٩٢٣ .
السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م.
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، القاهرة، ١٩٤٨.
السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م .
- التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، ١٨٩٦.
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٤ أجزاء، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥.
السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ .
ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣ .
ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م .
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راويس، باريس، ١٨٩٤.
الشجاعي : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق بربارة شيفر المعهد الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٧٨.
ابن الصيرفي : علي بن داوود الجوهري، ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م .
- إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢ .
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٩٤.
ابن الطوير : عبد السلام بن حسن القيسراني، ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م .
- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، بناء ونشر أيمن فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢
عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري، ت ٩٢٠هـ/١٩١٤م .
- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧.
- نيل الأمل في الذيل علي الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ٢٠٠٢.
ابن عبد الظاهر : محيي الدين بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦.

- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ .
العيني : بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مواد عام ٦٤٨- ٧٠٧هـ، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧- ١٩٩٢.
أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الأيوبي، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.
- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- تقويم البلدان ، دار صادر، بيروت، د. ت.
ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م.
- تاريخ ابن الفرات ، أجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ ، تحقيق قسطنطين رزيق، نجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م.
ابن فضل الله العمري : أبو العباس أحمد بن يحيي، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.
- التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجري، تحقيق دوروتياكرا فولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م.
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود، ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت.
القلقشندى : أبو العباس أحمد بن علي، ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩١٩- ١٩٢٢.
- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، ج١، نشر محمود سلامة، القاهرة، ١٩٠٦
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩.
- قلائد الجمان في التعريف عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٢.
ابن كثير الدمشقي : عماد الدين إسماعيل بن عمر، ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
- البداية والنهاية، ١٤ جزء، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٩٨٧.
مجهول : تاريخ سلاطين المماليك، نشر زترستين، ليدن، ١٩١٩.
مفضل بن أبي الفضائل، ت. ٨هـ/١٤م.
- النهج السديد والدر الفريد في تاريخ ما بعد ابن العميد، نشر بلوشيه، ١٩١٩
المقريزي : أحمد بن علي، ت. ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ، ١٩٣٦ ــ ١٩٧٣.
- المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠.

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.
ابن مماتي : الأسعد بن مماتي، ت. ٦٠٦هـ/١٢٠٩م.
- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣.
النابلسي : عثمان بن إبراهيم النابلسي الصفدي، ت. بعد عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.
- لمع القوانين المضيئة، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١.
ابن ناظر الجيش : عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي، ت. ٧٨٦هـ/١٣٨٤م
- تثقيف التعريف للمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧.
النويري : أحمد بن عبد الوهاب، ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٣٣ جزء، القاهرة، ١٩٢٣ - ٢٠٠٠.
النويري السكندري : محمد بن قاسم بن محمد، ت. بعد عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م.
- الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ٧أجزاء، تحقيق أتين كومب وعزيز سوريال عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٦٨ - ١٩٧٦.
ياقوت : أبو عبد الله الرومي، ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م.
- معجم البلدان دار صادر، بيروت، ١٩٨٤.
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.
اليونيني : قطب الدين أبي الفتح موسى بن سليمان، ت. ٧٢٦هـ/١٣٢٦م.
- ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، حيدر آباد، ١٩٥٥.

ثانيا:المراجع العربية والمعربة :-

- إبراهيم أحمد رزقانه:"القبائل العربية في مصر عند المقريزي"، ضمن كتاب دراسات عن المقريزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١
- إبراهيم حسن سعيد ، البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دارة المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- إبراهيم علي طرخان:النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ______ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠.
- أحمد لطفي السيد:قبائل العرب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨،
- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ______ في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥.

- أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨
- آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية(عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣.
- آمال العمري: "وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي" ، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١٠، ج٢، نوفمبر ١٩٦٤.
- جارسان: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية " قوص"، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ، ١٩٩٦.
- جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة، ٢٠٠٠.
- حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ١٩٨٠.
- حياة ناصر الحجي : "الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك(٨١٥-٨٢٣هـ/١٤١٢ -١٤٢٠م)"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية- جامعة الكويت، العدد٣٦، عام١٩٨٩.
- ـــــــــــ أحوال العامة في حكم المماليك، ط. ٢، الكويت، ١٩٩٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- ـــــــــ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ، ١٩٦٢
- ـــــــــ الظاهر بيبرس ، القاهرة، ١٩٦٣.
- ـــــــــ العصر المماليكي في مصر والشام ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ـــــــــ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٩٠.
- السيد البار العريني: الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦.
- شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠
- عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٨.
- عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب سوهاج جامعة أسيوط، ١٩٩٠.
- عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

- ـــــــــ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.
- عثمان علي عطا : الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، القاهرة ، ٢٠٠٢.
- عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- علاء طه رزق : السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ـــــــــ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٨.
- علي السيد علي:الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨
- عماد بدر الدين أبو غازي:دراسة دبلوماتية في وثائق البيع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٥
- قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩.
- ـــــــــ النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.
- كرم الصاوي باز:ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها وأثره في أنتشار الإسلام في سودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦
- لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧.
- ماهر أحمد مصطفى:صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، الطبعة الأولي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤.
- مجدي عبد الرشيد بحر:القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- محاسن محمد الوقاد :الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٩٩ .
- محمد بركات البيلي"بداية الكانم ومعناها في العصر الفاطمي" ، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٣، يوليو ١٩٩٤
- محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، ١٩٤٧ .
- ـــــــــ دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، ١٩٩٣ .
- محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩.
- ـــــــــ نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة، ١٩٩٩
- محمد فتحي الشاعر:الشرقية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧.

- محمد قنديل البقلي ، التعريف ومصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- محمود محمد الحويري:أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
- ــــــــــ مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦.
- محمود محمد السيد: القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص١٣١-١٣٣؛
- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

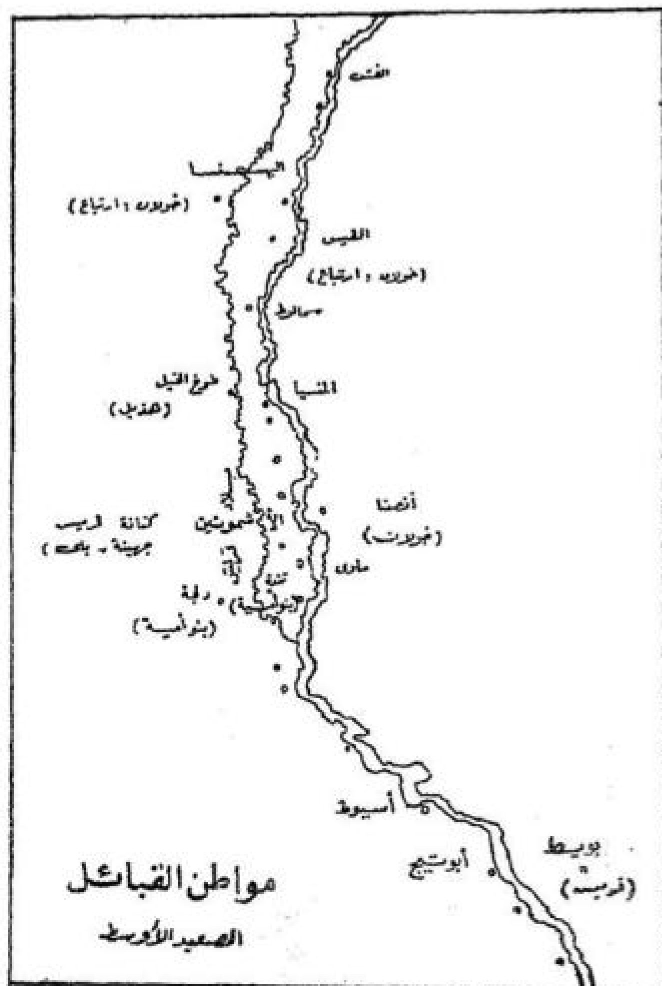
ثالثا: المراجع الأوروبية :-

Abd Ar-Raziq (Ahmad)
, " Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks " , An. Isl. XVI, le Caire , 1980.
Ashtor (Eliyaho) ,
- Histoire des prix et des salaries dans l'orient Medieval , Paris , 1969 . .
- A social and Economic History of the near east in the middle ages , London , 1976 .
Ayalon ," The plague and its effects upon the Mamluk army ", B. S. O. A. S. , XV, 1953 .
- Studies on the transfer of the Abbasid caliphate form Bagdad to Cairo , in Arabica, vol. XII , 1960 .
-," The System of Paymen in Mamluk Military .Society',JRAS,1946,
Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à l'époque mamluke" ,Annales Islamologiques,(IFAO),XIV,PP. 147-163. .
Fischel (W.),
- " The spice trade in Mamluk Egypt " JESHO , vol. 1 , 1958 .
Lane-Poole, Social life in Egypt,1883 .
__________, A History of Egypt in the Middle Ages, fourth .edition, London ,1925

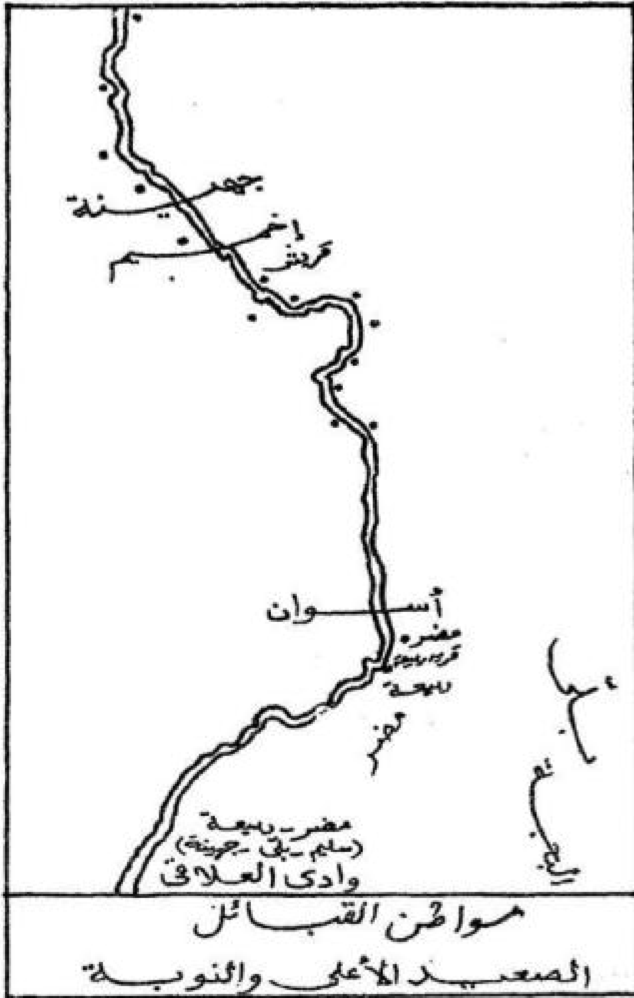
Peter Thorau, The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century ,London,1987 .
Poliak (A. N.),” Les révoltes populaires en Egypte à l’ époque des mamelouke “,Revue des Et. Islam,1934,pp. 251-273



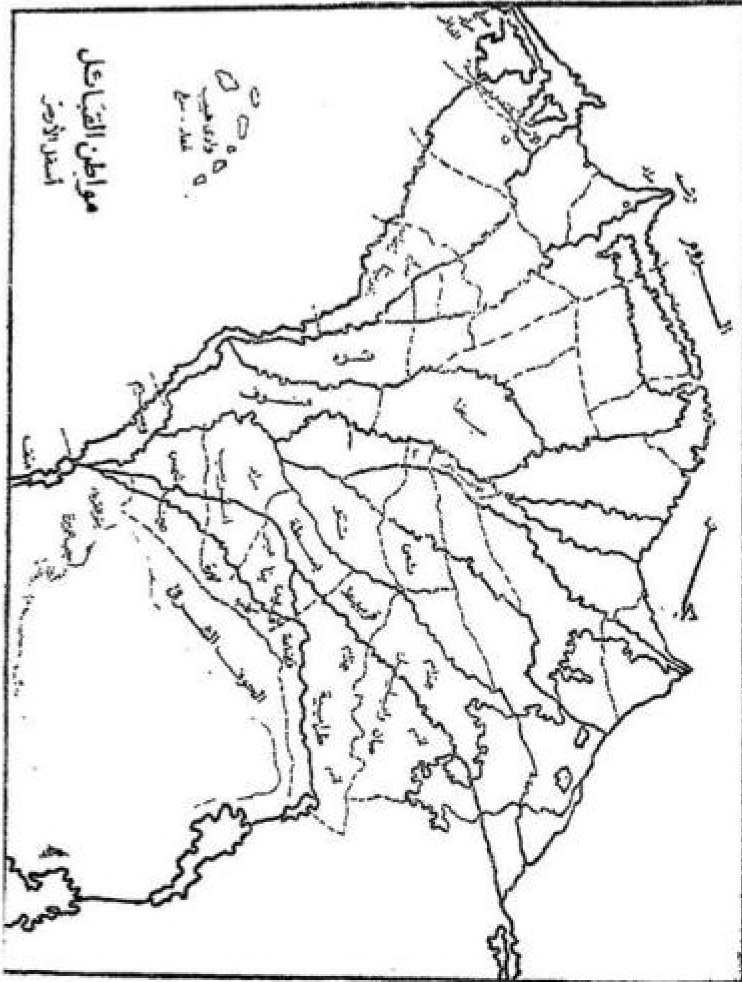
خريطة رقم (١) نقلا عن البري:القبائل العربية في مصر، ص٣١٩.



خريطة رقم (٢) نقلا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣٢١.



خريطة رقم (٣) نقلا عن البري:القبائل العربية في مصر، ص٣٢٣.



خريطة رقم (٤) نقلا عن البري:القبائل العربية في مصر، ص٣١٧.

السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام

د. محمد أحمد محمد الشحري (*)

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله، صلوات ربي وسلامه عليه .. وبعد

ففي الوقت الذي كادت فيه الحضارة المادية، بكل ما فيها من سطوة وقوة مدمرة،تهيمن على مجريات الحياة في شتى صورها، وبدا للكثيرين أنّ القيم العليا والمثل بدأت تتداعى،لا يجد المرء أمامه إلا إعادة قراءة الصفحات الخالدة في تاريخ الإسلام ،والقيم التي أرساها في سبيل إقامة المجتمع الفاضل، ومن تلك القيم العظيمة: قيمة السلام والسبل الموصلة إليه، كالعدالة، والإخاء، والمساواة، والود والتراحم.

ومن نافلة القول ينبغي أن نعرف أنّ السلام في الإسلام لم يكن دعوة نظرية مجردة، بل هو قيمة جوهرية في حياة المسلمين أخذوها من دينهم، ومن سيرة نبيهم ﷺ، في معاملاته، ومعاهداته،وأقواله،وأفعالهﷺ، ومن القيم الإسلامية العليا التي بثها ﷺ في نفوس أصحابه عند قيام المجتمع الفاضل، أو دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة.

وعاش المسلمون في العصر النبوي وما تلاه، وفي فترات مختلفة من تاريخهم، هذه القيمة العليا كواقع معاش، فالجانب النظري لابد من تطبيقه على أرض الواقع، لكي يتبين قوة هذا المبدأ وبقائه.

ولعلّ انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها في مدى زمني لم يتجاوز مائة عام، لدليل ساطع على ماتمتع به الإسلام من قيم استطاعت أن تتغلغل في النفوس،وتوائم بين الحقوق والواجبات، وتصل في يسر إلى أفهام أهل البلاد المفتوحة، فمن غير المعقول أنّ انتشار الإسلام بهذه الصورة قد جاء بحد السيف، كما يدعي ذلك المستشرقون ومن شايعهم من المستغربين، فالقوة قد تسيطر على إقليم أو بلد، لكن العقيدة لا يمكن أن تصل إلى أهالي الإقليم أو البلد إلا من خلال التوافق النفسي، وسهولة تلك العقيدة، وتطبيق مفاهيم الإسلام وقيمه على أرض الواقع،

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة.

وهل رأت الدنيا دينًا يدخل قلوب أقوامٍ كادوا له وهاجموه، ودمروا جزءً كبيراً من حضارته، وإنما أعني غزوات المغول التي اكتسحت أمامها الأخضر واليابس، ودمرت حاضرة الخلافة الإسلامية في بغداد سنة٦٥٦هـ /١٢٥٨م، فأكبر قبائل المغول أسلمت بعد ذلك، بل أصبحت أحد أجنحة الإسلام في المشرق، وما كان ذلك إلا نتيجة لما وجده هؤلاء المغول من قيم إسلامية عليا، ومثل سامية، كلها في إطار عقيدة سلسة استطاعت أن تخترق القلوب.

على كل حال فإنّ هذا البحث يتناول قيمة السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام، وبطبيعة الحال لم يستوعب البحث كافة الحقوق والواجبات لاتساعها وكثرتها في تاريخنا الإسلامي، فكان الإلمام بمضمون الموضوع وجوهره هو الأساس في هذا الموضوع وفق المحاور التالية، والتي راعيت فيها إدراج نماذج تطبيقية من حياة المسلمين في العهد النبوي، والخلافة الراشدة.

الأول: السلام في الإسلام.

الثاني: الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية.

الثالث: الحقوق والواجبات في الإسلام.

الرابع: من أسس المجتمع الفاضل في الإسلام.

أ- المؤاخاة.

ب- صحيفة الموادعة.

ج- المعاهدة مع نصارى نجران.

الخامس: السلم والحرب في الإسلام.

ختاماً أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد ، وأن يعمّ السلام العادل وطننا العربي والإسلامي ونكون قدوة للعالمين في هذا الشأن.

والله من وراء القصد.

السلام في الإسلام:

أجمعت كل الشرائع على ضرورة تزكية النفس بمحامد الأخلاق، واعتبار ذلك متممًا لعقيدة التوحيد، ولزم كل الأنبياء عليهم السلام هذا المنهج الإلهي الرشيد، حتى جاء خاتم النبيين محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، بشريعته الخالدة، التي ضمت محاسن الأخلاق، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١] وأكملها الله بما ليس بعده كمال، فكانت جامعة لغيرها مانعة من تبديلها أو تحريفها، وكانت القيم الإسلامية في قمة ما شرع الله، وما أقره العقل واستقرت عليه عمارة هذه الحياة، قيمٌ سَلِمت من الشوائب، ومُنعت من النقص، وتصدرت كل ماشرع الله للسابقين من الصالحين، حتى تليق بالعقول بعد نضجها، والأفهام بعد اكتمالها، والتزمتها الأمة الإسلامية قيمًا وتعليمًا، فهي خير الأمم، وآخر الأجيال ،لتتناسب مع رسالتها القيادية لإسعاد البشرية وهداية العالمين[٢]

وهذه القيم شكلت جوهر الحضارة الإسلامية المعطاءة، ومن هذه القيم تبرز قيمة السلام، الذي يُشكل مرتكزًا رئيسًا في الحضارة الإسلامية، وقد وضح ذلك بصورة جلية في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فنجد لفظ: السِّلم[٣] ومشتقاته تـرد في القرآن الكريم ١٣٨ مرة[٤]، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[٦] بل إن الجنة أطلق الله عليها اسم: «دار السلام» في قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٧] كما أنّ السلام اسم من أسماء الله الحسنى قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾[٨] وغير ذلك من الآيات التي ورد فيها ذكر السلمَ والسلام.

كما أنّ الإنسان المسلم يختم صلاته كل يوم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله»، وبينت السنة النبوية أهمية السلام، ففي الحديث «إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها، فإنّ الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته»[٩] فهذا على المستوى الشخصي ،كي يكون السلام والأمن النفسي سجية من سجايا المؤمن،وديدناً في حياته.

وإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي وحضارة الإسلام، نجد صور رائعة لتثبيت دعائم السلام في النفوس، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، جعل الإسلام للجار حقوقًا حتى لو كان مشركاً أو يهودياً، فرسول الله ﷺ يقول: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم، وأما الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك»[١٠].

وقد ذكر الغزالي أنَّ مُجاهد بن جبر قال: كنت عند عبدالله بن عمر، وغلام لـه يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مرارًا، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه(١١).

فمن حق الجار أن يبدأه بالسلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، فهذا من شأنه بث الطمأنينة والأمن النفسي. إضافة إلى ذلك دعا الإسلام إلى الصدق والأمانة والتعاون في الخير الخاص والعام، والاتحاد بين أبناء المجتمع، وحث المسلمين على التحلي بهذه الصفات قولاً وعملاً، ومن شواهد ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١٢) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . . .﴾(١٣) وقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . . .﴾(١٤) والشواهد القرآنية في هذا الشأن كثيرة، وجميعها تدعو لمكارم الأخلاق، والعمل على بناء الفرد والمجتمع، للوصول إلى الطريق القويم.

كما فتح الإسلام باب التآلف والتواد، وغلبه على التباغض والتباعد، وحث على العفو والصفح والتسامح، ولذا كان لابد من الاستجابة لدعوة التعارف الإنساني العام القائم على التسامح، لتتلاقى القلوب على غير عداوة وإحن، فالإسلام يدعو للتسامح غير الذليل، فهو يبني الإنسانية، سواء كانت بين الأحاد، أم كانت بين الجماعات والدول.

هذه القيم، التي عرضنا بعضاً منها، عايشها المسلمون واقعًا ملموسًا، فرأت الدنيا لأول مرة دينًا يُنشيء حضارة(١٥)، من غير أن يتعصب على غيره من الأديان، يجعل السلام قاعدة أساسية من قواعده، ويضرب المثل الأعلى في تعاملاته مع غير المسلمين(١٦). وهذه النظرة الحضارية السامية لم تعرفها حضارة سابقة، أو تالية للحضارة الإسلامية، لكونها وازنت بين المادة والروح توازنًا دقيقًا، فالناس قبل الإسلام كانوا على قسمين:

الأول: تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ لـه إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين.

الثاني: تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها، كالنصارى والصابئة، وطوائف من وثني الهند(١٧).

أما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين: المادي، والروحي، في وسطية عادلة تُعدُّ من أهم صفات المؤمنين، والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح والجسد: قال تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . . .﴾(١٨).

وهذا التوازن الإيماني الدقيق وضع حدًا للإنسان وحقوقه، وظهرت مبادئ الإسلام جلية في هذا الشأن، من حيث قبولها لاحترام العقائد الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(١٩) والالتزام التام

بالعقود والمعاهدات، والوفاء بهما، وهذا الالتزام لم يفعله المسلمون مجاملة لظروف عارضة، بل نابعة من صلب عقيدة الإسلام وتعاليمه التي تُلزم المسلمين بذلك، فالعلاقة التي يقررها الإسلام بين الجميع داخل إطار المجتمع الإسلامي هي علاقة ود، ورحمة، وتعاون، وأمن وسلام. والقاعدة التي تقوم عليها حياة الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي هي: قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، فيقرر الإسلام أنّ الغاية المقدرة للجميع هي: امتداد وإنماء الحياة، والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله سبحانه خالق الكون، ومن ثم ينتهي كل نشاط فردي وجماعي، كما ينتهي كل نظام إلى النتيجة الطبيعية والحتمية المتمثلة في: السلام الكلي الذي يتسق بين مختلف النوازع والاتجاهات[٢٠] .

فهذا هو الصعيد المثالي الذي يقوم على الأمن والسلام للمجتمع الحضاري ،كما حدده الإسلام في الجانب الاجتماعي والخلقي، وفي هذا الإطار يقول أحد المستشرقين[٢١]:

«كانت أخلاق العرب المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق الأرض قاطبة، ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة، ووفاؤهم بعهدهم، ونبل طبائعهم مما يستوقف النظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى، لاسيما الأمم الأوربية أيام الحروب الصليبية» [٢٢] .

كما يقول لوثروب ستودارد الأمريكي: «ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا» [٢٣].

كما أوضح بعض هذه الجوانب سير توماس آرنولد، فذكر الكثير من تسامح المسلمين وعد لهم وخصالهم الحسنة[٢٤] .

وكلام بعض المستشرقين الذي ذكرنا طرفاً منه، لا نتخذه حجةً أو برهاناً، لأنّ الحقائق الإسلامية، وشواهد التاريخ الإسلامي، براهين قوتها مستمدة من ذاتها، لا من أمر خارج عنها.

وقبل أن نختم هذه النقطة، ينبغي أن نوضح أنّ هذه الصورة الزاهرة، من الحضارة الإسلامية قد بلغت الدرجة المثالية العالية في الاتجاه القيمي والأخلاقي والعملي، وذلك على عكس المدنية الحديثة التي نشرت طائفة من الأمراض الجسمية سُميت بأمراض المدنية، فزادت نسبة الإصابة بالسرطانات، وضغط الدم وتصلب الشرايين والجلطة والذبحة في العصر الحديث، إضافة إلى طائفة أخرى من الأمراض السياسية والاجتماعية، أقلها انتشاراً: المذهب المكيافيلي[٢٥] في السياسة، فهي لا تزال ترى أمراً مشروعاً أن تنهب ثروات جماعات أخرى، وترى أن تسترق جماعة جماعة أخرى، حتى بعد إلغاء الرق الفردي، فتذهب مناداتهم بحقوق الإنسان سدى، لكونها تطبق وفق الهوى فحسب ! [٢٦].

فإذا قسنا حضارة الإسلام في أحد جوانبها الأخلاقية، عندما كانت تسود المساواة والحرية والعدل مع جميع أفراد المجتمع بما فيهم غير المسلمين، بهذه المدنية الزائفة المرتبكة التي تعيش فيها على الوهم، والاضطراب النفسي، لم نتردد في الحكم بأنّ حضارة الإسلام قدمت للعالم أجمع مبادئ خلقيه، ومثلاً عليا، وقيماً سامية،أعلاها السلام العام والخاص،والأمن بكل أشكاله وصوره.

الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية:

كانت نظرة الأمم القديمة إلى الإنسان الذي لاينتمي إلى جنسها، نظرة دونية، فهي تستعبد شعوب الأرض، ولا حقّ لهم في شيء من الكرامة والعزة والأخلاق والعقل أو الإرادة، فالإغريق "قدماء اليونان" نظروا إلى أنفسهم أنهم أسمى البشر، وأنهم خصوا بكل الصفات الإنسانية من عقل وإرادة، وأنّ غيرهم من سائر البشر لم يشاركوهم في كريم صفاقم الإنسانية، وأنهم في الحقيقة لا يبعدون كثيراً عن طبقات الحيوانات، وتجردوا من الصفات الممتازة التي خُلق عليها الإغريق، فكانوا يطلقون على من عداهم من سائر الشعوب الأخرى اسم :البرابرة، إيماءً منهم إلى أنّ مرتبة كل الشعوب الأخرى لا تستطيع أن تسمو إلى مرتبتهم، وكانت نظرة الاحتقار هي نظرتهم للأمم الأخرى، بل كان أرسطو يؤكد أنّ هؤلاء البرابرة لم يُخلقوا إلا ليُقرعوا بالعصى، ويستذلهم ويستعبدهم شعب اليونان(٢٧).

ويذهب أرسطو إلى أبعد من ذلك، فيعتقد أنّ الحياة لا يمكن أن تسير سيرها الطبيعي إلا إذا استرق اليونانيون ما عداهم من البرابرة، فيقومون بخدمة سادتهم.فالمبدأ عند اليونانيين القدامى أنه لا مساواة بين البشر على الإطلاق، فالأحرار- اليونانيون فقط- هم كل شئ، والشعوب الأخرى في خدمتهم، ولا شيء لهم. (٢٨)

كذلك الحال عند الرومان الذين أقاموا أنفسهم أوصياء على الإنسانية كلها، وبسطوا سلطانهم بحد السيف والقهر على الكثير من شعوب الأرض، واستعملوا في سبيل ذلك كل الوسائل، واعتبروا غير الروماني في طبقة أدنى من طبقة الرومان، وليس لهم الحقوق التي يتمتع بها هؤلاء، وإنما خُلق هؤلاء ليكونوا رقيقاً يخدم فقط، وليس لهم الحق في التطلع لما وراء ذلك. وانطلاقاً من هذا المعتقد وضعوا نوعين من القوانين الأول: القانون المدني وهو خاص بالشعب الروماني فحسب، والثاني:قانون الشعوب، وهو خاص بسكان البلاد الواقعة تحت احتلال الرومان.(٢٩)

ونفس الوضع سار عليه اليهود الذين قالوا:إنهم شعب الله المختار،فيحق لهم من الحقوق ما لا يحق لغيرهم،فاستباحوا لأنفسهم أن يغشوا غير اليهودي،في الوقت الذي حرموا أن يغش اليهودي يهودياً مثله،وذلك لكون غير اليهودي لم يُخلق إلا ليكون خادماً لليهودي،كما تنص تعاليمهم على أنّ اليهودي يجب أن يُنصف اليهودي إذا تخاصم إليه مع غير اليهودي، سواء أكان

إنصافه لليهودي بحق أم بغير حق.[٣٠] فهذه هي النظرة التي رسختها الأمم السابقة على الإسلام للإنسان.

فكان من أهم ماحرصت عليه رسالة الإسلام: احترام الإنسان،وحقوقه والحفاظ عليه، من خلال الرسالة الخالدة التي بشر بها رسول الله ﷺ، وحملها العرب المسلمون إلى العالم، والتي تتمثل فيها بوضوح وجلاء النزعة الإنسانية، التي تؤصل احترام الإنسان أين كان، دون النظر إلى دينه، أو لونه ، أو ثروته، أو جنسه، وشواهد الكتاب والسنة، ثم معاملة الكثير من أولي الأمر من المسلمين فيها الدليل على ذلك.

فالنزعة الإنسانية في الإسلام لم تكن وليدة فلسفات قديمة، اقتبسها العرب المسلمون من الشرق أو الغرب، وإنما كانت متأصلة فيهم، بما أوحاه إليهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فبشروا بها في كل مكان، فتأثرت بهم الأمم، ونهلت من مواردهم.

فالقرآن الكريم أكثر من ذكر كلمة: الإنسان، وبني آدم، والناس، والعالمين، والإنس، والعباد، التي لا تخص المسلمين وحدهم، فكلمة الإنسان ذُكرت في القرآن في ٧٣ آية[٣١] من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٣٢] وغيرها من الآيات ذات الدلالة الواضحة على تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[٣٣].

والإسلام في رسالته جمع الإنسانية حول القرآن الكريم، ودعا الناس جميعاً دعوة عامة للخضوع لخالق الناس، وعبادته وحده، ولذلك جاء الخطاب للناس جميعاً في آيات قرآنية عديدة. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[٣٥].

والخطاب في هذه الآيات للإنسانية بأحكام الإسلام، لا فرق بين أبيض وأسود، بل الجميع مخاطبون بتلك الأحكام الإسلامية، وقد ذكر المفسرون أنّ كل نص قرآني ابتدأ النداء فيه بيا أيها الناس، يكون الخطاب فيه للناس جميعاً، غير مختص بقبيل دون قبيل، لأنّ العنوان فيه للإنسانية كلها، وكل من يتصف بها داخل في الخطاب[٣٦].

وإذا كانت رسالة الإسلام لها ذلك العموم فإنها جاءت لإصلاح الجميع، فعاملت الأجناس كلها، وعممت بينهم أحكامها، فلا توجد أحكام خاصة لفرد دون فرد، أو لجماعة دون أخرى قال ﷺ «..ألا لافضل لعربي على عجمي،ولالعجمي على عربي ،ولا أحمر على أسود،ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[٣٧].

فسوت أحكام الإسلام بذلك بين الناس في المعاملة، فالمخزومية الشريفة عندما تسرق، وتشعر قريش بأنها ستحد، تلجأ إلى الواسطة، فتكلم أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، ليشفع لها،

فيغضب رسول الله ﷺ ويقول: «أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام قائلاً: يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»(٣٨) فالناس أمام القانون سواء، والمراكز الاجتماعية لا تعطل قوة القانون وسيادته، فالتفريق في المعاملة القانونية أدى ويؤدي إلى ضياع الأمم وهلاكها، كما أنَّ تطبيق القانون من شأنه بث الأمن بين جميع الناس.

وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، فنجده يحاسب من يستعمله على عمل من الأعمال، كي لا يشعر ذلك العامل أنه فوق القانون، أو أنَّ له حقاً فوق حقوق الناس.

فقد صحَّ أن النبي ﷺ بعث رجلاً من بني أسد يقال له: ابن اللتبية، ليجمع زكاة بني سُليم، فلما عاد إلى المدينة قال للنبي ﷺ: هذا لكم، وهذه – يعني أموالاً أخرى – أهديت إليَّ. فقال رسول الله ﷺ «فهل جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً» ثم خطب ﷺ الناس فقال: «أما بعد ... فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولاني الله، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، فو الله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه، إلا جاء الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر – ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه – فقال: اللهم هل بلغت»(٣٩).

فلأجل إرساء المبدأ والقيمة والمُثل، لابد من المساواة التامة أمام القانون، فبهذه التطبيقات العملية ينتشر الأمن والعدل، فعايش المسلمون هذه القيم من خلال تطبيق عملي مُعاش، وعلى هذا النهج الكريم سار الصحابة والخلفاء الراشدون ﷺ جميعاً، فقد ثبت أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يُحصي ثروة عماله قبل أن يوليهم أعمالهم، ليتمكن في أي وقت من محاسبتهم، ومعرفة ماقد يكون اكتسبه أحدهم عن طريق استغلال نفوذه، أو حصل على ماله بطريق غير مشروع، أو اشتط على الناس، فلم يفرق في ذلك بين قوي وضعيف، ولم يستثن أحداً من ذلك، فيذكر «البلاذري» أنَّ «عمر ابن الخطاب» كان يكتب أموال عماله إذا ولاهم، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك، وربما أخذه منهم، فقد كتب إلى عمرو بن العاص: إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن حين وليت مصر. فكتب عمرو إليه: إنَّ أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه، لنفقتنا. فكتب إليه: إني قد خُبرت من عمال السوء ما كفي، وكتابك إليَّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظناً، ووجهت إليك «محمد بن مسلمة» ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالبك، واعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء. فقاسمه ماله(٤٠).

وثبت أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ مرَّ ببناء يُبنى بحجارة وجص فقال: لمن هذا ؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله(٤١).

فبتطبيق هذه القواعد والقوانين، تستقيم أمور الناس، ويأمن الجميع.

ومما يتعلق بالنزعة الإنسانية في الإسلام، نجد أنَّ أصل التكوين الإنساني واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (٤٢)

فلا يمكن ولا يصح أن يُحقر إنسان للونه، ولا لإقليمه، ولا لأنه غير متحضر، بل إنه لا يُحقر الإنسان أخاه الإنسان أبداً، والتفاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة والتقوى، والعمل الصالح والإخلاص فيه، وعدم الاعتداء على الآخرين.

فالقرآن الكريم جعل اختلاف الناس شعوباً وقبائل للتعارف والتعاون، لا للتباغض والتنازع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٤٣).

واختلاف الشعوب غايته كما أرادها الله سبحانه: التعارف، وهذا التعارف له ظواهر منها: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام، ثم التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض، وبالتالي لا يوجد تعارف على أساس السلب والنهب والاحتقار، فأساس العلاقات الإنسانية بكل صورها: الاحترام والتعاون، أما إذا كان الأساس قائماً على الإرهاق النفسي، وعدم الاحترام، فإنَّ ذلك يكون استعباداً واسترقاقاً(٤٤) .

وقد ضرب الإسلام المثل الأعلى في تعاملاته مع غير المسلمين، فلهم أن يعتنقوا ما شاءوا من معتقدات من غير إكراه ولا إرهاق، فالإسلام يقرر «لا إكراه في الدين» (٤٥) بل يذهب به فرط احترامه للحرية إلى حماية العقيدة الدينية لمخالفيه، دون أن يعتدى على أحد، فقاعدته في ذلك «وأمرنا أن نتركهم وما يدينون» (٤٦) وقد روي عن النبي ﷺ الكثير من الأقوال التي تحث على رعاية أهل الذمة من ذلك قوله ﷺ «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» (٤٧) وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب ﷺ عند وفاته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم(٤٨) .

فهذه نظرة الإسلام للإنسان بصفة عامة، هدفت إلى تحقيق الأمن والحفاظ على حياة الإنسان، وعلى دينه، وعلى ماله(٤٩) ، فتحقق العدل والسلام بين الناس جميعاً.

الحقوق والواجبات في الإسلام:

ورد استعمال كلمة الحق في لغة العرب بمعان متعددة، منها: أنه اسم من أسماء الله تعالى، ومنها الثبوت والوجوب، واللزوم، والأمر المقضي، والحزم، والعدل، والإسلام، وفي شرح العقائد الحق عُرفاً: الحكم المطابق للواقع، يُطلق على الأقوال، والعقائد والأديان، والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، والحق نقيض الباطل(٥٠) .

وقد ذكر الفقهاء – القدامى – معنى كل من حق الله وحق العبد – فالقرافي يقـــول: إنّ حق الله هو أمره، ونهيه، وإنّ حق العبد هو: مصالحه[٥١]، أي أنّ كل الأوامر التي أمرنا بها الله عـــز وجل، والنواهي التي نهانا عنها هي حقوق له سبحانه، وأنّ حقوق الناس هي الأمور التي تتحقق بها مصالحهم[٥٢].

وقد ذكر الشاطبي (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) أنّ كل حكم شرعي ليس بخالٍ عن حـــق الله تعالى، وهو: جهة التعبد فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته: امتثـــال أوامره، واجتناب نواهيه بإطلاق، فإن جاء ماظاهره أنه حق للعبد مجرداً – كالقصاص فالعفو عنـــه حق للعبد – فليس كذلك بإطلاق، بل جاء على تغليب حق العبد في الأحكام الدنيوية.

كما أنّ كل حكم شرعي فيه حق للعباد، إما عاجلاً، وإما آجلاً، بناءً على أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد، وعادتهم في تفسير حق الله: أنه ما فهم من الـــشرع أنـــه ولا خـــيرة فيـــه للمكلف، كان له معنى معقول، أو غير معقول. وحق العبد: ماكان راجعاً إلى مـــصالحه في الـــدنيا، فإن كان من المصالح الأخروية، فهو من جملة ما يُطلق عليه أنه حق لله، ومعنى التعبد عندهم أنه مالا يعقل معناه، على الخصوص، وأصل العبادات راجعة إلى حق الله، وأصل العادات راجعة إلى حقوق العباد[٥٣].

وقد تناول الفقهاء المحدثون المعنى الاصطلاحي للحق فقالوا: إنّ المقصود به مـــصلحة[٥٤] مستحقة شرعاً، أو هو اختصاص يقرر به الشرع سلطة وتكليفاً، أو هو مصلحة ثابتـــة للـــشخص على سبيل الاختصاص والاستئثار، يقررها المشرع الحكيم[٥٥].

أما المقصود بالواجب في اللغة: فيعني اللازم، يقال: وجب الشيء وجوباً إذا ثبت ولـــزم، والوجوب: الثبوت، والواجب والفرض عند الشافعي «ت ٢٠٤هـ» سواء، وهو: كل ما يعاقب على تركه، وفرق بينهما أبو حنيفة «ت ١٥٠هـ» فالفرض عنده آكد من الواجب[٥٦].

وقد ذكر الفقهاء أنّ الواجب ما يثاب على فعله، ويعاقب على تركه، فالصلاة والزكـــاة والحج، وعدل الحاكم، وحكمه بأحكام الشريعة الإسلامية، والمساواة أمام القانون، كلـــها أمـــور واجبة، يُثاب مَن وجبت عليه إذا فعلها، ويعاقب إذا تركها[٥٧].

أصل الحقوق والواجبات في الإسلام:

الحقوق والواجبات في الإسلام ليس لها منبع أو أصل سوى الشريعة الإسلامية، وأحكامها المستقاة من الكتاب، والسنة، والإجماع بمعنى اتفاق المجتهدين من علماء أمة محمد ﷺ على حكـــم شرعي في عصر غير عصر الرسول، ثم القياس وهو: إثبات مثل حكم معلـــوم في معلـــوم آخـــر، لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت[٥٨].

فلا واجب إلا ما أوجبه الله عز وجل في شريعة الإسلام، ولا حق إلا ما جعلته الشريعة حقاً.

فالشريعة الإسلامية قد اشترطت في استعمال الإنسان لحقوقه؛ ألا يضر بمصالح الغير، وأن يكون ذلك متفقاً مع مصلحة الجماعة، فإذا كانت حرية الانتفاع بالملك تؤدي إلى الإضرار بالغير، فإنها تُمنع، حتى تكون في حدود منع الضرر، وفق قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»[٥٩]، وقد طبق رسول الله ﷺ ذلك، وقضى برفع الضرر[٦٠].

كذلك الحال بالنسبة لاحترام الشخصية الإنسانية في ظلال الإسلام، فلا شخصية إنسانية إلا مع الحرية، حرية الإقامة، والانتقال، والتدين، وحرية الفكر والرأي، وحرية الدولة، لذلك كان الإسلام والتحكم نقيضين لا يجتمعان، فليس لإنسان أن يتحكم في غيره، ولا للدولة أن تتحكم في الناس، ولكن تحكم عليهم إن اشتطوا أو تجاوزوا حدودهم. وحتى العقوبات في الإسلام لا تتجه إلى تقييد الحرية، لأنَّ التقيد دائماً منعٌ للحركة، والحركة هي الحياة، والإسلام دين الحياة، ولكن ما معنى الحرية ؟ إنَّ الحرية التي تفسر بالانطلاق من القيود الإنسانية والأدبية ليست حرية، ولكنها لون من ألوان الانفلات الأخلاقي، لأنَّ الحرية مسئولية، والإنسان الحر هو الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، ويضبط نفسه، فلا تتدلى إلى الدنيء من الأمر، ولا ينطلق وراء أهوائه وشهواته، ولا يكون عبداً لها، فالحر يبتدئ بالسيادة على نفسه، وإطلاق إرادته وعقله من قيود شهوته، والأمة أو الدولة يجب أن يكون فيها المعاني التي تكون في الحر، لأن الدولة شخصية معنوية تتصف في المعاملة بما يتصف به الشخص الحقيقي، فلا يمكن أن تكون دولة حرة، أو أمة حرة تلك التي تفرض أنَّ غيرها عبيداً، أو أنَّ لها من الحقوق على غيرها أكثر مما لها[٦١] .

وهكذا في كل الحقوق، لا فرق بين الحقوق العامة التي تثبت لكل الأفراد، والحقوق الخاصة التي يستأثر بها أصحابها دون بقية الناس[٦٢] ، وقد وضح الأصوليون أنواع الحقوق في الشريعة الإسلامية وفصلوا القول في ذلك[٦٣].

ومن نافلة القول في هذا الشأن – أعني الحقوق والواجبات في الإسلام – أنَّ الإنسان الذي يعرف أنَّ له حقاً معيناً، ينبغي أن يُدرك أنَّ عليه واجباً، وذلك ما حققته الشريعة الإسلامية، بتأصيل مبدأ العدالة[٦٤] التي تُشكل ميزان الاجتماع في الإسلام، والتي يقوم بها بناء الجماعة، فكل نسيق اجتماعي لا يقوم على العدالة منهار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لكون العدالة الدعامة، والنظام والتنسيق السليم لكل بناء، لذلك كانت أجمع آية لمعاني القرآن الكريم[٦٥] قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٦٦] فالعدل في الإسلام مقصد أسمى، ويتجه في اتجاهات مختلفة مع النفس، ومع الآخرين، وفي الأحكام والأقضية والشهادات، وأمام القانون، وفي العدالة الاجتماعية.

كما أن العدالة هي طريق الزلفى إلى الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٦٧).

والعدالة ذات شعبتين، الأولى: العدالة النفسية، بأن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقدره لغيره، على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب لا في الحقوق، وهذه العدالة النفسية هي التي توجد الاتصال المستمر، والتي تقوي بناء الجماعة، وتنفذ ديناً من غير قهر، ولا حكم مسيطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»(٦٨).

الثانية: العدالة التي تنظمها الدولة، ولن نستطيع تنفيذها إلا إذا كانت قائمة على أساس من العدالة النفسية عند الحاكم والمحكوم على سواء(٦٩). وعلى هذه القيم كان تأسيس المجتمع الفاضل في الإسلام.

من أسس المجتمع الفاضل في الإسلام:

المجتمع في الإسلام مجتمع معنوي، أي أنَّ العلاقات الاجتماعية فيه تُبنى على الروابط الأدبية في تواد وتراحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط، وهذا هو الفارق الجوهري بين الحضارة الإسلامية في جوهرها، والحضارات المادية الأخرى، ذلك لكون العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة والأمن النفسي، هي التي يقوم عليها بنيان الجماعة الإنسانية. وهي الروابط التي تربط آحاد الناس بعضهم.

فالمجتمع المادي الذي يُبنى على الاجتماع أو على الاقتصاد، فهو مثل الأحجار المتراصة التي يجاور بعضها بعضاً من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، ومهما يكن فيه من تنسيق هندسي، لا يمكن أن يكون متلاحماً متصلاً وإنه ينهار لأقل عاصفة تثور.

أما المجتمع المعنوي القائم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، ذلك المجتمع المتوازن بين المادة والروح، فهو مجتمع متماسك قوي غير قابل لأن تتداعى لبناته، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع، مادام يُغذى بالروح والدين، وقد يكون غير منسق اقتصادياً أو هندسياً، لكنه قوي متين راسخ الأساس، والاعوجاج الذي قد يبدو فيه لا يكون دليل الضعف دائماً، بل قد يكون الاعوجاج الذي يبدو ظاهراً من أسباب قوة الجسم، وقد يكون التنسيق المصطنع، الذي يُعنى بالمظهر دون المخبر، دليل الضعف وليس دليل القوة.

ولذلك كان الأساس في كل نظام وضعه الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية، أن يقوم على الدين وتوجيهاته، وذلك مما يغذي نفوس الآحاد للاجتماع، ونفوس الجماعات لتأتلف(٧٠).

والتشريع الإسلامي - المدني - للعلاقات بين الأفراد في الأمة؛ يقوم على أساس أنّ الروابط التي تجمع الناس هي روابط إنسانية في المقام الأول، أي يحكمها المستوى الإنساني بخصائصه المميزة، وأساس الروابط الإنسانية في القرآن الكريم هو: الإيمان بالله وحده، لكون الإيمان وحده ينطوي على الإيمان بالقيم العليا، والمثل الرفيعة، والتي يسعى الإنسان العابد إلى الاقتراب منها بعبادته(٧١)، حتى تصبح هذه القيم ديدناً له في سائر حياته.

والمجتمع الفاضل في ظلال الإسلام، ووفق القيم النابعة من الإيمان بالله، وضع قواعده الرسول ﷺ، فأمن الناس، وعرفوا مالهم من حق، وما عليهم من واجب، فعمَّ الأمن ذلك المجتمع.

وفي سبيل إقامة هذا المجتمع؛ كانت هناك خطوات تطبيقية من جانب النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة، وبدأ في إرساء قواعد المجتمع الفاضل. ومن هذه الخطوات العملية في هذا المنحى:

- المؤاخاة

بعد استقرار النبي ﷺ في المدينة، أعلن المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، فذكر «ابن إسحاق» أنّ النبي ﷺ قال: تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ﷺ فقال: هذا أخي، ثم آخى بين باقي الصحابة، فكان حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعفر ابن أبي طالب، ومعاذ بن جبل أخوين، وهكذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار(٧٢). وهم النواة الأولى والركيزة الرئيسة للمجتمع الإسلامي الأول.

وتكمن أهمية هذه الخطوة الجوهرية في أنها تنشر الأمن والسلام بين المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم، والأنصار الذين أحسنوا استقبالهم. وإذا كان العرب قد عرفوا الحلف القائم على التضامن، فإنّ الإخاء الذي تم كان أعمق من أي حلف، فالإخاء كان له سمة اجتماعية عميقة، تتبعها التزامات مادية(٧٣)، وفوق كل ذلك إخاء في الله قائم على أساس رسالة الإسلام السامية، وما تنص عليه من حقوق وواجبات، وفوق أي عصبية قبلية، أو انتماء لعرق أو جنس، فالكل داخل الإسلام سواء، وقد ذكر «ابن سعد» أنّ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت على الحق والمؤاساة، وكانت بين المهاجرين على التوارث(٧٤) حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾(٧٥).

والمؤاخاة تقوم على الاتصال الفردي، فتفرق المجموعة إلى أفراد، يرتبط كل منهم بفرد آخر، بصرف النظر عن قبيلته أو عشيرته، ويجعل مسؤولية حماية المهاجرين على أفراد من الأنصار، فهي رابطة الأخوة الدينية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٧٦) كما أنّ مبدأ المؤاخاة من شأنه أن يُطفئ أي عصبية قبلية من شأنها أن تؤجّج الخلافات بين أبناء المجتمع الواحد، فتفرقة الأفراد تترك لهم حرية التصرف، لكنها لا تشتتهم، لأنّ العلاقة عميقة الجذور بالرسول ﷺ وبالإسلام، وكان تأثير مبدأ

المؤاخاة على الأنصار قوياً، لأنه يلقي عليهم مسؤولية إضافية في الحماية، وتوثيق الصلة بالإسلام، وتتيح للرسول ﷺ توسيع نطاق وقوة روابطه بالأنصار، وبذلك تكونت الأسرة الإسلامية الموحدة المتعاونة، ونسي كل فرد أرومته ومحتده، وتطلع إلى رباط الإسلام الذي ألف بين معتنقيه، فكان الغرض من المؤاخاة: اجتماعي ونفسي[٧٧]، وآتى ذلك ثماره إذ أمن الجميع، وثبتت المُثل الأخلاقية التي دعى إليها الإسلام، لتكون واقعاً معاشاً على الأرض.

صحيفة الموادعة:

ثم كانت الخطوة التالية لإقامة المجتمع الفاضل، والتي تمثلت في الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، مع اليهود، وفيها وادع النبي ﷺ يهود المدينة، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.

وهذه الصحيفة الخالدة تُعدُّ نبراساً لجميع الأمم في مختلف الأزمنة، لأنها حددت إطاراً عاماً لكل من يقطن في المدينة التي كانت تضم طوائف من اليهود والمشركين، ولكي يتحقق الأمن الخاص والعام، والسلام الاجتماعي، فلابد من وضع نظام يحفظ لكل الطوائف التي تعيش داخل المدينة حقوقها، حتى ولو كانت غير مسلمة، فالكل يعيش في وطن واحد هو المدينة المنورة، وعندما يأتي أي خطر لن يفرق بين فرد وآخر، لذا لابد أن يتعاون الجميع لصد هذا الخطر.

فكانت الصحيفة الجامعة والميثاق القوي، والدستور المنظم للعلاقة بين أفراد المجتمع جميعاً.

فرسول الله ﷺ في سبيل متابعة الجهود لتوضيح معالم الدين، ونشر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وإقامة المجتمع الفاضل، كان لابد أن يمهد السبل لتحقيق ذلك، فاقتضى الأمر معالجة مختلف القضايا بما يكفل سلامة الجميع، وأمن الأفراد والجماعات، وتأمين الوطن، فانتشار الإسلام بين الناس لا يتوقف على مجرد سمو مبادئه وسلامة أفكاره، وإنما لابد أن يظهر نجاح هذه المبادئ بهذا السمو في التطبيق العملي لها، على أرض الواقع، وتأسيس قاعدة متينة تُظلُّ الجميع.

فكانت الصحيفة إحدى الخطوات الجوهرية لتحقيق ذلك الأمر، فيعرف كل فرد ماله وما عليه، فهي الدستور الذي يبين الخطوط الرئيسة لتنظيم الدولة والمجتمع من الداخل، ولتنسيق العلاقة بين الجميع في إطار من الود والتعاون، وبذلك يشعر الجميع بالأمن والسلام.

فسبقت تلك الوثيقة دساتير العالم – حتى الحديث منها والمعاصر – في كونها حددت الإطار العام لحقوق وواجبات جميع أفراد المجتمع، فلا تنتهك حرمة إنسان، ولا حريته، ولا ماله، ولا دمه... الخ ما نصت عليه الوثيقة والتي كان من نصوصها:

١- أنَّ المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وأنَّ المهاجرين من قريش على ربعتهم، يتعاقلون[٧٨] بينهم، وهم يفدون عانيهم[٧٩] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٢- بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيهـا بـالمعروف والقسـط بين المؤمنين، وكذلك الحال لبني الحارث وبني ساعدة وبني جـشم، وكافـة طوائف المدينة.

٣- أنّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم[٨٠]، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل[٨١]، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

٤- أنّ المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسـيعة[٨٢] ظلـم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأنّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وألا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

٥- أنّ ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٦- إنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.

٧- أنّ سِلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سـبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

٨- أنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٩- أنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينـهم، وللمسـلمين دينـهم، مـواليهم وأنفسـهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه، وأهل بيته.
وكذلك كافة طوائف اليهود القاطنين في المدينة، لهم مثل بني عوف.

١٠- أنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

١١- أنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

١٢- أنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإنّ مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

١٣- لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينـة، إلا من ظلم وأثم، وأنّ الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ[٨٣].

ومن خلال بعض النصوص التي أوردناها من الصحيفة، يتبين الأساس القوي للعلاقة بـين أفراد المجتمع الواحد، المسلمين مع بعضهم، ثم تحديد العلاقة مع الطوائف الأخرى، والتي تكفلت لهم الصحيفة بالأمن والأمان،والحرية ، وأنّ الجميع وحدة واحدة ضد مـن هـاجم المدينـة، وأنّ التعاون بين الجميع في الإنفاق حال تعرض المدينة لأي هجوم واجب على الجميـع، وأنّ عهـد الله واحد للجميع، وأنه لا حماية لظالم أو آثم، وأن الوطن حرم آمن لرعية هذه الدولة.

- وهذا الدستور – الصحيفة – الذي صيغ لينظم القواعد الأساسية لدولة المدينة ورعيتها، بعد أن نزل الوحي بقسم كبير من القرآن الكريم، يُعدُّ دليلاً على أنّ القـرآن الكـريم بالنسـبة لدستور الدولة، هو الإطار العام لها، فيه المبادئ، وبه الروح، والمقاصد والضوابط والغايـات،

وذلك لا يمنع من وضع دستور يضبط القواعد وينظم الحقـوق، ويحكـم العلاقـات بـين الأفراد،والجماعات، ويصوغ ذلك صياغة محكمة الدلالة بينة الحدود، بمـا لا يتعـارض مـع الإطار العام.

- كما أنّ نص هذه الصحيفة بما تضمنته، أمر يدعو إلى العزة، فحضارة الإسـلام وفـق هـذه الصحيفة وما حددته بدقة، يدل على أنّ الفكر السياسي الإسلامي في ذلك الوقت، قد وصل إلى درجة كبيرة من السمو، فاستوعب الإسلام كافة الطوائف الموجودة في المجتمـع، وذلـك بتحديد دقيق فيه أمان للفرد والجماعة، والوطن، فضلاً عن روح التكافـل والتـضامن بـين الجميع، وإذا نظرنا إلى الإطار الزمني والمكاني للصحيفة، نجد أن هذه الوثيقة سـبقت كافـة الأمم في رعاية الذين ينضون تحت لوائها، وضمنت لهم حقهم في العيش الآمن ،حتى لو كانوا غير مسلمين.

- كما أنّ الصحيفة تُظهر اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء، فقد خصتها الصحيفة بعدد من الأحكام، بحيث يمكن القول إنهما كانا من أبرز الغايات التي اسـتهدفت الـصحيفة تأمينها، وذلك راجع إلى إدراك الرسول ﷺ لأهمية العدالة والقضاء لكل مجتمـع سـليم، وأنّ فقدانهما من أبرز العيوب، وأقوى أسباب القلق والاضطراب، ونص القرآن الكريم على جعل القضاء في الأمور المتعلقة بالأمن العام إجبارياً، وحصره في يد الرسول ﷺ قال تعـالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٨٤).

- وبذلك أقام النبي ﷺ دعائم المجتمع الإسلامي الفاضل في المدينة المنورة، فتأسـيس وترسـيخ كيان الأمة من الداخل، والعمل على توحيدها، هو الأساس الأول في قيامها ومن ثم تطورهـا وازدهارها. فكانت إدارة الرسول ﷺ في المدينة تهدف إلى تكوين أمة مترابطة فيمـا بينـها، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة، والأمـن العـام والقضاء، وأمور الحرب والسلم، على أن تكون التقوى والأخلاق الإسلامية الفاضلة أسـاس أعمالهم وتصرفاتهم.

المعاهدة مع نصارى نجران:

ولتحقيق السلام العام في المدينة وما حولها، نجد أنّ رسول الله ﷺ يعمل على نشر الأمـن بصورة أشمل، لتضم طوائف من غير المسلمين، فكانـت الوثيقـة الدسـتورية لنـصارى نجـران – باليمن – لتكون عهداً وميثاقاً لكل من ينتحل ويتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان، فبعـد أن أتم الله على المسلمين فتح مكة سنة ٨هـ/٦٢٩م، والذي تجلت فيه سماحة الإسلام مع من ناصبوه

العداء(٨٥)،وأمن الجميع، واستتب الأمر للإسلام في معظم أرجاء الجزيرة العربية، وجاءت الوفود تترى على النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة، والذي أطلق عليه عام الوفود(٨٦) يعقد النبي ﷺ في العام العاشر للهجرة، معاهدة مع نصارى نجران، هذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبي ﷺ لأهل نجران – إذ كان عليهم حكمه – في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق، وأنزل ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وماقضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب.

وعلى نجران مُؤنَةُ رُسلي ومتعتهم مابين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة، وماهلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب، أو عروض، فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه إليهم. ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم، وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دنية، ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذي قُبَل، فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى مافي هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبداً، حتى يأتي الله بأمره، مانصحوا وأصلحوا ماعليهم غير متغلين بظلم(٨٧)».

وهذه الوثيقة التاريخية العظيمة التي حددت بدقة حقوق وواجبات المسلمين تجاه نصارى نجران وحقوق وواجبات نصارى نجران تجاه المسلمين، تشكل دستوراً لطبيعة العلاقة التي ربطت بين الطرفين، واشترطت من ضمن شروطها: الحرية الدينية لنصارى نجران، وتأمينهم، وتأمين دور عبادتهم، وأموالهم وأنفسهم، وما تحت أيديهم، وفق ما أقرته الوثيقة، وتتوالى العهود والمواثيق بين النبي ﷺ وكثير من القبائل، وبخاصة في العام التاسع الذي عُرف بعام الوفود، وكلها لتنظيم السلم وحسن الجوار. ثم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، جاء وفد نجران إلى أبي بكر الصديق خليفة رسول الله، فأجارهم بالعهد الذي كتبه النبي ﷺ(٨٨)،وهكذا عاش الجميع وفق هذه المعاهدات والمبادىء التي اشتملت عليها.

السلم والحرب في الإسلام:

وبمثل هذه القواعد مع غير المسلمين، التي وضع أساسها رسول الله ﷺ، استقر الأمن في الجزيرة العربية، وعمَّ السلام بين المسلمين، وغير المسلمين، لأنَّ القاعدة الموضوعة صارت أساساً انتهجه خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، فالخليفة أبو بكر الصديق ﷺ "١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م "يوصي جند الإسلام في بداية الفتوحات الإسلامية، بأهل الذمة، وألا يعتدوا عليهم(٨٩) ثم

يأتي زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ"١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م" ليضرب أروع الأمثلة في هذا الصدد، عند عقد معاهدة مع النصارى في إيلياء – القدس – تضمن لهم الحرية الدينية الصريحة دون إجبار أو ظلم[٩٠].

وهذه النقطة أعني هذه المعاهدة، وما كان عليه خلفاء الرسول في هذا الشأن، تبين أنّ الأصل في الإسلام هو السلم العام، وأنّ الحرب لا تمثل القاعدة في الإسلام، بل إنّ المسلمين لا يلجأون إلى الحرب إلا باختيار غيرهم، فهم لا يبغون إلا العمل على نشر الإسلام وتعاليمه بالطريقة السلمية، فكان المسلمون يخيرون أهل البلاد بين الإسلام، أو أن يتعاهدوا معهم على العيش معاً في سلام، حتى يجد الدين الفرصة، ليطلع الناس على أوامره ونهيه، دون إكراه، ولا يلجأ المسلمون إلى الحرب إلا إذا كانوا مضطرين لذلك، وجمهور الفقهاء على أنّ الباعث على القتال هو رد الاعتداء على المسلمين، ذلك لأنّ الدعوة إلى السلم في القرآن مطلقة غير مقيدة، بينما إباحة القتال نجدها في كل نصوص القرآن مقيدة بأنها مقابلة الاعتداء بمثله، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [٩١] – ويقول سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٩٢] ويقول عز من قائل: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [٩٣].

فهذه النصوص كلها تدعو إلى السلام دعوة مطلقة غير مقيدة، وهي تدل على أنّ كل من يلتزم السلم لا يقاتل، والأصل في العلاقات في الإسلام بين الجماعات يقوم على: التواد، والتراحم، والتعاون، وما فرض القتال على المؤمنين إلا لكونه ضرورة ملزمة تقدر بقدر الضرورة، فلا يراد القتال لذاته، فما جاء الإذن بالقتال إلا لرد الاعتداء على الحرية الدينية، ومنع الفتنة[٩٤].

وإذا فرضت الحرب على المسلمين، فإنّ لها آداباً يجب أن تحترم، فلا يجوز التمثيل بالقتلى، ولا يقتل إلا من قاتل، وعدم حرق الشجر، وعدم التعرض للمسالمين، ولا للنساء والأطفال ولاالشيوخ،فهذه آداب حرص عليها المسلمون في حروبهم[٩٥]، ووفاء قادة الإسلام بعهودهم في أوقات الحرب خير شاهد في هذا السياق[٩٦]، فعندما اشتدت وطأة الروم على جيش أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام، لوقعة اليرموك، ردّ المسلمون على أهل حمص ماكانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لـولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم[٩٧]. وكان أبو عبيدة قد كتب معهم كتاباً لحمايتهم، وحماية كنائسهم ودور عبادتهم وما تحت أيديهم، فلما أحس بخطورة الموقف من الروم، ردّ عليهم ما أخذه منهم قائلاً لهم: ونحن لكم على العهد، لكنهم رفضوا، وساعدوا المسلمين حتى كتب الله لهم النصر[٩٨].

والنماذج في التاريخ الإسلامي التي تؤكد على الوفاء بالعهد، واحترام حقوق وواجبات رعايا المسلمين، وحقوق وواجبات المسلمين أنفسهم كثيرة، وفيها الدلالة على صدق المسلمين ووفائهم بعهدهم في كل ماالتزموا به.

فالأساس الذي وضعه لهم النبي ﷺ في هذا الشأن ماثلٌ أمامهم ، إضافة إلى ذلك، سمع المسلمون رسول الله ﷺ وهو ينتصف من نفسه،فهو القدوة والمثل الأعلى ، فقد ورد عنه ﷺ في هذا الصدد أنه قال: «إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، وإنما أنا بشر، فأيما رجل قد أصبت من عرضه شيئاً فهذا عرضي فليقتص، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشري فليقتص، وأيما رجل كنت أصبت من ماله شيئاً، فهذا مالي فليأخذ، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء فأخذه أو حللني، فلقيت ربي وأنا محلل لي، ولا يقولن رجل إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله، فإنهما ليستا من طبيعتي، ولا من خلقي»(٩٩).

بمثل هذا المنهج تحقق السلام، وبمثل هذه العدالة ساد الإسلام الدنيا، وعلى هذا الدرب سار أصحاب رسول الله ﷺ، فدانت لهم الدنيا، وتحقق السلام للإنسانية في أوضح صورة، فكما سبق أن ذكرنا إنّ الإسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية، لكون هذه القيم والضوابط مرتبطة بوحي السماء، وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الأفراد، ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات، فإذا قلنا إنّ الحضارة لابد أن تقترن بنمط معين من الحياة، فإنّ الإسلام عاون، بقيمه وضوابطه، على أن يعطى حياة أهله وحضارتهم بعض مميزات ذلك النمط المشترك، بل إنّ الإسلام امتاز بأن أعطى نظاماً متكاملاً للحياة، سواء من وجهة نظر الفرد، أم وجهة نظر الجماعة، وهذا النظام شمل علاقات الأفراد، وكثيراً من نواحي الحكم ذاته، وقد يكون من أبرز القيم التي استند إليها نظام الحياة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان الفرد، واستنادها إلى فكرة المسئولية الفردية في نطاق الحرية، ثم فكرة الإخاء العام التي تجعل المسلم في أي قطر يشعر بأنه ينتمي إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة، والتي كانت من وراء «حس المشاركة» الذي تستشعره جماعة المسلمين على اختلاف اللغة أو الجنس، أو حتى الولاء الوطني أو السياسي، وقد يوجد مثل هذا الحس المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى، ولكنه لا يبلغ قوة «حس المشاركة» بين المسلمين. ثم فكرة العدل الذي ينبع من قاعدة المساواة بين الأفراد– وقد ذكرنا نماذج لذلك في ثنايا البحث– ويجيز التفاوت بينهم على أساس العمل،وفضائل الأعمال المتمثلة في التقوى، وهذه قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف، وهي أساس تماسك البنية الاجتماعية التي أرسى دعائمها الإسلام، وقد رأينا سماحة الإسلام مع غير المسلمين، ومعاهداتهم والوفاء بها، مع عدم التمييز على أساس من العنصر أو الدين أو المال، وذلك جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً – على مر العصور وحتى الآن – على أساس من التكافؤ والاندماج، ومهد لأن يكون نظام الحياة والحضارة في الإسلام نظاماً جامعاً رحباً، راسخاً في معاييره، التي لا يغيرها الزمن ولا تشكلها الظروف(١٠٠).

<u>ونخلص من خلال ماسبق إلى النتائج التالية:</u>

١ - قدرة الإسلام على تحقيق السلام العادل، بمعناه الحقيقي بين مختلف الأمم والشعوب.

٢ - أنّ العدل القائم على الحق أساس تحقيق السلام، وهو ما حققه الإسلام في تاريخه المجيد -نظرياً وعملياً-

٣ - المساواة أمام القانون للجميع إحدى الركائز الرئيسة، لتحقيق السلام الخاص والعام، فالكل أمام القانون سواء.

٤ - إنّ حرية وحقوق الإنسان عايشها المسلمون، ومن دخل في عهدهم من أهل الأديان الأخرى فترات طويلة من تاريخ الإسلام، مع حرص ولاة الأمر على تحقيق هذه المبادئ والقيم.

٥ - أنّ الإسلام سبق كافة الأمم، وحتى الأمم المعاصرة، في ميدان احترام الإنسان وحقوقه، في صراحة ووضوح، فلم تكن شعارات مرفوعة، لظروف معينة، بل كانت واقعاً معاشاً ودستوراً عاماً.

الهوامش

(١) ابن حنبل :أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني(ت٢٤١هـ):المسند، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، وآخرين،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م،١٤/١١٠وقد ذكره بلفظ..صالح الأخلاق ح ٨٩٥٢ ، الحاكم النيسابوري:أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (ت٤٠٥): المستدرك على الصحيحين في الحديث،دار المعرفة،بيروت،(د ط)١٤٠٦ هـ /١٩٨٦م، ٦١٣/٢ "نسخة مصورة عن ط القاهرة، البيهقي:أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ): السنن الكبرى، دار المعرفة،بيروت،(د ط)١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م،١٩١/١٠، ١٩٢ ، الهيثمي:أبو الحسن علي بن أبي بكر(ت٨٠٧هـ):كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة،تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط الأولى،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م،٣/٢٢٠"ح ٢٧٤٠".

(٢) محمد عبدالواحد أحمد : القيم الإسلامية ،بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية"التوجيه الاجتماعي في الإسلام"مطابع الدجوي،القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٣.

(٣) السَّلْمُ والسِّلْمُ: الصلح والأمان، والإسلام والسِّلْمُ: الخلوص من الشوائب.

انظر: المعجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية،القاهرة،ط٣،دت،ج١/ص٤٦٣.

(٤) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م،ص١٩٦.

(٥) سورة الأنفال: آية ٦١.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٠٨.

(٧) سورة الأنعام: آية ١٢٧.

(٨) سورة الحشر: آية ٢٣.

(٩) قال العراقي:أخرجه الخرائطي في "مكارم الأخلاق".وفيه ضعف،وهو من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ.انظر:أبا الفضل عبد الرحيم بن الحسين(ت٨٠٦هـ):المغني عن حمل الأسفار،تحقيق:أشرف عبد المقصود،مكتبة طبرية،الرياض،ط الأولى،١٤١٥هـ/١٩٩٥م،٢/٢٠٠.

(١٠) الهيثمي :كشف الأستار،٢٢٩/٢. "ح ١٨٩٦"من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(١١) انظر ،الغزالي: أبا حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ):إحياء علوم الدين ،تقديم:بدوي طبانة،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،(د ط)(د ت) ٢١٤/٢.

(١٢) سورة التوبة: آية ١١٩.

(١٣) سورة النساء: آية ٥٨.

(١٤) سورة المائدة: آية ٢.

(١٥) الإسلام هو الدين الوحيد الذي أنشأ لوناً من الحضارة عُرِف باسمه وهو: الحضارة الإسلامية على حين أن غيره من الديانات السماوية لم يبلغ هذه الدرجة، ولا هذا المستوى من الأثر الإنساني والتاريخي، فاليهودية مثلاً لم تنشأ عنها حضارة يهودية بالمفهوم الحديث للكلمة، وكذلك المسيحية لم تنشأ عنها أو تصاحبها

حضارة مسيحية ذات طابع مميز أو موحد، وكذلك المذاهب غير السماوية لم تقم لأي منها حضارة خاصة مميزة، وإن كان بعضها قد علق بحضارات أقدم منه أو معاصرة له.

انظر: سليمان حزين: مقومات الحضارة الإسلامية ،بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية،"التوجيه الاجتماعي في الإسلام"،مطابع الدجوي،القاهرة،١٣٩١هـ/١٩٧١م،ص ١٧.

(١٦) انظر نصوص بعض المعاهدات الواردة في هذا الشأن من خلال هذا البحث ص١٣، ١٤، ١٦.

(١٧) جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ،بحث منشور في المؤتمر الذي عُقد في القاهرة بمناسبة حلول القرن الخامس عشر للهجرة بعنوان:دراسات في الحضارة الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ص ٦٨.

(١٨) سورة القصص : آية ٧٧.

(١٩) سورة الكافرون : آية ٦.

(٢٠) سيد قطب : السلام العالمي والإسلام ،دار الشروق،القاهرة،ط١٥، ٢٠١٠م،ص ١٠٥.

(٢١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ،ترجمة:محمد عادل زعيتر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،(د ط)(د ت)ص ٤٣٠.

(٢٢) المقصود بالحروب الصليبية: الحروب التي دارت رحاها في بلاد الشرق الإسلامي، عقب صرخة البابا أوربان الثاني في مؤتمر كلير مونت سنة ١٠٩٥م، وتُعدُّ تلك الحروب من أكبر وأطول المواجهات العسكرية بين الغرب الأوروبي والمسلمين، فقد استمرت هذه الحروب مايقرب من قرنين في الفترة من ٤٨٨ : ٦٩٠هـ/١٠٩٥ : ١٢٩١م، ومع أن المدى الزمني لهذه الحروب غير محدد على وجه الدقة، إلا أنَّ الفترة الزمنية المحددة، لا تعني سوى الدور الحاسم والنشط لهذه الحروب.

انظر: سعيد عاشور : الحركة الصليبية "صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى"،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،ط٦، ٢٠٠٢م،ج١/ص٢٥. ، حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ،دار الفكر العربي،القاهرة،(د ط)١٩٨٥م،ص ٥.

(٢٣) لوثر ستودارد : حاضر العالم الإسلامي،ترجمة:عجاج نويهض،وتعليقات الأمير شكيب أرسلان،القاهرة،(د ط)١٣٥٢هـ،ص٣٤.

(٢٤) انظر: سير توماس آرنولد : الدعوة إلى الإسلام ،ترجمة:حسن إبراهيم حسن،وآخرين،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط٦،٢٠٠٤م،ص ٧٠، ٧٥-٨٢ وغيرها.

(٢٥) المذهب المكيافيللي: مذهب سياسي ظهر في أوروبا الغربية، صاحبه الإيطالي مكيافيللي"ت ١٥٢٧م" الذي يرى أنَّ الحاكم لابد أن يكون طاغية ومستبداً،ولا يمكن أن يكون غير ذلك إذا أراد أن يُحقق أهدافه،فلا يقيم وزناً لعهد قطعه على نفسه،أو وعداً التزم به،إذا كان الوفاء بالعهد يُعرضه للخطر،فالناس أشرار متاكيد لا يحترمون العهد،وهو-أي الحاكم – في حل من أن يتمسك بعهد أو وعد،والغاية تبرر الوسيلة القذرة أو مجموعة الوسائل القذرة التي يلجأ إليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة،فالقوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الأفراد فحسب،أما السياسة فلا مكان فيها للأخلاق ، ويجوز لمن يريد إنشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ إلى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة،وجميع الجرائم،ويرى

مكيافيللي أنّ الحاكم لاحرج عليه في أن يأثم في حق الدين والفضيلة الإنسانية ،فضلاً عن ذلك استخدم عبارات تنطوي على احتقار البشر،وسوء الظن بالإنسان ،وضمّن مكيافيللي هذه الآراء في كتابه"الأمير".
انظر: عبد العزيز محمد الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة ،١دار المعارف،القاهرة،ط الأولى،١٣٩٣هـ/١٩٦٩م،ص٥٤: ٥٨.

(٢٦) انظر: مختار القاضي : أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،القاهرة،(د ط)(د ت)ص ٥، ٦.

(٢٧) انظر:محمد عبد الله دراز: مبادىء القانون الدولي العام في الإسلام،مطبعة الأزهر(د ط)١٩٥٢م،ص ٢

(٢٨) انظر:محمد رأفت عثمان:الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام،دار الضياء،القاهرة،(د ط)(د ت) ص ٣٦، ٣٧

(٢٩) انظر:محمد عبد الله دراز: مبادىء القانون الدولي..،ص٢

(٣٠) محمد رأفت عثمان: الحقوق والواجبات...،ص٣٩

(٣١) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ١٩٧.

(٣٢) سورة التين : آية ٤..

(٣٣) سورة الإسراء : آية ٧٠.

(٣٤) سورة البقرة: آية ٢١.

(٣٥) سورة النساء :آية ١٧٤.

(٣٦) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ،بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية"التوجيه الاجتماعي في الإسلام"،مطابع الدجوي،القاهرة،١٣٩١هـ/١٩٧١،ص ٢٢.

(٣٧) هذا الحديث جزء من خطبة النبيﷺ في حجة الوداع، وأخرجه الإمام أحمد في "المسند"ج٣٨/ص١٢٠"ح٢٣٤٨٩"من طريق أبي نضرة،وقال الهيثمي :رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح انظر:الهيثمي:أبا الحسن علي بن أبي بكر(ت٨٠٧هـ):مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،دار الكتب العلمية،بيروت،(د ط)(د ت)"نسخة مصورة عن ط القاهرة،ج٣/ص٢٦٦ .

(٣٨) البخاري:أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي(ت٢٥٦هـ):الجامع الصحيح"صحيح البخاري"دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،(د ط)(د ت) " باب الحدود ".ج٣/ص١٢٠،"ح ٣٤٧٥، ٤٣٠٤"وفيه"أتكلمني في حد....،و٦٧٨٨،مسلم بن الحجاج القشيري(ت٢٦١هـ) الجامع الصحيح"صحيح مسلم"، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،دار الفكر،بيروت،ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م،ج٣/ص٢٠٠" ح١٦٨٨"،من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣٩) أبو يوسف القاضي:يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (ت١٨٢هـ): الخراج ،دار المعرفة،بيروت،(د ط)(د ت) ،ص٨٢،وأخرجه البخاري في: الجامع الصحيح ،ج٣/٣٠٠"ح٢٥٩٧، ٦٩٧٩، ٧١٧٤، ٧١٩٧"، ومسلم في :الجامع الصحيح،٢٣٣/٣" ح ١٨٣٢" من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٤٠) البلاذري:أحمد بن يحيى بن جابر(ت٢٧٩هـ):فتوح البلدان ،تحقيق:صلاح الدين المنجد،النهضة المصرية،القاهرة،(د ط)(د ت)ج ١/ص٢٥٧.

(٤١) ابن قتيبة الدينوري :أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت٢٧٦هـ): عيون الأخبار ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،(د ط)١٩٧٣م،ج ١/ص٥٣ ، والجدير بالذكر في هذه المسألة أن الإسلام لم يحجر على الملكيات الفردية والخاصة، ليلبي في النفس ميلها الفطري العميق إلى التملك، ولكن الإسلام وضع الحدود المنظمة لهذا الحق، بحيث لا يؤذي أحداً في معاش، وأن يكون سبيل ذلك طهارة العمل، وعدم إجحاف حقوق الآخرين.انظر:محمد أبو زهرة:المجتمع الإنساني في ظل الإسلام،ص٢٩

(٤٢) سورة النساء:آية١

(٤٣) سورة الحجرات : آية ١٣.

(٤٤) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني ....ص ٢٤.

(٤٥) سورة البقرة : آية ٢٥٦.

(٤٦) انظر: محمد أبوزهرة ،المجتمع الإنساني...،ص ٤٥.

(٤٧) أبو يوسف : الخراج ،ص ١٢٥ ، والحديث أخرجه"أبو داود":سليمان بن الأشعث السجستاني(ت٢٧٥هـ):السنن،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الكتب العلمية،بيروت،(د ط)(د ت)ج٣/ص٩٥، "ح٣٠٥٢"،و"البيهقي":السنن الكبرى،ج٩/ص٢٠٥.

(٤٨) أبو يوسف : الخراج ،ص ١٢٥.

(٤٩) وذلك من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الذي يتجلى في تحقيق مصالح العباد ورفع الأذى والفساد عنهم والمصالح التي يقررها الإسلام أساساً للتشريع، وتشتمل عليها الشريعة في نصوصها وكلياتها ترجع إلى المحافظة على خمسة أمور هي: المحافظة على النفس، والدين، والنسل، والعقل، والمال.
انظر: أبو زهرة : المجتمع الإنساني ....ص ٣٤ ، محمد عقله: الإسلام مقاصده وخصائصه ،مكتبة الرسالة،عمان،ط الأولى،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ص ١٠٦، وما بعدها.

(٥٠) عن معاني الحق في معاجم اللغة انظر: ابن منظور :أبا الفضل محمد بن مكرم(ت٧١١هـ): لسان العرب ، «مادة حق»تحقيق: محمد الحسيني:المطبعة الأميرية،القاهرة،١٣٠٨هـ/١٨٩٠م،ج ١١/ص٣٣٢ ، الفيروزابادي:مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي(ت٨١٧هـ) : القاموس المحيط ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،(د ط)،١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ٣/ ٢١٤"نسخة مصورة عن ط القاهرة" ، الزبيدي:أبا الفيض محمد بن محمد المرتضى(ت١٢٠٥هـ):تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق:عبد العليم الطحاوي، مصطفى حجازي، وزارة الإرشاد، الكويت، ط الأولى ١٩٦٨م، ١٩٨٧، ج٤/ ص١١٣، ج٢٥/ص١٦٦، ١٦٧.

(٥١) القرافي:أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (ت٦٨٤هـ):الفروق ،تونس،(د ط)١٣٠٢هـ،ج١/ص١٧٩.

(٥٢) محمد رأفت عثمان : الحقوق والواجبات....ص ١٢ ، وقد ذكر تعليقات العلامة قاسم الأنصاري على تعريف القرافي للحق، ورد عليه في ذلك.

(٥٣) الشاطبي:إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي(ت ٧٩٠هـ):الموافقات في أصول الأحكام،تعليق:عبد الله دراز،وابنه:محمد عبد الله دراز،المكتبة التجارية الكبرى ،القاهرة،(د ط)(د ت) ،ج٢/ص٢٧٠، ٢٧١.

(٥٤) ذكر محمد رأفت عثمان نقلاً عن عيسوي أحمد في: المدخل للفقه الإسلامي أنّ من يعبر عن الحق بالمصلحة يريد بها الأعم من المصلحة المادية، فالمصلحة عنده شاملة للمصلحة المادية كحق التملك، وللمصلحة المعنوية كحق حرية الرأي، وللمصلحة الاعتبارية الشرعية وهي التي ليس لها وجود إلا بإيجاب الشارع الحكيم كحق الطلاق وحق الحضانة.انظر:الحقوق والواجبات...،ص١٠

(٥٥) انظر:محمد رأفت عثمان: المرجع السابق،ص ١٤.

(٥٦) انظر: محمد رأفت عثمان :المرجع السابق، ص١٥.

(٥٧) عن معنى الواجب وما قيل فيه انظر: ابن منظور : لسان العرب ، «مادة وجب» ،ج ٢/ص٢٩٢ ، الفيروزابادي: القاموس المحيط ،ج١/ص١٣٥ ، الزبيدي : تاج العروس ، ج٤/ص٣٣٣.

(٥٨) انظر: محمد رأفت عثمان: الحقوق والواجبات ،ص ١٦.

(٥٩) الأصل في هذه القاعدة قول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» ومعناه: لا يجوز للمرء أن يضر أخاه ابتداءً، ولا جزاء، والضرار معناه: مقابلة الضرر بضرر، انظر: محمد عقلة : الإسلام مقاصده وخصائصه ، ٢٤،والحديث أخرجه "ابن ماجه":أبو عبد الله محمد بن يزيد(ت٢٧٥هـ): السنن،تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،المكتبة العلمية،بيروت،(د ط)(د ت)"نسخة مصورة عن ط البابي الحلبي،القاهرة"ج٣/ص١٥٩،" ح٢٣٤١" من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ،وأخرجه "الحاكم" في: المستدرك ،ج٢/ص٦٦،و"البيهقي"في :السنن الكبرى،ج٩/ص٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي

(٦٠) ورد في مصنف أبي داود عن سمرة بن جندب: أنه كان له نخل في حائط رجل من الأنصار، ومع الرجل أهله، فكان سمرة بن جندب يدخل إلى النخل، فيتأذى به الرجل، ويشق عليه، فطلب إليه أن يبيعها منه فأبى، فطلب أن يناقله فأبى، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فطلب إليه النبي ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال فهبها لي ولك كذا وكذا مزرعة فأبى، فقال رسول الله ﷺ: أنت مضار، ثم قال للأنصاري: اذهب فاقلع نخله.
القرطبي:أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي(ت٤٩٧هـ) : أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ،دار الوعي،حلب،ط١٤٠٢،٢هـ/١٩٨٢م،ص ١١٥، ١١٦.

(٦١) انظر: محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني ، ص١٢٠، ١٢١.

(٦٢) انظر: محمد رأفت عثمان : الحقوق والواجبات ،ص ١٨.

(٦٣) انظر: الشاطبي : الموافقات ،ج٢/ص٢٧٧ وما بعدها.

(٦٤) ذكرنا مبدأ العدالة على سبيل التمثيل، لا الحصر.

(٦٥) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني ،ص ٧٦.

(٦٦) سورة النحل : آية ٩٠.

(٦٧) سورة المائدة : آية ٨.

(٦٨) الحديث أخرجه كذلك"البخاري" في صحيحه"كتاب الإيمان"باب السلام من الإسلام،ورواه بعضهم عن"عمار ابن ياسر رضي الله عنهما عن النبيﷺ ،وقيل إنّ هذا من كلام عمار بن ياسر،وأخرجه البزار في مسنده،كما في كشف الأستار،ح ٣٠،مع اختلاف في ترتيب الأمور الثلاثة المذكورة،وقال البزار:رواه غير

واحد موقوفاً على عمار بن ياسر رضي الله عنهما،والسيوطي:جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ): الجامع الصغير في حديث البشير النذير،مطبعة الحلبي،القاهرة،(د ط)١٩٥٤م،ج ١/ص١٣٦،المناوي:عبد الرؤوف بن علي(ت١٠٣١هـ):فيض القدير شرح الجامع الصغير،دار المعرفة،بيروت،ط٢، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م،

(٦٩) انظر: محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني ،ص ٧٧.

(٧٠) انظر: محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني ،ص ٥٦.

(٧١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ،دار الفكر،القاهرة،ط الأولى،١٣٩٣هـ،ص ٧٧.

(٧٢) عن المؤاخاة انظر: ابن هشام:أبا محمد عبد الملك بن هشام: ،السيرة النبوية ،تحقيق:مصطفى السقا،وآخرين،مطبعة الحلبي،القاهرة،ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م،ج١/ص٥٠٤، ٥٠٥ ، ابن سعد:محمد بن سعد بن منيع البصري،المعروف بكاتب الواقدي،(ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى ،دار صادر،بيروت،(د ط)(د ت)ج٢/ص٤٥، البلاذري:أحمد بن يحي بن جابر(ت٢٧٩هـ): أنساب الأشراف ،تحقيق:محمد حميد الله،دار المعارف،القاهرة،(د ط)١٩٥٩م،ج١/ص٢٧٠.

(٧٣) إبراهيم شعوط، محمود محمد زيادة : الحقبة المثالية في الإسلام ،القاهرة،ط١٣٨٥،٢هـ/١٤٠٥م،ص ٥٩ ، صالح أحمد العلي : دولة الرسول في المدينة"دراسة في تكونها وتنظيمها"، "سلسلة تاريخ العرب والإسلام"،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت،ط٢٠٠٤،٢م،ص ٩٠.

(٧٤) الطبقات الكبرى ،ج١/ص٢٧٠.

(٧٥) سورة الأنفال : آية ٧٥.

(٧٦) سورة الحجرات : آية ١٠.

(٧٧) إبراهيم شعوط، محمود زيادة: الحقبة المثالية ، ٥٩ ، صالح العلي :دولة الرسول.."مرجع سابق"،ص ٩٤.

(٧٨) يتعاقلون: يدفعون الدية، العاقلة: الدية، وعاقلة الرجل: عصبته وهم الأقارب من جهة الأب الذين يشتركون في دفع ديته . انظر: المعجم الوسيط ،"مرجع سابق،ج٢/ص٦٣٩.

(٧٩) عانيهم: العاني: الأسير أي أسيرهم. انظر: المعجم الوسيط – ٦٥٧/٢.

(٨٠) مُفرحاً: المُفرَحُ : من أثقله الدين، ولا يجد قضاءه. انظر: المعجم الوسيط :ج٢/ص٧٠٤.

(٨١) عقل: دية. انظر: المعجم الوسيط ، ج٢/ص٦٣٩.

(٨٢) دسيعة: الدسيعة العطية الجزيلة. انظر: المعجم الوسيط ، ج١/ص٢٩٣.

(٨٣) انظر نص الصحيفة عند: ابن هشام – السيرة النبوية ، ج١/ص٥٠١، ٥٠٢ ، أبي عبيدة:القاسم بن سلام الهروي(ت٢٢٤هـ) : الأموال ،تحقيق:محمد حامد الفقي ،المكتبة التجارية الكبرى،القاهرة،(د ط) ١٣٥٣هـ،ص ٢٠٢–٢٠٥ ، وقد جمع محمد حميد الله هذه المعاهدات في كتابه: الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة،(د ط)١٩٥٦م،ص١٥.

(٨٤) سورة النساء : آية ٦٥.

(٨٥) عن فتح مكة وما قام به النبي ﷺ من العفو والتسامح انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ،ج٢/ص٤٠٩ ، الطبري:أبا جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك"تاريخ الطبري" ،اعتناء:أبي صهيب الكرمي،بيت الأفكار الدولية،الأردن،ط الأولى،(د ت) نسخة تامة في مجلد واحد،ص٤٣٢ ، ابن عبدالبر:

يوسف بن عبد البر القرطبي(ت٤٦٣هـ): الدرر في اختصار المغازي والسير،تحقيق:شوقي ضيف،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،القاهرة،(د ط) ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ،ص ٢٢٤ ، ابن الأثير:أبا الحسن علي بن محمد الجزري الشيباني(ت٦٣٠هـ):الكامل في التاريخ،اعتناء:أبي صهيب الكرمي،بيت الأفكار الدولية،الأردن،ط الأولى(د ت)"نسخة تامة في مجلد واحد"،ص ٢٥٤.

(٨٦) عن عام الوفود انظر: ابن هشام : السيرة النبوية ،ج٢/ص٥٦٠ ، اليعقوبي:أحمد بن إسحاق بن جعفر"ابن وضح"(ت٢٨٤هـ) :تاريخ اليعقوبي ،دار صادر،بيروت،(د ط)(د ت)،ج ٢/ص٧٩.

(٨٧) انظر نص الوثيقة عند: أبي يوسف: الخراج ،ص ٧٢، ٧٣ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢ج/ص٥٩٦.

(٨٨) انظر: أبا يوسف : الخراج ،ص٧٣.

(٨٩) راجع وصايا أبي بكر الصديق في هذا الشأن عند: الطبري : تاريخ ، ٤٩٤.

(٩٠) ومما جاء فيها: «هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ...» والدلالة واضحة من خلال النص الذي أثبت الأمن والحرية والحماية على النصارى وأموالهم وكنائسهم، وأولادهم. انظر نص عهد الأمان عند: الطبري : تاريخ ، ٦٢٩.

(٩١) سورة البقرة : آية ٢٠٨.

(٩٢) سورة الأنفال : آية ٦١.

(٩٣) سورة النساء : آية ٩٠.

(٩٤) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني.. ، ص٩١، ١١٤.

(٩٥) عن آداب الحرب عند المسلمين راجع وصايا الخلفاء للقادة عند: الطبري : تاريخ ،ص٤٩٤، ٦٢٩ ، محمد رأفت عثمان : الحقوق والواجبات ..،ص ١٩٠ وما بعدها.

(٩٦) عن معاهدات قادة الفتح الإسلامي مع أهالي البلاد المفتوحة. انظر: الطبري، ج٤/ص١٠٩، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٢-١٦٣.

(٩٧) فتوح البلدان ، ج١/ص١٦٢.

(٩٨) أبو يوسف : الخراج،ص ١٣٨، ١٣٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ،ج١/ص١٦٣.

(٩٩) الحديث أخرجه "الطبراني" سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي(ت٣٦٠هـ): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، وزارة الأوقاف، بغداد، ط٢ ،١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م، ج١٨/ص٢٨٠، والمعجم الأوسط، تحقيق : محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م،١٣ج/ص١٠٤، من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما،عن النبي ﷺ والعقيلي:أبو جعفر محمد بن عمرو(٣٢٢هـ): الضعفاء الكبير،تحقيق:عبد المعطي قلعجي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط الأولى،١٤٠٤هـ،١٩٨٤م،ج٣/ص٤٨٢،وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ج٩/ص٣٦:رواه الطبراني ،وأبويعلى بنحوه،وفي إسناد أبي يعلى:عطاء بن مسلم،وقد وثقه ابن حبان،وضعفه غيره،وبقية رجال أبي يعلى ثقات،وفي إسناد الطبراني من لا أعرفهم.

سليمان حزين : مقومات الحضارة الإسلامية ، ص٢٤، ٢٥

مصادر البحث ومراجعه

أولاً: المصــــادر

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد أبي الكرم الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
١- الكامل في التاريخ ، اعتنى بها: أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الأردن ،ط الأولى، (د.ت) نسخة تامة في مجلد واحد.
البخاري: الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ).
٢- الجامع الصحيح ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة (د.ت).
البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).
٣- أنساب الأشراف ، ج١ ، تحقيق :محمد حميد الله ، دار المعارف ، القاهرة،(د ط)، ١٩٥٩م.
٤- فتوح البلدان ، تحقيق: صلاح الدين المنجد ، النهضة المصرية ، القاهرة (د.ت).
البيهقي:أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي"ت٤٥٨هـ"
٥- السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
الحاكم النيسابوري:أبو عبد الله محمدبن عبد الله بن حمدويه"ت٤٠٥هـ"
٦- "المستدرك على الصحيحين في الحديث"، دار المعرفة،بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م"مصورة عن طبعة الهند".
ابن حنبل:الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني"ت٢٤١هـ"
٧- "المسند"، تحقيق:شعيب الأرنؤوط ،وآخرين،مؤسسة الرسالة،بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
أبو داود:سليمان بن الأشعث السجستاني"ت٢٧٥هـ"
٨- "السنن"،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الكتب العلمية،بيروت(د ت)
الزبيدي: أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ).
٩- تاج العروس من جواهر القاموس – ج٤ تحقيق: عبدالعليم الطحاوي ، ج٢٥ تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ،ط ١٩٦٨م، ١٩٨٧م.
ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري " المعروف بكاتب الواقدي " (ت ٢٣٠هـ).
١٠- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ،(د.ت).
السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
١١- الجامع الصغير في حديث البشير النذير ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، ١٩٥٤م.
الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي الغرناطي (ت ٧٩٠هـ).
١٢- الموافقات في أصول الأحكام ، تعليق: عبدالله دراز، وابنه محمد عبدالله دراز، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د.ت).
الطبراني:سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي"ت٣٦٠هـ"
١٣- المعجم الأوسط، تحقيق:محمود الطحان،مكتبة المعارف،الرياض، ط الأولى،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
١٤- المعجم الكبير– تحقيق:حمدي عبد المجيد السلفي،وزارة الأوقاف،بغداد، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

١٥- تاريخ الرسل والملوك ، اعتناء: أبي صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الأردن،الطبعة الأولى، (د.ت) «نسخة تامة في مجلد واحد».

ابن عبدالبر: يوسف بن عبدالبر النمري (ت ٤٦٣هـ).

١٦- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

أبو عبيد: القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ).

١٧- الأموال ، تحقيق: محمد حامد الفقي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ.

العراقي:الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين "ت٨٠٦هـ"

١٨- "المغني عن حمل الأسفار"، تحقيق:أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض،ط الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

العقيلي:أبو جعفر محمد بن عمرو"ت٣٢٢هـ"

١٩- "الضعفاء الكبير"تحقيق:عبد المعطي قلعجي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط الأولى١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد"ت٥٠٥هـ"

٢٠- إحياء علوم الدين، تقديم:بدوي طبانة،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة(د ت)

الفيروزابادي:مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي"ت٨١٧هـ"

٢١- القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،١٣٩٧هـ/١٩٧٧م"نسخة مصورة عن ط بولاق،القاهرة ١٣٠١هـ.

ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ).

٢٢- عيون الأخبار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

القرافي:أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن"ت٦٨٤هـ"

٢٣- الفروق، تونس،١٣٠٢هـ

القرطبي: أبو عبدالله محمد بن فرج المالكي (ت ٤٩٧هـ).

٢٤- أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دار الوعي ، حلب ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ.

ابن ماجه:أبو عبد الله محمد بن يزيد"ت٢٧٥هـ"

٢٥- "السنن"تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،المكتبة العلمية،بيروت، (د ط) (د ت)"نسخة مصورة عن ط البابي الحلبي-القاهرة.

مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ).

٢٦- الجامع الصحيح،تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،دار الفكر،بيروت،ط٢،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

المناوي:عبد الرؤوف بن علي"ت١٠٣١هـ"

٢٧- "فيض القدير شرح الجامع الصغير"،دار المعرفة، بيروت، ط٢ ١٣٩١هـ/١٩٧٢م"نسخة مصورة عن ط المكتبة التجارية، القاهرة،١٣٥٦هـ/١٩٣٦م.

ابن منظور:أبو الفضل محمد بن المكرم"ت٧١١هـ"

٢٨- لسان العرب. تحقيق:محمد الحسيني،المطبعة الأميرية،القاهرة،١٣٠٨هـ/١٨٩٠م

ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام (ت ٢١٨هـ).
٢٩- السيرة النبوية ، تحقيق: مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي – مطبعة الحلبي ، القاهرة ،ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
الهيثمي:أبو الحسن علي بن أبي بكر"ت٨٠٧هـ"
٣٠- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة،تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط الأولى،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٣١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،دار الكتب العلمية،بيروت(د ط)(د ت)"نسخة مصورة عن ط مكتبة القدسي،القاهرة.
اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر «ابن واضح» (ت ٢٨٤هـ).
٣٢- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.
أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (ت ١٨٢هـ).
٣٣- الخراج ، دار المعرفة ، بيروت(د ط)(د ت).

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

إبراهيم شعوط، محمود محمد زيادة.
١-الخلفية المثالية في الإسلام ، القاهرة ، ط٢، ١٣٨٥هـ.
سير توماس آرنولد.
٢-الدعوة إلى الإسلام.
ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين، واسماعيل النحراوي ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٤ ، ٢٠٠٦م.
جابر قميحة.
٣-المدخل إلى القيم الإسلامية.
بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة بمناسبة القرن الخامس الهجري، بعنوان: دراسات في الحضارة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
جوستاف لوبون.
٤-حضارة العرب.
ترجمة: محمد عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (د.ت).
حسن حبشي.
٥-الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،١٩٥٨م.
سعيد عبدالفتاح عاشور.
٦-الحركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى» ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٦ ، ٢٠٠٢م.
سليمان حزين.

٧-مقومات الحضارة الإسلامية ، بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجيه الاجتماعي في الإسلام» ، مطابع الدجوي ، القاهرة ، ١٣٩١هـ.

سيد قطب.

٨-السلام العالمي والإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١٥ ، ٢٠١٠م.

صالح أحمد العلي.

٩-دولة الرسول في المدينة «دراسة في تكونها وتنظيمها».

سلسلة تاريخ العرب والإسلام ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٤م.

عبد العزيز محمد الشناوي.

١٠- أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م

لوثروب ستودارد.

١١- حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة: عجاج نويهض، وتعليقات الأمير: شكيب أرسلان ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ.

محمد البهي.

١٢- منهج القرآن في تطوير المجتمع ، دار الفكر ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٣هـ

محمد حميد الله.

١٣- الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشد ، القاهرة ، ١٩٥٦م.

محمد رأفت عثمان.

١٤- الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، دار الضياء ، القاهرة (د.ت).

محمد أبو زهرة.

١٥- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام.

بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجيه الاجتماعي في الإسلام» – مطابع الدجوي ، القاهرة ، ج٢ ، ١٣٩١هـ.

محمد عبد الله دراز

١٦- مبادىء القانون الدولي العام في الإسلام،مطبعة الأزهر،القاهرة،١٩٥٢م

محمد عبدالواحد أحمد.

١٧- القيم الإسلامية.

بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة ، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

محمد عقله.

١٨- الإسلام مقاصده وخصائصه ، مكتبة الرسالة ، عمان ، ط الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

مختار القاضي.

١٩- أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة (د.ت).

٢٠- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط٣ ، (د.ت).

ناجي معروف.
٢١- أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة ،بيروت ، ط٣ ، ١٣٩٥هـ.

ملك حفني ناصف "باحثة البادية" ودورها في الحياة الاجتماعية المصرية (١٨٨٦ - ١٩١٨)

د. محمد عزيز محمد (*)

إن تاريخ الشخصيات المهمة قديما وحديثا ليس من حق البشرية تجاهله ؛ لأنه جزء من تاريخ البشرية في المجتمع والعصر الذى عاشت فيه لأن تلك العبقريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي ثمرة من ثمار هذا المجتمع إذ ذاك، فلا يجب أن نغفل الظروف المحيطة بالشخصية ؛ إذ أنها تؤثر في تحديد الشخصية وتشكيلها. ولعل أحد أسباب دراسة شخصية ملك حفنى ناصف " باحثة البادية " هو محاولة توضيح الفكرة التى انطبعت فى أذهان الناس عن غموض موقفها تجاه قضية المرأة وحريتها إلى درجة اتهام البعض بأنها كانت ضد تحرير المراة وأنها كان لها موقف متشدد تجاه المدنية الغربية وبمهاجمة كل ماهو غربى.

والواقع أنه قلما نجد إنسانا ضاعت حسناته مع سيئاته ولم تأخذ أعماله حقها فى الكتابات مثلما حدث لملك حفنى ناصف، وبالرغم مما أحيط بها فإننا لا ننكر أنها كانت إحدى رائدات الحركة النسائية فى مصر والعالم العربى. فلقد أهتمت ملك بقضية المرأة اهتماما كبيرا وبذلت كل الجهود للدفاع عن حقوقها على عكس اتهامات البعض لها فى هذا الشأن. فبعد دراسة واعية واستقراء مستفيض لتاريخ المرأة الطويل، ولمكانة المرأة فى الكتاب والسنة، ونقد وتحليل لكل الآراء التى تناولت هذه القضية،وقفت ملك تدافع عن بنات جنسها واضعة نصب عينيها القرآن والسنة.ولم تكن ملك أمرأة عادية تطالب بحقها فى المجتمع بل أنها رائدة وصاحبة فكر متميز، حيث كان لها القدرة على النقد وقوة الحجة ورؤية سديدة لكل ما تصدت له من قضايا فكرية واجتماعية.

لقد كانت ملك حفنى ناصف مسلمة مؤمنة شديدة التعلق بدينها ومن خلال الدين تكتب وتبحث وهى تستوحيه فى أدبها السياسى والاجتماعى والخلقى وأنها إذ تدعو المرأة الى النهوض وفك القيود فهى تريدها أن تفعل ذلك من خلال فهمها لجوهر الدين. وقد دخلت ملك فى تفاصيل أدق إذ بحثت فى مجال الزينة والأزياء فحددت مايجوز وما لايجوز أرتداؤه كذلك لاتبعد الدين عن السلوك اليومى وعلاقة المرأة بزوجها، لذلك اختلطت لديها العاطفة الدينية بالمعانى القومية والاجتماعية.

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب – جامعة سوهاج.

لقد كانت ملك حفني ناصف ناقدة، فكانت تنتقد كل ماتجده منافيا لمفهومها وذوقها وأن احتكاكها بجميع شرائح المجتمع وخصوصا النسائية منها، جعلها تتحسس في العمق المشاكل التي تبقى في الظل وقلما تطرح للبحث أو تتناولها أقلام الرجال، وهي لاتكتفي بدور الناقدة الواقفة بعيدا عن موضوع نقدها بل تتابع الرسالة وتقترح ماتراه مناسبا للإصلاح وتبديل الأوضاع من خلال قلمها. لقد تركز النقد الاجتماعي لملك على أحوال المرأة فنراها تضع قواعد لسلوك الزوجين كما أنها تعدد أسباب التعاسة الزوجية ووسائل علاجها.

إن ملك حفني ناصف لم تكن ناقدة فحسب بل إنها كانت مصلحة فهي لم توجه النقد في سبيل ذاته بل إنها تتوخى من ورائه تغيير الأحوال وإصلاح الأمور. إذا فغايتها صريحة وتحاول أن تكون عادلة فهي لاتنحيز للمرأة ضد الرجل أو العكس بل إنها تقف مع الحقيقة ومع الحالة الفضلى التي تسوق إليها من يخاطبهم وقد وجدت في الخطابة والكتابة الوسيلة الفضلى لشرح غايتها ورسم الطريق الجديد. في الواقع أن ملك حاولت أن ترسم معالم الطريق بل أنها سنت شرائع تتألف من عشرة بنود تضم في مجملها إصلاحات تربوية إذ أنها كانت مؤمنة بأن الأساس الصحيح يكمن في نواة التربية الصحيحة وتنطلق منه القاعدة التربوية فيما بعد لتحدد أقتراحاتها للإصلاح .

لاعجب بالتالي عندما اتجهت ملك حفني ناصف بأفكارها هذه، داعية الى الإصلاح وتحسين أوضاع المرأة والعائلة. وعلى الرغم مما قيل عنها في هذا الشأن فقد كانت الأجواء معدة بفضل مصلح رائد مهد للنهضة بكتابه الجرئ " تحرير المرأة " ثم أمسك بيدها ووقف في صفها فينصرها وهو يتطلع الى الغد ويتأمل صورة المجتمع الجديد الذى يدين له بالكثير إنه " قاسم أمين " ذلك الرجل الذى كان سباقا في كل ماقال وكل ماكتب.وتلتقى معه باحثة البادية في الكثير من أفكارها وآرائها خصوصا بوجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفرة لها كما يتفق المصلحان الرائدان في أرائهما حول تحسين شئون العائلة والأحوال الزوجية.

في هذا الجو وتلك الظروف نشأت ملك حفني ناصف متأثرة بظروف العصر الذى عاشت فيه وأحواله لتؤثر في ذلك المجتمع بأفكارها ومبادئها التي اتسمت بالعقل والرزانة بما يتفق مع ظروف ذلك المجتمع وطبيعته.

المولد والنشأة :

ولدت ملك حفني ناصف[١] بحي الجمالية بالقاهرة في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٦م.[٢] وملك هي ابنة الأديب والعالم اللغوى حفني بك ناصف، يقال إن ولادة ملك صادفت يوم زواج الأمير حسين كامل ([٣]). وكانت عروسه تدعى الأميرة ملك، لذلك سميت ملك بهذا الأسم الذى شاع في ذلك الحين ([٤]).

كان حفني ناصف (١٨٥٥ - ١٩١٩م) أديباً وشاعراً تتلمذ على يد جمال الدين الأفغاني وصاحب الشيخ محمد عبده ([٥]) وقاسم أمين. وكان حفني ناصف من محررى **صحيفة الوقائع المصرية**، كما كان يكتب في الأهرام واللطائف والجوانب

المصرية وغيرها من صحف هذا الزمان. وقد اشتغل حفنى ناصف بالقضايا الوطنية والاجتماعية، بجانب تخصصه الأساسى فى علوم اللغة وكان حفنى ناصف أستاذاً لجيل من المفكرين البارزين. وقد تخرج من مدرسة الأزهر، وعمل مدرساً فى مدرسة العميان والخرس، ثم انتدب للتدريس فى مدرسة الحقوق، ثم عين قاضياً، ثم مفتشاً للتعليم، وشارك فى تأسيس الكثير من الهيئات العلمية، وكان حفنى ناصف من مؤسسى الجامعة المصرية.وهوجزء من النخبة الفكرية التى حركت الحياة الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر، ودعت إلى الإصلاح، كان حفنى ناصف من المهتمين البارزين بقضايا المرأة كمدخل رئيسي للإصلاح، الأمر الذى نلمسه فى حياته الشخصية وعلاقاته بأبنائه وبناته، كما نلمسه فى حياته العامة. ففى خطبة له فى مدرسة للبنات قال " إن الله تعالى لما أوجد العالم جعل من كل شيء زوجين اثنين، وأوجد من كل نوع شكلين ليتم بذلك كمال الإبداع، ويحصل ما أراده الله سبحانه وتعالى من بقاء تلك الأنواع. والشريعة المقدسة إذ حثت على الاعتناء بشأن النساء، إلا أننا نرى أكثر الشرقيين متساهلين فى أمرهن صفحاً عن تربيتهن وتهذيبهن ويقول " الإنسان يتربى فى ثلاث من المدارس متتاليات مدرسة الأمهات، مدارس الفنون والمهن ثم مدرسة الزمان، وأسس هذه المدارس مدرسة الأمهات.، فينبغى تهذيبهن ليترشح الأبناء إلى إصلاح المعاش والمعاد وينهجوا من أول أمرهم مناهج الرشاد، وهذا هو سبب تأخر أبنائنا الشرقيين وتقدم أمثالهم من الغربيين." أما أم ملك فهى سنية عبد الكريم جلال (١٨٦٩-١٩٤٢م) وكانت حسب رواية ابنتها كوكب متعلمة، ليس تعليماً رسمياً لكنها تلقت فى بيتها ككثير من فتيات هذا العهد اللائى كن يتعلمن القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على أيدى معلمات فى المنازل. وكانت ملك هى الأخت الكبرى لسبع من البنات والبنين، البنات هن – بعد ملك – حنيفة (١٨٩٨-١٩٧٣م) وكوكب (١٩٠٥-١٩٦٥) والأولاد هم جلال الدين(١٨٨٩-١٩٦٠م) ومجد الدين(١٨٩١ – ١٩٧٨م) وعصام الدين (١٩٠٠-١٩٧٠م) وصلاح الدين(١٩٠٢-١٩٧٧م). وقد عمل جلال الدين محامياً ثم قاضياً، وكان مجد الدين أستاذاً بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وعمل فى المجلس الأعلى للآداب والفنون، وعملت حنيفة بالتدريس وتدرجت فى الوظائف إلى أن أصبحت مفتشة فى وزارة التعليم، ودرس عصام الدين الزراعة فى ألمانيا وعمل مدرساً وله مؤلفات عن تاريخ الأديان، وعمل صلاح الدين وكيلاً لوزارة الصحة. وسافرت كوكب عام ١٩٢٢م فى أول بعثة للبنات لدراسة الطب فى إنجلترا وعادت بعد عشر سنوات وأصبحت مديرة لإحدى المستشفيات (٦).

وهكذا نجد أن ملك حفنى ناصف قد نشأت فى منزل لها فيه – غير أبيها وأمها – ستة من الإخوة بينهم أختان كلهم يصغرونها، وكانت أمهم مريضة معتزلة، أغلب الوقت وأبوهم دائب العمل، فأحست ملك نحوهم جميعاً بمسئولية كبيرة ومبكرة. فلم تكن ملك فحسب أختاً كبرى لأشقائها الستة، بل كانت واقعياً وفى ظل مرض الأم واعتزالها

وانشغال الأب الدائم كما يقول شقيقها مجد الدين تمارس دور الأم لأشقائها الذين كانت ملك تكبرهم بما يتراوح بين ثلاث سنوات لأكبرهم وتسعة عشر عاماً لأصغرهم ([٧]).

من ناحية أخرى فقد أثر وجود ملك في هذا المنزل المؤمن بقضية العلم بشكل أصيل على طبيعة فكرها وعلى موقفها من الحياة، حيث كانت الفتيات في بيت حفني ناصف على قدم المساواة مع أشقائهم من الذكور في سلوك شتى مسالك المعرفة، وهو موقف لم يتخذه الأب نتيجة للتأثر بأفكار مستوردة، بقدر ما اتـخذه لكونه في ذاته رجل علم، مؤمنا بالإصلاح القائم على أحترام الذات والأصول. من هنا سنلمس فيما بعد، كيف كان الموقف الفكرى لملك حفنى ناصف في التعامل مع الغرب موقف يتميز بقدر كبير من الثقة بالذات والانفتاح والحوار البعيد عن الذوبان في الآخر. ومن هنا أثر ذلك على تعليمها. فبدأت ملك تعليمها في المرحلة الابتدائية في المدرسة السنية([٨]). وكان التعليم فيها في كل المواد باللغة الفرنسية.وكانت ملك حفني ناصف من خريجات الدفعة الأولى، وحصلت على الشهادة الابتدائية من تلك المدرسة عام ١٩٠٠ م([٩]). ثم التحقت ملك بعد ذلك بقسم المعلمات السنية، الذى تحول التعليم فيه جميعاً إلى اللغة الإنجليزية. وتفوقت ملك في هذه المرحلة الدراسية لتحصل في نهايتها على شهادة الدبلوم من المعلمات السنية عام ١٩٠٣م([١٠]). وقد تسلمت ملك هذه الشهادة عام ١٩٠٥، حيث إن نظام وزارة المعارف العمومية آنذاك " التربية والتعليم حاليا " كان ينص على أن لايتسلم شهادة الدبلوم هذه إلا من أمضى في التمرين على التدريس سنتين كاملتين، لتعمل ملك في ذات المدرسة في نفس العام، وهي لم تتعد التاسعة عشر من عمرها.([١١])

كان من المدرسين الذين تلقت ملك تعليمها على يديهم، وذاع صيتهم بعد ذلـك، "حسن صبرى" الذى أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد، والشيخ " أحمـد إبـراهيم " الـذى أصبح فيما بعد أستاذاً للشريعة بكلية الحقوق، ومن الأجانب كانت مس كـارتر، عميـد مفتشات اللغة الإنجليزية فيما بعد. ولقد درست ملك وتعلمت اللغات الثلاث (العربيـة – الانجليزية – الفرنسية). وكانت تستعين في دراساتها العربية بوالدها حفنـي ناصـف، وفي دراساتها الإنجليزية بأديبة إنجليزية من سيدات التربية تدعى مس جونسون، أمـا دراساتها الفرنسية فقد استعانت ملك بسيدة فرنسية تزوجت بمحام انجليزى في المحاكم المختلطة بالقاهرة، عرفت بمسز ديفونشير.وكانت ملك في مراحل تعليمهـا لكـل تلـك اللغات الثلاث تقتني أمهات الكتب وأكثرها ثراء لتقوم بقراءتها وتفحصها حتى تتقن تلك اللغات.([١٢])

بدأت ملك جهادها المبكر في بيت أبيها الصغير، وكانت تكرس أجازتها الصيفية لإعادة تنظيم البيت والقيام بكل ما يلزمه من حياكة وترتيب حتى تـوفر علـى أبيهـا، وكذلك إكمال ما ينقص من أدوات وإعداد ملابس العام لوالديها وإخواتها ومن يعملـون بالمنزل. كانت ملك تعلم إخواتها دون أن تشعرهم فتلقي عليهم في شكل حكايات ما كـان يدور حولها في المدرسة وما تصيبه من ألوان المعرفة، وتناولهم الكتب ليراجعوا عليها

ما حفظته منها، ثم تحاول أن تثير بينهم المنافسة فيمن يحفظ الشعر منهم أو تنظيمه فوسعت مداركهم. وكانت إذا غابت دائمة الاتصال بهم عن طريق المراسلة والتليفون فيما بعد، فكانت ملك لبيت أبيها ولأخواتها خير صديق وخير معين، وكانوا يحبونها كصديقة، فكان أصحابهم يرونهم يبكون طويلاً، عقب فراقها ويتهللون لحضورها. وكان من أحسن صفات ملك الحنان، فإنها كانت تحب والدها لدرجة التضحية، فكان إذا مرض مرضت له وإذا سافر قامت مقامه.([١٣]) هذا الدور الرعوى، كانت ملك تمارسه فى دوائر أوسع من أسرتها ومن أجل إصرار ملك في القضاء على العادات والتقاليد الجامدة التى حرمت الفتيات من التعليم، كانت ملك تزور بيوت أصحابها ومعارفها، وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهن إلى المدرسة السنية، على أن ترعى ملك أولئك الصغيرات رعاية خاصة. وبذلك دخل هذه المدرسة فى عهد ملك كثيرات ممن كانوا أهلهن يبقيهن فى البيت، أو يؤثرن إرسالهن إلى المدارس الأجنبية، التي كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئاً من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأن نشأة أجنبية بحتة.

كان تعليم البنات فى عهدها موضع التعيير الجائرمن السواد الأعظم من الناس، إلا أن ملك كانت تقرأ عن مشاهير النساء فى الإسلام، وكذلك في المراجع التي كانت تطلبها من أبيها، للاستزاده من دروس هذه البطولات مع البطولات النسائية المماثلة فى الأدب الغربى، فشعرت ملك أن عليها أن تعد نفسها لرسالة جليلة، وهى محاربة العادات والتقاليدالظالمة التى تحط من شأن المرأة، وأن تقيم بالعلم والإصلاح منارة للمرأة المصرية والعربية المسلمة لتنفض عنها غبار الجهل والتخلف([١٤]).

وعندما نجحت ملك فى الشهادات الدراسية، عملت فى القسم العالى الذى تخرجت فيه، ونظمت فى صغرها شعراً نشرته الجرائد، لتشجع الآباء. فلقد كان لشخصيتها العطوفة التى ميزتها كأم ومعلمة بين أخواتها وبين تلميذاتها، أثره فى أن تكتسب ملك يوماً بعد يوم مزيداً من الحب والثقة، حتى أن ارتباط بعض التلميذات بالمدرسة كان كأنه ارتباط بها نفسها للدرجة التى دفعت بعضاً من الطالبات بلغ عددهن نحو ٧٥ "خمس وسبعين " طالبة، إلى ترك المدرسة عندما تركتها ملك عقب زواجها عام ١٩٠٧م من عبدالستار الباسل الذى رفض استمرارها فى العمل وأن ترحل معه إلى الفيوم([١٥]).

وعندما تزوجت ملك حفنى ناصف([١٦])، وانتقلت إلى قصرالباسل بالفيوم،تجولت بين الأعراب وجدتهم فى حالة بدائية لا يعرفون العلم ولا النظافة ولا الصحة،ولا الإنسانية، إلا بالسماع، ولمست فيهم البؤس والفساد والرجعية،كما لمست عظم تأخر المرأة وظلم الرجل وأنانيته، ولم يكن أمامها إلا أن تختار أحد أمرين إما اليأس والقعود والاستسلام، وإما الأمل والنهوض والكفاح، فأختارت الأمر الثانى،وارتضت التضحية الكاملة كشأن الأحرار من أصحاب المبادئ والأفكار. وأضطرت ملك بعد ذلك إلى إرسال بنيهم وبناتهم إلى بعض مدارس الفيوم والقاهرة وإلى إعطاء المتخلفين منهم الفرصة

في مكتب بالقرية وفي عنايتها بصحبتهم وملبسهم وتغذيتهم، ورفع مستواهم بما كانت تقوم به شخصياً دون عون(١٧).

وقد أسست ملك حفني ناصف، اتحاد النساء التهذيبي، وكان يضم كثيراً من السيدات من مصر والبلاد العربية الأخرى، وكذلك بعض الأجنبيات، وكان هذا الاتحاد مصدر توجيه للسيدات والفتيات ومركز إشعاع لهن .كما أسست ملك حفني ناصف جمعية للتمريض على غرار الصليب الأحمر (تأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل) لإرسال الأدوية والأغطية والملابس والأغذيةإلى الجهات المنكوبة بمصر، وإلى البلاد العربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك.وعلى أثر الاحتلال الإيطالي لليبيا عام ١٩١١م، زاد نشاط هذه الجمعية، نتيجة للمجازر التي ارتكبها الاحتلال الإيطالي، ضد أهالي طرابلس الغرب، واشتد بهؤلاء الأهالي الحاجة إلى المؤن والذاد،حيث جمعت ملك حفني كثيراً من التبرعات لمنكوبي طرابلس(١٨). ويذكر في هذا الصدد أن ملك حفني ناصف قد خاطت بيديها مائة بدلة للجرحى هناك في ليبيا، فلما سئلت عن ذلك، ولماذا لا تؤجر من يخيط تلك الملابس، أجابت " يُحسن أن نحس ببعض التعب ليزداد شعورنا بالواجب تجاه أهالينا في طرابلس الغرب"(١٩) أيضاأسست ملك حفني ناصف، مدرسة حديثة لتعليم السيدات مهنة التمريض، ولقد أنشأت ملك هذه المدرسة في منزلها، الكائن حينئذ في شارع أفراح الأنجال بالمنيرة، وعلى حسابها الخاص، بما في ذلك الأدوات الضرورية، ومكافآت المدرسات والعاملات. وكانت ملك في هذه الجمعيات تسند رئاستها إلى غيرها كحرم على باشا شعراوي لتبعد نفسها عن المنافسة وتتفرغ للعمل التطوعي في المجالات الأخرى(٢٠). كماوضعت ملك حفني ناصف برنامجاً لمشغل للفتيات، وملجأ للمعوزات بالفيوم، وكانت ملك حفني ناصف تملك خمسة وثلاثين فداناً بالفيوم، اشترتها بحرمالها الذي أدخرته، مما أخذته من والدها، ومن بيع الجواهر التي أهدتها إليها بعض الأميرات والمصريات الكبيرات. وقررت ملك أن تهب هذه المساحة من الأرض للمشغل والملجأ معاً. وقد آل نصف هذه الأرض مع كل ما تبقى لديها من مصوغات إلى زوجها عبد الستار الباسل الذي كان يملك وحده ألفين من الأفدنة. وإذا كانت ملك حفني ناصف قد حققت كثيراً من أهدافها وطموحاتها فإنها لم تستكمل تحقيق هدفها وطموحها في أستكمال إنشاء ذلك المشغل والملجأ، لأن الموت دهمها وهي في ربيع شبابها في الثانية والثلاثين من عمرها(٢١).

تعد ملك حفني ناصف، بحق واضعة الحجر الأساسي للنهضة النسائية في مصر، وقد استفادت من الجهود التي بذلها رواد تحرير المرأة من الرجال المدافعين عن المرأة وفي مقدمتهم قاسم أمين، كما كانت ملك حفني ناصف من أشهر خطيبات ذلك الزمن، حيث نجحت ملك في تجميع النساء حولها، وخطبت فيهن لتوعيتهم، وحثهن على المطالبة بحقوقهن، وكانت ملك تنادي بالتعليم الإلزامي في المرحلة الأولى، وفتح آفاق العلم أمام الفتاة ومساواتها بالفتى، كما كانت ملك تناشد الرجال أن يعزفوا عن الأساليب

الرجعية والتزمت فى معاملة نسائهم، حتى يستطعن تنشئة الأجيال الجديدة على الحرية والمساواة فيما بينهم([٢٢]).

ولقد كان ارتباط زوجها بحزب الأمة – حيث كان أحد مؤسسيه – قد أتاح لها ذلك فرصة استخدام نادى الحزب، حيث بدأت أولى محاضراتها عام ١٩٠٩م فيما يعتبر أحد أكبر التجمعات الجماهيرية للنساء فى ذلك الوقت، إذ كانت مئات السيدات يتواجدن فى النادى لسماع خطبتها ([٢٣]). وفى عام ١٩١١م، عندما دعى محمد سعيد باشا – رئيس النظار حينئذ – إلى عقد المؤتمر المصرى الأول([٢٤])، بحضور جميع طوائف القطر المصرى، لبحث مختلف الإصلاحات والتوجيهات، التى يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها، وكان هذا فى واقع الأمر، أول برلمان مصرى، يمثل الأمة تمثيلاً حقيقياً، ويبحث حاجاتها بحثاً مدروساً مفصلاً شاملاً لكافة الأمور والإحصاءات.اختيرت سينما روكسى بمصر الجديدة مقراً لعقد هذا المؤتمر، ولم يكن هناك تمثيل للمرأة، لذا بادرت ملك حفنى ناصف، بتقديم خطبة للمؤتمر بعنوان " التقدم للمرأة المصرية،متضمنة برنامجا لإصلاح حال الأمة حيث قالت " لوكان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية":([٢٥]).

المادة الأولى : حق البنات فى تعليم الدين والقرآن والسنة النبوية الشريفة.

المادة الثانية: جعل التعليم الابتدائى إلزاميا للبنات والسماح لهن بالتعليم الثانوى.

المادة الثالثة : تعليم البنات التدبير المنزلى علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والاسعافات الوقتية

المادة الرابعة: تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله،وكذلك فن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء وحاجاتهن.

المادة الخامسة :إطلاق الحرية فى تعليم العلوم العالية لمن تريد منهن.

المادة السادسة: تعويد البنات من صغرهن الصدق فى القول، والجد فى العمل، وغير ذلك من الفضائل.

المادة السابعة : اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة، فلا يتزوج إثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

المادة الثامنة : اتباع عادة نساء الأتراك بالآستانة فى الحجاب والخروج.

المادة التاسعة : ضرورة حماية مصالح الوطن.

المادة العاشرة : على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أن مطالب ملك هذه، كانت فى الحقيقة تعبيراً عن الأفكار التى حوتها الصحافة النسائية، على مدى عقدين من الزمان. وقد تمت مناقشة هذه المطالب فى اليوم الأخير من انعقاد هذا المؤتمر.([٢٦])

وقد أثارخطاب ملك هذا، ردود فعل فى المجتمع المصرى، فقد تناولـه الكتـاب بالشرح والنقد والتحليل، وقررت بعض فقراته فى مادة النصوص الأدبيـة بالمـدارس الثانوية([٢٧]).

على أية حال فإننا نلحظ فى خطاب ملك حفنى ناصف، أنها قد نهجـت نهجـاً ذا صبغة اجتماعية أساساً فى الإصلاح، ولمست قضايا تتعلق بمسائل الهوية فيما يتعلـق بالتفاعل بين المجتمع والثقافة الوطنية والوافدة والمواطنة (فيما يتعلق بحقوق المرأة فى التعليم والعمل)، وإعادة ترتيب علاقات السلطة داخل العائلات. وقد بدأ ذلك واضحـاً فى مقالاتها التى نشرت فى الجريدة تحت اسم " النسـائيات " أو فـى البرنـامج الـذى وضعته لإصلاح حال المرأة وأعلنته أمام مؤتمر عام متضمناً فيما تضمن تعلـيم البنـات التعليم الابتدائى والثانوى، وجعل التعليم الابتدائى إجبارياً فى كل الطبقات، وتخـصيص عدد من البنات لتعليم الطب، والحث على أن تذهب النساء سواء فى المدن أو فى القرى لحضور الصلاة وسماع الوعاظ، وأن يضمن للمرأة حرية التـصرف بالمـال، وحريـة الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان، وأن يكفل لها حرية الرأى وحريـة التعبيـر. كذلك كانت ملك على وعى بطبيعة السلطة وعلاقتها داخل المنزل وخارجه، فدعت الأباء والأزواج لنبذ الاستبداد، حتى تنشأ الأجيال الجديدة محبة للاستقلال والدستورعلى حـد تعبيرها. بل إنها فى دعوتها لقضايا اجتماعية، مثل العزوف عن التقاليد الغربيـة فـى البيوت، وتوجيه المصريين إلى الاقتران بالمصريات لا بالأجنبيات، أشارت إلى أن هـذا فى حد ذاته نوع من كبح طغيان المد الاستعمارى من أن ينتشر داخل البيوت ومـن ثـم داخل الأمة ككل ورغم أن ملك عاشت وعايشت فترة المد الـوطنى فـى بدايـة القـرن العشرين وعاصرت مصطفى كامل مثل هدى شعراوى، إلا أننا نلحظ فى كتاباتها عزوفاً عن الخوض فى تفاصيل الحالة السياسية بمفرداتها التقليدية(الأحزاب – الانتخابـات)، فقط كانت دعوتها العامة نحو المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان.

وقد أكد هذا شقيقها مجد الدين حفنى ناصف حيث قال " وهى أصلاً لا تكتب فـى السياسة ولا فى الحماسة، ولكن قلمها كلما دعى إليهما يلبى فى قوة وإقدام"([٢٨]). فعندما حاولت سلطات الاحتلال الإنجليزى، ضرب الوحدة الوطنية المصرية، بإشعال الخلاف بين المسلمين والأقباط، باختيار بطرس غالى باشا رئيسا للحكومة المـصرية([٢٩])، قابلـت الصحف المصرية ذلك بمعارضة شديدة،مما دفع سلطات الاحـتلال إلـى إعـادة العمل "بقانون المطبوعات"([٣٠]) لفرض الرقابة على الصحف "وردع الجرائـد التـى تجـاوزت الحدود" كما يدعون، فقامت ثورة احتجاج على إعادة العمل بهذا القانون، شاركت فيهـا المرأة المصرية بكتاباتها فى الصحف والمجلات، وكان فى مقدمة هـؤلاء ملـك حفنـى ناصف، حيث عارضت ملك هذا القانون. وقد أوضحت ملك أنه إذا كان هدف الحكومـة معاقبة الصحفيين "المتهورين"، فإن فى قانون العقوبات مايكفى من مواد تعطى للحكومة الحق فى معاقبة الصحف "المتهورة " ورأت ملك أن عدم استعمال الحكومة "حينئذ" لهذا

القانون أدى إلى فوضى الصحافة وأنه مع مرور الوقت اعتقدت –أى الصحافة – أنها فوق القانون. ونتيجة لتنفيذ قانون المطبوعات أعلنت ملك أستياءها من هذا القانون، حيث رأت فيه ملك قتل لحرية التعبيرعن الرأى. ثم طالبت ملك بالغاء ذلك القانون.وقد نشرت ملك قصيدة تهاجم فيها هذا القانون جاء فى بعض أبياتها : (٣١)

ستسلبون غداً أغلى نفائسكم حريـة ضـاع فى تحصيلها العمر
حريـة طالمـا منوا بها كذباً على بنى النيل فى الآفاق وافتخروا
أتصبرون وهذه بـدء بطشهم وأول الغيـث قطـر ثم ينهمـر

عدا ذلك لا نجد تفسيرا دقيقا لهذا الموقف، الذى انتهجته ملك حفنى ناصف، فى عزوفها عن الخوض فى قضايا من قبيل حقوق المرأة السياسية بشكل مفصل. وربما تجدر الإشارة هنا إلى ما أورده مجد الدين حفنى ناصف فى طبعة عام ١٩٦٢م من كتاب " آثار باحثة البادية " من أن الشيخ أحمد السكندرى فى كتابه " الوسيط فى الأدب العربى " حيث قال " إنها بدأت تضع كتاباً فى حقوق المرأة، أنجزت منه ثلاثة مقالات، الأولى فى المقارنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة الغربية والثانية فى حقوق المرأة المالية ، والثالثة فى حقوق المرأة السياسية خاصة فيما يتعلق بحقوقهاالانتخابية. والحق أن مجد الدين حفنى ناصف لم يذكر أنه عثر على مخطوطة هذا الكتاب، ولم يعلق على ما نقله عن الشيخ " أحمد السكندرى " فى هذا الشأن. لكن إذا صح هذا الأمر، فإن ملـك كانت على وشك الخوض فى قضايا أكثر تفصيلاً، فيما يتعلـق بحقـوق المـرأة الاقتصادية والسياسية مثل حق الانتخاب وتولى الوظائف العامة، ولكن القدر لم يمهلها. (٣٢)

ملك حفنى ناصف فى المحافل الدولية :

كانت ملك حفنى ناصف تمتاز بثقافتها العربية العريضة، وإجادتها فـى الوقـت ذاته اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وسعة اطلاعها على كثير مما كتب فى الموضـوعات الاجتماعية (٣٣)، لذلك لم تقتصر جهودها فى الدفاع عن قضايا المـرأة علـى الصعيد المحلى، بل إنها بذلت جهوداً مضنية فى سبيل إعلاء شأن المـرأة العربيـة والمسلمة للرفع من قدرها بين مختلف دول العالم فقد راسلت ملك حفنى ناصف أميرة " بهوبـال " المسلمة بالهند وهى سيدة كانت لها رؤيتها الإصلاحية الواضحة المرتكزة إلـى أسـس إسلامية والتى لمسها أحد المسئولين الإنجليز. وهو السير ريتشارد وود وضـمنها فـى تقرير رسمى نشرته الحكومة الإنجليزية. وقد قدمت ملك لها المشاريع لرفـع مـستوى المرأة هناك، مبتدئة بتعليم الفتيات المسلمات. وكانت ملك تنـوى الـسفر إلـى الهند للإشراف على تنفيذ ذلك المشروع ولكن المنية عاجلتها.كذلك راسلت ملك حفنى ناصف السيدة " خالدة أديب " التركية التى أصبحت فيما بعد أول وزيرة فى الـبلاد الإسـلامية الحديثة، إذ اختارها كمال أتاتورك وزيرة للمعارف العمومية " التربية والتعليم الآن " فى أول وزارة شكلها أتاتورك. وعلى أثر إعلان الدستور العثمانى وعـزل الـسلطان عبد الحميد، قامت ملك بزيارة تركيا لتلتقى بخالدة أديب فى أسطنبول، وتباحثت وإياها فـى سبل رفع شأن المرأة المسلمة وعن طريقها نشرت ملك حفنـى ناصـف سلـسلة مـن

المقالات فى هذا الشأن فى جريدة "جون تورك" "تركيا الفتاة". أيضا أستضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الإنجليزية مسز " شارلوت كمرون " وتباحثا معا فى سبيل رفع شأن المرأة. وبعد هذه المباحثات قامت تلك الكاتبة بتأليف كتابها " شتاء إمرأة فى إفريقيا " Awoman,s Winter inafrica وخصصت تلك الكاتبة فصلاً بعنوان " قناة السويس " دافعت فيه عن المرأة المسلمة، كما أوضحت لها ملك حفنى ناصف فى مباحثاتها معها. وقد أعجبت تلك السيدة الإنجليزية ببلاغة ملك حفنى وفصاحتها وسعة اطلاعها وثقافتها المتنوعة، فقالت عنها فى كتابها المشار إليه " إنها لتناقشك فى فلسفة دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب " وظلت علاقة ملك حفنى ناصف بمسز شارلوت كمرون فيما بعد بالمراسلة. (٣٤) كما استضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الأمريكية " اليزابيث كوبر "بعد زيارتها لمصر وفى مقابلة ملك لها تباحثا فى شئون المرأة وسبل رفع شأنها وقدرها، وقد شجعتها ملك على تأليف كتاب أسمته " المرأة المصرية " The Egyptian Woman أهدته إلى ملك ونشرته فى أمريكا وإنجلترا، وسائر البلاد التى تتحدث بالإنجليزية. وظلت ملك حفنى تبذل جهودها فى هذا السبيل لصالح المرأة المصرية والعربية المسلمة حتى أصبحت ملك معروفة فى الصحافة الأمريكية.(35) كما التقت ملك حفنى ناصف بالسيدة " ديفو نشير" الفرنسية التى كانت متزوجة من محامى مصرى يعمل لدى المحاكم المختلطة بالقاهرة. وبعد وفاته أنتقلت هذه السيدة الفرنسية إلى العمل فى إحدى شركات السياحة الكبرى، وفى مقابلتها لملك حفنى تباحثا فى شئون المرأة والوسائل التى يجب اتباعها للاهتمام بالمرأة وإعلاء قدرها. وكانت ملك شغوفة بأدبها الفرنسى وثقافتها العالية، وعن طريقها تعرفت ملك على السائحات الأجنبيات النابهات، حيث كانت ملك حفنى ناصف تدعوهن وتمحو ما فى ذهنهن من تشويش فى عقولهن ضد المرأة الشرقية بصفة عامة. وكانت كثيرات من أولئك يكتبن عن ملك فى بلادهن الكثير من المقالات، وألقين هناك المحاضرات عن ملك كنموذج للمرأة العصرية المثقفة الواعية المجاهدة فى سبيل رفعة شأن المرأة العربية والمسلمة.

ويذكر فى هذا الصدد، أن ملك حفنى ناصف وهى فى قمة توهجها الأدبى ونشاطها فى المحافل الدولية، يحاول حمد الباسل(٣٦) شقيق زوجها منعها من الكتابة، ونشرها مقالاتها، وأشعارها فى الصحف، بحجة أنه يخشى عليها من الغزل، ولكنها تنفيذاً لما قالته "عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية، ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد، وإن كان تنفيذه شاقاً ". لذلك أخذت ملك تكتب تحت اسمها المستعار وهو "باحثة البادية ".

ملك حفنى ناصف وتحرير المرأة :

لقد اتسمت خطوات ملك من أجل إصلاح أحوال المرأة وإعطائها مزيداً من الحرية، بالهدوء الفكرى، والاستناد إلى المنطق والعقل فى آرائها مع شيىء من التحفظ فى منح الحرية للمرأة، إلى درجة أن بعض المفكرين قد اتهمها بأنها ضد حرية المرأة

(٣٧). وذلك لأن العاطفة الدينية كانت مختلطة عندها بالمعـاني القوميـة والاجتماعيـة، فدائماً ما كانت تربط آرائها الإصلاحية، بالنواحي الدينية، مما دفع البعض إلى القـول " أنه لا ينقصها سوى العمة لتصير شيخاً، وأنها حيث تكتب لا تفارقها آثار الدين ونزعات الوطنية، والشرقية، والعروبة "(٣٨).

لقد كانت ملك تنادى باتباع الوسطية فى التعامل مع حقوق المـرأة وحريتهـا. وكانت من المنادين أيضاً بمنح الحرية للمرأة تدريجياً حتى لا ينهار السلم الاجتمـاعى، ويواجه ذلك الإصلاح بالمقاومة الشديدة فى مجتمع شرقى محافظ، فيحدث مـا لا تحمد عقباه. وهذا كان واضحاً فى مواقف ملك فى قضايا تحرير المـرأة مثـل موقفهـا مـن الحجاب والسفور، وموقفها من الحضارة الغربية. ولكن ملك كانت أكثر وضوحاً ودفاعـاً عن حق المرأة فى قضايا العمل والتصدى لاستبداد الرجل وعنفه ضد المرأة.

موقف ملك حفنى ناصف من انحطاط شأن المرأة فى المجتمع وأسباب ذلك :

لم تكتف ملك حفنى ناصف بالدفاع عن قضية تعليم المرأة بل أنها كانت رائدة ضمن رواد وقادة حركة الأصلاح الاجتماعى وصاحبة برنامج خاص حيث حملت كل كتاباتها موجة عارمة من الانتقادات لما كانت تراه من مفاسد فى مجتمعها وخاصة أنها كانت ترى أن المرأة جاهلة خاملة وحياتها منصرفة الى الامور السطحية والاسراف فى المظهر دون الاشتراك الفعال فى النواحى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. كما أنها رأت الرجال من جانبهم لايحترمون المرأة ويعاملنها بأنانية وتسلط وتحمل ملك الرجال تبعات أعمالهم وأفعالهم.

وقد أرجعت ملك أسباب انحطاط شأن المرأة فى المجتمع إلى : -

١- تسلط الرجل وازدواجيته :-

أرجعت ملك حفنى ناصف أسباب أنحطاط شأن المرأة المصرية والعربيـة، إلـى مدى تسلط الرجل بالمرأة فتقول " إننا معشر النسـاء لا يـزال ظلـم الرجـل يرهقنـا، واستبداده يأمر وينهى... إذا أمرنا الرجل أن نحتجب أحتجبنا، وإذا صـاح الآن يطلـب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا، فهل هو حسن النية فى كـل مـا يطلـب منـا ولأجلنا، أم هو يريد بنا شراً... على الرجل أن يدعنا نمحص آراءه، ونختـار أرشـدها، ولا يستبد فى تحريرنا " كما استبد فى " استعبادنا " إننا سئمنا استبداده، إننا لا نخـاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه "(٣٩).

دأبت ملك على توجيه سهام نقدها للرجال والنفاق الاجتماعى الذى يمارسـونه ضد المرأة بتمييزهم بين المرأة الوطنية والمرأة الأجنبيـة، وإدعـاءات التمدن التـى يروجونها ولا ينفذونها(٤٠). وتهاجم ملك حفنى ناصف ازدواجية الرجـل الـشرقى فـى تعامله مع المرأة الشرقية من ناحية والمرأة الغربية من ناحية أخرى، فترى أن أغلـب رجالنا الذين زاروا البلاد المتمدينة، رأوا كيف يحترم الرجل الأوروبى زوجته.. فعـادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة، ويصرحون بأنهم من أنصارها. ولكن لا يلبـث أن يـذهب

كلامهم فى الهواء لأنهم إذا اجتمعوا بسائحة أفرنجية أو امرأة غربية، تلطفوا لها كثيراً، فساعدوها فى النزول من عربتها، وأمسكوا لها حقيبتها، ورفعوا لها الطرابيش إجلالا لها. فى حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته فى عربة واحدة إذا سافرت أو انتقلت إلى مكان آخر تركها ونفسها، كأنه لم يكن هو صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة، النقد نفسه توجهه ملك للمتعلمين والمتدينين الذين تبقى نساؤهم فى حال من الجهل وسوءالخلق، دون أن يهتموا بتغيير هذا الحال الفاسد داخل بيوتهم، وهم يدعون الإصلاح خارجه.(٤١)

وترجع ملك حفنى ناصف المساوئ التى تظهر فى المرأة إلى استبداد الرجل، لأن المرأة تقوم بتقليد الرجل، ولهذا فهى تطالب الرجال بضرورة إصلاح أحوالهم، حتى تنصلح أحوال السيدات، فتقول للرجال " إذا كانت فيكم بقية غيرة وحمية، وتحبون وطنكم كما تدعون، فأصلحوا أحوالكم تنصلح نساؤكم وسنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها يوم الدين.... واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم. فإن كنت أيها الرجل عاقلا فلتكن زوجتك مثلك وإن كنت خليعا فامرأتك خليعة وإن أسرفت أسرفت وإن فترت فترت وهذا بحكم المعاشرة فى الخلق والعادة بالطبع ولإرضاء الزوج من جهة أخرى"(٤٢).

وفى اعتقاد ملك حفنى ناصف أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له فى جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة الند للند، أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم، لا معاملة السيد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذى يشكوه، ولأطاعته حبا فيه لا خوفاً منه،ولا يجهل أن الاستبداد يأتى بعكس المراد.

وفى هذا الصدد يذكر أن ملك حفنى ناصف قد واجهت صعاب عديدة مع زوجها عبد الستار الباسل، وهذا يتضح من كلام أخيها مجد الدين عن حياتها فيقول " بانقضاء شهر العسل، انقضت فرحة ملك مع عبد الستار الباسل، لأنها علمت سبقه الزواج بأخرى وهى ابنة عمه ولها منه بنت وحيدة، ولم ينجب عبد الستار الباسل من ملك مما دعاه إلى إجراء عملية جراحية لملك بدعوى ضرورة إنجاب الولد ليرثه. ولكنها أضرت ملك طوال حياتها.(٤٣) اجتمعت لملك حينذاك، معاناة وضع الزوجة الثانية مع معاناة الحرمان من الأطفال مع المرض الذى بدأت نوباته تهاجمها، ومن ذلك آلام عرق النسا التى فشل فى تخفيفها العلاج الحديث، فلجأت أسرتها إلى علاج بدوى كان يتضمن الكى بمسامير ضخمة فوق موضع الألم دون تخدير. هذه الآلام مع الكتمان ربما كانت هى الأسباب التى اجتمعت لتضع حدا لحياةملك حفنى ناصف القصيرة التى توفيت عام ١٩١٨م عن ٣٢ عاماً.(٤٤)

على أية حال، فلقد وقف بعض أقطاب الحركة النسائية (٤٥) فى هذه الفترة، مواقف متباينة من رأى ملك حفنى ناصف فى مسألة استبداد الرجل للمرأة ودوره فى انحطاط المرأة وتدينها، فتؤكد نبوية موسى ما ذكرته ملك، عن دور استبداد الرجل فى تدنى وضعية المرأة، فترى أن " الرجال سعوا إلى إضعاف المرأة طمعاً فى امتلاكها،

وكان فى هذا السعى تأخرهم من حيث لا يشعرون " وتؤكد نبوية موسى على مبدأ ملك حفنى ناصف بأن إصلاح المرأة مرتبط وصلاح الرجل فتقول " أن الرجل والمرأة لا يصلح أحدهما إلا بصلاح الآخر....." فى حين نجد أن مى زيادة، نتيجة لاحتكاكها بالصفوة من الرجال وتقدير هؤلاء لها فقد دافعت عن الرجل، فترى أن ظهور الحركة النسائية يعود الفضل فيه للرجل. فتقول " إذا ذكرت الحركة النسائية ذكر أن الرجل كان موجدها، ومؤيدها إلا أنه مازال ساعياً إلى تنشيطها.. " كما أنها لا ترى فضلاً فى تربية المرأة ووجوب تعليمها وارتقائها إلا ويكون من قلم الرجل إذ ليس بين النساء من تكتب .وترد مى زيادة على كلام ملك حفنى ناصف فى القول بأن الرجل هو المسئول عن تدهور وضعية المرأة، فتدافع عن الرجل وتشترط على الرجل ضرورة قبول مساواة المرأة به فتقول عن الرجل " إنه ملك عزيز، هو الأب، والأخ والصديق، والخطيب، والزوج، فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات، لذلك نريد له خيراً ونجتهد فى تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا قرب عرشه، وأن نقف إلى جواره وقف المثيل إلى جوار المثيل، نريد أن نكون متساويين فى الحقوق الأدبية والمدنية، ما دمنا متساويين فى الواجبات والمسئولية، بل إن واجباتنا ومسئوليتنا تفوق ما عليه من مسئولية وواجب " (٤٦).

من الواضح أن موقف مى زيادة من استبداد الرجل، لم يكن حاداً، فقد كانت ترى أن الرجل هو سبب نهضة المرأة، أكثر من كونه سبب تخلفها، وتدنى وضعيتها. ولعل السبب فى ذلك، أنها كانت تحتك بصفوة رجال المجتمع من الكتاب والمفكرين أمثال العقاد – طه حسين – لطفى السيد – سلامة موسى – مصطفى صادق الرافعى، الذين كانوا يداومون على حضور صالونها الثقافى، فلم تكن مى زيادة ترى فى الرجال سوى الوجه المضىء، ولم تتعرض له بالاضطهاد مثل ملك حفنى ناصف.

٢- الجمود الدينى عند المرأة :

أنتقدت ملك حفنى ناصف الفهم الخاطئ للقرآن، وتؤكد على أهمية الفهم المستنير له، وترى أنه ليس فى القرآن ما يحرم على المرأة تحصيل العلم، والتأمل فى الحياة أو ممارسة العمل. وطالبت ملك حفنى ناصف بتعليم الدين الإسلامى فى مدارس البنات تعليماً صحيحاً، وقد طالبت ملك كذلك، بضرورة ذهاب النساء سواء فى المدن أو القرى لحضور الصلاة وسماع الوعاظ فى المساجد، حيث أكدت ملك على أهمية الوازع الدينى لدى الجنسين، وقارنت ملك بذهاب نساء النصارى واليهود جماعات وفرادى للصلاة فى الكنائس والمعابد وسماع الوعظ الدينى، وأنهم يستفيدون من ذلك كثيراً. فكيف نرضى بأن نسبق فى هذا السبيل، والإسلام رحب الصدر شديد الحرص على حرية المرأة وقد وضعت ملك حفنى ناصف ضوابط لذهاب المرأة لاستماع الوعاظ والصلاة فى المسجد، بأن يخصص فى كل مسجد باب للنساء ومقصورة أو حاجز يصلين فيه، بحيث يسمعن كلام الخطيب ويفقهنه، ولا يختلطن بالرجال. وليكن موعد دخولهن

المسجد وانصرافهن منه سابقاً بنصف ساعة أو متأخراً مثلها عن موعد دخول الرجال وانصرافهم.(٤٧).

لقد تعجبت ملك حفنى ناصف من كراهية المجتمع المصرى لكل ما هو جديد حتى لو كان نافعا،ويمهاجمة كل مقترح، بإحداث البدع قبل أن يثبت صحة دعواه أو خطئها. إلا أن ملك لم تهاجم القديم أو التقليد بشرط أن يكون منه فلاحاً للمجتمع. لقد طالبت ملك بحرية التفكير والتأمل فى الحياة، ودعوة العقل إلى التفكير والابتكار وتطوير الأفكار لمصلحة المجتمع. كما نوهت ملك حفنى ناصف إلى الضرر العقلى والفكرى الذى يقع فيه المفكر أو المبدع عندما لا يعلن أفكاره الجديدة خيفة من أن يرميه مخالفوه فيها ويتهمونه بالثرثرة والادعاء ويصيبه ذلك بالجبن جراء ذلك.

٣- العادات والتقاليد الخاطئة :

تنتقد ملك حفنى ناصف، بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، فتؤكد على ضرورة منع النساء من المشى فى الجنازات، ومن الاجتماع للطم، والندب والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة، التى لا وجود لها إلا فى مصر.".. وغير خاف علينا أن النساء شديدات الانفعال والتأثر، فإن أطلق لهن العنان فى ملازمة هذه العادات خمدت نفوسهن، وفسدت عزائمهن، ومرضت أجسامهن، وعقولهن، فمن حسن النظر الابتعاد بهن عن مسلك الضرر"(٤٨). كذلك عابت ملك حفنى ناصف على بعض السيدات من إفراطهن فى التبسم وانخفاض الصوت إلى درجة تخرجهن عن اللائق، حيث أكدت ملك على أن " المرأة الضاحكة – بلا سبب، والخفيفة إلى حد الطيش، والواطئة الصوت إلى حد الهمس، كلهن مفرطات فيما يجب أن يكن عليه.... إنما أعنى أن تصحب البشاشة الوقار، والخفة الحزم، وهدوء الصوت البيان " (٤٩).

اهتمت ملك بمسألة تربية المرأة اهتماماً كبيراً، ورأت أن الغرض من تربيتها هو تقريبها من السعادة بقدر الإمكان،وإعدادها لأن تكون عضواً حياً نافعاً فى جسم الأمة، وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة. وترى ملك من أن نقص تربية الأبناء،هو نتيجة جهل الأم فتقول " إننا نعلم أن نقص تربيتنا الأولى، وتربية إخواننا الشبان، لاشك نتيجة جهل أمهاتنا، فهل نعرف الداء ولا نداويه ؟! إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشىء، وتهذيبه فإن المنزل له تأثير خاص فى الأطفال، وإذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم ما، فإنه يسعي ليريها، أنه أهل لحبها وتقديرها إياه،فيجتهد لتحصيل العلم وإدراك المعارف المختلفة، لتكون الصلة شديدة بينه وبينها....وبالتالى فإن التربية الحسنة هى التى تعود الإنسان من صغره احترام غيره، إذا أستحق الاحترام، حتى لو كان عدواً، فالتعليم لم يفسد أخلاقيات الفتيات،وإنما هى التربية الناقصة،تلك التربية فى الحقيقة،يجب أن تكون فى أعمال البيت لاالمدرسة"(٥٠).

ومن هنا تلقى ملك بالمسئولية على نمط التربية الذى يتلقاه النشىء فى إحداث الإصلاح المنشود على الصعيد الاجتماعى والأخلاقى، فهى تعتبر أن التربية الخاطئة هى

المسئولة عن سائر عاداتنا السيئة، وفيها عدم احترام النساء " شبابنا لم يتعودوا احترام النساء، وذلك نقص في التربية الاجتماعية يجب أن يتداركوه "(٥١)

وترى ملك حفني ناصف، بضرورة تكاتف البيت والمدرسة، في عملية التربية حتى لا يكون عمل البيت معوقاً لعمل المدرسة، فينبغي أن يخفف المنتقدون من حدتهم، عند انتقاد مدارس البنات، لأن بيوتهم ونظامها أدعى إلى الانتقاد منها، والأمهات الجاهلات أكبر حجر عثرة في سبيل نجاح المدارس، وذلك لأن معلمات المدارس تبذل جهد الطاقة في تثقيف عقول التلميذات، وتعويدهن الفضائل، ولكن تلك الدروس، إن لم تدعمها الممارسة والمشاهدة، لا تلبث أن تزول لأن ما تقدمه المدرسة لنفع التلميذات، ينقص في البيت، ولا سيما في مسألة الأخلاق (٥٢).وعلى الرغم من ذلك فإن ملك حفني ناصف قد أشارت إلى مشكلة كبيرة توجد في مدارس البنات، وهي أمر إسناد تعليم البنات وتربيتهن إلى مدرسات أجنبيات. واعتبرت ملك أن ذلك بمثابة عقبة كؤود أمام تربية البنات في مدارسهن، نتيجة لاختلاف الدين والعادات والتقاليد بينهن وبين الناظرات والمعلمات الأجنبيات. لذلك اقترحت ملك بضرورة إسناد الأمر إلى الوطنيات، فإن لم نستطع فعلينا أن نختار الأجنبيات، ممن تتوافر فيهن شروط الحكمة والأدب، ومن يصح فيهن أن يكن قدوة حسنة للتلميذات (٥٣).

موقف ملك حفني ناصف من مسألة زواج المرأة :

تنتقد ملك حفني ناصف، مسألة الزواج في مصر، لأنه يسير على طريقة عقيمة نتيجتها في الغالب، عدم الوفاء بين الزوجين، لأن الرجل لا يرى زوجته، فإذا سعد طالعهما اتفقا قلباً وقالباً، ورضي كل منهما بالآخر، أما البائس الذي قدر له أن يعاشر حمقاء، أو جاهلة أومسرفة فيا ويحه،كذلك الفتاة إذا فوجئت ببعل مدمن، أو سيئ السمعة، فيا طول ما تقاس من العناء، فمسألة الزواج عندنا هي ككل أمورنا نحن الشرقيين، فكلها للقضاء والحظوظ، وما شئت من المترادفات، في حين يرى عقلاء الأمة أنه لابد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج. وهو رأى سديد لم يكن النبي (ص) وأصحابه يفعلون غيره. وهومتبع عند جميع الأمم بأسرها. وقد أدى عدم رؤية الخاطب لخطيبته قبل الزواج، إلى زواج العديد من الرجال بالأجنبيات، وإذا لم نعمل على تدارك هذا الخلل في مجتمعنا، فلن يلبث أن يحتلنا نساء الغرب، فنقع في احتلالين،احتلال الرجال واحتلال النساء، وثانيهما أشد من أولهما (٥٤).

كما اهتمت ملك حفني ناصف بمناقشة مسألة تحديد الحد الأدنى لسن الزواج لدى الفتيات وذلك من منظور وظيفي، يعني بقدرة الفتاة على تحمل مسئولية الأسرة " وإني لا أوافق بعض الأطباء، على أن سن البلوغ يجب أن يكون بعينه هو سن الزواج. إذ بالله ماذا تفهم فتاة في الثانية عشرة من معنى الزواج، وماذا تعلم من أمور البيت، وماذا تعمل لو رزقت بأولاد.." (٥٥).

لذلك ترى ملك حفنى ناصف ضرورة تحديد سن الزواج، فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف كثير من الوفاق، والمحبة، والواجب ألا تتزوج الفتاة إلا متى صارت أهلاً للزواج الكفء لتحمل مصاعبه ، ولا يجوز ذلك قبل السادسة عشرة، وتزويج الصغار فيه شقاء الأمة من عدة وجوه، عناء فى الزوجية نتيجته دائما الشقاء أو الانفصال، وكثرة وفيات الأطفال لضعف النسل، وإصابة النساء بالأمراض العصبية، والأمراض النسائية الأخرى، وزواج مختلف السن، إضعاف للنسل، وشقاء للزوجين، وقلب لنظام الطبيعة الدقيق، كذلك يأتى عدم الوفاق، نتيجة لجهل أحد الزوجين بالآخر، وزواج مختلف الطباع، كعالم وجاهلة، وبالعكس، أو غنى وفقير، ومختلف الدين والبلد، والطمع فى الغنى بغير نظر إلى الأخلاق، والزواج القسرى، فكل ذلك من أسباب عدم الوفاق، وفشل الحياة الزوجية (٥٦).

كما نالت قضية تعدد الزوجات اهتماماً كبيراً من جانب ملك، ربما لأنها تجربة تعرضت لها شخصياً، أولأنها تجربة رأتها متكررة فى المجتمع البدوى الذى عاشت فيه ولمست آثارها النفسية والاجتماعية على المرأة والأسرة ككل. وقد اجتهدت ملك حفنى ناصف فى عرض مشكلة تعدد الزوجات من سائر جوانبها مركزة على تأثيراتها المعنوية والاقتصادية والأخلاقية على الأسرة، وتميز طرحها بحس أنثوى تجسد فى مراعاة الأبعاد النفسية والعاطفية فى علاقة الزواج كعلاقة قائمة على الأبعاد المعنوية والدواخل فى الأساس، فتقول ملك حفنى ناصف راثية التى يتزوج زوجها بأخرى " بالله أليس لها قلب يتأثر وشعور يمس وعواطف تثور.. " (٥٧).

لذلك اتخذت ملك حفنى ناصف موقفاً حاداً من قضية تعدد الزوجات، حيث هاجمت ملك بضراوة تعدد الزوجات، وترى فيه مفسدة فى كل شىء ففيه مفسدة للمال ومفسدة للأخلاق ومفسدة للأولاد ومفسدة لقلوب النساء. أما من حيث مفسدة للمال، لأن الرجل فضلاً عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما، يرى كل زوجة من الاثنتين تجتهد فى التبذير لتعجزه عن الأنفاق على الأخرى، أو لتمنعه من الزواج بأخرى. كذلك تعدد الزوجات مفسدة للأخلاق، لأن زوج الضرائر دائماً يحتال لتطمع كل واحدة فى حبه. أيضاً تعدد الزوجات مفسدة للأولاد، لأن كل ضرة تغرس كراهيتها لضرتها فى نفوس أولادها، فيشب الطفل وقد أشرب كره إخوته لأبيه وأمهم بلا مبرر سوى ما زرعته أمه فى عقله من مبادئ هدامة، فمهما فعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجها، ومهما أحسنت معاملته، فإنه لا يفتأ يتهمها بكراهيتها له، وبأن ما تفعله معه من خير ومعروف، إنما هو لخوفها من أبيه أو مداراة لما فى قلبها منه. ومفسدة لقلوب النساء، لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه إياها وجرحه لعواطفها، والثانية لا تصافيه مطلقاً مادام متعلقاً بغيرها (٥٨).

وتؤكد ملك حفنى ناصف على مدى كراهية النساء للضرة، فتقول أنها سألت بعضهن، وقد تزوج زوجها بأخرى " هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك؟ فكان جواب كل من سألتهن ملك بالسلب والنفى. كما سمعت الباحثة من

أخريات أنهن في الحقيقة كن يفضلن أن يرين نعوش أزواجهن محمولاً على الأعناق على أن يرينهم متزوجين بأخريات فيا الله إلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة ؟ " (٥٩).

لهذا ترى باحثة البادية، أن ابتلاء المرأة بضرة قد يحولها إلى إنسانة شريرة، لأن الضرة تطفئ سراج بهجتها وتلهب مكانها نار حقدها، وتزرع محله بذور شرورها، فإن لم تكن تقيه يوسوس لها الشيطان، ويعلمها أساليب الانتقام والكيد. وكثيراً ما دست إمرأة السم لزوجها أو لضرتها أولابن ضرتها، فكان القضاء عليهم جميعاً، وكثيراً ما عمدت للوشاية بها عند زوجها (٦٠). " وفي مقارنة ملك حفني ناصف بين وضع المطلقة ووضع الضرة رأت ملك حفني ناصف، أن الطلاق أخف ألما ووطأة من الضرة، حيث رأت أن الأول (الطلاق) فيه شقاء وحرية والثاني(الضرة) فيه شقاء وتقييد.

وبعد أن تكشف ملك حفني ناصف، مساوئ تعدد الزوجات، فإنها ترى أن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات، بهذه الصورة المفتوحة، كما يفعل الرجال، وإنما جعل له شروطاً وقيوداً، لو اتبعت لما عاني منها النساء البائسات. ومن ناحية أخرى ترى ملك أن المستوى العلمي والأخلاقي والاقتصادي، يسهم في تقليل تعدد الزوجات. لهذا كله اقترحت ملك ضرورة السعي إلى تقليل تعدد الزوجات لغير داع بقدر الاستطاعة لأن شقاء النساء، وأختلاف الإخوة الناشئين من جراء هذه العادة، وما يتبع ذلك من الشقاق، كل ذلك يكون من أسباب التفكك الأسرى مما يؤثر بالسلب على المجتمع ككل . (٦١).

وفي نهاية هذا المبحث يمكن لنا أن نستنتج أن ملك حفني ناصف ترفض مسألة تعدد الزوجات، لأن به إخلال بكرامة المرأة، كما أنه يسهم في العديد من المشكلات الاجتماعية. وبالتالي يمكن القول إن الحركة النسائية ممثلة في ملك حفني ناصف استطاعت أن تعبر عن نفسها في قضية تعدد الزوجات، وأن ترفض فكرة زواج الرجل بأكثر من امرأة ووضع القيود والإجراءات التي تحد من زواج الرجل بامرأتين أو أكثر ما لم يكن هناك داع لذلك. بهذا يمكن القول إن ملك حفني ناصف قد وضعت الأساس للفهم المنصف لوضع المرأة في الحياة، ونادت ملك بالمساواة بين الجنسين، على أساس من الحب والاحترام المتبادل حتى تستقيم الحياة الزوجية وينصلح حال الأمة .

موقف ملك حفني ناصف من قضية الحجاب :

اتخذت ملك حفني ناصف موقفاً وسطاً من الحجاب فهي لا تريد التشدد في الاحتجاب، ولا تدعو إلى سفور الغرب فتقول " لا أريد أن نرجع لحجاب جدتنا، ذلك الذي يصح أن يسمى وأداً لا حجاباً، فقد كانت السيدة تقضي عمرها بين حوائط منزلها لا تسير في الطريق، إلا محمولة على الأعناق، ولا أريد سفور الأوربيات، واختلاطهن بالرجال فهو مضر بنا " (٦٢). لذلك ترى ملك حفني ناصف أن حبس المرأة المصرية تفريط، وحرية الغربيين إفراط، ولا نقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة " حينئذ " فهي وسط بين الطرفين، ولم تخرج عما يجيزه الإسلام، وهي مع ذلك مثال الجد والاحتشام. وترفض ملك تشديد الاحتجاب على المرأة المسلمة، وترى أن الحجاب لا

ينبغي أن يمنع المرأة عن شراء حاجاتها، وأستنشاق الهواء النقى، ولا عن تلقى العلم، ولا يكون مساعداً على فساد صحة المرأة فتقول " هناك قوم يشددون فى تقدير الحجاب، فيحسبونه للمرأة مؤدبا، ويمنعون زيارة جارتها، يضيقون عليها، بحيث لا تستنشق إلا هواء بيتها الضيق الدائرة، فتفسد صحتها، وتكسل عن الحركة، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طوال عمرها، وهؤلاء أيضاً متطرفون، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا، وعينان يجب أن تبصرا، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلاً فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة، ودقائق الموجودات، وجدد قواها، بالحركة، وأستنشاق الهواء الجيد، وهى بمظهرها محتشمة، فلا يخرج فى ذلك عن معنى الحجاب "(٦٣).

وترى ملك أن الحجاب لا يمنع المرأة من التعليم فتقول " أن النساء المسلمات واسعات الاطلاع لم يحل الحجاب بينهن وبين التعليم.." إلا أن ملك تنتقد الأختلاط الشديد بناءً على تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، طبقة الأغنياء ينتشر فيها الاختلاط والسفور، وهذا فيه مفسدة، وطبقة العامة "الفقراء" وينتشر فيها الاختلاط فى العمل، من أجل العيش وتشرع الآداب من أجل هذه الطبقة. وترفض ملك الاختلاط السائد بين العامة، وترى أن أفضل طبقة هى طبقة الوسط فهى أحسن الطبقات أدباً، وأكثرها حشمة ووقاراً. وإذا كانت ملك ترفض الاختلاط الشديد، فهى أيضاً ترفض الاحتجاب الشديد، لأنه يقلل من تجارب البنت، وقوة إرادتها،وترفض ملك تقليد الغربيين فى مسألة السفور، حتى لا نفقد قوميتنا، وهويتنا فتقول : " إننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا، مما لا يوافق روح الشرق، فإننا نندمج فيهم، ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون، إذ يفنى الضعيف فى القوى " (٦٤).

وإذا كانت ملك حفنى ناصف تنتقد سفور الغرب، فإنها لا ترفض السفور بمعنى الخروج من المنزل وكشف المرأة لوجهها وكفيها، ولكنها ترفض الانتقال الفجائى كما رفضه قاسم أمين، لأن نساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن بخلعه لرأينا ما يجلبه على أنفسهن من الخزى، والتغير الفجائى من أسباب البلاء، وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين، فينبغى أن نهيئ المرأة للسفور، فلو أننا متربيات على السفور، ولو أن رجالنا مستعدون له لأقررت بالسفور لمن تهواه، ولكن جموع الأمة غير مستعدة له الآن "حينئذ "، وذلك لأن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا، وأخلاق رجالنا على غاية الكمال، وأظن أن هذا مستحيل أو بعيد الحصول، فإذا حصلت هذه النماذج على هذا الشرط فلا أعترض عليه. ولكن الوقت لم يحن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليما حقا، وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشأ وأصلحوا أخلاقهم، بحيث يصير مجموع الأمة مهذبا، ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة(٦٥).

وبناءً على ذلك تذكر مى زيادة بأن ملك حفنى ناصف كانت من أنصار السفور مبدئياً، ومن رأيها أن كل ما تحتاج إليه المرأة، ولا تجده بين النساء كالطبيب البارع، أو الأستاذ الماهر .. الخ. يجوز أن تستعين بالرجل، وجاهرت بأنها لو كانت واثقة من كمال

المرأة، وتهذيب الرجل لما ترددت في إباحة السفور، ولا ينبغي أن نفهم دعوة ملك حفني ناصف للسفور، أكثر من كون هذا السفور، هو ظهور الوجه والكفين، والخروج من المنزل سواء للتعليم أو العمل، وهو نفس ما دعا إليه قاسم أمين من قبل.

إن موقف ملك حفني ناصف من الحجاب والسفور لم يخرج عن الإطار العام لموقف الإسلام من قضية الحجاب، وعندما كانت ملك حفني ناصف تتكلم عن السفور، لم تعن به أكثر من سفور الوجه، ورفض النقاب، والإسلام لم يحرم ظهور الوجه والكفين.

وعلى الرغم من موقف أقطاب الحركة النسائية في تلك الفترة أمثال ملك حفني ناصف وهدى شعراوي ونبوية موسى وغيرهن، المساير للإسلام، من قضية الحجاب، إلا أن سفور وجههن في تلك الفترة، كان يمثل البدايات في التمرد على النقاب، والاحتجاب المنزلي، وغالباً ما تكون البدايات صعبة، حتى يتأقلم الناس والمجتمع على الوضع الجديد - السفور - ولهذا كان موقف قاسم أمين نظرياً، ومواقف أقطاب الحركة النسائية نظرياً وعملياً يشكل ثورة على السائد في تلك الفترة. ولكن إذا نظرنا إليها الآن تبدو مجرد مطالب متواضعة في إطار ما حصلت عليه المرأة، ولكن يظل التاريخ دائماً يذكر أهمية البدايات التي تمثل في الغالب ثورة على السائد والمعهود.

موقف ملك حفني ناصف من عمل المرأة:

شهد أوائل القرن العشرين بداية المطالبة بحق المرأة في العمل، فبعد أن حققت المرأة نجاحاً ملموساً في مجال التعليم، كان من الطبيعي أن ينتقل أهتمامها إلى اقتطاف ثمرة هذا التعليم وهو العمل، وكانت رموز التنوير التي حاربت من أجل تعليم المرأة، هي نفسها التي خاضت المعركة من أجل المرأة إلى حقل العمل وعلى رأسها قاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة " والشيخ محمد عبده، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد انضم إلى هذه الباقة عدد من الرائدات المصريات، ضمن المعركة من أجل الأجيال القادمة، ومن أجل تقدم هذا الوطن وكان في مقدمتهم ملك حفني ناصف (٦٦).

أهتمت ملك حفني ناصف بالدفاع عن حق المرأة في العمل، فنجدها ترفض مسألة تصنيف العمل، وإعلاء شأن الرجل على المرأة وتؤكد ملك حفني ناصف في الدفاع عن وجهة نظرها في أصالة حق المرأة في العلم والعمل انطلاقاً كعادتها من الأرضية الاجتماعية، التي تشكل القاعدة الأعم في مصر، وبأسلوبها السهل تقول " ولما كانت أشغال منزلنا قليلة، لا تشغل أكثر من نصف النهار، فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بما تميل إليه نفوسنا، من طلب العلم، وهو ما يريد أن يمنعنا منه الرجال، بحجة أننا نشاركهم في أعمالهم.لا أريد بقولي هذا أن أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء، وإدارة القاطرات كلا، ولكن إذا وجدت منا من تريد الأشتغال بإحدى هذه المهن، فإن الحرية الشخصية تقضي بأن لا يعارضها المعارضون."(٦٧).

وتتهم ملك حفني ناصف الرجل في أنه السبب وراء ضعف المرأة، بعد أن استعبدها قروناً طويلة، حتى خيم على عقلها الصدأ، وعلى جسمها الضعف ثم يتهمها

بعد ذلك بأنها خلقت أضعف منه جسماً وعقلاً.ولا تذكر ملك حفني ناصف أن الرجل متفوق في بعض الأعمال، ولكن لو تركت للمرأة حرية القيام بهذه الأعمال، لتفوقت مثله(٦٨). ومن أجل اهتمام ملك حفني ناصف بضرورة عمل المرأة، فقد اقترحت تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لحسنها من الصناعات الضرورية كالتفصيل والتطريز، وطالبت بضرورة فتح مدرسة لتخريج هؤلاء الصانعات لأننا في شدة الحاجة إليها. وكان مما قالته " كيف ترضى أمة عددها أننا عشر مليوناً نسمة(تعداد سكان مصر حينئذ) بأن لا يكون فيها إلا النزر، فيمن يعرفن تفصيل ثوب لائق بعروس أو مترفة أليس من العار أن نحتاج في كل شيء إلى الأجانب حتى في خدمة أنفسنا "(٦٩).

وتعترف ملك، بأن الأم مهما تعلمت وبأي حرفة اشتغلت فلا ينبغي أن ينسيها ذلك أطفالها في البيت، لأن تربية الأولاد أخص بها لضرورة معاشرتها لهم في الرضاعة، وما بعد الولادة، تعرف أطوارهم، وتقف على أحوالهم، وكذلك فهي أشفق بهم من الرجال(٧٠).

موقف ملك حفني ناصف من الحضارة الغربية :

رفضت ملك حفني ناصف، تقليد الحضارة الغربية، وخاصة في المسألة النسائية، حيث ترى ملك، بأنه لا يليق بنا نحن النساء المسلمات خاصة، التشبه بنساء الغرب، فضلاً عما حدده لنا الدين الإسلامي، وأن الفطرة الغريزية فينا لا تبيح لنا أن نسعى وراء التقليد الغربي.وقد وضعت ملك حفني ناصف قيوداً على تقليد الحضارة الأوروبية والتعامل مع المستعمر، وكان هذا موقف انتقائي منها فتقول " إنني أدعو الكتاب والباحثين للتفكير في إيجاد مدنية خاصة بالشرق تتلاءم وطبائع بلاده،ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث وذلك لأننا إذا اتبعنا كل شيء غربي، قضينا على مدنيتنا، والأمة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة ".وترى ملك حفني ناصف أن علينا أن ننقل عن الغرب ما يتوافق مع الشريعة الاسلامية والآداب الشرقية، وترى أن من دلائل تأخرنا أن أكثرنا يقلد المرأة الغربية، بغير نظر إلى موافقة عاداتها للشرع الإسلامي والآداب الشرقية. وهنا نلاحظ أن ملك حفني ناصف، تتخذ موقف التيار الإسلامي سبيلا لها في موقفها من الحضارة الغربية.كانت ملك تتابع مظاهر التحديث الشكلي الذي يأخذ به المجتمع، لاسيما الطبقات العليا، وتستنكره داعية إلى نمط من التحديد، يتوافق مع روح الشرق على حد تعبيرها مقترحة في ذلك الأخذ بالعلم الغربي والاستفادة منه وتطويعه في إطار هذه المدنية الشرقية، التي دعت إليها، محذرة في الوقت نفسه، من أن الاندماج اللاواعي في المدنية الغربية، هو أمر منذر بالفناء (٧١).

وتذهب ملك حفني ناصف إلى أننا إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضروري النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا، نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل، نقتبس منها أساليب التربية والتعليم، وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة، وإنما لا يجوز في عرف الشرع والاستقلال أن نندمج في الغرب، فنقضي على ما بقي لنا من القوة

الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهالكة. وتطالب ملك حفنى ناصف المرأة العربية بضرورة اتباع نهج المرأة الغربية فى تحصيل العلم والمعرفة، والعمل، مستعينة فى ذلك بثبات العزم وقوة الإرادة. وملك في ذلك لا تدعو إلى الانغلاق، أو الانفصال عن التجارب العالمية الأخرى، فقط تدعو إلى الوعى بالمصالح الوطنية، وإعطائها الأولوية وقد انتقدت ملك، منهج التحديث القائم على التغريب والمحاكاة وما يؤدى إليه من تشويه فى بنية الأجيال الجديدة، بما يجعلها غير قادرة على الفعل الحضارى الأصيل أو القيام بأعباء نهضة المجتمع. وميزت ملك فى هذا السياق، بين قبول المنتج الثقافى والمنتج المادى للغرب، مؤكدة أن الحفاظ على الهوية هو الحد لما يمكن اقتباسه من الغرب، لأنها قضية وجود أو فناء. وفى ذات الوقت، فإن النهضة رهينة ببناء حضارة تجمع بين الذاتية والعصرية (٢٢).

إن ملك لا ترفض سائر معطيات المدنية الأوربية، بل ترفض تحديداً التقليد الأعمى، الذى تمثل آنذاك فى مظاهر البهرجة، والترف، وانتشار المسكرات وغيرها من العادات الخبيثة (٢٣).

لقد أدركت ملك حفني ناصف خطورة محاربة الإصلاح باسم الدين، فأعربت عن تعصبها للدين والإصلاح معاً " إن الأديان لم تخلق لجلب البؤس، وإنما خلقت لإسعاد البشر ". وأخذت ملك تبين بالحجج الباهرة كيف أن الإسلام دين كل إصلاح، وكيف يرتكب التخلف والانحطاط باسمه، وكانت ملك فى تعصبها للإسلام رائعة حقاً، نرى ذلك فى أبسط المظاهر أحياناً، مثلما تنعى على الناس استعمال ألفاظ " صاحب العزة" و"صاحب الجلالة"، لأن صاحب العزة وصاحب الجلالة هو الله وحده سبحانه وتعالى .لقد استطاعت ملك أن تمزج مزجاً طيباً بين تعصبها للدين، وتعصبها للقومية، فهى تهاجم التعليم فى مدارس الراهبات، على أساس من التعصب للقومية وللدين معاً، وهى تهاجم الزواج بالأجنبيات على نفس الأساس، وكانت ملك بدافع تعصبها للقومية تعترض على رجال مصر وتزوجهم بالشركسيات والتركيات والكرديات أيضاً. وكانت ملك لا ترى فى هذا الزواج سوى ضياع للقومية والانتماء له، ورأت أن الزواج الأمثل، لا يكون إلا بزواج المصرى من مصرية، ذلك الزواج الذى يعمق الوطنية، ويغرس الانتماء الحقيقى للوطن والوطنية.

أفاضت ملك فى تبيان فضائل القومية، وفضائل الإسلام فى شتى المناسبات، فكانت ملك بذلك أول كاتبة عربية فى العصر الحديث، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل ومتعمق للتراث كتراث ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية.

ملك حفنى ناصف وقضية تعليم المرأة :

طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تعليم المرأة لتشعر باحترامها لنفسها ولغيرها فالمرأة تخرج للتعليم للتزود بالعلوم والمعارف وليس بهدف مزاحمة الرجال. وتوجه ملك حفني ناصف حديثها للرجال وتطمئنهم من عدم مزاحمة النساء لهم وتطلب ملك من الرجال أن يكفوا عن دعواهم بالشفقة على المرأة من الخروج لدور العلم

وتحمل المشاق وتبين لهم أن المرأة لاتريد أن تكون محلا لإشفاقهم إنما تريد أن تكون أهلا لاحترامهم.أظهرت ملك حفنى ناصف اهتماماً خاصاً بالعلم، فترى أن العلم نور للعقل على أى حال سواء عمل به أم لم يعمل، فلو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك، وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قطارات. ولهذا فإن ملك حفنى ناصف ترى أن العلم ضرورى للبنات أيضاً(٧٤).

وبسبب الظروف الاقتصادية السيئة التى كان يعانى منها الشعب المصرى حينئذ طالبت ملك حفنى ناصف بالإكثار من مجانية التعليم، وجعل التعليم الأولى " الإلزامى(٧٥)" إجباريا على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة حينئذ أو إنشاء غيرها لهذا الغرض، وكانت مما قالته ملك حفنى ناصف فى هذا الصدد " أن كثيراً من الفقيرات يحب أهلهن أن يعلموهن فلا يجدون لهن في المجانية مكاناً، تكون النتيجة تركهن بلا تعليم، ولا تهذيب، فتنشئن جاهلات، وتكن أعضاء مشلولة فى جسم الأمة المصرية. وإذا لم تقم نظارة المعارف، بتعليم الفقيرات من الشعب، فواجب ديوان الأوقاف أن يخصص لهن من الأموال الخيرية ما يفى بالحاجة، ولا ننسى أن نذكر الجمعيات الخيرية، وأغنياء الأمة بتعليم الفقراء من أبنائها وبناتها ليساعدوا على ترقى الأمة فى معارج الفلاح "(٧٦).

وترفض ملك حفنى ناصف، خوف بعض الرجال من مزاحمة المرأة لهن فى مجال التعليم "لأن المرأة ما زالت فى مراحلها الأولى، وأننا لا نزال فى الدور الأول من التعليم، ولا تزال عاداتنا الشرقية، تثنينا من الاستمرار على الدرب الكثير، فليهنأ بوظائفهم ماداموا يرون مقاعد الحقوق والهندسة، والطب والجامعة، خالية منا، فليقروا عيوناً ولينعموا"(٧٧).

وفى تناولها لقضية التعليم، اهتمت ملك " بنوعية التعليم ". وهو أمر أملته خبرتها كمعلمة ، تعلمت فى مدارس أجنبية ووطنية، ثم اشتغلت بالتدريس. فى هذا الإطار كانت ملك دائمة الدفاع عن المدارس الوطنية.. رغم مشكلاتها – من منطلق أنها هى المنوطة بحفظ محددات الهوية من تاريخ وأخلاقيات، بينما المدارس الأخرى تقدم الثقافة الغربية.ولقد طالبت ملك حفنى ناصف بالفصل بين البنين والبنات فى جميع مراحل التعليم، لأنه مغاير للطريقة الحديثة بأوروبا من الجمع بين الجنسين فى مدرسة واحدة. إلا أن ملك نادت بتوحيد مناهج التعليم،(٧٨) وأن تتفق هذه المناهج فيما يصح الاشتراك فيه كمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ولكى يستعد كل فيما يخصص له.

وهكذا تناولت ملك حفنى ناصف قضايا المرأة بالنقد والتحليل ووضع بعض الحلول لمشاكلها، وما يواجهها من الصعاب فى المجتمع على أسس علمية، ومن منطلق تعاليم الدين السمحة، وهى بذلك لم تخرج عن الخط الذى سار عليه الرواد الأوائل، بل أنها نظرت إلى القضية بنظرة مستقبلية لما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة.

ملك حفنى ناصف ومناهج التعليم :

- مشكلات تعليم اللغة العربية :

تنتقد ملك حفنى ناصف طرق تعليم اللغة العربية، التى كانت سائدة فى عصرها، كما عابت على مدرسى اللغة العربية فى المدارس، طريقة تدريسهم لهذه اللغة، وأنه لا هم لهؤلاء المدرسين سوى أن يشحنوا أذهان التلاميذ بمختلف القواعد، متعللة فى ذلك بقولها " إن تلميذ الشهادة الابتدائية، يعجز عن كتابة خطاب صحيح أو التكلم بلغة فصحى، مع أنه يقضى أربع سنوات فى حفظ كتب النحو والتمرن عليها " ورأت ملك حفنى ناصف،أن تلميذ هذه المرحلة، يحتاج إلى سنة أو سنتين على الأكثر لتعلم مبادئ النحو فى هذه المرحلة السنية المبكرة. ولقد وضعت الباحثة علاجا، للتغلب على مشكلة تعلم النحو وقواعده، حيث إنها رأت أن يتم تعويد التلاميذ على سماع العبارات الصحيحة، وأن يكثر اطلاعهم على كتب اللغة المضبوطة الشكل، متينة الأسلوب، وأن ذلك يؤثر فى أذهانهم، ويربى فيهم ملكة اللغة، ويستعيضوا بالذوق الخاص فيها عن كثرة القواعد الثقيلة الجافة. ولم يفت ملك أن تؤكد على أن رأيها هذا، لا يعنى أن نستغنى عن قواعد النحو كلية، فقد يلجأ إليها عند الضرورة، وإنما هدفت من وراء علاجها هذا هو الإكثار من قراءة الكتب الصحيحة المفيدة للغة، والإقلال من حفظ قواعد النحو وضرورة التمرين والتطبيق على المحفوظ منه. كما انتقدت ملك حفنى ناصف مناهج التعليم فى المدارس ووصفتها بأنها غير وافية لأداء الغرض، فضلاً عن أنها مليئة بالحشو، وقد سئم التلاميذ منها لكثرة أوامرها ونواهيها، وأن التلميذ المعيد أكثر الناس شؤما واشمئزازا منها. لذلك طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تغيير المناهج الدراسية بين سنة وأخرى، ووضع كتب جديدة تشوق التلاميذ، وتسترعى انتباههم وتزيد من نشاطهم، لأن هذه المناهج، كما رأت ملك، ما هى إلا مناهج للحفظ والتلقين ولا تساعد على الفهم أو الاستنتاج (٧٩).

- الموسيقى :

رأت ملك حفنى ناصف أن العالم المتمدن يتقن العزف على الآلات الموسيقية وأن المصريات مع رقتهن الطبيعية، إلا أنهن يهملن تعلم الموسيقى، لذلك طالبت ملك، بضرورة تقرير المناهج الموسيقية فى المدارس لتدريسها، والأخذ بكل ما هو حسن فيها ولا يجب أن يقتصر الأمر على تعلم البيانو وحده. ولقد عددت ملك فوائد تعليم السيدات المصريات لفن الموسيقى، منها أنها تسهم فى تحسين حال المجتمعات النسائية فى مصر، وأنها تشغل أوقات فراغهن بشيئ مفيد يرهف الحس وينمى المشاعر(٨٠).

- التربية الدينية :

انتقدت ملك حفنى ناصف طريقة تعليم الدين فى المدارس، لأن هدفها ينصب على تحفيظ بعض سور القرآن الكريم دون تفسير لمعناها أو توضيح أسباب نزولها، لذلك طالبت ملك بوجوب تعليم القرآن فى جميع مراحل التعليم من الابتدائى حتى المدارس العالية مع تفسير معنى كل سورة وأسباب نزولها، وتبيان ما فى هذه السور

من الإعجاز وما تشتمل عليه من روائع الحكم والفوائد. كما طالبت ملك حفني ناصف بضرورة جعل بعض دروس القرآن الكريم، أن تكون تحريرية، يكتب فيها التلاميذ معاني السور مثل كتاباتهم لموضوعات الإنشاء كما انتقدت ملك حفني ناصف أيضاً أسلوب المعلم في تعليم القرآن الكريم لتلاميذه حيث قالت "لا وظيفة للمعلم إلا الجلوس ساكتاً أو الإشارة لتلميذ آخر بالقراءة .." ورأت ملك أن هذه الطريقة في حفظ القرآن الكريم أشبه بالطريقة الببغائية بغير فهم لمعنى، مما يفسد عقول التلاميذ ويميت قوة التبصر والتعقل لدى التلاميذ. أما عن الحديث الشريف والسنة النبوية، فرأت ملك حفني ناصف أنها غير موجودة بمناهج المدارس بالمرة، واعتبرت ملك أن ذلك يعد عيباً جسيماً، لذلك طالبت بضرورة تقرير موضوعات من الحديث الشريف والسنة النبوية لتدريسها بمختلف مراحل التعليم، حتى لو على سبيل الفهم واستيعاب معناها ومضمونها وليس الحفظ والتلقين(٨١).

ملك حفني ناصف وقضية المعلم :

رأت ملك حفني ناصف أن وظيفةالمعلم،هي وظيفة الأنبياء والرسل، ومن أهم المهن والوظائف قاطبة، ولابد من أن ينال المعلم حقه من العناية والاهتمام، ليكون أول اهتمامات الحكومات لما له من أثر عظيم في حياة الشعوب والأمم، إذ أنه هو الباعث فيها الحياة، وهو الذي يكشف عن المواهب والملكات الخفية بين التلاميذ، ومساعد للقوى الفعلية على التطور والنضوج. كما أن المعلم هو قدوة التلاميذ وإمامهم المتبوع، لأنه كما يشربهم علومه ومعارفه، فإنه يشربهم كذلك أخلاقه وتسري فيهم طباعه وسلوكياته. ونتيجة للأهمية التي ينالها المعلم والرسالة السامية التي يقوم بأدائها، رأت ملك حفني ناصف ضرورة اختيار المعلم على أسس سليمة، حتى يصبح أهلاً لتلك المهنة السامية فتقول " ليس كل من يجمع صبياناً، ويلقي عليهم الدروس يسمى معلماً، وليس كل من ينجح في تأدية مواد الامتحان يصح أن ينصب معلماً، بل للتعليم استعداد خاص وقدرة مدفونة في صدور بعض الأفراد لا في سائر المتعلمين، على ذلك يجب انتقاء المعلمين ممن خلقوا للتعليم بالفطرة، ومن المميزين على غيرهم في النبوغ والأخلاق.. ". وفي سبيل رفعة شأن المعلم وتوفير الحياة المادية الكريمة له، انتقدت ملك حفني ناصف الأجر الضئيل، الذي يتقاضاه المعلم، وما يترتب على ذلك من انتقاص القيمة السامية لهذه المهنة، التي تتطلب مهاما خاصة ومقومات متفردة. رأت ملك حفني ناصف أن هذه الأجور الضئيلة للمعلمين إنما تؤثر تأثيراً سلبياً على تربية النشيء، فقد يؤدي ذلك إلى انصراف كثير من المعلمين النابغين بعيداً عن هذه المهنة سعياً وراء المال والشهرة. فتقول "لن يرغب النابغون كثيرو الآمال والأحلام في المستقبل، في وظيفة المعلم الشاقة البعيدة عن مظاهر الجاه والأبهة، ما لم يجذبهم إليها جاذب النفع والمال ..". أثنت ملك حفني ناصف على جهود الحكومة في إنشاء المدارس، لتخريج المعلمين والمعلمات على الطرق الحديثة في التعليم. كما أثنت على قرار الحكومة حينئذ بالمساواة في معاملة الجنسين في الامتحانات الموضوعة، وكذلك في توظيفهم في مهنة

المعلم، مما يترتب على ذلك من العدالة والمساواة بينهما، لأنها بتوحيد المعاملة تقـرر (أى الحكومة) أن المرأة قرينة للرجل وكفء له فى معادلتها فى الحقوق مثلما تعادله فى الواجبات. لاحظت ملك أن الفتيات الحضريات المترفات قليلات الجـد، وليـست لـديهن الملكة والاستعداد للقيام بمهنة التدريس. لذلك طالبت بضرورة ترغيبهن وتشويقهن لتلك المهنة السامية، مع ضرورة منحهن المكافآت عند ظهـور نتـائجهن الحـسنة وإثبـات قدراتهن فى أداء تلك المهنة، وصرف ما يخصم مـن مرتبـاتهن لهـن عنـد تـركهن المدرسة، منتقدة ملك فى ذلك قانون المعاشات الذى كانت تتبعه الحكومة حينئذ، والـذى لم يكن يتجاوز فى نهايته الكبرى سوى العشرين جنيهاً، والذى كان كما رأت ملك أحـد أسباب عزوف الفتاة عن الاستمرار فى مهنة التدريس حتى سن الستين، مستندة فى ذلك إلى إحساس الفتاة بضياعها لمستقبلها مقابل أجر زهيد (٨٤).

موقف ملك حفنى ناصف من البعثات العلمية للخارج :

انتقدت ملك حفنى ناصف النظام الذى تتبعه وزارة المعارف العمومية (التربيـة والتعليم الآن) فى موضوع البعثات العلمية ونظامه خاصة تلك البعثات المرسـلة إلـى إنجلترا. رأت ملك حفنى ناصف أن الفتيات اللاتى يتعلمن فى مصر هم أفضل علماً وقدرة على ممارسة مهنة التدريس، من أولئك الذين يرسلن إلى إنجلترا بـدعوى أن الفتيـات المتعلمات فى مصر يدربن على سائر فروع التعليم ومواد العلوم المختلفـة، ويمكـنهن التدريس باللغة العربية أو بالإنجليزية إذا طلب منهن ذلـك، وهـن لطـول ممارسـتهن التلميذات ولتخرجهن بينهن،أدرى بأخلاقهن وبمنازع تربيتهن، أفضل ممن يـأتين مـن إنجلترا لا يعلمن من عادات البلد وتقاليده شيئا، أو ممن يبعثن فى الإرسالية لتعلم فرع واحد من التعليم لا يمكنهن تدريس غيره.وقد استندت ملك فى رأيها هذا على أن هؤلاء الفتيات يرسلن لإنجلترا عقب نيلهن الشهادة الابتدائية مباشرة، أى فى السن الذى تنضج فيه مداركهن، مما يجعل هؤلاء الفتيات أكثر تقبلاً للثقافـة الأجنبيـة وعـادات الـبلاد وتقاليدها المرسلة إليها، أكثر من تقبلهم لثقافتهم العربية وبيئتهم التى نشأوا فيها، ممـا يؤثر بالسلب على عقول التلاميذ ونشأتهم الثقافية، بل والتربوية أيضاً نبهت ملك إلـى تفريق الوزارة فى معاملة المعلمات المصريات اللاتى تعلمـن فـى مـصر، والمعلمـات المصريات اللاتى تلقين تعليمهن فى الخارج. حيث كانت أجور المعلمـات المـصريات، اللاتى تعلمن فى مصر رغم كفاءتهن، أقل بكثير من المعلمات المصريات اللاتى تعلمـن بالخارج، وكذلك أغلب المعلمات الأجنبيات كانت أجورهن مرتفعة للغاية. وقدرأت ملك أن هذا التفريق فى المعاملة قد يؤدى إلى عوامل عكسية تؤثر بالسلب علـى تلـك المهنـة السامية بدون مبرر. وقد يحملن كثيراتٍ منهن على ترك التعليم كلية.

وضعت ملك حفنى ناصف حلاً جذرياً للمساواة فى المعاملة وهو أن يكون ميزان الترقي هو الكفاءة وليس التخرج فى البلاد الأجنبية، وتثبت تلك الكفاءة بعـد التمـرين عملياً على التعليم سنة أو سنتين فى مدارس مصر، وهذا يحدث لخريجات مصر فقـط، ولا يحدث لمثلهن فى الخارج " خريجات مصر هن وحدهن النابغات فيه فـإنهن لا يـنلن

شهاداتهن (الدبلومات) إلا بعد أن يمضين سنتين تمريناً عملياً بعد نجاحهن في الامتحانات.أما الأجنبيات وخريجات مصر في الخارج فلا يؤدين أى تمرينات. وفى هذا التباين فى المعاملة والتفريق فى المساواة من الغبن الفاحش على الوطنيات على ما فيه من الظلم والتعسف بدون مبرر." إلا أن ذلك لا يعنى أن ملك حفنى ناصف تعترض على إرسال الفتيات المصريات إلى الخارج لتلقى العلوم والاستزادة منها، ولكنها نبهت الحكومة والوزارة إلى ضرورة اتباع الحيطة والحذر فى مراقبة هؤلاء الفتيات المرسلات للخارج فى بعثات علمية، وذلك لظروف المرحلة السنية التى يسافرن فيها أولئك الفتيات، والتى تكون فى الغالب من سن اثنى عشر إلى ستة عشر سنة. ويكون هؤلاء الفتيات بلا رقابة فى بلاد يجهلن فيها هؤلاء الفتيات عادات وتقاليد أهلها. وقد ينبهر هؤلاء الفتيات من حرية المرأة هناك وتحررها من القيود، واختلاف طبائعهم وعاداتهم عن مجتمعاتنا، وهذا يدعو أسر هؤلاء الفتيات إلى التخوف من إرسال بناتهن ضمن تلك البعثات، مما يوجب على الوزارة وضع أسس ومعايير علميه مدروسة للحفاظ على بناتنا من الانسياق وراء المدنية الغربية انسياقاً أعمى، مما يؤثر على عقول بناتنا عند عودتهم للتعليم فى المدارس المصرية.

وفاة ملك حفنى ناصف :

أصيبت ملك حفنى ناصف بالحمى الإسبانيولية التى أنهكت قواها، فأفقدتها الحياة لتفارق الدنيا فى يوم السابع عشر من أكتوبر عام ١٩١٨م، وهى فى سن الثانية والثلاثين من عمرها. وشيعت جنازتها من شبرا، وصلى عليها فى جامع أولاد عنان بميدان باب الحديد (رمسيس)، وسارت الجنازة من ذلك المكان سيراً على الأقدام حتى مدافن الأسرة بالإمام الشافعى. وفى هذه الجنازة انقلبت مدينة القاهرة رأساً على عقب، لأن النساء شاركن الرجال فى تشييع هذه الجنازة الكبيرة، فكانت جمهرة الكبراء ورجال الفكر وطلبة المدارس الثانوية والعليا، تسير فى جنازتها يتقدمها مندوب من قصر السلطان لتقديم العزاء الشخصى (لأن المندوب لم يكن ليسير بصفة رسمية فى جنازات النساء) وكذلك رئيس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين، وبعض النزلاء الأجانب، ومراسلى الصحف الوطنية والأجنبية، وكانت السيدات يملأن الشرفات على طول الطريق وهن يبكين بكاءً مراً على الفقيدة، وقد ظللن حزينات على هذا المصاب الأليم المفاجئ.(٨٣)

وكان حفل تأبينها أشبه بمظاهرة لمطالب المرأة، كما تنوعت كلمات الرثاء، فعنها يقول أحمد لطفى السيد " أنها أفضل سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر "حينئذ"، بل تعطينا صورة الكاتبات العربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب "وقد نعتها جريدة السفور بقولها " لسنا نعلم أن تاريخنا الحديث شهد حسرة الناس لموت سيدة، كما شهد حسرتهم لموت باحثة البادية"(٨٤).

وقد رثاها أيضاً الشاعر خليل مطران فى حفل تأبينها بالجامعة المصرية فقال:(٨٥)

يا آيـة العصر حقيق بنا ... تجديد ذكراك على الدهر
جاهدت لكن النجاح الذى ... أدركه أعلى من النصر
بدت تباشير الحيـاة التى ... جدت فحيى طلعة الفجر

كما رثاها الشيخ مصطفى عبد الرازق فى حفلة تأبينها. وعدد عبد الرازق فى خطبته هذه، جهود باحثة البادية فى المجال الإجتماعى، وما بذلته من تضحيات فى سبيل إعلاء شأن المرأة المسلمة والعربية، موضحاً نبوغها وموهبتها الفطرية، وسعة إدراكها، وكان مما قاله عبد الرازق فى هذا الشأن " كان صوت باحثة البادية قوة لأنصار الإصلاح، فلما خفت أحسست بمكان البلاد خالياً، كان صوت باحثة البادية فى إصلاح حال المرأة عندنا، أقرب الأصوات إلى قلوب النساء، وأقواها تأثيراً. كانت تريد للمرأة المصرية، أن يملأ العلم عقلها، ويملأ الإيمان قلبها، لتغلب بقوى العلم والإيمان، كل ما يقف فى سبيل حريتها ورقيها ..."كذلك رثتها صديقتها" مى زيادة " فى حفل تأبينها. وقد نشر هذا الرثاء فى مجلة الهلال، وكانت مما ذكرته فى شأن الباحثة " أن لباحثة البادية مركزاً فريداً فى الحركة الفكرية عندنا بعد أن قام قاسم أمين، يقول بتحرير المرأة وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية، قامت باحثة البادية تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها، ودرجة الارتقاء العالية التى يمكنها الوصول إليها. قامت هذه المرأة العبقرية ابنة الرجل (العبقرى) تدرس أحوال البيئة المصرية، فكان لها من ذكائها الفطرى مرشداً أميناً، ومن إحساسها العميق منبه مخلص، ومن قلمها العربى الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول. رأت الباحثة حاجة قومها الى الإصلاح، وظلت تكتب وتخطب ناشدة الإصلاح"(٨٦). أيضاً رثتها السيدة هدى شعراوى فى خطبة الافتتاح فى حفل تأبينها بالجامعة المصرية وكان مما ذكرته " كانت الباحثة أول مصرية دفعها النبوغ وساقها النبل والفضل والإخلاص الى هذه الدار لتلقى عليكن نتائج اختباراتها، وخلاصة أفكارها ومعلوماتها للنهوض بكن فى معترك الحياة الى مدارك النجاح والفلاح، شارحة لكل تلك العلل التى تهدد حياتنا القومية، وآدابنا الشرقية ولم تقتصرعلى وصف الداء وتشخيصه، بل وقفت بكن على الدواء الناجح لكل داء"(٨٧).

كما خصصت المجلات والصحف لفترة طويلة بعد وفاتها صفحات كاملة للتأبين، ولم يبخل شاعر أو كاتب أو خطيب لم يوف ملك حقها من الوفاء والتكريم والثناء على مجدها وتاريخها الحافل. كما كرم ملك حفنى ناصف بعد وفاتها، العديد من الجهات الرسمية، حيث كانت الجامعات والمدارس والصحف والإذاعة، تحتفل بذكراها كل عام. كما احتفلت بها مدارس البنات قاطبة فى عام ١٩٥٨م بذكراها الأربعين لوفاتها بصفة رسمية، وذلك بتوجيه من وزارة التربية والتعليم، بناءً على توصية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الذى أوصى أيضاً فى تلك المناسبة مصلحة البريد بإصدار طابعين تذكارين لملك ولأبيها، غير أن الطابعين لم يصدرا لضيق الوقت. أيضا هناك العديد من المدارس والشوارع التى تحمل اسمها تخليدا لذكراها وتقديرا لدورها فى الحياة الأجتماعية المصرية.(٨٨)

خاتمـــــة :

بعد هذا العرض عن شخصية ملك حفنى ناصف، ودورها فى الحياة الاجتماعية المصرية، يمكننا أن نتساءل هل غيرت ملك من أحوال المرأة فى عصرها ؟ وهل أثمرت دعوتها تلك ؟من الملاحظ أن ملك لم تكن تقف وحدها، كان قاسم أمين الذى خاض غمار المعركة الكبرى معاصرا لها، دعا الى السفور وفسر دعوته إزاء الجمود والرجعية، بأنه يمكن أن يكون سفورا تدريجيا، ولكنه دعا إلى تأليف جماعة من مائة تنزع نساؤهم وبناتهم الحجاب دفعة واحدة لتنفيذ الدعوة. أما ملك فكانت ترى أنه من طبيعة الأشياء أن نتدرج كثيرا ونتأنى فى موضوع الحجاب والسفور إلى أن تحصن المرأة بالعلم.

إن دعوة ملك هذه من أجل الدفاع عن المرأة وحقوقها، كانت دعوة وسطية اتسمت بالعقل والهدوء الفكرى الملائم لظروف المجتمع المصرى وتقاليده فى تلك الفترة، فلم تكن دعوتها حرباً بين جنسين، بل إن أكثر مكاسب المرأة كانت نتيجة لجهود متضافرة من النساء والرجال على السواء، فنضجت حركة تحرير المرأة وأصبحنا نرى المجتمع كله وحدة متماسكة، أية مشكلة فيه هى مشكلة تصيب المجتمع كله وأى خلل فيه يصيب الكيان كله بالمرض والفوضى، وهكذا بفضل ملك حفنى ناصف وأمثالها ممن تزعمن الحركة النسائية فى الشرق العربى، لم تأخذ الدعوة صورة من صور الانحراف أو المبالغة ولا صورة من صور الخلط أو العنف، وإنما سارت الحركة ببركة الدين الإسلامى الحنيف فى مدار واضح وإلى غايات لا يختلف حول جوهرها رجال ولا نساء.

لقد دعا رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده وقاسم أمين،كما دعت عائشة التيمورية وملك حفنى وهدى شعراوى وغيرهن من السيدات العربيات إلى تعليم المرأة. ولو أن العمر امتد بملك لأدت للمرأة أضعاف ما قدمت، ولكن يكفيها أنها كانت رائدة فى الميدان، فلم تحمل امرأة قبلهاعلى عاتقها دعوة الإصلاح فى أحوال المرأة بمثل هذا الوضوح والتخصص والحماس. وهل نريد من رائدة نسائية فى زمانها عداعليها الموت قبل أوانه أن تقدم أكثر مما قدمت. ويمكن القول إن المكاسب التى حصلت عليها المرأة من جراء مشاركتها فى ثورة سنة ١٩١٩م "إنما تحققت نتيجة لجهود دعاة الإصلاح رجالا ونساء وكان من بينهن ملك حفنى ناصف فى دفاعها عن حقوق المرأة ومحاولات إصلاح أحوالها وأوضاعها فى المجتمع. ومما لاشك فيه أن هذه المكاسب لم تكن من جهاد ملك وحدها ولكن بعضه يعود إليها إن الإصلاح لايمكن أن يتم نتيجة مجهود فرد إنما يتم نتيجة تضافر آلاف الجهود ويثمر بعد أن برويه عرق الملايين.

على أية حال فإننا لاندرى ولانعلم ماذا كان يمكن أن تفعله رسالة امرأة فى مكان باحثة البادية لوبلغت بأفكارها مدى أبعد فالقدر لم يمهلها حيث إنها توفيت وهى فى ريعان شبابها عن عمر يناهز اثنتين وثلاثين عاما لكن البذرة التى غرستها لاتزال

مستمرة في أجيال من النساء،كما أن أسمها سوف يبقى خالدا مادامت كلماتها وآرائها الإصلاحية باقية.

الهوامــــــش

[1])عاشت ملك حفنى ناصف فى أطراف الصحراء فى بادية الفيوم، وذلك بعد زواجها من عبد الستار الباسل شيخ قبيلة الرماح بالفيوم في مارس ١٩٠٧م، حيث ذهبت ملك للحياة معه فـى الصحراء. وهناك نادت ملك بتعميرها وأطلقوا عليها باحثة البادية : فاطمـة محمـد علـوان إبراهيم : قضايا المرأة فى مجلس النواب المصرى من سنة ١٩٢٤ – ١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات، جامعة الأزهر سنة ٢٠٠٥ م ص ١٤٩، ١٥٠.

[2]) مجد الدين حفنى ناصف " آثار باحثة البادية " "ملك حفنى ناصف " (١٨٨٦ – ١٩١٨) تجميع وتبويب، تقديم دكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والارشاد القـومى – المؤسـسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م .ص ١١.

[3]) هو الشقيق الأكبر للملك فؤاد بن الخديوى إسماعيل وسلطان مصر من سنة ١٩١٤م إلـى سنة ١٩١٧م.

[4]) جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى : الزمن والريادة، الجـزء الأول، دمـشق – دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م ص ٦٦.

[5]) كان والد ملك " حفنى ناصف " قد تأثر بأفكار الشيخ محمد عبده بعد حضوره لدروسه فى الأزهر الشريف وأصبح صديقا له. كما أن أن ملك حفنى ناصف قد تأثرت تأثراً شديداً بصديق والدها الشيخ محمد عبده، حيث عاصرته ملك وهو يشتغل بالقضاء وبالتعليم وبالا ستزادة من العلم فى مصر وخارجها وبممارسة الاصلاح ومقاومة الفساد والطغيان، فتشبعت ملك بروحه، واتخذته مثلاً أعلى. وكانت قراءتها له تشخذ منها هذه الهمة، لأن هذه القراءات كانت عربيـة إسلامية فى إطار من التمدن الغربى. : مجد الدين حفنى ناصف : المرجع الـسابق ص ٤٣، محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حفنى ناصف كاتباً وباحثاً، جامعة الدول العربية معهـد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م ص ٩وما بعدها.

[6]) هند مصطفى على محمد الشلقانى : الإصلاح السياسى فى خطاب المرأة المصرية (١٨٩٢ – ١٩٥٢ م) دراسة فى خطابى ملك حفنى ناصف وهدى شعراوى، رسـالة ماجـستير غيـر منشورة، نوقشت بكلية الإقتصاد والعلـوم الـسياسية جامعـة القـاهرة – نـوفمبر ٢٠٠٤ م ص١٩٧.

[7]) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ملك حفنى ناصف :. النسائيات، الجزء الأول، القاهرة، دار التقدم للنشر والتوزيع د.ت ص١١.

[8]) كانت المدرسة السنية فى الأصل، تسمى بالمدرسة السيوفية، التى أنشأتها زوجة الخديوى إسماعيل " حشمت آفت هانم أفندى " فى أول يناير ١٨٧٣م، ثم أهملت هذه المدرسة، بعـد عزل الخديوى إسماعيل من الحكم، حتى تسلمتها نظارة المعارف عام ١٨٨٩م، وأطلق عليهـا اسم المدرسة السنية ويحمل خريجاتها الشهادة الابتدائية أسوة بالبنين.

---

9) ذكر فى كتاب " آثار باحثة البادية " وكذلك الكثير من المصادر والمراجع، أن ملك كانت أول فتاة مصرية حصلت على الشهادة الابتدائية من المدرسة السنية عام ١٩٠٠م. إلا أن أميرة خواسك، أوضحت فى كتابها " معركة المرأة المصرية للخروج من عصرالحريم " أن خريجات الدفعة الأولى من المدرسة السنية عام١٩٠٠م، كان إلى جانب ملك حفنى ناصف كل من فيكتوريا عوض وأولجا بلتش : أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م ص ١٦ .

10) وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم (٨٥٩) بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية. وفى هذه اللوحة إشارة إلى حصول ملك حفنى ناصف وفكتوريا عوض على شهادة الدبلوم من المعلمات السنية عام ١٩٠٣م.

بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية :

السنة	الأسم
١٩٠٣	فيكتوريا عوض – ملك حفني ناصف
١٩٠٤	آسيا عبد الفتاح
١٩٠٥	نور الهدى عبد الله
١٩٠٦	نبوية موسى – بهية حسونة – أديل دياب
١٩٠٧	تفيده علي – حبيبة نصار – كاترين وهينتي
١٩٠٨	أمينة إبراهيم – نبيهة علي – روقيه رمضان
١٩٠٩	فردوس علي – حميدة محمد – فكرية منسي – جليلة صادق – فينيس فورتوناتا نيازى
١٩١٠	تفريزى ديالي – فاطمة منصور – لبيبة مصطفى

متحف التعليم : لوحة رقم (٨٥٩).

11) ملك حفنى ناصف : النسائيات،الجزء الأول المرجع السابق ص ١٠ .

12) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٢،٤٣،٢٩٧.

13) ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص١١.

14) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤.

15) أشرف غريب أحمد محمد : الحركة النسائية فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية – جامعة عين شمس – قسم التاريخ ٢٠٠٩ م ص ١٠٦.

16) كان زواج الباحثة من النقلات الهامة فى حياتها، فرغم أنها رفضت الكثير من الخاطبين تمسكاً بإتمام التعليم والعمل فى التدريس، فقد جاء زواجها نتيجة وساطة قوية من قبل صديق والدها الشيخ عبد الكريم سلمان وكان هذا رئيس المحكمة الشرعية العليا كما زامل حفنى

ناصف كأحد محررى الوقائع المصرية، وقد أختار ملك لمن عرفه لوالدها بأنه أحسن الرجـال خلقاً وعربى أصيل وأديب مطلع، وهو عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم، وقد وافق حفنى وابنته على الزواج لما علماه عن أخلاق الزوج ومكانته، ثم انتقلت ملك إلى أملاك زوجها فى الفيوم وأطلق عليها" باحثة البادية " : هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق. ص ٢٠٠.

17) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٨ – ٥١ .

18) عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام، الجزء الخـامس، بيـروت، مطبعة الرسالة، الطبعة العاشرة، سنة ١٩٩١م ص ٧٦، أشرف غريب أحمد محمـد: المرجـع سابق ص١١٠.

19) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٥١،٥٢.

20) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٥.

21) محمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية، الجزء الخـامس، القاهرةسلسلة البحـوث الإسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠م ص ١٤٨، أشرف غريـب أحمـد محمد : المرجع السابق ص ١١٠.

22) سامية حسن الساعاتى : المرأة والمجتمع المعاصر، الناشر الدار المـصرية الـسعودية للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – سنة ٢٠٠٦ ص ٥٩، ٦٠.

23). Beth baron: thewomens Awaking In EgypT (New haven : yale uni versty press 1994)p.174-175

24) هو المؤتمر الذى دعى إليه محمد سعيد باشا، رداً على المؤتمر القبطى الذى عقـد فـى أسيوط فى الفترة من ٥ – ٨ مارس سنة ١٩١٠ م للإعلان عن بعض المطالب الخاصة بهـم. وقدعقد المؤتمر المصرى الأول فى الفترة من ٢٩ إبريل إلى ٤ مايو ١٩١١م، وطبعت أعمـال ذلك المؤتمر فى مجموعة طبعتها المطبعة الأميرية بالعربية فى ٢٠٤ صفحة من القطع الكبير، كما طبعت لها ترجمة فرنسية كاملة: مجد الدين حفنى ناصف: المرجع السابق. ص ٥٢ – ٥٣، محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، الجـزء الأول، القـاهرة، مكتبـة الآداب، د.ت ص ١١٨.

25) آمال كامل السبكى : الحركة النسائية فى مـصر مـابين الثـورتين " ١٩١٩-١٩٥٢م" القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م ص ٩٦،٩٧ .

26) رفضت هذه المطالب برمتها، حيث لم يكن لهذا المؤتمر أى سلطة تشريعية أو تنفيذيـة، وكانت أهميته تكمن فى كونه سجلاً للبرامج المختلفة، وليس أداة تنفيذيـة : وزارة الـشئون الاجتماعية، الإدارة العامة لشئون المرأة : ندوة قضايا المرأة المصرية بين الواقع والمـستقبل بحث للدكتورة فرخندة حسن بعنوان " رؤية متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحياة السياسية " (التحديات وإجراءات المواجهة) ١٨ – ١٩ فبراير ١٩٩٧ م ص ٥ كذلك :
Beth baron : op.cit: p.175

27) أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٨.

28) هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١٦.

29) جاء تعيين بطرس باشا غالي رئيساً للوزراء خلفاً لحكومة مصطفى باشا فهمى الذيأستقال في ١١ نوفمبر ١٩٠٨م لأحتواء غضب الشعب المشتعل من حادثة دنشواى.

30) كان أول ظهور لهذا القانون في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م، إبان الثورة العرابية، للحد مما وصلت إليه الصحافة في دعوتها إلى الحرية، وكان يخول لوزارة الداخلية حق إنذار الصحف، وتعطيلها مؤقتاً أو نهائياً بدون محاكمة، أو بدون قرار من مجلس النظار، أو بدون إنذار سابق، وقد اشتمل هذا التشريع على ٢٣مادة. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٦،١٠٧.

31) ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٣.

32) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٣٨، درية شفيق :المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم القاهرة،سنة ١٩٥٥م ص ٩٠.

33) كان ذلك بفضل شقيقها مجد الدين حفنى ناصف، الذى ربما كان أول مصرى متخصص في الدراسات الاجتماعية في مدرسة العلوم الاجتماعية في باريس بعد تخرجه من السوربون في العقد الثانى من القرن العشرين :سامية حسن الساعاتي : المرجع السابق ص ٥٩.

34) كانت مسز " شارلوت كمرون " عضو الجمعية الجغرافية الملكية بلندن والتي زارت مصر ومرت بالفيوم حيث أستقرت ملك هناك بعد زواجها من عبد الستار الباسل : ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٤.

35) ملك حفنى ناصف : النسائيات ،الجزء الأول، المرجع السابق ص ١٤.

36) حمد الباسل من زعماء الحركة الوطنية بمصر عام ١٩١٩م، مغربى الأصل، ولد بمصر عام ١٨٨١م. منشأه نشأة بدوية، كان عمدة لقبيلة الرماح بالفيوم، خلفاً لوالده محمود بن حمد. كان حمد أحد أعضاء الجمعية التشريعية، اشترك مع سعد زغلول في الحركة الوطنية، ونفى معه إلى مالطة عام ١٩١٩م، أختير وكيلاً للوفد المصرى، وألف كتاباً أسماه " نهج البداوة ". توفى عام ١٩٤٠م. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠.

37) مجلة العربى، عدد يونيو سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة بعنوان : باحثة البادية " ملك حفنى " هل كانت ضد تحرير المرأة ؟. ص ٢٧.

38) أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠، ١١١.

39) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٥،٤٤.

40) هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١١ .

41) ملك حفنى ناصف : النسائيات،الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٧٣، ٧٤.

42) نفسه : ص ٢٣،٢٢.

43) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٧.

44) هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢٠٠.

[45]) من المعروف أنه فى مرحلة تاريخية ما، كانت ملك حفنى ناصف مع رموز أخرى على رأسها هدى شعراوى ونبوية موسى ومى زيادة، جزء من النخبة المثقفة ذاتها، وأعضاء فى جمعيات نسائية بعينها، أنشئت بمبادرات فردية، كان لملك الدور الأكبر فيها من ذلك " الاتحاد النسائى التهذيبى " حيث كانت المصريات والأوروبيات يجتمعن معاً لتبادل الأحاديث والمعلومات بشكل غير رسمى. فضلاً عن جمعية الرقى الأدبية للسيدات المصريات، التى أستهدفت إعداد وتقديم المحاضرات المخصصة للنساء :هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ١٨٧.

[46]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق : ص ٤٧، ٤٩.

[47]) مجد الدين حفنى : المرجع السابق ص ١٦١،١٦٠.

[48]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٨٩.

[49]) مجد الدين حفنى ناصف :: المرجع السابق ص ٦٤ ٢.

[50]) أحمد محمد سالم : المرجع السيابق ص ٢٦١.

[51]) هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥.

[52]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٦٢.

[53]) مجد الدين : حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٤١، ملك حفنى ناصف :النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٢٠.

[54]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٢، ٤١٣.

[55]) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٥، هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

[56]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٣.

[57]) هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

[58]) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٤.

[59]) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٢٠٦، ٢٠٧، أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٢٩.

[60]) ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ٤٢.

[61]) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٧.

[62]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧١، ١٧٢.

[63]) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٢٨.

[64]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧٢،١٧٣.

[65]) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول، المرجع السابق ص ٢٨،٢٩.

[66]) أميرة خواسك : المرجع السابق ص ٨١.

[67]) ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٠٩.

[68]) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨ .

69) مجد الدين حفني ناصف : المرجع السابق ص ١٢٨.

70) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨.

71) نفسه : ص ١٠٢، ١٠٣.

72)هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢١٥،٢١٦.

73) نفسه : ص ٢١٠.

74) ملك حفنى ناصف : النسائيات ، الجزء الأول، المرجع السابق ص ٧٩ .

75) "التعليم الالزامى" هو الحد الأدنى من التعليم الذى يجب أن يناله أبناء الأمة جميعا فيمحو أمية المواطنين ويكسبهم قدرة التميز العقلى والتوافق الاجتماعى. وقد أبدت مصر قدرا من الأهتمام بهذا التعليم منذ عام ١٨٦٧م عندما أصدر على مبارك لائحة رجب الشهيرة لنشر التعليم الالزامى وتعميقه لكن هذه التجربة لم تكلل بالنجاح، حتى جاء الانجليز ودعا اللورد كرومر إلى نشر التعليم الأولى فى الكتاتيب وفصول محو الامية : Lord loyld :Egypt since Cromer vol 1 London 1937 p.160

76) مجد الدين حفنى ناصف:المرجع السابق ص ١٢٥، أحمد محمد سالم: المرجع السابق ص٢٩٤.

77) أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٩٣، ٢٩٤

78) Abu –Alfutouh Redwan:old and new forces in Egypt Education . new york 1951 p.111

79) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٤٩،١٥١.

80) ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١٢٩، ١٣٠.

81) جريدة الوطن : عدد ١٦ فبراير سنة ١٩١٨م .

82) الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨م.

83) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٦٥،٦٦.

84) جريدة السفور: عدد ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٨م، أشرف غريب أحمد محمد: المرجع السابق ص ١١١، إملى نصرالله: نساء رائدات من الشرق، الجزء الثانى الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م ص ٧٢، يوسف نوفل: شاعر الشعب وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م. ص٥.

85) جريدة الوطن : عدد ٢مايو سنة ١٩١٩م .

86) جريدة الهلال : فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨.

87) ملك حفنى ناصف: النسائيات، الجزء الثانى، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع د. ت ص٣٨.

88) مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٦٦،٦٧.

المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :

وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم (٨٥٩) بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية.

ثانيا : مذكرات وذكريات شخصية :

١- مجد الدين حفنى ناصف : آثار باحثة البادية " ملك حفنى ناصف " ١٨٨٦-١٩١٨ م جمع وتبويب مجد الدين حفنى ناصف تقديم دكتورة سهير القلماوى-وزارة الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م.

٢-ملك حفنى ناصف:النسائيات الجزء الأول والثانى،دارالهدى للطبع والنشر والتوزيع د. ت.

ثالثا : المراجع العربية :

١- آمال كامل السبكى : الحركة النسائية فى مصر مابين الثورتين " ١٩١٩-١٩٥٢م" القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.

٢- إملى نصرالله : نساء رائدات من الشرق،الجزء الثانى الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م.

٣- أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

٤- جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى الزمن والريادة، الجزء الأول، دمشق دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م.

٥- درية شفيق : المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٦- سامية حسن الساعاتى : المرأة والمجتمع المعاصر الناشر الدار المصرية السعودية للطباعة
والنشر والتوزيع القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٧- عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والأسلام، الجزء الخامس، بيروت، مطبعة الرسالة الطبعة العاشرة سنة ١٩٩١م.

٨- فرخندة حسن : رؤة متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحياة السياسية " التحديات وأجراءاءت المواجهة " وزارة الشئون الاجتماعية الادارة العامة لشئون المرأة ندوة قضايا المراة المصرية بين الواقع والمستقبل ١٨ -١٩ فبراير سنة ١٩٩٧م .

٩- لطيفة محمد سالم : المرأة المصرية والتغير الاجتماعى القاهرة سنة ١٩٨٤م .

١٠- محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حفنى ناصف كاتبا وباحثا، جامعة الدول العربية،معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م.

١١- محمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية الجزء الخامس القاهرة سلسلة البحوث الإسلامية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠.

١٢-محمد محمد حسين : الأتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، الجزء الأول القاهرة مكتبة الأداب د.ت.
١٣- يوسف نوفل : شاعر الشعب وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م.

رابعا :الرسائل الجامعية :

١- أشرف غريب محمد أحمد : الحركة النسائية فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٩م.
٢- فاطمة محمد علوان إبراهيم : قضايا المرأة فى مجلس النواب المصرى من سنة ١٩٢٤-١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٥م.
٤- هند مصطفى على محمد الشلقانى : الإصلاح السياسى فى خطاب المرأة المصرية سنة ١٨٩٢-١٩٥٢م دراسة فى خطابى ملك حفنى ناصف وهدى شعراوى رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة نوفمبر سنة ٢٠٠٤م.

خامسا : الدوريات :

١- الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨م.
٢- السفور : عدد ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٨م.
٣- الهلال : عدد ٢٥نوفمبر سنة ١٩١٨م.
٤- الوطن : عددا :١٦فبرايرسنة١٩١٨م، ٢مايو سنة ١٩١٩م .
٥- مجلة العربى عدد يونية سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة : باحثة البادية " ملك حفنى ناصف " هل كانت ضد المرأة ؟.

سادسا : المراجع الأجنبية:

1-Lord loyid : Egypt since Cromer vol 1 London 1937
2-Beth baron: thewomens Awaking in EgyT (New haven : yale uni versty press 1994).
3-Abu -Alfutouh Redwan: old and new forces in Egypt Education new york 1951.

الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية

(١٨٨٤ ـ ١٩٦٣)

د. أحمد عبد الدايم محمد حسين (*)

تعد تجربة الهند، فى النمو الاقتصادى والتقدم التكنولوجى، تجربةً رائدةً بين دول العالم الثالث الآن. بيد أن الكثيرين لا يعرفون شبكة العلاقات الهندية المعقدة ببقية أطراف العالم. ولا يدركون تلك الأطراف الفاعلة فى الهند نفسها، ومدى تشابك واتساع علاقاتها الإقليمية والدولية. وبحكم أن الهندوس يمثلون ٧٥% من سكان الهند، وبحكم أن الدراسات التى أنجزت عن شرق افريقيا لم تميزهم عن بقية الهنود هناك، وجاءت فى معظمها لتهتم بالفترة السابقة للاستعمار، وبحكم إرتباطهم الشديد ببريطانيا، وبحكم ذكائهم وجرأتهم وانتشارهم حول العالم، وأنها تشرح جانباً من تلك القوة التى تتمتع بها الهند الآن وتفسرها، كان لابد لنا أن نفرد هذه الدراسة عن: " الهندوس فى شرق افريقيا البريطانية ١٨٨٤ -١٩٦٣"، لنتعرف عليهم وعلى الدور الكبير الذى لعبوه فى تاريخ تلك المنطقة، منذ بداية الاستعمار البريطانى لها وحتى حصولها على الاستقلال. ولنناقش تلك المشكلات التى نشأت عن علاقاتهم بالقوى الاستعمارية وبسكان المنطقة الأصليين، وكيف استفادوا وأثروا وتأثروا بتلك العلاقات خلال تلك الفترة وما بعدها.

ولعل ما يميز دراستنا للهندوس فى شرق افريقيا البريطانية، خلال الفترة من ١٨٨٤- ١٩٦٣، أنها تكشف لنا الكثير والكثير عما يستغلق فهمه فى تاريخ تلك المنطقة، وغيرها من المناطق التى هاجر إليها الهندوس فيما بعد. وأن تاريخهم فيها ما هو إلا انعكاس لما يحدث فى الهند من صراعات داخلية بين الهندوس والمسلمين، ولما يحدث من توافقات وتنسيقات بينهم وبين بريطانيا. فاختيارنا لتلك الفترة، هو اختيار للفترة التى استعمرت فيها بريطانيا كل من زنجبار وكينيا وأوغندا، وحازت فيها ألمانيا على تنجانيقا ورواندا وبورندى. لكن حينما أقصيت ألمانيا عن مستعمراتها الإفريقية، بعد الحرب العالمية الأولى، أضيفت تنجانيقا لبريطانيا، وأضيفت رواندا وبورندى إلى الكونغو البلجيكى. وبهذا أصبحت شرق افريقيا البريطانية تضم كلا من تنجانيقا وأوغندا وكينيا، بعد ضم زنجبار إليها. ومن ثم فإن دراستنا للهندوس فى شرق افريقيا البريطانية ستشمل

(*) أستاذ مساعد تاريخ حديث ومعاصر بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة.

المناطق الثلاث، بما فيها فترة تبعيتهم للمستعمرة الألمانية، باعتبار أن زنجبار كانت تابعة لكينيا حتى الاستقلال، ولم تنضم لتنجانيقا وتكون دولة تنزانيا الحالية، إلا سنة ١٩٦٤.

وتنطلق الدراسة من الامتيازات التي حصل عليها الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية، لتشرح لنا الغموض الموجود في العلاقة بينهم وبين الانجليز من ناحية، ولتميز الهنود السيخ والمسلمين عن الهندوس من ناحية ثانية، لتقول بأن الانفصال الذي حدث بين الهند وباكستان فيما بعد(سنة ١٩٤٧) كانت ملامحه موجودة في شرق إفريقيا من قبل. ناهيك عن أن الدراسة تفتح لنا آفاقا جديدة في خصوصية العلاقة بين الهندوس وشرق إفريقيا. ومن ثم راحت تطرح على نفسها عدداً من الأسئلة ستحاول الإجابة منها: هل هناك صلة بين قدوم الهندوس لشرق إفريقيا والاحتلال البريطاني لها؟ وهل قوة العلاقة بين الهندوس في الهند البريطانية هو الذي جعل وضعهم مميزاً في شرق إفريقيا؟ وكيف كانت حياة الهندوس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هناك ؟ هل انفصلوا عن الهند تماماً ؟ أم أنهم ظلوا مرتبطين بها وبتقاليدها الثقافية؟ وكيف كانت طموحاتهم السياسية هناك؟ وهل أثرت تلك الطموحات على اقتصادهم وبقائهم في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؟ لذا تنقسم الدراسة إلى ستة محاور رئيسية، تتمثل في الآتي:

المحور الأول- الجذور التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا.
المحور الثاني - علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية.
المحور الثالث- المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا.
المحور الرابع- أحوال الهندوس الاقتصادية.
المحور الخامس- أحوالهم السياسية.
المحور السادس- هويتهم الثقافية.

المحور الأول- الخلفية التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا :-

إذا كان الهندوس يمثلون غالبية سكان الهند نفسها، وينقسمون حسب المكانة والوضع الاجتماعي إلى أربع طبقات رئيسية : البراهمة والكشترى والويشا والشودرا، فإن غالبية الهنود في شرق إفريقيا هم من الهندوس أيضاً. وإذا كانت توجد إمكانية لتمييزهم باللحى، بحكم أن ديانتهم تحرم عليهم حلاقتها، فإن الأرشيف الاستعماري يعج بالصور التي تميزهم عن بقية الهنود هناك. بل يثبت بأنهم ينتمون إلى الطبقات الثلاث الأولى، بحكم أن الفقراء لم يتمكنوا من المجئ للمنطقة [١]، وأنهم ليسوا الهنود الوحيدين هناك. بل يوجد السيخ والإسماعليون، بما يمثل مجموعهم سوياً ٢% من سكان المنطقة [٢].

وتعود علاقة الهندوس بشرق إفريقيا لعصور موغلة في القدم، بحكم علاقات الهند البحرية مع إفريقيا الشرقية[٣]. حينما اكتشفوا، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة،

أهمية الرياح الموسمية في الإبحار إليها. وهذا ما أتاح لهم ولغيرهم من الهنود الآخرين، فرصة المتاجرة مع المنطقة في الأرز وجوز الهند وقصب السكر والموز والخبز والتوابل والمحاصيل والقطن واليام[٤]. ويرجح البعض بأن استقرارهم بصفة دائمة هناك، قد جاء في ركاب العرب منذ القرن الثامن الميلادي. فقد اعتمدوا عليهم في النواحي المالية وأعمال الصيرفة وإقراض النقود[٥]. بل إن أقرب دليل سجل الروابط القديمة بين الهندوس وشرق أفريقيا ومناطق النيل، وجد في الكتب الهندوسية القديمة المقدسة، بوراناس[٦]. وحينما زار فاسكو داجاما ساحل شرق إفريقيا، سنة ١٤٩٨ ذكر بأنه وجد العديد من تجارهم مستقرين بموانئ إفريقيا الشرقية[٧]. محدداً أوصافهم بأنهم من أصحاب اللحى الطويلة، ولا يأكلون لحوم البقر[٨]. وهو الذي اقترح الاستعانة بالمستكشف الهندوسي، كانجي مالام، عند وصوله إلى مومباسا[٩]. ويقطع أحد التقارير البريطانية لسنة ١٨١١ بأنهم كانوا تجاراً أثرياء في زنجبار. وهناك مصادر تقول بأن متاعبهم لم تنته إلا بعد استقرار السلطان سعيد (١٨٠٦-١٨٥٦) فيها[١٠]، وأنهم قدموا بكثرة من ولاية جوجارات Gujarat وتاميل نادو Tamilnadu وكوتشي سنة١٨٣٠[١١]، وأن تدفقهم على المنطقة قد استمر طوال الفترة من ١٨٣٠ - ١٨٩٠.

ويعد كوبلاند أول من قدم إحصاءً لعددهم هناك، وأنهم في حدود ٥٠٠ هندوسي، وأن الهنود المسلمين في حدود ٦٠٠ إلى ٧٠٠ فرد [١٢]. وأن السلطان سعيد قد جاء بـ ١٢٠٠ هندوسي من عمان لشرق إفريقيا سنة ١٨٤٠. إضافة للـ ٥٠٠ الموجودين هناك[١٣]. لدرجة أن القنصل البريطاني في زنجبار قدر عددهم سنة ١٨٥٩ بحوالي ألفي هندوسي من بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠هندي. في حين قدره جون كيرك سنة ١٨٧٠ بحوالي ٢٠٠ هندوسي من جملة ٣٦٥٧ هندي[١٤]. في الوقت الذي قدر في بقية أملاك سلطان زنجبار بحوالي ٢٧٤ هندوسياً. بما يعني أنهم كانوا أكبر عددًا في المناطق الساحلية والداخلية، عكس بقية الهنود الذين تركزوا في زنجبار، وكانوا قلة في بقية أملاك السلطان. ويشير البعض بأن عددهم قد ارتفع في زنجبار، سنة ١٨٧٤، إلى حوالي ٣١٤ من جملة ٤١٩٨ هنديا [١٥]. وفي الجملة فإن نقص عدد الهندوس عما كان عليه في عهد السلطان سعيد أو في عهد خلفه، يمكن تفسيره بثلاثة أسباب: أولها: ربما يكون مرتبطاً بتقدير كيرك نفسه. حيث جاء مقصوراً على أملاك السلطان فقط، ولم يقم بإحصاء بقية أعدادهم في شرق إفريقيا ككل. ثانيها: لم يتم تقدير أعداد الهندوس الموجودين في مناطق العرب المزارعة الساحلية. تلك المناطق الخاضعة للحماية البريطانية، وكانت جاذبة لهم. ثالثها: لم يتم إضافة أعداد الهندوس الموجودين بمناطق الداخل الإفريقي بشكل متعمد، على اعتبار أنها غير تابعة لزنجبار، دفعاً وتحريضاً على استعمارها.

ويبدو أن العرب والسواحليين ميزوا الهندوس باسم بانياني Panyani بمعنى تاجر، عن بقية الهنود. وأنهم في نظر الرحالة الأوربيين كانوا قوماً يحبون المال وجمع

الثروة. واصفين إياهم بأنهم يهود شرق إفريقيا. وأن المال يتدفق إلى جيوبهم، كما يتدفق الماء منحدراً من شلال شاهق. في حين ميزهم الانجليز، فيما بعد، بأنهم قوم هادئون، حسنى السمعة، يميلون للعزلة عن بقية طوائف المجتمع الأخرى[١٦].

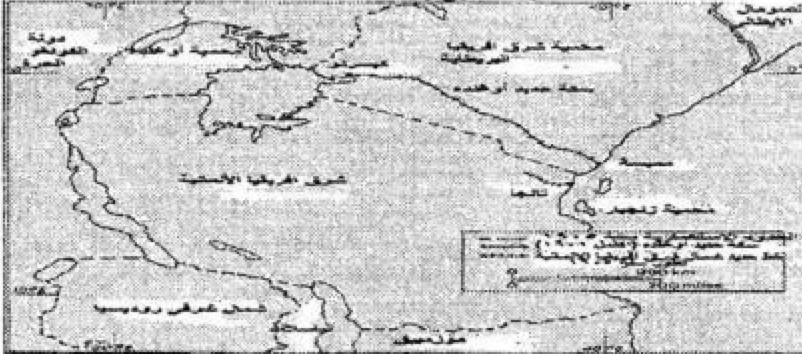
ويعد السلطان سعيد من أشهر الحكام العرب الذين هيئوا للهندوس بيئة مستقرة في شرق إفريقيا. وهو أول من تعاقد مع مؤسسه مملوكة لهندوسي يدعى وات بهيما Watt Bahima سنة ١٨١٧. وذلك لجباية الجمارك بمبلغ ٧٠ ألف ريال ماريا تريزا. وأنه هو الذي حول ذات الامتياز لهندوسي أخر يدعى سوجي توبان، بمبلغ ٨٤ ألف ريال نمساوي، حينما فسخ عقد بهيما. وارتفع إلى ١٠٠ ألف ريال في عهد ابنه جيرام. بل بقى الامتياز في تلك الأسرة الهندوسية منذ سنة ١٨١٩ ولمدة ٤٠ سنة فيما بعد[١٧]. بل كان وضعهم الاقتصادي المميز قد جعل كريستي طبيب برغش (١٨٧٠-١٨٨٠) يشير إلي أنهم كانوا الحكام الحقيقيين لزنجبار[١٨]. فضلاً عن امتهان بعضهم لحرف التجارة والبناء والحدادة وغيرها. وكان أحدهم، جيرام سوجي، زعيما للجالية الهندية ككل، وكان نفوذه أكثر من السلطان سعيد نفسه[١٩]. بل استمر نفوذه في عهد السلطان برغش[٢٠].

وأغلب الهندوس في شرق إفريقيا هم من فئة المرابين والسماسرة والتجار، القادمين من كوتش Kutch ومناطق البنجاب والجنوب والبنغال. تاجروا في كل شيء[٢١]، وواجهوا صعوبات كبيرة، كتلك الابتزازات التي تعرضوا لها في عشرينيات وثلاثينيات القرن ١٩ على يد المزارعة في ممبسة. وكتلك التي فرضها السلطان سعيد في شكل جمارك قدرها ٢٠ % مقابل ٥% قبل سنة ١٨٣٣[٢٢]. وتميزوا عن الهنود الآخرين بأنهم كانوا يحرقون موتاهم في كرنجاني Kringani. وكانت إقامتهم في البداية إقامة مؤقتة. في حين كان وضعهم الاجتماعي في زنجبار مميزاً. فقد عاشوا في القسم العربي من المدينة، ولم يسكنوا القسم الخاص بالسواحيليين[٢٣]. وتقيدوا بدياناتهم تقيداً صارماً. وتحدثوا اللغة السواحيلية، بل أصبحت اللغة الأولى لبعضهم، لكونها لغة الاقتصاد والمجتمع في شرق إفريقيا[٢٤]. بما يدل على ذكائهم في مداهنة العرب والسكان الأصليين على السواء. وهذا الذكاء سيجعلهم يتحولون للغة الانجليزية فيما بعد، حينما يمسك البريطانيون بزمام الأمور في شرق إفريقيا. ولما كانوا في الأساس رعايا بريطانيين، حيث تحولت الهند سنة ١٨٥٧ من مستعمرة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية لتصبح مستعمرة تاج، فإنهم رفضوا طلب السيد سعيد وخلفائه بالتوقيع على عريضة يعلنون فيها أنهم رعايا السلطان، خوفاً على أسرهم وتجارتهم في الهند[٢٥]. لكن مع إقامة حكام ممبسة المزارعة لمعاهدات تجارية مع أمريكا وبريطانيا في ثلاثينيات القرن ١٩، وما أعقبها من معاهدات تجارية أخرى، شعروا بأن شرق إفريقيا تفتح أمامهم فرص الثراء السريع ، فضلاً عن تحولها لمكان آمن لاستقرار أسرهم [٢٦].

المحور الثاني – علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية:

استمرت عملية التوسع البريطاني في شرق إفريقيا، منذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر، حتى حسمها مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥. وتم تقسيم المنطقة بالفعل حسب الاتفاق الألماني البريطاني سنة ١٨٨٦، فأصبحت تنجانيقا تابعة لألمانيا، وأصبحت زنجبار وكينيا وأوغندا تابعة لبريطانيا(انظر الخريطة التالية). لكن لم تستقر الأمور لبريطانيا في المنطقة إلا مع نهاية القرن ١٩[٢٧]. وبعد الحرب العالمية الأولى انتقلت أمور تنجانيقا إليها، لتشكل مع المناطق السابقة ما سمي بشرق إفريقيا البريطانية. واستمر وجودها هناك حتى استقلال آخر دولة من دول المنطقة سنة ١٩٦٣.

خريطة شرق إفريقيا سنة ١٩٠٥



نقلا عن : Bernhard Gißibl:- GERMAN COLONIALISM AND THE BEGINNINGS OF INTERNATIONAL WILDLIFE PRESERVATION IN AFRICA, GHI BULLETIN SUPPLEMENT 3 (2006).P.125.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين الهندوس والبريطانيين في تلك المنطقة ؟ وما شكل هذه العلاقة؟ وكيف نمت وتطورت؟ وما نتائجها؟ الإجابة تقول بأن العلاقة بين الطرفين بدأت قوية، وتخللتها بعض مشاكل، لكنها انتهت عند الاستقلال أقوى مما كانت عليه. وحتى نفهم تلك العلاقة جيداً يمكن تفصيلها في أربعة أشكال رئيسية:

الشكل الأول: الدور الذي لعبه الهندوس في خدمة المشروع الاستعماري البريطاني في شرق إفريقيا. فبالنظر لأعداد الهندوس في شرق إفريقيا، البالغ سنة ١٨٤٤ حوالي ٥٠٠ شخص، وأخذاً في الاعتبار ما أشار إليه برتون سنة ١٨٥٩ بوجود ٥٠ هندوسيا في مومبا، و٢٠ في تانجا ومثلهم في بانجاني، و٥٠ في كيلوا، فإن هذا يعني كثرة عددهم بالداخل الافريقي. ونظرا لكونهم رعايا بريطانيين بالأساس، كان من الطبيعي أن

يكونوا جسراً لبريطانيا لاستكشاف المنطقة قبل قدوم الرحالة البريطانيين إليهـا. ولعـل حديث الرحالة سبيك وبيرتون وجرانت عن ترحيب الهنـدوس واحتفـائهم بالمكتـشفين الذين زاروا شرق ووسط إفريقيا، خلال خمسينيات وستينيات القرن ١٩[٢٨]، يعـد خيـر دليل على هذا الدور الذي لعبوه في خدمة هذا المشروع الاستعماري في شرق إفريقيـا قبل أن يبدأ.

ويظهر هذا الدور الخطير حينما ألقى السيد خليفة بـن سـعيد (١٨٨٨-١٨٩٠) زمام القيادة لاثنين من أخصائه الهندوس. حيث تشير التقارير بأنهما كانا يقـدمان لـه النصائح الضارة فيأخذ بها. وعلى حد وصف الوثائق الانجليزية كان أحدهما، كاشومار، متآمراً عجوزاً لكل نفوذ أوروبي. وأما الأخر، بيرادیفجی، فقد كـان خادمـاً هنـدوكياً وضيعاً. وكان الاثنان يشكلان مصدر قلق للقنصل البريطاني في زنجبار، الـسيد إيـوان سميث. حيث كان السلطان يفضي للرجلين بكافة المسائل السرية التي يبحثها معه. وهما يحثانه على نقض عهوده التي قطعها للقنصل. وكان اعتماد الـسلطان علـى نـديمين وضيعين من رجال قصره يؤدى إلى إثارة كراهية المشايخ العرب العميقـة لـه. لكـون هذين الرجلين قد أثارا الشكوك فيهما، وجعلا السلطان يهمل القضايا التي يرفعها هؤلاء المشايخ. حيث حرمهم من مظاهر التشريف والامتيازات. لهذا رفعوا لإيوان سميث سنة ١٨٨٩ شكوى موقعة من ١٢ شيخاً، يعلنون تخوفهم من خـراب البلـد بـسبب تـسلط مستشاريه الشريرين، وأعلنوا وقوفهم مع خلع السلطان. لذا نصح ايوان سميث في ١١ مارس ١٨٨٩، عبر خطابه للورد سالسبورى، بأنه لا سبيل إلى إزالة التوتر الذي ازداد حدة بين السلطان وبين رعاياه، إلا بالتخلص من مستشاريه الـسيئين. وقـد اسـتطاع إخراج بيرادفجى الهندوسي إلى بومباى، بمقتضى أمر سلطاني فـي ٢ مـارس ١٨٨٩، خول للقنصل البريطاني حق ترحيل أي بريطاني يكون مسلكه خطراً على سلام زنجبـار. ومع ذلك غضب السلطان غضباً شديداً على ترحيله، لدرجة جعلته يرفض توديع إيـوان سميث عند عودته إلى بريطانيا، ظل فيها من أبريل حتى ديسمبر ١٨٨٩، بل ويرسـل لسالسبورى خطاباً يطلب فيه عدم إعادته ثانية لزنجبار[٢٩]. والقصة بهذا الشكل تحتمـل أمرين : أولهما، أن هذين الهندوسيين قد لعبا دوراً رئيسياً في إمساك الانجليـز بزمـام الأمور في زنجبار. فلكونهما رعيتين بريطانيتين في الأساس، يُرَجّح بـأن هنـاك مكـرا وحيلة في المسألة. فمن المحتمل أن الانجليز كانوا يتفقون مع السلطان علـى شـيء، ويطلبان من عملائهما الهندوسيين مخالفة ما اتفق عليه، ليُستخدم كذريعة للتـدخل فـي شئون الرجل ولعزله عن أنصاره. ثانيهما، أن الرجلين بنفوذهما الكبير داخل زنجبار؛ قد أججا الصراعات الداخلية ضد السلطان. فكان استفزازهما للمشايخ العرب قد اضـطرهم لطلب عزل السلطان من بريطانيا. وربما يكون هذا التأجيج والتدبير بهذا الشكل مقصوداً للوصول إلى تلك النتيجة. بل بعد أن تحقق بريطانيا رغبتها في الوقيعة بـين الـسلطان وأعوانه تعمل على إنقاذ صنيعتيها، بترحيلهما إلى الهند بشكل رسمي.

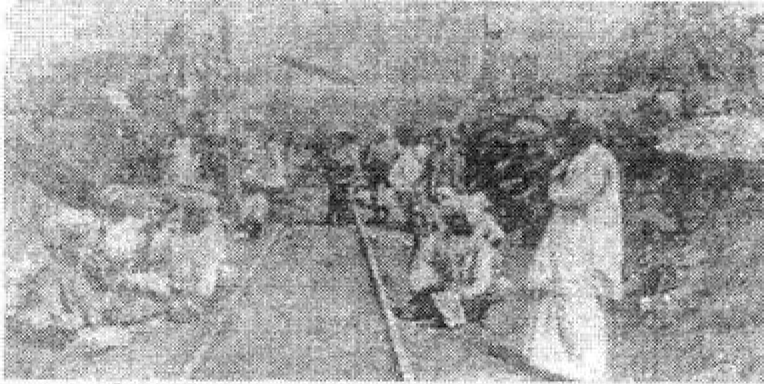
ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث تشير الوثائق إلي أن الهندوس ساعدوا في احتلال أوغندا، وأنهم أسهموا في تطور الإدارة البريطانية في شرق أفريقيا، خلال الخمسة والثلاثين عاما الأولى من حكم البريطانيين لتلك المنطقة. وأنهم أسهموا في بناء كثير من المناطق الأخرى هناك، بما جعلهم يطلبون من الإدارة البريطانية المساواة في المعاملة مع البيض[٣٠]. بل إن دورهم في هذا الأمر جعلهم يطلبون، باعتبارهم رعايا بريطانيين، محاكم مستقلة خاصة بهم. فكان لهم ما طلبوه بمقتضى مرسوم ديسمبر ١٨٩٢، الذي خول للمحكمة القنصلية حق الفصل في القضايا بينهم وبين رعايا سلطان زنجبار الذي قبل بالحماية البريطانية، فحصلوا على أحكام جائرة ضد العرب والإفريقيين على السواء[٣١].

الشكل الثاني: المشاركة في تنفيذ المشروعات البريطانية. فمع أن الهندوس قد جاءوا في بداية الفترة الاستعمارية بحثاً عن فرص عمل وسبل حياة أفضل، إلا أنهم جاءوا كعمال في الأساس، ليس فقط لبناء سكك حديد كينيا- أوغندا منذ عام ١٨٩٦، ولكن أيضاً للعمل في المزارع والمناجم، وجنوداً في القوة العسكرية المنشأة هناك، وموظفين في الإدارة الاستعمارية. لذا كانت علاقاتهم بتلك الإدارة في أحسن صورة[٣٢]. وفى هذا الإطار لم يخدموا الاستعمار الانجليزي فقط، بل ساعدوا الألمان في عمليات صيد الأفيال وفى توطيد أقدامهم في المنطقة [٣٣]. خاصة أنه حينما سيطر الأوربيون على اقتصاد شرق إفريقيا[٣٤]، شرعوا بمعونة الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة، في فهم المنطقة وكيفية الاستفادة منها. ومن ثم عاد هذا على الهندوس بمزايا اقتصادية [٣٥]. فتعاملوا في المستعمرة الألمانية بالمارك الألماني منذ سنة ١٨٩١[٣٦]. وحينما زادت قوتهم الاقتصادية التجارية في عشرينيات القرن العشرين لم يكن القانون الاستعماري ليسمح للهندوسي بأن يكون وسيطاً وتاجراً في نفس الوقت. بل كان عليه الترخيص بأي منهما[٣٧].

الشكل الثالث: ارتفاع عددهم في مناطق الساحل والداخل على السواء. فمع قدوم المستعمرين الأوربيين ارتفع عددهم في كينيا إلى حوالي ٥٠٠ هندوسي. وعاش بعضهم قرب دار السلام. بل تساوى عددهم مع الهنود الآخرين في بعض مناطق الساحل، مثل تولياني Tuliani وبنياس Banias وكوالى وكيتمانجو Kitmangao وباتيا وسمانجا Samanga وكيلوا وليندي وبجامايو. ولكن بصفة عامة كان الهندوس الأكثر عدداً في زنجبار. بل جلبوا عائلاتهم واستقروا في معظم أنحاء شرق إفريقيا[٣٨]. وبرغم عدم القدرة على تمييز عدد الهندوس من بين الـ ٣٢٠٠٠ عامل الذين جاءوا لبناء خط حديد كينيا- أوغندا، ولا القدرة على التعرف على من بقى منهم بعد انتهاء الخط سنة ١٩٠٢ للعمل بالإدارة الاستعمارية والتجارة [٣٩]، ولا عدد من توفى منهم ضمن الهنود المتوفين(٢٤٩٣ متوفى)[٤٠]، ولا عدد من عاد منهم للهند ثانية في ديسمبر ١٩٠١، من

(حوالي ٦٧٠٠)[٤١]، إلا أن صورهم ولحاهم المميزة في أرشيف الصور الاستعماري، يشير إلى هذه الزيادة الكبيرة في أعدادهم. ولعل اللقطة التالية تلخص هذا الأمر.

لقطة لعمال هنود يبنون سكة حديد شرق إفريقيا ١٨٩٦-١٩٠١



نقلا عن : Report of The High Level Commettee on The Indian Diaspora, PP.91

وبرغم الإخطار التي تعرض لها الهندوس في عملية إنشاء السكك الحديد، من افتراس الحيوانات الاستوائية لبعضهم، ومن إصابتهم بأمراض المناطق الحارة المختلفة، كالملاريا والدوسنتاريا[٤٢]، وتأثرهم بطواعين سنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩١١ و١٩١٢ و ١٩١٣، إلا أن أعداهم تضاعفت ضمن أعداد الهنود التي تضاعفت في الفترة من ١٨٨٤ -١٩٢٠، من ٦٠٠٠ إلى ٤٥٠٠٠ هندي[٤٣]. بل تضاعفت ثانية خلال الفترة من ١٩٢١-١٩٣١[٤٤]. فسكنوا الإحياء الهندية، واستفادة من العلاقة مع بريطانيا. ومثلوا دور الوسطاء ومقرضى المال ووكلاء الإعمال، لدرجة أدهشت البريطانيين أنفسهم[٤٥]. بل اشتهرت عائلات هندوسية كثيرة هناك، كالباتلز Patels ولوهاناLohana وشاهاز Shahs[٤٦]. بل ذهبوا إلى أوغندا منذ سنة ١٩٠٣، وتضاعف عددهم بها حتى بلغ سنة ١٩٣١ حوالي ٨٣٥٨ هندوسياً مقابل ٥٠١٦ هندياً مسلماً. وهو الأمر الذي جعل البعض يطلق على شرق إفريقيا أنها أمريكا الهنود، وأن رحيلهم عنها كفيل بانهيارها الاقتصادي تماما[٤٧].

وإذا كان الواقع القاسي للهند هو الذي شجع هجرة الهندوس لشرق إفريقيا، إلا أن العقود ذات الخمس سنوات التي قدمها الانجليز لهم، كانت هي البوابة التي فتحت المنطقة أمامهم. فقبل أن يأتوا لبناء سكة حديد شرق إفريقيا، فقد جاءوا منذ سنة ١٨٩٠ ليعملوا في زراعة البن والسكر وفي مزارع المطاط. ومع استقرار الحكم البريطاني، فتحت المنطقة ذراعيها لهم[٤٨]. بل لم يقتصر الأمر على هجرة هندوس الهند

إليها فقط، بل جاءها هندوس من جنوب إفريقيا خلال حرب البوير ١٨٩٩-١٩٠٢[٤٩]. ووصلها أفواج من الحرفيين والكتبة وصغار التجار[٥٠]. لكن حينما ارتفعت أعدادهم بصورة كبيرة، بدأت الإدارة البريطانية تفرض قيودا على هجرتهم، وعلى تملكهم للأراضي. وراحت تعزلهم مع بقية الهنود في أحياء خاصة بهم[٥١]. وهو الأمر الذي جعلهم يقومون بتهريب رأس مالهم في الفترة من ١٩٢١-١٩٢٢[٥٢]. ولعل مغادرتهم بأعداد كبيره، ضمن الهنود الذين تركوا كينيا في الفترة من أبريل ١٩٢١ حتى مارس ١٩٢٢ - حيث غادرها ٥٤٣٥ هندي بالمقابل دخلها ٣٦١٢ فقط[٥٣] - يشرح تأثير تلك القيود التي فرضها البريطانيون على نشاطهم خشية ازدياد تأثيرهم ونفوذهم أكثر فأكثر. وربما تكون مرتبطة بتزايد وتيرة الحركة الوطنية في الهند وضرباتها لبريطانيا هناك، واستخدام بريطانيا لهؤلاء العائدين ومصالحهم كورقة للضغط على بني جلدتهم لتهدئة ثورتهم.

الشكل الرابع: غلبة جو الصداقة والتعاون مع الإدارة الاستعمارية البريطانية. فبرغم أن البعض يقولون بأن جو الصداقة هذا، قد ساد الفترة الاستعمارية الأولى حتى سنة ١٩٠٣، غير أن القيود التي فرضها البريطانيون عليهم لم تنه تلك الصداقة أبدا. فإذا كانت تلك الإدارة قد فرضت قيوداً على هجرتهم، بعد وصول دفعات من المستوطنين البريطانيين في الفترة من ١٩٠٢- ١٩٠٥ ، فإن هذا لم يمنعهم من أن يجتمعوا في ممبسة ليطالبوا بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، بل ويكرروا ذات الطلب سنة ١٩٠٨[٥٤]. ومع أن الإدارة الاستعمارية رفضت كلا الطلبين، إلا أن العلاقة استمرت جيدة بين الطرفين لدرجة جعلتهم يطلبون مزيداً من الخدمات الاجتماعية[٥٥].

ورغم أن سن قانون أراضي التاج لسنة ١٩١٥، قد أثر على الهندوس وغيرهم من الهنود[٥٦]، ورغم حظر دخولهم[٥٧]، بحجة أعمال التخريب التي يمارسونها، والخوف من ردود فعل الإفريقيين في كينيا وتنجانيقا وأوغندة تجاهها[٥٨]، إلا أن استمرار تدفق أعدادهم[٥٩]، رغم إجماع الأوروبيين في هذا الشأن[٦٠]، يشير إلى أن جو الود والصداقة قد استمر قائماً بين الطرفين. ربما خشية أن تؤدى مشاكلهم في شرق إفريقيا إلى مشاكل بين الهند وبريطانيا نفسها[٦١]. فحين فرضت صعوبات كثيرة تعارض منحهم امتيازات على شاكلة تلك الممنوحة للأوربيين سنة ١٩٢١[٦٢]، وعُرضت مشاكلهم على المؤتمر الإمبراطوري المعقود في ذات السنة [٦٣]، وضح بأن هناك صعوبة في إزالة الحظر المفروض على هجرتهم سنة ١٩٢٢[٦٤]. بل إن برقية حاكم كينيا، بضغط من قبل المستوطنين البيض، لوزير الدولة لشؤون المستعمرات في الأول من فبراير ١٩٢٣، تشير إلى طلبه باستمرار تلك القيود المفروضة على هجرتهم[٦٥]. ومن ثم فإن جو الصداقة والمودة بين الطرفين لم يمنع فرض القيود على عليهم. لكن

استمرار جو الصداقة هذا، كان يسمح بالتلاقي بين الطرفين، فلم تتحول العلاقة بينهما طيلة الفترة الاستعمارية لحالة العداء والكراهية الشديدة أبدا.

فقد رتبت السلطات الاستعمارية المجتمعات في شرق إفريقيا على النحو التالي؛ الأوروبيون في المقدمة، يليهم الهنود، ثم العرب، ثم الإفريقيين[٦٦]. وكان الدور الأساسي الذي لعبه الهندوس في بناء مركز تجاري وسيط بين الأوربيين وغيرهم، واستخدامهم من قبل الإدارة الاستعمارية ككبش فداء في أوقات الأزمات[٦٧]، قد جعل وجودهم هناك أمراً مهماً طوال الفترة الاستعمارية. أضف إلى هذا، أن الوجود البريطاني في الهند قد أمّن للهندوس استمرار تلك المكانة المميزة في شرق إفريقيا، بحكم أن غالبية سكان الهند البريطانية من الهندوس. لكن بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٧، واختيار الهندوس الجنسية الهندية، وتفضيل الهنود المسلميون للجنسية الباكستانية، تبين بأن وضع الهندوس في شرق إفريقيا ليس له علاقة بالترتيبات البريطانية في الهند نفسها، بقدر ما هو متعلق بدورهم ونشاطهم الاقتصادي هناك. فقد أتضح بأن الدور الذي يقومون به في الترويج للسلع البريطانية بين هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا[٦٨]، وتهديد الكثيرين منهم بالرحيل عن شرق إفريقيا، غير متعلق برحيل بريطانيا عن الهند، بل متعلق بالقيود التي فرضها الانجليز عليهم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تخفيفاً للكراهية التي أبداها الإفريقيون تجاههم[٦٩]. وهكذا استمر الاستخدام البريطاني لهم ككبش فداء، ليحول الغضب الافريقي من البريطانيين ليصب بإتجاههم. هروباً من سلسلة الوعود بالحكم الذاتي سنة ١٩٢٣[٧٠]، ومن وعود بالاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية.

وربما كان نجاح الهندوس في دور الدوبلير الذي يتلقى الضربات بدلاً من البطل الرئيسي للراوية، كان سببا رئيسياً في جعل البريطانيين يستبقونهم في شرق إفريقيا حتى موعد تسليمهم باستقلال المنطقة. ولعل وجودهم في كل المدن الرئيسية لتنجانيقا وزنجبار وكينيا وأوغندة، حسب تقديرات سنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٩، يلخص هذا الاستمرار في الحضور الكبير[٧١]. وهذا ما جعل العلاقة تتوثق بين الطرفين، لدرجة جعلت الجيل الثاني من الهندوس في شرق أفريقيا يركز على أن تكون مشاريعه الجديدة في المملكة المتحدة. بعد أن غيرت الحكومة الهندية سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. فقبل الاستقلال لعب القوميون، مثل غاندي، دورا ضد التمييز في المجتمعات الاستعمارية. أما بعد الاستقلال فقد حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو[٧٢]. لهذا فإنهم قرروا ترك المنطقة والرحيل إلي بريطانيا، حينما استقلت دول شرق إفريقيا خلال الفترة من١٩٦١-١٩٦٣، ووضعت حكوماتها المستقلة قيوداً عليهم خلال ستينيات القرن العشرين[٧٣]. فكان وصف الإفريقيين للهندوس بنعوت مثل 'اللصوص'، و'المكتنزون' و 'المستغلين'، بالإضافة لسياسة الأفارقة، قد جعلهم يقررون الرحيل عن شرق إفريقيا. ولما كانت علاقتهم جيدة ببريطانيا فقد هاجروا إليها مفضلين

إياها علي الهند وطنهم الأم. بل وصل معدل الهجرة إليها في الأسبوع الواحد ما بين ٤٠٠- ٥٠٠ هندوسي. وتقلصت أعدادهم بصورة كبيرة في كل المنطقة [٧٤]. بل صدر لهم قانون مهاجرى الكومنولث سنة ١٩٦٨، ذلك القانون الذي ساعدهم في الرحيل لبريطانيا[٧٥]. فلو كانت العلاقة بينهم وبين البريطانيين سيئة خلال الفترة الاستعمارية، لكان هناك عدم تفضيل من جانبهم للاستقرار بها، مفضلين إياها على بلدهم الأم، أو لكانت بريطانيا نفسها ترفض هجرتهم إليها. وربما كان هذا الاستمرار للوجود الهندوسي في بريطانيا هو الذي يفضح تلك العلاقة الخفية بين بريطانيا والهند. بل أيضا ويكشف الدور الذي تلعبه الهند في خدمة المشروعات الغربية في منطقة جنوب شرق ووسط أسيا، ليس فقط عبر العلاقات الرسمية، بل عبر الجماعات الهندوسية التي تعيش في بريطانيا والدول الغربية.

المحور الثالث- المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا البريطانية :

تكون المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا عبر هجرة طوعية باختيارهم، وهجرة إجبارية تولاها وكلاء الاستعمار البريطاني [٧٦]. بل تشير الروايات إلي أن منطقة شرق إفريقيا أصبحت في العصر الفيكتوري هي المنفذ الرئيسي للهجرة الهندوسية. وأن المجتمع الهندوسي هناك أسهم في تطوير الزراعة، والإشراف على أعمال المنفعة العامة، ومثلوا قطاع العمالة الماهرة، وكانوا حاضرين في كتابات الرحالة والدبلوماسيين والمبشرين، وأن دورهم في تأسيس الحكم البريطاني في شرق إفريقيا كان كبيراً [٧٧]. وأنهم كانوا كذلك في مستعمرة شرق إفريقيا الألمانية [٧٨]. وحتى نتعرف على ملامح المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا أكثر لابد من الحديث في خمسة أمور:

الأمر الأول: خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا، فمع أن الهندوس شكلوا فصيلاً رئيسياً داخل المجتمع الهندي في تلك المنطقة [٧٩]، إلا أنهم نظموا مجتمعا مستقلاً خاصاً بهم هناك. فقد كان العمال الهندوس، على سبيل المثال، لهم خصوصية داخل العمالة الهندية التي جاءت لبناء خط حديد أوغندة خلال الفترة من ١٨٩٦- ١٩٠٢[٨٠]. وكان معظمهم قد جاء ابتداء من عام ١٨٩٦ من ولاية البنجاب، وعاد أكثر من ٩٠% منهم إلى الهند في نهاية عقودهم سنة ١٩٠١. وهذا لا يعني أن الهندوس لم يعد لهم وجود في شرق إفريقيا بعد هذا التاريخ. فقد جاءها تجار كثيرون يبيعون لهؤلاء العمال، وحينما اجتذبتهم مناطق الداخل توغلوا فيها بطلب من الإدارة الاستعمارية [٨١]. بل زادت أعدادهم في خمسينيات القرن العشرين بما يتجاوز نصف عدد الهنود المقدر بـ ١٩٨ الف، كانوا يعيشون في أوغندا وتنجانيقا وزنجبار وكينيا [٨٢]. ومع اقتراب استقلال شرق افريقيا في بداية الستينات، تجاوز عددهم أيضاً نصف الـ ٣٦٠ ألف هندي القاطنين هناك. ونتيجة الضغوط الكبيرة التي مورست عليهم من قبل الحكومات الإفريقية بعد الاستقلال تركها الكثيرون منهم وارتحلوا لأوروبا وأمريكا وغيرها [٨٣].

واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بخصوصياته، حيث جاءت طبقة البراهمة في قمة الترتيب الاجتماعي، في حين جاء الانوتوشابول Untouchables في المؤخرة (٨٤). وسكنوا المدن بأمر الحكومة البريطانية، واستأجروا مجالهم فيها بنظام ٤٩ سنة أو ٩٩ سنة. وعاشوا مثل اليهود في حارات خاصة بهم (جيتو). وأقاموا مدارس خاصة بهم للمحافظة على ثقافتهم(٨٥).

وإذا كان البراهمة قد أتوا في المقدمة، بحكم ترتيبهم الهيراركي داخل المجتمع الهندوسي، إلا أن أعدادهم قليلة مقارنة بعدد العمال الفنيين والتجار الذين صحبوهم لإمدادهم بالسلع والخدمات الأخرى. ومن ثم لم تستطع المجئ لشرق إفريقيا لا الطبقات الهندوسية الفقيرة، ولا الأغنياء والمتعلمون تعليماً جيداً (٨٦). ووفر الانجليز الفرصة لانتقال أسر هندوسية بكاملها للمنطقة. وخير مثال لذلك، الدراسة التي اعتمدت على تاريخ عشرين أسرة هندوسية، عاشت هناك لمدة ثلاثة أجيال، ما بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، كأسرة وهانا، وعائلة وهانا سندريجي Sunderji وناتجي ديومرداس Damordas وكيشفاجي Keshavji . بل ذهب كثيرون من رجال الأعمال الهندوس ليستقروا مع زوجاتهم وعائلاتهم هناك، خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠. فقد كانت النجاحات التي حققها أقرباؤهم منذ ثمانينيات القرن ١٩، هي المحرض الرئيسي لانتقالهم، فضلاً عن الاستقرار والحماية التي وفرها الانجليز لهم. ناهيك عن الفرص التجارية التي وفرتها المنطقة لتجارة المنسوجات القطنية والعاج والتوابل المربحة. فقد كانت الهند نفسها غير مشجعة للاستمرار فيها. ناهيك عن أن الكثيرين ممن جاءوا في بداية العصر الاستعماري مع أبائهم كأطفال، عادوا في عشرينيات القرن العشرين ليصطحبوا بقية أسرهم. ولعل تمييز الزيادة في عدد الهندوس من بين الهنود خلال الفترة من ١٨٨٤-١٩٦٣ (٨٧)، يشير إلى قدرة المنطقة على جذب الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة. وإذا أخذنا تعداد سنة ١٩٤٨ في كينيا كمؤشر على الوضع الاجتماعي للهندوس، لوجدناه يشير إلى وجود محامين ومدرسين وأطباء بينهم، غير أن غالبيتهم يعملون بالتجارة. وأن أربعة أخماسهم يعملون بالتجارة أو الصناعة، والباقي في الوظائف والحرف الأخرى. وبالنسبة للعمال والحرفيين وموظفي الإدارة الاستعمارية، فقد كانوا يعملون سبعة أيام في الأسبوع، من الفجر حتى أخر النهار. ولا يشكون من أقسى المهام وأشقها، ويقتنعون بأجور ضئيلة (٨٨).

وحافظ المجتمع الهندوسي على خصوصيته في شرق إفريقيا. فقد التف الهندوس حول عقيدتهم الدينية، وتقيدوا بتقاليد مجتمعاتهم وطقوس دينهم الصارمة. ومع أن بعضهم أتقن السواحلية إلا أنهم تمسكوا بخصوصيتهم اللغوية (٨٩). لهذا فإنهم لم يستطيعوا تطوير تنظيماتهم الاجتماعية هناك. فقد أجبرتهم معتقداتهم على بقاء ارتباطهم بالهند. وربما كان الهندوس أغنياء ومؤثرين، ولكنهم في النهاية كانوا مجتمعاً

منعزلاً هناك. فضلاً عن أنهم مثلما كانوا في الهند، عاشوا في شرق إفريقيا. فقد نقلوا تنظيماتهم الاجتماعية الهندية بصورة كربونية لتلك المنطقة. فقد كان لهم رئيس ونائب لكل قرية، وهناك رئيس للعشيرة. وكانوا مرتبطين بعادات زواجهم من أقاربهم. وكانت جمعيات الباتيدار Patidar Assocciations هي التي تدير شئونهم. وانتظموا في عدد من الجمعيات التي حافظت على هويتهم. وشكل عدد أعضا جمعية كمبالا الهندوسية في أوغندة العدد الأكثر من بين تلك الجمعيات. ناهيك عن أنهم، ولكونهم أثرياء، بنوا قاعة احتفالات كبرى يجتمع فيها كل هندوس أوغندة ، وبنوا ملجأ للأطفال، وتحملوا تكلفة تعليم كل الفقراء من أطفالهم (٩٠). وحافظ الهندوس على اتصالاتهم المستمرة بالهند وزنجبار وعمان ومدن عالمية أخرى كثيرة (٩١). وبرغم وجود جمعيات خاصة بهم، إلا أن الجمعية الهندية المركزية بنيروبي ظلت تمثل كل المجتمع الهندي في شرق إفريقيا (٩٢). ونخلص من هذا الأمر بأن شرق إفريقيا كانت هي البوابة الرئيسية لاتساع شبكة العلاقات الدولية والإقليمية للهندوس. وأن خصوصيتهم هي التي جعلت الأطراف الأخرى هناك تتعامل معهم بحرص وحذر واحترام لها.

الأمر الثاني: علاقة المجتمع الهندوسي ببقية الهنود، فبرغم أن خصوصية المجتمع الهندوسي قد أحدثت الاتساق والتعاون داخل طائفتهم في كل شرق إفريقيا، خصوصاً بعد تحول تنجانيقا للحكم البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أن علاقات هذا المجتمع ببقية الهنود كانت علاقة قوية ووطيدة، خصوصاً بينهم وبين السيخ البنجاب(٩٣). فقد ظلت الصداقة موجودة وقائمة بين الطرفين في أوغندا، وغيرها من بلدان شرق إفريقيا طوال الفترة الاستعمارية (٩٤). بل تشير الكتابات إلي أنه خلال تقسيم البنجاب ١٩٤٧ وفقد الكثير من عائلات السيخ أراضيهم، رحب الهندوس بالمرتحلين منهم لشرق إفريقيا واستقبلوهم استقبالاً جيداً، وصارت العلاقات وطيدة بينهم منذ تلك الفترة وحتى الاستقلال، لدرجة أنهم بعد انقلاب الإفريقيين على الطرفين، ساعدوهم في تفضيل الهجرة إلى المملكة المتحدة وكندا والولايات المتحدة الأمريكية (٩٥)، واستراليا ونيوزيلندا وبعض بلدان أوروبا، عن الهند عام ١٩٦٥ (٩٦).

في حين تراوحت العلاقات بينهم وبين بقية الهنود من المسلمين بين الشد والجذب. ففي أحيان كثيرة كان يسودها التوتر والانقسامات، وأحيانا أخرى كان يغلب عليها المودة والتعاون. بعضها مرتبط بظروف التنافس بين الطرفين على خيرات شرق إفريقيا، وبعضها جاء انعكاساً لحالة الصراع بينهما في الهند نفسها. ولعل تدخل مدير عام إنشاء الخط الحديدي والنزول بنفسه إلى مخيم العمال الهنود - خلال الفترة الاستعمارية المبكرة، لقمع الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين، وفصلهم عن بعض خلال الاشتباكات المستمرة التي تجرى بينهم بالعصي والحجارة، لدرجة أن اثنين من الهندوس حاولا قتله - يعد خير مثال لهذه التشاحنات بين الطرفين. بل صدرت أحكام كثيرة بالسجن، لمدد مختلفة، للهندوس ولغيرهم من العمال المتمردين(٩٧). وبرغم أن

حالة الهدوء والانسجام القائمة في الهند، حتى عشرينيات القرن العشرين قد عكست نفسها في الهدوء والاستقرار بين الطرفين في شرق إفريقيا، ورغم أن سكناهم في أحياء واحدة، وإرسال أبنائهم لمدارس شبه واحدة، قد ألف بينهم في فترات كثيرة، وبرغم أن التقاءهم مع المسلمين في الأندية الرياضية كرمز للوحدة المجتمعية، إلا أن حالة الصراع في الهند منذ الثلاثينيات عكست نفسها في النفور والفرقة بينهما. بل ازدادت الفجوة بينهما بعد فصل باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧ (٩٨).

الأمر الثالث: الاهتمام بالرعاية الصحية. فقد تكفل المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا في البداية بالحفاظ على صحة أبناءه ومعالجتهم من أمراض المنطقة. ففي نهاية سنة ١٨٩٤ أنشأ الهندوس مرفقاً صحياً في زنجبار، تألف من موظفين من أهل جوا ومفتشين هنديين، و٤٠ كناساً و٣٢ زبالاً(٩٩). ولعل قرراهم بالاستقرار في شرق إفريقيا نتيجة للأمراض التي تعرضوا لها، ووفاة الكثيرين منهم خلال رحلة الذهاب والعودة،من والى الهند، يعد قراراً وقائياً جيداً في أواخر القرن التاسع عشر (١٠٠). لكن على الساحل وفى مناطق شرق إفريقيا الداخلية اهتمت الإدارة البريطانية بإجراء تحسينات لمرافقهم التعليمية، وقامت بتوفير الرعاية الطبية لهم (١٠١). خصوصاً بعد سكناهم في حارات ضيقة، وتأثير ذلك على تدهور حالتهم الصحية، وانتشار مرض الطاعون بينهم سنة ١٩٠٥ (١٠٢). فكان من الطبيعي أن يسعى الانجليز إلى مساعدتهم قبل أن تنتقل الأمراض لمناطق سكنى الأوربيين.

الأمر الرابع: تعليم الهندوس في شرق إفريقيا. ففي مارس ١٨٩١ افتتحت مدرسة إيوان سميث الهندية الكبرى، ليدخلها أبناء الهندوس والمسلمين الهنود سوياً. بل كانت إدارتها تحت قيادة لجنة منتخبة من قبل هندوس ومسلمين (١٠٣). هذا بالإضافة إلى دخول أطفالهم المدارس التي فتحتها الإدارة البريطانية في كينيا. ناهيك عن قيام البريطانيين بإعانة مدرسة الهندوس الحرة للبنات بمساعدة قدرها ٨٧٤ روبية سنة ١٩٢٤. بل ظلت الادارة الاستعمارية تعين مدارسهم حتى سنة ١٩٦٣. فضلاً عن جهودها في إنشاء مدرسة مفتوحة لكل طوائفهم منذ سنة ١٩١٣، وافتتاحها لمعاهد للتعليم الفني في نيروبي وممبسة ومعهد المهاتما غاندى (١٠٤).

وبخصوص تعليمهم في أوغندة، فقد قاموا بإدخال أبنائهم في مدرسة البعثة التبشيرية في كمبالا سنة ١٩٠٢، ومدرسة جنجا سنة ١٩٢٥. ناهيك عن قيامهم بإنشاء مدارس هندية صغيرة خاصة بهم. عملت الحكومة الاستعمارية على إعانتها منذ سنة ١٩٣٣ وحتى سنة ١٩٤٩. وفى تنجانيقا اهتموا بإقامة مدارسهم بأنفسهم في ظل الإدارة الألمانية. لكن حينما تولت بريطانيا إدارة المنطقة ساعدتهم سنة ١٩٢٥ بـ ٥٠% من تكاليف إنشاء مدرسة مركزية كبيرة في دار السلام (١٠٥).

وبالنسبة للتعليم العالي للهندوس، فكان هذا يتم في الهند وانجلترا وجامعة ماكريرى في أوغندا، تلك التي كان يذهب إليها كل رعايا بريطانيا في شرق إفريقيا.

فضلاً عن تشكيل المجلس الاستشاري للتعليم الهندي سنة ١٩٥١. الذي قام بإنشاء لجنة مهمتها اختيار الطلاب المبعوثين سنوياً لانجلترا. فضلاً عما قدمته الهند لهم من رعاية بعد استقلالها سنة ١٩٤٧. فقد خصصت عام ١٩٤٩ منحاً دراسية لأبنائها الهندوس، ناهيك عن منحها الثقافية [١٠٦]. وهذا ما يدلل على استمرار العلاقة مع الهند على طول الخط. وهو معاكس لما حدث في العلاقات الاقتصادية بينهم وبين الهند.

الأمر الخامس: مكانة المرأة الهندوسية. فبرغم ما قيل عن علاقة الهندوس بالانجليز، وأنهم وفروا المناخ الذي ساعدهم في اصطحاب أخواتهم وزوجاتهم وبناتهم للإقامة في شرق إفريقيا إقامة دائمة [١٠٧]. غير أنه لا أحد ينكر بأن السلطان برغش، سلطان زنجبار، كان هو السبب في هذا الاصطحاب الهندوسي للزوجات والأسر. فحينما كان سفر الهندوسيات لتلك المنطقة من المحرمات، لكونها غير آمنة' على النساء، ما اضطرهم لترك زوجاتهم لرعاية أسرهم الموسعة في الهند، راح السلطان برغش يشجعهم علي جلب زوجاتهم لمملكته، في بداية ثمانينيات القرن ١٩. بل قيل بأنه أرسل مبعوثا خاصا إلى السفينة التي حملت أول امرأة هندوسية إلى زنجبار سنة ١٨٧٩. وأنه أعطاها ٢٥٠ شلناً عربوناً للمحبة، وتعبيراً عن نواياه الطيبة. بل جعل زنجبار القديمة مكاناً لإقامة زوجات التجار الهندوس، وزودها بأنابيب المياه والصنابير، وضمن للهندوسيات الحركة فيها بحرية [١٠٨]. لكن هذا التشجيع جذب حالات فردية وأعداد قليلة جداً.

من هنا، فإن القفزة الكبيرة لانتقال الهندوسيات لشرق إفريقيا؛ جاءت مع الاحتلال البريطاني لها. فقد شجعت الإدارة الاستعمارية هذا الأمر وحفزت عليه، أملا في ضمان بقاء الهندوس في خدمة المشروعات البريطانية هناك. واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بتقاليده، بتفضيل الأسر الهندوسية لزواج أبنائها من هندوسيات. لكن حينما تقدم عمر تلك الأسر في تلك المنطقة، ترك أمر الزواج بهندوسيات شرق أفريقيا لصالح الزواج بهندوسيات من الهند نفسها. بما يعني قطع الطريق على تلك الفتيات عن الزواج من خارج طبقتهم داخل الترتيب الهيراركى الهندوسى. وهو الأمر الذي احتاطت له الأسر الهندوسية فيما بعد، فعادت لتفضيل هنديات شرق أفريقيا. وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تدهور العلاقات الاجتماعية والعائلية مع الهند. فلم تعد لها أهمية كبيرة في استجلاب الزوجات منها. ومن ثم لعب شرق إفريقيا دوراً كبيراً في تقريب الفوارق بين الفئات الهندوسية. واستطاعت بالفعل تغيير كثير من التقاليد التي حافظت عليها الأسر الهندوسية التي هاجرت قبل بداية القرن العشرين [١٠٩]. بل كان هندوسيوها يتزوجون من هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا [١١٠].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد ظهر تأثر الهندوس القوى بالغرب. ولعل ما فعله رجل الأعمال الهندوسي بهارات، يعد خير مثال للتغير الذ حدث لهم في شرق إفريقيا. فقد عاش ببهارت في دار السلام، ودرس في المملكة المتحدة. وهناك وقع في

حب فتاه هندية من شرق إفريقيا ومن غير طائفته، لكنها تتحدث الجوجاراتية مثله. ولما كانت مهمة إقناع والده بالزواج من خارج طبقته - خصوصاً مع رفض إخوته لهذا الزواج، وتحذيرهم من تأثيره على دينه وأطفاله - مهمة غير سهله، لذا استغرق عدة سنوات في عملية إقناع والده وأسرته بهذا الزواج، كونه أول هندوسي يكسر التقاليد(١١١). وخلاصة الأمر عن مكانة المرأة نجملها فيما انتهى إليه حالها هناك. فبعد أن كان عدد النساء قليلاً في بداية الفترة الاستعمارية، وصلن في نهايتها، لأن يكون الفارق بينهن وبين الرجال الهندوس لصالحهن، فعددهن أكثر (١١٢). وهذا يدل على أن المنطقة أصبحت جاذبة للمرأة الهندوسية ومشجعة على زيادة تناسلها وبقائها فيها.

وثمة نتائج أربع نخلص بها من هذا المحور: أولها، احتفاظ المجتمع الهندوسي بتقاليده وعاداته وخصوصياته بشكل كبير ومدهش. ثانيها، هناك قدر كبير من التماسك بينهم وبين بقية الهنود الآخرين. ثالثها، لم يقف هذا المجتمع حجر عثرة في طريق الحداثة وتطوير نفسه تعليمياً وثقافياً وعلاجياً. رابعها، أن المرأة فيه تمثل جزءاً أصيلاً في احتفاظه بتقاليده، وملمحاً مهماً من ملامح هويته الوطنية.

المحور الرابع- أحوال الهندوس الاقتصادية :

رغم أن الآلاف من الهندوس قد جاءوا لشرق إفريقيا، في بداية العصر الاستعماري كعمال لبناء خط حديد أوغندة، إلا أن معظم هؤلاء العمال عادوا للهند سنة ١٩٠١(١١٣). ومن ثم فإن الهندوس الذين بقوا هناك، والذين هاجروا إليها طوعاً، قد شكلوا قوة اقتصادية كبيرة في المنطقة. ونظراً للمكانة الاقتصادية الهامة التي حققها الهندوس في شرق إفريقيا سنتعرف على هذه البراعة والقوة في خمسة ملامح رئيسية:

الملمح الأول: البراعة الاقتصادية لأفرادهم وقدرتهم على افتتاح الشركات. فقد برع الأفراد الهندوس في كيفية الحصول على الثروة والأرباح، وفي مضاعفتها واستثمارها هناك. ولم تكن تلك الصفة قد اكتسبوها من البريطانيين في منطقة شرق إفريقيا، بل تميزوا بها قبل الاحتلال البريطاني لها. فعلى سبيل المثال لم يخرج امتياز الجمارك من بيت جيرام سوجي الهندوسي إلا مرة واحدة سنة ١٨٧٦، ولمدة خمس سنوات: لشاريا توبان الهندي الاسماعيلي. لكنه عاد للهندوس مرة ثانية سنة ١٨٨٠، وظل فيهم حتى سنة ١٨٩٠. حيث انتهى بإعلان الحماية البريطانية على كينيا، وقيام جهة الإدارة بوضع تنظيم الجمارك تحت إشرافها الكامل (١١٤). بل إنهم في ظل نفوذ شركة الهند الشرقية في مختلف أنحاء شرق إفريقيا، هيمنوا على التجارة والمالية في زنجبار ومختلف مناطق الداخل (١١٥).

بل إن تاريا توبام Taria Topam نفسه، كان تلميذاً لدى سويجي جيرام Jairam Sewji الهندوسي، مما ينم على العلاقة الاقتصادية الجيدة التي جمعت بين الهنود بصفة عامة في تلك المنطقة. فقد أشركه مع هندوسي آخر يدعى سيوا حاجي بارو Sewa Haji Paroo، ليس فقط لفتح متاجر له في الداخل، ولكن لتنظيم القوافل

إليها أيضاً. وهكذا أنشئت Allidina Visram في بداية عام ١٨٩٠. وكل منهم قد استقل وفتح شركات خاصة به. وقام بفتح فروع لها فيما بعد. حتى جاءت سنة ١٩٠٩ وأصبحت لكل منهم إمبراطوريته التجارية المستقلة. بل إن أحدهم فتح أكثر من ٤٠ فرعاً في جميع أنحاء شرق إفريقيا وتمكن من إقامة العديد من المصانع(١١٦).

وكانت معظم الشركات الهندوسية تتخذ من زنجبار مقراً لها، مع وجود وكالات فرعية لها في الداخل. وبعد تقسيم شرق إفريقيا بين ألمانيا وبريطانيا، وجدت تلك الشركات في القسمين. بل إنه حينما ألغى الألمان الضرائب المفروضة على جميع البضائع المستوردة، عدا المشروبات الروحية والسلاح، في أول فبراير ١٨٩٢، اجتذب هذا الإجراء العديد من الهندوس لنقل تجارتهم إلى دار السلام وغيرها من مدن المستعمرة الألمانية، وأقاموا أسواق خاصة بهم (١١٧). ناهيك عن مشاركة الهندوس في صناعة الملابس والمنسوجات القطنية في معظم أنحاء شرق أفريقيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى (١١٨). بما يعد تحولاً اقتصادياً عاماً في تاريخ الهندوس. حيث ظل نشاطهم يقتصر، طيلة القرون السابقة، على جلب المنسوجات من الهند(١١٩). وحينما تحولوا للاهتمام بالصناعة لم يملكوا ورشاً صغيرة لإنتاج الملابس في شرق إفريقيا فحسب، بل امتد الأمر لمعظم أنحاء الجنوب الافريقي(١٢٠).

الملمح الثاني: إنشاء البنوك، فنظراً للاستقرار الذي وفره الانجليز لهم، أقدموا على خطوة اقتصادية هامة ألا وهى افتتاحهم لعدد من البنوك هناك. ففي سنة ١٨٩٦ أنشأوا أول بنك هندوسي في شرق إفريقيا، هو البنك الاهلى الهندي The National Bank of India. وهذا البنك كان مقصوراً، منذ سنة ١٨٩٢، على زنجبار فقط. هذا بالإضافة إلى قيامهم بفتح فرع جديد له في ممبسة(١٢١). وافتتحوا فرعاً آخر له في نيروبى سنة ١٩٠٤. وأصبح هذا البنك أحد ثلاثة بنوك تدير أعمال المال والإعمال في شرق إفريقيا سنة ١٩١١. وزادت فروعه في كل من ممبسة ونيروبي وناكورو وكيسومو(١٢٢). وهذا ما جعلهم يتحكمون في النشاط التجاري في معظم مدن شرق إفريقيا. وخير مثال لذلك، تحكمهم في تجارة مومبسة(١٢٣). هذا في الوقت الذي شاركت فيه بعض العائلات الهندوسية الميسورة نسبياً في إقامة شكل من أشكال الخدمات المصرفية منذ سنة ١٩١٦، بفائدة ما بين ٦-٩% سنوياً. وهذا ما دعا لأن يكون لبعض شركاتهم ممثلين في مدن مختلفة في أنحاء العالم(١٢٤).

الملمح الثالث: نشاطهم التجاري الكبير. فقد برع الهندوس في مجال تجارة الجملة والتجزئة والتصدير للخارج. ففي مجال تجارة التجزئة ظل اسم الدوكاوالا dukawalla يعنى الهندي صاحب المتجر (١٢٥). ولنستدل على دورهم في هذا المجال، نستعين بتقرير رفعه السير هسكث عن زيارته لمدينة مبال سنة ١٩٠٩. فقد تحدث فيه عن حانوت يملكه أحدهم يدعي هيرالال، بأنه مملوء بالأطعمة المحفوظة والصابون والأقفال وألواح الساج والنحاس والسلك والدراجات والدبابيس وأثواب من القماش البفتة، كلها

مستوردة من بريطانيا. وأنه رأى من البضائع الألمانية والنمساوية؛ الأحذية بأشكالها المختلفة، والشاي والسكر والدقيق والبويات ومصابيح العواصف والشماسي. وشاهد من البضائع الفرنسية المرايا والسجائر. ومن السويد والولايات المتحدة رأى الكبريت وغاز الكيروسين والساعات السويسرية. وهذا يعني اعتماد تجارة الهندوس على البلدين الاستعماريين، بريطانيا وألمانيا، بشكل كبير. هذا في الوقت الذي راح فيه نشاطهم في خمسينيات القرن العشرين لا يقتصر على الحي التجاري الخاص بالهنود فقط، بل كانت لهم محال تجارية كبرى في الشوارع الرئيسية، حيث توجد المؤسسات الأوربية. وكان أثرياء التجار ومثقفوهم يملكون عددا كبيراً من دور السينما والفنادق والجراجات ونوادي ومتنزهات وبيوتاً ريفية أنيقة. أما خارج المدن فتغلغلوا في الأرياف، فملكوا دكاكين صغيرة تسمى دوكا Duka يبيعون فيها للإفريقيين بسعر جذاب [١٢٦]. لهذا كان أكثر من ٥٠% من ذكورهم في أوغندة سنة ١٩٤٨، على سبيل المثال، يعملون في تجارة التجزئة والجملة [١٢٧].

وفيما يختص بتجارة الصادرات والواردات، فقد استوردوا الكاجو والسمسم والفول السوداني والقطن ولب جوز الهند المجفف من هندوس موزنبيق[١٢٨]. وكانوا وشركاتهم في سنة ١٩١٦، يتاجرون في السلع الرئيسية، في المنسوجات والملابس والعاج والذهب والمواد الغذائية كالذرة والفاصوليا والحبوب والذهب[١٢٩]. وكانوا في أوغندة يتاجرون في القطن والبن. وبلغوا درجة من الثراء هناك، مما فرض على حكامها البريطانيين العموميين الاجتماع بهم كل عام[١٣٠]. بل وصل الأمر في عموم شرق إفريقيا سنة ١٩١٠، بأن أصبحت التجارة والحرف كلها في أيديهم، وفي أيدي بني جلدتهم من بقية الهنود [١٣١].

الملمح الرابع: نشاطهم الزراعي المتميز. وقد ظهر هذا النشاط المتميز حينما أرسلت شركة شرق إفريقيا البريطانية السيد فيتزجرالد لبحث الإمكانات الزراعية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩١. فأوصى باستقدام المزارعين الهنود إليها للعمل في المشروعات الزراعية الاستعمارية. فجاء الفلاحون والمزارعون الهندوس في البداية، كمهاجرين يهتمون بزراعة المحاصيل النقدية المربحة. لكنهم بمجرد وصول المستوطنين الأوربيين إليها تعرضوا لمضايقات شديدة [١٣٢]. لهذا شاركوا في اجتماع ممبسة سنة ١٩٠٥. وطالبوا فيه بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، وعادوا فكرروا طلبهم سنة ١٩٠٨. غير أن كلا الطلبين قد رفض[١٣٣].

وكانت تجربة الهندوس في زراعة القطن قد جعلتهم يمتلكون كثيرا من المحالج سنة ١٩١٤. وهو الأمر الذي جعلهم يصدرونه للغرب واليابان خلال الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٣٠. فضلاً عن أنهم كانوا رواد صناعة السكر في شرق إفريقيا. حيث أقام أحدهم، ناتجي كاليداس، أول مصنع للسكر في لوجازى سنة ١٩٢٣. ثم ما لبث أن افتتح مصنعاً

أخر في كاكيرا. وفى سنة ١٩٥٢ بلغ إنتاج هذه المصانع ٦٠ ألف طن.وكان نصف إنتاج تلك المصانع يستهلك محلياً، والباقي يصدر للخارج (١٣٤).

وشارك الهندوس في إقراض مزارعي القرنفل العرب، لكن حينما تفاقمت ديونهم في بداية القرن العشرين، انتقلت ملكية تلك الزراعات إليهم. غير أن تقرير سنة ١٩٢٣ قد أشار إلى عدم اهتمامهم بزراعة القرنفل. مما أدى إلى قيام الإدارة الاستعمارية بمنع انتقال تلك الملكية لهم سنة ١٩٣٤. وهو الأمر الذي فرض عليهم العودة للمشاركة في الإنتاج سنة ١٩٣٧ (١٣٥) . وبلغ من قوتهم الاقتصادية الزراعية أن اشتروا ممتلكات الرعايا الألمان المعروضة في الفترة ١٩٢٠ - ١٩٢٤، بعد أن عرضها البريطانيون للبيع بالمزاد العلني. فانتقلت نسبة كبيرة من مزارع البن والسيسال إلى أيديهم. وهذا ما يفسر زيادة أملاكهم بصورة كبيرة بعد سنة ١٩٣٦. بل أصبحوا، مع بقية الهنود الآخرين، يمتلكون ٩٠% من الأملاك الخاصة في دار السلام (١٣٦).

الملمح الخامس: تنوع علاقاتهم الاقتصادية الدولية وفتورها مع الهند. فقد ارتبط الهندوس في بداية العصر الاستعماري بدولتي الاستعمار الرئيسيتين في شرق إفريقيا، إضافة لبلدهم الأم الهند. لكن يبدو أن تأثرهم بفترة الكساد العظيم، وغزو الجراد لشرق إفريقيا في مستهل ثلاثينيات القرن العشرين، واستمرار عدم تحسن الأحوال لاقتصادية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٣٧)، قد جعلهم يركزون خلال الفترة من ١٩٢٠-١٩٦٠ على شرق أفريقيا والمملكة المتحدة واليابان. حينما تأكد لهم بأن الهند قد خسرت المنافسة العالمية في صناعة النسيج لصالح اليابان ثم أوروبا. ومن ثم كانوا سبباً في أن تفقد الهند مكانتها في سوق شرق أفريقيا خلال عملية تحولها إلى دولة صناعية كبرى. بالمقابل كانت شرق أفريقيا تحت قيادتهم تخطو خطواتها الأولى في التصنيع الأولي، خصوصا في إنتاج المنسوجات (١٣٨).

ومن ثم لم يكن تدهور العلاقات بين الهندوس في شرق إفريقيا والهند بعد الحرب العالمية الثانية في أمور الزواج فقط، بل في العلاقات التجارية واستيرادهم للمنسوجات. وهذا التدهور بدأ منذ ثلاثينيات القرن العشرين، حين اعتمدوا على امنسوجات اليابانية التي كانت تباع في أسواق شرق أفريقيا بسعر رخيص للغاية. بل إن بعضهم، منذ سنة ١٩٣٥، فتح فروعاً لشركاتهم في اليابان. بل انقطعت الشبكات المصرفية بين الطرفين. وهذا ما يفسر لماذا بدأ الجيل الثاني من هندوس شرق أفريقيا في التركيز على المشاريع الجديدة في المملكة المتحدة، خصوصاً بعد قيام الحكومة الهندية بتغيير سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. وبعد أن حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو. واكتفت بنصيحتها لهم بتحديد الأماكن التي يقيمون فيها. ناهيك عن التشكيك في تحايل التجار الهنود عليهم، وإرسال نوعيات رديئة وأقل مما طلبوه. إلي جانب قيود في التصدير للهند أكثر من تلك التي تعترض طريقهم خلال تصديرهم لجنوب إفريقيا وانجلترا وكندا وأمريكا. لذا تجنب الكثيرون منه هذا الصراع مع الهند،

وأوقفوا تجارتهم معها. وهذا ما جعلهم يشعرون بأنهم أصدق من هندوس الهند. ومن ثم تعززت في شرق أفريقيا فكرة الجماعة الجوجاراتية كما هي في الهند. بل اعتقدوا بأنهم تميزوا بالصدق عنهم في ثمانية أعشار كلامهم (١٣٩). وهذا ما جعل الذين واجهوا مشاكل في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؛ يفضلون البلاد الغربية على الهند. وإذا أخذنا طردهم من أوغندا مثالا لقوتهم الاقتصادية، لوجدنا أن تحكمهم الاقتصادي هو الذي جعل الإفريقيين يقومون بهذا الأمر. حيث قيل بأن طردهم جاء اعتراضاً على شركاتهم التي تصدر الأخشاب وتستنزف الغابات الاستوائية، مما اعتبره الأهالي امبريالية هندية في شرق أفريقيا. بل استمر هذا الطرد لهم خلال فترتي عيدي أمين (١٩٧١-١٩٧٩) وميلتون أوبوتي (١٩٨٠-١٩٨٥) (١٤٠).

المحور الخامس - أحوالهم السياسية :

برغم أن اهتمام الهندوس الأول قد انصب على الاقتصاد وتكوين الثروات، ورغم أنهم جاءوا رعايا لبريطانيا، إلا أنهم اهتموا أيضاً بالسياسة. فقد برز نشاطهم السياسي منذ سنة ١٩٠٠. حينما كونوا مع بقية الهنود جمعية هنود ممبسة. وانتشرت الجمعيات المشابهة لها في نيروبي، وفي كل المراكز الحضرية في كينيا وأوغندة وتنجانيقا. ويبدو أن ممبسه كانت هي المركز الرئيسي للنشاط السياسي الهندوسي. فمثلما تأسست فيها أولى الجمعيات السياسية، تأسس فيها أيضاً المؤتمر الوطني الهندي لشرق إفريقيا East Africa Indian National Congress سنة ١٩١٤، ومنها تفرعت فروعه الأخرى في أوغندة وتنجانيقا (١٤١). ومثلما كان الهندوس مؤسسين ومتحكمين في نظيره في الهند، كانوا هم أيضاً المتحكمون والمؤسسون له في شرق إفريقيا. و وحتى يمكننا معرفة نشاطهم السياسي أكثر نبلوره في سبع لقطات رئيسية :

اللقطة الأولى: كفاحهم من أجل التمثيل النيابي. وهذه اللقطة تثبت دورهم المميز في الكفاح من أجل الحصول على مقاعد لتمثيل الهنود في المجالس التشريعية التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية في شرق إفريقيا. ومع أنهم لم يحظوا بالمقعد الذي حصل عليه الهنود في أول مجلس تشريعي يشتركون فيه سنة ١٩٠٩، حيث حصل عليه أحد الهنود المسلمين يدعى جيفانجي، إلا أنهم ساندوا تلك الخطوة مطالبين بالمزيد من المقاعد. وبعد تغير اسم محمية شرق إفريقيا إلى محمية كينيا حصلوا على مقعدين سنة ١٩٢٠. وفي هذا الإطار كونوا مع بقية الهنود الآخرين الرابطة الهندية، التي طالبت بالتمثيل المتساوي بينهم وبين البيض. بل بعثت في أوائل ١٩٢٠ بوفدين لكل من نائب الملك بالهند ولورد ملنر وزير المستعمرات، فسمح بانتخاب شخصين بدلاً من تعيينهما، وألغى كافة القيود على هجرتهم. لكن إصرار اللورد ملنر على عزلهم في المدن لتجنب مشاعر الكراهية بين الأجناس، أدى إلى رفض انتخاب العضوين الهنديين بالجمعية التشريعية (١٤٢).

ومع أن طلبهم قوبل بالرفض من قبل حزب المحافظين، إلا أنهم حصلوا على حقوق واضحة المعالم منذ سنة ١٩٢١. بحيث صيغت هذه الحقوق ضمن وثيقة رسمية في ٢٠ يوليو ١٩٢٣. فقد وافقت الإدارة البريطانية في كينيا، حسب قرار المؤتمر الامبراطوري سنة ١٩٢١، على انتخاب خمسة أعضاء بدلاً من أربعة. ويبدو أن رعاية حكومة الهند لهم إلى جانب ضغوطهم، هي التي لعبت الدور الأهم في الحصول على تلك الامتيازات. فقد كانت الإدارة البريطانية تخشى من أن إعطاء المزيد من الحقوق لهم، سيتسبب في إحداث توترات وقلاقل بين الإفريقيين عبر كافة مناطق شرق إفريقيا[١٤٣] وتشير إحدى الوثائق البريطانية صراحة إلي الدور الذي لعبه نائب الملك في الهند، والضغوط التي مارسها ممثلوا الجمعية الوطنية الهندية في يوليو ١٩٢٣، وغيرهم من المسئولين البريطانيين، في حصول الهندوس، وغيرهم من بقية الهنود على مزايا سياسية وامتيازات في شرق إفريقيا [١٤٤].

وما يعنينا هنا، هل استفاد الهندوس من تلك الامتيازات أم لا؟ الإجابة تقول بأنهم حصلوا على ثلاثة من خمسة مقاعد برلمانية حصل عليها الهنود في كينيا[١٤٥].ورغم أنه اشترط على الهندي الذي يدخل الجمعية التشريعية أن يكون حاصلاً على مؤهل تعليمي عال، ورأس مال يبلغ ألف جنيه، أو دخل يبلغ ١٥٠ جنيها إسترلينيا، وأن يجيد اللغة الانجليزية كتابة وقراءة[١٤٦]، وبرغم رفع رسوم التأمين على المهاجرين الرجال منهم لتصل ١٠٠ جنية و ٥٠ جنية [١٤٧]، وبرغم أن بقية الشروط التي طبقت عليهم جعلت ١٠ % منهم فقط تنطبق عليه تلك الشروط[١٤٨]، ورغم مناقشة موضوع تمثيلهم كثيراً[١٤٩]، إلا أن حصولهم على المقاعد الثلاث يعد نجاحا كبيراً، مقارنة بالممثلين عن الأجناس الأخرى. وبرغم أن هذا سبَّبَ صعوبة بالغة للمرشحين الهنود في الدوائر الكبيرة والمتسعة عليهم، حتى وإن انحصر الأمر بين أفراد طائفتهم المنتشرين في مختلف المناطق[١٥٠]. ورغم التمكين الذي حصلوا عليه في المجلس التشريعي[١٥١]، إلا أن الكراهية التي قوبلوا بها من قبل المستوطنين البيض، إعتراضاً على تلك الامتيازات، جعل الممثلين الهندوس الثلاثة، والهنديان الآخران، يقاطعون المجلس التشريعي حتى سنة ١٩٣١[١٥٢] .

أما بالنسبة للنواب الهندوس في تنجانيقا وأوغندة وزنجبار؛ فإنه بحلول عام ١٩٤٦ كان يتم ترشيح ما بين ٢-٣ هندي للمجلس التشريعي الأوغندي[١٥٣]. واثنين من ستة أعضاء يمثلون مختلف الطوائف في زنجبار[١٥٤]. لكن مع كل الصعوبات التي واجهت الهندوس في حصولهم على حق التمثيل البرلماني، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بمقاعد ثلاثة من بين خمسة مقاعد مخصصة للهنود في كينيا، وممثل واحد في المجالس الأخرى. ولعل انتخابات عام ١٩٤٨، والسنوات التي تلتها [١٥٥]، تعد خير دليل على هذا البروز السياسي للهندوس، وعلى البروز العددي والنوعي أيضاً. فلا يمكن أن يحصلوا على هذا العدد من المقاعد، إلا إذا كانوا أكثرية، وإلا إذا كانوا أثرياء ولديهم تعليم جيد.

النقطة الثانية: مطالبتهم بالحكم الذاتي. وصل الأمر بالهندوس، بدعم من ممثلي مجلس الوزراء البريطاني، أن تزعموا بقية الهنود للمطالبة بأن تكون شرق إفريقيا الألمانية وطناً ومستعمرة لهم بعد نهاية الحرب الأولي سنة ١٩١٨ (١٥٦). بل يشير أحد التقارير إلي أن الليبراليين البريطانيين أشاعوا كثيرا خلال الفترة الاستعمارية عن محاولة الهنود إقامة إقليم هندي مستقل في شرق إفريقيا. بل تحدثت الحكومة البريطانية في ورقتها البيضاء سنة ١٩٢٣بصراحة حول هذه المسألة (١٥٧). فمنذ تلك السنة بدأ القادة السياسيون الهنود يطالبون بالمساواة الكاملة بين الهنود والأوروبيين (١٥٨). بل عقد المؤتمر الوطني الهندي اجتماعاً حضره مندوبون عن هنود كينيا وأوغندة وتنجانيقا وزنجبار في ١١ ديسمبر ١٩٢٠، معتبرين كينيا، تاريخيا واقتصاديا، مستعمرة هندية لا بد أن تتبع حكومة الهند، ولا تكون مستعمرة تابعة للتاج أو تابعة لوزارة المستعمرات. غير أن هجوم مؤتمر الجمعيات الأوربية، الذي عقد في نيروبي في الأول من يناير ١٩٢١، غير اتجاه الحديث بالسعي للصلح بين الجاليتين، الهندية والانجليزية، أملا في تهدئة ثورة الهند ضد الحكم البريطاني (١٥٩). ولعل الضغوط التي مارسها الهندوس في تلك الفترة قد جاءت تيمناً بالثورة التي قامت ضد الحكم البريطاني في الهند في بداية العشرينيات. ولعل استجابات بريطانيا في كلا المنطقتين كان هدفه تهدئتهما وقطع الصلة بين الهندوس والمسلمين في كليهما.

النقطة الثالثة: دورهم في نشر الوعي السياسي. فقد لعب الهندوس نفس الدور الذي لعبوه في جنوب إفريقيا. فحينما أسسوا المؤتمر الوطني الهندي في شرق إفريقيا* سنة ١٩١٤، قلدهم الإفريقيون في هذا النشاط السياسي، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٦٠). وهذا الذي جعل بريطانيا تحرض ضدهم وتضع القيود على هجرتهم. بل استخدمت استجابتها لمطالبهم البرلمانية ذريعة لتأجيج الأحقاد الإفريقية ضدهم. ومن ثم صارت العلاقة بينهم وبين الفريقين غير جيدة، في أوائل عشرينيات القرن العشرين. وهو الأمر الذي استغله اللورد ملنر في المطالبة بعزلهم في المدن لتجنب مشاعر كراهية الإفريقيين لهم. ناهيك عن القيود التي وضعوها عليهم، بخصوص التعليم والملكية، خوفاً من سيطرتهم على المستعمرة(١٦١).

ولما كان الهندوس قد لعبوا الدور الأهم في المؤتمر الهندي في شرق إفريقيا منذ سنة ١٩٢٧، فإنهم أصحاب التأثير الحقيقي في نشر الوعي السياسي بين الإفريقيين(١٦٢). ناهيك عن دورهم في تكوين الرابطة الأفرو آسيوية سنة ١٩٢٧(١٦٣). بل إنهم ونتيجة للدور الذي قاموا به في إقراض الإفريقيين في كينيا خلال الفترة من ١٩١٩-١٩٤٧، بما فيهم الصوماليين (١٦٤)، والإثيوبيين المقيمين هناك، جعل الناس ينظرون إليهم على أنهم أحد أهم وسائل وأدوات التوعية السياسية في شرق إفريقيا. وإن انحصر دورهم في إطار نقل تجربتهم في المقاومة السلمية للإفريقيين(١٦٥). وربما

كان للضغط على بريطانيا في أكثر من مكان، بالاتفاق والتنسيق مع الحركة الوطنية الهندية الأم.

اللقطة الرابعة: تأسيس ورعاية الحركة العمالية والنقابية. كان نيهال سينغ مانجو Nihal Singh Mankoo، (توفى سنة ١٩٢٥)، أحد أفراد الدفعة الأولى من الهندوس البنجاب، الذين ذهبوا إلى كينيا سنة ١٨٩٥، واستقر قرب محطة فوي قرب نيروبي. وفي سنة ١٩٢٢ ظهر دوره في العمل النقابي، وتحديداً في إنشاء الاتحاد الحرفي للسكك الحديدية(١٦٦). لذا يعد مؤسس الحركة العمالية في كينيا. فهو الذي شكل مع فريد كوبى اتحاد شرق أفريقيا التجاري كأول نقابة مركزية هناك. وهو الاتحاد الذي طالب بالحقوق المتساوية لجميع الناس. وظهر أثر كفاحه في اهتمام توصيات ديفونشاير سنة ١٩٢٢ بالحركة العمالية ومطالبها، غير أنها لم تنفذ (١٦٧). وحينما توفى نيهال سينج برز نجله سينغ ماخان سينج Makhan Singh (١٩١٣-١٩٧٣) كمهندس للحركة النقابية الكينية. فهو الذي أسس اتحاد كينيا للأعمال التجارية في أبريل ١٩٣٥(١٦٨). ومن تأثير الهندوس الفعال في الحركة النقابية راح الإفريقيون يقلدونهم في تأسيس الاتحادات العمالية الإفريقية عبر مناطق شرق إفريقيا(١٦٩). بل ظل سينج ماخان سينج الهندوسي هو المؤجج والمحرض على الإضرابات العمالية والنضال النقابي طوال الفترة الاستعمارية. ففي سنة ١٩٣٧ أعاد تسمية اتحاده السابق ليكون اتحاد شرق إفريقيا للتجارة والعمل. بل أوصله طموحه السياسي، سنة ١٩٥٠، إلى السجن بتهمة عدم تسجيل الاتحاد التجاري. ولم يطلق سراحه إلا عام ١٩٦١. ومع ذلك فإن هذا التاريخ النقابي لم يشفع له. فقد ظل منبوذاً من حكومة كينايا المستقلة، وتوفي سنة ١٩٧٣ بأزمة قلبية عن عمر يناهز ٦٠ سنة. ويعد من أهم الشخصيات التي خدمت الهندوس على نطاق واسع في الحياة العامة الكينية. فقد كان أحد أعضاء المجلس التشريعي والبلديات، وكان مميزاً في مجال الرياضة، خصوصاً الهوكي والكريكيت وسباقات السيارات والجولف(١٧٠).

اللقطة الخامسة: دورهم في مقاومة اتحاد شرق إفريقيا. فقد عمل الهندوس، مثل بقية الهنود، على إفشال أي إمكانية لإقامة اتحاد بين مستعمرات ومحميات شرق إفريقيا ووسطها، حين عرضت تلك الفكرة في العشرينيات، لشعورهم أن إنجاز هذا المشروع سيؤدى إلى القضاء على ما يتمتعون به من حقوق مدنية(١٧١). بل أعلنت الجالية الهندية في أوغندة وتنجانيقا خلال الفترة من ١٩٢٤-١٩٣٠، أنهم سيقاطعون عملية الدخول في أي اتحاد مع كينيا. لكونهم لا يريدون التورط في المشاكل العنصرية التي تجتاح كينيا. وخوفاً من أن تصبح مصالحهم تحت رحمة المستوطنين الأوربيين المقيمين في كينيا، ونظراً لتلك الضغوط أعلنت الإدراة الاستعمارية بأن الوقت غير ملائم لقيام اتحاد بين أقسام شرق إفريقيا الثلاثة(١٧٢). وفي عام ١٩٥٠ تزعم سينغ ماخان الهندوسي الدعوة لإضراب عام، غالبيته من الأفارقة، ضد اتحاد شرق أفريقيا. واستمر هذا

الإضراب لمدة عشرة أيام. واقتصر في البداية على نيروبي، ثم امتد لمناطق أخرى. وانتهى الأمر باعتقال سينغ ماخان وترحيله في وقت لاحق إلى الهند، لكنه نجح في إجبار بريطانيا على التخلي عن عدم عرض المشروع بتلك الطريقة مرة أخرى(١٧٣).

النقطة السادسة: دورهم في مقاومة السلطات البريطانية. فرغم أن علاقات الانجليز بالهندوس ظلت طيبة حتى الاستقلال، إلا أنها لم تخل من منغصات. فقد شاركوا على سبيل المثال سنة ١٩٢٥ في الإضراب الذي نسقوه مع بقية الهنود ضد إدارة تنجانيقا البريطانية. لقيامها برفع ضريبة الأرباح عما كانت عليه في عهد الألمان، ولعدم توليهم أية وظائف كبيرة في الإدارة أو القضاء أو غيرها من المناصب الحكومية. بالإضافة لقيامها بفرض اللغة الانجليزية بدلاً من الجوجاراتية في دفاترهم. لهذا فإنهم أعلنوا الإضراب العام في دار السلام، وغلقوا محالهم التجارية ومنشآتهم الأخرى. بما أحدث ضجة في المدينة، لكونهم يمتلكون كل المحلات والمخازن التجارية هناك. فأجبروا الحاكم العام لتنجانيقا، السير رونالد كاميرون، على تشكيل لجنة قررت استبدال ضريبة الأرباح بضرائب على المهن والأعمال(١٧٤). ولعل دورهم السياسي المناهض للاستعمار البريطاني قد عبر عنه السياسيون المرتبطون بالحركة السياسية الهندية. فقد جاء هؤلاء إلى شرق إفريقيا دون عائلاتهم. ومع أنهم قد عكسوا تجربة غاندى في توحيد المسلمين والهندوس عبر الحركة الوطنية، وأحدثوا تقارباً هندياً بصورة كبيرة، إلا أن استقلال باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧ قد أعاد الفرقة والخصام بين الفريقين في شرق إفريقيا. فقد أصبح ولاء الهندوس للهند، وولاء المسلمين لباكستان (١٧٥) . ومن ثم تعد الفترة ما قبل ١٩٤٧ هي الفترة المثالية للتعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين إلى حد ما. حيث بدأت مشاعر التنافر والخلاف بين الفريقين تزداد بشدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين وصاعداً، بحكم الفرقة والتباعد الذي حدث بين المسلمين والهندوس في الهند نفسها (١٧٦). فضلاً عن أن استقلال الهند قد جعلها داعمة لطموحات مواطنيها الهندوس والإفريقيين في الاستقلال عن بريطانيا. خصوصاً في عهد رئيس وزراء الهند الأول جواهر لال نهرو ١٩٤٧-١٩٦٤. تلك الفترة التي لقي فيها الهندوس رعاية واهتماما إفريقيا جيدا(١٧٧). ومن ثم فان الهند هي التي تسببت في رعاية مواطنيها الهندوس هناك. فقد قامت الحكومة الهندية سنة ١٩٤٨ بتعيين وكلاء لها في شرق أفريقيا للاهتمام بمشاكل مواطنيها الهندوس هناك (١٧٨). وهذا ما يخالف ما قال به أثرياء الهندوس من المهتمين بمصالحهم الخاص، فقد اعتبروا أن فترة نهرو غير نافعة لهم اقتصاديا. في حين كانت عكس ذلك على المستوى السياسي. حيث لعبت دوراً مهماً في تقوية مطالبهم السياسية.

النقطة السابعة: موقف الأفارقة منهم. فقد تباينت العلاقات بين الهندوس والإفريقيين خلال الفترة الاستعمارية. فتارة اتخذهم الأفارقة بمثابة رموز للتوعية السياسية لهم بعد الحرب الأولى وحتى الثلاثينيات. وتارة أخرى نفروا منهم باعتبارهم

مستغلين لهم. غير أن البريطانيين كان لا يرضيهم هذا التقارب بين الطرفين. فسعوا لبث الفرقة والشحناء بينهما. فنجحوا في الوقيعة بينهما خلال العشرينات ثم نهاية الأربعينيات. ولعل أعمال الشغب التي قام بها الأفارقة سنة ١٩٤٩ ضدهم، تعد خير مثال لهذا الأمر. بل إن البعض فسر كراهية الإفريقيين للهنود عموماً بثلاثة أسباب: أولها، الرغبة في إزالة احتكارهم لحلج الأقطان، حتى نجحوا في ذلك سنة ١٩٥٢. ومع ذلك ظل أكثر من ١٢ محلجاً يملكها هندوس وهنود آخرون. ثانيها، احتفاظ الهنود بقيمهم الثقافية منفصلة عن الإفريقيين. ثالثها، رعاية البريطانيين لهم اقتصادياً وسياسياً (١٧٩).

وبرغم أن استقلال الهند لم يخدم الهندوس كثيراً في شرق إفريقيا، إلا أن تبني أول رئيس وزراء، جواهر لال نهرو، لقضية مواجهة الاستعمار ومكافحة العنصرية وتعزيز حركة عدم الانحياز، قرب الإفريقيين من الهنود، وصب مباشرة في مصلحتهم باعتبارهم رعاياها (١٨٠). بل ظلت شعبية غاندي، حيث بُنيّ له تمثال على مخرج نهر النيل، كشخص دافع من أجل حقوق السود في أفريقيا، بمثابة رمز من رموز الكفاح ضد الامبريالية (١٨١). غير أن حصول الإفريقيين على قدر من التعليم، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، قد جعلهم يعارضون هجرة الهندوس إليها، لاعتقادهم بأنهم احتكروا الوظائف والأعمال وتجارة التجزئة والجملة دونهم. ولعل ما أشار إليه تقرير اللجنة الملكية لشرق إفريقيا سنة ١٩٥٦، برغبة الإفريقيين في التخلص من الأجناس التي يفضلها الاستعمار عليهم، يفسر تلك القيود التي فرضت عليهم خلال تلك الفترة. بما أدى في النهاية إلى ازدحام الأحياء الهندية (١٨٢). وجاءت سياسة الافرقة Africanisation هي الحل الأمثل للإدارة الاستعمارية لإزالة الاحتقان بين الطرفين (١٨٣). وهذا ما جعل الهندوس يهاجرون من شرق إفريقيا في أعقاب استقلال كينيا وأوغندا وتنزانيا بعد تبني تلك السياسة بشكل كبير (١٨٤).

من هنا، فإن بروز الحركة الوطنية الإفريقية، في بداية خمسينيات القرن ٢٠، قد جعل القلاقل بشأن المستقبل السياسي تتسرب للهنود. ومع أن بعضهم تعاطف مع الفريقين، إلا أن الكثيرين منهم كانوا ضدها. بل دخل بعضهم في خدمة البوليس الاستعماري للقضاء على الثورة الإفريقية، المتمثلة في ثورة الماو ماو في كينيا. وخير مثال لذلك الثقة التي أعطاها البريطانيون لابا بانت Apa Pant، أول مأمور هندوسي لمنطقة نيروبي، وغيره من الهندوس. لدرجة جعلت أكبر التنظيمات السياسية الإفريقية، بقيادة جومو كينياتا، تتعهد لهم بعدم الهجوم عليهم في كينيا، كنوع من التكتيك الوقتي الذي استخدمه الأفارقة مع الهنود حتى نالوا الاستقلال (١٨٥).

لكن حينما حصلت أقطار شرق إفريقيا الثلاثة على استقلالها في بداية ستينيات القرن العشرين♥، تم التحول ضد الهنود، عدا تنزانيا بقيادة جوليوس نيريرى الذي تعهد ببناء مجتمع متعدد الأجناس، بل بدأ يقرب منذ سنة ١٩٦٤ بعض القادة الهندوس مثل Karimjee، مانحاً إياهم بعض الوظائف الرسمية (١٨٦). أما في كينيا فالأمر مختلف.

فحين قامت ثورة الماو ماو في أكتوبر ١٩٥٢ أعلن هنودها بأنهم ضد العنف الذي يستخدمه الثوار. وحينما استقلت كينيا سنة ١٩٦٣ كانت ذاكرة الإفريقيين لا تزال حية بموقفهم ضد الثورة. من ثم راح الهندوس يفضلون الهجرة لبريطانيا على البقاء في شرق إفريقيا. ومن ثم كانوا غالبية الـ ٨٢ ألف هندي الذين حصلوا على جوازات السفر البريطانية. ومن بقى منهم ضمن الـ ٥٠ ألف هندي، بقوا كمواطنين كينيين فقط. وفسر البعض موقف الإفريقيين منهم، بأنه لم يكن ناتجاً عن موقفهم من الحركة الوطنية الإفريقية فقط، بل لسيطرتهم على معظم النشاط الاقتصادي. ففي نيروبي بمفردها، سيطروا على كافة المحال والبازارات. ناهيك عن أن فرض الحكومة الكينية لبرنامج الأفرقة بعد الاستقلال، وعدم تجديد الرخص التجارية لغير الإفريقيين، إلا بشرط الحصول على الجنسية الكينية، وتطبيق هذه السياسة في الوظائف الحكومية والتعاقدات وفى الإعمال التجارية – هو الذي جعل كثيرا من الهندوس يفضلون الهجرة إلى المملكة المتحدة وأمريكا الشمالية(١٨٧). ومع ذلك لم يسلم من بقى منهم من الأذى. فالنخبة السياسية، بدءاً من الرئيس كينياتا ونائب الرئيس والنخب السياسية الأخرى، شجعت الهجوم الخطابي ضد هؤلاء الذين أصبحوا مواطنين كينين. بل كانت تطرد وترحل الكثيرين منهم عمداً(١٨٨).

المحور السادس- هويتهم الثقافية :

برغم أن فترة الحكم البريطاني في شرق إفريقيا تجاوزت الثمانين عاماً، وبرغم أن الهندوس تعرضوا فيها لعدد من المتغيرات، إلا أنهم احتفظوا فيها بثوابتهم الراسخة على طول الخط. ومن ثم فإننا نقسم هذا المحور إلى قسمين:

القسم الأول: يتعلق بالثوابت. حيث ظهرت هذه الثوابت في عدة ملامح رئيسية:
الملمح الأول، في الزواج من هندوسيات. فقد كان التجار الهندوس في البداية يرفضون أخذ زوجاتهم معهم(١٨٩). ولما كانت السلطات العربية الحاكمة، قبل الاحتلال البريطاني للمنطقة، تدرك بأن بقاء الأمر كما هو عليه سينفر المزيد من الهندوس من القدوم إليها، راحت تشجعهم على جلب زوجاتهم معهم. لهذا بدأت هجرة المرأة الهندوسية لشرق إفريقيا سنة ١٨٧٩*. ومع هذا يمكن القول بأن الوجود الفعلي والكبير للمرأة الهندوسية هناك، قد ارتبط بالاستعمار البريطاني للمنطقة. ولما كان من عادتهم الزواج من بنات طائفتهم، لذا عادوا إلى الهند ليتزوجوا من هندوسيات. بل ظل هذا التقليد مستمراً، حافظت على الأسر والعائلات الهندوسية في شرق إفريقيا. ناهيك عن الاحتفاظ بالأسر الموسعة والممتدة قدر الإمكان(١٩٠). وربما كانت تقاليد المرأة الهندوسية من ارتداء الفساتين الطويلة وللزى الهندي التقليدي، عبارة عن فساتين وسراويل وقمصان(١٩١)، وتفضيلها للبقاء في المنزل، وعدم الاختلاط، هو الذي جعل الرجال يفضلونها على غيرها، باعتبارها رمزاً للهوية الهندوسية في شرق إفريقيا(١٩٢).

ومن ثم كانت الممارسة العامة بين الهندوس في شرق إفريقيا لتحديد واختيار العرائس من الهند، هي تفضيل الزواج من عائلة معروفة في قراهم الهندية، فيما سمي بنظام الزواج المرتب، بناء على افتراض شائع بأن هندوسيات الهند أكثر قدرة على التكيف هناك، ومع الالتزام بالقواعد والمعايير التي وضعها الشيوخ (١٩٣). لهذا عانى الهندوس طويلاً من القيود التي فرضتها حكومات شرق إفريقيا بعد الاستقلال، فكان إصرارهم على التمسك بأن يكون الزواج مقصوراً على طائفتهم فقط، قد جعل الحكومة الأوغندية، على سبيل المثال، تحاول تغيير تلك العادة كخطوه نحو الاندماج العرقي. ومن ثم كان رفضهم للزواج من الإفريقيين بعد الاستقلال سبباً رئيسياً من أسباب طردهم من أوغندا (١٩٤).

الملمح الثاني: في الطعام. فبرغم أن استبقاء بعض الهندوس لزوجاتهم في الهند قد أجبرهم على تغيير نمط طعامهم، حينما راحوا يأكلون خارج منازلهم أو يحصلون على طعامهم عن طريق آخرين(١٩٥)، إلا أن غذاءهم لم يتغير هناك طوال الفترة الاستعمارية. فظل غذاءهم نباتياً. بل كان محدداً رئيسياً ومميزاً للطائفة عن بقية الهنود الآخرين، من التاميل والإسماعيليين والسيخ. بل امتدت طقوسهم في المأكل مع امتدادهم في الكونغو الفرنسية والكونغو البلجيكية(١٩٦). ولما كانوا لا يأكلون اللحوم، فقد انعكس هذا في المطاعم الهندية هناك بصفة عامة، والمطاعم الهندوسية بصفة خاصة (١٩٧). فكان مطبخهم يعتمد على الخادمات من نفس الطائفة. حيث كانت معظم العائلات الهندوسية نباتية لا تستهلك الخمور ولا اللحوم(١٩٨).

وتشير بعض الكتابات إلي أن طعام الهندوس قد أثر أحياناً في وضعهم الاقتصادي في شرق إفريقيا. فبعض ممن فتحوا شركات في ممبسة وجينجا Jinja سنة ١٩٠٥، حينما جاءوا بدون أسرهم، اضطروا إلى إغلاق شركاتهم. لأنهم لم يتقبلوا الأطعمة المصنوعة لهم من قبل السكان المحليين، كونهم كانوا نباتيين صارمين strict vegetarians. في حين لم تظهر مشاكل الطعام في نيروبي أو ممبسة أو زنجبار بسبب الوجود الهندوسي العائلي. وجاء هذا الأمر نتيجة أن العائلات الأولى المهاجرة لشرق إفريقيا كانت نباتية ولا تشرب الكحول ولا تأكل خارج المنزل (١٩٩).

الملمح الثالث: في المعابد والاحتفالات الدينية. لما كانت الديانة الهندوسية تنقسم إلى آلاف الفرق، بل أوصلها البعض إلى مئات الآلاف، وأنها عبارة عن ديانات وضعية بشرية تقام طقوسها في المعابد (٢٠٠)، فهذا هو السبب الذي جعل هناك معبداً هندوسياً في كل بلدة في شرق أفريقيا (٢٠١). حيث أنشئ معظمها خلال النصف الأول من القرن العشرين(٢٠٢). ولو أخذنا أوغندا مثالا لتلك المعابد، لوجدنا أنها تنتشر في جينجا وكمبالا. بل يوجد في جينجا وحدها ثلاثة معابد (٢٠٣).

وتشبث الهندوس بديانتهم طوال إقامتهم في شرق أفريقيا. فكانوا يقدسون البقر ويحرقون موتاهم ويقيمون أعيادهم، كعيد ديوالي. ففي هذا المهرجان، على سبيل

المثال، كانوا يضيئون منازلهم والشوارع الرئيسية في المساء. وكانوا يقيمون الحفلات التي يتزاورون فيها بأبهى الثياب، لابسين العمائم القرمزية والذهبية. ويأكلون الحلويات ويشربون المرطبات، ويخدمون سوياً، ويرقصون ويغنون. وكانوا يرون بعضهم بعضا في نفس الفئة الدينية والاجتماعية والعرقية و الاقتصادية. ونظراً لدور الأجداد والسلف في حياتهم؛ فقد كانوا يحيون ذكرى أجدادهم الأوائل الذين هاجروا إلى شرق إفريقيا(٢٠٤).بل كانوا يحتفظون بقيمهم الثقافية منفصلة عن المجتمعات الأخرى. وكان هذا سبباً في كراهية الإفريقيين لهم، وفي أعمال الشغب التي قاموا بها ضدهم (٢٠٥). ورغم أن هذه التقاليد الثقافية قد سببت الألفة بين الهندوس في شرق إفريقيا، إلا أنها تسببت أيضاً في مزيد من الانقسام بينهم وبين الإفريقيين (٢٠٦).

الملمح الرابع، في الاحتفاظ بالعادات والتقاليد الثقافية الأخرى، حافظ الهندوس على تقاليدهم في التحية والاحترام، بأن يقوم الزائر بلمس أقدام كبار السن، تحية واحتراما لهم (٢٠٧). وتشير إحدى الكتابات إلي أن بعض الأسر كانت تبقى أفرادها في الهند حتى سنة ١٩١٦. في حين حافظت غالبية الأسر، التي جاءت إلى شرق أفريقيا، على تقاليد دفن الموتى وحضور الجنازات وتعليم أطفالهم القانون الهندوسي Mithakshara المطبق في ولاية جوجارات، ومساواة جميع الذكور في العائلة. بل أصبحت مهمة المنازل الهندوسية في شرق إفريقيا هي إعادة إنتاج الثقافة الهندية هناك (٢٠٨).

واحتفظوا بثقافتهم في شكل وطرز الأثاث والأرائك الهزازة التقليدية، وبتعليق صور للآباء والأجداد مزينة بالزهور اليانعة في مكان بارز في المنزل. بل اختار بعضهم ختام حياته في ولاية جوجارات، رغم أن كثيرين منهم لم يزر الهند طيلة حياته، لكنها ظلت وطنه المنشود. وبعضهم ساهم مساهمات سخية في دعم القرى الهندية التي أتوا منها، كبناء مستشفى أو مدرسة أو دار للأيتام (٢٠٩). بل إن إقامتهم لدور السينما ومحلات الفيديو الهندية (٢١٠)، يعد خير دليل على محافظتهم على تلك التقاليد ونشرها في الأجيال الجديدة. بل يعد افتتاح الهندوس لمطاعم خاصة بهم، وترويجهم لأفلام بوليوود تأثيراً مباشراً مقصوداً في ثقافة المنطقة. فقد أصبح لأفلامهم وصالات الديسكو الخاصة بهم شعبية كبيرة هناك، خصوصاً في نيروبي وكمبالا (٢١١).

القسم الثاني: يتعلق بالمتغيرات. فنظراً لطول الفترة التي استقروا فيها في شرق إفريقيا البريطانية، كان لا يمكن أن يقاوموا التأثير الغربي مهما تمسكوا بتقاليدهم وثقافتهم. لذا حدثت تغيرات في هويتهم الثقافية وفي بعض التقاليد المهمة في حياتهم. ويفسر البعض تلك التغيرات بثلاثة مؤثرات رئيسية: أولها، تأثرهم بالتعليم الغربي واحتكاكهم بالصفوة الأوربية الحاكمة. ثانيها، تأثرهم بالاحتكاك السواحيلي. ثالثها، الابتعاد عن موطنهم الأصلي ومصالحهم الاقتصادية(٢١٢). ويمكن استقراء هذه التغيرات في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في شكل الطعام والزواج لدى الجيل الثاني والثالث. فإذا كان الجيل الهندوسي الأول قد احتفظ بعادات الطعام والشراب والزواج خلال الفترة من ١٨٨٤ – ١٩٢٠، ونقلها للجيل الذي ولد خلال الفترة من ١٩٢٠– ١٩٦٠، وصولا إلى الجيل الثالث الذي تغير ثقافياً في الفترة من ١٩٦٠ وصاعداً (٢١٣)، إلا أن التغيير الذي حدث كان في طريقة وشكل هذا الطعام وفى نوعيته. فإذا كان الجيل الأول قد احتفظ بثوابته في هذا الأمر، إلا أن الجيل الثاني أصبح يأكل اللحوم ويشرب الكحول. ناهيك عن تفضيلهم للأكل خارج المنزل مبتعدين عن آبائهم النباتيين. وحدث هذا بحكم الاحتكاك بالأوربيين والعرب والإفريقيين. بل أصبح طعام الهندوس قليل التوابل وكثير الزيوت. وفيما يختص بالزواج، فقد فضلت الأجيال التالية الزواج من هنديات ولدن في شرق إفريقيا. في حين كان آباؤهم يعودون للهند ليتزوجوا هندوسيات. أما الجيل الثالث ففضل العيش مع الصديقات مثل الأوربيين، ولم يقبل على الزواج الرسمي (٢١٤). وكان تفضيل الهنديات المولودات في شرق إفريقيا قد شجع على كسر حدود الطبقات داخل قيود الطائفة الهندوسية. ومع ذلك ظل الطلب على المرأة الهندوسية من الهند كبيراً في بعض الفئات(٢١٥).

الأمر الثاني: التأثير الأوروبي. يمكن القول بأن الثقافة واللغة الهندوسية لم تبق إلا في النظرة والدين. وفيما عدا ذلك فقد حدث تغير كبير. لطول الفترة الاستعمارية، وللتأثير الأوروبي الواضح. فخلال الفترة من ١٩٢٠–١٩٦٠، على سبيل المثال، نمت المدارس الهندية في شرق أفريقيا، ولم تحتفظ بالجوجاراتية إلا للصف الرابع الابتدائي. حيث قدمت الانجليزية كلغة ثانية. وهذا ما جعل الهندوس يجيدون اللغتين معا. وهذا كان خطوة جيدة نحو مواصلة التعليم الجامعي في المملكة المتحدة. ومن هنا جاء تأثير الثقافة الأوروبية(٢١٦).

بل يمكن القول بأن تأثير الأوربيين في هندوس شرق إفريقيا، في التعليم وفى اللباس كان كبيراً. ويرجعه البعض إلي أن طلبهم حماية الانجليز لهم، هو الذي جعلهم يظهرون رغبتهم في إظهار هذا التأثير فيهم، فأبرزوه في كتابة الاتفاقات التجارية باللغتين، الانجليزية والجوجاراتية. وفى قراءتهم للصحف والمجلات الانجليزية. بل بلغ الأمر أحياناً، إلي أن يتحدث رب الأسرة بالجوجاراتية، في حين يتحدث أطفاله بالإنجليزية. ورغم هذا التأثير البارز، ورغم أن الهند أصبحت دولة خارجية بالنسبة لهم، إلا أن أدب الشتات أبرز أهمية الوطن الأم في وعيهم. لكن فكرة الوطن في حد ذاتها فقدت أهميتها لديهم(٢١٧).

الأمر الثالث: إنشاء الصحف. فقد تأثر الهندوس بالصحافة الاستعمارية. ومن ثم راحوا يؤسسون صحافتهم الخاصة. فقاموا بتأسيس أول صحيفة هناك في مومبسة في عام ١٨٩٩، عن طريق هندوسي حقق ثروة خلال فترة بناء سكة حديد شرق إفريقيا، يدعى جيفانجي Jeevanjee . وظلت هذه الصحيفة أسبوعية منذ سنة ١٩٠٢حتى

صارت يومية سنة ١٩١٠، إلى أن توقفت عن النشر سنة ١٩٢٣. وعاد نشاطهم الصحفي سنة ١٩٥٣ حينما ساعدوا في تأسيس الديلى أوغندا أرجوس *Uganda Argus* daily[٢١٨]. وظهرت صحف هندوسية أخرى في مختلف أنحاء شرق إفريقيا. كتب بعضها باللغة الجوجراتية، بهدف المحافظة على هويتهم هناك. في حين راح قليل منها يصدر باللغة الانجليزية باعتبارها لغة المال والإعمال[٢١٩]. ونخلص من ذلك إلي نتيجتين هامتين : أولهما، أن ثوابت الهندوس ظلت راسخة طول فترة بقائهم الممتدة حتى بعد الاستقلال، بل لا زالت الجماعات الباقية منهم هناك إلى اليوم، تحتفظ بمثل تلك الثوابت وتعظمها حتى الآن. ثانيهما، أن طول الفترة الاستعمارية أدخلت بعض المتغيرات التي ميزتهم عن أقرانهم من هندوس الهند. وربما كان هذا التغيير الذي حدث لهم، جعلهم أكثر قدرة على التعايش وسط المجتمعات الغربية فيما بعد. وهو الذي جعل الهند تستخدمهم كورقة تستفيد منها في علاقاتها مع الغرب حتى ألان.

خاتمـــــة :

انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج الهامة نجملها في الآتى :

- خلصت الدراسة إلي أن الوجود الهندوسي في شرق إفريقيا كان وجوداً مميزاً. فقد كانوا على درجة من الذكاء والفطنة في مسايرتهم لكل النظم السياسية التي حكمت المنطقة. فمثلما توافقوا مع العرب قبل سنة ١٨٨٤، توافقوا مع البريطانيين أيضاً طيلة الفترة من ١٨٨٤-١٩٦٣، والألمان١٨٨٤-١٩١٨، فضلاً عن توافقهم مع كل الإدارات الاستعمارية التي حكمت المنطقة.
- حللت الدراسة قوة العلاقة بين الهندوس والانجليز طوال الفترة الاستعمارية. وقالت بأنهم كانوا الجسر الذي اعتمد عليه الانجليز في مشروعهم الاستعماري في تلك المنطقة. وأنهم كانوا عماد الإدارة الاستعمارية في العمالة والتجارة والزراعة. لكنها أشارت إلي أن المكانة الاقتصادية التي حققوها جعلتهم هدفاً لضربات المستوطنين الأوربيين والإفريقيين على السواء. وهي التي خلقت الأحقاد لدى الانجليز وجعلتهم يدسون لهم بين الإفريقيين، ليفقدوهم تلك المكانة الاقتصادية المتميزة. لكنهم لعلمهم بحاجتهم للحماية والرعاية، لم يعلقوا على تلك الدسائس البريطانية. بل إنهم قرروا الرحيل عن المنطقة بمجرد رحيل البريطانيين عنها، لإحساهم بأنهم فقدوا عنصر الحماية الرئيسي لهم هناك.
- أبرزت الدراسة الدور الذي قام به الهندوس في نشر الوعي السياسي في شرق إفريقيا. فقد تبنى الإفريقيون طريقتهم في تشكيل التنظيمات السياسية، وفى تشكيل النقابات العمالية، وفى نشر الوعي القومي بين بني جلدتهم. وقالت بأن كفاحهم

الطويل من أجل التمثيل النيابي، وفي المطالبة بالحكم الذاتي في المنطقة، هو الذي سبب غضب الانجليز منهم. وأنه كان انعكاساً للضربات التي وجهتها الحركة الوطنية الهندية لبريطانيا في الهند. وهذا ما جعلها تحتاط للأمر بنشر الفرقة بين طائفتي الهندوس والمسلمين في الهند وشرق إفريقيا معاً. فضمنت بذلك بعض الاستقرار النسبي لفترة.

- ناقشت الدراسة المجالات الاقتصادية التي برع فيها الهندوس. وأوضحت أنهم برعوا في كل نواحي النشاط الاقتصادي تقريبا. فقالت بأنهم حققوا ثروات، وأقاموا شركات، وأسسوا بنوكا ومصارف، وأن حضورهم كان مميزاً في هذا المجال، لدرجة سببت أحقاد الإفريقيين والانجليز على السواء، وأنهم تفوقوا على الانجليز أنفسهم. بل كان هذا التفوق سبباً في ابتعادهم عن فكرة الوطن والشعور بالألفة معه.
- ركزت الدراسة على خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا. وحددتها في أمور الطعام والشراب والملبس والزواج والدفن والعقائد، وفي التمسك بقيمهم الدينية وبتقاليدهم الاجتماعية. غير أن الدراسة ألمحت إلى أن تلك الخصوصية المعبرة عن هويتهم، قد تعرضت لتغييرات كبيرة خلال الفترة الاستعمارية، خصوصاً في الجيل الثاني والثالث هناك. وأن شرق إفريقيا كانت انعكاساً لما يحدث في الهند، ثقافياً وسياسياً.
- غير الارتباط بين الهندوس ووطنهم الأم. فقد كانوا طيلة القرن التاسع عشر مرتبطين به أشد الارتباط. لكن الدراسة قالت بأن هذا الأمر قد تغير مع طول الفترة الاستعمارية، ومع النجاحات التي حققوها في شرق إفريقيا. فبرغم أن بعضهم قد ارتبط سياسيا بالهند، إلا أنهم انقطعوا عنها اقتصاديا، حتى وصل الأمر في نهاية العصر الاستعماري إلى تفضيلهم التجارة مع دول ومناطق أخرى، وتفضيلهم الهجرة لبريطانيا وجنسيتها والإقامة بها؛ عن الرجوع لموطنهم الأصلي. ومن ثم فإن وجودهم الحالي في شتى مناطق العالم، خصوصا الغربية، قد وسع من شبكة العلاقات الدولية للهند. وأتاح لها التعرف، عبر هؤلاء، على عوالم جديدة ونماذج حداثية ما كان للهند أن تطلع عليها لو رجع هؤلاء إلى الهند بعد حصول شرق إفريقيا على الاستقلال.

هوامش الدراسة

(١) ابراهيم الفارس: الهندوسية
http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=195741

(٢) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture of The Hindu Lohana Community in East Africa, Contemmporery South Asia, 13(1), March 2004,P.9.

(٣) Aga Khan :- India in Transition A Study in Political Evolution ,Bennett, Coleman and Co, Ltd. Bombay and Calcutta, NEW YORK, 1918, PP.11,12 .

(٤) N. M. Nayar , Book Reviews :- Harnessing the Trade Winds: The Story of Centuries Old Indian Trade with East Africa Using the Monsoon Winds. D'Souza, Blanche. Zand Graphics,Nairobi, Kenya. Available from African ,Book Collective, Oxford, UK/Michigan,State University Press, East Lansing, MI,USA. 2008, CURRENT SCIENCE, VOL. 98, NO. 2, 25 JANUARY 2010, PP.264,265.

(٥) ل. و. هولينجزورث :- الأسيويون فى شرق افريقيا، ترجمة عبدالرحمن صالح، ، سلسلة الفكر العالمى، جمعية الوعى القومى، سبتمبر ١٩٦١، ص ص ١٩ - ٢١.

(٦) India-East Africa Ties: Mapping New Frontiers, Africa Quarterly ,Indian Journal of African Affairs, Volume 49 No. 1, February-April 2009, P.49.

(٧) بنيان سعود تركى :- الجالية الهندية في شرق افريقيا بين هامرتون والسيد سعيد (١٨٣٢-١٨٥٦) ، مجلة المؤرخ المصرى ... دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة، كلية الاداب، جامعة القاهرة، العدد الثالث عشر، يوليو ١٩٩٤، ص ص ١٢، ١٥-١٧.

(٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٩ - ٢١.

(٩) India-East Africa Ties:Op.CiT. , P.17.

(١٠) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ٢٣- ٢٧.

(١١) Chandani Patel:- Indians in East Africa: Literature, homelessness, and the imaginary, postamble 3 (2) 2007, PP.59,60.

(١٢) بنيان سعود تركى :- :- المرجع السابق، ص ٤٥.

(١٣) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ .

(١٤) Chhaya Goswami Bhatt :- India and Africa Unique Historical Bonds and Present Prospects,with Special Reference to Kutchis in Zanzibar, Centre for African Studies, University of Mumbai ,Working Paper: No. 5, PP.13-16.

(١٥) Ibid, PP.16,17.

(١٦) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ .

(١٧) بنيان سعود تركى :- :- المرجع السابق، ص ص ١٩، ٢٠ ، ٢٢، ٢٣.

(١٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٢٣- ٢٧.

(١٩) بنيان سعود تركى :- المرجع السابق، ص ص ١٩، ٢٠ ، ٢٢-٢٤

(٢٠) India-East Africa Ties: Op.CiT, P.17.

(٢١) بنيان سعود تركى :- المرجع السابق، ص ص ٢٥، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢، ٣٤ ، ٣٨، ٤١ ، ٤٣، ٤٤ .

(٢٢) Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT., 5, PP.13-16.

(٢٣) Ibid, PP.8-10.

(٢٤) Ibid, P.19.

(٢٥) بنيان سعود تركى :- المرجع السابق، ص ص ٢٥، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢، ٣٤ ، ٣٨، ٤١ ، ٤٣، ٤٤ .

(٢٦) Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT, PP.13-16.

(٢٧) أحمد عبدالدايم محمد حسين :- الوجود العربى فى منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، مجلة كلية الاداب، جامعة حلوان، العدد ٢١ ، يناير ٢٠٠٧. ص ص ٥٣٤-٥٣٧.

(٢٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٢٧، ٢٨، ٢٩ .

(٢٩) نفسه، ص ص ٢٥- ٢٨.

(٣٠) CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum By The Secretary of State for The Colonies , Printed for the Cabinet. February 1923, PP.3,4

(٣١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٩-٨١.

(٣٢) Nandini PATEL:- A Quest for Identity: The Asian Minority in Africa, Publications of the Institute of Federalism Fribourg Switzerland, 2006 ,P.3

---

(٣٣) Bernhard Gi□ibl:- German Colonialism and The Beginnings of International Wildlife Preservation in Africa , Ghi Bulletin Supplement 3 (2006).PP.122,123.

(٣٤) *C J D Duder :- Beadoc- the British East Africa Disabled Officers' Colony and the White Frontier in Kenya, Ag Hist. Rev., 4o, II, P.149*

(٣٥) Robert G.Gregory :- Co-oprtation and Colabortion in Colnial East Africa : The Asians Political Role, 1890-1964, http://afraf.oxfordjournals.org/content/80/319/259.extrac , P.259

(٣٦) الروبية كانت تساوى حينها ١،٣٣ مارك. والمارك عبارة عن عملة فضية ضربت فى برلين على وجهها صورة لفيلهلم الثاني بزيه العسكري، والوجه الاخر شجرة النخيل مع الأسد والتاريخ اسفل. بدأت انتاجها سنة ١٨٩١ واستمر حتى عام ١٩٠٤، للمزيد أنظر، John E. Sandrock:- Amonetary History of German East Africa ,PP.10-36

(٣٧) G.Oonk:- After Shaking his hand, start counting your fingers. Trust and Images in Indian business networks, East Africa 1900-2000, *Itinerario* 18 (3) 2004,P.79.

(٣٨) Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT, PP.17,18.

(٣٩) India-East Africa Ties: Op.CiT, P.49.

(٤٠) Report of The High Level Commettee on The Indian Diaspora www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf , P.9[1]

(٤١) India-East Africa Ties: Op.CiT, P.17.

(٤٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٤٩- ٥١.

(٤٣) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture ...Op.CiT,P.9.

(٤٤) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٢- ٥٦، ٦٣، ٦٤

(٤٥) Nandini PATEL:- Op.CiT ,P.4

(٤٦) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture ...Op.CiT,P.9.

(٤٧) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٤-٥٦، ٦٨.

(٤٨) Indians Overseas ,A guide to source materials in the India Office Records for the study of Indian emigration ,1830-1950,PP.6-11.

(٤٩) Ibid,P.26.

(٥٠) CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet.20 July* 1923, P.2.

(٥١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٤-٧٦.

---

(٥٢) CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet. 20 July* 1923, PP.4.5.

(٥٣) CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum ...Op.CiT, PP.5.6.

(٥٤) CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet.20 July* 1923, P.2.

(٥٥) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٨-٧٤.

(٥٦) CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet. 20 July* 1923, PP.7-9.

(٥٧) Ibid ,PP.9-12.

(٥٨) CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, P.1

(٥٩) Ibid, P.2.

(٦٠) . Ibid, PP.2.3.

(٦١) Ibid, PP.4.5.

(٦٢) Dispatch of Lord Milner, about East Africa Protectorate,. Downing Street, May 21, 1920. Appendix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.8-10

(٦٣) Resolution OF Imperial Conference,1921, Appendix II of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.10.11

(٦٤) Mr. Churchill's Speech at The Kenya and Uganda Dinner, January28, 1922 .Appendix IV of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, P.13.

(٦٥) Paraphrase Telegram from the Governor of Kenya to the Secretary of State for the Colonies.—(Dated February 1, 1923.), Appendix VII of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.16.17.

(٦٦) Hassan J. Ndzovu:- Muslim Relation in The Politics of Nationalism and Secession in Kenya, University of Illinois, Urbana-Champaign,Program of African Studies Northwestern University. Moi University, Kenya PAS Working Papers, Number 18, P.6.

(٦٧) Susana Pereira Bastos:- Indian Transnationalisms in colonial and postcolonial Mozambique, Stichproben. Wiener Zeitschrift für kritische Afrikastudien, Nr. 8/2005, 5. Jg ,P.277 .

(٦٨) Ibid,P.294.

(٦٩) Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 .

(٧٠) Mr. Churchill's Speech:- Op.CiT, P.13.

(٧١) Josef Gugler:- Urbanization in East Africa (Revised November 1968), PP.6,7

(٧٢) G.Oonk:- After Shaking ...Op.CiT,PP.83-85..

(٧٣) Susana Pereira Bastos:- Op.CiT ,P.297.

(٧٤) Nandini PATEL:- Op.CiT ,P.7.

(٧٥) Randall Hansen:- The Kenyan Asians, British Politics and The Commonwealth Immigrants *Act, 1968, The Historical Journal, 42, 3 (1999),PP.809,810 .*

(٧٦) Dr. Thomas Abraham :- Indian Diaspora – Emerging Organizational and Political Structure, Role and Responsibility, International Symposium on Diaspora Politics, Center for Basque Studies, University of Nevada, Reno ,April 27-29, 2006,P.1.

(٧٧) Aga Khan :- Op.CiT, PP.116,117 .

(٧٨) Ibid,PP.147-155.

(٧٩) Maj Jodi Vittori and Kristin Bremer:- Islam in Tanzania and Kenya : Ally or Threat in The War on Terrror? ,U.S. Air War College, PP. 7-9

(٨٠) Ryan T.C.I:-The Monetizaion of Kenya : 1824 to 1924, Money in Africa Conference , 9-11 March 2007, P.5.

(٨١) Chandani Patel:- Op.CiT, P.61.

(٨٢) Stephen Morris:- Indians in East Africa : A Study In a Plural Socity , The British Journal Of Sociology , Volume 7 , Issue 3, (Sep.1956),P.194.

(٨٣) بسبب سياسات ما بعد الاستقلال لم تتجاوز اعداد الهنود عموما فى شرق افريقيا فى السبعينيات ٢٠٠ الف هندى. منهم ١٠٠ الف فى كينيا ومن ٨٠ – ٨٥ الف فى تنزانيا وحوالى

من ١٢ – ١٤ الف فى اوغندة.. للمزيد انظر، Report of The High Level Commettee on The Indian Diaspora, http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf , P.99.

(٨٤) Stephen Morris:- Op.Cit.,P.197.

(٨٥) تتكون مجتمعات شرق افريقيا من أفارقة وعرب وأربيون وهنود بمجموع ١٨٣٠٠٠٠٠ فرد. مجموع الافارقة يقدرون بـــ ١٨ مليون والعرب ٧٩ الف، والاوربيون ٥٠ الف والهنود ١٩٨ الف، أنظر، Stephen MorrisOp.Cit.,PP.196,197.

(٨٦) Ibid,P.195.

(٨٧) G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,PP.74-77.

(٨٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢-١٤.

(٨٩) Chhaya Goswami Bhatt :- Op.Cit., P.19.

(٩٠) Stephen Morris:- Op.Cit.PP.202-206.

(٩١) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.

(٩٢) Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197.

(٩٣) Report of The High Level Commettee on The Indian Diaspora, http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf , PP.94,95

(٩٤) Vidya Bhushan Rawat:- Mabira's resistance to Monopoly of Mehtas in Museveni's Uganda, www.manukhsi.blogspot.com.

(٩٥) John Parr:y:- Dialogue with Sikhism in the Diaspora, JMP Feb. 2009, PP.1,2..

(٩٦) Dr. Thomas Abraham :- Op.Cit., 2006,PP.2,3.

(٩٧) Patterson, J. H. (John Henry):-The Man-Eaters of Tsavo and Other East African Adventures ,1867-1947, The Project Gutenberg Literary Archive Foundation, Release Date: March, 2003 ,PP. 50-60.

(٩٨) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.5

(٩٩) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ١٣٢.

(١٠٠) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.74,75.

(١٠١) *Dispatch of Lord Milner,* about East Africa Protectorate,. *Downing Street, May* 21, 1920. Appendix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.8-10.

(١٠٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢، ١٣٢، ٢١٦، ٢١٧.

(١٠٣) نفسه، ص٦٣.

(١٠٤) نفسه، ص ص ١٢٣-١٢٩.

(١٠٥) نفسه، ص ص ١٢٩- ١٣٣.
(١٠٦) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.50.
(١٠٧) G.Oonk:- After Shaking ....Op.Cit.,PP.76,77.
(١٠٨) Ibid,PP.76,77.
(١٠٩) Ibid,PP.82,83.
(١١٠) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit.,P.287.
(١١١) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,P.81.
(١١٢) Ibid,P.80.
(١١٣) Patterson, J. H. (John Henry):- Op.Cit.,PP. 18-28.
(١١٤) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ٢٧.
(١١٥) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit.,P.278 .
(١١٦) Ibid,P.280 .
(١١٧) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢، ١٣٢، ٢١٦، ٢١٧.
(١١٨) William Gervase Clarence-Smith:- The cotton textile industry of Sub-Saharan Eastern Africa in the longue durée, SOAS, University of London,PP.1,2.
(١١٩) Ibid,PP.4,5.
(١٢٠) Ibid,PP.11,12.
(١٢١) Ryan T.C.I:- Op.CiT, P.5.
(١٢٢) Ibid, PP.7,8.
(١٢٣) Chandani Patel:- Op.Cit., P.62.
(١٢٤) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
(١٢٥) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.3
(١٢٦) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢-١٤،، ٦٨ ، ٦٩ .
(١٢٧) Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197.
(١٢٨) Susana Pereira Bastos:- Op.CiT ,P.287.
(١٢٩) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
(١٣٠) Stephen Morris:- Op.Cit.,P.209.
(١٣١) Ibid,P.195.
(١٣٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٧- ٥٩.
(١٣٣) نفسه، ص ص ٧٤-٧٦.
(١٣٤) نفسه، ص ص ٦٨-٧٤.

(١٣٥) نفسه، ص ص ١٠٠- ١٠٧ .

(١٣٦) نفسه، ص ص ٦٥-٦٦.

(١٣٧) Henry F. Morris:- Government Publications relating to Kenya (including the East Africa High Commission and the East African ,Common Services Organization)1897-1963, Government Publications relating to African Countries prior to Independence, Publication no. Micrform Academic Publisher96995, School of Oriental & African Studies, University of London,1976, P.6.

(١٣٨) G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.80.

(١٣٩) Ibid,PP.83-85..

(١٤٠) Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit.

(١٤١) Report of The High Level Commettee... Op.Cit., P.96

(١٤٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٦- ٧٩.

(١٤٣) CAB/24/161 CP. 337 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the Cabinet. July* 1923,

(١٤٤) CAB/24/161, CP. 334 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the Cabinet.20 July* 1923, P.1.

(١٤٥) Ibid, P.2.

(١٤٦) Parallel Statement In Connection with the 1921 Outline of Policy., Appendix 111 of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, P.12

(١٤٧) Indians Overseas ,A guide to source materials in the India Office Records for the study of Indian emigration ,1830-1950,P.29.

(١٤٨) *Paraphrase Telegram from the Secretary of State for the Colonies to the Governor of Kenya.(Sent 5 P.M., September 5, 1 9 2 2 .).*Appendix V of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.13,14.

(١٤٩) *Confidential Dispatch from the Duke of Devonshire to the Governor of Kenya, dated* December 14, 1922, Appendix VI of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.15,16

(١٥٠) وفقا لتعداد عام ١٩٢١ بلغ مجموع الهنود في كينيا حوالى ٢٢٨٢٢ ،
CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the abinet. 20 July* 1923. PP.5-7.

(١٥١) CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet. 20 July* 1923. PP.4,5.

(١٥٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٩٥-٩٨ .

(١٥٣) Indians Overseas , Op.Cit.,P.30.

(١٥٤) Ibid,P.30.

(١٥٥) Ibid,P.26.

(١٥٦) CO 822/3064:- Problems of establishing a cancer research centre at Aga Khan Hospital, 1963.

(١٥٧) Report of The High Level Commettee on The Indian Diaspora, http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf , P.97

(١٥٨) CAB/24/161. CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the Cabinet. 20 July* 1923. PP.4,5.

(١٥٩) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٨٠-٩٢ .

* تالف على شاكلة المؤتمر الوطني الهندي الذى عقد اجتماعه الاول في الهند في بومباى ١٨٨٥ . وفكرته تعود للبريطانيين وليس للهندوس بما يثير الشك والريبة في الهدف من تاسيسه تبنى المقاومة السلمية ضد الحكم البريطاني، الذى استعمر الهند رسميا سنة ١٨٥٧، بعد انتقال السلطة من شركة الهند الشرقية البريطانية الى التاج البريطاني. ومن تاسس المؤتمر وعاش هنك في حجر الانجليز . للمزيد انظر، عبدالمنعم النمر: كفاح المسلمين في تحرير الهند، مكتبة الاسرة، القاهرة، ٢٠٠٥. ص ص ٤٦، ٤٧، ٧٣.

(١٦٠) Report of The High ...Op.Cit., P.96

(١٦١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٦- ٧٩.

(١٦٢) Indians Overseas , Op.Cit.,PP.11-23.

(١٦٣) Hassan J. Ndzovu:- Op.Cit., PP.7-10.

(١٦٤) E. R. Turton:- The Isaq Somali Diaspora andA Poll-Taxagitation in Kenya, 1936-41, African Affairs, Vol. 73, No. 292 (Jul.,1974),PP.339,345.

(١٦٥) Abduaziz Y. Lodhi:- Settlements in India, Nordic Journal of African Studies 1(1): (1992, P.83.

(١٦٦) Punjabis in Eastern Africa,II AS News letter, 43, Sprin g. 2007 .

(١٦٧) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.19.

(١٦٨) Punjabis in Eastern Africa,II AS News letter, 43,Spring,2007 .

(١٦٩) Report of The High Level... Op.Cit. , P.96

(١٧٠) Punjabis in Eastern Africa,II AS News letter,43, Spring,2007.

(١٧١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ، ٦٣ ، ٦٤

(١٧٢) نفسه، ص ص ٩٨-١٠٠ .

(١٧٣) Indians Overseas , Op.Cit.,PP.11-23.

(١٧٤) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٧ ، ٦٨.

(١٧٥) نفسه، ص ص١١٤، ١١٥ .

(١٧٦) Zeinoul Abedien Cajee:- Islamic History & Civilisation in South Africa: The Impact of Colonialism, Apartheid, and Democracy (1652-2004), the Symposium on "Islamic Civilisation in Eastern Africa", Islamic University of Uganda, Kampala, Uganda, 15-17 December 2003, PP.7,8.

(١٧٧) J. Peter Pham:- India's Expanding Relations with Africa and Their Implications for U.S. Interests,American Foreign Policy Interests, 29, 2007,PP.341-343.

(١٧٨) Indians Overseas , Op.Cit.,PP.11-23.

(١٧٩) India-East Africa Ties: Op.Cit., PP.17-19.

(١٨٠) Ibid, P.19.

(١٨١) Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit.

(١٨٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٠٧- ١١١ .

(١٨٣) Anthony Lester:- East Arican Asians Versus The United Kingdom: The Inside Story, 23rd October 2003 , PP.1-3.

(١٨٤) Ibid , PP.1-3.

(١٨٥) Report of The High Level Commettee... Op.Cit. P.97.

* استقلت تنجانيقا رسميا فى ديسمبر ١٩٦١.فى حين حصلت كينيا على استقلالها سنة ١٩٦٣.

(١٨٦) Report of The High Level Commettee... Op.Cit. , P.98.

(١٨٧) Ibid.

(١٨٨) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,PP.8-10.

---

(١٨٩) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.9.

* حيث حضرت أول امراة هندوسية تدعى بهاتيا Bhatia ،إلى زنجبار تبعتها امراة اخرى تدعى Vania سنة ١٨٨٢.

(١٩٠) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10.

(١٩١) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.49.

(١٩٢) Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 .

(١٩٣) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.6

(١٩٤) Ibid ,P.5

(١٩٥) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture ...Op.Cit.,P.9.

(١٩٦) East African Indian Cuisine, Saturday April 10, 2010 http://www.slowfoodhk.com/files/East%20African%20Indian%20Cuisine

(١٩٧) Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 .

(١٩٨) G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.79.

(١٩٩) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture .Op.Cit.,PP.11.12,20,21.

(٢٠٠) ابراهيم الفارس: الهندوسية،،
http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=195741

(٢٠١) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.49.

(٢٠٢) Punjabis in Eastern Africa.II A S News letter, 43, Spring, 2007.

(٢٠٣) Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit.

(٢٠٤) Chandani Patel:- Op.Cit., PP.8-10,62,64.

(٢٠٥) India-East Africa Ties: Op.Cit., PP.17-19.

(٢٠٦) Chandani Patel:- Op.Cit., PP.63,64.

(٢٠٧) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10.

(٢٠٨) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.

(٢٠٩) Ibid,P.79.

(٢١٠) Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 .

(٢١١) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.7

(٢١٢) Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture Op.Cit.,PP.7,8.

(٢١٣) Ibid,PP.7,8.

(٢١٤) Ibid,PP.11,12,20,21.

(٢١٥) G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.80.

(٢١٦) Ibid, P.80..

(٢١٧) Ibid,PP.85-86..

(٢١٨) Isaac Esipisu and Nixon Kariithi:- New Media Development in Africa,PP.4-8.

(٢١٩) Report of The High Level Commettee... Op.Cit., P.96

المستوطنات الإسرائيلية في القدس وادعاء الحقوق التاريخية

د. كريمان محمود إبراهيم (*)

تقدم هذه الدراسة نموذجاً لماهية المجتمع الإسرائيلي الذي ترتكز أيديولوجيته على فكر المستوطنات، فإسرائيل كدولة ما هي إلا مستوطنة كبيرة، تضم تحت جناحيها هذا الكم الهائل من المستوطنات الأصغر، وما ألحق بها من مهام وأهداف أمنية وعسكرية وأيديولوجية وسياسية. تلك السياسة التي تسارعت وتيرتها بغرض فرض واقع جديد، وخاصة في مدينة القدس، تحت ادعاءات وحجج عديدة. لم تكن هذه الأيديولوجية القائمة على فكرة الإحلال هي أيديولوجية أو سياسة حزب ما أو شخصية ما، وإنما هي السياسة الرسمية للدولة لها مؤسساتها المنوط بها تنفيذها فلكي تنشأ مستوطنات جديدة لابد من تهجير واقتلاع المزيد من الفلسطينيين من أرضهم ودورهم، والإحلال محلهم. وكان من ثمار هذه السياسة : قلب النظام الجغرافي والديموغرافي، لا سيما في مدينة القدس، وأهمية الاستيطان لا تكمن فقط في رصد محاولة الآخر للاستيلاء على ما بحوزة الغير، ولكن باعتباره عقبة من أصعب العقبات التي تعترض مسعى السلام، وليس من المبالغة أبداً نعتها بأنها وجدت أصلاً لإعاقة ومنع أي تسوية.

لماذا القدس:

لأنها عاصمة الأديان الثلاث مهد المسيح عليه وعلى أمه السلام، ومنها عرج محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وهي أمانة عمر وبيعة صلاح الدين، فيها تدق أجراس كنيسة القيامة ومن مآذن مسجدها الأقصى يسمع صوت الأذان الله أكبر.. فبقيت شامخة جميلة، إنها عبق التاريخ أو قل عروس التاريخ، قل ما شئت، إنها عظيمة تستمد عظمتها من تاريخها، ويستمد التاريخ منها سطوره وحكاياته، وتتجلى عظمتها تلك في قدرتها الفريدة على تجسيد هذا الماضي، ليبدو وكأنه كائناً بيننا نتحسسه نفرح لفرحه ونتألم لألمه، فتخرج الآهات ممزوجة بدماء الأبرياء، فشهداء اليوم والأمس، الأمس القريب والأمس البعيد مرتبطون ارتباطاً وثيقاً، فقبل أن تتحرر القدس من الغزو الصليبي الغاشم عام ١١٨٧م كانت هناك حالة حمل وهي أطول فترة حمل شهدها التاريخ، إذ امتدت لما يزيد على السبعة قرون وحينما جاء المخاض أسفر عن الولادة المشئومة للحركة الصهيونية فخرجت من رحم الصليبية.

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة حلوان.

وفي هذا الصدد يقول س. آر كوندر C.R Kondr* في كتابه عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس: إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته[١]، ولعل تغليف الصهيونية لأطماعها، بنفس الدعاوى الصليبية، ليقدم دليلاً واضحاً على أنها اعتمدت منذ نشأتها على النهج الصليبي، فحينما خرج الصليبيون لسفك دماء المسلمين والاستيلاء على ثرواتهم، كانت دعواهم أنها "إرادة الله" واعتبروا أنفسهم أنهم "جنود المسيح"، وها هي الصهيونية تتخفى خلف دعاوى دينية، تارة "كشعب الله المختار"، وتاريخية تارة أخرى "كأرض الميعاد"؟!

ولعل صعوبة فهم تاريخ القدس عاصمة الأديان الثلاثة يبدو في تلك التعددية الدينية التي تحمل في طياتها وبين جنباتها هذا الكم من التحديات الكامنة، فالقدس عاصمة دينية وتاريخية وسياسية واقتصادية، تعرضت لمؤامرات عديدة لتزوير هويتها وطمس معالمها، تمهيداً لتهويدها ومن ثم الادعاء بالحق التاريخي، وكان لدى إسرائيل مخطط واضح في هذا الشأن، يعود إلى ما قبل تأسيس الدولة منذ ١٨٩٧م عندما أقر مؤتمر بازل إنشاء إسرائيل بعد خمسين عاماً، وإسرائيل الكبرى بعد مائة عام[٢]، ويرتكز هذا المخطط على قاعدتين أساسيتين.

١- تهويد الأرض. ٢- تهويد السكان.

ففيما يتعلق بتهويد الأرض: صدرت مجموعة من القوانين التي تعود للحقبة البريطانية لمصادرة الأرض، أهمها قانون الطوارئ، وقانون أملاك الغائبين (أي إذا غاب الشخص سبع سنوات تسلب منه أرضه)، وطرد الفلسطيني العربي من أرضه. ذلك أن سياسة الإبعاد مورست كثيراً تحت حجج واهية كذريعة الغائبين المشار إليها، أو الحجج الأمنية مثل: تملك فلسطيني جنسية أخرى فتسقط مواطنته بالقدس[٣].

أما سياسة تهويد السكان فمورست بواسطة التفريغ السكاني للمنطقة بإحلال يهود محل العرب، وذلك بطرد السكان العرب وزيادة الاستيطان اليهودي[٤] فيغلب بذلك العنصر اليهودي في المدينة على العنصر العربي، وبالتالي يسهل صياغة المدينة على أسس ديمغرافية وسكانية جديدة، ومن هنا بدأ النزوح اليهودي من شتى البقاع إلى أرض فلسطين مصحوباً بسمفونية موسيقية تعزف على أوتار الحقوق التاريخية والدينية، وهنا حدث التزاوج التاريخي بين اليهود النازحين والأجانب المقيمين، حينما تلاقت على أرض فلسطين مطامع الصهيونية بالاستعمار الأوروبي الممثل في بريطانيا، فاتفقا على إقامة دولة يهودية في فلسطين، ولا يخفى علينا أن جزء من هذا الإنجاز يعود أيضاً لما سبق وأن روج له الكتاب اليهود ويكثير من المبالغة حول مسألة الاضطهاد حتى يبرروا دعوتهم العنصرية.

ويأتي على رأس هؤلاء: زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) الذي دعا في كتابه "البحث عن صهيون" إلى أن حل المشكلة اليهودية يأتي عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين[٥]، و"موسى هيس" ١٨١٢-١٨٧٥ في كتابه "روما والقدس" الذي رأى فيه أن:

اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية لا يشكل حلاً عملياً للمسألة اليهودية، ونادى بأن "الجنس اليهودي من أقدم وأعرق الأجناس البشرية، وإليه ترجع وحدة اليهود لأن "الجنس اليهودي حفظ صفاءه عبر القرون"[٦] وأخيراً نجح هرتزل بعد نشر كتيبه "دولة اليهود" في إقامة أول حركة يهودية عالمية تمثلت في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل في عام ١٨٩٧، وكان ضمن مقترحات البرنامج تشجيع الهجرة المنظمة، وعلى نطاق واسع، إلى فلسطين والحصول على اعتراف دولي بشرعية التوطن في فلسطين[٧]. وفي المؤتمر الصهيوني السابع في ١٩٠٥ وبعد وفاة هرتزل – في نفس العام – أخذ المؤتمر قراراً بأن الحركة تهدف لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين.

ومن عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٤، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان التوطن اليهودي يزداد في فلسطين في صمت وإلحاح، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد إلى ١٢ ألفاً يعيشون في تسع وخمسين مستعمرة. ولقد كانت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول تاريخية وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية[٨]، تمكنت من استغلالها وتسخيرها لخدمة أهدافها، فبمساعدة بريطانيا – التي انتدبت على فلسطين بقرار من عصبة الأمم عام ١٩٢٢ – فتحت أبواب الهجرة اليهودية غير المقننة إلى فلسطين[٩] وغدت الوكالة اليهودية وكأنها دولة داخل الدولة ففتحت باب الهجرة على مصراعيه.

وكما استغلت الحركة الصهيونية الحرب العالمية الأولى، حدث نفس الأمر بالنسبة للحرب العالمية الثانية، ولكن بشكل أكثر دقة وتنظيماً، فعمدت في هذه المرة لربط مصالحها بمصالح الحلفاء. وعندما انعقد مؤتمر "بلتمور" عام ١٩٤٢ كشفت الصهيونية النقاب عن أطماعها، وأن هدفها هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وليس وطناً قومياً[١٠].

وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة أقرت، في المادة الأولى من ميثاقها، بحق الشعوب في تقرير مصيرها[١١]، إلا أن قرار جمعيتها العامة – الذي جاء بعد ذلك في نوفمبر عام ١٩٤٧ والخاص بتقسيم فلسطين – كان منافياً لهذا الحق، وفي هذا الشأن قدم العديد من فقهاء القانون الدولي أدلتهم القانونية التي تثبت ذلك[١٢] لكن تم تجاهلها عن عمد، والخطير في هذا القرار الذي قسم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية، وعمل على تدويل القدس، أنه أعطى للصهيونية مساحة واسعة لتنفيذ مخططها الاستعماري في الاستيلاء على القدس ومن ثم تهويدها، وكما أشرنا أن مخطط تهويد القدس يرجع لمؤتمر بازل ١٨٩٧، لكن التطبيق العملي لهذا المخطط بدأ فعلياً منذ يونيو ١٩٦٧[١٣] وتحديداً في السابع من يونيو ١٩٦٧، حينما حاصرت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المدينة ودخلتها من بوابة الأسد، وعلت هتافات اليهود – والتي اتسمت بالتحدي – عند الحائط الغربي مرددين "لن نخرج من هنا" أو "لن يحدث ذلك أبداً مرة أخرى"، في سياق تذكرهم للهولوكوست. أما الجنرال موشيه ديان فقد وقف أمام الحائط وأعلن: "لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قداسة .. لقد عدنا ولن نتركها قط مرة أخرى"، ثم أصدر

أوامره بفتح جميع البوابات وإزالة الأسلاك الشائكة والألغام من المنطقة المنزوعة السلاح إذ رأى أنه لن يحدث تراجع مرة أخرى(١٤).

وقد تطور ادعاء إسرائيل بملكية المدينة، تطوراً خطيراً، باحتلالها الضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان، إلى جانب القدس، وذلك في نهاية حرب الأيام الستة، ويعد هذا مخالفاً لكل من قوانين لاهاي التنظيمية الصادرة عام ١٩٠٧، ولاتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩. وطبقاً للقانون الدولي لم يكن مسموحاً بضم الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها عسكرياً، وكان بعض الإسرائيليين ومن بينهم ليفي أشكول على استعداد لإعادة الأراضي المحتلة إلى مصر وسوريا والأردن، نظير معاهدة سلام مع العرب، بيد أنه لم يكن من الوارد قط إعادة مدينة القدس القديمة إلى العرب، إذ أدخل على الخطاب الصهيوني الذي كان علمانياً لدرجة التحدي في الماضي – عنصر تسام روحاني، فقد قال المتطرفون في إلحادهم إنهم خبروا قدسية مدينتهم المقدسة. وعبر أبا إيبان مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة عن ذلك بقوله: إن أورشليم "تقع خارج نطاق، وفوق وقبل وبعد جميع الاعتبارات السياسية"، وأيضاً قيل أنه من المحال على الإسرائيليين النظر إلى الأمر بموضوعية، لأنهم قد التقوا بالروح اليهودية عند الحائط(١٥). وكان ليفي أشكول قد أعلن، عشية الغزو، أن القدس "عاصمة إسرائيل الأبدية"(١٦).

ولم يقتصر الأمر عند حد الإعلان، بل تبعه مجموعة من الإجراءات لتهويد القدس، ولذا فإنه ليتسنى لنا فهم عملية تهويد القدس، لا يجب النظر إليها على أنها تمت بشكل عشوائي، وإنما باعتبارها مخططاً له أهدافه الواضحة، التي تتمثل في تأسيس القدس الكبرى الموسعة اليهودية الخالصة ككتلة استيطانية ضخمة تمزق، وإلى الأبد، الوحدة الجغرافية للضفة الغربية، كما جاء في إحدى وثائق حزب الليكود(١٧). وفي هذا السياق كان لا بد من طمس المعالم العربية في القدس(١٨) حتى ولو تعدى ذلك مخطط التفريغ السكاني إلى ما هو أعظم، كالانقضاض على المعالم الأثرية الإسلامية والمسيحية، ومحاولة إما تهويدها أو القضاء عليها(١٩).

صحيح أن المجتمع الدولي، الممثل في الأمم المتحدة، حاول وقف هذا العبث، فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة قرارات أدانت فيها إسرائيل، وعدت إجراءاتها بأنها غير شرعية وطالبتها بإلغائها، ويأتي على رأس هذه القرارات: قرار رقم ٢٢٥٣ الصادر سنة ١٩٦٧، وقرار مجلس الأمن رقم ٢٥٢، وغيرها من القرارات التي لا يتسع المجال لحصرها، لأن إسرائيل في كل الأحوال لم تذعن لتلك القرارات(٢٠) سواء فيما يتعلق بالقدس أو فلسطين، أو حتى بجيرانها. وهذا بدوره يلقي بظلال من الشك والريبة تجاه هذه المؤسسة الدولية، وماهية علاقتها بإسرائيل، فالرفض التام لم يعرض الكيان الصهيوني لأي عقاب من قبل المجتمع الدولي، في حين أن دولاً أخرى يقابل رفضها لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة لما هو أبعد من الإدانة والشجب، إلى حد التدخل العسكري كما حدث في أفغانستان والعراق؟!

ومن جانبها كانت إسرائيل تسابق الزمن من أجل فرض واقع معين على القدس، يضع الأمم المتحدة وقراراتها في موقف العاجز، وكما سبق وأن ذكرنا أن العملية لم تكن عشوائية، إنما هو مخطط منظم، ففي نفس يوم الغزو تقدم "تيدي كوليك" إلى ديان للإشراف على تطهير المنطقة منزوعة السلاح، ومثله مثل ديان رأي أهمية "خلق واقع" يؤسس الحضور الإسرائيلي الدائم في القدس، حتى لا يكون أمر الجلاء عنها – استجابة لطلب المجتمع الدولي – وارداً، وفي مساء العاشر من يونيو، وبعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار، وجه إنذاراً إلى ٦١٩ فرداً من سكان حي المغاربة بإخلاء منازلهم، ثم قامت البلدوزرات وحولت المنطقة التاريخية، التي هي أقدم الأوقاف في القدس، إلى أنقاض، وأشرف كوليك على هذا العمل الذي كان مخالفاً لاتفاقيات جنيف، بهدف إيجاد مساحة كبيرة تتسع لآلاف الحجاج المتوقع توافدهم على الحائط الغربي. وكانت تلك الفعلة هي الأولى فقط في عملية طويلة مستديمة (للتجديد الديني)، وهو تجديد مؤسس على هدم القدس التاريخية العربية، وتغيير مظهرها وشخصيتها تغييراً كلياً[٢١]، ولذا صدرت مجموعة من التشريعات عملت على تدخل السلطات الإسرائيلية في كافة شئون القدس، فعمدت إلى تهويد التعليم العربي، وتهويد القضاء[٢٢]. وفي ٢٨ يونيو قام الكنيست بضم القدس الشرقية إلى الكيان الصهيوني، لتصبح بذلك المدينة القديمة والقدس الشرقية جميعاً جزءاً من دولة إسرائيل، وكان ذلك مخالفة صريحة لاتفاقية لاهاي[٢٣].

ولم تكتف إسرائيل بذلك، بل عمدت إلى إزالة الأحياء العربية ومصادرة أراضيها، وإقامة أحياء سكنية بأسماء يهودية، مواصلة بذلك خطة إبادة المقدسات الإسلامية والمسيحية للقضاء على الارتباط الديني بين المسلمين والمسيحيين وبين مقدساتهم، وهذا بدوره يؤدي لتشويه الطابع الحضاري للمدينة، وليس أدل على ذلك من الحفريات التي قامت وتقوم بها السلطات الإسرائيلية بالقرب من المسجد الأقصى، بحثاً عن الهيكل المزعوم، والحفريات الأخرى قرب حائط المبكي، والتي أحدثت بالفعل تصدعات فضلاً عن مصادرة "باب المغاربة" وهو الباب المؤدي إلى بيت المقدس[٢٤].

ومرة أخرى أصدرت الأمم المتحدة، في يوليو ١٩٦٧، قرارين تدعو فيهما إسرائيل إلى إلغاء ذلك "التوحيد"، والامتناع عن أي خطوات من شأنها تغيير وضع القدس. وقد كانت الحروب وتوابعها بدأت تلفت انتباه العالم إلى مأساة اللاجئين الفلسطينيين المنتزعين من أوطانهم، وبعد عام ١٩٦٧ لاذ آلاف آخرون منهم بالفرار من المناطق المحتلة، ومكثوا في حالة من الوهن والعجز في المخيمات التي أقيمت لهم في الدول العربية المجاورة، ثم جاء قرار مجلس الأمن الشهير، رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧، بوجوب انسحاب إسرائيل من المناطق التي احتلتها أثناء حرب "الأيام الستة"، وأيضاً بوجوب الاعتراف بسيادة وسلامة أراضي كل دول المنطقة واستقلالها السياسي، إلا أن معظم الإسرائيليين من اليهود في العالم، والذين شغفوا من جديد بـ "الحيز المقدس"، لم يعترفوا بشرعية تلك القرارات[٢٥].

ومن المفارقات أن "خلق الوقائع المادية"، من قبل إسرائيل، بالاستيلاء على الأرض وبناء المستعمرات في المناطق، بقصد زيادة نسبة السكان اليهود، أدى إلى نتيجة عكسية تمثلت في التقليل من الهجرة وزيادة السكان الفلسطينيين، وليس أدل على ذلك من أن معدل النمو السكاني السنوي، في القدس الشرقية، جاء مختلفاً عما هو عليه في بقية الضفة الغربية، وقد جرى تقدير متوسط لنسبة النمو السكاني في القدس الشرقية، للسنوات ١٩٦٧ – ١٩٨٠، فكان ٣% قياساً إلى ١.٤ – ١.٥% في الضفة الغربية. وفي مايو ١٩٦٧ كان عدد سكان القدس الشرقية ٨٠ ألف نسمة، وأصبح عددهم في سبتمبر من نفس العام ٦٧ ألف نسمة، ومع نهاية عام ١٩٨٢ بلغ عددهم ١٢٠ ألف نسمة (أي ١٤% من مجموع سكان القدس الشرقية والضفة الغربية معاً) [٢٦] وظل النمو السكاني في القدس الشرقية ثابتاً في حدود ٣% سنوياً، وهو أعلى من النمو السكاني اليهودي، مما أدى إلى تغيير طفيف في بنية المدنية الديمغرافية، فقد نقصت الأغلبية اليهودية بنسبة ٣-٤% في ستة عشر عاماً. أما فيما يتعلق بالنمو السكاني في القدس الكبرى خارج حدود بلدية القدس، فتشير التقديرات إلى معدل نمو متشابه قدره ٣% في المنطقة المحيطة بالمدينة. وفي عام ١٩٦٩ كان ٣٧% من مجموع سكان المناطق الجنوبية، في الضفة الغربية، يقطنون في منطقة القدس الكبرى[٢٧].

لمواجهة ذلك عمدت إسرائيل، في ظل غياب آليات دولية فعالة لردع العمل الصهيوني إلي حرق المسجد الأقصى في ٩ أغسطس ١٩٦٩، ولم تكن عوامل القلق والحوادث المتبادلة بين الجانبين، والتي سبقت هذا الحادث، هي كل ما أدى إليه، ولكن ظل المخطط الإسرائيلي لتهويد القدس هو الدافع والمحرك لمثل هذه الأحداث. وقد جاء رد الفعل العربي، للدفاع عن عروبة وأسلمة القدس، ليسجل بداية الإرهاصات الأولى لتحرك عربي وإسلامي منظم، تمثل في عقد مؤتمر قمة عربي في الرباط في ١٩٦٩/٩/٢٤، والذي انبثق عنه تكوين لجنة دائمة تسمى "لجنة القدس"، تتولى متابعة القرارات التي يصدرها المؤتمر الإسلامي؛ الذي أصدر سلسلة من القرارات أدان فيها حرق المسجد الأقصى، هذا بالإضافة للقرارات العديدة التي أصدرتها جامعة الدول العربية.

وهذا ما يدفعنا للتساؤل عما فعلته هذه القرارات والمؤتمرات لحماية القدس، وهل وفرت لها الضمانات اللازمة؟! لا سيما وأن قوة القرار لا تكمن في صدوره، بقدر ما تكمن في القدرة على تفعيله، وفي هذا الصدد ظلت القرارات العربية قيد التنفيذ لما اتسمت به من ضعف وعدم جدية.. وهذه هي المعضلة الحقيقية التي سيقود فهمها لحل إشكالية الدور العربي لإنقاذ القدس من التهويد، والذي اتسم باللامنهجية واللا استراتيجية، مقابل العمل الإسرائيلي المنظم والمتواصل في هذا المجال!، وهذا ما مكن رئيسة الوزراء الإسرائيلية "جولدا مائير" من نسف قرارات المؤتمر الإسلامي؛ عندما أعلنت عن عزم الحكومة الإسرائيلية ترميم المسجد الأقصى على نفقتها[٢٨] ، وتزامن ذلك مع ما أثبتته التحقيقات

من أن من قام بهذا العمل لم يكن عميلاً يهودياً ولكنه استرالي من أتباع طائفة مسيحية متطرفة[٢٩].

وبصرف النظر عن صدق هذه التحقيقات من عدمه، فإن ما يعنينا هنا هو النهج الإسرائيلي الذي استمر يحقق النجاح تلو الآخر، فهو بالإضافة لسياسته التدريجية في تنفيذ مخططه الاستراتيجي، فإنه قادر أيضاً على استيعاب الأزمات الكبرى التي يمكن أن تقلب المجتمع الدولي ضده، ويحولها لصالحه، لينتهي الأمر بتعاطف معظم وأهم الأطراف معه، وفي هذا الإطار لا يمكن أن نلقي باللوم على إسرائيل ومخططاتها، أو على المجتمع الدولي والأممي وتعاطفه معها. إن كل ما فعلته إسرائيل أنها حلمت أو قل توهمت ثم حولت هذه الأوهام لأيديولوجية، ولقوة حية وفعالة، وتكيان يمارس وجوده وحقوقه تحت مظلة قانونية، وبذلك تكون قد نجحت في فرض أطماعها على المجتمع الدولي، لدرجة أنها جعلت من أمن إسرائيل الشغل الشاغل لهذا المجتمع[٣٠]، في مقابل حق عربي سطره التاريخ، وتنطق به الأرض والوثائق وشعوب العالم، ليتحول هذا الحق لوهم لوهن القوى العربية، ومحدودية نضالها وعدم مقدرتها على تفعيل قراراتها.

فكرة المستوطنات:

هي فكرة قديمة تعود إلى ما قبل القرن الماضي، عندما طرح لورنس أوليفانت – عضو البرلمان الإنجليزي – (١٨٢٠-١٨٨٨) فكرة إنشاء مستوطنة يهودية شرق الأردن شمال البحر الميت، مشجعاً استعمار اليهود لفلسطين، وكان هذا الطرح من خلال كتابه "أرض جلعاد" الذي نشر عام ١٨٨٠. وفي عام ١٨٧٨ كانت مجموعة من يهود القدس قد تمكنت من تأسيس مستوطنة بتاح تكفا، وفي ١٨٨٢ تم إنشاء ثلاث مستوطنات هي: ريشون ليتسيون، وزخرون يعقوب، وروش بينا، وفي عام ١٨٨٣ أسست مستوطنة يسود همعليه وعقرون، ومستوطنة حديرا عام ١٨٨٤، وفي عام ١٨٩٠ أسست مستوطنات رحوبوت ومشمار هارون. وبعد المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني، عام ١٨٩٨، وصل عدد المستوطنات اليهودية لـ ٢٢ مستوطنة، واستمر هذا العدد في التزايد، ولكن الانطلاقة الكبرى في هذا المجال جاءت بعد الإعلان عن قيام إسرائيل في مايو ١٩٤٨[٣١].

وتعد الفترة ١٩٤٨-١٩٦٧ فترة تأسيس الكيان الصهيوني لتنطلق بعدها أخطر وأوسع مرحلة في بناء المستوطنات، وهي تشمل الفترة من عام ١٩٦٧-٢٠٠٨، بعد احتلالها لباقي القدس وفلسطين[٣٢]. وساعدت بعض الإدارات مثل الصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايمت)، وإدارة الاستيطان في الوكالة اليهودية[٣٣] على توفير الأموال اللازمة للمهاجرين[٣٤]. والحقيقة أن مشاركة كل مؤسسات ووزارات الدولة الإسرائيلية، في تنفيذ عملية الاستيطان، هو ما قاد لنجاحها[٣٥].

ولما كان هدفهم زيادة عدد اليهود في القدس؛ فقد دفعهم ذلك للتركيز بعد عام ١٩٦٧ أي بعد احتلال القدس الشرقية ٢٨ يونيو ١٩٦٧، لاختراق البلدة القديمة وأحياء القدس الشرقية، وبالفعل وصلت كثافتهم العددية نسبة أعلى من الفلسطينيين، ذلك أن

الهدف كان يتجه لخفض نسبة المواطنين الفلسطينيين في القدس كلها لما لا يتجاوز ٢٠%. وفي عام ١٩٨٦ وصل عدد المستوطنين الصهاينة في الأحياء الاستيطانية، حول القدس القديمة، لـ ١٤٨.٠٠٠ مستوطن، مقابل ٣٥١.٠٠٠ مواطن عربي، أما إجمالي الصهاينة في كل القدس فوصل لـ ٧١.٥% من إجمالي سكان المدينة، أي ٣٣١.٠٠٠ مستوطن داخل الحدود الإدارية للقدس[٣٦].

وتزامنت خطة الزيادة السكانية للمستوطنين في القدس، مع الزيادة المكانية لها بعدما نجحت إسرائيل في توسيع حدود بلدية القدس الشرقية، والتي كانت تضم عند احتلالها عام ١٩٦٧ (٦.٥كم) بضم أراضي من الضفة الغربية إليها ما يعادل (٧٠كم)، وبذلك أصبحت حدود البلدية الجديدة تضم (١٠٨كم) (القدس الشرقية والغربية) أي ٢٨% من الضفة الغربية وذلك لفرض غالبية ديموغرافية يهودية في قسمي المدينة، وبذلك يتم عزل واستثناء المناطق الفلسطينية الآهلة مثل: الرام وأبو ديس والعيزرية ومخيم قلنديا. ولاستكمال هذا المخطط؛ كان لابد من أن تتم عملية الإخلاء والطرد للفلسطينيين سكان البلدة القديمة، وهكذا تتم عملية عزل القدس الكبرى عن الضفة الغربية، تمهيداً لضمها لإسرائيل – وهو المخطط الذي بدأ فور الاحتلال في ٢٨ يونيو ١٩٦٧. أما الخطة التالية في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس، فقد اعتمدت على استيطان استعماري في البلدة القديمة والأحياء المحيطة بها، وإنشاء أحياء يهودية وشبكة طرق لربط القدس الشرقية بالمنطقة اليهودية الآهلة بالسكان، وفي هذا الصدد أعربت إدارة تيدي كوليك عن قلقها تجاه النمو السكاني الفلسطيني في القدس، وأصبح من المتعارف عليه اعتبار الأراضي المملوكة للفلسطينيين مناطق خضراء أو غير مستعملة، لتبرير مصادرتها. واعتماداً على قانون الأراضي واستعمالها للمنفعة العامة، وهو القانون الصادر عن الانتداب البريطاني عام ١٩٤٣، فإن وزير المالية يعد مكلفاً بمصادرة الأراضي ذات الملكية الخاصة لأغراض المنفعة العامة، ولذلك جرى بين عامي ١٩٦٧– ١٩٩٦ مصادرة حوالي (٢٣٥٠٠) دونم من الفلسطينيين في القدس الشرقية[٣٧].

وفي إطار توسيع ما يسمى بحدود القدس شرقاً وشمالاً، لإحكام السيطرة عليها، صودرت الأراضي لإقامة المستوطنات بداخلها وحولها، فصادرت ٤٠% من مساحة القدس العربية، وطردت سكانها، وأنشأت الحي اليهودي مكان حارة الشرف "المغاربة" الفلسطينية – التي يرجع تأسيسها إلى عهد الفاتح صلاح الدين – كما أقامت حولها ١٥ مستوطنة تحيط بالمدينة المقدسة من جميع الجهات.

ففي الشمال، والشمال الغربي، أقامت مستوطنات النبي يعقوب، وصودرت أراضيها الفلسطينية عام ١٩٦٨، وراموت وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠، والجامعة العبرية من عام ١٩٢٤ –١٩٦٧، ففي عام ١٩٢٤ صودر جزء من أراضيها، وفي عام ١٩٦٧ صودر المزيد من الأراضي، وريخس شعفاط (جبعات هاشعفاط) وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠ وتأسست عام ١٩٩٠، رامات أشكول (جبعات همفتار) صودرت أراضيها عام

١٩٦٨ وتأسست في نفس العام، بسجات زئيف ويسجات عومر، عطروت صودرت أراضيها وأسست عام ١٩٧٠، التلة الفرنسية. وفي الجهة الجنوبية هناك مستوطنات جيلو صودرت أراضيها عام ١٩٧٠، وتأسست عام ١٩٧١، منتزه كندا*، جفعات همتوس وتأسست عام ١٩٩١، وهار حوماه صودرت أراضيها عام ١٩٩٠ وتأسست عام ١٩٩١[٣٨].

أما من الشرق، فهناك مستوطنات معاليه أدوميم* وكدار اللتان تدخلان مع مستوطنة جفعات زئيف، في الشمال ضمن حدود القدس الكبرى، أما مستوطنة معاليه أدوميم فقد أقيمت في ٨ أغسطس ١٩٧٩ كمستوطنة دينية، وفي عام ١٩٩٢ تقرر تحويلها إلى مدينة، وأصبحت أول مدينة إسرائيلية في الضفة الغربية، تقع في إطار ما يسمى القدس الكبرى، على طريق القدس – أريحا، وعلى بعد ٦ كم إلى الشرق من القدس، ومستوطنة كيدار (نيئوت أدميم) وأقيمت في ١٩ يناير ١٩٨٥، أما مستعمرة ميشور أدوميم فقد شرع في إقامتها كمعسكر عام ١٩٧٤، وقررت الحكومة الإسرائيلية أن تكون منطقة صناعية متخصصة في الصناعات الثقيلة، ثم تحولت عام ١٩٧٧ إلى مستوطنة صناعية دائمة، باقتراح من موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، في إطار إكمال الطوق الشرقي لما يسمى القدس الكبرى، وهي تقع على طريق القدس أريحا على بعد حوالي ١٣كم إلى الشرق من القدس، وفي ٢٦ يوليو ١٩٨٢ أقيمت مستوطنة غنتوت (علمون) وهي تقع إلى الشرق من القدس، وفي عام ١٩٩٥ أقيمت قرية داود غرب باب الخليل في أراضي المنطقة الحرام، وذلك بهدف دمج قسمي مدينة القدس الشرقية مع القدس الغربية. أما الأراضي التي أقيمت عليها عام ١٩٩٥، فكانت قد صودرت من أملاك عربية وأملاك الكنيسة، أما مستوطنة جبل أبو غنيم فقد صدر قرار من الحكومة الإسرائيلية ببناء هذه المستوطنة في جبل أبو غنيم بالقدس الشرقية عام ١٩٩٧، بهدف طمس عروبة المدينة المقدسة، وإحكام الطوق الاستيطاني حولها وداخلها[٣٩].

وبذلك تمكنت إسرائيل من إحاطة المدينة المقدسة بطوق استيطاني عزلها تماماً عن محيطها الفلسطيني، ففصلت المستوطنات الشمالية القدس عن شمال الضفة الغربية، حيث محافظات رام الله ونابلس وباقي المحافظات، أما المستوطنات الجنوبية فعملت على عزل القدس عن محافظات بيت لحم والخليل، ولم تكتف إسرائيل بذلك، إذ صاحب هذه الإجراءات الاستيطانية ممارسات لا إنسانية مثل: منع سكان الضفة الغربية من الدخول إلى مدينة القدس، ووضعت أمام من يريدون الدخول إليها، أو الذهاب للمسجد الأقصى، مجموعة من العراقيل القاسية تمثلت في: الحواجز العسكرية المتعددة والمنتشرة على طول الطريق المؤدية إلى القدس[٤٠].

وفي النهاية، ساهمت كل هذه الإجراءات، ليس فقط في عزل مدينة القدس وضواحيها عن محيطها الفلسطيني بل وقطع التواصل الجغرافي بين أنحائها، والحيلولة

دون إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة، هذا خلاف تشويه النمط العمراني للقدس العتيقة والقرى الفلسطينية المحيطة بها، بالإضافة للاتجاه لهدم المسجد الأقصى[٤١]. ويعد إقامة هذا العدد من المستوطنات إلى حدود القدس الإدارية؛ أصبح عدد الصهاينة في عام ١٩٩٢ في شرق القدس، ولأول مرة في التاريخ، أعلى من عدد المواطنين الفلسطينيين إذ بلغ عدد المستوطنين مائة وستين ألفا، مقابل مائة وخمس وخمسين ألف عربي فلسطيني. أما في كل القدس، فبلغ عدد المستوطنين اليهود أربعمائة وسبعة آلاف مستوطن، مقابل مائة وواحد وستين ألف مواطن فلسطيني ما اعتبره الصهاينة نسبة زائدة لأعداء الفلسطينيين الذين يتكاثرون بمعدلات طبيعية هي الأعلى في العالم، ما أدى لارتفاع نسبتهم عام ٢٠٠١ إلى ٣٢%، مقابل ٢٧% مطلع السبعينات، وحتى عام ٢٠٠٠ كانت الغالبية الساحقة من سكان البلدة القديمة هي من الفلسطينيين البالغ عددهم ٣٣.٠٠٠، مقابل ٣٠٠٠ مستوطن صهيوني[٤٢].

وعلى الرغم من مواقف الدول العربية الرافضة للاستيطان، وإقامة المستوطنات باعتباره أمر مخالف لقواعد القانون الدولي، إلا أن إسرائيل استمرت في سياستها الرامية إلى إفراغ الأراضي المحتلة من أصحابها الشرعيين وإحلال المستوطنين محلهم، ولم تسهم مواقف العرب ومفاوضاتهم لوقف بناء هذه المستوطنات إلا إلى زيادة وتيرتها، بهدف خلق واقع حي يخضع القدس كلياً للمخطط الإسرائيلي.

المستوطنات في مشروعات السياسة الإسرائيلية

تعاطت الحياة السياسية الإسرائيلية جملة مشاريع هامة؛ كان إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في القدس أحد أهم نتائجها:-

١- مشروع آلون ١٩٦٧*

جاء هذا المشروع بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بحوالي شهر، وبرغم أن يغال آلون اعتمد في مشروعه على أفكار بن جوريون، إلا أن مشروعه كان أكثر تفصيلاً ووضوحاً، وقد اشتهر هذا المشروع لاحقاً بأنه أول المشاريع الإسرائيلية التي وضعت لحل معضلة الأراضي المحتلة ودعا آلون في مشروعه لضم بعض المناطق للدولة كجزء لا يتجزأ من سيادتها، وفيما يتعلق بالقدس؛ حث على العمل على إقامة ضواحي بلدية مأهولة بالمستوطنين اليهود في شرق القدس، علاوة على إعادة تعمير وإسكان سريعين للحي اليهودي بالبلدة القديمة من القدس، الأمر الذي ترجم عملياً على مدى السنين الماضية، لدرجة أن المدينة المقدسة أصبحت محاطة تقريباً بالمستوطنات اليهودية[٤٣].

٢- وثيقة غاليلي ١٩٧٣*

طرحت هذه الوثيقة، التي تضمنت أفكار زعماء حزب العمل، على مركز الحزب في ١٦ أغسطس ١٩٧٣، وغدت أساس برنامج الحزب في انتخابات الكنيست التي جرت في كانون أول، ديسمبر ١٩٧٣، ودعت الوثيقة فيما يتعلق بالقدس إلى مواصلة الإسكان

والتنمية الصناعية في القدس وضواحيها بهدف تثبيت الأقدام فيها، وإلى استغلال الأراضي التي وصفتها بأنها "أراضي دولة"، في نطاق المنطقة الواقعة شرقي القدس، كما دعت الوثيقة إلى تطبيق قرار الحكومة الصادر في ١٩٧٠/٩/١٣، بشأن التوطين في منطقة النبي صمونيل(٤٤).

٣- مشروع يعقوبي ١٩٨٨*

طرح هذا المشروع في منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨، وبرغم أن جاد يعقوبي يحسب من معسكر اليسار، ويصنف على أنه من المعتدلين، إلا أن طرحه لا يختلف عن طرح الليكود وهذا دليل آخر على أن القادة الإسرائيليين، مهما اختلفت انتماءاتهم الحزبية إلا أنهم يلتقون في مسار واحد وهو: عدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. وجاء طرح يعقوبي لجملة نقاط دعى إسرائيل لعدم التفريط فيها والتمسك بها في أية مفاوضات مستقبلية، وذكر القدس بأنها لن تكون موضوعاً للحوار مع الفلسطينيين وسيتم بحث أية ترتيبات ممكنة تستهدف مراعاة الحساسية الدينية للعرب في القدس، ولكن في تاريخ متأخر، عندما يكون دافع التعايش السلمي بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي قد تطور(٤٥)، تماماً حينما اتفقت خطة كل من إسحق شامير وإسحاق رابين، مايو ١٩٨٩، والمسماة بـ "مبادرة السلام الإسرائيلية" حول القدس، إذ جاء بها "القدس كعاصمة لإسرائيل ليست أمراً مطروحاً للنقاش"(٤٦).

٤- مشروع شارون ١٩٨٩*

قدم هذا المشروع رسمياً في ٢٩ مارس ١٩٨٩، رداً على الانتفاضة، بمحاولة إيجاد حلول – هي في الواقع أوهام – للمشاكل القائمة بين الجانبين، ومن هنا كان طرحهم لموضوع الحكم الذاتي للفلسطينيين طرحاً غير جاد، ففي هذا الإطار ذكر شارون أن "الحكم الذاتي هنا لا يخص الأرض وإنما السكان... والقدس ستبقى موحدة دون أي مكان للآخرين فيها"، ودعا هذا المشروع إلى تعزيز وتوسيع الانتشار الاستيطاني في منطقة القدس الشرقية، وغزو البلدة القديمة من القدس بكثافة استيطانية، وذلك بعد إغلاق ومصادرة معظم المؤسسات الوطنية الفلسطينية في القدس وغيرها وإبعاد رؤساء الانتفاضة المعروفين في منطقة القدس الشرقية(٤٧) . واختتمت كل هذه المشاريع بإجماع الحكومة الإسرائيلية ممثلة في حزبيها الكبيرين الليكود والتجمع، على التصريح بأن "القدس الكاملة عاصمة إسرائيل الأبدية مدينة موحدة، بسيادة إسرائيلية غير قابلة للتقسيم، "هذا ما جاء في البند السادس من وثيقة الخطوط الأساسية للحكومة الائتلافية الموسعة(٤٨).

ولعل ما سبق يوضح مدى الإجماع الإسرائيلي، بكل أطيافه، على تنفيذ مخططاته وإن وجدت خلافات في وجهات النظر المتعلقة بالمسائل الرئيسية في القضية الفلسطينية؛ فيمكن السيطرة عليها وتوجيهها في الإطار الذي يخدم مسار المصلحة الإسرائيلية، ويجهض في نفس الوقت المحاولات الفلسطينية الرامية للوصول إلى حقوقها، وليس أدل

على ذلك مما ذكره كل من شامير أمام مؤتمر "التضامن اليهودي مع إسرائيل" والذي عقد في القدس في ٢٠ مارس ١٩٨٩، من أن "القدس ستبقى موحدة وتحت السيادة الإسرائيلية في أي تسوية يتم التوصل إليها"، وشمعون بيرس رئيس حزب العمل والقائم بأعمال رئيس الوزراء، من أن "مدينة القدس ستبقى موحدة والمستوطنات القائمة لن تحل، وسيتم ضمان حرية الحركة وحرية العبادة في الأماكن المقدسة"[٤٩].

وهكذا، فإن تصريحات القيادة الإسرائيلية فيما يتعلق بقضية القدس بأنها عاصمة إسرائيل الأبدية، الموحدة الخاضعة للسيادة الإسرائيلية وغير القابلة للتقسيم، تكون قد تلاقت مع إجراءات السلطة الإسرائيلية التي دعمت دوماً تلك التصريحات، منذ الإعلان عن ضم القدس الشرقية العربية رسمياً، وتوحيد القدس الشرقية والغربية، لتصير مدينة القدس الموحدة عاصمة إسرائيل الأبدية. وحتى عام ١٩٨٩ عندما انفجرت الانتفاضة الفلسطينية، كانت تصريحات القيادة الإسرائيلية أكثر حسماً وصرامة في موضوع القدس.

القدس ما بين التفعيل والتصعيد:

كانت هناك دوماً محاولات يائسة لتفعيل القرارات الدولية الخاصة بالقدس، في ظل تصعيد مستمر للاستيطان اليهودي بها، ذلك أنه من العبث التصور بأن عملية تصعيد الاستيطان اليهودي، في القدس، كان وليد لحظة ما كعام ١٩٨٠ – تاريخ إعلان ضم القدس الشرقية – ، أو حتى عام ١٩٦٧ – تاريخ احتلالها – وإنما جاء في إطار مشروعها العنصري "القدس الكبرى" ، الذي دخل حيز التنفيذ منذ اليوم الأول لاحتلال إسرائيل للقدس الشرقية، والذي خطط له أن يحقق خلال خمسين عاماً تهويداً كاملاً للمدينة يشمل تغيير الطابع الديمغرافي "السكاني" للمدينة، لتصبح ذات أغلبية يهودية مطلقة، وتتمشى هذه السياسة، جنباً إلى جنب، مع التخلص من كل ما يؤكد على الحق التاريخي لغير اليهود وذلك باجتثاث المعالم الدينية والتاريخية الإسلامية والمسيحية على حد سواء.

وفي إطار ذلك رفضت إسرائيل الالتزام بوثيقة جنيف التي قدمت، وبشكل أفضل، مشروع تسوية دائمة لقضية القدس[٥٠]، أو حتى الاعتراف بالقرارات الدولية والتي بلغت ١٩ قراراً، اعتبرت جميعها القدس أرضاً محتلة. ودعم ذلك بقرار صدر عن الكنيست، أواخر عام ٢٠٠٧، بعدم التنازل عن شرقي القدس في أي حل تتوصل له حكوماتهم، إلا إذا حصل على غالبية ثلثي الأعضاء، أي ٨٠ من أصل ١٢٠ عضواً، ما يبدو أنه غير ممكن في ظل وجود حكومة أكثر يمينية وتطرفاً مما في السابق[٥١]. ونفس النهج كان مع قرارات مجلس الأمن رقم ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٠٣، والصادر في ٩ ديسمبر ١٩٤٩، والذي منح القدس، مدينة الديانات السماوية الثلاث، وضعاً دولياً خاصاً، مع التأكيد على حماية الأماكن المقدسة فيها، وعلى احترام الخصوصيات الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع سكانها، لكن إسرائيل لم تكتف بعدم احترامها للقرار عندما

تمادت لأبعد من ذلك حتى باتت الصلاة في المسجد الأقصى محرمة حتى على أبناء القدس الذين تقل أعمارهم عن الـ ٥٠ عاماً، ولم يكن أبناء الطائفة المسيحية بأحسن حال من المسلمين، ذلك أن الأحكام العرفية المفروضة على المدينة منذ عام ١٩٦٧ لم تثتثنهم[٥٢].

وبعد ضمها القدس في ١٩٦٧، وتوسيع نطاق سياستها الاستيطانية، أصدرت الأمم المتحدة العديد من القرارات التي أدانت إسرائيل في هذا الشأن، واتسمت هذه القرارات بأنها كانت مؤيدة على نطاق واسع، حتى تلك الدول التي عرفت بتأييدها لإسرائيل؛ لم تجد بدأ من المشاركة في استنكار سياسة إسرائيل بخصوص القدس. فبعد أقل من شهر واحد على وقف إطلاق النار، في يونيو ١٩٦٧، وافقت الجمعية العمومية في ٤ يوليو ١٩٦٧ بأغلبية ٩٩ صوتاً، وامتناع عشرين دولة عن التصويت، على مشروع قرار باكستاني (رقم ٢٢٥٣) نص على أن "الجمعية العامة تعتبر الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس غير مشروعة". وفي ١٤ يوليو ١٩٦٧ كررت الجمعية العامة بالأغلبية مطالبتها لإسرائيل بإلغاء جميع الإجراءات التي اتخذتها إزاء القدس، والامتناع عن القيام بأي عمل يكون من شأنه تغيير وضع القدس مذكراً بقرارها رقم ٢٢٥٣ في ٤ يوليو ١٩٦٧[٥٣].

ومن جانبه اتخذ مجلس الأمن عدة قرارات، ففي ٢٧ أبريل ١٩٦٨ أصدر قراراً طالب فيه إسرائيل بالامتناع عن القيام بعرض عسكري في القدس. وفي ٢١ مايو ١٩٦٨ أعرب في قرار له، عن أسفه لعدم تقيد إسرائيل بالقرارات التي أصدرها المجلس بشأن القدس[٥٤]. وفي دورتها عام ١٩٧٥ أصدرت الجمعية العامة أربعة قرارات هامة، جاء الرابع فيها بخصوص القدس، فنص على اعتبار كافة الإجراءات التي اتخذتها السلطات الإسرائيلية لتغيير الأوضاع السياسية الأساسية، والشعائر الدينية لسكان القدس، وفي مسجد الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل لاغية وغير مشروعة، وطالب القرار إسرائيل بالكف فوراً عن الاستمرار في هذه الإجراءات، وصوت لصالح هذا القرار ٨٢ صوتاً ضد ٥ أصوت. والجدير بالذكر أن الجمعية العامة أقرت في هذه الدورة، ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية. ومن هنا اتسم رد الفعل الإسرائيلي لقرارات الدورة في مجملها بالعنف والاستخفاف. برغم أن القرار مؤيد بالأغلبية، بل وتجاوز الثلثين بكثير[٥٥].

أما جلسة مجلس الأمن المنعقدة في مارس ١٩٧٦، فقد شهدت تحركاً ملموساً إزاء هذه الإشكالية حينما تقدمت الدول الخمس (بنين – داهومي، باكستان، غانا، بناما، تنزانيا) بمشروع قرار تضمن ثلاثة عناصر هي:

١- الإعراب عن الأسف لأن إسرائيل لم توقف عملياتها لتغيير معالم مدينة القدس.

٢- مطالبة إسرائيل بالامتناع عن اتخاذ أية إجراءات ضد سكان المناطق المحتلة.

٣- دعوة إسرائيل لاحترام ومراعاة حرية الأماكن المقدسة الواقعة تحت الاحتلال، والتوقف عن التنقيب والحفريات في الأراضي العربية.

إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، باستخدامها الفيتو، أوقفت صدور القرار برغم أن مندوبها أدان في خطابه سياسة إسرائيل الاستيطانية[٥٦].

لم تستطع الأمم المتحدة، حيال ذلك، فعل شئ، فلم تسمح لها إسرائيل بممارسة أية سلطة إدارية على القدس. كما أنها اعتبرت أن إسرائيل ألحقت القدس بها باللجوء للقوة العسكرية والاحتلال بالرغم من قراري مجلس الأمن ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة ٣٠٣ الذي نص على أن أي إجراء تتخذه حكومة ما لا يمكن أن يمنع الهيئة المشرفة* من الحفاظ على وضعية مدينة القدس كما تبنتها. فقد باتت هذه الهيئة معطلة منذ عام ١٩٩٤، وسريان اتفاقية أوسلو[٥٧] التي تم التوقيع عليها في عام ١٩٩٣، والتي أعطت للقدس وضعاً دولياً خاصاً[٥٨]، إذ وصل عدد المستوطنين آنذاك في القدس لـ ١٥٣ ألفاً، وفي وء ذلك اعتبرت دائرة العلاقات القومية والدولية في منظمة التحرير، أن الحملة الإسرائيلية المتصاعدة في القدس تشكل "اضطهاداً دينياً يمارسه الاحتلال بحق المسلمين والمسيحيين، وانتهاكاً فاضحاً لكافة الأعراف والقوانين الدولية التي كفلت الحرية الدينية" مطالبة المجتمع الدولي بتحمل مسئولياته الأخلاقية تجاه الشعب الفلسطيني وحماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس المحتلة من خطر التهويد المتواصل"[٥٩] باعتبار إسرائيل البلد الوحيد الذي يجعل من الدين والأيدولوجية سبباً لطرد شعب من أرضه وإحلال كل من يقول بأنه من الدين اليهودي مكانه، ولا يوجد اتفاق موقع يقر بعودة الست ملايين فلسطيني، الذين شردوا في أنحاء المعمورة، إلى وطنهم. أما قرار الأمم المتحدة بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى قراهم وبلداتهم، وتعويضهم عما خسروه[٦٠]، فشأنه شأن غيره من القرارات التي لم تخرج إلى حيز التنفيذ.

وسبق لمركز القدس الفلسطيني للحقوق الاجتماعية والاقتصادية؛ أن حذر من تصعيد نوعي في الاستيطان اليهودي بالقدس المحتلة، يستهدف تهويد البلدة القديمة بالكامل وتشديد قبضة الاحتلال على المدينة المقدسة[٦١]. كما ذكرت تقارير حقوقية فلسطينية أن التصعيد الإسرائيلي في القدس المحتلة، والذي كان هدم منازل المقدسيين أحد أشكاله، هو الأخطر منذ احتلال المدينة عام ١٩٦٧، وحذرت التقارير من مشاريع استيطانية هي الأكبر منذ عام ١٩٤٨ وصودق عليها وتهدف إلى زيادة عدد اليهود في المدينة، وتركزت عمليات الهدم داخل أسوار البلدة القديمة والأحياء المتاخمة لها في الضواحي والبلديات الواقعة على الحدود البلدية المصطنعة للقدس. وخاصة في العيزرية وجبع وفحماس، ومناطق انتشار العشائر البدوية شرق القدس وعلى امتداد مناطق الخان الأحمر. وبينما يجري التضييق على الفلسطينيين بوضع قيود صارمة على تراخيص البناء، ترعى البلدية ووزارة البناء والإسكان الإسرائيليتين، مشاريع البناء الاستيطاني الضخم في البلدة القديمة وسلوان وجبل الزيتون، والشيخ جراح ورأس العمود وفي المستوطنات القائمة على أراض فلسطينية[٦٢].

وكانت المحكمة العليا الإسرائيلية قد قررت، في وقت سابق، عدم إمكانية منح تراخيص بناء، أو فتح أي ملف تنظيم هيكلي، لأي من الأبنية التي شيدها المقدسيون في البلدة القديمة، مستندة إلى مخطط هيكلي أقرته الحكومة الإسرائيلية بعد عام ١٩٦٧، ومنعت بموجبه إضافة أي بناء للأبنية الموجودة داخل البلدة القديمة في القدس، بحجة عدم المساس بالطابع التاريخي والديني للمدينة المقدسة. وفي المقابل فإنه قد تم استثناء الحي اليهودي في البلدة القديمة، الذي وضعت له مخططات هيكلية مختلفة، تسمح له بإقامة مئات الوحدات الاستيطانية الجديدة[٦٣].

ولا يخفى الهدف الكامن خلف كل هذه الإجراءات وهو: تفريغ القدس من سكانها العرب، وعزلها نهائياً عن الضفة الغربية، على اعتبار أنها موضوع غير قابل للتفاوض بشأنه، ذلك أن تهويد المدينة سيقود للوصول للهدف الأسمى وهو: هدم المسجد الأقصى[٦٤]، وتتماشى عملية الهدف، بشكل ممنهج ومنظم مع عمليات الاستيلاء على منازل المقدسيين والحفريات عند أساسيات المسجد الأقصى، والأنفاق التي باتت تهدد مبناه، بالإضافة للتأثير على الوجود الحضاري الإسلامي وأسرلته[٦٥]. وفي النهاية لم تسفر كل هذه الحفريات تحت الأقصى الشريف عن أثر يهودي واحد، حسب ما ذكره عالما آثار صهيونيان مرموقان، شككا في صحة نصوص تضمنتها التوراة بشأن مكانة القدس لدى اليهود، واستبعدا بناء الهيكل في عهد سليمان[٦٦].

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام: لماذا كل هذا التحدي الإسرائيلي لقرارات المجتمع الدولي الممثل في أممه المتحدة، ألعدم جدية هذه القرارات، ما دفع إسرائيل للتمادي في هذا المجال، طالما أن رفضها التام والمستمر لا يعرضها لأي نوع من أنواع العقوبات من قبل هذا المجتمع، أم لأن التعاطي العربي لهذه القضية اتسم بالتراخي ومحدودية النضال، بعد أن وضعوا ردود أفعالهم في قوالب جامدة تمثلت في: الملتقيات والقمم التي خرجت بمواقف موحدة إزاء الانتهاكات الإسرائيلية المتتالية، ولكنها افتقدت الفاعلية مقابل عمل جاد وحاسم لقوات الاحتلال الإسرائيلي، لتحقيق هدف بعينه وهو: فرض الأمر الواقع على الجميع من خلال تكريس احتلالها لمدينة القدس؟!

الموقف الدولي:

تباين الموقف الدولي إزاء موضوع الاستيطان ما بين مؤيد ومعارض، فقد عارضته دول أوروبا، وعبرت في أكثر من مناسبة بأنه غير شرعي وعقبة أمام السلام، لكنها لم تستطع اتخاذ مواقف ملزمة، بسبب الضغوط الأمريكية التي اتسمت بمعارضة شكلية للاستيطان، دون أن ترقى لممارسة فاعلة تجبر إسرائيل على التوقف. ففي ٢٦ مارس ١٩٧٦، وقفت أمريكا ضد مشروع قرار يدين العمليات الإسرائيلية في القدس، بالرغم من أن خطاب مندوبها "وليم سكرانتون" قد تضمن إدانة لسياسة إسرائيل الاستيطانية في الأراضي المحتلة، واعتبرها خرقاً وانتهاكاً لقواعد القانون الدولي، وعقبة في طريق

المباحثات نحو السلام. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة مارست حق النقض، يوم ٢٦ مارس ١٩٧٦، وأوقفت صدور هذا القرار[٦٧].

ومنذ ١٩٩٠ أخذ الكونجرس الأمريكي يجاري الكنيست، عندما تبنى قرار مجلس الشيوخ رقم ١٠٦، الذي أعلن فيه أن الكونجرس يؤمن بشدة بأن القدس ينبغي أن تبقى مقسمة وأن تحترم بها حقوق كل الجماعات العرقية والدينية، واتبع الكونجرس هذا بإصدار قرارات عديدة، كان أخطرها قانون الكونجرس بشأن القدس، الصادر في ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ والذي احتوى على مغالطات عدة أبرزها: أن القدس كانت عاصمة الشعب اليهودي لأكثر من ٣ آلاف عام، وأنها كانت مركزية لليهودية، وقد ذكرت في التوراة ٧٦٦ مرة، والزعم بأنها لم تذكر بالاسم في القرآن، وأن القدس هي مقر الحكومة الإسرائيلية، بما فيها الرئيس والبرلمان والمحكمة العليا[٦٨].

أما بريطانيا فإنها تنظر للقدس على أنها عاصمة لدولتين، ولديها في القدس الشرقية قنصلية عامة، وقنصل عام ليس معتمداً لدى أية دولة، وهذا تعبير عن وجهة النظر البريطانية بأنه ليس لأي دولة سيادة على القدس، أما بشأن المستوطنات فقد عدتها بريطانيا غير قانونية، بموجب القانون الدولي، وهذا يشمل المستوطنات في كل من القدس الشرقية وفي الضفة الغربية، وأن التوسع فيها عقبة أمام عملية السلام، وفيه انتهاك لالتزامات إسرائيل بموجب مؤتمر أنا بوليس وخارطة الطريق[٦٩]. كما عارضت المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبي هدم البيوت وطرد السكان من القدس الشرقية[٧٠]. وفيما يتعلق بفرنسا فقد أعربت مؤخراً على لسان وزير خارجيتها، عن أسفها لاستمرار السياسة الإسرائيلية الاستيطانية في القدس الشرقية المحتلة[٧١].

ويرغم ذلك فإن إسرائيل مستمرة في مسلسل التحدي، ماضية في طريقها لتحقيق هدفها المنشود، فكما لم تلتزم لا باتفاقية أوسلو، ولا بوثيقة جنيف من أجل السلام في الشرق الأوسط[٧٢] بهدف وضع المجتمع الدولي أمام واقع معين، وهو ما أكدت عليه هآرتس في تقريرها الذي أشار إلى أن "المستوطنات اليهودية، داخل أحياء القدس القديمة تهدف إلى خلق وضع غير قابل للتغيير، سيمنع أي إمكانية تسوية لموضوع القدس في إطار حل الدولتين"[٧٣].

ولا ننسى أن القدس تضم أكبر عدد من المستوطنات، ومن المساحة الكبرى من حيث الأراضي الاستيطانية، والبالغة ٤٥٦١٥ دونما، أي ما نسبته ٥٦.١٤ من مساحة المنطقة العمرانية للمستوطنات في الضفة الغربية[٧٤] وفي النهاية تظل إسرائيل الدولة العبرية الوحيدة بين الدول الأعضاء في الأمم المتحدة التي لا تملك حدوداً معلنة، بحيث تستمر في ضم الأراضي الفلسطينية، وهي الوحيدة التي اشترطت الأمم المتحدة لقبولها عودة اللاجئين الفلسطينيين، وقيام دولة عربية، ولم تحترم أي من الشرطين[٧٥].

ولأنها القدس، ولأنها جزء من فلسطين التي هي جزء من الكيان العربي، ولأن أحد طرفي النزاع هو الأقوى، والأكثر تنظيماً وتنسيقاً مع القوى العظمى، باعتباره امتداداً

لجذور الاستعمار الغربي للمنطقة، مقابل طرف ليس ضعيفاً فحسب، وليس مفتقداً للتنظيم فحسب، بل إن منافساته غير الشريفة، التي مورست بدعوى الدفاع عن هذه القضية، هي التي أضرت بالقضية وأدخلتها في هذا النفق المظلم، حتى غدا هؤلاء في معظم الأحيان لا يعلمون ماذا يريدون، أو ماذا يفعلون. وهنا نتذكر قول المولى عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. صدق الله العظيم.

الهوامـــــش

* هو صهيوني ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين.

١- د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، صـ١٣١-١٣٢.

٢- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، طبعة أولى، ١٩٩٢، صـ٤٣.

٣- جريدة النبأ ٢٠١٠/٣/٣، عدد ٨٩، ندوة بعنوان ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية في القدس.

٤- غازي فلاح، أسرلة الجغرافية العربية الفلسطينية، شئون فلسطينية، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، صـ١٥.

٥- عبد الوهاب كيالي، المطامع الصهيونية التوسعية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦، صـ ١٥ – ١٨.

٦- أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، رسالة ماجستير منشورة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٧، صـ١٧.

٧- وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، صـ٢٠.

٨- أحمد بهاء الدين، إسرائيليات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، صـ١٤.

٩- ياسر أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام، ط أولى، صـ٩٢.

١٠- د. صلاح العقاد، قضية فلسطين المرحلة الحرجة ١٩٤٥-١٩٥٦، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٨، صـ١٥.

١١- ميثاق الأمم المتحدة، المادة الأولى، الفقرة الثانية (إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب بأن يكون لكل منها تقرير مصيرها).

١٢- عبد الرحمن الصالحي، مسألة تدويل القدس، شئون فلسطين، عدد ٢٠٢، يناير ١٩٩٠، صـ٤٩.

١٣- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، عمان، ط أولى، ١٩٩٢، صـ٤٣.

١٤- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، ١٩٩٨، صـ٦٣٩-٦٤٢.

١٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، صـ٦٤٣.

١٦- نفس المصدر ، صـ٦٤٣.

١٧- حسن شرين، فلسطين من الحروب التوسعية لتحقيق إسرائيل الكبرى حتى انتفاضة الأقصى وتوابعها ١٩٤٨-٢٠٠٢، جـ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، صـ١٠٢٥.

١٨- غازي فلاح، أسرلة الجغرافية العربية الفلطسنية، شئون فلسطين، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، صـ١٥.

١٩- Domini QUE Vidal, létter de Jerusalem,lemond diplomatique, decembre, ٢٠٠٦.

٢٠- ياسر أبو شبانة، المرجع السابق، صـ٥٢.

٢١- كارين أرمسترونج، مرجع سابق، صـ٦٤٥.

٢٢- أنور محمود زناتي، محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق والإحصاءات، مركز دراسات الوحدة العربية، فارس شرعان، المرجع السابق، صـ١٢١.

٢٣- د. أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها، الأهرام ٢٣/١٠/٢٠٠٣، كارين أرمسترونج، المرجع السابق، صـ٦٤٥، ٦٤٦.

* محاولاً بذلك طمس الهوية العربية للقدس في تحد سافر لتاريخ عروبة القدس، برغم أن اليبوسيس (وهم بطن من بطون العرب الأوائل الذين نشأوا في الجزيرة العربية) هم أول من أسس مدينة القدس عام ٣٠٠٠ ق.م وأول من سكنوا أراضيها واستوطنوها وأقاموا أبنيتها وشيدوا معالمها وجعلوها حاضرة ملك لهم، وأكثر من هذا فالمدينة منذ نشأتها وحتى اليوم عربية اللسان حتى سادت في البلدان اللغة الكنعانية ثم الآرامية وكلتاهما مشتقة من اللغة العربية القديمة، وظلتا سائدتين حتى حلت اللغة العربية الحديثة بدخول العرب المسلمين إلى البلاد، ولعل أسماء القدس على مر الحقب التاريخية تؤكد عروبتها ومن هذه الأسماء: يبوس، نسبة لليبوسيين، كما أسماها الكنعانيون أورساليم أو مدينة السلام، والتسمية العبرية التي عرفت فيما بعد أورشليم مشتقة منها، وأسماها اليونانيون بروساليم، وكانت في أوائل الفتح الروماني تدعى هيروسليما ثم صارت هيروساليما ومن هنا أخذت الاسم الأوروبي جيروساليم، ومن عام ١٣٩ ميلادية وطيلة العهد المسيحي سميت المدينة (ايلياء) ومعناها بيت الله، أما القدس فكانت معروفة منذ أوائل الفتح الإسلامي أي منذ ق الرابع وحتى اليوم، أنظر أحمد يوسف القرعي، عروبة القدس، مناظرة تاريخية مع شارون، الأهرام ٢٤/٥/٢٠٠٥، و د. حسن ظاظا، القدس مدينة الله.. أم مدينة داود، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠، صـ٧-٣٥.

٢٤- وكالة القدس www.quds.net.com ، عبد الرحمن الصالحي، المرجع السابق، محمود زناتي، المرجع السابق.

٢٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، صـ٦٤٨، د. أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.

٢٦- ميرون بنفينستي، الضفة الغربية وقطاع غزة بيانات وحقائق أساسية، ترجمة ياسين جابر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط أولى، ١٩٨٧، صـ١٨، ٣٠.

٢٧- نفس المصدر، صـ٣١.

٢٨- د. حسن ظاظا، المرجع السابق، صـ٣١.

٢٩- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، صـ٦٦٠.

٣٠- التوزيع الديمغرافي في القدس، المركز الفلسطيني للإعلام www.palestine.info

٣١- محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات للنشر، الأردن.

٣٢- نفس المصدر، انظر أيضاً Israeli settlements, Palestine monitor Factsheet-Updated,١٧ Dcember ٢٠٠٨, p١-٤.

٣٣- نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٢/٢/١٦.

٣٤- يديعوت أحرنوت ١٩٧٥/٥/٢٢ نقلاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

٣٥- دافار ١٩٧٥/٦/٣، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

٣٦- التوزيع الديمغرافي في القدس، مصدر سابق.

٣٧- د/ أحمد يوسف القرعي، المقال السابق، د/ أسعد عبد الرحمن، استراتيجية ابتلاع القدس.. هل من مغيث؟، صحيفة الاتحاد الإماراتية ٢٠٠٦/٤/٢٨، Palestine-Israel Journal, August, ٢٠٠٩, p٤.

• شيدت الحكومة الإسرائيلية هذا المنتزه الضخم في منطقة اللطرون إلى الجنوب من القدس على أنقاض القرى الفلسطينية المدمرة في ١٩٧٥ على مساحة ٥٠٠٠ دونم، انظر: المستوطنات الإسرائيلية في القدس، اللجنة الملكية لشئون القدس www.rcjar.org.jo

٣٨- الاستيطان في القدس، مجلة المعرفة www.aljazeera.net، انظر أيضاً محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات، الأردن، رائف نجم "رئيس جمعية حماية القدس" الكشف عن مخططات اليهود، برنامج بلا حدود (تهويد القدس) ٢٠٠٩/٩/٢.

• ستلعب هذه المستوطنة دوراً هاماً في خطة رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون عام ٢٠٠٥ وهي الخطة التي أطلق عليها اسم "إي - ١" لخلق تواصل جغرافي بين مستوطنة "معاليه أدوميم" والقدس الشرقية تمهيداً لترسيم حدود ثابتة في المستقبل انظر: يديعوت أحرنوت ٢٠٠٥/٣/٢١.

٣٩- اللجنة المركزية لشئون القدس، المستوطنات الإسرائيلية في القدس www.rcja.org.jo، انظر أيضاً: رائف نجم، المصدر السابق.

٤٠- المركز الفلسطيني للإعلام www.palastine.info، أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها: الأهرام ٢٠٠٣/١٠/٢٣.

٤١- رائف نجم، المصدر السابق.

٤٢- المركز الفلسطيني للإعلام، مصدر سابق، أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.

* نسبة إلى يغئال آلون أحد أبرز شخصيات حزب العمل زعيم كتلة "أحدوت هعفودا" في الحزب وأحد قادة البالماخ البارزين سابقاً.

٤٣- أسعد عبد الرحمن، نواف الزرو: الفكر السياسي الإسرائيلي قبل الانتفاضة.. بعد الانتفاضة، دار الشروق، ط أولى، ١٩٩٠، صـ١٠، منير الهور، طارق موسى: مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، دار الجليل، عمان، صـ٨٢، تريز حداد، القرارات والمبادرات الخاصة بالقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٨، عمان، صـ٧٦.

* عرفت تلك المبادئ باسم "وثيقة غاليلي" نسبة إلى "يسرائيل غاليلي" منظر حزب العمل المعروف، انظر نص وثيقة غاليلي بمجلة شؤون عربية حزيران، يونيو ١٩٨٣، تونس، الجامعة العربية، صـ٣٤٣، سعيد التيم، الحكم الذاتي فكرة تجاوزتها الأحداث، صحيفة الرأي الأردنية ١٩٨٩/١/١.

٤٤- د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، صـ١٦.

* نسبة إلى جاد يعقوبي وزير الاتصالات الإسرائيلي وأحد زعماء حزب العمل الداعين إلى تسوية جديدة للقضية الفلسطينية انظر د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، صـ٣٦.

٤٥- صحيفة الجيروزليم بوست الإسرائيلية ١٩٨٩/١/١٥.

٤٦- صحيفة معاريف ١٩٨٩/٤/١١.

* نسبة إلى أرئيل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق.

٤٧- يديعوت أحرنوت ١٩٨٩/٩/٣٠.

٤٨- وثيقة الاتفاق للحكومة الإسرائيلية انظر هآرتس ١٩٨٩/١٢/٢١.

٤٩- صحيفة دافار ١٩٨٩/٣/٢٤.

٥٠- Vers L'israélisation de la veille de Jerusalem, The international Soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥, Palestine monitor Factsheet, op-cit, p.٧

٥١- تقرير عن تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى، اللجنة العربية لحقوق الإنسان ٢٠٠٩/٤/١٧.

٥٢- التقرير السابق.

٥٣- المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، عرض وتحليل خيرية قاسمية، د. علي الدين هلال، إبراهيم كروان، معهد البحوث والدراسات العربية، صـ٥١.

٥٤- نفس المصدر، صـ٥١.

٥٥- نفس المصدر، ص٤٩-٥٠.

٥٦- نفس المصدر، ص٥٠.

* تتكون الهيئة المشرفة من الدول الخمس الأعضاء في مجلس الأمن وقد أنيط بها تطبيق القرار رقم ٣٠٣.

٥٧- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير: تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى ٢٠٠٩/٤/١٧.

٥٨- Vers L'Israélisation de la Veille de Jerusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.

٥٩- تقارير حقوقية، تصعيد استيطاني لرفع عدد المستوطنين في الضفة والقدس إلى مليون، جريدة الشرق الأوسط عدد ١١١٠١، ٢٠٠٩/٤/٢٠.

٦٠- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، التقرير السابق.

٦١- مؤسسة القدس الدولية، المؤتمر السنوي السابع، ٢٠١٠.

٦٢- جريدة الشرق الأوسط، العدد السابق.

٦٣- نفس المصدر.

٦٤- عوني صادق، جرائم الحرب ومخططات تهويد القدس، صحيفة الخليج الإماراتية ٢٠٠٥/٦/٩.

٦٥- Dominique vidal, letter de Jerusalem lemond diplomatique, decembre ٢٠٠٦.

٦٦- انظر معاريف ١٩٩٨/٦/٧ نقلاً عن هيثم الصادق، مشروع صهيوني ديمغرافي جديد لتهويد المدينة، صحيفة الوطن القطرية، ٢٠٠٥/٦/٦.

٦٧- خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص٥٠، Israel settlements and the two-state solution, Palestine-Israel, journal, August ٢٠٠٩, p. ١-٤.

٦٨- أحمد يوسف القرعي، تهويد القدس بين الكنيست والكونجرس الأمريكي (٢)، الأهرام ٢٠٠٥/٥/١٩.

٦٩- وزارة الخارجية البريطانية www.fco.gov.uk

٧٠- نفس المصدر.

٧١- Palestine-Israél journal, August ٢٠٠٩, p.٢، كوشيزيوكد معارضة بلاده لبناء مستوطنات في القدس الشرقية، مجلة الرياض www.alriyadh.com.

٧٢- Versl' Israél isation de la ville de Jérusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.

٧٣- هآرتس نقلاً عن www.qudsday.com.

٧٤- علي بدوان، الخارطة الاستيطانية في القدس والضفة الغربية، صحيفة البيان الإماراتية ٢٠٠٥/٩/١٨.

٧٥- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى، ٢٠٠٩/٤/١٧، ص٦.

تطور قضية واحة جغبوب

١٩٠٤ - ١٩٥١م

د. نادية ماجد عبد الرحمن بري (*)

لفت نظري بقوة موضوع قضية واحة جغبوب منذ فترة بعيدة، إذ إنها قضية شارك في صنعها في النصف الأول من القرن علي أقل تقدير، أطراف دولية مثل بريطانيا وإيطاليا، وأطراف أخري محلية مثل الحكومة المصرية في عهد أحمد زيزر باشا. كما أن هذه القضية انشغل بها الرأي العام المصري للغاية، حين كانت مطروحة علي بساط النقاش بين هذه الأطراف الدولية والإقليمية. ويعود سبب اهتمام المصريين بمسألة واحة جغبوب - علي الرغم من صغر مساحتها نسبياً - الي طبيعة تكوين الشخصية المصرية خلال تراكم آلاف السنين، والتي لا تقبل التفريط في شبر واحد من أرض بلادها. من ناحية آخري؛ تعد قضية واحة جغبوب، في الأساس، نتاج الحقبة الاستعمارية الكريهة الماضية، وحسابات المصالح بين إنجلترا وإيطاليا وليس مصالح مصر أو ليبيا. لكل هذه الأسباب تعد قضية واحة جغبوب واحدة من القضايا المهمة الجديرة بالدراسة، في مجال التاريخ الحديث والمعاصر.

وتهدف هذه الدراسة الي الكشف عن جوانب هذه القضية وتتبع تطوراتها خلال فترة زمنية محددة، كما تهدف الي تحليل مصالح القوي الدولية التي صنعتها. أما عن الفترة الزمنية لموضوع هذه الدراسة، فقد فضلنا أن نبدأ بعام ١٩٠٤، الذي شهد أول محاولة لتحديد حدود مصر الغربية بين سلطات الاحتلال الإنجليزي والدولة العثمانية، ثم تتبعنا بالدراسة والتحليل تطور قضية واحة جغبوب، حتي توقفنا بها عند إستقلال ليبيا في عام ١٩٥١.

وقد استخدمنا في دراسة هذه القضية قواعد منهج البحث التاريخي، من حيث جمع وتحليل المادة العلمية، واستخلاص الحقائق التاريخية والنتائج الموضوعية التي يحتاجها دارس التاريخ الحديث والمعاصر، وكذلك القارئ العام. وعلي الرغم من أن عدداً من الكتابات التاريخية المعاصرة تحدثت من قريب، والبعض الآخر من بعيد، عن قضية واحة جغبوب، إلا أن المكتبة العربية تفتقر حتي الآن، لدراسة مستقلة ومباشرة حول تطور هذه القضية ، ومن ثم تنفرد دراستنا هنا بالتركيز علي تتبع جوانب المسار التاريخي الذي

(*) أستاذ مساعد بكلية التربية للبنات بجدة جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية.

سلكته واحة جغبوب، منذ ١٨٤٠ وحتي عام ١٩٥١، بين الأطراف الدولية والإقليمية. كما أننا أعقبنا تتبع هذا المسار بخاتمة لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

ومن الجدير بالذكر أنه يوجد داخل مصر كثير من الواحات مثل (سيوة والفرافرة والخارجة والداخلة وغيرها) ولهذه الواحات قيمة إيكولوجية عالية تتمثل في: الحفاظ على التنوع البيولوجي والطبيعي بما تضمنه من نباتات وحيوانات نادرة. أما واحة جغبوب، موضوع دراستنا هنا، فهي تبعد عن واحة سيوة غرباً بنحو ٦٥ كليو متراً، وتشترك معها في نفس المنخفض الجغرافي، كما تم إخراجها في منتصف عشرينيات القرن الماضي من خريطة مصر إلى خريطة الأراضي الليبية، وقت إستعمار إيطاليا لها، ويعد ما يمكن تسميته بصفقة سرية بين الاستعمارين الإنجليزي والإيطالي، ونفذتها الحكومة المصرية بعد محاولة إقناع الرأي العام المصري أنذاك، بأنها استبدلتها بقرية السلوم.

وتقع واحة جغبوب هذه بين خطي عرض ٤٠-٢٩ و ٥٠-٢٩ شمالاً، وبين خطي طول ٢٤، ٢٥ شرقاً، ضمن سلسلة من المنخفضات المنتشرة في منطقة واسعة تبلغ مساحتها الكلية حوالي ٣٥٠ ميلاً، وتربة هذه المنخفضات طميية ملحة، ينمو في بعضها نباتات صحراوية، وفي بعض الأحيان تشغلها بحيرات ملحية ضحلة، ويوجد بسلسلة هذه المنخفضات عدد من العيون العذبة، والتي يعتمد على مياهها السكان المحليون في الشرب والزراعة المحدودة، وبعض هذه العيون حارة وبها نسبة عالية من أملاح المغنسيوم والجير.[١]

وتتكون سلسلة هذه المنخفضات من مجموعة متفرقة من الأحواض، تفصل بعضها عن بعض التلال الرملية، وتشرف عليها من الناحية الشمالية حافة تتكون من طبقات من الصخور الرسوبية الأفقية شديدة الانحدار، ويتخللها مجموعة من الأودية العميقة نسبياً، وتحدها من ناحية الجنوب الكثبان الرملية، وبعض بقايا التكوينات الصخرية التي تظهر على هيئة تلال منعزلة[٢].

وتعد أرض واحة جغبوب، موضوع الدراسة، واحدة من أحواض هذه المنخفضات، وهي تقع على بعد حوالي ٢١٣ كيلو متراً جنوب غرب مدينة السلوم، وتبلغ المساحة الكلية لهذه الواحة نحو ٧ كيلو مترات مربعة، وفي قرية الجغبوب حدائق جميلة وخاصة من ناحية الشرق، وهناك بعض الحدائق الآخري المتفرقة والواقعة بين منازل هذ البلدة، كما أن بها زاوية وجامع السيد السنوسي الكبير، مؤسس الطريقة السنوسية، ويتجه إليه بالزيارة كثير من الناس من أهل هذه الطريقة، وكل الدروب والمسالك، الموصلة إلى هذه الواحة، تحمل اسم مسرب الإخوان نسبة إلى السنوسيين، وهي مركز مهم لعدد من القبائل، ومياهها متوسطة وصالحة للشرب.

ومن الجدير بالذكر أنه: في زمن سلاطين المماليك؛ قام عدد منهم بتوطين بعض قبائل الصحراء الليبية على حدود مصر الغربية بهدف: الحد من غارات القبائل الأخري القادمة من عمق الصحاري الليبية علي التخوم المصرية، وحصر أعمال الشغب، وإحكام السيطرة على هذه الحدود الطويلة. وقد اتخذت عدد من السلطات المصرية المتعاقبة نفس

هذه الإجراءات، كلما شعرت بالتهديد القادم من عمق الصحراء علي تخوم مصر الغربية، كما اهتموا بمساواة المهاجرين الليبيين من القبائل المختلفة، الذين إستوطنوا الواحات الحدودية، بأبناء مصر من سكان هذه التخوم. ومن الثابت تاريخياً أنه عندما تعرضت مصر للحملة الفرنسية؛ كان لسكان منطقة درنة الليبية، وسكان واحة جغبوب بصفة خاصة، موقف مساند للمصريين في مواجهة هذه الحملة، إذ خرجت حملة ليبية شعبية من منطقة درنة وواحة جغبوب، لكي تناصر ثورات المصريين ضد القوات الفرنسية.

لكن العلاقات البدوية المتذبذبة، علي الحدود الغربية لمصر، ظلت من بين العوامل السياسية بل أهمها تأثيراً، وانعكاسها علي صعوبة تحديد شكل خريطة حدود مصرالغربية. كما ظلت غارات بعض هؤلاء البدو تشكل خطراً بالغاً علي استقرار هذه الحدود، وكثيراً ما تعرضت قوافل التجارة بين الجانبين، في منطقة الحدود هذه لعمليات النهب والسطو[٣].

وفي عصر محمد سعيد باشا: استوطن واحة جغبوب عدد من اتباع الحركة السنوسية، وهي حركة دينة سياسة، أسسها سيدي محمد بن علي السنوسي في عام ١٨٣٥ تقريباً. ولد محمد السنوسي في مستغانم في الجزائر في آواخر القرن الثامن عشر، وعندما حج الي مكة أقام فيها فترة من الوقت، وأصبح خلال فترة إقامته هذه مؤيداً لزعيم الفرقة القادرية في مكة. وبعد وفاة مؤسس هذه الفرقة القادرية وإنقسام أنصارها، أصبح محمد بن علي السنوسي، لتفوقه في علوم الدين، زعيماً لجماعة منهم، وبني أول زاوية له علي جبل أبو قبيس بالقرب من مكة، ثم غادرها في وقت لاحق متوجهاً إلي منطقة برقة الليبية، وبنى بأحد نجوعها ما عُرف بالزاوية البيضاء، لكي يحتمي بها وأنصاره من أي عمل قد يقوم به العثمانيون ضده. ثم غير مقره فجأة إلي واحة جغبوب التي تتميز بموقعها الفريد، وظل بها حتى توفي ودفن فيها عام ١٨٥٩. وتابع خلفائه نشر دعوته بين السكان المحليين، حتي أصبحت الحركة السنوسية، مع نهاية القرن التاسع عشر، ذات شعبية كبيرة في منطقة برقة ، بل أصبحت - وبرغم وجود حركات دينية أخرى - الأكثر أهمية بين سكان الصحراء الغربية الكبري، خاصة وأن أغلب الحركات الدينية الأخرى كانت تركز نشاطها علي سكان المدن، في حين كانت الحركة السنوسية تنتشر وتتوسع بين سكان القرى والواحات وقبائل هذه الصحراء[٤].

وعلاوة علي موقع واحة جغبوب الجغرافي، كان من أسباب انتقال السنوسيين إليها، وجعلها في - وقت مبكر من نشاطهم - مركزاً لحركتهم هو:

١ - بعدها عن أيدي السلطات العثمانية، التي بدأت في ذلك الوقت تنظر إلي الحركة السنوسية بعين الشك.

٢ - رغبة السنوسيين في نشر دعوتهم بين سكان هذه الواحة والواحات القريبة منها.

٣ - الابتعاد عن المناطق التي انتشر فيها آنذاك مرض الطاعون مثل: ساحل برقة والجبل الأخضر[٥].

وتعود أولي محاولات ترسيم خط الحدود، بين مصر والأراضي الليبية، الي الفرمان الذي منحه السلطان العثماني لمحمد علي طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠، والذي تولي بموجبه محمد علي باشا حكم مصر هو وورثته في نطاق حدودها القديمة، ووفقاً لما هو موضح في الخريطة الملحقة بهذا الفرمان. وبعد أن تم لبريطانيا احتلال مصر في عام ١٨٨٢، وبناءً علي طلب من الحكومة البريطانية، بدأت كل من السلطات الإنجليزية والتركية في التفاوض بينهما، بهدف ترسيم الحدود الغربية لمصر، وذلك في أعقاب خلافات شديدة في وجهات النظر نشبت بين الجانبين منذ عام ١٩٠٣، وخاصة عندما طالبت تركيا آنذاك بأن تمد سيادتها في الأراضي المصرية حتي مرسي علم، في حين تمسكت بريطانيا بتبعية كامل جبل السلوم لمصر طبقاً لمعاهدة ١٨٤٠. ولقوة نفوذ إنجلترا الدولي وحاجة الدولة العثمانية لمساندتها في مواجهة الطامعين الآخرين في أملاكها، قبلت الحكومة العثمانية بوجهة النظر البريطانية في هذه المفاوضات، التي انتهت بين الجانبين بتوقيع اتفاقية في عام ١٩٠٤، اعترفت فيها تركيا بأن جبل السلوم ضمن الأراضي المصرية، بناءً علي هذا اضطرت السلطات العثمانية في ليبيا، عام ١٩٠٧، الي سحب كل المخافر والنقاط العسكرية التي أقامتها شرق السلوم[٦] . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تشمل واحة جغبوب أو كل حدود مصر الغربية، بل اقتصرت علي الجزء الشمالي من هذ الحدود، وعلي وجه التحديد منطقة السلوم.

ومنذ وقوع الاحتلال الإيطالي لليبيا: تحولت الحركة السنوسية من حركة دينية دعوية بحتة، الي حركة جهادية أيضاً، تسعي الي طرد الإيطاليين، وأصبحت الواحات الداخلية والحدودية تمثل الملاذ الآمن لهؤلاء الجهاديين. ومع قيام الحرب العلمية الأولي، وانضمام إيطاليا لصف إنجلترا في هذه الحرب، ظهر العديد من المشاكل علي الحدود المصرية الليبية، وامتدت المناوشات بين السنوسيين والإيطاليين الي أطراف هذه الحدود، بل وتكررت المناوشات بين قوات السيد أحمد الشريف والقوات الإنجليزية، بين جانبي هذه الحدود. وكان السيد أحمد الشريف مدفوعاً في هذا من جانب الألمان، لإثارة القلاقل ضد الوجود الإنجليزي في مصر.

ومع احتدام معارك الحرب العالمية الأولي، بين دول الوسط بقياد ألمانيا ودول الوفاق بقيادة إنجلترا، أخذ الساسة الإنجليز يفكرون في محاولة استمالة أحمد الشريف لجانبهم، عن طريق السماح له بأن يمد نفوذه علي بعض واحات الصحراء الغربية، وهي وعود شفهية لم ترق الي الإقرار الرسمي من جانب الإنجليز له بملكية هذه الواحات، كما أنها جاءت تحت ضغوط الحرب، ومن الإجراءات التي أضطرت اليها الحكومة البريطانية لإعادة ترتيب أوراقها، في مواجهة تفوق الألمان في سنوات الحرب الأولي، وحتي دون أن يلتفت إليها السيد أحمد الشريف نفسة[٧].

وإستمر أحمد الشريف، بحكم ميوله العثمانية، في التعاون مع الأتراك والألمان ضد الإنجليز، الذين إشتدت عداوته لهم بعد أن انضمت إيطاليا اليهم رسميا في تلك الحرب.

وكثيراً ما طالبت السلطات البريطانية من أحمد الشريف أن يقف علي الحياد، في ذلك الصراع الدائر بين دول الوسط (ألمانيا وحلفائها) ودول الوفاق - الحلفاء فيما بعد - (بريطانيا وحلفائها). ثم قامت هذه السلطات، وبالتنسيق مع الإيطاليين، بشن حملة عسكرية واسعة علي قوات السيد أحمد الشريف إنتهت بهزيمتة وتشتيت قواته، وعلي آثر ذلك توقفت، لفترة من الوقت، حركة الجهاد الليبي من جانب السنوسيين ضد إيطاليا في منطقة برقة[٨].

ولعب الإنجليز والإيطاليون لعبة آخري لشق صفوف السنوسيين، وإضعاف شوكة السيد أحمد الشريف، حين قرروا وبالتنسيق بينهما التصالح مع أحد زعماء الحركة السنوسية، وهو السيد إدريس السنوسي، في أثناء زيارة له في مصر في أوائل عام ١٩١٦، وبالفعل نجحت السلطات الإنجليزية في إقناع إدريس السنوسي بجدوي الصلح، وإستمالته الي جانبها. ومن أجل إخماد الحروب الحدودية التي تشنها القوات التابعة لأحمد الشريف، تفاوض الإنجليز مع السيد إدريس السنوسي طوال النصف الأول من عام ١٩١٦، حتي انتهت هذه المفوضات، في ٢٥ يوليو ١٩١٦، بتوقع إدريس السنوسي والبريطانيين علي اتفاق، تلخص فيما يلي:

(١) فتح طريق التجارة عند السلوم واتخاذ ميناء السلوم مركزا للتبادل التجاري، علي أن يكون طريق الإسكندرية - السلوم الطريق الوحيد الذي تمر منه السلع إلي برقة.
(٢) أن يكف السنوسيون عن إنشاء زوايا لهم في الأراضي المصرية، حتي وإن كان غرضهم جمع التبرعات من المصريين المنتمين إلي المذهب السنوسي.
(٣) أن يتولي السيد إدريس السنوسي، بطريق الوكالة، إدارة واحة جغبوب الداخلة في الأراضي المصرية.
(٤) أن يقوم إدريس السنوسي بإبعاد ما اسماهم هذا الإتفاق بالمفسدين والعابثين بالأمن، ومحدثي الشغب والقلاقل، والذين كانوا يكدرون صفو العلاقات بين الشعبين المصري والليبي في جغبوب، وأن لا يسمح السيد إدريس السنوسي لأي من إنصار الحركة السنوسية بالإقامة في سيوة، أو الدخول من آي جهة أخرى الي الأراضي المصرية، وأن يتعهد بالمحافظة علي الأمن والنظام علي الحدود.
(٥) أن تسمح السلطات البريطانية للسنوسيين التابعين للسيد إدريس السنوسي، بالحصول علي المؤن الغذائية والغلال من مصر.

وبهذا الاتفاق زال شبح المجاعة عن السنوسيون، وعاد الهدوء إلي حدود مصرية الغربية، حتي جرت المفاوضات الإنجليزية الإيطالية حول تعديل هذه الحدود في وقت لاحق. وفي الحقيقة: علينا أن ننظر الي هذه المفاوضات التي جرت بين السيد إدريس السنوسي والإنجليز، من منظور توازنات الحرب العالمية الأولي، وخاصة بعد أن نجح الحلفاء في ضم إيطاليا إلي صفوفهم في هذه الحرب، بموجب معاهدة لندن ٢٦ إبريل

١٩١٥، والتي وافق الحلفاء بموجبها علي أن تنقل إلي إيطاليا جميع الحقوق والامتيازات المخولة للدولة العثمانية في الأراضي الليبية، وهذا كان يعني أن يتعهد الحلفاء، في حالة الانتصار، علي دول الوسط بتثبيت قدم إيطاليا في كامل الأراضي الليبية التي كانت تحت السيدة العثمانية.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولي، وبرغم أن إيطاليا لم تقم بدور حاسم فيها، فقد ثبتت من أقدامها بالفعل في ليبيا، بل وتطلعت أيضاً الي تثبيت ما حصل عليه السيد إدريس السنوسي من الإنجليز، في واحة جغبوب، من وضع خاص إبان تلك الحرب. علاوة علي هذا أخذت إيطاليا تخطط لمفاوضة الإنجليز حول تعديل الحدود المصرية الليبية لمصلحتها، وإخضاع أراض جديدة لنفوذها في السلوم، وفي الواحات الواقعة علي أطراف هذه الحدود.[٩]

ومن الواضح أن مخطط إيطاليا الحربي والسياسي كان قد إعتمد منذ بداية غزوها للأراضي الليبية علي ضرورة سيطرة قواتها العسكرية علي مناطق الحدود الغربية والشرقية من ليبيا. ويتضح ذلك بشكل بين منذ حرص هذه القوات علي النزول بطبرق وساحل زواره، خلال المراحل الأولي للحملة علي ليبيا عام ١٩١١، وذلك للسببين التاليين:-

(١) تأكيد مبدأ السيادة الإيطالية علي هذه المناطق والمبادرة بالسيطرة عليها قبل قيام أي نزاع أو تنافس دولي حولها.

(٢) التحكم في هذه المناطق الحدودية لمنع تسرب الأسلحة والإمدادات إلي المجاهدين. والتطويق العسكرى المستمر لها، وعزل حركة المقاومة ضدها داخل الصحراء، وبعيداً عن مناطق تمركز المستوطنين الإيطاليين في الساحل.

كما كانت الحكومات الإيطالية، ومنذ نجاحها في إحتلال ليبيا، تري أن من حقها إدخال السلوم وجغبوب، وغيرها من مناطق الحدود المصرية الليبية، ضمن نفوذها. وتحت ضغط الوجود العسكرى الإيطالي المكثف، في منطقة برقة وعلي الحدود المصرية الليبية، اضطر المندوب السامي البريطاني كتشنر، الي الإعتراف للسلطات الإيطالية بخروج منطقة بردية الحدودية من السيادة المصرية، لكنه وقف بقوة في وجه أطماع إيطاليا في منطقة السلوم.

عندئذ اقترحت الحكومة البريطانية علي إيطاليا الدخول في مفاوضات بين الجانبين، من أجل التوصل لاتفاق حول ترميم الحدود الأراضي المصرية الليبية. وفي الحقيقة، وفي ضوء المواءمات والتسويات الإستعمارية الجارية آنذاك، كانت بريطانيا علي استعداد للتنازل عن جغبوب، في مقابل تمسكها بالسلوم ضمن الأراضي المصرية. فالسلوم كانت محطة هامة علي طريق القوافل التجارية والذي يقود الي واحة سيوة، والي واحة الكفرة حيث يتمركز أنصار الحركة السنوسية[١٠]. في حين وجهت إيطاليا اهتمامها إلي واحة جغبوب منذ البداية لكونها مركزاً دينياً مهما من الناحية المعنوية لكثير من السنوسيين، وخاصة أثناء تصاعد حركة الجهاد في الجبل الأخضر ضد القوات الإيطالية[١١].

وفي تلك الأثناء كانت إيطاليا تحاول التوسع في الحبشة والصومال، وقد أدي هذا النشاط الإيطالي المحموم في أفريقيا، الي تخوف الحكومة البريطانية من عدم اعتراف إيطاليا بوقوع مصر تحت نفوذها، ومن ثم مناوئتها لها، أو انضمام إيطاليا الي الدول الأوربية المناوئة، بصفة عامة، للوجود الإنجليزي في مصر، وهذا يفسر لنا لماذا أبدت السلطات البريطانية رغبتها في الدخول مع الجانب الإيطالي في مفاوضات ترسيم حدود مصر الغربية، وفي نفس الوقت أبدت استعداها في هذه المفاوضات للتنازل عن واحة جغبوب، خلال ما عُرف بعد ذلك بمشروع ملنر – شلويا ١٩٢٠.[١٢]

وقد بدأت هذه المفاوضات في أعقاب الحرب العالمية الأولي، وضمن التسويات التي تمخضت عنها تلك الحرب، وبعد رسالة بعث بها، في إبريل ١٩٢٠، السير سبرلنج أحد كبار موظفي الخارجية البريطانية، إلي باكاري (من رجالات الحكومة الإيطالية)، اقترح عليه فيها الدخول في مفاوضات سرية، لوضع نهاية لأزمة الحدود المصرية الليبية. وطالب سبرلنج في رسالته السلطات الإيطالية بان تعترف بأن الحكومة المصرية لها مصلحة أساسية في تطوير ميناء السلوم، واقترح بناءً علي ذلك أن يبدأ خط الحدود بين الجانبين من أكثر المعالم ملائمة ووضوحاً علي شاطئ البحر المتوسط، عند النقطة التي تقع في منتصف المسافة بين السلوم وبردية، علي مسافة ١٠ كيلو مترات شرقاً من السلوم، وأن يستمر تعيين هذا الخط بالتالي في الاتجاه الجنوبي حتى ما يعرف بممر مسرب شفزرن، ماراً بسيدى عمر حتى بئر شقة ومنطقة النخيل، ويتوجه الخط بعد ذلك علي طول مسرب حتى مشارق واحة ملفا. ومن خلال هذا المقترح تكون واحة جغبوب قد دخلت في نطاق الأراضي الليبية.

وعلي أثر ذلك سافر وزير الخارجية الإيطالية إلي لندن، للتعجيل بإتمام الاتفاق مع ملنر، لكن استقالة هذا الوزير الإيطالي المفاجئة، في ٢٠من يونيو ١٩٢٠، أدت إلي توقف التوقيع علي مشروع الاتفاق، بل رفضته الحكومة الإيطالية التالية، التي أعلنت عن رغبتها في الحصول علي مساحات آخري من الأراضي الحدودية مع مصر، كما طالبت ببعض الإيضاحات حول الآبار والمراعي الواقعة علي هذه الحدود[١٣].

ومع نهاية الحماية البريطانية علي مصر، وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أصبح إقرار مشروع إتفاقية ترسيم الحدود المصرية الليبية، من الناحية الظاهرية، في يد الحكومة المصرية، ولكن من الناحية العملية في يد السلطات الإنجليزية. وبناءً علي ذلك قام وزير خارجية إيطاليا، في ١٤ إبريل ١٩٢٤، بتوقيع اتفاق مع أحمد خشبة باشا وزير خارجية مصر، يقضي بإبعاد القوي الوطنية المصرية عن التدخل في شئون ليبيا، والتوقف عن مساندتها للقوي الوطنية الليبية المناهضة للإيطاليين[١٤].

في هذه الأثناء قام موسوليني بمقابلة شمبرلين وزير خارجية بريطانية، ونقل اليه غضبه الشديد من الحكومة المصرية، وخاصة رئيسها سعد زغلول، لأنه يؤجل إتمام اتفاق الحدود، ولأنه عاد من رحلته في أوربا إلي مصر دون المرور علي روما، كما أعلن موسوليني أنه لو فشلت المفاوضات سيحتل جغبوب بالقوة. وفي هذه الأثناء اغتيل السير

لي ستاك سردار الجيش المصري، واضطربت علاقة حزب الوفد مع بريطانيا، وأعلن سعد زغلول استقالة وزارته.

ومن جانبه صرح ثروت باشا بأن مصر ليست مقيدة بمفاوضات لندن وروما السابقة، حول ترسيم حدود مصر الغربية؛ علي أساس أن مصر لم يكن لها دخل في هذه المفاوضات ، وعلي إثر ذلك قرر مجلس الوزراء، في ١٣سبتمبر ١٩٢٤، تقوية الحامية العسكرية بواحة سيوة. وردت إيطاليا علي ذلك في يناير ١٩٢٥، بأن حشدت قوات عسكرية كبيرة في منطقة بردية القريبة من السلوم، وعندما استفسرت الحكومة المصرية عن سبب هذه الحشود، ردت الحكومة الإيطالية بأنه إجراء احتياطي، وموجه ضد المناهضين الليبيين لها، والذين ينطلقون من الواحات المنتشرة علي الحدود المصري الليبية.

ويبدو أن الحكومة الإنجليزية تخوفت آنذاك من أن يمتد تحرك الجيش الإيطالي الي منطقة السلوم وغيرها من المناطق المصرية الحدودية، وتجد نفسها في مواجهة غير مستعدة لها مع إيطاليا ، ولذلك قام اللورد اللنبي، في مارس ١٩٢٥، بنقل نص المشروع الإنجليزي الإيطالي – الذي كان قد تم بلورته عام ١٩٢٠ – إلي عبد الخالق ثروت، لكي يسعي لتنفيذه مع الجانب الإيطالي. ونجح عبد الخالق ثروت في تأليف لجنة مشتركة بين الجانبين المصري والإيطالي، سميت بلجنة الحدود الغربية (المصرية الإيطالية المشتركة)، حيث تولي رآستها عن الجانب المصري إسماعيل صدقي باشا، وعن الجانب الإيطالي المركيز نجروتوكاميازو.

وقد توقفت المفاوضات، أكثر من مرة، بسبب اختلاف وجهتي النظر بين الجانبين المصري والإيطالي حول واحة جغبوب، التي تمسك بمصريتها إسماعيل صدقي باشا. ومن الغريب أن الإنجليز كانوا يدفعون المصريين للتنازل عن هذه الواحة للإيطاليين، وقد تحدث الجنرال اللنبي حول واحة جغبوب، وعن عدم قدرته علي إقناع أعضاء مجلس الوزراء المصري بأن جغبوب هذه تافهة ولا قيمة لها، وأنها من وجهة نظره (لا تساوي عظام بعير)، وطالب اللنبي السلطات الإنجليزية في مصر مناقشة هذا الموضوع مع صدقي باشا وزير الداخلية، الذي إعتبرة مؤهل أكثر منه شخصياً بإقناع زملائه داخل مجلس الوزراء المصري بالتساهل مع الجانب الإيطالي، لإتمام اتفاق ترسيم الحدود المصرية الليبية. وكان الجانب الإيطالي يتمسك بنصوص مشروع (ملنر – شالويا)، وأبدي مندوب إيطاليا رغبته في تنفيذ هذا المشروع، لكن الجانب المصري كان يعتبر ذلك المشروع لاغيا وغير ملزم له، علي اعتبار أنه تم بين الإنجليز والإيطاليين قبل حصول مصر علي إستقلالها، في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وصمم الوفد المصري علي أن واحة جغبوب ملك لمصر، في حين تمسك الجانب الإيطالي باعتبارها ملكا لإيطاليا، طبقاً لما جاء في مشروع ملنر – شالويا لعام ١٩٢٠.

ولحل قضية واحة جغبوب، طلب صدقي باشا، في منتصف ١٩٢٥، من هندرسون وزير خارجية بريطانيا استدعاء خبير مساحة من إحدي الدول المحايدة (السويد أو سويسرا) لدراسة مدي حاجة مصر من الناحية الدفاعية لهذه الواحة.

وعندما تولي تشمبرلن وزارة الخارجية البريطانية، شعر بشئ من الحيرة تجاه طلب إسماعيل صدقي لخبير مساحة من إحدي هذه الدول المحايدة، وتساءل عن جدوي هذا المطلب، وفيما إذا كان يعكس رغبة حقيقية لدي الحكومة المصرية في الحل، أم أنه مجرد مماطلة للتهرب من تحمل مسئولية الإقدام علي ترك واحة جغبوب للإيطاليين. ولما تعذر إحضار خبير مساحة من إحدي الدول المحايدة إستعانت الحكومة المصرية بخبير مساحة إنجليزي يدعي سنكس، الذي قدم في ١٤ أغسطس ١٩٢٥ الي الوفد المصري تقريراً عن نتائج عمل لجنته المساحية كان أهم ما جاء فيه، أن مفتاح الدفاع عن مصر، من جهة الغرب، يكمن في الاحتفاظ بالسلوم وليس بواحة جغبوب[١٥]. آي انه حمل نصيحة غير مباشرة للحكومة المصرية بالتنازل عن جعبوب للإيطاليين، وإنجاز الإتفاق معهم علي أساس مشروع ملنر – شالويا.

في حين أشار إسماعيل صدقي، في تقريره، الي أن "ترك جغبوب جرح للعزة القومية، ومصر تطالب بها لأنها من ضمن الأراضي المصرية، أما إيطاليا فتريدها لتضمها الي مستعمرتها فقط، كما أن لجنة سنكس اعترضت علي إعطاء بردية لمصر مقابل جغبوب. وأن لجغبوب أهمية دينية، حيث إنها مكان تقدسه طائفة كبيرة من المسلمين – السنوسيين – وإذا سقطت في يد الطليان اعتبر ذلك إسقاط لهذه الطائفة. كما أن لها أهمية حربية: فهي مفتاح غارات البدو علي مصر، وهي السبيل الوحيد للتمسك بواحة سيوة وهي في قبضة المصريين".[١٦]

ومن الواضح أن هم الوفد المصري الأكبر، في تلك المفاوضات مع الإيطاليين، انحصر في إبعاد الأطماع الإيطالية عن السلوم وعن الهضبة المحيطة بها، وخاصة بعد أن تمركزت قوات إيطالية في بردية الواقعة غرب السلوم. أما الوفد الإيطالي فكان همه الأول هو الاحتفاظ بواحة جغبوب، التي يوجد بها ضريح مؤسس الحركة السنوسية، والذي تنبعث منه – حسب وجهة نظرهم تعاليم متشددة ضد سياستهم في ليبيا، وتخلق لهم كثيرا من المشكلات.

كما كانت حجة الطليان، التي عبر عنها وفدهم في المحادثات المصرية الإيطالية، أنهم ورثة الأتراك في ولاية طرابلس، وأن واحة جغبوب داخلة ضمن هذه الولاية، بل إن بعض الكتب الجغرافية المقررة من مدارس وزارة المعارف المصرية نفسها، وضعت جغبوب داخلة ضمن هذه الولاية، وفي خريطة طرابلس، وأن تلك الكتب راجعتها لجان مصرية من هذه الوزارة واعتمدتها.[١٧]

وإزاء عدم قدرة اسماعيل صدقي علي تحمل المسئولية التاريخية تجاه الموافقة علي ترك واحة جغبوب الإيطاليين، علي الرغم أن مساحتها لا تزيد عن ٧ كيلو مترات مربعة،

فقد قرر الاستقالة من رئاسة اللجنة المصرية المشكلة لحل هذه القضية مع الجانب الإيطالي. لكن هندرسون رفض تأجيل المفاوضات بسبب استقالة صدقي، بل وطالبه بالإستمرار في رئاسة هذه اللجنة.

وفي غضون ذلك جري لقاء بين إسماعيل صدقي والسير لويد جورج، طالب فيه هذا الأخير صدقي بإظهار قدر من المرونة تجاه الإيطاليين، والاعتراف بأن واحة جغبوب تابعة لهم. وتحت ضغوط بريطانيا وجه عدد من وزراء الحكومة المصرية خطابات شخصية الي إسماعيل صدقي، أعلنوا فيها عن استعدادهم لتفويض صدقي باشا لتوقيع اتفاق ترسيم الحدود الغربية مع الإيطاليين علي أساس مشروع ملنر – شالويا، ويشرط إمداد السلوم بالمياه من بئر وادي الرملة داخل الأراضي الليبية.

لكن صدقي باشا ظل متردداً في الإقدام علي خطوة اعتراف بالتنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، وظل يناور حتي لا يظهر أمام الرأي العام بأنه وافق علي سلخ واحة جغبوب من السيادة المصرية، وقد غضب زيور باشا من تردد صدقي هذا، وأصدر تعليماته بالتوقيع العاجل علي الاتفاق المصري الإيطالي لترسيم الحدود الغربية[١٨].

وبالفعل في ٦ ديسمبر ١٩٢٥ أعلنت الحكومة المصرية عن موافقتها علي قبول مشروع ملنر – شالويا تحت مسمي "اتفاق الحدود الغربية"، الذي وقعه رئيس الحكومة المصرية زيور باشا عن مصر، أمام المركيز لازارو عن إيطاليا في ٢٦ ديسمبر ١٩٢٦، وهكذا قبلت حكومة أحمد زيور بناءً علي توجيهات بريطانيا، التنازل عن واحة جغبوب، وأن تدخل هذه الواحة ضمن نطاق أراضي برقة ليتمكن الطليان بذلك من احتلالها[١٩].

وتضمن هذا الاتفاق ما يلي[٢٠]:-

١ – يبدأ خط الحدود بين أراضي برقة الإيطالية والأراضي المصرية من نقطة الشاطئ شمال السلوم بمسافة تبعد ١٠ كيلو متر عن (بيكربرنت) ومنها يتجه بشكل قوس دائرة مركزها بيكربرنت ونصف قطرها ١٠كيلو مترات من النقط المذكورة حتى يلتقي بمسرب الشفرزن ومن هناك رأساً يتبع الخط من الغرب مارا بسيدي عمر وبئر شفرزن وبئر الشقة وهنا يترك الخط مسرب الشفرزن ويسير رأساً غربي طريق القوافل القديم الذي يتجه نحو الجهة المعروفة بملاذ (سيدي إبراهيم) ثم يتبعه غرباً مسرب الأجوان حتى ملتقي مسرب الفزات في الجهة المعروفة ومنها رأساً غربي مسرب الغرب يسير خط رأساً غربي مسرب المجروم حتي حد واحة ملقاة، حتي تدخل واحة الجغبوب تحت السيادة الإيطالية.

٢ – تعين سلطات لكل من الحكومتين في ظرف ٣ شهور لجنة مختلطة لتحدد خط الحدود علي الأرض ووضع العلامات الإرشادية الدالة علي ذلك.

٣ – تعهدت الحكومتان المصرية والإيطالية بضمان حرية مرور القوافل الإيطالية والمصرية المتوجهة من السلوم إلي الجغبوب وأن لا تدفع هذه القوافل أية رسوم أو ضرائب.

٥ – رغبة في توفير مياه الشرب لسكان السلوم، تتنازل إيطاليا عن بئر الرملة وعن المنطقة المحيطة به. على أن تلتزم الحكومة المصرية بتخصص مقدار كاف من مياه هذا البئر لسد حاجة السكان الإيطاليين في المناطق القريبة منه.

٦ – تعهد إيطاليا ومصر باتخاذ الوسائل اللازمة لمنع غارات البدو.

٧ –تعين الحكومتان لجنة مختلطة لتسوية:

أ- جنسية سكان المنطقة.

ب- رسوم المرعى والسقاية والبذر بما يتعلق بالسكان الرحل الذين ينتقلون على خط الحدود.

ت- النظام الجمركي للتجارة على قاعدة التساهل من الجانبين.

ث- المسائل القضائية الخاصة بالأشخاص الرحل لتقرير مقرات لمحاكمة الخارجين علي القانون من بين هؤلاء.

٨ – كل خلاف يقع في تطبيق هذا الاتفاق يعرض على لجنة تحكيم تؤلف من مندوبين عن الطرفين وتصدر القرارات بالأغلبية.

٩ – يعتمد الاتفاق ويكون تبادل الاعتماد بروما في أقرب وقت.

ومن المفارقات المثيرة للدهشة أن مشروع هذا الاتفاق عرض علي مجلس الوزراء المصري، وتمت الموافقة عليه في عهد وزارة صدقي نفسه عام ١٩٣٠، كما صدق عليه مجلس النواب المصري في جلسته في ٤ فبراير ١٩٣٢، واستغرق التصديق علية عقد ٤ جلسات استماع، وتحدث فيها بعض النواب بما يفيد أنه لم يسبق ان كان للحكومة المصرية الحق في واحة جغبوب طيلة عهد محمد علي. كما أن هذه الواحة ليس لها أهمية لمركز مصر الحربي لقلة مياهها، وانكشاف موقعها. وفي جلسة التصويت علي مشروع الاتفاق تم تأييده بأغلبية الأصوات (٩٠%) ضد ٤ أصوات. وأشارت بعض الأصوات المعارضة داخل مجلس النواب الي أنه توجد خطابات متبادلة بين السنوسيين والسلطات المصرية، يستدل منها على أن هؤلاء السنوسيين كانوا يديرون واحة جغبوب بتكليف من الحكومات المصرية.

ثم انتقل المشروع لمجلس الشيوخ لإقراره، وعُرض علي لجنة الشؤون الخارجية التي ناقشته خلال الفترة من ١٥ وحتي٢١ يونيو ١٩٣٢، وعهدت هذه اللجنة إلى أحمد نجيب براده بعمل تقرير حول مشروع هذا الإتفاق، كان أهم ما جاء فيه النقاط التالية:

١ – إن تخطيط الحدود يتم الاتفاق عليه للمودة بين الدولتين، ومحافظة على علاقات حسن الجوار.

٢ – قبلت إيطاليا أن تترك لمصر بئر الرملة حتي يتوفر الماء الكافي لعربان هذه المنطقة المصرية.

٣ – ما كانت المفاوضة بين لجنة الحدود المصرية، وبين اللجنة الإيطالية، تتم إلا علي أساس استبعاد جغبوب عن مصر، مهما قدمت الحكومة المصرية من التأكيدات واتخذت من التدابير.

وفي تقريرها أيضاً، أشارت لجنة أحمد نجيب براده الي أن المنطقة الواقعة علي الحدود، من جهة مصر وحتي برقة، لم يثبت أنها كانت خاضعة لسلطة والي طرابلس العثماني، ولا هي في نفس الوقت تحت الإدارة المصرية. كما أشار تقرير هذه اللجنة الي أن إنجلترا تجاهلت، عند تولية سمو الخديو عباس حلمي الثاني، أن تذكر في فرمان التولية أن مصر بحدودها هي نفسها المبينة في الخريطة السابق إرسالها مع فرمان توليه المغفور له محمد علي باشا عام ١٨٤٠. وفي ضوء هذا التقرير وافق مجلس الشيوخ، في جلسة ٢١ يونيو ١٩٣٢، علي هذه الاتفاقية، ومن ثم دخلت الي مجال التنفيذ من جانب الحكومة المصرية، في حين كانت السلطات الإيطالية في ليبيا تعمل بها علي الأرض منذ وقت طويل.

وإذا كانت بعض التقارير والأصوات المصرية، آنذاك، رأت عدم أهمية موقع واحة جغبوب الجغرافي والحربي لمصر، فإن السلطات الإيطالية في ليبيا كانت تري في هذا الموقع أهمية حربية وإستراتيجية قصوي، تعينها في القضاء علي حركات المقاومة الليبية المشتعلة ضدها، وذلك لأسباب عديدة منها:- أن واحة الجغبوب تعد المدخل الأهم لمنطقة برقة من ناحية مصر ومسيطرة علي القوافل. كما أنها مركزاً وسطاً لخطوط القوافل بين برقة ومصر والسودان. ومنها تستمد حركة المقاومة الليبية المؤن والسلاح والمال القادم من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي عن طريق مصر. كما رأت القيادة العسكرية الإيطالية في ليبيا، أن إخضاع واحة جغبوب لقبضة القوات الإيطالية سوف يساعد كثيراً في تطويق وإضعاف حركة عمر المختار، وعزلها في منطقة الجبل الأخضر(٢١).

ولذا، وقبل أن يتم إقرار الاتفاق، بين الجانبين المصري والإيطالي، علي تبعية واحة جغبوب لإيطاليا قررت السلطات الإيطالية في ليبيا، في صيف ١٩٢٦، احتلال هذه الواحة بحجة وقف تهريب الأسلحة الي المقاومين الليبين، وقاد حملة الاحتلال هذه الجنرال موميللي الذي نجح خلال زحف قواته في إتجاه واحة جغبوب، في إشغال قوات عمر المختار في معارك جانبية في أنحاء متفرقة من الجبل الأخضر حتي لا تذهب هذه القوات للدفاع عن هذه الواحة، وقد نجحت هذه المناورة الأمر الذي سهل لموميللي احتلال واحة جغبوب دون مقاومة، في فبراير ١٩٢٧(٢٢).

وكان سكان منطقة برقة من الليبيين يتخوفون من نتائج احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، حيث خشوا إنقطاع إتصالهم بمصر وتوقف حركة التجارة معها ومع السودان وقلب أفريقيا، ولذا وقبل تنفيذ تلك الحملة، حاول عدد من كبار هؤلاء السكان الإتصال بالسيد إدريس السنوسي، لكي يتدخل ويمارس نفوذه لدي السلطتين الإيطالية والإنجليزية، لوقف خطط احتلال جغبوب، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. كما أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت عجزت نتيجة لوقوعها تحت نفوذ الإنجليز، عن منع احتلال واحة جغبوب، بالرغم من أن كثيرا من المصريين كتبوا في جريدة الأهرام عدة مقالات، يندون فيها بالأعمال الوحشية التي تقوم بها القوات الإيطالية ضد إخوانهم الليبيين(٢٣).

وفي الحقيقة أوقع احتلال واحة جغبوب، من قبل القوات الإيطالية، ضربة قاصمة بهيبة الحركة السنوسية، التي كافحت طويلاً ضد هذه القوات في أنحاء الأراضي الليبية، كما تمكنت السلطات الإيطالية من إحكام قبضتها علي طول خط الحدود مع مصر. وبعد أسابيع قليلة من احتلال هذه الواحة، أقام الإيطاليون نقاط حراسة متعددة علي طول الخط الممتد من مساعد وحتي جغبوب، كما قام الجنرال سوميللي بحملات تطهير عديدة للتجمعات السكانية الواقعة علي هذا الخط، وأصبح في استطاعة القوات الإيطالية محاصرة وتجويع الأهالي، حتي يتوقفوا عن مساندة حركات المقاومة الليبية[٢٤].

أما عن ردود فعل حركات المقاومة الليبية تجاه احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، فقد طالب المجاهد عمر المختار القبائل الليبية بضرورة محاربة هذا الإحتلال، كما أصدر رضا السنوسي، من جالو، عدة نداءات إلى الزعماء المجاهدين، طالباً منهم عرقلة هذا المخطط الاستعماري تجاه الجغبوب. في حين أقام الإيطاليون الاحتفالات وأرسلت التهاني الي قادة هذه الحملة، لنجاحهم في تنفيذ خطة احتلال الجغبوب ومراقبة الحدود الليبية المصرية، والإيقاع بالمجاهدين الليبيين[٢٥].

ومن اللافت للنظر، في قضية واحة جغبوب، مدي ضيق كثير من المصريين من المصير الذي ألت اليه هذه الواحة، ونتائج هذا علي حركة الجهاد الليبية. فقد عبرت الصحف المصرية، وخاصة تلك المناهضة لما عُرف في التاريخ المصري المعاصر بوزارات القصر، في أكثر من موقف جام غضبها علي سياسة أحمد زيور تجاه قضية واحة جغبوب. كما انتقدت هذه الصحف بقوة سياسة إيطاليا، في إفريقيا بصفة عامة، وفي ليبيا بصفة خاصة. وكانت صورة إيطاليا في معظم هذه الصحف هي صورة الاستعماري الكريه، الذي يسعي لاستعمار بلدان قريبة لقلوب المصريين، سواء من خلال محاولة احتلاله لأريتريا أوالصومال، وهي بلدان كانت أجزاء من الإمبراطورية المصرية في عصر الخديو إسماعيل، او من خلال محاولته الفاشلة لاحتلال الحبشة التي منها يستمد نهر النيل معظم مياهه، ثم احتلاله عام ١٩١١ لليبيا هذا البلد المتاخم لحدود مصر الغربية. وتفسر لنا هذه الصورة القبيحة لإيطاليا، في عيون المصريين، تطوعهم في حركة المقاومة ضد الإحتلال الإيطالي لليبيا، وتقديم كافة أشكال المساندة للمجاهدين الليبيين، ووقوفهم موقفاً معادياً من إيطاليا، خلال الفترة بين عامي ١٩١١ – ١٩١٣، وسمحوا لحركات المقاومة، أن تتخذ من الأراضي المصرية ملاذاً آمناً لهم، وقاعدة ينطلقون منها لمقاومة هذا الاحتلال الإيطالي[٢٦].

وفي عام ١٩٢٦ وصفت صحيفة الأخبار أنباء تنازل حكومة زيور باشا عن واحة جغبوب؛ بأنه أشبه ببيع جلد الدب قبل صيده، وإعتبرته بيعاً شائناً، أقدمت عليه الوزارة الزيوارية، التي لم تخش الله ولا رهبة التاريخ، وأنه عار أحدثته الحكومة المتمدنة، في حين يقدم أبناء برقة الأبرار الأمجاد دليلاً جديداً للعالم، بأنهم لا يسلمون المدائن إلا علي الموت، وعلقت هذه الصحيفة علي ما آلت اليه قضية جغبوب بقولها:- " وهكذا يشاء القدر أن تذهب الجغبوب على النحو الذي قدره المستعمرون وأشياعهم"[٢٧].

وشنت جريدة البلاغ هجوماً قوياً علي وزارة أحمد زيور حيث كتبت تقول " أما البئر الذي يقولون عنه في السلوم فهي لا تفيدنا في شيء لأن ماؤه ملح لا يصلح للشرب ولا يعني شيئا للجيش المصري، ويؤكد جريمة الوزارة الخرفاء، لأنه يثبت عليها أنها قد تزلت عن حق المصريين وأخذت حقاً إيطالياً، ولو لم تكن جغبوب أرضاً مصرية لما كان هناك وجهة لطلب البدل مع إيطاليا، اما محور الخلاف فهو هل جغبوب أرض مصرية أم لا؟ فإذا ثبت أنها غير مصرية فلا معني كذلك للمطالبة بالبدل ولا موافقة إيطاليا، ونحن نسأل لماذا تعطينا إيطاليا بئر في جهة السلوم سواء كان ماؤه ملح أو عذب سواء كانت له فائدة مساوية للجغبوب أم تراها تعطينا البئر من أرضه لأنها تعتقد أن الجغبوب حق من حقوقنا، أم هي تعطينا أياه لأنها تعتقد أنها تطلب منا ما ليس لها بحق وأنها تعتمد على القوة لا على الحجة والبرهان، أما الوزارة التي فرطت في استقلال بلادها وحقوقها لا يكثر عليها أن تتنازل عن أي قطعة من أرضها وأن تكون دائماً عوناً للأجنبي على قومها، وعلى هذه القاعدة تخرج مصر خاسرة من كل، وتصبح وظيفة الوزارة المصرية أن تسهر على مطامع الإنجليز لا على حقوق المصريين(٢٨).

وعلقت مرة آخري جريدة البلاغ علي قضية واحة جغبوب، وعلى تصرفات الوزارة الزيورية بقولها:- " إن تصرف الحكومة لا يبرره عقل ولا يحله قانون وأن الحكومة الدستورية لا تمتلك أن تتنازل عن شيء من أملاك الدولة فما بالك بحكومة قد حكم عليها مجلس النواب وانتزع منها ثقته فأصبحت لا تمثل أشخاصاً، لعل الحكومة تستند إلى المادة ٤٦ من الدستور، ولكن هذه المادة تنص على أن معاهدات الصلح والتحالف والتجارة وجميع المعاهدات التي يترتب عليها أي تعديل لأراضي الدولة أو نقص من حقوق سيادتها أو تحميل حزاميها شيئاً من النفقات أو ما بين حقوق المصريين العامة والخاصة لا تكون نافذة إلا إذا وافق عليها البرلمان، وبما أن البرلمان أسقط هذه الوزارة في هذين التاريخين ١١/٢١ فكل عمل يأتيه لا يقره المجلس ولا يعترف بصحته، وبناء عليه أصبح كل اتفاق بين هذه الوزارة وبين الدول أطلال لا قيمة لها بقانون وقد أخبر المجلس سفرا الدول لذلك، أن حكومة الفوضى والثورة تريد أن تتوج مخالفتها لقوانين البلاد والدستور والحرية بعمل ترتاح له النفوس وتضطرب من القلوب تريد أن تنتهز فرص الفوضي والاضطراب الذي حل بالأفكار من جراء تصرفاتها، تريد وهي في النزاع أن تسلح واحة جغبوب من صلب الوطن وتهبها للطليان غنيمة بإرادتها فعلت ذلك، لابد من محاكمتها أمام مجلس الخصوص حتى تنال جزاء ما اقترفت يداها، أن المادة ٦٢ لا تحل الوزارة من المسئولية وإن تلك اللوم التي تريد أن تعطيها للحكومة الإيطالية ذات موقع حربي من الأهمية لمكانة وقد بين ذلك كثير من إخواننا الوطنيين فإذا سلمناها الدولة أجنبية فقد سلمنا مفاتيح حدودنا العربية وأصبحنا مهددين حتى عقر دارنا، ونكون قد أسأنا إلى إخواننا الوطنيين أكبر إساءة أن هذه الواحة كانت منبعاً للنهضة الوطنية والإسلامية وكل شمال إفريقيا فإذا سمحنا للإيطاليين بالوصول إليها كان جرمنا عظيماً أمام الوطن والتاريخ وأمام جيراننا

والعالم الشرقي أجمع، ان مصلحة بلادنا المحافظة على شرف الوطن وعدم تعكير الصلات الودية بيننا وبين ذلك الشعب الكريم الذي دافع عن حقوقه وحريته بكل بسالة»[٢٩].

ومرة آخري تكتب البلاغ تقول: "إن للجغبوب أهمية كبيرة فهي قلعة مصوبة إلى قلب الحدود المصرية ومركز ديني ذو أهمية عظمى بالنسبة للسنوسيين، فهل تقدر الوزارة معنى تصرفاتها هذه؟ هل تفهم أنها تفرط في أرض الوطن وأن مثلها مثل القائد الذي يسلم حصنه فيتخلى عنه ويتركه للعدو خيانة وغدرا؟ وهل تفهم الوزارة أن القائد الذي يفعل كل ذلك ينتهي بأن يحاكم، وأن يكون الحكم عليه صارماً، تظن أن الوزارة تفهم كل ذلك ولكنها تعتقد أن اليوم الذي يحاسبها فيه البرلمان لن يجئ لأن الأمة لن تسترد سلطاتها فليس لنا إلا أن نقول لها إنها مخطئة وأن يوم الأمة قريب وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون»[٣٠].

قد بين نص الاتفاق مقدار ما تنازلت مصر عنه ومبلغ ما تتبعه والشعوب لا تنظر إلى التنازل عن جزء محدود من أرضها نظرة رضى وهذا الشعور ممثل في الدستور المصري الذي حظر هذا التنازل في مادته الأولى التي قالت "ملكها لا يجزأ ولا يعزل عنه شيئاً) وقد أراد البعض أن يدافعوا عن هذه النظرية بقولهم إن إيطاليا دولة كبيرة لا يسع مصر أن تعاندها وأن في إرادتها احتلال الجغبوب عنوة وليس في وسع مصر أن تقاومها ومع أن التاريخ يمثل هذه الحوادث فإن الضمير العام لا يؤيدها، وكان رأينا في أول الأمر أن تبذل الهمة لحل الخلاف من دون نقل ملكية حرصاً على شعور الأمة المصرية وكان ردنا أن إيطاليا لا تطمع في الجغبوب لذاتها على كل حال ليست من الممتلكات التي فيها منافع اقتصادية وهي واحة صغيرة وإنما طالبت بها بحجة الرغبة في حماية حدودها من الذين يغيرون عليها من المصريين ورغبة مصر أيضاً في حماية حدودها لا تخشي مصر على حدودها من الاعتداء الإيطالي فقد رأينا والحالة هذه أن توجه الجهود من الجانبين إلى اتفاق يصون حدودها غير أن لمصر بعد هذا الاتفاق مرجعاً آخر وهو البرلمان فله الكلمة الأخيرة[٣١].

إن خسارة مصر بالتنازل عن هذه الواحة كبيرة من الجهة الأدبية باعتراف الجميع بالتنازل عن الجغبوب للطليان، ومن الجهة المادية باعتراف العسكريين والفنيين بأن تسليم الجغبوب الذي يعد بمثابة قلعة في مقدمة الحدود المصرية، فسواء أخذنا بالرأي الأول أو الثاني فالخسارة على مصر مادياً وأدبياً[٣٢].

إن تنازل مصر لإيطاليا عن هذه الواحة من قبيل أن تنال مصر استقلالها فأصبح تنازل مصر عنها معلقاً على شرف الدولة إذ الإنجليز هم الذين يصفون إرث محمد علي وخلفائه فإعطاء الجغبوب للإيطاليين ليس سوى شطر صغير من برنامج كبير وضعته السياسة الإنجليزية لتصفية جميع المسائل المصرية وإذا كنا قد عرفنا عن هذه التصفية شيئاً كثيراً من الآن فإنه ليحق لنا أن نقف متسائلين وبعد هذا كله ماذا تطلبون؟[٣٣].

تريد الوزارة أن توقع هذه المعاهدة وتحمل تبعيتها على التبعات الخطيرة وتريد أن تضيع حق مصر في الجغبوب، فتقول بلسان صحيفتها ومعلوم أنه مهما يكن الرأي في

الجغبوب وتبعيتها لمصر فإن الواقع أنه ليس لمصر في جغبوب لا إدارة ولا بوليس وهل تجنى منها ضرائب وهل كان لإيطاليا قضاء وبوليس وإدارة بل هل لمصر قضاء وبوليس وإدارة في كل جهات الصحراء الشرقية إن نية التسليم في جغبوب ظهرت في عهد الوزارة الحاضرة فإن هذه الوزارة لم تتكالب في الدفاع عنها أو أن تتظاهر بالرغبة في مناقشة الدعاوي الإيطالية.

يغني أن تسأل هنا ماذا أفادنا الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة ومن أين جاءنا الاعتداء على حدودنا إلا عن طريق هؤلاء المدافعين عنا فالإنجليز الذين احتفظوا بحق الدفاع عن مصر في ٢٨ فبراير فتحوا حدودنا الغربية لإيطاليا(٣٤).

إن زيور باشا لا يجهل أن لو امتنع عن النزول عن جغبوب لكان هذا الامتناع حائلاً بين إيطاليا وبين الطمع في تسامح الجمهور المصري إذا قامت تحتل جغبوب بالقوة في مثل هذه الحالة تعترف إيطاليا أن الوزارة وقد توكلت قيادة الامتناع من النزول لابد من أن يؤيدها الجمهور(٣٥).

لقد كان كل ما طلبه المصريون من زيور باشا وزملائه من مسألة الجغبوب ألا يوقعوا اتفاق يتضمن النزول عنها ولم يقتصر المصريون على هذا المطلب وحده عبثاً فهم يعرفون أن إنجلترا لا تزال قلقة على المركز الذي تطلبه لنفسها من مصر وتسعى لتسوية الاتفاق فإذا كان هذا موقف إنجلترا بالذات أفلا تكون هذا الحال أشد انطباقاً على إيطاليا في مسألة جغبوب، ولكن زيور باشا لم يتردد في مرضاة الإنجليز ومرضاة أغراضه الشخصية ومصلحة الغير وقد أثرت هذه المشكلة على كرامة المصريين(٣٦).

وقد احتجت اللجنة السعدية للسيدات على اعتداء الوزارة على الدستور بتنازلها عن واحة جغبوب لحكومة إيطاليا ذلك التنازل الذي لا يصبح الدستور فيه له أي سلطة حتى البرلمان نفسه يحرمه واللجنة بهذا الاحتجاج تسجل على الوزارة المعتدية جرماً جديداً وتعتبر إنجلترا مسئولة عن بتر أراضي مصر(٣٧).

إن الوزارة الجديدة تجاهلت وضعفت ضعفاً لم يسبق لغيرها أن حققته والغريب أن هذه الوزارة دستورية إذ أنها وليدة إرادة الأمة والأغلبية وهي تتجاهل أحكام الدستور، وتقول أن الوزارة الجديدة هي ربيبة فضائل سعد قد نسيت سعد وما ترك لها من خطط ومناهج تشير عليها أن سعد لم يكد يعلم أن جغبوب قد سقطت حتى ذهب من مرقده، وصرح بأن مصر لا يسعها أن تذعن لهذا وأن أهمية جغبوب ليست من الواجهة الدينية فقط بل من الواجهة العسكرية، وأنه يرى هذا الاتفاق مثلما يراه أي مصري(٣٨).

إن صيانة كرامة الأمة مهمة مفروضة على الزعماء في الظاهر ولكن ما هي قيمة إرادة الزعماء إذا لم تكن بإرادة الأمة كلها؟

لقد تناولت إحدى الصحف في روما هذه المسألة فقالت أن تفسير المندوبين المصريين للاتفاق يعد غريباً وأنه يجب أن يفهموا أن شروط الاتفاق تقيد الشعب نفسه لاسيما إذا كان داخلاً في الحياة الدولية بواسطة ممثله، ثم قالت إن إيطاليا لا تزال الراغبة

في إقامة العلاقات الودية في مجال الاقتصاد بينها وبين مصر ونحن نظن أن توقيع رئيس الوزراء يفيد الشعب المصري إلى الاعتراف باتفاق يهدد سلامة حدوده، فليس في وسع أحد أن يجهل أن اتفاق الجغبوب يعرض سلامة مصر على الخطر وأن كل تمسك من جانب المندوبين المصريين في هذه الدائرة إنما هو تمسك بحق مصر[٣٩].

وقد عابت بعض الصحف على تصرفات الوزارة في حقوق الشعب، أما واحة جغبوب فإن هذا الاتفاق باطل قانوناً ولا يحرم الواحة من تبنيها لمصر فستظل مصرية ديناً وخلقاً وطابعاً وإذا فصلتها القوة عن مصر فأرواح ساكنيها متصلة بها ومصر وأهلها معلقون بها وسيأتي يوم ويعود المستعمرون إلى عقر دارهم، وأما الوزارة فيكون موقفها عظيماً أمام الأمة المصرية ولن نتسامح معها فيما ارتكبته في حقنا[٤٠].

فلم يكن من الدستور ولا من الحكمة في شيء أن تتولى وزارة غير نيابية كالوزارات التي ألفها زيوار باشا منذ نوفمبر ١٩٢٤، أن خطأ الوزارة المصرية في توهمها بأن المفاوضات مع دولة أجنبية تعوضها شيئاً من كرامتها المسلوبة أو تسلي من كرامتها المسلوبة تسلي ذرة من منزلته المعلومة[٤١].

فنحن لا نريد أن نقيم حرباً حول القبة المقدسة في الجغبوب ولا يمكن أن نذود عن عيونها التابعة لنا، ولا أن نتخذ منها قلعة وهي الحصن الذي منحته الطبيعة لحدودنا الغربية، فكل ذلك إرادة إيطاليا وحليفتها إنما نحن نريد أمراً واحداً أن لا يكون مفتاح الأمن والسلام في يد دولة أجنبية، لا يمكن لأحد أن يتوقع مصير الصدام معها، إن هذه المسألة لا تهم أبناء مصر على السواء بل تهم الأجيال المقبلة، يدعي الطليان ملكية الجغبوب ثم لا يقيمون دليلاً غير دعوى ملكية الأتراك مورثيهم أرض برقة، وهم في هذه الدعوة لم يجدوا التاريخ معنياً فإن نفس الجغبوب حديثة الظهور بل هي أحدث من استقلال مصر على يد محمد علي[٤٢].

وقد روع الجمهور السكندري لنبأ توقيع المعاهدة التي تنازلت بمقتضاها الحكومة المصرية عن واحة جغبوب، وكأن الوزارة أرادت أن ترضي سادتها الإنجليز قد بادر الإيطاليون إلى احتلالها احتلال عسكري بجندهم وعساكرهم ومدافعهم وصارت قلعة حربية لهم ولنفرض أن البرلمان رفض التصديق على هذه الاتفاقية فكيف العمل إذا لاسترداد الجغبوب وقد حصنها الإيطاليون؟. أنعمد إلى إعلان حرب تفقد فيها الأموال والرجال وما لسنا في حاجة إلى فقده، لو أن الوزارة رفضت التصديق قائلة أن البلاد ليس فيها برلمان، هذا ما كنا نرجوه من هذه الوزارة الضعيفة التي سحبت منها الثقة وحكم عليها بالسقوط[٤٣].

أما عن موقف الصحف الأجنبية من تطور قضية واحة جغبوب فقد اختلف كثيراً عن الصحف المصرية. فقد أشارت جريدة روما في عدد ٧ ديسمبر ١٩٢٥ الي الاتفاق بين إيطاليا ومصر لترسيم الحدود بقولها: " إن المقامات الـ ياسية في مصر قد قابلت هذا الاتفاق بالارتياح، وهذا سيساعد على تعزيز العلاقات السياسية والتجارية بينهما وستستفيد الجالية الإيطالية هناك".

وقال جورنال دي إيطاليا " أن هذا الاتفاق يجعل لمصر مكانة دولية، وهذه أول مرة منذ شهر فبراير ١٩٢٢ تتفاوض مصر مع دولة أجنبية وتتفق معها على حل المسائل السياسية، وهذا يزيد مكانة مصر"(٤٤) .

أما جريدة التايمز اللندنية فقد كتبت في ديسمبر ١٩٢٥ تقول: " إن السلوم مهمة لأنها تستخدم محطة للطيران في طريقها إلي القاهرة، وتكون مخفراً أمامياً يستخدم لأغراض إدارية وعسكرية وبذلك تزداد قيمتها لمصر فالاتفاق الذي جاء في غاية العدل وكان الفضل الأعظم فيه لثلاثة من الرجال، وكان لابد لزيوار باشا من أنه يقف في وجهه المعارضة فكثير من الساسة المصريين المدفوعين بعاطفة وطنية خالية من التبصر أو بروح العداء لحكومة زيوار باشا تجاهلوا أن لم يكن لمصر أي نوع من السيطرة علي جغبوب وأن امتلاك إيطاليا لها أهم من امتلاك مصر لها(٤٥).

وسردت جريدة التايمز في مقال لها تاريخ مسألة جغبوب، وأشارت الي أن الفضل في هذا الإتفاق إنما يعود الي ما اتصف به زيور باشا من الحكمة والشجاعة، أما خط الحدود الجديد فكاد أن ينطبق علي الخط الذي وقع في اتفاق ملنر- شالويا، وليست جغبوب سوى واحة بسيطة ذات أهمية إستراتيجية ضعيفة، ولكن إيطاليات تمسك بها كل التمسك لأغراض حربية وسياسية(٤٦) .

ونشرت التيمز إيضاً: وصف لاحتلال الإيطاليين لواحة الجغبوب احتلال سلمياً والارتياح العظيم الذي لقيته تسوية مشكلة الحدود وقالت أنه صار يرجى الآن أن تقيد المساعي السنوسية تقيداً، وأن لهذا الاحتلال شأن عظيم ومن عوامل زيادة هيبة الإيطاليين.

ونشرت التايمز أيضاً تلغرافاً لمكاتبها في القاهرة تضمن نبذة عن الكتاب الأخضر الذي نشرته الحكومة المصرية، وأشار إلي الخارطة التي وضعت في عهد محمد علي، ونشرت في الكتاب المذكور تبين أن الجغبوب لم تكن داخلة ضمن الأراضي المصرية بمقتضي القرمان الصادر من الباب العالي لمحمد علي، لكن الجهات الرسمية المصرية أدخلتها في الأملاك المصرية بحث كرومر وكتشنر وتساهل الأتراك(٤٧).

وترجع مخاوف المصريين من الاحتلال الإيطالي لليبيا في الأصل الي اعتقادهم أن ليبيا لم تكن هي وحدها المستهدفة، علي الرغم من تصريح عدد من الصحف الإيطالية بأن الجيش لم يكن له منذ عام ١٩١١ أية مطامع في مصر، وأن إيطاليا لم تفكر في الإقدام علي أي عمل يهدد مصالح إنجلترا في مصر والسودان. وفي الحقيقة لم تأت مخاوف المصريين من فراغ، بل كانت لها ما يؤكدها علي أرض الواقع. ففي صيف ١٩٣٧، علي سبيل المثال، أخذت الأخبار تتحدث عن وجود حشود إيطالية الحدود المصرية، لكن الصحف الإيطالية نفت هذا الخبر في حينه. وأيضاً جريدة (الجورنالي دوريانتي) التي كانت تصدرها آنذاك الجالية الإيطالية في القاهرة كذبت ما نشرته الصحف المصرية حول هذه الحشود. وأكدت أن الأسلاك الشائكة التي تمتد علي الحدود بين مصر وليبيا من ساحل البحر إلي جغبوب أقيمت أثناء حكم المارشال جرازياني عام ١٩٣٣،

لمنع تهريب الأسلحة لتسهل إخماد حركة العصيان، لقد شعر الإيطاليون بأن المصريين علي بينة بما تنوي به إيطاليا، في هذا الوقت عرض إسماعيل صدقي اتفاقية تعقد بعدم الاعتداء مع إيطاليا، نظراً لما يتطلبه من نفقات كبيرة وعدم استطاعة الحكومة المصرية تقديم هذا لكن توتر العلاقات البريطانية أنهي هذا الاقتراح، لكن الوضع تدهور علي الحدود بعد فشل محادثات جنيف وبدأ الطرفان يتأهبان لمواجهة الطرف الأخر ١٩٣٧، لذلك أتخذت الحكومة المصرية احتياطها في تعزيز قوات مصرية علي الحدود .

في هذا الوقت وصلت أنباء إلي القاهرة تؤكد إن إيطاليا تقوم باجتذاب بدو الصحراء الغربية، وخاصة بعد أن عانوا في الشتاء السابق من الفقر والضنك، مما أقلق الحكومة المصرية والبريطانية الأمر الذي عبرت عنه جريدة (المانشستر جارديان) بقولها:- " تقرر إرسال قوات مصرية إلي مراكز حربية علي الحدود الليبية، وعد هذا الإجراء هو النذير الأول للصدام بين الطرفين في الصحراء الغربية "(٤٨).

ثم مرت سنوات الحرب العالمية الثانية، وجري فيها ما جري من حروب بين إنجلترا وإيطاليا علي الأراضي المصرية الليبية، الواقعة علي ساحل البحر المتوسط ودون أن تمتد الي واحة جغبوب، ودون حتي أن تفكر القوات الإنجليزية في استعادتها من يد الإيطاليين. وبعد توقف القتال في هذه الحرب طالبت مصر طبقاً لما نقلته جريدة (لموند) باستعادة واحة جغبوب، " لا من قبل التوسع الأقليمي بل تعديلاً للحدود، وهو تعديل يستند إلي حقوق تاريخية لا تحتمل النزاع".(٤٩)

وفي ٢ يناير ١٩٤٥ تقدمت مصر الي الحلفاء بمذكرة تطالب فيها بأن تمثل في أي مؤتمر صلح يعقد في المستقبل. ومع أن مصر لم تدع بصفة رسمية لأي من هذه المؤتمرات، فقد وعدها الحلفاء بالاستماع لوجهة نظرها. وقد تقدم ممثل مصر في مؤتمر باريس في ٢١ ديسمبر ١٩٤٦ ببيان عبر فيه بشكل خاص عن رغبة مصر في تعديل الحدود مصر الغربية بحيث تعود واحة جغبوب للسيادة المصرية.

وعندما عقدت الدول الأربعة الكبري إجتماعاً فيما بينهم في لندن، لبحث مصير المستعمرات الإيطالية في إفريقيا، تقدمت الحكومة المصرية بمذكرة، في ١٢ سبتمبر ١٩٤٥، عبرت فيها عن اهتمامها بليبيا وأريتريا، كما طالبت بوجوب استشارتها في حل مشكلة المستعمرات الإيطالية في أفريقيا وخاصة في مستقبل ليبيا، واقترحت أن يجرى استفتاء للسكان في ليبيا لتحديد موقفهم، وهل يفضلون الحصول علي الاستقلال أو الاتحاد مع مصر؟

وقد أشتركت مصر فعلاً في مؤتمر صلح مع إيطاليا، في ٢١ أغسطس ١٩٤٦، وطالبت فيه بتعديل الحدود مع ليبيا واستعادة الجغبوب، وتحريك خط الحدود في الجزء الشمالي من الغرب قبل استقلال ليبيا وإخضاعها لوصاية هيئة الأمم المتحدة، وأكدت مصر تبعية جغبوب لها عن طريق خرائط لعام ١٧٧٠ و ١٨٦٠، والتقارير الإيطالية ١٨٤٠-١٨٩٠، ووثائق المتحف البريطاني ١٨٦٦، وأيضاً موسوعة (دي سان مارتن)

الجغرافية التي تكشف أن هضبة السلوم بامتدادها من رأس المالح إلي بردية، تتبع مصر من قديم الزمان. (٥٠)

ومن المثير للغرابة، أن الحكومة الإيطالية بعد الحرب العالمية الثانية، علي إعتبار أنها أصبحت صديقة للحلفاء، طالبت بأن تدير شؤون ليبيا طبقاً لنظام الوصاية الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة ، لكن الدول العربية المستقلة آنذاك رفضت هذا المطلب، ووقفت جامعة الدول العربية بقوة تطالب بسرعة حصول ليبيا علي استقلالها عن إيطاليا عام ١٩٥١. ومنذ قيام المملكة الليبية توقف الحديث حول قضية جغبوب.

الخاتمـــة.

يتبين لنا، من خلال الدراسة، الأهمية الجغرافية لواحة جغبوب، التي تعتبر مفتاح سيوة من جهة الغرب . كما يتبين لنا أن المصالح الاستعمارية، لكل من إنجلترا وإيطاليا، هي التي أوجدت في حقل التاريخ الحديث والمعاصر قضية هذه الواحة، حيث كانت ضغوط إنجلترا ونفوذها علي الحكومات المصرية واضحة لا لبس فيها، حتي أذعنت حكومة أحمد زيور باشا، أواخر عام ١٩٢٦، وتنازلت لإيطاليا عن واحة جغبوب عندما كانت هذه الآخيرة قابضة علي زمام ليبيا. كما كشفت الدراسة عن أن إسماعيل صدقي، الذي يفتري عليه البعض، لم يكن في وسعه أن يتحمل المسئولية التاريخية المترتبة علي إبداء موافقته علي التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، ولذا رفض أن يوقع علي هذا التنازل، الآمر الذي قبله زيور باشا بسبب مصالح حزبية ضيقة.

كما يتضح لنا أن الرآي العام المصري والصحافة المصرية قد صبت جام غضبها في حينه علي الحكومة الزيورية لتنازلها عن واحة جغبوب لمصلحة إيطاليا. أما وعندما استقلت ليبيا وأصبحت هذه الواحة ضمن أراضيها فقد سكت هذا الرآي العام عن هذه المسألة، وذلك لشعور عربي أصيل يري أن هذه الواحة مازالت في الوطن العربي ولم تأخذها معها إيطاليا بعد أن غابت بلا رجعة شمس الإستعمار.

وآخيراً، أوضحت هذه الدراسة في ضوء مقالات الصحافة المصرية، الصادرة آنذاك، أن الحزن الذي عكسته هذه المقالات إنما مرجعه التخوف من حجم الضرر الذي أصاب حركة الجهاد الليبية، نتيجة التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا خلال فترة استعمارها لليبيا، حينما نجحت القوات الإيطالية في قطع طرق إمدادات المجاهدين الليبيين بعد تمركزها علي أرض هذه الواحة، منذ عام ١٩٢٧.

الهوامـــش

(١) إبراهيم أحمد رزقانه، محاضرات في جغرافية المملكة الليبية، ص١٢.

(٢) الهادي مصطفى أبو لقمة، الجماهيرية، دراسة في الجغرافيا، ص١١٩-١٢٠.

(٣) عبدالعظيم أحمد مهيده، مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣، ص١٣-١٥.

(٤) محمود العرفاوي، مخاض الأمبريالية والفاسية الإيطالية عسر ولادتها ودفنها في ليبيا، ص٧٠-٧٢.

(٥) سليمان محي الدين، السنوسية – العرابية – المهدية (دراسة مقارنة بينهم)، ص٣٢.

(٦) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص٣٥٥-٣٥٩.

(٧) مصطفى على هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، ص٥٩-٦٥.

(٨) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٩) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص١٠٨-١١١.

(١٠) غيروغ فون غرانفيتس، تاريخ الحرب الليبية الإيطالية، ص١٤٨-١٤٩.

(١١) خلفة محمد التليبسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١، ص٢٠٢.

(١٢) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص٣٤٦.

(١٣) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص١١١-١١٢، نفس المصدر السابق.

(١٤) نفس المصدر السابق.

(١٥) صفاء شاكر، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص٨٢-٨٣.

(١٦) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص١١٤-١١٥.

(١٧) إسماعيل صدقي، مذكراتي، ص٧٢-٧٤.

(١٨) صفاء شاكر ، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص٨٥-٨٧.

(١٩) يوسف سالم البرغثي، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢، ص١٢٥.

(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٣٠ وما بعدها.

(٢١) يوسف سالم، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧ – ١٩٣٢، ص****

(٢٢) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص١٣٦ – ١٣٧.

(٢٣) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة ١٩٢٧ – ١٩٣٤، ص١٤٣.

(٢٤) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص١٣٧ – ١٣٨.

(٢٥) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من ١٩٢٧-١٩٣٤، ص١٥٢-١٥٣.

(٢٦) الأهرام، يونان لبيب رزق، حرب الحبشة إيطاليا، العدد ٥٦٦، سنة ٢٠٠٤.
(٢٧) الأخبار، آخر الأخبار عن الجغبوب، العدد ١٧٨٨، سنة ١٩٢٦.
(٢٨) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٧، سنة ١٩٢٥.
(٢٩) البلاغ، الوزارة غير الشرعية، العدد ٨١٥، سنة ١٩٢٥.
(٣٠) البلاغ، مسألة الحدود الغربية (هل تقدر الوزارة المسئولية فيها، العدد ٨١٩، سنة ١٩٢٥.
(٣١) المقطم، واحة جغبوب وإمضاء الاتفاق على الحدود، العدد ١١١٨٢، سنة ١٩٢٥.
(٣٢) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجغبوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
(٣٣) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجغبوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
(٣٤) البلاغ، جريمة الجغبوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
(٣٥) البلاغ، جريمة الجغبوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
(٣٦) البلاغ، نزول الوزارة عن الجغبوب جريمة جديدة، العدد ٨٢١، سنة ١٩٢٥.
(٣٧) الأهرام، اللجنة السعدية للسيدات، العدد ١٤٨٥٩، سنة ١٩٢٥.
(٣٨) الدفاع الوطني، البيان الوزاري (الجغبوب)، العدد ٥٩٤، سنة ١٩٢٨.
(٣٩) وادي النيل، مسألة الحدود الغربية، العدد ٥١٧٧، سنة ١٩٢٦.
(٤٠) الأهرام، الأزمة الوزارية المصرية، العدد ١٤٨٥٧، سنة ١٩٢٥.
(٤١) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٦، سنة ١٩٢٥.
(٤٢) الأهرام، حول واحة جغبوب، العدد ١٤٨٥٥، سنة ١٩٢٥.
(٤٣) البلاغ، التنازل عن جغبوب صداه في الإسكندرية، العدد ٨٢٢، سنة ١٩٢٥.
(٤٤) الأهرام، تلغرافات خصوصية للأهرام، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
(٤٥) الأهرام ، عدد ١٤٨٦٠ لسنة ١٩٢٥.
(٤٦) نفس المصدر عدد ١٤٨٥٨ لسنة ١٩٢٥.
(٤٧) المقطم، عدد ١١٢٣٣ لسنة ١٩٢٦.
(٤٨) الأهرام، ثمن الصداقة والتحالف، يونان لبيب رزق، الحلقة ٦١٣، سنة ٢٠٠٥.
(٤٩) الدفاع الوطني، لماذا تطلب مصر الاشتراك في مؤتمر الصلح، العدد ٦٠٧٩، سنة ١٩٣٦.
(٥٠) حدود مصر الدولية، محمد محسن عبد الفتاح، ص٣٧٩-٣٨٠.

قائمة بأهم مصادر الدارسة

١- المذكرات:

اسماعيل صدقي: مذكراتي، تحقيق سامي أبو النور .

٢- الدوريات

الأهرام العربي: سامر المفتي (من زرزورا وزرزار إلي سيوة) مسلسل الواحات المفقودة، العدد ٢٨٢، ٢٠٠٢.

وادي النيل (يومية) أعداد عام ١٩٢٦.

الأهرام (يومية) : سنوات ١٩٢٥- ١٩٢٧ -١٩٣٢.

يونان لبيب رزق: ثمن الصداقة والتحالف/ حلقة ٦١٣ / السنة ٢٠٠٥، الأهرام.

يونان لبيب رزق: حرب الحبشة – إيطاليا/ حلقة ٥٦٦/ السنة ٢٠٠٤، الأهرام.

المقطم (يومية) : ١٩٢٦، ١٩٢٥.

الأخبار (يومية) : ١٩٢٦.

البلاغ يومية : سنوات: ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧.

٣ – المراجع العامة:

١- أنجيليو ديل بوكا: الإيطاليون في ليبيا، ترجمة محمود علي التائب.

٢- خليفة محمد التليسي: معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١.

٣- محمد رفعت عبد العزيز: العلاقات المصرية الليبية في النصف الأول من القرن ال٢٠ (١٩١١-١٩٥١) دكتوراه في الفلسفة ١٩٨٦.

٤- أحمد المهدى حمد: الحركة الوطنية خلال الفترة(١٩٣٢-١٩٤٢) ١٩٩٥.

٥- عبد العظيم أحمد حميدة: مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣ ، رسالة دكتوراه.

٦- محمد علي التركي: حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من بداية ١٩٢٤ -١٩٢٧.

٧- يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢.

٨- غيورغ فون غرنفيتس: تاريخ الحرب الليبية الإيطالية.

٩- سليمان محي الدين سليمان فتوح: دراسة مقارنة (السنوسية – العرابية- المهدية) في دور كل منهم في مقاومة الاستعمار.

١٠- أنجيلو بتشولي: إيطاليا وماوراء البحار- الجزء المتعلق بليبيا في الجانب العسكرى، ترجمة: عبد الرحمن العجيلي.

١١- المبروك علي الساعد: مقاومة الليبين للأحتلال الإيطالي ١٩٢٨- ١٩٢٩.

١٢- وليم س. أسكيو: أوربا والغزو الإيطالي لليبيا ١٩١١-١٩١٢، ترجمة: ميلاد المقرحى.

١٣- محمود العرفاوي: الإمبرياله والفاشية الإيطاليتين عمر ولادتهما ودفنها في ليبيا ١٨٨٢-١٩٤٢، ترجمة: عمر الطاهر.

١٤- الهادي مصطفي أبو لقمة وآخرون: الجماهيرية دراسة في الجغرافيا.

١٥- مصطفي علي هويدي: الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولي.

١٦- مجيد خدوري: ليبيا الحديثة (دراسة في تطورها السياسي)، ترجمة نقولا زيادة.
١٧- إبراهيم أحمد رزقانة: محاضرات في جغرافية المملكة الليبية.
١٩- صفاء شاكر: اسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية.
٢٠- أحمد محمد عبد الفتاح محسن: حدود مصر الدولية.

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادى والعشرون

أكتوبر ٢٠١٣ م



مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادي العشرون

أكتوبر ٢٠١٣م

جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحـاد المؤرخين العرب
مقر الأنشطة : ١٠ شارع فؤاد بدواني - الحي الثامن - مدينة نصر - القاهرة.
تليفون : ٢٢٨٧٠٠٩٠ فاكس : ٢٢٨٧٠٠٩١
E. Mail : arabhistoryso@hotmail.com

هـذه المجلـــة

١. مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٢. تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

٣. البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.

٤. تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.

٥. لا يزيد البحث المقدم للنشر عن خمسة وعشرون صفحة، مكتوب علي الكمبيوتر ويقدم من نسختين ورقيتين ونسخة أخري علي الاسطوانة CD.

٦. تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.

٧. يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.

٨. لا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٩. يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي، متبوعاً بإسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

١٠. ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.

١١. يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي :

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(ج) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، الجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.

* * *

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة الافتتـــاح

للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

يسعد اتحاد المؤرخين العرب أن يقدم لأعضائه ولجميع الباحثين في علم التاريخ عدده الجديد (الواحد والعشرون) من مجلة المؤرخ العربي التي يُصدرها الاتحاد كل عام. ويحـرص الاتحاد دائماً على الالتزام بمنظومة الحريات الأساسية في الفكر والرأي، مع الاحترام لحقـوق الإنسان وبخاصة للمرأة والطفل، والتأكيد دوماً على مبدأ التعددية في المجتمع واحترام الأديان السماوية كما أقرها ديننا الحنيف، واعتبار المواطنة مناط المسئولية، علـى أمـل أن يـسترد العرب مكانتهم التاريخية الرائدة، وما قدموه في مضمار الحضارة الإسلامية.

ولاشك إن مبادئ ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ وضعت على عـاتق المؤرخين مسئوليات عظام ومهام كبري تدفعنا إلى مواكبة حركة التغيير لتحقيق أهداف الثورة وبخاصة إذا علمنا أن تحديات القرن الحادي والعشرين ستكون حضارية علميـة تكنولوجيـة وليست تحديات حربية عسكرية.

ويحتوي هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي علـى مجموعـة متنوعـة مـن الدراسات التاريخية الجديدة تعرض موضوعات في مجالات التاريخ القديم والوسيط والإسلامي والحديث، كتبها مجموعة من صفوة الباحثين في التاريخ من مختلف الجامعات العربية ومراكز البحوث التاريخية في الوطن العربي، بهدف استشراف آفاق جديدة لتاريخ العرب عبر العصور.

ويرحب اتحاد المؤرخين العرب بالبحوث التاريخية المتميزة لنـشرها بعـد تحكيمهـا ضماناً للجودة. ويشترط في هذه البحوث الجدية والأصالة والموضوعية، كما يشترط ألا يكـون العمل المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية أخري، كما يناشد اتحاد المؤرخين العرب جميـع الباحثين في علم التاريخ موافاة هيئة تحرير مجلة (المؤرخ العربـي) بمقترحـاتهم وتقـارير الندوات والمؤتمرات التاريخية التي تعقد في جامعاتهم والمراكز العلمية المتخصصة. كما يرجو

الاتحاد موافاته بالسير الذاتية لأعضائه حتي يتسني تحقيق التواصل العلمي بينهم، وبعناوين أهم الإصدارات التاريخية في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث في بلادهم.

والله ولي التوفيق ،،،

أ.د. حسنين محمد ربيع
رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

عضو مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي المصري

كلمـــة التحريـــر

مجلة اتحاد المؤرخين العرب تدخل عاما جديدا نرجو أن تحمل لعالمنا العربي كل أمن وسلام وخير وتقدم، ومزيداً من الإتحاد وبُعداً عن الفرقة. واتحاد المؤرخين العرب يدخل فترة جديدة، فالمبني الجديد الخاص به أوشك علي الانتهاء، ولا يسعنا إلا شكر صاحب السمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة لرعايته للاتحاد وإقامة هذا المبنى المميز، حيث يضم مكتبة شاملة لتكون مصدراً ومرجعاً لرواده من المؤرخين والباحثين، ونأمل أن تثري هذه المكتبة بإهداءات من مؤلفات الزملاء أعضاء الاتحاد.

والعدد الحالي يقدم تنوعاً علمياً وفكرياً ومشاركة من العديد من باحثي وأعضاء الاتحاد. بعض تلك الدراسات عاد بنا إلي التاريخ القديم فهناك بحث في الدراسات الرومانية كبحث دكتور محمود أبو الحسن أحمد عن وظيفة الكومارخوس (العمدة) في مصر في العصر الروماني، ثم بحث آخر ينتقل بنا إلي الجزيرة العربية للدكتور أحمد بن عمر الزيلعي عن أسواق مكة المكرمة في عصري الجاهلية والإسلام، ثم نجوب الأقطار إلي الهند في بحث عن علاقة الهند بجنوب الجزيرة العربية من القرن الأول إلي القرن الثالث الميلادي، وموضوعات تناولت الجانب الحضاري فموضوع عن البحرية الإسلامية في عصر الدولة العربية الإسلامية، ونعود لمصر في وسائل الدعاية عند الفاطميين، ثم موضوعا يربط بين التاريخ والآثار عن الخنجر وتطور صناعة السلاح في الأندلس، وكذلك موضوع عن المدارس في أسيوط في عصر سلاطين المماليك، وموضوعات عرضت لإحدى دول المغول وأخري عرضت للأندلس في عصر بني الأحمر، ونختمها بدراسات التاريخ الحديث فبحث عن موقف ابن إياس من العثمانيين، وأخري تتناول نتائج الاستعمار البريطاني علي جنوب الجزيرة العربية، هذا التنوع بين الأزمنة والأمكنة يثري الدراسات التاريخية كعادة أبحاث المجلة. والمجلة معتمدة كمجلة دولية من المجلس الأعلى للجامعات، فهي لا تنشر إلا الأبحاث الجادة المحكمة من كبار أساتذة التخصص. ونأمل كالعادة أن توافونا بمقترحاتكم لتطوير المجلة.

والله الموفق

هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم

أ.د. عفاف سيد صبرة

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

وظيفة الكومارخوس (العمدة) في مصر في العصر الروماني
(دراسة في النظام الإداري للقرية المصرية)

د. محمود أبو الحسن أحمد (*)

يمكن القول بأن وظيفة الكومارخوس ظهرت بمصر في النقوش والوثائق البردية اليونانية منذ القرن الثالث ق.م وحتى القرن السادس الميلادي، وإن لم يكن بشكل متواصل خلال تلك الفترة الزمنية الطويلة. فكانت أول اشارة لهذه الوظيفة في العصر الروماني في منتصف القرن الثالث الميلادي وبالتحديد في عام ٢٤٧/٢٤٨م في وثيقة من إقليم أوكسيرنخوس(١)، ثم كانت الإشارة الثانية في وثيقة من قرية ثيادلفيا بالفيوم في عام ٢٥٠م – ٢٥٣ م(٢).

ويبدو أن ظهور وظيفة الكومارخوس مرة أخرى خلال القرن الثالث الميلادي بعد أن كانت موجودة خلال حكم البطالمة، يتماشي مع الإصلاحات الإدارية التي حدثت في عهد الإمبراطور فيليب العربي، حيث اختفت وظيفة كاتب القرية التي كانت معروفة من قبل ثم حلت وظيفة الكومارخوس بدلاً منها، فكانت أخر إشارة إليها في وثيقة من اوكسيرنخوس في عام ٢٤٥ م (P.Oxy,xLii,3047)، وفي إقليم أرسنوي اختفى موظف الأمفودرخ كوموجراماتيوس (amphodarch komgrammateus) فكانت أخر إشارة إلى هذا الموظف في عام ٢٢٩/٢٣٠ م (B.G.U , vii, 1634)(٣).

تعيين الكومارخوس :

كان تعيين الكومارخوس (عمدة القرية) في منتصف القرن الثالث الميلادي، يعد من اختصاص الإستراتيجوس (حاكم الإقليم) ، حيث كان كومارخوس القرية الذي شارفت مدة خدمته على نهايتها، يرفع تقريراً إلى الاستراتيجوس يوضح فيه أسماء الأشخاص المرشحين لتولي هذه الوظيفة بعد انتهاء فترة خدمته ، وكان لابد أن يتوافر فيهم عدة شروط أهمها: الصدق والأمانة وتحمل المسئولية، وكان من أول الوثائق التي أشارت إلى تعيين أحد الأفراد في وظيفة الكومارخوس في العصر الروماني، وثيقة من هيراكليوبوليس ترجع إلى عام ٢٤٨م نقرأ منها " إلى بروكليس procles استراتيجوس إقليم هيراكليوبوليس من اوريليوس هارمسيس Aurelius Harmasis من ....كومارخوس هذا المكان، على مسئوليتي و وفقاً لما هو متعارف عليه اخترت من يقوم بهذه المهمة للعام القادم ألا وهو: باكوس بن فيليب Pakoueis philppi وهو مؤهل لتولي أعباء هذه الوظيفة "(٤).

(*) مدرس بقسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر.

وفي بداية القرن الرابع الميلادي وبالتحديد عام ٣٠٧ م، ومع التغير الذي حدث في النظام الإداري في مصر، وهو ظهور الباجوس واختفاء التوبارخية من التقسيمات الإدارية داخل الإقليم، وما صاحب ذلك من ظهور وظيفة جديدة هي وظيفة حاكم الباجوس (المركز) Praepositus pagus والذي تمثلت مهمته في إدارة شئون المركز، ومنذ ذلك التاريخ أصبح تعيين الكومارخوس (عمدة القرية) من اختصاص هذا الموظف، وذلك من خلال تقرير يرفع إليه من كومارخوس القرية بالأسماء التي تم ترشيحها للوظيفة. فنقرأ في وثيقة من قرية كرانيس بالفيوم، ترجع إلى عام ٣٠٨م " إلى أوريليوس هيراكليدس حاكم الباجوس الخامس من أوريليوس إزيدورس سرابيون وأيون سيرون كومارخوي قرية كرانيس نعلمك ونقدم لك تقريراً عمن تم ترشيحهم لتولي منصب الكومارخوس للعام القادم وهم إزيدورس بن بطلميوس ويطلميوس بن باتيستيس "(٥).

ونقرأ في وثيقة أخرى ترجع إلى عام ٣٢٦م: من أوكسيرنخوس " إلى أوريليوس خايريمون حاكم الباجوس الثامن من أوريليوس بينيس بن ساكون وزيلوس بن ميلاس كومارخوي قرية ثيادلفيا فإنه نظراً لإستكمال مدتنا القانونية لهذا العام في وظيفة الكومارخوس نعلنك ونقدم إليك تقريراً على مسئوليتنا بخصوص اختيار من نرشحهم لشغل وظيفة الكومارخوس للعام الخامس عشر، وسوف تدرج أسماؤهم أسفل وهم من ذوي الأملاك ويتمتعون بالصدق والأمانة وقد قبلوا بالقيام بأعباء هذه الوظيفة(٦). وتفيد إشارة أخرى إلى تعيين الكومارخوس من قبل حاكم الباجوس ترجع إلى عام ٣٥٠م، في وثيقة من هرموبوليس نقرأ منها " إلى أوريليوس ديوكليس حاكم الباجوس الثاني عشر بالإقليم من أوريليوس بيسيس Aurelius Pusios وأوريليوس باسوتيس Aurelius pasotes والإثنان كومارخوي قرية أبيون Apion في الجزء الأعلى من الباجوس الذي هو تحت سلطتك، نخبرك ونعلمك بأسماء الأفراد الذين سوف يتولوا الوظائف الإلزامية للعام القادم ومنهم ديمتريوس بن بينوتينوس Demetrius pinoutions لوظيفة الكومارخوس"(٧).

وهكذا يتضح لنا من خلال العرض السابق: أن الاستراتيجوس (حاكم الإقليم) هو الذي كان يقوم بتعيين الكومارخوس وذلك بعد ترشيح من قبل كومارخوس القرية القائم بالعمل، ولكن مع بداية القرن الرابع وحدوث التغييرات الإدارية التي شهدتها مصر، وجدنا أن حاكم الباجوس (المركز) هو الذي كان يقوم بتعيين الكومارخوس، ويدل ذلك على أن الهدف من هذه التغييرات الإدارية، هو تقليص المركزية في النظام الإداري واعطاء حاكم الباجوس سلطات أكبر مما كانت عليه من قبل .

وفي الغالب الأعم كان منصب الكومارخوس يتولاه إثنان من الموظفين داخل كل قرية(٨)، أما في بعض الحالات النادرة فكان يتم تعيين موظف واحد لهذه الوظيفة، حيث أشارت إحدى الوثائق من إقليم هيراكليوبوليس ترجع إلى عام ٢٤٨م (P.Oxy,xvii,No.3178.) إلى تعيين موظف واحد لوظيفة الكومارخوس، بينما أكدت وثيقة من أوكسيرنخوس ترجع إلى نفس

الفترة تقريباً وبالتحديد في عام ٢٤٧م وجود إثنين من الكومارخوس يحكمان قرية نيمسيس Nesmimis بأوكسيرنخوس وهما : أوريليوس ديونيسيوس Aurelius Dionsios وديونيسيوس بن ديونيسيوس Dionysios Dionysio، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون زميله في الوظيفة لم يكن أنهى مدة خدمته(٩).

ومن الجدير بالذكر أن هناك بردية أشارت إلى تعيين ثلاثة أفراد في وظيفة الكومارخوس بقرية ميرميرثا بأوكسيرنخوس ترجع إلى عام ٣٤٦م نقرأ منها " أنه في السابع والعشرين من شهر توت تم إرسال رسالة إلى أوريليوس سارابامون بن أيولوجيوس Aurelius Sarapmon Aulogios حاكم الباجوس الأول بإقليم أوكسيرنخوس كلٌ من أوريليوس حورس بن هوريون Aurelius Horos Hrion وبانيخوتيس بن حورس وبطلميوس بن هرمياس، والثلاثة من قرية ميرميرثا وكومارخوي القرية(١٠).

بل يمكن القول أيضاً بأن هناك أربعة أفراد قد تولوا منصب الكومارخوس لقرية فيلادلفيا لعام ٣٤٧م وهم: " أوريليوس أمونيوس بن أكوسيس Aurelii Amonianos Ekysis و اللونيوس بن ثيوس Allonios thios وتيماجينيس أسيون Timaggenes Asion وأموس بن هاتريس mous Hatres (١١).

ولعل السبب وراء تولي أكثر من فرد لهذا المنصب، هو كثرة المهام والأعباء المتعلقة بهذه الوظيفة، فكل الأمور المرتبطة بالدولة داخل القرية كانت تسند إلى من يقوم بهذه الوظيفة، ولعل من يمعن النظر في فلسفة النظام الإداري للدولة الرومانية والحكم الروماني في مصر يجد أن هناك سبباً أخر في غاية الأهمية وهو أن الدولة الرومانية كانت تخشى أن ينفرد شخص واحد بإدارة هذه الحلقة الهامة والرئيسية داخل النظام الإداري، ويؤكد ذلك أن كل قرارات موظفي الكومارخوي كانت يجب أن تتم بالإجماع ولايحق لفرد واحد من بين المعينين بهذه الوظيفة أن يقوم بإصدار القرارت منفرداً.

وكان تعيين الكومارخوس يتم في معظم الأقاليم في شهر مسرى Mesori (أغسطس) قبل بداية شهر توت thoth (سبتمبر) بداية العام الجديد وفيما يلي عرض لبعض الوثائق التي توضح ذلك .

الوثيقة	التاريخ	اسم الموظف	المكان
p.Oxy. 2714	٢٩ أغسطس ٢٥٦م	أوريليوس اجونيس أوريليوس باتاوريس	أوكسيرنخوس
P.Oxy,.3178.	أغسطس ٢٤٨ م	باكوس بن فيليب	هيراكليوبوليس
p.cairo-Isid.125	١٦أغسطس ٣٠٨م	إزيدورس بن بطلميوس	كرانيس (أرسنوي)
P.Got. 5	١٩أغسطس ٣١٨م		
p.S.B.vi.9544	٢٤أغسطس ٣٢١م		بانوبوليس
P.sakon52	١٩ أغسطس ٣٢٦م	بينيس بن ساكون	ثيادلفيا

مـدة حكم الكومارخوس :

فيما يتعلق بمدة شغل الكومارخوس للوظيفة، في المعتاد كانت تستمر لمدة عام واحد، وإن كان هناك بعض الأفراد شغلوا المنصب لأكثر من عام وأكثر من مرة وفيما يلي عرض لبعض الوثائق :-

**** كومارخية قرية ثيادلفيا:**

المصدر	التاريخ	الاسم	العلاقة
P. Sakon, 58.	يوليو ٢٩٩	بايسيس ساتابوس	اخو ساكون
P. Sakon, 58.	يوليو ٢٩٩	أوريليوس ميلاس	ابن عم ساكون
P. Sakon,13.	٣٠٧/٣٠٦م	ساكون ساتابوس	
P. Sakon,18.	٣٠١٢/٣٠١١م	ساكون	
P. Sakon,51.	٣٢٤/٣٢٣م	ساكون	
P. Sakon,51.	٣٢٤/٣٢٣م	أوج بن ميلاس	ميلاس بن عم ساكون
P. Sakon,23.24.	٣٢٥/٣٢٤	ساكون	
P. Sakon,52.	٣٢٦/٣٢٥	بينيس	بن ساكون
P. Sakon,52.	٣٢٦/٣٢٥	زيلوس بن ميلاس	ميلاس بن عم ساكون
P. Sakon,52.	٣٢٧/٣٢٦	انطونيوس	بن ساكون
P. Sakon,52.	٣٢٧/٣٢٦	كونياس	بن ميلاس
P. Sakon,25.	٣٢٨/٣٢٧	بنياس	بن ساكون
P. Sakon,29.	نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع	بنياس	بن ساكون

**** كومارخية قرية فيلادلفيا:**

المصدر	التاريخ	الاسم	العلاقة
P. Gen,70.	٣٧٢م	أوريليوس أمونيوس	بن بكوسيس pekysis
P. Gen,66.	مايو ٣٧٤م	أوريليوس أمونيوس	بن بكوسيس
P. Gen,67.	٣٨٢م	أوريليوس أمونيوس	بن بكوسيس
P. Gen,69.	٣٨٦م	أوريليوس أنياتوس	بن بكوسيس

** كومارخية قرية كرانيس:

المصدر	التاريخ	الاسم	العلاقة
p.Cairo-isid.125	٣٠٧م/ ٣٠٨م	اوريليـوس ازيـدورس سـرابيون وايونيـوس سيرنوس	
p.Cairo-isid.54.	٣١٤م	اوريليوس ازيدورس بن بـالنيوس واوريليـوس دولوس	
p.Cairo-isid.57.	٣١٥م	أوريليـوس أرسـتون وأوريليوس جيرمانوس	

** إشارات متفرقة :

المصدر	التاريخ	الاسم	المكان
p.oxy,2123	٢٤٧م	اويليوس ديونيسيوس وديونيسيوس بن ديونيسيوس	قرية نيسميميس باوكسيرنخوس
p.Cairo-isid.128	٣١٤م	اوريليوسرابيون واوريليوس ارتميدوس	قرية بوتو بممفيس
p.oxy,3774.	٣٤١م	ايدايمون بن هيراكس وحستينوسين بطلميوس	قرية سيفو بالباجوس السابع بأوكسيرنخوس
p.oxy,4128.	٣٤٦م	أوريليوس حورس بانيختونيس بن حورس بطلميوس بن هرمياس	قرية ميرمرته بالباجوس الاول بأوكسيرنخوس
p.oxy,2232.	٣٥٠م	أوريليوس باوسيريس اوريليوس هوريون	قرية كيسموخيس بالباجوس الثامن بأوكسيرنخوس
p. Amh. 139.	٣٥٠م	أوريليوس بيسيس اوريليوس باسوتيس	قرية ابيون بالباجوس الثاني عشر بهرموبوليس

ومن خلال النظر في هذه الإشارات يتضح لنا أن الكومارخوس كان يشغل هذا المنصب في الغالب لمدة عام واحد، وإن كان هناك بعض الأفراد قد شغلوا هذا المنصب لأكثر من عام وأكثر من مرة ، ففي قرية فيلادلفيا في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، نجد أن أوريليوس أمونيوس كان كومارخوس في عام ٣٧٢م،٣٧٤م، و٣٨٢م فضلاً عن أن أخاه أوريليوس أنيانوس قد تولى ذات المنصب في عام ٣٨٦م.

و في قرية ثيادلفيا نجد أن أفراد عائلة أوريليوس ساكون قد شغلوا منصب الكومارخية في القرية في الفترات ٢٩٨/٢٩٩م، ٣٠٦/٣٠٧م، ٣١١/٣١٢م، ٣٢٤م، ٣٢٥م، ٣٢٦/ ٣٢٧م، ٣٢٧/٣٢٨م. فضلاً على أن ساكون شغل المنصب لفترتين متتاليتين ٣٢٣/٣٢٤م، ٣٢٤/٣٢٥م، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل ربما على اكتساب بعض موظفي الكومارخوس ثقة حاكم الباجوس مما يؤهله للاستمرار في أداء مهام وظيفة الكومارخية لأكثر من عام.

ومن الجدير بالذكرأيضاً أن هناك أشارت إلى أن بعض موظفي الكومارخوس قد عقدوا اتفاقيات فيما بينهم، وذلك لتحديد الأفراد الذين سوف يخلفوهم في القيام بمهام هذه الوظيفة، فهناك وثيقة من قرية فيلادلفيا ترجع إلى عام ٣٨٧م أتفق فيها كلٌ من أوريليوس هول Aureli Hol كومارخوس القرية للعام الثالث من حكم دقلديانوس والثاني من حكم ماكسيميانوس مع كورنوليس Corenelius الكومارخوس لنفس القرية، على أن يتم تعيين الأخير في وظيفة الكومارخوس للعام القادم ومع انتهاء مدة خدمته، يقوم كرونوليس بتعيين ديوسكوروس Dioscorus أخو هول في نفس الوظيفة للعام الذي يليه، وفي حالة نقض أي من الطرفين للإتفاق سوف يقوم بدفع غرامة قدرها ٢٠٠٠ دراخمة فضية العام الثالث من حكم دقلديانوس والثاني من حكم ماكسيميانوس (٢). وتكررت نفس الحالة في وثيقة من قرية ثيادلفيا، حيث أتفق كلٌ من بينيس بن ساكون وزيلوس بن ميلاس كومارخوي القرية لعام ٣٢٥/٣٢٦ على أن يتولى الوظيفة للعام القادم كلٌ من أنطونيوس بن ساكون وكونياس بن ميلاس (٣). وفي وثيقة ثالثة من أوكسيرنخوس ترجع إلى عام ٢٥٦م قام باتاوريس بن سارس كومارخوس قرية بانيوي paneui عن العام الثالث، بترشيح أخوه تاليميهوس Talemaeheus بن ساراس عن العام الرابع لوظيفة الكومارخوس (٤).

ولعل السبب وراء ذلك كان يتمثل في أن الأفراد الذين كانوا يشغلون منصب الكومارخوس، كانوا يميلون إلى إسناد الوظيفة للمقربين منهم حيث إن ذلك المنصب كان يعطي شعوراً بالمروءة والفخر، فكل الأعمال داخل القرية كانت تدور من حول هذا الموظف، فهو المسئول عن جمع الضرائب والديون وتأجير أراضي الدولة للأفراد والتعاون مع الشرطة في القبض على الخارجين عن القانون، ويؤكد ذلك أنه على الرغم من أن كثيراً من البرديات أشارت إلى تضاؤل شعبية الوظائف الإلزامية في مصر في القرن الرابع الميلادي ورغبة الكثير من الموظفين في التخلي عنها بالهروب أو الإبدال، إلا أننا لا نجد مثالاً واحداً لكومارخوس يحاول الهروب من تقلد مهام وظيفته، بل على العكس نجدها مصدراً لكسب المال وإن كانت بطرق غير مشروعة (٥).

مهام ومسئوليات الكومارخوس(عمدة القرية)

تعددت مهام ومسئوليات الكومارخوس، حيث اشتملت على تسيير كل الأعمال المتعلقة بالدولة داخل القرية، ويأتي في مقدمتها ترشيح الأشخاص الذين سوف تسند إليهم الوظائف والأعمال الإلزامية وجمع الضرائب عن القرية بالإضافة إلى سلطات شرطية.

وخلال الصفحات التالية سوف نتناول تلك المهام والمسئوليات بشئ من التفصيل وذلك على النحو التالي:

١- المهام المتعلقة بترشيح الأفراد للوظائف والأعمال الإلزامية:

كان الكومارخوس يرفع قائمة بأسماء الأفراد والمرشحين للقيام بالوظائف والأعمال الإلزامية إلى الأستراتيجوس وذلك منذ بداية ظهور وظيفة الكومارخوس في العصر الروماني وحتى نهاية القرن الثالث الميلادي ، ومع بداية القرن الرابع الميلادي وحدوث تغييرات إدارية أصبح الكومارخوس يرفع تلك القائمة إلى حاكم الباجوس من أجل التصديق عليها واعتمادها.

ونقرأ أولى الوثائق الدالة على ذلك، وثيقة من أوكسيرنخوس ترجع إلى عام ٢٤٨/٢٤٧م بخصوص تعيين إثنين من المساعدين لم يتم تحديد المهام التي سوف يقومون بها " إلى أوريليوس فيلوكسينيس استراتيجوس مدينة أوكسيرنخوس من أوريليوس ديونيسيوس الأصغر بن خيراس وديونيسيوس بن ديونيسيوس والإثنان كومارخوي قرية نيمسيس وكاتبا هذه الوثيقة حيث يطلبان تعيين هذين المساعدين خلال العام القادم وهو العام الخامس من حكم فيليب وهذان المساعدن هما: أوريليوس ثيوناس بن هاتريس و......." (٦').

كما توجد وثيقة أخرى ترجع إلى عام ٢٥٦م بخصوص ترشيح أفراد في وظائف مختلفة داخل القرية بواسطة الكومارخوس نقرأ منها: " إلى أوريليوس سابينوس Aurelius Sabinos استراتيجوس إقليم أوكسيرنخوس من أوريليوس باجونيس بن .... Aurelius Pagonis وأوريليوس باتاوريس بن سارس Aurelius Patauris Saras والإثنان كومارخوي قرية بانيوي paneui عن العام الثالث ، نقدم قائمة بأسماء المرشحين لتولي المهام الإلزامية عن العام الرابع من سكان القرية وهم تاليميهوس Talemaeheus بن ساراس Saras وأمه تسمى هيليني Helene و باتوس Patos بن هيراكليوس Hracleus لوظيفة الكومارخوي وباتارخس Patarchs بن بيكسيس Pekysis لوظيفة الأمن وكاستور castor بن تليماخوس Telemachus لوظيفة حراسة الحقول وبلوتيون بن ديوجاس وأمونيوس بن بيكسيس Ammonios Pekysis وبابونتوس بن فالون Papontos phalon لوظيفة حراسة الحنطة المدروسة (٧').

وهناك وثيقة من أوكسيرنخوس ترجع إلى عام ٣١٦م، نقرأ منها: " إلى أوريليوس هيراس بن ديونيسيوس حاكم الباجوس الثامن من أوريليوس باتيروس بن منخيس التيسراريوس وأوريليوس باوسيريس بن فلافيوس وأوريليوس هوريون والإثنان كومارخوي قرية كيسموخيس بالباجوس، نرشح للقيام بوظيفة جامعي اللحوم والقش أشخاصاً مناسبين للقيام بهذه المهمة وهما: أوريليوس ثونيس لجمع اللحوم وأوريليوس بانثيروسبن أمونيوس لجمع القش (٨').

وكان الكومارخوس مسئولاً عن ترشيح موظف التيسراريوس حيث يتضح ذلك من وثيقة ترجع إلى عام ٣٢٢م، وهي عبارة عن خطاب موجه إلى حاكم الباجوس الثاني بإقليم ....من أوريليوس بنوبنتيريس Pneponteris Aurelius وأوريليوس بسنبنوثيس Aurelius Pserpnouthes الكومارخوي، حيث نرشح لمنصب التيسراريوس بسرنبنوثيس بن سرابيون Pserpnouthes Sarapion في الفترة ما بين شهر فامينوث phamenoth إلى شهر توت thot من العام الجاري (١٩).

وكان ترشيح السيتولوجوي والأبتيتاي داخل القرية من اختصاص الكومارخوس ، حيث يتضح ذلك في وثيقة من قرية ثيادلفيا ترجع إلى عام ٣٤٢م، نقرأ منها: إلى فيلاتاس Philatos حاكم الباجوس الثامن من ساكون بن ساتابوس Sakaon Satabus ورفيقي أوج بن ميلاس Aoug melas والإثنان كومارخوي قرية ثيادلفيا، نرفع إليك تقريراً على مسئوليتنا المشتركة بالأفراد المرشحين لتولي منصب السيتولوجوي والأبيتيتاي بالقرية للعام الثاني عشر واختيارهم على مسئوليتنا المشتركة، وأسماؤهم مدرجة أسفل و قد قبلوا القيام بمهام هاتين الوظيفتين بكل صدق وأمانة وفقاً لما هو متعارف عليه (٢٠).

ويتضح لنا من خلال العرض السابق أن كافة المهام والوظائف الإلزامية داخل القرية كانت ضمن اختصاصات موظف الكومارخوس، فهو المسئول الأول عنها وذلك من خلال اختيار الأفراد ورفع أسمائهم كمرشحين إلى رؤسائه .

٢- المهام المتعلقة بجمع الضرائب عن القرية:

كان من بين المهام والمسئوليات المنوط بها الكومارخوس الإلتزام بجمع الضرائب المقررة على القرية، وهذا ما بدا واضحاً في بعض الوثائق البردية، فهناك وثيقة ترجع إلى عام٣١٥م، هي عبارة عن إيصال يفيد استلام أوريليوس كلوثوس قائد المركب واحد وعشرين ونصف أردب من الشعير من أوريليوس أرستون و أوريليوس جيرمانوس كومارخوي قرية كرانيس (٢١). كما توجد وثيقة أخرى من نفس القرية ترجع إلى عام ٣١٥م تفيد بأن أرستون وجيرمانوس الكومارخوي قد قاما بتسليم كميات من الخشب للجنود من أجل إيقاد النار وطهي الطعام وهي الحصة المقررة على القرية (٢٢).

كما كان الكومارخوس مسئولاً عن توفير الاحتياجات الضرورية للأفراد العاملين بالجهاز الإداري للدولة، وهو ما بدا واضحاً في وثيقة من أوكسيرنخوس ترجع إلى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين، هي عبارة عن خطاب موجه من الاستراتيجوس إلى كومارخوس قرية ثيرسيس يأمره فيه بتجهيز حمارين وحارس للشخص الذي سوف يسلمه الخطاب (٢٣).

من خلال العرض السابق يتبين للباحث أن كافة المهام والوظائف الإلزامية داخل القرية كانت من بين مهام ومسئوليات الكومارخوس، فهو المسئول الأول عنها، وذلك من خلال إعداده قائمة بالأسماء المرشحة لكل وظيفة ومهمة إلزامية، ثم رفع تلك القائمة إلى رؤسائه.

٣- المهام والمسئوليات الشرطية للكومارخوس:

تعددت المهام والمسئوليات الشرطية التي كانت تسند إلى الكومارخوس في العصر الروماني في مصر، وكان من أبرز تلك المهام ضبط الأفراد الخارجين عن القانون، وهو ما ظهر واضحاً وجلياً في وثيقة من أوكسيرنخوس ترجع إلى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي، وهي عبارة عن أمر ضبط موجه من رئيس المجلس التشريعي إلى الكومارخوس بحق رجل يعمل في وظيفة nomophlaki (وظيفة شرطية)(٤[٢]).

ولقد اتسعت سلطات الكومارخوس لتشمل بالإضافة إلى القبض على الأفراد الخارجين على القانون داخل القرية القبض على الأفراد الفارين من القرية إلى قرى أخرى هرباً من الأعباء الإلزامية، ففي وثيقة من منف ترجع إلى عام ٣١٤م هي عبارة عن تقرير مرفوع من موظفي إحدى القرى إلى موظفي قرية أخرى جاء فيه: " من أوريليوس باكيمنينوس Pacimnenous التيسراريوس وأوريليوس سرابيون وأوريليوس أرتميدوس Artemidous بن باموثويس Pamuthis. والإثنان كومارخوي وأوريليوس ناراوس Naraous مدير مكتب الشرطة والجميع من قرية بوتو Buto في إقليم ممفيس إلى أوريليوس إزيدورس التيسراريوس لقرية كرانيس نرسل إليك قائمة بأسماء الأشخاص الذين فروا من قريتنا إلى قريتكم، حيث تعلمك بهم لكي تسلمونا إياهم، علماً بأننا لا يمكننا أن نوجه أية اتهامات ضدكم أو ضد قريتكم (٥[٢]).

بعض التجاوزات القانونية الكومارخوس :

اتسم سلوك و أداء معظم من شغل منصب الكومارخوس في العصر الروماني بالاستقامة ، غير أن الصورة لم تكن دائماً ناصعة البياض ، حيث ظهر بعض الانحراف والتجاوزات في سلوك بعض هؤلاء الكومارخوي و يتضح ذلك من خلال ثلاث وثائق وردت في أرشيف أوريليوس أزيدورس رقم 71، 72، 73. والوثيقة الأولى والثانية كانتا عبارة مفكرة للوثيقة الثالثة التي تضمنت إلتماساً تم رفعه إلى والي مصر ضد كلٌ من كومارخوس قرية كرانيس لعام ٣١٤م وحاكم الباجوس التابعة له القرية ولقد ورد في هذا الإلتماس الأول تقدير الضرائب المفروضة على قرية كرانيس في كومارخية إزيدورس بن بيلنيوس Isidorus Pelneius وبيانها كالتالي:

- التقدير الأول ١٠٥ تالنتا.
- التقدير الثاني ٤٠ تالنتا .
- التقدير الثالث ٢٣ تالنتا .
- التقدير الرابع ٧ إردباً من القمح .
- التقدير الخامس ٤٦ تالنتا و ٤٠٠ دراخمة
- التقدير السادس ٣ إردباً chick peas و ٢ إردب فاصوليا و ٢ إردب من الثوم .

وأشار مقدما الإلتماس أن الكومارخوس قام بفرض هذه الضرائب كما يحلو له ووفقاً لهواه، وذلك دون الرجوع إلى التيسراريوس والكودراي أو الإستفسار منها، وذلك بالتواطوء مع

حاكم الباجوس، ولم يبد كلّ من الكومارخوس وحاكم الباجوس أي اهتمام بحدود سلطاتهم الشرعية والقانونية (٢٦).

كما تضمنت الوثيقة الثانية بعض تجاوزات الكومارخوس وحاكم الباجوس، حيث نقرأ فيها: " لقد قامت القرية بشراء حمارين بمبلغ ٤٠ تالنتا فضية، وتم إرسال هذين الحمارين إلى الإسكندرية للقيام ببعض المهام، وعند عودتهما من الإسكندرية قام حاكم الباجوس ببيع أحدهما لحسابه الخاص بمبلغ ٢٧ تالنتا، ثم استخدم الحمار الآخر في حمل الفاصوليا إلى مسكنه الخاص وذلك بالتواطؤمع الكومارخوس، وكأن ممتلكات القرية وحيواناتها ملكاً خالصاً له دون منازع (٢٧).

أما الوثيقة الثالثة فنقرأ فيها التماساً تم رفعه إلى والي مصر جوليانوس جوليانوس من كل من: إزيدورس التيسراريوس لقرية كرانيس وباليمون الكودراي لنفس القرية، يوضحان فيه أن الفلاحين الضعفاء يعانون الكثير على يد كل من: حاكم الباجوس ثيودورس والكومارخوس، فهما يلعبان دور الطاغية، فالكومارخوس بالتواطؤ مع حاكم الباجوس يفعل في القرية مايحلو له فهناك مبالغ كبيرة تم تقديرها بشكل غير قانوني كضرائب تجاوزت ٣٠٠ تالنتا، ولا نعلم أين ذهبت هذه المبالغ، والأنكى من ذلك أنه استولى على جانب من أموال القرية والتي تتمثل في: ثمن جلود بعض الحيوانات ومبلغ ست وخمسون تالنتا هي حصيلة بيع جمل وحصان وفائض عشرة إردب من الأرض المنتجة قد أخذها لحسابه الخاص، ثم قام بتخصيص إتانين (الإتان هي أنثى الحمار) لصالح منزله كان قد اشتراهما بأربعين تالنتا فضية ثم قام ببيع واحدة منهما دون إبداء الأسباب بمبلغ ٢٧ تالنتا، ثم قام بسرقة ثلاثين خروفاً أبيضاً و٤٧ تالنتا فضية والأكثر من ذلك أنه استخدم الحمير المملوكة للقرية بشكل غير قانوني في نقل الفاصوليا إلى منزله، ونحن نأمل بأن تأتي إلى المقاطعة من أجل مواجهة طغيان كل من حاكم الباجوس والكومارخوس " (٢٨). ونرى هنا أن التيسراريوس والكودراي قد قاما برفع الإلتماس إلى والي مصر مباشرة وتجاوزا حاكم الإقليم، مما يوضح حجم التجاوزات التي تمت من قبل كل من الكومارخوس وحاكم الباجوس، حيث أنهما يطلبان في هذا التقرير من والي مصر الحضور إلى المنطقة لمواجهة هذين الموظفين الفاسدين.

وفي وثيقة رابعة من قرية منديس ترجع إلى الفترة من ٢٤٥ : ٣٠٢ م، هي عبارة عن التماس موجه إلى أوريليوس سرابيون وأبوللونيوس أكسجتيس **Exegetes** المدينة حيث تضمن هذا الالتماس شكوى ضد كومارخوس القرية وذلك لطلبه رشوة من أجل تسهيل نقل ميراث إلى أصحابه (٢٩).

وهناك وثيقة أخرى ترجع إلى القرن الرابع الميلادي هي عبارة عن أمر ضبط من الاستراتيجوس إلى مسئول الأمن و الموظف العام **Demosios** يطلب فيه منهما أنه عندما يصلهما هذا الخطاب فعليهما أن يقوما على الفور بإرسال جامع ضريبة الأنونا عن العام الرابع ومعه الإيصالات الخاصة بجمع ضريبة القش وحسابات الإيصالات الخاصة بالشعير كما أن عليهما أن يرسلا معه أيضاً خايريمون الكومارخوس السابق (٣٠).

وليس بالضرورة أن نفهم من هذه الإشارات أن هناك تجاوزات وانحرافات متعددة لموظفي الكومارخية، وخاصة أن كل الأمور داخل القرية كانت تتم أمام عينيه وبمعرفته، وربما يرجع السبب وراء قلة إنحرافات وتجاوزات الكومارخوس إلى قصر مدة حكمه، وهذا ما كانت تنشده الدولة الرومانية في مصر، وبالتالي لم تكن لديه فرصة للقيام بأية الاعيب، كما أن قضية استقامة الحكم وشفافيته في القرى المصرية إنما هي مسئولية مشتركة بين كافة الموظفين مما دفعهم إلى مراقبة بعضهم البعض .

وفي نفس الوقت كان يتعرض موظف الكومارخوس للعنف والأهانة من بعض الأفراد المتملصين من تأدية الأعمال الألزامية، وهذا يبدو واضحاً في وثيقة من قرية كلليس ترجع إلى عام ٣٥٣م عبارة عن التماس موجه إلى فلافيوس فاوستيانوس حاكم إقليم طيبة من أوريليوس جينا بن أونسيوس كومارخوس قرية كلليس التابعة لإقليم موط ،يشكو فيها من تعرضه للأساءة و الأهانة علي يد أحد الأفراد الذين تم ترشيحهم للقيام بالأعمال الألزامية ، وذلك بمعاونة عدد من الأفراد داخل القرية (٣١)

ومن خلال العرض السابق يمكن القول بأن وظيفة الكومارخوس ظهرت في مصر خلال العصر الروماني وبالتحديد في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وذلك بعد أن كانت موجودة خلال فترة حكم الملوك البطالمة . وكان الأستراتيجوس هو القائم على تعين موظف الكومارخوس، ولكن مع بداية القرن الرابع وحدوث التغيرات الإدارية التي شهدتها مصر وجدنا أن حاكم الباجوس هو القائم على تعينه . وفي الغالب الأعم كان يتولى منصب الكومارخوس إثنان من الموظفين داخل كل قرية لمدة عام واحد . وقد تعددت مهام ومسئوليات الكومارخوس داخل القرية ، حيث اشتملت على تسير كل الأعمال المتعلقة بالدولة داخل القرية ،ويأتي في مقدمتها ترشيح الأفراد للوظائف والأعمال الألزامية وجمع الضرائب بالأضافة إلى بعض المهام الشرطية .

الهوامـــــش

(1) P. Oxy , xvii , No.2123.
Αυρηλιω Φιλοξενω στρατηγος Οξιυρυγχιτου
παρα Αυρηλιων Διονσιου νεωτερου χαιρα
τος μητρος ταφιλωνος και Διονυσιος
Διονυσιου μητρος Θαησιος αμφοτεροι κωμαρχων κωμης
Νεσμειμεως

(2) P. S.B , vi , No.9408,9 .
ترجع أول أشارة إلى وظيفة الكومارخوس في العصر البطلمي إلى عام ٢٦٢ ق.م
(P.petrie, iii, 89.399) واستمرت الإشارة إليه حتى عام ١١٢ ق.م (P.Tebt , 159)
ومن الإشارات التي وردت في القرن السادس أنظر : (P.Oxy.no.1835 نهاية القرن الخامس م وبداية القرن السادس. م) ، (P.Oxy ,no. 1930 القرن السادس .م).

(3) Thomas , the introduction of the dekaprotoi and comarchos, Z.P.E.,19 1975, pp. 114- 115.
للمزيد عن موظف كاتب القرية في مصر في العصر الروماني أنظر: رجب سلامة: كاتب القرية في مصر في العصر الروماني، رسالة ماجستير ،غير منشورة،١٩٩٧، كلية الاداب، جامعة عين شمس.

(4) P. Oxy , xvii , No.3178.
Κορνηλι.....καιΠροληςστραηγος Ηρακλεοπολειτυ Αυρηλιου....νου
Αρμυσιος απο επικιου ερημου.... κωμαρχου του αυτου εποικιου
للمزيد عن الوثائق التي اشارت إلى تعين الكومارخوس : (هرموبوليس P.Flor,1,2,265 A.D)
- (P.Goth,5 , 318 A.D) - (باتويوليس P.S.B,9544,322A.D)

(5) P.cairo- Isid , 125 .
Αυρηλιω Ηρακλεδη πραιοσιτω ε παγου παρα Αυρηλιων Ισιδωρου
Σαραπιωνος και Αιωνεως Συριωνος αμφοτερων κωμαρχων κωμης
καρανιδος διδωμεν και εισαγγελλωμεν τω ιδιω ημων κινδυνω τους
εξης ενγεγραμμενους κωμαρχας του εισιοντος ιζ ετους
كان موظف الديويقتيس هو المسئول الأول عن تعين العمد في العصر البطلمي .
حنان محمداسماعيل : النظام الإداري في القرية المصرية في عصر البطالمة ، راسالة ماجستير غير منشورة، ٢٠٠٥، كلية الاداب، جامعة عين شمس،ص ١٣٧.

(6) P.Sakon , No.52.

(7) P. Amh, No. 139.

(8) P. Amh, 139 & P. Oxy. 2232.
(9) P. Oxy, xvii, No.2123.
(10)P. Oxy , xvii , No. 4128.

Αὐρηλίῳ **Σαραπάμμωνι** **Εὐλογίου** **πραιποσίτῳ** α **πάγου**>
νομοῦὈξυρυγχίτου παρα **Αὐρηλίων** Ωορου **Ὡρίωνος**
καὶΠανεχώτου Ωορου και Πτολεμαιου Ερμου των τριων απο
κωμης **Μερμέρθων** α παγου του αυτου νομου γενογομενων
κωμάρχων

(11)P. Gen, 66.

Αυρηλιοις Αμωνιανος Εκυσις και Αλωνιου Τ...η θιου και
ΤιμαγενουςΑσιωνος και Αμουν Ατρη αμφοτεροι κωμαρχαι της
κωμης Φιλαδελιας

(12)D.Delia- E.Haley , op.cit, p. 44-45.
(13)P. Sakon,52.
(14)P. Oxy, 2714 .
(15)P.Cairo- Isid, 71 .72.73 .
D.Delia- E.Haley , op.cit, p. 43.

(16)P. Oxy,No. 2123.

تمثلت مهام الكومارخوس في العصر البطلمي في أربعة أمور وهي العناية بأمور الزراعة والعناية بالسدود والقنوات وقيامه بتوزيع البذور ومهام تتصل بالأمن العام .
حنان اسماعيل: المرجع السابق ص١٣٨.

(17)P. Oxy, 2714 .
(18)P. Oxy, 2232.

παρα Αυρηλιων Πατερεως Μενχητος θεσελαριου και Ωριων
Μενχητος αμφοτερων κωμαρχων της αυτης κωμης κεσμουχεως του
υπο σε παγου διδομεν τω ιδιω ημων κινδυνω προς απετησιν κρεως
και αχυρου

(19)P.gothenurg , 6.

Πραιποσιτου β παγου παρα και Ψηρπνοθου κωμαρχων Νησου απο
......Αυρηλιου Πνεποντηριος
ηνεσαγγελλομεν και
ο αναδιδ.μενειςτεσσλριονΑυρηιονψενπνουθουΣαραπιωνοςτουνομ..α

μηνος φαμενωθ εως θωθ

(20)P. .Sakon , No.52.

Αυρηλιος χαιρημον πραιποσιτου θ παγου παρα Αυρηλιων πεννιτος Σακαωνος και Ζωιλου Μελανος αμφοτερων κωμαρχων και Θεδελφιας

(21)P.Cairo- Isid, , No.57.

(22)P.Cairo- Isid, , No.56.

(23)P. Oxy, 2577 .

(24)P. Oxy,3190.

(25)P.Cairo- Isid, , No.128.

تمتع الكزماركو س في العصر البطلمي بسلطات قضائية وأمنيـة واسعة ، فكان لديه السلطة الكافية للقبض والحبس وأجراء تحريات وتحقيقات رسمية تحت اشراف الأبيستايس وكانت تقدم للكوماركوس تقارير مفصلة عن حوادث السرقة وأسماء المشتبه فيهم.

حنان اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(26)P.Cairo- Isid, , No.71.

Πυνθανοται διοτι συνδυαξοσιον μετα του πραιποσιτου

(27)P.Cairo- Isid, , No.72.

(28)P.Cairo- Isid, , No.73.

Ιουλιω ουλιανω διασημοτατω Επαρχων Αεγυπτου παρα Αυρηλιων σιδωρου πτολεμαιου θεσσαλαριου και παλημονος τβερινου κουαδραριου αμφοτερων απο κωμης καρανιδος του Αρσιοιτου νομου ημεις ελαττωναις αγοροικοι τα δινα παρσχομεν υπο τε του πραιποσιτου του παγου θεδωρου και των κωμαρχων

(29)P. p.s.i, 4, No.303.

(30)P.Turner, 46.

(31)P. kellis , I , No. 23.

الأسواق العربية الموسمية بمنطقة مكة المكرمة في عصريها الجاهلي والإسلامي

أ.د. أحمد بن عمر آل عقيل الزيلعي (*)

مقدمـــــة

السوق معروف، وهو بحسب تعريف ابن منظور: موضع البياعات، وفيه يُتعامل، والجمع أسواق[١]، ويعرفه جواد علي بأنه: "المحل الذي يتسوق منه. وهي إما ثابتة مع أيام السنة، يبيع فيها الباعة، ويقصدها المشترون للشراء، وإما موسمية تعقد في مواسم معينة، فإذا انتهى الموسم رفعت"[٢]. وفي التنزيل: ﴿إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [٣]، وفيه: ﴿وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [٤].

والسوق يذكر ويؤنث، يقول الشاعر في تذكير السوق:

ألـم يَعـظِ الفتيـانَ ماصـار لِمَتِّـيَ ... بسـوقٍ كثيـرٍ ريحُـهُ وأعاصِـرُه[٥]

ويقول آخر في التأنيث:

إنـي إذا لـم يُنْـدِ حَلقـاً ريقُـهُ ... وَرَكَـدَ السـبُّ فقامـت سُـوقُهُ[٦]

والسوقة لغة فيه، وتسوقَ القوم: إذا باعوا واشتروا. وفي حديث الجمعة إذا جاءت سويقة أي تجارة، وهي تصغير السوق، سميت بها، لأن التجارة تجلب إليها وتساق نحوها[٧].

وللأسواق أوجه أخرى غير التجارة والبيع والشراء؛ سنأتي إلى ذكرها بعد بقدر ماهو متاح من المعلومات التي وصلت إلى أيدينا.

والأسواق معروفة، ومنتشرة في الجزيرة العربية منذ ما قبل الإسلام، وحتى عصر الناس هذا، وهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أسواق وَغديَّة أي أسبوعية: وهي التي تقام في يوم محدد من أيام الأسبوع تسمى باسمه، فيقال: سوق السبت، وسوق الأحد، وسوق الاثنين، وهكذا إلى آخر أيام الأسبوع، وهذه منتشرة في مختلف القرى والأرياف، وبعض المدن، وقل أن يخلو قطر من أقطار الجزيرة العربية منها قديماً وحديثاً.

النوع الثاني: الأسواق اليومية: وهذه معروفة ومرتبطة بالمدن خاصة، ومن أشهرها سوق أو أسواق مكة المكرمة، وسوق المدينة المنورة التي اختار النبي صلى الله عليه وسلم موضعها بنفسه، بجوار المسجد النبوي الشريف، ثم قال: "هذا سوقكم لايضرب عليه خراج"[٨].

(*) عضو مجلس الشوري السعودي.

النوع الثالث: الأسواق الموسمية: وهذه كانت تعقد مرة في السنة، ولها مواسم محددة لاتتعداها، أو تقصر دونها، ولايقتصر نشاطها على يوم واحد أو يومين، وإنما تقام في عدد متصل من الأيام، تصل مدد بعضها إلى ٢٠ يوماً، وهي معروفة ومشهورة في تاريخ العرب وآدابهم باسم أسواق العرب، وتعود في نشاطها إلى العصر الجاهلي، ثم استمرت في الازدهار في العصور الإسلامية المبكرة، وبعضها ظل عامراً إلى العصر العباسي كما سيأتي. وهي كثيرة ومنتشرة في طول الجزيرة العربية وعرضها، إلا أن الذي يعنينا منها، في هذه الورقة المتواضعة، هي تلك التي كانت تقع في البقعة المشمولة اليوم بمسمى منطقة مكة المكرمة. وهي: سوق عكاظ، وسوق مَجَنّة، وسوق ذي المجاز، وسوق حُبَاشَة: فالأول وهو سوق عكاظ، غني عن الذكر، فهو من الشهرة والاهتمام به بحيث لم تعد هناك حاجة إلى التعريف به زماناً ومكاناً، في وقتنا الحاضر، فموقع السوق معروف ولم يعد مجهولاً، وعليه منشآت ومعالم وبنية تحتية واضحة وشاخصة للعيان، ومهرجانه السنوي الذي يكبر ويتسع كل عام، ومايصاحبه من فعاليات ومناشط: ثقافية وتراثية واقتصادية ليست بخافية على القارئ الكريم. وهو . دون شك . مقبل على مرحلة تطويرية وتوسعية ستجعله إن شاء الله، واحداً من أهم الوجهات السياحية في المملكة العربية السعودية، فضلاً عن أهميته بوصفه مكاناً تقام على أرضه أهم المناسبات الثقافية والتراثية والمناشط الاقتصادية الأخرى، في محافظة الطائف. وفي ذلك كله مايغني عن التعريف بمكان السوق وزمانه، وإن كان من المفيد أن نشير إلى أن الآراء تجمع على: أن زمن انعقاد السوق كان في المدة الواقعة من الأول من شهر ذي القعدة إلى العشرين منه، وأنه استمر في البقاء والازدهار حوالي قرنين ونصف القرن[٩].

أما الأسواق الثلاثة الباقية فلا بأس من التعريف بها وبموقعها، وبالمدد التي ينعقد فيها كل منها، وغير ذلك من المعلومات المتاحة في المصادر والمراجع التي وصلت إلى أيدينا، وذلك على النحو الآتي:

سوق مجنة :

لعل أول هذه الأسواق بعد عكاظ، من حيث التسلسل التاريخي أو الزمني لأيام انعقادها، هو سوق مَجَنّة، وهو أحد الأسواق العربية الموسمية المشهورة في الجاهلية والإسلام، ويقع على بعد عدة أميال إلى الشمال من مكة المكرمة في مرّ الظهران المعروف اليوم بوادي فاطمة، وهو مشتق من الفعل جَنَن الذي من معانيه: كثرة المياه والبساتين ذات الأشجار المثمرة من نخيل وأعناب ونحوها، ومنه الجنّة[١٠]، أي أن تسمية السوق بهذا الاسم (سوق مجنة) له نصيب من طبيعة الموضع الذي كان يقام فيه، وهو أخصب بقعة في وادي فاطمة المعروف بخصبه، وكثرة مياهه، وأشجاره المثمرة، وبساتينه النضرة، وهو الذي داعبت ذكراه الجميلة مخيلة الصحابي الجليل بلال بن رباح، رضي الله عنه، بعد هجرته إلى المدينة، حيث نسب إليه هذان البيتان[١١]:

ألا ليت شِعْري هل أبيتَنَّ ليلةً ... بِفَخٍ وحولي إِذْخَرٌ وجَلِيلُ

وهـــل أردَنْ يومـــاً ميـــاهَ مَجَنَّـــةٍ　　　وهـــل يَبْـــدُوَنْ لـــي شَــامَةٌ وطَفِيــلُ

ومع شهرة المكان المنسوب إليه هذا السوق، وهو مجنة بمر الظهران، أو وادي فاطمة سابق الذكر، إلا أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين اختلفوا في المسافة بينه وبين مكة المكرمة، فالأزرقي (ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م) يشير إلى أن "مجنة سوق بأسفل مكة على بريد منها"(١٢).

وعلى نهج الأزرقي، في تحديد المسافة بين مكة ومجنة، يذهب كل من البكري (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) (١٣)، وياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) (١٤).

ولم يشذ عن هؤلاء سوى الفاسي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م) الذي يناقش موضع مجنة والسوق المنسوب إليها، في كلام منقول عن القاضي عياض يطول إيراده، ويقدّر المسافة بينها وبين مكة المكرمة بنحو ثلاثين ميلاً(١٥)، ثم يستدرك على الأزرقي في تقريره بأن مجنة على بريد من مكة، ويقول في استدراكه: "ولعل الأزرقي أراد أن يكتب أن مجنة على بريدين من مكة، فسها عن الياء والنون، فكتب بريد والله أعلم"(١٦).

ولم تحدد المصادر المتاحة مكاناً بعينه، لموقع انعقاد السوق، على سبيل الدقة واليقين، وإن كانت قد أشارت إلى مسمى المكان، وهو مر الظهران سابق الذكر، وإلى جهته وهي إلى الأسفل من مكة، أي إلى الشمال منها على حد تفسير أحد الباحثين المحدثين(١٧)، وبعضها يربط موقعه بمعلم ثابت هو: الجبل الأصفر الذي يشار إلى أن موقع انعقاد السوق كان بالقرب منه(١٨).

وتبعاً للمسافة والجهة، وبعض العوامل الطبيعية، أجرى أحد الباحثين المحدثين (وهو من أهل مكة أو من أحوازها القريبة منها) دراسة ميدانية لتحديد موقع السوق، وتوصل في دراسته لمكان السوق، وهو الجهة الغربية للجبل الأصفر، ولعين الماء التي اشتهرت بها مجنة، على حد رأيه(١٩)، ويعلّل ترشيحه لهذه الجهة "بسبب انبساط أرضها وسعتها، ووضوح رؤيتها من جميع الاتجاهات، بالإضافة لوقوعها مباشرة على خط التجارة الرابط بين مكة والشام وكلها [على حد قوله] تساهم في جدية الموقع"(٢٠). وقدم وصفاً لطبيعة المكان الجغرافية بقوله: "من الضروري هنا التعرف على الطبيعة الجغرافية للمكان؛ فموقع السوق الذي حددناه مكسو اليوم برمال متجمدة، مع وجود أشجار صحراوية، وكثبان رملية، ويبدو لي أنها من صنع الإنسان.. وعموم المنطقة تظهر بها مبان حجرية لازالت واضحة المعالم، ويحاط الموقع اليوم بمناطق حاضرة السكان من أغلب الجهات، بل لاحظت منازل محاذاة موقع السوق مباشرة، وأخشى أن تطمر تحت الامتداد السكاني المتسارع، وباستطاعة أي فرد أن يرى موقع السوق دون عناء، فالصاعد إلى مدينة الطائف ـ طريق جدة ـ الجموم ـ يستطيع أن يشاهد الجبل الأصفر بعد الجموم مباشرة نحو الشرق، حيث السوق المجاورة له. والخريطة توضح المكان بسهولة"(٢١).

أما زمن انعقاد سوق مجنة فهو في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة، وتقوم بعد انفضاض الناس من سوق عكاظ في العشرين من الشهر نفسه، حيث يقصدها العرب من عكاظ،

بقضهم وقضيضهم، ليتمموا فيها جميع مقاصدهم من ارتياد تلك الأسواق الموسمية، بما في ذلك ممارسة التجارة والمفاخرات والفداء، وغير ذلك من المناشط التجارية والأدبية التي كانت تمارس في عكاظ[٢٢]، وليس الخمر أقلها شأناً، فقد وجد من الأمثلة الشعرية مايفيد بأن الخمور كانت تجلب إلى سوق مجنة، وربما إلى غيره من الأسواق الموسمية من أمكنة صنعها الأصلية من بلاد الشام، وخصوصاً بُصْرى وغزة، حتى أشاد شعراء ذلك العصر بذكرها، فهاهو شاعر هذيل المعروف أبو ذؤيب الهذلي، يقول[٢٣]:

سُلافةُ راحٍ ضَمّنَتها إداوةٌ ... مُقَيَّرةٌ رِدفٌ لمُؤخرةِ الرَّحلِ
تَزَوَّدَها من أهلِ بُصرى وغَزَّةٍ ... على جَسرَةٍ مرفوعةِ الذَّيلِ والكِفلِ
فَوافَى بها عُسفانَ ثم أتى بها ... مَجَنَّةَ تَصفُو في القِلالِ ولا تَغلِي

وهذه السوق مثل سابقتها عكاظ، ولاحقتها ذي المجاز وحُباشة، تعقد في الأشهر الحرم التي يأمن الناس فيها، في الغالب، على أنفسهم وأموالهم من مغبة الحروب والاقتتال[٢٤]. ونقدر أن عدد الأيام التي ينعقد فيها هذا السوق هي تسعة أيام إلى عشرة من انفضاض سوق عكاظ، حتى هلال شهر ذي الحجة، حينها ينتقل الناس، بقضهم وقضيضهم، إلى سوق ذي المجاز الآتي ذكره.

ذو المجــاز:

هذا السوق من الأسواق الموسمية المعروفة بالقرب من مكة المكرمة، قيل إنه لقبيلة هذيل المشهورة في الجاهلية والإسلام، ربما لوقوعه قريباً من ديارهم، وروده في شعر بعض شعرائهم ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

وراحَ بها من ذي المجازِ عَشيَّةً ... يبادرُ أولى السابقاتِ إلى الحَبلِ[٢٥]

وقد ورد في تحديد موضعه قولان: الأول؛ أنه على مسافة فرسخ واحد من عرفة على يمين الموقف، بالقرب من جبل يسمى كبكب[٢٦] قيل إنه خلف الإمام إذا وقف[٢٧]. والقول الثاني أنها موضع بمنى في منتصف الطريق بين مكة وعرفات[٢٨]. وعلى الرغم من شيوع القول الأول في المصادر المتاحة، وكثرة من قال به من المؤرخين والجغرافيين المسلمين، فإن الأفغاني يرجح القول الثاني، ويعدّه أدنى إلى القبول[٢٩]. أما تسمية ذي المجاز بهذا الاسم، فذلك لأن إجازة الحاج إلى عرفة كانت منه[٣٠]. وهذا ما يفسر أخذ الأفغاني بالقول الثاني، المشار إليه آنفاً، في تحديد موضع ذي المجاز بمنى وليس بعرفة، ومنه جاء اشتقاق اسمه.

وسوق ذي المجاز يعقد في ذي الحجة من كل عام. يقول الأفغاني: "إذا انقشع الناس عن مجنة حين يهلّ ذو الحجة ساروا بأجمعهم إلى هذه السوق، وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء، ويملأون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة. وإلى هذا السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن

شهد الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة، إذ إن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم[٣١].

وهي سوق عظيمة، تحفل أيام الحج بجموع العرب وسواهم من الحجاج والتجار وأصحاب المنافع عامة، وهي تلي سوق عكاظ من حيث الأهمية، ويجري فيها مايجري في سوق عكاظ: من بيع وشراء، وتناشد وتفاخر، وفداء أسرى وطلب ثأر. فقد ذكر أن صاحب الثأر يقصدها ليتعرف على واتره في ذي قرابته، فيتربص به انقضاء الشهر الحرام إن كان من المحرمين، وإلا عاجله فأخذ بثأره[٣٢]. ويورد الأفغاني بعض الأمثلة لحوادث تتعلق بالأخذ بالثأر؛ يطول ذكرها في هذه العجالة[٣٣].

أما زمن انعقاد هذا السوق فهو ـ كما أوضحنا سابقاً ـ من الأول من ذي الحجة حتى الثامن منه، وهو يوم التروية، وعدد أيام انعقاده ثمانية أيام، بما في ذلك يوم التروية المذكور[٣٤]. وقد ظلت هذه السوق قائمة ومستمرة بعد ظهور الإسلام مدة طويلة؛ لا نعلم لها نهاية محددة على وجه الدقة واليقين، وإن كان هناك من الإشارات ما يفيد أنها استمرت عامرة إلى مابعد انتهاء سوق عكاظ، أي بعد عام ١٢٩هـ/٧٤٧م[٣٥]، وهذا العام هو الذي شهد نهاية سوق عكاظ على أيدي الخوارج.

سوق حباشة:

توصف سوق حُباشَة بأنها "من أسواق العرب المشهورة القديمة، في الجاهلية والإسلام... وهي سوق بتهامة، يتاجر فيها أهل الحجاز وأهل اليمن، وكان من جملة من حضرها وتاجر فيها: الرسول [صلى الله عليه وسلم]. وكانت تقام في شهر رجب"[٣٦].

وحُباشَة (بضم الحاء المهملة وفتح الباء المعجمة، والشين المثلثة) مشتقة من الفعل حَبَش أي جمع، والتَّحبيش: التجميع، وحَبَش الشيء يحبشه حبشاً أي جمعه، والحُباشَة: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة[٣٧]. وعلى نسق التأصيل اللغوي لسوق عكاظ، وأنه من التعكُّظ أو المعاكَظَة، وماتدل عليه هذه الكلمة من اجتماع العرب فيه للمفاخرة والمحاججة والبيع والشراء، والفداء، وسائر أمورهم التي تقوم السوق من أجلها ويسببها في كل موسم. من المحتمل ـ على هذا النسق المذكور ـ أن لفظ حُباشَة جاء من التجمع القبلي لمحيطه الممتد إلى أعالي السراة شرقاً، وإلى أغوار تهامة الساحلية غرباً ومابينهما من الأودية والقطاعات الجبلية شمالاً وجنوباً، فيما يعرف بالأصْدار والغُرْضِيّات التي يتوسطها ذلك السوق المشهور في الجاهلية والإسلام. ويغلب على الظن أنه كان في زمانه موسماً يلتقي فيه التهامي مع السروي، والخبتي مع الجبلي، وأهل بارق وما وراؤهم إلى اليمن، مع أهل الغُرْضِيّات، ومايشاملهم من الديار والقبائل، إلى الطائف ومكة المكرمة وماوراءهما. فلابد أنها كانت سوقاً عظيمة، ومتجراً رابحاً، يهبط إليه أخلاط شتى من مختلف القبائل التي ترتاده للمتاجرة وفداء الأسرى، ومبادلتهم بأمثالهم، والتقاضي في المنازعات، ومختلف المنافع التجارية، وغير التجارية، التي كانت سبباً في قيام كثير من الأسواق العربية الموسمية في مختلف أرجاء الجزيرة العربية[٣٨].

هذا الإطار الجغرافي لموقع السوق، ولمرتاديه من القبائل والديار المحيطة به؛ يُستشف من الإشارات البسيطة التي وردت عنه في المصادر العربية، ومنها الأزرقي الذي يقول: "وحُباشَة سوق الأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنوناً وحلي من ناحية اليمن، وهي من مكة على ست ليال"[٣٩]. وعن حباشة يقول البكري أيضاً هي: "سوق للعرب معروفة بناحية مكة، وهي أكبر أسواق تهامة، كانت تقوم ثمانية أيام في السنة. قال حكيم بن حزام: وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضرها، واشتريت منها بُزّاً من بَزّ تهامة. وهي من صدر قنونا، أرضها لبارق"[٤٠]. أما ياقوت فيوَصِّل الاسم ومدلوله اللغوي على النحو الذي أشرنا إليه سابقاً، ثم يقول: "وحباشة: سوق من أسواق العرب في الجاهلية"، ثم يورد حديث عبدالرزاق عن معمر عن الزهري؛ المتضمن قصة متاجرة النبي، صلى الله عليه وسلم، للسيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها[٤١]، وهو حديث يطول ذكره ويخرجنا عن سياق هذا البحث.

من هذه الأقوال وغيرها يتضح: أن حباشة من الأسواق العربية الموسمية المشهورة في الجاهلية والإسلام، وأنها تقع في ديار الأزد، القبيلة العربية المشهورة، قبل الإسلام وبعده، حتى عصر الناس هذا، وهي (أي سوق حباشة) ناحية، أو عمل من أعمال مكة المكرمة عليها وال يعينه أمير مكة في زمان ازدهارها، ولايزال موضعها، ومايحيط به من قرى وبلدات تتبع إمارة منطقة مكة المكرمة في وقتنا الحاضر، وهي جزء من محافظة القنفذة، بمركز العرضية الذي يشكل أهم قطاع من قطاعات المحافظة كما سيأتي.

ويتضح كذلك أنها تقوم في شهر رجب من السنة، وأن مدتها ثمانية أيام على رأي البكري، وكان يرتادها إلى جانب من حولها أناس من اليمن، ومن مكة المكرمة، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو من أهل مكة، تاجر إليها، مع رجل آخر من قريش، في بضاعة للسيدة خديجة رضي الله عنها، ونقدّر أن هذين الرجلين ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرافقه ـ ماهما إلا دليل على وجود مئات من المكيين، والحجازيين عامة، الذين كانوا يهبطون إلى سوق حباشة في كل موسم من مواسمها السنوية.

وعلى الرغم من أهمية هذا السوق، وكثرة مرتاديه ممن حوله من القبائل الساكنة في ديار الأزد، بما فيها بارق، وكذا مرتاديه من اليمن والحجاز؛ فإن المصادر التي تحدثت عنه لم تحدد له مكاناً بعينه على وجه الدقة واليقين، وأن الإطار الجغرافي الذي أوردته تلك المصادر طويل وعريض وعائم، فهي سوق للأزد، وموقعها في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونا[٤٢]، وهذا القول يزيد الأمر صعوبة للمتأمل فيه، ومشقّة على من يحاول التوفيق بين عباراته؛ بغية الوصول إلى مكان محدد لموقع السوق أو قريب منه؛ فكونه سوقاً للأزد، وفي صدر قنونا فذلك قول أقرب إلى القبول، إلا أن عبارة: "ديار الأوصام من بارق" تدعونا إلى التريُّث قليلاً، إذا أخضعنا هذه العبارة لمعايير معرفتنا، في الوقت الحاضر، لحدود بارق الواقعة على مسافة (٢٠) كم تقريباً إلى الجنوب، مما يعتقد أنه موقع السوق كما سيأتي، ويفصل بين تلك الحدود والموضع المقترح؛ امتداد قبيلة بني شهر وديارها، وكذا امتداد بعض ديار قبيلة بَلْقَرْن التي يقع السوق في ديارها، إلا إذا افترضنا أن حدود قبيلة بارق في الماضي غير حدودها

اليوم، وأنها كانت فيما مضى تمتد إلى هذا المكان المقترح للسوق في زمن ازدهاره، خصوصاً وأن حدود القبائل لاتظل على حالها مدداً طويلة كهذه المدة، فبعضها ينداح ويتسع، وبعضها يتراجع وينكمش مع الزمن نتيجة لظهور قبيلة على أخرى، أو هجرة إحداهما إلى خارج حدودها، مفسحة المكان للقبيلة أو القبائل المجاورة. أما كون هذا السوق للأزد فهو لايغير شيئاً من وجه الحقيقة؛ لأن بارق أزدية، والقبيلة التي يقع موضع السوق الحالي في حدودها بعد تحقيقه (وهي قبيلة بَلْحَارِث من بَلْقَرْن المعروفة) أزدية كذلك[٤٣].

تحقيق موضع السوق:

سبقت هذا البحث محاولتان لتحديد موضع سوق حباشة على الطبيعة: الأولى أجراها حسن بن إبراهيم الفقيه الذي ناقش موضع السوق، ومختلف العوامل المؤدية إلى قيامه في المكان الذي حدده[٤٤]، والثانية أجراها عبدالله أبو داهش، وفيها اتفق مع سابقه، ونقل نصوصاً أكثر دقة وتحديداً؛ عن الباحث عبدالله بن حسن الرزقي، وهو من أبناء المنطقة العارفين بها، والقريبين منها، وله دراسات واجتهادات وتفسيرات على جانب كبير من الأهمية، فهو ـ كما ينقل عنه أبو داهش ـ يحدد موضع السوق بأنه: يقع على الضفة الجنوبية لوادي قنونا بالقرب من الفائجة (الفايجة – القرية التاريخية المعروفة) التي يبعد عنها السوق بمسافة تقدر بخمسة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي في موقع يعرف باسم الخَوَاري في حداب القَرْشَة المعروفة اليوم[٤٥]. ويقول: "هنا في موضع السوق: آثار.وردوم وحجارة مركومة، وبعض القبور، ودوائر ظاهرة في الأرض تختلف في سعتها، وقلة مساحتها لعلها حظائر لبيع الأغنام، أو مواضع للنخاسة، وغير ذلك، وفي تلك الأرض الواسعة التي تقدر مساحتها بنحو كيل في نصف الكيل توجد أحجار بركانية سوداء فيها: قطع فخار، وأخرى قطع من الحجارة ذات اللون الأخضر التي يظن بأنها تكوين الأرض نفسها ذات العروق الملونة والغرابيب السود"[٤٦]. وهذا المكان الذي جرى تحقيقه يعرف بين الأهالي حتى اليوم باسم السوق، ولكن لا أحد منهم يعرف أي سوق هو مما يعزز الاحتمالات عند الباحثين بأنه موضع سوق حباشة[٤٧]، وأنه على الرغم من اندثاره ظل الأهالي يتوارثون الوظيفة التي كان يقوم بها هذا الموضع، وهو انعقاد سوق حباشة على ترابه.

زمن انعقاد السوق ومدة انعقاده وخرابه:

من الثابت أن سوق حباشة كان يعقد في شهر رجب من كل عام، وأنه يبدأ في الأول منه، ولكن مدة انعقاده محل خلاف في المصادر التي عُنيت به؛ فمن قائل إنها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب، وهذا القول للأزرقي وتابعه تقي الدين الفاسي[٤٨]، ومن قائل إنها ثمانية أيام على حد مايورده البكري[٤٩]. ويغلب على الظن أن قول البكري هو الراجح، لأن جميع الأسواق الموسمية التي مرّت بنا لاتقل مدد انعقادها عن ثمانية أيام؛ ولأن ثلاثة أيام ليست كافية لسوق موسمي يعقد مرةً في السنة، ويفد إليه البائعون والمشترون من مسافات طويلة، وهذه المدة لاتكفي لراحتهم وراحة مطاياهم التي يفدون عليها، فضلاً عن بيع مامعهم وشراء مايحتاجون

إليه، وقضائهم لجميع حوائجهم التي قدموا من أجلها، هذا إلى أن من الأسواق الوعدية القريبة من موضع سوق حباشة مايمكث ثلاثة أيام، ومنها على سبيل المثال: سوق المخواة الحالي بمحافظة المخواة، منطقة الباحة المجاورة. ومما يرجح قول البكري أيضاً، أن المتأمل في نص الأزرقي يدرك أن الأيام الثلاثة الواردة فيه هي مدة إقامة الرجل الذي يبعثه والي مكة إليها على رأس جند من قبله، فهو يقول: "وكان والي مكة يستعمل عليها رجلاً يخرج معه بجند، فيقيمون بها ثلاثة أيام من أول رجب متوالية"(٥٠). وهكذا نلاحظ أن هذه الأيام الثلاثة تخص إقامة هذا الوفد، وليس مدة انعقاد السوق التي يشير إليها البكري صراحة بقوله: "سوق للعرب معروفة بناحية مكة، وهي أكبر أسواق تهامة، كانت تقوم ثمانية أيام في السنة"(٥١) فالتصريح هنا واضح بقوله: "كانت تقوم ثمانية أيام في السنة"(٥٢).

أما عن تاريخ خرابها فهو محل اتفاق وإجماع، عند سائر من كتب عن هذه السوق، في القديم والحديث، ولذلك قصة متواترة في المصادر التي أوردتها، وهي أن إحدى قبائل الأزد صاحبة السوق: قتلت والياً عليها من قبيلة غني كان قد ولاه عليها أمير مكة داود بن عيسى بن موسى في سنة ١٩٧هـ/٨١٣م، فلما وصله الخبر استشار فقهاء أهل مكة، فأشاروا عليه بتخريبها فخربها منذئذ "وتركت إلى اليوم"(٥٣) على حد قول الأزرقي، أي في زمانه من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نتيجة لتلك المشورة الظالمة التي لم تكن موفقة بحال من الأحوال، وكان من المفروض أن يأخذ الفاعلين بجريرتهم لا أن يخرب سوقاً عُمّر لأكثر من قرنين من الزمان، ويقطع مورداً اقتصادياً لابد أنه كان يعيش عليه قطاع كبير من الناس، وأنه كان من الممكن أن يتطور مع السنين ويتسع ويكبر، ويستمر إلى عصر الناس هذا، خصوصاً وأن المنطقة التي كان يقوم فيها منطقة خصب وزراعة، وكثافة سكانية ملحوظة إلى اليوم.

ويجرنا خراب هذا السواق إلى تقدير عمرها، الذي لانعرف عنه شيئاً في المصادر المتاحة على وجه التحديد، ولتحقيق تلك الغاية: لابد من البحث عن بدايتها الأولى التي لانعرف عنها شيئاً في المصادر المتاحة كذلك، وإنما هناك حادثة يتيمة ارتبطت بالسوق في عصر ماقبل الإسلام، تلك هي حادثة مقتل الشاعر والعدّاء المشهور الشَّنْفَرى الأزدي، وهو عائد من سوق حباشة في رواية طويلة يوردها صاحب الأغاني(٥٤). وحيث إن هناك من الدارسين من يجعل مقتل الشَّنْفَرى الأزدي في سنة ٧٠ق. هـ/ ٥٢٥م، وهو عائد من سوق حباشة، التي ربما قدم إليها من ديار قبيلة فَهم القاطنة في تهامة بالقرب من مكة المكرمة(٥٥)، مما يعني أن هذا السوق كان عامراً قبل هذا التاريخ بزمن، بل ربما كان ـ حينذاك ـ في أوج عمرانه، وقمة ازدهاره. أي أن هذا التاريخ المذكور ليس تاريخ بدئه، وإنما هو دليل على أنه كان موجوداً وعامراً قبله، ربما بزمن ليس بالقصير. أما بعد هذا التاريخ فإن المدة التي عاشها السوق حتى خرابه أو تخريبه في عام ١٩٧هـ/٨١٣م فتقدر بأكثر من ٢٦٧ عاماً، وبذلك فإن سوق حباشة يعدّ من أقدم الأسواق الموسمية العربية في منطقة مكة المكرمة، ومن أطولها عمراً، ومن أجدرها بالعناية، وبعودته إلى الحياة كما سيأتي.

سوق حُبَاشَة والعُمْرة الرَّجَبِيَّة:

من الثابت أن سوق حباشة كانت تعقد في شهر رجب من كل عام، وأن هذا الشهر من الأشهر الحرم التي كانت العرب تحرم فيها الاقتتال، وأن شأنه في ذلك شأن أشهر الحج التي كانت تنعقد فيها الأسواق الثلاثة السابقة، وهي عكاظ ومجنّة وذو المجاز. فما علاقة موعد انعقاد سوق حباشة، في هذا الشهر، بالعمرة الر جبية التي كانت موسماً من مواسم أهل مكة في جاهليتهم وإسلامهم؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال: تجدر الإشارة إلى أن العرب في الجاهلية كانت تحرّم العمرة في أشهر الحج، وهي شوال والقعدة والحجة، وربما في شهر المحرم الذي يتلوها كذلك، وكانت تقول: "إذا برأ الدَّبَر، وعفى الوَبَر، ودخل صفَر، حلّت العُمْرَة لمن أعتمر"[٥٦]. أي أن العمرة كانت تحل عند العرب في الجاهلية بدءاً من شهر صفر، وربما كان شهر رجب من أكثر الشهور تفضيلاً للعمرة عندهم . أما عند أهل مكة والجهات المتصلة بها، فهو موسم عظيم لهم في جاهليتهم وإسلامهم، يقول ابن جبير: "وهذا الشهر المبارك (شهر رجب) عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، وهو أكبر أعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً يتوارثونه خلفاً عن سلف متصلاً ميراث ذلك إلى الجاهلية؛ لأنهم كانوا يسمونه مُنْصِل الأسنة. وهو أحد الأشهر الحرم"[٥٧]. ثم استمر الاعتمار في رجب متصلاً في الإسلام، وكانوا يسمون العمرة فيه باسم العمرة الرجبية. وكانت عند أهل مكة موسماً عظيماً يضاهي موسم الحج. يقول ابن جبير: "والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العَرَفِيَّة، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله، ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل"[٥٨]. ويقول عنها ابن بطوطة: "وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله، وهي متصلة ليلاً نهاراً، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة، وخصوصاً أول يوم منه، ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين، فإنهم يستعدون قبل ذلك بأيام"[٥٩].

ويغلب على الظن أن هذه العمرة الرجبية، المهمة في الجاهلية والإسلام، التي كان يحرص عليها أهل مكة، وأهل الجهات المتصلة بها، حتى إنهم – على ما يذكر ابن جبير – كانوا يعدونها موسماً يضاهي الوقفة بعرفة على [٦٠]. فمن المحتمل، والحالة هذه، أن لموسم سوق حباشة صلة بها، وأنه كان محطة من محطاتها، كما هو الحال بالنسبة للأسواق الثلاثة الموسمية الأخرى، من أسواق منطقة مكة المكرمة، التي كانت في واقع الأمر محطات ثلاث متتالية، من المحطات التي تسبق الحج إلى مكة المكرمة، وتتصل به، وتفضي إليه. فسوق حباشة يعقد في الأول من رجب، ويستمر ثلاثة أيام أو ثمانية منه، يقدم إليه المعتمرون خلالها من السراة وتهامة واليمن، فيرتاحون فيه من عناء السفر، وترتاح مطاياهم، ويتزودون منه بمؤونة الطريق، ويجلب إليه الجالبون بضائعهم، ويشتري منه الشارون ما يجلبونه إلى مكة من بضائع لبيعها في موسم العمرة الرجبية، ذلك الموسم الذي يشهد فيه سوق مكة رواجاً لا يقل عن رواجه في موسم الحج. فإذا صح هذا التقدير فإنه يجيب على السؤال الذي سبق طرحه من قبل، وهو: ما صلة موعد انعقاد سوق حباشة في هذا الشهر بالعمرة الرجبية التي كانت كانت موسماً من مواسم أهل مكة.... الخ ؟ فالعمرة الرجبية في مكة تنعقد في كل أيام رجب، ولكن

آكدها في ثلاثة أيام منه، هي اليوم الأول، واليوم الخامس عشر، واليوم السابع والعشرين، على حد قول ابن بطوطة[٦١]. وهذا اليوم الأخير يصادف ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، بحسب العرف السائد في بعض الأقاليم الجنوبية، وغالباً ما تكون عمرة أهالي جنوب مكة في اليومين الأخيرين المشار إليهما، وهما ١٥، ٢٧ من رجب، بل إن شهر رجب عندهم موسم مهم لزيارة المدينة المنورة، والصلاة في مسجد النبي، صلى الله عليه وسلم. وقد أدركت هذا التقليد في صغري، ولازلتُ أذكر أن العمرة في رجب، ثم زيارة المدينة المنورة في هذا الشهر؛ تعدّ من أهم القربات، ولا يقدر عليهما إلا من كان ذا حظ عظيم وعزيمة قوية.

ويفسر هذا القول ما تتحدث عنه بعض المصادر عمن يسمونهم: "السرو المائرين" أي الذين يجلبون الميرة إلى مكة من أهل السراة وما حولها، فهم يوصفون بأنهم قوم أشداء فصحاء، يجلبون إلى مكة أصنافاً شتى من منتوجات ديارهم، التي يعتمد عليها المكيون والمجاورون والمعتمرون في غذائهم : يقول ابن جبير : "ومن لطيف صنع الله عز وجل، .... أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو، وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة .... يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام، فيجمعون بين النية في العمرة، وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبيا إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ، ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً مُوَقَّرة بجميع ما ذكر. فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه، يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار ، وتعم المرافق . فيعد الناس منها ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى. ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش"[٦٢]. ويقول عنهم ابن المجاور : "فإذا دخلوا مكة ملأوها خبزاً من الحنطة والشعير، والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما يشابه ذلك"[٦٣]. وأخيراً نختم بقول ابن بطوطة: "وأهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها"[٦٤].

وعلى الرغم من أن بلاد بجيلة وغامد وزهران؛ هي دون موقع سوق حباشة، مما يلي مكة المكرمة، وأن بعض منتوجاتها ربما كانت تجلب مباشرة منها إلى مكة، فإننا لا ينبغي أن نغفل دور باقي أقاليم السراة، ولا دور أهلها الواقعة ديارهم إلى الجنوب من السوق، وهي ديار أوسع من ديار بجيلة وغامد وزهران، وخيراتها أكثر، وصلتها بالسوق قوية، لأنها تقع في تهامتهم، وفي طريقهم إلى مكة المكرمة، فضلاً عن مجلوبات أهل اليمن إلى سوق حباشة، ثم منها إلى مكة المكرمة، ومن أمثلتها البَزّ، المشار إليه سابقاً. والبزّ كلمة جامعة شاملة لمختلف أنواع الثياب التي كانت تُنسج وتُصبغ في اليمن، وخصوصاً في تهامتها، لأن تهامة، المنسوب إليه هذا البَزّ، ليست ما يعرف بتهامة الشام أو تهامة عسير، وإنما هي تهامة اليمن التي اشتهرت بهذه الصناعة حتى عهد ليس بالبعيد، وبصورة خاصة مدينتي زبيد وبيت الفقيه[٦٥]. ومن هنا ينبغي ألا نغفل دور سوق حباشة في إمداد سوق مكة بكثير مما يجلب إليه ويشترى

منه، من منتوجات السراة واليمن، وخصوصاً في مواسم العمرة ومنها موسم العمرة الرجبية؛ التي نعتقد أن هذه السوق محطة من المحطات المفضية إليها في مكة المكرمة.

يتضح مما سبق: أن مكة المكرمة كانت منطقة أسواق موسمية قديمة، وأن منها ما ارتبط بالحج، وهي سوق عكاظ ومجنّة وذو المجاز، ومنها ما ارتبط بالعمرة الرجبية ، وهو سوق حباشة، وأن هذه الأسواق متقاربة في وظائفها من حيث: المجلوبات وحركات البيع والشراء ، ومن حيث: الأغراض الأخرى المتمثلة في المفاخرات والتقاضي وفداء الأسرى، وتبادلهم، وطلب الثأر وغيره. كما يتضح أن هذه الأسواق الأربعة؛ كلها عمرت مدداً طويلة منذ ما قبل الإسلام، فعصر الخلافة الراشدة، فالعصر الأموي، ثم إلى الشطر الأعظم من العصر العباسي الأول. ولأهمية إعادة إحياء هذه الأسواق، بوصفها موروثاً حضارياً وتاريخياً وثقافياً - أجد لزاماً علي في نهاية هذه الورقة المتواضعة: طرح التوصيات الآتية:

التوصـــــيات:

١- تحديد أمكنة هذه الأسواق، وإحاطتها بأسوار من قبل الهيئة العامة للسياحة والآثار، بوصفها أمكنة تاريخية وتراثية، وقد تكون بها معطيات أثرية مدفونة وشاخصة، وخصوصاً موقعي سوق مجنة وسوق حباشة، لأن سوق عكاظ أصبح معلوم المكان، وسوق ذي المجاز في منى التي يصعب إجراء أي نشاط فيها، في الوقت الحاضر، غير ما تختصّ به من المبيت بها في أيام الحج، فضلاً عما جرى فيها من شق الطرق، وبناء الجسور والأنفاق، وبعض المرافق والخيام مما يكون قد غطى، عبر التاريخ، على أي أثر لسوق قديم فيها، غير سوقها التي تنشط في يوم التروية، وفي أيام التشريق الثلاثة التي تعقب الوقفة بعرفة.

٢- تشجيع الدراسات والبحوث حول نشاط هذه الأسواق، باستخدام مختلف المناهج والأساليب والأدوات المؤدية إلى زيادة معلوماتنا عن هذه الأسواق، وإلى تقدّم المعرفة الإنسانية بها.

٣- توثيق التراث التقليدي في البيئة المحيطة بهذه الأسواق، وخصوصاً سوق حباشة على أن يشمل التوثيق: الأسواق الوعدية المنتشرة في محيط السوق، ومعرفة جميع المجلوبات إليها، وما يباع فيها ويشترى قديماً وحديثاً، وإجراء مقابلات، مع كبار السن، لمعرفة الصورة التي كانت عليها تلك الأسواق قبل الطفرة الحديثة، وكذلك معرفة القوانين والأعراف القبلية التي كانت سائدة بخصوصها.

٤- إعادة إحياء هذه الأسواق، وتفعيل نشاطها التجاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتجربتنا في سوق عكاظ تجربة ناجحة، وهي في سبيلها إلى التطور والتقدم والارتقاء كل عام.

ومن منطلق هذه التجربة الناجحة في سوق عكاظ: يتعين علينا النظر في تطبيقها على الأسواق الثلاثة الباقية، وهي مجنة وذو المجاز وحباشة، وإنما بدرجات متفاوتة، خصوصاً إذا أخذنا في الحسبان: تشابه طبيعة هذه الأسواق بسوق عكاظ ، وقرب أزمان انعقادها، وطبيعة مرتاديها، ودوافعهم من ارتيادها وهكذا. فإذا نظرنا إلى كل هذه العوامل مجتمعة؛ فإننا نلحظ أن سوقي مجنّة وذي المجاز هما نسخة من سوق عكاظ، مع فارق الشهرة التي تميز سوق عكاظ

عن السوقين الباقيين، فهما يعقدان على التوالي بعد سوق عكاظ، وفي موسم واحد هو موسم الحج، ودائرة واحدة مسافتها غير متباعدة ، ومعظم مرتاديها من الحجاج الذين في سبيلهم إلى تأدية شعائر حجهم إلى مكة المكرمة . في ظل هذا التشابه، والتقارب في الزمان والمكان والأهداف والغايات فإن مهرجان سوق عكاظ يغني عن السوقين الباقيتين، وخصوصاً ذي المجاز، لأنه في منى، وفي شهر ذي الحجة، ومنى كلها سوق، والكل مُستنْفَر في خدمة الحجيج والسهر على راحتهم.

أما سوق حباشة، فأولى بأن تعود إليه الحياة، وأن يقام على أرضه مهرجان سنوي ذو أغراض متعددة، تأتي الثقافة على رأسها، وذلك لعدة اعتبارات منها.

أ) أنه كان يعقد في الأسبوع الأول من شهر رجب، متزامناً مع موسم العمرة الرجبية التي سبق ذكرها.

ب) أن سوق حباشة بعيد زماناً ومكاناً عن سوق عكاظ والسوقين التاليين له (مجنة وذو المجاز) من حيث موضعه وزمن انعقاده، فالفارق بينهما في الزمان حوالي ٥ أشهر، وفي المكان أكثر من ٣٠٠ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي. واختيار شهر رجب تاريخاً لانعقاده كل عام سيكون اختياراً موفقاً -دون شك-لأن شهر رجب يقع في منتصف السنة تقريباً، والفارق الزمني بينه وبين تاريخ انعقاد مهرجان سوق عكاظ، حوالي أربعة أشهر، إذا أخذنا في الحسبان أن مهرجان سوق عكاظ يعقد في شهر شوال من كل عام، وهو ما استقر عليه الرأي حتى الآن.

ج) يمثل موقع سوق حباشة الكفّة الثانية لميزان إمارة المنطقة، في مقابل الكفّة الأولى التي يمثلها موقع سوق عكاظ، فضلاً عما لمحيط السوق وبيئته من تراث مميز؛ يجمع بين ثقافة تهامة والسراة، وبين جنوب الحجاز، ومنطقتي عسير والباحة.

د) ارتبط السوق بحدثين تاريخيين مهمين: أحدهما ديني، ويتمثل في ما سبقت الإشارة إليه من حضور النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى سوق حباشة في تجارة للسيدة خديجة رضي الله عنها. والثاني ثقافي، وهو ما كان سبباً في تأليف واحد من أهم المعاجم الجغرافية؛ الذي لا يستغني عنه أي باحث أو دارس على مدى تاريخه، وحتى عصر الناس هذا، ذلك هو: معجم البلدان لياقوت، الذي يسرد قصه تأليفه بقوله: "وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب، أنني سئلت بَمرْو الشاهجان في سنة خمس عشرة وستمائة في مجلس شيخنا الإمام السعيد الشهيد فخر الدين ابي المظفر عبدالرحيم ابن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبي سعد عبدالكريم السمعاني تغمدهما الله برحمته ورضوانه... عن حُبَاشَة بضم الحاء، قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة، لأن الحُبَاشَة: الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبشت له حباشة أي جمعت له شيئاً . فانبرى لي رجل من المحدِّثين ، وقال : إنما هو حباشة بالفتح. وصمَّمَ على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة وناظر، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ، إذ لا مُعَوَّل في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل، فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بَمرْو يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها، فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأسٍ من وجوده ببحث وافتراء، فكان موافقاً والحمد لله لما قلته، ومكيلاً بالصاع

الذي كلته، فألْقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً، وبالاتفاق وتصحيح الألفاظ مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً، وإلى ضوء الصواب داعيًا، ونبّهت على هذه الفضيلة النبيلة، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون، ولم يهتد لها الغابرون»[٦٦].

كل هذه الأسباب والعوامل التاريخية والجغرافية، والموروث الحضاري والتراثي والثقافي، وظروف الزمان والمكان، تجعلني أتقدم من على هذا المنبر باقتراح: إحياء سوق حباشة ببلاد بالحارث القُرنية بمحافظة القنفذة ، وإقامة مهرجان ثقافي تراثي يحمل اسمه في شهر رجب من كل عام.

الإحالات والمصادر والمراجع

(١) ابن منظور، لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، (بيروت: دار لسان العرب، د. ت)، ح٢، ص٢٤٢.

(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط(١)، (بيروت، دار الملايين، ١٩٧١م)، جـ٧، ص٣٦٥.

(٣) الآية ٢٠ من سورة الفرقان.

(٤) الآية ٧ من سورة الفرقان.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، جـ٢، ص٢٤٢.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٨) السمهودي، نور الدين علي بن أحمد المصري، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ط٣، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، جـ٢، ص٧٤٨.

(٩) الأفغاني، سعيد؛ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط٢، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص٢٨٩، ٣٤٣.

(١٠) ابن منظور، لسان العرب المحيط، جـ١، ص٥١٨.

(١١) ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر . دار بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، جـ٥، ص٥٩.

(١٢) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، ط٢، (مكة المكرمة: مطابع مكة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥)، جـ١، ص١٩٠.

(١٣) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، (بيروت: عالم الكتب، د. ت) جـ٢، ص١١٨٧.

(١٤) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٥٩.

(١٥) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عبدالسلام تدمري، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، جـ٢، ص٤٥٣.

(١٦) الفاسي، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٧) اللحياني، البدر بن ستير، "سوق مجنة في عصريه الجاهلي والإسلامي"، في ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٢هـ)، جـ٢، ص٤٢٣.

(١٨) البكري، معجم ما استعجم، جـ٢، ص١١٨٧.

(١٩) اللحياني، "سوق مجنة"، ص٤٢٣.

(٢٠) اللحياني، المرجع نفسه، ص٤٢٤.

(٢١) اللحياني، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٢) الأفغاني، أسواق العرب، ص٣٤٥.

(٢٣) ياقوت، معجم البلدان، حـ٥، ص٥٩.
(٢٤) الأفغاني، أسواق العرب، ص٣٤٥.
(٢٥) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٥٥؛ الأفغاني، أسواق العرب، ص٣٤٧.
(٢٦) البكري، معجم ماسستعجم، جـ٢، ص١١٨٥.
(٢٧) الأفغاني، أسواق العرب، ص٣٤٧.
(٢٨) الأفغاني، المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٢٩) الأفغاني، المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٣٠) الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٤٥٠.
(٣١) الأفغاني، أسواق العرب، ص٣٤٨.
(٣٢) الأفغاني، المرجع نفسه، ص٣٤٩.
(٣٣) الأفغاني، المرجع نفسه، ص٣٤٩-٣٥٢.
(٣٤) ابن حبيب، أبو جعفر محمد الهاشمي البغدادي، كتاب المحبر، تحقيق ايلزه ليختن شتير، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، ص٢٦٧؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٤٥٠.
(٣٥) الأزرقي، أخبار مكة، جـ١، ص١٩٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٤٥١.
(٣٦) جواد علي، المفصل في تاريخ الإسلام، جـ٧، ص٣٧٥-٣٧٦.
(٣٧) ابن منظور، لسان العرب المحيط، جـ١، ص٥٥٢.
(٣٨) الفقيه، حسن بن إبراهيم، "حباشة"، في حوليات سوق حباشة، (أبها: النادي الأدبي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٣٩.
(٣٩) أخبار مكة، جـ١، ص١٩١.
(٤٠) معجم ما استعجم، جـ١، ص٤١٨.
(٤١) معجم البلدان، جـ٢، ص٢١٠-٢١١.
(٤٢) الأوصام: لاتُعرف قبيلة بهذا الاسم في سائر الامتداد الجغرافي المذكور في النص، لا قديماً ولا حديثاً، في حدود علمي، وقد ظننته تصحيفاً تتبعته في ألفاظ كثيرة قريبة لرسم الكلمة، فلم أجد أي دلالة له على قبيلة، أو على وصف جغرافي لطبيعة المكان. إلا أن هناك من الباحثين من يعدّه تحريفاً لاسم (الأواس) القبيلة الأزدية التي تقع هذه السوق في ديارها. انظر: الفقيه، "حباشة"، ٣٩.
(٤٣) الفقيه، حسن بن إبراهيم، "أين يقع سوق حباشة؟"، في حوليات سوق حباشة، ط١)، (الناشر ومكان النشر لم يذكران، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، العدد ١٥، السنة ١٥، ص٢٢.
(٤٤) الفقيه، المرجع نفسه، ص٢٢-٢٣.
(٤٥) أبوداهش، حوليات سوق حباشة، ص٣٨-٣٩. في مهاتفة بيني وبين الأستاذ عبدالله الرزقي أكد لي مكان السوق، وحدد المسافة بينه وبين قرية الفايجة التي ينسب إليها سوق ربوع الفايجة المشهور، بحوالي خمسة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي عن الفايجة في المكان المذكور في النص، وأجدني مديناً للأستاذ الرزقي في كثير من المعلومات، وتفسير بعض الظواهر الجغرافية والآثارية المحيطة بالسوق، فشكراً له من الأعماق مع صادق الدعوات له بالأجر والثواب، والتوفيق والسداد.

(٤٦) أبو داهش، حوليات سوق حباشة، ع١٥، ص٤٠.
(٤٧) الفقيه، "أين يقع سوق حباشة؟"، ص٢٢.
(٤٨) أخبار مكة، جـ١/ ص١٩٢؛ شفاء الغرام، جـ٢، ص٤٥٢.
(٤٩) معجم ما استعجم، جـ١، ص٤١٨.
(٥٠) الأزرقي، أخبار مكة، ص١٩٢.
(٥١) معجم ما استعجم، جـ١، ص٤١٨.
(٥٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٥٣) الأزرقي، أخبار مكة، جـ١، ص١٩٢؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٤٥٢.
(٥٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، جـ٢١، ص١٩٠-١٩١.
(٥٥) الزركلي، خير الدين؛ الأعلام، ط٣، جـ٥، ص٢٥٨؛ أبو داهش، حوليات سوق حباشة، ع١٥، ٩١.
(٥٦) الأزرقي، أخبار مكة، جـ١، ص١٩٢. ومعنى النص: أنه إذا برأ دَبَر الإبل التي كانوا شهدوا الموسم وحجوا عليها، وعفا وَبَرُهَا. أما في الإسلام فإن الرسول صلى عليه وسلم أبطل هذا التقليد الجاهلي، وعُمَراته التي أدّاها في حياته كانت كلها في ذي القعدة وهي: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرته من الجعرانة، وأرسل زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع أخيها عبدالرحمن ليلة الحصبة فاعتمرت من التنعيم وهكذا انظر: الأزرقي، المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٥٧) أبو الحسين محمد، أحمد الكناني؛ رحلة ابن جبير، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص١٠٦.
(٥٨) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.
(٥٩) أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي؛ رحلة ابن بطوطة، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١٦٣.
(٦٠) ابن جبير ، رحلة ابن جبير، ص ١٠٦.
(٦١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٦٣.
(٦٢) رحلة ابن جبير، ص١١٠.
(٦٣) جمال الدين، أبو الفتوح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي، صفة بلاد اليمن المسماة: تاريخ المستبصر ، تحقيق أو سكر لوفغرين، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١م) ص٢٧.
(٦٤) رحلة ابن بطوطة ، ١٦٤.
(٦٥) المقحفي ، إبراهيم أحمد؛ معجم البلدان والقبائل اليمنية، (صنعاء: دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ، جـ(١) ، ص٧٣٤، جـ ٢،ص ١٢٢١).
(٦٦) ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص١٠.

علاقة الهند بجنوب الجزيرة العربية من القرن الأول إلي الثالث الميلادي

د. أماني خليفة محمد البحر (*)

قائمة الاختصارات

أولاً: المختصرات العربية

أ- مختصرات الكلمات

ت	تحقيق
ج	جزء
د.ت	دون تاريخ
د.ن	دون دار نشر
د.م	دون مكان نشر
د.ط	دون سنة طبع
ق.م	قبل الميلاد
م	ميلادي

ثانياً: المختصرات غير العربية

أ- مختصرات الكلمات

BK	Book
Intr.	Introduction
Trans	Translated
Vol	Volume

ب- مختصرات الدوريات

BASOR	Bulletin of the American Schools of Oriental Research
CAH	The Cambridge Ancient History
CHI	The Cambridge History of Islam

(*) أستاذ مساعدً بكلية الآداب للبنات – جامعة الدمام.

ظهرت المناطق الحضارية في جنوب شبه الجزيرة العربية مع نهاية النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، واكتسب صفات خاصة بها، وأخرى وردت إليها من غيرها من المناطق التي كانت ترتبط معها بعلاقات تجارية، وثقافية، أو حدثت تبادل فيما بينهم.

وفي هذا البحث سوف نسلط الضوء على علاقة اليمن بإحدى أهم هذه المناطق الحضارية وهي الهند التي ارتبطت معهما بعلاقات تجارية نشطه منذ أقدم العصور لما تمتعت به الهند من موقع متميز بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى لذلك تاجر معها أهل جنوب الجزيرة العربية بعد أن اكتشفوا سر الرياح الموسمية التي شجعتهم على تنظيم رحلات تجارية بحرية عديدة بين اليمن والهند[١].

تقع شبه جزيرة العرب في القسم الجنوبي من القارة الآسيوية وهي أقصى منطقة من هذه القارة في هذا الاتجاه، وتحدها مياه البحار من الشرق والجنوب والغرب، ليضم الجزيرة العربية قلب المشرق العربي لما كانت له من اتصالات قوية بالأقاليم المجاورة له منذ القدم[٢].

مما جعلها تتمتع بموقع استراتيجي، جغرافي، تمر به أقصر الطرق التجارية، من أغنى أقاليم العالم القديم، بفضل عمليات التبادل التجاري، البرية والبحرية التي برع عرب الجنوب في مزاولتها، وذلك بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر من الجهة الغربية، والمحيط الهندي، والخليج الفارسي من الشرق[٣].

وبصورة أكثر تفصيلاً فلقد هيئ لها موقعها الجغرافي الفرصة الكبرى لتطور الملاحة على شواطئ شبه الجزيرة العربية، فهي تمر بخط ساحلي بالغ الطول من ثلاث جهات، يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج العربي.

وتمر بالقرب من هذه السواحل، أخصب بقاع الجزيرة العربية، وهي اليمن وحضرموت وعمان، ولم يكن الاتصال بينهما بحراً أشد هولاً من عبور الصحراء والجبال التي تتصل بها براً. وكانت التجارة مع البلاد المجاورة تجد حافزاً إلى الغرب في الشواطئ الطويلة التي تبحر بها شمال افريقية الشرقي، وحافزاً إلى الشمال الشرقي في شواطئ فارس. وهذه الشواطئ وتلك تمتد محاذيه للشاطئ الغربي وهي غير بعيدة عنه مما هيئ للعرب اليمنيين سهولة الاتصال عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر، والخليج العربي بأهم مراكز التجارة العالمية آنذاك كشمال أفريقيا ومصر وفارس والهند[٤].

وأخيراً وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي، أصبحت الملاحة في المحيط الهندي في قبضة اليمنيين، والهنود على حداً سواء دون منازع في تلك القرون الثلاثة الأولى للميلاد[٥].

ولكي نكون أكثر تحديداً في حديثنا عن العلاقات التجارية لجنوب الجزيرة العربية بالهند فلابد أن نشير إلى اليمن[٦] والتي تقع في الركن الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ويتخللها العديد من المناطق السهلية أو الساحلية المطلة على عدن. أطلق عليها اسم العربية السعيدة Arabia Felix، وذلك لشدة ثرائها وخصوبة تربتها وأرضها[٧].

فهي تقريباً الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية الذي يتوفر فيه الأمطار مما أدى إلى الزراعة المنظمة أو المطردة بها، فضلا عما كان لموقعها الجغرافي المؤدي إلى الهند وبفضل منتجاتها التي تستهوي الأسواق في البلدان في العالم القديم كالبخور والأفاويه والبهارات، وأصبح

العرب اليمنيون الجنوبيون من أبرع وأغنى التجار[٨].

ويفضل هذا الموقع الاستراتيجي لليمن أصبحت أكبر سوقاً تجاري لتبادل السلع والبضائع الهامة، كما أصبح حلقة وصل تجارية هامة بين كلاً من الهند والحبشة، وشرق وشمال أفريقيا وآسيا وجنوب أوروبا[٩].

وبناءًا على ذلك ظهرت في اليمن العديد من المراكز التجارية، واهتمت بشكل كبير بالطرق البرية والبحرية على حداً سواء، وكانوا ينقلون البضائع إلى الأمم المجاورة لهم[١٠]. فازدهرت التجارة اليمنية وزادت ثروات الشعب اليمني الذي تمتع بقدر كبير من الرخاء المادي، والنفوذ السياسي الذي أعطى للمنطقة وضعاً مسيطراً داخل شبه الجزيرة العربية على نطاق واسع وهذا ما يؤكده لنا سفر الملوك[١١].

استقرت الدول اليمنية التجارية الجديدة في جنوب الجزيرة العربية وألفت حياة التوطن وعملت في التجارة والزراعة مثل زراعة البخور والتوابل والذي أخذوا يتاجرون به مع العديد من دول العالم القديم مثل الهند – كما سيرد بالتفصيل –[١٢].

وأصبح لأهل اليمن صيت ذائع في الشؤون التجارية لأن قوافلهم التجارية سواء البرية أو البحرية أخذت تتردد وبكثرة في أسواق التجارة الدولية[١٣] نستخلص هذا من النصوص الواردة في سفر أشعيا وحزقيال الذين قالوا بأن أهل سبأ كانوا من أعظم تجار الشرق الأدنى القديم وأغناهم[١٤].

فمن البديهي ان عرب اليمن الجنوبيين قد كسبوا مكاسب هائلة من هذه السلع التي كانوا يتاجرون بها ويشير بليني Pliny[١٥] إلى الحجم الهائل التي كانت تستورده الإمبراطورية الرومانية من شبه الجزيرة العربية فقال (إن الهند والصين وشبه الجزيرة العربية تأخذ منا كل عام مليون شركة) ثم ينتقل للحديث عن ثروات العرب الجنوبيين فيقول عنهم «في عمومهم أغنى أجناس العالم لأن ثروات واسعة تجتمع في أيديهم من روما لقاء ما يبيعونه لنا سواء من نتاج البحر (يقصد اللآلئ) أو من غاباتهم (يقصد الطيوب) دون أن يشتروا منا شيئاً مقابل ذلك»[١٦].

غني عن البيان أن نقطة الوساطة في طريق التجارة بين الإمبراطورية الرومانية والهند كانت تشغلها السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يدل على أن روما لم تكن قد وضعت المنطقة بعد تحت نفوذها، ولم تكن قد حصلت على تسهيلات تجارية كبيرة في موانئها[١٧].

وفي هذه الفترة كانت الدولة الحميرية[١٨] قد ظهرت في اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية (١١٥ ق.م – ٥٢٥م) وكانت هي المسيطرة على التجارة البحرية مع الهند، وكان التجار العرب يقومون بدور الوسيط التجاري بين التجار المصريين وزملائهم في الهند[١٩].

ان توسط بلاد اليمن بين أمم العالم القديم جعلها واسطة التجارة بينهم فكان بينها وبين الهند علائق تجارية وكان للهنود محصولات ومصنوعات يحتاج إليها كلاً من المصريين[٢٠] والآشوريين[٢١]

والفينيقيين[٢٢] وغيرهم فكان اليمنيين ينقلون هذه المواد إلى تلك الأمم في سفن البحر أو في قوافل البر، وكان على شواطئ اليمن فرض وموانئ ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو

وادي الفرات[٢٣].

ومن ثم نشط العرب اليمنيين في التجارة والوساطة بين الأمم المعاصرة لهم وأخذت سواحلهم تلعب دوراً تجارياً هاماً آنذاك[٢٤] هذه الوساطة التي لفتت نظر بعض المؤرخين الكلاسيكيين أمثال بليني ومؤلف كتاب الطواف بريبلس. فتحدثوا باستفاضة عن الثراء اليمني وبالتحديد السبئي والحميري من جراء تملك الوساطة التجارية[٢٥].

إذاً فجميع الشواهد تؤكد ان دول جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن السعيدة) كانت في هذه الفترة مركزاً للتجارة الدولية بين الهند وغيرها من دول العالم القديم[٢٦]. وان العرب استمروا في لعب دور الوسيط التجاري بين الأمم واستمروا في نقل السلع الهندية التي كانوا يتاجرون فيها مع سلع بلادهم التي ينتجونها مثل اللبان والمر[٢٧]. الذين أخذوا يتاجرون بها على طول الطرق البرية على ساحل البحر الأحمر غرب شبه الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال واستمر هذا الدور المزدهر الذي كانت بلاد اليمن السعيدة تلعبه ردحاً طويلاً من الدهر[٢٨].

ومما يجب الإشارة إليه هنا مدى حاجة شعب الإمبراطورية الرومانية لتلك السلع التي أطلق عليها بليني مصطلح (سلع الرفاهية الشرقية) والتي كانت عادةً تكلف الخزانة الرومانية مبالغ طائلة من المال لدرجة ان الإمبراطور تيبريوس ١٤-٣٧م Tiberius[٢٩] أبدى تذمره من ثروات الرومان التي كانت تنتقل إلى أمم عربية من خلال الملابس والمجوهرات النسائية والرجالية الباهظة الثمن[٣٠].

وبالإضافة إلى سلع الرفاهية الشرقية تلك كان هناك الطيب والبخور وهو أحد صادرات اليمن للإمبراطورية الرومانية والعالم القديم، ونعلم مدى أهمية البخور والذي كان يزنوه بميزان الذهب، ويشعلونه في جميع المناسبات الدينية أو الجنائزية أو الأفراح لذا فهو يعتبر على رأس هرم الواردات الرومانية من اليمن والتي كانت تدفع لأجله الأموال الطائلة[٣١].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل وقفت الأمم الأخرى والتي كانت تستورد المنتجات العطرية والتوابل مكتوفة الأيدي أمام هذا الاحتكار اليمني لإحدى أهم صادرات العالم القديم ؟.

والإجابة بالتأكيد لا لم تقف في مكان المتفرج وتترك مسرح التجارة العالمية في يد العرب اليمنيين ولكنها كانت لها محاولات عديدة كان الغرض منها فرض الحماية أو السيطرة الأجنبية على تلك التجارة والبضائع النفيسة[٣٢].

وتأتي محاولة الإسكندر الأكبر[٣٣] على رأس تلك المحاولات فمع بزوغ فجر العصر الهليني شهد الخليج العربي تقدم ملحوظ لأسطول الإسكندر الأكبر على موانئه التجارية[٣٤] فلقد عنى الإسكندر عناية فائقة بتنشيط الملاحة في الخليج العربي فستأجر الفينيقيين للملاحة فيه ودخل شواطئه، كما نقل كثيراً من السفن إلى بلاد مابين النهرين وبين بعض السفن مستعيناً بأشجار السرو وأرسل ثلاث سفن أبحرت جنوباً للاستكشاف، وصلت إحداهن إلى البحرين حيث شاهد رجالها مصائد اللؤلؤ هناك[٣٥].

وأخيراً قرر الإسكندر إرسال حملة بحرية بقيادة نيرخوس انطلقت من مصب نهر السند مارة بسواحل ماكران، إلا أن هذا المشروع انتهى بوفاة الإسكندر عام (٣٢٣ ق.م) وتعطل تدخل الإغريق في تجارة التوابل والعطور لمدة قرنين من الزمن[٣٦].

وعندما تقاسم قادة الإسكندر الأكبر الشرق الأدنى بعد وفاته استقر البطالمة في مصر في أواخر القرن الرابع ق.م واستقر السلوقيين في سوريا، إلا أن البطالمة أرادوا أن يحققوا حلم الإسكندر في السيطرة على هذه التجارة اليمنية وكسر الاحتكار اليمني لها[٣٧].

فعملوا على استغلال السواحل الطويلة المطلة على البحر الأحمر إلى أقصى الجنوب وكانت تلك المحاولة البطلمية بهدف السيطرة على تجارة اليمن في عدة مراحل[٣٨].

أسفرت هذه المراحل الاستعمارية عن بدء رحلة منظمة للسفن البطلمية منذ عام ١٢٠-١١٠ ق.م إلا أن ويسبب الفوضى والتدهور السياسي الذي حل بأركان الدولة البطلمية أواخر عصر ملوكها توقفت إلى حداً ما تلك التجارة[٣٩].

وبدأت الإمبراطورية الرومانية تخرج على مسرح الأحداث السياسية والتي تعتبر منافس أشد خطراً منهم، يتمثل هذا النفوذ الروماني واضحاً في عصر الإمبراطور أغسطس Augustus (٢٧ ق.م - ١٤م) الذي أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم دون منازع منذ أواخر القرن الأول ق.م، ولم يكتفي أغسطس بالنشاط العادي الذي يقوم به أعوانه من الإغريق في تجارة الهند والبحر الأحمر، إنما أراد أن يقضي على العرب اليمنيين ويكسر احتكارهم وسيطرتهم على تجارة التوابل والعطور تماماً، ويحولهم للعمل في خدمة الإمبراطورية الرومانية[٤٠].

فعمل على حث المصريين على تنظيف القنوات النيلية في زمنه وبذلت الجهود لإنعاش التجارة في البحر الأحمر، ووضعت حاميات مسلحة على السفن التي تسير في ذلك البحر، واستمر هذا الوضع فترة من الزمن، استخدم في سبيل تحقيقه كل الأساليب العسكرية المتطورة آنذاك وظهرت سلسلة من التحصينات الرومانية في جميع أنحاء البحر الأحمر من الشمال إلى شمال الحجاز كل ذلك بغرض فرض السيطرة على طرف التوابل والعطور الثمينة[٤١].

ومما ساعد على زيادة حركة القرصنة تلك الشعب المرجانية التي كانت منتشرة على طول سواحل البحر الأحمر، ناهيك عن خلو البحر آنذاك من الموانئ الصالحة أو بالكاد يتوفر الملجأ الآمن للبحارة من أخطار العواصف أو من هجوم القراصنة الجياع[٤٢].

وكانت الصورة البراقة المشرقة التي أشاعها الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان في عالمهم الغربي عن ثراء بلاد العرب هي الحافز فيما بعد لحكام الرومان على محاولة التدخل في بلاد اليمن ومما قاله استرابون[٤٣] «ان السبئيين كانوا من أكثر القبائل ثراء نتيجة لتجارتهم في المواد العطرية ولهذا توفرت لديهم كميات من مصوغات الذهب والفضة كالأسرة والموائد الصغيرة والأواني والكؤوس فضلاً عن قصورهم الرائعة التي كانت أبوابها، وجدرانها، وسقوفها بمختلف الألوان».

وليس من الضروري بطبيعة الحال تصديق هذا التصوير المبالغ فيه ومن المحتمل أنه كان كاذباً لأثاره أطماع الرومان الطموحيين إلى السيطرة والاستغلال، وهكذا أصدر الإمبراطور أغسطس إلى نائبه الروماني في مصر اليوس جاليوس (Aelius Gallus) بأن كلفه بمهمة إرهاب العرب واحتلال أرضهم[٤٤].

وبناءاً عليه جهز جيشاً كثيفاً وانضم إليه عدد من اليهود المخالفين له وانطلقت الحملة الأولى هذه في عام ٢٤ ق.م على متن أسطول كبير ولكنها باءت بالفشل، وفقدت كثيراً من

سفنها ورجالها ولم تحقق الغرض الأساسي الذي خرجت من أجله وهو السيطرة على تجارة الطيوب في اليمن[٤٥].

ولم تكن تلك الحملة الأولى والأخيرة التي أرسلتها الإمبراطورية الرومانية إلى اليمن، ولكن تلتها حملة أخرى أرسلها الإمبراطور أغسطس أيضاً عن طريق البحر في وقت لاحق (ربما بعد عشرين عاماً) إلى هذه المنطقة تحت قيادة ابنه بالتبني جايوس قيصر Gaius Caisar ولكن يبدو أن هذه الحملة لم تستغرق وقتاً أو جهداً كبيراً إذ يذكر لنا بليني أن القائد لم يفعل أكثر من إلقاء نظره سريعة على بلاد العرب ثم رحل عنها[٤٦].

ولما عجز الرومان عن تحقيق مايصبون إليه من الإشراف على الموانئ العربية بالقوة، بدئوا في استعمال الطرق الدبلوماسية فأخذت تحالف ملوك اليمن، فحالفت ملك ظفار الحميري على شرط أن يكون ذلك التحالف مقرون بوجود حامية عسكرية رومانية في ميناء عدن[٤٧] بعد أن دمر بواسطة القوات الرومانية لأنه كان يشكل تهديداً كبيراً وخطراً واضحاً على مصالح الإمبراطورية الرومانية في البحر الأحمر والخليج العربي على حدا سواء[٤٨].

وأخيراً فلقد كان للنشاط التجاري اليمني دوراً خطيراً في إسالة لعاب كل القوى الطامعة فيه مثل الفرس الذين أخذوا بفرض الضرائب الهائلة على البضائع المارة إلى الإمبراطورية الرومانية[٤٩] فأصبحت الإمبراطورية بين فكي أسد من الجهة الأولى التجار اليمنيين ومن الجهة الأخرى التجار الفرس مما دفعها إلى عقد تحالف مع الحبشة لمهاجمة اليمن والاستيلاء على تجارتها البحرية مع الهند[٥٠].

ارتبطت الهند واليمن بصلات تجارية وحضارية قوية فلقد كانت البضائع الهندية تنقل إلى اليمن بحراً وكذا الحال بالنسبة للبضائع اليمنية، التي كانت تصل إلى الهند، وتباع هناك في الأسواق الهندية الدائمة الطلب لبضائع اليمن[٥١].

لذا حرص التجار اليمن على إنشاء أسطولاً بحري يغدو ويروح بين الهند وجنوب بلاد العرب بأصناف المتاجر، ومختلف أنواع البضائع وكونوا هناك – أي اليمنيين – سلطة ونفوذ دونه كل نفوذ، وقبضوا على زمام التجارة في الهند واحتكروا غلات البلاد – وسوف يرد تفصيل ذلك لاحقاً –[٥٢].

من هنا نستطيع القول بأنه كان للتجار اليمنيين الزعامة والسلطة في الهند مكنتهم من الاستيلاء على عصب التجارة الهندية[٥٣] فاستقروا بها واستوطنوا أرضها وعمروها[٥٤].

وبناءاً على ماسبق زادت ثروات الشعبين لدرجة دفعت المؤرخين الكلاسيكيين للحديث عنها وبتوسع مما لفت لها أنظار الدول الاستعمارية الطامعة في الثراء والرفاهية[٥٥]. وخصوصاً وان كلاً من البلدين فرضت ضرائب جمركية على تجارة الترانزيت القادمة من الهند واليمن وإلى غيرها من مناطق العالم المختلفة[٥٦].

والآن ننتقل للحديث عن السبب في ازدهار هذه التجارة الهندية اليمنية، والسر في نجاحها وتطورها هو اكتشاف الرياح الموسمية، فلقد شهدت تلك القرون الثلاثة الأولى نموذج للنشاط التجاري العربي اليمني فلقد كانت موانئ اليمن قبله للسفن القادمة مصر والحبوب من أفريقيا ومن المشرق الهند، وكان اليمنيون والهنود معاً هما أول من تعرف على نظام حركة الرياح الموسمية،

واستفادوا منها في تسيير السفن في الاتجاهين، ونتيجة لذلك زادت أنواع وكميات السلع والبضائع التي كانوا يتاجرون بها[٥٧].

هذا ولقد سجل لنا التاريخ حركة بحرية نشطة للتجار اليمنيين احتكروا بها تجارة المحيط الهندي – كما أسلفنا – وذلك لأنهم فهموا وعرفوا كيفية الاستفادة من دورة الرياح الموسمية وحركتها في المحيط الهندي، ففي الصيف تكون اتجاهاتها جنوبية غربية تصل بسفنهم إلى ساحل مليار الهندي ومع الشتاء تكون فيه اتجاهات الرياح شمالية شرقية وتعود سفنهم وقد تزودت بحمولة كبيرة من سلع متنوعة إلى ساحل شرق أفريقيا وخليج عدن[٥٨].

وبفضل معرفة العرب لتلك الأيام التي تهب فيها الرياح الموسمية وتحديدهم لأوقات هبوبها فقد عرفوا الأوقات الملائمة لسير السفن في المحيط الهندي. ويذكر المسعودي ان الفلاحين العرب كانوا يستعينون في أسفارهم بدليل بحري سموه (رهماني)، حتى ان المسعودي ارتحل به بحراً مع جماعة من التجار إلى المحيط الهندي[٥٩].

وقد حافظ التجار العرب اليمنيين والهنود على سر هذه الرياح الموسمية بغرض الحفاظ على احتكارهم للتجارة الدولية في المحيط الهندي آنذاك حتى القرن الأول الميلادي إلى أن اهتدى البحار اليوناني هيبالوس Hippalas إلى سر هذه الرياح ومواعيد هبوبها فوصلت السفن اليونانية والرومانية إلى شبه الجزيرة الهندية مباشراً عبر المحيط الهندي فزاد إقبال سكان الإمبراطورية الرومانية على طلب السلع الشرقية وليس معنى ذلك هو ضياع النفوذ اليمني الهندي بل على العكس فلقد استمر هذا النشاط اليمني التجاري إلى القرون الثلاثة السابقة لظهور الإسلام[٦٠].

وبهذا الاكتشاف من قبل هيبالوس شارك اليمنيين أقوام أخرى في تجارتهم البحرية ولعل السبب أيضاً في ذلك هو أن العرب لم يطوروا أسطولهم التجاري البحري، ولذلك فإن سيطرتهم على البحر والتجارة البحرية الهندية خفة قوتها إلى حداً ما[٦١].

ولكي تكون أكثر دقة في تحديد مكتشف الرياح الموسمية Monsoon للغرب فلابد ان نذكر هنا انه سبق هيالوس بحار يوناني آخر رائد في هذا المجال وتعتبر رحلته من ضمن الرحلات القديمة التي نجحت في الوصول إلى الهند مباشراً وهو رجل يدعى يودوكسوس الكينريكي Eudoxusofcyzicus ووصل بالسفن اليونانية إلى الهند حوالي عام (١١٤ ق.م – ١١٧ ق.م) وتعددت بعدها رحلات بحارة الإغريق والبطالمة وساعد على نجاحها اهتداء هيبالوس إلى إمكانية استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية خلال الصيف[٦٢].

ومن هنا بدء الاستغلال المنظم للطرق الجديدة إلى الهند وبدء البطالمة بالنهوض بتجارة البحر الأحمر فوضعوا عليها موظف مسئول عن متابعة سير السفن في البحر ثم في عام ١٢٠ أو ١١٠ ق.م بدئنا نسمع عن رحلات بحرية مباشرة بين مصر والهند[٦٣].

وبفضل هيبالوس بدء التجار الغربيون في الوصول إلى شبه الجزيرة الهندية في وقت أقل مما كانوا عليه في السابق وبطريقة أقل خطورة مما كان الحال عليه[٦٤]. وهكذا حقق هيبالوس في القرن الأول ق.م شهرة عالمية وتاريخية بسبب اكتشافه هذا وأطلق اسمه على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية[٦٥].

والآن نود أن نستعرض مواقيت هبوب الرياح الموسمية الهامة للتجارة ووفقاً لما ورد عند هيا آل ثاني(٦٦) - فالأحوال المناخية التي تعرض لها مناطق الخليج العربي والمحيط الهندي منذ القدم فلقد أوردت لنا العديد من المسميات لأنواع مجتمعه من الرياح التي تهب على شواطئه الغربية تناولت بشيء من التفصيل مسمياتها، والمواقيت التي تهب فيها واتجاهاتها، ومن أصناف هذه الرياح توجد الشمالية الشرقية ونسيم البحر والبر وغيرها ولكن تبقى «الرياح الموسمية» من أهمها جميعاً وذلك نظراً لاستفادة سكان جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي منها أكبر استفادة حتى الوقت الحاضر.

والرياح الموسمية الجنوبية الغربية هذه ذات اتجاهين، فهناك الشمالية الشرقية التي تهب في شهر نوفمبر حتى شهر مارس وتعمل على تسهيل الملاحة البحرية حتى شواطئ الهند للسفن الخارجية من الخليج العربي على طول بحر العرب والمحيط الهندي(٦٧).

أما فيما بين شهري مايو وسبتمبر فتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في الاتجاه المعاكس، فتعمل على تسيير وصول السفن إلى شواطئ الخليج العربي بسهولة وأمان(٦٨).

وكما أدرك العرب في جنوب الجزيرة العربية أهمية هذه الرياح الموسمية في التجارة أدرك الهند أيضاً هذه الأهمية، فلقد كان الهواء البارد يندفع باتجاه الشمال فوق المحيط الهندي في الصيف ثم إلى الجنوب باتجاه جبال «الهيمالايا» والسهول الهندية في الشتاء فتملأ أشرعتهم للانطلاق في البحر، كما أنها تجلب للمزارعين الهنود المطر لزرعهم(٦٩).

ولكن على الرغم من أهمية اكتشاف هيبالوس للرياح الموسمية الجنوبية الغربية فلقد ظلت محفوفة بالمخاطر على حد قول «صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري»(٧٠) لذلك احتفظ العرب بسلطانهم على تجارة المحيط الهندي وان كان هذا السلطان بدأت قوى أخرى تنازعهم فيه فأخذ البحارة المصريين، والفينيقيين واليونانيين يزاحمونهم في طريق جمع ثرواتهم من مياه المحيط الهندي(٧١).

وفيما بعد نشطت التجارة الملاحية بين الإمبراطورية الرومانية والهند فكانت السفن تبحر مباشراً من بومباي أو سواحل الهند الجنوبية إلى الموانئ الرومانية فيذكر بليني **Pliny** أن سفنه أبحرت إلى الهند في فترة قصيرة جداً بلغت خمسة عشر يوماً(٧٢).

اعتمد البحارة الرومان على رياح هيبالوس وركبوا البحر في مواقيتها المنظمة حتى أنه في أيام الإمبراطور فسباسيان (٧٠-٩٦م) **Flavius Vespasiarus** كان البحارة التجار يخرجون إلى عرض المحيط الهندي بكل جراءة وقوة(٧٣).

وأصبح مشهد السفن الرومانية مألوفاً في مياه المحيط الهندي ذهاباً وإياباً مما أثر إلى حداً ما على تجارة الهند اليمنية آنذاك ولكن الغريب في الأمر أن تتأثر بعض دول الجنوب اليمني إذ سطع نجم حضرموت وقتبان بعد أن تخلصتا من وساطة المعنيين والسبئيين، وأخذوا يشحنوا منتجاتهم من الطيوب والعطور والتوابل والبخور على متن السفن اليونانية في الموانئ المخصصة لذلك. وهذا يعني الانهيار التام للدولتين اليمنيتين - السبئية والمعنية - من ناحية تجارة البحر ولكنهم حولوا تجارتهم بمنتهى الذكاء إلى البر(٧٤).

وهذا يعني ان عرب اليمن لم يتأثروا كثيراً بسبب كشف سير الرياح الموسمية، لأنه في

حالة ضعفت تجارة البحر إلى حداً ما في بعض دويلات اليمن، ترتفع أسهم دول أخرى مثل حضرموت وقتبان في التجارة البحرية والبرية وهذا يؤكد استمرار التجارة اليمنية الهندية على الرغم من كل الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها المنطقة في تلك الفترة[٧٥].

اشتهر سكان جنوب الجزيرة العربية منذ القدم – كما أسلفنا – بالنشاط التجاري إذ كانت تسير قوافلهم براً في شبه جزيرة العرب، وسفنهم بحراً في المحيط الهندي والبحر الأحمر ناقلة على متنها السلع من الأقاليم الآسيوية وغلات شرق وشمال أفريقيا إلى دول البحر المتوسط[٧٦].

ولقد أفضى هذا التقدم الاقتصادي الهندي العربي إلى نشاط التجارة وازدهار المدن وتوطيد حياة الاستقرار والتحضر إلى نشوء الملكية الخاصة، وقيام الدول المتطورة التي جمعت بين صفات الموانئ البحرية والمحطات التجارية على طرق القوافل البرية والبحرية، والمراكز التجارية التي تجتمع فيها السلع ومنها توزع إلى مختلف الجهات[٧٧].

ويعود ثراء اليمن إلى مزاولتها للتجارة البرية والبحرية، والاتجار بالمواد الناتجة من الزراعة في جنوب الجزيرة العربية وبالسلع المستوردة من الخارج ولاسيما من الهند والسواحل الأفريقية[٧٨].

هذا ولقد حرص، عرب جنوب الجزيرة العربية على التجارة البحرية تماماً مثل حرصهم على تجارة القوافل البرية، فعملوا على بناء السفن التجارية لخوض أعماق البحار ومما شجعهم على ذلك الموقع الاستراتيجي للجزيرة العربية، فهو موقعاً أتاح لها إمكانيات واسعة في مجال ازدهار التجارة البحرية فهي تشغل – كما سبق ان رأينا – موقع متوسطاً بين ثلاث بحار البحر الأحمر من الغرب والخليج العربي من الشرق ومنها يمتد المحيط الهندي ليستمر شرقاً، والبحر المتوسط من الشمال الغربي[٧٩].

لذلك لعبت طرق المواصلات البرية والبحرية في جنوب الجزيرة العربية دوراً حيوياً، في حياة شعوب الجزيرة، ونستطيع أن نقيس فهم ذلك الدور من خلال كثافة شبكة خطوط المواصلات التجارية بنوعيها – البري والبحري – إذ كلما زادت هذه الشبكة كثافة كان هذا دليلاً على تقدم دول المنطقة، ولهذا تعتبر الطرق التجارية هي شرايين الحياة في دول جنوب الجزيرة العربية[٨٠].

ونتيجة لتوسع شبكة المواصلات البرية والبحرية هذه تطورت حركة الملاحة على شواطئها فحرصوا على دراسة طرق الملاحة البحرية ودلتهم تلك الدراسات إلى اكتشاف سر الرياح التجارية الموسمية في المحيط الهندي[٨١].

ومن المؤسف أنه يوجد البعض[٨٢] من الذين حاولوا التشكيك في قدرات العرب على استخدام البحر وإمكانية قيامهم برحلات بحرية فيه وخاصة الرحلات الطويلة المتجه إلى الهند والصين وسيلان معتمدين على قلة القرائن الأثرية الدالة على ممارسة عرب الجنوب للملاحة سواء كان في النقوش أو غيرها، كما أن قلة الأخشاب الصالحة لصناعة السفن كان أحد الحجج التي استند عليها أصحاب الرأي السابق، ويرى هؤلاء ان القوارب المخيطة أو الجلدية هي غير قادرة على القيام بهذه الرحلات البحرية الطويلة[٨٣].

ولقد أثبتت الدراسات ان القوارب المخيطة صنعت بأحجام كبيرة، وهي قادرة على حمل كمية من البضائع كما أن لديها القدرة على الابحار لمسافات طويلة، ولا يستبعد ان يكون العرب قد

استوردوا الأخشاب لصناعة السفن الكبيرة من أماكن توفرها[٨٤].

وأخيراً نجح العرب في ارتياد البحر بكفاءة عالية وجراءة ومهارة فائقة، حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب وكان لهم السيادة على الخليج العربي وعلى البحار التي تصل به مثل البحر العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي[٨٥].

فأصبحوا مُلمين بمواقع وأوصاف الجزر والخلجان والرؤوس بها وأحكموا تقدير المسافات التي تقطعها السفن بين الموانئ العربية، وموانئ الهند والصين، كما أنهم حددوا الأوقات الصالحة للإبحار والقيام بالرحلات التجارية والملاحية البحرية[٨٦].

ونود أن نشير إلى تلك السفن التي كان العرب الجنوبيين يستخدمونها في ركبهم أعالي البحار فلقد شحنوا بضائعهم على متن القوارب الكبيرة والمخصصة لتصدير سلعهم والتي من بينها المواد العطرية، والتوابل، كما استخدموا القوارب الجلدية لجلب المواد العطرية من الساحل الإفريقي والهند[٨٧].

هذا ولقد اعتمدوا على أطواف من الغاب – نوع من القوارب الصغيرة – ولكنهم كانوا عاداً مايسيرون بها بمحاذاة ساحل شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر الذي تكثر به الشعب المرجانية التي تؤدي إلى تحطيم السفن الكبيرة[٨٨].

وبالإضافة إلى قوارب الغاب كانت توجد سفنهم الشراعية، والقوارب الخشبية الصغيرة المشدودة بالألياف أو المصنوعة من مادة مشابهة لها[٨٩].

ولقد أشار استرابون ان من أوائل السفن التي رست في المحيط الهندي هي سفن خشبية كانت لأهالي مالابار وأخرى لأهالي القسم الجنوبي من مقاطعة حضرموت، وهم الذين بنوا أسطولاً تجارياً من ميناء عدن وبعض الموانئ العربية الساحلية الجنوبية[٩٠]. وكانت لهم تجارة واسعة مع الهند وأنهم أيضاً أتقنوا فنون الملاحة البحرية كما أنهم استخدموا السفن التجارية الكبيرة التي صنعوا بها أسطولاً بحرياً تجارياً ضخماً وصول بهم إلى الهند.

والآن نود أن نسلط الضوء على أهم الطرق البرية والبحرية التي تربط مابين الهند وجنوب الجزيرة العربية أو تلك التي كانت جنوب الجزيرة العربية هي حلقة الوصل بينها وبين الهند، ولكي نكون منصفين ولمزيداً من الدقة فلابد أن نذكر هنا ان الطرق البرية كانت في واقع الأمر أقل في العدد من نظيرتها البحرية والمتجهة من وإلى الهند وجنوب الجزيرة العربية ولكننا سوف نذكرها حتى لا نكون قد أغفلنا أي طريق مواصلات بين الهند وجنوب الجزيرة العربية، كما نود أن نشير هنا إلى أن هذه الطرق في أغلبها تبدأ بحرية وتنتهي برية.

الخطوط التجارية البحرية – البرية الهندية اليمنية:

١- طريق البخور (عدن – باريجازا):

ويقف على رأس هذه الطرق التجارية العربية الهندية أهمية طريق البخور والذي يعتبر فرعاً من الطريق التجاري الجنوبي الذي كان يصل بين الهند والموانئ الواقعة في جنوب الجزيرة العربية ثم عدن، لأن المراكب الهندية كانت تفرغ حمولتها لدى الأعراب الذين حرصوا على التجارة إلى حد أنهم لم يسمحوا لهذه المراكب بدخول مضيق باب المندب إلا بعد دفع الضرائب[٩١].

٢- الهند - البحر المتوسط:

وهذا الطريق يمتد من الهند إلى البحر المتوسط بإتباع الطريق البري منطلقاً من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى الهند فلقد كانت القوافل تصل إلى مأرب[٩٢] فبعد وصول السفن التجارية المحملة بالبضائع النفيسة من الهند تحط رحالها في جنوب الجزيرة العربية في ميناء عدن ثم مكة ومنها إلى غزة[٩٣] وباقي مدن البحر الأبيض المتوسط[٩٤].

٣- الهند - نجد:

وهذا الطريق يرفد البحر العربي والمحيط الهندي والممالك العربية الجنوبية، وخاصة حضرموت Chatrnatital ويبدأ من ميناء باريجازا ويسير في المحيط الهندي حتى يصل إلى حضرموت وعاصمتها شبوه، ومنها إلى الحدود الشرقية لنجد ومن نجد تتفرع في خط بري آخر ينطلق إلى بلاد الرافدين وخط ثالث يسير إلى بلاد الشام[٩٥].

٤- الهند - حضرموت:

وينطلق هذا الطريق بحراً من الهند ميناء باريجازا الهندي حتى تصل السفن إلى ميناء عدن ومنها براً إلى حضرموت متجهاً إلى منطقة اليمامة عبر الحافة الشرقية أو الغربية للربع الخالي متجهاً إلى بلاد الرافدين لتلتقي في خط آخر متجهاً إلى سوريا[٩٦].

٥- الهند - عُمان Oman

وهذا الطريق ينطلق من ميناء باريجازا وصولاً إلى عدن ومنها براً إلى عمان محملاً بكل بضائع شرق آسيا المنقولة على الابل كما يتفرع منه عدة خطوط أخرى أولها يتجه إلى مأرب وآخر إلى معين وثالث إلى ظفار متفادية المرور بالربع الخالي[٩٧].

٦- سوريا - الهند:

وهذا الطريق يبدأ رحلته من سوريا ثم إلى مكة ومنها إلى اليمن جنوب الجزيرة العربية إلى ميناء عدن ثم إلى المحيط الهندي حتى يصل إلى الهند[٩٨].

٧- الهند - مصر:

وتأتي بضائع الهند عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر مارة بمدخله عند عدن أو ميناء موزا ليكتمل طريقه براً عبر شبه الجزيرة العربية إلى الشمال ومنه إلى مصر[٩٩] وهناك مسار آخر لهذا الطريق الذي يربط الهند بمصر عن طريق الجزيرة العربية ويبدأ من الهند وصولاً إلى ميناء قانا أو عدن عبر مضيق باب المندب متجهاً السواحل العمانية عبر البحر الأحمر إلى بيرنيكي Beranike ومن هناك عبر البر يسير في اتجاه الشمال الغربي حتى يلتقي بالطريق القادم من المراكز التجارية الشمالية العربية للجزيرة العربية والذي يمتد من Dedan دادان (العلا حالياً) غرباً إلى البحر الأحمر حتى يصل إلى ميناء القصير ومنه إلى وادي الحمامات وأخيراً قفط الواقعة على مسافة ٤٠ كم شمال غرب الأقصر ومن هذه الطرق كانت كل بضائع الهند تصل إلى شمال الجزيرة العربية ومصر[١٠٠].

٨- ليوكي كومي - الهند:

يبدأ هذا الطريق من ليوكي كومي[١٠١] متجهاً جنوبياً نحو سواحل جنوب الجزيرة العربية ماراً بعدد من الموانئ العربية على البحر الأحمر والتي من أهمها: موزا، أوكليس، قنا، عدن، وسوف

يرد ذكر كلاً من هذه الموانئ بالتفصيل لاحقاً - ثم يحاذي الساحل في خليج عمان على رأس الحد، ثم يتجه نحو الساحل المقابل من الخليج ويستمر في السير بمحاذاة الساحل الآسيوي المقابل فساحل كرمينا إلى نهر السند والموانئ الواقعة جنوبه وتستخدم السفن بنفس الطريق في عودتها[١٠٢].

وبصورة أكثر وضوحاً يجب أن نعلم ان هذه الخطوط لم تكن هي الخطوط البرية البحرية الوحيدة التي ربطت الهند بمصر عن طريق الجزيرة العربية، بل كانت هناك العديد من الخطوط التي جعلت من شبه الجزيرة العربية واسطة بينها فكانت هذه الخطوط تأتي من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر مارة بمدخله عند عدن لتكمل طريقها إما براً عبر شبه الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال أو بحراً بطول البحر الأحمر حتى موانئه البحرية الشمالية أو متصلة بين الطريق البري والطريق البحري[١٠٣].

هذه كانت أهم الطرق البرية البحرية التي ربطت بين الهند وغيرها من مناطق العالم مروراً بحلقة الوصل بينها وهي شبه الجزيرة العربية على اعتبار أنه لا يستطيع الوصول إلى أياً منها. إلا بمرور بجنوب الجزيرة العربية.

(١) الطرق التجارية البحرية الهندية اليمنية (الغير مباشرة):

وهذه الطرق تنطلق من عدة أماكن وتمر بجنوب شبه الجزيرة العربية وصولاً للهند أو من شبه الجزيرة العربية مباشراً إلى الهند المهم ان منطقة جنوب الجزيرة هي المحور الأساسي للربط بين الهند ومناطق التجارة العالمية - كما أسلفت - والآن نستعرض أهم الطرق البحرية العربية الهندية، وسوف نقوم بترتيب عرضها على حسب أهمها التجارية: ابتداءاً من الطرق الغير مباشرة ثم الطرق المباشرة[١٠٤].

١- جنوب شبه الجزيرة العربية ساحل شبه الجزيرة الهندية:

ينطلق هذا الطريق من عدن إلى خراكس Charex[١٠٥] ماراً بعدد من المراكز والموانئ العربية، والجزر مثل فيلكا Fayilake[١٠٦] والبحرين وكذلك بعدد من الموانئ العربية مثل Gerrha الجرهاء[١٠٧] ثم تحاذي الساحل ماراً بعدد من الموانئ على الخليج العربي ثم ينطلق في مياه الخليج ومنها إلى المحيط الهندي، حتى يصل إلى ساحل كرمنيا ويسلك نفس الطريق الذي تسلكه السفن القادمة من البحر الأحمر، وكانت السفن العربية تقف عند عدد من الموانئ الهندية على الساحل الغربي مثل بريجازا أو قد يصل إلى السواحل العربية والحديثة للهند مثل موزي Muziri[١٠٨].

٢- الهند - مصر:

وفي هذا الطريق الذي سبق الإشارة - إلى نظيراً بري له في أهم الخطوط البرية البحرية التي تربط الهند بجنوب الجزيرة العربية، يوجد طريق بحري آخر يتفرع إلى ثلاثة فروع الأول ينطلق من الهند من موزي عبر المحيط الهندي إلى ميناني موزا أو عدن ثم إلى البحر الأحمر ومنه إلى خليج العقبة ثم فقط[١٠٩] أما الفرع الثاني فيسير في نفس سير الخط إلا أنه بدلاً من التوقف عند البحر الأحمر فإنه يكمل مسيرته إلى البحر الأبيض المتوسط، وفي كلا الفرعين كانت جنوب شبه الجزيرة العربية هي القنطرة الموصلة بين القطرين الهندي والمصري بحراً[١١٠].

أما الفرع الثالث للطريق ينطلق من مصر مباشراً إلى الهند(١١١) وله خط سير آخر تماماً فهو ينطلق من موانئ مصر برينيكي على البحر الأحمر متجهاً إلى الحبشة ومنها إلى عدن في جنوب الجزيرة العربية ثم المحيط الهندي حتى تصل إلى موزري في الهند(١١٢) وقد ذكر هذا الطريق عند بليني(١١٣).

٣- الهند – سوريا:

من باريجازا إلى عدن ومنها إلى خليج العقبة ثم إلى الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأحمر وبعدها إلى الموانئ السورية على البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا(١١٤) وهناك خط آخر يبدأ من سوريا إلى مصر ثم إلى موانئ البحر الأحمر حتى يصل إلى عدن إحدى موانئ جنوب الجزيرة العربية ومنها إلى المحيط الهندي ميناء باتيلا الهندي ومن الهند يتفرع هذا الخط إلى أربعة خطوط فرعية هي سيلان – تايلند – الملايو – الصين ومن خلالها تصل جميع بضائع جنوب الجزيرة العربية وسوريا إلى الهند وشرق آسيا(١١٥) هذا ولقد ذكرها المؤرخ أبيان Appian(١١٦) في مجمل حديثه عن التجارة الكبيرة بين الهند والجزيرة العربية.

٤- برنيكي – باريجازا

من برنيكي حول البحر الأحمر يدور هذا الطريق حتى يصل إلى موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية حتى تصل إلى رأس الخليج العربي ومنه إلى باريجازا إحدى أهم الموانئ الهندية ولقد استخدمه التجار الصينيون لنقل بضائعهم إلى المنطقة وبفضل هذا الطريق أيضاً وصلت كل بضائع الهند وشرق آسيا إلى جميع أنحاء الجزيرة وبالأخص شمالها وتحديداً مكة والمدينة(١١٧).

(٢) الخطوط التجارية البحرية الهندية اليمنية (المباشرة):

١- عدن – بريجازا Bariguza:

وهو طريق مباشراً تماماً يربط بين جنوب شبه الجزيرة العربية والهند ينطلق من عدن Eduaemamn ثم قانا ويسير بمحاذاة الساحل مدة ثلاثة أيام ثم يتجه عبر المحيط الهندي، نحو بريريكم وبريجازا ويستخدم هذا الخط نفس الطريق في العودة محملاً بأغلى بضائع الهند التي ما إن تصل إلى موانئ اليمن حتى تحمل بإشراف التجار العاملين في ميناء قانا Qana براً إلى شيوخ القبائل العربية في أنحاء الجزيرة العربية إلى جرها والبتراء وغيرها من المحطات البرية الهامة(١١٨) ومن هذا الخط يتفرع خط آخر ينطلق من موزا إلى الهند مباشراً بغرض التزود بأنواع البضائع الآسيوية أو العربية المطلوبة عند الطرفين.

٢- قانا – موزري Mouziris:

وهذا الخط ينطلق إلى السواحل الغربية والجنوبية عبر المحيط الهندي إلى الهند لترسوا سفنه في ميناء موزي Mouziris الهندي(١١٩).

ولقد استخدما هذين الطريقين السالفين الذكر بعد اكتشاف الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في الفترة بين يوليو وأغسطس أما رحلة العودة فكانت تسير مع هبوب الرياح الشمالية الشرقية في الفترة من ديسمبر إلى يناير(١٢٠).

٣- شمال غرب الهند – اوكليس Ocelis:

وهذا الطريقّ يبدأ من موانئ شمال غرب الهند من باريجازا ويسير في مياه المحيط الهندي

حتى يصل إلى ميناء أوكلس اليمني في جنوب الجزيرة العربية مباشراً ومنها إلى جزيرة سوقطرة والساحل الصومالي. وهذا الطريق يستخدم مع هبوب الرياح الموسمية المناسبة له[١٢١].

٤- باريجازا – موشا Moscha:

وموشا هو ميناء ظفار على ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية كانت السفن الهندية تبحر حتى تصل إلى هذا الميناء الحضرمي وتقضي فصل الشتاء فيه حتى يتم التبادل التجاري والحضاري[١٢٢].

٥- موزا – بتالا غير مباشر:

وهو طريق فرعي يسير بمحاذاة الساحل الغربي إلى مخا ميناء بلاد البخور ومنها إلى المحيط الهندي إلى بتالا مباشراً[١٢٣].

وفي ختام حديثنا عن هذه الطرق البحرية والطرق البرية البحرية يجب أن نعرف ان هذه الطرق لم تكن متروكة سدى دون أي حماية تذكر من قبل الدول المماكلة لها أو التي تمر بأرضها أو مياهها الإقليمية (ان جاز التعبير)، ولقد كانت هناك نقاط حراسة بحرية (تشبه إلى حداً كبيراً خفر السواحل لدينا حالياً – تراقب السفن التجارية في أثناء سيرها في البحر.

كما حرصت عرب جنوب شبة الجزيرة العربية على حماية هذه الطرق البحرية والبرية على السواء فسنت القوانين التي تسير السفن على هديها في رحلتها عبر الخليج العربي والمحيط الهندي من جهة وباتصالها بين الهند شرقاً وشرق أفريقيا غرباً[١٢٤].

وبما أننا تحدثنا عن أهم الخطوط التجارية البحرية فلابد لنا ان نذكر أهم الموانئ العربية التي كانت تمر بها تلك الخطوط فلقد نشأت على طول السواحل العربية عدداً من الموانئ والمرافئ ازدهر عدد منها لازدهار التجارة البحرية وأصبحت أسواقاً عالمية تستقبل أنواعاً من السلع الأجنبية ويصدر عبرها منتجات الجزيرة العربية.

وفي هذه الفترة كانت الرحلات البحرية مباشرة بين أحد الموانئ الواقعة في جنوب الجزيرة إلى السواحل الهندية عبر المحيط دون الحاجة إلى الإبحار بجانب الساحل وأصبحت السفن التي تريد الموانئ العربية الشمالية تبحر من عدن أوقاتا وتسير بمحاذاة الساحل ومنه إلى المحيط حتى تصل إلى موانئ الهند[١٢٥] (وسوف يرد ذكرها بالتفصيل لاحقاً).

ومما ساعد على ازدهار هذه الموانئ العربية ان بيئة الخليج العربية وبحر العرب يوجد بها العديد من المناطق الصالحة لقيام الموانئ والرؤوس المحمية، وتوفير مياه الشرب من العيون والآبار في مراكز متقاربة نسبياً مما ساعد على إنعاش وازدهار التجارة البحرية آنذاك بشكل ملحوظ[١٢٦]. وأفضل دليل على ازدهار تلك الموانئ هو مقدار البضائع والسفن التي كانت تفرغ وتحمل في الموانئ العربية والهندية[١٢٧]. ويأتي على رأس هذه الموانئ أهمية موانئ البحر العربي:

١- ميناء عدن Eudaenan:

وهو ميناء هام على الساحل العربي الجنوبي للجزيرة العربية وهو أول ميناء في طريق السفن القادمة من البحر الأحمر بعد عبورها مضيق باب المندب، وتمتاز بمرفأ جيد، كما تتوفر فيه المياه العذبة، لقد كان أصحاب السفن يفضلون الرسو فيه عن اوكليس[١٢٨].

يتميز موقع عدن بحصانة طبيعية وذلك لوقوعها على مرتفع صخري يتكون من الصخور البركانية التي كانت تحيط بالمدينة والميناء، كما أن موقعها ملائم لرسو السفن المارة بها فهي تمتاز بمرفأ طبيعي ومما ساعد على ازدهارها شهرتها الكبيرة بخزانات الماء في الصخور[١٢٩].

كما تعتبر من أهم الموانئ العربية المطلة على المحيط الهندي فأصبح مرسي للسفن الآتية من أنحاء آسيا بالتحديد الهند وسواحل أفريقيا الشرقية، كما كانت ترسوا عليها السفن المحملة بمنتجات الدول الآسيوية[١٣٠].

وهي إلى جانب ذلك يعتبر نقطة ارتكاز للتجارة بين الهند والصين ومصر، لذلك اهتم العرب المقيمين فيها بالتبادل التجاري على نطاق دولي واسع، حتى أنها عرفت فيما بعد باسم دهليز الصين[١٣١].

ازدهر هذا الميناء منذ القرن الثاني ق.م وأصبح يضاهي الإسكندرية من حيث الأهمية التجارية والاستراتيجية[١٣٢] ووفقاً لما ذكره صاحب كاتب الطواف The Periplus قال «كانت تسمى يودايمون Eudaemon وكانت مدينة هامة جداً عندما كانت الرحلة من الهند إلى مصر أمراً لم يتحقق بعد لصعوبة الإبحار في هذه المياه، وبالتالي استحالة وصول السفن المصرية إلى الموانئ الهندية مباشراً، لذلك كانوا يأتون جميعاً إلى عدن التي كانت تتلقى السلع من جميع البلدان كما تتلقى الإسكندرية الآن (البضائع) التي تجلب من الخارج» وفي هذه الرواية دليل واضح على منافسة عدن آنذاك للإسكندرية[١٣٣].

هذا ولقد سيطر على هذا الميناء عدداً من القوى السياسية التي تتابعت على المنطقة مثل أوسان[١٣٤] وسبأ وقتبان وأخيراً حمير[١٣٥] الذي تزهو في عهدها إذ تعرض للهجوم عليه من قبل الإمبراطورية الرومانية التي اتخذت إجراءات فعلية في سبيل السيطرة عليه. بل وعلى المنطقة الساحلية بأكملها في الجنوب بغرض الاستيلاء على تجارة البخور واللبان والتوابل ولذلك قام الأسطول البحري الروماني بعمليات عسكرية من البر والبحر ضد عدن وفق ماورد لنا عند بليني[١٣٦].

أما صاحب كتاب الطواف فيشير إلى ان الرومان سيطروا على عدن فترة من الزمن واعتبر ان حملة اليوس جالوس (السالفة الذكر) هي ذروة تلك المحاولات[١٣٧].

ولكن دوام الحال من المحال، فلقد تحول ميناء عدن فيما بعد من مدينة مزدهرة إلى قريه متواضعة بفعل مجموعة من الظروف السياسية والاقتصادية المتغيرة[١٣٨] ولكن هذا الميناء عاد نشاطه التجاري في القرن الرابع الميلادي وظل مزدهراً حتى العصور الحديثة[١٣٩].

٢- ميناء قانا Qara (بير علي حالياً)[١٤٠]:

وهو ميناء تجاري على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، والى الشرق من عدن وعند بطلميوس يقع على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرمي) وهذا الميناء هو ميناء حضرموت الرئيسي (أرض اللبان)، وهو أيضاً سوق تجاري على ساحل البحر العربي، والمنفذ الرئيسي للدولة الحضرمية[١٤١].

يطلق عليه سفر حزقيال (سوق كنية)[١٤٢] فهو الميناء الرئيسي لتجارة اللبان والمر والأحجار الكريمة والذهب كما أنه يعتبر أيضاً محطة هامة تنطلق منه القوافل البرية إلى جميع

أنحاء الجزيرة العربية فهو بذلك ميناء بحري وسوق بري هام في آن واحد(١٤٣).

وبما أنه سوقاً هامة على طريق القوافل البرية وخطوط الملاحة البحرية استقبل هذا الميناء جميع السلع التي كانت تأتي من مصر وأفريقيا والهند بموانيهما وصدر لهم اللبان وكثيراً من البضائع الموجودة فيه من جراء تبادله التجاري مع الكثير من مناطق التجارة العالمية(١٤٤).

واستناداً مع رواية صاحب كتاب الطواف(١٤٥) كان اللبان والمر ينقل من شرق حضرموت إلى قنا على متن أطواف صغيرة مشدودة بالقرب الجلدية المملوءة بالماء أو على متن القوارب الخشبة الصغيرة ومنها بعد ذلك تنقل لتخزن في السفن الكبيرة استعداداً لتصديرها إلى الهند بحراً أو تحمل على ظهر الجمال لتصدر إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية.

وقد سقط هذا الميناء على يد الدولة الحميرية، إلى أصبحت تسيطر على المنطقة الساحلية الممتدة من مضيق باب المندب حتى قنا شرقاً، وقد اضطرت الدولة الحميرية إلى إقامة سور القلعة للفصل بين حدود الدولتين، ولكن يبدو أن حضرموت استعادة السيطرة على الميناء الذي ظل مستخدماً حتى القرن الرابع الميلادي حتى بعد تدهور تجارة المواد العطرية(١٤٦).

٣- ميناء موشا Moscha:

يقع هذا الميناء على خليج عمان (خليج القمر حالياً) وهو ميناء ظفار الرئيسي متخصص في تصدير اللبان الظفاري وكانت السفن القادمة من الهند ترسو فيه حتى تقوم بعملية تحميل أو إنزال البضائع ولكن على شرط الحصول على إذن مسبق من الملك شخصياً من أجل التجارة في هذا الميناء الهام(١٤٧).

استمر نشاط هذا الميناء التجاري مع الهند حتى القرن السابع الميلادي(١٤٨) وكان تابع للدولة الحضرمية، في عهد الملك العزيلط وهو الملك الذي ذكره استرابون في أثناء حديثه عن حضرموت(١٤٩).

كما ذكره The Periplus عندما تحدث عن أنه يعتبر من الموانئ الهامة الصالحة للاستخدام ويعتبر من أهم الموانئ الملتزمة بقوانين الملاحة في أعالي البحار فهو ميناء على - حد وصفه - من الدرجة الأولى وذلك لأنه يضمن جميع حقوق العاملين فيه.

أما عن موانئ البحر الأحمر: فلقد ذكر كتاب الطواف في وصفه للساحل الشرقي للبحر الأحمر خلوة تقريباً من الموانئ المرافئ الصالحة لرسو السفن، خاصة في الجزء الممتد من ميناء ليوكي كومي جنوباً وهي جزيرة بريم، كما ذكر ان الملاحة فيه خطيرة لكثرة الصخور المرجانية، ويعيش على هذا الساحل أقوام غير متحضرين يهاجمون السفن ويخطفون ركابها - يقصد القراصنة -(١٥٠). وهو محق في كون هذا الساحل غير صالح للملاحة لأنه ملئ بالشعب المرجانية التي تجعل الملاحة فيه أمراً غير يسير، ولكن مع هذا وجد عليه عدد من المرافئ والموانئ والتي من أهمها:

١- ميناء موزا Musa:

وهو من الموانئ الهامة في جنوب غرب الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر وتعرف في بعض الأحيان بموزع، وتقع حوالي ٢٥ ميلاً إلى الشمال من ميناء مخا الحالي(١٥١) ويعتبر موزا من أقدم موانئ اليمن التي أشار لها صاحب كتاب الطواف على أنه من الموانئ الهامة

الملتزمة أيضاً بالقوانين الملاحية ولكنه ليس في الخط الملاحي الدائم[١٥٢].

تخصص ميناء موزا في بيع وتصدير أفخر أنواع المر المحلي (القتباني والمعيني، والأفريقي)، وكانت سوقاً رائجة يعج بالحركة وكان له اتصالات ومشاركة قوية في الأنشطة التجارية مع الساحل الإفريقي المقابل[١٥٣]. وهذا الميناء كانت تحكمه مجموعة من القوانين التجارية التي تنظم حركة التجارة الداخلية فيه وتهدف إلى تركز التجارة الخارجية منه للدولة والتابع لها هذا الميناء[١٥٤].

ونتيجة لهذه النظم راجت التجارة فيه وازدهرت حتى أنها وصلت بضائع موزا إلى ميناء بريجازا الهندي ورهباتا في أفريقيا[١٥٥]. وكتاب الطواف يصف لنا بتفاصيل أكثر دقه الرحلة بطول الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ويتحدث عن موزا بقوله (أنها سوقاً شاطئية لها قوانين تجارية، وتجد في موزا كثيراً من العرب سواء من أصحاب السفن أو التجار)[١٥٦].

أما عن واردات هذا السوق فكانت مؤلفه من الملابس الأرجوانية الناعمة والخشنة المطرزة وفق الفن العربي كما يوجد بها الثياب الموشاة والمزخرفة بخيوط الذهب[١٥٧] بالإضافة إلى البن اليمني الشهير وأجود أنواع المر والتوابل[١٥٨].

٢- أوكليس Ocelis:

وهو ميناء على البحر الأحمر في أقصى الجنوب منه بالقرب من مضيق باب المندب ومدينة بريم، وهو من أقدم موانئ البحر الأحمر تعاقبت السلطات السياسية عليه إلى ان استقر أخيراً تحت سلطان الدولة الحميرية[١٥٩]. تمتع هذا الميناء بمزايا مثالية لرسو السفن عليه مثل مياهه العذبة والتي كانت تتزود منها السفن قبل إبحارها في عرض المحيط في طريقها إلى الهند[١٦٠]. مما جعل اسمه يتردد على أنه محطة تجارية هامة في المصادر الإغريقية والرومانية، ولكنه والحق يقال فقد هذا الميناء أهمية التجارية بعد ازدهار ميناء موزا وأصبح فقط محطة للتموين والتزود بالماء في طريق السفن المتجهة للهند. ولكنه ظل ميناء مخصص للتعامل التجاري مع شرق أفريقيا[١٦١].

ويعتبر هو آخر محطة كانت تقف عندها السفن الهندية التي لم يكن يسمح لها بالاتجاه شمالاً نحو البحر الأحمر[١٦٢] خاصة في الفترة السابقة لقيام الرحلات المباشرة بين الهند ومصر أي قبل اكتشاف رياح هبالوس - فكانت السلع الهندية تفرغ في أوكليس ثم تنقل براً إلى موزا حيث تباع هناك[١٦٣].

كانت هذه أهم الموانئ التجارية التي تعامل عرب جنوب شبه الجزيرة العربية من خلالها مع الهند وباقي أنحاء العالم القديم ولابد أن نذكر أنها لم تكن هذه الموانئ فقط هي محطات التعامل البحري فقط مع الهند بل كانت هناك عدة موانئ أخرى أهمها جزيرة سوقطرة، وميناء مدينة الشمر[١٦٤].

والآن نود أن نسلط الضوء على أهم الموانئ الهندية والتي كانت تأتي منها وإليها السفن التجارية اليمنية: لقد كان التجار اليمنيين والهنود معتادين على الإبحار في مياه المحيط الهندي منذ العصور القديمة – وذلك لإلمامهم بنظام الرياح الموسمية – فكانوا يقومون برحلات طويلة بين الموانئ الهندية واليمنية – كما أسلفنا – فقد كانت سفن التجار اليمنيين تبحر من موانئ

الخليج العربي وساحل اليمن إلى الموانئ الهندية وإلى ساحل جنوب الهند[١٦٥]. وتعتبر الموانئ الهندية التالية من أهم الموانئ التجارية التي تعامل معها التجار اليمنيين آنذاك:

١ – ميناء بربريكم Barbaricum:

يقع في حوض نهر السند وهو ميناء سوق تجاري من أهم وارداته اللبان والمر من الجزيرة العربية[١٦٦] وكان ملتقى طرق للعديد من السفن الهندية والعربية والصينية، وجميع سلع هذه المناطق يمكن الحصول عليها منه[١٦٧].

٢ – ميناء بريجازا Baragaza:

وهو ميناء هام على الساحل الهندي الشمالي الغربي[١٦٨] ويقع على خليج كمباتي Cambay في منطقة اريك Ariake وحتى بعد أن غزاه الهند شعب السكاس Sakas ووقع هذا الميناء تحت السيطرة اليونانية منذ زمن الإسكندر الأكبر إلا أنه تخلص منها، ولكن بقي الطابع اليوناني مسيطراً عليه بفضل التجار اليونانيين الذين كانوا يتاجرون بصورة منظمة مع اليمن وغيرها[١٦٩].

وفي القرن الأول الميلادي استخدمت باريجازا كميناء تجاري هام وكبير لنقل البضائع من داخل الهند إلى خارجها، فكانت تأتي إليها البضائع من مختلف المدن الهندية مثل الأقمشة القطنية والحريرية الموسلين والمنسوجات العادية والعاج والنحاس[١٧٠]. وأخيراً يعتبر باريجازا مركزاً تجارياً هاماً تجتمع فيه كل السفن التجارية الآتية من أنحاء العالم آنذاك، وقد تاجر معها العرب الذين صدروا لها الخمور والتمر[١٧١].

٣ – ميناء موزي:

وهو ميناء هام يقع على الساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة الهند وهو تابع لمملكة شارو Cheru التي تسيطر على ساحل كلكتا[١٧٢] ذكرها بليني في أثناء حديثه عن الطرق التجارية البحرية وذكر أن المسافة بينها وبين أوكليس أربعين يوماً[١٧٣]. قصده التجار اليمنيين والعرب طوال قرون عديدة للحصول على الخشب الذي كانت تبنى منه سفنهم[١٧٤] ويعتبر من أهم الموانئ الهندية الرئيسية التي تصدر الفلفل[١٧٥].

كانت تلك أهم الموانئ الهندية التي تصدر وتستورد من وإلى اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية البضائع التجارية.

جدول بأهم البضائع المصدرة من اليمن إلى الهند

السلعة	الجهة المنتجة	المستوردة	المراجع	الملاحظات
البخور	حضرموت ظفار	الهند	الشيبه، المرجع السابق، ص٣٩ ؛ The Periplus, Ch. 32 ؛ عبدالحليم نورالدين، المرجع السابق، ص٨٣.	اشتهرت اليمن السعيدة بزراعة أجود أنواع البخور ومشتقاته: Sayyid. M., op. cit., p. 4 وكانت القوافل تنقله إلى مختلف جهات العالم القديم وعلى رأسها الهند. انظر: عبدالعزيز صالح، شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٥، العدد ١، ص٣١٣ وتعتبر حضرموت ومعين أشهر مناطق إنتاج البخور في اليمن حتى ان الكتاب الكلاسيكيين أطلقوا على ملك حضرموت اسم (ملك بلاد البخور) انظر، دتليف نلسن، المرجع السابق، ص٢٧ ؛ الشيبه، المرجع السابق، ص٤٥ وبما أن البخور أهم منتجات العربية السعيدة فرضت العديد من القوانين المنظمة لزراعته وتصديره: مهيب كليب، المقال السابق، جامعة دمشق، ص٣٣٣ واعتبرت العاصمة شبوة مركز لتجميع البخور ثم تصديره: Cf:Pliny,NH.BK.6. 31. 136-139. أما عن طريقة التصدير فكان يوضع في قرب من الجلد ثم يحمل على متن السفن الكبيرة إلى الهند: كليب، المقال السابق، جامعة دمشق، ص٣٥١ وأخيراً طلب البخور في العالم القديم وبكثرة وذلك لاستخدامه في دور العبادة وللقيام بالطقوس الجنائزية: الحداد، المرجع السابق، ص٢٥ وللمزيد من المعلومات عن طريقة استخراج البخور انظر: The Periplus, Ch. 29.
العطور والطيوب	اليمن (حضرموت)	الهند	برهان الدين، المرجع السابق، ج٢، ص١٢٧؛ نقولا زيادة، عربيات،	عرفت اليمن السعيدة بطيوبها وعطورها الزكية العتيقة: أبو عيانه، المرجع السابق، ص١٧ ؛ حسين شهاب، المرجع السابق، ص١١ حتى أن

الملاحظات	المراجع	المستوردة	الجهة المنتجة	السلعة
المؤرخين القدماء أمثال هيرودت وصفها (بأنها البلد الوحيدة التي تنتج العطور والمعادن) أمين عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٨٥ ؛ محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٤٩ وأخيراً كان يستخدم في بلاد العرب القديم في الطقوس الدينية والأعياد الجنائزية: Cf: Gold Schmidt, A concise History of the Middle East Egypt, (1983), p. 24 ؛ سفر الملوك، الإصحاح ١٠- آية ١١-٢٢.	ص٤٣.			
تميزت حضرموت بإنتاج أجود أنواع اللبان: عبدالحليم نور الدين، المرجع السابق، ص٨٣ لذلك فرضت على الاتجار بها مجموعة من القوانين الصارمة التي تنظم تجارتها تحدث عنها المؤرخين أمثال بليني فقال (إن ملوك حضرموت كانوا يعتبرون أي انحراف عن خط سير قافلة اللبان المعروف في الدولة جريمه كبيرة يعاقب عليها القانون) انظر محمد عبدالغني، مصادر القرنين ١-٢، ص ص١١٢-١١٣ ؛ وانظر أيضاً محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٥٦ كانت مادة اللبان تستخرج بعمل شق في سيقان نباته حتى تخرج منه عصارة بيضاء قابلة للاصفرار: Cf: The Periplus, Ch. 29. تبلغ طول شجرته ٦ أمتار تقريباً وأوراقها متقابلة مركبة على بعض تخرج منها زهرة صغيرة تنمو على سفوح الجبال: انظر إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص١١٧ وعن الطريق ان استقرت على نقل محصول اللبان وكيف يتم فكان يوضع في قرب جلدية تعمل في القوارب والسفن إلى الهند وغيرها: محمد السيد عبدالغني، مصادر القرنين ١-٢، ص١١٩ ،	حوراني، المرجع السابق، ص١٦٥ وانظر أيضاً ص٧٦ ؛ بافقيه، مختارات، ص٢٣.	الهند	اليمن السعيدة (سبأ وظفار)	اللبان

السلعة	الجهة المنتجة	المستوردة	المراجع	الملاحظات
				وأخيراً استخدم اللبان في دور العبادة والهياكل الدينية كما استخدم أيضاً لأغراض طبية في التحنيط وعلاج الحلق والالتهابات للأغشية المخاطية والقرح التي تصيب البلعوم: للمزيد انظر: نقولا زيادة، عربيات، ص٤٣ ؛ The Periplus, Ch. 29.
المر	تمنع – قتبان حضرموت	الهند	The Periplus, CH. 29 ؛ صلاح البكري، المرجع السابق، ص٤٣.	صدرت اليمن إلى الهند التوابل والبخور والمر: Cf: Perry. G., The Middle East Fourteen Islamic Centuries, New Jersey, (1992), p. 16. لقد اشتهرت اليمن في كتابات المؤرخين القدماء بأنها المنطقة ذات الرائحة الطيبة من كثرة إنتاجها للمر وغيره من النباتات العطرية: Cf: Irfan Shahid, Loc. Cit., CHI, p. 10. والمر عبارة عن مادة صمغية تحتوي على مادة حمراء تميل إلى اللون البني ذات طعم شديد المرارة وله رائحة عطرية تخرج من سيقان هذه النباتات الطبية مثل نبات "كومفير اطول" وللمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص١١٧.
التوابل	اليمن	الهند	دي لاس اوليري، المرجع السابق، ص٨٩ ؛ نورمان بنز، المرجع السابق، ص٢٨١.	صدرت اليمن إلى مختلف العالم القديم توابلها وبهاراتها: توفيق برو، المرجع السابق، ص٢٣٩ مما جعلها محط أطماع وأنظار الدول الأجنبية التي اعتادت على استخدام هذه التوابل والبهارات في طعامها لذلك حاولوا السيطرة على اليمن من أجل تأمين حصولهم على هذه التوابل والبهارات: انظر محمد حرب فرزات، المقال السابق، دراسة تاريخية، ص١٠١.
العبيد	اليمن -	الهند	حوراني، المرجع السابق، ص١٥٤.	استوردت اليمن العبيد من أفريقيا: سيد الناصري، المقال السابق، سيمنار الدراسات

الملاحظات	المراجع	المستوردة	الجهة المنتجة	السلعة
العليا، ص٣٤ وكان العبيد في اليمن يعملون في الزراعة أو في الخدمة لدى قصور تجار اليمن مما يدل على رفاهية الشعب اليمني: نيناكتور فينا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص٣٠٢ ولقد ذكر العبيد في الكثير من النقوش اليمنية: الشيبه، المرجع السابق، ص٢٤٥ ، لقد اهتم اليمنيين وبالتحديد أهل سبأ بتجارة العبيد ولذلك وضعوا لها العديد من القوانين التي تنظم وتحدد الاتجار لهم وعملة البيع والشراء ووضعوا لهم الضرائب المناسبة لذلك للمزيد انظر بالتحديد، إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٩٥.				
واستناداً إلى إشارة صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري فلقد كان اللادن بجمع على يد عبيد الحكومة أو الذين كانت لهم أحكام قضائية، انظر : The Periplus, Ch. 29.	الشيبه، المرجع السابق، ص٥٢.	الهند	ظفار	الكندر واللادن
كان اللؤلؤ يحمل من ميناني قانا وعمانا على متن القوارب المخيطة المصنعة محلياً تعرف باسم "مورانا" ومن هاتين المدينتين يرسل اللؤلؤ وغيره من البضائع إلى الهند وباقي الأسواق العالمية القديمة للمزيد انظر: Ibid, Ch. 36.	The Periplus, Ch. 36 ؛ إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص١٢٨.	الهند	اليمن	اللؤلؤ
اشتهرت اليمن بالذهب والفضة حتى أن النبي سليمان عليه السلام كان يأخذ منها احتياجاته من هاذين المعدنيين بناءاً على نص التوراة : انظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٠ آية ١١-١٢ وانظر أيضاً أخبار الأيام الثاني الإصحاح ٩ آية ٢ وليست التوراة فقط هي الوحيدة التي تحدثت عن ذهب بلاد اليمن بل تحدث كلاً من المقدسي والهمذاني في مجمل حديثهم عن	حوراني، المرجع السابق، ص١٤٠-١٤١ ؛ حزقيال الإصحاح ٢٧ آية ٢٢ و آية ٢٣.	الهند	اليمن السعيدة	الذهب و الفضة

السلعة	الجهة المنتجة	المستوردة	المراجع	الملاحظات
				ثروات جنوب الجزيرة العربية (اليمن) : انظر نيناقكتور فينا، المرجع السابق، ص٣٠٦ كما يتحدث عن ثراتها بالذهب الملك اليمني سيف بني ذي يزن عندما قال (ماأصنع بالمال وتراب أرضي ذهب وفضة) وفي هذه العبارة دلالة كبيرة على كثرة الذهب والفضة في اليمن كما تدل أيضاً على ثراء الشعب اليمني: انظر إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٨٩ ناهيك عن حملة اليوس جالوس التي أرادوا بها الاستيلاء على تلك الثروات وخصوصاً بعدما سمع من أهل سبأ أنه كان لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة والأسره والموائد الصغيرة والأبنية المصنوعة من الذهب والفضة: Cf: Pliny, NH. BK. 6. 160-161.
الأحجار الكريمة	اليمن	الهند	سفر الملوك الأول الإصحاح ١٠ آية ١٠-١١ ، سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص٢٠.	تاجرت جنوب الجزيرة العربية بمختلف أنواع الأحجار الكريمة التي اشتهرت بها مثل اللازورد انظر: علي أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، دراسات تاريخية، مجلة جامعة دمشق، (١٩٩١م)، العدد ٣٩-٤٠، ص ص٨٣-٩٥، ص٧٤ والتي لفتت أنظار الرومان فحاولوا الاستيلاء عليها: Cf: Ibid, NH. BK. 6. 16-161 ; محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص٤٥.

وأخيراً وفي ختام عرضنا لأهم البضائع التجارية المصدرة من اليمن إلى الهند فلابد لنا ان نسلط مزيداً من الضوء على أثر هذه التجارة على ارتفاع مستوى المعيشة والأوضاع في اليمن السعيدة التي أصبح أهلها من أشهر الشعوب العربية ثراءاً إذ ارتكزت ثرواتها على التجارة والزراعة مما أتاح لهم عيشاً هنياً وازدهاراً اقتصادياً فترة طويلة من الزمن(١٧٦).

فلقد نعم الشعب اليمني آنذاك برغد في العيش فكان القصر اليمني مملوء بالعبيد والجواري من الأحباش وكانت أوانيهم من الذهب والفضة، ويطيب بالعطور والبخور ويسكنون في أجمل المباني الفخمة(١٧٧) كل هذا بفضل التجارة مع الهند وغيرها التي كانت تصلها الشعب ذهاباً وإياباً محملة بأنفس البضائع الثمينة(١٧٨). والآن وكما استعرضنا أهم البضائع اليمنية المصدرة للهند فلابد لنا ان نستعرض الآن أهم البضائع الهندية المنقولة إلى اليمن وهي كالآتي:

جدول بأهم البضائع المصدرة من الهند إلى اليمن

السلعة	البلد المصدرة	البلد المستوردة	المراجع	الملاحظات
الكافور الهندي	الهند	اليمن	هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة أحمد رضا وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٥م)، ص٤٨-٤٩ ؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٦٤.	لقد أحضر الكافور الهندي من الهند كأشجار وغرس في أرض اليمن في مساحات شاسعة غير محدودة وأخذ ينمو فيها. Cf: Teixidor J., Loc. cit., Stnsemitica, p. 41 والكافور هي كلمة هندية أصلاً بلغة أهل ملقا ولفظه عندهم كابور: انظر الحوفي، المرجع السابق، ص١٠٣.
القرفة	الهند	اليمن	محمود عرفه، المرجع السابق، ص٢٦١ ؛ محمد السيد عبدالغني، مصادري القرنين، مجلة المؤرخ العربي، ص١٠٧.	استورد العرب القرفة من الهند ثم قاموا بتصديرها إلى دول الجوار ودول العالم التي تطلب هذا النوع من النباتات العطرية الباهظة الثمن لذلك حرص العرب على أن يتكتموا على السر الخاص بمصدر هذه السلعة لكي تستمر تتحكم بالتجارة المربحة: مصطفى عبدالعليم، تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الجزء الثاني، ص ص٢٠١-٢١٣.
اللبان	الهند	اليمن	محمد السيد عبدالغني، شبه	كان اللبان يصدر من الهند إلى الجزيرة العربية

الملاحظات	المراجع	البلد المستوردة	البلد المصدرة	السلعة
على الرغم من أنها كانت تزرعه وتنتجه إلا أن هذا النوع المستورد كان متميز وله أوراق عريضة. انظر: عبدالحليم نورالدين، معرفة الآثار، ص٨٥ وكان ميناء ظفار هو الذي يستقبل اللبان الهندي ثم يقوم بتوزيعه إلى جميع المناطق التي تطلبه. انظر محمود عرفه، المرجع السابق، ص٢٥٥.	الجزيرة العربية، ص١٨٢ ؛ الناصري، الرومان والبحر الأحمر، سيمنار للدراسات العليا، ص٥٤.			
كانت السفن الكبيرة سواء الهندية أو اليمنية تخرج في مياه المحيط الهندي وتعود محملة بمختلف أنواع الأخشاب التي استخدمتها اليمن في مختلف الصناعات مثل خشب الأبنوس والصندل والمعروف بأصله الهندي : انظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٠ – آية ١١ ؛ صلاح البكري، المرجع السابق، ص١٢ ومن المعروف أن هذه الأخشاب المجلوبة من الهند كانت تتميز باللون الأحمر. انظر فضل اليافعي، المرجع السابق، ص١٣٨ ؛ The Periplus, Ch. 36.	حوراني، المرجع السابق، ص٤٩؛ The Periplus, Ch. 36.	اليمن	الهند	الأخشاب
وهو من ضمن أهم صادرات الهند إلى اليمن : أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٦٤ وقد ورد ذكر المسك في الشعر الجاهلي فقال عنترة: تبيت فتات المسك تحت لقيامها فيزداد من أنفاسها أرج الند للمزيد انظر بالتفصيل: الحوفي، المرجع السابق، ص١٠٣.	الحوفي، المرجع السابق، ص١٠٣.	اليمن	الهند	المسك
احضرت اليمن من الهند مختلف الأحجار الكريمة مثل الياقوت والدرر والزبرجد : انظر الحوفي، المرجع السابق، ص٩٢ وانظر أيضاً ساطع محلي، طريق الحرير وسيلة نقل حضارية، دراسات تاريخية، السنة ١٢، العدد ٣٩-٤٠،	صلاح البكري، المرجع السابق، ص٤٢ ؛ جورجي زيدان، المرجع السابق، ص١٦٠.	اليمن	الهند	الأحجار الكريمة

السلعة	البلد المصدرة	البلد المستوردة	المراجع	الملاحظات
				(١٩٩١م)، ص ص٤٩-٧١، ص٥٨.
أصداف السلاحف	الهند	اليمن	نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٣٧ ؛ تشارلزورث، الإمبراطورية الرومانية، ص١٥٣.	ان سكان اليمن احضروا الأصداف من خلال تجارتهم مع أفريقيا ثم أعادوا اليمنيين تصديرها، كما استخدموا علب المجوهرات وبعض قطع الأثاث، للمزيد من المعلومات انظر : The Periplus, Ch. 30.
التوابل	الهند	اليمن	السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (٢٠٠١م)، ص٨٨.	استقبلت اليمن واردات الهند من التوابل الهندية والطيوب وغيرها من السلع الهندية : محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٨٢ وانظر أيضاً أنور عبدالعليم، الملاحة، ص٦٤.
العاج	الهند	اليمن	سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٧٦م)، ص١٨٨ ؛ منذر البكر، المرجع السابق، ص٣٨٢.	هناك وثيقة أرخت في منتصف القرن الثاني الميلادي عبارة عن عقد حول سلع وبضائع هندية استوردها تاجر مقيم بمصر عن طريق الجزيرة العربية كان من أهمها العاج : انظر محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص٥٥ ؛ سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠، آية ١١-٢٢.
الطيوب	الهند	اليمن	صلاح البكري، المرجع السابق، ص٤٢ ؛ Strabo, GE, 4: 25, The Periplus, Ch. 36.	لم تقتصر اليمن على نقل منتجاتهم بل شملت متاجرتهم السلع التي كانوا يجلبونها من الهند مثل العنبر والنحاس وغيرها من المنتجات : الحوفي، المرجع السابق، ص٩٢ وللمزيد انظر أيضاً محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٨١.
السيوف الهندية	الهند	اليمن	لطفي عبدالوهاب، المرجع السابق، ص٣٠٩.	وصلت السيوف الهندية ذات الصناعة العالية الجودة إلى الموانئ اليمنية فكانوا يجلبون أيضاً القوائم الخاصة لصناعة السيوف من الهند أيضاً. انظر بالتفصيل محمود عرفه، المرجع السابق، ص٢٦١ ؛ السيد سالم، المرجع السابق، ص٨٨.

السلعة	البلد المصدرة	البلد المستوردة	المراجع	الملاحظات
الفلفل	الهند	اليمن	شارلزلزوث، المرجع السابق، ص٥٤ ؛ الناصري، المقال السابق، سيمنار الدراسات العليا، ص٥٤.	ويعتبر الفلفل الهندي من أجود أنواع الفلفل الأسود : انظر زيدان، المرجع السابق، ص١٦٠ ؛ وانظر أيضاً سعد زغلول، المرجع السابق، ص١٨٨.
ريش النعام	الهند	اليمن	نقولا زيادة، عربيات، ص٣٧.	لقد حمل التجار العرب اليمن ريش النعام من الهند وسيلان والصومال ثم نقلوها عبر البر إلى مصر وجميع موانئ البحر الأبيض المتوسط: انظر جورجي زيدان، المرجع السابق، ص١٦٠.
الفيله	الهند	اليمن	نفسه، ص٣٧.	لقد استخدم الهنود الحفر العميقة لصيد الفيله ثم تصديرها لليمن التي كانت تصدرها هي الأخرى إلى مختلف الأماكن: الغز مي السديري، حفارات، ص١٤٧.
الزعفران	الهند	اليمن	حمد بن سراي، تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، مركز الخليج للكتب، دبي، (١٩٩٧م)، ص٢٢٣.	وتعتبر من أهم صادرات الهند لليمن وهو من أجود الأنواع: جورجي زيدان، المرجع السابق، ص١٦١ ؛ The Periplus, Ch. 24.
القطن	الهند	اليمن	م. روستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص١٤٦.	يعتبر القطن من أهم السلع الهندية الواردة لجنوب الجزيرة العربية للمزيد انظر زيدان، المرجع السابق، ص١٦٠ وليس القطن وحسب ولكن ورد للجزيرة من الهند مختلف أنواع الأقمشة من الصوف والكتان الملون : للمزيد انظر رستوفتزف، المرجع السابق، ص٢٣١.
الحرير	الهند	اليمن	The Periplus, Ch. 28 ؛ رستوفتزف، المرجع السابق، ص١٤٦.	صدرت الهند لليمن أجود أنواع الحرير الهندي على شكل لفائف حريرية: انظر محمد حرب فرزات، المقال السابق، دراسات تاريخية، ص١٠٩ : وكانت هذه اللفائف تصل إلى اليمن من طريق الهند أو الصين على خط الحرير الصيني انظر رستوفتزف، المرجع السابق، ص١٠٧ ومن المعلوم لدينا أهمية الحرير حتى

السلعة	البلد المصدرة	البلد المستوردة	المراجع	الملاحظات
				أنه اعتبر كوسيلة للتبادل التجاري النقدي إلى ان ظهر لنا ورق الكاغد الحريري كعملة نقدية: انظر محمد فرزات، المقال السابق، دراسات تاريخيه، ص٩٨ لذلك استورده العرب اليمنيين على شكل لفائق ومنسوجات حريرية راقية ودقيقة الصناعة يتحدث عنها صاحب كتاب الصواف انظر : Cf: The Periplus, Ch. 31 and Cf 32 also:. وانظر أيضاً أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٦٤ وأخيراً فلقد عرفت نساء الرومان بتجميع الأقمشة الحريرية الهندية والشامية والتي كانت تصل لها من الهند عن طريق العرب اليمنيين في الجنوب: هول، المرجع السابق، ص١٧. وللمزيد من المعلومات عن الحرير الهندي انظر بالتفصيل الحوفي، المرجع السابق، ص١٠٦ وانظر أيضاً محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص٥٥.
القرنفل	الهند	اليمن	ساطع محلي، طريق الحرير، دراسات تاريخية، ص٥٨.	أرسلت الهند لليمن القرنفل الهندي الطيب الرائحة والذي استخدمه اليمن وصدره إلى معظم دول العالم القديم: هايد، المرجع السابق، ص٤٩.
الرقيق	الهند	اليمن	حمد بن سراي، المرجع السابق، ص٢٢٣.	صدرت الهند لليمن الرقيق سواءاً كانوا عبداً أو اماءاً وفي هذا إشارة واضحة إلى رفاهية الشعب اليمني وارتفاع مستوى المعيشة لديه للمزيد، انظر: نقولا زيادة، عربيات، ص٣٧ وكان من شدة اهتمام أهل سبأ تعهده التجارة لهم وضعوا لها القوانين المنظمة للتجارة بها. انظر عبدالفتاح إسماعيل، المرجع السابق، ص٢٦٥.
النحاس	الهند	اليمن	حوراني، المرجع السابق، ص٤٩ ؛ The Periplus, Ch. 36.	تاجر سكان اليمن مع الهند في الأواني النحاسية التي كانت تصلهم من الهند عن طريق البحر. الشيبه، المرجع السابق، ص٢٣٨ ؛ Cf: The Periplus, Ch. 36.

الملاحظات	المراجع	البلد المستوردة	البلد المصدرة	السلعة
وجد معدن الذهب وبكثرة في الهند من دفعها إلى تصديره للجزيرة العربية على شكل حلي وأواني منزلية: Cf: The Periplus, Ch. 24 ؛ وانظر: مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، التراث القومي، عمان، (١٩٨٣م)، ص٣٠ وللمزيد من المعلومات انظر التوراة: حزقيال الإصحاح ١٦ آية ١٣.	منذر البكر، المرجع السابق، ص٣٨٢ ؛ سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠ آية ١١ ؛ دي لاسي اولايري، المرجع السابق، ص٩٥.	اليمن	الهند	الذهب
استخدم اليمن آنية الفضة في منازلهم من شدة ثرائهم ورفاهيتهم انظر سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠ آية ١١ ؛ حمد بن سراي، المرجع السابق، ص٢٢٣.	زيدان، المرجع السابق، ص١٦١ ؛ حوراني، المرجع السابق، ص١٤٤.	اليمن	الهند	الفضة
لقد استمر اللؤلؤ الهندي بجودته فكانت تصدره للجزيرة العربية التي كانت تأخذ ماتلزمها منه وتصدر الباقي بعدها من مناطق العالم القديم: انظر منذر البكري، المرجع السابق، ص٣٨٢ ؛ شارلزورث، المرجع السابق، ص١٥٤.	The Periplus, Ch. 36.	اليمن	الهند	اللؤلؤ
صدرت الهند لليمن القرود والطواويس ولازالت القرود منتشرة في مرتفعات اليمن، حوراني، المرجع السابق، ص١٤٩.	سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠ آية ١١و١٢ ؛ حوراني، المرجع السابق، ص١٤٩.	اليمن	الهند	القردة و الطواويس

وأخيراً بعد عرض تلك البضائع النفيسة التي تصدرها الهند لليمن لابد ان نعلم أنه بفضل تلك التجارة ارتفع دخل الشعب الهندي واليمني وأصبحتا كلتا الدولتين الهندية واليمن محط أطماع وأنظار الدول العظمى آنذاك(١٧٩).

حتى ان بليني(١٨٠) أشار إلى الحجم الضخم من البضائع التي تستوردها الإمبراطورية الرومانية من الهند وشبه الجزيرة العربية والتي تأخذ مقابلها مليون ستركه Steraca وهو مبلغ يعتبر ضخم جداً آنذاك لتغطية ترف النساء الرومانيات.

١- أثر ازدهار التجارة على المجمع اليمني:

وبعد أن تعرفنا على أهم صادرات وواردات كلاً من الهند واليمن جاء الآن دور الحديث عن صادرات وواردات من نوع آخر ألا وهي تلك المؤثرات الحضارية التي اكتسبها كلاً المنطقتين من جراء احتكاكها بالأخرى.

استفادت اليمن من موقعها الجغرافي في جنوب الجزيرة العربية فأصبحت على طريق الهند التجاري وأصبحت سفن كلاً من الهند واليمن ذهاباً وإياباً في مياه المحيط الهندي(١٨١). وهو ماتحدثت عنه المصادر الكلاسيكية وأظهرته لنا النقوش وهو أن التجار العرب من اليمن وبالأخص حضرموت كانوا يركبون سفنهم من بلادهم إلى الهند مستفيدين بذلك من اكتشاف الرياح الموسمية على يد هيبالوس – كما سلفنا –(١٨٢).

وبفضل تلك التجارة المشركة اختلطت اليمن والهند معاً وتبادلاً الثقافة والحضارة على جميع الأصعدة فإلى جانب الازدهار التجاري الذي تولى أمر الإسهام المناسب في دعم البناء الاقتصادي، كانت العمارة الحضارية التي حققها الانفتاح الاقتصادي وتبنى أهدافها التجارية هي الحافز الرئيس لقطاع كبير من أهل هذه الدولة فلقد انتفعوا كثيراً بالانفتاح الحضاري وطوعوه لحساب الانفتاح الاقتصادي، وترسيخ العلاقات التجارية المتبادلة بينهم وبين الأقطار والأمصار من حولهم بغرض الحصول على أكبر قدر ممكن من الرفاهية والرغد في العيش(١٨٣).

فمن خلال النشاط التجاري، عماد ازدهار اليمن القديم وقاعدة تمدنه دخلت كل المؤثرات الحضارية بين اليمن والهند بالعذر المطلوب ليجدد تلك الحضارات وتساعد على نموها وتطورها(١٨٤).

ومما سبق عرضه يمكن القول ان التجارة تعتبر هي همزة الوصل بين الشعوب ورمز انتقال الحضارة الودي السلمي بينها. وأكبر دليل على مدى قوة البناء الاقتصادي اليمني أنه اعتمد على مجموعة من القوانين التجارية التي تنظم الضرائب وعمليات البيع والشراء في كلاً من تمنع وقيان اللتان حرصتا على دقة تنفيذها. من أجل الحفاظ على الأرباح المتأتية من التجارة(١٨٥).

ولسنا نشك في ان اليمنيين أثروا من مركزهم التجاري فعاش المجتمع اليمني في سعة من العيش، لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ولاسيما كبراؤهم الذين كان لهم حظاً وافراً من رفاهية العيش والتنعم في مختلف أنواع الطعام والشراب، إذ كان يطبخ في بيت

الرجل منهم عدة ألوان وأصناف من الطعام ويعمل في منازلها السكر، وتطيب أدانيهم بالعطر والبخور[١٨٦].

وكان لكلاً منهم الحشاية الخاصة به، وفي منزله الأنيق والكبير الكثير من الإماء والجواري، وعلى بابه حملة من الخدم والعبيد والمحضيات سواءاً من الهنود أو الجيوش حتى ان المؤرخ بليني يبدي حسده لليمين من ثرواتهم هذه ورفاهيتهم الواضحة في وفياتهم حين يحرقون في جنازات الموتى بخوراً بكميات هائلة يفترض إحراقه في معابد الآلهة في روما[١٨٧].

٢- الوكالات التجارية اليمنية في الهند:

وإتماماً لعملية التبادل التجاري الناجح بين القطرين كان لابد للتجار اليمنيين من اتخاذ بعض التدابير والإجراءات التي من شأنها إيصال البضائع سالمة إلى الجهتين.

ونحن في عصر السرعة الذي نعيش فيه الآن غفلنا ماكان يلاقيه الأقدمون من مخاطر عندما كانوا يرسلون البضائع بواسطة سفن صغيرة تقطع رحلات بحرية طويلة ومعرضة للعواصف والحروب والقرصنة، ولعلاج ذلك كانوا يقيمون بعض العلاقات الشخصية مع أناس من أهل هذه المناطق البعيدة، أو يرسلون مندوباً معتمداً على الشحنة المصدرة، وكان هذا المندوب عادة ابناً لأحد كبار التجار أو صديقاً أو عبداً[١٨٨].

وإتماماً لهذه العملية استقر الوكلاء اليمنيين في هذه الموانئ الهندية البعيدة لمراقبة أعمالهم وعلى مضي الزمن كونوا حلقة حول الحوض الشرقي من المحيط الهندي وزاولوا وباشروا تجارتهم فيه[١٨٩].

كون اليمنيون وكالات كبيرة في الهند في منطقة جدروزيا وبنو هناك مدناً وأنشأوا أسطولاً يغدو ويروح بين الهند واليمن بأصناف المتاجر وأنواع البضائع وكونوا هناك سلطة دونها كل سلطة ونفوذاً دونه كل نفوذ. وقبضوا على زمام التجارة من خلال هذه الوكالات التجارية احتكروا غلات البلاد وزاحموا أهلها في أرزاقهم وعرفهم الهنود باسم عربتو (Arabitoe) أي العرب[١٩٠].

ويفضل هذه الوكالات التجارية وصلت الحضارة الهندية إلى كلاً من جنوب الجزيرة العربية وباقي بلاد العالم القديم[١٩١].

٣- الهجرات اليمنية للهند:

لقد فرضت العوامل الطبيعية ضوابط حددت اتجاهات الهجرات السكانية من شبه الجزيرة العربية وخطوط سيرها، وتمثلت في طرق القوافل التي ربطت شبه الجزيرة بالأقاليم المجاور لها وكذلك في طرق بحرية ربطتها بالأقاليم البعيدة، فقد اتجهت التحركات البشرية المبكرة صوب أقاليم الأمطار كما سعت في الأقطار المطلة على المحيط الهندي[١٩٢].

ويجب ان لا تغيب عنا نزعة اليمنيين إلى الهجرة حتى وان كانت طبيعة بلادهم وظروف التجارة ومركزهم التجاري في العالم القديم حتمت عليهم تلك الهجرة وكانت تحملهم على السفر الدائم فنزعتهم للخروج من بلادهم مركبه فطريقة أصلية وفي نفس الوقت مكتسبه من ظروفهم العامة[١٩٣].

فأخذت القبائل اليمنية تهاجر وتستقر خارج اليمن وخاصة على الطرق التجارية الهامة وسواء كانت هذه الهجرة راجعة إلى اضطرابات داخلية أو إلى الرغبة في المزيد من بسطة العيش وسعته أو إليهما مجمعة وإلى غيرها من الأسباب، المهم في الأمر أنه ترتب على تلك الأسباب انه نزحت قبائل يمنية كثيرة من اليمن إلى خارجه وأسست لها مستوطنات ووكالات تجارية قوية حيث استقرت(١٩٤).

وكما ذكر اجثارخديس بأن العرب اليمنيين أسسوا لهم مستوطنات تجارية في الهند نفسها(١٩٥) التي سكنوا واستقروا بها(١٩٦).

ومن خلال هذه الهجرات نستطيع ان نستنتج انه كان لها الفضل في نقل ثقافة اليمنيين للهنود والعكس الاحتكاك المباشر والذي أدى إلى انفتاح حضاري كبير منذ وقت طويل بين الحضارتين اليمنية والهندية كما أدت إلى نتيجة أخرى تمثلت في ان التحركات البشرية التي اتجهت إلى الهند استطاعت ان تعايش أنماطاً من الحضارة الهندية بل وتستوعبها لتخرج لنا بمجموعة من الأنماط الحضارية المشتركة والممزوجة في بوتقة حضارته واحدة ومن ثم تحولت منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية إلى ملتقى حضاري كبير.

وهناك سؤال يفرض نفسه، هل كانت هناك هجرات هندية لليمن ؟ والجواب على ذلك واضح جلي فمنطقة جنوب الجزيرة العربية كانت أرقى مناطق الجزيرة تمدنا في مدارج الحضارة وأكثرها كثافة في عدد السكان العاملين أغلبهم في التجارة(١٩٧).

تلك التجارة التي دفعت التجار الهنود إلى ركوب البحر إلى اليمن والمتاجرة معها بل وتكوين جاليات هندية مهاجرة إلى اليمن من أجل مباشرة أعمالهم هناك فأنشئوا الوكالات التجارية في اليمن وتزوجوا وتعايشوا مع أهلها(١٩٨). ومما يؤكد ذلك أننا عثرنا على نقش في اليمن ذكر فيه أن سفيراً هندياً باسم (ده رده) كان متجهاً إلى روما ولكنه في طريق رحلته مكث فترة في حضرموت عند بعض أقاربه إبان رحلته إلى روما(١٩٩).

من هذا النقش نستنتج وجود جاليات هندية مستقرة في اليمن تربطها بالحكومة اليمنية علاقات صداقة ومودة سواءاً على مستوى الحكومات أو الأفراد.

ومن الجدير بالذكر وكنتيجة حتمية لتلك الهجرات وامتزاج المجتمعين الهندي واليمني بعضها البعض ان تنشئ روابط اجتماعية قوية مثل تبادل الفنون والعلوم ومختلف مظاهر الحضارة الزواج والمصاهرة(٢٠٠) حتى ان المسعودي في فترة متأخرة يقول (صاحبت مشايخ في المحيط الهندي ولدوا ونشأوا من ربابين ووكلاء وتجار يمنيين) وهم بالطبع من أبناء اليمن المهاجرين إلى الهند(٢٠١).

هذا ولقد عثر علماء الآثار على الكثير من النقوش السبئية والقتبانية(٢٠٢) في أقطار عربية وغير عربية بعيدة كل البعد عن اليمن ((مثل الهند))، وهي لا تحتم ان يكونوا اليمنيين غزو هذه الأقطار غزواً، وإنما تظهر مقدار متواضعاً من الحقيقة وهي ان اليمنيين كان لهم في ذلك العصر وجو حقيقي طويل في هذه المناطق، كمهاجرين فاستوطنوا المناطق الجديدة وامتد

وجودهم العربي إليها.

أيضا يمكننا القول بأن النشاط التجاري اليمني كان بلا ريب الوسيلة الفاعلة والمضمونة في نقل الحضارة اليمنية إلى الهند، فمنها أخذ الهنود علوم الفلك والتنجيم والدين ومعظم معالم الحضارة والتقدم الفكري، وأنه لمن المؤكد ان الحضارة الهندية لم تكن من صنع يدها وحدها، وان الهنود لم يكونوا هم الأساس في كل مناحيها ولكنهم استطاعوا ان يتصلوا معظم حضارة اليمن وغيرها من الأمم التي اتصلوا بها، ولعل هذا النقل يعتبر احد مخلفات الحضارة والتقدم التجاري الذي أسلفنا الحديث عنه[٢٠٣].

يجب ان نفهم هنا ان اليمن لم تكن هي المصدر الوحيد لتلك الحضارة ولكنها كانت مصدراً ومستوردا أيضاً من الهند التي أمدت اليمن بمختلف مظاهر الحضارة والعلوم والفنون حتى أننا نجد ان نساء اليمن تأثرن في بعض ملابسهن بالأزياء الهندية الملونة والمطرزة والمزركشة[٢٠٤].

وأخيراً وختاماً لكل ماسبق عرضه فلقد تناولنا طبيعة العلاقة التجارية التي ربطت بين الهند واليمن وطرق التجارة بها سواءاً البرية منها أو البحرية وأنواع البضائع المصدرة والموردة من كلتا الدولتين كما أوضحنا أخيراً أهم المؤثرات الحضارية سواءاً كانت هندية أو يمنية ومدى تأثير وتأثر كل واحدة منها بالأخرى في مجال التجارة والعلوم والفنون وغيرها من مظاهر الحضارة المختلفة.

المصـــادر والمراجـــع

المصادر العربية:

١- القرآن الكريم.
٢- العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (١٩٨٦م).
٣- الاصطخري، (اسحق إبراهيم الفارسي)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر، ومحمد غبريل، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، (١٩٦١م).
٤- الحموي، (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٧٩م).
٥- الهمذاني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، (١٩٧٧م).

المراجع العربية والمعربة:

١- إبراهيم سيف الدين وآخرون، مصر في العصور القديمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، (١٩٩١م).
٢- أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام، دار دمشق، دمشق، (١٩٩٤م).
٣- أحمد الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت، (١٩٧٣م).
٤- أحمد رحيم هبو، تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة حلب، دمشق، (١٩٨٠م).
٥- أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، المكتبة الوطنية، بغداد، (١٩٧٩م).
٦- أحمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ج٢، (١٩٦٧م).
٧- إسرائيل ولفنسوف، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، (١٩٢٩م).
٨- إسماعيل عبدالفتاح، تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الرشد، الرياض، (١٤٢٧هـ).
٩- أسمهان الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، (١٩٩٦م).
١٠- أغناطيوس وغويدي وإبراهيم السامرائي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، دار الحداثة، بيروت، (١٩٨٦م).
١١- أنور عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، (١٩٧٩م)
١٢- برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابي، بيروت، (١٩٨٩م).
١٣- توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٨٤م).
١٤- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٢، (١٩٧٠م)
١٥- جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، (١٩٥٠م).

١٦- جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، (١٩٩٢م).
١٧- جيمس هنري برستد، العصور القديمة، ترجمة داوود قربات، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، (١٩٨٣م).
١٨- حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٩٣م).
١٩- حسين شهاب، ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات في الديوان الأميري برأس الخيمة، الإمارات، (١٩٨٨م).
٢٠- حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (١٩٩٧م).
٢١- حمد بن سراي، تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، مركز الخليج للكتب، دبي، (١٩٩٧م).
٢٢- دانيال بوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة إبراهيم خوري وأحمد العساف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، (١٩٥٣م).
٢٣- دتليف نلسن وآخرون، التاريخ القديم، ترجمة فؤاد علي وزكي حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، (١٩٥٨م).
٢٤- دي لاسي اوليري، جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة موسى الفول، منشورات وزارة الثقافة، عمان، (١٩٩٠م).
٢٥- ربيع القيسي وصباح الشكري، دراسة ميدانية لمسوحات مواقع أثرية في شطري القطر اليماني، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، (١٩٨١م).
٢٦- ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، أبو ظبي، (١٩٩٩م).
٢٧- سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار المجتمع العلمي، جدة، (١٩٧٩م)
٢٨- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، (١٩٧٤م).
٢٩- سعيد زغلول عبدالحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٧٦م).
٣٠- سليمان البدر، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، (١٩٧٨م).
٣١- سيد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٥م).
٣٢- ـــــ، تاريخ وحضارة مصر في العصر الهلنستي، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٩٩٢م).
٣٣- السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (٢٠٠١م).
٣٤- شارلزورث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي جرجس، ومحمد خفاجه، الهيئة المصرية

العامة، القاهرة، (١٩٥٠م).
٣٥- صالح دراكه، بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة سيرين للدعاية والنشر، عمان، (١٩٨٨م).
٣٦- صلاح البكري، تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٥٤هـ).
٣٧- صلاح شهاب، طرق الملاحة في الخليج العربي، الجمعية الجغرافية الحكومية، الكويت، (د.ت).
٣٨- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الشؤون الثقافية، العراق، (١٩٥٥م).
٣٩- عبدالحليم نورالدين، مقدمة في الآثار والمناطق اليمنية، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، (٢٠٠٨م).
٤٠- عبدالله الشيبة، دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي النوري، اليمن، (٢٠٠٠م).
٤١- فتحي أبو عيانه، دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٤٤م).
٤٢- فضل الجاثم، الحضور اليمني في الشرق الأدنى، دار علاء الدين، دمشق، (١٩٩٩م).
٤٣- فليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة، (د.م.ن).
٤٤- قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٦٥م).
٤٥- كمال الصالحي، تاريخ الجزيرة العربية القديم وحضارتها، دار النشر الدولي، الرياض، (٢٠٠٣م).
٤٦- لطفي عبدالوهاب، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٨٨م).
٤٧- مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، مطبعة آمون، القاهرة، (١٩٨٣م).
٤٨- محمد أبو المحاسن عصفور، تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٦٦م).
٤٩- ــ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٤م).
٥٠- محمد الحداد، تاريخ اليمن السياسي، دار وهدان للطباعة، اليمن، ج١، (١٩٦٨م).
٥١- محمد الشاعر، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي وعصر جوستاف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٩م).
٥٢- محمد بافقيه، مختارات من النقوش اليمنية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (١٩٨٥م).
٥٣- ــ، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات، القاهرة، (١٣٩٢هـ).
٥٤- محمد بيومي مهران، الحضارة العربية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت).
٥٥- محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة دراسة وثائقية،

المكتب الجامعي، الإسكندرية، (١٩٩١م).

٥٦- ـــ، شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (١٩٩٩م).

٥٧- محمد متولي ومحمود أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج٣، (١٩٧٨م).

٥٨- محمود عرفه، العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهرهم، دار عين، للدراسات، القاهرة، (١٩٩٥م).

٥٩- منذر البكر، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الدول الحديثة في اليمن، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، (١٩٨٠م).

٦٠- مي السديري، حضارات، (د.ن)، الرياض، (١٤٣١هـ).

٦١- ميخائيل روستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي، ومحمد سليم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).

٦٢- نقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر حويجاني، مراجعة زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، (١٩٩٢م).

٦٣- نقولا زيادة، عربيات حضارة ولغة، (د.ن.م)، (١٩٩٤م).

٦٤- نوره النعيم، الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف للنشر والتوزيع، (د.م)، الطبعة الأولى، (١٩٩٢م)، ص٢٤٨.

٦٥- نينا فكتورفينا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت، (١٩٨٥م)

٦٦- الهادي أبو لقمة ومحمد الأعور، الجغرافيا البحرية، الدار الجماهيرية، بنغازي، (د.ت).

٦٧- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة أحمد رضا وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٥م).

٦٨- هيا آل ثاني، الخليج العربي في عصر ماقبل التاريخ، مركز الكتاب للنشر، الرياض، (١٩٩٧م).

٦٩- وديع بشور، سوريا قصة الحضارة، دار الفكر، (د.م)، ج١، (١٩٨٩م).

الدوريات العربية:

١- اليزيث مونرو، الجزيرة العربية بين البخور والبترول، ترجمة محمود محمود، الدارة، الرياض، السنة الثانية، العدد الخامس، (١٩٧٦م)، ص ص٢٨-٤٣.

٢- بشير زهدي، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل، دراسات تاريخية، السنة الثانية عشر، العدد ٣٩-٤٠، (١٩٩١م)، ص ص١١٩-١٣٨.

٣- جروم، الجرهاء مدينة مفقودة، حولية الآثار العربية السعودية أطلال، دائرة المتاحف،

الرياض، العدد ٦، ص ص٩٥-١٠٥.
٤- ساطع محلي، طريق الحرير – طريق الحوار طريق الحرير، ١٩٩١ وسيلة نقل حضارية، دراسات تاريخية، (١٩٩١م)، العدد ٣٩-٤٠، ص ص٤٩-٧١.
٥- سيد الناصري، الرومان والبحر الأحمر، سيمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، القاهرة، (١٩٧٩م)، ص ص٢٩-٦٨.
٦- علي أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، دراسات تاريخية، مجلة جامعة دمشق، (١٩٩١م)، العدد ٣٩-٤٠، ص ص٨٣-٩٥.
٧- فاطمة صلاح الدين، العرب والتجارة الدولية في العصر الروماني، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، (١٩٩٥م)، ص ص١٧١-١٩١.
٨- محمد حرب فرزات، بين الصين والشام حوار الحضارات على طريق الحرير، دراسة تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العدد ٣٩-٤٠، (١٩٩١م)، ص ص٩٦-١١٨.
٩- محمد حرب فرزات، حوار الحضارات على طريق الحرير بين الصيف والشام، دراسات تاريخية؛ العدد ٣٩-٤٠، (١٩٩١م)، ص ص٩٦-١١٨.
١٠- محمد يوسف، العلاقات التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، (١٩٥٣م)، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، ص ص١-٣٣.
١١- مصطفى عبدالعليم، تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مطبعة جامعة الملك سعود، الرياض، (١٤٠٤هـ)، ج٢، ص ص٢٠١-٢١٣.
١٢- مهيب غالب كليب، الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأول قبل الميلاد، مجلة جامعة دمشق، دمشق، المجلد ٢٧، العدد ١+٢، (٢٠١١م).
١٣- نقولا زيادة، دليل البحر الاريتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، (١٤٠٤هـ)، ص ص٢٥٩-٢٧٧.

المصادر الأجنبية:

١- Appian, Roman History, Trans. By: Horace White, William Heiremans, Ltd, London, (1972), 4 vol.
٢- Arrian, History of Alexander and Anabasis Trans. By: E. Iliff Robson William Heinemann Ltd., London, (1946), 2 vol.
٣- Malale J., Chronographia, ed., L. Dirdrof, (SCHB), Bonn, (1831).
٤- Pliny, Natural History, Trans. By: E.H. Warnington, William Heinemann, London, (1969). vol. 2.
٥- Polybius, The Histories, Trans. By: W. R. Paton, William

Heinemann, London, (1926).
٦- Procopius of Caesarea, History of the Wars, Trans., By: H. B. Dewing, William Heinemann Ltd, London, (1970), vol. 7.
٧- Quintus Curtius, Trans. By: John C. Rolfe, William Heinemann Ltd, London, (1970).
٨- Strabo, Geography, Trans. By: Horace Leonard Jeonard Jones, William Heinermann Ltd, London, (1966), vol. 8.
٩- The Periplus Maris Erythraei, Trans. By: Casson, Princeton University Press, New Jersey, (1914).

المراجع الأجنبية:

١- Albertini E., L'empire Romain, Librairie, Elixalcan, (1929).
٢- Bagot J., The Great Arabs Conquests, Hodder and Stoughton, (1960).
٣- Bell. R., Introduction to the Quran, Edinburch, At The University Press, London, (1953).
٤- Benglson H., The Greeks and the Pergians, Weidem Feld and Nicolson, London, (1964).
٥- Bowersock W., Roman Arabia, Harvard University Press, London, (1983).
٦- Burlot J., La Civilisation Islamiaue, Moorehean, A., African Terilogy, London, (1952).
٧- Cantineau J., Le Dialecte Arabe De Palmyre, Beyrouth, (1934).
٨- Ernest J., Backround of the Middle East, Cornell University Press, New York, (1952).
٩- Fayyaz S., As short History of Islam, London, (1960).
١٠- Fowden G., Empire to Comnon Wealt, New Jersey, (1993).
١١- Glubb J., The Great Arab Conovests, Hodde and Stoughton, (1960).
١٢- H.O. Pub, Sailing Direction for the Red Sea and Gulf of Aden, The Hydrogophie Office Under the Quthority of the Secretary of the Navy, United States, (1952).
١٣- Hannond N., Scullard, The Oxford Classical Dictionary, AHhe

Clarendon Press, Printed in Great Britain, Second Edition, (1970).
١٤- Kirk G., A short History of the Middle East, Surjeet Publication, (1981).
١٥- Leiss B., and Arnold H., Asurvey of Arab History, Cairo, (1987).
١٦- Mattingly H., Roman Imperial Civilisation, Edward Arnold Publishers. Ltd, (1959).
١٧- Perry G., The Middle East Fourteen Islamic Centuries, New Jersey, (1992).
١٨- Peter M., The Arabs, Penguin Book Ltd, London, (1976).
١٩- Potts D., The Arabian Gulf In Antoiqwty, Clarendon Press, Oxford, (1990).
٢٠- Raoul Mclaughlin, Rome and the Distant East, Continuun UK the Tower Building 11 York Road, London, (2010).
٢١- Robinson E., A History of Rome, Met hum Educational Ltd., London, (1978)
٢٢- Schnidt G., Aconcise History of the Middle East Egypt, (1983).
٢٣- Sedillot, Histoire Des Arabs, Librairie Hachette Et, (1954).
٢٤- Sinnigen W. and Boak, A., A History of Rome, To A. D. 565, Macmillan Publishing Co., Inc, New York, (1977).
٢٥- Tenney. F., and Other, An Economic Survey of Ancient Rome, The Johns Hopkins Press, Baltimore, (1938), Vol. IV.
٢٦- Warmington E., The Commerce Between The Roman Empire and India, Curzon Press Ltd, London, (1974).
٢٧- Wellhausen J., The Arab Kingdom and its Fall, Beirut, (1963).
٢٨- Zwemmer R., Arabia, Printed and Bound in Great Britan By A. Wheaten Co. Ltd., Exeter, London, (1986).

الدوريات الأجنبية:

١- Bury J., and other, CAH, Cambridge, (1924), vol. I, pp. 188-203.
٢- David G., 'The Saracens and the Defense of the Arabian

Frontier", BASOR, Bulletin of the American School of Oriental, New Haven, (1978), pp. 1-20.

Shahid J., 'The Rise and Domination of the CIH, Cambridge, vol. 1, (1970). -٣

Teixidor J., 'Un Port Romain Du Desert Palmyre', Semitica, Librairie D'Amerique Et D'Orient, Paris, (1984), vol. XXXIV, pp. 16-55. -٤

الملاحـــــق

(١) بشير زهدي، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل، دراسات تاريخية، السنة الثانية عشر، العدد ٣٩-٤٠، (١٩٩١)، من ص ص١١٩-١٣٨.

(٢) لطفي عبدالوهاب، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٨٨م)، ص٨٩ ؛ فتحي أبو عيانه، دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية، در المعرفة الجامعية، بيروت، (١٩٩٤م)، ص٣ ؛ إسماعيل عبدالفتاح، تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٧هـ، ص١١٣.

(٣) العبادي أبو لقمه، محمد الأعور، الجغرافيا البحرية، الدار الجاهديه، بنغاي، (د.ت)، ص٣٤.

(٤) جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، (١٩٥٠م)، ص٢٣-٢٤.

(٥) نوره النعيم، الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثلث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف للنشر والتوزيع، (د.م)، الطبعة الأولى، (١٩٩٢م)، ص٢٤٨.

(٦) ولمزيداً من المعلومات عن موقع اليمن وأهميته الاستراتيجية والتجارية: انظر بالتفصيل الحموي، (شهاب الدين ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (١٩٧٢م)، ج٥، ص٤٤٧-٤٤٨ ؛ الهمذاني، (لسان اليمن الحسن من أحمد)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، دار اليمامة، الرياض، (١٩٧٧م)، ص٧٧-٧٨.

(٧) Ernest Jack, Background of the Middle East, Cornell University Press, New York, (1952). p. 90.

(٨) Pliny, Natural History, Trans. By: E.H. Warmington Heineran Ltd, London, (1969). Vol. 2. BK. 6. XXVI. 101 ; Sedillot, Des Araps, Libraririe Hachatte Et, (1954). p. 24 ;

فليب حتى، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة، (د.م.ن)، ص١٦٣ ؛ محمد أبو المحاسن عصفور، تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٤م)، ص٢٤٩.

(٩) فاطمة صلاح الدين، العرب والتجارة الدولية في العصر الروماني، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، (١٩٩٥م)، ص ص١٧١-١٩١، ص١٧١.

(١٠) منذر البكر، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الدول الحديثة في اليمن، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، (١٩٨٠م)، ص ٣٨٢ ؛

Joseph Burlot, La Civilisation Islandoue, Moore Hean A., Frican Teritogy, London, (1952). p. 8.

(١١)العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (١٩٨٦م)، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠ آية ٢ ؛ جورج حوراني، العرب والملاحة، ص٧٨ ؛ Peter Mansfield, The Arabs, Penguin Book Ltd, London, (1976), p. 14

(١٢) Leiss. B, and Arnold H., A survey of Arab History, Cairo, (1987), p. 30 ; Richard Beu, Introduction to the Quran, Edinburgh, At the University Press, London, (1953), p. 5.

(١٣)إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، (١٩٢٩م)، ص٢٣٢ ؛ دتليف نلسن، وآخرون، التاريخ القديم، ترجمة فؤاد علي وزكي حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، (١٩٥٨م)، ص٢٧٤.

(١٤)سفر أشعياء الإصحاح ٤٣، آية ٣ ؛ سفر حزقيال الإصحاح ٣٣، آية ٤٢.

(١٥)Pliny, NH, BK VI, 26-101.

(١٦) Eugene Albertini, Le'mpire Roman, Librairie, Elix Alcan, (1929), p. 229.

(١٧)فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مجلة الدراسات البردية والنقوش، ص١٨١.

(١٨) للمزيد من المعلومات عن الدولة الحميرية انظر بالتفصيل: The Periplus Maris Erythraei, Trans. by. Casson, Princeton University Press, New Jersey, (1914), Chapter. 23 and cf also 36.

(١٩)فتحي أبو عيانه، المرجع السابق، ص١٦.

(٢٠)للمزيد من المعلومات عن المصريين انظر: نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي، مراجعة زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، (١٩٩٢م)، ص ص٩٢-١٠٠ ؛ وانظر أيضاً إبراهيم سيف الدين وآخرون، مصر في العصور القديمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، (١٩٩١م)، ص ص٤٧٣-٥٤٦.

(٢١)ولمزيداً من المعلومات عن الأشوريين انظر بالتفصيل: حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (١٩٩٧م)، ص ص٦٧-٩٥ ؛ وانظر أيضاً: طه باقر، مقدمه في تاريخ الحضارات القديمة، دار الشؤون الثقافية، العراق، (١٩٥٥م)، ص ص٤٧٣-٥٤٦.

(٢٢)محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٤م)، ص ص٢٧٨-٢٨٢.

(٢٣)جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، (١٩٢٢م)، ج١، ص١٦٠.

(٢٤)عبدالله الشيبه، دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري، اليمن، (٢٠٠٠م)، ص٢٣٦.

(٢٥) Pliny, NH. BK. VI. 32 ; The Periplus, Ch. 31.

(٢٦)حوراني، المرجع السابق، ص٦٣.

(٢٧) The Periplus. Ch. 19.

(٢٨)محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، (١٩٩٩م)، ص٤٤.

(٢٩) Pliny, NH. BK. XXVI. 101. ؛ دي لاسي اوليري، جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة موسى الغول، منشورات وزارة الثقافة، عمان، (١٩٩٠م)، ص٩٥. والإمبراطور تيبريوس هو الإمبراطور الثاني للإمبراطورية الرومانية تولى العرش وهو في الخمسين من عمره ولكنه تميز بالحكمة وبعد النظر ووضع ثابت له ابن أخته وابنه بالبني جرمانكوس Germancus: لمزيد من المعلومات عن هاذين الإمبراطوريين وباقي الأباطرة الإمبراطورية الرومانية انظر بالتفصيل: E. Robinson. A History of Rome, Methuen Educational Ltd., London, (1971), p. 279 Simien. G. and B. Arthur, A history of Rome to A.D. 565, Macmillan publishing Co. inc. New York, (1977), p. 226.

(٣٠) Pliny, NH. BK. XXVI. 101.

(٣١)محمود عرفه، العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهرهم، دار عين للدراسات، القاهرة، (١٩٩٥م)، ص٢٥٩ ؛ نقولا زيادة، عربيات حضارة - ولعه، (د.ن.م)، (١٩٩٤م)، ص٦٠.

(٣٢)صالح دراكه، بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة سيرين للدعاية والنشر، عمان، (١٩٨٨م)، ص١١٠.

(٣٣)وهو ملك مقدونيا: SF: Quintus Curtus, History of Alexander, Trans By: John Rolfe William Heinemann Ltd, London, (1970), BK. 1. p. 19. وهو ابن فليب الثاني أولمبياس ويعتبر الأسكندر بلاشك أكثر قادة عصره شهرة لأنه هو أول من أدخل نظام جديد في الحضارة الإغريقية: CF: N. Hannond, H. Scullard, The Qufor Classical Dictionary, At the Clarendon **press printed** in Grent Britain, Second Edition, (1970), pp. 39-41. وللمزيد من المعلومات عن شخصية الأسكندر الأكبر انظر بالتفصيل: Arrians, Roman History, Trans By: Horace White, William Heinemann, London, (1972), 4 vols, BK. 181.

(٣٤)قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٦٥م)، ص٤٠.

(٣٥)سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، دار المجتمع العلمي، جدة، (١٩٧٩م)، ص٥٧ ؛ إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٣٦)سيد الناصري، الرومان والبحر الأحمر، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، القاهرة، (١٩٧٩م)، ص ص٢٩-٦٨، ص٣٢ ؛ اليزيبث مونرو، الجزيرة العربية بين البخور والبترول، ترجمة محمود محمود، الدارة، الرياض، السنة الثانية، العدد الخامس، (١٩٧٦م)، ص ص٢٨-٤٣، ص٣٦.

(٣٧) Strabo, op. cit., BK. XV. 1-73 ; Hernann Be Ngtson, The Greeks and the Persians, Weiden Feld and Nicholson, London, (1964), p. 320; Bowersock, W., Roman Arabia, Harvard University Press, London, (1983).p. 43.

(٣٨)للمزيد من المعلومات عن هذه المراحل العسكرية انظر بالتفصيل: عبدالله الشيبة، دراسات في تاريخ اليمن القديم، ص١٨ ؛ محمد يوسف، العلاقات التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، مطبعة فؤاد الأول، القاهرة، (١٩٥٣م)، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، ص ص١-٣٣، ص٤٣-٤٤.

(٣٩)إسماعيل عبدالفتاح، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٤٠) Albertini, E., L'empire Romain, Librairie, p. 229.

(٤١) Strabo, op. cit., Bk. 15.4 ; David F. Graf, The Saracens and the Defense of the Arabian Frostier, American Schools of Oriental Research, Copyright, (1978), p. 3.

(٤٢)حوراني، المرجع السابق، ص٢٥ ؛ John Glubb, The Great Arab Conovests, Hodde and Stoughton, p. 22.

(٤٣) Strabo, BK. 16.4.16.

(٤٤)رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ج١، ص١٤٥ ؛ Strabo, BK. 16.4.23 ; Pliny, NH, BK. V.32. 159-162 ;

(٤٥)منذر البكر، المرجع السابق، ص٤١٠ ؛ أسمهان الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، (١٩٩٦م)، ص ص١٩٧-٢٠١.

(٤٦)فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات البردية والنقوش، ص١٨١ ؛ Pliny, NH, BK. 6.141.

(٤٧)منذر البكر، المرجع السابق، ص٤١٠.

(٤٨)سيد الناصري، المقال السابق، سمنار للدراسات العليا، ص٣٢.

(٤٩)صالح دراكه، المرجع السابق، ص١١٠.

(٥٠)محمود عرفه، العرب قبل الإسلام، ص٢٥٨ ؛ حسين شهاب، ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات في الديوان الأميري برأس الخيمة، الإمارات، (١٩٨٨م)، ص١٤.

(٥١)سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، (١٩٧٤م)، ص١٥.

وللمزيد من المعلومات عن جغرافية شبه الجزيرة الهندية انظر بالتفصيل: الاصطخري (ابن اسحاق)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحسيني، مراجعة: محمد غربال، الجمهورية العربية، (١٩٦١م)، ص١٩ ؛ مي السديري: حضارات، (د.ت)، الرياض، (١٤٣١هـ)، ص١٤٦.

(٥٢)قال العلامة جيان في كتابه وثائق تاريخية وجغرافية في أفريقيا الشرقية (قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق فكانت سفنهم هي الوحيدة التي تجري في المحيط

الهندي، وبخاصة ماسبق بلادهم والهند وكانت لهم هناك جالية يمنية كبيرة). وللمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: صلاح البكري، تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٥٤هـ)، ص٤٤-٤٥.

(٥٣)أنور عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، (١٩٧٩م)، ص١٩.

(٥٤) Procopius of Calsarea, History of The Wars, Trans. By: H. B. Dewing William Heinemann Ltd., London, (1970), Vol. 7 ; Wellhausen J., The Arab Kingdom and its Fall, Beirut, (1963), p. 54.

(٥٥) Pliny, NH. BK. 6.28 32 . The Periplus, Ch. 27 and Cf also. 32.

(٥٦)مهيب غالب كليب، الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأول قبل الميلاد، مجلة جامعة دمشق، دمشق، المجلد ٢٧، العدد ١+٢، (٢٠١١م)، ص٣٥٨ ؛ أحمد الحوفي، المرجع السابق، ص٩١.

(٥٧)محمد بافقيه، مختارات، ص٢٥.

(٥٨)فتحي أبو عيانه، المرجع السابق، ص٦. (انظر جدول البضائع الهندية اليمنية في هذا البحث ص٣٩).

(٥٩)حوراني، المرجع السابق، ص٧ ؛ دي لاس اوليري، المرجع السابق، ص٩٣. (أنظر الخريطة رقم (٤) عن حركة الرياح.

(٦٠)نقولا زيادة، عربيات، ص٤٤ ؛ Teixidor J., "Un Port Romani Du Desert Palnyre", Semitica, Librairie D'Amerique Et D'orient, Paris, (1984), vol. XXXIV, pp. 16-55, p. 40.

(٦١)منذر البكر، دراسات، ص٣٨٧ ؛ The Periplus, Ch. 20 – and 27.

(٦٢)محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة دراسة وثائقية، المكتب الجامعي، الإسكندرية، (١٩٩٩م)، ص٤٣ ؛ عبدالله الشيبه، المرجع السابق، ص٢٠ : وهناك من يقول إن هيبلاكوس السكندري Hipparchus هو أول من اكتشف الرياح الموسمية في العصر البطلمي المتأخر وأوائل العصر الروماني، للمزيد انظر منذر البكر: المرجع السابق، ص٣٩٤.

(٦٣)حوراني، المرجع السابق، ص٦٦؛ فضل الجاثم، المرجع السابق، ص٤١٢.(أنظر الخريطة رقم (٤).

(٦٤) Procopius, History of the Ware, p. 183 ; Shahid I., The Rise and Domination of the Cambridge History of Islam, Cambridge, p. 12.

(٦٥)سيد الناصري، المقال السابق، سمنار الدراسات العليا، ص٦١ ؛ The Periplus, Ch. 19.

(٦٦)هيا آل ثاني، الخليج العربي في عصر ماقبل التاريخ، مركز الكتاب للنشر، الرياض، (١٩٩٧م)، ص٢٤٢-٢٤٣ ؛

The Periplus, Ch. 57.

---

(٦٧) The Periplus, Ch. 57 ; Pliny, NH. BK. VI. 101-106.

(٦٨)ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، أبو ظبي، (١٩٩٩م)، ص١٦-١٧.

(٦٩)وقد ذكر البحارة العربي المسلم المتأخر ابن ماجد في كتابه عن علوم البحار تعبيراً صادقاً يصف لنا فهم دقيق لطبيعة الرياح الموسمية والتيارات المعاكسة في المحيط الهندي فسماه مواعيد غلق البحر وفتح البحر لمواسم السفر كما قال (ان الخروج من الهند يمر العرب أوله ٣٠ الفيروز من حوزران وكتكن، ولكن أهل الأقاليم أكسونية إذا أرادوا السفر فعليهم بأخذ رياح الدبور (أي آخر الصيف) وكلاً على قدر مكانه ومركبه) للمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: أنور عبدالعليم، الملاحة، ص١٣٣.

(٧٠)حوراني، المرجع السابق، ص٧٠ ؛ The Periplus, Ch. 26.

(٧١)محمود حرب فرزات، حوار الحضارات بين اليمن والشام، دراسات تاريخية، العدد ٣٩-٤٠، (١٩٩١م)، ص ص٩٦-١١٨، ص١١٠ : «فلقد استطاع البطالمة الإبحار من موانئهم مباشراً إلى الهند خلال أربعين يوماً عن طريق أعالي البحار بدلاً من الاتجار بمحاذاة الساحل كما كان متبعاً من قبل والعودة بعد ٦ أشهر»: للمزيد انظر فضل الجاثم، الحضور اليمني، ص٤١٢ ، وانظر أيضاً لطفي عبدالوهاب، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٧٢) Pliny. NH. BK. VI. XXVI. 100-101 ; Glubb. J., op. cit., p. 22.

(٧٣)نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسنين مؤنس وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، مصر، (١٩٧٥م)، ص٢٨٠.

وللمزيد من المعلومات عن الإمبراطور فسباسيان انظر بالتفصيل: Mattingly Harold, Roman Imperial Civilisation, Edward Arnold (Publishers) Ltd, London, (1959), p. 19 ؛ وانظر أيضاً سيد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٥م)، ص١٩٦.

(٧٤)مهيب كليب، المقال السابق، مجلة جامعة دمشق، ص٣٥٥؛ Leiss and Arnold,op.cit., p.29.

(٧٥)نينا فكتورفينا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت، (١٩٨٥م)، ص٢٦٠ ؛ نقولا زيادة، عربيات، ص٣٧.

(٧٦)محمد متولي ومحمود أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة العربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، (١٩٧٨م)، ج٣، ص٢٩١. انظر خريطة الطرق البحرية رقم (٢).

(٧٧)محمد بافقيه، مختارات من النقوش اليمنية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (١٩٨٥م)، ص٢١ ؛ قدري قلعجي، المرجع السابق، ص٨٠.

(٧٨)برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابي، بيروت، (١٩٨٩م)، ص١٢٥.

(٧٩)سعاد ماهر، المرجع السابق، ص٥٥ ؛ لطفي عبدالوهاب، المرجع السابق، ص٣٢٤ : ومما يؤنس به في هذا المجال ماورد في القرآن الكريم في سورة يونس قوله تعالى(هو الذى يسركم فى البر والبحر)

آية ٢٢ وفي تلك الآية حض من الله تبارك وتعالى على استخدام البحر . للمزيد انظر فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات البردية والنقوش، ص١٧٢.

(٨٠)محمد متولي، محمود أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج٣، ص٢٩٩.

(٨١)مهيب، المقال السابق، مجلة جامعة دمشق، ص٣٥١.

(٨٢)بيومي مهران، الحضارة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت)، ص٢٨٥.

(٨٣)أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٢٠.

(٨٤)نوره النعيم، المرجع السابق، ص٢٤٧-٢٤٨ : ومما يؤيد هذا الرأي أنه تم العثور على نقش يعود إلى عهد الإمبراطور هادريان Hadrian (١١٧-١٣٨م) فيذكر فيه نقابة مزدهرة ومعترفاً بها لربابنة من تدمر يعملون في أعالي البحار. وفي هذا دليل على انتشار إلمام العرب في شبه الجزيرة العربية سواء شماليين أو جنوبيين بعلوم البحار وإتقانهم لفن الإبحار والتجارة مع الأماكن البعيدة التي يصل إليها عن طريق السفن في البحر : للمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل : Tenney. Frank and Other, An Econmic Survey of Ancient Rome, The Johns Hopkns Press, Baltimore, (1938), vol. IV. P. 208.

(٨٥)فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات البردية والنقوش، ص١٨٤.

(٨٦)منذر البكر، المرجع السابق، ص٤١٥ : وفي إتقان العرب لفنون الملاحة قال طرفة بن العبد في إحدى المعلقات السبع:

عدولية أو من سفن ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

للمزيد انظر منذر البكر، المرجع السابق، ص٤١٥.

(٨٧)أمين عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٨٦ ؛ النعيم، المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٨٨)اليزابيث مونرو، المقال السابق، الدارة، ص٣٦.

(٨٩)برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص١٢٥ ؛ قدري قلعجي، المرجع السابق، ص٨٢ وفي هذه السفن الصغيرة (القوارب) قال طرفه بن العبد

كَأنَّ حُدُوجَ المالِكيَّةِ غُدْوَةً خلايا سفِينٍ بالنَّواصِفِ منْ دَدِ

والحدوج جمع حدج وهو مراكب النساء الصغيرة والنواصف هي المراكب أو السفن الرحبة الواسعة : للمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٢٤.(انظر خريطة رقم١).

(٩٠) Procopius, History of the War, p. 183 ;

ومما يؤكد ذلك أنه وجدت نقوش سبئية ومعينة مكرسه لآلهة عربية في جزيرة ديلوس Delos ببحر أيجا كانت هذه الجزيرة مركزاً لتجارة البضائع الشرقية. وهذا الاكتشاف لا يدل فقط على المدن الذي وصل إليه والتجار العرب إنما يدل أيضاً على أن العرب كانت لهم سفنهم الخاصة للمتاجرة : للمزيد انظر بالتفصيل : فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات البردية والنقوش، ص١٧٢.

(٩١)أنظر الخريطة رقم (١). Pliny, NH. BK. 6. XX11. 14 :

سيد الناصري، تاريخ وحضارة مصر في العصر الهلنستي، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٩٩٢م)، ص٢٥٨.

(٩٢)مأرب ولمزيداً من المعلومات عنها انظر بالتفصيل: سفر التكوين الإصحاح ١٠ آية ٧ : Strabo, GE., BK. 16.4-16.

(٩٣)أما غزة للمزيد من المعلومات عنها انظر : أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام، دار دمشق، دمشق، (١٩٩٤م)، ص١٣٢ ؛ أنظر الخريطة رقم (١).

.Pliny, NH. BK. 6.22.144

(٩٤)اغناطيوس وإبراهيم السامرائي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، دار الحداثة، بيروت، (١٩٨٦م)، ص٨٨ ؛ عبدالحليم نور الدين، مقدمة في الآثار والمناطق اليمنية، تقديم زاهي حواس، مطابع المجلس الأعلى للآثار، مصر، (٢٠٠٨م)، ص٤٥.

(٩٥)صالح دراكه، المرجع السابق، ص١١٠-١١١ ؛ Peter Marsfald, op. cit., p. 21.

(٩٦)منذر البكر، المرجع السابق، ص٣٨٦ ؛ Strabo, GE, BK. 16.4.2 أما حضرموت فللمزيد من المعلومات عنها انظر بالتفصيل: The Periplus, Ch. 29 ; Strabo, GE. BK.1604-4 وانظر أيضاً: توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت، Strabo, GE. BK.1604-4 (١٩٨٤م)، ص٧١ وللمزيد انظر سفر التكوين الإصحاح آية ٣١-٣٢ . وأنظر أيضاً:
Potts. D., The Arabian, Gulf in Antioqon Press, Oxford, (1990), vol. 2, p. 97.

(٩٧)الحوفي، المرجع السابق، ص٩٨ : وللمزيد من المعلومات عن عُمان انظر بالتفصيل نوره النعيم، المرجع انسابق، ص٢٥٨.

(٩٨)برهان الدين دلو، المرجع السابق، ج٢، ص١٣٠ ؛ Strabo, GE. BK. 16.4-2.

(٩٩)لطفي عبدالوهاب، المرجع السابق، ص٢٠٧ ؛ GE, BK. Ibid, 16.4-2.

(١٠٠) فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات والنقوش البردية، ص١٧٢ : ودادان هي العلا حديثاً اشتهر شعبها بالمتاجرة مع الأقطار المجاورة وفي أنفس وأغلى البضائع : للمزيد من المعلومات عنها انظر بالتفصيل سفر حزقيال الإصحاح ٢٧ آية ٥ ، وانظر أيضاً جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٧٠م)، ج٢، ص٢٤٣.

(١٠١) ليوكي كومي: وهو ميناء مصري يقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر نال شهرة واسعة في عهد الدولة البطلمية، وهناك اختلاف حول موقع هذا الميناء الحالي وان البعض يجعله الحوراء واستند على أن الحوراء تعني البغضاء للمزيد عنها انظر بالتفصيل: أنظر الخريطة رقم (١).
Strabo, GE, BK. 16.357 and cF also: The Periplus, Ch. 19.

(١٠٢) محمد حرب فرزات، بين الصين والشام حوار الحضارات على طريق الحرير، دراسة تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، (١٩٩١م)، العدد ٣٩، ٤٠، ص ص٩٦-١١٨، ص١١٣ ؛ وللمزيد من المعلومات عن رأس الحد انظر بالتفصيل: H.O. Pub, Sailing Directions For The Red

Sea and Gulf of Aden, The Hydrographic office Under the Quthority of the Secretary of the Navy, United States, (1952), pp. 267-268.

(١٠٣) Zwenner, R.S., Arabia, Printed and Bound in Great Britan By A. Wheatin. Co. Ltd, Exeter, London, (1986), p. 260.

(١٠٤) الخطوط التجارية البحرية الهندية – اليمنية المباشرة خريطة رقم (٢) والخطوط الغير مباشرة خريطة رقم (٣).

(١٠٥) خراكس وهي المحمره حالياً على الخليج العربي: لمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: منذر البكر، دولة ميسان العربية، المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (١٩٨٦م)، المجلد ١٥، العدد ٣، ص٢٦ ؛ Pliny, NH. BK. 6.138-139.

(١٠٦) فيلكه وهي جزيرة تبعد حوالي ٢٠ كم عن بر الكويت: للمزيد من المعلومات عنها انظر بالتفصيل: دانيال بوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة إبراهيم خوري وأحمد العساف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، (١٩٥٣م)، ص٤٠٥-٤٠٦ ؛ جروم، الجرهاء مدينة معقودة، حولية الآثار العربية السعودية أطلال، دائرة المتاحف، الرياض، العدد ٦، ص ص٩٥-١٠٥، ص٩٨.

(١٠٧) الجرهاء للمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: انظر صلاح شهاب، طرق الملاحة في الخليج العربي، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، (د.ت)، ص١١٠ ؛ Polybius, The Histories, Trans. By: W. Paton Willam Heirman Ltd. (1940). BK, XIII, 9.2.4 ; Strabo, GE, BK. 16.3.2.4.

(١٠٨) Pliny, NH. BK. 6.104 ; Warrington, E, The Commerce Between The Roman Empire, and India, Curzon Press Ltd, London, (1970), p. 45.

(١٠٩) جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٦٢. (أنظر الخريطة رقم (٣).

(١١٠) محمد الحداد، تاريخ اليمن السياسي، دار وهدان للطباعة، اليمن، (١٩٦٨م)، ج١، ص١٥٣ ؛ فاطمة صلاح الدين، المقال السابق، مركز الدراسات البردية والنقوش، ص١٧٢ ؛ Strabo, GE. BK. 16.4.2.4

(١١١) محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص٤٢-٤٣ ؛ The Periplus, Ch. 26

(١١٢) Gearge Kire, Ashort History of the Middle East, Surgeat Publiction, (1981), p. 11 ; Texidor J., Lok. Cit., Semitice, p. 40 . أنظر الخريطة رقم (٣)

(١١٣) Pliny, NH. BK. 6. 101-104 ; وكان من شدة حرص الإمبراطورية الرومانية على خط تجارة الهند – مصر والمارة بالجزيرة العربية أنها قامت بإنشاء قواعد بحرية ثابتة تكون في خدمة هذا الخط الملاحي الجنوبي بالنسبة له : للمزيد من المعلومات انظر بالتفصيل: سيد الناصري، البحر الأحمر والرومان، سيمنار الدراسات العليا، ص٣٣.

(١١٤) أحمد رحيم هبو، تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة حلب، (١٩٨٠م)، ص١٨٦.

(١١٥) شارلزورث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي جرجس ومحمد خفاجة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، (١٩٥٠م)، ص١٥٢.

(١١٦) Appians, Roman History, Trans. By:Horace White, William Heinemann, London, (1972), BX. V. 1-9 ; Warrington, op. cit., p. 105. أنظر الخريطة رقم (٣)

(١١٧) النعيم، المرجع السابق، ص٢٥٢ ؛ برهان الدين دلو، المرجع السابق، ج٢، ص١٣٠.

(١١٨) محمد حرب فرزات، المقال السابق، دراسات تاريخية، ص١١٢ ؛ Plinay, NH. BK. 6.101-104.

(١١٩) Ibid, BK. 6. 101-104.

(١٢٠) أنظر الخريطة رقم (٢)

Warrington, op. cit., p. 48-49

(١٢١) Pliny, NH. BK. 6.101-104.

(١٢٢) بافقيه، مختارات من النقوش، ص٢٨-٢٩؛ The Periplus, Ch. 32 أما عن ظفار فهي عاصمة الدولة الحميرية وتقع بالقرب من بريم الحالية وهي على منطقة جبلية حلت محل مأرب بعد أفول نجمها التجاري: للمزيد من المعلومات عن ظفار انظر بالتفصيل: أحمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، (١٩٦٧م)، ج٢، ص٥٧ وانظر أيضاً: The Periplus, Ch. 23.

(١٢٣) دي لاسي اولبري، المرجع السابق، ص٩٤.

(١٢٤) Rostovtzeff, M. The Social Economic History of the Hellenstic World, At The Clarendon Press, Oxford, (1972), vol. 2. p. 1045 ; قدري قلعجي، المرجع السابق، ص٨٧.

(١٢٥) النعيم، المرجع السابق، ص٢٥١-٢٥٢ ؛ صلاح البكري، المرجع السابق، ج١، ص٤٢.

(١٢٦) سليمان البدر، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، (١٩٧٨م)، ص١٢٨.

(١٢٧) اليزبث مونرو، المقال السابق، الدارة، ص٣٧.

(١٢٨) محمود عرفه، المرجع السابق، ص٢٦٠ ؛ نقولا زيادة، دليل البحر الاريتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، إشراف عبدالرحمن الأنصاري وآخرون، جامعة الملك سعود، الرياض، (١٩٧٩م)، ص٢٦٣.

(١٢٩) النعيم، المرجع السابق، ص٢٥٦. ز أنظر الخريطة رقم (٤)أهم المو اني اليمينية الهندية)

(١٣٠) The Periplus, Ch. 26.

(١٣١) سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص١٦-١٧.

(١٣٢) Ibid, Ch. 26 and Cf also: 32.

(١٣٣) Ibid, Ch. 26 and Cf also: 37 ؛ حوراني، المرجع السابق، ص٦٤.

(١٣٤) للمزيد من المعلومات عن مملكة أوسان انظر بالتفصيل: محمد بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات، القاهرة، (١٣٩٢هـ)، ص٢١-٢٤.

(١٣٥) للمزيد من المعلومات عن الحميريين انظر بالتفصيل: Ibid, BK. I. XX. 3-12 ; Malale. J., Chronographia, ed., L. Dirdraf, (CSHB), Bonn, (1831), pp. 57-59.

(١٣٦) سيد الناصري، المقال السابق، سيمنار الدراسات العليا، ص٥١ ؛ Pliny, NH, BK. IV. 31.

(١٣٧) The Periplus, Ch. 26.

(١٣٨) محمد عبدالغني، المقال السابق، المؤرخ العربي، ص٥٠.

(١٣٩) (أنظر الخريطة رقم (٤) Shahed. I., Lok. Cit., CHI, p. 10-11.

(١٤٠) وهو أيضا حصن الغرب وعن هذه التسمية انظر بالتفصيل: جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٦٠.

(١٤١) محمد عبدالغني، مصادر القرنين ١-٢ الميلاديين، ص١١٠ ؛ Pliny, BK. XVI, 104.

(١٤٢) سفر حزقيال الإصحاح ٢٧ الآية ٢٣-٢٤.

(١٤٣) حوراني، المرجع السابق، ص٥١ ؛ وللمزيد من المعلومات عن طريق اللبان البري والذي يطلق من ميناء قنا انظر بالتفصيل: عبدالله الشيبه، المرجع السابق، ص١٢٠ ؛ Ibid, BK. XVI. 104.

(١٤٤) The Periplus, Ch. 27.

(١٤٥) وللمزيد من المعلومات عن طريقة صناعة الأطواق المشدودة بالقوارب الجلدية انظر بالتفصيل: حوراني، المرجع السابق، ص٥١ ؛ The Periplus, Ch. 27.

(١٤٦) نوره النعيم، المرجع السابق، ص٢٥٦.

(١٤٧) أنظر الخريطة رقم (٤) Ibid, Ch. 31 ; Strabo, GE. BK. 16.24-25.

(١٤٨) Warrington, op. cit., p. 219.

(١٤٩) الملك الغريلط ملك حضرموت وكانت له علاقات واسعة مع أنحاء الجزيرة العربية ذكر نقش انه حضرت وفود من قريش وتدمر لتهنئته بالحكم للمزيد من المعلومات انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص١٤٥ ؛ حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٩٣م)، ص٨٢ وعن أعمال هذا الملك انظر كمال الصالحي، تاريخ الجزيرة العربية القديم وحضارتها، دار النشر الدولي، الرياض، (٢٠٠٣م)، ص١٢٢-١٢٣.

(١٥٠) The Periplus, Ch. 1 and Cf also: 35.

(١٥١) منذر البكر، المرجع السابق، ص٤١٧.

(١٥٢) سيد الناصري، المقال السابق، سيمنار الدراسات العليا، ص٥٥ ؛ Ibid, Ch. 21 and Cf also: Ch. 25.

(١٥٣) محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٧٩ ؛ Ibid, CH. 24.

(١٥٤) الناصري، المقال السابق، سيمنار الدراسات العليا، ص٤٥ ؛ Pliny, Bk. XVI. 104.

(١٥٥) أمين عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٨٢.

(١٥٦) The Periplus, CH. 24.

(١٥٧) فضل الجائم، المقال السابق، ص٤١٢ ؛ TeixiDor. J., Loc. Cit., Simitica, p. 40 ;

(١٥٨) The Periplus, Ch. 28-24 ; Sajyid Fayyaz, A short History of Islam, London, (1960), p. 5.

(١٥٩) النعيم، المرجع السابق، ص٢٥٤-٢٥٥ ؛ الشيبه، المرجع السابق، ص١٩.

(١٦٠) Ibid, Ch. 21-24 ; Teixi Dor, Loc. Cit., Semitica, p. 41.

(١٦١) أنظر الخريطة رقم (٤) Ibid, Ch. 25-26.

(١٦٢) Warrington, op. cit., p. 56.

(١٦٣) نقولا زيادة، المقال السابق، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ص٣٧٤.

(١٦٤) محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية ص١٤٦ ؛ صلاح البكري، تاريخ حضرموت، ص٤٢.

(١٦٥) عبدالفتاح إسماعيل، المرجع السابق، ص١٤٨ ؛ Teixi Dor. J., Loc. Cit., Semitica, p. 38.

(١٦٦) نوره النعيم، المرجع السابق، ص٢٦٢. (أنظر الخريطة رقم ٤)

(١٦٧) Warrington, op. cit., p. 9 ; Raoul Mclaughlin, Rome and the Distant East, Continuum UK The Tower Building 11 York Road, London,(2010), p. 43.

(١٦٨) The Periplus, Ch. 21.

(١٦٩) أنظر الخريطة رقم (٤) Ibid, Ch. 54 and Cf: 60.

(١٧٠) Ibid, Ch. 36 ; Teixi Dor, Loc. cit., Semitica, p. 38.

(١٧١) فضل الجائم، المرجع السابق، ص٤١٢ ؛ Ibid, Ch. 27.

(١٧٢) Warrington, op. cit., p. 10.

(١٧٣) Pliny, NH. BK. VI. 104.

(١٧٤) حوراني، المرجع السابق، ص٨٣ ؛ The Periplus, Ch. 14.

(١٧٥) Pliny, BK. VI. 104-105.

(١٧٦) فليب حتي، خمسة آلاف سنة، ص١٦٤ : وللمزيد من المعلومات عن أثر الثروة الزراعية في ارتفاع المستوى الاقتصادي اليمني آنذاك انظر بالتفصيل: عبدالله الشيبة، المرجع السابق، ص٣٩.

(١٧٧) سفر أشعياء الإصحاح ٤٥ آية ١٤.

(١٧٨) الأفغاني، المرجع السابق، ص١٩ ؛ حسين شهاب، المرجع السابق، ص١١ وللمزيد من أهم البضائع المنقولة من وإلى اليمن والتي كانت اليمن تتاجر بها انظر بالتفصيل سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢.

(١٧٩) لطفي عبدالوهاب، المرجع السابق، ص٣٠٧.

(١٨٠) ستركه Steraca (عملة رومانية) Pliny, NH. BK. XIII. 84. وللمزيد من المعلومات عن ازدهار التجارة الهندية اليمنية وطمع الرومان بها انظر بالتفصيل: الحداد، المرجع السابق، ص٢٧ ؛ Teixidor, Loc. cit., Semitica, p. 20.

(١٨١) توفيق برو، المرجع السابق، ص٢٢٨ ؛ محمد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية، ص١٧٠.

(١٨٢) The Periplus, Ch. 27 ؛ بافقيه، مختارات من النقوش اليمنية، ص٣٣٠.

(١٨٣) عبدالحليم نورالدين، مصرية، ص٥٩٩.

(١٨٤) محمد بافقيه، مختارات من النقوش اليمنية، ص٢٠.

(١٨٥) أمين عبدالفتاح، المرجع السابق، ص٢٩٥ ؛ مهران، الحضارة العربية، ص٢٨٥.

(١٨٦) الحوفي، الحياة، ص٩٣ ؛ الشبيه، المرجع السابق، ص٥١.

(١٨٧) محمد عبدالغني، العلاقات بين العرب والرومان، ص٤٧ ؛ Pliny, NH. BK. XIII, 84.

(١٨٨) اليزبث مونرو، المقابل السابق، الدارة، ص٣٨-٣٩.

(١٨٩) نفسه، المقال السابق، الدارة، ص٣٨-٣٩.

(١٩٠) البكري، تاريخ حضرموت، ص ص٤٤-٤٥ ؛ وجدروزيا هي مدينة واقعة بين كريلا ومصب نهر السند: للمزيد انظر: المرجع نفسه، ص٤٤.

(١٩١) الحداد، تاريخ اليمن السياسي، ص٢٥ ؛ عبدالحليم نورالدين، مقدمه في الآثار، ص٧٥.

(١٩٢) فتحي أبو عيانة، دراسات جغرافية، ص١٦ ؛ Ahmad Anani, and other, The Early History of the Gulf, p. 39.

(١٩٣) قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، ١٩٦٥م، ص٧٨.

(١٩٤) الحداد، المرجع السابق، ص١٦٤ ؛ فتحي أبو عيانه، المرجع السابق، ص٦ ؛ J. Wellhausen, The Arab Kingdom, and its fall, Translated By. Margaret Graham Weir, Beirut, (1963), 54.

(١٩٥) نوره النعيم، المرجع السابق، ص٢٠٧ ؛ مهيب كليب، المقال السابق، مجلة دمشق، ص٣٣١.

(١٩٦) Procopius of Caesarea, History of the Wars, Trans. By. H.B. Dewing William Heman Ltd, London, 1970,Vol. 7,p. 183.

(١٩٧) أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، المكتبة الوطنية، بغداد، (١٩٧٩)، ص١٠١.

(١٩٨) إسماعيل عبدالفتاح، تاريخ الجزيرة، ص١٥٠.

(١٩٩) بافقيه، مختارات من النقوش، ص ص٣٢٩-٣٣٠.

(٢٠٠) كليب، المقال السابق، مجلة دمشق، ص٣٥٨ ؛ عبدالحليم نور الدين، المرجع السابق، ص٩٢.

(٢٠١) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٧ ؛

Bury J., and other, Cambridge Ancient History, Cambridge, (1924), Vol. I, pp. 188-203.

(٢٠٢) قدري قلعجي، المرجع السابق، ص٧٨.

(٢٠٣) مايلز، المرجع السابق، ص٣٠ ؛ مي السديري، الحضارات، ص١٤٧.

(٢٠٤) عبدالحليم نورالدين، المرجع السابق، ص١٦٤.

أمراء البحر في عصر الدولة العربية الاسلامية ودورهم في النشاط البحري في البحر المتوسط

(١٤-١٣٢هـ/٦٣٥-٧٤٩م)

د. مديحة محمد الشرقاوي (*)

مقدمـــــة

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على أمراء البحر فى عصر الدولة العربية الإسلامية، ودورهم فى النشاط البحرى فى البحر المتوسط (١٤ -١٣٢هـ/٦٣٢ -٧٤٩م) وهو موضوع على جانب كبير من الأهمية، سواء بالنسبة للجانب الإدارى والعسكرى من جهة، وتطور النشاط البحرى الإسلامى خلال تلك الفترة من جهة أخرى، حيث لم يحظ هذا الموضوع بشقيه بدراسة متخصصة ومستفيضه من قبل، فقد كان بناء السفن الحربية وارتياد البحر من أبرز التحديات التى واجهت العرب المسلمين، فى أثناء فتوحاتهم للعراق وبلاد فارس من جهة، وبلاد الشام ومصر وافريقية من جهة أخرى، وذلك لوقف الإمدادات العسكرية والغذائية التى كانت تصل للفرس والروم عن طريق البحر المتوسط وقطع الطريق عليهم، حيث سيطر الفرس على موانئ وقواعد بحرية، امتدت من ميناء الأبلة، الذى يقع شمال الخليج العربى، حتى ميناء عدن، الذى يقع على مدخل البحر الأحمر، كما سيطر الروم على جزر هامة كانت تمدهم بالإمدادات العسكرية والغذائية، مثل قبرص ورودس وأرواد، تلك الجزر التى كانت شرقى حوض البحر المتوسط، وفى هذا الإطار فان تاريخ السفن وارتياد البحر من قبل العرب المسلمين يرجع الى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م) وبالتحديد منذ سنه ١٤هـ/٦٣٥م، عندما أشارت المصادر التاريخيةإلى أن المسلمين نجحوا فى هذه السنه فى فتح ميناء الأبلة.

وقد قسمت هذا البحث الى محورين يمكن عرضهما على النحو التالى:

المحور الأول:

يتناول إمارة البحر لغة واصطلاحا، ثم مراحل تطور البحرية الاسلامية وأسباب استحداث وظيفة أمير البحر، كما يتناول اختصاصات ومهام أمير البحر.

المحور الثانى:

يتناول نشاط أمراء البحر فى شرق وغرب البحر المتوسط، سواء فى العصر الراشدى او الدولة الأموية.

هذا وقد أنهيت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج، ثم قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

(*) باحثة حاصلة علي درجة الدكتوراة.

المحور الاول :

اولا: مفهوم الإمارة في اللغة والاصطلاح:

الإمارة من (أمر عليهم – أمرا، وإمارة – وإمرة صار أميرا عليهم – وأمر فلانا أمرا – وإمارة وإمرة : كلفه شيئا، ويقال أمره به، وأمره اياه وأمر فلانا : أشار عليه بأمر. وأمر عليهم – أمرا وإمارة صار أميرا، وأمر عليهم – إمارة : صار أميرا وتأمر عليهم : صار أميرا (والإمارة) منصب الأمير، والإمارة جزء من الأرض يحكمه أمير، والأمر : الحال والشان، و(الإمرة) الإمارة، يقال : تأمر فلان علينا، فحسنت إمرته والأمير : من يتولى الإمارة، والجمع أمراء (١).

أما البحر لغه فمن أبحر، وأبحر فلان : ركب البحر، والبحارة : مؤنث البحار، والبحار : الملاح ويقال للجماعة بحارة، والبحر : الماء الواسع الكثير، والجمع أبحر وبحور، وبحار، والبحرى : الملاح، والبحرى كل منسوب إلى البحر، والبحرية عده الدول فى البحر، من سفن وغواصات وطائرات وجنود، ونحو ذلك(٢).

أما في الاصطلاح، فإن وظيفة أمير البحر تعني القائد العسكري الذي يتولي شئون البحر، ويكون مسئولا عن قيادة الغزوات والحملات البحرية،وقد نقلها الأوربيون منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وصارت تلفظ بالإنجليزية Admiral والفرنسية Amiral وهو ما يعرف في الوقت الحاضر باسم قائد الأسطول البحري Commander of the sea(٣).

ثانيا: مراحل تطور البحرية الإسلامية وأسباب استحدات وظيفة أمير البحر:

حث الإسلام علي ركوب البحر والجهاد في سبيل الله، وتحفل كتب السنة بالكثير من الأحاديث النبوية التي وردت عن الرسول صلي الله عليه وسلم، تبين فضل الغزو في البحر وتدعو إليه، حيث يروي عن الرسول صلي الله عليه وسلم أنه قال :" من غزا في البحر غزوة في سبيل الله فقد أدي إلي طاعته كلها، وطلب الجنة كل مطلب، وهرب من النار كل مهرب"(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" لا تركب البحر إلا حاجاً، أو معتمراً، أو غازياً في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً"(٥)، وعن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: " المائد في البحر يصيبه القئ له أجر شهيد والغرق له أجر شهيدين"(٦)، وعن أبي الدرداء أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر، والذي يسدر في البحر، كالمتشحط (٧) في دمه في سبيل الله سبحانه "(٨).

بدأ العرب المسلمون حملاتهم وغزواتهم البحرية، في منطقة الخليج العربي، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت موجهة ضد الفرس، وكانت أول حملة بحرية بقيادة هرثمة بن عرفجة البارقي الأزدي(٩) وهو من سادة قبيلة بجيلة، وخرجت تلك الحملة من إقليم البحرين باتجاه إحدي الجزر القريبة من البحرين، وذلك لتأمين الفتح الإسلامي في العراق وفارس، والسعي لقطع الإمدادات العسكرية عن الفرس، والعمل علي نشر نفوذ المسلمين في الخليج، وفي ذلك أورد البلاذري :" كان العلاء بن الحضرمي(١٠)، وهو عامل عمر بن الخطاب

علي البحرين وجه هرثمة بن عرفجة البارقي(١١) من الأزد، ففتح جزيرة في البحر مما يلي فارس ... وفي ذلك أورد بن خلدون " إن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه غزو عرفجة بن هرثمة الأزدي في البحر أنكر عليه ذلك وعنفه لركوبه البحر "(١٢).

وبينما كان العرب المسلمون يتقدمون براً نحو العراق وفارس؛ أعد العلاء بن الحضرمي والي البحرين، ومعه زعماء عبد القيس، حملة بحرية من البحرين وعبروا الخليج إلى فارس، ولقد علم الفرس بهذه الحملة فنصبوا للمسلمين كميناً، ونجحوا في قطع الطريق بين المسلمين وسفنهم، وقد انفرد الطبري برواية، في أحداث سنة ١٧هـ/٦٣٨م، نقلها عن سيف بن عمر، تقول: إن السبب الذي دفع العلاء ومن معه إلي ركوب البحر هو الوصول إلي فارس، والفوز بفضل السبق في فتحها عن طريق البحر،إضافة إلي ذلك فقد كان العلاء ينافس سعد بن أبي وقاص الذي هزم الفرس في القادسية، وكان يحاول الإتيان بما هو أعظم وأفضل، في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وتثبيتها والتصدي لأعدائها من الفرس(١٣).

علي أن فشل الحملة أدي إلي عزل العلاء بن الحضرمي من منصبه، ومنع عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، المسلمين من ركوب البحر خوفاً علي حياتهم، لذلك توقف النشاط البحري للمسلمين فترة، ولو إلي حين ثم ما لبث أن عاد مرة أخري عندما ولي عمر بن الخطاب رضى الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي(١٤) البحرين وعمان فقد أورد البلاذري:" لما ولي عمر عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان فدوخهما واتسقت له طاعة أهلها،ووجه أخاه الحكم بن أبي العاص في البحر الي فارس في جيش عظيم من عبد القيس والأزد وتميم وبني ناجية وغيرهم ففتح جزيرة ابركاوان(١٥) ثم صار الي توج(١٦)، وهي من أرض أردشير خرة ومعني أردشير خرة بهاء أردشير ...(١٧).

كذلك أرسل عثمان بن أبي العاص حملات بحرية من عمان إلي المحيط الهندي لمحاربة القراصنة الهنود الذين كانوا يقطعون الطريق علي السفن الإسلامية ويهاجمون السواحل وقد أشار البلاذري الي نجاح هذه الحملات البحرية في المهام التي نيطت بها ورجوعها غانمة سالمة(١٨).

أما في البحر المتوسط: فكانت أول الحملات البحرية الإسلامية عام ٢٨هـ/٦٤٨م، عندما غزا معاوية بن أبي سيفان، والي الشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م)، رضي الله عنه جزيرة قبرص من عكا في حوالي ٢٢٠ مركباً أعدت خصيصاً لهذا الغرض، وكانت تسانده من مصر حملة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وتكللت جهود المسلمين بالنجاح، حيث غنموا الكثير من الخيرات، وصالحوا أهل الجزيرة علي ٧٢٠٠ دينار كل عام(١٩).

يتضح مما سبق: إن الحملات والغزوات البحرية الإسلامية بدأت نشاطها في منطقة الخليج، حيث كان أول الفتح، وأن العرب المسلمين فتحوا العديد من الجزر المنتشرة في الخليج، منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي عصر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه نقل العرب المسلمون نشاطهم العسكري الملاحي إلي البحر المتوسط وفتحوا جزيرة

قبرص، ومن الواضح أنه كان يقود هذه الحملات البحرية المبكرة، في منطقة الخليج قادة عسكريون ممن كانت تعوزهم الخبرات الملاحية، ذلك أن معظمهم كانوا من قادة الجيوش البرية الذين تمرسوا علي خوض المعارك البرية، كما أن غالبة الجنود المشاركين في هذه الحملات من سكان البادية، الذين لم يعتادوا علي ركوب البحر، ولم يختبروا أهواله، كما أنهم لم يتقنوا بعض فنون الحروب البحرية وأساليبها. ويبدو أن العرب المسلمين استفادوا من هذه الغزوات والحملات الأولي، والتي كانت حافزا ودافعا لهم للمزيد من معرفة البحر والغوص في أعماقه، فتعلموا تدريجيا شئون القتال في البحر، وبرعوا في مجال الملاحة العسكرية، وأوصلوها إلي مستوي عال من التطور، وأتقنوا صناعة السفن الحربية، بعد أن استعانوا في بنائها ؛أهل البحرين وفارس والشام ومصر، واستخدموا في بنائها أنواعا من الأخشاب؛ كانت تجلب من غابات السواحل الإفريقية والهند ولبنان وسورية وتتميز بجودة فائقة، تستطيع معها مقاومة المياه المالحة لفترت طويلة، كما أنهم عرفوا الطرق البحرية، واستخدموا في حملاتهم العديد من الأسلحة المستخدمة في الحروب البرية، ولقد أشار ابن خلدون إلي هذا في مقدمته وقال :" فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة عليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية(٢٠) في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلي الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني (٢١)، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلي حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس(٢٢).

ولعل هذا يفسر لنا الأسباب التي دفعت المسلمين إلي توسيع الغزوات والحملات البحرية في حوض البحر المتوسط، ومجاراة الروم البيزنطيين والفرنجة والقوط، والاشتباك معهم في العديد من المعارك البحرية، التي سنعرض لها فيما يلي: ولقد كان لطبيعة هذه المعارك من حيث أهميتها في الدفاع عن الحدود الإسلامية، وكذلك نشر الإسلام في جزر البحرالمتوسط القريبة والمجاورة للمسلمين – أثر كبير في استحداث العرب المسلمين لوظيفة أمير البحر، والتي كانت مهامها في بداية الأمر: استطلاع تقدم البيزنطيين، والرد عليهم بغارات مفاجئة، ثم تطورت هذه المهام تدريجيا، لتصبح هذه الوظيفة في العصر العباسي وظيفة مستقلة، يتولي صاحبها قيادة الأساطيل الإسلامية، ولإشراف علي الجهاز البحري كله، ويطلق عليه اسم " والي البحر" ويعود تاريخ ظهور وظيفة أمير البحر، عند العرب المسلمين، إلي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأول من تولي هذه الوظيفة من العرب المسلمين هو: عبد الله بن قيس الجاس(٢٣).

ويؤكد الطبري هذه المعلومات بقوله" أول من غزا في (البحر المتوسط) معاوية بن أبي سفيان، زمان عثمان بن عفان،وقد كان استأذن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه فيه فلم يأذن له، فلما ولي عثمان رضى الله عنه لم يزل به معاوية،حتى عزم عثمان رضى الله عنه على ذلك بآخرة وقال :" لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم،خيرهم،فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه

ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاس حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ..."(٢٤).

ولقد ضمت حملات عبد الله الجاس، وغزواته البحرية ضد الروم، عددا من صحابة رسول، صلى الله عليه وسلم منهم أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، فقد جاء في رواية في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن حيي بن عبد الله المعافرى بن أبي عبد الرحمن الحبلي قال : كنا في البحر وعلينا عبد الله بن قيس الفزارى ومعنا أبو أيوب الأنصارى....(٢٥)، ومن المفيد أن نشير هنا إلى: أنه نظرا لأهمية وظيفة أمير البحر عند العرب المسلمين، فقد كانت في ذلك الحين مرتبطة إرتباطا مباشراً بالخليفة والوالي، وكان تعيين صاحبها يصدر عن الخليفة وأحياناً عن الوالي، بعد أن يأذن الخليفة، ويستمد أمير البحر منهما السلطة اللازمة للقيام بمهامه وواجباته، هذا وقد استمرت قيادة عبد الله بن قيس لأسطول بلاد الشام البحري، حوالى ٢٨ سنة، إذ تم تكليفه بهذه المهمة سنة ٢٨ هـ/٦٤٨م وظل ينهض بها حتى وفاته في بلاد الروم، سنة ٥٦هـ/٦٧٦م (٢٦).

وقد حفظت لنا المصادر الإسلامية حادثة استشهاد عبد الله بن قيس في بلاد الروم، وتحدث عنها الطبري في تاريخه وقال: "خرج عبد الله في قارب طليعة، فانتهى إلى المرفى"(٢٧) من أرض الروم؛ وجاء اليه اناس من هذا المكان يتسولون فتصدق عليهم فرجعت امرأة منهم إلى قريتها، فقالت للرجال: هل أدلكم على مكان عبد الله بن قيس، فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فاصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه وأصيب من المسلمين عدد كبير وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاس(٢٨)، وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه ؟ قالت: بصدقته؛ أعطي كما يعطي الملوك؛ ولم يقبض قبض التجار"(٢٩).

وخلال هذه الفترة التي تولي فيها عبد الله بن قيس إمارة البحر: شن العرب المسلمون من بلاد الشام ما يقرب من حوالى خمسين حملة بحرية ضد الروم البيزنطيين، لم تتعرض فيها سفنهم إلى خسائر أو نكبات، وعادت الحملات البحرية الإسلامية سالمة ظافرة منتصرة. ونستنتج من النصوص السابقة التي أوردها الطبري، أن العرب المسلمين كانوا يعتمدون في حروبهم البحرية على سياسة الهجوم المباغت فى الإغارة، واعتماد طريقة الكر والفر المعروفة عندهم، والتي استخدموها في معاركهم البرية ضد الفرس والروم في فارس وبلاد الشام، كما أنهم رتبوا الجهاد البحري، ونظموا الحملات البحرية بحيث جعلوها واحدة في الشتاء وواحدة في الصيف، وجعلوا الاشتراك فيها مقصورا على المتطوعة(٣٠).

اختصاصات ومهام أمير البحر:-

على الرغم من ندرة المعلومات الواردة بالمصادر التاريخية، التى بين أيدينا، فيما يتعلق باختصاصات ومهام امير البحر، ربما مرده إلى أسباب عديدة منها: أن الوظيفة عسكرية ظهرت في بداية تأسيس الدولة العربية الإسلامية، وقبل تدوين المسلمين لتاريخهم، وكان استحداثها

من قبل العرب المسلمين في بداية الأمر لشحذ الهمم، حتى لا تخور في الدفاع عن البر عن طريق غزو البحر، ولفتح الجزر القريبة من سواحل بلاد الشام ونشر الإسلام فيها، ثم تحولت هذه الوظيفة، في بداية العصر العباسي، لا سيما بعد فتح العديد من الجزر وتأمين العرب المسلمين سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط إلى وظيفة إدارية، وأصبح يتولاها وال يسمى "والي البحر" ويديرها من مكان إقامته في العاصمة، إلى والي البحر والذي أورده قدامة بن جعفر (ت٣٢٨هـ/٩٣٩ م) وفي كتابه "الخراج وصناعة الكتابة " للحسن بن عبد الله العباسي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) والمتعلق بحروب البحر، والمتضمن واجبات والي البحر عند العرب المسلمين(٣١).

ولقد تحدث الماوردي عن الإمارة على الجهاد وقال : وهي على ضربين : أحدهما ان تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب، فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة، والضرب الثاني أن يفوض إلى الأمير فيها جميع أحكامها من قسم الغنائم وعقد الصلح، فيعتبر فيها شروط الإمارة العامة "...... (٣٢). وعليه فإننا نميل إلى الظن بأن إمارة البحر كانت إمارة خاصة، ومقصورة على قيادة الحملات البحرية ورسم الخطط القتالية(٣٣).

وتتخلص أهم الاختصاصات (٣٤) المناطة بأمير البحر في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية في الأمور التالية :

١- النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم (٣٥).
٢- تجهيز الغزاة في سبيل الله والعناية بهم وتسهيل خروجهم إلى الجهاد(٣٦).
٣- حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل (٣٧).
٤- الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها (٣٨).
٥- جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة (٣٩).
٦- منع أصحابه من التعرض للأطفال والنساء والشيوخ وكذلك عدم التعرض للكنائس والصوامع ومن فيها (٤٠).
٧- أن يكون الإذن عليه لمن معه من الجند مبذولاً والوصول إليه من ذوي الحاجات والظلمات سهلاً يسيراً (٤١).
٨- تفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها وبجود آلاتها، ويتخير الصناع لها، ويشرف على ما كان منها في الموانئ،ويرفعها من البحر إلى الشاطئ في المشاتي، وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها (٤٢).
٩- قيادة الطلائع للتحسس على أخبار الأعداء (٤٣).
١٠- الإشراف على الأسلحة والعناية بها حتى تكون جاهزة وقت الحاجة إليها (٤٤).
١١- تجديد المراكب وإكثارها وتقويتها حتى إذا تلف شيء منها وجد ما يخلفه (٤٥).

نشاط أمراء البحر في شرق وغرب البحر المتوسط في عصر الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية:

يعد عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت ٣٦هـ/٦٥٦م) من أشهر أمراء البحر العرب المسلمين المشهود لهم بالكفاءة والشجاعة وأحد الذين كان لهم الفضل في تطوير القدرات البحرية الإسلامية في البحر المتوسط، ففي سنة ٢٧هـ /٦٤٧م عينه الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، والياً على مصر(٤٦)، ولقد عرف عن عبد الله حبه لغزو البحر، واهتمامه ببناء الأسطول المصري، وذلك في سنة ٢٨ هـ/٦٤٨م، استعمل الخليفة عثمان رضي الله عنه عبد الله بن سعد على البحر، وأسند إليه قيادة أسطول بحري يخرج من مصر لمساعدة معاوية بن أبي سفيان في فتح قبرص (٤٧). كما ينقل الحميري رواية عن عبد الله بن وهب تقول :" أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح أفتتح (غزا) جزيرة اقريطش (كريت) وكان غزا بامرأته قتيلة بنت عمرو(٤٨)، وإذا صحت الرواية يكون عبد الله أول من غزا من العرب المسلمين جزيرة كريت الواقعة في أقصى جنوبي بحر إيجة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى يدي عبد الله بن سعد تمكن العرب المسلمون في سنة ٣١هـ/٦٥١م(٤٩)، من إلحاق هزيمة بحرية ساحقة بالروم في معركة ذات الصواري(٥٠)، وفي ذلك يقول الطبري نقلاً عن الواقدي:" أن أهل الشام خرجوا علي معاوية بن أبي سفيان وعلى أهل البحر عبدالله بن سعد بن أبي سرح وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمين منهم بإفريقية فخرجوا في خمسمائة مركب، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد فأمن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك من صواريها"(٥١).

وينقل لنا ابن الأثير وصفا دقيقاً للمعركة ويقول: "كانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسي المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم، فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم وربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزم قسطنطين جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري أياما ورجع(٥٢)، ولقد أظهر المسلمون في هذه المعركة بسالة وشجاعة فائقتين،وكان عبد الله بن سعد يتقدم المسلمين في مجاهدة البيزنطيين، ومن ذلك ما أشار إليه بن عبد الحكم من أن: " السفن كانت إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال، فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير من مركب العدو فكاد مركب العدو يجتر مركب عبد الله إليهم فقام علقمة بن يزيد الغطيفي وكان عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها، فسأل عبد الله أمرأته بعد ذلك بسيسة بنت حمزة وكانت مع عبد الله يومئذ وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب من رأيت أشد قتالاً قالت علقمة صاحب السلسلة..."(٥٣).

كانت لهذه المعركة نتائج إيجابية على البحرية الإسلامية منها: كسب العرب المسلمين للمزيد من الخبرات العسكرية والمهارات القتالية، وخاصة فيما يتعلق ببناء السفن وصناعة الأسلحة البحرية الأمر الذي دفعهم أكثر من قبل إلى ركوب البحر المتوسط، والتطلع إلى ما

وراءه، ومنها أيضاً أنهم حطموا الأسطول البيزنطي وسيطروا بعد انتصارهم على الروم في هذا المعركة على البحر المتوسط وأصبحوا قوة بحرية عظيمة لا تقهر، وكان ذلك في غضون سنوات قليلة من إرتياد العرب المسلمين للبحر، ومنها كذلك توسيع دائرة الغزو البحري الإسلامي ليشمل نفوذ العرب المسلمين الجزر البعيدة والسواحل البيزنطية المتلاحمة لبلاد الشام، ثم جرأتهم فيما بعد وفتحهم للأندلس عن طريق عبورهم البحر المتوسط إلى أوروبا وتأكيداً على ما سبق فإن معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٧٩م) بعد تولية الخلافة استعمل جنادة بن أبي أمية الأزدي(٥٤)، على البحر وأرسله في سنة ٥٢هـ/٦٧١م إلى جزيرة رودس(٥٥) وفي سنة ٥٤هـ/٦٧٣م(٥٦) أرسله في حملة بحرية مكونة من ٤٠٠٠ مجاهد و ٢٠ مركباً لفتح جزيرة أرواد، ومن التدابير التي اتخذها العرب المسلمون لضمان وصواء نجاح هذه الحملة استخدام الأدلاء يحذروهم مما يتعرضهم في البحر، فقد ضمت الحملة مرافقا من الروم البيزنطيين، من أهل أرواد، أسره العرب المسلمون قرب سواحل بلاد الشام واستخدموه ليدلهم ويحذرهم ممن يريد بهم شراً، ولقد نجح جنادة بن أمية ومن معه من العرب المسلمين، في فتح الجزيرة وصالحوا أهلها على دفع الجزية، ثم عادوا إلى بلاد الشام ظافرين(٥٧). ومع أن إمارة جنادة لم تستمر لأكثر من ست سنوات(٥٨)، إلا أنه أهتم كثيراً بتطوير البحرية الإسلامية، وأسهم في توسيع قاعدة الفتوحات الإسلامية في البحر المتوسط، ومن أهم الغزوات البحرية التي أوكل إلى أمير البحر جنادة بن أبي أمية الأزدي القيام بها غزو جزيرة إقريطش (كريت) في سنة ٥٤هـ/٦٧٣م ثم أرسله معاوية مرة ثانية إلى جزيرة رودس، الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في سنة ٦٠هـ/٦٧٩م، بعد أن نكث أهلها العهد الذي بينهم وبين المسلمين(٥٩).

وممن تولى إمارة البحر في خلافة معاوية بن أبي سفيان: عقبة بن عامر الجهني(٦٠)، فقد ذكر الكندي أن معاوية استعمله على البحر، سنة ٤٤هـ/٦٦٤م وأمره أن يسير من مصر إلى جزيرة رودس، وذكر الطبري أن معاوية وجه عقبة بن نافع في سنة ٤٨هـ/٦٦٨م في حملة بحرية ومعه أهل مصر لكنه لم يحدد وجهة الحملة(٦١)، كما أشار المقريزي كذلك إلى حملة بحرية إلى جزيرة رودس في سنة ٥٣هـ/٦٧٢م أسند معاوية قيادتها إلى عقبة بن عامر الجهني(٦٢).

كما أوردت المصادر أسماء عدد من القادة العرب المشهود لهم بالكفاءة العسكرية، ممن ولاهم معاوية إمارة البحر، نذكر منهم:

- معاوية بن حديج الكندي(٦٣) أول من غزا جزيرة صقلية، في أيام معاوية بن ابي سفيان (٦٤).
- موسى بن نصير: ولاه معاوية البحر وأرسله لغزو قبرص، حيث بنى فيها حصوناً للمسلمين(٦٥).
- بسر بن أبي أرطأة(٦٦) : استعمله معاوية، في سنة ٤٤هـ/٦٦٤م، على البحر وأرسله في حمله بحرية(٦٧).
- مالك بن هبيرة السكوني(٦٨) : غزا البحر في سنة ٤٨هـ/٦٦٨م(٦٩).

- يزيد بن شجرة الرهاوي(٧٠) تولى قيادة أهل الشام في حملة بحرية في شتاء سنة ٤٩هـ/٦٦٩م(٧١) ثم استعمله معاوية مرة أخرى في سنة ٥٦هـ/٦٧٥ م(٧٢).
- عقبة بن نافع (٧٣) غزا البحر، في شتاء سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، ومعه أهل مصر(٧٤).
- فضالة بن عبيد الأنصاري(٧٥) تولى في سنة ٥٠هـ /٦٧٠م قيادة غزوة بحرية(٧٦).
- عمرو بن يزيد الجهني(٧٧) غزا البحر في سنة ٥٨هـ / ٦٧٧م(٧٨).

توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة ٦٠هـ/٦٧٩م وبعد وفاته فتر النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط وخيم الهدوء على الغزوات والحملات البحرية العربية ولا يرجع ذلك فقط إلى أن العرب المسلمين فتحوا معظم الجزر المنتشرة في شرق البحر المتوسط وهزموا ودمروا الأسطول البيزنطي وسيطروا على الملاحة البحرية في حوض البحر المتوسط ولكنه يرجع إلى الأوضاع الداخلية في الدولة الأموية والمتمثلة بوصول يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣م) إلى الخلافة ودخوله في صراع مع معارضيه ممن خرجوا عليه، وقد استمر الفتور البحري الإسلامي في البحر المتوسط حتى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) الذي ما أن قضى على الثورات الداخلية حتى وجه اهتمامه نحو البحر فأولى الحملات البحرية عناية واهتمام كبيرين، ولم يغفل عن إعادة سيطرة المسلمين على البحر المتوسط وخاصة الجزر التي لم تستقر فيها بعد أقدام المسلمين والواقعة في غرب البحر المتوسط، استأنف العرب المسلمون نشاطهم البحري بإنشاء دار لصناعة السفن في تونس رغبة منهم في تقوية وتدعيم أسطولهم البحري في غرب البحر المتوسط، ويعود الفضل في قيام هذه الصناعة في المغرب العربي إلى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر أخاه عبد العزيز، والي مصر، بإرسال عدد كبير من أقباط مصر المتمرسين بصناعة السفن إلى تونس، كما أمر الوالي حسان بن النعمان أن يبني دار صناعة ويصنع بها المراكب ويجاهد الروم براً وبحراً(٧٩).

وكان نتيجة ذلك مباشرة العرب المسلمين، في سنة ٧٧هـ/٦٩٧م، نشاطهم البحرى وقيامهم بحملة بحرية انطلقت من تونس وكان يتولى قيادتها والي إفريقية وأمير البحر حسان بن النعمان الغساني، وقد خرجت هذه الحملة لمواجهة الأسطول البيزنطي الذي جاء لاسترداد قرطاجة بعد أن فتحها المسلمون(٨٠).

ولما تولى موسى بن نصير إفريقية، في سنة ٧٨هـ/٦٩٧م سعى لاتخاذ جملة من الإصلاحات والتنظيمات المتعلقة بتطوير القدرات البحرية الإسلامية، في بحر إفريقية، فأولى صناعة السفن اهتماماً كبيراً، وأمر بصناعة ١٠٠ مركب لتطوير الأسطول الإسلامي في تونس، وربط دار الصناعة، التي أسسها حسان بن النعمان بمرفأ على البحر تستخدمه السفن وتلجأ إليه إذا اشتدت الرياح، أو كلما دعتها الحاجة إلى ذلك، وقد شهدت هذه الفترة انتصارات بحرية عربية إسلامية متكررة في البحر المتوسط، لعب أمراء البحر دوراً كبيراً فيها إذ حظيت هذه الوظيفة باهتمام الوالي موسى بن نصير، فكان لا يعقدها إلا للمقربين منه والمشهود لهم بالكفاءة والمقدرة(٨١).

وفي سنة ٨٣هـ/٧٠٢م، انطلقت من مصر حملة بحرية بقيادة الأمير عطاء بن أبي نافع الهذلي، ومعه مراكب أهل مصر متوجهة إلى جزيرة سردانية(٨٢) ويبدو أن هدف الحملة كان ضرب القواعد البحرية البيزنطية المتمركزة في الجزيرة، ولكن نتيجة سوء الأحوال المناخية: توقفت الحملة في سوسة في إفريقية ثم غادرتها بعد ذلك إلى جزيرة صقلية حيث نجحت الحملة في الإغارة على الجزيرة وأصاب المشاركون في الحملة غنائم كثيرة من الذهب والفضة، وفي طريق العودة أصابت الحملة رياح عاصفة أدت إلى غرق الأمير عطاء ومعه عدد كبير من أفراد الحملة(٨٣)، ويلاحظ المتتبع لنشاط المسلمين البحري أن هذه الكارثة كان لها أثر كبير في توقف النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط لفترة استمرت قرابة عامين ثم ما لبث أن استؤنف بعد ذلك وكان أكثر قوة مما كان عليه من قبل إذ يشير ابن قتيبة إلى حملة أخرى قامت من تونس سنة ٨٥هـ/٧٠٤م سميت " حملة الأشراف " واشترك فيها ما بين تسعمائة إلى ألف مجاهد من أهل الجند والنكاية والشرف وتولى قيادتها عبد الله بن موسى بن نصير بعد أن أمره والده موسى على البحر وسارت الحملة إلى جزيرة صقلية. وذكر ابن قتيبة أن الحملة أصابت غنائم كثيرة بلغ فيها سهم الرجل ١٠٠ دينار ذهباً(٨٤).

ولقد أولى موسى بن نصير ركوب البحر اهتماما كبيرا، وشجع الناس وخاصة الأشراف منهم على ركوب البحر، والاشتراك في الحملات البحرية تحت إمرته وتحت إمرة ابنه، ووعد الناس بالفوز بالغنائم، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه كتاب "ابن قتيبة حيث يقول " ثم لما كانت خمس وثمانين أمر (موسى) الناس بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ثم شحن فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب، حتى إذا ركبوا في الفلك، ولم يبق إلا أن يرفع هو، دعا برمح فعقد لعبد الله بن موسى بن نصير، وولاه عليهم وأمره ثم أمره أن يرفع من ساعته، وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف فسميت غزوة الأشراف "(٨٥).

وممن تولى إمارة البحر في خلافة عبد الملك بن مروان: عياش بن أخيل(٨٦)،حيث قاد في سنة ٨٦ هـ/٧٠٥م أهل إفريقية في حملة إلى مدينة سرقوسة(٨٧)، أكبر مدن جزيرة صقلية، ويمجيء الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) إلى الخلافة شهد النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط تطوراً هاماً تمثل في مساندة أمراء البحر لقادة الجيوش البرية وحماية تقدمهم والتي بفضلها تحقق النصر للعرب المسلمين في الأندلس وغيرها من المناطق، فعصر الوليد يعتبر من أزهى العصور العربية الإسلامية إذ تمكن فيه العرب المسلمون من فتح الأندلس في الغرب وفتح السند وبلاد ما وراء النهر في الشرق، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى مناطق واسعة وامتدت الحدود الإسلامية لتصل إلى إسبانيا في الغرب وإلى الهند والصين في الشرق، ونستنتج من هذا تركيز النشاط البحري الإسلامي على إفريقية وأسطولها في غرب البحر الأبيض المتوسط وبناء على ذلك، أسند موسى بن نصير والي إفريقية في سنة ٨٧ هـ/٧٠٥م إمارة البحر إلى ابنه عبد الله وبعثه إلى سردانية حيث وفق في غزو قوله (٨٨)، ولما عاد ابنه ولاها موسى لعبد الله بن حذيفة الأزدي، وأرسله مرة أخرى إلى سردانية ولقد نجحت

الحملة وعادت محملة بالغنائم والسبيء(٨٩) وفي سنة (٨٩ هـ/٧٠٧م عقد موسى بن نصير لواء إمارة البحرعلى إفريقية لعبد الله بن مرة فركب عبد الله البحر ووصل إلى سردانية ونجح في الإغارة على العديد من مدنها(٩٠)، وفي هذه السنة أمر موسى ابنه عبد الله على البحر وأرسله لغزو جزيرتي ميورقة(الجزيرة الكبرى) ومينورقة (الجزيرة الصغرى) الواقعتين على مقربة من الساحل الإسباني الغربي حيث تمكن من فتحهما وعاد إلى تونس غانما(٩١).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الحملات ومعها الحملات البحرية التي سيرها العرب المسلمون من إفريقية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت ترمي في الأساس إلى اختبار قوة البيزنطيين في غرب البحر المتوسط وتمهد السبيل لعبور العرب المسلمين البحر المتوسط إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، ويعد خالد بن كيسان من أبرز أمراء البحر في عهد الخليفة الوليد، ويبدو أن نشاطه البحري المتزايد قد أدى إلى وقوعه في الأسر، وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ٩٠ هـ/٧٠٨م " أن الروم أسروا خالد بن كيسان صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك"(٩٢).

وممن تولى إمارة البحر في خلافة الوليد ابنه بشر بن الوليد الذي أرسله الخليفة من بلاد الشام إلى جزيرة صقلية فغزاها ثم عاد بقواته إلى دمشق ووصلها بعد وفاة أبيه الوليد في سنة ٩٦هـ/٧١٤م(٩٣).

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ/٧١٤- ٧١٧ م) شارك أمراء البحر في حصار القسطنطينية، وأسهموا بخبراتهم إسهاماً كبيراً في تضييق الخناق على الروم، ومنع الإمدادات من أن تصلهم من البحر، بل تعدى ذلك إلى بث الغارات الاستطلاعية وشنها على السواحل البيزنطية وكذلك تمويل الجيوش البرية بالمؤن والسلاح. ومن أشهر أمراء البحر في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك: الأمير عمر ابن هبيره الفزاري الذي استعمله الخليفة سليمان علي البحر لغزو الروم، ثم أرسله إلى القسطنطينية لمساندة الجيش البري الذي كان يقوده مسلمة بن عبد الملك(٩٤).

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧١٩-٧٢٣م) غزا بشر بن صفوان والي إفريقية وأمير البحر في ذلك الحين، جزيرة صقلية ورجع منها بسبي كثير(٩٥) ثم استعمل بعد ذلك يزيد بن مسروق اليحصبي على البحر، وبعثه من بلاد المغرب في غزوة بحرية إلى سردانية فغزاها يزيد وعاد منها ظافراً سالماً، وفي سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م تولى إمارة البحر عمرو بن فاتك الكلبي وغزا في هذه السنة البحر ورجع من غزوته منتصراً(٩٦).

واستمر أمراء البحر العرب المسلمون في مواصلة نشاطهم وجهادهم البحري ضد الروم البيزنطيين في البحر المتوسط، كما واصلوا شن غزواتهم البحرية من بلاد الشام ومن شمال إفريقية على جزيرتي صقلية وسردانية، فغزا أمير البحر محمد بن أبي كبر مولى بني جمح(٩٧) في سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م جزيرتي سرقوسة(٩٨) وسردانية من سواحل إفريقية، وفي سنة ١٠٧هـ/٧٣٥م غزا المسلمون جزيرة صقلية، بقيادة أمير البحر معاوية بن هشام يعاونه ميمون بن مهران(٩٩).

وفي ١٠٩هـ/٧٢٧ م تولى إمارة البحر حسان بن محمد بن أبي بكر، فغزا جزيرة سردانية(١٠٠)، مرة أخرى وعاد منها سالماً ويذكر الطبري أنه غزا البحر في هذه السنة أيضاً أمير البحر عبد الله بن عقبة الفهري(١٠١) وفي سنة ١١١هـ/٧٢٩م استعمل الخليفة هشام بن عبد المالك(١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٢م) عبد الله بن أبي مريم على البحر وأرسله من بلاد الشام إلى جزيرة صقلية(١٠٢) وفى نفس السنة استعمل عبيدة بن عبد الرحمن والي افريقية في خلافة هشام بن عبد الملك، المستنير ابن الحارث على البحر وأرسله في حملة بحرية كبيرة مكونه من ١٨٠ مركباً إلى جزيرة صقلية لمحاربه الروم البيزنطيين ولكن لسوء الحظ أصابت هذه الحملة في طريق عودتها رياح عاصفة وتعرضت سفن المسلمين للغرق ولم ينج منهم إلا عدد قليل، ويصف خليفة بن خياط هذه الكارثة فيقول:" وهجم الشتاء فقفل بريح طيبة حت لجج فجاءت ريح عاصف فغرقت مراكبهم فلم يسلم منهم إلا سبعة عشر مركباً(١٠٣)، وقد أدى فشل الحملة إلى معاقبة الوالي لأميرها المستنير بن الحارث وجلده جلداً موجعاً بسبب تأخره في العودة قبل حلول الشتاء(١٠٤).

وعلى الرغم من ذلك: نشط العرب المسلمون في غزو البحر، واستمرت الغزوات والحملات البحرية، يقودها أمراء البحر في مهاجمة الروم البيزنطيين من بلاد الشام ومن موانى إفريقية، وينقل ابن خياط رواية عن أبي خالد البصري فحواها: أنه في سنة ١٢٢هـ/٧٣٠م خرجت من إفريقية حملة بحرية بقيادة الأمير ثابت بن ختيم ووصلت إلى جزيرة صقيلة فأصابت الحملة سبايا وغنائم ثم عادت إلى إفريقية سالمة(١٠٥) ثم تبعتها في العام التالي حملة بحرية أخرى تولى قيادتها عبد الملك بن قطن وتوجهت إلى جزيرة صقلية(١٠٦).

وفي سنة ١١٤هـ/٧٣٢م تناوب على إمارة البحر في إفريقية أميران هما: عبد الله بن قطن وعبد الله بن زياد الأنصارى، وعبد الله بن قطن خرج في حملة بحرية إلى صقلية، وعبد الله بن زياد توجه إلى جزيرة سردانية، ولقد نجحت الحملتان وعادتا إلى تونس سالمتين ومحملتين بالغنائم(١٠٧).

على أنه من أبرز الأحداث التي شهدتها السنين الأخيرة، من عصر الخليفة هشام بن عبد الملك: تصدي الروم للحملات البحرية الإسلامية وخروجهم إليها في البحر المتوسط، وملاحقتهم للسفن الإسلامية وضربها بالنار الإغريقية،كما نجح الروم كذلك في أسر عدد من المجاهدين المسلمين، ومن ذلك خروجهم، في سنة ١١٥هـ/٧٣٣م لحملة الأمير بكر بن سويد إلى جزيرة صقلية ورميها بالنار، ولقد أبلى أمراء البحر العرب المسلمون بلاء حسناً في التصدي للروم وهزيمتهم وتكبيدهم خسائر كبيرة، ويحدثنا خليفة بن خياط عن ذلك في أحداث سنة١١٦هـ/٧٣٤م ويقول: " وفيها أغزى ابن الحبحاب عثمان ابن أبي عبيدة فأصاب ناحية من صقلية وقفل، فلقيته مراكب الروم في البحر، فهزمهم الله وأصابوا من المسلمين وأسروا ابني عثمان عمرا وسليمان أبا الربيع وعبدالرحمن بن زياد بن أنعم وأخاه المغيرة بن زياد، فلم يزالوا فى أيدي الروم حتى ولي عبد الرحمن بن حبيب، ففدى ابني عمه وناسا من أساري المسلمين وعبد الرحمن بن زياد، وذلك سنة إحدى وعشرين ومائة(١٠٨).

وحاول الروم توسيع نشاطهم البحري ضد المسلمين، فهاجموا مصر في سنة١١٨هـ/٧٣٦م، فخرجت لهم، من مصر حملة بحرية بقيادة امير البحر نافع ابن ابى عبيدة بن عقبة بن نافع، واصطدمت مع سفن الروم في البحر وهزمتهم وأبعدتهم عن السواحل المصرية، وكان من نتيجة هذا الهجوم أن أسرت الروم عدداً من المجاهدين المسلمين(١٠٩).

وفي سنة١٢٢هـ/٧٣٩م استعمل عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية: حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على البحر، وسيره غازياً إلى جزيرة صقلية، حيث وصل الجزيرة وأرسل ابنه عبد الرحمن إلى مدينة سرقوسة فهزم أهلها وصالحهم على دفع الجزية (١١٠).

وممن تولوا إمارة البحر، في مرحلة الضعف في البحرية الأموية: الأسود ابن بلال المحاربي الذي استعمله الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ/٧٤٢-٧٤٣م) على البحر وبعثه في سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م في حملة بحرية إلى جزيرة قبرص، وأمره أن يخير أهلها بين العيش في جوار المسلمين في بلاد الشام أو العيش في بلاد الروم فانقسم الناس، منهم من اختار المسلمين فنقلوا إلى بلاد الشام، ومنهم من اختار بلاد الروم، فنقلهم الأسود بن بلال إلى هناك، وللأسف لم نتمكن من العثور على معلومات عن الأسباب التي دفعت العرب المسلمين إلى إخلاء الجزيرة لكن يمكن الاستنتاج بأنها كانت أسباباً أمنية، أو ربما بسبب الفتن وتردي الأوضاع السياسية والعسكرية الداخلية في الدولة الأموية، في ذلك الوقت، وعدم قدرة السلطة الأموية على تأمين الحماية اللازمة لسكان الجزيرة(١١١).

الخاتمـــــة:-

لقد تمخضت هذه الدراسة عن نتائج جديرة بالاهتمام لأنها تبين بشكل واضح وجلي الدور الذي أداه أمراء البحر في تقوية النفوذ البحري للدولة الأموية، وتقيم السياسة البحرية التي اتبعها الخلفاء الأمويون في تعيين واستعمال أمراء البحر ويمكن تلخيص أبرز هذه النتائج على النحو التالي :-

١- مرت إمارة البحر عند العرب المسلمين بخمس مراحل مختلفة .

المرحلة الأولى :

هي مرحلة النشوء والتطور، وقد بدأت هذه المرحلة في عصر الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م)، رضي الله عنه، و تميزت هذه الفترة بتحفظ الخليفة وتردده في ركوب الجيوش الإسلامية البحر، خوفاً على أرواح المسلمين، ومع ذلك فقد ظهر عدد من القادة والأمراء ممن كان لهم فضل السبق في قيادة الحملات الإسلامية المبكرة ذات الإمكانات المتواضعة، ومواجهة الأساطيل الساسانية في الخليج العربي، والأساطيل البيزنطة في شرق البحر المتوسط، وبسط سيادة المسلمين على سواحل بلاد الشام ومصر .

المرحلة الثانية :

هي مرحلة النشاط والقوة، واستمرت من سنة ٢٤هـ/٦٤٤م حتى سنة ٣٥هـ/٦٥٥م حيث أسهم فيها أمراء البحر في توسيع نفوذ الدولة العربية الإسلامية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط، وهزيمة الأسطول البيزنطي وإضعافه، وكان يرافق الأمراء في غزواتهم المبكرة من بلاد الشام ومصر، زوجاتهم وذلك حتى يهونوا على جندهم الخوف من البحر ويشجعونهم على ارتياده.

المرحلة الثالثة :

وكانت مرحلة التفوق، واستمرت من سنة٤١هـ/٦٦٠م وحتى سنة٦٠هـ/٦٧٩م، وتمثلت أولاً: بتكثيف أمراء البحر الحملات البحرية، وتوسيع قاعدة الفتوح الإسلامية لتشمل الجزر القريبة من سواحل بلاد الشام مثل: جزيرة قبرص وجزيرة أرواد وجزيرة رودس، وثانياً: بالدور الكبير الذي لعبه أمراء البحر في الحفاظ على هذه الجزر والاستماتة في سبيل الدفاع عنها.

المرحلة الرابعة :

وهي مرحلة انتقال النشاط البحري الإسلامي إلى غرب البحر المتوسط (٦٥-١١٤هـ/ ٦٨٤-٧٣٢م) حيث نجح أمراء البحر الأمويون في تأمين النفوذ العربي الإسلامي في شمال إفريقية، عن طريق شن حملات بحرية متكررة، من بلاد الشام ومن إفريقية على القواعد البحرية البيزنطية المتمركزة في جزيرتي صقلية وسردانية، الأمر الذي مهد السبيل لاستكمال العرب المسلمين لفتح المغرب، ومن ثم فتح الأندلس.

المرحلة الخامسة

هي مرحلة الضعف والتي بدأت من سنة ١١٥هـ/٧٣٣م، واستمرت سنة ١٣١هـ/٧٤٨م وتميزت بالمواجهة مع الروم البيزنطيين الذين أخذوا يتعرضون للسفن الإسلامية في البحر

المتوسط، فى الوقت الذى كانت تشهد فيه الدولة الأموية حالة من التداعي والانهيار السياسي الداخلي. وبالرغم من ذلك فقد تمكن أمراء البحر العرب المسلمون من درء الخطر البيزنطي، ونجحوا في هزيمة الأسطول البيزنطي، في غرب البحر المتوسط وأوقفوا توغله.

٢-**استحدثت وظيفة أمير البحر فى عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه** وأول من تولاها: عبد الله بن قيس الجاسى، وكان ظهورها مرافقاً لنشاط العرب المسلمين فى البحر المتوسط واختص بها أهل الشام ومصر والمغرب العربى والأندلس. ولم تستخدم هذه التسمية عند غيرهم من العرب المسلمين.

٣- **كانت وظيفة أمير البحر فى بلاد الشام ومصر وظيفة عسكرية ثابتة ومحددة** مثل غيرها من الوظائف الأخرى كوظيفة صاحب الشرطة، وصاحب البريد، وصاحب الخراج، أما فى شمال إفريقية والأندلس فكانت وظيفة أمير البحر وظيفة غير دائمة، حيث يتولى قيادتها الوالى أو من ينوب عنه، ويتم تعيين أمراء البحر عند الضرورة، وخاصة فى أثناء تجهيز الحملات البحرية للغزو الخاطف والسريع، ضد الروم البيزنطيين فى البحر المتوسط.

٤- **بعد أن فتح العرب المسلمون إفريقية تقاسم أهلها من أهل الشام وأهل مصر قيادة الأساطيل الإسلامية فى البحر المتوسط** فكان يتولى قيادة أهل الشام امير من الشام، ويتولى قيادة أهل مصر أمير من أهلها، ويقود أهل إفريقية (تونس) أمير للبحر من إفريقية، وبذلك كثف العرب المسلمون من غزواتهم وحملاتهم البحرية ضد الروم البيزنطيين فى الحوضين الشرقى والغربى من البحر المتوسط.

٥- **كان لنشاط أمراء البحر فى العصر الأموى وحملاتهم المتكررة. منذ خلافة معاوية، على جزيرتى صقلية وكريت فى البحر المتوسط أبلغ الأثر فى إضعاف تحصينات الروم** وقواتهم الدفاعية فى هذه الجزر، الأمر الذى مهد السبيل للعرب المسلمين، فيما بعد، لفتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وجزيرة كريت سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م.

الهوامــش

١. الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق : عبدالسلام هارون، مصر، مكتبة الخانجى، ج١٥، ١٩٦٧،٦٤، ص٢٧٩. لمزيد من التفصيل عن الإمارة أنظر: الأزهرى، وابن منظور،مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٣، جمهورية مصر العربية، ج١، ص٢٦-٢٧.

٢. ابن منظور : محمد بن مكرم بن على، لسان العرب المحيط (أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة، يوسف خياط ، الطبعة الأولى ، ٧ مجلدات ، بيروت ، دار الجليل ١٩٨٨ ، ص ٩٦ . ٩٩. مزيد من التفاصيل عن البحر لغة أنظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج١، ص٤١-٤٢.

٣. مونتجرمرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة حسين أحمد أمين ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٣م ، ص ١١٦ .

٤. الطبرانى، سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الصغير ، تقديم وضبط : كمال يوسف الحوت، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٩٨٦م، ص ١١٢ ؛ الهيثمى نور الدين على بن أبى بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة ، مكتبة القدسى ، دون تاريخ ، ج ٥ ص٢٨١ ؛ المتقى الهندى، منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والافعال، المكتب الإسلامى بيروت، ١٩٨٣م، ج٢، ص٢٧٦ .

٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى، سنن أبو داود، تركيا، ١٩٨١م ٣ج ص١٣.

٦. أبو داود ، سنن أبو داود ، ج ٣ ، ص ١٦.

٧. المتشحط: شحط القتيل فى الدم اضطرب،وشحطه فى دمه،وبدمه:جعله يضطرب ويتخبط فيه. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط،ج١،ص٤٩٣.

٨. ابن ماجة، أبوعبدالله محمد بن يزيد القزوينى ، سنن ابن ماجة ،تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقى ، تركيا ، ١٩٨١م ، ج٢ ص ٩٨٢.

٩. صحف البلاذرى هذا الاسم والصواب هو : عرفجة بن هرثمة بن عبد العزى بن زهير بن ثعلبة بن عمرو، للمزيد أنظر ابن حزم الأندلسى، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق، عبدالسلام هارون ، مصر دار المعارف . ١٩٨٢م ، ص ٣٦٧؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، أسد الغابة فى معرفة الصحابة، تحقيق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور،٧ أجزاء، مصر، دار الشعب، ١٩٧٠م،مج٤ ص٢٣.

١٠. العلاء بن الحضرمى: واسم الحضرمى عبدالله- بن عباد بن أكبرين ربيعة بن مالك ابن أكبرين عويف بن مالك بن أبى بن الصدف – وقيل: عبدالله بن عمار- وقيل: عبدالله بن ضمار- وقيل: عبدالله بن عبيدة بن ضمار بن مالك. ويقال: إن العلاء كان مجاب الدعوة وإنه خاض البحر بكلمات قالها ودعا بها... ابن الأثير، أسد الغابة تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبدالوهاب فايد، دار الشعب،ج٤،ص٧٤.

١١. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان ، تحقيق، عبدالله وعمر أنيس الطباع ، بيروت، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٧ م، ص ٥٤٤.

١٢. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، مج١، ص ٢٦٦.

١٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ١٩٨٧م، مج٤ ص ٧٩.

١٤. عثمان بن أبان بن سيار بن مالك بن حطيط بن جشم بن ثقيف الثقفى، يكنى أبا عبدالله. ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣،ص ٥٧٩.

١٥. أبركاوان: جزيرة فى البحر بينها وبين سيراف مائة وخمسون فرسخا وفيها قلاع شتى وفيها أجوان كثيرة ومستقى ومحتطب كثير، وفيها معادن الحديد، وطولها اثنا عشر فرسخا، وبينها وبين ساحل بحر فارس فرسخان. الحميرى، الروض المعطار، ص٩.

١٦. ياقوت لا يوافق ما جاء فى رواية البلاذرى ويقول: " افتتحها عثمان بن أبى العاصى الثقفي أيام عمر بن الخطاب لما أراد غزو فارس فى البحرين مر بها فى طريقة .." للمزيد انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، بيروت. دار إحياء التراث، ١٩٧٩م ،ج٢ ص١٣٩.

١٧. تَوج: تَوج بفتح أوله وتشديد ثانيه مدينة بفارس شديدة الحر لانها غور من الارض ذات نخل وبناؤها باللبن ويعمل أهلها بصناعة النسيج المطرز بالذهب، وهى مدينة صغيرة واسمها كبير وقد فتحت ايام عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ياقوت الحموى، معجم البلدن، ج٢، ص٥٦ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٥٤٤.

١٨. البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٦٠٧.

١٩. البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٠٨؛ الطبرى، تاريخ الطبرى، ج٤ ، ص ٢٥٨-٢٦٢؛ الكوفى، أبو محمد بن أعثم، الفتوح١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م ،مج١، ص ٣٤٧-٣٥١؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد بن محمد عبدالكريم، الكامل فى التاريخ ، تحقيق : كارلوس تورنبير ليدن١٨٧١م ،مج٣، ص ٩٥-٩٧. Robert Browning,

The Byzantaine Empire,(Weidenfels and Nicolson, London) 1980, p.47 ostrogorsky, History of the Byzantine state, trans: Joan. Hussey, (Basil Blackwell, oxford) 1968, P .116

٢٠. النواتية: هم الملاحون الذين يقودون السفن فى البحر ، أنظر ابن منظور ، لسان العرب ، مج٦، ص ٧٣٨ .

٢١. الشوانى : السفن الحربية الكبيرة للمزيد أنظر: درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ٨٣ .

٢٢. ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر مج١، ص ٢٦٦.

٢٣. يعرف أيضاً بعبد الله بن قيس الفزاري والأنصاري للمزيد: أنظر ابن عساكر أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق، سكينة الشهابي ، دمشق، مجمع اللغة العربية ، ١٩٨٦م ، مج٣٨، ص ١٦ . ١٨ .

٢٤. تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص ٢٦٠ ؛ وانظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، مج٣ ، ص ٩٧ .

٢٥. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٩٨٣م ج٥ ص ٤١٣ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق، مج ٣٨ ، ص١٦.

٢٦. ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، مج ٣٨ ، ص ١٨.

٢٧. عند ابن الأثير فى الكامل (المرفإ)

٢٨. الغمرات، هى الشدائد وهو مثل للأغلب العجلي يضرب فى [illegible] الأمور العظام والصبر عليها . أنظر الميدانى، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، عيسى البابى الحلبى وشركاه ،ج٢ ص ٤١٥ .

٢٩. الطبرى، تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص ٢٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مج٣ ، ص٩٧ .

٣٠. أغلب الظن ان ذلك الخليفة كان هو الخليفة العباسي.

٣١. والغالب أنه المقتدر بالله (٢٩٥ . ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ . ٩٣٢م).

٣٢. الماوردى، الحسن على بن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥م، ص٤٣.

٣٣. للمزيد أنظر، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء ، الأحكام السلطانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م ص ٢٨ . ٥١ .

٣٤. للمزيد أنظر الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٣٧ . ٣٩، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء ،الأحكام السلطانية، ص ٣٩ . ٥١؛ ابن أعثم الكوفي، مج ١، ص ٣٥٠؛ قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق : محمد حسين الزبيدى ، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١م ، ص٤٧ . ٥٠؛ ابن جماعة الحموى، بدر الدين بن أبى إسحاق إبراهيم بن سعد الله، مستند الأجناد فى آلات الجهاد ومختصر فضل الجهاد ، بغداد ، دار الوطنية للتوزيع والإعلان ، ١٩٨٣م ، ص ٣٥ . ٥٢.

٣٥. الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٣٧، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية، ص ٣٩.

٣٦. ابن جماعة ، مستند الأجناد ، ص٤٥.

٣٧. الماوردى ، الأحكام السلطانية ص٣٧ .

٣٨. الماوردى ، الأحكام السلطانية ص٣٨ .

٣٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج ٥ ، ص ٤١٣ .

٤٠. ابن أعثم الكوفى ، الفتوح ، مج ١ ،ص ٣٥٠.

٤١. قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٧.

٤٢. قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٨ .
٤٣. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص٢٦١ .
٤٤. قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص٤٩ .
٤٥. العباسي، الحسن بن عبدالله ، آثار الأول فى ترتيب الدول ، تحقيق، عبدالرحمن عميرة، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٩ م، ص٢٧٠ . ٢٧٣ .
٤٦. خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق، أكرم ضياء العمرى ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٧٧ ، ص١٥٩ .
٤٧. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص٢٦٢ .
٤٨. الحميرى، محمد بن عبدالمنعم ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ م، ص١٥ .
٤٩. يختلف المؤخون فى تاريخ هذه الموقعة فالبعض منهم يرى أنها وقعت فى سنة ٣١هـ / ٦٥١م بينما يعتقد البعض الآخر أنها كانت فى سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م . أنظر خليفة بن خياط ، تاريخ بن خياط ، ١٦٨ ؛ المنبجى، أغابيوس قسطنطين (من القرن ٤هـ/١٠م) ، المنتخب من تاريخ المنبجى ، تحقيق : عبدالسلام تدمرى ، لبنان ، دار المنصور ، ١٩٨٦م ، ص٥٩ . ٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مج٣ ، ص ١٧١ .
٥٠. يختلف المؤرخون فى سبب تسميتها بذات الصوارى فيرجع البعض سبب التسمية إلى كثرة صوارى السفن فى هذه المعركة، بينما يرى البعض الآخر ذات الصوارى اسم المكان الذى قامت فيه المعركة ، كما يختلف المؤرخون كذلك فى تحديد مكان المعركة والذى هو فى الغالب قرب الساحل التركى الجنوبى أمام منطقة Lycia وبالقرب من موضع يسمى phoenix للمزيد أنظر، ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة، أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩١ ؛ محمد جمال الدين على محفوظ، فجر البحرية الإسلامية، القاهرة ، دار الاعتصام، ١٩٩٧م، ص٥١ . ٥٥؛ إبراهيم العدوى، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ، مصر، نهضة مصر، ١٩٦٣م ، ص٤٦.
٥١. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص ٢٩٠ .
٥٢. ابن الأثير ، الكامل ، مج٣ ، ص١١٨ .
٥٣. ابن عبدالحكم، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ، فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق شارلز تورى ، بالقاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩١م ، ص ١٩٠ . ١٩١ .
٥٤. فى أسد الغابة : جنادة ، بالهاء ، هو جناد ، بن أبى أمية الأزدى ، ثم الزهرانى ، وأسم أبى أمية مالك ، .... وكان جنادة بن أبى أمية على غزو الروم فى البحر لمعاوية ، زمن عثمان رضى الله عنه إلى أيام يزيد، إلا ما كان من ايام الفتنة وشتا فى البحر سنة ٦٧٨/٥٩. للمزيد عن سيرته انظر؛ ابن الأثير، أسد الغابة، مج١ ، ص٣٥٣؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٦ ، تحقيق، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٤ م، ص١١٨ . ١٢٠ .

٥٥. البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٣٣٠، ويذكر ابن الأثير أن فتح جزيرة رودس كان فى سنة ٥٣هـ/٦٧٢ م، أنظر الكامل، مج ٣ ، ص٤٩٣ .

٥٦. البلاذرى ، فتوح البلدان، ص٣٣٠، الطبرى، تاريخ الطبرى، ج٥، ص ٢٩٣؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٢.

٥٧. ابن أعثم الكوفى، الفتوح ، مج١، ص ٣٦٧.

٥٨. يروى أحمد بن حنبل عن مجاهد قال كان جنادة بن أبى امية أميراً علينا فى البحر ست سنن، أنظر المسند ، ج ٥ ، ص٤٣٤.

٥٩. البلاذرى ، فتوح البلدان، ص ٣٣٠، ياقوت، معجم البلدان، ج١ ، ص ٢٣٦.

٦٠. هو عقبة بن نافع بن عبس بن عمرو بن عدى الجهنى ويكنى أبا حماد، من صحابة الرسول أسلم بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وعاش فى المدينة المنورة ولما ولاه معاوية مصر سار عليها وسكنها ، وتوفى بمصر سنة ٥٨هـ/٦٧٧م. للمزيد أنظر ترجمته عند ابن الأثير، أسد الغابة، مج٤ ص ٥٣، ٥٤. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، المعارف، تحقيق، ثروت عكاشة ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٨١م ، ص ٢٧٩.

٦١. محمد بن يوسف الكندى ، كتاب الولاه وكتاب القضاه ، تحقيق، رفن كست ، بيروت ، مطبعة الأباء اليسوعيين ، ١٩٨٠م ، ص ٣٧ . ٣٨ ؛ الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

٦٢. المقريزى، تقى الدين أبو العباس بن على ، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، دار صادر ، دون تاريخ ،ج٢ ص١٩٠ .

٦٣. قال ابن الأثير : معاوية بن حديج بن جفنة السكونى ، وقيل الخولانى ، غزا إفريقية ثلاث مرات ، فأصيبت عينه فى إحداها ، وقيل غزا الحبشة مع ابن أبى سرح فأصيبت هناك . للمزيد أنظر ابن الأثير ، أسد الغابة ، مج ٥ ، ص ٢٠٦ . ٢٠٧.

٦٤. البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٩ .

٦٥. ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، مخطوط مصور ، ج١٧ ، الأردن ، دار البشير ، دون تاريخ ص ٤٠٧ .

٦٦. هو عمرو بن عويمر بن عمران يكنى أبا عبدالرحمن،ولد قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم سنتين ، اشترك فى فتح مصر ورافق جنادة بن ابى أمية فى غزواته البحرية وتوفى بالمدينة أيام معاوية ، وقيل بالشام أيام عبدالملك بن مروان ، أنظر : ابن الأثير، اسد الغابة ، مج ١ ، ص ٢١٣ . ٢١٤ .

٦٧. الطبرى . تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢١٢، ابن الأثير ، الكامل ، مج ٣ ، ص ٤٤٠

٦٨. هو مالك بن هبيرة بن خالد الكندى السكونى ، كان أميراً لمعاوية على الجيوش للمزيد انظر ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة ، مج٥ ، ص٥٤ .

٦٩. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص ٢٣١، ابن الأثير ، الكامل ، مج٣ ، ص٤٥٧ .

٧٠. هو يزيد بن شجرة (الرهاوى نسبة إلى قبيلة رهاء المتفرعة من مذحج ، نزل الشام واستعمله معاوية على الجيوش الإسلامية البريةو البحرية واستشهد في غزوة ضد الروم سنة ٥٥هـ /٦٧٤م) وقيل سنة ٥٨هـ/٦٧٧ م. للمزيد أنظر، ابن الأثير، أسد الغابة، مج ٥، ص ٤٩٥ .

٧١. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مج ٣ ، ص٤٥٨ .

٧٢. الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٣٠١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مج ٣ ، ص ٥٠٣.

٧٣. هو عقبة بن نافع بن عبدالقيس بن لقيط بن عامر بن أمية القرشى الفهرى ، ولاه عمرو بن العاص إفريقية لما كان على مصر فسار إليها وفتح أجزاء كبيرة منها كما فتح بلاد البربر ، واسس مدينة القيروان فى خلافة معاوية، وإلى عقبة يعود الفضل فى فتح السوس الأقصى، توفى عقبة فى سنة٦٣هـ ٦٨٢م للمزيد أنظر، ابن الأثير، أسد الغابة، مج ٤، ص ٦٠.

٧٤. الطبري تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، مج ٣، ص ٤٥٨.

٧٥. هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب الأنصاري الأوسي العمري، صحابي جليل أسلم قبل معركة أحد، شهد مع الرسول صلى الله علية وسلم معركة أحد والمعارك التي بعدها ولما فتحت بلاد الشام انتقل إليها وأقام فيها وتولى القضاء في دمشق ثم استعملة معاوية على البحر وأرسله لغزو الروم في البحر المتوسط توفي فضالة في سنة ٥٣هـ/٦٧٢م للمزيد أنظر؛ ابن الأثير، أسد الغابة، مج ٤، ص ٣٦٤.

٧٦. الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٣٤ ؛ ابن الأثير، الكامل، مج ٣،ص ٤٦١.

٧٧. لم نعثر على ترجمة له في المصادر الإسلامية المتوفرة بين أيدينا

٧٨. الطبري، تاريخ الطبري، ج٥، ص ٣٠٩ ابن الأثير، الكامل، مج٣، ص ٥١٥.

٧٩. البكري : عبد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك،ج٢، تحقيق : أدريان فان ليوفن وأندري فيري، جزءان، تونس، بيت الحكمة،١٩٩٢م، ص٦٩٥، الحميري، الروض المعطار، ص ٢٦٦.

٨٠. اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضع، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ تحقيق : هوتسمان، جزءان، ليدن، ١٩٦٩م، ص ٣٣٧.

٨١. ابن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم، الإمامةو السياسة،ج ٢ جزءان، قم، منشورات، الشريف الرضي، ١٩٦٩م،ص ٧٠.

٨٢. سردانية في المصادر العربية القديمة وهي جزيرة سردينيا الفرنسية حالياً وتقع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط للمزيد عن هذه الجزيرة أنظر ؛ ياقوت الحموي، ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٣ ص ٢٠٩.

٨٣. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة،ج ٢ ص ٧٠.

٨٤. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص ٧١.

٨٥. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢،ص ٧٠-٧١.

٨٦. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٧١؛ ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق ومراجعة، ج . س . كولان وإ . ليفي بروفنسال، ٤ أجزاء، بيروت دار الثقافة، ١٩٨٣م، ص ٤٢.

٨٧. للمزيد عن مدينة سرقوقسة أنظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٤.

٨٨. لم أوافق في العثور عليها في المصادر المعنية بتاريخ جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا والغالب أنها مدينة من مدن سردانية .

٨٩. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٠٠.

٩٠. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٧١ ؛ وذهب ياقوت إلى أن فتحها كان في سنة ٩٢هـ وهو على ما يبدو تاريخ استقرار العرب المسلمين فيها . انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٩.

٩١. خليفة بن خياط، ص ٣٠٢.

٩٢. الطبري، تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٤٤٢ ؛ وديع فتحي عبد الله، العلاقات السياسة بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠م، ص ٧٩.

٩٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٠ ؛ الطبري، تاريخ الطبرى ج ٦، ص ٤٩٥.

٩٤. الطبري، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٢٣، ٥٣٠ ؛ خليفة بن خياط، ص ٣١٤ – ٣١٥ ؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٩، النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، دون تاريخ، ج٢١ ص ٣٤٧-٣٤٨، الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق : محمد سعيد عمران، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م، ص ٨٧؛ A.A. VASILIEV, HISTORY OF The Byzantine empire , 2vol ,(the university of Wisconsin press, Milwaukee) 1978,p.236

٩٥. المراكشي، البيان المغرب، ج ١، ص ٤٩ ؛ وقارن مع النويري،نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٠٧.

٩٦. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٢٨-٣٣٠.

٩٧. جاء في الهامش في تاريخ خليفة بن خياط أن " قرسقة " هي جزيرة قورسيقا الآن، وهي وسردانية جزيرتان متقابلتان في البحر المتوسط " . انظر، ص ٣٦٦.

٩٨. الطبري، تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٤٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٠٦.

٩٩. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٣٩.

١٠٠. الطبرى، تاريخ الطبرى، ج ٧،ص ؛ النويرى، نهاية الأرب،ج٢١، ص٤٠٦.

١٠١. الطبرى، تاريخ الطبرى، ٧،ص ٦٧؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢١،ص٤١٤.

١٠٢. تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٤١.

١٠٣. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٢١٦.

١٠٤. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط ص٣٤٣.

١٠٥. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٤٥.

١٠٦. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٣٩.

١٠٧. تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٤٧ ؛ انظر ايضاً ابن الأثير، الكامل،مج٥،١٩١.

١٠٨. الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٧٩- ٨٠، المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، مج ١، ص ٣٠٣.

١٠٩. ابن الأثير، الكامل، مج ٥، ١٩١

١١٠. الطبرى، تاريخ الطبرى، ج٢،ص٢٢٧، وأنظر ايضا المنبجى، المنتخب من تاريخ المنبجى،ص ٩٥.

المراجع والمصادر

أولاً: المصـــــادر

١- ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م الكامل في التاريخ، تحقيق : كارلوس تورنبيرج،١٣ مجلداً،ليدن، ١٨٧١م.

٢- ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق، محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور،٧،أجزاء، الطبعة الأولى، دار الشعب، مصر ١٩٧٠م.

٣- ابن جماعة الحموي:(بدر الدين بن أبي إسحاق إبراهيم بن سعد الله) ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر فضل الجهاد، دار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد،١٩٨٣م).

٤- ابن حزم الأندلسي:(أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر،١٩٨٢م).

٥- ابن خلدون :(عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

٦- ابن سعد: (محمد بن سعد بن منيع البصري) ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م، الطبقات الكبرى، ٩ أجزاء، دار صادر ، بيروت، بدون تاريخ .

٧- ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٤٢هـ/ ٨٥٦)م، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق : شارلز توري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م .

٨- ابن عذاري المراكشي: (أبو عبدالله محمد) كان حياً سنة ٧١٢هـ/ ١٣٢١م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة : ج . س كولان و إ ليفي بروفنسال، ٤ أجزاء، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

٩- ابن عساكر: (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله) ت ٥٧١هـ/١١٧٥م، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سكينه الشهابي، المجلد الثامن والثلاثون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٦م ؛ المجلد السابع عشر، مخطوط مصور، دار البشير، الأردن، دون تاريخ.

١٠- ابن قتيبة الدينوري :(أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م، الإمامة والسياسة، (منسوب لابن قتيبة)، جزءان، الطبعة الأخيرة، منشورات الشريف الرضي، رقم، ١٩٦٩م.

١١- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، تحقيق، ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة دار المعارف، مصر، ١٩٨١م.

١٢- ابن ماجة :(أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) ت ٢٧٥ هـ/٨٨٨م، سنن ابن ماجة، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، جزءان، تركيا، ١٩٨١م.

١٣- ابن منظور : (محمد بن مكرم بن علي) ت ٧١١هـ/١٣١١م، لسان العرب المحيط، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة : يوسف خياط، الطبعة الأولى، ٧ مجلدات، دار الجيل، بيروت،١٩٨٨م.

١٤- ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق سكينة الشهابي، الجزء الثالث عشر، دار الفكر، دمشق،١٩٨٩م.
١٥- أبو داود: (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي) ت ٢٧٥هـ /٨٨٨م، سنن أبي داود، ٥ أجزاء، تركيا،١٩٨١م.
١٦- أبو يعلي الفراء الحنبلي:(محمد بن الحسين) ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
١٧- أحمد بن حنبل : ت ٢٤١ هـ/٨٥٥م، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٦ أجزاء، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
١٨- الأزهري:(أبو منصور محمد بن أحمد) ت ٣٧٠ هـ/٩٨٠م تهذيب اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، ١٥ جزءاً المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر،٦٤-١٩٦٧م.
١٩- البخاري: (محمد بن اسماعيل) ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م، صحيح البخاري،٨ أجزاء استنبول، ١٩٨١م.
٢٠- البكري:(عبد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، المسالك والممالك، تحقيق، أدريان فان ليوفن وأندري فيري، جزءان، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢م.
٢١- البلاذري:(أبو العباس، أحمد بن يحي بن جابر) ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م، فتوح البلدان تحقيق، عبد الله وعمر أنيس الطباع، الطبعة الأولى، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٢- الحميري: (محمد بن عبد المنعم ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.
٢٣- خليفة بن خياط: (عمر بن خياط العصفري البصري) ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م، تاريخ ابن خياط تحقيق، أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م.
٢٤- الرقيق القيرواني:(أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم) ت القرن الخامس الهجري ، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق : المنجي الكعبي، رفيق السقطي، تونس، ١٩٦٨م.
٢٥- الطبري: (محمدبن جرير) ت ٢١٠هـ/٨٢٥م، تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم،١١جزءاً الطبعة الخامسة
دار المعارف، مصر، ١٩٨٧م.
٢٦- العباسي:(الحسن بن عبدالله) ت ٧١٠هـ/١٣١٠م آثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م.
٢٧- قدامة بن جعفرت ٣٢٨هـ/٩٣٩م، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي،دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.
٢٨- قسطنطين السابع:(بورفيروو جنيتوس) ت ٩٥٩م إدارة الإمبراطورية البيزنطية عرض وتحليل وتعليق، محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
٢٩- الكوفي:(ابو محمد بن أعثم) ت ٣١٤هـ/٩٢٧م، الفتوح، ٨ اجزاء، الطبعة الأولى،الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م .

٣٠- الماوردي:(أبي الحسن على بن محمد بن حبيب) ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م الأحكام السلطانية والولايات الدينية الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٥م.
٣١ - المقريزي :(تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جزءان طبعة بالاوفست، دار صادر بيروت، دون تاريخ
٣٢- المنبجي :(أغابيوس قسطنطين) من القرن ٤هـ/١٠م، المنتخب من تاريخ المنبجي، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار المنصور، لبنان ١٩٨٦م.
٣٣-الميداني:(أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم) ت ٥٣٩هـ/١١٤٤م، مجمع الامثال، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم،٤ أجزاء، عيسى البابي الحلبي، مصر،١٩٧٧م.
٣٤-النويري :(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م نهاية الأرب في فنون الأدب،٣١جزءاً، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، مصر، دون تاريخ .
٣٥_ ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبدالله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، معجم البلدان،٥ أجزاء، الطبعة الاولى دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.
٣٦-اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م، تاريخ اليعقوبي، تحقيق : هوتسما، جزءان، الطبعة الثانية،ليدن، ١٩٦٩م.

ثانياً المراجـــع:

١. وفيق بركات :
فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي منشورات معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٩٥م)
٢. فريمان جرونفيل :
التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة : حسام محي الدين الالوسي، الطبعة الثانية، مطبعة الجمهورية، بغداد،١٩٨٦م.
٣. خالد جاسم الجنابي :
تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الاموي، الطبعة الثانية دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦م.
٤. محمد حميد الله :
مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافه الراشدة، الطبعة السادسة، دار النفائس، بيروت،١٩٨٧م.
٥. نجدت حماش :
الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
٦. وفيق الدقدوقي :
الجندية في عهد الدولة الاموية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
٧. تقي الدين عارف الدورى:
صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي، دار الرشيد للنشر بغداد،١٩٨٠م.
٨. عصام سالم سيسالم:
جزر الأندلس المنسية التاريخ الإسلامي لجزر البليار دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
٩. محمد على الشبول:
نشأة البحرية الإسلامية في صدر الإسلام ، ابحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد في اللاذقية ٢٢-٢٤نيسان ١٩٨٦م منشورات معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٨٩م.
١٠. أحمد مختارالعبادى والسيد عبد العزيز سالم :
تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية في بيروت،١٩٨١م.
١١. أحمد مختارالعبادى والسيد عبد العزيز سالم :
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٦٩م.
١٢. إبراهيم أحمد العدوى:
قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٣م.

١٣. بسام العسلي :
فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
١٤. إسمت غنيم :
الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المجمع العلمي، جدة، ١٩٧٧م.
١٥. على محمود فهمى :
التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي، ترجمة : قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٧م.
١٦. أرشيبالد لويس:
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، دون تاريخ.
١٧. محمد جمال الدين على محفوظ :
فجر البحرية الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٧م .
١٨. محمد كرد على :
خطط الشام، ٥ أجزاء الطبعة الثانية، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣م.
١٨.مونتجومري وات :
فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
٢٠. وديع فتحي عبد الله :
العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
٢١. نسيم يوسف جوزيف :
تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤ م.

وسائل الدعاية عند الفاطميين

(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)

د. إبراهيم أحمد القلا (*)

مقدمــــــة :

يهدف هذا البحث إلى دراسة وسائل الدعاية عند الفاطميين، وشقيها المادى والمعنوى، منذ بداية دعوتهم فى اليمن وإفريقية، وحتى استيلائهم على مصر والشام والحجاز، وتكوين دولتهم الكبرى التى كانت تقف على قدم المساواة مع الدولة العباسية، حيث لم يحظ هذا الموضوع، من قبل، بدراسة مستفيضة ومتخصصة فى هذا الجانب المهم بالنسبة لتاريخ وتطور الدولة الفاطمية، سواء فى المشرق والمغرب. وقد قسمت هذا البحث إلى محورين ممكن عرضهم على النحو التالى:

المحور الأول: بعنوان وسائل الدعاية المعنوية عند الفاطميين، ويتناول النقاط التالية: أسلوب النسب إلى آل بيت الرسول (ﷺ)، وأسلوب الزهد والتقشف والعلم والتشيع، والقول بوصايا على بن أبى طالب (ﷺ)، وأسلوب وضع الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤيد دعوتهم، والثورة ضد الحكام أو ضد النظام، والقول برجعة الإمام وتأويل الشريعة، ومن أساليبهم أسلوب التفريق بين قبائل العرب ونشر الدعوة فى الخفاء والستر والكتمان، وأسلوب استتار الإمام والقول بغيبته، وبث الدعاة وسط الجند، وأسلوب كتابة الكتب والرسائل إلى الحكام، والإدعاء بأن جيوشهم ما جاءت إلا لتنقذ المصريين، والاحتفال بالأعياد واتخاذ أعياد جديدة، وإيجاد اللغات غير العربية، ومن أساليبهم أيضاً: تألية الحاكم والإمام، وأسلوب التناسخ، وأسلوب قتل الغيلة، وأسلوب التأنيس والتدليس والخلع، والادعاء بأن حقهم فى الخلافة قد اغتصب منهم، ولعنهم أبا بكر وعمر وعثمان على منابرهم، وإقامة الخطبة.

أما **المحور الثانى**: وعنوانه وسائل الدعاية المادية عند الفاطميين، ويتناول النقاط التالية: أسلوب ضرب العملة والسكة، ولباس اللون الأبيض شعار الدعوة العلوية، وبناء العواصم والحواضر واتخاذ أسمائها نسبة إليهم، وإنشاء دور العلم وتعميم المذهب الشيعى، إنشاء المساجد الشيعية والأضرحة، بث الدعاة وسط الجند، إعداد الجيوش، اختيار مصر مقرا للدعوة، الاهتمام بالعمران.

هذا وأنهيت البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج، وبعض الملاحق التى تخدم الدراسة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

(*) أستاذ مساعد التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادى.

الدولة الفاطمية إحدى الدول الشيعية القوية التى قامت في بلاد المغرب ومصر، وظلت تحكم مصر مدة قرنين من الزمان، إلى أن أسقطها صلاح الدين الأيوبى، سنة٥٦٧ هـ/١١٧١م، وأعاد مصر مرة أخرى إلى خلافة بنى العباس السنية[١].

وقد حاول الفاطميون نشر مذهبهم الشيعى بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، بادئين ببلاد المغرب وصقلية واليمن، ثم مصر والشام والعراق[٢] وغيرها متخذين أساليب عديدة في دعوتهم.

وقد فتح جوهر الصقلى مصر سنة٣٥٨هـ/٩٦٩م، وأسقط الدولة الإخشيدية، كما أسقط الخطبة للخليفة العباسى المطيع لله أبو القاسم (٣٣٤-٣٦٣هـ/ ٩٤٥-٩٧٣م)[٣]، وأقامها للمعز لدين الله الفاطمى[٤]، وبنى مدينة القاهرة لتصبح حاضرة مصر الفاطمية[٥].

ومن بلاد المغرب واليمن ومصر؛ انطلق الدعاة بالدعوة الفاطمية محاولين نشرها بالأسلوب السلمى تارة، والحربى تارة أخرى، معتمدين على ضعف الخلافة العباسية، وانقسامها إلى دويلات عديدة، وملائمة البلاد التى دخلها الفاطميون كالمغرب ومصر واليمن للدعوة[٦].

ومن أساليب الفاطميين في الدعوة:

١- أسلوب النسب إلى آل بيت الرسول (ﷺ):

نسب الفاطميون أنفسهم إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ) فاتخذت الدولة اسمها، مدعين أنهم من نسل الحسين بن فاطمة شهيد كربلاء[٧]، فهم علويون ينسبون إلى على بن أبى طالب وأولاده الحسن والحسين ، مما هيأ الفرصة لاكتساب ثقة الناس، وخاصة أولئك الذين كانوا يكرهون بنى العباس من الموالى (المسلمين من غير العرب).

وادعى عبد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب[٨] وأولاده: أنهم من سلالة إسماعيل بن جعفر الصادق ت١٤٨هـ/٧٦٥م، أو من سلالة الإمام موسى الكاظم ت١٨٣هـ/ ٧٩٩م[٩]، وهم من أئمة الشيعة الاثنا عشرية، والذين كان الفرس وغيرهم يكنون لهم كل تقدير واحترام[١٠].

إلا أن النسب الصحيح لهؤلاء أنهم ينسبون إلى ميمون القداح وابنه عبد الله، وهو فارسى وكان يخطط لتكوين دولة فارسية، أو دولة يهودية نسبة إليهم[١١].

وقد نقل ابن خلكان رواية تبين مبلغ إنكار المصريين صحة نسب الفاطميين، ذلك أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) صعد المنبر يوم الجمعة، أوائل خلافته فى مصر، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات:

إنا سمعنا نسباً منكراً — يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقاً — فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته — فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة — وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم — يقصر عنها طمع الطامع(١٢).

وقد روى الثعالبى حكاية أخرى تؤيد هذا الرأى إذ يقول: إن عبد الرحمن الثالث الأموى الأندلسى تلقى من العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فجاءه رد عبد الرحمن عليه: " أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام" وهذا بسبب عدم إفصاح الفاطميين عن أى نسب رسمى لهم(١٣).

٢- أسلوب الزهد والتقشف والعلم والتشيع:

وهو أسلوب اتخذته معظم الدعوات الشيعية(١٤)، ومنها الفاطمية، فحاز به عبد الله ميمون بن القداح، وعبد الله المهدى وأئمة الدعاة والخلفاء – ثقة الناس، ونجحوا في تأسيس جمعيات سرية، ثم أخذوا يعلمون الناس أسرار الدعوة التى قسموها إلى تسع درجات (وزادات فيما بعد) وكثر أنصارهم(١٥).

٣- أسلوب كتمان الدعوة وسريتها:

وهو من أشهر أساليب الدعاية عند الشيعة الإسماعيلية وكل طوائف وفرق الشيعة، وكان الداعى الفاطمى يبدأ بإظهار بعض مشكلات القرآن، حتى إذا طلب الناس منه حل هذه المشكلات؛ أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يجعلوا هذه الدعوة سراً مكتوماً، ثم يطلب منهم أن يدفعوا ضريبة مقررة تساعده على نشر مذهبه(١٦).

وإذا تم للداعى ما أراد، دخل الطالب في المرحلة الثانية، ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدى إلى مرضاة الله؛ إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة، من ولد إسماعيل ابن جعفر الصادق، فإذا وصل الطالب إلى المرحلة الرابعة، اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين، ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للإسلام بصلة، حتى يصل به الاعتقاد إلى أن الإمام هو عبد الله بن ميمون القداح، وانه بمنزلة هارون من موسى، أو بمنزلة علىّ ﷺ من محمد (ﷺ)(١٧).

٤- أسلوب شراء الناس بالمال:

من أسهل أساليب الدعوة، فقد ذكر ابن خلكان[١٨] أن جماعة من أهل السنة في مصر طعنوا في نسب المعز لدين الله واتصاله بعلي بن أبي طالب ، حتى إن الخليفة المعز لما وصل إلى مصر، اجتمع به الأشراف وسأله أحدهم، وهو ابن طباطبا: "إلى من ينتسب مولانا ، فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعاً يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه، حتى إذا ما انعقد المجلس في القصر، سل المعز سيفه إلى النصف وقال "هذا نسبي"، ثم غمرهم بالذهب الكثير وقال "وهذا حسبي"، ومن هنا نشأ القول المأثور (سيف المعز وذهبه) للإشارة إلى بطلان الشئ أو أنه مأخوذ كرهاً[١٩].

اهتم المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) بأمر الحجاز، حيث تدخل في حسم الخلاف بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، وأرسل سراً مالاً ورجالاً سعوا بين الفريقين حتى عقدوا الصلح في المسجد الحرام، وقام المعز بأداء دية قتلى بني الحسن سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م، مما كان له أكبر الأثر في نفوسهم، ولما فتح جوهر مصر، سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م بادر الحسن بن جعفر الحسني بالاستيلاء على مكة، ودعا للمعز على منابرها، وكذلك أقيمت الخطبة للمعز بالمدينة المنورة، وعمل المعز على تثبيت سلطته على مكة والمدينة بالأموال التي صار يرسلها إليهما، ويذكر المقريزي أنه في سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م: "أنفذ المعز عسكراً وأحمال مال عدتها عشرون حملاً للحرمين وعدة أحمال متاع " وبذلك تيسر له نشر نفوذ الفاطميين في بلاد الحجاز.[٢٠]

واستطاع الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) بفضل اهتمامه بأمر الدعوة، وانفاقه الأموال الكثيرة لهذا الغرض أن يستميل بعض أمراء العرب أعالي العراق إلى جانب الدولة الفاطمية، ففي سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م أعلن حاكم الموصل " أبو الدرداء بن المسيب العقيلي " ولاءه للفاطميين، فأقام الخطبة في الموصل للعزيز بالله وأمر أن ينقش اسمه على الأعلام والسكة [٢١]، كما نجح الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) في استمالة قرواش ابن المقلد الملقب بمعتمد الدولة أمير بني عقيل في الموصل، فخرج عن طاعة الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٠١هـ وأظهر طاعة الحاكم بأمر الله وأقام الدعوة له [٢٢]، كما أمر قرواش عماله في البلاد التي كانت في حوزته أن يقيموا الدعوة الفاطمية فيها [٢٣]، فخطب للحاكم بأمر الله في كل من الأنبار[٢٤] والقصر[٢٥] والمدائن[٢٦] والكوفة[٢٧] والجامعين[٢٨] وغيرهم مما حمل العلويين والعباسيين المقيمين بالكوفة على الهروب إلى بغداد [٢٩].

حسان وأبيه مفرج بن الجراح وغيرهما بالأموال التي بذلها لهم، وتقدر بخمسين ألف دينار عينا، سوى الهدايا والثياب، من أجل التخلي عن أبي الفتوح الحسن بن جعفر أمير مكة ومبايعته بالخلافة وذلك سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م [٣٠]، كما نجح الحاكم بأمر الله في شراء الناس بالمال .

كان دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن لا يألون جهداً في القيام بنشر الدعوة للخلفاء الفاطميين، فظل يوسف بن الأسد يدعو سراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) حتى توفي، فخلفه داعٍ جرئ يدعى عامر بن عبد الله الزواحي، كان كثير

المال والجاه، وقد استغل ماله ونفوذه في سبيل نشر الدعوة الفاطمية، واستمال عدداً كبيراً من أهالي اليمن إلى المذهب الإسماعيلي، وظل يدعو للفاطميين خلال عهد الحاكم والظاهر، وأوائل عهد المستنصر بالله[٣١].

ويذكر ابن ظافر ذلك بقوله : "السبب في خفاء زورهم في إدعائهم الشرف: أن القوم كانوا وقت ابتداء ملكهم، ووقت إدعاء زورهم، لايسمعون بمنكر لأمرهم طاعن على مذهبهم إلا بادروه بالعطايا، وأتحفوه بالأموال والرغائب، وطالبوا الكف منه، فإن رفض عملوا على قتله بأنواع من الحيل والمكر التى بنى عليها مذهبهم"[٣٢].

٥- القول بوصايا على بن أبى طالب (ﷺ) وأحقيته بالخلافة:

اعتقد الشيعة أنهم وحدهم الأحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ، وكذا الخلفاء من بنى أمية، وبنى العباس، انتزعوا حق الإمامة المقدس من على ﷺ، وقد صنف العلماء الشيعة من المؤرخين الأسفار الطوال في تأييد هذه المقالة، وذهب بهم الاعتقاد إلى القول بأن الخلافة سلبت من على أو بعبارة أخرى اغتصبت من بيت النبى (ﷺ)[٣٣].

لا يقف الحال عند هذا الحد، فقد اشتط الغلاة من الشيعة فقالوا: إن الإمامة في بيت على ﷺ، وأن الأئمة معصومون، وإن صفات الله تعالى قد حلت فيهم وتقمصت أجسادهم، وإن من قال بغير ذلك، من الفرق الإسلامية: خارجون عن الدين: ودللوا على ذلك بأن علياً كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال قبل أبى بكر، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أحد من المسلمين أن يبذله[٣٤].

٦- أسلوب وضع الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤيد دعوتهم:

استند غلاة الشيعة، ومنهم الفاطميون، على مجموعة كبيرة من الأحاديث الموضوعة والتى تشهد لآل على كرم الله وجهه بالحق في الخلافة، ويذكرون أن على (ﷺ) جمع الناس سنة ٣٥هـ/٦٥٥م في الرحبة[٣٥] ثم قال لهم: "أنشد بالله كل إمرئ مسلم سمع رسول الله(ﷺ) يقول يوم غدير خم ما قال لما قام، فقام إليه ثلاثون من الناس فشهدوا أن رسول الله (ﷺ) قال : "من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه"، وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن حبشى بن جناده قال: قال رسول الله (ﷺ): "على منى وانا من على"، وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال: "آخى رسول الله (ﷺ) بين أصحابه فجاء على (ﷺ) تدمع عينه، فقال: يارسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بينى وبين أحد، فقال رسول الله (ﷺ): " أنت أخى في الدنيا والآخرة"[٣٦].

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله (ﷺ) خلف على بن أبى طالب في غزوة تبوك سنة ٩هـ/٦٣٠م فقال:" يارسول الله تخلفنى في النساء والصبيان فقال أوما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبى بعدى"[٣٧].

ومن ذلك ما عزى إلى النبى (ﷺ) أنه قال "أهل بيتى كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن عدل عنها غرق". وفى رواية أخرى أهل بيتك كسفينة نوح، من تعلق بها نجا، ومن تخلف عنها هلك[٣٨]، وقوله أيضاً "من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد

مات مؤمنا مستكمل الإيمان، ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة"، فهذه الأحاديث لاشك في أن الشيعة احترموها بعد موت الرسول (ﷺ) تأييداً لعقيدتهم التى كان مبناها ممالآة على وخلفائه من بعده[٣٩].

ونحن نعلم أن النبى (ﷺ) ترك مسألة الخلافة من غير أن يترك فيها وصية لأحد، وتم اختيار أبى بكر الصديق ﷺ لخلافته بطريقة ديمقراطية حيرت أهل الديمقراطية للآن[٤٠].

٧- أسلوب الثورة ضد النظام:

وقد بدأت هذه الثورات في خلافة عثمان بن عفان (ﷺ) فيما يسمى بالفتنة الكبرى، والتى قيل في أسبابها، أن عثمان فضل أقاربه على غيرهم في الحكم، فرفع الشيعة راية العصيان، وادعوا أن علياً عارض عثمان، والواقع يقول غير ذلك، غير أن الذى قاد الثورة سرياً هو ابن السوداء (عبد الله بن سبأ)اليهودى الذى أسلم ظاهرياً، وكان له دور خطير جداً في انقسام الأمة الإسلامية إلى سنة وشيعة[٤١]، وبث ابن سبأ دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون[٤٢]، ألقى ابن سبأ تعاليمه ومن ضمنها: أنه كان لله ألف نبى ووصى وكان على ﷺ وصى محمد ﷺ، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء، ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية نبى الله ﷺ ووثب على وصيه. وقال إن عثمان ﷺ أخذها بغير حق وهذا وصى رسول ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أميركم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستثير الناس، وأدعوهم على هذا الأمر. فبث دعاته وكاتبهم وكاتبوه في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم من مصرهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأ أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى أوسعوا في الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون[٤٣].

واستغل ابن سبأ وجود معاوية بن أبى سفيان في ولاية الشام، واعتلاءه منابر المسجد الأموى وتحريض الناس على الأخذ بالثأر من قتلة عثمان: وحرض الناس تمهيداً لإسقاط خلافة عثمان(ﷺ)، وهو أول من وضع عقائد مذهب الشيعة المغالية في الإسلام، وهو أول من بذر بذوره وحقق ابن سبأ غرضه من إثارة الولايات الإسلامية على عثمان وولاته فكانت الفتنة الكبرى وقتل الخليفة الثالث عثمان (ﷺ)[٤٤] مما أضعف الإسلام، وزاد كلمة المسلمين تفريقاً حتى الآن.

ثورة الحسين بن على ابن ابى طالب، رضى الله عنه، على يزيد بن معاوية، واستشهاد الحسين فى كربلاء سنة ٦١هـ/٦٨٠م[٤٥]. وثورة التوابين وهم جماعة من الشيعة اعترفوا بتقصيرهم وخطيئتهم فى حق الحسين بن على، حينما تركوه يواجه القتل وحده، ولذا ثاروا ضد الدولة الأموية بقيادة سليمان بن صرد، والتقى معهم عبيد الله بن زياد فى معركة يقال لها "عين الورد" هزم فيها التوابون وذلك سنة ٦٥هـ/٦٨٤م[٤٦]، وثورة زيد بن على سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م حيث خرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولكنه هزم بعد أن خذله أهل الكوفة، وإليه

تسب جماعة الزيدية إحدى فرق الشيعة(٤٧)، وثورة يحيى بن زيد، سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م، الذى استطاع الهروب من السجن وواجه نصر بن سيار فى معركة عنيفة انتهت بمقتل يحيى(٤٨).

ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى سنه ٦٥ هـ/ ٦٨٤م :

وقد كثرت الثورات الشيعية في العصر الأموى منها: ثورات الكيسانية(٤٩) والمختارية: ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى، ولد المختار فى السنة الأولى، ولقب أحياناً بكيسان لأنه تلقى العلم عن كيسان، أو لأن كيسان حثه على الأخذ بثأر الحسين وعرفه بقاتليه ، ويذكر البغدادى أن كيسان كان لقباً أصيلاً للمختار(٥٠).

ادعى المختار أن محمد بن الحنيفية هو الذى أرسله وأنه وزيره، ويعمل باسمه للطلب بحق آل البيت، والثأر من قاتلى الحسين وصحبه، وادعى أنه يسير على نهج القرآن وهدى الإسلام، ولكنه كان به ضلالات تبعده عن الإسلام منها: أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه وقال هذا من ذخائر أمير المؤمنين على (ﷺ) وهو عندنا بمنزلة التابوت عند بنى إسرائيل، كما ادعى علمه بالغيب وله أسجاع يقلد بها القرآن. قتل المختار على يد مصعب بن الزبير(٥١)، وكانت مدينة الكوفة العراقية أشد المدن تأييداً وخذلاناً لهم في نفس الوقت(٥٢).

ثورة زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، قامت خلال عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٢م) والتى انتهت بهزيمته وقتله سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م (٥٣).

ثورة يحيى بن زيد بن على بن زين العابدين الذى فر إلى خراسان، وأقام بها حتى توفى هشام بن عبد الملك، وخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ/٧٤٢-٧٤٣م) فعمد نصر بن سيار لمطاردته والتقى به فى الجوزجان – إحدى قرى خراسان – فظل يقاتل حتى قتل(٥٤).

٩- أسلوب القول برجعة الإمام الغائب:

يعتقد معظم الشيعة بعودة ورجعة الإمام، وفي ذلك يقال: إن محمد الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة، الذى اختفى في سرداب بمدينة سامراء، أنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وأنه المهدى المنتظر، واعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة المنورة وأن عودته ستكون في هذا المكان، ويقول الشيعة: إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره وقال شاعرهم كثير عزة في ذلك(٥٥):

ألا أن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى (٥٦)عنده عسل وماء(٥٧).

١٠- تأويل الشريعة الإسلامية:

يعتقد ويعتمد أغلب الشيعة على أسلوب التأويل في أحكام الشريعة الإسلامية، فالدين عندهم طاعة رجل، حتى حملهم الاعتقاد على تأويل الشريعة، وأن طاعتهم ذلك الرجل ستبطل

ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصيام والصلاة والحج والزكاة وغيرها، بل اعتبروا الأئمة محاطين بهالة قدسية بعلوم ما وراء الطبيعة[٥٨].

١١- أسلوب التفريق بين قبائل العرب:

وهذا أسلوب اتبعته الدعوة الشيعية بعد انتقالها للعباسيين سنة ٩٨هـ/٧١٦م، حينما تنازل عنها أبو هاشم عبد الله عند الشيعة، لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحميمة، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة[٥٩]، وقد نشط العباسيون بالدعوة لآل البيت دون تحديد شخص المدعو إليه، والدعوة إلى المساواة والعدل، فدخل في طاعتهم أهل خراسان (إيران– تركمنستان – أفغانستان) حالياً على يد أبي مسلم الخراساني الذي استطاع أن يفرق بين اليمانية والقيسية، أو بين عرب الشام وعرب اليمن، مما سهل سقوط خلافة بني أمية وقيام دولة بني العباس[٦٠].

١٢- أسلوب تصويرهم أمام الناس أنهم المظلومون دائماً:

صور أئمة الفاطميين، وغيرهم من الشيعة للناس أنهم دائماً مظلومون، فهم قد ظلموا باستخلاف أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وبني أمية وبني العباس، بل اعتبروا أن بني العباس قد سلبوهم الخلافة والإمامة، حينما دعوا لأنفسهم بها سنة ٩٩هـ/٧١٧م، وكتموا عن العلويين ذلك، ولما قامت الخلافة في بني العباس، سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وقامت الثورات العلوية مطالبة بحقها في الخلافة، موصين الناس أنهم أحق بها من بني العباس الظالمين لهم[٦١].

١٣- نشر الدعوة في الخفاء والسر والكتمان:

كانت النتيجة الطبيعية لما حل بالعلويين الشيعة؛ من حبس وقتل طوال العصرين الأموي والعباسي، أن عمدوا إلى نشر دعوتهم في الخفاء، وتلمسوا أماكن يختفون فيها، ويتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم الحبس والآلام، إلى أن تقوى دعوتهم، ثم يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة[٦٢].

ودخل المذهب الشيعي إلى إفريقية، بصورة أكثر سرية وتنظيماً، قبل وصول الداعي الإسماعيلي أبي عبد الله الشيعي، حيث وصل أول تسلل شيعي إسماعيلي إلى إفريقية في أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، قبل نحو ١٣٥عاماً من وصول أبي عبد الله الشيعي إلى هناك وهي بعثة الداعيين أبي سفيان والحلواني، حيث قدما من الشرق للاستقرار في بلاد المغرب سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، وأن الذي بعثهما، فيما يقال، الإمام جعفر الصادق، وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشروا فضلهم[٦٣].

١٤- أسلوب استتار الإمام:

استتر أكثر أئمة الشيعة، وخاصة الفاطميون، في بلاد المغرب ومصر، وهناك أئمة يقال لهم المستورون في ذات الله تعالى [٦٤]، وذلك لدرء ما عسى أن يحيق بهم من مكروه، ولذلك اتخذوا ما يسمى بدار الهجرة في البلاد التي قاموا فيها بنشر مذهبهم، فبعضهم استتر لمدة عشر سنوات أو أكثر، ويبايعه الناس دون رؤيته[٦٥].

ومن أساليب الإسماعيلية في التخفي والتستر: اتخاذ الدعاة عدة ألقاب فعلى سبيل المثال: تسمى المهدى عبد الله استتارا، و كان أبو عبد الله الشيعي يلقب بالمحتسب لاشتغاله بالحسبة في البصرة(٦٦)، ويلقب بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية(٦٧)، ويلقب بالأهوازى لأنه ولد في الأهواز، والمشرقى صاحب البغلة الشهباء أو البلقاء(٦٨)، ولقبه البعض بالصنعاني مع أنه لم يمكث في صنعاء إلا فترة وجيزة، وعرف بهذا اللقب لأنه قدم على حجيج كتامة من صنعاء(٦٩).

ونكر أنه سبق عبد الله المهدى، مؤسس الخلافة الفاطمية في إفريقية سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م سلسلة من الأئمة المستورين من أبناء محمد بن إسماعيل، فالأئمة الذين يصلون عبد الله المهدى بمحمد بن إسماعيل – أشخاص عاشوا في ظل ظروف يكتنفها الكثير من الغموض ، كما أن الائمة الفاطميين، فيما بعد، لم يحاولوا كشف أسمائهم، وذلك لإبطال الحملات التي شنها ضدهم أعداؤهم، أو الرد عليهم بسبب إصرارهم على عدم إذاعة أى نسب رسمى لأصولهم؛ اعتمادا على مبدأ معروف لدى الشيعة هو "عدم كشف أولئك الذين سترهم الله، وهم المستورون في ذات الله(٧٠).

ويذكر أن المعز كان مغرماً بالنجوم والنظر فيما يقتضيه الطالع، فنظر في مولده وطالعه فحكم له بقطع فيه، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن يعمل سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه إلى حين جواز الوقت فعمل على ذلك، وأحضر قواده وكتابه وجعل نزار ابنه ولىَ عهده من بعده، ولقبه العزيز بالله واستخلفه، ثم نزل إلى سرداب اتخذه وأقام فيه سنة، وكان المغاربة إذا رأوا غماماً سائراً ترجل الفارس منهم إلى الأرض وأومأ بالسلام يشير إلى المعز فيه، ثم خرج المعز بعد ذلك وجلس للناس فدخلوا عليه على طبقاتهم ودعوا له(٧١).

١٥- القول بغيبة الإمام:

في شهر شعبان سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م أنجب الإمام الحسن العسكرى، الإمام الحادى عشر عند الشيعة، ولداً أسماه محمداً، فلما توفى الحسن سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م، كان ابنه في الخامسة من عمره، فأصبح محمد الإمام الثانى عشر عند طائفة الإسماعيلية الذين عرفوا فيما بعد بالإمامية الإثنا عشرية، ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامراء وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد، ولم يقف له أشياعه على أثر من ذلك الحين، ومن هنا تنسب للإمام الثانى عشر غيبتان: الغيبة الصغرى، وتبدأ بموت الحسن العسكرى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م، والغيبة الكبرى، وتبدأ من اختفاء ابنه محمد سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م حتى الآن، ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم، ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية: أن محمداً الإمام الثانى عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ومن ثم سمى الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالأمر، والحجة(٧٢).

١٦- اختيار بلاد ملائمة للدعوة وبعيدة عن سلطة العباسيين:

اختار دعاة الدولة الفاطمية بلاد ملائمة تماماً لدعوتهم وبعيدة عن سلطة بنى العباس مثل: المغرب ومصر واليمن، كان المهدى فطناً ذكياً موهوباً، كما كان سياسياً قديراً؛ أدرك بثاقب فكرة أن بلاد اليمن بعيدة عن قلب العالم الإسلامي فمن الصعب أن تصلح مركز لنشر الدعوة في جميع البلاد، فاختار المغرب وهو البلد الذى نشأت فيه الدولة، وكان ملائماً تماماً لدعوتهم لبعده

أولاً عن مقر الخلافة في العراق وأهله من البربر كانوا يكنون حنقاً كبيراً على بنى العباس لظلمهم لهم ووعورة تضاريسه في قيام دولة شيعية مثل دولة الأدراسة وضعف سلطة الخلافة العباسية عليهم، وانسلاخ بلاد الأندلس عن سلطانهم أيضاً[٧٣]، وكان اختيار بلاد المغرب دون غيرها من الأطراف الإسلامية لتشهد بداية الدولة الفاطمية مقصوداً وذلك لإمكانية التوجه منها لمصر بسهولة، فكانت إفريقية مدخلاً لمصر، كما كانت خراسان مدخلاً للعراق[٧٤].

أما مصر فكانت صالحة تماماً للدعوة الفاطمية لثرائها وهدوء الأمر فيها، واستتباب الأمن بها[٧٥]، هذا بجانب قربها من الأماكن المقدسة التى يهدف الفاطميون إلي فرض سيطرتهم عليها، وكانت مصر ولا تزال - بفضل موقعها الجغرافى الاستراتيجى فى قلب العالم الإسلامى، وثرواتها - أكثر البلاد صلاحية للدعوة ومركزاً للدولة الفاطمية نفسها، هذا فضلاً عن أن مصر أقرب إلى المشرق الذى دأب المعز وأتباعه على إخضاعه، وخاصة أنها قريبة من الشام والعراق، ومما قاله المعز لمشايخه حينما رحل جوهر إلى مصر: "والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، لتدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن في خرائب ابن طولون (يعنى مدينة القطائع) وتبنى مدينة تقهر الدنيا"[٧٦].

وهناك دليل مادى يوضح نية المعز للانتقال إلى الشرق، وإلى مصر بوجه خاص، قبل فتحها بوقت طويل، فقد وصل إلينا ثلاثة دنانير فاطمية تحمل مكان الضرب مصر، مؤرخة في السنوات ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ٣٤١هـ/٩٥٢م، ٣٥٣هـ/٩٦٤م، ضربت قبل دخول الفاطميين مصر وتأسيس القاهرة، بغرض ترويجها بواسطة الدعاة على الأفراد الذين يتوسمون فيهم الاستجابة للدعوة، بالإضافة إلى طرز عمل باسم المعز عمل بمصر سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م[٧٧].

١٧- بث الدعاة وسط الجند:

يذكر أبو المحاسن أن أمور الديار المصرية قد اضطربت، في أواخر عصر الإخشيديين، بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب، وقد استمال هؤلاء الدعاة نفراً من القواد ووجوه الرعية أنفذ إليهم المعز بنوداً ففرقوها على من استجاب لهم، وأمروهم أن ينشروها إذا ما قاربت عساكره مصر[٧٨].

ولجأ الفاطميون إلى أسلوب بث دعاتهم وسط الجند المسلمين المرسلين لاحتلال مصر، أعوام ٣٠١/٣٠٢/٣٠٣/٣٠٧/٣٠٩/٣٢١/٣٢٢ هـ، وقد صادفت الدعوة الفاطمية نجاحاً عظيماً بين الجنود الذين لم يكن أغلبهم على المذهب العلوى الشيعي، لدرجة أن جموعاً كبيرة اعتنقت المذهب الشيعي قبل دخول الفواطميين مصر[٧٩].

١٨- أسلوب كتابة الكتب والرسائل إلى الحكام السنيين:

لم يقتصر الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على الدعاة فقط، بل كان لخلفائهم أيضاً نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة، فقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرسلون كتباً يكتبونها بأيديهم ويرسلونها بتوقيعاتهم، فقد كتب الخليفة القائم الفاطمى، ٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٥م، قبل دخولهم مصر كتاباً خاصاً بعث به مع رسول من قبله إلى محمد بن طغج الإخشيدى حاكم مصر رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة

التى أخفق فيها غيره، وعن نص الكتاب (انظر ملحق رقم ١):، وبعث مثلها إلى كافور الإخشيدى وغيره من حكام مصر[٨٠] ولكنها لم تجد معهم نفعاً.

١٩- إعداد الجيوش:

لكل دعوة جيوشها المعدة لمساندتها عسكرياً، وهذا ما فعله الخلفاء الفاطميون، فقد أعد المعز لدين الله الفاطمى جيوشه لغزو مصر، والقضاء على سلطات العباسيين فيها وفى الشام، لمد نفوذهم إلى بلاد الحجاز إن لم يكن إلى أبعد منها، وقد أعد هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العدة والعتاد، وكذلك من الناحية النفسية، عن طريق الدعاية السياسية المنظمة التى مهد بها الفاطميون لفتح مصر، وتذكر المصادر: أن جوهر حمل معه أكثر من ألف ومائتى صندوق مليئة بالأموال غير الذهب الذى جمعه الفاطميون طوال فترة إقامتهم بإفريقية تحسباً لهذا اليوم، وحمله جوهر على ظهور الجمال على هيئة أرحية الطواحين[٨١]، وبلغت النفقة على هذا الجيش ما يقرب من ٢٤ مليون دينار. ويذكر المقريزى عن جيش الفاطميين بأنه مثل: "جمع عرفات كثرة وعدة"[٨٢] وقد تحقق هدفه بدخول قائده جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م[٨٣].

٢٠- الادعاء بأن جيوشهم ما جاءت إلا لتنقذ المصريين من ظلم العباسيين وعبث ولاتهم:

كانت رسل الفاطميين التى ترسل في صور تجار وجواسيس وعلماء، تدعى أن جيوشهم ما جاءت إلا لإنقاذ المصريين من ظلم العباسيين، وعبث الحكام والولاة من الترك والإخشيدين ويبعدون عنهم خطر القرامطة والبيزنطيين[٨٤].

٢١ - بناء الحواضر والعواصم واتخاذ أسمائها نسبة إليهم:

بنى الفاطميون عواصم اتخذت أسماءهم في المغرب هى: المهدية نسبة إلى أبى عبيد الله المهدى، التى بنيت سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م[٨٥] حيث أورد التجانى عن المهدية قوله: "وكان ابتداء بنائه لها لخمس خلت من ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة...وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربى الذى فيه أبوابها ... وأمر بعمل باب الحديد للمدينة ... وابتنى دار الصناعة ... وأنزل المهدى جنده وخاصته فيها"[٨٦]، كما أنشأ المهدى مدينة زويلة، حيث يذكر ذلك التجانى بقوله: "وابتنى لعامة الناس المدينة الأخرى المسماه بزويلة ... فكانت كالربض لمدينة المهدية"[٨٧]، والمنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م)[٨٨]، وقيل إن أصل إسمها مدينة صبرة، حيث يذكر البكرى ذلك بقوله: "ومدينة صبرة متصلة بالقيروان، بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسماها المنصورية ..."[٨٩] ثم بنى جوهر القاهرة لتصبح عاصمة جديدة ينتقل إليها سيده المعز لدين الله، وقيل إن اسمها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء الشيعة الذين كانوا بديار مصر، وهو كوكب يقال له القاهر، فسموها القاهرة تيمناً أنها سوف تقهر أعداءها، ونحن لا نستبعد ذلك لأن المعز كان مغرماً بالنجوم وعلومها، وقيل إنها سميت بالقاهرة لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها[٩٠].

٢٢- إنشاء دور العلم لتعليم وتعميم المذهب الشيعي:

كانت سياسة الفاطميين الدينية تقوم على نشر عقائد الإسماعيلية، مما ساعد على قيام مجالس لدراسة المذهب الشيعي في مصر، ولا سيما في عهد الخلفاء أمثال: العزيز بالله ووزيره اليهودى يعقوب بن كلس، حيث رتب يعقوب، سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، فى داره المجالس للعلماء والشعراء والفقهاء وأجرى لجميعهم الأرزاق، وكان يقرأ على الناس كتاب مختصر الفقه المعروف بالرسالة الوزيرية، وهى كتاب ألفه فى فقه الإسماعيلية يتضمن ما سمعه من المعز وابنه العزيز[٩١] وبنوا الجامع الأزهر وعقدت به حلقات الدرس، ولم تقتصر حلقات الدرس الشيعي على القاهرة وحدها، وإنما امتدت إلى بقية المدن المصرية، فأقيمت قرب في نهاية العصر الفاطمي، حلقات للدرس لنشر المذهب الشيعي بين أهلها[٩٢]، وأنشأ الحاكم بأمر الله، سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م دار الحكمة بالقاهرة، وأطلق عليها هذه التسمية نظرا للدعوة الشيعية، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة[٩٣]، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء وغيرهم[٩٤]، وأغلقها بدر الجمالى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م[٩٥].

٢٣- إنشاء المساجد والأضرحة والمشاهد الشيعية:

ومن المساجد الشيعية التى أقامها الفاطميون جامع المهدية، حيث ذكره البكرى عند حديثه عن المهدية بقوله: "والجامع سبع بلاطات متقن البناء حسنة"[٩٦]، وأنشأ الخليفة الفاطمى أبو القاسم بن عبيد الله مسجداً فى أجدابية، وأورد ذلك البكرى عند ذكر مدينة أجدابية بقوله: "وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم بن عبيد الله، وله صومعه مثمنة بديعة العمل"[٩٧]، وأيضاً جامع طرابلس الذى بناه بنو عبيد فى سنة ٢٩٩هـ/ ٩١١م على يد خليل بن إسحق [٩٨].

لما أتم جوهر الصقلى فتح مصر وأسس القاهرة؛ لم يرى أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الشيعي حتى لا يثير كراهية المصريين، لذلك وضع أساس الجامع الأزهر في يوم السبت ١٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، وتم بناؤه فى سنتين تقريباً، وأقيمت الصلاة لأول مرة في ٧ رمضان ٣٦١هـ/٩٧١م[٩٩]، ثم بنت تغريد، زوجة المعز لدين الله، مسجدها بالقرافة سنة٣٦٦هـ/٩٧٦م، جامع الحاكم الذى بدأ العزيز بناءه خارج باب الفتوح سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م وسماه جامع الخطبة، وأكمل بناءه ولده الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٣م ولم يفتح رسمياً للصلاة إلا سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١٠٠]، ثم بنى الخليفة الحاكم بأمر الله مسجد المقس وراشده، وجامعه الذى ما زال يحمل اسمه للآن، لنشر المذهب الشيعى[١٠١]، ثم بنى الخليفة الآمر بأحكام الله أمام قصره سنة ٥١٩هـ، الجامع الأقمر[١٠٢]، ثم بنى الصالح طلائع بن رزيك مسجده خارج باب زويلة سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، الذى عرف باسمه للآن (جامع الصالح)[١٠٣]، والجامع الظافرى الذى بناه الخليفة الفاطمى الظافر، سنة (٥٤٤هـ -)، وكان يقال له الجامع الأفخر، وسمى بجامع الفكاهنيين ، وقد بنى الظافر هذا المسجد سنة ٥٤٨هـ، وعرف بجامع الفكاهنيين لأن سوق الفاكهة كان بالقرب من بابه[١٠٤] .

أما المشاهد الشيعية فمنها :مشهد السيدة رقية، والمشهد مؤرخ بسنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م[١٠٥]، ومشهد الجعفرى[١٠٦]، ومشهد السيدة عاتكة يذكر أن بناءه كان سنة ٥١٥هـ[١٠٧]، ومشهد السيدة كلثوم[١٠٨]، ومشهد السيدة نفيسة[١٠٩]، ومشهد يحيى الشبيه أنشئ سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م[١١٠].

٢٤- الاحتفال بالأعياد وإيجاد أعياد جديدة لم تكن في الإسلام:

تقرباً من المصريين شاركهم الفواطميون أعيادهم كعيد الفطر والأضحى ورأس السنة الهجرية، وغرة المحرم، وليلة الرؤية، وليلة القدر، إلا أنهم أوجدوا أعياداً جديدة لإحياء ونشر مذهبهم بالدعاية لهم، ومنها:

عيد غدير خم[١١١]: كان رسول الله (ﷺ) عند عودته من مكة بعد حجة الوداع في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١٠هـ/٦٣١م نزل به وآخى بينه وبين على بن أبى طالب (ﷺ)[١١٢]، وأول ما احتفل الشيعة بعيد الغدير في العراق سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م، في أيام معز الدولة بن بويه[١١٣]، وأول ما عمل في مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، بعد وصول المعز إليها[١١٤]، وهو عيد احتفل به المعز ولا يزال الشيعة يحتفلون به حتى اليوم، ويقول أصحابه إن علي ابن أبى طالب، كرم الله وجهه ولىَ الرسول (ﷺ) وخليفته. لأن الرسول عندما عاد من حجة الوداع وقرب المدينة نزل بغدير خم وهو مكان يقع بين مكة والمدينة، وأمسك بيد على وقال على منى وأنا من على من أذى على فقد أذانى ومن والى عليا فقد ولانى" وفى رواية أخرى من كنت مولاه فعلى مولاه [١١٥] ومن يومها أعتقد الشيعة أن على (ﷺ) خليفة الرسول (ﷺ) وأن أبابكر وعمر وعثمان وبنى أمية وبنى العباس اغتصبوا حق الخلافة من على وأبنائه[١١٦]، وقد ورد خبر غدير خم فى زيادات عبد الله على مسند الإمام احمد عن على بن الأرقم قال: نزلنا مع رسول الله (ﷺ) بواد يقال له وادى خم فأمر بالصلاة فصلاها جهراً، قال فخطبنا وظلل لرسول الله (ﷺ) بثوب على شجرة من الشمس فقال: ألستم تعلمون، ألستم تشهدون أنى أولى بكل مسلم من نفسه؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فإن عليا مولاه، اللهم عادى من عاداه ووالى من والاه[١١٧].

ونلاحظ أن خبر غدير خم قد نقله عدد من الرواة الشيعة وغير الشيعة، وأما ما يستدل به الشيعة بهذه الواقعة على إثبات خلافة على، فقد أجاب عنه الإمام ابن تيمية فى منهاج السنة فقال: ليس فى هذا الحديث حديث غدير خم ما يدل على أنه نص على خلافة على إذ لم يرد به الخلافة أصلاً وليس فى اللفظ ما يدل عليه ولو كان المراد به الخلافة لوجب أن يبلغ مثل هذا الأمر العظيم بلاغاً بيناً[١١٨]. وقال الإمام أبو نعيم الأصبهانى: هذه فضيلة بينة لعلى بن أبى طالب ﷺ ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: (والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) والوالى والموالى فى كلام العرب واحد[١١٩].

وقد عنى المعز بالاحتفال بعيد الغدير عناية فائقة، وحذى حذوه الخلفاء من بعده، فأصبح الاحتفال بيوم ١٨ ذى الحجة من كل سنة من أهم الاحتفالات الدينية خلال العصر الفاطمى، التى كانت تهتز لها جوانب القاهرة فرحاً وسروراً، ويقف منها السنيون موقف المتفرجين المعجبين،

لأنها كانت من عوامل تسليتهم، ويهنئ الشيعة بعضهم بعضاً، ومنهم من ينحرون كما ينحرون في الأضاحي، لأنهم يفضلون عيد الغدير على عيد الأضحى[١٢٠]، وكان الخليفة يتوجه بنفسه، في الصباح الباكر من هذا اليوم، إلى النحر يذبح بنفسه الأضاحي الكثيرة التي تفوق ما يذبح في عيد الأضحى، وهذا العيد عندهم أعظم من عيد الأضحى، كما يذبح الجزارون أعداداً كبيرة من الأضاحي من الكباش وغيرها توزع لحومها على الخاصة والمتشيعين وأنصار المذهب الفاطمي[١٢١].

يوم عاشوراء: يوم العاشر من المحرم وهو شهر مبارك يجله العرب قبل الإسلام وبعده، فقد روى عن النبى (ﷺ) أنه قال: "أيها الناس سارعوا إلى الخيرات في هذا اليوم، فإنه يوم عظيم مبارك، قد بارك الله فيه على آدم"[١٢٢]. ومن مظاهر احترام المسلمين لهذا اليوم أنهم يصومونه، وقد روى عن الرسول (ﷺ) أنه لما هاجر إلى المدينة وجد اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه، فأخبروه أنه اليوم الذى أغرق الله فيه فرعون ونجا فيه موسى ومن معه، فقال (ﷺ) نحن أحق بموسى منكم[١٢٣] فصام وأمر الصحابة بصومه، وصار الخلفاء الراشدون على سنته فكانوا يصومونه، وظل الأمر على ذلك حتى كان استشهاد الحسين في كربلاء، في يوم عاشوراء سنة ٦٢هـ/٧٨١م، فتركت هذه المأساة في نفوس المسلمين أثاراً مختلفة، واتخذه الشيعة مأتما إلى اليوم، يبكون فيه الحسين ويظهرون أشد مظاهر الحزن لقتله[١٢٤].

وظل الشيعة يحتفلون بهذا اليوم في العصرين الأموى والعباسى، ولا يزال الشيعة في البلاد الإسلامية: كإيران والسعودية وبعض دول الخليج والعراق، إلى اليوم، يحتفلون بهذه الذكرى فيبكون الحسين، ويلبسون السواد، وتتعطل الأعمال تماماً حداداً عليه، وقد جعل الفاطميون عيد عاشوراء عيداً رسمياً من أعياد الدولة تحتفل به الحكومة والشعب احتفالاً يليق وما له من مكانة سامية في نفوس المسلمين، فتتعطل الأسواق، ويخرج المنشدون ويسيرون إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ويخرجون يبكون ويشقون جيوبهم ويلطمون خدودهم؛ حزناً على الحسين وآل البيت الكرام[١٢٥] ويحتجب الخليفة عن الناس في هذا اليوم، وكان من عاداتهم إقامة سماط كبير (موائد للطعام) فيها خبز الشعير والعدس والمملحات والمخللات والأجبان وعسل النحل، ويجلس الخليفة على كرسى بغير مخدة متلثماً وحوله حاشيته[١٢٦]، وإذا ما انتهى السماط طاف النواح بالقاهرة وأغلق الباعة حوانيتهم إلى ما بعد صلاة العصر، وكانوا ينحرون يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم عند مشهد الإمام الحسين[١٢٧]، الذى يجله المسلمون عامة والشيعة خاصة إلى اليوم، ويوزعون لحومها على الفقراء والمساكين[١٢٨]، وما زال للآن يحتفل المصريون بهذا العيد ولكن ليس بطريقة الفاطميين.

ولما رأى السنة ما فعله الشيعة فى أعيادهم، جعلوا لأنفسهم عيدين لمنافستهم، فجعلوا يوم ١٨ محرم وهو يوافق مقتل مصعب بن الزبير يوم حزن يزورون فيه قبره ويبكون عليه [١٢٩]، وأقاموا عيداً آخر عرف بيوم الغار، ويوافق السادس والعشرين من ذى الحجة، وهو يوم دخول النبى (ﷺ) وأبى بكر (ﷺ) غار ثور أثناء الهجرة إلى المدينة، وجعلوا هذا اليوم سروراً لهم[١٣٠].

ليالى الوقود: وهى أربع ليال مباركة مشهورة وهى أول رجب ونصفه، وأول شعبان ونصفه[١٣١]، و يرجع الاحتفال بها إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) الذى كان يطلب إلى أهل مكة أن

يوقدوا النار ليلة غرة المحرم ليهتدى الحجاج (١٣٢)، أما ليالى الوقود الأربع في العصر الفاطمي فاختلفت، فهي الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان، ولذلك كان الناس تبعاً لتعاليم الشيعة يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان وكانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان، وكان خطباء مساجد الأزهر والحاكم والأقمر يخطبون بين يدى الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم(١٣٣).

ومن أهم مظاهر الاحتفال بهذا العيد: إضاءة المساجد والجوامع من الداخل والخارج كما تضاء المآذن والأسطح فتتلألأ بالأضواء الساطعة، ويحتشد الناس على مختلف طبقاتهم للتعبد ومشاهدة الزينات والاستمتاع بما يوزع عليهم من أصناف الطعام والحلوى، وما يطاف عليهم من مجامر البخور المعطرة المصنوعة من الذهب والفضة(١٣٤)، وكانت الموائد تمد في ليالى الوقود في أروقة الجوامع والمساجد، وتحوى أصنافا مختلفة من الطعام والحلوى، وتعم الصدقات على الفقراء والمتعبدين(١٣٥).

والمناسبات الشيعية كانت كثيرة على رأسها يوم عاشوراء في ١٠ محرم، ومولد الحسين ٥ ربيع الأول، ومولد السيدة فاطمة ٢٠ جمادى الآخر، ومولد الإمام على ١٣ رجب، مولد الحسن ١٥ رمضان، مولد الإمام الحاضر. هذه الموالد الخمسة - بالإضافة إلى المولد النبوى - أطلق عليها الشيعة الموالد الستة(١٣٦).

٢٥- أسلوب إيجاد اللغات غير العربية:

من أقوى أساليب الدعوة الفاطمية نشر الدعاة وتثقيفهم، فقد كان أغلب دعاة الفاطميين من علية المثقفين، والعالمين بلغات من يدعون، سواء أكانوا من البربر أو الروم أو الفرس، وحتى لهجات القبائل، فعلى سبيل المثال: كان المعز لدين الله الفاطمي مثقفاً يجيد عدة لغات؛ منها اللغة الطليانية التى تعلمها في صباه بجزيرة صقلية واللغة الصقلبية التى كانت منتشره في هذه الجزيرة، كما عرف اللغة السودانية، واللغة الرومية والبربرية(١٣٧)، وأحكم دراستها وحذقها قراءة وكتابة، فكان يخاطب بها رسل الملوك من الروم والإيطاليين ويطالع بنفسه رسائلهم(١٣٨)، وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب، فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور(١٣٩)، ولم يكن اهتمام العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر، وغيرهم، بأقل من اهتمام المعز لدين الله بالعلم والتعليم فقد تبدوا في مختلف العلوم وخاصة علم النجوم(١٤٠).

٢٦- أسلوب التقية:

وهو أخطر أساليب الدعوة الإسماعيلية خاصة والشيعة عامة، ومعنى التقية إخفاء الشئ والتظاهر أمام الناس بأمر غيره، بقولهم إن الدين لمكتوم، ومازال هذا الأسلوب وهذا المبدأ معمول به إلى الآن في كل فرق الشيعة. وتبعاً لمبدأ التقية، في كتم أسماء الأئمة، روى عن جعفر الصادق قوله: "التقية دينى ودين آبائى ومن لا تقية له فلا دين له"(١٤١). واتخذوا أسماء مثل: مبارك وميمون وسعيد، للفأل الحسن فيها تبعاً لمبدأ التقية، واستتر الأئمة وكنى الدعاة عن أسمائهم تقية عليهم بما هو لهم ويليق بهم، وكان الدعاة وقت التقية يخفون اسم الإمام وربما تسمى أحد من الدعاة بأسمائهم تقية عليهم وستراً (١٤٢).

٢٧- توجيه داعياً احتياطياً:

ومن أساليب الدعوة الإسماعيلية: توجيه داع احتياطي أو بديل مع الداعي الأصلي، لئلا يحدث به مكروه فيكون معه من يخلفه، إلى أن يأتي أمر الإمام (١٤٣)، وهذا ما حدث حين أرسل الإسماعيلية الداعيين أبا سفيان والحلواني إلى المغرب، وحينما أرسلوا أبا القاسم بن حوشب إلى اليمن ومعه علي بن الفضل، أما أبو عبد الله الشيعي فقد أرسل معه إلى المغرب عبد الله بن أبي ملاحف (١٤٤)، وقد وصل ابن أبي الملاحف إلى بلاد كتامة، لكنه ما لبث أن أعيد إلى اليمن واستبدل بإبراهيم بن إسحاق الزبيري (١٤٥).

٢٨- أسلوب التشكيك في عقيدة المدعو:

أخفى الفاطميون ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه، وتظاهروا أمامهم بأمور أخرى عبر تسع درجات نظموها كما يريدون: ففي الدرجة الأول يجتذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين بقولهم: يا هذا إن الدين لمكتوم وإن الأكثر له لمنكرون وبه جاهرون ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف، فالإمام سر الله المكتوم بأمره المستور الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه إلا هو. ومن الأسئلة التي يسألها الداعي إلى المدعو في هذه الدرجة: ما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة؟، وما معنى الصراط المذكور في القرآن؟ (١٤٦)، وما إبليس وما الشيطان وما وصفه؟ وأين مستقره؟ وما يأجوج ومأجوج؟، وهاروت وماروت(١٤٧)، ولم جعلت السموات سبعاً؟ والأرض سبعاً ولما جعلت الشهور اثنا عشر شهراً، ثم يقول الداعي لمن حوله: فكروا أولاً في أنفسكم؟ أين أرواحكم، وكيف صورها؟ وأين مستقرها؟ وما أول أمرها؟ وما معنى قول الرسول (ﷺ) خلقت حواء من ضلع آدم؟ ولمَ كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر المخلوقات؟ (١٤٨)، وهكذا يشكك الداعي المدعو في أمر العقيدة، ثم يدخل في الدرجة الثانية وهي: إن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة، ثم يكاشف المدعو بقوله إن الناس قد خذلوا لأنهم لم يأخذوا عن أئمة نصبهم الله له. وبذلك يضعون أساس مبدأ الإمامة في نفس المدعو، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم(١٤٩).

ثم يدخل في الدرجة الثالثة: وفيها يكشف الداعي للمدعو عن العقيدة بأن الأئمة سبعة، وأن الإمام الحقيقي هو السابع الذي يعلم كل رموز الدين وسرائره، ويستدل على ذلك بأن الله تعالى جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعة، وجعل الأرضين سبعة، والائمة سبعة، أولهم علي ثم الحسن فالحسين ثم علي زين العابدين بن محمد الباقر فجعفر الصادق فإسماعيل بن جعفر(١٥٠).

ثم يدخل في الدرجة الرابعة باعتقاده أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبين، والعياذ بالله لأنه ناطق، ثم يدخله في الدرجة الخامسة وهي: أن لكل إمام قائم حججاً متفرقين في الأرض عددهم إثنا عشر رجلاً، ويستدل على ذلك بأن البروج إثنا عشر، وأن نقباء بني إسرائيل إثنا عشر ونقباء النبي إثنا عشر، ثم يقول للمدعو إن شريعة محمد (ﷺ) تستنسخ، وإن كان فارسياً ذكره

بإذلال العرب لهم، ثم يدخله في الدرجة السادسة وفيها يفسر له شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وصوم بقوله أن هذه الفرائض وضعت لشغل العامة عن خلافاتهم وتبعدهم عن الفساد، ثم يدعوه إلى طور الفلسفة، ثم يدخل في الدرجة السابعة، وفيها يعلم المدعو أن الناصب للشريعة هو النبى لا يستغنى بنفسه ولابد له من أصحاب يكون أحدهم الأصل والآخر معاوناً له، ثم الدرجة الثامنة وفيها يدعى أن معجزة النبى الصادق الناطق وهو: محمد ابن إسماعيل ثم التاسعة أصبح المدعو جديراً بالتعمق في أصول المذهب الإسماعيلى(١٥١).

٢٩- أسلوب تأليب الناس بعضهم على بعض :

اتبع دعاة المذهب الفاطمى أسلوباً خاصاً في دعوتهم وهو: تأليب الناس والشعوب ضد بعضها، فإذا كان المدعو فارسيا ذكره الداعى بإذلال العرب للفرس، وأنهم هم الذين دمروا ملك فارس، وهدموا إيوان كسرى وأسقطوا الدولة الساسانية العظمى وهدموا بيوت نيرانهم، وإن كان عربياً أقاموا حفيظته ضد الفرس، وأنهم هم الذين سلبوا العرب ملكهم وتربعوا على عرش الدولة، وإن كان يهودياً أو نصرانياً حدثوه بما يوافق عقيدته وميوله(١٥٢).

٣٠- تقسيم الدعوة :

أسند الفاطميون رئاسة الدعوة الإسماعلية إلى موظف كبير أطلق عليه (داعى الدعاة) ، وكان يلى قاضى القضاة في الرتبة، ويتزى بزيه في اللباس وغيره، ويساعد داعى الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا، وله نواب ينوبون عنه في البلاد، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وبين أتباعه من الإسماعلية. ومن أهم أعمال داعى الدعاة رياسة الدعوة الإسماعلية، وأخذ العهد على المريدين؛ إما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر وغيرها، وتدوين من يدفع من المال أكثر، ومن أشهر من تقلدوا وظيفة داعى الدعاة: أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازى أشهر دعاة الفاطميين(١٥٣).

٣١- تأليه الحاكم والامام :

ادعى الخلفاء الفاطميون بأن لهم قوة إلهية، فقد اعتبروا عبد الله المهدى الخالق الرازق (والعياذ بالله) كما اعتقدوا في نبوته أيضاً، وهناك طائفة ثالثة تدعى أنه النبى حقاً(١٥٤) بل نادوا بلعن الأنبياء، ولعن الغار ومن لاذ به، وأمروا بحرق الكعبة والمصاحف(١٥٥).

عمل الشيعة على نشر الآراء الإسماعيلية المتطرفة فى كثير من النواحي وتجرأ بعض غلاة التشيع فى تحليل المحرمات، والإشارة إلى عبيد الله المهدى بالألوهية، ولما استقر المهدى بالمهدية؛ وكان أحد غلاة الشيعة وهو أحمد البلوى النخاس يقول له: "ارق إلى السماء، كم تقيم فى الأرض وتمشى فى الأسواق"، وكان يقول لأهل القيروان عن عبيد الله المهدى: "إنه يعلم سركم ونجواكم"(١٥٦) .

وفى عهد المعز لدين الله وجه لأئمة المساجد والمؤذنين، مشدداً عليهم، بألا يؤذنون إلا بحى على خير العمل، وقراءة البسملة فى أول السورة، والتسليم تسليمتين، وما إلى ذلك مما يأخذ به الإسماعيلية، بل قيل إنه ادعى النبوة، ودس من نادى فوق صومعة جامع القيروان بقول "اشهدوا أن معدا رسول الله، فارتج البلد لذلك فأرسل المعز من سكن الناس(١٥٧).

وقد ظل المعز محتجبا عن الناس، ومتخفيا عن الناس سنة كاملة، فاعتقد الناس أنه صعد إلى السماء، وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندى الفاطمى كان إذا رأى سحابة في السماء، ترجل وقال (السلام عليك يا أمير المؤمنين[١٥٨]).

وقد مدح ابن هانئ الأندلسى مولاه المعز بأبيات فيها صفات الألوهية والنبوة وبهذا مهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء، ومن قوله :

هو علة الدنيا ومن حقت له ولعلة ما كانت الأشياء.
ولك الجوارى المنشآت مواخراً تجرى بأمرك والرياح رخاء.
فعنت لك الأبصار وانقادت لك الأقدار واستحيت لك الأنواء.
لاتسألن عن الزمان فإنه في راحتيك يدور حيث تشاء[١٥٩].

وقوله أيضاً:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً غفار موبقة الذنوب صفوحاً
أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحاً
شهدت بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مسبحاً[١٦٠].

وقد بلغ تمجيد ابن هانئ الأندلسى، للخليفة الفاطمى المعز، أقصى حد يمكن أن نتصوره، حيث ينسب إليه الشاعر القدرة على إتيان المعجزات، فيقول :
فقد شهدت له بالمعجزات كما شهدت لله بالتوحيد والأزل[١٦١].

ولكن خلفاء الفواطميين الأول لم يفلحوا في استمالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات وامثالها، ولذلك نرى أن عقيدة تأليه الحاكم بالله قد أثارت عليه سخط الأهلين[١٦٢]، وقد نسب الحاكم إلى نفسه الكثير من المعجزات، فقد نادى الخطباء في المساجد وبحضرة قاضي القضاة (باسم الحاكم الرحمن الرحيم) والعياذ بالله، وبذلك نسب إليه الصفات التى هى من صفات الله سبحانه وتعالى ، كما ركع له الناس في كل ولايات الدولة الفاطمية[١٦٣] قائلين (أنت الواحد الأحد ، والمحى المميت[١٦٤]).

٢٣- نظرية التناسخ :

ادعى الفواطميون وآمنوا إيماناً قوياً بنظرية تناسخ الأرواح، وأن روح الله تعالى حلت في آدم، وتدرجت حتى وصلت إلى محمد (ﷺ) ثم انتقلت إلى علىَ وأولاده، ثم وصلت إلى الحسن بن إسماعيل، وأخيرا استقرت في جسد الحاكم الذى أدعى تجسم الإله في شخصه، ولهذا كان (اذا بدا للناس في الطرقات، خروا له سجداً وقبلوا الأرض، ومن أبى كان نصيبه الموت[١٦٥]).

٣٢- أسلوب قتل الغيلة (الاغتيالات)

شكل الفاطميون فرقة خاصة عرفت باسم الفداوية الذين يضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم، ويشترط فيهم التفاني في خدمة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود، وأصبح هؤلاء آلات انتقام فتاكة، وخلقوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع، وكانوا يستخدمون في قتل الأعداء (أعداء الدعوة) غدراً وغيلة[١٦٦]، وشهدت السنوات ٤٠٨هـ/١٠١٧م وحتى ٤١٠هـ/١٠١٩م، سلسلة من المصادمات والاغتيالات والقتل لمعارضى الدعوة الفاطمية[١٦٧].

٣٣- أسلوب التأنيس والتدليس والتأسيس والخلع:

فالتأنيس وهو يعنى الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين واتباع ميولهم، وإعطاؤهم كل ما يميلون إليه، كل حسب نزواته.

أما التدليس: وهو أن يلجأ الداعى إلى التمويه، ويدعى ادعاءات كاذبة في إغراء المريد وتشويقه وإلهاب رغبته في الدخول في الدعوة.

أما التأسيس: وهو تثبت المعلومات والحقائق التى أدلى بها الداعى للمستجيب، حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها.

والخلع ويقصد به إقصاء المريدين عن المذاهب السنية، نهائياً، بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع[١٦٨].

٣٤- الادعاء بأن حقهم في الخلافة قد اغتصب منهم اغتصاباً:

على يد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، والخلفاء من بنى أمية وبنى العباس[١٦٩]، والشيعة بصفة عامة يكفرون الصحابة جميعاً، لأنهم من وجهة نظرهم خذلوا علياً واختاروا غيره، وبعضهم يفضل على ﷺ على محمد (ﷺ)، وبعضهم يجعل علياً ﷺ إلها، وهو الذى أرسل محمداً، وزاد بعضهم، وجعل الأئمة كلهم آلهة يظهر الله بصورتهم وينطق بلسانهم ويأخذ بأيديهم[١٧٠].

٣٥- لعنهم أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ على منابرهم:

نصب العبيديون، فى عهد الخليفة القائم بأمر الله حسيناً الأعمى السباب فى الأسواق، بسب الصحابة بأسجاع لقنها، ومن تكلم أو اعترض من أهل السنة امتحن ومثل به[١٧١]، ولما قدم عبيد الله المهدى إلى أفريقية، وتولى مقاليد الأمور فيها، حدث تصعيد خطير فى الدعوة الإسماعيلية ويذكر ابن عذارى ذلك بقوله: "أظهر عبيد الله المهدى التشيع القبيح وسب أصحاب النبى ﷺ وأزواجه عدا على بن أبى طالب ﷺ ، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى، وزعم أن أصحاب النبى ﷺ ارتدوا بعهده غير هؤلاء الذين سميناهم ..."[١٧٢].

كان لدخول البويهيين بغداد، سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، أثره فى ازدياد نفوذ الشيعة فى دولة الخلافة العباسية السنية، ونتيجة لذلك تجرأ الشيعة سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، وقاموا بالكتابة على أبواب المساجد ببغداد لعنة معاوية ولعنة من غصب فاطمة حقها من فدك[١٧٣] – ويقصدون أبا بكر ﷺ -[١٧٤]، ومن أخرج العباس من الشورى – ويقصدون عمر بن الخطاب ﷺ -، ولعنة من نفى أبا ذر الغفارى[١٧٥] – ويقصدون عثمان بن عفان ﷺ -، ومن منع الحسن أن يدفن مع جده

[١٧٦] – يقصدون مروان بن الحكم–، ولما ثار السنيون لذلك قاموا بإزالة هذه الكتابة فأشير على معز الدولة البويهي أن يكتب بدلاً منها "لعن الله الظالمين لآل رسول الله" ولا يصرح إلا بلعن معاوية فقط[١٧٧]، وللآن يلعن أبو بكر وعمر بالذات على منابر الشيعة.

٣٦- ضرب العملة والسكة:

لما كان الفاطميون من الشيعة؛ فإن عملتهم كانت بالضرورة تحمل صفتهم المذهبية الشيعية فيما عدا ما يشير من نصوصها إلى شهادة التوحيد أو إلى الرسول (ﷺ). وقد أقدم الداعي أبو عبد الله الشيعي بعد استيلائه على رقادة[١٧٨] على عدة إجراءات إدارية ومذهبية أرسى بها دعائم الدولة الشيعية الناشئة وكان منها تعيين أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى، ناظرا للسكة ونقش فيها: "الحمد لله رب العالمين" وسميت بالعملة السيدية[١٧٩]، واهتم الداعي الشيعي بإحلال العناصر الشيعية على العملة ونقش على وجهها: "بلغت حجة الله" وعلى الظهر "تفرق أعداء الله"[١٨٠]، وضرب الدينار باسم الخليفة الفاطمي دون الخليفة العباسي وهذا ما فعله جوهر الصقلي عند دخوله مصر مباشرة حينما أمر بقطع الخطبة للعباسيين على كافة منابر مصر، وأمر بضرب العملة باسم الخليفة الفاطمي، فضرب على أحد وجهيها (باسم مولاى المعز) وفى الوجه الاخر (المعز لدين الله أمير المؤمنين ومحمد رسول الله (ﷺ)[١٨١]، وذكر المقريزى أنه ضرب على أحد وجهيها: "دعى الإمام معد بتوحيد الإله الصمد" وفى السطر الثاني (المعز لدين الله أمير المؤمنين) وفى السطر الثالث (باسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة)، وضرب على الوجه الآخر (لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، عليّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين)[١٨٢]. (انظر الشكل)

الوجـه :

لا إله إلا الله محمد رسول الله.

على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين.

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

الظهـر :

باسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

دعى الإمام معد لتوحيد الإله الصمد.

أمير المؤمنين المعز لدين الله.

تشير الكتابات على الدينار إلى رسالة محمد وإلى تمجيد على "أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين" كما يظهر لقب المعز الإمام وأمير المؤمنين[١٨٣].

٣٧- لباس اللون الأبيض شعار الدعوة العلوية:

أزال المعز السواد – شعار العباسيين – وألبس الخطباء في الجوامع الثياب البيض – شعار الفاطميين[١٨٤]، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة، وكان من العادات المألوفة عند أهل السنة[١٨٥].

٣٨- إقامة الخطبة:

من الإجراءات المذهبية التى اتخذها أبو عبد الله الشيعى، فى بلاد المغرب، أنه عين خطباء الجوامع من الشيعة، وأمر فى الخطبة بالصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين على وعلى الحسن والحسين وعلى فاطمة الزهراء، وأمر بالآذان بحي على خير العمل، وأسقط من آذان الفجر عبارة الصلاة خير من النوم، وأمر بإسقاط صلاة التراويح(١٨٦).

أقام جوهر الصقلى الخطبة للمعز في الجامع الأزهر وغيره من مساجد مصر وكانت فكرته وخطبته ترمى إلى بث الدعوة الفاطمية باسم الفاطميين(١٨٧)، وقد أدخل عبارات مثل: (اللهم صلى على عبدك ووليك، ثمرة النبوة، وسليل العترة الهادية المهدية، عبد الله الإمام معد أبى تميم المعز لدين الله، أمير المؤمنين، كما صليت على أبائه الطاهرين وأسلافة الأئمة الراشدين، اللهم ارفع درجته، وأعلى كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته وصحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورّثه مشارق الأرض ومغاربها، فقد امتعض لدينك...، ودرس الجهاد في سبيلك، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك، فأعدّ للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهبته فسير الجيوش لنصرتك، وأنفق عليها الأموال، وبذل المجهود في رضاك...، فانصر الله جيوشه التى سيرها...، اللهم اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية عليه)، ثم زادوا في الآذان (بحى على خير العمل) ثم قرئت البسملة بصوت مرتفع(١٨٨)، وأمر الفاطميون أن يقال في الخطبة: "اللهم صلى على محمد النبى المصطفى وعلى علىّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، اللهم صلى على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ، الهادين المهديين(١٨٩).

وأقام "قرواش بن المقلد" أمير بنى عقيل فى الموصل الخطبة للخليفة الفاطمي فى رابع المحرم سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م(١٩٠) (انظر الملحق رقم ٢)

٣٩- الاهتمام بالعمران الداخلي:

وخاصة أمور الزراعة والصناعة والتجارة، فنظموا الرى وأصلحوا الجسور، وقد عرفت مصر بثروتها الهائلة في عهدهم، وقامت فيها مصانع للنسيج وغيره(١٩١)، كان العمران كثيراً ووسائله كثيرة والدور فخمة تصل إلى عشرة طبقات يسكنها الخلفاء، أما الشعب فإنه يمتلك داره وحوانيته ومصانعه(١٩٢).

وهكذا بلغت الدعوة الفاطمية إلى اتباعها بهذه الأساليب، ولكن الشيء العجيب أنه: لم يتشيع المصريون بالصورة والدرجة التى كان يتمناها الفاطميون، حتى عندما سقطت الخلافة الفاطمية في مصر، ٥٦٧هـ/١١٧١م، لم يتناطح عليها عنزان كما ذكر المؤرخون.

ملاحــق البحــث

ملحق رقم ١ :

نص خطاب الإمام المعز لدين الله الفاطمي إلى محمد بن طغج الإخشيدي:

"قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين وما جرا به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون وضمنت رقعتي مالم يطلع على أحد من كتابي وذوى المكانة عندي، وأرجو أن تريك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي إليك وإيثاري لك ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي، وليس يتوجه لك العسر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استغرقت مجهودك في مناصحة قوم لايرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك لم يعتقد منهم أحد حسن المكافئة ولا جميل المجازاة، وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذى يحملني على التطاطي لك وقبول الميسور منك إنما هو الرغبة فيك، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته والله يريك حسن الاختيار في جميع أمرك وهو حسبنا ونعم الوكيل." (١٩٣)

ملحق رقم ٢ :

نص خطبة الجمعة فى الموصل للحاكم بأمر الله، فى رابع المحرم سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م(١٩٤) :

"... اللهم وصلى على وليك الأزهر وصديقك الأكبر على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين، اللهم وصلى على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار والصفوة الأخيار، من أقام وظهر ومن خاف فاستتر، اللهم صلى على الامام المهدى بك والذى بلغ أمرك وأظهر حجتك ونهض بالعدل فى بلادك. اللهم وصلى على القائم بأمرك والمنصور بنصرك اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك وجاهدا أعدائك، اللهم وصلى على المعز لدينك المجاهد فى سبيك ... اللهم وصلى على العزيز بك الذى مهدت به البلاد وهديت به العباد. اللهم وأجعل نوامى صلواتك وزواكي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الآمان وصاحب الدعوة العلوية، والملة النبوية، عبدك ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين. كما صليت على آبائه الراشدين. اللهم وفقنا لطاعته واجمعنا على كلمتة ودعوته، اللهم وأعنه على ما وليته وأحفظه فيما استرعيته ... وانصر جيوشة وأعلى أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها إنك على كل شئ قدير"

الخاتمـــــة :

وإذا كنا قد انتهينا من الحديث عن النقاط التى حددناها لمعالجة هذا البحث، وإخراجه على هذا النحو، فإنه لجدير بنا أن نختمه بالإشارة إلى بعض النتائج التى يمكن أن نستخلص منه، وهذه النتائج يمكن أن نجملها فى نقاط محددة، وذلك على النحو التالى:

- استخدم الفاطميون وسائل عديدة ومتنوعة ما بين مادية ومعنوية فى سبيل نشر دعوتهم.
- استخدموا أيضاً الأساليب السلمية تارة والأساليب الحربية تارة أخرى.
- تخير الفاطميون أماكن نشر دعوتهم، بعد دراسة متأنية دلت على ذكائهم وتوفيقهم فى ذلك باختيار اليمن والمغرب ومصر.
- نجح الفاطميون فى اتخاذ أسلوب الستر والكتمان، والترغيب والترهيب، فى سبيل نشر دعوتهم فى بادئ الأمر حتى صارت لهم قوة فأعلنوها.
- اختار الفاطميون دعاتهم بدقة وكانوا يرسلون مع كل داع داعيا آخر إحتياطياً وكان ذلك سبب نجاح دعوتهم.
- أنفقوا الكثير من الأموال فى سبيل تحقيق هدفهم سواء لشراء أفكار المريدين، أو لإعداد الجيوش.
- اعتمدوا على بعض الأحاديث النبوية التى اعتقدوا أنها تعد مبايعة للإمام على، ولكنها لم تكن مبايعة.
- اهتموا بالاحتفالات الدينية الشيعية، وأنفقوا خلالها الكثير من الأموال والهدايا، لإرضاء الناس وكسب ودهم.
- تبين من البحث أن الفاطميين أنشأوا العديد من المدن والعواصم التى تنسب إليهم، واتخذوها حاضرة لهم، كما أنشأوا العديد من المساجد والأضرحة والمشاهد، لنشر المذهب الشيعى.
- اهتموا بالنواحى العمرانية من خلال نهضة البلاد فى النواحى الاقتصادية وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصـــادر :

ابن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم) ت٦٣٠هـ

- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، راجعه وصححه، د. محمد يوسف الدقاق، ١٩٨٧م.

ابن أيبك الدوادارى: (أبو بكر عبد الله بن أيبك) ت بعد ٧٣٦هـ.

- كنز الدرر وجامع الغرر المسمى "الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المعهد الألمانى للآثار، القاهرة، ١٩٦١م.

الاصطخرى: (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخى) ت٣٤٦هـ.

- المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٩٧٢م.

البخارى: (محمد بن إسماعيل)

- صحيح البخارى، طبعة مصطفى ديب البغى، ط٤، دار ابن كثير واليمامة، دمشق، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٨٦٥.

البكرى: (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧هـ.

- المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب، نشر دى سلان، الجزائر، ١٨٥٧م.
- المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، وأندرى فيرى، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.

الترمذى: (محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمى) ت٢٧٩هـ

- سنن الترمذى تحقيق أحمد شاكر وآخرين، ط٣، مطبعة الحلبى القاهرة، ١٣٩٨هـ.

التجانى:

- رحلة التجانى (تونس – طرابلس، ٧٠٦-٧٠٨هـ) ليبيا، تونس، ١٩٨١م.

الثعالبى: (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل) ت ٤٢٩هـ.

- يتيمة الدهر، شرح وتحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

ابن الجوزى: (أبو الفرج عبد الرحمن بن على البغدادى) ت ٥٩٧هـ.

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٣٩م.

الحميرى: (محمد بن عبد المنعم) ت ٩٠٠ هـ.

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، مكتبة بلبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن حنبل: (الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل) ت ٢٤١هـ

- المسند، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط٤، القاهرة، ١٩٥٤م.

ابن حوقل: (أبو القاسم محمد البغدادى النصيبى) ت٣٨٠هـ.

- المسالك والممالك صورة الأرض طبعة بيروت، دى جويه ١٨٧٠م.

ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ .
- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، مؤسسة الإعليمى للمطبوعات، بيروت، د.ت.
ابن خلكان: (شمس الدين أبو العباس أحمد ابن إبراهيم) ت٦٨١هـ
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
أبو داود: (سليمان بن الأشعث)
- سنن أبى داود، ط محمد محى الدين عبد المحى، المكتبة الإسلامية، استانبول، د.ت.
ابن سعد: (محمد بن سعد كاتب الواقدى)
- الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت
ابن سعيد: (على بن سعيد المغربى) ت ٦٨٥هـ
- المغرب في حلى بلاد المغرب، القسم الخاص بالفسطاط، تحقيق: زكى محمد حسن، سيدة كاشف، شوقى ضيف، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م.
السيوطى: (عبد الرحمن بن بكر جلال الدين) ت٩١١هـ.
- تاريخ الخلفاء، علق عليه: محمود رياض الحلبى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م .
أبو شامة: (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى) ت ٦٥٥هـ.
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمى أحمد، محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.
ابن شداد: (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) ت ٦٣٢هـ
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢م.
الشهرستانى: (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) ت ٥٤٨هـ
- الملل والنحل، تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
الصفدى: (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت ٧٦٤هـ
- الوافى بالوفيات، تحقيق مجموعة من العلماء، النشرات الإسلامية (٦) استامبول- بيروت، ١٩٤٩-١٩٨٨م.
ابن الصيرفى: (تاج الرئاسة أمين الدين أبو القاسم على بن سليمان) ت ٥٤٢هـ.
- القانون فى ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة.
الطبرى: (أبو جعفر محمد بن جرير) ت٣١٠هـ.
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٩م.
ابن الطوير: (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفهرى) ت ٦١٧هـ

- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية (٣٩)، شتوتجارت، ١٩٩٢م.

ابن ظافر: (جمال الدين أبو الحسن بن منصور الأزدى) ت ٦١٢هـ

- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق على عمر، دار الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١م.

ابن عذارى المراكشي:

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٨٠م

أبو الفدا: (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة) ت ٧٣٢هـ

- المختصر فى أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

القزوينى: (زكريا بن محمد بن محمود القزوينى) ت٦٨٢هـ.

- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٧٩م.

القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١هـ

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م.

ابن ماجة: (محمد بن يزيد القزوينى)

- سنن ابن ماجة، طبعه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت

ابن المأمون: (الأمير جمال الدين أبو على موسى) ت ٥٨٨هـ

- نصوص من أخبار مصر، حققها أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م

أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) ت ٨٧٤هـ

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.

المسبحى: (الأمير المختار عز الملك محمد بن أحمد) ت ٤٢٠هـ

- أخبار مصر، الجزء الأربعون، تحقيق أيمن فؤاد سيد و تيارى بينكى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٨م

المسعودى: (أبو الحسن على بن الحسين) ت٣٤٦هـ

- مروج الذهب، ومعادن الجوهر، تحقيق محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨م.
- التنبيه والإشراف، دار صعب بيروت، د.ت.

مسلم: (مسلم بن الحجاج القشيرى)

- صحيح مسلم، ط محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ، بيروت، ١٤٠٣هـ.

المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ

- المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلوى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٥م.
- إتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمى أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠هـ.
ابن ميسر: (تاج الدين محمد بن على بن يوسف) ت ٦٧٧هـ.
- المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م.
النسائى: (أحمد بن شعيب)
سنن النسائى بشرح السيوطى وحاشية السندى، ط عبدالفتاح أبوغدة، ط٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
النوبختى: (أبو محمد بن موسى بن الحسن) ت ٣١٠هـ.
- كتاب فرق الشيعة، تحقيق هيلموت ريتر، استامبول، ١٩٣١م.
النويرى: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٣هـ.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.
ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم الحموى) ت ٦٩٧هـ.
- مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٣م.
ابن هانئ الأندلسى:
- ديوان ابن هانى، بيروت، ١٣٢٦هـ
هبة الله الشيرازى: (المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى) ت ٤٧٠هـ
- سيرة المؤيد في الدين داعى الدعاة، تقديم وتحقيق، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٤٩م.
ابن هشام: (أبو محمد عبد الملك بن هشام) ت ٢١٣هـ.
- السيرة النبوية، تعليق: طه عبد الرؤوف، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت)
هلال الصابى: (أبو الحسن الهلال بن المحسن) ت ٤٤٨هـ.
- كتاب التاريخ، ملحق بكتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، مطبعة الآباء الياسوعيين، بيروت، ١٩٠٤م.
ابن الوردى: (زين الدين بن عمر) ت ٧٤٩هـ
- تتمة المختصر فى أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردى، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.
ياقوت الحموى: (شهاب الدين بن عبد الله الحموى) ت ٦٢٦هـ.
- معجم البلدان، ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.
يحيى بن سعيد الأنطاكى: ت ٤٥٨هـ.
- تاريخه، نشر لويس شيخو مع كتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) لابن البطريق، بيروت، ١٩٠٨م.
اليعقوبى: (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) ت ٢٨٤هـ.

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

ثانياً المراجع العربية:

إبراهيم جلال:
- المعز لدين الله وتشييد مدينة القاهرة، سلسلة الألف كتاب، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م

إبراهيم حركات:
- السياسة والمجتمع في العصر الأموى، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م

إبراهيم سلمان الكروى:
- البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢م

أحمد الشامي:
- الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، القاهرة، ١٩٨٢م

أحمد أمين:
- ظهر الإسلام، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م

أحمد صادق سعد:
- تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، دار ابن خلدون، القاهرة، ١٩٧٦م.

أحمد عبد اللطيف:
- المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي الثاني، سلسلة تاريخ المصريين (٢٤٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م

أحمد فكرى:
- مساجد القاهرة، الجزء الأول، العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م

أيمن فؤاد سيد:
- الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، سلسلة العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م

بدر عبد الرحمن محمد:
- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٩م.

حسن إبراهيم حسن:
- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢م
- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٨١م

حسن عبد الوهاب:
- تاريخ المساجد الأثرية،١، ٢، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٤٦م

حورية سلام:
- الحركات المعارضة للخلافة العباسية فى بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الأول، دار العلم للملايين، القاهرة، ٢٠٠٨م
خطاب عطية على:
- التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربى القاهرة، د.ت.
سعاد ماهر:
- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، خمسة أجزاء، المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية، القاهرة.
سيدة كاشف:
- مصر في عصر الاخشيدين، سلسلة تاريخ المصريين (٢٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م
شحاتة عيسى إبراهيم:
- القاهرة تاريخها نشأتها، مكتبة الأسرة، سلسلة الأعمال الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م
الشيخ محمد الخضرى:
- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، طبعة مصححة ومنقحة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٦م.
عبد الله كامل موسى:
- الفاطميون وآثارهم المعمارية فى إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية.
عبد الحليم عويس:
- قضية النسب الفاطمى أمام النقد التاريخى، القاهرة، ١٩٨٧م
عبد الرحمن فهمى، سامح عبد الرحمن فهمى:
- المسكوكات الإسلامية، فجر الإسلام والعصور الأموية والعباسية والفاطمية، القاهرة، ٢٠٠١م
عبد المنعم سلطان:
- المجتمع المصرى في العصر الفاطمي، دراسة تاريخية وثائقية، دار المعارف، القاهرة
عبد المنعم ماجد:
- الحاكم بأمر الله المفترى عليه، مكتبة الأنجلو، القاهرة
- الدولة الفاطمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م
- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٧٨م
عصام الدين عبد الرءوف الفقى:
- دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٨م

عطية القوصي :

- تاريخ وحضارة مصر الفاطمية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ٢٠١٢م

فلهوزن:

- أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٥٨م.

كريسويل:

- قصة تأسيس القاهرة، ترجمة عبد الرحمن فهمى، بحث ضمن كتاب القاهرة تاريخها فنونها آثارها، مراجعة دكتور حسن الباشا، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧٠م

كى لسترنج:

بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية ووضع فهارسه: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م.

محمد أبو الفرج العش:

- مصر والقاهرة على النقود العربية الإسلامية، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة.

محمد بركات البيلى:

- التشيع فى بلاد المغرب الإسلامى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.
- استيلاء الفاطميين على مصر (بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى) ندوة إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ص١٩٩٧م.

محمد جمال الدين سرور:

- النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب، ط٤، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٤م
- سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٦م
- تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٥م
- الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٠م.

محمد حمدى المناوى:

- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة

محمد عبد الفتاح عليان:

- تاريخ الخلفاء الراشدين، دارسات وبحوث، ط٣، مكتبة المتنبى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢م

محمد كامل حسين:

- طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

Muir William: The Caliphate (its rise) pecline and Fall, London, 1861

Creswell K. A.C: The Muslim Architecture Of Egypt, vol.1, Ikhshids and Fatimids, Oxford, 1952

Wiet: The Mosques Of Cairo, Translated From French By John.S HardMan. Librairate Hachette 1966.١٩٥

الحواشـــــي

(1) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد، محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م، ق٢، جـ١، ص٤٩٣، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٤٤، ٤٥، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٣م، جـ١، ص١٣٧-١٣٩، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مكتبة المتنبى، القاهرة، جـ٢، ص٥٠، ٥١.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٨١م، ص٥٧.

(3) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، تحقيق على عمر، دار الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٣١٩-٣٢١.

(4) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢م، ص١١٠.

(5) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١١٥.

(6) عصام الدين عبد الرعوف الفقى: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٩-١٠.

(7) عبد الحليم عويس: قضية النسب الفاطمى أمام النقد التاريخى، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٣-١٤.

(8) عبد المنعم ماجد: الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٥.

(9) المقريزى: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلوى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م، جـ٤، ص٥٢٣، المقريزى: اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمى أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م، جـ١، ص٤٦.

(10) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٥٩-٦١.

(11) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، ج٥ ص٧٥ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، سلسلة العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٠٣-١٠٥، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٦١، محمد بركات البيلى: التشيع فى بلاد المغرب الإسلامى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٠، إبراهيم جلال: المعز لدين الله وتشييد مدينة القاهرة، سلسلة الألف كتاب، الإدارة العامة للثقافة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١١.

(12) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، جـ٢، ص٢٠٠، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٧٥،١١٦،٧٧، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٦٩.

(13) الثعالبي: يتيمة الدهر، شرح وتحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، جـ١، ص٢٢٤، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص١٠٠.

(14) الشيعة: أصل معنى اللفظ أنصار، وقد أطلقت أول الأمر على أتباع على بن أبى طالب ﷺ بعد وفاته، يقول الأشعرى: "قيل لهم شيعة لأنهم شايعوا علياً وقدموه على سائر الصحابة لمزاياه الشخصية أو لاعتقادهم بحقه الوراثى فى خلافة المسلمين" ثم أطلقت الشيعة اسماً للحزب الذى يشايع أبناء على رضى الله عنهم يقول: "بالإرث فى الحكم وتحول هذا الرأى بعد كربلاء من رأى سياسى نظرى إلى عقيدة إيمانية وحدث ما بين الشيعة على اختلاف فرقها وقد ظهرت فرق عديدة للشيعة يمكن تقسيمها إلى قسمين: فرق المعتدلين وهى ترى أن الإمامة بالنص، وأنها فى آل على ومن هؤلاء الزيدية أنصار زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

فرق المغالاة: وهى عديدة وأهم منابعها الكوفة والبصرة، وقد غالوا وتطرفوا رغم تبرأ آل البيت منهم وأهم هذه الفرق السبنية والمختارية والكيسانية والرافضة والخطابية. الشهرستانى: الملل والنحل، جـ١، ص٢٨-٣٠، حورية سلام: الحركات المعارضة للخلافة العباسية فى بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الأول، دار العلم للملايين، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٧١، هامش ٢.

(15) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٦١.

(16) هبة الله الشيرازى: سيرة المؤيد في الدين داعى الدعاة، تقديم وتحقيق، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٤٩م، ص١٣، ١٨، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، جـ١، ص١٧٧-١٨١.

(17) السيوطى: تاريخ الخلفاء، علق عليه: محمود رياض الحلبى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص١٥٢.

(18) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص٦٠١.

(19) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص١٠٦، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر المسمى "الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المعهد الألمانى للآثار، القاهرة، ١٩٦١م، جـ٦، ص١٤٦.

(20) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٧٢، جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب، ط٤، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٥.

(21) ابن خلكان: وفيات، جـ٣، ص٥٢-٥٤، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص١٢١.

(22) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٢٤٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٣، بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية، ص٨١.

(23) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٣، ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردى، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، جـ١، ص٢٢٢، الدوادارى: الدرة المضيئة، ص٢٨٣.

(24) الأنبار: إحدى المدن العراقية تقع على الفرات وهى من المدن الآهلة. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية ووضع فهارسه: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م ، ص١٧.

(25) القصر: مدينة كبيرة تقع بين بغداد والكوفة وتعرف بقصر ابن هبيرة وهى قريبة من نهر الفرات، وهى من أعمر نواحي السواد. ابن حوقل: المسالك والممالك صورة الأرض طبعة بيروت، دى جويه ١٨٧٠م، ص٢١٨.

(26) المدائن: تقع على بعد سبعة فراسخ جنوب بغداد بالقرب منها قبر سلمان الفارسى، كانت مدينة صغيرة آهلة. لسترنج: بلدان الخلافة، ص٥١.

(27) الكوفة: تقع على الجانب الغربى لنهر الفرات وهى فى حجم البصرة. لسترنج: بلدان، ص١٠١.

(28) الجامعين: مدينة على نهر الفرات تقع على طريق بغداد الكوفة وتعتبر أساس مدينة الحلة التى بنيت فى مقابلها على ضفة الفرات الغربية. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص١٠-١١.

(29) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٢٥١، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، مؤسسة الإعليمى للمطبوعات، بيروت، د.ت، جـ٢، ص٤٤٢.

(30) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٨٨، جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب، ص١٨-١٩.

(31) جمال سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٧٩، جمال سرور: النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب، ص٧٥.

(32) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص٩١.

(33) الشهرستانى: الملل والنحل، تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ٢، ص١١، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠-٣١، عصام الفقى: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص١٠، إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر الأموى، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م، ص٢٩٦.

(34) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٩م، جـ١، ص٩٢٣، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص١٥٢.

(35) الرحبة: هى قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة، والرحب بالضم فى اللغة السعة، والرحب بالفتح الواسع، والرحبة ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادى القرى والأصل فى الرحبة الفضاء بين أفنية البيوت أو القوم والمسجد. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٣

(36) أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٨٤، ١١٨، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٥١، إبراهيم سلمان الكروى: البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢م، ص١٨٤.

(37) ابن هشام: السيرة النبوية، تعليق: طه عبد الرؤوف، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت)، جـ٢، ص١٣، ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، جـ٣، ص١٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٥٠، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين، جـ١، ص٥٢.

(38) الرواة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو ذر وأبو سعيد الخدرى وأنس بن مالك روى بأسانيد ضعيفة. ابن حجر: أسئلة وأجوبة ، ص٥٧، ابن القيسراني: ذخيرة الحفاظ، جـ٢، ص٢١٣٠.

(39) الشهرستاني: الملل والنحل، ص١٩٦، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين، جـ١، ص٥٢.

(40) النوبختي: كتاب فرق الشيعة، تحقيق هيلموت ريتر، استامبول، ١٩٣١م، ص٢٠، عصام الفقي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص١٠.

(41) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، جـ٢، ص١٦٢-١٧٥، محمد عبد الفتاح عليان: تاريخ الخلفاء الراشدين، دارسات وبحوث، ط٣، مكتبة المتنبي، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢م، ص٣٠٠-٣٠٣.

(42) محمد عبد الفتاح عليان: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٣٠٦.

(43) الشيخ محمد الخضرى: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(44) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٣٥، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠.

(45) الطبري: تاريخه، جـ٥، ص٣٤٧، ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٢٦٦.

(46) ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٦٢، محمد جمال الدين سرورو: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٣٩، ١٤٠، محمد الخضرى: تاريخ الدولة الأموية، ص٣٣٦.

(47) الطبرى: تاريخه، جـ٧، ص١٨٠، ابن الطقطقى: الفخرى، ص١٠٥.

(48) ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص١٠٨، حربة سلام: الحركات المعارضة، ص٢٥، محمد الخضرى: تاريخ الدولة الأموية، ص٣٤٠.

(49) الكيسانية: تنسب الطائفة الكيسانية إلى كيسان مولى على بن أبى طالب ﷺ الذى قتل في موقعة صفين سنة ٣٧هـ/٦٥٧م، وهم الذين ساعدوا محمد بن على المعروف بابن الحنفية وقالوا بغيبته ورجعته وتضامنوا مع المختار بن أبى عبيد الثقفى فدعوا لمحمد بن الحنفية بالإمام المهدى المنتظر. البغدادى: الفرق بين الفرق، ص٢٧، الشهرستانى: الملل والنحل، جـ١، ص١٩٦، إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص٢٩٧، ٢٩٨.

(50) البغدادى: الفرق بين الفرق، ص٢٦.

(51) الشهرستانى: الملل، جـ١، ص١٢٢-١٢٣.
(52) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣١-٣٣، عصام الفقى: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص٢٧-٣٢.
(53) الطبرى: تاريخه، جـ٥، ص٤٨٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص٨٩، ٩٠، فلهوزن: أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٢٥٧-٢٥٨.
(54) الطبرى: تاريخه، جـ٥، ص٥٣٦-٥٣٨، جمال سرور: الحياة السياسية، ص١٥١-١٥٢.
(55) محمد الخضرى: محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، طبعة مصححة ومنقحة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٨١، ٢٨٢، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٤٩.
(56) رضوى: جبل قريب من ينبع ذو شعاب وبه أودية ومياة كثيرة وأشجار. الاصطخرى: المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٩٧٢م، ص٢١، القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٧٩م، ص٨٨.
(57) النوبختى: فرق الشيعة، ص٢٠.
(58) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨م، جـ٨، ص٣٣٨.
(59) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، جـ٥، ص٢١٦.
(60) أحمد الشامى: الدولة الإسلامية في العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٣-١٤.
(61) أحمد الشامى: الدولة الإسلامية، ص٢٥-٢٧.
(62) الصفدى: الوافى بالوفيات، تحقيق مجموعة من العلماء، النشرات الإسلامية (٦)، استانبول، ١٩٤٩م، جـ١٧، ص٤٢، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص٧٧، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٤-٣٥.
(63) ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٣١، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، جـ٢٨، ص٧٤،، محمد الخضرى: الدولة العباسية، ص٢٨٤.
(64) المقريزى: المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلوى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩١م، جـ٤، ص٥٢٤.
(65) ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص٣١١، البيلى: التشيع، ص٢٩، محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة، ص١١٣.
(66) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص٣١.
(67) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص٣٤.
(68) البيلى : التشيع، ص٦٥.

(69) أبن الأثير: الكامل، جـ٦، ص٢١٧.

(70) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص١٤٧، الصفدى: الوافى، جـ١٧، ص٤٢، ابو المحاسن :النجوم ج٥ ص ٧٦ .

(71) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٧٠.

(72) النوبختي: فرق الشيعة، ص٣٤، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٢١.

(73) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢١، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١٠٥،١٠٤، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعلية، ص٣٠،٢٩.

(74) محمد بركات البيلى: إستيلاء الفاطميين على مصر(بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى) ندوة اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ص١٩٩٧م، ص١٠٠-١٠١.

(75) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص١١٨.

(76) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص٤٨، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٦٧.

(77) محمد أبو الفرج العش: مصر والقاهرة على النقود العربية الإسلامية، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، ص٩١١، ٩١٢، ٩٤٨،٩٤٧. Miles,G, Fatimid coins p.51

(78) المقريزى: المقفى الكبير، جـ٣، ص٨٩، أبو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص٣٣٦.

(79) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٨٩.

(80) النوبختي: فرق الشيعة، ص٢٣، ابن سعيد: المغرب في حلى بلاد المغرب، القسم الخاص بالفسطاط، تحقيق: زكى محمد حسن، سيدة كاشف، شوقى ضيف، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٣٥-٣٦، سيدة كاشف: مصر في عصر الاخشيدين، سلسلة تاريخ المصريين (٢٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٣١١، ٣١٠، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون، ص٨٩-٩٠.

(81) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٢٩، ٤١.

(82) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٥٣، المقريزى: اتعاظ، جـ١، ص٩٧، ١٠١.

(83) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٤، المقريزى: اتعاظ، جـ١، ص١١٣، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٢٩-٤١، القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م، جـ٣، ص٣٤٥.

(84) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١١١، أحمد عبد اللطيف: المغاربة والأندلسيون فى مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمى الثانى، سلسلة تاريخ المصريين (٢٤٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٤٥-٤٨، يوسف العش: الخلافة العباسية، ص٢١١.

(85) المهدية: أسسها الخليفة المهدى سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٦١٢، إبراهيم جلال: المعز لدين الله، ص٩.

(86) التجانى: رحلة التجانى (تونس – طرابلس، ٧٠٦-٧٠٨هـ) ليبيا، تونس، ١٩٨١م، ص٣٢٠-٣٢٤، عبد الله كامل موسى: الفاطميون وآثارهم المعمارية فى إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، ص٤٢.

(87) التجانى: رحلته، ص٢٢٠.

(88) المنصورية: أسسها الخليفة المنصور الفاطمى (٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م) وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م في الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد بن مخلد بن كيداد التى بدأت بوادرها سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م فى أواخر عهد المهدى على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة له. البكرى: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دى سلان، الجزائر، ١٨٥٧م، ص٢٥، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٦١١، البيلى: التشيع، ص١٢٨، يوسف العش: الخلافة، ص٢٠٩.

(89) البكرى: المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، وأندرى فيرى، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م، جـ٢، ص٦٧٦.

(90) البكرى: المغرب، ص٢٥، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص٩٥، إبراهيم جلال: المعز لدين الله، ص٦٨.

(91) ابن الصيرفى: القانون فى ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ص٤٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص٣٠.

(92) سرور: قيام الدولة الفاطمية في مصر، ص٧١، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٥٧٣-٥٩٠.

(93) جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٢٨.

(94) المسبحى: أخبار مصر، الجزء الأربعون، تحقيق أيمن فؤاد سيد وتيارى بينكى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٢.

(95) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٥٩.

(96) البكرى: المسالك، جـ٢، ص٦٨٣.

(97) البكرى: المسالك، جـ٢، ص٦٥١.

(98) البكرى: المسالك، جـ٢، ص ٦٨٣.

(99) كريسويل: قصة تأسيس القاهرة، ترجمة عبد الرحمن فهمى، بحث ضمن كتاب القاهرة تاريخها فنونها آثارها، مراجعة دكتور حسن الباشا، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٦.

(100) المسبحى: أخبار مصر، جـ٢، ص٢٧٧، أحمد فكرى: مساجد القاهرة، الجزء الأول، العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، جـ١، ص٨٣-٨٥.

(101) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١٢٣-١٢٨.

Wiet: The Mosques Of Cairo, Translated From French By John.S HardMan. Librairate Hachette 1966. P.103.

([102]) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص٩١، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٩٠، أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٧٣.

([103]) جامع الصالح: الذى بناه خارج باب زويلة سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وهو آخر المساجد الجامعة التى أقامها الفاطميون في مصر. المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٩٠، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٦٢٠، شحاتة عيسى إبراهيم: القاهرة تاريخها نشأتها، مكتبة الأسرة، سلسلة الأعمال الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٠٦-١١٠، أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، ص١١٠-١٢١، حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية،١، ٢، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٤٦م، ص٩٧-١٠٥.

([104]) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

([105]) سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون خمسة أجزاء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ، جـ١، ص٢٩٩.

([106]) Creswell K. A.C: The Muslim Architecture Of Egypt, vol.1, Ikhshids and Fatimids, Oxford, 1952 PP. 228,229.

([107]) سعاد ماهر: مساجد مصر، جـ٢، ص١٢٠، عبد الله كامل: القاطميون، ص٢١١.

([108]) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٤٢.

([109]) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٣٦.

([110])عبد الله كامل: الفاطميون، ص٢٠٩، Creswell K. A.C: The Muslim P.266,267.

([111]) غدير خم: نسبة إلى خم وهى موضع بين مكة والمدينة، وهو وادى عند الجحفة على بعد ثلاثة أميال بين مكة والمدينة ويسمونه اليوم الغربة به غدير وحوله شجر كثير، يقع شرق رابغ بما يقرب من ٢٦ كيلومتر، وخم اسم رجل صباغ نسب إليه الغدير. ياقوت: معجم البلدان، دار الكتاب اللبنانى، بيروت (د.ت)، جـ٢، ص٣٧١، سرور: الدولة الفاطمية في مصر، هامش٢، ص٨٠.

([112]) أحمد بن حنبل: المسند، ص ٩٥٠، ٩٥٢، ٩٦١.

([113]) ابن لأثير: الكامل. ج٨، ص٥٤٩، إبراهيم الكروى: البويهيون والخلافة العباسية، ص١٨٤، Muir William: The Caliphate (its rise) pecline and Fall, London, 1861, p.574.

([114]) المسبحى: أخبار مصر، ص٨٥.

([115]) الطبرانى: المعجم الكبير، جـ٥، ص١٧١-١٧٢، الألبانى: السلسة الصحيحة، جـ٤، ص٣٣٥.

(116) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ٢، ص١٦٧، ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص١٣٦، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م، جـ١، ص١٤٩، عبد المنعم ماجد: نظم، جـ٢، ص١٢٦.

(117) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٧٢، ابن ماجة: سنن ابن ماجة، طبعه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت، جـ١، ص٤٣، الترمذي: سنن الترمذي، جـ٥، ص٢٥٧، إسناد صحيح.

(118) ابن تيمية: منهاج السنة، جـ٤، ص٨٤-٨٥.

(119) أبو داود: سنن أبي داوود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، إستانبول، د.ت

(120) أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٥٣، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين، جـ١، ص٥٢.

(121) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى في العصر الفاطمي، دراسة تاريخية وثائقية، دار المعارف، القاهرة، ص١٥٧-١٥٩.

(122) أبو داود: السنن باب صوم عاشوراء، ص٦٥.

(123) انظر الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، ط٣، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٣٩٨هـ، انظر البخاري: صحيحه، طبعة مصطفى ديب البغي، ط٤، دار ابن كثير واليمامة، دمشق، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٨٦٥.

(124) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٣١، أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٥٣، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ص١٢٨.

Muir: The Caliphate, p. 573.

(125) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص١٩٨.

(126) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٢٧.

(127) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٢٧.

(128) أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٥٣، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص١٥٥.

(129) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٥٥، النويري: نهاية، جـ٢٣، ص٢١١.

(130) هلال الصابي: كتاب التاريخ، ملحق بكتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٤م، جـ٨، ص٣٧١، ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٥٥.

(131) ابن المأمون: نصوص من أخبار مصر، حققها أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٨٢،٨٣.

(132) ماجد: نظم الفاطميين، جـ٢، ص١٢٠.

(133) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٧٦، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٦٦.

(134) المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٦٥.

(135) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص١٣٤-١٣٥.

(136) ابن المأمون: نصوص من أخبار مصر، ص٦٢، ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية (٣٩)، شتوتجارت، ١٩٩٢م، ص٢١٧، المقريزى: المقفى الكبير، جـ٦، ص٤٨٤.

(137) المقريزى: اتعاظ، جـ٢، ص٥٩،٦١،٦٥، إبراهيم جلال: المعز لدين الله، ص٢٦.

(138) خطاب عطية على: التعليم في مصر في العصر الفاطمى الأول، دار الفكر العربى القاهرة، د.ت، ص٦٧،٦٨، إبراهيم جلال: المعز لدين الله، ص٣٠.

(139) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٩٣.

(140) خطاب عطية على: التعليم في مصر، ص٦٨.

(141) أيمن فؤاد السيد: الدولة الفاطمية، ص١٠٤، هامش ١، البيلى: التشيع، ص١٤٤.

(142) Ivanow: The Alleged founder of Ismailism, Bombay, 1946, p. 152.

(143) البيلى: التشيع، ص٦٧.

(144) المقريزى: المقفى، ص٢٣، البيلى: التشيع، ص٦٧.

(145) البيلى: التشيع، ص٦٨.

(146) يشير بذلك إلى قوله تعالى: "إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم" الفاتحة آية ٥ و ٦.

(147) يشير إلى ما ورد في سورة البقرة بقوله تعالى: "وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت"آية ١٠٢.

(148) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٩٣.

(149) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٤١.

(150) محمد بركات البيلى: التشيع، ص٣٩-٤٠.

(151) لمزيد من التفصيل راجع الشهرستانى: الملل والنحل، البغدادى: الفرق بين الفرق، النوبختى: كتاب فرق الشيعة.

(152) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١١٠، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٤٣.

(153) المؤيد في الدين الشيرازى: سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص٥-٧، ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٤٣٦، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص٥٤.

(154) ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٢٣٣، عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله المفترى عليه، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص٥٤.

(155) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٣٩م، جـ٦، ص٢١١.

(156) البيلى: التشيع، ص١٢٧.

(157) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٨٠م، جـ١، ص٢٨٢-٢٨٥.

([158]) ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٣٣٩، المقريزى: اتعاظ، جـ٢، ص٢٣١.

([159]) ابن هانئ الأندلسي: ديوان ابن هانى، بيروت، ١٣٢٦هـ، ص١١.

([160]) ابن هانئ: ديوانه، ص٧-١١.

([161]) ابن هانئ: ديوانه، ص١٦٤.

([162]) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٢٩.

([163]) أبو المحاسن: النجوم، جـ٢، ص٣٠٩.

([164]) عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله، ص٥٩.

([165]) أبو المحاسن: النجوم، جـ٢، ٣٠٩، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١١٧.

([166]) المقريزى: اتعاظ الحنفاء، جـ١، ص٦٦-٦٨، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٧٠.

([167]) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، نشر لويس شيخو مع كتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) لابن البطريق، بيروت، ١٩٠٨م، ص٢٢٣، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص١٩٦.

([168]) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص٣٧٠.

([169]) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص١٢٥، Muir: The Caliphate, p. 574.

([170]) الشهرستانى: الملل، جـ١، ص١٥٦، ١٦٠، ١٦٨.

([171]) البيلى: التشيع، ص١٢٩.

([172]) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص١٥٩، البيلى: التشيع، ص١١٣.

([173]) فدك: تقع بالقرب من المدينة المنورة على مسيرة يومين. الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، مكتبة بلبنان، بيروت، ١٩٨٤م ، ص٤٣٨.

([174]) الطبرى: تاريخه، جـ٣، ص١٥، ٢٠٨.

([175]) المسعودى: التنبيه والإشراف، دار صعب بيروت، د.ت، ص٢٥٥.

([176]) أبو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص٣٣٢، البيلى: التشيع، ص١٤٣.

([177]) أبو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص٣٣٢، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٤٠٠، إبراهيم سلمان الكروى: البويهيون والخلافة العباسية، ص١٨٣.

([178]) رقادة: أنشأتها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م وهى تقع على بعد أربعة أميال من مدينة القيروان. البكرى: المسالك، جـ٢، ص٦٧٩.

([179]) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص١٥١.

([180]) المقريزى: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، ط٢، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م، جـ١، ص٦٤، البيلى: التشيع: ص٨٧.

([181]) المقريزى: اتعاظ، جـ١، ص١١٦.

([182]) المقريزى: اتعاظ، جـ١، ص١١٥، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون، ص١١٨، البيلى: التشيع، ص١٤٥.

(183) عبد الرحمن فهمي، سامح عبد الرحمن فهمي: المسكوكات الإسلامية، فجر الإسلام والعصور الأموية والعباسية والفاطمية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٣٤٨.

(184) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص١٣٢، إبراهيم جلال: المعز لدين الله، ص٦٧، عطية القوصي : تاريخ وحضارة مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٢٠١٢ م، ص ٦١ .

(185) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١١، ص٢٢٥، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١١٩، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص١٤٣.

(186) ابن عذاري: البيان، المغرب، جـ١، ص١٥١، البيلي: التشيع، ص٨٧.

(187) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص١٤٩.

(188) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص١٣٧، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١٢١، البيلي: التشيع ، ص ١٤٥

(189) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص٣٧٦، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص١٣١، الصفدي: الوافي، جـ١١، ص٢٢٥، المقريزي: المقفى الكبير، جـ٣، ص١٠١، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٣٢، عطية القوصي : تاريخ وحضارة مصر ، ص ٦١ .

(190) بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية ،ص ٨٢،٨١.

(191) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص١١٤، أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، دار ابن خلدون، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٨٣.

(192) يوسف العش: الخلافة العباسية، ص٢١٨.

(193) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٣٧.

(194) أبو المحاسن: النجوم ، ج٤، ص٢٢٤-٢٢٧، ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص ٢٤٩-٢٥١.

الخنجر نموذج لتطور صناعة السلاح فى الأندلس
دراسة آثارية فنية لنماذج الخناجر الأندلسية ومستلزماتها

د. حنان عبد الفتاح مطاوع (*)

أدوات الحرب فى الأندلس وعوامل إزدهارها :

حرص المسلمون فى الأندلس منذ البداية على أن تكون لديهم قوة عسكرية مرهوبة الجانب؛ يخشى بأسها ويخطب ودها أعدائهم فى الداخل والخارج، وبهذا المفهوم بذلوا جهداً كبيراً لتسليح جيوشهم تسليحا جيداً، بكل أنواع الأدوات الحربية اللازمة لها والتى أخذت فى الإزدهار، بصورة واضحة، فى فترات القوة والإزدهار. حيث نشطت صناعة السلاح فى الأندلس، وتعددت مصادر الحصول عليها منذ عصر الدولة الأموية (١٣٨هـ-٣١٦هـ) (٧٥٥م-٩٧٨م) وما تلاه من عصور حتى نهاية عصر بنى نصر (٦٣٥هـ/ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨م - ١٤٩٢م) وغدت أدوات الحرب تصدر من الأندلس إلى جميع أنحاء إسبانيا الإسلامية والمسيحية على السواء(١).

وقد ساعد على إزدهار صناعة أدوات الحرب فى الأندلس، وولع الأندلسيون بها، عوامل كثيرة من أهمها: وفرة المواد الأساسية اللازمة لتلك الصناعة ببلاد الأندلس، لاسيما معدن الحديد والفولاذ المخصصين لصناعة السيوف والخناجر والنصال والزرديات.

فمن بين أهم المناطق التى اشتهرت بغزاره إنتاج هذين المعدنيين: جبال مدينة طيطله(٢)، قرية فريش الواقعة بالقرب من قرطبه(٣)، وكورة البيره بغرناطة(٤) وحصن قسنطينة(٥)، وفى جبال إشبيليه(٦)، وجبال البرانس قرب فحص البلوط(٧) وجبال المرية(٨) وبنفس القدر من الثراء توافرت أيضا المواد المساعدة التى تدخل فى صناعة أدوات الحرب مثل: الأخشاب التى اشتهرت بإنتاجها مدينة طرطوشة(٩) وشلطيش(١٠) .

فضلا عن الأحجار الكريمة التى تستخدم فى ترصيعها وتزيينها، والتى كانت توجد بكثره فى العديد من مناطق الأندلس : مثل اللازورد بمدنية لورقه(١١)، وجبل شلير(١٢)، والياقوت بحصن مونت ميور بكورة مالقه(١٣) وبقريه ناشره بالقرب من بجانه(١٤) وحجر البجادى(١٥) بمدينة لشبونه(١٦) وحجر الشادنج أو الشاذنج(١٧)، بجبال قرطبة(١٨)، وحجر المرقشيتا الذهبية بجبل أبذه(١٩)، ولأن بلاد الأندلس كانت غنية بكل هذه الأنواع من الأحجار الكريمة فقد شاع استخدامها فى زخرفة أدوات الحرب، لاسيما والخناجر وأدوات الخيل(٢٠)، أما بقية المواد الأخرى المساعدة التى لم تكن تتوافر ببلاد الأندلس، فكان يتم استيرادها بكميات كبيرة مثل: العاج الذى كان يدخل فى صناعة مقابض السيوف والخناجر وبعض أنواع أسلحة الزينة، وكان يتم استيراده من بلاد المغرب، وساحل غانا بالسودان.

(*) أستاذ مساعد الآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

وكذلك ساعد على تطور أدوات الحرب بالأندلس وفره الصناع المهره من الأندلسيين، ممن أظهروا قدره فائقة على الاستفادة من المواد الخام اللازمة لتلك الصناعة التى أولوها عناية خاصة بسبب إهتمام الأندلسيون بها، ومنافعها فى الحرب والسلم، وهو ما عبر عنه المقرى فيما نقله عن ابن سعيد بقوله (وأما الآت الحرب من الترس والرماح والسروج والجم (اللجم أو الألجم) والدروع والمغافر، فأكثر همم أهل الأندلس كانت مصروفه في هذا الشأن[٢١]، وثمة ملاحظة هامة وهى: أن هذا الاهتمام بأدوات الحرب قد دفع صناع السلاح الأندلسيين إلى تطويرها، وقد اتخذ هذا الاهتمام مظاهر عديدة منها:

(١) الحرص على إقامة دور صناعة متخصصة لأدوات الحرب وإصلاح ما تداعى منها، على نحو ما فعله الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط من ترميم دار صناعة السلاح بمدينة طليطلة عام (٢٠٧هـ/٨٢٢هـ)[٢٢].

وظلت هذه الدار تؤدى دورها فى إنتاج أدوات الحرب حتى نهاية عصر الطوائف، وحققت فى هذا المجال مزيداً من الإزدهار والتطور، حتى أصبح إنتاجها يقدم كهدايا من قبل الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠هـ/٣٦٦هـ/ ٩٦١م – ٩٧٦م) إلى ملوك قشتاله[٢٣]. بل كان يصدر فى عصر الطوائف(٤٢٢هـ/٤٨٤هـ/١٠٣١م – ١٠٩١م) إلى كل أنحاء إسبانيا الإسلامية والمسيحية[٢٤].

وقد امتدح ابن سعيد وفرة إنتاج دار صناعة هذه المدينة من السلاح وتنوعه وجودته بقوله (كان يصنع فيها من آلات الحرب العجائب)[٢٥]، وفى عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ/٣١٦هـ/٩١٢م –٩٢٨م) شيد العديد من دور الصناعة فى كثير من مدن الأندلس، كان من بينها دار بمدينة الزهراء تخصصت فى إنتاج الآت الحرب والحلى والزينة، وغير ذلك من المهن[٢٦].

وتعتبر دار صناعة السلاح التى أقامها المنصور بن أبى عامر (٣٧١هـ/٣٩٣هـ/ ٩٨١م–١٠٠٢م) بقصره المعروف بقصر العامرية، من أهم إن لم تكن أهم دور صناعة السلاح فى الأندلس، نظراً لما كان يتوافر لهذه الدار من إمكانات تفوق غيرها من دور الصناعة الأخرى، فهذه الإمكانات كانت من الوفرة والتنوع بحيث كان لكل نوع من الأسلحة قسم أودار تخصصت فى إنتاجه.

ويعبر المؤرخون العرب عن هذا الإزدهار فيما كتبوه عن هذه الدار، فابن الخطيب يشير إلى أنه كان بها دار مخصصة لصناعة التروس عرفت بدار التراسين[٢٧] كان يزيد إنتاجها فى العام الواحد عن ثلاثة عشر الف، كما كان بنفس الدار دار أخرى لصناعة القسى كان إنتاجها فى العام ما يقرب من اثنى عشر ألف[٢٨]. وكان لكل دار طائفة حرفية لها معلم يعرف بشيخ الصنعه يتولى تمثيلهم، ويعتبر مسئولا أمام المعلم الأكبر أو كبير المعلمين الذى يقيم بمدينتى قرطبة والزهراء[٢٩] وفى مدينة مرسيه حظيت صناعة السلاح بمكانة كبيرة عبر عنها المقرى فيما نقله عن ابن سعيد بقوله (يصنع فيها من آلآت الجندي ما يبهر العقول)[٣٠].

وقد كانت تلك الصناعة مصدرا أساسياً لثروتها، فوفرة إنتاجها من السلاح فتح أمام أهالى هذه المدينة أفاقا واسعة للعمل التجارى فى قطاع التصدير، فكانت أدوات الحرب تعالج

وتصنع بها، قبل تصديرها إلى معظم البلدان لاسيما أفريقية، حيث أشار المقرى إلى ذلك بقوله (وفيها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها)[٣١].

وقد أخذت بعض المدن شيئا فشيئا تحتل مركز الصدارة فى إنتاج نوع واحد من الأسلحة تشتهر به، ومن ذلك على سبيل المثال: مدينة المرية التى ذاع صيتها فى صناعة السيوف الجود السود[٣٢] ومدينة برذيل التى عرفت سيوفها بالبرذليات المشهورة بالجودة[٣٣]. كما اشتهرت إشبيلية بسقى الفولاذ الأشبيلى الشهير الذى كانت تُصنَع منه الدروع وتجافيف الخيل، وفى مدينة وشقه بالثغر الأعلى كانت تصنع الدروع والبيضات[٣٤].

ومثل هذه المدن التى كانت تشتهر بصناعة نوع معين من الأسلحة كان يوجد بها أماكن للتدريب عليها مثل: سبته التى اشتهرت بصناعة القسى، وكان بها أربع وأربعون مرمى لرمى السهام[٣٥].

٣- جرى حكام الأندلس، منذ عصر الدولة الأموية، على إقامة دور لحفظ أدوات الحرب عرفت بدار أو خزانة السلاح مثل: الدار التى أقامها الأمير عبد الرحمن الأوسط بمدينة قرمونه[٣٦]، ودار أخرى في غرناطة من عصر المرابطين، ودار بمدينة إشبيليه[٣٧].

وكان يتولى الإشراف على تلك الخزائن أحد كبار موظفى الدولة الثقاه، ممن كان على درايه بأنواع الأسلحة ليعرف ما توافر منها وما نقص، ويقدم تقريراً بمحتويات مخازن السلاح ويدون فى سجلات ديوان العسكرية[٣٨] يطلع عليه الحاكم أو الخليفة بشكل دورى، حتى لا يخرج إلى الحرب إلا بعد أن يتأكد من اكتمال كل أنواع السلاح والعدة[٣٩].

٤- كانت أدوات الحرب من أفضل الهدايا بين الحكام وكبار رجال الدولة، سواء أهديت لهم أو هادوا بها المقربين إليهم لكسب ولائهم، فعبد الرحمن الناصر كان يخلع على وزرائه- أمثال أحمد بن عبد الملك بن سعد-أنواعا متعددة من الآت الحرب أحصاها ابن خلدون بقوله (والعده ثمانمائه من تخافيف الزينة أيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية، ومائة ألف سهم من من النبال البارعة الصنعه).

كما هادى الخليفة عبد الرحمن الناصر أمراء البربر، بالعدوة المغربية، بكثير من تلك الآلات الحربية، أمثال موسى بن أبى العافية، ووفقا لما ذكره ابن حيان كان من بين محتويات تلك الهداية (أربعة بنود من غرائب السلاح)[٤٠].

ولقد واصل الخليفة الحكم المستنصر سياسة اصطناع وجوه أمراء المغرب، فأرسل مع الخازن أحمد بن محمد لعدد كبير منهم فى جيش غالب بن عبدالرحمن - مجموعة هدايا معظمها من آلآت الحرب، مع كتاب موضح فيه إسم كل شخص وتفاصيل محتويات هديته[٤١].

وبهذه المناسبة، يجدر بنا أن نشير إلى أن من بين العوامل التى ساعدت على بلوغ أدوات الحرب فى الأندلس، أوج إزدهارها، أنها كانت من مظاهر التعبير عن الأبهه والفخامة والتفوق العسكرى، فالباحث فى تاريخ الأندلس يستطيع أن يلاحظ بوضوح أهميتها فى الاحتفالات والمراسيم والعروض العسكرية والاستقبالات الرسمية، حيث كان يرتديها كبار الوزراء والفتيان والأكابر والكتاب والخصيان الصقالية، وغيرهم من طبقات أهل الخدمة، عند استقبال الخلفاء والإحتفال بقدومهم[٤٢].

وجرت العادة أن يقوم حكام الأندلس باستعراض أدوات الحرب أثناء الاحتفال باستقبال سفراء وحكام الدول المجاورة، لاسيما ملوك إسبانيا المسيحية، وذلك من أجل استعراض القوة العسكرية وبث الرعب فى نفوسهم . ويستدل على ذلك مما ورد فى المصادر العربية من أوصاف تفصيلية لمواكب استقبال زيارات السفراء والملوك المسيحيين، بقصر قرطبة وقصور الزهراء والزاهرة(٤٣).

٥- من العوامل التى ساعدت على ازدهار صناعة السلاح فى الأندلس: تعدد مصادر الحصول عليها فلم يكتفوا بما كان يصنع منها محليا ويباع ويشترى من أسواق خاصة بها، فرغم إشارة المؤرخين بمهارة الأندلسيين فى صناعة أدوات الحرب(٤٤) كما سبق الإشارة، لم يترددوا فى شراء الأسلحة الجديدة من إسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة لها، أو من الأسواق المشرقية والهندية، حيث وردت إشارات عديدة عن تسلح الجيش الأندلسى بمثل هذه الأسلحة المشتراه من الخارج(٤٥) رغم ما كان يفرض أحيانا من حظر لبيع، أو نقل هذه الأسلحة، بين الطرفين الإسلامى الأندلس والإسبانى النصرانى(٤٦).

وأخيرا، تجدر الإشارة إلى أن إزدهار صناعة أدوات الحرب والعناية بها، فى مختلف مدن الأندلس، كان ضرورة فرضها تاريخ الأندلس الحافل بالثورات والحروب المتتابعة، فضلا عن جنوح أهل الأندلس، لاسيما فى عصر الطوائف إلى الخروج على السلطة مما كان له أكبر الأثر فى اعتماد كل مدينة فى الدفاع عن نفسها. ونستدل على ذلك من قول القلصادى بأن مدينة غرناطة حققت تقدما فى صناعة السلاح مكنتها من الدفاع عن نفسها وزيادة مناعتها(٤٧).

وبعد هذا العرض لعوامل ازدهار صناعة أدوات الحرب فى الأندلس، يجدر بنا أن نفرق بين أنواعها التى كانت تستخدم فى ميادين الحرب، والمستخدمة للزينة، أو كانت تقدم كهدايا.

ومع أن إثبات هذا الفرق بالأساليب التاريخية المعتادة لا يخلو من صعوبة؛ إلا أنه من خلال الإشارات التى وردت بشأن النوع الثانى المستخدم فى الزينة؛ يمكن إثبات هذا الفرق، فآلات الحرب التى كانت تستخدم فى أيام البروز والمواكب والإهداء تتميز بخفه وزنها، والمبالغة فى زخرفتها وتحليتها بخطوط الذهب والفضه وترصيعها بالأحجار الكريمة، وتطلق المصادر العربية على هذا النوع من أدوات الحرب اسم: تجافيف أو تخافيف الزينة والسلطانية أو الخاصة(٤٨) ومنها السيوف الحالية(٤٩) والسيوف المرصعه العمود بالجواهر المثمنة والحراب المزينة العصى بأنابيب الفضه والبيضات المذهبة(٥٠).

بينما الأسلحة المستخدمة فى ميدان الحرب يراعى فيها: أن تكون قوية الشكل غليظة المظهر خالية من الزخرفة، بحيث تتناسب وطبيعة الوظيفة التى تؤديها.

وقبل أن نختم الحديث عن عوامل إزدهار صناعة أدوات الحرب الأندلسية، نود الإشارة إلي أننا لا نكاد نرى فنا من الفنون الصناعية الأندلسية أكدت المصادر الأندلسية على أنه قد تأثرت أشكاله بالفنون الصناعية المسيحية المعاصرة مثلما حدث فى فنون صناعة أدوات الحرب، ونستدل على ذلك من إشارة ابن الخطيب: وزيهم (أهل الأندلس) شبه زى اقتالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج إسباغ الدروع وتعليق الترسه وحفا البيضات واتخاذ عراض الأسنه ويشاعه

قرابيس السروج واستركاب حمله الرايات خلفه كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهره يعرف بها)[٥١].

ويشير المقرى فى هذا الصدد أيضا بقوله (وكثيرا ما يتزين سلاطنيهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وآقبيتهم كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم ومحاربتهم بالتراس[٥٢] والرماح[٥٣] الطويلة للطعن ولا يعرفون الدبابيس قسى[٥٤] العرب بل يعدون قسى الأفرنج للمحاصرات فى البلاد أو تكون للرجاله عند المصافقه للحراب[٥٥].

ولا يؤخذ من هذا أن تلك الآلات الحربية المسيحية كانت تعتبر مقياسا، أو كان صناع الأندلس يتخذونها نماذج يقلدونها مسرفين فى هذا التقليد، بل على العكس نجد أن صناع الآت الحرب الأندلسيين فيما بعد منذ عصر بني نصر، قد اتخذوا لأنفسهم أساليب وأنواعا تختلف عن نظائرها المسيحية ولا ترجع فى شيء إلى الأساليب المسيحية الموروثة من مجموعات الأسلحة التى غنموها من القوط فى بداية الفتح الإسلامى، أو فى أثناء الحروب الجهادية الطويلة التى خاضها المسلمون فى الأندلس ضد النصارى الأسبان، ويؤيد ذلك ما ذكره إبن اخطيب أيضا، فى موضع أخر، عن التجديد الذى أحدثه صناع السلاح فى عصر بنى نصر بقوله (ثم عدلوا الأن عن هذا الذى ذكرناه إلى الجواشن[٥٦] المختصرة والبيضات المرهفات والسروج العربية، والبيت اللمطية[٥٧] والأسل العطفية [٥٨] .

الخناجر الأندلسية :

تعريف الخنجر وإستخداماته:

الخنجر سلاح قاطع صغير أشبه بسيف مصغر، ولكنه أكثر وأسهل فى الحمل والاستخدام، إذ يحمله المحارب فى منطقته أو حزامه أو تحت ثيابه، فإذا التحم بعدوه يطعنه به خلسه[٥٩]، والخنجر من أقدم الأسلحة التى إستخدمها الإنسان فى الدفاع عن نفسه، فهو من الأسلحة الدفاعية التى عرفها العرب منذ جاهليتهم، ويعتبر سلاحا شخصيا أكثر من كونه رئيسيا فى المعارك، وهى أسبق في الظهور من السيوف وأقدم إستخداما، وكانت بعض المجاهدات، فى العصور الأولى، يحملن الخنجر فى الغزوات تحت ثيابهن للدفاع عن أنفسهن.

وبصفه عامة، إرتبط الخنجر، منذ قرون طويلة، بعادات الشعوب وتقاليدهم وتراثهم المنقول، ويعد رمزاً للرجولة، كما أن نوع الخنجر، فى بعض البلدان مثل اليمن، يدل على المكانة الإجتماعية لصاحبه، وما تزال الخناجر، حتى يومنا هذا، من مستلزمات المظهر الخارجى فى بعض المجتمعات الإسلامية، فضلا عن كونها سلاحا فهى حلية خاصة بالرجال تعبر عن شخصية حاملها ومكانته[٦٠]، ومع أن الخنجر من ملحقات السيف لأنه من فصيلته، إلا أنه عكس السيف فقد إرتبط فى الأذهار بالخيانة والغدر، حيث اغتيل به العديد من الشخصيات الهامة فى صدر الإسلام، ومن ذلك خنجر أبو لؤلؤه المجوسى الذى قتل به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو يصلى.

أجـزاء الخنجـر:

يتكون الخنجر عادة من جزءين رئيسيين هما: رئاسة الخنجر أو قائمه ونصله، وللقائم والنصل عناصر مهمة لا يكاد خنجر عادة يخلو منها، وخاصة إذا كان من الخناجر الأصيلة إضافة إلى عمد الخنجر أو قرابة ويتكون قائم الخنجر أو رئاسته من المقبض، وهو مقبض كف الضارب أو الطاعن أو مكان قبضه اليد، والقبيعة وهي الحديدة التى تلبس أعلى المقبض وتسمى القلة أحيانا، إذا كانت مستديرة أو كروية، كما تسمى فى بعض المصادر الأندلسية بالقرون الجاموسية(٦١). ويفصل النصل عن رئاسة الخنجر وقائمه الواقية وهى حديدة المقبض المعترضة على فم الغمد؛ لوقاية يد المحارب من الإصابة وطعنات الخصم.

وقد أوليت مقابض الخناجر عناية خاصة، حيث صنعت من مواد ثمينة مثل قرن وحيد القرن، وعاج الفقمة، وعاج الفيل، والذهب والفضه.

أما النصل فهو حديدة الخنجر، ويصنع فى الغالب من الفولاذ أو البرونز، وتتميز الخناجر الجيدة الأصيلة باحتواء نصولها على ما يعرف بالأثر أو الجوهر الفاخر(٦٢) وهو مصطلح استخدم لبيان ظاهرة الخطوط المتداخلة المتباينة الأشكال والأوضاع على صفحات النصول، فهى خطوط ناعمة متداخلة على شكل النسيج الشبكى، أو على شكل تقسيم خطوط النصل إلى مسافات قصيرة متساوية، أو شكل عقد متناسقة متقاربة متلاصقة، وأحيانا تكون على شكل خطوط عريضة تشكل بقعا مستديرة أو مستطيلة، أو خطوط متعرجة أو متوازية.

ويرجع هذا الاختلاف إلى التغيير فى نسب الشوائب الداخلة فى الخليط الفولاذى للنصل، والتى تدرس كمياته بدقه كالكربون والمغنسيوم والسيلسيوم والكبريت والفسفور وبعض المواد العضوية، أو إلى اختلاف فى الطرق الحرارية من إسقاء واحماء وتبطين وتحكم فى درجات حرارة كل منها(٦٣) ويخلاف الجوهر تمتاز صفحات النصول بإشتمالها على: (١) شطوب أو قنوات تحفر في متونها وفائدتها أن تجعل الخنجر أكثر ليونة (٢) حد الخنجر أو حرفه، وهو جزء النصل القاطع، وما بين حد الخنجر الجزء البارز فى وسط نصله شفرتا الخنجر أو حرفاه المرتفعان، ثم المضرب وهو حد الخنجر أو الموضع الذى يطعن به (٣) السنبك وهو طرف نصل الخنجر.

وعلى هذا الأساس يمكن إجمال مكونات الخنجر فى جزئيين رئيسيين هما: المقبض والنصل، ولكل منهما عناصر مهمة لا يكاد خنجر يخلو من معظمها، وبذلك فإن الخنجر أشبه، فى تكوينه بالسيف، فهو صوره مصغره له.

أغمـاد الخناجـر :

يكون للخنجر فى العادة قراب أو أجفان أو أغماد Scabards تحفظ فيها، يطلق عليها ابن حيان الغلائف(٦٤) وهى عبارة عن جراب من الخشب، فى الغالب، مغطى بالحرير أو القطيفة أو الجلد أو المعدن، ويعرف الجزء الذى يلبس منها فى قائم الخنجر باسم السفن، وهى جلده مصنوعة بشكل جيد، زودتنا بعض المصادر بأوصاف تنم عن نوعها مثل: غمد سفن(٦٥) وسفن حوت بنصل(٦٦) وفى نهاية أغماد الخناجر من أسفل: جلدة مفرغة مزينة تنتهى عادة بحديدة

ملبسه فيها يطلق عليها النعل(٦٧) ويبطن الغمد من الداخل أحيانا بجلود تعرف بالحلل، ويرصع من الخارج بحلي مستديرة على شكل حلقات أو شراشيب من المواد النسجية، كالقطن أو الكتان أو الحرير، التى كانت تستخدم فى تزيين الأسلحة وأدوات الخيل(٦٨).

الخناجـر الأندلسـية:

وإذا كان المؤرخون قد أشادوا بمهارة الأندلسيين فى صناعة كل أدوات الحرب، كما سبق الإشارة، حتى قيل عنهم "بأنهم تركيون فى معاناه الحروب ومعالجات آلاتها والنظر فى مهماتها"(٦٩) كما أسهبوا فى وصف أنواعها وأشكالها، فيما عدا الخناجر، فمن الطبيعى أن يكون لأهل الأندلس نفس المهارة فى مجال صناعة وزخرفة الخناجر التى تنوعت تنوعاً كبيراً، وأوليت مقابضها ونصولها وأغمادها عناية شديدة، ويبرهن على ذلك مصدران: الأول تاريخى والثانى مادى، أما التاريخى فهو وصف وحيد نادر، للمؤرخ القرطبى إبن حيان لمحتويات الهدية التى بعث بها الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى عامله على المغرب أبى موسى بن العافية وكان من بينها أربعة خناجر، وذلك بقوله (وكان فى هذه الهدية من غرائب السلاح أربعة بنود بند رابع أحمر مكتوب بالفضة فى جوانبه الثلاث كتاب عريض وفيها سيفان وهلالان مذهبان مذوقان وأربعة قرون للضرب (أى خناجر) جاموسية مجزعه الأطراف الضيقة غلائفها ديباج وعلقها أديم أحمر ولكل واحد منهما أربع حلقات فضة للعلائق حليه، أحدهما فضه مذهبة ملوزة بلوز أبيض بصنيفتين مذهبتين مشمع الطرف الأضيق فيه أربع حلق فضة وحليه الثانى فضة بصور وحليه الثالث فضة منقشة مشمعة وحلية الرابع فضة مذهبة منقشة مشجرة)(٧٠).

ويؤكد المقرى أيضا على: أن تلك الخناجر كانت مما يهادى بها من قبل كبار رجال الدولة للخليفة، كتعبير عن ولائهم وطاعتهم، حيث أشار إلى أن الحاجب أبا جعفر المصحفى بعث منها إلى الخليفة الحكم المستنصر خمسة وعشرين قرنا مذهبة من قرون الجاموس(٧١).

ويعتبر عصر الموحدين العصر الذهبى لصناعة الخناجر الحربية، حيث أشار البيذق إلى أنها كانت من الأسلحة التى استعملها الجيش فى عصر الموحدين(٧٢)، وإذا كنا نأسف على إختفاء كل هذه الخناجر، والتى وردت بعض الإشارات عنها فى المصادر التاريخية، ولم يصل إلينا منها أى أثر مادى؛ فإن ما نقله إبن حيان عنها هو أصدق صورة وضعت عنها، فبفضل هذا الوصف الدقيق نستطيع أن نتصور ما كانت عليه - صناعة الخناجر الأندلسية وزخارفها من روعه وجمال، منذ عصر الدولة الأموية، لاسيما وأن هذا الوصف لمؤرخ معاصر، ولذلك فقد جاء شاملا دقيقا، يسهل من خلاله التعرف على بعض الأنماط الزخرفية للخناجر ووسائل تنفيذها. فالوصف يكاد ينطق بكل التفاصيل الزخرفية التى كانت تكسو مكونات تلك الخناجر، حيث يذكر أن أطرافها (أى الموضع الذى يطعن به) كانت محزوزة بحزوز بارزة مجزعة، وأن أغمادها أو أغلافها كانت مكسوة بأجود أنواع الديباج والحرير، ومحلاة بدلايات على شكل حلقات مصنوعة من مواد ثمنية من الفضة الخالصة والفضة المذهبة المرصعة بالأحجار الكريمة، والمنقوشة بالتوريقات النباتية وصور الكائنات الحية.

كما نستنتج، من الوصف نفسه، أن الصناع الذين اهتموا أجزاء تلك الخناجر قد صنعوا لها علاقات من الفضة؛ لتحمل منها عن طريق أشرطه من قماش الحرير القرمزى.

وبخلاف ما ذكره ابن حيان والمقرى عن الخناجر، فى عصر الدولة الأموية، تصمت المصادر العربية عن ذكر شيء آخر يتعلق بها، سواء فى عصر الدولة الأموية أو ما تلاه من عصور، ويزيد الأمر غموضا أننا لا نجد رسوما لها فى المخطوطات والرسوم الجدارية، أو على الفنون التطبيقية الأندلسية، ولكن النماذج التى وصلت إلينا منها، برغم قلتها، تكفى لإعطاء صورة واضحة لما كانت عليه مكونات وأشكال الخناجر، سواء فى عصر الدولة الأموية، أو ما تلاه من عصور .

والنماذج التى وصلت إلينا من الخناجر الأندلسية يبلغ عددها ستة خناجر، كلها محفوظة فى متاحف إسبانيا التى قمت بزيارتها، وفى تتبعى لتلك المجموعة ودراستى الشخصية لها فى أماكن حفظها: لاحظت أنها تنتمى إلى فترات زمنية مختلفة، تبدأ بعصر الدولة الأموية وحتى نهاية عصر بنى نصر.

أولا: نماذج الخناجر المؤرخه بالفترة من عصر الخلافة وحتى نهاية عصر المرابطين :

لم يصل إلينا من خناجر هذه الفترة سوى نموذجين.

(١) **النموذج الأول** (لوحة ١)

عبارة عن خنجر نصله مصنوع من البرونز عثر عليه بمدينة ألبيرة، محفوظ فى المتحف الأثرى بغرناطة تحت رقم ٨٢٧، ومؤرخ بأواخر القرن ٤هـ/١٠م وبداية القرن ٥هـ/١١م، ولهذا الخنجر مقبض طوله ١٠سم يتكون من واقية قوامها قطعة من البرونز مستطيلة المقطع مسطحه الجوانب، يتصل بها رأسيا عن طريق اللحام قضيب (رناسة الخنجر أو قائمة) ملفوف إسطوانى المقطع، ويتوسط بدن هذا القضيب، أو القائم، انبعاج مخروطي يمثل محورا مركزيا لموضع قبضة اليد (مقبض كف الضارب) وينتهى هذا القائم، أو القضيب، بقبعة تتميز ببساطة تشكيلها الفنى، فهى تتكون من لوح برونزى مصبوب، جوانبه ملفوفة بحيث تشكل مخروطا مقطوعا.

وتخلو جميع أجزاء هذا المقبض من أى زخارف، باستثناء القضيب الذى يصل بين القبعة والواقية، فقد ازدان بدنه بزخارف هندسية بسيطة، عبارة عن لفائف دائرية منفذة بأسلوب الحز، الذى يعد أقدم طرق زخرفه المعادن الأندلسية وأكثرها انتشارا فى الفترة المنسوب إليها بقايا هذا الخنجر[٧٣].

(٢) **النموذج الثانى** (لوحة ٢)

خنجر عثر عليه بمدينة غرناطة وحفظ فى متحفها الأثرى، تحت رقم ٨٢٨، طول نصله ٢٥سم، وطول مقبضه ١٢سم، ويبلغ طول هذا الخنجر بما فى ذلك مقبضه، ٣٧سم ويتألف من نصل ومقبض، والنصل مستقيم طوله ٢٥سم مصنوع من الفولاذ، له شفرتان، وينتهى بطرف مدبب (سنبك) مستدق البدن.

أما المقبض فمصنوع من البرونز، ويتصل فى قالب واحد بالنصل، عن طريق واقيته المحزوزة بلفائف دائرية متراكبة ملساء، مركب عليها قبعته المشكلة فى هيئة كائن حى أشبه ببطتين رؤوسهما مستديرة، وأبدانهما التى تمثل مقبض كف الضارب (موضع قبضته اليد) مضغوطة فى شكل كروى منبعج الجوانب، والتى تسمى (قله) ويخلو مقبض ونصل هذا الخنجر من أية زخارف، مما يشير إلى أنه كان من نوع الخناجر الحربية التى شاع استخدامها فى عصر الموحدين، كما سبق الإشارة.

ويؤرخ المتحف هذا النموذج بالقرن ٥-٦/١١-١٢م، أى أواخر عصر الطوائف وبداية العصر المغربى الأندلسى (عصر دولتى المرابطين والموحدين).

ثانيا: نماذج الخناجر المؤرخه فى الفترة من عصر الموحدين وبداية عصر بنى نصر :

ما وصل إلينا من خناجر هذه الفترة نموذج (لوحة ٣).

وقد عثر عليه بمدينة إشبيلية، ومحفوظ حالياً فى المتحف الوطنى بمدريد، تحت رقم ٨٤/٤٦٠، ويؤرخه المتحف بالقرن ٧-٨هـ/١٣-١٤م، أى أنه يرجع إلى نهاية عصر الموحدين، وبداية عصر بنى نصر.

ويتسم الخنجر بجلال الشكل وجمال النسب، ويعبر عن مرحلة من مراحل التطور التى مرت بها صناعة الخناجر الأندلسية، حيث دخلت عليه بعض التعديلات التى أفقدته بساطة الخناجر السابقة عليه – ويلاحظ هذا التطور فى شكل النصل والمقبض بأجزائه المختلفة .

فبالنسبة للنصل نلاحظ أنه طويل ومستقيم، ينتهي بسنبك عبارة عن طرف شديد التدبب، ويتحول قبل هذا الطرف إلى نصل ذى حدين عليه شطبه واحدة كما يلاحظ أيضا بأن هذا النصل يتضخم إلى حدٍ ما فى أعلاة، لاسيما عند ما يُعرف بسفن الخنجر الذى يدخل فى القائم. ثم يميل متن الخنجر وجانباه (حصيرته) إلى النحافة وحتى حدية، ليتحول عند طرفه المدبب (السنبك) إلى ما يشبه رأس الإبرة، وهذه الخصائص تجعل هذا الخنجر سلاحا جيدا للقطع والطعن معا.

أما المقبض فبرغم أن الصانع قد شكله مع النصل فى قالب واحد، على غرار النماذج السابقة إلا أن الجديد الذى نلحظه هنا هو التطور الذى طرأ على حجم المقبض ككل، إذ زاد طوله زيادة ملحوظة، مع العناية بتجزئة عناصره، فالواقية صبت مع نهاية النصل، وتشكلت من بدن أسطوانى يتصل به فى قطعة واحدة رقبة ناقوسية، بحيث اتخذت الواقية فى مجموعها شكل زهرية، ويلى الواقية موضع قبضة اليد (مقبض كف اليد) التى تتجه رأسيا بحيث تصل بين الواقية والقبيعة، وقد عمد الفنان إلى تقسيم هذا الجزء من المقبض على نحو رائع، ففى كل من طرفيه بدن كروى مركب فيه رقبة ناقوسية، بحيث يتخذ كل منهما شكل قلة، إحداهما مقلوبة والأخرى معدولة يصل بينهما إطار رقيق يتألف من قرصين دائريين، بينهما قرص أوسط مسنم، بحيث تظهر فى مجموعها على شكل حبات المسبحة التى تزين محاور رؤوس التيجان.

أما عن قبيعة هذا الخنجر، التى تعد من العناصر الهامة فى تكوين مقابض الخناجر، فقد اهتم بها الفنانون الأندلسيون، وحرصوا على تنويع أشكالها. إذ ما لبثت أن تطورت هنا واتخذت طابعاً أو طرازاً له ذاتيته، منذ القرن ٧-٨هـ/١٣-١٤م، إلى أن بلغ غاية التطور فى

عصر بني نصر، فمما يلفت النظر فى طراز هذه القبعة أنها تشكلت من قطعة مستطيلة أرضيتها مجوفة وجوانبها القصيرة مقصوصة فى شكل آذان ربع دائرية ذوات أطراف مدببة.

ويطلق على هذا الطراز من الخناجر ذوات القبيعات المشكلة على هذا النحو فى المصطلح الإسبانى: اسم (punales de oreyas) بمعنى الخناجر ذوات الآذان(٧٤).

وهذا الطراز من الخناجر سوف يتابع انتشاره فيما بعد عصرالموحدين فى الأندلس، ومنذ بداية عصر بنى نصر إلى نهاية هذا العصر وبداية القرن ١٠-١١هـ/١٥-١٦م، ولكن بشكل أكثر تطوراً، بحيث يمثل أخر مراحل التطور التى مرت بها صناعة الخناجر الأندلسية ذات الآذان التى بدأ يظهر الطابع الزخرفى فى تشكيل مقابضها وتقسيم أبدانها بدقة بالغة، ثم اتجهت فى تطورها نحو مزيد من الزخرفة بحيث غلبت فكرة الحلية على فكرة التبسيط، وهذا ما سوف نلمسه فى بقية الأمثلة الإسلامية والمسيحية التى صنعت على غرارها، حيث تحول شكل آذان القبيعة إلى قرصين أسطوانيين منفرجين متقاربين من أسفل ومتباعدين من أعلى(٧٥).

وقد أكدت المدونات المسيحية على أن الخناجر التى صنعت على هذا الطراز، خلال هذه الفترة الطويلة فى الأندلس، تندرج فى ثلاث مجموعات أولها وأقدمها يرجع إلى عصر بنى نصر، أما المجموعة الثانية والثالثة فقد اتفقت الأراء على أنها صنعت فى العصر المسيحى، ولكنها اختلفت بشأن مكان صناعتها فى إسبانيا المسيحية، أم فى مدينة فينسيا الإيطالية(لوحة٨-٩-١٠) (٧٦)

ثالثا: نماذج الخناجر الأندلسية المؤرخه منذ بداية عصر بنى نصر وحتى نهايته:

تضم هذه المجموعة ثلاثة خناجر (لوحة ٤، ٥، ٦، ٧) كانت قد غنمتها الجيوش المسيحية من السلطان أبي عبدالله فى موقعه الليسانه، واثنان من تلك الخناجر كانت بحوزه الكونتيثه باجيا Condesa de Behague أحدهما كان محفوظا فى أكاديمية السلاح الملكى بمدريد، ثم نقل إلى متحف المتروولبتان فى نيويورك، والثانى محفوظ فى متحف بلنسية دى دون خوان.. أما الثالث فمحفوظ حاليا بالقصر الملكى فى مدريد.

الخنجران الأول والثانى من تلك المجموعة :

تضم هذه المجموعة خنجرين متشابهين إلى حد التطابق (لوحة ٤، ٥) فكلاهما مصنوع من الفولاذ المذهب؛ الذى اصطلح على تسميته، فى المصادر العربية الأندلسية، باسم طلاء الذهب الإبريز أو المذهب(٧٧). وفيه يتم تذهيب السطح المعدنى بعد عملية التشكيل مباشرة، وقبل نقش الزخارف عليه، ومن شأن هذا الأسلوب أن يحدث تناويا لونيا بين اللون الذهبى لسطح التحفه وبين الزخارف المحفورة على المعدن الأصلى، فضلا عن إكسابها لونا براقا وحماية التحفه من الصدأ وينفذ هذا الأسلوب بطرق ثلاثة هى:

(١) عمل رقائق من معدن الذهب تثبت على المعدن الأصلى، إما بالطرق أو اللصق بمادة لاصقه مثل الصمغ أو الغراء.

(٢) طريقة التذهيب بواسطة النار أو الحرق.

(٣) طريقة التذهيب بدعك أوحك السطح المعدنى للتحفة بنوع من الأحجار يعرف بحجر الشادنه أو جحر الطلق[٧٨] اشتهرت به مدينة قرطبة كما سبق الإشارة بحيث يكسب التحفة لونا ذهبيا طبيعيا[٧٩].

أجـــزاء الخنجرين:

يتكون كل منهما من نصل قصير ومتن ضيق، وهما من النوع المستقيم ذى الحدين، وتتميز صفحتا النصل باشتمالهما على شطبة واحدة ممتدة بطول النصل، وتبرز عن أرضيته فى إنحناء مقعر. بحيث تكون ما يعرف بالعير، أى الجزء الناشز فى وسط نصل الخنجر أو السيف وعيريه، أى حرفاه المرتفعان، وقد ترتب على ذلك أن ظهر النصل كما لو كان هيكلا مكونا من أوتار أو ضلوع بارزة، تقوم على أرضيته المسطحه فى أعلاها والمستدقة أدناها، على نحو يذكر ببعض أنصال سيوف عصر بنى نصر ذات الشطبة الواحدة[٨٠].

وينتهى النصل بكل من الخنجريين بسنبك عبارة عن طرف مدبب شديد التحدب، أما المقبض فواقيته ملبسه فى أعلى النصل؛ عند الجزء الذي يعرف بالسيلان الذى يدخل فى القائم والنصل، وقد شكلت من إطار مجوف مضلع السطح فى تموج نصف دائرى يتوسطه حليه دقيقة تمتد فى أعلاه وأسفله، بحيث تبدو فى شكل ذراع ينتهى بكف، ومثل هذه الحلية شاع ظهورها على بعض واجهات العمائر فى عصر بنى نصر [٨١] وهى بمثابة تمائم أو تعاويذ أو شارات سحرية لها دلالات رمزية، ربما كان الغرض منها تحصين الخنجر من الحسد والسوء أو الضياع، ولكى تؤدى عملها فى يد صاحبها على خير وجه، وقد ظهرت مثل هذه الشارات أو التمائم فى الأندلس منذ عصر دولة المرابطين والموحدين[٨٢].

ولهذه الواقية قرص أسطوانى مجوف مصبوب مع موضع قبضة اليد، بحيث يدور مع حركة معظم اليد أثناء الطعن، ويتألف مقبض كف الضارب من ألواح معدنية، عبارة عن لوحين رأسيين يجمعهما لوح أوسط يملأ الفراغ الواقع بينهما. بحيث تظهر الألواح الثلاثة كقطعة واحدة مثبته بواسطة مسامير صغيرة بالغة الدقة يطلق عليها (القتير) أى رؤوس المسامير التى فى قبضه الخنجر. ومن الواضح أن تلك المسامير، المستخدمة كوسيلة تثبيت وتقوية، قد أضيفت إلى بدن المقبض بعد عملية تجميعه وصبه.

ويتوج قمة كل طرف من أطراف اللوحين الرأسيين، فى كلا النموذجين، قرص دائرى أرضيته مقعرة قليلا، بحيث يظهران معا فى شكل أذنان يرتفعان بشكل ملحوظ عن ساق قبضه اليد، يتقاربان من أدنى ويتباعدان من أعلى في إنفراج واضح، بحيث يمثلان قبيعة الخنجر، ويعبران عن طراز الخناجر ذات الآذان punales de orejas . أما عن زخارف هذين الخنجريين، فقد تركزت فى أجزاء المقبض دون النصل، حيث تظهر فى اللوح الأوسط من موضع قبضه اليد، وعلى جوانب الواقية وفى الأوجة الداخلية لأذان القبيعة، وكلها منفذة بأسلوب الحفر الغائر على ارضيه مطروقة[٨٣] برقائق من الذهب تم صهرها على السطح الفولاذى عن طريق التسخين إذ تظهر آثار هذه الطريقة الفنية فى الأجزاء البالية من المقبض .

وتتكون الزخارف من توريقات نباتية قوامها أزهار خماسية البتلات، محصورة داخل سيقان ملفوفة، فضلاً عن تصاميم هندسية تبدو فى شكل صلبان محززوز، وأخرى فى شكل

حرف T ، ويتخلل كل هذه الزخارف الموزعة فى الأوجة الداخلية لآذان القبيعة وموضع قبضه اليد وفى الإطار المضلع للواقية - شعار بنى نصر الكتابى (لا غالب إلا الله تعالى) وتتميز كل هذه الزخارف بشدة تقصيرها وتداخل خطوطها، بحيث يصعب على غير المدقق تمييز أبعادها الحقيقة خاصة وقد تداخل معها أسلوب التذهيب الذى جعل من المتعذر أحيانا تميز العنصر المحفور من المذهب، وتلك سمة من سمات زخارف المعادن فى عصر بنى نصر..

الخنجر الثالث من المجموعة:

أما عن الخنجر الثالث من مجموعة الخناجر النصرية ذوات الآذان، فهو أروع الخناجر الأندلسية التى وصلت إلينا، وأفضلها احتفاظاً بمظهرها الأصلى، إذ كان بحوزة حاكم مدينة قرطبة دون ديجوا فرنانديث Don dego FernaNmdez الذى غنمه فى موقعه الليسانه، عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، من جيش السلطان أبى عبدالله، ثم أهداه إلى القديس Viana ، ومنه انتقل إلى قاعه السلاح في متحف القصر الملكى بمدريد، حيث حفظ فى المتحف المذكور تحت رقم ٣٦١ G (لوحة ٦).

ويبلغ طول هذا الخنجر، بما فى ذلك مقبضه، ٣٥سم ولا يزال هذا الخنجر محتفظا بجرابه أو غمده الذى يبلغ طوله ٢٥.١ سم (لوحة ٦) وبرغم وجود أوجه شبه وثيقة بين هذا الخنجر والخنجرين السابقين، سواء من حيث نوع المعدن المصنوع منه وهو الفولاذ المذهب، أو من حيث تكوينه العام، إلا أنه قد تميز عنهما بعدة خصائص فنية تمثل أقصى ما وصلت إليه صناعة الخناجر، فى عصر بنى نصر، من تطور ويزداد هذا التطور وضوحاً فى شكل المقبض المصنوع من الفولاذ المكسو بالخشب المطعم بالعاج، وقد تم تثبيت الخشب على الفولاذ بواسطة مسامير من البرونز، بطريقة التجميع أو التركيب[٨٤].

وتختلف مكونات هذا المقبض جوهرياً عن النموذجين السابقين، ليس فقط من حيث تعدد مادة صناعته، ولكن أيضا من حيث أسلوب التشكيل؛ برغم إحتفاظ قمته أو قبيعته بشكل الأذنين، فقد رتبت أجزاؤه بحيث تمتد امتداداً رأسيا، روعى فيه عنصر المتانة والجمال من ناحية، والتقليل من مكونات كل جزء من أجزاء المقبض، من ناحية أخرى.

فالواقيه تتكون من قطعة واحدة فى شكل مخروط هرمى قاعدته أسطوانية، وبدنه مسحوب فى انحناء مقعر نحو الداخل، بحيث تتخذ الواقية فى مجموعها شكلا يقربها من شكل الكأس أو الناقوس.

وينتصف قمه القاعدة الأسطوانية للواقية موضع قبضة اليد، التى تشبه إلى حد كبير نظائرها فى النموذجين السابقين، وإن تميزت عنهما بشدة استطالتها وبدنها الانسيابى الممشوق مضلع الجوانب مسطح الأوجه، مع ملاحظة شدة تفلطحه عند منتصفه، وهو ما يمثل تطورا فى شكل ساق موضع قبضة اليد، التى يشبه طرفها العلوى عنق المزهريات الفخارية الخزفية التى ترجع إلى عصر بنى نصر.

أما عن قبيعة هذا المقبض، فبرغم أنها تحاكى من حيث الشكل نظائرها السابقة، إلا أن الأذنين قد انتصبا فى وضع رأسى منتظم، يتوسطه فراغ ضيق، بحيث يتخذان صورة جديدة تختلف عن صورتها المنفرجة فى آذان النموذجين السابقين. ومن شأن هذا التكوين أن يتيح

عنصر المتانة والثبات، وهو اتجاه التزم به الصانع فى تشكيل كل أجزاء المقبض المصنوع لأول مرة بطريقة التجميع من العاج والفولاذ والخشب.

زخارف المقبض : **لوحة** (٧)

أما عن زخارف هذا المقبض فقد تطورت، فبعد أن كانت فى الأمثلة السابقة بسيطة أخذت هنا تتعقد وتمتلئ بها جميع أجزائه، فهى ذات طابع ملكى تستجيب إستجابة واضحة لما كانت عليه زخارف عصر بنى نصر، التى تميزت بتعدد عناصرها وتداخلها فيما بينها، سعيا لشغل الفراغات العارية، فبرغم أن الزخارف النباتية تحتل مكان الصدارة فى زخرفة أجزاء هذا المقبض، إلا أنها تنوعت فيما بينها، حيث عمد الفنان إلى تقسيم مسطحات أوجه المقبض إلى أشرطة أو حشوات، زينها بتشكيلات زخرفية متنوعة، على نحو يثير الإعجاب، بكل جزء من أجزاء المقبض.

زخارف الواقية : (**لوحة ٧**)

ازدان وجها بدنها المقعر بزخارف نباتية محورة، قوامها زهرتان متراكبتان فى تدابر أشبه بزهرتى لوتس تنبثان من برعم دائرى، ويبدو الطابع التجريدى واضحا فى شكل البتلات التى تحولت في الزهرة السفلى إلى بتلات رمحية مدببة. ويظهر فى الفراغ الذى يعلو البرعم الدائرى رؤوس المسامير البرونزية، المستخدمة فى تثبت الخشب على البدن الفولاذى للمقبض.

أما عن الوجه السفلى للقرص الإسطوانى الذى يعلو الواقية، فيزدان بسيقان نباتية مزدوجة، تنتهي برؤوس مدببه وخطافيه، تمتد فى خطوط منكسرة ومتموجة، بحيث تثبت مدى البراعة الفائقة فى الاستعانة بالساق كعنصر أساسى في الزخرفة النباتية، دون أن ينبثق منها أية توريقات أو أزهار نباتية.

زخارف موضع قبضه اليد (**لوحة ٧**)

أما الجزء الثانى من المقبض، وهو موضع قبضه اليد، فتعتمد زخارفه على حشوات متنوعة موزعة حتى نهايته، وتضم تلك الحشوات وحدات من عناصر نباتية قوامها توريقات تنبثق من فروع متموجة، وثمار وأزهار تملؤ ما يتخلف من فراغات، ومن هذه التشكيلات النباتية تبرز الساق المحورية الممثلة لشجرة الحياة، ومنها تخرج فروع ملتفة متداخلة، راعى الفنان فيها تطبيق التماثل في توزيعها، مما جعلها تبدو كما لو كانت متكررة، وهى فى حقيقتها متباينة حيث عمد الفنان إلى تقسيم هذا الجزء من المقبض إلى قطاعين متباينين: العلوى إزدان بأزهار لوتس ثلاثية الشحمات، تدل فى رسمها على التطور الذى طرأ عليها فى عصر بنى نصر[٨٥] ومن أبرز ملامح هذا التطور، الذى يبعدها عن أصولها المصرية القديمة استطالة الشحمة الثالثة العلوية وتحويلها أحيانا إلى شحمة رمحيه محدبه الرأس، بالغ الفنان فى شدة إلتفافها، واتسمت حركاتها بالرشاقة، بحيث تعانقت أحيانا رؤوس زهرتين معا، على نحو يذكر بمثيلاتها فى زخارف المنسوجات النصرية، والحشوات الجصية بقصور الحمراء.

وتنبت تلك الأزهار من ساق نباتية ملفوفة، تخرج من ساق محورية تذكر بشجرة الحياة، تتوزع على جانبيها أزهار اللوتس متقابلة، تطبيقا لنظرية التناسق والتماثل التى التزم بها الفنان المسلم فى رسم شجرة الحياة المنقولة عن الفن الساسانى والرومانى والبيزنطى[٨٦].

أما القطاع السفلى من المقبض، فمقسم إلى ست حشوات، ثلاثة بكل وجه، تزدان الحشوتان الجانبيتان بزخارف نباتية قوامها أنصاف مراوح نخيلية، تتألف من فصين يمتد أحدهما فى إستطالة واضحة عن الآخر، يتوسطها برعم مركزى يظهر أحيانا، ويختفى أحيانا أخرى، وينبت الفصان من ساق نحيفة متموجة، تتصل ببراعم دقيقة، وتمثل هذه الصورة أقصى ما بلغته أنصاف المراوح النخيلية فى الفنون النصرية من تطور، حيث صغرت أحجامها واشتدت فصوصها نحافة بحيث تثير بشكلها الذى أصبحت عليه وكأنها سنابل قمح، أو أجنحة طيور صغيرة تثير إعجاب الناظر المتأمل فى تكوينها.

أما عن الحشوة الوسطى من هذا القطاع، فيتوجها محارة نباتية مفصصة تتخذ شكل مروحا رشيقا أسطوانيا تقريبا على نحو تدريجى، ينتج من تدرجها شكل يشبه شعاع الشمس، وتقوم هذه المحارة على إطار من عناصر هندسية تؤلف فى مجموعها خطوط معقوفة، منها ما نفذ على شكل حرفى L أو حرف S أو رقم ٨ .

زخارف القبيعة (لوحة ٧)

تعتمد أيضا فى زخارفها على العناصر النباتية كموضوع رئيسي، وتتألف هذه العناصر من أوراق عنب خماسية البتلات [٨٧] تنبت من سيقان مستقيمة ملفوفة تشبه تعاريش العنب هذا بالإضافة إلى أشكال من أوراق الأكنتش التى تنوعت أشكالها واتخذت صورتين: الأولى تميزت بانثناتها، بحيث أصبحت تشبه المراوح النخيلية، والثانية تألفت من ثلاث شحمات [٨٨].

وقد تم توزيع الموضوع النباتى فى تماثل، على جانبى القبيعة، بحيث يلتقى الجانبان من أعلى عند ثمرة أناناس، ويتوسط الموضوع النباتى تشكيل هندسى قوامه دائرة تحصر بداخلها خطوطا مجدولة، وتنتهى الدائرة من أعلى بخطوط مزدوجة معقودة الطرف، تحصر بداخلها ثمرة الأناناس سالفة الذكر .

النصــل :

نصل هذا الخنجر مصنوع من الفولاذ المذهب، يبلغ طوله ١٩ سم، وهو نصل عريض مستقيم يتميز باستطالته وانتهائه برأس مفلطحه تشبه قط قلم البوص، حين يقطع رأسه غرضا فى بريه، بحيث يتحول قبيل نهايته إلى نصل ذى حدين.

ويعد هذا النصل فريدا من نوعه بين أنصال الخناجر الأندلسية التى وصلت إلينا حيث طرأ تطور واضح فى شكله وزخرفته، وامتاز بجماله ودقة تنفيذ عناصره، مع إبرازها فى صورة جديدة تختلف عن نظائرها السابقة، وقد تمثل ذلك فيما يلى :

(١) إشتمل النصل على شطبتين: واحدة عريضة على شكل قناة عميقة شديدة الانحدار تمتد من أعلى النصل حتى بداية الثلث الأخير منه والشطبة الثانية عريضة عميقة ولكنها قصيرة، تمتد فى سيلان النصل، أى سطحه الذى يدخل فى الواقية، لمسافة لا تتجاوز ٣سم، وقد نتج عن ذلك وجود خطوط رفيعة مذهبه ومفصصة، كونت ضلوعاً أو أوتاراً متقاربة تبرز بروزاً طفيفاً، عكس نظائرها فى النموذجين السابقين.

(٢) تحمل صفحتا النصل خطوطا دقيقة متداخله متباينة فى تموجات هندسية، بحيث ترسم شكلا أشبه بعقود مفصصة، تحصر بينها بقعا مختلفة الأشكال والأوضاع، ألوانها رمادية تميل إلى اللون الأبيض الفاتح، تؤلف في مجموعها جوهر النصل الذى تشكل من خطوط ناعمة على شكل النسيج، على نحو يذكر بشكل الجوهر الدمشقى الذى شاع ظهوره على أنصال السيوف الإسلامية(٨٩).

زخارف النصل :

الجديد الذى نلحظة هنا: أن الفنان على غير المألوف فى أمثله الخناجر الأندلسية؛ إهتم بزخرفة نصل هذا الخنجر، بحيث يكاد يكون الوحيد، بين الأنصال الأندلسية، الذى يتميز بأن صحفته منقوشة بزخارف تجمع بين الانسجام والتنوع، ما بين عناصر نباتية وهندسية وكتابية، حيث حفر على سطحه الفولاذى المذهب أزهار لوتس محصورة داخل أشرطه دقيقة، يعلوها ويدنوها نص كتابى بخط الثلث الأندلسى(٩٠) يصعب قرأته ونطالع في هذا النص الذى يملأ صفحتى النصل عبارات مديح وإطراء متكررة، نصها (السلامة – العز القائم – السعد القائم – العز القائم – السعد الدائم – السلامة) مع توقيع صانعه ويدعى (رضوان).

وبالتدقيق فى حروف هذا النص نلاحظ أنها تتسم بقصرها وإمتدادها فى زوايا حادة يابسه، على نحو يقربها من حروف الخط الكوفى البسيط، بحيث تحاكى على هذا النحو نظائرها على سيف أندلسي، محفوظ فى المتحف الحربى بمدريد، ينسب إلى السلطان أبى عبدالله(٩١).

الجــراب (الجفن – الغمد – القراب) :

لهذا الخنجر جراب طوله ٢٥.١ سم، مصنوع من الخشب المصفح بأسلاك من البرونز ومغطى بالجلد، وقد عمد الصانع إلى تقوية الجراب وتحليته بقطعتين: الأولى من أعلاه عند الجزء الذى يلبس منه فى قائم الخنجر، المعروف بإسم السفن، برقبة عبارة عن إطار مجوف يتخذ شكلاً مخروطياً منتظماً بدنه، مصنوع من الخشب المبطن من الداخل بالجلد، فيما يعرف بإسم الحلل والمصفح من الخارج بالفولاذ المكفت بالفضه، زخارفه عبارة عن حلقات دائرية موزعة بالتناوب على مسافات منتظمة، واحدة تضم شعار بنى نصر الكتابى (لا غالب إلا الله) والأخرى تملؤها زهره زنبق.

أما القطعة الثانية فملبسه فى نهاية الجراب من أسفل، وهى عبارة عن جلدة مفرغة تعرف بالعزيقة، تأخذ نفس شكل نهاية النصل، مصفحة بالفولاذ ومكفتة بالفضة، فى شكل فصوص متراكبة تشبه حبات اللؤلؤ، ويشغل ما بين الفصوص ويتصل بها أسلاك مجدولة من البرونز المذهب تحصر بينها زخارف نباتية وهندسية، يغلب عليها الطابع التجريدى، تدور فى جميع الإتجاهات، بحيث لا تترك فراغاً دون أن تملأه، ويتعذر على غير المدقق تمييز شكلها الحقيقى.

ويستلف النظر، فى زخارف هذا الجزء من الجراب، وجود سلكه ملفوفة من البرونز فى شكل دبلة، بداخلها صورة كائن حى ذات طابع تجريدى اشبه بشكل النسر .

أما عن بدن الجراب المرنى، المحصور ما بين رقبته وعزيقته والمصنوع من الخشب المكسو بالجلد، فقد ازدان بتوريقات نباتية محورة، قوامها أزهار زنبق وأنصاف مراوح نخيلية

متراكبة، فى أوضاع متقابلة ومتدابره، موزعة داخل أشرطة رأسية عريضة تتناوب مع أخرى ضيقة، زخارفها هندسية، قوامها أشرطة مجدولة.

ولهذا الجراب علاقة من حبل مفتول من خيوط الكتان[٩٢] يتدلى منه شرابة من خيوط الحرير[٩٣] تشبه ذوابه الطربوش، ويبدو الشكل العام لهذه العلاقة على نحو يقربها من شكل الفرنشة فى الستائر الحديثة .

بعض مستلزمات الخناجر الأندلسية (لوحة ١١-١٢)

إذا كان الخنجر يعد أحيانا للقتال، فهناك عدة أنواع أخرى من الخناجر استخدمت ولازالت تستخدم، لأغراض أخرى غير القتال، منها خناجر الزينة التى كانت من مستلزمات المظهر الخارجي فى المجتمعات الإسلامية، ففضلا عن كونها سلاحاً شخصياً، فهى حلية خاصة بالرجال تعبر عن شخصية حاملها ومكانته، من خلال مقابضها وأغمادها المصنوعة من مواد ثمينة.

واستكمالا للمظهر الخارجي، لمن يحمل هذا النوع من الخناجر، أعدت لها حمائل عبارة عن أحزمة تدور حول الوسط أو الأكتاف، يعلق فيها معاليق عبارة عن جعب فى شكل حقائب من الجلد المطعم بخيوط الفضة والذهب، إذ كان الخنجر لشخصيه كبيرة، وكانت هذه الحقائب تستخدم فى أغراض أخرى غير حمل الخنجر، منها حفظ المتعلقات الشخصية بصاحب الخنجر ومنها المصحف والغمد، وتميزت أحزمة تلك الخناجر، أو بالأحرى حقائبها، باشتمالها على إبزيمات معدنية غالبا ما تكون من الحديد المذهب.

وفى رأى أحد مؤرخى الفن: أن الصناع الأندلسيون قد تفننوا فى صناعة مثل هذه الأحزمة ومعاليقها، فى نهاية عصر بنى نصر، اى منذ أواخر القرن ٩هـ/١٥م[٩٤]. وللأسف أن نماذج هذا النوع من الأحزمة ومعاليقها قد ضاعت نهب الفتن والحروب التى سقطت على أثارها مملكة غرناطة، آخر معاقل دولة الإسلام فى الأندلس ولم يبق شاهدا عليها سوى حزام من عصر بنى نصر محفوظ فى المتحف الحربى بالقصر الملكى بمدريد، وهو مصنوع من الجلد، طوله ١١٠.٤سم، تزينه أسلاك من الفضة موزعة فى صفوف أفقيه منقوطة متوازية، وعليه كتابة نسخية بخط الثلث الأندلسى فى سطر واحد نطالع فيها شعار بنى نصر الكتابى (ولا غالب إلا الله تعالى) محصور داخل خراطيش بطاقيه سداسية الشكل، ويملؤ الفراغ الواقع بين تلك الأسلاك والشعار الكتابى؛ توريقات نباتية أشبه بزهرة الزنبق، وينتهى طرفا الحزام بإبزيم من البرونز المذهب يتخذ فى الطرف الأيسر شكل حلقة بيضية مصنوعة من سلك سميك، مركبة فى قطعة معدنية قاعدية ينتصفها الإبزيم، وفى الطرف الأخر الأيمن عبارة عن قطعة قاعدية مربعة مسطحة، يدخل فيها الطرف الأخر من الإبزيم .

ويسترعى النظر وجود إبزيم أخر مصنوع من البرونز المذهب أيضا، استخدم كنقطة وصل بين أجزاء الشريط الحزامى وكسمه زخرفيه إضافية، ومعلق بهذا الحزام جعبه حجمها ١٢.٥سم × ١١.١سم، مصنوعة من الجلد ومرصعة بأسلاك من الفضة، تتقاطع وتتشابك فتؤلف إطارات تبدو من الخارج فى هيئة حبيبات مجدولة، ومن الداخل فى هيئة خطوط أو صفوف من سلكين متجاورين، وتحصر تلك الإطارات بداخلها شعار بنى نصر الكتابى (ولا غالب

(إلا الله)، ونلاحظ فى كتابة هذا الشعار مدى التطور فى حجم الحروف، فهى تتميز بالمبالغة فى كبر حجمها، لتصبح عنصراً زخرفياً بحتاً، فضلاً عن إسباغ بعض القيم الجمالية عليها، عن طريق تزويدها بتوريقات نباتية تتفرع من نهايتها أحيانا، أو تملأ الفراغات الواقعة بينها، ونلمس ذلك على سبيل المثال والتخصيص فى حرف (الباء) فى كلمة (غالب). فقد بالغ الخطاط فى مدها أفقياً أسفل حروف الكلمة جهة اليمين، وزودها بتوريق نباتى قوامة أنصاف مرواح نخيلية ذات فصين، كما أضفى على حروف الكلمة حيوية وأسبغ عليها جمالا حين وصل بين حرف اللام وحرف الباء بنفس التوريق النباتى.

ومن الملاحظات التى يمكن أن نستخلصها من هذا النقش؛ أنه موزع على سطرين أحدهما مقلوب يقرأ فى عكس اتجاه الآخر، ونص الأول جهة اليمين كلمة (ولا غالب) ونص الثانى (إلا الله تعالى) وعلى ظهر الجعبة صورة أصابع اليد الخمسة، التى شاع ظهورها فى معظم واجهات عمائر بنى نصر، والتى تمثل، فى رأى أحد مؤرخو الفن، كف السيدة فاطمة وكرمز إلى البركة وتحصين تلك الحقيبه وما بداخلها من السوء والضياع(٩٥) وتعليل وجودها ربما الإشادة بالتحفة التي تزيدها جمالاً وصناعة(٩٦).

وجميع هذه الزخارف، سواء على الحزام أو جعبته، ظهرت مجسمة ومنفذة بأسلوب الترصيع؛ الذى يعد من أبدع وأميز الوسائل الفنية التى أقبل الصناع، فى عصر بنى نصر، على الاستعانة بها بقصد الزخرفة.

خاتمـــــــة

من خلال دراسة هذا الموضوع نستخلص بعض النتائج أهمها:

(١) أن ازدهار صناعة السلاح، بوجه عام في الأندلس؛ كان ثمرة عوامل كثيرة أهمها: وفرة المواد الأساسية اللازمة لها، وعناية حكام الأندلس بتلك الصناعة، والتي إتخذت عدة مظاهر منها: تعدد مصادر الحصول على أدوات الحرب، وإقامة دور لصناعتها في مختلف مدن الأندلس .

(٢) أثبتت الدراسة أن الصانع الأندلسي، لاسيما في الفترة النصرية، وضع بصمته على كافة منتجات السلاح الأندلسي، حتى انه من النظرة الأولي لأى من هذه المنتجات؛ ندرك أصولها الأندلسية لتميزها عن غيرها.

(٣) في مجال دراسة الخناجر: أكدت الدراسة على أن عصر بني نصر هو العصر الذهبي لصناعة الخناجر الدفاعية أو الحربية، في حين أصبح في نهاية هذا العصر سلاحاً شخصيا للزينة والإهداء، أكثر من كونه سلاحاً رئيسياً يستخدم في المعارك.

(٤) تمثل الخناجر التي تناولتها بالدراسة، معظم الخناجر الأندلسية التي وصلت إلينا حتى الآن، والبالغ عددها ستة خناجر، معظمها ينشر لأول مرة، وكلها محفوظة في متاحف إسبانيا، وقد قمت بدراستها عن قرب، في أماكن حفظها بتلك المتاحف.

(٥) كان من نتائج الدراسة التحليلية، والمقارنة بين أمثلة الخناجر الأندلسية، الخروج بأن بعضها يشترك في سمات فنية واحدة تقريبا، والبعض الآخر انفرد بسمات فنية لا نجدها في غيرها من الخناجر، لاسيما في عصر بني نصر؛ الذي كان نقطة تحول في كثير من السمات الفنية المتعلقة بمكونات الخناجر، وأساليب صناعتها وزخارفها.

فهـــرس اللوحات :

١) لوحـة (١) : خنجر أندلسى عثر عليـه بمدينـة آلبيرة، محفوظ فـى المتحف الأثرى بغرناطـة مؤرخ فى أواخر القرن ٤هـ/١٠م وبداية القرن ٥هـ/١١م (تصوير الباحثة).
٢) لوحة (٢) : خنجر أندلسى عثر عليه فى مدينـة غرناطـة، ومحفوظ حاليا فـى متحفها الأثرى مؤرخ فى القرن ٥هـ/١١م ٦هـ/١٢م- (تصوير الباحثة)
٣) لوحة (٣) : خنجر أندلسى عثر عليه فى مدينة أشبيلية، ومحفوظ حاليا فـى المتحف الوطني بمدريد مؤرخ فى القرن ٧ هـ - ٨هـ / ١٣م- ١٤م (تصوير الباحثة)..
٤) لوحـة (٤) : خنجـر أندلسى مـن عصر بنـى نـصر، محفـوظ فـى متحـف المتروبوليتـان فـى نيويورك - (عن توريس بلباس).
٥) لوحة (٥) : خنجر أندلسى محفوظ فى متحف بلنسية دى دون خوان بمدريد - (عن توريس بلباس).
٦) لوحة (٦، ٧) : خنجر أندلسى من عصر بنى نصر، محفوظ فى القصر الملكى الحربى فى مدريد - (تصوير الباحثة)
٧) لوحة (٨، ٩، ١٠) : نماذج من الخناجر الأندلسية المقلدة فى العصر المسيحى فى إسبانيا وإيطاليا - (عن فرنانديث جونثالث).
٨) لوحة (١١، ١٢) مستلزمات حفظ الخنجر الأندلسى وتشتمل على الحزام والحقيبـة، محفوظان حاليا فى المتحف الملكى بمدريد - (تصوير الباحثة).



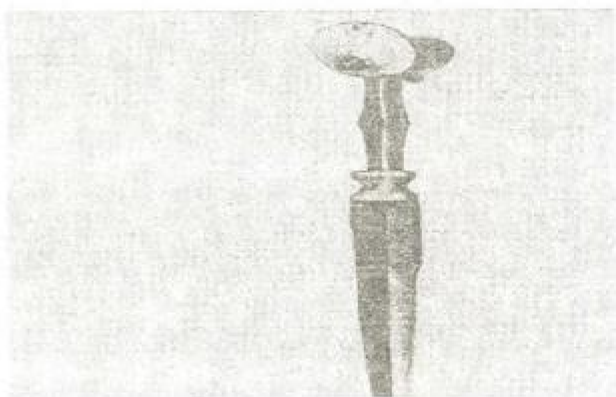
لوحة (١) خنجر أندلسي عثر عليه بمدينة البيرة محفوظ في المتحف الأثري بغرناطة مؤرخ في اواخر القرن الرابع الهجري -١٠م وبداية القرن الخامس الهجري -١١م (تصوير الباحث)



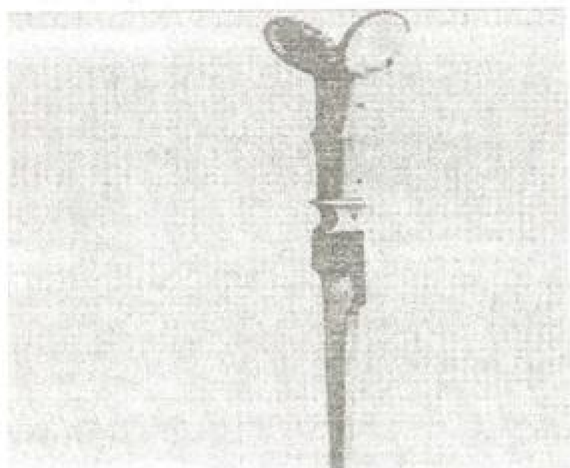
لوحة (٢) خنجر أندلسي عثر عليه في مدينة غرناطة ومحفوظ حالياً في متحفها الأثري مؤرخ في القرن الرابع الهجري – السادس الهجري (١١م) (تصوير الباحث)



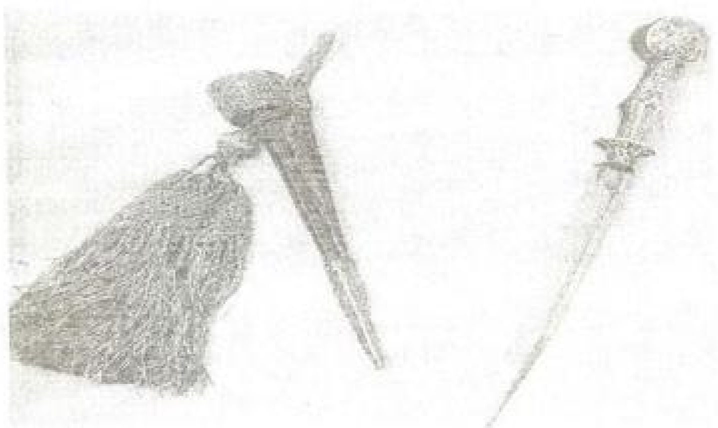
لوحة (٣) عنز عنية في مدينة غرناطة محفوظ في المتحف الوطني بمدريد مؤرخ في القرن السابع الهجري – الثامن الهجري (١٣م–١٤م) (تصوير الباحث)



لوحة (٤) خنجر اندلسي من عصر بني نصر محفوظ في متحف المتروبوليتان في نيويورك (عن – توريس بلباس)



لوحة (٥) خنجر أندلسي من عصر بني نصر محفوظ في متحف بلنسية دي دون خوان في مدريد
(عن – توريس بلباس)



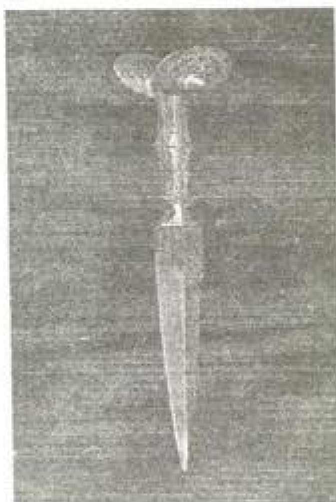
لوحة (٦) خنجر اندلسي من عصر بني نصر محفوظ في القصر الملكي الحربي بمدريد
(تصوير الباحث)



لوحة (٧) صورة توضيحية لمقبض الخنجر الاندلسي المحفوظ في القصر الملكي الحربي بمدريد (تصوير الباحث)



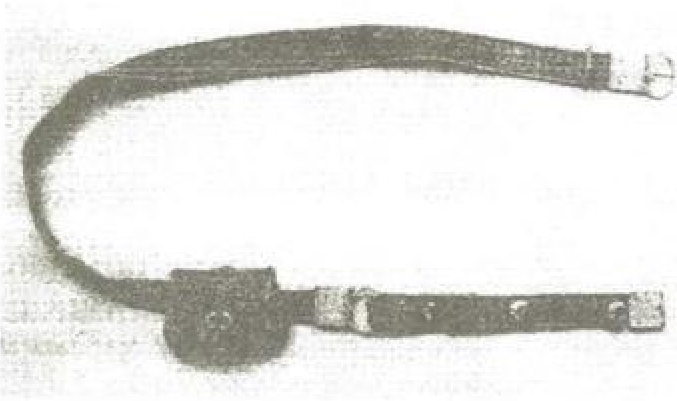
لوحة (٨) نموذج للخنجر الاندلسي المقلد في العصر المدجن محفوظة في متحف فينسيا (عن - فرنانديث جونثالث)



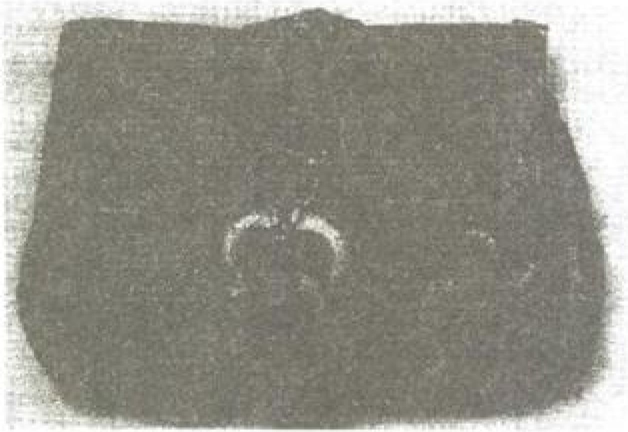
لوحة (٩) نموذج للخنجر الاندلسي المقلد في العصر المدجن محفوظة في متحف فينسيا
(عن – فرنانديث جونثالث)



لوحة (١٠) نموذج للخنجر الاندلسي المقلد في العصر المدجن محفوظة في متحف فينسيا
(عن – فرنانديث جونثالث)



لوحة (١١) مستلزمات حفظ الخنجر الاندلسي محفوظ في متحف القصر الملكي الحربي بمدريد
(تصوير الباحث)



لوحة (١٢) صورة توضيحية لحقيبة حفظ الخنجر
المحفوظة في متحف القصر الملكي الحربي بمدريد
(تصوير الباحث)

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر العربية :

١) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد): الإحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبدالله عنان – القاهرة – ١٩٧٢ .

٢) ابن الخطيب : (لسان الدين أبو عبدالله) كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام – القسم الثانى – الخاص بإسبانيا الإسلامية – تحقيق – ليفى بروفنسال الطبعة الثانية – بيروت ١٩٥٦.

٣) ابن حيان (أبو مروان بن حيان بن خلف بن حيان القرطبى) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس – القطعة الخاصة بالأمير محمد بن عبد الرحمن – جـ٥، نشرها بدور شالميتا – كورينطى – محمود صبح – نشر المعهد الإسبانى العربى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب بالرباط – مدريد – ١٩٧٩.

٤) ابن حيان : أبى مروان بن حيان حلف بن حيان القرطبى المقتبس من أنباء أهل الأندلس– قطعة خاصة بالحكم المستنصر – نشر عبد الرحمن الحجى – بيروت – ١٩٨٣.

٥) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر – دار الكتاب – بلبنان – ١٩٨٣

٦) ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) : كتاب الجغرافية – تحقيق : إسماعيل العربى – بيروت – ١٩٧٠.

٧) ابن سعيد المغربى (على بن موسى) : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق شوقى ضيف – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٦٤ .

٨) ابن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك بن محمد): تاريخ المن بالإمامة، تحقيق عبد الوهاب التازى – دار الغرب – بيروت – ١٩٨٧.

٩) ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد): البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب – تحقيق أويثى ڤيراند – محمد بن تاويت وإبراهيم الكتانى – تطوان – ١٩٦٠

١٠) ابن غالب (الحافظ محمد ابن أيوب) : قطعة من كتاب فرحه الأنفس من تاريخ الأندلس، نشر وتحقيق – لطفى عبد البديع – مجلة معهد المخطوطات العربية – المجلد الأول – جـ٢– نوفمبر ١٩٥٥ .

١١) ابن هذيل (على بن عبدالرحمن): حلية الفرسان وشعار الشجعان – تحقيق محمد عبدالغنى حسن – دار المعارف – القاهرة – ١٩٤٩.

١٢) الإدريسى (الشريف محمد بن عبدالعزيز): صفه المغرب والأندلس من كتاب نزهه المشتاق فى إختراق الآفاق – نشر المكتبة الثقافية ببورسعيد – بدون تاريخ.

١٣) الانصارى السبتى (محمد بن القاسم): اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار – تحقيق عبد الوهاب منصور الرباط ١٩٦٩ .

١٤) البكرى (أبو عبدالله بن عبد العزيز) : جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك – تحقيق عبد الرحمن الحجى – بيروت ١٩٦٨

١٥) البيذق (أبو بكر على الصنهاجى): أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين – تحقيق عبد الوهاب منصور – الرباط – ١٩٧١.

١٦) البيرونى (محمد بن أحمد) : كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر – القاهرة – بدون تاريخ

١٧) الحميرى (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار فى خبر الأقطار تحقيق – إحسان عباس – مكتبة لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٨٤.

١٨) الزهرى (أبو عبدالله محمد بن ابى بكر) : كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق – منشورات مجلة الدراسات الشرقية – دمشق – ١٩٦٨ .

١٩) شيخ الربوه (شمس الدين أبى عبيدالله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى): نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد – مصورة عن طبعة ليبنج ١٩٢٣.

٢٠) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات – نشر دار الشرق العربى – بيروت – بدون تاريخ .

٢١) القلصادى (أبى الحسن على القلصادى) : رحلة القلصادى – تحقيق محمد أبو الأجفان – تونس – ١٩٧٨.

٢٢) القلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، مجموعة تراثنا – بدون تاريخ.

٢٣) مؤلف مجهول / الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشيه – تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه – الدار البيضاء – ١٩٧٩.

٢٤) مؤلف مجهول : خزانه السلاح مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبين والمماليك – تحقيق نبيل عبدالعزيز – مكتبة الأنجلو – القاهرة – ١٩٨٧.

٢٥) مؤلف مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار – تحقيق سعد زغلول عبد الحميد – مطبعة جامعة الإسكندرية – ١٩٥٨.

٢٦) المقرى (أحمد بن محمد): نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب – تحقيق: إحسان عباس – بيروت – ١٩٦٨.

ثانيا : المراجع العربية :

١) أحمد الطوخى – مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر – مؤسسة شباب الجامعة – ١٩٩٧ .

٢) أحمد فكرى – مساجد القاهرة ومدارسها – دار المعارف المصرية –١٩٦٩

٣) أحمد مختار العبادى : صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس – منشأة المعارف – الإسكندرية – ٢٠٠٠م.

٤) الأسلحة الإسلامية : السيوف والدروع – نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض – ١٤٢٢هـ

٥) بلال عبد الوهاب الرفاعى – الخط العربى (تاريخه وحاضره) دار ابن كثير – دمشق – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٠.

٦) سعاد ماهر : الفنون الإسلامية – الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة – ١٩٨٦ .

٧) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس – مؤسسة شباب الجامعة – إسكندرية – ١٩٩٨ .

٨) صبحى عبد المجيد إدريس – أسلحة الجيش وأدواته فى عصر الموحدين – مجلة كلية التربية بكفر الشيخ – العدد الأول – السنة السادسة – ٢٠٠٦م .

٩) عبد الرحمن زكى – النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الإسلامية – مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد – المجلد الخامس – العدد ١-٢-١٩٥٧ م /١٣٧٧هـ.
١٠) عبد الرحمن زكى : الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ – المكتبة الثقافية – عدد – ١٠٨- مايو – ١٦٤.
١١) عبد المجيد نعنعي: الإسلام فى طليطلة – دار النهضة – بيروت – بدون تاريخ .
١٢) عمر آغا – ملامح من تطور الخط العربى – مجلة كلية الآداب – العدد ١٨
١٣) فريد شافعي: العمارة العربية فى عصر الولاة (٣١هـ – ٣٥٨هـ) (٦٣٦م – ٩٦٩م) – نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة – ١٩٧٠.
١٤) كمال عنانى : السيوف الأندلسية فى ضوء المصادر العربية وصورها المرسومة وأشهر نماذجها الباقية – مجلة المؤرخ العربى – عدد ١٣- مجلد ١ – ٢٠٠٥م.
١٥) محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٥٦
١٦) محمود فيصل الرفاعي: الأسلحة الخفيفة فى التراث العربى الإسلامى، مجله آفاق الثقافية والتراث الإماراتية عدد – ٧ – ١٩٩٤
١٧) يوسف ذى النون، خط الثلث ومراجع الفن الإسلامى – مقال ضمن كتاب الفنون الإسلامية – دار الفكر – دمشق ١٩٨٩

ثالثا : المراجع الأجنبية المعربة :

١) أوليفيا كونستيل : التجارة والتجار فى الأندلس – ترجمة فيصل عبدالله – مكتبة العبيكان – الرياض – ٢٠٠٠م .
٢) جروهمان – النسخ والثلث – ترجمة غانم محمود – مجلة المورد، العدد الرابع – بغداد – ١٩٨٦.
٣) ليفى بروفنسال – محاضرات فى آدب الأندلس وتاريخها – ترجمة محمد الهادى شعيره –عبد الحميد العبادى– مطبوعات جامعة الإسكندرية – ١٩٥١.

رابعا : الرسائل العلمية :

١) حنان عبد الفتاح مطاوع: التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بن الأحمر – مخطوط رسالة دكتوراه – ١٩٩٦.
٢) كمال السيد أبو مصطفى : مصادر الثروة الاقتصادية فى الأندلس فى عصر دولة المرابطين والموحدين – مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الأداب – جامعة الإسكندرية – ١٩٨٥.

خامسا : المرجع الأجنبية :

1) Allouche, (I,s): La vieeconomique et social a Grenada, Melange d'Historie et d'Archeol ogia d'occident Musulman, I, II, 1954.
2) Basilio pavon (Maldonado): arte simbalo y emblemas en la Espana Musulmana , Madrid 1985
3) Bernis (CARMEN): trajesy modas en l'a espana de los reyes catolicos vol,2 , Los Hombres , Artesy artistas Madrid . 1979

4) Emilio (de santiago) y Angela (Eguras): Algunas piezas Hispano arabes del Museo Arqurlalogio de Granada, Revista, Awraqs 1981

5) Etting Hausen (R): Notes in the luster are of spain, Ars opientalis, I, Washington, 1954.

6) Fernandez Francisco (Gonzalez): Espadas Hispano arabes en Museo espanol de Antiguedades vol-5 Madrid 1875

7) Golvin (Lucien) Not sur un décor de Marbre Trouve a Medina Al – Zahra, al – Andalus , vol , XXv, 1960

8) Gomez (Emillio Garcia) : Armas En las anales de Al – Hakam, II, Al Andalus v , XXXII, Madrid , 1967.

9) Labarta (ANA): Procescos contra Moriscas val encian, al quantra, vol,I, 1980.

10) Mann, (James): The Influence of art on instruments of war, procedings of the royal society of arts , October, 1941

11) Migeon (Gaston) : Manuel d'art Musulman les plastiques et industrielles , T, I, Paris 1927.

12) Soler (Alvaro) : Ear dagger scabbard knife, belt , pouch , and case, Al – Andalus the art of islamic spain , new york 1992.

13) Terrasse (Henri) : L'art Mauresque des origins au XIII, Siecle Paris 1932

14) Torres (J.Ferrandis): Espadas Granadinas De la Jneta (Archivo Espanol de Art , N. 55, Enero, Febrero Madrid , 1943

15) Torres Balbas (Leoplade) : ARs Hispaniae , T. IV art Al Mahade, arte Nasari, art Mudejar, Madrid , 1949.

16) Torres Balbas : (leoplado) : plazas, zocosy tiendas de las ciudades Hispanomuslmans AL – Andalus – Vol , XII , 1947

هوامش البحث :

(١) المقرى (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب – تحقيق: إحسان عباس – بيروت ١٩٦٨– حـ١، ص٢٠١، ٢٠٢.

Torres Balbas (Leoplado): Ars Hipaniae t iv, art Almohade, arte Nasari arte Mudejar, Madrid, 1949.

(٢) ابن سعيد المغربى (على بن موسى) : المغرب فى حلى المغرب – تحقيق شوقى ضيف القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٦٤ – حـ٢، ص١٩٠ .

(٣) ابن غالب (الحافظ محمد ابن أيوب) : قطعة من كتاب فرحه الأنفس عن تاريخ الأندلس نشر وتحقيق – لطفى عبد البديع – مجلة معهد المخطوطات العربية – المجلد الأول – جـ٢– نوفمبر ١٩٥٥ ص٢٩٠ .

(٤) نفس المصدر: ص ٢٨٣

(٥) الادريسى (الشريف محمد بن عبدالعزيز): صفه المغرب والأندلس من كتاب نزهه المشتاق فى إختراق الآفاق – نشر المكتبة الثقافية ببورسعيد – بدون تاريخ جـ٢ – ص٥٧٤.

(٦) الزهرى (أبو عبدالله محمد بن ابى بكر) : كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق – منشورات مجلة الدراسات الشرقية – دمشق – ١٩٦٨ ص ٨٨ .

(٧) شيخ الربوه (شمس الدين أبى عبيدالله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى): نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد – مصورة عن طبعة لينج ١٩٢٣ – ص٢٤٢ .

(٨) الأدريسى : المصدر السابق – ص٥٦٢.

(٩) نفس المصدر: ص٥٥٥، (الزهرى: المصدر السابق، ص١٠٣).

(١٠) الحميرى (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس – مكتبة لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٨٤ – ص٣٤٤ .

(١١) البكرى (أبو عبدالله بن عبد العزيز) : جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك تحقيق عبد الرحمن الحجى – بيروت ١٩٦٨ ص١٢٧ – المقرى : المصدر السابق – حـ١، ص١٤٢

(١٢) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد): الإحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبدالله عنان – القاهرة – ١٩٧٢ – جـ١، ص٩٨.

(١٣) ابن غالب: المصدر السابق ص٣٠٨، ٣٠٩، المقرى : المصدر السابق، حـ١، ص١٤٢، ١٤٣.

(١٤) البكرى : المصدر السابق ص١٢٨، ابن غالب: نفسه – ص٣٠٩.

(١٥) أصل هذا الحجر فى الفارسية بيجادة وهو حجر كريم يشبه الياقوت وأجوده ما إشتدت حمرته وكثر بريقه (عبدالرحمن زكى: الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ – المكتبة الثقافية – عدد١٠٨، مايو ١٩٦٤ ص١٠٤– ١٠٦.

(١٦) البكرى: المصدر السابق – ص١٢٨، القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات – نشر دار الشرق العربى – بيروت بدون تاريخ – ص٤٩٧.

(١٧) يسمى هذا الحجر بالحجر الذى يقطع الدم وله إستخدامات عديدة منها أنه يستخدم فى التذهيب – البيرونى (محمد بن أحمد): كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر – القاهرة – بدون تاريخ – ص٢١٧.

(١٨) البكرى : المصدر السابق – ص٢٨ .

(١٩) المرقشيتا حجارة صلبة مفصصه وهى أنواع أجودها الذهبية وأرداها الحديدية والذنبقية (كمال السيد أبو مصطفى : مصادر الثروة الاقتصادية فى الأندلس فى عصر دولة المرابطين والموحدين – مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الأداب – جامعة الإسكندرية ١٩٨٥ – ص٢٢٢، حاشية (٥) .

(٢٠) **Imamuddin (S.M.) : the Economic of History of spain under the umayyed, Dacc 1963 , pp.167-168**

ولمزيد من التفاصيل حول الأحجار الكريمة بالأندلس راجع: كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق ص٢٢٠-٢٢٢، حنان عبد الفتاح مطاوع: التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بن الأحمر مخطوط رسالة دكتوراه – جامعة الإسكندرية – ١٩٩٦ ص٣٦-٣٧.

(٢١) المقرى: المصدر السابق جـ١، ص٢٠٢.

(٢٢) **Migeon (Gaston) : Manuel d'art Musulman les Arts plastiques et industrielles , T, I, Paris, 1927, p.412**

(٢٣) **Migeon : Op cit , p.413**

(٢٤) عبد المجيد نيعنع: الإسلام فى طليطلة – دار النهضة – بيروت – بدون تاريخ – ص٢٢٣.

(٢٥) ابن سعيد : المصدر السابق – حـ٢ – ص٩ .

(٢٦) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر – دار الكتاب بلبنان – ١٩٨٣ – جـ٧– ص٣١٢ .

(٢٧) ابن الخطيب : (لسان الدين أبو عبدالله): كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام – القسم الثانى – الخاص بإسبانيا الإسلامية – تحقيق – ليفى بروفنسال الطبعة الثانية – بيروت ١٩٥٦، ص١٠١

(٢٨) المقرى: المصدر السابق حـ١، ص٥٨٥.

(٢٩) ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام، ص١٠١.

(٣٠) المقرى: المصدر السابق جـ١ ص٢٠١، ٢٠٢، الزهرى: كتاب الجغرافية: ص٨٢

(٣١) المقري : المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٢

(٣٢) نفس المصدر، جـ١، ص٢٠٢

(٣٣) صبحى عبد المجيد إدريس – أسلحة الجيش وأدواته فى عصر الموحدين – مجلة كلية التربية بكفر الشيخ – العدد الأول – السنة السادسة ٢٠٠٦م – ص٥ .

(٣٤) الأنصارى السبتى (محمد بن القاسم): إختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار – تحقيق عبد الوهاب منصور – الرباط – ١٩٦٩– ص٥١.

(٣٥) الحميرى : المصدر السابق ص٤٦١.

(٣٦) ابن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك بن محمد): تاريخ المن بالإمامة.
(٣٧) ابن عذارى – البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب – جـ٣– ص١٨٥ .
(٣٨) كان هذا الديوان يعرف بديوان العسكرية أو التمييز وكان من بين من تولى رئاسة هذا الديوان أبو عبدالله بن محسن كاتب الديوان فى عهد يوسف بن عبد المؤمن الموحدى: ابن صاحب الصلاة نفس المصدر – ص٣٤٧
(٣٩) لمزيد من التفاصيل راجع: محمد المنونى – ورقات من حضارة المرينيين – الرباط – ١٩٩٦ ص٨٥ ، صبحى عبد المجيد إدريس: المرجع السابق – ص٩ .
(٤٠) ابن حيان (أبو مروان بن حيان بن خلف بن حيان القرطبى) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس – القطعة الخاصة بالأمير محمد بن عبد الرحمن – جـ٥، نشرها بدرو شالميتا – كورينطى – محمود صبح – نشر المعهد الإسبانى العربى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب بالرباط – مدريد – ١٩٧٩ ص٣٥٣.
(٤١) ابن حيان: أبو مروان بن حيان بن خلف بن حيان القرطبي المقتبس من أبناء أهل الأندلس وقطعة خاصة بالحكم المستنصر– نشر عبد الرحمن الحجى – بيروت – ١٩٨٣– ص١١٦-١١٧.
(٤٢) ابن حيان : المصدر السابق – القطعة الخاصة بعصر الحكم – ص١٩٦، ١٩٨، ١٩٩
(٤٣) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص٧٣-٨٤، حيث الإشارة فيما نقله عن ابن حيان إلى حفل الاستقبال الرسمى الذى إقامة المنصور بن أبى عامر بقصر الزاهرة بمناسبة زيارة صهره شانجه (سانشو) ملك نافارا سنة ٣٨٢هـ وذلك بقوله (فوصل الملك شانجه لثلاث خلون من رجب سنة ٣٨٢هـ وأركب المنصور الجيوش والمطوعه لتلقيه من دخوله إلى قصر الزاهره فكان يومه أحد أيام الدنيا الشهيرة حتى بهت الذى كفر ورأى من وفود المسلمين ونباهه أسلحتهم وجمال زيهم وكثرة عددهم ما لم يكن ظانا أن الدنيا تجمعه .. ولا الخزائن تكنفه.. وصار بين صفى حدين حفافى الطريق أميالا ما ثم إلا الدروع السابرية والجواش المذهبة والأبطال قد لبسوا والواعد واسبغوا الحلق وعلقوا الدرق وخلفهم صفوف الرماه مشدودا عليها المناطق المذهبه والملك الرومى بقلب الطرف قد غشى قلبه ذعرا .
(٤٤) أحمد مختار العبادى : صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس – منشأة المعارف – الإسكندرية ٢٠٠٠م – ص٤٢ .
(٤٥) راجع على سبيل المثال: ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) : كتاب الجغرافية تحقيق : إسماعيل العربى – بيروت ١٩٧٠– ص١٣٩.
المقرى : المصدر السابق – جـ١– ص٢٠٢، السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس – مؤسسة شباب الجامعة – إسكندرية ١٩٩٨ – ص٥٧، كمال عنانى: السيوف الأندلسية فى ضوء المصادر العربية وصورها المرسومة وأشهر نماذجها الباقية – بحث بمجلة المؤرخ العربى عدد ١٣– مجلد ١ – ٢٠٠٥م – ص٢٨١، مختار العبادى – المرجع السابق ص٤٣ .

(٤٦) أوليفيا كونستبل : التجارة والتجار فى الأندلس – ترجمة فيصل عبدالله – مكتبة العبيكان – الرياض – ٢٠٠٠م – ص٢٠٨، ٣٤٧، صبحى عبد المجيد أدريس – المرجع السابق – ص٧

(٤٧) القلصادى (أبى الحسن على القلصادى) : رحلة القلصادى – تحقيق محمد أبو الأجفان – تونس ١٩٧٨ – ص١٧

(٤٨) ابن حيان : المصدر السابق – تحقيق عبدالرحمن الحجى ، ص٤٩، ١٩٧، ١٩٨

(٤٩) نفس المصدر : ص٧٩، ١٩٩

(٥٠) نفس المصدر : ص٥١

يرجع الاتصال بين الفنون الجميلة وأنواع السلاح إلى أقدم العصور، فقد اعتاد الناس منذ أيام بدايتهم الأولى أن ينقشوا على نصال أسلحتهم الرسوم والزخارف الجميلة والطلاسم والكتابات البديعة، ولعل هذه الشعوب قد لجأت إلى تحلية سلاحها بالنقوش والزخارف لإعتقادها فى سلطانها السحرى أو لعوامل دينية أخرى فضلا عما لها من أثر جميل – راجع:

Mann, (James): The Influence of art on instruments of war, procedings of the royal society of arts, No.4599, Vol. LXXXIX , October, 1941, p.740

وكذلك راجع أحمد تيمور وزكى محمد حسن – التصوير عند العرب – ١٩٤٢ – ص٣٠

وكذلك راجع– عبد الرحمن زكى – النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الإسلامية – مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد – المجلد الخامس – العدد ١-٢-١٩٥٧ م /١٣٧٧م – ص٢٢٧

(٥١) ابن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة فى أخبار غرناطة – المجلد الأول ص١٣٦

(٥٢) الترس من أسلحة الدفاع ويستخدمها المحارب فى أثناء ضربات السيوف ونحوها ويصنع من الحديد أو الخشب أو عيدان تضم إلى بعضها بواسطة خيط من القطن (مؤلف مجهول : خزانة السلاح مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك – تحقيق نبيل عبدالعزيز – مكتبة الأنجلو – القاهرة – ١٩٨٧ – ص٥٦ .

(٥٣) الرماح من أسلحة الهجوم الفردى وتصنع من عيدان الخشب أو الخيزران ويتراوح طولها ما بين ثلاثة إلى عشرة أذرع ويركب فى نهايتها نصل فولا ذى قاطع مدبب يطعن به (أحمد مختار العبادى: المرجع السابق ص٤٤، صبحى عبد المجيد: المرجع السابق ص١١.

وقد اشتهرت بلاد الأندلس بصناعة الرماح الطويلة وعرفت فى المصادر العربية بأسماء عديدة منها العوالى والسمر (راجع: مؤلف مجهول / الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشيه – تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامه – الدار البيضاء – ١٩٧٩ – ص١١٥، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص١٧٧ .

(٥٤) القسى من أدوات الرمى وهى مقوسة كالهلال وتصنع من أعواد الخشب اللين والمتين ويشد فيها وتر من الجلد أو العصب الذى يكون بعنق البعير وترمى بالسهام والنبال (صبحى عبد المجيد – المرجع السابق – ص١١) والقسى عدة أنواعها أهمها نوعين قوس اليد التى تستعمل باليد وهى القسى العربية وتتميز بسرعتها فى الرمى. أما النوع الثانى فيعرف بقوس الرجل الأفرنجية وهى تدفع

بالرجلين ولذلك فهي أنسب للراجل منها للفارس لأنها أنكى من قوس اليد في حصار القلاع وعلى المراكب البحرية (ابن القيم الجوزية (أبو عبدالله محمد بن ابى بكر) : الفروسية، مكتبة عاطف - القاهرة - بدون تاريخ - ص١٤٠، ابن هذيل (على بن عبدالرحمن): حلية الفرسان وشعار الشجعان - تحقيق محمد عبدالغنى حسن - دار المعارف - القاهرة ١٩٤٩ ص٢١١.

Gomez (Emillio Garcia) : Armas enlos an las de Al – Hakam, II, Al andalus v , XXXII, Madrid , 1967 , p.165 .

(٥٥) المقرى : المصدر السابق جـ١، ص٢٢٣.

(٥٦) الجواش من أسلحة الوقاية التى يستخدمها المحارب فى حماية جسده فضلا على أنها تستخدم فى تلقى ضربات السيوف والسهام ونحوها وهى تصنع من زرد الحديد في شكل حلقات متداخله بينها صفائح مستطيلة لتقويتها وتوضع فى الغالب على الصدر.

Garcia Gomez, Op cit , p.166

العبادى : المرجع السابق ، ص٤٥، ٤٦

(٥٧) استخدم الأندلسيون أغمادا أو قرابا لحفظ بعض أدوات الحرب كانت تصنع من الخشب وتغطى بنوع من الجلد اللمطى نسبة إلى حيوان اللمط الذى كان يعيش فى صحراء إفريقيا (مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار - تحقيق سعد زغلول عبد الحميد - مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ - ص٢١٤) .

(٥٨) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ، ص١٣٦ .

(٥٩) محمود فيصل الرفاعى: الأسلحة الخفيفة فى التراث العربى الإسلامى، مجله أفاق الثقافية والتراث الإماراتية - عدد ٧ - ١٩٩٤ ص ٤٨.

(٦٠) الأسلحة الإسلامية : السيوف والدروع - نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض - ١٤٢٢هـ- ص٢٩

(٦١) ابن حيان : المقتبس - جـ٥- نشر بدرو شالميتا ص ٣٥٢

(٦٢) المقرى- نفح الطيب - الجزء الأول - ص٣٨٢ .

Garcia Gomez : Op cit p,164

(٦٣) الأسلحة الإسلامية : المرجع السابق ص١٦

(٦٤) ابن حيان: نشر بدرو شالمينا- ص٣٥٢

(٦٥) ابن حيان: المقتبس - نشر الحجى - ص١٣٢

(٦٦) ابن حيان : نفسه - نشر بدرو شالميتا - جـ٥- ص٢٦٨، ٢٦٩

(٦٧) ابن حيان : المصدر السابق جـ٥، ص٢٦٨

(٦٨) البيذق (أبو بكر على الصنهاجى): أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين - تحقيق عبد الوهاب منصور الرباط ١٩٧١ - ص٨٤.

(٦٩) المقرى: نفح الطيب - جـ٣ - ص١٥١ .

(٧٠) ابن حيان: المقتبس جـ٥ - ص٣٥٣

(٧١) المقرى: المصدر السابق- جـ، ص٣٨٢.
(٧٢) البيذق: أخبار المهدى - ص٦٥، ٧٩
(٧٣) تجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن أسلوب الحز قد تمثل على معظم المعادن الأندلسية منذ أوائل عصر الدولة الأموية مثل التحف المصنوعة من الرصاص كالطلاسم ومن البرونز كالتماثيل وفى الشماعد وتفافيح الثريات البرونزية غير أنه فى أواخر هذ العصر تراجع الإقبال على استخدام أسلوب الحز حيث نشهده فقط على بعض التحف البرونزية مثل القنانى واستمر الأمر كذلك حتى تلاشى استخدام هذا الأسلوب فى عصر بنى نصر: حنان عبد الفتاح مطاوع: التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بنى الأحمر (١٣٨هـ - ٨٩٨هـ) (٧١٢م - ١٤٩٢م) مخطوط رسالة الدكتوراة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - ١٩٩٦ - ص٣٩٥ - ٣٩٨ .

(74) Torres Balbas : Ars Hispaniae p.234
(75) Torres Balbas : Ars Hipaniae , p.234

(٧٦) فى عام ٨٨٨هـ/ ١٣٨٣م وقع السلطا الغرناطى أبو عبدالله محمدا أسيرا فى يد الأسبان بعد هزيمته فى موقعه الليسانه التى درات بين المسلمين والنصارى ثم أطلقوا سراحة بعد أن قضى فى أسرة ببلاط الملكين الكاثوليكيين فرناند وايزابيلا ثلاثة أعوام ثم عاد إلى غرناطة بعد أن أملو عليه كل شروطهم. وربما أخذ منه سلاحه وثيابه الملكية يومئذ عنوا لظفر النصارى وتذكارا من هذا الأسير الملكى (راجع : مؤلف مجهول - نبذه العصر فى أخبار ملوك بنى نصر أو تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، تحقيق الفريد البستانى - وترجمة كار لوس كيروس - العرائشى - ١٩٤٠م- ص١٠-١٢، عبد الحميد العبادى - المجمل فى تاريخ الأندلس - القاهرة - ١٩٥٨- ص١٩٢، محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٥٦ - ص٢٦٤
(٧٧) المقرى : نفح الطيب - جـ١، ص٤٦٤
(٧٨) سعاد ماهر : الفنون الإسلامية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٦ - ص١٤٦
(٧٩) من بين المعادن الأندلسية التى شاع تذهيبها البرونز والفضة والنحاس والفولاذ وذلك بالطريقة الثانية والثالثة فى عصر الخلافة وعصر الطوائف وعصر بنى نصر وإن كان فى كل عصر من تلك العصور ساد تذهيب نوع معين من المواد المعدنية فمعدن الفضه شاع تذهيبه فى أواخر عصر الخلافة وعصر الطوائف ثم بدأ ينحصر ظهور الفضة المذهبه منذ عصر المرابطين وحتى نهاية عصر بنى نصر وحل محلها فى تلك الفترة البرونز المذهب .
حنان عبد الفتاح مطاوع : المرجع السابق ص ٤١٠، ٤١١

(80) Torres (J.Ferrandis): Espadas Granadinas De la Jineta (Archivo Espanol de Art , N. 55, Enero, Febrero Madrid , 1943, p.162
(81) Cossan (Le Barande): Le cabinet d'armes de Maurie de Talleyrand, perigord Duc, de Dimo, Paris ,1901 , p.43

Basilio (pavon Maldonad): arte simbolo y emblemas en la Espana Musulmana , Madrid 1985, p.434

(82) Emilio (de santiago) y Angela (Eguras): Algunas piezas Hispano arabes del Museo Arqueologio de Granada, Revista, Awraqs1981–p.p.143-147

(٨٣) من أساليب زخرفة المعادن أسلوب الطرق الذى يبدأ بقطع الصفائح حسب شكل التحفة ثم توضع الصفيحة على قالب خشبى أعدت فيه الزخارف المطلوبة سواء كانت بارزة أو غائره ثم يدق أو يضغط ضغطاً شديداً على الصفيحة المراد زخرفتها بحيث تأخذ شكل الزخارف المنفذة على القالب الخشبى (سعاد ماهر : الفنون الإسلامية : ص١٥٢)، وقد تنوعت وسائل تنفيذ هذا الأسلوب على المعادن الأندلسية حيث نفذت زخارفها المطروقة بطريقتين الأولى إتسمت خطوطها بشدة بروزها وشكلها المقبب وأبدانها المشدوخة المنفذة فوق أرضية من خطوط زجزاجية دقيقة للغاية أما الطريقة الثانية فتختلف عن الأولى فى أن الزخارف أصبحت أقل عمقاً وأكثر تسطحاً بحيث فقدت شكلها المسنم وظهرت متعددة الشدوخ.

حنان عبد الفتاح مطاوع: المرجع السابق، ص٣٩٩ .

(٨٤) لقى أسلوب التركيب أو التجميع رواجاً كبيراً فى صناعة التحف المعدنية منذ القرن ٤هـ وحتى القرن ٦هـ/١٠م –١٢م وتقوم هذه الطريقة فى جوهرها على تحديد شكل التحفة بواسطة نماذج وقوالب مصبوبة من البرونز أو اللاطون يتم تركيبها إما بطريقة اللحام أو الضغط أو المسامير التى يخصص لها أثناء عملية الصب تجاويف نافذة وقد ظهرت هذه الطريقة الأخيرة خلال القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م وإن كنا نلاحظ أنه فى القرن ٥هـ اقتصر استخدامها على تثبيت بعض أجزاء التحف المشكلة فى صورة كائنات حية فى حين تتطور فى القرن ٦هـ/م١٢م فتستخدم فى تجميع كافة أجزاء التحفة وقد تجلت هذه الطريقة المتطورة بصفة خاصة فى التحف المصنوعة من اللاطون (النحاس الأصفر) وواصلت استخدامها فى عصر بنى نصر، ولكن يجدر بالتنوية أن الفنان كان يعمد فى إخفاء المسامير المستخدمة كدعامة إقرار وتثبيت إلى تغطيتها بواسطة زخارف مخرمة .

راجع حنان مطاوع – المرجع السابق ص٣٢٠ .

(٨٥) حظيت زهرة اللوتس بقبول واسع النطاق لدى الفنان الأندلسى منذ العصر الأموى وحتى نهاية عصر بنى نصر وانفردت دون غيرها من الأزهار بطابع مميز يتسم بالدقة فى الأداء وخضعت لقانون التطور أثناء مواصلة نشاطها فى مجال الزخرفة النباتية فكانت أشكالها وصورها تتطور فى سرعة جعلتها تختلف عن أصولها المصرية والقوطية والساسانية والرومانية والبيزنطية المشتقة من أصولها المصرية .

Maldonado (Basilio pavon): el arte Hispano Musulman en su decoracion Floral, Madrid, 1981 . table VIII .

(٨٦) تعد شجرة الحياة من العناصر الزخرفية التى لعبت دوراً كبيراً فى الزخرفة النباتية الإسلامية عامة والأندلسية بصفة خاصة، ويرجع استخدام هذا العنصر الزخرفى إلى أصول قديمة للغاية، فقد لعبت دورا كبيرا فى فنون المشرق حيث ظهر لها نماذج فى زخارف الفن الرومانى والبيزنطى والقوطى،

ومن المعروف أن موضوع شجرة الحياة يرجع فى حقيقته إلى أصول ساسانية حيث تمتعت هذه الشجرة فيه بمكانه سامية : راجع :

Golvin (Lucien) : Not sur un décor de Marbre Trouve a Medina Al – Zahra, al – Andalus , vol , XXv, 1960 , p.175

(٨٧) تعد ورقة العنب من العناصر النباتية الهامة التى كثر استخدامها فى الزخرفة الإسلامية منذ نشأة الفن الإسلامى، ولقد شاع استخدامها فى الفنون الشرقية حيث عرفها الفن الإغريقى والرومانى والبيزنطى :

راجع: فريد شافعى: العمارة العربية فى عصر الولاة (٣١هـ – ٣٥٨هـ) (٩٣٦م – ٩٦٩م) – نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة – ١٩٧٠ – ص٩٥، ولكنها لم تلبث أن تطورت تطوراً أبعدها عن صورتها فاختلفت أشكالها وتنوعت صورها وخضعت لعملية الإستنباط الإسلامية التى تعتمد على حيوية الملكات الفكرية عند العرب – راجع : أحمد فكرى – مساجد القاهرة ومدارسها – دار المعارف المصرية –١٩٦٩ – ص٣٨

وقد عنى بها الفنان الأندلسى عناية كبيرة إذ أضاف إليها الحزوز والتفصيلات العديدة التى تتمثل فى أشكال الثمار والبراعم وظهرت أجمل نماذجها فى زخارف العلب العاجية والأفاريز والطرر التى تحيط بالعقود :

Terrasse (Henri) : L'art Mauresque des origins au XIII, Siecle Paris 1932 , p.96

(٨٨) شاع استخدام ورقة الاكنتش (شوكة اليهود) فى الفن الإسلامى الأندلسى منذ عصر الخلافة وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف ثم اختفت عن الأنظار خلال العصر المغربى الأندلسى لتظهر مرة أخرى على إستحياء فى الفن النصرى حيث يمثل مقبض هذا الخنجر أروع أمثلتها.

(٨٩) تنقسم الجواهر إلى ثلاثة أنواع رئيسية هى الجوهر الدمشقى والفارسى والهندى لكل نوع منها عدد من الأنواع، وكان الأوربيون قد شاهدوا أثناء الحروب الصليبية النصول الإسلامية المجوهره فى أسواق دمشق، وكان من بينها النصول الدمشقية والفارسية والهندية غير أنهم أطلقوا اسم الجوهر الدمشقى **Wave Damask** على كل هذه الجواهر ظنا منهم أنها تصنع جميعا بدمشق، ولكن لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة سمات خاصة يتميز بها، فالجوهر الدمشقى يتسم بكثرة تموجاته التى تشبه البقع الهندسية المحكمة وألوانه المائلة إلى البياض وعدم قابليته للصدأ ولدانته وتركيبه الذى يتألف من حبوب ناعمة متقاربة المسام رمادية اللون مع ميلها إلى البياض كما أنه إذا طرق نصله ظهر فيه الجوهر حسنا عكس الأنواع الأخرى فإنه كثيراً ما يمحى: راجع الأسلحة الإسلامية- معرض مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ص١٦–١٨ .

(٩٠) يعتبر خط الثلث من أهم الخطوط المدورة وقد سمى بهذا الاسم لأنه ثلث الطومار الذى تقدر مساحته بأربعة وعشرون شعره من شعر البرذون والثلث يقدر بثمانى شعرات وهو نوع من أنواع الخطوط اللينة – راجع بلال عبد الوهاب الرفاعى – الخط العربى (تاريخه وحاضره) دار ابن كثير – دمشق – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٠ – ص٧٥ ، غير أن حجمه الكبير لم يجعله مناسبا لكتابة

النصوص والمؤلفات، ولذا اقتصر استخدامه على كتابة عناوين الكتب والعبارات الدعائية والبسملة ونقوش واجهات العمائر والمباني والتحف الفنية – راجع جروهمان – النسخ والثلث – ترجمة غانم محمود – مجلة المورد، العدد الرابع – بغداد ١٩٨٦ ، ص١١٣–١١٤، وكذلك راجع: يوسف ذى النون، خط الثلث ومراجع الفن الإسلامى – مقال ضمن كتاب الفنون الإسلامية – دار الفكر – دمشق ١٩٨٩ – ص١٠٧–١٠٩، وقد أطلق الخط الثلث الأندلسى على خطوط المغرب والأندلس تميزاً له عن خط الثلث المشرقى لما تعرض له من تحويرات جمالية على يد الخطاط الأندلسى بأسلوب مخالف للأسلوب المشرقى – راجع عمر آغا – ملامح من تطور الخط العربى – مجلة كلية الآداب – العدد ١٨ – ص٨٠، ولعل ما يؤكد على هذه الحقيقة ما ذكره المقرى نقلا عن ابن غالب من أن أهل الأندلس كانت لهم خطوط مخصوصة لهم ورونق وترتيب يشهد لصاحبه بحسن الخط والتجويد – المقرى – نفح الطيب جـ٣– ص١٥١

(91) Fernandez Francisco (Gonzalez): Espadas Hispano arabes en Museo espanol de Antiguedades, vol5, Madrid 1875, p.390

(٩٢) من المعروف أن مدينة غرناطة قد اشتهرت بنسج الكتان بل كان كتانها أجود من كتان مصر يستدل على ذلك بقول الحميرى الذى أشار فيه إلى مدى جوده كتان غرناطه عن مصر (الذى يربو جيده على كتان النيل ويكثر حتى يصل إلى أقاصى بلاد المسلمين) راجع الحميرى (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميرى) صفه جزيرة الأندلس منتخبه من الروض المعطار فى خبر الأقطار – نشر ليفى بروفنسال – القاهرة ١٩٣٨ – ص٢٤

(٩٣) تقدمت صناعة الحرير فى مملكة غرناطة تقدماً كبيراً لاسيما فى غرناطة العاصمة التى يمتدح ابن الخطيب حريرها ويذكر أنه لا يمكن مقارنته إلا بحرير العراق الذى رغم تلك المقارنة كان الأخير يقل عنه رقة وليونة وعتاقة راجع ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب) – اللمحة البدرية فى الدولة النصرية – صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب – القاهرة ١٣٤٧ – ص١٣، أحمد الطوخى – مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر – مؤسسة شباب الجامعة – ١٩٩٧ – ص٣٠٥ وكذلك راجع :

Allouche (i.s) : la vie economique et social a Grenada, Melanges d'Historie et d'Archeologia de l'occident Musulman , I, II, 1954, p.9

(94) Bernis (CARMEN): trajes y modas en la espana de los reyes catolicos vol,2 , Los Hombres , Artesy artistas Madrid , 1979 , p.79

من المعروف أن غرناطة قد ورثت عن قرطبة فن الصناعات الجلدية لاسيما فى مدينة المرية – وكانت مالقة متخصصة فى إنتاج الأغشية والحزم والمدورات، راجع : القلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء – مجموعة تراثنا، الجزء الخامس ص٢١٩، وكان الدباغون ينزلون أطراف المدينة على ضفاف الأنهار اتقاء لرائحة صناعتهم – ليفى بروفنسال – محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ترجمة محمد الهادى شعيره – مراجعة عبد الحميد العبادى– مطبوعات جامعة الإسكندرية – ١٩٥١ ص٦٦ وكذلك راجع :

Torres Balbas (leopoldo) : plazas, zocos y tiendas de las ciudades Hispanomuslmans AL – Andalus – Vol , XII , 1947 , Fasc 2, p.459

(95) Soler Alvaro : Ear dagger scabbraed knife, belt , pouch , and case Al – Andalus the art of is lamic spain , new york 1992 p.292

(٩٦) تجدر الإشارة هنا إلى أن مجمل ما وصلنا عن ما يعرف بيد فاطمة La mano de fatima على العمارة والفنون الأندلسية يشوبه الغموض وذلك لاختلاف الآراء حولها فبعض الباحثين يرى أن لها مدلولا دينى فى الفكر الإسلامى من حيث أنها تقى من شرور الحسد والأمراض لاسيما منذ عصر الموحدين الذى شاعت فيه تلك الزخرفة فى حين يرى البعض الآخر بأنها ترمز للفظ الجلاله حيث تشبه فى رسمها الحروف التى تتألف منها ومن ثم فهى شكل من أشكال الكتابة الرمزية التى لها علاقة بالدين

Labarta (ANA) : procescos contra Moriscas, Vlenciano AL Quantra vol, I , 1980, pp. 129-138

Etting Hausen (R) : Notes On the lusterware of spain , ars orientalis I was hington, 1954, p.152

معركة الصنبرة أحداث ونتائج
(٥٠٧هـ/١١١٣م)

د. عائشة بنت مرشود حميد الحربي (*)

مقدمـــــة

شهد تاريخ الحملات الصليبية - الذي امتد لمدة قرنين من الزمان (من أواخر القرن الخامس الهجري حتى أواخر القرن السابع الهجري / من أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) - كثيرا من المعارك الحاسمة بين الجانبين الإسلامي والصليبي، كتب النصر في بعضها - بإذن الله - للمسلمين، وهذا النصر بدوره أسفر عن نتائج بعيدة المدى.

والحقيقة أن الصليبيين قد نجحوا في غزو الأراضي الإسلامية في فلسطين وبلاد الشام بسهولة، ويعود نجاحهم في المقام الأول، إلى حالة التمزق السياسي والضعف العسكري الذي كانت تعاني منه أقوى خلافتين، فقد كانت منطقة الشرق الإسلامي منقسمة، في ولائها الديني والسياسي، مابين خلافتين متناحرتين، وهما الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة، وفي ظل هذا الانقسام السياسي، وغياب الوحدة الإسلامية. تمكن الصليبيون في أعقاب الحملة الصليبية الأولى من تأسيس أربع كيانات صليبية وهي: الرها، وأنطاكية، ومملكة بيت المقدس، وطرابلس.

وبعد هذه الصدمة التي هزت أركان العالم الإسلامي؛ ظهرت أصوات إسلامية تنادي بضرورة توحيد الجبهة الإسلامية كحجر أساس لمواجهة العدوان الصليبي، وفي مقدمتهم: مودود بن التونتكين أمير الموصل (٥٠٢-٥٠٧هـ/١١٠٨-١١١٣م)، حيث كان له دوره الرائد في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، إذ قام بالدعوة للوحدة الإسلامية ونسيان الخلافات الداخلية بين الأمراء المسلمين، رغبة في دفع الخطر الصليبي.

فقام بتوجيه حملتين ضد الصليبيين: الأولى عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م، والثانية عام ٥٠٥ هـ/١١١١م. وبالرغم من أنه لم يكتب لتلك الحملتين إلا نجاحا محدودا، إلا أنها أسفرت عن توطيد العلاقات بين مودود وطغتكين أمير دمشق (٤٩٧-٥١١هـ/١١٠٣-١١١٧م).

وهذا مما شجع الأخير في أواخر عام ٥٠٦هـ/١١١٢م لطلب النجدة من مودود ضد بلدوين الأول Baldwin I (٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م) ملك بيت المقدس الذي اشتدت هجماته على دمشق، وقد سارع مودود بالخروج بجيشه من الموصل.

(*) أستاذ مساعد التاريخ الوسيط بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة بالمدينة المنورة.

ولما علم طغتكين بخروج مودود سارع للقائه عند سلمية، وتوجهوا جميعا إلى طبرية. والتقت القوات الإسلامية بالقوات الصليبية حول طبرية، عند جسر الصنبرة في محرم سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، وكان بلدوين قد استنجد بروجر صاحب أنطاكية (٥٠٦-٥١٣هـ/١١١٢-١١١٩م) Roger prince of Antioch، وبونز صاحب طرابلس (٥٠٦-٥٣١هـ/١١١٢-١١٣٧م) Pons count of the tripoli، فاستجابا سريعا وقدما لنجدته، فحدثت موقعة الصنبرة الحاسمة، وانتهت بهزيمة الصليبيين، وقتل عدد كبير من رجالهم، ووقوع الملك بلدوين في الأسر، ولكنه لم يعرف فأخذ سلاحه، وأطلق أسره. وغرق في بحيرة طبرية ونهر الأردن عدد كبير من الصليبيين، فاستولى المسلمون على أموالهم وسلاحهم.

ومن خلال هذا البحث سنقف على تفاصيل أحداث معركة الصنبرة ومقدماتها ونتائجها، على الجانبين الإسلامي والصليبي، إذ تعد هذه المعركة بمثابة صفحة مشرقة من صفحات الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

حكم مودود للموصل وحملاته ضد الصليبيين :

عهد السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١هـ / ١١٠٤ - ١١١٧م) بأمر الموصل إلى الأمير شرف الدين مودود بن التونتكين (٥٠٢ - ٥٠٧هـ / ١١٠٨ - ١١١٧م) في صفر عام (٥٠٢ هـ / ١١٠٨م)[١].

ومنذ ذلك الحين أخذ دوره يتضح في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكانت البداية الواضحة لذلك؛ عندما تلقى مودود الأوامر من السلطان محمد بن ملشكاه يدعوه للجهاد ضد الصليبيين بدءاً من الرها، وأمده ببعض القوات، كما أمر سقمان القطبي (٤٩٥ - ٤٩٨هـ / ١١٠١ - ١١٠٤م) صاحب خلاط[٢] وميافارقين[٣]، وإيلغازي بن أرتق صاحب ماردين[٤] (٥٠٢ - ٥١٦هـ / ١١٠٨ - ١١٢٢م). إضافة لذلك فإن السلطان محمد طلب من أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين (٤٩٧ - ٥١١هـ/١١٠٣-١١١٧م) أن ينضم لهذا الجيش، فاشترط أن تكون إمرة الجهاد له، لكن شرطه لم ينل القبول[٥].

وتعلل الباحثة ذلك من وجهة نظرها بعدة أمور :

- تخوف السلطان محمد بن ملكشاه من اشتداد نفوذ طغتكين، مع ظهور بوادر ميله للتقارب مع الصليبيين.
- من الأفضل أن تكون الموصل هي نقطة انطلاق القوات؛ بحكم موقعها واتصالها ببلاد الجزيرة.
- استغلال الحماس الديني والسياسي لدى مودود، لأنه حديث التولي للموصل.
- خشية السلطان محمد بن ملكشاه من تطلع طغتكين لضم الموصل إلى دمشق؛ إذا ما انتصرت القوات المتحالفة.

وبالرغم من عدم قبول شرط طغتكين؛ إلا أنه قدم بقواته لمساندة القوات الإسلامية[٦].

وقرروا التوجه بهذا الجيش نحو الرها، وذلك لخطورة موقعها بالنسبة للجزيرة[٧] فضلاً عن أن الباحثة ترى أن السلطان محمد يهدف إلى معاقبة جاولي سقاوو (٥٠٠ – ٥٠٢هـ / ١١٠٦ – ١١٠٨م) – الحاكم السابق للموصل – نظراً لتحالفه مع الصليبيين ضده، وفي الوقت ذاته الضغط على الصليبيين بالسيطرة على الرها ذات الأهمية الكبرى لهم.

ولما قامت القوات الإسلامية المتحالفة بحصار الرها، في شوال ٥٠٣هـ/١١٠٩م، أسرع أميرها بلدوين برج Baldwin of Bourg (٥٠٢–٥١١هـ/١١٠٨–١١١٨م) يطلب النجدة العاجلة من الملك بلدوين الأول Baldwin I (٤٩٤–٥١٢هـ/١١٠٠–١١١٨م) ملك بيت المقدس. فقدم الملك الصليبي لنجدتهم من بيروت ومعه تانكرد صاحب أنطاكية Tancred (٤٩٨–٥٠٦ هـ/١١٠٤–١١١٢م). وريموند الصنجيلي صاحب طرابلس Raymond of st. Gilles (٤٩٦–٤٩٩هـ/١١٠٢–١١٠٥م) وهذا مما أعطى الجيش الصليبي الضخامة في العدد.

ولذا رأى مودود أنه من الأفضل الانسحاب عن الرها، حتى يقابلوا الصليبيين بعيداً عن الحصون في المناطق المكشوفة، لكن معظم الصليبيين لم يلاحقوهم، بل اكتفوا أن رفع المسلمون حصارهم عن الرها. وذلك لأنهم فطنوا لخطة مودود[٨]، ومن وجهة نظر الباحثة أن الملك بلدوين الأول كان مشغولاً بمشروعه الخاص بالسيطرة على مدن الساحل الشامي.

وبالرغم من عدم وجود نتيجة حاسمة لحملة مودود السابقة، إلا أنها لفتت الأنظار إلى أهمية الجبهة الإسلامية الموحدة في تحقيق النصر أمام الأعداء وأن اتخاذ الخطة العسكرية المناسبة كفيل بتحقيق النصر.

وعادت القوات الإسلامية لديارها. أما الصليبيون فإنهم أخذوا، في طريق عودتهم، في تخريب البلاد الإسلامية التابعة لحلب، وفرضوا على رضوان بن تتش صاحب حلب (٤٨٨–٥٠٧هـ/١٠٩٥–١١١٣م) جزية سنوية مقدارها اثنان وثلاثون ألف دينارا[٩]، يحملها إليهم مع خيول وثياب، مقابل أن يوقفوا أذاهم عن حلب، وفرضوا الجزية على شيزار[١٠] وحماة وصيدا[١١].

وبالرغم من تعهد الأمراء المسلمين بدفع الجزية المفروضة عليهم؛ إلا أن الصليبيين لم يتوقفوا عن مهاجمة حلب، بل استولوا على قلعة الأثارب[١٢] التابعة لها[١٣].

لذا توجه أهل حلب إلى الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧–٥١٢هـ/١٠٩٤–١١١٨م) يطلبون منه وقف العدوان الصليبي[١٤]، وتزامن ذلك مع وصول رسل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (٤٧٣–٥١٢هـ/١٠٨١–١١١٨م) إلى السلطان محمد ملكشاه؛ تطلب منه نفس الطلب[١٥].

وفي الحقيقة أن وفادة الإمبراطور البيزنطي إلى السلطان لم يكن غرضها محبة المسلمين أو الدفاع عنهم، إنما جاءت بعد خلافات نشبت بين زعماء الروم والفرنج على امتلاك بعض الإمارات في ساحل الشام؛ كان الروم اشترطوها على الفرنج عندما سمحوا لهم بالعبور من بلادهم في الحملة الأولى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م. فأراد الروم من هذه الوفادة أن يضربوا المسلمين بالفرنجة، وإشغالهم ببعضهم، فيستأثروا بالإمارات التي يطلبونها[١٦].

وإزاء هذه الاستغاثة؛ طلب السلطان محمد بن ملكشاه من مودود أن يخرج بجيشه لجهاد الصليبيين، وطلب أيضاً من الأمراء، في الشام والجزيرة، أن ينضموا لجيش مودود، فانضم له أحمد يل صاحب مراغة[١٧]، وأبو الهيجاء صاحب إربل[١٨].

وسقمان القطبي صاحب خلاط[١٩] وتبريز، فضلاً عن طغتكين صاحب دمشق[٢٠].

ويلاحظ هنا الرابطة الفعلية الجغرافية والتاريخية بين شمال الشام وشمال العراق، فهما امتداد واقعي لكل منهما، ناهيك عن أن الموصل وحلب مثلا خطاً دفاعياً استراتيجياً، فأي خطر خارجي تتعرض له حلب، سيؤثر بصورة أو بأخرى على شقيقتها الموصل، وهذا يكشف لنا عن حقيقة محورية وهي: أن غاية آمال الصليبيين أن يتعاملوا مع المسلمين ككيانات صغيرة هشة، منعزلة غير مترابطة، أما الآن فقد وضحت خاصية جغرافية وتاريخية مهمة في صورة ارتباط المدن الإسلامية أمام الشعور بالخطر الخارجي الداهم[٢١].

على أية حال سارت هذه الجيوش بقيادة مودود أوائل سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م، نحو الرها وفرضوا الحصار عليها، لكن قوة تحصينها واحتوائها على الأسلحة، وطول مدة الحصار، أجبرت مودود أن يفك الحصار عنها، والزحف نحو سروج[٢٢] وحصارها ورداً على ذلك: قام الصليبيون بمهاجمة حلب[٢٣]، فاتجه المسلمون إلى حصار حصن تل باشر[٢٤] دون أي نتيجة حاسمة لصالحهم[٢٥].

وقد تعددت أسباب فشل مودود في السيطرة على تل باشر منها :

- تزامن حصار تل باشر مع محاصرة تانكرد أمير أنطاكية لحلب، فطلب النجدة من المسلمين، فاقترح أحمد يل أمير مراغة رفع الحصار عن تل باشر والتوجه لإنقاذ حلب.
- يرى ابن القلانسي أن جوسلين، صاحب تل باشر، قد أرسل إلى الأمير أحمد يل يلاطفه بمال وهدية، وسأله الرحيل عن الحصن.
- مرض سقمان القطبي وبرسق بن برسق، فانسحب كل منهما عائداً لبلاده[٢٦].

ومهما يكن من أمر، وسبب، فمن وجهة نظر الباحثة أن بقاء حلب في ظل الحكم الإسلامي خير من التفكير في السيطرة على تل باشر.

لكن مما يؤسف له، أن رضوان ماإن علم بقدوم النجدات الإسلامية حتى أغلق أبواب حلب دونهم. ولعله كان يخشى من سيطرة مودود على حلب فيفقد سلطته. فضلاً عن ذلك قام رضوان بالقبض على بعض أعيان حلب ممن شك في ولائهم له واحتجزهم في القلعة، وأوكل مهمة حماية حلب إلى جنده وأتباعه من الباطنية.

وقام بمصالحة تانكرد صاحب أنطاكية، وتحالف معه ضد القوات الإسلامية، وقام رضوان بتحريض اللصوص على مهاجمة معسكر القوات الإسلامية، ونهب من يجدونه من الجنود في النواحي المتطرفة منه[٢٧].

إن موقف رضوان السابق يعتبر موقفا عدائياً، وذلك بإفساد حصار القوات الإسلامية وإنقاذ القوى الصليبية من ضياع هذه المدينة وسقوطها في أيديهم، وذلك بطلبه منهم . واستعجاله لهم في التقدم إلى حلب[٢٨].

ونتيجة لأعمال رضوان السابقة؛ قرر مودود الانسحاب بقواته عن حلب، والسير بها نحو معرة النعمان[٢٩] لقتال الصليبيين. لكن طغتكين بدأت تراوده المخاوف على دمشق من أن يسيطر عليها مودود، فشرع في مهادنة الفرنج سراً[٣٠].

وهكذا أدى التفكير في المصالح الشخصية إلى تفكك القوة الإسلامية، وكان المفروض أن يقدم كافة الأمراء والحكام، في ذلك الحين مصلحة الإسلام والمسلمين على مصالحهم الخاصة[٣١].

بعد ذلك خرجت القوات الصليبية، بقيادة بلدوين الأول، تسانده قوات طرابلس وأنطاكية والرها قرب أفامية[٣٢] أي في الجزء الأوسط من حوض نهر العاصي، فسار ابن منقذ صاحب شيزر إلى مودود وطغتكين وشجعهما على قتال الصليبيين، فرحلوا إلى شيزر، فقام المسلمون بالغارات الخاطفة عليهم، ولذا تراجع الصليبيون إلى أفامية[٣٣]. ثم عاد طغتكين إلى دمشق ومودود إلى الموصل.

وقد استأنف مودود جهاده ضد الصليبيين، فقام عام ٥٠٦هـ/١١١٢م، بحملة بمفرده لاسترداد الرها لكنه فشل، ولذا توجه نحو سروج، لكن جوسلين **Joscelin** صاحب تل باشر والرها (٥٠٦-٥٢٥هـ/١١١٢-١١٣١م) نجح في التصدي له وهزيمته[٣٤].

من العرض السابق لجهاد مودود قبيل معركة الصنبرة نلاحظ عدة أمور :

- عدم وجود جيش نظامي متحد من الأمراء المسلمين لجهاد الصليبيين.
- لم ترد أي إشارة عن وجود خطة تنظيمية لمقاومة العدوان الصليبي.
- أن تدعيم الجيش الإسلامي وقوته تعتمد بشكل رئيس على ما يصله من إمدادات.
- أن أمد حملات مودود قصير لا يتجاوز الشهرين.
- أن أسلوب حربه للصليبيين يعتمد على الحصار والغارات السريعة الخاطفة.
- أن الخلافات بين الأمراء المسلمين كثيراً ما تخذل مودود، وتجعل نتيجة حملاته محدودة الأثر.
- أن قادة الجهاد الإسلامي لا يلبثون أمداً طويلاً خارج بلادهم، فبعد تحقيق أي نصر يعودون سريعاً لبلادهم، وذلك تحسباً لقدوم أي غارة صليبية مفاجأة على بلادهم.

ولكل ما سبق لم تسفر الحملات الأولى عام ٥٠٤هـ/١١١٠م و ٥٠٥هـ/١١١١م عن نتيجة حاسمة لأن الفرنجة حاربوا متحدين بقيادة بلدوين الأول ملك القدس، ولأن الجبهة الإسلامية لم تكن صلبة كما كانت تظهر[٣٥].

الملك بلدوين الأول ومعركة الصنبرة :

تعرضت دمشق في أواخر عام ٥٠٦هـ/١١١٢م لهجمات صليبية[٣٦]، ولذا استنجد طغتكين بحليفه مودود. فقام الأخير بدوره بطلب النجدات العاجلة من أمراء المسلمين بالجزيرة.

فلما سمع طغتكين بذلك خرج بقواته والتقى بالقوات الإسلامية عند بلدة سلمية[٣٧]، ومنها توجهوا صوب بحيرة طبرية، لكنهم فشلوا في ذلك بسبب قوة حصانتها، فزحفوا نحو الأقحوانة[٣٨] وعسكروا في جزيرة بين جسرين غرب بحيرة طبرية[٣٩].

ولما علم بلدوين بهذا الزحف الإسلامي، وكان محاصراً لعكا، عرض في البداية على طغتكين المسالمة والموادعة مقابل أن يمنحه بلدوين حصن ثمانين وجبل عاملة، ونظير ذلك يمنح طغتكين الصليبيين حصن الحبيس الذي في السواد ونصف السواد. وبموجب معاهدة السلام هذه يتوقف بلدوين عن الهجوم على أراضي دمشق، ويتوقف طغتكين عن مهاجمة أعمال الفرنج، ويترك التحالف مع مودود. لكن طغتكين رفض هذا العرض وظل منضماً لجيش مودود[٤٠].

ومن وجهة نظر الباحثة فإن بلدوين كان يهدف من وراء هذا العرض الي تحقيق الأمور التالية:

- ضرب تحالف جيش دمشق مع الموصل.
- إضعاف جيش مودود إذا ما انسحب منه أقوى حليف.
- تفرغ بلدوين لحصار عكا، لأنه يتطلع للسيطرة على مدن الساحل الشامي.

وإزاء فشل بلدوين في التفاوض مع طغتكين فقد اضطر لترك حصار عكا، والتوجه بجيشه لصد قوات مودود، وفي الوقت ذاته طلب سرعة النجدة والإمداد من روجر الصقلي حاكم أنطاكية (٥٠٦ – ٥١٣هـ/١١١٢ – ١١١٨م) **Roger prince of Antioch** وبونز كونت طرابلس (٥٠٧ – ٥٢١هـ/١١١٣ – ١١٢٧م) **Bons count of the Tripoli**، لكن بلدوين لم ينتظر وصولهم بل سارع بالخروج بجيشه فوصل إلى جسر الصنبرة[٤١] جنوبي غربي بحيرة طبرية[٤٢]، وهناك أعد له مودود خطة عسكرية محكمة تتلخص في : أن يقيم المسلمون خيامهم في الجزيرة، ثم يرسلوا عدداً من الجند بحدود ألفين لكن يخرج منهم خمسمائة لمهاجمة الصليبيين.

ولذا تبادر إلى الملك بلدوين أن عدد الجند قليل، فجد مسرعاً نحوهم، وتظاهر الجند المسلمون بالهزيمة والتراجع نحو الجزيرة، لكن كانت المفاجأة أن خرج ألفان من جند المسلمين من كمينهم. وهذا الأمر قد غير موازين المعركة لصالح المسلمين، إذ شنوا هجوما عنيفا على الصليبيين[٤٣].

وقد تكللت هذه الخطة بنجاح، إذ أدت إلى وقوع عدد من المشاة في أيدي المسلمين، حتى إن بلدوين نفسه هرب من الأسر بصعوبة[٤٤]، فضلاً عن غرق عدد من الجند في نهر الأردن وبحيرة طبرية، حتى قدرهم المؤرخين بألف ومائتين من المشاة، وثلاثين من الفرسان[٤٥].

وعبر مؤرخي الحروب الصليبية عن هذه الهزيمة بكل ألم، حيث قال فوشيه الشارتري : «يا له من حزن عميق !! ففي ذلك اليوم جلبت علينا خطايانا الكبيرة عارا عظيماً»[٤٦]. ووصفها ابن القلانسي بقوله : «وغرق منهم خلق كثير في البحيرة واختلط الدم والماء وامتنع الناس من الشرب منها أياما حتى صفت منه وراقت »[٤٧].

وقال وليم الصوري : «جرت مذبحة مروعة في صفوف الهاربين، حتى أن الملك ذاته ألقى بعلمه الذي كان في يده إلى الأرض، وكانت نجاته هو إحدى المعجزات. وهكذا استولى العدو على مخيمنا، وعوقبنا على خطايانا»(٤٨).

من القراءة التحليلية للباحثة للنصوص السابقة يتضح لنا عدة أمور :

- عظم الهزيمة التي لحقت بالصليبيين وكثرة قتل جنودهم، حتى وصفت أرض المعركة بالمذبحة المروعة.
- تعجب واستنكار فوشيه للمصيبة العظمى التي حلت بهم.
- عجز الصليبيون عن الصمود بأرض المعركة، ولذا ولوا هاربين وفي مقدمتهم ملكهم.
- اليأس الكبير الذي سيطر على الصليبيين، لذا اعتبروا نجاة ملكهم بلدوين الأول من القتل وهروبه من المعجزات الخوارق.
- الأثر النفسي الأليم الذي تركته هذه المعركة في نفوس الصليبيين حيث سطرت في أنفسهم الحزن العميق، وهذا دلالة واضحة على انهيار روحهم المعنوية.
- استيلاء المسلمين على المخيم الصليبي وخيمة بلدوين وما فيها من أثاث وأواني فضية.
- اتفاق وليم وفوشيه أن هذه الهزيمة المنكرة، والمذبحة المروعة، قد حلت بهم كنوع من عقاب الرب لهم، لأنهم غرقوا في الخطايا والآثام.
- كثرة القتلى في الجيش الصليبي، حتى إنها أثرت في صلاحية مياه البحيرة للشرب.
- جرح عدد كبير من جنود الجيش الصليبي.
- أن سرعة فرار الصليبيين من أرض المعركة، نتيجة للذعر الشديد، أدى إلى غرق عدد كبير منهم في البحيرة.

ولنا أن نقف على أسباب هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة، فإن ذلك من وجهة نظر الباحثة يتمثل في عدة نقاط، وهي:

- عدم وضع بلدوين لأي خطة عسكرية لمواجهة الجيش الإسلامي، بل كان هجومه مفاجئا وعشوائيا، كما وصف : «واندفاعه ضد العدو بطريقة عشوائية متهورة»(٤٩).
- توجه بلدوين من عكا مباشرة نحو الصنبرة، دون أن يعطي جيشه فرصة للراحة وتجهيز العتاد، قبل الانتقال لجبهة أخرى.
- استعجال بلدوين بالمسير نحو الصنبرة، دون انتظار وصول قوات روجر وبونز. حيث قال وليم الصوري : «ويرجع السبب في هذه النكبة إلى الملك الذي لم يطق صبراً حتى تصل إليه النجدة اطمئناناً منه إلى شجاعته الذاتية»(٥٠). ومن وجهة نظر الباحثة أن استعجاله بالمسير بسبب خوفه من سرعة تقدم الجيوش الإسلامية، مما يعد نذيرا بتطلعهم لاسترداد بيت المقدس.
- عدم انتباه بلدوين لطبوغرافية أرض المعركة، حيث قال الشارتري : «وقد أدانوا عدم فطنة الملك»(٥١).
- فشل خطة بلدوين في ضرب التحالف الإسلامي، فلم ينجح عرضه في استمالة طغتكين لجانبه.

- لم يترك حامية عسكرية لحماية مؤخرة الجيش من أي هجوم مفاجئ.

أما بالنسبة للمسلمين فإن أسباب النصر لديهم تمثلت فيما يلي :

- اتحاد قوات الموصل مع دمشق.
- انتظار مودود لوصول النجدات الإسلامية وضمها إلى جيشه.
- حسن اختيار المناطق المحصنة، حيث تمركزوا في ناحية طبرية، وفي هذه المنطقة عسكروا عند جسر الصنبرة في الجزيرة الآمنة، كما قال عنها الشارتري : «وكانت آمنة جداً بحيث أن أي أحد يتخذ موقعه هناك لا يمكن مهاجمته، بفضل المداخل الضيقة المؤدية إلى الجسور»[٥٢].
- استخدام الخطة العسكرية المناسبة، والتي اعتمدت على عنصر المفاجأة للجيش الصليبي، بظهور بقية جنود مودود بعد ملاحقة بلدوين لهم.

وأهم النتائج لهذه المعركة :

- أنها أدت إلى ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين، ولفتت أنظارهم إلى أهمية الوحدة الإسلامية في تحقيق النصر على الصليبيين، وأن جهاد مودود كان بمثابة الفجر المشرق الذي ينبئ عن بناء الجبهة الإسلامية الموحدة.
- أسهمت في تأكيد المودة ووحدة الهدف والمصير بين أمراء المسلمين، بشمال الشام والجزيرة، مع إخوانهم في العراق ووسط بلاد الشام[٥٣].
- أن عصر مودود – رغم قصره – أصبح نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي، خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة؛ جعلت مملكة بيت المقدس تركز قواها للدفاع عن حدودها الشمالية، فاقتصر بلدوين الأول، خلال السنوات الباقية من عمره، على الدفع عن الكيان الصليبي[٥٤].

وعن الأحداث بعد هذه المعركة: فإنه وصلت قوات روجر وبونز، وهذه القوات جددت الأمل في نفوس الصليبيين، لكن الهزيمة التي أصابت جيش بلدوين فرضت عليهما اللجوء إلى القتال غير المباشر، فقاموا بالاحتماء بمرتفعات غرب مدينة طبرية. فقام المسلمون برميهم بالنشاب، وقطعوا عنهم الميرة، لكنهم استمروا على نفس أسلوبهم في القتال. ولم يحسم هذا القتال بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين[٥٥].

ومما زاد الأمر سوءاً شدة حرارة الصيف[٥٦]، ولذا استخدم المسلمون أسلوبا آخر في القتال وهو الغارات الخاطفة، وذلك بغرض الضغط على قوات أنطاكية وطرابلس، حتى يضطروا للانسحاب، وحتى يحصلوا على غنائم يتقوى به الجيش الإسلامي، فساروا إلى بيسان[٥٧] ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا إلى القدس[٥٨]، كما زحفت حامية عسقلان الفاطمية على بيت المقدس، وهذا مما يضعف الجبهة الصليبية عندما تتنوع عليها أماكن الضرب الإسلامية، وتمكنت الحامية الفاطمية من الوصول إلى أسوار مدينة القدس الخارجية، وأشعلوا النيران في المحاصيل هناك. لكنهم ما لبثوا أن انسحبوا عائدين إلى عسقلان[٥٩].

ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربي كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين[٦٠] كمن وقع بين السندان والمطرقة.

أما بالنسبة لمودود، فقد قرر العودة بقواته إلى بلاده، لأنهم مكثوا فترة شهرين دون تحقيق أي نصر يحسم الموقف، خاصة أن وصول الحجاج من بلاد ما وراء البحار، أدى إلى زيادة عدد الجيش الصليبي، بالإضافة إلى صمود رجال أنطاكية[٦١].

ولكل ماسيق أذن مودود لحلفائه بالعودة إلى بلادهم، لحلول الشتاء، كي يأخذوا فترة من الراحة، ويجتمعوا به في الربيع القادم، لكن مودود مالبث أن قتل على يد أحد الباطنية في جامع دمشق [٦٢].

الخاتمة :

الحمد لله الذي أعانني على كتابة هذا البحث المعنون معركة الصنبرة أحداث ونتائج ٥٠٧هـ/١١١٣ م. فمن خلال هذه الدراسة توصلت للنتائج التالية:

- لعبت الموصل دورا كبيرا في تزعم مشروع الجهاد ضد الصليبيين، ودعوة أمراء الشام والجزيرة للمشاركة معهم.
- لما اتضح دور الموصل الرائد للجهاد، استغاث بهم أهل حلب عام ٥٠٥هـ/١١١١م، لدفع الخطر الصليبي عنهم.
- قاد شرف الدين مودود أعظم أدوار الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الفترة (٥٠٢-٥٠٧هـ/١١٠٨- ١١١٣م).
- إن تقديم بعض الأمراء المسلمين مصالحهم الشخصية على الصالح العام، كما فعل رضوان بن تتش وقف حجر عثرة لإتمام الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.
- إن الدولة العباسية، بالرغم من ضعفها إلا أنها ظلت الحارس الحامي للمسلمين، فدائما تصل للخليفة العباسي رسل الاستغاثة، وطلب النجدة ضد العدوان الصليبي.
- أوضحت الدراسة أهمية ارتباط المدن الإسلامية، كوحدة واحدة، أمام الشعور بالخطر الصليبي المشترك، ونبذ الخلافات الداخلية بينهم.
- أوضحت الدراسة أهمية تكامل الجهود بين الخليفة العباسي، وأمراء الدويلات الإسلامية المستقلة، في دفع الخطر الصليبي.
- أهمية تحقيق الوحدة بين شمال الشام والعراق لدفع الخطر الصليبي.
- كشفت الدراسة عن مدى حنكة مودود السياسية والعسكرية، في خطواته وقراراته أثناء قيادته للعديد من الحملات ضد الصليبيين.
- أثبتت الدراسة أن المكان والخطة لهم دور كبير في تحديد مصير أي معركة.
- كشفت الدراسة عن أهمية مراعاة قائد المعركة للجند في أخذ رأيهم بعد المعركة؛ بالاستمرار في الجهاد أو العودة لموطنهم.
- اتضح دور الباطنية العدائي ضد المسلمين، فكثيرا ما قاموا باغتيال قادة الجهاد الإسلامي مثل مودود عام ٥٠٧هـ/١١١٣م.

المصـــادر والمراجـــع

أولا : المصادر العربية والمعربة

- ابن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي بن محمد، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.
  - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ١٩٦٣م.
  - الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ط ١٩٧٩م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت ٥٩٧هـ/١٢٠٢م.
  - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن عبد الله، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- أبو شامة : شهاب الدين محمد، ٦٥٥هـ/١٢٦٧هـ.
- الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ج، دار الجيل، بيروت، د(ت).
- ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة، الجزء الأول- القسم الثاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.
- ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون، ت ٦٦٠هـ/١٢٨٦م.
  - تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد، ت ٦٧٢هـ/١٢٧٤م.
  - زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط١٩٥١م.
- العظيمي : محمد بن علي العظيمي الحلبي، ٥٥٦هـ/١١٦١م.
  - تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م.
- أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.
  - تقويم البلدان، دار صادر، بيروت.
  - المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- فوشيه الشارتري :
- الوجود الصليبي في الشرق العربي، ترجمة قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٩٣م.
- ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن القلانسي، ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م.

– ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، د (ت).
– ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
– البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
– ابن الوردي : أبو حفص زين الدين، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م.
– تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
وليم الصوري : – الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
– ياقوت الحموي : شهاب الدين بن عبد الله، ت ٦٢١هـ / ١٢٢٨م.
– معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د (ت).

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم محمد المزيني :
– إمارة حلب بين تصارع القوى الإسلامية ومواجهة الصليبيين، الرياض، ط ٢٠٠٣م.
احمد عطية :
– القاموس الإسلامي ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،١٩٦٣م.
إرشيد يوسف راشد:
– سلاجقة الشام والجزيرة، عمان، ط ١٩٨٨م.
– ارنست باركر :
– الحروب الصليبية ،ترجمة السيد الباز العريني ،دار النهضة العربية ،بيروت.
– رينيه جروسيه
– الحروب الصليبية، ترجمة احمد أيبش، دار قتيبة، سوريا، ط١، ٢٠٠٢م.
– ستيفن رنسيمان
– تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
سعيد أحمد برجاوي :
– الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
سعيد عبد الفتاح عاشور :
– الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٩٧م.
عصام عبد الرؤوف الفقي :
– بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٩٧٥م.
علية عبد السميع الجنزوري :
– إمارة الرها الصليبية، ط القاهرة، ١٩٧٥ م.
عماد الدين خليل :
– الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
فايد حماد عاشور :
– جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.

محمود سعيد عمران

– تاريخ الحروب الصليبية ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،٢٠٠٦م.

مسفر سالم الغامدي :

– الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط١، ١٩٨٦م.

محمد مؤنس عوض :

–الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، دار عين، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

موضي عبد الله السرحان :

– بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين، دار الأوفست، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

– هانس ماير

– تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا، ط ١٩٩٠م.

هنادي السيد محمود :

– مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م.

الهوامــش

([1]) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ط ١٩٧٩م، جـ١٠، صـ ٤٥٧ – ٤٥٩، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، صـ ١٦٠، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٧م، صـ ١٧٣، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، جـ٢، صـ ٤٣.

([2]) خلاط : قصبة أرمينية الوسطى. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م٢، صـ ٢٤١.

([3]) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر، الحموي : معجم البلدان، م٤، صـ ٣٤٩.

([4]) ماردين : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة، الحموي : معجم البلدان، م٤، صـ ١٩٤.

([5]) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٦٩، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، جـ٢، صـ ٢٦٩، ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، ط٣، ١٩٩٣م، جـ٢، صـ ١٨٧.

([6]) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٦٩ – ١٧٠.

([7]) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٥٤، علية الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م، صـ ١٣٧.

([8]) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٦٩ – ١٧٠، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٦٥، محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢٠٠٦م، صـ ٤٥، هنادي السيد محمود : مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٩٩، ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢، صـ ١٨٨.

([9]) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، صـ ٤٤، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج١، صـ ٢٠.

([10]) شيزر : قلعة تشتمل على كوره بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. الحموي : معجم البلدان، م٣، صـ١٧١.

([11]) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، صـ ٤٨٢، ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٦٧، ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢، صـ ١٥٦.

([12]) الأثـارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية. الحموي: معجم البلدان، م١، صـ ٨٠.

([13]) ابن القلانسي: ذيل، صـ ١٧٣، العظيمي: تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م، صـ ٣٦٥.

([14]) ابن القلانسي: ذيل، صـ ١٧٣، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٥٧ – ١٥٨، آرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، صـ ١٥٤.

([15]) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، صـ ٤٨٣.

([16]) إرشيد يوسف : سلاجقة الشام والجزيرة، عمان، ط ١٩٨٨م، صـ ١٢١.

([17]) مراغة: بلدة مشهورة من أعظم بلاد أذربيجان، الحموي: معجم البلدان، م٤، صـ ٢٣٨، أبو الفدا: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، صـ ٣٩٩.

(18) إربل : مدينة حصينة تعد من أعمال الموصل، الحموي : معجم البلدان، م١، صـ ١١٦.
(19) تبريز : أشهر مدن أذربيجان وهي ذات أسوار محكمة، الحموي : معجم البلدان، م١، صـ ٤٣٠، أحمد عطية : القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، جـ١، صـ ٦١.
(20) ابن الأثير : الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، صـ ١٨، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٥٨، ابن خلدون : العبر، بيروت، ط١٩٧٦م، جـ٥، صـ ٤١، ابن كثير : البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، صـ ١٩٨٥م، جـ١٢، صـ ١٨٥، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ٥، صـ ١٩٩.
(21) محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، دار عين، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، صـ ١٥٣.
(22) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر، الحموي : معجم البلدان، م٣، صـ ٤٣.
(23) ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، صـ ٤٩٥، ابن خلدون : العبر، م٥، صـ ٤١.
(24) تل باشر : قلعة حصينة وكوره واسعة في شمالي حلب. الحموي : معجم البلدان، م١، صـ ٤٥١.
(25) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٥٨ ،ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى زكريا عبادة ، الجزء الأول – القسم الثاني ،منشورات وزارة الثقافة ،دمشق ،١٩٩١م ،ص ١٠٣، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م،ص٢٢٣.
(26) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٧٥.
(27) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٧٥، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٥٩، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ١٩٧.
(28) إبراهيم محمد المزيني : إمارة حلب، الحميضي، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م، صـ ١٢٥.
(29) معرة النعمان : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. الحموي : معجم البلدان، م٤، صـ ٢٨٧.
(30) ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، صـ ٤٨٧، عصام الفقي : بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٥م، صـ ١٤٤.
(31) فايد عاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، صـ ١٥٥.
(32) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكوره من كور حمص. الحموي: معجم البلدان، م١، صـ١٨٣.
(33) ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، صـ ٤٨٧.
(34) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، صـ ١٧٣، ابن خلدون: العبر، جـ٥، صـ ٤١، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات، جدة، ١٩٨٦م، صـ ١٤٥.
(35) هانس ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، ليبيا، ١٩٩٠م، صـ ١١٤.
(36) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٨٤، ابن الأثير : الكامل، ج١٠، صـ ٤٩٥.
(37) سلمية : بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة وكانت تعد من أعمال حمص، الحموي : معجم البلدان، م٣، صـ ٦١.

(38) الأقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ جزيرة طبرية، الحموي : معجم البلدان، م١، صـ ١٨٨.
(39) ابن الأثير : الباهر، صـ ٨١، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٢، صـ ١٦٣، ابن خلدون : العبر، ج٥، صـ ٤٢.
(40) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٨٤.
(41) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال، الحموي: معجم البلدان: م٣، صـ٢٠٣.
(42) ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، صـ ٤٩٦، ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٨٥.
(43) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي في الشرق العربي، ترجمة قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٩٣م، صـ ٢٤٨، موضي السرحان : بيروت تحت الحكم الصليبي، ط١، ٢٠٠١م، الرياض، صـ٩٠، أبو شامة : الروضتين، دار الجيل، بيروت، جـ١، صـ ٢٧.
(44) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، ص ٢٤٨، رنيه كروسيه : الحروب الصليبية، ترجمة أحمد أيبش ن دار قتيبة، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٥٧.
(45) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٤٨، وليم الصوري : الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩٤م، جـ٢، صـ ٣٠١.
(46) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٤٨،
(47) ابن القلانسي : ذيل، صـ ١٨٥.
(48) وليم الصوري : الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠١.
(49) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٤٩.
(50) وليم الصوري : الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠١.
(51) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٤٩.
(52) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٤٨.
(53) مسفر الغامدي : الجهاد ضد الصليبيين، صـ ١٤٨ – ١٤٩.
(54) هنادي السيد : مملكة بيت المقدس الصليبية، صـ ١٠٤ – ١٠٥.
(55) ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، صـ ٤٩٦، وليم الصوري : الحروب الصليبية جـ٢، صـ ٣٠١.
(56) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٥٠.
(57) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامي، الحموي : معجم البلدان، م١، صـ ٤١٤.
(58) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٥٠، وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠٢.
(59) فوشيه الشارتري : الوجود الصليبي، صـ ٢٥٠، وليم الصوري : الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠٢.
(60) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٩٧م، جـ١، صـ ٢٦٠.
(61) فوشيه الشارتري: الوجود الصليبي، صـ٢٥١–٢٥٢، وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠٣، سعيد برجاوي:الحروب الصليبية في الشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، صـ ٢٢٨.

(62) العظيمي: تاريخ حلب، صـ ٣٦٦، وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، صـ ٣٠٣ ،ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١٧، ص١٢٣.عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٢٦.

مدارس أسيوط في العصر المملوكي

د. محمد أحمد محمد أحمد الكردوسي (*)

أولاً: ظهور المدارس في أسيوط

من الثابت والمعروف، لدى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين، أن المدارس ظهرت في مصر لأول مرة مع بدايات العقد الرابع من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في العصر الفاطمي، وأنها أنشئت في الأصل للدعوة للمذهب السنّي، وكان في طليعتها مدرستان سنيتان تأسستا بالإسكندرية(١).

وهناك من الباحثين من يُقر بوجود المدارس في أسيوط منذ ذلك العصر، فيقول الدكتور محمد زغلول سلاّم(٢): إن الخليفة الفائز(٣) الفاطمي بنى بأسيوط مدرسة عُرفت باسمه "الفائزية"، تولى التدريس بها بعض الشيوخ والعلماء. ويرى باحث آخر أن سبب بنائها إنما جاء تمشيا مع رغبة الخلفاء الفاطميين في بناء المدارس بصعيد مصر، بعدما أخذ المذهب الشيعي ينتشر في تلك البلاد، حتى اعتنق أعداد كبيرة من أهلها هذا المذهب(٤).

وليس لدينا في الواقع من المادة المصدرية ما يجعلنا نقطع بأن الخليفة الفائز الفاطمي بنى مدرسة بأسيوط، أو حتى إن المدارس ظهرت أساسا في أسيوط في العصر الفاطمي، فقد جاءت المصادر التي بين أيدينا خالية تماما من أية إشارات تفيد بوجود مدارس في أسيوط في ذلك العصر. ويبدو أن ما أورده الدكتور سلاّم، بخصوص مؤسس الفائزية، كان رأيا استنتاجيًا ارتكز فيه على مسمى المدرسة نفسه، حيث اعتبر تسميتها بالفائزية أمرًا يشير إلى الخليفة الفائز الفاطمي، والمدهش أنه أورد ذلك في كتابيه: الأدب في العصر الأيوبي، والأدب في العصر المملوكي، في حين لم يشر إلى ذلك في كتابه المُعنّون بالأدب في العصر الفاطمي، وكل ما أورده في ذلك الكتاب الأخير بخصوص وجود مدارس في أسيوط في ذلك العصر: أنه نقل عن الوطواط(٥) قوله: "مدينة أسيوط على غربي النيل، بلد فرح بهجٌ، خطرٌ، جليلٌ، به الأسواق والقياسر والحمامات والمساجد والمدارس...". ومعلوم أن الوطواط (أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن عليّ) لم يعش في العصر الفاطمي، حيث ولد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م وتوفي سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م.

ولهذا فإن القول بأن الخليفة الفائز الفاطمي هو باني المدرسة الفائزية؛ قول بحاجة إلى تدقيق ومراجعة، فالخليفة الفائز، المشار إليه، وَلي الخلافة في الخامسة من عمره، ولم تزد فترة

(*) مدرس بكلية الآداب جامعة أسيوط.

خلافته عن ست سنين ونصف (٥٤٩-٥٥٥هـ/١١٥٤-١١٦٠م)، ومات وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وست أيام، أي أنه كان طفلا صغيرا[٦].

ولو أضفنا إلى ذلك ما اعترى هذا الطفل من اضطراب عقلي عند توليه الخلافة، ما شهدنا على أنه باني تلك المدرسة. وسبب ذلك الاضطراب كما يقول المقريزي[٧]: "إن أباه لما قُتل وبكّر عباس (أي الوزير أبو الفضل عباس) إلى القصر وفحص عن الخليفة الظافر وقتل أخويه وابن عمه لينفي عن نفسه وابنه التهمة، واستدعى ابن الظافر هذا وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين، ووقف به في صحن القاعة وأمر الأمراء فدخلوا عليه. فلمّا مثلوا بالقاعة قال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة، مع ما شاهده من رؤية عمه والخدّام وهم في دمائهم ما خَبّل عقله، وبال على كتف عباس، فسيّروه إلى أمه؛ وأقام مختلا يُصرع وجدته تكفله".

هذا من جانب، ومن جانب آخر لم تكن المدارس قد انتشرت في مصر في تلك الآونة، ومن المستبعد أن تكون أسيوط قد شهدت بطبيعة الحال بناء مدارس فيها في العصر الفاطمي، فمن المعلوم أن المدارس وإن كانت ظهرت في مصر مع أواخر العصر الفاطمي؛ إلا أنها لم تأخذ في الانتشار إلا بعد قيام الدولة الأيوبية، حيث عمد سلاطينها إلى الإكثار من بناء المدارس، لنشر المذهب السنّي ومحاربة المذهب الشيعي، وعلى رأسهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أنشأ عدة مدارس بالفسطاط والقاهرة، ثم اقتدى به أولاده، وأمراؤه، في بنائها "بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر"[٨].

وبناء على ما سبق، لا نميل إلى الأخذ بالقول إن المدارس ظهرت في أسيوط منذ العصر الفاطمي، والأرجح أن ذلك كان في العصر الأيوبي؛ الذي جاء مقرونا بانتشار المدارس في ربوع مصر شمالا وجنوبا. ويقف معنا شاهدا ودليلا على صحة ذلك، تلك الإشارات المتفرقة التي دلت على وجود مدارس في أسيوط في العصر الأيوبي، لعل أبرزها ما ورد بخصوص المدرسة "الفائزية"، حول قيام العالم المغربي "نجم الدين أبو نصر الأموي المعروف بالقَصْري"[٩] بالتدريس فيها أواخر العصر الأيوبي وبدايات العصر المملوكي؛ وذلك بعد أن ارتحل وطوف بالبلاد في طلب العلم، فسافر إلى تونس وأقام بها مدة، ثم قدم دمشق وتفقه بها، ودخل حماة وبغداد ودَرّس بهما[١٠]، ثم انتهى مطافه العلمي بدخول الديار المصرية سنة ٦٤٣هـ[١١]/١٢٤٥م، حيث حط رحاله بمدينة أسيوط ودرّس بمدرستها "الفائزية"، ثم عُين قاضيا لها، وظل بها إلى أن تُوفي سنة ٦٦٣هـ[١٢]/١٢٦٥م.

وليس ثمة شك في أن مثل تلك الإشارات المصدرية الواردة بخصوص التدريس بالمدرسة الفائزية بأسيوط، في تلك الفترة، تحملنا على التسليم بوجود مدارس في أسيوط في العصر الأيوبي، لكن مما يؤسف له أننا لم نعثر، في المصادر التي بين أيدينا، على ما يدلنا على بداية ظهور المدارس في أسيوط خلال ذلك العصر، أو حتى ما يُعرّفنا إن كانت المدرسة الفائزية هي

أول مدرسة بُنيت في أسيوط أم لا ؟ والأدهى من ذلك: أن تلك المصادر لم تشر حتى إلى مؤسس الفائزية نفسها .

وعلى الرغم من هذا، وبحكم أن المدرسة الفائزية تعتبر أقدم مدرسة في أسيوط وردت إشارات إليها في المصادر التي بين أيدينا حتى الآن، أرى من الأهمية بمكان محاولة معرفة مؤسسها بطريق الاستنتاج. ولنبدأ ذلك بتحديد الإطار الزمني الذي تأسست فيه فائزية أسيوط، وليكن هو الفترة المحصورة بين سنتي ٥٨٩هـ/١١٩٣م و٦٤٣هـ/١٢٤٥م، فالأولى تمثل . فيما نراه صحيحا . الحد الأدنى لتاريخ تأسيس الفائزية، بوصفها السنة التي أنهت حكم السلطان صلاح الدين، ومن المستبعد بناء تلك المدرسة في عهده، والأجدر أن تكون بُنيت في عهد خلفائه، وذلك استنادا إلى ما أورده المقريزي[١٣] من أن السلطان صلاح الدين أنشأ عدة مدارس بالفسطاط والقاهرة، ثم اقتدى به من بعده أولاده، وأمراؤه، "في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر"، أما السنة الثانية فيمكن اعتبارها الحد الأقصى لتاريخ تأسيس هذه المدرسة، ولا يمكن أن يكون بناؤها بعده، لأنه في تلك السنة جاء العالم المغربي نجم الدين أبو نصر الأموي إلى مصر، ودرّس بالمدرسة المذكورة بأسيوط[١٤]، وهذا معناه أنها كانت موجودة بالفعل في تلك السنة.

وبالتنقيب في المصادر، عبر الإطار الزمني الذي تم تحديده آنفا، لم يصادفنا غير رجلين من الممكن أن يُنسب لأحدهما تأسيس الفائزية بأسيوط، وذلك من حيث مُسمّاها، ومن حيث وجود علاقة لكلا الرجلين بالصعيد، الأول منهما هو: الملك الفائز إبراهيم بن السلطان العادل أبي بكر بن أيوب (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)، وكان يربطه بالصعيد تلك الاقطاعات[١٥] التي أقطعها له والده هناك، والتي تمثلت في إقطاعه "الأعمال القوصية"[١٦]، وإن كان وجود تلك الاقطاعات في الأعمال القوصية يجعلنا نستبعد نسبة الفائزية إليه، فلو كانت تلك الاقطاعات في السيوطية لكان من السهل علينا قول ذلك.

أما الرجل الثاني فهو: الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد، الفائزي، الذي خدم الملك الفائز إبراهيم بن السلطان العادل كاتبا، ونُسب إليه بالفائزي، ثم خدم من بعده السلطان "الكامل" ثم ولده "الصالح نجم الدين أيوب"، وتدرج في الوظائف حتى صار وزيرا للسلطان "المعز أيبك التركماني" سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م مع بداية دولة المماليك البحرية. ولمّا قتل المعز، باشر الوزارة لابنه "المنصور عليّ" أياما، ثم قبض عليه سيف الدين "قطز" مدبر دولة المنصور وصادره، وسجنه، فمات في حبسه مخنوقا سنة ٦٥٥هـ[١٧]/١٢٥٧م.

وذاك الرجل الثاني نتوقع، بنسبة كبيرة، أن فائزية أسيوط تُنسب إليه، والذي حدا بنا إلى ذلك التوقع، فضلا عن مُسمّاها، ما لمسناه في سيرته من وطيد علاقة كانت تربطه بأسيوط، فهو أسيوطيّ النشأة والهوى، والمتتبع لسيرته في المصادر يمكنه أن يلمس ذلك، فقد ورد عنه أنه كان من جملة نصارى صعيد مصر، وعمل كاتبا على المصايد بأسيوط[١٨]، ثم قدم إلى القاهرة وأسلم في أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وتولى نظر الديوان في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدّة يسيرة، ثم وُلي بعض أعمال ديار مصر[١٩]، وهذه الأخيرة لم تفصح عنها المصادر، وقد يكون من بينها أسيوط، أو غيرها، من أعمال الوجه القبلي القريبة

منها. وربما تتأكد لنا علاقته الوطيدة بأسيوط والصعيد، في صورة أوضح، بعد توليه الوزارة وخروجه على رأس العساكر إلى تلك البلاد لمحاربة بعض الأمراء الخارجين على الدولة هناك[٢٠].

زد على ذلك: أن هذا الرجل كان عنده حسن تدبير، وسمو نفس، وأريحية، وكرم طباع[٢١]، كثير الصدقات والبرّ والصلات[٢٢]، فأولى اهتماما بالإنشاء والتعمير بدافع فعل الخيرات، سواء قبل توليته الوزارة أو بعدها، فيما يُجسّده لنا تلك المدرسة التي بناها بمصر (الفسطاط) سنة ٦٣٦هـ[٢٣]/١٢٣٨م أو ٦٣٧هـ[٢٤]/١٢٣٩م، والتي نسبت إليه بالفائزية، وكذلك القيسارية التي أنشأها بالقاهرة[٢٥]، والتي وُسمت على اسمه بقيسارية الفائزي، وهذا يجعلنا نزيد في ترجيحنا، إلى حد التأكيد مرة أخرى، على توقعنا أن فائزية أسيوط تنسب إليه، وأنها كانت من بين منشآته المعمارية الخيرية التي بناها قبل أن يلي الوزارة، فقد سبق وأسلفنا أن تلك المدرسة كانت موجودة بالفعل سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.

وغاية القول، إن وجود المدرسة الفائزية بأسيوط في تلك الآونة، يُعدّ مؤشرا على كون أسيوط واحدة من الأعمال أو البلدان التي حظيت بظهور المدارس فيها منذ العصر الأيوبي، لاسيما وأنها كانت، وما زالت، واحدة من أبرز الحواضر المصرية في الصعيد.

ثانيا: أشهر مدارس أسيوط في العصر المملوكي :

سار سلاطين المماليك، وأمراؤهم وأتباعهم، على نهج أساتذتهم الأيوبيين في بناء المدارس[٢٦]، وشهدت مصر في عصرهم ازدهارًا غير مسبوق في الحركة المدرسية، حيث أكثر السلاطين والأمراء، وأصحاب اليسار من الأعيان وغيرهم، من تشييد المدارس في الوجهين البحري والقبلي[٢٧]. وبلغ من انتشار المدارس في الوجه القبلي أنه كان من الميسور على تلك المدارس استيعاب أعداد الطلبة؛ بما في ذلك الوافدين على هذه البلاد من طلاب العلم[٢٨]. وكانت أسيوط واحدة من بلاد الوجه القبلي التي تميزت بمدارسها في ذلك العصر، وقد وردت بالمصادر إشارات دلت على انتشار المدارس بها زمن المماليك، منها مثلا قول الوطواط[٢٩]: "مدينة أسيوط على غربي النيل، بلد ... به الأسواق والقياسر والحمامات والمساجد والمدارس"، وقول ابن دقماق[٣٠]: "وبها عدة مدارس"، وقول القلقشندي[٣١]: "وبها مساجد ومدارس".

والمحاولة تنصب هنا على تتبع أشهر مدارس أسيوط التي وردت مُسمياتها عبر إشارات مصدرية أو مرجعية، مع تفنيد هذه الأخيرة على أضواء الأولى وعلى ما لدينا من معطيات واقعية، من خلال ما قمنا به من زيارات ميدانية لمنطقة أسيوط القديمة، فذلك كله يساعدنا في رسم صورة واضحة لتلك المدارس، من حيث نشأتها وموقعها وتطورها، وهي في الحقيقة مجموعة مدارس لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى تركيز اهتمام مؤرخي العصر المملوكي على مدارس العاصمة المملوكية، دون التطرق إلى مدارس الأقاليم، لدرجة أن كثيرا منها لم يحظ حتى بذكر أسمائها في المصادر. وعلى أية حال فلنفسح المجال هنا للتعرف على أشهر مدارس أسيوط زمن المماليك.

١ ـ المدرسة الفائزية :

تُعد المدرسة الفائزية من أشهر مدارس أسيوط وأقدمها، أنشأها شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي في أواخر العصر الأيوبي على نحو ما أسلفنا، واستمرت تلك المدرسة تؤدي رسالتها العلمية والثقافية زمن المماليك. وكان مبناها[٣٢] يقع أمام الجامع العمري[٣٣] أو المسجد الأموي[٣٤]، أو الجامع الكبير كما اصطلح الناس على تسميته.

وممن تولى التدريس بها في العصر المملوكي؛ الشيخ نجم الدين أبو نصر الأموي، وظل يُدرِّس بها إلى أن توفي بأسيوط سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وكان يُدرِّس فيها الفقه على مذهب الشافعي، والأصول والنحو والعروض والحكمة والمنطق[٣٥] وإشارات ابن سينا[٣٦].

وممن أسند إليه تدريسها أيضا، الصَلاح الحسني السيوطي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن علي بن حسن بن مطهر (٧٨٣ـ ٨٥٦هـ/١٣٨١ـ١٤٥٢م)، الذي أورد عنه السخاوي[٣٧] أنه ولد ونشأ بأسيوط، وقرأ القرآن وتلقى تعاليمه الأولى بها، ثم انتقل إلى القاهرة ودَرَس على أيدي علمائها، ثم عاد إلى أسيوط وأقام بها إلى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، فلقي تركيا سكرانا فَراجعه كلاما فطغى عليه فقتله، فانتقل بأهله إلى القاهرة فقطنها، وبرع في كثير من العلوم والفنون، وكتب الخط الحسن ونسخ به الكثير لنفسه ولغيره، وكان يقتات منه لتخليه عن الوظائف الدنيوية، لكنه وُلي بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م تدريس مدارس بأسيوط ونظرها، وكان من بينها المدرسة الفائزية، "فَلم يتم له ذلك، فاستمر مُنقطعا عن الاقتيات بالكتابة إلى أن بنى قراقجا الحسنى[٣٨] مدرسة ... وجعله خطيبها وإمامها وكفاهُ مؤونة كبيرة".

وتستوقفنا هنا العبارة الأخيرة الواردة في كلام السخاوى ـ سالف الذكر ـ لأنها تدل على أنه على الرغم من إسناد تدريس المدرسة الفائزية، وبعض المدارس الأخرى بأسيوط، إلى الصَلاح الحسني بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م، إلا أنه لم يقم بالتدريس في تلك المدارس بالفعل، كما ظَنَّ بعض الباحثين[٣٩]، ولو كان الصَلاح الحسني قد مارس مهنة التدريس بها، أو النظر عليها، لرأينا على الأقل إشارة إلى ذلك بكتب التراجم التي وردت بها تفاصيل عن حياته العلمية والعملية، منذ ولادته بأسيوط وحتى وفاته بالقاهرة[٤٠]. والراجح أنه تم تنحيته عن هذه المدارس قبل أن يتوجه إليها، وهذا ما توضحه بجلاء عبارة "فلم يتم لَهُ ذَلِكَ" الواردة في كلام السخاوي، وقد يكون سبب ذلك سعي غيره من العلماء لتولي تلك المدارس بدلا منه، بوصفها من المدارس المتميزة في صعيد مصر، مستغلين عزوفه عن الوظائف الدنيوية، وتخوفه مما قد يجابهه من مشكلات عند عودته لأسيوط، بسبب قتله رجلا تركيا فيها منذ زمن مضى.

٢ ـ المدرسة الشريفية :

أنشأها زين الدين محمد بن أبي بكر علي بن محمود الجعفري، المتوفى سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م، وهو من أبناء أسيوط، وأحد قضاتها المشهورين، تفقه على الدمنهوري[٤١]، وكتب الخط الحسن، وشارك في الفضائل، وبنى بأسيوط المدرسة المذكورة، ونسبت إليه[٤٢] بالشريفية لانتمائه إلى السادة الأشراف (آل البيت)، كما هو واضح من اسم الجعفري الوارد في

نسبه. ويزداد ذلك وضوحا عندما نعلم أنه ابن عم شرف الدين عبد الوهاب، والد جلال الدين، الشريف الجعفري الزَّيْنبي الأسيوطي[٤٣].

يقول ابن حجر العسقلاني[٤٤] عن زين الدين مؤسس تلك المدرسة: إنه زين الدين بن الناظر الأسيوطي، وهذا القول بحاجة إلى مراجعه، لأن ابن الناظر الأسيوطي رجل آخر غير زين الدين، وعاش في فترة لاحقة له، وربما حدث خطأ أو خلط بين الرجلين من كون اسم كل منهما محمد بن أبي بكر، لأن ابن الناظر كما يقول عنه السخاوي[٤٥]هو "مُحَمَّد بن أبي بكر بن أحمد بن إسماعِيل بن عبد الوهاب بن عبد الغفار بن يحيى بن إسماعِيل، الشريف الحسنى المغربي، الفاسي الأصل، الصعيدي المالكي، نزيل الحجاز ويلقب أبوه بالناظر. ولد في يوم الجمعة سابع عشر جُمادى الثانية سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، فِي نواحي الصَّعِيد من بِلاد مصر وربى فِي نواحي أسيوط من بِلاد الصعِيد ... وارتحل للقاهرة فِي سنة ثلاث وأربعين ... وارتحل لدمشق فِي سنة أربع وأربعين ... ثمَّ عَاد لمصر وركب البحر من القصير، فِي سنة ثمان وأربَعين، فدخل لبندر يَنْبع، فاتصل بصاحبها الشريف معزى، فجهزه لِلحج، ثمَّ زار النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وأقام عند معزى، يُقرئ أولاده، إلى أن لقيه البقاعي فِي ربيع الآخر من التي بعدها ... وما علمت شيئا من خبره بعد ذلِك".

أما عن موقع المدرسة الشريفية بأسيوط؛ فقد جاءت المصادر التي بين أيدينا خالية تماما من أية إشارات إليه، ونتوقع أنها كانت بدرب الشريفة، الذي من الواضح أنه سُمي كذلك لوجودها به، وهو درب مشهور ومعروف بأسيوط القديمة، وبه مسجد صغير يعرف بمسجد الشريفة، بُني مكان المدرسة الشريفية، وبمرور الزمن دَرج الناس على تسميته بمسجد الشريفة بدلا من الشريفية[٤٦].

وممن أُسند إليه تدريس تلك المدرسة، الصَلاح الحسني السيوطي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن عليّ بن حسن بن مطهر، وكان ذلك بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م، عندما أسند إليه تدريسها مع مدارس أخرى بأسيوط[٤٧]، لكن لسوء الحظ لم يتمَ له التدريس بتلك المدارس، كما سبق وأوضحنا في سياق الحديث عن المدرسة الفائزية.

ومن بين مُدرسيها المشهورين في العصر المملوكي، جلال الدين بن شرف الدين عبد الوهاب، المتوفى سنة (٨٤٧هـ[٤٨]/١٤٤٣م)، ووالده ابن عم زين الدين مؤسس تلك المدرسة كما أسلفنا. ومما يجب ذكره هنا، أن جلال الدين هذا ليس هو جلال الدين الأبشيهي، كما اعتقده أحد الباحثين[٤٩]، لأن جلال الدين الأبشيهي هو الجلال أبو الفضل بن البدر بن فتح الدين أبي الفتح، الشافعي، نزيل القاهرة[٥٠]، ولم يرد عنه أنه دَرّس بأسيوط أو حتى زارها من الأصل.

وهناك من يَعتبر أن الشيخ شرف الدين شارح المنارات (ت٨٤٧هـ/١٤٤٣م) تولى التدريس بتلك المدرسة[٥١]، لكن تلك المقولة بحاجة إلى مراجعة[٥٢]، لأن شرف الدين المذكور لم يُدرّس بها إطلاقا، وهو من علماء قيريم[٥٣]، وتوفي بمدينة أدرنة[٥٤] التركية.

٢ ـ المدرسة الخضيرية :

تُعد تلك المدرسة من بين المدارس التي عُرفت بأسيوط في العصر المملوكي، أوردها السخاوي[٥٥] تحت مسمى "البدرية الخُضيرية"، وتبعه في ذلك علي مبارك في خططه[٥٦]. وهناك

من المؤرخين المحدثين من قسم ذلك المسمى نصفين، معتبرين أن البدرية مدرسة، والخُضيرية مدرسة أخرى[٥٧]، والراجح أنهما مدرسة واحدة عرفت بالخُضيرية وبالبدرية، كما هو ثابت بالمصادر، وإن كانت شهرتها بالخُضيرية أوسع وأعم.

وليس لدينا في الواقع أية معلومات عن سبب تسميتها بالبدرية، أما بخصوص تسميتها بالخُضيرية وفيما يتعلق بتاريخ إنشائها، فيرى أحد الباحثين – من خلال مطالعته لعدد من حجج الوقف الخاصة بتلك المدرسة في العصر العثماني – أنها وردت في الوثائق تارة مسبوقة بكلمة مسجد، وتارة مسبوقة بكلمة مدرسة، ويُرجح أن مبناها كان مسجداً مخصصاً للصلوات الخمس، ومدرسة لتعليم علوم القرآن واللغة، خاصة وأن الخُضيرية، إحدى الطرق الصوفية التي كانت موجودة بمصر في العصر العثماني، قد اتخذت من هذا المسجد مقراً لها[٥٨].

وهو بذلك يؤصّل لتلك المدرسة من حيث النشأة والتسمية على أنها تعود إلى العصر العثماني، مستندا في ذلك، على حد قوله، إلى أن أقدم ذكر لها، في حجج الوقف الخاصة بها، يرجع إلى ١٩رجب سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م، حيث تشير حجة مؤرخة بهذا التاريخ إلى قطعة أرض مقدارها ثمانية قراريط، موقوفة على مسجد الخُضيرية[٥٩].

والحقيقة أن تلك المدرسة تعود إلى العصر المملوكي، وليس إلى العصر العثماني، فقد يكون استدل هو، بوصفه متخصصا في علم الآثار، من خلال مبناها على ما يوحي بأنها عثمانية الشكل من حيث طرازها المعماري، لكن هذا قد يكون من جراء إضافات أو تجديدات طرأت على مبناها زمن العثمانيين، لكنها هي في الأصل مملوكية، وهي مدرسة وليست مسجدا، وقد أوردها السخاوي في كتابه الضوء اللامع[٦٠] على أساس أنها مدرسة كما ذكرنا آنفا. وربما أُطلق عليها مسجد من جراء التشابه الكبير ما بين المسجد والمدرسة، نتيجة تأثر عمارة المدارس بعمارة المساجد والجوامع في العصر المملوكي، والذي لم يقف عند حد تخطيطها فحسب، وإنما أيضا في انتقال بعض الوحدات والعناصر من المساجد والجوامع إلى المدارس، مثل: المئذنة والمنبر، ودكة المُبلّغ أو المؤذن، وخلوة الخطيب وكرسي المصحف [٦١] لدرجة أن من المدارس ما كان على شكل المسجد تماما، ومن هنا وجدنا المدرسة الخُضيرية يطلق عليها، في الوثائق العثمانية، كلمة مسجد في بعض الأحيان.

وعلى أية حال فما دامت تلك المدرسة تعود إلى العصر المملوكي؛ فنرجح أن بانيها أحد أجداد الشيخ جلال الدين عبد الرّحمن السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، العالم الجليل، صاحب التآليف والتصانيف المشهورة، لاسيما وأن أجداده كان يُطلق عليهم الخُضيرية أو الخضرية، ويتضح هذا بجلاء عند قراءة ترجمته لنفسه، أو لوالده كمال الدين أبو بكر (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، في أكثر من مؤلّف له[٦٢]، لاسيما في كتابيه "حسن المحاضرة" و"التحدث بنعمة الله"، وعلى وجه الخصوص الكتاب الثاني منهما، الذي وضعه السيوطي ليتحدث فيه عن نفسه وعن نسبه وعائلته وبلد والده، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بحياته، والذي علمنا من خلاله، ومن غيره، معلومات تفيد بأن جدّه الأعلى الشيخ همام الدين الهمام الخُضيري، وهو الجدّ الثامن له[٦٣]، تعود نسبته بالخُضيري إلى محلة ببغداد، تعرف بالخُضيرية أو الخضرية[٦٤]، على حد قول

الشيخ جلال الدين السيوطي، خاصة وأنه سمع من مصدر موثوق به، عن والده، أن جدّه الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق[٦٥].

ولو ربطنا ذلك بما ساقه السيوطي[٦٦] في موضع لاحق في ثنايا ترجمته لوالده، لتبين لنا بالفعل أن أحد أجداده هو باني المدرسة الخُضيرية بأسيوط، إذ يقول عقب انتهائه من الحديث عن جدّه الهمام الخُضيري: "وأما من دون جدي المذكور من أجدادي، فقد كانوا من أهل الوجاهة والرياسة، منهم من وَلي القضاء بأسيوط، ومنهم من وَلي الحسبة بها، ومنهم من كان في صحبة الأمير شيخو[٦٧]، وبنى مدرسة بأسيوط، ووقف عليها أوقافا، ويحكى أنه سأل الأمير شيخو أن يأمر البنّاء الذي بنى مدرسته بالصليبة[٦٨] أن يذهب معه إلى أسيوط فيبني له مدرسة نظيرها، فأجابه إلى ذلك...".

وثمة أمور ثلاثة مهمة يمكن استيحاؤها، أو استلهامها، من النص السابق الذي أورده السيوطي: أولها تاريخ بناء المدرسة الخُضيرية، والذي يمكن أن نحصره بين سنتيّ ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م و٧٥٨هـ/١٣٥٧م، فلا يعقل أن تكون تلك المدرسة بُنيت قبل السنة الأولى، لأنها السنة التي بُنيت فيها مدرسة أو خانقاه شيخو[٦٩]، والتي على شاكلتها بنيت الخُضيرية، كما لا يمكن أن تكون بُنيت، على وجه الترجيح، بعد سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م، لأنها السنة التي قُتل فيها الأمير شيخو[٧٠]، والبنّاء الذي بنى المدرسة ذهب إلى أسيوط بأمر منه.

والأمر الثاني الذي يمكن استلهامه من النص ذاته: أن باني المدرسة الخُضيرية بأسيوط، وهو أحد أجداد الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، كان على اتصال بالأمير شيخو، وأن ثمة علاقة ربطت بينهما وساهمت في استجابة الأمير شيخو لإرسال البنّاء معه إلى أسيوط، ولا نستبعد أن يكون سفر الأمير شيخو إلى أسيوط، ونزوله بها مع أواخر سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وأوائل سنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م، للقضاء على ثورات العربان هناك[٧١] قد لعب دورا فاعلا في ربط أواصر الصلة بين الرجلين، حيث استقبله أهل أسيوط وأطلعوه على أمور العرب وعلى أعدادهم، ومدى عزمهم على المحاربة[٧٢]، ومن دون شك أن جدّ الشيخ جلال الدين المشار إليه، كان من بين المستقبلين للأمير شيخو بأسيوط، وكيف لا ؟ ! وهو يُعد واحدًا من علية القوم بأسيوط، ومن وجهائها[٧٣] الذين عملوا بالتجارة[٧٤].

أما ثالث أمر يعكسه النص المذكور، ولا يقل أهمية عن سابقيه، أن المدرسة الخُضيرية بأسيوط بُنيت على نسق المدرسة أو الخانقاة الشيخونية بالقاهرة، وهذا في حد ذاته يعكس أن مدارس أسيوط في العصر المملوكي، كانت تُبنى على غرار مدارس العاصمة، الأمر الذي يجعلنا في مسيس الحاجة هنا إلى توجيه دعوة لعلماء الآثار، وعلى الأخص للمصريين منهم، لبذل مزيد من الجهود العلمية المتأنية، لكشف النقاب عن مثل تلك المدرسة بأسيوط وغيرها، ومحاولة تقديم الدراسات الأثرية اللائقة بها، التي يمكن أن نطّلع من خلالها على أوصاف تلك المدارس جملة وتفصيلًا، لاسيما وأنها كانت على شاكلة مدارس العاصمة من حيث مبانيها وملحقاتها، ومن المؤكد أنه روعي عند بنائها الأغراض التعليمية، بحيث اشتملت على مواضع للتدريس، وخزانة للكتب، وأماكن للصلاة، ومساكن للطلبة وللموظفين. وذاك أمر لم تنفرد به مدارس أسيوط، وإنما كان من الأمور المرعية عند تشييد مدارس صعيد مصر بصفة عامة[٧٥]، والمطلع

على ما كتبه الأُدْفوي[٧٦] (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، في العصر المملوكي، يصادف وسط كتاباته إشارات إلى مثل هذه الأمور.

وعن موقع المدرسة الخُضيرية بأسيوط: فإنها كانت تقع بمنطقة الخُضيرية (أو الخضرية[٧٧]) جنوب غرب مدينة أسيوط، وتطل واجهتها الغربية على شارع الخُضيرية، وواجهتها الشمالية على شارع الطويجي[٧٨].

وظلت هذه المدرسة في أداء رسالتها العلمية والتعليمية، في أسيوط، طوال العصر المملوكي، بل وبعد ذلك في العصر العثماني، وقد حفلت سجلات وقائع محكمة أسيوط الشرعية، المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، بالكثير من حجج الوقف الخاصة بها[٧٩] خلال ذلك العصر الأخير.

وممن أُسند إليه تدريسها ونظرها في العصر المملوكي: الصَلاح الحسني السيوطي، الذي وُليها هي والشريفية والفائزية، وكان ذلك بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م، لكن لم يتمَ له التدريس بتلك المدارس[٨٠] كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

٤ـ مدارس أخرى :

إلى جانب المدارس السابقة، وجدت مدارس أخرى في أسيوط، وفي بعض توابعها في العصر المملوكي، وقد ورد ذكرها عرضًا في المصادر والمراجع، ولم نقف حتى على مسمياتها، والأمانة العلمية تقتضي هنا إعطاء لمحة سريعة عنها، لأن عدم ورود تفصيلات عنها في المصادر والمراجع، تصريحا أو تلميحا، لا يُعنى بالضرورة أنها لم تكن من المدارس المعروفة في العصر المملوكي، فمن المؤكد أنها كانت تُعرف لدى الدارسين آنذاك أو حتى على الأقل داخل الوسط الإقليمي الواقعة في إطاره، ومن المؤكد أيضا أنها أسهمت مع نظيراتها من المدارس المشهورة سالفة الذكر، في تنشيط الحركة المعرفية والثقافية في أسيوط في ذلك العصر، لكنها لم تحظ بتسليط الأضواء عليها عبر الكتابات التاريخية أو الأثرية أو غيرهما، الأمر الذي ضاعت معه حتى مسمياتها نفسها.

ومن هذه المدارس: مدرسة كانت بمكان مسجد سيدي جلال الدين السيوطي، وهو ذلك المسجد المشهور الذي يقع بشارع القيسارية، وعلمنا أن ثمة مدرسة كانت هناك مما أورده سيد علي الطويجي[٨١] في سياق مقدمة كتابه الذي كتبه عن أسيوط في العصر الحديث (سنة١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، إذ يقول عن أسيوط: "ولو لم أكن منها لتمنيت أن أكون منها، وقد سبقني أبي وجدي، فجدي آثرها على بلده السليمانية عاصمة الموصل، فأدى بها ثقافة علمية، تدريس اللغة التركية، بمدرسة كانت بمكان مسجد سيدي جلال، وكذا فقه الحنفية والحديث النبوي، وقد ذكر (ذلك) جدي أحمد في سند رسمي صادر من السيد أحمد رافع عفيف الدين، والسيد محمد عبد الرحيم عفيف الدين سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م".

وبمطالعة ما كُتب في المراجع حول مسجد سيدي جلال، الذي كانت بمكانه المدرسة المذكورة، وجدنا عثمان فيض الله[٨٢] يقول عنه: إنه كان يسمى قديما باسم مسجد الحِمْصي نسبة إلى أحد أهالي بلدة حِمص بالشام، والذي قدم إلى أسيوط واستوطن به مدة، ولقد جُدد المسجد عدة مرات، في العصر الحديث، بإشراف وزارة الأوقاف، ويقول عنه سيد علي الطويجي،

نقلا عن أحمد باشا تيمور: إنه عُرف بمسجد سيدي جلال عند العامة، وبمسجد الجِمْصي عند أهل العلم، وإن نسبته إلى الجمصي عند الخاصة ربما كانت لتجديده أو لتوليه الإمامة أو التدريس فيه أو النظر عليه، وليُحقق ذلك، فكله مبني على الظن والاحتمال(٨٣).

وبناء عليه، حاولت تحقيق تلك النسبة من خلال تقصي المعلومات الواردة بالمصادر المملوكية، عن كل من لُقب بالجِمْصي، فتبين لي أن الجِمْصي، الذي نسب إليه ذلك المسجد بأسيوط قبل أن يُعرف بمسجد سيدي جلال، هو الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن موسى بن الْحسن، الْقرشِي المَخْزُومِي الحمصي، ثمَّ القاهري الشَّافِعِي، وَيعرف بِابْن الحمصي (ت٨٦١هـ/١٤٥٧م)، فهذا الرجل ورد عنه بالمصادر: أنه وَلِي قضاء أسيوط سنة ٨٢٥هـ(٨٤)/١٤٢٢م، وأقام في قضائها مدة طويلة، وعمّر بها جامعا(٨٥)، فمن المؤكد أنه هو الجامع أو المسجد المذكور الذي نسب إليه، والذي لا نعلم على وجه اليقين هل كان جامعا بالفعل، كما قال السخاوي، أم كان مدرسة كما اعتبره الطويجي؟ وإن كنت أميل إلى الأخذ برأي الأخير، وخاصة في ظل الخلط الذي كان سائدا، في عصر المماليك الجراكسة، بين كل من المسجد أو الجامع، والمدرسة، والخانقاة، فمن المعروف أن المدرسة أصبحت زمن المماليك مكان عبادة ودرس، وكان أهم ما يميزها عن المسجد: مساكن الطلبة التي كانت تلحق عادة بالمدارس ليعيش بها الطلاب والمدرسون(٨٦).

وهذه المساكن من الصعب علينا، بالطبع، معرفة وجودها من عدمه في المكان الذي نحن بصدد الحديث عنه، أو حتى معرفة أوصاف المبنى الذي كان قائما هناك؛ من حيث تكوينه وعناصره المعمارية، فقد هُدم ذلك المبنى، وأقيم مكانه المسجد المعروف حاليا بمسجد سيدي جلال، والذي طرأت عليه تغييرات وتجديدات لم تُبق للمبنى القديم معالم أثرية مادية، كما لم يسجلها التاريخ، فضاعت تلك المعالم، وذهب معها الرسم والاسم.

ومهما يكن من أمر فقد اتخذ القاضي سراج الدين الحمصي من ذلك المكان الذي بناه بأسيوط سواء كان مدرسة، وهوالأرجح، أو جامعا اتخذ منه مكانا للتدريس، وممن تتلمذ على يديه فيه: والد الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، قبل انتقاله إلى القاهرة(٨٧).

ولعل ارتباط اسم والد الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي بذلك المكان، وتخرّجه منه يفسر لنا نسبة المسجد، الذي حل مكان المدرسة إلى الشيخ جلال الدين السيوطي، وذلك من الأمور المهمة التي يجب التنبيه إليها وتصحيحها هنا، لأنها من الأخطاء الشائعة بين الناس إلى الآن، ومما يزيد في خطورتها أن تلك النسبة لم تقف عند حد المسجد، بل انسحبت كذلك على الضريح الموجود بالمسجد، فقيل إنه قبر الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وصار ذلك من الأمور المُسلّم بها، مع أن الشيخ جلال الدين السيوطي لم يأت إلى أسيوط ولم يرها، كما روى ذلك بنفسه، في قوله عن أسيوط: "وقد أفردت لها تاريخا حسنا في مجلد لطيف(٨٨)، اقتداء بمن أفرد من المحدثين لبلده تاريخا، مع أني لم أرها إلى الآن، فإني إنما ولدت بمدينة مصر، ولم أسافر إليها البتة، وإنما فعلت ذلك لكونها بلد الوالد والأجداد"(٨٩). وقد حقق أحمد تيمور قبر الإمام السيوطي وموضعه بالقاهرة ونقل عنه سيد علي الطويجي(٩٠) قوله: إن في مدينة أسيوط مسجدا يعرف بجامع سيدي جلال الدين السيوطي وبه ضريح تزعم العامة جهلا أنه

ضريحه، إلى أن قال: والذي أراه أن ذلك الضريح هو المكان الذي كان يدرس به كمال الدين أبو بكر والد الإمام جلال الدين السيوطي قبل انتقاله إلى القاهرة، فنسبة المسجد إلى السيوطي إنما هي لوالده لا للمدفون في الضريح، فمن توالي الأيام ظنّوه أنه السيوطي، مع أنه مكان أبيه.

ويمكن أن نضيف هنا: أن ذلك الضريح إنما هو للشيخ همام الدّين الهمام الخُضيري، وهو الجد الأعلى للشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وذلك استنادا إلى ما قاله السيوطي[٩١] عن جده هذا: إنه "كان أحد مشايخ الصوفية وأرباب الأحوال والولايات" إلى أن قال: "ولجدنا هذا ضريح بأسيوط يُزار ويُتبرك به".

فمن المؤكد أنه هو ذلك الضريح، ولما بنى السراج الحمصي بجواره المدرسة أو المسجد، عرف أولا بمسجد الحمصي، ثم صار يطلق على ذلك المسجد اسم السيوطي، نسبة إلى والد الشيخ جلال الدين الذي تعلم به، ونُسب كذلك الضريح إلى السيوطي على اعتبار أنه لجده، ثم مع مرور الزمن، وغموض الحقيقة، نُسب المسجد والضريح إلى جلال الدين السيوطي نفسه لشهرته. وربما وجود هذا الضريح بالمسجد يجعلنا نعود لنؤكد، من جديد، على أن ذلك المكان الذي عَمّره الحمصي إنما هو في الغالب مدرسة وليس مسجدا. ذلك لأن المدرسة لم تكن في عديد من الحالات، في ذلك العصر، بناءً مستقلا قائما بذاته، وإنما كانت جزءا ملحقا بالقبة المدفون بها أحد الأشخاص[٩٢].

وعلى كل حال، لم يقتصر وجود المدارس في أسيوط على المدارس آنفة الذكر، أو بمعنى آخر لم يقف عند حد مدينة أسيوط بوصفها قاعدة أو مركزا للأعمال السيوطية، وإنما وُجدت المدارس أيضا في بعض المدن الأخرى التابعة لذلك الإقليم، وإن كنّا لم نحظ في المصادر بإشارات كافية عن تلك المدارس، فيكفي للتدليل على وجودها، على سبيل المثال، ما أورده ابن دقماق[٩٣] (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) في سياق وصفه لمدينة بوتيج[٩٤]، التي كانت . وما زالت . إحدى المدن التابعة لأسيوط، إذ يقول عنها: "وهي مدينة على ضفة النيل الغربية بعيدة عن النيل قليل، وبها جامع كبير قديم وبها مدارس...".

ويمكن الاستدلال من وجود تلك المدارس في مدينة أبوتيج على المكانة التي تبوأتها تلك المدينة كواحدة من المراكز العلمية المهمة بصعيد مصر في العصر المملوكي[٩٥]، وقد وردت بمصادر ذلك العصر إشارات إلى أسماء علماء وفقهاء نشئوا بتلك المدينة وتلقوا تعليمهم بمراكزها التعليمية[٩٦].

وصفوة القول: إن وجود هذه المدارس في أسيوط وفي بعض توابعها، في العصر المملوكي، يعكس وجود حركة مدرسية، ونهضة تعليمية، واسعة النطاق داخل الإقليم الأسيوطي في تلك الآونة.

ثالثا: الحياة التعليمية في مدارس أسيوط في العصر المملوكي :

كانت مدارس أسيوط، وغيرها من المدارس، في العصر المملوكي تُمثّل المرحلة العليا من مراحل التعليم آنذاك، أو بمعنى آخر كانت عبارة عن كُلّيات إسلامية عالية، يلتحق بها الطلاب لإتمام الدراسة. ويكون الالتحاق بها، في الغالب، عقب سن البلوغ بعد الانتهاء من مرحلة

التعليم الأولى بالكتاتيب (أو الابتدائية[٩٧]). فمن الثابت والمعروف: أن الطفل كان يلتحق بالكُتّاب أو المكتب وعمره سبعة أعوام، وإن كان كثير من الآباء، في العصر المملوكي، يلحقون أبناءهم به في سن أقل، ليستريحوا من تعبهم، وليس من أجل القراءة[٩٨]. ويستمر الطالب في المكتب متنقلا بين حلقاته: من حفظ للقرآن، أو سماع للحديث أو تعلم للفقه، أو اشتغال بالقراءة والكتابة والخط، حتى سن البلوغ، ثم ينتقل إلى المدارس أو المساجد التي تروق له، ليلتحق بإحدى حلقاتها، وإن لم يرغب فينصرف لشؤون الحياة[٩٩].

وعندما يلتحق الطالب بالمدرسة ينخرط في حياة تعليمية مفعمة بتلقي معارف مختلفة وعلوم متنوعة، وقد شهدت المدارس بصعيد مصر، بما فيها مدارس أسيوط، ذلك التنوع فيما كانت تقدمه لأبنائها من العلوم والمجالات المعرفية المختلفة، فكان يُدرس بها آنئذ العلوم الدينية، كالفقه والأصول والحديث والتفسير والقراءات، فضلا عن العلوم اللغوية، كالنحو والصرف والبلاغة، كما اتسع المجال فيها لتدريس العلوم العقلية، كالفلسفة والمنطق، وكذلك العلوم العملية، كالطب والكيمياء والفلك والهندسة[١٠٠].

ولدينا من الشواهد ما يمكن الاستناد إليه للتدليل على التنوع المعرفي داخل مدارس أسيوط المملوكية، وأول هذه الشواهد: أن المدرسة الفائزية كان يُدرس فيها، في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي؛ الفقه على مذهب الشافعي، والأصول، والنحو، والعروض، والحكمة، والمنطق[١٠١] والأدب والشعر[١٠٢].

ومن الشواهد المثبتة لذلك، أيضا، أن السير الذاتية الواردة في ثنايا المصادر لبعض العلماء الذين تلقوا تعاليمهم، أو بعضا منها، في أسيوط زمن المماليك، حوت في سياقها معلومات تفيد بذلك التنوع في العلوم والتخصصات التي سادت الوسط التعليمي في أسيوط وغيرها، ليس في عصر المماليك البحرية فحسب، وإنما كذلك في عصر المماليك الجراكسة، ويمكننا من خلال نظرات سريعة في مثل هذه السير، التأكد من ذلك، فعلى سبيل المثال: أورد جلال الدين السيوطي[١٠٣] في سيرة والده كمال الدين أبي بكر السيوطي أنه "ولد في أول القرن (أي التاسع الهجري) تقريبًا، وأقبل على العلوم بأنواعها، فأخذ عن مشايخ عصره، وبرع في الفقه والأصلين، والنحو والصرف، والمعاني والبيان، والفرائض والحساب بأنواعه، والمنطق، والوثائق".

وبمطالعة سيرة أخرى، مثل سيرة الشريف الحسني، مُحَمّد بن أبي بكر بن أحمد بن إسْمَاعِيل بن عبد الْوَهَّاب، الملقب أبوهُ بالناظر، يمكننا التأكيد على ما سبق، بل إن هذه السيرة تمدنا بتفاصيل أدق عن التخصصات والعلوم التي كانت تُدرّس بأسيوط، في العصر المملوكي، لأنها تفيد في معرفة أشهر الكتب والمؤلفات والمتون المعتمدة أو "الكراريس" التي كان المتعلمون ملزمين بحفظها، وعرضها على مشايخهم قبل أن يأخذوا معهم في مباحثها وبسط قواعدها، إذ ورد في ثنايا تلك السيرة أن صاحبها "ولد في يوم الجمعة سابع عشر جُمادى الثانية سنة إحدى وعشرين وثمانمائة فِي نواحي الصعِيد من بِلاد مصر ورُبي فِي نواحي أسيوط من بِلاد الصعِيد فقرأ بها القرآن وتلا به لأبي عمرو على مؤدبه الشريف محمد بن أحمد بن علي التلمساني، وحفظ العمدة[١٠٤]، وأربعي النَّوَوِيّ (في الحديث)، والرسالة (في أصول الفقه للإمام الشافعي رحمه الله)، وأكثر المخْتَصر الفرعيين (في الفقه)، وجميع جمع الْجَوَامِع (في أصول الفقه)،

وألفية ابن مالك (في النحو)، والملحة[١٠٥]، والجرومية[١٠٦] وتصريف العزي[١٠٧]، والرحبية[١٠٨] في الفرائض، وايساغوجي[١٠٩](في المنطق)، والتفحة الوردية (في النحو لعمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، والبعض من المفصل (في النحو للزمخشري)، والحاجبية (في النحو والصرف لابن الحاجب)، وأكثر ناظر العين[١١٠]، والصَّدقات في علم الهَيْئة (أي الفلك)، وألفية العراقيّ[١١١]، والشاطبيَّتين[١١٢]، والساوية[١١٣] في العروض، وارتحل للقاهرة في سنة ثلاث وأربعين..."[١١٤].

وفي الإطار ذاته: يمكن أن نأخذ من سيرة محمد بن أحمد بن عليّ بن عبد الخالق، الشمس الأسيوطي المنهاجي، شاهدا جديدا على صحة كلامنا، حيث يقول السخاوي[١١٥] في سياق تلك السيرة: "ولد كما قَالَ لي في جُمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وقيل سنة عشر بأسيوط، ونشأ بها فحفظ القُرآن عند سعد الدين الواحي وغيره، والعمدة، وأربعي النووي، والشاطبية والمنهاج الفرعي والأصلي، وسطور الإعلام في معرفة الإيمان والإسلام[١١٦] للحمصي، فيما زعمه". ثم يستطرد السخاوي بعد ذلك بكلام عن هذا الرجل، يفيد أنه عرض محفوظاته وتلقى تعليمه في علوم الفقه والنحو والحديث والقراءات والأدب، على مشايخ وعلماء بالقاهرة وأسيوط.

وعلى كل حال، ففي ظل هذا التنوع في العلوم والمجالات المعرفية، كان الطلبة في المدارس يختارون العلوم التي يدرسونها، وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العالية[١١٧].

وتكشف لنا الحياة التعليمية في مدارس أسيوط، في العصر المملوكي، عن وجود مدرسين أو أساتذة ومشايخ بارزين بتلك المدارس، عكفوا على تدريس صنوف العلوم بها، وساهموا من خلال مؤلفاتهم التي وضعوها في تلك العلوم، ومن خلال قيامهم بشرحها وتدريسها، مع غيرها من مؤلفات سابقيهم من العلماء أو المعاصرين لهم، في نشر الثقافة والمعرفة بأسيوط في ذلك العصر، وتخريج جيل من العلماء المتميزين، كانوا على شاكلتهم، فجابوا كثيرا من مدن مصر وغيرها، تاركين بها بصمات واضحة في المجالين؛ العلمي والمعرفي، جاعلين بذلك من مدارس أسيوط ومؤسساتها التعليمية الأخرى، رافدا مهما من روافد التعليم في مصر في تلك الآونة، وليس أدل على ذلك مما أورده السيوطي في كتابه المُعنْوَن بـ "التحدث بنعمة الله"[١١٨]، عن كثير من أسماء العلماء الخارجين من أسيوط أو المنسوبين إليها، والذين يحمل كل منهم في اسمه لقب السيوطي أو الأسيوطي، فمنهم رواة للحديث النبوي ومسندون، ومنهم أدباء ونحاة وشعراء وأولياء، وغير ذلك، ومن المؤكد أن من بين هؤلاء العلماء من دَرَس أو دَرّس بالمدارس الأسيوطية، وللتدليل على ذلك يكفينا في مجال الحديث، على سبيل المثال لا الحصر، ودون الخوض في ذكر تفاصيل أو أسماء، أن نأخذ من كلام السيوطي في هذا الصدد قوله: "وقد خرج من أسيوط ونُسب إليها خلائق من رواة الحديث ... ورحل إليها لسماع الحديث خلق من الأئمة والحُفّاظ".

ولنعرض هنا نماذج لبعض المدرسين الذين شغلوا وظائف التدريس في مدارس أسيوط، زمن المماليك، للتعرف على جوانب من حياتهم العلمية والتعليمية، ومكانتهم العلمية الرفيعة التي وصلوا إليها، ومدى مساهماتهم في حركة التعليم ونشر الثقافة في العصر المملوكي.

وأول أولئك المدرسين: العالم المغربي نجم الدين أبو نصر الأموي، الفتح بن موسى بن حماد، المعروف بالقصري، وهو من العلماء الذين اضطلعوا بالتدريس بالمدرسة الفائزية بأسيوط، ومن قضاتها المشهورين، وتناولنا التعريف به من قبل[١١٩]، ويطوافه في كثير من بلدان العالم الإسلامي طلبا للعلم، وانتهاء ذلك المطاف بدخوله مصر سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، ثم استقراره في أسيوط لحين وفاته بها سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م. ويبقى أن نشير هنا إلى مؤلفاته، والتي من أشهرها؛ نظم المفصل[١٢٠] للزمخشري في النحو، ونظم كتاب الإشارات (أي الإشارات والتنبيهات في الحكمة) لابن سينا، ونظم السيرة لابن هشام[١٢١] المسمى بـ "الوصول إلى السول في نظم سيرة الرسول"[١٢٢]، وهو على قافية رائية في اثني عشر ألف بيت[١٢٣]، وله أيضا منظومة في العروض[١٢٤].

ومن المدرسين والعلماء الأجلاء الذين دَرّسوا بأسيوط أيضا: الحسن بن عبد الرحيم بن الأثير، القرشي، محيي الدين الأرمنتي، الفقيه الشافعي، الذي أورده الأدفوي ضمن من ترجم لهم في كتابه[١٢٥]، وقال عنه: إنه كان من العلماء الصالحين الفقهاء العلماء العاملين، وتولى التدريس بمدينة أسيوط، وأقام سنين يُدرّس بها، وسافر من أسيوط، فتوفي في الطريق، وحمل إلى مصر، ودفن بسفح الجبل المقطم، وكان ممن يتبرك الناس به ويقصدون الدعاء منه"، وكانت وفاته في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.

ومنهم أيضا: تقي الدين يحيى بن عبد الرحيم بن الأثير الأرمنتي، الذي يصفه الأدفوي[١٢٦] بقوله: "كان من الفقهاء الشافعية المشاركين، درّس بمدرسة سيوط سنين كثيرة، وتولى الحكم بإطفيح[١٢٧] وبمنفلوط (إحدى مراكز أسيوط حاليا)، وسيرته فيه حميدة، وهو من بيت علم ورياسة، وجلالة ونفاسة، وحكم وعدالة، وسيادة وأصالة، ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة، وتوفي بمدينة سيوط سنة ثمان وسبعمائة".

وجدير بالملاحظة هنا أن الأدفوي في ترجمته لتقي الدين المذكور؛ لم يوضح لنا في أي مدرسة كان يُدرس، ونتوقع أنه كان يدرس بالفائزية، حيث لم تكن الشريفية أو الخضيرية أنشئتا بعد، وربما كانت الفائزية هي المدرسة الوحيدة في أسيوط وقت تدريسه بها، ولهذا نقرأ في كلام الأدفوي عبارة "درّس بمدرسة سيوط". فلو كان بأسيوط مدارس غيرها ما وصفها الأدفوي بأنها مدرسة أسيوط.

ومن كبار المدرسين كذلك: جلال الدين بن شرف الدين عبد الوهاب، الشريف الجعفري الزَّينبي الأسيوطي، مدرس المدرسة الشريفية بأسيوط، وكان ممن أسند لهم الحكم أو القضاء بها مدة، وتوفي سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م). وقد سبق التعريف به في سياق الحديث عن المدرسة الشريفية.

ولا يغيب عن البال هنا: الشيخ كمال الدين أبو بكر الخضيري السيوطي (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، والد الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الذي يقول عنه ولده[١٢٨]: إنه اشتغل بالعلم ببلده أسيوط وولي بها القضاء قبل قدومه إلى القاهرة. ونتوقع أنه درس بأسيوط بالمدرسة التي كانت مكان مسجد سيدي جلال الدين السيوطي حاليا، وهو المكان الذي تتلمذ فيه على يد القاضي سراج الدين الحمصي، كما سبق ذكره.

ومصادر العصر المملوكي المتأخرة، وما بعده، تحمل في طياتها مادة علمية غزيرة، ترجم فيها أصحابها لشخصية هذا العالم الجليل[١٢٩] ومن بين تلك التراجم نسوق مقتطفات من ترجمة ابنه له في كتاب "التحدث بنعمة الله"، ففيها الكفاية للتعرف على مشواره العلمي، ومكانته العلمية، وبالتالي؛ مكانة خريجي مدارس أسيوط، وإسهاماتهم في إثراء الحياة العلمية في العصر المملوكي.

يقول السيوطي[١٣٠]عن والده: "كان مولد والدي بأسيوط في أوائل القرن تقريبا ... واشتغل بالعلم ببلده، وولي بها الحكم نيابة. وقدم القاهرة سنة نيف وعشرين، فسمع صحيح مسلم على الحافظ ابن حجر، في سبع وعشرين. وكتب له الشيخ برهان الدين بن خضر[١٣١] ... ولازم العلامة شمس الدين القاياتي[١٣٢] فأخذ عنه الكثير في الفقه والأصول والكلام والنحو والإعراب والمعاني والبيان والمنطق، وأجازه بتدريس هذه الفنون كلها في سنة تسع وعشرين. وأخذ عن الشيخ باكير علم المعاني والبيان. وتلا على الشيخ محمد الجيلاني، وبرع في الفنون وتصدى للتدريس والإفتاء زمانا. وكتب الخط المنسوب الفائق. وبلغ في فن الإنشاء والبراعة والترسل والتوثيقات نهاية أذعن له فيها أهل عصره قاطبة، وانعقد الإجماع على انفراده بهذا الفن في عصره. وكان الأكابر من أهل هذا الفن يخضعون له ويأتون إليه ... وللوالد تعاليق وفوائد ضاعت. ولم أقف عليها. ومما رأيته من تعاليقه حواشٍ على "شرح الألفية" لابن المصنف ... وحاشية على "العضد". ورسالة في إعراب قول "المنهاج": "وَمَا ضُبِّبَ بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ". وحواشٍ على "أدب القضاء" للغزي، وأجوبة اعتراضات ابن المقرئ على "الحاوي". وأخذ عن الوالد جماعة فضلاء وانتفعوا به...".

والملاحظ من خلال النماذج السابقة ومن غيرها من الأمثلة ـ منعنا الخوف من الإطالة ذكرها هنا ـ لبعض المدرسين بمدارس أسيوط، في العصر المملوكي، أنهم كانوا يشغلون بجانب وظائفهم التدريسية وظائف القضاء و"النيابة في الحكم"[١٣٣].

كما نلاحظ أيضا: أن المدرسين بمدارس أسيوط لم يكونوا كلهم من أبناء أسيوط، وإنما كان منهم علماء من البلاد المصرية الأخرى من الصعيد ومن الوجه البحري، بل كان من بينهم علماء غير مصريين، منهم من كان من المغرب مثل الفتح بن موسى بن حماد، ومنهم من كان من الشام مثل سراج الدين الحمصي، وهذا أمر طبيعي في ظل اعتبار مدن العالم الإسلامي مدينة واحدة، يحق للعالم وللمتعلم التنقل بينها جميعا، بل والاستقرار بأي منها، ما دام يجد بها ما يشبع شيئا من نهمه العلمي على أيدي علمائها، أو تقديم ما ينفع طلاب مدارسها، دونما وجود عوائق أو عقبات تحول دون ذلك العطاء العلمي.

وفي ظل هذه الحرية في الحركة العلمية والتعليمية، داخل العالم الإسلامي في تلك العصور، لم يأل الطلبة في مدارس أسيوط جهدا في تحصيل العلم، سواء من المدرسين والعلماء القاطنين بها، أو حتى من العلماء وطلاب العلم الغرباء النازلين بها عبر رحلاتهم وأسفارهم، إذ كان نزول أمثال هؤلاء بالمدارس يعطي الفرصة لطلاب المدرسة لمناقشة ومناظرة القادم إليهم، ويوسع آفاق المتعلم للاطلاع على علوم أخرى غير التي يدرسها في مدرسته، ويحبب إليهم الرحلة، وكل ما يثري الحركة العلمية[١٣٤]، وفي هذا الصدد يمدنا السخاوي[١٣٥] بمثال في غاية الروعة عن:

مُحَمَّد بن أحمد، الأسيوطي المنهاجي، الذي تلقى نصيبا من تعليمه بأسيوط ثم أكمله بالقاهرة، إذ يقول عنه: "وأخذ عن الشهاب السخاوي[١٣٦] القادم عليهم أسيوط؛ مجموع الكلائي[١٣٧] والملحة، وقيل الشهاب العجيمي[١٣٨] وهو الذي سمعته منه".

لكن هذا ليس معناه أن يبقى الطالب في أسيوط قابعا في مدارسها، وإنما كان من الأمور المتعارف عليها في الحياة التعليمية آنذاك: أن يُيمم طالب العلم وجهه شطر أي بلد به عالم أو شيخ نال من الشهرة العلمية ما يستحق السفر إليه للنهل من علمه، وبناء عليه كان طالب العلم يجول في مختلف البلاد، والأقطار ليسمع من مشاهير العلماء فيها[١٣٩].

ويمكن استخلاص بعض الأمثلة على هذا الترحال والتنقل بين البلاد طلبا للعلم وبقصد الاستفادة والإفادة العلمية، مما سطره لنا أصحاب كتب التراجم في العصر المملوكي، ومن ذلك مثلا: ما ورد عن يوسف بن أبي محمد بن أبي البركات، السيوطي (ت٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، الذي يقول عنه الأدفوي[١٤٠]: "...اشتغل بالفقه في بلده وبمصر، وناب في الحكم ببوتيج وطما[١٤١] وغيرهما من بلاد سيوط، ثم توجه إلى مصر واشتغل بها"، ثم يستكمل الأدفوي سيرته بكلام يفهم منه أنه شغل وظائف القضاء والتدريس ببعض بلاد الصعيد؛ كقوص وأرمنت وإسنا وأدفو وأسوان.

وهناك عبد الرحمن بن عنبر بن عليّ بن أحمد بن يعقوب، الزين العثماني البوتيجي (ت٨٦٤هـ/١٤٥٩م)، الذي تلقى شطرا من تعليمه الأولى بمدينة أبوتيج، ثم سافر إلى القاهرة مع أبيه في سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، وعرض علي بعض علمائها، في سنة ٧٩٦هـ/١٤٩٤م وأجازوا له، ثم قطن القاهرة[١٤٢].

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك: أن الصلاح الحسني السيوطي، مُحَمَّد بن أبي بكر (ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، بعد أن تلقي تعليمه الأولى بأسيوط، انتقل به والده إلى القاهرة، ليعرض كتاب "العمدة" على الشيخ الزين العِرَاقيِ، وبعد أن تأكد الشيخ من إلمامه به، كتب له إجازة، ثم عاد مع والده إلى أسيوط، وأقام بها إلى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، وبعدها انتقل بأهله إلى القاهرة فقطنها، ونهل من علم علمائها، وبرع في كثير من العلوم والفنون، ثم أسند له بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م، تدريس بعض المدارس بأسيوط، ولكن لم يتمّ له ذلك[١٤٣]، كما سبقت الإشارة إليه في موضع متقدم من هذا البحث.

وهناك أيضا محمد بن أحمد، الأسيوطي المنهاجي، وكذلك كمال الدين أبو بكر الخضيري والد الإمام جلال الدين السيوطي، اللذان تلقيا شطرا من تعليمهما بأسيوط، ثم اتجها إلى القاهرة فحصلا كثيرا من المعارف والعلوم على أيدي علمائها[١٤٤].

وعلى أية حال، فمن الأمور المهم ذكرها هنا، والتي أماطت الحياة التعليمية في مدارس أسيوط اللثام عنها: أن تلك المدارس ضمت في نظامها التعليمي "معيدين"، بوصفهم طرفا معاونا للمدرسين أو الأساتذة، وهو ذلك النظام المعمول به حاليًا في نظم التعليم الحديثة بالجامعات العربية والأجنبية على حد سواء. ومن الذين شغلوا وظيفة الإعادة بأسيوط؛ أمين الدين محمد بن حمزة بن عبد المؤمن، الأسفوني، السيوطي المولد والمنشأ، والذي يقول عنه الأدفوي[١٤٥]: إنه كان فقيها فاضلا متدينا، تولى الحكم بأبي تيج، وتولى إسنا، وأعاد بمدرسة أسيوط، وتوفي سنة

اثنتين وعشرين وسبعمائة، وجدُ أبيه من أسفون[١٤٦]، وأقام جدُه بها، وانتقل إلى سيوط، وتأهل بها".

وكان هؤلاء المعيدون يقومون بدور مهم في العملية التعليمية، من خلال جلوسهم مع الطلبة قبل الدرس أو بعده، لمساعدتهم على استذكار دروسهم ومراجعتها، ليستوعبوها ويفهموها[١٤٧]، فضلا عن تشجيع المتعلمين على طلب العلم وحثهم على تحصيله، والمعيد بهذا يساعد المدرس في أداء عمله ويوفر عليه بذل الجهد والوقت لإعادة شرح بعض الدروس، لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، وكأن القصد من قيام المعيد بمهمة الإعادة: المحافظة على وقت المعلم وعلى احترامه ومكانته، وتخفيف الجهد عنه وعن المتعلمين معا، والمساهمة في إعداد المعيد وتهيئته للقيام بوظيفة المدرس مستقبلا[١٤٨].

وعن عملية التعلم أو طرق التدريس المتبعة في مدارس أسيوط في العصر المملوكي: فلم تسعفنا المصادر في الحصول على توصيف لها، لكن يمكن القول، بوجه عام، إنها لم تخرج عمّا كان مألوفا أو معهودا في كافة المدارس، خلال العصر المملوكي، من التفاف الطلبة بقاعة التدريس حول أستاذهم، في صورة مجالس أو حلقات تدريسية، مستمعين لما يلقيه على مسامعهم، وما يقرأه زملاؤهم من الكتب المختلفة ليتم التباحث فيه[١٤٩]، فمن المعروف أن التدريس بالمدارس في تلك العصور، وما قبلها، عادة ما كان يعتمد على الإلقاء والتلقين والإملاء، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه، وكان هناك تنظيم مطبق في قاعات التدريس بغية العمل والإفادة[١٥٠].

وبخصوص مواعيد الدراسة بتلك المدارس: فمن المؤكد أنها لم تخرج عن إطار التقليد المعمول به في العصر المملوكي، والذي حددته وثائق الوقف بدقة تامة، وهو أن اليوم الدراسي كان ممتدا من طلوع الشمس إلى أذان العصر، وكان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانات المكان، وحسب ظروفه، خلال اليوم الدراسي، أما أيام الدراسة فكانت تتراوح ما بين ثلاثة أيام وخمسة أيام، من كل أسبوع، حسب شرط الواقف، وكان هناك إجازات سنوية يحددها الواقف، وتتفق في الغالب والمناسبات الدينية التي تقام فيها شعائر دينية معينة، سواء كانت فرضا أم سنة[١٥١].

ولم تخل الحياة المدرسية في أسيوط، كشأن كافة المدارس زمن المماليك، من ضروب الترويح عن النفس، فأقيمت بالمدارس، بين حين وآخر، حفلات لمختلف المناسبات العلمية، كختم البخاري، أو الانتهاء من تصنيف كتاب، وجرت العادة أن يقوم الداعي بإحضار الأطعمة من الحلوى والفاكهة، ويجلس الطلبة والشيوخ ومعهم الأعيان والقضاة، حيث يمضون بعض الوقت في أحاديث ومناقشات علمية مفيدة، وربما صرفت المدرسة على الحفل من أوقافها[١٥٢].

وكان إذا أتمّ الطالب دراسته، يحصل من شيخه على إجازة (الشهادة حاليا)، وهي بمثابة ورقة كتابية يجيزه شيخه من خلالها بالفتيا والتدريس، يذكر فيها اسم الطالب ومذهبه وتاريخ الإجازة واسم مجيزها وغير ذلك[١٥٣]، وهذا النوع من الإجازات يكون غالبا في تخصص بأكمله أو أكثر، ومن الأمثلة عليها ما ورد ببعض المصادر: من تلك الإشارات التي تفيد منح الشيخ سُلَيْمَان البوتيجي[١٥٤]، المتوفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م بأسيوط- إجازات لعلماء من الصعيد في

علم القراءات[١٥٥]. ولم تقتصر الإجازات آنذاك على هذا النوع، وإنما وجدت أنواع أخرى من الإجازات عرفها المعاصرون، منها الإجازة "بعراضة الكتب"، فإذا حفظ الطالب كتابا في الفقه أو أصول الفقه أو النحو، أو غيره من الفنون، يعرضه على أحد مشايخ العصر، فيختبره فيه، ويستقرأه في عدة مواضع متفرقة منه، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم؛ استدل من ذلك على حفظه للكتاب، وكتب له إجازة بذلك[١٥٦]، ومن أمثلة هذا النوع: تلك الإجازة التي حصل عليها الصَلاح الحسني السيوطي (ت٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، من الشيخ، الزين العِراقِيّ، عندما عرض عليه كتاب "العمدة"، وأجازه له[١٥٧].

وهناك أيضا الإجازة بالمرويات[١٥٨] ويمكن أن نسميها الإجازة الحديثية أو إجازة الرواية، وهي عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه بالرواية عن طريقه، وتكون بالسماع، أو أن الطالب قرأ على شيخه متنا من المتون، أو كتابا من كتب الحديث، فيجيزه بروايته، وأتوقع أن ذلك النوع من الإجازات كان يمنح بكثرة في أسيوط في تلك العصور، لاسيما وأنها خرج منها ونُسب إليها كثير من رواة الحديث، ورحل إليها لسماع الحديث خلق من الأئمة والحُفّاظ[١٥٩]. الأمر الذي يعكس معه توفر قاعدة علمية في أسيوط في هذا المجال منذ فترة قد تكون سابقة، لدرجة أن وجد بها نساء حافظات، كنّ يمنحن مثل هذه الإجازات، نخص بالذكر منهن هنا: سِتّ الشّام بنت أبي صالح رَوَاحَة بن عليّ بن الحسين بن رَوَاحَة، التي عاشت في القرن السابع الهجري، وسمعت من أبي القاسم عبد الله بن الحسين بن رَوَاحَة الأربعين البلدانية للسِّلَفي[١٦٠]، وغير ذلك، وحدّثت عنه، وكانت تجيز بالرواية عنها، ويُقال لها شامية[١٦١].

وقبل أن نطوي الحديث عن الحياة التعليمية في مدارس أسيوط المملوكية؛ بقيَ أن نؤكد على أن الأوقاف كانت هي مصدر التمويل الأساسي، الرصين والمستديم، للصرف على هذه المدارس وضمان استمرار العملية التعليمية بها، فمن الثابت تاريخيًا أن الأوقاف في العصر المملوكي هي التي ثبتت أركان المدرسة، ودعمت نظامها، ومكنتها من القيام برسالتها[١٦٢]، وكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة، شهريا أو سنويا، نقدا أو عينا، هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة، حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة، بالإضافة إلى الأصناف العينية التيْ تصرف لهم يوميا، فضلا عن المخصصات السنوية لهم في المواسم والأعياد[١٦٣]، وكل ذلك بالطبع حسب شروط الواقف.

ونتوقع أنه: ما من مدرسة بأسيوط، زمن المماليك، إلا وخُصصت لها أوقاف معينة من قِبل مؤسسها للصرف على شئونها، وإن كنّا، لسوء الحظ، لم نعثر حتى الآن على وثائق أو حجج وقف نستدل منها على ذلك الأمر، إلا أن ما ذكره السيوطي[١٦٤] عن أحد أجداده من أنه: "كان في صحبة الأمير شيخو، وبني مدرسة بأسيوط، ووقف عليها أوقافا". لخير شاهد على أن نظام الوقف على المدارس كان معمولا به، في أسيوط، في العصر المملوكي.

ومن الشواهد الأخرى على ذلك ما أورده السخاوي[١٦٥] عن الشيخ الصَلاح الحسني السيوطي، محمد بن أبي بكر (ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م) من أنه: ولي بعد سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م تدريس "مدارس بأسيوط وهي؛ الشريفية والفائزية والبدرية الخضيرية ونظرها، فلم يتمّ له ذلِك". فمعنى توليه نظر تلك المدارس، أي نظر أوقافها والإشراف عليها، وهذا يعكس أن تلك المدارس

خصصت لها أوقاف للصرف عليها، كما يعكس، معه أيضا، أن الإشراف على المدرسة لم يوضع، في كل الأحوال تحت تصرف المشرف على الوقف أو صاحبه، وإنما كان يعهد بذلك أحيانا لبعض المدرسين، فيجمع المدرس بذلك بين التدريس وبين نظر الأوقاف الموقوفة على المدرسة، أو بمعنى أدق: بين وظيفتيّ الإشراف العلمي والإداري(١٦٦) على المدرسة. وهذا أمر طبيعي وكان متبعا في كثير من مدارس مصر المماليكية(١٦٧).

وختامًا: يمكن القول بناء على ذلك الطرح العلمي: إن مدارس إسيوط كانت في أوج نهضتها العلمية خلال العصر المملوكي، وإنها كانت بمثابة كُليات إسلامية عالية ساهمت بشكل أو بآخر في تخريج أجيال من العلماء، كان لهم باع طويل في تنشيط الحركة العلمية والمدرسية، ونشر الثقافة العربية والإسلامية خلال ذلك العصر، ويكفي أن تلك المدارس ظلت في صيرورة عطائها كمنارات للعلم ببلاد الصعيد، خلال العصر الجراكسي، على الرغم مما مُنيت به بلاد الصعيد، خلال ذلك العصر، من تدهور في الحياة الثقافية وإغلاق الكثير من دور العلم بها، نتيجة الفتن والاضطرابات التي كانت تموج بها تلك البلاد من جراء ثورات العربان، فضلا عما أصاب البلاد من مجاعات وأوبئة وطواعين، وغير ذلك من مؤثرات سلبية على الحركة التعليمية(١٦٨). والمدقق في صفحات ذلك البحث؛ يجد أن كثيرا من المعلومات الواردة في ثناياه، عن الحياة التعليمية وعن العلماء بتلك المدارس، إنما تعود إلى العصر الجراكسي، الأمر الذي يحمل معه التأكيد، من جديد، على النهضة العلمية بتلك المدارس طوال العصر المملوكي.

الهوامــش

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٠م، ج٣ ص٤١٧ . القلقشندي: صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤، ٢٠٠٥م ج١٠ص٤٥٨، ٤٥٩. جمال الدين الشيال: أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، مقال منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد (١١)، ١٩٥٧م، ص ١٣، ١٤ وأعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠١م، ص١٢١، ١٣٧- أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" الذي تضمن أبحاث "ندوة المدارس في مصر الإسلامية" التي عُقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٩١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ، ص١١٦، ١١٧ .

Lane Poole (S.):A history of Egypt in the middle ages, London 1924, p.188.

(٢) الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص١٨١ . الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى (٦٤٨هـ . ٧٨٣هـ)، الجزء الأول (مدخل في العصر واتجاهاته الفكرية والفنية) منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص١٣٣.

(٣) هو الخليفة الفائز بنصر الله: عيسى أبو القاسم بن الخليفة الظافر بأمر الله .

(٤) نصر جمعة محمد نصر: الحياة العلمية في صعيد مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٩٩٤م، ص٩٩، ١٠٠.

(٥) الوطواط: من مباهج الفكر ومناهج العبر "صفحات من جغرافية مصر"، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت ١٩٨١م، ص٩٤- محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٢م، ص١١٤.

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦م، ج٣ ص٢٣٨.

(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣ ص٢٣٩.

(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أو (الخطط المقريزية)، مكتبة الآداب، القاهرة (د. ت)، ج٤ ص١٩٢، ١٩٣.

(٩) هو فَتْح بن مُوسَى بن حَمّاد بن عبد الله بن عَلِيّ بن عِيسَى، ولد سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م بالجزيرة الخضراء بالأندلس، وعُرف بالقَصْري لأن والده نقله إلى قصر ابن عبد الكريم المعروف بقصر كتامة

وعمره مقدار خمس سنين، فنشأ بالقصر، فلهذا نسب إليه (اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج٢ ص٣٢٧، ٣٢٨ . الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٣م، ج٤٩ ص١٥٣، ١٥٤). وسوف يتم استكمال الترجمة لحياة ذلك الرجل وإسهاماته العلمية في جزء لاحق من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(١٠) الحسيني: صلة التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٧م، مج ٢ ص٥١٨، ٥١٩ . ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ج٨ ص٣٤٨. ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ١٩٧٩م، ج٢ ص١٨٥. السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، لبنان، (د. ت)، ج٢ ص٢٤٢.

(١١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢ ص٣٢٨.

(١٢) أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت١٩٧٤م، ص٢٣٣ . الحسيني: صلة التكملة لوفيات النقلة، مج٢ ص٥١٨ . اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢ ص٣٢٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩ ص١٥٤. ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى،ج٨ص٣٤٨. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م، ج٢ ص٢٩. ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٨٥. السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٤٢ وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ج١ ص٣٥٨.

(١٣) الخطط، ج٤ ص١٩٢، ١٩٣.

(١٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢ ص٣٢٨.

(١٥) ساد نظام الإقطاع مصر في عصر الأيوبيين، وصارت أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده، وكانت الاقطاعات توزع على المقطعين مقابل خدمات مدنية يؤديها المقطع في إقطاعه، فضلا عن الخدمات الحربية التي يلتزم بها (محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا في عصر سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٩٨٧، ص٥١).

(١٦) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٢٩ ص٨٥. والأعمال القوصية المذكورة كانت عملا متسعا ينتهي آخره إلى أسوان آخر الديار المصرية في البر الشرقي والغربي، ويضم عدة مدن وقرى بالصعيد الأعلى، ومقر ولايته مدينة قوص الواقعة على الشط الشرقي للنيل (العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، تحقيق أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣م، ج٣ ص٤٩٩ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣ ص٤٠٠، ٤٠١).

(١٧) الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ج٢٧ ص١٦٣، ١٦٤.

(١٨) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٩ ص٤٥٩ . المقريزي: الخطط، ج٣ ص١٤٥.

(١٩) المقريزي: الخطط، ج٣ ص١٤٥.

(٢٠) المقريزي: الخطط، ج٣ ص١٤٦ والسلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ص٤٨٧ وج٤ ص١٩١: ١٩٤.

(٢١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١ ص٨٠ . الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨ ص٢٢٠ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م، ج٧ ص٥٥.

(٢٢) ابن كثير: البداية والنهاية، دار التقوى، القاهرة ١٩٩٩م، ج١٣ ص٢٠١.

(٢٣) المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٦.

(٢٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٩، ج٤ ص٩٢.

(٢٥) المقريزي: الخطط، ج٣ ص١٤٥.

(٢٦) المقريزي: الخطط، ج٤ ص١٩٣.

(٢٧) مصطفى عبد الله محمد شيحة: دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٢م، ص٤٢٦.

(٢٨) محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا، ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٢٩) من مباهج الفكر ومناهج العبر "صفحات من جغرافية مصر"، ص٩٤.

(٣٠) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥ ص٢٢.

(٣١) صبح الأعشى، ج٣ ص٤٠٠.

(٣٢) اعتبر الدكتور ضياء محمد جاد الكريم مبنى الفائزية ضمن الآثار الدارسة، وأدرجه ضمن القائمة التي أعدها بهذا الخصوص في ملاحق كتاب (تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، ج٤ (الآثار

الإسلامية والقبطية)، أسيوط ٢٠٠٨م، ص٢٤٠) وعندما زرت المكان الذي كانت به المدرسة، تبين لي من سؤال القاطنين هناك أن مبناها كان قائما حتى سنة ٢٠٠٦م حيث شب فيه حريق، فأهمل، ثم هدم بعد ذلك، ويعاد الآن بناؤه تحت مسمى "مجمع الفائزية"، ولحسن الحظ عثرت على صور فوتوغرافية لهذا المبنى قبل أن يُهدم، التقطها الشيخ حسن سيد حسن البَذاك، إمام الجامع الكبير (الأموي)، وحصلت منه . مشكورًا . على نسخة منها، وأدرجت بعضها كملحق لهذا البحث، خشية ضياعها، خاصة وأنها لم تحظ بالنشر من قبل، وكإسهامة للفت نظر المهتمين بعلم الآثار إلى مثل تلك المعالم الأثرية المهملة، التي تحتاج عناية ودراسات متأنية لإماطة اللثام عن كثير من جوانبها الغامضة.

(٣٣) يقع هذا الجامع في وسط مدينة أسيوط تقريباً ويطل بواجهته الشرقية على شارع المحضر، وتطل واجهته الشمالية الغربية على شارع الجامع الكبير، ويشتمل جداره الجنوبي على فتحة باب تفضي إلى الميضأة التي تطل على شارع كوم الغزاة، وأسماء ذلك الجامع تدل على أنه من أوائل الجوامع التي أنشئت بمدينة أسيوط (ضياء محمد جاد الكريم: تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، ج٤ ص١٧).

(٣٤) سيد علي الطويجي السيوطي: مجمل تاريخ حاضرة الصعيد أسيوط، ج١ (المقال الموجز في مدينة أسيوط)، المطبعة الفاروقية بأسيوط، ١٩٤٩م، ص٢. وعن سبب تسمية ذلك المسجد بالأموي، فلم أحظ بأية إشارة إليها في المصادر القديمة أو المراجع الحديثة، والذي يتبادر إلى الذهن من تلك التسمية أنها مرتبطة ببنائه أو تجديده في العصر الأموي، وحسب ظنّي أن الأمر ليس كذلك، والأرجح أنه سميّ بها في العصر المملوكي، نسبة إلى العالم الجليل نجم الدين أبو نصر الأموي الذي درّس زمانا بالمدرسة الفائزية أمام ذلك المسجد، ثم عُين قاضيًا لأسيوط (اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢ ص٣٢٨) ومن غير المستبعد أنه ولي إمامة ذلك المسجد والنظر عليه، فاشتهر ذلك المسجد بالأموي نسبة إليه.

(٣٥) السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٤٢ . محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، ص١٨١ والأدب في العصر المملوكي، الجزء الأول (مدخل في العصر واتجاهاته الفكرية والفنية)، ص١٣٣.

(٣٦) سيد علي الطويجي السيوطي: المقال الموجز في مدينة أسيوط، ص٢ .

(٣٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د. ت)، ج٧ ص١٧٨ . التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية، بولاق١٨٩٦م، ص٤١١، ٤١٢.

(٣٨) هو الأمير قراقجا الحسني الظاهري برقوق، رقي في الرتب إلى أن استقر به الظاهر رأس نوبة النوب في سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، ثم نقله فيها إلى الأخورية الكبرى، فأقام فيها سنين، وكان ديناً متواضعاً عفيفاً، مات سنة٨٥٣هـ/١٤٤٩م بالطاعون (السخاوي: الضوء اللامع، ج٦ ص٢١٦).

(٣٩) سيد علي الطويجي السيوطي: المقال الموجز في مدينة أسيوط، ص٤ . ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٤٥ . كوثر سيد عبد العال: الحياة العلمية والثقافية في أسيوط في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك، نُشر ضمن تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، الجزء الثاني (العصر الإسلامي)، أسيوط ٢٠٠٨م، ص٣٢٣.

(٤٠) انظر؛ السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٤٠، ١٤١ـ ابن الحِمْصي: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض، دار النفائس، بيروت ٢٠٠٠م، ج١ ص٦٠ـ خير الدين الزركلي: الأعلام، "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، دار العم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، ج٦ ص٥٧.

(٤١) هو سراج الدين أبو حفص، عمر بن محمد بن علي بن فتوح، الدمنهوري، مولده بعد سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، برع في النحو والقراءات والحديث والفقه، وكان جامعاً للعلوم، درّس وأفتى، وحدّث عنه أبو اليمن البصري، مات سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م (السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٢٣. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ج٨ ص٢٩٤).

(٤٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة١٩٩٨،ج١ ص٢٠٧ ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ ص٤٦٩).

(٤٣) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٤ ص٢٢٣ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج١١ ص١٥٥. وعن لقب الجعفري الزَّيْنَبي، يقول المقريزي: إن العشيرة المعروفة ببني ثعلب التي نزلت بحرجة مير من أعمال سيوط، هم من الجعافرة الزيانبة أولاد على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه، وعرف بنو على هذا بالزيانبة؛ لأن أمه السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، ويقال: فيمن هو في بني ثعلب؛ الثعلبي الجعفري الزينبي (المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مطبعة المعارف، مصر ١٩١٦م، ص٣٩، ٤٠).

(٤٤) إنباء الغمر، ج٤ ص٢٢٣.

(٤٥) الضوء اللامع، ج٧ ص١٥٤، ١٥٥.

(٤٦) بنيت ذلك الاستنتاج من خلال زياراتي لذلك المكان، وعرفت من الناس هناك أنه كان يوجد به فعلا مسجد أو زاوية قديمة هُدمت وبُني مكانها مسجد يسمونه مسجد الشريفة، وهم يعتقدون أن الشريفة هذه كانت ست صالحة، ومنهم من يقول إنها الست خضرة الشريفة، وهناك ضريح لها بغرفة أعلى المسجد، وهو من دون شك اعتقاد خاطئ، والذي يقرأ تاريخ أسيوط خلال فترات لاحقة على العصر المملوكي يمكن له تبين صحة ما توصلنا إليه من استنتاج، فعلى سبيل المثال يقول عثمان فيض الله عند حديثه عن أسرة الخازندار: رب هذه الأسرة هو الحاج حسن الخازندار، وعين في هذه الوظيفة في عهد محمد علي باشا، وكان منزله في صقع من مدينة أسيوط كان ينزل به الحكام والأشراف ويسمى درب الشريفة (حارة الخازندار الآن) ولا يزال البيت القديم قائما إلى اليوم . أي سنة ١٩٤٠م . (انظر؛ مدينة أسيوط "بحث في بيئتها بين الماضي والحاضر"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م، ص١٨٩).

(٤٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٨.

(٤٨) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٤ ص٢٢٣. السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٦ والضوء اللامع، ج١١ص١٥٥، ١٥٦

(٤٩) ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص٢٤٤، ٢٤٥. قد يكون السبب الذي جعل الدكتور ماهر يقول: إنه هو جلال الدين الأبشيهي أنه تعجّل في نقل أول اسم أورده السخاوي ضمن مجموعة أشخاص حوت أسماؤهم اسم جلال الدين، وكان من بينهم ابن شرف الدين عبد الوهاب الجعفري مدرس الشريفية بأسيوط، فالتبس الأمر على الدكتور الكريم واعتبر أن مدرس الشريفية هو جلال الدين الأبشيهي. حيث يقول السخاوي في ذلك: "(جلال الدين) بن الأبشيهي في الأبشيهي، وابن الأسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي، وابن الأمانة عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عثمان، وابن السيرجي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن يوسف، وابن شرف الدين عبد الوهاب الجعفري الزينبي الأسيوطي مدرس الشريفية بأسيوط وهي من إنشاء ابن عم أبيه زين الدين، وكان قد ولي الحكم بها مرة، مات سنة سبع وأربعين، وابن الملقن عبد الرحمن بن علي بن عمر بن أبي الحسن و.... و.... و..... الخ" (الضوء اللامع، ج١١ ص١٥٥، ١٥٦).

(٥٠) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩ ص٢٤٤.

(٥١) ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص٢٤٥.

(٥٢) في تقديري أن الذي حدا بالدكتور ماهر إلى القول بهذا؛ تصوره للعبارة التي اختتم بها السخاوي كلامه عن جلال الدين بن شرف الدين عبد الوهاب، في ثنايا كتابه التبر المسبوك (ص٨٦. وكرر الكلام نفسه في الضوء اللامع، ج١١ ص١٥٥) والذي اعتمد عليه الدكتور ماهر في توثيق مقولته هذه، على أنها عبارة موصولة بترجمة شرف الدين شارح المنار الذي ترجم له السخاوي عقب ترجمته لجلال الدين مباشرة في الصفحة ذاتها، فتلك العبارة يقول فيها السخاوي "وكان قد وُلي الحكم بها مرة". أي بأسيوط . وهنا ينتهي كلامه عن جلال الدين، وهذا هو الطبيعي، وللتحقق منه يمكن مراجعة كتاب إنباء الغمر (ابن حجر العسقلاني، ج٤ ص٢٢٣) وهو المصدر الذي نقل عنه السخاوي أصلا العبارة المذكورة. لكن الدكتور ماهر قرأها موصولة بما بعدها، فصارت العبارة حسب قراءته وكأنها تقول: وُلي الحكم بها مرة شرف الدين شارح المنار. الأمر الذي عكس لديه أن شرف الدين وُلي التدريس بالمدرسة الشريفية، مع أن هذا أمر لم يحدث.

(٥٣) المقصود بها إقليم شبه جزيرة القرم، وتقع جنوب أوكرانيا على البحر الأسود.

(٥٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢ ص١٤٢.

(٥٥) الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٨.

(٥٦) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ج١٢ ص١٠٧.

(٥٧) محيي الدين الطعمي: الذهب المنقوط في تاريخ أعيان أسيوط، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٨م، ص١١٩ . ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص٢٤٥.

(٥٨) ضياء محمد جاد الكريم: تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، ج٤ ص٦٤ .

(٥٩) ضياء محمد جاد الكريم: المرجع نفسه، ج٤ ص٦٤ .

(٦٠) ج٧ ص١٧٨.

(٦١) محمد حمزة إسماعيل الحداد: العلاقة بين النص التأسيسي والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية"، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٧٧.

(٦٢) انظر: بغية الوعاة، ج١ص٤٧٢. التحدث بنعمة الله، تحقيق اليزابث ماري سارتين، القاهرة ١٩٧٢م، ص٥: ١١. حسن المحاضرة، ج١ ص٢٨٩، ٢٩٠، ٣٨٠، ٣٨١ . نظم العقيان، ص٩٥.

(٦٣) لأن والده هو كمال الدّين أبو المناقب أبو بكر بن ناصر الدّين محمد بن سابق الدّين أبي بكر بن فخر الدّين عثمان بن ناصر الدّين محمد بن سيف الدّين خضر بن نجم الدّين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدّين محمد بن الشيخ همام الدّين الهمام الخضيري. وهذا النسب ورد في صداق لابن عم والده، نور الدين علي بن جمال الدين عبد الله بن سابق الدين أبي بكر (السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص٥).

(٦٤) يقول ابن عبد الحق (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) عن الخُضيرية إنها: محلة كانت ببغداد، في الجانب الشرقي، وكأنها المحلّة التي يسمّونها الآن الخضرية، مجاور مشهد الإمام أبى حنيفة، ويعرف بسوق خضير. (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجبل، بيروت١٩٩٢م، ج١ ص٤٧٢).

(٦٥) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص ٥، ٦ . حسن المحاضرة، ج١ ص٢٩٠.

(٦٦) التحدث بنعمة الله، ص٧ . حسن المحاضرة، ج١ ص٢٩٠.

(٦٧) هو سيف الدين شيخو العمري، اشتراه الناصر محمد بن قلاوون وجعله من مماليكه فعرف بالناصري، تدرج في المناصب إلى أن صار من كبار رجال الدولة، وعُين في وظيفة رأس نوبة الأمراء سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م في سلطنة الناصر حسن الثانية، ولقب بالأمير الكبير، وقتل سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م (المقريزي: الخطط، ج٤ ص١١٣: ١١٥. السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص ١١٥، ٢٣٣).

(٦٨) يقصد بتلك المدرسة خانقاة شيخو التي بخط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخو (المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٨٣ والسلوك، ج٤ ص٢١٩. السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٣٣).

(٦٩) المقريزي: الخطط، ج٤ ص٢٨٣ والسلوك، ج٤ ص٢١٩.

(٧٠) المقريزي: الخطط، ج٤ ص١١٥.

(٧١) المقريزي: الخطط، ج٤ ص١١٤ والسلوك، ج٤ ص١٩١: ١٩٤.

(٧٢) المقريزي: السلوك، ج٤ ص١٩٣.

(٧٣) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص٧ .

(٧٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١ ص٢٩٠.

(٧٥) محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا، ص٢٥٥، ٢٦١.

(٧٦) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م. على سبيل المثال لا الحصر ورد في ذلك الكتاب (ص٥٨٠) أن خزانة الكتب بالمدرسة النجيبية بمدينة قوص كانت تحتوي على جملة كتب، من بينها كتاب يقع في ثلاثين مجلد .

(٧٧) عثمان فيض الله: مدينة أسيوط "بحث في بيئتها بين الماضي والحاضر"، ص٩٢.

(٧٨) زرت المنطقة التي كانت بها المدرسة الخضيرية، ووجدت تلك المدرسة قد هُدمت، ويبنى الآن مكانها مسجد يسمونه مسجد الخضري أو الخضيري. ولحسن الحظ فقد احتفظ لنا الدكتور ضياء محمد جاد الكريم بصور لمدرسة أو مسجد - على حد قوله - الخضيرية قبل أن تُهدم، ونشرها في كتاب تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، وللاطلاع عليها انظر الكتاب المذكور، ج٤ ص٦٥، ٦٦.

(٧٩) ضياء محمد جاد الكريم: المرجع نفسه، ج٤ ص٦٧ .

(٨٠) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٨ . علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج١٢ ص١٠٧.

(٨١) المقال الموجز في مدينة أسيوط، ص١ .

(٨٢) عثمان فيض الله: مدينة أسيوط "بحث في بيئتها بين الماضي والحاضر"، ص٢٠٩.

(٨٣) سيد علي الطويجي: ملخص تاريخ فخر أسيوط الإمام جلال الدين الشيخ عبد الرحمن السيوطي، مطبعة المنير بأسيوط، ط١، ١٩٣٣م، ص١٠، ١١.

(٨٤) سبط ابن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور، دار القلم العربي بحلب، سورية ١٩٩٧م، ج٢ ص١٦٣، ١٦٤. السخاوي: الضوء اللامع، ج٦ ص١٣٩، ١٤٠.

(٨٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦ ص ١٤٠، ١٤١.

(٨٦) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م "دراسة تاريخية وثائقية"، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٨٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦ ص١٤١ و ج١١ ص٧٢.

(٨٨) يقصد كتاب "المضبوط في أخبار أسيوط"، وللأسف هذا الكتاب مفقود، وعلمت أن منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين بألمانيا محفوظة تحت رقم ٩٨٤٥ /٥٧، فراسلت تلك المكتبة عبر موقعهم الإلكتروني، لطلب تلك النسخة، وجاءتني الإفادة أن رقم المخطوطة موجود بالفعل في الفهارس لديهم، لكن المخطوطة نفسها غير موجودة، وكان هذا ردهم نصا: "Dear Dr. Al-Kardousi,

Unfortunately, this manuscript is not in the state library. In the catalog it is mentioned only as an example for other manuscripts on this subject, but in Berlin we dont't have this manuscript.
With best regards, T. Hanstein"

(٨٩) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص ١٦.

(٩٠) ملخص تاريخ فخر أسيوط الإمام جلال الدين الشيخ عبد الرحمن السيوطي، ص١٠، ١١.

(٩١) التحدث بنعمة الله، ص٥ .

(٩٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٦٦.

(٩٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥ ص٢٤.

(٩٤) هي مدينة ومركز أبوتيج الحالية، وتقع جنوبي مدينة أسيوط، وهي من المراكز المهمة بالمحافظة.

(٩٥) ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص٢٤٦.

(٩٦) انظر؛ الأدفوي: الطالع السعيد، ص٥٣٠- ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت ١٩٩٣م، ج٤ ص٧ . السخاوي: الضوء اللامع، ج٢ ص١٢٤، ٢٥٤ وج٤ ص١١٥ وج١١ ص١٨٢.

(٩٧) **Mahamid (Hatim): Curricula and educational process in Mamluk Madrasas, Education Research Journal Vol. 1(7), December 2011, p.145, 146.**

(٩٨) ابن الحاج: المدخل، بيروت ١٩٩٥م، ج٢ ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٩٩) أمال رمضان عبد الحميد: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٢٨٨.

(١٠٠) محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا، ص٢٥٦.

(١٠١) السيوطي : بغية الوعاة، ج ٢ ص٢٤٢ . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي، ص ١٨١ والأدب في العصر المملوكي، الجزء الأول (مدخل في العصر واتجاهاته الفكرية والفنية)، ص١٣٣.

(١٠٢) الحسيني: صلة التكملة لوفيات النقلة، مج٢ ص٥١٩ . ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابيّ الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ج٥ ق١ ص٥٣٣.

(١٠٣) نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص٩٥.

(١٠٤) كتاب في فروع الشافعية، للإمام أبي بكر: محمد بن أحمد الشاشي (ت٥٠٧هـ/١١١٣م)، صنفه لعمدة الدين ولد المستظهر وهو: المسترشد الخليفة الفضل المتوفى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م، ثم اعتنى به العلماء فشرحه كثير منهم بعد ذلك، مثل ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وتاج الدين الفاكهاني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، وعلاء الدين البغدادي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)، وغيرهم (انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)، ج٢ ص١١٦٩، ١١٧٠).

(١٠٥) المقصود بها اللمحة البدرية، وهي في النحو، للشيخ أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ /١٣٤٤م)، (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص١٨١٨).

(١٠٦) تعرف أيضا بالمقدمة الآجرومية، ألفها أبو عبد الله بن محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم، المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، وتعتبر من أهم متون النحو العربي، ولأهميتها تصدى لشرحها جهابذة العلماء والنحاة قديما (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص١٧٩٦).

(١٠٧) كتاب في علم الصرف لعز الدين إبراهيم بن عبد الوهاب الزنجاني (ت بعد ٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، وشرحه التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص١١٣٨، ١١٣٩).

(١٠٨) هي أرجوزة أو قصيدة تعرف بالفرائض الرحبية أو غنية الباحث، وهي للشيخ صلاح الدين يوسف بن عبد اللطيف بن الرحبي الشافعي الحموي (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص١٢١١).

(١٠٩) ايساغوجي: لفظ يوناني معناه الكليات الخمس: الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، وهو: باب من الأبواب التسعة للمنطق، وصنف فيه جماعة من المتقدمين والمتأخرين، والمشهور المتداول منه كتاب (المختصر) المنسوب إلى أثير الدين الأبهري (توفي حوالي٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، وهو مشتمل على ما يجب استحضاره من المنطق، وسمي ايساغوجي مجازا من باب إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، أو تسمية الكتاب باسم مقدمته وله شروح وحواش كثيرة (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١ ص٢٠٦).

(١١٠) كتاب في المنطق لشمس الدين أبو الثناء الأصبهاني، محمود بن عبد الرحمن بن أحمد، المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧، ٣٢٨).

(١١١) منظومة في علوم الحديث، المسماة "التبصرة والتذكرة في علوم الحديث"، للإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، وهي مطبوعة الآن.

(١١٢) قصيدتان في علم القراءات للشاطبي، القاسم بن فيرُّه بن أحمد (ت٥٩٠هـ/١١٩٤م)، إحداهما هي القصيدة اللامية أو "حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني" وهي مشهورة للغاية ولها شروح كثيرة، وتعرف بالشاطبية، وعدد أبياتها ١١٧٣ بيتا (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١ ص ٦٤٦). والأخرى هي القصيدة الرائية أو "عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد"، وهي في بيان رسم المصحف (خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٤ ص٣١١).

(١١٣) في علم العروض والقافية؛ لصدر الدين محمد بن الحسن الساوي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، ويوجد منها نسخة خطية بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية، تحت رقم ٣٩٥٥ /٤١٦ س.س .

(١١٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٥٤، ١٥٥.

(١١٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٣.

(١١٦) يسمى هذا الكتاب أحيانا بسطور الإعلام في مباني الإيمان والإسلام، وهو من تأليف عمر بن موسى بن الحسن، الحمصي (ت٨٦١هـ/١٤٥٧م)، ويوجد منه نسخة خطية محفوظة بقسم المخطوطات بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية، تحت رقم ١٤٧١ /٢١٤ س.ح .

(١١٧) كوثر سيد عبد العال: الحياة العلمية والثقافية في أسيوط، نُشر ضمن تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور، الجزء الثاني (العصر الإسلامي)، ص٣٢١.

(١١٨) انظر؛ ص١٥، ١٦.

(١١٩) وذلك في سياق الحديث عن ظهور المدارس في أسيوط .

(١٢٠) أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، ص٢٣٣.

(١٢١) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ص٣٤٨ . السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٤٢ وحسن المحاضرة، ج١ ص٣٥٨.

(١٢٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٥ ص١٣٤.

(١٢٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩ ص١٥٤ . ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢ ص١٨٥.

(١٢٤) السيوطي: بغية الوعاة، ج٢ ص٢٤٢.

(١٢٥) الطالع السعيد، ص٢٠٦.

(١٢٦) الطالع السعيد، ص٧٠٨. وانظر أيضا؛ الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد، وآخرون، دار الفكر، دمشق١٩٩٨م، ج٥ ص٥٦٦. ابن حجر العسقلاني:الدرر الكامنة، ج٤ ص٤١٩.

(١٢٧) إطفيح: إحدى مراكز محافظة الجيزة، وتقع على الضفة الشرقية من النيل في مواجهة مركز العياط، وكانت في عهد المماليك، تعرف باسم الأعمال الإطفيحة.

(١٢٨) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص٨.

(١٢٩) انظر مثلا: السخاوي: الضوء اللامع، ج١١ ص٧٢، ٧٣ . السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص٤٧٢ وحسن المحاضرة، ج١ ص٣٨٠، ٣٨١ ونظم العقيان، ص٩٥. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢م، ج٢ ص٢٨٩- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٩ ص٤١٥، ٤١٦ . علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج١٢ص١٠٦.

(١٣٠) التحدث بنعمة الله، ص٧ : ١٠ .

(١٣١) هو الفقيه إبراهيم بن خضر بن أحمد، الشافعي، القصوري الأصل، نسبة إلى القصور قرية بالصعيد، ولد بالقاهرة سنة٧٩٤هـ/١٣٩٢م، ومات سنة٨٥٢هـ/١٤٤٨م (السيوطي: نظم العقيان، ص١٥، ١٦).

(١٣٢) هو محمد بن علي بن محمد بن يعقوب بن محمد القاياتي، الشافعي، قاضي القضاة بالديار المصرية، ولد في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، وقيل سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م. كان إمام عصره في العلوم، تولى التدريس بعدة مدارس، مات سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م (السيوطي: نظم العقيان، ص١٥٤) .

(١٣٣) كان لكل قاضي قضاة أعوان ينوبون عنه في مصر والقاهرة يسمون"النواب من الحكام" (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، نشرت كملحق لكتاب صبح الأعشى (ج١٥)، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٣٥٣). وبالطبع كان للقضاة بالأقاليم، ومن بينها أسيوط، أعوان ينوبون عنهم، مثل مصر والقاهرة تماما، ويطلق على كل منهم نائب الحكم، ومن الأمثلة على ذلك فيما يخص أسيوط أن والد جلال الدين السيوطي "ولي بها الحكم نيابة" (السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص٨).

(١٣٤) أمال رمضان عبد الحميد: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، ص٢٩٥.

(١٣٥) الضوء اللامع، ج٧ ص١٣.

(١٣٦) هناك أكثر من شخص عرف بالشهاب السخاوي، ونرجح أن المقصود هنا هو؛ الشهاب ابن موتن السخاوي المالكي، أحمد بن محمد بن زين، الذي برع في العربية والفقه وأصوله وغيرها وتصدى للإقراء بأبوتيج (إحدى مدن أسيوط) وكان مقيما بها وبالقاهرة، وعمّر بحيث جاز التسعين أو قاربها، ومات في سنة اثنتين وستين وثمانمائة (السخاوي: الضوء اللامع، ج٢ ص٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٢).

(١٣٧) كتاب المجموع في علم الفرائض، للشيخ أبي عبد الله شمس الدين محمد بن شرف الكلائي، الشافعي المتوفى سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ ص١٦٠٥، ١٦٠٦).

(١٣٨) ترجم السخاوي لاثنين كل منهما يعرف بالشهاب العجيمي، أولهما أحمد بن عبد الله الشهاب العجيمي الحنبلي، أحد الفضلاء الأذكياء، أخذ عن شيوخ عصره، ومهر في العربية والأصول وقرأ في علوم الحديث، ولازم الإقراء والاشتغال في الفنون، ومات عن ثلاثين سنة بالطاعون في رمضان سنة تسع بالقاهرة . أما الثاني فيقول عنه السخاوي "هو أحمد بن محمد الشهاب العجيمي الصوفي بالخانقاه السرياقوسية، قرأ على شيخنا الترمذي في سنة أربع وأربعين وبلغ له بالشيخ، وكان متوددا، مات فيما أظن بعد الستين" (انظر: الضوء اللامع، ج١ ص٣٧٢ وج٢ ص٢١٧) . وإن كان المنهاجي السيوطي تعلم على يديّ الشهاب العجيمي، فأكبر الظن أنه الشهاب العجيمي الحنبلي، المذكور أولا، لأن الواضح من سياق الترجمتين أن الأول منهما هو الذي اشتغل بالعلم والتدريس.

(١٣٩) كوثر سيد عبد العال: الحياة العلمية والثقافية في أسيوط، ص٣٢١.

(١٤٠) الطالع السعيد، ص٧٢٦ : ٧٢٨.

(١٤١) طما: مدينة بالصعيد، تقع غرب النيل، شمال طهطا وجنوب صدفا، وتتبع الآن محافظة سوهاج.

(١٤٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤ ص١١٥.

(١٤٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٧، ١٧٨.

(١٤٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٣.

(١٤٥) الطالع السعيد، ص٥١٨ . وانظر أيضا: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج٤ ص٤١٩.

(١٤٦) قرية تسمى أيضا أصفون، وتتبع حاليا مركز إسنا في محافظة الأقصر. وكانت في العصر المملوكي تابعة للأعمال القوصية (ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥ ص٣٠).

(١٤٧) ابن جماعة: تذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم في أدب العَالِم والمُتَعَلِّم، تحقيق عبد السلام عمر عليّ الجزائري، مكتبة ابن عباس، سمنود، مصر ٢٠٠٥م، ص٢٦٠ . القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٦٤.

(١٤٨) للمزيد حول طبيعة عمل المعيدين ومهامهم في العصر المملوكي، وأسس اختيارهم، وتوليتهم، وتحديد أعدادهم، وإقامتهم بالمدارس، ودورهم في إثراء الحياة العلمية، وشغْل بعضهم وظائف أخرى بجانب الإعادة، وعزلهم وتنازل بعضهم عن الإعادة وأسباب ذلك، والمناصب التي شغلوها

بعد الانتهاء من الإعادة. (انظر؛ محمد أحمد محمد الكردوسي: الإعادة بمدارس مصر المملوكية، بحث منشورٌ بمجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، العدد (٤٠)، أكتوبر ٢٠١١م، ص٥٠: ١٥٩).

(١٤٩) انظر؛ ابن جماعة: تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّم، ص٢٢٩: ٢٣٢- ابن السبكي معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥م، ص١٠٨.

(١٥٠) عفاف سيد محمد صبره: المدارس في العصر الأيوبي، بحث نُشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٩٠ .

Mahamid (H.): Curricula and educational process in Mamluk Madrasas, p. 148.

(١٥١) انظر؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٤٩: ٢٥١ .

Mahamid (H.): Curricula and educational process in Mamluk Madrasas, p. 146.

(١٥٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٦٣- محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا، ص ٢٦١.

(١٥٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤ ص ٣٢٢: ٣٢٦ . سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٢، ١٦٣.

(١٥٤) هو سليمان بن أبي الطاهر بن أبي القاسم بن عبد الكريم البوتيجي، المُقْرِئ الضَّرير، كان مقرئا مجودا مَشهورا بالدينِ والصلاح، ومات بأسيوط في آخر سنة ٧١١هـ/١٣١١م أو أول السنة التي تليها (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ ص١٥٣).

(١٥٥) الطالع السعيد، ص٥٣٠، ٧١٧، ٧٢٠. الصفدي: أعيان العصر، ج٤ ص٤٩١ والوافي بالوفيات، ج٣ ص١٩٨- ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤ ص٧- السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص١٥٨.

(١٥٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤ص٣٢٧- سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٣.

(١٥٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٨.

(١٥٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤ ص٣٣٢.

(١٥٩) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص١٥. من المحدثين المشهورين بعلو الإسناد، الذين رحل إليهم الناس لسماع الحديث منهم بأسيوط؛ زين الدين عبد الرحمن بن أبي صالح رواحة بن علي بن الحسين بن مظفر بن نصر بن رواحة الأنصاري الحموي الشافعي، (ت٧٢٢هـ/١٣٢٢م)، سمع

من جده لأمه أبي القاسم بن رواحة، وصفية القرشية (الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٨٥م، ج٤ ص٦٥، ٦٦ . العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، ج٢٧ ص٥٢٨. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج٣ ص٢٦، ٢٧ والوافي بالوفيات، ج١٨ ص٨٧ . المقريزي: السلوك، ج٣ ص٥٦ . ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢٨ . السيوطي: حسن المحاضرة، ج١ ص٣٣٨).

(١٦٠) هو الحافظ أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد الأصبهاني (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م)، من أهل أصبهان، رحل في طلب الحديث، وكتب تعاليق وأمالي كثيرة، وبنى له الأمير العادل (وزير الخليفة الظافر الفاطمي) مدرسة في الإسكندرية سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م فأقام إلى أن توفي فيها. وكتاب الأربعين البلدانية، من تأليفه، وهو المسمى "الأربعين المستغني بما فيه عن المعين"، وهو في علم الحديث، حققه عبد الله رابح، وطبع بمكتبة دار البيروني بدمشق سنة ١٩٩٢م.

(١٦١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ ص١٢٦.

(١٦٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٦٣.

(١٦٣) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص١٤٠: ١٤٦، ٢٤٠. محمد أحمد محمد بديوي: مظاهر الحضارة في مصر العليا، ص٢٦١، ٢٦٢ .

Haarmann (Ulrich): "Mamluk Endowment Deeds as a Source for the History of Education in Late Medieval Egypt", in al-Abhath/American University Of Beirut, Vol. 28, 1980, P. 34.

(١٦٤) التحدث بنعمة الله، ص٧ . حسن المحاضرة، ج١ ص٢٩٠.

(١٦٥) الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٨.

(١٦٦) عفاف سيد محمد صبره: المدارس في العصر الأيوبي، بحث نشر بكتاب "تاريخ المدارس في مصر الإسلامية"، ص١٨٢.

(١٦٧) انظر على سبيل المثال؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١ ص٩٥ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج١ص٦٣.

(١٦٨) ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة ص٢٤٣، ٢٤٤.

ملحق عبارة عن مجموعة صور للمدرسة الفائزية قبل هدمها

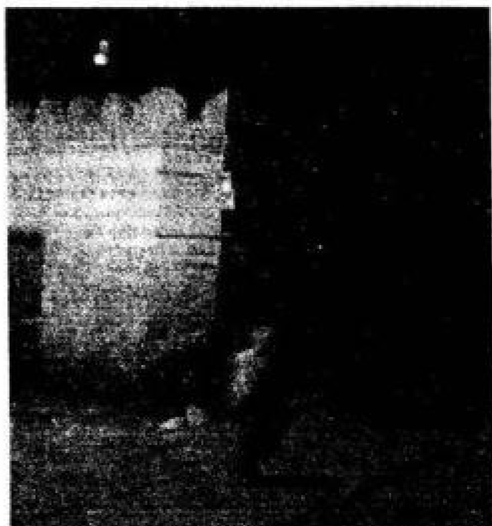
من تصوير الشيخ حسن سيد حسن اليدّاك، إمام الجامع الكبير (الأموي)

١ـ باب ومدخل الفائزية

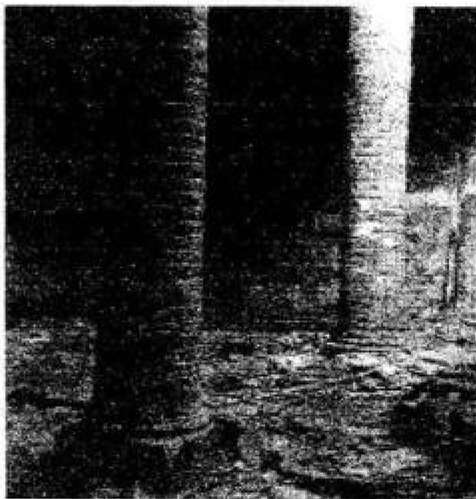


٢ـ الفانزية من الخارج





٣ـ الفائزية من الداخل





الصراعات الداخلية الحبشية في العصر الثاني من حكم الأسرة السليمانية من خلال المصادر الحبشية

(٨٣٨-٩٤٧هـ/١٤٣٤-١٥٤١م)

د. محمد أحمد محمد بهنساوي (*)

واجه أباطرة الأسرة السليمانية، في العصر الثاني لها، العديد من الصراعات والثورات الداخلية في البلاد، وذلك نتيجة فترة الاضطربات السياسية التي جاء علي خلفيتها الإمبراطور زرع يعقوب Zar'a Y'aqob (٨٣٨-٨٧٣هـ/١٤٣٤-١٤٦٨م) علي عرش البلاد، ولقد روئي قبل الخوض في هذا الموضوع: إعطاء نبذة مختصرة عن هذه الصراعات التي سادت في العصر الأول (٦٦٩-٨٣٨هـ/١٢٧٠-١٤٣٤م) من حكم هذه الأسرة.

يعد الصراع الداخلي بين أمراء الأسرة الزغاوية[١] (٣٢٩-٦٦٩هـ/٩٤٠-١٢٧٠م) أحد أهم العوامل التي أدت إلي سقوط هذه الأسرة، وليس أدل علي ذلك من قيام مذبحة كبيرة بين أعضاء الأسرة الحاكمة، في دبرا داموDebra Damo، في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وذلك أثناء حكم الملكة (جوديت- أسترا-Esthera)[٢] (٣٢٩-٣٧٠هـ/٩٤٠-٩٨٠م) اليهودية الأصل، وقد استمرت مثل هذه الصراعات والثورات الداخلية في ظل تولي ملوك من ديانات مختلفة علي رأس المملكة[٣]، لذا أنشأ الملك (لاليبالا-Lalibela)[٤] (٥٨٥-٦٢٢هـ/١١٩٠-١٢٢٥م) صرحا كبير ليحجز فيه أبناء الأسرة الحاكمة لتلافي الصراعات فيما بينهم، وهو ما أطلق عليه "السجن الملكي أو أمبا جيشن" [٥] حيث استمر هذا التقليد بين أباطرة الحبشة عامة، حتي بدايات العصر الحديث[٦].

وعلي الرغم من وجود هذا السجن الملكي، إلا أن هناك العديد من الإشارات، في بطون المصادر الحبشية، التي تدل علي استمرار وجود مثل هذه الصراعات والثورات في عصر الأسرة السليمانية عامة، تزداد حدتها بصفة خاصة عند اعتلاء كل إمبراطور جديد عرش المملكة الحبشية[٧]. فالإمبراطور(أو ملك الملوك) هو رأس الحكم، ونظامه ملكي استبدادي، يستند حكمه إلي حق ألهي ورثه بتسلسل عن منليك الأول (طبقاً للأسطورة المعروفة)[٨]. وهو يرث الحكم عن أبيه، ولكنه لم يكن للابن الأكبر بقدر ما كان للابن الأقوى[٩]. وربما يمكن التدليل علي صحة هذا الرأي بالإشارة إلي فترة حكم يجبيا صيونYagba soyan (٦٨٤-٦٩٤هـ/ ١٢٨٥-١٢٩٤م) والذي كان له خمسة أبناء اتفق معهم أن يحكم البلاد كل منهم لمدة عام بالتناوب[١٠]، إلا أن آخر أبنائه، والذي يدعي سابا أسجد Sab'a Asgad (٦٩٨-٦٩٩هـ/١٢٩٨-١٢٩٩م)

(*) باحث حاصل علي درجة الدكتوراه.

لم يصبر حتى تنتهي نهاية فترة حكم أخيه (جين أسجد Djin Asgad ٦٩٧-٦٩٨هـ/١٢٩٧-١٢٩٨م)، فدبر مؤامرة للقبض عليه وأخوته الآخرين، إلا أنه لم يعش طويلاً[١١]. كما أن يجبيا صيون نفسه قد ورث الحكم عن أبيه يكونو أملاك، برغم أنه أصغر أبنائه، حيث تمكن من سجن أخوته جميعاً[١٢]. وفي نفس الصدد أيضاً فقد استطاع ودم بن سيف أرعد Wedem Sayfa Ar`ed (٧٧٤-٧٨٤هـ/١٣٧٣-١٣٨٢م) أن يأخذ الحكم من أخيه داود Dawit I (٧٨٤-٨١٤هـ/١٣٨٢-١٤١١م) برغم صغر سنه[١٣]، وهكذا فإذا اعتلى أحدهم العرش لا يمكنه الاستمرار في الحكم إلا بمقدار قوته وقدرته علي المحافظة عليه من الطامعين[١٤].

أما في الحالات التي كان يتوفي فيها الإمبراطور دون ترك وريث ذكر، كانت القوات الملكية_ فور موت الإمبراطور_ تسرع إلي السجن الملكي لاختيار الأمير الشاب الذي يتولي عرش المملكة، والذي غالبًا ما يكون أخو الإمبراطور السابق[١٥]. ويلاحظ أن انتقال الحكم من عائلة حاكم إلي شقيقه؛ كان يعد حادثًا مهمًا في البلاد يستلزم إحضار هذا الأخ من فوق جبل الأمراء "أمبا جيشن" ليتوج بدلاً من الإمبراطور الراحل[١٦].

ولم يكن موت الإمبراطور هو السبب الوحيد لوجود الصراعات بين أعضاء الأسرة الحاكمة علي العرش، بل كان هناك العديد من محاولات اغتصاب العرش بالقوة أثناء حياة الإمبراطور، فهناك ثلاث محاولات لانتزاع الحكم في أوائل حكم الأسرة السليمانية، حتي عهد الإمبراطور(دواد)، فأثناء حياة هذا الإمبراطور أشارت مصادر القديسين الأحباش إلي أن القديس (ماري) St. Mary جمع حوله العديد من رجال الدين، واستقر رأيهم علي وجوب تنازل (داود) عن العرش لابنه (تيودورس)[١٧]، وقد استعان (دواد) ب(العقابي ساعات سيجاقا) Saraqa في دبر حيق، وبعض قادة الجيش الذين طلبوا العفو والسماح من القديس (ماري) الذي وافق وسامحه، بل أنه صلي من أجله، وتتفق تلك المصادر علي أن (العقابي ساعات) مات في عام ١٤٠٣م، أي أن هذه الواقعة حدثت قبل هذا التاريخ الذي أدى فيها (العقابي ساعات) دورًا رئيسًا في استقرار المملكة فترة من الوقت، فقد أبقي (دواد) علي عرشه ما لا يقل عن سبع سنوات كاملة[١٨].

وهكذا بدت المملكة الحبشية علي شفا هاوية عندما اعتلي الإمبراطور زرء يعقوب عرشها، ليقوم بأعظم عملية ترميم في بناء المملكة المتداعي في العصور الوسطي. ويبدو أنه ليس من الواقع في شئ أن نعد زرء يعقوب أول الملوك المصلحين الذين عملوا علي إنقاذ المملكة، إذ وجد من الذين تعاقبوا علي عرش المملكة الحبشية من أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا في الإصلاح، لاسيما الإمبراطور (عمدا صهيون الأول) الذي أطلقت عليه المصادر المختلفة "المؤسس الحقيقي للأسرة السليمانية"[١٩].

أما عن الصراعات والثورات الداخلية، التي قامت في العصر الثاني من حكم الأسرة السليمانية، فهي تختلف عما نقرأه في كتب التاريخ المختلفة، فلم تكن ناتجة عن تمرد الشعب بسبب فرض المزيد من الضرائب، وسوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الحروب الداخلية، بقدر ما

كانت نابعة من الأطماع الداخلية في الاستيلاء علي العرش، من قبل أعضاء الأسرة الحاكمة، وبعض كبار النبلاء ورجال الدين .

وقد اختلفت الأسباب التي أدت إلي قيام مثل هذه الدسائس تبعًا لأحوال كل عصر، إذ يشير النص الملكي الحبشي في عهد (زرء يعقوب) إلى كثرة الارتعاد والخوف الذي كان في أيامه؛ نتيجة قوة حكمه وقضائه تحت ستار الشرعية الدينية[٢٠]، حتي إن كبار القادة حين يدخلون عليه لإلقاء كلمة، كانوا يسجدون علي ركبهم، ويقبلون الأرض خوفًا وارتعادًا كلما سمعوا صوت الإمبراطور[٢١].

أما الثورات والتمردات الداخلية التي عاصرت (بئيد ماريام ٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨-١٤٧٨م) فقد كانت علي العكس من ذلك تمامًا، إذ كانت نتيجة مناخ الحرية الذي جاء به الإمبراطور، وأحس به الشعب، بعد ظلم مرير إبان عصر أبيه، مما سمح للشعب بعلو الأصوات التي صمتت طويلاً، بينما يشير النص الملكي الحبشي، في عهد الإمبراطور (ألكساندر٨٨٣-٨٩٨هـ/١٤٧٨-١٤٩٢م) إلي تطلع بعض رجال الدين إلي إدارة شئون المملكة[٢٢]، فضلاً عن قيام المنازعات بين كبار مسئولي المملكة، بسبب صغر سن الإمبراطور، وعدم درايته بالحكومة وشئون البلاد[٢٣].

وهكذا ازدادت الصراعات السياسية في ظل صغر سن أباطرة هذه الفترة، مما أدي إلي تطلع بعض رجال الدين إلى التدخل في الأمور السياسية، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسة في فترة حكم (عمدا صيهون الثاني ٨٩٨-٨٩٩هـ/١٤٩٢- ١٤٩٣م) والتي اشتهرت – برغم قصرها- باشتعال الحروب الأهلية، وإراقة الدماء بين أنصاره وأنصار عمه الإمبراطور (ناؤود ٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م) الذي تولي الحكم من بعده، فقد استطاع أحد رجال الدين، ويدعي (تكلا كرسيوس)، إثارة الشعب ضده، وكادت الثورة أن تهلك البلاد لولا نهايته السريعة[٢٤].

والملاحظ أن هذه الثورات اختفت تقريبًا بشكل كبير في عهد الإمبراطور لبنا دنجل، ٩٦٤-٩٤٧هـ/١٥٠٨-١٥٤١م، بسبب انشغال عهده بالحروب مع المسلمين[٢٥]. أما عن أحداث هذه الصراعات والدسائس، فسنتناولها بشئ من التفاصيل في الفقرات التالية :-

١- في عهد (زرء **يعقوب** ٨٣٨ – ٨٧٣ **هـ** /١٤٣٤– ١٤٦٨م) :

وضع أغلبية المؤرخين والرحالة (زرء يعقوب) كواحد من أقوي أباطرة الحبشة في العصور الوسطي، إذ لم يوضع أحد مقامه سوي الإمبراطور (عيزانا) كأقوي أباطرة الحبشة، وعلي الرغم من ذلك؛ فإنه يصعب تصور عدد المؤامرات والدسائس التي قامت في عهده، وقد أورد بعض الباحثين أن سبب هذه المحاولات هو: انحراف هؤلاء عن الإيمان الصحيح بالعقيدة النصرانية، لذا حيكت الدسائس، وقامت الثورات من جانب أبنائه وبناته وأزواج بناته، بالإضافة إلي رجال البلاط، وبعض رجال الدين، وذلك في محاولات عديدة لإقصائه عن عرشه[٢٦]، وذلك علي النحو التالي:-

أ- الثورات التي قامت من جانب الأسرة والبلاط الملكي :

علي الرغم من أن الأمبراطور أعطي لبناته بعض المناصب السياسية والإدارية كحكام لبعض المقاطعات، إلا أنهن أردن التصرف في هذه المقاطعات وكأنها مستقلة عن البلاد، و تشير المصادر الحبشية إلي التمرد الذي قام به البحث ودد (عامد مسقل) الذي دعي فيما بعد باسم (عامد الشيطان) وهو زوج ابنه (زرء يعقوب) التي تدعي (برهان زمدا)، وكانت جريمته الأساسية، وشاية وصلت إلي الإمبراطور بأنه يظلم الناس ويتمرد، إلا أن المؤرخ الملكي يروي أن جريمته الأساسية أنه تزوج سراً بامرأة أخري، بمساعدة "الصاسرجوية" (حامل الزينة الملكية) الذي يدعي (أمخا إياسيوس)، فما كان من الإمبراطور إلا أن عقد مجلسًا عسكريًا، وكشف أمام قادته جرائم (عامد مسقل) وانتهي المجلس إلي الحكم عليه بالإعدام، إلا أن مؤرخ البلاط يذكر أنه تم نفيه-(عامد مسقل)- إلي مكان لا يعلمه إلا الإمبراطور، كما تم عقاب بعض رجال الدين الذين ساعدوه علي ذلك، مثل (النبورايد نوب) -حاكم أكسوم- في دبرا دامو وأعدم معه(٢٧).

وتشير المصادر الحبشية أيضًا إلي أكبر حركة تمرد في عصر (زرء يعقوب) وهي تمرد البحث ودد (إيساياس Isaias) الذي كان أيضًا زوجًا لإحدي بنات الإمبراطور (أدل منجشا)، وكان (إيساياس) حاكم منطقة تيجري وبعد زواجه من ابنة الإمبراطور تم تعينه في منصب البحث ودد، وقد استطاع إقناع حاكم مقاطعة جني بالاشتراك معه في التمرد، ومما زاد من خطورة هذه الثورة، انضمام بعض فرق الجيش وقادته مثل (بدل وني) الذي كان رئيس "فرقة الشباب"، ورئيس فرقة الجان بلو، و"بدل كفت" رئيس "فرقة الصراوجيت"، وقد أراد هؤلاء المتمردون تعيين بعضهم في مناصب أعلي في الحكومة الإمبراطورية، وإبعاد بعض من وصفوهم بالفاسدين عنها، إذ طلب (إيساياس)أن يكون حاكمًا لمقاطعتي جوجام وجني معًا، وعندما رفض الإمبراطور طلباتهم، بدأت هذه القوات في إحداث عمليات شغب في أرجاء المملكة، وعلي الرغم من فشل بعض قادة القصر في التخلص منهم، إلا أن القوات الملكية استطاعت السيطرة عليهم، كما أثيرت ضدهم بعض الدعاية السيئة، فراح مؤرخ البلاط ينسب قيام زعمائهم ببعض الأعمال المنافية للآداب، حيث يشير النص الحبشي إلي أن (بدل وني) قد زني بامرأة أبيه، كما كان لزوج أخته (حرب سجد) نفس العلاقة معها، وكلاهما يعلم(٢٨).

علي أن أمر هذه الدسائس والمؤامرت لم تقف عند حد بنات الإمبراطور وأزواجهن، بل امتد ليشمل أولاد الإمبراطور الذكور، فيحكي (زرء يعقوب) نفسه في كتاب "مصحف ميلاد" عن أولاده (جلاديوس) و (عامد ماريام) الذين اتجها بمساعدة أميهما إلي السحرة والعرافين، وأجبروهما علي تقديم القرابين للشيطان، بل وصل الأمر إلى الاتفاق فيما بينهم علي أن يأتي (جلاديوس) ببعض مؤلفات أبيه "طومار تصبنت - مصحف برهان" لحرقها، وذلك في مقابل الاعتراف به ملكًا علي البلاد، وقد تم الكشف عن هذه المؤامرة، وعاقبهما الإمبراطور بالضرب بالسوط، فمنهم من عاش ومنهم من مات (٢٩).

كما ثار أيضًا (بئيد ماريام) ابن (زرء يعقوب) بمساعدة أمه، وذلك في السنوات الأخيرة من حكم أبيه، بعد أن شعر بطول فترة حكم أبيه ولرغبته الجامحة في تولي الحكم، إلا أن هذه

المؤامرة قد تم الكشف عنها أيضا، و أمر الإمبراطور بربط يدي وقدمي ابنه (بئيد ماريام) وجلده حتي كاد أن يهلك هو وخادمه (محاري كرستوس Mahari Krestos) لولا شفاعة بعض رجال الدين، وعلي رأسهم كل من: رئيس دير ليباتوسDabra Libabos ، ودير كاسوا Dabra Kaso والأب الرحيم (أبو قير) التابع لدير اندجيطن، فأطلق الإمبراطور سراحه و أنعم عليه بمنحه بعض المناصب الشرفية(٣٠).

وهكذا ذكرت المصادر الحبشية تمرد أولاد وبنات الإمبراطور، و ذكرت أسماء من تمردوا من أبناء الإمبراطور، إلا أنها لم تذكر أسباب تمردهم بشئ من التفاصيل، كما ذكرت عقابهم أمام الناس، ليروا بأنفسهم ماذا يفعل الملك بأبنائه من أجل المسيح، إذ يفهم من ذلك اتجاه البعض منهم لعبادة الأوثان أو لدين آخر، وهو الأمر الذي يفضي إلى عقوبة الموت(٣١).

ب- تمرد بعض رجال الدين :

لم تقتصر تلك الثورات داخل العائلة الملكية فحسب، بل امتدت لتشمل بعض رجال الدين ورؤساء الأديرة الذين أرادوا تنحية (زرء يعقوب) عن العرش وتولية غيره، وقد وصف مؤرخ البلاط هؤلاء "بالرجال الأشرار" الذين يدعون (تعاوق برهان) و (زرء صهيون)(٣٢). والجدير بالذكر أن هذا التمرد اشترك فيه بعض حكام المقاطعات، وبعض الرهبان مثل الأب (أندروس Abba Indiriyas) رئيس دير دبرا ليباتوس، والملاحظ أن كاتب النص لم يذكر معلومات دقيقة حول هذا التمرد، ربما يرجع ذلك إلي أن الطبيعة السياسية لأعمال الإمبراطور شغلت المؤرخ بما يسجل من مثل هذه الأحداث، فيذكر أن الملك وحده يعرف قصة هؤلاء الحقيقية، وفضل عدم إعلان التهمة الموجهة لهم سوي أنهم كانوا يعبدون الأوثان، كما أن أمهاتهم كنّ سببًا في ضلالهم إلي السحر الأسود، فضلاً عن ادعائهم باطلاً أن الإمبراطور قام بتجنيد جيش من الجواسيس في أنحاء المملكة، يمسكون ببعض أفراد الشعب ليحطموا أنوفهم بمسامير حديدية ويجمعوا دماءهم في أوعية كبيرة ثم يتم غليه، وعندما يبرد يدهن به الإمبراطور جسده(٣٣)، علي أن (زرء يعقوب) قد نفي عن نفسه هذه الشائعات التي وصفها بالبلهاء(٣٤).

ومن خلال سيرة حياة القديسين نتعرف علي بعض الطرق التي لجأ إليها الإمبراطور لمعالجة هذه الأزمات، من ذلك مناقشة القديس تكلا هاوتريت Abba Takla-Hawaryat لعلاج أمر هذه الإضرابات، وعندما أختلف مع الإمبراطور أختلافاً بيناً رأي فيه الإمبراطور تطاولاً علي شخصه؛ ألقي به في السجن(٣٥). وهكذا لجأ الإمبراطور إلي سياسية الحديد والنار لقمع هذه الثورات جميعا، كما أنه لجأ إلي البطريرك والقضاة والمطران المصري، إذ إنه نجح في إقناع البطريرك (يوحنا) لاستصدار وثيقة حرمان من قبل الأب يوحنا(٨٣١-٨٥٧هـ/١٤٢٨-١٤٥٣م) "لكل من يحاول عصيان الملك أو أراد تولية غيره علي عرش المملكة يكون مطرودًا ومحرومًا بكلمة الرب"(٣٦).

ومنذ ذلك الحين، في عام٨٦٦هـ/١٤٦٢م، عاش (زرء يعقوب) يحكم المملكة بيد من حديد طيلة ست سنوات، إلا أنه نتيجة هذه التمردات عاشت الحبشة، في هذه الفترة، في ارتعاد

وخوف من شدة حكم الملك، فقد كان (زرع يعقوب) يقتل من يريد من الناس ويعفو عمن يريد، ويقدر من يريد ويعظمه ما دام قد نفذ مشيئة الرب وأمر الإمبراطور"[٣٧].

٢- في عهد (بئيد ماريام) (٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨-١٤٧٨م) :

رغم شدة حكم (زرع يعقوب) في قمع الثورات التي قامت في عهده، إلا أن هذه الثورات استمرت في عهد خليفته (بئيد ماريام)، ولكنها جاءت بصورة مغايرة تمامًا عن ما كانت عليه في عهد أبيه، إذ جاءت في صلب العقيدة المسيحية نفسها، ومن ذلك أنه انتشرت صورة للرسام الإيطالي (فرانسيسكو دي ليون) التي تجسد السيدة مريم العذراء وهي تحمل طفلاً صغيرًا علي ذراعها الأيسر، كما درجت عليه العادة في أوربا آنذاك، إلا أن ذلك يتعارض مع الاعتقاد الشائع لدي الأحباش عمومًا بأن اليد اليسري هي علامة الشر، بخلاف اليد اليمني التي تدل علي الخير، مما أدى إلى قيام الأحباش بثورة اعتراضًا على هذه الصورة[٣٨].

وهكذا دخلت ثورات الحبشة طورًا جديدًا واختلفت أهدافها، إذ تحولت من الثورة علي الحكم إلي المجادلات الدينية والعقائدية، من ذلك أنه احتدم النقاش بين عدد من رجال الدين في البلاط الملكي وبعض الرهبان السريانيين وإخوانهم المصريين حول طبيعة السيد المسيح، فقد رأي فريق منهم أن السيد المسيح من نفس طبيعة الأب، لأنه إله ابن إله، بينما رأي فريق آخر بأن طبيعة الابن أقل درجة من طبيعة الأب، لأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن لكنه صنع من مادة فائقة الوصف، فجسد المسيح لم يصنع مثل الإنسان العادي من دم ولحم وشرايين ....إلخ[٣٩]، وعلي هذا فقد أمر (بئيد ماريام) بالقبض علي هؤلاء وأمر بعقابهم بالجلد والقضبان الحديدية، تبعاً لدرجة عقوباتهم كل حسب درجته[٤٠].

علي أن أمر هذه المجادلات لم يقتصر علي النقاش حول الأمور الدينية فقط، بل امتد إلي طريقة عمل الإمبراطور ذاته، ومن ذلك أنه أثير جدلٌ واسعٌ عن كثرة تنقلات (بئيد ماريام) بين مقاطعات المملكة كيفما يريد، فقد أوردت المصادر الحبشية أن الإمبراطور يقضي معظم وقته علي ظهور الخيل، وأهمل المملكة وترك شئونها الداخلية، وبخاصة أمور القضاء، وأن الإمبراطور لا يعيش وفق تقاليد ومبادئ أسلافه، وأنه يلهو كما يلهو الشباب، وانتشرت مثل هذه الأحاديث بين الشعب، ويشير كولمبس إلي اشتراك بعض قادة الجيش في هذه الوشايات[٤١]، وقد أثارت مثل هذه الأحاديث حفيظة الملك، وأمر بجمع الناس ومعهم كثير من الرهبان والليقاقطاني (قاض من القضاة) واجتمع الجميع في إحدي قاعات الملك، وقال لهم "وقلتم أن ملكنا لا يقضي يومه في أمر القضاء، وفي شريعة الملك، بل في ركوبه الخيل- هكذا قلتم، لأن هذا التقليد- ركوب الفرس وإطلاق السهام- لم يكن لدي آبائي الأقدمين من قبل" وأمر بتقديم أصحاب هذه الوشايات للمحاكمة، وإلا فالموت للجميع، وبرغم إنكار الجميع لهذه التهمة؛ إلا أن الإمبراطور أمر بقطع أرجلهم وتم نفيهم إلي عدة أماكن مختلفة[٤٢].

وعلي الرغم من شدة حكم الإمبراطور إزاء هذه المجادلات، إلا أنها تطورت و وصلت إلى الإمبراطور نفسه، فيذكر النص الملكي ان الليقامطاني (بكلي) انفرد بالإمبراطور وأخبره بأن الجان مساروتش[٤٣] تمردوا عليه، وأرادوا تنفيذ مؤامرة للتخلص من حكمه، وفي اليوم التالي أمر

الإمبراطور بإحضار هؤلاء جميعا لاستجلاء الحقيقة، وعلي الرغم من أن الجميع أقسم بكنيسة صهيون علي نفيه القيام بأى محاولة لإيذاء الملك، إلا أنه أمر بتعليق الجان مساروتش من رقابهم[٤٤].

وهكذا اضطر (ماريام) إلي اتباع سياسة أبيه في مواجهة هذه الثورات التي حيكت ضده، لذلك فقد دخل الرعب إلي قلوب الشعب[٤٥] والذي ظن في بداية الأمر بأن هذا الملك يختلف عن أبيه، بدليل إصداره العفو العام عن جميع المسجونين الذين اعتقلوا في عهد أبيه (زرء يعقوب) وأعادهم إلي ديارهم، بالإضافة إلي أنه سمح لجميع الناس بارتداء ما يشاءون من الملابس ذات الألوان مختلفة[٤٦]. إلا أنه انتشر بين الشعب الحبشي في ذلك الوقت: أن الإمبراطور أشد قسوة من أبيه، ومما دلل علي ذلك عقابه للصاسرجوية الذي يدعي (جبرواحد) بحجة استخدامه ضرائب المملكة فيما لا يحق له[٤٧].

٣- في عهد (**ألكساندر ٨٨٣-٨٩٨هـ/١٤٧٨-١٤٩٢م**) :

كانت إدارة المملكة الحبشية في عهد هذا الإمبراطور تتم عن طريق (العقابي ساعات تاسفا جورجيس Tasfa – Giyoris)[٤٨] وكل من الوزيرين: البحت ودد اليمين الذي يدعي (أمادا ميكلا Amda–Mikai el)، والبحت ودد اليسار الذي يدعي(بدالي ردBadla – Red) فضلاً عن وصاية أمه، إذ كان طفلاً صغيراً[٤٩].

وقد انفرد بإدارة أمور المملكة (أمادا ميكلا) لكونه أكثرهم خبرة، وكان ذا قوة كبيرة منذ أيام (زرء يعقوب)، لذلك كانت له اليد العليا في الحكومة أيام (ألكساندر) حتى إن الملكة (رومانه) اختفت تقريبًا من الساحة السياسية في ذلك الوقت، مما أثار حفيظة باقي كبار رجال البلاط، فتعاونوا بقيادة كل من الأب (حسيبو Abba – Hasabo) و(مأيمون باسيدك Meeman Basedequs) والأب (أمادوا Abba – Amdu) لإسقاطه، وعلي الرغم من ذلك استطاع البحت ودد (أمادا ميكلا) القبض عليهم جميعا، وقام بجلدهم عدة مرات ثم تم نفيهم جميعًا، وأثناء سيرهم إلي المنفي لقي بعضهم مصرعه[٥٠].

وهكذا انتصر (أمادا ميكلا) علي أعدائه، ولكن بمرور السنوات ازادت المعارضة ضده وخاصة بعد أن أدرك (ألكساندر) حقيقة الأمور، فقد كان محاطًا بالعديد من رجال البلاط الذين نظروا إلي البحت ودد وكأنه عقبة تقف في طريق طموحاتهم، وقد أرادوا وضع حدٍ لسلطته، وعلي الرغم من أن النص الملكي لا يشير، علي وجه الدقة، إلى الأسباب التي أدت إلي سقوطه، إلا أنه من الواضح أن أعداءه عزلوه عن الإمبراطور الشاب، وقاموا بالوشاية ضده أكثر من مرة، مما جعل الإمبراطور يصدر أمرًا بالقبض عليه ونفيه إلي مكان مجهول[٥١].

وتشير المصادر الحبشية إلي أن (أمادا ميكلا) تمكن من تجميع أنصاره مرة أخري بالتعاون مع بعض فرق الجيش واستطاع الرجوع إلي البلاط، وراح جنوده يعبثون في البلاد سلبًا ونهبًا، إلا أن الإمبراطور تمكن من إلقاء القبض عليه وحكم عليه بالإعدام[٥٢].

كما تشير الأحداث أيضًا إلي أن الموت أدرك الملك فجأة، وهو فى سن صغيرة فلم يكد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، فأخفت الملكة الكبيرة (إيليني) خبر وفاته، وأمرت بحفظ

جثته خوفًا من محاولة (زا سليوس) اغتصاب العرش، وهو ما يثير العديد من التساؤلات حول هذه الوفاة[٥٣].

٤- في عهد (عمدا صهيون الثاني ٨٩٨-٨٩٩هـ/١٤٩٢- ١٤٩٣م):

علي إثر الموت المفاجئ للإمبراطور (ألكساندر) اندلعت الحروب الأهلية في الحبشة، فقد زحف (زا سليوس) بسرعة مع بعض قواته نحو جبل الملوك "أمبا جيشن" في أمهرة، و استطاع أخذ الأخ الأصغر للملك المتوفى و يدعى (ناؤود)، وأعلنه ملكًا علي البلاد ثم اختفى بسرعة خوفًا من قوات رجال الحرس الملكي[٥٤].

وعلي الرغم من إعلان (ناؤود) إمبراطورًا علي الحبشة، إلا أن مجلس الوصاية بمشاركة الملكة (إيليني) وتأييد أقوي مسئولي البلاط الذي يدعي (تكلا كرسيوس Takla – Kristos) سارعا بتتويج ابن (ألكساندر) الذي يدعي (عمدا صهيون الثاني)، وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، وبذلك انقسم البلاط الملكي في الحبشة بين معسكرين، معسكر أنصار (عمدا صهيون الثاني) بزعامة (تكلا كرسيوس) ومعسكر أنصار عمه (ناؤود) بزعامة (زا سليوس)، وقد اندلعت الحروب الأهلية بين المعسكرين ووصلت إلي العديد من المقاطعات الحبشية، واستمرت هذه الحروب الأهلية ستة أشهر كاملة هي عمر الملك (عمدا صهيون) في الحكم، تمكن خلالها (تكلا كرسيوس) من هزيمة (زا سليوس)، وسجن معظم ثوار جيشه، و عاقبهم بإفقادهم أبصارهم، وقد أعلن الحداد في بعض الكنائس الحبشية نتيجة كثرة عدد القتلي، إلا إن هذا الحداد انتهي بموت الإمبراطور، حتي أن سجل حياة وسير القديسين أعلن ارتياحه لموته، وبشر بعهد الخير والسلام بعد أن تولي (ناؤود)[٥٥].

٥- في عهد (ناؤود ٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م):

وهكذا انقلبت الأوضاع في الحبشة بعد موت (عمدا صهيون الثاني)، وأصبح أعداء الأمس هم أنفسهم أصدقاء اليوم، فها هو (ناؤود) الذي رشحه (زا سليوس) قبل ستة أشهر فقط يتولي العرش، وكان الصراع ما زال مشتعلاً علي السطح في بعض المقاطعات، عندما أعاد (زا سليوس) إعلانه للمرة الثانية (ناؤود) ملكًا في أمهرة في (ذي الحجة ٨٩٩هـ/أكتوبر ١٤٩٤م)، وقد أدي هذا الإعلان إلى فرار كثير من حكام المقاطعات والنبلاء الذين كانوا معارضين إعلانه إمبراطورًا، كما فر (تكلا كرسيوس) إلي إيفات عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م، وراح يثير أهالي ايفات ضد الإمبراطور عن طريق عدد من فرسانه، إلا أن أهالي ايفات نجحوا في القبض عليه، واقتادوه مقيدًا بالسلاسل إلي الإمبراطور الذي قام بنفيه، وقام بعض أفراد الحرس الملكي بفقئ عينيه أثناء ترحيله إلي المنفي[٥٦].

ويذكر النص الحبشي أن الراهب (يوحنا) بشر بأن (ناؤود) سوف يكون عهده مليئاً بالخير والهدوء والسلام[٥٧].

كما أصدر الإمبراطور قرارًا بالعفو العام عن بعض السجناء، وقد سخر بعض رجال الدين من مثل هذه النبوءة، وراحوا يثيرون الفتن الداخلية ضد الإمبراطور وبعض مسئولي البلاط،

وكان علي رأس هذه الفتنة الراهب (أندروا Andrew) ، وقد استطاع الملك إلقاء القبض عليه وقطع لسانه[٥٨].

٦- في عهد (لبنا دنجل ٩٦٤-٩٤٧هـ/١٥٠٨-١٥٤١م):

اعتلي (لبنا دنجل) العرش في ٢٢ أغسطس ١٥٠٨م، بعد أبيه (ناؤود)، وكان لديه أربعة أخوة هم: (فكتور) و(يعقوب) وقد ماتا في حياة أبيهم (ناؤود)، بالإضافة إلي (كلوديوس) و(ميناس)، وكان اختيار وريث من بينهما أمرًا صعبًا، لكن الملكة الحكيمة (إيليني) نجحت بالاشتراك مع الأب (ماركوس Abuna Marcus) في اختيار (لبنا دنجل) لصغر سنه، وكان في الثانية عشرة من عمره[٥٩].

وعلي الرغم من موافقة كبار النبلاء علي هذا الاختيار، فقد وقعت بعض المواجهات بين أنصار (لبنا دنجل) وبين معارضيه، إلا أن الأمور سرعان ما انتهت لصالحه، نظرًا لأن خطر المسلمين كان قد ازداد منذ أواخر عصر (ناؤود)، إذ تم احتلال عاصمة البلاد لأول مرة في تاريخ الأسرة السليمانية الجديدة في عهده[٦٠].

ولم يذكر النص الحبشي في عهد (لبنا دنجل) أي إشارات أخري ربما تشير إلي ظهور أي تمردات أو دسائس علي حكمه، سواء من رجال الدين، أو كبار مسئولي البلاط أو النبلاء، برغم بدء التدخلات البرتغالية في البلاد في ذلك الوقت. بل علي العكس من ذلك، فتشير المصادر الحبشية، في عهد هذا الملك إلي أنه لم يجرؤ أحد من الشعب علي إحداث أي تمرد أو شغب سياسي أو ديني[٦١].

وهكذا، فقد ساد طيلة هذه الفترة العديد من الاضطرابات السياسية، داخل وخارج البلاط الملكي، التي لم يخل عهد حاكم منها (اللهم في عهد لبنا دنجل)، فضلاً عن ثورات قوات الحدود نتيجة بُعد وضعف السلطة المركزية، كل ذلك أدي إلي ضعف المملكة المسيحية، وخاصة منذ بداية عهد (ألكساندر) الذي عاني من هزيمة عسكرية في سلطنة عدل، كما ازداد الضغط الإسلامي علي حدود المملكة عامة، وذلك نتيجة الصراعات الداخلية بين النبلاء المسيحيين، والمذابح الدموية بين بعض رجال الحرس الملكي .

(وثيقة الحرمان)

ወመጽሐፈ ፡ ግዘትስ ፡ ከመዝ ፡ ይብል ፡ ... [11] ፡ ዮሐንስ [12] ፡ ገብሩ ፡ ለእግዚእነ ፡ ኢየሱስ [13] ፡ ክርስቶስ ፡ ዘጸውዓኒ ፡ ዘኢይድልወኒ [14] ፡ ለተልእኮ ፡ ዲበ [15] ፡ መንበረ ፡ ማርቆስ ፡ አብሳ ፡ በስመ ፡ እግዚእነ ፡ ኢየሱስ ፡ ክርስቶስ ፡ እንዘ ፡ ሀሉ ፡ ወልድ ፡ ቡሩክ [16] ፡ ወናቄር [16] ፡ ከቡረ [17] ፡ ህላዌ [19] ፡ ንጉሥ ፡ ዘርአ ፡ ያዕቆብ ፡ ዘተሰምየ ፡ ቆስጠንጢኖስ ፡ ዘንቡር ፡ ላዕለ [10] ፡ መንበረ ፡ ዳዊት ፡ በምሕረተ ፡ እግዚአብሔር ፡ ንጉሠ ፡ ነገሥት ፡ ዘብሔረ [20] ፡ ኢትዮጵያ ፡ ጽኑዕ ፡ ላዕለ ፡ ሃይማኖት ፡ ርትዕት ፡ አርትዶክሳዊት [21] ፡ ኢይትዓፀ ፡ ፪እምትእዛዙ ፡ ወይኩን ፡ ውእቱ [15] ፡ እግዚአ [22] ፡ ወከቡረ ፡ ወስሙዓ [23] ፡ ቃሉ [24] ፡ ወይኩን [25] ፡ ዘሉ ፡ ገፋሪ [26] ፡ ሉቱ [27] ፡ ወ

ዘሉ [1] ፡ ዘተዐደወ ፡ ትእዛዘነ ፡ ዘወሰነ [2] ወዘለካዕነ [3] ፡ ወመተርነ ፡ በእነቲለሁ [3] ፡ ዘከነ ፡ ከዊና ፡ እምውሉደ ፡ ለዓም ፡ እምለርእሰተ [4] ፡ ወመኳንንት [5] ፡ ወዘሉ ፡ ሠራዊት ፡ ንኡስ ፡ ወዐቢይ ፡ ዕድ ፡ ወአንስት ፡ ለእመ ፡ ፈቀዱ ፡ ይንግሡ ፡ ካልአ ፡ እንዘ ፡ ሀሉ ፡ ዘርአ ፡ ያዕቆብ [6] ፡ ዘተሰምየ ፡ ቆስጠንጢኖስ ፡ ዲበ ፡ መንበረ ፡ መንግሥቱ ፡ * እሱሂ ፡ ወዘፈቀደሂ [7] ፡ ሃሢአ ፡ መንግሥተ [8] ፡ ውጉዘ ፡ ለይኩን ፡ በሠለስቱ ፡ ለስማተ ፡ እግዚአብሔር ፡ ዘውእቱ [9] ፡ አብ ፡ ወወልድ ፡ ወመንፈስ ፡ ቅዱስ ። እመበ [10] ፡ ዘተዐደወ ፡ እምዝ ፡ ወሰነ ፡ ወመተርነ [11] ፡ ዘዐለወ [12] ፡ ትእዛዘ ፡ ለንጉሥነ [13] ፡ ዘርአ ፡ ያዕቆብ ፡ ዘተሰምየ ፡ ቈስጠንጢኖስ ፡ ዘንቡር [14] ፡ ዲበ ፡ መንበረ [15] ፡ መንግሥት [16] ፡ ኢትዮጵያ ። ለው ፡ ዘይፈቅድ ፡ ቀቲሎቶ ፡ ወአንቀልቅሎቶ ፡ እመንበረ [17] ፡ መንግሥቱ ፡ ለው ፡ በኀቡእ ፡ ወበክሡት [18] ፡ለው ፡ በሥራይ ፡ ለው [19] ፡ ዘኀብረ [20] ፡ ላዕሌሁ ፡ በምክር ፡ እኩይ ፡ ውእቱ ፡ ይኩን ፡ እሱረ [21] ፡ ወውጉዘ ፡ በቃለ ፡ እግዚአብሔር ፡ መታሪ ፡ ቀዳማዊ ፡ ዘውእቱ [22] ፡ ሥሉስ [23] ፡ ቅዱስ ፡ አብ ፡ ወወልድ ፡ ወመንፈስ ፡ ቅዱስ ።

ترجمة وثيقة الحرمان

" أنا يوحنا عبد سيدنا يسوع المسيح الذي دعاني بما لا يحق لي لأخدمه فوق عرش مرقص أقول" :

باسم سيدنا يسوع المسيح، بينما كان الابن المبارك والمحبوب عظيم المقام الإمبراطور زرء يعقوب، الذي دعي قسطنطينوس، الجالس علي عرش داود برحمة الرب، ملك ملوك إثيوبيا الثابت علي العقيدة الأرثوذكسية الحقة فلا يتعدى أحد أوامره، ويكون هو السيد العظيم المسموع كلامه، ويكون الكل خاضعاً له .

وكل من تعدى أمرنا الذي حددناه وسجلناه وقضينا به، كائناً من كان من بني أدم من الرؤساء والأمراء وجميع الجنود، الصغير والكبير، الرجال والنساء. وإن أرادوا تولية غيره بينما زرء يعقوب الذي دعي قسطنطيوس موجود علي عرش مملكته، سواء هؤلاء أو من أراد أخذ ملكه ليكن محروماً بأسماء الرب الثلاثة التي هي الأب والابن والروح القدس. وإن وجد من تعدى ما حددناه وحكمنا به وعصى أمر ملكنا زرء يعقوب الذي دعي قسطنطيوس الجالس علي عرش مملكة إثيوبيا، أو من أراد قتله وإزاحته من عرش ملكه سراً أو علانية أو بالسحر، أو من اجتمع ضده بتدبير أثم، ليكن ممنوعاً ومحروماً بكلمة الرب القاطع الأول الذي هو الثالوث المقدس : الأب والابن والروح القدس".

المصـــدر الاصلي :

Rossini,C : IL Libro della luce del negus zar a ya qob,(Mashafa Berhan), II (Text)pp20-21

نقلاً عن مجدي عبد الرازق سليمان : النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين زرء يعقوب وابنه بئد ماريام. ص٤٩-٥٠

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق الحبشية :

1- Jules Perruchon (traduction) : Vie De Lalibala Roi D' Ethiopia, Manuscrit Du Musee Britannique, Editeur Ernest Leroux, Paris, 1892.

2- .... : Histoire des guerres d'Amda Seyon, roi d'Ethiopie, in Journal asiatique.ser.8, t.Xiv,1889.

3- ....: Les chroniques de Zar،a ya،eqobe et de Baeda Maryam, Rois d Ethiopie de 1434 A 1478, Paris, 1893.

4- ....: Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outré un fragment de la chronique de Ba،eda- Maryam, leur Predeceddeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung .

5- Manfred Kropp : .... : Die Geschichte Des Lebna-Dengel, Claudius Und Minas, Scriptores Aethiopoci, Tomus 84, Vol 83,84, Lovanii in Aedibus E. Peeters, 1988.

ثانياً : المخطوطات :

مجهول .

1 - سيرة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم٩٩ لاهوت.

ثالثاً : المصادر العربية المطبوعة :

١- القرآن الكريم :

عرب فقيه : (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني، الشهير بعرب فقيه، عاش في القرن السادس عشر الميلادي).

٢- تحفة الزمان وفتوح الحبشة، نشره رينيه باسية، تحقيق محمد شلتوت ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م .

العمري : (شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله،ت ٧٤٩هـ /١٣٤٨م) .

٣- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الرابع، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفي هزايمة و يوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الأمارات العربية المتحدة،الطبعة لأولي، ٢٠٠١م.

المقريزي : (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، ت ٨٤٤هـ /١٤٤١م) .

٤- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مطبعة التأليف، القاهرة، ١٩٥٨م.

رابعا : المراجع العربية والمعربة :

١) راشد البراوي : الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ١٩٦١م.

٢) زاهر رياض : كنيسة الأسكندرية في أفريقيا، مطبعة الجيش، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٦٢م.

٣) ـــــ: تاريخ أثيوبيا، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطي، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١م.

٥) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

خامسا : المراجع الأجنبية :

1) A.H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A history of Ethiopia, oxford university, at the clarendon press,1974.

2) Budge (E .A .W) : A History Of Ethiopia , Nubia & Abyssinia, London,1928.

3) Charles F . Rey , F.R.G.S : Unconquered Abyssinia As It Is To-day : an account of a little known country, its peoples & their customs, considered from the social, economic & geographic points of view, its resources & possibilities, & its extraordinary history as a hitherto unconquered nation, London, 1923.

4) Edward Ullendorff : The Ethiopians an introduction to country and people, London, oxford university ,Press Newyork.toronto,1965 .

5) Elaine Murray Stone : A Saint and His Lion, The Story Of Tekla Of Ethiopia , Paulist Press , 2003.

6) Francisco Alvarez : The Prester John of the Indies translated by C.F. Beckingham and G.W.B Huntingford , Cambridge ; Hakluyt Society, 1961.

7) Hiob Ludolf : A New History of Ethiopia, the University of Michigan, (U.S.A) 1984.

8) J. B. Coulbeaux: Histoire politique et religieuse d'Abyssinie ('The Political and Religious History of Abyssinia'), Paris, 1929.

9) John Cameron Grant : The Ethiopian A narrative of the Society of Human Leopards, Paris,1901.

10) Mordechai Abir: Ethiopia and The Red Sea The Rise and Decline Of The Solomonic Dynasty and Muslim – European Rivalry in the Region, Gainsborough House, London, E11.Rs, England, 1980 .

11) Paul B . Henze : Layers Of Time A history Of Ethiopia , Hurst , Company, London , 2000.

12) Peter Schwab : Ethiopia : politics, economics and society, Published London Pinter,1985.

13) Richard Pankhurst : The Ethiopians , Blackwell, Cambridge , London , 1998.

14) ....: The Ethiopian Royal Chronicles, Oxford university press, London, 1967.

15) Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia (1270-1527), Oxford, Clarendon press, 1972.

16) Thomas P. Ofcansky and Laverle Berry : Ethiopia A Country Study, Federal Research Division Library of Congress,2004.

سادسا : الدوريات العربية :

١) كرم الصاوي باز : عمدا صيون وإصلاحاته الداخلية في الحبشة (٧١٤-٧٤٥هـ / ١٣١٤-١٣٤٤م)،مجلة دراسات أفريقية، نشرة خاصة محكمة، ٢٠٠٠م.

سابعا : الدوريات الأجنبية .

1) Knud Tage Andersen: The Queen of the Habasha in Ethiopian History,Tradition and Chronology, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 1. (2000).

2) Taddesse Tamrat: Hagiographies and the Reconstruction of Medieval Ethiopian History, in(RA),1970.

3) .... : The Abbots of Dabra Hayq 1248-1535, in(JES), VIII, no.1, 1970.

ثامناً : الرسائل العلمية :

١) زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من (يكونو أملاك) إلى (زرء يعقوب) وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص(١٢٦٨- ١٤٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية،القاهرة، ١٩٥٥م.
٢) مجدي عبد الرازق سليمان: النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين (زرء يعقوب ١٤٣٤-١٤٦٨) وابنه (بنيد ماريام ١٤٦٨-١٤٧٨) ترجمة ودراسة تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب- جامعة القاهرة،١٩٩٨م.

الهوامـــش

1 – هي الأسرة التي حكمت الحبشة قبل مجئ الأسرة السليمانية ويختلف كل من عبد المجيد عابدين وراشد البراوي و Edward Ullendorff في بداية حكمها، حيث يذكرون أنها تمكنت من الاستيلاء علي حكم الحبشة عام٥٣٢هـ/ ١١٣٧م وهو يختلف بذلك عن جميع المراجع التي بين أيدينا، كما أن هناك اختلافاً أخر بين الباحثين علي عدد ملوك هذه الأسرة، فبينما يشير البعض أنهم كانوا أحد عشر ملكاً تذكر القوائم الملكية لتلك الفترة أنهم كانوا تسعة فقط وهم – Djan Germe – Djan Seyum Pantadem – Pantaw- Yemrehana – Na'akueto La'ab – Lalibala – Arbe – Yetbarak ، إلا أن هناك أتفاقاً عاماً بين معظم الباحثين علي أن مدة حكم الزغاوة كانت ثلاثة قرون وثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. للمزيد انظر عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٦٦، راشد البراوي، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ١٩٦١م، ص ٥١، كذلك :

Budge :(E.A.W): A History Of Ethiopia , Nubia & Abyssinia , London ,1928, p.277 see also Edward Ullendorff, The Ethiopians an introduction to country and people , London, oxford university ,Press Newyork. toronto, 1965 , p.64.

2–جوديت: يشير بعض الباحثين أنها كانت من العائلة السليمانية القديمة، استطاعت الوصول إلي الحكم بمساعدة بعض قبائل الأجاو وذلك بسبب موقفهم المتشدد من عدم ترشيح النساء للحكم، وقد ساعدتها ظروف البلاد في الوصول إلي العرش إذ اشتد التنافس بين اثنين من الأمراء علي الوصول للحكم وراح كل منهما يدعم موقفه بتأييد العديد من رجال الدين، مما جعل جوديت بعد وصولها للعرش تزداد في اضطهاد رجال الدين المسيحيين بل وقتل ونفي الكثير منهم، فضلاً عن احراق جميع الكنائس وإلحاق جميع أنواع الخراب بها، وتعقب المسيحيين في كل مكان، في حين يشير بعض الباحثين إلى أن هذا كان بسبب تعصبها للديانة اليهودية، وبسبب ذلك وضعها الأحباش بالاشتراك مع الإمام أحمد الجران فى قائمة وحوش التاريخ الحبشي، وعلي الرغم من ذلك فقد استطاعت حكم البلاد طيلة أربعين عاما حققت فيها نوعا من الاستقرار والسلام، للمزيد انظر المقريزي : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مطبعة التأليف، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٢، أيضاً

- Paul B.Henze : Layers Of Time A history Of Ethiopia , Hurst , Company, London, 2000, pp. 53-56 & Knud Tage Andersen: The Queen of the Habasha in Ethiopian History,Tradition and Chronology, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 1. (2000), pp.39-41.

[3] - أشار العديد من المراجع التاريخية إلي أن الملكة (جوديت) لم تكن وحدها من ملوك الزغاوة التي تدين باليهودية، فقد أشار بعض المؤرخين إلي تقسيم ملوك الزغاوة إلي قسمين من حيث الديانة، إذ يشار إلي أن عدد ملوك القسم الأول والذي يبلغ خمسة ملوك كانوا يدينون جميعاً بالديانة اليهودية، أما القسم الثاني فكان عدد ملوكه ستة ملوك كانوا يدينون بالديانة النصرانية. لمزيد انظر

-Charles F. Rey : Unconquered Abyssinia as it is to-day : an account of a little known country, its peoples & their customs, considered from the social, economic & geographic points of view, its resources & possibilities, & its extraordinary history as a hitherto unconquered nation, London, 1923,p 86.

4 – اتخذ الملك لاليلا لنفسه لقب جبراماسقال (Gebre Mesqel) ومعناها خادم الصليب، وقد عرف عنه حبه للسلام واهتمامه برجال الدين، وقد قام بترميم العديد من الكنائس وبني أكثر من عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء البلاد ما زال بعضها باقياً حتى الآن استعان فيها بعدد من العمال المصريين بالاضافة إلي بعض الهنود، ويقال إنه قبل توليه الحكم نفي بسبب عداوة عمه Tatadim إلا أنه استطاع الهرب وقام بثورة استطاع الاستيلاء بها علي الحكم في عهد أخيه الكبير لذا يعتقد انه وصل للحكم بقوة السلاح، ويختلف الباحثون في سنوات حكمه (١١٨٩ – ١٢٢٩م) بينما يذكر آخرون أنها (١١٨٠– ١٢٢٠م) وبينما نجد فريقاً ثالثاً يؤكد أنه كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦–١٠٢٠م) ولكنهم يجتمعون علي أن مدة حكمه كانت أربعين عاماً انظر زاهر رياض، تاريخ أثيوبيا، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٦ – ١٢٧ كذلك

- Jules Perruchon (traduction) : Vie De Lalibala Roi D' Ethiopia, Manuscrit Du Musee Britannique, Editeur Ernest Leroux, Paris, 1892, p.51.

5 – يقول ألفاريز إن أول من فكر ووضع أول سجن ملكي هو الملك "يمرها Yimrha " حيث فعل ذلك بأمر إلهي وذلك لوقوع العديد من مشاكل الخلافة علي العرش بين أبناء الأسرة الأجوية ووقوعها أكثر من مرة في عهد معظم الحكام، كما كان أول من فكر في بناء كنيسة علي هذا الجبل هو الملك "لاليبالا". أما عن تنظيم "جيشن" كسجن ملكي فربما يرجع إلي الاضطرابات التي سادت بعد وفاة (يكونو أملاك) انظر :

-Francisco Alvarez:The Prester John of the Indies translated by C.F. Beckingham and G.W.B Huntingford , Cambridge ; Hakluyt Society, 1961, p.165.see also Hiob Ludolf, A New History of Ethiopia, the University of Michigan, (U.S.A) 1984, pp. 195-197.

ولوصف جبل أمبا جيشن والمزيد من التفاصيل حول دوره في المملكة الحبشية انظر:

-Alvarez : op . cit , pp. 237-248.

6-A.H.M.Jones and Elizabeth Monroe: A history of Ethiopia, oxford university, at the clarendon press,1974 , pp.26-31.

7- John Cameron Grant : The Ethiopian A narrative of the Society of Human Leopards, Paris,1901,p.38.

8- تنسب الأسرة السليمانية إلي سيدنا سليمان عليه السلام، وتقول الأسطورة أن ما كيدا ملكة سبأ قامت بزيارته حيث أعجب بها وتزوجها وحملت منه ثم عادت إلي قومها وأنجبت ابنه حكيم، وقد شب الغلام في رعاية أمه إلي أن كبر وأراد أن يزور أبيه، فارسلته إليه حيث فرح به سليمان كثيراً وغير أسمه إلي منليك وعلمه حكمته، ولما صمم علي أن يعود إلي أمه وقومه، تمكن أن يأخذ من أبيه تابوت العهد الذي كان سليمان يحفظ فيه الألواح الإلهية التي كتبها الله للنبي موسي عليه السلام، ثم عاد به إلي الحبشة ليحكمها ومعه أسباط إسرائيل ومنه تسلسل ملوك الحبشة منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن العاشر الميلادي حين اغتصب العرش منها أسرة أخري حكمت البلاد حوالي أربعة قرون حتى تمكن يكونو أملاك من طردها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وإعادة الأسرة القديمة إلي عرشها ممثله في شخصه. أنظر مجهول : سيرة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٩ لاهوت، ورقة ٣، زاهر رياض، العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من يكونوا ملاك إلي زره يعقوب وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص(١٢٦٨- ١٤٦٨م)، رسالة دكتوارة غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية،القاهرة، ١٩٥٥م ، ص٣٤.

9 -Taddesse Tamrat: Hagiographies and the Reconstruction of Medieval Ethiopian History, in Rural Africana,1970, p.105.

10 - Mordechai Abir : Ethiopia and The Red Sea The Rise and Decline Of The Solomonic Dynasty and Muslim – European Rivalry in the Region, Gainsborough House, London, E11.Rs, England, 1980,p . 21.

11 - Budge : op . cit . p. 287 .

12- Elaine Murray Stone : A Saint and His Lion, The Story Of Tekla Of Ethiopia , Paulist Press , 2003, p36.

13-Thomas P. Ofcansky and Laverle Berry : Ethiopia A Country Study, Federal Research Division Library of Congress,2004, pp. 24-26 see also Jules Perruchon ,Histoire des guerres d'Amda Seyon, roi d'Ethiopie, in Journal asiatique.ser.8, t.Xiv,1889,p.xx.

14 – الجدير بالذكر أن الملك الحبشي كان يمنح ابنه الأكبر بعض السلطات السياسية والإدارية أثناء حكم أبيه، فقد أعطي يكونو أملاك ابنه بعضاً من هذه السلطات، وكذلك فعل عمدا صيون الذي أعطي إدارة إقليم التيجري لأحد أبنائه حيث منحه لقب بحر ساجاد – **Bahr Sagad** '، كما أضيف إلي مهامه حكم المقاطعات المجاورة للبحر الأحمر وذلك عام٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م، كما تذكر المصادر الحبشية أنه عندما اقترب موعد موت زره يعقوب تم إلقاء القبض علي بعض الأمراء الذين كانوا حاضرين في بلاط الملك، حيث أعلن تولي ابنه بند ماريام ملك الحبشة بمباركة من زره يعقوب نفسه . انظر العمري،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الرابع، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفي هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الأمارات العربية المتحدة،الطبعة الأولي، ٢٠٠١م، ص ٤٢، مجدي عبد الرازق سليمان، النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين (زرء يعقوب١٤٣٤-١٤٦٨) وابنه (بنيد ماريام ١٤٦٨-١٤٧٨) ترجمة ودراسة تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب- جامعة القاهرة،١٩٩٨م، ص ص ٩٨-٩٩، زاهر رياض، تاريخ أثيوبيا، ص ١٣١ وعن حكم عمدا صيون وتنظيم مملكته الداخلية . انظر، كرم الصاوي باز، عمدا صيون وإصلاحاته الداخلية في الحبشة (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م)، مجلة دراسات افريقية، نشرة خاصة محكمة، ٢٠٠٠م ، ص ص ٨ -١١، انظر أيضاً

-Jules Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Ba'eda Maryam, Rois d Ethiopie de 1434 A 1478, Paris, 1893,pp124-125.

15-Taddesse tamrat : Church and State in Ethiopia (1270-1527), Oxford, Clarendon press, 197., p. 282.

16-زاهر رياض: كنيسة الأسكندرية في أفريقيا، مطبعة الجيش، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٦٢م، ص٥٣.

17-Taddesse Tamrat: Hagiographies and the Reconstruction of Medieval, p.106

18 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p. 282-283.

19- Peter Schwab : Ethiopia : politics, economics and society, Published London Pinter,1985, p.211.

20-"وكان في أيام ملكنا زرء يعقوب خوف عظيم وذعر بين كل أهل أثيوبيا، بسبب قانون حكمه وشدته" انظر:

- Perruchon :Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p.4.

21 - "وحين يدخل هؤلاء القادة- حيث يوجد الملك- لإلقاء كلمة، يسجد الجميع بركبهم، ويقبلون الأرض خوفاً وارتعاداً كلما سمعوا صوت الملك " انظر :-

- Perruchon : op, cit , P.33.

22 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p.292.

23 - " وبالنسبة للملك لم يكن يعرف لا الحكومة ولا شئون الحبشة- لأنه كان وقتذ طفلاً صغيراً" انظر

- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , pp.353-354.

24 - " وتآمر مع أصدقائه وقاموا بثورة ضد الملك " انظر

- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.364.

25- Manfred Kropp : Die Geschichte Des Lebna-Dengel, Claudius Und Minas, Scriptores Aethiopoci, Tomus 84, Vol 83,84, Lovanii in Aedibus E. Peeters, 1988,, p.5.

26- عرب فقيه : تحفة الزمان وفتوح الحبشة، نشره رينيه باسية، تحقيق محمد شلتوت ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م ، ص ١٣٢، انظر ايضاً

-Taddesse Tamrat : op, cit , P.282.

27 - "حين سمع الملك عنه أمر ظلم كثير وتمرد ......وقد فعل خطيئة أخري حين تزوج سراً امرأة- وهو زوج لإسرائيلية- وهبه إياها الصاسرجويه أمخا إياسوي ليتزوجها. وبمجرد أن سمعت زوجته برهان زمدا، أخبرت أباها الملك " انظر

- Perruchon: Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda Maryam,pp.10-11.see also, J. B. Coulbeaux: Histoire politique et religieuse d'Abyssinie ("The Political and Religious History of Abyssinia"), Paris, 1929, p.138.

28 - مجدي عبد الرازق سليمان : المرجع السابق، ص ص ٤٦-٤٧.

29 -"وفي ذلك الوقت جمع الملك الكثير من الناس، وأطلعهم علي عقوبات أولاده ومحاكماتهم القاسية قائلاً : انظروا كيف فعلنا بأولادنا حين أجرموا علي الرب، وغيرة له لم نرحمهم" انظر

- Perruchon :Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p.99.

مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٤٤.

30-"وحمل الرسل الذين أرسلهم بنيد ماريام إلي القديسين بشارة هؤلاء القديسين : من دير ليبانوس، ودير كاسو، ومن الأب الرحيم أبو قير التابع لدير إندجبطن" انظر

Perruchon :Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p.108.

31- مجدي عبد الرازق سليمان : المرجع السابق، ص ٤٨

32- "وفي ذلك الوقت قام أشرار من الناس يدعونهم : تعاوق برهان، وزرء صهيون بعد أن وضع الشيطان في عقولهم شراً، فافتروا ظلماً علي هؤلاء الأمراء وغيرهم من الناس" انظر

- Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p.98.

33 - Coulbeaux: op, cit,p.137.

34 - مجدي عبد الرازق سليمان : المرجع السابق، ص ٤٨

35 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p. 241

36 - انظر وثيقة الحرمان في الملاحق.

37 - "وهناك (في دير برهان) قتل الكثيرين من الناس ونفي البعض حين افتروا علي الرب ومسيحه، وقدر الكثيرين وعظمهم، ممن نفذوا مشيئة الرب، وأمر الملك" انظر

- Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p.73.

38 - Budge : op, cit ,p.304.

39 - تعد هذه المشكلة من أكبر المشاكل التي واجهت الديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي، إذ قسمت العالم المسيحي إلي قسمين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية فيما بينهم لمدة طويلة، ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة بالأسكندرية حول تحديد هذه العلاقة، فقال أريوس-وهو كاهن سكندري مثقف- أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوقاً للإله الأب فهو إذا دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الإله الأب في المستوي والقدرة . وبعبارة أخري فإن المسيح مخلوق لا إله بمعني هذه الكلمة المطلق، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين. أما أثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساوياً للإله الأب تماماً في كل شئ بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه، هذا وإن كانا شخصين متميزين . ومن الواضح أن المذهب الأريوسي كان يتفق ومنطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية علي أساس من المنطق والتعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم وتفكير عامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم. ولم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسي في بلاد الغرب اللاتيني في حين أصبحت الغلبة في الشرق الهيني للمذهب الأريوسي. هذا فضلاً عما نلاحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين، في حين كانت معظم الطبقات الوسطي والدنيا التي انتمي إليها رجال =الدين من الأثناسيوسيين . للمزيد انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوربا العصور الوسطي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٧٦، ص ص٣٩-٤١ .

40-Richard Pankhurst : The Ethiopian Royal Chronicles, Oxford university press, London, 1967, p. 45.

41 - Coulbeaux: op, cit, p.166.

42 - Richard Pankhurst : The Ethiopian Royal, p.47see also Perruchon , op, cit, p. 128.

43 - الجان مساروتش: جمع مفرد لكلمة (جان مساريه) وهو صاحب المراسم الخاصة بالملك، والمسئول عن تقديم الأجانب في حضرة الملك" انظر مجدي الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ١١٢.

44 - "وفي اليوم التالي أمر الملك أن يجمعوا جميع الجان مساروتش، وأن يأتوا بهم إلي القصر . وحين أدخلوهم إلي القصر في الفجر أخذوا كل واحد منهم وخنقوه بمفرده، حتي اضطرب وارتعد جداً كل الذين شاهدوهم....بينما ظلوا معلقين من رقابهم في ذلك اليوم من الفجر حتي الساعة التاسعة" انظر

- Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, pp.162-163.

45-"ولهذا السبب دخل الرعب في قلب كل الشعب حتي تحادثوا فيما بينهم بأن هذا الملك أشد من أبيه" انظر

- Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam,p.129.

46 -"وفيما بعد نادي المنادي قائلاً : من الآن فصاعدا ارتدوا جميعكم ما يحلو لكم (من الملابس) سواء (كانت) بيضاء أو حمراء. وأنتم أيها السجناء، يا من كنتم عن قرب أو عن بعد عودوا إلي منازلكم" انظر

- Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p. ١٦٨, see also Richard Pankhurst : op, cit, pp.43-44.

47-"وقد أمر ملكنا ثانية بأن يجعلوا في ملابسه زيتاً ويدهنوه كثيراً، ويشعلوا ناراً، ويأخذوا ملابسه التي دهنت بالزيت، ويحرقوه مربوطاً مصلوباً ورأسه إلي أسفل" انظر

Perruchon : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda – Maryam, p. ١٦٥.

48 - أحد أبرز الذين حاربوا البحت ودد أمادا ميكلا وقد أنعمت عليه الكنيسة بلقب " **Makbiba – Beta – Kristiyan** وهو لقب أعلي من لقب "العقابي ساعات" لكثرة إنعامه علي رجال الدين، إذ يرد هذا اللقب في قداس ديني عن طريق القديس تكلا ايسيوس مو . انظر

– Taddesse Tamrat: The Abbots of Dabra Hayq 1248-1535, in(JES), VIII, no.1, 1970, pp .109-111.

49 - "ووالدته رومانة والعقابي ساعات تاسفا جورجيس والبحت ودد أمادا ميكلا اتفقوا فيما لا اعتراض بينهم ولا في المداولات ولا في الأوامر التي أصدروها" انظر

- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.353.

50 - "ولكن سرعان ما بدأت العداوة بين كل من الأب حسيبو والأب أمادا ميكلا ومأيمون باسيدك ضد البحت ودد أمادا ميكلا عندما أدركوا أنه الحاكم الوحيد لأثيوبيا" انظر

- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.353.

51 - Coulbeaux: op, cit,p. 171.

52 - Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.354.

53 - Budge : op, cit ,p.322.

54 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp.290-293.

55-Richard Pankhurst : The Ethiopians , Blackwell, Cambridge , London , 1998, p. 36

56-"ووصل إلي محافظة إيفات وسعي أن يضم إلي عمله الظالم كل جنود الشوا الذين كانوا في هذه المحافظة ولكن هؤلاء وهم عارفون بتفكيره تركوه بسبب خيانته وقيدوه بالسلاسل واقتادوه إلي الملك" انظر

- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.364.

57 -" حيث كانت كل البلاد هادئة وقد قص أحد الكهنة واسمه يوحنا قبل مجيئة ما يلي " لقد سمعت صدى من السماء يقول " ناؤود يحكم ممتدحًا ومختلفًا " انظر

- Perruchon :Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od, p.363.

58 - Budge : op, cit ,p.323.

[59] – " تبوأ هذا الملك الحكم وهو في عمر الثانية عشر" انظر

- Manfred Kropp : op, cit , p.3.

60 - Budge : op, cit ,p . 324

[61] – "وفي عهده لم يقم متمرد ثائر ولم ينبت أحد حيف ....لأن العدل والقسطاس قد باتا زينة عرشه، وعم كل أقطار مملكته استقرار وسلام" انظر

- Manfred Kropp : op, cit , p.5.

التنظيمات العسكرية والخطط الحربية في دولة الإيلخانيين (٦٦٣ : ٧٣٦هـ/١٢٦٥ : ١٣٣٥م)

د. محمد سيد كامل (*)

من أوائل الإصلاحات الإدارية التي اهتم بها الإيلخانيون[١] في دولتهم: التنظيمات العسكرية والخطط الحربية ، نظراً لأهمية الجيش في تعزيز مكانة الدولة، والقضاء على الفتن والثورات الداخلية، فضلاً عن درء الأخطار الخارجية ، والتوسع في البلدان المجاورة. لقد أدرك المغول الإيلخان[٢] أهمية الاتحاد كقوة عسكرية، بين أفراد القبائل التتارية والمغولية، في إعداد جيشهم وتنظيمه، فبعد أن اتحدوا بدأوا مهاجمة المناطق الشرقية للعالم الإسلامي كقوة موحدة ، فنجد "جنكيزخان" يجهز قواته تجاه "خوارزم"[٣] ويقضي على دولة "خوارزمشاه"، ويجبر السلطان "جلال الدين منكبرتي" على عبور نهر السند مخترقاً بلاد الهند، مع عدد قليل من رجاله لاجئاً إلى السلطان "شمس الدين ألتمش" طالبا منه تخصيص منطقة من أملاك دولة المماليك الأتراك ليقيم عليها هو وأتباعه، بعد هزيمته المنكرة على يد "جنكيز خان"[٤].

لقد اهتم المغول اهتماماً كبيراً برفع كفاءة جنودهم إلى أعلى درجة ممكنة، منذ عهد "جنكيزخان"، وقد اكتملت قوة وكفاءة هذا الجيش في عهد "هولاكوخان"[٥]، الذى أثر تأثيراً كبيراً في تاريخ الأمم والشعوب الواقعة في أواسط آسيا وجنوب شرقي أوربا، وأصاب المسلمون بالكثير من الأضرار، وخاصة بعد إسقاط الخلافة العباسية في بغداد وقتل الخليفة "المستعصم" سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٦].

وبالرغم من إغارة "هولاكو" على بغداد بحملة استطلاعية قوامها "تومانين"[٧]، وما تعرض له العالم الإسلامي على يد المغول من تخريب ودمار وسفك للدماء، إلا أن "هولاكو" وأبناءه من بعده أسسوا دولة حاكمة أطلق عليها في التاريخ: الدولة الإيلخانية التابعة للخان الأعظم في عاصمته "قراقورم" بالصين، في عدة مناطق من "أذربيجان" و"فارس" و"خوزستان" و"دياربكر" و"خراسان" و"بلاد الروم"[٨] وغيرها، حيث ارتبطوا بهذه البلاد التي توارثوا حكمها، وجعلوا "تبريز"[٩] عاصمة لملكهم، ومن ثم تأثروا بالحضارة الإسلامية، وشيئاً فشيئاً اعتنقوا الإسلام، وتلاشت تدريجياً صلتهم بمغول الصين[١٠].

أولاً : نبذة عن مغول الإيلخان:

حكم مغول الإيلخان في "فارس" و"العراق" و"ديار بكر" عقب وفاة "هولاكوخان"، في الفترة ما بين سنة ٦٦٣هـ: ٧٥٦هـ/ ١٢٦٤م: ١٣٥٥م، وتعاقب على حكمهم ستة عشر حاكماً،

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم- جامعة المنيا.

وتقتصر هذه الدراسة على دور ثماني أيلخانات منهم حتى عام٧٣٦هـ /١٣٣٥م، أي حتى نهاية عهد السلطان "أبو سعيد خان"، مركزاً على دورهم العسكري والحربي.

يعتبر "أباقاخان" أول حكام الإيلخانية في الفترة ما بين ٦٦٣هـ -٦٨٠هـ/١٢٦٤م -١٢٨٠م، الذى سانده الأمراء وكبار القادة ووالدته السيدة "دوقوزخاتون" حتى وصل للعرش. طبقاً لأحكام الياسا الجنكيزية(١١). وفي عهده تحركت جيوش الإيلخانية في عدة اتجاهات، منها جيش الأمير "يشموت" أخو الإيلخان إلى "دربند"(١٢)، ضد "توقاى" حاكمها، فسيطر "يشموت" على نواحيها وعلى "شروان" و"موغان" حتى حدود "التان"، كذلك سير الأمير "تويسين" إلى "خراسان" و"مازندران" حتى ضفاف نهر "جيحون"(١٣). كذلك خرج "أباقاخان" بنفسه، في سنة٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، لمحاربة "براق" في بلاد ما وراء النهر، الذي أغار على "ختن"، راغباً في مهاجمة "منكو تيمور" – وهو أخ آخر للإيلخان– في "قايدو"، حيث أعد كميناً فأوقع الهزيمة بجنودهم وقتل وأسر الكثير منهم، ثم حصل على غنائم وافرة، إلا أن جيش "أباقا" أنزل به الهزيمة ورده عن ما وراء النهر(١٤).

وفيما تجدر الإشارة إليه: أن "أباقاخان" خرج بنفسه على رأس عدة حملات عسكرية، منها تجاه بلاد الروم، حيث فرض الجزية السنوية على أهلها وهي حوالي أربعمائة ألف دينار، وعزل سلطانها "غياث الدين"– من سلاجقة الروم– وعين بدلاً منه ابنه "ركن الدين"(١٥). هذا ومن أهم حملات "أباقا" العسكرية موقعة "أبلستين"(١٦)، حيث التقى مع سلطان مصر المملوكي "الظاهر بيبرس"، والذى كان أمراء بلاد الروم، وعلى رأسهم الأمير "ابن الخطير" والأمير "معين الدين البرواناه" قد راسلاه للتصدى لجيش "أباقا"، الذى رغب في التوسع في داخل بلاد الشام، معززاً بجيش أخيه "منكوتيمور" والذى سار إلى حلب، وقد انتهت هذه المعركة بقتل أمراء بلاد الروم(١٧)، وإنزال الهزيمة بجيش المغول، ففضل "أباقا" تجنب القتال مع المماليك، حتى يتفرغ لجبهة "أرمينا" و"القبجاق"(١٨)، وقد قيل إن القائد "منكو تيمور" مات كمداً، متأثراً بتلك الهزيمة التي حلت به في حلب(١٩).

خلف الإيلخان "أباقا" على العرش أخاه "تكودار" بن "هولاكو" فترة قصيرة، من ٦٨٠هـ-٦٨٣هـ/ ١٢٨٠-١٢٨٣م(٢٠)، وذلك وفقاً لتعاليم الياسا الجنكيزية التي تنص قوانينها وشروطها على: أنه إذا مات الحاكم لا يجلس بدلاً منه إلا أكبر الأمراء سناً(٢١)، وهذا الشرط كان ينطبق على "تكودار"، ولا ينطبق على "أرغون" بن "أباقا". وقد واجه "تكودار" عقبة أخرى في سبيله لاعتلاء العرش، حيث إن مجلس "القوريلتاى"(٢٢) اختلف في أمر تعيينه حاكماً على الأيلخانية، بسبب اعتناقه الدين الإسلامي(٢٣)، وإطلاق اسم "أحمد" على نفسه(٢٤).

لقد نتج عن دخول "أحمد تكودار" الإسلام عدة نتائج من أهمها، عدم إرسال الخان الأعظم فرمان التولية له(٢٥)، وكذلك خروج أحد الأمراء عليه ومحاربته، وبذلك اضطر "أحمد تكودار" إلى تجريد جيش ضده بقيادة "أليناق" نائبه، ثم اضطر للخروج بنفسه على رأس جيش قوامه أربعين ألف فارس تجاه خراسان، فأنزل الهزيمة به وأسره(٢٦). ولابد أن نشير هنا إلى أن "أحمد تكودار" قام ببذل الأموال والعطايا، وأغدق من أموال الخزائن على أخوته وأمرائه وقادة

جيوشه لكي يساندوه ، لدرجة أنه أطلق سراح "أرغون" منافسه على العرش في محاولة منه لاستمالته[٢٧].

ومن الطبيعي أن يبحث "تكودار" عن حليف قوى يؤازره ويقف إلى جانبه، لذا أرسل سفارة على رأسها الشيخ كمال الدين عبد الرحمن[٢٨] إلى سلطان مصر "المنصور قلاوون" تحمل رسالة يوضح فيها مدى حبه للدين الإسلامي[٢٩]، إلا أن هذه السفارة لم تؤت ثمارها، نتيجة لأن مجلس القوريلتاى والجيش انقسم على نفسه، وتحالف عدد من القادة مع "أرغون"، مثل الأمير "قرنغرتاى" القائد على جيش بلاد الروم، والأمير "أليناق" قائد جيش "الكرجى" والأمير "يوغا" والأمير "طغاجار" الذين رغبوا في تسيير جيش ضد بلاد الشام والمماليك في مصر، وقد انتهي الموقف بقتل "أحمد تكودار" وتولية الحكم "لأرغون"[٣٠].

واستمر حكم "أرغون" حتى سنة ٦٩٠هـ/ سنة ١٢٩١م، وكان من المتوقع أن يرسل جيشاً لبلاد الشام، إلا أنه أرسل جيشاً تجاه جبال "هكتار" بكردستان، لقتال الأكراد الذين كانوا يقطعون الطرق ويثيرون الفتن ، قوام هذا الجيش ستة عشر ألف فارس وعلى رأسه عدد من الأمراء منهم الأمير "مازون" و"القوشجي" و"تورين"، كما تحرك "أرغون" عندما وصلت الأخبار من خراسان بتقدم ثلاثين ألفاً من الفرسان من جند "قايد" ومقدمهم "بيسون نويان"، وعبورهم "البنجاب" ونهبهم جهات "بلخ" و"مرو"، فصدهم "أرغون" في سنة ٦٨٧هـ/ سنة ١٢٨٨م[٣١]. كذلك تصدى في ٦٨٩هـ/١٢٩٠م لتمرد الجنود في ناحية "دربند"، وقتل منهم ما يقرب من ثلاثمائة فارس وأسر عدداً آخر، والجدير بالذكر أن "أرغون" لم تكن في عهده أي حملات خارج إيران، فلم يتقدم تجاه بلاد الشام التي كان المماليك فيها يهدفون إلى تصفية بقايا الصليبيين بالشام، وبذلك كانت الفتن الداخلية في الإيلخانية بمثابة معاول تعمل على إضعاف الدولة[٣٢].

وفي ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م توفي "أرغون" متأثراً بمرض ألم به، فتولى بدلاً منه العرش "كيخاتو بن أباقا"، حتى عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م[٣٣]، والذى عمل على تحسين أوضاع البلاد المالية عن طريق استبدال العملة الذهبية والفضية بالعملة الورقية المسماة "الجاو"[٣٤]. ولابد أن نشير هنا إلى أنه في عهد "كيخاتو" ظهرت عدة فتن داخلية، منها فتنة "أفراسياب" حاكم "لوستان" وثورة "اللور"[٣٥]، إلى جانب ثورة التركمان واليونان في بلاد الروم، لذا صمم "كيخاتو" على الخروج بنفسه لمحاربتهم، فأسند شئون البلاد لنائبه المسمي "شيكتور نويان"، وزحف على بلاد الروم وقضي على الفتنة بمساندة عنصر "الكرج"[٣٦].

وبرغم هذه الإنجازات، إلا أن أمراء الإيلخانيين تآمروا على "كيخاتوخان" بسبب ضعف شخصيته، وانقياده لقائد جيشه الأمير "طغار"، الذى أقنعه بالمسير لمحاربة الأمير "غازان" في خراسان، ثم ما لبث أن تركه وانضم إلى صفوف معارضيه، وبذلك دارت الدائرة على "كيخاتو" فتم قتله في ٦٩٤هـ/١٢٩٥م[٣٧].

تعتبر فترة حكم "غازان" الذى تولي الحكم سنة ٦٩٤هـ-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٣م، والذي اتخذ لنفسه اسم محمود، بعد اعتناقه للإسلام وإعلانه ديناً رسمياً للبلاد، من أهم الفترات التي ظهرت فيها التوسعات الخارجية، بعد ازدياد هوة الخلاف بينه وبين السلطان "الناصر محمد بن قلاوون"، بسبب فرار العديد من المغول المؤيدين لسادس ملوك الإيلخانيين الأمير "بايدو" من

إيران –ويقدر عددهم بعشرة آلاف فرد– إلى الديار المصرية، وترحيب سلطان مصر بهم، وإنزالهم في ساحل بلاد الشام، وإحضار رؤسائهم لاستقباله في مصر. فزحف "غازان" بنفسه على رأس ثلاث حملات حربية لغزو بلاد الشام، تمكن في الحملتين الأولي والثانية من الاستيلاء على عدة مدن، فانتصر في "مرج المروج"سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م(٣٨).

وفي الحملة الثانية، سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، سار الأمير "قتلغ شاه" على مقدمة جيشه(٣٩)، ثم تقدم "غازان" تجاه الفرات ومنها إلى حلب، ومن اللافت أن سلطان مصر لم يخرج بجيشه لصد الإيلخانيين، وقد قيل إنه خرج بجيشه حتى "حماه" دون أن يتم الاشتباك بين الطرفين(٤٠). هذا وقد قيل إن السبب الرئيس في زحف "غازان" هو رغبته في التوسع(٤١) أولاً، ثم استنجاد بعض أمراء المماليك به، وهم "سيف الدين قبجق"، والأمير "فارس الدين البكي"، و"سيف الدين بكتمر السلحدار"، الذين زينوا له مهمته لغزو الشام(٤٢)، والذين كانوا على خلاف مع سلطان مصر، نتيجة لذلك فقد كافأ "غازان" الأمير "سيف الدين قبجق" بتعينه حاكماً على المنطقة الشامية، ومن ثم عاد "غازان" إلى "تبريز"(٤٣).

تجددت مسيرة "غازان" للمرة الثالثة على بلاد الشام، في ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، حيث زحف "قتلغ شاه" بجيش قوامه مائة ألف شخص، ومعهم أعوانهم من "الكرج والأرمن"، فخرج "الناصر محمد" من مصر، مصطحباً الخليفة "المستكفي بالله العباسي"، وتمركز القتال في "مرج الصفر" على مقربة من حمص، فدارت الدائرة على "غازان" وجنوده، ففر قائد جيشه وغرق كثير من جنده، ومات آخرون في الصحراء من شدة الجوع والعطش(٤٤)، وبذلك حلت الهزيمة بالإيلخانيين، وأصيب "غازان" بحالة من الوجوم، وأمر بمحاكمة قواد جيشه المهزومين، فأعدم منهم اثنين، وأمر بضرب اثنين آخرين، وهما "قتلغ شاه" و"جوبان"، ضربا مبرحاً(٤٥)، وسرعان ما أصابته حالة نفسية سيئة مات على إثرها في ٧٠٣هـ/١٣٠٣م(٤٦).

خلف "غازان" في عرش الإيلخانية أخاه "أولجايتو بن أرغون"، الذى بويع بالعرش بحضور الأمراء والوزراء، إلا أن القائد العام للجيوش "هرقداق" كان ميالاً إلى تولية الأمير "الأفرنك بن كيخاتو"، ولكن "أولجايتو" تمكن من القضاء على معارضيه والوصول إلى الحكم، واستمر طوال الفترة ما بين ٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م(٤٧).

اعتنق "أولجايتو" الإسلام على المذهب السنى، وتسمى "بمحمد"، وشرع في بناء مدينة "السلطانية"، الذى خصص لها دخل بعض الولايات لسد نفقات البناء، حيث استمر العمل في بنائها حوالي عشر سنوات، حتى عام ٧١٣هـ/١٣١٣م(٤٨).

أما عن نشاطه الحربي: فقد بدأ "أولجايتو" حياته العسكرية بغزو منطقة "جيلان" بأربعة جيوش إيلخانية، أجبرت أمرائها على دفع الجزية التي كانت عبارة عن كميات من منسوجات الحرير(٤٩)، كذلك فتح في سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م مدينة "هراة"، التي فرض عليها الحصار الشديد الذى أدي إلى ظهور مجاعة شديدة مع قلة الأقوات والأطعمة، فاستسلم أهلها، وبالتالي كان سقوطها فرصة كبيرة للإيلخانيين، حتى يتمكنوا من فرض سلطانهم على إقليم خراسان ككل(٥٠).

وبذلك فقد أظهر "محمد أولجايتو" نشاطاً عسكرياً كبيراً، وفتح عدة مناطق وأخمد أكبر تمرد في "هراة" ولكن محاولته فتح "مازندران" باءت بالإخفاق، بسبب سوء الأحوال الجوية وارتفاع

درجة الحرارة في المنطقة(٥١)، كذلك جهز حملة على بلاد الشام في سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، بعد فرار عدد من أمرائها إليه، وعلى رأسهم الأمير "قراسنقر" حاكم دمشق، فزين له مهاجمة بلاده، فتقدم إلى الموصل وحاصر الرحبة، إلا أن حاكمها رفض تسليمها إليه وأبلى بلاء حسناً في الوقوف في وجهه، ومن ثم أصدر الإيلخان أمره بفك الحصار والانسحاب إلى إيران(٥٢).

تولى "أبو سعيد بهادرشاه" الحكم في خراسان ولياً للعهد، في سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، ولم يكن عمره يتعدى التاسعة، حيث أسند والده "أولجايتو" إلى الأمير "سونج" الأتابكية عليه(٥٣)، ولما توفي "أولجايتو" رفع إلى العرش، وقد تعرض في بداية حكمه إلى عدة ثورات، منها ثورة "الجغتائيون" في خراسان الذين تقدموا إلى "مازندران"، وكذلك لفتنة "أوزبك خان" ملك صحراء "القبجاق" الذى تقدم إلى "أران" و"أذربيجان" على رأس جيش كبير، هذا إلى جانب هجوم جيش مصر على حدود ديار بكر(٥٤)، ولكن "أبو سعيد" بمساندة أتابكه تمكن من القضاء على تلك الفتن والثورات. كما تمكن، في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، من الدخول في مفاوضات صلح وعلاقات طيبة مع "الناصر محمد بن قلاوون"، نتج عنها عقد معاهدة صداقة وود بين الدولتين(٥٥).

دخلت الدولة الإيلخانية في فترة ضعف عقب وفاة "أبو سعيد"، وتولى حكمها عدد من الإيلخانات، منهم "موسى خان" حفيد "بايدو"، الذى اتجه بجيش تجاه إقليم أذربيجان، وألحق الهزيمة "بأرباخان" ووزيره "غياث الدين محمد"، وقتله سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م(٥٦). ونتيجة لضعف حكام الإيلخانية، فقد استطاع الأمير "حسن كوجاك" بن "جوبان" من تأسيس الدولة "الجلائرية" في حدود سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، والقضاء على آخر الإيلخانات وهو "أنوشيران العادل"(٥٧).

ثانياً- التنظيمات العسكرية في الدولة الإيلخانية:

اعتمد الإيلخانيون على العديد من التنظيمات العسكرية في الحروب والقتال، فالفترة التي حكم فيها الإيلخانات إيران تعد من أخطر فترات تاريخها، وأكثرها اضطراباً، وأشدها فتكاً وإيلاماً بالنسبة لشعبها، نتيجة لما ارتكبه المغول من مجازر ومذابح وتدمير، ولم يوقفهم عند حدهم إلا دخولهم الإسلام، الذى هذب نفوسهم فتركوا قوانينهم وعاداتهم المغولية. واتبعوا الشريعة الإسلامية، وهي الفترة الثانية من حكمهم، والتي تبدأ من عهد "غازان" إلى نهاية دولتهم(٥٨). ومن أهم هذه التنظيمات العسكرية :

١- اعتماد المغول على العامل النفسي والتعبئة الروحية لجنودهم:

اعتمد الإيلخانات على العامل النفسي في تسيير جنودهم للقتال، فحرصوا على زيارة المنجمين في محل إقامتهم، وأخذ رأيهم في نتيجة الحرب، ثم نشرها بين الجنود والقادة، فقد كانوا لا يعبئون الجيوش أو يدخلون حرباً إلا بعد الرجوع إلى كهنة البوذيين، والأخذ بموافقتهم، فإلى جانب الاستعداد المادى للحرب، كان هناك التعبئة الروحية، وهي ضرورة لازمة لكسب الحرب، لأنها تغنى بالشعور وتقوى العزيمة وتمد المحاربين بالقوة المعنوية، وتعلمهم الصبر والثبات وتهون عليهم الصعاب(٥٩). كذلك لجأ بعض حكامهم إلى الاعتقاد في السحر والشعوذة والنجوم،

فقد كان "أرغون خان"، مثل أغلب سلاطين المغول الأوائل، يعتمد عليهم في تحركاته، ووصل القائمون على تلك الأمور إلى منزلة كبيرة في الدولة(٦٠).

أما في عهد إيلخانات المسلمين، فإن روح الإسلام طغت عليهم، فكانوا يؤدون ركعتين قبل بدأ المعركة مثلما حدث في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، عندما سار "غازان خان" إلى مدينة حمص بالشام، حيث صلى "غازان" مع جميع رجالات جيشه ركعتين، ثم ركب وواجه السلطان "الناصر محمد بن قلاوون" بما جمع له من الجنود والقادة(٦١)، وذلك تقرباً لله تعالى، طالبين النصر والتأييد منه تعالى.

هذا التغيير في الفكر العسكري ظهر بصورة واضحة كذلك في عهد "محمد أولجايتو"، الذى حاول كسب وتأييد الأهالى عن طريق الاختلاط بالرموز الصوفية، فنراه يكرم مولانا "قطب الدين الشيرازى"، ويجالس "سيدى سيف الدين على الرفاعي"، ويطلب منه التأييد الروحى لجيشه وتجهيزاته العسكرية(٦٢).

٢ - الاهتمام بوضع قواعد وقوانين تحكم العمليات العسكرية للجيوش :

ومن أهم التنظيمات العسكرية في دولتهم أن يخرج الجنود والقادة بحسب تقاليد وقواعد منظمة مرعية فيما بينهم، مشابهة لترتيبات رحلات الصيد الجماعي وقنص الفريسة ، وكان لهذا قواعد وشروط موجودة في الياسا الجنكيزية، فقد كانوا يقومون بتحريك ألف شخص، طبقاً لقواعد الحرب نفسها، من ميمنة وميسرة وقلب، وإذا فلتت فريسة أجريت التحقيقات، وكانوا يعتبرون ذلك من الواجبات، وقد يقتل المتسبب في فشل ذلك(٦٣). وفي حقيقة الأمر فإن الإيلخانيين اهتموا اهتماماً كبيراً بتعليم صغار الأمراء فنون الفروسية والصيد، لكي يأهلوهم لقيادة جيوش دولتهم(٦٤).

لقد جرت العادة على تعبئة الجيوش وإعدادها إعداداً دقيقاً، من حيث استدعاء آلاف الجنود المدربين على استخدام أدوات الحرب والقتال، مثل المنجنيق وقاذفات النفط والسهام، وتجهيز الأعداد الغفيرة من الجنود حتى تشاع الرهبة والرعب منهم.

أما في حالة تقهقر الجيش، أو فرار الجنود والقادة، فكان يعقد مجلس أعلى لمحاكمة القائد العام للجيش والقواد الفارين، يتم في هذه المحاكمة سماع أقوالهم ومعاقبتهم بقدر جرمهم، مما يترتب عليه خشية الجنود والقادة محاولة الفرار أو التقهقر من ساحة القتال، مثلما حدث في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، عندما عقدت محاكمة للقائد "قتلغ شاه" والأمير "جوبان" وغيرهما من القادة، الذين فروا من موقعة "مرج الصفر" في عهد الإيلخان "غازان"، وقد ترتب على هذه المحاكمة أن استمر الاستجواب يومين كاملين، وأعدم اثنين من القادة، وحكم على كل من "مولاى" و"قتلغ شاه" و"جوبان" بالضرب المهين بالهراوات دون أدنى شفقة أو رحمة(٦٥).

وهكذا كانت عادة الإيلخانات هي: عقد مجالس لمناقشة أي أخطاء في أثناء القتال ومحاسبة المقصر، وبالتالي مكافأة المنتصر والفائز(٦٦).

٣- قيادة الجيوش:

اهتم الإيلخانيون بقيادة جيوشهم، واختيار الأمراء بعناية كبيرة، فقد كان تعيين قيادة الجيش يتم بواسطة الإيلخان نفسه، فهو صاحب الحق الأول والأخير في اختيار القادة

وترشيحهم لمهامهم، وكانت شارات القيادة والإمارة هي البوق والعلم والطبل، حيث تقرع الطبول على بابه صباحاً ومساء، بالإضافة إلى أن هناك عدداً من الحراس على بابه[٦٧].

لقد اهتم الإيلخانيون بتلك القيادة التي هيمنت على مقدرات الجنود وتحركاتهم، والتي عملت على خلق جيوش قوية تحمل الولاء التام لحكامها، والتي تنزل الرهبة في قلوب الأعداء، وتدل على مقدرة فذة في فن تنظيم الرجال ودعم قوتهم بالعتاد والسلاح، والسيطرة النفسية على جنودهم، فكانت حياة الجندية هي المسيطرة على مقاليد الأمور، لدرجة إطلاق المقولات التي تشير إلى أن جيش المغول قوة لا تقهر.

جرت عادة القيادة العامة للجيوش الإيلخانية أن تركز السلطة في الجيش، في أغلب الأحيان، في يد الأسرة الإيلخانية نفسها، فقد تولى معظمهم قيادة الجيوش بأنفسهم، حيث اعتبر القائد الأعلى للجيش والمحرك الأول له، وفي هذه الحالة يكون موضعه في القلب. وللحقيقة فقد قاد "أباقاخان" جيشه ضد بلاد الروم، واستطاع أن يفرض الجزية السنوية عليهم[٦٨]. وفي عهد "كيخاتوخان" خرجت الجيوش، وعلى رأسها الإيلخان، للتصدى لفتنة "أفراسياب" حاكم "لوستان" وثورة "اللور"، وفتنة التركمان واليونان في بلاد الروم، والذى استطاع أن يتصدى للفتن ويقضى على الثائرين، وذلك في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م[٦٩]. كذلك خرج "غازان" على رأس جيوشه في ثلاث حملات على الشام، ضد دولة المماليك في عهد "الناصر محمد" ، انتصر في حملتين سنة٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، وسنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وهزم في الحملة الأخيرة في "مرج الصفره" سنة٧٠٢هـ/١٣٠٢م[٧٠]. حيث تأثر بما حل بجيوشه فمات "غازان" متأثراً بتلك الهزيمة[٧١].

هذا وقد أظهر "أولجايتو" نشاطاً حربياً كبيراً بفتحه منطقة "جيلان" وسيطرته عليها، ونجح "أولجاتيو" في فتح مدينة "هراة"، إلا أنه أخفق في حملته على بلاد الشام، ومحاصرته للرحبة، فاضطر للعودة إلى عاصمته من جديد[٧٢].

أما في عهد السلطان "أبي سعيد" والذى قاد عدة حروب، وكان على رأس جيوشه وفي قلب تشكيل الجيش، فقد خرج بجيشه ضد ديار بكر وحاكمها، وأبدى الإيلخان صموداً منقطع النظير، حتى لقب "ببهادرخان"- أي الخان البطل- هذا اللقب الذي أصبح من الألقاب المحببة إليه، لدرجة أنه أمر بكتابته في الفرمانات والمراسيم الرسمية التي تصدر عن دولته[٧٣]، تشبهاً بجده "جنكيزخان" الذى كان يحمل لقب ملك العالم أو فاتح العالم[٧٤].

ومن البديهى ألا يفهم من كلامي السابق أن قيادة الجيوش قاصرة على الإيلخان فقط، فإن قيادة الجيوش أيضاً كانت بيد أمراء "الألوس"، وهم أربعة أكبرهم برتبة "البكلاوى بلك" واليه أمر قيادة الجيوش، ثم يليه أمراء "الألوس" الثلاثة ويقال لكل منهم "النوين"، وهو أمير عشرة آلاف ويعبر عنه بأمير "التومان"، ثم هناك أمير ألف، فأمير مائة، وأخيراً أمير عشرة[٧٥].

ومن أهم قيادات الجيوش القائد العام للجيش، أو ما يطلق عليه لقب أمير الأمراء، ومن أبرز من تولوا هذا المنصب الأمير "يشموت" والأمير "منكوتيمور" – أخوان "أباقاخان"[٧٦]، كذلك نرى القائد "قرنغرتاى"، في عهد "أرغون"، يعتبر من أمراء "الألوس"[٧٧]. أما في عهد "غازان" فهناك الأمير "قتلغ شاه" القائد العام للجيوش الذى كان مقره في العاصمة "تبريز"، وعليه شئون الجيوش وتجهيزهم بالأسلحة ونفقاتهم، ثم أسند "غازان" منصب أمير الأمراء والإشراف العام على

الجيش للقائد حاجي نوزيك" [٧٨]، كذلك كان الأمير "جوبان" في عهد "أولجايتو"، هذا إلى جانب قائد عام الجيوش في عهده الأمير "هرقداق" [٧٩].

ولابد أن نشير إلى أن الجيوش الإيلخانية كان لها قواد صغار يتبعون القائد العام لهذه الجيوش، وذلك من منطلق أن جيوشهم كانت تقسم إلى ميمنة وميسرة وقلب، لذا كان لكل قسم من هذه الأقسام قائد برأسها، ويتعاون الجميع في تنفيذ الخطة العسكرية بإشراف وتوجيه القائد العام، ففي سنة ٦٧٥هـ/١٣٧٥م، خرج الجيش في عهد "أباقاخان" إلى بلاد الشام متجهاً إلى منطقة "أبلستان"، وذلك في جيش جرار عليه عدة أمراء، مثل "طوقرين إينكاى نويان"، والأمير "درعتو وتودان بن سودوم"، ومع كل واحد منهم جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل [٨٠].

وفي ختام كلامنا عن قيادة الجيوش؛ لابد أن نشير إلى أن الجيش لا يبقى عاطلاً في أوقات السلم، بل يعمل في ميادين الصيد [٨١]، الذى خصص له مبالغ كبيرة لتربية وتدريب فهود وكلاب الصيد، فالصيد فرصة كبيرة لتدريب الجنود، وتعويدهم على الخشونة، وتوفير الطعام من صيدهم للجنود، وكذلك يعتبر ترفيهاً للقادة.

٤- التنظيمات المتبعة في تحرك الجيوش لساحات القتال:

من الثابت تاريخياً أن المغول، بعد أن ثبتوا حكمهم في إيران وغيرها من البلدان بأساليبهم الإرهابية، ركبهم الغرور والغطرسة، ونظروا إلى غير بنى جنسهم على أنهم أقل منهم، وأنهم السادة والصفوة وما دونهم خاضعين لسيادتهم [٨٢]، وعلى الرغم من ذلك: فإنهم اتبعوا نظاماً واحداً في تحريك جيوشهم في ساحات القتال، وكانت أولى خطواتهم التنظيمية هي: إرسال قوة صغيرة لا تتجاوز ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف، كقوة طليعية استطلاعية على رأسها قائد، إلى الجهة التى يرغبون في اقتحامها. هذه القوة الاستطلاعية لها عدة مهام رئيسة من أهمها: استطلاع الطرق والمسالك، وجمع أسرار وأخبار الجنود وتبليغها للقيادة الرئيسة في جيوشهم، وكشف بعض نقاط الضعف وعورات الجيش المعادى، ففى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، قاد الأمير "كراى" قوة استطلاعية من ثلاثة آلاف فارس مجهزين تجاه بلاد الشام، فتصدى لهم حاكم دمشق الأمير "سنقر الأشقر"، وذلك في عهد "أباقاخان" [٨٣].

كما جرت العادة في عهد "غازان"، على إخراج قوة استطلاعية أمام جيوشه، مثل ما حدث في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، عندما أرسل قوة طليعية بقيادة "قتلغ شاه"، فعبر نهر الفرات، ووصل إلى حلب، ثم تجاوز حماه، ونزل بمحاذاة مدينة "السالمية" [٨٤].

لم تكن القوة الاستطلاعية يقتصر خروجها على الحملات الخارجية، فقد كانت أيضاً تخرج في الفتن والثورات الداخلية في الدولة، ففي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، في أثناء فتنة الأمير "توروز" [٨٥]، سير "غازان" قوة استطلاعية على رأسها الأمير "قبرتو" لاستطلاع الأخبار، فعادوا بأخبار مهمة هي زحف نوروز على رأس جيش كبير تجاه العاصمة "تبريز"، مما أدى إلى قضاء جيش غازان عليه وقتله [٨٦].

كذلك أنقذت القوة الاستطلاعية جيش "أرغون خان" من الهزيمة المحققة، لوصول الأخبار عن طريق الطليعة بأن الأمير "إليناق" الثائر على الإيلخان؛ قد سار من "موغان" إلى

الري وقزوين وخراسان، وبذلك حشد أرغون جيشه، وأسرع إلى هذه المناطق، وتصدى لهذا الثائر، وانتصر عليه ، وذلك في صفر سنة٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٨٧].

ومن أهم التنظيمات العسكرية لدى الإيلخانيين: تقسيم جيوشهم في ساحة القتال إلى عدة أقسام وهي الميمنة والميسرة والقلب، والقلب يعتبر من أهم أقسام الجيش، يكون فيه الإيلخان في الغالب، أو على رأسه القائد العام للجيوش. وقد أشار معظم المؤرخين الذين تحدثوا عن حروب الإيلخانيين إلى هذا التقسيم، ففي حرب "أباقاخان" ضد الأمير "براق"، جعل الخان ميمنة جيشه إلى الأمير "تبشين أغول"، وكان معه للمساعدة الأمير "سماغار" والأمير "هندويان"، وعلى الميسرة أخيه "يشموت"، ومعه للمساعدة الأمير "سونتاى" والأمير "أرغون آقا"، أما القلب فقد أسند إلى القائد العام "أباتاى نويان"[٨٨]،شريطة أن تقوم تلك التقسيمات كلها بمهاجمة قوات العدو في وقت واحد، مما يؤدي إلى تشتيت انتباه قوات العدو وعدم تركيزها في جبهة واحدة.

صار تقسيم الجيوش الزاحفة على أعداء الإيلخانية سمة من سمات الجيش، وتنظيما عسكريا لابد من اتباعه في معظم حروبهم، سواء تم لهم النصر أو عكس ذلك، ففي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م قسم "غازان خان" جيوشه على نفس الطريقة. ووضع "قتلغ شاه" و"مولاى" على ميمنة جيشه، و"كربوغا بهادر" ويسانده أربعة قادة آخرين على الميسرة، وفي القلب كان الإيلخان بنفسه يسانده الأمير "جوبان"[٨٩]، وهو نفس النظام الذى اتبعه الإيلخان في موقعه "مرج الصفر"، وزحف بخمسين ألف مقاتل، وأسندت قيادة الجيوش لعدد من القادة الكبار، مثل "قتلغ شاه" والأمير "جوبان"، و"مولاى"، والأمير "تيبان" و"سونتاى"، وبرغم هذه التنظيمات العسكرية، وتقسيم الجيش على النحو السابق المتبع في تنظيمات الإيلخانات، فإن هذا لم ينقذ الموقف وحلت الهزيمة بالقوات، وسقط عدد كبير منهم أسرى، قدر عددهم بحوالى عشرة آلاف جندى[٩٠].

٥- نظام تعبئة الجيوش وتجهيزها بالعتاد:

اتبع الإيلخانيون نهجاً خاصاً في تعبئة وتجهيز قواتهم، وفق الظروف التي خلقتها هزيمتهم في عين جالوت[٩١]، من منطلق الحفاظ على جنودهم وعدم تعرضهم لأية هزيمة جديدة، خاصة وأن هؤلاء الجنود امتازوا بالشجاعة في القتال وأنهم لا يفرون أبداً من ساحة الوغى[٩٢]، ومن المعروف عنهم أنه إذا سقط منهم أحد في الأسر، إنما يعمل بكل الوسائل على قتل نفسه أو التخلص من أسره بأية طريقة كانت، مع انتشار مقولة مؤداها: أن الجيش المغولي لا يقهر.

هذا وقد كان ضبط الجيش وتنظيمه كما نصت عليه قواعد الياسا الجنكيزية بأن على الأمير أو القائد أن لا يتردد إلى باب أمير آخر، ولا يغير المكان المخصص له، وأن يقوم الجنود بعرض آلاتهم الحربية على أمرائهم كاملة عند التحرك إلى القتال، وكان على الجندى أن يطيع قائده طاعة عمياء، وإذا أخطأ أحد الأمراء فإن عليه أن يسلم نفسه لرسول الإيلخان، حتى لو كان من أخس وأحقر الناس، وأن يلقى نفسه بين يديه ذليلاً، ليأخذه بموجب خطائه، ولو كان فيه القتل[٩٣].

ومن هذا المنطلق فإن "أباقاخان"، بمجرد أن خلف والده "هولاكو" على العرش، بادر إلى العمل على إعادة سمعة المغول الحربية إلى سابق عهدها، فسار على سياسة مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين، ومحاولة التوسع في بلاد الشام[٩٤]، وفي بداية عهده نجح في إنزال الهزيمة بجيوش "مغول القبجاق" بقيادة "بركة خان بن جوجي"، و"مغول التركستان" بقيادة "براق خان"[٩٥]، فتنظيم الجيوش هو مفتاح النصر، وعلى القائد المحنك أن يضع في فكره عامل الوقت، وعدم القتال في جبهتين في آن واحد، والقضاء على الفتنة في مهدها. وفي حقيقة الأمر فإن نظام تعبئة الجيش يتم بتقديم لواء الأحمال الثقيلة وخيام الغلمان والأطفال والنساء، ويعرف هذا باسم "أغزوق"، وإقامة منازل للقوافل لإمداد الجيوش بالعلف والطعام والشراب[٩٦]، وكانت تصدر الأوامر من الإيلخان بتعبئة الجيش، ويسند هذا الأمر إلى أمير الإشراف، الذى يشرع في إصدار أوامره للجنود بنقل الغلال من المخازن، التي يأكلون منها في أثناء تنقلاتهم ويطعمون دوابهم، ولابد أن تكون تلك الغلال كثيرة وكافية قدر الإمكان[٩٧].

هذا عكس ما كان متبعاً مع المقاتل المغولى قديماً، الذى كان يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشحذ رماحه، ويحمل الإبرة والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قرباً من اللبن وآنية من الفخار، ليطهي فيها طعامه، وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض، وكيساً من الجلد يحمل فيه ملابسه، ويستعمله في عبور الأنهار[٩٨].

ولم يكن لرواتب الجنود وقواد الجيش نظام ثابت قبل عهد "غازان خان"، فقد كان بعض القادة يحصلون على كمية محددة من الغلال، فحدد "غازان" رواتب للجنود يزيد معدلها سنوياً، وقد أصدر مرسوماً بتحديد إقطاعات للجنود أطلق عليها اسم: "الياسا الغازانية"[٩٩] على غرار الياسا الجنكيزية.

ومن أهم التنظيمات التى اعتنى بها الإيلخانات: نظام استعراض الجنود والاطمئنان على معداتهم وأسلحتهم ولوازمهم، حيث كان الإيلخان يقوم بمهمة استعراض الجنود بنفسه، كذلك الاهتمام باستعداداتهم العسكرية، وخاصة قبل المسير إلى ساحة القتال، فعلى سبيل المثال: كان غازان يستعرض جنوده بنفسه قبل المسير للقتال في حربه على بلاد الشام[١٠٠]، وذلك حتى لا يقصر أحد في أمر من أمور الجيش.

كذلك أقاموا على ديوان الجند رئيساً أطلق عليه اسم: العارض أو رئيس ديوان العرض[١٠١]، المختص بشئون الجيش ونفقاته، وجميع فرقه وإمداداته، وأشهر من عمل في هذا المنصب "ضياء الملك" في عهد "غازان"[١٠٢]. ومن هنا نستنتج أن من أهم مهام العارض: استعراض الجنود في الميادين قبل الخروج للقتال، وفي المناسبات العامة، والاطمئنان على حالة الجند واستعداداتهم العسكرية، وصرف أرزاقهم، فقد بسط "غازان" يديه وأغدق على القواد في خمسة عشر يوماً ثلاثمائة تومان من العملات الذهبية، وعشرين ألف خلعة، وخمسين منطقة مرصعة، وثلاثمائة تومان من العملات الذهبية، كذلك أمر بتعيين الكتائب والفرق، وكتابة أسماء الجنود ورتبهم في السجل، وهم مطالبون بالعرض في كل شهر، لتفقد عتادهم وعددهم من فرسان ومشاة، بموجب الضبط والقانون[١٠٣].

كذلك عمل "أرغون" على إحضار الأموال من عاصمته، وقسمها على الجنود، حتى تستقر الأوضاع ويأخذ الجنود أرزاقهم[١٠٤]. وقد اهتم الإيلخانيون اهتماماً كبيراً بمخصصات الجنود ورواتبهم، وخير دليل على ذلك أن "أحمد تكودار" أمر بفتح الخزائن، وقسمها على الخواتين- نساء القصر- والأمراء وقادة الجيوش، وأعطى كل واحد منهم مائة وعشرين ديناراً[١٠٥]، كذلك قام "أبو سعيد"، وهو حاكم على خراسان، بمطالبة "أولجايتو" بإرسال الأموال لدفع مرتبات الجند[١٠٦].

والخلاصة: أنه كان هناك فرق كبير بين المغول في عهدهم الأول في معاملتهم لجنودهم، لدرجة أنه كان لابد من إبقاء الجنود في حالة من الفقر والاحتياج حتى يحرصوا على النصر، وبين عهد الإيلخانيين، الذين اهتموا بتنظيم الإنفاق على الجنود، وإقطاعهم الإقطاعات في المدن والقرى.

ثالثاً : الخطط الحربية:

يعد التخطيط الحربي الجيد مفتاح النصر في المعارك، وعلى القيادة المحنكة أن تضع نصب عينيها أن يكون هناك عدد من الخطط التي تسير عليها في تحريك جيوشهم، فمن مبادئ الفكر العسكري للمغول: عدم تغيير الفكر التخطيطي لهم في حروبهم، فكان التهديد والوعيد من أساليبهم، ومن وسائلهم العمل على جذب عناصر من البلاد الراغبين في غزوها إلى صفوفهم، من أمثال الأمير "سنقر الأشقر" حاكم دمشق[١٠٧]، الذي سهلوا له مهمة الفرار إلى عاصمة الإيلخانيين "تبريز" والاستقرار بها، لكي يفشي أسرار الجيوش المملوكية والأوضاع السياسية في الشام ومصر، وذلك في عهد "أباقاخان".

أما في عهد "غازان" فقد تمت الخطة نفسها بأن رحب الإيلخان بالأمراء الفارين من بلاد الشام في عهد السلطان "الناصر محمد" إلى سلطنته، وهم الأمير "سيف الدين قبجق"، والأمير "فارس الدين البكي" والأمير "سيف الدين بكتمر السلحدار"[١٠٨]. وقد نتج عن ذلك انتصار "غازان" في موقعه "مرج المروج" في سنة٦٩٩هـ/١٣٠٠م[١٠٩].

هذا وفي محرم سنة٧١١هـ/١٣١١م، فر الأمير "شمس الدين قراسنقر" نائب السلطة بحلب إلى الإيلخانية، ولحق به كل من الأمير "جمال الدين أقوش الأفرم الدواداري" نائب طرابلس إلى "أولجايتو" ملك الإيلخانية، فأكرمهم ورفع من قدرهم، وقد استمرا هناك حتى وفاتهم[١١٠].

ومن البديهي أن نشير إلى استمرار الإيلخانيين، في نهاية عهدهم في عهد "أبي سعيد"، على نفس النهج والخطط الحربية، وهي جذب العناصر الناقمة على أعدائهم المماليك في مصر والشام، فنرى في معاهدة الصلح التي تمت بين الإيلخان و"الناصر محمد" أن أحد شروط المعاهدة تشير إلى أن يصرف سلطان مصر النظر عن تسليم "قراسنقر"[١١١] الفار، وألا يكلف الفداوية الإسماعيلية بأي مهام في ممالك الإيلخانية[١١٢].

لقد كان دأب المغول استخلاص بعض العناصر الناقمة على الحكم في بلادها، للاطلاع منها على أسرار الجيوش، ولم يظهر هذا في حربهم ضد المماليك فقط، بل في حرب "أباقا" مع الأمير "براق خان" حاكم ما وراء النهر، في سنة٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وذلك بأن استعان "أباقاخان"

برجل هندي لكي يدلهم على أسهل الطرق لعبور نهر "جيحون"، وتوصيلهم إلى حاضرة "براق" في ضواحي "كيودجامة"، وبالتالي أكرمه "أباقا" ومنحه لقب "ترخان"[١١٣].

ومن خططهم الحربية: ارسال وفد من الرسل محملين برسائل تحمل التهديد والوعيد للبلدان الراغبين في حربها، حيث تعتبر الرسائل من أنظمة جيوش المغول التي اتبعوها في حروبهم، فعندما عزم "أباقا" على المسير إلى بلاد الشام. أرسل رسولاً إلى الظاهر بيبرس حاملاً رسالة على سبيل التهديد والتخويف فيها: أن جيوشنا مستعدة لقتالك..... وإذا امتدت أيدينا في الشام، فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل ما لكم فيها... لأن الله قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم[١١٤]، ويضيف فؤاد الصياد[١١٥] إلى هذا الخطاب أنه ذكر: "وأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا..."، واتهمه بأنه عبد مملوك، مما يدل على احتقاره والتقليل من قدره.

كذلك عمل "أرغون خان" على إرسال الرسائل والسفارات إلى الغرب الأوربي والبابا "هرنوريوس الرابع"، لخلق تحالف مع الغرب لدرء خطر المسلمين المماليك، يقترح فيها على البابا توجيه حملة مشتركة لقتال المماليك، قائلاً: "إذ تقع بلاد الشام بيننا وبينكم فسوف نطوقهما"[١١٦]، إلا أن هذه الرسائل لم تسفر عن شيء ذي بال، وبذلك أخفق "أرغون" في تحقيق آماله في غزو الشام وضمها إلى ممتلكاته.

وعلى نفس النمط أرسل "غازان خان" رسله إلى السلطان "الناصر محمد" قبل خروجه بحملته على بلاد الشام، وقد تلقى الإيلخان الرد، وكانت رسالة "غازان" تحمل التهديد والوعيد، وأنه أولى برعاية الإسلام والمسلمين من "الناصر محمد"، ولكن سلطان المماليك رفض التبعية، ولم يجب على طلبات الإيلخان بذكر اسمه في الخطبة والدعاء له على منابر المساجد[١١٧]، وبذلك لم تحقق رسائله وسفارته هدفها ولم تسفر عن شيء اللهم إلا تبادل التهم والتراشق بالألفاظ والتهديد والوعيد.

وقد سار الإيلخانيون على نفس سياستهم في حربهم ضد حاكم "هراة" الملك "فخر الدين" في عهد "أولجايتو"، حيث أرسل قائده العام على الجيوش "دانشمند بهادر" سنة٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م، برسالة بها تهديد ووعيد يطالب فيها بالإسراع إلى تلبية مطالب الإيلخان، والدخول تحت طاعته، وإلا فسوف ينتزع منه الملك والحكم قهراً وقسراً بناء على أوامر "أولجايتو"[١١٨].

ومن أهم الخطط الحربية المستخدمة في الإيلخانية: اكتشاف كل صغيرة وكبيرة عن تحركات أعدائهم وكشف نقاط ضعفهم ومراكز قوتهم، وهي استخدام التجسس والجواسيس، التي وضعت قواعد متعددة لنظامهم، والتي لم يحد عنها المغول طوال فترة حكمهم، وكان من أهمها الأمر بقتل الجاسوس الذي يفشل في مهمته، وإجزال الهبات والعطايا للجاسوس النشط لتحفيزه على النجاح في أعماله ومهامه، فقد أرسل "أباقاخان" في سنة٦٦٨هـ/١٢٧٠م جاسوساً هو "قبرتو بهادر" للاستطلاع والتجسس على الأمير "براق خان"، فلم يستطع الاقتراب من خطوط العدو، وبالتالي تم القضاء عليه، وأرسل الإيلخان جاسوساً ثانياً هو "توبجاق بهادر" ويسانده الأمير "تيكباى بهادر" مع مائة فارس، فعادوا وقد شرحوا الأحوال التى كان عليها أمور العدو[١١٩].

وفي حقيقة الأمر فإن المغول درجوا على إرسال جواسيسهم إلى بلاد العدو، فيجمعون لهم الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيوش والحصون، ثم يعودون بهذه المعلومات فيطلعون عليها القادة[١٢٠]، لقد أرسل "أرغون" سنة٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م جواسيس إلى منطقة هكتار في كردستان قبل الخروج إليها، لذا عاد الجواسيس يحملون أخباراً بأن جنود الملك "قيدو" ببلاد ما وراء النهر تعدادها ثلاثين ألفاً[١٢١]، وبذلك كانت مهمة القائد "طغاجار" سهلة وحقق النصر عليهم.

لقد اشتهر عن "غازان خان" أنه كان يحث قواده على إرسال الجواسيس والأدلة والعارفين بالدروب قبل التحرك، مع بذل كل الجهد للحفاظ على النظام والانضباط في جيشه[١٢٢]، ولم يكن استخدام الجواسيس قاصراً على حروبهم الخارجية، بل تعداه إلى استخدامهم ضد الأمراء وأفراد الأسرة نفسها، فنرى "غازان" يوعز إلى "صدرجهان"[١٢٣] بإرسال جاسوس من قبله إلى الأمير "طغاجار" لكي يحاول الإيعاز له بضمه إلى صفوف "غازان"، وترك مساندة "بايدو خان"[١٢٤].

وفي عهد "أباقاخان" قدم عليه جاسوس هو "مسعود بن محمود يلواج" -الذى كان حاكماً إدارياً في بلاد ما وراء النهر- مِن قِبَل الأمير "براق" ملك "أولواس جغتاى" على هيئة سفير، وكانت مهمته في الظاهر توطيد أواصر الصداقة بين العاهلين، ولكن في الباطن التجسس على تعداد الجيوش وجمع المعلومات، ومن ثم اكتشف "أباقا" أمره، ولكن بعد أن عاد إلى بلاده[١٢٥].

ومن عادة الإيلخانيين استغلال الجواسيس المرسلين إلى بلادهم في عمل عكسى لصالحهم، ففى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م، عندما علم "أباقا" بوجود ثلاثة جواسيس في بلاده[١٢٦]، أمر باعتقالهم ثم استجوبهم، وأمر بقتل اثنين منهم، وأطلق الثالث لكي يحمل الأخبار التي يريد توصيلها إلى عدوه، وهي أخبار غير صحيحة، ومن الملاحظ أنه بمجرد وصول الجاسوس إلى الأمير "براق" أعلن قولته: "أن عندهم الكثير من الأسلحة والدواب، ولكن ليس في الأمراء والقادة شجاعة أو قوة"، وبذلك انخدع "براق" بهذه المعلومات واستبشر بالنصر، فنزلت به الهزيمة[١٢٧].

وفي حقيقة الأمر؛ فإن سقوط جاسوس تابع للإيلخانية في يد أعدائهم كان يترتب عليه قتله فوراً، ففى أثناء حملة غازان الثالثة على الشام قبض على رجل من أمراء حلب جَنّدَه المغول للعمل لحسابهم، فقبض عليه، وأمر السلطان "الناصر محمد" بتسميره على خشبة والطواف به على حمل في مدينة دمشق وضواحيها، جزاء ما قدمه من التجسس على بلاده[١٢٨].

كذلك يعتبر من أهم الخطط الحربية للمغول اهتمامهم بالحرس الخاص، ذلك الحرس الذى أنشئ في عهد "جنكيز خان"، وأطلق على أفراده اسم "كشيكجى"[١٢٩]، وهم عبارة عن ثمانين حارساً لحراسته بالليل، وسبعين لحراسته بالنهار، بالإضافة إلى فرقة من صفوة المقاتلين عددها ألف أطلق على كل منهم اسم "بهادر" وتعنى المبارز الشجاع، عدّو من طلائع حرس الجيش المغولي، وهؤلاء الحرس لم يدينوا بطاعة إلا طاعة أوامر الحاكم ، وتوفر تحت أيديهم جنود يطيعون أوامرهم طاعة عمياء، وينفذونها تنفيذ الآلة لأمر صاحبها[١٣٠].

استمر اعتماد الإيلخانيين على فرقة الحرس في تسيير شئون الحراسة الخاصة بالمنشآت الحيوية، مثل السدود والخنادق، مثلما أمر "أباقاخان" بعض حرسه بحماية

الخنادق[١٣١]. ومن مهامهم أيضاً مراقبة المقبوض عليهم والثائرين على الإيلخان، مثلما حدث مع الأمير "أرغون"، عندما وضعت عليه حراسة مشددة مقدارها أربعة آلاف جندى لحراسة خيمته، حتى لا يستطيع الفرار من سجنه ، وذلك في عهد "أحمد تكودار" [١٣٢].

عمل "غازان" على رفع شأن فرقة الحرس العسكرية، وذلك بأن اشترى عدداً كبيراً من أولاد المغول، الذين يباعون في أسواق النخاسة بعد أسرهم[١٣٣]، وكون منهم حرسه الخاص، وعين لهم المرتبات والمؤن وأنزلهم في ولاية "المراغة"، وعهد بإمارة كتيبتهم المكونة من عشرة آلاف جندى إلى القائد "بولاد جينكساتك"[١٣٤]، هذا وأوكل إلى هؤلاء الحراس مهمة حمايته والسهر على حراسة خيمته أثناء نومه، وحراسة آلات الحرب وأسلحته من أي إغارة[١٣٥].

على عكس ذلك، فقد عامل المغول أسراهم معاملة تنطوى على القسوة والوحشية، فكانوا يضعونهم في مقدمة الجيش حتى يتلقوا السهام المنهالة عليهم، وليمهدوا الطرق للجيش، ويكلفوا بحفر الخنادق ونصب أدوات الحصار والأعمال الحربية العنيفة الشاقة[١٣٦]، ففي سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م، قام "أباقا" بإرسال قائده "تيكى بهادر" مع عشرة آلاف مقاتل، فقام بالقتل والنهب في أهل بخارى، وحملوا كثيراً من الأموال والأسرى، فخربت بخارى عن آخرها[١٣٧].

وفي عهد "أرغون" سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، هوجمت ناحية "دربند"، فأصدر الإيلخان أمره بزحف الأمير "توكال" و"شيكتور نويان" بقواتهم لقتالهم فقتل ثلاثمائة فارس، وأسر نفراً منهم كان من جملتهم الأمير "حريكتاى"[١٣٨]، الذى سيق إلى سوق النخاسة، فبيع هناك. بينما يشير الهمذاني[١٣٩] إلى "غازان" وعطفه على الأسرى من "هراة" ونسائهم وأطفالهم، بحيث إنه أمر بإطلاق سراح بعضهم، ويزيد على ذلك بأنه طيب خاطرهم، وإن كان ذلك غير معهود في حروب المغول مع البلاد التي يغزوها.

وقد دارت الدائرة على جيش المغول، في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، عندما هاجم "غازان" للمرة الثالثة بلاد الشام، فانتصر عليه السلطان "الناصر محمد"، وأسر عدداً كبيراً منهم يقدر بألف وثمانمائة مغولي، ومائة وثمانون من جنود الأرمن ، وسيقوا أسرى إلى الديار المصرية[١٤٠].

ومن أهم ما يميز الخطط الحربية التى اتبعها الإيلخانيون في حروبهم: اعتمادهم على عدة أجناس معينة التى تعددت في جيشهم، ويمكن حصر تلك الأجناس في عدة عناصر رئيسة يأتى في مقدمتها الاعتماد على العنصر المغولى[١٤١]، وهم من أهم عناصر الجيش، منهم قادة الجيوش والقائد العام عليه، وهم المقربون من الإيلخان[١٤٢]، أما المرتبة الثانية من عناصر الجيش فهو عنصر الأتراك، الذين كانت لهم اليد الطولى في ذلك، فقد فرضت طبيعة الدولة العسكرية أن يقوموا بشراء الغلمان العبيد الأتراك، وتربيتهم تربية عسكرية، حيث امتاز الأتراك كجنس عسكري بمميزات كثيرة، من أهمها الشجاعة والفروسية والإقدام، ففي عهد "أحمد تكودار" أمطر الأتراك جيوش الأعداء بالسهام[١٤٣]، هذا وكان أكثر من نصف جيش "هولاكو" يتألف من الأتراك[١٤٤].

ومن العناصر التى اعتمد عليها الإيلخانيون في حروبهم أهل "جورجيا"، فقد مالوا إلى استخدامهم بسبب قدرتهم العسكرية الكبيرة وصبرهم على النزال والحرب[١٤٥]، هذا إلى جانب

استخدام عنصر المسلمين والأرمن والكرج، فقد أعد "أحمد تكودار" أكثر من مائة ألف فارس من صفوة هذه العناصر مجهزين بالعدد والآلات وسيرهم، في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٤م[١٤٦]، لمحاربة "أرغون" - الطامع في العرش - كذلك كان جيش أباقاخان يضم ثلاثة آلاف من الكرج، قتل منهم ألفان في معركة "أبلستين"، وكانت قوة "أباقا" في حربه ضد "الظاهر بيبرس" ثمانين ألف جندي منهم ثلاثين ألف من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم[١٤٧].

ولابد من الإشارة إلى أن التشكيلات العسكرية في عهد الإيلخانيين كانت تتكون من صنفين رئيسين هما، الفرسان وهم ما يطلق عليهم "كشيكجي"[١٤٨]، وهم عماد الجيش الذى يكونون حرس الإيلخان الخاص، الذى يتحرك إلى ساحات القتال بأمره، ويكون موقعهم في القلب حوله، والذين كانوا يحملون الرماح والسيوف، ويلبسون الدروع[١٤٩]، كما شكلت الخيول أهمية كبرى في استخدامهم، وخاصة الخيول العربية بالذات[١٥٠]، فقد فر الأمير "أرغون" من سجنه في عهد "أحمد تكودار" على جواد عربي، وكان للقائد "عليناق" قائد عام الجيوش فرس عربي أصيل[١٥١].

أما الصنف الثاني من الجيوش الإيلخانية فهم الرجالة - أي المشاة - الذين ينحصر دورهم في الحروب المحلية، وأثناء الحصار، وكانت أهم أسلحتهم الدروع والسهام، وكان على كل أمير أو جندى أن يحمل جعبة من الجلد أو الخشب، لا ينزعها إلا وقت الصلاة، يضع فيها مجموعة من السهام[١٥٢]، يتراشقون بها عند التحام الطرفين في القتال[١٥٣]، هذا ولابد أن نشير إلى أن هناك فرقة من الرجالة مهمتها ضرب الطبول في بداية القتال، وفي حالة الانتصار على الأعداء[١٥٤]، وهو ما يطلق عليه اسم قرع الطبول، لإدخال الرهبة والخوف في صفوف الأعداء. هذا ومن عادة المغول رفع الأعلام البيضاء في حالة استسلام العدو[١٥٥]، كما حدث في عهد "أبو سعيد" ضد الأمير "ايرنجين" حاكم ديار بكر، ووالد السيدة "قتلغشاه خاتون" زوجة الإيلخان، التى رفعت الرايات البيضاء عند استسلام الأمير[١٥٦].

وخلاصة الأمر فإن الدولة الإيلخانية دولة عسكرية، اعتمدت على جيوشها في فرض نفوذها وتوسيع ممتلكاتها، منذ أن غزا "جنكيز خان" أراضي الدولة الخوارزمية، وأسقط "هولاكو" قلاع الإسماعيلية والخلافة العباسية في بغداد، هذا وإن الإيلخانيين اتبعوا نهجاً خاصاً في تعبئة وتجهيز جيوشهم، خاصة وأن تنظيم الجيوش هو مفتاح النصر، وأن القضاء على الفتنة في مهدها يحقق النصر في المعارك، وأن استعراض الجنود والتأكيد على سلامة أسلحتهم ودوابهم من أهم لوازم القتال. هذا وقد اتبع الإيلخانيون نفس مبادئ وقوانين الياسا الجنكيزية في تحريك جيوشهم، ومنها إرسال القوة الاستطلاعية وإرسال الوفود والرسائل، إلى جانب الجواسيس لإبلاغهم بالمعلومات القيمة عن جيوش أعدائهم، هذا إلى جانب اعتمادهم على عناصر وأجناس معينة في جيشهم على رأسها: المغول والأتراك والجورجانيين والكرج والأرمن والمسلمين وغيرهم.

ملحق رقم (١)
أسماء إيلخانات إيران (٦٥١ هـ : ٧٥٦ هـ/ ١٢٦٢: ١٣٥٥م)

١- هولاكو خان بن تولوي بن جنكيز.	من ٦٥١ هـ إلي ٦٦٣ هـ
٢- أباقا بن هولاكو.	من ٦٦٣ هـ إلي ٦٨٠ هـ
٣- أحمد تكودار بن هولاكو.	من ٦٨٠- هـ إلي ٦٨٣ هـ
٤- أرغون خان بن أباقا.	من ٦٨٣ هـ إلي ٦٩٠ هـ
٥- كيخاتو بن أباقا.	من ٦٩٠ هـ إلي ٦٩٤ هـ
٦- بايدوخان بن طوغاي بن هولاكو.	من جمادي الأولي ٦٩٤هـ إلي ذي القعدة٦٩٤هـ.
٧- غازان خان بن أرغون.	من ٦٩٤ هـ إلي ٧٠٣ هـ
٨- أولجايتو خدابنده بن أرغون.	من ٧٠٣ هـ إلي ٧١٦ هـ
٩- أبوسعيد بهادر خان بن أولجايتو.	من ٧١٦ هـ إلي ٧٣٦ هـ
١٠- أرياجاون بن أرتويوكا بن تولوي.	من ٧٣٦ هـ
١١- موسي خان علي بن بايدو.	من شوال إلي ١٤ ذي الحجة إلي ٧٣٦ هـ
١٢- محمد خان بن منجو تيمور بن هولاكو.	من ذي الحجة ٧٣٦ هـ.
١٣- ساتي بيك ابنة أولجايتو.	من ٧٣٩ هـ إلي ٧٤١ هـ
١٤- شاه جهان تيمور بن آلافرنك بن كيخاتو	من ٧٣٩ هـ إلي ٧٤٠ هـ
١٥- سليمان خان بن يشموت بن هولاكو.	من ٧٤١ هـ إلي ٧٤٥ هـ
١٦- طغاتيمور خان.	من ٧٣٦ هـ إلي ٧٥٣ هـ
١٧- أنوشيروان العادل.	من ٧٤٤ هـ إلي ٧٥٦ هـ (١)

(١) عباس إقبال : تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان ، ص ٣٥٨ : ٣٥٩ ؛ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ص ٣٦٢ : ٣٦٣.

الهـــوامـــش

١- انظر ملحق رقم (١) الخاص بأسماء الحكام الإيلخانيين.

٢- الإيلخان: كلمة مغولية الأصل ، تتكون من مقطعين "إيل" بمعني الخاضع أو التابع، و"خان" بمعني الحاكم وبذلك يصير معني الإيلخان الخاضع للحاكم ، وذلك لأن هولاكو كان تابعاً لأخيه الخان الأعظم منكوقاً آن في الصين عندما زحف علي بغداد (فؤاد عبد المعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين- أسرة هولاكو خان ، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية قطر سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م ، ص٢٨).

٣- خوارزم : أكثر ضياع مدنها ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، ومن النادر أن تكون قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج٢ ، دار صادر بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م ، ص٣٩٦).

٤- الجويني : تاريخ جهانكشاي المعروف بتاريخ فاتح العالم ، ترجمة وتحقيق محمد التونجي ، المجلد الثاني ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الأولى ،دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص١٠، ٤٨ ؛ السلطان شمس الدين ألتمش من حكام سلطنة دهلي المملوكية ببلاد الهند ، وهو في الأصل من العبيد المجلوبين من تركستان ، ترقي في المناصب الإدارية حتي وصل إلي حاكم مدينة بداون (الجوزجاني : طبقات ناصري ، جلد أول ، به تصحيح ومقابله وتحشيه وتعليق عبد الحي حبيبي قندهار ، كابل ، سنة ١٣٤٣ هـ. ش ، ص ٢٤١) ؛ حكم ما بين سنتي ٦٠٧ هـ :٦٣٣هـ/ ١٢١٠ م :١٢٢٦ م ، وتصدي للسلطان جلال الدين منكبرتي عندما طالبه بموضع في دهلي للإقامة فيه هو ورجاله ، فكان رد السلطان ألتمش عليه قاطعاً بأن هواء دهلي لا يصلح لإقامة الخوارزمية ، ثم أرسل جيشاً بقيادة ناصر الدين قباجة للتصدي له (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشره و ترجمة حافظ حمدي ، طبعة دار الفكر العربي سنة ١٣٧٤ هـ/ سنة ١٩٥٣ م ، ص١٦٥) ؛ اتصف ألتمش بالحزم والقوة ومال إلي العلم والعلماء ، وأنشأ المدرسة الشمسية في دهلي ، واهتم بنسخ المصاحف الشريفة.
(Husan Qureshi :The Administration of the sultanate of Delhi ,
P. 179 , (Delhi , 1944)
تعاقب علي حكم دهلي من بعده خمسة من أبنائه ، وهم ركن الدين فيروزشاه ، ورضيه ومعز الدين بهرامشاه وعلاء الدين مسعود وآخرهم ناصر الدين محمود(الجوزجاني : طبقات ناصري، ج١ ، ص ٤٥٤).

٥- هولاكو : أخو الخان الأعظم منكوقاآن ، الذي أمره بإعداد حملة عسكرية وأمده بكثير من الجنود وزحف بجيشه إلي إيران ، فانضم إليه حاكمها أرغون وحاكم ما وراء النهر مسعود بك ، ثم عبر نهر جيجون واستولي علي قلاع الإسماعيلية في فارس(رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ – الإيلخانيون تاريخ أبناء هولاكو من آباقا خان إلي كيخاتو خان ، مجلد٢ ، ج٢ ، ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسي هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، مراجعة يحيي الخشاب ، وزارة الثقافة والإرشاد ، ص٣٤٠) ؛ توفي هولاكو سنة ٦٦٣ هـ /١٢٦٤ م ، (م.م الرمزي : تلفيق

الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، مجلد ١ ، طبعة المطبعة الكريمية والحسينية ببلده أورينورغ ، ص٣٦١).

٦- أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، يحيي سيد حسين ، طبعة دار المعارف ، سنة ١٩٩٩م ، ص٢٣٣.

٧- التومان فرقة عسكرية يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل (القلقشندي : صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، ج٤ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، يناير ٢٠٠٥ م ، ص٤٢٣).

٨- القلقشندي : المصدر السابق والجزء والصفحة ؛ البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ترجمة محمد علي عوني ، راجعه يحيي الخشاب ، الناشر دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٢ م ، ص١٣ ؛ برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ترجمة خالد أسعد عيسي، مراجعة سهيل زكار ، الطبعة الأولي ، دار حسان للطباعة ، دمشق، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص٥٩.

٩- تبريز : أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ، ذات أسوار محكمة مبنية بالآجر والجص ، في وسطها عدة أنهار جارية والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٣).

١٠- البناكتي : روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب المشهور بتاريخ البناكتي ، ترجمة وتقديم محمود عبدالكريم علي ، المركز القومي للترجمة القاهرة ، سنة ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م ،ص ٤٥٨.

١١- الياسا الجنكيزية : "اليسق والتورا" واليسق هو الترتيب ، والتورا : المذهب باللغة التركية وأصل اليسق : سي يسا. وهي لفظة تركية من كلمتين سي بالعجمي ، يها بالتركي. لأن بالعجمي ثلاثة، ويسا بالمغلي الترتيب (بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، تحقيق زبيدة محمد عطا، ج ٩ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ،القاهرة، سنة ٢٠٠١م ، هامش ص ١٥٦)؛ هي الفرمانات والتعليمات التي وضعها جنكيز خان لحكام المغول للسير عليها في سياستهم بمعني السياسة والقانون الذي يقضي باحترام المجتمع المغولي وتفوقه علي غيره من المجتمعات وذلك في سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م (محمد أحمد محمد : إسلام الإيلخانيين ، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص١٧) تنص الياسا الجنكيزية في شأن تولية العرش أن تتولي زوجة الخان المتوفي إدارة البلاد حتي يتم الاتفاق علي تعيين حاكم جديد(ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، وضع حواشيه الأب أنطون صلحاني اليسوعي المطبعة الكاثوليكية بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٥٨ م ،ص ٢٨٥ ؛ شعبان طرطور : موجز تاريخ إيران في العصر المغولي ، طبعة سوهاج ، سنة ١٩٩٦/ ١٩٩٧م، ص٢٠).

١٢- دربند : هي من بلاد ما وراء النهر ، وتسمي باب الأبواب والنسب إليها الدربندي (ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٤٩).

١٣- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ،ج٢،ص١٢؛ البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٥٩.

١٤- بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، ج٩ ، ص١٣٢؛ خواندمير : دستور الوزراء ، ترجمة حربي أمين سليمان ، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٠م ، ص٣٣٢.

١٥- ابن بيبي : تاريخ سلاجقة الروم المعروف بسلجوقنامه، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة العربية بالقاهرة ، يناير ١٩٩٤م، ص٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر، ج٤ ، ص ١١؛ عباس إقبال: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتي قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبدالوهاب علوب، المجمع الثقافي أبوظبي الإمارات، سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢١٧.

١٦- أبلستان: وتكتب أبلستين، وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم (ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج١، ص ٩٧).

١٧- ابن بيبي : سلجوقنامه، ص ٧٩ ؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ١٥٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور وأحمد دراج ، المملكة العربية السعودية ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٢٨١.

١٨- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، جـ٢ ، ص ٨٣ ؛ أبو الفداء: المختصر، ج٤ ،ص٢٣ ؛ Howorth :History of the Mongols,Vol. 3, P.270 (London,1975).

١٩- النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ، تحقيق سعيد عاشور مراجعة محمد مصطفي زيادة و فؤاد عبدالمعطي الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م ، ص٣٩٢ : ٣٩٣ ، ٣٩٦.

٢٠- زامباور : معجم الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمه وأخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون ، طبعة دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٦٢.

٢١- بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص ٢٣٣.

٢٢- القوريلتاي : هو مجلس شوري المغول ، يجتمع فيه الأمراء وقادة الجيوش والخواتين - نساء الطبقة الحاكمة - لدراسة أحوال الدولة ، وفي بداية عهد الإيلخانية كان يعقد في قراقورم عاصمة المغول في الصين (الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج١ ، ص ١٧٥).

٢٣- اعتنق أحمد تكودار الإسلام وهو صغير السن علي يد أحد المتصوفة الذي ينسب إلي الطريقة الأحمدية (عبدالله الشيرازي : تحرير تاريخ وصاف ، بقلم عبد المحمد آيتي ، بنياد فرهنك إيران، تهران، ص ١٠٥؛ م.م الرمزي : تلفيق الأخبار ، ج١ ، ص ٣٦١ ؛ رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول ، طبعة دار النهضة المصرية ،ص ١٧٨ ؛ وقد قام أحمد تكودار بتحويل المعابد البوذية والكنائس إلي مساجد(خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جلد سوم ، جزء أول ، انتشارات كتبخانه خيام ، ص١١٩).

٢٤- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦٧.

٢٥- شعبان طرطور : موجز تاريخ إيران ، ص ٤٢ ؛ لقد أشار المؤرخ Howorth إلي أن أحمد تكودار اعتنق المسيحية في بداية حياته وتسمي بنقولا (History of Mongols , Vol. 3 , P. 270).

٢٦- بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص ٢٥٤ ؛
D'OHsson : Histoire des Mongols depuis tchingiuz khan, Vol.III, P.535 (Amesterdam, 1834)

٢٧- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦٨ ؛ عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٢٣٥.

٢٨- ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة الثامنة ، تعليق مصطفي جواد مشكور ، المكتبة العربية ، بغداد ، سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ، ص ٤٣١.

٢٩- أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٣٥ ؛ عباس إقبال : نفس المرجع السابق والصفحة.

٣٠- بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص ٢٥٥ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٤٠٣ : ٤٠٤ ؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، الطبعة الأولى ، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧ م ، ص ٦٠.

٣١- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ١٣٧ : ١٣٨ ؛ استعان أرغون بأحد اليهود في إدارة دولته وهو سعد الدين اليهودي (خواندمير: دستور الوزراء ، ص ٢٦٠) الذي أسند حكم الولايات إلي بني جلدته من اليهود ، مثل فارس وديار بكر ، ونقل الحراسة من بغداد إلي داره (ميرخواند : روضة الصفا ، ج٥ ، طبعة طهران ، ١٣٣٩ ، هـ. ش، ص ١٧٣،
Howorth : History of Mongols , Vol. 3 , P. 350).

٣٢- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ، ص ٢٠٠.

٣٣- زامباور : معجم الأسرات الحاكمة ، ص ٣٦٢.

٣٤- الجاو : عبارة عن قرطاس مختوم بخاتم الملك يتعامل به في جميع بلاد الخطا بالصين ، بدلاً من الدراهم ، وأما عملتهم النقدية فهي البالشي -المبانك- التي تصل إلي الخزانة ، وفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، أظهروا الجاو في مدينة تبريز وروجوه ، وكانت الأوامر تقضي بقتل كل من لا يتعامل به في الحال (الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢، ص ١٨١ : ١٨٢).

٣٥- برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٧١.

٣٦- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٢٠٨.

٣٧- عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٢٨٤ ؛ خواندمير : حبيب السير، مجلد ٣ ، ج١ ، ص ١٤٠ ؛ D'OHsson : Histoire des Mongols , Vol.III,P.115

٣٨- ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر المعروف بالدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ؛ ج٩، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، سنة ١٩٦٠ م ، ص٢٢؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٧٩ ؛ اعتنق غازان الإسلام علي يد الأمير نوروز وبحضور الشيخ صدر الدين ابراهيم حموية، وبذلك أعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للبلاد ، وأطلق علي غازان اسم محمود ، ولبست العمائم بدلاً من القلانس ، وأمر بتحويل الكنائس والمعابد إلي مساجد (رشيد الدين الهمذاني: تاريخ غازان خان المعروف بجامع التواريخ ، دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد ، الدار الثقافية للنشر القاهرة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م ، ص١٢٧؛ البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٥ ، البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص ١٥ ؛ م.م الرمزي : تلفيق الأخبار ، ج١، ص ٣٦١؛ رجب محمود : انتشار الإسلام ، ص ٢٨٨ ؛ فؤاد الصياد :

الشرق الإسلامي ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩) ؛ كذلك أصدر غازان عملة إسلامية نقش عليها عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأمر بنقش اسمه علي العملة وذكره في الخطبة دون الخان الأعظم، وطرد نائبه من بلاده ، وألغي لقب أيلخان أي نائب الملك ، واتخذ لنفسه لقب خان (رجب عبدالحليم : انتشار الإسلام ، ص ١٩٣ ؛ محمد أحمد محمد : إسلام الإيلخانيين ، ص٧٢).

٣٩- الهمذاني : تاريخ غازان، ص ١٦٧؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ، ج٩ ، ص ٤٧.

٤٠- لقد أطلق العيني علي غازان اسم قازان (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان عصر سلاطين المماليك – حوادث وتراجم ، ج٤ ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م ، ص١٢٨).

٤١- ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج١ ، تحقيق محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٦ ، ص٢١٠ ؛ العيني : نفس المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨١.

٤٢- النويري : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٤١١ ؛ البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف ، بيروت – لبنان ، سنة ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ٢١١ ؛ ميرخواند : روضة الصفا ، ج٥ ، ص٣٩٨.

٤٣- ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٣٣١ ؛ عبدالسلام عبد العزيزفهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران ، طبعة دار المعارف ، سنة ١٩٨٠م ، ص٢٠٩.

٤٤- العيني : عقد الجمان ، ج٣ ، ص ٢٨١ ، ج٤ ، ص ١٢٨ ، ١٣٣ ؛ خواندمير : حبيب السير ، مجلد ٣ ، ج١ ، ص ١٧٧ ؛ البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص ١٧ ؛ عبدالسلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية ، ص ٢٠٩: ٢١٠ ؛ شعبان طرطور : موجز ، ص ٥٥.

٤٥- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٣٠٦: ٣٠٧.

٤٦- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ١٩٥ ؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدر ، ج٩ ، ص٤٦ ؛
Sykes : History of Persia , Vol. II , P.234 , (London,1958)

٤٧- عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٤٧٠ ؛ فؤاد الصياد ، الشرق الإسلامي ، ص ٣٤٧ : ٣٤٨.

٤٨- عبدالله الشيرازي : نفس المصدر السابق ، ص ٤٧٧ ؛ البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص ٢٠ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، مراجعة السباعي محمد السباعي ، طبعة دار الثقافة والتوزيع والنشر بالقاهرة ، ص٤٧٧.

٤٩- جيلان : ولاية صغيرة تمتد من حدود أردبيل وخلخان حتي حدود كلاردست ومنطقة مازاندران (فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي ، ص٣٥٤)؛ وفي جيلان قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك، فنزل عليهم قوم من بني عجل(ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠١).

٥٠- ميرخواند : روضة الصفا ، ج٥ ، ص ٤٥٤.

٥١- برتولد شبولر : العالم الإسلامي ، ص ٧٦ : ٧٧.
٥٢- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ٨٧ ؛ عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٥٥٦.
٥٣- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٢٠ ؛

Sykes : History of Persia , Vol II , P. 115.

٥٤- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٤١١ ، ٤١٤ ؛

D'OHsson : Histoire des Mongols , Vol.III,P. 600 – 601.

٥٥- تقرر سفر سفير من إيران لإبرام معاهدة مع مصر واستقبل من قبل سلطانها الناصر محمد بالود والتكريم وتم عقد المعاهدة ، ومن أهم بنودها ما يلي :

١- ألا يكلف سلطان مصر الفدائيين الإسماعيلية بأي مهام في الممالك الإيلخانية.
٢- ألا يطالب أي من الجانبين بترحيل رعاياه ممن يلجئون إلي أرضه.
٣- ألا يحرض سلطان مصر أعراب البادية والتركمان علي مهاجمة الممالك الإيلخانية.
٤- ترسيخ علاقات الود بين الدولتين وتمكين التجار من حرية التجارة والحركة.
٥- حرية حركة قوافل الحجيج السنوية من العراق إلي مكة على أن ترفع علمين أحدهما باسم سلطان مصر ، والآخر باسم إيلخان إيران أبوسعيد.
٦- أن يصرف سلطان مصر النظر عن تسليم الأمير قراسنقر الفار إلي دولة الإيلخان (عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٤٢).

٥٦- حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي ، مقدمه وحواشي وتعليقات خانبا بياني ، شركت تضامني علمي تهران ١٣١٧ هـ. ش ، ص١٩٣.
٥٧- البدليسي: شرفنامه، ج٢، ص٣٥ ،٣٨؛ انظر الملحق رقم ١، الخاص بأسماء الإيلخانيين.
٥٨- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٨٤ ؛ عباس إقبال : نفس المرجع السابق ، ص٢٦٧.
٥٩- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٩٩.
٦٠- فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير ، ص ٦٤ ؛

Howorth : History of Mongols , Vol. 3 , P. 90.

٦١- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٧.
٦٢- البناكتي : نفس المصدر السابق ، ص ٥٠١.
٦٣- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ١١٨ : ١١٩.
٦٤- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٨٢.
٦٥- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٢٨٤.
٦٦- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٤٣.
٦٧- حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي ، ص ١٩٥.
٦٨- ابن بيبي : سلجوقنامه ، ص ٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار ، ج٤ ، ص١١.
٦٩- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٢٠٨ ؛ برتولد شبولر : العالم الإسلامي ، ص ٧١.
٧٠- ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج٩ ، ص ٢٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٤١١ ؛ البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ٢ ؛ ابن

حبيب: تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ٢١٠ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٧٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج٣ ، ص ٢٨١ ؛ البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص ١٧.

٧١- Sykes : History of Persia , Vol II , P. 234

٧٢- عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٥٥٦ ؛ ميرخواند : روضة الصفا ، ج٥ ، ص ٤٥٤ ؛ فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٣٥٤ ؛ برتولد شبولر : العالم الإسلامي ، ص ٧٦.

٧٣- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٣٠.

D'OHsson : Histoire des Mongols , Vol.III, P. 600.

٧٤- محمد أحمد محمد : إسلام الإيلخانيين ، ص ١٦.

٧٥- القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤ ، ص ٤٢٣.

٧٦- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ٨٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٢٣ ؛
Howorth : History of Mongols , Vol.3 , P. 270.

٧٧- بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص ٢٥٥ ؛ فؤاد الصياد : مؤرخ المغول ، ص٦٠.

٧٨- القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤ ، ص ٤٢٣ ؛ البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص١٦.

٧٩- عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٤٧٠.

٨٠- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦٤.

٨١- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ١١٩.

٨٢- محمد أحمد محمد : إسلام الإيلخانيين ، ص ٧١.

٨٣- شعبان طرطور : موجز تاريخ ، ص ٣٦.

٨٤- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٧.

٨٥- فتنة نوروز : لقد كان نوروز أتابكا لغازان في أثناء حكمه علي خراسان ، ثم تولي منصب أمير الأمراء ، وتم اعتناق غازان للدين الإسلامي علي يديه (عبدالله الشيرازي : تاريخ وصاف ، ص ٣٢٢ ؛ خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٠٧: ٣٠٨) ؛ ولكن نتيجة للصراع الذي قام بين الوزير جمال الدين الدستجرواني ونوروز والاتهامات التي قيلت بتدبير مؤامرات مع بعض الأمراء ضد غازان ، وإتهامات الوزير صدر الدين الزغاني له بمراسلة سلطان مصر ، وأنه سوف يسلم البلاد للمماليك ، فإن غازان أمر بالقبض عليه وعلي أتباعه وأمر بإعدامهم ، هذا وقد نزلت الهزيمة بنوروز وقواته بالقرب من نيسابور ، فالتجأ إلي هراة ، لائذاً بحماية ملكها فخر الدين كرت ، الذي أسرع بتسليمه إلي غازان في شوال سنة ٦٩٦ هـ / ١٣٩٦ م (الهمذاني: تاريخ غازان ، ص ١٢٣ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٤ ؛ خواندمير : حبيب السير ،مجلد ٣ ، ج١ ، ص ١٣٥ ؛ فؤاد الصياد : مؤرخ المغول ، ص ٧٨).

٨٦- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، ص ٩٦.

٨٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٥٢ ؛ عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص٢٤١.

٨٨- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج١ ، ص ٤١ : ٤٢.

٨٩- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٨٠.

٩٠- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٣ : ٢٨٤.

٩١- عين جالوت : موقعة عظيمة بين الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل وبين التتار بقيادة كتبغا نائب هولاكو وكان النصر فيها لقوات قطز وكانت في رمضان سنة ٦٥٨هـ (أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، ج٣ ، ص ٢٤٥).

٩٢- Howorth : History of Mongols , Vol. 3 , P. 91

٩٣- القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤ ، ص ٣١١ : ٣١٢.

٩٤- عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية ، ص ١٥٤.

٩٥- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢، ج١ ،ص ١٢ ؛ شعبان طرطور: موجز تاريخ، ص ٣٣.

٩٦- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ١٢٤.

٩٧- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ١١١ : ١١٢.

٩٨- عبدالسلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية ، ص ٢٧.

٩٩- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٣٣٨ ؛ عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٠٤.

١٠٠- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، ص ٩٧.

١٠١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٧٩.

١٠٢- البدليسي : شرفنامه ، ج٢ ، ص ٢٧.

١٠٣- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٣٤٧ ؛ عباس إقبال ، تاريخ المغول ، ص٢٨٥.

١٠٤- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، ص ٩٥.

١٠٥- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤، ص٤٢٥.

١٠٦- شعبان طرطور : موجز تاريخ ، ص ٦١.

١٠٧- دار النزاع بين الأمير سنقر الأشقر والسلطان قلاوون علي تولية العرش ، وبالتالي تم تبادل الرسائل بينه وبين أباقاخان للمآزرة والوقوف إلي جانبه ضد قلاوون وجيشه (فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٩٧).

١٠٨- النويري : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٤١١ ؛ البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص٤٨٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ٢١١.

١٠٩- العيني : عقد الجمان ، ج٤ ، ص ٢٨١ ؛ ميرخواند : روضة الصفا ، ج٥، ص٣٩٨.

١١٠- ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ٣٧.

١١١- لقد خرج الأمير شمس الدين قراسنقر ملتجأ إلي الإيلخان أولجايتو ، وقد أرسل إليه الإيلخان أميراً مغولياً هو سوتاي علي رأس عشرة آلاف جندي ، لاصطحابهم إلي داخل الإيلخانية (ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج٩ ، ص ٢٣٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٨ ، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٢م ، ص١٦٤).

١١٢- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٤٢.

١١٣- الهمذاني : جامع التواريخ، مجلد ٢، ج٢، ص ١٦؛ ترخان : لقب يفيد امتياز حامله بالإعفاء من كل التكاليف ، فهو لا يدفع نصيباً مما يغنم في الحرب ، ويدخل علي الملك وقت ماشاء ، وترخان اسم قبيلة جغتائية كذلك، (الهمذاني: نفس المصدر السابق والجزء ، هامش ص١٧).

١١٤- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ٦٣ : ٦٤.

١١٥ – الشرق الإسلامي، ص٧٥.

١١٦ – فؤاد الصياد : نفس المرجع السابق، ص١٩٢؛ محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين، ص ٦٨.

١١٧- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص١٤٥:١٤٣؛ كان علي رأس تلك السفارة كل من القاضي نصير الدين التبريزي والشيخ قطب الدين الموصلي (البدليسي: شرفنامه، ج٢، ص١٩).

١١٨- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٣٦١.

١١٩- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد٢ ، ج٢ ، ص ٣٤.

١٢٠- فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ، ج١ ، دار النهضة العربية للطباعة بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٨٠ م ، ص٣٦٤.

١٢١- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ١٨٩ : ١٩٠.

١٢٢- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٥٣ ؛ عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٢٨٨.

١٢٣ – الأمير صدر جهان : اسمه صدر جهان أحمد الخالدي الزنجاني وزير غازان ، وهو أحد أبناء قضاه ولاية زنجان ، والتحق بالخدمة للأمير طغاجار ، ولما أصبح طغاجار أميراً للألوس في عهد أرغون جعل صدر جهان أحد مسئولي تنظيم أموال البلاد ، فنظم أعماله تنظيماً كاملاً ((خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٦٦ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٤٦٢ ؛ فؤاد الصياد: مؤرخ المغول ، ص ٦٨).

١٢٤- الهمذاني : تاريخ غازان خان ، ص ٥٣: ٥٥.

١٢٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٣٢.

١٢٦- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦١.

١٢٧- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ٣٧: ٣٩.

١٢٨ – فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٣٠٣.

١٢٩- كشيكجي : كلمة مغولية معناها النوبة ، وقد اختيرت فرقة خاصة من هؤلاء الحرس ، مكونة من ألف رجل هم نخبة المحاربين لا يخرجون إلي الحرب إلا إذا كان الإيلخان نفسه مع جيشه في ميدان القتال (فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ، ص ٣٦٠).

١٣٠- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٣٩٠ : ٣٩١.

١٣١- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٥٩ ؛ خواندمير : حبيب السير ، ج١ ، ص١٠٨.

١٣٢- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٢٤١.

١٣٣- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٠٥.

١٣٤- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٣٤٨.

١٣٥- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، ص ٩٣.

١٣٦- فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ، ص ٣٦٦.
١٣٧- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٦٣.
١٣٨- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ١٥٤ :١٥٥ .
١٣٩- تاريخ غازان ، ص ١٠٤ ؛ ويشير الهمذاني في موضع آخر في تاريخه بأن غازان كان رحيماً مع أسراه ، وأنه أمر بأن يحضروا من خزانته قباء وقلنسوة ومنطقة - حزام وحذاء - وألبسوا الأسير هذه الأشياء وهو الأمير أرسلان أغول، ثم أركبوه جوادا من جياد الخاصة ، كما أمر غازان بإحضار جرحي المعركة ، وصار يضع الأدوية علي جروحهم ، مما يدل علي مدى رحمته وإسلامه (تاريخ غازان ، ص ١١٥ :١١٦).
١٤٠- أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ١٥٨ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٤٦٢ ؛ فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٣٠٠.
١٤١- أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ١٥.
١٤٢- الهمذاني : تاريخ غازان ، ص ٤٢.
١٤٣- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ٨٣.
١٤٤- برتولد شبولر : العالم الإسلامي ، ص ٥٧.
١٤٥- برتولد شبولر : نفس المرجع السابق ، ص ٦٩.
١٤٦- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ١٠٣ ؛ فؤاد الصياد : الشرق الإسلامي ، ص ٤٤١.
١٤٧- أبوالفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ١٠٠ : ١٠١ ؛ عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٢٢٧.
١٤٨- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٣٩٠ :٣٩١.
١٤٩- ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج٩ ، ص ٢٣٠.
١٥٠- الهمذاني : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ٢٦.
١٥١- الهمذاني : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ١٠٦ ، ١١٥.
١٥٢- حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي ، ص ٢١٠.
١٥٣- البناكتي : تاريخ البناكتي ، ص ٤٥٩.
١٥٤- البناكتي : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٢ ، ٤٧١.
١٥٥- حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي ، ص ١٤٨.
١٥٦- عباس إقبال : تاريخ المغول ، ص ٣٣٠.

أسماء المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

١- ابن أيبك الدواداري (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م) : أبوبكر بن عبدالله المنصوري. "كنز الدرر وجامع الغرر" المعروف بالدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ج٩ ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٠م.

٢- بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) : ركن الدين المنصوري المصري. "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، ج٩ ، تحقيق زبيدة محمد عطا ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م.

٣- ابن حبيب (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) : الحسن بن عمر. " تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه " ج١ ، تحقيق محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٦م.

٤- ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي. "الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عاشور وأحمد دراج ، المملكة العربية السعودية ، سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م ".

٥- رجب محمد عبدالحليم : " انتشار الإسلام بين المغول " ، طبعة دار النهضة المصرية.

٦- م.م. الرمزي : " تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار" ، مجلد١، طبعة المطبعة الكريمية والحسينية ببلدة أورينبورغ.

٧- شعبان طرطور : " موجز تاريخ إيران في العصر المغولي " ، طبعة سوهاج ، ١٩٩٦ م / ١٩٩٧ م.

٨- عبدالسلام عبد العزيز فهمي : " تاريخ الدولة المغولية في إيران " ، طبعة دار المعارف ، سنة ١٩٨١م.

٩- ابن العبري (ت ٦٨٦ هـ / ١٢٨٦ م) : غريغوريوس الملطي أبو الفرج بن اهرون " تاريخ مختصر الدول " ، وضع حواشيه الأب انطون صلحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٥٨م.

١٠- العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) : بدر الدين محمود "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان عصر سلاطين المماليك" ، حوادث وتراجم ، ج٤ ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

١١- أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي " المختصر في أخبار البشر " ، ج٣ ، ج ٤ ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، يحيى سيد حسين ، طبعة دار المعارف ، ١٩٩٩م.

١٢- فؤاد عبدالمعطي الصياد : " الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ، أسرة هولاكو خان " - منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٣- ________ : المغول في التاريخ ، ج١ ، دار النهضة العربية للطباعة بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٨٠م.

١٤- ________ : " مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، الطبعة الأولى ، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧م.
١٥- ابن الفوطي (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م) : كمال الدين أبوالفضل عبدالرازق: "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة الثامنة" ، تعليق مصطفى جواد مشكور ، المكتبة العربية ، بغداد ، سنة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م.
١٦- القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م). أبوالعباس أحمد بن علي : " صبح الأعشى في صناعة الإنشا " ج٤ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، يناير ٢٠٠٥م.
١٧- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) : الحافظ بن كثير : " البداية والنهاية " ج١٤، الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
١٨-أبو المحاسن(ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م): محمد جمال الدين يوسف بن تغري بردي "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، ج٨ ، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
١٩- محمد أحمد محمد : إسلام الإيلخانيين ، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٨٩م.
٢٠- النويري (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب : "نهاية الأرب في فنون الأدب " ج٢٧ ، تحقيق سعيد عاشور ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، فؤاد عبدالمعطي الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م.
٢١- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٣٣٩م) : شهاب الدين أبوعبدالله الرومي : "معجم البلدان " ٥ أجزاء ، طبعة دار صادر ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

ثانياً: المصادر والمراجع الفارسية :

٢٢- البدليسي (ت بعد ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦ م) : شرف خان " شرفنامه " ، ج٢، ترجمة محمد علي عوني ، راجعه يحيي الخشاب ، الناشر دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٢ م.
٢٣- البناكتي (ت ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م) : أبوسليمان داود بن أبوالفضل محمد "روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب المشهور بتاريخ البناكتي" ، ترجمة وتقديم محمود عبدالكريم علي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.
٢٤- ابن بيبي (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) : ناصر الدين يحيي بن محمد " تاريخ سلاجقة الروم المعروف بسلجوقنامه " ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة العربية ، القاهرة ، يناير ، ١٩٩٤م.
٢٥- الجوزجاني (ت ٦٩٨ هـ / ١٣٠٠م) : أبو عمرو منهاج الدين عثمان بن سراج الدين " طبقات ناصري " جلد أول به تصحيح ومقابله وتحشيه وتعليق عبدالحي حبيبي قندهار ، كابل سنة ١٣٤٣ هـ.ش

٢٦- الجويني (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين بن محمد الجويني : " تاريخ جهانكشاي المعروف بتاريخ فاتح العالم " ، تحقيق محمد التونجي ، المجلد الثاني ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الأولى ، دار الملاح للطباعة والنشر ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٢٧- حافظ أبرو (ت ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤م) : شهاب الدين عبدالله بن لطف الله : " ذيل جامع التواريخ رشيدي ، مقدمه وحواشي وتعليقات خانبابياتي، شركت تضامني علمي تهران ١٣١٧ هـ . ش.
٢٨- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م) : غياث الدين بن همام الدين: " حبيب السير في أخبار أفراد البشر " جلد سوم جزء أول ، انتشارات كتبخانه خيام.
٢٩- ________ : " دستور الوزراء " ترجمة حربي أمين سليمان ، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٠م.
٣٠- رشيد الدين الهمذاني(ت ٧١٨ هـ/١٣١٨م):رشيد الدين فضل الله: " تاريخ غازان خان المعروف بجامع التواريخ "دراسة وترجمة فؤاد عبدالمعطي الصياد ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٣١- ________ : " جامع التواريخ – الإيلخانيون تاريخ أبناء هولاكو من آباقا خان إلى كيخاتو خان" ، المجلد الثاني الجزء الثاني ، ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسي هنداوي ، فؤاد عبدالمعطي الصياد ، مراجعة يحيي الخشاب وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
٣٢- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجارية " ترجمة محمد علاء الدين منصور ، مراجعة السباعي محمد السباعي ، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة.
٣٣- ________ : " تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتي قيام الدولة التيمورية " ، ترجمة عبدالوهاب علوب ، المجمع الثقافي أبوظبي ، الإمارات العربية ، سنة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
٣٤- عبدالله الشيرازي (ت ق ٨ هـ / ١٤ م) : شهاب الدين عبدالله بن فضل الله. "تحرير تاريخ وصاف" ، بقلم عبد المحمد آيتي ، بنياد فرهنك، إيران ، تهران.
٣٥- ميرخواند (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) : محمد بن خاوند شاه. " روضة الصفا " ج٥ ، طبعة طهران ، ١٣٣٩ هـ. ش.
٣٦- النسوي (ت ق ٧ هـ / ١٣ م) : محمد بن أحمد : " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي " ، نشره وترجمة حافظ حمدي ، طبعة دار الفكر العربي ، سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٣ م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية والمترجمة :

٣٧- برتولد شبولر : " العالم الإسلامي في العصر المغولي " ، ترجمة خالد أسعد عيسي ، مراجعة سهيل زكار ، الطبعة الأولي ، دار حسان للطباعة والنشر دمشق ، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

٣٨- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمه وأخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون ، طبعة دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

39- D'Ohsson : Histoire des Mongols depuis tchingiuz khan,Vol.III (Amesterdam, 1834)

40- Howorth : History of Mongols , Vol. 3 , (London , 1975).

41- Husan Qureshi : The Administration of the sultanate of Delhi, (Delhi, 1944).

42- Sykes : History of Persia , Vol. II , (London , 1958).

التحصينات الدفاعية فى الأندلس عصر بنى الأحمر

(٦٣٥-٨٩٧هـ/١٢٣٨-١٤٩٢م)

د. حسام محمود المحلاوي (*)

المقدمـــة :

يقصد بالأندلس، فى عصر بنى الأحمر، مملكة غرناطة الإسلامية منذ قيامها فى عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وحتى سقوطها فى أيدى القوى المسيحية فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وفى تلك الفترة؛ كانت دولة بنى الأحمر تمثل الكيان الإسلامى الذى تدخل تحت لوائه كل البلاد والمدن الإسلامية؛ التى لم تكن القوى المسيحية قد نجحت فى الاستيلاء عليها .

وقد استمرت دولة بنى الأحمر قرابة القرنين ونصف القرن من الزمان، تطاحن من أجل البقاء وسط أطماع الممالك المسيحية المجاورة لها، التى كانت تتحين الفرصة من الحين للآخر للانقضاض عليها والاستيلاء على أملاكها، وطرد المسلمين نهائيًا من بلاد الأندلس، وهو ما تحقق لها فى عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م .

ولأن الاستحكامات الدفاعية كانت أهم أسباب بقاء مملكة غرناطة واستمرارها قرنين ونصف من الزمان، كان لزامًا دراستها والتعرف على طرقهم فى تحصين دولتهم وحدودها الخارجية، وكذلك كيف أنعم الله، سبحانه وتعالى، على أهل مدن مملكة غرناطة بتحصين بلادهم بموقعها المتميز والفريد .

وقد انشغل سلاطين بنى الأحمر بتشييد الاستحكامات الدفاعية طوال عمر دولتهم، فعمدوا إلى تشييد الحصون، والرباطات، والأسوار، والأبراج، وغيرها من المنشآت الحربية المهمة والتى لقيت اهتمام سلاطين الدولة، وكذلك عموم المسلمين فى بلاد الأندلس فى تلك الفترة، وبخاصة فى المناطق الحدودية .

الأندلس عصر بنى الأحمر :

بعد ضعف دولة الموحدين فى بلاد الأندلس، عقب هزيمتهم فى موقعة العقاب Las Navas de Tolosa [1] فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ يوليو ١٢١٢م،وبدأت ثورة بعض القادة الأندلسيين ضد الموحدين وإعلانهم الاستقلال عنهم، وكان منهم محمد بن يوسف بن هود[2] الذى بدأت ثورته فى شرق الأندلس، ثم نجح فى إقامة دولته بالأندلس والتى استمرت عشر سنوات، من عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، وحتى وفاته عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. كما التف الكثيرون

(*) حاصل علي درجة دكتوراة التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة المنصورة.

حول القائد محمد بن يوسف بن نصر[٣]، المعروف بابن الأحمر، مؤسس مملكة غرناطة، وعقدوا عليه الآمال في جمع شمل المسلمين في الأندلس، وبايعوه في يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٤هـ/ ٢٩ أبريل ١٢٣٧م [٤] . وبعد وفاة ابن هود في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م[٥]، تهيأت الأوضاع لسيطرة ابن الأحمر، وثار أهل غرناطة ضد حاكمهم من قبل ابن هود، عتبة بن يحي المغيلي، وقتلوه، وأعلنوا بيعتهم لابن الأحمر، واستدعوه، فدخل غرناطة في أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ/ أبريل ١٢٣٨م[٦] واتخذها عاصمة لدولته، وأعلن قيام مملكة غرناطة التي استمرت قرابة القرنين ونصف القرن من الزمان .

التحصينات الطبيعية للمملكة :

وهب الله سبحانه وتعالى جنوب بلاد الأندلس الإسلامية، وهو موقع مملكة غرناطة، موقعًا فريدًا، كان ذلك الموقع بمثابة حماية طبيعية منحها الله إياها، فكانت أحد أهم الأسباب التي حفظت حدودها كثيرًا، وردت عنها أعداءها مرات عديدة، لذا وجب التعرض لتناول هذا الموقع المحصن طبيعيًا، وما أهم ملامح تحصينه.

فمملكة غرناطة كان يحيط بها ويخترقها عدة جبال، كانت لوعورتها وارتفاعها، عاملاً وحصنًا طبيعيًا لها . فقد كانت سلسلة الجبال العالية، التي تحيط بغرناطة العاصمة، تشكل سورًا طبيعيًا منيعًا أمام الهجمات الكثيرة التي تعرضت لها. وأهم هذه الجبال جبل شيلر (ضمن سلسلة جبال تعرف باسم سيرا نيفادا Sirra Nevada) وهو تحريف للاسم اللاتيني القديم Solorius أي جبال الثلج، لشدة لمعانه لانعكاس أشعة الشمس على قممه المغطاة بالثلوج. ويطل جبل شيلر على غرناطة العاصمة، ويبلغ ارتفاعه ٣٤٨١ مترًا.[٧] ويذكر الزهري أنه لا ينبت في قممه نبات ولكن النبات ينبت على سفحه[٨].

كما أن وجود جبل طارق Gibraltar (نسبة إلى طارق بن زياد) بمثابة حصن طبيعي للمملكة من ناحية الجنوب، وخاصة بعد أن أنشأ الموحدون على سفحه مدينة الفتح، لتكون مركزًا للعمليات الحربية (لذلك سمي جبل الفتح). وقبل الفتح الإسلامي أطلقت عليه أسماء عديدة، أهمها الاسم الفينيقي Calpe ومعناه تجويف، حيث كان يطلق على مغارة كبيرة في هذا الجبل. أما عن مضيق جبل طارق، أو بحر الزقاق، فهو ممر مائي ضيق، يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي ١٥ كم، وهي مسافة ساعدت على عبور المغاربة إلى بلاد الأندلس[٩]، وهو بوابة الأندلس إلى بلاد المغرب والعكس، وعنه يذكر ابن الخطيب:

هو الباب إذ كان التزاور واللقيا ... وغوث وغيث للصريخ وللسقيا
فإن تترك الأيام فيه بحادث ... وأعزز به كل السلام على الدنيا[١٠]

كما أن جبل فارّة (بتشديد الراء وضمها) Gibralearo الذي يشرف على مرسى مدينة مالقة Malaga[١١]، كان بمثابة حصن طبيعي للميناء[١٢].

وكما كانت الجبال تحمي المملكة، كانت الأنهار التي تخترقها بمثابة أحد عوامل التحصين الطبيعي لها، وعاملاً مساعدًا لوقوفها في وجه أعدائها.فقد كان يخترقها عدد كبير من الأنهار، منها نهر الوادي الكبير الذي يمر بمسافات طويلة داخل بلاد الأندلس، وتتفرع منه عدة أنهار أخرى، أهمها نهر شنيل Genil، وهو النهر الذي تقع عليه العاصمة غرناطة،وينبع من

جبل سيرانيفادا[١٣]، وهو يؤمّن المدينة من ناحية الجنوب [١٤]ويقطع مسافة أربعين كيلومتر غرب العاصمة غرناطة. [١٥] كما يوجد نهر حدرة Derra (بفتح الحاء والراء) والذى ينحدر من جبل قرب مدينة وادى آش Guadix [١٦] شرقي جبل شيلر، وينتهي إلى غرناطة العاصمة ويمر شرقها، ويلتقى بنهر شنيل خارج المدينة، وطوله ١١كم [١٧] كما أن نهر وادى المنصورة والذى يسميه العرب وادى بيرة- لأنه يصب فى البحر المتوسط عند بلدة بيرة،- كان بمثابة حصن طبيعى لغرناطة[١٨] .

ولوجود الجبال والأنهار، سالفة الذكر، باتت بعض المدن الأندلسية محصنة طبيعيًا، فكانت بمثابة حماية طبيعية لها للتصدى لهجمات الممالك المسيحية، وبخاصة التى عاصرت بنى الأحمر . ومن هذه المدن مدينة مالقة ذات الموقع المتميز، فهى تقع على البحر المتوسط فى وادى عميق، يحد هذا الوادى من الشمال المرتفعات الشاهقة، ومن جنوبه منطقة وعرة كلها جرداء[١٩] . ومدينة وادى آش التى تطل من الشرق على نهر الوادى الكبير، ومن الغرب على صخرة منيعة عالية تشرف على واديها الأخضر، وتبدو من بعده جبال سيرانيفادا الشاهقة على بعد اثنى عشر كيلومترًا منها. [٢٠]

كذلك كانت مدينة المريةAlmeria [٢١] محصنة بجبل شمالاً والساحل جنوبًا، ومن الشرق والغرب وديان ضحلان. [٢٢]

وبذلك، فإن الناظر لحدود مملكة غرناطة، يجد أنه يحدها من الشمال مرتفعات جبال سيرانيفادا ونهر الوادى الكبير، ومن الجنوب والشرق البحر المتوسط، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة [٢٣]

اهتمام المسلمين بتحصين المملكة :

كان لوجود مملكة غرناطة الإسلامية فى مكان تحيط به الممالك المسيحية المتربصة بها من كل جانب، وبخاصة مملكتا قشتالة وأراجون، بالغ الأثر فى انشغال الغرناطيون حكومة وشعبًا بإقامة التحصينات الحربية التى تساعد في عملية الدفاع عن البلاد، والمدن التابعة للمملكة، إذا ما تعرضت لهجوم القوى المسيحية فى أى من الأوقات .وسادت حالة فريدة من التعاون بين الحكومة الغرناطية والشعب الغرناطى فى مسألة إقامة التحصينات اللازمة لحماية البلاد والمدن . ويذكر المؤرخ المقرى: أن الدولة الغرناطية كانت تحث رعاياها الأندلسيين على المساهمة فى إقامة التحصينات الدفاعية لأن أموال الدولة كانت تصرف فى أوجه مختلفة أخرى، من شراء أسلحة والإنفاق على الجيش، لذلك كان الملوك يطلبون من الرعية المشاركة فى إقامة الحصون والأسوار والأبراج للحماية [٢٤]

وقد استجاب الغرناطيون لرغبة ملوكهم،فشاركوا فى تشييد الاستحكامات الدفاعية لمدنهم، خشية وقوعها فى أيدى القوى المسيحية، وتزعم العلماء هذه الحركة، ومنهم أبو البركات بن الحاج البلفيقى (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)- من أشهر العلماء المجاهدين فى عصر بنى الأحمر- وقد شارك فى تحصين بلدته خشية الوقوع فى قبضة النصارى، فشارك فى بناء الأسوار وحفر الآبار، بل قام بتشييد سور حول أحد الحصون، وكان ذلك من ماله الخاص.

وفى ذلك يقول أبى البركات بن الحاج :

في افتحـار الأساس والآبـار — وانتقـال التـراب والجيـار
وقعودى ما بين رمـل وآجـر — وجـص والطوب والحجار
وامتهان بُردى بالطين والماء — ورأسى ولحيتى بالغبار[٢٥]

كما أن سكان المناطق الحدودية كانوا يقومون بدفع ضرائب مخصصة لإقامة التحصينات الدفاعية وبخاصة الأسوار لحماية البلاد من هجمات القوى المسيحية، وقد وافق العديد من فقهاء غرناطة على فرض هذه الضريبة، وذلك لما بها من مصلحة عامة تعود على المسلمين في بلاد الأندلس[٢٦].

كما اهتم المرينيون[٢٧] بتحصين المدن الأندلسية التى كانت خاضعة لسيطرتهم،وقاموا بتشييد العديد من الحصون والأسوار والأبراج بها،علاوة على الاهتمام ببناء مخازن الأسلحة والذخيرة. ويذكر المورخ ابن مرزوق: أن السلطان المرينى أبو الحسن على[٢٨] قام بتحصين مدينة رندة وعملوا على إنشاء عدد كبير من المنشآت الحربية بها، وعن ذلك يذكر"... وفي بلدة رندة من آثار البناء المحدث عن أمره والمعاقل المحصنة والأبراج الشامخة.."[٢٩]

وبعد أن نجح المسلمون، أندلسيون ومغاربة، فى استرداد جبل طارق من أيدى القوات القشتالية فى عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م[٣٠]، اهتموا بإقامة تحصينات قوية للجبل، حتى إذا ما شن القشتاليون الهجوم عليه مرة أخرى، منعتهم التحصينات من الاستيلاء عليه. وأشرف على هذه التحصينات القائد أبو مالك بن السلطان المرينى أبى الحسن علي. وقام المسلمون ببناء حصن بالجبل، كما عملوا على إحكام السور حوله، وبناء مسجد جامع به، ومرافئ برية وبحرية. واستخدم المسلمون فى هذه التحصينات المؤن والعتاد اللازم لذلك، والذى أرسله السلطان المرينى أبو الحسن على لإقامة تلك التحصينات[٣١].

أهم المنشآت الحربية :

الحصــون:

الحَصْنُ في اللغة: من حصُن المكانُ يَحْصُنُ حَصانةً، فهو حَصِين: منُع، وأَحْصَنَه صاحِبُه وحَصَّنه.والحِصْنُ كلُّ موضع حَصِين لا يُوصَل إلى ما في جَوْفِه، والجمع حُصونٌ.[٣٢]

وكان بنو الأحمر مثلهم مثل أسلافهم حكام الأندلس، يعمدون إلى بناء الحصون لحماية البلاد الإسلامية من هجمات القوى المسيحية، وهذه الحصون تتقـدم الأسوار لحمايتها وقت الهجوم، والحصن فى غالبه عبارة عن بناء ذى متاريس مسننـة، له عدة أبواب متداخلة، عـادة ما تكون في أحد زواياه. ويذكر ابن الخطيب أن السلطان أبى الحجاج يوسف الأول[٣٣] (٧٣٣-٧٥٥هـ/١٣٣٣-١٣٥٤م) قام ببناء حصن على أحد الجبال المطلة على ميناء مالقة مباشرة، والمسمى جبل فارة لحماية الميناء من أى هجوم مسيحى متوقع، وعن ذلك يذكر

أن:"..... وفى أيامه ...... بنى الحصن السامي الذروة، المبنى على القدرة، فى الجبل المتصل بقصبة مالقة، فعظم به الفخر، وجل الذكر..."[٣٤]

كما أن السلطان الغرناطى محمد الخامس[٣٥] (٧٥٥هـ-٧٩٣هـ/١٣٥٤م-١٣٩١م) قام بتجديد هذا الحصن، وأصدر بعض الظهائر إلى رعيته من أهالى مالقة بضرورة الاهتمام ببناء الحصون القوية على هذا الجبل حماية للمدينة وإعانة للمسافرين[٣٦]. ويعد حصن جبل فارة: صرحًا إسلاميًا يشهد على عظمة العمارة الإسلاميةُ فى تلك الفترة، وقد اختار المسلمون لبنائه ربوة عالية تشرف على البحر، ويقع على مسافة صغيرة من القصبة ويفصل الحصن عنها رقعة خضراء، ويرتبطان بطريق مسور، وأسوار الحصن الخارجية مشيدة من الآجر الأحمر، وبه برج رئيسى أبيض اللون، مستدير الواجهة، ويشرف الحصن على المدينة من ارتفاع شاهق، وأمام الحصن من الناحية الأخرى منحدر الجبل، وكان للحصن أربعة أبواب كبيرة فى سوره الأسفل، أحد هذه الأبواب يؤدى إلى قصبة المدينة. [٣٧] وقد سقط الحصن في أيدى الملكين الكاثوليكيين عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، بعد حصار دام أربعين يومًا[٣٨]، وما زال الحصن يحتفظ حتى الآن بطابع الطراز الإسلامى، فقد تبقى منه اليوم أسوار السياجين وجزء من البرج الأعظم[٣٩]

ومن أشهر حصون مملكة غرناطة: حصن العقاب، على مقربة من غرناطة، وحصن شلوباتية وهو حصن بحرى، وحصن البيول Bauel [٤٠]، كما أنه بالقرب من غرناطة العاصمة، وعلى بعد اثنين وثلاثين كيلو مترًا شمال غربى المدينة، كان يوجد حصن موكلين المنيع، على ربوة عالية هرمية الشكل، وتشرف من ارتفاعها الشاهق على سائر البسائط المجاورة، وفى أسفل الحصن تقع قرية موكلين، وقد لعب حصن موكلين دورًا بارزًا فى حرب غرناطة الأخيرة، وكان من أمنع خطوط الدفاع الشمالية عن المدينة، وكان سببًا فى رد القشتاليين عن غرناطة فى شعبان ٨٩٠هـ/يوليه ١٤٨٥م، بعد هزيمتهم هزيمة فادحة على أعتاب هذا الحصن[٤١]. وقد حرص سلاطين بنى الأحمر على تشييد العديد من الحصون ووضعوا عليها الأبراج بطول ساحل المرية لحماية مينائها من الهجمات المسيحية المتكررة على السواحل الإسلامية، بهدف السيطرة على الموانئ والمدن[٤٢].

الأربطـــة:

تعددت الوظائف التي تقوم بها الأربطة؛ بين حربية ومدنية ودينية، حيث كانت في البداية قد نشأت حربية، واستخدمت للعبادة والتصوف، كما استخدمت أيضاً كمحطات تجارية، ومستودعات لحفظ المواد التموينية والغذائية، وأيضاً محطات بريدية، كما أشرفت على أمن الطرق، بالإضافة إلى حفظ الخيول والمواشي، وأيضاً حفظ المياه في الخزانات والصهاريج . ولقد ظلت الأربطة تؤدى دورها الحربى طوال عصر بنى الأحمر، ومثال ذلك: سلسلة الرباطات التى كانت تحيط بمدينة المرية مثل الرباط المسمى "رباط القبطة Cabo de Cata" على ساحل المدينة، والذى تم تشييده فى عهد السلطان محمد الخامس، لحماية الساحل من أى هجوم

مسيحى محتمل [٤٣] . كما كان هناك رباط بجانة[٤٤] القريب من ميناء المرية أيضا، وكذلك ربط عمروس ورباط الخشنى[٤٥] .

وفى رحلته: تعرض ابن بطوطة لذكر الرباطات الأندلسية، فيذكر أنه فى طريقه إلى مالقة مر برباط سهيل، والذى قضى فيه ليلته[٤٦]. كما أنه يذكر أنه فى زيارته لمدينة غرناطة العاصمة توجه مع الشيخ الولى الصالح أبى عبد الله محمد بن المحروق لزيارة رابطة العقاب، وزاوية بنى المحروق، ويذكر أن العقاب جبل مطل على خارج غرناطة[٤٧].

الأســـوار:

كانت عمليات تحصين المدن والأحياء السكنية الكبرى الغرناطية تبدأ بتشييد الأسوار المرتفعة والمتينة، وكانت هذه الأسوار مزودة بأبراج على طول مسارها، لحمايتها إذا ما قامت القوى المسيحية بشن الهجوم عليها فى أى من الأوقات . ففى عهد السلطان الغرناطى يوسف الأول: تم تشييد السور الأعظم الذى كان يحيط بأكثر المناطق السكنية فى مدينة غرناطة العاصمة، وهو ربض البيازين[٤٨] .

والسور الغرناطى مثله مثل العديد من الأسوار فى البلاد والمدن الإسلامية، فى تلك الفترة، فهو فى الغالب يتألف من درب فى أعلاه، يسير عليه المحاربون، يطلق عليه فى الغالب ممشى السور، وفى السور شرفات يُقذف منها بالسهام، كما يضم السور بعض الدورات التى تستخدم فى الاحتماء [٤٩]

وما يزال بعض أجزاء من سور مدينة غرناطة قائمًا حتى اليوم، يشهد على متانة بنائه وعظمة تشييده، وأغلب الأجزاء الباقية من السور تلك التى تقع فى الجهة الشمالية الغربية، وتمتد نحو كيلو متر، كما بقيت بعض أجزاء من سور الجهة الشرقية، والتى تشهد على متانة التحصينات الغرناطية. [٥٠]

كما أن الحمراء [٥١] كان يحيط بها سورٌ حول قصورها كلها، وكان السلطان الغرناطى محمد بن الأحمر قد أنشأ بعضَ أسوار الحمراء، كما قام ابنه محمد الثانى الفقيه، فى أواخرَ القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى، باستكمال بعض أجزاء السور، والعمل على تحصينه[٥٢] وتوالت الإنشاءات فى السور بعد ذلك حتى اكتمل حول الحمراء كلها فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الأول، كما أتم بناء أبراجه وبواباته[٥٣]، وتكمل هذه الأسوار القصبة فى ناحية الغرب، وهذه الأسوار كانت منيعة ومشيدة بالحجارة الصلبة، ويتألف السور من جدار واحد فقط، وكانت هذه الأسوار شاهقة الارتفاع[٥٤].

كذلك كان جبل طارق يحيط به سور قام السلطان محمد الخامس الغنى بالله فى عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م بعمل تعلية له، وإصلاح الأجزاء المتهالكة به. [٥٥]

كما أن أسوار مدينة المرية يرجع بناؤها إلى مؤسسها عبد الرحمن الناصر، وكان قد أقامها فى عام ٣٤٣هـ/٩٥٤م[٥٦]، إلا أنها شهدت على مدار تاريخ المدينة منذ تأسيسها وحتى سقوطها فى أيدى القشتاليين عام ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م[٥٧]،عدة تجديدات وتحصينات،ازدادت فى عصر بنى الأحمر، عندما اشتدت وطأة الممالك المسيحية على البلاد الإسلامية [٥٨] . وللمدينة سور كبير منيع عال من ناحية البحر لتحصين المدينة، وسور آخر بُنى حول ربضها الشرقى لحمايته، كما كان ربضها الغربى محصنًا بسور كبير أيضًا، وكانت مدينة المرية قد تعرضت لهجوم شديد وحصار قوي من جانب القوات الأراجونية فى عام٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٥٩] وبرغم أن آلات الحصار الأراجونية كانت حديثة وقوية؛ فإنها لم تتمكن من اقتحام أسوار المرية المتينة، فاضطرت إلى رفع الحصار عنها [٦٠] .

الأبــــراج :

البَرَجُ فى اللغة : تباعُدُ ما بين الحاجِبَيْن، وكل ظاهر مُرتَفِع فقد بَرَجَ، وإنما قيل للبُرُوج بُرُوج لظُهُورها وبيانها وارتفاعها، والجمع أبراج[٦١] .

والأبراج بناء حربى قد يأخذ شكل المربع، أو المثمن أو المستدير أو غير ذلك من الأشكال، وتكون فى موضع بارز فوق الأسوار، وكانت من أهم الاستحكامات الدفاعية فى العمارة الحربية الإسلامية، وبخاصة فى بلاد الأندلس، لرد أطماع الممالك المسيحية المجاورة لها . فقد قام السلطان الغرناطى محمد الثالث[٦٢] (٧٠١-٧٠٨هـ/١٣٠٢-١٣٠٩م) بإنشاء خمسة أبراج على مشارف فحص غرناطة لحماية أهل الريف وقت هجوم النصارى عليهم[٦٣]، ويذكر ابن الخطيب: أن عدد أبراج مملكة غرناطة بلغ أربعة عشر ألفًا[٦٤]، ووقت استيلاء حملة قشتالة على مالقة وجدوا عدد أبراجها وقد بلغ ألف وثلاثين[٦٥] .

وكان دور الأبراج المراقبة، فيذكر ابن بطوطة فى رحلته إلى بلاد الأندلس: أنه توجه من مدينة مربلة إلى مدينة سهيل، ويذكر أنه بعد دخوله فى حوز مدينة سهيل، رأى برجًا للمراقبة هو برج الناظور، وقال فى نفسه "... لو ظهر ها هنا عدو لأنذر به صاحب البرج..."[٦٦] وبينما هو كذلك حتى شن أربعة أجفان[٦٧] للنصارى على المدينة، ولم يكن الناظور بالبرج، ولم يعلمهم أحد بالغارة، وكانت النتيجة أن قتل فارس مسلم وتم أسر عشرة، ونجح فارس فى الفرار[٦٨] .

كما قام سلاطين بنى الأحمر ببناء الأبراج المختلفة حول المدن للدفاع عنها فمدينة مالقة كان بها عدد كبير من الأبراج، والتى شبهت أبراجها ببروج السماء فى كثرتها وضيائها[٦٩]، واستمرت هذه الأبراج حتى كان تدمير أغلبها على أيدى الحملة التى عمدت إلى الاستيلاء عليها، فى عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، وكانت عقبة كبيرة فى وجه الحملة القشتالية، إلا أن تفوق سلاح المدفعية القشتالية، الذى نجح فى تدمير هذه الحصون، كان سببًا فى نجاح تلك الحملة.[٧٠]

كذلك عُرف من الأبراج الغرناطية، فى تلك الفترة، أبراج الطليعة أو المراقبة Torres Atalaya، وهى مأخوذة من الكلمة العربية الطليعة،وهى أبراج قام المسلمون بتشييدها على ارتفاع كبير حتى يمكن من خلالها مراقبة تحركات القوى المسيحية، وتقوية الاستحكامات حول المدن والمناطق الحيوية فى المملكة ومنها السواحل والموانىء. وكانت هذه الأبراج ملاذًا آمنًا للمسلمين إذا ما شنت القوى المسيحية هجومًا مباغتًا عليها(٧١) ومن أشهر أبراج الطليعة: الأبراج التى شيدت حول المدن المهمة كغرناطة والمرية ومالقة، علاوة على مدينة جيان Jaen(٧٢) التى عن طريقها كانت تكثر الغارات القشتالية على الأراضى الإسلامية(٧٣) .

وقد عمد سلاطين بنى الأحمر إلى تشييد أعداد كبيرة من هذا النوع من الأبراج، لما لها من دور حيوى فى حماية المدن الإسلامية، ففى عهد السلطان الغرناطى يوسف الأول؛ شيد الحاجب أبو النعيم رضوان، عددا كبيرا من أبراج الطليعة بطول الساحل الغرناطى، بلغ عددها أربعين برجًا، بهدف تأمين الساحل الغرناطى. (٧٤) وكانت أبراج الطليعة تلقى اهتمام العديد من القيادات المسيحية، فى حربهم ضد البلاد والمدن الإسلامية، فكان القادة المسيحيون حريصين حرصًا شديدًا على تدمير أبراج الطليعة، فى البلاد الإسلامية، وخاصة الحدودية، لأنها كانت تعوق حركتهمْ وتمنع تقدمهم فى الأراضى الإسلامية مرات عديدة، لما تقوم به من إبصار المسلمين بقوات النصارى عند تقدمها(٧٥) .

وقام المسلمون فى غرناطة بتشييد أنواع أخرى من الأبراج، كانت مربعة الشكل، تقام بين مسافة وأخرى، وكثُر تشييدها فى غرناطة والمرية ومالقة،كما قاموا بتشييد أبراج مستديرة الشكل، وكان الهدف من هذه الأبراج هو زيادة الاستحكامات الدفاعية على المدن الإسلامية(٧٦) . وكان البرج يتألف من نصفين: نصف أدنى مصمت، ونصف علوى تشغله غرفة، وينفتح سطحه مع سور الممشى، وتعلو جدرانه العليا شرفات، وقد تشغله غرفتان الواحدة فوق الأخرى، تخصص عادة للحماية . وتزود جدران البرج، فى الغالب، بمنافذ للسهام تنفتح فيه، ويغطى الغرفة فى الغالب قبوات نصف كروية (٧٧).

وعرف فى عصر بنى الأحمر البرج المسدس والمثمن والمتعدد الأضلاع، وهو ليس ابتكارًا إسلاميًا، وإنما كان معروفًا فى العمارة الرومانية والبيزنطية (٧٨) وتأثرت العمارة الموحدية والمرابطية بالعمارة الرومانية والبيزنطية، وشيّدوا أبراجًا مسدسة الشكل. كما شيّد الموحدون الأبراج المثمنة الشكل، وكذلك الأبراج متعددة الأضلاع، ونقل عنهم بنو الأحمر هذه الطريقة.(٧٩)

كما شيد الغرناطيون الأبراج المربعة الشكل التى استخدموها فى الدفاع، ومن أهم الأمثلة،تلك الأبراج المربعة الشكل الموجودة فى قصر الحمراء، والناظر إلى هذا النوع من الأبراج يجده من الداخل على شكل فراغ مكعب الشكل، يكون فى الغالب جزءًا من قصر، ويدل هذا النوع من الأبراج على تداخل فن العمارة العسكرى مع فن العمارة المدنية، ومنها الأبراج التى كانت تشكل جزءًا من قصر برج قمارش Comares وبرج معشوقة Machucas وبرج العقائل

Damas وكانت بعض أبراج الحمراء تشكل قصورًا كاملة، مثل برج هوميناخ Homenaje، وبرج الأسيرة Cantiva، وبرج الأميرات Infantas[٨٠].

وشيد الغرناطون الأبراج البرانية، وهى ابتكار موحدى الأصل، والهدف منها تدعيم السور الخارجي للمدينة أو الحى، والبرج البرانى يرتبط بالسور الأصلى عن طريق ستارة ثانوية، تسمى قورجة تستهدف غلق الطريق أمام الأعداء فى أضعف مناطق السور .ومن الأبراج البرانية ما هو مربع الشكل وما هو ثمانى[٨١] . ومن أشهر هذه الأبراج: برج السيدات، وبرج الأسيرة، وبرج مخدع الملكة، وبرج الأمراء وبرج قمارش .

وتشهد أسوار المرية على قوة تحصين المسلمين لبلادهم، فقد شيد بنو الأحمر عدد من الأبراج على أسوار المرية لحماية المدينة ضد أى هجوم مسيحى محتمل، ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم: أن الأبراج التى شيدها بنو الأحمر على أسوار المرية، كانت فى غالبيتها اسطوانية الشكل، ويرى أن تاريخ بنائها يعود إلى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى.[٨٢]

الأبـــواب :

كما أن أبواب المدن، والأحياء السكنية الكبيرة، كانت ضمن اهتمامات المسلمين بتحصين مدنهم فى العصور المختلفة، وبخاصة فى عصر بنى الأحمر، وكانت أبواب المدينة تلعب دورًا مهمًا فى إحكام غلق حلقة الدفاع، إذا ما حاول عدو الاقتراب من المدينة، واقتحامها، فهى جزء أساسى من الأسوار وتستخدم في الدفاع والهجوم، لوجود سقطات وفتحات لرمى السوائل المحرقة وفتحات لرمى السهام على المهاجمين، ولذلك اهتم أهل الأندلس بنظام بناء أبواب المدن الإسلامية، وهى بجانب دورها الدفاعى كانت منافذ للدخول إليها والخروج منها، وكانت هذه الأبواب، فى الغالب، تسمى بأسماء المدن التى تتجه إليها لتفتح الطريق مباشرة بينها وبين المدينة التى تقابلها.[٨٣] فمدينة غرناطة العاصمة كان بسورها أكثر من عشرين بابًا ما زالت حالة بعضها مقبولة، ومن أهم الأبواب باب إلبيرة Puerta de Elvira، والذى يقع شمال غربى المدينة، ومنه يبدأ شارع إلبيرة، الذى ما زال يحمل اسمه العربى حتى الآن، وكان ارتفاع هذا السور حوالى اثنى عشر مترًا، ولا يزال باقيًا حتى اليوم[٨٤] .

كما أن أسوار مدينة المرية كانت تحتوى على العديد من الأبواب التى كانت تمثل مداخل المدينة، أهمها باب موسى، وربما يرجع إلى أحد أعلام المدينة،، وباب بجانة، وباب السودان، وباب المربى، وباب دار الصناعة، نسبة إلى دار الصناعة، وباب العقاب، وباب الزياتين، وباب البحر[٨٥].

ومن أهم الأمثلة لأبواب الأحياء السكنية الكبيرة: أبواب حى البيازين أكبر أحياء مدينة غرناطة، والذى شيد المسلمون حوله سورًا لحمايته، به ثلاثة أبواب كبرى محصنة أيضًا، وهى

باب البيازين Puerta de Albaicin ويقع فى نهاية السور، وباب فحص اللوز أو فج اللوزة Puerta de Fajalauza وباب الزيادةPuerta de Las Pesas[٨٦].

القصبات :

علاوة على الحصون والأسوار المشيد عليها العديد من الأبراج لحمايتها؛ عمد سلاطين بنى الأحمر إلى بناء وتشيد العديد من القصبات بالمدن الأندلسية، وتجديد القصبات التى تحتاج إلى تجديد وترميم،، وهذه القصبات تعتبر بمثابة ملاجىء فى المدن الكبرى المأهولة بالسكان، مثل المرية ومالقة ووادى آش، علاوة على العاصمة غرناطة. فيذكر المؤرخ ابن الخطيب: أن السلطان الغرناطى محمد الخامس الغنى بالله، عمل على تجديد القصبات فى مدن الأندلس، فيذكر أنه عمل على ".. إطلاق البُنى للمدة القريبة والزمان الضيق باثنين وعشرين ثغرًا من البلاد المجاورة للعدو . والمشتركة الحدود، مع أراضيه المترامية النيران لقرب جوابه منها ثغر أرجدونة المستولى عليه الخراب، أنفق فى تجديد قصبته، واتخاذ جُبّه ما يناهز عشرين ألفًا من الذهب فهو اليوم شجي العدو ... وحصن آشر وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج على بعد أقطاره ... ثم ختم ذلك بتجديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، ومعقل الإسلام ومفزع الملك ومعقد الأيدى وصوان المال والذخيرة، بعد أن صار قاعًا صفصفًا، وخرابًا بلقعا..."[٨٧]. وفى غرناطة العاصمة تُوجد قصبة الحمراء، وهى ثلاثة أقسام: القصبة الجديدة أو القسم العسكرى شمالى شرق القصر، وهى عبارة عن قلعة تحرس الحمراء، ولها برجان عظيمان أحدهما يسمى برج الشمعة أو الحراسة الذى يسهر على رقاد المدينة، وفى وسط الحمراء يقع القصر الملكى، ثم الحمراء العليا التى تضم مجموعة من البيوتات كانت مخصصة للخدم والحرفيين علاوة على المسجد، ودار السّكة. [٨٨]

وتعد قصبة وادى آش، التى ما تزال باقية حتى الآن، تشهد على عظمة بناتها من المسلمين، فهى تقع فوق ربوة عالية،بل هى أعلى مكان فى الربوة، بها برج كبير، وبرجان صغيران قبالته، يتصلان لسور ذى مشارف عربية، كما يوجد برج رابع فى زاوية منعزلة منها، وهذه الأبراج تشرف على المدينة كلها، وربما كانت القصبة هى أعلى بناء للمسلمين بوادى آش.[٨٩]

كما أن قصبة مالقة الحصينة، والتى لا زالت أجزاء عديدة منها باقية، تشهد على حصانتها، وهى تقع على منحدر صخرى قريب من البحر، وأقيمت القصبة فى المرة الأولى فى عهد الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل، ثم جددت هذه القصبة وأعيد بناؤها فى عصر باديس بن حبوس حاكم غرناطة فى عصر الطوائف[٩٠] ثم شهدت قصبة مالقة عدة تجديدات فى عصر بنى الأحمر، على مرات متفاوتة، منذ أواخر القرن السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والقرن الرابع عشر الميلاديين، ولعبت قصبة مالقة دور كبيرًا فى تحصين المدينة أثناء حصار القشتالين لها غداة سقوطها فى أيديهم عام٨٩٢هـ/١٤٨٧م، وتضم القصبة عدة مبانى منها الأبراج والأسوار، وكذلك بها أبنية سكنية، وكل هذه الإنشاءات تعود إلى عصر بنى الأحمر[٩١]. وكانت

أسوار القصبة شاهقة الارتفاع، مزودة بأبراج ضخمة مربعة الشكل، تمتد من مسافة لأخرى[٩٢]. وكان بها اثنا عشر بابًا، ومائة وعشرة أبراج كبيرة عدا الصغيرة[٩٣]، كما كان بالقصبة قصر فخم يسمى قصر باديس مؤسسه، علاوة على مجموعة من الدور الصغيرة، لا تقل أهميتها عن القصر، ويرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنها ربما كانت مخصصة لكبار الزوار.[٩٤]

كما أن مدينة المرية كان بها قصبة منيعة لحمايتها،تقع فى الجزء الشمالى من المدينة، على ربوة جبل عالية صخرية، يبلغ ارتفاع الجبل عن سطح الأرض خمسة وستين مترًا، ويصعب ارتقائه لوعورته، وهو آخر حلقة من سلسلة جبال جادور Gador القريبة من نهر أندرش وتشرف القصبة على ميناء المرية[٩٥] . ووقوع القصبة على الجبل المرتفع حتى يتسنى الإشراف منها على الثغر، وتمتد القصبة من الشرق إلى الغرب بطول ٥٣٠متر ، وكان يصل القصبة بوسط المدينة باب، كما كانت مزودة بباب شرقى يخرج من أسوار المدينة، وكان بها مسجد جامع لا تزال آثاره باقية حتى الآن[٩٦]، واهتم المسلمون بتلك القصبة ومبانيها وأسوارها وعملوا على تحصينها بالأبراج، حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية فى تلك الفترة[٩٧] .

أما عن صورة قصبة المرية فهى: عبارة عن ثلاثة مرتفعات غير متساوية، يفصل بين كل منها سور، والمرتفع الأول وهو الأعلى يقع غربى القصبة، ويتصل بسور ربض الحوض فى خط يتفق مع طريق قائم اليوم، وهذا الجزء من القصبة هو معقلها المنيع، وأبراج هذا الجزء أسطوانية الشكل ، أما المرتفع الثانى فيكاد يكون مربعًا منبسطًا فى سطحه، وكان يشغله القصر وملحقاته، ويتصل سوره بسور ربض المصلى، والمرتفع الثالث طويل للغاية، كانت فى موضعه بساتين وحدائق . وتشتمل أسوار القصبة على عدد كبير من الأبراج لحمايتها.[٩٨]

الخاتمـــــة

خلُص الباحث من هذا البحث بعدة نتائج منها:

أولاً : الموقع الجغرافى لمملكة غرناطة: كان من أهم النعم التى منّ بها الله سبحانه وتعالى على أهل تلك البلاد فكانت محصنة طبيعيًا إلى حد كبير، فكانت كل مدينة من مدن الأندلس تتميز بميزة فى موقعها إما أن تكون محصنة من ناحية البحر فيتم إقامة سور على البحر فى تلك الجهة فيأمن المسلمون شر الهجوم على مدنهم من ناحية البحر، أو أنها تطل على أحد الجبال التى يحميها من الهجمات المسيحية أيضًا، أو أن نهرًا من الأنهار تطل عليه المدينة فتكون فى مأمن من تلك الجهة .

ثانيـا : تشييد الاستحكامات الدفاعية فى عصر بنى الأحمر: لم يحظ باهتمام سلاطين بنى الأحمر فحسب بل شارك فيه الأندلسيون كافة، وعمل العلماء والفقهاء فى تلك الفترة على بث روح التعاون فيما يخص هذا الأمر، فضرب المسلمون فى بلاد الأندلس أروع المثل فى ذلك. كما أن سلاطين بنى مرين كانت لهم بصمة فى بناء الاستحكامات الدفاعية فى بلاد الأندلس، وهذا قليل من كثير قدمته دولة بنى مرين لدولة بنى الأحمر، وكان من حسن طالع دولة بنى الأحمر أنها تأسست فى نفس الفترة التى قامت فيها دولة بنى مرين فى بلاد المغرب .

ثالثًا : تشهد العمارة الأندلسية، فى عصر بنى الأحمر، على أحد أهم الفنون الإسلامية وهو: فن العمارة الأندلسية التى تطورت ووصلت إلى أوج إزدهارها فى بلاد الأندلس فى تلك الفترة فكانت خبرة المسلمين قد ازدادت وتبلورت فضربوا أروع المثل فى أعظم مبانيهم وهو: قصبة وقصور الحمراء التى لا تزال تشهد على عظمة المسلمين وروعة فنهم فى تلك الفترة.

المصـــادر والمراجـــع

أولا:المصادر العربية:

ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت ٨١٠ هـ/١٤٠٧م)
– النفحة النسرينية واللمحة المرينية – تحقيق عدنان محمد آل طعمة، دمشق، دار سعد الدين للنشر، ط٢، ١٩٩٢م.
الإدريسي: أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨ هـ/١١٥٤م)
– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق – القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.
ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى (ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٨م)
– رحلة ابن بطوطة– بيروت،دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٢م.
الحميرى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم(ت ق ٩ هـ/١٥م)
– الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس، بيروت،مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.
ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م)
– الإحاطة فى أخبار غرناطة – تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط١٩٧٤،١م.
– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، دار المكشوف،ط ١٩٥٦،٢م.
– خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف – ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د/ أحمد مختار العبادى، الإسكندرية،شباب الجامعة، ط ١، ١٩٨٣م.
– اللمحة البدرية فى الدولة النصرية –تحقيق لجنة التراث، بيروت،دار الآفاق الجديدة، ط ٣، ١٩٨٠م.
– معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار – ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د/ أحمد مختار العبادى، الإسكندرية، شباب الجامعة، ط١٩٨٣،١م.
– مفاخرات مالقة وسلا– ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د/أحمد مختار العبادى، الإسكندرية، شباب الجامعة، ط١، ١٩٨٣م.
ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م).
– العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر – تحقيق خليل شحاتة، بيروت، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م.
ابن أبى زرع: أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى (ت بعد عام ٧٢٦ هـ)
– الأنيس المطرب بروض القرطاس – الرباط،دار المنصور، ط١، ١٩٧٣م.
– الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية – تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور، ١٩٧٢م.
الزهرى: أبو عبد الله محمد (ت فى أواسط ق ٦هـ/١٢م)
–كتاب الجغرافية–تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.
العمرى: شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م)

- وصف إفريقية والمغرب والأندلس من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نشر حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، مجلة البدر، ١٣٤١هـ.
المراكشي: عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٧م)
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب- تحقيق محمد زينهم، القاهرة، دار الفرجانى، ١٩٩٤م .
مجهول:
- أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر - تحقيق د/ حسين مؤنس، القاهرة،الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩١م.
ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب (ت ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩م)
- المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبو الحسن - تحقيق ماريا خوسيوس بيغيرا، الجزائر، مكتبة الشركة الوطنية، ١٩٨١م.
المقرى: شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ/ ١٥٣١م)
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م.
ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل (ت ٧١١هـ/١٣١١م)
- لسان العرب- تحقيق عبدالله على الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م)
- معجم البلدان - بيروت، دار صادر،١٣٨٨هـ.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر-الإسكندرية،مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٩٧م
أحمد مختار العبادى:دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - الإسكندرية،مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٦٨م.
- صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس-الإسكندرية،منشأة المعارف، ٢٠٠٠م
أندرية جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية-ترجمة محمد مزالي، تونس،الدار التونسية، ١٩٧٨م
أولغ غرابار: نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامى فى شبه الجزيرة الإسبانية - ضمن الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، نشر د. سلمى الخضراء الجيوشى، مركز بيروت، لبنان، دراسات الوحدة العربية،ط١، ١٩٩٨م،
جيريلين دودز: فنون الأندلس- ضمن الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، نشر د. سلمى الخضراء الجيوشى، لبنان، دراسات الوحدة العربية،ط١، ١٩٩٨م،
السيد عبد العزيز سالم: أضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار اشبيلية فى العصر الإسلامى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧٥م
- البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس - بالاشتراك مع د. أحمد مختار العبادى، بيروت،دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٩م.
- تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس -، القاهرة، دار النهضة، ١٩٦٩م
- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الإسكندرية، شباب الجامعة، ط ١،١٩٨١

- العمارة الإسلامية فى الأندلس وتطورها – مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن، العدد الأول، أبريل – مايو – يونيو ١٩٧٧م

- فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس – الإسكندرية،شباب الجامعة، ١٩٨٩م

عبد الحكيم الذنون : آفاق غرناطة – دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨م

محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية فى العصر الإسلامى – الإسكندرية،دار المعرفة،١٩٩٦م.

محمد عبد الله عنان: الآثار الإسلامية الباقية فى أسبانيا والبرتغال،القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٩٩٧م

- دولة الإسلام فى الأندلس– القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين – القاهرة، مكتبة الخانجى،١٩٩٧م

محمد عيسى الحريرى: تاريخ المغرب العربى والأندلس فى العصر المرينى – الكويت،دار القلم، ١٩٨٥م.

محمد كمال شبانة : يوسف الأول سلطان غرناطة – القاهرة،دار الكاتب العربى، ١٩٦٩م

محمد ياسين الحموى : الأسطول العربي– دمشق،مطبعة الترقى، ١٩٤٥

مونتغمرى وات : فى تاريخ أسبانيا الإسلامية–ترجمة محمد رضا المصرى، بيروت، شركة المطبوعات، ط١، ١٩٩٢م

واشنطن إفرنج: – أخبار سقوط غرناطة– ترجمة هانى يحى نصرى،بيروت، الانتشار العربى للنشر، ٢٠٠٠م

يوسف شكرى فرحات:غرناطة فى ظل بنى الأحمر– بيروت، المؤسسة الجامعية، ط ١،١٩٨٢م.

المصادر والمراجع الأجنبية

Ahmad Mujtar Al-Abbadi : El-Reino de Granada en la Épóca de Muhamad V- Madrid, 1973

Arie: (Dr. Rachel): L'Espagne Musulmane au Temps des Nasrides(1232-1492) – Paris, 1973

- El Reino Nasri de Granada (1232-1492) – Madrid, 1992.

Crónica de Don Alfonso XI, ed, Rosell, Madrid, 1953

Harvey: (L. P.):Islamic Spain (1250 – 1500) – London, 1990.

Luis Seco de Lucena: : El Hāŷib Ridwān, la Madraza de Granada Y las murallas del Albayzin – (AlAndalus, Madrid Y Granada), Vol. XXI, 1956

Mackay: (Angus):-La Espana de la Edad Media (1000-1500) – Madrid, 1977.

الهوامـــش

(١) معركة العقاب Las Navas de Tolosa: سميت بذلك نسبة إلى قرية العقاب التى تقع بين جيان وقلعة رباح وعلى أرضها دارت المعركة بين الجانبين. الإسلامى بقيادة سلطانهم محمد الناصر، والمسيحى تتزعمه قشتالة بقيادة ملكها ألفونسو الثامن Alfanso VIII، وضم أيضًا قوات من أراجون والبرتغال ونافار،وتلقى المسلمون فيها هزيمة قاسية. وللمزيد عن معركة العقاب انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب – تحقيق محمد زينهم، القاهرة، دار الفرجانى ١٩٩٤م،ص٢٦٥؛٣٤٣.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى، ينتمى إلى أسرة بنى هود الذين حكموا سرقسطة زمن ملوك الطوائف. وهو أول من ثار على الموحدين فى الأندلس ولقب بأمير المسلمين، والمتوكل على الله، وسيف الدولة، ويسميه الأسبان ذافادولا Zafadola . كانت بداية ثورة ابن هود فى مرسية، وبويع له بها فى عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. ودعا للخليفة المستنصر العباسى. دخلت فى طاعته معظم مدن وقواعد الأندلس بعد ذلك مثل مدينة قرطبة، وبطليوس وغرناطة. وحاول الخلفاء الموحدين القضاء على دولته لكنهم فشلوا فى ذلك. وقد دامت دولته بالأندلس عشر سنين (٦٢٥-٦٣٥هـ/١٢٢٨-١٢٣٨م). عن ابن هود ودولته انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – القسم الثانى، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ط٢، ١٩٥٦م، ص٢٧٨؛ الإحاطة فى أخبار غرناطة – تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط١،١٩٧٤م، جـ٢، ص ص ١٢٨-١٣٢؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر– تحقيق خليل شحاتة، بيروت، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م،جـ٧، ص ص ٢٥١-٢٥٢.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى الأنصارى، ويلقب بالغالب بالله، ويعرف أيضاً بالشيخ، يعود نسبه إلى سعد بن عباده سيد الخزرج، فهو بذلك من أعرق البيوت العربية، ولد فى بلدة أرجونة Arjona التابعة لمدينة قرطبة، فى عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، وهو عام موقعة الأرك، ونشأ فى تلك البلدة. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٢، ص٩٢؛ اللمحة البدرية فى الدولة النصرية– تحقيق لجنة التراث العربى، لبنان،دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٩٨٠م، ص٣٣.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٢، ص٩٤.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢،ص ص ٢٨١-٢٨٢؛ الإحاطة، ج٢، ص ص ١٢٩-١٣٢.

(٦) ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٨٦؛الإحاطة،جـ٢، ص٩٨؛ اللمحة البدرية، ص٤٧.

(٧) أبو عبد الله الزهرى: كتاب الجغرافية– تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص٩٦ ؛ الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار– تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤،، ص ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٨) الزهرى: كتاب الجغرافية، ص٩٦.

(٩) ابن الخطيب: معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار – ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق د/أحمد مختار العبادى، الإسكندرية،شباب الجامعة، ط١،١٩٨٣، ص ص ٧٤-٧٥؛ أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس-الإسكندرية. مؤسسة الثقافة الجامعية،١٩٦٨، ص ص ٤٠٣-٤٠٤.

(١٠) ابن الخطيب: معيار الاختيار ضمن مشاهدات، ص ص ٧٤-٧٥.

(١١) مالقة: مدينة ساحلية جنوب شرق الأندلس،يرجع تأسيسها إلى عام ١٢٠٠ ق.م فى عهد الفينيقيين، والذين أعطوها اسم مالقة Malako أى المملح، نسبة إلى الأسماك المملحة التى كانت تحفظ فيها، وفى عهد ملوك الطوائف كانت مدينة مالقة عاصمة الحموديين الأدراسة من ملوك الطوائف .انظر: ابن الخطيب : مفاخرات مالقة وسلا- ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية،شباب الجامعة، ط١، ١٩٨٣،ص ص ٨٧ – ٨٩ ؛ الحميرى : الروض المعطار، ص ص ١٧٧-١٧٨:

Guillén Robles,F:Málaga Musulmana - Málaga, 2ed, 1957, Vol.,I, pp.30-31.

(١٢) أحمد مختار العبادى : صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس- الإسكندرية، منشأة المعارف، ٢٠٠٠م، ص ٢٤٧.

(١٣) الزهرى : كتاب الجغرافية،ص ٩٨ .

(١٤) ابن الخطيب: الاحاطة، جـ١، ص ٩١.

(١٥) العمرى: وصف إفريقية والمغرب والأندلس من كتاب المسالك والممالك- تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، تونس،مجلة البدر، ١٣٤١هـ، ص ٣٧.

(١٦) وادى آشGuadix :مدينة قريبة من غرناطة يقع فى الشرق منها جبل شيلر أو جبل الثلج وتقع على ضفة نهر ينبع بالقرب من الجبل. مشهورة بكثرة الزروع والثمار المتنوعة خاصة التوت والأعناب والزيتون. انظر :الحميرى: الروض المعطار، ص ص ٦٠٤-٦٠٥؛ المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب- تحقيق إحسان عباس، بيروت،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م، جـ ١، ص ١٤٨.

(١٧) الزهرى : كتاب الجغرافية،ص ص ٩٣-٩٤؛ أحمد محمد الطوخى: مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر – الإسكندرية،شباب الجامعة، ١٩٩٧م، ص٥١.

(١٨) ابن الخطيب: خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف- ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب،تحقيق أحمد مختار العبادى،الإسكندرية، شباب الجامعة، ط١، ١٩٨٣م، ص ٣٦.

(١٩) محمد عبد الله عنان: الآثار الإسلامية الباقية فى أسبانيا والبرتغال-القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٩٧، ص٢٤٢.

(٢٠) نفس المرجع، ص ٢١٥.

(٢١) المرية : تقع على الساحل الشرقى للأندلس، جنوب شرقى بجانة، على حافة البحر المتوسط، وهى مدينة برية بحرية، وكانت عاصمة ولاية المرية فى زمن بنى الأحمر. شيدها الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى عام ٣٤٤هـ/٩٥٦م، لتكون قاعدة بحرية. بينها وبين مالقة ٢٢٢كم، انظر: الزهرى: كتاب الجغرافية، ص١٠١؛ ابن الخطيب: معيار الاختيار ضمن مشاهدات، ص ٥٧؛ الحميرى: الروض المعطار، ص ص ٥٣٧-٥٣٨.

(٢٢) محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية فى العصر الإسلامى - الإسكندرية، دار المعرفة، ١٩٩٦م، ص ١٤٠.

(٢٣) أرض الفرنتيرة: هى بسيط قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان، آخذه من جوف شمال الجزيرة من الغرب إلى الشرق، ومعناها بالأسبانية الحدود الفاصلة بين دولتين. انظر: ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص٢٢٩.

(٢٤) المقرى : نفح الطيب، جـ ٩، ص ص ١٠٩-١١٠.

(٢٥) نفس المصدر، جـ ٥، ص ٤٧٢ .

(26) Ahmad Mujtar Al-Abbadi : El-Reino de Granada en la Época de Muhamad V- Madrid, 1973, p.132.

(٢٧) بنو مرين فخذ من أفخاذ قبيلة زناتة،تولى زعامتهم فى عهد الموحدين أبو بكر بن حمامة، ثم خلفه أبو خالد محيو بن أبى بكر،الذى أصيب فى موقعة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م إصابة كانت سببًا فى وفاته، وعندما دب الضعف فى دولة الموحدين استقل أبو محمد عبد لحق المرينى بمكناسة وتازا، ثم تدعمت أركان الدولة فى عهد أبى سعيد عثمان بن عبد الحق . وفى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م تمكن الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى من إنهاء حكم الموحدين والاستيلاء على العاصمة مراكش. انظر : ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس- الرباط،دار المنصور، ١٩٧٣م، ص ص ٢٧٨-٢٩٠؛ ابن الأحمر : النفحة النسرينية واللمحة المرينية- تحقيق عدنان محمد آل طعمة، دمشق، دار سعد الدين للنشر،ط٢، ١٩٩٢م، ص ص ٣١-٣٥؛ : محمد عيسى الحريرى : تاريخ المغرب والأندلس فى العصر المرينى - الكويت،دار القلم، ط٢، ١٩٨٧م، ص ص ٣-٣٦.

(٢٨) هو السلطان على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، يكنى أبا الحسن، ولد فى عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م، وتولى فى ذى القعدة سنة ٧٣١ هـ / أكتوبر ١٣٣١م بعد وفاة والده السلطان أبى سعيد عثمان، وتوفى السلطان أبو الحسن فى عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥٢م . عنه انظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبو الحسن- تحقيق ماريا خوسيوس بيغيرا، الجزائر، مكتبة الشركة الوطنية،ط ١، ١٩٨١، ص ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢٩) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص ٣٩٢.

Arie R.:L'Espagne Musulmane au Temps des Nasrides(1232-1492) – Paris, 1973, p.159.

(٣٠) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص ص٢٩٧-٢٩٨؛ الإحاطة، جـ١، ص ٥٣٧؛ اللمحة البدرية، ص ٩٤؛ ابن خلدون: العبر، جـ٧، ص ٣٣٧.

Crónica de Don Alfonso XI, ed, Rosell, Madrid, 1953, pp. 266-268.

(٣١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص ص٣٩١-٣٩٢؛ ابن خلدون: العبر، جـ٧، ص ٢٥٦؛ المقرى: نفح الطيب، جـ١، ص ٤٥١.

Arie R.:L'Espagne Musulmane au Temps des Nasrides(1232-1492) – Paris, 1973, p.159.

(٣٢) ابن منظور : لسان العرب – تحقيق عبد الله على الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، د.ت، المجلد الثاني، جـ١١، ص ٩٠٣.

(٣٣) هو السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى، تولى بعد وفاة شقيقه محمد بن إسماعيل، وكان عمره وقتها خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر. توفى فى عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، مقتولاً على يد رجل مخبول، يوم عيد الفطر. عنه انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص ص٣٠٤-٣٠٦؛ الإحاطة، جـ٤، ص ص٣١٨-٣٢٠؛ محمد كمال شبانة: يوسف الأول سلطان غرناطة-القاهرة، دار الكاتب العربى،١٩٦٩م، ص ص٣٠-٥٠.

(٣٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص١٠٩ .

(٣٥) السلطان محمد الخامس: هو محمد بن السلطان أبى الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر. ولد فى ٢٢ جمادى الآخر سنة ٧٣٩ هـ/٢١ يناير ١٣٣٨م وتولى فى عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وتوفى فى عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م. عنه انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٢، ص ١٣.

(٣٦) المقرى: نفح الطيب، جـ ٩،ص ١١٠ .

(٣٧) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية، ص ص ٢٤٦-٢٤٨.

(٣٨) عن حملة سقوط مالقة انظر : مجهول : أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر – تحقيق د/ حسين مؤنس، القاهرة،الزهراء للإعلام العربى، ١٩٩١، ص ص ٩٧ – ٩٨ ؛ : مونتغمرى وات : تاريخ أسبانيا الإسلامية- ترجمة محمد رضا المصرى، لبنان،شركة المطبوعات،ط ١، ١٩٩٢م،ص ١٥٩؛

Arié, R.: El Reino El Reino Nasri de Granada (1232-1492) – Madrid, 1992, pp. 95 – 96.

(٣٩) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ١٣٨.

(٤٠) ابن الخطيب: معيار الاختيار ضمن مشاهدات، ص ١٠٧.

(٤١) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية، ص ص٢١٨-٢٢٠.

(٤٢) يوسف فرحات : غرناطة فى ظل بنى الأحمر- بيروت،المؤسسة الجامعية،١٩٨٢،ص ٧٢

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم و أحمد مختار العبادى: البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس- بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٩، جـ ٢، ص ٣٠٥ .

(٤٤) بجانة Pechena: بفتح الباء وبعدها جيم مفتوحة مشددة بعدها ألف وبعد الألف نون وهى مدينة أندلسية ساحلية تسمى أيضا ألش اليمن لأن الأمويين أنزلوا قبيلة بنى سراج القضاعيين فى هذه المنطقة وألزموهم بحراسة الساحل، بينها وبين المرية خمسة أميال . انظر : الحميرى : الروض المعطار، ص ص ٧٩-٨٠.

(٤٥) أحمد مختار العبادى : صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس، ص ٢٤٧.

(٤٦) ابن بطوطة : رحلة بن بطوطة، بيروت،دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٦٦٩.

(٤٧) نفس المصدر، ص ٦٧٢.

(٤٨) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ١، ص ٥١٧.

(٤٩) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس– القاهرة، دار النهضة، ط ١، ١٩٦٩، ص١٣٦.

(٥٠) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية ، ص ١٧٥.

(٥١) بعد دخول محمد بن الأحمر غرناطة فى عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وإعلان قيام دولته، واتخاذه من مدينة غرناطة عاصمة له، رأى أن يقيم حصنًا أو قلعة تكون حامية له، فاختار الحمراء، ويقع قصر الحمراء فى الجانب الشمالى الشرقى من مدينة غرناطة، ويعود تاريخ إنشاءه إلى بداية دولة بنى الأحمر، حيث أمر ابن الأحمر بإنشائه بعد استقرار الأمر له فى غرناطة، وفى عهد هـ تم إنشائه القصر، وبعض الأبراج المنيعة، وأنشأ سوراً حولها، ثم أمر ابنه محمد الثانى الفقيه باستكمال الحصن، والقصر الملكى، وشيد محمد الثالث بناء المسجد الجامع، ولكن يعتبر عصر السلطان أبو الحجاج يوسف هو العصر الذهبى لإنشاء قصر الحمراء، ثم أكمله ابنه محمد الخامس. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة،جـ١، ص ٢٩٦؛ اللمحة البدرية، ص ٤٣؛ السيد عبد العزيز سالم: فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس–الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥، ص ص ٢٠٤–٢٠٦؛ أحمد محمد الطوخى: مظاهر الحضارة فى الأندلس، ص ص ٦٠–٦٣.

(٥٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس–القاهرة، مكتبة الخانجى،١٩٩٧،ج٧، ص٢٨٩

(٥٣) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ٤، ص ٣١٨.

(٥٤) عبد الحكيم الذنون :آفاق غرناطة – دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨م، ص ٨٠.

(٥٥) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ٢، ص ٢٣.

(٥٦) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق– القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية، د . ت، جـ٥، ص ٥٦٢؛ الحميرى : الروض المعطار، ص ص ٥٣٧–٥٣٨.

(٥٧) عن سقوط المرية انظر : مجهول : أخبار العصر، ص ١٠٠

L.P. Harvey: Islamic Spain1250-1500-London, 1990., p. 304; Arié, R: El Reino Nasri, p. 100.

(٥٨) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص ١٤٣.

(٥٩) عن تفاصيل الحملة الأراجونية على مدينة المرية انظر : ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص ٧٥؛ ابن خلدون : العبر، جـ٧، ص ص ٣٢٩–٣٣٠.

(٦٠) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص ٥٦..

(٦١) ابن منظور : لسان العرب، المجلد الأول، جـ٣، ص ٢٤٣.

(٦٢) هو السلطان محمد بن محمد بن محمد بن نصر ثالث ملوك بنى نصر، كان ضعيف البصر، لمواصلة السهر، ومباشرة أنوار ضخام الشمع، باشر السياسة فى حياة والده، وكان شاعراً، يقرض الشعر، ويصغى إليه. تولى فى يوم وفاة والده فى يوم الأحد الثامن من شعبان سنة ٧٠١هـ/الثامن من أبريل ١٣٠٢م، وتوفى فى آخر شهر شوال سنة ٧١٠هـ/مايو١٣٠٩م. والملقب بالمخلوع لأنه خلع من الحكم عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، جـ١، ص ص ٥٤٣–٥٤٤؛اللمحة البدرية،ص ٦١.

(٦٣) أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس، ص ٢١٩.

(٦٤) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ٢، ص ١٢٤.
(٦٥) واشنطن إرفرنج: أخبار سقوط غرناطة- ترجمة هانى يحى نصرى، بيروت، الانتشار العربى للنشر، ٢٠٠٠م، ص ص ٢٨٣.
(٦٦) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص ٦٦٩.
(٦٧) والجمع أجفان، وهى سفينة حربية وتجارية. ما كان يستخدم منها فى الحروب يسمى الأجفان الغزوية. وما كان يستخدم فى النقل منها يسمى الأجفان التجارية المقرى : نفح الطيب، جـ ٧، ص ٦٧؛ محمد ياسين الحموى: الأسطول العربي- دمشق، مطبعة الترقى، ١٩٤٥، ص ٤٤
(٦٨) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص ٦٦٩.
(٦٩) أحمد مختار العبادى : صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس، ص ٢٤٧.
(٧٠) واشنطن إرفرنج: أخبار سقوط غرناطة، ص ص ٢٨٣-٢٨٤. ويضيف أن المسلمين المدافعين عن الأبراج والمتحصنين بها استبسلوا فى الدفاع عنها، ولكن تمكن القائد القشتالى فرانشيسكو دى مادريد قائد قوات المدفعية من التسلل إلى البرج الأول ووضع تحته عبوة كبيرة قابلة للاشتعال، ولما نجح فى اشعال النيران فيها انفجر البرج محدثاً صوتاً قوياً ففزع المسلمون لذلك، فاستولى النصارى على البرج ثم تقدموا نحو الأبراج الأخرى الموازية له، حتى تمكنوا فى النهاية من دخول المدينة بعد سقوط الأبراج فى أيديهم.انظر: واشنطون إرفرنج : أخبار سقوط غرناطة، ص ص ٢٨٣-٢٨٤.
(٧١) أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس، ص ٢١٩.
(٧٢) مدينة جيان Jaen: تنطق بالفتح ثم التشديد وآخره نون، مدينة أندلسية من أقدم المدن بالأندلس، تقع بالقرب من مدينة إلبيرة Elvira، بينها وبين بياسة مسافة تقدر بعشرين ميلاً انظر: الحميرى: الروض المعطار، ص ص١٨٣-١٨٤
(٧٣) أحمد مختار العبادى: صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس، ص ٢٤٥.
(٧٤) ابن الخطيب : الإحاطة، جـ ١، ص ٥١٧ .
(٧٥) أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس، ص ٢١٩.
(٧٦) السيد عبد العزيز سالم : العمارة الإسلامية وتطورها فى الأندلس- مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن، العدد الأول، أبريل - مايو- يونيو ١٩٧٧م ، ص ١٢٨.
(٧٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة الإسلامية وتطورها فى الأندلس، ص ١٢٨.
(٧٨) السيد عبد العزيز سالم : أضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار اشبيلية فى العصر الإسلامى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧٥م، ص ١٥٢.
(٧٩) السيد عبد العزيز سالم : العمارة الإسلامية وتطورها فى الأندلس ، ص ١٢٨.
(٨٠) جيريلين دودز: فنون الأندلس-ضمن الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس،نشرد. سلمى الخضراء الجيوشى،مركز بيروت، لبنان، دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م، جـ ٢، ص ٨٨٥.
(٨١) السيد عبد العزيز سالم : العمارة الإسلامية فى الأندلس وتطورها،ص ص ١٢٨-١٢٩.
(٨٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ١٤٤.
(٨٣) محمد أحمد أبو الفضل: المرية، ص ١٤٨.
(٨٤) يوسف شكرى فرحات: غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ١٨١-١٨٢.

(٨٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ١٩٢؛ المقرى: نفح الطيب، جـ١، ص ١٠١؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ١٢٥.
(٨٦) محمد عبد الله عنان:الآثار الإسلامية،ص١٦٨.
(٨٧) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ٢، ص ص ٥١-٥٢.
(٨٨) يوسف شكرى فرحات : غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ١٨٩؛ محمد عبد الله عنان: الآثار الإسلامية، ص ١٨٤؛ أولغ غرابار : نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامى فى شبه الجزيرة الإسبانية – ضمن الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، نشر د. سلمى الخضراء الجيوشى، لبنان، دراسات الوحدة العربية،١٩٩٨م،جـ ٢،ص ص ٨٥٠-٨٥١.
(٨٩) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية ، ص ٢١٦.
(٩٠) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٤٢.
(٩١) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية، ص ص ٢٤٣-٢٤٤.
(٩٢) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٤٢.
(٩٣) محمد عبد الله عنان : الآثار الإسلامية ، ص ٢٤٦.
(٩٤) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٤٢.
(٩٥) محمد أحمد أبو الفضل: المرية، ص ص ١٤٢-١٤٣.
(٩٦) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٤٠.
(٩٧) الحميرى : الروض المعطار، ص ١٨١؛ المقرى : نفح الطيب، جـ ١، ص ١٥٣.
(٩٨) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٤٠.

موقف ابن إياس من العثمانيين

د. محمد أسامة زكي زيـد (*)

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله مالك الملك على الدوام، الذى خلق السموات والأرض وما بينهما بالتمام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى نهاية الزمان.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) [آل عمران١٠٢، ١٠٣].

ثم أما بعد... المؤرخ الكبير أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى، الذى توفى عام٩٣٠هـ/١٥٢٤م(١) هو شيخ مؤرخى مصر فى زمانه. ولا نكون قد ذهبنا بعيداً إن قلنا أن كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) الذى ينتهى بأحداث عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، هو أهم مصدر لتاريخ سلطنة المماليك بعد وفاة المؤرخ الكبير أبو المحاسن جمال الدين ابن تغرى بردى، صاحب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) الذى توفى عام ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م.

ولابن إياس مصنفات أخرى منها (نزهة الأمم فى العجائب والحكم)، (نشق الأزهار فى عجائب الأقطار) (عقود الجمان فى وقائع الزمان)، (الجواهر الفريدة والنوادر المفيدة)(٢). وبالرغم من مكانة ابن إياس العلمية إلا أن مَن خَلَفه من المؤرخين لم يهتموا بالترجمة له فى كتبهم، فلم يترجم له نجم الدين الغزى فى (الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة)، ولم يترجم له عبد القادر العيدروس فى (النور السافر عن أخبار القرن العاشر)، ولم يترجم له ابن العماد الحنبلى فى (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب)، لذلك فنحن لا نعرف عن ابن إياس القليل، ومن ذلك ما بن برقوق، وأما والدى فإنه عاش من العمر نحواً من أربع وثمانين سنة وجاءت من الأولاد خمسة

(*) باحـث.

وعشرون كتبه هو عن نفسه فى ذكر خبر وفاة والده فى شعبان عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م فقال ما نصه[٣]:(وفى يوم الجمعة ثالث عشره توفى والدى المرحوم الشهابى أحمد بن المرحوم إياس الفخرى من جنيد، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق، وقرر دوادار ثانى في دولة الناصر فرج ولداً ما بين ذكور وإناث غير المسقوط، وعاش له من ذلك ثلاثة صبيان وبنتاً وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة رحمة الله عليه، وكان من مشاهير أبناء الناس)[٤].

وقد عاصر ابن إياس الفتح العثمانى لمصر والشام، وشهد زوال السلطنة المملوكية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، ودوّن الوقائع والأحداث بتفصيلاتها فى الجزء الخامس من تاريخه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور)، وكان آنذاك فى العقد الأخير من عمره وقد بلغ مبلغاً من الحكمة والعلم وسعة الإدراك، وقد ذمّ ابن إياس الفتح العثمانى لمصر والشام، وذم السلطان سليماً الأول خاصة، ورجال الدولة العثمانية عامة بغير حق فى كثير من الأحيان، فمن يطالع الجزء الخامس من كتابه المذكور بعناية وتدقيق نظر سيتبين له أن ابن إياس الذى بدأ كتابة تاريخه وفقاً لمنهج يتسم بالحياد وحسن التحقيق وكمال التدقيق، استصحبه حتى نهاية الجزء الرابع، قد فقد شيئاً من حياده وإنصافه فى تدوينه للجزء الخامس المتعلق بوقائع الفتح العثمانى لمصر والشام، والسنوات الأولى من الحكم العثمانى فى مصر. ولست أدرى ما إن كان ابن إياس مدركاً لحال العالم الإسلامى آنذاك، ومدركاً لضرورة وحتمية ما قام به السلطان سليم الأول من إعادة توحيد بلاد المسلمين لمواجهة الأخطار الثلاثة التى تكالبت عليهم فى آن واحد، أم أنه كان غافلاً عن ذلك فظن أن الفتح العثمانى لمصر والشام ما هو إلا بغىٌ وعدوان غاشم !!. وقبل أن أقيم الأدلة على تحامل ابن إياس على العثمانيين ينبغى توضيح حال قلب العالم الإسلامى قبيل الفتح العثمانى لمصر والشام، والذى دفع السلطان سليماً للقيام بفتوحاته.

فبعد أن استولى الإسبان والبرتغال على الأندلس وطردوا المسلمين منها توجهت أنظارهم إلى سائر بلاد المسلمين وطمعوا فيها وعزموا على أخذها، ففى عام ٨٩٩هـ/١٤٩٤م تم توقيع إتفاقية (توردى سيلاس) بين إسبانيا والبرتغال برعاية البابوية فى روما لاقتسام أجزاء من بلاد المسلمين بينهما لئلا يختلفوا، فقد حصلت إسبانيا على المغرب الأدنى والمغرب الأوسط، وحصلت البرتغال على المغرب الأقصى والساحل الإفريقى على المحيط الأطلسى وبموجب ذلك شنّ الإسبان والبرتغال حروباً على تلك البلاد طالت سنوات عديدة، ولم تكن الروح الصليبية غائبة عن الأوروبيين يومئذ، بل كانت أهدافهم تنطلق من تلك القاعدة، وقد أرسل كريستوفر كولومبوس رسالة إلى ملكىْ إسبانيا فرديناد وإزابيلا عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م يطلب منهما تجهيزه بحملة عسكرية للاستيلاء على بيت المقدس[٥]. وكان الإسبان والبرتغال آنذاك أقدر دولتين فى أوروبا على الاضطلاع بمهمة تجهيز الحملات الصليبية على المسلمين لأنهما كانتا الأكثر تطوراً بفضل ما آل إليهم من تراث المسلمين فى الأندلس. ولكن بفضل من الله وإحسان باءت جهودهم بالفشل، وتلاشت أحلامهم، وتحطمت تلك الموجة العاتية من الحملات الصليبية على صخرة آل عثمان " بفضل من الله الكريم المنان ".

فوفقاً للاتفاقية المذكورة قام الإسبان بالاستيلاء على بجاية[٦] ثم وهران[٧] فى عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م ثم على طرابلس الغرب[٨] عام ٩١٦هـ/١٥١٠م، وقد عمدوا إلى التنصير الجماعى أو الإبادة الجماعية لأهل تلك البلاد، وقد نقل (شارل فيرو)[٩] نص خطاب فرنداد ملك إسبانيا إلى الكونت (بترو دى نافارا) وهو فى طريقه إلى الاستيلاء على طرابلس، وقد جاء فيه: (سبق وأن ذكرتم لى فى خطاباتكم مراراً أننا إذا ما أردنا أن نحافظ على وجودنا فى إفريقيا، فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس، وفى حالة احتلالنا لهذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى وإلا فإن المغاربة بما أنهم يسودون بقية مناطق البلاد، إذا ما سمحنا لهم بالسكن فى مدن الساحل فإنه سيستحيل علينا أن نحتفظ بما احتللناه وقتا طويلاً. وإذاً فإن انتظاراً لما هو أفضل، يتحتم أن تعسكر فى المدن الثلاث المذكورة حامية كبيرة من النصارى وألا يسمح لأى مغربى أن يطأها). وقد علق فيرو على ذلك بقوله: (وتبعا للبرنامج الملكى الذى وضعه فرنناند ملك إسبانيا والذى سبق لجانب منه أن نفذ باحتلال مدينتى وهران وبجاية فإن جميع الطرابلسيين قد طردوا من مدينتهم وهدمت فيها المنازل والمبانى العامة كلية) [١٠]. قلت: ولا ريب أن الإسبان كانوا يخططون لمد ملكهم إلى بنى غازى، ثم الإسكندرية، ثم دمياط ثم العريش وربما لأبعد من ذلك.

أما البرتغال فبعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م أصبحوا ملوكاً على الساحل الإفريقى للمحيط الأطلسى، كما أسسوا لهم قواعد فى الساحل الغربى للهند المسمى ساحل مليار وتعرضوا للمسلمين ونكلوا بهم وسبوا دينهم ومنعوا قوافل الحج من الخروج، وأحرقوا المساجد والمصاحف، وكل ومن كان يتصدى لهم من المسلمين لا يناله إلا التعذيب أو القتل[١١]. ثم استولوا بعد ذلك على جزيرة سقطرى[١٢] عند مدخل خليج عدن، ثم امتد نشاطهم إلى الخليج العربى فاستولوا على قلهات[١٣] ومسقط[١٤] وهرمز[١٥] فى عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م[١٦]. وباستيلائهم على جزيرة سقطرى دخلوا البحر الأحمر وتعرضوا لسفن المسلمين وهاجموا سواحل الحجاز، كما أصبح بإمكانهم إغلاق البحر الأحمر إغلاقاً تاماً ومنع السفن القادمة من الهند من الدخول فيه، وقد ذكر ابن إياس فى عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م أن البضائع لها ست سنوات لم تصل من الهند إلى جدة[١٧]. ثم استولى البرتغال على جزيرة كمران[١٨] فى جنوب البحر الأحمر بالقرب من مضيق باب المندب عام ٩١٩هـ/١٥١٣م. وكانت الدولة العثمانية آنذاك تقدم المساعدات العينية والفنية للمماليك حتى يتمكنوا من التصدى للهجمات البرتغالية، وقد استمر ذلك الدعم العثمانى لعدة سنوات فى عهد السلطان بايزيد الثانى[١٩]، وابنه السلطان سليم الأول إلى السلطان المملوكى قانصوه الغورى، كما سيأتى بيانه، ولكن الغورى وإن كان قد حقق انتصارات فى بداية الأمر إلا أنه أخفق فى النهاية فى طرد البرتغال من البحر الأحمر، ولعل السبب فى ذلك أن دولة المماليك كانت قد بلغت آنذاك حداً من التدهور والانهيار لا تجدى معه أى محاولات لإصلاحها والنهوض بها، وأيا كانت الأسباب فإن الأمر لم يكن خطراً على السلطنة المملوكية فحسب بل على العالم الإسلامى كله، إذ جرى تطويق بلاد المسلمين من الشمال والجنوب.

وفى نفس الوقت كان هناك خطر ثالث يحدق بالعالم الإسلامى لا يقل عن الخطر الأوروبى ذى الدوافع الصليبية، ألا وهو خطر الرافضة[٢٠] فى فارس فقد ظهر الشاه إسماعيل الصفوى[٢١] واستولى على تبريز[٢٢]، ثم فرض فيها عقيدة الشيعة الاثنى عشرية على الناس قهراً، وسعى لنشرها خارج فارس، فاجتاح العراق ودخل بغداد عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م[٢٣]. وقد قال عنه النهروالى: (كاد أن يدعى الربوبية، وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره وقتل خلقاً لا يحصون ينوف على ألف ألف نفس، بحيث لا يعهد فى الإسلام ولا فى الجاهلية ولا فى الأمم السابقة من قتل ما قتله شاه إسماعيل، وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق أحداً من أهل العلم فى بلاد العجم، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة، وكلما مر بقبور المشايخ نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها)[٢٤].

وفى عام ٩١٧هـ/١٥١١م. أشعل الشاه إسماعيل تمرداً فى الأراضى العثمانية فى الأناضول بزعامة أحد أتباعه يسمى شاه قولى، جمع حوله بعض الأسافل والرعاع ممن استجابوا لدعوته، وصاروا يهجمون على البلاد يقتلون وينهبون ويسلبون من لا يستجيب لعقيدتهم الفاسدة، وقد تصدى لهم وحدات من الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم على باشا، فانتصر عليهم إلا أنه قتل فى المعركة، وبعد بضعة أشهر رعى الشاه إسماعيل تمرداً آخر فى الأناضول بزعامة أحد أتباعه يدعى نور على خليفة، ومعه بعض الأسافل والرعاع ففعلوا كما فعل سلفهم[٢٥].

فهذه الأخطار الثلاثة، الخطر الإسبانى من الغرب، والخطر البرتغالى من الجنوب، والخطر الصفوى الرافضى من الشرق، تكالبت على قلب العالم الإسلامى فى نفس الوقت – انظر الخرائط فى آخر البحث –والأنكى من ذلك أن الصفويين تحالفوا مع البرتغال فى عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م عن طريق دى البوكيرك نائب ملك البرتغال فى المستعمرات الهندية الذى كان مقيماً بالهند آنذاك[٢٦]. الأمر الذى مكن البرتغال من إحكام الحصار على قلب العالم الإسلامى بإغلاق طرق التجارة الثلاثة :

أولا : طريق البحر الأحمر الذى كان عماد الاقتصاد لدولة المماليك، فقد كانت البضائع الهندية تصل إلى السويس عن طريق البحر الأحمر ثم تنقل براً إلى القاهرة، ثم تنقل عبر النيل إلى الثغور على البحر المتوسط كرشيد ودمياط والبرلس والإسكندرية[٢٧]. وكانت سفن البنادقة والجنوية تحمل البضائع من تلك الموانئ وتعود بها إلى أوروبا الغربية وكذلك كانت السفن العثمانية تحمل تلك البضائع إلى موانيها فى اليونان وأوروبا الشرقية. فبإغلاق البرتغال للبحر الأحمر سد ذلك المنفذ التجارى الهام.

ثانيا : طريق الخليج العربى، فقد كانت البضائع الهندية تصل إلى البصرة عبر الخليج، ثم تحمل عبر نهرى دجلة والفرات، ثم تحمل براً إلى الثغور الشامية على البحر المتوسط، ثم تحملها سفن

البنادقة والجنوية والعثمانية على النحو الذى سبق، أو كانت تبحر فى نهر الفرات إلى جنوب الأناضول. وهذا الطريق قد أغلقه البرتغال أيضاً بقاعدتهم فى هرمز وتحالفهم مع الصفويين.

ثالثاً : الطريق البرى من الهند إلى الثغور المملوكية فى الشام و الثغور العثمانية فى الأناضول فقد أغلقه الصفويون من أرض فارس وآذربيجان [٢٨].

هكذا حوصر اقتصادياً أكبر وأهم دولتين فى العالم الإسلامى آنذاك، السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية، وبالطبع لم تكن السلطنة المملوكية قادرة على التصدى لفك ذلك الحصار لما أصابها من وهن وضعف وتدهور، وما كانت لتستطيع أن تقود المسلمين لمواجهة تلك الموجة من الحملات الصليبية، فكانت السلطنة العثمانية هى المعول عليها فى ذلك الشأن، وكانت الدولة العثمانية فى عهد السلطان بايزيد تقدم الدعم العينى والفنى للإخوة عروج وخضر وإسحاق وحسن، فى تصديهم للسفن الإسبانية فى البحر المتوسط، وكان يتولى ذلك الأمر الأمير قورقد بن بايزيد الذى قدم لهم سفينتين حربيتين عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م فتمكنوا من من إحراز انتصارات كبيرة[٢٩]. كما قدمت السلطنة العثمانية فى عهد السلطان بايزيد الثانى وابنه السلطان سليم الأول مساعدات كبيرة للسلطنة المملوكية للتصدى للبرتغال فى البحر الأحمر وفى البحار الهندية. ففى عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م قال ابن إياس : (حضر إلى الأبواب الشريفة شخص يقال له كمال من خواص جماعة ابن عثمان، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد فى الفرنج ليلاً ونهاراً حتى أعيى الفرنج أمره، وأنه رأس المجاهدين المرابطين فى الإسلام)[٣٠].

قلت : وكمال المذكور هو الريس كمال، أحد أشهر رجال البحرية العثمانية. وهو أول من ثبت المدافع بعيدة المدى على السفن، وصاحب المعارك البحرية الشهيرة فى الموره، وصاحب الغارات على السواحل الإسبانية، ولا ريب أن حضوره إلى مصر كان لتقديم النصح والمشورة للبحرية المملوكية فى حروبها ضد البرتغال. وفى عام ٩١٦هـ/١٥١٠م قام السلطان بايزيد بإرسال المساعدات العسكرية التى طلبها السلطان الغورى، فقد قال ابن إياس : (فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين ألف سهم، وبارود مطيب أربعون قنطاراً ومقاذيف خشب العدة ألف مقذاف، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسى حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب فشكره السلطان "الغورى" على ذلك، وكان السلطان أرسل مالاً على يد يونس العادلى إلى بلاد ابن عثمان ليشترى له أخشاباً ونحاساً وحديداً، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان)[٣١] وقد قال السلطان بايزيد : (هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة)[٣٢].

وبعد أن توفى السلطان بايزيد الثانى ظل الدعم العثمانى للمماليك قائماً. فقد ذكر ابن إياس فى أحداث رمضان من عام ٩١٨هـ/١٥١٢م أى بعد سبعة أشهر من ولاية السلطان سليم الأول : (حضر إلى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربى، وكان السلطان "الغورى" أرسله إلى

بلاد ابن عثمان ليشترى أخشاباً وحبال ومكاحل نحاس، فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته إلى السلطان عدة مكاحل ونحاس وحديد وأخشاب وحبال وغير ذلك أشياء كثيرة فى مراكب موسوقة)[٣٣] .... وفى صفر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ذكر ابن إياس أن السلطان الغورى ذهب إلى السويس لمتابعة خروج الأسطول لقتال البرتغال فقال ابن إياس : (وكان جماعة ابن عثمان هناك نحواً من ألفي إنسان... وكان الريس سلمان العثمانى هو الشاد على عمارة تلك الأغربة وهو المشار إليه)[٣٤]. لعل فى تلك النقول عن ابن إياس ما يبطل قول بعض أساتذة التاريخ أن السلطان سليماً لما تولى السلطنة منع المساعدات التى كان يرسلها أبوه للمماليك.

وبالرغم من تلك المساعدات العثمانية الكبيرة للسلطنة المملوكية إلا أنها لم تفلح فى دفع الخطر البرتغالى، والأنكى من ذلك هو تحالف المماليك مع الصفويين، فلما توجه السلطان سليم الأول لقتال الشاه إسماعيل الصفوى فى عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م، قام على دولات أمير دلغادر[٣٥] التابع للمماليك والذى يتولى إمارته بتقليد من السلطان المملوكى بقطع طريق الإمدادات على الجيش العثمانى، وقد ذكر ابن زنبل الرمال أن السلطان الغورى شكر على دولات على ذلك وأرسل إليه يغريه على قتال السلطان سليم[٣٦]، كما ذكر ابن إياس وغيره أن على دولات اشتبك مع فرقة من الجيش العثمانى ونهب ما معهم[٣٧]، كما ذكر ابن إياس أن السلطان الغورى أرسل أفيالاً إلى الشاه إسماعيل سرا[٣٨]، وذكر آخرون أن قطع طريق الإمدادات على الجيش العثمانى كان بأمر السلطان الغورى نفسه[٣٩]. ومن جهة أخرى عثر رجال السلطان سليم على جواسيس تحمل الرسائل بين الغورى والصفوى بما يفيد التحالف بينهما لقتال السلطنة العثمانية، قال ابن طولون الدمشقى عن السلطان سليم : (أنه اطلع على مطالعات من سلطاننا "الغورى" إلى الخارجي إسماعيل الصوفى "الصفوى" يستعينه على قتال ملك الروم سليم خان على يد البهلوان أحد جماعة سلطاننا)[٤٠]. وقد ذكر د. محمد حرب أن الخطاب موجود حالياً فى متحف طوب قبو فى اصطنبول[٤١].

هنا أدرك السلطان سليم الأول أنه ينبغي عليه أن يتصدر لمواجهة كل تلك الأخطار التى تحدق بقلب العالم الإسلامى منفرداً، كما أدرك أنه لا سبيل لذلك إلا بإعادة توحيد بلاد المسلمين، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يتم إلا بإزالة دولة المماليك. والمقام هنا لا يتسع للتفصيل فى تلك المسألة، وقد أفردت مبحثاً بعنوان: (لماذا وجب إزالة دولة المماليك) فى كتابى منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان (٢/٢٦١-٢٨١) فليرجع إليه من شاء التفصيل.

وقد تلقى السطان سليم رسائل استغاثة من بعض بلاد المسلمين، فقد أرسل إليه شيوخ العشائر الكردية فى شرق الأناضول رسالة جاء فيها : (نرجو قيامكم بمساعدتنا نحن المخلصين لكم. إن بلدنا قريب من ديار " قزل باش "[٤٢] وهم جيران لنا بل بلدنا مختلط، وكم من سنوات مضت قام هؤلاء الملحدون فيها بهدم بيوتنا وبالقتال معنا كل ذلك بسبب محبتنا لسلطان المسلمين، ونحن ننتظر من عطفكم ومن شفقتكم القيام بإنقاذ هؤلاء الناس الصادقى الإيمان من هؤلاء الظالمين ومن دون مساعدتكم لا نستطيع وحدنا الوقوف فى وجه هؤلاء ومقاومتهم)[٤٣].

كما أرسل وجهاء وأعيان حلب، منهم القضاة الأربعة، رسالة إلى السلطان سليم، وأصلها موجود فى متحف (طوب قبو) باصطنبول برقم ١١٦٣٤ جاء فيها : (... وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم بمجرد أن تضع أقدامكم فى أرض عينتاب[٤٤] خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الجركسى احمنا أيضاً من يد الكفار قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان أن الشريعة الإسلامية لا تأخذ مجراها هنا...)[٤٥].

فبدأ السلطان سليم بضم بلاد الأكراد فى شرق الأناضول، وانتصر انتصاراً ساحقاً على الشاه إسماعيل الصفوى، ثم ضم الشام ومصر، وإبان إقامته بمصر جاءته البيعة من الحجاز، كما دخل فى طاعته جزء من اليمن، كما أرسل السلطان سليم مساعدات عسكرية للأخوين عروج وخضر فى الجزائر، الذين كانا يتصديان للحملات الإسبانية هناك فتمكن خضر من صد هجوم الإسبان على الجزائر وأعلنها تابعة للسلطنة العثمانية، كما تمكن السلطان سليم إبان إقامته بمصر من طرد سفن البرتغال من البحر الأحمر وأعاد الملاحة إليه[٤٦] بعد توقف دام تسع سنوات منذ عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م[٤٧]. وفى عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م أرسل أهالى الجزائر رسالة إلى السلطان سليم، وقع عليها القاضى والخطيب والأئمة والأعيان، وهى محفوظة بمتحف طوب قبو فى اصطنبول برقم ٦٤٥٦[٤٨] يطلبون فيها أن تكون الجزائر إيالة عثمانية حماية لها من الإسبان، وقد جاء فى تلك الرسالة : (نحن نود أن نكون من أتباع الدولة العثمانية وأن نبقى ضمنها كولاية. وإذا كان من الممكن فنرجو أن تعينوا خضر رئيس وواليا علينا). فاستجاب السلطان سليم لذلك ومنح خضر الذى أصبح يسمى خيرالدين رتبة باشا ورفع الجزائر من لواء إلى إيالة. وجعل خير الدين أمير أمرائها، وأرسل له مدداً من عتاد حربى، وألفى جندى وأربعة آلاف من متطوعة الأناضول[٤٩]، ثم بدأ رحمه الله فى تجهيز حملة بحرية لفتح جزيرة رودس التى كانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) آنذاك وكانت مركزاً للصليبيين للهجوم على سفن التجار والحجاج المسلمين، إلا أن الموت لم يمهله وتوفى رحمه الله عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م. وكان ابنه السلطان سليمان خير خلف له فأتم جهاد أبيه وفتحها عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م، كما أسس قاعدة بحرية فى جزيرة كمران عند باب المندب فى جنوب البحر الأحمر لصد أى هجوم بحرى عليه، وقد أشرف عليها الريس سلمان وأسند قيادتها إلى الريس صفر[٥٠]، وتوالت بعد ذلك الانتصارات البحرية على البرتغال والإسبان والبنادقة فى البحر المتوسط والبحار الهندية، مصحوبة بانتصارات برية فى المجر والنمسا وفارس والقوقاز على مدار القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة /السادس عشر والسابع عشر للميلاد.

فمن هذا المنطلق يمكن أن نقطع بأن العمليات الحربية للسلطان سليم التى أثمرت توحيداً لمساحات شاسعة من بلاد المسلمين ظلت قروناً مديدة تتوق إليه، قد هيأت الساحة للتصدى لتلك الموجة الجديدة من الحروب ذات النزعة الصليبية على المسلمين، وقد انتصر المسلمون فيها إنتصارات ساحقة تفوق انتصاراتهم فى موجات الحملات الصليبية الأولى. ولو لم يقم السلطان سليم بذلك لنجحت مخططات الصليبيين ولاختنق العالم الإسلامى كله من الحصار

التجارى الذى فرض عليه، ولسقطت بلاد المسلمين فى أيديهم واحدة تلو الأخرى، ولاستولى الإسبان على شمال مصر، ولربما امتد نفوذهم إلى الساحل الشامى واحتلوا بيت المقدس، ولاستولى البرتغال على جنوب مصر وشرقها وعلى الحجاز أيضاً، ولاستولى الصفويون على الشام والأناضول، وأما ما تبقى من السلطنة العثمانية فكان سيقتسمه الأوروبيون فيما بينهم، ولتغير مجرى التاريخ كله، ولربما بقيت أجزاء من بلادنا تحت الاحتلال الأوروبى حتى الآن، فإن ميناء " سبتة " المغربى الذى استولى عليه البرتغال عام ٨١٧هـ/١٤١٤م[٥١] ثم تنازلوا عنه بعد ذلك للإسبان مازال تحت الاحتلال الإسبانى حتى الآن، " نسأل الله أن يردها علينا ". وعلى هذا فإن فتوحات السلطان سليم الأول قد أجلت سقوط الكيان السياسى للإسلام المتمثل فى الخلافة الإسلامية مدة أربعة قرون كاملة، فكان سقوطها فى القرن الرابع عشر الهجرى/العشرين الميلادى عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، واستولت الدول الأوروبية على البلاد الإسلامية بعد سقوط الكيان السياسى الذى كان يجمعها، ومنذئذ بدأت مراحل نقض عرى الإسلام كما نبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا : الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلاةُ)[٥٢].

والسؤال الهام الذى يطرح نفسه فى هذا البحث، هل كان ابن إياس مدركاً لحقيقة حال العالم الإسلامى آنذاك ؟! هل كان مدركاً لتلك الأخطار المحدقة به، ومدركاً لعجز سلطنة المماليك عن التصدى لها ؟! بل هل كان مدركاً أن وجود سلطنة المماليك فى حد ذاته كان عقبة كبرى فى سبيل التصدى لتلك الأخطار ؟!. لأنك ترى أن ابن إياس شن الغارة على العثمانيين وعلى السلطان سليم بصفة خاصة بسبب فتحه مصر والشام، مع العلم أن ذلك لم يكن موقف سائر المؤرخين المعاصرين له من رعايا السلطنة المملوكية نفسها، كابن طولون الدمشقى، وأحمد بن الحمصى، وأحمد بن زنبل الرمال، وغيرهم كعلى بن محمد الأشبيلى. ففى سرد ابن إياس لتلك الوقائع ترى أنه قد فقد حياده وإنصافه المعهود عنه. فهل كان ابن إياس غير مدرك لمدى خطورة الأمر، فاعتبر الفتح العثمانى لمصر والشام وإزالة دولة المماليك، عدواناً مجرداً من السلطان سليم ليس له ما يبرره، وأنه محض طمع ورغبةً فى السيطرة والاستحواذ ؟! أم أنه كان مدركاً لخطورة الأمر ولكنه تعصب لأبناء جلدته تعصباً أفقده حياده وإنصافه ؟!.

والحق أننا لن نستطيع أن نجيب على هذا السؤال لأنه أمر متعلق بالنوايا والنوايا محلها القلوب ولا اطلاع لأحد عليها، ولكن ما نستطيع أن نقطع به هو أنه فقد الإنصاف والحياد فى تدوينه لوقائع تلك الفترة، فمن يقرأ الجزء الخامس من تاريخ ابن إياس بعناية يتبين له أنه كان شديد التحامل على العثمانيين، إلى حد أنه لم يتوان عن تدوين أى شائعة تدينهم أو تحط من قدرهم دون أن يتأكد من صحتها، فإن كثيراً من الأخبار التى سجلها عليهم كان يصدرها بقوله (أشيع)، (قيل)، أو كان يذيلها بقوله (هذا ما أشيع واستفاض بين الناس والله أعلم بصحة ذلك) أو بقوله : (ولم تتأكد صحته) فأغلبها شائعات ولم يكن هذا منهج ابن إياس فى كل تاريخه بل

فى ذلك الجزء الأخير فقط، وهو المتعلق بالفتح العثمانى لمصر والشام فيحتمل أن يكون بغضه للعثمانيين قد جعله يقبل على تدوين أى شائعة تدينهم، ولكن أمانته العلمية أبت عليه إلا أن يذكر صراحة أنها شائعة أو خبر لم يتأكد من صحته، ولكنه بذلك أوقعنا فى إشكال كبير، لأن كثيراً من الباحثين ينقلون عنه تلك الشائعات على أنها حقائق تاريخية، وهذا ظلم بين بلا شك، لذلك فإن المؤرخين الذين جاءوا من بعده كابن أبى السرور البكرى (ت١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) قد تجنبوا ذكر كثير من الأخبار التى أوردها ابن إياس فى تاريخه أما إبراهيم بن عامر العبيدى (ت١٠٩١هـ/١٦٨٠م) فعندما تعرض للفتح العثمانى آثر أن ينقل رواية ابن زنبل رغم ما فيها من تحيز للمماليك، فقد قال العبيدى : (وأحببت أن أخلص ما ذكره صاحب القانون العلامة أحمد بن زنبل وإن هو مغرض لجانب الجراكسة، يكاد تعبيره ينصرهم)(٥٣)، وكان العبيدى ينبه أحيانا على الأباطيل ويفندها.

أدلة تحامل ابن إياس على العثمانيين :

أولا : أنه كان يذكر كثيراً من الأقوال المتناقضة دون أن يبالى، ومن ذلك قوله فى ذم السلطان سليم : (ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس، ولم يظهر لأحد وينصف الظالم من المظلوم بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأخذ أموال الناس بغير حق، وكان هذا على غير القياس، فإنه كان يشاع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر فلم يظهر لذلك نتيجه)(٥٤).

قلت : هذا الكلام ذكره ابن إياس واتهم فيه السلطان سليم بمجافاة العدل وعدم الفصل فى الخصومات بالرغم من أنه هو نفسه فى مواضع أخرى من كتابه قد دون عدة وقائع تنفى ذلك عن السلطان سليم وعن وزرائه منها :

١- قال ابن إياس : (قبض الوالى على شخص من العثمانية قيل أنه اختطف امرأة من السوق وزنى بها، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى أن يقطع رأسه، فقطع رأسه فى الحال وطاف بها فى القاهرة وهى على رمح، فظهر من ابن عثمان فى ذلك اليوم بعض عدل، فلعل أن يعتبروا بقية عسكره ويكفوا عن الأذى)(٥٥).

٢- ازداد عدوان العربان على قرى الشرقية، فأرسل السلطان سليم عدداً من الجنود على رأسهم الأمير المملوكى جان بردى الغزالى(٥٦)، وفى ذلك دلالة على أن السلطان سليماً كان يهتم بأمر العامة ويحرص على مصالح الرعية وإلا فإنه كان بوسعه أن يترك العربان يعتدون على القرى، فأى ضرر يعود على جنوده من ذلك ؟!، وقد روى ابن إياس نفسه تلك الواقعة وفى ذيلها ما يؤكد أيضاً حرص السلطان سليم على الرعية، إذ أن جان بردى الغزالى لما دخل الشرقية أفسد فيها وأسر بنات وصبيان وأبقار وأغنام، وباعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان، فكان الذى حال دون ذلك هو يونس باشا الصدر الأعظم للسلطان سليم، قال ابن إياس : (ثم إن يونس باشا نادى فى القاهرة بأن كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئاً من الأبقار والأغنام يرده على

أصحابه وكذلك أولاد الفلاحين ولام جان بردى الغزالي على فعله في الشرقية)[٥٧]. فإن قيل : إن كان السلطان سليم عادلاً حقاً فكان ينبغي عليه معاقبة جان بردى الغزالى، وأن لوم يونس باشا له غير كاف، يقال : إن السلطان سليماً كان فى حاجه إلى هؤلاء الأمراء المماليك لاستخدامهم فى إدارة البلاد كمرحلة انتقالية من الحكم المملوكى إلى الحكم العثمانى، لأن مصر بلد كبير لها نظام مالى وإدارى معقد الأمر الذى حتم على العثمانيين أن يستخدموا المماليك في إدارة البلاد إلى أن يستوعبوا نظام البلاد وأسرار إدارتها وسيأتى الحديث عن ذلك بمزيد تفصيل فى نهاية البحث.

٣- بعد شهر من خروج السلطان سليم من مصر عائداً إلى اصطنبول تم ضبط خمسة من الجنود العثمانيين يتعرضون للناس في الطرقات ويخطفون النساء والصبيان، فتم توقيع العقوبة الشديدة عليهم قال ابن إياس : (فلما قُبض عليهم، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان بأن يشنقوا، فشنق منهم اثنان على باب زويلة، وواحد على باب الشعرية، وأما الاثنان الآخران فقد شفع فيهما من الشنق ذلك اليوم فسجنا)[٥٨].

فإن قيل إن استثناء اثنين من العقاب أمر يجافي العدالة، يقال إن الجريمة المذكورة تستوجب حد الحرابة لأنها تدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة ٣٣]. وقول جمهور العلماء فى الآية أن (أو) هنا للتنويع على حسب الجريمة، فمن قتل وأخذ المال يقتل ويصلب ومن قتل دون أن يأخذ المال يقتل، ومن أخذ المال ولم يقتل تقطع يده ورجله من خلاف، ومن خاف السبيل ولم يأخذ المال ينفى من الأرض، والنفى هو الحبس فى أحد القولين. فلعل الاثنين الذين سجنا كانا من الصنف الأخير.

٤- الخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان مقيماً بالقاهرة وأخذه السلطان سليم إلى اصطنبول، قام ذلك الخليفة بحرمان أولاد عمه خليل من نصيبهم فى إقطاع الخلافة فى مصر، فرفعوا أمره للسلطان سليم، فأرسل قاصداً (مندوباً) من عنده إلى القاهرة ليقسم إقطاع الخلافة بينهم بالعدل، وقد سجل ابن إياس نفسه هذه الواقعة فقال عن السلطان سليم : (فحنق من الخليفة ورسم بأن يكون إقطاع الخلافة وجهاتها تقسم بينهم ثلاثة أثلاث من الجميع بالسوية. فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم عن ذلك، فلما حضر القاصد رسم على مباشرى الخليفة وعلى دواداره برد بك وقال لهم : قيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل من حين مات أبوهم والى الآن، واستمر هذا القاصد يضيق على المباشرين وجماعة الخليفة بسبب ذلك، وانتصفت أولاد خليل على الخليفة غاية الإنتصاف)[٥٩]. وهناك وقائع أخرى يضيق المقام عن ذكرها، ولكنها تفيد اهتمام السلطان سليم ووزرائه بالرعية وبالفصل فى الخصومات وإشاعة العدل وقد أوردها ابن إياس نفسه فى تاريخه، ومع ذلك يعمد فى كثير من الأحيان إلى وصف السلطان سليم خاصة،

ورجال دولته عامة بالظلم والتعدى، وعدم الحرص على إشاعة العدل بين الناس، فنتعجب من ذلك التناقض.

ثانيا : ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين أنه أغفل أن ينسب إليهم تأمين طريق الحج. بعد أن كان محفوفاً بالمخاطر فى أيام السلطان المملوكى قانصوه الغورى، إلى حد أن تم منع خروج قوافل الحج من الشام أربعة أعوام متتالية[٦٠]، أما قوافل الحج من مصر فقد منع خروج النساء فيها لبضعة أعوام، وفى أحد الأعوام لم يخرج الحج أصلاً لا رجالاً ولا نساء، وكان ذلك بسبب الفتن فى مكة وتعديات العربان على الحجاج[٦١]. فقد كانت السلطنة المملوكية آنذاك قد بلغت حداً من التدهور والانحلال لم تعد قادرة معه على تأمين قوافل الحج، أما فى العصر العثمانى فكان الأمر بخلاف ذلك، فعن موسم الحج فى عام ٩٢٥هـ قال ابن إياس : (دخل الحاج إلى القاهرة صحبة المحمل الشريف، وأمير الحاج الأمير برسباى، وقد أثنوا عليه الحجاج خيراً فيما فعله فى طريق الحجاز وأخبر الحجاج أن كان معهم الأمن والرخاء بطول الطريق)... وفى موسم حج عام ٩٢٦هـ قال : (دخل الحاج إلى القاهرة مع الأمن والسلامة صحبة الأمير جانم أمير ركب المحمل... وتعرضت لهم جماعة من العربان فى الطريق، فاتقعوا مع الأمير جانم أمير الحاج فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة، فرجع الحاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم، وأثنوا عليه كل جميل، وشالوا له الرايات البيض فى بركة الحاج) وفى موسم عام ٩٢٧هـ قال ابن إياس: (ولما رجع الحاج أثنى على الأمير جانم أمير الحاج بكل جميل فى حفظه للحاج ومنع الضرر عنهم وغير ذلك من أنواع البر والمعروف)[٦٢].

أما عن الحج الشامى ففى عام ٩٢٤هـ تمكن أمير الحج من الانتصار على العربان الذين تعدوا على الحجاج بسبب حسن تجهيز الجنود، قال ابن طولون الدمشقى : (العرب من آل دغيم وقفوا للحاج بعد أن حملوا من تبوك عند مقابر القلندرية، وقصدوا أن يحيلوا بين الحاج وبين الأخيضر، فتحاربوا هم وإياهم نهاراً، ثم انتصر الحاج عليهم وأخذوا منهم ثلاثة من أعيانهم وعدة من الخيل بسبب رماة البندق[٦٣] التى معهم، ويقال عدتهم مائة، ثم توجهوا إلى الأخيضر سالمين فدقت البشائر لذلك بدمشق)[٦٤].

الشاهد من ذلك أن ابن إياس رأى بعينه وكتب بيده أخبار عودة الحجاج سالمين من مكة دون أن يتعرض لهم أحد بأذى، وبالرغم من ذلك لم يحمده للسلطان سليم ولا عده من مناقبه، ولا نسب الفضل فيه للعثمانيين، وكان الأجدر به وهو يدون عودة الحجاج سالمين آمنين، ويدون ثناءهم على أمراء الحج أن يذكّرنا بما كان يلاقيه الحجاج فى أيام السلطان الغورى من قتل وهتك للأعراض ونهب للأموال على يد العربان، فكان يجدر به أن يشير إلى ذلك ويثنى على السلطان سليم الأول، لكنه تغافل عن ذلك كما لو كان يأبى أن ينسب للسلطان سليم تلك المنقبة العظيمة. ومما تجدر ملاحظته أن أمراء الحاج المذكورين كانوا من المماليك !. فما الذى بدل أحوال الحجاج من الخوف والرعب إلى الأمن والاطمئنان ؟! إن الذى تبدل هو الحكم والإدارة بانتقالها من المماليك إلى العثمانيين، وهذا يدل على أن الأزمة فى أيام الغورى كانت

أزمة إدارة وحسن تجهيز، فقد كانت بلغت الدولة المملوكية فى تلك الفترة مبلغاً من العجز الإدارى إلى حد عدم القدرة على تأمين طريق الحج !. فلما جاء بنو عثمان أعادوا الأمور إلى سابق الزمان.

ثالثا : ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين أنه وصفهم بأبشع الصفات التى لا يمكن أن يصدقها العقل فقال : (كانوا جيعانين العين، نفسهم قذرة، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم فى الأسواق، وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمور فى الأسواق بين الناس ولما جاء عليهم شهر رمضان فكان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجوامع ولا صلاة الجمعة إلا قليل منهم، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف، لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم، وهم همج كالبهائم)[٢٥].

قلت : هذا كلام لا يمكن لعاقل أن يصدقه، ومع الأسف نقله كثير من أساتذة التاريخ فى كتبهم وهو باطل بلا ريب عقلاً ونقلاً، فأما من جهة العقل فلا يمكن لجيش هذه صفته أن تقوم دولة عالمية عظمى على أكتافه أبداً.! من الممكن أن يحقق جيش كهذا انتصارات كاسحة مؤقتة كانتصارات جيش جنكيز خان على سبيل المثال، لأن نواحى القصور فى النظام كان يجبرها وجود قائد عسكرى فذ مثله، ولكن لما مات جنكيز خان سقطت دولته، وكذلك جيش تيمورلنك فقد حقق انتصارات كاسحة شرقاً وغرباً وأسس دولة عظمى، فلما مات تلاشى أمرها كأن لم تغن بالأمس، ومن قبل هؤلاء الإسكندر المقدونى حقق انتصارات عظمى فلما مات انقسمت إمبراطوريته إلى دويلات صغيرة. أما السلطنة العثمانية العظمى فهى إحدى دول الإسلام، فلم تكن دولة فرد وإنما قامت على منهج حفظ لها الاستمرار قروناً طويلة تنتقل من نصر إلى نصر، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجيش نظامى خال من تلك النقائص، ومعلوم لكل من درس التاريخ العثمانى أن دولة بنى عثمان قامت على أساس الجهاد فى سبيل الله، وكان ذلك هو باب النصر لها على مر العصور، ولا يمكن لرجل لا يصلى ولا يصوم ويشرب الخمر أن يكون مجاهداً فى سبيل الله أبداً.

أما من جهة النقل فقد شهد العدو قبل الصديق بحسن نظام الجيش العثمانى، وحسن إسلام أفراده وتدينهم، وأنا لن آتيك بنقول من المصادر الإسلامية لئلا يقول قائل إنهم يزكون أنفسهم أو يداهنون حكامهم، بل سآتيك بما قاله المؤرخون الغربيون من ألد أعداء العثمانيين فى عصور مختلفة، فمنهم القس اللاتينى (ليوناردو الخيوسى) الذى كان شاهداً على فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م فقد قال فى تقريره الذى رفعه لبابا روما : (ونودى فى معسكر السلطان بأنه يجب إيقاد النيران فى الأيام الثلاثة السابقة على يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من مايو، وأن يتوجهوا فيها بالدعاء إلى ربهم علاوة على صيامهم أيضاً، وأن يعدوا أنفسهم للقتال من أجل الهجوم الرئيسى على المسيحيين... يا إلهى! إذا سمعت تلك الأصوات وهى ترتفع إلى عنان السماء، وهى تصيح (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهى تعنى أن الله موجود وسوف يستمر إلى الأبد، وأن محمداً هو خادمه. لابد أن لسانك سوف ينعقد

وتصاب بالدهشة والذهول لما يجرى... وصاموا طوال اليوم ولم يقربوا الطعام حتى الليل، وأخذوا يحيون ويودعون بعضهم البعض ويتبادلون العناق والقبلات)[٦٦].

وقال المستشرق الألماني كارل بروكلمان نقلاً عن المصادر الأوروبية، واصفاً جيش السلطان سليمان القانونى ابن سليم الأول الذى تولى الحكم فى الفترة من (٩٢٦هـ/١٥٢٠م وحتى ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) : (والحق أن جميع المصادر الأوروبية حافلة بإطراء روح النظام التى تكشف عنها الجيش العثمانى، فلم يكن فيه مكان للخمر أو القمار أو البغاء وهى آفات لم تسلم منها فى يوم من الأيام جيوش أوربه لذلك العهد، وكانت الحرب ضد الكافرين لا تزال تعتبر واجباً دينياً، ولقد كان لذلك أثر كبير فى ضمان الغلبة على النصارى يوم كان الجيش العثمانى فى أوج قوته)[٦٧].

وقال الراهب الدنماركى (أولوف إيلجسون) الذى كان أسيراً عند العثمانيين، فلما أطلق وعاد إلى بلاده كتب مذكراته، ونشرت فى أوائل القرن ١١هـ/١٧م، فقد جاء فيها : (كان الطعام الذى يقدم لنا نحن الفورسا " الأسرى المجدفون " من نفس الطعام الذى يقدم للضباط الأتراك فى مقصوراتهم، وشىء آخر وهو أن الأتراك كانوا يقدمون للفورسا الراغبين البيرة الشراب والبراندى، رغم أنهم لا يشربون المشروبات عدا الماء)[٦٨].

والكاتب الإنجليزى (وليم كونجريف) كتب مسرحية The Way of the World عام ١٧٠٠م جاء فيها أغنية تقول : (الشرب خاصة نصرانية. لا يعرفها التركى. دع المحمديين يعيشون ملتزمين بقواعدهم. ولكن دع الإنجليز يغنون ويشربون. على صحة الملك. وأف للسلطان والصوفية)[٦٩].

هذا وصف الجيش العثمانى فى عصور مختلفة كما جاء على ألسنة أعدائهم، فلست أدرى من أين جاء ابن إياس بتلك الأوصاف البذيئة، وجدير بالذكر أن تلك الأوصاف الشنيعة قد تصدق على بعض الجنود، فهذا وارد فى كل زمان لكن ابن إياس لم يستطع أن يمنع نفسه من تعميم ذلك على الجيش العثمانى كله، مما يدل على شدة تحامله على العثمانيين فجافى الإنصاف فى وصفه إياهم، لاسيما أن أقرانه من معاصريه لم يذكروا شيئاً من ذلك ولا حتى أشاروا إليه.

رابعا : ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين أنه أغفل أن يذكر للسلطان سليم أحد أهم مناقبه، وهى طرده البرتغال من البحر الأحمر، من خلال المعارك البحرية التى قادها الريس سلمان العثمانى إبان وجود السلطان سليم فى مصر، ففتح البحر الأحمر من جديد، وعادت السفن تبحر فيه بفضل الله بعد تسع سنوات من إغلاق البرتغال إياه، وفقا لما ذكره ابن إياس نفسه كما قدمنا. فمن العجيب أن المؤرخ الهندى زين الدين المعبرى الذى كان بعيداً عن البحر الأحمر يذكر ذلك فى كتابه قائلا : (فأرسل الأمير سلمان وراءهم " البرتغال ".........[٧٠] فيهما ثلاثون رجلاً فأخذوا منهم غراباً صغيراً "مركباً" فى كمران وفيه اثنا عشر نصرانياً ووصلوا بهم إلى

جدة، ثم إن الملاعين توقفوا فى كمران لانقطاع الموسم الهندى، ثم رجعوا إلى كووه[٧١] خائبين بإذن الله تعالى، وذلك من فضل الله)[٧٢]... فهاهو المؤرخ المقيم بالهند يصف تفاصيل المعركة أما ابن إياس المقيم بالقاهرة، فلا يذكر ذلك ! ولا حتى أشار إليه إشارة !. وإنما اكتفى بذكر خبر عودة الريس سلمان إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم فقال : (ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان يتعبث به ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون هناك)[٧٣]... ولم يذكر ابن إياس أن الريس سلمان طرد البرتغال من البحر الأحمر بالكامل حتى أنه انسحبوا من كمران وعادوا إلى الهند. ولا ذكرنا ابن إياس أن الملاحة عادت إلى البحر الأحمر على يد السلطان سليم بعد تسع سنوات من التوقف التام، ولا شك أن ابن إياس كان على علم بطرد البرتغال من البحر الأحمر بالكامل لأنه ذكر أنه فى عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م تم إرسال كسوة الكعبة وأموال الصدقات للحرمين الشريفين عن طريق البحر عبر ميناء جدة[٧٤] ولاشك أن فى ذلك دليلاً على أن الملاحة فى البحر الأحمر كانت آمنة تماماً من أى تواجد للسفن البرتغالية، ولا شك أن إغفال ابن إياس لذكر ذلك صراحة فيه تحامل شديد على العثمانيين، كما لو كان يكره أن ينسب لهم أى مكرمة.!

خامسا : وصف ابن الفتح العثمانى لمصر بأوصاف فيها مبالغة شديدة، فشبهه باستيلاء بختنصر البابلى على مصر قبل الميلاد، وبعدوان هولاكو على بغداد ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة الشديدة، فقد قال ابن إياس : (ولم تقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط إلا أن كان فى زمن البخت نصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعساكره وأخربها وهدم بيت المقدس، ثم دخل إلى مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها مائة ألف ألف ألف إنسان حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار، فكان النيل يطلع وينفرش على الأرض ويهبط فلا يجد من يزرع الأراضى عليه ولا ينتفع به. ولكن هذه الواقعة لها فوق الألفى سنة، قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام ثم وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هولاكو ملك التتار، لما زحف على بغداد وأخربها، وأحرق بيوتها، وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل أهلها فاستمرت من بعد ذلك خرابا إلى الآن، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك)[٧٥].

قلت : لا مجال إطلاقاً للمقارنة بين السلطان سليم وبختنصر أو هولاكو، لاختلاف الدوافع والأهداف بالكلية، كما أن من سقطوا من قتلى وجرحى خلال عملية الفتح العثمانى لمصر، سواء من الجيش العثمانى أو من الجيش المملوكى قد سقطوا فى إطار عمليات حربية حتمتها الظروف السياسية والمصلحة العامة للمسلمين كما تقدم بيانه، فلم تكن أعمالاً انتقامية لمجرد التنكيل بالناس كأعمال بختنصر أو هولاكو. كما أنه لا يخفى ما فى قول ابن إياس من مبالغة شديدة فلا يمكن أن يكون قد قتل من أهل مصر فى غزو بختنصر هذا العدد الضخم (مائة مليار إنسان).! إن سكان العالم كله فى زماننا هذا سبعة مليارات فكيف بالحال قبل الميلاد.! ثم هل وقع من السلطان سليم مثل ما وقع من بختنصر ؟! هل قتل كل هؤلاء.؟! هل عدمت مصر الناس أربعين عاماً.؟!. ثم إن تشبيهه السلطان سليماً بهولاكو فيه تجاوز شديد أيضاً فقد قال

شمس الدين الذهبي عن دخول هولاكو بغداد : (فبذلوا السيف فى بغداد واستمر القتل والسبى فى بغداد بضعاً وثلاثين يوماً، ولم ينج إلا من اختفى، فبلغنا أن هولاكو أمر بعد ذلك بعدّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسر والأصح أنهم بلغوا ثمانمائة ألف، ثم نودى بعد ذلك بالأمان وظهر من كان قد تخبأ وهم قليل من كثير)[٧٦].. وقال ابن كثير عن دخول هولاكو بغداد : (ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون)[٧٧].

قلت : من المتفق عليه بين الجميع بمن فيهم ابن إياس نفسه أن السلطان سليماً لما دخل مصر لم يحدث من جنوده ربع معشار ما حدث من جنود هولاكو، ثم إن ما وقع من قتلى على يد الجيش العثمانى كان فى إطار عمليات حربية سقط فيها قتلى وجرحى من الطرفين، وهى عمليات حتمتها المصلحة العامة للمسلمين، وليس انتقاماً وتنكيلاً ورغبة فى إفناء الشعب كالذى فعله هولاكو، فتشبيه ابن إياس السلطان سليماً ببختنصر أو بهولاكو، خطأ فادح وقع فيه ابن إياس. وإنما يدل على تحامله الشديد على العثمانيين وبغضه لهم إلى حد أفقده صوابه، فراح يقول مثل هذا الكلام الذى يناقض ما كتبه هو نفسه بخط يده من وقائع الفتح العثمانى لمصر.

سادسا : ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين ذمه لما أمر به السلطان سليمان بن سليم من توحيد القضاء فى مصر على المذهب الحنفي، بعد أن كان هناك قاض لكل مذهب من المذاهب الأربعة وبالرغم من أن ذلك كان عملاً جليلاً انتظم به القضاء في مصر، إلا أن ابن إياس بالغ فى ذمه.!. فإن الأصل فى مصر منذ أن دخلها الإسلام أنه كان بها قاض واحد يستنيب عنه نواباً فى الأقاليم، وظل الأمر كذلك حتى زمن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس إذ جعل قاضياً لكل مذهب من المذاهب الأربعة فى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م[٧٨]، ولا يخفى ما فى ذلك من المفاسد كالاختلاف وتفرق الكلمة فمعلوم أن اختلاف الآراء قد يكون مفيداً ولكن بشرط وجود قيادة تحسمه، وكانت تتمثل تلك القيادة فى منصب قاضى القضاة، ولكن منذ عهد الظاهر بيبرس أصبح هناك أربعة كل منهم قاضى القضاة لمذهبة وقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى أحداث عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م أن القضاة الأربعة فى حلب اختلفوا فيما بينهم، واتسع الخلاف، فأرسل كل منهم محضراً إلى السلطان بفسق الآخرين فعزلهم السلطان جميعاً[٧٩].

فلا ريب أن تلك البدعة التى ابتدعها الظاهر بيبرس حملت معها كثيراً من المفاسد، وقد قال المقريزى : (رُئيَ السلطان بيبرس بعد موته فى النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما رأيت شيئاً أشد علىّ من ولاة قضاة أربعة وقيل لى فرقت الكلمة)[٨٠].

ومما يدل على فساد نظام القضاة الأربعة الذى أحدثه الظاهر بيبرس أنه لما أراد أن يفعل ذلك فى دمشق رفض بعض قضاتها ذلك، فقد رفض المالكى والحنبلى قبول المنصب حتى ألزمهما السلطان به فقبلا بشرط عدم الحصول على رواتب. قال المقريزي : لم يقبل المالكى ولا الحنبلى، وقبل الحنفى فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بذلك وأخذ ما بأياديهما من الوظائف إن لم يفعلا فأجابا. ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف، فورد المرسوم بإلزامه فأجاب، وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية (مرتب) على القضاء، وقال بعض أدباء دمشق لما رأى اجتماع قضاة، كل واحد منهم لقبه شمس الدين :

أهل دمشق استرابوا		من كثرة الحكام
إذ هم جميعا شموس		وحالهم فى ظلام[٨١]

وقد علق ابن كثير على تلك البدعة بقوله : (وقد كان هذا الصنيع الذى لم يسبق إلى مثله قد فعل فى العام الأول بمصر كما تقدم. واستقرت الأحوال على هذا المنوال)[٨٢].

ومن جهة أخرى كان نظام القضاء في أواخر عهد السلطنة المملوكية قد اعتراه فساد كبير، وكان القضاة يدفعون مبالغ كبيرة للسلطان ليوليهم منصب قاضى القضاة، ومن ذلك ما ذكره ابن إياس فى أحداث عام ٩١١هـ/١٥٠٥م من أن القاضى جمال الدين القلقشندى تقلد قضاء الشافعية ثلاث مرات بتلك الطريقة، كانت آخرها بثلاثة آلاف دينار، فلما دفع القاضى ابن النقيب للسلطان الغورى خمسة آلاف عزل القلقشندى وولاه مكانه، قال ابن إياس : (أخلع السلطان " الغورى " على قاضى القضاة الشافعي محى الدين عبد القادر بن النقيب، وأعاده إلى قضاء الشافعية عوضاً عن جمال الدين القلقشندى، فكانت مدة جمال الدين القلقشندى فى القضاء نحواً من ستة أشهر، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار ثم سعى عليه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار، وغرم نحواً من ألفى دينار للذى سعى له من الأمراء وغيرهم وكان الساعى له الأمير أزدمر الدوادار وغيره من خواص السلطان، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب بمصر، وقد نفذ منه مال له صورة على ولاية القضاء، ولم يقم بها فى الثلاث مرات إلا مدداً يسيرة ويعزل عنها)... وقد ذكر ابن إياس فى أحداث عام ٩٢١هـ/١٥١٥م أن القاضى محى الدين يحيى الدميرى تولى قضاء المالكية بألفى دينار[٨٣].

ولا ريب أن تلك المبالغ كانوا يجبونها من الناس بالرشوة، وذكر ابن إياس نفسه أن مما قاله الأمير المملوكى خشقدم للسلطان سليم عن فساد أحول مصر (أن قضاة مصر قاطبة يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية)[٨٤].

وقد ظل القضاة يتولون القضاء بالرشوة حتى أبطل ذلك السلطان طومان باى عندما كان السلطان سليم فى طريقه إلى مصر، قال ابن إياس : (ولم يأخذ السلطان من القضاة الذين ولاهم

الدرهم الفرد ومنع القضاة أن لا يسعوا فى منصب القضاء بمبلغ وقال لهم : أنا ما أقبل رشوة فى ولاية أحد من القضاة فلا تأخذوا أنتم رشوة من الناس أبداً)[٨٥].

لا ريب أن مؤسسة قضائية تدار على هذه الشاكلة إنما هى مؤسسة فاسدة، وقد روى ابن إياس واقعة مؤسفة تدل أبلغ دلالة على ذلك فى عام ٩١٩هـ/١٥١٣م مضمونها أنه تم ضبط قاض من نواب قاضى القضاة الشافعى متلبساً بالزنى بمحصنة، فرفع الأمر إلى السلطان الغورى فتم الحكم عليهما بالرجم بعد أن أقر ذلك الحكم القضاة الأربعة فى نفس المجلس، ولكن رجع القضاة الأربعة عن حكمهم تعصباً للزانى لأنه من نواب القضاء، وأوجدوا لذلك تأويلات شرعية، فغضب عليهم السلطان غضباً شديداً واستدعاهم ولكنهم أصروا على ما قالوه، فقال لهم: (إنتوا الأربعة قوموا ولا ترونى وجوهكم قط) ثم عزل بعضهم[٨٦].

فكان ينبغى على ابن إياس الذى علم ما آلت إليه المؤسسة القضائية فى أواخر العصر المملوكى من فساد، أن يفطن إلى أن توحيد القضاء بمصر فى زمن السلطان سليمان القانونى على يد القاضى سيدى جلبى، إنما يعد من أجل الأعمال التى صلح بها حال الناس من وجهين:

الأول : أن وجود أربعة أنواع من المحاكم فى بلد واحد يفسد مصالح الناس.

الثانى : أن المؤسسة القضائية فى مصر كان الفساد ضارباً أطنابه فيها، فكان يجب أن تزال، لاسيما وأن قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل، وقاضى القضاة المالكى محى الدين الدميرى الذين كانا فى منصبيهما عندما صدر الفرمان السلطانى بتوحيد القضاء، كانا يتوليان هذين المنصبين فى واقعة القاضى الزانى المذكورة آنفاً. ثم إن السلطان سليمان لم يبطل عمل القضاة الأربعة بالكلية، وإنما جعلهم نواباً للقاضى العثمانى، من كل مذهب نائب، وأن تكون عقود الوصايا والأوقاف والأنكحة وغيرها منوطة بالقاضى العثمانى دون غيره، وأظن أن السبب فى ذلك هو فساد نواب القضاة فى مصر آنذاك، والدليل على ذلك أنه فى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م إبان وجود السلطان سليم فى مصرا، وبالرغم من أنه أمر ألا يعقد أحد من النواب عقداً إلا عند القاضى العثمانى فى المدرسة الصالحية، إلا أن نواب القضاة لم يلتزموا بذلك وباشروا كتابة العقود، حتى أن أحدهم باشر عقد زواج أرملة قبل أن تكمل عدتها، فعاقبوه وأشهروه فى القاهرة[٨٧]. ولو أردنا أن نفصل فى مظاهر فساد القضاء فى مصر فى أواخر العصر المملوكى لطال بنا الكلام ولخرجنا عن مقصدنا، ولكن نكتفى بذكر أسباب توحيد القضاء كما جاءت فى القانون الصادر بها من قبل السلطان سليمان القانونى ابن السلطان سليم :

(أنه فى الزمن القديم عندما يقترف أحد القرويين ذنباً ما ويفصل فى أمره، تبرأ ذمته تماماً ولكن الكشاف كانوا يعودون ويقبضون على هؤلاء مرة أخرى ويعتدون عليهم بأنواع الإيذاء المختلفة... وعندما كانت تحدث بعض المخاصمات بين بعض الرعايا من العوام، كانوا يتوجهون لحل منازعاتهم عند والى المدينة بدون أن يرجعوا إلى مجلس حاكم الشرع " القاضى " فى شىء

من ذلك، حيث كان الوالى يقوم بالفصل فى مثل هذه الخصومات بنفسه بدون وجه حق، كما كان بعض القضاة فى مصر يقومون ببيع محاكمهم ووظيفة العمل بها لبعض النواب كمقاطعة)[٨٨].

خلاصة الأسباب التى لأجلها تم توحيد القضاء إما ضعف القضاة أمام الكشاف والولاة أو فسادهم، وبالتالى فإن النظام القضائى الذى وضعه السلطان سليمان بمصر، حتى وإن ترتب عليه تقليل عدد نواب القضاء وفقدان بعضهم لوظائفهم إلا أننا إذا نظرنا إلى الصالح العام سنرى أنها إصلاحات عظيمة، فكان يجب أن تكون تلك الإصلاحات محل تقدير من ابن إياس، لكنك تجد العكس من ذلك فإنه قد اعترض على توحيد القضاء، وسب القاضى العثمانى ونمه لا لسبب ظاهر ولكن بسبب بغضه للعثمانيين بصفة عامة كما يبدو، فهو لا يرى لهم حسنات أبداً وإن كانت واضحة مثل فلق الصبح، فقد قال ابن إياس تعليقاً على ذهاب القاضى العثمانى إلى مكة : (خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه فما حصل منه لأهل مصر خير، فعزلت القضاة الأربعة بسببه وأخرج عنهم الأنظار، ومنع الشهود من الجلوس فى المجالس قاطبة وأسمر دكاكينهم، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية، ولم يبق منهم غير من تقدم القول عليه، وضيق على الناس بسبب عقود الأنكحة وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ، وصار لا يعقد عقداً إلا فى المدرسة الصالحية)[٨٩].

نلاحظ هنا أن كل ما نقمه ابن إياس على القاضى العثمانى أنه قام بعملية تنظيم صارمة وضيق على طرق الفساد وهذا أمر عجيب جداً من ابن إياس، ولكن الأعجب منه ما قاله هو نفسه بعد ذلك ببضعة أسطر عن ذلك القاضى العثمانى نفسه مناقضاً ما قاله أولاً، قال : (فلما سافر قاضى العسكر جعل القاضى صالح العثمانى نائباً عنه، يحكم فى المدرسة الصالحية إلى أن يحضر من الحجاز، وكان قاضى العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائباً من نواب القضاة الأربعة، وجعل منهم من هو فى بولاق وفى مصر العتيقة، وفى جامع ابن طولون وفى الحسينية وغير ذلك من الأماكن، وجعل فى كل مجلس من مجالس القضاة أربعة نواب من المذاهب الأربعة يقضون بين الناس بالحق)[٩٠].

قلت : إن كان ابن إياس نفسه يقر بأن القاضى العثمانى لم يبطل عمل القضاة الأربعة ونوابهم بالكلية بل عين منهم ستة وعشرين نائباً، وأنهم فى كل مجلس يحكمون بين الناس بالحق، وأن الأمر لم يتعد سوى وضع تلك المؤسسة القضائية الفاسدة تحت الرقابة المباشرة للدولة، ففيم الغضب والضيق والحنق على القاضى العثمانى..؟! فربما أن ابن إياس أبت نفسه عليه أن يرى العثمانيين يحكمون على أبناء جنسه من الجراكسة، فراح يطعن فيهم بغير حق.

سابعاً : ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين، هو ما نقمه على قاضى العسكر العثمانى بدون حق عندما أمر بمنع النساء من الخروج إلا للضرورات، ولعل كثيراً من الناس ليعلمون أن عدداً ليس بالقليل من نساء مصر فى الزمن المملوكى كن قد افتقدن الحشمة والوقار، فانتشر الفساد فى البلاد فلما جاء القاضى العثمانى ورأى ذلك، وضع ضوابط لخروج

النساء وركوبهن للحمير والبغال لإعادة الحشمة والوقار إلى الشارع، وكان الذى حمل القاضى على اتخاذ ذلك القرار أنه رأى جماعة من النساء يتحدثن مع جماعة من الفرسان الأتراك فى وسط السوق، فغضب لأجل ذلك غضباً شديداً، قال ابن إياس : (اتفق أن قاضى العسكر طلع إلى القلعة فرأى نسوة يتحدثن مع جماعة من الاصبهانية [٩١] فى وسط السوق فعز ذلك عليه، فلما طلع إلى القلعة قال لملك الأمراء[٩٢] : " إن نساء أهل مصر أفسدت عسكر الخونذكار [٩٣] ولا بقى ينفع للقتال قط. وقص عليه قصة النسوة مع الاصبهانية، فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ورسم للوالى بأن ينادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقاً، ولا تركب على حمار مكارى مطلقاً، وكل مكارى ركب امرأة شنق من يومه من غير معاودة فى ذلك "..... ثم خفف القاضى بعد أيام من غلواء ذلك الحكم. قال ابن إياس : (ثم تكلم الناس مع قاضى العسكر فى أمر النساء، وأن لا يمنعوا من طلوع الترب ودخول الحمام وزيارة الأقارب، فأذن لهن فى ذلك، وأن المرأة لا تخرج الطريق إلا مع زوجها، وأن لا يدخل الأسواق إلا العجائز فقط، فسمح لهن قاضى العسكر بذلك وأنهن لا يركبن إلا الخيل أو البغال دائماً)[٩٤]..... ثم قال ابن إياس : (باعت المكارية حميرها قاطبة واشتروا عوضها أكاديش وشدوها بنصف رحل، وصارت النساء يركبن عليها بسجادة والمكارى قائد لجام الأكديش، واستمروا على ذلك، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة)[٩٥].

قلت : الأكديش هو البرذون[٩٦]، وقال الشيخ الفيومى المقرى : (قال المطرزى : البرذون هو التركى من الخيل وهو خلاف العراب)[٩٧]. الشاهد أن القاضى استاء من مظاهر الخلاعة مثل ركوب النساء على الحمير بصحبة المكارية، وخروج النساء إلى الأسواق واختلاطهن بالرجال لغير حاجة، فأمر بمنع ذلك وألزم النساء بركوب الخيل بعد شده بنصف رحل، لكى يكون اختلاطها بالمكارى فى أضيق الحدود فلا شك أن هذا عمل جليل من أعمال القاضى، فهو بذلك حسم مادة الفساد، وضيق على اختلاط الرجال بالنساء، وأحيى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال أبو أسيد الأنصارى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : ﴿ اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ ﴾[٩٨].

هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وهم أطهر الناس قلوباً وأعفهم عن المنكرات وقد قالت أمنا عائشة رضى الله عنها : ﴿ لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ الْمَسْجِدَ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ : فَقُلْتُ لِعَمْرَةَ : أَنِسَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ مُنِعْنَ الْمَسْجِدَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ﴾[٩٩].

قلت : وما عسى أن يكون قد أحدثه النساء فى زمن عائشة رضى الله عنها.؟! التطيب.؟! إظهار الحلى.؟! فكيف الحال بمجتمع ظهر فيه الفساد على النحو الذى ذكره المؤرخون فى أواخر العصر المملوكى، فقد حدثنا المقريزى عما كان يحدث فى يوم وفاء النيل عند فتح الخليج،

فقال عن (بركة الرطلى) : (وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرى فتدور بها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات، واختلاطهن بالرجال من غير إنكار)[١٠٠]... وفى الخليج الناصرى كان يحدث مثل ذلك، إلى أن تم منع دخول مراكب النزهة فيه فى زمن السلطان الأشرف شعبان، ثم عاد الفساد إلى ما كان عليه. قال المقريزى : (ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فأذن فى دخولها وهى مستمرة إلى وقتنا هذا)[١٠١]... كما يحدثنا المقريزى فى أحداث سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م أن شاطئ النيل كان يجتمع عنده الرجال والنساء ويحدثون المنكرات. قال المقريزى : (ركب الأمير سودن قرا صقل حاجب الحجاب إلى شاطئ النيل وأحرق ما كان هناك من الأخصاص، وطرد الناس ومنعهم من الاجتماع فإنهم كانوا قد أظهروا المنكرات من الخمور ونحوها من المسكرات واختلاط النساء بالرجال من غير استتار، فعندما طرقهم الحاجب اضطربوا ونهب بعضهم بعضاً فذهبت أموال عديدة)[١٠٢].... كما يحدثنا المقريزى أنه فى عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م لما تفشى الطاعون فى مصر، أن السلطان استفتى العلماء فى ذلك، قال المقريزى : (فسأل من حضر من القضاة والفقهاء عن الذنوب التى إذا ارتكبها الناس عاقبهم اللّه بالطاعون، فقال له بعض الجماعة إن الزنا إذا فشا فى الناس ظهر فيهم الطاعون، وأن النساء يتزين ويمشين فى الطرقات ليلاً ونهاراً فى الأسواق، فأشار آخر أن المصلحة منع النساء من المشى فى الأسواق، ونازعه آخر فقال لا يمنع إلا المتبرجات وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها لا تمنع من تعاطى حاجتها، وجروا فى ذلك على عادتهم فى معارضة بعضهم بعضاً فمال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات مطلقاً)[١٠٣].

وقد ذكر ابن تغرى بردى أنه لما وقع بسبب ذلك ضرر كبير لكثير من النساء اللاتى ليس لهن من يقوم على شئونهن فسمح السلطان بخروج الإماء لقضاء حاجات مواليهن[١٠٤]... وفى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م فى أيام السلطان الظاهر جقمق وقع مثل ذلك أيضاً، قال المقريزى : (نودى بمنع النساء من الخروج إلى الشوارع والأسواق إلا العجائز والجوارى فامتنعن. ثم نودى لهن بالخروج إلى الأسواق والشوارع من غير تبرج بزينة)[١٠٥].

الشاهد من ذلك أن الأحوال فى مصر فى أواخر العصر المملوكى كانت فاسدة من حيث تبرج النساء وخروجهن ليلاً ونهاراً واختلاطهن بالرجال فى الأسواق وفى المنتزهات دون إنكار إلا عند المصائب فعندئذ ينتبه العلماء والسلاطين ويتخذون إجراءات صارمة للتصدى له، وابن إياس نفسه لم يكن غافلاً عن ذلك، فقد ذكر فى تاريخه أن الفساد إذا خرج عن حده كانت تتخذ إجراءات صارمة مشددة، فقال فى أيام الظاهر برقوق فى عام ٧٩٤هـ/١٣٩٢م : (نادى الأمير كمشبغا نائب الغيبة بأن امرأة لا تخرج من بيتها، وأن أحداً لا يخرج إلى المفترجات قاطبة، وأن لا امرأة تلبس قميص بأكمام كبار، وكانوا قد أفحشوا فى ذلك حتى خرجوا عن الحد)[١٠٦]. قلت: فها هو ابن إياس نفسه يذكر أن الأمور لما خرجت عن الحد فى عهد السلطان برقوق تم اتخاذ

إجراءات مشددة لمواجهتها، ولم يعارضها ابن إياس بل إن لحن قوله يظهر منه الرضا والإقرار. فلِمَ أنكر على القاضي العثماني ما اتخذه من إجراءات ؟!. فإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على مبلغ تحامله على القاضي وعلى العثمانيين بصفة عامة. بل والأنكى من ذلك قوله عن القاضي العثماني : (وضيق على النساء في ما تقدم ذكره من الخروج إلى الأسواق ومن ركوب الحمير. فلما خرج من مصر " إلى مكة " صنفت النساء رقصة فقالوا : قوموا بنا نقحب ونسكر فقد خرج عنا قاضي العسكر)(١٠٧).

قلت : لا ريب أن تلك الرقصة كانت من تصنيف البغايا و أسافل النساء، ويتعجب من ابن إياس أن يحتج بقول هؤلاء وينحاز لهن وينتقص من قدر قاضي العسكر إلى هذا الحد، بالرغم من أنه نفسه قد ذكر في تاريخه ما يفيد أن الفساد إذا خرج عن الحد كانت تتخذ إجراءات مشددة لمنعه.

لعل فيما قدمناه دليلاً على تحامل ابن إياس الشديد على العثمانيين مما يحتم على ذوي الألباب من الباحثين أن يتحروا الدقة ويحذروا عند نقل الوقائع التي ذكرها عن العثمانيين، وانفرد بها دون سائر المؤرخين المعاصرين وكذلك عند نقل رأيه الشخصي في السلطان سليم أو في العثمانيين بصفة عامة. وبالرغم من أن سبب تحامل ابن إياس على العثمانيين هو أمر متعلق بالنوايا، لا اطلاع لأحد عليه، إلا أنه يمكن أن نظن أن أسباب تحيزه تكمن في أمرين :

الأول : أنه كان من نفس جنس المماليك، فجده هو الأمير إياس الفخري، كما تقدم ذكره، أما أبوه فكان من الوجهاء وكان كثير الاختلاط برجال الدولة، وهم من الأمراء المماليك أيضاً، بل إن ابن إياس نفسه كان من أصحاب الإقطاعات كما ذكر هو عن نفسه(١٠٨) لعله قد ورثه عن أبيه. فبالقطع قد آلمه أن يشهد تصدع وزوال الدولة التي كان يعد من وجهائها، كما أنه شهد مصرع أصحابه وأصحاب أبيه ورأى الأرامل والثكالى واليتامى من أبنائهم، الأمر الذي حجب عنه رؤية الصورة كاملة، فلم يدرك أن الأمر أكبر من أي اعتبارات شخصية أو انتماءات قبلية، فمستقبل الإسلام كله كان في خطر كبير، وما كانت أعمال السلطان سليم إلا لإنقاذه من ذلك الخطر ، وقد قال السلطان سليم في رباعياته ما ترجمته :

إن خشيتي من الاختلاف والفرقة ستظل تقلقني حتى وأنا في القبر

إن اتحدنا فصولة الدولة تستطيع دفع الأعداء فإن لم تتحد الأمة فلا راحة لي(١٠٩)

الثاني : أنه يغلب على ظني أن أحد أهم أسباب تحامل ابن إياس على العثمانيين هو أن الحكم العثماني في الخمس سنوات الأولى التي شهدها ابن إياس قبل وفاته – المرحلة الانتقالية – لم يختلف كثيراً عن الحكم المملوكي باستثناء تنظيم القضاء وتأمين الحج، فلقد بقيت الإدارة في يد

المماليك، إذ أن السلطان سليماً قد عهد إلى الأمير المملوكى خاير بك الذى كان نائب حلب فى عهد السلطان الغورى بأن يكون نائبه فى مصر، وأمره أن يقبل كل من جاءه طائعاً من أمراء المماليك ويكرمه[١١٠] فبقيت المناصب فى يد المماليك كما كانت، مثل الأمير جانم الحمزاوى الذى أصبح فيما بعد من أرباب الحل والعقد، والأمير جانم السيفى كاشف الفيوم وأمير الحج، والأمير قايتباى الدوادار، والأمير برسباى الخازندار، وقانصوه العادلى كاشف الشرقية، حتى وظيفة المحتسب تولاها الزينى بركات بن موسى[١١١] وهو الذى كان يتولاها فى زمن السلطان الغورى، ثم عزله خاير بك فى عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م وولاها للقاضى عبد العظيم[١١٢]. حتى القضاة الأربعة قد أبقاهم السلطان سليم فى مناصبهم[١١٣] إلى أن تم تنظيم القضاء بعد بضع سنوات فى عهد السلطان سليمان بن سليم كما تقدم، لذلك فإنك ترى أن تلك السنوات الخمس كان يحدث فيها من المظالم مثل ما كان يحدث فى زمن المماليك، من مصادرات الناس والتعدى على الرزق الأحباسية والأوقاف وغير ذلك.

وقد يتساءل البعض لماذا لم يول السلطان سليم ولاة من عنده إن كان حقاً يريد إشاعة العدل.؟! يهب بعض أساتذة التاريخ ليقولوا أن السلطان سليماً ولى خاير بك على مصر مكافأة له على خيانته للمماليك وتعاونه مع السلطان سليم وهذا الكلام فيه نظر لأن السلطان سليماً عهد أول الأمر بولاية مصر إلى صدره الأعظم يونس باشا، ثم عزله بعد مدة وولى عليها خاير بك[١١٤] وذلك بعد أن فشل يونس باشا فى إدارة البلاد، فمصر بلد كبير ولها نظام إدارى ونظام مالى خاص، لا يعرفه إلا أمراء المماليك وأعوانهم من الكتبة، قال د.سيد محمد السيد : (عندما أراد الحكام الجدد من العثمانيين أن يتعرفوا على كيفية إدارة المماليك للبلاد، فكان هؤلاء الكتبة يخفون دفاترهم ويطلعون العثمانيين على دفاتر ذات شفرة مالية خاصة، فيعطونهم بذلك معلومات غير صحيحة عن الإدارة فى البلاد. مما أوقع الإدارة العثمانية فى مصر فى حالة من الاضطراب الشديد)[١١٥].

فالحقيقة أن السلطان سليماً لم يجد بداً من أن يعهد بإدارة البلاد إلى حكامها القدامى مؤقتاً إلى أن يتعرف العثمانيون على أسرار حكمها المالية والإدارية، فوقع اختياره على خاير بك، لأجل درايته بتلك الأمور، ولأجل أن يكون واسطة بين السلطان سليم وبين الأمراء المماليك الفارين لاستمالتهم للدخول فى الطاعة، لأن بقاءهم مشردين قد ينتج عنه ما لا يحمد عقباه، قال ابن زنبل الرمال : (السلطان أمر خاير بك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقيه على منصبه، وأوصاه وأكد عليه فى ضبط البلاد والإنصاف بين العباد)[١١٦]..... وقد ذكر ابن إياس أن السلطان سليماً أرسل إلى خاير بك من اصطنبول يوصيه بالمماليك الجراكسة خيرا[١١٧]. فبقاء الإدارة المملوكية فى مصر كان أمراً حتمته الظروف فى الخمس سنوات الأولى من الحكم العثمانى، وربما كان قد وقع فيها من المظالم مثل ما كان يقع فى العهد المملوكى، ومن جهة أخرى كان الجنود العثمانيون لا يوقرون خاير بك، ولم تكن له مهابة فى نفوسهم، فكان بعضهم يتعدى على الناس بغير وجه حق، قال ابن إياس : (وكانت

العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى فى حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم، وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلاماً ولا له عليهم حرمة)... وكان قاضى العسكر العثمانى يحاول منع ذلك قدر الإمكان ففى المحرم عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ذهب إلى خاير بك فى القلعة وقال له: (انظر فى أحوال المسلمين وإلا تخرب مصر عن آخرها، فقد فسدت الأحوال جداً ومتى بلغ الخنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا، ويقول لنا كيف كتمتوا عنى أخبار مصر، وغفلتوا عن أحوال المسلمين حتى جرى فيها ما جرى)[١١٨].

ولا أظن أن الجنود العثمانيين كانوا سيوقرون أى أمير مملوكى أو يهابونه، فقد كانوا بالأمس القريب يقاتلونهم ويطاردونهم ويأسرون منهم، فهذه طبائع النفوس وتجريد الإنسان من طبائعه ممتنع، ولم يكن ذلك غائباً عن السلطان سليم إلا أنه كان مضطراً لذلك كما تقدم بيانه، وكان يبذل قصارى جهده لإقرار العدل فكان يتابع الأخبار من مقره فى اصطنبول بصفة دائمة، فقد أرسل إلى خاير بك يأمره بأن يعاقب الجنود بشدة، قال ابن إياس : (ثم أشهروا المناداة فى القاهرة على لسان الخنكار حسبما رسم، بأن لا أحد من الانكشارية[١١٩] ولا من الإصبهانية يشوش على الرعية وكل من شوش منهم على أحد من الناس يمسكه من طوقه ويتوجه به إلى عند خير الدين نائب القلعة أو قرا موسى). ثم إن السلطان سليماً أرسل فى طلب كمشبغا والى القاهرة بعدما وصلته شكاوى من ظلمه وتعديه على أموال الناس فسافر إلى اصطنبول، ولم يذكر ابن إياس ما حل به هناك[١٢٠].

هكذا اضطر السلطان سليم لأن يحتمل سوء الإدارة المملوكية فى مصر مؤقتاً، حتى يتعرف رجاله على أسرارها ومن ثم يتولونها بأنفسهم، فابن إياس لم ير من الحكم العثمانى إلا هذه السنوات الخمس فهو لم يعش ليرى تنظيم أحوال مصر على يد إبراهيم باشا فى عصر السلطان سليمان القانونى، وهو لم يعش ليرى صلاح أحوال القضاء بعد توحيده، وهو لم يعش ليرى أمن الفلاح بعد رفع المظالم عنه، وهو لم يعش ليرى أمن البلاد من الفتن الداخلية والصراعات على السلطة التى كانت سمة لعهد المماليك الجراكسة. لكن إن كنا نستطيع أن نلتمس العذر لابن إياس للأسباب التى تقدم ذكرها، فأى عذر عسانا نلتمسه لأساتذة التاريخ الذين نقلوا عنه هذا الكلام وأذاعوا به دون أن يقيموا وزناً لسائر المصادر المعاصرة للأحداث.؟!.

وبناء على ما تقدم فليس لنا أن نعتمد على تاريخ ابن إياس كمصدر وحيد بحجة أنه مصدر معاصر مع التغافل عن سائر المصادر المعاصرة، ولا ينبغى لأحد أن يفهم من كلامى هذا أننى أدعو على هجر كتاب ابن إياس !! كلا، فليس هذا من فعل العقلاء، فابن إياس مؤرخ له مكانة رفيعة وآثار بديعة، وهو ممن أفنوا أعمارهم فى تدوين التاريخ وكتابه كما ذكرت آنفاً أهم مصادر تاريخ السلطنة المملوكية فى الفترة التى عاشها، ولكنى أدعو إلى تناول بعض الروايات التى وردت فى الجزء الخامس من كتابه بحذر وتدقيق نظر، لاسيما فى الوقائع التى تفرد بذكرها دون سائر المؤرخين المعاصرين له، أو فى آرائه الشخصية. كما ينبغى دراسة المصادر المتأخرة نسبياً والتى شهدت الحكم العثمانى على حقيقته كتواريخ ابن أبى السرور البكرى، ومرعى بن

يوسف الكرمي، وإبراهيم بن عامر العبيدى وكذلك المصادر التركية التى عاش مؤلفوها فى مصر مثل (نوادر التواريخ) لعبد الصمد بن سيدى على بن داود الديار بكرى الذى تولى قضاء دمياط عام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م، ثم أصبح مشيراً لداود باشا أمير أمراء مصر و (تاريخ مصر) لرضوان باشا زاده، و(تاريخ مصر القاهرة) لمحمد بن يوسف الحلاق، عسى الله أن يمن علينا بأستاذ فى اللغة التركية ليترجم لنا هذه المصادر لينير لنا بها البصائر، فإن أكبر معضلة تواجه الباحث فى التاريخ العثمانى هى أن مصادره التاريخية سواء أكانت مخطوطة أو مطبوعة فهى باللغة التركية العثمانية، التى كانت تكتب بالأحرف العربية وكان آخر جيل من المؤرخين الذين كتبوا باللغة العربية عن التاريخ العثمانى من واقع المصادر التركية هم محمد فريد بك والميرالاى إسماعيل سرهنك، وإبراهيم بك حليم فى الربع الأول من القرن العشرين، لأن اللغة التركية كانت شائعة بين الباحثين فى البلاد العربية آنذاك شيوع اللغة الإنجليزية فى العصر الحالى، وكذلك فإن اللغة العربية كانت شائعة بين الباحثين الأتراك آنذاك، ثم بعد ذلك وقع الانفصام التام، فلم يعد العرب يعرفون التركية ولا الأتراك يعرفون العربية إلا قليلاً منهم، ثم إن الأمر ازداد سوءً فى ثلاثينيات القرن العشرين عندما أمر كمال أتاتورك بأن تكتب اللغة التركية بالأحرف اللاتينية، كما أمر بأن تحذف منها الكلمات العربية والفارسية، مما يعد أكبر عملية هدم ثقافى شهدها التاريخ فقد ترتب على ذلك أن الأتراك أنفسهم الآن لا يستطيعون قراءة مصادرهم التاريخية إلا بعد تعلم مخارج الحروف وكيفية نطقها والكلمات العربية والفارسية التى حذفت منها.

وقد أهمل فى مصر وسائر البلاد العربية تدريس التاريخ العثمانى فى المؤسسات التعليمية لعقود طويلة ومازال هذا الإهمال قائماً حتى الآن، فالتاريخ العثمانى لا يدرس إلا فى بضع جامعات فحسب، وهو لا يدرس فى المدارس على الإطلاق، فإن قيل أنه يتم تدريس التاريخ العثمانى من خلال دراسة تاريخ العالم العربى الحديث أو تاريخ مصر فى العصر الحديث، أقول هذا منهج سقيم جداً فى التدريس، فمصر كانت إقليماً من أقاليم الخلافة العثمانية، صحيح أنها كانت إقليماً مميزاً، ودرّة السلطنة كما اصطلحوا على تسميتها إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة كونها إقليماً، لا يمكن الاستغناء بدراسة تاريخه عن دراسة تاريخ الدولة المركزية، فدراسة تاريخ مصر فى العصر العثمانى لا تعدو عن كونها دراسة للأحوال الداخلية لأحد أقاليم الدولة، ولا يمكن أن ينبئنا أبداً عن حال الدولة المركزية وعلاقاتها الدولية فهل يصح مثلاً أن يستغنى بتدريس تاريخ الإسكندرية مثلاً أو أسيوط أو أى محافظة من محافظات مصر عن دراسة تاريخ الدولة المصرية نفسها ؟! ولا يخفى على كل ذى لب أن التاريخ العثمانى ليس مما يمكن تجنبه أو إهمال دراسته وإلا فلن يتسنى لنا فهم تاريخ العصر الحديث فهماً صحيحاً، لأن السلطنة العثمانية كانت قلب العالم وأهم محور للأحداث العالمية فى ذلك العصر، ولكن للأسف الشديد يحصل أغلب أساتذة التاريخ على جل معلوماتهم من خلال المراجع الأوروبية التى لا تخلو من دسائس وأكاذيب، وشبهات وأباطيل، ولعل أبرز مثل على ذلك هو أقوال أكابر أساتذة التاريخ عن أسباب الفتح العثمانى لمصر والشام، وعن دوافع حروب السلطان سليم ضد الصفويين والمماليك،

فكل ما كتبوه فى هذا الشأن لا يعدو عن كونه نقلاً لرؤية المؤرخين الأوروبيين من أمثال (بيتر هولت)، (فيليب برايس) (كارل بروكلمان) (أرنولد توينبى) وجل ما كتبوه إما باطل أو قاصر، لأن المؤرخ الأوروبى حتى وإن كان من المنصفين مثل (أرنولد توينبى) فلن يتمكن من فهم أهداف مثل تلك الحروب ودوافعها فهماً كاملاً، لأنها ترتبط بثقافة غريبة عليه، مهما اجتهد فى دراستها فلن يمسك مقاليدها، ولن يملك ناصيتها، وقد فصلت الكلام عن تلك المسألة وفندت أقوالهم فى كتابى (منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان) (٢/٢٣٢، ٢٦١). وجدير بالذكر أن اللوم والتثريب هنا ليس على المؤرخين الأوروبيين، بل على كل أستاذ فى التاريخ سمح لنفسه بالنقل عن كتبهم وكأنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتغافل عن مصادرنا التاريخية وزهد فى أقوال مؤرخينا الأقدمين كأننا أمة أمية ما كان عندنا علماء ولا مؤرخون !!. كما يقع اللوم والتثريب على كل أستاذ فى اللغة تقاعس عن أداء المهمة الحضارية المنوطة به من ترجمة المصادر التاريخية التركية والفارسية، بل واللاتينية والبيزنطية أيضاً إلى اللغة العربية، كلٌ فى تخصصه.



حواشي البحث

(1) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. نسخة إلكترونية (الموسوعة الشاملة)الإصدار الثاني. جـ١ ص ٢٢٩.

(2) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ٢ ص١٩٤١، ١٩٥٣، إسماعيل باشا البغدادى : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. وكالة المعارف الجليلة اصطنبول ١٩٥١م. جـ٢ ص٢٣١.

(3) لقد نقلت نص كلام ابن إياس على ما فيه من أخطاء نحوية، حرصا على عدم التبديل.

(4) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى زيادة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. جـ٤ ص ٤٧.

(5) رسالة كرستوفر كولومبس إلى فرديناند وإيزابيلا لشن حملة صليبية للاستيلاء على القدس عام ١٥٠١. ترجمة حاتم الطحاوى، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م. ص ٢٧٦، ٢٨١.

(6) بجايه، بكسر الباء وفتح الجيم، وهى مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ١ ص ٣٣٩. وتقع حاليا فى شمال الجمهورية الجزائرية شرق العاصمة الجزائر .

(7) وَهْران، بفتح الواو وسكون الهاء وهى مدينة على البر الأعظم من المغرب، بينها وبين تلمسان سرى ليلة. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٨٥. وتقع حاليا فى شمال غرب الجمهورية الجزائرية.

(8) أصلها : أَطْرَابُلُس. بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء وضم الباء واللام. وهى مدينة فى آخر أرض برقة وأول أرض إفريقية. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ١ ص ٢١٧. وهى حاليا عاصمة الجماهيرية الليبية، وتقع فى شمال غربها على ساحل البحر المتوسط.

(9) قنصل فرنسا فى طرابلس عام ١٨٧٨م، وصاحب كتاب : الحوليات الليبية.

(10) شارل فيرو : الحوليات الليبية. ترجمة محمد عبد الكريم الوافى. جامعة قاريونس، بنى غازى ١٩٩٤م. ص ٧٤، ٧٦، ٧٧. وأصل الخطاب موجود فى دار محفوظات بلدة سيمانكس الإسبانية.

(11) زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين. طبع تحت عناية الحكيم السيد شمس الله القادرى، مدير مجلة التاريخ، حيدر آباد دكن ١٩٣١م. ص ٢٨.

(12) سُقُطْرَى، بضم السين والقاف وسكون الطاء، جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدّة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. دار صادر بيروت. ١٩٩٥م. جـ٣ ص ٢٢٧.

(13) قَلْهات، بفتح القاف وسكون اللام. مدينة بعمان على ساحل البحر إليها ترفأ أكثر سفن الهند. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٩٣.

(14) مَسْقط، بفتح الميم وسكون السين وفتح القاف ((مدينة بنواحى عمان)) انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ٥ ص ١٢٧. وهى عاصمة سلطنة عمان حاليا.

(15) هُرْمُز : بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم ((مدينة في البحر.. على بر فارس وهي فرضة كرمان إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخرسان)) انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ٥ ص ٤٠٢. قلت : هرمز جزيرة في مضيق هرمز تتبع إيران حاليا.

(16) عبد القادر العيدروس : النور السافر في أخبار القرن العاشر. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. ص ٥٨، ج.ج لوريمر : دليل الخليج. مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر. بدون تاريخ. جـ ١ ص ١٢، ١٣.

(17) ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ١٠٩، ٣٥٩.

(18) ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٣٣١. وكَمَرَان، بفتح الكاف والميم والراء وهي جزيرة قبالة زبيد باليمن. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ٢ ص ١٣٩. وتقع في جنوب البحر الأحمر.

(19) هو السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح، وقد تسلطن من عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م وحتى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م.

(20) هي إحدى فرق الشيعة ولا يعترفون بإمامة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ويعتقدون أنهما وأغلب الصحابة ضلوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ويقال أنهم سموا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، لما ظهر بالكوفة في أصحابه الذين بايعوه وسمع من بعضهم الطعن على أبى بكر وعمر فأنكر ذلك على من سمعه منه، فتفرق عنه الذين بايعوه فقال لهم رفضتموني ؟، قالوا : نعم. فيقال : إنهم سموا رافضة لقول زيد بن على لهم رفضتموني انظر : ابن تيمية : منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية جـ ٣ ص ٢٠٠.

(21) إسماعيل بن حيدر بن جنيد، وسمي بالصفوى نسبة إلى جده الأكبر الشيخ صفي الدين الأردبيلي صاحب زاوية صوفية في أردبيل، وبالرغم من أنهم كانوا جميعاً من أهل السنة إلا أن الشاه إسماعيل هو أول من تشيع اعتنق الرفض، واجتمع حوله كثير من الناس فخرج من كيلان بجموعه سنة ٩٠٥هـ/١٥٠٠م واستطاع أن يستولى على كثير من بلاد العجم حتى سقطت في يده تبريز مقر سلطنة ((آق قويونلي)) انظر أخباره عند حسين خوجه بن على : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط في دار الكتب والوثائق القومية رقم ٢١١٦ تاريخ طلعت. ورقه ١٢١.

(22) تبريز، بكسر التاء وسكون الباء وكسر الراء. قال ياقوت : ((هي أشهر مدن أذربيجان)) انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ٢ ص ١٣. وتقع حاليا في شمال غرب الجمهورية الإيرانية، وتنطق بفتح التاء.

(23) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ١٤٣.

(24) النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. ليبزج، ألمانيا ١٨٥٧م. ص ٢٧٥.

(25) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ١٠٥، ١٠٧، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سليمان. مؤسسة الفيصل للتمويل. اصطنبول ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. جـ ١ ص ٢٠٩ - ٢١١.

(26) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج. القسم التاريخي. مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر. جـ١ ص ١٤.

(27) كانت البضائع تنقل إلى الإسكندرية عبر خليج يربط فرع رشيد بالإسكندرية. أو كانت تنقل برا.

(28) آذربيجان، بمد الهمزة وفتح الذال وسكون الراء وفتح الباء وسكون الياء، في أحد الأقوال. قال ياقوت :(حد أذربيجان من برذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا... ومن مشهور مدائنها تبريز). انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ١ ص ١٢٨ فليس المقصود جمهورية آذربيجان الحالية، بل هي الأراضي الواقع حاليا شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا.

(29) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار. المطبعة الأميرية. بولاق، القاهرة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م. جـ ١ ص ٣٥٩، ٣٦٠، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. جـ ١ ص ٢٤١ - ٢٥٤. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ٢٠٠٤م. جـ ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥. أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة. وقف البحوث العثمانية. اصطنبول ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ص ٢٣٠.

(30) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ١١٩.

(31) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٢٠١.

(32) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. جـ ١ ص ٣٢٤.

(33) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٤ ص ٢٨٥.

(34) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٣٦٥، ٣٦٦.

(35) إمارة صغيرة في جنوب الأناضول تابعة للسلطنة المملوكية ومن مراكزها ملطيه وأبلستين. انظر القرماني : أخبار الدول وآثار الأول. تحقيق أحمد حطيط، فهمي سعد. عالم الكتب، بيروت. ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. جـ ٣ ص ٩٨.

(36) ابن زنبل : واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى. تحقيق عبد المنعم عامر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٧م. ص ٢٢.

(37) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٤٥٨، ابن الحمصى : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران. تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش. دار النفائس. بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. ص ٥١٣، العبيدى : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان. مخطوط بمكتبة الإسكندرية ميكروفيلم رقم (٤٦٧٨). ص٤٥.

(38) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٣٥.

(39) النهروالى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٢٧٧)، الكرمى : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين. مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨. ورقة ٦٥، البكرى : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. تحقيق ليلى الصباغ. دار البشائر. بدون تاريخ. ص ٧٣.

(40) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. وضع حواشيه خليل المنصور. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. ص ٣٣٣.

(41) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة. المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ص ٢٥.

(42) وهو لقب أطلقه العثمانيون على الصفويين، لأنهم كانوا يلبسون غطاء رأس أحمر. انظر : البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية. ص ٧٣، حسين خوجه بن على : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ١٢٠. وتنطق ((كِزِلْ بَاش)) بكسر الكاف والزاى وسكون اللام وفتح الباء، مع تفخيم جميع الحروف، وهى كلمة تركية من مقطعين ((قزل)) : أحمر، ((باش)) : رأس. والمعنى ذو الرأس الحمراء.

(43) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة. ص ٢١٦.

(44) وتكتب أيضا ((عَيْن تاب)) بفتح العين وسكون الياء. وهى قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ ٤ ص ١٧٦. كانت آنذاك من أعمال حلب تابعة للمماليك، وهى الآن فى جنوب تركيا.

(45) محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة. ص ١٤٠، أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له. الزهراء للإعلام العربى. القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٥م. ص ١٣٤.

(46) المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين. ص ٣١.

(47) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٤ ص ١٠٩، ٣٥٩.

(48) الرسالة محفوظة برقم ٦٤٥٦ بمتحف طوب قبو باصطنبول، وقد نشرها عبد الجليل التميمى فى بحث بعنوان ((أول رسالة من أهالىَ مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩)). المجلة التاريخية المغربية تونس، العدد السادس، يوليو . تموز ١٩٧٦. نقلته من عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. جـ ٢ ص ١٨٤.

(49) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة. ص ٢١٦، ٢٣٠.

(50) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. جـ ١ ص ٣٢٥.

(51) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. جـ ٦ ص ٣٦٨، ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق عبد الله بن أحمد بن محمد المديحج العلوى الحسنى الحضرمى، وساعده فيه سلطان محيى الدين كامل. تحت إشراف محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بالهند دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. جـ ٧ ص ١٥٢.

(52) رواه أحمد (٤٨٥/٣٦)، أبو بكر بن الخلال فى السنة (١٢٧/٤)، ابن حبان فى صحيحه (١١١/١٥)، الطبرانى فى الكبير (٩٨/٨)، البيهقى فى الشعب (٢٧/١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٠٥/٢).

(53) العيدى : قلايد العقيان فى مفاخر آل عثمان. ورقة ٤٤.

(54) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٦٢.

(55) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٧٩.

(56) هو أحد أمراء المماليك وكان نائب حماه فى عهد السلطان قانصوه الغورى، ثم دخل فى طاعة السلطان سليم بع فتحه مصر.

(57) محمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٦٨.

(58) محمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢١٩.

(59) محمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٣١٧، ٣١٨.

(60) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان. ص ٢٣٣، ٢٧٦.

(61) وقائع تلك الفتن يطول ذكرها فمن شاء التفصيل فليرجع إلى ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٥٤، ٦٢، ٨٠، ٨٩، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٢٨.

(62) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٣٢٤، ٣٧٩، ٤٣١.

(63) سلاح البنادق أدخله السلطان سليم فى مصر ولم يكن المماليك يستخدمونه. انظر ابن زنبل : واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى. ص ٧١.

(64) ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان. ص ٣٨٧.

(65) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٠٨.

(66) ليوناردو الخيوسى : تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية، كرستوفورو ريشيريو : الاستيلاء على القسطنطينية، ضمن كتاب الحصار العثمانى للقسطنطينية ترجمة حاتم الطحاوى. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م ص ١٦١، ٣١٥. وانظر أيضا نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثمانى. ترجمة حاتم الطحاوى. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة.٢٠٠٢م. ص ١٦٣.

(67) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي. بيروت ٢٠٠٥م. ص ٤٦٨.

(68) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. جـ ٢ ص ٤٣٦، انظر أيضا برنارد لويس : الإسلام والغرب. دار الرشيد دمشق - بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ص ٦٨.

(69) برنارد لويس : الإسلام والغرب. ص ٦٨.

(70) كلمة مطموسة بالأصل، أظنها : مركبين.

(71) ثغر فى الساحل الغربى للهند.

(72) المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين. ص ٣١.

(73) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٠٣.

(74) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٧٧.

(75) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٥٧.

(76) الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق عمر عبد السلام التدمرى. دار الكتاب العربى. بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. جـ ٤٨ ص ٣٦.

(77) ابن كثير : البداية والنهاية. تحقيق علي شيري. دار إحياء التراث. بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. جـ ١٣ ص ٢٣٥.

(78) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. جـ ٤٩ ص ٢١، الدين القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء تحقيق محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٧٨م. جـ ٤ ص ٣٦، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ٢ ص ٢٨.

(79) ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر. جـ ٢ ص ١٦٢.

(80) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ٢ ص ١٠٧.

(81) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ٢ ص ٣١.

(82) ابن كثير : البداية والنهاية. جـ ١٣ ص ٢٨٦.

(83) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٩١، ٤٧٧.

(84) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٤٧١.

(85) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١١٧.

(86) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٤ ص ٣٤١ – ٣٤٥.

(87) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٦٥، ١٨٤، ٤٥٣.

(88) سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني. القرن ١٦. مكتبة مدبولي. القاهرة. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. ص ٣٨٧.

(89) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٦٩.

(90) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٦٩.

(91) المقصود الفرسان، وهي تحريف للكلمة الفارسية ((سَپاهي)) وتكتب بحرف الباء المثلثة، وتنطق ((P)) بسكون السين وفتح الباء وكسر الهاء، مع تفخيم جميع الحروف، وتعني فارس.

(92) خاير بك، الذي ولاه السلطان سليم الأول واليا على مصر.

(93) من ألقاب السلطان العثماني.

(94) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٧.

(95) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٦٢.

(96) ابن شاهين : الإشارات في علم العبارات. دار الفكر. بيروت. بدون تاريخ. جـ ١ ص ٨٠٤.

(97) الفيومي المقري : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية بيروت. جـ ١ ص ٤١.

(98) رواه أبو داود (٣٦٩/٤)، الطبراني في الكبير (٢٦١/١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٢١/١).

(99) رواه مسلم (٣٢٨/١)، أبو داود (١٥٥/١)، أحمد (١٢٥/٤٣)، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (١٥٦/٢) البيهقي في السنن الكبرى (١٩٠/٣)، عبد الرزاق في مصنفه (١٤٩/٣)، الطبراني في المعجم الأوسط (٤٨/٧)، أبو عوانة في المستخرج (٣٩٧/١)، ابن خزيمة في الصحيح (٩٨/٣).

(100) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. جـ ٣ ص ٢٨٧.

(101) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. جـ ٣ ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(102) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ٦ ص ٤١٣.

(103) تقى الدين المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٧ ص٣٥٠.

(104) بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٨م. جـ ١٥ ص ٩٤.

(105) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ٧ ص ٤٦٣.

(106) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ١ ص ٤٤٨.

(107) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٤٦٩.

(108) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٤ ص ١٣٦.

(109) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة. ص ٢١٨.

(110) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٤٤، ٢٩٧. ابن زنبل : واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ص ١٨٤.

(111) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٣٤، ٢٩٤، ٢٩٥.

(112) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٣٠٣.

(113) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ١٦٥.

(114) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٠٣، حسين خوجه بن على : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ١٣٩.

(115) سيد محمد السيد : مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦. ص ٣٦.

(116) ابن زنبل : واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى. ص ١٨٤.

(117) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٤٤، ٢٩٧.

(118) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٢٣٣.

(119) هو تحريف للفظة التركية ((يكى جرى)) بحرف الجيم المثلثة، وحرف الكاف المثلثة فينطق عندئذ نوناً فينطق اللفظ كاملاً ((يَنِى تْشِرى))، بفتح الياء وكسر النون، وسكون التاء وكسر الشين والراء، وهى كلمة من مقطعين، وتعنى العسكر الجديد وهى إحدى أشهر وحدات الجيش العثمانى. انظر محمد أسامة زيد : منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان. دار ابن رجب. القاهرة. ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م. جـ ٢/ ص ٤١٤.

(120) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور. جـ ٥ ص ٣٢٩، ٣٣٨.

قائمة المصادر

ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م)

١- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار. تحقيق كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، الرياض ١٤٠٩هـ

ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م).

٢- بدائع الزهور فى وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى زيادة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله (ت ٨٧٤هـ/١٣٧٢م).

٣- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمى (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)

٤- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق شعيب الأرناؤط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

٥- إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق عبد الله بن أحمد بن محمد المديحج العلوى الحسنى الحضرمى وساعده فيه سلطان محيى الدين كامل. تحت إشراف محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بالهند. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن الحمصى : أحمد بن محمد بن عمر (ت ٩٣٤هـ/١٥٢٧م).

٦- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران. تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش. دار النفائس، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ابن خزيمة : أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمى (ت ٣١١هـ/٩٢٣م)

٧- صحيح ابن خزيمة. تحقيق د.محمد مصطفى الأعظمى. المكتب الإسلامى، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

ابن زنبل : أحمد بن زنبل الرمال (ت بعد ٩٦٠هـ/١٥٥٢م).

٨- واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى. تحقيق عبد المنعم عامر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٧م.

ابن شاهين الظاهرى : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م).

٩- الإشارات فى علم العبارات. دار الفكر، بيروت.

ابن طولون : شمس الدين محمد بن على بن أحمد (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م).

١٠- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. وضع حواشيه خليل المنصور. دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير القيسى الدمشقى (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

١١- البداية والنهاية. تحقيق على شيرى. دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨ م)

١٢- سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)

١٣- مسند أبي داود الطيالسي. تحقيق د.محمد عبد المحسن التركي. دار هجر، مصر. ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

أبو عوانة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بن يزيد الإسفراييني (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م)

١٤- مستخرج أبي عوانة. تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي. دار المعرفة، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي (ت ٣٠٧هـ/٩١٩م)

١٥- مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث، دمشق. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م).

١٦- مسند الإمام أحمد. تحقيق شعيب الأرناؤط، عادل مرشد. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

إسماعيل باشا سرهنك (ت بعد ١٣١٤هـ/١٨٩٦م).

١٧- حقائق الأخبار عن دول البحار. المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م.

إسماعيل باشا ابن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادى (ت ١٢٩٩هـ/١٨٨١م)

١٨- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. وكالة المعارف الجليلة، اصطنبول ١٩٥١م.

البخاري : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩ م).

١٩- الجامع الصحيح. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

البكري : محمد بن أبي السرور البكري (ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م).

٢٠- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. تحقيق ليلى الصباغ. دار البشائر.

البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)

٢١- شعب الإيمان. تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية. ببومباي بالهند. ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م

الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢ م).

٢٢- سنن الترمذي. تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م).

٢٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. نسخة إلكترونية ضمن الموسوعة الشاملة الإصدار الثاني.

حسين خوجه بن علي (ت بعد ١١٣٦هـ/١٧٢٣م).

٢٤- بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة. رقم (٢١١٦) تاريخ طلعت. ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦).

الحميدي : عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي (ت٢١٩هـ/٨٣٤م).

٢٥- مسند الحميدي. تحقيق حسين سليم أسد الداراني. دار السقا، دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
٢٦- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق عمر عبد السلام التدمرى. دار الكتاب العربى، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
الطبراني : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م).
٢٧- المعجم الكبير. تحقيق حمدى بن عبد المجيد السلفى. مكتبة ابن تيمية، القاهرة. ونسخة إلكترونية ضمن المكتبة الشاملة الإصدار الثانى.
٢٨- المعجم الأوسط. تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسينى دار الحرمين القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى (ت ٢١١هـ/٨٢٦م)
٢٩- المصنف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
عبد القادر العيدروس : عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م).
٣٠- النور السافر عن أخبار القرن العاشر. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
الفيومى المقرى : أحمد بن محمد بن على (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م).
٣١- المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية، بيروت.
القلقشندى : شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد الفزارى (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).
٣٢- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. تحقيق محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨م.
كرستوفر كولومبس.
٣٣- رسالة إلى فرديناند وإيزابيلا لشن حملة صليبية للاستيلاء على القدس عام ١٥٠١م، ترجمة حاتم الطحاوى ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م.
الكرمى : مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد (ت ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م).
٣٤- نزهة الناظرين وأخبار الماضين فى تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين. مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم (٥٢٩٨).
ليوناردو الخيوسى.
٣٥- تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية، ضمن كتاب الحصار العثمانى للقسطنطينية. ترجمة حاتم الطحاوى. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة (٢٠٠٣م).
مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (ت ٢٦١هـ/٨٧٤ م).
٣٦- صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. دار التراث العربى، بيروت.
المعيرى : زين الدين بن عبد العزيز بن زين الدين بن على (ت بعد ٩٢٣هـ/١٥١٧م).

٣٧- تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين. طبع تحت عناية الحكيم السيد شمس الله القادرى، مدير مجلة التاريخ، حيدر آباد دكن ١٩٣١م.

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر العبيدى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

٣٨- السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

النسائى : أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر النسائى (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م).

٤٠- السنن الكبرى. تحقيق حسن عبد المنعم شلبى. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

النهروالى : قطب الدين محمد بن أحمد المكى (ت ٩٨٨هـ/١٥٨٠م).

٤١- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. ليبزج، ألمانيا ١٨٥٧م.

نيقولو باربارو.

٤٢- يوميات الحصار العثمانى. ترجمة حاتم الطحاوى، ضمن كتاب الفتح الإسلامى للقسطنطينية. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة ٢٠٠٢م.

ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

٤٣- معجم البلدان. دار صادر. بيروت. ١٩٩٥م.

قائمة المراجع

أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك

١- الدولة العثمانية المجهولة. وقف البحوث العثمانية، اصطنبول ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

أحمد فؤاد متولى.

٢- الفتح العثمانى لمصر والشام ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له. الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٥م.

برنارد لويس.

٣- الإسلام والغرب. دار الرشيد، دمشق - بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

بشرى خير بك.

٤- الدخول العثمانى لشمال إفريقية، ضمن الكتاب المرجع فى تاريخ الأمة العربية. المجلد الخامس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

ج.ج. لوريمر.

٥- دليل الخليج. القسم التاريخى. مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر.

سيد محمد السيد.

٦- مصر فى العصر العثمانى فى القرن السادس عشر. مكتبة مدبولى، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

شارل فيرو.

٧- الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى. ترجمة محمد عبد الكريم الوافى. بنى غازى ١٩٩٤م.

د.عبد العزيز محمد الشناوى.

٨- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٤م.

كارل بروكلمان.

٩- تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكى. دار العلم للملايين بيروت ٢٠٠٥م.

محمد أسامة زيد.

١٠- منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان. دار ابن رجب. القاهرة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

محمد حرب.

١١- العثمانيون فى التاريخ والحضارة. المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتى بن آدم الأشقودرى الألبانى (ت١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٢- صحيح الجامع الصغير وزيادته. المكتب الإسلامى، بيروت.

يلماز أوزتونا.

١٣- تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سليمان. مؤسسة الفيصل للتمويل اصطنبول ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

نتائج الاستعمار البريطاني علي جنوب الجزيرة العربية

د. حصة جمعان الهلالي الزهراني(*)

أهمية البحر الأحمر بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية :

كان البحر الأحمر، ولا زال، أهم طرق المواصلات البحرية فى العالم؛ يحمل المواد التجارية من الشرق والغرب، فى العصور السابقة والحالية، وأصبح الآن من أهم الممرات البحرية فى العالم يحمل أهم السلع الاستراتيجية من الشرق والغرب، كما تحول أيضا، من مجرد بحر داخلى، إلى أهم شريان مائى، ينقل البترول من مناطق استخراجه – فى الخليج العربى وايران وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا – إلى أوروبا الصناعية، والولايات المتحدة الأمريكية، والصين وآسيا، وبقية دول العالم. وبفضل اكتشاف البترول فى الخليج والجزيرة العربية، وبعض دول أفريقيا المطلة على البحر الأحمر، وبسبب الاحتياج النفطى المتزايد فى أوروبا وأمريكا وآسيا، أصبح البحر الأحمر، بمميزاته وخصائصه الجيوبوليتيكية، أخطر محاور الصراع والتنافس الدولى، ومن أهم نقاط التحكم الاستراتيجية العالمية، باعتباره طريقا حيويا لنقل البترول، ومعبرا للتجارة العالمية، وطريقا مختصرا لتدفق القوة العسكرية من البحر المتوسط، والبحر الأسود، والمحيط الأطلنطى، والمحيط الهندي، والمحيط الهادي. وبهذه الميزات، ارتبط البحر الأحمر بالقرن الإفريقى جنوباً، كما ارتبط بقناة السويس، شمالاً، ارتباطاً عضويا أمنياً وعسكرياً وسياسياً واقتصادياً، حتى أصبح محط أنظار المخططين السياسيين والعسكريين الإقليميين والدوليين، ومركز اهتمام واضعى القرار السياسى، ومحور صراعات معقدة بين القوى الدولية المتنافسة على النفوذ، وكذلك القوى المحلية والإقليمية المتصارعة حول الهيمنة والنفوذ في المنطقة.

إن البحر الأحمر – من مدخله الشمالى عند السويس إلى مدخله الجنوبى عند باب المندب والقرن الأفريقى – ظل ولازال يلعب دوراً مركزياً ومحورياً فى الصراع فى منطقة جنوب الجزيرة العربية والمناطق الحيوية من العالم، ويعتبر القرن الأفريقي، ممراً وبوابة للبحر الأحمر وخليج عدن، بالإضافة إلى الخليج العربي والمحيط الهندي.

(*) أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض.

١) الصراعات الدولية في منطقة جنوب الجزيرة:

مع مطلع القرن١٧ بدأ الاهتمام البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ومدينة عدن الاستراتيجية، كجزء من المنافسة التجارية الأوروبية، وخاصة مع البرتغاليين والهولنديين في المنطقة .

فى عام 1609 بدأت شركة الهند الشرقية البريطانية بإرسال أولى رحلاتها إلى مدينة عدن والبحر الأحمر، وأسست أول وكالة تجارية لها فى ميناء مخا. وقد استطاع الإنجليز السيطرة على تجارة دول الجنوب العربي الخارجية وجزء كبير من تجارة اليمن، وخاصة تجارة البن.

بعد ذلك بدأت التجارة الأوروبية تتدرج فى الهبوط على مدى فترة ستين عاماً. بحيث انحصرت، فى الأخير، بين الإنجليز فى الجنوب العربى واليمن، والفرنسيين فى اليمن فقط. وتحولت المنافسة البريطانية – الفرنسية من ميدان التجارة إلى ميدان السياسة. مما أدى إلى أن تقوم الحكومة البريطانية بالإجراءات التالية :

١– إرسال قوة حربية بريطانية إلى الساحل الشرقى لمصر؛ لمواجهة التوسع الفرنسى.
٢– التواجد العسكرى فى مدينة عدن والجنوب العربى، كموقع استراتيجى هام فى البحر الأحمر على باب المندب وخليج عدن، لمراقبة السفن الفرنسية والتصدي لها، للحفاظ على نفوذها في المنطقة.

فى عام 1802 عقدت بريطانيا أوّل معاهده تجارية مع السلطان العبدلى، سلطان سلطنة لحج، الذي كان يحكم مدينة عدن، ويسيطر على مينائها الاستراتيجى، وبموجب الاتفاقية أصبح ميناء عدن مفتوحاً أمام السفن والبضائع البريطانية، وبموجبها تمّ تأسيس وكالة تجارية بريطانية في عدن، وضمنت الاتفاقية توفير الحماية للرعايا البريطانيين في السلطنة.

زادت أهمية عدن الاستراتيجية فى السياسة البريطانية أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر – أكثر، عندما أرادت بريطانيا استخدام البحر الأحمر كطريق للمواصلات التجارية، بدلاً من الطريق البحري الطويل حول الرجاء الصالح، وكذلك اكتشاف البخار جعل بريطانيا، حينها، تجعل من مدينة عدن محطة لتموين السفن بالفحم، خاصة وأنّ ميناء عدن يقع فى منتصف الطريق بين مدينة بومباى فى الهند وقناة السويس. وقد كان القبطان هينس يرى بأن مدينة عدن هي المكان المناسب لاستخدامها كمحطة لتزويد السفن، وقاعدة تجارية وعسكرية

هامة، حيث كتب لإقناع حكومته قائلا: " إن المرفأ العظيم لمدينة عدن يمتلك من القدرات والإمكانات ما لا يملكه ميناء آخر فى الجزيرة العربية. إنَّ ازدهاره لاشكَّ وأن يقضى على بقية موانئ البحر الأحمر فهو يحتل مركزاً تجارياً ممتازاً لاشكَّ أنّه أنسب الموانئ الموجودة لمواصلات الإمبراطورية عبر البحر الأحمر. وهو في وضعه الحالي صالح لاستقبال البواخر و تموينها في كل فصول السنة."

ومن العوامل التى سرّعت بالاستيلاء البريطانى على مدينة عدن، ودول الجنوب العربى، وجود جيش محمد على باشا، حينها، فى تهامة وأوساط اليمن، والذي دخلها بهدف القضاء على الوهابيين. وقد كان يطمح لتأسيس إمبراطورية مصرية فى الجزيرة العربية، وكان يشكل خطراً كبيراً على المصالح البريطانية، وخاصةً إذا ما استولى على مدينة عدن الواقعة وسط الطريق البحرية إلى الهند. وقد كتب حاكم بومباى البريطانى إلى حكومته قائلاً ": إنَّ مطامع محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية يجب أن تكبح قبل أن يستفحل أمرها ."

إنَّ تجارة بريطانيا الخارجية فى حاجة إلى خط مواصلات مضمون، وذلك بدوره يعتمد على وجود قواعد ساحلية يحسن اختيارها، ويقوم بحراستها الأسطول الملكى البريطانى الكبير. وفى19 يناير 1839م دخلت القوات البريطانية، بقيادة القبطان هينس مدينة عدن عن طريق جزيرة صيرة، وكان ذلك بداية التواجد العسكرى والسياسى البريطانى المباشر فى مدينة عدن ودول الجنوب العربى، حيث تم بعد ذلك فى 18 يونيو 1839م توقيع معاهدة صداقة مع سلطان سلطنة لحج، وتوالت بعدها معاهدات الصداقة بين بريطانيا وأمراء وسلاطين ومشايخ دويلات الجنوب العربى، والواقعين فى كيانات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض، مقابل الحماية والدعم المالى لهم ولمناطقهم، وأصبحت عدن، تدريجياً، يتعاظم دورها كقاعدة عسكرية وتجارية هامة. زادت المنافسة البريطانية الفرنسية على المنطقة، فاستولى البريطانيون على جزيرة ميّون عام 1856، خوفاً من وقوعها بيد الفرنسيين، واستولى الفرنسيون على جزيرة أوبوك على الساحل الصومالى المقابل، عام 1862 خوفاً من وقوعها بيد البريطانيين. وهذه المنافسة على المنطقة مرتبطة بمشروع حفر قناة السويس فى مصر، فى الأعوام 1868 -1867. تحولت عدن إلى قاعدة متقدمة للمملكة المتحدة أثناء الحملة ضد الأثيوبيون، مما زادها ازدهاراً وشهرةً. فى عام 1869 تم افتتاح قناة السويس فى مصر وقد أدى ذلك إلى زيادة أهمية عدن الاستراتيجية، وقد توسعت الأنشطة الاقتصادية والتجارية، وتزايد مرور السفن فى ميناء عدن، مما زاد من حجم تزويدها بالفحم والمؤن المختلفة، وازدهرت السياحة، وعقد الاتفاقيات التجارية والإنشائية، وتسهيل الاستيراد والتصدير، وفي المقدمة تصدير البن من إمارات وسلطنات

ومشيخات دويلات الجنوب العربى، وخاصةً سلطنات يافع، وكذلك البن الآتى من اليمن.

وكان ثلث موارد خزانة السلطنة العبدلية، فى لحج يأتى من معاملة سلطنة العبدلى فى لحج التجارية مع مدينة عدن. كما كانت سلطنة العبدلى فى لحج، حينها، المتعاقد والمحتكر الأكبر لتموين مدينة عدن، والقاعدة العسكرية البريطانية فيها، بالخضراوات والفواكه ومياه الشرب، والحشائش، وأعلاف المواشى، والملح والأيادي العاملة. كما لعب السلطان العبدلى فى لحج لفترة من الزمن، دور الممثل والوسيط بين إدارة المستعمرة فى عدن، ممثلة بالمعتمد السياسى البريطانى وبقية سلاطين وأمراء ومشايخ الجنوب العربى؛ الذين كانوا بمثابة دويلات صغيرة مستقلة، فكانت تمر عبره إليهم المرتبات والمساعدات البريطانية.

كما كان لدى البريطانيين جهازان مختصين بشؤون الإمارات والسلطنات والمشيخات، في دويلات الجنوب العربي؛ الواقعة خارج مدينة عدن، وهذان الجهازان هما :

١- القوة العسكرية الجديدة للأرياف، المعروفة بخيالة المجراد، وقد أتوا بها من الهند، وكانت مهمتها القيام بجولات استطلاعية متكررة إلى إمارات وسلطنات ومشيخات دويلات الجنوب العربي، لدراسة أحوالها العسكرية والاستراتيجية لوضع السياسات والحلول المناسبة.

٢- إنشاء الدائرة العربية، وتتبع مباشرة للمعتمد السياسى البريطانى فى عدن، وهذه الدائرة كانت المخططة والمنفذة للسياسة البريطانية؛ للتعامل مع القبائل داخل إمارات وسلطنات ومشيخات دويلات الجنوب العربى. وأصبحت أهم إدارة حكومية، وخاصة بعد إنشاء دار الضيافة الملحقة بها عام 1869. وكانت السياسة البريطانية تعتمد حينها أمام تلك المناطق، على دفع المرتبات لحكامها، وتقديم الحماية مقابل الولاء الكامل، دون التدخل أو الوجود العسكري المباشر فيها، أو فى بعضها؛ إلا لتقديم الحماية والدعم. إلا أنَّ هذه السياسة اختلفت بعد انحياز الأتراك إلى جانب ألمانيا، عندما كان الأتراك فى ذلك الوقت يحتلون اليمن، ويشكلون خطراً مباشراً على النفوذ البريطاني في المنطقة، وعلى دويلات الجنوب العربي.

٢) الصراع البريطاني العثماني في الجنوب :

بدأت الإمبراطورية العثمانية، بمساعدة ألمانيا، تمد الخطوط الحديدية إلى كلٍّ من العراق والكويت والجزيرة العربية. ومنذ 1849م أصبح لتركيا وجود فعلى على ساحل تهامة باليمن، وتمكن الأتراك من استكمال احتلال اليمن الشمالى حالياً (فى عام1872 بشكل كامل). وهذا هو الاحتلال التركى الثانى لليمن الذي دام خلال الأعوام 1918-1872، كما كان الاحتلال الأول التركى لليمن خلال الأعوام 1635-1538، وبرغم وجود الأتراك باليمن حتى عام1870، وعلى التماس المباشر مع البريطانيين الموجودين في الجنوب العربي وعدن، إلا أنَّ

البريطانيين لم يكن يقلقهم الوجود التركى باليمن حينها، كون الوضع فى اليمن والجنوب العربى لا يشكل خطراً على النفوذ البريطانى فى المنطقة، بالرغم من تواجد الأتراك فى اليمن؛ فالجنوب العربى كان تحت الحكم البريطانى، وكان مقسماً إلى 22 دولة من الإمارات والسلطنات والمشيخات الصغيرة المستقلة بعضها عن بعض. وكان اليمن مقسماً حينها هو الآخر بين الأئمة فى صنعاء، وأمراء آل عريش فى المخا ومدن ساحل تهامة، وكانت مناطق أواسط اليمن والحجرية مستقلة، وكان اليمن مجزأً إلى مناطق مستقلة استطاع الأتراك السيطرة الكاملة عليها وإخضاعها للحكم العثمانى للأعوام 1872-1918، إلا أنّ الأوضاع الدولية والمحلية، فى السبعينات من القرن التاسع عشر شهدت تغيرات مهمة؛ دفعت البريطانيين إلى تغيير سياستهم، والاهتمام التام بالمنطقة، وتعزيز السيطرة التامة على الجنوب العربى، وعاصمته مدينة عدن. بالإضافة إلى هذا، فقد تمّ فتح قناة السويس عام 1869، وبذلك زادت أهمية عدن الإستراتيجية.

كانت السياسة البريطانية، فى البداية حينها، مرنة مع العثمانيين فى اليمن، وتتبع نظام الصداقة مع أمراء وسلاطين ومشايخ دويلات الجنوب العربى، وتنص تلك السياسة أن تدفع بريطانيا مرتبات شهرية وسنوية؛ لسلاطين وأمراء ومشائخ دويلات الجنوب العربى، وتوفير المتطلبات الضرورية لدولهم، مقابل الإشراف البريطانى الغير المباشر عليها، وإبقاء الطرق إلى مستعمرة عدن آمنة ومفتوحة وتأمين وصول المواد الغذائية والخضار والفواكه والمنتجات المحلية إلى مدينة عدن، وكذلك عدم وقوع أي من تلك السلطنات والإمارات والمشيخات بيد أطراف خارجية.

أما وبعد أن أصبح الأتراك، المحتلين لليمن، على مقربة من حدود الإمارات والسلطنات والمشيخات المكونة للجنوب العربى، وبدأ الأتراك ضم بعض من إمارات وسلطنات ومشيخات الجنوب العربى إلى المناطق التى يحكمها الأتراك فى اليمن، فى كلٌ من قعطبة والحجرية وماوية، فقد اتبع البريطانيون سياسة جديدة ونظاما جديدا - هو نظام الحماية للتعامل مع الوضع الناشئ الذي حاول الأتراك فرضه. ويعنى نظام الحماية هذا - أنّ سلاطين وأمراء ومشايخ دويلات الجنوب العربى عليهم أن يوقعوا على اتفاقيات مع البريطانيين نيابة عن أنفسهم وعن ورثتهم. وقد غطت اتفاقيات الحماية هذه فى الثمانينات من القرن التاسع عشر كل سلطنات وإمارات ومشيخات ودويلات الجنوب العربى، من باب المندب غرباً إلى المهرة. ومنذ عام 1869 ظلت حضرموت سلطنتين مستقلتين بعضهما عن بعض، باسم سلطنة القعيطي، وسلطنة

الكثيري، إلى جانب سلطنة المهرة، وسلطنة الواحدي، في شرق الجنوب العربي، ويخضعان للحماية البريطانية حتى استقلال الجنوب العربي، في الـ 30 من نوفمبر 1967م.

أما في الجزء الغربي منه، فقد كانت للأتراك محاولات عديدة لفرض سيطرتهم على بعض إمارات، وسلطنات، ومشيخات، دويلات الجنوب العربى فى تلك الفترة. وبدأت القوات التركية بالزحف لاحتلال مناطق السلطنات والإمارات الثلاث التابعة للجنوب العربى والنفوذ البريطانى، لذا وجد الإنجليز أنفسهم أمام العثمانيين، وتعرض المصالح والنفوذ البريطانى وحلفائه للخطر، وقد احتلت بعض الإمارات والسلطنات والمشيخات فى الجنوب العربى، ووصلت إلى مشارف عاصمة سلطنة لحج. عندها شعر الإنجليز بجدية خطر الجار الجديد، وقامت الحكومة البريطانية بالاتصال بالحكومة العثمانية المركزية، فى الباب العالى، فى القسطنطينية، وتقديم إنذار شديد اللهجة، وبإمكانية وقوع الحرب بين الدولتين إذا لم توقف تركيا تقدمها، وتنسحب من جميع المناطق التى احتلتها داخل الجنوب العربى. لكن فى 24 أكتوبر 1873م قام المقيم السياسى البريطانى فى مستعمرة عدن بقيادة الهجوم البريطانى، وقاموا فوراً بالانسحاب من كل مناطق الجنوب العربى التى احتلوها فى إمارات الضالع وسلطنة ألحوا شب ومشيخة العلوى، ثم بعد ذلك تم فى أواخر عام 1873، الاتفاق بين بريطانيا وتركيا على ترسيم الحدود بين الجنوب العربى واليمن، حيث تم الاتفاق بين البريطانيين والأتراك على أن تكون حدود المناطق التى يسيطر عليها الأتراك والبريطانيين فى كلّ من اليمن والجنوب العربى فى عام1873 هى الحدود الدولية بين الطرفين والجنوب العربى واليمن، واعترف البريطانيون بنفوذ الأتراك على اليمن، واعترف الأتراك بنفوذ البريطانيين على إمارات وسلطنات ومشيخات دويلات الجنوب العربى، وأنّ على الأتراك المسيطرين على اليمن ومنذ عام 1873 عدم التدخل فى شؤون إمارات وسلطنات ومشيخات الجنوب العربي باعتبارها دويلات مستقلة بذاتها، وتقع تحت النفوذ البريطاني.

وفى عام 1905م اقترحت تركيا على بريطانيا: تشكيل لجنة مشتركة لتخطيط وترسيم الحدود الدولية بين البلدين: الجنوب العربى الواقع تحت النفوذ البريطانى، واليمن الواقع تحت النفوذ التركى، وقد تم تشكيل اللجنة بالفعل لترسيم الحدود، كما وجهت بريطانيا إنذاراً إلى الأتراك بسحب جنودهم من بعض قرى إمارات الضالع التى احتلوها، وتم انسحابهم منها فى نفس العام. وفى 20 أبريل 1905م وقع البريطانيون والأتراك، رسمياً، على اتفاقية تخطيط الحدود الدولية بين الجنوب العربى واليمن، وإعادة التوقيع عليها عند استكمال ترسيمها في 1914م، وقد أصبحت هي الحدود الدولية الرسمية بين البلدين والدولتين.

خلال الحرب العالمية الأولى 1918 – 1914م : احتدم الصراع بين الأتراك والإنجليز، لانحياز كل منهما إلى الطرف النقيض والمعادي فى الحرب، وكانا فى خط التماس المباشر لتواجد الإنجليز فى الجنوب العربى، وتواجد الأتراك فى اليمن. فى منتصف عام 1916 استخدمت لأول مرة الطائرات البريطانية فى قصف مواقع الأتراك فى بقية المناطق داخل سلطنة لحج المحتلة من قبل الأتراك، وفى نهاية عام 1916 إلى عام 1918م شهدت الجبهة العسكرية بين الأتراك والإنجليز نوعاً من الهدوء.

انسحب الأتراك من اليمن عام 1918م، وكانت هزيمتهم فى الحرب نهاية للإمبراطورية العثمانية التركية الذى دام حكمها خمسمئة عام، وأخذ اليمن الشمالى حاليا استقلاله عن تركيا عام 1918م، وأعلن الإمام يحى بن حميد الدين نفسه إماماً على اليمن، اليمن الشمالى حاليا وأسس المملكة المتوكلية، اليمنية وعين نفسه ملكاً لها. ودخل اليمن، بعد عام 1918م، مرحلة جديدة بعد التحرر من الأتراك، هي مرحلة الأئمة الزيديه، الممتدة خلال الفترة ما بين ١٩٦٢– ١٩١٨م.

انتهت الحرب العالمية الأولى، وهزم الأتراك فى الحرب، وانسحبوا من اليمن، وانتهت إمبراطوريتهم، إلا أنّ الإنجليز خرجوا من الحرب منتصرين، وأعادوا سيطرتهم على كل إمارات وسلطنات و مشيخات دويلات الجنوب العربى، لا بل وخرجوا من الحرب وهم يسيطرون على أهم موانئ ومدن اليمن الساحلية: مدينة اللحية، والحديدة الميناء الرئيسى لليمن، والذى سوف يكون السبب فى توتر العلاقات بين دولة اليمن الجديدة ممثلة بإمامها، والإنجليز الموجودين في الحديدة باليمن، والحاكمين للجنوب العربي.

أهمية الجنوب العربي في الصراع البريطاني اليمني :

بانتهاء الحرب العالمية الأولى انسحب الأتراك من اليمن، وحصل على استقلاله الوطني، في عام 1918 برز الإمام يحي كقوة جديدة في اليمن، في مواجهة الإنجليز ودويلات الجنوب العربي، بحيث سرعان ما توترت العلاقة بين الطرفين، نتيجة لسيطرة الإنجليز على مدينة اللحية ومدينة الحديدة الميناء الرئيسي لليمن، التي سيطرت عليهما بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى من وجهة نظر الإمام يحي، ومطالبته بتسليمها إليه، إلا أنّه نتيجة التحالف بين الإنجليز والإدريسي، أثناء الحرب ضد الأتراك وقرب مدينة اللحية من مناطق الإدريسي فقد سلمت بريطانيا مدينة اللحية إلى الإدريسي، وأبقت مدينة وميناء الحديدة تحت سيطرتها. طيلة

سنوات الحرب كانت مدينة عدن توصف بأنها "قاعدة إمبراطورية"، مع التأكيد على دورها المتزايد في المجال العسكري والتجاري، واستقبال السفن والمواصلات، والتزود بالوقود .

في عام 1929 عقد أمراء وسلاطين، ومشايخ دويلات الجنوب العربي، مؤتمراً عاماً لهم، برئاسة سلطان سلطنة لحج، بهدف تقوية الروابط فيما بينهم، وإيجاد صيغ تحالفية تمكنهم من مواجهة المخاطر الخارجية بشكل موحد، وفكروا حينئذ في إنشاء اتحاد فيما بينهم، ولكن لم يتوفقوا في تحقيق ذلك، وقد تمكنوا من تحقيق هدفهم هذا في 11 فبراير 1959م، بإنشاء اتحاد الجنوب العربي.

تم في 11 فبراير1934م التوقيع، في مدينة صنعاء عاصمة اليمن على معاهدة اعتراف الإنجليز باستقلال اليمن، واعتراف الإمام يحي إمام اليمن باتفاقية ترسيم الحدود الدولية، الموقعة في 1905م و1914م، من قبل تركيا وبريطانيا، لترسيم الحدود الدولية بين اليمن والجنوب العربي. وتحول الجنوب العربي إلى وزارة المستعمرات البريطانية بدلاً من الهند، عام 1937وقسمت إلى قسمين من المحميات : المحميات الشرقية، والمحميات الغربية، وتمّ استبدال نظام الحماية السابق بنظام الاستشارة، وسياسة نظام الاستشارة تقضي بأن يكون لكل سلطان أو أمير أو شيخ، مستشار بريطاني ينصحه في كل المسائل التي تخص إدارة سلطنته أو مشيخته، وعلى الأمير أو السلطان أو الشيخ أن يقبل نصيحة ذلك المستشار، ويقوم بتنفيذها.

وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية، 1945-1939م، كانت الحالة والموقف العسكري بين البلدين: الجنوب العربي واليمن هادئة. ولكنها في 1944-1943م كادت أن تتأزم، نتيجة تمركز قوات يمنية على ساحل البحر المقابل لجزيرة ميون، بالقرب من حدود البلدين، إلا أن اليمن قام بسحب قواته من هناك، بعد أن وجهت بريطانيا إنذار شديد اللهجة. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية زال الخطر الإيطالي الساحل الإفريقي المقابل اليمن، لانتصار الحلف البريطاني وهزيمة الحلف الإيطالي بالحرب.

أصبح النظام الأمامي باليمن، خلال الأعوام 1962-1959 منهاراً تماماً ولم يعد يسيطر على البلاد، حيث سادت التمردات القبلية والشعبية وأخذت المقاومة في المدن اليمنية لنظام الحكم تتوسع، والمنشورات الداعية لإسقاط نظام الإمامة تتوزع على طول وعرض اليمن، ومظاهرات الطلبة تعم المدن وكانت القبائل تنضم إلى الانتفاضة ضد نظام الإمام. وفي 22 مارس 1961م هبت ثورة قام بها الجيش اليمني وبها تغير النظام في يوم 26 سبتمبر 1962م إلى نظام جمهوري وإلى صراع جديد هذه المرة داخل اليمن؛ بين الجمهوريين في الحكم والملكيين خارج الحكم.

في بداية الستينات من القرن العشرين أصبح لمدينة عدن أهمية خاصة في الإستراتيجية الدولية، حيث أشار الكتاب الأبيض الصادر عن وزارة الدفاع البريطانية، وقتذاك، إلى نيّة بريطانيا في أن تبقى قواتها العسكرية في عدن، وذلك يعود إلى ثلاثة عوامل:

الأول : يتعلق بالاستراتيجية الدولية : فقد أصبح لمدينة عدن أهمية استراتيجية، ليس بالنسبة لبريطانيا فحسب، وإنما للمعسكر الغربي بأسره.

الثاني : يتعلق باستراتيجية البترول: فميناء فعدن أصبح هو الذي يحمي آبار البترول في الخليج.

الثالث : بالإستراتيجية المحلية : لأنَّ القاعدة ستحمي حلفاء بريطانيا المحليين في المنطقة.

آثار الاستعمار البريطاني الدينية:

في الوقت الحالي تنص المادة الثانية من دستور اليمن على أن الإسلام هو دين الدولة، و تكفل المواد (41) و (42) و (48) تساوي المواطنين وحرية الفكر والحرية الشخصية ويحدد القانون الحالات التي يجب فيها تقييد حرية مواطن، ولم تشر إلى دين المواطن بالتحديد. والشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع، وعليه فإن قانون الأحوال الشخصية وحقوق الأقليات يخضع لتفسيرات الشريعة، ويشترط الدستور على عضو مجلس النواب أن 'يكون مؤديا للفرائض الدينية'، بينما شرط الإسلام واضح في شروط مرشح رئاسة الجمهورية. وتقدر نسبة المسلمين في اليمن بحوالي 99% ، أي 1.5% من مجموع مسلمي العالم، وينقسم المسلمون في اليمن إلى مجموعتين رئيسيتين هما: السنة الشافعية، والشيعة الزيدية. وتبلغ نسبة الشافعية حوالي ٦٠-٧٠% ، مقابل زيدية ٣٠-٤٠% وتوجد أقلية إسماعيلية صغيرة في شمال البلاد تعود بداياتها إلى أيام الدولة الصليحية والملكة أروى بنت أحمد.

الأقليـات : هناك أعداد قليلة باقية من اليهود في اليمن، إذ هاجر أغلبهم إلى إسرائيل والولايات المتحدة، وهم الأقلية غير المسلمة الوحيدة من سكان البلد الأصليين. ولليهود في اليمن شهرة بأنهم من أمهر الصاغة وصناع الخناجر التي تعد أبرز معالم الهوية اليمنية. وكانت الأعراف والتقاليد تمنع اليهودي، والمسلم غير القبلي من ارتداء الجنابي.

ووجدت أقلية هندوسية صغيرة جدا في عدن. ويوجد أربعة كنائس في عدن تمثل الوجود المسيحي والذين أغلبهم من الأجانب. وتعتبر الجزيرة العربية القلب النابض لمليار ومائتي مسلم، يمتدون عبر الكرة الأرضية؛ ولذا فهي تمتاز بخصائص وسمات تميزها عن بلاد الدنيا مجتمعة؛ ففيها بيت الله الحرام، وإليه يحج الناس كل عام، وإليه يتجهون في صلواتهم.

هذا الارتباط بين الإسلام ديناً والجزيرة العربية مكاناً، وبين ساكنيه من جهة أخرى، أدركه المنصرون قديماً في الحروب الصليبية التي استمرت زهاء ثلاثة قرون. وحديثاً قالوا » : لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويقام قداس الأحد في المدينة.! ، من أجل هذا كله ركز منصروا اليوم على الجزيرة، وعلى من يسكنها، ومن يحيط بها، وقد وجدوا بغيتهم في جنوبها وبالتحديد في بلاد اليمن البوابة الجنوبية المطلة على المحيط الهندي، حيث التقت هنا المصالح السياسية - الاقتصادية - الدينية، واجتمع النصارى وتداعوا لغزو جديد هدفه تحطيم بوابة العمق الاجتماعي للجزيرة بأسرها.

أهم الأسباب التي هيأت لعملية التنصير في اليمن هي:

١- اندثار بعض شعائر الإسلام وعدم الدعوة إليها، لإحساس الجميع بأنهم مسلمون وكفى.

٢- الجهل والأمية؛ حيث بلغت نسبة الملمين بالقراءة والكتابة من البالغين38% ، وهي من أدنى المعدلات في العالم. وأشارت آخر الدراسات إلى أن نسبة الأمية قدرت بحوالي50% من السكان.

٣- التردي في الجانب الاقتصادي ، وضغوط البنك الدولي حيث أشارت بياناته إلى أن أكثر من 19%من سكان اليمن يعيشون تحت خط الفقر.

٤- النظام الديمقراطي المفتوح، والدعم المعنوي التي تتلقاه المنظمات التنصيرية من بعض الجهات والشخصيات النافذة في البلد.

٥- عدم وجود أهداف ثابتة واستراتيجيات واضحة للدعوة بين كثير من فصائل العمل الإسلامي

٦- الأوضاع الصحية التى تعد من أشد الأوضاع تدنياً فى العالم؛ فالفقر والحمل المتقارب، وانخفاض الوعى الصحى، وارتفاع معدلات سوء التغذية وتزايدها المطرد حيث وصلت إلى 15، 9% لعام1996 م، وتشير البيانات الرسمية لوزارة الصحة إلى أن مجموع المواطنين المصابين بوباء الفيروس الكبدي يزيد على 3 ، 5 مليون مواطن.

٧- ضعف الجانب العقدي، وغياب عقيدة الولاء والبراء، لدى فئات كثيرة في المجتمع.

٨- حسن معاملة النصارى للبسطاء والمتعاملين معهم في الشركات والمؤسسات.

٩- إعجاب بعض أبناء المسلمين بمدرسيهم النصارى، والشعور بالفخر والاعتزاز لدى زيارة بعض النصارى لبيوت المسلمين.

١٠- تعدد واجهات العمل النصراني بين : معاهد دراسية - هيئات إغاثية - مراكز صحية - مراكز دراسات - مراكز ثقافية.

١١- ضعف دور المؤسسات الإسلامية، وانشغال كثير منها بقضايا داخلية أو جزئية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : متى بدأ التنصير في اليمن؟ ومن هي الجهات التي تقوم بذلك؟ وما هي أشكال هذا التنصير وصوره؟ وهل استطاع أن يحقق شيئاً من أهدافه؟

تشير التقارير إلى أن أول عمل تنصيري منظم بدأ بعد خمسينيات هذا القرن، وتركز أساساً في مدينة عدن وبلاد العرب الجنوبية، واستمر العمل حتى عام1972 م، كما بدأ العمل في شمال اليمن من عام1969 م إلى أوائل عام1981 م.

هذا النشاط يتبع منظمة نصرانية تدعى : فريق البحر الأحمر الدولي (الذي أسسه المنصر) ليونل قرني في عام1951 م ، والذي قضى سبعة عشر عاماً قبل هذا التاريخ في أعمال التنصير في الشرق الأوسط. كما يطلق على هذا الفريق مسمى آخر وهو : الخيّامون (وهم النصارى القادمون للعمل في البلاد الإسلامية في مجالات مختلفة كالطب والهندسة والتعليم والتمريض. .إلخ). وشعار هذه المنظمة : (الإسلام يجب أن يسمعنا، وهدفها نشر الإنجيل بين المسلمين). والمنظمة تعرّف بنفسها أنها فريق البحر الأحمر الدولي RSTI منظمة عون دولية غير حكومية، ذات خلفية نصرانية، مركزها الرئيس في إنجلترا. وتحصل على الدعم من الكنائس والأفراد ومنظمات العون النصراني؛ ويدعم الفريق حالياً مشاريع تنموية في كل من جمهورية مالي، وجيبوتي، وباكستان، واليمن، وتنزانيا؛ وكل المشاريع خاضعة لموافقة الحكومة المضيفة، وتمتد الأنشطة، على نطاق واسع، في مجال التنمية الريفية والتعليم والصحة والدعاية الصحية الأولية والتعليم الأولي.

واستناداً لما سبق: فإن التعريف الخاص بالمنظمة يلقم حجراً لكل من يحاول التقليل من خطر المنظمات النصرانية أو إنكار أن لها أعمالاً تنصيرية.

أشكال التنصير وأماكنه وصوره داخل بنية المجتمع اليمني:

أولاً : الكنائس ودور العبادة:

١- الكنيسة الكاثوليكية بالتواهي : تعتبر الكنيسة الكاثوليكية الواقعة في مدينة التواهي وعلى مقربة من القاعدة العسكرية البحرية اليمنية، أهم موقع كنسي نصراني تم افتتاحه في بداية

الخمسينيات، إبان الوجود البريطاني في محمية عدن، ويتبع حالياً المجمع الكنسي الكاثوليكي في مدينة لارنكا بقبرص، ولكنه يدار مؤقتاً من الإدارة الأنجليكانية بمدينه دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، وربما تكون هذه الكنيسة هي أهم كنيسة على الإطلاق تم بناؤها في جنوب الجزيرة العربية، ولقد سعدت الإدارة الأمريكية كثيراً بإعادة افتتاحها في عام1995 م، وتم ذلك بمساعدة السفارة الأمريكية بصنعاء ودعمها؛ وذلك من خلال جهود سفيرها السابق السيد ديفيد نيوتن؛ حيث افتتح المركز الطبي الكنسي الملحق بها، والذي يقدم خدمات لكثير من طالبي الخدمات الطبية من أبناء المنطقة المحيطة بالكنيسة، كما أن التقارير ذكرت أن الصلوات تقام بها بشكل منتظم عصر كل يوم أحد، وقد اهتم الرهبان والراهبات، الذين يعملون في العيادة الصحية، كثيراً بالمقبرة النصرانية في منطقة المعلا التي تضم رفات الكثير من النصارى ممن توفوا في مدينة عدن.

٢- الكنيسة المعمدانية بكريتر – مدينة عدن:

كانت توجد كنيسة معمدانية في مدينة كريتر بعدن، لا تبعد كثيراً عن سوق الخضار، ولكن تم إلغاؤها وتحول المبنى إلى مبنى حكومي. وكانت الكنيسة تدار من قِبَل الكنيسة الأنجليكانية المعمدانية التي تتخذ من لندن مقراً لها؛ وسبب ذلك إهمال أعضاء تلك البعثة وتقصيرهم.

٣- دور العبادة النصرانية بصنعاء:

قامت بعض العناصر الإنجيلية النشطة، وبدعم غير مباشر من السفارة الأمريكية بصنعاء باستئجار مبنى يقع في الحي السياسي؛ وذلك لاستخدامه داراً للعبادة يوم الأحد، ولأداء بعض القداسات النصرانية كلما دعت الحاجة لذلك، كما يقام قدّاس يوم الأحد في المعهد الكندي – في مدينة حدة في إحدى الشقق المستأجرة لهذا الغرض في المجمع السكني.

٤- دُور العبادة النصرانية بإب:

تقوم البعثة النصرانية المعمدانية الأمريكية، من خلال مستشفى جبلة المعمداني بمدينة جبلة بمحافظة إب، بدور كبير سواء فيما يتعلق بالدعوة للتنصُّر، أو القيام بأداء صلوات يوم الأحد بالكنيسة المعمدانية الملحقة بالمستشفى. ويقوم القساوسة والراهبات بدور إنساني – على حد زعمهم – وتنصيري من خلال زيارة النساء والفقراء ودور الأيتام والسجون. وقد استطاعت البعثة، وخلال سنوات عملها الطويل ، إدخال بعض الأشخاص إلى الديانة النصرانية؛ إذ بلغ عددهم ما يقرب من 120 يمني.

ثانياً : النشاط الصحي:

– المركز السويدى بمدينة تعز فى شارع الدائري : له نشاط تنصيري، ويحمل ترخيصاً من وزارة التربية والتعليم باسم تعليم اللغة الإنجليزية، وله نشاط خيري يتستر وراءه لأعماله النصرانية، كما يقيم دورات لتعليم النساء التدبير المنزلي والخياطة.

– جمعية من طفل إلى طفل : مركزها الرئيس مدينة تعز، ولها نشاط فى صفوف الأطفال المصابين بالعمى والخرس؛ حيث استطاعوا أن يؤثروا عليهم عن طريق تغيير الإشارات لديهم تهيئةً لدخولهم في النصرانية، من دون أن يشعروا بذلك.

– منظمة أدرا فى منطقه حيس تهامة : « وهى نشيطة جداً، وقد استطاعت أن ترسل كثيراً من الشباب إلى دول نصرانية مثل: سنغافورة والفلبين وبانكوك: باسم الحصول على شهادات فى اللغة الإنجليزية؛ كما يقومون بزيارات منظمة للمناطق النائية، مثل مديريتي العدين والقفر؛ حيث يخيم عليها الجوع والفقر والمرض والجهل، ولك أن تتوقع النتيجة!

– المركز الصحى بالحديدة فى شارع شمسان، ودار العجزة فى شارع زايد؛ حيث يقوم المبشرون بدور رهيب فى الاختلاط بالبسطاء، وتقديم العون والمساعدة لهم. كما امتد نشاطهم إلى جامعة الحديدة، وخاصة في قسم اللغة الإنجليزية؛ حيث قاموا بوضع المنهج الذي يشوه الإسلام ويخدم التنصير.

– جمعية رسالات المحبة » بعثة الإحسان : « يمتد نشاطها الواضح فى صنعاء وتعز والحديدة وخصوصاً بين المصابين بالجذام والأمراض العقلية، وكان لها ارتباط مباشر مع المنصّرة الهندية الأم تريزا، وتقوم الجمعية حالياً بالعناية بأربعمائة مريض ومسن، وخمسة وثلاثين معوقاً، ولهم مقر ثابت، عبارة عن مبنى ملحق بالمستشفى الجمهوري بصنعاء، يضم حوالي عشر راهبات.

– داران لرعاية العجزة بصنعاء وتعز، وتشرف عليهما راهبات بعثة الإحسان التابعة للأم تريزا.

– جمعية أطباء بلا حدود وتتستر بالإغاثة، ولها نشاط تنصيري.

– معسكر اللاجئين الصوماليين بالجحين بمدينة أبين، وتقوم المنظمات النصرانية بالدور ذاته بين هؤلاء الفقراء المسلمين؛ حيث نسيهم إخوانهم المسلمون.

– منظمة ماري ستويس وهي نشطة في مجال رعاية الأمومة والطفولة، وتدعم مشاريع تنظيم النسل.

ثالثاً : المنظمات المانحة:

منظمة أوكسفام: وتدعم العديد من المشروعات المتعلقة بالتنمية والتعليم والصحة والقات.

منظمة اليونسكو: وتدعم مشاريع البنية التحتية، وهدفها إزالة الخلاف بين المسلمين والنصارى.

منظمة رادا بارنر: وتدعم المشاريع التي تتعلق بالطفولة.

رابعاً : النشاط السياحي:

نشرت صحيفة الثورة -كمثال- في عددها رقم12542 ، بتاريخ 15/3/1999م عن وصول 800 سائح إلى عدن، فيما تصل 27 سفينة سياحية تستقبلها الموانئ اليمنية حتى نهاية شهر 3/1999 م. وهؤلاء يقومون بالعديد من الأنشطة في تجوالهم داخل اليمن ومنها:

١- توزيع الإنجيل في المدن المختلفة ومنها الحديدة، حيث وزع الإنجيل في السوق المركزي، كما أقيمت الصلوات وحضرها السياح.

٢- توزيع مجلة بالعربية تسمى FISHERS ، وهي تدعو إلى اعتناق النصرانية.

٣- توزيع القصص المصورة النصرانية.

٤- توزيع بعض الهدايا والتقاويم التي تحمل شعار النصرانية؛ في صور مختلفة لكنائس عالمية.

٥- النزول إلى أماكن التجمعات في الأسواق، ومحاولة كسب قلوب الناس بالتصوير معهم.

٦- ومن أبرز نشاطهم ما حدث في منطقة الحسينية؛ حيث وزع بعض السياح شريط فيديو وكاسيت يدعو للنصرانية، وفي ختام الشريط يقوم المحاضر بتلقين المستمع الصلاة والترانيم النصرانية، للحصول على بركة المسيح.

خامساً : النشاط التعليمي الثقافي:

وأتذكر هنا رئيس الجامعة الأمريكية الأسبق هوارد ويلس حين قال : " التعليم في مدارسنا وجامعاتنا هو الطريق الصحيح لزلزلة عقائد المسلم وانتزاعه من قبضة الآلام ".

المعهد الكندي بصنعاء:

يتستر هذا المعهد خلف تعليم اللغة الإنجليزية، ويتميز بقلة التكلفة مقارنة بالمعاهد الأخرى وقوة منهجيته، وإقامة الرحلات والاحتفالات بنهاية كل دوره، ولا تزيد إعارة المدرس عن عام واحد في اليمن، ويستمر المدرسون المغادرون بالتواصل مع طلابهم. ومن مناهجهم :

التعامل الخلاق مع طلابهم، وإثارة الشبهات بشكل فردي لبعض الطلاب، ولا يدخلون فى مواضيع خلافيه مع الطلاب مجتمعين. كما تزيد نسبة الطالبات عن الطلاب في المستويات الدراسية المتقدمة.

– أما المعهد البريطاني – المعهد الأمريكي – المعهد الفرنسي. فكلها تقوم بالمهمة نفسها، ومقرها صنعاء. ناهيك عن مراكز الدراسات التابعة لهم التي تيسر للمنصرين مهمتهم، وتتيح لهم التجول في اليمن بغرض البحث العلمي.

وتشترك كافة المعاهد في بعض الأعمال، منها:

١– توزيع بعض نسخ من الإنجيل هدايا.

٢– منح دورات مجانية للمتفوقين، ورحلات تعليمية إلى أوروبا؛ حيث قدّمت الحكومة الهولندية ثلاثين منحة، فى عام 1997م لطلبة من الجامعات اليمنية، وبعدها قدمت الحكومة البريطانية ثلاثين منحة للكليات المختلفة.

٣– مساعدة الطلاب الذين يقعون في مشاكل مالية أو نفسية.

٤– القيام بالرحلات المختلطة لطلابهم.

٥– إثارة الشبهات عن الإسلام.

أما دور المؤسسات تجاه عمليات التنصير؛ فهو نشاط خجول يحتاج إلى إذكاء كالجمر تحت الرماد، ومنه الأنشطة التى قام بها مركز الدراسات الشرعية بمدينة إب؛ حيث أصدر فى العدد الخامس من نشرته معلومات عن وسائل التنصير، وأبرز أنشطتهم ووسائلهم. كما قام بعض الدعاة، فى مدينة عدن، بإقامة العديد من المحاضرات وتوزيع المطويات التي تحذر الناس من خطر التنصير.

أما موقف الحكومة اليمنية: فيوضحه لنا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن خلفية بعض الشؤون المهمة فى اليمن، للعام 1998م ، الصادر عن مكتب شؤون الجزيرة العربية والخليج الفارسي، بدائرة الشرق الأوسط فى 30 مايو 1998 م. " لكن نتيجة الغموض الذي يكتنف الدستور فى اليمن، فيما يتعلق بالسماح بفتح دور للعبادة النصرانية، بالرغم من وجود النص الدستوري الذي يؤكد على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر كل التشريعات؛ إلا أن السلطات التنفيذية اليمنية المختصة؛ كثيراً ما تغض الطرف عن كافة الأنشطة الكنسية والنصرانية في عموم اليمن ".

وسائل التنصير:

-الأولى : الخدمات الإنسانية : هم يقولون التبشير، السلام، الديموقراطية، الإنسانية. فالخدمات الإنسانية مثل :الإغاثة، والطب، والمساعدات من أهم ما يتوسلون ويتوصلون به. فهم يحملون الإنجيل بيد والعلاج باليد الأخرى، ونحن نعلم أن الأمم المتحدة بمنظماتها، والبنك الدولى، مثلاً منظمة الصحة العالمية، الصليب الأحمر، اليونسكو، وغيرها، هي وسائل بيد مجلس الكنائس العالمي وعملائه المغروسين في أنحاء العالم.

الوسيلة الثانية : التخريب الأخلاقى، فالكنسية تدار فيها الخمور، وتقام فيها الحفلات الماجنة للمراهقين والمراهقات، من أجل استهواء الشباب وجلبهم إلى النصرانية. وخاصة إن كانوا من شباب المسلمين . ويسر لهم أسباب الفساد. يقولون : حاولنا أن نقف دونه، لكن عبثاً نحاول لأن قوانين البلد تسمح بإقامة المراقص والملاهى، ولو بجوار المساجد، فقد يبنون المساجد ومدارس للأطفال بجوار المسجد فاكتشفوا فيما بعد أن هذه المدارس تعلمهم مبادئ المسيحية ولكن بطريقة غير مباشرة.

الوسيلة الثالثة : توزيع الكتب والكتيبات والمجلات، والدوريات، والصحف التى تخدم التنصير -المخصصة لهذا الغرض- بشتى اللغات، وبشتى الأساليب، وفى شتى الموضوعات، مع تعمّد دس التشويه والكذب؛ فى مثل هذه الدراسات والكتب والمقالات، هذا فضلاً عن التقاويم (الرزنامات) وفى كل يوم تجد التقويم مرصعا بآية من الإنجيل مكتوبة بخط جميل وملونة وزهور، وأشياء حقيقةٌ تلفت الانتباه وتشد الذهن، وكذلك تطبع كروت التهانى مثلاً بالأعياد: أعياد الميلاد، الكرسمس، عيد رأس السنة، عيد القيامة، إلى غير ذلك من أعيادهم، وبخطوط جميلة وألوان، وصور يزعمون أنها لمريم أو لعيسى، أو فيها آيات من الإنجيل، إلى غير ذلك. فضلاً عن نشر الصلبان فى كل مجال وفى كل ميدان، فى الملابس، فى السيارات، فى الأوانى، فى الذهب، فى كل شيء لو تأملت تكاد تجد صليباً موضوعاً على عمد، وأحياناً الملايين منها توزع بالمجان، وترسل بالبريد لمن يريد، ويعملون عن طريق الإذاعات. وتبث هذه الإذاعات بأكثر من ثمانين لغة، ولها صناديق بريد في العواصم العربية وغيرها، وتستخدم المراسلة والمطبوعات وغيرها للتواصل مع مستمعيها .

سادساً: الرياضة : هناك خطة أن يتولى النصارى العرب الاتصال والتنصير فردياً هناك، وتوزيع النشرات والأفلام، وعناوين المؤسسات التنصيرية فى العالم على الحضور وعلى المسافرين إليها.
سابعا: العمل الاجتماعي في مجال المرأة والمجتمع :

فمن ذلك- مثلاً - منظمة فيليبينية تنصيرية اسمها" منظمة شادي"، وكلمة شادي عندهم بلغتهم معناها : الرب، هذه المنظمة تهتم بشكل خاص بالمرضى والمعوقين وأصحاب المشكلات النفسية والذين يواجهون صعوبات في حياتهم، والغريب في الأمر: أن هذه المنظمة لها نشرة اسمها " شادي" ومجلس الكنائس العالمي- وهو ربما أعلى سلطة مسؤولة عن التنصير - حشد الآلاف من المربيات - كما يقول رئيس إرسالية التنصير في الشرق الأوسط" : إن مجلس الكنائس العالمي أرسل الآلاف من المربيات والخادمات والممرضات والأطباء والمهندسين لدعم خطة لتنصير المسلمين عام ألفين ."هم مصرون على أن يتحول المسلمون عام ألفين إلى نصارى، ولذلك استخدموا حتى: المربيات، والخادمات، والممرضات، والأطباء، والمهندسين. ويقول هذا المسؤول" :إن هؤلاء الذين أرسلوا قد اتخذوا الوسائل والأسباب التي تمهد لهم التوغل في جزيرة العرب!

ثامناً : المراسلات: وهي من أخطر ما يكون، وأنجح الوسائل لسهولتها وحصولها في الغالب وإمكانية تداولها، وهي تعقد الصدقات، وترسل الكتب، والأشرطة، والمجلات، مجاناً إلى من يريد.

آثار الاستعمار البريطاني السياسية والاجتماعية:

أولا : الآثار السياسية :

تتعدد المحددات الاجتماعية التي كان لها تأثيرها على الاستقرار السياسي في اليمن، ومن بينها تبرز المحددات والأدوار التالية:

أولاً دور القبيلــة:

يتكون المجتمع اليمني من عدة قبائل، ويبلغ تعداد القبائل اليمنية أكثر من (160) قبيلة منها حوالي (140) قبيلة في المناطق الجبلية، وما يقرب من (27) قبيلة تقطن المناطق الساحلية وتهامة، وهناك ثلاث قبائل أساسية، تعتبر كل واحدة منها الأم لمجموعة من القبائل الأخرى التي تتفرع منها وترتبط بها عضويا. وتعيش حياة زراعية مستقرة، ورعوية في قرى منظمة ومتطورة إلى حد كبير، إضافة إلى خصوبة الأرض، وكثرة هطول الإمطار التي وفرت مصادر حدت من الصراعات والتمسك بالعصبية القبلية. كانت العلاقة بين سكان هذه المناطق والسلطة علاقة جباية عن طريق المشايخ، وما رافق ذلك من تعسف المشايخ بالرعية، والذي أدى بدورة إلى علاقة عدائية بين الطرفين. وهناك عدة عوامل ساعدت على تفكك العلاقات القبلية في مناطق الوسط، والجنوب في العصر الحديث، منها: أن الزعامات القبلية في مناطق

الوسط هم من كبار ملاك الأرض والذي تحولوا في ما بعد إلى طبقة برجوازية، وظهر الصراع الطبقي بين المشايخ كبار الملاك وطبقة الفلاحين، كما ارتبط مشايخ هذه المناطق بالسلطة المركزية التي تعينهم على السيطرة على الرعية، ولا يشارك مشايخ هذه المناطق في السلطة بطريقة مباشرة، كما هو الحال في مناطق الشمال، وإنما تنتهي مهمتهم بإدارة الصراع في مناطقهم، بما يحقق مصلحة السلطة المركزية. وتطور الصراع بين الرعية والمشايخ مع تطور الصراع بين الشطرين حيث ظهرت انقسامات في هذه المناطق، وحدثت حروب دامية زادت من تفكك العامل القبلي، وعند ظهور التعددية الحزبية كانت تلك المناطق أكثر المناطق ميولا للتحزب، كنظام بديل عن التنظيمات القبلية. وتتسم هذه القبائل بالحفاظ على العصبية القبلية والتي لعبت دورا في حالة عدم الاستقرار السياسي في اليمن، وإتباع المذهب الزيدي الذي يبيح الخروج على الوالي فقد ساعدت تلك العوامل علي أن تظل تلك القبائل في حالة حرب مستمرة، فجميع الرؤساء الذين حكموا اليمن ينتمون إلى المنطقة القبلية الأكثر تعصبا: حاشد وبكيل.

ويتضح أن المناطق المتعصبة قبليا تمكنت من الاستئثار بالسلطة المركزية، كما احتفظت بسلطاتها المحلية في مناطقها، وأصبحت تمثل دولة داخل دولة ولهذا فان النظام السياسي القائم على الجهوية، ومركزية الحكم في مناطق قبلية محدودة، يعد نقطة ضعف حيث يهدد هذا النظام الوحدة الوطنية، والتماسك القومي، ومن مظاهر إخلال القبيلة بالاستقرار السياسي في اليمن:

1. الثأر القبلي :فكثيراً ما تقوم الحروب، والثارات القبلية في اليمن ،حيث بلغ مجموع هذه الحروب في العقد الأخير من القرن العشرين (407) حروب، وثارا قبليا، وغالبا ما تكون تلك الحروب والثارات نتيجة انتشار ثقافة العنف المسلح، والمشروط بتوافر الأسلحة الخفيفة والثقيلة والتي تنتشر في اليمن بشكل واسع حيث تقدر بعض الجهات وجود ما يقارب (60) مليون قطعة سلاح تنتشر في أنحاء اليمن، ويشير تقرير تقدم به مجلس الشورى إلى وقوع 1979 حاله قتل في إطار الثأر القبلي خلال عام2001 م في محافظات صنعاء، وعمران، وذمار والبيضاء .

2. التغيرات الاجتماعية والتآكل المطرد للمعايير العرفية، وضعف الحكومة وانتشار السلاح، والتنافس على مصادر المياه الشحيحة، واحتدام التنافس بين الزعامات الدينية، غذت الصراعات القبلية.

3. الصراع السياسي بين القوى الحزبية، حيث تحدث الثارات القبلية على خلفيات سياسية، وتنتشر هذه الحالة في المناطق الوسطى.

4. الاختطافات القبلية :حيث تلجأ القبائل إلى عملية الاختطافات، كوسيلة متعارف عليها قبليا وكانت هذه الظاهرة محصورة بين القبائل المتصارعة، حيث يمثل اختطاف أحد أفراد القبيلة وسيله ضغط على القبيلة الأخرى، في قضيه النزاع، وعند تطور دور الدولة في الحياة الاجتماعية الاقتصادية استخدمت القبائل الاختطاف في الضغط على الدولة، وانتقلت هذه الظاهرة فيما بعد لاختطاف الأجانب الوافدين إلى اليمن، نتيجة زيادة الدور الأجنبي في الحياة السياسية والاقتصادية والمساعدات؛ كوسيلة ضغط على الحكومة اليمنية والحكومة الأجنبية في نفس الوقت، لتحقيق مصالح القبيلة.

فغالبا ما تقدم القبائل على الاختطاف لعدة أسباب منها : الحصول على خدمات أو مشاريع عامة، والضغط على الحكومة لتوظيف العديد من أبناء القبيلة، وقيام بعض النافذين بالاستيلاء على أرض تعود ملكياتها لأحد أبناء القبيلة، والضغط لإطلاق مساجين على ذمة قضية خاصة أو عامة، أو لإنهاء نزاع معروض أمام القضاء منذ فترة طويلة، ومطالبة بعض القبائل التي تقطن المناطق النفطية، أن يكون لهم نصيب في النفط المستخرج من مناطقهم. وعلى الرغم من أن ظاهرة المجالس والمؤتمرات القبلية تعود إلى الستينات من القرن الماضي، بعد ثورة 26 سبتمبر، إلا أن القبائل لجأت إلى عقد تلك المجالس، والمؤتمرات القبلية بعد التعددية الحزبية، فإذا كانت التعددية الحزبية قد أعلنت عام1991م فإن أول مؤتمر قبلي، انبثق عنة مجلس قبلي، كان في نفس العام وهو مؤتمر التلاحم الوطني.

ثانياً :التقسيم الطبقي:

يعد التقسيم الطبقي من العوامل المثيرة للصراعات، والاختلافات، كون الطبقية تؤدي إلى حتمية الصراع الاجتماعي، وتأتي المنافسة بين الطبقات المختلفة من عوامل بناء تركيبة المجتمع الاقتصادي والسياسي، والصراع الطبقي نتيجة حتمية لانعدام العدالة الاجتماعية، ويتكون التركيب الاجتماعي المعاصر في الجمهورية اليمنية من خمس مراتب :

الأولى : تضم مشايخ القبائل، وتقوم غالبا على أساس وراثة المشيخة والزعامة القبلية.

والثانية : تشمل فئة السادة والقضاة والفقهاء.

والثالثة : وتحتوي ثلاث فئات متقاربة ومتداخلة هي: الاعيان العقال، وفئة أمناء القرى وفئة جمهور القبيلة، والمزارعون المستقرون أو البدو الرحل.

والرابعة : تضم الفئات الحرفية والمهنية، والتي تمارس حرفا ومهنا وضيعة قبليا تحرم الأعراف القبلية على رجل القبيلة القيام بها، وهذه الفئات هي: الصناع، الجزارون، الحلاقون، الدواشين.
والخامسة : وتضم فئة الخدام واليهود.

والتقسيم الطبقي في اليمن يقوم على أساس وظيفي مهني في جميع المراحل التاريخية، كما ظلت القبيلة هي اللبنة الأساسية في المجتمع، والتي يتم من خلالها وداخلها الفرز الطبقي للمجتمع.

إلا أن التقسيم الطبقي في عهد الإمامة الزيدية كان واضحاً وشاملاً، كونه اتخذ كأساس للحكم، وانتقص من حق الأغلبية فظهر الصراع الطبقي ثم الثورة والحرب، وعلى الرغم من أن الثورة قامت ضد الطبقية؛ إلا إن المجتمع اليمني ظل يحافظ على هذا التقسيم الطبقي حتى اللحظة في إطار المجتمع القبلي، فحلت فئة مشايخ القبائل محل السادة في الطبقة العليا بعد الثورة، فالتقسيم الطبقي في اليمن يطرأ علية بعض التغيير في المراتب العليا حسب التغير في الوضع السياسي، ويلعب التقسيم الطبقي دورا في حالة عدم الاستقرار السياسي. فنتيجة للفرز الطبقي قامت أحزاب وتيارات سياسية ذات أبعاد مذهبية، وأخرى ذات أبعاد سلالية ذات اتجاهات سياسية. وعلى الرغم من أن التعددية السياسية، والحزبية لعبت دور في خفض وطأة التقسيم الاجتماعي، عن طريق منح العضوية، والمناصب لجميع الطبقات كما مثلت الانتخابات عامل مساواة بين الطبقات من خلال ضمان حق جميع الأفراد في الترشح، والانتخاب إلا أن الأحزاب تفضل غالبا استرضاء مشايخ القبائل، واستمالتهم للانضمام إليها على حساب حرية الطبقات الأخرى التي تندرج في الطبقات الدنيا في سلم التقسيم الطبقي داخل القبيلة ذاتها. ولا زالت الطبقية، والتقسيم الاجتماعي تنخر في جسد المجتمع اليمني، فوفقا للتقسيم الطبقي القائم على أساس قبلي، مثلا يحرم التزاوج بين الطبقات فلا يمكن لفرد من طبقة القبائل أن يتزوج من طبقة لا تنتمي إلى نفس الطبقة، أو أعلى منها وان أقدم على ذلك فأنه يتعرض للقتل أو النفي. وقد كشفت عن وجود حالات رق، وعبودية في محافظات يمنية ويقف وراء استمرار حالة الرق والعبودية: محاباة النظام السياسي لمشايخ القبائل، والذي يعتمد عليهم النظام في عملية الحشد والتأييد في الانتخابات العامة. وتقدر بعض المصادر عدد المهمشين من طبقة الاخدام في اليمن بما يقارب 800 ألف نسمة وأسست هذه الشريحة منظمة الأحرار السود بهدف الدفاع عن حقوقهم، ونتيجة للهوة التي تفصل هذه الشريحة عن الشرائح الأخرى من المجتمع فإنها تمثل قنبلة موقوتة للأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي، كما تمثل مشكلة لليمن أمام الدول، والمنظمات الأخرى .إن التغييرات التي طرأت على الوضع الاقتصادي، والأخذ بنظام الرأسمالية

والخصخصة، كان لها تأثير في التركيب الطبقي في الجمهورية اليمنية، حيث اتجهت بعض الطبقات مثل طبقة المشايخ، والقادة العسكريين إلى مزاولة النشاط التجاري، والذي كان محصورا في طبقة التجار، ونتيجة سيطرة هذه الطبقة على الثروة، إلى جانب السلطة السياسية، حدث فرز جديد في المجتمع اليمني على أساس طبقي اقتصادي، ونتيجة لاقتحام تلك الطبقة للمجالات التي كانت مقصورة على الطبقة الوسطى؛ تلاشت الطبقة الوسطى التي كانت تعزل بين الطبقتين الدنيا والعليا، فاتسعت شريحة الطبقة الدنيا مدعومة بتلاشي الطبقة الوسطى حيث أصبح 50% من عدد السكان تحت خط الفقر.

الخاتمــة:

وهكذا رأينا أن هذه الفترة شهدت محاولات لتدخلات أجنبية، كان هدفها هو تدمير أرض جنوب الجزيرة وباب المندب، اذن بجانب التنافس السياسى الذى شهدته هذه المنطقة، شهدت ايضا تنافسا تجاريا بين الحكومات الأوروبية من جهة، والمحلية من جهة أخرى. ورأينا كيف كانت الغلبة البريطانية اولا ثم اعقبها حركات ثورية كان هدفها الاستقلال وطرد المستعمر الذي حاول طمس الهوية الدينية من هذه المناطق، لكن لم يقف المسلمون مكتوفى الأيدي أمام الحملات الصليبية القديمة والجديدة، التى استهدفت تدمير المدن واراقة الدماء. والدور المطلوب اليوم من العلماء وطلبة العلم، والمؤسسات التعليمية الإسلامية، وهيئات الإغاثة، والجمعيات الخيرية – جد كبير؛ فيجب أن تتوحد الجهود، وأن يعلم الجميع بأن وسائل المواجهة هى ذاتها أساليب الدعوة؛ فهدفنا نحن المسلمين ليس مجرد المواجهة والصد، بل يتعدى الأمر أكثر من ذلك وهو: الدعوة إلى الله بحيث نسعى إلى هداية هؤلاء المنصِّرين أو بعض منهم، ولا شك أن من أهدافهم الهيمنة على البلاد التي يكون لهم فيها وجود يذكر بأي وسيلة.

المراجـــع

- بشرى الغيلي، حجة محافظه الفصول الأربعة والتقسيم الطبقي، موقع حديث المدينة بتاريخ 16 يوليو 2010م.
- التغيرات القبلية وتحرير الاقتصاد أضعفا أصحاب الدخل المحدود (بتاريخ26/3/2011م).
- جابر بن يحيى البواب، اليمن وظاهرة الإرهاب الدولي2007-1990م، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم السياسية، الجزائر، جامعة الجزائر بن يوسف بن خده، كلية العلوم السياسية والإعلام قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، 2008م
- جاد طه، سياسة بريطانيا في اليمن الجنوبي، دار الفكر العربي، القاهرة،1969 م .
- جميلة العيسى، الصراع البريطاني الفرنسي حول البحر الأحمر، العبيكان،1421 هـ.
- حسن خضيري أحمد ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ط 11996
- خالد محمد القاسمي: الوحدة اليمنية حاضرا ومستقبلا ، بيروت، .ط1987 1م.
- خديجة الهيصمي، سياسية اليمن في البحر الأحمر ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ط2002 1م
- دستور الجمهورية اليمنية/المواد 64/107 ، نت
- عبد الله أحمد بن أحمد، أهمية الجنوب العربي في الاستراتيجية الدولية،.15 Feb 2004 /
- عبد الوهاب محمد الروحاني، اليمن خصوصية الحكم والوحدة والديمقراطية، القاهرة. مكتبة مدبولي ط2008 1.
- عبد العزيز قائد المسعودي – اليمن المعاصر من القبيلة إلى الدولة (1967-1911م)، مصر، القاهرة، ط 2006 1م.
- عبداللطيف الحميد، البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، ط1،الرياض ،1415هـ.
- عبدالواسع الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر، ط2،1366هـ.
- عبدالواسع اليماني، تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط2،1402هـ.

- علي الصراف، اليمن الجنوبي الحياة السياسية من الاستعمار للوحدة، ط1، لندن،1992م.
- فاروق أباظة، الحكم العثماني في اليمن، بيروت، ط1979،2م.
- مجلة الأسرة، العدد (.83)، العدد (155) رجب1421 ، أكتوبر ٢٠٠٠.
- محاضرة تسجيلية للشيخ سلمان بن فهد العودة .مما شاهد وسمع وقرا.
- محمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، ط2،الرياض، 1402.
- محمد عمر الحبشي، اليمن الجنوبي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا منذ عام1937م وحتى قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، دار الطليعة، بيروت،1970م.
- محمد محسن الظاهري، المجتمع والدولة، دراسة العلاقة القبلية بالتعددية السياسية والحزبية الجمهورية اليمنية نموذجا القاهرة ، مكتبة مدبولي ط2004 1م
- محمد محسن الظاهري، الدور السياسي للقبلية في الجمهورية العربية اليمنية، القاهرة ، مكتبة مدبولي ط1996 1م.
- المركز الوطني للمعلومات .نبذة تعريفية عن محافظة الضالع2011.
- المركز الوطني للمعلومات .نبذة تعريفية عن محافظة عدن2011 .
- مسح آثاري لمدينة عدن الكبرى، مديرية صيرة -كريتر -الموسم الأول2004 م -اعداد الهيئة العامة للآثار عدن. منشور في :صحيفة/26 سبتمبر/ رقم العدد 1230 : السبت 09 مارس - آذار 2013 ناصر محمد الطويل - الحركات الإسلامية والنظام السياسي في اليمن من التحالف إلى التنافس، مكتبة خالد بن الوليد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1.
- اليمن في الوثائق السرية الأمريكية، رسائل متبادلة بين الشيخ عبد الله ووزير خارجية واشنطن وتقسيم الحكومة الطائفي يلفت انتباه دبلوماسي أمريكي
- http://almasdaronline.info/index.php?page=news&article-section=12&news_id=9943
- مدرسة الصراع الطبقي http://www.rafed.net/books/aam/edalah-ejtemaeyye/06.html
- مجلة البيان، قضية عربية : الاختطاف في اليمن. .المشكلة الآثار الحلول http://www.albayan.ae/one-world/1-2-1998-06-02-1.1018731

- عمر العمقي، النظام يتغاضى عن مشكلة العبودية خوفا من خسارة حلفاءه، المصدر اون لاين 6/2/2010http://www.almasdaronline.com/index.php?page=news&article-section=1&news_id=9303
- عبده عايش، حروب الثارات في اليمن تودي بحياة المئات وتقلق الأمن والسلم، مقال مستل من مجلة العلوم الاجتماعية، الصادرة 15 ابريل2011 م
- http://www.swmsa.net/articles.php?action=show&id=867
- http://ar.wikipedia.org/wiki
- http://forums.ibb7.com/ibb28072.html-
- http://h-almadena.net/index.php?action=showDetails&id=2049
- http://sh.rewayat2.com/public/Web/6417/003.htm
- http://wikimapia.or
- http://www.hdrmut.net/vb/showthread.php?t=414024
- http://www.oxfam.org/en/
- http://www.sudanile.com
- Muslim Population by Country". The Future of the Global Muslim Population. Pew Research Center. Library of Congress – Federal Research Division
- U.S state Department
- http://www.al-tagheer.com/news28099.html
- 2001http://www.yemenviolence.org/pdfs/Yemen-Armed-Violence-IB1-Arabic.pdf



مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثاني والعشرون

أكتوبر ٢٠١٤م



مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثاني والعشرون

أكتوبر ٢٠١٤م

جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب
مقر الأنشطة : ١٠ شارع فؤاد بدواني الحي الثامن - مدينة نصر - القاهرة.
تليفون : ٢٢٨٧٠٠٩٠ فاكس : ٢٢٨٧٠٠٩١
E. Mail : arabhistoryso@hotmail.com

هــذا المجلــة

١ - مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٢ - تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

٣ - البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.

٤ - تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.

٥ - لا يزيد البحث المقدم للنشر عن خمسة وعشرون صفحة، مكتوب علي الكمبيوتر ويقدم من نسختين ورقيتين ونسخة أخري علي الاسطوانة CD.

٦ - تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الايضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.

٧ - يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.

٨ - لا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٩ - يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي،متبوعاً بإسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

١٠ - ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.



١١- يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي :

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(جـ) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، الجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

يسعد اتحاد المؤرخين العرب أن يقدم لأعضائه ولجميع الباحثين في علم التاريخ عدده الجديد (الثاني والعشرون) من مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها الاتحاد كل عام. وتهدف مجلة المؤرخ العربي إلي إظهار الحقيقة التاريخية صافية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية. ولاشك أن مبادئ ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ ومبادئ ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ وضعت علي عاتق المؤرخين مسئوليات عظام، ومهام كبري تدفع المؤرخين إلي مواكبة حركة التغيير لتحقيق الأهداف النبيلة، وبخاصة أن تحديات القرن الحادي والعشرين تحديات حضارية علمية تكنولوجية، وليست تحديات حربية عسكرية.

ومن حسن الطالع أن يصدر هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي بعد الانتهاء من تشييد المقر الجديد لاتحاد المؤرخين العرب في التجمع الأول بمدينة القاهرة الجديدة، وقد شيده علي نفقته الخاصة واحد من أعلام المؤرخين العرب، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي - عضو المجلس الأعلي لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة.

ويعتبر هذا الإهداء غيضا من فيض، إذا قيس بما قدمه سموه من أياد بيضاء تُذكر فتُشكر، وتُعرف ولا تُنكر. ولا يسعنا إلا أن نتوجه إلي سموه بخالص الشكر والعرفان بالجميل. وتجدر الإشارة إلي أن المقر الجديد لاتحاد المؤرخين العرب واحد من المؤسسات الثقافية - العلمية التي شيدها سموه في مصر وغيرها منها : مبني الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ومبني اتحاد الآثاريين العرب، ومبني دار الوثائق القومية، ومكتبة كلية الزراعة جامعة القاهرة وغيرها.



وهذا الصرح الكبير الذي شيده سموه للباحثين في علم التاريخ سوف يتيح الفرصة لتحقيق أهداف اتحاد المؤرخين العرب وتطلعاته على مدى السنين، وبداية مرحلة جديدة لنشاط ثقافي - علمي متميز، ويكون المقر الجديد للاتحاد بيتاً للمؤرخين العرب.

ويتميز العدد الجديد من مجلة (المؤرخ العربي) بالتنوع التاريخي بين عصور مختلفة، وتاريخ أقطار عربية وغير عربية: في الحجاز ومصر والشام والعراق وفلسطين، وبلدان آسيا الوسطى وآسيا الصغرى.

وفقنا الله جميعا لرفع شأن الدراسات التاريخية في الوطن العربي، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

عضو مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي المصري



كلمة التحرير

يصدر العدد الجديد من مجلة اتحاد المؤرخين متوافقاً مع الانتهاء من المبني الجديد للاتحاد في القاهرة الجديدة والذي طالما انتظرناه والذي نرجو أن يكون فاتحة خير وبداية لنشاط علمي مزدهر ولا يسعنا إلا أن نشكر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة والذي لديه أيادي بيضاء علي العلم والثقافة ورعايتها، وله إسهامات متميزة في دعم الأنشطة الثقافية في مصر كاتحاد المؤرخين العرب والجمعية المصرية للدراسات التاريخية واتحاد الآثاريين العرب ودار الوثائق وغيرها، فهو خير مثال للحاكم المثقف والمستنير.

والمبني الجديد يحقق أغراض عديدة فهناك قاعة كبيرة للمكتبة ستتيح لزوار الاتحاد من الأساتذة والباحثين الفرصة للاطلاع علي المؤلفات والإصدارات والمصادر العديدة، ولقد قام عدد من الأساتذة وأبنائهم مشكورين بإهداء مكتباتهم إلي الاتحاد، فتم إهداء مكتبة أستاذنا الجليل ومؤسس الاتحاد الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور من قبل أبنائه، وكذلك أهدت ابنة الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمد رمضان مكتبته بالإضافة إلي ما أهداه الأساتذة من مؤلفاتهم ونرجو أن يحذو جميع الأساتذة هذا الحذو بتقديم ثمرة إنتاجهم الفكري إلي المكتبة بالإضافة إلي قاعات المحاضرات، والقاعة الرئيسية التي تتسع لعدد ١٥٠ فرد وتحتوي علي شاشات العرض للتيسير علي جميع الحضور المتابعة، وهناك قاعات للسينمار تحتوي أيضاً علي شاشات للعرض لتوفير التقنيات الحديثة، مما يترتب عليه وييسر بنواه لموسم ثقافي ممتد عبر العام وإتاحة مجال للحوار، ونرجو أن يكون هذا الصرح بداية لنشاط متميز ومثمر.

والعدد الجديد يتميز كالعادة بالتنوع التاريخي بين عصور مختلفة، والأبحاث نفسها تعكس صورة للوحدة العربية التي تؤكدها فكرة الاتحاد فشارك فيها أساتذة من جميع البلاد العربية وهناك أبحاث تدور أحداثها في فترة العصور الوسطي فمنها من تناول الحياة الثقافية في الحبشة، ومنها من اتخذ مصر مادة له كسفارات السلام بين

المماليك والمغول، ومنها تناول شخصيات أثرت في تاريخ العالم الإسلامي كالملك عماد الدين إسماعيل حاكم مملكة حماة، أو الدور السياسي للقاضي الشهرزوري، ومنها من تعرض لدور المشرق ودورهم السياسي والعلمي في بخاري. وفي مجال التاريخ الحديث والمعاصر بحث عن الطب والمطببون في شمال الجزيرة في القرن التاسع عشر انتقالاً إلي الموقف التركي الأزمة السورية بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٧.

ونرجو أن يكون هذا العدد فاتحة خير لمزيد من الأنشطة.

والله الموفق،

هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم

أ.د. عفاف سيد صبرة

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا



مع نخب النساء في حجهن إلي بيت الله الحرام في العصرين الأموي والعباسي مواكبهن ومثرهن

د. إلهام بنت أحمد عبد العزيز البابطين
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة الملك سعود

الملخص:

نبعت فكرة البحث مما لاحظته – في حدود علمي – من أن كل من كتب عن الحج إلى مكة المكرمة وزيارة دار المصطفى ﷺ لم يخص حج النساء ببحث أو بدراسة مستقلة، على الرغم من أن ذكرهن في هذا الشأن يرد على نحو متناثر في بعض المصادر التي وصلت إلى يديّ؛ ذلك أنه منذ أن فُرض الحج على المسلمين أدى هذه الفريضة مئات الألوف من النساء عبر القرون. ولكن التاريخ لم يحفظ منهن إلا القليل من أكابرهن ومشاهيرهن ممن كان لحجهن شهرة، وممن تركن بصمات وذكريات ومآثر خلدها لهن التاريخ؛ وسيركز البحث بصورة خاصة على المواكب النسائية وما فيها من فراهة وأبهة، وكذلك ما لتلك الفئة من النساء من مآثر في مكة المكرمة وفي الطريق إليها. وسيتضمن جداول بأسماء من حج من مشاهير النساء وتواريخ حجهن وعدد حجاتهن ونفقاتهن في الحج.

توطئة:

الحج من أقدم العبادات السماوية التي عرفتها البشرية، وكان العرب في مختلف العصور يقومون بتأدية تلك العبادة على صورة تناسب فطرتهم، وتتمشى مع جاهليتهم. وكانوا على دينين حِلّة وحُمْس؛ فالحمس قريش وكل من وَلَدت من العرب، فكانت قريش إذا أنكحوا عربيا امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمسي على دينهم[i]. ومن طقوسهم في الحج يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم[ii]. أما تقاليد نساء الحلة – وهم

قبائل من العرب - في أول حجة لهن يطفن ليلا عراة بينما يطوف الرجال نهارا عراة أيضا ويقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا[iii] وقيل كانوا يفعلون ذلك ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب[iv]. ويقال كانت الحُمْس يحتسبون على الناس، يعطي الرجلَ الرجلُ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثياب تطوف فيها، فمَن لم يعطه الحُمْس طاف بالبيت عريانًا. وقد تطوف المرأة في ثيابها فإن طافت بها لا يحل لها أن تلبسها أبدا، ولا يُنتفع بها، وتطرحها بباب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام، وتسمى اللقى[v].

وكان بعض نسائهم تتخذ سيورا فتعلقها في حقويها، وتستتر بها، وفي ذلك قالت ضباعة العامرية[vi]:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّـهُ فَمَا بَدَا مِنْـهُ فَلا أُحِلُّـهُ

هذا بالنسبة لحج النساء في العهد السابق للإسلام وليس لدينا معلومات تفصيلية عن مواكبهن ولا مآثرهن.

ثم جاء الإسلام فهدم ذلك كله، وجعل الحج صورة للمساواة بين الناس، فعندما حج أبي بكر بالناس سنة ٩هـ/٦٣١م أعلن تحريم الحج عرايا قائلاً: "ولا يطوف بالبيت عريان"[vii]؛ بل مُنِعَ الناس أيضًا من الحج في ثيابهم المعتادة، وفُرِضَ عليهم أن يلبسوا ملابس واحدة متشابهة، وهي ثياب الإحرام وأما النساء؛ فيلبسن ما اعتدنه من الملابس.

وفرض الإسلام شعيرة الحج على معتنقيه رجالاً ونساءًا، ولكن على كل من استطاع إليه سبيلا، فشدت الرحال إلى مكة، وقطعت لذلك المسافات الشاسعة تيمنا بسنن الأنبياء، واستجداء لمثوبة الله وغفرانه. وكما تقاطر الرجال حجاجا إلى بيت الله الحرام ، كانت النسوة أشد حرصا على تأدية تلك الفريضة لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[viii] . وتباينت تكاليف حجهن بحسب قدراتهن المادية والمعنوية، وهو محور بحثنا هذا حيث إن العينة النسائية التي يتعامل معها البحث هن ممن كانت تكاليف حجهن مرتفعة ومتفاوتة. فسوف نرافق في بحثنا هذا

نخبة من النسوة في طريق حجهن إلى مكة المكرمة وزيارتهن لمدينة الرسول ابتداءً من عصر صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي (٦٥٦هـ/٩٧٤م) حسبما ورد في المصادر المتاحة من روايات :

المواكب النسائية في الحج :

كانت نساء المسلمين يخرجن للحج ضمن ركب قافلة الحجيج في مواكب خاصة بهن تحملهن الهوادج، ولكن مواكبهن تباينت في مظاهرها من عصر لآخر وأيضاً من امرأة لأخرى، وفقاً للمكانة الاجتماعية لهن، ولعل أسباب الخروج في مواكب لها شأنها يعود لإظهار هيبة وعظمة الدولة والبيت الحاكم، وأيضاً الرفع من شأن المرأة، كما أنه يعطي دلالة على الحالة الاقتصادية للدولة.

وفيما يلي سنستعرض أهم رحلات الحج التي ورد ذكرها في المصادر، وعلى ضوئها سنستنتج سمات مواكب كل عصر، وسنلحظ الفوارق بين العصور فمواكب النساء في العصرين النبوي والراشدي تتميز بالبساطة عن مواكب النساء في العصرين الأموي والعباسي ذات البهرجة الكبيرة والمظاهر المُترفة، ففي حجة الوداع سنة ١٠هـ/٦٣٢م حج ﷺ بنسائه جميعا في الهوادج، وكان متاع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر(ت٥٧هـ/ ٦٧٧م) رضي الله عنهما خفيفا، وكان على جمل سريع، بينما كان متاع صفية بنت حيي(ت٥٢هـ/٦٧٢م) فيه ثِقَلٌ، وكان على جمل ثُقالٍ بطئ السير، فقال عليه الصلاة والسلام: حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب[x]. إذن فقافلة الحج في العصر النبوي كانت بسيطة ليس فيها تكلُّف بل بقدر ما تقتضيه حاجة المرأة.

ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن مواكب الحج في العصر الراشدي فيما عدا ما ذكر عن حج بعض أزواج النبي ﷺ في آخر سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢٣هـ/ ٦٤٤م) عندما حج عمر بن الخطاب حجته الأخيرة فأرسلن إليه وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر(ت٤٥هـ/٦٦٥م) وأم سلمة هند بنت أبي

أمية(ت٥٩هـ/٦٧٨م) وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان(ت٤٤هـ/٦٦٤م) وجويرية بنت الحارث(ت ٥٠هـ/ ٦٧٠م) وصفية بنت حُييّ وميمونة بنت الحارث(ت٦١هـ/٦٨٠م) يستأذنّه في الخروج فأذن لهنّ وأمر بجهازهنّ فحُملن في الهوادج على الإبل، وعلى هوادجهن الطيالسة الخضر وبعث معهن عبدالرحمن بن عوف(ت٣٢هـ/٦٥٢م) وعثمان بن عفان(٣٥هـ/٦٥٦م) رضي الله عنهما فكان عثمان يسير على راحلته أمامهن فلا يدع أحدا يدنو منهن، وكان عبدالرحمن يسير على راحلته من ورائهن فلا يدع أحدا يدنو منهن، وينزلن مع عمر كل منزل[x]. وفي خلافة عثمان بن عفان(٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) اجتمعت أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة فأرسلن إليه يستأذنّه في الحج فقال: أنا أحج بكنّ كما فعل عمر فحج بهن عثمان جميعا[ix]. وبذلك يمكن القول أن مواكب الحج في العصر الراشدي لم تكن تختلف عن حالها في عهد رسول الله ﷺ، خصوصاً في فترة خلافتي أبو بكر وعمر إذ اتبعوا سياسة الرسول ونهجه غير المتكلّف في الحياة، أيضاً موارد الدولة الاقتصادية كانت تصرف على الجهاد ومعارك الفتوح فضلا عن رعاية شؤون المسلمين، وتوفير احتياجاتهم الأخرى. وغني عن الذكر ما مرت به دولة الإسلام من فتن وانشقاقات منذ مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ٢٣هـ/٦٤٤م وبعده عثمان بن عفان وأخيرا علي بن أبي طالب ٤٠هـ/٦٦١م رضي الله عنهم جميعا.

ولكن الحال تغير في فترة مبكرة من العصر الأموي حيث تغير نمط الحياة وتسللت إلى أساليب العيش مظاهر الترف، فظهر ما يسمى بمواكب الحج النسائية وفيها تباشر المرأة إعداد موكبها بنفسها لحرصهن على الظهور بأبهى المناظر وأزهى المظاهر بل كن يتنافسن ويتباهين في مواكبهن حتى ليتبارى الشعراء في وصفها؛ فمثلا شهد حج سنة (٧٥هـ/٦٩٤م) عدة مواكب نسائية، منها موكب عاتكة بنت يزيد بن معاوية(ت١٢٦هـ/ ٧٤٣م) زوج الخليفة عبدالملك بن مروان(٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) الذي قال لها عندما استأذنته في الحج: ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة (ت١٠١هـ/٧٢٠م) تحج، فرفعت حوائجها وتهيأت فجاءت بهيئة جهدت فيها[xii]. فلما سارت إلى مكة نافستها

عدة مواكب لعائشة بنت طلحة فالموكب الأول لخازنتها، يليه موكب لا يقل عظمة عن الموكب السابق لما شطتها، وموكب ثالث مماثل أمامها، ثم موكبها الذي فاق المواكب جميعا ويضم ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، بحيث فاق المواكب جميعها حتى قالت عاتكة زوج الخليفة عبدالملك بن مروان: ماعند الله خير وأبقى[xiii].

وغالباً ما كانت المرأة تصطحب معها حادياً يقود قافلتها، وينشد لها طوال فترة السفر[xiv]. ففي سنة ٩٥هـ/٧١٤م عزمت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية على الحج مرة أخرى، ويبدو أن عائشة كانت تحرص كل الحرص على الإعداد لحجها بأجمل ما يكون عليه الحج من المظاهر؛ فدخلت على الخليفة الوليد بن عبدالملك(٨٦-٩٦هـ/٦٨٥-٧١٥م) وقالت: يا أمير المؤمنين مُرْ لي بأعوان يكونون معي، فضم إليها جماعة يكونون معها فحجت في موكب من ستين بغلا من بغال الملوك عليها الهوادج والرحال فقال حاديها:

عَائِشَ ياذَاتَ البِغَالِ السِّتِّيْن لاَ زِلْتِ مَا عِشْتِ كَذَا تَحِجِّيْن

وفي نفس السنة حجت سُكَيْنَة بنت الحسين(ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م) فكانت عائشة أحسن منها آلة وثقلا فقال حادي سكينة:

عَائِشَ هذه ضَرَّةٌ تَشْكوكِ لولا أبُوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكفَّ، فكفَّ احتراما لسُكينة[xv].

وهذا يوضح التنافس بين نُخب نساء العصر الأموي في تجهيز مواكب الحج، وأنه قد يُراد بها إبراز وجاهة اجتماعية.

وكانت مواكب الحج النسائية في العصر الأموي مزينة بأفخر الزينة تصل إلى مكة بمرافقة الجواري والخدم التي تسمح لهم صاحبة الموكب بذلك لتأدية فريضة الحج طلباً للأجر والثواب، فهذه عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان حجت مصطحبة معها الجواري[xvi].وكذلك لما حجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية(ت١٢٦هـ/٧٤٣م) كان معها جواريها[xvii] إضافة لما سبق ذكره للتو عن حج عائشة بنت طلحة وسكينة بنت

الحسين[xviii] ، وكذلك فقد اصطحبت فاطمة بنت عبدالملك بن مروان معها الجواري والخدم[xix]، أما أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان فلما استأذنت زوجها الخليفة الوليد بن عبدالملك في الحج، وأذن لها حجت سنة ٩١هـ/٧١٠م ومعها من الجواري ما لم ير مثله حسنا على رأسهن جاريتها الشهيرة غاضرة وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا أن يذكرها أحد منهم أو يذكر أحدا ممن معها[xx].

وقد عكست المبالغة بزيادة مظاهر مواكب الحج بين النساء التنافس الشديد بينهن، لاسيما القرشيات، سواء كن من المقيمات في الحجاز، أو ممن يقمن في دار الخلافة في بلاد الشام.

وكانت هناك مواكب تنافس مواكب نساء الخلفاء وعلية القوم منها موكب المغنية الشهيرة جميلة السلمية(ت١٢٥هـ/٧٤٣م)، ويشتمل على الهوادج والقباب المزينة على الإبل التي تميزت بالفخامة والتجمل، وخرج معها عدد من الرجال والنساء مشيعين ومشيعات لها، ومعظمات لقدرها، وخرج معها ثلاثون رجلا وتخايروا في اتخاذ اللباس العجيب الظريف، وكذلك في الهوادج والقباب، كما خرج معها عدد من المغنيات، ولحقها خمسون قينة وجه بهن مواليهن معها، فأعطوهن النفقات، وحملوهن على الإبل في الهوادج والقباب ولكنها أبت إلا أن تنفق هي عليهن من مالها الخاص حتى قال من شاهد الموكب من الناس أنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً طيباً وحَسَناً وملاحة[xxi]. ولمّا اقتربت من مكة استقبلها عدد من مشاهير المغنين أمثال سعيد بن مسحج، وابن سريج، والغريض، وابن محرز ، فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍ حاذق ولا مغنية إلا وكانوا معها، وخرج أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها[xxii]. وربما كانت الأغاني في تلك المناسبة تظهر الزهد والورع والموعظة والتذكرة التي تناسب فريضة الحج، وهو ما يعرف بالغناء الديني.

وبذلك فإن شهيرات النساء في العصر الأموي لم يكن حجهن حدثاً عابراً كما هو الحال مع الألوف المؤلفة من النساء اللاتي حججن إلى مكة عبر السنين، وإنما هو حدث

يتناقل الناس أخباره قبل وصوله، ومما له دلالته أن المغنية جميلة السُلمية خرجت لها الجموع من أهل مكة مستقبلة لها، ونحو ذلك فعل لها أهل المدينة عند خروجها منها حينما خرجت الجموع لتوديعها، وذلك لشهرتها في مجال الغناء، حيث كانت ذات حظوة في مجتمعها.

أما في العصر العباسي فقد كانت معظم أمهات الخلفاء يحججن بتجمل وزينة وسعة في العطاء وفي مكارم الأخلاق التي يضرب بها المثل حتى إنه ليتكرر في المصادر ذكر عبارة: "حجت كما تحج أمهات الخلفاء من التجمل والزينة، وسعة العطاء ومكارم الأخلاق"[xxiii]. حدث ذلك لما حجت الخيزران(ت١٧٣هـ/٧٨٩م) زوجة الخليفة العباسي المهدي(١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)وأم ولديه الهادي(١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) التي كان حجها في غاية التجمل[xxiv].

ولما حجت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور (ت٢١٦هـ/ ٨٣١م) وزوج الخليفة الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) وأم الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م) أنفقت في حجتها (ستين يوما) أربعة وخمسين ألف ألف درهم[xxv] (أكثر من خمسين مليون درهم بحسابنا اليوم). ويصف المقريزي حجتها في كتابه الذهب المسبوك بأنها "كانت حجة عظيمة"[xxvi]، لكنه لم يوضح تفاصيلها عدا ما ذكر أنها حجت ماشية إلى مكة المكرمة[xxvii]. والجدير بالملاحظة أن المصادر الأخرى حينما تأتي إلى ذكر حجتها تستفيض في الحديث عن الخدمات والإصلاحات التي قدمتها للحجاج من غير ذكر لصفة الموكب أو القافلة التي خرجت معها على الرغم من تعدد حجاتها. ونقدر أن موكبها عظيماً وفارها، ولكن حسناتها وما قدمته للحجاج من خدمات وإصلاحات غطت على كل المظاهر الخاصة.

ولما حجت شجاع(ت ٢٤٨هـ) أم الخليفة المتوكل على الله(٢٣٢- ٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) في عام ٢٣٦هـ/٨٥١م مع ولد ولدها المنتصر بالله محمد بن المتوكل(٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م) وصف تجهيز حجتها في تجمل زائد[xxviii].

وتجدر الملاحظة أنه في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٧-٩٤٦م) لا نجد إشارات واضحة إلى قوافل الحج، ولعل مرجع ذلك يعود إلى الضعف الذي حل ببلاط الخلافة وسيطرة الأتراك وتسلطهم وظهور بعض الحركات الخارجة عنها، مثل القرامطة الذين استفحل أمرهم في شرق الجزيرة العربية، وأقلقوا قوافل الحج المارة بالأراضي التي يسيطرون عليها خلال الفترة وسطوا على البيت الحرام وقلعوا باب البيت والحجر الأسود وطرحوا القتلى في بئر زمزم عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م ودام الحجر الأسود عندهم حتى عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م[xxix].

أما بعد ذلك وخلال العصر العباسي الثالث أو عصر النفوذ البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٦- ١٠٥٦م) فتفيض المصادر في ذكر مواكب الحج الفاخرة ومنه في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م موكب جميلة ابنة ناصر الدولة الحسن بن عبدالله ابن حمدان (ت٣٧١هـ/٩٨١م) صاحب الدولة الحمدانية في الشام والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ/ ٩٢٩-١٠٠٤م) في حجتها التي ضُرب بها المثل في التجمل وأفعال الخير، فكان معها أربع مئة محمل أو كجاوة[xxx] لم يدر في أيها كانت لتساويها في الحسن والزينة، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن الخزف على الجمال التي قدرت بعشرة آلاف جمل، وأفردت للرجالة والمنقطعين ثلاث مئة جمل، وقيل خمس مئة، ونثرت على الكعبة حين شاهدتها وقيل لما دخلتها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها، ولم تستصبح عندها وفيها إلا بشموع العنبر. وكان معها ألف عجوز، واعتقت ثلاث مئة عبد، وثلاث مئة أمة، وسقت جميع أهل الموسم السَّوِيقُ بالطَّبَرْزَد[xxxi] والثلج، وأعطت المجاورين عشرة آلاف دينار، وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، حتى ليقال أنفقت من الأموال الجزيلة ما لا يوصف بعضه عن زبيدة ولا غيرها من بنات الخلفاء ونساء الملوك[xxxii].

وفي سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م حجت أسماء بنت شهاب السيدة الحرة الصليحية زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي ملك اليمن ومكة في موكب فيه مائتي جارية مزينات

بالحلي والجوهر وبين يديها الجَنَائب[xxxiii] بمراكب الذهب المرصعة وفيها يقول الشاعر[xxxiv]:

قلت إذ عظَّموا لبلقيس عرشاً: دُست أسماء من عرش بلقيس أسمى

وحجت أرجوان(ت٥١٢هـ/١١١٨م) أم الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥-١٠٩٥م) ثلاث حجج كما تحج أمهات الخلفاء[xxxv].

وشهدت سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م أي خلال العصر العباسي الرابع أو عصر نفوذ السلاجقة (٤٤٧-٦٥٦هـ/١٠٥٦- ١٢٥٨م) عدة مواكب نسائية منها موكب زمرد خاتون(ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله(٥٧٥ -٦٢٢هـ/ ١١٨٠- ١٢٢٥م) وخاتون ابنة الأمير مسعود السلجوقي، وحجت معها الخاتون أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين صاحب الشام، والخاتون الثالثة ابنة الدقوسي صاحب أصبهان[xxxvi]. ووصف ابن جبير الوضع في الموصل واستعداد الخاتونتين أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود للحج فيقول: "ومن أحفل المشاهد الدنيوية المربية بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين: أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة. ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهِلّة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات، فلا تكاد تبين من القبة موضعا، ومطيتاها ترحفان بها زحفا، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب، ومراكب جواريها كذلك؛ مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره. وكان مشهدا أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد

القهار، لا شريك له"[xxxvii]. ويذكر ابن فهد أن مواكبهن جمع لم يصل قط مثلهُ من أمراء العجم الخراسانيين[xxxviii].

وفي عام ٥٨٥هـ/٩٠٦م حجت زمرد خاتون مرة أخرى وتميز موكبها بتجمل هائل، وسار في خدمتها صندل الخادم وطاشتكين وطغرل صاحب البصرة وكان معها في موكبها ألفي جمل، وأنفقت في حجتها ما يقرب من ثلاثمائة ألف دينار[xxxix]حتى ليقال: لم تحج والدة خليفة في حياته إلا هي وأرجوان أم المقتدي وزبيدة أم الأمين"[xl]. ويعلق الجزيري على هذه المقولة قائلا:" لعل القائل لم يطلع على حجة الخيزران أم هارون الرشيد ولا على حجة والدة المستعصم[xli]. وفي كل هذه المقولات مايفيد بتباري نساء البيت العباسي خاصة أمهات الخلفاء في الصرف على مواكبهن في الحج .

ولم تقتصر المواكب النسائية على وجهتهن إلى مكة بل كان لهن مواكب مماثلة عند توجههن إلى مدينة الرسول ﷺ وإن كان المعلومات المتيسرة عنها أقل بكثير مما هي في مكة. فمن ذلك موكب خاتون ابنة الأمير مسعود بعدما فرغت من حَجّها متوجهة في السادس من محرم سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله، وقد رحلت إليه في موكب مهيب، وهي راكبة في قبتها، وحولها قباب كرائمها وخدمها، والقُراء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، ومشت إلى أن سلمت على النبي ﷺ، والخَوَل أمامها، والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادة بذكرها، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها. ثم صلت في الحوض بإزاء المنبر، ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال: إنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخي الستر عليها، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها، واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة. فما زالت في موضعها إلى الليل[xlii].



ويصف ابن جبير موكب عودتها إلى بلادها بأنها استقلت هودجاً عليه جِلال مذهبة، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات، ولها الرايات والطبول والأبواق تُضرب عند ركوبها ونزولها[xliii]. وقد يعود سبب خروجها في موكب بهذا القدر من الأبهة والإجلال إلى مكانة والدها الحاكم، وأن دولته قد بلغت شأناً كبيرا من التقدم والتوسع والرفاه الاقتصادي.

أما هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر[xliv] فوصفه ابن جبير بأغرب ماشاهد من الهوادج فأذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً؛ وكذلك كان هوادج حرم الأمير وحرم قواده، وهوادج لم يستطع ابن جبير تقييد عدتها عجزاً عن الإحصاء. فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق[xlv].

كذلك من ضمن المواكب موكب ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م حيث تذكر المصادر أن الخليفة احتفل بها، وجهزها بما يليق بها[xlvi].

ولما حجت والدة الخليفة العباسي المستعصم بالله(٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م كان قوام موكبها ألف وسبعمائة وثلاثون جملاً. ويذكر ابن فهد؛ أن الخليفة المستعصم بالله جهز الحجاج مع والدته، وجهز لهم السلطان نور الدين ابن رسول هدية عظيمة وأمر متولي مكة الشلاح[xlvii] بخدمتهم، وإقامة حرمتهم وتوجه في خدمتها الأمير مجاهد بن آيبك الدواداري وسيف الدين قيران أمير الركب وخلع على من كان بخدمتها وأنعم على مجاهد الدين الدوادار بخمسة عشر ألف دينار عينا وحلة وفرسا[xlviii].

أما آخر موكب حج نسائي عثرنا عليه خلال فترة البحث هو موكب ملكة مصر شجرة الدر الصالحية زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب(ت٦٥٥هـ) عندما خرجت حاجة من مصر في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م فى موكب رسمى يليق بمكانتها تحيط

به مظاهر الاحتفال والأبهة والزينة، وقد أعد لها زوجها محملاً فخماً من قافلة كبيرة فيها الخدم والجنود حرس خشية عليها من أخطار الطريق واللصوص، وعمل لها احتفالاً كبيرًا بهذه المناسبة. وقيل إنها أول من ابتدأ تقليد خروج المحامل مع قافلة الحج، ثم صار خروج المحمل على تلك الصورة عادة يقوم بها ملوك مصر كل سنة، ويبالغون فى الاحتفاء به[xlix].

ولعل من المفيد قبل ختام فقرة المواكب النسائية أن نورد تصنيف الرحالة ابن جبير(ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) لهوادج النساء في الحج وفقا للمنزلة الاجتماعية لهن؛ فذكر: الكجاوات أو القشاوات ووصفها قباب بديعة المنظر عجيبة الشكل توضع على محامل فوق الإبل، وهذا النوع من المراكب كان مخصص لعلية القوم أصحاب الأموال والمناصب الرفيعة[l]. ومنها الهوادج المكسوة بأنواع الحرير و ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض. وذكر الهوادج الفخمة، وهي عبارة عن صناديق كبيرة تحمل فوق جملين[li].

ومنها: الشقاديف؛ جمع شقدف، وهي أشباه المحامل أحسن أنواعها اليمانية مريحة، عليها ظلائل تقي حرّ الشمس هي من مراكب الأغنياء، وهي أقل من الكجاوات في الفخامة والراحة. ومنها: المحارات وهي محامل صغيرة ويذكر ابن جبير: "الشقادف أبسط وأوسع والمحارات أضم وأضيق"[lii].

ومنها العجلة أو العربة؛ وهي التي تجرها الإبل، ويكون عليها قبة[liii].

أما عن مدة رحلة الحج فهي بلا شك تخضع للترتيب المتبع من قبل منظمي الرحلة، وفي العصر العباسي يذكر أن خروج الحاج من بغداد كان في سابع عشر من شوال، وقد تستمر رحلة الحج ثلاثة شهور وثمانية عشر يوما كما حدث في رحلة حج

والدة الخليفة المستعصم بالله ٦٤١هـ/ ١٢٤٤م حيث كان تاريخ عودتها ووصولها إلى بغداد في خامس صفر سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م [liv].

وقد تخرج إلى مكة وتقضي فيها شهر رمضان وتقيم فيها حتى وقت الحج فتحج كما فعلت الخيزران في سنة ١٧١هـ[lv].

وعادة ما يصحب المرأة واحد أو أكثر من محارمها فشجاع أم الخليفة المتوكل حجت مع ولد ولدها محمد المنتصر بالله وشيعها المتوكل إلى النجف عام ٢٣٦هـ/ ٨٥١م[lvi].

وحجت جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٨م بمعية أخيها إبراهيم[lvii].

أما عن رحلة وداع واستقبال النساء عند خروجهن للحج وبعد عودتهن من الحج فهي أيضا تتفاوت من امرأة لأخرى؛ ويبدو أن الأمر راجع إلى شهرتهن ومكانتهن في المجتمع؛ فيروى أن معظم قيان وقينات الحجاز استقبلن المغنية الشهيرة جميلة عند قدومها لتأدية فريضة الحج وفي رواية خرج أبناء مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها ولما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها[lviii].

ولما حجت أم الخليفة المستعصم بالله ركب ولدها الخليفة المستعصم بالله لوداعها[lix] ولما عادت الخيزران من الحج خرج شريك قاضي الكوفة يتلقاها وحمل معه خبزا فقال الشاعر[lx]:

فما لك حين تخرج كل يوم   تلقى من يحج من النساء
وسودت القميص فصرت فيه   تطوف ياشريك مع الإماء

وخرج مؤيد الدين محمد بن العلقمي وسائر أرباب المناصب لتلقي والدة الخليفة المستعصم عند عودتها في ثالث صفر سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م[lxi] .

من خلال ما سبق يتبين مدى الترف والبذخ والمباهاة التي كانت عليها مواكب الحج النسائية، وما يصحبها من النفقات والأمتعة، وقد اقتصرت هذه المواكب على علية القوم، وأصحاب المناصب الرفيعة في الدولة. وقد بدأت في العصر الأموي وكثرت في العصر العباسي الأول، وعظم شأنها في العصور العباسية التالية . حيث أظهرن من التجمل ما يتجاوز حدود الاستطاعة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فقد رأينا أن المرأة الحاجة تُظهر من الأبهة والمبالغة في الصرف على حجها والمفاخرة في المواكب، واصطحاب الخدم والحشم والأعوان مايفوق التصور، ويدعو إلى التوقف عنده، ومناقشة ماقد يظهر فيه للقارىء أنه من قبيل المبالغات، على أن الباحثة تجد صعوبة في التشكيك في حجم تلك التكاليف ومدى دقتها؛ لأن معظم المصادر التي أوردت تلك الأرقام معظمها معاصر للأحداث أو قريب للمعاصرة؛ وليس لدى الباحثة من الأدلة ما يدحضها. ومن ناحية أخرى فإن بعض تلك المبالغ تصرف على إصلاحات في مكة أو صدقات على ضعفائها والمجاورين بها- كما سيرد- مما يبرر الزيادة الكبيرة في مقاديرها يضاف إلى ذلك أن معظم هذه الأرقام مدعومة من خلفاء ذلك الزمان وسلاطينهم أي أنها من أموال الدول.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية لم تسعفنا بذكر أي من نساء الخلفاء الفاطميين وبناتهم وبنات أكابر رجال دولتهم من حيث تأديتهن للحج طوال سني حكمهم في مصر وقبل ذلك في أفريقيا. ولا غرابة في ذلك فالخلفاء الفاطميون أنفسهم لم يؤثر عنهم أنهم أدوا فريضة الحج والعمرة إلى مكة المكرمة، وزيارة مدينة الرسول ﷺ، وقد عرض أحد الباحثين لموضوع عدم حج الفاطميين وناقشه بإفاضة مبديا بعض الأسباب والتبريرات الداعية إلى ذلك[lxii] مما لا نرى مناسبة للتفصيل فيها في هذا البحث المتخصص.

الأعمال الخيرية والعطايا لنُخب النساء في الحج:

كان لنُخب النساء مساهمات فعالة في أفعال الخير منذ خروجهن للحج ومغادرتهن منازلهن؛ فمن ذلك إغداق العطاء في طريق الحج، أو في مكة، أو في منطقة المشاعر المقدسة؛ فقد وزعن أمهات المؤمنين العطايا والصلات في حججهن سنة ٢٣هـ وفي رواية أعطت كل واحدة منهن أم معبد بنت خالد بن خليف خمسين دينارا وصلة[lxiii].

وفي العصر الأموي أجزلن نساء البيت الأموي العطاء والكساوي والألطاف عند حجهن مثل عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان[lxiv]. وعاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[lxv].

وأما أم عمر بنت مروان بن الحكم فقد قالت لأشعب بن جبير المدني لما حجت: أنت أعرف الناس بأهل المدينة فأذن لهم على مراتبهم[lxvi].

وأنفقت أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان بسخاء كبير على أهل الحرمين وورد عنها القول: "جعل لكل قوم نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والعطاء والله للصلة والمواساة أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع ومن الشراب البارد على الظمأ". فكانت تبعث إلى نسائها فتجمعهن وتكسوهن الثياب الحسنة وتعطيهن الدنانير وتقول: "وهل ينال الخير إلا باصطناعه" و: " ما حسدت أحدا قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك"[lxvii]. وكانت فاطمة بنت عبدالملك توزع الأموال في موسم الحج[lxviii].

ومن نساء العصر الأموي الموسرات عائشة بنت طلحة التي كانت تعد لمن يجيء إليها مُسَلِّما أو سائلا سواء من أهالي مكة أو من الوافدين إليها كسوة وألطاف؛ فجاءتها الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية وإخوتها، ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة من الخلع والألطاف[lxix]، وأعطت المغني الغريض خمسة آلاف درهم وثيابا عدنية وألطاف[lxx]. وقدمت

سكينة بنت الحسين الأعطيات والهبات في موسم الحج وقد أمرت مرة بتوزيع جمل قوي يحمل أثقالاً ومائة دينار[lxxi].

وتبارين نساء الخلافة العباسية في الإصلاحات التي باتت شواهد على جودهن وحُسن صنيعهنّ على مر السنين، وقد كلفهن ذلك نفقات طائلة؛ فلما حجت الخيزران زوجة المهدي في سنة ١٧١هـ/٧٨٨م أنفقت أموالا كثيرة في الصدقات وأبواب الخير؛ فقد اشترت الدار المعروفة بدار الخيزران عند الصفا، وجعلت الموضع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا يصلى به، وأمرت ببناء القصور والحصون والعديد من المرافق في طريق الحج، وعمَّرت الاستراحات في منى وعرفات[lxxii]. وقسمت بالمدينة المنورة أمولا وأجازت بجوائز عظيمة وزوجت أيتاما وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب ، وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطونه[lxxiii].

أما السيدة زبيدة زوجة الرشيد فقد قامت بالكثير من المآثر الجليلة التي خلها التاريخ فقد أنفقت في إحدى حجاتها أربعة وخمسين ألف ألف[lxxiv]، وفي رواية أخرى أنفقت في مكة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[lxxv]؛ فعندما حجت ورأت حجاج بيت الله الحرام يقاسون الأمرين من قلة المياه وصعوبة الحصول عليها فأمّنت لهم المياه العذبة كما سقت أهل مكة بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم فقال لها وكيلها : يلزمك نفقة كثيرة فقالت: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار، فبلغت النفقة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[lxxvi]. وحفرت لهم الآبار والعيون منها: عين مشاش[lxxvii] التي حفرتها ومهدت الطريق لمائها من كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا إلى مكة كما عملت على إجراء عين وادي نعمان[lxxviii] إلى عرفات، وأمرت بعمل أحواض الوضوء في الحرم المكي، وزودت الطريق من عرفات إلى مكة بآبار محفورة، وأوقفت عليها من مالها الخاص ما يقارب ثلاثين ألف دينار سنوياً، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة من مصانع وبرك أحدثتها، وقيل إنها بنت حائطاً من بغداد إلى مكة،

وحفرت الآبار في كل مرحلة[lxxix]، كما أمرت السيدة زبيدة بحفر البرك والمصانع على طريق الحجاج ليستفيدوا منها[lxxx]. وكانت تحتسب الأجر في كل ذلك فقد ورد عنها القول:" غفر لي الله بأول معول ضُرب في طريق مكة "[lxxxi]. وفي حجتها عام ٢١١هـ/ ٨٢٧م أنفقت في بناء المساجد منها مسجد في طريق مكة بين العقيق والعذيب[lxxxii] .

ولما حجت شجاع التركية - أم الخليفة المتوكل على الله - في سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥١م أنفقت أموالاً جزيلة وأمرت لكل رجل من الطالبيين والعباسيين ألف درهم ولأبناء المهاجرين بخمسمائة درهم ولكل امرأة من الهاشميات بخمسمائة درهم، وأمرت في حجة أخرى لها في سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦١م بإجراء الماء من عرفات إلى مكة وكلفها مائة ألف دينار [lxxxiii].

وكان للسيدة شغب والدة الخليفة العباسي المقتدر بالله اهتمامات كبيرة بالأماكن المقدسة في مكة، فقد كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث معهم في كل موسم خزانة الشراب والأطباء. وكانت تأمر بإصلاح الحياض في مكة المكرمة؛ فعمرت عدة منشآت مائية منها: في عام ٣٠٢هـ/ ٩١٥م حيث قامت بعمارة البئر المعروف بسبيل الجوخي والآبار التي وراءه[lxxxiv]. وأمرت في سنة٣١٠هـ/٩٢٣م غلامها لؤلؤ بإلباس الاسطوانة التي تلي باب الكعبة صفائح الذهب من أسفلها إلى أعلاها وكان بعضها قبل ذلك ملبسا بصفائح الذهب، والبعض الآخر كان مموها[lxxxv]. وفي عام ٣١٥هـ/٩٢٨م عمرت خمس برك بأرض عرفة وذلك لسقيا الناس في مواسم الحج[lxxxvi].

أما السيدة جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان فقد قدمت كثيرا من أفعال الخير والبر بمكة عندما حجت سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م فمنها: وزعت عند رؤيتها الكعبة عشرة آلاف دينار للفقراء، وسقت أهل الموسم السويق بالسكر والثلج، كذلك أعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية وكان من ضمن نفقاتها أيضا أن قامت بتوزيع المال على المجاورين بمكة حتى أغنتهم وقامت بخلع خمسين ألف ثوب على كبار الناس[lxxxvii].

وقد قدمت الملكة أسماء بنت شهاب الصليحية زوجة علي بن محمد الصليحي صدقات كثيرة لأهل مكة حين حجت سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م[lxxxviii].

وأوقفت قهرمانة المقتدي عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م الرباط المعروف بالفُقَّاعية عند الباب المنفرد في زيادة دار الندوة على المنقطعات الأرامل[lxxxix].

وكذلك كانت أرجوان بنت عبدالله قرة العين أم الخليفة المقتدي امرأة صالحة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً وآثاراً حسنة[xc].

أما الملكة الحرة عَلَم أم فاتك آخر ملوك دولة آل نجاح باليمن فقد كانت موفقة للخير، تحج بأهل اليمن برا وبحرا فيأمنون بخفارتها من الأخطار والمكوس[xci].

وكان للخواتين ابنة الأمير مسعود أم معز الدين صاحب الموصل وابنة الدقوسي صاحب أصبهان أعمال بر في طريق الحج ونفقات على الناس في حجهن[xcii] ومنها ما خصصته الخاتون ابنة الأمير مسعود من ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل وثلاثين مثلها للزاد بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان فيها كسوة للناس[xciii] وفي ذلك يذكر ابن جبير: " أخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالا عظيما وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك والله يهدي من يشاء من عباده"[xciv].

وكانت السيدة زمرد خاتون – أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي- كثيرة البر والصدقات على أهل الحرمين، ويقال أنها أنفقت ثلاثمائة ألف دينار في حجتها عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م، وأمرت بحفر الآبار في كل من مكة والمدينة، وأصلحت البِرَك والمصانع[xcv]. وأوقفت في ذلك العام رباطا في الجانب الشمالي من المسجد الحرام يعرف برباط أم الخليفة على الفقراء والصوفية ذوي التقى والعبادة والعفاف والزهادة والصلاح والرشاد[xcvi].

وكان لخاتون ابنة الأمير مسعود أعمال بر في طريق الحج عندما حجت سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م حيث خصصت ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل، وثلاثين مثلها للزاد، بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان عليها كسوة للناس[xcvii].

وأوقفت طاب الزمان الحبشية عتيقة المستضئ العباسي في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م مدرسة استقطعت من دار زبيدة على عدة من فقهاء الشافعية[xcviii].

وقامت زوجة تقي الدين بن صلاح الدين يوسف الأيوبي في عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م بعمارة بئر برباط الدمشقية في أسفل مكة[xcix].

وقد أوقفت الأختان أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتا القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي رباط ابن السوداء لسكناه به ويقال له أيضا رباط الهرّيش قرب موضع الذي يقال له الدريبة في عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م على الصوفيات المتدينات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب[c].

أما ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل فقد اتفق حجها في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م مع حدوث فتنة بمنى وبمكة وغارات على الحجاج حتى جاء أمير الحاج العراقي محمد بن ياقوت فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين فبعثت ربيعة خاتون إلى أمير مكة قتادة بن إدريس الحسني (٥٢٧-٦١٧هـ/١١٣٢-١٢١٩م) تقول له: ما ذنب الناس قد قتلت القاتل وجعلت هذه وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء والأموال في الشهر الحرام والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن، فكف عنهم وطلب مئة ألف دينار وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون مابين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان[ci].

وكانت والدة الخليفة المستعصم بالله سيدة كثيرة الصدقات والخلع على الأمراء وأهل الدولة المقيمين في مكة. وكانت سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م لم يُر أكثر منها خيرا حتى اشترى أهل مكة الأملاك، وعمروا القصور، وحلّوا نساءهم بالذهب والفضة، وتظاهروا بالنعم[cii] .

ولما حجت زوجة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول في عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م قامت بتعمير مسجد الهليلجة بالتنعيم المعروف باسم أم المؤمنين عائشة وحفرت بقربه بئراً عذبه[ciii]. كما عمرت في عام ٦٤٥هـ/١٢٤٨م بئراً آخر بمنى يقال له بئر أم الحمام بقرب أم النخلة[civ].

وقد ورث نساء البيت العباسي هذا النهج من الحرص على الحج وتقديم الصدقات والأعمال الخيرية إلى ما بعد فترة البحث فالسيدة زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستعصم بالله(ت٧٢٦هـ/ت ١٣٢٥م) كانت تحج سنويا وتأخذ معها عدداً من الفقراء والخدم[cv].

تلك القُربات والنفقات السخية وأمثالها توقفنا على الثراء والرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به النُخب النسائية في فترة البحث، وحرصهن على يلحقن حجهن بالمزيد من العطايا والأعمال الخيرية التي خلدها لهن التاريخ.

ويظهر من خلال الملحق الموضح لمن حج من نُخب النساء في العصرين الأموي والعباسي أن نسبة الحاجّات وتجملهن في الحج في العصر العباسي تفوق العصور الأخرى؛ وربما يعود ذلك لطول فترة الخلافة العباسية، وكثرة الأموال في خزائن الدولة. كما أن معظم صاحبات المواكب كُنّ من خارج شبة الجزيرة العربية من ذوات المكانة الاجتماعية مثل أمهات الخلفاء وبنات الملوك والأمراء والتجار.

ولوحظ أن أكثر النساء يحرصن على الحج مرة أو مرتين إلا أن بعضهن حجّجن عدة مرات مثل عائشة بنت طلحة ولعل مرجع ذلك إلى الحديث الذي روته عن خالتها أم المؤمنين عائشة رَضِي الله عَنْها قالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُول الله، ألا نَغْزُو وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَال: "لَكِنَّ أَحْسَنَ الجِهَادِ وَأَجْمَلهُ الحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ" فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلا أَدَعُ الحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُول الله صَلى الله عَليْهِ وَسَلمَ[cvi]. وقد تصل أحيانا عدد حجاتهن إلى ثلاثين حجة مثل نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب(ت بعد ٢٠٨هـ/٨٢٤م)[cvii] وحجت أم سالم بنت مالك الراسبية البصرية سبعة عشر حجة[cviii].ويقال أن أرجوان قرة



العين أم الخليفة المقتدي حجت مرارا[cix]، وعُرفت الملكة اليمانية عَلَم أم فاتك بن منصور بكثرة حجها[cx] .

تعددت أوجه الخدمات التي قدمتها النساء عند حجهن لاسيما سيدات البلاط العباسي وصدقات وأعطيات نساء اليمن والعراق والشام؛ وقد حظيت مكة بقدر كبير من هذه الانجازات فبالإضافة إلى الأعطيات التي وزعنها منذ خروجهن للحج وحتى عودتهن إلى بلادهن فقد ساهمن في الكثير من الأعمال الخيرية لاسيما حفر الآبار وبناء البرك وإجراء العيون مما ساهم في سقاية الحجيج وتيسير وجود الماء بعد أن كان الحجاج يلاقون من المشقة والتعب في الحصول على الماء. وحرصن على عتق الرقيق وتوزيع الكساوي على الفقراء والمجاورين في موسم الحج. ووقف الدور على الفقراء، والأربطة على طلبة العلم، وعمران المساجد.

ملحق : من حج من نخب النساء في العصرين الأموي والعباسي

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أمنة بنت محمد(أبو البركات بن الران) بن الحسن بن طاهر أم محمد القرشية	العباسي	٥٥٥هـ	ثلاث حجج	أوقفت رباطا لسكنى الفقراء من النساء	ابن عساكر: تراجم النساء، ص٤٩، ٥٠.
أرجوان بنت عبد الله قرة العين جارية الذخيرة أم ولد أرمنية أم الخليفة المقتدي(ت ٥١٢هـ)	العباسي	لم يحدد	ثلاث حجج ولدى الصفدي حجت مراراً	امرأة صالحة كثيرة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً ولها فيها آثاراً حسنة.	ابن الجوزي، ج١٦ص١٦٥؛ الصفدي، ج ٢٤ ص١٧٤ ابن كثير، ج١٢ ص١٨٣؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦-٤٨٧؛ كحاله، ج٤ ص ١٩٢.
أسماء بنت شهاب الصليحية السيدة الحرة الكاملة زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي صاحب اليمن ومكة ووالدة ابنه الملك المكرم أحمد بن علي يخطب لها على المنابر(ت ٤٨٠هـ)	العباسي	٤٥٥هـ وإما ٤٥٨ أو ٤٥٩هـ	لم يحدد	لقبت بكافلة المؤمنين كان لها صدقات كثيرة وكرم فائض وعدل وافر.	ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ ابن الأثير، ج١٠ص١١؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ ص١٩٥- ١٩٦، ٢٢٧؛ العقد، ج٦ ص٢٣٩، ٢٤٤؛ ابن كثير، ج ١٢ص٨٩، ٩٠؛ ابن تغري بردي، ج٥ ص٧٢؛ ابن فهد، ج٢ص٤٦٨؛ الرشيدي،ص١١٣-١١٤؛ الحضراوي، حسن الصفا، ص١٥٢؛ الزركلي، ج١ص٣٠٥-٣٠٦.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أسماء بنت محمد(أبو البركات بن الران) بن الحسن بن طاهر القرشية(ت٥٩٥هـ)	العباسي	٥٥٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	ابن عساكر، ص٣١، ٤٩.
أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية	العباسي	٤٢١هـ	لم يحدد	لم يحدد	ابن عساكر، ٥٠.
أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان زوج الوليد بن عبدالملك	الأموي	٩١هـ	لم يحدد	حجت بجواريها ومنهن الشهيرة غاضرة	البلاذري: أنساب الأشراف، ج٨ص ٨٩؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٦ص٣٥؛ ابن عبدربه، ج ٦ ص١٤١؛ ابن عساكر، ص ٤٨٠؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢ ، ص٧٣.
تاج النساء – الناس– بنت رستم بن أبي الرجا الأصبهانية (ت٦١٠هـ)	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	لها رباط معروف برباط بنت التاج في أجياد .	الفاسي: العقد الثمين، ج٨ ص١٩١ ج ١ ص١٢٢ ؛ وفي شفا الغرام، ج ١ص٣٣٥.
جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر(٥٨٧-٥٩٧هـ)	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	ابن جبير ، ص١٠٧

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
جميلة السلمية(ت ١٢٥هـ) كانت زوج أحد موالي بني الحارث من الخزرج فقيل مولاة الأنصار وقيل مولاة الحجاج بن علاط السلمي فنسبت إلى بني سليم	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	خرج معها ثلاثون رجلا وخمسون قينة أنفقت عليهم من مالها الخاص.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٧ص١٢٨؛ النويري، جـ٤ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٢١٢-٢١٣.
جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحسن بن حمدان (ت٣٧١هـ)	العباسي	٣٦٣هـ ٣٦٦هـ ٣٦٨هـ	لم يحدد	لها نفقات بالطريق. سقت أهل الموسم السويق بالطبرزد والثلج. أعتقت ثلاث مئة عبد وثلاث مئة أمة. كست المجاورين. خلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب	ابن الجوزي،ج١٤ ص٢٤٨؛ الفاسي:شفاء،ج٢ ص٣٥٣؛ الفاسي:العقد ج١ ص١٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤١٤-٤١٥؛ الذهبي:ج١ ص٢٢٦؛ اليافعي: ج٢ ص٣٨٥؛ ابن العماد، ج٣ ص٥٥؛ ابن تغري بردي، ج٤ص١٢٦؛العمري، ص٣٧٠ ؛ كحالة، ج١ ص٢١٤-٢١٥
أم الحسين بن شهاب الدين الطبري	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	سبيل بالمسعى قرب المسيل	كحاله،ج١ ص٢٦٢.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمن	العباسي	٥٧٩هـ	مرة واحدة	لها موكب ونفقات وسقيا للسبيل والحجاج.	ابن جبير ،ص١٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٠؛ كحالة، ج١ص٣١١.
أم خليل خديجة ابنة القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي .	العباسي	٥٩٠هـ	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بابن السوداء عام ٥٩٠هـ	الفاسي :شفاء ،ج١ ص٥٣٧؛ ابن فهد إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٦١ .
الخيزران بنت عطاء جارية المهدي يمانية جرشية الأصل اشتراها المهدي وأعتقها وتزوجها وانجبت له الخليفتين الهادي والرشيد (ت١٧٣هـ)	العباسي	١٧١هـ	لم يحدد	أوقفت الدار المعروفة بها عند الصفا أنفقت أموالا كثيرة في الصدقات .	الأزرقي ، ج١ص ٦٣٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ ص٢٣٥؛ الخطيب البغدادي، ج١٤ ص٤٣٠؛المسعود، ج٣ص٣١٣،٣٢٤؛ الجزيري،ج٢ص٤٨٢ ؛ ابن فهد إتحاف الورى ،ج٢ ص٢٢٥؛ الفاسي: شفاء الغرام،ج١ ص٣٦٢؛الجزيري،ج ٢ص٤٧٠؛الزركلي، ج٢ص٣٢٨، ج ١ ص٣٩٨؛ كحالة، ج١ ص٣٩٥.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
ابنة الدقوسي صاحب أصبهان	العباسي	٥٧٩هـ	لم يحدد	كان لها موكب عام ٥٧٩هـ	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٠؛ الجزيري: ج٢ ص٥٧٣.
ربيعة خاتون (ت٦٤٣هـ) أخت الملك العادل صلاح الدين الأيوبي	العباسي	٦٠٨هـ		أنفقت أثناء حجها عام ٦٠٨هـ	الفاسي:شفاء، ج٢ ص٣٧١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣ص١٠؛الجزيري، ج٢ ص ٤٨٦؛
زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستعصم بالله (ت٧٢٦هـ)	العباسي	لم يحدد	تحج سنويا	يحج بصحبتها سنويا عدد من الفقراء والخدم.	ابن بطوطة، ص١١٥؛ كحاله، ج٢ص٤.
زبيدة أمة العزيز أم الأمين بنت جعفر بن الخليفة أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد وأم الأمين (ت٢١٦هـ)	العباسي	١٦٨هـ ٢٠٨هـ ٢١١هـ	غير مرة هكذا ذكر ابن خلكان و الفاسي	أنفقت في بناء البرك والآبار والمساجد في مكة والمدينة. وكان لها نفقات بالطريق في أثناء الحج . وأجرت عيونا من الحل، إلى الحرم من المشاش، واتخذت لها بركا تكون فيها السيول، وأجرت بها عيونا من حنين واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطها سد تجتمع فيه السيل .	الفاكهي،ج٢ ص٣٣ ؛الخطيب البغدادي، ج١٤ص٤٣٣؛ ابن جبير،ص١٥٢؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤ ؛ الفاسي:العقد، ج٥ص٢٨، ج٨ص٢٣٦-٢٣٧؛ شفاء، ج١ ص٥٥٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ص٢٤٨، ٢٨٥؛الجزيري،ج٢ ص٤٨٢، ٤٨٤.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
زوجة الملك المنصور صاحب اليمن	العباسي	٦٤٤هـ	لم يحدد	عمرت مسجد الهليلجة- مسجد عائشة:التنعيم- وعمرت بقربه بئرا عذبة	الفاسي: شفاء، ج١ص ٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٧.
زمرد خاتون صفوة الملوك بنت الأمير جاولي بن عبدالله الدمشقيةت٥٥٧هـ أخت الملك دقاق تاج الدولةصاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الملوك بوري وأم ولديه إسماعيل شمس الملوك محمود	العباسي	لم يحدد	أكثر من مرة	محبة للخير مكرمة لأهل العلم	ابن عساكر، ص١١٢؛ الزركلي، ج٣ص٤٩.
زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت٥٩٩هـ)	العباسي	٥٧٧هـ ٥٧٩هـ ٥٨٥هـ	لم يحدد	كثيرة البر والصدقات على أهل الحرمين. حفرت الآبار في كل من مكة والمدينة. أصلحت البرك والمصانع. عمرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة إلى جانبها وأوقفت رباطا في الجانب الشمالي من المسجد الحرام رباط أم الخليفة	الصفدي، ج١٤ ص٢١٣؛ الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٨؛ الفاسي:العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٢ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ص٥٩٩،١٦٣؛ كحاله، ٢ص٣٩.

المصادر والمراجع	أعمالها في الحج	عدد حجاتها	سنوات الحج	العصر الذى تنتمى إليه	المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها
ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج١٢ ص٤٧٠؛ كحالة، ج٢ص١٤٣.	لم يحدد	سبع عشرة مرة	لم يحدد	الأموي	أم سالم بنت مالك الراسبية البصرية تابعية من الثانية
ابن عساكر، ص١٢٨.	لم يحدد	مرتان	٥٥٦هـ	العباسي	ست العشيرة بنت عبدالله بن الحسن بن أبي الحديد السلمية
ابن عبدربه، جـ٦ص٣٠؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني،جـ١٠ص٥٦-٥٧؛ ابن واصل الحموي، جـ١ ص٤٣،٣٨٣؛ كحالة جـ٢ ص٢٠٩، ٢١٠.	لم يحدد	لم يحدد	٩٥هـ	الأموي	سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م)
الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ ص١٨٥؛ ابن الأثير، ج٧ص٥٦؛ ابن تغري بردي، ج٢ ٢٨٦؛الجزيري، ج٢ص٤٩٠.	حجت في تجمُّل زائد أمرت بإجراء الماء من عرفات إلى مكة	مرتان	٢٣٦هـ ٢٤٦هـ	العباسي	شجاع التركية (ت٢٤٨هـ)أم المتوكل على الله وقيل جدة المتوكل
البتنوني، ص ١٤٠؛ سيد بكر: ص٧٦.	لم يحدد	لم يحدد	٦٤٥هـ	العباسي	شجرة الدر الصالحية أم خليل (ت٦٥٥هـ) زوج الملك الصالح أيوب
ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٣٦٣؛ كحالة، ج٥ص٦٧؛ لصفدي، ج ١٦ ص١٦٧.	توفير الأشربه والأزاود للحجاج. تسهيل الطرقات. عمرت السبيل المعروف بالجوخي		٣٠٢هـ ٣١٠هـ ٣١٥هـ	العباسي	شغب (ت ٣٢١هـ) أم المقتدر بالله

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضيء العباسي	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	اوقفت الرباط المعروف بدار زبيدةعام ٥٨٠هـ	الفاسي: العقد، ج٨ ص٢٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٣.
عائشة بنت طلحة بن عبيدالله التيمية (ت١٠١هـ)	الاموي	٧٥هـ ٩٥هـ	لم يحدد	حجت بجماعة ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحال وبصحبتها حادي يباري بمظهرها شعرا.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج١٠ ص٥٦-٥٧؛ ابن عساكر، ص ٢٠٨؛ ابن واصل الحموي، ج١، ٦،٧٧ ،٢٨٣؛ الجزري: الدرر،ج١ص٢٧٠، ج٢ ٤٨٢؛ كحاله، ج٣ ص١٣٧-١٥٤
عاتكه بنت معاويه بن أبي سفيان	الاموي	لم يحدد	لم يحدد	حجت مصطحبه جواريها ووزعت الكسوة والألطاف والمال	البلاذري: انساب الأشراف، ج٥ ص٢٩٧؛ أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني، ج٧ص١٣٦، ٢٣٧، ؛ابن عبدربه، ج٤ص٣٦٣؛ كحاله، ج٣ص٢١١.
عاتكه بنت يزيد بن معاوية زوجة عبدالملك بن مروان وأم ولده يزيد(ت بعد ١٢٦هـ)	الاموي	٧٥هـ	لم يحدد	حجت ومعها الجواري وأنفقت مالها على الفقراء	البلاذري: انساب الأشراف، ج٥ ص٣٧٧؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج١٠ص٥٧؛ ابن عبدربه، ج٤ ص٤٠٧، ج٦ ٢٦٩ ؛ ابن عساكر، ص٢٠٥، ٢٠٦ ؛ ابن واصل الحموي، ج١، ص٢٨٤؛ النويري، نهاية، ج٤، ص٢٥٨؛ كحاله، ج٣ ص ٢١٨.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
علم أم فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح الملكة اليمانية الحرة (ت ٥٤٥هـ)	العباسي	٥٢٩هـ	كثيرة الحج		عمارة اليمني، ص١٦٨؛ الديبع، ص ٣٥٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٤٦٨؛ الزركلي، ج٣ص٢٤٨؛الحالة، ج ٣ ص ٣٣٠.
فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أنو شروان الحسني (ت ٥٧٧هـ).	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	أوقفت رباط الخاتون على باب السلام خارج المسجد الحرام المعروف في عصر ابن فهد ببيت محمود الصوفية الرجال الصالحين من العرب والعجم .	الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٤٤ .
فاطمة بنت عبدالملك بن مروان زوجة عمر بن عبدالعزيز	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	اصطحبت معها الجواري والخدم ووزعت الأموال والهدايا.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ١ص٧٦، ج ٢ص٣٥١؛ ابن عبد ربه، ج٦ص١٠٠؛ كحاله، ج٤ص٧٥. العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.
قهرمانة الخليفة المقتدي العباسي ٤٦٧ -٤٨٧هـ	العباسي	٤٩٢هـ	لم يحدد	أوقفت رباط الفقاعية على المنقطعات والأرامل.	الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٤٨٩ .

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
مريم أم عيسي ابنة القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي	العباسي	٥٩٠هـ	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بابن السوداء.	الفاسي: شفاء، ج١ص٥٣٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٦١.
أم المستعصم العباسي ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ	العباسي	٦٤١هـ	لم يحدد	حجت مع دواداره، وجهز لهم السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول هدية عظيمة. وأكثرت من الصدقات والخلع علي الأمراء وأهل الدولة المقيمين بمكة.ولها صدقات جزيلة أغنت بها كثيرا من الفقراء.	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣ ص٦٠ - ٦١؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦.
أم مسلمة بنت هشام بن عبدالملك زوج عبدالعزيز بن الحجاج بن عبدالملك	الأموي	١٢٤هـ	لم يحدد	لم يحدد	الجزيري، ج١ ص٤٥٥.
أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخ نور الدين زنكي صاحب الشام	العباسي	٥٧٩هـ	لم يحدد	كان لها موكب عام ٥٧٩هـ	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٠؛الجزيري، ج ص٥٧٣؛ كحالة، ج٥ ص٦٤.
لبابة بنت عبدالله بن عباس زوجة الوليد بن عبدالملك والوليد بن عتبة بن أبي سفيان	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	كانت من أحسن خلق الله	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج٨ص١٩٥؛ ابن عبدربه، ج٦ ص١٠٤.
نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب	العباسي	٢٠٨هـ	٣٠ حجة	لم يحدد	العاملي، ص٥٢١؛ كحاله، ج٥ص١٨٧.

الهوامــش

i) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله(ت ٢٥٠هـ): أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ، تحقيق عبدلملك بن دهيش(مكتبة الأسدي : مكة المكرمة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) ج١ص ٢٧٠.

ii) الأزرقي: ج١ص ٢٧١.

iii) الأزرقي: ج١ص ٢٧٢-٢٧٣؛ الطبري، محمد بن جعفر(ت ٣١٠هـ): جامع البيان في تفسير القرآن(دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٨ص ١١٤.

iv) نظام الدين القمي، الحسن بن محمد بن الحسين(ت بعد ٨٥٠هـ) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) طبع بهامش كتاب جامع البيان للطبري، ج٨ص ٨٤-٨٥.

v) الأزرقي: ج١ص ٢٧٣، نظام الدين القمي، ج٨ص ٨٤-٨٥.

vi) الأزرقي: ج١ص ٢٧٣؛ مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري(ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف ، إشراف ومراجعة صالح آل الشيخ(دار السلام: الرياض ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص ١٢٠١؛ الطبري: جامع البيان، ج٨ص ١١٤؛ الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري(ت ٤٦٨هـ): أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان(دار الإصلاح: الدمام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص٢٢٥؛ وعن ضباعة العامرية انظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطا (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ج٨ص ١٢١.

vii) البخاري، محمد بن إسماعيل(ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري : موسوعة الحديث الشريف، باشراف ومراجعة صالح آل الشيخ(دار السلام للنشر والتوزيع: الرياض ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) حديث رقم ١٦٢٢ ص ١٢٨. وانظر أيضا حديث رقم ٣٦٩ص ٣٢؛ ابن حجر، أحمد بن علي(ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق قصي الخطيب وآخرين(دار الريان: القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) ج٣ص٥٦٥.

viii) سورة الحج : الآية ٢٧. وانظر : الطبري: جامع البيان ، ج٩ص١٠٦-١٠٧.

ix) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد(ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق مارسدن جونس(عالم الكتب: بيروت) ج٣ص١٠٩٠؛ ابن سعد ، ج٨ص ١٠٠؛ ابن حنبل(ت ٢٤١هـ): مسند أحمد بن حنبل (بيت الأفكار الدولية: الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ١٩٩٧؛ أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي التميمي(ت٣٠٧هـ): مسند أبي يعلى، تحقيق : حسين سليم أسد(دار المأمون للتراث : دمشق ١٤٠٤ / ١٩٨٤) ج٨ص١٢٩؛ ابن أبي حاتم، عبدالرحمن بن علي الرازي (ت٣٢٧ه): الجرح والتعديل، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي (مطبعة دائرة المعارف العثمانية: حيدرأباد الدكن ١٣٧١هـ/١٩٥٢م)ج٨ص٣٩٣ ؛ أبو الشيخ الأصبهاني، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان(ت ٣٦٩ هـ): أمثال الحديث ، تحقيق: عبد العلى عبدالحميد حامد (الدار السلفية : بومباي-الهند ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م) ج١ص٩٦ ؛ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر(ت ٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(دار المعارف: بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج٤ص٣٢٢ ؛ البوصيري، أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل(ت ٨٤٠هـ): إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار المشكاة للبحث العلمي (دار الوطن: الرياض ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج٣ص١٥٥؛ عمر

رضا كحاله: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (مؤسسة الرسالة : بيروت ١٩٧٧م) ج٣ ص١٩.

x) ابن سعد، ج٨ص ١٦٨- ١٧٠؛ البخاري، ص١٤٥- ١٤٦رقم ١٨٦١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(دار المعارف: القاهرة ١٩٧٩م) ج٤ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٤ص٨٧،٨٨. والطيالسة جمع طيلسان وهو كساء أخضر لا تفصيل له ولا خياطة أشبه بالشال أو الوشاح يوضع على الكتف. ابن منظور، محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ): لسان العرب المحيط ، تحقيق يوسف خياط(دار لسان العرب: بيروت)ج٢ص٦٠٤.

xi) ابن سعد ، ج٨ص ١٦٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤ص ٣٩٧؛ ابن حجر: فتح الباري،٨٨. ولم توافينا المصادر التاريخية بالسنة التي حجّج فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان أمهات المؤمنين ويصعب علينا تحديد تلك السنة لأنه من الثابت أن عثمان حج طيلة سنوات خلافته عدا السنة التي قتل فيها ٣٥هـ/٦٥٦م.

xii) أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين(ت ٣٥٦هـ): الأغاني، (دار الفكر : بيروت)جـ١٠، ص٥٧؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق : تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي (دمشق:١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ص٢٠٥، ٢٠٦؛ ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد (ت٦٩٧هـ) : تجريد الأغاني ، تحقيق : طه حسين وإبراهيم الأبياري(منشورات دار الكتاب العربي: القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) جـ١، ص١٢٨٤؛ النويري، أحمد بن عبدالوهاب(ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب(المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر: القاهرة) جـ٤، ص٢٥٨.

xiii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ١٠ص٥٧؛ ابن عساكر، ص٢٠٥، ٢٠٦ ؛ ابن واصل الحموي، جـ١ ص١٢٨٤؛ النويري، جـ٤ ص٢٥٨ ؛ كحاله، ج٣ص ١٥٠.

xiv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ١١، ص١٩٣؛ ابن عساكر، ص٢٠٨؛ المالقي، علي بن محمد المعافري(ت٦٠٥هـ): الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق عايدة الطيبي(الدار العربيـة للكتـاب: ليبيـا / تـونس ١٣٩٨هــ/١٩٧٨م)، ص٥٥؛ ابـن واصـل الحمـوي ، جـ١،ص١٢٨٤، ١٢٨٥ ؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد(ت ٩٧٧هـ): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر (دار اليمامة : الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٣م) ج٢ص٤٨١.

xv) أبـو الفـرج الأصبهاني: الأغـاني ، جـ١٠ص٥٦-٥٧؛ ابـن عسـاكر، ص٢٠٨؛ المـالقي، ص٥٥، ابن واصل الحموي ، جـ١ ص١٢٨٤، ١٢٨٥ ؛ ابن فهد، النجم عمر(٨٨٥هـ): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت(مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي: مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)ج٢ص١٢٨؛ الجزيري، جـ٢ ص٤٨١ - ٤٨٢.

xvi) أبـو الفـرج الأصـبهاني: الأغـاني ، ج٦ص١٣٥، ج٧ص١٣٦، ١٣٧؛ كحالـه، ج٣ص٢١١.

xvii) ابن عبدربه، أحمد بن محمد الأندلسي(ت٣٢٨هـ): العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري(دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٤ص٤٠٧، ج٥ص٣٢٣؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج١٠ص٥٧؛ كحاله، ج٣ص٢١٨.

xviii) انظر الهوامش: ١١ و ١٢ و١٣ و ١٤ من هذا البحث .
xix) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ١ص٧٦؛ ج٢ص٣٥١؛ العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.
xx) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٢ص٣٥١،جـ٦ص٣٥ ؛ الكتبي، محمد شاكر(ت ٧٦٤هـ): فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس(دار صادر: بيروت) جـ٢ ، ص٧٣؛ العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.
xxi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ٧ص١٢٨؛ ابن عساكر، ص٢١١ ؛ النويري ، جـ٤ ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٣١٢- ٣١٣.
xxii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٧ص١٢٨؛ القيان، تحقيق جليل العطية(مطابع رياض الريس: لندن) ص٦٦؛ المالقي، الحدائق، ص١٣٧؛ النويري ، نهاية ، جـ٤ ، ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٣١٢.
xxiii) الجزيري،ج٢ ص٤٨٣.
xxiv) الأزرقي ، ج١ص ٦٣٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥؛ الفاسي، محمد بن أحمد(ت ٨٣٢هـ): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق عمر تدمري(دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)ج١ ص٣٦٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ص٢٢٥؛الجزيري،ج٢ ص٤٨٣؛ خير الدين الزركلي: الأعلام (دار العلم للملايين: بيروت ٢٠٠٢م)،ج٢ص٣٢٨،ج١ص٣٩٨؛ كحالة،ج١ ص٣٩٥.
xxv) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي(ت ٤٦٣هـ): تاريخ بغداد(دار الكتاب العربي: بيروت) ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (دار الثقافة: بيروت ١٩٦٩م) ٢ص٣١٤، الجزيري:ج٢ ص٤٨٣ .
xxvi) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت ٨٤٥هـ): الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال (مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ص ٨١.
xxvii) المقريزي، ص ٨١.
xxviii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ ابن الأثير، علي بن محمد(ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ (دار صادر: بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٧ص٥٦؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٥.
xxix) الفاسي: شفاء، ص ٣٤٦- ٣٤٩؛ المقريزي، ص ١٢.
xxx) الكجاوة مثل الهودج يجلس فيها مبطنة بالديباج وقد وردت في الروايات بمسميات عدة فبينما استعمل ابن الجوزي وابن كثير والفاسي لفظ المحمل ذكر الذهبي واليافعي لفظ كجاوة وذكر ابن تغري بردي لفظ العمارية.
ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي(ت ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا و مصطفى عطا مراجعة نعيم زوزور(دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)ج٧ص٨٤؛ الذهبي الحافظ شمس الدين (ت٧٤٨هـ) : كتاب دول الإسلام (الهيئة المصرية العامة للكتاب : مصر ١٩٧٤هـ)ج١ص٢٢٧؛ اليافعي، عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨ه) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان(دار الكتب العلمية : بيروت١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) ج٢ص٢٨٩؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر(ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية في التاريخ(دار الفكر العربي: القاهرة

١٣٨٧هـ) ج١١ص٢٨٧؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص٣٥٣؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)ج٤ص١٢٦.

xxxi) السَّويقُ طعام يعمل من الحبوب بعد تحميصها ، ويمكن تحضيره بأشكال متنوعة ؛ منه الحلو ومنه الحامض، وذلك يعتمد على مايضاف إليه من عسل أو سكر أو خل أو غير ذلك وعادة ما يُحتفظ به لوقت الحاجة كأفضل أنواع الزاد و المؤنة حيث يمكن اختزانه لفترات طويلة، ولسهولة حمله في الأسفار. وأما الطَّبَرْزَد فهو السكر الأبيض الصلب يطحن قبل استعماله . الأزرقي، ج٢ص٢٤٩؛ ابن بكار، الزبير(ت ٢٥٦هـ): الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي العاني(مطبعة العاني: بغداد ١٩٧٢م) ص ٦٠؛ جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر(مطبعة المدني: القاهرة ١٣٨١هـ) ج١ص ٤٨-٤٩؛ المقدسي، محمد بن أحمد(ت٣٨٨هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه (مطبعة بريل: ليدن ١٨٨٩م) ص٧٢؛ أدي شير، السيد: الألفاظ الفارسية المعربة(المطبعة الكاثوليكية: بيروت ١٩٠٨م) ص ١١١.

xxxii) الثعالبي، عبدالملك بن محمد النيسابوري(ت ٤٢٩هـ): لطائف المعارف ، تحقيق محمد سليم(دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ص ٨٢؛ ابن الجوزي، ج١٤ص٢٤٨ ؛ اليافعي، ج٢ ص٢٧٩ ؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٥؛ الزركلي، ج٢ص١٣٩؛ كحاله، ج١ ص ٢١٤ -٢١٥.

xxxiii) الجَنَائب الخيول المسرجة الملجمة المطهمة التي تسير في الموكب السلطاني أو الأميري، زينة وتفاخرا، دون أن يركبها أحد. ابن منظور، ج١ص٥٠٧-٥٠٨؛ عمارة، محمد : قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية (دار الشروق: بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٥٥.

xxxiv) ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد (مؤسسة الرسالة : ط٢ بيروت:١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)ج٦ص٢٤٠؛ ابن فهد، ج٢ ص٤٦٨؛ الزركلي، ج١ص٣٠٦. ؛ الرشيدي،ص١١٣-١١٤؛ الحضراوي، ص١٥٢.

xxxv) ابن الجوزي، ج ١٦ص١٦٥ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.

xxxvi) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير(دار صادر: بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠م) ص١٣٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦؛ كحاله ، ج٥ ص٦٤.

xxxvii) ابن جبير، ص ٢١٢ - ٢١٣.

xxxviii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠.

xxxix) الأزرقي،ج٢ ص١٠٨؛ الفاسي:شفاء،ج١ص٥٢٨؛ العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ص١٦٣، ٥٩٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٨ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦؛ كحالة، ٢ص٣٩.

xl) الفاسي: العقد، ج٨ص٢٣٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٨ .

xli) الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.

xlii) ابن جبير، ص ١٧٧؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.



xliii) ابن جبير، ص ٢٠٦.
xliv) مكثر بن عيسى بن فليتة بن القاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الأصغر محمد بن عبدالله بن أبي هاشم الأكبر محمد الأمير، أمير مكة. تولى إمرة مكة بعد منازعة مع أخيه داود سنة ٥٧١هـ وظل هو وأخوه داود يتقاتلان على إمرة مكة حتى صفيت له سنة ٥٨٧هـ واستمر في ولاية مكة حتى سنة ٥٩٧هـ. الفاسي: العقد الثمين، ج٧ص٢٧٤، ج٤ص٣٥٦، ج٦ص٢٩؛ ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت٩٢٢هـ): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت(مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، دار المدني: جدة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج١ص٥٣٨-٥٤٤.
xlv) ابن جبير، ص ١٠٧.
xlvi) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢ ص٣٧٠ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ ص٢٠٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ ص١٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
xlvii) الشلاح هو الأمير فخر الدين مملوك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن تولى مكة نيابة عنه. الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص ١٧٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ص ٦٠ – ٦١
xlviii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ص ٦٠ – ٦١ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
xlix) البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية (المطبعة الجمالية: مصر ١٣٢٩هـ) ص١٤٠؛ سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحج(مؤسسة تهامة: جدة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ٧٦.
l) ابن جبير، ص١٥٤، ١٥٥.
li) ابن جبير، ص١٥٥.
lii) ابن جبير، ص٤٢، ١٥٥.
liii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٣٢٣ .
liv) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج ٣ص ٦٠-٦١؛ الجزيري ، ج٢ ص ٤٨٦.
lv) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥.
lvi) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٥.
lvii) ابن الجوزي،ج١٤ ص٢٤٨؛ الفاسي:شفاء،ج٢ص٣٥٣؛ الفاسي:العقد ج١ ص١٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤١٤- ٤١٥؛ الذهبي:ج١ ص٢٢٦؛ اليافعي:ج٢ ص٣٨٥؛ ابن العماد، ج٣ ص٥٥؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٥؛ كحالة، ج١ص٢١٤-٢١٥.
lviii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ٨ص٢١٨،٢١٧؛ القيان، ص ٦٦ ؛ المالقي، ص١٣٧؛ النويري، جـ٤ ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٣١٢.
lix) الجزيري، ج٢ص٤٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٣ ص٦٠ - ٦١.
lx) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٣ .
lxi) ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٣ ص٦٠ – ٦١؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦.

lxii) أحمد بن عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية(عمادة شؤون المكتبات: جامعة الملك سعود، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٨١م) ص ١٣٤-١٣٦.
lxiii) ابن سعد ، ج٨ص ١٦٩.
lxiv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج٧ص١٣٦، ١٣٧؛ كحالة، ج٣ص٢١٨.
lxv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج ٣ص٣١٩؛ كحاله، ج٣ص٢١٨.
lxvi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج ١٩ص١٨١؛ كحاله، ج٣ص٣٤٣، ٣٤٤.
lxvii) البلاذري، أحمد بن يحيى(ت٢٧٩هـ): جُمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي(دار الفكر: بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)ج٨ص٨٩؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٦ص٣٥؛ ابن عبدربه، ج٦ص١٤١؛ ابن عساكر، ص ٤٨٠-٤٨١؛ الكتبي، جـ٢ ، ص٧٣؛ كحاله، ج١ ص ١٥٣.
lxviii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٢ص ٣٥١.
lxix) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج١ص٣٦٦،ج٢ص ٣٧٢، ج٣ص٣١٦-٣٢١؛ ابن واصل الحموي ، ج١ص٢٨٣؛ كحاله، ج٣ ص ١٥٣.
lxx) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٣ص ٣١٨-٣٢٠؛ النويري، ج٤ ص ٢٥٠، ٢٥٢.
lxxi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج١٦ص١٦٨.
lxxii) الفاكهي، محمد بن إسحاق(ت هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش(دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)ج٤ص٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦ص٣٨٦، ج٨ص٢١٤؛ الجزيري، ج٢ ص ٤٧٠ ؛ سعد عبدالعزيز الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة(دار الوطن: الرياض١٩٩٣م) ص ٦٥، ٦٧.
lxxiii) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق(ليدن: مطبعة بريل ١٩٧١م) ج٣ص٢٩١ .
lxxiv) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤ ؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ كحاله،ج١ص٣١١.
lxxv)الأزرقي، ج٢ص٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٤.
lxxvi) ابن خلكان، ج٢ص٣١٤.
lxxvii) يتصل بجبال عرفات جبال الطائف ومنها مياه كثيرة أوشال وعظائم قني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة. ياقوت، شهاب الدين الحموي(ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان (دار صادر: بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ج٥ص١٣١.
lxxviii) وادي نَعْمَان : واد فحل من أودية الحجاز التهامية بين الطائف ومكة تمر بهذا الوادي عدة عيون أشهرها عين زبيدة المشهورة حتى تصل مكة. ياقوت، ج٥ص٢٩٣؛ البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز(دار مكة: مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)ج٩ص٦٩،٧٠.
lxxix) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ العمري،ياسين الخطيب(ت بعد ١٢٣٢هـ): الروضة الفيحاء في تواريخ النساء (الدار العالمية: بيروت :١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٣٥٤.

lxxx) البلاذري، فتوح البلدان(مطبعة الموسوعات: القاهرة ١٩٠١م) ص ٣٠؛ المسعودي، علي بن الحسين(ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر(دار الأندلس: بيروت ١٩٧٨م)، ج٤ص٤٤٤؛ الخطيب لبغدادي، ج١٤ص٤٣٣؛ ابن جبير، ص ١٥٢ ؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ العاملي، ص ٣٥٤؛ الراشد، ص ٦٥-٦٧.

lxxxi) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٤؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤.

lxxxii) ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ ابن جبير، ص١٥٢؛ العاملي، ص٣٥٤.

lxxxiii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ ابن الأثير، ج٧ص٥٦؛ ابن تغري بردي، ج٢ ص ٢٨٦ ؛ الجزيري، ج٢ص٤٩٠ ؛ الرشيدي، أحمد(ت ١١٧٨هـ) حُسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولّى إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد(مكتبة الخانجي : القاهرة ١٩٨٠م) ص ١٠٣؛ الحضراوي، أحمد محمد (ت ١٣٢٧ه): مختصر حُسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولّى إمارة الحاج، تحقيق محمد الخزيم ومحمد التمساحي(زهراء الشرق ودار القاهرة: القاهرة ٢٠٠٧م)ص ١٣٥؛ كحاله، ج٢ص ٢٨٦.

lxxxiv) ابن الجوزي، ج٦ص٢٥٣؛ الصفدي، خليل بن أيبك(ت ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات(دار إحياء التراث العربي: بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج١٦ص ١٦٧؛ الفاسي: شفاء، ج١ص١١٥؛ العقد الثمين، ج٣ص٤١٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٦٣ ؛ كحاله،ج٥ ص٦٧. ويفيد الفاسي(شفاء الغرام، ج١ص٥٤١) أن سبيل الجوخي الآن معطل لخرابه ويقول أيضا: ورأيت فيه حجرا ملقى مكتوب فيه : أن المقتدر العباسي ووالدته أمرا بعمارة هذه السقاية والآبار التي وراءها وتصدقا بها سنة اثنتين وثلاثمائة.

lxxxv) الفاسي: شفاء، ج١ص١٨٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٦٨ .

lxxxvi) الفاسي: شفاء، ج١ص٥٥١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٧٣.

lxxxvii) الذهبي، ج١ص٢٢٦؛ اليافعي، ج٢ص٣٨٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦- ١٢٧؛ كحاله، ج١ ص ٢١٣-٢١٥.

lxxxviii) ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ ابن الأثير، ج١٠ص١١؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦ص ٢٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٤٦٨؛ الرشيدي، ص١١٤؛ الحضراوي، ص ١٥٢ .

lxxxix) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٤٨٩.

xc) ابن الجوزي، ج١٦ص١٦٥؛ الصفدي،ج٢٤ص١٧٤؛ ابن كثير، ج١٢ص١٨٣؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦- ٤٨٧؛ كحاله، ج٤ ص ١٩٢.

xci) عمارة اليمني، نجم الدين بن علي(ت ٥٦٩هـ): تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع (المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع: صنعاء ١٩٨٥م) ص ١٦٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٤٦٨؛ الديبع، أبو الضياء عبدالرحمن بن علي الشيباني(ت ٩٤٣هـ): قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع(المطبعة السلفية ومكتبتها : القاهرة) ص ٣٥٢؛ الزركلي، ج٣ص٢٤٨؛ كحاله، ج ٣ص٣٣٠.

xcii) ابن جبير، ص١٣٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠؛ كحالة، ج٥ص٦٤.



xciii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٥٥٠ ؛ الجزيري، ج٢ص ٤٨٧؛ كحالة، ج١ ص٣١١.
xciv) ابن جبير، ص٢١٣.
xcv) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٤ص٢١٣؛ الفاسي:شفاء،ج١ص٥٢٨؛ الفاسي:العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨؛ ابن تغري بردي، ج٦ص١٦٣، ٥٩٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٢ ؛ كحالة، ٢ص٣٩.
xcvi) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٢٨، العقد الثمين، ج١ص١١٨، ج٨ص٢٣٨؛ ابن فهد، ج٢ص٥٥٢. ويذكر الفاسي(شفاء الغرام، ج١ص٥٢٨؛ العقد،ج٨ص٢٣٨) ورباط أم الخليفة الناصر العباسي يعرف برباط الغطيفية لأن الشريف غطيفة صاحب مكة كان يسكنه.
xcvii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٥٥٠ ؛ كحاله، ج١ ص٣١١.
xcviii) الفاسي: العقد الثمين ، ج٨ص٢٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٣. ويذكر ابن فهد أن هذه المدرسة تعرف اليوم بدار زبيدة.
xcix) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٤٥.
c) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٣٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٦١.
ci) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢ ص٣٧٠ ؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ ص١٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
cii) ابن فهد، ج٣ص ٦٠؛ الجزيري:ج٢ ص٤٨٦
ciii) الفاسي: شفاء الغرام، ج١ص٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٧ .
civ) ابن جبير، ص ١٦٢-١٦٤؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١ص٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ص ٤٨٧.
cv) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله(ت ٧٧٧هـ): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار(دار الكتاب اللبناني: بيروت) ص ١١٥؛ كحاله، ج٢ص٤.
cvi) البخاري، الحديث رقم ١٨٦١ ص ١٤٥-١٤٦. وانظر: الحديث رقم: ١٥٢٠ ص ١٢٠ والحديث رقم : ٢٧٨٤ص ٢٢٤ والحديث رقم: ٢٨٧٥ص ٢٣١ والحديث رقم: ٢٨٧٦ص ٢٣١؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٤ص٨٦- ٨٨.
cvii) العاملي، زينب بنت يوسف فواز(ت١٣٣٢هـ): الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، تحقيق منى الخراط(دار المعرفة: بيروت:٢٠٠٠م) ص٥٢١ ؛ كحاله، ج٥ص١٨٧.
cviii) ابن حجر: تهذيب التهذيب (مطبعة دائرة المعارف النظامية : ط١، الهند ١٣٢٦هـ) ج١٢ص٤٧٠؛ كحالة ، ج٢ص١٤٣.
cix) الصفدي، ج٢٤ص١٧٤.
cx) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٤٦٨؛ كحاله، ج ٣ص٣٣٠.

الحياة الثقافية لنصاري الحبشة في العصور الوسطي

د. محمد أحمد محمد علي بهنساوي
باحث حاصل علي درجة الدكتوراه

تتناول هذه الدراسة موضوع الحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في العصور الوسطي، ولقد رؤى أن يتم عرضه في أربعة أقسام رئيسية بحيث يتناول القسم الأول اللغة في الحبشة متناولاً كل من اللغة الجعزية، اللغة الأمهرية، اللغة العربية، في حين يتناول القسم الثاني التعليم الديني، أما القسم الثالث فيتناول موضوع الكتابة والأدب في الحبشة متناولاً الكتابة الدينية، الشعر، التدوين التاريخي، الأدب الشعبي، أما القسم الرابع والأخير فيستعرض حركة الترجمة في هذه الفترة التاريخية . وسوف نتناول هذه العناصر السابقة بشيء من التفصيل.

أولاً : اللغة في الحبشة :-

تعددت اللغات واللهجات في الحبشة فقد أحصاها القلقشندى و قال بأنها تزيد علي خمسين لساناً[١]، وذلك نتيجة تنوع الأجناس والسلالات مما أدي بدوره إلي تعدد اللغات واللهجات في أقاليمها المختلفة، فكان لكل منطقة لغة خاصة بها، وقد قام الباحثون بتقسيم هذه اللغات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: اللغات الكوشية (كوشية غربية-كوشية شرقية) واللغات النيلية واللغات السامية[٢]، فأما أولها فأهمها الصومالية وهي السائدة في

١-القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة،١٤ جزء، القاهرة، ٢٠٠٤م، جـ٤، ص ٣٠٣ .

٢- السامية تسمية حديثة العهد اقترحها عالم اللاهوت الألماني شلوتزر Scholzer عام ١٧٨١ للميلاد، لتكون علماً على عدد من الشعوب التي أنشأت في غرب آسيا حضارات ترتبط لغوياً وتاريخياً، كما ترتبط من حيث الأنساب، وزعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، بناء على ما جاء في التوراة في صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين. وقد

أوغادين، وهي لغة القبائل المعروفة بهذا الاسم (وتسمى أيضا الغالية Galenna نسبة إلى الغالا)، وأما الثانية فتضم مجموعة من لغات القبائل الصغرى في شرق الحبشة ومنطقة الحدود مع السودان وهي محدودة الانتشار، وأما المجموعة السامية فهي أقلها تفرعًا ولكنها أكرمها عند الأحباش وأكثرها انتشارًا بينهم ومن أهم لغاتها: -

١- اللغة الجعزية (لغة الجعزGe'ez): تعرف اللغة الحبشية القديمة باللغة الجعزية أو الجنزية - قلبت العين همزة في اللغات الحبشية الحديثة- ويرجع أصلها إلي اللهجة "الهشبأية" وهى إحدى لهجات الحميرية (العربية الجنوبية) التي جاءت إلى شمال الحبشة فى نهاية القرن الثالث الميلادي على أيدي الغزاة من قبيلة الأجاعز (الأجعازيان)[٣] وهي

شاعت هذه التسمية وأصبحت علماً لهذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من العرب" على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عرقية صحيحة. وهذه الشعوب هي في حقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثاً عن الماء والكلأ، ومنها تفرعت الأقوام الأخرى، يؤكد هذا القول ما ذهب إليه كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجناس والسلالات من أن العرب هم أصل العرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها، ولهذا الفريق شواهد تاريخية وعرقية ولغوية يدعم بها حجته ويثبت آراءه. لذلك تنقسم اللغات السامية إلى ثلاثة فروع هي(١) اللغات السامية الشرقية و(٢) اللغات السامية الشمالية الغربية(٣) اللغات السامية الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) وهذه الأخيرة تحتوي علي بعض اللغات الأخري وهي (١) العربية الجنوبية و(٢) العربية الشمالية و(٣) اللغات الحبشية. وهذه اللغة تشبه لغات جنوب الجزيرة العربية أكثر مما تشبه العربية الشمالية. وأقدم تلك اللغات هي الجعزية. ويعتقد بعض علماء الساميات أنها تفرعت من لغة جنوب الجزيرة العربية في بداية العهد المسيحي لتبلغ أوج اتساعها في القرن الرابع الميلادي . وكان قد تكلم بها في ذلك الوقت سكان مملكة أكسوم الواقعة على الحدود الحالية بين أثيوبيا وأريتريا . للمزيد انظر :

- Budge: A History Of Ethiopia , Nubia & Abyssinia, London,1928, p.576.

3- Richard Pankhurst: The Ethiopians , Blackwell, Cambridge, London , 1998, p. 57 .

إحدى القبائل العربية التي هاجرت من اليمن إلي الحبشة[٤] واستوطنوها وأسسوا فيها مملكة أكسوم، وقد تأثرت هذه اللهجة باللغات الحبشية لأبناء المكان كما تأثرت باللغات اليونانية والسريانية في القرن الرابع الميلادي التي دخلت الحبشة بعد اعتناق المسيحية، ومن الجعزية تفرعت عدة لهجات مثل التقرنيا والتقرى والأمهرا وبقية اللهجات الحبشية، وتعد الجعزية اللغة الكلاسيكية للحبشة شأنها شأن اللغة العربية المكتوبة، وعلي ذلك فإن اللغة الجعزية تعد أقدم وأهم لغات الحبشة لأنها لغة النقوش الأكسومية ولغة التراث الحبشي حتى عهد قريب، وخطها متطور عن الخط العربي الجنوبي «المسند» الذي أضيفت إلى حروفه رموز للحركات فخلصته من اللبس وعدم الوضوح، وقد كتب بها الكتاب المقدس الحبشي – مترجمًا عن اليونانية منذ القرن الخامس الميلادي[٥].

ولم تستخدم اللغة الجعزية حروف العلة قبل القرن الرابع الميلادي، ولكن تم استخدامها عندما دخلت الديانة المسيحية البلاد، وذلك لزيادة الرغبة في جعل نصوص الكتاب المقدس واضحة القراءة والكتابة لمعظم الناس، وهكذا أصبحت الجعزية لغة غنية بالمفردات، فتم ترجمة الكتاب المقدس إلى الجعزية من اليونانية وذلك عن طريق الرهبان التسعة[٦] فضلاً عن العهدين القديم والجديد حيث تظهر فيها الصلات من اللغة

٤- محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د . ت، ص ٣٣، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، القاهرة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص ٣٧٠، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٣٦، انظر أيضاً

- A.H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A history of Ethiopia, oxford university, at the clarendon press,1974 , p . 34.

5 - Trimingham J S : Islam In Ethiopia , oxford, 1952,p . v .

٦ – جاء هؤلاء الرهبان هرباً من قرارات مجمع خلقدونية عام٤٥١م وجاءوا إلي مصر والنوبة ومنها إلي مناطق النيل الأزرق والحبشة لأنهم سمعوا عن الحرية الدينية في هذه البلاد وبعدها عن الجدل اللاهوتي، وقد قاموا بتأسيس العديد من الأديرة في الحبشة خاصة منطقة تيجري، وهم ١- أرجاوى ولقبه زا ميكائيل (ويعني باللغة الأمهرية الشيخ الروحاني) Zamika, el Aregwi وهو مؤسس دير دبر دامو في تيجري كما يعد من أشهر القديسين التسعة بل أطلق عليه بعض المؤرخين لقب "باخوم الحبشة" لأنه أول من أنشأ ديراً للراهبات وآخر للرهبان، ٢- القديس

السريانية(٧). ومنذ ذلك انتشرت اللغة الجعزية انتشارًا واسعًا في أوائل القرن الرابع الميلادي، كما استخدمت في قراءة العهد القديم عند يهود الحبشة (الفلاشا)(٨)، وفي

بانتليون Pantilon مؤسس دير دبر أسبو في أكسوم، ٣- القديس جيرما Girma مؤسس دير دبر مادارا وهؤلاء القديسين الثلاثة جاءوا من الإمبراطورية الرومانية (ويعتقد من سوريا)، ٤- القديس أفسي Afse مؤسس دير في مقاطعة يحا (Yaha) بالقرب من عدوة وقد جاء هذا القديس من آسيا الصغرى، ٥- القديس جوبا Goba الذي جاء من صقلية وقد اشترك مع القديس جيرما في تأسيس دير دبر مادارا، ٦- القديس أليف Alif الذي جاء من قيصرية وهو مؤسس دير بحزا، ٧- القديس صيحما أو سيام Siam من أنطاكية وهو مؤسس دير سدنيا Sedenya، ٨- القديس ياماتا Yam,ata الذي جاء من Coasit وهو مؤسس دير جرعالتا، ٩- القديس ليقانوس Liqianas الذي جاء من القسطنطينية وقد اشترك مع القديس بانتليون في تأسيس دير كوناسل، ومن المعتقد أن جميع هذه الأديرة كانت في الأصل معابد وثنية وتم تحويلها إلي أديرة وكنائس، كما يلاحظ أن اثنين من هؤلاء القديسين حملوا أسماء يونانية وهم ليقانوس وبانتليون، أما الباقون فقد حملوا أسماء تبدو أسماء أرامية أو سريانية، وقد قام هؤلاء الرهبان التسعة بتأسيس العديد من الأديرة الحبشية الأخرى، كما أن هناك مئات من الأديرة التي انتعشت في تاريخ الكنيسة الحبشية كانت قد تأسست بواسطة رهبان آخرين ينتسبون إلى أولئك الأقطاب التسعة المشار إليهم، إذ صاحبهم العديد من القساوسة الذين قاموا بمساعدتهم في حمل الكتب الدينية المختلفة كما قاموا بترجمة بعضها بعد ذلك إلي اللغة الجعزية. للمزيد انظر مراد كامل:الرهبنة الحبشية، رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية، الأسكندرية، ١٩٤٨، الرسالة الثالثة، ص ص٢٩-٣٠، ٤٤، رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٦.

7 - Paul B . Henze : Layers Of Time A history Of Ethiopia , Hurst , Company, London , 2000, p . 37.

٨ - يهود الفلاشا(Falashas) : كلمة أمهرية تعنى المنفيين أو الغرباء، وأصل الكلمة يعود إلى اللغة الجعزية، ويعنى المهاجرين أي السكان غير الأصلين للبلاد، ويستخدم الأحباش الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين باليهودية، ويطلق عليهم أحيانا اسم اليهود الزنوج Negro Jews، أما الفلاشا فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم "بيت إسرائيلBeta Israel" وهناك جماعات أخري من اليهود الذين دخلوا في الديانة النصرانية على يد المبشرين المسيحيين ويطلق عليهم الفلاشا مورا Mura Falasha وهي جماعة قبلية في الحبشة يقال لها أيضاً «فلاس مواراً»، وكلمة «مورا» تعني «الأغيار» أي غير اليهود، لذلك يعد الفلاشا أنفسهم أن الفلاشا موراً (أياً كان نوعهم) غير اليهود الأسرائيليين، ولذا فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى الدين اليهودي، تطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيحلق شعر رأسه وجسمه، وهى شعائر لا تطبق إلا على غير اليهود، للمزيد انظر محمد جلاء إدريس، يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ص ١٩-٣٢ أيضاً

قداس الكنائس الحبشية كانت تؤدي بها الصلاة والشعائر الدينية الأخري- ولا تزال- مثلها في ذلك مثل اللغة اللاتنية في أوروبا، واللغة القبطية في بعض الكنائس المصرية[٩].

وقد تعرضت اللغة الجعزية لتغيرات ضخمة في الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية عصر الزغاويين وبداية عصر الأسرة السليمانية عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، ذلك أن قدوم العديد من رجال الدين المسيحيين من بلاد مختلفة أدي إلي إدخال ألفاظ جديدة من أصل يوناني وعربي وسرياني، كما أدي إلي استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التي جاء بها هؤلاء الرهبان، وقد نجم عن هذا التطور تغيير أصاب اللغات الموجودة العديدة الموجودة في الحبشة نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ الدارجة إلي هذه اللغات من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخري[١٠].

علي أنه لا يمكن بقاء لغة من اللغات في قالب واحد وعلي صورة واحدة مع استخدامها في مثل ذلك المحيط الواسع من المدن المتباعدة، وفي مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة، لذلك نجد اللغة الجعزية في تلك الفترة تختلف اختلافًا بينا تبعًا لاختلاف الزمان والمكان والغرض الذي استخدمت فيه [١١]، لذلك استسلمت هذه اللغة أمام ضغط اللغات الأخري التي اشتدت عليها خاصة أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس

- Richard Pankhurst : The Falashas, or Judaic Ethiopians, in Their Christian Ethiopian Setting, Addis Ababa, 1992. p. 567. see also Taddesse Tamrat : op, cit , P.197.

٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطي، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص ٢١٩

10 - Richard Pankhurst: An Introduction to the Economic History of Ethiopia from Early time to 1800, Sidgwick and Jackson LTD., First Edition, London, England , 1961 ,p. 25.

11 - David Appleyard,: Colloquial Amharic , first published , Rutledge - New York, 1995,p.2.

عشر الميلادي[١٢]، مما جعل طلاب المدارس يكتفون بمعرفة قسط محدود من أصول هذه اللغة لمعرفة قراءة الكتب الدينية[١٣].

وعلي أية حال فقد ظلت هذه اللغة هي لغة التفاهم والاتصال بين رجال الدين في الكنيسة الحبشية في سائر أرجاء الحبشة، كما استعملها الناس في الصلاة والتراتيل، كذلك كانت اللغة الجعزية لغة العلم والتعليم في ذلك العصر. فالطلاب يلقنون اللغة الجعزية في المدارس ويتلقون بها علومهم، كما أن كتبهم المدرسية دونت بها، مما جعل هذه اللغة هي لغة الطبقة المتعلمة المثقفة في المجتمع الحبشي[١٤].

٢- اللغة الأمهرية Amharic : وموطنها الأساسي إقليم أمهرة في وسط المملكة الحبشية، و تعد من أهم وأندر وأقدم اللغات الإنسانية وتندرج ضمن لغات سامية جنوبية شرقية أو أي من أسرة اللغات الأفروآسيوية، وهي تلتقي مع اللغة التيجرية في كثير من مفرداتها، ومعظم كلماتها من الكوشية وخاصة لغة الأجاو ولغات هرر، ونتج عن ذلك التأثر لغة مفرداتها وقواعدها سامية بشكل واضح بينما نجد أن تركيبها النحوي كوشي بشكل كبير، ويؤكد بعض الباحثين أنها اللغة التي كان يتحدث بها سكان جنوب أكسوم وأضيفت إليها عدة لهجات مختلفة، والخلافات بينهما ليست جوهرية [١٥] . غير أن هناك اتفاق عام على أنه في المنطقة المتسعة التي تغطيها اللغة الأمهرية توجد اختلافات

---

12 - Lionel Bender et al. : Language in Ethiopia, Oxford Univeristy press, 1976, p.53.
13- Gelb, I . J & Edward Ullendorff : The Semitic Languages of Ethiopia : A Comparative Study, In Journal of Near Eastern Studies 20/2 ,pp. 134-136.
14 - Lionel Bender et al. : op . cit , p.71.
15 - Edward Ullendorff : The Ethiopians an introduction to country and people, London, oxford university ,Press Newyork.toronto,1965 , p.124

لهجية طفيفة وملحوظة مثل الاختلافات الموجودة بشكل خاص بين صيغ الحديث المتداول في إقليمي شوا وجوجام[١٦].

وقد أخذت اللغة الأمهرية في الانتشار خارج هذا الإقليم شمالاً وجنوبًا لأسباب متعددة، حتى أصبحت من أكثر اللغات انتشاراً في الحبشة، وقد تم استخدامها كلغة إدارية في البلاط الإمبراطوري منذ بداية حكم يكونو أملاك Yekuno Amlak ٦٦٩-٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٨٥م[١٧]. كما انتشرت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في جميع أنحاء البلاد حتي أصبحت اللغة الأكثر انتشارا علي نطاق واسع في جميع أنحاء الحبشة، وذلك لتأثرها بالبيئة الحبشية وباللغات الحبشية غير السامية، إذ كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللغة الجعزية في حياتهم الخاصة والعامة، لذلك شاع في ذلك العصر استخدام الأمهرية في قالبها العامي، فأصبحت الأمهرية هي اللغة الشائعة في معظم أنحاء الحبشة في تلك الفترة و تكلم بها الملوك وكتب بها المؤرخون[١٨]، وقد بدأت الكتابة باللغة الأمهرية منذ عهد (زرء يعقوبZara_Yaqob ٨٣٨ ـ ٨٧٣هـ/١٤٣٤ـ ١٤٦٨م)، واستمر الأمر كذلك لدرجة أن كتب البرتغاليون بعض منشوراتهم والمنشورات الدينية الأخري باللغة الأمهرية بل استخدموها للتدريس فيما بعد في العصور الحديثة[١٩].

٣- اللغة العربية: وهي أكثر اللغات انتشارًا في شرق أفريقيا، وفي المدن التجارية و خاصة في المناطق التي يقطنها المسلمون فاستعملت كلغة للتعامل فيما بين التجار المسلمين، فقد كانت لغة التفاهم في الأسواق والمراكز التجارية في الداخل[٢٠] خاصة في

16 - Gelb, I . J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 135.
17 - Paul B . Henze: op . cit ,pp77-78
18- Budge: op. cit, Vol. 2, p.548.
19- Edward Ullendorf‹: op. cit,pp.130-131.

٢٠ - الجدير بالذكر أن هذه المدن الساحلية كانت تعد أسواقًا ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليون لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجونه وكانت تتم المعاملات التجارية في مثل هذه الأسواق في الغالب باللغة العربية أو بالعربية المختلطة بلغات البلاد المحلية مما أتاح لهؤلاء

هرر وعلي الساحل إذ يفضل الغالبية العظمى من السكان استخدام اللغة العربية لارتباطها بالدين الإسلامي(٢١).

وقد عرفت اللغة العربية طريقها إلى الحبشة منذ فترة بعيدة، فالجوار الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والحبشة أدى إلى قيام علاقات متعددة بين الجانبين، فقامت علاقات تجارية وسياسية وهجرات متبادلة مما أحدث نوعًا من التأثير والتأثر(٢٢)، فقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى الحبشة وأثرت فيها خاصة بعد ظهور الإسلام، إذ كان هؤلاء المهاجرون أكثر تقدمًا ورقيًا من أهل البلاد الأصليين(٢٣)، وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج على الساحل الحبشي أدت لإنشاء عدة ممالك اشتهرت وذاع صيتها وعُرفت باسم ممالك الطراز الإسلامي(٢٤) وقد اتسم تكوين هذه الممالك بصفة عامة بالطابع التجاري، إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية، و امتزج المسلمون العرب بالوطنيين وصاهروهم فأخذ الإسلام واللغة العربية ينتشران تدريجيا (٢٥).

الأفراد أن يعرفوا قدرًا من اللغة العربية من خلال هذه المعاملات مما كان له أثر ما في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين للمزيد انظر تاديسي تامرات : القرن الأفريقي "السليمانيون " في أثيوبيا ودول القرن الأفريقي، في كتاب تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، موسوعة اليونسكو، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٣٥، غيثان بن علي بن جريس، الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي خلال العصور الوسطي، مجلة المؤرخ العربي، العدد الخامس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٧م، ص ١٦٧-١٨٣.

21 - Paul B . Henze : op . cit , pp. 50 – 51 .

٢٢- محمد بن ناصر العبودي : في أفريقية الخضراء، دار الثقافة-القاهرة، بدون تاريخ،ص ١٥٨.

٢٣- الحيمي : سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص ١٨

٢٤- واشتهرت في هذا الطراز إمارات سبع هي : اوفات، دارداو، أرابيني، هدية، شرخا، بالي، دارة للمزيد انظر القلقشندي، المصدر السابق، ص ٣٢٤

25 - Bender, M.L : « Language in Ethiopia « , Oxford University Press, London, 1976,p.6.

كما شهدت اللغة العربية مرحلة أخرى من الازدهار في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حيث شهدت حركة انتشار الإسلام مع ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم عام٩٣٣هـ/١٥٢٦م الذي استولي على العديد الأقاليم الحبشية حتي دخلت أغلب أقاليم الحبشة في طاعته وتحت سيطرته عدا أجزاء محدودة منها، واستمر جهاد الإمام أحمد حوالي خمسة عشر عامًا قبل أن يتدخل البرتغاليون في ساحة الصراع والأحداث التي انتهت بمقتل الإمام، وكان لهذه الفترة من التوسع أثر كبير في توطيد قواعد الإسلام ونشر اللغة العربية في أنحاء الحبشة، فامتد الإسلام ووصل إلى مناطق وأراضي لم يكن قد وطأها من قبل(٢٦).

وقد انتشرت اللغة العربية في هذه الممالك بشكل كبير فكان أهالي البلاد يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم المحلية، خاصة أهل أوفات الذين كانوا يتحدثون العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية(٢٧)، ولم يتوقف انتشار اللغة العربية على الساحل الشرقي للحبشة فقط بل امتد إلى داخل الحبشة نفسها، فقد حملها إلى الداخل التجار العرب والدعاة والمعلمون وحملتها القبائل العربية المهاجرة والطرق الصوفية إلى أعماق الهضبة الحبشية(٢٨).

ثانيا : التعليـــم :

لم ينال موضوع التعليم عامة اهتمام الباحثين والرحالة وذلك نظراً لأسباب عديدة أهمها عدم اهتمام الأحباش أنفسهم بالأقبال علي التعليم باستثناء فئة قليلة من رجال

---

26 - Ferguson, C.A.: The Role of Arabic in Ethiopia: A sociolinguistic perspective. » In: J.B. Pride and Janet Holmes (Eds.) Sociolinguistics selected readings .penguin Books Ltd, England. 1972,pp.112- 124.

٢٧- إبراهيم علي طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطي، بحث بالمجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد الثامن،١٩٥٩، ص ٣٩

٢٨- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ص ٤٣١-٤٣٢

الدين وأبناء طبقة النبلاء أما باقي فئات المجتمع فلم تعطي لهذا الموضوع أهمية تذكر نظراً لارتفاع تكاليفه(٢٩).

ولقد اقتصر التعليم في الحبشة علي المدارس الملحقة بالكنائس والأديرة حيث لم توجد مدارس غير مرتبطة بالكنيسة نهائياً، إذ كانت بمثابة المصدر الوحيد للتعليم وهو ما يعني أن معظم أولاد رجال الدين يصبحون كهنة وقساوسة في مستقبلهم حيث يقوم هؤلاء بتعليم أولادهم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، وذلك بهدف أعدادهم للخدمة في السلك الديني بالكنائس المختلفة(٣٠).وإلي جانب القراءة والكتابة يتعلمون التراتيل علي طريقة اليهود ويحفظون المزامير والمدائح الدينية للعذراء وبعض الصلوات وذلك باللغة الجعزية القديمة(٣١)، وكانت فصول التعليم في هذا النوع من المدارس تقام في الهواء الطلق أو تحت ظل جميزة كثيفة ! أما المعلم في الدير فكان يجلس علي كرسي ويراقب التلاميذ، وقد قامت هذه المدارس بتخريج أعداد كبيرة من الكهنة والشماسين، لكنهم كانوا قليلي العدد لتلبية احتياجات المملكة الواسعة خاصة مع عدم أتقان معظمهم اللغة الجعزية(٣٢).

أما أولاد النبلاء والطبقة الأرستقراطية فلم يلتحقوا بمدارس الكنيسة مع أبناء رجال الدين وبعض أبناء الطبقة الوسطي، بل جرت العادة على أن تتفق جماعة منهم فيكلفون أحد القساوسة للحضور إلي منزل أحد الأغنياء(٣٣) فيعلمهم القراءة والكتابة خاصة قراءة المزامير وبعض مبادئ الدين والحساب مقابل أجر يدفعونه له. وقد اشترطوا علي هؤلاء

29 - C.H. Walker, O.B.E : The Abyssinian at Home, London,1933, p.241.
30 - Sylivia Pankhurst: The Ethiopia A cultural History, London, 1956,p. 216.
31 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia (1270-1527), Oxford, Clarendon press, 1972,p . 294.
32 - Edward Ullendorff : op, cit, pp52-53.
٣٣ - هناك فئة من الأغنياء اتفقت فيما بينها علي إنشاء كوخ صغير يتعلم فيها أولادهم بجوار الكنيسة حتي لا يدخل أحد من القساوسة إلى منازلهم. انظر
- C.H. Walker, O.B.E : op, cit, pp.174-175.

القساوسة ألا يدفعوا هذا الأجر إلا بعد إتقان التلميذ لهذه الأشياء، بل لابد وأن يقوم بتعليم أحد التلاميذ القادمين من بعده هذه المبادئ منفردًا[٣٤]. الجدير بالذكر أن هذا الأجر تمثل عادة في منح المعلم بقرة وحصانًا أو عجلاً وخروفًا عن كل تلميذ، أما عن مدة تعليمه فكان يقضي حوالي ستة أشهر في حفظ المزامير ومثلها في تعلم مبادئ القراءة والكتابة[٣٥]، وكان خريجو هذه المدارس يتفوقون علي أمثالهم من مدارس الكنائس العادية، فكان لديهم قدرة عالية علي أداء الطقوس الكنسية باللغة الجعزية، وكان غالبية هؤلاء من رجال الدين المدنيين الذين كانوا يمثلون الكنيسة في المقاطعات البعيدة الوثنية[٣٦]. وبصفة عامة عند انتهاء دراسة هؤلاء الطلاب إما ينخرطون في سلك الرهبنة فى الدير الذى ينتمون إليه، وإما يعملون في السلك الكنسي لأداء بعض الوظائف الكنسية[٣٧].

---

٣٤ - غسان علي محمد الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، دار العلم للطباعة، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٥٥، مراد كامل، الرهبنة الحبشية، رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية، الرسالة الثالثة، مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، الأسكندرية، مايو ١٩٤٨م ص ٣٢، تاديسي تامرت، السليمانيون، ص ٤٤١؛ جون بوخهلتسر، أرض الوجوه السمراء، ترجمة رمزي يسن، مراجعة محمد محمود الصياد، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٠.

٣٥ - من أهم المشاكل التي تواجه التلميذ أثناء تعليمه هو أن مبادئ الدين والمزامير الذي يقوم بحفظها كانت مكتوبة باللغة الجعزية التي لا يفهما إلا رجال الدين الأحباش فقط، بينما كان الناس يتحدثون فيما بينهم اللغة الأمهرية التي كانت منتشرة علي نطاق واسع بين الشعب الحبشي انظر ممتاز العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،١٩٧٥م، ص ٣٢٥.

36- Taddesse Tamrat: op. cit, pp . 232-٢٣٣.

٣٧ - ساويرس بن المقفع، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، تحقيق عبد العزيز جمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولي، ٢٠٠٦م، ج١، ص٩٨٢، عبد الحفيظ محمد على، الحركة الديرية في مصر وأثرها علي بلدان البحر المتوسط في القرنيين الخامس والسادس الميلاديين، ندوة مصر وعالم البحر الأحمر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٨٦م، ص ص ١١٢، ١١٣

وقد احتل هؤلاء الكهنة والشمامسة بعض المناصب الدينية خاصة في الكنائس التي فتحت في المجتمعات البعيدة علي حدود المملكة الحبشية حيث كان أغلبية سكانها من الوثنين، فقد عملوا بالوظائف الخاصة بأداء طقوس الأحتفالات الدينية والحفاظ علي تقاليد الكنيسة الطقسية، إلا أنهم كانوا غير قادرين علي نقل روح التعاليم المسيحية لهذه المجتمعات، حيث أقتصرت طرق تعليمهم علي قراءة كتب الخدمة العادية(٣٨). وعلي الرغم من ذلك فقد حرص هؤلاء علي القيام بالعديد من الأعمال التي كان من أهمها نسخ الكتب والمخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا فى نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها(٣٩)، وحرصوا علي أن يحافظوا علي مخطوطاتهم في مكان أمين خفي، أما الأديرة الكبيرة مثل دير دبر برهان أو دبر ليبانوس فكان فيها حجرة مخصصة للمكتبة بها خزائن لحفظها ومكان لنسخ الكتب، الجدير بالذكر أنه تم نقل السنكسار المصرى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وهو جامع حياة القديسين والشهداء النصارى منذ عصر مبكر من انتشار المسيحية وحتى نهاية عصر الشهداء من اللغة العربية إلى اللغة الجعزية، وقد طبقها الأحباش فى كنائسهم وأديرتهم(٤٠).

٣٨ – نظرت الشعوب الوثنية إلي مراسيم الكنيسة كطائفة دينية غريبة، وعندما دخل بعضهم في الديانة النصرانية بدا لهؤلاء السكان أن طقوسهم لا تختلف كثيراً عن وثنيتهم التي يمارسونها في دياناتهم الخاصة، وعلي الرغم من ذلك فقد مارسها البعض دون التخلي عن كل مظاهر معتقداتهم الأصلية. ويري ترمنجهام أن الأجبار علي اعتناق المسيحية في الحبشة لم يأت بنتائج إيجابية فقد تم تحويل قبائل الأجاو إلي المسيحية بطريقتين الأولي بالقوة والثانية عن طريق نشاط بعض الرهبان، إلا أن هؤلاء تحولوا إلي المسيحية بالأسم فقط، حيث أحتفظوا بولائهم لألهتهم القديمة .أنظر القلقشندي، المصدر السابق، ص ٣٢٥ أيضاً

-Trimingham: op. cit, p. 76.

٣٩– عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة اسحاق عبيد، المجلس الاعلي للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٩٨.

40- Budge: History of Ethiopia, Vol. 2, p.571.

انظر أيضا: ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج١، ص٩١٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٩.

وهناك ميدان حضاري آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر في الحبشة، ذلك أن مهمة نشر الديانة النصرانية وتعليم الناس مبادئ القراءة والكتابة لم يقم بها الأباطرة وحدهم، بل كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش الغزاة وتسير في ركابها لتنشر الديانة النصرانية بين الشعوب الوثنية، فقد عمل الرهبان علي محاولة اقتلاع جذور الوثنية من الحبشة، التي استمر تاريخها لقرون طويلة في البلاد واقتلاع الخرافات وأعمال السحر من عقول أبناء الحبشة، فقد كانت الأديرة مثل المصابيح المضيئة في وسط عالم يموج بالغموض والظلام، وتؤكد النصوص الحبشية علي الدور الكبير الذي قام به الإمبراطور والقديس (زرء يعقوب) في هذا المضمار فلم يدخر جهداً في نشر التعاليم المسيحية خاصة في المناطق النائية[٤١]. إذ أعطي تعليماته لرجال الدين الرهبان والمدنيين بأن الجزء الرئيس من أعمالهم هو توجيه وتعليم الناس مبادئ الدين خاصة أيام السبت والأحد فضلاً غن معرفة قراءة الكتاب المقدس باللغة الجعزية، وعلي جميع الناس أن يذهبوا إلي الكنائس ليهتم الكهنة بتعليم الناس عبادة الله واحترام السبوت، بل وصل الأمر إلي أنه أمر بعض الكهنة بالذهاب إلي المنازل البعيدة عن الكنائس يوم الجمعة لتعليمهم، وكان الناس يقدمون لهم الغذاء المناسب، وكان يجب على كل مسيحي أن يأخذ القس للاعتراف له بذنوبه[٤٢].

كما تدلنا مصادر دير ليبانوس، علي أنه قام بأختيار- على سبيل المثال- اثنا عشر راهبًا وقسم بينهم منطقتى شـوا وداموت وأعطى لكل منهم لقب رسول، ثم حدد لكل واحد المنطقة التى يبشر فيها، ولكن واحدًا منهم ويدعى (فيلبس) كان الرئيس بينهم وبالتالى

41- Mordechai Abir: Ethiopia and The Red Sea The Rise and Decline Of The Solomonic Dynasty and Muslim – European Rivalry in the Region, Gainsborough House, London, E11.Rs, England, 1980, p.32

42 - Herbert Weld Blundell& Reginald Koettlitz : A Journey through Abyssinia to the Nile, The Geographical Journal , Vol.15, No. 3, (Mar, 1900) .pp.99-101.

كان له الحق في التبشير في أى مكان من تلك المنطقة[43]. هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة والمدنيين الذين كافحوا في سبيل نشر المسيحية وما يرتبط بها من تعاليم بين الشعوب الوثنية علي حدود أرجاء المملكة الحبشية، وقد استغرقت هذه العملية فترة طويلة نجحت بعدها الكنيسة في فرض تعاليمها علي هذه الشعوب في بدايات العصور الحديثة[44] .

وهكذا أثرت هذه الأديرة في تطوير الطقوس الدينية الكنسية وإثراء ترانيم الكنيسة الحبشية، كما امتد أثرها إلي الأدب الكنسي، كما فعل القديس يارد[45] الذى أدخل الترانيم

---

43 - Richard Pankhurst: An Introduction to the Economic ,pp .222

44- Christine Chaillot : The Ethiopian Orthodox Tewahedo Church Tradition,a brief introduction to its life and spirituality Published Paris , 2002, p 63.

٤٥ – القديس يارد : أحد تلاميذ القديسين التسعة، ولد وعاش في الحبشة في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، أرسلته والدته إلي أحد القديسين (الأب جدعون Gede,wen) ليتعلم علي يديه في كنيسة صهيون في =أكسيوم، حيث كان يتلقي دروسه بجد واجتهاد حتي أصبح قساً، ثم سافر إلي أورشليم القدس حيث تعلم هناك، وعاد ليعمل معلماً في كنيسة أكسوم، الجدير بالذكر أن القديس يارد له بصمات عظيمة التأثير علي الكنيسة الحبشية، فقد وضع ألحان الموسيقي الدينية الحبشية الوحيدة في البلاد، ويقال أنه استقي أصولها من الموسيقي السريانية، إلا أنه أدخل عليها التراتيل المصاحبة بالآلات الموسيقية والطبل والرقص المقدس الهادي، كما ينسب إليه أنه أدخل الصوت العالي إلي الكنيسة الحبشية و قد استقي ذلك من أورشليم القدس بعد أن استمع هناك إلي ترانيم التسبيح والشكر بالصوت العالي الجهوري، للمزيد انظر

- George A. Lipsky : Ethiopia, its people, its Society, its Culture, New Haven, Hraf press,1962.p.214., Sergew Hable Selassie : Ancient and Medieval Ethiopian History to 1270, Addis Ababa, 1972, p.158.

المصاحبة بالآلات الموسيقية وصيغ الألحان، وينسب إليه أيضا إدخال الصوت العالي في إنشاد الترانيم و تمكنوا من تأسيس نوع من الليتورجيا[٤٦] الكنسية في البلاد[٤٧].

وهكذا كان التعليم في هذه الأديرة دينيا يتناول الصلوات والطقوس والإنجيل وكتابات آباء الكنيسة، فقد كان الهدف الأساسي من هذه المدارس إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم في الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين نفسه علي قسط وافر من إتقان اللغة الجعزية، لأن الجعزية كانت لغة الكنيسة، وذلك بخلاف اللغة الأمهرية التي يتفاهم بها غالبية أهالي المملكة الحبشية، مما صعب علي هؤلاء القيام بالجمع بين اللغتين الأمهرية والجعزية[٤٨].

وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة هامة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت هى المراكز الأساسية للثقافة والفنون، وصار الديريون يكونون ركنا كبيرا في المجتمع الحبشي، حتي غدت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءا أساسيا من حياة المجتمع كله، وحسب الديريين أنهم شاركوا مشاركة فعالة في عملية البناء والإنتاج التي حفظت النهضة الأدبية في المجتمع، كما بذلوا جهدا كبيرا في صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التي ألمت بالمملكة الحبشية في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[٤٩]، كما كانت هذه الأديرة مركز النشاط الديني وترجمة الكتب الدينية المختلفة، فقد غدت هذه الأديرة مركز العلم والدراسة، مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معاني الكلمة[٥٠].

---

٤٦ - الليتروجيا : هي الطقس الديني الخاص بالكنيسة الحبشية، وهي عبارة عن ترجمة لنسخة القديس مارك التي استخدمتها الكنيسة القبطية وترجمت إلي اللغة الجعزية . انظر

- Hyatt H.M :: The Church of Abyssinia, London,1928,p.83.

47 - Wolf Leslau : : Falasha Anthology , Schocken, New York, 1951, p.107.

48 - Bender, M.L : op. cit, p. 57.

٤٩ - تاديسى تامرت: السليمانيون، ص ١٤٤١ جون بوخهلتسر: مرجع سابق، ص ٦٠.

٥٠ - مراد كامل : صلة الأدب الحبشي بالأدب القبطي، رسالة مارمينا في عيد النيروز، سبتمبر، ١٩٤٧، ص ٣٦.

ولقد شبه بعض المؤرخين هذه الأديرة بأنها كانت في هذه الفترة بمثابة جزر مضيئة يشع منها بريق المعرفة وسط بحر واسع من الظلمات يعمه الجهل والفوضي. وبذلك أنقذت الأديرة تراث الحبشة الفكري من الضياع في وقت لم توجد قوة أخري تعمل علي تحقيق هذه الغاية. حقيقة أن الأديرة تأثرت بالنزعة المحلية التي سادت في القري المحيطة بها، لكن ذلك لم يمنع من وجود نوع من الأتصال فيما بينها وبين بعض، وذلك بفضل الرحلات التي قام بها الرهبان-خاصة رهبان أتباع أوسطاتيوس(٥١)- وبفضل جهود

٥١ - أوسطاتيوس: المعروف عنه غير واضح تماماً ولكن يقال أنه ابن شقيق الأنبا دانيال جبرلتا Abba Daniel of Gar,lta وتتلمذ علي يده وقد استطاع أن يؤسس لنفسه ديرًا في سيريا Sara'e وجمع حوله العديد من الطلاب، غادر الحبشة نتيجة تعرضه لبعض محاولات الاغتيال، فذهب لزيارة القاهرة حيث التقي مع البطريرك بنيامين (٧٢٨-٧٤٠هـ/١٣٢٧-١٣٣٩م) واتهم هناك أيضاً ببعض الاتهامات الدينية مثل عدم تقديسه ليوم السبت ودافع عن نفسه هناك من خلال اللجوء إلي الوصايا العشرة والشرائع الرسولية، وقد طلب البطريرك بنيامين التصالح مع أبناء بلاده في الحبشة فرد عليه قائلاً "جئت إلي بلادك لكي أموت من أجل كلمة الله إلا أنني لم أجد الراحة في هذا العالم" فرحل إلي العديد من البلدان مثل القدس وقبرص وأرمينيا وتوفي هناك، فعاد بعض طلابه ممن كانوا بصحبته إلي الحبشة بعد أن قاموا بالإطلاع ونسخ العديد من المؤلفات المسيحية العديدة من البلاد التي قاموا بزيارتها مما أدي إلي تطور نظام أدب الرهبنة في الحبشة في تلك الفترة إذ شكلت هذه الكتب معلماً حاسماً في النهضة الحضارية التي شاهدتها الكنيسة الحبشية فيما بعد، وقد قام هؤلاء الأتباع بنشر تعاليمه بقوة في المجتمع الحبشي وكان مركزهم دير دبر ماريام، إلا أن هناك العديد من أتباعه وطلابه ممن خالفوه في آرائه وانشقوا عنه. والملاحظ أن أتباع أوسطاتيوس كانت هي الفئة الوحيدة في الحبشة التي قامت بمعارضة كنيسة الأسكندرية فيما يتعلق بالعديد من المعتقدات الدينية، وذلك في مقابل أن الغالبية العظمي من الأديرة الحبشية خاصة الموجودة في أمهرا وشوا كانت تتوافق مع تعاليم بطاركة كنيسة الأسكندرية، و كان ذلك من منطلق الخوف من الطرد والحرمان لكل من يرفض تعاليم الكنيسة، وتأتي أكثر القضايا التي عارضها أتباع أسطاتيوس قضية يوم السبت فعلي الرغم من أن تقديس يوم السبت لا يوجد إلا في العهد القديم، فإن ذلك كان له تأثير كبير علي تفكير العديد من الأحباش في إعادة بعض التقاليد الخاصة المتعلقة بالممارسات الدينية، خاصة في غياب أدبيات الديانة النصرانية في القرون الأولي لها فيما عدا الكتاب المقدس، و يعد أشهر أتباع أوسطاتيوس القديس فليبس الذي قام بتأسيس دير دبرا بازان وهو الدير الذى أصبح أحد المراكز القيادية التعليمية والدينية الهامة في الحبشة حتى اليوم. انظر

زرء يعقوب في محاولة تطبيق المركزية وحرصه الدائم علي الأشراف علي المؤسسات الدينية، هذا كله بالأضافة إلي أثر الاصلاحات الكنيسية التي استهدفت تهذيب الحياة الديرية عن طريق الربط بين الأديرة واخضاعها لأشراف مركزي دقيق، مما جعل الأفكار والكتب تنتقل من دير إلي أخر في سرعة أثرت الدهشة[٥٢] . وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة قاطعة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة فضلاً عن الفنون فيما بين أوائل القرن الخامس عشر ونهاية القرن السادس عشر الميلادي[٥٣].

ثالثا : الكتابة والأدب في الحبشة :

١- الكتابة الدينية:

منذ دخول المسيحية في المملكة الحبشية كانت اللغة الجعزية القديمة وسيلة للتعبير الأدبي في الحبشة، وتدور الآداب المكتوبة بالجعزية حول المواضيع الدينية وأغلبها مترجم عن القبطية والسريانية واليونانية والعربية، إذ تمت ترجمة الكتاب

Knud Tage Andersen: The Queen of the Habasha in Ethiopian History,Tradition and Chronology, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 1. (2000), p.142 see also Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 206-208.

٥٢ – ساويرس بن المقفع، مصدر سابق، ج١، ص٩٨٢، لبيب حبشي: المخطوطات القبطية: رسالة مارمينا في عيد النيروز توت ١٦٦٤، مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، كنيسة السيدة العذراء، الإسكندرية، ١٩٤٧، ص ٢٦؛ عبد الحفيظ محمد على: المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣؛ انظر أيضا:

- Donald Crummey: Land and Society in the Christian Kingdom of Ethiopia from the Thirteenth to the Twentieth Century, University Illinois Press, 2000,pp.45-49;

53 -Stuart Munro,: Aksum an African Civilisation of Late Antiquity, first published, Alan Light, British Library,1991, p.13-15.

المقدس[٥٤] وعدد من الكتب الدينية الأخرى إلى هذه اللغة، إلي جانب القداسات القبطية لكل من الآباء جريجوري(غرغريوس) وباسيليوس(باسيل) وكيرلس، وكذا بعض القداسات الأخري التي إختفت من الكنيسة القبطية، في حين أن بعض القداسات الأخري الحبشية خالصة، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومنتيوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس[٥٥]. ومع انتشار الإسلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والأقاليم الساحلية الحبشية تعرضت المسيحية التي تعايشت مع غيرها من الأديان في الأقاليم الداخلية إلى الذوبان وكنتيجة لذلك فإنه منذ بداية القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي أخذ تطور الأدب الجعزي في التراجع واستمر ذلك التراجع حتى منتصف القرنالسابع الهجري/ الثالث عشر عندما بدأ الأدب الجعزي في الانتعاش والازدهار مرة أخرى[٥٦].

وعلي الرغم من ذلك فأن هناك نتاج أدبي غير قليل لهذه الفترة يتكون من الجدلات Gedles وهي عبارة عن أخبار لمآثر وأعمال العديد من القديسين أو بطولات الملوك(مثل أعمال الملك لاليبالا Gedle Lalibala ٥٨٥-٦٢٢هـ/١١٩٠-١٢٢٥م)[٥٧]

---

٥٤ – تعتبر الكنيسة الحبشية أن الكتاب المقدس هو القاعدة والمرجع لكل ما يتعلق بمسائل الإيمان. ومن المرجح أن أول نص كتابي نقل للغة الجعز هو الإنجيل، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومنتيوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس، وقد خضعت هذه الترجمة لأكثر من مراجعة كان أخرها في القرن الرابع عشر.

٥٥ – عبد الحفيظ محمد على: المرجع السابق، ص ٩٦.

56 -Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "Journal of Afro-Asian writers association no: 46 –4/80, pp.33-34.

٥٧ - اتخذ الملك لاليبلا (Lalibela) لنفسه لقب جبراماسقال (Gebre Mesqel) ومعناها خادم الصليب، وقد عرف عنه حبه للسلام واهتمامه برجال الدين، وقد قام بترميم العديد من الكنائس وبني أكثر من عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء البلاد ما زال بعضها باقياً حتى الآن استعان فيها بعدد من العمال المصريين بالاضافة إلي بعض الهنود، ويقال إنه قبل توليه الحكم نفي بسبب عداوة عمه Tatadim إلا أنه استطاع الهرب وقام بثورة استطاع الاستيلاء بها

والذي ارتبط " اسمه بالكنائس الصخرية الشهيرة في إقليم "لاستا" وكتابة تاريخ الأسرة الزغوية(٣٢٩-٦٦٩هـ/٩٤٠-١٢٧٠م) و "أعمال تكلا هيمانوت Gedle Tekle Haimanot " الذي يعد مستعيد الحكم للأسرة السليمانية ... ومن الجدلات التي كتبت أيضاً " أعمال الأب فيليبوس الذي عارض الإمبراطور عمدا صهيون الأول (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م) بسبب تعدد زوجاته فضلاً عن انه تزوج بزوجة أبيه، مما أثار غضب الإمبراطور فأمر بجلده وأجبره على السير عاريًا وسط جماهير الرجال والنساء الساخرة وقد آدت هذه المهانة الراهب في كرامته (٥٨).

ومن أعمال هذه الفترة أيضًا أخبار الإمبراطور عمدا صهيون الأول والتي تحكي عن معاركه وبطولاته، وكذلك من الأعمال الأصيلة في هذه الفترة" قصة الإسكندر الأكبر" والتي تحتوي على العديد من الأعمال البطولية الخيالية التي لا تستند إلى أساس تاريخي، ومن الكتب العلمانية التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "صراطا منجست" والذي يقال أن عمدا صهيون هو الذي كتبه بنفسه، والكتاب يصور نظام الحكومة والحقوق المطلقة للإمبراطور وامتيازات الطبقة الحاكمة (٥٩).

ولم تكن هذه الكتب خاصة بالكتب الدينية فقط، بل أُلفت كتب في موضوعات غير دينية ومن أشهر الكتب التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "مجد الملوك " أو " كبرا نجست Kibre negest وكان الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو إضفاء شرعية الحق الإلهي

علي الحكم في عهد أخيه الكبير لذا يعتقد انه وصل للحكم بقوة السلاح، ويختلف الباحثون في سنوات حكمه (١١٨٩ – ١٢٢٩م) بينما يذكر آخرون أنها (١١٨٠- ١٢٢٠م) وبينما نجد فريقاً ثالثاً يؤكد أنه كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢٠م) ولكنهم يجتمعون علي أن مدة حكمه كانت أربعين عاماً انظر زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٥.

58 - Perruchon : Histoire des guerres d'Amda Seyon, roi d'Ethiopie, in Journal asiatique.ser.8, t.Xiv,1889, p.152

59 - Sergew Hable Selassie : op,Cit.p. 154.

لنسل الأسرة السليمانية باعتبارهم المستحق الوحيد للعرش[٦٠] ويحتوي هذا الكتاب على القصة الدرامية لرحلات ملكة سبأ (ماكيدا) إلى أورشليم ولقائها مع الملك سليمان، وعلى الرغم من أن الموضوع ليس ذا صبغة دينية خالصة إلا أن معالجته مشربة بمسحة روحانية دينية[٦١]، وهذا أمر متوقع لأنه من المفترض أن سلطة الملوك مستمدة من الرب ولهذا فإن دور الكنيسة وتأثيرها يكون أمرًا ضروريًا وفي الحقيقة يمكن اعتبار هذه المسحة الدينية إحدى الخصائص العامة المميزة لمعظم إنتاج الأدب الجعزي[٦٢].

وقد شهد القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي تطورت سياسية ودينية خطيرة في الحبشة، مثل انتشار حركات الإصلاح والمجادلات اللاهوتية والمنشقين عنها من معتنقي الخرافات، والنزاع بين الأباطرة وبعض معارضي المطران المصري في بعض الأمور المتعلقة بالديانة المسيحية، ويبدو ان هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها في إثراء الحركة الأدبية، لذلك تعد هذه الفترة هي العصر الثاني من ازدهار وانتعاش الأدب الحبشي بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[٦٣].

لقد ارتبطت الحركة الأدبية في هذه الفترة بمحاولة تعزيز هيبة الأديرة الحبشية إذ كانت ثورة عام ١٤٥٣م كانت ضد الثروة الطائلة لبعض الأديرة ولمناهضة الإمبراطور، لذلك أنتشرت بعض الأعمال الأدبية التي تروج للخرافات والشعوذة ولاقت رواجًا بين عامة

60 -Budge : op,Cit.p.567.

٦١ - يقال أن الرأس ميخائيل حاكم مقاطعة تيجري هو الذي أمر بكتابة هذا العمل وقد نشره العالم الألماني بيزولد Bezold باللغة الجعزية مصحوباً بترجمة إلي اللغة الألمانية عام ١٩٠٥، كما قام العالم السير وليم بدج بعرضه وترجمته وتحقيقه باللغة الإنجليزية وهو الأن موجود في المكتبة البولندية(كاتلوج ديلمان تحت رقم ٢٤)تحت عنوان:-

- Budge: the Queen of Sheba& her only son Menyelek,London,1922

62 -Edward Ullendorff : Ethiopia and the Bible, London,1955, p.38.

63- Budge: op. cit, pp.568-569.

الشعب عن طريق الأسطفانيوسيين والميكائلين[٦٤]، فقد كان لهم عدد من المؤلفات منها كتاب "همارا نفس أو سفينة نوح" و"مرسي أمين أو المرفأ الأمين" و"فكاري ملكوت أو تفسير الألوهية" وهو من تأليف أحد المنشقين عن هذه الجماعة وهو يمتاز بأسلوبه الأدبي البديع والأفكار المعارضة لهذه الجماعة، فضلاً عن كتاب "فم العدل" وقد أدى ظهور هذه الأعمال الأدبية إلى إشعال حماس الكنيسة من أجل تطهير تابعيها من آثار وشوائب الوثنية القديمة[٦٥].

وطبقًا لبعض كتب هذه الفترة فإن الإمبراطور (زرء يعقوب) الورع بذل ما في وسعه لكي يخلص رعيته من السحر والشعوذة، وقد ألفت بعض الكتب للرد علي عبادة الأصنام وممارسة السحر والشعوذة والهرطقات وعلي ذلك فقد نسب إلي الإمبراطور تأليف عدد ليس قليل من الكتب الدينية المقدسة التي وصف فيها حالة البلاد السياسية والدينية في

---

٦٤ - أحد أهم الجماعات المعارضة للكنيسة الحبشية والتي كان لها دوراً بارزاً في المجادلات الدائرة حول العديد من الأمور الدينية الهامة كان أهمها قضية أقانيم الثالوث (حيث قالوا أن الآب والابن والروح القدس هم ثلاثة أسماء لوجه واحد وعضو واحد وصورة واحدة، كما قالوا أن الرب لا صورة له علي هيئة الناس ولا يشبههم وأنكروا أقنوم الثالوث) كما عارضوا أيضًا فكرة أن الآب والروح القدس سيظهران مع الابن في مجيئه الثاني، كما عارضوا أن يخصص الإمبراطور للعذراء العديد من أيام الاحتفال، ولم يوافقوا علي محتوي الكتب القانونية للكنيسة، وقد تبعتهم بعض الجماعات الأخري مثل جماعات عاصقا وجماليال للمزيد انظر الأنبا يؤانس، عقيدة المسيحيين في المسيح، دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٧٢-١٧٥، البابا شنوده الثالث، طبيعة المسيح،دار الكتب، القاهرة،١٩٩٢م، ص٢٣ أيضاً

Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outré un fragment de la chronique de Ba‹eda- Maryam, leur Predeceddeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung ,p.365.see also J. B. Coulbeaux: Histoire politique et religieuse d'Abyssinie ("The Political and Religious History of Abyssinia"), Paris, 1929, p.314

65- Gelb, I . J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 136.

عهده، فقد ظل لمدة اثنتي عشرة سنة يكتب فيها دون انقطاع، ومن هذه الكتب(٦٦): "طومار تصبئت أو رسالة الإنسانية"(٦٧) و"مصحف برهان أو كتاب النور"(٦٨) و "مصحف ميلاد أو كتاب الميلاد"(٦٩) و"كهدت شيطان أو إنكار الشيطان"(٧٠) و "مصحف باحري أو

66- Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, Rois d' Ethiopie de 1434 A 1478, Paris, 1893, p. 77

٦٧ – أشار زرء يعقوب في هذا الكتاب إلي قصة المؤامرة التي حيكت ضده في البلاط من قبل ابنته وزوجها البحت ودد ايساياس واعتمادهما في ذلك علي السحر والسحرة والعرافين، والنص عبارة عن ثلاثة مواعظ تقرأ في أعياد الاحتفالات بالحوارين، ويقول زرء يعقوب أنه قد جمعها من واحد وثمانين من كتب الشريعة التي تتحدث عن عبادة الرب بقلب طاهر بعيد عن الخزعبلات، وهي مواعظ كتبت عموماً من أجل معارضة أعمال السحر والأوثان.

٦٨ – وهو يعد أشهر كتب زرء يعقوب علي الإطلاق، فهو كتاب تشريعي اهتم فيه بوضع كل التشريعات لشعبه وكهنته، بجانب بعض التعليمات للكهنة والشعب وكيفية تقديم القرابين وقراءة الكتب وإقامة الصلوات، كما احتلت فيه قضية يوم السبت جانباً كبيراً، وأقوال السنودس والديدسقليا، وبعث وميلاد المسيح...... إلخ. انظر مجدي عبد الرازق سليمان، النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين (زرء يعقوب ١٤٣٤-١٤٦٨) وابنه (بئيد ماريام ١٤٦٨-١٤٧٨) ترجمة ودراسة تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب- جامعة القاهرة،١٩٩٨م، ص ٩١ .

٦٩ – ويدعي كذلك خوختا صحاري أي نافذة الشمس والمقصورد به كتاب ميلاد ربنا يسوع وهو يتضمن جزءاً آخر يسمي "مصحف سيلاسي" ويتناول فيه الإمبراطور عقيدة "التثليث" وهو مجموعة من النصائح العامة للشعب المسيحي، وتفسير لبعض أجزاء العهد القديم وارتباطها بالمسيح، كما يوجه بعض الانتقادات لكل من اليهود والمسلمين، وتمرد أولاد إسطفانوس وشهاب الدين أحمد بدلاي ضد الإمبراطور.

٧٠ – هي صلاة معينة ينسب تأليفها لزرء يعقوب، وترد ضمن الصلوات المعروفة باسم (سيف الثالثوث) المنسوبة لزرء يعقوب.



كتاب اللؤلؤة"(٧١) و "تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار"(٧٢) و"إجزينا بيحير نجش أو الرب ملك"(٧٣).

وقد شكك بعض الباحثين في انتساب هذه الكتب إلي (زرء يعقوب)، وذكروا أنها كتبت علي يد رجال الدين الموجودين في البلاط الإمبراطوري تحت رعاية الإمبراطور وإشرافه، وأن هدف تلك الكتب دعم الملك ومقاومة نزعة الهرطقات والممارسات الوثنية، مما يقدم دليلاً حيًا علي تدخل الملك في شئون الكنيسة وشريعتها(٧٤)، غير أن الباحث يتفق مع الرأي المؤيد أن (زرء يعقوب) قد كتب بنفسه معظم ما نسب إليه بصورة مباشرة أو بإشراف مباشر علي كهنته، فمن المعروف أن (زرء يعقوب) خريج مدارس الأديرة المحيطة بالبلاط، والجدير بالذكر أن معظم خريجي هذه المدارس قد عملوا في مناصب متميزة كالقضاء وغيره، كما أنها خرجت العديد من الأمراء الذين تولوا عرش الحبشة فيما بعد مثل (داود ٧٨٤-٨١٤هـ/١٣٨٢ - ١٤١١م) و(زرء يعقوب) و(ناؤود ٩٠٠-٩١٤هـ/ ١٤٩٤-١٥٠٨م) أي أن مؤهلاته الدينية كراهب قبل أن يكون ملكًا تؤهله لذلك، علاوة علي أن أسلوب الكتابة في معظم هذه الكتابات يكاد يكون واحدا، كما تجدر الإشارة إلي أن ما نسبه المؤرخ إلي (زرء يعقوب) أقل بكثير مما نسبه الباحثون إليه إنتاجا(٧٥)

٧١ - والمقصود به هو السيد المسيح وهو عبارة عن موعظة يحارب فيها زرء يعقوب السحر واعتماد المريض علي السحرة، ويركز فيها علي ضرورة أن يلجأ الناس في علاجهم إلي القساوسة لا السحرة .

٧٢ - وهي موعظة كتبت بخصوص جسد ودم المسيح تحث الأحباش المسيحيين علي المحافظة علي ما في الأقداح من شراب بحيث لا يراق منها شئ، لأن القدح قد بورك بدم المسيح.

٧٣ - وهو عبارة عن مجموعة من التراتيل تتضمن تحيات تكريماً للقديسين، انظر

-Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, p. 77

74 - David Buxton : The Abyssinians, Camelot press, Colorado, first Published, London,1970, pp.123-124.

٧٥ - يشير أحد الباحثين إلا أن هناك مخطوطاً يحتوي علي قائمة بالأعمال المؤلفة بالجعزية تنسب جميعها إلي زرء يعقوب منها كتاب يسمي "كتاب الزهور" وكذلك موعظة قصيرة عن الدور الذي أدته السيدة مريم العذراء في خلاص المسيحيين، كما أن له عدة مقالات أخري تتعلق

وإشرافًا[٧٦] إذ حرص علي تأليف العديد من الكتب الدينية التي شرح فيها آراء معارضيه والرد عليهم[٧٧].

ولم تقتصر عملية تأليف الكتب الدينية في عهد الإمبراطور زرء يعقوب فقط، بل كانت هناك العديد منها ما تم تأليفه في عهد أبنه وخليفته (بئيد ماريام ٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨ - ١٤٧٨م) خاصة تلك التي تحتوي علي الصلوات الخاصة بالصوم الكبير، علاوة علي مخطوطات أخري مزينة من داخلها بصور جميلة، وبها أنواع من الحلي الممزوجة بالصلبان والمتعددة الألوان[٧٨].

أما في ما يخص بتفسير الكتاب المقدس فقد كان الأحباش يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة لا سيما القديس باسليوس والقديس يوحنا الذهبي والقديس كيرلس السكندري، فضلاً عن بعض الآباء السريان والرومانيين، ويعد كتاب "هيمانوته أباو أو إيمان الآباء" عملاً نموذجيًا في هذا الصدد، إذ يشمل علي مختارات في أصول العقيدة

بالصلاة، وأخري لرفض الممارسات السحرية التي اتبعها الوثنيون، علاوة علي ابتهال ديني يسمي "تمجيد المحبوب" وهي صلاة عامة لأيام الأسبوع . للمزيد انظر مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

٧٦ - ينسب إلي زرء يعقوب كذلك الإشراف علي مجموعة من الكتب في عهدة مثل إشرافه علي ترجمه كتاب"قوانين الملوك" الذي أشار عليه به بطرس بن عبد السيد -وهو ناسخ الكتاب- كبديل عن كتاب (فاوس منفساوي)، فمنح بطرس ثلاثين أوقية من الذهب ليسافر إلي مصر ويحضر نسخة من القوانيين المدنية لابن العسال ليترجم في بلاطه.كما ينسب إليه أيضاً الإشراف علي كتاب إخنوخ الذي كان أساساً نموذجياً للحوار مع اليهود. مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

77 - Taddesse Tamrat : A Period of Conflict, In A Panorama of History and Spirtual Life, Addis Ababa,1970,p.256.

78 -Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "(JAA) no: 46 –4/80, p.84.

والدفاع عن الإيمان وقد نقل الكتاب إلي الجعزية في عهد الإمبراطور الإسكندر(٨٨٣-٨٩٨هـ/١٤٧٨ -١٤٩٢)[٧٩]، كما ظهر كتاب"مصحف مستي **Mashafa Mastir** أو كتاب السر"في عهد (ناؤود٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م) في دحض الهرطقات المسيحانية والثالوثية ولمعتقدات أريوس وصابيليوس ونسطور ولتعاليم المجمع الخلقدوني[٨٠]

وقد أهتمت الكتب التي تم تأليفها في عصر الإمبراطور (لبنا دنجل٩٦٤-٩٤٧هـ/١٥٠٨- ١٥٤١م) بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، ومن أبرز كتاب هذه الفترة إنباكوم **Enbakom** وهو تاجر سوري استقر في الحبشة وأصبح رئيسا لأحد الأديرة فيما بعد، وقد كتب بالجعزية في موضوعات دينية وغير دينية، ومن أهم أعماله الدينية كتاب "أنقستا أمين أو باب الإيمان **Anketse Amin** "، الذي يهدف إلى تغيير وتحويل عقيدة الأحباش الذين اعتنقوا الإسلام أثناء غزو الإمام أحمد بن إبراهيم وفيه ذكر لآيات قرآنية وبراهين عن صحة المسيحية وشموليتها، ومن أعماله العلمانية المهمة كتاب "قوانين الملوك" الذي أعاد ترجمته إلى الجعزية عن العربية، وقد استمر استخدام هذا الكتاب كمصدر أساسي للقوانين والتشريع حتى أوائل العصر الحديث عندما ظهرت قوانين أكثر تقدما ومسايرة لروح العصر، كما كتب إنباكوم كذلك "الموسوعة الجعزية **Mesthafe hawi** و "أبو شاكر **Abu shakir**" وهو كتاب عن دراسة معاني الأعداد السحرية والتنجيمية ويقع في تسعةٍ و خمسين فصلاً[٨١]. كما ظهر كتاب "مازغبا حينوت"

---

79 - Ulrich braukamper : The Correlation of Oral Traditions and Historical Records in Southern Ethiopia A Case Study of The Hadiya/ Sidamo, (JES), Vol. XI, No.2, Addis Ababa, (July 1973)., p.138.

٨٠- أثناسيوس المقاري : الكنائس الشرقية وأوطانها، الجزء الثالث، دار نوبار، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر ٢٠٠٦،ص ص ٧٢-٧٣

٨١ - استنبطنا من مقدمة هذا الكتاب المعادلة الآتية : العام ٦٧٥٠ من تاريخ العالم = عام ١٥٦٩ بعد الإسكندر = عام ٦٥٥= عام ١٢٣٧ بعد المسيح انظر :

Mazgaba Haymanot وهو عبارة عن قراءة تاريخية للمجامع المسكونية الأربعة، ويهدف إلي دحض ادعاءات المرسلين والرد علي أولئك الذين دخلوا في الدين الإسلامي وأظهروا ما في المسيحية من بطلان للعقيدة الصحيحة(٨٢).

٢- الشعر :

أما في ميدان الشعر فقد شهد فترة حكم الأسرة السليمانية علي وجه الخصوص نشاطًا ملحوظًا وخاصة في الشعر الديني الذي يمجد مريم العذراء والقديسين وله منزلة خاصة عند الأحباش، ويلاحظ أن الشعر الجعزي الذي تمخضت عنه نهضة هذه الفترة لم يتعرض لمنافسة خطيرة من الشعر المنظوم باللغة الأمهرية، حقيقة أن هذه الفترة شهدت نموًا سريعًا للشعر المنظوم بهذه اللغة، ولكن هذا اللون من الشعر لم يقف عندئذ موقفًا عدائيًا من الشعر الجعزي، لأن الجعزية كانت لا تزال في هذه الفترة اللغة الطبيعية المألوفة في نظم الشعر، كما ظل الشعر الجعزي يصادف هوي عظيمًا في نفوس كثيرين حتي استخدموه في تصوير بعض مظاهر الحياة المعاصرة، الجدير بالذكر أن هذا الشعر كان عبارة عن ضربين يسمى أولهما «سلام أو صورة» Malke يحيّي كاتبه فيه صديقًا أو محبوبًا أو يصف محاسن فتاة من الرأس حتى القدم، ويمثل ثانيهما مقطوعات قصار تغنّى غناء في المناسبات الدينية، ومما أُلِف من الأناشيد والتراتيل مجموعة في تسبيح مريم العذراء ونشيد آخر ظهر في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر يسمى «دقة» Deggua وإن كانوا ينسبونه خطأ إلى المغني ياريد Yared الذي عاش في القرن السادس الميلادي(٨٣).

٣- التدوين التاريخي :-

- Budge: op. cit, Vol. 2, p.571.
82- Ibid , pp.571-572.
83 -Steven Kaplan : " Iyasus Mo‹a and Takla Haymanot, A Note on Hagiographic Controversy" in (JSS) 31, 1, 1986, p. 48.

وثمة مظهر أخر من مظاهر النشاط الفكري في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يبدو واضحاً في الكتابات التاريخية التي ازدهرت في تلك الفترة، أما هذا الازدهار فيرجع إلي عدة أسباب من أهمها: عودة حكم المملكة للأسرة السليمانية مرة أخري، وإحياء الأساليب القديمة في كتابة التاريخ، فضلاً عن الأحداث المهمة التي امتازت بها فترة حكم السليمانيين والتي ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ، كذلك الحروب مع المسلمين فضلاً عن النزاع مع معارضي الكنيسة، وقد بدأت الكتابة التاريخية الحقيقية في الحبشة منذ اعتلاء أول حكام هذه الأسرة العرش عام ١٢٧٠ إذ تم تعيين كاتب متخصص من قبل البلاط وهو "منصب الصحافي تنزاز" لتسجيل الأحداث التاريخية [٨٤].

وقد ازدهرت ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها العصور الوسطي بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقديسين، والمخطوطات التي كانت تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث الوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن [٨٥].

ففي كتابة السير نجد أنه بوجه عام حرصت علي أن تظهر سير حياة القديسين في قالب مدح وثناء، بحيث يبدون في ثوب أرباب المعجزات والكرامات، واستمر هذا الأسلوب متبعاً في القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس عشر الميلاديين، فدونت سير

٨٤- هو منصب استحدثه الإمبراطور (يكونو أملاك) مؤسس الأسرة السليمانية الذى عهد إليه بمهمة تسجيل الأحداث التاريخية، مما كان له الفضل الأول في معرفة أحداث وتاريخ هذه الأسرة، وقد أضاف إليه (زرء يعقوب) مهمة حفظ المراسلات الإمبراطورية وختمها والترجمة الحرفية لهذا اللقب" الكاتب المأمور"، وكان من أهم اختصاصاته: حمل أختام الإمبراطور وقيد زواج الأسرة الإمبراطورية وقيد أوامر الإمبراطور وحفظ جميع المعاهدات وأوراق المملكة للمزيد انظر محمد خليفة حسن، نصوص من الحوليات الملكية الأثيوبية، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولي، القاهرة،٢٠٠٧م، ص ٣٧٣.

85- Christine Chaillot : op. cit, pp.42-44.

بعض القديسين السابقين من جديد وفقاً لمقتضيات المناسبات والظروف أبرزها سيرة الأنبا تكلا هيمانوت، كما كتبت تراجم لقديسي القرن الخامس عشر الميلادي أنفسهم، وعلي رأسهم القديس القديس صموئيلSamu'el حيث نظر إليه المعاصرون علي أنه شهيد الكنيسة في صراعها مع السلطة العلمانية، فضلاً عن سيرة القديس مرحنا كريستوس التي احتلت مكانًا بارزًا في الدراسات الأدبية، وجميع هذه الكتابات لم تخل من كثير من المعجزات التي نسبت إلي ذلك القديس(٨٦).

أما الجانب الثاني من الكتابات التاريخية هي المخطوطات التي مهدت في هذا العصر لمولد نوع جديد من التدوين التاريخي، وقد بلغت هذه المخطوطات ذروتها في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مكتوبة جميعها باللغة الجعزية، وقدر لها أن تظل قائمة حتي نهاية العصور الوسطي، ذلك أن هذه المخطوطات لم تكن مجرد وقائع وصفية، وإنما كانت سردًا لأهم أحداث السنوات خاصة زيارات الأباطرة للأديرة والهبات الممنوحة لها، فضلاً عن تناولها أخبار الحروب مع المسلمين، وكانت هذه المخطوطات قليلة الأهمية في الأديرة الصغيرة، لكنها صارت في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس ودبر برهان علي جانب كبير من الأهمية، فقد أقدم معظم الرهبان علي عملية نسخ المخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا فى نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها(٨٧).

وكانت جميع المخطوطات الحبشية مكتوبة علي الرق المصنوع من الجلد الذى ينقسم إلي نوعين : أما ورق مصنوع من جلد الماعز أو من جلد الغنم وهذا الأخير هو الأفضل، نظراً لأن قيمته عالية فضلاً عن أن جلد الماعز كان يكفي فقط لصنع مستويين أو اثنين من المخطوطات بمقياس ١٨في ١٥.٥ بوصة قسمة محتوياتها في المتوسط ٢٤٥ كلمة، وقد تم ذبح عدد كبير من الماعز خصيصاً لأخذ جلودها واستخدامها في

86 - Taddesse Tamrat : A Period of Conflict, p.243.

٨٧ - عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٨.

كتابة المؤلفات الدينية مثل الكتاب المقدس وكتب الدراسة و ذلك بدلاً جلود الخراف، أما الكتب الأخري التي صنعت خاصة لأفراد العائلة الحاكمة والنبلاء كانت مكتوبة علي جلد الماعز، وكان القلم عبارة عن عود من القصب الطويل الذي استخدم في جميع أنحاء الشرق والحبر جيد مثل الحبر المستخدم في مصر، أما العناوين والنقاط فهي مكتوبة بالحبر الأحمر، والعديد من المخطوطات مكتوبة في مطلعها بالحبر الأحمر والأسود[٨٨].

أما عن أغلفة المخطوطات فكانت مصنوعة من الألواح الخشبية الغليظة التي يختلف سمكها وفقاً لعدد صفحات الكتاب، هذه الألواح الخشبية مغطاة من الخارج بالجلد البني وألوان مختلفة، وهناك بعض الألواح المصنوعة من المعدن النحاسي المطلي بالذهب مع ثلاثة صلبان علي بعضها، أما الحواف الداخلية فهي لوحات خشبية مغطاة بلون الجلد الداخلي والمسافة التي تفصل بينهما عبارة عن قماش من الحرير أو قطعة من القماش الملون، وتتميز الكتب التي تتعلق بالصلاة بأنها مغطاة بقطع من الزجاج وهو شئ لا يقدر بثمن في نظر الأحباش[٨٩] .

وعلي الرغم من أن هذه الأديرة كانت عرضه للسلب والنهب إلا أن بعضها كان به مخازن في جدران الحوائط، أو في صناديق مصنوعة من الخشب أو الحجر، أما في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس أو دبر برهان كانت توجد غرفة خاصة تحتوي علي

---

٨٨ - نشر العديد من العلماء والرحالة الأجانب تاريخ السجلات التاريخية الحبشية الهامة ومن أهم هؤلاء العلماء : باست (Basset) وجول برشون (Perruchon) وكونزلمان (Conzelman) وبيرايرا (Pereira) وجايدي (Guidi) وكونتي روسيني (Conti Rossini) وليتمان (Littmann) وبلندل (Blundell) وقد تم ترجمة هذه السجلات إلي عدة لغات أهمها اللاتينية والفرنسية والألمانية والبرتغالية والروسية والأنجليزية . للمزيد أنظر

- Budge : op. cit. p. 567.

٨٩ - أكتشف المبشرون البرتغاليين في القرن السادس عشر الميلادي العديد من هذه الكتب التي تخص العبادات، وكتب أخري مثل معجزات العذراء مريم وحياة القديسين والشهداء، كما وجدوا كثيراً من الرسوم مثل ملكة سبأ، فضلاً عن مائة وأحد عشر من معجزات مريم العذراء . انظر

- Budge : op. cit. p. 566.

مكتبة وبها العديد من الرفوف مثل الكنائس الموجودة في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت، وكان رئيس المكتبة علي علم تام بنسخ هذه الكتب ويحتفظ بقوائمها وهو أحد الرهبان أو القساوسة(٩٠).

أما النوع الثالث من الكتابات التاريخية فيشمل كتب الوقائع والحوادث التي تعد الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي في بداية حكم الأسرة السليمانية، عندما أخذت الكتابة التاريخية في تدوين أحداث البلاط الملكي، وخير مثال علي ذلك : النصوص الملكية في عصور (عمدا صهيون الأول) و(زرع يعقوب) وابنه (بئيد ماريام) و(لبنا دنجل) فضلاً عن تاريخ ملوك هذه الفترة مثل (إسكندر) و(ناؤود) و(عمدا صهيون الثاني ٨٩٨-٨٩٩هـ/١٤٩٢-١٤٩٣م)، ولم يقف مؤرخو هذه الحوادث التاريخية عند حد معالجة الحوادث المحلية المتعلقة بالدير والكنيسة وأفراد الشعب وتدوين الحوادث الكبيرة في حياة كل إمبراطور، بل تخطوا ذلك إلي العالم الخارجي وإلي ما حدث في البلاد الأخري مثل ذكر إحراق دير المغطس في مصر وعقد مؤتمر فلورنسا وغيرها، ومن الواضح أن مؤرخي هذه الفترة كانوا يعرفون هذه الأخبار التاريخية من الزوار الذين كانوا يترددون علي الحبشة، الجدير بالذكر أن هذا النوع من الكتابة خضع لإشراف رجال البلاط الإمبراطوري(٩١).

وعلي الرغم من المؤلفات السابق ذكرها التي قام العديد سواء من العلمانيين ورجال الدين بكتابتها، إلا أن مراكز العناية بالدراسات الدينية كانت الأديرة والكنائس بحكم أقدميتها وانتقال تراث الأدب القديم إليها من ناحية، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة في الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة من ناحية أخري، وهكذا ظلت الأديرة المستودع الأساسي لحفظ الدراسات والأدب الحبشي حتي ورثتها المدارس الديرية في هذه المهمة وغدت الأخيرة مركزًا للدراسات الأدبية وغير الأدبية في العصور

---

٩٠ - كانت معظم هذه الكتب دينية في المقام الأول إذ كان يحملها المسافر في الصحراء حول رقابته أو تحت ظهره تحت عباءته. للمزيد انظر

- David Buxton: op. cit, p.47.

91 - Paul B . Henze : op, cit, p.37

الحديثة[٩٢]، ولكن علي الرغم من ضيق أفق المدارس في ذلك العصر، إلا أن أثرها أضحي عظيمًا بالنسبة للأجيال التالية، فهي من ناحية أدت إلي إحياء اللغة الجعزية بوصفها لغة الأدب الديني، وبذلك استطاعت أن تقاوم ما طرأ عليها من تحريف في طريقة الأساليب وتركيب الجمل، ومن ناحية أخري كان تلاميذ هذه المدارس وخريجوها هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة، وأكثر هذه الكتب كانت بالطبع الكتب الدينية وكتب اللاهوت[٩٣].

وإذا كان العصر الثاني من حكم الأسرة السليمانية (٨٣٨ -٩٤٧هـ / ١٤٣٤-١٥٤١م) يمثل العصر الذهبي للآداب الجعزية وللنهضة الأدبية في الحبشة، إلا أنه من الصعب بناء صورة متكاملة عن الإنجازات الأدبية والفنية للحبشة في العصر الوسيط، ويرجع ذلك إلي تعرض الحبشة إلي سلسلة من الغزوات من جانب الإمام أحمد الجران واستولى فيه على معظم أنحاء المملكة، وتم خلالها تدمير كثير من الكنائس ونهب كنوزها وإحراق كثير من مخطوطاتها، كما أن الأتراك قد أبادوا خلال هجماتهم المتكررة علي البلاد ولم يفلت من هذا الدمار سوي بعض الأديرة والكنائس التي كانت في مناطق نائية ومرتفعة والتي لم يتمكن الغزاة من الوصول إليها، ومع ذلك لا تزال هناك بعض المخطوطات المهمة في أديرة جزر بحيرة تانا وقد تم الكشف عن بعض هذه المخطوطات ووجدت طريقها إلي بعض الدوائر العلمية في أوروبا[٩٤] .

ولعل خير ما يصور لنا مدي العناية بالأدب في هذه الفترة التاريخية، هو أن عدد ما تم إرجاعه إلي الحبشة من مختلف البلدان الأوروبية وخاصة بريطانيا كان حوالي ألف مخطوطة، فقد أعاد الجيش البريطاني منها نحو أربعمئة مخطوطة إلي البلاط الملكي بخلاف حوالي ستمئة مخطوطة أخري إلي الكنائس والكهنة، على أنه يوجد ما لا يحصي

---

92 - Richard Pankhurst : op . cit ,p .136.

٩٣ - ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج١، ص٩١٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٩.

94 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 199.

في المكتبات العامة الأوروبية فضلاً عن التي في حوزة الأفراد العاديين[٩٥]، فضلاً عن ما تعرضت له هذه المخطوطات في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين من عمليات السلب والحرق التي تعرضت لها الكنائس والأديرة علي يد المسلمين[٩٦].

٤- الأدب الشعبي:

علي أننا إذا كنا في حديثنا عن الأدب الحبشي في هذه الفترة التزمنا جانب الأدب الجعزي، بحكم بقاء الجعزية لغة الكنيسة والمتعلمين، فليس معني ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبي خاص بهم، ذلك أن طبقة العامة في الحبشة لم تعرف الجعزية، وإنما عرفت اللغة التي توارثها الناس عن أجدادهم، وهي اللغة الأمهرية[٩٧]، هذا مع ملاحظة أن اللغات المحلية الأخري لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبي قبل القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي، وإلي أن قامت اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس

---

٩٥ - سعي العالم كونتي روسيني Conti Rossini لدراسة معظم هذه المخطوطات في مؤلفاته المختلفه وأبرزها كتاب:-

- Note Per La Storia Letteraria Abissina, in The Rendiconti Accad . Lincei, Ser.VIII,

- وقد تضمن هذا الكتاب حوالي ١٣٠٠ مخطوطة، وعلي الرغم من ذلك لم تكن هذه المخطوطات كاملة . وقد أخذ العديد من الكهنة الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين مجموعات صغيرة من هذه المخطوطات إلي أوروبا فضلاً عن العديد من الرحالة خاصة كل من العالم Salt – Bruce – Parkyns- فضلاً عن أحد الأكاديميين الفرنسيين الذي يدعي D'Abbadie في كتاب يدعي Catalogue Raisonne , Paris, 1895، كما جلب العالم رايت Wright أكثر من خمسمئة مخطوطة حبشية إلي إنجلترا عام ١٨٦٨م أودع منها عدد ٤٠٨ مخطوطة في المتحف البريطاني.

- وفي عام ١٨٤٧م نشر المتحف البريطاني حوالي ٨٢ مخطوطة حبشية للعالم ديلمان Dillmann's، كما نشر مجموعة أخري بعد حوالي عشرين عاماً تحت عنوان :

- Verzeichniss der abessinischen Hand Scriften, Berlin, 1878.

96 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.561.

٩٧ - حققت اللغة الأمهرية أول ظهور لها أوائل القرن الرابع الميلادي مزيدًا من التقدم، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال جودة القصائد التي كتبت في مدح الملك إسحاق Yitshak .

آدابها الشعبية، ولكنها كانت آداباً غير مكتوبة، تألفت من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاهة ويتوارثها الخلف عن السلف، والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم، فإن لكل شعب مقدرته علي التعبير التصويري الذي قد يبدو لنا تافها وبسيطاً، لكنه لا يخلو من جمال فطري[٩٨]، أما التأليف بالأمهرية فكانت بدايته على يد المبشرين في بدايات العصر الحديث الذين قاموا بترجمة الكتاب المقدس ومؤلفات دينية أخرى إلى الأمهرية لينشروا المذهب الكاثوليكي، ثم ظهر ما يسمى بعد ذلك «أناشيد الملوك» وهو قصائد في مدح الملوك وتمجيدهم[٩٩].

ويلاحظ المتتبع للأدب الحبشي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أن هذا الأدب لم يعد جعزياً خالصاً، ذلك أن تيار اللغات المحلية أخذ يقوي ويشتد في ذلك العصر، تمهيدا لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف المدن الحبشية، الأمر الذي يجعل من النصف الأخير من القرن السادس عشر مرحلة انتقال من الأدب الجعزي الخالص إلي مرحلة الآداب المحلية الناشئة[١٠٠]، فقد عثر على أدب تقليدي مكتوب باللغة الأمهرية يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي وهو عبارة عن بعض الأغاني الإمبراطورية القديمة، ولقد نالت الأنشطة الأدبية الأمهرية أهمية مؤقتة في هذه الفترة حيث كتبت بالأمهرية رسائل مذهبية جدلية بين رجال الدين، كذلك فإنه منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي بدأت الإرساليات في استخدام اللغة الأمهرية في محاولتها لكسب أنصار أكثر في نضالها ضد الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية التي كانت تستخدم اللغة الجعزية ولذلك فقد قام هؤلاء المبشرون بطباعة ونشر أعمال باللغة الأمهرية، وبدأت أيضا

---

98 - Manoel de Almeida: Some Records of Ethiopia 1593-1646, Trans,. And Ed.by C.F. Beckingham& G. W. B Huntingford, Hakluyt Society,N. Y. 1990, pp.189-194.
99 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.563.
100 - Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

ترجمات أمهرية للكتاب المقدس وكذلك وضعت بعض الكتب الشعبية الروائية بالأمهرية[١٠١].

وهكذا يتضح لنا أن التراث الأدبي –الجعزي والأمهري- كان أقدم منبع للآداب الوطنية في الحبشة العصور الوسطي، إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة بذلك التراث متداولة في الحبشة، وبقدوم العديد من الرهبان وأمثالهم من رجال الدين صار الكتاب المقدس يمثل مصدرًا جديدًا للإلهام الأدبي، حتي غدا كل حدث ورد في ذلك الكتاب موضوعاً لتعبير أدبي، ومهما يكن من أمر فإن أهم الميادين التي ظهرت فيها الآداب الوطنة في أواخر العصور الوسطي كانت الكتب الدينية من جهة وسير القديسين من جهة أخري، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما علي حدا[١٠٢].

ولعل أول ما نلاحظه علي هذه النهضة الأدبية في الحبشة أنها كانت نهضة مصطنعة، حدثت بفعل فاعل، وبعبارة أخري قامت هذه النهضة لأن (زرء يعقوب) أراد لها أن تقوم، وأراد لها أن تكون نهضة، فهي ليست نهضة تلقائية شاملة، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية طبيعية كامنة، وإنما ولدت في بلاط الإمبراطور و نمت وترعرت فيه، وظلت ربيبة (يعقوب) وخلفائه المباشرين إلي أن ماتت وخمدت جذويتها بالسرعة التي ظهرت بها، ولعل هذا هو السبب في أن النهضة الأدبية إذا تم موازنتها بغيرها من الحركات الحضارية في العصور الوسطي ومستهل الحديثة، فإنها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر، لأنها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها ويرعاها، فظلت منتعشة ما عاش صاحبها، حتي إذا ما مات ماتت معه أو بعده بقليل[١٠٣].

101- C.H. Walker, O.B.E : op . cit , p. 259.
102- Edward Ullendorf. The Ethiopians, p.141
103- Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

كذلك نلاحظ علي هذه النهضة أنها كانت حركة إحياء أكثر منها حركة ابتكار وتجديد، ونقصد بالإحياء هنا إحياء الدراسات الدينية ورفع مستوي اللغة الجعزية، بعد أن انحط انحطاطاً بالغاً في العصور السابقة، وبعبارة أخري فإن الدور الأساسي لهذه النهضة انحصر في المحافظة علي التراث الجعزي القديم[١٠٤].

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه العناية بالمدارس من جهة وبالكتب والمكتبات من جهة أخري الي نهضة أدبية كبري، هي في الواقع المظهر الرئيسي للنهضة الأدبية، وقد رأينا أن كلا من (زرء يعقوب) و(لبنا دنجل) لم يحاولا محاكاة أباطرة أكسوم القدامي في عظمتهم السياسية والحربية فحسب، بل عملوا أيضاً علي أن التشبه بالقديسين العظام في المجال الحضاري والديني، فجمعا حولهما جماعة من الأدباء والقديسين والعديد من رجال الدين خاصة العلمانيين، مما هيأ للنهضة الحبشية عاملاً أساسيًا من عوامل الازدهار. وقد اكتسبت هذه النهضة طابعاً دينياً في المقام الأول نظراً للعلاقة التي ربطت الأباطرة بالكنيسة، والتي أملت عليهم سياسة معينة تجاهها، لذلك كانت الصدارة في الجانب الأدبي للأدب الديني، كما سبق أن رأينا، ثم جاء التاريخ ليحتل المرتبة الثانية في آداب النهضة الحبشية، فامتازت الكتابات التاريخية في ذلك العصر برقيها وحسن صياغتها مع التعمق في الأسلوب الجعزي . وفيما عدا سير القديسين اهتم كتاب ذلك العصر بكتابة المخطوطات ولم يقفوا عند حد تدوين المخطوطات القصيرة أو الصغيرة، إنما دونت مخطوطات طويلة أشرف عليها رجال البلاط، وهذه المخطوطات الأخيرة التي سميت باسم الوقائع الملكية ظلت تسرد تاريخ البلاد منذ عصر (يكونو أملاك) –مؤسس الأسرة السليمانية– سنة ١٢٧٠م حتي العصور الحديثة[١٠٥].

كما نلاحظ أنه إذا كان الناس قد اعتادوا دائماً أن يسجلوا مآثر أسلافهم وبطولتهم في أدبهم، فإن (زرء يعقوب) سرعان ما أصبح بعد وفاته محورًا ومادة لكثير من الكتابات

---

104 -Tesfaye Gesesse : op. cit, p.34

١٠٥ – محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص ٣٧٣.

التي صورته في صورة القديس العظيم الذي حارب الوثنيين ودافع عن الكنيسة من معارضيها، وهكذا أثرى (زرء يعقوب) الأدب في حياته وبعد مماته(١٠٦).

وأخيراً يميل بعض الباحثين إلي عدم المبالغة في أهمية النهضة الأدبية الحبشية في تلك الفترة لأنها اعتمدت علي عنصر الإحياء والمحاكاة أكثر من اعتمادها علي عنصر التجديد والابتكار(١٠٧)، ويضيف آخرون أن أفق الحياة العلمية في النهضة الحبشية ارتبط بالكنيسة ورجالها وتقاليدها، مما جعل هدف رجال العلم وطلابه لا يتعدي تنظيم تراث الكنيسة وتفسير علومها، ولكن هذه الانتقادات لا يمكن أن تصرفنا عن تقدير مزايا النهضة الحبشية وآثارها، ويمكن الوقوف علي الأثر الذي تركته هذه النهضة بموازنة النشاط العلمي في الحبشة حتي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي – سواء في وفرة الإنتاج والكتابات أو في كثرة المساجلات والمناقشات العلمية– بالركود الذي ساد العصر السابق للنهضة الأدبية في تلك الفترة، لهذا لا نستطيع أن نقلل من أثر النهضة الأدبية في تلك الفترة(١٠٨).

رابعاً : حركة الترجمة:

إذا كان كثير من مظاهر النهضة الأدبية الحبشية بداية العصور الوسطي تميز بغلبة الطابع الديني عليه، فإن هذه النهضة اعتمدت في الحقيقة وبالدرجة الأولي علي حركة الترجمة عن اليونانية والعربية، ويرجع ذلك إلى أن التعليم كان محصوراً علي رجال الكنيسة الذين لم يهتموا بآداب اليونان والرومان والعرب وفلسفتهم وعلومهم، بل جعلوا الكتاب المقدس وما يتصل به من علوم لاهوتية مصدر المعارف كلها، ولم تستطع الحبشة

---

106 - Budge : The Book of the Saints of the Ethiopian church, II, Olms, 1976, p.124.

107 - Budge: A History Of Ethiopia ,Vol. 2, p.571.

108 - Roland Oliver: The Rise of The Solomonic Dinasty, The Cambridge History of Africa, Vol. 3 , Cambridge University Press, 1977, pp.128-129, 159.

أن تستفيد من هذا التراث اليوناني والعربي استفادة كاملة في هذه الفترة، إلا عن طريق حركة ترجمة عن اليونانية من ناحية والعربية والقبطية خاصة في التاريخ وسير القديسين والترانيم الدينية وغيرها من ناحية أخرى[١٠٩].

وقد مرّت الترجمة في عهدين تفصل بينهما مرحلة دامت نحو خمسة قرون لم يصل منها شيء يستحق الذكر، وكانت الترجمة في العهد الأول منهما - أي من القرن الخامس إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، من اليونانية وشملت الكتاب المقدس، وأسفاراً أخرى أهمها كتاب «اليوبيل» **Jubilees** و«أخنوخ» **Enoch** و«صعود اشعياء» **Ascension of Isaiah** و«ابن سيراخ» **Sirach**، وكتابان في الرهبنة هما «قوانين باخوم» مؤسس نظام الرهبنة في مصر و«كتاب الرهبان»، وكتاب عنوانه «كيرلس» **Kyrillos** نسبة إلى بطريرك الإسكندرية المتوفى عام ٤٤٤م، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» **Physiologos** عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية، وكانت الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب شائعة في أوربا في القرون الوسطى[١١٠].

أما العهد الثاني فقد صارت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، كما تدل بعض المواضع في النصوص المترجمة على أن أصولها العربية مترجمة عن القبطية، وأهم ما وصل من هذه الكتب كتاب " بيان يسوع " الذي يتنبأ بظهور ملك يدعي ثيودور يملأ العالم سعادة، وقد كتب في عهد الامبراطر ثيودور الأول (٨١٤-٨١٧هـ/١٤١١-١٤١٤م) وكتاب " عقيدة الآباء **Haimanote Abew** " و "قدس الأقداس **Fikare melekot** " وترجمة لكتاب "تاريخ البطاركة" يوحنا النيقوسي عن القبطية «جلال الملوك» (كما سبقت الإشارة)، وكتاب «الضياء» المنسوب إلى الملك (زرع يعقوب) و ثلاثة كتب قانونية تشمل التشريعات الكنسية هي «قانون الملوك» وهو ترجمة

109 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.570.
110 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p.243.

«المجموع الصفوي» لصفي الدين بن العسال[111]، كذلك أكثر الكتب شهرة كتاب "مصحف سنكسار Mesthafe sinksar أو " سيناكساريوم Synaxarium والذي لا يزال يحظى بتقدير من الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية، ويحتوي على التعاليم الكنسية من العربية إلي الجعزية مع بعض إضافات عن القديسين الأحباش في عهد الإمبراطور (لبنا دنجل)[112]. أما الكتاب الثالث فهو «السندوس» Synodus ومجموعة منها: كتاب الميلاد ومعجزات مريم وتقويم القديسين وسيرة الإسكندر، ضمن سلسلة طويلة من الكتب المليئة بالأساطير تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقدّيسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً،وثلاث ترجمات في التاريخ، هي «الوقائع» لأبي شاكر، و«الوقائع» ليوحنا من نيقية، علي أن أهم كتب الترجمات في ذلك الوقت كتاب جرجس بن المكين بن العميد وهو كتاب "تاريخ العالم" يعرف في الحبشية باسم (ولد عمينا) والذي تم ترجمته في عهد (لبنا دنجل)، وثمة ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها[113].

غير أن موقع الصدارة في الأدب الحبشي قد ظل وقفاً علي الكتابات حول السيدة العذراء وكما هي الحال عند الأقباط في تبجيلهم الخاص للسيدة مريم العذراء، ربما كامتداد للاحترام العظيم الذي كان أجدادهم المصريون يكنونة للربة المصرية إيزيس، فإن الأحباش

١١١ – يعد هذا الكتاب من أهم الكتب الدينية التي أثرت في المجتمع الحبشي من الناحيتين الدينية والمدنية لفترة زمنية امتدت إلي أكثر من سبعة قرون لصاحبه ابن العسال المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والذي يتكون من جزءين، يبحث الجزء الأول منه في القوانين الكنسية التي يجب أن تسير الكنيسة عليها، و الواجبات الدينية المفروضة علي الفرد المسيحي، في حين يبحث الجزء الثاني في الحياة المدنية والعلاقات بين الأفراد للمزيد انظر الصفي أسعد بن العسال، المجموع الصفوى، زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من (يكونو أملاك) إلي (زره يعقوب) وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص(١٢٦٨– ١٤٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية،القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٠١.

112- Richard Pankhurst : op . cit ,p .58.

113 - Edward Ullendorff : op . cit , P.144 .

بدورهم قد ساروا علي هذا التقليد وتلك المشاعر بل وكثفوا فيها بدرجة فاقت الكنيسة القبطية نفسها في ذلك التبجيل[١١٤] لذلك فقد تم ترجمة عدد من الكتب الدينية حولها وأشهرها كتاب عجائب العذراء (تأمارا مريم) وعجائب العذراء والمسيح (تأمارا مريم وإياسوس)[١١٥]. فضلاً عن كتابي عجائب مارجرجس الذي ترجم في عهد الإمبراطور إسكندر، كما تم نقل في عهده أيضاً ترجمة وتفسير يوحنا خريسيستوم علي سفر الرسالة إلى اللغة الجعزية، فضلاً عن ترجمة مؤلفات يوحنا صابا في الحياة الديرية إلي الحبشية[١١٦].

أما الأعمال السريانية الأصل التي نقلت إلي العربية أولاً ثم إلي اللغة الجعزية إبان عصر (لبنا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال: يتناول العمل الأول منها كتاب "فيلكسيوسsyusFilke أي فيلو كسين وينسب إلي فيلوكسين المنبجي ت ٥٢٣م أي حياة آباء البرية المتوحدين علي شكل أسئلة وأجوبة، أما العمل الثاني فهو "رسالة في ترويض النفس" لإسحاق النينوي" [١١٧]، أما العمل الثالث والأخير فيعرف باسم الشيخ الروحاني (سابا في السريانية معناها شيخ بينما تقابل في العربية شاب) وهو عبارة عن مجموعة مؤلفات ترويضية ليوحنا سابا، تتضمن دروساً في الأخلاق والحياة الروحية وبعض رسائل سابا، ويشتمل كتابه في الحبشية على ٣٦ ميمراً وفى العربية ٣٠ ميمراً و ٤٨ رسالة وثلاثة ميامر تسمى رؤوس المعرفة، ثم تنتهى المخطوطة برسالة منه إلى

114- Budge . op .cit . p.327.
115 - Jones and Monroe : op . cit , p.54.
116- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outré un fragment de la chronique de Ba‹eda- Maryam, leur Predeceddeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung ,p.356.
117- Merid Wolde Aregay : Southern Ethiopia and The Christian Kingdom, 1508-1708,With Special Reference to The Galla Migrations and Their Consequences ,London, 1971. p.63.

أخيه ثم استفسار لأخيه، وقد قام بترجمة الكتاب إلى الحبشية أتشجى دير ليبانوس الذي يدعي عنبا قوم (حبقوق) وهو مصرى أو يمنى الأصل وقد تم ترجمة هذا الكتاب بأمر الملك (لبنا دنجل)[١١٨].

وكانت الاتصالات الثقافية بين أوروبا المسيحية والمملكة الحبشية محدودة ضعيفة الأثر، لكن هذه الاتصالات أخذت تظهر قوية واضحة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، عندما تردد علي الحبشة كثير من الرحالة ورجال الدين سواء لاستكشاف هذه البلاد أو هروباً من الاضطهادات الدينية في بلادهم، فهناك كتابات منقولة عن اليونانية حول التاريخ الطبيعي، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» Physiologos عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية وترجمة لـ"شرح الأناجيل" لديونيسيوس برصليبي، وهنالك ترجمات لعظات القديس يوحنا الذهبي وعلي الأخص "شرحه للرسالة إلي العبرانيين" وغيرها من الكتب[١١٩].

هذا عن الحركة الترجمة عن العربية واليونانية في فترة العصور الوسطي، وهي الحركة التي ترتب عليها إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية في الجزء الأخير من العصور الوسطي، ولعل أهم ما نلاحظه والغريب في هذا الأمر أن المترجمين عن العربية اتفقوا مع إخوانهم المترجمين عن اليونانية في معالجة موضوعات متشابهة، كان أهمها العلوم الدينية، لذلك كثيراً ما نصادف في ذلك العصر ترجمتين بالجعزية لمؤلف واحد أصله باليونانية، أحداهما مأخوذة عن العربية والأخري مأخوذة عن الأصل اليوناني مباشرة، وفي معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيًا الترجمة عن اليونانية[١٢٠]

118- Sylvia Pankhurst: op. cit, pp.302-303

١١٩ – أثناسيوس المقاري :المرجع السابق، ص ٧٣.

120 - Ulrich braukamper : op. cit, p.139.

الخاتمـــة

عرضت هذه الدراسة للحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في فترة العصور الوسطي، وقد توصلت عن عدد من النتائج أبرزها :

أولاً :- أظهرت الدراسة تعدد اللغات في المملكة الحبشية وإن كانت اللغة الجعزية الوسيلة الرئيسة للتعبير الأدبي والديني، إذ تعد فترة الدراسة الحالية تحديدًا العصر الثاني هى فترة إنعاش الأدب الحبشي -بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري- إذ انتشرت المؤلفات الحبشية لأول مرة في تاريخها نتيجة حركة الإصلاح الديني، مثل كتب : "همارا نفس أو سفينة نوح" و"مرسي أمين أو المرفأ الأمين" و"فكاري ملكوت أو تفسير الألوهية" و "فم العدل" كما نسب لبعض الأباطرة تأليف عدد من الكتب للرد علي المهرطقين مثل "طومار تصبئت أو رسالة الإنسانية" و"مصحف برهان أو كتاب النور" و "مصحف ميلاد أو كتاب الميلاد" وكهدت شيطان أو إنكار الشيطان" و "مصحف باحري أو كتاب اللؤلؤة" و "تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار" و"إجزينا بيحير نجش أو الرب ملك". كما امتازت أواخر هذه الفترة بتأليف كتب اهتمت بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، أبرزها كتاب "أنقستا أمين أو باب الإيمان Anketse Amin".

ثانيا :- أوضحت الدراسة ازدهار التدوين التاريخي في هذه الفترة، فقد كان هناك ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها العصور الوسطي بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقديسين، والمخطوطات التي تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث والوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن الثالث عشر قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط و التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن، لذلك تمثل فترة الدراسة الحالية "العصر الذهبي للآداب الجعزية" .

ثالثاً :- بينت الدراسة ازدهار حركة الترجمة في تلك الفترة، إذ كانت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، خاصة الكتب المليئة بالأساطير التي تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقدّيسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً، وهناك ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها، أما الأعمال السريانية الأصل التي نقلت إلي العربية أولاً ثم إلي اللغة الجعزية إبان عصر (لبنا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال، وقد ترتب علي ترجمة هذه الكتب إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية.

الدور السياسي للقاضي كمال الدين أبو الفضل الشهرزوري (٥٣٠-٥٧٢هـ/١١٣٥-١١٧٦م)

د. منال محمد السيد عبد المجيد
مدرس بكلية الآداب جامعة بني سويف

أدى القاضي كمال الدين الشهرزوري دورًا كبيرًا في المجالين العلمي والديني، وقد تناول الحديث عن ذلك العديد من الكتاب، لكن الدور ا لذي أغفل ولم يتحدث عنه أحد بشيء من التفصيل هو دوره السياسي، فالمعروف أن هذا الرجل أدى دورًا هامًا في مجال السياسة، وخاصة أنه كان مقربًا من حكام بلاد الشام والعراق. ويتمثل هذا الدور في عدة مجالات، أولاً دوره في دولة عماد الدين زنكي، فقد اعتمد السلطان عماد الدين زنكي اعتمادًا كبيرًا على القاضي كمال الدين الشهرزوري، حيث ولاه عماد الدين زنكي قضاء الموصل، وأصبح قريبًا منه في كثير من الأعمال الهامة وعهد إليه بالمهام الصعبة، فلم يوجد شيئًا في الدولة يخرج عنه على حد قول الإسنوي "[١].

أما القاضي كمال الدين الشهرزوري فهو: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبدالله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، ولد سنة ٤٨٢هـ/١٠٩٨م بالموصل، وتفقه ببغداد على يد أسعد الميهني، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن خميس الموصلي[٢].

استطاع أن يجمع بين الفقه والأدب والشعر، مما يدل على مدى علمه وثقافته، لذلك وصف بأنه فقيه أديبٌ شاعرٌ كاتبٌ فكه المجالسة[٣].

فكتب العديد من أبيات الشعر التي تدل على حسه المرهف، فقد ذكر الكاتب عماد الدين الأصفهاني وغيره من المؤرخين العديد منها، على سبيل المثال :

ولقد أتيتك والنجوم رواصد والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت م الأهوال كل عظيمة شوقًا إليك لعلنا أن نلتقي[٤]

وغيرها من أبيات الشعر الرائعة التي تدل على أنه شاعرٌ متمكنٌ.

ويعتبر دوره السياسي في زمن عماد الدين زنكي من الأدوار الهامة في تاريخ هذه الفترة، حيث قام عماد الدين زنكي بإرساله إلى السلطان السلجوقي سنجر ابن ملكشاه عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م، وذلك لكي يتوسط لديه ويقنعه بتولية الراشد في الخلافة العباسية، ومن الواضح أن عماد الدين زنكي لم يرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري في هذه المهمة الصعبة، إلا لعلمه الأكيد بما يتمتع به كمال الدين من حسن تصرف ولباقة وقدرة على الإقناع.

ويحدثنا التاريخ أنه كان يلي الخلافة في تلك الفترة الخليفة المقتفي بالله العباسي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)[٥]، مما يجعلنا نتساءل عن السبب الذي دفع زنكي إلى الاهتمام بتولية الراشد الخلافة بدلاً من المقتفي.

من الجدير بالذكر أنه في عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م وصل السلطان مسعود بن ملكشاه إلى بغداد، وضايق الخليفة الراشد بالله، وكان معه عماد الدين زنكي، وعندما طال المقام بها ولم ينالوا شيئا، عاد عماد الدين إلى الموصل، أما السلطان مسعود فبقي ببغداد، الأمر الذي ضايق الراشد، وعلم أنه لا طاقة له بالمقام معه، فذهب إلى الموصل واستنجد بعماد الدين، في نفس الوقت أقام مسعود الخليفة المقتفي بأمر الله في الخلافة وبايعه[٦].

على أية حال فما أن وصل القاضي كمال الدين إلا واستقبل في دار السلطنة استقبالاً حافلاً، وإكرامًا زائدًا، وبدأ يتحدث في أمر الراشد، إلا أنه عندما وصلته رسالة من الخليفة المقتفي يعاتبه على الامتناع عن البيعة له، وأنها من حقه، فما كان من القاضي كمال الدين إلا أن غير رأيه وتصرف من تلقاء نفسه، ويقنع السلطان بالبيعة للخليفة المقتفي. وفي ذلك يقول ابن الأثير : " وقيل لي في أمر البيعة فقلت إن الراشد له في

أعناقنا بيعة، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه، لا يجوز لي فعل ما ينافي الشرع، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه، وأبايع عني وعن صاحبي فلما سمعوا هذا احضروا المحضر المذكور، فلما رآه وشهد به الشهود، خلع الراشد وبايع المقتفي لأمر الله"[٧].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى المكانة الكبيرة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين في ذلك الوقت، حيث استطاع أن يقنع السلطان بإقرار المقتفي في الخلافة بذكائه وقدرته على الاقناع.

والسؤال هنا ماذا كان موقف زنكي مما حدث ؟

لم يكن أمام زنكي، تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية، إلا أن يتخلى عن الخليفة الراشد، وانحاز إلى المقتفي الذي كافأه بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد ألقابه[٨].

كذلك لم يجد عماد الدين زنكي أفضل من القاضي كمال الدين لكي يرسله رسولاً إلى السلطان مسعود بن محمد ملكشاه، عندما وصلت حملة الروم والفرنج عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٨م إلى بلاد الشام، للقضاء على زنكي وإجباره على رفع الحصار عن حصن بارين، إلا أن الحملة فشلت في تحقيق هدفها[٩].

من أجل ذلك قرر كل من الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين والصليبيون عام ٥٣٦هـ/١١٣٨م) قصد بلاد المسلمين، ومحاصرتهم، لعلهم يحققون نجاحًا يمحو أثر فشلهم في رفع الحصار عن بارين، وبالفعل وقع اختيارهم على مدينة حلب، فزحفوا إليها بحشود كثيرة، أفزعت المسلمين في ذلك الوقت، وضربوا الحصار عليها بالفعل، وفي ذلك يقول ابن الأثير " ونازلوا مدينة حلب وحصروها، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة"[١٠].

فما كان من عماد الدين زنكي،عندما علم بحصار حلب إلا أن نزل بالقرب منهم ومنع عنهم الميرة، وأخذ يحفظ أطراف البلاد حتى لا ينتشر العدو فيها ويغيروا عليها، ولم يحاول زنكي أن يدخل معهم في حرب مباشرة،لأنه لم يفضل أن يخاطر بالمسلمين[١١].

وفي ذلك الوقت العصيب أخذ زنكي يفكر فيما يفعله، أمام هذه الحشود الكثيرة، فهداه تفكيره إلى الاعتماد على القاضي كمال الدين الشهرزوري، لما عرف عنه من رجاحة العقل وسداد الرأي وحسن التصرف، حيث أرسله رسولاً إلى السلطان مسعود، ليعرفه بحقيقة الحال وكثرة عدد العدو، المحاصرين لمدينة حلب، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر[١٢].

إلا أن القاضي كمال الدين تخوف من أن تخرج البلاد من أيدي عماد الدين، إذا استجاب السلطان مسعود لطلب النجدة وأرسل إليه العساكر، فمن الممكن أن يطمع مسعود في حلب ويمتلكها، فما كان من عماد الدين إلا أن رد على القاضي كمال الدين رداً يدل على الحكمة والعقل اللذين اشتهر بهما عماد الدين زنكي، حيث فضل أن يمتلك السلطان مسعود مدينة حلب بدلاً من أن يمتلكها البيزنطيون والصليبيون.

وقد ذكر المؤرخون مدى تخوف القاضي الشهرزوري من السلطان مسعود، فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا، وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها ". فقال عماد الدين " إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار "[١٣].

وبعد هذا الرد الصائب من عماد الدين زنكي، خرج القاضي إلى بغداد لمقابلة السلطان مسعود وتبليغه رسالة عماد الدين زنكي، إلا أن السلطان مسعود لم يهتم بالأمر كثيراً، واكتفى بأن وعد القاضي كمال الدين بإرسال عساكر لنجدة حلب، ولكنه لم ينفذ وعده[١٤].

وهنا تظهر حكمة وحسن تصرف القاضي كمال الدين الشهرزوري، لكي يجبر السلطان مسعود على تنفيذ وعده بسرعة لنجدة حلب، قبل أن يستولى عليها البيزنطيون والصليبيون.

فأسرع القاضي باستخدام الحيلة، حيث أعطى أحد الفقهاء في بغداد مبلغًا كبيرًا من المال، وطلب منه أن يفرق هذه الأموال على جماعة من أوباش بغداد، ويتفق معهم على أن يحضروا بالجامع يوم الجمعة ويستغيثوا بصوت واحد: " وا إسلاماه! وا دين محمداه !". ثم يخرجوا من الجامع يقصدون دار السلطان مسعود مستغيثين(١٥).

ولم يكتف القاضي كمال الدين بفعل ذلك، بل فعل نفس الشيء مع فقيه آخر في جامع السلطان، وكان هدفه من ذلك إثارة الناس على السلطان مسعود، ومطالبته بخروج العساكر لإبقاء مدينة حلب ورفع الحصار عنها، الأمر ا لذي يجعل السلطان مسعود في مأزق، ويضطر مع إثارة الناس إلى إرسال العساكر والوفاء بوعده للقاضي كمال الدين الشهرزوري(١٦).

وقد شرح المؤرخون هذه الحادثة بالتفصيل على هذا النحو: " فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: " وا إسلام ! وا دين محمداه !" ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين، ثم وضعت إنسانًا آخر فعل ذلك في جامع السلطان، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر وقام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره "(١٧).

وهكذا نجحت خطة القاضي كمال الدين رسول عماد الدين زنكي، حيث طلب السلطان مسعود مقابلته فحضر إليه وهو خائف مما حدث، ولكنه في الوقت نفسه عزم على قول الصدق والحق، وبمجرد أن حضر سأله السلطان مسعود عن سبب هذه الفتنة، فرد عليه كمال الدين بأن الناس فعلوا ذلك خوفًا من الفتنة والشر، لأن الصليبيين إذا استولوا على مدينة حلب سوف يسيرون بعد ذلك إلى بغداد عن طريق الفرات والبر، دون

أن يكون أمامهم أي عائق يصدهم عن بغداد.

ومن الجدير بالملاحظة أن القاضي كمال الدين بالغ في تخويف السلطان مسعود من حدوث ذلك، الأمر الذي جعل السلطان يقرر سرعة خروج العساكر التي طالب بها كمال الدين، على أن تكون مجهزة بالإمدادات والمؤن الكافية، بشرط أن يعمل القاضي كمال الدين على تفريق هؤلاء العامة المجتمعين خارج دار السلطان مسعود، وبالفعل خرج إليهم الشهرزوري وعرفهم بما قرره السلطان مسعود، وأمرهم بالعودة من حيث أتوا، ففعلوا ذلك، وهدأت الأمور على هذا النحو[١٨].

الأمر الذي يدل على مقدرة القاضي كمال الدين على إيجاد الحل المناسب لأي مشكلة تواجه بالحكمة والعقل والذكاء.

على أية حال اختار كمال الدين عشرة آلاف فارس من أفضل العسكر لدى السلطان مسعود، ثم كتب إلى عماد الدين زنكي يعرفه بأنه نجح في مهمته، ولم يبق أمامه سوى أن يسير بالعساكر إلى مدينة حلب لإنقاذها، فأمره عماد الدين بسرعة السير والحث على ذلك، وما إن عبرت العساكر الجانب الغربي، إذ برسول من عماد الدين زنكي يصل ويخبر القاضي كمال الدين بأن البيزنطيين والصليبيين قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها شيئا، ويأمر القاضي كمال الدين بترك العساكر. لأن عماد الدين لم يعد يحتاج إليهم في شيء، إلا أن السلطان مسعود عندما علم بذلك الأمر أصر بشدة على خروج العساكر مع القاضي كمال الدين للجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان هدفه الحقيقي من ذلك أن تصل عساكره إلى هذه البلاد وتمتلكها[١٩].

أصبح القاضي كمال الدين الشهرزوري في حيرة من أمره: كيف يستطيع أن ينفذ أمر عماد الدين زنكي مع إصرار السلطان مسعود على خروج عساكره معه ؟

فما كان منه إلا أن أخذ يتشاور مع الوزير وأكابر الدولة، حتى أقنعهم بعودة العساكر إلى البر الشرقي[٢٠].

وهنا ظهر مدى بُعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور

حولـه، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج لـه، وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه، وهذا أنقذ بلا شك عماد الدين من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان مسعود إلى الشام في ذلك الوقت، بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين[٢١].

وقد أشار ابن الأثير إلى حسن تصرف القاضي كمال الدين مع السلطان مسعود بقوله : " فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس "[٢٢].

فقد استطاع كمال الدين الشهرزوري بحنكته وذكائه أن يبعد عن عماد الدين أطماع السلطان مسعود، من أجل ذلك كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي[٢٣].

ولحسن تصرف كمال الدين في أي شيء يوكل إليه؛ نجد عماد الدين يستعين به في عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، عندما سار عماد الدين زنكي لمحاصرة مدينة دمشق، وكان يتولاها في ذلك الوقت الأمير جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، ولكنه لم يكن له من الأمر شيئ، فكان المتغلب عليه معين الدين أنر مملوك جده طغتكين[٢٤].

من الجدير بالذكر أن الظروف التي مرت بها دمشق في ذلك الوقت ساعدت زنكي على التدخل في شئون دمشق، وتتلخص في أن بهرام شاه، أخا جمال الدين بوري، عز عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين، من أجل ذلك لجأ إلى مساعدة زنكي، في نفس الوقت الذي عز على زمرد خاتون – عروس زنكي – أن يقتل ولدها شهاب الدين، ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها التي تزوجت أنر، فطلبت هي الأخرى من زنكي أن يتدخل لطلب الثأر[٢٥].

فعندما أيقن عماد الدين أن معين الدين أنر لن يسمح له بدخول مدينة دمشق، من أجل ذلك لجأ عماد الدين إلى الحيلة للاستيلاء عليها، وهنا لم يجد أفضل من القاضي كمال الدين يستعين به لثقته الكبيرة به، ولأنه اعتاد أن يوليه المهام الصعبة لحسن تصرفه، فأمره بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداث ونظار دمشق، واستمالتهم وترغيبهم بالأموال والهدايا والمناصب الكبيرة، ففعل ذلك القاضي كمال الدين، واستطاع بحنكته

وذكائه أن يكسب الجميع إلى جانبه[٢٦].

حيث أجابه خلق كثير، واتفقوا معه على فتح أبواب دمشق وتسليمها إليه عندما يزحف عماد الدين إليها، ثم خرجوا متفرقين إلى كمال الدين الشهرزوري وجدد عليهم العهود.

وهكذا نجح القاضي كمال الدين في مهمته على أكمل وجه، وعلى الفور أرسل الشهرزوري إلى سيده عماد الدين يخبره بما توصل إليه من اتفاق، إلا أن عماد الدين رأى أنه من الصعب تنفيذ ذلك، لأن شوارع وطرق دمشق ضيقة، وإذا دخل العسكر إليها لا يتمكنون من القتال فيها، وربما كثر المقاتلون لهم والمحاربون، فيعجز عن مقاومتهم[٢٧]. لأنهم سوف يقاتلون على الأراضي والأسطح، وإذا دخل جيش عماد الدين زنكي إلى دمشق، فسوف يضطر إلى التفريق لضيق المسالك والطرق، وفي هذه الحالة سوف يطمع أهالي دمشق في الجيش وتكون الخسائر كبيرة، من أجل ذلك تراجع عماد الدين عن هذا العزم بشدة وحذر[٢٨].

وإذا كان عماد الدين زنكي عهد إلى القاضي كمال الدين بهذه المهام الكبيرة والصعبة؛ التي لم يستطيع أحد أن يقوم بها إلا هو، لذكائه وفطنته وحنكته، يضاف إلى ذلك ثقة عماد الدين زنكي فيه.

فكان عماد الدين يصطحبه معه في أسفاره وحروبه، لرجاحة عقله وسداد رأيه ولمنزلته الكبيرة لديه.

فقد كان القاضي كمال الدين حاضرًا في عسكر عماد الدين زنكي، عندما حاصر عماد الدين قلعة جعبر عام ٥٤٠هـ/١١٤٧م، وظل مصاحبًا له ناصحًا ومشيرًا، حتى قتل عماد الدين على يد خادمه برتقش، قبل أن يستولى على قلعة جعبر عام ٥٤١هـ/١٩٤٧م[٢٩].

هكذا قام القاضي كمال الدين الشهرزوري بدور كبير وهام، في دولة عماد الدين زنكي، لا يمكن إغفاله، فلا عجب أن يمتدحه عماد الدين زنكي بأنه كان ذا الرأي والعقل،

وأجزل له العطاء اعترافًا منه بمكانته الرفيعة لديه. فمثلاً عندما قيل لعماد الدين: " إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تديرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيره بكثير له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحدًا يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مائة ألف دينار "[٣٠].

وهذا الرد الصائب من عماد الدين يعتبر شهادة كبيرة للقاضي كمال الدين، لما يتمتع به من العقل وسداد الرأي، والخبرة، وأنه بالنسبة لعماد الدين كان العقل الراجح الذي يدبر به دولته.

مما يدل على المكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين لدى عماد الدين زنكي. إلا أن هذه المكانة الرفيعة للقاضي كمال الدين الشهرزوري، عصر عماد الدين زنكي، لم تستمر ولو لحين بعد وفاة عماد الدين عام ٥٤١هـ/١١٤٧م، عندما تولى سيف الدين غازي ابن عماد الدين الأمر، ففي بداية حكمه فوض الأمور كلها إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وأخيه تاج الدين أبو طاهر يحى، بالموصل وجميع ما يمتلكه، إلا أنه ما لبث أن تغير تجاهما، وأمر بالقبض عليهما عام ٥٤٢هـ/١١٤٨م، واعتقلهما بقلعة الموصل، ثم أحضر نعيم الدين أبا علي الحسن بن بهاء الدين، وهو ابن عم كمال الدين، وكان قاضي الرحبة، وولاه القضاء بالموصل وديار ربيعة بدلاً من كمال الدين[٣١].

ولكن نظرًا للمكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين، عصر عماد الدين، أرسل الخليفة العباسي المقتفي بالله رسولاً من عنده ليشفع في كمال الدين الشهرزوري وأخيه، وبالفعل تم إخراجهما من الاعتقال، إلا أنهم ظلوا في بيوتهما وعليهما الترسيم[٣٢].

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فبعد وفاة سيف الدين غازي عام ٥٤٤هـ/١١٥٠م، تولى مكانه أخوه قطب الدين مودود بن زنكي، وقام قطب الدين برفع الترسيم عن القاضي كمال الدين وأخيه، فحضروا إليه في الميدان بالموصل وعليهما ثياب العزاء، فعزياه عن أخيه، ثم عادا إلى بيوتهما بغير ترسيم، وعادوا مرة ثانية في الخدمة[٣٣]، فعاد

القاضي كمال الدين لنفس المكانة التي تمتع بها من قبل.

ثم انتقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، بعد ذلك، إلى خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي أصبح يحكم بلاد الشام عام ٥٥٠هـ/١١٦٠م "، فتمكن من الدولة النورية، فأصبح الحاكم المتحكم على حد قول أبى شامة "[٣٤]، فولاه قضاء دمشق عام ٥٥٥هـ/١١٦٥م، ونظر الأوقاف ونظر أموال السلطان، واستناب ابنه أبا حامد بحلب، وابن أخيه القاسم بحماه، وابن أخيه الآخر في قضاء حمص[٣٥].

فصار قاضيه ووزيره ومشيره، على حد قول ابن العماد[٣٦]. فيمكن القول إن كمال الدين الشهرزوري وصل إلى مكانة عالية، وأصبحت كلمته نافذة عصر نور الدين محمود " فلم يكن شيئًا من أمور الدولة يخرج من يده "، على حد قول ابن خلكان، فتحكم في أمور الولاية وشد الديوان وغير ذلك[٣٧]. وعلى هذا النحو تجلى دور القاضي كمال الدين الشهرزوري السياسي في زمن نور الدين محمود.

ونظرًا لعلو شأن القاضي كمال الدين الشهرزوري لدى السلطان نور الدين محمود، فقد أرسله رسولاً إلى الخليفة المقتفي عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان، وما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم، كما يطلب من الخليفة تقليدًا بما بيده من البلاد: مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته، كديار بكر وما يجاورها مثل خلاط، وأن يعطي من الإقطاع سواد العراق ما كان لأبيه زنكي، وأن يسمح له ببناء مدرسة للشافعية، وغيرها من الأمور التي جاءت بالرسالة[٣٨].

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة أكرم القاضي كمال الدين إكرامًا لم يكرم به رسولا قبله، وأجيب إلى كل ما التمسه[٣٩].

وقد أجيب إلى كل ذلك بفضل بلاغة ورجاحة عقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، يضاف إلى ذلك أن الخليفة المقتفى أرسله رسولاً للإصلاح بين نور الدين محمود، وقلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم[٤٠].

وإذا دل ذلك على شيء، فيدل على مدى ثقة كلٍ من نور الدين والخليفة المقتفى في حكمة وذكاء وخبرة كمال الدين، فقد وصفه المؤرخون بأنه "عظيم الرياسة خبيرًا بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب"[٤١]. "فتمكن في الأيام النورية تمكنًا بالغا "[٤٢].

فولاه نور الدين محمود مهامًا كثيرة في دولته، منها: الإشراف على المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة، وجميع الأمور الدينية والشرعية، فكان صاحب القلم والسيف في وقت واحد[٤٣].

كما عهد إليه ببناء الأسوار والبيمارستان[٤٤]، ونظر الجامع بدمشق، فأصلح أموره، وفتح مشاهده الأربعة[٤٥].

ولم تقتصر وظائف ومهام القاضي كمال الدين عند هذا الحد، بل نجده يتولى شحنكية دمشق، وولي فيها كمال الدين بعض غلمانه[٤٦]. وذلك عندما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والمكوس – غير السجن – قال للقاضي كمال الدين : " انظر أنت في ذلك فأحمل الأمور فيها على الشريعة" ولم يكون نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف، ويقول : " أنا قد قلدته أن يتصرف بها بما يجب، ثم ما فضل من مصاريفها وشروط واقفيها بصرف من بناء الأسوار وحفظ الثغور "[٤٧]. وهذا إن دل على شيءٍ إنما يدل على مدى ثقة نور الدين في القاضي كمال الدين لحسن تصرفه.

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري يقوم بعمل القضاة على أكمل وجه، لا يجامل أحدًا على حساب أحد، يحكم بين المختصمين بالعدل، حتى ولو كان المختصم نور الدين نفسه.

فقد حدث أن اختصم أحد الأشخاص نور الدين محمود نفسه، وحضر نور الدين أمام القاضي الشهرزوري وبدأ يستمع إلى كلٍ من الطرفين المختصمين، وانتهت المحاكمة

بإنصاف نور الدين، فلم يثبت عليه شيئ يدينه.

حقيقة إن عدل نورالدين محمود هو الذي سمح للقاضي الشهرزوري بمحاكمة نور الدين، فقد طلب منه أن يتبع معه مثل ما يتبعه مع غيره : " إني قد جئت للمحاكمة فاسلك معي مثل ما تسكله مع غيري "[٤٨].

ونظرًا لقرب القاضي كمال الدين من نور الدين، وشدة تأثيره عليه، فقد طلبت زوجة نور الدين، وهي الخاتون بنت معين الدين، وساطة القاضي الشهرزوري لكي يقنع زوجها نور الدين بزيادة النفقة الخاصة بها، وبالفعل عرض القاضي هذا الأمر على نور الدين، وحاول أن يقنعه بذلك، ولكنه فشل لأن نور الدين الذي امتاز بالعدل رفض هذا الأمر قائلاً : " قد فرضت لها ما يكفيها والله لا أخوض جهنم بسببها وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين وأنا خادمهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها، وكان يحصل منها قدر يسير "[٤٩].

ولم يقتصر دور القاضي كمال الدين عصر نور الدين محمود عند هذا الحد، بل كان يقوم بترشيح الموظفين الأكفاء لنور الدين ويعرفه بهم. عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م رشح العماد الأصفهاني ليعمل في ديوان إنشاء السلطان نور الدين، وذلك نظرًا لما بلغه من النبوغ في العلم، فعندما جاء إلى دمشق أنزله كمال الدين بالمدرسة النورية الشافعية، والتي نسبت إليه بعد ذلك لأن نور الدين ولاه إياها عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. ومنذ ذلك الوقت أصبح له شأن كبير في دولة نور الدين، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي اتخذه كاتبًا له لا يفارقه في أسفاره[٥٠].

ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين كتب قصيدة مدح في نور الدين محمود، قام القاضي كمال الدين بعرضها على نور الدين، ومطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهودها ... ما مطلت بوصلكم وعودها
مؤيد أموره بعزمه ... من السموات العلا تأييدها[٥١]

وإذا كان القاضي كمال الدين الشهرزوري لعب دورًا كبيرًا في دولة عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ووصل عندهم إلى أعلى مكانة، وحاز على ثقتهم واحترامهم، فإنه لعب أيضًا دورًا يحسب له بعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، حيث اتفق مع كبار الأمراء على أن يتولى الأمر الصالح إسماعيل بن نور الدين " وتحالف معهم على أن يكون أيديهم واحدة وعزائمهم متعاقدة "(٥٢).

ونظرًا لبُعد نظر القاضي كمال الدين؛ فقد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم، وهو القائم على تربية الصالح إسماعيل وأتابكيته – وغيره من كبار الأمراء، بالرجوع إلى مشورة صلاح الدين الأيوبي، عندما حدث صراع بين الأمراء على تربية الصالح إسماعيل، فقال لهم " قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه، والمصلحة أن يتشاور في الذي نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر"(٥٣).

وبالرغم من هذه النصيحة الهامة، التي نصح بها القاضي كمال الدين الأمراء في الشام، إلا أنهم لم يستمعوا إليها، بل إنهم خافوا من صلاح الدين إذا تدخل في هذا الصراع سوف يدخل البلاد ويخرجهم منها(٥٤).

الحقيقة أن القاضي كمال الدين كان بعيد النظر صائب الرأي فيما قاله، لأن صلاح الدين كان بالفعل أذكى وأقوى أمراء نور الدين محمود، في ذلك الوقت، وكان القاضي كمال الدين يعلم أن صلاح الدين عندما يعرف بموت سيده نور الدين وتصارع الأمراء على أملاكه، سوف يسير إليهم ويستخلص البلاد لنفسه، وهو ما حدث بالفعل(٥٥).

فمجرد أن علم صلاح الدين بوفاة نور الدين؛ لم يجد أفضل وأعقل من القاضي كمال الدين لكي يرسل له رسالته يقول فيها : " لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق به مثل ثقته بي، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام ولده بخدمة يظهر أثرها

وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده "[٥٦].

هكذا تحقق ما كان يخاف منه القاضي كمال الدين الشهرزوري، والذي حذر منه الأمراء، لأن صلاح الدين غضب غضبًا شديدًا من عدم استعانة الأمراء ومحاولاتهم إبعاده عن الأحداث.

وكما تسلم القاضي كمال الدين رسالة صلاح الدين الأيوبي، تسلم رسالة أخرى من الأمير شمس الدين علي بن الداية، عندما أراد أن ينقل الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب، فأرسل إلى القاضي كمال لعلو مكانته وسداد رأيه، لكي يقنعه بأن من المصلحة تنفيذ ذلك، حتى لا يستطيع سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي؛ الاستيلاء على مدينة حلب وغيرها من البلاد الجزرية، إلا أن الأمراء رفضوا أن يرسلوا الملك الصالح إلى حلب[٥٧].

على أية حال: عزم صلاح الدين على المسير إلى دمشق لتأديب أمراء نور الدين محمود.

ومن الجدير بالذكر: أن أصحاب القاضي كمال الدين الشهرزوري عندما علموا بقرب وصول صلاح الدين؛ توقعوا أن صلاح الدين سوف ينتقم من القاضي الشهرزوري بسبب العداء الذي كان بينهما أيام نورالدين محمود، عندما كان صلاح الدين متولي الشحنكية بدمشق، فكان كمال الدين يكسر أوامره ويعترض عليه في أموره، لتوخي كمال الدين الأحكام الشرعية[٥٨]، وفي ذلك يقول سبط ابن الجوزي : " وكانت بينهما مضايقة وكل واحد ينقص حكم الآخر "[٥٩].

يضاف إلى ذلك أن القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين، كان يريد أن يتخلص منه، لذلك أسرع يجمع الشكاوى والمرافعات التي نسبت إلى كمال الدين لكي يسلمها إلى صلاح الدين وهو في طريقه إلى دمشق[٦٠].

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أصحاب كمال الدين أشاروا عليه بضرورة الخروج لمقابلة صلاح الدين والقاضي الفاضل، إلا أن كبرياء وعزة القاضي كمال الدين نفسه

جعلته يرفض هذا الأمر، لأنه تعود منذ أيام نور الدين محمود أن يتردد الناس إليه وليس العكس. وفي ذلك يقول السبكي: " فلما كانت ليلة دخول السلطان دمشق، تحزب أصحاب كمال الدين عليه، وقالوا : هذا السلطان من الأصل لا يحبك، ومدبر دولته القاضي الفاضل كذلك، وأعداؤك قد تحزبوا عليك، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زالت بزوال دولة نور الدين"[٦١].

ثم أشاروا عليه بضرورة مقابلة القاضي الفاضل الذي وصل إلى دمشق قبل السلطان صلاح الدين، وألحوا عليه في ذلك إلحاحا كبيرًا، الأمر الذي جعل القاضي كمال الدين يضطر إلى مقابلة القاضي الفاضل، وهو مرغم على ذلك، إلا أنه كان متوقعًا أنه بمجرد أن يصل إلى دار القاضي الفاضل، فإنه سيرفض مقابلته، وبالفعل عندما وصل القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطلب مقابلة القاضي الفاضل، ظل منتظرًا طويلاً على بابه حتى يؤذن له. ثم بعد ذلك أخبره طواشي القاضي الفاضل أنه نائم ولن يقابل أحدًا، فعاد القاضي كمال الدين إلى داره وهو في أسوأ حال[٦٢].

ولم يكتف القاضي الفاضل بعدم مقابلة كمال الدين، بل عندما خرج لاستقبال صلاح الدين أراد أن يوغر قلب صلاح الدين على الشهرزوري، إلا أن صلاح الدين لم يستمع إلى كلام القاضي الفاضل، ورد عليه قائلاً : " يا خوند، هذا رجل عظيم في العلم والسؤدد وأفعال نورالدين عند الناس مسددة، وكان منها تعظيم هذا الرجل، وغالب من ينسب إليه كذب، وأما ما ذكر من كثرة دخله، فهو وإن كثر دون كثير من أمراء المملكة، ولعله أحق ببيت المال، وأمواله من كثير منهم، فالذي أراه تعظيمه، وكذا"[٦٣].

وهذا دلالة على المكانة الرفيعة التي تمتع بها القاضي كمال الدين الشهرزوري عصر نور الدين، والتي جعلت صلاح الدين يثني عليه ويعظمه.

وما أن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى مشي إلى دار القاضي كمال الدين زائرًا ومشيرًا، ودخل عليه وجلس معه، وقال يا كمال الدين: لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، فقد جئت إليك لأزيل ما في خاطرك من الوهم وأعرفك أن ما في

قلبي لك تكزه قطب نفسًا فالأمر أمرك والبلد بلدك[٦٤].

الحق أن كلاً من صلاح الدين والقاضي كمال الدين تناسى ما كان بينهما أيام نور الدين، وقام القاضي بدور كبير في مساعدة صلاح الدين في فتح دمشق، أعانه وفتح له أبوابها، لأنه كان " الحاكم النافذ حكمه، والصائب سهمه، الثابت نجمه "، على حد قول أبو شامة[٦٥].

ولم ينس صلاح الدين وقوف القاضي كمال الدين بجانبه، فبمجرد أن دخل دمشق أبقى عليه في منصب القضاء، وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه، كما أبقى على ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري، واستمر في خدمة صلاح الدين وأقطعه وأحسن إليه واستمر في صحبته[٦٦].

ومن الجدير بالذكر أن القاضي كمال الدين نال عصر صلاح الدين ما لم ينله أحد من الفقهاء من التقدم ونفاذ الكلمة، وسارت له اليد البيضاء عند صلاح الدين[٦٧]. واستمر يتمتع بهذه المنزلة الرفيعة حتى توفي يوم الخميس السادس من المحرم عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م بدمشق[٦٨]. وكان حاضرًا عنده ابن أبي عصرون فتولى أمره، فخرج في جنازته، ماشيًا كما حضر الأمراء ومشوا في جنازته مثل سيف الإسلام وتقي الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم، وصلى عليه بجامع دمشق، وعندما توفي كان قد تصدق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله وأوقف أوقافًا كثيرة، على أبواب البر وقيل إنه لم يكن له كفن فكفِّن في أحرامه[٦٩].

ودفن في اليوم التالي بجبل قاسيون وكان عمره ثمانين سنة وأشهرًا[٧٠].

ومن الجدير بالذكر أنه قبل موته أوصى بالقضاء من بعده لابن أخيه أبى الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله الملقب ضياء الدين، فنفذ السلطان صلاح الدين وصيته، وفوض القضاء بدمشق إلى ضياء الدين؛ احترامًا لرغبة كمال الدين ولمكانته السامية عند السلطان[٧١].

وقد أثنى عليه كثير من المؤرخين منهم: سبط ابن الجوزي الذي قال عنه:

كان فاضلا جوادًا سمحًا دينًا عفيفًا ذا مروءة طاهرة وصدقات داره وافرة وبر واصل"[٧٢].

كما قال عنه ابن الأثير: "كان جوادًا فاضلاً رئيسًا ذا عقل ومعرفة في تدابير الدول"[٧٣].

كذلك نجد ابن خلكان يقول عنه إنه كان: "شهمًا جسورًا كثير الصدقة والمعروف وقف أوقاف كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق"[٧٤].

أما الأصفهاني فقال عنه: "كان بارًا بالأبرار مختارًا للأخبار، وقد قواه نور الدين رحمه الله وقلده الحكم في أيامه وسدد مرامي مرامه فكان في الأيام النورية الحاكم المطلق"[٧٥].

وقد ترك القاضي كمال الدين عدة منشآت كان قد أنشأها قبل وفاته، منها المدرسة التي بناها بالموصل لدراسة المذهب الشافعي[٧٦]. كذلك كانت له مدرستان بنصيبين[٧٧].

يضاف إلى ذلك أنه بنى رباطًا في المدينة المنورة[٧٨] كما أحدث الشباك الكمالي الذي يصلي فيه نواب السلطنة عصر نور الدين محمود[٧٩].

كما سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان حتى لا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشان فيما دبره"، على حد قول الأصفهاني[٨٠].

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري معروفًا بكرمه الشديد، حيث أوقف قرية الهامة على الشيخ أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر، والنصف الآخر على الأساري: "فقيل إنه لما قدم أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر إلى دمشق خرج إليه القاضي كمال الدين ومعه ألف دينار فعرضها عليه فلم يقبلها، فاشترى بها قرية الهامة ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة ونصفها على الاساري"[٨١]. كذلك كان يهب بالآلف دينار فما فوقها[٨٢].

رحم الله الشيخ كمال الدين الشهرزوري لكل ما قام به من أعمال هامة تحسب له.

الهوامش :

(١) طبقات الشافعية، ج٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص١٨.

- عماد الدين زنكي: ابن قسيم الدولة أق سنقر التركي، تولى شحنكية بغداد آخر دولة المستظهر بالله ثم انتقل إلى الموصل، وقام بتربية فرخشاه الملقب خفاجي ابن السلطان محمود، ولهذا قيل له أتابك، استطاع أن يملك الموصل وحلب وحمص إلا أنه قتل على يد خادمه برتقش عام ٥٤١هـ. للمزيد عن عماد الدين زنكي ودوره في توحيد الجبهة الإسلامية، انظر: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٤ أجزاء، تحقيق: سامي الدهان، دمشق ١٩٥٤م، ج٢، ص٢٤١-٢٤٦؛ انظر أيضا : حامد زيان : حلب في العصر الزنكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٥-٤٠.
- الموصل: قال عنها ياقوت الحموي: فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، لبنان، د.ط، ج٥، ص٢٥٨-٢٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، ج٤، دار الصادر، بيروت، ص٢٤١؛ السبكي: طبقات الشافعية، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، محمود الطناحي، ج٦، ص١١٨،١١٧.

- أسعد الميهني : نسبة إلى ميهنة قرية بقرب طوس بن سرخس وأبيور. تفقه بمرو وشاع فضله وبعد صيته وولى نظامية بغداد مرتين ثم توجه من بغداد رسولاً إلى همذان وتوفى بها عام ٥٢٧هـ. ابن العماد الحنبلي: شذارت الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت د.ت، ج٤، ص٨٠.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٣ جزء، ج٣، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٠م، ص٢٦٦؛ الاسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص١٨.

(٤) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، ٣ أقسام، ق٢، خاص بشعراء الشام، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، ص٣٢٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي،

ج٣، ص٢٦٧.

- العماد الأصفهاني: ولد عام ٥١٩هـ بأصفهان وتفقه ببغداد على المذهب الشافعي، وأتقن الفقه والعربية، تفوق في الكتابة والترسل والنظم، وخدم في ديوان الإنشاء وترقى إلى أعلى المراتب وعظمت مكانته، وصنف العديد من المؤلفات منها الفتح القسي، وخريدة القصر. توفى عام ٥٩٨هـ. للمزيد عنه انظر : الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، تقديم حامد زيان، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٩-٢٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣٢-٣٣٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٧-١٥٢.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر احمد طليمات، القاهرة د.ت، ص٥٤؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٥٦، ٢٥٧.

- سنجر أبو الحارث سنجر ملكشاه بن ألب أرسلان بن سلجوق سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر، تلقب بالسلطان الأعظم معز الدين، ولد عام ٤٧٩هـ بسنجار ولذلك سمي سنجر نسبة إلى المدينة، تولى الحكم عام ٤٩٠هـ نيابة عن أخيه بركياروق ثم استقل بالحكم عام ٥١٢هـ، وتوفى ام ٥٥٢هـ بمدينة مرو ودفن بها. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨.

- الراشد وهو أبو جعفر المنصور بن المسترشد بالله بويع بالخلافة عام ٥٢٨هـ وتلقب بالراشد بالله، وفي عام ٥٣٠هـ طلب مساعدة عماد الدين زنكي، عندما اختلف العساكر السلطانية على السلطان مسعود. تفاصيل ذلك انظر: ابن الأثير: الباهر، ص٥١-٥٣.

- الخليفة المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر بالله العباسي، أمير المؤمنين، كان عالمًا فاضلاً حليمًا شجاعًا، خليقًا للإمارة، كان لا يجرى في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، استمر في الخلافة خمسًا وعشرين سنة، وفي أيامه عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لها منازع، توفى عام ٥٥٥هـ. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٢، ١٧٣.

(٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، دمشق ١٩٠٨م، ص٢٥٦، ٢٥٧؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عطا، ١٩ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج١٧، ص٣٠٠-٣١٣؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة د.ت، ص٥١-٥٥.

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص٥٤؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،



ص٢٥٦، ٢٥٧.

(٨) علي محمد الصلابي: عصر الدولة الزنكية بقيادة نورالدين محمود، بيروت ٢٠١٠م، ص٤٧.

(٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، دار ا لجبل، بيروت د.ت، ج١، ص١٣٠-١٣٢.

من الجدير بالذكر أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصار الملك فولك في حصن بعرين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي والغرب الأوربي. للمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، ج١، الطبعة السابعة، ١٩٩٧م، ص٤٥٥-٤٥٧؛ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، ص٢١٦-٢١٩؛

Steven Son (W.B): The CRUSades. In the East, Bei Rat 1966, p. 137-139.

- السلطان مسعود: غياث الدين أبو الفتح بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جعفر السلجوقي، رباه بالموصل الأمير مودود ولما تمكن أخوه السلطان محمود، طمعه جوس بك في السلطنة، فدخل في صراع مع أخيه انتهى بهزيمته، ثم تنقلت به الأحوال حتى استقل بالملك عام ٥٢٨هـ وامتدت أيامه وعاش خمسًا وأربعين سنة، ومات عام ٥٤٧هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٤٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٠-٢٠٢.
- حصن بارين أو بعرين: بكسر الراء، وياء ساكنة، ولنون، والعامة تطلق عليه بعرين وهو مدنية حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٨١.

(١٠) التاريخ الباهر، ص٦٢.

- حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء لها سور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان. للمزيد عنها، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٢٤-٣٣٢.
- حنا كومنين: تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة والده الكسيوس كومنين عام ١١١٨م، واستمر في الحكم حتى عام ١١٤٣م. حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢١٤.

(١١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، في أخبار الدولتين، ج٢، ص٤٢٦.

(١٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ أجزاء، ج١، ٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧، ج١، ص٧٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج١،

ص١٣٢، ١٣٣.

(١٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ انظر أيضًا: محمد الصلابي، السلطان الشهيد عماد الدين زنكي، بيروت ٢٠١٠م، ص١٣٠.

(١٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

(١٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

- الفقهاء: مفردها الفقيه، من ألقاب العلماء، وكان هذا اللقب من الألقاب المعظمة. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية بالقاهرة، ج٦، ص٢٢.

- الأوباش: تعني أهل الفساد من العوام الذين عاشوا في ضيق وعسر بالقياس إلى غيرهم من الطبقات المنعمة، وقد استفادوا من منازعات الأمراء، إذا حاول بعض هؤلاء الأمراء أن يكتسب العوام إلى جانبه. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٤٤، ٤٥.

(١٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

(١٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابو واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩، ٨٠.

(١٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢، ٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨٠، ٨١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣، ١٤٣.

- الفرات: معناه الماء العذب، ومخرج الفرات فيما زعموا من أرمينية ثم من قالقلا قرب خلاط، ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم. عنه انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٧٤، ٢٧٥.

(١٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٤، ١٣٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨٠، ٨١؛ انظر أيضًا: الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣١.

(٢٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨١؛ انظر أيضًا:

الصلابي: عماد الدين، ص ٣١.

- الوزير: يُعد منصب الوزير من أهم المناصب في النظام الإداري بالدولة الإسلامية، حيث يلي الوزير السلطان أو الملك في المكانة، وينفذ أوامره ويعكس له أحوال شعبه، ويعاون الوزير السلطان في شتى الأمور. للمزيد من التفاصيل عن منصب الوزير ومهامه واختصاصاته، انظر: منال محمد: الوزارة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة بني سويف، ٢٠٠٧م.

(٢١) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣١.

(٢٢) التاريخ الباهر، ص٦٣.

(٢٣) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣٢.

(٢٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٧، ١٢٨.

- دمشق: من أشهر مدن بلاد الشام وأجملها وأحصنها. للمزيد عنها انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٧.
- جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، كان ظالما سيء السيرة، تولى دمشق لمدة عشرة اشهر ومات عام ٥٣٤هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٠٥.
- معين الدين أنر: هو مقدم جيش دمشق امتاز بالشجاعة والتدين وكان كثير الصدقات، وتوفى عام ٥٤٤هـ ودفن بقبته التي تقع بين دار البطيخ والشامية. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٣٨.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢ جزء، ج١١، بيروت ١٩٧٩م، ص٣٦-٣٩؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م، ص٢٦٩-٢٧٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج٢، ص٢٧٢-٢٧٤؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، ج١، طبعة سابعة، القاهرة ١٩٩٧م، ص٤٦٧-٤٦٨.

- زمرد خاتون: صفوة الملوك بنت الأمير جادلي أخت الملك دقاق صاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الدين بوري وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل ومحمود، سمعت من ابن الحسن بن قيس، واستحسنت الكتب وحفظت القرآن وبنت المدرسة الخاتونية بصنعاء دمشق ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين حتى قتل. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٨.
- خاتون : جمعها خاتونات أو خواتين، هي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية " قادين "

وذلك دون لقب " الملكة " الذي كان في عصر الفاطميين، وكانت تلقب به الزوجة أو الأم أو الأخت وكان لهن مشاركة في الحكم في بلاد الروس. محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١١٥؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٧٨م، ص٢٦٤، ٢٦٥.

- المقدم: هو موظف يرأس الصناع الفنيين بدار الضرب، وهو المسئول الأول عن جميع مراحل عمليات السبك في دار الضرب. حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠٤، ١٠٥؛ محمد قنديل النقلي: مصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٣١٩.
- أحداث: تعني الشرطة غير الرسمية وكانت تستعمل في الشام خاصة، وهي من العصر الفاطمي وكان من يتولى ولاية الأحداث من العسكريين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦، ٢٢؛ محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٦.
- النظار: مفردها ناظر وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليها حسابها لينظر ما يرد. ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م، ص٢٩٨م؛ البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٤١.

(٢٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٨) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٩) عن حصار قلعة جعبر، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤١؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن الأثير: الباهر، ص٧٣، ٧٤؛ انظر أيضا: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٤٧٦؛ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، ص٢٥٥.

- قلعة جعبر: تقع على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الواقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً باسم دوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فعرفت باسمه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٣.
- المشير: تعني الناصح الذي يؤخذ رأيه، وهي من الوظائف المستحدثة، وصاحبها يلي وظيفة الإشارة، ويكون عادة من يتولاها من كبار الأمراء، ممن يحضرون مجلس المشورة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص٧٠؛ ج١١، ص١٥٣، ١٠٧؛ محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣١٢.

- برتقش: أصله أفرنجي وكان من المقربين لعماد الدين، إلا أنه حقد على سيده لإساءة تقدمت منه إليه فأسرها في نفسه، وقتله وهو نائم ثم هرب إلى قلعة جعبر وكان صاحبها الأمير عز الدين علي بن مالك فأواه في القلعة وأكرمه. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٣٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٣٥؛ انظر أيضًا: الصلابي: عماد الدين، ص٤١.

(٣١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤١، ٢٤٢.

تولى سيف الدين غازي بن زنكي حكم الموصل، ولم تذكر المصادر شيئا عن تغيره تجاه القاضي الشهرزوري وسوء معاملته.

- الرُّحبة: بضم أوله وسكون ثانية، وباء موحدة، تمتاز بالبساتين والقرى، تقع بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧.

- ديار ربيعة: تقع بين الموصل إلى رأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين، ورأس عين ودنسر والخابور، سميت ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٦٢.

(٣٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- الترسيم: مال تقرضه الدولة لقاء خدمة من قبلها الرسمي. وفي المصطلح المملوكي كان الترسيم عبارة عن تعويق المتهم بمكان من الأماكن ويعين عليه حارس. للمزيد من التفاصيل، انظر: البيومي إسماعيل: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، جزءان، ج١، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٣، ٢٤.

(٣٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

(٣٤) الروضتين، ج٢، ص٤٢٦.

(٣٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٦٦؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨.

- حماه: مدينة كبيرة عظيمة الخيرات، واسعة الرقعة، حافلة بالأسواق، يحيط بها سور محكم، وبها جامع يشرف على نهرها المعروف بالعاص. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٤-٣٤٥.

- حمص: تقع بين دمشق وحلب بها قلعة حصينة على تل كبير. عنها انظر: ياقوت الحموي:

معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٧-٣٥٠.

(٣٦) شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

(٣٧) وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- الولاية: في التقسيم الإداري بمعنى مديرية أو محافظة في اصطلاحنا المعاصر، وكانت مصر مقسمة إلى أربع عشر ولاية في الوجهين البحري والقبلي، ويشرف على الولاية الوالي، وكانت تسمى أيضًا (عمل). القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٢-٣٩٧؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٦٢.
- شد الديوان: مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها وعادته إمرة عشرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢؛ حسنين ربيع: النظم المالية، ص٨٢٢.

(٣٨) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص٧٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٩١.

- ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن قاسط بن دعمي، يحدها من الغرب دجلة إلى بلاد الجبل المطلة على نصيبين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٦١-٥٦٢.
- خلاط: بكسر أوله، وأخره طاء مهملة. البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، طولها أربع وستون درجة ونصف وثلث، وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلثان في الإقليم الخامس، وهي قصبة أرمنية الوسطى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦.

(٣٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٩١؛ سنا البرق الشامي، ص٧٢.

(٤٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود خرج عام ٥٦٨هـ إلى أملاك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود عازمًا على حربه وأخذ بلاده منه، وذلك نظرًا لاستنجاد ذي النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس بنورالدين ضد قلج أرسلان الذي استولى على بلاده، فما كان من نور الدين إلا أن استقبله بحفاوة وكرم ووعده برد بلاده إليه. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٨٩.
- قلج أرسلان: بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق التركي السلجوقي صاحب الروم، امتدت أيامه وكبر في السن وتصرف أولاده في مملكته في حياته، عاش سلطانًا أكثر من ثلاثين سنة وتوفى عام ٥٨٨هـ، وتملك من بعده ابنه غياث الدين. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٩٥.

(٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ الاسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، ص١٨.

(٤٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨.

(٤٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج٦، ص٧٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، قسم ١، ٢؛ طبعة أولى حيدر أباد ١٩٥١م، ص٣٤٠.

- الحسبة: من وجوه العدل وأعيانهم من يتولاها تكون يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحدث في أمر المكاييل والموازين. للمزيد من التفاصيل عنها انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، طبعة مصورة بالأوفست من طبعة بولاق، ج١، ص٤٦٣، ٤٦٤؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٠٣.
- صاحب القلم والسيف معناها من يجمع بين فضيلة القلم (العلم والدراسة) وفضيلة السيف (تعليم فنون الفروسية والقتال) مثال ذلك أولاد ابن شيخ الشيوخ، عنهم انظر: حامد زيان: العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٧٨م.

(٤٤) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨؛ الأصفهاني: سنا البرق، ص١٠٨.

- البيمارستان: يقال له المارستان والمرستان، وهو مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو لفظ فارسي مركب من بيمار أي المريض، وستان أي محل، ويقال له بالتركية خسته خانه أي محل المرضى. ويطلق البيمارستان أيضًا على المحل المعد لإقامة المجانين. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج١، ق٣، تحقيق: مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م، ص٧١٦، هامش ٦.

(٤٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ جزء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م، ج١٢، ص٢٧٨.

(٤٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٣.

- شحنكية دمشق: أو الشحنة وهي وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٣٦٢؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٩٣.

(٤٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٨١؛ أبو شامة: الروضتين، تحقيق: أحمد البيومي، دمشق ١٩٩١م، ق١، ص٣٤٧؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، اختصار الفتح بن علي البنداري، تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٨.

(٤٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٦، ١٦٧؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٣٨؛ ابن

واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٧.

(٤٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٠٧.

- عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين أنر زوجة نور الدين ثم صلاح الدين. قامت بوقف المدرسة التي بدمشق للحنفية، وبنت خانقاه للصوفية خارج باب النصر، توفيت عام ٥٨١هـ ودفنت بتربتها في قاسيون على نهر يزيد. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٧٢.

(٥٠) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٦، ١٧؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٠.

(٥١) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٧؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص٢٢.

(٥٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣١٨.

- الصالح إسماعيل وهو الملك الصالح أبو الفتح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي، أوصى له والده بالسطنة من بعده فلم تتم له وحكم حلب فقط، وكان شابا دينًا عاقلاً محبًا إلى أهل حلب، مات بمرض القولنج عام ٥٧٧هـ، وحزن عليه أهل حلب واقاموا عليه المآتم وبالغوا في النواح والبكاء. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٨.

(٥٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣.

- أتابك: يتكون من لفظين تركيين، أتا أو أطا بمعنى الأب، وبك بمعنى أمير، فيكون المعنى الأمير الوالد. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ محمد عبدالغني الأشقر: أتابك العسكر في القاهرة عصر المماليك البحرية، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٢١.

(٥٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٩٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣؛ انظر أيضًا: حامد زيان: تاريخ مصر في العصر الأيوبي، القاهرة ٢٠١١م، ص٤٠.

(٥٥) نظرًا لصغر سن الصالح إسماعيل فقد تنافس أمراء نور الدين للوصاية عليه، ودب الخلاف بين اثنين من أقوى أمراء نور الدين وهما شمس الدين بن الداية، وشمس الدين بن المقدم حيث أراد كلاهما أن تكون له الوصاية. عن الصراع الذي حدث انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٩٦، ١٩٧؛ الأصفهاني: سنا البرق، ص٧٣؛ انظر أيضًا: حامد زيان، تاريخ مصر في العصر الأيوبي، ص٣٩؛ ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٤٣-٤٥.

(٥٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٢٤.

(٥٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٢٤.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها، فسار سيف الدين في عساكره، وفي الطريق علم بخبر موت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين، فملكها كما استولى على الخابور والرها والرقة وغيرها من بلاد الجزيرة. أبو شامة الروضتين، ج٢، ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٥٨) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

(٥٩) مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٠.

(٦٠) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

- القاضي الفاضل: أبو علي عبدالرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ثم العسقلاني ثم المصري محي الدين صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة، ولد عام ٥٢٩هـ قيل إن مسودات رسائله لو جمعت لبلغت مائة مجلد، كان يحب الكتابة، قصد مصر وخدم الأكابر، فلما تملك صلاح الدين مصر استخلصه لنفسه وحسن اعتقاده فيه ولازمه وارتفعت منزلته، توفى عام ٥٩٦هـ. عنه انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٣٢٤-٣٢٧؛ فتحية النبراوي: إنشاءات القاضي الفاضل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٨٠م؛ سوسن محمد نصر: القاضي الفاضل وصلاح الدين، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٢١-١٣٠.

(٦١) طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

(٦٢) السبكي : طبقات الشافعية، ج٦، ص١٢٠.

- الطواشي: جمعه طواشيه. وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحريم السلطاني. سعيد عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٣٣؛ حامد زيان: العلماء، ص٤٠؛ هامش ٤.

(٦٣) من الجدير بالذكر أن القاضي الفاضل عاد إلى دمشق قبل دخول صلاح الدين، وتوجه إلى دار القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطلب مقابلته ولما دخل الخادم، يستأذن كمال الدين توقع القاضي الفاضل أن كمال الدين سوف يرفض مقابلته مثلما فعل هو من قبل، لذلك فضل أن يرحل قبل أن يخبره الخادم بذلك وهو ما حدث بالفعل. السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١٢٠.

- خوند: بالفتح، لفظ فارسي واستعمل أيضا في اللغة التركية، ومعناه السيد أو الأمير، ويخاطب به المذكر والمؤنث. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٢٦؛ انظر أيضا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٢٤، ١٢٥.

(٦٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٢٧.

(٦٥) الروضتين، ج٢، ص٣٢٩. عن فتح صلاح الدين لمدينة دمشق، انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٢٦ ، ٣٢٧، ٣٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٣٩-٣٤٢؛ انظر أيضًا: ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٥، ٤٦.

(٦٦) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص١٠٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

من الجدير بالذكر أن ضياء الدين دخل في خدمة صلاح الدين منذ أن كان بمصر، فرحب به صلاح الدين وأنعم عليه وولاه الوظائف واصطحبه معه إلى بلاد الشام. للمزيد من التفاصيل، انظر: الأصفهاني:-سنا البرق، ص١٠٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٢٧.

(٦٧) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨، ١٢٠.

(٦٨) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٥م، ج٢، ص٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٤.

(٦٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٣٤١.

- ابن أبي عصرون: هو قاضي القضاة وفقيه الشام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد التميمي الحديثي ثم الموصلي ولد عام ٤٩٢هـ، تفقه بالموصل، ثم رحل إلى بغداد وقرأ القراءات ودرس النحو والفقه، ورجع إلى الموصل بعلوم جمه، ودرس بها وأفتى ثم ولي القضاء لصلاح الدين عام ٥٧٣هـ وله مصنفات كثيرة، وتوفى عام ٥٩٣هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٧٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

(٧١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٩٥؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص١٠٨.

(٧٢) مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٠، ٣٤١.

(٧٣) الكامل، ج١١، ص٢١٣.

(٧٤) وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٢.

(٧٥) سنا البرق الشامي، ص١٠٧، ١٠٨.

(٧٦) الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٦٦؛ الأسنوي: طبقات الشافعية،ج٢، ص١٨؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص٢٣٣.

(٧٧) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛

ابن الجوزي: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٣.

- نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. للمزيد من التفاصيل عنها: انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٧٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٦٦؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨؛ الأسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، ص١٨.

- الرباط: هي دار يسكنها الصوفية، أي أهل طريق الله، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٤٢٧.

(٧٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

- نائب السلطنة: هو الذي يقوم مقام السلطان في عامة أموره وفي غالبها. للمزيد من التفاصيل انظر: ليلى عبدالجود: " نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية "، بحث منشور بالمؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الأول، يناير ١٩٨٨م، ص١٥٩-٢٢٥.

(٨٠) سنا البرق الشامي، ص١٠٨.

(٨١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

- قرية الهامة: واحدة الهام، وهي كوره واسعة فيها جبل الأق. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٧.

(٨٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

د. آمال حامد زيان غانم
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة

اهتم بنو أيوب بالعلم وقدّروا العلماء، وأجزلوا لهم العطاء، وتقربوا منهم، ولا أدل على ذلك من قول السلطان صلاح الدين الأيوبي لأصحابه : "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بعلم الفاضل"[١].

ويعود السر وراء اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعلماء إلى أنه نشأ في أحضان البيت الزنكي[٢]، الذي عُرف حُكامه بحبهم للعلم والعلماء، وازدهرت الحركة العلمية ببلاد الشام في زمنهم ازدهارًا كبيرًا[٣].

والمعروف أن صلاح الدين انتقل صحبة والده الأمير نجم الدين أيوب إلى دمشق عام ٥٤١هـ/١١٤٦م، وكان له من العمر تسع سنوات[٤]، وكانت دمشق في تلك الفترة

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٥٢م، ج٨، ق٢، ص٤٧٢.
- يقصد صلاح الدين بالفاضل، القاضي الفاضل وهو عبدالرحمن بن علي بن حسن أبو علي البيساني الكاتب، ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، وتولى والده القضاء بمدينة بيسان، ولهذا نُسب إليها، برع في الأدب خاصة كتابة الرسائل، ارتبط بصلاح الدين الأيوبي، وتولى وزارته، كما استمر بعد وفاة صلاح الدين يتولى خدمة ابنيه العزيز والمنصور، توفى عام ٥٦٩هـ/١٢٠٠م، ودفن في القاهرة. انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، نشر مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م. ج٨، ق٢، ص٤٧٢؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م؛ ج٣، ص١٥٨-١٦٣.

(٢) أشار ابن تغري بردي إلى ذلك صراحة بقوله : " أنشأ بنو زنكي (أعني السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بني أيوب سلاطين مصر وغيرها ". انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة د.ت.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م، ج١، ص٦٠٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٢٠؛ الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ج١١، ص١١٨.
- نجم الدين أيوب : هو الملك الأفضل نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الكردي، تولى حكم قلعة تكريت، ثم انتقل إلى بعلبك، ثم إلى دمشق، وبعدها استقر

مركزًا علميًا نشطًا، امتلأت بالعلماء والمدارس، مما جعل صلاح الدين ينشأ في بيئة علمية صالحة، جعلته فيما بعد يحب ويقدر العلم والعلماء.

سار خلفاء صلاح الدين على نفس سياسته في الاهتمام بالعلم والعلماء، وكان من بينهم ابن أخيه تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، الذي وصفته المصادر بأنه كان له " آثار في المصافات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنه، منها : مدرسة منازل العز التي بمصر، كانت دار سكنة، فوقف عليها وقفًا كثيرًا وجعلها مدرسة، وكانت الفيوم وبلادها إقطاعه، وله بها مدرستان، شافعية ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضًا وبني بمدينة الرها مدرسة، وكان كثير الإحسان إلى العلماء"[٥].

ويعتبر تقي الدين عمر هذا هو أول من تولى حكم مملكة حماة من أبناء البيت الأيوبي، حيث ولاه عمه صلاح الدين حكم حماة عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م[٦]. واستمر حكم حماة في ذريته حتى وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي الأيوبي في ٢٢ شهر ذي القعدة عام ٦٩٨هـ/ ٢١ أغسطس ١٢٩٩م، حيث

بالديار المصرية إلى حين وفاته عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٧؛ ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م، ص٧٣-٧٤؛ العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق : محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٥٦-٥٧٠؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق : ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م، ص٢٣٤-٢٣٥.

- ولد تقي الدين عمر عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتوفى عام ٥٨٧هـ/١١٩١م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.
- منازل العز : كانت متنزهًا للفاطميين، تقع على شاطئ النيل، اسكنها صلاح الدين الأيوبي لابن أخيه تقي الدين عمر، ثم اشتراها الأخير من بيت المال عام ٥٦٦هـ/١١٧٦م، وعندما عزم الأخير على ترك الديار المصرية والاستقرار ببلاد الشام عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م جعلها مدرسة. انظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٣١٠هـ، ص٩٣؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٢٧٠هـ، ج١، ص٤٨٤.

(٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، مصر د.ت، ج٣، ص٦١؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٤، ص١٧٣؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م، ج١، ص١٥٣.

- يذكر ابن خلكان أن صلاح الدين أعطى حماة لتقي الدين عمر في ٢٣ شعبان عام ٥٨٢هـ. انظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

خرجت حماة من حكم البيت الأيوبي عندما عهد السلطان الناصر محمد بنيابة حماة إلى الأمير قرة سنقر المنصوري، في أوائل ذي الحجة من نفس العام[٧].

استمر حكم حماة خارجا عن يد أبناء البيت الأيوبي إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما، وبعدها عادت مرة أخرى إلى البيت الأيوبي عندما أصدر السلطان الناصر محمد تقليدًا بحكمها إلى الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بن الملك الأفضل نور الدين علي في ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر عام ١٣١٠م[٨]. ويضيف القلقشندي[٩] أن عماد الدين إسماعيل تولى حكم حماة هذه المرة " على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبيين " وذلك لأنه كانت لملوك بني أيوب الذين حكموا حماة قبله رسوم خاصة بهم، حيث ضربوا السكة باسمهم إلى جانب اسم السلطان، وكذلك خطبوا باسمهم إلى جانب اسم السلطان.

---

(٧) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦١؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم تاريخ إبن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٥٢؛ النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، تحقيق : السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٧٩.

- حكم حماه من ذرية تقي الدين عمر خمسة حكام هم على التوالي : الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م)، الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان بن المنصور محمد (٦١٧-٦٢٦هـ/١٢٢٠-١٢٢٩م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الملك المنصور محمد بن المظفر محمود (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م). انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٨٠، ٨١، ١٢٦، ١٤٣، ١٧٣، ج٤، ص١٩، ٤١؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأسرات، ج١، ص١٥٣-١٥٤.
- قرة سنقر المنصوري الأمير سيف الدين، يقول عنه ابن تغري بردي أنه نُسب إلى الملك المنصور قلاوون، رقاه إلى أن جعله أمير مائة، ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة حماة، ثم نقله إلى نيابة حلب، ثم صار نائبًا للديار المصرية، واستمر يلي مثل تلك الوظائف إلى أن وقعت بينه وبين السلطان الناصر محمد عدة خلافات. غادر على أثرها سلطنة المماليك ولجأ إلى دولة مغول فارس، واستمر بها حتى وفاته عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م، ج٩، ص٤٧-٤٨. وقد وصفته المصادر بأنه كان " ذو همة عالية، ومعرفة، وتدبير ودهاء "، انظر : ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م، ج٢، ص١٨٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق١، ص٣٠٥.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، تحقيق : حمزة أحمد عباس، أبو ظبي، ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٣٢٢-١٣٢٣؛ أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١.

(٩) صبح الأعشى، ج٤، ص١٧٣.

أما عماد الدين إسماعيل أبو الفدا هذا فهو ابن الملك الأفضل علي بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في شهر جمادي الأولى عام ٦٧٢هـ/ نوفمبر ١٢٧٣م بدمشق في دار ابن الزنجبيلي ونشأ وتربى بها(١٠)، وتلقى تعليمه بحماة وحلب ودمشق، فقد كان والده الملك الأفضل يتنقل بين هذه المدن الثلاث، حيث كان أخوه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد هو الذي يتولى حكم حماة (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)(١١)، ومن بعده تولى حكم حماة ابنه الملك المظفر محمود (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م)(١٢)، وخلال ذلك كان الملك الأفضل علي والد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، يقوم على خدمة أخيه وابن أخيه يعاونهما في حكم حماه(١٣).

وعلى هذا النحو نشأ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في بيت اشتهر بالاهتمام بالعلم، فقد ورث بنو أيوب منذ أيام جدهم الأكبر السلطان صلاح الدين الأيوبي، فضيلة العلم، والاهتمام بأهله، وأنشأ الكثير منهم المدارس ودور العلم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وتبوأ بعضهم مكانة عالية بين علماء ذلك العصر(١٤).

---

(١٠) يقول أبو الفدا أن سبب ميلاده بدمشق يعود إلى أن معظم أبناء البيت الأيوبي الذين كانوا بحماة رحلوا عنها، وهاجروا إلى دمشق بسبب هجوم المغول عليها. انظر : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٨؛ انظر أيضًا: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٥٩.

(١١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر أباد ١٩٦٠م، ج٤، ص٢٣٦.

(١٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤١؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت، ج٥، ص٤٤٢-٤٤٣.

(١٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٩، ج٤، ص١٨-١٩.

(١٤) على سبيل المثال كان جد عماد الدين إسماعيل، الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م) الذي وصف في المصادر بأنه كان شجاعًا عالمًا، يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة، وكان في خدمته قريب مائتي معمم من النحاة والفقهاء ومن بينهم الطبيب المشهور موفق الدين عبدالسلام، وصنف عدة مصنفات مثل " المضمار " في التاريخ، و" طبقات الشعراء ". انظر: محمد تقي الدين شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق : حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٧-١٢؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ج٣، ص٤٣٢؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٣٧-٣٣٨. كذلك جده الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الذي وصفه ابن واصل بقوله : " كان له ميل إلى من عنده فضل ومعرفة، ورد إليه الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم (المعروف بتعاسيف) المهندس الفاضل في العلوم الرياضية فأحسن إليه وقربه، وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماة، وكان يقترح عليه أموزا علمية وآلات رياضية ". مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : حسنين محمد ربيع،

والمعروف أن الحركة العلمية بمصر والشام نشطت نشاطًا كبيرًا خلال العصر الأيوبي، حيث انتشرت المدارس بكل الأنحاء على مختلف المذاهب الدينية(١٥)، واكتظت تلك المدارس بالعلماء والدارسين(١٦)، وبعد أن بسط المماليك نفوذهم على مصر والشام ساروا على نهج بني أيوب في إنشاء المدارس وتشجيع وفود العلماء إليها وإجزال العطاء لهم، ووقف الأوقاف السنية للإنفاق منها على تلك المدارس(١٧)، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية في تلك الفترة ازدهارًا كبيرًا.

في تلك البيئة العلمية انغمس عماد الدين إسماعيل في الدرس والعلم، حيث نال قدرًا كبيرًا من التعليم على يد عدد كبير من علماء عصره، ونبغ في كثير من العلوم(١٨)، ويذكر ابن تغري بردي أنه " حفظ القرآن العزيز، وعدة كتب، وبرع في الفقه والأصول والعربية، والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "(١٩).

ويؤكد معاصره ابن أيبك الصفدي، أن "أجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه"(٢٠)، ويزيد ابن حجر على ذلك بقوله: " فاق في علم الهيئة "(٢١).

القاهرة ١٩٧٧م، ج٥، ص٣٤٣-٣٤٤؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٧٣.

وعن الأوقاف التي أوقفها بني أيوب على دور العلم ببلاد الشام وأثرها في الازدهار العلمي، انظر :

Amal Hamed Azyan : The role of Endowments in The scientific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, in International Research Journal of Sciences, V.I, September 2012, pp. 39-48.

(١٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٣٠، ٥٧٩؛ ج٢، ص٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٢٨.

(١٦) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٥٩-١١؛ عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٧-١٤٠.

(١٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٣٣١-٤٠٤؛ انظر أيضًا: محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٣٣-٣٧٥؛ حامد زيان : الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٦١-٢٦٢.

(١٨) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م، ج١، ص٣٩٧.

(١٩) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٠) كتاب الوافي بالوفيات: تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م، ج٩، ص١٠٤؛ أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٠٤.

- علم الهيئة : هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أصول الأجرام السماوية، وعلاقة

إن الفترة التي عاصرها عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تعد فترة ازدهار لعلم الفلك في العالم الإسلامي، فبعد أن اتخذ هولاكو أذربيجان عاصمة لمملكته في الشرق[٢٢]، عهد إلى العالم الفلكي نصير الدين الطوسي بإقامة مرصد كبير في مدينة مراغة عام ٥٦٧هـ/١٢٥٩م[٢٣]، وفعل نفس الشيء تيمورلنك بعد استقراره بسمرقند عام ٧٧١هـ/١٣٦٩[٢٤]، حيث جمع حوله فريقًا كبيرًا من علماء الفلك على رأسهم الخواجة

بعضها ببعض، ومالها من تأثير في الأرض. انظر: المعجم الوسيط، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢، ص١٠٤٣.

(٢١) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٢٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، نشر Cloude Cahen في :
Bulletin d'etudes Orientales, Tom XV, Paris, _ 1955-57, p. 175;
أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين، عني بنشره السيد عزت العطار الحسني، بيروت ١٩٤٧م، ص٢٠٧.

- هولاكو خان هو ابن تولوي خان بن جنكيزخان، تولى قيادة الحملة الموجهة إلى الشرق واستطاع السيطرة على إيران وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وبعد هزيمة جيوشه في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، تراجع إلى إيران حيث أسس دولة عرفت باسم الدولة الإيلخانية، نسبة إلى كلمة " إيل " المغولية، بمعنى المطيع، أي المطيع للخان، توفي هولاكو عام ٦٦٢هـ/١٢٦٥م. انظر : رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة = محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، مجلد ٢، ج١، ص٢٣٦-٢٣٧؛ انظر أيضًا: فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص٢٧-٢٨.
- أذربيجان : تقع جنوب إقليم القوقاز بين قهستان وآران، انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٢٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٢١.

- نصير الدين الطوسي : هو نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، ولد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م بطوس، نبغ في علم الفلك، كان شيعيًا على مذهب الأئمة الاثنى عشرية، خدم الإسماعيلية بقلعة الموت، ثم انتقل بعد سقوط دولتهم إلى خدمة هولاكو خان، حيث نال قدرًا كبيرًا من احترامه، توفي عام ٦٧٢هـ١٢٧٣م. انظر : كتاب الحوادث المعروف باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م، ص٤١٦-٤١٧؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢٤) خواندمير : دستور الوزراء، تحقيق حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٩٢.

- تيمور (لنك): يعود أصله إلى بلاد ما وراء النهر، ولد عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م في قرية خواجا إيلغار من أعمال مدينة كش إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، أبوه طراغاي (تارجي) ينتمي إلى قبيلة برلاس إحدى القبائل التركية المسلمة، وأمه الخاتون تكينة من = سلالة جنكيزخان، ومعنى ذلك أن تيمور يجمع بين السلالة التركية والسلالة

علي بن المؤيد الطوسي[٢٥].

ولاشك في أن تبحر عماد الدين أبوالفدا في علم الهيئة (علم الفلك)[٢٦]، هو الذي ساعده مساعدة كبيرة في أن يؤلف كتابه في البلدان، المعروف باسم " تقويم البلدان "، كما سيرد فيما بعد.

ولم يقتصر تبحر عماد الدين إسماعيل على علم الهيئة، وإنما " شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة، على رأي ابن أيبك الصفدي "[٢٧]، ومن بين تلك العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل، الطب، وقد أشار عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلى قيامه بمداواة وعلاج ابن عمه الملك المظفر محمود حاكم حماة عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، عندما كان محاصرًا لمدينة حموص أثناء غزوته للأرمن[٢٨]، وأصاب الملك المظفر مرض ولم يكن بصحبته طبيب، فقام أبو الفدا بمدواته ووصف بعض الأدوية له، وقد آتت هذه الوصفات الطبية مفعولاً طيبًا، حيث تم شفاء الملك المظفر، مما دفع المظفر إلى أن ينعم على عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ويحسن إليه " على جاري عادته " كما يقول أبو الفدا[٢٩].

كذلك مما يوضح مدى مهارته في صناعة الطب، ما حدث عندما حضر إلى القاهرة وبصحبته ابنه الملك الأفضل محمد[٣٠]، فمرض ذلك الولد، فما كان من السلطان الناصر محمد

المغولية، أضيف إلى اسمه كلمة لنك أو لانج، وهي كلمة فارسية بمعنى الأعرج، وذلك لإصابته بعرج في رجله اليمنى، وتيمور كلمة تركية بمعنى الحديد. انظر: ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق : أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨٦م، ص٣٩-٤٩؛ القرماني : أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق : أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م، ج٢، ص٥٠٠.

(٢٥) يقول ابن عربشاه عن علي بن المؤيد الطوسي، إنه كان رجلاً شيعيًا ينتمي إلى طائفة الاثنى عشرية، شهمًا شجاعًا، انظر : عجائب المقدور، ص٧٩.

(٢٦) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد، بيروت د.ت، ج٤، ص٩٢.

(٢٧) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٢٨) النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، ص٣١، ص٣٤؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشه، في :
Patrologia Orientalis, Tom 14, Paris 1920.
- حموص: قلعة تقع شرقي تل حمدون. انظر: النويري: نهاية الإرب، ج٣١، ص٣٤٠، هامش ٢.

(٢٩) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٣٥-٣٦.

(٣٠) هو الملك الأفضل محمد ناصر الدين، تولى حكم حماة بعد وفاة والده عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر: ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق : هانس روبرت رويمر، القاهرة

إلا أن أمر جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء بملازمته لعلاج ابنه المريض[٣١]، فلازمه ليلاً ونهاراً، وتروي المصادر أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا : كان يبحث معه في تشخيص ذلك المرض، ويقرر معه الدواء، ويباشر طبخه بيده، حتى كان ابن المغربي يقول : والله لولا أمر السلطان ما لازمته فإنه لا يحتاج إليّ "[٣٢].

وعندما يقرر رئيس الأطباء وهو الذي من شأنه الإشراف على الأطباء، والمسئول عن مستواهم الطبي[٣٣]، أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا قادر بمفرده على مداواة المرضى وتقرير الدواء وإعداده لهم؛ فهذا يعني شهادة معتمدة بأن أبي الفدا قد انضم إلى زمرة الأطباء المهرة الذين اشتهروا في ذلك العصر.

لم يقتصر علم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا على الفلك والطب فقط، وإنما تعداه إلى غيره من العلوم، من ذلك تبحره في الفقه، فقد درس كتاب "الحاوي " في الفقه لفقيه الشافعية المشهور أبو الحسن الماوردي[٣٤]. وقام بنظمه شعراً[٣٥]، ويؤكد معاصروه على

٢٠٠١م، ص٤٦٤-٤٦٥.

- اعتاد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا الحضور إلى القاهرة لزيارة السلطان الناصر محمد، حاملاً معه مختلف الهدايا. انظر : ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م، ج١، ص١٠٢.

(٣١) جمال الدين ابن المغربي : هو إبراهيم بن أحمد، رئيس الأطباء بالديار المصرية المعروف بابن المغربي، نال حظوة كبيرة عند السلطان الناصر محمد، وكان الناصر يروي له أسراره خاصة مع حريمه، وحاول الكثير من الأمراء الإيقاع به عند السلطان الناصر لكنهم لم يفلحوا في ذلك، توفى عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر: ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٢٩-٣٠.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م، ج١، ص١٨٥.

(٣٣) يقول السمحاوي واصفاً رئيس الأطباء: " هو أعلم أهل زمانه بهذه الصناعة، وأحذقهم وأعرفهم بالعلاج ". انظر : الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق : أشرف محمد أنس، القاهرة = = ٢٠٠٦م، ج١، ص٤٢٢. وعن مهام رئيس الأطباء، انظر : ابن الأخوة " معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٨م، ص١٦٥-١٦٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٧؛ انظر أيضاً : أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص٢٤.

(٣٤) أبو الحسن الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب المصري، الماوردي الشافعي، من أشهر علماء القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، له عدة مؤلفات أهمها " الحاوي " في الفقه، وكتاب " تفسير القرآن "، وكتاب " الأحكام السلطانية "، وكتاب " قانون الوزارة وسياسة الملك ". حمل لقب " أقضى القضاة " لقب به في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، وتولى

أنه "لو لم يعرفه جيدًا ما نظمه"[٣٦]، مما يدل على مدى تبحره في علم الفقه، ودفع ذلك بعض المؤرخين إلى نعته بأنه كان "إمامًا جليلًا"[٣٧].

بالإضافة إلى ذلك كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا مؤلفات في علوم أخرى مثل كتاب " الموازين " وكتابه المشهور في التاريخ " المختصر في أخبار البشر "، وفي جغرافية البلدان: " تقويم البلدان "[٣٨]. كما كان له مؤلفات أخرى وأشعار كثيرة وعدة موشحات[٣٩]. ويجمل ابن تغري بردي العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل بقوله: "وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "[٤٠]. وقد نبغ في تلك العلوم أو على حد تعبير ابن العماد الحنبلي: " تفنن فيها "[٤١].

وهكذا نبغ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في العديد من العلوم والمعارف، ولم يقتصر دوره فقط على التحصيل والدرس، وإنما تعداه إلى التأليف في علوم شتى، وبلغت مؤلفاته درجة كبيرة من الإجادة، لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه " كان أعجوبة أعاجيب الدنيا "[٤٢]. وعلى هذا النحو كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا دور كبير في دفع عجلة الحضارة الإنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن معاصره ابن أيبك الصفدي، قرر أنه كانت لدى عماد الدين مكتبة ضخمة ضمت صنوف عديدة من الكتب، انتقاها بعناية فائقة، وعلى حد قول ابن أيبك " أمده على اقتنائها انتقاؤه وفطانته، فمنها الجواهر القيمة، والزواهر التي هي في أفقه مقيمة ". وبعد وفاته تولى ابنه الملك الأفضل توزيع هذه الكتب على أصدقاء والده،

القضاء في بلدان كثيرة، وفي أواخر أيامه أقام ببغداد حيث توفي بها عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، بعد أن بلغ ستًا وثمانين عامًا. انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م، ج١٥، ص٥٢-٥٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت ١٩٨٤م، ج١٨، ص٦٤-٦٨؛ انظر أيضًا : أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م، ص٢٢٥.

(٣٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٦) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٧) المرتضى الزبيدي : ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق : صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م، ص٥٦.

(٣٨) أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٦١؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٩) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٤٠) النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٤١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٨.

(٤٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٩.

كما أنه وقف بعضًا منها[٤٣].

وهكذا كانت حياة عماد الدين إسماعيل مليئة بالأحداث السياسية، وفي نفس الوقت نتيجة حبه للعلم والدرس أحب العلماء[٤٤]، ولم يتردد في إجزال العطاء لهم، فهذا هو جمال الدين محمد بن نباتة، الذي أجرى له راتبًا سنويًا، سوى ما كان " يتحفه به إذا قدم عليه "[٤٥]. لأن ابن نباته لم يكن مقيمًا بحماة، وإنما كان مقيمًا بدمشق، ويذكر الصفدي أنه رتب لجمال الدين بن نباته ستمائة درهم كل عام[٤٦]. وقد مدحه ابن نباتة بقصائد كثيرة[٤٧].

وسيرًا على سياسة أبو الفدا في الإغداق على العلماء، تلك الأموال والهدايا التي منحها لرئيس الأطباء جمال الدين بن المغربي، بعد أن شفى ولده الملك الأفضل محمد، فيذكر ابن حجر العسقلاني أنه " أعطاه فرسًا بكنبوس زركش، وعشرة آلاف، واعتذر إليه مع ذلك، ووعده أنه إذا توجه إلى حماة يكافيه "[٤٨].

تمتع عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بخلق طيب، فقد أجمع المؤرخون على وصفه بأنه كان ذو " مكارم وفضيلة تامة "[٤٩]. " وجامعًا للفضائل "[٥٠]، ولاشك في أنه كان لنشأته الأولى أثر كبير في ذلك، فقد شب في وسط أسرة تحلت بكل أوصاف الخلق

---

(٤٣) أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٤، ٣٠٥.

أمدّه بمعنى أعانه بمدد. انظر: المعجم الوسيط، ج٢، ص٨٩٢.

(٤٤) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي : ج٢، ص٤٢٣.

(٤٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.

- جمال الدين محمد بن نباتة هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي = = ابن نباتة، الفارقي الأصل المصري المولد، ولد في زقاق القناديل بالفسطاط عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ونشأ بالديار المصرية، وتعلم بها، ثم رحل إلى الشام حيث اتصل بملوكها خاصة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وأخذ يتردد على حلب ودمشق وطرابلس، وفي أخر أيامه استقر بدمشق، توفى عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م بالقاهرة. انظر : ابن قاضي شهبة : تاريخه، تحقيق : عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص٢٠٣-٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٣٩-٣٤٠؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص٩٣-١٠٦.

(٤٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٤٧) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨.

(٤٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٩.

(٤٩) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٣؛ ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٥١.

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

القويم[٥١]، وقد انعكس ذلك على كافة تصرفات عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أثناء فترة شبابه حيث كان أميرًا بدمشق، فأحبه الجميع[٥٢].

منذ عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م بعد وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وخروج حماة عن يد ملوك البيت الأيوبي بتولية الأمير قره سنقر المنصوري حكمها[٥٣]، استقر الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بدمشق، حيث صار من جملة أمراء دمشق[٥٤]، وكان له من العمر في ذلك الوقت ستة وعشرون عامًا، حيث بلغ من النضج مبلغًا كبيرًا وأثقله ما حصله من العلوم، ولذلك أخذ يشارك مشاركة فعالة في أحداث عصره.

شارك عماد الدين إسماعيل في صباه في الأحداث السياسية المعاصرة له، كما شارك في بعض المعارك، مثل مشاركته عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م - وكان عمره آنذاك اثنى عشر سنة - في فتح حصن المرقب زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، ويقول أبو الفدا : " يقول العبد مؤلف هذا المختصر، إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك اثنى عشر سنة، وهذا أول قتال رأيته، وكنت مع والدي "[٥٥].

كما شارك في مطلع شبابه في الكثير من المعارك، مثل مشاركته عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م في فتح عكا، وكان آن ذاك يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا حيث كان أمير عشرة "[٥٦].

---

(٥١) مدح المؤرخون معظم أفراد أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي حكام حماة. انظر : أحمد ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٩٨-٤٠٦، ص٤٣٩-٤٤٥.
(٥٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.
(٥٣) أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٧٩.
(٥٤) ابن تغري : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.
(٥٥) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١.
وعن فتح حصن المرقب، انظر : ابن بيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص٢٦٨-٢٧٠.
- المرقب : يقول ياقوت الحموي : " هو اسم بلدة وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام – البحر المتوسط – وعلى مدينة بُلنياس ". انظر: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٨.
- المنصور قلاوون : هو السلطان المنصور قلاوون اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بألف دينار، ولذلك سمي بالألفي، تولى السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٩٩م. واستمر في السلطنة إلى حين وفاته عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهر والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج١٤، ص٦٩٠-٦٩١.
(٥٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٤.
- أمير عشرة : مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، يكون صاحبها مقدمًا على عشرة

كذلك مشاركته عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م وعمره تسعة عشر عامًا في الحصار الذي فرضه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) على قلعة الروم، يقول أبو الفدا : " وهذا الحصار أيضًا من جملة الحصارات التي شاهدتها "(٥٧). كذلك شارك عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، في الحملة التي توجهت إلى سيس فيقول : " وورد الأمر إلى زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة أن يسير بالعساكر إلى بلاد السيس فخرج كتبغا المذكور من حماة، وخرجنا صحبته في يوم السبت الخامس والعشرين من شوال من هذه السنة (٧٠١هـ)"(٥٨)، كما شارك في المناوشات والمعارك التي وقعت مع السلطان محمود غازان خان الدولة الإيلخانية(٥٩).

والمعروف أنه في تلك الفترة كان السلطان الناصر محمد يمر بضائقة شديدة، حيث وقع فريسة صراع مرير بين أمراء المماليك، رغبة منهم في الاستئثار بالسلطة، وذلك لصغر سنه حيث كان يبلغ من العمر آنذاك اثنى عشر عامًا، ووصل الأمر بهؤلاء الأمراء أن حجروا وضيقوا عليه، الأمر الذي دفعه إلى الهروب من مصر عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فتظاهر بالذهاب إلى الحج وتوجه إلى حصن الكرك، فما كان من أمراء المماليك إلا أن خلعوه من السلطنة، وولوا مكانه الأمير سلار الذي اعتذر وعرضها على الأمير بيبرس الجاشنكير(٦٠).

فرسان، وربما كان له عشرون، لكن يعد في أمراء العشرات. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٥.

(٥٧) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٧.

- قلعة الروم : قلعة حصينة تقع غربي الفرات، مقابل البيرة، بينها وبين سميساط. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٠.

(٥٨) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٤٣.

- سيس: يقول أبو الفدا: " بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل، ولها بساتين وشهر صغير وهي قاعدة الثغور الشمالية ". تقويم البلدان، ص٢٩٢؛ انظر أيضًا: كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وآخرون، بيروت ١٩٨٥م، ص١٧٣.

(٥٩) الإيلخانيون : يرجع إطلاق اسم الإيلخانيين على هذه الدولة إلى كلمة " آيل المغولية "، بمعنى المطيع للخان. انظر فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٢٨؛ حامد زيان : المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٧١.

- السلطان محمود غازان : تولى حكم المغول بفارس عام ٦٩٤هـ/١٢٦٤م. ثم اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمود، وجعل الإسلام دينًا رسميًا لدولة مغول فارس، واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام، بيروت ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٠٧-٢٢١؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٥٢٢.

(٦٠) المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٤٣-٤٥؛ انظر أيضًا : حامد زيان : المماليك، التاريخ

رفض الكثير من الأمراء ما آل إليه مصير السلطان محمد وخلعه من السلطنة، وتولية بيبرس الجاشنكير سلطنة المماليك في مصر والشام، فآثر الكثير منهم معاضدته والذهاب إليه في الكرك، وكان من بين هؤلاء الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، الذي اظهر إخلاصًا شديدًا له وقدم إليه خدمات جليلة(٦١).

وهكذا ارتبط الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا برباط المحبة والصداقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخاصة أثناء إقامة الأخير بالكرك، في الفترة الواقعة بين شهر شوال عام ٧٠٨هـ/ مارس ١٣٠٩م وشهر شعبان عام ٧٠٩هـ/ يناير

السياسي، ص٣٩-٤٠.

- الناصر محمد : هو السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٤م وله من العمر تسع سنوات، مما جعله ألعوبة في أيدي أمراء المماليك، ولذلك عزل أكثر من مرة، وقد تولى الناصر محمد السلطنة ثلاث مرات الأولى بين عامي (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية بين عامي (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م)، والثالثة بين عامي (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م). انظر: ابن أيبك الدواداري : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٣٥٢-٤٠٠؛ الدر الفاخرة في سيرة الملك الناصر، ص٦-١٨٩.
- حصن الكَرَكُ : قلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القُلزم – البحر الأحمر – وبيت المقدس. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص٣٥٣.
- الأمير سلار : هو الأمير سيف الدين سلار بن عبدالله المنصوري، تركي الجنس، كان أبوه أحد الأمراء عند صاحب الروم ووقع في أسر الظاهر بيبرس في موقعة الإبلستين عام ٦٧٠هـ/١٢٧٧م، ثم اشتراه قلاوون، وترقى وصار من أعيان السلطنة المملوكية، وتولى العديد من الوظائف، توفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٦، ص٥-١٣.
- بيبرس الجاشنكير : هو بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير، من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن قرره قلاوون جاشنكير – أي الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات – تولى السلطنة عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وتلقب بالمظفر ثم تركها على أثر عودة الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، حيث تم القبض عليه، وانتهى أمره بالقتل في نفس العام. انظر : البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج٣، ص٤٠٣-٤٤٨؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٣٦-٤٠.

(٦١) ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠١-١٠٢.



١٣١٠م[٦٢]. وخلال تلك الفترة توثقت علاقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بالسلطان الناصر محمد، حيث قام على خدمته خير قيام، لدرجة أن المؤرخ الصفدي يقول " وبالغ في ذلك "[٦٣].

وكان نتيجة إخلاص عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في خدمة السلطان الناصر محمد، أن وعده بحكم حماة[٦٤]، وكما سبقت الإشارة فإن حكم حماة خرج عن يد أبناء تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، منذ وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م.

وفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وَفَى السلطان محمد بوعده لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا، حيث أنعم عليه بحكم حماة، فقد أرسل إلى أبي الفدا أثناء إقامته بدمشق تقليدا بنيابة حماة، وصدر هذا التقليد بتاريخ ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر ١٣١٠م[٦٥]. فتوجه أبو الفدا في نفس اليوم إلى حماة لتولي أمرها بدلاً من الأمير سيف الدين استدمر[٦٦]. غير

---

(٦٢) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ص١٠١-١٠٢؛ ابن أيبك : الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢.
خلال هذه الفترة تم عزل الناصر محمد عن سلطنة المماليك، وأقيم مكانه بيبرس الجاشنكير سلطانًا على مصر والشام. انظر : حامد زيان، المماليك، ص٤٠.

(٦٣) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦؛ انظر أيضًا : الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م، ج١، ص٦٨.

(٦٤) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦.

(٦٥) النويري : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥؛ ابن سباط : ج٢، ص٦٠٥.

(٦٦) أبو الفدا : المختصر، ج٣، ص٦٠؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ) أبو ظبي، تحقيق : حمزة عباس، ج٢، ص١٣٢٣؛ البرزالي : المقتفى على كتاب الروضتين، ج٣، ص٤٧٤.

- الأمير سيف الدين استدمر: عُرف في التاريخ بأنه كان جبارًا سفاكًا للدماء، كما عُرف بحبه للأكل، كما كان يحب الفضلاء، تأمر بدمشق، ثم تولى نيابة طرابلس عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، ثم تولى نيابة حماة بعد خروج الناصر من حصن الكرك عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكن حدث خلاف بينه وبين الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا وهو أمير آل فضل والعرب بالشام، مما دفع الأخير إلى الشكوى منه للسلطان الناصر محمد، فأمر السلطان بنقل استدمر إلى طرابلس وعهد بحكم حماة للملك عماد الدين، فرفض استدمر مغادرة حماة، إلا أن وفاة الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائب حلب، حلّت المشكلة، حيث غادر حماة متوجهًا إلى حلب رغمًا عن السلطان الناصر، فوافق الناصر، لكنه اضمر له شرًا، حيث تم قتله في ذي القعدة عام ٧٢١هـ/ نوفمبر ١٢٢١م. انظر: ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤١٤-٤١٥؛ النويري :

أن عماد الدين لم يستطع الدخول إلى حماة إلا بعد أن غادرها الأمير اسندمر الذي توجه إلى حلب، ليتولى حكمها بدلاً من الأمير سيف الدين قبجق المنصوري الذي وافاه الأجل فوافق السلطان محمد على ذلك، ومن ثم دخل عماد الدين إسماعيل حماة في أواخر جمادي الآخرة من نفس العام وتولى حكمها(٦٧).

وبذلك عادت حماة إلى حكم بيت تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، أو كما يقول أبو الفدا " عودها إلى البيت التقوي "(٦٨).

ازدادت العلاقة الطيبة بين عماد الدين إسماعيل أبو الفدا والسلطان الناصر محمد، وأخذ أبو الفدا يتردد على السلطان في القاهرة، فيزوره كل عام حاملاً معه مختلف الهدايا(٦٩). وقد ازدادت محبة السلطان له بسبب ما تحلى به أبو الفدا من أدب وفضائل(٧٠)، مما أدى إلى أن يكرمه السلطان ويعظمه(٧١).

ولما أنس السلطان بأبي الفدا آثر أن يصطحبه معه أثناء حجه عام ٧١٩هـ/١٣٢٠م(٧٢). وخلال هذه الصحبة ازداد تعلق السلطان الناصر محمد بأبي الفدا، لما لمسه

نهاية الأرب، ج٣٢، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٦٥.

(٦٧) النويري : : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥.

- سيف الدين قبجق : هو سيف الدين قبجق المنصوري، أصله من المغول، وقع أسيرًا في يد الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، أثناء إغارة المغول على مدينة الابلستين، فأعطاه للمنصور قلاوون، وخشي المنصور قلاوون أن ينحاز إلى المغول، فكان يرفض خروجه إلى الشام، وبعد وفاة المنصور أخذت تعلو مكانته، إلى أن تولى نيابة الشام عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م أثناء سلطنة لاجين ثم حدث خلاف بينه وبين لاجين فر على أثره قبجق إلى بلاد محمد غازان المغولي عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، واستمر في خدمة غازان، حتى انتصر غازان في موقعة الخازندار على جيوش المماليك، فعهد إليه غازان بنيابة الشام، ثم عاد إلى رشده وانضم إلى أمراء المماليك، وحارب إلى جانبهم ضد غازان في موقعة شقحب، وولاه الناصر محمد نيابة حلب في شوال عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م واستمر بها حتى وفاته في أواخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/أكتوبر ١٣١٠م. انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر، ج٣، ص٣٢٥-٣٢٧؛ ابن أيبك الصفدي: أعوان العصر وأعوان النصر، ج٣، ص١٤١٦-١٤٢١؛ ابن القفطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٥٣٩.

(٦٨) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦٠.

(٦٩) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٤٤.

(٧٠) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج٢، ص٢٢٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٧١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨.

(٧٢) ابن دقماق : النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت

من كرم وطيب أخلاق ومودة " وعظم في عين السلطان "، على حد قول ابن حجر العسقلاني(٧٣). ونتيجة ذلك أنعم عليه السلطان - في شهر صفر عام ٧٢٠هـ/ مارس ١٣٢٠م، بعد عودتهما من رحلة الحج وأثناء تواجده بالقاهرة - بلقب المؤيد، وأذن له بأن يخطب له بحماة وأعمالها، وأن يخاطب بالمقام العالي ، المولوي، السلطاني، الملكي، المؤيدي(٧٤).

وهي نفس الألقاب التي كانت لعمه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي. وتؤكد معظم المصادر أن السلطان الناصر محمد، لم يكتف بأن يمنح عماد الدين إسماعيل حكم حماة، ويجعله مثل سائر النواب حكام مختلف نيابات السلطنة، وإنما " جعله سلطانًا يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره، ليس لأحد في الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم "(٧٥). وهذا لم يتسن لأحد من الأمراء غيره، مما يدل على تلك المكانة العالية التي وصل إليها عماد الدين إسماعيل عند السلطان الناصر محمد.

فما كان من عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلا أن ركب بشعار السلطنة، أثناء وجوده بالقاهرة ومشي من المدرسة المنصورية بين القصرين، حتى صعد إلى القلعة وبين يديه جميع خواص القاضي وسائر الناس، ومشي السلحدار بالسلاح والدويدار الكبير بالدواة والغاشية والعصايب، وجميع دست السلطنة بين يديه(٧٦). حيث قدم فروض الطاعة

١٩٩٩م، ص١٢٦؛ المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م، ص١٠٢؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٥.

(٧٣) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٧٤) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف باسم تاريخ ابن سباط، ج٢، ص٦٣٧.

- يقول القلقشندي أن لقب " المقام " من الألقاب الخاصة بالملوك، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٩٣؛ وتذكرالمصادر أن السلطان الناصر محمد لقب عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أولاً بلقب الملك الصالح، ثم لقبه بعد ذلك بلقب الملك المؤيد. ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٣.

(٧٥) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات،ج١،ص١٨٣؛ ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر،ج١،ص٣٠٣.

(٧٦) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.

- السلحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى الممسك، فيكون المعنى حامل السلاح ويحمل مقدمهم لقب أمير سلاح، وموضوعها حمل السلاح للسلطان في مختلف المجامع، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٨.

- الدودار : لفظ مركب من مقطعين الأول عربي وهو دواة، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك أو حامل الدواة، يتولى هذه الوظيفة عدد من الأمراء، على أن يكون مقدم ألف ويختص صاحب هذه الوظيفة بحمل دواة السلطان أو الأمير، بالإضافة إلى تبليغ الرسائل

والولاء والشكر للسلطان، وبعدها عاد إلى حماة، بعد أن جهز السلطان سائر ما يحتاج إليه[٧٧]، ويقول معاصره البرزالي: " فدخل حماة في أُبهة السلطنة، وتلقاه الناس وخُطب له "[٧٨].

وقد أشار القلقشندي[٧٩] إلى أن طبيعة حكم عماد الدين إسماعيل لحماة اختلفت عن سائر الحكام الآخرين؛ الذين حكموا مختلف البلاد التابعة لسلطنة المماليك، وقد اعتمد في ذلك على ما ذكره أحد الكُتّاب المعاصرين له وهو: شهاب الدين أحمد بن يحي العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الذي أشار إلى أن حاكم حماة، ويقصد بذلك معاصره عماد الدين إسماعيل : " كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات، وتولية القُضاة والوزراء، وكُتّاب السر وكل الوظائف، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته "[٨٠]. وقد أكد على ذلك القلقشندي عندما تحدث عن حماة فقال : " إنها كانت بيد بقايا بني أيوب، يطلق عليهم لفظ السلطنة "[٨١]. وعلى هذا النحو كان عماد الدين إسماعيل سلطانًا مستقلاً يقوم بتولية من يراه صالحًا للإمارة والإقطاعات، ويولي القضاة والوزراء وكُتّاب السر، وسائر الوظائف الكبيرة، دون أن يعود في ذلك إلى مقر السلطنة في القاهرة، اللهم إلا في الأمور

عن السلطان، وتقديم القصص والبريد إليه. القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٩.

- الغاشية : قطعة مصنوعة من الجلد موشاه بالذهب، بحيث يظن الناظر إليها أنها كلها ذهبًا، يلقيها حاملها أمام السلطان أو الأمير يمينًا وشمالاً. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٣.
- العصايب : هي غطاء للرأس، عبارة عن قطعة من القماش، كالعمامة. انظر : وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٢٦.
- دست السلطنة : يقول القلقشندي أنها وظيفة من أجل الوظائف وأرقاها قدرًا وموضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام المواكب خلف كاتب السر، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة وكاتب السر ويكتبوت عليها بما تقضيه الحال، وكانوا في البداية ثلاثة أشخاص، ثم ازدادوا إلى العشرين. انظر : صبح الأعشى، ج١، ص١٠٤.

(٧٧) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٥٥، ٩١؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٢٠٢؛ ابن أيبك الدوداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٧م.

(٧٨) المقتفى على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠٢.

(٧٩) صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٠) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص٦٦.

(٨١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٧، ص١٧٧.

الكبيرة التي يشاور فيها السلطان[٨٢].

وهكذا علا شأن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، لدرجة أن الأمراء الكبار كانوا يخاطبونه بلقب " المقام العالي " ويكتبون إليه " يقبل الأرض " مثل الأمير سيف الدين تنكز[٨٣]، وهو من الأمراء الذين كانت لهم هيبة عظيمة بدولة المماليك، فكان يكتب إليه : " يقبل الأرض المقام الشريف العالي المولوي السلطاني المالكي المؤيدي العمادي "[٨٤]. كذلك كان السلطان الناصر محمد يكتب إليه " أخاه محمد بن قلاوون، أعز الله أنصاره المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي "[٨٥].

وعلى هذا النحو بلغ صاحبنا مكانة عالية في دولة المماليك، فقد احترمه السلطان الناصر محمد احترامًا زائدًا، ونال لديه حظوة كبيرة[٨٦]، كذلك كان حاله مع معظم أمراء المماليك الذين تولوا حكم نيابات الشام، الذين أمر السلطان أن يخاطبوه كما كانوا يخاطبون السلطان ويقدمون إليه الاحترام اللازم. واستمر ذلك إلى حين وفاته عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م[٨٧]. وفي نفس هذا المعنى يقول ابن حجر العسقلاني أن عماد الدين إسماعيل " عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وفضائله "[٨٨].

بالإضافة إلى ذلك شارك عماد الدين إسماعيل في أمور السياسة والحرب، فكثيرًا ما انضم إلى الجيوش التي أرسلها السلطان الناصر محمد لمحاربة الخارجين عن السلطنة

---

(٨٢) العمري : مسالك الأبصار، ص٦٦؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٣) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤:

- الأمير سيف الدين تنكز : هو الأمير تنكز بن عبدالله الحسامي الناصري، تدرج في مختلف الوظائف حتى صار نائب الشام، وعلا شأنه عند السلطان الناصر محمد، وتزوج الناصر من ابنته، وزوج أولاد تنكز من بناته، وكان يسير في خدمته الأمراء من المماليك، والبقايا من أولاد ملوك بني أيوب، وفي عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م غضب عليه السلطان الناصر، فاعتقله في سجن الإسكندرية، ثم قتله عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وصادر ممتلكاته. انظر : ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبنائه، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م، ج٢، ص١٠٥؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٤، ص١٥٦-١٥٧؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م، ج١، ص٤٧٨؛ ابن أيبك الصفدي : أعوان العصر، ج١، ص٥٣٠-٥٣١.

(٨٤) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٨٥) ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٨٦) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

المملوكية ببلاد الشام ومحاربة الأرمن(٨٩).

ومما سبق يتضح إخلاص عماد الدين إسماعيل للسلطان الناصر محمد إخلاصًا تامًا، وفي المقابل قدر الناصر محمد هذا الإخلاص، فقابله بالإنعام، وقد عبر عن ذلك خير تعبير معاصره المؤرخ ابن أيبك الدوداري بقوله : " فوصل – أي عماد الدين – بحسن عقله ودينه، وخدمته، إلى ما وصل، أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، فإنه مستحق لذلك "(٩٠).

وعلى هذا النحو يقر ابن أيبك وغيره من المؤرخين أن ما تمتع به عماد الدين إسماعيل من حُسن عقله وآدابه وفضائله ودينه، وإخلاصه في خدمة السلطان الناصر محمد، هو الذي جعل الناصر محمد يأمن إليه، على الرغم مما اشتهر عنه من تخوفه ممن يصل من الأمراء إلى مكانة كبيرة، فكان لا يتردد في التخلص منهم، بعد أن يثبت لديه أنهم اقترفوا ذنبًا(٩١).

وبلغ تقدير السلطان الناصر محمد لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء أنه بعد وفاة الأخير رعى السلطان الناصر معزته وتقديره، فعهد إلى ابنه الملك الأفضل محمد بحكم حماة، وأقر ما كان سائدًا أيام أبيه الملك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا(٩٢). وبعد عزل الأفضل محمد عن حكم حماة عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، لم يعهد السلطان المملوكي إلى أحد من بني أيوب بحكمها، فخرج حكمها عنهم، حيث صارت نيابة يتداول حكمها نائب بعد نائب على حد قول القلقشندي(٩٣).

لم تشغل أمور السياسة والحكم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عن ممارسة هوايته وميوله الطبيعية وحبه وشغفه بالعلم والدرس، فقد أحب العلماء وقربهم إليه، كما انغمس في تأليف الكثير من المؤلفات العلمية، كما سبقت الإشارة.

وسوف يقتصر حديثنا عن مؤلفين فقط من مؤلفاته: الأول في التاريخ وهو " المختصر في أخبار البشر "، والثاني في الجغرافيا وهو " تقويم البلدان "، أما كتابه المختصر في أخبار البشر، فقد تناول فيه تاريخ البشرية منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، وحتى نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، واعتمد أبو الفدا في جمع مادته العلمية في الفترة السابقة عليه، على مجموعة كبيرة من المؤرخين المشهود لهم بالصدق

---

(٨٩) ابن تغري بردي : النجوم، ج٩، ص٢٤.
(٩٠) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٥.
(٩١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٤-٥٣٤.
(٩٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٢٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩.
(٩٣) صبح الأعشى : ج٧، ص١٧٧.
- تولى نيابة حماة الأمير سيف الدين طقزتمر الذي كان مملوك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا. انظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٧٣.

والأماثة، مثل كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب تاريخ اليمن لعمارة اليمني، وكتاب المُغرب في أخبار أهل المغرب لابن سعيد، وكتاب الكامل لابن الأثير، وكتاب مفرج الكروب لابن واصل وغيرهم[٩٤]. أما الفترة التي عاصرها، فيعتبر ما سجله أبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر، وثيقة تاريخية هامة، حيث أنه كان شاهد عيان لها.

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا فقد أشار هو إليه حيث قسمه إلى قسمين رئيسين، بالإضافة إلى مقدمة اشتملت على ثلاثة محاور، تحدث فيها عن أمور عامة وهامة لدارس التاريخ : المحور الأول يشير إلى ما يحيط التاريخ القديم من اختلافات، والمحور الثاني تحدث فيه عن نسخ التوراة، والمحور الثالث وضعه في صورة جدول؛ يوضح المدد الزمنية بين التواريخ المشهورة، سواء كانت ميلادية أم هجرية، أم غيرها من التواريخ[٩٥].

أما القسم الأول فقد تناول التاريخ القديم، والقسم الثاني يتناول التاريخ الإسلامي، أما القسم الأول الذي يتناول التاريخ القديم، فقد جاء في خمسة فصول، حمل الفصل الأول عنوان : " في عمودم التواريخ القديمة وذكر الأنبياء على الترتيب ". والفصل الثاني بعنوان : " في ذكر ملوك الفرس وهم أربعة طبقات "، والفصل الثالث بعنوان : " في ذكر فراعنة مصر "، والفصل الرابع بعنوان : " في ملوك العرب قبل الإسلام "، أما الفصل الخامس فجاء بعنوان : " في ذكر الأمم "[٩٦]. أما القسم الثاني، وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد رتبه على السنين وفق كتاب الكامل لابن الأثير، أي اتبع أسلوب الكتب الحولية، وهو الأسلوب الذي اتبعه كثير ممن سبقه من المؤرخين[٩٧].

وقد تميز كتاب المختصر في أخبار البشر بعدة ميزات أهمها كونه مختصرًا لحوادث التاريخ، فالكثير ممن سبقه من المؤرخين جاءت كتبهم في عشرات المجلدات، مما شكل صعوبة كبيرة أمام قارئ التاريخ، فعلى سبيل المثال جاءت الفصول الخمسة التي تناولها التاريخ القديم في حوالي مائتي صفحة فقط، شكلت نصف الجزء الأول فقط في كتاب المختصر في أخبار البشر، مما يسهل على القارئ الإلمام بالتاريخ القديم في سهولة ويسر.

أما القسم الثاني وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد بدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم تناول بعده تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم تاريخ الدول التي تعاقبت على حكم العالم الإسلامي وفق السنوات كما سبقت الإشارة، أما الأسلوب الذي اتبعه في

---

(٩٤) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣.
(٩٥) المختصر، ج١، ص٣-٧.
(٩٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٨-١٠٩.
(٩٧) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣؛ انظر أيضًا : صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م، ص١٣-٣٨.

عرضه للأحداث فتميز بالاختصار لما وقع من أحداث خلال السنة، ثم يعرض بعد ذلك لأهم الشخصيات التي توفت في هذه السنة، دون أن يعمد إلى الإطالة ولا إلى الاستطراد، وكما هي عادة مؤرخي الحوليات، فإنه عندما لا يجد في احدى السنوات ما يستحق تدوينه من أحداث، فكان يهمل ذكر أحداثها، كما فعل في عام ٧٢٩هـ عندما قال: " وكانت غرة المحرم من هذه السنة يوم الجمعة رابع تشرين الثاني، ولم يبلغني في أوائلها ما يليق أن يؤرخ والله أعلم "[٩٨]. وتوقف تاريخ أبو الفدا عند نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.

وكما سبقت الإشارة قد استقى أبو الفدا مادته العلمية ممن سبقه من المؤرخين، وهنا نجد أنفسنا أمام ملاحظتين: الأولى أنه اعتمد على مجموعة من المؤرخين الثقاة أمثال ابن الأثير، وابن مسكويه، وعمارة اليمني، وابن خلدون، وابن أبي الدم الحموي وغيرهم، والملاحظة الثانية أنه لم يكتف بالنقل فقط، وإنما قام بنقد بعض الروايات التي رأى أنها لا تستقيم مع سائر الأحداث التاريخية.

أما الفترة التي عاصرها فيعتبر تسجيل أبو الفدا لأحداثها وثيقة تاريخية هامة، حيث سجل أحداثها من واقع مشاهداته ورؤيته، وهي رؤية مؤرخ وسياسي، كما أنه شارك مشاركة فعالة في أحداثها، مما جعله ملمًا بالكثير من خبايا الأمور.

فطوال هذه الفترة كان دائم القول، فسرنا ....، بعد وصولي .... ، فعدنا ...، ورد كتابه يطلبنا ....، ثم عدنا إلى حماة .... "[٩٩]. أي أنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الفترة.

كذلك فإن إقامة أبو الفدا ببلاد الشام سواء بدمشق أو بحماة، جعله قريب من البلاد التي وضع المغول أيديهم عليها، سواء في العراق أم في إيران، مما جعله على قدر كبير من معرفة أخبارهم، مما زاد من أهمية تاريخه، حيث روى لنا بعض الأحداث التي لم ترو عند غيره من المؤرخين.

ونتيجة ذلك؛ يمثل تاريخ المختصر في أخبار البشر أهمية كبيرة من بين كتب التاريخ الإسلامي، لذلك نجد أن الكثير ممن جاء بعده من الكُتَّاب يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، فعلى سبيل المثال من بين أولئك الكُتَّاب المشهورين الذين اعتمدوا على تاريخ أبو الفدا كان، الكاتب أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"، وبإحصاء عدد من أشار إليه القلقشندي صراحة في اعتماده على تاريخ المختصر لأبي الفدا، فكان أكثر من اثنين وأربعين موضعًا، وأخذ عنه الكثير من الآراء التي انفرد بها عماد الدين إسماعيل دون غيره من المؤرخين، مما يؤكد لنا أن أبي الفدا كانت له رؤية تاريخية خاصة به، توصل إليها عن طريق اطلاعاته العديدة، وقراءاته المتبحرة في كثير من العلوم.

في البداية نجده يقرر أن لفظ " تاريخ "، محدث في لغة العرب، فهو معرب من

---

(٩٨) المختصر، ج٤، ص٩٩.

(٩٩) المختصر، ج٤، ص٤٠-٤١.

الكلمة الفارسية " ماه روز "(١٠٠) وهو بمعنى " يوم الشهر " وهو ما قرره الكثير من المؤرخين والكُتَّاب(١٠١).

وهذا مما يدل على أن عماد الدين إسماعيل تمتع بنظرة ثاقبة في أمور الحياة، ونتيجة قراءاته ووعيه التاريخي، فأشار إلى حقيقة هامة وهي: أن السلطة والحكم لا يدوم، لذلك نجده يوجه خلال كتابه المختصر الكثير من المواعظ والحِكَم، ومن أمثلتها تلك التي قالها عقب سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. حيث قال : " وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر ".

كذلك فإنه عندما يتحدث عن مصر، وتاريخها الطويل، يقرر حقيقة واقعه بقوله: " وكان أهل مصر أهل ملك عظيم في الدهور الخالية، والأزمان السالفة، ما بين قبطي ويوناني وعمليق "(١٠٢).

وعندما يتحدث عن ذي القرنين، وهو الذي ورد في القرآن الكريم، وما أثير حول علاقته بالإسكندر الأكبر، يقول : " والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك – أي صفات ذي القرنين – بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن وهو ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام "، ويؤكد عماد الدين حديثه، بأن لفظ "ذو"، عربية محضة و" ذو القرنين " لقب من ألقاب العرب ملوك اليمن(١٠٣).

كما كانت له رؤية واضحة في طبيعة الكثير من الأمم والشعوب، ومثال ذلك ما ذكره عن اليهود عندما قال : " أمة اليهود أعم من بني إسرائيل، لأن كثيرًا من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوذا، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الملة وغيرهم دخيل فيها "(١٠٤).

كذلك يقول عن عنصر الجراكسة : " وهم على بحر نيطس من شرقيه، وهم في شظف من العيش "(١٠٥).

---

(١٠٠) المختصر، ج١، ص١٢٣؛ انظر أيضًا : قاسم عبده قاسم : تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٦-١٧؛ روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت ١٩٨٣م، ص١٦-٢٨.

(١٠١) المختصر، ج٣، ص٥١.

يرى بعض المؤرخين أن أصل كلمة " تاريخ " عربي من كلمة " الارخ "، وهو ولد البقرة الصغير، أي أنه حدث كما يحدث الولد. انظر : السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م، ص٦؛ حامد زيان : علم التاريخ، القاهرة د.ت، ص٧.

(١٠٢) المختصر، ج٣، ص٤٠٧.

(١٠٣) المختصر، ج١، ص٤٥.

(١٠٤) المختصر، ج١، ص٨٧؛ انظر أيضًا : القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٥٣.

(١٠٥) المختصر، ج١، ص٩٢؛ انظر أيضًا : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٦.



أما رأيه في الجلالقة فيتمثل في قوله : " وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بدون استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمال الأندلس"(١٠٦).

ومما يوضح مدى دقه عماد الدين إسماعيل ما ذكره من أن أول من حمل لقب ملك من الوزراء الفاطميين في مصر هو : " الملك الأفضل وزير الخليفة الحافظ "(١٠٧).

ومما يدل على تمتع عماد الدين بالدقة في تسجيل حوادث التاريخ: تصحيحه لتلك المعلومة الواردة في كتب التاريخ من أن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام ابن نوح، هو التاسع من ملوك اليمن، غير أن عماد الدين أثبت أن قحطان هو أول ملوك اليمن(١٠٨).

كذلك قرر عماد الدين إسماعيل أن أول من ملك اليمن من بني رسول، هو علي بن رسول، وهذا على عكس من سبقه من المؤرخين الذين ذكروا أن أول ملوك اليمن من بني رسول هو المنصور عمر، وهو ابن علي بن رسول سابق الذكر. وقد أيد ابن خلدون رأي عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، وشايعه في ذلك عدد من المؤرخين(١٠٩).

كما ذكر عماد الدين إسماعيل أن الفاطميين قاموا بكسوة الكعبة المشرفة بالبياض عام ٣٨١هـ/٩٩١م، وكان ذلك في إمارة أبي الحسن جعفر (من السليمانين)، على الرغم من أن الكسوة بالبياض قد انتهت بعد أن قام العباسيون بكسوتها بالسواد(١١٠).

ويبدو لنا أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بصفته من سلالة ملوك بني أيوب؛ اهتم اهتمامًا خاصًا بالكثير من حياة ملوك الأيوبيين الأوائل، فعلى سبيل المثال يقول إن جَدّه الأكبر صلاح الدين الأيوبي كان يتبرك بأحد الأشراف أمراء المدينة المنورة، وهو القاسم بن مهنا الذي ينتمي نسبه إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حيث كان يصحبه في فتوحاته " يتبرك به، ويتيمن بصحبته، ويرجع إلى قوله"(١١١).

من ذلك أيضًا ما ذكره عماد الدين إسماعيل عن ظهير الدين طغتكين الأيوبي حاكم اليمن(١١٢)، من أنه تميز بالبخل والشح الشديد، وكيف كان يتحايل على التجار لأخذ ما لديهم من تجارة، ثم بيعها بعد ذلك بالأسعار التي يريدها، وفي ذلك يقول أبو الفدا :

---

(١٠٦) المختصر، ج١، ص٩٣؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٤.
(١٠٧) المختصر، ج٣، ص١٦٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٩، ص٤٠٣.
(١٠٨) المختصر : ج١، ص٦٦؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٩.
(١٠٩) المختصر، ج٣، ص١٤٢؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص٣٣٩.
(١١٠) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨٠-٢٨١.
(١١١) المختصر،ج٣، ص٧٥؛ انظر أيضًا: القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٠.
- يذكر زامباور أن القاسم بن مهنا كان مصاحبًا لصلاح الدين الأيوبي منذ أن تولى حكم المدينة المنورة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وحتى وفاته عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م. انظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٧٧.
(١١٢) هو الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، حكم اليمن بين سنتي ٥٧٧-٥٩٣هـ/١١٨١-١١٩٧م. انظر : زامباور : معجم الأسرات، ج٣، ص١٥٢.

"وكان شديد السيرة مضيقًا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه، ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالاً لا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره "(١١٣).

ويستفاد من النص السابق ذكره أن صاحبنا اتبع الموضوعية التاريخية في تاريخه، فلم يجنح إلى جانب أبناء البيت الأيوبي، ويصفح عما قاموا به من أعمال سيئة، ولكننا نجده يذكر مساوئ سيف الدين طغتكين وشحه وشدته على رعيته، وذلك على الرغم مما كان لسيف الدين طغتكين من دور كبير في توطيد النفوذ الأيوبي باليمن، فلم يشفع له ذلك عند أبي الفدا، وإنما أراد أن يبرئ ساحته كمؤرخ، ويذكر ما اتصف به من صفات سيئة.

ونفس الشيء يتكرر مرة أخرى، عندما يصف عماد الدين إسماعيل، أحد حكام أبناء البيت الأيوبي باليمن " بالهوج "، فعندما تحدث عن الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين(١١٤)، قال عنه : " كان به هوج "، ويستطرد أبو الفدا في تحليل شخصية الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين فيقول: إنه ادعى أنه من نسل أمية، وسيرًا على هذا الادعاء كان يلبس نفس الثياب التي كان يلبسها خلفاء بني أمية، فيذكر أبو الفدا أنه: " لبس ثياب الخلافة في ذلك الزمان، وكان طول الكم نحو عشرين شبرًا "(١١٥).

وقد أجمعت المصادر على أن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين لم يكتف بذلك، وإنما سمى نفسه " المعز لدين الله "، وذلك على نفس اسم الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الفاطمي، وخطب لنفسه بالخلافة في اليمن، وكان ذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، فلما بلغ ذلك الملك العادل، أنكره إنكارًا شديدًا، وقال : " لقد كذب إسماعيل، ما نحن من بني أمية أصلاً "(١١٦).

وحديث عماد الدين إسماعيل أبو الفدا يفيد تأكيده على عدم اتصال نسب الأيوبيين ببني أمية، وهي قضية حاول البعض في بداية العصر الأيوبي إثارتها، غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حسمها بقوله " ليس لهذا أصل أصلاً "، وذلك وفق ما ذكره ابن خلكان عما سمعه من شيخه بهاء الدين بن شداد(١١٧).

---

(١١٣) المختصر، ج٣، ص٩٣.
(١١٤) هو معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، تولى حكم اليمن بين عامي ٥٩٣-٥٩٨هـ/١١٩٧-١٢٠٢م. انظر : زامباور : معجم الأنساب، ج١، ص١٥٢.
(١١٥) المختصر، ج٣، ص١٠٢.
(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٤؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٢٧١-٢٧٢؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ المعروف باسم الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق : سعيدعاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص٦.
(١١٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٧، ص١٤١.

أما كتاب تقويم البلدان: فقد ألفه عماد الدين إسماعيل بعد أن اطلع على ما سبقه من كتب الجغرافيا والبلدان، ولم يجد فيها غرضه في تحقيق الأسماء وذكر الأطوال والعروض، وصفات المدن. لذلك قام بتأليف كتاب " تقويم البلدان "، وقد اتبع أبو الفدا في تأليفه لكتاب تقويم البلدان منهجًا لم يسبقه إليه أحد. وقد أشار في مقدمته أنه سمى هذا الكتاب بـ " تقويم البلدان "، وجعله على نمط كتاب " تقويم الأبدان " لابن جزلة الطبيب(١١٨)، كما أنه سار على نفس طريقة ابن جزلة من وضع جداول، ولذلك هو أول من أدخل نظام الجداول في علم الجغرافيا(١١٩).

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا في تأليف كتاب " تقويم البلدان "فقد بدأه بالحديث عن الأرض والأقاليم السبعة، ثم تحدث عن البحار والأنهار والجبال، ثم تحدث بعد ذلك عن البلدان بادئًا حديثه بجزيرة العرب.

اتبع أبو الفدا منهجًا خاصًا به في الحديث عن البلدان، لم يأخذه عن أحد من قبله، يتلخص في الحديث عن أهم أماكن البلد الذي تحدث عنه، ثم ذكر المسافات بين مختلف مدن هذا البلد، ثم يرسم جدولاً يوضح فيه اسم البلد، والمصدر الذي استقى منه معلوماته عن هذه المدينة، ثم ذكر طولها وعرضها، وموقعها في أي إقليم هي، ثم يذكر اسمها مضبوطًا، ثم يستأنف حديثه عن مدن هذا البلد بذكر الأوصاف والأخبار الهامة عن هذه المدينة، ثم بعد ذلك ينتقل إلى بلد آخر ويتحدث عن مدينة مدينة(١٢٠).

ومن الملاحظات الهامة أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، زيادة في الدقة، وحتى تكون أوصافه للبلاد والمدن التي ذكرها في كتاب " تقويم البلدان " صحيحة، استعان في بعض الأحيان ببعض أهل تلك البلاد، مثلما ورد عند حديثه عن جنوة، فيقول أبو الفدا واصفًا جنوة اعتمادًا على مشاهدات بعض أهلها : " وعن بعض أهلها أن جنوة في ذيل جبل عظيم، وهي على حافة البحر، ولها ميناء عليها سور، وهي مدينة كبيرة إلى الغاية، ولها بساتين فيها أنواع الفواكه، ودور أهلها عظيمة، كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتنوا عن عمل سور على جنوة، ولها عيون ماء منها شربهم وشرب بساتينهم "(١٢١).

---

(١١٨) أبو الفدا : تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٦.

- ابن جزله هو يحي بن عباس بن علي بن جزله، كان في أيام الخليفة المقتدر العباسي (٢١٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) من المشهورين في علم الطب، صنف كتاب " تقويم الأبدان " للخليفة المقتدر بأمر الله وكان نصرانيًا وأسلم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. انظر : ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٦٠.

(١١٩) كراشتكوفيسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، ج١، ص٣٩٣.

(١٢٠) انظر أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٥-١٢٢.

(١٢١) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٢٣٥؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤٠٦.

كذلك اعتمد على المشاهدات الحية، في وصفه لطبيعة العمران بمختلف البلدان التي وصفها، ولم يكتف بالنقل عمن سبقه عن الجغرافيين، وخاصة في وصفه لعمارة البلاد، فقد أدرك أبو الفدا إدراكًا تامًا أن يد التعمير تؤدي بالضرورة إلى تغيير صورة البلد وتنقلها من حال إلى حال، لذلك رفض الاعتماد على الصور الوصفية لعمارة البلدان التي رصدها من سبقه من الجغرافيين السابقين.

وسيرًا على ذلك عندما تحدث عن مدينة بَرْدعة، وكانت في القرن الرابع الهجري عاصمة إقليم " آران " المجاور لإقليم أذربيجان[122]، ولذلك جاءت أوصاف ابن حوقل لها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، تنم عما تعج به هذه المدينة من مظاهر الحضارة، على الرغم مما قام به الكُرج من إغارات عليها، إذ يقول عن إحدى مواضعها: " مشتبكة البساتين، والعمارات طيبة المتنزهات، ولها فواكه كثيرة وغلات خطيرة، ومتاجر عظيمة "[123].

غير أن أبي الفدا لم يقبل أن ينقل هذه الأوصاف عن ابن حوقل، لعلمه عما حدث من تطورات عمرانية لمدينة بُرْدَعة في عصره، وفي ذلك يقول : " هذا لما كانت بردعة في زمان ابن حوقل فإنه متقدم التاريخ .. وأما في زماننا فأخبرني من رآها فقال : خربت ولم يبق منها معمورًا إلا دور المعرة في القدر .. "[124].

هذا مع ملاحظة أن أبي الفدا تعمد أن ينقل وصفه عن بُرْدَعة من أحد شهود العيان بقوله : " أخبرني من رآها "، وهو في نفس الوقت لم يقبل وصف ابن حوقل، حيث أنه متقدم وفي زمن غير زمنه. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على منهج أبو الفدا القائم على تحري الدقة.

وعلى هذا النحو فإن كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل؛ يعتبر من أهم الكتب الجغرافية، لأنه اشتمل على تحديد دقيق للكثير من البلدان، ووصفها بدقة متناهية، كما ذكر أطوالها وعرضها، كل ذلك بصورة مختصرة وغير مطولة، مما جعل الكثير مِمَّن كتب عن البلدان يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ومن الأمثلة على ذلك: فإن أبي العباس أحمد القلقشندي، وهو من الكتاب المشهورين في القرن التاسع الهجري /

([122]) بَرْدَعة : يقول عنها ياقوت الحموي بلدة في أقصى أذربيجان، ولفظ بردعة أصلها فارسي من كلمة بَرْدَة دار، وتعني موضع السبي. انظر : معجم البلدان، نشر : دار صادر، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

([123]) ابن حوقل : صورة الأرض، نشر مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٩٠.

– الكُرج : سكن الكُرج كرجستان وعاصمتها تفليس، وتقع بين بلاد الروم وأرمينية، وهم شعب دان بالمسيحية على المذهب الملكاني، ويصف القلقشندي بلادهم " أنها بلاد جليلة ومملكتهم فخمة، كانت لهم علاقات ومراسلات مع دولة المماليك ". انظر : صبح الأعشى، ج١، ص٣٦٩، ج٤، ص٣٦٢، ج٨، ص٢٧.

([124]) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٤٦٢.

الخامس عشر الميلادي، اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا عندما تحدث عن البلدان في موسوعته الشهيرة " صبح الأعشى "، وبإحصاء عدد الإحالات التي أحالها القلقشندي إلى كتاب " تقويم البلدان " نجدها بلغت مائتين وثمانين إحالة، خلال أجزاءه المختلفة[١٢٥]، مما يؤكد على أهمية كتاب تقويم البلدان في خدمة علم الجغرافيا على مر التاريخ.

وقد امتدح الكثير من الكُتّاب والجغرافيين كتاب تقويم البلدان، فعلى سبيل المثال يقول معاصريه ابن أيبك الصفدي(ت ٧٦٤هـ) وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : " وله كتاب تقويم البلدان، هذّبه وجدوّله وأجاد ما شاء "[١٢٦]، ويقول ابن الوردي: " وله كتاب تقويم البلدان، وهو حسن في بابه "[١٢٧].

ويذكر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن كتاب أبو الفدا " تقويم البلدان " عرفته أوربا مع بداية نهضتها في القرن السادس عشر الميلادي، وترجم إلى اللغة اللاتينية والفرنسية، وكان أساسًا للكثير من الدراسات في علم الجغرافيا في مختلف أنحاء أوربا بعد ذلك[١٢٨].

ومن العرض السابق يتضح لنا أهمية كلٍ من كتاب المختصر في أخبار البشر، وكتاب تقويم البلدان، لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل، حيث أصبح لهما دور كبير في خدمة الحضارة الإنسانية على مر العصور[١٢٩]، كما أن شخصية عماد الدين هي الأخرى، بما تمتع به من خُلق طيب وحب وتقدير للعلم والعلماء، وعدل وإخلاص لأهل مملكته، وإخلاص وتفانٍ في خدمة مليكه وسلطانه "السلطان الناصر محمد"، كل ذلك جعله نبراسًا لمن أتى بعده من الملوك والحكام، لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا: أنه لم يتول حكم العالم الإسلامي بعد الخليفة المأمون العباسي أفضل منه[١٣٠].

وفي ٢٣ شهر المحرم عام ٧٣٢هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٣٣١م، وافى الأجل الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم حماة فجأة، أثناء وجوده بمملكته حماة[١٣١]، فحزن عليه السلطان الناصر محمد حزنًا شديدًا، وعلى الرغم من تطلع العديد من أمراء المماليك لتولي حكم حماة، إلا أن السلطان الناصر، ونتيجة حُبه لأبي الفدا، آثر أن يولي ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن إسماعيل - حكم حماة، وأصدر في شهر ربيع الآخر من نفس

---

(١٢٥) محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٠م، ص٦٤٠-٦٤١.
(١٢٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.
(١٢٧) تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٢٨) تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٤.
(١٢٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، بيروت ١٩٩٣م، ص٤٠-٤٢.
(١٣٠) ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٣١) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٢؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص٩٩.

العام تقليدًا بذلك[١٣٢]. ويعلق ابن أيبك الدواداري على ذلك بقوله: " وحضر ولده ناصر الدين محمد بن الملك عماد الدين وحصل له من الجبر والصدقة ما هو فوق ما كان في أمله "[١٣٣]. وهذا بالطبع رد من السلطان الناصر محمد، لما كان يكنه لأبيه عماد الدين من محبة وإعزاز.

وقد حفظ القلقشندي نص هذا التقليد، وهو يوضح مدى اعتزاز السلطان الناصر محمد بصداقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ومما جاء في هذا التقليد: "فوجدنا من الحُزن عليه ما أبكى كل سيف دمًا، وأن كل رمح يقرع سنه ندمًا، وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك "[١٣٤].

وهنا يؤكد أن الناصر محمد كان يعتبر عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أخًا له أو أعز، وبالفعل كان يكاتبه كما أشار الصفدي بكلمات " أخوه محمد بن قلاوون"[١٣٥].

وقد دُفن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في المقبرة التي أعدها لنفسه عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، أي قبل وفاته بخمسة أعوام، وذلك قرب مسجد " الحيايا " بمدينة حماة، الذي بناه أيضًا في ذلك التاريخ، ومازال هذا المسجد وتلك المقبرة حتى يومنا هذا موجودة بحماة[١٣٦].

وهكذا كان حال صاحبنا عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: الملك العالم في حياته مكرمًا، وبعد مماته أضاء الطريق بمؤلفاته أمام الباحثين والمؤرخين والجغرافيين، جعلها الله في ميزان حسناته، ورحمه الله رحمة واسعة.

---

(١٣٢) الذهبي : ذيول العبر، ج٤، ص٩١؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢.
(١٣٣) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٤-٣٦٥.
(١٣٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٥.
(١٣٥) فوات الوفيات، ج٩، ص١٠٤.
(١٣٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص٣٩١.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأخوة : محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ) :
  - معالم القربة في أحكام الحسبة، تصحيح روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٧م.
- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ) :
  - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م.
- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) :
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م.
- ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٩٣٠هـ) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر :
    - الجزء السابع، المعروف باسم : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠م.
    - الجزء الثامن، المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
    - الجزء التاسع، المعروف باسم : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة ٢٠٠١م.
- ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م.
  - الوافي بالوفيات، تحقيق : أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
  - المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٩م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م.
- ابن الأثير : علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ) :
  - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- ابن الجزري : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٨هـ) :
  - تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م.

- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

- الحنبلي : أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ) :
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م.
- صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.

- خواند مير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
- دستور الوزراء، تحقيق: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.

- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ) :
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٣١٠هـ.
- النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٩م.

- الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت ١٩٨٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.

- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير (ت ٧١٨هـ) :
- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.

- ابن سباط : حمزة بن أحمد (ت بعد ٩٢٦هـ) :
- صدق الأخبار المعروف باسم: تاريخ ابن سباط، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٣م.

- سبط بن الجوزي : شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ) :
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م.

- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) :
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م.

- السمحاوي : شمس الدين أحمد (ت ٨٦٨هـ) :
- الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة ٢٠٠٩م.

- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :

- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.

- ابو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) :
  - تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم: الذيل على الروضتين، نشر عزت العطار الحسيني، بيروت ١٩٤٧م.
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ) :
  - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروف باسم: سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.
- الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) :
  - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع هوامشه: محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م.
- ابن عريشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ) :
  - عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨١م.
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) :
  - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت.
- العماد الكاتب الأصفهاني : أبو عبدالله محمد (ت ٥٩٧هـ) :
  - الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العمري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ) :
  - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م.
- ابن العميد : الشيخ جرجس (ت ٦٧٢هـ) :
  - أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن Cloud Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Paris 1955-1957.

- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :
  - تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :
  - كتاب الحوادث، المعروف باسم: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م. [يتشكك محقق الكتاب في نسبته لابن الفوطي].
- ابن قاضي شهبة : أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ) :
  - تاريخه، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م.
- القرماني : أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩م) :
  - أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.

– محمد تقي الدين شاهنشاه : محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ) :
- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م.

– المرتضى الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ) :
- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م.

– مفضل بن أبي الفضائل : (توفي بعد عام ٧٥٩هـ) :
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر Blochet في : Patrologia Orientales, Paris 1920, Tom 14.

– المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٧٠هـ.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.

– النعيمي : عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ) :
- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م.

– النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٣هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب :
  - الجزء ٣١، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
  - الجزء ٣٢، تحقيق: فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م.

– ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :
  - الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م.
  - الجزء الخامس، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.

– ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ) :
- تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم : تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.

– ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
- معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م.
- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.

– اليونيني : أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) :
- ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٧١-٦٧٧)، نشر وزارة التحقيقات، حيدر آباد – الهند ١٩٦٠م.

- ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ)، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثانيا : المراجـــع :

- أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م.
- أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
- آمال حامد زيان :

The role of Endowments to The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, International Research Journal of social Sciences, vol I, September 2012.

- حامد زيان :
  - الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م.
  - المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.
  - علم التاريخ، القاهرة د.ت.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م.
- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، القاهرة ١٩٧٠م.
- شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت ١٩٩٣م.
- صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م.
- عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
- محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م.
- المعجم الوسيط : نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.
- الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م.
- وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م.

التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس المملوكية في ضوء وثائق الحرم القدسي*

د. محمد نصر عبد الرحمن
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس

تعد وثائق الحرم القدسي الشريف[١] واحدة من أهم مصادرنا عن تاريخ مدينة القدس خلال العصر المملوكي ، لأنها تعتبر شواهد حية تتعلق بشئون سكان هذه المدينة من مسلمين وأهل ذمة، وهي بذلك تغطى حقبة تاريخية هامة من تاريخ هذه المدينة. وتكتسب أهميتها من أن الوثائق الخاصة بمدينة القدس خلال العصر المملوكي قليلة؛ فوثائق دير الفرنسيسكان قليلة ومحدودة، وتتناول العلاقة بين السلطة المملوكية

(*) ألقيت المسودة الأولى لهذا البحث في المؤتمر الدولي: (دراسة الوثائق الشرعية: المقاربات الحديثة المتعلقة بعلم البرديات والوثائق العربية) ، الذي عقد بكلية فرنسا بباريس- فرنسا عام ٢٠١٣:

Colloque international : « L'étude des documents légaux : nouvelles approches de la papyrologie et de la diplomatique arabes », Collège de France, Paris (France) - 2013.

(١) هي مجموعة من الوثائق الخاصة بمدينة القدس في العصر المملوكي، عثرت عليها نائبة مدير المتحف الاسلامي بالقدس "أمل أبو الحاج" في أحد خزائنه في الفترة بين عامي ١٩٧٤ – ١٩٧٦م ، وهي حوالي ٩٠٠ وثيقة تغطى الفترة من ٦٠٤هـ / ١٢٠٤م إلى ٨٦٦هـ / ١٤٦٧م . انظر: محمد عيسى صالحية ،" من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية "، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٩؛

Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Ḥaram al- Šarīf ", *Arabica* 25 (1979), pp.282-91; Little, D., "The Significance of the Ḥaram Documents for the Study of Medieval Islamic History," *Der Islam* 57 (1980), pp.189-217.

وتجدر الإشارة إلى أن العدد الإجمالي لهذه الوثائق مصور على ميكروفيلم توجد منه حالياً أربع نسخ: نسخة في المتحف الإسلامي في القدس ، ونسخة أخرى لدى مكتبة الجامعة الأردنية ، ونسخة ثالثة لدى معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجل McGill بكندا ، والنسخة الرابعة بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس ، انظر: على السيد على ، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي ، مجلة الدرعية ، العدد ٦-٧ ، ١٩٩٩ ، ص ٣٤٩.

والمسيحيين اللاتين ، كما أن سجلات محكمة القدس الشرعية، التي وصلت إلينا، ترجع للعصر العثماني ولا تغطى عصر المماليك[٢].

وتغطى هذه الوثائق العديد من الموضوعات الخاصة بسكان القدس خلال هذا العصر[٣]. وسوف تتناول هذه الدراسة أحد هذه الموضوعات وهو: التعاملات القضائية لأهل الذمة. وبرغم أن هناك دراسة سابقة، قام بها لتل Little، عن اليهود في القدس من خلال هذه الوثائق[٤]، إلا أنها كما يظهر من عنوانها ركزت على اليهود فقط ، وتحديداً نشر الوثائق الخاصة بهم، وإثبات تواجدهم في القدس خلال تلك الفترة. ولن تهتم دراستنا بتناول طبيعة إجراءات التقاضي في الحالات التي سنتناولها ، فهو أمر تناولته الدراسات التي قام بها كريستيان موللر Christian Müller عن القضاء وإجراءاته[٥]، ولكن ستركز على رصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك ، وذلك من خلال التعاملات

---

(٣) كامل جميل العسلي ، "وثائق مقدسية تاريخية" ، المجلد الأول ، عمان ١٩٨٣، ص٥١.

(١) وقد قام دونالد لتل Donald P. Little بتصنيف هذه الوثائق وترتيبها ، وعمل وصف لها في كتابه:
Little, D., *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Ḥaram a Šarīf in Jerusalem* (Beirut, 1984).

(٢) انظر:
Little, D., "Ḥaram documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.

(٣) انظر على سبيل المثال :
Müller,C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Ḥaram Documents", *MSR* 12(2008),pp.173-191; idem, Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlūkischen Dokumente des Ḥaram Šarīf. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.

القضائية لأهل الذمة في القدس في ضوء هذه الوثائق. كما سنقوم بنشر وثيقة من وثائق الحرم القدسي المتعلقة بأهل الذمة لم تنشر من قبل[٦].

والمعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، من خلال هذه الوثائق، متنوعة، وتشمل: حالات حصر أعيان بغرض الإرث، وحصر موجودات، وعقود بيع، وعقود زواج وطلاق ، وبعض الشكاوى الخاصة. وهى بذلك تغطى جانبا كبيرا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الذمة في القدس خلال تلك الفترة ، وتوضح لنا إلى أي مدى كان تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. ومن المعروف أن اليهود والمسيحيين شاركوا المسلمين في القدس حياتهم ، سواء من حيث العادات والتقاليد، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي.

ومن خلال هذه المعاملات القضائية؛ يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين وأحكام الشريعة الإسلامية بشكل عادى، دون الشكوى منها غالباً ، ونحن نعلم أن أهل الذمة، من اليهود والمسيحيين، خضعوا لأحكام الشريعة الإسلامية فيما يخص نظام الميراث، منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، فصاروا يقسمون مواريثهم وفق التشريع الإسلامي[٧]. ولا يبدو الأمر نوعاً من فرض الشريعة الإسلامية على أهل الذمة، بقدر ماهو محاولة لحل بعض المشكلات الخاصة بالميراث بينهم، حيث أن الكتاب المقدس لا يقدم حلولاً كافية لمثل هذه الأمور[٨].

---

(٤) يسعدنى أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للبروفيسور "كريستيان موللر" مسئول القسم العربي بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس ، على منحى صورا من هذه الوثائق من المجموعة الميكروفيلمية الخاصة بالمعهد ، وتصريحه لى بنشرها.

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٤ ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص٢٩٣-٢٩٤ ؛ سيدة الكاشف ، مصر الإسلامية وأهل الذمة ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص١٢٥.

(٧) يخلو العهد الجديد من أية إشارة عن طريقة تقسيم الميراث، أما العهد القديم فالأيات الخاصة بالميراث والواردة فى سفرى العدد والتثنية قليلة وغير محددة لنصيب كل فرد ، وتحجب الميراث عن البنت فى حالة وجود وريث ذكر ، كما تعطي الحق للابن البكر فى نصيب مضاعف من الميراث. انظر : سفر العدد ٢٧ / ٨ : ١١ ، سفر التثنية ٢١ / ١٥ : ١٧.

وقد سار أهل الذمة في القدس على نفس المنوال من الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في تقسيم إرثهم ، ومن ذلك ما جاء بالوثيقة رقم (٥٥٠) بتاريخ ٢ جمادى الثاني ٧٩٦هـ/ ٤ ابريل ١٣٩٤م ، وموضوعها حصر إرث[٩]، وهي خاصة بتركة رجل مسيحي من سكان القدس، يدعى يوسف بن سعد بن جرجس البنا ، وكان يسكن داراً بحارة صهيون بالقدس، والوثيقة خاصة بتحديد ورثة الشخص المذكور ، وبعد أن تم تحديد التركة من قبل بيت المال ، حدد فيها يوسف من سيرثه وهم : زوجته ستيتة بنت سمعان النصرانية ، وابن عميه الغائبين سلمان وسالم. وتمت الوثيقة في حضور وكيل بيت المال، وبتصريح من قاضي القدس.

وتبدو تلك الوثيقة مشابهة لوثائق الإرث الإسلامية ، وعدم تحديد نصيب كل فرد من قيمة التركة، مع وجود وكيل بيت المال بالقدس، يوحي بأن تقسيم التركة سوف يكون وفقاً للشريعة الإسلامية، لأنها محددة ومعروفة للجميع ، مع ذهاب جزء منها لبيت المال، لأن الورثة وفقا للشريعة الإسلامية لا يستحقون الميراث كله.

وكانت تركة من يموت من أهل الذمة دون وريث؛ ترد على أهل ملته، منذ أمر بذلك الخليفة العباسي المقتدر بالله عام ٣١١هـ / ٩٢٣م[١٠] ، لكن الأمر تبدل خلال عصر المماليك وتم إدراجهم ضمن ديوان المواريث الحشرية [١١]، وذلك بعد المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين، وضمهم إلى هذا الديوان ، حيث نص المرسوم على: " أن كل

---

(٩) انظر وصف هذه الوثيقة في:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*,p.141.

(١٠) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق: إبراهيم الإبياري ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٤٨.

(١١) كان هذا الديوان مخصصاً للأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللقطة ، ومال من يموت وليس له وارث ، أو إذا ترك المتوفي وارثاً لا يستحق كل الميراث حسب الشرع. انظر: ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص٣١٩ ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص١٤٧.

من مات من اليهود والنصارى والسامرة ، الذكور والإناث منهم ، يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها ، وسائر البلاد الإسلامية المحروسة ، إلى أن تثبت ورثته ما يستحقونه من ميراثه بمقتضى الشرع الشريف ، وإذا أثبتوا ما يستحقونه يعطونه بمقتضاه ، ويحمل ما فضل بعد ذلك لبيت المال المعمور ، ومن مات منهم ولا وارث له يستوعب إرثه ، حمل موجودة لبيت المال المعمور ، ويجرون في الحوطة على موتاهم من دواوين المواريث، ووكلاء بيت المال المعمور، مجرى من يموت من المسلمين إلى أن تتبين مواريثهم "[٣].

وتؤكد الوثيقة رقم (٣٣٠) ، بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م على هذا الأمر ، حيث تذكر أن أحد المسيحيين ويدعى يعقوب النصراني؛ قد توفى دون أن يكون له وريث ، وترك داراً بحارة النصارى بالقدس ، وقد آلت ملكية هذه الدار لبيت المال، بعد توثيق الأمر لدى القاضي شرف الدين الشافعي. وسوف نقوم بنشر هذه الوثيقة والتعليق عليها بالتفصيل لمزيد من الإيضاح حول طبيعة هذا الأمر.

(الوصف الشكلي للوثيقة)

- رقم الوثيقة: ٣٣٠
- مصدر الوثيقة: صورة ميكروفيلم بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس عن النسخة الأصلية بمتحف الإسلامي في القدس.
- مادة الوثيقة: الورق ومكتوبة بالخط العربي.
- أبعاد الوثيقة: ٢٨.٢× ٢٩.٣ سم.
- حالة الوثيقة: الوثيقة بحالة جيدة.

(الوصف الموضوعي)

- التاريخ: ٧٩٥هـ/١٣٩٣م.

[٣] القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج١٣ ، القاهرة ١٩١٨ ، ص٣٨٤-٣٨٥.

- موضوع الوثيقة: الوثيقة مزدوجة ، تحمل على وجهها شهادة بنقل ملكية متوفى إلى بيت المال ، وعلى ظهرها إشهاد بصحة الشهادة الموجودة على الوجه.

(الوجه)[1]

- بتاريخ: العشر الأول من شعبان ٧٩٥هـ/١٢-٢١ يونيه ١٣٩٣م.
- موضوعها: شهادة بنقل ملكية متوفى.
- يوجد بأعلى الوثيقة علامة للقاضي ، وتسعة أسطر هي نص الوثيقة ، وشهادة سبعة شهود بجانب توقيعين للقاضي في الحاشية اليمنى للوثيقة.

(الظهر)[2]

- بتاريخ: ٢٢ صفر سنة ٧٩٦هـ/٢٧ ديسمبر ١٣٩٣م.
- موضوعها: إشهاد من القاضي بصحة الشهادة.
- يوجد بأعلى الوثيقة من اليسار علامة للقاضي، وعبارة خاصة بالمحضر أعلى اليمين، وثمانية أسطر هي نص الوثيقة، وشهادة ثلاثة شهود.

(نص الوثيقة)

(الوجه)

(الرأس)

الحمد لله وأسأله التوفيق

(الحاشية اليمنى)

ليشهد بثبوته، والله المستعان، المولى الشيخ شرف الدين

(النص الرئيسي)

١ - بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) انظر اللوحة رقم: (١).

(٢) انظر اللوحة رقم: (٢).

٢- شهد ووضع خطه آخره ومن يكتب عنه بإذنه وهم من أهل العلم والخبرة التامة النافية للجهالة بما يشهدون من شهادة

٣- هم بها عالمون ولها محققون لا يشكون في شأ منها ولا يرتابون أنهم يعرفون جميع الدار الكائنة بالقدس الشريف بحارة

٤- النصارى[١٥] بحارة صهيون[١٦] المشتملة على سفل وعلو ومنافع ومرافق وحدها بكمالها من القبلة حاكورة[١٧] السدرة بيد ورثة المرحوم صارم

٥- الدين الهدباني وتمامه حانوت معد للنسخ بيد الورثة المذكورين ومن الشرق الدرب السالك وفيه بابها ومن الشمال ورثة شمويل اليهودي

٦- ومن الغرب الزدق[١٨] ملكا من أملاك بيت المال المعمور بالقدس الشريف بحكم أنها كانت ملكا ليعقوب الرهاوى النصراني المالك قبل تاريخه عن غير وارث

٧- شرعي سوى بيت المال المعمور بالقدس الشريف علم شهوده ذلك وحققوه يقينا وسطر ذلك حسب الاذن الكريم العالي

٨- سيدنا ومولانا قاضى المسلمين شيخ الشيوخ أبى الروح عيسى الشرفي الحاكم الشافعي الحاكم بالقدس الشريف وأعمالها ومضافاتها أدام الله تعالى

٩- تأييده وأجزل من فضله مزيده بتاريخ العشر الأول من شهر شعبان المكرم سنة خمس وتسعين وسبعمائة

(أ)

١٠- شهد بمضمونه الحاج

---

(١) كانت تقع فى الربع الغربى لكنيسة القيامة ، انظر: مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج٢ ، النجف ١٩٦٦ ، ص٥٣.

(٢) كانت تقع في الجهة الجنوبية من القدس. انظر: مجير الدين ، المصدر نفسه ، ص١١١.

(٣) هى أرض تحبس لزرع الأشجار قرب الدور ، والمقصود بها هنا الفناء الخلفى للبيت. انظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٤ ، القاهرة ٢٠٠٤ ، ص١٨٩.

(٤) يقصد بالزدق العشور السنوية التى كانت تدفعها الابراشيات لبطريرك القدس ، وربما يقصد بها هنا المبنى المخصص لذلك.

١١- على بن عبد الكريم عُرف بالبتبرى

١٢- كتبه عنه بإذنه وحضوره

١٣- شهد عندي

(ب)

١٠- شهد بمضمونه

١١- عمر بن يحيى بن حص المالكي

١٢- وكتب عنه بإذنه

١٣- شهد عندي

(ج)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كتبه على بن داود بن محمد

١٢- شهد

(د)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كتبه صالح بن عثمان

١٢- شهد عندي

(هـ)

١٣- شهد بمضمونه

١٤- على بن حسن بن سعيد بن يحيى

١٥- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٦- شهد

(ى)

١٦- شهد بمضمونه

١٧- أحمد عطاء الله المقدسي

١٨- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٩- شهد عندي

(الظهر)

(الرأس)

(اليمين)

١- ---------

٢- محضر

٣- تركة يعقوب الرهاوى

(اليسار)

١- أشهد بصحته

(النص الرئيسى)

١- الحمد لله تعالى اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وسلم

٢- أشهدني سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى قاضى المسلمين شرف الدين صدر المدرسين مفتى المسلمين قدوة العارفين مربى المربين شيخ الشيوخ أبو الروح عيسى بن سيدنا

٣- العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ برهام العالم العلامة جمال الدين مربى المربين شيخ الشيوخ أبى الجود غانم الأنصاري الخزرجى الشافعي الحاكم بالقدس الشريف

٤- وأعمالها بالولاية الصحيحة الشرعية وشيخ الشيوخ وناظر الأوقاف المبرورة أدام الله تعالى تأييده وأجزل في فضله مزيده على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى

٥- وهو في مجلس حكمه ومحل ولايته نافذ القضاء والحكم ماضيهما أنه ثبت عنده وصح رأيه بعد تقدم الدعوة الشرعية المسموعة

٦- وما ترتب عليها شرعاً شهادة من أعلمهم ....عنهم شهادتهم آخر ذيل المسطور باطنه عرفهم وقبل شهادتهم مضمون المحضر المسطور باطنه

٧- على الوجه المقر المشروح باطنه حسبما قامت به البينة باطناً ثبوتاً شرعياً معتبراً مرضياً مستوفياً شرايط الشرعية

٨- وواجباته المرعية وأعتبار ما يجب اعتباره شرعاً وشهد على ذلك في الثاني والعشرين من صفر الميمون سنة ست وتسعين وسبعمائة

٩- وكتب

١٠- محمد بن أحمد البرلسى

١١- كذلك اشهدنى لطف الله لي وله فشهدت على ذلك في تاريخه كتب عبد الله بن سليمان المالكي

١٢- كذلك أشهدني سيدنا الحاكم المشار إليه أعلاه أيده الله تعالى فشهدت على ذلك

١٣- كتب ----------

(التعليق)

بوجه عام تؤكد هذه الوثيقة على تطبيق المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين وضمهم لهذا لديوان المواريث الحشرية ، وأن من كان يموت من أهل الذمة بدون وريث ، يتم ضم تركته إلى بيت المال بالقدس. كما يؤكد الإشهاد الملحق بها على حرص السلطة المملوكية على استيفاء كافة الإجراءات القانونية المتبعة ، حتى تضمن إقرار العدل مع كافة الرعية من المسلمين أو أهل الذمة.

(الوجه)

(الرأس والحاشية)

تبدأ الوثيقة بعبارة (الحمد لله وأسأله التوفيق)[١] ، وهى تعرف بعلامة القاضي التي كان يكتبها بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة ، وكانت تكتب بخط كبير إلى يسار البسملة ، وكان لكل قاض علامة أو تأشيرة يعرف بها ولا يغيرها ، وهى تبدأ ب " الحمد لله " أو " أحمد الله

وفى الحاشية اليمنى من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (ليشهد بثبوته والله المستعان) وهى من علامات الدعوى إذا قامت البينة عليها[٢]، وجزء من اسمه وهو شرف الدين. وهذا جزء من اسم القاضي شرف الدين عيسى بن جمال الدين غانم بن شرف الدين عيسى (ت٧٩٧هـ/١٣٩٥م) ، وقد عمل نائباً لقاضى نابلس في الفترة من ٧٨١-٧٨٥هـ / ١٣٨٠-١٣٨٣م ، ثم قاضياً للقدس عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م ، ثم قاضياً للقضاة في الفترة من ٧٩٥-٧٩٧هـ/١٣٩٢-١٣٩٥م[٤].

(النص)

---

(١) وهذه العبارة إحدى العلامات المشهورة لهذا القاضى ، وظهرت فى عدد من الوثائق المنشورة أو التى لم تنشر بعد ، راجع نماذج لهذه العلامة فى بعض الوثائق عند :

Little, D.,"Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp.17-28; idem," Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem ", *MSR* 2(1998), p.105.

(٢) الأسيوطى ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، ج٢ ، نشر: محمد سرور الصبان ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص٣٧٦ ؛ العسلى ، وثائق مقدسية ، ج٢ ، ص٢٢. وللمزيد من التفاصيل عن استخدام القضاة للعلامات فى العصر المملوكى المتأخر وبداية العصر العثمانى انظر:

Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

(٣) الأسيوطى ، المصدر نفسه ، ص٣٧٦.

(٤) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧؛

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.9-10.

١- يبدأ النص هنا بداية تقليدية بالبسملة كما العادة في معظم الكتابات المملوكية[٢٣] ووثائق الحرم القدسي ، وإن كان بعضها لا يبدأ بالبسملة[٢٤].

٢- يتحدث هذا السطر عن طبيعة ثقافة الشهود ، ونعرف منه أن بعضهم كان يجيد الكتابة وقد وصفهم (وضع خطه آخره) ، أي كتبوا شهادتهم على الوثيقة بأنفسهم ، والبعض الآخر لم يكن يجيد الكتابه (يكتب عنه بإذنه) ، لذلك قام كاتب الوثيقة بالكتابة نيابة عنه، مع الحرص على إثبات أن جميع الشهود يدركون قيمة ومعنى شهادتهم.

٣- هنا يتم التأكيد على وعى الشهود بقيمة شهادتهم ومعرفتهم الكاملة بالدار التي سوف تؤول ملكيتها لبيت المال.

٤-٥: في هذين السطرين يتم تحديد موضع البيت بدقة ، وحدوده من الجهات الأربع ، وهو أمر معتاد في الوثائق الخاصة ببيع وشراء وملكية العقارات والأراضي ، وذلك من أجل مراعاة حقوق الملاك أو المستأجرين[٢٥]. وقد ذكر هنا أن هذه الدار بحارة النصارى ، وقد يبدو من الإسم أن هذه المنطقة خاصة بسكنى المسيحيين فقط ، لكن الواقع أن المسلمين كان لهم في هذه الحارة بعض البيوت كما ظهر لنا في بعض وثائق الحرم القدسي[٢٦].

٦- نص هذا السطر صراحة على انتقال ملكية البيت من يعقوب النصراني إلى بيت المال لأنه مات دون وريث ، وهذا يؤكد على ما سبق ذكره من معاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين في شئون المواريث الحشرية.

---

(٢) الأسيوطى ، جواهر العقود ، ج١ ، ص٢٥.

(٣) انظر على سبيل المثال الوثائق رقم : ٤٦٧ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤.

(٤) ابن أبي الدم الحموى ، أدب القاضى ، تحقيق : محى الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤ ، ص٥٤٥.

(٥) راجع هذه الوثائق فى : كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية ، ج١ ، ص٢٧٦-٢٧٨.

٧- يمثل هذا السطر التنظير القانوني للشهادة ، حيث يضم المالك الجديد وهو بيت المال ، والشهود المقرين بصحة نقل الملكية ، وإذن القاضي ، مما يمنح الشهادة الشرعية القانونية.

٨- عبارة " سيدنا ومولانا " المذكورة هنا كانت تطلق على قاضي قضاة الشافعية ، حيث كان قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية ورفقته الثلاثة يطلق عليهم: " سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام ، العالم العلامة .... ، ويكتب لقضاة القضاة الأربع بالشام ما يكتب للأربعة بمصر"[٢٧]. أما عبارة شيخ الشيوخ فكانت تطلق عادة على شيخ الصوفية ، أو المتولي الإشراف على الخانقاوات الصوفية[٢٨] ، ويبدو أنه حمل هذا اللقب لأنه كان يشرف على الخانقاه الصلاحية[٢٩] بجانب عمله بالقضاء[٣٠].

٩- نلاحظ هنا أن الكاتب لم يحدد يوماً بعينه تمت فيه الشهادة ، بل حدد التاريخ بالعشر الأول من شهر شعبان ، ومصطلح (الأول ، الأوسط ، الأخر) تعبير دارج في المصادر التاريخية المملوكية ، ونجده في بعض وثائق الحرم القدسي ، وهو عادة يستخدم حينما لايعرف اليوم الذي تم فيه الحدث تحديداً ، لكن ربما هنا نتوقع أن تجهيز هذه الشهادة استغرق أكثر من يوم ، ربما لحضور الشهود أو غيرها من الإجراءات ، لذلك فضل الكاتب إجمال الفترة كلها دون تحديد يوم بعينه.

١٠-١٩: وقد ذيل العقد بتوقيع سبعة من الشهود ، وقع اثنان منهما بخطهما لأنهما يجيدا الكتابة ، بينما وقع الكاتب عن الخمسة الآخرين لعدم اجادتهما الكتابة بعد أخذ إذنهم في ذلك. وهي إحدى شروط صحة الشهادة ، حيث يقول الماوردي: " وعلى

---

(١) انظر: الأسيوطي ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٥٩٣-٥٩٤.

(٢) انظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص٥٧.

(٣) هو بناء أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بمدينة القدس عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م ، وكان شيخ الخانقاه يعين من السلطان بمرسوم ، ويكون وراثياً في عائلته. انظر: القلقشندي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٠٥-١٠٦.

(٤) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧.

الشاهدين من الاحتياط في الشهادة به أن يوقعا فيه خطهما ويختماه بختمهما ، ليكون ذلك علامة لهما في نفى الارتياب عنهما ، ويكون ختمهما في داخل الكتاب وختم القاضي على ظهره معطوفا. فإن اقتصر الشاهدان على الخط دون الختم جاز ذلك .. "[1]. ونلاحظ بعد كتابة الشهود السبعة كلمة شهد عند ثلاثة منهم ، وعبارة شهد عندي عند أربعة منهم ، وهذه العبارة تتعلق بطبيعة الشهود ، وهل هم شهود عدول[2] أم لا ، فإذا كان القاضي يعرف الشاهد وتم تزكيته عنده كتب (شهد عندي بذلك) ، أما الشاهد الذي لم يزكى عنده فيكتب شهد فقط[3]. وعليه فهناك أربعة من الشهود عدول تم تزكيتهم لدى القاضي وإن اكتفى هنا معهم بعبارة (شهد عندي) ، والثلاثة الآخرين لم تتم تزكيتهم عند القاضي. وكان على القاضي ألا يسجل حكمه إلا بحضور شاهدي عدل على أقل تقدير ليشهدوا ويكتبوا خطوطهم بالشهادة[4].

(الظهر)

(الرأس)

نجد في الحاشية اليمنى عبارة تشير إلى طبيعة الوثيقة ، وأنها استكمال لمحضر تركة المتوفى ، وفى الحاشية اليسر من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (أشهد بصحته) وهى من علامات الدعوى إذا قامت البينة عليها كما سبق أن ذكرنا.

(النص)

١- البداية التقليدية للوثائق وهى ذكر عبارات الحمد والصلاة على الرسول ﷺ ، وهى بداية مشتركة في أغلب الوثائق.

---

(١) الماوردى ، الحاوى الكبير فى فقه مذهب الامام الشافعى ، ج١٦ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص٢٢٨.

(٢) شاهد العدل: هى وظيفة قضائية يتولاها طائفة من الشهود خصوا بالعدالة دون سواهم ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم أو عليهم. انظر: الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص٦٦ ؛ محمد محمد أمين ، الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى ، دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك ، حوليات إسلامية ، العدد ١٨ ، ١٩٨٢ ، ص٥.

(٣) الأسيوطى ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٣٧٢.

(٤) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص٩.

٢- تدل عبارة (أشهدني سيدنا القاضي) على أن الشاهد كبير القدر ، مثل أن يكون قاضياً أو قريباً منه ، لأن الشاهد العادي يكتب (أشهد على المقر)[٣٥]، لكن يبدو أنه كان أكبر قدراً من أصحابه فبدأ الشهادة بنفسه. والعبارة نفسها دلالة على أن القاضي قد طلب منه الشهادة مع استجابة الشاهد لطلبه.

٢-٣: يحتوى هذين السطرين على بعض الألقاب الخاصة بالقاضي شرف الدين ، وكذلك ذكر اسمه واسم أبيه واسم جده ، وذلك حتى تكتمل صورة الإشهاد على الحاكم على طريقة الشاميين ، وهذه الصيغة تدل على أن القاضي هنا لم يكن قاضيا للقضاة بل نائباً فقط، وفقا لصورة الإشهاد التي ذكرها الأسيوطي[٣٦].

٤- يقصد بناظر الأوقاف، الأوقاف الخاصة بالخانقاة الصالحية التي كان يديرها القاضي ، وهي الأوقاف التي خصصها صلاح الدين الأيوبي للإنفاق على الخانقاه[٣٧]. والمبرورة من الألقاب التي كانت تجرى مجرى التفاؤل ، تيمناً بالبر الذي سيناله صاحبها[٣٨] .

٥- يقصد بالدعوة الشرعية المسموعة ، قيام القاضي بالاستماع للدعوى من المشاركين فيها، لأن أول شرط يحتاجه القاضي، فيما يثبته أو يحكم بموجبه أو صحته ، هو تصحيح الدعوى في ذلك كله وسماعها[٣٩].

٦-٨: يذكر القاضي هنا ثقته في شهادة الشهود الواردين في الشهادة السابقة ، كما يؤكد على سلامة كافة الإجراءات المتبعة في الشهادة ، وهو بذلك يحدد للشهود الجدد، على هذا الإشهاد، سلامة الشهادة حتى يضعو شهادتهم دون ريبة أو تخوف.

---

(١) الأسيوطي ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٤٤٦.
(٢) المصدر نفسه ، ص٤٥٢.
(٣) مجير الدين ، الانس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧.
(٤) انظر: القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص١٦٨ ؛ صالحية ، من وثائق الحرم القدسى ، ص٤٤.
(٥) الأسيوطي ، المصدر السابق ، ص٣٧٣.

٩-١١: أسماء الشهود ، ويظهر أولهم صاحب الأهمية، ثم يتبعه الشاهدان الآخران في الإقرار بصحة الإشهاد، من أجل تعزيز صحة الشهادة السابقة.

وتشير الوثائق إلى الحِرص الشديد، من أهل الذمة، عندما يشعرون بمرض قد يخشى منه الموت، على أن يتركوا لنسائهم وبناتهم ، وأمهاتهم وأخواتهم، ما يضمنون لهن به حياة كريمة ، خصوصًا إذا كان الزوج لم ينجب من زوجته ، أو يكون بلا وريث من الأبناء ، وإذا لم يستغرق الورثة الإرث كله؛ فإن بيت المال والمتمثل في ديوان المواريث الحشرية؛ كان سيحصل على نصيب أكبر من التركة ، فكان الرجل منهم إما أن يعمل حصرًا بموجوداته، قبل الوفاة، على يد أحد قُضاة الشرع والشهود ، ويثبت أن تركته مَدينة لزوجته ، وأن لها في ذمته مبلغ كذا، كمؤخر صداق ، أو أن يقوم ببيع كل ممتلكاته لها، أو وقفها عليها ، أو على أخته أو أمه ، أو ابنته أو جاريته.

ومن أمثلة حرص أهل الذمة على ترك وصاياهم الخاصة بالميراث لدى القاضي الشرعي: الوثيقة رقم (٥٠٤) بتاريخ ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، وموضوعها حضر أعيان بقصد الإرث ، فقد جاء فيها ما يلي:

"حصل الوقوف على رجل يُسمّى راشد ابن هارون بن سمعان النصراني الشوبكي ، بدير العامود بالقدس الشريف ، والذي أقرّ أنَّ موجوده ومستحق إرثه زوجته مريم بنت فريج ابن شند ، النصرانية الشوبكية، وبناته ست الأهل ، المرأة الكامل ، وست النظر الرضيعة ، وشقيقه غانم الغائب بالشوبك. وأقرّ أنَّ في ذِمّته صَداق زوجته مريم ، من الذهب سِتّة وثلاثون دينارًا"[١].

وتبدو تلك الوصية مشابهة للوصايا الإسلامية، وعدم تحديد نصيب كل فرد من الوصية؛ يوحي بأنها سوف تكون وفق الشريعة الإسلامية، لأنها معروفة للجميع. وتدل هذه الوثيقة على أمرين : الأول ، ثقة أهل الذمة في السلطة الحاكمة، التي يمثلها

---

(١) صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص١٠٥ ؛
Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.131.

القاضي، في الحفاظ على حقوقهم ، والثاني هو قبول أهل الذمة للشريعة الإسلامية في تنظيم بعض شئون حياتهم ، وخاصة التي لم ترد فيها نصوص في كتبهم المقدسة ، مما يوحى بالثقة المتبادلة بين الطرفين.

كما كان أهل الذمة أحيانا يقدمون طلباً لديوان المواريث الحشرية ، ويقوم أحد رجال الديوان بحصر الممتلكات وتسليمها للمستحقين للإرث. وفى الوثيقة رقم (١٩٧) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣هـ ، وهي تتعلّق بأحد اليهود، نجد عملية حصر لممتلكاته ، ثم تحديد من يستحق ارثه ، حيث جاء فيها ما يلي:

" وُقف على رجل ضعيف يهودي يسمى " اسحق بن شمويل بن يوسف " بحارة اليهود بالقدس الشريف .. ، أقر أنه فرض لزوجته " سمحة ابنة يهودا الإفرنجية " ، ومؤخر صداقها ستين أفلورى ذهب ، ومستحق إرثه زوجته المذكورة ووالدته " دوسا بنت سلتين الإفرنجية "[١].

ولم يقف هذا الأمر على الرجال فقط ، بل شمل النساء أيضاً ، حيث كن يقدمن طلباً أيضاً لحصر تركتهن وتحديد من يرثهن. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٨٤) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهى تتعلق بسيدة مسيحية تدعى " أفروشيا بنت التاج اسحق النصرانية "، وقد حددت فيها تركتها ، وكذلك وريثتها وتدعى " فخر النساء بنت سالم ". وكذلك الوثيقة رقم (٥١١) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهى تتعلق بإمرأة مسيحية تدعى " ستوت بنت أشعيا النصرانية " ، وفيها تحدد هذه المرأة أن ورثتها هما أخويها " يوحنا وفرج الله "[٢].

ولا يبدو ما قام به بعض أهل الذمة، في الوثائق السابقة، غريبا أو شاذاً عن تقاليد المجتمع وقتها ، لأن المسلمين كانوا يقومون به أيضاً لضمان حفظ حقوق أسرهم. ففي الحالة الأولى الخاصة براشد بن هارون ، نجد أنه كان يعلم أن عدم وجود وريث ذكر

---

(١) العسلي ، وثائق مقدسية ، ج٢ ، ص٤٢.

(٢) راجع ملخص هاتين الوثيقتين فى:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.133.

له يعنى أن الثروة كلها لن تؤول لعائلته، بل سيذهب جزء منها لبيت المال ، لذلك حرص على أن يذكر أنه ما زال مديناً لزوجته بصداقها البالغ ٣٦ ديناراً، حتى تحتفظ أسرته بالإرث كاملا ، وظهر ذلك في بداية الوثيقة نفسها، والتي حددت الورثة دون أن تذكر بيت المال من ضمن الورثة ، على الرغم من أن الورثة لا يستحقون الميراث بأكمله. وقد رأينا في وثائق أخرى أن بيت المال كان يتم ذكره حين يكون الورثة لا يستغرقون كل التركة ، كما في الوثيقة رقم (١٦٣) بتاريخ ٧٩٣هـ/١٣٩١م ، الخاصة بحصر أعيان بغرض الإرث ، حيث ذكر بجوار عبارة الوارثون (زوجها ، محمد بن محمد السمنودى ، وبيت المال المعمور)[1].

أما الحالة الثانية فكانت أمراً معتاداً من أجل التسجيل الرسمي للإرث ، حفاظاً على حقوق الورثة، ومنعاً لأي تعدٍ عليها ، ويبدو فيها ثقة أهل الذمة في رجال السلطة القضائية ، ومراعاتهم للحقوق، سواء للمسلمين أو لغيرهم من أهل الذمة ، حتى لو كان الورثة من اليهود الغربيين. ورغم أن لتل[2] افترض أنهم ربما يكونون من زوار القدس، نظراً لأن اسحق لم يكن يملك الدار التي يسكنها ، وكذلك لأن زوجته وأمه كانتا أوربيتين. إلا أن هذا لا يبدو صحيحاً، لأن الوثيقة لم تذكر ذلك صراحة. وقد اعتدنا في وثائق الحرم القدسي أن يذكر بلد الرجال والنساء المذكورين فيها؛ لو كانا من منطقة أخرى غير القدس.

لكن ذلك لم يكن يعنى أن ليس هناك بعض التجاوزات؛ التي وقعت ضد بعض أهل الذمة من جانب موظفي السلطة المملوكية ، ومن ذلك ما ورد في الوثيقة رقم (٣٣٥) بتاريخ ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، وهى عبارة عن تحقيق في شكوى كان قد تقدم بها شيخ

(1) انظر نص هذه الوثيقة فى: صالحية ، من وثائق الحرم القدسى ، ص٨٤.
(2) See: Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.242.

المغاربة في القدس، ويدعى محمد بن عبد الوارث المالكي، إلى نائب السلطنة في دمشق[٤٥]، وهو المسئول عن أمور القدس. وقد ذكر في الشكوى أن أحد اليهود ويدعى إبراهيم الأمتي توفى وترك وصية لأحد أقاربه ، لكن الموصى له كان في السجن ، وهنا قام متولي المدينة[٤٦] بمصادرة أمواله لبيت المال، دون النظر للوصية، ولم يستجب لشكاوى اليهود هناك. وهنا لجأ اليهود إلى أحد كبار المشايخ المسلمين، وهو محمد المالكي ، الذي حاول إثناء الوالي عن قراره لكنه فشل في ذلك، فكتب شكوى إلى نائب السلطنة في دمشق يوضح له ظلم الوالي وتعسفه ، ويطلب منه التدخل وتنفيذ الوصية. وقد استجاب النائب للشكوى وأمر بالتحقيق فيها[٤٧].

ومن خلال تلك الوثيقة يمكننا الوقوف على بعض الملاحظات ؛ أولها أن هذه الوثيقة تؤكد على العلاقة الطيبة بين المسلمين واليهود في القدس ، وهو ما دفع اليهود للتوسط لدى شيخ مسلم لاستعادة حقوق واحد منهم، وترحيب الشيخ بذلك ، وتنفيذ الأمر لكي تعود إليهم حقوقهم. كما تشير إلى حرص السلطات المملوكية على تحقيق العدالة، وحماية حقوق أهل الذمة في أراضيها ، وهو أمر معروف عن المماليك في علاقتهم بأهل الذمة من رعيتهم.

ومن المعاملات القضائية الأخرى الخاصة بأهل الذمة في القدس: حالات الزواج والطلاق أو الخلع[٤٨]. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٠٢) بتاريخ ٧٩٤هـ/١٣٩٢م وهى وثيقة

---

(٣) هو لقب للقائم مقام السلطان المملوكي في عامة أموره أو أغلبها ، وكانت الشام منقسمة إلى عدة نيابات أهمها دمشق ، وكان يقال لنائبها كافل السلطنة. انظر : محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دمشق ١٩٩٠ ، ص١٤٩.

(٤) لقب يطلق على من يسند إليه القيام أو الإشراف على عمل من الأعمال أو من يتقلد منصباً من المناصب أو ولاية من الولايات. انظر: حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج٣ ، دار النهضة العربية ، ص٩٩٦.

(١) انظر نص هذه الوثيقة في : صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص٩٢-٩٣؛

Little, Haram documents related to the Jews,pp.244-245.

(٢) الخُلع في اللغة هو: أن تطلب المرأة من زوجها أن يطلقها مقابل فدية من مالها ، وفي الاصطلاح هو: فرقة بين الزوجين بعوض مقصود لجهة الزوج بلفظ (طلاق) أو (خلع). انظر: شمس الدين

مزدوجة؛ تحمل على وجهها عقد زواج خاص برجل مسلم (عبد الله بن منصور) وامرأة مسيحية (سعيدة بنت تواكيل) يثبت الزواج بينهما، وقيمة الصداق المدفوع من الزوج لزوجته ، وعلى ظهرها عقد الخلع الخاص بهما، بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م. حيث تطلب الزوجة من زوجها الخلع مقابل رد صداقه ، مع قبول الزوج لذلك دون مشاكل. ومن خلال هذه الوثيقة نلاحظ وجود بعض حالات للزواج بين المسلمين وأهل الذمة ، وهو أمر ليس بجديد ، إذ كان أمراً معتاداً في المجتمع الاسلامى ، حيث تُحِل الشريعة الإسلامية زواج المسلم من نساء أهل الكتاب من اليهود والنصارى[٤] ، ويكون للكتابية نفس حقوق المسلمة في النفقة والقسم والطلاق[٥].

كما نلاحظ أن الزواج تم وفق الشريعة الإسلامية وفق المذهب الشافعي ، وهو المذهب الذي كان سائداً وقتها في مصر وبلاد الشام[٦]. وعلى هذا الأساس استغلت الزوجة المسيحية ذلك في طلب الخلع من زوجها، مع رد ما دفعه من صداق لها، وفق الشريعة الإسلامية. ويؤكد ذلك على حالة الانسجام والتعايش مع أهل الذمة في مجتمع القدس الإسلامي.

ولم تقتصر المعاملات القضائية لأهل الذمة على النواحي الاجتماعية فقط ، بل شملت بعض الأحوال الاقتصادية ، مثل: عقود بيع وشراء ، وقروض ، وإقرارات بحظر العمل ببعض الأنشطة الاقتصادية. ومن هذه النماذج الوثيقة رقم (١٥) بتاريخ ٧٤٣هـ/١٣٤٣م[٧]، وهى عقد بيع لدار بحارة النصارى لأحد المسيحيين، ويدعى رزق الله

الأنصارى ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، ج٦ ، دار إحياء التراث العربى ، ١٤١٣هـ ، ص٢٩٣ ؛ المعجم الوسيط ص٢٥٠.

(٣) وذلك وفق قوله تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}. آية (٥)- سورة المائدة ؛ الشافعى ، الأم ، ج٥ ، دار المعرفة ١٩٩٠ ، ص٧.

(٤) الماوردى ، الحاوى الكبير فى فقه مذهب الإمام الشافعى ، ج٩ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص٢٢٠.

(٦) على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٢٢.

(٧) انظر وصف هذه الوثيقة فى:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*,pp.277-278.

بن بولس النصراني ، والبائع هنا هو بيت المال بالقدس، وهو شخص اعتباري، لذلك كان النائب عنه وكيل بيت المال، ويبدو أن هذه الدار كانت مما يؤول لبيت المال من الموتى دون وريث.

ونحن نعلم أن حارة النصارى، برغم اسمها، كان للمسلمين فيها بعض البيوت كما سبق أن ذكرنا ، كما كان للمسلمين أيضاً بعض البيوت في حارة اليهود[3]. وعليه لم يجد بيت المال غضاضة في بيع أحد البيوت التابعة له لبعض أهل الذمة ، ولم يخص المسلمين بها ، مما يوحى بالعدالة في المعاملة من جانب السلطة المملوكية.

ومن الوثائق الأخرى في هذا المجال: الوثيقة رقم (٨٧١) ، بتاريخ ٧١١هـ/١٣١١م[4]، وهى إقرار دين يخص رجلا مسيحيا يدعى بايدوس بن مانويل النصرانى وابنه ايفانوس ، أقر باستلام قرض قيمته ٢١٠٠ دينار ذهبى، من أحد الأمراء الفرس، عن طريق نائب له يبدو أنه كان يتولى شئونه المالية ، وفى الإقرار يلتزم بايدوس بدفع القرض بعد عام من تاريخ الإقرار.

كذلك هناك من ضمن المعاملات القضائية؛ بعض المعاملات التي كانت بمثابة عقوبة للمخالفين من أهل الذمة، حين يخرقون القانون ، ومن ذلك الوثيقة رقم (٦٣٦) ، بتاريخ ٧٩٦هـ/١٣٩٤م[5]، وموضوعها تعهد بعدم مزاولة مهنة الجزارة .. وتنص على تعهد ثلاثة من يهود القدس (هلال بن موسى – زكرى بن باروخ – داود بن اشمويل) بعدم ممارسة مهنة الجزارة، سواء للمسلمين أو غيرهم، نتيجة إخلالهم بشروط الذبح ، وفرض غرامة قدرها ١٠ آلاف درهم في حال مخالفة هذا التعهد.

---

(3) Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.231.

(٤) انظر وصف هذه الوثيقة في:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, pp.380-381.

(٥) انظر وصف هذه الوثيقة في: صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص٧٧.

ونلاحظ على هذه الوثيقة أنها كانت نوعاً من الحسبة ، حيث كان من مهام المحتسب مراقبة الأسواق والحرف المختلفة، لضمان عدم الإخلال بشروط كل حرفة[٥٦]، ويبدو أن المحتسب قد كشف إخلال هؤلاء الجزارين بشروط الذبح، فقرر عقابهم بمنع مزاولة المهنة.

ولا يبدو في الأمر تعسف ضد اليهود، بمنعهم من الذبح للمسلمين، لأن الإسلام لم ينه عن ذلك، لأنه اعتبر أن طعام أهل الكتاب حل للمسلمين[٥٧]. بل يبدو الأمر معاقبة عادية لمخالفة مهنية ، ويبدو أنها تكررت حتى وصلت لدرجة المنع .. ولم يعترض اليهود على ذلك بل اقروا باعتماد العقوبة وتقبلها دون إجبار.

ولم تصلنا من خلال الوثائق الخاصة بأهل الذمة أية إشارات لتدخل رؤساء كل طائفة في أي تعامل قضائي، سواء بشكل رسمي أو شخصي ، باستثناء إشارة واحدة نادرة وردت في الوثيقة رقم (٥٥٤) ، بتاريخ ٧٩٣هـ/١٣٩١م ، وموضوعها حصر إرث لرجل يهودي من سكان القدس يدعى يعقوب بن شمويل ، حيث ورد بهذه الوثيقة أن من بين من حضروا حصر الإرث (زكى اليهودى الرئيس) ، والمقصود بالرئيس هنا هو رئيس اليهود الذي يحكم عليهم ويقضى بينهم وفق شريعتهم[٥٨]، ويسمى في العبرية ناجد ، وهو منصب مشابه لمنصب البطريرك المسيحى[٥٩].

وبرغم أن الوثيقة لم توضح أي دور للرئيس اليهودي في هذا الإجراء، باستثناء حضوره أثناء حصر الإرث الذي كان ربما كان حضوراً عادياً ، إلا أن لتل[٦٠] رأى أن

---

(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص١١٦.

(٣) مصداقاً لقوله تعالى: "وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ"، سورة المائدة – آية ٥".

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٣٨٥.

(2) Bosworthm C., " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria", *IJMES*, 3 (1972),pp.70-71; Goitein, D., " The title and office of Nagid: a re-examina- tio "', *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.

(3) Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.238.

القاضي المسلم ربما قصد حضوره للتأكيد على حسم المسألة، أو أنه سعى لإثبات معرفة الرئيس بسلطة القاضي على هذا الإقرار. ويبدو أن لتل بني افتراضه على أساس تخوف القاضي المسلم من تدخل الرئيس، بعد ذلك، في مسألة الإقرار، ورغبته في إثبات قبوله الرسمي لما جاء في الإقرار، ولكن يبدو هذا الافتراض ضعيفاً ، إذ لم نصادف فيما وصلنا من إقرارات خاصة بأهل الذمة، سواء كانوا يهودا أو مسيحيين، أي إشارة لرئيس أي طائفة منهم ، كما لم تصلنا أي إشارة عن شكوى من تدخل رؤساء الطوائف في المواريث، بعد إقرارها رسمياً لدى القاضي. وأغلب الظن أن الرئيس كان على علاقة شخصية بصاحب الإرث، فكان حضوره أمراً عادياً.

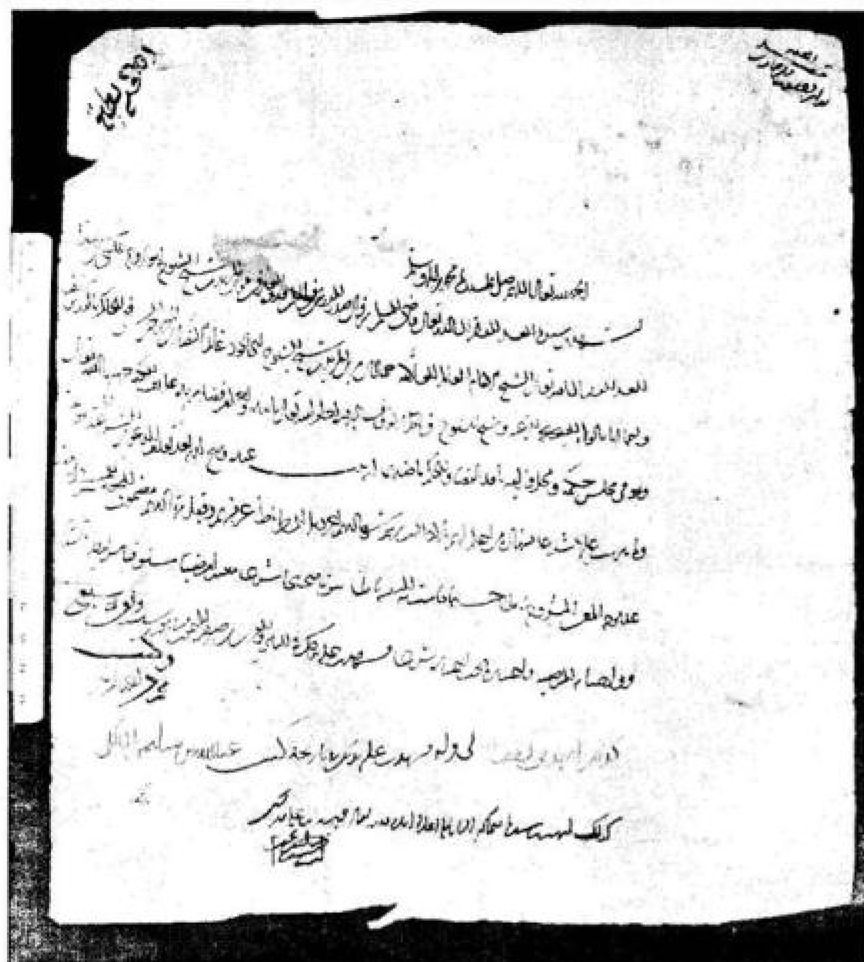
صفوة القول : من خلال التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، في ضوء وثائق الحرم القدسي ، يمكننا أن نرصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك. وقد أوضحت لنا هذه الوثائق مدى تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. حيث شارك اليهود والمسيحيون المسلمين فى القدس حياتهم ، سواء من حيث العادات والتقاليد ، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي. ومن خلال هذه المعاملات القضائية؛ يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين، وأحكام الشريعة الإسلامية، بشكل عادى دون الشكوى منها غالباً.

اللوحـــات

لوحة (١)



لوحة (٢)



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

- أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩.
- الأسيوطي ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، نشر: محمد سرور الصبان، القاهرة ١٩٥٥.
- أنستاس الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩.
- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ' القاهرة ١٩٩٢.
- الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق: إبراهيم الابيارى ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨.
- أبو الحسن الستولى ، البهجة في شرح التحفة ، بيروت ١٤١٢هـ.
- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ،
- ابن أبى الدم الحموي ، أدب القاضي ، تحقيق : محي الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤.
- السخاوى ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام بن حجر ، تحقيق: إبراهيم عبد المجيد، بيروت ١٩٩٩.
- سيدة الكاشف ، مصر الإسلامية وأهل الذمة ، القاهرة ١٩٩٣
- الشافعي، الأم، دار المعرفة ١٩٩٠.
- شمس الدين الأنصاري ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٣هـ.
- عامر الزيبارى ، أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية ، بيروت ١٩٩٧.
- ابن عربي ، أحكام القرآن ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٤٠٨هـ.
- على السيد على، القدس في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦.

---------، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، مجلة الدرعية،العدد٦-٧، ١٩٩٩.

- ابن فرحون ، تبصره الحكام في أصول القضية ومناهج الأحكام ، تحقيق: جمال مرعشلى، الرياض ١٤٢٣هـ.
- ابن قدامة ، المغنى ، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥.
- القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٨.
- كامل جميل العسلي ، "وثائق مقدسية تاريخية" ، عمان ١٩٨٣.
- الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩.

------ ، الحاوى الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، بيروت ١٩٩٩.

- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٤ ، القاهرة ٢٠٠٤.

- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٦.
- محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دمشق ١٩٩٠.
- محمد عمارة ، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ،.
- محمد عيسى صالحية ، " من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية "، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- محمد محمد أمين، الشاهد العدل في القضاء الإسلامي،دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك،حوليات إسلامية،العدد ١٩٨٢،١٨.
- ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣.
- المناوي ، النقود والمكاييل والموازين ، تحقيق: رجاء السامرائي ، بغداد ١٩٨١.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف (ب.ت).
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، بيروت ١٩٧٧.
- ابن يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، م٦ ، العدد ١-٢ ، ١٩٥٨.

ثانياً: المراجع الأوربية:

- ‘Abd ar-Raziq, A., La Femme au temps des Mamlouks en Égypte. Cairo: Institut Francais D’Archeologie Orientale du Caire, 1973.
- Bosworth, C., " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria", *IJMES*, 3 (1972), pp.59-74.
- Little, D.,"The Significance of the Ḥaram Documents for the Study of Medieval Islamic History," *Der Islam* 57 (1980), pp. 189-217.
- -----------, "Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp. 17-28.
- -----------, *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Ḥaram a Šarīf in Jerusalem* (Beirut, 1984).

------------, " Ḥaram documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem ", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.

------------, " Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem ", *MSR* 2(1998),pp.

- Goitein, D., " The title and office of Nagid: a re-examina- tio "', *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.
- Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Ḥaram al- Šarīf " *Arabica* 25 (1979), pp.282-91.
- Lowry, C., Marriage and divorce in late Fourteenth Century Jerusalem, Master diss., (Portland State University) 2007.
- Müller, C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Ḥaram Documents", *MSR* 12 (2008), p.173-191.
------------, Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlūkischen Dokumente des Ḥaram Šarīf. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.
- Rapoport, Y., *Marriage, money and divorce in medieval Islamic society.* Cambridge : Cambridge Univ. Press, 2005.
- Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

سفارات السلام بين دولة المماليك ومغول فارس زمن السلطان المنصور قلاوون

د. أحمد هاشم بدرشيني
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة طيبة المدينة المنورة

منذ مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، شهد العالم الإسلامي هجوماً شرساً قامت به جموع وثنية غفيرة، جاءت من أواسط الصين، وبالتحديد من هضبة منغوليا، هذه الجموع هي التي أطلق عليها المغول أو التتار، واتسمت هذه الهجمة بالتخريب والتدمير، وزاد من خطورة هذه الجموع أنها لم تدن بدين سماوي، وإنما كانت وثنية لم تحترم عهودا ولا أمانا، فمالوا إلى الوحشية والقسوة في معاملاتهم(١).

وفي فترة وجيزة استطاعت هذه الجموع غزو معظم بلاد العالم الإسلامي، حيث حطموا الدولة الخوارزمية(٢)، ثم أتوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م)(٣)، ثم تابعوا زحفهم في اتجاه

---

(١) عرفت عقيدة المغول الوثنية بالشامانية، وتنسب إلى لفظ شامان وهو لقب لرجل الدين في هذه الأماكن، ويقوم بعدة وظائف فهو رجل دولة وساحر وطبيب ومشرع سياسي، وانتشرت هذه الديانة بصحراء سيبيريا. انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦٦م، ج١٢، ص٣٦٠؛ رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، المجلد الثاني، ج٢، ص٢٢٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٤، ص٣١٠.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م، ص٤٢-١٠٦؛ الجويني : جهان كشاي، تاريخ فاتح العالم، ترجمة السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م، ج١، ص١٤٠-١٥١؛ انظر أيضاً : محمد أسد الله صفا : جنكيزخان، بيروت ١٩٨٨م، ص٢١٥-٢٧٢؛ محمد دبر سياقي : السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة : أحمد الخولي : القاهرة ٢٠٠٩م، ص٤١-٦٨.

(٣) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص٢٨٥؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥هـ، ج٣، ص١٩٤؛ خواندير: دستور الوزراء، ترجمة

بلاد الشام، حيث دانت لهم معظم مدنه، سواء بالاستسلام أو بقوة السلاح[4]، مما جعل كثيرا من المؤرخين المعاصرين يتعجبون من هذه الانتصارات السريعة؛ التي أحرزها المغول في تلك الفترة الوجيزة.

غير أن الله سبحانه وتعالى كتب لأمة الإسلام أن تنتصر على هذه الجموع الوثنية، فقام السلطان المظفر قطز، سلطان دولة المماليك في مصر والشام (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م) بالتصدي لهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وأحرز انتصارًا كبيرًا عليهم[5]، مما جعلهم يرتدون إلى إيران، حيث أقاموا بها دولة لهم أطلق عليهم اسم "الدولة الإيلخانية"، وضع أساسها هولاكوخان[6].

حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٠٨؛ انظر أيضًا : حامد زيان: سقوط بغداد، مقال بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م، ص٥-٢٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م، ج٣، ص٣١١.

(4) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، نشر Cahen في
Bulletin d'etudes Orientales, Paris Tom xv, p.

اليونيني : ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد – الهند ١٩٦٠م، ج١، ص٣٤٤.

(5) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٠٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص٤٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٧، ص٩١؛ انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٥٢-٦٠.

- عين جالوت : بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ج٤، ص١٧٧.

(6) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩-١٨٩؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق – مصر ١٢٨٤هـ، ج٥، ص٥٤٢-٥٤٦؛ انظر أيضًا: فؤاد = = عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص٢٧-٣٠.

- الإيلخانيون : اطلق على هذه الدولة هذا الاسم، نسبة إلى كلمة " إيل " المغولية التي تعني خاضع أو مطيع، فيكون المعنى المطيع للخان. انظر : خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م، ج٣، ص٤٨٠.

وإذا كان هولاكوا خان قد توفى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، فإن خلفاءه من خانات مغول فارس تابعوا الإغارة على الممتلكات الإسلامية المجاورة لهم، مما أدخلهم في صراع مرير مع سلاطين المماليك أصحاب القوة العسكرية النامية في تلك الفترة(٧).

وفي محاولة من مغول فارس من أجل الوقوف أمام قوة المماليك العسكرية، حاولوا التحالف مع بعض القوى الأوربية، وقوة الدولة البيزنطية، وقد رأى الأوربيون، في شخص المغول، عاملاً مساعدًا لهم في توجيه حملة صليبية مغولية إلى بلاد الشام، لانتزاع بيت المقدس من يد المماليك، غير أن هذه المشاريع الحربية العدائية لم تلبث أن فشلت(٨).

إزاء ذلك الفشل اضطر خان المغول آباقاخان إلى طلب الصلح من السلطان الظاهر بيبرس، غير أن بيبرس رفض مد يده إلى من تلطخت يداه بدماء المسلمين(٩).

تابع السلطان الظاهر بيبرس كفاحه ضد مغول فارس وأنزل بهم عدة هزائم(١٠)، كما واصل السلطان المنصور قلاوون (٦٧٩-٦٨٩هـ/١٢٨٠-١٢٩٠م) سياسة الظاهر بيبرس في محاربة مغول فارس، وأنزل بهم هزائم متتالية، كان أشهرها معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، التي توفى على أثرها أبقا خان غمًا وكمدًا على هذه

---

(٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٥٢٤؛ الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٣٣-٤٠.

(٨) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٥٢٤؛ انظر أيضًا :
Howorth : History of the Mongols, London , pp. ;
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٣م، ص٨٩.

(٩) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص١٣٩-١٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٥م، ج١٣، ص٢٥٤؛ انظر أيضًا : سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٣-٤٥.

(١٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢-٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٦٠٦-٦٠٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص١٥٩، ١٦٨.

الهزيمة[١١].

غير أن هذه السياسة العدائية التي سيطرت على علاقة مغول فارس بسلطنة المماليك، في مصر والشام، لم تلبث أن تغيرت بعد أن تولى السلطان أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس عام ٦٨١هـ[١٢].

أما تكودار هذا فهو الابن السابع لهولاكو خان، أمه هي قوتي خاتون[١٣]، التي دانت بالمسيحية، لذلك أثرت على ابنها تكودار وهو في طفولته، مما جعله يدين بالمسيحية وتسمى باسم " نيقولا "، وذلك على الرغم من أن والده هولاكو خان؛ كان وثنيا على العقيدة البوذية[١٤].

ولم يلبث تكودار أن اعتنق الدين الإسلامي وهو في مطلع شبابه، أثناء حياة والده هولاكو خان أيضا[١٥]، وذلك بعد أن تعرف على هذا الدين من الشيخ كمال الدين

---

(١١) يقول البرزالي الذي كان معاصرًا لهذه المعركة : " فلما تحقق – أي أبغا خان – الكسرة رجع على عقبه إلى همدان، فمات بها غما " انظر : المقتفي في كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦م، ج١، ص٥٤٨. وعن هذه المعركة انظر أيضا : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق : مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، ص٣؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م، ج١، ص٦٢-٦٦٣.

(١٢) تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس في يوم الأحد ١٣ ربيع الول عام ٦٨١هـ/ ٢٢ يونيه ١٢٨٢م. انظر : الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٢.

(١٣) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٨٨.

يذكرها المؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر باسم : " قتوخاتون "، راجع : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤.

(١٤) الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص١٢١.

- يرفض أحد الباحثين المحدثين تدين تكودار بالمسيحية، ويعتمد في ذلك على أن الذي أورد تلك المعلومات هو أحد المؤرخين المسيحيين الأرمن، الذي حاول تصوير المغول على أنهم مالوا إلى المسيحية. انظر : رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٧٨.

(١٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج، ص٣١٠.

عبدالرحمن، الذي كان له تأثير كبير على تكودار وعلى عدد كبير من أسرته[١٦].

وعلى هذا النحو اعتنق تكودار الإسلام وهو في سن الصبا، ومما يؤكد اعتناق تكودار للإسلام، وهو في مطلع شبابه، هو اعترافه بذلك، وإقراره أنه اعتنق الإسلام " في عنفوان الصبا، وريعان الحداثة "، في الرسالة التي أرسلها إلى السلطان المنصور قلاوون والتي سيأتي شرحها بإذن الله[١٧]. ولذلك لا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن تكودار أعلن إسلامه بعد ولايته حكم مغول فارس[١٨].

كذلك تشير بعض المصادر أنه بعد إسلامه غيَّر اسمه، حيث كان اسمه " أغا تكودار "، فتسمى باسم " أحمد تكودار "[١٩]. ويضيف ابن تغري بردي أنه تسمى باسم أحمد في حياة والده هولاكو[٢٠]، ويروي الشيخ الذهبي أن سبب هذه التسمية يعود إلى ما

---

(١٦) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٨.
ويذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن يعود أصله إلى الموصل، وكان يعرف بعبدالرحمن النجار، وهو في الأصل كان مملوكًا. انظر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٨؛ ويذكر ابن الفوطي أن والده كان مملوكًا روميًا للخليفة المستعصم بالله، ونشأ عبدالرحمن في بيت الخلافة وعمل كأحد الفراشين، وعند هجوم المغول على بغداد وقع في أسرهم، وحملوه معهم إلى معسكرهم (الأردو) ثم أظهر الزهد حتى عُرف فيهم بالشيخ، ثم تنقل بين البلاد حتى ذهب إلى الموصل، حيث اتصل بعز الدين أيبك بن عبدالله المعروف بالطويل الذي كان مولعًا بعلم الكيمياء، فعلمه بعضًا من ذلك العلم، ثم أنه بعد اتصاله بخانات مغول فارس أخذ يوهمهم بمعرفته بالغيب، ويقوم ببعض الأعمال التي جعلتهم يعتقدون فيه. انظر: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد وآخرون، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٦٨-٤٦٩ (ملحوظة يتشكك محقق كتاب الحوادث الجامعة في نسبته إلى ابن الفوطي).

(١٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦.

(١٨) بيبرس الدودار : زبد الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : زبيدة عطا، القاهرة د.ت، ج٩، ص٢٠٢؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٦؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق : أحمد رفعت، بيروت ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٢٨؛ انظر أيضًا : السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨١م، ص٣٠٢.

(١٩) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، تحقيق : قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت د.ت، ص٤.

(٢٠) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٥٥.

حدث من الفقراء الصوفية الأحمدية الذين دخلوا به في النار بين يدي هولاكو، فوهبه لهم وسماه أحمد[21].

ونخلص من ذلك إلى أن تكودار أسلم وهو في مطلع شبابه، وأنه تسمى باسم أحمد، كل ذلك حدث قبل توليه حكم المغول، ويؤكد على ذلك مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني بقوله : " ولما كان – أي تكودار – معتنقًا للإسلام، فقد لُقب بالسلطان أحمد "[22]، أي أنه لم يتخذ لقب خان، وهو اللقب الفارسي الذي كان يتلقب به حكام دولة مغول فارس، وإنما آثر أن يتخذ لقبًا من ألقاب الحكام المسلمين.

وثمة إشارة ذات أهمية، يجب التوقف عندها، وهي ما أشار إليها الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر من قوله: أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن أشار على تكودار باعتناق الإسلام "خديعة ومكرًا"، وذلك حتى يقيم سلامًا مع السلطان المنصور قلاوون، ويكتفي أمر حكام مصر والشام ويأمن جانبهم "ويتفرغ لقتال قومه وأقاربه وإخوته وولد أخيه أرغون"[23]. ومعنى ذلك أن محي الدين بن عبد الظاهر يتشكك في إخلاص تكودار للإسلام، وأنه إنما أعلن إسلامه لأهداف سياسية بحتة !! غير إننا لا نستطيع أن نشايع ابن عبد الظاهر في هذا الرأي، خاصة وأن المصادر امتدحت أحمد تكودار وإخلاصه للإسلام والمسلمين[24]، كما أنه بذل قصارى جهده في حث قومه من المغول على الإسلام، لدرجة أن عزله عن الحكم وما ناله من القتل، بعد ذلك، إنما يعود لهذا السبب، ولغيره من الأسباب[25].

---

(21) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج١٤، ص٥٧٧.

(22) جامع التواريخ، المجلد الثاني، ص٩٢.

(23) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨؛ وانظر كذلك: ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٤٨.

(24) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣١٠.

(25) يقول أبو الفدا : " كانت خواطر المغل قد تغيرت على أحمد بسبب إسلامه وإلزامه لهم بالإسلام، فاتفقوا على قتله ". المختصر في أخبار البشر، ج٧، ص١٧؛ ويقول ابن أيبك الدواداري : " هذا

سارع أحمد تكودار بعد جلوسه على عرش مغول فارس إلى الكتابة إلى أهل بغداد يخبرهم فيها بإسلامه[٢٦]، ويبعث في قلوبهم الطمأنينة، وأنه سوف يرعى ما ببغداد من مساجد ومدارس، وسوف يقرر لها الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها، كما كان الحال أيام الخلفاء العباسيين، وأنه بما مَن الله عليه بالإسلام، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، مؤمن تمام الإيمان بأن يكون المسلمون ومنهم أهل بغداد، من الفئة المنتصرة الظافرة كما قال النبي (ﷺ). وفي ختام الرسالة يطلب من أهل بغداد أن يرسلوا نسخًا من هذه الرسالة إلى كافة الجهات حتى تطمئن القلوب[٢٧].

ويتبادر إلى الذهن سؤال، ما هي الأسباب التي دفعت أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد دون غيرهم من أهل البلاد الإسلامية التي تخضع لحكم مغول فارس؟ والمعروف أن مغول فارس بسطوا نفوذهم على كل من العراق وخراسان وآذربيجان والجزيرة، وبعضى مَن بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى[٢٨].

إن الذي دفع أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد بهذه الرسالة، هو علمه بما قام به جَدّه هولاكو من تخريب وتدمير لما ببغداد من مساجد ومدارس، وقتله للعديد من علمائها وفقهائها[٢٩]، لذلك أراد أن يزيل عنهم آثار هذه الاعتداءات، ومن ناحية أخرى أراد أن يخبرهم

عمي أحمد أغا قد أسلم، وغيّر ما أسمه جنكزخان ". الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٦٤؛ ويقول بيبرس الدوداري : " قتل السلطان أحمد لأسباب منها إساءته إلى أكابرهم ومنها الزامه إياهم بالدخول في الإسلام طوعًا أو كرهًا ". انظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، ص٢٢١؛ وانظر أيضًا تحقيق دونالد س. رنشاردز، بيروت ١٩٩٨م، ص٢٣٧؛ ويذكر أيضًا ابن خلدون : أن أهل معسكره كانوا ينقمون عليه إسلامه، فثاروا عليه وقتلوا نائبه ثم قتلوه ". انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق مصر ١٢٨٤هـ، ج٥، ص٥٤٦.

(٢٦) انظر نص هذه الرسالة عند محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥، وملحق رقم (١).

(٢٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢٨) انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج١٤، ص٥٧٧.

(٢٩) عما قام به هولاكو من أعمال تدمير وتخريب وقتل ببغداد انظر : رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ،

أنه لن يقوم بالإغارة على بغداد ونهبها، كما فعل أسلافه من حكام دولة مغول فارس السابقين، بل على العكس، سوف تنعم بغداد في عهده بالأمن والطمأنينة[٣٠].

بالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر ذكر نصاً ذا أهمية كبيرة في هذا الشأن، ويفسر هذا النص أيضًا تحركات مغول فارس بعد ذلك، يقول ابن عبدالظاهر : "ولما جرى ذلك – يقصد تنصيب أحمد تكودار على عرش المغول – تحدثوا فيما بينهم في أن قدرتهم قد ضعفت، ورجالهم قُتلت، وأن المسلمين كلما راحوا في قوة، وأنه لا حيلة في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام"[٣١].

يفهم من هذا النص أن من أهم الأسباب التي دفعت أحمد تكودار إلى الكتابة لأهل بغداد، ثم مراسلة السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك، هو كما ذكر محي الدين ابن عبدالظاهر؛ للتقرب إلى المسلمين الذين أصبحوا في قوة، بينما بدأ الضعف ينتاب دولة مغول فارس.

وسيرًا على السياسة الجديدة لدولة مغول فارس (الدولة الإيلخانية) في التقرب إلى المسلمين، فكر السلطان أحمد تكودار في إنهاء حالة الحرب القائمة مع دولة المماليك في مصر والشام[٣٢]، تلك الحرب التي لم تهدأ منذ أن أسس جَدُّه هولاكو هذه الدولة، واستمرت مشتعلة بعد وفاته أثناء حكم أبنائه من بعده، وازدادت اشتعالاً أيام آباقا خان الذي توفى على إثر إصابته بالغم والنكد، عقب هزيمته أمام المماليك في معركة حمص الثانية، عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، كما سبقت الإشارة.

المجلد الثاني، الجزء الأول، ص٢٩١؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ص١٩٨-١٩٩؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص١٦٦؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٠٩.

(٣٠) وعن الإغارات المتتالية التي قام بها حكام مغول فارس على بغداد، انظر : المقريزي : السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج١، ق٢، ص٤٦٧، ٥١٠، ٥١١.

(٣١) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤.

(٣٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، عُني بتصحيحه الأب أنطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م، ص٥٠٦.

وتنفيذًا لسياسة إقامة هذه العلاقات الطيبة؛ بادر أحمد تكودار في شهر شعبان عام ٦٨١هـ/ نوفمبر ١٢٨٢م بإرسال سفارة إلى الديار المصرية، برئاسة الشيخ قطب الدين محمود بن مصلح الشيرازي قاضي سيواس، وعضوية الأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين بن التيتي وزير ماردين(٣٣)، وفي صحبتهم كما يقول محي الدين بن عبدالظاهر " جماعة كبيرة من أتباع وأشياع وغلمان ومماليك وخواص وتجمل عظيم "(٣٤). وذلك لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، وأداء الرسالة التي وجهها إليه أحمد تكودار، ومخاطبته شفهيًا في إقامة سلام بين الدولتين(٣٥).

أما الذي دفع السلطان أحمد تكودار إلى التقرب من السلطان المنصور قلاوون

---

(٣٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧؛ يذكر رشيد الدين الهمذاني أن اختيار هذا الوفد كان بمشورة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٧.

- سيواس : مدينة بآسيا الصغرى من أملاك سلاجقة الروم، وقد استولى عليها مغول فارس. انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة، بيروت ١٩٧٩م، ص٥٣٧؛ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٧٢م، ج٢، ص٢٣٢.
- ماردين : مدينة بها قلعة مشهورة، تقع على جبل مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٥، ص٣٨-٣٩.
- الصاحب : لقب حملة الوزراء، أول من حمله كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد، فكانوا يقولون صاحب ابن العميد، ثم غلب عليه هذا اللقب. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج١، ص٤١٧.

(٣٤) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٥٠؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٦.

(٣٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦.

على الرغم من ان المؤرخ بيبرس الدوادار كان معاصرًا لتلك السفارة، إلا أنه لم يشر إليها، وأشار فقط إلى السفارة الثانية التي جاء على رأسها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص٢٢٣-٢٢٤.

فهو، كما يقول المؤرخ الإنجليزي هورث Howorth، أن قلاوون كان في تلك الفترة زعيمًا للعالم الإسلامي، وتصبوا إليه معظم القوى في تلك الفترة(٣٦)، ويصدق حديث هورث إلى حد كبير، فقد وصلت دولة المماليك في تلك الفترة إلى درجة كبيرة من القوة جعلتها تتزعم العالم الإسلامي، حيث نظر حكام جميع الدولة الإسلامية إلى سلطنة المماليك نظرة كلها احترام وتبجيل(٣٧).

ومن جهة ثانية يُفهم من كتابات المؤرخين المعاصرين أن وراء هذه السفارة دافعا سياسيا هاما، وهو إقامة علاقات الود مع سلاطين المماليك، حتى يأمن السلطان أحمد تكودار من جانبهم، ويتفرغ لمواجهة الخلافات الداخلية خاصة من جانب ابن أخيه أرغون(٣٨)، ويؤكد ذلك ما سبق الإشارة إليه؛ عما ذكره محي الدين بن عبدالظاهر من إشارة مستشاري أحمد تكودار عليه بأن يقيم سلامًا مع السلطان قلاوون، حتى يتفرغ " لقتال قومه وأقاربه وأخوته وولد أخيه أرغون "(٣٩).

ومن ناحية ثالثة، فإن ما بدأ ينتاب دولة مغول فارس من ضعف، وما واكبه من ازدياد قوة دولة المماليك في مصر والشام، كان دافعًا أساسيًا وراء تلك السفارة، وهو ما أشار إليه المؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر بقوله " التقرب إلى مراضي مولانا السلطان – أي قلاوون – واكتفاء بأسه "(٤٠).

على كل حال، تحركت تلك السفارة من معسكر السلطان أحمد تكودار " الأردو" قاصدة سلطنة المماليك، ولما كانت العلاقات متوترة بين أهالي بلاد الشام ومصر وبين

---

(٣٦) The Mongols, vol , p.

(٣٧) وعن سياسة المماليك الخارجية، وموقف سائر الدول الإسلامية، انظر : علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٦٨-١٧٩؛ حامد زيان : المماليك، التاريخ السياسي، ص٦٥-١١٥.

(٣٨) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٨م، ص٩٣.

(٣٩) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨.

(٤٠) تشريف الإيام والعصور، ص٤.

مغول فارس، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون من قيام الأمراء والأهالي بالفتك بهؤلاء السفراء، وذلك لسابق قيام المغول بأعمال وحشية من قتل وسبي للمسلمين، لذلك ما أن علم السلطان المنصور قلاوون بمسير هذه السفارة إليه، إلا وأصدر قرارًا بتأمينها، وبالفعل ما أن وصلت هذه السفارة إلى مدينة البيرةُ، إلا وجدوا في استقبالهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وذلك للقيام بمهمة تأمين سفارة السلطان أحمد تكودار(٤١).

وثمة إشارة وردت في بعض المصادر الإسلامية يجب التوقف عندها، وهي أن السلطان المنصور قلاوون " احترز عليهم – أي على أعضاء هذه السفارة – ولم يمكن أحدًا من الاجتماع بهم "، " وأن أحدًا من خلق الله لا يراهم، ولا يجتمع بهم، ولا يتحدث معهم بكلمة"(٤٢). فما هي الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اتخاذ قرار الاحتراز على هؤلاء الرسل ؟ وإلى الحرص على ألا يجتمع بهم ولا يكلمهم أحد على الإطلاق.

(٤١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧.
- البيرةُ : بلد قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، ص٥٢٦.
- حسام الدين لاجين : أصله مملوك المنصور قلاوون اشتراه ورباه واعتقه ورقاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، ثم أمره، وتولى عدة وظائف، وقفز إلى عرش سلطنة المماليك عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، لكن لم تطل مدة حكمه فقد قتل في ربيع الأول عام ٦٩٨هـ/ يناير ١٢٩٧م. انظر : بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨٥-١١٤.
- الأمير سيف الدين كبك : هو الأمير سيف الدين كبك أو قبق المنصوري، كان من مماليك السلطان المنصور قلاوون، وترقى وتولى عدة وظائف منها توليته نيابة دمشق ونيابة حماه ونيابة حلب، توفى في آخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ أكتوبر ١٣١٠م. انظر: اليونيني : ذيل مرآة الزمان، سنوات ٦٩٧-٧١١هـ تحقيق : حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٣٥٩-١٣٥٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١٦.

(٤٢) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٢٨؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٢٨.

إن من أهم الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى الاحتراز على هؤلاء السفراء هو الحرص على حياتهم، فأصدر أمره بإخفائهم عن العيون، وأن تكون تحركاتهم في الليل، وأن يتوجهوا بهم مباشرة إلى الديار المصرية، دون الدخول إلى بلد من البلدان(٤٣)، وذلك خشية قيام أحد بالاعتداء عليهم من أهالي البلاد، وذلك لسابق قيام المغول بالأعمال الوحشية.

ومن جهة أخرى فقد ضمت هذه السفارة جماعة من رجال المغول؛ كانت مهمتهم القيام بدور التجسس على أحوال دولة المماليك، وهو أمر اشتهر به المغول، فكثيرًا ما قامت السفارات التي أرسلها المغول إلى الدول التي جاورتهم بهذا الدور، مثلما حدث مع الدولة الخوارزمية(٤٤)، وقد أشار "العيني" صراحة إلى هؤلاء الجواسيس الذين كانوا في صحبة السفارة الثانية، التي أرسلها أحمد تكودار إلى المنصور قلاوون، والتي سوف يأتي شرحها فيما بعد(٤٥).

كذلك من بين تلك الأسباب: ما اتصف به المغول من مكر ودهاء، والحيل التي استخدموها في تمزيق شمل البلاد والعباد، وإشاعة الفوضى داخل البلد الذي يريدون السيطرة عليه، لذلك خشي السلطان المنصور قلاوون أن يقوم سفراء المغول بالاتصال بكبار قادة وأمراء المماليك، ومحاولة شرائهم بالمال والمناصب، حتى يقفوا إلى جوارهم، خاصة أن مغول فارس فشلوا في استخدام القوة مع دولة المماليك.

إن للمغول سوابق كثيرة في هذا المضمار، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما قام به جَدُّهم الأكبر جنكيز خان من الاتصال بوالدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، واتفق معها على ألا تقف إلى جوار ابنها علاء الدين، في مقابل ألا يقترب من ممتلكاتها ويتركها وشأنها(٤٦)!!

---

(٤٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٤٤٢.

(٤٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.

(٤٥) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م، ج٢، ص٢٩٦.

(٤٦) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٩٢-٩٣؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة

كذلك اتفاق هولاكو مع الوزير بدر الدين محمد بن العلقمي وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله، من أجل العمل على تسليمه بغداد وشخص الخليفة وآل بيته(٤٧)، ومن بين ما قام به المغول من مكر وخداع؛ اتفاقهم سرًا مع زين الدين الحافظي، الذي نال قدرًا ومكانة كبيرة عند الملك الناصر صلاح الدين الثاني حاكم دمشق، وكان ذا تأثير كبير عليه، فانتهز هولاكو ثقة الملك الناصر فيه، واتفق معه على خيانة سيده الملك الناصر، وتسليم دمشق للمغول(٤٨).

وعلى هذا النحو؛ كان السلطان المنصور قلاوون محقًا في الاحتراز على هؤلاء الرسل، وفي العمل على عدم اتصالهم بأحد من أمراء المماليك، حتى لا يقوموا بإغراء أحد من ضعاف النفوس، أو من أولئك الذين يكنون حقدًا وكرهًا للسلطان المنصور قلاوون، فيقوموا بخيانته، وتسهيل مهمة المغول في تحقيق أهدافهم، وبسط نفوذهم على بلاد الشام ومصر. ومن ناحية أخرى، عمل على ألا يَطّلع من صحب هؤلاء السفراء من

محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م، ص٣٦٤.

(٤٧) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٣٥٦-٣٦٠؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م، ج٣، ص٢٥٢-٢٥٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.

- بدر الدين محمد بن العلقمي : هو محمد بن محمد بن علي أبو طالب مؤيد الدين ابن العلقمي، تولى الوزارة للخليفة المستعصم بالله العباسي أربع عشرة سنة، عُرف عنه التشيع، ثم خدم هولاكو بعد استيلائه على بغداد، لكنهم أهانوه واحتقروه لما قام به من خيانة الخليفة العباسي، واستمر في غم ونكد إلى حين وفاته في أوائل عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. انظر : الكتبي : فوات الوفيات، ج٣، ص٢٥٢-٢٥٣؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م، ج١، ص١٧٠-١٧٢؛ خواند مير: دستور الوزراء، ص٢٠٩.

(٤٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٣، ص٣١٠-٣١١؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٢٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٦، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٨٦.

- زين الدين الحافظي : هو سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني، توفى عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٤؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٢٣.

جواسيس على أحوال المملكة.

وزيادة في الحيطة جَعَلَ هؤلاء السفراء لا يسيرون أثناء النهار، وإنما أمرهم بالمسير أثناء الليل، حتى لا يراهم أحد، وحتى لا يطلعوا هم ومن معهم من الجواسيس على أحوال الدولة، واستمر ذلك حتى وصلوا إلى الديار المصرية، فاستقبلهم السلطان المنصور قلاوون في مقر حكمه بقلعة الجبل، في شهر رجب من نفس العام (٦٨١هـ/١٢٨٢م)[٤٩].

وقد وصف شاهد عيان هذه الفترة، المؤرخ شافع بن علي، الهيئة التي كان عليها السلطان المنصور قلاوون أثناء استقباله لهذه السفارة، فقد أحاط نفسه بما له من الهيبة والاحترام، وذلك حتى يبث الخوف والرعب في نفوس هؤلاء السفراء، الذين سوف ينقلون هذه المشاهد لخان المغول السلطان أحمد تكودار. ويضيف شافع بن علي أن المنصور قلاوون " جلس على منبر ملكه في أحسن الهيئات، وأحسن الصور الحسنات، وقد لبس من المجوهر ما يأخذ الأبصار "[٥٠].

لم يلبث أن مَثَلَ هؤلاء السفراء في حضرة السلطان المنصور قلاوون، حيث أدوا إليه الرسالة التي أرسلها إليه السلطان أحمد تكودار[٥١]، والتي كُتِبَتْ في منتصف شهر جمادي الأول عام ٦٨١هـ/ أغسطس ١٢٨٢م[٥٢]، كما أمرهم السلطان أحمد تكودار بمحادثة السلطان المنصور قلاوون شفاهة في أمر الصلح بين الدولتين[٥٣].

---

(٤٩) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢.

- مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بولشيه :

Blochet (E.) : Putrologia Orientialis, Tom , Paris , p. .

(٥٠) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١٠١.

(٥١) ابن إيبك الدواداري : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٤٩.

(٥٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٣، ص٧٠٨.

(٥٣) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص١٦؛ الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٧.

بدأ السلطان أحمد تكودار رسالته[٥٤] بشرح تلك الهداية التي هداه الله – جَلّ جلاله – له، وإقراره بوحدانيته وربوبيته وذلك منذ صباه، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويؤكد أنه انشرح صدره بالإسلام، وأنه مال إلى إعلاء كلمة الدين الإسلامي الحنيف، وإصلاح أمور المسلمين.

ونوّه السلطان أحمد تكودار في رسالته إلى ما حدث في اجتماع "القوريلتاي"[٥٥]، من الموافقة على قرار الخان الراحل أباقا خان، من جمع جيوش المغول ذات الأعداد الغفيرة، التي ملأت الأرض رعبًا لبطشها الشديد، وتوجيهها صوب ممتلكات دولة المماليك، إلا أنه – أي السلطان أحمد تكودار – شعر بأن هذا العمل يخالف تمامًا ما يجول بخاطره من ضرورة أن يعم السلام والخير للجميع. ذلك الخير الذي يعتبر من أهم ما يقوي شعائر الإسلام، ورأى أنه لا يمكن أن يصدر عنه أمر إلا بما يوجب حقن الدماء، ونشر الأمن والطمأنينة حتى يستريح المسلمون في سائر البلدان، وتخمد نار الفتن، ويعلو ويعظم أمر الله سبحانه وتعالى.

أشار السلطان أحمد تكودار أيضًا في رسالته إلى: أن الذي هداه إلى الإسلام هو الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، حيث يعتبره نِعم العون في أمور الدين، كما أشار أيضًا إلى أنه لفرط ثقته في كل من القاضي قطب الدين الشيرازي، والأتابك بهاء الدين، عهد إليهم بأداء هذه الرسالة.

أكد السلطان أحمد تكودار إلى ما تصبو إليه همته من إعلاء شأن الدين الإسلامي، وإقامة شعائره، وتعظيم أحكامه والعمل بها، وشرح ما قام به من أعمال لكي يدخل السرور

---

(٥٤) انظر نص هذه الرسالة عند كل من : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦-١٠؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥٠٠-٥١٠، وملحق رقم ٢.

(٥٥) القوريلتاي : كلمة مغولية تعني مجلس السلطنة، الذي يجتمع فيه جميع رؤساء المغول لاتخاذ القرارات المهمة مثل اختيار الحكام أو إقرار حرب، وغيرها من المسائل الخطيرة التي لا يريد الخان أن ينفرد بها. انظر : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦، هامش ١؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٣٨٣، هامش ٢.

على قلوب المسلمين، فعفا عن كل سيئة أو جُرم، وقام بإصلاح ما تهدم من المدارس والمساجد والمشاهد، وأوقف الأوقاف العديدة للإنفاق منها على تلك المنشآت، وعمل على أن يصل ريع تلك الأوقاف إلى مستحقيها حسب شروط الواقف، وألغى كل ما استحدث على تلك الأوقاف. وذكر ما قام به من تأمين قوافل الحجيج، وعمل على تسيير تلك القوافل لأداء فريضة الحج، ووضح ما قام به من تسهيل مهمة التجار، فأطلق لهم حرية التنقل بين البلاد في أمن وسلام، ومنع كافة الجنود وحراس الطرق من التعرض لهم بالأذى، وحفظ أموالهم وأرواحهم.

تطرق السلطان أحمد تكودار، بعد ذلك، للحديث عن أولئك الجواسيس الذين كانوا يرتدون زي الصوفية (الفقراء)، والذين شاهدهم جنود المغول، مما جعلهم يسيؤن الظن بطائفة الصوفية وأهل الصلاح، فقاموا بقتل الكثير منهم، وإغلاق الطرق أمامهم، غير أن السلطان أحمد تكودار ذكر أنه أمر بفتح هذه الطرق لسالكيها، سواء أمام التجار أو غيرهم.

وقرر السلطان أحمد تكودار في رسالته أنه يعمل الآن بما يرضي الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، ويعمل أيضًا على جمع كلمة المسلمين، وإزالة الخلافات بينهم، حتى يأمن الجميع، وناشد السلطان أحمد تكودار سلطان مصر – المنصور قلاوون – بأن يتمسك بالعروة الوثقى، ويسلك الطريق المثلى، ويعمل على اتحاد الكلمة، وتسكين الفتنة، حتى تعم السكينة والطمأنينة.

وفي ختام الرسالة وضح السلطان أحمد تكودار: أنه يدعو ويسعى لإقرار السلام بدلاً من الحرب، وأن الله – سبحانه وتعالى – يشكره على تلك المساعي.

وإلى جانب تلك الرسالة، قام أعضاء هذه السفارة بالتحدث مع السلطان المنصور قلاوون مشافهة في أمر إقرار السلام بين الدولتين.

وبعد أن قرأ السلطان المنصور قلاوون رسالة السلطان أحمد تكودار، واستوعب ما جاء بها، ووقف على ما عند رؤساء وأعضاء هذه السفارة من حديث، أمر رئيس ديوان

الإنشاء الكاتب محي الدين بن عبدالظاهر بأن يكتب ردًا على تلك الرسالة[٥٦]، وقد احتوى رد السلطان المنصور على عدة أشياء هي[٥٧] :

أولاً : بدأ السلطان المنصور قلاوون رسالته بحمد الله الذي أظهر الحق، وجاء بالنصر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله (ﷺ)، وأشار إلى علمه بأخبار السلطان أحمد تكودار ودخوله في الإسلام من الخطاب الذي وصل إليه، ودعا له بأن يثبته الله – عزّ وجلّ – على هذا الدين القويم، كما أنه قد انشرح صدره لما علمه من اعتناق أحمد تكودار للإسلام منذ صباه، وما حدث بعد ذلك من توليه عرش دولة مغول فارس، لأن الله يصطفي من يوليه العرش من بين أوليائه وعباده الصالحين.

ثانيًا : أشار السلطان المنصور قلاوون إلى قرار القوريلتاي من توجيه جيوش المغول لمهاجمة أراضي دولة المماليك، ثم عدم انصياع أحمد تكودار لهذا القرار، وقال له إن هذا تصرف العقلاء الذين يفكرون في عواقب الأمور، لأنهم لو فعلوا ذلك لدارت الدائرة عليهم. وذلك إشارة إلى القوة التي تتمتع بها دولة المماليك، وأن جيوش المماليك سوف ترد على أي هجوم يقوم به المعتدين.

ثالثًا : صرح السلطان المنصور قلاوون بأنه ما دام دَخَلَ أحمد تكودار في الإسلام، فقد ذهبت الأحقاد، ولم يعد بينهما حقد ولا عداء، لأن الإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضا.

رابعًا : تحدث السلطان المنصور قلاوون عن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الذي ببركته وكراماته شمل الإسلام كل دار، ودعا بأن يعود الحق إلى أصحابه ببركته، كما أثنى على السفراء الذين حملوا هذه الرسالة، وأنهم قاموا بمهمتهم على أحسن وجه.

---

(٥٦) كان محي الدين بن عبدالظاهر هو رئيس ديوان الإنشاء في زمن المنصور قلاوون في تلك الفترة، وهو الذي تولى كتابة الرد على رسالة أحمد تكودار. انظر : شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١٠٢.

(٥٧) انظر نص رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار عند كل من : محي = الدين عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص١٠-١٦؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥١١-٥٢٥، وملحق رقم ٣.

خامسًا : مدح السلطان المنصور قلاوون الإصلاحات التي قام بها أحمد تكودار في مختلف المدارس والمساجد، وقيامه بتأمين الطرق خاصة أمام الحجيج، وأشار إلى أن هذه الأعمال من شأنها أن تؤدي إلى دوام المُلك، وهي من الواجبات المُلقاة على عاتق الحكام، ولا يفتخر أحد بالقيام بها، أما الذي يحق أن يفتخر به هو قيام الحكام برد الممتلكات التي استولوا عليها إلى أصحابها، ويضرب بذلك مثلاً في قيام والد أحمد تكودار باغتصاب بعض ممتلكات السلاجقة وغيرهم، والواجب على من يرى حقًا مغتصبًا أن يرده إلى أصحابه، وبذلك تقوى مملكته.

سادسًا : أوضح السلطان المنصور قلاوون أنه بمجرد أن علم بإصدار أحمد تكودار أوامره للجنود وحراس الطرق بعدم التعرض لعابري الطرق، إلا وأصدر هو الآخر قرارًا بمثل ذلك، حيث أمر نوابه، ومقدمو العسكر، خاصة في المناطق القريبة من حدود دولة مغول فارس، بحراسة الطرق وعدم التعرض لسالكيها.

سابعًا : عقَّب السلطان المنصور قلاوون على حديث أحمد تكودار عن الجاسوس الذي ارتدى زي الصوفية، وأدى هذا إلى قتل جماعة من هؤلاء الصلحاء، فأشار المنصور قلاوون إلى أن هذا حدث مرارًا، وكثيرًا ما أرسل المغول جواسيس للاطلاع على بواطن الأمور بدولة المماليك، وتم القبض عليهم، لكن لم يقتلوا وأطلق سراحهم وعفى عنهم.

ثامنًا : أوضح السلطان المنصور قلاوون ردًا على ما أبداه أحمد تكودار من رغبته في إقامة صلح وسلام مع دولة المماليك، أن من يمد يده لإقرار الصلح، لا يستطيع أحد أن يرفضه، ولكن هذا الصلح وهذا السلام لابد أن يقام على قواعد وأسس ثابتة، حيث يتم عن طريق مواصلة السفراء والرسائل، ثم عاتب أحمد تكودار على الاستشهاد ببعض آيات القرآن الكريم التي أتى بها في غير موضعها، وعاتبه أيضًا على مَنِّه باعتناق الإسلام، واستشهد بقوله تعالى : { قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ}(٥٨).

---

(٥٨) سورة الحجرات، آية ١٦.

تاسعًا : تطرق السلطان المنصور قلاوون لتلك المشافهة التي جرت بينه وبين سفراء أحمد تكودار، حيث أوضحوا أن الله سبحانه وتعالى وسّع على سلطان مغول فارس، وأنه يحكم بلادا متسعةً ذات خيرات وفيرة، ويذكر السلطان المنصور أنه إذا كان الأمر على ذلك؛ فلماذا ينظر إلى ما في يد غيره من ممتلكات، ويجب الاتفاق أولاً على عدم التطلع إلى أملاك الآخرين، ويعلن السلطان المنصور قلاوون أنه إذا تم الاتفاق على ذلك، يمكن إقامة سلام بين الدولتين، ويؤكد أيضًا على أن الصديق في كثير من الأحيان يكون أقرب من الأب أو الأخ، ويضرب مثلاً بذلك من التاريخ الإسلامي، حيث استقر الدين الإسلامي بفضل الصحابة وليس بسبب الأقرباء.

وقبل أن يختم السلطان قلاوون رسالته؛ أكد على أحمد تكودار أن عليه ألا يعتدي على أراضي المسلمين، ويقوم بأذيتهم، ومتى كفَّ عن ذلك سكنت الفتنة، وحُقنت الدماء، ومن المفروض عليه ألا ينهي عن شيء ويأتي بمثله، ويخبره بأنه توجد بعض أراضي سلاجقة الروم المسلمين مازالت بأيدي المغول، الذين استولوا على خيراتها، وسفكوا دماء أهلها، وسبوا وهتكوا أعراضها.

وفي ختام الرسالة؛ أشار المنصور قلاوون إلى ما حدث أثناء حديثه مع السفراء؛ حول ضرورة إيقاف الإغارات التي يقوم بها المغول على أراضي دولة المماليك، ووجد منهم إصرارًا على متابعة تلك الإغارات في حالة عدم إتمام الصلح المنشود(٥٩). ولذلك دعا السلطان المنصور قلاوون، بدلاً من تلك الإغارات والمناوشات، أن يتم تحديد موعدا ومكانٍ للقاء عسكري، وسيكون النصر فيه لمن كتب الله له النصر، وما النصر إلا من عند الله.

يتضح من هذه الرسالة أن السلطان المنصور قلاوون كان لا يثق في مغول فارس،

(٥٩) أشار ابن الفوطي إلى ذلك التهديد، وجاء على لسان السفراء : " فإن أردت الموادعة، فنحن نكف عسكرنا عن قصد بلادك، ونفسح للتجار في السفر كيف شاءوا آمنين، فإن فعلت ذلك وإلا فعين للقتال موضعًا، واعلم أن الله يطالبك بما يسفك بيننا من الدماء ". انظر : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢.

فهم يقولون شيئا ويفعلون شيئًا آخر، ولذلك كان رده واضحًا، وهو إذا كان السلطان أحمد تكودار جادًا في طلبه من إقامة سلام وصلح بين الدولتين، فعليه أولاً إعادة الأراضي التي اغتصبها أسلافه خانات المغول، وخاصة ممتلكات سلاجقة الروم، كما يتعهد بعدم الإغارة بعد ذلك على أراضي جيرانه، وإلا فالحرب هي الوسيلة الوحيدة لردع مثل تلك الاعتداءات، وبذلك أظهر السلطان المنصور قلاوون عدم تخوفه من الحرب مع مغول فارس، كما أظهر أيضًا عدم تلهفه على إقامة الصلح معهم.

وبنفس الطريقة التي استقبلت بها دولة المماليك سفارة أحمد تكودار، منذ أن وطأت أقدامهم أراضيها من الاحتراز، والعمل على عدم احتكاكهم بأحد من الأمراء أو الأهالي، ثم تسفيرهم وإعادتهم إلى بلادهم، حيث اصطحبهم الحاجبان الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وساروا بهم ليلاً حيث خرجوا بهم من قلعة الجبل، في ليلة السبت ثاني رمضان عام ٦٨١هـ/ ٥ ديسمبر ١٢٨٢م، حيث وصلوا إلى حلب في سادس شوال من نفس العام، ومن حلب توجهوا إلى بلادهم[٦٠].

لم ييأس السلطان أحمد تكودار من إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، فبادر بإرسال سفارة أخرى إلى مصر، على رأسها هذه المرة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. و يفهم من المصادر المعاصرة أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو الذي بادر بأن يتولى رآسة هذه السفارة ويذهب إلى الديار المصرية لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، فقد ذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن " أفهم الملك أحمد أنه يُصلح له مولانا السلطان "[٦١]، كما يذكر ابن الفرات أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن " ظن أنه إذا حضر إلى الملك المنصور، تمكن منه، ويتم له في هذه المملكة – أي مملكة سلاطين المماليك في مصر والشام – ما تم له بالعراق "[٦٢]. كما يشير ابن الفرات إلى أن السلطان

---

(٦٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٨.

(٦١) تشريف الأيام والعصور، ص١٢.

(٦٢) تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق : قسطنطين زريق، بيروت د.ت، ص٢٧٩.

المنصور قلاوون هو الذي طلب حضور الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى سلطنة المماليك، وإتمام عقد اتفاقية السلام المنشودة، وقال للسفراء شفاهة : " إنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبدالرحمن، لما أعلم من دينه، وأن حكمه على الملك أغا سلطان وعلى وزيره صاحب ماردين"(٦٣).

والمعروف أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن نال قدرًا كبيرًا من الاحترام في الدولة الإيلخانية، حيث حظي بمكانة كبيرة عندهم، وقدموه على أنفسهم، وخاصة والدة أحمد تكودار التي اعتقدت في كراماته، وعهدت له بابنها تكودار في صغره ليقوم برعايته(٦٤). ويذكر المؤرخ ابن الفرات أنه بعد أن تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس؛ ازدادت مكانة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأصدر أحمد تكودار أوامره بأن يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وعلى رأسه الجتر، والسلاحدارية والجمدارية تحيط بموكبه، تشبهًا بالملوك " في ساير بلاد العراق والعجم "(٦٥). كما يشير محي الدين بن عبدالظاهر إلى أن

---

(٦٣) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٩.

(٦٤) ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٨.

سبقت الإشارة إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن كان هو الذي أشار على تكودار بالإسلام، كما أشار إلى ذلك أحمد تكودار في رسالته إلى المنصور قلاوون.

(٦٥) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٨.

- الجتر : لفظ فارسي بمعنى المظلة، وهو قبة من الحرير الأصفر، تحمل على رأس الملك على رأس رمح بيد أمير يكون راكبًا بجوار الملك، يظله بها من الشمس في المواكب والاحتفالات، يقول عنها العامة "القبة" أو "الطير". انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص١٣٣.
- السلاحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك، فيكون المعنى حامل السلاح أو ممسك السلاح، يقول القلقشندي أن موضوعها هو حمل السلاح للسلطان أو الأمير في مختلف المجامع. انظر : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٤، ص١٨.
- الجمدارية : لفظ مركب من كلمتين فارسيتين، " جاما " بمعنى الثوب، و" دار " بمعنى ممسك، فيكون المعنى ممسك الثوب، أطلق اللفظ على الشخص الذي يقوم بالباس السلطان أو الأمير ملابسه. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٥، ص٤٥٩.

الشيخ كمال الدين عبدالرحمن تحكم في بلاد مغول فارس، وأشرف على الأوقاف في كل أنحاء البلاد، وكانت له سطوة كبيرة، لدرجة أن أحمد تكودار كان يقف بين يديه هو وعشيرته، ويستمع إلى نصائحه، ويطيعه الجميع[٦٦].

ومن الجدير بالذكر أن هذه السفارة ضمت، إلى جانب الشيخ كمال عبدالرحمن، أحد كبار أمراء المغول وهو المسمى " صمداغو "، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التيتي، والوزير زين الدين صاحب ماردين، وفي صحبتهم مائة وخمسون رجلاً من رجال المغول[٦٧].

ولاشك في أن السلطان المنصور قالوون كان على علم تام بما يدور في دولة مغول فارس، وذلك عن طريق الجواسيس والعيون التي كانت ترصد ما يدور داخل تلك الدولة؛ التي ناصب حكامها العداء للمسلمين في كل الأنحاء.

وكان من بين ما وقف عليه السلطان المنصور قلاوون: تلك المكانة الكبيرة التي تمتع بها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن في دولة مغول فارس، وتشبهه بالملوك، وركوبه وعلى رأسه الجتر، وحوله السلحدارية والجمدارية، وبأنه سوف يأتي إلى دولة المماليك وهو على هذه الحالة، كما علم أيضًا بأنه صحب معه أعداد من رجال المغول، نحو مائة وخمسين، يندس بينهم بطبيعة الحال جماعة كبيرة من الجواسيس، لرصد ما يدور داخل دولة المماليك[٦٨]. لذلك أخذ في تتبع أخبار هذه السفارة. وكما يقول محي الدين بن عبدالظاهر: "صارت أخباره تصل إلى مولانا السلطان منزلة بمنزلة، ومرحلة بمرحلة"[٦٩].

وحتى تظهر دولة المماليك بمظهر القوة، وتحافظ على هيبتها، وهيبة حكامها، أصدر السلطان المنصور قلاوون أوامره بألا تقام مثل هذه المواكب، التي تصاحب الشيخ

---

(٦٦) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨-٤٩.

(٦٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٩؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

(٦٨) بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٦.

(٦٩) تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.

كمال الدين عبدالرحمن في داخل دولة المماليك، وكما يقول المؤرخ شافع بن علي المعاصر لتك الأحداث : " برزت مراسم مولانا السلطان بالكتابة إلى الأمير جمال الدين آقوش الفارس، أحد الأمراء الكبار القديمي الهجرة، المعروفين بالشجاعة في كل أمر وإمرة، بأن يركب لتلقيه من البيرة، وأنه إذا عدّى يمنعه من الركوب بالجتر، ويقول له: قد صرت في بلاد مولانا السلطان ولا يركب فيها أحد بالجتر غيره"[٧٠].

وبتحليل النص السابق يتضح:

أولاً : أن أختيار السلطان المنصور قلاوون للأمير جمال الدين آقوش للقيام بمهمة استقبال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يأت من فراغ، فقد عُرف عن هذا الأمير القوة والبطش، لدرجة أن المصادر لقبته بـ " قتال السباع "[٧١].

ثانيًا : أن السلطان المنصور قلاوون أمر بألا يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بالجتر ولا يحاط بالسلحدارية والجمدارية داخل حدود مملكته، لأن ذلك من شعار الملك، وقد أورد القلقشندي عندما تحدث عن الجتر، أنه " من شعائر الملك "[٧٢]، كذلك فإن السلحدارية والجمدارية هما من شعار السلطنة المملوكية، ولا يجوز لأحد أن يتخذهما إلا بإذن السلطان[٧٣].

---

(٧٠) الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ص١١٤.

- الأمير جمال الدين آقوش بن عبدالله المنصوري، أصله من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن صار من أعيان الأمراء، وتولى عدة وظائف، وكانت له مجموعة من الآثار بالديار المصرية، توفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، القاهرة ١٩٨٥م، الجزء الثالث، ص٢٦؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت، ج١، ص٤٢٧.

(٧١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص٢١٦؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ج١، ص١٤٥؛ بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٥، ص٢٣٤.

(٧٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص١٣٣.

(٧٣) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص٤٤، ج٥، ص٤٥٩.

وما أن علم الشيخ كمال الدين بكل هذه التطورات، وما أقدم عليه رجال السلطان المنصور قلاوون من الاحتراز على هذه السفارة، وعلى مراقبة تلك الجموع التي جاءت بصحبته، إلا وحاول الرجوع من حيث أتى، لكن رجال السلطان المنصور قلاوون منعوه من ذلك، وعلى حد قول مفضل بن أبي الفضائل : " لم يمكنوه من ذلك، وأغلظوا عليه في القول "[٧٤].

ومن الواضح أن السبب الذي دفع الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى التفكير في الرجوع وعدم إتمام سفارته، هو قيام رجال السلطان المنصور قلاوون بالتضييق عليه، وعلى أعضاء سفارته، وعلم علم اليقين أنه لن يستطيع القيام بما أراد القيام به، خاصة وأن هيبته وهيئته التي اعتاد عليها، لم تعد موجودة في ظل الإجراءات التي قام بها رجال السلطان المنصور قلاوون، وبذلك لن يؤثر على أحد في دولة المماليك، وخاصة بعد قيام رجال السلطان بعزله تمامًا عن سائر أهالي البلاد، وعدم تمكينه من الاتصال بأحد أو التحدث مع أحد.

كذلك من بين الإجراءات التي قام بها الأمير جمال الدين آقوش: فصل وعزل رؤساء هذه السفارة عن سائر الجموع التي رافقتهم، كما منع تلك الجموع من القيام بأي ضجيج أو هرج ولا مرج[٧٥]. كما حَرَصَ الأمير جمال الدين آقوش على ألا يعلم أحد من أهالي بلاد الشام بوصول هذه السفارة، على الرغم مما ضمته من جموع كبيرة. وذلك وفقًا لأوامر السلطان المنصور قلاوون، لذلك توجه بهم مباشرة بعد وصولهم إلى البِيَرةُ، إلى قلعة حلب، حيث وصلوا إليها في ٢٦ شوال عام ٦٨٢هـ/٣٠ يناير ١٢٨٣م، دون أن يشعر بهم أحد، وذلك لأنهم ساروا ليلاً والناس نيام، كما أنهم سلكوا بعض الطرق الغير مأهولة بالسكان ولا المارة[٧٦].

---

(٧٤) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص٥٢٧.

(٧٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.

(٧٦) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.

وعلى هذا النحو كانت أوامر السلطان المنصور قلاوون واضحة تمامًا، وخاصة في عدم احتكاك أعضاء هذه السفارة، ولا المصاحبين لها، بأحد من أهالي دولة المماليك في الشام ومصر، وذلك مثلما حدث في السفارة السابقة، وإن كان الأمر مختلف كثير الاختلاف في هذه السفارة، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون قيام الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بفتنة أحد من أمراء المماليك، وذلك لما ملكه ذلك الشيخ من قوة التأثير، وما يقوم من حيل. وكان السلطان المنصور قلاوون محقًا في هذا التخوف، فقد عُرف الشيخ عبدالرحمن بقوة تأثيره، وما يقوم به من أعمال، ويشير ابن الفرات إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اشتغل بعلم السيمياء، وملك به عقول مغول فارس، فتمسكوا به[٧٧].

كذلك من بين الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون: أن هذه السفارة ضمت عددا كبيرا من الجواسيس الذين حضروا لينقلوا صورة كاملة لما عليه حال دولة المماليك، وقد أشار إلى ذلك صراحة المؤرخ بدر الدين العيني بقوله : " ولم يمكن أحد من الاجتماع بهم، بل كانوا في دار رضوان، وغلمانهم وجواسيسهم بمعزل عنهم "[٧٨]، ولذلك قام الأمير جمال الدين آقوش بعزل هؤلاء الجواسيس، ومن معهم من الغلمان وبقية الحاشية، بعيدًا عن قيادة السفارة، كما قام بمراقبتهم، وحَرّم عليهم التنقل داخل البلاد، والاحتكاك بالأهالي، حتى لا يحصلوا على ما يريدون من معلومات عن أحوال دولة المماليك.

وزيادة في الحيطة، وحتى لا يتقابل أعضاء هذه السفارة ولا الحاشية المرافقة لها أثناء نزولهم بقلعة بحلب، صدرت الأوامر لنائب حلب، الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري، بإخلاء بعض قاعات قلعة حلب لتنزل بها هذه السفارة. كما مُنعوا تمامًا من الخروج من هذه القاعات والاحتكاك بأحد، وذلك كما يقول شافع بن علي: " احترازًا من تحيُّل "، وأجريت عليهم النفقات اللازمة، وعين لهم من الخدم من يقوم على خدمتهم[٧٩].

---

(٧٧) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٨.

(٧٨) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٦.

(٧٩) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٤.

- الأمير شمس الدين قرا سنقر : هو الأمير الكبير شمس الدين أبو محمد الجوكندار =

وبعد أن استراحوا بقلعة حلب وقضوا بها عدة أشهر، توجهوا إلى دمشق، حيث اصطحبهم الأمير جمال الدين آقوش ليلاً، وسلك بهم عدة طرق خالية من المارة والسكان، حتى وصلوا إلى قلعة دمشق في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة عام ٦٨٢هـ/ ٥ مارس ١٢٨٤م[٨٠]، حيث أنزلوا بقاعة دار الرضوان، وأغدق عليهم بكثير من النفقات من مآكل ومشرب. ويذكر ابن الفرات أن مبلغ نفقاتهم كانت في اليوم الواحد " ألف درهم نفقة، وألف درهم أخرى للأطعمة والحلوى والفاكهة "[٨١]. كما تم رعاية خيولهم وما معهم من دواب وآلات[٨٢].

ومثلما حدث لهذه السفارة، أثناء وجوهم في قلعة حلب، حدث لهم أيضًا في قلعة دمشق، حيث تم الفصل بين رؤسائها وبقية من معها من غلمان وحاشية، فأقام كل فريق منهم في ناحية في قلعة دمشق، وعلى حد تعبير محي الدين بن عبدالظاهر " في أماكن محفوظة "[٨٣]، كما صدرت الأوامر أيضًا بألا يتصل بهم أحد" ولا يتحدث معهم، ولا يسمع ما يقولون، ولا يردون عليهم جوابًا "[٨٤].

وفي تلك الأثناء اجتمع السلطان المنصور قلاوون ببعض أمرائه، وأجرى معهم المشاورات من أجل اتخاذ قرار بشأن هذه السفارة، وهو ما عبَّر عنه شافع بن علي بقوله: " فإن مشورةً انعقد مع عُقلاء أمرائه، وشيوخ أمرائه "، فتقرر أن يكون مقابلة هذه السفارة

= المنصوري، من أكبر وأجل مماليك البيت المنصوري، اشتراه الملك المنصور في زمان الإمارة، ثم أخذ يترقي، وتولى عدد من الوظائف، وصفه الصفدي بقوله : " وكان من رجالات العلم ودهاتهم ... كثير العزم، كبير الحزم "، توفي عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: خليل بن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج٣، ص١٤٣-١٤٧؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٣٠-٣٣٢.

(٨٠) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٩.

(٨١) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٩.

(٨٢) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

(٨٣) تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

(٨٤) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

بدمشق[٨٥].

ولما كان السلطان المنصور قلاوون مشغولاً ببعض المهام داخل القاهرة، لذلك تقرر تأجيل لقاء هذه السفارة إلى العام التالي (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)[٨٦]، وبالفعل في عام ٦٨٣هـ، توجه السلطان المنصور إلى دمشق، خصيصًا لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن[٨٧]، حيث وصل إليها في يوم السبت ١٢ جمادي الآخرة عام ٦٨٣هـ/ ٢٨ أغسطس ١٢٨٤م[٨٨].

يذكر المؤرخ ابن الفرات أنه في نفس اليوم الذي وصل فيه السلطان المنصور قلاوون إلى قلعة دمشق، جاءته الأخبار بأن السلطان أحمد تكودار قُتل، وتولى بدلاً منه ابن أخيه أرغون بن أباقا خان بن هولاكو[٨٩]، وذلك دون أن يعلم بهذه التطورات الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته[٩٠].

وبعد أن استراح السلطان المنصور قلاوون ثلاثة أيام، تم استدعاء الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته للمثول أمام السلطان المنصور قلاوون[٩١].

اهتم السلطان المنصور قلاوون بهذه المقابلة اهتمامًا كبيرًا، فقد أراد أن تكون رسالة إلى مغول فارس تعبر عن قوة دولة المماليك في مصر والشام، فيشير المؤرخون

---

(٨٥) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٤-١١٥.

(٨٦) ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٩.

(٨٧) يقول النويري : " وكان جُلّ توجهه إلى الشام، بسبب رسل السلطان أحمد ". انظر : نهاية الأرب في فنون العرب، الجزء ٣١، تحقيق: الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص١١٩.

(٨٨) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج٢، ص٥٤؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٢.

(٨٩) تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٥-٦.

يذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن السلطان قلاوون علم بوفاة أحمد تكودار، عند وصوله إلى غزة وهو في طريقه إلى دمشق. انظر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٨.

(٩٠) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٨.

(٩١) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.

إلى أنه ألبس ألفا وخمسمائة من مماليكه أقبية أطلس خُمر مطرزة، وكلفتاة زركش، وحوائص ذهب، وأشعل بين يديه ألف وخمسمائة شمعة حمل كل مملوك شمعة(٩٢). ثم أمر بإدخال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو ورفاقه(٩٣).

ويصف الكاتب والمؤرخ المعاصر لتلك السفارة شافع بن علي، هذه المقابلة بقوله : " جلس مولانا السلطان على كرسي سلطانه في صورة لا شك أنها أحسن صورة، وهيئة تدهش ذوي النظر، وقد تجملت خواص مماليكه بأحسن مدخرها من الملابس "(٩٤). كما وصف شافع بن علي أيضًا هيئة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن عند مقابلته السلطان المنصور قلاوون، فقال : " ودخل هذا الشيخ في هيئة الفقراء، معممًا بفوطة مرخاة، لها عذبة بدلقٍ، طوى كُميُه وجمجم "(٩٥).

ويبدو أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اعتقد أنه بارتداء هذه الملابس، وبهذه الهيئة سيجعل السلطان المنصور قلاوون ومن حوله من حاشية يعتقدون في كراماته، وعلى حد قول محي الدين بن عبدالظاهر فإنه " يستخف عقولاً مثل تلك العقول "(٩٦).

وفي نفس الوقت فإنه أراد ألا يتبع ما كان معمولاً به في مثل تلك الحالات، ويقدم للسلطان المنصور قلاوون ما يستحقه من الاحترام والتقدير، ويقول محي الدين بن عبدالظاهر، الذي كان حاضرًا تلك المقابلة : " فُرسم له بتقبيل الأرض، فأبى كبرًا منه

---

(٩٢) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، ص١٠٠.
(٩٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٢-٧٢٣.
- أقبية : جمع قباء، وهو ثوب ذو أكمام ضيقة، اختلفت أشكاله حسب طبيعة الأماكن والبلاد التي استخدمته. انظر: ماير : الملابس المملوكية، ترجمة :صالح الشيتي، القاهرة د.ت، ص٢٥.
- كلفتاه : هي القلنسوة. انظر : ماير : الملابس المملوكية، ص٣٠-٣١.
- حوائص: المفرد حياصة، وهي ما يشد في الوسط. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٤.
(٩٤) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.
(٩٥) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.
(٩٦) تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.

وزهوًا "(٩٧)، فما كان من مماليك السلطان المنصور قلاوون إلا أن " أهوى به إلى الأرض حتى كادت أعضائه تتفسخ عضوًا عضوًا "، ونفس الشيء جرى مع أعضاء الوفد(٩٨).

لم يؤثر هذا الفعل الذي قام به الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته على السلطان المنصور قلاوون، فلم يعر ذلك اهتمامًا، ورحب بالشيخ ترحيبًا كبيرًا، وأمر بإجلاسه تعظيمًا لقدره(٩٩). وسمح له بالحديث هو ورفيقيه: الأمير صداغو وشمس الدين بن الصاحب(١٠٠).

وخلال هذه المقابلة قدّم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هدية إلى السلطان المنصور قلاوون، ويصفها شافع بن علي بأنها عبارة عن " صندوق لطيف مقفل، وحين فتحه السلطان وجد به دواة من فولاذ موشاة بالجوهر، ذات إطار من ذهب "، ويضيف شافع بن علي أن السلطان المنصور بعد أن وقف على ما بداخل الصندوق استحقر هذه الهدية، وأنعم بها على الفور على أحد أمرائه(١٠١).

ويبدو أن الهدية السابقة قدمها الشيخ كمال الدين من عِنده، أما هدية السلطان أحمد تكودار، التي قدمها بعد ذلك الشيخ كمال الدين فكانت: "تحفًا منها نحو ستين حبل لؤلؤ كبارًا، وحجر ياقوت أصفر زنته ما ينيف على مائتي مثقال، وحجر ياقوت أحمر، وقطعة بخلش زنتها اثنان وعشرون درهمًا "(١٠٢).

وبعد أن تم تقديم الهدايا، قُدم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن للسلطان المنصور قلاوون الرسالة التي حملها من السلطان أحمد تكودار، ثم سمح له السلطان المنصور بالتحدث، وأنصت له جيدًا، ثم سمع لأعضاء السفارة بالعودة إلى مقر إقامتهم بقاعة

---

(٩٧) تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.

(٩٨) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.

(٩٩) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.

(١٠٠) العيني : عِقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٧.

(١٠١) الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ص١١٦.

(١٠٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

الرضوان[١٠٣].

وتعتبر رسالة أحمد تكودار التي حملها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هي الرسالة الثانية[١٠٤]، مؤرخة في شهر ربيع الأول عام ٦٨٢هـ/ يونيه ١٢٨٣م في مدينة تبريز، ويوضح تكودار في هذه الرسالة تمسكه بالإسلام، وما يدعو إليه هذا الدين من خلق جميل، وأهم ما فيه هو الدعوة إلى السلام، ونشر الطمأنينة بين البشر، خاصة بين الطائفة الإسلامية، على حد تعبير أحمد تكودار، وتشير الرسالة إلى أن مملكة جنكزخان أوشكت على الضياع والسقوط، وزوال البهجة، وذلك بسبب الخلاف والنزاع الذي حدث بينهم وبين جيرانهم. ولذلك فإن السلطان أحمد تكودار يريد أن يستبدل بذلك النزاع الوئام والاتفاق، ويمحو الأحقاد بإقامة السلام، وأن النزاع القديم لا محل له، لذلك أرسل رُسله الذي عبر عنهم بالفارسية بـ " الإيلجية "، لإقامة هذا السلام، وذلك حتى تسكن الفتن وتزال الخلافات، حقنًا لدماء المسلمين.

كما ذكر أحمد تكودار في رسالته، أنه أرسل سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بناءً على طلب السلطان المنصور قلاوون، وذلك على الرغم من أنه لا يحتمل بُعد الشيخ كمال الدين عنه، لما يقدمه له من استشارات، والاستعانة به في كافة الأمور، وعلى حد تعبير أحمد تكودار : " هو لنا في أمور الدين نعم العون، ... وأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى "، كما تحمل الرسالة أيضًا تحذير أحمد تكودار للسلطان المنصور قلاوون، من الانقياد وراء أهل الشقاق الذين لا يريدون إقامة سلام بين الدولتين فيقول : " فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم "، ويتمنى أحمد تكودار في ختام رسالته، ألا يتخذ السلطان المنصور قلاوون قرارًا بعكس إرادة أحمد تكودار، الذي يخطب وده، ويريد إقامة السلام بين الجانبين[١٠٥].

---

(١٠٣) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٦.

(١٠٤) راجع نص هذه الرسالة عند محي الدين عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٩-٧١؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٧-٣٠٠، الملحق رقم ٤.

(١٠٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٩-٧١.

وقد استدعى السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، هو وأعضاء السفارة، لمقابلته والتحدث معه مرة أخرى، ثم مرة ثالثة، حتى " استوعب ما عندهم من أخبار، وما وردوا به من الرسائل "، على حد قول ابن الفرات(١٠٦). وفي اللقاء الثالث أخبر السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بمقتل تكودار، وتولية أرغون بن أباقا خان عرش دولة مغول فارس(١٠٧).

كان لخبر مقتل السلطان أحمد تكودار وقع سيء على أسماع أعضاء السفارة، وخاصة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، لدرجة أن شافع بن علي يقول : " فأسقط في يديه، وأغمى عند سماع هذا الخبر عليه "(١٠٨)، وهذا بطبيعة الحال لعلمه بأن دولة سلطانه قد ولت بمقتل أحمد تكودار.

كما أن السلطان المنصور قلاوون أصدر أوامره بأن ينقل الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأعضاء سفارته، من قاعة الرضوان بقلعة دمشق، إلى بعض قاعات القلعة الأخرى، ويتم التحفظ عليهم، وتقلل النفقات المخصصة لهم، بحيث جُعل لهم فقط ما يكفيهم، كذلك أصدر أوامره، بأن يتسلم رجاله كل ما معهم من ذهب، وما عساه من هدايا يكون قد أرسلها أحمد تكودار ولم يسلموها له. وقرن السلطان المنصور القول بالفعل، فأرسل لهم الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الاستادار، الذي اشتهر بالصرامة والقسوة، لتنفيذ تلك التعليمات(١٠٩).

---

(١٠٦) تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٦.

(١٠٧) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

قتل أحمد تكودار في ليلة الخميس ٢٦ جمادي الأولى عام ٦٨٣هـ/ ٢٣ أغسطس ١٢٨٣م، وعن ظروف قتله، انظر : الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص١١٨-١٢١؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١، ص٧٢.

(١٠٨) الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، ص١١٦.

(١٠٩) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

- الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، كان مملوك عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام، ثم صار إلى المنصور قلاوون، تولى نيابة الإسكندرية ثم شد الدواوين بدمشق، ثم تقلد عدة مناصب أخرى

وبالفعل توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى مقر إقامتهم بقلعة دمشق بقاعة الرضوان، وأمرهم بجمع حوائجهم وأمتعتهم للانتقال إلى قاعات أخرى، وعند انتقالهم أصدر أمرًا بتفتيشهم تفتيشا دقيقًا، فعثر معهم على مجموعة كبيرة من قطع الذهب واللؤلؤ، وغير ذلك من المجوهرات، فأخذت منهم، وكان من بين الذي وجدوه سبحة لؤلؤ تزيد قيمتها عن مائة ألف درهم كانت في يد الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، فأخذت منه(١١٠).

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بذلك، وإنما تبع ذلك بأن أصدر أمره باعتقال أعضاء هذه السفارة، غير أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يحتمل تلك الصدمات التي حدثت له، من مقتل السلطان أحمد تكودار، ثم اعتقاله بدمشق، وأخذ كل ما كان معه من مجوهرات، فلم يلبث أن مات في يوم الجمعة ٢٨ رمضان عام ٦٨٣هـ/٩ ديسمبر ١٢٨٤م(١١١). فما كان من السلطان المنصور قلاوون إلا أن أصدر أمره، بموارة جثمانه، ودفنه بمقابر الصوفية بدمشق(١١٢).

أما أعضاء السفارة ومن معهم من الحاشية والغلمان، فتقرر اعتقالهم مدة، ثم أطلق سراحهم بعد ذلك، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم(١١٣). فيما عدا الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب، فقد نقل إلى قلعة الجبل بمصر، حيث اعتقل بها مدة ثم أفرج عنه، وتولى

بعد وفاة المنصور قلاوون، وصفه ابن حجر العسقلاني " بأنه كان مهابًا ذو صرامة "، توفى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٤.

- الأستادار : إحدى وظائف عصر المماليك، يكون شاغلها من أرباب السيوف، ويتولى = = التحدث في أمر بيوت السلطان من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠.

(١١٠) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

(١١١) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٦-١١٧.

(١١٢) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، ج٢، ص٥٤.

(١١٣) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٧.

بعد ذلك نيابة دار العدل بالديار المصرية(١١٤).

لم يلبث السلطان المنصور قلاوون أن غادر دمشق عائدًا إلى الديار المصرية، بعد أن قضى بها ثلاثة أيام فقط، حيث لم تطل إقامته بها، لأنه لم يحضر هذه المرة إلى دمشق إلا لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تلك السفارة التي لم تحقق شيئًا من النجاح، وانتهت بالفشل(١١٥).

(١١٤) ابن الفرات: تاريخه، ج٨، ص٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

- يقول عنه ابن تغري بردي : " الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعيد بن التيتي الآمدي، أحد الأمراء، ونائب دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيسًا فاضلاً ". توفى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م. انظر : النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢١٧.

(١١٥) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٤؛ العيني : عقد الجمان، ج٢، ص٣٢٢.

خاتمة

ويتضح من العرض السابق أن: السياسة العدائية التي اتبعتها الدولة الإيلخانية مع دولة المماليك أخذت تتغير، بعد أن اعتنق السلطان أحمد تكودار الإسلام، وحاول إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، إلا أن شك الأخير في نوايا مغول فارس أدى إلى عدم عقد ذلك السلام. وأن هذا الشك جعله يتخوف من سفارات السلطان تكودار، مما دفعه إلى أن يتخذ الحيطة والحذر ما يساعد على عدم وقوف هذه السفارات على أحوال دولة المماليك، وعدم احتكاكهم بأحد من أمراء وأهالي مصر والشام.

وفي نفس الوقت؛ فإن السلطان المنصور قلاوون حاول إظهار قوة دولته، وأنه سوف يرد الصاع صاعين، إذا فكر مغول فارس في الاعتداء على ممتلكات المماليك المجاورة لهم. كما أنه أظهر قوة وأبهة سلطنة المماليك لسفراء السلطان أحمد تكودار حتى ينقل هؤلاء السفراء ما تتمتع به دولة المماليك من قوة، وذلك حتى لا يفكر قادتهم في الإغارة على أراضي سلطنة المماليك.

كما أوضحت هذه السفارة ما قام به السلطان أحمد تكودار، خان مغول فارس، من إصلاح لمختلف المساجد والمدارس التي خُربت ببغداد، والإنفاق عليها بسخاء، واستعداده للقيام بالأعمال التي تخدم الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء، وأنه يعمل من أجل نشر الأمن والأمان والسلام الذي يدعو إليه الإسلام.

غير أن وفاة السلطان أحمد تكودار أدت إلى فشل هذه السفارات، وعدم تحقيق السلام المنشود.

الملحق الأول

رسالة السلطان أحمد تكودار إلى أهالي بغداد[١١٦]

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وإنّا جلسنا على كرسي المُلك، ونحن مسلمون. فيتلقّون أهل بغداد هذه البشرى، ويُعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البرّ ما كان يُعتمد في أيام الخلفاء العباسيين. ويرجع كلّ ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية. وأنتم يا أهل بغداد مسلمون. وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبرح هذه العِصَابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة. وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح، ورسول صحيح. وربّ واحد أخذ فَرْد صَمَد. فتطيّبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها.

(١١٦) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٥.

الملحق الثاني

الرسالة الأولى للسلطان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون(١١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال قا أن، فرمان أحمد إلى سلطان مصر:

أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصِبا وريعان الحداثة، إلى الأقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات السلام، بصدق نبوّته، وحُسْن الاعتماد في أوليائه الصالحين من عباده في بريّته. "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام". فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى بعد أبينا الجيّد وأخينا الكبير نوبة المُلك إلينا، فأفاض علينا من جلايب ألطافه ولطائفه، ما حقّق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه. وجلا هذي المملكة علينا. وأهدي عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك – وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء – جميعُ الإخوان والأولاد والأمراء الكبار، ومقدّموا العساكر وزعماء البلاد. واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في إنفاذ الجمّ الغَفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برُحبها من كثرتها، وملأت الأرض رُعبًا لعظيم صولتها، وشديد بطشتهم إلى تلك الجهة، بهمّة تخضع لها شُمّ الأطواد وعزمة تلين لها صُمّ الصلاد. ففكرنا فيما تمخضت زُبدة عزائمهم عنه. واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه. فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام. وألا يصدر عن أوامرنا – ما أمكننا – إلا ما يوجب حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار زُخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيمًا لأمر الله، وشفقة على خلق الله. فألهمنا الله – تعالى – إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة. وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه: من تقديم ما يُرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء. وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال، إلا بعد

(١١٧) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦-١٠.

إيضاح المحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحُجة. وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما ظهر لنا به وجهُ النجاح. إذ كارُ شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين، عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين. فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وانفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة / الزاهرة، ليعرفاهم طريقتنا.

ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا. ويبينًا لهم أننا من الله على بصيرة، وأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتَّبع الحق وأهله، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافَّة بما دعانا إليه: من تقديم أسباب الإحسان، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال فكل يوم هو في شأن. فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحُجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا، مما اشتهر خبره، وعمّ أثره، فإننا ابتدأنا - بتوفيق الله تعالى - بإعلام أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره تقديمًا. وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيمًا. وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عمّا سلف. وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع البر والرُبُط الدوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها لشروط واقفيها، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استُحدث عليها، وألا يغير أحد ما قُرِّر أوّلا فيها. وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها، وتأمين سُبلها وتسيير قوافلها. وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحَرَّمنا على العساكر والقراغول والشحاني في الأطراف التعرّض بهم في مصادرهم ومواردهم، وقد كان صادف قراغولنا جاسوسًا في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يُهلك، فلم يُهرَق دمه لحُرمة ما حرّمه الله تعالى، وأعدناه إليهم. ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنُساك وأهل الصلاح

فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم منْ قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردُّد التجار وغيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذ الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلُّف والتصنّع عرية. وإذا كانت الحالُ على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرَّة التي كانت موجِبة المخالفة، فإنها كانت بطريق الدين، والذب عن حوْزة المسلمين : فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النُورُ المبين. وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن تحرّى الآن طريق الصواب، فإن له عندنا الزُلفى وحسن مآب. وقد رفعنا الحِجَاب، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحرّمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها، لنرضي بها الله والرسول، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول. وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمةُ الاختلاف والغُمّة. فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، ويعفي عن سالف الهَنات والجرائر، فإن وفّق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعُروة الوُثقى، وسلوك الطريقة المُثْلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتُغمَد السيوف الباترة، وتحل الكافة أرض الهوينى وروض الهُدُن، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهُون. وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهبُ الرحمة، ومَنَع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُذْرَنا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا، والله الموفّق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده.

الملحق الثالث

رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار

رداً على رسالته الأولى[١١٨]

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى بإقبال دولة السلطان الملك المنصور:

كلام قلاوون إلى السلطان أحمد:

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحق منهاجا، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناسُ في دين الله أفواجا. والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضّله الله على كل نبيّ، نَجّى به أمّته، وعلى كل نبي ناجى، صلاة تنير ما دجا وتُنير مَن داجَى. فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقّي بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم : من دخوله في الدين، وخروجه عمن خلّف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمعلم المعلم. والحديث الذي صحّح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحُ الحديث ما روى عن مسلم. وتوجّهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت.

وحصل التأمُل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النيّة في أول العمر، وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية، بالقول والعمل والنية. فالحمدُ لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقام والمقام، وثبّت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام. وأما إفضاء النوبة في المُلك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه، وتوقله الأسرة التي طهّرها إيمانه، وأظهرها سلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدّق المبشّرات له من كرامة أولياء الله وعُبّاده.

---

(١١٨) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٠-١٦.

وأمّا حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدّمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قور يلتاي الذي تتقدح فيه زبدة الآراء، وأنّ كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنه فكّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفًا لما في ضميره؛ إذ قصده الصلاح، ورأيه الإصلاح، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك المتقي، المشفق من قومه على من بقي، المفكر في العواقب، بالرأي الثاقب، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرّة، لكانت تكون هذه الكرة هي الكرّة. لكن هو كمن خاف مقام ربه نهى النفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضلّ ولا فعل من غوى. وأما القول منه: إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة، وتركيب الحُجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحُجته المتركبة. على من غدت طواعيته عن سلوك هذه الحجة متنكبة. فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا، إنما هو على الحقيقة لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذُّحُول، وبارتفاع المنافرة، تحصل المضافرة. فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان، وجيران بجيران في كل أرض، وأما ترتيب هذه القواعد الجمّة على إذكار شيخ الإسلام، قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن – أعاد الله من بركاته – فلم نُر لولي قبله كرامة كهذه الكرامة، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة، حتى تتم شرائط الإيمان، ويعود شمل الإسلام مجتمعًا كأحسن مما كان. ولا يُنكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود، أنّ كل حق ببركته إلى نصابه يعود.

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي أحواله وخطَرات خاطره ومنتظرات ناظره. ومن كل ما يُشكر ويحمد، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد.

وأما الإشارة إلى النفوس إن كانت لها تطلع إلى إقامة دليل، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره، في موارد الأمر ومصادره، ومن العدل

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك. فهذه صفات من يريد لملكه الدوام. فلما ملك عدل، ولم يل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل. على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة، فهي واجبات تؤدي، وقربات بمثلها يبدى، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر، أو له يدخر. بل إنما تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها. وقد كان والده فعل شيئًا مع الملوك السلجوقية وغيرهم وما كان أحد منهم يدينه بدين، ولا دخل معه في دين. وأقرّهم في ملكهم، وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألا يرى حقًا مغتصبًا ويأبى إلا ردّه، ولا باعا ممتدًا بالظلم ويرضى إلا صدّه. حتى إن أسباب ملكه تقوى، وأيامه تتزيّن بأفعال التقوى.

وأمّا تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرّض إلى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضًا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب، وإلى مقدّمي العساكر بأطراف تلك الممالك وإذ اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام، وترتب عليه جمع الأحكام.

وأمّا الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، أن بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجمًا بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه، وزند من ذلك الطرف كان قدحه. وكم من متزي بفقير من ذلك الجانب سيّروه، وإلى الاطلاع على الأمور سوّروه. وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف، ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف. وأما الإشارة إلى أنّ باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف، وتدرّ بها الخيرات الأخلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح إلى السلم وما حاد ولا حادّ. ومن ثني عنانه عن المكافحة، كان كمن مدّ يد المصالحة للمصافحة. والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بدّ من أمور تبني عليه قواعده، ويعلم من مدلوله فوائده. فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات

لازمة يعمر بها كل معنى ومعلم، إن تهيأ صلح أو لم. وثم أمور لابد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهود تنظم. قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس. وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على السبيل ينهج. بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهود ترعى، وإفادات تستدعى. وما برح الفضل للأولوية وإن تناهي العدد للواحد الأول، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروي وتأول :

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب، سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين، وانتظام عقده بسلك المؤمنين، وما بسطه من معدلة وإحسان، مشكورة بلسان كلِّ إنسان فالمنة لله عليه في ذلك فلا يتُبها منه بامتنان. وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : [قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان].

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء، ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل. فالجواب أن ثمَّ أمورًا متى حصلت عليها الموافقة، ابتنى على ذلك حكمُ المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا. فكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة، وما تمَّ أمرُ هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحُسْن الوداد، وجميل الاعتضاد، وكبت الأعداء والأضداد، والاستناد إلى من يشتد المر به عند الاستناد فالرأي إليه في ذلك.

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب عن ذلك أنه

كف كف العُدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء، وحقنت الدماء وما أحقه بألا ينهي عن خُلق ويأتي مثله، ولا يأمر ببر وينسى فعله، وقنغر طاي بالروم، وهي بلاد في أيديكم وخراجُها يجبي إليكم، وقد سفك فيها وفتك، وسبي وهتك، وباع الأحرار، وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار.

ومن المشافهة أنه حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات، فيعين مكانًا يكون فيه اللقاء، ويعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرّة ومرّة ومرة قد عاف مواردها منْ سلم من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم. فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدّر. ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا من له إلى غير ذلك لَفتة. وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة. والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة.

الملحق الرابع

الرسالة الثانية للسلطان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون[119]

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى بإقبال قا آن. فرمان أحمد. إلى سلطان مصر. أما بعد فالذي يجب عل العاقل بذل الجُهد : وترك الإهمال والتواني، واستنفاد الوسع في اقتناء الذكر الباقي الذي هو العمر الثاني، وقد انحصر الثناء الجميل والثواب الجزيل في التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، واستعمال العدل والنصفة المندوب إليها. وأي عدل ونصفة أعظم قدرًا، وأعلى ذكرًا في سائر الأصقاع والممالك، من إنقاذ الأنفس بجريعة الذقن من المُهالك وإطفاء نائرة أكباد حرَّى، وقلوب جرحى، ومن أحياها فكأنما أحيا. ولما لم يكن لنا بفضل الله العظيم، وإحسانه الجسيم افتقار ولا بُغية، ولم يبق في ضميرنا إرادة ولا منية، سوى رفاهية العالم، وطمأنينة بني آدم، خصوصًا الطائفة الإسلامية، وأهل الملة الحنيفية أنفذنا الألجية إلى إخواننا : نُوقاي أقا وتودامنكو وغيرهما، ونبهناهم على أن المُلك العقيم الذي ادخره لنا جدُنا جتكيزخان وآباؤنا الكرام بعد الصبر على المشقة في تحصيله والمقاساة، وتحمُل أعباء الشدائد والمعاناة، بمجرد النزاع والخصام، وخلاف الوفاق واختلاف الكلام قد أشرف على شُحوب بهجته وبهائه، وتكدير رونق صفاء مائة. والآن آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح، ونتعوَّض عن غيهب ليلة النفار والنقار تباشير الصبح، وتغمد السيوف البواتر التي استُلَّت من الأغماد، ويعفى أثر الهرج والمرج ونعرض عن الأغراض والأحقاد ويتفق الجميع على القيام بواجب كوج قان وخدمته، والالتزام بواجب طاعته، والاشتمال على ما ينوط بمصلحته. وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة، ورأى من حنكه دوران الفلك والتجربة تبيَّن لهم أن هذا الرأي محض شور لا يشوبه غش ولا مداهنة، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة المناصحة. فقالوا: إن الذي وقع من الخلاف كان بين من قد قضى نحبه من الآباء والأسلاف ولم تجر بيننا

---

(119) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦٩-٧١.

مخاشنة، ولا وقع خلف ولا مشاحنة، فعدنا إلى ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام، من الاتفاق والائتلاف وحفظ العهد والذِمام. والتزمنا ألا ينحل عقد هذا النظام. والله الموفق للرشاد والهادي إلى السداد. ولما يفرغ البال من إصلاح ذات البين، واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين، أنفذنا الأيلجية بعد النية الخالصة لله وللرسول تسكينًا للفتن الثائرة، وإطفاء للهيب تلك النائرة، وحقنًا لدماء المسلمين، وسد لثلمة الدين. فكانت خلاصة جوابه وزبدة خطابه عند وقوفه على ما كُتب به إليه أنه : لو أنفذ أبونا شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن لكنت أسكن إلى أمانته وأخلد إلى ديانته وأسمع منه ما لم يحتمل إيداعه الكتب وأشافهه بما عندي من المصالح وأخاطبه بما ينطوي عليه ضميري للمسلمين من النصائح. هذا وغير خاف أنه يعز علينا بعاده، ويوحشنا بينه وفراقه. وربما اتصل به ما نستفيده من حسن معاشرته، وجميل مصاحبته. وحيث كان التماسه موجبًا لإشاعة الخير العام، وإذاعة شعار الإسلام، رضينا بتوجُّهه إلى جهته، إسعافًا لمقترحه، وجعلناه في اتخاذ العهد واليمين، بدلاً عن شمالنا واليمين، ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون، إذ هو لنا في أمور الدين نعم العَون. والتزمنا بكل ما عساه يسنده إلينا، وبما يرى ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى. وربما شرذمة من الجهّال (من الجهتين) من أهل الشقاق والنفاق لا تجتمع كلمتهم على الوفاق، تنافى طبائعهم الصلح والاتفاق، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره، لاختلاف ملّتهم، وطمعا في إدراك بغيتهم. فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم، ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتماده على الوجه الجميل بحيث تنحسم فيه مواد القال والقيل، لا ينبغي أن تكون الحال فيه بالضد مخصوصًا في الخطب الإدّ، والأمر الجدّ.

" الحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله " وكتب في أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة. بمقام تبريز.

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير : علي بن محمد (ت. ٦٣٠هـ) :
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨هـ) :
  - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م.
- ابن أيبك الدوداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٧٣٦هـ) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
- ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق : فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
  - المقتفي في كتاب الروضتين المعروف باسم : تاريخ البرزالي، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦م.
- بيبرس الدوادار : ركن الدين بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ) :
  - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق : زبيدة عطا، القاهرة د.ت؛ تحقيق : دونالد رتشاردز، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) :
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٥م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٨م.

- الجويني : علاء الدين عطا ملك (ت ٦٨٠هـ) :
• تاريخ فاتح العالم، جهان كشاي، ترجمة : السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :
• تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م.
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
• الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت.
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
• العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٨٤هـ.
- خواندمير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
• دستور الوزراء، ترجمة: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.
- الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
• تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.
- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير بن موفق الدولة (ت ٧١٨هـ) :
• جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.
- شافع بن علي : ناصر الدين شافع السعدي الرواحي (ت ٧٣٠هـ) :
• الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :
• فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٠هـ) :
• تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين،

نشر عزت العطار، بيروت ١٩٧٤م.

- ابن العبري : أبو الفرج بن هرون (ت ٦٨٥هـ) :
  - تاريخ مختصر الدول، عني بتصحيحه الأب أنطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م.
- ابن العميد : الشيخ جريس بن العميد (ت ٦٧٢هـ) :
  - أخبار الأيوبيين نشر Claud Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Paris □□□□□□□□□.

- العيني : بدر الدين أبو محمد (ت ٨٥٥هـ) :
  - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م.
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :
  - المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.
- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٨٠٧هـ) :
  - تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت د.ت.
- القزويني : زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ) :
  - آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صار، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :
  - الحوادث المعروف باسم : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :
  - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.
- ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل : (ت ٧٧٤هـ) :
  - البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥م.
- مفضل بن أبي الفضائل : (توفى بعد عام ٧٥٩هـ) :
  - النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشيه Blochet في :

Patrologia Orientales, Paris ����.

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.
- النسوي : محمد بن أحمد (من علماء القرن السابع الهجري):
  - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ) :
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء التاسع والعشرون، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، الجزء الواحد والثلاثون، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ):
  - تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم: تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
  - معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- اليونيني :
  - ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات بالهند - حيدر آباد ١٩٦٠م.
  - حوادث أعوام ٦٩٧-٧١١هـ، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثانياً : المراجع :

- السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨١م.
- حامد زيان : سقوط بغداد، مقال منشور بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م.
- خليل أدهم : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م.
- رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥٢م.
- سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م.
- علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- ماير : الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، القاهرة د.ت.
- محمد أسد صفا : جنكزيخان، بيروت ١٩٨٨م.
- محمد دبر سياقي : السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة أحمد الخولي، القاهرة ٢٠٠٥م.
- Howorth : History of the Mongols, London □□□□.

آل برهان ودورهم السياسي والعلمي في بخاري تحت حكم القراخطاي في القرنين (٦-٧هـ/١٢-١٣م)

د. الشيماء سيد كامل
مدرس بكلية دار العلوم جامعة المنيا

آل برهان من الأسرات الحاكمة التي تبوأت مكان الصدارة في الحياة الدينية في بخارى[١]، فإليها ترجع رئاسة المدينة ورئاسة المذهب الحنفي[٢] فيها، ارتبطت تلك الأسرة في تاريخ المشرق بالدول الحاكمة التي توالت علي حكم بخارى، كالدولة القراخطائية[٣] التي يطلق علي حاكمها لقب الكورخان' وأن لفظ كورخان لقب يطلق علي ملوكهم وليس من أسمائهم[٤].

وهي الدولة الوثنية التي يعتنق حكامها المذهب المانوي، ويحكمون من مدينة برسخان[٥] علي حدود الصين، ثم حكموا من مدينة بلاساغون[٦]، وكذلك ارتبطت هذه الأسرة بملوك الدولة الخوارزمية الذين حكموا من إقليم خوارزم[٧].

أطلق علي أسرة آل برهان في التاريخ اسم آل مازة، وهم يعدون من الأسر الكبيرة في بخارى، والظاهر أن أول أفراد هذه الأسرة التي اشتهرت به، وإليه تنسب هو: الأمام برهان الدين عبدالعزيز عمر بن من مازة البخارى الحنفي[٨]، الذي ظهر ببخارى في حدود سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، ولُقِبَ كل أفراد هذه الأسرة بلقب برهان الدين[٩]، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالبذل والجود والكرم والرياسة والمجد والعظمة، وصارت رئاسة بخارى منهم أبا عن جد، فكانوا يعدون ملوكها ورؤساءها، وخاصة في الفترة الأخيرة من حكم القراخطاي[١٠].

ويرجع القزويني[١١] نسبهم إلي الخليفة عمر بن عبدالعزيز' وقد توارث أفراد هذه الأسرة العلم كابراً عن كابر، فكانت إليهم رئاسة جماعة الحنفية، التي تعتبر المذهب الرئيسي لأهالي بخارى، فكان يتبعهم من العلماء قرابة الأربعة آلاف فقيه[١٢]، وقد تميز آل

برهان بأنهم فحول الحنفية المشهورين بالفضل والنبل، ولهم التقدم عند الملوك والسلاطين(١٣)، وهم الذين اتخذوا لقب "صدر جهان" لقباً لرؤسائهم، بمعني صدر العالم(١٤).

ولابد أن ننوه هنا بمكانة مدينة بخارى وكيفية فتح العرب لها، وما ترتب علي ذلك من نشر الدين الإسلامي بين ربوعها، فبخارى لها مكانة جغرافية مميزة لقربها من خراسان(١٥)، تقع على نهر جيحون، وهي علي شاطئ نهر زرفشان مباشرة، وهو ما يعرف بنهر الصغد" هذا وقد قيل إن نشأة بخارى جاء نتيجة لذوبان الثلوج من الجبال بناحية سمرقند(١٦)، فكونت الماء الكثير الذي يحمل الطمي إلي ناحية " بتك وفتك "، إلي أن طمر ذلك الموضع فتمهدت الأرض، وصارت يقال لها بخارى(١٧)، وبذلك تدفق الناس عليها من ناحية تركستان(١٨)، وهي ترجع من حيث النشأة إلي ما قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، وأن الإسكندر المقدوني عندما قصد الصغد أقام مدينتين هناك وربما تكون بخارى أحداهما، وقد أسس فيها ما يطلق عليه الرساتيق، وهي المواضع التي عرفت ببخارى، والتي كانت مقر أميرها وحاكمها(١٩).

ويصف بعض المؤرخين(٢٠) بخارى بأنها تمتاز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب، لقربها من المناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء لفترة قصيرة، الأمر الذي جعل أهلها ينتقلون إلي السهول والوديان القريبة التي تتوسطها المدينة نفسها.

أولاً : انتشار الإسلام علي المذهب الحنفي في بخارى :

انتشر الإسلام بين أهالي بخارى علي المذهب الحنفي بصفة خاصة، وبين أهالي ما وراء النهر بصفة عامة، ونستطيع القول: إن بداية انتشار الإسلام بدأت مع بداية الفتوحات الإسلامية(٢١) لمنطقة بخارى في عصر الدولة الأموية(٢٢)، حيث أتم القائد قتيبة بن مسلم الباهلي فتوحاته، واستقرت القبائل العربية في ربوعها، وأسهم ذلك في خلق فرصة أمام هؤلاء البخاريين ليختلطوا بالمسلمين اختلاطاً مباشراً، فتعارف كل عنصر علي

تقاليد وعادات الآخرين، مما كان له أكبر الأثر في ولائهم للدين الإسلامي واعتناقهم له، فقد سلك الفاتحون سياسة التسامح التي اتبعوها مع حكام بخارى من الدهاقين[٢٣]، لكي يؤلفوا قلوبهم للدين الجديد، هؤلاء الدهاقنة كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة في بخارى قبل قدوم العرب، تلك الطبقة كانت قد ارتبطت بعلاقات ودية وتحالفات مع بلاد الصين، واستغلت الولاء للصين في كبح الحركات الشعبية، وتثبيت نفوذهم وسلطانهم في بخارى، وبذلك انتقلت عن طريقهم العبادات الوثنية والأصنام التي كانوا يعتنقونها في تلك الآونة[٢٤].

لذلك تمتعت هذه الطبقة بمكانة متميزة قبل الإسلام، سواء من ناحية الدين أو النواحي السياسية والحكم، وامتلاك الجيوش العسكرية، وارتفعت مكانتهم وانتشر سلطانهم، حتي صارت أسماؤهم تقرن باسم الإمارات والمدن القائمين فيها، فكان منهم دهقان البوزجان، ودهقان الفارياب، ودهقان مرو الروذ، ودهقان مرور[٢٥]، هذا بالإضافة إلي ما تمتعوا به من نفوذ وثروات في بخارى، لهذا فقد حرص القائد قتيبة بن مسلم علي نشر الدين الإسلامي بين تلك الطبقة الحاكمة، كما حرص علي إقامة الصلاة وبناء المساجد، مثل المسجد الجامع بالقرب من قلعة بخارى، إلي جانب مساجد صغيرة متعددة داخل نطاق المدينة[٢٦]، وقد أطلق علي المسجد الجامع اسم "مسجد قتيبة"، كما خلف ببخارى جماعة من المسلمين لتعليم مبادئ الإسلام، كان منهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير[٢٧].

اتبع قتيبة سياسة جديدة في تعامله مع أهالي بخارى وهي: تسكين القبائل العربية بين أهالي البلاد، فقد قسم المدينة إلي عدة محال، منها محلة الوزير ومحلة القصر وغيرها، وبذلك يتاح للعرب أن يطلعوا علي أفعال وأعمال البخاريين الذين كانوا يدخلون الدين الإسلامي في الظاهر، ويعودون إلى ديانة الأوثان في الباطن[٢٨]، وبذلك نجح في جذب العديد من الأهالي إلي الدين الجديد، هذا العمل الذي صنعه قتيبة كان من الصواب، بحيث صار أمراً واقعاً، فيظل أهالي بخارى مسلمين بالضرورة، وشيئاً فشيئاً أظهر الكثير

منهم إسلامهم والتزموا بالأحكام الشرعية، وأزالوا آثار الكفر ورسم المجوسية، وانضم الكثير منهم للجيوش العربية الفاتحة لمناطق الترك[٢٩].

هذا إلي جانب نشر اللغة العربية ؛ التي صارت اللغة الرسمية والأدبية في بخارى[٣٠] والتي يكتب بها في الدواوين وينطق بها المثقفون والحكام، ولأنها لغة العبادة في الدين الإسلامي؛ فكان ضرورياً أن يتعلمها كل من دخل في الإسلام ليتعبدوا بها أولاً، ويصل نفسه بحكامها ثانياً. ويلاحظ أنه بانتشار الإسلام في بخارى قد فشا فيها العلم، فصار كبار أهلها أئمة وعلماء محترفين، وأصبح فيهم أهل العلم والورع والزهد، من أمثال أبي حفص الكبير البخارى الحنفي، الذي كان يقيم بمحلة القصر، ورحل إلي بغداد وتتلمذ علي يد الإمام محمد بن حسن الشيباني، وعليه فقد ظهرت في بخارى طبقة من الفقهاء الذين اعتنقوا الإسلام علي المذهب السني، وتبوأوا مكان الصدارة في الفترة اللاحقة، وصارت بخارى بفضل علمائها وفقهائها مقصداً لطلاب العلم، الذين أقاموا حلقات التدريس في شتي العلوم الشرعية والعلمية.

ثانياً: أوضاع فقهاء الحنفية السياسي في بخارى قبل آل برهان :

لم يكن فقهاء آل برهان هم أول من تدخل في الشئون السياسية في بخارى، فقد برز دور الفقهاء في الحكم والإدارة، وكان لهم الدور المهم في تسيير شئون البلاد علي مدار تاريخ هذه المدينة، ومن أولي هذه المحاولات تدخل رجال الدين، من طبقة الحنفية، في الدولة السامانية[٣١]، حيث ساندوا الأمير إسماعيل الساماني[٣٢] عندما أرسل الخليفة المعتمد علي الله العباسي (٢٥٦ هـ : ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ م : ٨٩٢ م) رسولاً بمنشور ولاية ما وراء النهر إلي الأمير نصر بن أحمد الساماني، هذا الأمير الذي أسند إلي أخيه إسماعيل حكم بخارى نائباً عنه، ومن هنا نري دوراً بارزاً لفقهاء الحنفية بوقوفهم إلي جانب هذا الأمير وتعضيده، واستقباله استقبالاً حافلاً، وبالغوا في الترحاب به، حتي نثروا الذهب والأموال بين يديه، وأقاموا الزينات والاحتفالات، حتي عدوا يوم دخوله بخارى من أعيادهم[٣٣].

وفي حقيقة الأمر؛ فقد استجاب الأمير إسماعيل لمطالب الفقهاء ،بأن عمل علي إعلاء كلمة الدين الإسلامي ونشره خارج نطاق الدولة، فسار إلي بلده طراز(٣٤) وفتحها، وقام بتحويل كنيسة هذه المدينة إلي مسجد جامع، وتليت أول خطبة جمعة في ذلك المسجد باسم الخليفة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩هـ -٢٨٨هـ/٨٩٢ م-٩٠٠م)(٣٥)، وبذلك أصبح هذا العمل نصراً كبيراً لفقهاء الحنفية في بخارى.

هذا وقد ظهر دور الفقهاء في بخارى في الدولة السامانية أيضاً، وذلك بوقوفهم إلي جانب الأمير نصر بن أحمد برغم صغر سنه الذي لا يتعدي الثمانية أعوام، في سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، حيث سانده مشايخ بخارى وحشمها، ورفعوه علي الأعناق وبايعوه بالحكم والإمارة(٣٦) ، وبذلك استطاعوا بقوة مكانتهم التصدي لمحاولة عمه إسحاق، صاحب سمرقند، الوصول إلي الحكم(٣٧).

ومع مرور الوقت بدأ الضعف يدب في كيان الدولة السامانية، حتي وصفهم فامبري(٣٨)، بأنهم صاروا مجرد دمي -إلا نفراً قليلاً منهم-، وأصبحوا لا حيلة لهم بأيدي رجال دولتهم، وبذلك بدأ أهالي بخارى وفقائها يتطلعون إلي القضاء علي هذه الدولة العجوز، وبدأوا في الاستنجاد بالعناصر الخارجية، ومن ثم استجاب لهم العنصر التركي المسمي القراخانيين(٣٩)، الذين استجابوا لمطالب ودعوة الدهاقنة المحليين في بخارى(٤٠)، وللحقيقة قد حاول السامانيون دفع رعاياهم للذود عن ممتلكاتهم ضد الزحف الخاني، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك، وذلك نتيجة لما أعلنه الفقهاء وافتوا به "بأن الحرب لا تكون فرضاً إلا إذا أراد الكفار الاستيلاء علي بلد إسلامي"(٤١)، فكانت تلك الفتوي من الفقهاء من أهم الأسباب التي أدت إلي تثبيط همة الرعية بعدم الوقوف في وجه جيش القراخانيين، وبذلك جنوا الفائدة مضاعفة، بعد أن تمت السيطرة للقراخانيين، حيث لم يتخذوا من بخارى أو سمرقند عاصمة لدولتهم، بل صارت هذه البلاد تابعة لحكمهم في بلاساغون، وأطلق بذلك يد الدهاقنة والفقهاء في الحكم والإدارة. فلم يستطع الأمير نوح بن منصور التصدي للزاحفين(٤٢)، واضطر إلي الفرار من أنظار بغراخان(٤٣)، فعبر نهر جيحون إلي بلده آمل

الشط[٤٤]، وقد أشار بعض المؤرخين إلي أن السبب الرئيسي في عدم التصدي للقراخانيين، هو وجود فتنة داخلية في بخارى، قادها أمير الصغانيان الأمير أبو علي سميجور، الذي قام بحث بغراخان علي مهاجمة ممتلكات السامانيين، وذلك نتيجة لعدم استجابة الأمير نوح لمطالبته بمنحه ولاية خراسان ليحكمها[٤٥].

ولكن ما لبث أن توفي بغراخان، بعد أن أقام في بخارى نائباً له لحكمها، وهو أحد أمراء البيت الساماني ويسمي عبدالعزيز نوح بن نصر، ودفن بغراخان في المسجد المقام في آرتيش شمال كاشغر، وما زالت مقبرته مكاناً ومزاراً للمسافرين الأوربيين، ولم تصل إلينا أية عملة تحمل اسمه[٤٦].

وفي حقيقة الأمر؛ فإن ممتلكات الدولة السامانية قد قسمت صلحاً بين الدولة القراخانية والدولة الغزنوية، في عهد السلطان محمود بن سبكتكين[٤٧]، وأصبح للقراخانيين الأقاليم الواقعة شمال نهر جيحون بما فيها بخارى، وللغزنويين الأقاليم التي تقع جنوب النهر، كخراسان وبلاد الغور وخوارزم[٤٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بخارى استمرت في حوزة القراخانيين كولاية تابعة لحكمهم، يعين فيها حاكم تابع للخان، ويقام بها شحنة عسكرية لحماية المدينة من أي اعتداء، ولضبط الأمن بها[٤٩]، مثلما حدث في سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، عندما عين أيلك خان آخاه جعفر تكين.

وقد استمر وضع بخارى علي ذلك حتي تغيرت التقسيمات الإدارية في الدولة القراخانية نفسها، حيث انقسمت الدولة بسبب إعلان أولاد قدرخان، وهما بغراخان ويوسف طغرل خان، الحرب علي الخان شمس الملك نصر، ونتج عن ذلك أن صارت ممتلكات الخانية، في التركستان وكاشغر وبلاساغون، من ممتلكات أولاد قدرخان، وأصبح الجزء الغربي، بما فيه ما وراء النهر، من ممتلكات شمس الملك نصر، الذي أقام في بخارى وجعلها عاصمة لمملكته[٥٠] وتعتبر فترة حكمه من أزهي العصور التاريخية في بخارى

حيث ساد العدل بين الرعية، وقام بتأسيس عدة منشأة ومبان معمارية[٥١] في بخارى، مما يدل علي اهتمامه ونهوضه بها في تلك الفترة.

وإذا انتقلنا إلي نقطة أخري، في دور فقهاء بخارى السياسي قبل آل برهان، وهي فترة حكم السلطان ملكشاه السلجوقي، تلك الفترة التي تدخل فيها الفقهاء في الحياة السياسية من جديد، وقاموا بالاتصال بالسلطان لكي يتدخل في شئون بخارى الداخلية،وذلك عندما استاءوا من حاكمهم القراخاني "أحمد خان" وأفعاله وسيرته السيئة بين رعاياه، لذا فقد كتب الفقهاء لملكشاه سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم لإصلاح أحوالهم، هذا بالإضافة إلي تسييرهم أحد الفقهاء المشهورين، وهو الفقيه أبوطاهر بن علي، لكي يحث السلطان علي الإسراع بالقدوم لنجدتهم، وقد وجدت أقوال هذا الفقيه آذاناً صاغية من السلطان، فسار بجيشه في سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م، تجاه بخارى، وأنزل الهزيمة بأحمد خان وقبض عليه[٥٢] ، وبذلك فرض ملكشاه سيطرته علي بخارى، وصارت ولاية تابعة للحكم السلجوقي وخاضعة لنفوذهم.

لقد فتحت سيطرة ملكشاه علي بخارى شهيته، فتقدم إلي إقليم كاشغر لإخضاع حاكمه القرخاني، الذي أسرع لاسترضاء السلطان بإرسال رسول محمل بالهدايا والتحف، ملتمساً منه السماح بإبقائه علي حكمه، عارضاً عليه أن يزوج إحدي بناته من أبناء السلطان، في مصاهرة سياسية تقرب بين الطرفين، وتقضي علي الصراع السياسي بينهما، قائلاً : "... فلا يضرك إن بقي في الإقليم بيت من بيوت الملك القديم.. وإن اقتضي رأيك وزوجت بعض بنات مواليك لبعض أولادك، فنحن من مواليك وعبيدك..[٥٣] " ومن هنا فقد قبل حاكم كاشغر القراخاني الدخول في طاعة ملكشاه، وضرب السكة باسمه، وأقام الخطبة علي منابر جوامعه باسم السلطان، في مقابل إبقائه علي عرش كاشغر.

ولا ننسي أن نشير إلي أن أحمد خان صاحب بخارى الذي أسره السلطان ملكشاه، قد أطلق سراحه وأعيد إلي الحكم سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، بعد أن أخذ السلطان عليه العهود والمواثيق بالسير بالعدل بين الرعية، إلا أن فقهاء بخارى اعترضوا علي ذلك،

واتهموه بالزندقة وأفتوا بقتله، وذلك في سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وبالفعل تم تنفيذ اتهاماتهم له وأعدموه، وقد زاد تدخل الفقهاء في تلك المرحلة بأن قاموا بتعيين أحد أفراد البيت القراخاني مكانه في الحكم، فقاموا بتولية ابن عمه المسمي مسعود خان(٥٤)، مما يوضح إلي أي مدي وصل نفوذ الفقهاء وتحكمهم في بخارى.

كذلك كان لفقهاء العلويين دور سياسي بارز في عهد السلطان سنجر السلجوقي، فقد عمل أحد فقهاء الشيعة، ويطلق عليه اسم الأشرف محمد بن أبي شجاع، بمساندة رئيس البلدة فتنة ضد " محمد أرسلان خان حاكم بخارى(٥٥) القراخاني، الذي كان تحت يديه حكم ما وراء النهر كله، فأسند إلي ابنه نصر خان حكم سمرقند، وأقام هو في بخارى، وبالتالي عندما ثار هذا الفقيه قام بقتل هذا الابن، مما أجبر محمد أرسلان خان على الاستنجاد بالسلطان سنجر(٥٦)، وذلك في سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، فزحف السلطان علي رأس جيش كبير لنجدة الخان، ولكن ما لبث أن شعر محمد أرسلان خان بعدم الحاجة إلي السلطان، وأن ابنه الآخر الذي كان غائباً في التركستان، قد عاد مسرعاً وكفاه شر هذا الفقية العلوي، بأن تمكن من قتله ومن القبض علي رئيس البلدة وسجنه، وبذلك انتهت الفتنة في بخارى، وبناء عليه فإن الخان طلب من السلطان سنجر-عن طريق الرسل- العودة بجيشه إلى خراسان(٥٧)، مما أدي إلي تفجير الموقف بينهما، حيث أسرع السلطان بالقبض علي الخان وأسره، وعين بدلاً منه في الحكم أحد أفراد الأسرة الخانية، وهو حسن تكين(٥٨)، ولكنه ما لبث أن رأف بالخان المعزول، فأرسله إلي ابنته معززاً مكرماً(٥٩)، وهي تعتبر من الأسرة السلجوقية، فإن هذا الخان يعتبر ابن أخت السلطان سنجر.

وصفوة القول: إن فقهاء بخارى، قبل ظهور آل برهان، كان لهم دور إيجابي في التدخل في سياسة البلاد، لدرجة أنهم استعانوا بالدول المجاورة علي حكامهم، وكانوا سبباً في تدخل سلاطين السلاجقة في شئون البلاد.

ثالثاً: تصدي آل برهان للقرخطاي مع السلطان سنجر سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م:

كان أول ما وصلنا من تاريخ آل برهان وتدخلهم في سياسة بخارى: الموقف الذي وقفه رئيس طائفة الحنفية حسام الدين عمر بن برهان الدين بن عبدالعزيز بن مازة، الذي تصدي للقراخطاي إلي جوار السلطان سنجر، تلك الأسرة التي عرفت بآل برهان أو آل مازة، وهم أسرة دينية بارزة تبوأوا مكانة عالية في النفوذ الديني، فظهروا في القرن السادس الهجري في حوالي ٥٣٥هـ/١١٤١م، كوعاظ ورجال دين علي منابر بخارى[٦٠].

أما عن القراخطاي فهم الأتراك الوثنيون القادمون من شمال الصين، والذين طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تجاه الغرب[٦١]، وفي بداية خروجهم من حدود الصين تجمعوا حول مملكة كاشغر في فترة حكم أبناء قدر خان يوسف، حيث صاروا تابعين للدولة القراخانية في قسمها الشرقي[٦٢]، حتي تمكنوا من تكوين دولة لهم في حدود سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م، اتسعت فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزمية في الغرب، ومساكن المغول في الشرق، فكان شاطئ نهر جيحون حداً فاصلاً بين مملكة القراخطائية وأقاليم الدولة الخوارزمية[٦٣]، ولابد أن نشير إلي أن تجمع القراخطاي، في تلك المناطق، جاء نتيجة سماح محمد أرسلان القراخاني لبعض قبائل الأتراك القارغلية، بالإقامة في حدود دولته، وإمدادهم بالأموال سنوياً، لكي يستقروا في الدروب بين بلاده وبين الصين، وانضمام العديد إليهم من القراخطاي.

وهذا وقد تمكن أحد ملوك الصين، ويطلق عليه اسم "يي لوتاشي " من الاستقرار بين صفوف تلك القبائل، واستطاع أن يكون جيشاً كبيراً انقلب به علي الخان، فأنزل به الهزيمة[٦٤]، ومن ثم نصب "يي لوتاشي " نفسه حاكماً علي تلك القبائل، واتخذ لنفسه لقب كورخان أو غورخان، وبذلك ألغي الكورخان حكم القراخاني في بلاساغون، وتولي بنفسه الحكم[٦٥] وعلي ذلك تزايد نفوذ الدولة القراخطائية وبسطت نفوذها في المنطقة.

أما عن الصراع الذي دار بين السلطان سنجر وجيوش الخطائية في سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م في موقعة قطوان[٦٦] التي انتصر فيها القراخطائية، وقتل فيها ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، منهم إثنا عشر ألفا من أصحاب العمائم[٦٧]، منهم شهيد آل

برهان حسام الدين المعروف بالصدر الشهيد، والمولود في سنة ٤٨٣هـ/ سنة ١٠٩٠م، وهو أصولي حنفي، بلغ مرتبة الاجتهاد حتي صار مشهوراً فيها، فأقر بفضله علي كثيرين، أخذ العلم عن والده ابن برهان الدين الكبير، وأخذ عنه العلم أبو محمد العقيلي والمرغناني صاحب كتاب الهداية، ومن مؤلفاته الجامع في الفتاوي الصغري والفتاوي الكبري[٦٨] وغيرها.

وفي موقعة قطوان: قد سار الكورخان قاصداً لقاء السلطان سنجر، في نحو سبعمائة ألف من أشد عساكره، فواجه السلطان السبعين ألف فارس، ولكن أمراء سنجر لم يكونوا علي كلمة واحدة، فكانوا غير متفقين، ودب الخلاف فيما بينهم، مما أدي إلي إنزال الهزيمة بجيشه[٦٩]، وبذلك سقطت بلاد ما وراء النهر في يد القراخطاي الكافر[٧٠]، علي الرغم من بقاء سنجر واقفاً في أعداد قليلة، محاولاً تجميع جنوده، حتي تم أسره، وأسر زوجته السيدة تركان خاتون بنت أرسلان خان، والأمير قماج وابنه، والأمير سنقر العزيزي، وقد فدي سنجر زوجته بخمسمائة ألف دينار، والأمير قماج وابنه فديا نفسهما بمائة ألف دينار[٧١] ويؤكد الحسيني[٧٢] علي شدة وقع القتل في الرجال، واستشهاد الأمير أياق والأمير سنقر العزيزي، وهو يشير إلي قتل رئيس الحنفية ببخارى الإمام الشهيد حسام الدين عمر بن برهان الدين عبدالعزيز، والسيد الإمام شرف الزمان الإيلاقي الحكيم السمرقندي بين يدي الكورخان، وأن الشيخ فخر الدين المالكي أنشد قصيدة[٧٣] في تلك الواقعة.

بوادي درغم شقيت كرامٌ — أراق دماءهم سيف اللئام
بكيتهم وحق لهم بكائي — بأجفان مؤرقة المنام
فتحسبها وقطر الدمع فيها — غذاه المزن أذيال الخيام

ولابد هنا أن نستفسر عن سؤال هام: هل حسام الدين بن برهان كان مصاحباً للسلطان سنجر في الواقعة، وأن الكورخان قتله في أثناء المعركة، فصار شهيداً، أم أنه كان في بخارى متصدياً لقوات الكورخان عند استيلائه علي بخارى، فأمر القراخطاي بقتله؟

وهنا يؤكد المؤرخ الذهبي[٧٤] على أن أبا حفص عمر بن مازة، عندما خرج للمعركة، كان يودع أصحابه وأولاده، داعياً أمامهم أن لا يرجع من القتال، طالباً للشهادة، لذا عندما قتل في درغم بقطوان في صفر سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، كان له من العمر ثلاثة وخمسون عاماً فقط. هذا يدلنا علي أنه كان مصاحباً للسلطان سنجر في المعركة، كذلك يؤكد بارتولد[٧٥] هذا الرأي بقوله : " أنه عند غزو القراخطاي كان رئيس بخارى ابنا لعبدالعزيز ويدعي حسام الدين عمر آل برهان، ويبدو أن بخارى أبدت بعض المقاومة ضد الكفار لأن الصدر قتل وسقط في المعركة، ودفن بكلاباد من نواحي بخارى، وقد نتج عن هذه المعركة أن سقطت بلاد ما وراء النهر في يد الكورخان واستمرت خاضعة له قرابة تسعة وثمانين عاماً[٧٦].

واستمراراً لسياسة الكورخان، وفرض سيطرته علي بلاد ما وراء النهر، فإنه عين في سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، أميراً من الأسرة الخانية هو جغري خان بن حسن تكين، وهو الذي أرسل إليه الكورخان بإجلاء الأتراك والقارغلية من أعمال بخارى إلي كاشغر، وأن يلزمهم بترك حمل السلاح وأن يعملوا في الزراعة، فامتنع الترك في البداية، ولذلك تدخل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبدالعزيز ابن مازة رئيس بخارى، لدي جغري خان لكي يتدخل ويحث الأتراك، قبل أن يعظم شرهم، وينهبوا البلاد، وقد انتهي الأمر بتردد الرسل بينهم، حتي تمكن آل برهان بمساندة جغري خان من القضاء عليهم، ودفع شرهم عن بخارى[٧٧].

رابعاً : تغيير سياسة آل برهان تجاه القراخطاي :

لقد تغيرت سياسة آل برهان تجاه دولة القرخطاي، وذلك نتيجة لاتباع الكورخان[٧٨] سياسة إدارية ونظام حكم مختلف فيما وقع بين يديه من ممتلكات، فقد اتبع مبدأ الحكم الذاتي علي نطاق واسع في الإمارات الداخلية في مملكته، ولم يشذ عن ذلك إلا بلاساغون التي أسقط عنها حكم الخان القراخاني، واعتلي عرشها، وقد تمثل حكمه في الإمارات، كبخارى، في فرض الجزية على كل بيت ديناراً ذهباً، وكان ممثل الكورخان في

عواصم تلك الولايات المتمتعة بالحكم الذاتي، وكان هذا الممثل أو النائب عن الكورخان لا يذهب إلي مقر الحاكم إلا لأخذ الجزية، فإذا أخذها انصرف، وكان في بعض الأحيان يحظي الخان صاحب سمرقند وبخارى بحق إحضار الجزية بنفسه إلي الكورخان، وكانت الجزية عند القراخطاي، وملوك الصين، تدفع عن كل بيت علي حدة، قطعة واحدة من الذهب – دينار[٧٩].

أما بالنسبة لمدينة بخارى كولاية تابعة لسلطان الكورخان؛ فإنه قام بتعيين شخص من قبله والياً عليها، يطلق عليه اسم أتمتكين بن بياباني[٨٠]، ولم تمدنا المصادر التي بين أيدينا عن شخصية أتمتكين هذا، هل هو من الخانيين أم هو من أمراء القراخطاي،وأن هناك من ينسبه إلي الأمير بياباتي وأنه ابن أخي أتسز ملك خوارزم. وإن كان النرشخي[٨١]، قد أطلق عليه اسم ألبتكين، وهو نفس الاسم الذي أطلقه عليه بارتولد[٨٢] .

وهذا بالإضافة إلي أنه أوصي بأسرة آل برهان للإشراف علي هذا النائب، فقد أسند إلي الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز بن مازة إمام بخارى وابن برهان الدين، وقد أمره أن يصدر في أعمالها كلها عن إشارته، ولا يعمل شيئاً بغير أمره ولا يتصرف في أمر إلا في حضوره[٨٣]، وعلي ذلك أصبح تاج أحمد بن مازة أول من تولي منصب الرئاسة من هذه الأسرة، في بخارى، تابعاً للقراخطاي وتلقب بلقب صدر جهان،وقد صار هذا اللقب علماً علي أفراد تلك الأسرة حتي القضاء علي دولة القراخطاي في بخارى، سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م[٨٤].

ومن هنا يتضح تغيير موقف الأسرة البرهانية في بخارى، فقد أوكل إليهم الكورخان مهمة الإشراف علي نائبه في بخارى، مما يؤكد إلي مدى نفوذ الكورخان علي ما تحت يديه من ولايات، كبخارى التابعة لنفوذه، حتي يستعين بحاكم يفرض رأيه علي أهالي بخارى.

ولا يفوتنا أن نشير إلي أن الكورخان كان شديد الحرص علي استمرار تبعية بلاد ما وراء النهر لسلطانه، فقد وضع علي بخارى شحنة من العساكر لكي يدفع لهم الجزية

السنوية، وأوكل إليهم أيضاً حفظ الأمن والنظام في بخارى[٨٥]، فكان أمراء هذه الناحية يدفعون إلى شحنات الكورخان الخراج، وكانوا يحكمون تحت تبعيتهم بلقب الأمير، وقد سلكت أسرة آل برهان، المعروفين بآل صدرجهان، نفس هذا المسلك مع الشحنة، ونائب الكورخان أتمتكين في بخارى، وللحقيقة التاريخية؛ فإن القراخطاي اضطر إلي الاعتراف بالزعامة الدينية لأسرة آل برهان في بخارى، وأن يعمل أتمتكين في كل شئ بإشارة الإمام.

تجسد دور آل برهان في بخارى في التصدي إلي أتمتكين، الذي ظلم الرعية وشرع في مصادرة الأهالي، فعندما رأوا هذا الظلم ما لبثوا أن خاطبوا الكورخان في عاصمته بلاساغون، ورفعوا شكواهم إليه، ومن ثم كان تدخل الكورخان لوقف هذا الظلم، حيث كتب إلي أتمتكين رسالة، على طريقة أهل الإسلام، جاء فيها : "بسم الله الرحمن الرحيم : يعلم أتمتكين أنه إن تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا وسخطنا منه قريب، ليفعل أتمتكين ما يأمر به أحمد – يقصد به الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز – وليأمر أحمد بما أمر به محمد، والسلام[٨٦]". هذه الرسالة التي تتضمن عدل وإنصاف الكورخان لرعيته ومحاسبته لهم، وعلي قوة الكورخان في تلك الآونة، وأن كلمته تنفذ علي نائبه، هذا إلي جانب أن مضمون الرسالة يوضح كل الوضوح رغبته في نشر العدل، وإبقاء بخارى تحت سيطرته، والذود عنها وعدم تعرض رعيته لأي مكروه.

خامسا : اتصال آل برهان بالخوارزمية :

برغم انضواء الأسرة البرهانية تحت حكم القراخطاي الوثنيين في بخارى، وتبوئهم دور رؤساء البلدة وزعماء المذهب والفقه الحنفي فيها، فقد حاولوا، في بعض الأوقات، الاستنجاد بالدولة الخوارزمية ضد نفوذ أهالي بخارى. ونتيجة لتذبذب موقف آل برهان من علاقتهم بالقراخطاي والخوارزميين؛ فقد فتح ذلك شهية سلاطين خوارزم علي مهاجمة بخارى، رغبة منهم في توسيع نفوذهم بالاستيلاء على ما تحت يد الخطائيين من بلدان وخاصة ما وراء النهر.

ولابد أن نشير في البداية إلي أن موقعة قطوان وإنزال الهزيمة بالسلطان سنجر السلجوقي؛ ترجع في الأساس إلي استنجاد السلطان أتسز الخوارزمي بقبائل القراخطائين، نتيجة قتل سنجر أحد أبنائه في إحدي المواقع الحربية[٨٧] بالرغم من أن دولة الخوارزميين منبثقة من الأسرة السلجوقية،وأن سنجر هو الذي أوكل إلي محمد بن نوشتكين حكم ولاية خوارزم، في سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٨٨]، وبناء علي ذلك فقد رغب أتسز في توطيد علاقته بالقراخطاي في المشرق، محاولة منه للانتقام من السلطان سنجر، بهدف القضاء علي دولة السلاجقة في المشرق، وتأكيداً لذلك: تزوج السلطان أتسز من بنات الخطائية[٨٩]، بالإضافة إلي أن هناك إشارات من نظامي عروضي السمرقندي[٩٠] توضح أن أتمتكين نائب الخطائي، في بخارى، هو ابن أخت السلطان أتسز، وبذلك أصبح هناك تجاوب كبير بينهما.

ولكن هناك بعض الإشارات التي تدل علي خشية أتسز من القراخطاي واقترابهم من ممتلكاته، فكان نهر جيحون يعتبر حداً فاصلاً بينهم[٩١]، وقد حدثت مناوشات من أتباع الكورخان، في بخارى وما وراء النهر، تحت قيادة القائد أوتوز، حيث غزا خوارزم وأنزل بها ضربات شديدة، ثم عاد محملاً بالأسلاب والغنائم، لذا حاول السلطان أتسز غسل ذلك العار في سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١م بالمسير بجيشه إلي جند[٩٢]، ولكن جهوده باءت بالفشل، فاضطر إلي أن يتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار – تلك الجزية التي لم يستطع أن يتخلص منها، فتركها عبئاً ثقيلاً علي كاهل خلفائه من بعده[٩٣] – هذا يفسر كيفية إسراع أتسز واهتمامه بعقد الصلح مع القراخطائية، وقد قيل إن هذه الجزية قدمت في البداية علي سبيل الهدية، للمساهمة[٩٤] في نفقات الجيش، طالما كان علي قيد الحياة، بالإضافة إلي إرسال الأغذية والمواشي في كل عام[٩٥].

والجدير بالذكر إن أهالي بلاد ما وراء النهر قاموا بالاستنجاد بالسلطان أيل أرسلان، الذي خلف أباه أتسز حوالي ٥٥٣ هـ / ١١٥٨م، من ظلم أمير الكورخان، ومن تحكمات رئيس البلدة من آل برهان. فأسرع الخوارزمشاه إلي نجدتهم، ففتح أهالي بخارى

أبواب مدينتهم دون أي قتال، وسلموها للخوارزميين، ولكن من الملاحظ أن أمير الكورخان وآل برهان استنجدوا بالقراخطاي، وحشدوا جيشاً بأعداد كبيرة من الترك التركمان النازلين فيما بين قراقورم وجند، مما اضطر السلطان أيل أرسلان إلي العودة لخوارزم، دون أن يحقق أي انتصارات[٩٦]، وقد أشار بارتولد[٩٧]، إلي هذا الصلح الذي تم بين الطرفين وأن علماء بخارى وأئمتها قاموا بجهد مشكور في ذلك، لدرجة أنه لم تتم مواجهة بين الطرفين.

كذلك ساند آل برهان الخطائيين في زحفهم علي خوارزم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وذلك بسبب امتناع السلطان أيل أرسلان الخوارزمي عن دفع الجزية السنوية المقررة عليهم للقراخطاي، وسرعان ما عبرت جيوش القراخطاي نهر جيحون، وحلت الهزيمة بالخوارزمية، وداهم المرض سلطانهم، فترك قيادة الجيش لأحد أمرائه، فلحقت الهزيمة بهم، وتم أسر عدد كبير منهم[٩٨].

ظهرت مطامع القراخطاي في ممتلكات الخوارزميين عند وفاة السلطان أيل أرسلان، الذي عهد إلي ابنه الأصغر "سلطان شاه" بالحكم من بعده، ولكن أخاه الأكبر المسمى تكش، حاكم جند، طالب بأحقيته في الحكم بدلاً منه، لذا سارع إلي طلب العون من القراخطاي، فأمده الكورخان بجيش استطاع أن يحقق النصر به، وأن يطرد أخاه "سلطان شاه" وأمه من خوارزم دون قتال – إلي الأمير "مؤيد أب إبه" في خراسان في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م[٩٩].

ولكن سرعان ما خالف السلطان تكش القراخطائيين، وتملص من عبء دفع الجزية، فزحف عليه القراخطاي لقتاله، وحاصر خوارزم، ولكن تكش كان يخرج إليهم في كل ليلة مع مجموعة من جنوده ويناوشهم، فكبد القراخطاي خسائر كبيرة في الأرواح، وبالتالي انسحب الباقون إلي بلادهم[١٠٠]،وقد زاد الأمر سوءاً بالنسبة للقراخطاي، فقد فقدوا سيطرتهم علي مدينة بلخ[١٠١]، التي كان صاحبها المسمى "أزبة" يحمل الجزية إليهم في كل عام، ومن ثم ظهر دور آل برهان بالوقوف إلي جانب عناصر القراخطاي، فقد جهز السلطان علاء الدين تكش قواته تجاه مدينة بخارى، في محاولة للسيطرة عليها[١٠٢]، لذلك

أعلن آل برهان وأهالي بخارى، عن بكرتهم، أن القراخطاي أفضل وأحسن حالاً من وقوعهم تحت حكم الخوارزميين.

ومن النوادر الطريفة التي فعلها آل برهان: إحضارهم كلباً أعور وألبسوه قباءً ورموه بالمنجنيق علي الجيش الخوارزمي، صائحين بقولهم : " هذا سلطانكم " – وذلك لأن السلطان تكش كان أعور – ولكن الشئ الملاحظ أن تكش تمكن من اقتحام أبواب بخارى، إلا أنه لم يعاقب آل برهان ولا أهل بخارى بما فعلوه، بل وزع الأموال وأحسن إليهم[١٠٣] ، ولم يأخذهم بجريرة ما فعلوه من الاستهزاء به.

ومن هنا نري أن آل برهان وقفوا إلي جانب أهل البلاد وعناصر القراخطائية، علي الرغم من أنه ملك بوذي الديانة، يطلق عليه أنه وثني كافر، ولم يرغبوا في الانحياز إلي جانب السلطان الخوارزمي، علي الرغم من معرفتهم التامة بأنه حاكم مسلم الديانة.

هذا ولا بد أن نشير إلي أن السلطان تكش، بعد عودته إلي خوارزم[١٠٤]، أعاد تجديد علاقته بدولة القراخطاي، وأقر علي نفسه دفع الجزية المفروضة علي أبيه سابقاً، سعياً منه لإرضاء الكورخان[١٠٥] ، فهو بذلك يجعلهم سداً منيعاً لمن وراءهم من سلالات المغول القاطنين خلفهم في الناحية الشرقية.

ومن المواقف الإيجابية التي وقفها سلاطين الخوارزمية مع آل برهان: موقف السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م، إلي جانب آل برهان عند قيام أهالي بخارى بالثورة ضدهم، تلك الثورة الشعبية التي قامت ضد الأرستقراطية الحاكمة، متمثلة في أسرة آل برهان، وكان قائد هذه الثورة رئيس الصناع ببخارى، ولم يصلنا اسم هذا الشخص.

ومما يلاحظ في ذلك فأنه بالرغم من مكانة آل برهان، وبرغم اعتمادهم في الحكم علي سلطتهم الروحية الدينية، علي أساس أنهم رؤساء المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم رؤساء البلدة، يسند إليهم مهمة جمع الضرائب وحملها إلي الكورخان في عاصمته بلاساغون، وأنه كان يعيش تحت كنفهم وإدارتهم ما يقارب ستة آلاف فقيه[١٠٦] فقد أسرع

آل برهان بمخاطبة الكورخان طالبين إرسال نجدات عسكرية لصد تلك الثورة، إلا أنه يلاحظ أن الكورخان، في ذلك الوقت، كان في مرحلة ضعف شديد، فاكتفي بإصدار بعض الفرمانات والأوامر[١٠٧] التي لم تؤت نتيجتها، وعلي ذلك فإن استنجاد آل برهان بالسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي أنقذ الموقف بتقدمه تجاه بخارى، وقيامه بأسر رئيس الثورة وحمله معه أسيراً إلي خوارزم [١٠٨] مما ترتب عليه عودة بخارى إلي نفوذ وسيطرة آل برهان من جديد، وقد حفز ذلك السلطان "علاء الدين محمد خوارزمشاه" على محاولة القضاء علي القراخطاي في المستقبل.

ولكن قبل أن نتكلم عن هجوم علاء الدين محمد خورازمشاه علي قان قانان، أي سلطان السلاطين عثمان خان القراخاني، صاحب سمرقند[١٠٩] ، لابد أن نشير إلي أن أسرة آل برهان برغم قضاء الخوارمشاه علي ثورة رئيس الصناع في بخارى، إلا أنه ألقي القبض علي رأس الأسرة، وهو برهان الدين محمد بن أحمد بن عبدالعزيز البخارى المعروف بصدرجهان، رئيس الحنفية وخطيب بخارى، الذي كان مثل السادة الملوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه ما يقارب ستة آلاف فقيه[١١٠]، وقد نقله السلطان خوارزمشاه، إلي خوارزم ممنوعاً عن الإصدار والإيراد مسلوب الإرادة[١١١]، وأقام بدلاً منه، في رئاسة الحنفية والخطابة في بخارى، مجد الدين مسعود بن صالح الفراوي، ومنحه لقب صدرجهان[١١٢] – وهو أخ لوزير سلطان خوارزم المسمى "نظام الدين صدر الدين علي سعد الدين مسعود" الذي تولي الوزارة منذ عهد السلطان تكش[١١٣] – وقد رتب مجد الدين في الخطابة، وقرر أن يخطب بنفسه عند حضور السلطان، ولكن نظام الملك الوزير الذي كان يبغضه بغضاً شديداً، ولا يختار أن يستقيم له حال، أو يقوم له جاه، لذا وضع من قام بالتشويش عليه في أثناء إلقائه خطبة الجمعة أمام السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه[١١٤]، فعادت بذلك الخطابة في بخارى إلى أفراد أسرة آل برهان.

قضاء علاء الدين محمد خوارزمشاه علي الدولة القراخطائية :

لقد تطلع السلطان علاء الدين خوارزمشاه إلي السيطرة علي ممتلكات الدولة القراخطائية، خاصة وأنه طالت أيامهم في التركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم علي أهلها، وأن لهم في كل مدينة نائب يجبي الأموال، واتفق أن سلطان سمرقند الملقب بخان خانات، أي سلطان السلاطين، وهو من بقايا الدولة الخانية، المسمي عثمان خان، أنف وضجر من تحكمهم ككفار لا يدينون بالدين الإسلامي، فأرسل للسلطان يقول له : " إن الله عز وجل قد أوجب عليك وبما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم... ونحن نتفق معك علي محاربتهم، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلي السكة"[١١٥]، وزاد في الأمر أن سيَّر للسلطان رهائن من أهله وفاء بعهده، فاستوثق خوارزمشاه منه[١١٦].

ومن هنا وجد خوارزمشاه أن من العار أن تدفع دولته ومن ما وراء النهر الضرائب السنوية لحاكم كافر، لذا قام بإلقاء رسول الكورخان في نهر جيحون سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وأغرقه، عندما جاء مطالباً بالجزية السنوية[١١٧]، كما أمر وجوه أهل خوارزم أن يقتلوا كل رجال القراخطاي الذين ينزلون ضيوفاً في منازلهم، فقتل كل من كان في خوارزم من الخطائيين[١١٨]، أما إذا نظرنا إلي سبب تغيير سياسة عثمان خان تجاه القراخطاي؛ نجد أن الكورخان رفض طلبه بالزواج من إحدي بناته[١١٩].

لقد تجهز الكورخان بجيشه لمواجهة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، واستمر القتال بينهما حتي سقط خوارزمشاه في أسره، وبالتالي عمل الحيلة حتي خلص من هذا الأسر[١٢٠].

أعاد خوارزمشاه استعداداته في سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، يسانده سلطان سمرقند، فدارت الدائرة علي الكورخان، وكان مقدمهم يسمي طاينكوه[١٢١]، الذي مني بهزيمة كبيرة ووقع في أسر خوارزمشاه، فحمل إلي خوارزم، لكن السلطان وضعه موضع العناية والتكريم[١٢٢]، وقد بلغ عمره مائة عام، اتصف بحسن التدبير والأفعال، له خبرة ودراية بشئون الحكم والإدارة[١٢٣].

وتأكيداً علي حسن النوايا بين علاء الدين محمد خوارزمشاه وسلطان سمرقند عثمان خان، فقد اصطحبه السلطان معه إلي خوارزم(١٢٤)، وزوجه من ابنته "خان سلطان"، وبقي في بلاطهم عاماً كاملاً، علي عادة الأتراك(١٢٥)، ولكن بمجرد أن عاد عثمان خان إلي سمرقند أرسل خوارزمشاه معه شحنة، علي غرار ما كان موجوداً سابقاً من القراخطاي، والملاحظ أن هؤلاء الشحنة عاثوا في سمرقند فساداً، وعجز السلطان عثمان خان عن كبح جماحهم وحماية الأهالي من اعتداءاتهم المتكررة، وبالتالي فقد خلع طاعة الخوارزمشاه، وطلب النجدة من الكور خان، وتزوج من ابنته، وقد شرع في قتل الجنود الخوارزميين، بل زاد في الأمر بأن حاول أن يقتل زوجته الخوارزمية(١٢٦)، وزيادة في إذلالها فقد أجبرها علي أن تخدم في حفل زواجه من القراخطائية، مما تسبب في حقدها وكراهيتها له(١٢٧).

وبناء علي ذلك فقد سار خوارزمشاه في سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م لمحاربة عثمان خان، وأمر بأن يقتل جميع الغرباء في خوارزم، فمنعته أمه تركان خاتون عن فعل ذلك، ولكنه تمكن من القضاء علي عثمان خان وقتله(١٢٨)، وبعد أن فتح سمرقند أطلق يد جنوده في ذبح أهلها ثلاثة أيام كاملة، ثم رفع يده عن فعله الشنيع، لشفاعة أئمة المدينة والسادات بها(١٢٩)، وبذلك قضي علي دولة القراخانيين في بلاد ما وراء النهر.

اتسعت شهية خوارزمشاه، في تلك الفترة، في التوسع في البلدان وامتلاك العديد من المناطق، مثل هراه وإقليم الغور كله(١٣٠)، ولقب نفسه الأسكندر الثاني، وظل الله علي الأرض(١٣١). أما الخطوة التالية للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه؛ فكانت اشتباكه مع الكورخان، ففي سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، عند مدينة بناكت(١٣٢)، وقد قصد القراخطاي، في هذا الوقت، طائفة عظيمة من التتر خرجوا من حدود الصين، ونزلوا وراء بلاد تركستان، وعلي رأسهم ملكهم كشلي خان(١٣٣) ويسميه الجويني(١٣٤) كوجلك، الذي اتفق مع خوارزمشاه علي محاربة القراخطاي.. وانتهت الواقعة بفناء القراخطائيين والقضاء علي دولتهم، التي كانت تعتبر سداً منيعاً ضد تقدم عناصر المغول علي البلدان الإسلامية،

وبالتالي أصبحت المواجهة التالية بين الخوارزميين وبين جنكيزخان، زعيم هؤلاء المغول، في سنة ٦١٧هـ /١٢٢٠م، ونسى خوارزمشاه وصية أبيه "السلطان تكش" بعدم محاربة القراخطاي والقضاء عليهم.

سادساً : دور آل برهان العلمي في بخارى :

سبق أن ذكرنا أن آل برهان كانت لهم رئاسة المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم كانوا يتوارثون رئاسة الخطابة على منابرها أبا عن جد، وقد صارت مدينة بخارى في عهدهم مجمع الفضلاء والفقهاء، كما صارت بيوتهم ملجأ لأصحاب التيجان، وقد استمر أفراد هذه الأسرة في مراكزهم الدينية والسياسية، طوال فترة حكم القراخطائي لهذه المنطقة، وكانوا يقومون برئاسة الحنفية حتي عهد السلطان أولجايتو (٧٠٣ هـ : ٧١٦ هـ / ١٣٠٣م : ١٣١٦م) ومنذ ذلك التاريخ لايعلم أي شئ عنهم[١٣٥].

ولقد تركز اهتمام آل برهان في الحياة العلمية في بخارى، وامتازوا بحبهم الشديد للعلم والعلماء وأهل الدين، وخاصة فقهاء المذهب الحنفي، كما اهتموا بالمراكز العلمية وإنشاء المدارس والمعاهد العلمية، وتشجيع الشعراء والإغداق عليهم بالهبات والعطايا، ومن أبرز مساهماتهم في مجال الحياة العلمية والثقافية: مؤلفاتهم العلمية البارزة وخاصة في الفقه، وأول من نسمع عنه من هذه الأسرة هو: محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن مازة، أبوجعفر البخاري، الفقيه الحنفي، شيخ بخارى ورئيسها وابن شيخها، ولقبه شمس الدين، روي عن أبيه، وعنه أبوالبركات محمد بن علي الأنصاري قاضي أسيوط في مشيخته، وسمع من ابن مازة ببغداد، وقد عاش خمسة وخمسين عاماً، وتوفي في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[١٣٦]

ومن مشاهير الفقه الحنفي: عمر بن عبدالعزيز بن مازة، برهان الأئمة، أبومحمد المعروف بالحسام الشهيد، تفقه علي أبيه، وصنف الفتاوي الصغري والفتاوي الكبري، والجامع الصغير والمطول، وهو أستاذ صاحب المحيط البرهاني، ولد في صفر سنة

٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، واستشهد في موقعة بادية قطوان -بالقرب من سمرقند- سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م[١٣٧]، وهو من مشاهير علماء المشرق وفقهائها.

وقد رافقه في دراسته كلٌ من: شمس الأئمة الإمام العلامة شيخ الحنفية مفتي بخارى أبوالفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الانصاري الخزرجي، والجابري وهو شيخ الحنفية نعمان الزمان القاضي عماد الدين أبوالعلاء عمر بن العلامة شيخ المذهب البخارى الزربخري[١٣٨] المتوفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٩٤م، وهما يعدان من أقرب الفقهاء إلي عمر بن عبدالعزيز الحسام الشهيد.

ومن آثار أفراد أسرة آل برهان: ما قام بتأليفه محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد البخارى برهان الدين ابن مازة الفقيه، المتوفي في حوالي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، مؤلف كتاب المحيط البرهاني في الفقه الحنفي، والذخيرة البرهانية في الفتاوي، ونتيجة الفتاوي، وشرح الجامع الكبير[١٣٩] وكلها في شرح المذهب الحنفي.

كذلك مسعود بن أحمد بن مسعود بن مازة المحاربي أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، قدم بغداد، وصحبه رسول التتار للحج، فحبس مدة سنتين، ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات في بغداد [١٤٠].

كذلك برع في التأليف من هذه الأسرة للمذهب الحنفي: محمود بن أحمد بن وعبدالعزيز أبوالمعالي، له كتاب " تتمة الفتاوي، وذكره عبدالقادر في مؤلفه المجهدين، وله كتاب، نصاب الفقهاء " في الفتاوي أيضاً[١٤١]، ويعتبر محمود هذا من أكابر فقهاء الحنفية، ومن المجتهدين في المسائل، وله خمسة أجزاء من كتاب ذخيرة الفتاوي، وتوفي في بخارى[١٤٢].

ومن أفضل أفراد الأسرة البرهانية: محمود البخارى بن مازة المرغيناني، المولد سنة ٥٥١هـ/ سنة ١١٥٦م، الذي توفي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م[١٤٣] والذي ألف كتاب المحيط البرهاني في الفقه النعماني، حيث وضح الغريب في الألفاظ الواردة في كتاب الفقه النعماني، كذلك شرح المصطلحات الواردة اعتماداً علي المعاجم اللغوية، وجمع فيه مسائل

المبسوط والجامعين والسير والزيادات، وألحق به مسائل النوادر والفتاوي والواقعات[١٤٤]، ومن تصانيفه أيضاً: "الوجيز في الفتاوي"، و"شرح الجامع الصغير" للشيباني، و"تتمة الفتاوي" وكلها في فروع الفقه الحنفي[١٤٥]، وما يلفت النظر في مؤلفاته أنه ضم إليها ما في الكتب من المشكلات، واختار كل مسألة فيها روايات مختلفة، وأقاويل متباينة، ماهو أشبه بالأصول، غير أنه لم يرتب المسائل ترتيباً، وبعد وفاته قام أحد المحدثين بترتيبها وتبويبها، وبني لها أساساً وجعلها أنواعاً، وأجناساً[١٤٦].

ارتفعت مكانة صدرجهان المسمي برهان الدين محمد، وزادت ثروته المادية بدرجة عظيمة، لدرجة أنه إذا سمع السامع بأنه خطيب؛ بخارى يعتقد أنه كان مثلاً لسائر الخطباء في ارتفاع قدره، واتساع الأملاك والضياع، وامتطاء صهوة المجد والحكم، وليس الأمر كذلك، بل المذكور لا يقاس إلا برتوت السادات، وفروع الملوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه، وإدارة سلفه، ما يقارب ستة آلاف فقيه، وكان كريماً عاليَ الهمة ذا مروة[١٤٧].

وقد حج "صدرجهان برهان الدين محمد بن أحمد بن مازة" محفوفاً بكثير من مظاهر الأبهة، محمولاً علي محفة، ومتاعه محمول علي أكثر من مائة بعير، وفي معيته كثير من رجال العلم والفقهاء، وقد استقبل في بغداد بكثير في الحفاوة والتكريم، وذلك سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦م، ولكن في طريق عودته إلي بغداد؛ لم يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج، فأطلقوا عليه مسمي صدر جهنم بدلاً من صدرجهان[١٤٨].

هذا وقد أشير إلي أن آل برهان كانوا متعصبين تعصباً شديداً للمذهب الحنفي، وأنهم كانوا يتقربون إلي الله بما ينزلونه من إذلال بفقهاء الشافعية، وقد نكلوا بأصحابها بشتى أنواع البلاء في جميع البلاد، وخصوهم بالطرد والإبعاد، حتى حاولوا إخفاء مذهبهم خشية التنكيل بهم، وبذلك نكب رؤساء المذهب الشافعي في بخارى، ولم يبق منهم علي أحد، ومنهم أبوالفضائل بن المشاط، ومنهم بنو الخجندي، وقد دخل في المذهب الحنفي

جماعة منهم طلباً للنجاة وخوفاً من أنصار الحنفية، ومن جملتهم القاضي عمدة الدين الساوي[١٤٩] وغيره.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الحياة العلمية لآل برهان في بخارى إلا أن نشير إلى: اهتمامهم ببذل الكثير من الأموال والعطايا لإحياء الكتب المؤلفة في الفترة السابقة لحكمهم، خاصة الكتب التي تتناول تاريخ بخارى، وبلاد ما وراء النهر، فقد قام برهان الدين بن عبد العزيز بن مازة بإصدار أوامره إلى محمد بن زفر بن عمر لإعادة ترجمة كتاب "تاريخ بخارى"، الذي ألفه: أبو عبد الله محمد بن أحمد البخاري الغنجاري المعروف بالنرشخي والذي تم كتابته في سنة ٣٢٢هـ/٩٤٣م، وقدمه إلى الأمير الحميد أبي محمد نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني[١٥٠].

وقد وضع النرشخي مؤلفه باللغة العربية، وأعاد محمد بن زفر ترجمة هذا الكتاب باللغة الفارسية، وأتم عمله هذا في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وقدمه إلى حاكم بخارى من آل برهان الإمام الأجل عبد العزيز بن مازة[١٥١]، فأجزل له العطايا، مما يوضح اهتمام أفراد أسرة آل برهان إحياء تراث بخارى، وتشجيعهم للعلماء، والمؤرخين على إنتاج المؤلفات والكتب التاريخية.

وصفوة القول: فإن آل برهان المعروفين ببني مازة، لعبوا دوراً بارزاً في العلاقات السياسية الخارجية للبلاد، كما كانوا يعتبرون رؤساء بلدة بخارى وحكامها؛ طوال فترة حكم القراخطائيين، يجمعون لهم الضرائب ويرسلونها إلي الكورخان في عاصمته، وكذلك سيروا أمور البلاد، بالاستنجاد في بعض الأحيان بالخوارزميين ضدهم، وكانت لهم رئاسة المذهب الحنفي والخطابة في بخارى، وألفوا وصنفوا العديد من المؤلفات القيمة في المذهب.

الهوامـــــش

١- بخاري : من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر، يعبر إليها من أمل الشط، بينها وبين نهر جيحون يومان، كثيرة البساتين، وتعتبر نزهة ما وراء النهر (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٩٩٠م، ص ٤١٩ : ٤٢٠) ؛ وقد أشار المؤرخون إلي أن بخاري أحسن مدينة وخراجها أفضل خراج (القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص ٥٠٩).

٢- المذهب الحنفي : هو المذهب الذي ينسب إلي الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه الكوفي، الذي تأثر بمن قبله من علماء أهل الرأي، وكان لأتباع أبي حنيفة وتلاميذه المشهورين، مثل أبي يوسف محمد الشيباني وغيرهم دور في إثراء المذهب الحنفي وتوسيع مسائله ومجالات تطبيقه، وقد اتخذته الدول الشرقية، مثل السلاجقة وآل بويه مذهباً لهم في القضاء والعبادات (محمود البخاري بن مازة : المحيط البرهاني في الفقه النعماني، مكتبة مشكاه الإسلامية مقدمه، ص٤ ؛ www.almeskhat.net/books

٣- الدولة القراخطائية : التي تنتمي إلي سلالة المغول، وكلمة قرة لفظ تركي أضافة المغول إلي كلمة خطا، ومعناه أسود، وربما يرجع ذلك إلي عداوتهم وكراهيتهم لهم (ابن العبري:مختصر تاريخ الدول، طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨م، هامش ٣، ص ٢١٥) ؛ واتخذ حكامهم لقب كورخان، ومعناه خان خانات أي ملك الملوك أو سلطان السلاطين (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين ميكرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣م، هامش ٤، ص٤٣) ؛ ولقد بهرت القراخطاي الحضارةُ الصينية وما كانت عليه من بذخ وترف، فتأثروا بها تأثراً شديداً، الأمر الذي أفقدهم روحهم الحربية وجعل الضعف يتطرق إليهم تدريجياً، فانتهز جماعة كين الذين سكنوا منشورياً، فانهارت دولتهم وقامت الدولة الخطائية في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥م (فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول في التاريخ، ج١، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٤)؛ ولقد اتخذ الخطائيون من اللغة الصينية لغة رسمية في دولتهم (بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مراجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ١٢٤).

٤- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبدالله القزويني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٣١، ١٠٧.

٥- برسخان : مدينة في أقصي تركستان الشرقية علي حدود ختن، وهي غير التي أشار إليها ياقوت الحموي بأنها قرية من قري بخاري (نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق، ص ١١٣ ؛ معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥٦).

٦- بلاساغون : بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريبة من كاشغر (ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٤).

٧- الدولة الخورازمية : تنسب إلي نوشتكين التركي الأصل، الذي اشتراه أحد أمراء السلاجقة يطلق عليه بلكبال من رجل من غرجستان، فسمي لذلك بأنوشتكين غرجه (الرواندي : راحة

الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثاقفة القاهرة، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م، ص ٢٥٧ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٢٨٢ ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٥٤م، ص ٣٨٣) ؛ كان نوشتكين يشغل وظيفة الساقي في بلاط ملكشاه السلجوقي، ثم تدرج في سلك الوظائف (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، هامش ٣، ص ٣٤) ؛ وهناك إشارات إلي أنه كان يعمل في وظيفة الطشتدار وليس الساقي (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، تحقيق فوزي العنتيل، مراجعة محمد طه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ١٩٧ ؛ خواندمير : دستور الوزراء، ترجمة حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م، ص ٣٠٨) ؛ وأول من نبغ من الخوارزميين كان محمد بن نوشتكين، الذي أقره السلطان سنجر في الحكم في ولاية خوارزم، وظهرت كفايته السياسية، ودام حكمه حتي وفاته سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، فخلفه ابنه أتسز(النويري : نفس المصدر السابق، والجزء والصفحة) ؛ خوارزم : ليس أسما لمدينة إنما هو اسم الناحية بجملتها، فأما القصبة فيقال لها الجرجانية(ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٣٩٥).

٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٩.

٩- زامباور :معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون، طبعة دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٣١٩.

١٠- نظامي عروضي السمرقندي:جهار مقاله، ص١٠٩.

١١- آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥١٠.

١٢- القزويني : نفس المصدر السابق والصفحة.

١٣- ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، تحقيق أحمد الأرنؤط وتركي مصطفي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م، ص ٣٦.

١٤- نصر الدين القرشي الحنفي : الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، الناشر مير محمد كتب خانه، كراتشي، ص ٣٧٥.

١٥- خراسان : بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، أزادوار قصبة جوين وبيهن، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وخراسان تشتمل علي أمهات من البلاد منها نيسابور وهراه ومرو (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٣٥٠).

١٦- سمرقند : بلد معروف مشهور، وهي قصبة الصغد مبنية علي جنوبي وادي الصغد، وبها المسجد الجامع والقهندز ومسكن الحاكم (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٤٦: ٢٤٧).

١٧- النرشخي : تاريخ بخاري، ترجمة أمين عبدالمجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٦٥م، ص ١٨ : ١٩.

١٨- تركستان : اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأوسع بلاد الترك بلاد التغزغز، وحدهم الصين والتبت وأول حدهم من جهة المسلمين مدينة فاراب (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥٦).

١٩- محمد أحمد محمد : بخاري في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، ١٩٩٢م، ص٨.
٢٠- محمد أحمد محمد : نفس المرجع السابق، ص ٩.
٢١- بدأت الحملات العسكرية لفتح بلاد المشرق الإسلامي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فتمكن القائد جعدة بن هبيرة في عهد الخليفة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-من التوغل في تلك المناطق، فأسفرت حملته عن سقوط سيدتين من بنات الحكام فحملهن إلي الخليفة أسيرتين، أما الفتح الكامل لبخارى فكان في عصر الأمويين، ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان قاد القائد عبيد الله بن زياد أولي حملات الفتح التي تصدت لها حاكمة بخارى المسماة "الخاتون" وهي الوصية علي عرش ابنها طغشادة، والتي أجبرت علي طلب الصلح من العرب في مقابل مال تؤديه كجزية عن بلادها(الكرديزي : زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، طبعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٦٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتاب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ص ٤٠١ ؛ ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح، ج٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م، ص ٧٦؛ النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨ ؛ لقد استنجدت الخاتون بملوك الترك، ليقفوا أمام جيش العرب، حتي استبطأتهم فعقدت الصلح مع عبيد الله بن زياد، ولكن عندما وصلتها الإمدادات ندمت علي الصلح ونقضته فأنزل بها القائد العربي الهزيمة، فاضطرت للمصالحة من جديد، ففرض عليها جزية ألف ألف درهم (الكرديزي : زين الأخبار، ص ١٧٢ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، راجعه يحيي الخشاب، القاهرة، ١٨٧٢م، ص ٥٧ : ٥٨).
٢٢- وقد توالت الحملات العسكرية علي بخارى، منها حملة القائد سعيد بن عثمان، وحملة سلم بن زياد، ولكن برغم ذلك لم يستقر العرب في بخارى إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك علي يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي. الذي قام بأربع محاولات لفتحها، فتمكن في سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٨ م، وبناء عليه أعلن طغشادة دخول الدين الإسلامي، فأسند إليه حكم البلاد، وقد نظم قتيبة الإدارة في بخارى، وعقد معاهدة الصلح علي دفع مبلغ مائتي ألف درهم سنوياً للخلافة الأموية، شريطة أن يساند البخاريون العرب الفاتحين في محاولاتهم للتوجه إلي بلاد الصغانيان، وغزو الأتراك الشرقيين (البلاذري : نفس المصدر السابق، ص ٤٠١، الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ٤٢٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف المصرية، ١٩٧٩ م ؛ ابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح، ج٤، ص ١٩٢، ٢٢٤؛ النرشخي: تاريخ بخاري، ص٢٤؛
Gibb: The Arab Conquests in Centurial Asia,P.40 ,(London,1923).
٢٣- الدهاقنه : هي الطبقة الارستقراطية الحاكمة في بخاري، وهي طبقة أصحاب الأراضي الزراعية والإقطاعات، وكانوا يحتلون مكانة اجتماعية لا نظير لها في بخاري (النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٢١)؛ وكان كبار الدهاقين يقيمون في القري المحصنة والقصور الفخمة، ومنها قلعة حصينة أطلق عليها اسم قلعة أرك، وتعتبر مقراً لملوكهم وأمرائهم وقادتهم، حيث وجد بها السجن ودواوين الدولة وبيت الحريم وخزائن المال (النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤١ : ٤٢ ؛ كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥٠٤).

٢٤- النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٢١.
٢٥- الكرديزي : زين الأخبار، ص ١٦٨.
٢٦- كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٥ : ٥٠٦.
٢٧- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١١.
٢٨- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٠.
٢٩- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٩ ؛ لقد اتبع المسلمون الفاتحون عدة وسائل لنشر الدين الإسلامي بين أهالي بخاري وجلب صغار الفلاحين والفقراء إليه، وذلك ببذل الأموال والعطايا، فكان قتيبة يمنح درهمين لكل مصل في مسجده الجامع يوم الجمعة (النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٤) ؛ وكذلك تم إرسال المعلمين والوعاظ إلي الأهالي الذين دخلوا الإسلام حديثاً لإزالة أي شكوي وشك في قلوبهم من الدين الجديد وتعاليمه، كما تم إحراق الأصنام التي كان يعتقد صغار الفلاحين بأن من يقرب منها بسوء تصبه الويلات واللعنات فلما أحرقت علي يد قتيبة ولم يصبه شئ دخل الإسلام عدد أكبر من البخاريين (البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٠ : ٤١١).
٣٠- يري المؤرخ الإيراني عباس إقبال أن اللغة العربية كانت شائعة في الوسط الثقافي الأعلي كلغة رسمية في البلاد، بينما عامة أهل بخاري ينطقون اللغة الفارسية، مشيراً إلي أن سكان إيران لم يكفوا أبداً برغم اعتناقهم الدين الإسلامي – عن التحدث بالفارسية(تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٠).
٣١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٠٥: ١٠٦ ؛ الدولة السامانية : تنتسب إلي سامان بن بهرام جور الفارسي الأصلي، الذي ظهر في خلافة المأمون العباسي (١٩٨ هـ : ٢١٨ هـ / ٨١٣م : ٨٣٣م) وقد توارثت هذه الدولة حكم بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخاري،وتبادل أمرائها هاتين المدينتين كعاصمة لملكهم (ميرخواند : روضة الصفا، ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، مراجعة السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٧٩).
٣٢- الأمير إسماعيل الساماني : ناب عن أخيه في حكم بخاري، ما بين سنتي ٢٧٩ هـ : ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ م : ٩٠٧م، وقد نقل العاصمة السامانية من سمرقند إلي بخاري، وعين عدداً كبيراً من أفراد الأسرة السامانية في المناصب الإدارية وعلي الولايات، حتي صار علي كل ولاية وال معين من قبله (القزويني : تاريخ كزيده – ضمن رسالة ماجستير إعداد محمود محروس قشطة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٦٨ م، ص ١٣ ؛ ميرخوند : روضة الصفا، ص ٨١ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٦٧ ؛ Richard N. Frye: Bukhara the Medieval Achievement, P. 47 , (London, 1965).
٣٣- فامبري : تاريخ بخاري، ص ٩٥ ؛ Frye : Ibid., P. 75
٣٤- طراز : في آخر الإقليم الخامس، طولها مائة درجة ونصف، وعرضها أربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة،وهي بلدة قريبة من إسبيجاب من ثغور الترك (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ٢٧).
٣٥- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ١١٧.

٣٦- الكرديزي : زين الأخبار، ص ٢٣٩.
٣٧- ميرخواند : روضة الصفا، ص ٨٦.
٣٨- تاريخ بخاري، ص ١١١.
٣٩- القراخانيون : هم من الشعوب التركية الذين أقاموا في تركستان، وكانت عاصمتهم كاشغر ثم بلاساغون، وشملت بلادهم شطراً من البلاد الواقعة بين الحوض الأدني لنهر " أيلي " الذي يصب في بحيرة ولخشي والمجري الأدني لنهر شو (ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٨٩ ؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص ٧٣ ؛ Howorth: The Northern Frontagers of hina, P. 467) ، ويعتبر " ساتوق بغراخان " أول حكامهم الذين اعتنق الإسلام، واتخذ لقبا إسلامياً خلعته عليه دار الخلافة في بغداد، هو شهاب الدولة (نظامي عروضي السمرقندي: جهار مقاله، ص ١٠٤) .
٤٠- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
٤١- ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج٩، دار صادر بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م، ص ٩٨.
٤٢- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
٤٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٩، ص ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٥٠.
٤٤- آمل الشط: آمل مدينة مشهورة في غربي جيحون علي طريق القاصد إلي بخاري، ويقابلها شرقي جيحون، وبينها وبين شاطئ جيحون نحو ميل، ويقال لهذه آمل زم وآمل جيحون وآمل الشط وآمل المفازة (ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، هامش ٤، ص ٢١٥).
٤٥- العتبي : تاريخ اليميني - المسمي الفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العتبي، ج١، طبعة القاهرة ١٢٨٦هـ، ص ١٦٣ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ٢٣.

46- Howorth : The Northern Frontagers , P. 471.

٤٧- محمود بن سبكتكين : من سلاطين الدولة الغزنوية بل كان أول من تلقب بهذا اللقب (ميرخواند : روضة الصفا، ص ١٣٥ ؛

Basworth : The titulature of the early Gchaznavich , Oruens , P. 223, (leiden, 1962)

وقد لقبه الأمير منصور الساماني بلقب سيف الدولة ولقب والده سبكتكين بلقب ناصر الدولة.

(Nazim : The Life and the time Mohamad of Gazna, P.24 , Canbridge, 1931).

ارتبط بعلاقات ودية مع طغان خان، وتفرغ كل منهما للجهاد في سبيل الله فقام محمود بنشر الإسلام في الهند وطغان خان بنشره بين قبائل الترك الوثنيين (العتبي : تاريخ اليميني، ج٢، ص ٢٢٤ : ٢٢٥).

٤٨- العتبي : نفس المصدر السابق، والجزء، ص ٢٧ ؛ الكرديزي : زين الأخبار، ص ٢٨٨ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ٣٨ ؛ Howorth: The Northern , p. 478.

49- Howorth : Ibid , P. 478.

٥٠- العتبي : تاريخ اليميني، ج١، ص ٢٣٤.

٥١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٦ ؛ من أهم المنشآت المعمارية في بخاري في عهد شمس الملك نصر المسجد الجامع الذي أقامه في سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧ م، وتم نقش منبره ومحرابه في سمرقند، لما تمتع به صناعها من مهارة وذوق عال في هذا الفن، كما خلد هذا الخان اسمه ببناء مدينة كاملة أطلق عليها اسم شمس أباد، حيث اشتري ضياعاً كثيرة بباب إبراهيم ببخاري وأقام فيها قصوراً وبساتين ومراعي، وجعل لها أسواراً محكمة، وبني الخورق لدوابة الخاصة وبرجا للحمام (النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤٩).

٥٢- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، اعتني بتصحيحه محمد إقبال طبعة لاهور، ١٩٣٣هـ، ص ٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص ١٧١.

٥٣- الحسيني : نفس المصدر السابق، والصفحة.

٥٤- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٠٣؛ Howorth: The Northern P.491

٥٥- قام السلطان سنجر بقتل قدرخان القراخاني وعين بدلاً منه ابنه محمد أرسلان في حكم ما وراء النهر، وأمه ابنه ملكشاه.. أي أن سنجر خال له، واستمر هذا الخان حتي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م في طاعة السلطان، وقد ظهر منه ظلم للرعية، فسار إليه سنجر، وانتهي الأمر بالمصالحة بينها علي ضفاف نهر جيحون (نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص١٥٢ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٣٧٤ : ٣٧٥ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٦٧) ؛ لقد بدأت المصاهرات السياسية بين السلاجقة والقراخانيين منذ أن تمت المصاهرة بين السلطان ملكشاه والسيدة تركان خاتون ابنة طمغاخ خان وابنة عم شمس الملك نصر حاكم بخاري، والتي أطلق عليها لقب خاتون الجلالية نسبة إلي لقب ملكشاه جلال الدين (الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٠٧ ؛ فامبري : تاريخ بخاري: ص ١٣٧).

٥٦- لقد بذل السلطان سنجر عدة مساعدات كبيرة لتثبيت أقدام محمد أرسلان خان في الحكم، من أهمها أنه قتل قدر خان جبرائيل صاحب ما وراء النهر ورفعه مكانه في عرش الخانية (الحسيني : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٨٠) ؛ وعفا عنه عندما عامل الرعية بطريقة سيئة في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، فسار إليه سنجر، فاستنجد محمد أرسلان خان بأمراء سنجر وعلي رأسهم الأمير قماج الذي تعهد للسلطان بأن الخان سوف يسير سيرة حسنة بين أهالي بلاده (ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٥ ؛ (Howorth : The Northern , P. 495).

٥٧- ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص ٦٠١ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٣٨٣.

58- Howorth : The Northern , P. 493.

٥٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٥٩.

٦٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٩.

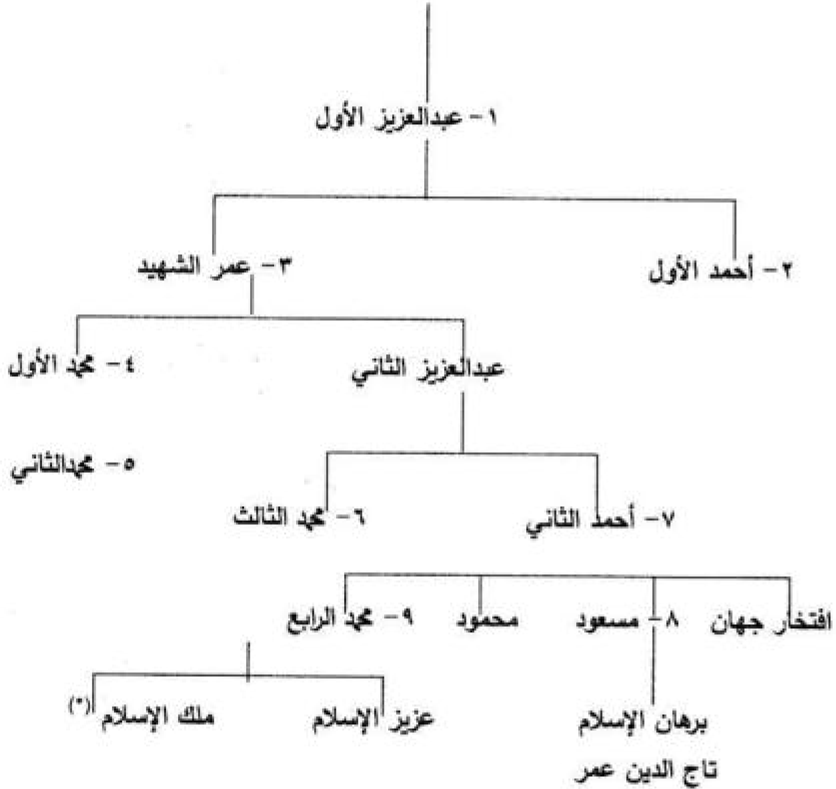
٦١- ابن العبري : مختصر تاريخ الدول، هامش ٣، ص ٢٣٥ ؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول، ج١، ص ٢٢.
٦٢- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٦.
٦٣- فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول في التاريخ، ج١، ص ٢٢ : ٢٣.
٦٤- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٦.
٦٥- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٥٧ : ١٥٨.
٦٦- بادية قطوان : قرية من قري سمرقند علي خمسة فراسخ منها، وهناك عدة مواضع يطلق عليها اسم قطوان مثل قطوان بالكوفة وقطوان في مصر بالغربية (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٥: ٣٧٦).
٦٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٧.
٦٨- لم تكن موقعة قطوان الأولي من هجمات القراخطاي علي بلاد ما وراء النهر، وإنما سبقتها محاولة من الإغارة في سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٧م عندما تصدي لهم ركن الدين محمود بمساعدة السلطان سنجر الذين أجبروا الكورخان الخطائي إلي العودة سريعاً إلي عاصمته، خشية مساندة السلطان للخان في بلاد ما وراء النهر (نصر الدين بن القرشي الحنفي : الجواهر المضيئة، ج٢، ص ٣٧٥).
٦٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٥٤، Howorth : The Northern , P. 497.
٧٠- الحسيني : أخبار الدولة، ص ٩٣ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦.
٧١- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق - اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م، ص ١٧٩ ؛ الحسيني:أخبار، ص ٩٣ : ٩٤ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ١٢٤.
٧٢- زبدة التواريخ، ص ١٨٧.
٧٣- الحسيني : نفس المصدر السابق والصفحة.
٧٤- سيرة أعلام النبلاء، ج١٤، حققه وخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر ، ص٥٥٥ :٥٥٦.
٧٥- تركستان من الفتح العربي، ص ٤٧٧.
٧٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٧.
٧٧- ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٣١٠ :٣١١ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٨٥.
٧٨- لقد أعقب سقوط ما وراء النهر في يد الكورخان أوخان أن قتل هذا الحاكم، فتولت بدلا منه أخته من بعده حكم مملكة الخطائية فترة من الزمان (ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٤).
٧٩- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٢٥ ؛ لقد اتخذ نفوذ الكورخان في ممتلكاته ببلاد ما وراء النهر، صورة جديدة وهي حرية امتلاك الأراضي الزراعية مع فرض الطاعة للكورخان عن طريق شد حزام به لوح من الفضة في وسطه، علامة الطاعة والولاء لهم (ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٣).
٨٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص٣١.

٨١- تاريخ بخاري، ص ٤٢.
٨٢- تركستان، ص ٤٧٧.
٨٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ٣١.
٨٤- بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦ : ٤٧٧.
٨٥- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٣٤.
٨٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ٣١ ؛ لقد أشار بعض المؤرخين بعدل الكورخان وحسن تدبيره ورقة أخلاقه، ولايمكن مراجعته في شئ حيث ينقاد لأمره الجميع (نظامي عروضي : نفس المصدر السابق والصفحة).
٨٧- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ ؛ الوقعة التي قتل فيها ابن السلطان أتسز الخوارزمي في ٥٣٢هـ / ١١٣٧م (براون : تاريخ الأدب في إيران، ص ٣٨٤).
٨٨- النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، ص ١٩٧.
٨٩- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٤.
٩٠- جهار مقاله، ص ٣١.
٩١- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ترجمه محمد ألتونجي، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٣١.
٩٢- جند : اسم مدينة عظيمة في بلاد التركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام، قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة (ياقوت لحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٦٨).
٩٣- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٤٨ :١٤٩.
٩٤- القزويني : تاريخ كزيده، ص ١٨٤.
٩٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٣٣١.
٩٦- الجويني : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٥، ٢٦٧.
٩٧- تركستان، ص ٤٨٥.
٩٨- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص ٣٧٤ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ٥١ ؛ بارتولد تركستان، ص ٤٨٨.
٩٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٣ ؛ لقد كان علي حكم القراخطاي في ذلك الوقت سيدة هي ابنة الكورخان التي يطلقون على زوجها اسم (فوما) بمعنى الصهر (ابن العبري : تاريخ مختصر، هامش ٣، ص ٣٧٥).
١٠٠- ابن الأثير:الكامل، ج١٢، ص ١٣٥ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٩٨.
١٠١- بلخ : مدينة مشهورة بخراسان وهي في الإقليم الخامس، تحمل غلتها إلي جميع خراسان وإلي خوارزم (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، ص ٥٦٨) ؛ كان بها معبد النوبهار وهو من أعظم بيوت النار، والفرس والترك تعظمه (القزويني : آثار البلاد، ص ٣٣١).
١٠٢- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٤٠٤.
١٠٣- ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٣٧ ؛ ابن العبري : مختصر، ص ٣٩١.
١٠٤- توفي تكش في مدينة شهرستان بين نيسابور وخوارزم سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٦م، وأرسل القادة إلي ابنه قطب الدين محمد يستدعونه، ولقب بعلاء الدين لقب أبيه، وأمر بحمل

جثمان أبيه ودفن في خوارزم في التربة التي أقامها في مدرسته، وكان عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه علي مذهب أبي حنيفة (ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٥٦ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٢٠٥).

١٠٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٣٣١.
١٠٦- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٦٨ : ٦٩.
١٠٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص١١٠؛ بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٥٠.
١٠٨- بارتولد : نفس المرجع السابق، ص ١٥١.
١٠٩- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٢١٧.
١١٠- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٨ : ٦٩.
١١١- وقد استمر برهان الدين محمد في حبس خوارزم حتي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م عندما أغار المغول وخروج علاء الدين محمد خوارزمشاه من خوارزم، حيث أمرت السيدة تركان خاتون أم السلطان، بقتل جميع الملوك وأبناء الملوك المقبوض عليهم في السجون، ومنهم برهان الدين وأخواه افتخار جهان وابنيه ملك الإسلام وعزيز الإسلام (النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٩٤).
١١٢- النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٦٩.
١١٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٣١٠.
١١٤- خواندمير : نفس المصدر السابق والصفحة.
١١٥- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٩ : ٧٠.
١١٦- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣١ ؛ خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٥٩.
١١٧- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص٢١٨ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ١٠٣.
١١٨- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص٣٣٥.
١١٩- النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص٢٠٣.
١٢٠- بارتولد : تركستان، ص ٥١٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
١٢١- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٣ ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٤٥.
١٢٢- ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ١٠٦ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٥١٣ ؛
Honorth : The Northern . P. 501.
١٢٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٧.
١٢٤- ابن الأثير : الكامل، ج١٢، ص ٢٦٨.
١٢٥- نظام عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٨.
١٢٦- بارتولد : تركستان، ص ٥٢٥.
١٢٧- لقد تعرضت السيدة خان سلطان لكثير من المواقف المذلة في سمرقند، حتي قدم والدها وأنقذها من أيدي عثمان خان، هذه السيدة هي التي اختصها دوش خان بن جنكيز خان لنفسه، بعد فتح خوارزم في سنة ٦١٧ هـ/١٢١٠م (النسوي: سيرة السلطان، ص ٩٧).
١٢٨- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣٣٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
١٢٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٦.
١٣٠- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.

١٣١- النـويري : نهايـة الأرب، ص ٢٧، ص ٢٣٧ ؛ القزوينـي : تـاريخ كزيـده، ص ١٩٦ ؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص١٥١.
١٣٢- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٤.
١٣٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص ٢٧٠؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٧٠.
١٣٤- تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص ٣٤.
١٣٥- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، هامش ٣، ص ٢٣٧.
١٣٦- الذهبي : تـاريخ الإسـلام وفيـات المشـاهير والأعـلام، ج١٢، ص ٣٥٥ ؛ صـلاح الـدين الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص ٣٦.
١٣٧- ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، دار القلم، دمشق - سوريا، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٢١٧ : ٢١٨.
١٣٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١١٠.
١٣٩- الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص ٣٩٠ : ٣٩١.
١٤٠- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، ج١٢، ص ١٤٦ : ١٤٧.
١٤١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، دار الفكر، سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٦٤.
١٤٢- ابن قطلوبغا : تاج التراجم، ص ٢٨٩.
١٤٣- الزركلي : الأعلام، ج٥، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م، ص ٢٥٦، ٥٣٨.
١٤٤- محمود البخاري بن مازة : المحيط البرهاني في الفقه النعماني، المقدمه، ص ٤.
١٤٥- عمر رضا كحالة : الأعلام، ج١٢، ص ١٤٧.
١٤٦- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، مكتبة المثني، بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م، ، ص ٣٤٤.
١٤٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١١١.
١٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر والصفحة.
١٤٩- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٧٨.
١٥٠- النرشخي : تاريخ بخارى، ص٥.
١٥١- النرشخي : المصدر السابق، ص١٥ : ١٦.



(*) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص٣١٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية :

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) : عز الدين أبوالحسن علي بن أبوالكرم محمد " الكامل في التاريخ "،ج٩، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

٢- ابن أعثم الكوفي : (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) أبومحمد أحمد، كتاب الفتوح، ج٤، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

٣- ابن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) : صلاح الدين خليل بن إيبك بن عبدالله " الوافي بالوفيات "، ج٢، ص ٧، تحقيق أحمد الأرنؤط وتركي مصطفي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م.

٤- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أبوالحسن أحمد بن يحيي بن جابر، " فتوح البلدان "، عني بمراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٥- ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٠م) : عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي : " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "، ج٤، ص ٥، طبعة القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

٦- حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م) : مصطفي بن عبدالله كاتب جلبي القسطنطيني كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون "، ج١، مكتبة المثني بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م.

٧- خير الدين الزركلي : الأعلام، ج٥، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، مايو ٢٠٠٢م.

٨- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) : شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز " سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص ١٥، حققه وأخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

٩- الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير، " تاريخ الرسل والملوك " ج٦، تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف، المصرية ١٩٧٩م.

١٠- ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : عزيغوريوس أبوالفرج بن اهرون : " تاريخ مختصر الدول "، طبع في المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨م.

١١- عمر رضا كحالة :"معجم المؤلفين "، ج١٢، الناشر مكتبة المثني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢- فؤاد عبدالمعطي الصياد : " المغول في التاريخ "، ج١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

١٣- القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : زكريا بن محمد بن محمود : " آثار البلاد وأخبار العباد "، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٤- ابن قطلوبغا (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) : أبو الفداء زين الدين أبوالعدل قاسم السودوني الحنفي، تاج التراجم في طبقات الحنفية، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولي، الناشر دار القلم، دمشق ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١٥- ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : ابوالفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري " البداية والنهاية "، ج١٣، دار الفكر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
١٦- ابن مازة البخاري (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) : محمود البخاري " المحيط البرهاني في الفقه النعماني، مكتبة مشكاة الإسلامية،
www. Almeshkat. net/ books.
١٧- محمد أحمد محمد : " بخاري في صدر الإسلام "، دار الفكر العربي، ١٩٩٢م.
١٨- نصر الدين القرشي الحنفي (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣م) : عبدالقادر بن محمد " الجواهر المضيية في طبقات الحنفية "، ج٢، الناشر مير محمد كتب خانة كراتشي.
١٩- النويري (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣م) : شهاب الدين أحمد عبدالوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، تحقيق فوزي العنتيل، مراجعة، محمد طه الحاجري، ج٢٧، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفي زيادة وفؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٢٠- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبوعبدالله الرومي، " معجم البلدان "، ٥ أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

ثانياً: أسماء المصادر والمراجع الفارسية :
٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام : " دستور الوزراء "، ترجمة وتعليق حربي أمين سليمان، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
٢٢- الجويني (ت ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) : علاء الدين عطاملك الجويني : " تاريخ جهانكشاي في تاريخ الخوارزميين والإسماعيليين والحشاشيين وفتح مدينة بغداد علي يد هولاكو "، ج١، ص٢، نقله من اللغة الفارسية، محمد ألتونجي، الطبعة الأولي، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٣- الحسني (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) : صدر الدين أبوالحسن بن أبوالنواس ناصر بن علي، أخبار الدولة السلجوقية "، اعتني بتصحيحه محمد إقبال، طبعة لاهور، ١٩٣٣ م.
٢٤- ________: " زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية " تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٥- الراوندي (ت ٥٩٩ هـ / ١٠١٩م) : محمد بن علي بن سليمان " راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية "، نقلة إلي اللغة العربية، إبراهيم أمين الشواربي، وعبدالنعيم محمد حسنين، وفؤاد عبدالمعطي الصياد، مراجعة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م.

٢٦- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥هـ : ١٣٢٠هـ) ترجمة من اللغة الفارسية محمد علاء الدين منصور، راجعه السباعي محمد السباعي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة.
٢٧- العتبي (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) : أبونصر محمد بن عبدالجبار " تاريخ اليميني المسمي بالفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العتبي، ج١، القاهرة، ١٢٨٦هـ.
٢٨- ابن العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٠١٧م) : محمد بن محمد بن حامد : " تاريخ دولة آل سلجوق "، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، الطبعة الثالثة، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
٢٩- القزويني (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) : حمد الله مستوفي، " تاريخ كزيده " المعروف بالتاريخ المختار، ضمن رسالة ماجستير، إعداد محمود محروس قشطه، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٨م.
٣٠- الكرديزي (ت ٤٤٢ هـ/ ١٠٥١م) : أبوسعيد عبدالحبي بن الضحاك محمود : " زين الأخبار "، ترجمته عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٨٢م.
٣١- ميرخواند (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٩م) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، راجعه السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨م.
٣٢- النرشخي (ت ٣٤٨ هـ / ٩٥٩م) : أبوبكر محمد بن جعفر : " تاريخ بخاري"، ترجمة من اللغة الفارسية أمين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٥م.
٣٣- النسوي (ت في القرن ٧هـ /١٣م) : محمد بن أحمد النسوي " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي"، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.
٣٤- نظامي عروضي السمرقندي (ت٥٥٥هـ/١١٥٥م): الحسن بن عمر " جهار مقاله "، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبدالوهاب القزويني، نقله إلي العربية عبدالوهاب عزام ويحيي الخشاب، الطبعة الأولي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية والمعربة :

٣٥- أرمينوس فامبري : " تاريخ بخاري منذ أقدم العصور حتي العصر الحاضر" ترجمة من اللغة التركية أحمد محمود الساداتي، راجعه يحيي الخشاب، القاهرة ١٨٧٢م.
٣٦- بارتولد : " تاريخ الترك في آسيا الوسطي "، ترجمة أحمد السعيد سليمان، راجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.
٣٧- ــــــــــ : " تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي "، نقله من اللغة الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٣٨- براون : " تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلي السعدي "، مطبعة السعادة، بالقاهرة، ١٩٥٤م.

٣٩- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن محمود حسن وآخرون، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.

٤٠- كي لسترنج : " بلدان الخلافة الشرقية "، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

41- Baswarth: The titulature of the Early Ghaznavich Oriens, (Leiden , 1962).

42- Gibb Sir Hamiton: The Arab Conquests in centeral Asia, (London, 1923).

43- Howorth: The Northern Frontagers of China, Journal of the Royal A.

44- Frye: Bukhara the Medievral Achievement, (London, 1965).

45- Nazim: The life and the time Mahamod of Gazna,(Cambridge, 1931).

الطب والمطببون في شمال الجزيرة العربية على ضوء كتابات الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر

د. زكريا صادق الرفاعي
أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة المنصورة

مقدمـــــة

حظيت شبه الجزيرة العربية باهتمام كبير، خلال القرن التاسع عشر، بحكم موقعها الجغرافي من التجارة العالمية، فصارت جزءا من معترك الصراع الدولي بين القوى الكبرى[١]، ومن ثم تدفق عليها الرحالة من كل حدب وصوب، على تباينهم في النوازع والأهداف[٢].

وقد خلف هؤلاء الرحالة وراءهم تراثا عريضا من الكتابات؛ لم تتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية فحسب، بل طالت أيضا الجوانب الجغرافية والعمرانية والأثرية، واستطاعت، في الأغلب الأعم، تقديم لوحة حية وثرية للتطور التاريخي لشبه الجزيرة العربية، عبر الحقب والعصور التاريخية المختلفة، ليظل هذا التراث، في نهاية المطاف، بغض النظر عن جوانب الاتفاق والاختلاف حول قضاياه وإشكالاته- واقعا ماثلا دوما، ليس بوسع أحد تجاهله بحال، كما ستظل له سطوته وحضوره في ظل غياب المصادر المحلية[٣].

وتسعى هذه الدراسة الى رصد ما سجلته كتابات الرحالة حول الجوانب الصحية فى شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، بهدف استخلاص ما يمكن تسميته بالمعالم الرئيسة للتاريخ الطبي للمنطقة، إن جاز التعبير. ومن الناحية الجغرافية: فإن المقصود بشمال الجزيرة العربية ذلك الجزء الممتد شمالا لهضبة نجد، الواقع عند خط الطول ٣٠-٤١ شرقا. وخط العرض ٣٣ -٢٧ شمالا. ومن الناحية الوصفية: فقد ذكر

البعض أن شمال الجزيرة العربية محصور بين النفود الكبير في الشمال، ووادى الرمة في الجنوب، وبين جبال الحجاز في الغرب وصحراء الدهناء في الشرق، كما ربط آخرون حدودها بأسماء المناطق التى تحدها مثل: بادية الشام من الشمال، وجهات القصيم من الجنوب، والعراق والكويت شرقا، والمدينة المنورة غربا[٤].

وخلال القرن التاسع عشر؛ كانت الهيمنة السياسية، في شمال الجزيرة العربية لإمارة جبل شمر وعاصمتها حائل التى كانت تحت حكم آل على، ثم آل رشيد، وأخذت في المزيد من التوسع حتى صارت لها السيطرة والنفوذ على معظم الأجزاء الشمالية، فضلا عن وسط وغرب الجزيرة العربية[٥]، ولطبيعتها الاستراتيجية المتزايدة؛ غدت محطة رئيسة للرحلات منذ أربعينيات القرن التاسع عشر[٦].

وقد حمل عنوان الدراسة في طياته العديد من التساؤلات، منها محاولة رصد الأمراض الأكثر ذيوعا وانتشارا، وأنواع وطبيعة الأدوية والعقاقير المستخدمة آنذاك، وأيضا مدى العلاقة بين البيئة الجغرافية، والصحة العامة للسكان، وكذلك طبيعة القائمين على العلاج الطبى، أى المطببون، ومدى خبرتهم فى هذا الصدد، إضافة الى منظومة القيم الدينية والاجتماعية التى صاحبت قناعات الناس ورؤيتهم للصحة والمرض؛ كظاهرة انسانية وواقع اجتماعى معاش.

وقد اعتمدت الدراسة على كتابات الرحالة الغربيين كمصدر رئيس فى المقام الأول، برغم أن رؤيتهم قد جاءت، بطبيعة الحال، من خلال إشارات متفرقة وبصورة عرضية، ضمن سياق الحديث عن جوانب مختلفة حتمتها طبيعة ظروف وأهداف رحلاتهم، كما بدت الدراسات السابقة في هذا الصدد جد محدودة، وربما باستثناء دراسة وحيدة كانت من نصيب الرحالة داوتى؛ لم نعثر على اهتمامات أخرى مماثلة فيما نعلم [٧]، وقد عولت الدراسة على منهج تحليل المضمون لمختلف النصوص، مع مراعاة السياق التاريخى المصاحب لها، كما أفادت الدراسة بطبيعة الحال من الأدبيات التاريخية المتاحة على تنوعها [٨].

الطب والتطبيب بين النظرية والممارسة

منذ وجوده والإنسان في رحلة بحث دائمة لفهم ما يحدث له، و ما حوله من ظواهر وأحداث، ولعل ظاهرة المرض من أبرز تلك الظواهر التى ما فتىء الانسان يجد في السعى، ما وسعه، لفهمها وكيفية التعامل معها، عبر الزمن، جيلا وراء جيل.

ومن الناحية اللغوية: يبدو الفارق في المعنى بين الطب والتطبيب، "فالطّبّ مُثلَّثة الطَّاءِ هُوَ عِلاَجُ الجِسْمِ والنَّفْس واقْتَصَرَ على الكَسْرِ في الاسْتِعْمال، الطِّبُّ بمَعْنَى الرِّفْق، والطَّبِيبُ الرَّفِيقُ والطِّبُّ بمعنى السِّحْر ... وقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: إنما سُمِّي السِّحْرُ طِبّاً على التفاؤل بالبُرْءِ" [٩].

"والطَّبُّ: المَاهِرُ الحَاذِقُ الرَّفِيقُ، وفي لسان العرب: الطَّبُّ: الحَاذِقُ من الرِّجَالِ المَاهِر بعِلْمِه كالطَّبِيبِ وكُلُّ حَاذِقٍ بِعِلْمِهِ طَبِيبٌ عِنْد العَرَب، ويقَال: فُلاَنٌ طَبٌّ بِكَذَا أي عَالِمٌ بِهِ..: والمُتَطَبِّبُ: مُتَعَاطِي عِلْمِ الطِّبِّ وقَد تَطَبَّبَ. وقَالُوا: تَطَبَّبَ لَهُ: سَأَل لَهُ الأَطِبَّاءَ، المُتَطَبِّبُ: الَّذِي يُعَانِي عِلْمَ الطِّبِّ ولا يَعْرِفُه مَعْرِفَةً جَيِّدَةً، قلتُ: أي لِكَوْنِه من بَابِ التَّفَعُّلِ وهو لِلتَّكَلُّف غَالِباً.." [١٠].

ومن ثم فان الطبيب physician هو: المؤهل والمتصدى لعلاج الناس بحكم علمه وخبرته، وإن كان يجب الإشارة الى أنه ليس كل من تلقى العلم نظريا قد مارسه بالفعل عمليا، فهناك كثير من العلماء درسوا الطب ووضعوا فيه مؤلفات، دون وجود ما يشير، بالضرورة، الى ممارستهم العملية للطب [١١].

وفى كثير من الاحيان فان اعتبارات الواقع المعاش - وفى ظل غيبة أو ندرة وجود أطباء في العديد من الاماكن لسبب أو لآخر - قد حتمت وجود فئة صارت لها أهميتها في محيطها الاجتماعى، هم المطببون general practitioner، وهم وان بدت معرفتهم النظرية بالطب محدودة، فلديهم خبرة عملية متوارثة لا تنكر، اكتسبوها عبر التجارب والممارسات الطويلة من الآباء والأجداد.

و الواقع أن قضية النظر للطب بوصفه علما تارة، وبوصفه مهنة تارة أخرى، قد حظيت بنصيب من الاهتمام في أدبيات التراث العربي. وقد تطرق ابن خلدون الى تلك القضية، فأشار الى الطب باعتباره علما يُعنى بمعرفة الاسباب المختلفة للأمراض، والوقوف على الطرق الفعالة لعلاجها فمن "فروع الطبيعيات صناعة الطب، وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة ... ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب ..."، وإن كان في موضع آخر عرض للطب كمهنة، شأنها شأن الحرف والصنائع المتداولة، والتي تتفاوت في اهميتها من مكان لآخر فتلك "الصناعة (أي الطب) ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها ..."[١٢]، على حين أن أهل البادية تقل "حاجتهم للطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه، وما ذاك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج اليه لوجد" [١٣]، كما اعتبر ابن خلدون، وفقا لتلك الرؤية، أن ما تقوم به القابلة عند الولادة مهنة قائمة بذاتها[١٤]، كما وصف جملة الممارسات الطبية في البادية، بما لها من خصوصية بينية واجتماعية، بقوله و"للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ..."[١٥].

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر: ميز بعض الدراسين بين الطب كعلم يبحث عن سبب الأمراض وكيفية استعادة الجسم لقوته من جديد، وبين جوانب أخرى مرتبطة به، مثل الجراحة التي اعتبروها أقرب الى المهنة أو الحرفة منها الى العلم النظري، وتحتاج الى مهارة يدوية خاصة[١٦].

ويبدو أن الرؤية السابقة قد ظلت ماثلة في الأذهان وتركت صداها في كتابات بعض الرحالة، فأشار بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) الى أن العرب لم "يفرقوا بين الطب والجراحة من حيث النظرية والممارسة" وأن "أفضل علاج لديهم هو الكي، وهو يدخل في باب الجراحة"، ثم ذكر أن بعض "النباتات التي تنمو هنا لها بعض المزايا الطبية كمسكنات

ومنشطات، ويستخدمها من آن لآخر السكان اصحاب الخبرة والتجربة، كما أن استخدام الكمادات والأدوية الخارجية الأخرى، أو الملطفات، يدخل أيضا فى إطار مهارتهم وخبرتهم، كما تعوض سرعة البديهة الفطرية، الى حد ما، أوجه القصور الناجمة عن جهلهم بالمعلومات النظرية" (١٧).

ومن الأهمية بمكان: التوقف عند ما أبداه بالجريف من آراء حول التراث الطبى للعرب والمسلمين بوجه عام، خاصة وأن الرجل كان من أبرز الرحالة اهتماما ورصدا للأحوال الاجتماعية (١٨) وفى مقدمتها الجوانب الصحية، وقد جمع على حد قوله "معلومات هامة عن الحالة الصحية فى جبل شمر، فى الماضى والحاضر"(١٩)، وفى تقديره أن العرب "لا يعدو أن يكونوا أطفالا فى مجال الشئون الطبية"، وأضاف في موضع آخر "أن القول بفهم العرب للطب وهم شعبى، وكل ما هنالك ترجمة عامية للطب الإغريقي"، وعاد مضيفا "أن ومضات العرب فى الطب سرعان ما خبت، بسبب جمود الإسلام[١]، وجهلهم بالعلوم الكيماوية والأدوية، فظلوا على هذا الحال من الجهل"(٢٠).

والواقع أن الأحكام السابقة، التى أطلقها بالجريف، قد انطوت على ظلم واجحاف كبيرين بالتراث الطبى للعرب، الذين عرفوا الطب قبل الإسلام، وإن كان قد غلب عليه الطابع البدائي، وتناقله الناس مشافهة في غير نظام، فكان في الواقع طبا فلكلوريا، إن جاز التعبير، وبرغم ذلك برز منهم أطباء معروفون مثل الحارث بن كلده وغيره، ومن جراحي العرب بن أبى رمثة، ومن بيطرييهم العاص بن وائل (٢١).

وكانت المعالجات تعتمد عادة على بعض النباتات، وبالعسل وحده أو مع مواد أخرى شربا تارة، أو على صورة عجائن ولصقات تارة أخرى، وفى كثير من الأحيان: تم الاعتماد على الحجامة والفصد والكى، وبتر الاعضاء بالشفرة المحماة بالنار، وفى بعض الحالات تمت معالجة الجراح المتعفنة والدماميل بمواد ضد العفونة. كما استخدم الحجر

---

(١) هذا رأيه غير المنصف. وانظر ص٦ التالية.

الصحى والفتائل في تضميد الجراح، وكان شائعا لجوء البعض، آنذاك، الى استخدام الرقى والعزائم والاذكار، لطرد الجن والأرواح الشريرة.

على انه في فترة الدولة العباسية، وخاصة عهد الخليفة المأمون، كما هو معروف، بدأ الحرص على الترجمة في الطب والعلوم من اليونانية مباشرة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين: حنين بن إسحاق، وسرعان ما تعرف العرب على أعمال أبقراط وجالينوس وغيرهم، ومع الوقت صار علم الطب فيهم أصيلا، فتناولوه بالشرح والنقد، فضلا عن ممارسته عمليا [٢٢].

ولم يمنع اعجاب العلماء العرب بالطب الإغريقي؛ انتقاده في بعض الأحيان، على نحو ما فعل الرازى، فلم يقر بصحة ما توصل اليه جالينوس وأبقراط في بعض القضايا الطبية. وصفوة القول: أنه لم يكن في العالم المتحضر، في ما بين منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) و القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) علم طبى يعتد به الا ما كان منه عند العرب، كما لم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب: علما وعملا وتنظيما [٢٣].

ومن المثير للانتباه؛ أن بالجريف قد ربط تأخر العرب والمسلمين، في مجال الطب، بما أسماه بجمود الإسلام، ولم يوضح أي جمود يقصد؟ لاسيما وأن الإسلام من أكثر الديانات السماوية حثا على طلب العلم والمعرفة، وإعلاءً لمكانة العلماء، واعترافا بفضلهم، وليس معروفا الأسباب التى دعت بالجريف لتبنى هذا الزعم والإفتئات، وإن كان مثيرا للانتباه أن ما ذكره بالجريف هو نفس ما سبق وان أبداه الطبيب والمستشرق المعروف "كورنيليوس فان ديك Cornelius Van Dyck" عضو الإرسالية الأمريكية، الذى استقر في بيروت منذ عام ١٨٣٦، واستمرت خدمته بها لمدة ستين عاما، و قد كتب ديك عام ١٨٤٨ مقالة عن الأحوال الحالية لمهنة الطب في سوريا، أوضح فيها أن الطب العربى في حالة من الضعف والجمود، وربما تأثر بالجريف بما كتبه ديك إبان وجوده في بيروت عام ١٨٦٠ [٢٤].

ويجب التنويه إلى أن التهجم على الإسلام كان دأبا لبعض من نخبة العصر الفيكتوري، فكثيرا ما زعموا أن "الإسلام بمكوناته الذاتية غير قابل للإصلاح والتغيير"، بل إنه وفق رؤيتهم "عاجز حتى عن توجيه الحياة الإنسانية لأصحابه"[٢٥]، بل إن بالجريف ذهب، في موضع آخر، الى مدى أكبر في زعمه، وبدا أكثر حنقا على الاسلام حين ربط بغرابة فجة، وغير مبررة، بين "إمكانية تقدم العرب في العلوم المادية والتطبيقية" من جهة، شريطة "زوال الاسلام واختفاء مكة"؟ من جهة أخرى[٢٦].

ويبدو أن مهنة الطب كانت تحظى بالتقدير والقبول من مختلف الطبقات الاجتماعية، ولعل ذلك كان دافعا لاختيار أغلبية الرحالة الظهور بمظهر الأطباء، وقد أشار بعضهم الى أن "مظهرنا التجارى قد سبب لنا بعض المضايقات، ولكن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة"[٢٧]، كما كانت هناك، على حد قول البعض، قناعة سائدة بين الناس أن "الطبيب لدية قوة مقدسة او خارقة للطبيعية وهو إحساس مفيد للطبيب" [٢٨].

وقد أجل الرحالة "فالين" (١٨١١-١٨٥٢) رحلته لمدة عام، حتى يتسنى له دراسة برنامج طبى يمكنه من القيام ببعض الممارسات العلاجية، باعتباره طبيبا في المستقبل [٢٩]، و أطلق في بعض الأحيان على الطبيب اسم "الحكيم" و"المداوى" وهو ما حدث مع الرحالة "داوتى" (١٨٢٣-١٩٢٦) حيث عرف باسم الحكيم خليل، وأطلق عليه بعض المزارعين المداوى، وهو نفس الاسم الذى أطلقه عليه بعض سكان البادية[٣٠].

سطوة التقليد الاجتماعى

لم تكن الخدمات الطبية متاحة في شمال الجزيرة العربية، بل ربما كانت معدومة بالكلية، خلال فترة الدراسة [٣١]، وليست هناك أية إشارة الى وجود مستشفيات عامة يهرع اليها الناس حال مرضهم، بل كان العثور على طبيب أمرا صعب المنال في كثير من الأحيان، وأشارت المصادر الى أن الإمام "عبد الله بن فيصل بن تركى" (ت.١٨٩١) خلال إقامته بحائل، تعذر وجود طبيب لمعالجته من مرضه، الى ان تم العثور على طبيب مع مرور وفد الحج الفارسى الذى قرر، في حينه، أن مرضه خطير [٣٢].

ويبدو أن الاعتماد على الاطباء الفرس واستدعاءهم، من آن لآخر، كان أمرا شائعا، فقد استعان الامير "طلال بن رشيد" (ت.١٨٦٩) بأحدهم لتحديد مرضه [٣٣]، كما تم قدوم طبيب فارسى أيضا لاستئصال طلقة استقرت في القدم، اصيب بها الأمير "محمد بن رشيد" (ت.١٨٩٧) منذ وقت بعيد، أثناء حصاره للجوف [٣٤].

والشاهد أن ظهور أطباء متجولين، على فترات متقطعة، كان حدثا بارزا، وقد أشار بالجريف الى تدفق "الكثيرين عليه فى حائل ومن مختلف الأعمار، وكان هناك من طلبه للذهاب معه لمنزله للكشف على أحد أقاربه، وأشار الى أنه تجنب، منذ البداية، التعامل مع النساء والأطفال، لقلة خبرتهم الطبية، وتجنبا للفشل" [٣٥]، كما ذكر الرحالة "داوتى" أنه مارس التطعيم والعلاج نظير استضافته من جانب بعض القبائل، طوال اقامته [٣٦].

وألمح "داوتى" الى أن الناس قد زادوا إقبالا عليه بعد الوثوق به، وأنهم كانوا على معرفة سابقة بالتطعيم، فلم يكن أول من مارس ذلك، وذكروا له وجود شخص من نصارى الشام يدعى "أبو فارس"، كان يمارس التطعيم لهم ضد الجدرى، ثم جاء بعده شخص آخر يدعى سليمان، إلا أن السكان أطلقوا عليه اسم أبو فارس لممارسته نفس المهنة، وصار لديهم اعتقاد أن التطعيم يأتي من النصارى فقط من الشمال [٣٧]، كما أشار في موضع آخر الى "تجمع الناس طلبا للدواء لدرجة الاستجداء" [٣٨]، بل كان هناك "إصرار من جانب البعض على أخذ أي علاج مهما كان نوعه" [٣٩].

وكان المزين (الحلاق) له دوره داخل كل قبيلة، فكان يعهد اليه بمسئولية ختان الصبية، وبحسب إفادة داوتى؛ فإن ذلك يتم عادة بعد تجاوز عمر الصبى ثلاث سنوات، وقد تؤجل الجراحة في حال القيام برحلة، أو في ظل وجود طقس عاصف [٤٠].

و قد بدت خطوات أو إجراءات الكشف على المرضى مألوفة "ومسألة إخراج المريض لسانه للفحص، ومد يده لمعرفة النبض، أمرا شائعا، كما ان لهم اعتقادا في ضرورة فحص الرسغين كل على حدة" [٤١]، و ذكر داوتى أن البعض قد طلب منه قياس

الضغط له، مضيفا أن العرب يعلقون أهمية كبيرة على هذا الإجراء، للاطمئنان على أنفسهم(٤٢).

وقد اختلفت آراء الرحالة حول قضية وجوب عزل المريض عن زيارة الناس له، فأشار بالجريف الى أن هذا الأمر "غير معروف هنا، ويعتبرون أن من الواجب زيارة المريض وتشجيعه"(٤٣) على حين أوضح داوتى أن الناس لديهم "قدر من الثقافة والتجربة، فهم مثلا يعزلون المريض بالجدرى وحده، ويجعلون من سبق له الشفاء من المرض التعامل معه، لأنه صار فى نظرهم محصنا، كما أنهم لا يعطون المريض دواء خشية الإصابة بالعمى، كما أشار الى استغراب الناس لأنه (داوتى) يأخذ الحيطة والحذر من العدوى، لأنهم يعتقدون أن من يأخذ التطعيم لا يصاب بالمرض(٤٤).

ووفقا للمصادر المحلية؛ فإن إحدى الطرق المتوارثة للوقاية من مرض الجدرى: تعرف باسم الذواقة بتشديد الذال وفتح القاف، وخلاصتها القيام بطهى طعام يحتوى على أجزاء من أنواع مختلفة من اللحوم، كالغنم والبقر والجمل، على شكل قطع صغيرة من كل نوع، ويضاف اليها أنواع الخضروات السائدة، ثم يطهى ذلك كله في قدر، ويعطى المريض منه في الأيام الأولى من إصابته، لاعتقادهم أن المريض سيكون بمنأى عن أية مضاعفات للمرض لاحقا، من خلال ذلك الإجراء(٤٥).

ومن بين القضايا التى أبرزها الرحالة: عدم التزام كثير من المرضى بتعليمات الأطباء، وخاصة الانتظام في تعاطى الدواء، وربما ساهم التقليد الاجتماعى والثقافى السائد في ذلك السلوك، فالكثيرين "قد يعتبرون أن الأدوية التى يطلبونها أو يبتغونها أقل من الرقى والتعاويذ التى ينتظرون منها أن تحدث، فى الحال، تغييرا ماديا محسوسا، دون التزام منهم.. وإذا حدث ولم يشف المريض بعد يوم أو يومين او يتحسن تحسنا كبيرا .. يقولون لم يحدث الدواء أي تقدم، ويتخلون بعدها عن الطبابة والطبيب"(٤٦).

ووصف بالجريف حالة أحد البدو بقوله "وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعه، مثل اليد الضامرة، والعين العمياء تماما،

يطلب دواء يتوقع بعد أن يستعمله مباشرة، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته"[٤٧].

وكان منطقيا - في ظل غياب أي رعاية الطبية، فضلا عن قلة الوعى، بل ربما انعدامه - لجوء بعض الناس الى بدائل أخرى، فكان ما أشار اليه داوتى من "تعليق الأحجبة والتمائم، ولاحظ أنها رائجة، فيندر ان ترى طفلا دون تميمة او حجاب، بل هذا يشمل الحيوان أيضا، للوقاية من الحسد"، و أضاف "أن الناس تفضل الأحجبة عن الطبيب، بل ويدفعون له دون تردد وعن طيب خاطر، ولو كان آخر ما معهم من نقود"، كما ذكر أن الأحجبة أنواع، منها ما أسماه أحجبة الناس المشهورين، أي التى كتبها شيوخ مشهورين، وهى مكلفة جدا، والحصول عليها نادر" [٤٨].

كما رصد داوتى المروجين للتمائم والأحجبة، فأوضح أن "بعض المغاربة يقومون، فى طريقهم للحج، وبعضهم فى المدينة - بكتابة الأحجبة، بحيث صاروا أفضل من يقوم بذلك فى تلك المناطق، وخاصة على طريق الحج، وأشار الى الاعتقاد القوى فيها من الناس، وأنها تقيهم من أشد الاخطار، بل إن تفشى تلك الظاهرة دفع داوتى الى مقارنة ذلك بما كان سائدا فى أوربا، فى العصور الوسطى، حيث كان الأمر شائعا، وكان القائمون عليه بعض اليهود[٤٩]، وأشار الى أنه برغم معرفة الناس أنه نصراني، فإن البعض كان يطالبه بكتابة أحجبة لهم، وكانوا مستعدين للدفع لها اكثر من العقاقير الطبية، وأنه كان بوسعه تحقيق ثروة من وراء ذلك [٥٠].

ولعل ما ذكره داوتى هو ما كان شائعا بين البعض من ارتداء ما اطلقت عليه المصادر المحلية "بالحجاب" أو "الجامعة" و يبدو أنها سميت كذلك باعتبار أن الشخص يشدها الى عضده أو صدره؛ لتقيه شر الشياطين وتحميه، وتسهل له كل أمر صعب، بحسب الاعتقاد السائد آنذاك[٥١]. كما حرصت أيضا كثير من النساء البدويات على ارتداء أنواع من القلائد من الخرز، إذ يعتقدن في نجاعة تأثيرها في دفع الأمراض و الوقاية منها[٥٢].

والواقع أنه برغم سعى الرحالة الحثيث لرصد الجوانب الاجتماعية في كثير من الأحيان، إلا انهم قد جانبهم الصواب في أحيان أخرى، مثل اتهامهم للعرب بالتواكل والكسل والمماطلة في دفع أجورهم، دون دليل، وكرر بالجريف أنه خلال فحصه لرجل، وكلما سأله عن سبب مرضه أجاب الرجل مرارا وتكرارا "السبب يا دكتور هو الله"(٥٣)، كما ردد داوتى عبارات البعض في مثل تلك المناسبات - "اتكالنا على الله، الحكيم والشافى هو الله" - بصورة تهكمية دون ادراك أن ذلك لا يعد تواكلا بقدر ما هو تجسيد لإيمانهم العميق، والرضا بالقضاء والقدر في كل احواله، دون التفريط أو الإهمال بالأخذ بالأسباب ومنها اللجوء الى الأطباء(٥٤)، وقد ناقض بالجريف نفسه، فتارة يقول "ان العرب لا يدفعون مطلقا، أو يدفعون بعد الشفاء، وإن عاد ليقول إنه، فى بعض الحالات، يتم الاتفاق على دفع مبلغ معين ويتم الوفاء به(٥٥).

كما أن دواتى قد بالغ بدوره فى اتهام الناس بالبخل، وقد تغافل كثيرا عن ذكر ما دفعوه له، سواء نقدا أو عينا، وخاصة استضافته، ويجب ألا ننسى أن إسباغ الحماية وتوفير الأمن أمر له أهميته فى هذا الصدد، فضلا عن تجاهله لندرة النقود بين الناس، وحالة الفقر بوجه عام. وفى بعض المرات لم يجد رجل شيئا يعطيه للحكيم سوى أن يخلع له ثوبه ثمنا له، فسامحه على الدواء(٥٦).

الصحة والبيئة

حظيت العلاقة بين الصحة والبيئة باهتمام الرحالة على تنوعهم، وكانت قاسما مشتركا في نصوصهم، فأفاض معظمهم في الربط بين البيئة السائدة وأثرها الوثيق على الصحة العامة للسكان، فعلق الرحالة فالين على أثر الظروف المناخية بقوله "فالأجزاء الغربية من شبه الجزيرة مناخها جيد صحى، وجميع السكان يقولون إن المدينة وجبل شمر والجوف مناطق صحية جدا، فى حين يشكو من سوء المناخ فى الرياض والمحلات الشرقية بنجد، وتتفشى الحميات أكثر ايام السنة" (٥٧)، كما لاحظ أن ارتفاع الرطوبة يصاحبه عادة "أمراض صدرية، وهى أمراض نادرة فى الداخل"(٥٨).

كما نوه بدور الهواء النقي في توفير بيئة صحية ومساهمة المناخ الجاف في القضاء على الفضلات والمخلفات [٥٩]، وعند وصفه للحالة العامة التى بدا عليها أهالي مدينة "جبة"، إحدى المدن التابعة لإمارة حائل، أوضح فالين أن "بشرتهم تبدو سقيمة وأجسامهم ضعيفة وفى بلدتهم امراض عديدة تتفشى، وقد يكون هذا سببه ملوحة الماء، والتمر غير الجيد الذى هو الغذاء الرئيس للسكان[٦٠].

وعلى نفس المنوال وصف بالجريف البدو، خلال قدومه من الجوف متجها الى حائل، أن "وجوههم هزيلة يشع منها الجوع، وبشرتهم سوداء بفعل الأقذار والأوساخ الناجمة عن رداءة الطقس"[٦١]. كما عزا "بالجريف" "التهاب غشاء المعدة المخاطى المزمن، بل قرحة المعدة المميتة التى تنتشر بشكل ملحوظ بين عرب المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية – الى استمرار اتخاذهم التمر غذاء لهم"[٦٢]، وفى موضع آخر، وعلى نقيض ما سبق، امتدح بالجريف بنية سكان الجوف وتمتعهم "بالصحة والنشاط، حتى فى سن متأخرة، وقد يشترك بعض الشيوخ فى السبعين فى المعارك، وهم طوال القامة وأجسامهم متناسقة" [٦٣].

وعند دخولها مدينة حائل، عبرت "آن بلنت" عن انبهارها الشديد بنظافة شوارع المدينة على نحو غير مألوف [٦٤]، بينما وصف "هوبير" حالة السكان بقرية العيون، في طريقه من حائل الى القصيم، فى صورة قاتمة بقوله: "فالرجال بشكل خاص لم يكتمل نموهم، وهم قصيرو القامة، قبيحون هزيلون، ووجوههم باهته وضامرة" [٦٥]، وتساءل في موضع آخر عن الأسباب التى أدت الى خلو بعض البلدان من السكان، ربغم توافر الماء والغذاء بها، مرجحا أن يكون ذلك "بتأثير الهواء المتخم بالهوام المنبعثة من المياه الراكدة.."[٦٦].

كما حفلت نصوص الرحالة بإشارات كثيرة حول الأنماط والعادات الغذائية السائدة، فنوه بالجريف بالفوائد الصحية للتمر، وإقبال البدو والحضر عليه، حيث يقوم لديهم مقام الخبز[٦٧] كما أشار كثيرون الى استخدام نبات السمح كغذاء يحظى بالقبول[٦٨]، والاعتماد

على الرمان باعتباره علاجا ناجعا لأمراض الكبد[٦٩]، كما وصف "فالين" أنه بالقرب من تبوك يوجد "نبات حريف طعمه لذيذ جدا، وله بعض الشبه بنبات الرشاد الذى ينمو فى بلادنا ... وعرب المدن يجففونه ويستعملونه فى الهضيم ويدعونه رشادا"[٧٠].

وتكررت الإشارات الى الأهمية الغذائية لحليب النياق، وثمرة "المصاع"[٧١]، وبالمقابل حذر البدو من "حليب الغنم لأنه يؤدى الى السمنة أكثر مما يقوى البدن، وقد يسبب أمراض القولون، ويجب معالجته قبل أن يكون صالحا للشرب"[٧٢]، وأشار داوتى الى "اعتقاد الأعراب أن لحم الذئب جيد جدا من الناحية الطبية، ومفيد من أجل آلام السيقان الشائعة جدا، لأن الأغلبية يمشون حفاة الأقدام وعراة السيقان، في جميع فصول السنة"[٧٣].

وعلى صعيد آخر؛ تطرق كثير من الرحالة الى رصد الأوبئة التى حلت بالبلاد من وقت لآخر، فأشار بالجريف الى انتشار وباء الكوليرا فى الجزيرة العربية عام ١٨٥٥[٧٤] كما نقل دواتى عن مرافقيه لقافلة من الحجيج حديثهم عن اجتياح وباء الكوليرا، وهلاك الكثيرين من الحجاج، وسميت بسنة الكوليرا، حتى انه كان يدفن مائة شخص فى يوم واحد، دون توافر أية رعاية طبية[٧٥].

ومن الاوبئة الأكثر انتشار: وباء الجدرى، وكان منتشرا بين الكبار والأطفال، وإن كان انتشاره بين الأطفال اكثر، وربما أدى الى فقد عين واحدة أو الاثنتين، ويترك تشوهات بالوجه نتيجة البثور، وقد صادف وجود الجدرى، فى عنيزة، خلال تواجد دواتى بها عام ١٨٧٨، بعد أن انقطع، كما أشار الناس، سبع سنوات، وفسر انتشار الوباء بوجود بعض القوافل العائدة من الحج[٧٦] وكان بها بعض الرقيق، في طريقه الى القصيم ثم نقله الى العراق، فكان ذلك سببا فى انتشار العدوى[٧٧]، وبنبرة أشبه بالرثاء تطرق داوتى الى النتائج الوخيمة لوباء الجدرى بقوله: "تأكد لى الآن أن الجدرى قد انتشر بين الحجيج، وهذا المرض المرعب، وحمى الكوليرا، هما سبب فناء الجزيرة العربية البدوية، لأن أجسامهم سيئة التغذية، ولا توجد سوى مقاومة ضئيلة"[٧٨].

وفى تقرير آخر، ذكر الرحالة "أوتينج" "أن سكان بلدة "موقق" إحدى القرى التابعة لإمارة حائل، كان يتراوح في السابق ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف نسمة، ولكنهم اضطروا بسبب الطاعون والكوليرا الى الهجرة، فلم يبق منهم الآن سوى ألف أو ألف ومائتين نسمة على أقصى تقدير"[٧٩]، ولا يمكن بالطبع التكهن بمدى صحة التقدير السابق، وربما كان مبالغا فيه، في ظل عدم وجود إحصاءات موثوقة، لكنه يظل مؤشرا على فداحة الأثر الاجتماعى للأوبئة والأمراض [٨٠].

وقد وصف داوتى ذات القرية "بأنها صارت خرائب، وكذلك القرى المجاورة لها مثل "قفار"، كما هلك "بواسط" نحو ثلاثمائة شخص، أما في "حائل فقد هلك شخص أو اثنان من كل أسرة ... وأن البدو اللذين زاروا حائل في زمن الطاعون قد هلكوا بأسرع من أهل البلدة، مع أن العدوى كانت أخف في الصحراء، ولم تنتشر في منازلهم كمرض قاتل ... كان المرض يصيب الرأس والأمعاء، البعض مات في اليوم نفسه، والبعض ظل لفترة أطول، والعلامات المرضية لدى المصاب بالطاعون هى بقعة سوداء تظهر على الأنف، وتغير لون الأظافر والآلام هى تقريبا نفس الآم الكوليرا ... ثم نزلت بالبلاد بعد ذلك حمى خبيثة لمدة عامين"[٨١].

والى جانب الأوبئة والأمراض، كانت هناك أيضا كوارث أخرى لا تقل اثرا في فداحتها، مثل سنوات القحط والمجاعة، وعدم سقوط الأمطار، وقد وعرض أوتينج الى حديث بعض النساء معه عن عام المجاعة" حيث لم يثمر النخيل واضطر الناس الى ذبح الأبل"[٨٢]، وخلال طريقه الى حائل نقل داوتى عن مرافقه قوله "أن الماشية قد نفقت لعدم سقوط المطر، وهلك بعض الناس من جدرى البقر، وأن تلك الكوارث ليست غريبة على أطراف الجزيرة العربية"[٨٣].

وبطبيعة الحال القت الأوبئة والأمراض التى كانت تحدث بصفة دورية، فضلا عن الكوارث الطبيعية على تنوعها، بظلالها على مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية

لشمال الجزيرة العربية[٨٤] وربما كان في مقدمتها بطء النمو السكاني لانعدام الرعاية الصحية[٨٥].

المـرأة والتطبيب

كانت مساهمات النساء موضع ثناء كثير من الرحالة، بل أوضح "جورماني" أن دورهن لم يكن محصورا في نطاق الظروف العادية فحسب، وانما كان لهن دور أثناء المعارك الحربية، فكن يقمن "بوقف نزيف الدماء بالرمال والذرور، وتضميد الجراح بالعصائب"[٨٦].

وأشار دواتي الى أنه عندما تم "العثور على نبتة جديدة غير معروفة، حملوها الى النساء لفحصها، لأن من صفات ربة المنزل بينهم أن تكون بارعة في العقاقير والنباتات الطبية"[٨٧].

ولعل الفقرة الاخيرة تشير بوضوح الى أن التطبيب ليس ترفا، وإنما هو جزء رئيس من الأعباء الملقاة على عاتق النساء، وطوال رحلته من حائل الى خيبر، وصف داوتي الإقبال المتزايد عليه من النساء، عندما "علمن أنني مداوي، ويحملن الأقط أو قطع اللبن الجاف[٨٨] لشراء الأدوية ... وأضاف أن إحداهن أخبرته أن أخيها مصاب بالريح أو الملاريا، وأنها انحنت بشكل متعمد لتتفحص عقاقيري باليدين المتمرستين لامرأة حكيمة بالنباتات الطبية"[٨٩].

وقد قص جورماني تجربته في العلاج، عقب إصابته بالتسمم بعد أن شرب ماء ملوثا فى إحدى المغارات، حيث أصيب بالتقيؤ وصداع شديد، وهبوط عام في قواه الجسدية، ولم ينقذه سوى نقله سريعا الى خيمة قريبة لأفراد من قبيلة الصلب، ووجد نفسه محاطا ببعض النساء "يُفرك بالسمن ويسقى من حليب النوق، وامرأتان تقومان بتدليك عموده الفقرى بالسمن، وتدليكه تحت إبطه وفى صدره، حتى استرد وعيه"[٩٠].

ولم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى عرض فيها جورماني لتصدى النساء لعلاج المرضى، فقد أشار الى "قيام امرأة عجوز بعلاج مرافقه من رمد قوى بمداوته بالكحل، ثم

بعد ذلك بمغلى رؤوس الماعز وقوائمها التى تغلى بوبرها، وهذا العلاج يعد عاما في الصحراء لأجل جميع أمراض العيون وخاصة للكمه (عشى الأبصار)، وينبغى أن يمكث المريض، وهو مغطى بعباءتين، فوق القدر بعد رفعه عن النار، الى ان يتوقف تصاعد البخار"(٩١).

ولم تكن الحجامة مهنة قاصرة على الرجال فحسب، وانما أشار داوتى الى أن بعض النساء اتخذنها أيضا حرفة لهن"، كما أن النساء أيضا هن الأكثر استخداما للأعشاب والعقاقير، وهن المنوط بهن البيع والشراء للنباتات الطبية، مثل الحلتيت والصمغ لعلاج التشنج، والحبة السوداء وأنواع العلك. ومما أثار دهشتهن تفاعل بعض المركبات وغلياتها دون نار" (٩٢).

وبطبيعة الحال؛ كان داوتى محقا في ملاحظته الثاقبة من "أن النساء يقمن بالتطبيب أكثر من الرجال، ولم يقدم تفسيرا لذلك "على حين ذهب البعض الى أن ذلك يعود الى طبيعة البيئة والحياة البدوية، أكثر من المدن التى يفسح فيها المجال للنساء فى التجارة، وخاصة على طرق الحج، وانشغال الرجال بصد غارات القبائل أو الخروج للغزو(٩٣).

وكانت أدوات الزينة ووسائل النظافة محل اهتمام النساء، كاستخدام الحناء لصبغ الشعر، واستخدام بول الإبل (العبس) لغسل شعورهن به، لتأثيره الفعال في تقوية الشعر ونظافته. وقد وصف الرحالة شعرهن "بالسواد والكثافة نتيجة استخدامهن لزيت لحاء النخيل، والدهن المصفى من ذنبة الشاة لا رائحة له، ولا يسبب أية اضرار"(٩٤)، كما أشار داوتى الى شيوع استخدام الرجال والنساء للكحل، سواء في البادية أو الحضر، لاعتقادهم القاطع في فائدته للنظر(٩٥).

وبطبيعة الحال، لم يكن أمام الناس خلال فترة الدراسة بدائل علاجية، فاضطروا الى استخدام المتاح لهم من بيئتهم، والذى بدا في بعض الأحيان مفيدا، وفى أحيان أخرى

غير مفيد، كما رسخ لدى البعض لأسباب مختلفة: قناعة بأن هناك بعض الأمراض لا يجدى معها سوى ممارسات الطب الشعبي(٩٦).

و قد لفت انتباه "بالجريف" أن النباتات الطبية الشائع استخدامها هى "نباتا السنا والحنظل ... وهما الدواءان اللذان لا يعرف اهل الجزيرة سواهما، ويشيع بين البدو اللذين يصابون بالإمساك استخدام جرعة مستخلصة من مملكة زهرة الكاميلية، وهم يتناولونها دون تخفيفها بالماء"(٩٧)، كما ذكر استخدام نبات "الداتورا أو تفاحة الشوك، وهو من النباتات السامة، في أعمال الدجل والشعوذة"(٩٨)، ولم يفت بالجريف الاشارة، بثاقب نظره، الى وجود مدعين للطب "من المغاربة والبلوخ المتجولين، لم يحققوا في رأيه نجاحا، وليسوا موضع ثناء من أحد"(٩٩).

ومن الطريف والمثير للانتباه معا؛ حديث داوتى عن معرفة الناس لبعض أدوات العلاج الحديثة، مثل "مثقب العين وإن كانوا لا يعلقون عليه أملا، ربما لأنهم لم يجربوه وأنه لازال جديدا، كما أشار الى علمهم بوجود مراهم موضعية للعيون"، ويبدو أن غسيل العين لم يكن معروفا، لأنهم كانوا يتزاحمون على بابه طلبا لهذا العلاج الذى كان يوزعه، على حد قوله، مجانا(١٠٠).

ومن الأهمية بمكان؛ الإشارة الى توافر بعض الأدوية الإنجليزية بين أيدى الناس، وكانت تأتى مع قوافل التجارة التى تجلب معها العديد من البضائع والسلع، ومنها الأدوية من الهند، وقد عبر داوتى عن دهشته حينما وصف دواءً لرجل، وكان يظن عدم وجوده بالأسواق لحداثته، ولكنه فوجئ بحصوله عليه فى نفس اليوم، كما حرص الكثيرون من أفراد الطبقات العليا، من الوجهاء والتجار، على جلب التطعيمات المختلفة من الخارج، صحبة القوافل التجارية العائدة، لاستعمالهم الخاص هم وذويهم"(١٠١).

الأمراض الشائعة وطرق العلاج

يمكن القول بأن الأمراض التى غلبت على سكان شمال الجزيرة العربية، بحسب ما رصده الرحالة، هى على النحو الآتي :

أولا: أمراض العيون، وقد احتلت المرتبة الأولى، وقدر البعض أن شخصا من كل ثلاثة مصاب بالعمى، مما يدل على مدى تفشى أمراض العيون بين السكان[١٠٢]، وقد لاحظ داوتى وجود الكثير من العميان اللذين أصيبوا فى وقت لاحق، وليس منذ ولادتهم، كما أشار الى انتشار الكمه، أي العشى الليلى، محذرا من تفاقم ذلك المرض، إذا ما كان متزامنا مع الجدرى، فيؤدى حينئذ الى العمى الكامل [١٠٣]، وكان من أنواع الرمد، الشائعة آنذاك، ما أطلق عليه العامة اسم " أبو أطبيق" [١٠٤].

والعلاج المستخدم لأمراض العيون عادة هو الكحل، وأيضا كما سبقت الإشارة، التبخير بمغلى رؤوس الماعز وقوائمها [١٠٥].

ثانيا: الأمراض الوبائية، مثل الجدرى والكوليرا، وقد سبقت الإشارة الى توالى تلك الأمراض بصفة دورية من آن لآخر، وتركت تأثيرا فادحا على التركيبة السكانية، وخاصة في البادية [١٠٦].

ثالثا: أمراض الكبد، والمستخدم في علاجها الرمان على نحو ما قد سبق، ومن بين طرق العلاج أيضا، بحسب ما أشار البعض اليه، هو "قطع ذيل النعجة بالكامل وهى حية، ثم يقسم الى قسمين: مسطحا ويلف به المريض على محل الكبد، بحيث يبقى الطرف الخارجى من الذيل ذى الشعر فى الخارج، وذلك لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم يرفع الذيل من على المريض، ويظهر على جسمه بقع سوداء ، فيتم كى اطراف هذه البقع بإبر احمرت في النار، ثم يأخذ المريض بالحمية الشديدة لمدة اسبوع، كما تعالج آثار الكى بالمراهم" [١٠٧].

رابعا: أمراض ارتبطت بمناطق بعينها، على نحو ما ذكر بالجريف عن قرحة المعدة، وهى أكثر شيوعا بين عرب شمال ووسط الجزيرة العربية، بسبب الاعتماد على التمر كوجبة غذائية، موضحا أن الإفراط في تناوله يؤدى الى التهاب غشاء المعدة المخاطي المزمن، بل قرحة المعدة المميتة، على حد قوله. وعلى نفس الشاكلة أشار

الرحالة فالين الى انتشار مرض الزهرى في بلدة سكاكا، إحدى القرى على طريق حائل - من الدرجتين الثانية والثالثة، ونوه داوتى بشكوى أهل تيماء من أمراض الكلى (١٠٨).

خامسا: أمراض الحكة والحساسية، وصداع الرأس النصفى والذى قد يؤدى الى العمى اذا ما اقترن بأمراض العيون، والحميات بفعل المياه الراكدة، والروماتيزم المزمن، إضافة الى الرشح والزكام الشائع بين الأطفال (١٠٩). وقد أشار داوتى الى بعض الأمراض النادرة، مثل معالجته لسيدة كانت تشكو من ألم في عصب الوجه، وربما هو ما أطلق العامة عليه ابا الوجيه، وينتج عنه ميلان بسيط في الوجه(١١٠).

سادسا: أمراض مجهولة، وعادة ما أطلق عليها السكان المحليون "السكنى بالجان، والنفس والسحر، والريح أو الارياح، والعلاج المستخدم في تلك الحالات: هو الرقية، وهى قراءة بعض آيات القران الكريم، ويتبع نفس الإجراء أيضا عند الإصابة بلسعات العقرب(١١١)، كما يسمى عادة الشخص الملدوغ بالقريص او المقروص، وهم يسهرون حوله طوال الليل حتى لا ينام، لاعتقادهم أنه إذا نام الشخص فإن السم يسرى في جسده ويختلط بدمه، ومن ثم يموت، ولا يسمحون له بالنوم الا في وقت معين من الصباح الباكر، لاعتقادهم ان الافعى التى لدغته تكون هى الأخرى في حالة نوم، ويسمونها بالصفرة (١١٢).

ومن أساليب العلاج التى اجمع الرحالة على شيوعها: "العلاج بالكى ويتحمله الناس بصبر يستثير الدهشة والعجب"(١١٣)، وأوضح البعض أنه تم "علاج أمراض التيفوس وأمراض الحمى، وكافة أمراض الرأس، بعملية كى ما يسمى بالمخمس، وهى مجمع العروق وهى الحفرة الواقعة في الرأس، وفي الحد المشترك بين عظم الجمجمة والجبين، والشريان الواقع خلف الأذنين، وأيضا خلف قمة الرأس قليلا "(١١٤).

وقد برعت قبائل بعينها في الطب والتطبيب، فأثنى كثير من الرحالة على قبيلة الصليبة وذيوع شهرتها في الممارسات الطبية، فهم "متميزون عن غيرهم من القبائل، وهم يعملون فقط بصيد النعام والغزال، ويحكى عنهم الكثير، ومنه: أنهم أجروا جراحات فى

البزل واستخراج الحصى، وهى تحتاج الى مهارة دقيقة، كما يعالجون الكثير من الأمراض المعقدة"(١١٥).

ولا شك أن أحد الإشكاليات المطروحة بالضرورة هو: الى أي مدى نجح الرحالة الغربيون في رصد الأحوال الصحية، في شمال الجزيرة العربية، خلال فترة الدراسة؟ والواقع أنه من الصعوبة بمكان الجزم بأنه قد تم رصد الجوانب الصحية برمتها، فمن جهة أولى لم تكن نظرة الرحالة وهواجسهم واحدة، ومن جهة ثانية؛ فان سياق وملابسات الرحلة لم يكن نمطا موحدا لدى الجميع، وفيما يبدو؛ فقد تركت موجات الشعور بالدهشة والإعجاب والترحيب تارة، والخوف والهلع وربما السخط والغضب تارة أخرى - أثرا باقيا على مجمل تجربتهم ورؤيتهم.

وبرغم النظرات الثاقبة ودقة الملاحظة التى بدت، على نحو خاص، في كتابات "بالجريف وداوتى"، فإن بعض الأمراض وطرق علاجها لم يتم رصدها، وقد ورد في بعض المصادر التراثية أمثلة مختلفة منها: "الوشرة" وهو مرض يصيب الرأس، ويعالج من خلال وضع عجينة من الطحين على رأس المريض، ثم ينتظرون بعض الوقت، حيث يتم كى المكان الذى يجف أولا، لاعتقادهم أن الموضع الذى جف بسرعة هو موضع الإصابة(١١٦).

وكذلك مرض "البلش"، وهذا المرض يظهر على هيئة قروح على جسم المريض تشتد وتتضاعف، والسبب الرئيس له هو الشرب، أو الاغتسال من المياه الآسنة، ويعتمد في علاجه على شجيرة تسمى "العلقة" وهى نبتة برية تخرج في الربيع، فيشرب المريض من منقوعها ويغتسل به(١١٧).

ويمكن القول أخيرا بأن كتابات الرحالة قد أضاءت، الى حد كبير، أحد الجوانب الاجتماعية الهامة، وقدمت لمحات هامة عن الجوانب الصحية التى سادت شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، في ظل ندرة المصادر المحلية.

خاتمـــة

كان شمال الجزيرة العربية موضع اهتمام الرحالة الغربيين، طوال القرن التاسع عشر، فوفد اليه الكثيرون لأغراض مختلفة، وارتدى الأغلب الأعم منهم مسوح الاطباء، بهدف تأمين أوضاعهم الاجتماعية في المقام الأول، فصاروا موضع قبول وترحيب، كما أتاح لهم ذلك سبر أغوار الأحوال الاجتماعية بعد رؤيتها عن قرب.

وبرغم اختلاف الأولويات من رحالة لآخر، فقد استطاعوا في نهاية المطاف تقديم صورة نابضة عن الحياة الاجتماعية، وفى مقدمتها الأحوال الصحية، برغم التعالى وعدم الإنصاف من بعضهم، مثل بالجريف وداوتى- تجاه الاسلام والتراث الطبى للعرب والمسلمين بصفة عامة.

ونظرا لانعدام الخدمات الصحية وندرة وجود أطباء آنذاك، لم يكن هناك من سبيل سوى الاعتماد على البدائل التى رسخها التقليد الاجتماعى المهيمن، بغض النظر عن مدى نجاعتها. وبرغم تمسكهم بالحصول على التطعيمات والأدوية، إلا أن ذلك لم يحل دون لجوء البعض الى الرقى والتعاويذ واستخدام الاحجبة، مهما كلفهم من مال.

وقد أوضح الرحالة العلاقة الوثيقة بين الصحة والبيئة، كما رصدوا شيوع العديد من الأمراض المرتبطة بملوحة المياه، وسوء بعض العادات الغذائية، كما عرضوا للآثار المدمرة الناجمة عن الكوارث البيئية، والأوبئة والامراض الدورية التى حلت من آن لآخر.

وقد أبرز الرحالة دور المرأة على نحو فعال، فكن الاكثر ممارسة للتطبيب؛ في ظل الانشغال الدائم للرجال في الدفاع والغزو، كما كانت النساء الأكثر دراية بالأعشاب والنباتات الطبية وكيفية استخدامها، بل كان لذلك الجانب أثر هام في إعلاء مكانة المرأة الاجتماعية. ويمكن القول أخيرا: إن أدبيات الرحالة ربما لم تعرض حصرا كاملا لجميع الظواهر والجوانب الصحية؛ التى كانت سائدة بشمال الجزيرة العربية، إلا أنها أبرزت جوانب عديدة، منها على الأقل: الأمراض الأكثر شيوعا، ووسائل العلاج المتاحة آنذاك.

ولعله من نافلة القول؛ الإشارة الى تعويل العديد من الشرائح الاجتماعية على تفاوتها، ولأسباب متباينة، بصورة متزايدة على ما يسمى بالطب الشعبى، على تعدد مسمياته وممارساته، ولعل ذلك يكون حافزا لإجراء المزيد من الدراسات البحثية، القائمة على الملاحظة المباشرة، من جانب الهيئات الطبية والاجتماعية المعنية، للوصول الى آلية علمية واجتماعية تمكن من الاستفادة من ذلك التراث على نحو أمثل.

الهوامش :

(١) العقبي، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠ هـ، ص ٧٨-٧٩.

(٢) لم تسر الرحلات على وتيرة واحدة، كما تعددت بدورها الأهداف من رحالة لآخر فغلب على البعض رصد الجوانب السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها أعمال بالجريف ودوتي، كما اهتم آخرين بالجوانب الطبوغرافية والبيئية على نحو ما جاء في دراسات فالين، بينما حرصت أطراف أخرى بولع شديد على الاستحواذ على الشواهد الاثرية وشحنها الى اوربا مثلما فعل هوبير وأيتنج مع حجر تيماء، راجع، بلي، لويس رحلة الى الرياض، ترجمة، الشيخ، عبد الرحمن عبد الله، الجهني، عويضة متريك، الطبعة الاولى، ١٩٩١، المقدمة، ص ز، العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، الطبعة الاولى، ٢٠٠١، ص ٨٥.

(٣) البادى، عوض، الرحالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الأول، الطبعة الأولى، نادى حائل الأدبي، ٢٠١٤، ص٩-١٠.

(٤) كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ، ص ١٢٤.

(٥) العثيمين، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤، الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت، ص ١١١-١١٢.

(٦) الشمري، خليف بن صغير، إمارة حائل في عهد الأمير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤، ص ٣٨، البادى، مرجع سابق، ص ١١.

(٧) المقصود دراسة الشبل، عبد العزيز بن صالح الهامة، بعنوان "الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز دواتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية"، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.

(٨) تعرضت الدراسة بحسب إطارها الزمني الى الكتابات التى خلفها الرحالة على النحو الآتي:

رحلة فالين (١٨١١-١٨٥٢) وقد زار جبل شمر مرتين، الاولى عام ١٨٤٥ والثانية عام ١٨٤٨، بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) وكانت زيارته عام ١٨٦٢، جورماني (١٨٢٨-١٨٨٤) التى كانت زيارته عام ١٨٦٤، داوتى (١٨٤٣-١٩٢٦) وكانت رحلته عام ١٨٧٨، رحلة آن بلنت (١٨٣٧-١٩١٧) وزوجها ولفريد بلنت (١٨٤٠-١٩٢٢) عام ١٨٧٨، رحلة هوبير (١٨٤٧-١٨٨٤) الأولى عام ١٨٨٠، ثم كانت رحلته المشتركة مع أويتنج (١٨٣٩-١٩١٣) عام ١٨٨٣، وأخيرا رحلة البارون نولده (١٨٤٩-١٨٩٥) وكانت عام ١٨٩٣.

(٩) راجع، البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣، ص ٥٤٣.

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، ج١، مادة طبب، ص ٥٥٣ -٥٥٤.

(11) Abouseif.Doris Behrens.The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age.Der Islam.1989.p.33

(١٢) المقدمة، ص ١٨٠-١٨١.

(١٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(١٥) نفسه، ص ٢٢٤.

(١٦) الطشاكبيرى،أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١، ص٢٨٥-٢٨٦، وأيضا، خليفة، حاجى، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون، الجزء الاول، استانبول، ٨٩٢، ص ٣٨٦.

(١٧) بالجريف، وليم جيفورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، حسن، صبرى محمد، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١، ص ٢١٠.

(١٨) اشار بالجريف بنفسه الى ذلك المنحى وانه "بعكس ما ذهب اليه كل من فالن وولستيد اللذان كانا اهتمامهما حصرا على الجوانب الطبوغرافية"، المرجع السابق، ص١٣.

(١٩) المرجع نفسه، و ربما كان ذلك لخدمة مشروعه السياسى ص ١٩٠.

(٢٠) نفسه، ص ١٨١، لم يكن ذلك موقف عاما للمستشرقين، فالمستشرق الألماني ماكس مايرهوف (١٨٧٤-١٩٤٥) على سبيل المثال كان من أبرز المستشرقين الذين أنصفوا التراث الطبى للعرب والمسلمين وله الكثير من الدراسات في هذا الشأن، راجع
Meyerhof. Max.The Book of Treasure ,An Early Arabic on Medicine ,The History of Science Society ,Vol.14.No.1.May.1930.

(٢١) حسين، محمد كامل وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص ١٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٣-١٤، وراجع أيضا، نافعة، حسن، بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثانى، ترجمة، مؤنس، حسين، العمد، إحسان صدقي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

(24) Ian Blecher.Robert ,The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority In Syria,1861-1936.Stanford University ,2002.pp.36-37.

(25) Blunt. The future of Islam.London kegan paul.1882.p.134
و راجع ايضا Cromer.modern Egypt.London.vol 2.1908 p.134

(٢٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢١١، كان ذلك أيضا هو موقف الرحالة داوتى الذى كان حريصا في داخله على كبرياء العصر الفيكتورى واتهم بغلظة وجفاء منذ اللحظة الاولى

العرب والمسلمين بالتعصب، راجع، شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧، ص ١٨٨ وأيضا ٢٣٦.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٣، وقد اعتذر في موضع اخر لانتحاله شخصية الطبيب متعللا " بظروف رحلته رغم انه لديه بعض الخبرة للحالات العادية " ، ص١٧٦، وقد ذكر بالجريف اصطحابه لبعض المراجع الطبية وبعض العقاقير والأدوات الطبية، نفسه، ص ٢٢.

(٢٨) نفسه ص١٩٠، ويبدو أن التنكر في شخصية الطبيب كان أمرا شائعا بين كثير من الرحالة، حيث تنكر الرحالة الفرنسي لوكا Paul Lucas الذي زار مصر في مطلع القرن الثامن عشر في زى طبيب وجامع للأعشاب الطبية، راجع، ذهني، الهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة و القناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص-٥٧-٥٨.

(٢٩) البادى، مرجع سابق، ص ١٨.

(٣٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

(٣١) لم يكن الأمر قاصرا على منطقة جبل شمر وحدها، بل كان شائعا في كثير من بقاع شبه الجزيرة العربية، راجع، المقيرن، محمد بن مقرن، تطور القطاع الصحى في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية، دارة الملك عبد العزيز، العدد الثانى ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ، السنة الثلاثون، ص ٤٥.

(٣٢) أبو علية، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤٠-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١، ص ٣١٥، ومما يذكر ان الأمير طلال ابن رشيد قد كشف من جهوده الدبلوماسية حتى نجح في ان يجعل طريق الحج العراقى المرور بجبل شمر ومن ثم فإن القوافل كانت تجتمع في الزبير أو النجف وتتجه جنوبا الى جبل شمر ومنها الى البقاع المقدسة وكان لهذا الإنجاز نتائج هامة على الصعيدين السياسى والاجتماعى، راجع، المفضلى، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٣٣) داوتى، تشارلز،رحلات داوتى في الجزيرة العربية، ترجمة عدنان حسن، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ٢٢٤.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٣١، وغير معروف على وجه الدقة هل تم استدعاء الطبيب الى حائل، أم أن الأمير ارتحل الى العراق لاستخراج الطلق النارى الذى كان بقدمه، ويبدو أن الرأى الأخير هو الأرجح، راجع، الحماد، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبدالله الرشيد لنجد(١٢٨٩-١٣١٥هـ)(١٨٧٣-١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤،ص ٦٦.

(٣٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٣٦) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.
(٣٨) داوتي، المرجع السابق، ص ٢٧١.
(٣٩) أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، السعيد، سعيد بن فايز، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩، ص ١٠٧.
(٤٠) داوتي، مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١.
(٤١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١.
(٤٢) داوتي، مرجع سابق، ص ٢٣٨.
(٤٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١، ونوه البعض بأن الحكام كانوا يأمرون المصاب بمرض معد من مدينة حائل بالذهاب الى أحد الغيران (الكهوف) في جبل أجا خشية أن يصيب غيره، راجع، العريفي، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١، ص ١٢٩.
(٤٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨، ومن الأهمية الإشارة الى وجود قدر من الوعي لدى الناس، فضمن فهرس مكتبة البنيان كتاب " تسهيل المنافع في الطب والحكمة "، ومن الكتب الموقوفة "التحفة المنتخبة في الأدوية للعامري "، وأيضا وقف سعيد غلام الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد عدة كتب منها "الأزرق" في علم الطب والتحفة المنتخبة في الأدوية المجرية، وأيضا وقف خالد غلام حمود العبيد، الجزء الأول من كتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، راجع، الحماد، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٣٠.
(٤٥) القويعي، محمد بن عبد العزيز، تراث الاجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مأثوراتنا الشعبية، ج ١، الطبعة الاولى، ١٩٨٢، ص ١١٢.
(٤٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨٠.
(٤٧) المرجع السابق، ص ٤٤.
(٤٨) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٥-٢٨٦، وقد أشار هوبير الى تجربته الذاتية في هذا الصدد حيث أتى له مرافقة بابنه الوحيد ومعه فنجان من الماء وطلب منه ان يقرأ عليه شيئا من الكلمات الضرورية للشفاء، راجع، هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة، سعادة،اليسار، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠
(٤٩) من الممارسات التى درج على القيام بها كثير من رجال الدين اليهود: ممارسة السحر والكهانة والعرافة، كما اشتهروا بكتابة التعاويذ والرقى والتمائم لطرد الأرواح الشريرة، راجع، مقار شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، الريس، رياض، للكتب والنشر، ١٩٩٠، ص ٣٤٩، والواقع انه في ظل سيادة الجهل وغياب العلم تم اللجوء الى السحر على تفاوت في كثير من البلدان مثل ايران ما بين القرنين ١٧ و ١٩ وايضا مصر ، راجع،

A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development. Eastern Mediterranean Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.

(٥٠) المرجع السابق، ص ٢٨٦، وقد أشار بالجريف الى أن البعض قد ظنوا أنهم يقومون بالبحث عن الكنوز المخبأة على غرار المغامرين المغاربة الذين يذيع صيتهم فى الطب والعلوم الطلسمية، ويعبرون من أجلها الصحراء، بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٤، وراجع إشارة اويتنج لطلب أحد الرعاة أن يكتب له حجابا، ص ٣٧.

(٥١) القويعى، ج١، ص ١٠٧.

(٥٢) العرينى، عبد الرحمن بن على، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجرى الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ-١٢٣٣هـ) (١٤٩٤-١٨١٨م) رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية. ١٩٨٤، ص٢٧٥.

(٥٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨١.

(٥٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(٥٦) المرجع السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٥٧) فالين، جورج أوغست، صور من شمالى جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر ، ترجمة، شبلى، سمير سليم، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص ٩٠-٩١.

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٣٢، بالجريف، مرجع سابق، ص ١٩٩، وقد امتدح داوتى المناخ الصحى لتيماء وجعلها في مأمن باستمرار من الأوبئة، ص١١٨.

(٦٠) فالين، مرجع سابق، ص ٧٦، وقد استفاض أويتنج في الحديث عن الإهمال وعدم نظافة مدينة العلا، مرجع سابق، ص ٢١٣، كما تحدث فالين عن مدينة "سكاكة برغم انه لم يزرها وكان يأتيه البعض من رجالها للاستشارة الطبية "فوجدتهم خشنى الملامح وفى حالة بشعة" وأشار الى ان "الحالات الصحية في بلدتهم سيئة جدا، وأكثر الامراض التى وجدتها فيهم الزهرى فى الدرجتين الثانية والثالثة "، ص ٦١-٦٢.

(٦١) بالجريف، ص ١١١.

(٦٢) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٦٣) نفسه، ص ٨٨.

(٦٤) بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، محمد أنعم غالب، الطبعة الثانية، منشورات دار اليمامة ١٩٧٨، ص ١٨٥، والجدير بالذكر أن "ولفرد بلنت" قد تأثر كثيرا في لقاءه برتشارد بيرتون وأيضا بعمل بالجريف، كما كان محررا ومشاركا في مؤلفات زوجته سواء الكتاب السابق أو كتابها عن القبائل البدوية على نهر الفرات، راجع،

Berdine.Michael.Denis ,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt ,Islamic Reform And The British Invasion of Egypt 1882,university of Arizona,2001,pp.35-36.

(٦٥) هوبير، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٦٦) المرجع السابق، ص ٨٨ –٨٩.

(٦٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٦٨) المرجع السابق، ص ٤٨، وأيضا فالين، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٦٩) فالين، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٧٠) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٧١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٩.

(٧٢) داوتي، مرجع سابق، ص ١٣٣- ١٣٤.

(٧٣) المرجع السابق، ص ١٣٥-١٣٦.

(٧٤) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٦٧، وراجع، الحماد، مرجع سابق ، ص ٣٩-٤٠.

(٧٥) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧، وكان الوباء قد بدا في الهند وانتقلت العدوى مع الحجيج الى مكة، انظر، فاسيلييف، اليكسي، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥، ص ٢٣٦.

(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٧٧) الفاخرى ،محمد بن عمر، تاريخ الفاخرى، دراسة وتحقيق وتعليق، الشبل، عبد الله بن يوسف، ١٩٩٩، حديثه عن حوادث عام ١٢٧٤ هـ ومنها مرض الحجيج بعد عودتهم من مكة، وايضا حديثه عن وقوع مرض الجدرى والسعال وهلاك كثير من الاطفال بسببه ص ٢١٥ –٢٢١.

(٧٨) داوتي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٧٩) أوتينج، مرجع سابق، ص ١٣٤، وقد اوضح هوبير أن " قرية موقق منهكة بسبب أنواع الحمى المستشرية بانتظام كل سنة منذ الخريف وحتى الصيف وفى عام ١٨٧٠ حصد مرض الكوليرا الذى جلبته قافلة عائدة من مكة ربع السكان، هوبير، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٨٠) تفاوتت باستمرار التقديرات لعدد السكان فقدر فالين عدد السكان في مدينة حائل بنحو عشرين الفا، بينما ارتفع التقدير لدى لوريمر الى خمس وخمسين الفا ومن ثم فان التقديرات في ظل غياب وثائق محلية دقيقة، تظل في نطاق المؤشرات فحسب، راجع لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافى، ج ٦، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثانى، قطر، ص ٢٢٤٨.

(٨١) داوتي، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢١٩، كما أشار هوبير الى تفشى الحمى في الحائط، هوبير، مرجع سابق، ص١٢٣.

(٨٢) أويتنج، مرجع سابق، ص ٤٠.



(٨٣) داوتي، مرجع سابق، ص ١٧٤.
(٨٤) هناك وصف للعديد من الكوارث البيئية في منطقة نجد مثل انتشار بعض الاوبئة والجفاف، راجع، الذكير، مقبل، مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود، البسام،عبد الله العبد الرحمن، الطبعة الاولى، د.ت، راجع الحديث عن سنوات، ١١٢٦-١١٢٨-١١٣٢ هـ، ص ٨٢-٨٣.
(٨٥) العثيمين، عبد الله صالح، نشأة امارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١ ص ٨٠.
(٨٦) جوارماني، كارلو كلاوديو، نجد الشمالي، رحلة من القدس الى عنيزة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد ايبش، الطبعة الاولى، المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٩، ص ٥٨.
(٨٧) داوتي، مرجع سابق، ص ١٢٦.
(٨٨) الاقط وهو من مادة اللبن وذلك بعد خضه يعمدون بعد ذلك الى طبخه مدة طويلة ثم يبرد ويشكل على هيئة قطع صغيرة ثم ينشر حتى يجف فيؤكل -القويعي ج ١، ص ١١٦ .
(٨٩) داوتي، مرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣، كما ذكر أنه أعطى بعض النساء مشروب الكينا المقاوم للحمى، مقابل بعضٍ من السمن، نفسه، ص ٢٥٦.
(٩٠) جوارماني، مرجع سابق ن ص ٦٣-٦٤.
(٩١) المرجع السابق ن ص ٨٣.
(٩٢) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.
(٩٣) المرجع السابق، ص ٢٨٨.
(٩٤) أوتينج، مرجع سابق، ص ٥٠، وعن طريقة الإجهاض للنساء كانت هناك وصفة متعارف عليها عبارة عن كأس من عرق الفرس بعد أن تتعرق في سباق تأخذها المرأة وتجهض بعدها مباشرة، راجع، الشمرى،خليف، مرجع سابق، على نحو خاص الفصل الخامس.
(٩٥) داوتي، مرجع سابق، ٩١-٩٢، وتتزين المرأة البدوية بمختلف الأصباغ المعروفة آنذاك .
(٩٦) من النماذج في هذا الصدد اعتقاد البعض ان دم البرزان يشفى من داء الكلب ، راجع، العريني، مرجع سابق، ص ٤٥١-٤٥٢، وراجع أيضا، معمر،عبد الله، الطب الشعبي: حقيقة العلاج وثقافة المرض، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦، ص ١٨٨-١٨٩.
(٩٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٢.
(٩٨) المرجع السابق، ص ٢٩٩.
(٩٩) المرجع نفسه، ص ١٨٥.
(١٠٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٠١) المرجع السابق، ص ٢٩٩-٣٠١، وأيضا لوريمر، مرجع سابق ج٥، ص ١٦٩٧، وكثيرا ما تشكى الرحالة من الاحوال البيئية الصعبة في الحفاظ على الادوية مثل ارتفاع الحرارة وهبوب الرياح، نفسه، ص٢٨٥.

(١٠٢) – لوريمر ، مرجع سابق، ج٦ ص ٢٢٤٣.

(١٠٣) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(١٠٤) القويعي، مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٥٢.

(١٠٥) جورماني، مرجع سابق، ص ٨٣.

(١٠٦) داوتي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(١٠٧) حسني،حسين، مذكرات ضابط عثماني في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق صابان،سهيل، الرياض ٢٠٠١، ص ٧٥.

(١٠٨) دواتي، مرجع سابق. ص ١٦٠.

(١٠٩) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٧، وذكر داوتي أيضا ان حالات الصرع محدودة، ص ٣٠١.

(١١٠) القويعي، ج١، ص ١٥٢.

(١١١) وقد أبدى داوتي دهشته من بعض أساليب العلاج مثل " تناول المريض لجيف النسور او روث الحمار وخلطه بالماء وبعض الحليب "، الشبل ص٢٨٧، وربما كان وراء ذلك الاعتقاد ان تلك الوسيلة تسهم في طرد الأرواح الشريرة.

(١١٢) القويعي، مرجع سابق، ج١، ص ١٠١.

(١١٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(١١٤) حسين حسني، مرجع سابق، ص ٧٥.

(١١٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣-١٨٤، وحول الصلب، راجع، بلي، لويس، مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥١ وراجع دراسة وافية حول الصلب في، العريني، مرجع سابق، الفصل الثاني، ص ١٤٢ وما بعدها.

(١١٦) القويعي، مرجع سابق، ج٢، ص ١٤١.

(١١٧) المرجع السابق، ص ١٣٩-١٥١.

مراجع الدراسة

أولا العربية والمعربة

١- ابن منظور، لسان العرب، ج١، القاهرة د.ت.

٢- العقبى، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسى في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠هـ

٣- الطشاكبيرى، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١.

٤- ذهنى، الهام محمد على، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢.

٥- فاسيلييف، اليكسى، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥.

٦- الريحانى،أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت.

٧- بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، غالب، محمد أنعم، الطبعة الثانية، منشورات دار اليمامة، ١٩٧٨.

٨- البستانى، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣.

٩- داوتى، تشارلز، رحلات داوتى في الجزيرة العربية، ترجمة، حسن، عدنان، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩.

١٠- لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافى، ج ٥- ٦، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى، قطر، د.ت .

١١- فالين،جورج أوغست، صور من شمالى جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير سليم شبلى، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١ .

١٢- خليفة، حاجى، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون، الجزء الاول، استنابول، ١٨٩٢.

١٣- حسني، حسين، مذكرات ضابط عثمانى في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق سهيل صابان، الرياض ٢٠٠١.

١٤- شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧.

١٥- كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ

١٦- هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة اليسار سعادة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣.

١٧- مقار، شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠.
١٨- أبو علية، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية،١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤٠-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١.
١٩- العثيمين، عبد الله صالح، نشأة امارة أل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١.
٢٠- العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن امارة آل رشيد، الطبعة الاولى، ٢٠٠١.
٢١- البادى، عوض، الرحالة الاوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الاول، الطبعة الاولى، نادى حائل الأدبي، ٢٠١٤.
٢٢- العريفي، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١.
٢٣- جوارماني، كارلو كلاوديو، نجد الشمالي، رحلة من القدس الى عنيزة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد ايبش، الطبعة الاولى، المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٩.
٢٤- بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثاني، ترجمة، حسين مؤنس، احسان صدقي العمد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨ .
٢٥- بلي، لويس، رحلة الى الرياض، ترجمها وحقق لها، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، عويضة بن متريك الجهني، الطبعة الاولى، الرياض، ١٩٩١.
٢٦- القويعي، محمد بن عبد العزيز، تراث الاجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مأثوراتنا الشعبية، ج ١، ج ٢، الطبعة الاولى، ١٩٨٢.
٢٧- الفاخرى، محمد بن عمر، تاريخ الفاخرى، دراسة وتحقيق وتعليق، عبد الله بن يوسف الشبل، ١٩٩٩.
٢٨- حسين، محمد كامل، وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت.
٢٩- المفضلي، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤.
٣٠- بالجريف، وليم جيفورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، صبرى محمد حسن، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١.
٣١- أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، سعيد بن فايز السعيد، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩.

ثانيا دراسات غير منشورة

- الحماد، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبدالله الرشيد لنجد (١٢٨٩-١٣١٥ هـ) (١٨٧٣ -١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤.
- الشمرى، خليف بن صغير، امارة حائل في عهد الامير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤.

- العريني، عبد الرحمن بن علي، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد واثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجري الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ-١٢٣٣ هـ) (١٤٩٤-١٨١٨ م) رسالة ماجستير، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ١٩٨٤.

ثالثا الدوريات

- معمر، عبد الله، الطب الشعبي : "حقيقة العلاج وثقافة المرض "، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦.
- الشبل، عبد العزيز بن صالح، " الاوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز داوتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية "، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.
- المقيرن، محمد بن مقرن، "تطور القطاع الصحي في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية "، دارة الملك عبد العزيز، السنة الثلاثون، العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ.

رابعا باللغة الانجليزية

Blunt.The future of Islam.London Kegan -paul.1882

-Cromer.modern Egypt.London.vol 2.1908.

-Abouseif.Doris.behrens.The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age. Der Islam.1989.

Denis Berdine.Michael,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt ,Islamic Reform And The British Invasion of Egypt 1882,university of Arizona,2001.

- Ian Blecher.Robert,The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority In Syria,1861-1936.Stanford University ,2002.

ب- دوريـــات

-A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development. Eastern Mediterranean Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.

- Meyerhof.Max.The Book of Treasure,An Early Arabic on Medicine,The History of Science Society,Vol.14.No.1. May. 1930.

الموقف التركي من الأزمة السورية فيما بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٧م

د. محمد عزيز محمد سيف
مدرس بكلية الآداب جامعة سوهاج

أولا: الحلف التركي-العراقي عام ١٩٥٥م وأثره في توتر العلاقات التركية-السورية(١):-

علي أثر إعلان انتهاء الانتداب الفرنسي علي سورية، وحصولها علي استقلالها عام ١٩٤٦م؛ حدث تبادل للتمثيل الدبلوماسي بين سورية وتركيا، وظلت العلاقات بينهما في حالة من الفتور. ويبدو أن ذكريات الماضي القريب كان لها أثر في هذا الاتجاه، بدرجة لا بأس بها، فالأتراك يتذكرون دور القوميين العرب المناوئ لتركيا في الحرب العالمية الأولي، والسوريون يتذكرون الحكم العثماني السيئ، والطرق التي استعملها العثمانيون في محاولتهم قمع حركة القوميين العرب الحديثة النشأة. ولم يستطع السوريون أن ينسوا تحويل إقليم الأسكندرونة، من قبل سلطات الانتداب الفرنسي، إلي أيدي الأتراك عشية الحرب العالمية الثانية(٢).

ومن جهة أخري: استاءت سورية، شأنها في ذلك شأن سائر الدول العربية، لاعتراف تركيا بقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، الأمر الذي جعلها - أي تركيا - ممقوتة في العالم العربي، بسبب سياستها الموالية لإسرائيل(٣). وعلي أثر انقلاب حسني الزعيم(٤) الزعيم(٤) في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م وإطاحته بالرئيس شكري القتلي(٥) حدث تقارب سوري- تركي، بعد أن أعلن حسني الزعيم استعداده للتنازل عن لواء الأسكندرونة للأتراك، كما أنه كان شديد العداء للشيوعية؛ التي كانت تعاديها تركيا أيضا. ونتيجة للأوضاع السياسية غير المستقرة في سوريا، والتي شهدت عدة انقلابات عسكرية بعد انقلاب حسني الزعيم، تباينت العلاقات التركية - السورية حتي عام ١٩٥٤م.

وابتداء من عام ١٩٥٥م وهو العام الذي تولت فيه قوي اليسار الحكم في سورية، أخذت العلاقات السورية- التركية في التوتر، خصوصا بعد أن أعلن حكام سورية أن سياستهم الخارجية تقوم علي أساس استنكار الأحلاف العسكرية، وتبني سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين الشرقي والغربي.

وقد كان لسياسة العراق الخارجية، في تلك الفترة، أثرها في زيادة حدة التوتر في العلاقات السورية- التركية، حيث سار العراق في طريق عقد الأحلاف مع الدول الغربية الاستعمارية المناوئة للعالم العربي. وقد بدأ العراق هذه الأحلاف بالدخول في مفاوضات مع الجانب التركي، لتوقيع حلف دفاعي مع تركيا. ونتيجة لتحقيق هذا الغرض، قام عدنان مندريس(٦) رئيس الوزراء التركي، بزيارة إلي بغداد، تأكيدا لموقف العراق المعلن تجاه الحلف المقترح. وكان البيان العراقي- التركي المشترك، في ١٣ يناير سنة ١٩٥٥م، الذي صدر عقب تلك الزيارة؛ تتويجا لهذا الموقف. ودعما لهذا الاتحاد قام عدنان مندريس بزيارة إلي دمشق وبيروت، في طريق عودته من بغداد، ودعاهما إلي الانضمام للحلف العراقي- التركي المقترح توقيعه بين الجانبين، ولكنه لم يلق تأييدا(٧).

وعلي إثر توقيع الحلف التركي- العراقي(٨) - الذي كان نواة لحلف بغداد-(٩) في الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م. تدهورت العلاقات السورية-التركية مرة أخري، حيث قاومت سورية جهود تركيا المستمرة لحث سورية والدول العربية علي الانضمام إلي ذلك التحالف.(١٠)

وبعد مرور يومين علي توقيع هذا الحلف "التركي - العراقي"؛ قام السفير الأمريكي في دمشق، "جيمس موس" في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م، بزيارة رئيس الوزراء السوري صبري العسلي، ووزير الخارجية خالد العظم، وسلمهما مذكرة تتضمن وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الحلف ومما جاء في هذه المذكرة(١١).

١-إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت دائما تستند إلي جهود الدول الأخرى للقيام بتعاون يهدف إلي الوصول إلي أعلي درجة من التعاون بين الدول المهتمة بتحسين دفاع الشرق الأوسط ضد العدوان الشيوعي.

٢- ترحب الولايات المتحدة الأمريكية بالتحالف التركي- العراقي، كخطوة إنشائية للاعتراف بالحاجة للدفاع الفعال عن الشرق الأوسط، ضد التوسع الشيوعي(١٢).

٣- تعتقد الولايات المتحدة الأمريكية أنه: علي الدول العربية أن ترحب بالاتفاق التركي- العراقي، من أجل تقوية دفاعاتهم ضد الأخطار الشيوعية.

ومن أجل الضغط علي سورية للانضمام للحلف العراقي- التركي قامت دولتا الحلف "تركيا والعراق" بحشد قوات عسكرية علي حدودهما مع سورية، للضغط عليها لحثها علي الانضمام لذلك الحلف، فتزداد بذلك قوة الجبهة الموالية للحلف، مما يشجع علي انضمام الدول العربية الأخرى؛ التي كانت لا تزال مترددة في الانضمام إليه، كالأردن ولبنان. وكان الحلف التركي - العراقي ينص علي إمكانية اشتراك دول عربية أخري، لكن مصر اعتبرت أن ذلك يهدف إلي عزلها عن العالم العربي، واتهمت إذاعة صوت العرب من القاهرة، التي كانت تحرك الشارع العربي(١٣)، تركيا بإرسال فرقتين عسكريتين إلي الحدود السورية - التركية، لممارسة الضغط علي سورية لقبول حلف بغداد(١٤).

لكن الرد السوري علي التحالف التركي- العراقي جاء فوريا وقويا، إذ أن رئيس الأركان السوري "شوكت شقير" ونائبه "عدنان المالكي" اجتمعا بعدد كبير من الضباط، ومن السياسيين، ومن ذلك الاجتماع أعلن أن حكومة سورية ترفض الحلف العراقي- التركي وجميع الأحلاف الأخرى(١٥). كما وافقت سورية علي إقامة حلف كامل مع مصر وعلي توحيد جيشهما، حيث قام وزير الخارجية السوري خالد العظم بتوجيه دعوة للصاغ صلاح سالم أثناء وجود الأخير في لبنان، لزيارة سورية فزارها في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م، وعرض الصاغ صلاح سالم أن تقوم الدول العربية بعقد حلف بينها، واقترح أن تبدأ سورية بعقد اتفاق ثنائي مع مصر، يشبه الاتفاق التركي- العراقي، ثم

توصل الاثنان "صلاح سالم" و"خالد العظم" إلي صيغة تصريح مشترك، عرضه خالد العظم علي مجلس الوزراء السوري فوافق عليه في الثاني من مارس سنة ١٩٥٥م، ومما جاء فيه:(١٦)

١-عدم الانضمام إلي الحلف التركي – العراقي أو أية أحلاف أخرى.

٢- إقامة منظمة دفاع عسكري وتعاون اقتصادي عربي مشترك.

وهكذا يتضح لنا أن حلف بغداد قد زاد من المشاعر الساخطة لسورية تجاه تركيا، وكان هو العامل الأساسي الذي دفعها إلي توقيع معاهدة عسكرية للقيادة الموحدة مع مصر. ونتيجة للاتفاق المصري-السوري؛ قامت مصر بإرسال وحدات من قواتها العسكرية، لترابط مع الجيش السوري علي الحدود السورية، تحسبا لهجوم محتمل علي سورية من قبل تركيا.

وحيال رفض سورية الانسياق للمشروع الأمريكي؛ حرضت الولايات المتحدة الأمريكية تركيا علي التحرش بسورية، لإثارة المتاعب في وجهها، فادعت تركيا أن حلف الدفاع العربي موجه ضدها، وحشدت قواتها العسكرية علي حدودها المتاخمة لسورية. وأرسلت تركيا إلي دمشق مذكرتين قاسيتين خاليتين من اللياقة والدبلوماسية، ولا تأخذان بعين الاعتبار حقوق سورية الطبيعية وسيادتها علي أراضيها(١٧)، وخلاصة ما جاء فيهما : "...فإن الميثاق السوري – المصري يهدف إلي عزل تركيا عن العالم العربي. وأنه في حالة تحقيق هذا الميثاق من قبل سورية فإن تركيا تعتبر هذا العمل معاديا لها..(١٨)".

وردا علي موقف الحكومة التركية أصدرت الحكومة السورية، في الثاني والعشرين من مارس سنة ١٩٥٥م، بيانا جاء فيه(١٩): -

"إن الحكومة السورية إذ تؤكد مجددا رغبتها في الاحتفاظ بالعلاقات الطبيعية مع تركيا وعدم استهدافها إياها بأية نوايا عدوانية. إن الحكومة السورية تعلن أنها علي الرغم من كل هذه الأجواء المثيرة، ستبقي دائبة علي خطتها المسالمة في معالجة مشاكلها مع تركيا، وماضية، في الوقت نفسه، بتنفيذ ما جاء في برنامجها الوزاري الذي نال ثقة

المجلس النيابي، معتقدة أن خطتها في السعي لتأمين سلامة الوطن وتصفية الجو العربي؛ تقتضيها المصلحة القومية العليا للأمة العربية".

وبعد الاحتجاج السوري على هاتين المذكرتين أعلن الاتحاد السوفيتي(عدو تركيا الأول) حمايته لسورية، ففي اليوم التالي-٢٣ مارس سنة ١٩٥٥م- تدخل الاتحاد السوفيتي مباشرة في الأزمة، إذ أعلم "مولوتوف" وزير الخارجية الروسي سفير سورية في موسكو "الدكتور فريد الخاني" أن الإتحاد السوفيتي يؤيد موقف سورية، ويرغب في تقديم جميع أنواع المساعدات إليها. بهدف حماية استقلاها وسيادتها(٢٠). وقد أعلن الاتحاد السوفيتي صراحة أنه سيهب للدفاع عن سورية، في حالة تعرضها للهجوم من طرف أية دولة وقعت على حلف بغداد.(٢١)

كما أصدرت الحكومة السوفيتية عدة بيانات تكشف فيها عن أهداف الغرب من الحلف – من وجهة نظرها – مؤكدة أنها لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء تلك المؤامرات الغربية ضدها(٢٢)، كما نددت الحكومة السوفيتية، في هذه البيانات، بإجراءات الغرب وضغوطه لجر الدول العربية للحلف، وقدمت احتجاجا لدى الأمم المتحدة لوقف مثل هذه الضغوط.(٢٣)

ومن هذا يتضح لنا معارضة الاتحاد السوفيتي لحلف بغداد. وقد أحدثت تلك المعارضة السوفيتية نتيجة إيجابية في المنطقة العربية، حيث ظهرت جبهة عربية معارضة لذلك للحلف، كانت على استعداد لتقبل المساعدات السوفيتية لإحباط أغراض الحلف. وبذلك وفر هذا الحلف للاتحاد السوفيتي حلفاء طبيعيين، فوجد لزاما عليه مساندتهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وهذا ما حدث بالفعل في المساعدات الاقتصادية والفنية التي قدمها الإتحاد السوفيتي فيما بعد لسورية. ويعتبر البعض أن الحلف كان من أكبر العوامل التي أدت إلى ظهور الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، إذ أصبح يمد يده إلى الدول العربية التي رفضت الانضمام لذلك للحلف، وكان في مقدمة هذه الدول العربية "سورية"

التي كانت في حاجة إلي حليف قوي يساندها، ويقف إلي جوارها ضد التهديدات الخارجية من ناحية تركيا وغيرها.

ثانيا: مبدأ إيزنهاور وأثره في ازدياد حدة التوتر بين تركيا وسورية :-

نتيجة لذلك، أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تعيد النظر في سياستها الخارجية إزاء الشرق الأوسط، وخاصة بعد العدوان الثلاثي علي مصر سنة ١٩٥٦م، وإدراك الولايات المتحدة الأمريكية عجز بريطانيا وفرنسا عن القيام بمهمة الدفاع عن الشرق الأوسط، وفشلهما في التصدي للنفوذ السوفيتي بالمنطقة، وبخاصة بعد التهديد السوفيتي باستخدام القذائف الصاروخية ضد المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط(٢٤). حيث طرح الرئيس الأمريكي إيزنهاور E1senhower مبادرته لملء الفراغ(٢٥) في الشرق الأوسط، وهي تهدف إلي مقاومة النفوذ السوفيتي والشيوعي المتغلغل في منطقة الشرق الأوسط، ومن هنا جاء إعلان الرئيس الأمريكي إيزنهاور عن سياسته الجديدة تجاه الشرق الأوسط في صورة رسالة وجهها إلي الكونجرس الأمريكي، في الخامس من يناير سنة ١٩٥٧م، حيث سعي الرئيس الأمريكي إيزنهاور للحصول علي سلطات من الكونجرس الأمريكي، تتيح له تقديم المساعدات لدول الشرق الأوسط سواء المساعدات المادية أو العسكرية، وهو ما عرف "بمبدأ إيزنهاورE1senhower doctr1ne" (٢٦) ولقد كان لتركيا دور مهم في مساندته، استجابة لطلب الولايات المتحدة الأمريكية(٢٧).

وكانت مبادئ إيزنهاور تنص علي: أن تقدم الحكومة الأمريكية المساعدات لصد عدوان الشيوعية الدولية، وبناء علي طلب الحكومات المعنية في المنطقة. كما أنه في الوقت نفسه وفي ٢٥ من مارس سنة ١٩٥٧م أعلن إيزنهاور في لقائه مع "ماكميلان Macm1llan" رئيس وزراء بريطانيا عن رغبة بلاده "الولايات المتحدة الأمريكية" في الانضمام إلي اللجنة العسكرية التابعة لحلف بغداد(٢٨)، وبذلك كان في استطاعة دولة مثل تركيا أن تستنجد بالولايات المتحدة الأمريكية، بدعوي أن سورية تهدد أمنها، فقد

صار الغرب، وبخاصة الأمريكيون يكرهون سورية لتعاونها الاقتصادي مع الدول الشيوعية واعتبار ذلك تبعية(٢٩).

كانت سورية أول من هاجم مبادرة إيزنهاور في الشرق الأوسط، ففي العاشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، أي بعد أقل من أسبوع واحد من طرح الرئيس الأمريكي لمبادرته بشأن الشرق الأوسط وإرسالها إلي الكونجرس الأمريكي، أصدرت الحكومة السورية بيانا تعارض فيه نظرية الفراغ، وتعارض فكرة أن المصالح الاقتصادية تعطي أي دولة حق التدخل في المنطقة، وتنكر أن الشيوعية تشكل خطرا مباشرا علي العالم العربي، فالإمبريالية والصهيونية هما الخطران الرئيسيان اللذان يظل العرب عرضة لهما(٣٠).

وفي التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، اجتمع قادة مصر وسورية والسعودية والأردن في القاهرة، حيث تم التوقيع علي اتفاق رباعي، أكدت فيه تلك الدول علي إيمانهم بضرورة التضامن والتعاون لتدعيم الكيان العربي واستقلاله(٣١)، كما أعلنوا رفضهم لنظرية الفراغ الأمريكية(٣٢). وأشاروا إلي أن المنطقة العربية لن تكون منطقة نفوذ لأية قوة أجنبية، وأن الوحدة القومية العربية هي وحدها القادرة علي ملء ذلك الفراغ المزعوم(٣٣)، كما جاء في البيان الختامي الصادر عن ذلك الاجتماع: "إن التهديد الحقيقي الذي تتعرض له دول المنطقة هو من جانب إسرائيل وليس من جانب الاتحاد السوفيتي".(٣٤)

علي نقيض الموقف السوري من مبادرة إيزنهاور؛ جاء الموقف التركي علي لسان صحيفة " ظافر" الناطقة باسم الحزب الديمقراطي الحاكم في تركيا، إذ أشارت إلي أن مبدأ إيزنهاور واضح وبسيط، فالهدف الذي يسعي إلي تحقيقه هو: أن يكون الشرق الأوسط لشعوب الشرق الأوسط، والضمان الذي يقدمه هو القوة العسكرية الأمريكية، والخير الذي يسعد به هو توفير المساعدة في المجال الاقتصادي للشرق الأوسط، من خلال المعونات المالية الضخمة، وسيحكم التاريخ بصحة مبدأ إيزنهاور أو خطئه، علي أساس الوضع

والأهمية اللذين ستعطيهما الولايات المتحدة الأمريكية لتركيا في هذه الخطط وحساباتها(٣٥).

وقد أرسل الرئيس الأمريكي إيزنهاور مبعوثه الشخصي "جيمس ريتشارد" إلي أنقرة في مارس سنة ١٩٥٧م، وذلك لشرح مبدأ إيزنهاور مع رئيس الوزراء التركي "عدنان مندريس". وبعد انتهاء المباحثات أصدرت الحكومة التركية بيانا رسميا جاء فيه(٣٦):

".... إن الحكومة التركية تكرر مساندتها لاقتراح الولايات المتحدة الأمريكية من أجل دعم الاستقلال السياسي لدول الشرق الأوسط، وضمان سلامتها الإقليمية ضد تهديد الشيوعية الدولية...... ".

ونتيجة لظهور هذا المبدأ، فقد تعرضت مجموعة من الدول العربية إلي ضغط شديد من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، بغية حملها علي قبول مبدأ إيزنهاور، وشنت الصحف التركية حملات ضد الدول العربية التي رفضت هذا المبدأ(٣٧)، ومن بين هذه الدول "سورية" التي أعلنت في بداية عام ١٩٥٧م رفضها المطلق لهذا المبدأ. وفي الوقتنفسه قام خالد العظم وزير الداخلية السوري حينئذ ذات التوجهات اليسارية(٣٨) بزيارة الاتحاد السوفيتي لإجراء مباحثات مع الجانب السوفيتي، وقد تمخضت تلك المباحثات، التي جرت بين الطرفين في موسكو، عن توقيع اتفاقية اقتصادية وعسكرية واسعة المدي، في السادس من أغسطس سنة ١٩٥٧م بقيمة ٥٧٩ مليون دولار.(٣٩)

وا.لي جانب موقف الرفض الذي وقفته بعض الدول العربية من مشروع إيزنهاور، والذي أثار قلق دول الغرب وتركيا باعتبارها - أي تركيا - الدولة إلي تعهدت بالإسهام في تحقيق أهداف ذلك المشروع، فقد كان رفض سورية، خلال تلك الفترة، لعروض أمريكية(٤٠) بتمويل اقتصادها، والتجائها إلي دول الكتلة الشرقية في الحصول علي حاجاتها من السلاح والمساعدات الاقتصادية أسوة بالطريق الذي انتهجته مصر، كل ذلك كان مثارا لقلق أكبر من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وأيضا لتركيا التي كانت تنظر بحساسية شديدة تجاه أي نشاط سوفيتي في المنطقة، وبخاصة الدول التي تشترك معها

في الحدود مثل سورية. ولذلك بدأت الدعايات الأمريكية والتركية(٤١) تركز اتهاماتها، ضد كل من مصر وسورية، بالسير في فلك الشيوعية، كما بدأت تركيا في الإعلان عن مخاوفها إزاء تطور العلاقات العربية- السوفيتية.

لذلك عمدت الولايات المتحدة الأمريكية علي تدبير مؤامرة ضد سورية، بالاتفاق مع دول حلف بغداد(العراق وتركيا) إضافة إلي الأردن ولبنان، ولكن الحكومة السورية كشفت عن هذه المؤامرة في الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٥٧م، وقامت بإبعاد ثلاثة من الدبلوماسيين الأمريكيين من العاملين بالسفارة الأمريكية في سورية(٤٢)، وهم الملحق العسكري "روبرت مالوي" والسكرتير الثاني "هوارد ستون" ونائب القنصل "فرانسيس جيتون"، واعتبرت الحكومة السورية هؤلاء أشخاصا غير مرغوب فيهم، حيث اتهم هؤلاء بالتآمر مع الرئيس السوري المخلوع "أديب الشيشكلي" لقلب نظام الحكم(٤٣). وقد ردت واشنطن علي ذلك بطرد السفير السوري "فريد زين الدين" وأحد موظفي سفارته.(٤٤)

كما أنزلت الولايات المتحدة الأمريكية رجال البحرية الأمريكية جوا في لبنان والأردن والعراق، وقد تعلل "دالاس" وزير الخارجية الأمريكية، بأن تركيا تواجه خطرا عسكريا متزايدا، من جراء تدفق الأسلحة السوفيتية إلي سورية(٤٥). ولقد لعب "عبد الحميد السراج" مدير المخابرات الحربية السورية(٤٦) والضباط التقدميون؛ دورا مهما في كشف خيوط هذه المؤامرة. وكان من النتائج المباشرة لكشف هذه المؤامرة، توجيه مذكرة من الضباط التقدميين إلي رئيس الأركان "نظام الدين" بصيغة إنذار يضمن إجراء تغييرات بين الضباط المشكوك في ولائهم، أو تقديم استقالته فآثر الحل الثاني، كما قامت الحكومة السورية في ١٧ أغسطس عام ١٩٥٧م، بعدة إجراءات هدفت التطهير الشامل في القيادات العسكرية، حيث أحالت نظام الدين رئيس أركان الجيش السوري المعروف باعتداله - بعد قبول استقالته - إلي التقاعد، وعينت بدلا منه العقيد "عفيف البزري" المعروف بتعاطفه مع السوفيت وذا الميول اليسارية(٤٧). كما تم توزيع المناصب القيادية الأخرى، والهامة أيضا، في الجيش السوري، حيث تم اختيار "أمين النفوري" مساعدا

لرئيس الأركان و"مصطفي حمدون" لرئاسة الشعبة الأولي و"أحمد عبد الكريم" لرئاسة الشعبة الثالثة، واستمر عبد الحميد السراج رئيسا للشعبة الثانية(٤٨). وفي الوقت نفسه جري تطهير الجيش السوري من عشرات الضباط، وراقبت تركيا والولايات المتحدة الأمريكية هذه التطورات في سورية عن كثب، واتهمتا سورية بأنها اتجهت نحو المعسكر الشرقي.(٤٩)

ولذلك أوفدت الولايات المتحدة الأمريكية، في الأول من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، مساعد وزير خارجيتها -لوي هندرسون Handrson- إلي تركيا، لبحث تطورات الموقف في المنطقة(٥٠). حيث اجتمع مع عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي، وقد أصدر هندرسون بعد عودته إلي واشنطن بيانا قال فيه "إن الوضع في سورية خطير جدا، والولايات المتحدة الأمريكية، مهتمة اهتماما عميقا بما يجري في سورية التي أصبحت فريسة للشيوعية(٥١)"، وقد خلص هندرسون في ختام زيارته تلك إلي نتيجة مؤداها: أن سورية تمثل مصدرا للخطر علي جارتها تركيا(٥٢). كما نقل عن "دالاس" وزير الخارجية الأمريكي، عقب اجتماعه بهندرسون،أنه يري ضرورة القيام بعمل عاجل، لو ثبت أن سورية علي وشك أن تصبح دولة خاضعة للاتحاد السوفيتي، وأن تطورات الموقف في سورية تلقي علي تركيا أعباء جديدة، فيما يتعلق بالدفاع عن الشرق الأوسط، الأمر الذي يستوجب تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لتركيا، حتي تتمكن من تحصين حدودها مع سورية.(٥٣)

وقد كانت تركيا تشعر بعدم الارتياح تجاه الوضع في سورية، وبخاصة بعد أن أحرز الجناح اليساري تقدما في انتخابات عام ١٩٥٧م، وقد انعكست نتيجة الانتخابات السورية هذه، عام ١٩٥٧م، علي الصحافة التركية التي أشارت بوضوح إلي مدي القلق الذي انتاب تركيا من جراء وصول اليساريين إلي السلطة في سورية.وكان مما جاء في احدي هذه الصحف " أن تركيا كانت وما تزال "حينئذ" محاطة بقوات عدائية من الغرب

والشمال والشرق، وأصبحت الآن تحاصر بقوات عدائية من الجنوب، إذ أن سورية غدت قاعدة صواريخ روسية، ويعتبر هذا حصارا جغرافيا علي تركيا..(٥٤):-

وفي العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م،أعلنت الخارجية السوفيتية أن تركيا تنوي القيام بهجوم عسكري علي سورية، وأنه إذا سارت تركيا علي هذا النهج فربما وجدت نفسها في الهاوية. كما أعلن "جروميكو" وزير الخارجية السوفيتي أن بلاده لا يمكن أن تظل مكتوفة الأيدي، وأنها تراقب عن كثب المحاولات التي تبذل لتحويل الشرق الأوسط والأدنى إلي مسرح للصراع المسلح.(٥٥)

وقد كشفت صحيفة الجيش السوفيتي "النجم الأحمر" في ذات اليوم " العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، النقاب عن مؤامرة أمريكية شيطانية لغزو سورية، وأكدت الصحيفة أن المؤامرة كانت تنطوي علي خطة ذات خمس مراحل لعبت فيها تركيا دورا بارزا وذلك علي النحو التالي(٥٦):

أولا : تقوم إسرائيل بتحركات عسكرية استفزازية علي حدودها مع سورية.

ثانيا: تسارع تركيا عند ذلك إلي تجميع قواتها علي الحدود السورية الشمالية مثيرة احتمال حدوث صدام سوري – إسرائيلي.

ثالثا: تقوم العراق بدورها بحشد قواتها، بحجة أنها تستهدف مساعدة سورية.

رابعا: تقوم الطائرات التركية والعراقية بغارات علي بعض المراكز علي الحدود، مدعية أن سورية قد خرقت حدودها.

خامسا: تسارع العراق وتركيا بالزحف علي سورية، وهما تناشدان في الوقت نفسه الولايات المتحدة الأمريكية لتقديم معونتها لصد العدوان السوري.

ويروي إيزنهاور في مذكراته، عن تلك الفترة، أنه كان هناك شبه إجماع بين قادة هذه الدول علي وجوب الإطاحة بالنظام القائم في سورية آنذاك(٥٧).

وهكذا يبدو لنا مدي التغلغل التركي فيالشأن السوري، وانسياق تركيا وراء المخططات الأمريكية. وبالإجمال يمكن القول إن الموقف التركي كان مثيرا للاستفزاز في

سورية إلي حد أنه ابتداء من منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٧م، أصبح الصدام السوري – الأمريكي أكثر جدية،غير أنه أستبدل به صدام سوري – تركي تقف وراءه الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.(٥٨)

وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٧م اتهم رئيس الوزراء السوفيتي في ذلك الوقت "بولجانين" تركيا بأنها وضعت قوات عسكرية تركية علي الحدود السورية، بهدف القيام بهجوم مخطط له من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وحذر بولجانين من أن هذا النزاع المسلح علي سورية لن يقتصر علي تلك المنطقة فقط(٥٩).

وقد حذر الاتحاد السوفيتيتركيا من القيام بعمل عسكري ضد سورية؛ لإدراكه أن تركيا هي أكثر الدول تهديدا لسورية، حيث بعث بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي برسالة شديدة اللهجة إلي رئيس الوزراء التركي "عدنان مندريس" جاء فيها "..... عندما تؤكد الأنباء أن الحشود تتجمع عند الحدود بين سورية وتركيا، فإن السؤال المنطقي الذي يتبادر إلي الذهن في هذه الحالة هو: ماهو شعور الأتراك في حالة وجود حشود أجنبية علي حدودهم؟ إن تركيا ستجر علي نفسها ويلات كثيرة، إذا سارت علي رأي الدول الأجنبية التي لاتهمها حماية السلام في الشرق الأوسط علي الإطلاق......"(٦٠)

ورد عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي علي رسالة رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي "بولجانين" قائلا: ".... إن الإدعاءات المزعومة التي ذهبتم إليها، لا أساس لها من الصحة، كما أن اهتمام الاتحاد السوفيتي تجاه الوضع في سورية يثير دهشة تركيا، ولاسيما أن الدول المعنية لم تقدم أيةشكوى ضد تركيا، كما أن شعور تركيا بعدم الارتياح عن التطورات في سورية طبيعي للغاية، إذ غدت سورية مستودعا للأسلحة السوفيتية...". وأذاعت وزارة الدفاع التركية في نفس الوقت بيانا فندت فيه إدعاءات الاتحاد السوفيتي، مؤكدة أن القوات التركية تقوم بمناورات روتينية، كان مقررا إجراؤها من قبل حلف شمال الأطلسي، حيث كانت تركيا أحد أعضاء ذلك الحلف(٦١).

وتجدر الإشارة إلي أنه عليالرغم من التفوق العسكري التركي علي سورية([٦٢])، إلا أن تركيا لم تكن في حقيقة الأمر قادرة بمفردها عليالقيام بهجوم عسكري علي سورية – بعد تراجع الدول العربية – حليفة تركيا – عن الاشتراك في الهجوم؛ لأن معني ذلك أنها – أي تركيا – ستعرض نفسها لهجوم سوفيتي عبر حدودها الممتدة مع الاتحاد السوفيتي.([٦٣])

إضافة إلي أن مصر قد اتخذت خطوة جريئة، حين بعثت بقواتها إلي ميناء اللاذقية السوري، في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧م؛ لترابط تلك القوات إلي جانب القوات السورية علي الحدود مع تركيا، لصد أي هجوم محتمل من جانب الأتراك علي الأراضي السورية([٦٤])، وذلك تنفيذا لميثاق الدفاع المشترك المعقود بين البلدين "مصر وسورية" سنة ١٩٥٥م.

وفي هذا الجو المفعم بالتوتر بادر الملك "سعود بن عبد العزيز" ملك المملكة العربية السعودية حينئذ، للقيام بدور الوساطة بين سورية وتركيا، وسافر إلي بيروت لهذا الغرض، وبعث منها عدة رسائل إلي الدول المعنية، وقد أيدت تركيا وساطة سعود، أما بالنسبة إلي سورية فإنها رحبت في البداية بهذه الوساطة، غير أنها عادت وعدلت عن قرارها، وقد ترددت حينئذ أنباء مفادها أن سبب رفض سورية لوساطة الملك سعود بن عبد العزيز يرجع إلي([٦٥]):

١-ممارسة الجيش السوري الضغط عليالرئيس السوري شكري القوتلي" لرفض وساطة الملك سعود بن عبد العزيز .

٢- عدم رغبة مصر في وساطة سعود بن عبد العزيز، إذ أنها كانت تتهم الأخير بأنه ميال إلي السياسة الأمريكية.

وبعد رفض سورية وساطة الملك سعود بن عبد العزيز، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشة الأزمة السورية، في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٥٧م، حيث تقدمت سورية بمساندة من الاتحاد السوفيتي،بشكوى إلي الجمعية العامة للأمم المتحدة

تتهم فيها تركيا بتعريض السلم العالمي للخطر، واستمرت هذه الجلسات حتي أول نوفمبر من نفس العام. وقد تحدث في هذه الجلسات وزير خارجية الاتحاد السوفيتي "جروميكو"، حيث أدان كلا من تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وطلب من الجمعية العامة مساعدة سورية في حالة وقوع عدوان عليها. وأكد جروميكو بأنه لدي الاتحاد السوفيتي وثائق وبيانات تثبت بأن وزارة الدفاع التركية تعد مشروعا للهجوم علي سورية. كما اتهم وزير خارجية الاتحاد السوفيتي تركيا بتدبير مؤامرة للإطاحة بنظام الحكم في سورية عن طريق بعض السوريين المقيمين في تركيا(٦٦).

والقي المندوب التركي كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة، أكد فيها بأن الاتحاد السوفيتي يحاول إيقاع العداوة بين تركيا والعالم العربي، بغية اتساع هوة الخلاف بينهما وهو يرنو، في نفس الوقت، إلي تعزيز مركزه في المنطقة(٦٧) وأن الاتحاد السوفيتي يقوم بمحاولة لإفساد العلاقات التركية- السورية، بإثارة شائعات مؤداها أن الحشود التركية علي الحدود متأهبة للهجوم علي سورية. وأعلن المندوب التركي بأن إحساس بلده بعدم الارتياح تجاه التطورات الأخيرة في سورية طبيعي للغاية؛ لأن هناك تهديدا مباشرا علي تركيا من الشمال والجنوب، كما أكد أن حكومته قد استفسرت من سورية عن سبب إنشاء قاعدة بحرية وقاعدة للغواصات في أراضيها، مع أنها لا تملك أسطولا، غير أنها لم ترد علي استفسارات الحكومة التركية.(٦٨)

وبعد هذه المناقشات قدمت عدة اقتراحات في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بشأن حسم النزاع بين سورية وتركيا، وهذه الاقتراحات هي:(٦٩)-

١- اقتراح قدمته سورية، وبدعم من الاتحاد السوفيتي، ويتضمن إنشاء لجنة تقوم بتقصي الحقائق علي الحدود السورية - التركية.علي أن يتم إبلاغ الجمعية العامة للأمم المتحدة بنتائج ما تتوصل إليه تلك اللجنة، وذلك في غضون أسبوعين.

٢- اقتراح قدمته سبع دول(٧٠) وتؤيده الولايات المتحدة الأمريكية، حيث خول هذا الاقتراح السكرتير العام للأمم المتحدة بالقيام بمناقشات مع ممثلي سورية وتركيا، والسعي

لإيجاد حل للأزمة بينهما بهذه الطريقة، غير أن الاقتراحين قد جري سحبهما قبل أن يعرضا للتصويت، وبعد مناقشات طويلة، وبناء علي اقتراح أندونيسيا، وافق الطرفان علي عدم فرض مشروع قرار، والدخول في مباحثات مباشرة، والعيش معا في وئام، بغية خدمة السلام في الشرق الأوسط والسلام العالمي.

ويمكن تلخيص أسباب الموقف التركي في ثلاثة دوافع هي(٧١):-

١- خضوع الحكومة التركية لواشنطن بعد هيمنة مستشاري ما وراء الأطلنطي علي كل مرفق من مرافق الحياة في البلاد.

٢- أمل الحكومة التركية في الحصول من واشنطن علي قروض مالية.

٣- تعزيز مركز الحكومة التركية، في داخل تركيا، ضد الأحزاب السياسيةالمعارضة.

يتضح من التحليل السابق أن الولايات المتحدة الأمريكية، عن طريق استخدامها تركيا، قد اتبعت كافة السبل لتغيير نظام الحكم وقتئذ في سورية، بنظام حكم أخر يقبل مبدأ إيزنهاور، لكي تصبح منطقة الشرق الأوسط داخل نطاق هذا المبدأ باستثناء مصر، لأن دول المنطقة بصفة عامة قد قبلت هذا المبدأ، سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، إلا أن سورية لم ترضخ أمام كل هذه الأساليب، لإيمانها بارتباط سلامتها بسلامة كل دولة تعمل من أجل استكمال حقوقها وسيادتها.

ويجدر بنا هنا أن نحلل الأسباب التي حالت دون أن تسير تركيا قدما، في إجراءاتها العسكرية ضد سورية(٧٢) :

١- كانت تركيا هي وريثة الدولة العثمانية التي هيمنت علي البلاد العربية، وكانت من أسباب تخلفها حتي ثار عليها العرب وتخلصوا من حكم الأتراك. إن تركيا هذه لم تتخل عن رؤيتها لنفسها علي اعتبار أنها الأحق باليد العليا في المنطقة، ومن ثم فإن الأتراك حاولوا إعادة الكرة مرة أخري، وخاصة فيما بين عامي ١٩٥٥- ١٩٥٧م، وذلك باندفاعهم نحو السيطرة علي البلاد العربية وخاصة سورية. إلا أن سورية قد قامت بمسئوليتها التاريخية، وهي رفع شعار الكفاح ضد الأتراك، ومن أجل تدعيم القومية العربية مرة أخري،

والإيمان بهذه الأيدلوجية، مما أدي إليأن يتحول الشعب السوري كله إلي قوة مقاتلة، وتحول سورية إلي أرض من نار علي كل تركي يطأ أرضها.

٢- إن مثل هذه المقاومة الضارية ضد أية قوة تركية غازية لسورية، ستؤدي إلي تحريك مشاعر الصديق والخصم، وتتحول الأمور علي نحو ما حدث لكل من بريطانيا وفرنسا؛ خلال العدوان الثلاثي علي مصر.

٣- لاشك أن تركيا قدرت خطورة إثارة ثائرة الاتحاد السوفيتي؛ إذا ما أقدمت -أي تركيا- علي توجيه ضربة لدولة عربية صديقة له.

٤-لاشك أن تركيا اكتشفت أن الأسلوب العسكري؛ قد يؤدي إلي وضع شديد التعقيد، يصعب التعامل معه بسهولة.

٥- تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن حث تركيا علي مهاجمة الأراضي السورية، وا ٍعلان "دالاس" وزير الخارجية الأمريكيأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تري ضرورة لتطبيق مبدأ إيزنهاور، فيما يتعلق بتطورات الأوضاع في سورية، وأنها ستلجأ إلي الوسائل التفاوضية.

علي أية حال فإن التطورات السياسية، فيتلك الفتر ة، كانت كفيلة بأن تخلق الجو الملائم للتقارب الحقيقي بين القطرين الشقيقين - سورية ومصر-، وفعلا تم إعلان قيام الوحدة بينهما، في الأول من فبراير عام ١٩٥٨م. وبهذا الحدث انتهي مبدأ إيزنهاور، ومحاولات الولايات المتحدة الأمريكية استخدام تركيا لإجبار سورية علي أن تكون ضمن نطاق هذا المبدأ، ولكنه لم ينه التوتر التركي -السوري، بسبب قيام تلك الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م، وتخوف تركيا من هذه الوحدة. ولقد ساعدت علي ذلك عوامل عدة أدت إلي قيام تلك الوحدة، منها:-(٧٣)

١-الضغط العسكري علي سورية من جانب قوات حلف شمال الأطلسي من الأراضي التركية، والذي ترتب عليه أن أسرعت مصر إلي إرسال جزء من قواتها إلي

الأراضي السورية،وا ٍعلانها التصميم علي الوقوف إلي جانب سورية في حالة وقوع الهجوم عليها.

٢- نشاط الأحزاب اليسارية فيسورية ذاتها، وارتباطها العضوي بأكثر من جهة خارجية.

٣- المنازعات الداخلية بين قادة سورية، سواء بين العسكريين أنفسهم، أو بينهم وبين الزعماء السياسيين وعدم مقدرة شكر ي القوتلي رئيس الجمهورية السورية علي صد هذه التيارات.



الهوامــش

[1]) تكتب سورية بالتاء المربوطة، وثمة تعميم في هذا الشأن من رئاسة الوزراء السوري، وبموافقة مجمع اللغة العربية بدمشق، وذلك في بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

[2]) خليل إبراهيم الناصري: التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠م. ص ٩٨.

[3]) Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War. Studies on Turkish Arab Relations, Ankara 1986, p.223.

[4]) ولد حسني الزعيم في مدينة حلب سنة ١٨٨٩م، من عائلة تعود في أصولها إلي الأكراد، ويعد حسني الزعيم من جيل الضباط العرب الذين خدموا في الجيش التركي، وعقب الحرب العالمية الأولي، تطوع في الجيش العربي تحت قيادة الملك فيصل، وأثناء الانتداب الفرنسي علي سورية التحق عام ١٩٢٠م بالقوات الخاصة التي شكلتها فرنسا آنذاك وتلقي علومه العسكرية في الكليات العسكرية الفرنسية. وفي عام ١٩٤١م كان قد أصبح برتبة مقدم، وأثناء أحداث الحرب العالمية الثانية، اشترك في تلك الحرب إلي جانب قوات الفرنسيين الأحرار التي غزت سورية، التي كانت آنذاك تحت حكومة فيشي التي أسسها الألمان النازيون في فرنسا.وعقب استسلام قوات فيشي، رفض تسليم نفسه وقبض عليه بعد ذلك وقدم للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة سنوات، ثم أفرج عنه في نهاية هذه الحرب، بشرط أن يقيم في لبنان، وعندما سمح له بالعودة إلي سورية سنة ١٩٤٦م، تقدم بطلب للسلطات السورية للالتحاق بالجيش السوري، إلا إن طلبه قوبل بالرفض، فلم يجد أمامه إلا أن يرفع قضية أمام مجلس الدولة، الذي أصدر حكما لصالحه، وعلي هذا الأساس دخل الجيش علي غير رغبة الحكومة القائمة. وفي سنة ١٩٤٨م تقلد منصب المدير العام للشرطة والأمن العام. وبعد فترة قصيرة أصبح رئيسا لأركان الجيش السوري. وفي أثناء معركة فلسطين تولي القيادة العامة للجيش السوري، وبقي في هذا المنصب حتي قيامه بأول انقلاب عسكري في سورية ضد الرئيس شكري القوتلي في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م. ودبر حسني الزعيم ذلك الانقلاب بالاتفاق مع ضباط الجيش، ولذلك تم دون إراقة دماء. وفور نجاح انقلابه قام الزعيم بحل البرلمان وجميع الأحزاب القائمة حينئذ وأسس أول ديكتاتورية في سورية. وكان حسني الزعيم شديد الاعتداد بنفسه، وكان يصرح بأنه زعيم مضروب في ثلاثة زعيم بكنيته وزعيم برتبته وزعيم للسوريين، ولكنه كان مترددا وكان يحمل من صفات رجال النظام أكثر مما يحمل من صفات رجال السياسة، وقام بعدة إصلاحات منها إعطاء النساء حق الانتخاب، وأطيح به انقلاب قاده سامي الحناوي في الرابع عشر من أغسطس في نفس العام وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم علي الفور. صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٣ م، ص ٦٩،جلال يحيي: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م، ص ٦٤٨ - ٦٤٩، خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩-١٩٥٨م رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١م، ص ٧٤، بشير العوف :الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩م، ص ١-٢ كذلك: مايلزكوبلاند : حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره في مصر وسورية ولبنان وإيران، ترجمة صادق عبده علي الركابي، مكتبة مدبولي، سنة ٢٠٠٧م ، طبعة أولي، ص١٤٣.

(*) شكري القوتلي: ولد في دمشق عام ١٨٩١م، تعلم في مدارس أستنبول، ثم التحق بالمكتب الملكي، ودرس العلوم السياسية والإدارية. التقي بالملك فيصل في دمشق عام ١٩١٥م، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة. انتسب إلي الجمعية العربية الفتاة وسعي مع أعضائها إلي العمل للحصول علي الاستقلال. أعتقل مرتين، وفي المرة الثانية حاول الانتحار بقطع شريانه بنفسه، وظل في السجن حتي أفرج عنه بعد نجاح الثورة العربية. وقف ضد الاحتلال الفرنسي وشارك فيالثورة السورية الكبري عام ١٩٢٥م. وفي عام ١٩٢٦م انتخب نائبا عن دمشق للمرة الأولي، وظل عليإصر اره في مناهضة الفرنسيين فصدر الحكم عليه بالإعدام، فالتجأ إلي مصر، وبقي فيها حتي عام ١٩٣١م حيث صدر العفو عنه وعاد إلي دمشق. اشترك في الحياة السياسية مع الكتلة الوطنية وانتخب نائبا عن دمشق للمرة الثانية عام ١٩٣٦م، وظل ينادي باستقلال ووحدة الأراضي السورية، وهي نفس الأهداف التي رفعتها الحركة الوطنية السورية. وبعد وفاة الرئيس تاج الدين الحسني جرت انتخابات عامة للمجلس النيابي ففازت قائمته بالإجماع، وانتخب رئيسا للجمهورية، في السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٣م. وفي عهد رئاسته حصلت سورية علي استقلالها بتاريخ السابع عشر من إبريل عام ١٩٤٦م، وتم جلاء الفرنسيين عن البلاد، وتم في عهده تعديل الدستور، لتجدد رئاسته بتاريخ السابع عشر من أغسطس عام ١٩٤٨م وفي عام ١٩٤٩م أنقلب عليه حسني الزعيم وأجبره علي الاستقالة، ثم اعتقله ثم أفرج عنه، وبعدها سافر إلي مصر وبقي بها حتي عام ١٩٥٥م، وسعي خلال وجوده في القاهرة، إلي توطيد العلاقة مع جمال عبد الناصر. وبعد انتخابات عام ١٩٥٥م انتخبه المجلس النيابي رئيسا للجمهورية في السادس من سبتمبر سنة ١٩٥٥م. لقب بعد تنازله طوعا عن الرئاسة في عهد الوحدة المصرية - السورية(بالمواطن العربي الأول) توفي في بيروت عام ١٩٦٨م، ودفن في دمشق مسقط رأسه. أنظر: سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨-١٩٧٠م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية رسالة ماجستير، غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق سنة ٢٠٠٦م، ص١٣-١٤.

(*) عدنان مندريس: ولد في مدينة إيدن التركية في عام ١٨٩٩م، من أسرة ثرية، وكانت من كبار ملاك الأراضي، نال شهادة الحقوق من مدرسة الحقوق في أنقرة، كما درس في إحدي الجامعات الأمريكية، شارك في المعارضة السياسية، ومارس العمل السياسي وهو في الحادية والثلاثين من العمر، انضم إلي حزب الشعب الجمهوري، انتخب نائبا عن مقاطعة إيدن، وبقي فيصفوف حزب الشعب الجمهوري حتي عام ١٩٤٥م، حيث طرد منه، ليؤسس الحزب الديمقراطي في العام التالي " عام ١٩٤٦م"، وقد كان مندريس يتمتع بشخصية قوية، وقد فهم فلسفة الشعب التركي ولاسيما الفلاح التركي، وكان يمتلك خصائص قيادية، استعان به جلال بايار - الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية - لمساعدته في مجال المعارضة فأصبح مندريس رئيسا للوزراء بعد فوز الحزب الديمقراطي بالأغلبية في انتخابات عام ١٩٥٠م وذلك في ظل رئاسة جلال بايار لرئاسة البلاد. حكم عليه بالإعدام بعد انقلاب ٢٧ مايو سنة ١٩٦٠م. نفذ فيه الحكم عام ١٩٦١م. لمزيد من التفاصيل أنظر :

Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress (London 1966l)p.139.

[7]) مصطفي بلاوني: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م، ص ١٧١.

[8]) لمزيد ممن التفاصيل عن الحلف التركي – العراقي وأهم نصوصه أنظر : عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي : العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١ – ١٩٦٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة ٢٠٠٠م، ص ٢١٩ وما بعدها.

[9]) انضمت بريطانيا إلي الحلف التركي – العراقي في إبريل سنة ١٩٥٥م وباكستان في يونيو سنة ١٩٥٥م وإيران في نوفمبر سنة ١٩٥٥م، ليكون ما عرف باسم حلف بغداد.

[10]) خليلإبراهيم الناصري: المرجع السابق.ص٩٨

[11]) Foreign Relations Of the United States1955-1957 Volume x111 Near East (Syria) United states Government Printing Office Washington 1988 p. 573

كذلك : هاشم عثمان: تاريخ سورية الحديث، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولي، يناير سنة ٢٠١٢م. ص ٢٧٩-٢٨٠. مذكرات خالد العظم، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، سنة ١٩٨٣م، الجزء الثاني، ص ٢٨٢. ومما يجدر ذكره أن الولايات المتحدة الأمريكية علي الرغم من أنها كانت من أكثر الداعين إلي تكوين حلف بغداد، إلا أنها لم تنضم بصورة رسمية وعلنية لهذا لحلف، ويري البعض أن من ضمن أسباب ذلك هو معارضة مصر والسعودية لحلف بغداد، حيث لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في إثارة عداء مصر أو السعودية، فلقد صادف توقيت إنشاء هذا الحلف، أقتراب موعد تجديد اتفاقية الظهران، التي منحت المملكة العربية السعودية بمقتضاها الولايات المتحدة الأمريكية، حق استغلال قاعدة الظهران، ذات الأهمية الإستراتيجية، ولذلك فلقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية، تخشي أن يؤدي انضمامها إلي حلف بغداد بصورة معلنة إلي استياء السعوديين. واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية بالانضمام إلي بعض لجان الحلف عام ١٩٥٧م أي بعد عامين من قيام ذلك الحلف، وهي اللجنة العسكرية واللجنة الاقتصادية ولجنة مكافحة التخريب والنشاطات الهدامة. وعلي الرغم من أنها كانت بذلك تشارك عملا في نشاط ذلك الحلف، إلا أنه لم يكن عليها التزام قانوني بتقديم المساعدة العسكرية لبقية دول الحلف. ممدوح محمود مصطفي منصور: الصراع الأمريكي – السوفيتي في الشرق الأوسط، تصدير د.محمد طه بدوي، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٥م ، ص ١٢٢-١٢٣.

[12]) مما يجدر ذكره أن عقد الخمسينيات من القرن العشرين قد شهد مسارا جديدا في العلاقات التركية – الأمريكية، أساسه الدخول في مرحلة التحالف الاستراتيجي، الذي تجلت بوادره في سعي تركيا للانضمام إلي حلف شمال الأطلنطي، وبالرغم من رفض هذا المسعى في بداية هذا الأمر من بعض دول الحلف؛ إلا إن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت علي عاتقها مهمة تحقيقه ،عندما نشطت الدبلوماسية الأمريكية آنذاك في تأييد مسعي تركيا للانضمام لهذا الحلف في محاولة إقناع أعضائه الآخرين بأهمية تركيا في تأمين الجناح الجنوبي الشرقي للحلف، فوافقت رئاسة الأركان الأمريكية في مارس عام ١٩٥١م علي العضوية الكاملة لتركيا في الحلف خدمة للإستراتيجية الأمريكية. وفي ١٥ مايو سنة ١٩٥١م اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية علي بريطانيا وفرنسا عضوية تركيا. وتم قبول عضوية تركيا في



مؤتمر أوتاوا بناء علي توصية مجلس الحلف في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥١م واعتبارها عضوا كاملا. وتلا ذلك تنفيذ البروتوكول الخاص بانضمامها إلي الحلف في ١٨ فبراير سنة ١٩٥٢م لتمتد بذلك دفاعات الغرب حتي حدود إيران، ولتسد الفراغ في الجناح الشرقي لحوض البحر المتوسط ، الأمر الذي ساهم في تقوية المعسكر الغربي بشكل عام وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الرامية لاحتواء النفوذ الشيوعي بشكل خاص. للمزيد انظر: مثنى فائق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية - التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١م وأثرها علي القضايا العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م، ص ١٠٥- ١٠٦.

[١٣]) ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني(١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، الطبعة الأولي، لبنان، طرابلس، دار المنصور، سنة ١٩٨٥م، ص ٤٤.

[١٤]) باتريك سيل: الصراع علي سورية، دراسة للسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥- ١٩٥٨م ترجمة سمير عبده، ومحمود فلاحة، دار طلاس للنشر، بدون تاريخ. ص٥٢٣، ٥٤٩.

[١٥]) محمود حسن صالح المنسي: الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب، سنة ١٩٩٥م، ص ٢٤٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٥٢٦.

[١٦]) هاشم عثمان :المرجع السابق، ص ٢٨٠، مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني، المرجع سابق، ص ٣٨٩.

[١٧]) باتريك سيل: المرجع السابق ص ٥٤٩.

[١٨])هاشم عثمان: المرجع السابق، ص٢٨١، مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٢٨٩.

[١٩]) جريدة الشاطئ: العدد:٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥. باتريك سيل، المرجع السابق ص٥٤٩، إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر١٩٤٥- ١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة، سنة ٢٠١٠م ص ٧٠.

[٢٠]) باتريك سيل: المرجع السابق، ص٥٤٩-٥٥٠.

[٢١]) مايلز كوبلاند : لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو سنة ١٩٧٠م.ص ١٣٤.

[٢٢]) إسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية-العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سنة ١٩٨٨م، ص٢٢-٢٤.

[٢٣]) وثائق الخارجية المصرية : محفظة(٦٩٨) ملف ٢٠٣/٧/ ١٠ ج٨(التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير ١٠٠ من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية(سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

[٢٤]) وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة ١١٩٥، ملف ٧٥٨/٨١/٢/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلي الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الاتحاد المصري -السوري.

[٢٥]) الفراغ من وجهة النظر الأمريكية، يعني بقاء منطقة الشرق الأوسط بدون سيطرة غربية، بعد جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن معظم دوله، أي أن حصول أي دولة من دول الشرق الأوسط

علي استقلالها ينشئ فراغا في نظام الاستعمار الغربي، ولا يمكن ملؤه إلا بالقوات والمصالح الأمريكية، لأن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تبقيشعوب هذه المنطقة محكومة بقوي أجنبية موالية لها.
أنظر: فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣- ١٩٥٨م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨م، ص٣٩١، جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠م، ص ٣٨.

٢٦) جاء في رسالة إيزنهاور إلي الكونجرس الأمريكي " إن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر المحافظة علي استقلال أمم الشرق الأوسط ووحدتها أمرا حيويا للمصلحة القومية والسلام العالمي، لهذه الغاية فالولايات المتحدة الأمريكية مصممة علي تقديم العون أو استخدام القوة المسلحة لمساعدة أية أمة أو مجموعة من الأمم، عندما تطلب العون ضد العدوان المسلح من جانب أي قطر خاضع للشيوعية الدولية.
أنظر: بيتر مانفولد: تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط ترجمة أديب شيش(دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر) طبعة أولي، دمشق سنة ١٩٨٥م ص٨٧، باتريك سيل: المرجع السابق، ص٦٧٨، مثني فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق، ص١٠٩، مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، مرجع سابق، ص١٢٩.

٢٧(John Marlowe : Arab Nationalism British Imperialism. Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961, p.151.

٢٨) وثائق الخارجية المصرية: محفظة "١٥١٩"، ملف "٣٠/١٢٣/١٣٩" سري " اجتماع برمودا بين إيزنهاور وماكميلان "، تقرير"١٩سري"من السفير المصري بدمشق إليوكيل الخارجية سري جدا بتاريخ ٢٤/٤/١٩٥٧م.

٢٩) محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص٢٤٥، باتريك سيل: ص٦٧٩.

٣٠) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 op.Cit. p. 579.
كذلك : باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٨٥.

٣١) عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي : المرجع السابق، ص ٢٦٥.

٣٢) مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن كل من المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية قد أعلنتا بعد ذلك قبولهما لمبدأ إيزنهاور، إثر خلافاتهما مع جمال عبد الناصر وتخوفهما من اتساع نفوذه في المنطقة العربية.

٣٣) إسماعيل صبري مقلد : المرجع السابق، ص ١٤٨.

٣٤) أنظر النص الكامل للبيان الختامي الصادر عن ذلك المؤتمر، في الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.

٣٥) صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.

٣٦) الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧في ٢٤مارس سنة ١٩٥٧م، ص ٤.

٣٧) أحمد نوري محمد النعيمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م، ص٢٧٥.

٣٨(Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979) p.16-17.



(٣٩)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٦، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٩٠، روبنس فيليب: تركيا والشرق الأوسط، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، الطبعة الأولي، سنة ١٩٩٣م، نقله إليالعربية ميخائيل نجم خوري، ص ٣٥-٣٦، وليد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولي سنة ٢٠٠٩م، ص ١٢١.

(٤٠) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٤١)Emil Lengyel: the changing Middle East , The John Day Go., N.Y.,1960,P.143.

(٤٢) F.O.371/128242-NO. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

كذلك:-

Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990. P.71.

أيضا : بيتر مانفولد : المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٤٣) Dawisha Karen: Op.Cit.P. 17.

(٤٤) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق،ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٤٠.

(٤٥) رأفت غنيمي الشيخ : أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولي، سنة ٢٠٠٦م، ص ١٥٠.

(٤٦) كان يطلق عليها اسم"الشعبة الثانية".

(٤٧) Dawisha Karen: Op.Cit.P.17.

(٤٨) أحمد عبد الكريم: أضواء عليتجربة الوحدة - مطبعة الإنشاء - دمشق، سنة١٩٦٢م، ص٧٦.

(٤٩) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق، ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق ص ٦٩٠، كذلك : Cremeans,Charles :The Arab and The World ,Nasers,s Arab Nationalist policy Frederick Praeger publishers ,New York ,1936 , p.160.

(٥٠) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبرسنة ١٩٥٧ص ٢.

(٥١) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 Op.Cit.P.582.

(٥٢) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٧ في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٥٣) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ١.

(٥٤)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٨.

(٥٥) باتريك سيل : المرجع السابق، ص ٧١٢ كذلك :

Fleming, D, The cold War and its origins 1917 -1960-(Garden City, New York, 1961) p. 889.

(٥٦) صحيفة النجم الأحمر :(موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م نقلا عن باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧١٤-٧١٥، كذلك: وليد رضوان: المرجع السابق، ص١٢٥.

(٥٧) Dawisha Karen: Op.Cit.P.17



[٥٨]) صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
[٥٩]) باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧١١، مثنى منى فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق،
[٦٠]) محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص٢٤٦. أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٧٩.
[٦١]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٧٩.
[٦٢]) لم تكن القوة العسكرية بين سورية وتركيا متكافئة علي الإطلاق، إذ بينما كان الجيش السوري يتألف من خمسين ألف رجل، معظمهم لم يكتسب خبرة كافية، وكان وجودهم علي الحدود مع إسرائيل ضروريا، وفي يدهم معدات عسكرية حديثة لم يتم تدريبهم عليها بعد، ويساندهم شعب مكون من أربعة ملايين نسمة، كان الجيش التركي مكون من نصف مليون رجل مدربين تدريبا جيدا بأيدي ضباط أمريكيين لمدة عشر سنوات، ومسلحين أحدث الأسلحة، ويشكلون القوة الميدانية الكبري في حلف شمال الأطلنطي، ويساندهم شعب مكون من حوالي ثلاثة وعشرين مليون نسمة. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص١٥٠.
[٦٣]) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق ص٢٣٧.
[٦٤]) مضابط مجلس النواب السوري: جلسة ١٤/١١/١٩٥٧ ص٢، مصطفي بلاوني: المرجع السابق، ص١٦٧. وتجدر الإشارة إلي أنه عقب وصول القوات المصرية لسورية، أعلن أكرم الحوراني رئيس مجلس النواب السوري، في اليوم التالي لوصول تلك القوات إلي سورية "١٤ أغسطس سنة ١٩٥٧م"، أمام المجلس عن ترحيبه بقدوم الجيش المصري إلي سورية. ثم قام وفد من مجلس الأمة المصري برئاسة أنور السادات بزيارة سورية، وعقد المجلس النيابي السوري جلسته في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧م، حضرها الوفد المصري، وتقرر فيها إعلان رغبة الشعبين في سورية ومصر بإقامة اتحاد فيدرالي بينهما، ودعا حكومتي سورية ومصر للدخول فورا في مباحثات مشتركة بغية استكمال تنفيذ هذا الاتحاد. مصطفي بلاوني: المرجع السابق، ص١٦٧.
[٦٥]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص٢٨١.
[٦٦]) باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧٢٥.
[٦٧]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨١.
[٦٨]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٢.
[٦٩]) باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧٢٥.
[٧٠]) الدول السبع هي كندا -الدنمارك -اليابان -النرويج -باراغواي- بيرو- أسبانيا. باتريك سيل : المرجع السابق، ص٧٢٥.
[٧١]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٣.

[٧٢]) العلاقات العربية التركية من منظور عربي الجزء الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١م إشراف محمد صفي الدين أبو العز، تنسيق جمال زكريا قاسم ويونان لبيب رزق، ص٢٧٥، ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق، ص٢٣٧.
[٧٣]) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٤.

المصادر والمراجع

أولا: وثائق غير منشورة :-

أ- وثائق عربية غير منشورة :-

- وثائق الخارجية المصرية :-

-محافظ الأرشيف السري " غير مصنفة " : -

١- وثائق الخارجية المصرية: محفظة(٦٩٨) ملف ٢٠٣/٧/١ "ج٨(التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير "١٠٠"من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إلي وكيل وزارة الخارجية بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية(سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

٢- وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة١١٩٥، ملف ٢/٨١/٧٥٨/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلي الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الإتحاد المصري -السوري.

٣- وثائق الخارجية المصرية: محفظة "١٥٩١"، ملف "٣٠/١٢٣/١٣٩" سري" اجتماع برمودا بين إيزنهاور وماكميلان، "تقرير ١٩اسري"من السفير المصري بدمشق إلي وكيل الخارجية"سري جدا بتاريخ ٢٤/٤/١٩٥٧م.

٤- وثائق الخارجية المصرية: محفظة "٣٤١" ملف "١٣/٨١/٧٣٢" مقابلات السيد السفير في واشنطن، تقرير "١٠٣"من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إلي وكيل وزارة الخارجية، سري جدا، بتاريخ ١٣/٣/١٩٥٨م.

ب- وثائق أجنبية غير منشورة :

-وثائق وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office وهي مطبوعات مودعة بدار الوثائق العامة Public Record Office وقد استعنا بمجموعة F.O.371 وهي كالتالي :-

1-F.O.371/128242-No. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

- وثائق أمريكية:

1) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 near East(Syria) United States Government Printing Office Washington 1988.

ثانيا: - وثائق عربية منشورة :

١ -مضابط مجلس النواب السوري : جلسة ١٤/١١/١٩٥٧.

ثالثا: - مذكرات شخصية :

١- مذكرات خالد العظم ، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الجزء الثاني، سنة ١٩٨٣م.

رابعا: -المراجع العربية :

١- أحمد عبد الكريم: أضواء علي تجربة الوحدة - مطبعة الإنشاء - دمشق، سنة ١٩٦٢م.

٢- اسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية - العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة١٩٨٨م.

٣- العلاقات العربية -التركية من منظور عربي، الجزء الأول، إشراف محمد صفي الدين أبو العز، تنسيق جمال زكريا قاسم ويونان لبيب رزق، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١م
٤- بشير العوف:الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩م.
٥- جلال يحيى: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف سنة ١٩٨٥م.
٦-خليل إبراهيم الناصري :التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠م.
٧- رأفت غنيمي الشيخ: أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولي، سنة ٢٠٠٦م.
٨ - صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة١٩٨٣م.
٩ - عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي: العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١- ١٩٦٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة٢٠٠٠م.
١٠- فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية١٩٥٣- ١٩٥٨م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨م.
١١- محمود حسن صالح المنسي: الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب، سنة ١٩٩٥ م.
١٢- ممدوح محمود مصطفي منصور: الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط تصدير د. محمد طه بدوي، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٥م.
١٣- هاشم عثمان: تاريخ سورية الحديث، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولي، يناير سنة ٢٠١٢م.
١٤- وليد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولي، سنة ٢٠٠٩م.

خامسا: الرسائل الجامعية :

١-أحمد نوري محمد النعيمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير، غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م.
٢ - إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر١٩٤٥-١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.
٣- جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠م.
٤- خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩-١٩٥٨م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١م.
٥ - سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨-١٩٧٠م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية، رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، سنة٢٠٠٦م.

٦- مثني فائق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية- التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١م وأثرها علي القضايا العربية، رسالة دكتوراة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.
٧- مصطفي بلاونـي: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه، غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م.

سادسا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١- باتريك سيل : الصراع علي سورية دراسة للسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥- ١٩٥٨م ترجمة سمير عبده،ومحمود فلاحة، دار طلاس للنشر، طبعة أولي، دمشق، سنة ١٩٨٥م.
٢- بيتر مانفولد: تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط، ترجمة أديب شيش(دار طلاس للدر اسات والترجمة والنشر) طبعة أولي، دمشق، سنة١٩٨٥م.
٣- ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني(١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر،، لبنان، طرابلس، دار المنصور، الطبعة الأولي، سنة ١٩٨٥م.
٤- مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو، سنة١٩٧٠م.
٥- مايلزكوبلاند: حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره في مصر وسورية ولبنان وا يران، ترجمة صادق عبده علي الركابي، الطبعة الأولي، مكتبة مدبولي، سنة ٢٠٠٧م.

سابعا :- المراجع الأجنبية غير المترجمة :

1) Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress(London 1966l).
2) Cremeans,Charles :The Arab and The World ,Nasers,s Arab Nationalist policy Frederick P raeger publishers ,new York ,1936.
3(Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979).
4) Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990.
5) Emil Lengyel: the changing Middle East, The John Day Go., N.Y., 1960.
6) Fleming, D.: The cold War and its origins 1917 -1960-(Garden City, New York, 1961).
7) Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War: Studies on Turkish Arab Relations, Ankara, 1986.
8(John Marlowe : Arab Nationalism British Imperialism. Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961.



ثامنا: - الصحف :

١- جريدة الشاطئ: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥م.
٢- صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.
٣- الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧ في ٢٤مارس سنة ١٩٥٧م.
٤- الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.
٥- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م .
٦- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٧- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٧في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٨- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٩- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٩ في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
١٠- صحيفة النجم الأحمر:(موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
١١- صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، في ١٥سبتمبر، سنة ١٩٥٧م.

منشور اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربي

مركز جامعة القاهرة للطباعة والنشر